عقد الجمان في تفسير القرآن

المجلد الأول

د. عبد الملك القاسم

دار القاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار القاسم للنشر والتوزيع، ١٤٣٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القاسم، عبد الملك بن محمد
عقد الجمان في تفسير القرآن. / د. عبد الملك بن محمد القاسم - الرياض، ١٤٣٣هـ
... ص؛ ... سم
ردمك: ٣ - ٥٧٥ - ٠٥٣ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨
١- القرآن - تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧ ١٤٣٣/٤٢٥١

رقم الإيداع: ١٤٣٣/٤٢٥١
ردمك: ٣ - ٥٧٥ - ٠٥٣ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

الصف والمراجعة والإخراج بدار القاسم

دار القاسم للنشر والتوزيع
المكتب الرئيس: هاتف: ٤٠٩٢٠٠٠ - فاكس: ٤٠٣٣١٥٠
فروع دار القاسم للنشر
السويدي: هاتف: ٤٢٤٣٥٥٥ - فاكس: ٢٦٧٦٧٠٩
جدة: هاتف: ٦٠٢٠٠٠٠ - فاكس: ٦٣٣٣١٩١
الدمام: هاتف: ٨٤٣١٠٠٠ - فاكس: ٨٤١٣٠١١
بريدة: هاتف: ٣٢٦٢٨٨٨ - فاكس: ٣٦٩٢٨٨٨
الربوة: هاتف: ٤٤٥٢٠٤٥ - فاكس: ٤٤٥٠٢٤٥
www.dar-alqassem.com
sales@dar-alqassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الله ﷻ أنزل كتابه الكريم وجعله للناس هدى وضياء، ونوراً وشفاء؛ فيه الأحكام والشرائع، والأوامر والنواهي، وأخبار الأولين والآخرين، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقد أُمرنا بقراءته وتدبر معانيه والقيام بحقوقه والنهل من معينه، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩] ولا يتم ذلك على الوجه الأكمل إلا بمعرفة تفسيره وكشف دقائقه وبيان معانيه. قال الحسن: «نزل القرآن ليتدبر ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً، فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من قراءة القرآن، ومعرفة معانيه وتدبره وإطالة التأمل فيه».

ولذلك كان الصحابة ﷺ يحرصون على الجمع بين حفظ القرآن وفهمه، قال أبو عبد الرحمن السلمي: «حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل».

وقد جمع الله لهم مع قراءته وتلاوته؛ معرفة معانيه وتدبر آياته ما جعلهم أحب الخلق إليه، كما قال مجاهد: «أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل».

ورغبة في نفع نفسي وإخواني في النهل من هذا المعين العظيم، ومعرفة معانيه؛ كان هذا التفسير الميسر لكتاب الله تعالى: «**عقد الجمان في تفسير القرآن**»؛ الذي جاء على نسق واحد، وجمعت فيه بين أقوال المفسرين، سائراً فيه على معلم واضح وطريق ثابت، فما تجاوزت منهج السلف ولا أثر الخلف.

والكتاب يبدأ بمقدمة لكل سورة لتكون مدخلاً لمقاصدها وفوائدها، مع ذكر أسباب النزول وما ذكر في فضلها. وكذلك في بداية كل مقطع بمقدمة له.

وجمعت فيه ما وقع تحت يدي من فرائد وفوائد كتب التفاسير وغيرها، فجاء - بحمد الله - عقداً مضيئاً، مختصراً مفيداً، محملاً بالدرر والفوائد، مُجملاً بالجواهر والقلائد، ليس فيه قول ضعيف أو شاذ أو استطراد.

وزان الكتاب وضع المصحف كاملاً، مع سهولة البحث في أعلى كل صفحة: باسم السورة، والجزء ورقم الآية، وتمم ذلك فهرس للسور.

أسأل الله ﷻ أن يجعل ذلك معيناً على تفسير كتابه العظيم وتدبره، كما ذُكِر عن إياس بن معاوية أنه قال: «مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة، ولا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرؤوا ما في الكتاب».

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية عن قارئ كتاب الله: «أن تعلُّمَه لما يفهمه من معاني القرآن أفضل من تلاوة ما لا يفهم معانيه».

وقال رحمه الله -: «إن من أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله بعقله وتدبره بقلبه؛ وجد فيه من الفهم والحلاوة، والهدى وشفاء القلوب؛ ما لا يجده في شيء من الكلام لا نظماً ولا نثراً».

اللهم أسبغ علينا من فضلك وجودك، واجعلنا ممن يتلو كتابك، ويتدبر آياته، ويعمل بأحكامه، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

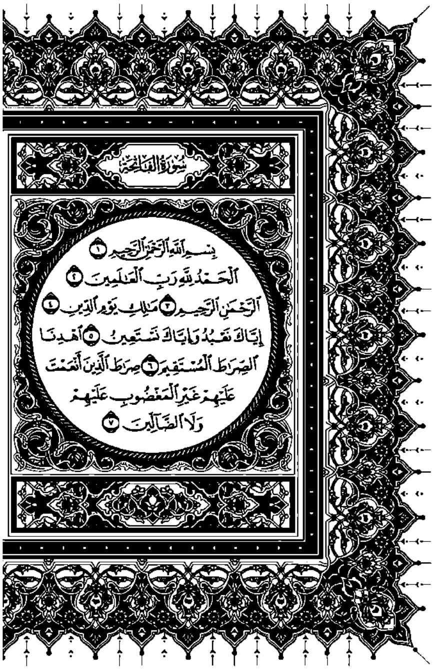

تفسير سورة الفاتحة
وهي مكية

* سـورة الفاتحة سورة عظيمة القدر، جليلة المعنى، سميت بذلك؛ لأنه تعالى افتتح بها القرآن الكريم؛ وهي سورة مكية، قيل: إنها أول سورة نزلت كاملة.

تشتمل هذه السورة العظيمة على مُجمل معاني القرآن في التوحيد، والأحكام، والجزاء، وطرق بني آدم، وغير ذلك؛ ولذلك سميت: «أم القرآن»، وسميت «أم الكتاب»، و«السبع المثاني»، و«سورة الحمد»، و«سورة الصلاة»، و«الواقية»، و«الشافية».

ولعظم هذه السورة ومكانتها جُعلت ركناً في الصلوات التي هي أفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين: فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب؛ قال ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» [رواه البخاري ومسلم].

ومنها أنها رقية: إذا قرئ بها على المريض شُفي بإذن الله؛ لأن النبي ﷺ قال للذي قرأ على اللديغ، فبرئ: «وما يدريك أنها رقية...» [رواه البخاري].

١ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليست البسملة آية في بداية جميع السور، بل هي آية فاصلة بين كل سورتين، يستحب قراءتها إلا في سورة التوبة فيكره.

﴿بِسْمِ﴾ أي: أبدأ باسم الله، استعانة على الأداء والتوفيق.

﴿ٱللَّهِ﴾ الله اسم رب العالمين، لا يسمى به غيره ولا يوجد من تسمى به لا قديماً ولا حديثاً؛ والله: هو المألوه المعبود، الذي تفزع إليه الخلائق، ويلجؤون إليه في الحوائج وهو أصل الأسماء، وأكبر أسمائه سبحانه وأجمعها ولهذا تأتي الأسماء تابعة له.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ اسم دال على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة الشاملة التي وسعت كل شيء، وعمت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم، وعمت المؤمن والكافر؛ ولهذا جاء على وزن «فَعْلان» الذي يدل على السعة.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: الموصل للرحمة من يشاء من عباده؛ ولهذا جاءت على وزن «فعيل» الدال على وقوع الفعل. فهنا رحمة هي صفته، دل عليها ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، ورحمة هي فعله، أي: إيصال الرحمة إلى المرحوم دلّ عليها ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، وهو الرحيم بالمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمان من أسماء الله يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وأنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فله نصيب منها.

والرحمة التي أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقية دل عليها السمع، والعقل؛ أما السمع فهو ما جاء في الكتاب والسنة من إثبات الرحمة لله وهو كثير جداً، وأما العقل: فكل ما حصل من نعمة، أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله، قال القرطبي: إنما وصف نفسه بـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بعد قوله ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب.

والرحمن والرحيم: اسمان كل منهما دال على صفة حقيقية لله على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وهكذا يقال في جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة.

والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى، وهي اسم: الله، والرب، والرحمن.

وفي البسملة خلاف بين العلماء؛ فمنهم من يقول: إنها آية من الفاتحة،

ويقرأ بها جهراً في الصلاة الجهرية، ويرى أنها لا تصح إلا بقراءة البسملة لأنها من الفاتحة. ومنهم من يقول: إنها ليست من الفاتحة، ولكنها آية مستقلة من كتاب الله، وهذا القول هو الحق.

﴿٢﴾ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هو الثناء على الله بصفات الكمال، وهو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم؛ ولابد من قيد، وهو المحبة والتعظيم؛ لأن مجرد وصفه بالكمال دون محبة ولا تعظيم: لا يسمى حمداً؛ وإنما يسمى مدحاً. و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال قولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

والحمد: هو الثناء باللسان، أما الشكر فيكون باللسان والقلب والأعضاء، ولا يكون الشكر إلا مقابل نعمة، أما الحمد فيكون لكمال المحمود ولو في غير مقابلة نعمة، والله تعالى له الحمد والشكر، فكل حامد شاكر وليس كل شاكر حامداً.

والسورة تبدأ بالاعتراف، والاعتراف فيه معنى عظيم؛ لأنه إقرار من العبد بتقصيره وفقره وحاجته، واعتراف لله ﷻ بالكمال والفضل والإحسان، وهو من أعظم ألوان العبادة.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الرب: اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال في غيره إلا مضافاً، كقول: هذا الرجل رب المنزل، فهو المستحق للحمد وحده، وهو سبحانه المنشئ للخلق، القائم بأمورهم، المربي لجميع خلقه بنعمه.

والعالمون: جمع العالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى وقيل: العالم عبارة عمن يعقل، وهو أربعة أمم: الإنس والجن، والملائكة والشياطين. وتربيته لخلقه نوعان: عامة وخاصة: فالعامة هي خلقه للمخلوقين وأرزاقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم وأرزاقهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا، والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر.

﴿٣﴾ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تقدم تفسيرها في البسملة.

﴿٤﴾ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ المالك صفة لفعله جل جلاله، ويوم الدين، هو يوم القيامة، وهو سبحانه مالك يوم الدين والدنيا، لكن ظهور ملكوته وملكه وسلطانه إنما يكون في ذلك اليوم حيث موقف الجزاء والحساب. وفي قراءة المسلم لهذه الآية في كل ركعة من صلواته تذكير له باليوم الآخر، وحث له على الاستعداد بالعمل الصالح، والكف عن المعاصي والسيئات.

ولما حمد تعالى نفسه بما هو أهله، وذكر ربوبيته لخلقه، ورحمته العامة للبر والفاجر في الدنيا، ورحمته الخاصة بالمؤمنين، وتفرده بالحكم في ذلك الموقف العظيم، ذكر بعد ذلك وجوب عبادته وطاعته والاستغاثة والاستعانة به، فقال في الآيات:

﴿٥﴾ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نخصك وحدك بالعبادة والطاعة، وأنه لا يُعبد إلا الله، وهو أصل توحيد الألوهية وما بعث به الرسل. والعبادة: الطاعة مع التذلل والخضوع، وسمي العبد عبداً لذلته وانقياده؛ والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

ونخصك أيضاً بالاستعانة؛ والاستعانة: هي الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والمعنى: لا نعبد غيرك ولا نستعينه.

وذكر سبحانه الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي؛ لأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، فلا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله ﷻ، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وقُدمت العبادة على الاستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية، واهتماماً بتقديم حقه تعالى على حق عبده، فالأول تبرؤٌ من الشرك، والثاني تبرؤٌ من الحول والقوة والتفويض إلى الله ﷻ.

قال ابن تيمية: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

﴿٦﴾، ﴿٧﴾ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: دُلَّنا وأرشدنا ووفقنا للصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف وهو الإسلام، وثبتنا عليه حتى نلقاك، وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية، بمعنى التثبيت وبمعنى طلب مزيد الهداية، وهذا من أدب الدعاء أن يكون ذلك بعد الثناء.

والهداية على نوعين، هداية طريق وهداية توفيق، وهداية التوفيق خاصة بالله تعالى ومنها قوله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. والهداية الثانية هداية الطريق: وهي هداية دلالة وإرشاد، وهي للأنبياء وأتباعهم من العلماء والدعاة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ثم قال تعالى: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، الموصل إلى جنته ورضوانه، وهو الإسلام، وسمي صراطاً مستقيماً؛ لأنه طريق واسع سهل، يوصل إلى المقصود، وهذا مَثَلُ دين الإسلام في سائر الأديان، فإنه يوصل إلى الله، وإلى داره، وجواره، مع سهولته وسعته.

فالمسلم يدعو الله ﷻ أن يوفقه إلى معرفة الطريق المستقيم الموصل إلى جنته، ويدعوه أن يوفقه للاستقامة عليه بعد معرفته، فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته، والتوجه إلى الله في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين، وهذا الصراط المستقيم هو: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ طريق من أكرمتهم ووفقتهم، ومننت عليهم بالهداية والتوفيق والإيمان والاستقامة، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهؤلاء هم القدوة لنا في حياتنا، وأضاف سبحانه الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه.

وفي الآية توسل إلى الله بنعمه وإحسانه، إلى من أنعم عليه بالهداية؛ أي: قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي نصيباً من هذه النعمة، واجعلني واحداً من هؤلاء المنعم عليهم، فهو توسل إلى الله بإحسانه.

قال ابن تيمية: فحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه؛ بخلاف حاجته إلى الرزق والنصر، فإن الله يرزقه، فإذا انقطع رزقه مات، والموت لا بد منه، فإذا كان من أهل الهدى به كان سعيداً قبل الموت وبعده.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أي: غير صراط المغضوب عليهم هم اليهود، وهم الذين علموا الحق فتركوه، وحادوا عنه على علم؛ فاستحقوا غضب الله.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: وغير صراط الضالين عن الهدى، وهم النصارى، وهم الذين حادوا عن الحق جهلاً فكانوا على ضلال مبين.

قال ابن القيم: في بيان تقديم المغضوب عليهم (اليهود) قبل الضالين (النصارى) عدة أوجه: أولاها: أنهم متقدمون عليهم بالزمان، وثانيها: أن اليهود جيران الرسول ﷺ في المدينة، والنصارى ديارهم نائية، وثالثها: أن اليهود أغلظ كفراً من النصارى، وقيل: لأن أمرهم أخطر وذنبهم أكبر، فإن الإنسان إذا كان ضلاله بسبب الجهل فإنه يرتفع بالعلم، وأما إذا كان هذا الضلال بسبب الهوى فإنه لا يكاد ينزع عن ضلاله.

ومعنى آمين: اللهم استجب لنا، وليست آية من سورة الفاتحة.

وفي الحديث عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال أحدكم: آمين، وقالت الملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه» [رواه البخاري].

وهذه السورة العظيمة على إيجازها احتوت على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وتوحيد الإلهية وهو إفراد الله بالعبادة وحده، من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وتوحيد الأسماء والصفات، وقد دل عليه لفظ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾.

وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وإثبات الجزاء والبعث في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وتضمنت إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته ﷻ.

وفـي السورة أدعية شاملة نافعـة، قال ابـن تيمية: «أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه؛ دعاء الفاتحة».

في دعاء الفاتحة توسلان:

١ - توسل إلى الله بأسمائه وصفاته.

٢- وتوسل إليه بعبوديته.

قال ابن القيم: وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء.

وقال رحمه الله: «ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة؛ لرأى لها تأثيراً عجيباً في الشفاء. ومكثت بمكة مدة تعتريني أدواء، ولا أجد طبيباً ولا دواء، فكنت أعالج نفسي بالفاتحـة، فأرى لها تأثيراً عجيباً، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألماً، وكان كثير منهم يبرأ سريعاً».

وقـد ورد في فضـل هذه السـورة العظيمة حديث قدسي عظيم، رواه الإمام مسـلم عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسـلم قال: «قال الله ﷻ: قسمت الصـلاة بينـي وبين عبـدي نصفين، ولعبدي ما سـأل، فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قـال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قـال الله: أثنى علي عبدي، فـإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مجدني عبدي وقال مرة: فوض إليّ عبدي ـ فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

تم تفسير سورة الفاتحة
والحمد لله.

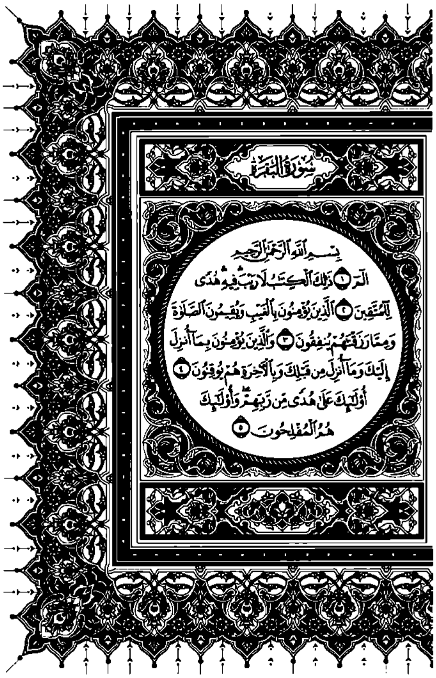

تفسير سورة البقرة
وهي مدنية

* سـورة البقرة أطول سور القرآن على الإطلاق، وهي سـنام القرآن، وأكثر سـوره أحكامـاً وأجمعها لقواعـد الديـن، أصوله وفروعه، وهي من السـور المدنية التـي تعنى بجانب التشريع، شأنها كشأن سائر السـور المدنية، التي تعالج القواعـد التشريعيـة التي يحتـاج إليها المسـلمون في حياتهم الاجتماعية.

اشـتملت هذه السورة الكريمـة عـلى معظـم الأحـكام: في العقائـد، والعبادات، والمعامـلات، والأخـلاق، وفي أمور الزواج والطلاق، والعدة، وغيرها من الأحكام الشرعية.

سـميت السـورة الكريمة «سورة البقرة» ويقال لها: «فسـطاط القرآن» لعظمهـا وبهائهـا ومـا تضمنت من الأحكام والمواعظ، ولما في قصة البقرة، التي ظهرت في زمن موسـى الكليم، من المعجـزات والآيـات الباهرات؛ حيث قتل شـخص من بنـي إسرائيل ولم يعرفوا قاتلـه، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهـم بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منهـا فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن القاتل، وتكون برهاناً على قدرة الله -جل وعـلا- في إحياء الخلـق بعد الموت، وفي السـورة ألف أمـر، وألف نهي، وألف خـير، وفيها خمسمائة حكم، وخمسة عشر مثلاً.

وقـد ورد في فضل سـورة البقرة أحاديـث منها مـا رواه مسـلم عن رسـول الله ﷺ أنه قـال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشـيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سـورة البقرة». وقال ﷺ: «اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذهـا بركة، وتركهـا حسرة، ولا تستطيعها البطلة» يعني السحرة.

وفي سـورة البقـرة آيـة الكرسي التي قال فيهـا النبي ﷺ: «من قرأ آية الكـرسي دبر كل صـلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت» [رواه النسـائي]، ولعظم هذه السـورة ومكانتها قال أنس بن مالك رضي الله عنه عن الرجـل: إذا حفظ سـورة البقرة كان سيداً عظيمًا، مُقَدَّمًا، إماماً.

* قال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾.

١ ﴿الٓمٓ﴾ هذه الحروف وغيرها من الحروف المقطعة في أوائل السور، الله أعلم بمراده منها، وتصديرها بهذه الحروف الهجائية يجذب أنظار المعرضين عن هذا القرآن، إذ يطرق أسماعهم لأول وهلة ألفاظ غير مألوفة في تخاطبهم، فينتبهوا إلى ما يلقى إليهم من آيات بينات، وفي هذه الحروف وأمثالها تنبيه على إعجاز القرآن فإن هذا الكتاب منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم، ومركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها وهم أفصح الناس فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن، وأنه من عند الله وليس من عند محمد ﷺ.

قال ابن كثير: كل سورة تبتدئ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب.

* وقد تناولت الآيات في البدء الحديث عن صفات المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، فوضحت حقيقة الإيمان، وحقيقة الكفر والنفاق، للمقارنة بين أهل السعادة وأهل الشقاء.

٢ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ أي: هذا القرآن العظيم المنزل عليك يا محمد هو الكتاب الذي لا يدانيه كتاب، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلم والحق المبين، وأشار إليه بإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ لعلو مرتبته، وعظيم منزلته.

﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ أي: ولا شك بوجه من الوجوه في أنه من عند الله، وأنه الحق والصدق لمن تفكر وتدبر، أو ألقى السمع وهو شهيد، فلما اشتمل على اليقين، وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين، قال:

﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: هاد من الضلالة والشُّبه للمؤمنين المتقين، الذين يتقون سخط الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويدفعون عذابه بطاعته، وقال الحسن البصري: اتقوا ما حرم عليهم من الشرك والمعاصي، وأدّوا ما افترض عليهم من الطاعات والعبادات. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً قال له: ما التقوى؟ قال: هل وجدت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه، أو جاوزته، أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى.

* ثم بيَّن تعالى صفات هؤلاء المتقين القلبية، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: يصدقون بما غاب عنهم ولم تدركه حواسهم وعقولهم من البعث، والجنة، والنار، والصراط، والحساب، وغير ذلك من كل ما أخبر عنه القرآن، أو النبي عليه الصلاة والسلام من أمور الغيب.

* ثم ذكر أداءهم للطاعات، وفعل الخيرات، فقال:

٣ ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها، وخشوعها وآدابها، ولم يقل: يفعلون الصلاة أو يأتون بالصلاة؛ لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة.

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ أي: ومن الذي أعطيناهم من الأموال ينفقون ويتصدقون في وجوه البر والإحسان، والآية عامة تشمل الزكاة، والصدقة، وسائر النفقات، ولم يذكر المنفق عليه، لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي قربة إلى الله، وأتى بـ«من» الدالة على التبعيض، لينبههم أنه لم يُرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم، وفي قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملككم، وإنما هي رزق الله الذي خولكم، وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده، فاشكروه بإخراج بعض ما

أنعم بـــه عليكم وواسوا إخوانكم المعدمـين، وكثيراً مـا يقـرن تعالى بين الصلاة والإنفاق مـن الأموال؛ لأن الصـلاة حق الله وهي مشـتملة على توحيده، وتمجيـده والثناء عليه. والإنفاق هو الإحسـان إلى المخلوقين وهو حـق العبد، فكل مـن النفقات الواجبة، والـزكاة المفروضة داخل في الآية الكريمـة، وعنوان من سـعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق.

* ثم ذكر ﷻ مؤمني أهل الكتاب، كعبد الله بن سـلام وأضرابـه، فقال تعالى:

﴿٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُـونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِيـنَ يُؤۡمِنُـونَ بِمَـآ أُنزِلَ إِلَيۡـكَ﴾ أي: والذيـن يصدقون بكل ما جئت به يا محمد عـن الله تعالى من القـرآن، وبما أنزل إليـك من الحكمة وهي السنة.

﴿وَمَآ أُنـزِلَ مِن قَبۡلِـكَ﴾ أي: ويصدقون بما جاءت به الرسل من قبلك كالتوراة والإنجيل وغيرهما، لا يفرقون بين كتب الله ولا بين رسله، وهذه خاصية المؤمنين؛ يؤمنون بجميع الكتب السماوية، وبجميع الرسـل، فلا يفرقون بين أحد منهم.

﴿وَبِٱلۡأٓخِـرَةِ هُـمۡ يُوقِنُـونَ﴾ ويعتقـدون اعتقاداً جازماً لا يلابسـه شـك أو ارتياب بالـدار الآخرة التي تتلو الدنيا، بـما فيها من بعث وجزاء، وجنة، ونار، وحسـاب، وميـزان، وإنما سـميت الدار الآخـرة؛ لأنها بعد الدنيـا، ولأن اليوم الآخر لا ليل بعـده، وخص يوم الآخـرة؛ لأن الإيـمان به من أعظـم البواعث على فعل الطاعات، واجتناب المحرمـات ومحاسـبة النفس.

* ثـم ذكر ﷻ حال ومآل مـن اتصف بتلك الصفات العظيمة، فقال:

﴿٥﴾ ﴿أُوْلَٰٓـئِـكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ أي: أولئـك المتصفون بـما تقدم من الصفـات الحميدة، على رشـد وبيان وبصـيرة وعلم نافع مـن الله خالقهم وهاديهم؛ لأن التنكير للتعظيم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِـكَ هُـمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي: وأولئك هـم الناجون والفائزون بالدرجات العاليـة في جنات النعيم، وحصر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم.

* لما ذكر تعالى صفات المؤمنين في الآيات السابقة، أعقبها بذكر صفات الكافرين، المعاندين للرسـول ليظهر الفـارق الواضح بـين الصنفين، على طريقة القرآن الكريـم في المقارنة بين الأبـرار والفجـار، والتمييز بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، قال تعالى:

الجزء الأول — سورة البقرة

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ
لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ
أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ
وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ
وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ
لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ
هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ
ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ
أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣ وَإِذَا لَقُواْ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا
مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ
فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ
بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦

٣

﴿٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِيـنَ كَفَرُواْ سَـوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُـمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَـرُواْ﴾ أي: إن الذين جحدوا ما أنزل إليك من ربك استكباراً وطغياناً، وصار الكفر وصفاً لهـم لازمـاً، لا يردعهم عنـه رادع. والكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، وكفر جحود، وكفر عناد، وكفر نفاق، فكفر الإنكار هو أن لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به وكفر به، وكفر الجحود هو أن يعـرف الله بقلبـه ولا يعترف بلسـانه ككفر إبليس وكفـر اليهود، وكفـر العناد هو أن يعـرف الله بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به ككفر أبي طالب، وأما كفر النفـاق فهو أن يقرّ باللسان ولا يعتقد بالقلب.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أي: يتساوى عند هؤلاء الكفار، أحذرتهم يا محمد من عذاب الله وخوفتهم منه، أم لم تحذرهم لإصرارهم على باطلهم وتماديهم في ضلالهم.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بما جئتهم به لعنادهم واستكبارهم، فلا تطمع في إيمانهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ عن تكذيب قومه له، والحكمة في الإنذار مع العلم بالإصرار إقامة الحجة، وليكون الإرسال عاماً، وليثاب الرسول، وهذه الآية في أقوام حقت عليهم كلمة الشقاوة في سابق علم الله.

* ثم بيّن تعالى العلة في سبب عدم الإيمان والموانع المانعة لهم من الإيمان، فقال:

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ⑦.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: طبع على قلوب هؤلاء بطابع فلا يدخل فيها نور، ولا يشرق فيها إيمان ولا ينفذ فيها، وذلك أن القلوب إذا كثرت عليها الذنوب طمست نور البصيرة فيها، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص.

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ أي: وعلى أسماعهم وعلى أبصارهم غطاء، فلا يبصرون هدى، ولا يسمعون، ولا يفقهون، ولا يعقلون؛ لأن أسماعهم وأبصارهم كأنها مغطاة بحجب كثيفة، لذلك يرون الحق فلا يتبعونه، ويسمعونه فلا يعونه ولا ينتفعون به، وهذه طرق العلم والخير قد سدت عليهم، فلا مطمع فيهم، ولا خير يُرجى عندهم، وإنما منعوا ذلك، وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق، وفي تقديم السمع على البصر دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر ثم ذكر العقاب الآجل، فقال:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑦﴾ أي: ولهم في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم لا ينقطع، بسبب كفرهم وإجرامهم وتكذيبهم بآيات الله.

* لما ذكر تعالى في أول السورة صفات المؤمنين الخلّص، وأعقبها بذكر صفات الكافرين الخلّص، ذكر هنا الصنف الثالث وهم المنافقون، الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وأطنب بذكرهم في ثلاث عشرة آية لينبه إلى عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، ثم عقب ذلك بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان، وتوضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق، وما يؤول إليه حالهم من الهلاك والدمار، قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ⑧، ⑨.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: ومن الناس فريق يتردد متحيراً بين المؤمنين والكافرين، وهم المنافقون، الذين يقولون بألسنتهم صدقنا بالله وبما أنزل على رسوله من الآيات البينات.

﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: وصدقنا بالبعث والنشور، والجزاء والحساب، فأكذبهم الله بقوله:

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وما هم على الحقيقة بمصدقين ولا مؤمنين؛ لأنهم يقولون ذلك قولاً دون اعتقاد، وكلاماً دون تصديق، فهم في باطنهم كاذبون لم يؤمنوا؛ لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله، لأنهم موهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاء، ولذلك أطال في بيان خبثهم وجهلهم، واستهزأ بهم وتهكم بأفعالهم، وسجل عليهم الضلال والطغيان، وضرب لهم الأمثال، قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات في منافقي أهل الكتاب منهم عبدالله ابن أبي ابن سلول، ومتعب بن قشير، والجد بن قيس، كانوا إذا لقوا المؤمنين يظهرون الإيمان والتصديق ويقولون: إنا لنجد في كتابنا نعته وصفته.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله والذين آمنوا بإظهار ما أظهروه من الإيمان مع إصرارهم على الكفر، يعتقدون أن ذلك نافعهم عنده -جل وعلا-، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين، وما علموا أن الله لا يُخدع؛ لأنه لا تخفى عليه خافية.

والنفاق هو إظهار الخير، وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب والأوزار؛ لأن المنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن بها نفاق بل كان خلافه.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: وما يغرون بصنيعهم هذا إلا أنفسهم، لأن وبال فعلهم راجع عليهم؛ لأن الله يُطلع نبيه ﷺ على نفاقهم فيفتضحون في الدنيا ويستوجبون العقاب في العُقبى.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ولا يحسون بذلك ولا يفطنون إليه، لتمادي غفلتهم، وتكامل حماقتهم وفساد قلوبهم.

* ثم ذكر تعالى ما تنطوي عليه قلوبهم، وتحمله صدورهم من الشك والشبهات والنفاق، فقال تعالى:

﴿١٠﴾ ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ أي: في قلوبهم مرض في الدين، من شك وفساد ونفاق، وابتلوا بالمعاصي الموجبة لعقوبتهم، فزادهم الله رجساً فوق رجسهم، وضلالاً فوق ضلالهم، ووصفهم بالمرض لأن المريض يجد طعم الطعام على خلاف ما هو عليه، فيرى الحامض حلواً، أو الحلو مراً، وكذلك هؤلاء المنافقون يرون الحق باطلاً، والباطل حقاً. وفيه بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصي، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها، فعقوبة المعصية المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ أي: ولهم عذاب مؤلم موجع بسبب كذبهم في دعوى الإيمان، واستهزائهم بآيات الرحمن.

* ثم شرع تعالى في بيان قبائحهم، وأحوالهم الشنيعة، وعدم استماعهم للدعوة والنصيحة، فقال:

﴿١١﴾، ﴿١٢﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: وإذا قال لهم بعض المؤمنين نصحاً وتنبيهاً لهم: لا تسعوا في الأرض بالإفساد بإثارة الفتن، والكفر، والصد عن سبيل الله، وإفشاء أسرار المؤمنين، وموالاة الكافرين؛ لأن من عصى الله فقد أفسد في الأرض.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: قالوا كذباً وجدالاً: ليس شأننا الإفساد أبداً، وإنما نحن أناس مصلحون، نسعى للخير والصلاح فلا يصح مخاطبتنا بذلك، وفيه حصر للإصلاح في جانبهم، وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح، فقد صوروا الفساد بصورة الصلاح، لما في قلوبهم من المرض، قلباً للحقائق وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية، فهذا أقرب للسلامة وأرجى لرجوعه، ولذلك رد الله عليهم أبلغ رد بتصدير الجملة بحرف التأكيد ﴿أَلَآ﴾ المنبهة و﴿إِنَّهُمْ﴾ المقررة، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل، والاستدراك بعدم الشعور، فقال:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: ألا فانتبهوا أيها الناس، إنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم، فإنه لا أعظم فساداً ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيله، وخادع أولياءه، ووالى المحاربين لله ورسوله، ثم زعم مع ذلك أن هذا إصلاح، ولكن لا يفطنون ولا يحسون، لانطماس نور الإيمان في قلوبهم وأن ما يزعمونه من الإصلاح هو عين الفساد، لكنهم بسبب جهلهم وعنادهم لا يحسون.

* ثم ذكر تعالى نصيحة المؤمنين للمنافقين من وجهين، أحدهما تقبيح ما كانوا عليه لبعده عن الصواب وجره إلى الفساد، وثانيهما: تبصيرهم الطريق الأسدَّ من اتباع ذوي الأحلام:

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: وإذا قيل للمنافقين:

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ
ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ
بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ
ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ
ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ
يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ
قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى
خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ
بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟
بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ
ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

٤

آمنوا إيماناً صادقاً لا يشوبه نفاق ولا رياء، وأخلصوا في إيمانكم وطاعتكم لله كما آمن وأخلص أصحاب النبي -عليه الصلاة والسلام-.

﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ **الهمزة للإنكار مع السخرية والاستهزاء، أي: جادلوا وقالوا: أنؤمن كإيمان هؤلاء الجهلة، أمثال: صهيب، وعمار، وبلال؛ ناقصي العقل والتفكير؟! بزعمهم أن سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك، فنسبوهم إلى السفه، وإنما سفهوهم لاعتقادهم فساد رأيهم، أو لتحقير شأنهم، وفي ضمن ذلك أنهم هم العقلاء وأرباب الحجى والنهى، فرد عليهم سبحانه بأن السفه مقصور عليهم:**

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ **أي: ألا إنهم هم السفهاء حقّاً؛ لأن من ركب متن الباطل ورغب عن دين الله كان سفيهاً بلا امتراء، فحصر السفاهة فيهم، ولكن لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أبلغ في العمى، والبعد عن الهدى.**

*** ثم قال تعالى منبهاً إلى مصانعتهم ونفاقهم، وما يقولونه بألسنتهم ما ليس في قلوبهم:**

﴿١٤﴾، ﴿١٥﴾ ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ * ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ **أي: وإذا رأوا المؤمنين وصادفوهم أظهروا لهم الإيمان والموالاة نفاقاً ومصانعة، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم، وقالوا: صدقنا بالإسلام مثلكم.**

﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ **أي: وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم وكبرائهم، أهل الضلال والنفاق.**

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ **أي: قالوا لهم نحن على دينكم وطريقتكم، وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد، وإنما نستهزئ بالقوم، ونسخر منهم بإظهار الإيمان، قال تعالى رداً عليهم:**

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ **أي: الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال، وهذا إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج الخبر عن الجزاء مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوا العقاب عليه، فاللفظ متفق والمعنى مختلف، وإليه وجهوا كل ما في القرآن من نظائر مثل** ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] **ومثل** ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] **فالأول ظلم والثاني عدل.**

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ **أي: ويزيدهم بطريق الإمهال والترك في ضلالهم وكفرهم يتخبطون ويترددون حيارى، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً؛ لأن الله طبع على قلوبهم وأعمى أبصارهم، فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً.**

*** ثم قال تعالى كاشفاً عن حقيقة أحوالهم:**

﴿١٦﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ **أي: أولئك المنافقون الذين استبدلوا الكفر بالإيمان، وأخذوا الضلالة وتركوا الهدى، وعبر بالشراء المبين أنهم سلكوا هذا الطريق عن محبة وشغف، وأشار إليهم باسم الإشارة الدال على البعيد** ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ **للتبرؤ منهم والبعد عنهم.**

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ أي: فما كسبوا شيئاً في تجارتهم باتباعهم الكفر بدل الإيمان. وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك؛ لأنهم خسروا سعادة الدارين.

* ثم ضرب تعالى مثلين وضح فيهما خسارتهم الفادحة، وذكر مثلهم الكاشف لهم غاية الكشف، فقال:

﴿١٧﴾، ﴿١٨﴾ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۞ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي: مثالهم المطابق في نفاقهم وحالهم العجيبة فيه، كحال شخص نزل بصحراء في ليلة مظلمة فأوقد ناراً عظيمة ليستدفئ بها ويستضيء ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي: فلما أنارت المكان الذي حوله فأبصر وأمن، واستأنس بتلك النار المشعة المضيئة، ذهب الله بنورهم، أي أطفأها الله بالكلية، فتلاشت النار، وعدم النور وذهب.

قال ابن القيم: تأمل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: «ذهب الله بنارهم» مع أنه مقتضى السياق ليطابق أول الآية ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو «النور» وأبقى ما فيها من الإحراق وهو «النارية»، وتأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل بضوئهم؛ لأن الضوء زيادة في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، وتأمل كيف قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ فوحد النور، ثم قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ فجمعها، فإن الحق واحد هو صراط الله المستقيم، الذي لا صراط يوصل سواه، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة ومتشعبة، ولهذا أفرد سبحانه الحق وجمع الباطل في آيات عديدة مثل قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فجمع سبل الباطل، ووحد سبيل الحق.

﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ أي: وأبقاهم في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة الحساب، وظلمة الكفر، والظلمة الحاصلة بعد النور، مع خوف شديد مما رأوا حولهم من المخاوف، يتخبطون فلا يهتدون إلى طريق ولا مخرج، فكذلك هؤلاء المنافقون، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين ولم تكن صفة لهم، فانتفعوا بها وحقنت بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا، فبينما هم على ذلك إذ هجم عليهم الموت، فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب، وحصل لهم ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة المعاصي على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمة النار وبئس القرار، ثم نفى عنهم طريق الهداية كلها، فلهذا قال تعالى عنهم:

﴿صُمٌّ﴾ أي: هم كالصم، لا يسمعون خيراً، فهم صم عن سماع الحق سماع تدبر.

﴿بُكْمٌ﴾ كالخرس، لا يتكلمون ولا ينطقون بما ينفعهم.

﴿عُمْىٌ﴾ كالعمي لا يبصرون الهدى والحق ولا يتبعون سبيله.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه فهم لا يرجعون عما هم فيه من الغي والضلال وهذا حال المنافق، لا ينطق بالحق، ولا يستمع إليه، ولا ينتفع به لو سمعه، ولا يبصره، وإن أبصره لا ينتفع به فهو بمنزلة الأعمى، وهذه حال من أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه؛ فهو لا يرجع إليه؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

* ثم ثنى تعالى بتمثيل آخر للمنافقين زيادة في الكشف والإيضاح، فقال:

﴿١٩﴾، ﴿٢٠﴾ ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۞ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: أو مثل المنافقين في حيرتهم وترددهم

كمثل قوم أصابهم مطر شديد، وهم يمشون في العراء، وأظلمت له الأرض، وأرعدت له السماء، مصحوب بالبرق والرعد والصواعق.

﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعۡدٌ وَبَرۡقٌ﴾ في ذلك السحاب ظلمات داجية، ورعد قاصف: وهو الصوت الذي يسمع في السحاب. وبرق خاطف: وهو الضوء اللامع المشاهد من السحاب.

﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ أي: يضعون رؤوس أصابعهم في آذانهم لدفع خطر الصواعق المحرقة، وذلك خوف الهلاك ومن فرط الدهشة والفزع، كأنهم يظنون أن ذلك ينجيهم.

﴿حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ أي: خشية الموت من تلك الصواعق المدمرة.

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ جملة اعتراضية، أي: والله تعالى محيط بهم بقدرته، وهم تحت إرادته ومشيئته لا يفوتونه، كما لا يفوت من أحاط به الأعداء من كل جانب.

﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾ أي: يقارب البرق لشدته وقوته وكثرة لمعانه، أن يذهب بأبصارهم فيأخذها بسرعة.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾ أي: متى ما أنار لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه.

﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾ أي: وإذا اختفى البرق وفتر لمعانه، وقفوا عن السير متحيرين وثبتوا في مكانهم. وفي هذا تصوير لما هم فيه من غاية التحير والجهل، فإذا صادفوا من البرق لمعة مع خوفهم أن يخطف أبصارهم انتهزوها فرصة فخطوا خطوات يسيرة، وإذا خفي وفتر لمعانه وقفوا عن السير وثبتوا في أماكنهم خشية التردي في حفرة.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾ ولولا إمهال الله لهم، لسلب سمعهم وأبصارهم. وفيه تحذير لهم وتخويف بالعقوبة الدنيوية ليحذروا، وليرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: إنه تعالى قادر على ذلك في كل وقت، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء، وإنما وصف تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع، لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قادر.

* ولما ذكر تعالى الأصناف الثلاثة: المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، وذكر ما تميزوا به من سعادة أو شقاوة، أو إيمان أو نفاق، وضرب الأمثال ووضح طرق الضلال، أعقبه بخطاب إلى الناس كافة، ذكر فيه الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، وعرف الناس بنعمه ليشكروه عليها، وأقبل عليهم بالخطاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهو خطاب لكل الناس ممتناً عليهم بما خلق ورزق، وأبرز لهم معجزة القرآن بأنصح بيان وأوضح برهان، ليقتلع من القلوب جذور الشك والارتياب.

وهو نداء من الله للبشر جميعاً آمراً لهم بالعبادة وناهياً عن الشرك والمعصية، فأمرهم بما خلقهم له، قال تعالى:

﴿٢١﴾، ﴿٢٢﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ أي: يا معشر بني آدم اذكروا نعم الله الجليلة عليكم، واعبدوا الله ربكم الذي رباكم وأنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً، اعبدوه بتوحيده، وشكره، وطاعته، ثم استدل على وجوب عبادته وحده، بأنه:

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: الذي أوجدكم بقدرته من العدم، وخلق الذين من قبلكم من الأمم، وإنما خص نعمة الخلق وامتن بها عليهم؛ لأن جميع النعم مترتبة عليها، وهي أصلها الذي لا يوجد شيء منها دونها، وأيضاً فالكفار مقرون بأن الله هو الخالق.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي: اعبدوه وحده لا شريك له رجاء أن تكونوا في زمرة المتقين، الفائزين بالهدى والفلاح.

ولما ذكر تعالى فرق المكلفين، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات، هزاً للسامع، وتنشيطاً له واهتماماً بأمر العبادة وتفخيماً لشأنها، فعدد تعالى نعمه الظاهرة والباطنة عليهم،

قال تعالى:

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ أي: ربكم الذي صير لكم الأرض مهاداً وقراراً، تستقرون عليها وتنامون وتفترشونها كالبساط المفروش مع كرويتها، وإلا ما أمكنكم العيش والاستقرار عليها.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ أي: وجعل السماء سقفاً للأرض مرفوعاً فوقها كهيئة القبة، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم كالشمس والقمر والنجوم.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ أي: أنزل من السحاب مطراً عذباً فراتاً أنزله بقدرته، فهو تعالى الذي أنزل المطر من السحاب في وقته عند احتياجهم إليه.

﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ أي: فأخرج بذلك المطر أنواعاً من الثمرات وأنواع النبات رزقاً لكم، به ترتزقون وتقوتون، وتعيشون وتفكهون، ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره.

﴿فَتَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: فلا تتخذوا معه شركاء من الأصنام والبشر تشركونهم مع الله في العبادة، فتعبدونهم كما تعبدون الله وأنتم تعلمون أنها لا تخلق شيئاً ولا ترزق، وهذا من أعجب العجب، وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وأن الله هو الخالق الرازق وحده، ذو القوة المتين.

* ثم ذكر تعالى بعد أدلة التوحيد وأنه لا إله إلا الله، ذكر الحجة على النبوة، وأقام البرهان على إعجاز القرآن، ورد على حجج المشركين بدليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ وصحة ما جاء به، قال تعالى:

﴿٢٣﴾-﴿٢٤﴾ ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ أي: وإذا كنتم أيها الكافرون المعاندون في شك وارتياب من صدق هذا القرآن، المعجز في بيانه، وتشريعه، ونظمه، الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ وتزعمون أنه ليس من عند الله، بل من محمد ﷺ وهو رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب، وليس بأفصحكم ولا بأعلمكم، وفي وصف الرسول ﷺ بالعبودية في هذا المقام، دلالة على أن أعظم أوصافه ﷺ، قيامه بالعبودية التي لا يلحقه فيها أحد من الأولين والآخرين، وقد ذكر الله ﷻ وصف نبيه ﷺ بالعبودية في أعلى مقاماته، فوصفه بالعبودية حال إنزال القرآن، وحال الإسراء، وحال المعراج، وحال التحدي والذود عنه.

﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ أي: فهاتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن، في البلاغة والفصاحة والبيان، وهذا أمر تعجيز وموقف تحدٍّ.

﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: واستعينوا بأعوانكم وأنصاركم الذين يساعدونكم على معارضة القرآن خاصة أنكم أهل فصاحة وخطابة، والمراد استعينوا بمن شئتم غيره تعالى، من حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير الله ﷻ، فإنه لا يقدر أن يأتي بمثله إلا الله.

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: فأتوا بسورة من مثله إن كنتم صادقين في زعمكم أنه مختلق وأنه من كلام البشر، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز، فهذا آية كبرى وبرهان جلي على صدق محمد ﷺ وصدق ما جاء به.

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ أي: فإن لم تقدروا على الإتيان بمثل سورة من سوره وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقرة والبلغاء.

﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ أي: ولن تقدروا في المستقبل لا محالة أيضاً على الإتيان بمثله، والجملة اعتراضية للإشارة إلى عجز البشر في الحاضر والمستقبل.

قال ابن كثير: تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم ومع هذا عجزوا، و﴿وَلَن﴾ لنفي التأبيد في المستقبل،

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٖ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٖ
رِّزْقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ
وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥ ۞إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوْقَهَاۚ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۖ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ
يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ
إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ
مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ
فِي ٱلْأَرْضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٢٧ كَيْفَ
تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتٗا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ
ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٨ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ
لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ
فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ٢٩

٥

أي ولن تفعلوا ذاك أبداً، وهذه أيضاً معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً، غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يُعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا، ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ ومن حيث المعنى، والقرآن جميعه فصيح في غاية نهايات الفصاحة والبيان عند من يعرف كلام العرب، ويفهم تصاريف الكلام.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ أي: فإذا لم تستطيعوا أن تأتوا بمثله وعلمتم أنه من عند الله فآمنوا بهذا القرآن، وخافوا عذاب الله، واحذروا نار الجحيم التي جعلها الله جزاء المكذبين. التي مادتها التي تشعل بها وتضرم لإيقادها هي الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله.

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: هيئت تلك النار وأرصدت للكافرين بالله ورسله، الجاحدين لرسالة محمد ﷺ، ينالون فيها ألوان العذاب المهين، وهذه الآيات ونحوها يسمونها آيات التحدي، وهو تعجيز الخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وفي الآية ونحوها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ قال ابن مسعود: «هذه أخوف آية في القرآن؛ لأنها توعدت المؤمنين بعذاب الكافرين».

* ثم لما ذكر ما أعده لأعدائه الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال، عطف عليه بذكر ما أعده لأوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، للمقارنة بين حال الأبرار والفجار ليكون العبد راغباً راهباً، خائفاً راجياً، فقال تعالى:

٢٥ ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزْقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: وبشر يا محمد المؤمنين الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، بشرهم خيراً يملؤهم سروراً وحبوراً. وجمع في الآية بين الإيمان والعمل؛ فالجنة لا تنال إلا بهما، بعد رحمة الله ﷻ، وفيه استحباب بشارة المؤمنين وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها وثمرتها، فإنها بذلك تخفف وتسهل.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: بأن لهم في الآخرة حدائق وبساتين ذات أشجار ومساكن، تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنة من الماء، واللبن، والعسل، والخمر.

﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزْقٗا﴾ أي: كلما أعطوا عطاء ورزقوا رزقاً من ثمار الجنة.

﴿قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: هذا مثل الطعام الذي قدم إلينا قبل هذه المرة، قال المفسرون: إن أهل الجنة يرزقون من ثمارها، تأتيهم به الملائكة، فإذا قدم لهم مرة ثانية، قالوا: هذا الذي أتيتمونا به من قبل، فتقول الملائكة: كل ياعبد الله، فاللون واحد والطعم مختلف، قال تعالى:

﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾ أي: رزقاً متشابها في الشكل والمنظر والاسم، لا في الطعم والمخبر، وقيل يشبه بعضه بعضاً في الحسن واللذة والفكاهة. قال ابن عباس: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء.

لما ذكر تعالى مسكنهم وأقواتهم من الطعام والشراب، وفواكههم، ذكر أزواجهم في الجنان، فوصفهن بأكمل وصف وأوجزه وأوضحه.

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: ولهم في الجنة زوجات من الحور العين، مطهرات من الأقذار والأدناس الحسية كالبول والحيض، والمعنوية كالكذب وسوء الخلق والفحش والحسد والغيرة، ولم يخصص سبحانه نوع طهارة معين، ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخُلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنَّ يوم القيامة أجمل من الحور العين.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: وهم في الجنة ونعيمها دائمون، لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها، وهذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين، يعيشون مع زوجاتهم في هناء خالد لا يعتريه انقطاع.

* لما بيّن تعالى البيان الساطع، والبرهان القاطع، أن القرآن كلام الله لا يتطرق إليه شك، وإنه كتاب معجز أنزله على خاتم المرسلين، وتحداهم أن يأتوا بمثل سورة من أقصر سوره، ذكر هنا شبهة أوردها الكفار والمنافقون للقدح فيه، وهي أنه جاء في القرآن ذكر النحل، والذباب، والعنكبوت، والنمل. وهذه الأمور لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء فضلاً عن كلام رب الأرباب، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة، ورد عليهم بأن صغر هذه الأشياء لا يقدح في فصاحة القرآن وإعجازه، إذا كان ذكر المثل مشتملاً على حكم بالغة وعبر ناصحة، ومصالح عظيمة، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٢٧﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي: إن الله لا يستنكف ولا يمتنع عن أن يضرب أيَّ مثل كان، بأي شيء كان، صغيراً كان أو كبيراً. وفي القرآن الكريم بضعة وأربعون مثلاً. ومن ذلك:

﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: سواء كان هذا المثل بالبعوضة أو بما هو دونها في الحقارة والصغر، فكما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها. لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا: ما شبه هذا كلام الله، وما أراد بذكر هذه الأشياء الخسيسة؟ فأنزل الله الآية وبين أن الناس انقسموا نحو هذه الأمثال إلى قسمين:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أما المؤمنون فيعلمون أن الله حق، لا يقول غير الحق، وأن هذا المثل من عند الله فيعلمون حكمة الله في التمثيل بالصغير والكبير من خلقه فيتفهمونها ويتفكرون فيها.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ وأما الذين كفروا، فيتعجبون ويسخرون ويتحيرون، فيزدادون كفراً إلى كفرهم وضلالة إلى ضلالتهم، ويقولون: ما مراد الله من ضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء الحقيرة والحشرات الصغيرة؟ قال تعالى في الرد عليهم:

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ أي: إن المراد هو الاختبار وتمييز المؤمن من الكافر؛ يضل بهذا المثل كثيراً من الكافرين لكفرهم به وسخريتهم منه، ويهدي به كثيراً من المؤمنين لتصديقهم به، فيزيد أولئك ضلالة، وهؤلاء هدى؛ ثم ذكر حكمته سبحانه في إضلال من يضلّهم، وأن ذلك عدل منه تعالى.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: والله ﷻ ما يضل بهذا المثل أو بهذا القرآن إلا الخارجين عن طاعة الله، الجاحدين بآياته.

ثم عدد تعالى أوصاف هؤلاء الفاسقين، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي: ينكثون ما عهده

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟
أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ
بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ
ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ
أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ
لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ
أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل
لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ
فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا
يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا
ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ
ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

٦

إليهم في الكتب السماوية، وهذا يعم ويشمل العهد الذي بينهم وبينه، والذي بينهم وبين عباده.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يعم كل ما أمر الله به: من صلة الأرحام والقرابات، واللفظ عام في كل قطيعة لا يرضاها الله كقطع الصلة بين الأنبياء، وترك موالاة المؤمنين.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعاصي والفتن، والمنع عن الإيمان، وإثارة الشبهات حول القرآن.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: أولئك المذكورون، الموصوفون بتلك الأوصاف القبيحة، هم الخاسرون في الدنيا والآخرة لأنهم استبدلوا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، فصاروا إلى النار المؤبدة.

* يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف في عباده:

﴿٢٨﴾ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ استفهام للتوبيخ والإنكار، والمعنى: كيف تجحدون أيها المشركون الخالق، وتنكرون الصانع وتشركون به غيره في العبادة، مع البرهان القاطع عليها في أنفسكم:

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ أي: وقد كنتم في العدم نطفاً في أصلاب الآباء، وأرحام الأمهات. خلقكم وأخرجكم إلى الدنيا، ونفخ فيكم الحياة.

﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ عند انقضاء الآجال التي حددها لكم.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ثم يميتكم، ثم يعيدكم أحياء بالبعث من القبور يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تحشرون إلى الموقف عند الله سبحانه.

* لما ذكر تعالى مشاهد ودلالات من خلقهم يرونه من أنفسهم، ذكر جملة من النعم على عباده مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض برهاناً على البعث، فقال:

﴿٢٩﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: الله وحده الذي خلق لأجلكم كل ما في الأرض من النعم لتنتفعوا بكل ما فيها، وتعتبروا بأن الله هو الخالق الرازق.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أي: قصد إلى خلق السموات، فصيرهن وقضاهن سبع سموات محكمة البناء، لا فطور فيها ولا صدوع؛ وذلك دليل القدرة الباهرة.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: وهو عالم بكل ما خلق وذرأ، أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق ذلك وهو أعظم منكم قادر على إعادتكم. بل إنه على كل شيء قدير.

* لما امتن تعالى على العباد بنعمة الخلق والإيجاد، وأنه سخر لهم ما في الأرض جميعاً، وأخرجهم من العدم إلى الوجود، أتبع ذلك ببدء خلقهم، وامتنَّ عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه، بجعله خليفة، وإسكانه دار الكرامة، وإسجاد الملائكة تعظيماً لشأنه، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، ولهذا ناسب أن يُذكرهم بذلك، لأنه من وجوه النعم التي أنعم بها عليهم، قال تعالى:

﴿٣٠﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ هذا شروع في ذكر فضل آدم عليه السلام أبي البشر، وتنويهاً بذكره في الملأ الأعلى، أي: واذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: خالق في الأرض ومتخذ فيها خليفة يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها، وهو آدم، أو قوماً يخلف بعضهم بعضاً، قرناً بعد قرناً، وجيلاً بعد جيل لعمارتها.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ أي: قال الملائكة على سبيل التعجب والاستعلام، واستكشافًا عن الحكمة في ذلك: كيف تستخلف هؤلاء، وفيهم من يفسد في الأرض بالمعاصي.

﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ أي: يريق الدماء بالبغي والاعتداء، وهذا تخصيص بعد تعميم لبيان شدة مفسدة القتل.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي: فإن كان المراد من خلقهم عبادتك، فنحن ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك.

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ونعظم ذكرك ونطهره ونمجدك بكل صفات الكمال والجلال.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال الله تعالى للملائكة: إني أعلم من المصالح ما هو خفي عليكم، ولي في خلق الخليفة حكمة لا تعلمونها، وهو عالم -جل وعلا- بأن هذا الخليفة سيكون منه الأنبياء والرسل والصديقون والشهداء والصالحون وقوم صالحون وساكنو الجنة.

* ثم لما كان قول الملائكة -عليهم السلام-، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى أن يبين لهم من فضل آدم ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه، فقال تعالى:

﴿٣١﴾-﴿٣٣﴾ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أي: وبياناً لفضل آدم عليه السلام، علمه الله أسماء الأشياء كلها، قال ابن عباس: علمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: عرض المسميات على الملائكة، وسألهم امتحاناً لهم، هل يعرفونها أم لا؟

﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أخبروني بأسماء هذه المخلوقات التي ترونها.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في زعمكم أنكم أحق بالخلافة ممن استخلفته، والحاصل: أن الله تعالى أظهر فضل آدم للملائكة بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة، وخصه بالمعرفة التامة دونهم، ومن معرفة الأسماء والأشياء، والأجناس، واللغات، ولهذا اعترفوا بالعجز والقصور.

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ أي: ننزهك عن الاعتراض منا عليك ومخالفة أمرك، فنحن لا علم لنا إلا ما علمتنا إياه فضلاً منك وجوداً.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: الذي أحاط علماً بكل شيء، فلا تخفى عليك خافية بشؤون خلقك.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيرك الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أي: قال الله: أعلم يا آدم الملائكة بالأسماء التي عجزوا عن علمها، واعترفوا بتقاصر هممهم عن بلوغ مرتبتها.

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أي: أخبرهم بكل الأشياء، وسمى كل شيء باسمه، وذكر حكمته التي خلق لها، تبين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: فلما ظهر عجزهم، قال تعالى للملائكة تقريراً لهم: ألم أنبئكم بأني أعلم ما غاب في السموات والأرض عنكم.

﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: ما تظهرون بألسنتكم، وما تسرون من دعواكم،

وما تخفون في أنفسكم أن الله لا يخلق خلقاً أفضل منكم، روي أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام رأت الملائكة فطرته العجيبة، وقالوا: ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أكرم عليه منه.

* وبعد أن أشارت الآيات السابقة إلى أن الله تعالى خص آدم عليه السلام بالخلافة، كما خصه بعلم غزير وقفت الملائكة عاجزة عنه، أضافت هذه الآيات الكريمة بيان نوع آخر من التكريم لآدم أكرمه الله به؛ ألا وهو أمر الملائكة بالسجود له، وذلك من أظهر وجوه التشريف والتكريم له، قال تعالى:

﴿٣٤﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: واذكر يا محمد للناس تكريم الله لآدم حين قال سبحانه للملائكة:

﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ أي: سجود تحية وتعظيم وإظهار لفضله، لا سجود عبادة.

﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي: سجدوا جميعاً له غير إبليس. امتنع عن السجود، واستكبر عن أمر الله وعلى آدم وتعاظم في نفسه.

﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: صار بإبائه واستكباره من الكافرين، العاصين لأمر الله حيث استقبح أمره بالسجود لآدم.

* لما خلق الله آدم وفضله، أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجة ليسكن إليها ويستأنس بها، وأمرهما بسكنى الجنة، ويأكلا منها ما شاءا رغداً هنيئاً سائغاً طيباً، قال تعالى:

﴿٣٥﴾، ﴿٣٦﴾ ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: وقال الله ممتناً: يا آدم اسكن في جنة الخلد أنت وزوجك حواء. وعبر بلفظ (السكن) دون غيره من الألفاظ التي تؤدي نفس المعنى إشارة إلى قصر وقت الإقامة في الجنة حينذاك.

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ أي: كلا من ثمار الجنة أكلاً رغداً واسعاً كثيراً، وتمتعا بذلك هنيئاً. والرغد: العيش الهنيء الذي لا عناء فيه.

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي: كلا من أي أصناف الثمار والفواكه أردتما الأكل منه.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي: لا تأكلا من هذه الشجرة حتى لا تقعا في المعصية، وفي هذا اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم عليه السلام، قال ابن عباس: هي الكرمة. والنهي عن القرب فيه سدٌّ للذريعة وقطع للوسيلة، ولهذا نهى عنه عوضاً عن النهي عن الأكل.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله وأمره.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي: أوقعهما في الزلة بأن وسوس لهما وأغواهما بالأكل من الشجرة، فتسبب في إخراجهما من الجنة ونعيمها وما فيها من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة.

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ أي: قال الله لهم: اهبطوا من الجنة إلى الأرض، والخطاب لآدم وحواء وإبليس.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: لكم في الدنيا موضع استقرار بالإقامة فيها. وتمتع بنعيمها وانتفاع بما فيها إلى وقت انقضاء آجالكم.

* فلما أمر الله آدم بالهبوط إلى الأرض استقبلا الأمر بالأخذ والقبول، والعمل به، قال تعالى:

﴿٣٧﴾ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ أي: استقبل آدم دعوات من ربه ألهمه إياها توبة واستغفاراً فدعاه بها، وهي قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣] الآية.

والتلقي: هو قبول عن فطنة وفهم.

الجزء الأول — سورة البقرة

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي
أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا
لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي
ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا
الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ
وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾
وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ
﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ
عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا
وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

٧

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي: قبل ربه توبته، وغفر له ذنبه، ورحمه، وتجاوز عنه.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: إن الله كثير القبول للتوبة، يتوب على من تاب من عباده، واسع الرحمة للعباد، ومن رحمته بهم أن وفقهم للتوبة وعفا عنهم وصفح، وتوبته نوعان: توفيقه أولاً، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً. و﴿التَّوَّابُ﴾ صيغة مبالغة؛ لأن هذه صفة لازمة لله ﷻ؛ فمن صفاته الكاملة التوبة، ولأن المذنبين الذين يتوبون إلى الله كثيرون، وأما ﴿الرَّحِيمُ﴾ فهو ذو الرحمة الواصلة إلى من شاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

* لمَّا دعا ﷻ البشر إلى عبادته وتوحيده، وأقام للناس الحجج الواضحة على وحدانيته ووجوده، ذكَّرهم بما أنعم به على أبيهم آدم.

﴿٣٨﴾، ﴿٣٩﴾ ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ أي: قال الله لهم: اهبطوا من الجنة جميعاً، كرر الأمر بالهبوط للتأكيد والبيان أن إقامة آدم وذريته في الأرض لا في الجنة.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ أي: وسيأتيكم أنتم وذرياتكم المتعاقبة رسول أبعثه لكم، وكتاب أنزله عليكم وبيان وشريعة.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ أي: من آمن بي وعمل بطاعتي، وأضاف هذا الهدى إلى نفسه؛ حتى يُعلم أن هذا الهدى حق ليس فيه باطل ولا تناقض ولا اختلاف.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا ينالهم خوف وفزع فيما يستقبلونه من أمر الآخرة، ولا حزن وندم على ما فاتهم من أمور الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: جحدوا وكذبوا بما أنزلت وبما أرسلت.

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: مخلدون فيها لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب ولاهم ينصرون.

* يقول تعالى آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد ﷺ، وقد تفنن في مخاطبتهم، فتارة دعاهم بالملاطفة، وتارة بالتخويف، وتارة بالتذكير بالنعم عليهم وعلى آبائهم، وأخرى بإقامة الحجة والتوبيخ على سوء أعمالهم، وهكذا انتقل من التذكير بالنعم العامة على البشرية في تكريم أبي الإنسانية، إلى التذكير بالنعم الخاصة على بني إسرائيل، فقال تعالى:

﴿٤٠﴾-﴿٤١﴾ ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: يا ذرية النبي الصالح يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام-.

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ اشكروا ما أنعمت به من نعمي الكثيرة عليكم وعلى آبائكم من نعم لا تعد ولا تحصى، من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، والنجاة من فرعون، وغير ذلك مما أنعم الله عليهم. والذكر يكون بالقلب واللسان.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ أي: أدوا ما عاهدتموني عليه من الإيمان بكتبي ورسلي جميعاً، وأن تعملوا بشرائعي.

﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ فإن فعلتم ذلك؛ أتمم لكم ما وعدتكم به من الرحمة في الدنيا، والنجاة في الآخرة.

﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أي: وإياي وحدي فاخشوني دون غيري. والرهبة: شدة الخوف.

﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ من القرآن الكريم الذي أنزلته على محمد نبي الله ورسوله.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي: موافقاً لما معكم من التوراة في أمور التوحيد والنبوة والأخبار ونعت النبي ﷺ.

﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ أي: أول من كفر من أهل الكتاب، فحقكم أن تكونوا أول من آمن لما عندكم من العلم ما ليس عند غيركم.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولا تستبدلوا بآياتي البينات التي أنزلتها عليكم حطام الدنيا الفانية من مال ورئاسة وغيرها.

﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: خافون دون غيري، فاعملوا بطاعتي واتركوا معصيتي.

* ثم قال تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل، وتمويهه به، وكتمانهم الحق، وإظهارهم الباطل:

﴿٤٢﴾، ﴿٤٣﴾ ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ نهاهم عن شيئين؛ الأول: أن لا تخلطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذي افتريتموه، ولا تحرفوا ما في التوراة بالبهتان الذي تفترونه.

﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ أي: واحذروا كتمان الحق الصريح من صفة نبي الله ورسوله محمد ﷺ التي في كتبكم، وهذا هو المنهي الثاني ومن جملتها البشارات في كتبهم ببعث النبي محمد ﷺ.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق، أو حال كونكم عالمين بضرر الكتمان، وفيه أن كفرهم كفر عناد لا كفر جهل.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: وادخلوا في دين الإسلام، بأن تأتوا الصلاة على الوجه الصحيح، كما جاء بها نبي الله ورسوله محمد ﷺ وتعطوا الحقوق المالية التي شرعها الله على لسانه، وتكونوا مع الراكعين من أمته ﷺ، وفيه الأمر بصلاة الجماعة ووجوبها.

* لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل، وفي هذه الآيات ذمٌّ وتوبيخ لهم على سوء صنيعهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، ويدعون الناس إلى الهدى والرشاد ولا يتبعونه، قال تعالى:

﴿٤٤﴾ ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ يخاطب الله أحبار اليهود فيقول لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: أتدعون الناس إلى الخير والطاعة وإلى الإيمان بمحمد. والآية نزلت في بعض علماء اليهود، كانوا يقولون لأقربائهم الذين أسلموا: اثبتوا على دين محمد فإنه حق، فكانوا يأمرون الناس بالإيمان ولا يفعلونه.

﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تتركونها فلا تؤمنون، ولا تفعلون الخير وهو الإسلام.

﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: حال كونكم تقرؤون التوراة، وفيها صفة ونعت محمد ﷺ ووجوب الإيمان به.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تفطنون وتفقهون أن ذلك قبيح فترجعون عنه؛ لأن العاقل يبدأ أول ما يبدأ بنفسه، ثم يثني بإصلاح غيره، والعقل مأخوذ من عقال الدابة، وهو ما يُشد به ركبة البعير فيمنعه من الشرود، فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود.

* ثم بيّن لهم تعالى طريق التغلب على الأهواء، والتخلص من حب الرياسة وسلطان المال، ونيل مطلوبهم فيما يؤملون من خيري الدنيا والآخرة، فقال:

﴿٤٥﴾، ﴿٤٦﴾ ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ * ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟﴾ أي: اطلبوا المعونة على أموركم وحوائجكم كلها.

﴿بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ أي: بالصبر بجميع أنواعه، وبتحمل ما يشق على النفس من تكاليف شرعية، وبالصلاة التي هي عماد الدين، وهي من أكبر العون على الثبات في الأمر.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ أي: إن الصلاة شاقة وثقيلة إلا على المتواضعين المستكينين الذين صفت نفوسهم لله وذلت لعظمته فإنها سهلة خفيفة، فهم يخشون الله ويرجون ما عنده. والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه ذلًّا وافتقاراً، وإيماناً به وبلقائه، ولهذا قال:

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ أي: يعتقدون اعتقاداً جازماً لا يخالجه شك، ويستيقنون أنهم سيلقون ربهم يوم البعث، فيحاسبهم على أعمالهم.

﴿وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي: وأنهم إليه راجعون يوم القيامة للحساب والجزاء، فهذا الذي خفف عليهم العبادات، وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونفس عنهم الكربات.

* ثم ذكَّر تعالى بني إسرائيل سالف نعمه وآلائه العديدة إلى آبائهم وأسلافهم، مرة أخرى، توكيداً للحجة عليهم وتحذيراً لهم، فقال:

﴿٤٧﴾ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: يا ذرية يعقوب تذكروا نعمي الكثيرة عليكم واشكروا لي عليها بطاعتي.

﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: وتذكروا أني فضلت آباءكم على عالمي زمانهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب كالتوراة والإنجيل، وجعلهم سادة وملوكاً، وتفضيل الآباء شرف للأبناء.

* لما ذكَّر تعالى بني إسرائيل بنعمه، عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة، وعظاً لهم وتحذيراً وحثّاً، فقال تعالى:

﴿٤٨﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ أي: خافوا واخشوا عقاب يوم القيامة، ذلك اليوم الرهيب الذي لا تغني فيه نفس عن أخرى شيئاً من الحقوق ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين، وإنما ينفع الإنسان عمله الذي قدمه.

﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾ أي: لا تقبل شفاعة في نفس كافرة بالله أبداً.

﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ أي: لا يقبل منها فداء، ولو جاءت بملء الأرض ذهباً تفتدي به، ما تقبل منها.

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي: ليس

الجُزْءُ الأَوَّل سُورَةُ البَقَرَة

وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ
يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ
مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ
وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ
أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ
﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾
وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ
ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ
خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ
جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم
مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ
ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ
مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾

٨

لهم من يمنعهم وينجيهم من عذاب الله في ذلك اليوم، فنفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه، فقوله: ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ هذا في تحصيل المنافع، ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ هذا في دفع المضار.

* لما ذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل إجمالاً، بين بعد ذلك أقسام تلك النعم على سبيل التفصيل، ليكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى الشكر، فكأنه قال: اذكروا نعمتي، واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون، واذكروا إذ فرقنا بكم البحر.. إلى آخره، وكل هذه النعم تستدعي شكر المنعم -جل وعلا- لا كفرانه وعصيانه، قال تعالى:

﴿٤٩﴾، ﴿٥٠﴾ ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ

نِسَآءَكُمْۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۞ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾.

﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم حين أنقذنا آباءكم من بطش فرعون وأشياعه العتاة، والخطاب للأبناء المعاصرين للنبي ﷺ، لأن النعمة على الآباء نعمة على الأبناء.

﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: وهم قبل ذلك يولونكم ويذيقونكم أشد العذاب وأفظعه، بأن كانوا:

﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ أي: يذبحون الذكور من الأولاد خشية نموكم، ويستبقون الإناث على قيد الحياة للخدمة والامتهان، وإنما أمر بذبح الأبناء واستحياء البنات؛ لأن الكهنة أخبروا فرعون أنه سيولد من بني إسرائيل غلام يكون هلاكه على يده.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ أي: فيما ذكر من العذاب المهين من الذبح والاستحياء، محنة واختبار عظيم لكم من جهته تعالى بتسليطهم عليكم ليتميز البر من الفاجر، وكذلك نعمة الإنجاء إحسان من ربكم يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره.

﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ أي: اذكروا أيضاً حين خرج فرعون وقومه في طلبكم، ففلقنا لكم البحر وفصلناه حتى ظهرت لكم الأرض اليابسة فمشيتم عليها.

﴿فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: نجيناكم من الغرق وأغرقنا فرعون وقومه.

﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ أي: وأنتم تشاهدون ذلك ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم، ولتكون آية باهرة من آيات الله في إنجاء أوليائه وإهلاك أعدائه، ولما كان الغرق من أعسر الموتات وأعظمها شدة، جعله الله تعالى نكالاً لمن ادعى الربوبية، وعلى قدر الذنب يكون العقاب، ويناسب دعوى الربوبية والاعتلاء، انحطاط المدعي وتغييبه في قعر الماء.

* ثم ذكر تعالى منته عليهم بوعده لموسى أربعين ليلة لينزل عليهم التوراة المتضمنة للنعم العظيمة والمصالح العميمة، قال تعالى:

٥١-٥٣ ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ۞ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۞ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ أي: واذكروا نعمتنا عليكم: حين وعدنا موسى أن نعطيه التوراة بعد أربعين ليلة وكان ذلك بعد نجاتكم وإهلاك فرعون، وخص الليل بالذكر إشارة إلى أن ألذ المناجاة فيه.

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ أي: فإذا بكم مدة غيابه عبدتم العجل الذي صنعتموه بأيديكم معبوداً لكم من دون الله.

﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: بعد غيبة موسى حين ذهب لميقات ربه.

﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: معتدون في تلك العبادة، ظالمون لأنفسكم قد قامت عليكم الحجة، فهو أعظم جرماً وأكبر إثماً، ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى بأن يقتل بعضكم بعضاً.

﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: ثم تجاوزنا عن تلك الجريمة الشنيعة والفعلة المنكرة من بعد عبادتكم العجل، وقبلنا توبتكم بعد عودة موسى.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي: لكي تشكروا نعمة الله عليكم، وتستمروا بعد ذلك على الطاعة، ولا تتمادوا في الكفر والطغيان.

﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ﴾ أي: واذكروا نعمتنا عليكم حين أعطينا موسى التوراة، الفارقة بين الحق والباطل، وأيدناه بالمعجزات.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ أي: لكي تهتدوا بالتدبر فيها والعمل بما فيها من أحكام.

* ثم بين تعالى صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل، فقال:

٥٤ ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ أي: واذكروا نعمتنا عليكم حين قال موسى لقومه بعدما رجع من الموعد الذي وعده ربه فرآهم قد عبدوا العجل: يا قوم لقد ظلمتم أنفسكم.

﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: بعبادتكم للعجل.

﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي: توبوا إلى من خلقكم خلقاً بريئاً من العيب والنقصان. قالوا: كيف نتوب؟ قال:

﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: ليقتل البريء منكم المجرم، وإنما عبر بقتل النفس لأن المؤمن أخو المؤمن، فكأنه هو نفسه.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: توبتكم بقتل أنفسكم.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ أي: رضاكم بحكم الله ونزولكم عند أمره خير لكم عند الخالق العظيم.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ففعلتم ما أمرتم به، فمنَّ عليكم بقبول توبتكم.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: عظيم المغفرة، واسع التوبة لمن تاب من عباده، الرحيم بهم، يعفو الحوبة وإن كبرت.

* بعد أن ذكّرهم تعالى بالنعم بيّن لوناً من ألوان طغيانهم وجحودهم، وتبديلهم لأوامر الله، وهم مع الكفر والعصيان، يعاملون باللطف والإحسان، فإنه لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل أمر الله تعالى موسى أن يختار من قومه رجالاً يعتذرون إليه من عبادتهم العجل، فاختار موسى سبعين من خيارهم، وقال لهم: صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ففعلوا، وخرج بهم إلى طور سيناء، فقالوا لموسى: اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً، فسمعوا الله يكلم موسى يأمره وينهاه، فلما انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم، قال تعالى:

(٥٥)، (٥٦) ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: اذكروا يا بني إسرائيل حين خرجتم مع موسى لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل فقلتم:

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: لن نصدق لك بأن ما نسمعه كلام الله حتى نرى الله معاينة، فعاقبهم الله بسبب ذنوبهم وجرأتهم على الله

الجزء الأول | سورة البقرة

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ
رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ
خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ * وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ
مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ
وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا
وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ
أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ
ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

٩

بأن أرسل الله عليهم ناراً من السماء فأحرقهم.

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي: ينظر بعضكم لبعض ما حل بكم، ثم لما ماتوا قام موسى يبكي ويدعو الله، ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم، وما زال يدعو ربه حتى أحياهم الله. قال تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ أي: أحييناكم بعد أن مكثتم ميتين يوماً وليلة، فقاموا وعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون. وكان ذلك الإحياء من الله ﷻ:

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لتشكروا الله على إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت. والشكر هو القيام بطاعة المُنعم، ويكون بالقلب وباللسان وبالجوارح.

* لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم، ومن ذلك نعمته عليهم وهم في التيه لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتالهم، وقالوا لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: ٢٤] فعوقبوا على ذلك بالضياع أربعين سنة يتيهون في الأرض، قال تعالى:

(٥٧) ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ﴾ أي: واذكروا نعمتنا عليكم حين كنتم تتيهون في الأرض وسترناكم بالسحاب من حر الشمس وجعلناه عليكم كالظلة.

﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ أي: أنعمنا عليكم بأنواع من الطعام والشراب من غير كد ولا تعب. والمن كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، والسلوى: طير يشبه السماني لذيذ الطعم.

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ أي: وقلنا لهم كلوا من لذائذ نعم الله وطيباته، وهذه منّة ثالثة؛ لأن الإنسان ربما يتيسر له الطعام والشراب، ولكن لا يتمكن من أكله وشربه لعلة فيه، فلا يحصل به كمال المنّة، ومع هذا العطاء لم يشكروا هذه النعم، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أي: إنهم كفروا هذه النعم الجليلة، وما ظلمونا ولكن ظلموا أنفسهم، لأن وبال العصيان راجع عليهم.

* ثم ذكر تعالى نعمة أخرى عليهم، حيث أمرهم بدخول بيت المقدس تكون لهم عزّاً ووطناً وسكناً، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد، قال تعالى:

(٥٨)، (٥٩) ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ أي: واذكروا أيضاً نعمتنا عليكم حين قلنا لكم بعد خروجكم من التيه، ادخلوا بيت المقدس.

﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾ أي: كلوا من طعام القرية وثمارها، في أي مكان أكلاً واسعاً هنيئاً.

﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ وادخلوا باب القرية ساجدين لله شكراً على خلاصكم من التيه، ذليلين خاضعين له.

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ أمرهم بأن يقولوا ما يدل على التوبة، وقولوا: يا ربنا حط عنا ذنوبنا وخطايانا، واغفر لنا خطايانا.

﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾ أي: نمحو ذنوبكم ونكفر سيئاتكم ونسترها عليكم بسؤالكم ذلك.

﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: نزيد من أحسن إحساناً، بالثواب العظيم، والأجر الجزيل فضلاً منا وإحساناً على إحسانهم المتقدم.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: فغير الظالمون الجائرون من بني إسرائيل أمر الله، فقالوا:

﴿قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ فقالوا بدل حطة، حبة في حنطة، استهانة بأمر الله واستهزاء، وإذا بدلوا القول مع خفته فتبديلهم للفعل من باب أولى وأحرى، ولهذا دخلوا يزحفون على أدبارهم، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم، قال:

﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ أي: فأنزل الله عليهم طاعوناً وبلاء، بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله، روي أنه مات بالطاعون في ساعة واحدة منهم سبعون ألفاً.

* لا تزال الآيات تعدد النعم على بني إسرائيل، وهذه إحدى النعم العظيمة عليهم حين كانوا في التيه، وعطشوا عطشاً شديداً كادوا يهلكون معه، فدعا موسى ربه أن يغيثهم فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه الحجر، فتفجرت منه عيون بقدر قبائلهم، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة فجرى لكل منهم جدول خاص،

يأخذون منه حاجتهم لا يشاركهم فيه غيرهم، وكان موضوع السقيا آية باهرة ومعجزة ظاهرة لموسى عليه السلام ومع ذلك كفروا وجحدوا، قال تعالى:

﴿٦٠﴾ ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ أي: اذكروا يا بني إسرائيل حين دعانا موسى وتضرع إلينا أن نسقي السقيا قومه وقد عطشوا في التيه.

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ فأمرناه أن اضرب أيّ حجر كان، تتفجر بقدرتنا العيون منه.

﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي: فضرب فتدفق الماء منه بقوة، وخرجت منه اثنتا عشرة عيناً بعدد قبائلهم آية من آيات الله ومعجزة من معجزاته.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي: علمت كل قبيلة مكان شربها لئلا يتنازعوا ويزاحم بعضهم بعضاً، بل يشربون متهنئين لا متكدرين، ولهذا قال:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: وقلنا لهم: كلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء، من غير كد منكم ولا تعب، بل هو من خالص إنعام الله.

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: ولا تطغوا في الأرض بأنواع البغي والفساد فيسلبكم الله تعالى نعمته.

* ثم ذكر تعالى بعد إنزال النعم والخيرات عليهم كيف ضجروا وتبرموا، وطلبوا استبدال الطعام الطيب النافع بالأطعمة الدنيئة، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل حين أنزلنا عليكم الطعام الحلو، والطير الشهي، فقلتم لنبيكم موسى وأنتم في الصحراء تأكلون من المن والسلوى على وجه الاحتقار لنعم الله.

﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ أي: فبطرتم النعمة كعادتكم، وأصابكم الضيق والملل على نوع واحد من الطعام وهو المن والسلوى.

﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: ادع الله وسله أن يرزقنا غير ذلك الطعام، فقد سئمنا المن والسلوى وكرهناه، ونريد ما تخرجه الأرض من الحبوب والبقول.

﴿مِنۢ بَقْلِهَا﴾ من خضرتها كالنعناع والكرفس والكراث.

﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ يعني القثة التي تشبه الخيار.

﴿وَفُومِهَا﴾ أي: الثوم.

﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ أي: العدس والبصل المعروفين.

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ أي: قال لهم موسى منكراً عليهم وموبخاً: ويحكم أتستبدلون الخسيس بالنفيس والحل الذي لا تطرقه الشبهة، وعدم الكلفة بالسعي له والتعب في تحصيله وتفضلون البصل والبقل والثوم على المن والسلوى؟ هذا غير لائق بكم.

﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: ادخلوا من هذه البادية إلى أي مصر من الأمصار وبلد من البلدان أيّاً كان، لتجدوا فيه مثل هذه الأشياء؛ لأنها تكون في الأمصار لا في التيه، وأما طعامكم الذي منّ الله به عليكم، فهو خير الأطعمة وأشرفها فكيف تطلبونه بدلاً.

* ولما كان الذي منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله وأنهم يقدمون اختيارهم في كل موطن على اختيار الله، ويؤثرون شهواتهم على ما اختاره الله لهم. عاقبهم الله ﷻ:

﴿٦١﴾ ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: لزمهم الذل والهوان وفقر النفوس، وجعل عليهم الصغار والخزي الأبدي الذي لا يفارقهم مدى الحياة، فليست أنفسهم عزيزة، ولا لهم همم عالية، بل أنفسهم أنفس مهينة، وهممهم أردأ الهمم، وهذا الخبر الذي أخبرنا الله به

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ
ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا
مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم
بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم
مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ
أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ
﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا
تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ
يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

هو معلوم في جميع الأزمنة، فإن اليهود أقماهم الله أذل الفرق وأشدهم مسكنة وأكثرهم تصاغراً، لم ينتظم لهم جمع ولا خفقت على رؤوسهم راية، ولا تثبت لهم ولاية، بل ما زالوا عبيد العصى في كل زمن، وطروقة كل فحل في كل عصر، ومن تمسك منهم بنصيب من المال وإن بلغ في الكثرة أي مبلغ، فهو متظاهر بالفقر متردّ بأثواب المسكنة ليدفع عن نفسه أطماع الطامعين في ماله، إما بحق كتوفير ما عليه من الجزية، أو بباطل كما يفعله كثير من الظلمة من التجرؤ على الله بظلم من لا يستطيع الدفع عن نفسه.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: انصرفوا ورجعوا بالغضب والسخط الشديد من الله.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي استحقوا به غضبه، وما نالوه من الذل والهوان والسخط والغضب بسبب ما اقترفوه من الجرائم الشنيعة.

﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بسبب كفرهم بآيات الله جحوداً واستكباراً، وقتلهم رسل الله ظلماً وعدواناً.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ أي: بسبب عصيانهم وطغيانهم وتمردهم على أحكام الله، وبما كانوا يعتدون على عباد الله، فإن المعاصي يجر بعضها بعضاً، فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير، ثم ينشأ عنه أنواع البدع والكفر وغير ذلك.

* ثم دعا تعالى أصحاب الملل والنحل: المؤمنين، واليهود، والنصارى، والصابئين إلى الإيمان الصادق وإخلاص العمل لله وساقه بصيغة الخبر، فقال:

﴿٦٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ المؤمنون أتباع محمد الذين صدقوا بالله ورسله وعملوا بشرعه.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ والذين كانوا قبل بعثة محمد ﷺ من الأمم السالفة، كاليهود أتباع موسى.

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ نسبة إلى الناصرة قرية بفلسطين منها المسيح ‹عليه السلام›، وقيل سموا بذلك لأنهم نصروا عيسى واتبعوه.

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾ أي: من آمن من هذه الطوائف إيماناً صادقاً فصدق الله، وصدق رسله، وأيقن بالآخرة والبعث والجزاء.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: عمل بطاعة الله في دار الدنيا.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم ثوابهم عند الله لا يضيع منه مثقال ذرة.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: ليس على هؤلاء المؤمنين خوف في الآخرة، حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب، وأما بعد بعثة محمد ﷺ خاتماً للنبيين والمرسلين إلى الناس كافة، فلا يقبل الله من أحد ديناً غير ما جاء به، وهو الإسلام.

* لما ذكرهم تعالى بالنعم الجليلة العظيمة، أردف ذلك ببيان ما حل بهم من نقم، جزاء كفرهم وعصيانهم وتمردهم على أوامره، فقد كفروا النعمة، ونقضوا الميثاق، واعتدوا

في السبت فمسخهم الله إلى قردة، وهكذا شأن كل أمة عتت عن أمر ربها وعصت رسله، قال تعالى يوبخ بني إسرائيل بما فعل سلفهم:

﴿٦٣﴾، ﴿٦٤﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا منكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة من الإيمان بالله وإفراده بالعبادة.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي: نتقناه حتى أصبح كالظلة فوقكم وقلنا لكم:

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي: اعملوا بما في التوراة بجد وعزيمة وصبر على أوامر الله.

﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: احفظوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه، لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، أو رجاء منكم أن تكونوا من فريق المتقين، فبعد هذا التأكيد البليغ.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: خالفتم وأعرضتم عن الميثاق بعد أخذه كشأنكم دائماً؛ وكان ذلك موجباً لأن يحل بكم أعظم العقوبات.

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بأن تداركم بلطفه ورحمته حتى أظهرتم التوبة وقبولها.

﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بالعفو عن الزلة والخطايا.

﴿لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لكنتم من الهالكين في الدنيا والآخرة بنقضكم ذلك الميثاق.

﴿٦٥﴾، ﴿٦٦﴾ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي: عرفتم يا معشر اليهود ما فعلنا بمن عصى أمرنا حين خالفوا واصطادوا يوم السبت وقد نهيناهم عن ذلك.

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي: فلما خالفوا مسخهم الله قردة منبوذين مبعدين صاغرين، بعد أن كانوا بشراً.

﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي: المسخة، وهذه العقوبة.

﴿نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي: عقوبة زاجرة لمن حضرها من الأمم، ولمن يأتي بعدها.

﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: جعلنا مسخهم قردة عبرة لمن شهدها وعاينها، وعبرة لمن جاء بعدها ولم يشاهدها.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: عظة وذكرى لكل عبد صالح متق لله ﷻ ليعلم أنه على الحق، فيثبت عليه.

* لما ذكر تعالى قبائح اليهود وجرائمهم، من نقض المواثيق، واعتدائهم في السبت، وتمردهم على الله ﷻ في تطبيق شريعته المنزلة، أعقبه بذكر نوع آخر من مساوئهم ألا وهو مخالفتهم للأنبياء وتكذيبهم لهم، وعدم مسارعتهم لامتثال الأوامر التي يوحيها الله إليهم، ثم كثرة اللجاج والعناد للرسل صلوات الله عليهم ـ، وجفاؤهم في مخاطبة نبيهم الكريم موسى عليه السلام، إلى آخر ما هنالك من قبائحهم ومساوئهم، قال تعالى:

﴿٦٧﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أي: اذكروا يا بني إسرائيل جناية أسلافكم، وما جرى لكم مع موسى، حين قتلتم قتيلاً وادارأتم فيه، وتدافعتم واختلفتم في قاتله، حتى تفاقم الأمر بينكم وكاد يحدث بينكم شر كبير، وقال لكم نبيكم موسى إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة؛ وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض.

وإنما أمروا -والله أعلم- بذبح البقرة دون غيرها لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهون عندهم ما يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته.

وقال ابن القيم: ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أنَّ هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث

قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ
تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ
ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ٧١ وَإِذْ
قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ
٧٢ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ
ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٧٣ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
٧٤ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ٧٥ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا
خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ
عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٧٦

١١

والسقي لا يصلح أن يكون إلهاً معبوداً من دون الله تعالى، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل.

﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي: فكان جوابكم لنبيكم مستكبرين أن قلتم: أتهزأ بنا يا موسى وإنما قالوا ذلك لبعد ما بين الأمرين في الظاهر، ولم يدروا ما الحكمة فيه.

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٦٧﴾ أي: فقال نبي الله موسى: ألتجئ إلى الله أن أكون في زمرة المستهزئين الجاهلين لأن الهزء في مثل هذا من باب الجهل والسفه.

۞ فلما علموا أن ما قال لهم موسى حق وصدق بدأوا في مطالب عجيبة وغريبة على سبيل التعنت والتكبر:

٦٨-٧١ ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ۞ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۞ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۞ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي: ادع لنا ربك يوضح لنا صفة هذه البقرة وما سنها وهل هي كبيرة أو صغيرة؟

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أجابهم موسى: إن الله يقول لكم: صفتها أن لا تكون كبيرة مسنة هرمة، ولا صغيرة فتية.

﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وسط بين الكبيرة والصغيرة.

﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ تجديد للأمر، وزجر لهم عن العنت، أي: فسارعوا إلى امتثال أمر ربكم من ذبح البقرة، ولا تعنتوا ولا تشددوا فيشدد الله عليكم.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ عادوا إلى جدالهم، وقالوا: ما هو لونها أبيض، أم أسود، أم غير ذلك؟

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ قال موسى إنه يقول: إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة، حسن منظرها تسر كل من رآها. والسرور: لذة في القلب عند حصول نفع أو توقعه.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ لم ينزعوا عن غوايتهم، بل أعادوا السؤال عن حال البقرة بعد أن عرفوا سنها ولونها ليزدادوا بياناً لوصفها، ثم اعتذروا بأن البقر الموصوف بكونه عواناً وبالصفرة الفاقعة كثير فقالوا:

﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ أي: لكثرة البقر وتشابه وصفها التبس الأمر علينا فلم ندر ما البقرة المأمور بذبحها.

﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ أي: سنهتدي إلى معرفتها إن شاء الله إذا أخبرنا، ولو لم يقولوا ذلك لم يهتدوا أبداً كما ثبت في الحديث.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ﴾ قال لهم موسى: إن الله يقول إن البقرة ليست مسخرة لحراثة الأرض، ولا لسقاية الزرع بل هي مكرمة.

﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: حسنة، سليمة من العيوب، ليس فيها لون آخر يخالف لونها، فهي صفراء كلها.

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ الآن بينتها لنا بياناً شافياً لا غموض فيه ولا لبس، قال تعالى إخباراً عنهم.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ فاضطروا إلى ذبحها بعد طول المراوغة، وقد قاربوا ألا يفعلوا ذلك لعنادهم، وفي هذا ذم لهم، وهكذا شددوا فشدد الله عليهم.

* ثم أخبر تعالى عن سبب أمرهم بذبح البقرة، وعما شهدوه من آيات الله الباهرة، فقال:

(٧٢)، (٧٣) ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ اذكروا يا بني إسرائيل حين قتلتم نفساً، وتخاصمتم وتدافعتم بشأنها، وأصبح كل فريق يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره.

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: مظهر ما تخفون من قتل القتيل.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي: اضربوا القتيل بشيء من البقرة؛ فإن الله سيبعثه حياً، ويخبركم عن قاتله، فضربوه ببعضها، فأحياه الله وأخبر بقاتله.

﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ كما أحيا هذا القتيل أمام أبصاركم بقدرته، كذلك هو يحيي الموتى ويبعثهم من قبورهم.

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ويريكم يا بني إسرائيل دلائل قدرته ومعجزاته الباهرة لتتفكروا وتتدبروا، وتعلموا أن الله على كل شيء قدير، فتطيعوا أمره، وتمتنعوا عن معاصيه.

* ثم أخبر تعالى عن جفاء بني إسرائيل وقسوة قلوبهم، وأنهم لم ينتفعوا بذلك، فقال موبخاً لهم:

(٧٤) ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: صلبت قلوبكم وغلظت ويبست وخلت من الإنابة والإذعان يا معشر اليهود؛ فلا يؤثر فيها وعظ ولا تذكير من بعد ما أنعم عليكم بالنعم العظيمة وأراكم المعجزات الباهرة.

﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ بعضها كالحجارة، وبعضها أشد قسوة من الحجارة كالحديد، ثم عذر الله الحجارة ولم يعذر شقي بني آدم، فقال:

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ لأن من الحجارة ما يتسع وينفرج وتنصب منه المياه صباً، فتصير أنهاراً جارية.

الجزء الأول | سورة البقرة

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾
وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ
﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ
أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ
تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا
مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

١٢

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ ومن الحجارة ما يتصدع إشفاقاً من عظمة الله فينبع منه العيون والينابيع.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: ومن الحجارة ما يتفتت ويتردى من رؤوس الجبال من خشية الله، فالحجارة تلين وتخشع، وقلوبكم يا معشر اليهود لا تتأثر ولا تلين.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: إنه تعالى رقيب على أعمالهم لا تخفى عليه خافية، وسيجازيهم عليها يوم القيامة، وفي هذا وعيد وتهديد.

* ولما ذكر تعالى عناد اليهود، وعدم امتثالهم لأوامر الله تعالى، ومجادلتهم للأنبياء الكرام، وعدم الانقياد والإذعان، بدأ تعالى الآيات بتيئيس المسلمين من إيمانهم لأنهم فطروا على

الضلال، وجبلوا على العناد والمكابرة، قاطعاً لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، فقال تعالى:

﴿٧٥﴾-﴿٧٧﴾ ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أترجون يا معشر المؤمنين أن يسلم اليهود ويدخلوا في دينكم، وينقادوا لكم بالطاعة. نزلت في الأنصار كانوا حلفاء لليهود وبينهم جوار ورضاعة، وكانوا يودون لو أسلموا، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ الآية.

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي: والحال أنه قد كان طائفة من أحبارهم وعلمائهم يتلون كتاب الله ويسمعونه بيناً واضحاً جلياً.

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ يغيرون آيات التوراة بالتبديل أو التأويل، من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ إذا اجتمعوا بأصحاب النبي ﷺ، قال المنافقون من اليهود: آمنا بأنكم على الحق، وأن محمداً هو الرسول المبشر به فأظهروا لهم الإيمان قولاً بألسنتهم، ما ليس في قلوبهم.

﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إذا انفرد واختلى بعضهم ببعض، قال بعضهم لبعض، عاتبين منكرين عليهم: أتخبرون أصحاب محمد بما بيّن الله لكم في التوراة من صفة محمد ﷺ.

﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ لتكون الحجة للمؤمنين عليكم في الآخرة في ترك اتباع الرسول مع العلم بصدقه.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفليست لكم عقول تمنعكم من أن تحدثوهم بما يكون لهم فيه حجة عليكم؟ والقائلون ذلك هم اليهود لمن نافق منهم، قال تعالى رداً عليهم وموبخاً:

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: ألا يعلم ويدرك هؤلاء اليهود أن الله يعلم ما يخفون وما يظهرون، وأنه تعالى لا تخفى عليه خافية، فكيف يقولون ذلك ثم يزعمون الإيمان.

* ولما ذكر تعالى العلماء الذين حرفوا وبدلوا، ذكر العوام الذين قلدوهم، ونبه أنهم في الضلال سواء، فقال:

﴿٧٨﴾، ﴿٧٩﴾ ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: ومن اليهود طائفة من الجهلة العوام، الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ليطلعوا على ما في التوراة بأنفسهم ويتحققوا بما فيها من صفات نبي الله ورسوله محمد ﷺ.

﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ أي: وما عندهم من ذلك إلا ما هم عليه من الأكاذيب والظنون الفاسدة التي مناهم بها أحبارهم، من أن الله يعفو عنهم ويرحمهم، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، إلى غير ما هنالك من الأماني الفارغة.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: ما هم على يقين من أمرهم، بل هم مقلدون للآباء تقليد أهل العمى والغباء.

ثم ذكر تعالى صنفاً آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل، فقال تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: هلاك وعذاب لأولئك الذين حرفوا التوراة، وكتبوا تلك الآيات المحرفة بأيديهم.

﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ يقولون لأتباعهم الأميين، هذا الذي تجدونه هو من نصوص التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، مع أنهم كتبوها بأيديهم ونسبوها إلى الله كذباً وزوراً.

﴿لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لينالوا به عرض الدنيا وحطامها الفاني، والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، فقد ظلموا الناس من وجهين: من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق.

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي: فلهم عقوبة مهلكة بسبب كتابتهم هذا الباطل بأيديهم، وويل لهم مما يصيبون مقابل ذلك من المال الحرام كالرشوة وغيرها.

* ثم ذكر ﷻ إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينجون:

(٨٠) ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أي: وقال بنو إسرائيل لن ندخل النار إلا أياماً قلائل، أربعون يوماً عدد أيام عبادة العجل، أو سبعة أيام فقط، فقال الله ﷻ تكذيباً لهم:

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ قل لهم يا محمد على سبيل الإنكار والتوبيخ: هل أعطاكم الله الميثاق والعهد بذلك؟ فإذا كان قد وعدكم بذلك.

﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ لأن الله لا يخلف وعده.

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أم تكذبون على الله فتقولون عليه ما لم يقله، فتجمعون بين جريمة التحريف لكلام الله، والكذب والبهتان عليه -جل وعلا-.

* ثم بين تعالى كذب اليهود، وأبطل مزاعمهم بأن النار لن تمسهم وأنهم لا يخلدون فيها، وذكر حكماً عاماً لكل أحد، يدخل فيه بنو إسرائيل وغيرهم، فقال:

(٨١)، (٨٢) ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي: ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون، بل إن الأمر أنه من عمل سيئة واقترف محرماً.

﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ غمرته من جميع جوانبه، وسدت عليه مسالك النجاة، بأن فعل مثل فعلكم أيها اليهود وهذا لا يكون إلا فيمن أشرك بالله.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: فالنار ملازمة لهم لا يخرجون منها أبداً.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وأما المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعاً بها سنة رسوله، فلا تمسهم النار، بل هم في روضات الجنات يحبرون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: الذين آمنوا وعملوا الصالحات مخلدون في الجنات لا يخرجون منها أبداً.

* لا تزال الآيات الكريمة تعدد جرائم اليهود، فقد نقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم في التوراة، وقتلوا النفس التي حرم الله، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، واعتدوا على إخوانهم في الدين فأخرجوهم من الديار، فاستحقوا اللعنة والخزي والدمار. قال تعالى:

(٨٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا على أسلافكم العهد المؤكد غاية التأكيد في التوراة.

﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بأن تعبدوا الله وحده لا شريك له، وهذا أمر بالتوحيد ونهي عن الشرك، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله على عباده، ثم قال:

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أمرناهم بأن يحسنوا إلى الوالدين إحساناً، وهذا يعم كل إحسان قولي وفعلي مما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين. ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموماً، فقال:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾
ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا
مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ
وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ
فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ
﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ
بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ
ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ
ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا
غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

١٣

﴿وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ **وأن يحسنوا أيضاً إلى الأقرباء، واليتامى الذين مات آباؤهم وهم صغار، والمساكين الذين عجزوا عن الكسب وذلك بصلتهم والقيام بما يحتاجون إليه بحسب الطاقة.**

﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ **وأن تقولوا للناس أطيب الكلام بخفض الجناح، ولين الجانب، مع الكلام الطيب، ومن القول الحسن: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم، والدعوة إلى الله ﷻ وكل ذلك الإحسان يكون امتثالاً لأمر الله ورجاءً لثوابه.**

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ **أي: صلوا وزكوا كما فرض الله عليكم من أداء الركنين العظيمين: الصلاة والزكاة؛ لأنها أعظم العبادات البدنية والمالية، والصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد.**

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ **أي: ثم أعرضتم ونقضتم العهد والميثاق إلا قليلاً منكم ثبتوا عليه وأنتم مستمرون في إعراضكم.**

*** ثم يقول تبارك وتعالى منكراً على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة:**

(٨٤)-(٨٦) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ **واذكروا أيضاً يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد في التوراة بأن لا يقتل بعضكم بعضاً.**

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ **ولا يعتدي بعضكم على بعض بالإخراج من الديار، والإجلاء عن الأوطان.**

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ **ثم اعترفتم بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه، وأنتم تشهدون بلزومه.**

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ **ثم نقضتم أيضاً الميثاق يا معشر اليهود بعد إقراركم به، فقتلتم بعضكم بعضاً، وارتكبتم ما نهيتم عنه من القتل.**

﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ **أي: كما طردتموهم من ديارهم من غير التفات إلى العهد الوثيق.**

﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ **تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم بغياً وعدواناً.**

﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ **إذا وقعوا في الأسر فاديتموهم، ودفعتم المال لتخليصهم من الأسر.**

﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ **أي: فكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي عدوهم؟**

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ **أفتؤمنون ببعض أحكام التوراة وتكفرون ببعض؟ والغرض التوبيخ لأنهم جمعوا بين الكفر والإيمان. والكفر ببعض**

آيات الله كفر بالكتاب كله، ولهذا عقب تعالى ذلك بقوله:

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ما عقوبة من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض إلا ذل وهوان، ومقت وغضب في الدنيا، وقد وقع ذلك فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم، فقتل من قتل، وسبى من سبى منهم، وأجلى من أجلى.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: وهم صائرون في الآخرة إلى عذاب أشد منه؛ لأنه عذاب خالد لا ينقضي ولا ينتهي.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وفيه وعيد شديد لمن عصى أوامر الله.

ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعض، فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أولئك الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة هم الذين استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة، بمعنى اختاروها وآثروها على الآخرة.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يفتر عنهم العذاب ساعة واحدة بل هو باق على شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات، وليس لهم ناصر ينصرهم، ولا مجير ينقذهم من عذاب الله الأليم.

* لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل، وفي هذه الآيات الكريمة تذكير لهم بضرب من النعم التي أمدهم الله بها، ثم قابلوها بالكفر والإجرام، كعادتهم في مقابلة الإحسان بالإساءة، والنعمة بالكفران والجحود، قال تعالى:

(٨٧) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

الجُزْءُ الأَوَّلُ سُورَةُ البَقَرَةِ

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ
وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا
جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
(٨٩) بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ
فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ
(٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ
عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا
مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ (٩١) ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ
ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ (٩٢) وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ
مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا
يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣)

١٤

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ أي: ولقد أعطينا موسى التوراة، وأتبعنا على أثره الكثير من الرسل من بني إسرائيل وأرسلناهم.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وأعطينا عيسى ابن مريم الآيات البينات والمعجزات الواضحات الدالة على نبوته، وشددنا أزره وقويناه بجبريل عليه السلام.

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ أي: أفكلما جاءكم يا بني إسرائيل رسول بما لا يوافق هواكم.

﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ تكبرتم عن اتباعهم، فطائفة منهم كذبتموهم، وطائفة قتلتموهم، فقدمتم الهوى على الهدى، وآثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها توبيخ وتشديد عليهم.

* ثم أخبر تعالى عن اليهود المعاصرين للنبي ﷺ وبين ضلالهم في اقتدائهم بالأسلاف، فقال حكاية عنهم:

(٨٨) ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: وقال بنو إسرائيل لنبي الله ورسوله محمد ﷺ، قلوبنا في أكنة لا تفقه ولا تعي ما تقوله، والغرض إقناعه عليه السلام من عدم إيمانهم واعتذارهم عنه، قال تعالى رداً عليهم:

﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: ليس الأمر كما ادعوا؛ لأن قلوبهم

خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق، لكن قلوبهم ملعونة، مطبوع عليها، طردت من رحمة الله وأبعدت بسبب كفرهم وضلالهم وجحودهم وزيغهم.

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: فقليل من يؤمن منهم، أو يؤمنون إيماناً قليلاً، وهو إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض الآخر وهذا لا ينفعهم.

* ثم ذكر حالهم بعد نزول القرآن العظيم، فقال:

(٨٩) ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وحين جاء اليهود القرآن العظيم الذي أنزل على خاتم المرسلين، مصدقاً لما في التوراة، جحدوه، وأنكروا نبوة محمد ﷺ.

﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: وقد كانوا قبل مجيئه يستنصرون به على أعدائهم مشركي قريش، ويقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان، الذي نجد نعته في التوراة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ فلما بعث محمد ﷺ الذي عرفوه حق المعرفة؛ كفروا برسالته وكذبوه.

﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لعنة الله على اليهود الذين كفروا بخاتم المرسلين.

* ثم ذمهم الله ﷻ على كفرهم وعنادهم، فقال:

(٩٠) ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: قبح ما اختاره بنو إسرائيل لأنفسهم.

﴿أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: استبدلوا الكفر بالإيمان.

﴿بَغْيًا﴾ حسداً، وطلباً لما ليس لهم.

﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ﴾ أي: حسداً منهم لأجل أن ينزل الله وحياً من فضله على من يشاء، ويصطفيه من خلقه، وهو ما أنزل الله من فضله من القرآن على نبي الله ورسوله محمد ﷺ.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ﴾ رجعوا بغضب من الله زيادة على سابق غضبه عليهم بسبب جحودهم بالنبي ﷺ، وكذلك بسبب تحريفهم التوراة.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ولهم عذاب شديد مع الإهانة والإذلال؛ لأن كفرهم بسبب التكبر والحسد، فقوبلوا بالإهانة والصغار.

(٩١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: وإذا قال بعض المسلمين لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب، آمنوا بما أنزل الله من القرآن وصدقوه واتبعوه.

﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ استكبروا واعتدوا، وقالوا: يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: يكفرون بالقرآن مع أنه هو الحق موافقاً لما معهم من كلام الله.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قل لهم يا محمد، إذا كان إيمانكم بما في التوراة صحيحاً، فلم كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل إذ كنتم فعلاً مؤمنين؟

* ثم ذكر تعالى طائفة أخرى من قبائح وجرائم اليهود، فقد نقضوا الميثاق حتى رفع جبل الطور عليهم وأمروا أن يأخذوا بما في التوراة، فأظهروا القبول والطاعة ثم عادوا إلى الكفر والعصيان، فعبدوا العجل من دون الله، وزعموا أنهم أحباب الله، وأن الجنة خالصة لهم من دون الناس لا يدخلها أحد سواهم، وعادوا الملائكة الأطهار وعلى رأسهم جبريل عليه السلام، وكفروا بالأنبياء والرسل، وهكذا شأنهم في سائر العصور والدهور، قال تعالى:

(٩٢)، (٩٣) ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن
دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن
يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ
يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ
ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن
كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ
ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ
وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ
إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾
أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ
لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

١٥

مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ **أي: بالحجج الباهرات والمعجزات الواضحات الدالة على صدقه، كالطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، وغير ذلك مما ذكره الله في القرآن العظيم.**

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ **ومع تلك الآيات الباهرة عبدتم العجل من بعد ذهاب موسى إلى الطور، وأنتم ظالمون في هذا الصنيع، متجاوزون حدود الله.**

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ **أي: اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة، ورفعنا فوق رؤوسكم جبل الطور قائلين:**

﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ **أي: بعزم وحزم وإلا طرحنا الجبل فوقكم وأسقطناه عليكم.**

﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ **سماع قبول وطاعة واستجابة.**

﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ **قال اليهود: سمعنا قولك، وعصينا أمرك.**

﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ **وذلك؛ لأن عبادة العجل قد امتزجت بقلوبكم، وخالط حبه قلوبكم، وتغلغل في سويدائها، بسبب تماديكم في الكفر.**

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ **أي: قل لهم أيها الرسول على سبيل التهكم بهم؛ قبح ما يأمركم به إيمانكم من الكفر والضلال، إن كنتم تزعمون الإيمان؛ فبئس هذا العمل والصنيع، والمعنى: لستم بمؤمنين؛ لأن الإيمان لا يأمر بقتل الأنبياء ولا بعبادة العجل.**

*** ثم رد الله ﷻ على دعاواهم الباطلة، مثل قولهم:** ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ **وقوله:** ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] **فكذبهم الله ﷻ وألزمهم الحجة، فقال تعالى:**

﴿٩٤﴾-﴿٩٦﴾ ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ **قل يا محمد لليهود الذين يدعون أن الجنة خاصة بهم، وذلك على وجه تصحيح دعواهم؛ لا يشاركهم في نعيمها أحد لزعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس، وأنهم أبناؤه وأحباؤه، إن كان الأمر كذلك:**

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ **ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ، وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ. قال تعالى راداً عليهم تلك الدعوى الكاذبة:**

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ **أي: لن يتمنوا الموت أبداً ماعاشوا، لما يعرفون من صدق النبي ﷺ، وبسبب ما اجترحوه من**

وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ
سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ
ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ
وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا
تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ
وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ
وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ
ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ
أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ
لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٣
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا
وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤ مَّا يَوَدُّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ
أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ
بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥

١٦

الذنوب والآثام، وهذا من المعجزات؛ لأنه إخبار بالغيب وكان كما أخبر به.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك، وفي ذلك تهديد لهم. ثم ذكر شدة محبتهم للدنيا، فقال:**

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ﴾ **أي: ولتعلمن أيها الرسول أن اليهود أشد الناس رغبة في طول الحياة، أياً كانت هذه الحياة من الذلة والمهانة، بل تزيد رغبتهم في طول الحياة على رغبات المشركين أنفسهم، وذلك لعلمهم بأنهم صائرون إلى النار لإجرامهم.**

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ **يتمنى الواحد من اليهود أن يعيش ألف سنة، وفي هذا بيان لزيادة حرصهم.**

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ﴾ **أي: وما طول العمر مهما عُمِّر بمبعده ومنجيه من عذاب الله.**

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ **مطلع على أعمالهم فيجازيهم عليها، وهذا تهديد لهم على سوء أعمالهم.**

*** ثم أمر ﷻ محمداً ﷺ بالرد على اليهود حين قالوا: إن جبريل هو عدونا من الملائكة.**

(٩٧)، (٩٨) ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ * مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾.

﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ﴾ **قل لهم -يا محمد-: من كان عدواً لجبريل فإنه عدو لله؛ لأن الله جعله واسطة بينه وبين رسله، فمن عاداه فقد عادى الله، روي أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي، فمن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: جبريل، قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال، ذاك عدونا؛ لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك فأنزل الله:** ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ...﴾ **الآية.**

﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ **أي: فإن جبريل الأمين نزل هذا القرآن على قلبك يا محمد بأمر الله تعالى، وإنما خص الله التنزيل على القلب؛ لأن القلب هو محل الوعي.**

﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ **أي: موافقاً لما سبقه من الكتب السماوية، وفيه الهداية الكاملة، والبشارة السارة للمؤمنين بخيري الدنيا والآخرة.**

﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ **أي من عادى الله وملائكته ورسله، وعادى على الوجه الأخص جبريل وميكائيل فهو كافر عدو لله، وخصهما بالذكر من جملة الملائكة تفضيلاً وتخصيصاً.**

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ **لأن الله يبغض من عادى أحداً من أوليائه، ومن عاداهم عاداه الله، ففيه الوعيد والتهديد الشديد.**

*** لما ذكر تعالى ما جُبل عليه اليهود، من خبث السريرة ونقض العهود، والتكذيب لرسل الله ومعاداة أوليائه، ثم انتهى بهم الحال إلى عداوة السفير بين الله وبين خلقه وهو جبريل الأمين عليه السلام، أعقب ذلك ببيان أن من عادة اليهود عدم الوفاء**

بالعقود، وتكذيب الرسل، واتباع طرق الشعوذة والضلال، وعدم الأخذ بما انطوى عليه كتاب الله من التبشير ببعثة السراج المنير، وإلزامهم الإيمان به واتباعه، فنبذوا الكتاب وراء ظهورهم، واتبعوا ما ألقت إليهم الشياطين من كتب السحر والشعوذة، ونسبوها إلى سليمان عليه السلام وهو منها بريء، وهكذا حالهم مع جميع الرسل الكرام، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ حيث سلكوا معه هذه الطريقة، قال تعالى:

(٩٩)-(١٠٣) ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ * أَوَ كُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ * وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ * وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ هذه الآية فيها تأكيد من ثلاثة وجوه: اللام، وقد، والقسم المقدر، أي: والله لقد أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحات دالات على نبوتك وصدقك، تحصل بها الهداية لمن استهدى، وإقامة الحجة على من عاند، ومن تلك الآيات ما حواه القرآن من خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل.

﴿وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ وما يجحد بهذه الآيات الواضحة البينة ويكذب بها إلا الخارجون عن الطاعة، الماردون على الكفر.

﴿أَوَ كُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ وما أقبح حال بني إسرائيل في نقضهم للعهود، فكلما عاهدوا عهداً طرح ذلك العهد فريق منهم، ونقضوه، وهذا فيه التعجب من كثرة معاهداتهم، وعدم صبرهم على الوفاء بها.

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بل أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق، لذلك ينقضون العهود والمواثيق.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ولما جاءهم هذا الرسول الكريم وهو محمد ﷺ بالكتاب العظيم.

﴿مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ من التوراة وموافقاً لها في أصول الدين ومقرراً لنبوة موسى عليه السلام.

﴿نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ أي: طرح أحبارهم وعلماؤهم التوراة وأعرضوا عنها بالكلية؛ لأنها تدل على نبوة محمد ﷺ فجحدوا وأصروا على إنكار نبوته.

﴿كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ كأنهم لا يعلمون من دلائل نبوته شيئاً.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ﴾ واتبعوا طرق السحر والشعوذة التي كانت تحدثهم بها الشياطين في عهد ملك سليمان.

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ﴾ أي: وما كان سليمان ساحراً ولا كفر، وفي هذا تكذيب للشياطين، ودفع لما بهتت به سليمان من اعتقاد السحر والعمل به، وقد آتاه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وسخّر له الريح، وسخر له الشياطين.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ ولكن الشياطين هم الذين كفروا باستعمال السحر وتدوينه وتعليمه الناس حتى فشا أمره بين الناس وأفسدوا دينهم.

لما ذكر رسول الله ﷺ سليمان في المرسلين، قال بعض أحبار اليهود: ألا تعجبون لمحمد يزعم أن ابن داود كان نبياً، والله ما كان إلا ساحراً؛ فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ﴾ وكما اتبع رؤساء

اليهود السحر؛ كذلك اتبعوا ما أنزل على الملكين وهما هاروت وماروت بمملكة بابل بأرض الكوفة، وقد أنزلهما الله ابتلاءً وامتحاناً للناس.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: وما يعلم الملكان أحداً من الناس السحر حتى يبذلا له النصيحة، ويقولا إن هذا الذي نصفه لك إنما هو امتحان من الله وابتلاء، فلا تكفر بتعلم السحر وطاعة الشيطان، وتعليم الملكين امتحاناً مع نصحهما لئلا يكون لهم حجة، ثم ذكر تعالى مفاسد السحر، فقال:

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ فيتعلم الناس من الملكين من علم السحر ما يكون سبباً في التفريق بين الزوجين، فبعد أن كانت المودة والمحبة بينهما يصبح الشقاق والفراق.

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: وما هم بما استعملوه من السحر يضرون أحداً إلا بعلمه ومشيئته سبحانه.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ والحال أنهم بتعلم السحر يحصلون على الضرر لا على النفع؛ فليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله واستبدلوا به السحر، أنهم ليس لهم حظ من رحمة الله، ولا من الجنة، لأنهم آثروا السحر على كتاب الله ولم يكن فعلهم إياه جهلاً، ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة.

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولبئس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم لو كان لهم علم أو فهم وإدراك.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ ولو أن أولئك الذين يتعلمون السحر آمنوا بالله وخافوا عذابه.

﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لأثابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر، الذي لا يعود عليهم إلا بالويل والخسار والدمار.

* ثم نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقامهم وأفعالهم، وحذر من مكر اليهود وحقدهم وحسدهم للمؤمنين، قال تعالى:

﴿١٠٤﴾، ﴿١٠٥﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا نداء من الله جل شأنه للمؤمنين يخاطبهم فيه، فيقول:

﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ لا تقولوا للرسول محمد ﷺ راقبنا وأمهلنا حتى نتمكن من حفظ ما تلقيه علينا فافهم عنا وأفهمنا؛ لأن اليهود كانوا يقولونها للنبي ﷺ، يلوون ألسنتهم بها، ويقصدون سبه ونسبته إلى الرعونة.

﴿وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ وقولوا أيها المؤمنون بدلاً منها: انتظرنا وارتقبنا، وهي تؤدي المعنى المطلوب نفسه.

﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي: أطيعوا أوامر الله ولا تكونوا كاليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا، ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم، فقال:

﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولليهود الذين نالوا من الرسول وسبوه، عذاب أليم موجع.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: ما يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون أن ينزل عليكم شيء من الخير لا قليلاً ولا كثيراً، بغضاً فيكم وحسداً لكم، وهذا من شدة عداوتهم للمؤمنين.

﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يختص بالنبوة والوحي والفضل والإحسان من شاء من عباده.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والله واسع الفضل والإحسان، وفيه إشعار بأن إيتاء النبوة من الفضل العظيم. والفضل ابتداء إحسان بلا علّة، والإنسان إذا طلب الفضل من أهله، وهو ﷻ أكرم الأكرمين وأجود الأجودين، فإذا دعاه الإنسان وسأله من فضله بنية صالحة، وعزم صادق، وافتقار إلى الله ﷻ سهل الله أمره، وآتاه من فضله.

مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ
ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ
كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ
لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا
مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟
وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟
لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا
أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ
أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

١٧

* **ثم قال تعالى رداً على اليهود حين طعنوا في القرآن بسبب النسخ.**

(١٠٦)، (١٠٧) ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ **أي: ما نبدل من حكم آية فنغيره بآخر، أو ننسها -يا محمد-، أي نمحها من قلبك، روي أن اليهود قالوا: ألا تعجبون لأمر محمد؟! يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، فما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، يناقض بعضه بعضاً فنزلت** ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾.

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ﴾ **نأت بأنفع لكم منها أيها المؤمنون في العاجل أو الآجل، إما برفع المشقة عنكم، أو بزيادة الأجر والثواب لكم، ولكل حكمة من لدنه، وأخبر أن من قدح في النسخ فقد قدح في ملكه وقدرته، فقال:**

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ **ألم تعلم يا محمد أنت وأمتك أن الله عليم حكيم قدير، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسان للعباد.**

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ **ألم تعلم أن الله هو المالك المتصرف في شؤون الخلق يحكم بما شاء ويأمر بما شاء؟ ويأمر عباده وينهاهم كيفما شاء، وعليهم الطاعة والقبول.**

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ **أي: فإن عصيتم فما لأحد من دون الله من ولي يتولاهم، أو ناصر ينصرهم غير الله تعالى فهو نعم الناصر والمعين، فمن ولايته لكم أن يُشرع لكم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته.**

* **ثم نهى ﷻ المؤمنين بأن يسألوا رسولهم؛ أسئلة تعنت واعتراض وسؤال عن الأشياء قبل كونها؛ كما سُئل من قبل موسى عليه السلام، قال تعالى:**

(١٠٨) ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ﴾ **أي: بل أتريدون يا معشر المؤمنين أن تسألوا نبيكم كما سأل قوم موسى نبيهم من قبل، ويكون مثلكم مثل اليهود الذين قالوا لنبيهم بقصد العناد والمكابرة** ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] **فتضلوا كما ضلوا، ولما كان هذا الأمر منهياً عنه مذموماً قد يصل بصاحبه إلى الكفر، قال:**

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ **من يستبدل الضلالة بالهدى، ويأخذ الكفر بدل الإيمان.**

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ **فقد حاد عن الجادة وخرج عن الصراط السوي.**

* **ثم يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، قال تعالى:**

(١٠٩)، (١١٠) ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ

وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ
لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ
قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن
مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ
أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي
ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ
وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿١١٥﴾
وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ
كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ
قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ
بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

١٨

عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ **تمنى كثير من اليهود والنصارى.**

﴿لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا﴾ **لو يصيرونكم كفاراً تعبدون الأصنام بعد أن آمنتم وأسلمتم لله.**

﴿حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ **أي: بسبب الحقد الذي امتلأت به نفوسهم، من بعد ما ظهر لهم بالبراهين الساطعة صدق نبي الله ورسوله محمد ﷺ وأن دينكم هو الحق.**

﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ **أي: اتركوهم وأعرضوا عنهم فلا تؤاخذوهم على جهلهم.**

﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ **حتى يأذن الله لكم بقتالهم، وسيعاقبهم لسوء أفعالهم.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ **أي: قادر على كل شيء، فينتقم منهم إذا حان الأوان. ثم أمرهم تعالى بقوله:**

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ **أي: حافظوا على عمودي الإسلام وهما الصلاة والزكاة وتقربوا إليه بالعبادة البدنية والمالية.**

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ **أي: ما تتقربوا إلى الله من صلاة أو صدقة أو عمل صالح فرضاً كان أو تطوعاً تجدوا ثوابه عند الله في الآخرة.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ **أي: رقيب عليكم مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها يوم الدين.**

*** ذكر ﷻ في الآيات الكريمة بياناً آخر لأباطيل أهل الكتاب؛ حيث ادعى كل من الفريقين اليهود والنصارى أن الجنة خاصة به وطعن في دين الآخر، فاليهود يعتقدون بكفر النصارى وضلالهم، ويكفرون بعيسى وبالإنجيل، والنصارى يعتقدون بكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح وقد جاء لإتمام شريعتهم، ونشأ عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء حتى صار كل فريق يطعن في دين الآخر ويزعم أن الجنة وقف عليه، فأكذب الله الفريقين، وبين أن الجنة إنما يفوز بها المؤمن التقي الذي عمل الصالحات، قال تعالى:**

﴿١١١﴾-﴿١١٣﴾ ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ * بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾.

﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ **ادعى كل من اليهود والنصارى أن الجنة خاصة بطائفته لا يدخلها غيرهم، فقال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقال النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم.**

﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾ **أي: تلك مجرد خيالاتهم وأحلامهم الفاسدة.**

﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ **قل لهم يا محمد ائتوني بالحجة الساطعة على ما تزعمون إن كنتم صادقين في دعواكم. ثم ذكر تعالى البرهان والحجة الجلية العامة لكل أحد، فقال:**

﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ **ليس الأمر كما زعموا أن الجنة تختص**

بطائفة دون غيرها، إنما يدخل الجنة من استسلم وخضع وأخلص نفسه لله وحده لا شريك له، وهو مخلص مراقب لله في كل أقواله وأفعاله.

﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ وهو مؤمن مصدق متبع لرسول الله ﷺ؛ فإن للعمل المتقبل شرطين: أحدهما: أن يكون صواباً خالصاً لله وحده، والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشريعة.

﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ فله ثواب عمله ولا خوف عليهم في الآخرة وهو دخول الجنة، ولا يعتريهم حزن أو كدر على ما فاتهم من حظوظ الدنيا؛ فحصل المرغوب، ونجوا من المرهوب. ثم ذكر تعالى ما بلغ بأهل الكتاب من الهوى والحسد إلى أن بعضهم ضلل بعضاً، وكفر بعضهم بعضا.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ أي: كفر اليهود بعيسى وقالوا: ليست النصارى على دين صحيح معتد به، فدينهم باطل.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ أي: وقال النصارى في اليهود مثل ذلك، وكفروا بموسى.

﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾ والحال أن اليهود يقرؤون التوراة، والنصارى يقرؤون الإنجيل وفيهما وجوب الإيمان بالأنبياء جميعاً، ولهذا فقد كفروا عن علم. عن ابن عباس قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالإنجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ الآية.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾ أي: كذلك قال الذين لا يعلمون من مشركي العرب مثل قول أهل الكتاب، قالوا: ليس محمد على شيء.

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ فالله يفصل بين اليهود والنصارى، ويفصل بقضائه العادل فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ويجازي كلاً بعمله.

١١٤ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ استنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك، أي: لا أحد أظلم ممن منع الناس من عبادة الله في بيوت الله، وعمل لخرابها بالهدم كما فعل الرومان ببيت المقدس، أو بتعطيلها من العبادة كما فعل كفار قريش.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾ أي: ما ينبغي لأولئك أن يدخلوها إلا وهم في خشية وخضوع؛ فضلاً عن التجرؤ على تخريبها أو تعطيلها.

﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي: لأولئك المذكورين هوان وذلة في الدنيا، وعذاب عظيم في الآخرة وهو عذاب النار. ومن تأمل: قلما تجبر متجبر في الأرض إلا أهانه الله قبل موته، فسخر به الصغير والكبير، وأضحى حديث المجالس، قال ابن كثير: لما استكبروا لقاهم الله الذلة في الدنيا قبل الآخرة.

١١٥ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ أي: لله جهتا شروق الشمس وغروبها وما بينهما، وخصهما بالذكر لأنهما محل الآيات العظيمة وإذا كان مالكاً لها، كان مالكاً لكل الجهات فهو مالك الأرض كلها، وهذا والله أعلم فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه، الذين أخرجوا من مكة، وفارقوا مسجدهم ومصلاهم.

﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ إلى أي جهة توجهتم بأمره فهناك قبلته التي رضيها لكم، فأنتم لم تخرجوا من ملكه وطاعته، وقد نزلت الآية فيمن أضاع جهة القبلة، وفيه إثبات الوجه لله تعالى على الوجه اللائق به تعالى، وأن لله وجهاً لا تشبهه الوجوه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ يسع الخلق بالجود والإفضال؛ فمن سعته

وعلمه وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، عليم بتدبير شؤونهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم.

* لما ذكر تعالى افتراء اليهود والنصارى وزعمهم أن الجنة خاصة بهم لا يشاركهم فيها أحد، أعقبه بذكر بعض قبائحهم في ادعائهم أن لله ولداً حيث زعم اليهود أن عزيراً ابن الله، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله، وزعم المشركون أن الملائكة بنات الله؛ فأكذبهم الله ورد دعواهم بالحجة الدامغة والبرهان القاطع، قال تعالى:

﴿١١٦﴾، ﴿١١٧﴾ ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ * بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ وقالت اليهود والنصارى والمشركون اتخذ الله لنفسه ولداً، فاليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأساؤوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم، وهو تعالى صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تنقصهم إياه، فأكذب الله الجميع في دعواهم، فقال:

﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ أي: تقدس وتنزه عما زعموا من القول الباطل تنزهاً بليغاً، فسبحان من له الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، ومع رده لقولهم، أقام الحجة والبرهان على تنزيه عن ذلك، فقال:

﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ليس الأمر كما زعموا، وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن، وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخِّرهم ومسيِّرهم ومصرفهم كما يشاء، بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها؛ عزير، والمسيح، والملائكة.

﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ الكل عبيده منقادون له، لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: خالقهما ومبدعهما وقد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق، وهو قادر على كل شيء، فكيف تجعلون له ولداً وقد خلق كل شيء، وبدع السموات والأرض.

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ إذا أراد إيجاد شيء حصل من غير امتناع ولا مهلة، فمتى أردا شيئاً وجد بلمح البصر، فمراده نافذ، وأمره لا يتخلف، فلا يستعصي عليه، ولا يمتنع منه، وفي هذا بيان لكمال قدرته وعظيم سلطانه.

﴿١١٨﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: قال الجهلة من المشركين، وهم كفار قريش، هلا يكلمنا الله مشافهة، أو بإنزال الوحي علينا بأنك رسوله، قالوا ذلك للنبي ﷺ على سبيل العناد والعتو.

﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾ أي: تكون برهاناً وحجة على صدق نبوتك، قالوا ذلك استكبار وعناداً.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ﴾ مثل هذا الباطل الشنيع قال المكذبون من أسلافهم لرسلهم.

﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد وطلب المحال، والتكذيب للأنبياء، وفي هذا تسلية له ﷺ.

﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ أي: قد وضحنا الأدلة، وأقمنا البراهين لقوم يطلبون الحق واليقين، وكلها ناطقة بصدق ما جئت به.

* ثم ذكر تعالى بعد ذلك آية موجزة مختصرة جامعة في إثبات نبوة محمد ﷺ، فقال:

﴿١١٩﴾ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ أرسلناك يا محمد بالشريعة النيرة والدين القويم، بشيراً للمؤمنين بجنات النعيم، ونذيراً للكافرين من عذاب الجحيم.

﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: أنت لست بعد البلاغ مسؤولاً عمن

لم يؤمن منهم بعد أن بذلت الجهد في دعوتهم فإنهم ملازمون للنار يوم القيامة. والجحيم: ما عظم من النار.

* ثم ذكر تعالى حال اليهود والنصارى مع المؤمنين وشدة عداوتهم، فقال:

﴿١٢٠﴾، ﴿١٢١﴾ ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ * ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ ولن ترضى عنك يا محمد الطائفتان؛ اليهود والنصارى حتى تترك الإسلام المنير، وتتبع دينهم الأعوج؛ لأنهم دعاة إلى الملة والدين الذي هم عليه، ويزعمون أنه الهدى، فقل لهم:

﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ﴾ قل لهم يا محمد إن الإسلام هو الدين الحق الذي أرسلت به، وما عداه فهو ضلال، بدليل قوله:

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ ولئن سايرتهم على آرائهم الزائفة وأهوائهم الفاسدة بعدما ظهر لك الحق بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة.

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ليس لك من ينفعك ويحفظك أو يدفع عنك عقابه الأليم، وفيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى، ثم قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: الذين أعطيناهم الكتاب من اليهود والنصارى، يقرؤونه قراءة حقة كما أنزل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ أي: ويؤمنون بما جاء فيه من الإيمان برسل الله ومنهم خاتمهم محمد ﷺ، ولا يحرفون ولا يبدلون ما جاء فيه دون المعاندين المحرفين لكلام الله.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ وأما الذين بدلوا بعض الكتاب وكتموا بعضه فهؤلاء كفار بنبي الله محمد ﷺ وبما أنزل عليه، ومن يكفر به فأولئك هم أشد الناس خسراناً عند الله.

* ثم ذكّرهم تعالى بآلائه ونعمه وأفضاله عليهم وقد سبق مثل هذا في صدر السورة، ووجه التكرار الحث على اتباع الرسول النبي الأمي، فإنه لما طال المدى في استقصاء تذكيرهم بالنعم، ثم في بيان عوارهم وهتك أستارهم، وختم ذلك بالترهيب لتضييع أديانهم بأعمالهم وأحوالهم وأقوالهم، أعاد ما صدر به قصتهم من التذكير بالنعم، والتحذير من حلول النقم يوم تجمع الأمم ويدوم فيه الندم لمن زلت به القدم، قال تعالى:

﴿١٢٢﴾، ﴿١٢٣﴾ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: يا ذرية يعقوب اذكروا نعمي الكثيرة عليكم وعلى آبائكم، واذكروا تفضيلي لكم على سائر الأمم في زمانكم بكثرة أنبيائكم، وما أنزل عليهم من الكتب.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ أي: خافوا واحذروا ذلك

الجُزْءُ الأَوَّلُ سُورَةُ البَقَرَةِ

وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ
إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي
جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠ ٱلَّذِينَ
ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن
يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ
ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا
لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا
شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ
فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ
لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ
وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ
وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ
١٢٥ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ
مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ
فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦

١٩

اليوم الرهيب الذي لا تغني فيه نفس عن نفس، ولا تدفع عنها من عذاب الله شيئاً؛ لأن كل نفس بما كسبت رهينة.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: لا يقبل منها فداء ينجيها من العذاب.

﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ ولا تفيدها وساطة أحد؛ لأنها كفرت بالله.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ولا يدفع عنهم أحد عذاب الله ولا يجيرهم من سطوة عقابه.

* يقول تعالى منبهاً على شرف إبراهيم خليله عليه السلام، وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى من الأوامر والنواهي، فقال:

(١٢٤) ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ واذكر يا محمد حين اختبر وامتحن الله عبده إبراهيم الخليل، بما شرع من تكاليف، وكلفه بجملة من أوامره ونواهيه، فقام بهن خير قيام، وأتم ما ابتلاه الله به وأكمله ووفاه، فشكر الله له ذلك، ولم يزل الله شكوراً. وابتلاء الله العباد ليُعلَّم أحوالهم بالابتلاء؛ لأنه عالم بهم، ولكن ليعلم العبادُ أحوالهم حتى يعرف بعضهم بعضاً.

﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال له ربه إني جاعلك قدوة للناس، ومناراً يهتدى بك، ويحتذى حذوك، جزاء على ما فعل من القيام بالأوامر وترك النواهي. فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته لتعلو درجته، ودرجة ذريته، وهذا أيضاً من إمامته ونصحه لعباد الله، ومحبته أن يُكثِّر فيهم المرشدون.

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ قال إبراهيم رب اجعل من بعض نسلي أئمة فضلاً منك، فأجابه الرحيم اللطيف إلى ذلك، وأكبر الأئمة من ذريته محمد ﷺ، وأخبر أنه سيكون من ذريته غير ذلك، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام.

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: قال الله تعالى لا يصيب الإمامة في الدين، من ظلم نفسه وضرها، وحط قدرها، لمنافاة الظلم لهذا المقام العظيم.

* ثم ذكر تعالى، نموذجاً باقياً دالاً على إمامة إبراهيم، وهو هذا البيت الحرام، الذي جعل قصده ركناً من أركان الإسلام، حاطاً للذنوب والآثام، وفيه من آثار الخليل وذريته، ما عرف به إمامته، وتذكرت به حالته، فقال:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ واذكر يا محمد حين جعلنا الكعبة المعظمة مرجعاً للناس يأتون إليه من كل جانب ثم يرجعون إلى أهليهم، ثم يعودون شوقاً إليه.

﴿وَأَمْنًا﴾ أي: وجعلناه مكاناً آمناً يأمن من لجأ إليه، لا يغير عليهم عدو فيه، وذلك لما أودع الله في قلوب العرب من تعظيمه وإجلاله.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾. قال السدي: أما المثابة فهو الذي يثوبون إليه كل سنة، لا يدعه الإنسان إذا أتاه مرة أن يعود إليه.

﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ وقلنا للناس اتخذوا من المقام وهو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم لبناء الكعبة مصلى، أي صلوا عنده، ويستحب أن تكون ركعتي الطواف خلف مقام إبراهيم.

* ثم ذكر تعالى مكانة البيت وعظمته بأن وصى إبراهيم وإسماعيل وأمرهما أن يعتنيا به ويطهراه من النجاسات الحسية والمعنوية، قال تعالى:

(١٢٥)-(١٢٨) ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أي: أوصينا إبراهيم وأمرناه وولده إسماعيل.

﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: أمرناهما بأن يصونا البيت من الشرك والكفر والمعاصي، ومن النجاسات

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ
مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ
لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ
يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ
إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا
وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ
قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ
وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ
إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا
وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

٢٠

والأقذار ليكون معقلاً للطائفين حوله، والمعتكفين الملازمين له، والمصلين فيه، فالآية جمعت أصناف العابدين في البيت الحرام: الطائفين، والمعتكفين، والمصلين. وقدم الطواف؛ لاختصاصه بالمسجد الحرام، ثم الاعتكاف لأن من شروطه المسجد مطلقاً، ثم الصلاة مع أنها أفضل لهذا المعنى، وخص الركوع والسجود؛ لأنهما أشرف أركان الصلاة، وأضاف سبحانه البيت إليه تشريفاً وتكريماً، ويقتضي ذلك شدة الاهتمام والعناية به.

ثم أخبر تعالى عن دعوة الخليل إبراهيم:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أي: قال إبراهيم داعياً لهذا البيت: أن يجعله الله بلداً ذا أمن، يكون أهله في أمن واستقرار.

﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي: وارزق يا رب المؤمنين من أهله وسكانه من أنواع الثمرات؛ لأنه لم يكن لهم ثمرة، وكانوا بوادٍ غير ذي زرع، ليقبلوا على طاعتك ويتفرغوا لعبادتك، وخص بدعوته المؤمنين تأدباً مع الله، إذ كان دعاؤه الأول فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيداً بغير الظالم، فلما دعا لهم بالرزق وقيده بالمؤمن، وكان رزق الله شاملاً للمؤمن والكافر والعاصي والطائع، قال تعالى جواباً له:

﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ أي: قال الله وأرزق من كفر أيضاً كما أرزق المؤمن، فيستعين بالرزق على عبادة الله ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة، أما الكافر فأمتعه في الدنيا متاعاً قليلاً وذلك مدة حياته فيها.

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ ثم بعد هذا التمتع ألجئه في الآخرة وأسوقه إلى عذاب النار، فلا يجد عنها مهرباً.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وبئس المآل والمرجع للكافر أن يكون مأواه نار جهنم. وقد قاس الخليل الرزق على الإمامة؛ فنبهه تعالى على أن الرزق رحمة دنيوية شاملة للبر والفاجر؛ بخلاف الإمامة فإنها خاصة بالخواص من المؤمنين.

ثم قال تعالى حكاية عن قصة بناء البيت العتيق.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ أي: واذكر يا محمد ذلك الأمر الغريب، وهو رفع الرسولين العظيمين إبراهيم، وإسماعيل عليهما السلام قواعد البيت وهو الكعبة وقيامهما بوضع أساسه ورفع بنائه، وهما يقولان بخضوع وإجلال.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: يبنيان ويدعوان بهذه الدعوات الكريمة، قائلين: يا ربنا تقبل منا بناءنا، أي: اقبل منا عملنا هذا، واجعله خالصاً لوجهك الكريم، فإنك أنت السميع لدعائنا، العليم بنياتنا.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ اجعلنا ثابتين على الإسلام، خاضعين لك، منقادين لحكمك.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ واجعل من أولادنا من يسلم وجهه لك ويخضع لعظمتك.

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ وعلمنا شرائع عبادتنا ومناسك حجنا. ولما كان العبد مهما كان لا بد أن يعتريه التقصير ويحتاج إلى التوبة، قالا:

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: تجاوز عنا وارحمنا فإنك عظيم المغفرة، واسع الرحمة.

* ولا تزال الدعوات من إبراهيم وإسماعيل ترتفع لنفع الأمم والأجيال:

﴿١٢٩﴾ ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي: ابعث في الأمة رسولاً من أنفسهم، ليكون أرفع لدرجته، ولينقادوا له، وليعرفوه حقيقة المعرفة، وهذا من جملة دعواتها المباركة، فاستجاب الله الدعاء ببعثة محمد ﷺ فهو من ذرية إبراهيم وإسماعيل، وليس في ذرية إسماعيل نبي سوى محمد ﷺ.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ يقرأ آيات القرآن عليهم حتى يفهوه علماً وفهماً وعملاً، ولهذا قال:

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعلمهم القرآن العظيم، والسنة المطهرة.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم من رجس الشرك والمعاصي وسوء الأخلاق؛ ولهذا كان ﷺ متمماً لمكارم الأخلاق. وقد جمعت الآية حفظ القرآن وفهمه والعمل به.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا يقهر ولا يغلب، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

* لما ذكر تعالى مآثر الخليل إبراهيم عليه السلام، وقصة بنائه للبيت العتيق منار التوحيد، أعقبه بالتوبيخ الشديد للمخالفين لملة الخليل من اليهود والنصارى والمشركين، وأكد أنه لا يرغب عن ملته إلا كل شقي سفيه الرأي، خفيف العقل، متبع لخطوات الشيطان، قال تعالى:

﴿١٣٠﴾-﴿١٣٢﴾ ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: لا يترك دين إبراهيم وملته الواضحة الغراء وينحرف عنها إلا من استخف نفسه وامتهنها بتركه الحق إلى الضلال. ثم أخبر عن حالته في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: اخترنا إبراهيم من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة، ويكون من اتبع ملته مصطفى في هذه الدنيا، ويكون في الآخرة من الصالحين، كما كان إبراهيم عليه السلام.

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من المقربين الذين لهم الدرجات العلى.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أي: وسبب هذا الاختيار: مسارعته لأمره الله بالإخلاص والاستسلام والانقياد دون تردد.

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فاستجاب إبراهيم وقال: استسلمت لأمر الله وخضعت لحكمه، إخلاصاً وتوحيداً ومحبة وإنابة.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ وحث الخليل إبراهيم أبناءه باتباع ملته، وكذلك يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم أوصى بملة إبراهيم.

﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ يا أبناءنا إن الله اختار لكم هذا الدين وهو دين الإسلام؛ رحمة بكم وإحساناً إليكم.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فاثبتوا على الإسلام وقوموا به حتى يدرككم الموت وأنتم متمسكون به، وفيه إيجاز بليغ.

* ولما كان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، ومن بعده يعقوب، قال تعالى منكراً عليهم:

﴿١٣٣﴾، ﴿١٣٤﴾ ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: ما كنتم حاضرين يعقوب وقد أشرف على الموت وأوصى بنيه باتباع ملة إبراهيم. وفي هذه حرص الأب على أبنائه، وأنه ينبغي أن يورث بعده ذرية طيبة تعبد الله ﷻ ولا تعبد غيره.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ أي: فقال لبنيه على وجه الاختبار، ولتقر عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم به، أيّ شيء تعبدون من بعد موتي؟

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ
حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٣٥ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن
رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ١٣٦
فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ
فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
١٣٧ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ
عَٰبِدُونَ ١٣٨ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ١٣٩
أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ
ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٠ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٤١

٢١

﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ فأجابوه بما قرت به عينه، فقالوا: لا نعبد إلا إلهاً واحداً ولا نشرك به شيئاً غيره، هو الله رب العالمين، إله آبائك وأجدادك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وذكر إسماعيل هنا من باب التغليب والتبعية؛ لأن إسماعيل ليس من آباء يعقوب، ولكنه عمه.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ ونحن له وحده مطيعون خاضعون، والغرض تحقيق البراءة من الشرك، وقد جمعوا بين التوحيد والعمل.

ثم قال تعالى مشيراً إلى تلك الذرية الطيبة والأمة المذكورة التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ تلك جماعة قد مضت وسلفت، والإشارة إلى إبراهيم وبنيه.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ لها ثواب ما كسبت، ولكم ثواب ما كسبتم.

﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا تسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا؛ بل كل نفس تتحمل وحدها تبعة ما اكتسبت من سوء لا ينفع أحداً إلا إيمانه وتقواه.

* لما ذكر تعالى أن ملة إبراهيم هي ملة الحنيفية السمحة، وأن من لم يؤمن بها ورغب عنها فقد بلغ الذروة العليا في الجهالة والسفاهة، ذكر تعالى ما عليه أهل الكتاب من الدعاوى الباطلة من زعمهم أن الهداية في اتباع اليهودية والنصرانية، وبيّن أن تلك الدعوى لم تكن عن دليل أو شبهة بل هي مجرد جحود وعناد، ثم عقب ذلك بأن الدين الحق هو في التمسك بالإسلام، دين جميع الأنبياء والمرسلين. قال تعالى:

١٣٥ ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ﴾ وقال اليهود لأمة محمد ﷺ: كونوا على ملتنا يهوداً تهتدوا، وقال النصارى كونوا نصارى تهتدوا، فكل من الفريقين يدعو إلى دينه المعوج.

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قل لهم يا محمد جواباً شافياً؛ بل الهداية أن نتبع جميعاً ملة إبراهيم حال كونه مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم، فقد كان مؤمناً موحداً، وما كان من المشركين بالله تعالى، وفيه تعريض بأهل الكتاب وإيذان بأن ما هم عليه إنما هو شرك وضلال.

* ثم أرشد ﷻ عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة محمد ﷺ مفصلاً، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، قال تعالى:

١٣٦ ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء اليهود والنصارى: صدقنا بالله الواحد وبما أنزل إلينا من القرآن العظيم والسنة الذي أوحاه إلى نبيه ورسوله محمد ﷺ، قولوا ذلك إشارة إلى الإعلان بالعقيدة، والصدع بها والدعوة إليها، إذ هي أصل الدين وأساسه.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أي: وآمنا بما أنزل على إبراهيم من الصحف والأحكام التي كان الأنبياء متعبدين بها، وكذلك حفدة إبراهيم

وإسحاق وهم الأسباط حيث كانت النبوة فيهم، وفيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء.

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ وما أعطي موسى من التوراة، وعيسى من الإنجيل.

﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ ونؤمن بما أنزل على غيرهم من الأنبياء جميعاً من وحي ربهم، ونصدق بما جاؤوا به من عند الله من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، وفيه دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والآخروية.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعلت اليهود والنصارى بل نؤمن بهم كلهم بأنهم كلهم رسل الله، صادقون فيما جاءوا به من الوحي، هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون لأمر الله، خاضعون لحكمه بالطاعة والعبادة. وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على إيجازها واختصارها على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

* ثم ذكر تعالى حال من اتبع طريق المؤمنين، فقال سبحانه:

(١٣٧)، (١٣٨) ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ فإن آمن من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم بنفس ما آمنتم به معشر المؤمنين مما جاء به الرسول ﷺ من الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب فقد اهتدوا إلى الحق وإلى الصراط المستقيم كما اهتديتم.

﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ وإن أعرضوا عن الإيمان بما دعوتهم إليه، فاعلم أنهم إنما يريدون عداوتك وخلافك، وليسوا من طلب الحق في شيء.

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ سيكفيك يا محمد شرهم وأذاهم ويعصمك منهم، وينصرك عليهم، وهذا ضمان ووعد من الله لإظهار رسوله عليهم، وقد أنجز وعده، وسلط رسوله عليهم حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجلى بعضهم، وشردهم كل مشرد، ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ هو تعالى يسمع ما ينطقون به، ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم من المكر والشر والحسد والغل.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي: الزموا صبغة الله، وهو دينه، وهو ما نحن عليه من الإيمان هو دين الله الذي صبغنا به وفطرنا عليه فظهر أثره علينا كما يظهر الصبغ في الثواب، ولا أحد أحسن من الله صبغة، أي: ديناً.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ ونحن مطيعون، نعبده -جل وعلا- ولا نعبد أحداً سواه، فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صبغة لهم ملازماً، وفيه بيان لهذه الصبغة، وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة.

* يقول الله تعالى مرشداً نبيه محمداً ﷺ إلى درء مجادلة المشركين:

(١٣٩)-(١٤١) ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ۞ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾ قل -يا محمد- لأهل الكتاب: أتجادلوننا في توحيد الله والإخلاص له زاعمين أنكم أبناء الله وأحباؤه، وأن الأنبياء منكم دون غيركم؟

﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ وهو ﷻ رب الجميع على السواء، وكلنا عبيده لا يختص بقوم دون قوم، يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده.

﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ ولنا جزاء أعمالنا، ولكم جزاء أعمالكم، لا يتحمل أحد وزر غيره.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أي: قد أخلصنا الدين والعمل لله لا نشرك به شيئاً، ولا نعبد أحداً غيره. ثم ذكر تعالى دعوى أخرى منهم، ومحاجة في رسل الله، حيث زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ﴾ أم تدعون وتجادلون يا معشر أهل الكتاب أن هؤلاء الرسل وأحفادهم كانوا يهوداً أو نصارى، فرد الله عليهم:

﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ هل أنتم أعلم بدينهم أم الله؟ وقد شهد الله لهم بملة الإسلام وبرأهم من اليهودية والنصرانية، فكيف تزعمون أنهم على دينكم؟ وفيه تقريع وتوبيخ.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن أخفى وكتم ما اشتملت عليه آيات التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله، وهي شهادة عندهم، مودعة من الله، أو لا أحد أظلم ممن كتم ما أخبر الباري عنه من الأنبياء الكرام أنهم كانوا على الإسلام.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: مطلع على أعمالكم وأحصاها ومجازيكم عليها، وفيه وعيد شديد.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ كررها؛ لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، أي: إذا كان أولئك الأنبياء على فضلهم وجلالة قدرهم يجازون بكسبهم فأنتم أحرى وأولى. وفي الآية قطع للتعلق بالمخلوقين، وعدم الاغترار بالانتساب إليهم، وأن العبرة بالإيمان بالله وعبادته وحده، واتباع رسله، وأن من كفر برسول منهم فقد كفر بسائر الرسل.

* زعم اليهود والنصارى أن إبراهيم والأنبياء معه كانوا يهوداً ونصارى وقد كانت قبلة الأنبياء بيت المقدس، وكان ﷺ وهو بمكة يستقبل بيت المقدس، فلما أمر ﷺ بالتوجه إلى الكعبة المشرفة طعن اليهود في رسالته واتخذوا ذلك ذريعة للنيل من الإسلام، وقالوا: لقد اشتاق محمد إلى مولده،

الجزء الثاني سورة البقرة

* سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

٢٢

وعن قريب يرجع إلى دين قومه، فأخبر الله رسوله الكريم بما سيقوله السفهاء، ولقنه الحجة الدامغة لرد عليهم، ويوطن نفسه على تحمل الأذى منهم عند مفاجأة المكروه، وكان هذا الإخبار قبل تحويل القبلة معجزة له ﷺ، وهذه الآية العظيمة اشتملت على معجزة، وتسلية، وتطمين قلوب المؤمنين، واعتراض وجوابه من ثلاثة أوجه، وصفة المعترض، وصفة المُسلَّم لحكم الله ودينه، قال تعالى:

﴿١٤٢﴾، ﴿١٤٣﴾ ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ

عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ **أخبرهم ﷻ أنه لا بد أن يقول ضعفاء العقول والجهال من الناس من اليهود ومشركي العرب وأمثالهم، في سخرية واعتراض.**

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ **ما الذي صرفهم وحولهم عن القبلة التي كانوا يصلون إليها وهي بيت المقدس، قبلة المرسلين من قبلهم؟**

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ﴾ **قل لهم - يا محمد - إزالة لهذه الشبهة وكشفها، الجهات كلها لله، له المشرق والمغرب فليست جهة من الجهات خارجة عن ملكه، وله أن يتصرف في ملكه بما يشاء، حسب ما تقتضيه حكمته البالغة.**

﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ **يهدي عباده المؤمنين إلى الطريق القويم الموصل لسعادة الدارين، وفي هذا إشعار بأن الشأن كله لله في امتثال أوامره، فحيثما وجَّهنا توجَّهنا، وأن تحويل القبلة إلى الكعبة من الهداية للنبي ﷺ ولأهل ملته إلى الصراط المستقيم.**

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ **وكما هديناكم إلى الإسلام، كذلك هديناكم أيها المسلمون إلى الطريق الصحيح في الدين وجعلناكم أمة عدولاً خياراً.**

﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ **أي: بسبب عدالتكم وحكمكم بالقسط جعلكم الله شهداء، لتشهدوا على الأمم يوم القيامة أن رسلهم بلغتهم الرسالة.**

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ **فإن شك شاك في فضلها، وطلب مزكياً لها، فهو أكمل الخلق نبيهم ﷺ، فلهذا قال تعالى: ويشهد عليكم الرسول أنه بلغكم رسالة ربه. وقيل: ويكون الرسول شهيداً على أمته بأنهم قد فعلوا ما أمر بتبليغه إليهم. وهذه الآيات شرف هذه الأمة، منها: وصف الأمة بالعدل والخيرية، ومنها: أن المزكِّي يجب أن يكون أفضل وأعدل من المُزكى، ومنها: أن المزكي لا يحتاج للتزكية.**

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ **وما أمرناك - يا محمد - بالتوجه إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة بمكة.**

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ﴾ **إلا لنختبر إيمان الناس، فنعلم من يُصدق الرسول، ويطيعك ويستقبل معك حيث توجهت، ومن يشكك في الدين ويرجع إلى الكفر لضعف يقينه ونفاقه، وهو علم يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها.**

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ﴾ **وإن كان هذا التحويل في القبلة لشاقاً وصعباً على الظالمين، لكنها سهلة على الذين هداهم الله فعرفوا بذلك نعمه عليهم، وشكروا وأقروا له بالإحسان حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم.**

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ﴾ **أي: ما صح ولا استقام أن يضيع الله صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليها، وذلك حين سألوه ﷺ عمن مات وهو يُصلي إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة فنزلت، وسمى الصلاة إيماناً لاجتماعها على نية وقول وعمل، وقوله تعالى:**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ **تعليل للحكم أي: إنه تعالى عظيم الرحمة بعباده لا يضيع أعمالهم الصالحة التي فعلوها. والرأفة أرق من الرحمة، وجمع بينهما كما في الرحمن الرحيم.**

*** ثم ذكر تعالى سبباً آخر من أسباب تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، فقال:**

(١٤٤) ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ **أي: كثيراً ما رأينا تردد**

بصـــرك - مرة بعد مرة يا محمد - جهة السماء تشــوقاً لتحويل القبلة، وانتظاراً لنزول الوحي إليك في شأن القبلة، وهذه الآيــة وإن كانت متأخرة في التلاوة فهي متقدمة في المعنى، فإنها رأس القصة.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ فلنوجهنـك إلى قبلة تحبهـا، -وهي الكعبة- قبلة أبيك إبراهيم. وفي قوله ﴿تَرْضَىٰهَا﴾ دون تحبها أو تهواها دلالة على أن ميل الرسول ﷺ إلى الكعبة ميل لقصد الخير لا لهوى النفس، وذلك أن الكعبة أجدر بيوت الله بأن تكون قبلة؛ فهي أول بيت وضع للناس بالتوحيد، وفي اسـتقبال بيت المقـدس أولاً، ثم التحول إلى الكعبة إشارة إلى استقلال هذا الدين عن دين أهل الكتاب.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ توجــه فـي صلاتـك نحـو الكعبة المعظمة.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ وحيثما كنتم أيها المسـلمون من الأرض فتوجهوا في صلاتكـم نحو الكعبــة أيضاً. عن البراء قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سـبعة عشر شـهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجــه نحو الكعبة، فأنــزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآيــة، فقال السـفهاء من الناس-وهم اليهود- ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ إلى آخر الآية، [أخرجه البخاري].

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وإن اليهــود والنصــارى ليعلمــون أن هذا التحويــل للقبلة حق مــن عند الله ثابت في كتبهــم، ولكنهــم يفتنــون النــاس بإلقاء الشـبهات حيـث يعلمون أن الله سـيوجهك إليها مما عرفـوه من النعت والصفــة لرسـول الله ﷺ وأمته، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً، ولهذا تهددهم تعالى بقوله:

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيجازيهم عليها، وفيه وعيد وتهديد لهم.

* لما ذكــر تعالى ما قاله السـفهاء من اليهود عنــد تحويل القبلة من بيت المقـدس إلى الكعبــة المعظمــة، وأمر رسوله بأن يتوجه في صلاته نحو البيت العتيــق، ذكر في هــذه الآيات أن أهل الكتاب قد انتهــوا في العناد والمكابرة إلى درجة اليأس من إســلامهم، فإنهم ما تركوا قبلتك لشبهة عارضة تزيلها الحجة، وإنما خالفوك عناداً واستكباراً، فقد كان من كــمال حرصه على هداية الخلق بذل غايــة النصح والتلطف في هدايتهــم ودعوتهم، وكان يحزن لعدم استجابتهم، وفي ذلك تسلية له ﷺ من جحود وتكذيب أهل الكتاب.

﴿١٤٥﴾ ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ أي: والله لئن جئت اليهود والنصارى بكل معجــزة وبرهان عــلى صدقك في أمر القبلــة، ما تبعوك - يا محمــد - عناداً واســتكباراً لأنهم لا يريــدون الحق، ولاصلوا إلى قبلتــك، لأن اتباع القبلة دليل على أتباعه.

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ ولســت أنت بمتبع قبلتهم مرة أخرى بعد أن حولــك الله عنها، وهذا لقطع أطماعهم الفارغة، حيث قالت اليهود: ثبــت على قبلتنا لكنــا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظـره تغـريراً لـه ﷺ. وفي الآيــة إخبار عــن شــدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله به.

﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ أي: إن النصارى لا يتبعون قبلة اليهود، كــما أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى، لما بينهــم من العداوة والخلاف الشديد مع أن الكل من بني إسرائيل، فليس بغريب منهم مع ذلك أن لا يتبعوا قبلتك - يا محمد -.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ ولئن فُرِض أنك ســايرتهم على أهوائهم، واتبعت ما يهوونه ويحبونه بعد وضوح البرهان الــذي جاءك بطريــق الوحي ولـم يقل ســبحانه (اتبعت دينهم)؛ لأن ما هم عليه مجــرد أهواء نفس، ومن ترك الدين اتبع الهوى ولا محالة.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ
وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ
مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ
هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ
جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ
فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ
وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ
وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ
وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ
عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ
وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ
وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣

٢٣

﴿إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: تكون ممن ارتكب أفحش الظلم، والكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير، وإلا فحاشاه ﷺ من اتباع أهواء الكفرة المجرمين، وهو من باب التهييج للثبات على الحق وأمته داخلة في ذلك.

* ثم يخبر تعالى أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم وعرفوا أن محمداً رسول الله، وأن ما جاء به حق وصدق، قال تعالى:

١٤٦، ١٤٧ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ * ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل من أحبار اليهود وعلماء النصارى.

﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ يعرفون محمداً معرفة تامة لا امتراء فيها وذلك بأوصافه المذكورة في كتبهم؛ كما يعرف الواحد منهم ولده معرفة يقين.

﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ وإن جماعة منهم -وهم رؤساؤهم وأحبارهم- الذين لم يسلموا ليخفون الحق ولا يعلنونه، ويخفون صفة النبي مع أنه منعوت لديهم بأظهر النعوت فهم يكتمون أوصافه عن علم وعرفان.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ أي: ما أوحاه الله إليك - يا محمد - من أمر القبلة هو الدين هو الحق فلا تكونن من الشاكين، والخطاب للرسول والمراد أمته.

١٤٨ ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ ولكل من أهل الأديان المختلفة قبلة يتوجهون إليها في عبادتهم، مائلين إليها بوجوههم.

﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ فبادروا وسارعوا أيها المؤمنون متسابقين إلى فعل الطاعات والأعمال الصالحات التي جاء بها دين الإسلام، والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات.

﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ﴾ في أي موضع تكونوا من أعماق الأرض أو قمم الجبال، يجمعكم الله للحساب ولو تفرقت أجسامكم وأبدانكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فهو سبحانه قادر لا يعجزه شيء في السماء ولا في الأرض. ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل كالصلاة في أول وقتها والمبادرة إلى إبراء الذمة من الصيام والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها فلله ما أجمعها وأنفعها من آية.

* ثم كرر تعالى أمراً ثالثاً من الله تعالى لاستقبال القبلة في مكة لتأييد النسخ، قال تعالى:

١٤٩، ١٥٠ ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ * وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ ومن

أيّ مكان خرجت إليه مسافراً فتوجه بوجهك في صلاتك جهة الكعبة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ وأن توجهك إليه هو الحق الثابت من ربك، وكرره لبيان تساوي حكم السفر والحضر. وما الله بغافل عما تعملونه، وسيجازيكم على ذلك.

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾ ومن أي مكان خرجت -يا محمد- فتوجه إلى المسجد الحرام، وحيثما كنتم أيها المسلمون بأي قطر من أقطار الأرض فولوا وجوهكم نحو المسجد الحرام، هذا أمر ثالث، باستقبال الكعبة المشرفة، وفائدة هذا التكرار أن القبلة كانت أول ما نسخ من الأحكام الشرعية، فدعت الحاجة إلى التكرار؛ لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة، قال تعالى:

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾ عرفكم أمر القبلة لئلا يحتج عليكم اليهود احتجاج مخاصمة ومجادلة، فيقولوا: يجحد ديننا ويتبع قبلتنا، فتكون لهم حجة عليكم، أو كقول المشركين: يدعي محمد ملة إبراهيم ويخالف قبلته.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ إلا الظلمة المعاندين الذين لا يقبلون أيّ تعليل فلا تخافوا مطاعنهم في قبلتكم فإنهم لا يضرونكم، وخافوني بامتثال أمري واجتناب نهيي.

﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ ولكي أتم فضلي عليكم بالهداية إلى قبلة أبيكم إبراهيم، والتوفيق لسعادة الدارين، وبهذا تهتدون إلى الحق والصواب، فأصل النعمة الهداية لدينه، بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ثم بعد تلك النعم المتممات لهذا الأصل. (ولعل وعسى) من الله واجب.

* بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن بني إسرائيل، وذكرت بالتفصيل نعم الله عليهم التي قابلوها بالجحود والكفران، بدأت الآيات الكريمة بمخاطبة المؤمنين، وتذكيرهم بنعمة الله العظمى عليهم، ببعثة خاتم المرسلين ﷺ.

﴿١٥١﴾، ﴿١٥٢﴾ ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ * فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾.

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ أي: كما أنعمنا عليكم باستقبال الكعبة، أرسلنا فيكم رسولاً منكم.

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ﴾ أي: يقرأ عليكم آيات القرآن المبينة للحق من الباطل، ويطهر أخلاقكم ونفوسكم من الشرك وقبيح الفعال وسيء الأخلاق.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ يعلمكم أحكام القرآن وألفاظه ومعانيه، والسنة النبوية المطهرة.

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ ويعلمكم من أمور الدنيا والدين الشيء الكثير الذي لم تكونوا تعلمونه لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين، ويعلمكم من أخبار الأنبياء، وقصص الأمم السابقة ما كنتم تجهلونه.

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ أي: اذكروني بالعبادة والطاعة، أذكركم بالثواب والمغفرة. وذكر الله تعالى أفضله ما تواطأ عليه القلب واللسان؛ وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله ومحبته وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر، فلهذا أمر به خصوصاً، ثم من بعده أمر بالشكر عموماً، فقال:

﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ وخصوني بالشكر قولاً وعملاً، واشكروا نعمتي عليكم، ونهى عن ضد الشكر وهو الكفر، ولا تكفروها بالجحود والعصيان، فكم أنعمت عليكم بالنعم ودفعت عنكم صروف النقم. والشكر يكون بالقلب إقراراً بالنعم واعترافاً، وباللسان ذكراً وثناء، وبالجوارح طاعة لله وانقياداً لأمره واجتناباً لنهيه، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة. قال النووي -رحمه الله-: اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوهما، بل كل عامل بطاعة، فهو ذاكر لله تعالى.

* لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر، شرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر

الجُزْءُ الثَّانِي سُورَةُ البَقَرَةِ

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن
لَّا تَشْعُرُونَ ١٥٤ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥
ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ
١٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ١٥٧ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ
فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ
وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ
لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ
١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ
وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ
١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ١٦٢
وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣

٢٤

والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها، قال تعالى:

(١٥٣)، (١٥٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ يا أيها المؤمنون استعينوا على أمور دنياكم وآخرتكم بالصبر على النوائب والمصائب، وترك المعاصي والذنوب، والصبر على الطاعات والقربات، وحافظوا على الصلاة التي تطمئن بها النفس وتنهى عن الفحشاء والمنكر، فبالصبر تنالون كل فضيلة، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: هو تعالى معهم بالنصر والمعونة والحفظ والتأييد، وفي الآية إتيان معية الله الخاصة بالمؤمنين، المقتضية لما سلف ذكره، أما المعية العامة المقتضية للعلم من الإحاطة فهي لجميع الخلق. وفي ذكر المعية الخاصة بالمؤمنين ترغيب إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب، ولو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله، لكفى بها فضلاً وشرفاً.

ولما ذكر ﷻ الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأمور، ذكر نموذجاً مما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيل الله، قال تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾ لا تقولوا أيها المؤمنون فيمن يقتلون مجاهدين في سبيل الله: هم أموات.

﴿بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ بل هم أحياء عند ربهم يرزقون، حياة خاصة بهم في قبورهم، لا يعلم كيفيتها إلا الله تعالى، ولكنكم لا تحسون بها ولا تشعرون بذلك؛ لأنهم في حياة برزخية أسمى من هذه الحياة، وفي هذا دليل على نعيم القبر.

* ثم أخبر تعالى أنه لا بد أن يبتلي عباده بالمحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنة الله في عباده، قال تعالى:

(١٥٥)-(١٥٧) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ولنختبرنكم بشيء يسير من ألوان البلاء مثل خوف الأعداء ومن الجوع، وبنقص من الأموال، بتعسر الحصول عليها أو ذهابها، إما بجوائح سماوية، أو غرق وضياع، أو أخذ الظلمة للأموال، وغير ذلك. ومن الأنفس: بالموت أو الشهادة في سبيل الله، وبنقص من ثمرات النخيل والأعناب والحبوب، بقلة ناتجها أو فسادها، وموت بعض الأحباب، وضياع بعض الزروع والثمار، ونوع الابتلاء يسير؛ لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله، أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك، وتنكير شيء للتقليل، أي بشيء قليل من هذه الأمور.

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: بشر - يا محمد - الصابرين على المصائب والبلايا بجنات النعيم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب. ثم بين تعالى تعريف الصابرين وصفتهم التي يتميزون بها عن غيرهم، بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي: نزل بهم كرب أو بلاء أو مكروه، استرجعوا وأقروا بأنهم عبيد لله مدبرون بأمره وتصريفه يفعل بهم ما يشاء لأن ذلك تسليم ورضا، وقالوا: إنا إليه راجعون بالموت، ثم بالبعث للحساب والجزاء وهذه الكلمات ملجأ للمصابين، وعصمة للممتحنين فإنها جامعة بين الإقرار بالعبودية لله، والاعتراف بالبعث والنشور، وأن الدنيا ليست آخر كل شيء.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ أولئك الموصوفون بما ذكر، لهم ثناء وتمجيد ورحمة عظيمة من الله، والصلاة من الله الرحمة، والرحمة ذكرها تعالى تأكيداً، وهم المهتدون إلى طريق السعادة.

* لما أمر تعالى بذكره وشكره ودعا المؤمنين إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، أعقب ذلك ببيان أهمية الحج وأنه من شعائر دين الله، قال تعالى:

(١٥٨) ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ﴾ الصفا والمروة اسم لجبلين بمقربة من البيت الحرام من جهة الشرق.

﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ من أعلام دينه ومناسكه الظاهرة التي تعبد الله عباده بالسعي بينهما.

﴿فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ أي: من قصد بيت الله للحج، أو قصده للعمرة، فلا حرج ولا إثم عليه أن يسعى بينهما، فإذا كان المشركون يسعون بينهما ويتمسحون بالإصنام، فاسعوا أنتم لله رب العالمين، ولا تتركوا الطواف بينهما خشية التشبه بالمشركين. عن أنس رضي الله عنه أنه سُئل عن الصفا والمروة، فقال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا﴾ من تطوع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته المفروضة عليه، أو فعل خيراً فرضاً كان أو نفلاً.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ إنه سبحانه شاكر له طاعته ومجازيه عليها خير الجزاء، فإنه تعالى شاكر يثيب على القليل بالكثير، والشكر من الله تعالى أن يعطي لعبده فوق ما يستحق، يشكر اليسير ويعطي الكثير، عليم بكل ما يصدر من عباده من الأعمال فلا يضيع عنده أجر المحسنين، ولا يبخس أحداً مثقال ذرة، والشاكر والشكور من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر.

* ثم نبه تعالى على وجوب نشر العلم وعدم كتمانه، وذكر خطر كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى، كما فعل اليهود والنصارى في كتبهم فاستحقوا اللعنة والغضب والدمار، فقال سبحانه:

(١٥٩)-(١٦٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: يخفون ما أنزلناه من الآيات البينات، والدلائل الواضحات التي تدل على صدق محمد ﷺ.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من بعد توضيحه لهم في التوراة أو في الكتب السماوية.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أولئك الموصوفون بقبيح الأعمال، الكاتمون لأوصاف الرسول، المحرفون لأحكام التوراة، وهم أحبار اليهود وعلماء النصارى وغيرهم، يلعنهم الله فيبعدهم ويطردهم من رحمته، وتلعنهم الملائكة والمؤمنون.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾ إلا الذين ندموا على ما صنعوا، وأصلحوا

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ
ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾
إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ
لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ
أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم
بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

٢٥

ما أفسدوه بالكتمان، وبينوا للناس حقيقة ما أنزل الله، فأولئك يقبل الله توبتهم ويشملهم برحمته.

﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: كثير التوبة على عبادي، واسع الرحمة بهم، أصفح عما فرط منهم من السيئات، الرحيم بهم، إذ وفقتهم للتوبة وقبلتها منهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: كفروا بالله وجحدوا الإيمان وكتموا الحق، واستمروا على ذلك حتى جاءهم الموت وهم على تلك الحالة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: يلعنهم الله وملائكته، وأهل الأرض جميعاً، حتى الكفار فإنهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ خالدين في اللعنة والنار -وفي إضمارها تفخيم لشأنها-.

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: إن عذابهم في جهنم دائم لا ينقطع ولا يخفف عنهم طرفة عين.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ولا يمهلون أو يؤجلون، بل يلاقيهم العذاب حال مفارقة الحياة الدنيا.

* لما ذكر تعالى حال الكافرين الجاحدين لآيات الله وما لهم من العذاب والنكال في الآخرة، ذكر هنا تفرده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عديل؛ بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إله إلا هو، وأتى بالبراهين على وجود الخالق الحكيم. فقال:

﴿١٦٣﴾ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ إلهكم أيها الناس المستحق للعبادة إله واحد، لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أسمائه وأفعاله، عن عطاء قال: أنزلت بالمدينة على النبي ﷺ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فقالت كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ إلى قوله: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لا معبود بحق إلا هو - جل وعلا - مولى النعم ومصدر الإحسان، المتصف بالرحمة العظيمة التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وفي هذا تقرير للوحدانية بنفي غيره وإثباته.

* لما ذكر سبحانه ألوهيته، ذكر تعالى الأدلة التفصيلية، على وحدانيته وقدرته، وعظمته، فبدأ بذكر العالم العلوي ثم بالعالم السفلي، ثم بتعاقب الليل النهار، ثم بالسفن التي تمر عباب البحار، ثم بالإمطار التي فيها حياة الزروع والنفوس، ثم بما بث في الأرض من أنواع الحيوانات العجيبة، ثم بالرياح والسحب التي سخرها الله لفائدة الإنسان، وختم ذلك بالأمر بالتفكر في بدائع صنع الله، وإعمال العقل في جميل خلقه، ليستدل العاقل بالأثر على وجود المؤثر، وبالصنعة على عظمة الخالق المدبر الحكيم، فقال تعالى:

﴿١٦٤﴾ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إن في إبداع خلق السموات والأرض

بما فيها من عجائب الصنعة ودلائل القدرة في ارتفاعها ولطافتها واتساعها، وكواكبها السيارة والثوابت، ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع، وغير ذلك، وذكر السموات بلفظ الجمع، والأرض بلفظ الواحد، لأن كل سماء من جنس آخر، والأرضون كلها من جنس واحد وهو التراب.

﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما بنظام محكم، يأتي الليل فيعقبه النهار، وينسلخ النهار فيعقبه الليل، ويطول النهار ويقصر الليل والعكس.

﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: وفي السفن الضخمة الكبيرة التي تسير في البحر على وجه الماء وهي محملة بالأثقال من جانب إلى جانب، بما فيه مصالح الناس من أنواع المتاجر والبضائع والمكاسب.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ﴾ وما أنزل الله من السحاب من المطر الذي به حياة البلاد والعباد.

﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ أحيا بهذا الماء الزروع والأشجار، بعد أن كانت يابسة مجدبة ليس فيها حبوب ولا ثمار.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ أي: نشر وفرق في الأرض من كل ما يدب عليها من أنواع الدواب المختلفة، في أحجامها وأشكالها وألونها وأصواتها.

﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ وما أنعم به عليكم من تقليب الرياح في هبوبها جنوباً وشمالاً، حارة وباردة، ولينة وعاصفة؛ وسميت الريح ريحاً لأنها تريح النفس. قال ابن عباس: أعظم جنود الله الريح والماء.

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: الغيم المذلل بقدر الله، سمي سحاباً؛ لأنه ينسحب، أي يسير في سرعة كأنه يُسحب ويُجر، يسير حيث شاء الله وهو يحمل الماء الغزير ثم يصبه على الأرض قطرات قطرات. قال كعب الأحبار: السحاب غربال المطر ولولا السحاب لأفسد المطر ما يقع عليه من الأرض.

﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ لدلائل وبراهين عظيمة دالة على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، والرحمة الواسعة لقوم لهم عقول تعي، وأبصار تدرك، وتتدبر بأن هذه الأمور من صنع إله قادر حكيم مستحق للعبادة وحده.

* لما فرغ سبحانه من الدليل على وحدانيته، أخبر تعالى عن سوء عاقبة المشركين الذين عبدوا غير الله وجعلوا له أنداداً مع هذه البراهين القاطعة والدلائل الباهرة، فقال:

(١٦٥)-(١٦٧) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ * إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا﴾ ومع هذا البرهان النير، من المشركين من تبلغ بهم الجهالة أن يتخذ من غير الله أنداداً، أي: رؤساء وأصناماً.

﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ يعظمونهم ويخضعون لهم كحب المؤمنين لله.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ أي: حب المؤمنين لله أشد وأثبت وأدوم من حب المشركين لآلهتهم، لأن المؤمنين أخلصوا المحبة كلها لله، وأولئك أشركوا في المحبة.

﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ لو رأى الظالمون حين يشاهدون العذاب المعد لهم يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده وأنه المتفرد بها جميعاً.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾ وأن عذاب الله شديد أليم، وجواب «لو» محذوف، أي: لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة.

﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ هناك تبرأ الرؤساء من الأتباع.

﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ حين عاينوا العذاب يوم القيامة، وتقطعت بينهم الروابط، وزالت المودات التي ارتبطوا بها في الدنيا؛ من القرابة، والأتباع، والدين، وغير ذلك.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا
عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا
يَهْتَدُونَ ١٧٠ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ
بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
١٧١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ
وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ
ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٧٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ
فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ فَمَآ
أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّۗ
وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ١٧٦

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ تمنى الأتباع لو أن لهم رجعة إلى الدنيا ليتبرؤوا من هؤلاء الذين أضلوهم السبيل.

﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾ كما تبرأ الرؤساء من الأتباع في ذلك اليوم العصيب، قال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ﴾ أي: إنه تعالى كما أراهم شدة عذابه، كذلك يريهم أعمالهم القبيحة ندامات شديدة وحسرات تتردد في صدورهم كأنها شرر الجحيم.

﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ليس لهم سبيل إلى الخروج من النار، بل هم في عذاب سرمدي وشقاء أبدي.

* لما بين تعالى التوحيد ودلائله، وما للمؤمنين المتقين والكفرة العاصين، أتبع ذلك بذكر إنعامه على الكافر والمؤمن، ليدل على أن الكفر لا يؤثر في قطع الإنعام، لأنه تعالى رب العالمين، فإحسانه عام لجميع الأنام ورزقه لجميع خلقه، ثم دعا المؤمنين إلى شكر المنعم - جل وعلا - والأكل من الطيبات التي أباحها الله، واجتناب ما حرمه الله من أنواع الخبائث. قال تعالى:

﴿١٦٨﴾،﴿١٦٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ الخطاب عام لجميع البشر، مؤمنهم وكافرهم، أي: كلوا مما أحله الله لكم من الطيبات ليس بغصب ولا سرقة، حال كونه مستطاباً في نفسه؛ غير ضار بالأبدان والعقول كالميتة والدم ولحم الخنزير.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾ ولا تقتدوا بآثار الشيطان وطرقه فيما يزينه لكم من المعاصي والفواحش والبدع والمعاصي.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ إنه عظيم وبيّن العداوة لكم، وعداوته ظاهرة لا تخفى على عاقل، ثم ذكر عداوته، فقال:

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: لا يأمركم الشيطان بما فيه خير، إنما يأمركم بالمعاصي والمنكرات، وما تناهى في القبح من الرذائل كالزنا وشرب الخمر ونحو ذلك.

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأن تفتروا على الله بتحريم ما أحل لكم، وتحليل ما حرم عليكم، فتحلوا وتحرموا من تلقاء أنفسكم، ويدخل في ذلك القول على الله بلا علم في شرعه وقدره.

﴿١٧٠﴾،﴿١٧١﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وإذا قال المؤمنون ناصحين أهل الضلال والشرك: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي والقرآن، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل.

﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ أجابوا بقولهم: لا نتبع دينكم بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام، قال تعالى في الرد عليهم:

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أيتبعون آباءهم ولو كانوا سفهاء أغبياء، ليس لهم عقل يردعهم عن الشر ولا بصيرة تنير لهم الطريق؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتنفير من حالهم في تقليدهم الأعمى للآباء.

ثم ضرب تعالى مثلاً للكافرين في غاية الوضوح والجلاء، فقال تعالى:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ ومثل الكفار في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الساطعة ومثل من يدعوهم إلى الهدى، كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها فهي تسمع الصوت والنداء دون أن تفهم الكلام والمراد، أو تدرك المعنى الذي يقال لها، فهؤلاء الكفار كالدواب السارحة لا يفهمون ما تدعوهم إليه ولا يفقهون، يسمعون القرآن ويصمون عنه الآذان، ولهذا قال تعالى:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هؤلاء الكفار صم عن سماع الحق، بكم، أي: خرس عن النطق به، عمي عن رؤيته، فهم لا يفقهون ما يقال لهم لأنهم أصبحوا كالدواب، فهم في ضلالهم يتخبطون.

* ثم أمر ﷻ عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم وأن يشكروه على ذلك، قال تعالى:

﴿١٧٢﴾، ﴿١٧٣﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ أي: كلوا يا أيها المؤمنون من المستلذات وما طاب من الرزق الحلال الذي رزقكم الله إياه، ولا تكونوا كالكفار الذين يحرمون الطيبات، ويستحلون الخبائث، وخاطب المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بالأوامر والنواهي بسبب إيمانهم.

﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ واشكروا الله على نعمه التي لا تحصى، إن كنتم تخصونه بالعبادة ولا تعبدون أحداً سواه، فإن من مقتضى العبادة الحقة أن يشكر الإنسان ربه ﷻ، ثم ذكر تعالى تحريم الخبائث:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ أي: ما حرم عليكم إلا ما يضركم من الخبائث، كالميتة التي لم تذبح بطريقة شرعية، والدم المسفوح: أي السائل، ولحم الخنزير بجميع أجزائه، وخص اللحم؛ لأنه المقصود بالأكل.

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ وما ذبح لغير الله، كما يذبح للإصنام والأوثان من الأحجار والقبور ونحوها.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: ومن فضل الله عليكم وتيسيره أن أباح لكم أكل هذه المحرمات عند الضرورة، بشرط ألا يكون ساعياً في فساد، ولا متجاوزاً مقدار الحاجة، لكنه ألجئ إلى المحرم بجوع وعدم، أو إكراه، فلا عقوبة عليه ولا ذنب في الأكل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر الذنوب، ويرحم العباد، ومن رحمته أن أباح المحرمات وقت الضرورة. وقيل في سبب تقديم الغفور على الرحيم: أن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة.

* ثم توعد ﷻ بوعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله، فقال:

﴿١٧٤﴾-﴿١٧٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: يخفون صفة النبي ﷺ المذكورة في التوراة، وهم اليهود. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود كعب ابن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحيي بن أخطب، كانوا يأخذون من

۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ
وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟
وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ
عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ
بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ
إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ
بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى
ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ
أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ
بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ
فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾

٢٧

أتباعهم الهدايا، فلما بعث محمد ﷺ خافوا انقطاع تلك المنافع فكتموا أمر محمد ﷺ ونعته وأمر شرائعه، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ **الآية.**

﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ **ويحرصون على أخذ عوض قليل من حطام الدنيا مقابل هذا الإخفاء.**

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ **أي: هؤلاء إنما يأكلون ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة، لأن أكل ذلك المال الحرام يفضي بهم إلى النار.**

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ **لا يكلمهم كلام رضى ورحمة كما يكلم المؤمنين؛ بل يكلمهم كلام غضب وسخط عليهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار.**

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **ولا يطهرهم من دنس الذنوب والكفر ويصيبهم وينالهم عذاب مؤلم، وهو عذاب جهنم.**

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ **أي: أولئك المتصفون بهذه الصفات استبدلوا الضلالة بالهدى والكفر بالإيمان.**

﴿وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ **واستبدلوا عذاب الله بمغفرته، والجحيم بالجنة.**

﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ **ما أشد صبرهم وجرأتهم على نار جهنم؟ وهو تعجيب للمؤمنين من جراءة أولئك الكفار على اقتراف أنواع المعاصي وباشروا الأسباب الموجبة لعذاب النار، وفي هذا تعجب من حالهم. ثم قال تعالى مبيناً سبب النكال والعذاب.**

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ **ذلك العذاب الأليم بسبب أن الله أنزل كتابه التوراة ببيان الحق فكتموا وحرفوا ما فيه.**

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ **إن الذين اختلفوا في تأويله وتحريفه وآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، في خلاف بعيد عن الحق والصواب، مستوجب لأشد العذاب.**

*** ولما ذكر تعالى شقاق اليهود والنصارى في أمر القبلة إذ أكثروا الخوض فيه وأنكروا على المسلمين التحول إلى استقبال الكعبة، وادعى كل من الفريقين -اليهود والنصارى- أن الهدى مقصور على قبلته، رد الله عليهم وبيّن أن العبادة الحقة وعمل البر ليس بتوجه الإنسان جهة المشرق والمغرب، ولكن بطاعة الله وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجّه، واتباع ما شرع، قال تعالى:**

﴿١٧٧﴾ ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ **ليس الخير عند الله محصوراً في أن يتوجه الإنسان في صلاته جهة المشرق والمغرب إن لم يكن من أمر الله وشرعه.**

قال القرطبي: «اعلم وفقك الله تعالى أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر، لا بسبب الأمر بالبر».

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ **إنما الخير كل الخير هو الإيمان بالله والتصديق به معبوداً وحده لا شريك له، والإيمان باليوم الآخر والبعث والجزاء وكل ما أخبر الله به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ مما يكون بعد الموت.**

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وأن يؤمن بالملائكة كلهم والكتب المنزلة، والرسل من غير تفريق.

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أعطى المال تطوعاً -مع شدة حبه- ذوي قرابته، فهم أولى بالمعروف فإن دفع المال إليهم صدقة وصلة إذا كانوا فقراء.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وأعطى المال أيضاً لليتامى الذين فقدوا آباءهم، والمساكين الذين لا مال لهم، وابن السبيل المسافر المنقطع عن ماله.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أي: الذين يسألون المعونة بدافع الحاجة، وفي تخليص الأسرى والأرقاء بالفداء.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي.

﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وأدى زكاة ماله طيبة بها نفسه، وقرن سبحانه الصلاة والزكاة، لكونهما أفضل العبادات، وأكمل القربات.

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ ومن يوفون بالعهود ولا يخلفون الوعود.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي: الصابرين على الشدائد والأمراض، وحين القتال في سبيل الله؛ لأن الجلاد والقتال يشق غاية المشقة على النفس.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم، وأولئك هم الكاملون في التقوى. وفي الآية ثناء على الأبرار، وإيحاء إلى ما يلاقونه من اطمئنان وخيرات حسان.

* ثم يمتن ﷻ على عباده المؤمنين بأن فرض عليهم القصاص وأحكامه، فقال تعالى:

(١٧٨)، (١٧٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه؛ فرض الله عليكم أن تقتصوا من القاتل عمداً بقتله بشرط المساواة، دون بغي أو عدوان، إقامة للعدل والقسط بين العباد، ثم بين تفصيل ذلك، فقال:

﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ اقتصوا من الجاني فقط، فإذا قتل الحر الحر فاقتلوه به، وإذا قتل العبد العبد فاقتلوه به، وكذلك الأنثى إذا قتلت الأنثى، مثلاً بمثل، ولا تعتدوا فتقتلوا غير الجاني، فإن أخذ غير الجاني ليس بقصاص بل هو ظلم واعتداء، وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل، وأن الدية بدل عنه.

﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ فمن سامحه ولي المقتول بالعفو عن الاقتصاص منه، أو عفا بعض الأولياء، بأن ترك وليه القود وأسقط القصاص راضياً بقبول الدية -وهي قدر مالي محدد يدفعه الجاني مقابل العفو عنه- وفي الآية ترقيق وحث على العفو إلى الدية وأحسن من ذلك العفو مجاناً، وإطلاق وصف الأخ على المماثل في الإسلام أصل جاء به القرآن، وجعل به التوافق في العقيدة كالتوافق في نسب الأخوة بل أشد.

﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ فعلى العافي اتباع للقاتل بالمعروف بأن يطالبه بالدية بلا عنف ولا إرهاق، وعلى القاتل أداء للدية إلى العافي -ولي المقتول- بلا مطل ولا بخس.

﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي: ما شرعته لكم من العفو إلى الدية، تخفيف من ربكم عليكم، ورحمة منه بكم، ففي الدية تخفيف على القاتل ونفع لأولياء القتيل. وقد جمع الإسلام في عقوبة القتل بين العدل والرحمة، فجعل القصاص حقاً لأولياء المقتول إذا طالبوا به وذلك عدل، وشرع الدية إذا أسقطوا القصاص عن القاتل وذلك رحمة.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فمن اعتدى على القاتل

فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ
عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٨٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ
عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ
مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى
ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا
فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
١٨٤ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ
وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ
ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ
مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا
هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٨٥ وَإِذَا سَأَلَكَ
عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦

٢٨

بعد قبول الدية فله عذاب أليم بقتله قصاصاً في الدنيا، أو بالنار في الآخرة.

ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص، فقال:

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ **ولكم -يا أولي العقول- في تشريع القصاص وتنفيذه بقاء وحياة، وأيّ حياة؛ لأنه من علم أنه إذا قتل نفساً قتل بها، يرتدع وينزجر عن القتل، فيحفظ حياته وحياة من أراد قتله، وبذلك تصان الدماء وتحفظ حياة الناس. والتنكير في** ﴿حَيَوٰةٌ﴾ **للتعظيم، وتلك الحياة العظيمة هي ما فيه من ارتداع الناس عن قتل النفوس؛ لأن أشد ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث الموت.**

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ **لعلكم تنزجرون وتتقون محارم الله ومآثمه.**

*** ثم ذكر ﷻ آيات كريمة فيها الأمر بالوصية بالوالدين والأقربين، قال تعالى:**

١٨٠-١٨٢ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ * فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ **أي: فرض عليكم يا معشر المؤمنين إذا أشرف أحدكم على الموت بمرض أو حضور أسباب المهالك، وقد ترك مالاً كثيراً، وجب عليه الوصية بجزء من ماله للوالدين والأقربين.**

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ **أي: بالعدل بأن لا يزيد على الثلث، وألا يوصي للأغنياء ويترك الفقراء، حقاً لازماً على المتقين لله، وقد كان هذا واجباً قبل نزول آية المواريث، ثم نسخ بآية المواريث التي حدد الله فيها نصيب كل وارث.**

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ **أي: من غيّر وصية الميت بعدما علمها من وصي أو شاهد، فإن إثم هذا التبديل على الذين بدلوه، لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ **إن الله سميع لوصيتكم وأقوالكم، عليم بما تخفيه صدوركم من الميل إلى الحق والعدل أو الجور والحيف، وسيجازيكم على ذلك، وفيه وعيد شديد للمبدلين.**

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ **فمن علم أو ظن من الموصي ميلاً عن الحق على سبيل الخطأ، أو ميلاً عن الحق عمداً.**

﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ **فأصلح بين الموصي والموصى له لتوافق الشريعة، فلا ذنب عليه بهذا التبديل.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **واسع المغفرة والرحمة لمن قصد بعمله الإصلاح.**

*** ثم يخبر تعالى بما منّ به على عباده، بأن فرض عليهم الصيام، كما فرض على الأمم السابقة، فقال تعالى:**

١٨٣، ١٨٤ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ

خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، ناداهم بلفظ الإيمان ليحرك فيهم مشاعر الطاعة ويذكي فيهم جذوة الإيمان.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أوجب الله وفرض عليكم صيام شهر رمضان وهو الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ كما فرض على الأمم قبلكم، وفيه تنشيط لهذه الأمة بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال والمسارعة إلى صالح الخصال. ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام، فقال:

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لتكونوا من المتقين لله، المجتنبين لمحارمه، فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى؛ لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه، وقهر النفس، وكسر الشهوات.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ أي: والصيام أيامه معدودات، إشارة إلى تقليل الأيام، وهي أيام شهر رمضان، فلم يفرض عليكم الدهر كله تخفيفاً ورحمة بكم، عبر بأيام -وهي جمع قلة- ووصف معدودات -وهي جمع قلة- تهويناً لأمره على المكلفين؛ لأن القليل يعد عدًّا والكثير لا يعد. ثم سهل تسهيلاً آخر، فقال:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فمن كان به مرض يشق عليه الصيام، أو كان مسافراً فله أن يفطر، وعليه صيام عدد من أيام أخر بقدر التي أفطر فيها.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ وعلى الذين يستطيعون صيامه مع المشقة لشيخوخة أو ضعف إذا أفطروا؛ عليهم فدية بقدر طعام مسكين لكل يوم.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ فمن زاد على القدر المذكور في الفدية ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾.

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: والصوم خير لكم من الفطر والفدية، إن كنتم تعلمون ما في الصوم من أجر وفضيلة.

* ثم بيّن تعالى وقت الصيام، وأيامه، ومنزلته وفضله، فقال:

١٨٥ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي: والأيام المعدودات التي فرضتها عليكم أيها المؤمنون، هي شهر رمضان الذي ابتدأ فيه نزول القرآن حال كونه هداية للناس لما فيه من إرشاد وإعجاز، وآيات واضحات تفرق بين الحق والباطل. فلما قرره وبين فضيلته وحكمة الله تعالى في تخصيصه، قال:

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن حضر منكم الشهر وكان صحيحاً مقيماً فليصم نهاره.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ومن كان مريضاً أو مسافراً فأفطر فعليه صيام أيام أخر، وكرره لئلا يتوهم نسخه بعموم لفظ شهود الشهر.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ يريد الله بهذا الترخيص التيسير عليكم لا التعسير، لتصلوا إلى رضوانه ورحمته.

﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ ولتكملوا عدة الصيام شهراً، بقضاء ما أفطرتم.

﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتختموا الصيام بتكبير الله وحده على ما أرشدكم إليه من معالم الدين، ولكي تشكروا الله على فضله وإحسانه ونعمه.

* ثم بيّن تعالى أنه قريب يجيب دعوة الداعين، ويقضي حوائج السائلين، فقال:

١٨٦ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ
لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ
تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ
بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟
حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ
ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ
عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟
أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ
لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ
وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ
مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ
يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

٢٩

دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ **وإذا سألك -يا محمد- عبادي عني، فقل لهم: إني قريب منهم، أسمع دعاءهم، وأرى تضرعهم، وأعلم حالهم. روي أن جماعة من الأعراب سألوا النبي ﷺ فقالوا: -يا محمد- أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله** ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ **الآية. والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.**

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾

قال ابن القيم: فهو قريب من داعيه وقريب من عابده، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ **أجيب دعوة من دعاني إذا كان عن إيمان وخشوع قلب. فإجابة الدعاء وعد صدق من الله لا خلف فيه، غير أن إجابة الدعوة تخالف قضاء الحاجة، فإجابة الدعوة أن يقول العبد يا رب، فيقول الله لبيك عبدي، وهذا أمر موعود موجود لكل مؤمن، وقضاء الحاجة إعطاء المراد، وقد يكون ناجزاً وقد يكون بعد مدة، وقد يكون في الآخرة، وقد تكون أخيرة له في غيره.**

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ **أي: إذا كنت أنا ربكم الغني عنكم أجيب دعاءكم فاستجيبوا أنتم لدعوتي بالإيمان بي وطاعتي، ودوموا على الإيمان لتكونوا من السعداء الراشدين، قال شيخ الإسلام في إجابة الدعاء: أنه تارة يكون لصحة الاعتقاد، وهو مطابقة الخبر، وتارة لكمال الطاعة، وهو موافقة الأمر.**

*** ثم شرع تعالى في بيان تتمة أحكام الصيام بعد أن ذكر آية القرب والدعاء، فقال:**

﴿١٨٧﴾ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ **أي: أباح الله لكم أيها الصائمون جماع نسائكم في ليالي الصوم.**

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ **هن سكن لكم وستر وحفظ، وأنتم كذلك لهن.**

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ **أي: تخونونها بمقارفة الجماع ليلة الصيام وكان هذا محرماً في صدر الإسلام ثم نسخ. روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله** ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ **الآية.**

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ **فَقَبِل توبتكم ومحا ذنوبكم لما فعلتموه قبل النسخ، ووسع لكم في الأمر.**

﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ **فالآن بعد هذه الرخصة والسعة من الله جامعوهن في ليالي الصوم واطلبوا بنكاحهن ما قدر الله لكم من الولد، ولتكن لكم نية في إعفاف أنفسكم وأزواجكم وحصول مقاصد النكاح، وسميت المجامعة:**

مباشرة؛ لملاصقة بشرة كل واحد منهما صاحبه.

﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ وكلوا واشربوا في ليالي الصوم إلى طلوع الفجر حين يتميز بياض النهار من سواد الليل.

﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ إذا طلع الفجر فأمسكوا عن الطعام والشراب والنكاح إلى غروب الشمس.

وقد جمع الله ﷻ في هذه الآية أصول المفطرات: الأكل والشرب والجماع.

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾ أي: ولا تجامعوا نساءكم ولا تقربوهن ليلاً أو نهاراً ما دمتم معتكفين في المساجد؛ لأن هذا يفسد الاعتكاف.

﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ تلك أوامر الله وزواجره وأحكامه التي شرعها لكم فلا تخالفوها.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ بمثل هذا البيان الواضح يبين الله آياته وأحكامه وشرائعه للناس كي يتقوه ويخشوه. فإن العلم الصحيح سبب للتقوى، لأنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه، وإذا بان لهم الباطل اجتنبوه، ومن علم الحق فتركه، والباطل فاتبعه، كان أعظم لجرمه وأشد لإثمه.

* لما بين تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام وأباح للمؤمنين الاستمتاع بالطعام والشراب والنكاح في ليالي رمضان، عقبه بالنهي عن أكل الأموال بغير حق؛ لأن المسلم لا يصح له أن يستمتع بالمال الحرام لا في ليالي رمضان ولا غيره، قال تعالى:

﴿١٨٨﴾ ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ ولا يأخذ بعضكم أموال بعض بالوجه الذي لم يبحه الله، كاليمين الكاذبة، والغصب والسرقة، والرشوة ونحو ذلك. والمراد من الأكل ما يعم الأخذ والاستيلاء، وعبر به؛ لأنه أهم الحوائج، وبه يحصل إتلاف المال غالباً.

﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾ وتدفعوها إلى الحكام رشوة.

﴿لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: ليعينوكم على أخذ طائفة من أموال الناس بالباطل، وأنتم تعلمون تحريم ذلك عليكم.

* ولما كان حديث الصيام يتصل برؤية الهلال وهذا ما يحرك في النفوس خاطر السؤال عن الأهلة؛ جاءت الآيات الكريمة تبين أن الأهلة مواقيت لعبادات الناس في الصيام وسائر أنواع القربات. قال تعالى:

﴿١٨٩﴾ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ﴾ يسألك أصحابك - يا محمد - عن الهلال لم يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يعظم ويستدير ثم ينقص ويدق حتى يعود كما كان؟ روي أن بعض الصحابة قالوا يا رسول الله: ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ لا يكون على حالة واحدة كالشمس، فنزلت: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ﴾ الآية.

﴿قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ فقل لهم إنها أوقات وعلامات يعرف بها الناس عباداتهم، ومعالم تعرفون بها مواعيد الصوم والحج والزكاة.

﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ وليس البر بدخولكم المنازل من ظهورها كما كنتم تفعلون في الجاهلية ظانين أن ذلك قربة إلى الله. روي أن الأنصار كانوا إذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية لم يدخل بيتاً من بابه بل كان يدخل من نقب في ظهره، أو يتخذ سلماً يصعد فيه، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾ ولكن العمل الصالح الذي يقربكم من الله في اجتناب محارم الله، وادخلوا البيوت كعادة الناس من الأبواب.

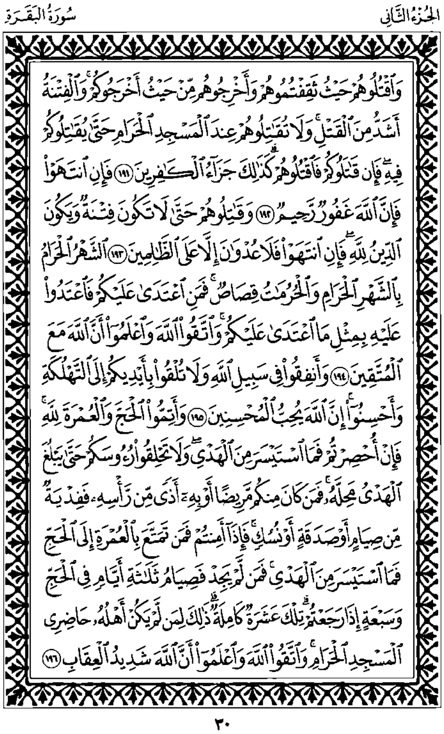
الجزء الثاني سورة البقرة
وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ
أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ
فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ
بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟
عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ
وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ
فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ
مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ
فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ
وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾
٣٠

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ **واخشوا الله لتسعدوا وتظفروا برضاه في كل أموركم.**

*** ثم ذكر ﷻ الأمر بالقتال في سبيل الله، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة لما قوي المسلمون للقتال، قال تعالى:**

﴿١٩٠﴾-﴿١٩٣﴾ ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ * فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ **وقاتلوا أيها المؤمنون لإعلاء ونصرة دين الله من قاتلكم من الكفار الذين همتهم قتال الإسلام وأهله، وفيه حث على الإخلاص، ونهي عن الاقتتال في الفتن بين المسلمين.**

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ **ولا تبدؤوا بقتالهم، فإنه تعالى لا يحب من ظلم أو اعتدى، وكان هذا في بدء أمر الدعوة ثم نسخ بآية براءة** ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] **وقيل نسخ بالآية التي بعدها وهي قوله:**

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ **واقتلوا المشركين حيث وجدتموهم في حل أو حرم، وفي كل وقت، وفي كل زمان، قتال مدافعة، وقتال مهاجمة.**

﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ **وشردوهم من أوطانهم، وأخرجوهم منها كما أخرجوكم من مكة.**

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ **وفتنة المؤمن عن دينه أشد من قتله، أو كفر الكفار أشد وأبلغ من قتلكم لهم في الحرم، فإذا استعظموا القتال فيه فكفرهم أعظم.**

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ **ولا تبدؤوهم بالقتال في الحرم تعظيماً لحرمته حتى يبدؤوا هم بقتالكم فيه.**

﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ **فإن بدؤوكم بالقتال في الحرم، فلكم حينئذ قتالهم لأنهم انتهكوا حرمته، والبادي بالشر أظلم، وهذا الحكم جزاء كل من كفر بالله.**

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **فإن انتهوا عن الشرك والكفر، وأسلموا وكفوا عن قتالكم عند المسجد الحرام فكفوا عنهم، فإن الله يغفر لمن تاب وأناب.**

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ **وقاتلوا المحاربين حتى تكسروا شوكتهم، ولا يبقى شرك على وجه الأرض، ويصبح دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان.**

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **فإن انتهوا عن قتالكم، فكفوا عن قتلهم، فمن قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين، أو فإن انتهوا عن الشرك وأسلموا فلا تعتدوا عليهم.**

*** ثم بين تعالى أن قتل المشركين في الشهر الحرام يبيح للمؤمنين دفع العدوان فيه، فقال:**

﴿١٩٤﴾ ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ

بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ أي: إذا قاتلوكم أيها المؤمنون في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام، فكما هتكوا حرمة الشهر واستحلوا دماءكم فافعلوا بهم مثله، وفي هذا أمر بالعدل حتى في المشركين.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فردوا عن أنفسكم العدوان فمن قاتلكم في الحرم أو في الشهر الحرام فقابلوه وجازوه بمثل فعله، ومن جنس عمله.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وراقبوا الله في جميع أعمالكم وأفعالكم، واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والتأييد والتوفيق في الدنيا والآخرة.

* ولما كان الجهاد يستلزم المال والعتاد، أمر ﷻ بالإنفاق في سبيله، فقال:

﴿١٩٥﴾ ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ وأنفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه القربات، ولا تبخلوا في الإنفاق فيصيبكم الهلاك، ويتقوى عليكم الأعداء، وقيل معناه: لا تتركوا الجهاد في سبيل الله وتشتغلوا بالأموال والأولاد فتهلكوا.

﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وأحسنوا الظن بالله في الإخلاف، واجعلوا عملكم كله خالصاً لوجه الله تعالى حتى يحبكم، وتكونوا من أوليائه المقربين.

* لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام، أعقب ذلكم بذكر أحكام الحج لأن شهوره تأتي مباشرة بعد شهر الصيام، وأما آيات القتال فقد ذكرت عرضاً لبيان حكم هام وهو بيان الأشهر الحرم والقتال فيها وفيما لو تعرض المشركون للمؤمنين وهم في حالة الإحرام هل يباح لهم رد العدوان عن أنفسهم والقتال في الأشهر الحرم، قال تعالى:

﴿١٩٦﴾ ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وأدوهما تامين بأركانها وشروطها، خالصين لوجه الله تعالى.

وفي قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ تنصيص على أهمية الإخلاص في هاتين العبادتين.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ فإذا منعتم عن إتمام الحج أو العمرة بمرض أو عدو، وأردتم التحليل؛ فعليكم أن تذبحوا ما تيسر من بدنة، أو بقرة، أو شاة، تقرباً إلى الله تعالى.

﴿وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ﴾ ولا تتحللوا من إحرامكم بالحلق أو التقصير حتى يصل الهدي المكان الذي يحل ذبحه فيه وهو الحرم، أو مكان الإحصار.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ فمن كان منكم معشر المحرمين مريضاً مرضاً يتضرر معه بالشعر فحلق، أو كان به أذى من رأسه كقمل أو جراح ونحو ذلك فحلق في الإحرام، فعليه فدية، وهي: إما صيام ثلاثة أيام، أو يتصدق بثلاثة آصع على ستة مساكين، أو يذبح ذبيحة وأقلها شاة.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ فإذا كنتم في أمن وصحة من أول الأمر، أو صرتم بعد الإحصار آمنين، فمن اعتمر في أشهر الحج واستمتع بما يستمتع به غير المحرم من الطيب والنساء وغيرها، فعليه ما تيسر من الهدي، وهو شاة يذبحها شكراً لله تعالى.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ فمن لم يجد ثمن الهدي إما لعدم المال أو لعدم الحيوان فعليه صيام عشرة أيام، ثلاثة حين يحرم بالحج، وسبعة إذا عاد إلى أهله ووطنه.

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا
رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ
خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ
وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ
عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ
وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ
ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾
فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ
رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ
﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً
وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ﴾ أي: عشرة أيام كاملة تجزئ عن الذبح، وثوابها كثوابه من غير نقصان.

﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ ذلك التمتع أو الهدي خاص بغير أهل الحرم، أما سكان الحرم فليس لهم تمتع وليس عليهم هدي.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وخافوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه واعلموا أن عقابه شديد لمن لم يتقه وخالف أمره.

*** ثم بين تعالى وقت الحج، فقال:**

﴿١٩٧﴾ ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ﴾ أي: وقت الحج هو تلك الأشهر المعروفة بين الناس من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته معروفة بينهم، وهي: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة.

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ فمن ألزم نفسه الحج بالإحرام والتلبية، فيحرم عليه الجماع ومقدماته القولية والفعلية، فإنه مقبل على الله، قاصد لرضاه، فعليه أن يترك الشهوات، وأن يترك المعاصي والجدال والخصام الذي يؤدي إلى الغضب والكراهية، وحيث إنه لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر، ولهذا قال:

﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ﴾ وما تقدموا لأنفسكم من عمل صالح يجازيكم عليه الله خير الجزاء، وفيه حث على الخير بعد ذكر الشر، وعلى الطاعة بعد ذكر المعصية.

﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ وخذوا لأنفسكم زاداً من الطعام والشراب لسفر الحج، وزاداً من صالح الأعمال لآخرتكم بالتقوى فإنها خير زاد. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾.

﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: خافون واتقوا عقابي يا ذوي العقول والأفهام.

*** لما أمر تعالى بالحج وحث عليه، أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب والتجارة في مواسم الحج وغيره ليس فيه حرج، إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالاً منسوباً إلى فضل الله، لا منسوباً إلى حذق العبد، والوقوف مع السبب ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه، قال تعالى:**

﴿١٩٨﴾ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾ أي: لا حرج ولا إثم عليكم في التجارة والتكسب في مواسم الحج، فإن التجارة الدنيوية لا تنافي العبادة الدينية، وقد كانوا يتأثمون من ذلك؛ فنزلت الآية تبيح لهم الاتجار في أشهر الحج.

﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ فإذا دفعتم من عرفات بعد غروب الشمس فاذكروا الله بالدعاء والتضرع والتكبير والتهليل عند المشعر الحرام بالمزدلفة.

﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ واذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية الإرشاد والبيان، وهداية التوفيق والالتزام، واشكروه على نعمة الهداية والإيمان فقد كنتم قبل هدايته لكم في عداد الضالين، الجاهلين بالإيمان وشرائع الدين؛ فهذه من أكبر النِّعم التي يجب شكرها ومقابلتها بذكر المُنعم في القلب واللسان.

* ثم أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام، قال تعالى:

(١٩٩) ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ ثم انزلوا من عرفة حيث ينزل الناس لا من المزدلفة، والخطاب لقريش حيث كانوا يترفعون على الناس أن يقفوا معهم، وكانوا يقولون: نحن أهل الله وسكان حرمه فلا نخرج منه، فيقفون في المزدلفة؛ لأنها من الحرم، ثم يفيضون منها وكانوا يسمون «الحُمْس» فأمر الله تعالى رسول ﷺ أن يأتي عرفة ثم يقف بها، ثم يفيض منها.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ واستغفروا الله عما سلف منكم من المعاصي، لأنهم في مساقط الرحمة، ومواطن القبول، ومظان الإجابة، فإن الله عظيم المغفرة واسع الرحمة، وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة، أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق.

* ثم أمر - جل وعلا - عباده بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها، وأخبر عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، قال تعالى:

(٢٠٠)-(٢٠٢) ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ * وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ فإذا فرغتم من أعمال الحج وانتهيتم منها فأكثروا من ذكر الله والثناء عليه، وبالغوا في ذلك كما كنتم تذكرون آباءكم وتعدون مفاخرهم بل أشد، قال المفسرون: كانوا يقفون بمنى بين المسجد والجبل بعد قضاء المناسك فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم، فأمروا أن يذكروا الله وحده.

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ فمن أصناف الناس من تكون الدنيا همه، فيقول: اللهم اجعل عطائي ومنحتي في الدنيا خاصة من مال وصحة وأولاد، وما له في الآخرة من حظ ولا نصيب لرغبتهم عنها وقصر هممهم على الدنيا.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ومن أصناف الناس من يطلب خيري الدنيا والآخرة، وهو المؤمن العاقل فيقول: ربنا آتنا في الدنيا عافية ورزقاً، وعلماً نافعاً وعملاً صالحاً، وغير ذلك من أمور الدين والدنيا، وفي الآخرة الجنة، واصرف عنا عذاب النار، وقد جمعت هذه الدعوة كل خير وصرفت كل شر، وهو من أجمع الأدعية، ولهذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ. فالحسنة في الدنيا تشمل الصحة والعافية، والدار الرحبة، والزوجة الحسنة، والرزق الواسع إلى غير ما هنالك، والحسنة في الآخرة تشمل الأمن من الفزع الأكبر، وتيسير الحساب ودخول الجنة، والنظر إلى وجه الله الكريم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: هؤلاء الذين طلبوا سعادة الدارين لهم حظ وافر مما عملوا من الخيرات، والله سريع الحساب محصٍ أعمال عباده يحاسب الخلائق بقدر لمحة بصر.

۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي
يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ
ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ
(٢٠٣) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ (٢٠٤)
وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ
وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ
أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ
ٱلۡمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ
مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ (٢٠٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ
ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ (٢٠٨) فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ
مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
(٢٠٩) هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ (٢١٠)

۞ ثم يأمر ﷻ عباده بذكره في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد، لميزتها وشرفها وكون بقية المناسك تفعل بها، قال تعالى:

(٢٠٣) ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ **واذكروا الله تسبيحاً وتحميداً، وكبروا الله في أعقاب الصلوات، وعند رمي الجمرات في أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر.**

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ **فمن أراد التعجل وخرج من منى بعد تمام يومين فنفر فلا حرج عليه.**

﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ﴾ **ومن تأخر حتى رمى في اليوم الثالث -وهو النفر الثاني- فلا حرج عليه أيضاً؛ وهذا تخفيف من الله تعالى على عباده في إباحة كلا الأمرين.**

﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ **أي: ما ذكر من الأحكام لمن أراد أن يتقي الله فيأتي الحج على الوجه الأكمل، والتأخر أفضل لأنه تزود في العبادة، واقتداء بفعل النبي ﷺ.**

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ **وخافوا الله تعالى بامتثال أوامره، واجتناب معاصيه؛ واعلموا أنكم مجموعون إليه للحساب فيجازيكم بأعمالكم.**

۞ لما ذكر تعالى في الآيات السابقة العبادات التي تطهر القلوب، وتزكي النفوس كالصيام، والصدقة، والحج، وذكر أن من الناس من يطلب الدنيا ولا غاية له وراءها، ومنهم من تكون غايته نيل رضوان الله -تبارك وتعالى-، أعقبها بذكر نموذج عن الفريقين: فريق الضلالة الذي باع نفسه للشيطان، وفريق الهدى الذي باع نفسه للرحمن، فقال تعالى:

(٢٠٤)-(٢٠٧) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۞ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ **وبعض الناس من المنافقين يروقك كلامه - يا محمد -، ويثير إعجابك بخلابة لسانه وقوة بيانه، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع، ولكنه منافق كذاب، روي أن الأخنس بن شريق أتى النبي ﷺ فأظهر له الإسلام وحلف أنه يحبه، وكان منافقاً حسن العلانية خبيث الباطن، ثم خرج من عند النبي ﷺ فمر بزرع لقوم من المسلمين وحُمُر، فأحرق الزرع وقتل الحُمُر، فأنزل الله تعالى في الآيات:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ...﴾ **الآية إلى قوله:** ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ...﴾ **الآية.**

﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ **في هذه الحياة فقط، أما الآخرة فالحاكم فيها علام الغيوب الذي يطلع على القلوب والسرائر، ويؤكد ما يقول:**

﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ **ويظهر لك الإيمان ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق، وفي هذا غاية الجرأة على الله.**

﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ وهو شديد الخصومة والعداوة للمسلمين، يجادل بالباطل، ويتظاهر بالدين والصلاح بكلامه المعسول.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ وإذا انصرف وأدبر عنك - يا محمد - هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك؛ عاث في الأرض فساداً وجد واجتهد في ذلك، وقد نزلت الآية في الأخنس، ولكنها عامة في كل منافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه.

﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ ومن فساده أنه يهلك الزرع وما تناسل من الإنسان والحيوان، ومعناه أن فساده عام يشمل الحاضر والباد، فالحرث محل نماء الزروع والثمار، والنسل وهو نتاج الحيوانات التي لا قوام للناس إلا بها، والمعاصي وأنواع الفساد تتلف وتنقص وتقل بركتها.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ والله يبغض الفساد، ولا يحب المفسدين، ومن كانت هذه صفته ومن يصدر منه ذلك.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ وإذا وعظ ونصح هذا الفاجر المنافق وذُكِّر، وقيل له انزع عن قولك واترك فعلك القبيح، حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم والتكبر عن قبول الحق، فأغرق في الإفساد وأمعن في العناد.

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ فيكفيه أن تكون له جهنم فراشاً ومهاداً، فهي دار العاصين والمتكبرين وبئس هذا الفراش والمهاد. وفي الآية التحذير من رد الناصحين لأن الله جعل هذا من أوصاف هؤلاء المنافقين فمن رد آمراً بتقوى الله ففيه من المنافقين، والواجب على المرء إذا قيل له ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أن يقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ تعظيماً لتقوى الله.

وبعد أن ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة، أتبعه بذكر الأخيار الأبرار الموفقين، وذكر صفاتهم الحميدة، فقال:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ ومن الناس فريق من أهل الخير والصلاح باع نفسه لله، طلباً لمرضاته ورغبة في ثوابه لا يتحرى بعمله إلا وجه الله. روي أن صهيباً الرومي لما أسلم بمكة وأراد الهجرة إلى المدينة المنورة لحقه نفر من قريش من المشركين ليردوه فنزل عن راحلته ونثر ما في كنانته وأخذ قوسه، ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم أني من أرماكم رجلاً، وايم الله لا تصلون إليّ حتى أرمي بما في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم، قالوا: جئتنا صعلوكاً لا تملك شيئاً وأنت الآن ذو مال كثير، فقال: أرأيتم إن دللتكم على مالي تخلون سبيلي؟ قالوا: نعم، فدلهم على ماله بمكة، فلما قدم المدينة دخل على رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: «ربح البيع صهيب ربح البيع صهيب» وأنزل الله ﷻ فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ عظيم الرحمة بالعباد، يضاعف الحسنات ويعفو عن السيئات، ولا يعجل العقوبة لمن عصاه.

* لما ذكر الله سبحانه أن الناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف: مؤمنين، وكافرين، ومنافقين، أمر المؤمنين بالانقياد لحكمه والاستسلام لأمره والدخول في الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً سواه، وحذر من اتباع خطوات الشيطان، وبيّن لنا عداوته الشديدة، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ يا أيها الذين آمنوا بالله ربّاً وبمحمد نبياً ورسولاً، وبالإسلام ديناً، ادخلوا في الإسلام بكليته في جميع أحكامه وشرائعه، فلا تأخذوا حكماً وتتركوا حكماً، لا تأخذوا بالصلاة وتمنعوا الزكاة مثلاً، فالإسلام كل لا يتجزأ، ولما كان الدخول في السلم كافة لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان، قال تعالى:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ لا تتبعوا طرق الشيطان وإغواءه في العمل

سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ
﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ
فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا
يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ
وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ
ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ
مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ
وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

بمعاصي الله فإنه عدو لكم ظاهر العداوة فاحذروه.

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ **فإن انحرفتم عن الدخول في الإسلام من بعد مجيء الحجج الباهرة والبراهين القاطعة على أنه حق.**

﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ **أي: اعلموا أن الله غالب لا يعجزه الانتقام ممن عصاه، حكيم في خلقه وصنعه يضع كل شيء في موضعه المناسب له، وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر الحكيم إذا عصاه العاصي قهره بقوته، وعذبه بمقتضي حكمته في تعذيب العصاة والجناة.**

*** ثم ذكر تعالى شدة عناد الكفار وطغيانهم، فقال تعالى:**

﴿٢١٠﴾ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ **أي: ما ينتظر هؤلاء المعاندون الساعون في الفساد في الأرض إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق، حيث تنشق السماء وينزل الجبار ﷻ في ظلل من الغمام وحملة العرش والملائكة الذين لا يعلم كثرتهم إلا الله ولهم زجل من التسبيح، يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبوح قدوس رب الملائكة والروح.**

﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ **وانتهى أمر الخلائق بالفصل بينهم، فريق في الجنة وفريق في السعير، وإلى الله وحده مرجع الناس جميعاً، والمقصود تصوير عظمة يوم القيامة وأهوالها وشدتها، وبيان أن الحاكم فيها هو ملك الملوك - جل وعلا - الذي لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه وهو أحكم الحاكمين.**

*** ثم قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم:**

﴿٢١١﴾، ﴿٢١٢﴾ ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ﴾ **سل - يا محمد - يهود المدينة - توبيخاً لهم وتقريعاً - كم شاهدوا مع موسى من معجزات باهرات وحجج قاطعات تدل على صدقه، ومع ذلك كفروا ولم يؤمنوا وأعرضوا عنها وحرفوها عن مواضعها.**

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ **ومن يبدل نعم الله بالكفر والجحود بها فإن عقاب الله له أليم وشديد، وسمى الله تعالى كفر النعمة تبديلاً لها؛ لأن من أنعم الله عليه بنعمة دينية أو دنيوية فلم يشكرها ولم يقم بواجبها اضمحلت عنه وذهبت، وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النعمة، وأما من شكر الله تعالى وقام بحقها، فإنها تثبت وتستمر، ويزيده الله منها فإن النعم تثبت بالشكر وتفر بالكفر.**

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ **أي: زينت وحسنت للذين**

جحدوا وحدانية الله الدنيا ونعيمها وما فيها من الشهوات والملذات، حتى نسوا الآخرة وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهافتوا عليها وأعرضوا عن دار الخلود.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: وهم مع ذلك يهزؤون ويسخرون بالمؤمنين، يرمونهم بقلة العقل لتركهم الدنيا وإقبالهم على الآخرة. قال تعالى رداً عليهم:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ والمؤمنون المتقون لله فوق أولئك الكافرين منزلة ومكانة، فهم في أعلى عليين وأولئك في أسفل سافلين، والمؤمنون في الآخرة في أوج العز والكرامة، والكافرون في حضيض الذل والمهانة.

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ والله يرزق أولياءه رزقاً واسعاً رغداً، لا فناء له ولا انقطاع، أو يرزق في الدنيا من شاء من خلقه ويوسع على من شاء مؤمناً كان أو كافراً، براً أو فاجراً على حسب الحكمة والمشيئة دون أن يكون له محاسب ﷻ.

* ثم ذكر ﷻ حال الناس وإرسال الرسل، فقال تعالى:

٢١٣ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ كان الناس جماعة واحدة على الإيمان والفطرة المستقيمة، فاختلفوا وتنازعوا.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ فبعث الله الأنبياء لهداية الناس، مبشرين للمؤمنين بجنات النعيم، ومنذرين للكافرين بعذاب الجحيم.

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ وأنزل معهم الكتب السماوية لهداية البشرية، حال كونها منزلة بين الناس في أمر الدين الذي اختلفوا فيه.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ وما اختلف في الكتاب الهادي المنير المنزل على محمد ﷺ لإزالة الاختلاف إلا الذين أعطوا الكتاب، حيث إنهم عكسوا الأمر وجعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف سبباً لاستحكامه ورسوخه.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ من بعد ظهور الحجج الواضحة والدلائل القاطعة على صدق الكتاب، فقد كان خلافهم عن بينة وعلم لا عن غفلة وجهل.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: حسداً من الكافرين للمؤمنين.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ فهدى الله ووفق المؤمنين للحق الذي اختلف فيه أهل الضلالة بتيسيره ولطفه.

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو -جل وعلا- يهدي من يشاء هدايته إلى طريق الحق الموصل إلى جنات النعيم عدلاً منه تعالى، وإقامة حجة على الخلق، وهدى بفضله ورحمته وإعانته ولطفه من شاء من عباده، فهذا فضله وإحسانه، وذاك عدله وحكمته.

* يخبر تعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء كما فعل بمن قبلهم، فهي سنته الجارية التي لا تتغير، ولا تتبدل، وقد ذكر ﷻ هذه التسلية بعد أن ذكر اختلاف الأمم على أنبيائهم، تثبيتاً للمؤمنين وتقوية لقلوبهم، قال تعالى:

٢١٤ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ أي: بل أظننتم يا معشر المؤمنين أن تدخلوا الجنة دون ابتلاء وامتحان واختبار، والحال لم ينلكم مثل ما نال من سبقكم من النبيين والمؤمنين من المحن الشديدة، ولم تبتلوا بمثل ما ابتلوا به من النكبات والويلات.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟
شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ
لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ
ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ
أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ
يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ وَمَن
يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ
حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ
ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ
هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ
ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ
قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ
مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ أصابهم الفقر والفاقة في معيشتهم، والأمراض والأسقام في أبدانهم.

﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: خُوِّفوا وأزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً لزلزلة بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل والنفي، وأخذ الأموال وغيرها، حتى وصل بهم الحال أن يقول الرسول والمؤمنون معه متى نصر الله؟ أي متى يأتي نصر الله، وذلك استبطاء منهم للنصر لتناهي الشدة عليهم، وهذا غاية الغايات من تصوير شدة المحنة، فإذا كان الرسل -مع علو كعبهم في الصبر والثبات- قد عيل صبرهم وبلغوا هذا المبلغ من الضجر والضيق كان ذلك دليلاً على أن الشدة بلغت منتهاها، قال تعالى جواباً لهم:

﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ألا فأبشروا بالنصر فإنه قد حان أوانه، فإن مع الشدة فرجاً ومع الضيق مخرجاً.

* ثم قال تعالى جواباً لسؤال المؤمنين للنبي ﷺ:

٢١٥ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ يسألونك - يا محمد - ماذا ينفقون وعلى من ينفقون؟ وقد نزلت لما قال بعض الصحابة يا رسول الله: ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها؟

﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قل لهم - يا محمد - اصرفوها في أي خير يتيسر لكم من أصناف المال الحلال الطيب، واجعلوا نفقتكم للوالدين، والأقربين من أهلكم وذوي أرحامكم، وقدم الوالدين والأقربين على المسكين وابن السبيل لحق الرحم، ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف، عمم تعالى فقال:

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ وهم الصغار والذين لا كاسب لهم، فهم مظنة الحاجة لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم، وفقد الكاسب، فوصى الله بهم العباد رحمة منه بهم ولطفاً.

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ وهم أهل الحاجات وأرباب الضرورات الذين أسكنتهم الحاجة، فينفق عليهم لدفع حاجاتهم وإغنائهم.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة التي توصله إلى مقصده.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ وكل معروف تفعلونه يعلمه الله وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء.

* ثم قال تعالى مبيناً حكمة مشروعية القتال في الإسلام، وهذه الآية فيها فرض القتال في سبيل الله، بعدما كان المؤمنون مأمورين بتركه لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وكثر المسلمون وقووا، أمرهم الله بالقتال، فقال تعالى:

٢١٦ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أي: فرض عليكم أيها المؤمنون جهاد الكفار وهو شاق ومكروه على نفوسكم من جهة الطبع لما فيه من بذل المال، وخطر هلاك النفس، والمشقة، ومفارقة الأهل والوطن.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ ولكن قد تكره نفوسكم شيئاً، وفيه كل النفع والخير.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ وقد تحب نفوسكم شيئاً لما فيه من الراحة أو اللذة العاجلة وفيه كل الخطر والضرر عليكم، فلعل لكم في القتال -وإن كرهتموه- خيراً؛ لأن فيه إما الظفر والغنيمة، أو الشهادة والأجر، ولعل لكم في تركه -وإن أحببتموه- شراً؛ لأن فيه الذل والفقر، وحرمان الأجر. وفي هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة، لعدم علمه بالعواقب فإن الله يعلم ما لا يعلمه العبد، ولهذا قال:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ والله أعلم بعواقب الأمور منكم، وأدرى بما فيه صلاحكم في دنياكم وآخرتكم، فبادروا إلى ما يأمركم به وإن شق عليكم.

* ثم انتقلت الآيات للحديث عن الشهر الحرام وحكم القتال فيه، وحال الكفار، فقال تعالى:

﴿٢١٧﴾، ﴿٢١٨﴾ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ﴾ يسألك المشركون - يا محمد - عن القتال في الشهر الحرام أيحل لهم القتال فيه؟

﴿قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾ قل لهم القتال فيه؛ إثمه كبير ووزره عظيم عند الله لاستحلاله، وسفك الدماء فيه، ولكن هنا ما هو أعظم وأخطر، وهو:

﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: ومنعكم الناس عن الدخول في دين الله بالتعذيب والتخويف، وصدهم عن المسجد الحرام -يعني مكة- وإخراجكم من البلد الحرام وأنتم أهله وحماته، كل ذلك أعظم وزراً وذنباً عند الله من القتل، فإذا استعظموا قتالكم لهم في الشهر الحرام فليعلموا أن ما ارتكبوه في حق النبي والمؤمنين أعظم وأشنع.

﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ وفتنة المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، والشرك الذي أنتم فيه أكبر عند الله من القتل.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ ولا يزالون جاهدين في قتالكم مستمرين في ذلك حتى يعيدوكم إلى الكفر والضلال إن قدروا واستطاعوا تحقيق ذلك، فهم غير نازعين عن كفرهم وعدوانهم.

﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ ومن يستجب لهم منكم فيرجع عن دينه ويرتد عن الإسلام ثم يموت على الكفر، فقد بطل عمله الصالح في الدارين، وذهب ثوابه لعدم وجود شرطه وهو الإسلام.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وهم مخلدون في جهنم لا يخرجون منها أبداً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إن المؤمنين الذين فارقوا الأهل والأوطان والأموال وجاهدوا الأعداء لإعلاء دين الله. وهذه الأعمال الثلاثة هي عنوان السعادة وقطب رحى العبودية.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ أولئك الموصوفون بما ذكر هم الجديرون بأن ينالوا رحمة الله. وفي الآية إشارة إلى أن العبد ولو أتى من الأعمال

فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ
خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ
ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ
(٢٢٠) وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ
خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ
حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ
أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ
بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)
وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي
ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ
مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ
(٢٢٢) نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ
لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٢٢٣) وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ
وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (٢٢٤)

بما أتى به؛ لا ينبغي أن يعتمد عليها ويعول عليها، بل يرجو رحمة ربه، ويرجو قبول أعماله، ومغفرة ذنوبه، وستر عيوبه.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ **والله عظيم المغفرة، واسع الرحمة، عم جوده وإحسانه كل حي.**

*** لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أحكام القتال، وبيّن الهدف السامي من مشروعيته وهو نصر الحق وإعزاز الدين وحماية الأمة، ذكر بعدها ما يتعلق بإصلاح المجتمع الداخلي على أسس من الفضيلة والخلق الكريم، فقال تعالى:**

(٢١٩)، (٢٢٠) ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ * فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ **يسألونك - يا محمد - عن حكم الخمر تعاطياً وشرباً وبيعاً وشراء، والخمر هو: كل مسكر خامر العقل وغطاه مشروباً كان أو مأكولاً. ويسألونك عن حكم القمار؛ وهو أخذ المال أو إعطاؤه بالمقامرة، وهي المغالبات التي فيه عوض من الطرفين.**

﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ **قل لهم إن في تعاطي الخمر والميسر ضرراً عظيماً وإثماً كبيراً، ومنافع مادية ضئيلة من جهة كسب الأموال وغيرها.**

﴿وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ **وضررهما أعظم من نفعهما إذ يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة، ويوقعان العداوة والبغضاء بين الناس، ويتلفان المال، وكان هذا تمهيداً لتحريمها. جاء جماعة من الأنصار فيهم عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهبة للعقل مسلبة للمال، فأنزل الله** ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ...﴾ **الآية.**

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ **ويسألونك عن القدر الذي ينفقونه من أموالهم تبرعاً وصدقة، فيسر الله لهم الأمر وأمرهم أن ينفقوا العفو، وهو المتيسر من أموالهم والفاضل عن الحاجة الذي لا تتعلق به حاجاتهم وضرورتهم. ولما بين تعالى هذا البيان الشافي، وأطلع العباد على أسرار شرعه، قال:**

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ **أي: كما يبين لكم الأحكام؛ يبين لكم المنافع والمضار، والحلال والحرام.**

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ **لتتفكروا في أمر الدنيا والآخرة، فتعلموا أن الأولى فانية، والآخرة باقية، فتعملوا لما هو أصلح، والعاقل من آثر ما يبقى على ما يفنى.**

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞ﴾ **ويسألونك - يا محمد - عن اليتامى - واليتيم من مات أبوه، ولم يبلغ - كيف يتصرفون في معاشهم وأموالهم، قل لهم: إصلاحكم لهم خير، فافعلوا الأنفع لهم دائماً. عن ابن عباس قال: لما أنزل الله** ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] **انطلق من كان عنده مال يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل**

يفضل الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، واشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ...﴾ الآية.

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ﴾ وإذا خلطتم أموالهم بأموالكم على وجه المصلحة لهم فهم إخوانكم في الدين، وأخوة الدين أقوى من أخوة النسب، ومن حقوق هذه الأخوة المخالطة بالإصلاح والنفع، وعلى الأخ أن يرعى مصلحة أخيه.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾ والله تعالى أعلم وأدرى بمن يقصد بمخالطتهم الخيانة والإفساد لأموالهم، ويعلم كذلك من يقصد ويحرص لهم على الإصلاح، فيجازي كلاً بعمله، وفي هذه الآية دليل على جواز أنواع المخالطات في المآكل والمشارب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله وإحسان، وتوسعة على المؤمنين.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ﴾ ولو شاء تعالى لأوقعكم في الحرج والمشقة، وشدد عليكم بتحريم المخالطة، ولكنه يسر عليكم الدين وسهله رحمة بكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: هو تعالى الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء، الحكيم فيما يشرع لعباده من الأحكام، فلا يكلفهم إلا وسعهم وطاقتهم.

* ثم حذر تعالى من زواج المشركات اللواتي ليس لهن دين سماوي، فقال:

(٢٢١) ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ﴾ ولا تتزوجوا -أيها المسلمون- بالمشركات عابدات الأوثان حتى يدخلن في الإسلام.

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ﴾ أي: اعلموا أن امرأة مملوكة لا مال لها ولا حسب مؤمنة بالله خير وأفضل من حرة مشركة، ولو أعجبتكم المشركة بجمالها ومالها وسائر ما يوجب الرغبة فيها من حسب أو جاه أو سلطان.

﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ﴾ ولا تزوجوا بناتكم من المشركين -وثنيين كانوا، أو أهل كتاب- حتى يؤمنوا بالله ورسوله.

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ﴾ واعلموا أن تزوجوهن من عبد مؤمن خير لكم من أن تزوجوهن من حر مشرك مهما أعجبكم في الحسب والنسب والجمال. ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين، فقال:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ﴾ أي: أولئك المذكورون من المشركين والمشركات الذين حرمت عليكم مصاهرتهم ومناكحتهم يدعونكم إلى ما يوصلكم إلى النار، وهو الكفر والفسوق في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، فحقكم ألا تتزوجوا منهم ولا تزوجوهم.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ وهو تعالى يريد بكم الخير، ويدعوكم إلى ما فيه سعادتكم، وهو العمل الذي يوجب الجنة ومغفرة الذنوب.

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويوضح حججه وأدلته للناس ليتذكروا؛ فيميزوا بين الخير والشر، والخبيث والطيب.

* ثم بين تعالى أحكام الحيض، فقال:

(٢٢٢)،(٢٢٣) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ ويسألونك - يا محمد - عن الحيض، وهو الدم الذي يسيل

لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ
قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ
أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟
ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ
ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ
إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي
ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ
فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟
مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ
فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ
بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا
غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن
يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

من النساء جبلّة في أوقات مخصوصة، فقال لهم: إنه شيء مستقذر، يضر من يقربه، وكان اليهود إذا حاضت منهم امرأة أخرجوها من البيت فلم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيت، فسُئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ...﴾ الآية.

﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ﴾ أي: اجتنبوا معاشرة النساء في حالة الحيض والمراد من هذا الاعتزال ترك المجامعة لا ترك المجالسة أو الملامسة فإن ذلك جائز.

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ ولا تجامعوهن حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن. والمراد التنبيه على أن الغرض عدم المعاشرة لا عدم القرب منهم وعدم مواكلتهن ومجالستهن كما كان يفعل اليهود إذا حاضت عندهم المرأة.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فإذا تطهرن بالماء فأتوهن في المكان الذي أحله الله لكم، وهو مكان النسل والولد، وهو القبل لا الدبر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ يحب عباده المكثرين الاستغفار والتوبة، ويحب عباده المتنزهين عن الفواحش والأقذار.

وقد جمعت الآية الطهارتين الحسية والمعنوية.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي: نساؤكم مكان زرعكم وموضع نسلكم، وفي أرحامهن يتكون الولد، فيخرج منها الأولاد بمشيئة الله، فجامعوهن في موضع النسل والذرية ولا تتعدوه إلى غيره. قال ابن عباس: اسق نباتك من حيث ينبت. ومعنى ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي: كيف شئتم قائمة وقاعدة ومضطجعة بعد أن يكون في مكان الحرث الفرج، وهو رد لقول اليهود: إذا أتى الرجل امرأته في قبلها من دبرها جاء الولد أحول.

﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ وقدموا صالح الأعمال التي تكون لكم ذخراً في الآخرة.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ وخافوا الله باجتناب معاصيه، وأيقنوا بأن مصيركم إليه فيجازيكم بأعمالكم.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وبشر المؤمنين - يا محمد - بما يفرحهم ويسرهم بالفوز العظيم، ولم يذكر المُبشَّر به ليدل على العموم، وأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿٢٢٤﴾،﴿٢٢٥﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ولا تجعلوا الحلف بالله سبباً مانعاً عن فعل الخير من البر وصلة الرحم والتقوى والإصلاح بين الناس. قال ابن عباس: لا تجعَلنَّ الله عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير، وقد نزلت في عبد الله بن رواحة حين حلف ألا يكلم ختنه النعمان بن بشير ولا يصلح بينه وبين أخته.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوالكم، عليم بأحوالكم ومقاصدكم ونياتكم. ثم قال تعالى:

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي: لا يعاقبكم الله بما جرى على لسانكم من ذكر اسم الله من غير قصد الحلف، كقول أحدكم: بلى والله، ولا والله، لا يقصد به اليمين.

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: ولكن يعاقبكم بـما قصدتم إليـه، وعقدتم القلب عليه من الأيمان إذا حنثتم فيها.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ واسع المغفـرة، حليم بمن عصاه حيث لم يعاجل عباده بالعقوبة بل يحلم عليه ويستره مع قدرته عليه وكونه بين يديه.

* ثـم ذكـر ﷻ الأمور المتعلقة بقيام الأسرة وصلاحها، أو تهدد وتهدم وتصدع كيانها، فذكر منها الإيلاء، والطلاق، والخلع، وبين العلاج الناجح والناجع لمثل هذه المشكلات التي تقوض بنيان الأسرة، قال تعالى:

﴿٢٢٦﴾،﴿٢٢٧﴾ ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ للذين يحلفون ألا يجامعوا نساءهم للإضرار بهن، انتظار أربعة أشهر.

﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن رجعوا إلى عشرة أزواجهن بالمعروف -وهو كناية عن الجماع- أي رجعوا عن اليمين إلى الوطء، فإن الله يغفر ما صدر منهم من إساءة ويرحمهم حيث جعل لإيمانهم كفارة وتحلة. ورحيم بهم أيضاً، حيث فاؤوا إلى زوجاتهم وحنوا عليهن ورحموهن.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وإن عقدوا عزمهم على الطلاق، باستمرارهم في اليمين، وترك الجماع، فإن الله سميع لأقوالهم عليم بنياتهم، وفيه وعيد وتهديد لمن يحلف هذا الحلف ويقصد بذلك المضارة والمشاقة.

* ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدة والطلاق الشرعي.

﴿٢٢٨﴾ ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ والواجب على المطلقات الحرائر المدخول بهن أن ينتظرن مدة ثلاثة أطهار أو ثلاث حيضات على سبيل العدة، ليتأكد من فراغ الرحم من الحمل، ولا يجوز لهن تزوج رجل آخر في أثناء هذه العدة حتى تنتهي، ثم تتزوج إن شاءت بعد انتهاء عدتها، وهذا في المدخول بها، أما غير المدخول بها فلا عدة عليها.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ ولا يباح للمطلقات أن يخفين ما في أرحامهن من حبل أو حيض استعجالاً في العدة وإبطالاً لحق الزوج في الرجعة.

﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إن كنّ حقاً مؤمنات بالله ويخشين من عقابه؛ لأن من آمن بالله وبعقابه لا يجترئ على مثله من العظائم، وهذا تهديد لهن حتى يخبرن بالحق من غير زيادة ولا نقصان؛ لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ وأزواجهن أحق بهن في الرجعة من التزويج للأجانب إذا لم تنقض عدتهن، وكان الغرض من الرجعة الإصلاح رغبة وألفة ومودة لا الإضرار تعذيباً لهن بتطويل العدة، وهذا في الطلاق الرجعي.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وللنساء على الأزواج من الحق مثل ما للأزواج عليهن، بالمعروف الذي أمر تعالى به من حسن العشرة وترك الضرار ونحوه.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ وللرجال على النساء منزلة زائدة من حسن الصحبة والعشرة بالمعروف، وهي القوامة والإنفاق، والإمرة ووجوب الطاعة؛ فهي درجة تكليف لا تشريف.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: غالب ينتقم ممن عصاه، له العزة القاهرة والسلطان العظيم، حكيم في أمره وتشريعه يضع كل شيء في موضعه المناسب.

* ثم بين تعالى طريقة الطلاق الشرعية، فقال:

﴿٢٢٩﴾،﴿٢٣٠﴾ ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ
أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ
وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ
يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا
طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ
أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ
مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۚ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ
كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ
وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ
وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ
أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ
أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ
ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

٣٧

مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ **الطلاق المشروع الذي يملك به الزوج الرجعة مرتان، وليس بعدهما إلا المعاشرة بالمعروف مع حسن المعاملة أو التسريح بإحسان بألا يظلمها من حقها شيئاً ولا يذكرها بسوء ولا ينفر الناس عنها، ويسرحها إلى بيت أهلها بطيب من القول ويدفع إليها متعة وهي هدية أو مال تطييباً لخاطرهن وجبراً لوحشة الفراق على قدر حال الرجل في الغنى والفقر** ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ **وكان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته ما شاء من الطلاق ثم يراجعها قبل أن تنقضي عدتها ولو طلقها ألف مرة كان له الحق في مراجعتها، فعمد رجل لامرأته فقال لها: لا آويك ولا أدعك تحلين، قالت: وكيف؟ قال أطلقك فإذا دنا مضي عدتك راجعتك، فشكت المرأة أمرها للنبي ﷺ فأنزل الله** ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ **الآية.**

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ **ولا يحل لكم أيها الأزواج أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من المهور شيئاً ولو قليلاً.**

﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾ **إلا أن يخاف الزوجان سوء العشرة، وألا يرعيا حقوق الزوجية التي أمر الله تعالى بها.**

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ﴾ **فإن خفتم سوء العشرة بينهما، وأرادت الزوجة أن تختلع بالنزول عن مهرها، أو بدفع شيء من المال لزوجها حتى يطلقها، فلا إثم على الزوج في أخذه، ولا على الزوجة في بذله؛ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقة.**

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾ **أي: هذه الأحكام العظيمة من الطلاق والرجعة والخلع وغيرها، هي شرائع الله وأحكامه، فلا تخالفوها ولا تتجاوزوها إلى غيرها مما لم يشرعه الله.**

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ **ومن خالف أحكام الله فقد عرض نفسه لسخط الله، وهو من الظالمين المستحقين للعقاب الشديد.**

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ﴾ **فإن طلق الرجل زوجته الطلقة الثالثة فلا تحل له بعد ذلك حتى تتزوج غيره زواجاً صحيحاً وجامعها فيه، ويكون الزواج عن رغبة، لا بنية تحليل المرأة لزوجها الأول، وفي ذلك زجر عن طلاق المرأة ثلاثاً لمن له رغبة في زوجته لأن كل ذي مروءة يكره أن يفترش امرأته آخر.**

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾ **فإن طلقها الزوج الآخر أو مات عنها فلا بأس أن تعود إلى زوجها الأول بعد انقضاء العدة بعقد جديد، ومهر جديد، إن كان ثمة دلائل تشير إلى الوفاق وحسن العشرة.**

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ **أي: تلك شرائع الله وأحكامه يوضحها ويبينها لذوي العلم والفهم الذين ينظرون في عواقب الأمور.**

* لانزال الآيات الكريمات تتحدث عـن أحكام الطـلاق وتوضح طريقته وشروطـه وآدابه، وتنهى عـن الإيذاء والإضرار، قال تعالى:

﴿٢٣١﴾ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وإذا طلقتم يا معشر الرجال النساء طلاقاً رجعياً بواحدة أو اثنتين، وقاربن انقضاء العدة.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ﴾ فراجعوهن من غير ضرار ولا أذى؛ ولتكن نيتكم القيام بحقوقهن على الوجه المستحسن شرعاً وعرفاً، أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن بإحسان من غير تطويل العدة عليهن.

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ﴾ واحـذروا أن تكون مراجعتهن بقصد وإرادة الإضرار بهـن لتظلموهـن بالإلجاء إلى الافتداء، وفيه زجر لما كان عليـه الناس حيـث كان الزوج يترك المعتدة حتى إذا شارفت انقضاء العدة يراجعهـا للإضرار بها ليطـول عليها العدة لا للرغبة فيها.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ﴾ ومن يمسكها للإضرار بها، أو ليكرههـا على الافتـداء فقد ظلم بذلـك العمل نفسـه، لأنـه عرضها لعذاب الله.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ﴾ ولا تهـزؤوا بأحـكام الله وأوامـره ونواهيه فتجعلـوا شريعته مهزوءاً بها بمخالفتكم لها.

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ واذكروا فضل الله عليكم بهدايتكم للإسلام، وما أنعم به عليكم من القـرآن العظيم والسـنة المطهرة، واشكروا له سبحانه على هـذه النعم الجليلة باللسـان ثناءً وحمداً، وبالقلب اعترافاً وإقراراً، وبالأركان بصرفها في طاعة الله.

﴿يَعِظُكُم بِهِۦۚ﴾ أي: يرشـدكم ويذكركم بكتابه وهدي رسـوله إلى سعادتكم في الدارين.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وخافوا الله وراقبوه فـي جميع أموركم، واعلمـوا أنه تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالكم، وسيجازيكم على ذلك.

* ثم أمـر تعـالى الأوليـاء بعدم عضل النسـاء الراغبات في العودة إلى أزواجهن، وذلـك لأن بعض الأولياء يرى أن في تطليق زوجها إياها، وتركها إلى أن تنتهـي العدة إذلالاً لها ولأهلها، فيمنعها من أن تعود إلى زوجها، فلهذا نهى الله تعـالى الأولياء عن هذا الفعل، فقال:

﴿٢٣٢﴾ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إذا طلقتـم النسـاء دون الثـلاث وانقضـت عدتهـن من غير مراجعة لهن.

﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾ فـلا تمنعوهن يا معشر الأولياء مـن العـودة لأزواجهن إذا صلحـت الأحـوال بـين الزوجين وظهرت أمارات النـدم، ورضي كل منهـا إلى العودة لصاحبه والسـير بما يـرضي الله. روي أن معقل بن يسـار زوج أختـه رجلاً من المسـلمين على عهد النبي ﷺ فكانت عنده ما كان، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها وهويتـه ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يا لكع، أي: يا لئيم، أكرمتك بهـا وزوجتك فطلقتها، والله لا ترجع إليك أبـداً، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها، فأنزل تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ...﴾ الآيـة، فلما سمعها معقل قال: سمعاً لربي وطاعة، ثم دعاه، فقال: أزوجك وأكرمك.

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي: ما نهيتكم عنه من الإضرار والعضل، ينصح به ويوعظ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر لأنه هو المنتفع بالمواعظ الشرعية.

﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ذلكم الاتعاظ بما ذكر؛ وترك العضل، وتمكين الأزواج من نكاح زوجاتهم، والتمسك بأوامر الله خير وأكثر نماء، وأنفع لكم، وأطهر من الآثام وأوضار الذنوب.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ والله يعلم ما هو أصلح من الأحكام والشرائع وأنتم لا تعلمون ذلك، فامتثلوا أمره تعالى ونهيه في جميع ما تأتون وما تذرون.

* لما ذكر تعالى جملة من الأحكام المتعلقة بالنكاح والطلاق والعدة والرجعة والعضل، ذكر في هذه الآية الكريمة حكم الرضاع؛ لأن الطلاق يحصل به الفراق فقد يطلق الرجل زوجته ويكون لها طفل ترضعه، وربما أضاعت الطفل أو حرمته الرضاعة انتقاماً من الزوج وإيذاء له في ولده، لذلك وردت هذه الآية لندب الوالدات المطلقات إلى رعاية الأطفال والاهتمام بشأنهم، قال تعالى:

﴿٢٣٣﴾ ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ والواجب على الأمهات أن يرضعن أولادهن لمدة سنتين كاملتين، وذكر الكمال للتأكيد؛ لأن في لبنها من المنفعة ما ليس في لبن غيرها من النساء، ولأن إرضاعها إياه يدعو إلى قوة الشفقة عليه، ومحبته ورحمته، لأنه يبقى في حُضنها، ويلتقم ثديها ويرضعه، ويجعل لها ذلك متعة وزيادة ألفة ومحبة.

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ إذا شاء الوالدان إتمام الرضاعة ولا زيادة عليه.

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وعلى الأب نفقة الوالدات المطلقات وكسوتهن، بما هو متعارف، دون إسراف ولا تقتير لتقوم بخدمته حق القيام.

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: تكون النفقة بقدر الطاقة، لأنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغني، ولا من لم يجد شيئاً بالنفقة حتى يجد.

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ لا يضر الوالدن بالولد فيفرطا في تعهده ويقصرا في ما ينبغي له، أو يضار أحدهما الآخر بسبب الولد، فترفض الأم إرضاعه لتضر أباه بتربيته، وينتزع الأب الولد منها إضراراً بها مع رغبتها في إرضاعه ليغيظ أحدهما صاحبه.

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ وعلى الوارث عند موت الوالد مثل ما على والد الصبي قبل موته، من النفقة والكسوة.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فإذا اتفق الوالدان على فطام المولود قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له بعد التشاور فلا إثم عليهما ليصلا إلى ما فيه مصلحة المولود.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وإن أردتم أيها الآباء أن تطلبوا مرضعة لولدكم غير الأم بسبب عجزها، أو إرادتها الزواج على غير وجه المضارة فلا إثم عليكم ولا حرج، شريطة أن تدفعوا لها ما اتفقتم عليه من الأجر بالمعروف وهذا فيه احتياط للطفل وإلزام للنظر في أمره، وهو من رحمة الله بعباده حيث حجر على الوالدين في تربية طفلهما، وأرشدهما إلى ما يصلحهما ويصلحه.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وراقبوا الله في جميع أفعالكم، فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأحوالكم وسيجازيكم على ذلك.

* لما ذكر سبحانه عـدّة الطلاق واتصل بذكرها الإرضاع، عقب ذلك بذكر عـدة الوفاة، لئلّا يتوهم أن عـدة الوفاة مثل عـدّة الطلاق، فقال تعالى:

﴿٢٣٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي: على النساء اللواتي يموت أزواجهن أن يمكثن في العدة أربعة أشـهر وعشرة أيام حداداً عـلى أزواجهن لا يخرجـن من منزل الزوجيـة، ولا يتزيـن، ولا يتزوجن، وهـذا الحكم لغير الحامل، أمـا الحامل فعدتها، وضع الحمل.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فإذا انقضت عدتهن فلا إثم عليكم أيهـا الأولياء في الإذن لهن بالزواج وفعل ما أباحه لهن الشرع من الزينة والتعرض للخطاب.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ والله عليم بجميع أعمالكم ظاهرها وباطنها، جليها وخفيها فيجازيكم عليها.

* ثم أعقب ذلك ببيان حكم الفراق بين الزوجين بالموت وما يجب على المرأة من العدة فيه رعاية لحق الزوج، كما ذكر تعالى موضع خطبة المرأة في حالة العدة، قال تعالى:

﴿٢٣٥﴾ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ ولا إثم عليكم أيها الرجـال في التعريض بخطبة النسـاء المتوفى عنهن أزواجهن في العدة، بطريق التلميح لا التصريح. قال ابن عباس: كقول الرجل: وددت أن الله يسر لي امرأة صالحة، وإن النساء لمن حاجتي.

﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ ولا إثـم عليكم أيضاً فيما أخفيتموه في أنفسكم من رغبة الزواج بهن.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قد علم الله أنكم سـتذكرونهن في أنفسكم ولا تصبرون عنهن فرفـع عنكم الحرج، فاذكروهن

الجزء الثاني — سورة البقرة

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ
أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ
وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا
وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ
وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓاْ
أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ
مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى
ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ
فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ
أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ
وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

٣٨

ولكن لا تواعدوهـن بالنكاح سرّاً إلا بطريق التعريض والتلويح، وبالمعروف الذي أقره لكم الشرع.

﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ ولا تعقدوا عقد النكاح حتى تنتهي العدة.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ أي: فانووا الخير ولا تنـووا الشر؛ خوفاً من عقابه ورجاءً لثوابه.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يمحو ذنـب من أنـاب، ولا يعاجل العقوبة لمن عصاه، مع قدرته عليه.

* ثم ذكـر تعالى حكم المطلقة قبل المساس، فقال:

﴿٢٣٦﴾ ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ

فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: لا إثم عليكم أيها الأزواج إن طلقتم النساء بعد العقد عليهن، وقبل الجماع أو قبل أن تفرضوا لهن مهراً، فالطلاق في مثل هذه الحالة غير محظور إذا كان لمصلحة أو ضرورة. روي أن رجلاً من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة ولم يسم لها مهراً ثم طلقها قبل أن يمسها، فنزلت الآية ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ فقال له النبي ﷺ: «متعها ولو بقلنسوتك».

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: فإذا طلقتموهن فادفعوا لهن بشيء من متعة ينتفعن به جبراً لهن، وتطييباً لخاطرهن، وجبراً لوحشة الفراق والطلاق، وإزالة للأحقاد، على قدر حال الرجل في الغنى والفقر، الموسر بقدر يساره، والمعسر بقدر إعساره، تمتيعاً بالمعروف حقاً ثابتاً على الذين يحسنون إلى المطلقات وإلى أنفسهم بطاعة الله.

* ثم ذكر ﷻ حال المطلقة قبل المساس وحال المهر حينها، فقال:

﴿٢٣٧﴾ ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ وإذا طلقتم النساء بعد العقد عليهن ولم تجامعوهن وقد كنتم ذكرتم لهن مهراً معيناً، فالواجب عليكم أن تدفعوا نصف المهر المسمى لهن، لأنه طلاق قبل المسيس.

﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ إلا إذا أسقطت المطلقة حقها، أو أسقط ولي أمرها الحق إذا كانت صغيرة، وقيل: هو الزوج؛ لأنه هو الذي يملك عقدة النكاح وذلك بأن يسامحها بكامل المهر الذي دفعه لها. ثم رغب تعالى في العفو، فقال:

﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وتسامحكم أيها الرجال والنساء، أقرب إلى خشية الله وطاعته، لكونه إحساناً موجباً لشرح الصدور ونفي المحذور.

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ولا تنسوا أيها المؤمنون الجميل والإحسان بينكم، وهو إعطاء ما ليس بواجب عليكم والتسامح في الحقوق. وقد ختم تعالى الآيات بالتذكير بعدم نسيان المودة والإحسان والجميل بين الزوجين، فإذا كان الطلاق قد تم لأسباب ضرورية قاهرة فلا ينبغي أن يكون هذا قاطعاً لروابط المصاهرة ووشائج القربى، إن الله بما تعملون بصير، يرغبكم في المعروف، ويحثكم على الفضل.

* ثم توسطت آيات المحافظة على الصلاة خلال الآيات الكريمة المتعلقة بأحكام الأسرة وعلاقات الزوجين عند الطلاق أو الافتراق وذلك لحكمة بليغة، وهي أن الله تعالى لما أمر بالعفو والتسامح وعدم نسيان الفضل بعد الطلاق، بيّن بعد ذلك أمر الصلاة؛ لأنها أعظم وسيلة إلى نسيان هموم الدنيا وأكدارها، ولهذا كان ﷺ إذا حزبه هم فزع إلى الصلاة، فالطلاق يولد الشحناء والبغضاء، والصلاة تدعو إلى الإحسان والتسامح، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وذلك أفضل طريق لتربية النفس، قال تعالى:

﴿٢٣٨﴾، ﴿٢٣٩﴾ ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ واظبوا أيها المؤمنون وداوموا على أداء الصلوات في أوقاتها بشروطها وأركانها وواجباتها، وخاصة الصلاة الوسطى، وهي صلاة العصر فإن الملائكة تشهدها، وإفراد الصلاة الوسطى بالذكر بعد دخولها في عموم الصلوات تشريفاً لها.

﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ وداوموا على العبادة والطاعة بالخشوع والخضوع، وقوموا لله مطيعين في صلاتكم خاشعين ذليلين.

حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ
قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ
فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ
﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا
وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ
خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ
مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ
بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ
إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ
فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ
عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾
وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن
ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا
كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

٣٩

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ فـإذا كنتم في خـوف وفـزع من عدو أو غيره، فصلوا ماشـين عـلى الأقدام، أو راكبـين على الدواب عـلى أي هيئة تستطيعونها ولو بالإيماء، أو إلى غير جهة القبلـة. وأبانت الآيـة أن الصلاة عبادة لازمة في كل الأحوال بحسب الإمكان.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ فإذا زال الخوف وجاء الأمن، فأقيموا الصلاة مسـتوفية لجميع الأركان كما أمركم الله وعلى الوجـه الذي شرعه لكم، والذكر في الآيـة يراد به الصلاة الكاملة المستوفية للأركان، واشكروا له على ما علمكم مـن أمور العبادات والأحكام ما لم تكونوا على علم به.

* ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدة:

﴿٢٤٠﴾-﴿٢٤٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ * كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ والأزواج الذيـن يموتـون ويتركون زوجاتهـم بعدهـم، فعليهـم وصية لهن: أن تمتع أزواجهـم بعدهم حولاً كاملاً -ينفـق عليهن من تركتـه ولا يخرجـن من مسـاكنهن- جبراً لخاطر الزوجة وبرّاً بالمتوفى وكان ذلك في أول الإسلام، ثم نسـخت المـدة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ فإن خرجن من أنفسـهن مختـارات راضيات فـلا إثم عليكم يا أوليـاء الميت في تركهن أن يفعلـن مـا لا ينكره الشرع كالتزين والتطيب والتعرض للخطاب.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: هو سـبحانه غالب في ملكـه، حكيم في صنعه وأمره ونهيه.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وللمطلقات واجـب عـلى الأزواج أن يمتعوهن بقدر اسـتطاعتهم من كسـوة ونفقة على الوجـه المعـروف المستحسـن شرعاً، جبراً لوحشـة الفراق وتطييباً للخواطر، وهــذه المتعة حق لازم على المؤمنين المتقين لله.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: مثل ذلك البيان الشافي الذي يوجه النفوس نحو المودة والرحمة، ويحافـظ على الروابط والأواصر، يبين الله سبحانه لكم آياته الدالة على أحكامه الشرعية لتعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها.

* لما ذكـر تعالى أحـكام الأسرة بالتفصيـل، والنظم التـي تربط بين أفرادها، وسـعى لإصلاحها باعتبار أنها النـواة واللبنـة التي يشـاد منها صرح المجتمع الفاضـل، ذكر بعدها أحـكام الجهـاد وذلك لنـشر الدين وحمايـة العقيدة وصيانة المقدسـات، وتأمين البيئة الصالحة للأسرة المسلمة التي تنشـد الحياة الكريمة، فلا صلاح لـلأسرة إلا بصلاح المجتمع، ولا بقاء لها ولا خلود إلا ببقاء الحق وأنصاره، ولهذا أمر تعالى بالقتال، وضرب عليه الأمثال بالأمم السابقة، كيف جاهدت في سـبيل الحق وانتـصرت القلة مع إيمانها على الكثرة مع كفرها وطغيانها، فليسـت العبرة بكثرة أنصـار الباطل

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ
قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟
قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا
مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ
نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا
قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ
بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ
ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ
وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾
وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

٤٠

بل بصمود أهل الحق والتزامهم له وجهادهم في سبيله، ويقص تعالى قصة الذين خرجوا من ديارهم على كثرتهم واتفاق مقاصدهم، قال تعالى:

(٢٤٣)-(٢٤٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۞ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ ألم تعلم - يا محمد - أو أيها المخاطب، حال أولئك القوم الذين خرجوا وفروا من أرضهم ومنازلهم وهم ألوف مؤلفة.

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: خوف الموت من الطاعون أو القتال وفراراً منه، والغرض من الاستفهام التعجيب والتشويق إلى سماع قصتهم، وكانوا سبعين ألفاً.

﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ فأماتهم الله ثم أحياهم، فماتوا دفعة واحدة عقوبة على فرارهم من قدر الله، وهم قوم من بني إسرائيل، دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا خوفاً من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم بدعوة نبيهم «حزقيل» فعاشوا بعد ذلك دهراً، ليعتبروا ويعلموا أنه لا مفر من حكم الله وقضائه، وقيل: هربوا من الطاعون فأماتهم الله. قال ابن كثير: وفي هذه القصة عبرة على أنه لا يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: ذو إنعام وإحسان على الناس حيث يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة ما يبصرهم بها فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يشكرون الله على نعمه وفضله بل ينكرون ويجحدون، أما الكفار فلم يشكروا، وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية الشكر.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقاتلوا الكفار لإعلاء دين الله ونصرته، لا لحظوظ النفس وأهوائها، واعلموا أن الله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأحوالكم فيجازيكم عليها، وكما أن الحذر لا يغني من القدر فكذلك الفرار من الجهاد لا يقرب أجلاً ولا يبعده. ثم يحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيله، وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه في غير موضع، قال تعالى:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ أي: من الذي يبذل ماله وينفقه في سبيل الخير ابتغاء وجه الله، ولإعلاء كلمة الله في الجهاد وسائر طرق الخير، فيكون جزاؤه، أن يُضاعف الله تعالى له ذلك القرض أضعافاً كثيرة بحسب حالة المنفق ونيته، ونفع نفقته والحاجة إليها، ولما كان الإنسان ربما توهم أنه إذا أنفق افتقر، دفع تعالى هذا الوهم بقوله:

﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ أي: فأنفقوا ولا تبالوا، فالإمساك لا يبسط الرزق، والإنفاق لا يقبضه، وأن الصدقة لا تنقص المال، وإن نقصته عدداً، فإنها تزيده بركة وحماية، والله هو الرزاق يقتِّر على من يشاء، ويوسع على من يشاء ابتلاءً وامتحاناً.

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يوم القيامة، فيجازيكم على أعمالكم.

﴿٢٤٦﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾ ألم يصل إليك - يا محمد - خبر الأشراف والوجهاء من بني إسرائيل من بعد زمان موسى؟ وهو تعجيب وتشويق للسامع كما تقدم.

﴿إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ حين طلبوا من نبيهم شمعون -وهو من نسل هارون- أن يولي عليهم داعياً وقائداً لهم، يجتمعون تحت قيادته ويقاتلون أعداءهم في سبيل الله.

﴿قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾ قال لهم نبيهم: أخشى أن يفرض عليكم القتال ثم لا تقاتلوا عدوكم وتجبنوا عن لقائه.

﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ قالوا مستنكرين توقع نبيهم: أيُّ سبب لنا في ألا نقاتل عدونا وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد؟ قال تعالى بياناً لما انطوت عليه نفوسهم من الهلع والجبن.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾ أي: لما فرض عليهم القتال مع القائد والوالي الذي ارتضوه؛ نكل أكثرهم عن الجهاد وفروا لاضطراب نياتهم وفتور عزائمهم إلا فئة قليلة منهم صبروا وثبتوا، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت. قال القرطبي: وهذا شأن الأمم المتنعمة المائلة إلى الدَّعة، تتمنى الحرب أوقات الأنفة فإذا حضرت الحرب جبنت وانقادت لطبعها.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وعيد لهم على ظلمهم بترك الجهاد ونكث العهد عصياناً لأمره تعالى.

﴿٢٤٧﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾ أي: أخبرهم نبيهم بأن الله تعالى قد ملك عليهم طالوت، ليكونوا تحت إمرته في تدبير أمر الحرب واختاره ليكون أميراً عليهم.

﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ قالوا معترضين على نبيهم كيف يكون ملكاً علينا، والحال أننا أولى بالملك منه؛ لأن فينا من هو من أولاد الملوك، وهو مع هذا فقير لا مال له فكيف يكون ملكاً علينا؟ وهذا بناء منهم على ظن فاسد، وهو أن الملك ونحوه من الولايات مستلزم لشرف النسب وكثرة المال.

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ أجابهم نبيهم على ذلك الاعتراض، فقال: إن الله اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم، والعمدة في الاختبار، أمران: العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة، والأمر الثاني قوة البدن ليعظم خطره في القلوب، ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الشدائد، ولأنه أعظم في النفوس وأهيب في القلوب، وقد خصه الله تعالى منهما بحظ وافر؛ قال ابن كثير: ومن هاهنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم، وشكل حسن، وقوة شديدة في بدنه ونفسه.

﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾ وهو تعالى الحاكم الذي يفعل ما يشاء، يعطي الملك لمن شاء من عباده من غير إرث أو مال.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ واسع الفضل كثير الكرم، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

* ولما طلبوا آية على اصطفاء الله لطالوت أجابهم إلى ذلك.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم
بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ
فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ
إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ
قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ
قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ
رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا
عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ
وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ
وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ
بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو
فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا
عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

٤١

﴿٢٤٨﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ﴾ أي: علامة ملكه واصطفائه عليكم.

﴿أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ أي: يرد الله إليكم التابوت الذي أخذ منكم، وهو صندوق التوراة الذي كان موسى عليه السلام إذا قاتل قدمه، فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون.

﴿فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: في التابوت السكون والطمأنينة والوقار، وفيه أيضاً من آثار آل موسى وآل هارون، وهي عصا موسى وثيابه وبعض الألواح التي كتبت فيها التوراة تحمله الملائكة، قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ إن في نزول التابوت ورجوعه لعلامة واضحة أن الله اختاره ليكون ملكاً عليكم إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر.

* ولما تملّك طالوت بني إسرائيل واستقر له الملك تجهزوا لقتال عدوهم، قال تعالى:

﴿٢٤٩﴾ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ﴾ فلما خرج طالوت بالجيش لقتال العمالقة، وانفصل عن بيت المقدس وجاوزه وكانوا ثمانين ألفاً أخذ بهم في أرض قفرة فأصابهم حر وعطش شديد.

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾ قال طالوت لهم: إن الله مختبركم وممتحنكم على الصبر بنهر أمامكم تعبرونه وهو نهر الشريعة المشهور بين الأردن وفلسطين ليتميز المؤمن من المنافق.

﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي﴾ أي: من شرب منه فهو عاص، وليس من أهل ديني وطاعتي، ولا يصحبنا ولا يتبعنا، وأراد بذلك أن يختبر إرادتهم وطاعتهم قبل أن يخوض بهم غمار الحرب.

﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ ومن لم يشرب منه ولم يذقه، فإنه من جندي الذين يقاتلون معي؛ لأنه مطيع لأمري وصالح للجهاد.

﴿إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾ لكن من اغترف قليلاً من الماء ليبل عطشه وينقع غلته فلا بأس بذلك، فإذن لهم برشفة من الماء تذهب العطش.

﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾ فلما وصلوا إلى النهر وقد ألقى الله عليهم العطش، شرب الجيش منه إلا فئة قليلة صبرت على العطش، كانوا بعدد أهل بدر، ثلاثمائة وبضعة عشر، كما في صحيح البخاري وغيره، وقيل: شرب منه ستة وسبعون ألفاً وتبقى معه أربعة آلاف.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ فلما اجتاز طالوت النهر مع الذين صبروا على العطش والتعب ورأوا كثرة عدوهم وعدتهم اعتراهم الخوف، فكان حال فريق منهم أن:

﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ أي: لا قدرة لنا على قتال

الأعداء مع قائد جيشهم جالوت فنحن قلة وهم كثرة كاثرة.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ فأجاب الذين يعتقدون بلقاء الله، وهم الصفوة الأخيار والعلماء الأبرار من أتباع طالوت، وقالوا يذكرون إخوانهم بالله وقدرته، قائلين:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ كم من جماعة قليلة مؤمنة صابرة غلبت جماعة كثيرة بإرادة الله ومشيئته، فالأمر لله تعالى فليس النصر بكثرة العدد، وإنما النصر من عند الله.

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: معهم بالحفظ والرعاية والتأييد، ومن كان معه فهو منصور بحول الله وقوته.

* وحين تقابلت الصفوف؛ كانت الحال كما قال تعالى:

﴿٢٥٠﴾-﴿٢٥٢﴾ ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرٗا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي: ظهر طالوت وجنوده المؤمنين في الفضاء المتسع وجهاً لوجه أمام ذلك الجيش الجرار، جيش جالوت المدرب على الحروب.

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرٗا﴾ دعوا الله ضارعين إليه بثلاث دعوات تفيد إدراك أسباب النصر، فقالوا أولاً: ربنا أفض علينا صبراً يعمنا في جمعنا وفي خاصة نفوسنا لنقوى على قتال أعدائك.

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ وثبتنا في ميدان الحرب وقوّ قلوبنا، ولا تجعل للفرار سبيلاً إلى قلوبنا وهي الدعوة الثانية.

﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وانصرنا على من كفر بك وكذب رسلك وهم جالوت وجنوده، وهي الدعوة الثالثة.

قال تعالى إخباراً عنهم:

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ أي: غلبوا جيش جالوت بنصر الله وتأييده إجابه لدعائهم، وانكسر عدوهم رغم كثرته، وقتل داود -وكان في جيش المؤمنين مع طالوت- رأس الطغيان جالوت، وقتله بيده لشجاعته وقوته وصبره، واندحر جيشه.

﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ وأعطى الله تعالى داود الملك والنبوة، وعلمه ما يشاء من العلم النافع الذي أفاضه عليه، قال ابن كثير: كان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته، ويشركه في أمره، فوفى له، ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ ولولا أن يدفع الله شر الأشرار بجهاد الأخيار لفسدت الحياة، لأن الشر إن غلب كان الخراب والدمار.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ذو تفضل وإنعام على البشر حيث لم يمكن للشر من الاستعلاء.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ما قصصنا عليك - يا محمد - من الأمور الغريبة والقصص العجيبة التي وقعت في بني إسرائيل هي من آيات الله وأخباره المغيبة التي أوحاها إليك بالحق بواسطة جبريل الأمين.

﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وإنك - يا محمد - لمن جملة الرسل الذين أرسلهم الله لتبليغ دعوته.

* لما ذكر تعالى في الآيات السابقة اصطفاء طالوت على بني إسرائيل، وتفضيل داود عليهم بالملك والنبوة، خاطب رسوله ﷺ بأنه من المرسلين، وكان ظاهر اللفظ يقتضي التسوية بين الرسل، ذكر في هذه الآية أن المرسلين ليسوا في درجة واحدة، بل بعضهم أفضل من بعض كما يكون التفاضل بين البشر، قال تعالى:

﴿٢٥٣﴾، ﴿٢٥٤﴾ ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٖۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٞ لَّا بَيْعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ
وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ
وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ
بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟
فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟
مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا
شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا
بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا
وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ
ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِن بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ
بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ **أي: أولئك الرسل الكرام الذين قصصنا عليك من أنبائهم - يا محمد - هم رسل الله حقاً، وقد فضلنا بعضهم على بعض في الرفعة والمنزلة والمراتب العالية بحسب ما منَّ الله عليهم.**

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ **منهم من خصه الله بالتكليم بلا واسطة كموسى عليه السلام، وفي هذا إثبات صفة الكلام لله عز وجل على الوجه اللائق بجلاله.**

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ **ومنهم من خصه الله بالمرتبة الرفيعة السامية، كخاتم المرسلين محمد ﷺ بعموم رسالته، وختم النبوة به، وتفضيل أمته على جميع الأمم، فهو سيد الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة، وكأبي الأنبياء إبراهيم الخليل.**

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ **ومنهم من أعطاه الله المعجزات الباهرات؛ كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار عن المغيبات كعيسى ابن مريم عليه السلام الذي قويناه بجبريل الأمين.**

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ **أي: لو أراد الله ما اقتتل الأمم الذين جاؤوا بعد الرسل من بعد الحجج الباهرة والبراهين الساطعة التي جاءتهم بها رسلهم، فلو شاء الله ما تنازعوا ولا اختلفوا ولا تقاتلوا، ولجعلهم متفقين على اتباع الرسل كما أن الرسل متفقون على كلمة الحق.**

﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ **ولكن الله لم يشأ هدايتهم بسبب اختلافهم في الدين، وتشعب مذاهبهم وأهوائهم، فمنهم من ثبت على الإيمان، ومنهم من حاد وكفر.**

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ **كرره للتأكيد، أي: لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة، لا يتنازعون، ولا يقتتلون، ولكن الله حكيم يفعل ما فيه المصلحة، وكل ذلك عن قضاء الله وقدره فهو الفعال لما يريد. ثم انتقلت الآيات إلى حث المؤمنين:**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ **أي: أنفقوا في سبيل الله من مال الله الذي منحكم إياه، ادفعوا الزكاة وأنفقوا في وجوه الخير والبر والصالحات.**

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ **من قبل مجيء ذلك اليوم الرهيب -يوم القيامة- الذي لا تستطيعون أن تفتدوا نفوسكم بمال تقدمونه فيكون كالبيع، ولا تجدون صديقاً يدفع عنكم العذاب، ولا شفيعاً يشفع لكم ليحط عنكم من سيئاتكم، إلا أن يأذن الله رب العالمين.**

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ **ولا أحد أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً. والكافر بالله هو الظالم المعتدي الذي يستحق العقاب لأنه وضع العبادة في غير موضعها.**

قال عطاء: الحمد لله الذي قال: ولم يقل: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ والظالمون هم الكافرون.

*** ثم تلت تلك الآيات آية الكرسي، وهي أعظم آية في كتاب الله، ولها شأن عظيم كما وردت بذلك الأحاديث، قال تعالى:**

﴿٢٥٥﴾ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ **أي: هو الله جل جلاله لا معبود**

بحق إلا هو، الواحد الأحد الفرد الصمد. ذو الحياة الكاملة، المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، الباقي الدائم الذي لا يموت، القائم على تدبير شؤون الخلق بالرعاية والحفظ والتدبير. و﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ قال بعض المحققين: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سُئل به أعطى.

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ لا يأخذه نعاس ولا نوم ولا غفلة، ولا ذهول عن خلقه.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: جميع ما في السموات والأرض ملكه وعبيده، وتحت قهره وسلطانه.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ لا أحد يستطيع ولا يتجاسر أن يشفع لأحد إلا إذا أذن له الله تعالى، قال ابن كثير: وهذا بيان لعظمته وجلاله وكبريائه بحيث لا يتجاسر أحد على الشفاعة إلا بإذن المولى.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلة ما هو حاضر مشاهد لهم وهو الدنيا، وما خلفهم؛ أي أمامهم، وهو الآخرة فقد أحاط علمه بالكائنات والعوالم.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ ولا يعلمون شيئاً من علمه إلا بما أعلمهم إياه على ألسنة الرسل، وهذا دليل على قدرته وعظمته وعجزهم وضعفهم.

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ أي: أحاط كرسيه بالسموات والأرض لبسطته وسعته. والكرسي: هو موضع قدمي الرب جل جلاله ولا يعلم كيفيته إلا الله سبحانه، والسموات السبع والأرضون بالنسبة للكرسي كحلقة ملقاة في فلاة. قال ابن كثير: والصحيح أن الكرسي غير العرش، وأن العرش أكبر منه كما دلت على ذلك الآثار والأخبار، وهذا يدل على كمال عظمته وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السموات والأرض على عظمتها وعظمة من فيهما، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ ولا يثقله ولا يعجزه ولا يشق عليه حفظ السموات والأرض ومن فيهما بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو العلي بذاته وصفاته فوق خلقه، ذو العظمة والجلال. وهذه الآية أعظم آية في القرآن وتسمى «آية الكرسي» وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلهذا أكثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها ورداً للإنسان في أوقاته صباحاً ومساءً، وعند نومه، وأدبار الصلوات المكتوبات، وفي الحديث: «من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح» [رواه البخاري]. وقد تضمنت الآية خمسة من أسماء الله: الله، الحي، القيوم، العلي، العظيم.

* ثم ذكر جل وعلا أن هذا الدين بين واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحداً على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، قال تعالى:

٢٥٦ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ أي: لا إجبار ولا إكراه لأحد على الدخول في دين الإسلام، فقد بان ووضح الحق من الباطل والهدى من الضلال. كان لرجل من الأنصار ابنان تنصرا قبل بعثة النبي ﷺ ثم قدما المدينة في نفر من التجار يحملون الزيت، فلزمهما أبوهما وقال: لا أدعكما حتى تسلما فنزلت ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ الآية.

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ أي: من كفر بما يعبد من غير الله كالشيطان والأوثان وآمن بالله، فقد تمسك من الدين بأقوى سبب وثبت واستقام على الطريقة المثلى. والعروة: طرف الحبل إذا ربط على هيئة الحلقة، يمسك بها من ينزل في بئر أو يصعد منها، والمراد بها: هنا وسيلة النجاة. والوثقى: شديدة الربط لا أوثق منها.

﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ أي: لا انقطاع لها ولا زوال فلا يهلك المتعلق بها، بل يصل بتمسكه بها إلى الجنة، ولا ينقطع عن الجنة إلا من لم يتمسك بها.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوال عباده، عليم بأفعالهم.

* ثم يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، قال تعالى:

٢٥٧ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ
ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ٢٥٧ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ
أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ
وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي
بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي
كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨ أَوۡ كَٱلَّذِي
مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ
هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ
قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل
لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ
وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى
ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩

٤٣

أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ **أي: الله ناصر المؤمنين ومعينهم وحافظهم ومتولي أمورهم، يخرجهم من ظلمات الكفر والضلالة، وجُمعت لاختلافها إلى نور الإيمان والهداية ووحد الإيمان، وسمى الكفر ظُلمة لالتباس طريقه، وسمي الإسلام نوراً لوضوح طريقه.**

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ **وأما الكافرون فأولياؤهم وأئمتهم الشياطين وحزبه، يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشك والضلال.**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ **أي: ماكثون في نار جهنم لا يخرجون منها أبداً.**

*** لما ذكر تعالى الإيمان بالله وصفاته القدسية العلية، وذكر ولايته للمؤمنين وولاية الطاغوت للكافرين، ذكر هنا نموذجاً عن تحكم الطغيان في نفوس الكفرة المعاندين ومجادلتهم في وحدانية الله، فذكر هاهنا قصصاً ثلاثة: الأولى في بيان إثبات الخالق الحكيم، والثانية والثالثة في إثبات الحشر، والبعث بعد الفناء، قال تعالى:**

٢٥٨ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ **تعجيب للسامع من أمر هذا الكافر، المجادل في قدرة الله وجرأته وعناده، أي: ألم ينته علمك - يا محمد - إلى ذلك المارد، وهو النمرود ابن كنعان الذي جادل إبراهيم وحاجه في وجود الله؟**

﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ **أي: لأن آتاه الله الملك، حيث حمله بطره بنعم الله على إنكار وجود الله، فقابل الجود والإحسان بالكفر والطغيان، فتجبر وسأل إبراهيم** عليه السلام **من ربك؟ فرد عليه:**

﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ **أي: حين قال له إبراهيم مستدلًا على وجود الله، إن ربي هو الذي خلق الحياة والموت في الإجساد فهو وحده رب العالمين المتفرد بالإيجاد والإماتة.**

﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ **قال ذلك الطاغية: وأنا أيضاً أحيي وأميت، أي: أقتل من أردت قتله، واستبقي من أردت استبقاءه، ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت؛ لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أن يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، روي أنه دعا رجلين فأمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر، فقال: هذا قتلته، وأمر بإطلاق الآخر، وقال: هذا أحييته، ولما رأى الخليل حماقته ومشاغبته في الدليل، عدل إلى دليل آخر أجدى وأوقع وأشد إفحاماً.**

﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ **قال إبراهيم** عليه السلام **إذا كنت تدعي الألوهية وأنك تحيي وتميت كما يفعل رب العالمين** جل جلاله **، فهذه الشمس تطلع كل يوم من المشرق بأمر الله ومشيئته، فأطلعها من المغرب بقدرتك وسلطانك ولو مرة واحدة، وكانوا أهل تنجيم، وحركة الكواكب من الغرب إلى الشرق معلومة لهم.**

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ **أي: سكت وتحير ذلك الفاجر بالحجة القاطعة، وأصبح مبهوتاً دهشاً لا يستطيع الجواب.**

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ ولم يقل الكافر ليتبين أن خذلانه في الإجابة كان بسبب كفره.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يلهمهم الحجة والبيان في مقام المناظرة والبرهان بخلاف أوليائه المتقين.

* ثم ضرب تعالى دليلاً آخر على توحد الله بالخلق والتدبير، والإماتة، والإحياء، وهذه هي القصة الثانية، وهي مثل لمن أراد الله هدايته، فقال:

(٢٥٩) ﴿أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: ألم ينته إلى علمك - يا محمد - كذلك مثل الذي مرَّ على قرية باد أهلها، وفني سكانها، وسقطت جدرانها على سقوفها، وهي قرية بيت المقدس لما خربها بختنصر.

﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: وقف عليها ذلك الرجل الصالح واسمه عزير على الرأي الأشهر متعجباً، وقال: كيف يحيي الله هذه البلدة بعد خرابها ودمارها؟ قال ذلك استعظاماً لقدرة الله تعالى وتعجباً من حال تلك المدينة وما هي عليه من الخراب والدمار، وكان راكباً على حماره حينما مرَّ عليها، فلما أراد الله به خيراً أراه آية في نفسه وفي حماره، وكان معه طعام وشراب.

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ فأمات الله ذلك السائل واستمر ميتاً مائة سنة، ثم أحياه الله ليريه كمال قدرته.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي: فبعث الله من يسأله فقال: كم مكثت في المكان ميتاً؟ قال: يوماً، ثم نظر حوله فرأى الشمس باقية لم تغب، فقال: يوماً أو بعض يوم، أي أقل من يوم، فخاطبه ربه بقوله:

﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: بل مكثت ميتاً مائة سنة كاملة، وإن شككت فانظر إلى طعامك لم يتغير بمرور الزمان، وكان معه عنب وتين وعصير فوجدها على حالها لم تفسد، وفيه أكبر دليل على قدرته تعالى حيث أبقاه وحفظه عن التغير والفساد، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فساداً.

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ أمره أن ينظر إلى حماره، وكان قد مات وتفرقت عظامه ونخرت، وصار هيكلاً من البلى، تشاهد كيف نحييه لك وأنت تنظر.

﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ فعلنا ما فعلنا لتدرك قدرة الله سبحانه، ولنجعلك معجزة ظاهرة تدل على كمال قدرتنا على البعث بعد الموت.

﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ وتأمل في عظام حمارك النخرة كيف نُركب بعضها فوق بعض، وأنت تنظر، ثم نكسوها لحماً بقدرتنا، ثم نعيد فيها الحياة، وجعل اللحم كاللباس مجازاً.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلما رأى الآيات الباهرات عياناً كما وصفها الله تعالى، قال: أيقنت وعلمت علم مشاهدة أن الله على كل شيء قدير، وصار آية للناس.

* ثم ذكر تعالى سؤال إبراهيم عليه السلام حين أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك، إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة، وهذه القصة الثالثة، وفيها الدليل الحسي على الإعادة بعد الفناء، قال تعالى:

(٢٦٠) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ واذكر حين طلب إبراهيم من ربه أن يريه ببصره كيف يحيي الموتى، سأل الخليل عن الكيفية مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية، فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان، ولهذا خاطبه ربه بقوله:

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أي: أو لم تصدق بقدرتي على الإحياء؟ حتى تسألني أن تنظر إليه.

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ قال إبراهيم عليه السلام: بلى آمنت، ولكن أردت أن أزداد بصيرة وسكون قلب، وزيادة يقين، برؤية ذلك. أراد أن يصير

الجزء الثالث — سورة البقرة

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ
تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ
ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا
ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ
يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ
أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ
أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ
يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ
رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ
صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ
عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

٤٤

له بعد علم اليقين عين اليقين، لأن الخبر ليس كالمعاينة وبهذا يجتمع دليل العيان إلى دليل الإيمان، ولم يكن إبراهيم عليه السلام شاكاً في إحياء الموتى قط، وإنما طلب المعاينة لما جبلت عليه النفوس من حب الاطمئنان برؤية ما أخبرت عنه.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ فقال الله له: خذ أربعة من الطير فضمهن إليك، ثم اقطعهن قطعاً، ثم اخلط بعضهن ببعض، حتى يصبحن كتلة واحدة. ثم فرّق أجزاءهن على رؤوس الجبال.

﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي: نادهن يأتينك مسرعات قد عادت إليهن الحياة، فنادى إبراهيم عليه السلام، فإذا كل جزء يعود إلى موضعه، وإذا بها تأتي مسرعة، قال مجاهد: كانت طاووساً وغراباً وحمامة وديكاً فذبحهن ثم فعل بهن ما فعل، ثم دعاهن فأتين مسرعات. عن ابن عباس قال: وضعهن على سبعة أجبل، وأخذ الرؤوس بيده، فجعل ينظر إلى القطرة تلقى القطرة، والريشة تلقى الريشة، حتى صرن أحياء.

﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ قال البغوي: الحكمة في المشي دون الطيران أبعد من الشبهة؛ لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطير، وأن أرجلها غير سليمة.

قال المفسرون: ذبحهن ثم قطعهن ثم خلط بعضهن ببعض حتى اختلط ريشها ودماؤها ولحومها، ثم أمسك برؤوسها عنده وجزأها أجزاء على الجبال، ثم دعاهن كما أمره تعالى فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، حتى عادت طيراً كما كانت، وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية لما سأل.

﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ذو قوة عظيمة سخر بها المخلوقات لا يمتنع عليه ما يريده، حكيم في تدبيره وصنعه وشرعه وقدره.

* ثم ذكر ﷻ مثلاً ضربه لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، فقال سبحانه:

﴿٢٦١﴾ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ مثل صدقات الذين ينفقون أموالهم؛ في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وفي سبيله وابتغاء مرضاته كمثل حبة زرعت في أرض طيبة، فإذا بها قد أخرجت ساقاً تشعب منها سبع شعب، لكل واحدة سنبلة، وفي كل سنبلة مائة حبة، وكذلك وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، أي: مثل نفقتهم كمثل حبة زرعت فأنبتت سبع سنابل.

﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ في كل سنبلة منها تحتوي على مائة حبة، فتكون الحبة قد أغلت سبعمائة حبة، وهذا تمثيل لمضاعفة الأجر لمن أخلص في صدقته بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببصره، فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، ولهذا قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يضاعف الأجر فيعطيهم أجرهم بغير حساب لمن أراد، وذلك التضعيف بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه، وابتغائه بنفقته وجه الله، ونفع نفقته وقدرها، ووقوعها موقعها، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص، والتثبيت عند النفقة، وهو إخراج المال بقلب ثابت، قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه

من يده، ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق بحسب مصادفته لموقعه، وبحسب طيب المنفق وزكائه، وفضل الله واسع وجوده لا يحد.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع الفضل والعطاء والجود، يُعطي عن سعة وغنى، عليم بنية المنفق وبمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها. نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف في غزوة تبوك، حيث جهز عثمان ألف بعير بأحلاسها وأقتابها ووضع بين يدي رسول الله ﷺ ألف دينار، فصار رسول الله ﷺ يقلبها ويقول: «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم»، وأتى عبدالرحمن بن عوف النبي ﷺ بأربعة آلاف وأربعة آلاف وقال: أقرضتها ربي، فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت»، فنزلت فيه الآية: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ الآية.

* ثم مدح -تبارك وتعالى- الذين ينفقون في سبيله، وذكر ما يعرض لهذه الصدقات ويبطلها من المن والأذى والرياء، قال تعالى:

﴿٢٦٢﴾-﴿٢٦٤﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ أي: الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله ومرضاته، لا يقصدون بإنفاقهم إلا وجه الله، ولايعقبون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات بالمنِّ على من أحسنوا إليه، بقول أو فعل يشعره بالتفضل عليه، أو يعد نعمه عليه فيكدرها عليه. والمنّ من الكبائر، ولا بالأذى؛ وهو السباب والتطاول.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾.

قال زيد بن أسلم: «حظَّر الله على عباده المن بالصنيعة، واختص به صفة لنفسه؛ لأنه من العباد تعيير وتكدير، ومن الله إفضال وتذكير». وقدم الليل على النهار، والسر على العلانية؛ لأنها أبعد عن الرياء.

﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لهم ثواب ما قدموا من الطاعة عند الله وقوله ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فيه تأكيد وتشريف.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ولا يعتريهم فزع يوم القيامة، ولا هم يحزنون على شيء فاتهم من زهرة الدنيا. ويفيد دوام انتفاء الحزن عنهم. ثم ذكر من آداب الصدقة، فقال:

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ أي: رد السائل بالتي هي أحسن، والصفح عن إلحاحه والعفو عنه، وستر خلته والتأنيس والترجية بما عند الله والرد الجميل خير عند الله وأفضل من إعطائه ثم إيذائه، أو تعييره بذل السؤال.

﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ أي: مستغن عن الخلق وصدقاتهم، لا حاجة له إلى منفق يمن ويؤذي، حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره مع قدرته عليه. ثم أخبر تعالى عما يبطل الصدقة ويضيع ثوابها لطفاً بالمنفقين ورحمة بهم، فقال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ أي: لا تحبطوا أجرة صدقاتكم بالمن والأذى. والمنّ: هو ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها. والأذى: السب والتطاول والتشكي، وقدم المنّ على الأذى لكثرة وقوعه.

﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ فهذا شبيه بالذي يخرج المال ليراه الناس، فيثنوا عليه ويمدحوه.

﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ ولا يصدق بلقاء الله ليرجو ثواباً أو يخشى عقاباً، وهذا لا شك أن عمله من أصله مردود.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ فمثل ذلك المرائي بإنفاقه كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب، يظنه الظان أرضاً طيبة منبتة.

﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أي: فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب، فيبقى صلداً أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلاً، كذلك هذا المنافق يظن أن له أعمالاً صالحة؛ فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت، ولهذا قال تعالى:

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ
وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ
جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ
فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ
ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا
لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ
وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ
حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ
وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ
﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

٤٥

﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ أي: لا يجدون له ثواباً في الآخرة، فلا ينتفع بشيء منها أصلاً.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولا يهديهم إلى طريق الخير والرشاد.

* ثم ضرب تعالى مثلاً آخر للمؤمن المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله، على وجه تزكو عليه نفقاتهم وتقبل له صدقاتهم، فقال:

﴿٢٦٥﴾ ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي: ينفقونها طلباً لمرضاة الله، وتصديقاً بلقائه، وتحقيقاً للثواب عليه.

﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: صدر الإنفاق على وجه منشرحة له النفس، سخية به، لا على وجه التردد وضعف النفس في إخراجها، وذلك أن النفقة يعرض لها آفتان؛ إما أن يقصد الإنسان بها محمدة الناس ومدحهم وهو الرياء، أو يخرجها على خور وضعف عزيمة وتردد، فهؤلاء سلموا من هاتين الآفتين، فأنفقوا ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك من المقاصد.

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ كمثل بستان كثير الشجر غزير الظلال، بمكان مرتفع من الأرض ارتفاعاً يسيراً، وخصت بالربوة لحسن شجرها وزكاء ثمرها وللطافة هوائها.

﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي: أصابها مطر غزير، فأخرجت ثمارها جنة مضاعفة، ضعفي ثمر غيرها من الأرض.

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ فإن لم ينزل عليها المطر الغزير فيكفيها المطر الخفيف، أو يكفيها الندى لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها، فهي تنتج على كل حال، وكذلك نفقات المخلصين تُقبل عند الله وتضاعف، كثرت أم قلت، وهكذا المؤمن إذا أكثر الله له الخير أكثر من الصدقة ابتغاء وجه الله، وإذا أصابه من الخير قليل فإنه يبذل من صدقته ولا يقطعها.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد فهو المطلع على السرائر، البصير بالظواهر والبواطن، يثيب كلاً بحسب إخلاصه.

* ثم ضرب ﷻ مثلاً لمن عمل عملاً لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها، ثم عمل أعمالاً تفسده، قال تعالى:

﴿٢٦٦﴾ ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أيحب الواحد منكم ويرغب أن يكون له بستان فيه أنواع النخيل والأعناب والثمار الشيء الكثير، وخص منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منفعتهما؛ لكونهما غذاء وقوتاً، وفاكهة وحلوى.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: وفي تلك الجنة تمر الأنهار العذبة من تحت أشجارها، وينبت له فيها جميع الثمار، ومن كل زوج بهيج، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته.

﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ وأصابته الشيخوخة وبلغ الكبر، فضعف عن الكسب والعمل ولا يستطيع أن يغرس مثل هذا الغرس والكبر مظنة شدة الحاجة، لما يلحق صاحبه من العجز عن تعاطي

الأسباب، وله أولاد صغار ضعاف عجزة لا يقدرون على الكسب وهم في حاجة إلى هذا البستان، فبينما هو كذلك.

﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ﴾ أي: وهم في تلك الحالة هبت على تلك الحديقة ريح عاصفة شديدة معها نار، فأحرقت الثمار والأشجار أحوج ما يكون الإنسان إليها، فلا تسأل عما لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهم والغم والحزن، وهكذا حال غير المخلصين في نفقاتهم يأتون يوم القيامة ولا حسنة لهم، ولهذا أمر الله بالتفكر وحث عليه، فقال:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: مثل هذا البيان الواضح في هذا المثل الرائع المحكم يبين الله لكم آياته في كتابه الحكيم، لكي تتفكروا وتتدبروا بما فيها من العبر والعظات.

* ثم يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة والحث عليها من طيبات ما يسر لهم من المكاسب، بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني، فإنها اشتملت على بيان الداعي إلى البخل، والداعي إلى البذل والإنفاق، وبيان ما يدعو إليه داعي البخل، وما يدعو إليه داعي الإنفاق، قال تعالى:

(٢٦٧)-(٢٦٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ * يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أنفقوا من الحلال الطيب من المال الذي كسبتموه، ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار، فكما منَّ عليكم بتسهيل تحصيله، فأنفقوا منه شكراً لله وأداءً لبعض حقوق إخوانكم عليكم وتطهيراً لأموالكم، واقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم.

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ ولا تقصدوا الرديء منه لتعطوه الفقراء، نهى سبحانه عن قصد إخراج الرديء وكما هو عادة أكثر النفوس تمسك الجيد لها، وتخرج الرديء للفقير.

﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ ولو أعطيتموه لم تأخذوه إلا إذا تساهلتم وأغمضتم البصر، فكيف تؤدون منه حق الله.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: إنه سبحانه غني عن صدقاتكم، حميد يجازي المحسن أفضل الجزاء.

ثم حذر تعالى من وسوسة الشيطان في هذا الموطن، فقال:

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ أي: هذا البخل واختيار الرديء للصدقة من الشيطان الذي يخوفكم الفقر وقلة ذات اليد إن تصدقتم، ويغريكم بالبخل، ومنع الزكاة، ويأمركم بالمعاصي، ومخالفة الله تعالى. والفاحش عند العرب: البخيل لشدة قبح البخل عندهم.

﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾ وهو سبحانه يعدكم على إنفاقكم في سبيله مغفرة للذنوب، وخلفاً لما أنفقتموه، وإحساناً إليكم في الدنيا والآخرة، ومن الخلف العاجل: انشراح الصدر، ونعيم القلب والروح، وحصول ثوابها وتوفيقها يوم القيامة، وليس هذا عظيماً عليه.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ واسع الفضل وعظيم العطاء، عليم بما صدر منكم من النفقات قليلها وكثيرها، سرها وعلنها، فيجازيكم عليها من سعته وفضله وإحسانه.

﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ أي: يعطي العلم النافع المؤدي إلى العمل الصالح من شاء من عباده، ومن أنعم عليه بذلك فقد أعطي الخير الكثير لمصير صاحبها إلى السعادة الأبدية.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ وما يتعظ بأمثال القرآن وحكمه إلا أصحاب العقول النيرة الخالصة من الهوى.

* لا تزال الآيات تتحدث عن الإنفاق في وجوه البر والخير، وأعلاها الجهاد في سبيل الله والإنفاق لإعلاء كلمته، وترغب في إخفاء الصدقات؛ لأنها أبعد عن الرياء، قال تعالى:

وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ
يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ٢٧٠ إِن تُبۡدُواْ
ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا
ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن
سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١ ۞ لَّيۡسَ
عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا
تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا
ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ
وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ
يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم
بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ
خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم
بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ
رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤

(٢٧٠)، (٢٧١) ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ * إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ﴾ **وما بذلتم أيها المؤمنون من مال، أو نذرتم من شيء في سبيل الله فإن الله يعلمه، وهو المطلع على نياتكم وسوف يجازيكم على ذلك، وفيه معنى الوعد والوعيد.**

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾ **وليس لمن منع الزكاة أو صرف المال في معاصي الله، أو قصد بذلك رضى المخلوقين، ما لهم من معين أو نصير ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله.**

﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ **إن تظهروا صدقاتكم وتكون علانية حيث كان القصد بها وجه الله، فنعم هذا الشيء الذي تفعلونه لحصول المقصود بها.**

﴿وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ **وإن تسروها وتدفعوها للفقراء فهو أفضل لكم؛ لأن ذلك أبعد عن الرياء.**

﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ **ويزيل بجميل أعمالكم سيِّء آثامكم، ففي الصدقة -مع الإخلاص- محو لذنوبكم ودفع العقاب عنكم.**

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ **أي: هو سبحانه مطلع على أعمالكم من خير وشر، قليل وكثير، يعلم خفاياكم، فيجازيكم عليها. وفي الآية ترغيب في أن صدقة السر على الفقير أفضل من صدقة العلانية، وأما إذا لم تؤت الصدقات الفقراء، فمفهوم الآية أن السر ليس خيراً من العلانية، فيرجع في ذلك إلى المصلحة، فإن كان في إظهارها إظهار شعائر الدين وحصول الاقتداء ونحوه، فهو أفضل من الإسرار.**

(٢٧٢)-(٢٧٤) ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ * لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ **ليس عليك - يا محمد - أن تهدي الناس، فالهداية بيد الله ﷻ، ولست بمؤاخذ بجريرة من لم يهتد، إنما أنت ملزم بتبليغهم فحسب، والله يهدي من شاء من عباده إلى الإسلام. عن سعيد بن جبير أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة، فلما كثر فقراء المسلمين، قال رسول الله ﷺ: «لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم» فنزلت هذه الآية** ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ **مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام.**

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡ﴾ **وما تبذلوا من مال فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم؛ لأن ثوابه لكم.**

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ **خبر بمعنى النهي، أي: لا تجعلوا إنفاقكم إلا لوجه الله لا لغرض دنيوي، وفي الآية إثبات صفة الوجه لله تعالى على ما يليق به سبحانه.**

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ **وما تنفقوا من مال -مخلصين لله- فإن أجره وثوابه أضعافاً مضاعفة تنالونه أنتم ولا تنقصون شيئاً من حسناتكم.**

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: اجعلوا ما تنفقونه للفقراء الذين حبسوا أنفسهم للجهاد والغزو في سبيل الله.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يستطيعون بسبب انشغالهم بشأن الجهاد السفر في الأرض للتجارة والكسب.

﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ يظنهم الذي لا يعرف حالهم أغنياء موسرين من شدة تعففهم عن السؤال، وهذا بيان لصدق صبرهم وحسن تعففهم.

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ تعرف حالهم أيها المخاطب بعلامتهم من التواضع وأثر الجهد، وهم مع ذلك لا يسألون الناس شيئاً أصلاً فلا يقع منهم إلحاح. وقيل معناه: إن سألوا سألوا بلطف ولم يلحوا.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ وما أنفقتموه في وجوه الخير فإن الله يجازيكم عليه أحسن الجزاء. ثم ذكر حالة المتصدقين في جميع الأوقات على جميع الأحوال، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ الذين ينفقون في سبيل الله ابتغاء مرضاته، في جميع الأوقات، من ليل أو نهار، وفي جميع الأحوال من سر وجهر.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فلهم ثواب ما أنفقوا، ولا خوف عليهم يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا.

* لما أمر تعالى بالإنفاق من طيبات ما كسبوا، وحض على الصدقة ورغب في الإنفاق في سبيل الله، ذكر هنا ما يقابل ذلك من حالة الظالمين المسيئين إلى المحتاجين غاية الإساءة، وهو: أكل الربا وأموال الناس بالباطل، وأنواع الشبهات، ويذكر ﷻ حال أكلة الربا وسوء مآلهم وشدة تقلبهم، قال تعالى:

﴿٢٧٥﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ أي: الذين يتعاملون بالربا لا يقومون إذا بعثوا من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع من جنونه، يتعثر ويقع، ولا يستطيع أن يمشي سوياً، يقومون مخبلين كالمصروعين، تلك سيماهم يعرفون بها عند الموقف هتكاً لهم وفضيحة، متوقعين لعظيم النكال وعسر الوبال.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ ذلك العقاب والتخبط والتعثر بسبب استحلالهم ما حرمه الله، وقولهم: الربا كالبيع، فلماذا يكون حراماً؟ وهذا لا يكون إلا من جاهل عظيم جهله، أو متجاهل عظيم عناده. قال تعالى ردّاً عليهم ومكذباً لهم.

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ أي: أحل الله البيع لما فيه من تبادل المنافع وعموم المصالح، وحرم الربا لما فيه من الظلم وسوء العاقبة، لأن فيه زيادة واستغلالاً وضياعاً وهلاكاً.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ تذكير وتخويف، أي: من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى عن التعامل به، فله ما مضى قبل التحريم، ولا إثم عليه جزاء لقبوله للنصيحة والموعظة.

﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأمره موكول إلى الله فيما يستقبل من زمانه، فإن استمر على توبته فالله لا يضيع أجر المحسنين.

﴿وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ومن عاد إلى التعامل بالربا ولم تنفعه الموعظة، بل أصر على ذلك واستحله بعد تحريم الله له فقد استوجب العقوبة، وقامت عليه الحجة، وهو من المخلدين في نار جهنم؛ لأن من أحل ما حرم الله ﷻ فهو كافر.

﴿٢٧٦﴾، ﴿٢٧٧﴾ ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يذهب ريع الربا ويمحو خيره ويذهب بركته، وإن كان زيادة في الظاهر، وإن أنفق منه لم يؤجر عليه، ويكثِّر تعالى الصدقات وينميها ويبارك لهم في أموالهم وإن كانت نقصاناً في الشاهد. والجزاء من جنس العمل، فإن المرابي قد ظلم الناس فجوزي

الجزء الثالث سورة البقرة

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى
يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ
مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ
مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ
عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ
ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ
(٢٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ
فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ
أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ
ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ
إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى
ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

٤٧

بذهاب ماله، والمحسن إليهم؛ ربه أكرم منه ﷺ.

ولم يرد في القرآن كله لفظ ﴿يَمْحَقُ﴾ إلا في هذا الموضع وفي قوله: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ وهو سبحانه لا يحب كل كفور القلب، أثيم القول والفعل، لا يؤدي ما أوجب عليه من الصدقات، وفي الآية تغليظ في أمر الربا وإيذان بأنه من فعل الكفار.

ثم قال تعالى مادحاً المؤمنين المطيعين أمره في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: صدقوا بالله وعملوا الصالحات التي من جملتها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لهم ثوابهم الكامل في الجنة، ولا يخافون يوم الفزع الأكبر، ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا.

* يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، ناهياً لهم عما يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه:

(٢٧٨)-(٢٨١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: اخشوا ربكم وراقبوه فيما تفعلون، واتركوا ما بقي لكم من رؤوس أموالكم التي كانت لكم عند الناس قبل تحريم الربا إن كنتم مؤمنين بالله قولاً وعملاً. كان لبني عمرو من ثقيف ديون ربا على بني المغيرة فلما حل الأجل أرادوا أن يتقاضوا الربا منهم فنزلت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الآية، فقالت ثقيف: لا يد لنا -أي لا طاقة لنا- بحرب الله ورسوله وتابوا وأخذوا رؤوس أموالهم فقط، قال ابن تيمية: إنه جاء في الوعيد على الربا ما لم يأت على ذنب دون الشرك.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: وإن لم ترتدعوا عما نهاكم الله عنه من التعامل بالربا فأيقنوا بحرب الله ورسوله لكم، قال ابن عباس: يقال لآكل الربا يوم القيامة خذ سلاحك للحرب. وقد دلت هذه الآية على أن أكل الربا والعمل به من الكبائر.

﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ وإن رجعتم إلى ربكم وتركتم أكل الربا؛ فلكم أصل المال الذي دفعتموه من غير زيادة ولا نقصان، لا تظلمون أحداً بأخذ ما زاد على رؤوس أموالكم، ولا يظلمكم أحد بنقص ما أقرضتم.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ وإذا كان المدين معسراً لا يجد وفاء، فعليكم أن تمهلوه إلى أن ييسر الله له رزقاً فيدفع إليكم مالكم، لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه: إما أن تقضي وإما أن تُربي.

﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وإن تجاوزتم عما لكم عنده كاملاً أو بعضه فهو أكرم وأفضل، إن كنتم تعلمون ما فيه من الذكر الجميل والأجر العظيم.

ثم حذر تعالى عباده من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه إلا العمل الصالح، فقال:

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ واحذروا أيها الناس يوماً سترجعون فيه إلى ربكم، وهو يوم القيامة، تعرضون على الله ليحاسبكم، فيجازي كل واحد منكم بما عمل من خير أو شر دون أن يناله ظلم. عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت من القرآن ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وكان بين نزولها وبين موت النبي ﷺ واحد وثلاثون يوماً.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾

قال ابن جني: «كأن الله تعالى رفق بالمؤمنين على أن يواجههم بذكر الرجعة، إذ هي مما تنفطر له القلوب».

* لما ذكر تعالى الربا وبيّن ما فيه من قباحة وشناعة، جاءت أطول آية في القرآن العظيم، وهي آية الدين، ذكر فيها تعالى القرض الحسن بلا فائدة، وذكر الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن، وكلها طرق شريفة لتنمية المال وزيادته بما فيه صلاح الفرد والمجتمع، قال تعالى:

٢٨٢ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ أي: إذا تعاملتم بدين إلى وقت معلوم فاكتبوه، وهذا إرشاد منه تعالى لعباده بكتابة المعاملات المؤجلة ليكون ذلك أحفظ وأوثق لمقدارها وميقاتها حفاظاً على المال ودفعاً للنزاع.

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ وليكتب لكم كاتب عادل مأمون، لا يجور على أحد الطرفين.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ ولا يمتنع من منّ الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتداينين، وليقم بالكتابة بالعدل إحساناً إلى عباد الله المحتاجين للكتابة، كما أحسن الله إليه بتعليمه.

﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ليقم المدين بإملاء ما عليه من الدين، ولا يكتب الكاتب إلا ما أملاه من عليه الحق على الكاتب.

﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ أمر أن يبين جميع الحق الذي عليه وليخش الله رب العالمين، ولا ينقص من دينه شيئاً.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا﴾ فإن كان المدين ناقص العقل مبذراً، أو كان صبياً أو شيخاً هرماً.

﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: لا يستطيع الإملاء بنفسه لعيٍّ أو خرس أو عجمة، فليتول الإملاء عنه قيّمه أو وكيله بالعدل من غير نقص أو زيادة.

﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ واطلبوا مع الكتابة أن يشهد لكم شاهدان من أهل العدالة زيادة في التوثقة، وشهادة الكفار ذكوراً أو إناثاً غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ فإن لم يكن الشاهدان رجلين، فليشهد رجل وامرأتان ممن يوثق بدينهم وعدالتهم.

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي: تنسى إحدى المرأتين الشهادة فتذكرها الأخرى، وهذا علة لوجوب الاثنتين لنقص الضبط فيهن.

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ ولا يمتنع الشهداء عن أداء الشهادة أو تحملها إذا طلب منهم ذلك.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ ولا تملّوا أن تكتبوا الدين صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً إلى وقت حلول ميعاده.

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ أي: ما أمرناكم به من كتابة الدين، أعدل في حكمه تعالى، وأثبت للشهادة لئلا تنسى، وأقرب أن لا تشكوا في قدر الدين والأجل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ
فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ
مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ
مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا
أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ
تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا
اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

٤٨

﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي: فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كان البيع حاضراً، يداً بيد، والثمن مقبوضاً لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ فلا بأس بعدم كتابتها لانتفاء المحذور.

﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ وأشهدوا على حقكم مطلقاً سواء كان البيع ناجزاً أو بالدين؛ لأنه أبعد عن النزاع والاختلاف.

﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ ولا يضر صاحب الحق، الكاتب والشهود بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك.

﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ وإن فعلتم ما نهيتم عنه من الحرمات فقد فسقتم بخروجكم عن طاعة الله.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ وخافوا الله وراقبوه، يمنحكم العلم النافع الذي به سعادة الدارين.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عالم بالمصالح والعواقب فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

* ثم ذكر تعالى من أنواع التجارات التي تقع حال السفر، فقال:

﴿٢٨٣﴾ ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ وإن كنتم مسافرين، وتداينتم إلى أجل مسمى، ولم تجدوا من يكتب لكم، فادفعوا إلى صاحب الحق شيئاً يكون عنده يحصل له التوثيق، ويكون ضماناً لحقه إلى أن يرد المدين ما عليه من دين.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فإن أمن الدائن المدين، فاستغنى عن الرهن ثقة بأمانة صاحبه فليدفع ذاك المؤتمن الدين الذي عليه، وليتق الله في رعاية حقوق الأمانة، ويجازي من أحسن به الظن بالإحسان.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ هذا خطاب للشهود، أي: إذا دعيتم إلى أداء شهادة؛ لأن الحق مبني عليها لا يثبت من دونها، فلا تكتموها فإن كتمانها إثم كبير، يجعل القلب آثماً وصاحبه فاجراً، وخص القلب بالذكر لأنه سلطان الأعضاء، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد وأفعالهم.

ذكر الله في أواخر السورة أحكام الأموال وهي ثلاثة أصناف: عدل، وفضل، وظلم، فالعدل: البيع، والظلم: الربا، والفضل: الصدقة. فمدح المتصدقين وذكر ثوابهم، وذم الرابين وبين عقابهم، وأباح البيع والتداين إلى أجل مسمى.

* ثم ناسب ختم هذه السورة الكريمة بهذه الآيات العظيمة؛ لأنها اشتملت على تكاليف كثيرة في الصلاة والزكاة والقصاص والصوم والحج والجهاد والطلاق والعدة وأحكام الربا والبيع والدين وغيرها، فناسب تكليفه إيانا بهذه الشرائع أن يذكر أنه تعالى مالك لما في السموات وما في الأرض فهو يكلف من يشاء بما يشاء، والجزاء على الأعمال إنما يكون في الدار الآخرة، فختم هذه السورة بهذه الآيات على سبيل الوعيد والتهديد، قال تعالى:

﴿٢٨٤﴾ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: هو سبحانه المالك لما في السموات والأرض ملكاً وتدبيراً

وإحاطة، المطلع على ما فيهن، لا يخفى عليه شيء، لجميع من خلقهم ورزقهم، ودبرهم لمصالحهم الدينية والدنيوية، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ إن أظهرتم ما في أنفسكم من السوء، أو أسررتموه فإن الله يعلمه ويحاسبكم عليه، وهذا متضمن لكمال علمه ﷻ بسرائر عباده وظواهرهم، وأنه لا يخرج شيء من ذلك عن علمه، كما لم يخرج شيء ممن في السموات والأرض عن ملكه، فعلمه عام وملكه عام.

لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ الآية، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله، فقالوا: كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام، والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، فلما قرأه القوم وجرت بها ألسنتهم، أنزل الله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ ونسخها تعالى فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ الآية.

﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وهو لمن أتى بأسباب المغفرة يعفو عمن يشاء، ويعاقب من يشاء بذنبه الذي لم يحصل له ما يكفره، فيغفر لمن يشاء الذنب العظيم، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القادر على كل شيء لا يعجزه شيء، بل كل الخلق طوع قهره ومشيئته وتقديره وجزائه، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون، وقد تضمن ذلك قيامه عليهم بالعدل والفضل، فيغفر لمن يشاء فضلاً، ويعذب من يشاء عدلاً، وقد أكرم الله المسلمين بعد ذلك، فعفا عن حديث النفس وخطرات القلب.

* لما ذكر تعالى في هذه السورة أحكاماً كثيرة، ختمت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة، والتضرع إلى الله جل وعلا برفع الأغلال والآصار، وطلب النصرة على الكفار، والدعاء لما فيه سعادة الدارين وقد ختمت هذه السورة الكريمة بهذه الآية الجامعة المانعة التي كانت آخر ما نزل من القرآن وبنزولها انقطع الوحي، وفيها تذكير العباد بذلك اليوم العصيب الشديد، قال ابن كثير: هذه الآية آخر ما نزل من القرآن العظيم وقد عاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى. قال تعالى:

الجزء الثالث سورة البقرة

وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ
فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ
اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ
آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ
يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ
وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ
مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ
اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا
وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا
وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

٤٩

﴿٢٨٥﴾، ﴿٢٨٦﴾ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: صدق وأيقن رسول الله محمد ﷺ بما أنزل الله إليه من القرآن والوحي، والمؤمنون كذلك أيقنوا وعملوا بالقرآن العظيم.

﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ الجميع من النبي والأتباع صدق بوحدانية الله، وآمن بملائكته وكتبه ورسله.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ أي: لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعل اليهود والنصارى، بل نؤمن بجميع رسل الله دون تفريق.

﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وقال الرسول والمؤمنون أجبنا دعوتك، وأطعنا أمرك، فنسألك مغفرة لما اقترفناه من الذنوب، وما صدر منا من تقصير، وإليك وحدك المرجع والمآب لجميع الخلائق، فتجزيهم بما عملوا من خير وشر. وفي تقديم الآية السمع والطاعة على طلب الغفران.

ثم يخبر تعالى عن بيان منّته على هذه الأمة، فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لا يكلف المولى تعالى أحداً فوق طاقته لأن دين الله يسر لا مشقة فيه، فلا يطلب من عباده ما لا يطيقونه، فأصل الأوامر والنواهي ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وحمية عن الضرر، فالله تعالى أمر العباد بما أمرهم به رحمة وإحساناً، ومع هذا إذا حصل بعض الأعذار التي هي مظنة المشقة حصل التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف، أو إسقاط بعض كما في التخفيف عن المريض والمسافر وغيرهم.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ لكل نفس جزاء ما قدمت من خير، وجزاء ما اقترفت من شر، وفي الإتيان بـ «كسب» في الخير الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه، بل بمجرد نية القلب، وأتى بـ «اكتسب» في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمله ويحصل سعيه. وجاءت العبارة بـ ﴿لَهَا﴾ في الحسنات، لأنها مما ينتفع العبد به، وجاءت بـ ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في السيئات؛ لأنها مما يضر العبد. ثم أرشدهم تعالى إلى دعاء عظيم:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: قولوا ذلك في دعائكم والمعنى: لا تعذبنا ولا تعاقبنا إن نسينا شيئاً مما افترضته علينا، أو أخطأنا في فعل شيء نهيتنا عن فعله، لأن الإنسان عرضة للتقصير والخطأ والنسيان. والفرق بين النسيان والخطأ، أن النسيان: ذهول القلب عمّا أمر به فيتركه نسياناً، والخطأ أن يقصد شيئاً يجوز له قصده ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ ربنا لا تكلفنا بالتكاليف والأعمال الشاقة التي نعجز عنها، كما كلفت بها من قبلنا من الأمم، كقتل النفس في التوبة وقرض موضع النجاسة، وقد فعل تعالى فإنه سبحانه خفف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ ربنا ولا تحملنا ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف والبلاء والمصائب، وامح عنا ذنوبنا، واستر عيوبنا، فلا تفضحنا يوم الحشر الأكبر، وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء، فالعفو والمغفرة يحصل بهما دفع المكاره والشرور، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور. وقيل: العفو: عن التفريط في الطاعات، والاستغفار عن فعل المحرمات، والرحمة: فيما يستقبله المرء من زمنه.

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أنت ربنا وناصرنا ومتولي أمورنا فلا تخذلنا، وانصرنا على أعدائنا وأعداء دينك من القوم الكافرين، الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك وكذبوا برسالة نبيك ﷺ.

روي أنه ﷺ لما دعا بهذا الدعوات قيل له عند كل دعوة: قد فعلت. وهم بهذه الأربعة التي سألوا ربهم تتم لهم النعمة المطلقة، ولا يصفو عيش في الدنيا والآخرة إلا بها، وعليها.

وقد ورد في فضل أواخر سورة البقرة ما رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «ومن قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».

قال ابن القيم:

«خواتيم سورة البقرة فيها من العلوم والمعارف وقواعد الإسلام وأصول الإيمان ومقامات الإحسان ما يستدعي بيانه كتاباً مفرداً».

تم تفسير سورة البقرة
والحمد لله

تفسير سورة آل عمران
وهي مدنية

* سورة آل عمران من السور المدنية الطويلة، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على ركنين مهمين من أركان الدين هما: الأول: ركن العقيدة وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله -جل وعلا-. والثاني: التشريع وبخاصة فيما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله. أما الأول: فقد جاءت الآيات الكريمة لإثبات الوحدانية، والنبوة، وإثبات صدق القرآن، والرد على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب حول الإسلام والقرآن وأمر محمد ﷺ، وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم اليهود وأظهرت حقيقتهم وكشفت

عن نواياهم وخباياهم، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر، فإن سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب وهم النصارى الذين جادلوا في شأن المسيح وزعموا ألوهيته وكذبوا برسالة محمد وأنكروا القرآن، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من نصف السورة الكريمة، وكان فيها الرد على الشبهات التي أثاروها بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وبخاصة فيما يتعلق بشأن مريم وعيسى -عليهما السلام-، وجاء ضمن هذا الرد الحاسم بعض الإشارات والتقريعات لليهود، والتحذير للمسلمين من كيد ودسائس أهل الكتاب، أما الركن الثاني: فقد تناولت الحديث عن بعض الأحكام الشرعية كفرضية الحج والجهاد وأمور الربا وحكم مانع الزكاة، وقد جاء الحديث بالإسهاب عن الغزوات كغزوة بدر، وغزوة أحد والدروس التي تلقاها المؤمنون من تلك الغزوات، فقد انتصروا في بدر، وهزموا في أُحد بسبب مخالفتهم لأمر الرسول ﷺ وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيراً من كلمات الشماتة والتخذيل، فأرشدهم تعالى إلى الحكمة من ذلك الدرس، وهي أن الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة، ليميز بين الخبيث والطيب، كما تحدثت الآيات الكريمة بالتفصيل عن النفاق والمنافقين وموقفهم من تثبيط همم المؤمنين، ثم ختمت بالتفكر والتدبر في ملكوت السموات والأرض وما فيهما من إتقان وإبداع، وعجائب وأسرار تدل على وجود الخالق الحكيم، وقد ختمت بذكر الجهاد والمجاهدين في تلك الوصية الفذة الجامعة، التي بها يتحقق الخير، ويعظم النصر، ويتم الفلاح والنجاح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وسورة آل عمران هي السورة الوحيدة التي فيها قصة أم مريم، فقصتها ليست مذكورة حتى في سورة مريم.

وقد ورد في فضل سورة آل عمران، ما رواه النواس بن سمعان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمهم سورة البقرة وآل عمران» [رواه مسلم].

سميت السورة بـ «آل عمران» لورود ذكر قصة تلك الأسرة الفاضلة «آل عمران» والد مريم أم عيسى، وما تجلى فيها من مظاهر القدرة الإلهية بولادة مريم البتول وابنها عيسى -عليهما السلام-.

نزلت هذه الآيات في وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكباً، فيهم أربعة عشر من أشرافهم ثلاثة منهم أكابرهم عبدالمسيح أميرهم والأيهم مشيرهم وأبو حارثة بن علقمة حبرهم، فقدموا على النبي ﷺ فتكلم منهم أولئك الثلاثة معه فقالوا تارة عيسى هو الله؛ لأنه كان يحيي الموتى، وتارة هو ابن الله إذ لم يكن له أب، وتارة إنه ثالث ثلاثة لقوله تعالى: «فعلنا وقلنا» ولو كان واحداً لقال: «فعلت وقلت» فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يموت» قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه» قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا قائم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك؟» قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلا ما علم؟» قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث وأن عيسى كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث» قالوا: بلى، فقال ﷺ: «فكيف يكون كما زعمتم؟»، فسكتوا وأبوا إلا الجحود؛ فأنزل الله من أول السورة إلى نيف وثمانين آية، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٤﴾ ﴿الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ * مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

﴿الٓمٓ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الله، لا رب سواه ولا معبود بحق غيره.

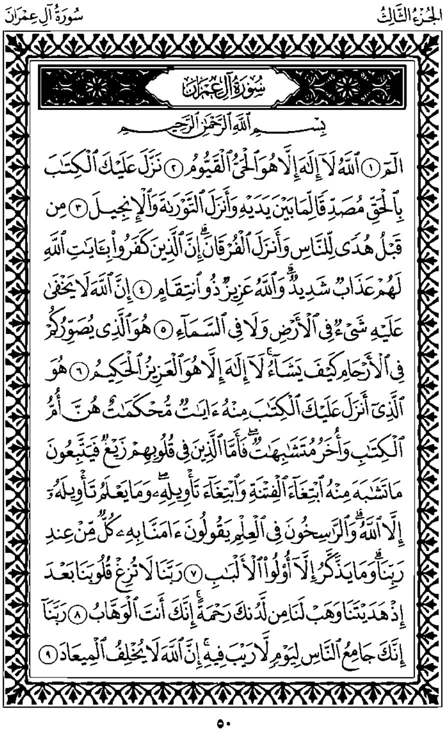
الجزء الثالث سورة آل عمران

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ
بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن
قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ
عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ
فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ هُوَ
ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ
ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ
مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ
إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ
رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ
إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَا
إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩

٥٠

﴿ٱلْحَيُّ﴾ أي: الباقي الدائم الذي لا يموت، المتصف بالحياة الكاملة كما يليق بجلاله.

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي قام بنفسه فاستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بغيره فافتقرت إليه جميع مخلوقاته في الإيجاد والإعداد والإمداد، ومن قيامه بعباده أن:

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ نزل عليك - يا محمد - القرآن الذي لا شك فيه ولا ريب، الذي هو أجل الكتب وأعظمها، بالحجج والبراهين القاطعة.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لما قبله من الكتب المنزلة، المطابقة لما جاء به القرآن وهي شاهدة له بالصدق.

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ وأنزل الكتابين العظيمين: التوراة على موسى عليه السلام والإنجيل على عيسى عليه السلام من قبل نزول القرآن، أنزل هذه الكتب هدى للناس من الضلال.

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: جنس الكتب السماوية؛ لأنها تفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وقيل: المراد بالفرقان القرآن، وكرره تعظيماً لشأنه.

وإنما قال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ لأنهما أنزلا جملة واحدة وقال في القرآن ﴿نَزَّلَ﴾ لمفصلاً، والتنزيل للتكثير.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل بعد ما بينها ووضحها وأزاح العلل.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ عظيم أليم في الآخرة لا يقدر قدره، ولا يدرك وصفه.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ غالب على أمره لا يُغلب، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، منتقم ممن عصاه وجحد حججه وأدلته، وتفرده بالألوهية.

* ثم ذكر ﷻ إحاطة علمه بالمعلومات كلها، جليها وخفيها، ظاهرها وباطنها، فقال تعالى:

۝٥، ۝٦ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ إن الله محيط علمه بالخلائق، لا يغيب ولا يعزب عن علمه أمر من الأمور في الأرض ولا في السماء، قلَّ أو كثر، فهو مطلع على كل ما في الكون، لا تخفى عليه خافية، ومن ذلك:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: هو وحده ﷻ الذي يخلقكم في أرحام أمهاتكم كما يشاء من ذكر أو أنثى، وأبيض أو أسود، وحسن أو قبيح، وشقي أو سعيد.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لا رب سواه، متفرد بالوحدانية والألوهية، العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، وفي الآية رد على النصارى حيث ادعوا ألوهية عيسى؛ فنبه تعالى بكونه مصوراً في الرحم، وأنه لا يعلم الغيب، على أنه عبد كغيره من العباد.

* يخبر تعالى عن القرآن وآياته، وموقف الناس من ذلك إما بالتصديق والقبول، وإما بالتشكيك والنفور، قال تعالى:

۝٧-۝٩ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ * رَبَّنَآ إِنَّكَ

جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هو وحده الذي أنزل عليك - يا محمد - القرآن العظيم، فيه آيات بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها ولا غموض كآيات الحلال والحرام، هن أصل الكتاب وأساسه الذي يُرجع إليه عند الاشتباه، ويُردَّ ما خالفه إليه، وهي معظمه وأكثره.

﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ وفيه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس، تحتمل بعض المعاني، فمن رد المتشابه إلى الواضح المحكم فقد اهتدى، وإن عكس فقد ضل، ولهذا قال تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ أي: فأما من كان في قلبه ميل عن الهدى إلى الضلال، وهم أصحاب الشك فيتبعون المتشابه منه ويفسرونه على حسب هواهم ومقاصدهم.

﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ﴾ طلباً لفتنة الناس في دينهم وإضلالهم، وإيهاماً للأتباع بأنهم يبتغون تفسير كلام الله، كما فعل النصارى الضالون حيث احتجوا بقوله تعالى في شأن عيسى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ﴾ [النساء: ١٧١] على أن عيسى ابن الله أو هو جزء من الله، فادعوا ألوهيته، وتركوا المحكم؛ وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩] الدال على أنه عبد من عباد الله ورسول من رسله.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ ولا يعلم تفسير المتشابه ومعناه الحقيقي إلا الله وحده.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ والمتمكنون الثابتون في العلم يقولون: آمنا بهذا القرآن وصدقنا به.

﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ كل من المتشابه والمحكم حق وصدق؛ لأنه كلام الله، وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض، بل هو متفق يصدق بعضه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض، والآية ثناء على أهل الإيمان لما حصل منهم من التسليم والاستسلام.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وإنما يفهم ويتدبر المعاني على وجهها الصحيح أصحاب العقول السليمة المستنيرة، وهو مدح للراسخين بنقاء الذهن وحسن التأمل. ثم أخبر تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يدعون ويقولون:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: لا تملها عن الحق والهدى جهلاً وعناداً منّا، بعد أن مننت علينا بالهداية لدينك القويم وشرعك المستقيم فثبتنا على هدايتك، وعافنا مما ابتليت به الزائغين.

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ﴾ امنحنا من فضلك وكرمك رحمة واسعة تثبتنا بها على دينك الحق.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ كثير الفضل والعطاء والهبات، واسع الإحسان، تعطي من تشاء بغير حساب. ولا شك أن من أسباب الثبات على الهدى والحق سؤال الله التثبيت؛ فإن الله هو الذي يثبتك ويهديك، وقد كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» [رواه الترمذي].

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ أي: نقر يا ربنا ونشهد بأنك ستجمع الخلائق في يوم لا شك فيه؛ هو القيامة يوم الحساب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: وعدك حق، وأنت رب لا تخلف الموعد.

* لما حكى تعالى عن المؤمنين دعاءهم وتضرعهم أن يثبتهم الله على الإيمان، حكى أن الكفار به وبرسله الجاحدين بدينه وكتابه، قد استحقوا العقاب وشدة العذاب بكفرهم وذنوبهم، قال تعالى:

﴿١٠﴾، ﴿١١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾ إن الذين جحدوا الحق وأنكروه لن تفيدهم الأموال والأولاد، ولن تدفع عنهم من عذاب الله وأليم عقابه في الآخرة، إنما ينفع العبد إيمانه بالله وأعماله الصالحة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ
فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟
سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾
قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ
ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ
مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ
وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ
مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ
أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ
جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ
مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾

٥١

﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ وهم حطب جهنم، الذي تسجر وتوقد به النار.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: حال هؤلاء الكفار وشأنهم، كحال وشأن آل فرعون، وصنيعهم مثل صنيعهم، والذين من قبل آل فرعون، من الأمم الكافرة كقوم هود وصالح وشعيب وغيرهم.

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أنكروا الآيات الواضحة التي تدل على رسالات الرسل.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أهلكهم وعاقبهم بسبب الكفر والمعاصي.

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أليم العذاب شديد البطش، لمن كفر به وكذب رسله.

والغرض من الآية أن كفار قريش كفروا كما كفر أولئك المعاندون من آل فرعون ومن سبقهم، فكما لم تنفع أولئك أموالهم ولا أولادهم فكذلك لن تنفع هؤلاء.

*** ثم ذكر تعالى إشارات وبشارات للمؤمنين بالنصر والغلبة، فقال سبحانه:**

﴿١٢﴾، ﴿١٣﴾ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۞ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قل ـ يا محمد ـ لليهود ولجميع الكفار والذين استهانوا بنصرك في بدر.

﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ أي: تهزمون في الدنيا. لما أصاب رسول ﷺ قريشاً ببدر، ورجع إلى المدينة جمع اليهود فقال لهم: «يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً فقد عرفتم أني نبي مرسل»، فقالوا ـ يا محمد ـ: لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً - يعني جهالاً - لا علم لهم بالحرب، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الرجال، وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ الآية.

﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: تجمعون وتساقون إلى جهنم، وبئس الفراش الذي تمتهدونه وتستقرون فيه نارجهنم، وقد صدق الله وعده بقتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير، وفتح خيبر، وضرب الجزية على سائر اليهود، ولله الحمد والمنة.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ قد كان لكم يا معشر اليهود المتكبرون المعاندون عظة وعبرة ودلالة عظيمة، في طائفتين التقتا للقتال يوم بدر.

﴿فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طائفة مؤمنة تقاتل لإعلاء دين الله وهم محمد ﷺ وأصحابه، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون رجلاً من الأنصار.

﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وطائفة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت وهم كفار قريش وكانوا تسعمائة وخمسين رجلاً من المقاتلة وفيهم مائة فرس، فجمع الله بين الطائفتين في بدر، وكان المشركون أضعاف المؤمنين، فلهذا قال:

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ يرى الكافرون المؤمنين أكثر منهم في العدد مرتين، وذلك أن الله أكثر المؤمنين في أعين الكافرين ليرهبوهم ويجبنوا عن قتالهم، وقد جعل الله ذلك سبباً لنصر المسلمين عليهم.

﴿رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ رؤية ظاهرة مكشوفة بالعين المجردة لا بالوهم والخيال.

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ يقوي بنصره من يشاء.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ إن في هذا الذي حدث لآية وموعظة عظيمة لذوي العقول السليمة والأفكار المستقيمة، الذين يهتدون إلى حكم الله وأفعاله. ومغزى الآية أن القوة المادية ليست كل شيء، وأن النصر لا يكون بكثرة العدد والعتاد، وإنما يكون بمعونة الله وتأييده.

* ثم أخبر تعالى عن اغترار الناس بشهوات الحياة الفانية، وحقارة ما تستلذه الأنفس في هذه الدار، فقال:

﴿١٤﴾، ﴿١٥﴾ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ * قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: حسن إليهم وحبب إلى نفوسهم الميل نحو الشهوات الدنيوية، وبدأ بالنساء؛ لأن الفتنة بهن أشد، والالتذاذ بهن أكثر، وفي الحديث: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» [رواه البخاري]، ثم ذكر ما يتولد منهن، فقال:

﴿وَٱلۡبَنِينَ﴾ وإنما ثنى بالبنين لأنهم ثمرات القلوب وقرة الأعين، وقدموا على الأموال لأن حب الإنسان لولده أكثر من حبه لماله.

﴿وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ﴾ أي: الأموال الكثيرة من الذهب والفضة، وإنما كان المال محبوباً؛ لأنه يحصل به غالب الشهوات، والذهب والفضة أصل التعامل ولذا خصها بالذكر، وسمي الذهب ذهباً لأنه يذهب ولا يبقى، والفضة فضة لأنها تنفض، أي: تتفرق.

﴿وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ﴾ والخيل الأصيلة الحسان، وسميت خيلاً: لأن صاحبها غالباً يُبتلى بالخيلاء؛ لأنها أفخر المراكب، أو لأنها تختال في مشيتها.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾ أي: والأنعام من الإبل والبقر والغنم، فمنها المركب والمطعم والزينة، والزرع والغراس؛ لأن فيه تحصيل أقواتهم.

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ إنما هذه الشهوات زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ أي: حسن المرجع والثواب وهو الجنة، وفي هذه الآية تسلية للفقراء الذين لا قدرة لهم على هذه الشهوات التي يقدر عليها الأغنياء، وفيه إشارة إلى التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة.

﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾ قل - يا محمد - أأخبركم بخير مما زين للناس من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها الزائل؟ والاستفهام للتقرير وإبهام الخبر للتفخيم.

﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: لمن راقب الله وخاف عقابه، يوم القيامة جنات فسيحات تجري من خلال جوانبها وتحت قصورها وأرجائها الأنهار.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حولاً.

﴿وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ منزهة عن الدنس والخبث، الحسي والمعنوي، لا يتغوطن ولا يتبولن ولا يحضن ولا ينفسن، ولا يعتريهن ما يعتري نساء الدنيا.

﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ ولهم مع ذلك النعيم أعظم من ذلك: رضوان من الله وأيُّ رضوان، وقد جاء في الحديث: «أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» [رواه البخاري].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ عليم بأحوال العباد، يعطي كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء.

* ثم بين تعالى صفات هؤلاء المتقين الذين أكرمهم بالثواب الجزيل وبالخلود في دار النعيم، فقال:

﴿١٦﴾، ﴿١٧﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾.

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ
وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ
أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا
بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ
عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ
بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ
فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ
وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾
إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ
النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾

٥٢

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ أي: هؤلاء العباد المتقون يتوسلون إلى الله بمنه عليهم وتوفيقه لهم إلى الإيمان، ويقولون: إننا آمنا وصدقنا بك وبكتبك ورسلك.

﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فامح عنا ما اقترفناه من ذنوب لنا بفضلك ورحمتك، ونجنا من عذاب النار. ثم فصل أوصاف التقوى، فقال:

﴿الصَّابِرِينَ﴾ أي: الصابرين أنفسهم على ما يحبه الله من طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ في إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم.

﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ والمطيعين لله في الشدة والرخاء.

﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ الذين يبذلون أموالهم ويتصدقون في وجوه الخير سراً وعلانية طاعة لله ﷻ. ثم لما بين صفاتهم الحميدة ذكر احتقارهم لأنفسهم، وأنهم لا يرون لأنفسهم حالاً ولا مقالاً، بل يرون أنفسهم مقصرين مذنبين.

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ أي: هم السائلون للمغفرة بالأسحار، ووقت السحر قبيل طلوع الفجر لأنه مظنة القبول وإجابة الدعاء. إذ العبادة حينئذ أشق، والنفس أصفى، والروح أجمع.

* لما مدح تعالى المؤمنين وأثنى عليهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٦]، أردفه بأن بيّن أن دلائل الإيمان ظاهرة جلية، فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم بين أن الإسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده، وأمر الرسول بأن يعلن استسلامه لله وانقياده لدين الله، وأعقبه بذكر ضلالات أهل الكتاب واختلافهم في أمر الدين اختلافاً كبيراً، وإعراضهم عن قبول حكم الله، قال تعالى:

﴿١٨﴾-﴿٢٠﴾ ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: بيّن وأعلم تعالى عباده بانفراده بالوحدانية. لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار الشام، فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة والنعت فقالا له: أنت محمد؟ قال: «نعم» قالا: وأنت أحمد؟ قال: «نعم» قالا: نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك، فقال لهم رسول الله ﷺ: «سلاني»، فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فنزلت: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله ﷺ.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ وشهدت الملائكة وأهل العلم بوحدانيته، وقرن شهادته بشهادة الملائكة وأهل العلم على أجلِّ مشهود، وهو توحيده تعالى بدلائل خلقه وبديع صنعه، وبما عاينوا من عظيم قدرته، وفي هذا دليل على شرف العلم وأهله.

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي: حال كونه مقيماً للعدل فيما يقسم من الآجال

والأرزاق، ثم أعاد تقرير توحيده للتأكيد، فقال:

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود في الوجود بحق إلا هو.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز في ملكه لا يمتنع عليه شيء أراده، الحكيم في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره. وفي الآية دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه، وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ إن الشرع المقبول عند الله هو الإسلام، ولا دين يرضاه الله سوى الإسلام وهو الانقياد لله وحده بالطاعة، والاستسلام له بالعبودية، واتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى خُتموا بمحمد ﷺ.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ وما وقع الخلاف بين اليهود والنصارى في أمر الإسلام ونبوة محمد ﷺ، إلا بعد أن علموا بالحجج النيرة والآيات الباهرة حقيقة الأمر، فلم يكن كفرهم عن شبهة وخفاء وإنما كان عن استكبار وعناد، فكانوا ممن ضل عن علم.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: كان هذا الاختلاف حسداً كائناً بينهم حملهم عليه حب الملك والرئاسة وحظوظ الدنيا.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ومن يكفر بآياته تعالى وحججه ودلائله على أن الدين عند الله الإسلام فإنه سيصير إلى الله سريعاً فيجازيه على كفره ويعاقبه على مخالفة كتابه، وفي هذا وعيد وتهديد.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ فإن جادلوك وخاصموك - يا محمد - في شأن الدين بالشبه الباطلة والأقوال المحرفة، فقل لهم: أنا عبد الله قد استسلمت بكليتي لله، وأخلصت عبادتي له وحده، لا شريك له ولا ند ولا صاحبة ولا ولد، وعبر بالوجه عن سائر الذات لكونه أشرف أعضاء الإنسان وأجمعها للحواس.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ وكذلك أنا وأتباعي على ملة الإسلام، مستسلمون منقادون لأمر الله.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ وقل - يا محمد - لليهود والنصارى ولمشركي العرب الذين لا كتاب لهم، وغيرهم.

﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ لفظة استفهام ومعناه أمر، أي: هل أسلمتم، أم أنتم باقون على كفركم، فقد أتاكم من البينات ما يوجب إسلامكم.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ فإن أسلموا كما أسلمتم فقد نفعوا أنفسهم بخروجهم من الضلال إلى الهدى، ومن الظلمة إلى النور، وصاروا إخوانكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم.

﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ وإن أعرضوا عن الإسلام فلن يضروك - يا محمد - إذ لم يكلفك الله بهدايتهم، وإنما أنت مكلف بالتبليغ فحسب وقد أبلغتهم وأقمت عليهم الحجة، والغرض منها تسلية النبي ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ عالم بجميع أحوالهم فيجازيهم عليها. روي أن رسول الله ﷺ لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا: أسلمنا، فقال ﷺ لليهود: «أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله» فقالوا: معاذ الله، فقال للنصارى: «أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله» فقالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبداً، وذلك قوله ﷻ: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾.

* ثم ذكر في الآيات اللاحقة أشد الناس جرماً، وهم الذين يكفرون بآيات الله رغم وضوحها وبيانها، ويقتلون الأنبياء الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، قال تعالى:

﴿٢١﴾، ﴿٢٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: يكذبون ويجحدون ما أنزل الله من الدلائل الواضحة، وما جاء به المرسلون.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ
ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ
وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ
لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن
تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن
تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ
فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾
لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ
تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ
إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

٥٣

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ويقتلون أنبياء الله ظلماً بغير سبب ولا جريمة إلا لكونهم دعوهم إلى الله، وهم اليهود قتلوا زكريا وابنه يحيى وقتلوا أنبياء الله، قال ابن كثير: قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار، وأقاموا سوق بقلهم من آخره.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ويقتلون الدعاة إلى الله الذين يأمرون بالخير والعدل واتباع طريق الأنبياء وهذا هو غاية الكبر.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فأخبرهم بما يسرهم وهو العذاب الموجع المهين، والأسلوب للتهكم، وقد استحقوا ذلك لأنهم جمعوا ثلاثة أنواع من الجرائم: الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقتل الدعاة إلى الله، قال تعالى مبيناً عاقبة إجرامهم:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: بطلت أعمالهم التي عملوها من البرّ والحسنات، ولم يبق لها أثر في الدارين، بل بقي لهم اللعنة والخزي في الدنيا والآخرة، وليس لهم من ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه.

* ثم ذكر تعالى طرفاً من لجاج وعناد أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه، فقال:

﴿٢٣﴾-﴿٢٥﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ألا تعجب -يا محمد- من أمر هؤلاء اليهود الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، فالصيغة صيغة تعجيب للرسول أو لكل مخاطب.

﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يدعون إلى التوراة كتابهم الذي بين أيديهم والذي يعتقدون صحته، ليحكم بينهم فيما تنازعوا فيه فيأبون.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكم الله، وهو استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه، وجملة ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ تأكيد للتولي، أي: تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهم قوم طبيعتهم الإعراض عن الحق، والإصرار على الباطل. والآية تشير إلى قصة تحاكم اليهود إلى النبي ﷺ لما زنى منهم اثنان فحكم عليهم بالرجم فأبوا وقالوا: لا نجد في كتابنا إلا التحميم فجيء بالتوراة فوجد فيها الرجم فرجما، فغضبوا فشنع تعالى عليهم بهذه الآية:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ ذلك التولي والإعراض بسبب افترائهم على الله، وزعمهم أنهم أبناء الأنبياء، وأن النار لن تصيبهم إلا مدة يسيرة - أربعين يوماً - مدة عبادتهم للعجل.

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ وهذا الاعتقاد أدى إلى جرأتهم على الله واستهانتهم بدينه، واستمرارهم على دينهم الباطل الذي خدعوا به أنفسهم.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: كيف يكون حالهم يوم القيامة حين يجمعهم الله للحساب

يوم القيامة، وهو استعظام لما يدهمهم من الشدائد والأهوال.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: ونالت كل نفس جزاءها العادل، وهم لا يظلمون بزيادة العذاب، أو نقص الثواب.

* لما ذكر تعالى في الآيات السابقة دلائل التوحيد والنبوة وصحة دين الإسلام، أعقبه بذكر البشائر التي تدل على قرب نصر الله للإسلام والمسلمين، فالأمر كله بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء، وأمر رسوله بالدعاء والابتهال إلى الله بأن يعز جند الحق وينصر دينه المبين، قال تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ قل ـ يا محمد ـ متوجهاً إلى ربك بالدعاء معظماً له، وشاكراً لأنعمه، ومفوضاً إليه، ومتوكلاً عليه: يا من له الملك كله، يا مالك كل شيء.

﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ أي: أنت المتصرف في الأكوان، تهب الملك والمال والتمكين في الأرض لمن تشاء من خلقك، وتخلع الملك ممن تشاء، وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقياصرة ومن تبعهم ويؤتيه أمة محمد ﷺ.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ وتعطي العزة في الدنيا والآخرة لمن تشاء بطاعتك، والذلة على من تشاء بمعصيتك.

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ بيدك وحدك خزائن كل خير، وأنت على كل شيء قدير. وفي الآية إثبات لصفة اليد لله تعالى على ما يليق به سبحانه.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: ومن دلائل قدرتك أنك تدخل الليل في النهار، كما تدخل النهار في الليل، فتزيد في هذا وتنقص في ذاك والعكس، وهكذا في فصول السنة شتاء وصيفاً.

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ وتخرج الحي من الميت الذي لا حياة فيه، كإخراج الزرع من الحب، والحب من الزرع، والنخلة من النواة، والنواة من النخلة، والبيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيضة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وقيل: يخرج الإنسان الحي والأنعام والبهائم من النطف الميتة، ويخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء.

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وتعطي من تشاء من خلقك عطاء واسعاً بلا عد ولا تضييق، رزقاً واسعاً من حيث لا يحتسب ولا يكتسب.

* ثم نهى تعالى عن اتخاذ الكافرين أنصاراً وأحباباً، فقال:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا توالوا أعداء الله بالمحبة والنصرة من دون أوليائه فلا يجتمع للإنسان بين محبة الله وبين محبة أعدائه، وفيه النهي أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشر، وقد كرر ذلك في القرآن، والمحبة في الله والبغض في الله باب عظيم في الإيمان. لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ووعد أمته ملك فارس والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات؛ من أين لمحمد ملك فارس والروم وهم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكفه مكة حتى طمع في ملك فارس والروم، فأنزل الله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ...﴾ الآية.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ ومن يوالي الكفرة في نقل الأخبار وإظهارهم على عورة المسلمين، فليس من دين الله في شيء، بريء من الله، والله بريء منه، وليس له في دين الله نصيب، لأن موالاة الكافرين لا تجتمع مع الإيمان.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ أي: إلا أن تخافوا منهم محذوراً أو تخافوا أذاهم وشرهم، فأظهروا موالاتهم

يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ
مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ
نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ
فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ
وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ
مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥
فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ
وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا
زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ
قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧

٥٤

باللسان دون القلب، لأنه من نوع مداراة السفهاء اتقاء لشرهم وعصمة لدمائكم حتى تقوى شوكتكم.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ **ويخوفكم الله عقابه الصادر منه تعالى فاتقوه وخافوه ولا تتعرضوا لسخطه بارتكاب معاصيه وموالاة أعدائه فيعاقبكم على ذلك، وهذا وعيد شديد.**

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ **إلى الله وحده المنقلب والمرجع، فيجازي كل عامل بعمله.**

*** ثم أخبر تعالى عن سعة علمه لما في النفوس خصوصاً، ولما في السموات والأرض عموماً، وعن كمال قدرته، قال تعالى:**

(٢٩)، (٣٠) ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ * يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.

﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ﴾ **قل -يا محمد- للمؤمنين إن أخفيتم ما في قلوبكم من موالاة الكفار أو أظهرتموه فإن الله مطلع عليه لا تخفى عليه خافية.**

﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ **أي: عالم بجميع الأمور، يعلم كل ما هو حادث في السموات والأرض.**

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ **وهو سبحانه قادر على الانتقام ممن خالف حكمه وعصى أمره، وهو تهديد عظيم، ولهذا قال:**

﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ **أي: وفي يوم القيامة يجد كل إنسان جزاء عمله حاضراً لا يغيب عنه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فإن كان عمله حسناً سره ذلك وأفرحه. والخير: اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها.**

﴿وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾ **أي: وإن كان عمله سيئاً تمنى أن لا يرى عمله، وأحب أن يكون بينه وبين عمله القبيح غاية في نهاية البعد، أي مكاناً بعيداً كما بين المشرق والمغرب لعظم أسفه وشده حزنه وطول ندامته.**

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ **ويخوفكم عقابه فاستعدوا لهذا اليوم. ثم قال ﷻ مرجياً لعباده لئلا ييئسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه:**

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ **أي: رحيم بخلقه، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم، ومن رحمته ورأفته أن حذرهم نفسه حتى لا يتعرضوا لسخطه.**

*** ثم ذكر ﷻ آية عظيمة في وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال:**

(٣١)، (٣٢) ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ * قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ **قل - يا محمد - إن كنتم حقاً تحبون الله وادعيتم هذه المرتبة العالية، فلا يكفى فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها،**

وعلامة الصدق؛ الإيمان بمحمد ﷺ ظاهراً وباطناً؛ لأنه رسوله، ويجب اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، فمن اتبع الرسول وأطاعه دل على صدق دعواه محبة الله تعالى وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده، في جميع حركاته وسكناته.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: باتباعكم الرسول وطاعتكم لأمره يحبكم الله ويغفر لكم ما سلف من الذنوب، فإنه غفور لذنوب عباده المؤمنين رحيم بهم.

قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله تعالى، وليس متبعاً لنبيه محمد ﷺ حق الاتباع، مطيعاً له في أمره ونهيه، فإنه كاذب في دعواه تلك حتى يتابع الرسول ﷺ حق الاتباع في جميع أقواله وأفعاله، ثم قال تعالى:

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ أي: أطيعوا الله باتباع كتابه وأمر رسوله باتباع سنته.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ فإن أعرضوا عن الطاعة وأصروا على ما هم عليه من كفر وضلال، فليسوا أهلاً لمحبة الله، فإنه تعالى لا يحب من كفر بآياته وعصى رسله بل يعاقبه ويخزيه.

* لما بيّن تعالى أن محبته لا تتم إلا بمتابعة الرسل وطاعتهم، بيّن علو درجات الرسل وشرف مناصبهم، فبدأ بآدم أولهم، وثنى بنوح أبي البشر الثاني، ثم أتى ثالثاً بآل إبراهيم فاندرج فيهم رسول الله ﷺ لأنه من ولد إسماعيل، ثم أتى رابعاً بآل عمران فاندرج فيهم عيسى عليه السلام، وأعقب ذلك بذكر ثلاث قصص: قصة ولادة مريم، وقصة ولادة يحيى، وقصة ولادة عيسى، وكلها خوارق للعادة تدل على قدرة العلي القدير، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ أي: اختار للنبوة صفوة خلقه، منهم آدم أبو البشر الذي اختاره على سائر المخلوقات، فخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وأسكنه جنته، وأعطاه من العلم والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات.

﴿وَنُوحًا﴾ واصطفى شيخ المرسلين نوحاً، فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبدت الأوثان، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن معه في الفلك المشحون.

﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: عشيرته وذوي قرباه، وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما، ومن جملتهم خاتم المرسلين، ولهم من الفضائل والمناقب ما هو معلوم.

﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ أي: أهل عمران منهم عيسى ابن مريم خاتم أنبياء بني إسرائيل.

﴿عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: جعلهم أفضل أهل زمانهم.

وخص هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء؛ لأن الأنبياء والرسل جميعاً من نسلهم، فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم، فلهذا قال:

﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ أي: هؤلاء الأنبياء والرسل سلسلة طهر متواصلة في الإخلاص لله وتوحيده والعمل بوحيه.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوال العباد، عليم بضمائرهم يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه، ومن لا يستحق ذلك فيخذله ويرديه.

* ثم ذكر ﷻ قصة أم مريم -عليهما السلام-، فقال تعالى:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ اذكر لهم -يا محمد- ما كان من أمر امرأة عمران، واسمها حنة بنت فاقود، وابنتها مريم أم عيسى عليه السلام، لترد بذلك على من ادعوا ألوهية عيسى، أو بنوته لله سبحانه إذ قالت امرأة عمران حين حملت بمريم:

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ أي: جعلت ما في بطني خالصاً لوجهك وأوجبته لك.

﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: عتيقاً خالصاً لله مفرغاً لعبادة الله ولخدمة الكنيسة في بيت المقدس، لا أشغله بشيء من الدنيا.

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فتقبل مني هذا العمل المبارك، إنك أنت وحدك السميع لدعائي، العليم بنيتي.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ فلما تم حملها ووضعت مولودها، قالت على وجه التحسر والاعتذار؛ كأنها تشوقت أن يكون ذكراً ليكون أقدر على الخدمة وأعظم موقعاً، قالت: يا رب إنها أنثى لا تصلح للخدمة في بيت المقدس. قال ابن عباس: إنما قالت هذه؛ لأنه لم يكن يقبل في النذر إلا الذكور، فقبل الله مريم، قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ والله أعلم بالشيء الذي وضعت، قالت ذلك أو لم تقله، وسوف يجعل الله لها شأناً، وقالت:

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ وقالت من جملة كلامها ومن تمام تحسرها وتحزنها: ليس الذكر الذي طلبته في القوة والجلد كالأنثى التي وهبتها في خدمة الكنيسة والعباد الذين فيها للينها وضعفها وما يعتريها من الحيض والنفاس، والأنثى لا تقوى على ما يقوى عليه الذكر من الخدمة. والجملتان معترضتان من كلامه تعالى تعظيماً لشأن هذه المولودة وما علق بها من عظائم الأمور وجعلها وابنها آية للعالمين.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ من تتمة كلام امرأة عمران، والأصل إني وضعتها أنثى، وإني سميتها مريم، أي: أسميت هذه الأنثى مريم، ومعناه في لغتهم العابدة، خادمة الرب ومقصودها من هذه الأخبار بالتسمية التقرب إلى الله سبحانه، وكانت مريم من أجمل النساء في وقتها وأفضلهن، ثم دعت لها ولذريتها:

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي: أجيرها وأمنعها بحفظك وأولادها من شر الشيطان الرجيم، المُرمي بالشهب، المطرود من رحمتك.

* فاستجاب الله لها دعاءها، وقبل منها نذرها أحسن قبول ورضي بها، قال تعالى:

٣٧ ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: قبلها الله قبولاً حسناً، وسلك بها طريق السعداء، وأجارها وذريتها من الشيطان.

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ وتولى ابنتها مريم بالرعاية، ورباها تربية كاملة، ونشأها تنشئة صالحة ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين، فلهذا قال:

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ ويسر لها زكريا كافلاً لها، ومتعهداً للقيام بمصالحها، وهذا من رفقه بها ليربيها على أكمل الأحوال، حتى إذا بلغت مبلغ النساء فاقت عليهن في عبادة ربها، وانقطعت ولزمت محرابها تتعبد الله.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ﴾ أي: وكان كلما دخل عليها زكريا حجرتها ومكان عبادتها وجد عندها فاكهة وطعاماً، ورزقاً هنيئاً معداً، من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها:

﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ أي: قال زكريا لمريم متعجباً: من أين لك هذا الرزق الطيب؟

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قالت مريم: هو رزق من عند الله، إن الله بفضله يرزق من يشاء من خلقه رزقاً بغير جهد ولا تعب.

* عندما رأى زكريا ما أكرم الله به مريم من رزقه وفضله، وما يأتيها من الفواكه في غير حينها من غير سبب لقادر على أن يصلح زوجته ويهب له ولداً في غير حينه على الكبر، فطمع في الولد وذلك أن أهل بيته كانوا قد انقرضوا وكان زكريا قد شاخ وأيس من الولد، عندها توجه إلى ربه داعياً وراجياً، قال تعالى:

﴿٣٨﴾-﴿٤١﴾ ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ * فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ * قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ في ذلك الوقت الذي رأى فيه زكريا كرامة الله لمريم دعا ربه متوسلاً ومتضرعاً.

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: ارزقني من عندك ـ ولداً صالحاً ـ وكان شيخاً كبيراً وامرأته ـ عجوزاً وعاقراً ـ. ومعنى طيبة، أي: صالحة مباركة لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم.

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ مجيب لدعاء من دعاك، فاستجاب الله دعاءه.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ أي: فنادى جبريل زكريا وهو واقف بين يدي الله قائماً في الصلاة يدعوه، ويتضرع إليه، إن الله يخبرك بخبر يسرك، وهو أنك سترزق بغلام اسمه يحيى. وسمي يحيى؛ لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والطاعة.

﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مصدقاً بعيسى مؤمناً برسالته، وسمي عيسى كلمة الله؛ لأنه خلق بكلمة «كن» من غير أب.

﴿وَسَيِّدًا﴾ يسود قومه ويفوقهم؛ له المكانة والمنزلة العالية بحيث يرجع إليه في الأمور.

الجزء الثالث — سورة آل عمران

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً
طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ
يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ
مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ
أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌۖ قَالَ
كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ
قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر
رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ
عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي
وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ
وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ
وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى
ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

٥٥

﴿وَحَصُورًا﴾ يحبس نفسه عن الشهوات عفة وزهداً، ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك، اشتغالاً بخدمة ربه وطاعته.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ويكون نبياً من الأنبياء الصالحين، الذين بلغوا في الصلاح ذروته، وهذه بشارة ثانية بنبوته بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى، ثم قال زكريا فرحاً متعجباً:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ أي: رب كيف يأتيني الولد، قال ذلك استبعاداً من حيث العادة واستعظاماً للقدرة لا تشككاً، ولمزيد التضرع والجد في طلب الجواب عن سؤاله.

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ أي: أدركتني الشيخوخة وقد بلغت مني مبلغها، وكان عمره حينذاك مائة وعشرين سنة.

﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ عقيم لا تلد، وكانت زوجته بنت ثمان وتسعين سنة، فقد اجتمع فيهما الشيخوخة والعقم في الزوجة وكل من السببين مانع من الولد، وإنما وقع منه هذا الاستفهام بعد دعائه بأن يهب الله له ذرية طيبة ومشاهدته لتلك الآية الكبرى في مريم استعظاماً لقدرة الله سبحانه لا لمحض الاستبعاد.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ قال: هكذا أمر الله عظيم، يفعل ما يشاء لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ قال زكريا: رب اجعل لي علامة أستدل بها على حمل امرأتي ليحصل لي السرور والاستبشار وكمال الطمأنينة بهذه

البشارة فأزيد في العبادة والشكر لك.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗا﴾ أي: علامتك عليه أن لا تقدر على كلام الناس إلا بالإشارة ثلاثة أيام بلياليها، وأنت صحيح من غير آفة ولا سوء، والغرض أنه يأتيه مانع سماوي يمنعه من الكلام بغير ذكر الله، ووجه جعل الآية هذا لتخلص تلك الأيام لذكر الله سبحانه شكراً على ما أنعم به عليه.

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾ واذكر الله ذكراً كثيراً بلسانك شكراً على النعمة، فقد منع عن الكلام ولم يمنع عن الذكر لله والتسبيح له، وذلك أبلغ في الإعجاز، وهي آية من الآيات الباهرة والأدلة الظاهرة.

﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ نزه الله عن صفات النقص بقولك سبحان الله في آخر النهار وأوله. وقيل: المراد صل لله، قال الطبري: يعني عظم ربك بعبادته بالعشي والإبكار.

* لما ذكر تعالى قصة ولادة يحيى ابن زكريا من عجوز عاقر وشيخ قد بلغ من الكبر عتياً، وذلك بمقتضى السنن الكونية شيء خارق للعادة، أعقبها بما هو أبلغ وأعظم في خرق العادات، فذكر قصة ولادة المسيح عيسى عليه السلام من غير أب وهي شيء أعجب من الأول، والغرض من ذكر هذه القصة الرد على النصارى الذين ادعوا ألوهية عيسى، فذكر ولادته من مريم البتول ليدل على بشريته، وأعقبه بذكر ما أيده به من المعجزات ليشير إلى رسالته، وأنه أحد الرسل الكرام الذين أظهر الله على أيديهم خوارق العادات، وليس له شيء من أوصاف الربوبية، قال تعالى:

٤٢-٤٤ ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ * يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ * ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ أي: اذكر حين خاطبت وقالت الملائكة، أي جبريل: يا مريم إن الله اختارك من بين سائر النساء حين تقبلك من أمك ورباك واختصك بالكرامات.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الأدناس والأقذار ومن مسيس الرجال، ومما اتهمك به اليهود من الفاحشة.

﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ واختارك مرة ثانية على سائر نساء العالمين في زمانك، لتكوني مظهر قدرة الله في إنجاب ولد دون أب.

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أي: قالت لها الملائكة شفاهاً: الزمي عبادة ربك وطاعته، وأطيلي القيام في الصلاة شكراً على اصطفائه.

﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ واسجدي، واركعي مع الراكعين المصلين، شكراً لله على ما أولاك من نعمه، وقدم السجود على الركوع لكونه أفضل.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾ ذلك الذي قصصناه عليك -يا محمد- من قصة امرأة عمران وابنتها مريم البتول، ومن قصة زكريا ويحيى، إنما هو من الأنباء المغيبة والأخبار المهمة التي أوحينا بها إليك إذ لم تكن تعلمها من قبل.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ وما كنت - يا محمد - عندهم إذ يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم حين ألقوا سهامهم للقرعة كل يريدها في كنفه ورعايته يحضنها ويربيها.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ وما كنت -يا محمد- هناك إذ يتنازعون فيمن يكفلها منهم، ففاز زكريا عليه السلام بكفالتها، والغرض أن هذه الأخبار كانت وحياً من عند الله العليم الخبير.

روي أن حنة حين ولدتها لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم، ثم اقترعوا فخرجت في كفالة زكريا فكفلها، وإنما قدر الله كون زكريا كافلاً لها لسعادتها لتقتبس منه علماً جماً وعملاً صالحاً.

* ثم ذكر تعالى بشارة الملائكة لمريم -عليها السلام-:

٤٥-٤٧ ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا

الجزء الثالث سورة آل عمران

وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ
ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ
﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ
﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ
فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ
وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ
فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾
وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم
بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ
ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ
أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

٥٦

فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم - عليها السلام - بأعظم بشارة، بمولود يكون وجوده بكلمة من الله بلا واسطة أب.

﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: اسمه عيسى ولقبه المسيح، ونسبه إلى أمه تنبيها على أنها تلده بلا أب، فنسب إليها.

قال بعض العلماء: الحكمة في أن الله لم يذكر في القرآن امرأة باسمها إلا (مريم) هي الإشارة من طرف خفي إلى رد ما قاله النصارى من أنها زوجته، فإن العظيم يأنف من ذكر اسم زوجته بين الناس، ولينسب إليها عيسى باعتبار عدم وجود أب له.

﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: سيداً ومعظماً فيهما، له القدر والجاه العريض في الدنيا والآخرة، ومن المقربين عند الله يوم القيامة، بل هو من سادات المقربين.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ ويكلم الناس في المهد بعد ولادته قبل وقت الكلام، وكذلك يكلمهم في حال كهولته بما أوحاه الله إليه، وهذا تكليم النبوة والدعوة والإرشاد، من غير تفاوت بين حال الطفولة وحالة الكهولة.

وقد أورد ﷻ ﴿وَكَهْلًا﴾ بعد ذكر المهد حتى لا يقع في نفس مريم أن هذا الغلام معجزة لا يلبث أن يحدث سريعاً فطمأنها ﷻ.

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهو من الكاملين في التقى والصلاح والفضل في قوله وعمله.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ أي: قالت مريم متعجبة من هذا الأمر: كيف يأتيني الولد وأنا لست بذات زوج ولا بغي؟ وهذا استغراب منها لا شك في قدرة الله، إذ لم تكن جرت العادة بأن يولد ولد ولا أب له.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ قال لها الملك هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء، يخلق بسبب من الوالدين وبغير سبب.

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ إذا أراد شيئاً حصل من غير تأخر ولا حاجة إلى سبب، بقول له «كن» فيكون كما يريد.

* ومن حكمة الباري تعالى أن تدرج بأخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب ليدل عباده أنه الفعال لما يريد، ثم أخبر تعالى عن منته العظيمة على عبده ورسوله عيسى عليه السلام، فقال:

﴿٤٨﴾-﴿٥١﴾ ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ

مِن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يذكر تعالى مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام أن الله عز وجل يعلمه الكتابة، لأن الكتابة من أعظم نعم الله على عباده، فيكون ذلك امتناناً على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتابة وكان أحسن الناس خطاً في زمانه.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: السداد في القول والعمل، أو سنن الأنبياء.

﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ ويجعله يحفظ التوراة التي أوحاها الله إلى موسى والإنجيل الذي أنزل عليه، قال ابن كثير: وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا، وهذا هو الكمال للإنسان في نفسه، ثم ذكر كمالاً آخر وفضلاً زائداً على ما أعطاه الله من فضائل، فقال:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى الله عز وجل، وأقام له من الآيات ما دلهم أنه رسول الله حقاً ونبيه صدقاً، ولهذا قال:

﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بأني قد جئتكم بعلامة من ربكم تدل على أني مرسل من الله، وهي ما أيدني الله به من المعجزات، وآية صدقي.

﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: أني أصنع لكم من الطين مثل شكل الطير، فأنفخ فيه فيصبح طيراً حقيقياً بإذن الله، قال ابن كثير: وكذلك كان يفعل، يصور من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه، فيطير عياناً بإذن الله عز وجل، الذي جعل هذه معجزة له تدل على أنه أرسله، وهذه المعجزة الأولى.

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ وأشفي من ولد أعمى، كما أشفي المصاب بالبرص، وهذه المعجزة الثانية.

وخص هذين؛ لأنهما داءان عياءان، وكان الغالب في زمن عيسى عليه السلام الطب، فأراهم المعجزة من جنس ذلك.

﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وأحيي بعض الموتى لا بقدرتي ولكن بمشيئة الله وقدرته، وقد أحيا أربعة أنفس: عازر وكان صديقاً له، وابن العجوز، وبنت العاشر، وسام بن نوح. وكرر لفظ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ دفعاً لتوهم الألوهية، وهذه المعجزة الثالثة، وكانت معجزة عيسى عليه السلام في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة.

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ وأخبركم بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكون فيها، فكان يخبر الشخص بما أكل وما ادخر في بيته، وهذه هي المعجزة الرابعة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: فيما أتيتكم به من المعجزات التي ليست في قدرة البشر علامة واضحة تدل على صدقي إن كنتم مصدقين بآيات الله. ثم أخبرهم أنه جاء مؤيداً لرسالة موسى فقال:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وجئتكم مصدقاً لرسالة موسى، مؤيداً لما جاء به في التوراة، وعلامة الصادق أن يكون خبره من جنس خبر الصادقين.

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ولأحل لكم بعض ما كان محرماً عليكم في شريعة موسى تخفيفاً من الله ورحمة، وفيه دليل على أن عيسى نسخ بعض شريعة التوراة.

﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وجئتكم بعلامة شاهدة على صحة رسالتي، وهي ما أيدني الله به من المعجزات، وكرر ذلك تأكيداً.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: خافوا الله وأطيعوا أمري فيما أبلغكم به عن الله، فإن طاعة الرسول طاعة لله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ إن الله الذي أدعوكم إليه هو وحده ربي وربكم فاعبدوه، وأنا وأنتم سواء في العبودية والخضوع له - جل وعلا -؛ استدل بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعماً ظاهرة وباطنة، فليكن هو معبودنا الذي نألهه بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادات.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: فإن تقوى الله وعبادته، والإقرار بوحدانيته، هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه الموصل إلى الله وإلى جنته.

* لا تزال الآيات تتحدث عن قصة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وقد ذكر تعالى في الآيات السابقة بشارة مريم بالمسيح عليه السلام، ثم أعقبها بذكر

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ
﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ
مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم
مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ
عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ
عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ
كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ
﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟
نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا
وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

٥٧

معجزاته، وكلها براهين ساطعة تدل على نبوته ﷺ، ومع كل البراهين والمعجزات التي أيده الله بها فإن الكثيرين من بني إسرائيل لم يؤمنوا به وقد عزم أعداء الله اليهود على قتله فنجاه الله من شرهم ورفعه إلى السماء، قال تعالى:

﴿٥٢﴾-﴿٥٤﴾ ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: حين علم ووجد من اليهود التصميم على الكفر وعدم الانقياد له، والاستمرار على الضلال، وهموا بقتله وسعوا في ذلك، نادى في أصحابه الخُلّص:

﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: من يعاونني ويقوم معي في الدعوة إلى الله ونصرة دينه.

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ قال المؤمنون الأصفياء من أتباعه وخاصته: نحن أنصار دين الله وأعوانه.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ صدقنا بالله وبما جئتنا به، وأشهد يا عيسى بأنا مستسلمون لله بالتوحيد والطاعة، مخلصون في نصرتك.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ربنا صدقنا بآياتك، واتبعنا رسولك عيسى، فاكتبنا مع من شهد لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق، وهم أمة محمد ﷺ الذين يشهدون للرسل بأنهم بلَّغوا أممهم. ثم أخبر تعالى عن اليهود المتآمرين الذين أرادوا قتل عيسى، فقال:

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ أي: أراد الذين كفروا من بني إسرائيل قتل عيسى عليه السلام، بأن وكلوا به من يقتله غيلة، فنجاه الله من شرهم ورفعه إلى السماء دون أن يمس بأذى، وألقى شبهه على ذلك الخائن يهوذا فأمسكوا به، وقتلوه وصلبوه ظناً منهم أنه عيسى عليه السلام، وسمي مكراً من باب المشاكلة، ولهذا قال:

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي: رد الله كيدهم في نحورهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم فانقلبوا خاسرين، وفي هذا إثبات صفة المكر لله تعالى، على ما يليق بجلاله وكماله؛ لأنه مكر بحق، وفي مقابلة مكر الماكرين، فالمكر من المخلوقين الخبث والخديعة والحيلة، والمكر من الله استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يعلم.

* ثم كانت نتيجة مكرهم وكيدهم أن نجا الله عبده ونبيه عيسى عليه السلام:

﴿٥٥﴾-﴿٥٨﴾ ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ * ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ أي: إني قابضك من الأرض من غير أن ينالك سوء، ورافعك إلى السماء ببدنك وروحك ثم مميتك بعد استيفائك كامل أجلك، والمقصود بشارته بنجاته من اليهود ورفعه إلى السماء سالماً دون أذى. قال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إليّ ثم متوفيك بعد ذلك.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ
﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ
بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ
تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا
وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾
إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ
لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

٥٨

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ **ومخلصك من شر الأشرار الذين أرادوا قتلك، ومخرجك من بينهم، ومنجيك منهم.**

وفيه إشارة إلى نجاسة الكفار معنويًّا، وأن من يعايشهم ويتبع أثرهم ويتشبه بهم فسيعلق به أثر نجاستهم.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ **وجاعل أتباعك من النصارى الذين آمنوا بك، فوق الذين جحدوا نبوتك ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة، وهكذا وقع ذلك لما رفعه الله إلى السماء.**

﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ **ثم مصير الخلائق كلها إلى الله يوم القيامة، فأقضي بين جميعكم بالحق، فيما كنتم تختلفون فيه من الدين وأمر عيسى عليه السلام.**

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ **فأما الذين كفروا بالمسيح من اليهود أو غلوا فيه من النصارى فإني معذبهم عذاباً شديداً في الدنيا بالقتل والسبي والجزية والذِّلة، والعقوبات الدنيوية الأخرى، وبالآخرة بنار جهنم وهو أعظم وأشد.**

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ **وليس لهم ناصر يمنع عنهم عذاب الله لا من زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربائهم، ولا أنفسهم ينصرون.**

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ﴾ **وأما الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الأعمال الصالحة؛ فيعطيهم الله جزاء أعمالهم الصالحة كاملة غير منقوصة في الدنيا من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وفي الآخرة بأعظم الجزاء وأوفره وأحسنه.**

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **أي: لا يحب من كان ظالماً بالشرك والكفر بل يبغضهم ويحل عليهم سخطه وعذابه.**

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ **وهذه منّة عظيمة على رسولنا محمد ﷺ، أي: هذه الأنباء التي نقصها عليك -يا محمد- في شأن عيسى ومريم والحواريين، من الدلائل الواضحة على صحة رسالتك، وصحة آيات القرآن الكريم المحكم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.**

*** ثم يخبر تعالى محتجّاً على النصارى الزاعمين بعيسى عليه السلام ما ليس به بحق بغير برهان ولا دليل، قال تعالى:**

﴿٥٩﴾-﴿٦٣﴾ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ﴾ **إن شأن عيسى إذ خلقه من غير أب - وهو في بابه غريب - كشأن آدم.**

﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ **أي: خلق آدم من غير أب ولا أم، ثم قال له كن فكان، فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم، فدعوى إلهية عيسى لكونه خُلق من غير أب دعوى باطلة، فآدم عليه السلام خلق من غير أب ولا أم، واتفق الجميع على أنه عبد من عباد الله.**

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: هـذا القول الحق في عيسى فلا تكن من الشاكين، وفي هذا تثبيت وطمأنينة لرسـول الله ﷺ. ثم قال تعالى آمراً رسوله ﷺ:

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ فمن جادلك في أمر عيسى بعدما وضح لك الحق واستبان بأنه عبد الله ورسوله.

﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي: هلموا نجتمع، ويدعو كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة، وفي صحيح مسلم لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ فاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «اللهم هؤلاء أهلي».

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: نتضرع إلى الله فنقول: اللهم العن الكاذب منا في شأن عيسى، فلما دعاهم إلى المباهلة امتنعوا وقبلوا الجزية. عن ابن عباس أنه قال: لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً. وفي ترك النصارى الملاعنة لعلمهم بصدقه شاهد عظيم على صحة نبوته، لما قدم وفد نصارى نجران، وجادلوا رسول الله ﷺ في أمر عيسى، قالو ا للرسول ﷺ: ما لك تشتم صاحبنا؟ قال: «وما أقول؟» قالوا: تقول إنه عبد، قال: «أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول»، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ فإن كنت صادقا فأرناً مثله، فأنزل الله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ الآية، وروي أنه ﷺ لما دعاهم إلى الإسلام قالوا: قد كنا مسلمين قبلك، فقال: «كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث: قولكم اتخذ الله ولداً، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب» فقالوا: فمن أبوه فأنزل الله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فدعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة، فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم ناراً، فقالوا: أما تعرض علينا سوى هذا؟ فقال: «الإسلام أو الجزية أو الحرب، فأقروا بالجزية»، ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: هذا الذي قصصناه عليك - يا محمد - في شأن عيسى هو النبأ الحق الذي لا شك فيه، وما من معبود يستحق العبادة إلا الله وحده، وفيه رد على النصارى في قولهم بالتثليث.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: هو - جل شأنه - العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه وتدبيره الذي يضع الأشياء مواضعها.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فإن أعرضوا عن الإقرار بالتوحيد وتولوا عن اتباعك وتصديقك، فإنهم المفسدون، الذين يعبدون غير الله ويدعون الناس إلى عبادة غير الله، والله عليم بهم وسيجازيهم على ذلك شر الجزاء.

* لما أقام -جل وعلا- الحجة على النصارى وأبطل دعواهم في شأن ألوهية المسيح، دعا الفريقين اليهود والنصارى إلى التوحيد، والاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، إذ كانت ملته الحنيفية السمحة وهي ملة الإسلام، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً كما زعم كل من الفريقين، ثم بين أن أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم محمد ﷺ وأمته، قال تعالى:

٦٤ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى هلموا إلى كلمة عادلة مستقيمة، فيها إنصاف وعدل وحق، وهي التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون جميعاً فلنلتزم بها جميعاً، وهي:

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل له شريكاً من وثن أو صنم أو صليب أو طاغوت أو غير ذلك، بل تكون الطاعة كلها لله ولرسوله، ولا يعبد بعضنا بعضاً كما عبد اليهود والنصارى عزيراً وعيسى، وأطاعوا الأحبار والرهبان فيما أحلوا لهم وحرموا. روي أن الآية

لـمـا نزلت قال عدي بـن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسـول الله، فقال ﷺ: «أما كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟» فقال: نعم، فقال النبي ﷺ: «هو ذاك» [رواه الترمذي].

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْـهَدُواْ بِأَنَّا مُسْـلِمُونَ﴾ فإن أعرضوا عن التوحيد ورفضوا قبـول تلك الدعـوة العادلة، فقولـوا أنتم اشـهدوا يـا معشر أهل الكتاب بأننا موحدون مسلمون، مقرون لله بالوحدانية مخلصون له العبادة.

* لـمـا ادعـى اليهـود أن إبراهيم كان يهوديّاً، والنصـارى أنه نصراني، وجادلـوا عـلى ذلـك، رد الله تعالى محاجتهم ومجادلتهـم وأنكـر ذلك عليهم، فقال تعالى:

﴿٦٥﴾-﴿٦٨﴾ ﴿يَـٰٓأَهْـلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِـمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْـدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَـمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَٰهِيـمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِـينَ * إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يا معشر اليهود والنصارى لم تجادلـون وتنازعـون في إبراهيـم وتزعمون أنه على دينكم.

﴿وَمَآ أُنزِلَـتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ والحال أنه ما حدثت هذه الأديان إلا من بعده بقرون كثيرة، فكيف يكون من أهلها؟

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بطلان قولكم؟ فقـد كان بين إبراهيم وموسـى ألف سـنة، وبين موسى وعيسى ألف سنة، فكيف يقول بذلك عاقل؟ والاستفهام للتوبيخ.

﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُـم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هـا أنتم يا معشر اليهود والنصارى جادلتم وخاصمتم في شـأن عيسـى وقد عشـتم زمانه فزعمتم ما زعمتموه.

﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فلـم تخاصمون وتجادلون في شـأن إبراهيم ودينه وتنسـبونه إلى اليهوديـة أو النصرانيـة دون علـم، أفليست هذه سفاهة وحماقة؟

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ والله يعلـم الحق من أمر إبراهيم وأنتم لا تعلمون ذلك. ثـم كذبهم الله تعالى في دعـوى إبراهيم، وبرأه الله تعالى عما قالوا فيه؛ فقال:

﴿مَـا كَانَ إِبْرَٰهِيـمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ مـا كان إبراهيم على دين اليهودية ولا عـلى دين النصرانية، فإن اليهودية ملة محرفة عن شرع موسـى، وكذلك النصرانية ملة محرفة عن شرع عيسى. روي عن ابن عباس أن أخبار اليهود ونصارى نجران اجتمعوا عند رسـول الله ﷺ فتنازعـوا في إبراهيم فقالت اليهود: ما كان إلا يهوديّاً، وقال النصارى: مـا كان إلا نصرانياً، فأنزل الله ﴿مَـا كَانَ إِبْرَٰهِيـمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية.

﴿وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم.

﴿وَمَا كَانَ مِـنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان مسـلماً ولم يكـن مـشركاً، وفيه تعريض بأنهم مشركون في قولهم: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، ورد لدعوى المشركين أنهم على ملة إبراهيم.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ إن أحق الناس بالانتسـاب إلى إبراهيـم وأخصهم به أتباعه الذين سـلكوا طريقـه ومنهاجـه في زمانه وبعده، وكل مؤمـن وليّ إبراهيم ممن مضى وممن بقي.

﴿وَهَـٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: محمد ﷺ، وخص بالذكر لفضله وشرفه، والمؤمنون من أمة محمد ﷺ، فهم الجديرون بأن يقولوا نحن على دينه لا أنتم.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِـينَ﴾ أي: حافظهم وناصرهم.

* ولما دعـا اليهود بعض الصحابة إلى اليهودية، حذر تعالى عباده المؤمنين مـن مكـر وخديعـة أهـل الكتاب وسعيهم في ذلك، قال تعالى:

﴿٦٩﴾-﴿٧٤﴾ ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّـنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَـوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَـهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ
وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ
بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ
لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ
ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ
عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ
وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ
ٱلۡعَظِيمِ ٧٤ ۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ
يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ
إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي
ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ
٧٥ بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ
٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا
أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ
إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧

٥٩

* يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ * يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ * وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ * يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ﴾ أي: تمنت جماعة من اليهود والنصارى إضلالكم أيها المسلمون بالرجوع إلى دينهم حسداً وبغياً.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ ولا يعود وبال ذلك إلا عليهم، إذ يضاعف به عذابهم، وما يفطنون أنهم يسعون في ضرر أنفسهم. ثم وبخهم ﷻ على فعلهم القبيح، فقال:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يا أهل التوراة والإنجيل لم تجحدون آيات الله التي أنزلها على محمد ﷺ وبيان نعته وصفته.

﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ أي: تعلمون أنه حق. ثم وبخهم على إضلالهم الخلق، فقال:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ يا أهل التوراة والإنجيل لم تخلطون بين الحق والباطل بإلقاء الشبه والتحريف والتبديل؟

﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ وتخفون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعلمون ذلك. ثم حكى تعالى نوعاً آخر من مكرهم وخبثهم، وهو أن يظهروا الإسلام في أول النهار ثم يرتدوا عنه في آخره ليشككوا الناس في دين الإسلام، فقال:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾ وهذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين.

﴿وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ واكفروا بالإسلام آخر النهار.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ لعلهم يشكون في دينهم فيرجعون عنه، فيقولون لو كان صحيحاً لما خرج منه ولا رجع عنه أهل العلم والكتاب.

﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾ هذا من تتمة كلام اليهود بعضهم لبعض حكاه الله عنهم، والمعنى: قال ذلك الرؤساء للسفلة: لا تصدقوا ولا تظهروا سركم وتطمئنوا لأحد إلا إذا كان على دينكم.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ قل لهم - يا محمد - إن الهدى ليس بأيديكم، وإنما الهدى هدى الله، يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه كما هدى المؤمنين، والجملة اعتراضية.

ثم ذكر تعالى بعد ذلك الاعتراض بقية كلام اليهود، فقال:

﴿أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾ أي: يقول اليهود بعضهم لبعض: لا تصدقوا إلا من تبع دينكم، وانظروا فيمن

ادعى النبوة فإن كان متبعاً لدينكم فصدقوه وإلا فكذبوه، ولا تقرّوا ولا تعترفوا لأحد بالنبوة إلا إذا كان على دينكم، خشية أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم وخشية أن يحاجوكم به عند ربكم، فإذا أقررتم بنبوة محمد ولم تدخلوا في دينه تكون له الحجة عليكم يوم القيامة، وغرضهم نفي النبوة عن رسول الله ﷺ.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ قل لهم ـ يا محمد ـ أمر النبوة ليس إليكم وإنما هو بيد الله، والفضل والخير كله بيد الله يؤتيه من يشاء ممن أتى بأسبابه، والله ذو الفضل العظيم.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ كثير العطاء واسع الإنعام، يعلم بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يستحقه فيحرمه إياه.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: يختص بالنبوة من شاء، وفضله واسع عظيم لا يحد ولا يمنع، لا يصفه الواصفون ولا يخطر بقلب بشر، بل وصل فضله وإحسانه إلى ما وصل إليه علمه، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً.

* لما حكى تعالى قبائح أهل الكتاب، وما هم عليه من الخبث والكيد والمكر، أعقبه بذكر بعض أوصاف اليهود خاصة وهي خيانتهم وعدم الوفاء، فقد خانوا الله والناس بتحريفهم كلام الله عن معناه، واستحلالهم أكل أموال الناس بالباطل، وفي الآيات شروع في بيان خيانة اليهود في المال بعد بيان خيانتهم في الدين، قال تعالى:

﴿٧٥﴾، ﴿٧٦﴾ ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ وإن من اليهود من إذا ائتمنته على المال الكثير أداه إليك لأمانته وهو على أداء ما دونه من باب أولى، كعبد الله بن سلام أودعه قرشي ألف أوقية ذهباً فأداها إليه.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ ومن اليهود من لا يؤتمن على دينار لخيانته ولا يؤده إليك إلا إذا بذلت غاية الجهد في مطالبته كفنحاص بن عازوراء ائتمنه قرشي على دينار فجحده.

﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ إلا إذا كنت ملازماً له ومشهداً عليه وملحاً في طلبك.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ ذلك الاستحلال والخيانة وعدم الوفاء وتركهم أداء الحقوق أنهم قالوا: ليس علينا أثم في عدم أداء أموال العرب إليهم. روي أن اليهود قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨] والخلق لنا عبيد، فلا سبيل لأحد علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا، وقيل: إنهم قالوا إن الله أباح لنا مال من خالف ديننا، قال نبي الله ﷺ: «كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا هو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر».

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ويكذبون على الله بادعائهم ذلك، وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون. ثم قال تعالى ردّاً عليهم:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ليس كما زعموا، بل عليهم فيه إثم، لكن من أدى الأمانة منهم وآمن بمحمد ﷺ واتقى الله واجتنب محارمه، فإن الله يحبه ويكرمه؛ فإنه تعالى يحب المتقين الذين يتقون الشرك والمعاصي.

﴿٧٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: يستبدلون بالعهد الذي عاهدوا عليه من التصديق بمحمد وبأيمانهم الكاذبة حطام الدنيا وعرضها الخسيس الزائل، ويدخل في ذلك كل من أخذ شيئاً من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده. عن الأشعث بن قيس قال: كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: «هل لك بينة؟» قلت:

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ
مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ
عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ
ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن
تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ
إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم
مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا
مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ
عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم
مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

لا، قال لليهودي: «احلف» قلت: إذا يحلف فيذهب بمالي فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ...﴾ **الآية.**

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ **أي: ليس لهم حظ ولا نصيب من رحمة الله تعالى في الآخرة، ولا يكلمهم كلام أنس ولطف، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة يوم القيامة لتقديمهم هوى أنفسهم على رضا ربهم.**

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **ولا يطهرهم من ذنوبهم، ولا يزيل عيوبهم، ولهم عذاب مؤلم موجع للقلوب والأبدان على ما ارتكبوه من المعاصي.**

*** وبعد ذلك الوعيد الشديد يخبر تعالى عن تحريفهم كلام الله ﷻ، قال تعالى:**

﴿٧٨﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ **وإن من اليهود طائفة يحرفون الكلام عن مواضعه، وعن المقصود به في حال قراءة الكتاب، لتحريف معانيه وتبديل كلام الله عن المراد منه. قال ابن عباس: يحرفونه بتأويله على غير مراد الله.**

﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ **يفعلون ذلك ليوهموا غيرهم أن هذا المحرف من كلام الله المنزل وهو التوراة وما هو إلا تضليل وبهتان.**

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ **أي: ينسبونه إلى الله أوحاه إلى نبيه موسى، وهو كذب وافتراء على الله.**

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ **وهم لأجل دنياهم كذبوا وافتروا على الله.**

*** ثم قال تعالى رداً على النصارى لما زعموا أن عيسى أمرهم أن يعبدوه.**

﴿٧٩﴾، ﴿٨٠﴾ ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ **لا يصح ولا ينبغي لأحد من البشر أعطاه الله الكتاب والحكمة والنبوة.**

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ **ثم يقول للناس اعبدوني من دون الله. وهذه الآية نزلت رداً لمن قال من أهل الكتاب للنبي ﷺ لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: أتريد - يا محمد - أن نعبدك مع الله، والغرض أنه لا يصح أصلاً ولا يتصور عقلاً صدور دعوى الألوهية من نبي قط أعطاه الله النبوة والشريعة فضلاً عن أن يحصل ذلك بالفعل؛ لأن الرسول سفير بين الله وخلقه ليرشد الناس إلى عبادة الله فكيف يدعوهم إلى عبادة نفسه، وإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى.**

﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ **ولكن يقول لهم: كونوا ربانيين، حكماء علماء حلماء، والمعنى: لا أدعوكم إلى أن تكونوا عباداً لي، ولكن أدعوكم أن تكونوا علماء فقهاء مطيعين لله.**

﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ **بتعليمكم الناس الكتاب ودراستكم إياه.**

﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾ أي: وما كان لأحد أن يأمركم بعبادة غير الله ـ ملائكة أو أنبياء ـ؛ لأن مهمة الرسل الدعوة إلى الله وإخلاص العبادة له.

﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أيأمركم نبيكم بالكفر وجحود وحدانية الله، بعد أن أسلمتم ودخلتم في دين الله؟ والاستفهام إنكاري تعجبي.

* لما ذكر تعالى خيانة أهل الكتاب بتحريفهم كلام الله عن مواضعه، وتغييرهم أوصاف رسول الله ﷺ الموجودة في كتبهم حتى لا يؤمنوا به، ذكر تعالى هنا ما تقوم به الحجة عليهم وهو أن الله قد أخذ الميثاق على أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إن أدركوا حياته، وأن يكونوا من أتباعه وأنصاره، فإذا كان الأنبياء قد أخذ عليهم العهد أن يؤمنوا به ويبشروا بمبعثه فكيف يصح من أتباعهم التكذيب برسالته، قال تعالى:

﴿٨١﴾، ﴿٨٢﴾ ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ اذكروا يا أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكد على جميع الأنبياء.

﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ﴾ لئن آتيتكم من كتاب وحكمة، قال الطبري: المعنى لمهما آتيتكم أيها النبيون من كتاب وحكمة.

﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ ثم جاءكم رسول من عندي بكتاب مصدق لما بين أيديكم، وهو محمد ﷺ.

﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾ لتصدقنه ولتنصرنه. قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته.

﴿قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ أي: أأقررتم واعترفتم بهذا الميثاق وأخذتم عليه عهدي الموثق؟

﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ﴾ اعترفنا بذلك وقبلنا ما أمرتنا به.

﴿قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ قال الله لهم: اشهدوا على أنفسكم وأتباعكم، وأنا من الشاهدين عليكم وعليهم بذلك، وفي هذا أن الله أخذ الميثاق على كل نبي أن يؤمن بمحمد ﷺ وأخذ الميثاق على أمم الأنبياء بذلك.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أي: فمن أعرض ونكث عن دعوة الإسلام بعد هذا البيان وهذا العهد المؤكد بالشهادة من الله ومن رسله، فهم الخارجون عن دين الله وطاعة ربهم.

* ثم يقول تعالى منكراً على من أراد ديناً سوى دين الله الذي أنزل على الرسل وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وأن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان، وبيّن أن الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله دينا سواه، قال تعالى:

﴿٨٣﴾-﴿٨٥﴾ ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ * قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ * وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي، أيبتغي أهل الكتاب ديناً غير الإسلام الذي أرسل الله به رسله؟

﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ولله استسلم وانقاد وخضع له أهل السموات والأرض.

﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ أي: طائعين ومكرهين، فالمؤمن أسلم طائعاً، والكافر أسلم كارهاً حين لا ينفعه ذلك. قال ابن كثير: فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله طوعاً، والكافر مستسلم لله كرهاً فإنه تحت التسخير

والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع.

﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ يوم المعاد، فيجازي كلًّا بعمله، وهذا تحذير من الله تعالى لخلقه أن يرجع إليه أحد منهم على غير ملة الإسلام، ولما ذكر الملل واضطراب الناس فيها، أمر رسوله ﷺ:

﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ قل -يا محمد- أنت وأمتك آمنا بالله فلا رب لنا غيره، ولا معبود لنا سواه، وآمنا بالقرآن المنزل علينا.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ وآمنا بما أنزل على إبراهيم خليل الله وابنيه إسماعيل وإسحاق، وابن ابنه يعقوب بن إسحاق، من الصحف والوحي، والذي أنزله الله على الأسباط وهم الأنبياء الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل من ولد يعقوب.

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل.

﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ وما أنزل على الأنبياء جميعهم.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ نؤمن بذلك كله ولا نكفر بالبعض كما فعل اليهود والنصارى بل نؤمن بالكل.

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ موحدون مخلصون في العبادة، مقرون له بالألوهية والربوبية، لا نشرك معه أحداً أبداً. ثم أخبر تعالى بأن كل دين غير الإسلام باطل ومرفوض، فقال:

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ ومن يدين ديناً غير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده فعمله مردود غير مقبول؛ لأن دين الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والعبودية، ولرسوله النبي الخاتم محمد ﷺ بالإيمان به وبمتابعته ومحبته ظاهراً وباطناً.

﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ مصيره إلى النار مخلداً فيها.

الجزء الثالث — سورة آل عمران

قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

٦١

﴿٨٦-٨٩﴾ ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ استفهام للتعجيب والتعظيم لكفرهم، أي: كيف يستحق الهداية قوم اختاروا الكفر والضلال بعد إيمانهم. عن ابن عباس قال: ارتد رجل من الأنصار عن الإسلام ولحق بالشرك ثم ندم، فأرسل إلى قومه: سلوا لي رسول الله هل لي من توبة فإني قد ندمت؟ فنزلت الآية: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فكتب بها قومه إليه فرجع فأسلم.

﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ﴾ وبعد أن جاءتهم الشواهد ووضح لهم الحق أن محمداً رسول الله.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ وجاءتهم المعجزات، والحجج البينات، على صدق النبي محمد ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنهم ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ظلماً وبغياً واتباعاً لأهوائهم، فهؤلاء يوفقون للهداية ولطريق السعادة. قال

الحسن: هم اليهود والنصارى رأوا صفة محمد ﷺ في كتابهم، وشهدوا أنه حق فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب فكفروا بعد إيمانهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ أي: جزاؤهم على كفرهم اللعنة من الله والملائكة والخلق أجمعين فهم مطرودون من رحمة الله. والجزاء من جنس العمل، فإن هؤلاء لما ارتكبوا ثلاث جرائم أو ثلاثة أمور في كفرهم، كان عليهم لعنة الله والملائكة والناس، ثلاث بثلاث.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ ماكثين في النار أبد الآبدين، لا يفتر عنهم العذاب ولا هم يمهلون ولا يؤخرون لأن زمن الإمهال قد مضى.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ إلا من تاب وأناب وأصلح ما أفسد من عمله ورجع إلى ربه بالتوبة النصوح من بعد كفرهم وظلمهم، واصلحوا ما أفسدوه بتوبتهم فإن الله يقبلها.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ متفضل عليه بالرحمة والغفران وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه؛ أن من تاب إليه تاب عليه.

* يخبر تعالى متوعداً ومهدداً أن من كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً إلى كفره بتماديه في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشد والهدى، أنه لا تقبل توبته، قال تعالى:

﴿٩٠﴾، ﴿٩١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ نزلت في اليهود كفروا بعيسى بعد إيمانهم بموسى، ثم ازدادوا كفراً حيث كفروا بمحمد والقرآن.

﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ أي: لا تقبل منهم توبة عند حضور الموت ولا يوفقون لها، لأنهم خارجون عن منهج الحق إلى طريق الغي، وأي ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن علم وبصيرة. ثم أخبر تعالى عمن كفر ومات على الكفر، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾ أي: جحدوا نبوة محمد ﷺ وماتوا على الكفر بالله ورسوله، ولم يتوبوا وهو عام في جميع الكفار.

﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: لن يُقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، ولهم عذاب مؤلم موجع.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ما هم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه.

* لما ذكر تعالى حال الكفار ومآلهم في الآخرة، وبيّن أن الكافر لو أراد أن يفتدى نفسه بملء الأرض ذهباً ما نفعه ذلك، ذكر هنا ـ استطراداً ـ ما ينفع المؤمن لنيل رضى الله والفوز بالجنة، حاثاً عباده على الإنفاق في طرق الخيرات.

﴿٩٢﴾ ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ لن تكونوا من الأبرار، ولن تدركوا الجنة حتى تتصدقوا من أفضل أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإن ذلك يدل أنكم قدمتم محبة الله ومرضاته على محبة الأموال، وهذا دليل على إيمانكم الصادق وبر قلوبكم ويقين تقواكم.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ وما تبذلوا من شيء في سبيل الله قليلاً أو كثيراً فهو محفوظ لكم تجزون عنه خير الجزاء على حسب نياتكم ونفعه.

* ثم رد ﷻ على اليهود في شبههم التي أوردوها حول النبوة والرسالة وصحة دين الإسلام، ومن ذلك بزعمهم الباطل أن النسخ غير جائز، فكفروا بعيسى ومحمد ﷺ، لأنهما قد أتيا بما يخالف بعض أحكام التوراة بالتحليل والتحريم، قال تعالى:

﴿٩٣﴾-﴿٩٥﴾ ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ
ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ
إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ
مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا
مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾

٦٢

ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ **كل الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل - أبناء يعقوب - إلا ما حرمه يعقوب على نفسه لمرض نزل به، فنذر لئن شفاه الله تعالى ليحرمن من أحب الأطعمة إليه، وهو لحم الإبل ولبنها، ثم حرمت عليهم أنواع من الأطعمة كالشحوم وغيرها عقوبة لهم على معاصيهم.**

﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ **أي: كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة.**

﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ **قل لهم - يا محمد - ائتوني بالتوراة واقرؤوها عليَّ إن كنتم صادقين في دعواكم أنها لم تحرم عليكم بسبب بغيكم وظلمكم، وهذا أمر بأن يحاجهم بكتابهم ويبكتهم بما هو ناطق به، فلما حاجهم بكتابهم وبكتهم بهتوا وانقلبوا صاغرين ولم يجسر أحد منهم على إخراج التوراة، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ.**

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ **فمن اختلق الكذب من بعد قراءة التوراة وقيام الحجة وظهور البينة، فأولئك هم المعتدون المكابرون القائلون على الله بالباطل.**

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ **قل لهم - يا محمد - صدق الله في كل ما أوحى وفي كل ما أخبر به، وفيما شرعه وحكم.**

﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ **فإن كنتم صادقين في محبتكم وانتسابكم لإبراهيم عليه السلام فاتركوا اليهودية واتبعوا ملة الإسلام التي هي ملة إبراهيم.**

﴿حَنِيفًا﴾ **مائلاً عن الأديان الباطلة كلها.**

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ **برأه تعالى مما نسبه اليهود والنصارى إليه من اليهودية والنصرانية، وفيه تعريض بإشراكهم.**

* **ثم يخبر تعالى عن شرف هذا البيت الحرام، وأنه أول بيت وضعه الله للناس يتعبدون فيه لربهم فتغفر أوزارهم، وتقال عثراتهم، ويحصل لهم به من الطاعات والقربات ما ينالون به رضى ربهم، والفوز بثوابه، والنجاة من عقابه، قال تعالى:**

﴿٩٦﴾، ﴿٩٧﴾ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ * فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ **إن أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله المسجد الحرام الذي بمكة.**

﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ **أي: وضع مباركاً، كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره، حيث تضاعف فيه الحسنات وتتنزل فيه الرحمات ومصدراً للهداية والنور لأهل الأرض؛ لأنه قبلتهم.**

ثم عدد تعالى من مزاياه ما يستحق تفضيله على جميع المساجد، فقال:

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ **في هذا البيت علامات واضحات كثيرة تدل على شرفه وفضله على سائر المساجد، منها:**

﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهو الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم حين رفع القواعد من البيت هو وابنه إسماعيل، وفيه زمزم والحطيم، وفيه الصفا والمروة والحجر الأسود.

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ وهذه آية أخرى وهي أمن من دخل الحرم بدعوة الخليل إبراهيم ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] فلا يناله أحد بسوء حتى الشجر والنبات والطير.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وأوجب الله على المستطيع من الناس حج بيت الله العتيق.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ومن جحد فريضة الحج فقد كفر، والله مستغن عن عبادته وعن الخلق أجمعين، وعبر عنه بالكفر تغليظاً عليه. قال ابن عباس: من جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه. وفي الآيات ذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما تدعو النفوس إلى قصده وحجه وإن لم يطلب ذلك منها، فوصف بخمس صفات: أحدها كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض، الثاني: أنه مبارك، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً ولا أدوم ولا أنفع للخلائق، الثالث: أنه هدى، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة، حتى كأنه نفس الهدى، الرابع: ما تضمن من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية، الخامس: الأمن الحاصل لداخله.

* ثم أخذ يبكت أهل الكتاب ويوبخهم على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله التي أنزلها على رسله، فقال:

(٩٨)، (٩٩) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۞ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لم تجحدون بالقرآن المنزل على محمد مع قيام الدلائل والبراهين على صدقه.

﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ وهو سبحانه مطلع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها، وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ قل -يا محمد- لليهود والنصارى لم تصرفون الناس عن دين الله الحق، وتمنعون من أراد الإيمان به.

﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ تطلبون أن تكون الطريق المستقيمة معوجة، وذلك بتغيير صفة الرسول، والتلبيس على الناس بإيهامهم أن في الإسلام خللاً وعوجاً.

﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أي: عالمون بأن الإسلام هو الحق والدين المستقيم.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل محيط بأعمالكم، ونياتكم ومكركم السيء، وصدكم عن سبيله، وهو وعيد شديد، وقد جمع اليهود والنصارى الوصفين: الضلال والإضلال كما أشارت الآيتان الكريمتان فقد كفروا بالإسلام، ثم صدوا الناس عن الدخول فيه بإلقاء الشبه والشكوك في قلوب الضعفة من الناس.

* ولما توعد الكفار ووبخهم عطف برحمته وجوده وإحسانه وحذر عباده المؤمنين منهم، لئلا يمكروا بهم من حيث لا يشعرون وذلك لحسدهم وبغيهم، فقال تعالى:

(١٠٠)، (١٠١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ۞ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إن تطيعوا طائفة من أهل الكتاب.

﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ يصيروكم كافرين بعد أن هداكم الله للإيمان، ويلقوا إليكم الشبه في دينكم، والخطاب للأوس والخزرج إذ كان اليهود يريدون فتنتهم كما في سبب النزول واللفظ في الآية عام. يروى أن شاس ابن قيس اليهودي مر على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون، فغاظه ما رأى

الجُزْءُ الرَّابِعُ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ
رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم
مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟
نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ
ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾
وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ
فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ
وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ
ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

٦٣

من ألفتهم وصلاح ذات بينهم بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة فقال: ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، ثم أمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعاث وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار ـ وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس ـ والخزرج وكان الظفر فيه للأوس ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السلاح السلاح، فبلغ النبي ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم» فعرف القوم أنها كانت نزغة من الشيطان وكيداً من عدوهم، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين فأنزل الله ﷻ: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ الآية.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ إنكار واستبعاد، أي: كيف يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله لاتزال تتنزل عليكم، والوحي لم ينقطع ورسول الله حي بين أظهركم؟ يبلغها لكم وينبهكم ويزيح عنكم شبهكم.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ومن يتمسك بدينه الحق الذي بينه بآياته على لسان رسوله ويتوكل على الله فقد اهتدى إلى أقوم طريق، وهي الطريقة الموصلة إلى جنات النعيم؛ لأنه جمع بين اتباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله وبين الاعتصام بالله.

* ثم يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك ويثبتوا عليه إلى المات، قال تعالى:

﴿١٠٢﴾-﴿١٠٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي: خافوا الله حق خوفه، وذلك بأن يطاع فلا يعصى، وأن يشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وتمسكوا بالإسلام وعضوا عليه بالنواجذ حتى يدرككم الموت وأنتم على تلك الحالة فتموتون على الإسلام، والمقصود الأمر بالإقامة على الإسلام. ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى، فقال:

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ وتمسكوا بدين الله وكتابه جميعاً ولا تتفرقوا عنه، ولا تختلفوا في الدين كما اختلف من قبلكم من اليهود والنصارى، ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم بذكرها، فقال:

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ واذكروا إنعامه عليكم يا معشر العرب.

﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ حين كنتم قبل الإسلام أعداء ألداء يقتل بعضكم بعضاً، ويأخذ بعضكم مال بعض فجمع الله قلوبكم على محبته ومحبة رسوله، وألقى في قلوبكم محبة بعضكم لبعض، فأصبحتم بفضله إخواناً متحابين.

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ
﴿١٠٩﴾ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ
وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ
ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ
ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ
يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ
ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ
وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ
بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيۡسُواْ
سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ
ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ
وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا
يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ وكنتم مشرفين على الوقوع في نار جهنم فأنقذكم الله منها بالإسلام.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر الآيات لما فيه صلاحكم ويبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا بها إلى سعادة الدارين وتسلكوها، فلا تضلوا عنها، وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكراً له ومحبة وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمه، نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول ﷺ واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها.

* لما حذر تعالى من مكايد أهل الكتاب، وأمر بالاعتصام بحبل الله والتمسك بشرعه القويم، دعا المؤمنين إلى القيام بواجب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمر بالائتلاف وعدم الاختلاف، ثم ذكر ما حل باليهود من الذل والصغار بسبب البغي والعدوان، فقال سبحانه:

﴿١٠٤﴾-﴿١٠٩﴾ ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ * وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ * يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ * تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ * وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ ولتقم منكم - أيها المؤمنون - الذين منَّ الله عليهم بالإيمان والاعتصام بجعله طائفة وجماعة للدعوة إلى الله.

﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾ أي: للأمر بكل معروف وهو الدعوة إلى الإسلام وشرائعه، والنهي عن كل منكر وهو كل ما خالف هدي النبي ﷺ.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي: هم الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب. وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها. ثم نهاهم من التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ ولا تكونوا كاليهود والنصارى الذين تفرقوا في الدين واختلفوا فيه ووقعت بينهم العداوة والبغضاء بسبب اتباع الهوى من بعد ماجاءتهم الآيات الواضحات الموجبة لعدم التفرق والاختلاف.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي: لهم بسبب الاختلاف عذاب شديد يوم القيامة.

﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ أي: يوم القيامة تبيض وجوه المؤمنين بالإيمان والطاعة، وتسود وجوه الكافرين بالكفر والمعاصي. ثم فصل لأحوال الفريقين بعد الإجمال.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ أما أهل النار الذين اسودت وجوههم، فيقال لهم على سبيل التوبيخ: أكفرتم بعد إيمانكم، أي: بعد ما وضحت لكم الآيات والدلائل.

﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ فذوقوا العذاب الشديد بسبب كفركم، ولا تستحقون إلا الخزى والفضيحة والعار.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ وأما السعداء الأبرار الذين أبيضت وجوههم بأعمالهم الصالحات وما بشروا به من الخير.

﴿فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فهم في جنته ودار كرامته مخلدون لا يخرجون منها أبداً. وعبر ذلك بالرحمة إشارة إلى أن العمل لا يستقل بدخول صاحبه الجنة، بل لا بد من الرحمة.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾ هذه آيات الله وبراهينه نقصها عليك ـ يا محمد ـ مشتملة على الحكمة والرحمة وثوابها وعقابها.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ وما كان الله ليظلم أحداً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون؛ لأنه تعالى الحاكم العدل الذي لا يجور.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ولله ما في السموات وما في الأرض، ملك له وحده خلقاً وتدبيراً.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي: ومصير جميع الخلائق إليه وحده فهو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة فيجازي كلًا بعمله، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

* ثم ذكر تعالى فضل هذه الأمة ومكانتها وما أوصلها إلى تلك المنزلة، فقال تعالى:

﴿١١٠﴾-﴿١١٢﴾ ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ * لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ * ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾.

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ أي: أنتم يا أمة محمد خير الأمم لأنكم أنفع الناس للناس، ولهذا قال: ﴿أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ أي أخرجت لأجلهم ومصلحتهم. روى البخاري عن أبي هريرة ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ قال: خير الناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام.

﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ وهذا بيان لوجه الخيرية كأنه قيل السبب في كونكم خير أمة هذه الخصال الحميدة، روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها» ﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وهو ما أمر به الله ورسوله، ﴿وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾: وهو كل ما نهى عنه الله ورسوله، وتصدقون بالله تصديقاً جازماً يؤيده العمل، ثم قال تعالى:

﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ﴾ ولو آمن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بما أنزل على محمد وصدقوا بما جاء به لكان ذلك خيراً لهم في الدنيا والآخرة، وفي هذا من دعوته بلطف الخطاب ما يدعوهم إلى الإيمان، ولكن حالهم أن:

﴿مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أي: منهم فئة قليلة مؤمنة مصدقة برسالة محمد ﷺ وعاملون بها كالنجاشي وعبد الله بن سلام، والكثرة الكثيرة فاسقة خارجة عن طاعة الله.

﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ﴾ لن يضركم هؤلاء الفاسقون من أهل الكتاب إلا ضرراً يسيراً بألسنتهم من سب وطعن وغير ذلك. ثم بين سبحانه ما نفاه من الضرر بقوله:

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ أي: ينهزمون ويهربون مولين الأدبار من غير أن ينالوا منكم شيئاً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ
ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦
مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا
صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا
ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا
وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي
صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ
١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ
كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ
ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ
سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ
شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠ وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ
تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١

٦٥

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ثم شأنهم الذي أبشركم به، أنهم مخذولون لا ينصرون، بل يكون لكم النصر.

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ لزمهم الذل والهوان أينما وجدوا، وأحاط بهم كما يحيط البيت المضروب بساكنه فهم أذلاء محتقرون.

﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ إلا إذا اعتصموا بعهد من الله، وعهد من الناس يأمنون به على أنفسهم وأموالهم، وذلك هو عقد الذمة لهم، وإلزامهم أحكام الإسلام.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجعوا مستوجبين للغضب الشديد من الله مستحقين له، وهذا أعظم العقوبات.

﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾ ولزمتهم الفاقة والذلة فهي محيطة بهم من جميع جوانبهم فلا ترى اليهودي إلا وعليه الخوف والرعب من أهل الإيمان، والسبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال ذكره الله بقوله:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ﴾ ذلك الذل والصغار والغضب والدمار، بسبب جحودهم بآيات الله التي أنزلها على رسوله محمد ﷺ وقتلهم الأنبياء ظلماً وطغياناً؛ فهم يقابلون أنبياء الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشر مقابلة.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ أي: بسبب تمردهم وعصيانهم وتجاوزهم أوامر الله تعالى.

* لما وصف تعالى أهل الكتاب بالصفات الذميمة، ذكر هنا أنهم ليسوا بدرجة واحدة ففيهم المؤمن والكافر، والبر والفاجر، قال تعالى:

١١٣-١١٧ ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ * يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ * مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾ ليس أهل الكتاب مستوين في المساوئ، لما أسلم عبد الله ابن سلام وأصحابه قال أحبار اليهود: ما آمن بمحمد إلا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وقالوا لهم: لقد كفرتم وخسرتم فأنزل الله: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾ الآية، ولما ذكر تعالى أن أهل الكتاب ليسوا سواء، قال:

﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ أي: منهم طائفة مستقيمة على دين الله مؤمنة برسوله محمد ﷺ، يتهجدون في الليل بتلاوة آيات الله، مقبلين على مناجاة الله في صلواتهم، وفي هذا بيان لطول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب ربهم وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له.

﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ يؤمنون بالله ويصدقون بكل نبي أرسله، وخص الإيمان باليوم الآخر، لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يحث المؤمن به على ما يقربه إلى الله، ويثاب عليه في ذلك اليوم، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم على الوجه الصحيح.

﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ لما حصل تكميلهم لأنفسهم بالإيمان ولوازمه، سعوا إلى تكميل غيرهم بأمرهم بكل خير ونهيهم عن كل شر.

﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ﴾ يعملونها مبادرين غير متثاقلين وذلك من شدة رغبتهم في الخير.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفات الجميلة والأفعال الجليلة؛ هم في زمرة عباد الله الصالحين الذين يدخلهم الله في رحمته، ويتغمدهم بغفرانه، وينيلهم من فضله وإحسانه.

﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾ وأي عمل كثر أو قل من أعمال الخير تعمله هذه الطائفة المؤمنة، ما عملوا من عمل صالح قليلاً أو كثيراً فلن يضيع عند الله بل يُشكرهم، ويجازون عليه، ولكن الأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والتقوى، فلهذا قال:

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر المتقين، وفي هذا بشارة للمتقين بجزيل الثواب.

ثم أخبر تعالى عن مآل الكافرين، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ إن الذين كفروا بآيات الله، وكذبوا رسله، لن تدفع عنهم أموالهم التي تهالكوا على اقتنائها ولا أولادهم الذين تفانوا في حبهم من عذاب الله شيئاً لا في الدنيا ولا في الآخرة، وخص الأولاد؛ لأنهم أحب القرابة وأرجاهم لدفع ما ينوبه.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مخلدون في عذاب جهنم لا يخرجون منها ولا يفارقونها.

ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل الله ويستعينون بها على إطفاء نور الله، فقال:

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ مثل ما ينفق الكافرون في الدنيا في المفاخر والمكارم بقصد الثناء وحسن الذكر بين الناس كمثل ريح عاصفة فيها برد شديد.

﴿أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ أصابت تلك الريح المدمرة زرع قوم كانوا يرجون خيره، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالمعاصي فأفسدته وأهلكته فلم ينتفعوا به؛ فكذلك الكفار يمحق الله أعمالهم الصالحة كما يذهب هذا الزرع بذنوب صاحبه.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم وإبطال أعمالهم، ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما يستوجب العقاب، حيث كفروا بآيات الله وكذبوا رسوله وحرصوا على إطفاء نور الله.

* ثم حذر تعالى من اتخاذ المنافقين بطانة يطلعونهم على أسرارهم، أو يولونهم بعض الأعمال، فقال:

(۱۱۸)-(۱۲۰) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ * هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ﴾ أي: لا تتخذوا المنافقين أصدقاء تودونهم وتطلعونهم على أسراركم وتجعلونهم أولياء من غير المؤمنين.

﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾ فهؤلاء لا يقصرون لكم في الفساد وحصول الضرر عليكم.

﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾ أي: وهم يفرحون بما يصيبكم من مشقة وضرر ومكروه.

﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: ظهرت أمارات العداوة لكم على ألسنتهم بالشتيمة والوقيعة في المسلمين، فهم لا يكتفون ببغضكم بقلوبهم حتى يصرحوا بذلك بأفواههم.

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ وما يبطنونه لكم من البغضاء والعداوة أكثر وأعظم مما يظهرونه وتسمعونه؛ لأن فلتات اللسان أقل مما تجنه الصدور.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ وضحنا لكم الآيات الدالة على وجوب الإخلاص في الدين، وموالاة المؤمنين ومعاداة أعدائه الكافرين لتتعظوا وتحذروا.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إن كنتم عقلاء تعقلون عن الله أمره ونهيه ففرقوا بين الصديق والعدو، وهذا على سبيل الهز والتحريك للنفوس.

* ثم بين سبحانه ما هم عليه من كراهية المؤمنين، وذكر الدليل على خطأ المؤمنين في محبتهم، فقال:

﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ ها أنتم يا معشر المؤمنين خاطئون في موالاتكم إذ تحبونهم وتحسنون إليهم وهم على الضد من ذلك لا يحبونكم، تريدون لهم النفع وتبذلون لهم المحبة وهم يريدون لكم الضر ويضمرون لكم العداوة والبغضاء لما قد استحكم في صدورهم من الغيظ والحسد.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ وأنتم تؤمنون بالكتب المنزلة كلها ومنها كتابهم، وهم لا يؤمنون بكتابكم وهم مع ذلك يبغضونكم، فما بالكم تحبونهم؟ وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أطلب منكم في حقكم.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ وهذا من خبثهم، إذ يظهرون أمامكم الإيمان نفاقاً ويقولون آمنا وصدقنا.

﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ وإذا خلت مجالسهم منكم، وكان بعضهم مع بعض عضوا أطراف الأصابع من شدة الحنق والغضب والغيظ لما يرون من ائتلافكم، وعزتكم، واجتماعكم، وهو كناية عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من أذية المؤمنين والعجز عن الانتقام منكم.

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم، قل - يا محمد - أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا بغمكم وحزنكم، وهذا فيه بشارة للمؤمنين أن هؤلاء الذين قصدوا ضركم لا يضرون إلا أنفسهم، وأن غيظهم لا يقدرون على تنفيذه، بل لا يزالون معذبين به حتى يموتوا فينتقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن الله عالم بما تكنه سرائركم من البغضاء والحسد للمؤمنين، وسيجازي كلاً على ما قدم من خير أو شر. ثم أخبر تعالى بما يترقبون نزوله من البلاء والمحنة بالمؤمنين، فقال:

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ إن أصابكم ما يسركم من رخاء وخصب ونصر وغنيمة ونحو ذلك من الخير ساءتهم وظهرت عليهم الكآبة والحزن.

﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وإن أصابكم ما يضركم من شدة وجدب وهزيمة وأمثال ذلك سرتهم، وفرحوا بها. فبين تعالى بذلك فرط عداوتهم حيث يسوءهم ما نال المؤمنين من الخير ويفرحون بما يصيبهم من الشدة. ثم أرشد عباده المؤمنين إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، فقال تعالى:

﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ إن صبرتم على أذاهم وعداوتهم، واتقيتم الله في أقوالكم وأعمالكم وتوكلتم عليه، لا يضركم مكرهم وكيدهم، وكنتم في حفظ الله، وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو، في نفي ضرره بالصبر والتقوى.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فهو سبحانه عالم بما يدبرونه لكم من مكائد، فيصرف عنكم شرهم، ويعاقبهم على نواياهم الخبيثة وسيجازيهم عليها.

* يبدأ الحديث عن الغزوات من هذه الآيات الكريمة، وقد انتقل السياق من معركة الجدل والمناظرة إلى معركة الميدان والقتال، والآيات تتحدث عن غزوة أحد بالإسهاب، وقد جاء الحديث عن غزوة بدر في أثنائها اعتراضاً ليذكرهم بنعمته تعالى عليهم لما نصرهم ببدر وهم أذلة قليلون في العَدَد والعُدَد، وهذه الآية في افتتاح القصة عن غزوة أحد وقد أُنزل فيها ستون آية، ومناسبة الآيات لما قبلها

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ
هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ
﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ
وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا
مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾
لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ
ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن
يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ
لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

٦٦

أنه تعالى لما حذر من اتخاذ بطانة السوء ذكر هنا أن السبب في هم الطائفتين من الأنصار بالفشل إنما كان بسبب تثبيط المنافقين لهم وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول رأس النفاق فالمناسبة واضحة. روى الشيخان عن جابر قال: «فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ قال نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنو سلمة وما نحب أنها لم تنزل لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾»، قال تعالى:

﴿١٢١﴾-﴿١٢٣﴾ ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ اذكر - يا محمد - حين خرجت من بيتك إلى غزوة أحد لابساً عدة الحرب في أول النهار، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة.

﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ تنزل المؤمنين وترتب أماكنهم وتنظم صفوفهم لقتال عدوهم، وتنزل كل واحد في منزله للقاء المشركين في غزوة أحد، وفيها أعظم مدح للنبي ﷺ حيث هو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، وشجاعته الكاملة -صلوات الله وسلامه عليه- حيث يباشر هذه الأمور بنفسه.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم ونياتكم.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ واذكر - يا محمد - ما كان من أمر بني سلمة وبني الحارث من الفشل والجبن والخور، حيث حدثتهم أنفسهم بالرجوع وذلك حين خرج رسول الله ﷺ لأحد بألف من أصحابه فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخذل عبد الله بن أبي؛ بثلث الجيش، وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فهمَّ الحيان من الأنصار بالرجوع والتخلف، فعصمهم الله ولطف بهم وأحسن إليهم فمضوا مع رسول الله ﷺ متوكلين على الله، وذلك قوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: ناصرهما وحافظهما ومتولي أمرهما.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون في جميع أحوالهم وأمورهم، والتوكل هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة بالله وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله. ثم ذكرهم تعالى بالنصر يوم بدر لتقوى قلوبهم ويتسلوا عما أصابهم من الهزيمة يوم أحد، فقال:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: نصركم يوم بدر مع قلة عَدَدِهم وعُدَدِهم لتعلموا أن النصر من عند الله لا بكثرة العدد والعُدة، وذكر منته على عباده هنا ليتذكروا ربهم ويتقوه ويشكروه.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: وخافوه بفعل أوامره واجتناب نواهيه وفي الثبات مع رسوله لعلكم تشكرون له ما منَّ به عليكم من النصر، فإن من اتقى ربه فقد شكره، ومن ترك التقوى لم يشكره.

* ثم ذكرهم الله ﷻ بما جرى يوم بدر من التأييد والنصر والتمكين، فقال تعالى:

﴿١٢٤﴾-﴿١٢٩﴾ ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم

بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ * لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ * لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ * وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ **اذكر -يا محمد- ما كان من أمر أصحابك في بدر حين شق عليهم أن يأتي مدد للمشركين فأوحينا إليك أن تقول لهم: أما يكفيكم أن يعينكم الله بإمداده لكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين من السماء إلى أرض المعركة لنصرتكم وتثبيتكم، والقتال معكم.**

﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ **بلى تصديق للوعد، أي: بلى يمدكم بالملائكة إن صبرتم على القتال في المعركة واتقيتم الله وأطعتم أمره، وبشارة أخرى لكم: إن تصبروا على لقاء العدو وتتقوا الله بفعل ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه.**

﴿وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ **أي: يأتيكم المشركون من ساعتهم هذه لقتالكم يظنون أنهم سيستأصلونكم، فشرط تعالى لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا، فهذا الوعد بإنزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم، وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط له الشرطين الأولين.**

﴿يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ **يزدكم الله مدداً من الملائكة قد أعلموا أنفسهم وخيولهم بعلامات واضحات.**

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ﴾ **أي: وما جعل الله ذلك الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم أيها المؤمنون لتزدادوا ثباتاً، ولتسكن قلوبكم وتطيب بوعد الله لكم فلا تخافوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم ولا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب.**

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ **فلا تتوهموا أن النصر بكثرة العَدَد والعُدَد، ما النصر في الحقيقة إلا بعون الله وحده، لا من الملائكة ولا من غيرهم.**

﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ **أي: الغالب الذي لا يغلب في أمر، الحكيم الذي يفعل ما تقتضيه حكمته الباهرة، وله الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة.**

﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ **أي: وكان نصر الله لكم ببدر؛ ليهلك طائفة من الكفار بالقتل والأسر، ويهدم ركناً من أركان الشرك.**

﴿أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ﴾ **أو يغيظهم ويخزيهم بالهزيمة، ومن نجا منهم من القتل رجع حزيناً قد ضاقت عليه نفسه. وحقيقة الكبت: شدة وهن تقع في القلب فيصرع في الوجه لأجله.**

﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ **فيرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم، وقد فعل تعالى ذلك بهم في غزوة بدر حيث قتل المسلمون من صناديدهم سبعين وأسروا سبعين، وأعز الله المؤمنين، وأذل الشرك والمشركين.**

﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ **هذه الآية وردت اعتراضاً وهي في قصة أُحُد، وذلك لما كسرت رباعيته ﷺ وشج وجهه الشريف، قال: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم؟!» فنزلت: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ أي: إنما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على مصالحهم، وليس لك - يا محمد - من أمر تدبير العباد شيء، وإنما الأمر كله لله وحده لا شريك له.**

﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ **فالله مالك أمرهم فإما أن يهلكهم، أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر فإنهم ظالمون يستحقون العذاب ليدل ذلك على كمال عدل الله وحكمته، وقد كان كذلك فكان منهم من أسلم وحسن إسلامه ونفع الله به الإسلام والمسلمين. ولما نفى عن**

رسوله أنه ليس له من الأمر شيء، فقرر أن الأمر له، فقال:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: له -جل وعلا- ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء برحمته وهو الغفور الرحيم ويعذب من يشاء بعدله، والله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم؛ وفيها أعظم بشارة بأن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته غلبت مؤاخذته، وتبشير لعباده بأنه المتصف بالمغفرة على وجه المبالغة.

* ثم نهى ﷻ عن أكل الربا، وأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، فقال سبحانه:

﴿١٣٠﴾-﴿١٣٦﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ * وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ * وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ * وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ هذا نهي من الله تعالى لعباده المؤمنين عن تعاطي الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه في الجاهلية من تضعيفه، إذ كانوا في الجاهلية إذا حل أجل الدين يقول الدائن: إما أن تقضي وإما أن تربي، فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاده في القدر وهكذا كل عام، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً، وفيه تنبيه على شدة شناعته بكثرته، وتنبيه لحكمة تحريمه، وأن الله منع منه لما فيه من الظلم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي: اتقوا عذابه بترك ما نهى عنه، لتكونوا من الفائزين في الدنيا والآخرة.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ واحذروا واجعلوا لأنفسكم وقاية بينكم وبين نار جهنم التي هيئت للكافرين.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ أي: أطيعوا الله ورسوله فيما أمركم به من الطاعات وفيما نهاكم عنه من أكل الربا وغيره من المحرمات لتكونوا من الأبرار الذين تنالهم رحمة الله.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: بادروا وسابقوا إلى ما يوجب المغفرة بطاعة الله وامتثال أوامره.

* وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ
فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ
عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ
فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ
لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا
فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن
رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ
أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ
﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾
وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ
﴿١٣٩﴾ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ
ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾

٦٧

﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ وإلى جنة واسعة عرضها كعرض السماء والأرض، والغرض بيان سعتها، فإذا كان هذا عرضها فما ظنك بطولها؟ لأن طول كل شيء في الأكثر والأغلب أكثر من عرضه.

﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ هيئت للمتقين لله، فهم أهلها الذين وصفهم في كتابة ببذل الندى وكف الأذى ولو كان الأذى بحق، فذكر من صفاتهم:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الذين يبذلون أموالهم في اليسر والعسر، وفي الشدة والرخاء، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا شيئاً ولو قل، فأول ما ذكر من أخلاقهم الموجبة للجنة ذكر السخاوة.

﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ أي: والذين يمسكون غيظهم بالصبر إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم وحنقهم مع قدرتهم على الانتقام. والغيظ: توقد حرارة القلب من الغضب، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه، ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً» [رواه الطبراني].

﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يعفون عمن أساء إليهم أو ظلمهم بالقول أو الفعل، واستحق المؤآخذة، وذلك من أجلِّ ضروب الخير. والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤآخذة مع السماحة عن المسيء. ثم ذكر حالة أعم من غيرها، وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان، فقال:

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يحب المتصفين بتلك الأوصاف الجليلة وغيرها، وهذا هو الإحسان الذي يحب الله أصحابه. عن الثوري: الإحسان أن تحسن إلى المسيء، فإن الإحسان إلى المحسن تجارة.

وبعد أن ذكر تعالى حال معاملتهم للخلق، وصف قيامهم بحق الحق واعتذارهم لربهم من جناياتهم وذنوبهم، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ والذين إذا ارتكبوا ذنباً قبيحاً كالكبائر، وأصل الفحش القبح والخروج عن الحد.

﴿أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بإتيان أي ذنب دون الكبائر.

﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ بادروا إلى التوبة والاستغفار، وتذكروا عظمة الله ووعده ووعيده فأقلعوا عن الذنب وتابوا وأنابوا طالبين المغفرة وراجين الرحمة.

﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: وهم موقنون أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، وهي جملة اعتراضية لتطييب نفوس العباد وتنشيطهم للتوبة، ولبيان أن الذنوب - وإن جلت - فإن عفوه تعالى أجل ورحمته أوسع.

﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ ولم يقيموا ولم يثبتوا على قبيح فعلهم، وهم عالمون بقبحه، بل يقلعون ويتوبون وهم يعلمون أنهم إن تابوا تاب الله عليهم، فوصفهم تعالى عند الذنوب بالاستغفار وعدم الإصرار وهو حقيقة التوبة النصوح، ولهذا ذكر جزاءهم فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة، جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من الذنوب.

﴿وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ولهم جنات برحمته تجري خلال أشجارها وقصورها المياه العذبة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ أي: ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً، ونعمت الجنة جزاء لمن أطاع الله، عملوا لله قليلاً فأجروا كثيراً.

* لما حث تعالى على الصبر والتقوى ونبّه المؤمنين إلى إمداد الله لهم بالملائكة في غزوة بدر، عقبه بالأمر بالمسارعة إلى نيل رضوان الله، ثم ذكر بالتفصيل غزوة أُحُد وما نال المؤمنين فيها من الهزيمة بعد النصر بسبب مخالفة أمر الرسول، قال تعالى:

﴿١٣٧﴾-﴿١٤٣﴾ ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ * إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ * أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾.

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ أي: مضت سنة الله في الأمم الماضية بالهلاك والاستئصال بسبب مخالفتهم الأنبياء، وأُبتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين فكانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين، ولهذا قال:

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: تعرفوا أخبار المكذبين وما نزل بهم

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ
حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ
مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن
قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ
إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ
ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ
ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ
لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا
وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ
رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ
وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن
قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ
ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

٦٨

من أنـــواع العقوبات الدنيوية لتعتبروا وتتعظوا بما ترون من آثار هلاكهم وما آل إليه أمرهم.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ هذا القرآن بيان وإرشاد شاف للناس عامة.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهدايــة لطريــق الرشــاد، وموعظة وذكرى للمتقــين خاصة، وإنما خص المتقين بالذكــر؛ لأنهم هم المنتفعون به دون ســائر الناس، التي هي بيان لهم تقوم به عليهــم الحجة في الله. ثم أخذ يسليهم عما أصابهم من الهزيمة والقتل والجرح في وقعة أُحُد، ومشجعاً ومقوياً لعزائمهم ومنهضاً لهممهم، فقال:

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ ولا تضعفوا - أيها المؤمنون -. عن الجهاد ولا تحزنوا لما أصابكــم في «أحد» من قتل أو هزيمة فــإن الحزن في القلوب، والوهن عــلى الأبدان، زيــادة مصيبة عليكم ولا ينبغي لهــم ذلك، وفي هذا تسلية من الله لرســوله وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية لقلوبهم.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: وأنتم الغالبون لهــم المتفوقون عليهم بالنصر والظفر عليهــم وعلى غيرهم بعد هذه الوقعــة، وقــد صدق الله وعــده فإن النبي ﷺ بعد وقعة أحد ظفر بعدوه في جميع وقعاته. قال ابن القيم: للعبد من العلوِّ بحسب ما معه من الإيمان.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم حقاً مصدقين بالله ورســوله، فلا تهنوا ولا تحزنوا. ثــم سلَّاهم بما حصل لهم من الهزيمة،وبين الحكــم العظيمة المترتبة على ذلك، فقال:

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي: إن أصابتكم -أيها المؤمنون- جــراح أو قتــل في غزوة «أحــد» فحزنتــم لذلك، فقد أصاب المشركين مثل ما أصابكم يوم بدر.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ وتلك الأيام يصرفهــا الله بين عباده، من نعم ونقــم، نعطي لهؤلاء تــارة ولهؤلاء تــارة، لما في ذلك من الحكمة.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: فعل ذلك ليمتحنكم فيرى من يصبر عند الشدائد ويميز بين المؤمنين والمنافقين وهذا من الحكم الإلهية.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: وليكرم بعضكم بنعمة الشــهادة في سبيل الله؛ لأن الشهادة عند الله من أرفع المنازل، وهو ســبحانه لا يحب المعتدين ومنهم المنافقون الذيــن انخذلوا عن نبيه يوم أُحُد وقعدوا عن القتال في سبيله.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: وهــذه الهزيمــة التــي وقعــت في «أحــد» كانــت اختبــاراً وتصفية للمؤمنــين وينقيهــم ويطهرهــم من الذنوب ويميزهم عن المنافقين.

﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يهلكهم ويفنيهم شيئاً فشيئاً.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ استفهام على ســبيل الإنكار، أي: هل تظنون يا معشر المؤمنين أن تنالوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشــدائد واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: لا يحصــل لكم دخولها حتــى تبتلوا، ويعلم الله المجاهدين في سبيله، فيعلم الله جهادكم وصبركم على الشــدائد؟ قال الطبري: المعنــى: أظننتم يا معشر أصحاب محمــد أن تنالوا كرامة ربكم ولما يتبين لعبــادي المؤمنين المجاهدون منكــم في ســبيل الله والصابرون عند البــأس على ما ينالهم في ذات الله من ألم ومكروه. ثم وبخهــم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانــوا يتمنونه ويودون حصوله، فقال:

﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ﴾ أي: ولقد كنتم -أيها المؤمنون- تتمنون لقاء الأعداء ومناجزتهم لتحظوا بالجهاد وتنالوا الشهادة في سبيل الله.

﴿مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ﴾ من قبل أن تذوقوا شدته، والآية عتاب في حق من انهزم.

﴿فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ أي: رأيتموه بأعينكم حين قتل من إخوانكم وشارفتم أن تقتلوا، ونزل لما أشاع الكافرون أن محمداً قد قتل، وقال المنافقون: إن كان قد قتل فتعالوا نرجع إلى ديننا الأول.

* ثم بيّن تعالى أن الابتلاء سنة الحياة، وأن قتل الأنبياء لا ينبغي أن يدخل الوهن إلى قلوب المؤمنين، فقال:

﴿١٤٤﴾-﴿١٤٨﴾ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ * وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ * فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: ليس محمد إلا رسول من جنس الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم وليسوا بمخلدين، منهم من مات، ومنهم من قتل.

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾ أفإن أمات الله محمداً، أو قتله الكفار ارتددتم كفاراً بعد إيمانكم.

﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ ومن يرجع عن دينه فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب. ولما وبخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله وامتثل أمر ربه، فقال:

﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: أما من ثبت على الإيمان وشكر ربه على نعمة الإسلام فإن الله يثيب المطيعين، والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال.

ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل نفس أجلاً لا يتقدم ولا يتأخر، وهذا يتضمن الحث على الجهاد والإعلام بأن الموت لا بد منه، فقال:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: لن يموت أحد إلا بإذن الله وقضائه وقدره.

﴿كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾ أي: وحتى يستوفي المدة التي قدرها الله له، كتاباً مؤقتاً بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، والغرض تحريضهم على الجهاد وترغيبهم في لقاء العدو، فالجبن لا يزيد في الحياة، والشجاعة لا تنقص منها، والحذر لا يدفع القدر، والإنسان لا يموت قبل بلوغ أجله، وإن خاض المهالك واقتحم المعارك.

﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ ومن أراد بعمله أجر الدنيا وعرضها، أعطيناه منها ما قسمناه له من رزق، وليس له في الآخرة من حظ ولا نصيب، وهو تعريض بالذين رغبوا في الغنائم، فبيّن تعالى أن حصول الدنيا للإنسان ليس بموضع غبطة لأنها مبذولة للبر والفاجر.

﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ﴾ ومن أراد بعمله أجر الآخرة أعطيناه الأجر كاملاً مع ما قسمنا له من الدنيا.

﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم، ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرته وعظمته، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر، قلة وكثرة وحسناً.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ﴾ وكثير من الأنبياء السابقين قاتل معهم جموع كثيرة من أصحابهم لإعلاء كلمة الله، قاتلوا فقتل منهم من قتل.

﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فما جبنوا ولا ضعفت هممهم، ولا وهنت أبدانهم لما أصابهم من القتل والجراح؛ لأن ذلك في سبيل ربهم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ
(١٤٩) بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِى
فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ
مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ
مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ
وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم
مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن
يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
(١٥٢) ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ
وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ
غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا
مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)

٦٩

﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ وما عجزوا عن الجهاد بما نالهم من ألم الجراح وقتل الأصحاب.

﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ﴾ وما ذلوا ولا خضعوا لعدوهم.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ أي: إنما صبروا على ما أصابهم، ويحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأهوال في سبيل الله، وفي هذا تسلية للمؤمنين، وحث على الاقتداء بهم، والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدماً، لم تزل سنة الله جارية بذلك. ثم ذكر قولهم واستنصارهم لربهم، فقال:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: ما كان قول هؤلاء الصابرين: إلا طلب المغفرة من الله، وإضافة الذنوب إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين هضماً لأنفسهم.

﴿وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ أي: علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها وتفريطنا وتقصيرنا في واجب طاعتك وعبادتك.

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ وثبتنا في مواطن الحرب حتى لا نفر من قتال عدونا.

﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ وانصرنا على من جحد وحدانيتك ونبوة أنبيائك، وقدم الدعاء بالاستغفار من الذنوب على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على الأعداء لأنه أقرب إلى الإجابة لما فيه من الخضوع والاستكانة.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ﴾ فجمع الله لهؤلاء الصابرين بسبب ذلك بين جزاء الدنيا بالغنيمة والعز والظفر والتمكين لهم بالبلاد، وبين جزاء الآخرة وهو الفوز برضا ربهم وبالجنة ونعيمها، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال فجازاهم بأحسن الجزاء، فلهذا قال:

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

أي: يحب من أحسن عمله وأخلص نيته، وخص ثواب الآخرة بالحسن إشعاراً بفضله وأنه المعتد به عند الله.

* لا تزال الآيات الكريمة تتناول سرد أحداث غزوة أحد وما فيها من الدروس والعظات والعبر، فهي تتحدث عن أسباب الهزيمة وموقف المنافقين الفاضح في تلك الغزوة، وتآمرهم على الإسلام بتثبيط عزائم المؤمنين، وفي ذلك تقوية وتسلية للمؤمنين، قال تعالى:

(١٤٩)-(١٥٣) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ * بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ * سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ * وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لما أمر تعالى بالاقتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء حذر من طاعة الكفار، أي: يا أيها الذين

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً
مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ
قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ
يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ
فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ
وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ
يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ
مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا
ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟
وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

صدقوا الله واتبعوا رسوله، إن تطيعوا الذين جحدوا ألوهيتي ولم يؤمنوا برسلي من اليهود والنصارى والمنافقين والمشركين فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه.

﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أي: يضلوكم عن طريق الحق، ويرتدوا عن دينكم، فترجعوا بالخسران المبين والهلاك المحقق، ولا خسران أعظم من أن تتبدلوا الكفر بالإيمان. قال ابن عباس: هم المنافقون قالوا للمؤمنين لما رجعوا من أحُد لو كان نبياً ما أصابه الذي أصابه فارجعوا إلى إخوانكم.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ﴾ بل للإضراب، أي: وإنهم ليسوا أنصاراً لكم حتى تطيعوهم؛ بل الله ناصركم وحافظكم فأطيعوا أمره واستعينوا به وتوكلوا عليه.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ وهو سبحانه خير ناصر وخير معين فلا تستنصروا بغيره. ثم بشر تعالى المؤمنين بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم، فقال:

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ سنقذف في قلوب الذين كفروا أشد الفزع والخوف، والسبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين هو:

﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ﴾ بسبب إشراكهم بالله، وعبادتهم معه آلهة أخرى من غير حجة ولا برهان، فمن ثم كان المشرك مرعوباً من المؤمنين، لا يعتمد على ركن وثيق، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق، هذه حاله في الدنيا، وأما في الآخرة، فأشد وأعظم ولهذا قال:

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ﴾ ومستقرهم ومقامهم النار الذي يأوون إليها، وليس لهم عنها خروج.

﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وبئس مقام الظالمين نار جهنم، بسبب ظلمهم وعدوانهم فهم في الدنيا مرعوبون، وفي الآخرة معذبون، وقد ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي» وذكر منها: «نصرت بالرعب مسيرة شهر...».

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ ولقد حقق الله لكم ما وعدكم به من النصر على عدوكم.

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ أي: تقتلونهم قتلاً ذريعاً وتحصدونهم بسيوفكم بإرادة الله وحكمه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ حتى إذا جبنتم وضعفتم واختلفتم في أمر المقام في الجبل وكنتم بهذا الفعل عوناً لأعدائكم عليكم.

﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ وعصيتم أمر الرسول ﷺ بعد أن كان النصر حليفكم. روي أن النبي ﷺ وضع خمسين من الرماة فوق الجبل وأمرهم أن يدفعوا عن المسلمين وقال لهم: «لا تبرحوا أماكنكم حتى ولو رأيتمونا تخطفتنا الطير»، فلما التقى الجيشان لم تقو خيل المشركين على الثبات بسبب السهام التي أخذتهم في وجوههم من الرماة فانهزم المشركون، فلما رأى الرماة ذلك قالوا: الغنيمة الغنيمة ونزلوا لجمع الأسلاب، وثبت رئيسهم ومعه عشرة فجاءهم المشركون من خلف الجبل فقتل البقية من الرماة ونزلوا على المسلمين بسيوفهم من خلف ظهورهم فانقلب النصر إلى هزيمة للمسلمين، فذلك قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ أي: من بعد النصر. قال العلماء: المعصية بعد النعمة أشد من المعصية قبل

النعمة، لقوله: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: الغنيمة وهم الذين تركوا الجبل، لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أُحُد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ إلى قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أُحُد.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۚ﴾ أي: ثواب الله، وهم العشرة الذين ثبتوا في مركزهم مع أميرهم عبد الله ابن جبير ثم استشهدوا.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ﴾ بعدما وجدت هذه الأمور منكم، صرف الله وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم، ابتلاء من الله لكم وامتحاناً، ليتبين المؤمن من الكافر، والطائع من العاصي، وليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم، فلهذا قال:

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ﴾ أي: صفح وعفا عنكم مع العصيان، حيث ندمتم على ما فرط منكم من عصيان رسول الله ﷺ، وفيه إعلام بأن الذنب كان يستحق أكثر مما نزل بهم لولا عفو الله عنهم، ولهذا قال:

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ذو منٍّ ونعمة على المؤمنين في جميع الأوقات والأحوال، ومن فضله على المؤمنين أنه لا يُقدِّر عليهم خيراً ولا مصيبة، إلا كان خيراً لهم، إن أصابتهم سراء فشكروا جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا، جازاهم جزاء الصابرين؛ لأن الابتلاء رحمة كما أن النصرة رحمة.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي: اذكروا يا معشر المؤمنين حين وليتم الأدبار وتجدون في الهرب ولا تلتفتون إلى ما وراءكم، ولا يقف واحد منكم لآخر لما اعتراكم من الدهشة والخوف والرعب، ويعاتبهم بذلك.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ ومحمد ﷺ ثابت يناديكم من ورائكم، يقول: «إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله، أنا رسول الله، من يكر فله الجنة» وأنتم تمعنون في الفرار ولا تسمعون ولا تنظرون.

﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ فجازاكم على فعلكم أن أنزل بكم ألماً وضيقاً وغماً بسبب مخالفتكم للرسول ﷺ؛ غماً يتبع غماً، غمٌّ بفوات النصر، وفوات الغنيمة، وغم بانهزامكم، وغم أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن محمداً ﷺ قد قتل. ولكن الله بلطفه وحسن تدبيره لعباده، جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيراً لهم، فقال:

﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر والغنيمة.

﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ﴾ من الخوف والهزيمة والقتل والجراح. والغرض بيان الحكمة من الغم، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم وما أصابهم، وذلك من رحمته تعالى بهم.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ والله خبير بجميع أعمالكم، لا يخفى عليه منها شيء؛ يعلم المخلص من غيره.

* ثم ذكر ﷻ ما كان من منّته ورحمته لعباده المؤمنين، فقال تعالى:

﴿١٥٤﴾، ﴿١٥٥﴾ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ وهذا امتنان منه تعالى عليهم، والمعنى: ثم أرسل عليكم - يا معشر المسلمين - بعد ذلك الغم الشديد اطمئناناً وثقة في وعد الله، وكان من أثره نعاس غشي طائفة منهم، وإنما ينعس من يأمن، والخائف لا ينام. روى البخاري عن

أنس أن أبا طلحة قال: «غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، قال فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه». ثم ذكر سبحانه أن تلك الأمنة لم تكن عامة بل كانت لأهل الإخلاص، وبقي أهل النفاق في خوف وفزع فقال:

﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ يغشى النوم فريقاً منكم وهم المؤمنون، أهل الإخلاص واليقين الذين ليس لهم هم إلا إقامة دين الله ورضا الله ورسوله، ومصلحة إخوانهم المسلمين، وأما الطائفة الأخرى.

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ وجماعة أخرى حملتهم أنفسهم على الهزيمة فلا رغبة لهم إلا نجاتها وخلاصها وهم المنافقون، وكان السبب في ذلك توعد المشركين بالرجوع إلى القتال، فقعد المؤمنون متهيئين للحرب فأنزل الله عليهم الأمنة فناموا، وأما المنافقون الذين أزعجهم الخوف بأن يرجع الكفار عليهم فقد طار النوم من أعينهم من الفزع والجزع.

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي: وكان عاقبة أمرهم أن أساؤوا الظن بربهم وبدينه وبنبيه يظنون مثل ظن أهل الجاهلية، قال ابن كثير: وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما أظهروا تلك الساعة أنها الفيصل، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة.

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ استفهام إنكاري، يقول بعضهم لبعض ليس لنا من الأمر شيء، ولو كان لنا اختيار ما خرجنا لقتال.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ قل - يا محمد - لأولئك المنافقين: الأمر كله بيد الله يصرفه كيف يشاء فهو الذي قدر خروجكم وما حدث لكم.

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ يبطن المنافقون في أنفسهم ما لا يظهرون لك. ثم بين الأمر الذي يخفونه، فقال:

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي: لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة لم نخرج فلم نقتل، ولكن أكرهنا على الخروج، هذا تفسير لما يبطنونه، وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله ﷺ ورأي أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله:

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ قل لهم -يا محمد- لو لم تخرجوا من بيوتكم وفيكم من قدر الله عليه القتل لخرج أولئك إلى مصارعهم، فقدر الله لا مناص منه ولا مفر فإن الآجال بيد الله.

﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ وليمتحن الله ما في قلوبكم من الشك والنفاق وضعف الإيمان.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وليختبر ما في صدوركم، وليميز الله الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن من المنافقين للناس في الأقوال والأفعال.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: عالم بالسرائر، مطلع على الضمائر وما فيها خير أو شر، لا يخفى عليه منها شيء. ثم ذكر سبحانه الذين انهزموا يوم أحد، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ إن الذين فروا وانهزموا منكم يا أصحاب محمد من المعركة، يوم تقابل جمع المسلمين وجمع المشركين في غزوة أحد.

﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ إنما أوقعهم الشيطان بوسوسته وأوقعهم في الخطيئة ببعض ما عملوا من الذنوب وهو مخالفة أمر الرسول ﷺ.

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ تجاوز عن عقوبتهم وصفح عنهم فلم يعاتبهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: واسع المغفرة للمذنبين الخطائين؛ بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار والمصائب المكفرة، حليم لا يعجل العقوبة لمن عصاه، بل يستأني به، ويدعوه إلى الإنابة إليه، والإقبال عليه.

* ثم نهى سبحانه عن الاقتداء بالمنافقين في أقوالهم وأفعالهم، فقال:

(١٥٦)-(١٥٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟

﴿وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ **يا أيها الذين صدقوا الله واتبعوا رسوله لا تشابهوا الكافرين الذين لا يؤمنون بربهم، ولا بقضائه وقدره.**

﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ **أي: فهم يقولون لإخوانهم من أهل الكفر والنفاق إذا خرجوا في الأسفار يبحثون عن معاشهم وأرزاقهم.**

﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ **أو خرجوا غازين في سبيل الله، ثم جرى عليهم قتل أو موت، يعارضون القدر ويقولون:**

﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ **أي: لو أقاموا عندنا ولم يخرجوا لما ماتوا ولا قتلوا، قال تعالى رداً عليهم:**

﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ **أي: قالوا ذلك ليصير ذلك الاعتقاد الفاسد حسرة وألماً تستقر في نفوسهم، أما المؤمنون فإنهم يعلمون بقدر الله فيهدي الله قلوبهم ويخفف عنهم المصيبة.**

﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ **وهو سبحانه يحيي من قدر له الحياة - وإن كان مسافراً أو غازياً، ويميت من انتهى أجله - إن كان مقيماً، وهو رد على قولهم واعتقادهم أن القتال يقطع الآجال.**

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ **مطلع على أعمال العباد فيجازيهم عليها. ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون.**

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ **أي: استشهدتم - أيها المؤمنون - في الحرب والجهاد في سبيل الله، أو جاءكم الموت وأنتم قاصدون قتالهم.**

﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ **أي: ذلك خير من البقاء في الدنيا، وجميع حطامها الفاني، والمقصود في الآية بيان مزية القتال أو الموت في سبيل الله وزيادة تأثيرهما في استجلاب المغفرة والرحمة.**

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ **وسواء متم على فراشكم أو قتلتم في الجهاد، فإن مرجعكم إلى الله فيجازيكم بأعمالكم، فآثروا ما يقربكم إلى الله ويوجب لكم رضاه من الجهاد في سبيل الله والعمل بطاعته.**

*** لا تزال الآيات تتحدث عن غزوة أحد، فقد ذكر تعالى فيما سبق انهزام المسلمين وما أصيبوا به من غم واضطراب، وأرشدهم إلى موطن الداء ووصف لهم الدواء، وفي هذه الآيات الكريمة ذكر لمناقب النبي ﷺ ورفقه بأصحابه، فمع مخالفة بعض الصحابة لأوامره ﷺ فقد وسعهم ﷺ بخلقه الكريم وقلبه الرحيم، ولم يخاطبهم بالغلظة والشدة وإنما خاطبهم باللطف واللين، ولذلك اجتمعت القلوب حول دعوته، وتوحدت تحت قيادته، والآيات تتحدث عن أخلاق النبوة، وعن المنة العظمى ببعثة الرسول الرحيم والقائد الحكيم وعن بقية الأحداث المهمة في تلك الغزوة. قال تعالى:**

الجزء الرابع — سورة آل عمران

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ
لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ
فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ
فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ
فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن
بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن
يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ
اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ
مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّا
أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ
قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

٧١

(١٥٩)-(١٦٤) ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي

ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ * إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ﴾ فبسبب رحمة من الله وتوفيقه للرفق والتلطف بهم أودعها الله في قلبك ـ يا محمد ـ كنت هيناً لين الجانب مع أصحابك مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك.

وقد خص الله ﷻ نبينا محمد ﷺ في القرآن بوصف الرحمة ولم يوصف به غيره من الأنبياء.

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ ولو كنت جافي الطبع قاسي القلب، تعاملهم بالغلظة والجفاء، لتفرقوا عنك ونفروا منك، ولما كانت الفظاظة في الكلام نفى الجفاء عن لسانه والقسوة عن قلبه فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ أي: فتجاوز عنهم ولا تؤاخذهم بما كان منهم في غزوة «أحُد»، واطلب لهم من الله المغفرة، فيما يختص بحق الله إتماماً للشفقة عليهم، فجمع بين العفو والإحسان، وشاورهم في جميع أمورك التي تحتاج إلى مشاورة، تطييباً لقلوبهم ورفعاً لأقدارهم ليقتدي بك الناس، ولتعريف الأمة بمشروعية ذلك حتى لا يأنف منه أحد بعدك. قال الحسن: ما شاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم. وكان ﷺ كثير المشاورة؛ تطييبا لقلوب أصحابه وليكون أنشط لهم فيما يفعلونه.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾

قال السعدي: المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ فإذا عقدت قلبك على أمر بعد الاستشارة فيه، فأمضه معتمداً على الله، وفوض أمرك إليه وثق به واستعنه، فالعبد يحتاج إلى الاستعانة بالله والتوكل عليه في تحصيل العزم، وفي العمل بمقتضى العزم بعد حصول العزم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي: يحب المعتمدين عليه، المفوضين أمورهم إليه.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ﴾ إن يمدكم الله بنصره ومعونته فلا يستطيع أحد أن يغلبكم ولو اجتمع عليكم من في أقطارها؛ لأنه تعالى قهر العباد وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ أي: وإن يكلكم إلى أنفسكم ويترك معونتكم فلا ناصر لكم، فمهما وقع لكم من النصر كيوم بدر أو من الخذلان كيوم أحُد بمشيئته سبحانه فالأمر كله لله، بيده العزة والنصرة والإذلال والخذلان.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وعلى الله وحده فليلجأ وليعتمد المؤمنون، وفي الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، وخص المؤمنون ربهم بالتوكل والتفويض إليه لعلمهم أنه لا ناصر سواه؛ لأن الإيمان يقتضي ذلك.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ﴾ أي: ما صح ولا استقام شرعاً ولا عقلاً لنبي من الأنبياء بأن يخون في الغنيمة غير ما اختصه الله به، والنفي هنا نفي للشأن وهو أبلغ من نفي الفعل؛ لأن المراد أنه لا يتأتى ولا يصح أن يتصور فضلاً عن أن يحصل ويقع لتنافي الغلول والنبوة. فقدت قطيفة حمراء يوم بدر من المغنم فقال بعض الناس لعل النبي ﷺ أخذها فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ...﴾ الآية، ثم ذكر الوعيد على من غل، فقال:

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ ومن يخن من غنائم المسلمين شيئاً ويأخذها يأت حاملاً

له علـى عنقه يوم القيامـة حيواناً كان أو متاعـاً أو غير ذلك، فضيحة له على رؤوس الأشهاد.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: ثم تعطى جزاء ما عملت وافيـاً غير منقوص، وتنال جزاءها العـادل دون زيادة، أو نقـص دون ظلم، فلا يـزاد في عقاب العاصي، ولا ينقص من ثواب المطيع.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يستوي من أطـاع الله وطلـب رضوانه، ومن عصى الله وأكب على المعاصي فاستحق سـخطه وبـاء بالخسران، هـذان لا يستويان في حكم الله، وفي نظر عباد الله.

﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ مصيره ومرجعه جهنم وبئسـت النار مستقراً له، ثم أوضح ما بين الطائفتين من التفاوت، فقال:

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي: أصـــحاب الجنة المتبعون لما يرضي الله متفاوتـون في المنـازل والدرجات عند الله، فلمن اتبع رضوان الله الكرامة والثواب الجزيل، ولمن باء بسخط من الله المهانة والعقاب الأليم.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ والله مطلع على أعمالهم لا تخفى عليه أعمال العباد، وسـيجازيهم عليهـا. ثم ذكر تعـالى المؤمنين بالمنـة العظمى عليهم ببعثة خاتم المرسلين، فقال:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: والله لقـد أنعـم الله على المؤمنين من العرب بأكبر النعم وأصلها، حين أرسل إليهم رسولاً عربياً مـن جنسـهم، يعرفون نسـبه، وحاله، ولسـانه، وعرفـوا أمـره وخـبروا شـأنه. وخـص تعـالى المؤمنـين بالذكر وإن كان رحمة للعالمـين؛ لأنهم هم المنتفعون ببعثته.

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هـذه منّة ثانية، أي: يقـرأ عليهم الوحي المنـزل بعدمـا كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهـرهم مـن الشرك والذنـوب ودنس الأعمال ومسـاوئ الأخلاق.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ويعلمهـم القرآن المجيـد والسنة المطهـرة، فجمـع لهـم بـين تعليم الأحكام، وما به تنفـذ الأحكام، وما به تـدرك فوائدها وثمراتهـا، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقات، وكانوا من العلماء الربانيين.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وإن الحال والشـأن كانوا قبل بعثتـه في ضلال ظاهـر وغي وجهل، فنقلوا من الظلمات إلى النور، وصاروا أفضل الأمم.

﴿١٦٥-١٦٨﴾ ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ۞ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي: أو حين أصابتكم أيهـا المؤمنون مصيبة يوم أُحد فقتل منكم سبعون، فقال الله إنكم:

﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ قد أصبتم مثليها من المشركين في بدر، حيث قتلتم سبعين من كبارهم وأسرتم سبعين.

الجُزْءُ الرَّابِعُ — سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ
أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ
وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟
لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٦٨ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ
ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم
مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٧٠ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ
بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٧١ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ
ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٢
ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣

٧٢

﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أي: من أين هذا البلاء، ومن أين جاءتنا الهزيمة وقد وعدنا بالنصر، وموضع التقريع قولهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ مع أنهم سبب الهزيمة.

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ قل لهم يا محمد: هذا الذي أصابكم هو من عند أنفسكم؛ بسبب معصيتكم أمر الرسول وحرصكم على جمع الغنائم وأخذها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: وما وقع بكم من جراح أو قتل يوم أحد، يوم التقى جمع المسلمين وجمع المشركين فكان النصر للمؤمنين أولاً ثم للمشركين ثانياً، فذلك كله بقضاء الله وقدره.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وليعلم وليَرى أهل الإيمان الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ وليعلم أهل النفاق كعبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه الذين انخذلوا يوم أحُد عن رسول الله ﷺ ورجعوا وكانوا نحواً من ثلاثمائة رجل فقال لهم المؤمنون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا نصرة لدين الله وطلباً لمرضاته، أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا. فاعتذر المنافقون وقالوا:

﴿قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ لو نعلم أنكم تلقون حرباً لقاتلنا معكم، ولكن لا نظن أن يكون قتال.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بإظهارهم هذا القول وتركهم الخروج مع المؤمنين صاروا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ لأنهم يظهرون خلاف ما يضمرون وهذه خاصة المنافقين.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ بما يخفونه في صدورهم من النفاق والشرك.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟﴾ أي: هؤلاء المنافقون هم الذين قعدوا وقالوا لإخوانهم في النسب لا في الدين الذين أصيبوا مع المسلمين في أحُد.

﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ لو أطاعنا المؤمنون وسمعوا نصيحتنا فرجعوا كما رجعنا، وانصرفوا عن محمد ﷺ وقعدوا في بيوتهم ما قتلوا هنالك.

﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قل - يا محمد - لأولئك المنافقين إن كان عدم الخروج ينجي من الموت فادفعوا الموت عن أنفسكم إن كنتم صادقين في دعواكم، والغرض منه التوبيخ والتبكيت، وأن الموت آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة.

* لما بين سبحانه أن ما جرى على المؤمنين يوم أحد كان امتحاناً ليتميز المؤمن من المنافق والصادق من الكاذب، بين في الآيات اللاحقة أن من لم ينهزم وقتل فله هذه الكرامة والنعمة، فذكر فضيلة الشهداء وكرامتهم، وما منَّ الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة، فقال تعالى:

﴿١٦٩﴾-﴿١٧٥﴾ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ * ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ ولا تظن -يا محمد- الذين استشهدوا في سبيل الله لإعلاء دينه أمواتاً لا يحسون ولا يتنعمون.

﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ بل قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون، فهم أحياء حياة برزخية في جوار ربهم متنعمون في جنان الخلد،

يرزقون من نعيمها غدواً وعشياً، ولفظ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يقتضي علو درجتهم وقربهم من ربهم، والشهداء أرواحهم في أجواف طيور خضر وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون. عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق لئلّا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب، فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ الآية». عن جابر بن عبدالله قال: لقيني رسول الله فقال يا جابر: «ما لي أراك منكساً مهتماً؟» قلت يا رسول الله: استشهد أبي وترك عيالاً وعليه دين، قال: «ألا أبشرك بما لقي الله ﷻ به أباك» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحاً - وما كلم أحد قط إلا من وراء حجاب - فقال له: يا عبد الله سلني أعطك، قال: يا رب: أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية، فقال الرب - تبارك وتعالى -: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون، قال يا رب: فأبلغ من ورائي فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾».

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: هم منعمون في الجنة مغتبطين بما هم فيه من النعمة والغبطة قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه، وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله، فتم لهم النعيم والسرور.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ وهم يفرحون بإخوانهم المجاهدين الذين لم يقتلوا في الجهاد بما سيكونون عليه بعد الموت إن استشهدوا لعلمهم أنهم سينالون من الخير الذي نالوه.

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: بأن لا خوف عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على مفارقة الدنيا وحظوظها لأنهم في جنات النعيم في سرور كامل دائم.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أكد استبشارهم ليذكر ما تعلق به من النعمة والفضل، والمعنى: يفرحون ويهنئ بعضهم بعضاً بما حباهم الله تعالى من عظيم كرامته، وبما أسبغ عليهم من الفضل وجزيل الثواب؛ فالنعمة ما استحقوه بطاعتهم، والفضل ما زادهم من المضاعفة في الأجر.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بل ينميه ويشكره، ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم.

وفي الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً، وتبشير بعضهم بعضاً.

ثم قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ أي: الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول من بعد ما نالهم الجراح يوم أحد. وهذا كان يوم حمراء الأسد، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم فلما استمروا في سيرهم ندموا لم لا تمموا على أهل

الجُزءُ الرَّابِعُ — سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ

فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ
رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥
وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ
شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ١٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ
شَيۡـٔٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا
نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ
عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ
عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ
عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩ وَلَا يَحۡسَبَنَّ
ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ
بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ
مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠

٧٣

المدينة، وجعلوها الفيصلة، ولما رجع النبي ﷺ من «أحد» إلى المدينة، وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويريهم أن بهم قوة وجلداً، ولم يأذن لأحد سوى من حضر أحداً، فخرجوا - على ما بهم من الجراح - استجابة لله ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى حمراء الأسد.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن أطاع منهم أمر الرسول وأجابه إلى الغزو، وبذلوا غاية جهدهم -على ما بهم من جراح وشدائد- الأجر العظيم والثواب الجزيل.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ أي: الذين أرجف لهم المرجفون من أنصار المشركين، فقالوا لهم: إن قريشاً قد جمعت لكم جموعاً لا تحصى فخافوا على أنفسكم واتقوا لقاءهم، فما زادهم هذا التخويف إلا إيماناً وتصديقاً بوعد الله لهم ولم يثنهم ذلك عن عزمهم، فساروا إلى حيث شاء الله.

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ وقال المؤمنون: الله كافينا وحافظنا ومتولي أمرنا، ونعم الملجأ والنصير لمن توكل عليه -جل وعلا-.

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي: لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم، فرجعوا «من حمراء الأسد» إلى المدينة بنعمة السلامة والعافية وفضل الأجر والثواب والمنزلة العالية، وقد زادوا إيماناً ويقيناً، وأذلوا أعداء الله.

﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ لم ينلهم مكروه أو أذى من القتل والقتال، وذلك أن المشركين لما سمعوا أن النبي ﷺ وأصحابه خرجوا إليهم ألقى الله الرعب في قلوبهم ورجعوا إلى مكة.

﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ أي: نالوا رضوان الله الذي بطاعتهم له ولرسوله هو سبيل السعادة في الدارين، وهو سبحانه ذو إحسان عظيم عليهم وعلى غيرهم من العباد لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ إنما ذلكم القائل ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ بقصد تثبيط العزائم هو الشيطان، يخوفكم أولياءه، وهم الكفار لترهبوهم وتخافوهم.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فلا تخافوهم لأنهم ضعاف لا ناصر لهم، ولا ترهبوهم فإني متكفل لكم بالنصر عليهم، ولكن خافون إن كنتم مؤمنين حقاً أن تعصوا أمري فتهلكوا، والمراد بالشيطان نعيم بن مسعود الأشجعي الذي أرسله أبو سفيان ليثبط المسلمين، وإنما نسب إلى الشيطان؛ لأنه ناشئ عن وسوسته وإغوائه وإلقائه، وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله. والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله.

* كان النبي ﷺ حريصاً على الخلق، مجتهداً في هدايتهم، ساعياً في دعوتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا ويطيعوا ويسلموا، فقال الله تعالى له ﷺ:

(١٧٦)-(١٨٠) ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ تسلية للنبي ﷺ، أي: لا تحزن ولا تتألم - يا محمد - لأولئك المنافقين الذين يبادرون نحو الكفر ويحرصون عليه بأقوالهم وأفعالهم،

ولا تبال بـما يظهر منهم من آثار الكيد للإسلام وأهله.

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ إنهم بكفرهم لن يضروا الله شيئاً وإنما يضرون أنفسهم بحرمانها حلاوة الإيمان وعظيم الثواب.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْأٓخِرَةِۖ﴾ يريد تعالى بحكمته ومشيئته ألا يجعل لهم نصيباً من الثواب في الآخرة؛ لأنهم انصرفوا عن دعوة الحق.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولهم فوق الحرمان من الثواب عذاب عظيم في نار جهنم. ثم قال تعالى مخبراً عن ذلك إخباراً مقرراً:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إن الذين استبدلوا الكفر بالإيمان وهم المنافقون المذكورون قبل، لن يضروا الله بكفرهم وارتدادهم، ولهم عذاب مؤلم.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ﴾ ولا يظن الذين كفروا بربهم، ونابذوا دينه، وحاربوا رسوله أن إمهالنا لهم بدون جزاء وعذاب، وإطالتنا لأعمارهم وعدم استئصالنا لهم خير لهم ومحبة منا لهم.

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: كلا، إنما نمهلهم ونؤخر آجالهم ليكتسبوا المعاصي فتزداد آثامهم وعقوباتهم وعذابهم، ولهم في الآخرة عذاب يهينهم.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ هذا وعد من الله لرسوله بأنه سيميز له المؤمن من المنافق، والمعنى: لا يترك الله المؤمنين مختلطين بالمنافقين حتى يبتليهم فيفصل بين هؤلاء وهؤلاء، لا بد أن يعقد شيئاً من المحنة يُظهر فيها وليه ويفضح بها عدوه، يعرف به المؤمن الصابر من المنافق الفاجر، كما ميز بينهم يوم أُحُد حيث ظهر أهل الإيمان وأهل النفاق.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ وما كان من حكمة الله أن يطلعكم على قلوب عباده فتعرفوا المؤمن من المنافق والكافر، ولكنه يميز بينهم بالمحن والابتلاء كما ميز بينهم يوم أُحُد بالبأساء وجهاد عدوه.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ أي: يختار ويصطفي من رسله من يشاء فيطلعهم على بعض ما في ضمائر بعضهم بوحي منه كما أطلع النبي ﷺ على حال المنافقين.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ فآمنوا إيماناً صحيحاً بأن الله وحده المطلع على الغيب، وأن ما يخبر به الرسول من أمور الغيب إنما هو بوحي من الله لا من جهة نفسه ﷺ.

﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وإن تصدقوا رسلي وتتقوا ربكم بطاعته فلكم ثواب عظيم.

لما بلغ تعالى في التحريض على بذل النفس في الجهاد شرع هنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله، وذكر الوعيد الشديد لمن يبخل بماله، فقال:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ﴾ أي: لا يظن البخيل أن جمعه المال الذي أنعم الله به عليه، وبخله بإنفاقه ينفعه، بل هو مضرة عليه في دينه ودنياه وعاجلهم وآجلهم.

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ﴾ أي: ليس كما يظنون بل ذلك البخل شر لهم؛ لأن أموالهم ستزول عنهم ويبقى عليهم وبال البخل.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ سيجعل الله ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم يعذبون به يوم القيامة، كما جاء في صحيح البخاري: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع - أي ثعباناً عظيماً - له زبيبتان فيأخذ بلهزمتيه - يعني شدقيه - ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا ﷺ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾» الآية.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ أي: جميع ما في الكون ملك له يعود إليه بعد فناء خلقه، وهو الباقي الدائم بعد فناء جميع خلقه فيموتون ويرثهم.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ مطلع على أعمالكم جميعاً، وسيجازي كلاً على قدر استحقاقه.

* ثم يخبر تعالى عن قول المتمردين، الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها.

لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ
سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ
ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ
عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ
تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ
وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو
بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ
ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ
فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ
أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ
وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

٧٤

﴿١٨١﴾-﴿١٨٤﴾ ﴿لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ * ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

﴿لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ هذه المقالة الشنيعة مقالة أعداء الله اليهود زعموا أن الله فقير، وذلك حين نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالوا: إن الله فقير يقترض منا كما قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وإنما قالوا هذا تمويهاً على ضعفائهم لا أنهم يعتقدون هذا، وغرضهم تشكيك الضعفاء من المؤمنين وتكذيب النبي ﷺ، أي: إنه فقير على قول محمد؛ لأنه اقترض منا. عن ابن عباس قال: دخل أبوبكر الصديق ذات يوم بيت مدراس اليهود، فوجد ناساً من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص بن عازوراء وكان من علمائهم وأحبارهم فقال أبوبكر لفنحاص: ويحك اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء، ولو كان غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبوبكر وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال ـ يا محمد ـ: انظر إلى ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ: «ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟» فقال يا رسول الله: إن عدو الله قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء، فغضبت لله وضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص فأنزل الله رداً على فنحاص وتصديقاً لأبي بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ الآية.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ تهديد ووعيد، أي: سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوه في صحائف أعمالهم من الإفك والفرية على الله، ونكتب جريمتهم الشنيعة بقتل الأنبياء بغير حق بل تمرداً وعناداً، والمراد بقتلهم الأنبياء رضاهم بفعل أسلافهم.

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ ويقول الله لهم في الآخرة على لسان الملائكة تقريعاً وتوبيخاً: ذوقوا عذاب النار المحرقة الملتهبة.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: ذلك العذاب الشديد بما اقترفته أيديكم من الجرائم في حياتكم الدنيا، وأنه سبحانه عادل ليس بظالم للخلق فيعذب بغير ذنب، والمراد أن ذلك

العقاب حاصل بسبب معاصيكم، وعدل الله تعالى فيكم، ومن العدل أن يعاقب المسيء ويثيب المحسن.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾ أي: هؤلاء اليهود حين دعوا إلى الإسلام قالوا: إن الله أمرنا وأوصانا في التوراة.

﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ أمرنا بأن لا نصدق لرسول حتى يأتينا بآية خاصة، وهي أن يقدم قرباناً فتنزل نار من السماء فتأكله، وهذا افتراء على الله حيث لم يعهد إليهم بذلك فجمعوا بين الكذب على الله وحصر آية الرسل بما قالوه. عن ابن عباس قال: جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ - منهم كعب ابن الأشرف، ومالك ابن الصيف، وفنحاص بن عازوراء وغيرهم - فقالوا: -يا محمد- تزعم أنك رسول الله وأنه تعالى أنزل عليك كتاباً، وقد عهد الله إلينا في التوراة ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن جئتنا بهذا صدقناك فنزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ الآية.

﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾ قل لهم - يا محمد - توبيخاً وإظهاراً لكذبهم: قد جاءتكم رسل من قبلي بالمعجزات الواضحات والحجج الباهرات الدالة على صدق نبوتهم وبالذي ادعيتم.

﴿فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ فلم كذبتموهم وقتلتموهم، يعني زكريا ويحيى وسائر من قتلوا من الأنبياء إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بالله والتصديق برسله.

ثم قال تعالى مسلياً لرسوله ﷺ:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾ لا يحزنك - يا محمد - تكذيب اليهود لك، فإنهم إن فعلوا ذلك فقد كذبت أسلافهم من قبل رسل الله فلا تحزن فلك بهم أسوة حسنة، فهذه عادة الظالمين ودأب الكافرين.

﴿جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: كذبوا رسلهم مع أنهم جاؤوهم بالبراهين القاطعة والمعجزات الواضحة.

﴿وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ أي: بالكتب السماوية المملوءة بالحكم والمواعظ، والكتاب الواضح الجلي كالتوراة والإنجيل.

* ثم زهد سبحانه في الدنيا بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدع بغرورها، وتغر بمحاسنها، قال تعالى:

﴿١٨٥﴾، ﴿١٨٦﴾ ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ * لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ أي: مصير الخلائق إلى الفناء وكل نفس ميتة لا محالة.

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾ أي: وبهذا تعطون جزاء أعمالكم وافياً يوم القيامة ليحاسبهم إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر، فأجر المؤمن الثواب، وأجر الكافر العقاب.

﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ فمن أكرمه ربه ونجاه، ونحي وأبعد عن النار وأدخل الجنة فقد حصل له الفوز المطلق، والنعيم المخلد.

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ وليست الدنيا إلا دار الفناء يستمتع بها الأحمق المغرور، والآية فيها تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها وأنها فانية زائلة.

﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ أي: والله لتمتحنن وتختبرن في أموالكم بالفقر والمصائب، وفي أنفسكم بالشدائد والأمراض وما يحل بكم من جراح أو قتل وفقد للأحباب.

﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾ ولينالكم من اليهود والنصارى والمشركين

وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا
قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ
أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم
بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨ وَلِلَّهِ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩ إِنَّ فِي
خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ
لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا
وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١
رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ
أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ
ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا
سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ
رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤

٧٥

-أعدائكم- الأذى الكثير، مما يؤذي أسماعكم من ألفاظ الشرك والطعن في دينكم وهذا إخبار منه -جل وعلا- للمؤمنين بأنه سينالهم بلايا وأكدار من المشركين والفجار، وأمر لهم بالصبر عند وقوع ذلك لأن الجنة حفت بالمكاره، ولهذا قال:

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ وإن تصبروا -أيها المؤمنون- على المكاره والابتلاء وتتقوا الله بلزوم طاعته واجتناب معصيته في الأقوال والأعمال.

﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: الصبر والتقوى من الأمور التي ينبغي أن تعزموا وتحزموا عليها ويُنافس فيها، لأنها مما أمر الله بها.

* ثم وبخ ﷻ أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، بقوله:

(١٨٧-١٨٩) ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ * لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ * وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: اذكر -يا محمد- حين أخذ الله العهد المؤكد على اليهود في التوراة وعلى النصارى في الإنجيل.

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ لتظهرن ما في الكتاب من أحكام الله ولا تخفونها، وليعملوا بها، ويبينوا ما فيها، قال ابن عباس: هي لليهود أخذ عليهم العهد والميثاق في أمر رسول الله ﷺ فكتموه ونبذوه.

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ فطرحوا ذلك العهد وتركوه وراء ظهورهم، مبالغة في النبذ والطرح، وتركوا العمل به، واستبدلوا به شيئاً حقيراً من حطام الدنيا من المآكل والمشارب.

﴿فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ أي: بئس هذا الشراء، في تضييعهم الميثاق، وتبديلهم الكتاب.

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ أي: لا تظنن -يا محمد- الذين يفرحون بما أتوا من إخفاء أمرك عن الناس، ويحبون أن يحمدهم الناس ويثنوا عليهم بما لم يفعلوا وهم المراؤون المتكثرون بما لم يعطوا.

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾ فلا تظننهم بمنجاة من عذاب الله في الدنيا.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ ولهم في الآخرة عذاب مؤلم. قال ابن عباس: نزلت في أهل الكتاب؛ سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه، وفي الآية وعيد شديد لكل آت لفعل السوء معجب به، ولكل مفتخر بما لم يعمل ليثني عليه الناس ويحمدوه، وطلب المدح من الخلق ومحبته والعقوبة على تركه، لا يصلح إلا لله وحده لا شريك له، ومن هنا كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على أعمالهم وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق، ويأمرون بإضافة الحمد على ذلك لله وحده لا شريك له، فإن النعم كلها منه -جل وعلا-.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: له سبحانه جميع ما في السموات والأرض، يصرفها كيف يشاء فكيف

يكون من له ما في السموات والأرض فقيراً؟ والآية ردّ على الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو تعالى قادر على عقابهم.

* بدأ تعالى هذه السورة الكريمة بذكر أدلة التوحيد والألوهية والنبوة، وختمها بذكر دلائل الوحدانية والقدرة ودلائل الخلق والإيجاد، ليستدل منها الإنسان على البعث والنشور فكان ختام مسك، ولما كان المقصود من هذا الكتاب العظيم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى معرفة الإله الحق، جاءت الآيات الكريمة تنير القلوب بأدلة التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال، فلفتت الأنظار إلى التفكر والتدبر في ملكوت السموات والأرض، ليخلص الإنسان إلى الاعتراف بوحدانية الله وباهر قدرته وهو يتأمل في كتاب الله المنظور؛ الكون الفسيح بعد أن تأمل في كتاب الله المسطور القرآن العظيم، وفي الكتاب المسطور إشارات عديدة لآيات الكتاب المنظور وهو يدعو إلى معرفة الحقائق باستخدام الحواس، قال تعالى:

١٩٠-١٩٤ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: إن في خلق السموات والأرض على ما بهما من إحكام وإبداع وعلى غير مثال سابق، وفي تعاقب الليل والنهار على الدوام واختلافهما طولاً وقصراً.

﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: علامات واضحة وبراهين عظيمة على الصانع وباهر حكمته، ولا يظهر ذلك إلا لذوي العقول الذين ينظرون إلى الكون بطريق التفكر والاستدلال لا كما تنظر البهائم. ثم وصف تعالى أولي الألباب، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ يذكرون الله في جميع أحوالهم بألسنتهم وقلوبهم في حال القيام والقعود والاضطجاع، فلا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم، لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم في مراقبته.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جاء الثناء عليهم بصيغة الفعل المضارع ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ التي تدل على الاستمرار فالتفكر ديدنهم وليس أمراً عارضاً. والمعنى: ويتدبرون في ملكوت السموات والأرض، في خلقهما بهذا الأجرام العظام وما فيهما من عجائب المصنوعات وغرائب المبتدعات قائلين:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي: ما أوجدت هذا الكون وما فيه عبثاً من غير حكمة.

﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ننزهك يا الله عن العبث وعما لا يليق بك، فأجرنا وارحمنا من عذاب جهنم ويتضمن ذلك سؤال الجنة؛ لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم دعوا الله بأهم الأمور وأعظمها عندهم.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أي: يا ربنا نجنا من النار، فإن من أدخلته النار فقد أذللته وأهنته غاية الإهانة وفضحته على رؤوس الأشهاد.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ وليس للمذنبين الظالمين، من أعوان وشفعاء يمنعهونهم من عذاب الله، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ﴾ يا ربنا إننا سمعنا داعياً ومنادياً - وهو نبيك محمد ﷺ - يدعو إلى الإيمان والتصديق بك.

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟
مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾
لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ
ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ
وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟
وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

سُورَةُ النِّسَاءِ

٧٦

﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ أي: يقول هذا الداعي أيها الناس آمنوا بربكم واشهدوا له بالوحدانية، فصدقنا بذلك واتبعناه وسارعنا إليه، وفي هذا إخبار منهم بمنّة الله عليهم، وتوسل إليه بذلك.

﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أي: استر لنا ذنوبنا ولا تفضحنا بها، وامح بفضلك ورحمتك ما ارتكبناه من سيئات، قال ابن عباس: الذنوب هي الكبائر، والسيئات هي الصغائر.

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ وألحقنا بالصالحين.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ تكرير النداء للتضرع ولإظهار كمال الخضوع، أي: أعطنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك وهي الجنة لمن أطاع.

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ولا تفضحنا بذنوبنا يوم القيامة، وهو إظهار للخضوع والضراعة.

﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ فإنك كريم لا تخلف وعدك وقد وعدت من آمن بالجنة، وهذا دليل على أنهم لم يخافوا خلف الوعد، وأن الحامل لهم على ذلك الدعاء.

* وبعد هذه الدعوات المباركة كان جود الجواد وكرم الكريم:

﴿١٩٥﴾ ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ فأجاب الله دعاءهم بقوله: إني لا أبطل ولا أحبط أيها المؤمنون عمل من عمل خيراً ذكراً كان العامل، أو أنثى، فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً موفراً، قال الحسن: ما زالوا يقولون ربنا، ربنا، حتى استجاب لهم، وإنما ذكر سبحانه الاستجابة وما بعدها في جملة ما لهم من الأوصاف الحسنة لأنها منه، إذ من أجيبت دعوته فقد رفعت درجته.

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب، الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر، فإذا كنتم مشتركين في الأصل وهم إخوة في الدين، وقبول الأعمال والجزاء عليها سواء. عن أم سلمة قالت قلت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ الآية. ثم فصل تعالى لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له، فقال:

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي: الذين ألجأهم المشركون إلى الخروج من الديار التي ولدوا فيها ونشأوا، وهجروا أوطانهم فارين بدينهم، رغبة في رضا الله تعالى.

﴿وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾ أي: تحملوا الأذى والشتم والضرب ونهب المال، من أجل دين الله وعبادته. وقاتلوا أعدائي، وقتلوا في سبيلي لأعلاء كلمة الدين، وجمعوا بين الإيمان والهجرة، ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال، طلباً لمرضاة ربهم، وجاهدوا في سبيل الله.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: الموصوفون بما تقدم لأمحون ذنوبهم بمغفرتي ورحمتي.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ولأدخلنهم جنات النعيم جزاء من عند الله على أعمالهم الصالحة.

﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ عنده سبحانه حسن الجزاء لمن عمل صالحاً، وهي الجنة.

* ثم نبّه تعالى إلى ما عليه الكفار في هذه الدار من النعمة والغبطة والسرور، وبين أنه نعيم زائل ومتاع فان، والمقصود التسلية للمؤمنين عما يحصل عليه الذين كفروا من متاع الدنيا وتنعمهم فيها، وتقلبهم في الدنيا بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز، والغلبة في بعض الأوقات، وهذه الآيات متضمنة لقبح حال الكفار بعد ذكر حسن حال المؤمنين، قال تعالى:

(١٩٦)-(١٩٨) ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ لا يخدعنك أيها السامع تنقل الذين كفروا في البلاد طلباً لكسب الأموال والجاه والأرباح.

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: إنما يتنعمون بذلك قليلاً وبرهة من الزمن، ليس له ثواب ولا بقاء، بل هو متاع قليل، وبُلغة فانية، ومتعة زائلة، ثم يزول هذا النعيم كله عنهم، ومصيرهم في الآخرة إلى النار، وبئس الفراش والقرار نار جهنم.

﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وأما المتقون لربهم، المؤمنون به، فجمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها، لهم النعيم المقيم في جنات النعيم مخلدين فيها أبداً.

﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ أي: ضيافة وكرامة من عند الله، وما عند الله من الثواب والكرامة والكثير الدائم أعظم للأخيار الأبرار، وهم الذين برت قلوبهم، فبرت أقوالهم وأفعالهم، فأثابهم البر الرحيم من بره أجراً عظيماً وعطاء جسيماً، وفوزاً دائماً، خير مما يتقلب فيه الأشرار الفجار من المتاع القليل الزائل.

* ثم أخبر تعالى عن إيمان بعض أهل الكتاب ممن وفقهم للخير والرشاد، فقال:

(١٩٩)، (٢٠٠) ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ ومن اليهود والنصارى فريق يؤمنون بالله حق الإيمان، ويؤمنون بما أنزل إليكم وهو القرآن، وبما أنزل إليهم وهو التوراة والإنجيل كعبد الله بن سلام وأصحابه، والنجاشي وأتباعه ولهذا لما كان إيمانهم عاماً حقيقياً صار نافعاً، فأحدث لهم خضوعاً وخشوعاً.

﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ خاضعين متذللين متواضعين لله.

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا يحرفون نعت محمد ولا أحكام الشريعة الموجودة في كتبهم لعرض من الدنيا خسيس كما فعل الأحبار والرهبان.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم ثواب عظيم عنده يوم يلقونه، فيوفيهم إياه غير منقوص.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ سريع حسابه لنفوذ علمه بجميع المعلومات، يعلم ما لكل واحد من الثواب والعقاب. قال ابن عباس والحسن: نزلت في النجاشي وذلك أنه لما مات نعاه

الجزء الرابع سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ
بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ
وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ
كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا
مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا
فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا
النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ
هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ
قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا
الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ
غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا
دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

٧٧

جبريل لرسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ لأصحابه: «قوموا فصلوا على أخيكم النجاشي»، فقال بعضهم لبعض: يأمر أن نصلي على علج من علوج الحبشة فأنزل الله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الآية.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

قال الراغب: النفس مولعة بحب العاجل.

ثم ختم تعالى السورة الكريمة بهذه الوصية الجامعة لسعادة الدارين، وفيها الحض على طريق الفلاح والفوز والنجاح، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ اصبروا على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد.

﴿وَصَابِرُوا﴾ أي: غالبوا أعداء الله بالصبر على أهوال القتال وشدائد الحروب، واستمروا على ذلك على الدوام.

﴿وَرَابِطُوا﴾ وأقيموا على جهاد عدوي وعدوكم، وأقيموا في الثغور مستعدين للجهاد والغزو.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وخافوا الله في جميع أحوالكم فلا تخالفوا أمره لتفوزوا بسعادة الدارين.

وقد جمعت الآية صفات الفلاح وهي: الصبر، والمصابرة، والمرابطة، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يفت أحداً الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها.

تم تفسير سورة آل عمران
والحمد لله

تفسير سورة النساء
وهي مكية

* سورة النساء إحدى السور المدنية الطويلة، وهي سورة مليئة بالأحكام الشرعية، التي تنظم الشؤون الداخلية والخارجية للمسلمين، وهي تُعنى بجانب التشريع كما هو الحال في السور المدنية، وقد تحدثت السورة الكريمة عن أمور مهمة تتعلق بالمرأة، والبيت، والأسرة، والدولة، والمجتمع، وركزت على حقوق الضعفة كالأيتام والنساء والمستضعفين في الأرض، ولكن معظم الأحكام التي وردت فيها كانت تبحث حول موضوع النساء ولهذا سميت «سورة النساء» لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن، بدرجة لم توجد في غيرها من السور ولذلك أطلق عليها «سورة النساء الكبرى» في مقابلة «سورة النساء الصغرى» التي عرفت في القرآن بسورة الطلاق.

افتتح الله -جل ثناؤه- سورة النساء بخطاب الناس جميعاً ودعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، منبهاً لهم على قدرته ووحدانيته، والحث على عبادته، والأمر بصلة الأرحام، فقال سبحانه:

﴿١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: خافوا الله والتزموا أوامره، واجتنبوا نواهيه، فهو الذي أنشأكم من أصل واحد، وهو نفس واحدة هي أبيكم آدم عليه السلام وفي الإخبار بأن خلقهم من نفس واحدة، وأنه بثهم في أقطار الأرض، مع رجوعهم إلى أصل واحد، ليعطف بعضهم على بعض، ويرقق بعضهم على بعض.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: أوجد من تلك النفس الواحدة زوجها وهي حواء ليناسبها، فيسكن إليها، وتتم بذلك النعمة، ويحصل به السرور، وفيه تنبيه على مراعاة حق الأزواج والزوجات والقيام به، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج، فبينهم وبينهن أقرب نسب وأشد اتصال، وأقرب علاقة.

﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ أي: نشر وفرق في إنحاء الأرض من آدم وحواء خلائق كثيرين ذكوراً وإناثاً.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ وخافوا وراقبوا الله الذي يناشد بعضكم بعضاً به حيث يقول: أسألك بالله، وأنشدك بالله، واتقوا الأرحام أن تقطعوها؛ فإنها مما أمر الله به أن يوصل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ حفيظاً مطلعاً على جميع أحوالكم وأعمالكم.

وقد أكد تعالى الأمر بتقوى الله في موطنين: في أول الآية، وفي آخرها ليشير إلى عظم حق الله على عباده، كما قرن تعالى بين التقوى وصلة الرحم ليدل على أهمية هذه الرابطة، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر الله به.

* تحدثت السورة الكريمة عن حقوق النساء والأيتام وبخاصة اليتيمات في حجور الأولياء والأوصياء، فقررت حقوقهن في الميراث والكسب والزواج، واستنقذتهن من عسف الجاهلية وتقاليدها الظالمة المهينة، وكل هذا من رحمة الله ﷻ حيث أوصى بهؤلاء، قال تعالى:

﴿٢﴾-﴿٤﴾ ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا * وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ * وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾.

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ وهذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة، وهم اليتامى، والخطاب للأولياء والأوصياء، أي: أعطوا اليتامى الذين مات آباؤهم وهم دون البلوغ، وكنتم عليهم أوصياء أموالهم كاملة موفورة إذا بلغوا ورأيتم منهم قدرة على حفظ أموالهم.

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾ ولا تستبدلوا ولا تأخذوا الجيد من مال اليتامى وتجعلوا مكانه الرديء من أموالكم كما كان يصنع أهل الجاهلية.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾ ولا تخلطوا أموال اليتامى بأموالكم، لتحتالوا بذلك على أكل أموالهم، وخص الأكل بالذكر؛ لأنه أكثر ما يكون، وأعم ما يكون من الانتفاعات.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾ أي: إن من تجرأ على أكلها فقد ارتكب إثماً عظيماً، فإن اليتيم بحاجة إلى رعاية وحماية؛ لأنه ضعيف، وظلم الضعيف ذنب عظيم عند الله، وفي الآيات الأمر بإصلاح مال اليتيم؛ لأن تمام إيتائه ماله حفظه، والقيام به بما يصلحه وينميه، وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار.

ثم أرشد تعالى إلى ترك التزوج من اليتيمة إذا لم يعطها مهر المثل، فقال:

﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ وإذا كانت تحت حجر أحدكم يتيمة وعلم وخاف ألا يعطيها مهر مثلها لعدم محبتكم إياهن، فاعدلوا إلى غيرهن، فإن النساء كثير ولم يضيق الله عليكم.

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ أي: انكحوا ما استحسنتم من النساء سواهن من ذوات الدين، والمال والجمال، والحسب، والنسب، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن، إن شاء أحدكم اثنتين، وإن شاء ثلاثاً، وإن شاء أربعاً ولا يزيد عليها.

﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ فإن خشيتم من عدم العدل بين الزوجات فالزموا الاقتصار على واحدة.

﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾ أي: اقتصروا على نكاح الإماء لملك اليمين، إذ ليس لهن من الحقوق كما للزوجات.

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ وذلك الاقتصار على الواحدة، أو على ملك اليمين، أقرب ألا تميلوا وتجوروا.

ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء، ويهضمونهن حقوقهن خصوصاً الصداق الذي يكون شيئاً كثيراً، ودفعة واحدة، يشق دفعه للزوجة، أمرهم وحثهم على إيتاء ذلك بطيب نفس. وتعرضت الآيات لموضوع المرأة فصانت كرامتها، وحفظت كيانها، ودعت إلى إنصافها

بإعطائها حقوقها التي فرضها الله تعالى لها؛ كالمهر، والميراث، وإحسان العشرة، قال تعالى:

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾ أي: أعطوا النساء مهورهن عطية واجبة وفريضة لازمة عن طيب نفس منكم، فلا تماطلوهن أو تبخسوا منه شيئاً، وسمي صدقة؛ لأن بذله دليل على صدق الطالب للمرأة.

﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾ أي: فإن طابت نفوسهن بهبة شيء من الصداق فوهبنه لكم وسمحن لكم عن رضا واختيار.

﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ فخذوا ذلك الشيء الموهوب وتصرفوا فيه حلالاً طيباً هنيئاً حين الأكل، ومريئاً بعد الأكل، فالمريء محمود العاقبة. والهنيء سهل المساغ، وهذه عبارة عن المبالغة في الإباحة وإزالة التبعة. قال ابن عباس: إذا كان من غير ضرار ولا خديعة فهو هنيء مريء كما قال الله.

* ثم خاطب ﷻ الأولياء، فقال:

٥، ٦ ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا * وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾.

﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ أي: لا تعطوا أيها الأولياء السفهاء، جمع «سفيه» وهو الذي يفسد المال بسوء تدبيره، ولا يحسن التصرف فيه، إما لعدم عقله كالمجنون والمعتوه ونحوهما، أو لعدم رشده كالصغير وغير الرشيد. والمعنى: لا تعطوا اليتامى أموالهم التي جعلها الله قياماً للأبدان ولمعايشكم فيضيعوها في غير وجهها خشية إفسادها وإتلافها، وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء؛ لأنهم قوامها ومدبروها، وإشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلون في أموالهم من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار.

﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ أي: وأنفقوا عليهم منها واكسوهم، وقولوا لهم قولاً ليناً من الكلام الطيب، كقولكم إذا رشدتم سلمنا إليكم أموالكم.

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ اختبروا وامتحنوا اليتامى، في عقولهم وأديانهم وحفظهم أموالهم، حتى إذا بلغوا سن النكاح وهو بلوغ الحلم الذي يصلحون عنده للنكاح.

﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ فإن أبصرتم ورأيتم منهم صلاحاً في دينهم، وقدرة على حسن التصرف في أموالهم، فادفعوا إليهم أموالهم دون تأخير.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ﴾ أي: يا معشر الأولياء: لا تسرعوا في إنفاقها وتبذروها قائلين ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فيأخذوها من أيدينا.

﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ﴾ ومن كان منكم صاحب مال أيها الأولياء فليعف عن مال اليتيم ولا يأخذ أجراً على وصايته، واستعف أبلغ من عف، كأنه طالب زيادة العفة.

﴿وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ ومن كان فقيراً محتاجاً إلى مال اليتيم وهو يحفظه ويتعهده، فليأخذ بقدر حاجته الضرورية، وبقدر أجرة عمله، وقيل: هو ما سد الجوعة ووارى العورة.

﴿فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ فإذا سلمتم إلى اليتامى أموالهم، بعد بلوغهم الرشد، فأشهدوا على ذلك ضماناً لوصول حقهم كاملاً إليهم، ولئلَّا ينكروا ذلك.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ وكفى بالله محاسباً ورقيباً وشاهداً عليكم.

* لما ذكر سبحانه حكم أموال اليتامى وصله بأحكام المواريث وكيفية قسمتها بين الورثة، وأفرد سبحانه ذكر النساء بعد ذكر الرجال، ولم يقل للرجال والنساء نصيب، للإيذان بأصالتهن، ودفع ما كان العرب في الجاهلية من جبروتهم وقسوتهم؛ حيث كانوا لا يورثون للضعفاء، كالنساء

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا
﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا
خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي
بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ
أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً
فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا
ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن
كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن
كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ
أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ
نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء؛ لأنهم بزعمهم أهل الحرب والقتال، والسلب والنهب، فأراد الرب الرحيم الحكيم، أن يشرع لعباده شرعاً، يستوي فيه رجالهم ونساؤهم، وأقوياؤهم وضعفاؤهم، وقدم بين يدي ذلك أمر مجملاً، لتتوطن على ذلك النفوس، فقال تعالى:

﴿٧﴾-﴿١٠﴾ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا * وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ أي: للذكور صغاراً وكباراً حظ وقسط من تركة الميت، كما للبنات والنساء حظ وقسط أيضاً، الجميع فيه سواء، يستوون في أصل الوراثة وإن تفاوتوا في قدرها.

﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي: سواء كانت التركة قليلة أو كثيرة، حقاً ثابتاً فرضه الله وأوجبه بشرعه العادل وكتابه المبين.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ وإذا حضر قسمة الميراث الذي أتاكم من غير تعب ولا كد الفقراء من قرابة الميت ممن لا حق لهم في التركة، واليتامى الذين مات آباؤهم وهم صغار، والمساكين الذين لا مال لهم، فأعطوهم شيئاً من هذا المال تطييباً لخاطرهم وجبراً لقلوبهم على وجه الاستحباب قبل تقسيم التركة على أصحابها.

﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قولاً حسناً جميلاً غير فاحش ولا قبيح وليس فيه منّ ولا أذى.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾ نزلت في الأوصياء، أي: تذكر أيها الوصي ذريتك الضعاف من بعدك وكيف يكون حالهم، وعامل اليتامى الذين في حجرك بمثل ما تريد أن يعامل أبناؤك بعد فقدك. والخشية أشد الخوف، ولا تكون إلا مع العلم.

﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ فليراقبوا الله في أمر اليتامى، وذلك بحفظ أموالهم، وحسن تربيتهم، ودفع الأذى عنهم وليقولوا لهم ما يقولونه لأولادهم من عبارات العطف والحنان. ثم حذر تعالى من أكل أموال اليتامى، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ إن الذين يأكلونها حراماً دون حق.

﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أي: ما يأكلون في الحقيقة إلا ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة، وسيدخلون ناراً هائلة مستعرة وهي نار السعير، وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب، يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر.

* لما أوصى تعالى في الآيات السابقة بالأيتام وذكر ضمنها حق الأقارب بالإجمال، أعقبه بذكر أحكام المواريث بالتفصيل ليكون ذلك توضيحاً

لما سبق من الإجمال، فذكر نصيب الأولاد بنين وبنات، ثم ذكر نصيب الآباء والأمهات، ثم نصيب الأزواج والزوجات، ثم نصيب الإخوة والأخوات، في تفصيل دقيق عادل، يكفل العدالة ويحقق المساواة. وفي الآيات ما يدل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدين مع كمال شفقتهم عليهم، قال تعالى:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ (١١).

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ يأمركم الله ويعهد إليكم بالعدل في شأن ميراث أولادكم، فإذا مات أحد منكم وترك أولاداً ذكوراً وإناثاً، فميراثه كله لهم، ثم ذكر كيفية إرثهم. روي أن امرأة سعد بن الربيع جاءت رسول الله ﷺ بابنتيها فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما سعد معك بأحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالها فلم يدع لهما مالاً، ولا تنكحان إلا بمال، فقال ﷺ: «يقضي الله في ذلك» فنزلت آية المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ الآية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما أن أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك [رواه أبو داود والترمذي]. ثم قال تعالى:

﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ أي: للابن من الميراث مثل نصيب البنتين إذا لم يكن هناك وارث غيرهم.

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ﴾ فإن ترك بنات فقط، اثنتين فأكثر، فلبنتين فأكثر ثلثا التركة.

﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ﴾ وإن كانت الوارثة بنتاً واحدة فلها نصف التركة.

وبعد أن ذكر تعالى ميراث الأولاد ذكر ميراث الأبوين؛ لأن الفرع مقدم في الإرث على الأصل، فقال تعالى:

﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ للأب السدس، وللأم السدس.

﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أي: من تركة الميت والمعنى: أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت.

﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ﴾ إن وجد للميت ابن أو بنت؛ لأن الولد يطلق على الذكر والأنثى، ثم ذكر ميراث الأبوين، فقال:

﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ فإن لم يوجد للميت أولاد كان الوارث أبواه فقط، أو معهما أحد الزوجين.

﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾ فللأم ثلث المال، أو ثلث الباقي بعد فرض أحد الزوجين، والباقي للأب.

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ فإن وجد مع الأبوين إخوة للميت اثنان فأكثر، فالأم ترث حينئذ السدس فقط والباقي للأب، والحكمة أن الأب مكلف بالنفقة عليهم دون أمهم فكانت حاجته إلى المال أكثر.

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ أي: إن حق الورثة يكون بعد تنفيذ وصية الميت، وقضاء ديونه، فلا تقسم التركة إلا بعد ذلك وقدم الوصية مع أنها مؤخرة عن الدين للاهتمام بشأنها، لكون إخراجها شاقاً على الورثة، وإلا فالديون مقدمة عليها، وتكون من رأس المال.

﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: إنه تعالى تولى قسمة المواريث بنفسه وفرض الفرائض على ما علمه من الحكمة، فقسم حيث توجد المصلحة وتتوافر المنفعة، ولو ترك الأمر إلى البشر لم يعلموا أيهم أنفع لهم فيضعون الأموال على غير حكمة، ولهذا أتبعه بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ أي: إنه تعالى عليم بما يصلح لخلقه، حكيم فيما شرع وفرض.

* ثم ذكر تعالى ميراث الزوج والزوجة، فقال:

(١٢) ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ

۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن
لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا
تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ
وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ
فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم
مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ
رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ
وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ
فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ
بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ
﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ
يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

٧٩

لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ **ولكم أيها الأزواج نصف ما ترك أزواجكم من المال بعد وفاتهن إن لم يكن لزوجاتكم أولاد منكم أو من غيركم وذد ذكر التوارث بلفظ الزوجة دون المرأة إيذاناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب فلا يقع بينهما التوارث.**

﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ **فإذا كان لهن ولد، فلكم الربع من ميراثهن، وألحق بالولد في ذلك ولد الابن بالإجماع.**

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ **أي: من بعد الوصية، وقضاء الدين.**

﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾ **ولزوجاتكم واحدة فأكثر، الربع مما تركتم من الميراث إن لم يكن لكم ولد منهم، أو من غيرهن.**

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ **أي: فإن كان لكم ولد منهن أو من غيرهن فلزوجاتكم الثمن مما تركتم من المال.**

﴿مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ **وفي تكرير ذكر الوصية والدين من الاعتناء بشأنهما ما لا يخفى.**

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ **وإن كان الميت يورث كلالة، أي لا والد له، ولا ولد، وورثه أقاربه البعيدون لعدم وجود الأصل أو الفرع.**

﴿أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ **عطف على رجل، والمعنى: أو امرأة تورث كلالة.**

﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ **وللمورث أخ، أو أخت من أم، فللأخ من الأم السدس، وللأخت للأم السدس أيضاً.**

﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ **أي: فإن كان الإخوة والأخوات من الأم أكثر من واحد فإنهم يقتسمون الثلث بالسوية ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء.**

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ **أي: تقسم التركة بعد قضاء ديون الميت، وإنفاذ وصيته إن كان قد أوصى بشيء لا ضرر فيه على الورثة، أي في حدود الوصية بالثلث، لقوله ﷺ: «الثلث والثلث كثير».**

﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ **أوصاكم الله بذلك وصية نافعة لكم.**

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ **عالم بما شرع، حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره.**

* **وبعد أن قرر قسمة الميراث بنص الآيات، حذر تعالى من تجاوزها أو التعدي عليها، فقال سبحانه:**

﴿١٣﴾، ﴿١٤﴾ ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۞ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ **أي: تلك الأحكام التي شرعها الله في اليتامى والنساء والمواريث شرائع الله التي حدها لعباده ليعملوا بها؛ ولا تجوز مجاوزتها ولا يحل تعديها.**

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ
أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ
حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥
وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا
فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦
إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ
يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ
قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ
أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ
لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ
مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ
أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩

٨٠

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ **ومن يطع أمر الله فيما حكم، وأمر رسوله فيما بيَّن، يدخله جنات النعيم التي تجري من تحت أشجارها وأبنيتها الأنهار بمياهها العذبة.**

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ **أي: ماكثين فيها أبداً، وذلك الثواب هو الفلاح العظيم.**

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ **ومن يعص الله ورسوله بإنكاره لأحكام الله، وتجاوزه ما شرعه الله لعباده بتغيرها، أو تعطيل العمل بها، ويتجاوز ما حده تعالى له من الطاعات.**

﴿يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ **يجعله مخلداً في نار جهنم لا يخرج منها أبداً، وهنا لطيفة في قول الله تعالى عن أهل النار** ﴿خَٰلِدٗا فِيهَا﴾**، وقال عن أهل الجنة** ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ **والحكمة في ذلك: أن أهل الجنة يتنعمون باجتماع بعضهم إلى بعض، ولهذا قال عن أهل النار:** ﴿خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ **فقد ورد أن كل واحد منهم في تابوت لا يرى أحداً ولا يراه أحد، اللهم إلا على سبيل التقريع، فهذا هو السر والعلم عند الله.**

﴿وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾

وله عذاب شديد، مع الإهانة والإذلال والعذاب والنكال.

*** لما بين سبحانه وتعالى حكم الرجال والنساء في باب النكاح والميراث، ووجوب الإحسان إلى النساء وإيصال صدقاتهن إليهن، وميراثهم مع الرجل، ذكر التغليظ عليهن فيما يأتين به من الفاحشة لئلَّا يتوهمن أنه يسوغ لهن ترك التعفف، وبين حكم الحدود فيهن إذا ارتكبن الحرام، قال تعالى:**

(١٥، ١٦) ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا * وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ **أي: اللواتي يزنين من أزواجكم فاطلبوا أن يشهد على اقترافهن الزنى أربعة رجال عدول من المسلمين، ووصف الزنا بالفاحشة لشناعتها وقبحها.**

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾ **فإن ثبتت بالشهود جريمتهن، فاحبسوهن في البيوت.**

﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ **أي: احبسوهن فيها إلى الموت، أو حتى يجعل الله لهن مخلصاً بما يشرعه من الأحكام. قال ابن كثير: كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت، حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم.**

﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ **أي: واللذان يفعلان الفاحشة، والمراد به الزاني والزانية بطريق التغليب.**

﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ **بالتوبيخ والتقريع والضرب بالنعال.**

﴿فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾ **فإن تابا عن الفاحشة، وأصلحا سيرتهما فكفوا عن الإيذاء لهما. قيل خص الحبس في البيت بالمرأة، وخص الإيذاء بالرجل؛ لأن المرأة إنما تقع في الزنى عند الخروج والبروز فإذا حبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية، وأما الرجل فإنه لا**

يمكن حبسه في البيت؛ لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه واكتساب قوت عياله، فلا جرم جعلت عقوبتهما مختلفة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾

أي: مبالغاً في قبول التوبة، واسع الرحمة والإحسان، الذي من إحسانه: أن وفقهم للتوبة وقبلها منهم، وسامحهم عما صدر منهم، وفي قوله: ﴿تَوَّابًا﴾: صيغة مبالغة. وذلك لكثرة توبته وكثرة من يتوب عليهم، فالذين يتوب الله عليهم لا يحصون، فلهذا عبر بصيغة المبالغة، وتوبة الله على العبد نوعان: توبة قبل فعل التوبة، وتوبة بعدها، فالتوبة التي قبل فعل التوبة معناها: التوفيق للتوبة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ۚ﴾ [التوبة: ١١٨] والتوبة التي بعد التوبة: هي قبول التوبة كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

* بعد أن أخبر ﷻ أن توبته على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد، أخبر تعالى أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه، كرماً منه وجوداً، لمن عمل السوء، قال تعالى:

﴿١٧﴾،﴿١٨﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ إنما التوبة التي كتب الله على نفسه قبولها هي توبة من فعل المعصية بجهل منه لعاقبتها، ثم ندم وأناب؛ فكل عاص لله خاطئاً أو متعمداً فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالماً بالتحريم. قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عصي به الله فهو جهالة عمداً كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل.

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ ثم يتوبون سريعاً قبل مفاجأة الموت، فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب قطعاً.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ﴾ يقبل الله توبتهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليماً بخلقه، حكيماً في شرعه وتدبيره وتقديره، ومن حكمته أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته توفيقه للتوبة، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله عدم توفيقه.

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ وليس قبول التوبة ممن ارتكب المعاصي واستمر عليها حتى إذا فاجأه الموت تاب وأناب، فهذه توبة المضطر وهي غير مقبولة ولا تنفع صاحبها، وفي الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» [رواه الترمذي].

﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ﴾

أي: ولا تقبل توبة الذين يموتون وهم جاحدون، منكرون لوحدانية الله ورسالة رسوله محمد ﷺ فلا يقبل إيمانهم عند الاحتضار. قال سعيد بن جبير: الآية الأولى في المؤمنين، والوسطى في المنافقين، والأخرى في الكافرين.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: أولئك المصرون على المعاصي إلى أن ماتوا، والجاحدون الذين يموتون وهم كفار، هيأنا وأعددنا لهم عذاباً مؤلماً.

* وتناولت السورة الكريمة نفي الظلم عن الزوجات، وفيها تنظيم العلاقات الزوجية، وبينت أنها ليست علاقة جسمية وإنما علاقة إنسانية، وأن المهر ليس أجراً ولا ثمناً، بل هو عطاء يوثق المحبة، ويديم العشرة، ويربط القلوب، وكانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاؤوا تزوجها أحدهم، وإن شاؤوا زوجوها غيرهم، وإن شاؤوا منعوها الزواج، قال تعالى:

﴿١٩﴾-﴿٢١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا

وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ
إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ
بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ
بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا
٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ
إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ
سَبِيلًا ٢٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ
وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ
ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ
وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ
وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ
ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا
جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ
أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا
مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣

* وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا * وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾ أي: لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالمتاع، ينتقل بالإرث من إنسان إلى آخر وترثوهن بعد موت أزواجهن كرهاً عنهن.

﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ ولا يحل لكم أن تمنعوهن من الزواج، أو تضيقوا عليهن لتذهبوا ببعض ما دفعتموه لهن من الصداق ونحوه.

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ أي: لا يكون العضل إلا في حال إتيانهن بفاحشة الزنى، والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها. قال ابن عباس: الفاحشة المبينة النشوز والعصيان؛ فلكم حينئذ إمساكهن حتى تأخذوا ما أعطيتموهن.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ أي: صاحبوهن بما أمركم الله به من طيب القول؛ والمعاملة بالإحسان والتكريم والمحبة، وأداء ما لهن من حقوق وقيل هي: الإجمال في القول والمبيت والنفقة.

﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ فإن كرهتم صحبتهن لسبب من الأسباب الدنيوية بقبح أو سوء خلق، فاصبروا عليهن واستمروا في الإحسان إليهن، فإن في ذلك خيراً كثيراً، من ذلك امتثال أمر الله، وقبول وصيته التي فيها سعادة الدارين، وربما أن يرزقكم الله منهن ولداً صالحاً تقر به أعينكم، أو يعطفه الله عليها، أو يناله الأجر العظيم على صبره، وعسى أن يكون في الشيء المكروه الخير الكثير، وفي الحديث: «لا يفرك أي لا يبغض مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر» [رواه مسلم].

ثم حذر تعالى من أخذ شيء من المهر بعد الطلاق، فقال:

﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ﴾ وإن أردتم أيها المؤمنون نكاح امرأة مكان امرأة طلقتموها.

﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ﴾ أي: والحال أنكم كنتم قد دفعتم مهراً كبيراً يبلغ قنطاراً، فلا تأخذوا ولو قليلاً من ذلك المهر.

﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ استفهام إنكاري، أتأخذونه باطلاً وظلماً؟ وافتراءً واضحاً.

﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ استفهام للتعجب والإنكار، أي: كيف يباح لكم أخذه وقد استمتعتم بهن بالمعاشرة الزوجية؟

﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ وكذلك أخذ الله على الأزواج عهداً وثيقاً مؤكداً هو عقد النكاح، قال مجاهد: الميثاق الغليظ عقدة النكاح، وفي الحديث: «اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» [رواه مسلم].

* لما أوصى تعالى بحسن معاشرة الأزواج، وحذر من إيذائهن أو أكل مهورهن، عقبه بذكر المحرمات من النساء اللواتي لا يجوز الزواج بهن بسبب القرابة أو المصاهرة أو الرضاع، قال تعالى:

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾ **أي: لا تتزوجوا من النساء ما تزوج آباؤكم، لكن ما سبق فقد عفا الله عنه، لما توفي أبو قيس بن الأسلت وكان من صالحي الأنصار، خطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت: إني أعدك ولداً ولكني آتي رسول الله ﷺ أستأمره فأتته فأخبرته فأنزل الله:** ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ **الآية.**

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ **فإن نكاحهن أمر قبيح قد تناهى في القبح والشناعة، وبلغ الذروة العليا في الفظاعة والبشاعة، إذ كيف يليق بالإنسان أن يتزوج امرأة أبيه وأن يعلوها بعد وفاته وهي مثل أمه؟**

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ **أي: بئس ذلك النكاح القبيح الخبيث طريقاً لمن سلكه؛ لأن هذا من عوائد الجاهلية، التي جاء الإسلام بالتنزه عنها والبراءة منها، فوصف الله ﷻ نكاح ما نكح الآباء بثلاثة أوصاف: أنه فاحشة، وأنه مقت، وأنه سبيل سيء.**

*** ثم بين تعالى المحرمات من النساء، فقال:**

﴿٢٣﴾،﴿٢٤﴾ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ **أي: حرم الله عليكم نكاح أمهاتكم، ويشمل اللفظ الجدات من قبل الأب أو الأم.**

﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ **ويشمل بنات الأولاد، وإن نزلن.**

﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ **أي: شقيقة كانت أو لأب أو لأم.**

﴿وَعَمَّٰتُكُمْ﴾ **أي: أخوات آبائكم وأخوات أجدادكم.**

﴿وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ **أخوات أمهاتكم وجداتكم، وبنات الأخ وبنات الأخت ويدخل فيهن أولادهن، وهؤلاء المحرمات بالنسب وهن كما تقدم الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت.**

ثم شرع تعالى في ذكر المحرمات من الرضاع، وقد نزل الله الرضاعة منزلة النسب حتى سمى المرضعة أماً للرضيع، فقال:

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ **أي: كما يحرم عليك أمهاتكم اللاتي ولدنكم، كذلك يحرم عليكم أمهاتكم اللاتي أرضعنكم، وكذلك الأخوات من الرضاع، ولم تذكر الآية من المحرمات بالرضاع سوى الأمهات والأخوات، وقد وضحت السنة النبوية أن**

المحرمات من الرضاع سبع كما هو الحال في النسب لقوله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» [رواه البخاري].

ثم ذكر تعالى المحرمات بالمصاهرة، فقال:

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ وكذلك يحرم نكاح أم الزوجة سواء دخل بالزوجة أو لم يدخل؛ لأن مجرد العقد على البنت يحرم الأم.

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ أي: بنات أزواجكم اللاتي ربيتموهن، وذكر الحجر ليس للقيد وإنما هو للغالب؛ لأن الغالب أنها تكون مع أمها ويتولى الزوج تربيتها وهذا بالإجماع.

﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الدخول هنا كناية عن الجماع، أي: من نسائكم اللاتي أدخلتموهن الستر، قاله ابن عباس، فإن لم تكونوا أيها المؤمنون قد دخلتم بأمهاتهن وطلقتموهن فلا جناح عليكم في نكاح بناتهن.

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ وحرم عليكم نكاح زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم، بخلاف من تبنيتموهم فلكم نكاح حلائلهم.

﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وحرم عليكم الجمع بين الأختين معاً في النكاح إلا ما كان منكم في الجاهلية فقد عفا الله عنه، ولا يجوز كذلك الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها كما جاء في السنة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: غفوراً لما سلف، رحيماً بالعباد فلا يكلفهم ما لا يطيقون.

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: وحرم عليكم نكاح المتزوجات من النساء إلا ما ملكتموهن بالسبي، فيحل لكم وطؤهن بعد الاستبراء ولو كان لهن أزواج في دار الحرب؛ لأن بالسبي تنقطع عصمة الكافر، عن أبي سعيد الخدري قال: أصبنا سباياً يوم أوطاس لهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن، فسألنا النبي ﷺ فنزلت: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ...﴾ الآية قال: فاستحللناهن.

﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هذا فرض الله عليكم وكتابه بتحريم نكاح هؤلاء، فالزموه، واهتدوا به.

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ وأحل لكم نكاح ما سواهن.

﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي: إرادة أن تطلبوا النساء بطريق شرعي فتدفعوا لهن المهور حال كونكم متزوجين غير زانين.

﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ فما تلذذتم به من النساء بالنكاح، فآتوهن مهورهن فريضة فرضها الله عليكم ليست بمنزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء رده، ثم قال تعالى:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ أي: لا إثم عليكم فيما أسقطن من المهر برضاهن وطيب نفس منهن، قال ابن كثير: أي: إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليماً بمصالح العباد، حكيماً فيما شرع لهم من الأحكام والشرائع وحد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: من لم يكن منكم ذا سعة وقدرة على الطول الذي هو المهر لنكاح المحصنات.

﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فله أن ينكح

من الإمـاء المؤمنات الـلاتي يملكهن المؤمنون.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ﴾ جملة معترضة لبيان أنه يكفي في الإيمان معرفة الظاهر والله يتولى السرائر.

﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ إنكم جميعاً بنو آدم ومن نفس واحدة فلا تستنكفوا من نكاحهن فرب أمة خير من حرة، وفيه تأنيس لهم بنكاح الإماء، فالعبرة بفضل الإيمان لا بفضل الأحساب والأنساب.

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ فتزوجوهن بأمر أسيادهن وموافقة مواليهن.

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وادفعوا لهن مهورهن عن طيب نفس ولا تبخسوهن منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات، ولكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كن:

﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ﴾ أي: عفيفات، غير مجاهرات بالزنى، ولا متسترات بالزنى مع أخدانهن. قال ابن عباس: الخدن هو الصديق للمرأة يزني بها سراً، فنهى الله تعالى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾ فإذا أحصن بالزواج ثم زنين فعليهن نصف ما على الحرائر من عقوبة الزنى.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ﴾ أي: إنما يباح نكاح الإماء لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنى، والصبر عن نكاح الإماء مع العفة أولى وأفضل.

﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ﴾ أي: صبركم وتعففكم عن نكاحهن أفضل لئلَّا يصير الولد رقيقاً.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ واسع المغفرة، عظيم الرحمة إذ أذن لكم في نكاحهن عند العجز عن نكاح الحرائر، والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، وأما الرحمة فهي صفة من صفات الله ﷻ تقتضي الإحسان إلى الخلق ودفع الضرر عنهم، والغفور يستر المحظور، والرحيم يكشف المحظور.

* يخبر تعالى بمنته العظيمة، ومنحته الجسيمة، وحسن تربيته لعباده المؤمنين، وسهولة دينه ويسر شريعته، فقال:

﴿٢٦﴾-﴿٢٨﴾ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ * وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا * يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: يريد الله بهذه التشريعات أن يوضح

الجزء الخامس سورة النساء

وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ
عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ
تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا
وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ٣٠ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ
عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١
وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ
نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ
وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ
عَلِيمٗا ٣٢ وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ
وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ
نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ٣٣

٨٣

لكم معالم دينكم ومصالح أموركم، ويرشدكم إلى طرائق الأنبياء والصالحين في الحلال والحرام لتقتدوا بهم.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ﴾ أي: يقبل توبتكم فيما اقترفتموه من الإثم والمحارم.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ عليم بأحوال العباد وما يصلح شأنهم، حكيم في تشريعه لهم وما دبر من أمورهم.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ كرره ليؤكد سعة رحمته تعالى على العباد، أي: يحب بما شرع من الأحكام أن يطهركم من الذنوب والآثام، ويريد توبة العبد ليتوب عليه.

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾ ويريد الذين ينقادون لشهواتهم وملذاتهم أن

تعدلوا عن الحق إلى الباطل وتنحرفوا عن الدين انحرافاً كبيراً، وتكونوا فسقة فجرة مثلهم.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾ يريد تعالى بما يسر أن يسهل عليكم أحكام الشرع.

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ عاجزاً عن مخالفة هواه لا يصبر عن اتباع الشهوات ولا على مشاق الطاعات، فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه، وضعف عزمه وهمته.

* ثم حذر تعالى من أكل أموال الناس بالباطل، فقال:

﴿٢٩﴾-﴿٣١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا * إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا يحل لكم أن يأكل بعضكم أموال بعض بغير حق، وهو كل طريق لم تبحه الشريعة كالسرقة والخيانة والغصب والربا والقمار وما شاكل ذلك، ثم إنه لما حرم أكل الأموال بالباطل، أباح لهم أكلها بالطرق المباحة، فقال:

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ﴾ إلا ما كان بطريق شرعي وكسب حلال كالتجارة التي أحلها الله، ونص على التجارة دون سائر أنواع المعاوضات لكونها أكثرها وأغلبها.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ولا يسفك بعضكم دم بعض، والتعبير عنه بقتل النفس للمبالغة في الزجر، أو هو على ظاهره بمعنى الانتحار، وذلك من رحمته تعالى بكم أن صان نفوسكم وأموالكم، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها، ورتب على ذلك ما رتبه من الحدود.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ﴾ أي: ومن يرتكب ما نهى الله عنه من أخذ المال الحرام معتدياً ظالماً لا جهلاً ولا نسياناً، فسوف يدخله الله في الآخرة ناراً عظيمة يحترق فيها.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: هيناً يسيراً لا عسر فيه؛ لأنه تعالى لا يعجزه شيء.

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: إن تركوا أيها المؤمنون الذنوب الكبائر التي نهاكم الله ﷻ عنها كالإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس بغير الحق، وغير ذلك، نمح عنكم صغائر الذنوب بفضلنا ورحمتنا وهذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين.

﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي: ندخلكم الجنة دار الكرامة والنعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ويدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكباً كبيرة، كالصلوات الخمس، والجمعة، وصوم رمضان. عن ابن عباس ﵄: ثمان آيات في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾. ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾. ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾. ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾. ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾.

* لما ذكر تعالى المحرمات من النساء وذكر قبلها تفضيل الله الرجال عليهن في الميراث، جاءت الآيات تنهى عن تمني ما خص الله به كلاً من الجنسين فلا تتمنى النساء خصائص الرجال، التي بها فضلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغنى والكمال، تمنياً مجرداً؛ لأن هذا هو الحسد بعينه، ولأنه سبب للبغضاء والشحناء، قال تعالى:

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ لا تتمنوا أيها المؤمنون ما خص الله تعالى به غيركم من المواهب والأرزاق وغير ذلك، فإن ذلك نوع من عدم الرضا بالقسمة التي قسمها الله بين عباده على مقتضى إرادته وحكمته البالغة؛ ولأنه يؤدي إلى التحاسد والتباغض، قال الزمخشري: نهوا عن الحسد وعن تمني ما فضل الله بعض الناس على بعض من الجاه والمال؛ لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد. عن مجاهد قال: قالت أم سلمة يا رسول الله: يغزو الرجال ولا نغزو وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ الآية.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾ لكل من الفريقين في الميراث نصيب معين المقدار، كل له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر.

﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ أي: وسلوا الله من فضله ورزقه بدلاً من التمني لما فيه من دواعي الحسد، واسألو الجواد يعطكم فإنه كريم وهاب خزائنه لا تنفد، قال ابن عيينة: لم يأمر بالمسألة إلا ليعطي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ وهو عالم الغيب والشهادة، أعلم بما يصلح عباده فيما قسمه لهم، ولذلك جعل الناس طبقات ورفع بعضهم درجات.

* لما نهى الله سبحانه عن تمني ما فضل الله به بعضا على بعض، ومنه تفضيل الرجال على النساء في الميراث، قال تعالى:

﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ ٣٣.

﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ﴾ ولكل إنسان جعلنا ورثة يرثون ماله مما تركه الوالدان والأقارب من الميراث.

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ والذين تحالفتم معهم بالأيمان المؤكدة على النصرة والإرث فأعطوهم حظهم من الميراث، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام ثم نسخ. قال الحسن: كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر، فنسخ الله ذلك بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ [الأنفال: ٧٥]. وقال ابن عباس: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم فلما نزلت ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾ نسخت.

الجزء الخامس سورة النساء

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ
بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ
حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ
نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ
وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا
فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن
يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
خَبِيرٗا ٣٥ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ
وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ
وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ
وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ
وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ
ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧

٨٤

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ مطلعاً على كل شيء بعلمه لجميع الأمور وسيجازيكم عليه.

* ثم تناولت حق الزوج على زوجته، عندما يبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين، وبينت معنى قوامة الرجل وأنها ليست قوامة استعباد وتسخير، وإنما هي قوامة نصح وتأديب كالتي تكون بين الراعي ورعيته، وأن الرجال يتولون أمر النساء في المسؤولية والتوجيه، فقال:

٣٤ ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ

﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: الرجال قائمون عليهن بالأمر والنهي، والإنفاق والكسوة والمسكن والتوجيه والرعاية كما يقوم الولاة على الرعية.

﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ بسبب ما منحه الله من العقل والتدبير، وخصهم به من الكسب والإنفاق، فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية والإنفاق والتأديب، قال المفسرون: والتفضيل للرجل لكمال العقل وحسن التدبير، ورزانة الرأي ومزيد القوة، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك. روي أن سعد بن الربيع وكان نقيباً من نقباء الأنصار نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد فلطمها، فانطلق أبوها معها إلى رسول الله ﷺ فقال: أفرشته كريمتي فلطمها، فقال النبي ﷺ: «لتقتص منه» فنزلت: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ فقال ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير».

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ هذا تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجل، وقد ذكر تعالى أنهن قسمان: قسم صالحات مطيعات، وقسم عاصيات متمردات، فالنساء الصالحات مطيعات لله ولأزواجهن مستقيمات على شرعه، قائمات بما عليهن من حقوق، ويحفظن أنفسهن عن الفاحشة، وأموال أزواجهن عن التبذير، كما أنهن حافظات لما يجري بينهن وبين أزواجهن مما يجب كتمه ويجمل ستره.

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ هذا خطاب للأزواج، هذا القسم الثاني وهن النساء العاصيات المتمردات، أي: واللاتي يتكبرن ويتعالين عن طاعة الأزواج فعليكم أيها الرجال أن تسلكوا معهن في التأديب سبل الإصلاح الأسهل فالأسهل.

﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ أي: فخوفوهن الله بطريق النصح والإرشاد، وبالكلمة الطيبة، وبيان حكم الله في طاعة الزوج من الترهيب من معصيته. والوعظ: ما خُتم بترغيب وترهيب، فإن انتهت فذلك المطلوب، وإن لم ينجح الوعظ والتذكير؛ فاهجروهن في الفراش فلا تكلموهن ولا تقربوهن. قال ابن عباس: الهجر ألا يجامعها وأن لا يضاجعها على فراشها ويوليها ظهره، فإن لم يرتدعن فاضربوهن ضرباً غير مبرح لا ضرر فيه، وهو ضرب تأديب وإصلاح لا ضرب انتقام وتعسف. قال عطاء: ضرباً بالسواك.

ذكر ﷻ الوعظ والهجر والضرب، والرابعة لم يذكرها تعالى لأنها مكروهة عنده وهي الطلاق.

﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ فإن أطعن أمركم وتركن النشوز فاحذروا ظلمهن، ولا تلتمسوا طريقاً لإيذائهن ومعاقبتهن على الأمور الماضية، والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها، ويحدث بسببه الشر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ أي: فإن الله تعالى أعلى منكم وأكبر، وهو وليهن ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن. وفي هذا تأديب وتوجيه للمسلمين في كيفية تأديب نسائنا؛ وانظر إلى ترتيب العقوبات ودقتها حيث أمرنا بالوعظ ثم بالهجران ثم بالضرب ضرباً غير مبرح، ثم ختم الآية بصفة العلو والكبر لينبه العبد على أن قدرة الله فوق قدرة الزوج عليها، وأنه تعالى عون الضعفاء وملاذ المظلومين.

* لما ذكر ﷻ ثلاث مراحل في علاج الزوجة وإصلاح حالها، ذكر في الآيات اللاحقة بعث حكمين من أهل الزوج وأهل الزوجة، قال تعالى:

﴿٣٥﴾ ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾.

﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ أي: وإن تفاقم الخلاف بين الزوجين، وخشيتم يا أولياء الزوجين مخالفة وعداوة بين الزوجين فأرسلوا حكماً عدلاً من أهل الزوج وحكماً عدلاً من أهل الزوجة يجتمعان فينظران في أمرهما ويفعلان ما فيه

المصلحة، وإنما كان بعث الحكمين من أهلهما؛ لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال، وأطلب للصلاح واحفظ لأسرارهما الخاصة، ونفوس الزوجين أسكن إليهم، فيبرزان ما في ضمائرهما من الحب والبغض، وإرادة الصحبة والفرقة، ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق، وتشوق الشارع إلى التوفيق، ولهذا قال:

﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ إن قصد الحكمين إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله، بورك في وساطتهما، وأوقع الله بين الزوجين الوفاق والألفة، وألقى في نفوسهما المودة والرحمة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ عليماً بأحوال العباد لا يخفى عليه شيء من أمرهم، حكيماً في تشريعه لهم، خبير بما تنطوي عليه نفوسهم.

* يأمر تعالى في الآيات عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة وذلًا وإخلاصاً له، في جميع العبادات الظاهرة والباطنة. ثم انتقلت الآيات من دائرة الأسرة إلى دائرة المجتمع فأمرت بالإحسان في كل شيء، وبينت أن أساس الإحسان التكافل والتراحم، والتناصح والتسامح، والأمانة والعدل، حتى يكون المجتمع راسخ البنيان قوي الأركان، قال تعالى:

﴿٣٦﴾ ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾.

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ واعبدوا الله وانقادوا له وحده، وعظموه ولا تشركوا به شيئاً من الأشياء لا صنماً، ولا نبياً، ولا ولياً، ولا غيرهم من المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً، ولا حياة ولا نشوراً، واستوصوا بالوالدين برّاً وإنعاماً، وإحساناً وإكراماً. وللإحسان ضدان: الإساءة، وعدم الإحسان، وكلاهما منهي عنه.

﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ أي: وأحسنوا إلى الأقارب عامة، وإلى اليتامى الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، والمساكين خاصة وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر.

﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ هو الجار القريب، فله عليك حق الجوار، وحق القرابة.

﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ الجار الأجنبي الذي لا قرابة بينك وبينه.

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ هو الرفيق في السفر، وقيل: الزوجة، وقيل: الصاحب مطلقاً، فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر ويشمل الزوجة.

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المسافر الغريب الذي انقطع عن بلده وأهله.

﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾ وهم المماليك من العبيد والإماء، أحسنوا إليهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ أي: متكبراً في نفسه يأنف عن أقاربه وجيرانه، فخوراً على الناس مترفعاً عليهم يرى أنه خير منهم، والاختيال يكون بالفعل، والفخر يكون باللسان، وهذا آية جامعة جاءت حثّاً على الإحسان واستطراداً لمكارم الأخلاق، ومن تدبرها حق التدبر أغنته عن كثير من مواعظ البلغاء، ونصائح الحكماء. وقد ختم تعالى هذه الآية بهذه الجملة؛ لأن الغالب أن من يستكبر عن عبادة الله، وعن هذه الوصايا النافعة، فالغالب عليه أن فيه اختيالاً، وفيه فخراً واستنكافاً واستكباراً، قال بعض السلف: لا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً، وتلا ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾ الآية، ولا عاقاً إلا وجدته جباراً شقيّاً، وتلا ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤﴾ [مريم: ٣٢].

* ثم بين تعالى صفات هؤلاء الذين يبغضهم الله، فقال:

﴿٣٧﴾-﴿٣٩﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۞ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ

الجزء الخامس سورة النساء

وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ
قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟
مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ
سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى
سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ
أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً
فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ
ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

٨٥

قَرِينًا * وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ **الذين يمنعون ما أوجب الله عليهم من الإنفاق والعطاء في سبيل الله، ويأمرون غيرهم بترك الإنفاق بأقوالهم وأفعالهم، وهذا غاية اللؤم ونهاية الحمق والرقاعة وقبح الطباع. والآية في اليهود نزلت في جماعة منهم كانوا يقولون للأنصار: لا تنفقوا أموالكم في الجهاد والصدقات، وهي مع ذلك عامة.**

﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ **ويخفون ما عندهم من المال والغنى، ويخفون فضله وعطاءه، ويبخلون بالصدقة، فالبخيل جحود لنعمة الله لا تظهر عليه ولا تبين، لا في مأكله ولا في ملبسه ولا في إعطائه وبذله؛ بل يتظاهر بالمسكنة لئلا يتطلع أهل الحاجة إلى ما ينتفعون به منهم.**

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ **وهيأنا للجاحدين نعمة الله عذاباً أليماً مع الخزي والإذلال لهم، وبعد أن ذكر المساكين المذمومين وهم البخلاء، أخبر عن النفقة الصادرة، عن رياء وسمعة، ولا يريدون بذلك وجه الله، فقال:**

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ **واعتدنا هذا العذاب كذلك للذين ينفقون أموالهم رياء وسمعة ليروهم الناس ويمدحونهم ويعظمونهم لا ابتغاء وجه الله.**

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ **ولا يصدقون بالله اعتقاداً وعملاً، ولا باليوم الآخر، وليس إنفاقهم صادراً عن ذلك، والآية في المنافقين.**

﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ **أي: ومن كان الشيطان صاحباً له وخليلاً يعمل بأمره، فساء هذا القرين والصاحب.**

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ **الاستفهام للإنكار والتوبيخ، وماذا يضيرهم وأي تبعة ومشقة عليهم في الإيمان بالله والإنفاق في سبيله وقد أعطاهم ومنَّ عليهم، وهو ذم وتوبيخ وتجهيل بمكان المنفعة، ولما كان الإخلاص سراً بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله، أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال، فقال:**

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ **وعيد لهم بالعقاب، أي سيجازيهم بما عملوا، وسيحاسبهم على ذلك.**

*** يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله، وتنزهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير، فقال:**

﴿٤٠﴾-﴿٤٢﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا * فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ **إن الله تعالى لا يبخس ولا ينقص أحداً من عمله شيئاً ولو كان وزن ذرة وهي الهباءة، ذلك على سبيل التمثيل تنبيها بالقليل على الكثير.**

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ **وإن كانت تلك الذرة حسنة ينمها ويكثرها لصاحبها ويجعلها أضعافاً كثيرة بحسب حالها ونفعها، وحال صاحبها، إخلاصاً ومحبة وكمالاً.**

﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ويعط من عنده تفضلاً وزيادة على ثواب العمل أجراً عظيماً وهو الجنة، وكذلك التوفيق لأعمال أخر، وإعطاء البر الكثير والخير الغزير، وما وصفه الله بالعظيم فمن يعرف مقداره، مع أنه سمى متاع الدنيا قليلاً، قال أبو هريرة رضي الله عنه: إذا قال الله تعالى أجراً عظيماً فمن يقدر قدره.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ لما ذكر أنه جل وعلا لا يظلم مثقال ذرة، ذكر كيف يكون حال الناس يوم القيامة حين تأتي من كل أمة نبيها يشهد عليها، بما عملت ونأتي بك يا محمد شهيداً على أمتك، تشهد على أمتك وعلى الرسل أنهم بلغوا أممهم رسالات ربهم، والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾ أي: في ذلك اليوم العصيب، يوم القيامة يتمنى الفجار الذين جحدوا وحدانية الله وعصوا رسوله.

﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ لو يدفنون في الأرض ثم تسوى بهم كما تسوى بالموتى، أو لو تنشق الأرض فتبتلعهم ويكونون تراباً؛ حتى لا يبعثوا وذلك بما يرون من أهوال يوم القيامة.

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أي: لا يستطيعون أن يخفوا عن الله حديثاً، بل أسرارهم معروضة عليه، وأحاديثهم فيما بينهم معلومة لديه.

* ثم أمر تعالى باجتناب الصلاة في حال السكر والجنابة، فقال:

(٤٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ يا أيها الذين صدقوا: لا تصلوا في حالة السكر؛ لأن هذه الحالة لا يتأتى معها الخشوع والخضوع بمناجاته سبحانه وتعالى ـ وقد كان هذا قبل تحريم الخمر.

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ ولا تقربوا الصلاة وأنتم جنب، أي غير طاهرين بإنزال أو إيلاج إلا إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء فصلوا على تلك الحالة بالتيمم.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ وإن كنتم مرضى لا تقدرون معه على استعمال الماء، أو مسافرين وأنتم محدثون، أو أحدثتم ببول أو غائط ونحوهما حدثاً أصغر ولم تجدوا الماء.

﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ أو جامعتم النساء، فلم تجدوا الماء الذي تتطهرون به.

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي: اقصدوا عند عدم وجود الماء التراب الطاهر فتطهروا به، وامسحوا وجوهكم وأيديكم بذلك التراب.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين، بتيسير ما أمرهم به بحيث لا يشق على العبد امتثاله فيحرج بذلك.

* لما ذكر تعالى شيئاً من أحوال الكفار في الآخرة وأنهم يتمنون لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً.. أعقبه بذكر ما عليه اليهود من الكفر والجحود والتكذيب بآيات الله، ثم ذكر طائفة من عقائد أهل الكتاب الزائغة، وما أعد لهم من العذاب المقيم في دار الجحيم أعاذنا الله منها، قال تعالى:

(٤٤)-(٤٦) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا * مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ الاستفهام للتعجب من سوء حالهم والتحذير عن

وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾
مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ
سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ
وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا
لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا
مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا
عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ
ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا
﴿٤٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ
وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ
وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا
مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾

٨٦

موالاتهم، أي: ألم تنظر يا محمد إلى الذين أعطوا حظاً من علم التوراة وهم أحبار اليهود. روي أن أبا سفيان قال لكعب بن الأشرف أحد أحبار اليهود إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم، فأينا أهدى طريقاً نحن أم محمد؟ فقال: اعرضوا عليَّ دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء، ونسقيهم الماء، ونقري الضيف، ونعمر بيت ربنا، ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم، فقال: دينكم خير من دينه وأنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه، فأنزل الله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ...﴾ الآية.

﴿يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ أي: يختارون ويحبون ويفضلون الضلالة على الهدى، ويؤثرون الكفر على الإيمان والشقاء على السعادة، ويتركون ما لديهم من الحجج والبراهين الدالة على صدق رسالة محمد ﷺ.

﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ ويتمنون لكم يا معشر المؤمنين أن تضلوا طريق الحق لتكونوا ضالين مثلهم وذلك بوسع وسعهم في ذلك.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾ وهو تعالى أعلم بعداوة هؤلاء اليهود الضالين منكم، فاحذروهم ولا تستنصحوهم في أموركم.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ أي: حسبكم أن يكون الله ولياً وناصراً لكم، فثقوا به، واعتمدوا عليه وحده، فهو تعالى يكفيكم مكرهم ويلطف بكم في جميع أموركم، وييسر ما به سعادتكم وفلاحكم. ثم ذكر تعالى طرفاً من قبائح اليهود وعنادهم وضلالهم، فقال:

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ من هؤلاء اليهود فريق دأبوا على تبديل وتغيير كلام الله في التوراة، ويفسرونه بغير مراد الله قصداً وعمداً، فقد غيروا نعت محمد ﷺ، وأحكام الرجم وغير ذلك.

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ ويقولون لك إذا دعوتهم للإيمان: سمعنا قولك وعصينا أمرك، والمعنى: سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه، وهذا أبلغ في الكفر والعناد، وكذلك يخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب، فيقولون:

﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ أي: أسمع ما تقول لا سمعت، والكلام ذو وجهين يحتمل الخير والشر وأصله للخير، أي: لا سمعت مكروهاً ولكن اليهود الخبثاء كانوا يقصدون به الدعاء على الرسول ﷺ، أي: لا أسمعك الله، وهو دعاء بالصمم أو بالموت.

﴿وَرَٰعِنَا﴾ ويقولون في أثناء خطابهم راعنا، وهي كلمة سب من الرعونة وهي الحمق، فكانوا سخرية وهزؤاً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام، ولهذا قال تعالى:

﴿لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾ أي: فتلاً وتحريفاً عن الحق إلى الباطل وقدحاً في الإسلام، قال ابن عطية: وهذا موجود حتى الآن في اليهود وقد شاهدناهم يربون أولادهم الصغار على ذلك ويحفظونهم ما يخاطبون به المسلمين مما ظاهره التوقير ويريدون به التحقير.

ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك، فقال:

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ أي: عوضاً من قولهم سمعنا وعصينا.

﴿وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا﴾ عوضاً عن قولهم غير مسمع وراعنا، أي: لو أن هؤلاء اليهود قالوا للرسول ﷺ ذلك القول اللطيف بدل ذلك القول الشنيع.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ لكان ذلك القول خيراً لهم عند الله وأعدل قولاً وأصوب حالاً، ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية، أعرضوا عن ذلك، وطردهم الله بكفرهم وعنادهم، ولهذا قال:

﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أبعدهم الله عن الهدى وعن رحمته بسبب كفرهم السابق فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً ضعيفاً ركيكاً لا يعبأ به وهو إيمانهم ببعض الكتب والرسل.

* ثم يأمر تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ، وما أنزل عليه من القرآن العظيم، الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات، وتوعدهم تعالى وهددهم بالطمس وإذهاب الحواس إن لم يصدقوا بقوله:

(٤٧)، (٤٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا * إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ يا معشر اليهود صدقوا واعملوا بالقرآن الذي نزلناه على محمد ﷺ، وذكر في الآيات السابقة قوله أنهم: ﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وذكر هنا أنهم: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ والمراد أنهم أوتوا نصيباً منه؛ لأنهم لم يعملوا بجميع ما فيه، بل حرفوا وبدلوا.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ مصدقاً للتوراة.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ من قبل أن نأخذكم بسوء صنيعكم، فنمحوا الوجوه ونحولها قِبَلَ الظهور وهذا جزاء من جنس ما عملوا، وآثروا الباطل وقلبوا الحقائق، فجعلوا الباطل حقاً والحق باطلاً.

﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ أو نلعن هؤلاء المفسدين بمسخهم قردة وخنازير، كما لعنا اليهود من أصحاب السبت الذين نهوا عن الصيد فيه فلم ينتهوا.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ إذا أمر بأمر فإنه نافذ كائن لا محالة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ إن الله تعالى لا يغفر ولا يتجاوز عمن أشرك به أحداً من مخلوقاته، أو كفر بأي نوع من أنواع الكفر، ويغفر ما سوى ذلك من الذنوب لمن شاء من عباده، وتحدث سبحانه عن نفسه بصيغة الغائب تعظيماً له.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ومن أشرك بالله فقد اختلق ذنباً عظيماً، وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركاً بالله؛ لأن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه باب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولذا حتم على المشرك بالخلود في العذاب المهين؛ فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسباباً كثيرة، كالحسنات الماحية والمصائب المكفرة في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعة الشافعين، ومن فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

* ثم ذكر تعالى تزكية اليهود أنفسهم مع كفرهم وتحريفهم الكتاب، فقال:

(٤٩)-(٥٢) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ ألم يبلغك خبر هؤلاء الذين يمدحون أنفسهم ويصفونها بالطاعة والتقوى؟ والاستفهام للتعجب من حالهم، وذلك أن أعداء الله اليهود زكوا أنفسهم فقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾
أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمۡ
يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ
ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾
فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ
جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ
أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ
أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن
تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا
بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي
ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ
تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾

وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] **وقالوا: لا ذنوب لنا.**

﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ **أي: ليس الأمر بتزكيتهم، بل الله هو الذي يثني على من يشاء من عباده، لعلمه بحقيقة أعمالهم.**

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ **لا ينقصون من أعمالهم بقدر الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة وهو مثلٌ للقلة.**

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ **هذا تعجيب من افترائهم وكذبهم، أي: انظر يا محمد كيف اختلقوا على الله الكذب في تزكيتهم أنفسهم وادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه؟ وهو المنزه عن كل ما لا يليق به.**

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾ **وكفى بهذا الافتراء وزراً بيناً، وجرماً عظيماً موجباً للعقوبة البليغة والعذاب الأليم.**

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ **الاستفهام للتعجب، والمراد بهم أيضاً اليهود، أعطوا حظاً من التوراة وهم مع ذلك يؤمنون بالأوثان والأصنام، وكل ما عُبد من دون الرحمن.**

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ **ويقول اليهود لكفار قريش تملقاً لهم ومداهنة، وبغضاً للإيمان: أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه، وهم بهذا يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم وقلة دينهم وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم، قال تعالى إخباراً عن ضلالهم.**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ **أولئك الذين كثر فسادهم وعم ضلالهم، طردهم الله وأبعدهم من رحمته وأحل عليهم نقمته.**

﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ **أي: من يطرده الله من رحمته فمن ينصره من عذاب الله؟ ويدفع عنه سوء العذاب.**

﴿٥٣﴾-﴿٥٥﴾ ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۞ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ۞ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ **أم لهم حظ من الملك؟ وهذا على وجه الإنكار، يعني ليس لهم من الملك شيء.**

﴿فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ **أي: لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحداً مقدار نقير لفرط بخلهم وشدة حسدهم، والنقير: مثلٌ في القلة، كالفتيل والقطمير، وهو النكتة في ظهر النواة. ثم انتقل إلى خصلة ذميمة أشد من البخل، فقال:**

﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ **والمعنى: بل أيحسدون النبي ﷺ والمؤمنين على النبوة التي فضل الله بها محمداً وشرف بها العرب، ويحسدون المؤمنين على ما نالهم من العز والتمكين؟ ويتمنون زوال هذا الفضل عنهم، قال ابن عباس: حسدوا النبي ﷺ على النبوة، وحسدوا أصحابه على الإيمان. والحسد كراهة ما أنعم الله به على غيره. وهو من كبائر الذنوب. لا تغفر إلا بتوبة.**

﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾ **فقد أعطينا أسلافكم من ذرية إبراهيم النبوة، وأنزلنا عليهم**

الكتب، وأعطيناهم الملك العظيم مع النبوة، كداود وسليمان، فلأي شيء تخصون محمداً ﷺ بالحسد دون غيره ممن أنعم الله عليهم؟ والمقصود الرد على اليهود في حسدهم للنبي ﷺ، وإلزام لهم بما عرفوه من فضل الله على آل إبراهيم.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ فمن اليهود من آمن بمحمد ﷺ وهم قلة قليلة، فنال بذلك السعادة الدنيوية والفلاح الأخروي، ومنهم من أعرض عنه عناداً وحسداً فلم يؤمن وهم الكثرة فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ما هو بعض آثار معاصيهم.

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ وكفى بالنار المسعرة عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم.

* ثم أخبر تعالى بما أعده للكفرة الفجرة من الوعيد والعذاب الشديد، فقال:

﴿٥٦﴾، ﴿٥٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ إن الذين جحدوا ما أنزل الله من آياته ووحي كتابه ودلائله وحججه، سوف ندخلهم ناراً عظيمة الوقود، شديدة الحرارة، تشوي الوجوه والجلود، يقاسون حرّها.

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ﴾ كلما انشوت جلودهم واحترقت احتراقاً تامّاً، بدلناهم جلوداً غيرها ليدوم لهم ألم العذاب ليبلغ العذاب منهم كل مبلغ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: عزيز لا يمتنع عليه شيء، له العزة العظيمة، حكيم في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه، لا يُعذب إلا بعدل.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء الذين آمنوا بالله، وما أوجب الإيمان به، وعملوا الصالحات من الواجبات والمستحبات، أي: سندخلهم جنات تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها وأرجائها حيث شاؤوا، وأين أرادوا، مقيمين في الجنة لا يموتون، وقدم تعالى الإيمان على العمل الصالح؛ لأن العمل الصالح مبني على الإيمان، فعمل بلا إيمان لا فائدة منه.

﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ﴾ للذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة زوجات مطهرات من الأخلاق الرذيلة، والخلق الذميم، ومما يكون من نساء الدنيا كل دنس وعيب.

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ ظلّاً دائماً لا تنسخه الشمس، ولا حر فيه ولا برد، قال الحسن: وصف بأنه ظليل؛ لأنه لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحر والسموم، وفي الحديث: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها» [رواه البخاري ومسلم].

* لما ذكر تعالى حال اليهود وما هم عليه من الحسد والعناد والجحود، وذكر ما أعده لهم من العذاب والنكال في الآخرة، أعقبه بتوجيه المؤمنين إلى طريق السعادة بطاعة الله ورسوله، وأداء الأمانات، والحكم بالعدل بين الناس، قال تعالى:

﴿٥٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ الخطاب عام لجميع المكلفين، يأمرهم تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها كاملة موفورة لا منقوصة ولا مبخوسة وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان؛ من حقوق الله ﷻ على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات وغيرها، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغيرها، روي أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان بن طلحة باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح لرسول الله ﷺ وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوى عليٌّ يده وأخذه منه وفتح بابها فدخل رسول الله ﷺ وصلى

أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ
وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ
وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ
ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ
صُدُودٗا ٦١ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا
قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ
إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ٦٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا
فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ
أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا
لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ
لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ
أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥

ركعتين، فلما خرج أمر علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان بن طلحة ويعتذر إليه فقال له عثمان: آذيت وأكرهت ثم جئت تترفق، فقال: «لقد أنزل الله في شأنك قرآناً» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا...﴾ وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان، فقال النبي ﷺ: «خذوها يا بني طلحة؛ خالدة تالدة، لا يأخذها منكم إلا ظالم» [رواه الطبراني].

﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ **ويأمركم أن تعدلوا بين الناس في أحكامكم إذا قضيتم بينهم وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء، والأموال، والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾ **أي: نعم الشيء الذي يعظكم الله به ويهديكم إليه، وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه، لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارها.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ **فيه وعد ووعيد، فهو سميع لأقوالكم مُطلع على سائر أعمالكم؛ بصير بها، وهذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع.**

*** لما أمر تعالى الولاة بأداء الأمانات والحكم بالعدل أمر الناس بأن يطيعوهم، وسبق ذلك بالأمر بطاعة الله وطاعة الرسول، لأن الوالي أو القاضي إذا خالف حكم الله ورسوله فحكمه مردود، فقال:**

٥٩ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ **يا أيها الذين صدقوا في إيمانهم استجيبوا لأوامر الله ولا تعصوه، واستجيبوا للرسول ﷺ فيما جاء به من الحق، وأطيعوا ولاة أمركم في غير معصية الله إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وفي قوله: ﴿مِنكُمۡۖ﴾ دليل على أن الحكام الذين تجب طاعتهم يجب أن يكونوا مسلمين يتحاكمون إلى الكتاب والسنة.**

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ **فإن اختلفتم في أمر من الأمور بينكم، فاحتكموا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فالرد إليهما شرط في الإيمان، فلهذا قال:**

﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ **إن كنتم مؤمنين حقّاً، وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق، أي: فردوه إلى الله والرسول، والغرض منه الحث على التمسك بالكتاب والسنة.**

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ **أي: الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله خير لكم من التنازع والقول بالرأي، وأصلح وأحسن عاقبة ومآلاً.**

*** ثم ذكر تعالى صفات المنافقين الذين يدعون الإيمان وقلوبهم خاوية منه، فقال:**

٦٠-٦٣ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا * فَكَيۡفَ إِذَآ

أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ **تعجيب من أمر من يدعي الإيمان ثم لا يرضى بحكم الله، أي: ألا تعجب من صنيع هؤلاء المنافقين الذين يدعون الإيمان بما أنزل إليك وهو القرآن، وما أنزل من قبلك وهو التوراة والإنجيل.** عن ابن عباس أن رجلاً من المنافقين يقال له بشر كان بينه وبين يهودي خصومة، فقال اليهودي: تعال نتحاكم إلى محمد؛ فقال المنافق: بل نتحاكم إلى كعب بن الأشرف وهو الذي سماه الله الطاغوت فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ فقضى رسول الله لليهودي على المنافق، فلما خرج من عنده لم يرض المنافق، وقال: تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب، فأتيا عمر، فقال اليهودي: كان بيني وبين هذا خصومة فتحاكمنا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصمني إليك، فقال عمر للمنافق: أكذلك هو؟ فقال: نعم، فقال عمر: مكانكما، حتى أخرج إليكما فدخل عمر فاشتمل عليه سيف ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد أي مات ـ وقال: هكذا أقضي فيمن لم يرض بقضاء الله ورسوله، فنزلت الآية: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ...﴾ الآية.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ **وهم يريدون أن يتحاكموا في فصل الخصومات إلى غير ما شرع الله من الباطل. قال ابن عباس: هو كعب بن الأشرف أحد طغاة اليهود سمي به لإفراطه في الطغيان وعداوته للرسول ﷺ.**

﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ **والحال أنهم قد أمروا بالإيمان بالله والكفر بما سواه.**

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ **ويريد الشيطان بما زين لهم أن يحرفهم ويبعدهم عن طريق الحق والهدى بعداً شديداً، وفي هذه الآية دليل على أن الإيمان الصادق يقتضي الانقياد لشرع الله، والحكم به في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في زعمه.**

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ **وإذا نصح هؤلاء المنافقين وقيل لهم: تعالوا نتحاكم إلى كتاب الله وإلى الرسول وهديه ليفصل بينكم فيما تنازعتم فيه.**

﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ **أبصرتهم لنفاقهم يعرضون عنك إعراضاً.**

﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ **هذا وعيد، أي: كيف يكون حال المنافقين إذا عاقبهم الله بذنوبهم وحلت بهم مصيبة. بما جنته أيديهم من الكفر والمعاصي، أيقدرون أن يدفعوا عنهم العذاب؟**

﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾ **ثم جاءك هؤلاء المنافقون للاعتذار عما اقترفوه من الأوزار، يقسمون بالله ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك إلا الصلح والتأليف بين الخصمين وما أردنا رفض حكمك، قال تعالى تكذيباً لهم:**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ **أي: هؤلاء المنافقون يكذبون، والله يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخديعة، وهم يريدون أن يخدعوك بهذا الباطل.**

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ **فتول عن معاقبتهم للمصلحة ولا تظهر لهم علمك بما في بواطنهم، ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وجل وحذر.**

﴿وَعِظۡهُمۡ﴾ **وازجرهم عن الكيد والنفاق بقوارع الآيات.**

﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ **وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ مؤثر يصل إلى سويداء قلوبهم يكون لهم رادعاً ولنفاقهم زاجراً.**

* **ثم أخبر تعالى عن بيان وظيفة الرسل، فقال سبحانه:**

﴿٦٤﴾، ﴿٦٥﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن
دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ
بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأٓتَيْنَٰهُم
مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا
﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ
وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ
فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ
فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن
مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن
لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ
فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ
يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

٨٩

ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ **وما بعثنا من رسول من رسلنا إلا ليطاع بأمر الله تعالى، فطاعته طاعة لله ومعصيته معصية لله. ثم ذكر عن كرمه العظيم وجوده، ودعوته لمن اقترف السيئات، أن يتوبوا، ويستغفروا الله، فقال:**

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ **لو أن هؤلاء المنافقين حين ظلموا أنفسهم بعدم قبول حكمك، جاؤوك تائبين من النفاق، منقادين لحكمك، مستغفرين الله من ذنوبهم، معترفين بخطئهم.**

﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ **واستغفرت لهم -يا محمد- وسألت الله أن يغفر لهم ذنوبهم. وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته، وأما بعد موته ﷺ فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك.**

﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ **لعلموا كثرة توبة الله على عباده وسعة رحمته لهم. ثم بين تعالى طريق الإيمان الصادق، فقال:**

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ **أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة أن هؤلاء لا يؤمنون حقيقة حتى يجعلوك حكماً فيما وقع بينهم من نزاع في حياتك، ويتحاكموا إلى سنتك بعد مماتك، ويرضوا بحكمك فيما تنازعوا فيه واختلفوا من الأمور.**

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ **أي: ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً مما انتهى إليه حكمك، وينقادوا انقياداً تاماً كاملاً لقضائك، من غير معارضة ولا مدافعة ولا منازعة، فحقيقة الإيمان الخضوع والإذعان.**

*** ثم ذكر ﷻ بيان لمقدار حق الله تعالى في أن يطيعه العباد في شرعه وأمره، فقال تعالى:**

﴿٦٦﴾-﴿٧٠﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا * ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ **ولو أوجبنا وفرضنا على هؤلاء المنافقين المتحاكمين إلى الطاغوت، أن يقتل بعضهم بعضاً، أو أن يخرجوا من ديارهم، كما فرض ذلك على بني إسرائيل.**

﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ **ما استجاب ولا انقاد إلا قليل منهم لضعف إيمانهم.**

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ **ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به من طاعة الله وطاعة رسوله لكان خيراً لهم في عاجلهم وآجلهم وأشد تثبيتاً لإيمانهم، وأبعد لهم عن الضلال والنفاق.**

﴿وَإِذًا لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ **أي: لأعطيناهم من عندنا ثواباً عظيماً في الدنيا والآخرة،**

ولأرشدناهم ووفقناهم إلى الطريق المستقيم الموصل إلى طريق الله القويم.

ثم ذكر تعالى ثمرة الطاعة لله ورسوله، فقال:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ ومن يعمل بما أمره الله به ورسوله، ويجتنب ما نهى الله عنه ورسوله، فأولئك الذين عظم شأنهم وقدرهم، فكانوا في صحبة من أنعم الله عليهم بدار كرامته في دار الخلد مع المقربين.

﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ مع أصحاب المنازل العالية في الآخرة وهم الأنبياء، والصديقين الذين صدقوا تصديقاً خالصاً، والشهداء وهم الذين استشهدوا في سبيل الله، مع بقية عباد الله الصالحين الذين صلح ظاهرهم وباطنهم، فصلحت أعمالهم.

﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ ونعمت رفقة هؤلاء وصحبتهم في الجنة، والأنس بقربهم في جوار رب العالمين.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: ما أعطيه المطيعون من دخول الجنة ورفقة الأنبياء ومن معهم، إنما هو بمحض فضله تعالى وكرمه وجوده حيث أعطاهم من الثواب ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ وكفى به تعالى مجازياً لمن أطاع، عالماً بمن يستحق الفضل والإحسان.

* لما حذر تعالى من النفاق والمنافقين وأوصى بطاعة الله وطاعة رسوله، أمر هنا بأعظم الطاعات والقربات وهو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته وإحياء دينه، وأمر بالاستعداد والتأهب حذراً من مباغتة الكفار، وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب التي بها يستعان على قتالهم، ويستدفع مكرهم وقوتهم، ثم بين حال المتخلفين عن الجهاد المثبطين للعزائم من المنافقين وحذر المؤمنين من شرهم. واستتبع أمر بالجهاد حملة ضخمة على المنافقين، فهم نابتة السوء وجرثومة الشر التي ينبغي الحذر منها، وقد تحدثت السورة الكريمة عن مكايدهم وخطرهم، قال تعالى:

(٧١)-(٧٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ۞ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ۞ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ هذا خطاب لخلص المؤمنين، أي: يا معشر المؤمنين احترزوا من عدوكم واستعدوا له.

﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ فاخرجوا إلى الجهاد وانهضوا لقتال العدو جماعات متفرقين، سرية بعد سرية، أو اخرجوا مجتمعين في الجيش الكثيف، فخيرهم تعالى في الخروج إلى الجهاد متفرقين ومجتمعين وكل هذا تبع للمصلحة والنكاية. ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد، فقال:

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ ليتثاقلن ويتخلفن عن الجهاد، والمراد بهم المنافقون، وجعلوا من المؤمنين باعتبار زعمهم وباعتبار الظاهر.

﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ فإن قدر عليكم وأصبتم بقتل وهزيمة وظفر الأعداء عليكم في بعض الأحوال لما لله في ذلك من الحكم.

﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ قال ذلك المنافق المبطئ مستبشراً: قد تفضل الله عليَّ وحفظني إذ لم أشهد الحرب معهم فأقتل ضمن من قتلوا، وسره تخلفه عنهم.

﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولئن نالكم أيها المؤمنون نصر وظفر من الله وغنيمة.

﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ليقولن هذا المنافق المبطئ قول نادم متحسر كأن لم يكن بينكم وبينه معرفة وصداقة: يا ليتني كنت معهم في الغزو لأنال حظّاً وافراً من الغنيمة،وجملة ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ﴾ اعتراضية للتنبيه على ضعف إيمانهم، وهذه المودة في ظاهر المنافق لا

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ
ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا
﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي
سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ
كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ
عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ
وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟
يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ
يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ
عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ
فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

٩٠

في اعتقاده، فهو يتمنى أن لو كان مع المؤمنين لا من أجل عزة الإسلام بل طلباً للمال وتحصيلاً للحطام.

ولما ذم تعالى المبطئين عن القتال في سبيل الله رغب المؤمنين فيه، ونبه على وجوب إخلاص النية له، فقال:

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: فليجاهد في سبيل الله ونصرة دينه وإعلاء كلمته الذين يبيعون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، الذين يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية.

﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هذا وعد منه سبحانه بالأجر العظيم لمن قاتل في سبيل الله مخلصاً سواء غَلَب، أو غُلِب؛ لاجتهاده في إعزاز دين الله، والمعنى: من يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فيستشهد أو يظفر على الأعداء فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً، فهو فائز بإحدى الحسنيين: الشهادة أو الغنيمة، كما في الحديث: «تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي وتصديق برسلي، فهو عليَّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة» [رواه مسلم].

* ثم حث تعالى عباده المؤمنين على القتال في سبيله، وأن ذلك قد تعين عليهم، وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه، فقال:

﴿٧٥﴾، ﴿٧٦﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ الاستفهام للحث والتحريض على الجهاد، أي: وما لكم أيها المؤمنون لا تقاتلون في سبيل الله، وفي سبيل خلاص المستضعفين من إخوانكم الذين صدهم المشركون عن الهجرة فبقوا مستذلين مستضعفين يلقون أنواع الأذى الشديد. وقوله: ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ بيان للمستضعفين. قال ابن عباس: كنت أنا وأمي من المستضعفين، وهم الذين كان يدعو لهم الرسول ﷺ فيقول: «اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام» إلخ كما في الصحيح.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ الذين لا وسيلة لديهم إلا الاستغاثة بالله، يدعونه لكشف الضر عنهم، قائلين: ربنا أخرجنا من هذه القرية وهي «مكة» إذ إنها كانت موطن الكفر، ولذا هاجر الرسول ﷺ منها.

﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ الذين ظلم أهلها أنفسهم بالكفر، والمؤمنين بالأذى، ومنعوا من ظهور الإسلام فيها، ولم ينسب الظلم إلى مكة، تشريفاً لها وتكريماً.

﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ واجعل لنا من هذا الضيق فرجاً ومخرجاً، وسخر لنا من عندك ولياً وناصراً يتولى أمورنا، وقد استجاب الله دعاءهم فجعل لهم خير ولي وناصر وهو محمد ﷺ حين فتح مكة، ولما

خرج منها ولي عليهم عتاب بن أسيد فأنصف مظلومهم من ظالمهم، ثم شجع تعالى المجاهدين ورغبهم في الجهاد، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذين صدقوا في إيمانهم اعتقاداً وعملاً يجاهدون في سبيل نصرة دين الله وإعلاء كلمته ابتغاء مرضاته، فهو تعالى وليهم وناصرهم، وفي هذا ترغيب للمؤمنين وتنشيط لهم بأن قتالهم لهذا المقصد لا لغيره.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ وأما الكافرون فيقاتلون في سبيل الشيطان الداعي إلى الكفر والطغيان والبغي والفساد في الأرض.

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: قاتلوا يا أولياء الله أنصار وأعوان الشيطان فإنكم تغلبونهم، فشتان بين من يقاتل لإعلاء كلمة الله وبين من يقاتل في سبيل الشيطان، فمن قاتل في سبيل الله فهو الذي يغلب لأن الله وليه وناصره، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو المخذول المغلوب ولهذا قال:

﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ إن سعي الشيطان في حد ذاته ضعيف فكيف بالقياس إلى قدرة الله، وكيد الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله الكافرين أضعف شيء وأوهنه، والكيد: سلوك الطرق الخفية في ضرر العدو.

* كان المسلمون إذ كانوا بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء، فلما أمروا بالجهاد، قال تعالى عن حالهم:

﴿٧٧﴾-﴿٧٩﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ألا تعجب يا محمد من قوم طلبوا القتال وهم بمكة، فقيل لهم: أمسكوا عن قتال الكفار فلم يحن وقته، وأعدوا نفوسكم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. عن ابن عباس أن عبدالرحمن ابن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ في مكة فقالوا: يا نبي الله لقد كنا في عز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة؟ فقال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم، فلما حوله الله تعالى إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا» فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾ الآية.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ فلما فرض عليهم قتال المشركين إذا جماعة منهم يخافون ويجبنون ويفزعون من الموت كخشيتهم من عذاب الله، أو أشد من ذلك.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ وقالوا جزعاً من الموت، ربنا: لم فرضت وأوجبت علينا الجهاد؟ وفي هذا تضجرهم واعتراضهم على الله.

﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ هلا أمهلتنا إلى أجل قريب حتى نموت بآجالنا ولا نقتل فيفرح بنا الأعداء، وهذه الحال كثيراً ما تعرض لمن هو غير رزين واستعجل في الأمور قبل وقتها، فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها ونزولها، بل يكون قليل الصبر. ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال، التي فيها التخلف عن القتال، فقال:

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ قل لهم يا محمد إن نعيم الدنيا زائل فان، ونعيم الآخرة باق دائم، فهو خير من ذلك المتاع الفاني لمن اتقى الله وامتثل أمره واجتنب ما نهى عنه، وجمعت الآية بين التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، والحض على فعل الخير، والزجر عن فعل الشر.

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ
بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا
﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ
لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ
أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ
مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾
فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ
عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا
وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ
نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟
بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

٩١

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ لا تنقصون من أجور أعمالكم أدنى شيء ولو كان فتيلاً وهو الخيط الذي في شق نواة التمرة، قيل: إن الآية في قوم من الصحابة كانوا قد أمروا بالكف عن القتال فتمنوا أن يؤمروا به، فلما أمروا به كرهوه لا شكّاً في دينهم ولكن خوفاً من الموت، وقيل هي في المنافقين وهو أليق في سياق الكلام. ثم أخبر تعالى أنه لا يغني حذر عن قدر، وأن القاعد لا يدفع عنه قعوده شيئاً، فقال:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾ أي: في أي مكان وجدتم وأي زمان كنتم فلا بد أن يدرككم الموت عند انتهاء الأجل، ويفاجئكم ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعة بعيدة عن ساحة المعارك والقتال، وكل هذا حث على الجهاد في سبيل الله، تارة بالترغيب في فضله وثوابه، وتارة بالترهيب من عقوبة تركه، وتارة بالإخبار أنه لا ينفع القاعدين قعودهم، وتارة بتسهيل الطريق في ذلك وقصرها.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ وإن تصب هؤلاء المنافقين ما يسرهم من متاع هذه الحياة، من نصر وغنيمة وشبه ذلك، ينسبون حصوله إلى الله تعالى ومن تقديره لما علم فينا من الخير.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ﴾ وإن وقع عليهم ما يكرهونه من هزيمة وجوع وشبه ذلك؛ ينسبونه إلى الرسول محمد ﷺ وأتباعه ودخولنا في دينه، يعنون بشؤم محمد ودينه، يقولون هذا بسبب تركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء، وقد أمر ﷺ بأن يرد زعمهم الباطل ببيان أن الخير والشر بتقدير الله وحده.

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ قل يا محمد لهؤلاء السفهاء: الحسنة والسيئة والنعمة والنقمة كل ذلك من عند الله خلقاً وإيجاداً، لا خالق سواه، فهو وحده النافع الضار وكل ذلك بقضائه وقدره وخلقه.

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: ما شأن هؤلاء المنافقين واليهود لا يفقهون أن الأشياء كلها بتقدير الله؟ وهو توبيخ لهم على قلة الفهم. ثم قال تعالى مبيناً حقيقة الإيمان:

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ الخطاب لكل سامع، أي: ما أصابك أيها الإنسان من نعمة وإحسان في الدين والدنيا، فمن الله تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً وامتحاناً، وما أصابك من بلية ومصيبة فمن عندك وبسبب عملك السيء، وما اقترفته يداك من الخطايا والسيئات، وما يعفو الله عنه أكثر، فالله تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه، وأمرهم بالدخول لبره وفضله، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه فإنه المانع لنفسه، عن وصول فضل الله وبره. ثم قال تعالى مخاطباً الرسول مبيناً عموم رسالته ﷺ، فقال:

﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ وبعثناك يا محمد رسولاً للناس أجمعين تبلغهم شرائع الله، وحسبك أن يكون الله شاهداً على صدق رسالتك، وليس إليك الحسنة والسيئة.

* ثم رغب تعالى في طاعة الرسول ﷺ، فقال:

﴿٨٠﴾، ﴿٨١﴾ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا * وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ

مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ من يستجب لأمر الرسول ويعمل بهديه، فقد استجاب لله تعالى وامتثل أمره؛ لأنه مُبلِّغ عن الله، وفي هذا من النداء بشرف رسول الله ﷺ وعلو شأنه وارتفاع مرتبته ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه، ووجهه أن الرسول لا يأمر إلا بما أمر الله به، ولا نهى إلا عما نهى الله عنه.

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ ومن أعرض عن طاعة الله ورسوله، فما بعثناك يا محمد حافظاً لأعمال هؤلاء المعرضين ومحاسباً لهم عليها، إن عليك إلا البلاغ، فحسابهم علينا.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾ ويظهر المنافقون وهم في مجلس رسول الله ﷺ طاعتهم للرسول وما جاء به، فإذا خرجوا من عندك غيَّر وبدّل جماعة منهم ليلاً غير ما أعلنوه من الطاعة وهو الخلاف والعصيان لأمرك.

﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ أي: يأمر الحفظة بكتابة ما يدبرون، في صحائف أعمالهم ليجازوا عليه أتم الجزاء.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فاصفح عنهم يا محمد وفوض أمرك إلى الله ولا تبال بهم وثق به.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: فهو سبحانه سينتقم لك منهم، وكفى به ناصراً ومعيناً لمن توكل عليه.

* ثم عاب تعالى المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن في فهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة؛ ففي تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره وبيانه، فقال:

﴿٨٢﴾، ﴿٨٣﴾ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا * وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ﴾ أفلا ينظر هؤلاء في القرآن، وما جاء به من الحق، نظر تأمل وتدبر، حيث جاء على نسق محكم يقطع بأنه من عند الله وحده.

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ ولو كان هذا القرآن مختلفاً كما يزعم المشركون والمنافقون، لوجدوا فيه تناقضاً واختلافاً كبيراً في أخباره ونظمه ومعانيه، ولكنه منزه عن ذلك، أخباره صدق، ونظمه بليغ، ومعانيه محكمة، فدل على أنه تنزيل الحكيم الحميد.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾ وإذا جاء المنافقين خبر من الأخبار عن المؤمنين بالظفر والغنيمة أو الخوف والهزيمة أذاعوا به، أي: أفشوه وأظهروه وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته وكان في إذاعتهم له مفسدة على المسلمين.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ ولو ترك هؤلاء الكلام بذلك الأمر الذي بلغهم، وردوه إلى رسول الله ﷺ وإلى كبراء الصحابة وأهل البصائر والعلم والفقه، لعرف وعلم حقيقة معناه أهل الاستنباط والاستخراج منهم، وفي هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بإرسال الرسول، ورحمته بإنزال القرآن لاتبعتم الشيطان فيما يأمركم به من الفواحش إلا قليلاً منكم. وفي الآية تأديب لكل من يحدث بكل ما يسمع. روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما يسمع».

* ثم أمر تعالى الرسول ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه، فقال:

﴿٨٤﴾-﴿٨٧﴾ ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا * مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَاۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا * وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ
وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ
فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ
أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ
كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ
يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ
يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ
صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ
وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾
سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ
مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟
إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

٩٢

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾.

﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ **فجاهد يا محمد في سبيل الله وإعلاء كلمته، ولو أفردوك وتركوك وحدك فإنك موعود بالنصر ولا تهتم بتخلف المنافقين عنك.**

﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ **وشجعهم وحضهم على القتال والجهاد ورغبهم فيه، وهذه الحالة أفضل أحوال العبد، أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله من الجهاد وغيره، ويحرض غيره عليه.**

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ **هذا وعد من الله بكفهم و**﴿عَسَى﴾ **من الله تفيد التحقيق، أي: بتحريضك المؤمنين يكف الله شر وبأس الكفرة والفجار، وقد كفهم الله بهزيمتهم في بدر وبفتح مكة.**

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ **وهو سبحانه أشد قوة وسطوة، وأعظم عقوبة وعذاباً للكافرين.**

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ **من يشفع ويتوسط للغير لجلب منفعة أو دفع مضرة فيشفع بين الناس شفاعة موافقة للشرع ويسع لحصول غيره على الخير، يكون له نصيب من الأجر والثواب.**

﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ **أي: ومن يشفع شفاعة مخالفة للشرع ويسع لإيصال الشر إلى غيره، يكن له نصيب من الوزر والإثم بسببها.**

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ **أي: شاهداً وحفيظاً، ومقتدراً فيجازي كل أحد بعمله.**

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ **وإذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه بأفضل مما سلم لفظاً وبشاشة، أو ردوا عليه بمثل ما سلم؛ ولكل ثوابه وجزاؤه.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ **يحاسب تعالى ويجازي العباد على كل شيء من أعمالهم الصغيرة والكبيرة.**

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ **هذا قسم من الله بجمع الخلائق يوم المعاد، وإخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات، أي: الله الواحد الذي لا معبود سواه، المتفرد بالألوهية لجميع الخلق، ليبعثنكم أولكم وآخركم من قبوركم إلى الحساب يوم القيامة الذي لا شك فيه، وسيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد للجزاء والحساب، ويوم القيامة سمي بهذا الاسم لأمور ثلاثة: الأول أن الناس يقومون فيه من قبورهم لله:** ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦] **الثاني: أنه يقام فيه العدل:** ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] **والثالث أنه يقوم فيه الأشهاد:** ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ **لفظه استفهام ويعني التحدي، ومعناه النفي، أي: لا أحد أصدق في الحديث والوعد والوعيد من الله رب العالمين.**

*** لما ذكر تعالى مواقف المنافقين المخزية، عقبه بذكر نوع آخر من أحوال المنافقين الشنيعة، فقال تعالى:**

﴿٨٨﴾-﴿٩١﴾ ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ

أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ۞ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۞ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾ فما لكم أيها المؤمنون أصبحتم فرقتين في شأن المنافقين، بعضكم يقول نقتلهم وبعضكم يقول: لا نقتلهم، والحال أنهم منافقون، والله قد أوقعهم وردهم إلى الكفر بسبب سوء أعمالهم. عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس ممن كان معه، فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين فقال بعضهم: نقتلهم، وقال بعضهم: لا، فأنزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ...﴾ الآية، فقال ﷺ: «إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد» [رواه البخاري ومسلم].

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ أي: أتودون هداية من صرف الله تعالى قلبه عن دينه، والاستفهام للإنكار والتوبيخ في الموضعين، والمعنى: لا تختلفوا في أمرهم ولا تظنوا فيهم الخير، لأن الله حكم بضلالهم.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ ومن خذله الله عن دينه، واتباع ما أمر به فلا طريق له إلى الهدى والإيمان.

﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ﴾ أي: تمنى هؤلاء المنافقون عناداً وتمادياً في الضلال لو تنكرون حقيقة ما آمنت به قلوبكم مثلما أنكروه بقلوبهم، فتكونون معهم في الإنكار والكفر سواء.

﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فلا توالوا ولا تصادقوا منهم أحداً حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد في سبيل الله برهاناً على صدق إيمانهم، ويستلزم هذا بغضهم وعداوتهم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ﴾ فإن أعرضوا عما دعوا إليه، فخذوهم أيها المؤمنون أسارى أينما كانوا، واقتلوهم حيث وجدتموهم في حل أو حرم.

﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ولا تستنصروهم ولا تستنصحوهم ولا تستعينوا بهم في الأمور، ولو بذلوا لكم الولاية والنصرة. ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ والمعنى: لكن الذين يتصلون بقوم بينكم وبينهم عهد وميثاق فلا تقاتلوهم، وهذه هي الفرقة الأولى.

﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْۚ﴾ وكذلك الذين أتوا إليكم وقد ضاقت صدورهم وكرهوا قتالكم وقتال قومهم، فهم قوم ليسوا معكم ولا عليكم فلا تقاتلوهم، وهؤلاء الفرقة الثانية.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْۚ﴾ أي: أنه سبحانه بمنه ولطفه بكم كفهم عنكم، ولو شاء لقواهم وجرأهم عليكم فقاتلوكم.

﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فإن لم يتعرضوا لكم بقتال، وانقادوا واستسلموا لكم، فليس لكم أن تقاتلوهم ظلماً وقد سالموكم. ثم ذكر ﷻ الفرقة الثالثة:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ ستجدون قوماً آخرين من المنافقين يريدون أن يأمنوكم خوفاً منكم بإظهار الإيمان، ويأمنوا قومهم بإظهار الكفر إذا رجعوا إليهم، وهم قوم من أسد وغطفان كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا من المسلمين، فإذا

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ
مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ
إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ
لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ
مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا
فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ
وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟
لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ
عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ
كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

٩٣

رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليأمنوا قومهم.

﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ كلما دعوا إلى الكفر، أو قتال المسلمين عادوا إليه وقلبوا فيه على أسوأ شكل، فهم شر من كل عدو شرير؛ لأنهم مقيمون على كفرهم ونفاقهم.

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ فإن لم يجتنبوكم ويستسلموا إليكم ويكفوا أيديهم عن قتالكم.

﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ فخذوهم بقوة وأسروهم، واقتلوهم حيث وجدتموهم وأصبتموهم إينما كانوا.

﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ وقد جعلنا لكم على أخذهم وقتلهم حجة واضحة وبرهاناً بيناً بسبب غدرهم وخيانتهم.

* ثم ذكر ﷻ شدة تحريمة لقتل المؤمن للمؤمن، وأنه مناف للإيمان أشد منافاة، قال تعالى:

﴿٩٢﴾، ﴿٩٣﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ هذا النفي هو بمعنى النهي المقتضي للتحريم، أي: لا يحق لمؤمن ولا يليق به الاعتداء على أخيه المؤمن إلا على وجه الخطأ الذي لا عمد فيه، لأن الإيمان زاجر عن العدوان. يروى أن الحارث بن يزيد كان شديداً على النبي ﷺ فجاء مهاجراً وهو يريد الإسلام فلقيه عياش بن أبي ربيعة والحارث يريد الإسلام وعياش لا يشعر فقتله فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ الآية.

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ ومن قتل مؤمناً على وجه الخطأ، فعليه إعتاق رقبة مؤمنة كفارة لذلك؛ لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، وعليه كذلك دية مؤداة إلى ورثة المقتول جبراً لقلوبهم، إلا إذا عفا الورثة عن القاتل فأسقطوا الدية. وقد أوجب الشارع في القتل الخطأ شيئين: الكفارة وهي تحرير رقبة مؤمنة في مال القاتل، والدية هي مائة من الإبل على العاقلة وفي هذا تعظيم القتل، فأوجب الكفارة مع الخطأ مع أن المخطئ لا كفارة عليه في القاعدة الشرعية، وسمى العفو عن الدية صدقة ترغيباً فيه.

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فإن كان المقتول خطأ مؤمناً وقومه كفاراً أعداء وهم المحاربون فإنما على قاتله الكفارة فقط دون الدية لئلا يستعينوا بها على المسلمين.

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ وإن كان المقتول خطأ من قوم كفرة بينكم وبينهم عهد كأهل الذمة فعلى قاتله دية تدفع إلى أهله لأجل معاهدتهم رقبة مؤمنة وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فمن لم يجد الرقبة ولا ثمنها فعليه صيام شهرين متتابعين لا يفطر بينهما من غير عذر عوضاً عنها، وقد شرع تعالى هذه الكفارة توبة على عباده ورحمة بهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليماً بخلقه، حكيماً فيما شرع وحكم.

* ثم بين تعالى حكم القتل العمد وجريمته النكراء وعقوبته الشديدة، فقال:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ ومن يقدم على قتل مؤمن عالماً بإيمانه متعمداً لقتله فجزاؤه جهنم مخلداً فيها.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ أي: ويناله السخط الشديد من الله، والطرد من رحمة الله، والعذاب الشديد في الآخرة بسبب ما ارتكبه من هذه الجناية العظيمة. ولم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله.

* يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهاداً في سبيله، وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة، قال تعالى:

﴿٩٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ يا أيها الذين صدقوا الله واتبعوا رسوله، إذا خرجتم في الأرض لغزو الأعداء، فتثبتوا ولا تعجلوا في القتل حتى يتبين لكم المؤمن من الكافر.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ ولا تقولوا لمن حياكم بتحية الإسلام لست مؤمناً، وإنما قلت هذا خوفاً من القتل فتقتلوه؛ لاحتمال أن يكون مؤمناً يخفي إيمانه.

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ طالبين بذلك متاع الحياة الدنيا من الغنيمة الذي هو حطام سريع الزوال. عن ابن عباس قال: لحق المسلمون رجلاً في غنيمة له، فقال: السلام عليكم فقتلوه، وأخذوا غنيمته، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ...﴾ الآية.

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ فعند الله ما هو خير من ذلك، وهو ما أعده لكم من جزيل الثواب والنعيم. ثم قال تعالى مذكراً لهم بحالهم الأولى، قبل هدايتهم إلى الإسلام:

الجزء الخامس سورة النساء

لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ
ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً
وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ
قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ
جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾
فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن
يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن
يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ
وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي
ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ
أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

٩٤

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ كذلك كنتم كفاراً فهداكم للإسلام ومنَّ عليكم بالإيمان، والمن هو: العطاء بلا ثمن، فتبينوا وتثبتوا أن تقتلوا مؤمناً، وقيسوا حاله بحالكم، أعادها مرة أخرى للتوكيد، ولأهمية الأمر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: مطلعاً على أعمالكم، فيجازيكم عليها.

* ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين، والتفاوت بين درجات من قعد عن الجهاد من غير عذر، ودرجات من جاهد في سبيل الله بماله ونفسه وإن كان معلوماً، لكن أراد سبحانه بهذا الإخبار تنشيط المجاهدين ليرغبوا، وتبكيت القاعدين ليأنفوا، فقال:

﴿٩٥﴾،﴿٩٦﴾ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ **لا يتساوى من قعد عن الجهاد من المؤمنين مع من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله غير أهل الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض ـ قال ابن عباس: هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها. ولما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم، فقال يا رسول الله: هل لي من رخصة فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى فأنزل الله:** ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾.

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ **وفي هذا بيان لما بين الفريقين من التفاضل، أي: فضل الله المجاهدين على القاعدين من أهل الأعذار درجة لاستوائهم في النية، كما قال ﷺ: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه»، قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: «نعم حبسهم العذر»** [رواه البخاري].

وقيل إن معنى درجة: علوّاً؛ أي: أعلى ذكرهم ورفعهم بالثناء والمدح.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ **أي: وقد وعد الله كلًّا من المجاهدين والقاعدين بأموالهم وأنفسهم، والقاعدين من أهل الأعذار الجزاء الحسن في الآخرة.**

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ **وفضل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالثواب الوافر العظيم. وتأمل حسن هذا الانتقال، من حالة إلى أعلى منها، فإنه نفى التسوية أولا بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات، فالأول في** ﴿دَرَجَـٰتٍ﴾ **وهنا** ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ **فالأول في المنزلة، والثاني في حجم الأجر والثواب.**

﴿دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ **أي: هذا الثواب الجزيل منازل عالية في الجنات بعضها أعلى من بعض، وقيل الدرجات هي الإسلام والجهاد والهجرة والشهادة فاز بها المجاهدون، وفي الحديث: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض»** [أخرجه النسائي].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ **ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرين عن اسميه الكريمين «الغفور الرحيم» ختم هذه الآية بهما.**

*** لما ذكر تعالى ثواب المجاهدين الأبرار، أتبعه بذكر عقاب القاعدين عن الجهاد الذين سكنوا في بلاد الكفر، ثم رغب تعالى في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان وذكر ما يترتب عليها من السعة والأجر والثواب، فقال تعالى:**

﴿٩٧﴾-﴿١٠٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا * وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ **أي: هذا الوعيد الشديد لمن تتوفاهم الملائكة أراد به ملك الموت وأعوانه أي تقبض أرواحهم من أبدانهم وقد ظلموا أنفسهم بالإقامة مع الكفار في دار الشرك وترك الهجرة إلى دار الإيمان مع قدرتهم عليها. عن ابن عباس قال: كان قوم من المسلمين أقاموا بمكة وكانوا يستخفون بالإسلام فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم**

فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا على الخروج فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ...﴾ الآية.

﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: تقول لهم الملائكة توبيخاً لهم: في أي شيء كنتم من أمر دينكم؟ أو في أي الفريقين كنتم؟ أفي المسلمين؟ أم في المشركين؟

﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قالوا معتذرين: كنا مقهورين مظلومين في أرض مكة عاجزين عن إقامة الدين فيها وعن دفع الظلم والقهر عنا، وهم غير صادقين في ذلك.

﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ قالت لهم الملائكة توبيخاً: أليست أرض الله واسعة فتهاجروا من دار الكفر إلى دار أخرى تأمنون على دينكم، كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة.

فكذبهم الله تعالى ثم قال تعالى بياناً لجزائهم:

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: مقرهم ومنزلهم النار وساءت مقراً ومصيراً. ثم استثنى تعالى منهم الضعفة والعاجزين عن الهجرة، فقال:

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي: ويعذر من ذاك المصير من كان منهم مستضعفاً كالرجال والنساء والأطفال الذين استضعفهم المشركون وعجزوا لإعسارهم وضعفهم عن الهجرة، ولا يستطيعون الخلاص، ولا يهتدون الطريق الموصل لدار الهجرة.

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ فهؤلاء الضعفاء هم الذين يُرجى لهم من الله العفو؛ لأنهم لم يتركوا الهجرة اختياراً، وعسى من الله واجب، تفيد التحقيق؛ لأنه للإطماع، والله تعالى إذا أطمع عبداً وصله إليه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ يعفو ويغفر لأهل الأعذار.

ثم حث ﷺ ورغب على الهجرة، فقال:

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ أي: من يفارق وطنه ويهرب فراراً بدينه من كيد الأعداء بقصد صحيح ونية صالحة غير مشوبة بشيء من أمور الدنيا يجد مهاجراً ومتحولاً في الأرض كبيراً، يراغم به أنف عدوه، ويجد سعة في الرزق، فأرض الله واسعة، ورزقه سابغ على العباد، وذلك أن كثيراً من الناس يتوهم أن في الهجرة شتاتاً بعد الألفة، وفقراً بعد الغنى، وذلاً بعد العز، وشدة بعد الرخاء.

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أخبر تعالى أن من خرج من بلده مهاجراً من أرض الشرك فاراً بدينه، راجياً فضل ربه، قاصداً نصرة دينه، ثم مات قبل بلوغه دار الهجرة فقد ثبت أجر هجرته على الله تعالى. كان ضمرة بن القيس من المستضعفين بمكة وكان مريضاً، فلما سمع ما أنزل الله في الهجرة قال لأولاده: احملوني فإني لست من المستضعفين وإني لأهتدي الطريق، والله لا أبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير ثم خرجوا به فمات في الطريق بالتنعيم، فأنزل الله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: ساتراً على العباد، رحيماً بهم.

* لما كان الجهاد والهجرة سبباً لحدوث الخوف بيّن تعالى صلاة المسافر وصلاة الخوف فقال:

(١٠١) ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وإذا سافرتم أيها المؤمنون للغزو أو التجارة أو غيرهما فلا إثم عليكم أن تقصروا من الصلاة فتصلوا الرباعية ركعتين، وذلك في صلاة الظهر والعصر والعشاء.

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ إن خشيتم أن ينالكم مكروه من أعدائكم الكفرة، وذكر الخوف ليس للشرط وإنما هو لبيان

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ
مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ
مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ
مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ
عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ
أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ
وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾
فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ
كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِي
ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا
تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ
بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

٩٥

الواقع حيث كانت أسفارهم لا تخلو من خوف العدو لكثرة المشركين في بدء الإسلام، والقصر رخصة في السفر حال الأمن أو الخوف.

﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ **إن الكافرين أعداء لكم مظهرون للعداوة، ولا يمنعهم فرصة اشتغالكم بمناجاة الله أن يقتلوكم فاحذروهم.**

*** وبعد أن ذكر الله ﷻ رخصة قصر الصلاة في السفر، أتى بعدها بصفة صلاة الخوف، فقال:**

﴿١٠٢﴾ ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ **وإذا كنت يا محمد في ساحة القتال، فأردت أن تصلي بأصحابك، وهم يصلون صلاة الخوف في الحرب، فلتأتم بك طائفة منهم وهم مدججون بأسلحتهم احتياطاً، ولتقم الطائفة الأخرى في وجه العدو.**

﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ **فإذا سجد هؤلاء فلتكن الجماعة الأخرى من خلفكم في مواجهة عدوكم، وتتم الجماعة الأولى ركعتهم الثانية، ويسلمون، ثم تأتي الجماعة الأخرى التي لم تبدأ الصلاة فليأتموا بك في ركعتهم الأولى، ثم يكملوا بأنفسهم ركعتهم الثانية.**

﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ **أي: وليكونوا حذرين من عدوهم متأهبين لقتالهم بحملهم السلاح. ثم ذكر ﷻ للعلة التي لأجلها أمرهم الله بالحذر وأخذ السلاح، فقال:**

﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ **أي: تمنى أعداؤكم أن تنشغلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم فيأخذوكم غرة، ويشدوا عليكم شدة واحدة فيقتلونكم وأنتم تصلون، والمعنى لا تتشاغلوا بأجمعكم بالصلاة فيتمكن عدوكم منكم، ولكن أقيموها على ما أمرتم به.**

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ **ولا إثم عليكم في حالة المطر أو المرض أن لا تحملوا أسلحتكم إذا ضعفتم عنها؛ لأن السلاح يثقل حمله في هاتين الحالتين.**

﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ **كونوا متيقظين، واحترزوا من عدوكم ما استطعتم، لئلا يأتيكم على غرة وأنتم غافلون.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ **أي: أعد للجاحدين لدينه عذاباً مخزياً مع الإهانة. روى ابن كثير عند هذه الآية عن أبي عياش الزرقي قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم**

قالوا: يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية.

* ثم ذكر الله بعد صلاة الخوف الاستمرار على كثرة الذكر في جميع الأوقات، فقال تعالى:

(١٠٣)، (١٠٤) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا * وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ فإذا فرغتم من صلاتكم، صلاة الخوف وغيرها، فأكثروا من ذكر الله في حال قيامكم وقعودكم واضطجاعكم، واذكروه في جميع أحوالكم لعله ينصركم على عدوكم.

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فإذا أمنتم وذهب الخوف فأتموا الصلاة وأقيموها كما أمرتم بخشوعها وركوعها وسجودها وجميع شروطها.

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ أي: فرضاً محدوداً بأوقات معلومة لا يجوز تأخيرها عنه.

ثم حث تعالى على الجهاد والصبر عند الشدائد، فقال:

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ ولا تضعفوا في طلب عدوكم وقتاله بل جدوا فيهم وقاتلوهم وأظهروا القوة والجلد واقعدوا لهم كل مرصد. ثم ذكر تعالى ما يقوي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين:

﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: إن كنتم تتألمون من الجراح والقتال فإن ذلك يصيب أعداؤكم ويتألمون أيضاً منه كما تتألمون، ولكنكم ترجون من الله الشهادة والمثوبة والنصر حيث لا يرجونه هم، وهذا هو الثاني. وفي ذلك تشجيع لنفوس المسلمين، وتحقير لأمر الكفرة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليماً بمصالح خلقه، حكيماً في تشريعه وتدبيره، نزلت هذه الآية في غزوة أحد حيث أمر ﷺ بالخروج في آثار المشركين وكان بالمسلمين جراحات وكان أمر ألا يخرج معه إلا من حضر في تلك الوقعة، وقيل: هذا في كل جهاد.

(١٠٥)-(١٠٩) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا * وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ إنا أنزلنا إليك يا محمد القرآن مشتملاً على الحق لتفصل بين الناس بما عرفك الله وأوحى به إليك وبصرك به. روي أن رجلاً من الأنصار يقال له: طعمة ابن أبيرق من بني ظفر سرق درعاً من جاره قتادة بن النعمان في جراب

الجزء الخامس — سورة النساء

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ
عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ
مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ
جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ
سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً
أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا
﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ
أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ
مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

٩٦

* لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ
أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ
ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَن
يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ
سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ
مَصِيرًا (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
بَعِيدًا (١١٦) إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ
إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ
عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ
وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ
فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن
دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ
وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَٰئِكَ
مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)

٩٧

دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه فخبأها عند زيد بن السمين اليهودي، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوها، فقال: دفعها إليَّ طعمة وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودي فهم رسول الله ﷺ أن يفعل فنزلت الآية: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ...﴾ **الآية، وهرب طعمة إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله.**

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ **أي: لا تكن مدافعاً ومخاصماً عن الخائنين بكتمان الحق تجادل وتدافع عنهم، والمراد به طعمة بن أبيرق وجماعته.**

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ **استغفر الله مما هممت به من الدفاع عن طعمة اطمئناناً لشهادة قومه بصلاحه.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ **مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يستغفره ويرجو فضله، ونوال مغفرته، رحيماً به.**

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ **ولا تدافع عن الذين يخونون أنفسهم بمعصية الله.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ **إن الله يبغض ولا يحب من كان مفرطاً في الخيانة منهمكاً في المعاصي والآثام، والخوان: كثير الخيانة، والأثيم: كثير الإثم.**

ثم ذكر عن حال هؤلاء الخائنين أنهم:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ **يستترون من الناس خوفاً وحياء من اطلاعهم على أعمالهم السيئة، ولا يستحيون من الله، وهو أحق بأن يستحيا منه ويخاف من عقابه وهذا من ضعف الإيمان، ونقص اليقين أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من مخافة الله.**

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ **وهو معهم بالعلم -جل وعلا-، عالم بهم وبأحوالهم، يسمع ما يدبرونه في الخفاء ويضمرونه في السر من رمي البريء وشهادة الزور والحلف الكاذب.**

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ **أي: لا يعزب عنه شيء منها ولا يفوت ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة، بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم الموجب للعقوبة البليغة.**

ثم قال تعالى توبيخاً لقوم طعمة:

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ **ها أنتم يا معشر القوم دافعتم عن السارق والخائنين لأنفسهم في الدنيا.**

﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ **فمن يدافع عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه؟ ومن يتولى الدفاع عنهم ونصرتهم من بأس الله وانتقامه؟**

*** ثم دعاهم الله تعالى إلى الإنابة والتوبة، وأخبر سبحانه عباده بحلمه وعفوه وكرمه، وسعة رحمته ومغفرته، أن كل من تاب إليه، تاب عليه من أي ذنب كان، فقال:**

(١١٠)-(١١٤) ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ

ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا * وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا * لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ **أي: ومن يعمل أمراً قبيحاً يسوء به غيره كاتهام بريء أو يرتكب جريمة يظلم بها نفسه كالسرقة. وسمي ظلم النفس «ظلماً» لأن نفس العبد ليست ملكاً له، يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى، وقد جعلها أمانة عند العبد.**

﴿ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ **أي: ثم يتوب من ذنبه يجد الله عظيم المغفرة واسع الرحمة، قال ابن عباس: عرض الله التوبة بهذه الآية على بني أبيرق. وأخبر الله العباد بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته، ولو كانت ذنوب العبد أعظم من السماوات والأرض والجبال، فإن الله يغفرها لمن تاب واستغفر.**

﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ **ومن يقترف إثماً متعمداً فإنما يعود وبال ذلك على نفسه، وكان الله عليماً بذنبه حكيماً في عقابه.**

﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا﴾ **ومن يعمل خطيئة بغير عمد، أو يرتكب ذنباً متعمداً.**

﴿ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ **ثم ينسب ذلك إلى بريء ويتهمه به فقد تحمل جرماً وذنباً واضحاً. ثم بين تعالى فضله على رسوله، فقال:**

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ﴾ **ولولا أن الله منَّ عليك ورحمك يا محمد بالنبوة فعصمك بتوفيقه بما أوحى إليك، لعزمت جماعة من الذين يخونون أنفسهم أن يضلوك عن الحق، وذلك حين سألوا الرسول ﷺ أن يبرئ صاحبهم طعمة من التهمة، ويلحقها باليهودي؛ فتفضل الله ﷻ على رسوله بأن أطلعه على الحقيقة.**

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ﴾ **أي: وبال إضلالهم راجع عليهم، وما يضرونك يا محمد لأن الله عاصمك من ذلك، ثم ذكر نعمته عليه بالعلم، فقال:**

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ **وأنزل الله عليك القرآن والسنة المبينة لذلك، فكيف يضلونك، وهو تعالى ينزل عليك الكتاب ويوحي إليك بالأحكام.**

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ **وعلمك علم ما لم تكن تعلمه من الشرائع والأمور الغيبية، وكان فضل الله تعالى عليك كبيراً بالوحي والرسالة وسائر النعم الجسيمة.**

*** لما ذكر تعالى قصة طعمة وحادثة السرقة التي اتهم بها اليهودي البريء ودفاع قومه عنه وتآمرهم في السر لإيقاع البريء بها، ذكر تعالى هنا أن موضوع النجوى لا يخفى على الله وأن كل تدبير في السر يعلمه الله، وأنه لا خير في التناجي إلا ما كان بقصد الخير والإصلاح، ثم ذكر تعالى عقوبة مخالفة أمر الرسول ﷺ، قال تعالى:**

﴿١١٤﴾، ﴿١١٥﴾ ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا * وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾ **أي: لا نفع في كثير مما يسره القوم ويتناجون به في الخفاء، ثم استثنى تعالى ثلاثة أمور، فقال:**

﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ **إلا إذا كان حديثاً داعياً إلى بذل المعروف من الصدقة، أو أمر بطاعة الله، أو كلمة طيبة، أو توفيق بين الناس. والمعروف هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير، والإصلاح هو**

وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ
حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ
وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ
وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن
يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤ وَمَنۡ
أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥ وَلِلَّهِ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ
مُّحِيطٗا ١٢٦ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ
فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ
ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ
وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ
وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧

٩٨

الإصلاح بين المختصمين؛ لأن النزاع والخصام، يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، ولكن كمال الأجر وتمامه بحسب النية والإخلاص، ولهذا قال:

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ **ومن يفعل ما أمر به من البر والمعروف والإصلاح طلباً لرضا الله تعالى لا لشيء من أغراض الدنيا.**

﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ **فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً هو الجنة، فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل لله في كل وقت، وفي كل جزء من أجزاء الخير، ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص، فيكون من المخلصين، وليتم له الأجر سواء تم مقصوده أم لا، لأن النية حصلت، واقترن بها ما يمكن من العمل. وفي الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة»، قالوا: بلى. قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»** [رواه أبو داود].

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ **ومن يخالف ويعاند أمر الرسول فيما جاء به عن الله من بعد ما ظهر له الحق بالمعجزات.**

﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ **ويسلك طريقاً غير طريق المؤمنين ويتبع منهاجاً غير منهاجهم وما هم عليه من الحق. بل تولّى أهل الكفر والضلال.**

﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ **نتركه مع اختياره الفاسد فلا نوفقه للخير، وندخله جهنم عقوبة له، وساءت مرجعاً ومآلاً لهم.**

لما سرق طعمة بن أبيرق وحكم النبي ﷺ عليه بالقطع هرب إلى مكة وارتد عن الإسلام فأنزل الله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ **الآية.**

*** ثم حذر ﷻ من الشرك وعظم خطره، ومن الشيطان ومكائده، فقال:**

(١١٦)-(١٢٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا * إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا * لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا * وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا * يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ **إن الله تعالى لا يغفر ذنب الشرك ويغفر ما دونه من الذنوب لمن يريد من عباده. أخرج الترمذي عن علي رضي الله عنه قال: ما في القرآن آية أحب إليّ من هذه الآية.**

﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ **ومن يجعل لله تعالى الواحد الأحد شريكاً من خلقه، فقد بعد عن طريق الحق والسعادة بعداً كبيراً وحُرِّم الخير كله.**

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ أي: ما يعبد هؤلاء المشركون من دون الله إلا أوثاناً سموها بأسماء الإناث اللات والعزى ومناة، ولا تنفع ولا تضر، وكانت العرب تسمي الأصنام بأسماء مؤنثة.

﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ وما يعبدون إلا شيطاناً متمرداً بلغ الغاية في العتو والفجور، وهو إبليس الذي فسق عن أمر ربه.

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي: أبعده الله وطرده عن رحمته، فأقسم الشيطان قائلاً: لأتخذن من عبادك الذين أبعدتني من أجلهم، حظاً مقدراً معلوماً أدعوهم إلى طاعتي من الكفرة والعصاة.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾

ولأصرفنهم عن طريق الهدى والحق وأعدهم الأماني الكاذبة، وألقي في قلوبهم طول الحياة، وأن لا بعث ولا حساب.

﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ولآمرنهم بتقطيع آذان الأنعام لما أزينه لهم من الباطل. يعني تشقيقها وجعلها علامة للبحيرة والسائبة كما كانوا يفعلون في الجاهلية.

﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ ولأدعونهم إلى تغيير خلق الله في الفطرة وهيئة ما عليه الخلق كالوشم والنمص والتفلج للحسن وغيره، وقيل: المراد به تغيير دين الله بالكفر والمعاصي وإحلال ما حرم الله وتحريم ما أحل.

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومن يستجب للشيطان ويطعه ويترك أمر الله.

﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أي: خسر دنياه وآخرته لمصيره إلى النار المؤبدة، وتلك خسارة لا جبر لها ولا استدراك لفائتها، وأي خسران أعظم من هذا؟ ثم قال تعالى عن إبليس:

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ يعد الشيطان أتباعه بالفوز والسعادة ويمنيهم بالأكاذيب والأباطيل، وهذا إخبار عن الواقع فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة، وقد كذب وافترى في ذلك.

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وما يعدهم إلا باطلاً وضلالاً لا صحة له، والغرور ما له ظاهر محبوب وباطن مكروه، فهو مزين الظاهر فاسد الباطن.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: هؤلاء المستحسنون للشيطان فيما وعدهم ومناهم؛ مصيرهم ومآلهم يوم القيامة نار جهنم، وليس لهم منها مفر ولا مهرب.

ثم ذكر تعالى حال السعداء الأبرار، وما لهم من الكرامة في دار القرار، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ والذين صدقوا في إيمانهم بالله تعالى، وأتبعوا الإيمان بالأعمال الصالحة سيدخلهم الله بفضله جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار مخلدين في دار النعيم بلا زوال ولا انتقال.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ وعداً صادقاً لا شك فيه ولا ارتياب؛ لأنه من الله تعالى.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ ومن أصدق من الله في قوله ووعده؟ والاستفهام معناه النفي، أي لا أحد أصدق قولاً من الله، والمقصود معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه.

﴿١٢٣-١٢٦﴾ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا * وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا * وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب وإنما ينال هذا الفضل العظيم بالإيمان والعمل الصالح. والأماني: أحاديث النفس المجردة عن العمل، المقترن بها دعوى مجردة، قال الحسن البصري: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في

القلب وصدقه العمل، إن قوماً ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا نحسن الظن بالله، وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل.

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ أي: من يعمل عملاً سيئاً يجز به. والشر ينال عقابه عاجلاً أو آجلاً.

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ولا يجد من يحفظه أو ينصره من عذاب الله.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ومن يعمل الأعمال الصالحة سواء كان ذكراً أو أنثى بشرط الإيمان بالله تعالى وبما أنزل من الحق وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة، ولا تقبل، ولا يترتب عليها الثواب، ولا يندفع بها العقاب إلا بالإيمان، فالأعمال دون الإيمان، كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبنى عليها كل شيء.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ فالذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح يدخلهم الله الجنة ولا ينقصون شيئاً حقيراً من ثواب أعمالهم ولو كان مقدار النقرة في ظهر النواة، وإنما قال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ليبين أن الطاعة لا تنفع من دون الإيمان، ثم قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: لا أحد أحسن وأحكم ديناً ممن انقاد لأمر الله وشرعه وأخلص عمله لله.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وهو مع هذا الإخلاص والاستسلام مطيع لله مجتنب لنواهيه.

﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ واتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن، مستقيماً على منهاجه وسبيله وهو دين الإسلام.

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي: صفياً اصطفاه لمحبته وخلته، قال ابن كثير: فإنه انتهى إلى درجة الخُلة التي هي أرفع مقامات المحبة وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه. وفي هذه الآية إثبات صفة الخُلة لله تعالى وهي أعلى مقامات المحبة والاصطفاء، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم -عليهما الصلاة والسلام-، وأما المحبة من الله، فهي لعموم المؤمنين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إن الله محيط بجميع الأشياء، لله جميع ما في هذا الكون من الكائنات فهي ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف في جميع ذلك؛ لا راد لما قضى ولا معقب لما حكم، وفيه إشارة إلى أنه سبحانه اتخذ إبراهيم خليلاً لطاعته، لا لحاجته ولا للتكثر به والاعتضاد بمخالته.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ أي: علمه نافذ في جميع ذلك، لا تخفى عليه خافية من أمور خلقه.

* ثم عاد الحديث إلى التحذير من ظلم النساء في ميراثهن ومهورهن وأكد على وجوب الإحسان إليهن، وأعقبه بذكر النشوز والطريق إلى الإصلاح بين الزوجين إما بالوفاق أو بالفراق، قال تعالى:

(١٢٧) ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ يسألونك يا محمد أن تبين لهم ما أشكل عليهم فهمه من قضايا النساء وأحكامهن. عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: ٣] فقالت: يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن ذلك إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا لهن أعلى سنتهن في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ قل لهم يا محمد: يبين الله لكم ما سألتم في شأنهن، ويبين لكم ما يتلى في القرآن من أمر ميراثهن.

﴿فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ ويفتيكم أيضاً في

وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ
عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ
وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ
بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا
كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن
قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا
﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا
﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ
ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿١٣٤﴾

٩٩

اليتيمات اللواتي ترغبون في نكاحهن لجمالهن أو لمالهن ولا تدفعون لهن مهورهن كاملة، وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فنهاهم الله ﷻ عن ذلك، فقد كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً فإن كانت جميلة وأحبها تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال حتى تموت فإذا ماتت ورثها، فحرم الله ذلك ونهى عنه.

﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ ويفتيكم في أمر الضعفاء من الصغار أن تعطوهم حقوقهم وأن تعدلوا مع اليتامى في الميراث والمهر، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون الصغار ولا النساء، ويقولون: كيف نعطي المال من لا يركب فرساً ولا يحمل سلاحاً ولا يقاتل عدواً، فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم نصيبهم من الميراث. ثم حث على الإحسان عموماً، فقال:

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾ وما تفعلوه من عدل وبر في أمر النساء واليتامى وغيرهم فإن الله يجازيكم عليه، قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير، قلة وكثرة، حسناً وضده، وهذا حث على فعل الخيرات وامتثال الأوامر، وأن الله سيجزي عليه أوفر الجزاء.

* ثم يقول تعالى مخبراً ومشرعاً من حال الزوجين، تارة في حال نفور الرجل عن المرأة، وتارة في حال اتفاقه معها، وتارة في حال فراقه لها، فقال:

(١٢٨)-(١٣٠) ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا * وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا * وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا﴾.

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ أي: وإذا علمت امرأة أو شعرت من زوجها الترفع عليها وكراهيته لها أو الإعراض عنها بأن لا يكلمها ولا يأنس بها.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗا﴾ فلا حرج ولا إثم على كل واحد من الزوجين من المصالحة والتوفيق بينهما بإسقاط المرأة بعض حقوقها من نفقة أو كسوة أو مبيت لتستعطفه بذلك وتستديم مودته وصحبته. روى ابن جرير عن عائشة أنها قالت: هذا الرجل يكون له امرأتان إحداهما قد عجزت أو هي دميمة وهو لا يحبها، فتقول: لا تطلقني وأنت في حل من شأني.

﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ والصلح خير من الفراق وأولى وأفضل، لما في الإصلاح من بقاء الألفة والمودة وسماحة النفس، واستمرار الحياة الزوجية.

﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾.

قال السعدي: والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لابد أن يصلح الله سعيه وعمله.

﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ أي: جبلت الأنفس على الشح، وهو شدة البخل، فالمرأة لا تكاد تسمح بحقها من النفقة والاستمتاع، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها وأحب غيرها.

﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ وإن تحسنوا معاملة زوجاتكم وتتقوا الله

بترك الجور عليهن، وتخافوا الله فيهن بالإعراض عن ما يؤدي إلى الأذى والخصومة.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فإن الله عالم بما تعملون، وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء.

ثم ذكر تعالى أن العدل المطلق بين النساء بالغ من الصعوبة مبلغاً لا يكاد يطاق، وهو كالخارج عن حد الاستطاعة، فقال:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ولن تقدروا أيها الرجال أن تحققوا العدل التام الكامل بين النساء وتسوّوا بينهن في المحبة والأنس والاستمتاع.

﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي: ولو بذلتم كل جهدكم؛ لأن التسوية في المحبة وميل القلب ليست بمقدور الإنسان.

﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ فلا تميلوا عن المرغوب عنها ميلاً كاملاً فلا تؤدوا حقوقهن الواجبة، فتجعلوها كالمعلقة التي ليست بذات زوج ولا مطلقة فتأثموا، شبهت بالشيء المعلق بين السماء والأرض، فلا هي مستقرة على الأرض ولا هي في السماء، وهذا من أبلغ التشبيه.

﴿وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي: وإن تصلحوا ما مضى من الجور، وتعدلوا في قسمكم بين زوجاتكم، وتتقوا الله بالتمسك بالعدل، وتراقبوا الله تعالى وتخشوه فيهن.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر ما فرط منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهن.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ هذه الحالة الثالثة بين الزوجين، إذا تعذر الاتفاق، فإنه لا بأس بالطلاق، وإن فارق كل واحد منهم صاحبه، فإن الله يغنيه بفضله ولطفه، بأن يرزقه زوجاً خيراً من زوجه، وعيشاً أهنأ من عيشه؛ لأن الله ﷻ هو الرزاق المتكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ كثير الفضل، واسع الرحمة على العباد، حكيماً في تدبيره لهم يعطي بحكمة، ويمنع بحكمة.

* يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم، وكمال سعته، وشمول قدرته، فقال سبحانه:

(۱۳۱)-(۱۳٤) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا * وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا * مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً.

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ ولقد عهدنا إلى الأولين والآخرين الذين أعطوا الكتاب من قبلكم من اليهود والنصارى، وعهدنا إليكم وأمرناكم بما أمرناهم به من امتثال الأمر والطاعة.

﴿أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ أي: وصيناكم جميعاً بتقوى الله وطاعته والقيام بأمره واجتناب نهيه.

﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ وإن تجحدوا وحدانية الله تعالى وشرعه، فلا يضره تعالى كفركم؛ لأنه مستغن عن العباد، وهو المالك لما في السموات والأرض.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ غنياً عن خلقه، محموداً في ذاته، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين. ثم كرر إحاطة ملكه لما في السماوات وما في الأرض، وأنه على كل شيء وكيل، فقال:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ ولله ملك ما في هذا الكون من الكائنات، وكفى به حافظاً لأعمال عباده قائماً بشؤون خلقه حافظاً لهم.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾ فهو الغني الحميد الذي له القدرة الكاملة والمشيئة

النافذة فيكم، فلو أراد الله لأهلككم وأفناكم، وأتى بآخرين غيركم هم أطوع لله منكم، وخير منكم، وفي هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم، وإعراضهم عن ربهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا﴾ أي: قادراً على ذلك لا يعجزه شيء.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ من كان يريد بعمله أجر الدنيا فعند الله ما هو أعلى وأسمى وهو أجر الدنيا والآخرة، فليسأل العبد ربه خيري الدنيا والآخرة، فهو تعالى سميع لأقوال العباد بصير بأعمالهم.

* لما أمر تعالى بالإحسان إلى النساء والعدل في معاملتهن، أمر هنا بالعدل العام في جميع الأحكام، ودعا إلى أداء الشهادة على الوجه الأكمل سواء كان المشهود عليه غنياً أو فقيراً، وحذر من اتباع الهوى، قال تعالى:

(١٣٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ يا من آمنتم بالله وصدقتم بكتابه كونوا مجتهدين في إقامة العدل والاستقامة، وأتى بصيغة المبالغة في ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ حتى لا يكون منهم جور أبداً.

الجُزءُ الخَامِسُ سُورَةُ النِّسَاءِ

۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ
عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا
فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ
أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ
بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ
ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ
كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ
سَبِيلَۢا ١٣٧ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ٱلَّذِينَ
يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ
عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ١٣٩ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي
ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا
تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ
إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠

١٠٠

﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ أي: تقيمون شهاداتكم لوجه الله دون تحيز ولا محاباة فلا تراعوا الغني لغناه، ولا الفقير بزعمكم رحمة له.

﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾ ولو كانت تلك الشهادة على أنفسكم أو على آبائكم أو أقربائكم، فلا تمنعكم القرابة ولا المنفعة عن أداء الشهادة على الوجه الأكمل، فإن الحق حاكم على كل إنسان، وذكر الأبوين لوجوب برهما وكونهما أحب الخلق إليه، ثم ذكر الأقربين؛ لأنهم مظنة المودة والتعصب. فإذا شهدوا على هؤلاء بها عليهم فالأجنبي من الناس أحرى أن يشهدوا عليه بالحق.

﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا﴾ إن يكون المشهود عليه غنيّاً فلا يراعى لغناه طلباً لرضاه، أو فقيراً فلا يمتنع من الشهادة عليه ترحماً وإشفاقاً.

﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ فالله أولى بالغني والفقير، وأعلم بما فيه صلاحهما، فراعوا أمر الله فيما أمركم به، فإنه أعلم بمصالح العباد منكم.

وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله:

﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾ فلا تتبعوا هوى النفس مخافة أن تعدلوا بين الناس، ولا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليك على ترك العدل في شؤونكم بل الزموا العدل على كل حال.

﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ﴾ وإن تحرفوا الشهادة بألسنتكم، أو تعرضوا عنها بترك أدائها، أو بكتمانها.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ فإن الله كان عليماً بدقائق أعمالكم، محيط بما فعلتم، يعلم أعمالكم خفيها وجليها وسيجازيكم بها.

* ثم يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل

الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه، قال تعالى:

﴿١٣٦﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يا من صدقتم بالله ورسوله اثبتوا وداوموا على الإيمان والتصديق الجازم بالله تعالى وبرسوله محمد ﷺ.

﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ وآمنوا بالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ.

﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ وآمنوا بالكتب السماوية التي أنزلها تعالى من قبل القرآن، من التوراة والإنجيل، والزبور وسائر الكتب.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ ومن يكفر بالله تعالى، وملائكته المكرمين، وكتبه التي أنزلها لهداية خلقه، ورسله الذين اصطفاهم لتبليغ رسالته، واليوم الآخر الذي يقوم الناس فيه بعد موتهم للعرض والحساب، فقد خرج عن طريق الهدى، وبعد بعداً كبيراً عن طريق الحق.

* ثم ذكر تعالى حال وأوصاف المنافقين المخزية، وحالهم من العذاب والنكال في دركات الجحيم، فقال:

﴿١٣٧﴾-﴿١٤٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا * بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا * وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ إن الذين دخلوا في الإيمان، ثم رجعوا عنه إلى الكفر، ثم عادوا إلى الإيمان، ثم رجعوا إلى الكفر مرة أخرى، ثم أصروا على كفرهم واستمروا عليه، فإنه لا توبة لهم بعد موتهم ولا يغفر الله لهم ولا يجعل له مما هم فيه فرجاً ولا مخرجاً ولا طريقاً إلى الهدى. قال ابن عباس: دخل في هذه الآية كل منافق كان في عهد النبي ﷺ في البر والبحر.

﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ لم يكن الله ليسامحهم على ذلك ولا ليهديهم طريقاً إلى الجنة، وقيل: ليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردة لم يقبل منهم ولم يغفر لهم ولكنه استبعاد له واستغراب كأنه أمر لا يكاد يكون، وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع لا يكاد يرجى منه الثبات، والغالب أنه يموت على شر حال، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال:

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عبر تعالى بلفظ ﴿بَشِّرِ﴾ تهكماً بهم، فإن البشارة تستعمل في الخير وتستعمل في الشر بقيد، أي: أخبر يا محمد المنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر بعذاب النار الأليم. والبشارة: كل خبر يتغير به بشرة الوجه ساراً كان أو غير سار.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ أي: أولئك هم الذين يوالون الكافرين ويتخذونهم أعواناً وأنصاراً لما يتوهمونه فيهم من القوة، ويتركون ولاية المؤمنين ولا يرغبون في مودتهم.

﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ أيطلبون بموالاة الكفار القوة والغلبة والمنعة والنصرة؟ والاستفهام إنكاري، أي: إن الكفار لا عزة لهم فكيف تبتغى منهم.

﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فالعزة والقوة والقدرة لله جميعاً، فإن نواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة، فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين، والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله والإقبال

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟
أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟
أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا
قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ
ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ
هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ
أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا
﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟
دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ
إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

١٠١

على عبوديته والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ويوم يقوم الإشهاد.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ **أي: نزل عليكم أيها المؤمنون في القرآن حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي، والخطاب لمن أظهر الإيمان من مؤمن ومنافق.**

﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ **أي: أنزل عليكم أنه إذا سمعتم القرآن يكفر به الكافرون ويستهزئ به المستهزئون ويستهينون بها، وآيات الله يجب تعظيمها وإجلالها وتفخيمها.**

﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ **فلا تجلسوا مع الكافرين الذين يستهزئون بآيات الله حتى يتحدثوا بحديث آخر غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها.**

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ﴾ **تعليل للنهي، أي: إنكم إن قعدتم معهم وهم على ما هم عليه كنتم مثلهم في الكفر؛ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ **يجمع الفريقين الكافرين والمنافقين في الآخرة في نار جهنم كما اجتمعوا في الدنيا على الكفر والموالاة لأن المرء مع من أحب، وهذا الوعيد منه تعالى للتحذير من مخالطتهم ومجالستهم.**

*** ثم ذكر تعالى تربصهم السوء وانتظارهم الدوائر تنزل على المؤمنين، فقال:**

﴿١٤١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ **أي: المنافقون هم الذين ينتظرون بكم الدوائر وينظرون ما يحل بكم أيها المؤمنون من الفتن والحرب.**

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ **أي: فإن منَّ الله عليكم بفضله، ونصركم على عدوكم وغنمتم.**

﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ **أي: قالوا لكم: ألم نكن معكم نؤازركم فأعطونا من الغنيمة.**

﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ **أي: ظفر عليكم يا معشر المؤمنين وقدر من النصر والغنيمة، كما وقع يوم أحد فإن الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة، ولم يقل فتح؛ لأنه لا يحصل لهم فتح، يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة، بل غاية ما يكون أن يكون لهم نصيب غير مستقر، حكمة من الله.**

﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ **قالوا للمشركين: ألم نساعدكم بما قدمناه لكم ونحمكم من المؤمنين؟ فهاتوا نصيبنا مما أصبتم؛ لأننا نواليكم ولا نترك أحداً يؤذيكم، قال تعالى بياناً لمآل الفريقين:**

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ **فالله تعالى يقضي بين المؤمنين والكافرين ويفصل بينهم بالحق يوم القيامة، فيجازي المؤمنين ظاهراً وباطناً بالجنة، ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ففي يوم القيامة تنكشف الحقائق وتظهر الضمائر.**

﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ **ولن يمكن**

الكفرة من رقاب المؤمنين فيبيدوهم ويستأصلوهم بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، ولا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصورة.

* يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه، من قبيح الصفات، وشنائع السمات، وأن طريقهم مخادعة الله ورسوله، قال تعالى:

﴿١٤٢﴾-﴿١٤٣﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ❁ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ إن طريقة هؤلاء المنافقين أن يفعلوا ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر، والله يجازيهم على خداعهم ويستدرجهم بأمر المؤمنين بحقن دمائهم، وقد أعد لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة، فسمى تعالى جزاءهم خداعاً بطريق المشاكلة لأن وبال خداعهم راجع عليهم، ثم ذكر من صفاتهم أنهم:

﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ وإذا قام هؤلاء المنافقون يصلون قاموا وهم متثاقلون متكاسلون، متبرمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم، فهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً، أما الغفلة فقد يبتلى بها المؤمن.

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ولا يقصدون وجه الله، ولا يذكرون الله سبحانه إلا ذكراً قليلاً لامتلاء قلوبهم من الرياء، فإن ذكر الله تعالى وملازمته، لا يكون إلا من مؤمن ممتلئ قلبه بمحبة الله وعظمته. قال ابن عباس ﷺ: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظيم الرغبة، شديد الفرح، فإنه يناجي الله، وإن الله تجاهه، يغفر له ويجيب إذا دعاه.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ مضطربين مترددين بين الكفر والإيمان، وصفهم تعالى بالحيرة في دينهم لا يستقرون على حال.

﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ لا ينتسبون إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين، أعطوا باطنهم للكافرين وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ ومن يصرف الله قلبه عن الإيمان به والاستمساك بهديه، فلن تجد له طريقاً إلى السعادة والهدى واليقين.

* لما ذكر تعالى أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يشابهوا المنافقين، وحذر تعالى المؤمنين من موالاة أعداء الدين ومصاحبتهم ومصادقتهم وإسرار المودة إليهم، قال تعالى:

﴿١٤٤﴾-﴿١٤٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ❁ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ❁ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ❁ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تتركوا موالاة المؤمنين وتوالوا الكفرة المجرمين بالمصاحبة والمصادقة.

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أتريدون أن تجعلوا لله حجة بالغة ظاهرة على عدم صدقكم في إيمانكم، وفي الآية دليل على كمال عدل الله، وأنه لا يعذب أحداً قبل قيام الحجة عليه. قال ابن عباس: كل سلطان في القرآن حجة.

ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين ومنازلهم في الآخرة، فقال:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ إن المنافقين في الطبقة التي في قعر جهنم وهي سبع طبقات، قال ابن عباس: أي في أسفل النار، وذلك لأنهم جمعوا مع الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله، والنار دركات كما أن الجنة درجات.

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ولن تجد هؤلاء المنافقين يا محمد ناصراً ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله ويدفع عنهم سوء هذا المصير.

ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا، تاب الله عليه وقبل ندمه إذا أخلص توبته، وأصلح عمله، واعتصم بربه في جميع أموره، قال تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ وهذا استثناء، أي: تابوا عن النفاق ورجعوا إلى الله تعالى.

﴿وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: أعمالهم ونياتهم وظواهرهم بطاعة الله تعالى، وتمسكوا بكتاب الله ودينه.

﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ ولم يبتغوا بعملهم إلا وجه الله، وسلموا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في زمرتهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: يعطيهم الأجر الكبير في الآخرة، وهو الجنة.

ثم أخبر تعالى عن كمال غناه، وسعه علمه، ورحمته وإحسانه، فقال:

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ أي: أيُّ منفعة له سبحانه في عذابكم؟ إن شكرتم نعماءه وصدقتم به، وهو سبحانه إنما يعذب العباد بذنوبهم فهو لا يعذب المؤمن الشاكر.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ شاكراً لطاعة العباد على طاعتهم له مع غناه عنهم، يعطي على العمل القليل الثواب الجزيل، فالشكر من الله تعالى هو الرضى بالقليل من عباده، وإضعاف الثواب عليه، والشكر من العبد الطاعة، ومن الله الثواب.

* لما ذكر تعالى المنافقين وفضحهم في الآيات السابقة، ذكر هنا أنه لا يحب إظهار الفضائح والقبائح، إلا في حق من زاد ضرره وعظم خطره، فلا عجب أن يكشف الله عن المنافقين الستر، قال تعالى:

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

﴿١٤٨﴾، ﴿١٤٩﴾ ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا * إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ أي: يبغض ويمقت الله الفحش في القول والإيذاء باللسان إلا المظلوم فإنه يباح له أن يجهر بالدعاء على ظالمه، وأن يذكره بما فيه من السوء ليبين مظلمته. قال ابن عباس: المعنى لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ سميعاً لدعاء المظلوم، عليماً بظلم الظالم. ثم ندب وحث الله ﷻ إلى العفو، فقال:

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ أي: إن أظهرتم أيها الناس عمل الخير أو أخفيتموه، أو عفيتم عمن أساء إليكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا لله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه، فلهذا قال:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: كان مبالغاً في العفو مع كمال قدرته على المؤاخذة، فيسدل عليهم ستره ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته. قال الحسن: يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى حيث حث تعالى على العفو، وأشار إلى أنه عفو مع قدرته، فكيف لا تعفون مع ضعفكم وعجزكم؟! قال بعض العلماء: اعلم

أن معاقد الخير على كثرتها محصورة في أمرين: صدق مع الحق، وخُلق مع الخلق، والذي يتعلق مع الخلق محصور في قسمين: إيصال نفع إليهم، ودفع ضرر عنهم، فقوله: ﴿أَوْ تَعْفُواْ﴾ إشارة إلى إيصال النفع إليهم، وقوله ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إشارة إلى دفع الضرر عنهم. فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر.

* لما فرغ من ذكر المشركين والمنافقين، ذكر الكفار من أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ لأنهم كفروا بمحمد ﷺ، فقال تعالى:

﴿١٥٠-١٥٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ الآية في اليهود والنصارى؛ لأنهم آمنوا بأنبيائهم وكفروا بمحمد ﷺ وغيره، جعل كفرهم ببعض الرسل كفراً بجميع الرسل، وكفرهم بالرسل كفراً بالله تعالى.

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ التفريق بين الله ورسله أن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله، وكذلك التفريق بين الرسل هو الكفر ببعضهم والإيمان ببعضهم، وقد فسره تعالى بقوله بعده:

﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ أي: نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض. قال قتادة: أولئك أعداء الله اليهود والنصارى، آمنت اليهود بالتوراة وموسى وكفروا بالإنجيل وعيسى، وآمنت النصارى بالأنجيل وعيسى وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ وتركوا الإسلام دين الله الذي بعث به رسله.

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً وسطاً بين الكفر والإيمان، ولا واسطة بينهما.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: هؤلاء الموصوفون بالصفات القبيحة هم الكافرون يقيناً ولو ادعوا الإيمان، وقد هيأنا لهم عذاباً شديداً مع الإهانة والخلود في نار جهنم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: صدقوا بوحدانية الله وأقروا بجميع الرسل، وهم المؤمنون أتباع محمد ﷺ لم يفرقوا بين أحد من رسله بل آمنوا بهم كلهم.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: سنعطيهم ثوابهم الكامل على الإيمان بالله ورسله، وأتى هنا باسم الإشارة «أولئك» تعظيماً لهم، وجاءت بصيغة البعيد لعلو منزلتهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ غفوراً لما سلف منهم من المعاصي والآثام، متفضلاً عليهم بأنواع الإنعام.

﴿١٥٣، ١٥٤﴾ ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ نزلت في أحبار اليهود حين قالوا للنبي ﷺ إن كنت نبيّاً فائتنا بكتاب من السماء جملة. كما أتى به موسى جملة، وإنما طلبوا ذلك على وجه التعنت والعناد، فذكر تعالى سؤالهم ما هو أفظع وأشنع تسلية للنبي ﷺ للتأسي بالرسل.

﴿فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: سألوا موسى رؤية الله ﷻ عياناً.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ جاءتهم من السماء نار فأهلكتهم بسبب ظلمهم حين سألوا أمراً ليس من حقهم، وبعد أن أحياهم الله بعد الصعق، وشاهدوا الآيات البينات على يد موسى القاطعة بنفي الشرك.

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ ثم اتخذوا العجل إلهاً وعبدوه من بعد ما جاءتهم المعجزات والحجج الباهرات من العصا واليد وفلق البحر وغيرها.

﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ عفونا عما ارتكبوه ولم نستأصلهم مع عظم جريمتهم وخيانتهم بسبب توبتهم، فتوبوا أنتم حتى نعفو عنكم.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أعطيناه حجة ظاهرة، تظهر صدقه وصحة نبوته، وتلك الحجة هي الآيات البينات التي آتاه الله إياها.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ ورفعنا فوق رؤوسهم جبل الطور حين امتنعوا عن الالتزام بالعهد المؤكد الذي أعطوه بالعمل بأحكام التوراة.

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: ادخلوا باب بيت المقدس مطأطئين رؤوسكم خضوعاً لله، فخالفوا ما أمروا به ودخلوا يزحفون على استاههم وهم يقولون حنطة في شعرة؛ استهزاءً.

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: لا تعتدوا باصطياد الحيتان يوم السبت فخالفوا واصطادوا.

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهداً وثيقاً مؤكداً فنقضوه.

* ثم ذكر ﷻ ذنوباً ارتكبوها، مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى، قال تعالى:

﴿١٥٥﴾-﴿١٥٩﴾ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا * بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: فسبب نقضهم الميثاق لعنّاهم وأذللناهم و﴿فَبِمَا﴾ لتأكيد المعنى، وبجحودهم بالقرآن العظيم الدال على صدق رسله.

﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: ظلماً واعتداءً؛ كزكريا ويحيى عليهما السلام وغيرهما.

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ وقولهم للنبي ﷺ: قلوبنا مغشاة بأغشية لا تعي ما تقوله يا محمد، قال تعالى رداً عليهم:

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا
عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ
ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ
ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ
ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ بل ختم وطمس تعالى عليها بسبب الكفر والضلال، فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً لا ينفعهم.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ أي: وكذلك لعناهم بسبب كفرهم بعيسى عليه السلام أيضاً، ورميهم مريم بالزنى وهي بريئة منه، وقد فضلها الله على نساء العالمين، ويلزم من بهتانهم هذا أن عيسى أحد الأنبياء أولي العزم ولد زنا -والعياذ بالله-.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وبسبب قولهم على سبيل التهكم والاستهزاء إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: وما قتلوا عيسى ولا صلبوه، ولكن قتلوا وصلبوا من ألقي عليه شبهه. روي أن رجلاً كان ينافق لعيسى فخرج ليدل عليه فألقى الله عليه شبهه فأخذ وصلب وهم يظنون أنه عيسى.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى لفي شك من قتله، روي أنه لما رفع عيسى وألقي شبهه على غيره فقتلوه، قالوا: إن كان هذا المقتول عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ فاختلفوا، فقال بعضهم هو عيسى، وقال بعضهم ليس هو عيسى بل هو غيره، فأجمعوا أن شخصاً قد قُتل واختلفوا من كان.

﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ أي: ما لهم بقتله علم حقيقي ولكنهم يتبعون فيه الظن الذي تخيلوه.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين، ونجاه الله من شرهم فرفعه إلى السماء حياً بجسده وروحه، وطهره من الذين كفروا.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ عزيزاً في ملكه، حكيماً في صنعه وتدبيره وقضائه.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ في يوم القيامة ليس أحد من اليهود والنصارى إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى وبأنه عبد الله ورسوله حين يعاين ملائكة الموت ولكن لا ينفعه إيمانه.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: يشهد عيسى على اليهود بأنهم كذبوه، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

* ثم أخبر ﷻ الأمر الذي بسببه حرم عليهم طيبات كان أحلها لهم، فقال تعالى:

١٦٠-١٦٢ ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ أي: بسبب ظلم اليهود وما ارتكبوه من الذنوب العظيمة حرم الله عليهم أنواعاً من الطيبات التي كانت محللة لهم.

﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ وبمنعهم كثيراً من الناس عن الدخول في دين الله، حيث صدوا أنفسهم وغيرهم عن الحق.

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ وبسبب تناولهم الربا وقد حرمه الله عليهم في التوراة.

﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: وهيأنا لمن كفر من هؤلاء اليهود العذاب المؤلم الموجع في الآخرة. ولما ذكر معايب أهل الكتاب، ذكر الممدوحين، فقال:

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ لكن المتمكنون في العلم منهم والثابتون فيه كعبد الله بن سلام وجماعته.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ من المهاجرين والأنصار أصحاب النبي ﷺ من غير أهل الكتاب.

﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يؤمنون ويصدقون بالذي أنزله الله إليك يا محمد وهو القرآن، وبالذي أنزل إلى الرسل من قبلك كالتوراة والإنجيل.

﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: ويؤدون الصلاة في أوقاتها، والمعطون زكاة أموالهم.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ والمؤمنون بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هؤلاء الموصوفون بالأوصاف الجليلة، جمعوا بين العلم والإيمان، والعمل الصالح، والإيمان بالكتب والرسل السابقة واللاحقة سنعطيهم ثواباً جزيلاً على طاعتهم هو الخلود في الجنة.

* لما حكى تعالى جرائم اليهود التي من ضمنها كفرهم بعيسى ومحمد

وزعمهم أنهم صلبوا المسيح، ذكر تعالى. أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء -عليهم السلام-، قال تعالى:

﴿١٦٣-١٦٥﴾ ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا * وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا * رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾.

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ أي: نحن أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى نوح والأنبياء من بعده، وإنما قدم النبي محمد ﷺ في الذكر وإن تأخرت نبوته لتقدمه في الفضل.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ﴾ أي: وأوحينا إلى سائر النبيين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وهم الأنبياء الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، خصَّ تعالى محمداً بالذكر تشريفاً وتعظيماً لهم، وبدأ بعد محمد ﷺ بنوح لأنه شيخ الأنبياء وأبو البشر الثاني، ثم ذكر إبراهيم؛ لأنه الأب الثالث ومنه تفرعت شجرة النبوة، وقدم عيسى على أنبياء كانوا قبله لشدة العناية بأمره لغلو اليهود في الطعن فيه، والنصارى في تقديسه، وفي ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم من التنويه بهم، والثناء الصادق عليهم وشرح أحوالهم، مما يزداد به المؤمن إيماناً بهم، ومحبة لهم، واقتداء بهديهم واستناناً بسنتهم، ومعرفة بحقوقهم.

الجزء السادس سورة النساء

﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ
وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ
وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ
وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ
مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ
تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا
١٦٥ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ
طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ
ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ
مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠

١٠٤

﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ وخصصنا داود بالزبور وهو كتاب وصحف مكتوبة، قال القرطبي: كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم من الأحكام وإنما هي حكم ومواعظ.

﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ﴾ وأرسلنا رسلاً منهم من ذكرنا أخبارهم لك يا محمد في غير هذه السورة.

﴿وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾ ورسلاً آخرين لم نخبرك عن أحوالهم لحكمة أردناها.

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ وخص الله موسى بأن كلمه بلا واسطة تشريفاً له بهذه الصفة ولهذا سمي الكليم، وإنما أكد ﴿تَكۡلِيمٗا﴾ رفعاً لاحتمال المجاز. وفي الآية إثبات صفة الكلام لله تعالى، كما يليق بجلاله، وأنه سبحانه كلم نبيه موسى عليه السلام حقيقة بلا واسطة.

﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: أرسلت رسلاً إلى خلقي يبشرون بالجنة من أطاع، وينذرون بالنار من عصى.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ بعثهم الله ليقطع حجة من يقول: لو أرسل إليَّ رسول لآمنت وأطعت، فقطع الله حجة البشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ عزيزاً في ملكه، حكيماً في صنعه.

* ثم ذكر تعالى رداً على اليهود حين أنكروا نبوة محمد، فقال:

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى
ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ
وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ
إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ
ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ
وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ
إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا
يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا
﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي
رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾

١٠٥

(١٦٦)-(١٧٠) ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا * يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾ **أي: إن لم يشهد لك هؤلاء بالنبوة فالله يشهد لك بذلك بما أنزل إليك من القرآن المعجز.**

﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾ **أنزله بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره، بأسلوب يعجز عنه كل بليغ، والملائكة يشهدون كذلك بما أنزل الله إليك ويشهدون بنبوتك.**

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ **وكفى الله شاهداً، فشهادته تعالى تغنيك وتكفيك وإن لم يشهد غيره.**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ **أي: كفروا بأنفسهم ومنعوا الناس عن الدخول في دين الله قد ضلوا عن طريق الرشاد ضلالاً بعيداً؛ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال، وفي هذا وعيد شديد لهم، وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال.**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾ **جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله، وظلموا باستمرارهم على الكفر.**

﴿لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا﴾ **أي: لن يعفو الله عنهم ولن يهديهم إلى طريق الجنة لأنهم استمروا على الطغيان، وماتوا على الكفر.**

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾ **لن يهديهم إلا إلى الطريق الموصلة إلى جهنم جزاء لهم على ما أسلفوه من الكفر والظلم مخلدين فيها أبداً.**

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ **أي: تخليدهم في جهنم، لا يصعب عليه ولا يستعظمه، ولا يبالي الله بهم ولا يعبأ.**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ **أي: يا أيها الناس قد جاءكم محمد بالدين الحق والشريعة الواضحة من عند ربكم، فصدقوا ما جاءكم من عند ربكم، يكن الإيمان خيراً لكم.**

﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ **وإن تستمروا على الكفر، فإن الله غني عنكم لا يضره كفركم إذ له ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً وأنتم من جملتهم، ومن كان خالقاً لكم ولها فهو قادر على مجازاتكم بقبيح أفعالكم.**

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ **عليماً بأحوال العباد، حكيماً فيما أمره وشرعه لهم.**

*** ولما رد تعالى على شبه اليهود فيما سبق أخذ في الرد على ضلالات النصارى في إفراطهم وغلوهم في تعظيم المسيح فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، فقال:**

(١٧١) ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ

إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِي دِينِكُمْ﴾ **يا معشر أهل الإنجيل وهم النصارى، لا تتجاوزوا الحد في أمر الدين بإفراطكم في شأن المسيح ورفعه عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله.**

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ **ولا تصفوا الله بما لا يليق من اتخاذ الشريك والصاحبة والولد.**

﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ **أي: ما عيسى إلا رسول من رسل الله أرسله الله بالحق، وليس ابن الله كما زعمتم.**

﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ **وقد خلقه بكلمة تكلم الله به فكان بها عيسى، من غير واسطة أب ولا نطفة ولم يكن تلك الكلمة. وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم.**

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ **أي: ذو روح مبتدأة من الله، وهو أثر نفخة جبريل في صدر مريم حيث حملت بتلك النفخة بعيسى، وإنما أضيف إلى الله تشريفاً وتكريماً.**

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾ **أي: فصدقوا بأن الله واحد وأسلموا له وصدقوا رسله أجمعين، ولا تقولوا الآلهة ثلاثة: الله، المسيح، ومريم، أو الله ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، فنهاهم تعالى عن ذلك وأمرهم بالتوحيد لأن الإله منزه عن الشريك.**

﴿ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ **انتهوا عن هذه المقالة يكن ذلك خيراً لكم ثم نزه نفسه عن الشريك والولد.**

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ **منفرد في ألوهيته الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ليس كما تزعمون أنه ثالث ثلاثة.**

﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ **تنزه وتقدس الله عن أن يكون له صاحبة أو ولد.**

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ **خلقاً وملكاً وعبيداً فالكل مملوكون له، مفتقرون إليه، وهو تعالى لا يماثله شيء حتى يتخذه ولداً، وفي هذا بيان لتنزهه مما نسب إليه، بمعنى أن كل ما فيهما خلقه وملكه، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه.**

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ **تنبيه على غناه عن الولد، أي: كفى الله أن يقوم بتدبير مخلوقاته وحفظها فلا حاجة له إلى ولد أو معين؛ لأنه مالك كل شيء.**

* **ثم رد تعالى على النصارى مزاعمهم الباطلة، فقال:**

(١٧٢)، (١٧٣) ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ **أي: لن يأنف ويتكبر المسيح الذي زعمتم أنه إله عن أن يكون عبداً لله، ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله.**

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ **ومن يأنف ويتكبر عن عبادة الله سبحانه فسيبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء ويفصل بينهم بحكمه العادل، ويجازي كلاً بما يستحقه، جاء وفد من النصارى إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد لم تعيب صاحبنا؟ قال: «ومن صاحبكم؟» قالوا: عيسى، قال: «وأي شيء أقول فيه؟» قالوا تقول: إنه عبد الله ورسوله، فقال لهم: «إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله» قالوا: بلى فأنزل الله:** ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ **الآية. ثم فصل حكمه فيهم، فقال:**

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ **فأما الذين صدقوا بالله اعتقاداً وقولاً وعملاً استقاموا على شريعته فيوفيهم ثواب أعمالهم.**

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ **أي: من الثواب الذي لم تنله أعمالهم، ولم تصل إليه أفعالهم، ولم يخطر على قلوبهم.**

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ **وأما الذين أنفوا وتعظموا عن عبادة ربهم، فسيعذبهم عذاباً موجعاً شديداً.**

الجزء السادس سورة المائدة

يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ
لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن
لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ
وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ١٧٦

سُورَةُ المَائدَة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ
إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ
يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ
وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ
ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ
وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن
تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ
وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢

١٠٦

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ وليس لهم من يتولاهم أو ينصرهم من عذاب الله.

*** ثم يمتن تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة والأنوار الساطعة، ويقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، فقال:**

١٧٤، ١٧٥ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ **أي: أتاكم حجة من الله وهو محمد رسول الله المؤيد بالمعجزات الباهرة، وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته.**

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ **وأنزلنا عليكم القرآن ذلك النور الوضاء. ولكن انقسم الناس بحسب الإيمان بالقرآن والانتفاع به قسمين: منهم من آمن، ومنهم من استنكف عن الحق وكفر به:**

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ﴾ **أي: صدقوا بوحدانية الله وتمسكوا بكتابه المنير ولجأوا إلى الله واعتمدوا عليه.**

﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ﴾ **أي: يرحمهم فيدخلهم الجنة، ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعاً في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم.**

﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ **ويرشدهم ويوفقهم إلى سلوك الطريق المستقيم المفضي إلى روضات الجنات.**

١٧٦ ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾.

﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾ **يسألونك يا محمد في شأن الميت إذا لم يكن له والداً، أو ولد، من يرثه؟ قل الله يفتيكم:**

﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ **قل لهم يا محمد الله يبين لكم الحكم فيها: من مات وليس له والد أو ولد وهي الكلالة.**

﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَ﴾ **وله أخت شقيقة، أو أخت لأب فلها نصف ما ترك أخوها.**

﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞ﴾ **وأخوها الشقيق أو لأب يرث جميع ما تركت إن لم يكن لها ولد.**

﴿فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ **وإن كانت الأختان اثنتين فأكثر، فلهما الثلثان مما ترك أخوهما.**

﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ﴾ **وإن كان الورثة مختلطين إخوة وأخوات فللذكر منهم مثل نصيب الأختين.**

﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾

قال ابن عثيمين: «لم يقل: (للأنثى نصف الذكر)؛ لأن الحظ والنصيب فضل وزيادة، والنصف نقص، فهو أحسن تعبيراً».

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ **يبين ويوضح الله لكم أحكامه وشرائعه خشية أن تضلوا عن الحق في أمر المواريث.**

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ **يعلم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم، فهو تعالى العالم بمصالح العباد في المحيا والممات.**

تم تفسير سورة النساء

والحمد لله

تفسير سورة المائدة
وهي مدنية

* سورة المائدة من السور المدنية الطويلة، وهي أجمع سورة في القرآن لفروع الشريعة من التحليل والتحريم. وقد تناولت كسائر السور المدنية موضوع العقيدة وقصص أهل الكتاب، وجانب التشريع بإسهاب، وجماعها يتناول الأحكام الشرعية؛ لأن الدولة الإسلامية كانت في بداية تكوينها وهي بحاجة إلى المنهج الرباني الذي يعصمها من الزلل، ويرسم لها طريق البناء والاستقرار، وسورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن ليس فيها منسوخ وفيها ثمان عشرة فريضة.

سميت سورة المائدة لورود ذكر المائدة فيها حيث طلب الحواريون من عيسى عليه السلام آية تدل على صدق نبوته وتكون لهم عيداً وقصتها أعجب ما ذكر فيها لاشتمالها على آيات كثيرة ولطف عظيم من الله العلي الكبير.

وقد نزلت هذه السورة منصرف رسول الله ﷺ من الحديبية.

سبب نزولها: أن المشركين كانوا يحجون البيت ويهدون الهدايا ويعظمون الشعائر وينحرون، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾.

وقد ورد في فضلها: ما رواه عبدالله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها، قال تعالى:

(١)، (٢) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًاۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ الخطاب بلفظ الإيمان للتكريم والتعظيم، أي: يا معشر المؤمنين أوفوا بالعقود، وهو لفظ يشمل كل عقد وعهد بين الإنسان وربه، وبين الإنسان والإنسان. قال ابن عباس: العقود العهود وهي ما أحل الله وما حرم، وما فرض في القرآن كله من التكاليف والأحكام. ثم قال ممتناً على عباده:

﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أبيح لكم أكل الأنعام رحمة بكم، وهي: الإبل والبقر والغنم بعد ذبحها إلا ما حرم عليكم في هذه السورة وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك، والبهيمة: اسم لكل ذي أربع، سميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها وعقلها.

﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ﴾ أحلت لكم هذه الأشياء من غير أن تستحلوا الصيد - وهو الحيوان المأكول المتوحش - وأنتم محرمون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ يقضي في خلقه بما يشاء؛ لأنه الحكيم في أمره ونهيه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ لا تستحلوا حرمات الله ولا تعتدوا حدوده، وشرائعه التي حدها لعباده، ومن ذلك ما حرم عليكم في حال الإحرام.

﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ ولا تستحلوا الشهر الحرام بالقتال فيه، ولا ما أهدي البيت، أو قلد بقلادة ليعرف أنه هدي بالتعرض له ولأصحابه.

﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام لحج أو عمرة، نهى تعالى عن الإغارة عليهم أو صدهم عن البيت كما كان أهل الجاهلية يفعلون.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ وإذا تحللتم من الإحرام وخرجتم من الحرم فقد أبيح لكم الصيد.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ
وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ
ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ
بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا
تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ
غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ
أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ
مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ
وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾
ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ
وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ
مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ
بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

أَن تَعْتَدُواْ﴾ ولا يحملنكم بغض قوم كانوا قد صدوكم عن المسجد الحرام كما حدث عام «الحديبية» على أن تعتدوا عليهم بالقتل وأخذ الأموال.

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ وتعاونوا أيها المؤمنون فيما بينكم، وليحض بعضكم بعضاً على فعل الخيرات وترك المنكرات، وعلى كل ما يقرب إلى الله، ولا تعاونوا على المعاصي والتعدي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين، وهذين الواجبين، واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ خافوا عقابه؛ فإنه تعالى شديد العقاب لمن عصاه وتجرأ على محارمه.

* ثم يخبر تعالى عباده خبراً متضمناً النهي عن تعاطي المحرمات، فقال:

﴿٣﴾ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ حرم الله عليكم أيها المؤمنون أكل الميتة، وهي ما مات حتف أنفه من غير ذكاة، والدم المسفوح السائل المراق، ولحم الخنزير، وإنما ذكر لحم الخنزير ليبين أنه حرام بعينه حتى ولو ذبح بالطريق الشرعي.

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: ما ذكر عليه اسم غير اسم الله تعالى عند الذبح، أو ذبح لغير الله كقولهم باسم اللات والعزى فهو حرام؛ لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم.

﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ وهي التي حُبس نفسها حتى ماتت، إما بخنق بيد أو حبل، أو غير ذلك.

﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ وهي المضروبة بعصا، أو حجر حتى ماتت.

﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ وهي التي تسقط من جبل، أو هوت في بئر فماتت.

﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ وهي التي نطحتها بهيمة أخرى بقرنها فماتت بالنطح.

﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أي: وحرم الله عليكم البهيمةالتي أكلها السبع كالأسد والذئب ونحو ذلك.

﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إلا ما أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء فذبحتموه الذبح الشرعي قبل الموت، فهي حلال لكم.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ وحرم الله عليكم ما ذبح على الأحجار المنصوبة، حيث كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها، يعظمونها بذلك ويتقربون به إليها؛ فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع.

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ أي: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام، أي: طلب معرفة ما قسم له من الخير والشر بواسطة ضرب بالقداح وهي مكتوب على بعضها: نهاني ربي، وعلى بعضها أمرني ربي، وبعضها غفل، فإن خرج الآمر مضى لغرضه، وإن خرج الناهي أمسك، وإن خرج الغفل أعاد.

﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ ذلكم المذكور في الآية من المحرمات، إذا ارتكبت

خروج عن أمر الله وطاعته إلى معصيته. ثم امتنَّ على عباده بقوله:

﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ أي: الآن انقطع طمع الكافرين منكم ويئسوا أن ترجعوا عن دينكم، بعد أن وفى بوعده ونصركم عليهم.

﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾ فلا تخافوا المشركين ولا تهابوهم بعد إظهار الدين وزوال الخوف، وخافون واخلصوا إلي الخشية أنصركم عليهم، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة.

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ أي: أكملت لكم الشريعة ببيان الحلال والحرام وإتمام الشريعة، وهذه أكبر نعم الله على هذه الأمة. وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال، ووصف النعمة التي أسبغها عليهم بالتمام، إيذاناً في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل، ولا شيء خارجاً عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووصف النعمة بالتمام إيذاناً بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها إذا أعطاهموها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدنيا وفي دار القرار.

﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ الظاهرة والباطنة بالهداية والتوفيق إلى أقوم طريق.

قال ابن القيم عند قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾: «تأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بـ (الكمال) إيذاناً في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجاً عن الحكمة بوجه بل هو الكامل في حسنه وجلالته. ووصف النعمة بـ (التمام) إيذاناً بدوامها واتصالها وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار».

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ واخترت لكم الإسلام ديناً من بين الأديان، وهو الدين المرضي الذي لا يقبل الله ديناً سواه، فالزموه ولا تفارقوه.

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ فمن ألجأته الضرورة إلى تناول شيء من المحرمات المذكورة، في مجاعة حال كونه غير مائل إلى الإثم ولا متعمد لذلك؛ فإن الله لا يؤاخذه بأكله؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: لا يؤاخذكم بذلك، حيث أباح لكم الأكل في هذه الحال، ورحمكم بما يقيم به بنيتكم من غير نقص يلحقكم في دينكم.

* لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها إما في دينه أو في بدنه أو فيهما، قال تعالى لنبيه محمد ﷺ مبيناً ما أحله الله لهم، بعد بيان ما حرمه الله عليهم:

﴿٤﴾ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾ يسألك أصحابك يا محمد ما الذي أحل لهم من المطاعم والمآكل؟

﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ قل لهم أبيح لكم كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل.

﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ﴾ وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح من ذوات المخالب والأنياب من الكلاب والفهود والصقور ونحوها مما يُعلَّم.

﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أي: تعلمونهن طلب الصيد لكم، قال الزمخشري: المكلب مؤدب الجوارح ورائضها واشتقاقه من الكلب؛ لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب.

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ﴾ تعلمونهن طرق الاصطياد وكيفية تحصيل الصيد، وهذا جزء مما علمه الله للإنسان.

﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ فكلوا مما أمسكن لكم من الصيد إذا لم تأكل منه، فإن أكلت فلا يحل أكله لحديث: «إذا أرسلت كلبك المعلَّم فقتل فكل، وإذا أكل فلا تأكل فإنما أمسكه على نفسه» [رواه البخاري] وعلامة المعلَّم أن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وأن يمسك الصيد فلا يأكل منه، وأن يذكر اسم الله عند إرساله؛ فهذه أربع شروط لصحة الأكل من صيد الكلب المُعلَّم.

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾ أي: عند إرساله للصيد.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ وراقبوا الله في أعمالكم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ
وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ
وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ
وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ
ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا
طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ
لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ
وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦
وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم
بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ
لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ
أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ
ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩

١٠٨

واحذروا مخالفة أمره في هذا كله، فإنه سريع المجازاة للعباد.

*** ثم ذكر ﷻ من تمام نعمة الله عليكم اليوم أيها المؤمنون أن أحل لكم الحلال الطيب، وكرر تعالى إحلال الطيبات لبيان الامتنان، ودعوة للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره، حيث أباح لهم ما توعدهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات، فقال تعالى:**

٥ ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾ **أي: أبيح لكم المستلذات من الذبائح وغيرها.**

﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾ **وذبائح اليهود والنصارى حلال لكم أيها المسلمون - إن ذكوها حسب شرعهم-.**

﴿وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ﴾ **وذبائحكم أيها المسلمون حلال لهم، فلا حرج أن تطعموهم وتبيعوه لهم.**

﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ **وأبيح لكم أيها المؤمنون زواج الحرائر المؤمنات العفيفات من الزنى.**

﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ **وزواج الحرائر العفيفات من الكتابيات (يهوديات أو نصرانيات) وهذا رأي الجمهور، وقال عطاء: قد أكثر الله المسلمات، وإنما رخص لهم يومئذ.**

﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ **إذا دفعتم لهن مهورهن، حال كونكم أعفاء بالنكاح غير مجاهرين بالزنى.**

﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾

قال السعدي: «إضافة الأجور إليهن دليل على أن المرأة تملك جميع مهرها، وليس لاحد منه شيء».

﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾ **أي: وغير متخذين عشيقات وصديقات تزنون بهن سراً، وأمنتم من التأثر بدينهن.**

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ **ومن يرتد عن الدين ويكفر بشرائع الإيمان وما أحل الله وحرم، فقد بطل عمله وهو من الهالكين والخاسرين يوم القيامة، بشرط أن يموت على كفره.**

*** ثم أمر تعالى بإسباغ الوضوء عند الصلاة، فقال:**

٦ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ **يا أيها المؤمنون إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون.**

﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ **فاغسلوا الوجوه والأيدي مع المرافق. والمرفق: المفصل الذي بين الذراع والعضد.**

﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ **وامسحوا رؤوسكم**

واغسلوا أرجلكم مع الكعبين، وهما العظمان البارزان عند ملتقى الساق بالقدم.

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ وإن كنتم في حالة جنابة فتطهروا بغسل جميع البدن قبل الصلاة.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ وإن كنتم مرضى ويضركم الماء، أو كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء.

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ أو قضى أحدكم حاجته.

﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أو جامع زوجته.

﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ ولم تجدوا الماء بعد طلبه، فاضربوا بأيديكم وجه الأرض واقصدوا التراب الطاهر للتيمم به.

﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ فامسحوا وجوهكم وأيديكم بالتراب بضربتين كما وضحت السنة النبوية.

﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ ما يريد بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم تضييقاً عليكم، بل أباح التيمم توسعة عليكم، ورحمة بكم.

﴿وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: يطهركم من الذنوب وأدناس الخطايا بالوضوء والتيمم، وليتم نعمته عليكم ببيان شرائع الإسلام ولتشكروه على نعمه، فكانت رخصة التيمم من تمام النعم التي تقتضي شكر المنعم، بطاعته فيما أمر وفيما نهى.

* يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم، فإن في استدامة ذكرها داعياً لشكر الله تعالى ومحبته، وامتلاء القلب من إحسانه، وفيه زوال للعجب من النفس بالنعم الدينية، وزيادة لفضل الله وإحسانه، قال تعالى:

الجزء السادس — سورة المائدة

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى
مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ
وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ
جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ
مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم
مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ
ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ
بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ
فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

١٠٩

﴿٧﴾-﴿١١﴾ ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ الخطاب للمؤمنين، والنعمة هنا الإسلام وما صاروا إليه من اجتماع الكلمة والعزة، والمعنى: اذكروا يا أيها المؤمنون نعمة الله العظمى عليكم بالإسلام، وعهده الذي عاهدكم عليه رسوله حين بايعتموه على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنه عالم بخفايا نفوسكم فيجازيكم عليها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ أي: كونوا مبالغين في الاستقامة بشهادتكم لله، لا لأجل الناس والسمعة، وصيغة قوام للمبالغة.

﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ تشهدون بالعدل لا بالجور والظلم.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ ولا يحملنكم شدة بغضكم للأعداء على ترك العدل فيهم والاعتداء عليهم كما يفعل من لا عدل عنده ولا قسط.

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ
حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ
وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ
بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ
جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا
كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ
قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾
يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ
وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ
وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ
ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ
قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ
ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ
جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ
يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾

١١٠

﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ **أي: العدل مع من تبغضونهم أقرب لخشية الله، واحذروا أن تجوروا.**

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ **فيما أمر ونهى.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ **مطلع على أعمالكم ومجازيكم عليها، وفي هذا تنبيه عظيم على أن العدل إذا كان واجباً مع الكفار الذين هم أعداء الله وكان بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه.**

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ **وعد الله الذي لا يخلف الميعاد المؤمنين الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا الصالحات.**

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ **هم في الآخرة مغفرة للذنوب، وثواب عظيم، وهو الجنة، والله لا يخلف وعده. ثم لما ذكر مآل المؤمنين المتقين وعاقبتهم، ذكر مآل الكافرين المجرمين، فقال:**

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ **والذين جحدوا وحدانية الله الدالة على الحق المبين، وكذبوا بأدلته التي جاءت بها الرسل، هم في دركات الجحيم دائمون في العذاب. وقد جاءت الجملة فعلية بالنسبة للمؤمنين متضمنة الوعد بالماضي الذي هو الدليل على الوقوع، وفي الكافرين جاءت الجملة اسمية، دالة على ثبوت هذا الحكم لهم، وأنهم أصحاب النار، فهم دائمون في عذاب الجحيم.**

ولما ذكر تعالى ما شرعه لعباده المؤمنين في هذه السورة الكريمة من الأحكام، ومن أعظمها بيان الحلال والحرام، ذكر هنا نعمته عليهم بالهداية إلى الإسلام ودفع الشرور عنهم والآثام، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ **أي: اذكروا فضل الله عليكم بما منّ عليكم من نعمة الأمن، وإلقاء الرعب في قلوب أعدائكم وحفظكم من كيدهم وشرهم.**

﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ **أي: أرادوا أن يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك، حيث أراد بنو النضير أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى وأن يغدروا به وبأصحابه، فأنزل الله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ...﴾ **الآية.**

﴿فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾ **أي: عصمكم من شرهم وصرفهم عنكم، ورد أذاهم وحال بينهم وبين ما أرادوا بكم.**

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ **بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.**

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ **أي: فليتق المؤمنون بالله وليتوكلوا عليه وحده في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، ويثقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون، فإنه كافيهم وناصرهم.**

*** لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم، ذكر نعمته تعالى على أهل الكتاب اليهود والنصارى وأخذه العهد والميثاق عليهم ولكنهم نقضوا العهد فألزمهم الله العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، ثم دعا الفريقين إلى الاهتداء بنور القرآن، والتمسك بشريعة خاتم المرسلين، وترك ما هم عليه من ضلالات وأوهام، فقال:**

﴿١٢﴾-﴿١٤﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي

مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ * فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ **أي: ولقد أخذ الله العهد المؤكد باليمين على بني إسرائيل أن يخلصوا له العبادة وحده.**

﴿وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾ **وأمرنا موسى بأن يأخذ اثني عشر نقيباً والنقيب: كبير القوم القائم بأمورهم ومن كل سبط نقيب يكون كفيلاً عن قومه بالوفاء بالعهد توثقه عليهم.**

قال المفسرون: لما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون، أمرهم الله تعالى بالسير إلى أريحاء بأرض الشام وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة، وقال لهم: إني كتبتها لكم داراً وقراراً فجاهدوا من فيها فإني ناصركم، وأمر موسى بأن يأخذ من كل سبط نقيباً؛ فاختار النقباء وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعثهم يتجسسون الأخبار فرأوا قوماً أجسامهم عظيمة، ولهم قوة وشوكة فهابوهم، ورجعوا وحدثوا قومهم وكان موسى قد نهاهم أن يتحدثوا بما يرون؛ فنكثوا الميثاق وتحدثوا إلا اثنين منهم.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ﴾ **وقال الله لبني إسرائيل: إني معكم بحفظي ونصري. ثم ذكر ما واثقهم عليه، فقال:**

﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ **اللام للقسم، أي: وأقسم لكم يا بني إسرائيل إذا أديتم ما فرضت عليكم من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.**

﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾ **وصدقتم برسلي جميعهم فيما أخبروكم به، وعظمتموهم ونصرتموهم، ومنعتموهم من الأعداء.**

﴿وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ **أي: بالإنفاق في سبيل الخير ابتغاء مرضاة الله، فإذا قمتم بذلك:**

﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ **لأمحون عنكم ذنوبكم، وهذا جواب القسم.**

﴿وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ **تجري من تحت غرفها وأشجارها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل، فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة، وما فيها من النعيم، واندفاع المكروه بتكفير السيئات، ودفع ما يترتب عليها من العقوبات.**

﴿فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ **فمن جحد هذا الميثاق منكم، فقد عدل عن الطريق السوي وضل ضلالاً لا شبهة فيه.**

﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾ **أي: بسبب نقض اليهود لعهودهم المؤكدة طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، وجعلنا قلوبهم جافة جافية لا تنفع فيها المواعظ، ولا تلين لقبول الإيمان.**

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ **أي: تأولوا التوراة على غير ما أنزل الله وحملوها على غير مراده تعالى، وقالوا على الله ما لم يقل، ولا جرم أعظم من الاجتراء على تغيير كلام الله ﷻ.**

﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ **وتركوا نصيباً وافياً مما أمروا به في التوراة فلم يعملوا به.**

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ﴾ **ولا تزال يا محمد تجد من اليهود خيانة وغدراً منهم على منهاج أسلافهم إلا قليلاً منهم ممن أسلم.**

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾ **أي: لا تعاقبهم واصفح عمن أساء منهم على سوء معاملتهم لك، وهذا منسوخ بآية السيف والجزية كما قال الجمهور.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ **والإحسان: هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه، فإنه يراك، وفي حق المخلوقين: بذل النفع الديني والدنيوي لهم.**

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ
فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن
يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ
رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا
مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟
نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا
وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟
ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟
عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ
فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن
يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ
أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ
غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

١١١

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ وكما أخذنا على اليهود العهد والميثاق، فكذلك أخذنا على الذين ادعوا أنهم أتباع المسيح عيسى وليسوا كذلك العهد المؤكد الذي أخذناه على بني إسرائيل بأن يتابعوا رسولهم وينصروه ويؤازروه.

﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ فتركوا ما أمروا به في الإنجيل من الإيمان بالأنبياء ونقضوا الميثاق فلم يعملوا به.

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: فألقينا بين فرق النصارى العداوة والبغضاء إلى قيام الساعة وسلطنا بعضهم على بعض، ولا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، وكل فرقة تمنع الأخرى دخول معبدها.

ثم قال تعالى:

﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ تهديد لهم، أي: سيلقون جزاء عملهم القبيح يوم الحساب، وسيعاقبهم على صنيعهم.

* لما ذكر تعالى ما أخذه الله على أهل الكتاب من اليهود والنصارى وأنهم نقضوا ذلك إلا قليلاً منهم، أمرهم جميعاً أن يؤمنوا بمحمد ﷺ الذي أرسله بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض، قال تعالى:

﴿١٥﴾، ﴿١٦﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الخطاب لليهود والنصارى، أي: يا معشر أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ بالدين الحق، يبين لكم الكثير مما كنتم تكتمونه في كتابكم من الإيمان به، ومن آية الرجم، ومن قصة أصحاب السبت الذين مسخوا قردة، وغير ذلك مما كنتم تخفونه.

﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة، وإنما يبين لكم ما فيه حجة على نبوته وشهادة على صدقه، ولو ذكر كل شيء لفضحكم، وفي الآية دليل على صحة نبوته؛ لأنه بيَّن ما أخفوه في كتبهم وهو أمي لم يقرأ كتبهم.

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ أي: جاءكم نور هو القرآن؛ لأنه مزيل لظلمات الشرك والشك، وهو كتاب مبين ظاهر الإعجاز، يستضاء به في ظلمات الجهالة وعماية الضلالة.

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ يهدي بالقرآن من اتبع رضا الله طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة.

﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بتوفيقه وإرادته.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الإسلام.

* ثم ذكر تعالى إفراط النصارى في حق عيسى حيث اعتقدوا ألوهيته، وهو عبد من عباد الله، وخلق من خلق الله، فقال:

﴿١٧﴾، ﴿١٨﴾ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ

أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لقد كفر النصارى القائلون بأن الله هو المسيح ابن مريم، جعلوه إلهاً؛ وهم فرقة من النصارى زعموا أن الله حل في عيسى ولهذا نجد في كتبهم «وجاء الرب يسوع» وأمثاله، ويسوع عندهم هو عيسى.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قل لهم يا محمد لقد كذبتم، فمن الذي يستطيع أن يدفع عذاب الله لو أراد أن يهلك المسيح وأمه وأهل الأرض جميعاً؟ فعيسى عبد مقهور قابل للفناء كسائر المخلوقات وقد ماتت أم عيسى فلم يدفع عنها الموت، ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية، ولو كان إلهاً لقدر على تخليص نفسه من الموت وهذا دليل على أن عيسى بشر كسائر بني آدم.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: وجميع الموجودات في السموات والأرض ملك لله -جل وعلا-.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: هو قادر على أن يخلق ما يريد إن شاء من أب وأم كسائر بني آدم، وإن شاء من أب بلا أم كحواء، وإن شاء من أم بلا أب كعيسى، وإن شاء من غير أب ولا أم كآدم، فنوع خليقته تعالى بمشيئته النافذة التي لا يستعصي عليها شيء، ولهذا قال:

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، فحقيقة التوحيد توجب تفرد الله تعالى بصفات الربوبية والألوهية، فلا يشاركه أحد من خلقه في ذلك، وكثيراً ما يقع الناس في الشرك والضلال بغلوهم في الأنبياء والصالحين، كما غلا النصارى في المسيح، فالكون كله لله، والخلق بيده وحده.

ثم ذكر تعالى عن اليهود والنصارى افتراءهم، فقال تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ وزعم اليهود والنصارى أنهم من الله بمنزلة الأبناء من الآباء، وأنهم أحباؤه لأنهم على دينه، قال الله رداً عليهم حيث ادعوا بلا برهان:

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي: لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه فلِمَ أعد لكم نار جهنم على كفركم وافترائكم؟! فالله لا يحب إلّا من أطاعه، وقيل لهم:

﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي: أنتم بشر كسائر الناس، وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده تجري عليكم أحكام العدل والفضل.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ فإن أحسنتم جوزيتم بإحسانكم خيراً، وإن أسأتم جوزيتم بإساءتكم شرّاً، فهو تعالى يغفر لمن شاء من عباده فضلاً، ويعذب من شاء عدلاً، لا اعتراض لحكمه ولا راد لأمره.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه وإليه المرجع والمآب، فأي شيء خصكم بهذه الفضيلة، وأنتم من جملة المماليك، ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

* ثم دعا ﷺ أهل الكتاب إلى الإيمان بخاتم المرسلين وأن يشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم على حين انقطاع من الرسل، فقال:

(١٩) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ يا معشر اليهود والنصارى لقد جاءكم رسولنا محمد ﷺ يوضح لكم شرائع الدين على انقطاع من الرسل ودروس من الدين، وشدة حاجة إليه، وكانت الفترة بين عيسى ومحمد مدتها خمسمائة وستون سنة لم يبعث فيها رسول، وقد قطع الله بذلك حجتهم.

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ
أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي
لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ
يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ
٢٦ ۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ
مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ
قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ
لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ
رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ
مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ
لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠
فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي
سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا
ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١

﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾ **لئلا تحتجوا وتقولوا: ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر.**

﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞ﴾ **هو محمد ﷺ فلا عذر لكم بعد إرساله إليكم.**

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ **أي: قادر على عقاب من عصاه وثواب من أطاعه، انقادت الأشياء طوعاً وإذعاناً لقدرته، فلا يستعصي عليه شيء منها.**

*** ثم ذكر تعالى ما عليه اليهود من العناد والجحود، منذ حين أسلافهم الموجودين في عصر موسى عليه السلام، وهم اليوم تمردوا على محمد ﷺ وعصوه، وفي ذلك تسلية له ﷺ، قال تعالى:**

(٢٠)-(٢٦) ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ * يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ * قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ * قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ **واذكر يا محمد حين قال موسى لبني إسرائيل: يا قوم تذكروا نعمة الله العظمى عليكم واشكروه عليها بقلوبكم وألسنتكم.**

﴿إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ **حين بعث فيكم الأنبياء يرشدونكم إلى معالم الدين، وجعلكم ملوكاً تملكون أمركم لا يغلبكم غالب بعد أن كنتم مملوكين لفرعون مقهورين فأنقذكم منه بإغراقه، قيل: لم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء.**

﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ **قد منحكم من أنواع الإنعام والإكرام من فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى ونحوها من النعم التي لم يمنحها أحداً من عالمي زمانكم، فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية الداعي ذلك لإيمانهم وثباته، ولهذا قال:**

﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ **يا قوم ادخلوا الأرض المطهرة وهي «بيت المقدس» وما حولها سميت بذلك؛ لأنها كانت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين.**

﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ **التي وعدكموها على لسان أبيكم إسرائيل وقضى أن تكون لكم.**

﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ **ولا ترجعوا مدبرين منهزمين خوفاً من الجبابرة، روي أنه لما أمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة خافوا من الجبارين الذين فيها وهموا أن يرجعوا إلى مصر.**

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾ **أي: عظام الأجسام طوال القامة شديدي القوة والشجاعة لا قدرة لنا على قتالهم، وهم العمالقة من بقايا عاد.**

﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ أي: لـن ندخلها بالقتال حتى يسلموها لنا من غير قتال.

﴿فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ أي: لا يمكننا الدخول ما داموا فيهـا فإن خرجوا منها دون قتال دخلناها، وهذا من الجبن وقلة اليقين.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ فلـما جبنوا، وضعفوا، حرضهـم رجلان من النقباء ممن يخاف أمر الله ويخشـى عقابه وفيهما الصلاح واليقين، والتوفيق وكلمة الحق.

﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ﴾ أي: قالا لهم لا يهولنكم عظم أجسـامهم، فأجسـامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة فـإذا دخلتـم عليهـم بـاب المدينة غلبتموهم بإذن الله.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: اعتمدوا على الله فإنه ناصركم إن كنتم حقاً مصدقين رسوله فيما جاءكم بـه، عاملين بشرعه. ودلّ هذا عـلى وجوب التـوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، فلم ينجع فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأذلين.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ قال قوم موسى له: إنا لن ندخل المدينة أبداً ما دام الجبارون فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلاهم، أمـا نحن فقاعدون ماكثـون ههنـا ولن نقاتلهـم، وهذا إفراط في العصيان، ومع سـوء الأدب بعبـارة تقتـضي الكفر والاسـتهانة بالله ورسـوله. فلما رأى موسى عليه السلام عتوهم عليه ومخالفتهم أمره.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: توجه موسى إلى ربه داعياً معتـذراً إلى الله، متبرئاً من مقالة السـفهاء: يـا رب لا أملك قومي، لا أملك إلا نفسي وأخي هارون فافصل بيننـا وبـين الخارجين عـن طاعتك بحكمك العادل.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فاسـتجاب الله دعاءه وعاقبهم في التيه أربعين سـنة، والمعنى: قال الله لموسى إن الأرض المقدسة محرم عليهم دخولها مدة أربعين سنة يتيهون في الأرض ولا يهتدون إلى الخـروج منها وهذه عقوبة دنيوية، لعل الله تعـالى كفر بها عنهم، ودفـع عنهم عقوبة أعظـم منها، وفي هـذا دليل عـلى أمـر أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة، أو دفع نقمة قد انعقد سـبب وجودها أو تأخرها إلى وقت آخر.

﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فـلا تحـزن عليهـم فإنهم فاسـقون مستحقون للعقاب، وفي ذلك مواساة لموسـى وتسـلية؛ لأنه عليه السلام في غاية الرحمـة على الخلق، خصوصـاً قومه، روي أنهم كانوا يسيرون الليل كله فإذا أصبحوا وجدوا أنفسـهم في الموضع الذي كانوا فيه، وهـذه القصة تقريع لليهود، وبيـان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسـوله، ونكولهـم عن طاعتهما فيما أمراهـم به من الجهـاد. وقد دل قوله تعـالى ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ على أن من لحقه عذاب الله لا يجـوز أن يحزن عليـه لأن ذلك حكمه، بل يحمـد الله إذا أهلك عدواً من أعدائه.

* لما ذكر تعالى تمـرد بني إسرائيل وعصيانهم لأمر الله في قتال الجبارين، ذكر قصة ابني آدم وعصيان قابيل أمر الله، وإقدامه على قتـل النفس البريئة التي حرمها الله بغياً وحسـداً وظلماً، فاليهـود اقتفوا في العصيـان مع أول عاص لله في الأرض، فطبيعة الشر فيهم مسـتقاة من ولد آدم الأول، فاشتبهت القصتان من حيث التمرد والعصيان، فالداء قديم، والشر أصيل، قال تعالى:

﴿٢٧﴾-﴿٣١﴾ ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ * لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ * فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ

الجُزْءُ السَّادِسُ سُورَةُ المَائِدَةِ

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ
نَفْسَۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ
جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا
جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي
ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ
لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ
أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم
مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ
عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

١١٣

يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: واقصص يا محمد على هؤلاء الحسدة من اليهود وأشباههم خبر قابيل وهابيل ابني آدم، وهو خبر حق وصدق وذكرهم بهذه القصة، فإنها موافقة لما في كتب الأولين.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأٓخَرِ﴾ وذلك حين قرب كل منهما قرباناً فتقبل من هابيل لأنه كان تقياً، ولم يتقبل من قابيل؛ لأنه لم يكن تقيّاً. والقربان: ما يتقرب به إلى الله من نسك أو صدقة، قال المفسرون: سبب هذا القربان أن حواء كانت تلد في كل بطن ذكراً وأنثى وكان يزوج الذكر من البطن الأنثى من البطن الآخر، فلما أراد آدم أن يزوج قابيل أخت هابيل ويزوج هابيل أخت قابيل رضي هابيل وأبى قابيل؛ لأن توأمته كانت أجمل، فقال لهما آدم: قربا قرباناً فمن أيكما تقبل تزوجها، وكان قابيل صاحب زرع قرب أرذل زرعه، وكان هابيل صاحب غنم فقرب أحسن كبش عنده، فقبل قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته فازداد قابيل حسداً وسخطاً وتوعده بالقتل.

﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ قال قابيل لأخيه هابيل حسداً وسخطاً لأقتلنك، قال: ولم؟ قال لأنه تقبل قربانك ولم يتقبل قرباني، قال له مترفقاً له في ذلك: وما ذنبي؟

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إنما يتقبل الله ممن اتقاه وأخلص نيته فما ذنبي وما جنايتي، وقد توعده بالقتل لفرط الحسد له على تقبل قربانه، فأجابه بأنك أتيت من قبل نفسك بترك التقوى لا من قبلي، وفيه إشارة إلى أن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متق لله. وقد ذكر عن عامر بن عبد الله، أنه حين حضرته الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقد كنتَ وكنتَ، فقال: يبكيني أني أسمع الله يقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

ثم قال له مخبراً أنه لا يريد أن يتعرض لقتله، لا ابتداء ولا مدافعة، فقال:

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ أي: لئن مددت إليَّ يدك ظلماً لأجل قتلي ما كنت لأقابلك بالمثل، فما أنا منتصر لنفسي وليس ذلك جبناً مني ولا عجزاً.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: لا أمد يدي إليك لأني أخاف رب الخلائق أجمعين، والخائف لله لا يقدم على الذنوب خصوصاً الذنوب الكبار، قيل: كان هابيل أقوى من القاتل ولكنه تحرج عن قتل أخيه خوفاً من الله.

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أني أريد أن ترجع حاملاً إثم قتلي، وإثمك الذي عليك قبل ذلك، فتكون من أهل النار وملازميها.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: عقاب من تعدى وعصى أمر الله. قال ابن عباس: خوفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فزينت له نفسه وحسنت له قتل أخيه فقتله؛ فخسر وشقي في الدنيا والآخرة.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ لما قتل قابيل أخاه لم يعرف ما يصنع بجسده، فأرسل الله غرابين فاقتتلا حتى قتل أحدهما صاحبه، ثم حفر له فدفنه ليرى القاتل كيف يستر

جسد أخيه، وكان ابن آدم هذا أول من قتل، وروي أنه لما قتله تركه بالعراء ولم يدر كيف يدفنه حتى رأى الغراب يدفن صاحبه فلما رآه:

﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾ قال قابيل متحسراً يا ويلي ويا هلاكي أضعفت أن أكون مثل هذا الطير فأستر جسد أخي في التراب كما فعل هذا الغراب؟

﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ صار نادماً على عدم الاهتداء إلى دفن أخيه لا على قتله. قال ابن عباس: ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبة له. وقال بعض المفسرين: أهان الله قابيل لمعصيته، فبعث له من الدواب أفسقها وأخسها وهو الغراب.

٣٢-٣٤ ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ۝ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بسبب جناية القتل هذه، شرعنا وحكمنا لبني إسرائيل أن من قتل منهم نفساً ظلماً بغير أن يقتل نفساً فيستحق القصاص وبغير فساد يوجب إهدار الدم كالردة وقطع الطريق، خص بني إسرائيل بالذكر وإن اشترك الكل في ذلك؛ لأن التوراة كتاب فيه الأحكام.

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ فكأنه قتل جميع الناس، فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله، من حيث إنه هتك حرمة الدماء وسن القتل وجرأ الناس عليه، والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ترهيباً عن التعرض لها وترغيباً في المحاماة عليها.

﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ ومن تسبب لبقاء حياتها واستنقذها من الهلكة، من قتل أو غرق أو حرق أو هدم أو غير ذلك فكأنه أحيا جميع الناس، فالحفاظ على حرمة إنسان واحد حفاظ على حرمات الناس كلهم، قال ابن عباس في تفسير الآية: من قتل نفساً واحدة حرمها الله فهو مثل من قتل الناس جميعاً، ومن امتنع عن قتل نفس حرمها الله وصان حرمتها خوفاً من الله فهو كمن أحيا الناس جميعاً.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: ولقد أتت بني إسرائيل رسلنا بالمعجزات الساطعات والآيات الواضحات على صحة ما دعوهم إليه من الإيمان بربهم، وأداء ما فرض عليهم، فلم تبق حجة لأحد.

﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ ثم إن كثيراً من الناس بعد تلك الزواجر كلها يسرفون في القتل ولا يبالون بعظمته، وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها، ومع علم اليهود بهذه المبالغة العظيمة أقدموا على قتل الأنبياء والرسل، وذلك يدل على غاية قساوة قلوبهم ونهاية بعدهم عن طاعة الله تعالى، ولما كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول ﷺ؛ لأنهم عزموا على الفتك به وبأصحابه، كان تخصيص بني إسرائيل بهذه المبالغة العظيمة مناسباً للكلام ومؤكداً للمقصود. ثم ذكر تعالى عقوبة قطاع الطريق، فقال:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يحاربون شريعة الله ودينه وأولياءه ويحاربون رسوله ويعتدون على أحكامه، وعلى أحكام رسوله. وعبر بنفسه العزيزية عن أوليائه إكباراً لأذيتهم.

ذكر أن رهطاً من عرينة قدموا على رسول الله ﷺ فاجتووا المدينة استوخموها فبعثهم رسول الله ﷺ إلى إبل الصدقة وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها، فلما صحوا قتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا النعم، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم فجيء بهم فأمر بهم؛ فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم وألقوا في الحرة حتى ماتوا فنزلت: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ...﴾ الآية.

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟
أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ
يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ
لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ
ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ
ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ
ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ
يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ
فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ
فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

١١٤

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ **أي: يفسدون في الأرض بالمعاصي وسفك الدماء وسلب الأموال وقطع الطريق.**

﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟﴾ **أي: يقتلوا جزاء بغيهم، أو يقتلوا ويصلبوا زجراً لغيرهم، والصيغة للتكثير.**

﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ **معناه أن تقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى.**

﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ **أي: يطردوا ويبعدوا من بلد إلى بلد غير بلدهم، ويحبسوا في سجن ذلك البلد حتى تظهر توبتهم.**

﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ **ذلك الجزاء والنكال المذكور ذل لهم وفضيحة وعار في الدنيا.**

﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ **ولهم في الآخرة عذاب النار إن لم يتوبوا، قال بعض العلماء: الإمام بالخيار إن شاء قتل، وإن شاء صلب، وإن شاء قطع الأيدي والأرجل، وإن شاء نفى. وقال ابن عباس: لكل رتبة من الحرابة رتبة من العقاب فمن قتل قتل، ومن قتل وأخذ المال قتل وصلب، ومن اقتصر على أخذ المال قطعت يده ورجله من خلاف، ومن أخاف فقط نفي من الأرض، وهذا قول الجمهور.**

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ **لكن الذين تابوا من هؤلاء المحاربين وقطاع الطريق قبل القدرة على أخذهم وعقوبتهم من غير حصار ولا مطاردة، بل جاء طائعاً نادماً فإنه يسقط عنه ما كان لله.**

﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **أي: واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب، يقبل توبته ويغفر زلته.**

*** ثم أمر تعالى المؤمنين بالتقوى والعمل الصالح، والحذر من سخطه وعقابه، فقال:**

﴿٣٥﴾، ﴿٣٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ **أي: خافوا عقابه واطلبوا ما يقربكم إليه من طاعته وعبادته والعمل بما يرضيه.**

﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ **أي: القرب منه والحظوة لديه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه. ثم خص تعالى من العبادات المقربة إليه، الجهاد في سبيله، فقال:**

﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ **جاهدوا لإعلاء دينه لتفوزوا وتظفروا بنعيم الأبد.**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ **إن الذين جحدوا وحدانية الله وشريعته لو أنهم ملكوا جميع ما في الأرض من خيرات وأموال ومثله معه.**

﴿لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **أي: وأراد يوم القيامة من شناعة الحال وشدة المآل أن يفتدي بها نفسه من عذاب الله ما نفعه ذلك، وله عذاب مؤلم موجع.**

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ **أي: يتمنى ويطلب هؤلاء الكافرون الخروج من النار لما يلاقونه من أهوالها، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ولهم عذاب دائم لا ينقطع، وفي الحديث:**

«يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك ألا تشرك بي فأبيت؛ فيؤمر به إلى النار» [رواه البخاري].

* لما ذكر سبحانه حكم من يأخذ المال جهاراً وهو المحارب، عقبه بذكر من يأخذ المال خفية، وهو السارق، فقال تعالى:

(٣٨)-(٤٠) ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ أي: كل من سرق رجلاً كان أو امرأة فاقطعوا يده بمقتضى الشرع، والسارق: هو من أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير رضاه.

قال بعض العلماء: إن الاستزادة من الحرام يتسبب عنها نقص من الحلال.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ قبيح منهما، لكنه من الرجل أقبح لقدرته على الكد فبدأ به.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: مجازاة لهما على أخذهما أموال الناس بغير حق، وذلك عقوبة ونكالاً يمنع الله بها غيرهما أن يصنع مثل صنيعهما.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ والله عزيز في ملكه، حكيم في شرعه فلا يأمر بقطع اليد ظلماً.

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ أي: فمن تاب من بعد سرقته، وأصلح سيرته وعمله.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ﴾ أي: يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة. ثم نبه تعالى على واسع ملكه وأنه لا معقب لحكمه، فقال:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ألم تعلم أيها المخاطب أن الله تعالى له السلطان القاهر، والملك الباهر، وبيده ملكوت السموات والأرض، والاستفهام للتقرير.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعذب من يشاء تعذيبه، ويغفر لمن يشاء غفران ذنبه، وهو القادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء.

* أرشد تعالى نبيه ﷺ إلى أن لا يأسى ولا يحزن لمن يظهر الإيمان، ثم يرجع إلى الكفر، فقد كان ﷺ يشتد حزنه على أمثال هؤلاء، فقال تعالى:

(٤١)-(٤٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ *

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ فَإِن جَآءُوكَ
فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن
يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ
وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ
فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ
لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن
كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ
وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا
عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ
بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ
قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن
لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ **الخطاب للرسول ﷺ على وجه التسلية، أي: لا تتأثر يا محمد ولا تحزن لصنيع الذين يتسابقون نحو الكفر ويقعون فيه بسرعة فإنهم لم يعجزوا الله. عن البراء بن عازب قال: مر على النبي ﷺ بيهودي محمماً مجلوداً فدعاهم فقال: «هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا خذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذا أماتوه» فأمر به فرجم فأنزل الله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ **إلى قوله:** ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ **يقولون: ائتوا محمداً فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا»** [رواه مسلم]. **ثم قال تعالى:**

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ **من المنافقين الذين لم يجاوز الإيمان أفواههم، يقولون بألسنتهم آمنا وقلوبهم كافرة.**

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ **ومن اليهود.**

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ **أي: هم مبالغون في سماع الأكاذيب والأباطيل، وفي قبول ما يفتريه أحبارهم من الكذب على الله وتحريف كتابه.**

﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ **مبالغون في قبول كلام قوم آخرين لم يحضروا مجلسك تكبراً وإفراطاً في العداوة والبغضاء وهم يهود خيبر، والسماعون للكذب بنو قريظة.**

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ **أي: يزيلونه ويميلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها، والمراد تحريف أحكام الله وتغييرها بأحكام أخرى. قال ابن عباس: هي حدود الله في التوراة غيروا الرجم بالجلد والتحميم يعني تسويد الوجه.**

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ **أي: إن أمركم محمد بالجلد فاقبلوا، وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا؛ لا قصد لهم إلا اتباع الهوى.**

قال تعالى رداً عليهم:

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ **ومن يرد الله كفره وضلالته فلن يقدر أحد على دفع ذلك عنه.**

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ **أي: لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من رجس الكفر وخبث الضلالة لقبح صنيعهم وسوء اختيارهم فلذلك صدر منهم ما صدر.**

﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ **ذل وفضيحة.**

﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ **هو الخلود في نار جهنم وسخط الجبار. والآية جاءت تسلية للرسول ﷺ وتخفيفاً عنه من ثقل حزنه على مسارعتهم في الكفر وقطعاً لرجائه من فلاحهم.**

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ **أي: من قله دينهم وعقلهم، سماعون للباطل، كرره تأكيداً وتفخيماً، والسمع ها هنا سمع استجابة.**

﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ **أي: المال الحرام وهو كل ما لا يحل كسبه، من الرشوة والربا وشبه ذلك.**

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ **فإن تحاكموا إليك يا محمد فيما شجر بينهم من الخصومات فأنت مخير بين أن تحكم بينهم وبين أن تعرض عنهم؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم.**

﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ **لأن الله عاصمك وحافظك من الناس.**

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: حتى ولو كانوا ظلمة وأعداء خارجين عن طريق العدل؛ فلا يمنعك ذلك من الحكم بينهم بالعدل والحق لأن الله يحب العادلين. ثم قال تعالى منكراً عليهم مخالفتهم لأحكام التوراة، ومتعجباً لهم ولحالهم:

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ وكيف يحكمك يا محمد هؤلاء اليهود ويرضون بحكمك وعندهم التوراة فيها حكم الله يرونه ولا يعملون به. وهذا تعجيب من الله تعالى لنبيه ﷺ بتحكيم اليهود إياه بعد علمهم بما في التوراة من حد الزاني ثم تركهم قبول ذلك الحكم، فعدلوا عما يعتقدونه حكماً حقاً إلى ما يعتقدونه باطلاً طلباً للرخصة فظهر بذلك جهلهم وعنادهم.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد أن وضح لهم الحق وبان.

﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هؤلاء الذين هذا صنيعهم ليسوا بمصدقين لك؛ لأنهم لا يؤمنون بكتابهم التوراة لإعراضهم عنه، وعن حكمك الموافق لما فيه. ثم مدح تعالى التوراة بأنها نور وضياء، فقال:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ أي: أنزلنا التوراة على موسى فيها بيان واضح ونور ساطع يهدي إلى الإيمان والحق، ويعصم من الضلالة، ويكشف ما اشتبه من الأحكام ويزيل ظلم الجهل والحيرة والشكوك، والشبهات والشهوات.

﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ يحكم بالتوراة أنبياء بني إسرائيل الذين انقادوا لحكم الله وأقروا به.

﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: يحكمون بالتوراة لليهود لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها.

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ وكذلك يحكم بالتوراة العلماء منهم والفقهاء وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق.

﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ بسبب أمر الله إياهم بحفظ كتابه من التحريف والتضييع.

﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ وكان الربانيون والأحبار شهداء على أن أنبياءهم قد قضوا في اليهود بكتاب الله.

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ فلا تخافوا يا علماء اليهود الناس في إظهار ما عندكم من نعت محمد ﷺ والرجم، بل اخشوني في كتمان ذلك فأنا النافع الضار.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولا تستبدلوا بآياتي حطام الدنيا الفاني من الرشوة والجاه والعرض.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ومن لم يحكم بشرع الله كائناً من كان فقد كفر. قال ابن عباس: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، فهو ظلم أكبر عند استحلاله، وعظيمة كبيرة عند فعله غير مستحل له. والآية وإن كان الظاهر من سياقها أن الخطاب فيها لليهود إلا أنها عامة في اليهود وغيرهم، وكل آية وردت في الكفار تجر بذيلها على عصاة المؤمنين.

(٤٥) ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ وفرضنا وأوجبنا على اليهود في التوراة: أن النفس تقتل بالنفس.

﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ والعين تفقأ بالعين إذا فقئت دون حق.

﴿وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ﴾ والأنف يجدع بالأنف إذا قطع ظلماً.

﴿وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ﴾ والأذن تقطع بالأذن.

﴿وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ والسن يقلع بالسن.

﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي: يقتص من جانيها بأن يفعل به مثل ما فعله بالمجني عليه، وهذا في الجراح التي يمكن فيها المماثلة ولا يخاف على النفس منها.

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ فمن تصدق من أصحاب الحق وعفا فهو كفارة له، أي للمتصدق ويكفر الله ذنوبه لعفوه وإسقاطه حقه.

الجزء السادس سورة المائدة

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾
وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ
وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ
عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ
فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ
بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم
بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ
ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

١١٦

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ **فأولئك هم المتجاوزون حدود الله، المبالغون في الظلم لمخالفة شرع الله.**

﴿٤٦﴾، ﴿٤٧﴾ ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ **وأتبعنا على آثار النبيين بعيسى ابن مريم وأرسلناه عقيبهم مصدقاً لما تقدمه من التوراة، عاملاً بما فيها مما لم ينسخه كتابه.**

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ **وأنزلنا عليه الإنجيل الكتاب العظيم المتمم للتوراة، فيه هدى إلى الحق ونور يستضاء به لإزالة الشبهات، ومبيناً لما جهله الناس من حكم الله.**

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ **ومعترفاً بأنها من عند الله، بتثبيتها والشهادة لها، والتكرير لزيادة التقرير.**

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ **وهادياً وواعظاً للمتقين الذين يخافون الله، وزاجراً لهم عن ارتكاب المحرمات، فإنهم الذين ينتفعون بالهدى، ويتعظون بالمواعظ.**

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ **أي: وآتينا عيسى ابن مريم الإنجيل وأمرناه وأتباعه بالحكم به.**

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ **أي: المتمردون الخارجون عن الإيمان وطاعة الله.**

*** لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى، ومدحها وأثنى عليها وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع، وذكر الإنجيل ومدحه وأمر بما فيه، شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، فقال تعالى:**

﴿٤٨﴾-﴿٥٠﴾ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ * أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ **وأنزلنا إليك يا محمد القرآن بالعدل والصدق الذي لا ريب فيه فهو أفضل الكتب وأجلها.**

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ **أي: وكل ما فيه حق يشهد على صدق الكتب السماوية التي سبقته وأنها من عند الله.**

﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ **ومؤتمناً عليه وحاكماً على ما قبله من الكتب، واسم المهيمن يتضمن ذلك فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله جمع الله فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره.**

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فاحكم يا محمد بين الناس بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ لكل أمة جعلنا شريعة وطريقاً بيناً واضحاً خاصاً بتلك الأمة، فلليهود شرعة ومنهاج، وللنصارى كذلك، والمراد في الأحكام، وأما المعتقد فواحد لجميع الناس، توحيد وإيمان بالرسل وجميع الكتب وما تضمنته من المعاد والجزاء.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ولو أراد الله لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شيء منها الآخر.

﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ولكنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ليختبر العباد هل يذعنون لحكم الله أم يعرضون؟ فخالف بين الشرائع لينظر المطيع من العاصي.

﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فسارعوا وبادروا إلى ما هو خير لكم في الدارين من طاعة الله واتباع شرعه.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: معاد ومصير الأمم السابقة واللاحقة إلى الله يوم القيامة فيخبرهم بما اختلفوا فيه من أمر الدين ويجازيهم بأعمالهم.

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: احكم بين أهل الكتاب بهذا القرآن ولا تتبع أهواءه الذين يحتكمون إليك.

﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ واحذر هؤلاء الأعداء أن يصرفوك عن شريعة الله فتترك العمل به.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ فإن أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله وأرادوا غيره؛ فاعلم يا محمد أنما يريد الله أن يعاقبهم ببعض إجرامهم وذنوبهم التي اكتسبوها من قبل، وهذا الإبهام لتعظيم التولي، وفيه تعظيم الذنوب، فإن الذنوب بعضها مهلك فكيف بكلها.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ أي: أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم، مخالفون للحق، منهمكون في المعاصي.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والمعنى أيتولون عن حكمك ويبتغون غير حكم الله وهو حكم الجاهلية؟

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ومن أعدل من الله في حكمه، وأصدق في بيانه، وأحكم في تشريعه لقوم يصدقون بالعلي الحكيم.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ
نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ
فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ
أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ
مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ
عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا
يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

* لما حكى تعالى عن أهل الكتاب أنهم تركوا العمل بالتوراة والإنجيل وحكم عليهم بالكفر والظلم والفسوق، حذر تعالى في هذه الآيات من موالاة اليهود والنصارى، ثم عدد جرائم اليهود وما اتهموا به الذات الإلهية المقدسة من شنيع الأقوال وقبيح الفعال، قال تعالى:

﴿٥١﴾-﴿٥٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ

فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ * وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ نهى تعالى المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى ينصرونهم ويستنصرون بهم ويصافونهم ويعاشرونهم معاشرة المؤمنين. عن ابن عباس قال: كان رفاعة بن زيد وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا﴾ الآية.

﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ في العون والنصرة، وهم يد واحدة على المسلمين لاتحادهم في الكفر والضلال، وملة الكفر واحدة فاليهود يوالي بعضهم بعضاً، وكذلك النصارى، وكلا الفريقين يجتمع على عداوتكم.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ أي: فيوافقهم ويعينهم فإنه من جملتهم وحكمه حكمهم؛ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم، والتولي القليل يدعو إلى الكثير ثم يتدرج شيئاً فشيئاً حتى يكون العبد منهم. وهذا تغليظ من الله وتشديد في مجانبة المخالف في الدين واعتزاله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يهديهم إلى الإيمان لأنهم تولوا الكافرين. عن محمد بن سيرين قال: قال عبد الله بن عتبة: ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر، قال: فظنناه يريد هذه الآية.

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾ يخبر تعالى عن جماعة من المنافقين أنهم كانوا يبادرون في موادة اليهود لما في قلوبهم من الشك والنفاق كعبد الله بن أبي وأصحابه.

﴿يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾ يقولون معتذرين عن موالاة الكافرين نخاف حوادث الدهر وشروره أن يظفر اليهود بالمسلمين فلا يتم الأمر لمحمد فيصيبونا معهم، قال تعالى رداً على مزاعمهم الفاسدة وظنهم السيء:

﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ﴾ يعني فتح مكة الذي يعز الله به الإسلام، وهذا بشارة للنبي ﷺ والمؤمنين بوعده تعالى بالفتح والنصرة.

﴿أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ أي: يهلكهم بأمر من عنده لا يكون فيه تسبب لمخلوق كإلقاء الرعب في قلوبهم كما فعل ببني النضير.

﴿فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ أي: يصير المنافقون نادمين على ما كان منهم من موالاة أعداء الله من اليهود والنصارى.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ﴾ أي: وحينئذ يقول المؤمنون تعجباً من حال هؤلاء المنافقين إذا هتك الله سترهم، أهؤلاء الذين حلفوا لكم يا معشر اليهود بأغلظ الأيمان إنهم لمعكم بالنصرة والمعونة.

﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ بطلت أعمالهم؛ لأنهم عملوها من غير إيمان، فصاروا خاسرين في الدنيا بافتضاحهم، والآخرة بالعذاب وفوات الثواب.

* يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه ويتولى عن نصرته وإقامة شريعته، فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه، قال تعالى:

(٥٤)-(٥٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ خطاب على وجه التحذير والوعيد، والمعنى: يا معشر المؤمنين من يرجع منكم عن دينه الحق ويبدله بدين آخر، ويرجع عن الإيمان إلى الكفر.

﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ أي: فلن تضروا الله شيئاً فسوف يأتي الله مكانهم بأناس مؤمنين يحبهم الله ويحبون الله ومن صفاتهم أنهم:

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: رحماء متواضعين للمؤمنين، أشداء متعززين على الكافرين، قال ابن كثير: وهذه صفات

المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه متعززاً على عدوه كقوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ومن علامة حب الله تعالى للمؤمن أن يكون لين الجانب متواضعاً لإخوانه المؤمنين متسربلاً بالعزة حيال الكافرين والمنافقين، فهو مع المؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده، ومع الكافرين كالسبع على فريسته.

﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ﴾

قال ابن تيمية:

«تدل على أنه لا يرتد أحد إلى يوم القيامة إلا أقام الله قوماً يجاهدون هؤلاء المرتدين».

﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ يجاهدون لإعلاء كلمة الله بأموالهم وأنفسهم بأقوالهم وأفعالهم، ولا يبالون بمن لامهم؛ بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، فهم صلاب في دين الله لا يخافون في ذات الله أحداً. ولما مدحهم تعالى بما منَّ به عليهم من الصفات الجليلة والمناقب العالية، أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه، لئلا يعجبوا بأنفسهم، وليشكروا الذي منَّ عليهم ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرهم أن فضل الله ليس عليه حجاب، قال:

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: من اتصف بهذه الأوصاف الحميدة فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع الإفضال والإحسان، جزيل المنن، عليم بمن يستحق الفضل فيمنحه، ومن لا يستحق فيمنعه. ثم لما نهاهم تعالى عن موالاة الكفرة ذكر هنا من هم حقيقون بالموالاة، فقال:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ليس اليهود والنصارى بأوليائكم إنما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون، فولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى فكل من كان مؤمناً تقياً، كان لله ولياً. وإنما أفرد «الولي» ولم يجمع مع أنه متعدد للإيذان بأن الولاية لله أصل، ولغيره تبع لولايته ﷻ، فالتقدير: وكذلك رسوله والذين آمنوا.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ أي: المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون متواضعون لله ﷻ، ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ ومن يتول القيام بطاعة الله ونصرة رسوله والمؤمنين، فإنه من أنصار دين الله وهم الغالبون القاهرون لأعدائهم، الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، وهذه بشارة عظيمة لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنده، أن له الغلبة، وإن أديل عليه في بعض

الجزء السادس سورة المائدة

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾
قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ
عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد
دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ
﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ
ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ
وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ
يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ
بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ
وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا
ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

١١٨

الأحيان لحكمة يريدها الله تعالى، فآخر أمره الغلبة والانتصار.

* ينهى تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار أولياء يحبونهم ويتولونهم، قال تعالى:

﴿٥٧﴾، ﴿٥٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ يا أيها الذين صدقوا الله واتبعوا رسوله لا تتخذوا أعداء الدين الذين يسخرون من دينكم ويهزؤون به.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ من هؤلاء المستهزئين اليهود والنصارى وسائر الكفرة أولياء لكم تودونهم وتحبونهم وهم أعداء لكم، فمن اتخذ دينكم سخرية لا يصح لكم أن تصادقوه أو توالوه بل يجب أن تبغضوه وتعادوه.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ واتقوا الله وخافوه في موالاة الكفار والفجار إن كنتم مؤمنين حقاً. ثم بين تعالى جانباً من استهزائهم، فقال:

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ وإذا أذنتم إلى الصلاة التي هي أظهر شعائر المسلمين ودعوتموهم إليها؛ سَخِروا منكم ومن صلاتكم، وقد حسد اليهود الرسول ﷺ حين سمعوا الأذان وقالوا: ابتدعت شيئاً لم يكن للأنبياء؛ فمن أين لك الصياح كصياح العير فما أقبحه من صوت، فأنزل الله هذه الآية، ونبّه تعالى على أن من استهزأ بالصلاة ينبغي أن لا يتخذ ولياً بل يهجر ويطرد، وهذه الآية جاءت كالتوكيد للآية قبلها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ ذلك الفعل منهم بسبب أنهم فجرة لا يعقلون حكمة الصلاة، ولا يدركون غايتها في تطهير النفوس، ونفى العقل عنهم لكونهم لم ينتفعوا به في أمر الدين؛ وإن كان لهم عقول يدركون بها مصالح الدنيا.

﴿٥٩﴾-﴿٦٣﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ * وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ * وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: قل يا محمد: يا معشر اليهود والنصارى هل تعيبون علينا وتنكرون منا، إلا إيماننا بالله، وبما جاء به رسل الله، قال ابن كثير: أي: هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة فيكون الاستثناء منقطعاً.

﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ خارجون عن الطريق المستقيم، ولما كان قدمهم في المؤمنين يقتضي أنهم يعتقدون أنهم على شر، قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ قل لهم يا محمد مخبراً عن شناعة ما كانوا عليه: هل أخبركم بما هو شر من هذا الذي تعيبونه علينا؟

﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: ثواباً وجزاءً ثابتاً عند الله، ووضع الثواب موضع العقاب تهكماً بهم نحو قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]. عن ابن عباس قال: جاء نفر من اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل عليهم السلام، فقال: أؤمن ﴿بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]» فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم فأنزل الله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية.

﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: طرده وأبعده من رحمته، وسخط عليه وعاقبه في الدنيا والآخرة بكفره وانهماكه في المعاصي بعد وضوح الآيات.

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي: ومسخ بعضهم قردة وخنازير، وجعل منهم من عبد الشيطان بطاعته. والطاغوت: هو كل ما عُبد من دون الله.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: هؤلاء الملعونون الموصوفون بتلك القبائح والفضائح شر مكاناً في الآخرة، وأكثر ضلالاً عن الطريق المستقيم.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: وإذا جاءكم أيها المؤمنون

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا
التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا
مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ
بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ
رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ
تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ
وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ
فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا
مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ
بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

١١٩

منافقو اليهود أظهروا الإسلام نفاقاً ومكراً، والحال أنهم قد دخلوا إليكم كفاراً وخرجوا كفاراً لم ينتفعوا بما سمعوا منك يا محمد من العلم، ولا نجعت فيهم المواعظ والزواجر.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ **أي: والله أعلم بسرائرهم، وكفرهم ونفاقهم فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها، وفيه وعيد شديد لهم. ثم استمر تعالى يعدد معايبهم انتصاراً لقدحهم في عباده المؤمنين، فقال:**

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ **وترى يا محمد كثيراً من اليهود يسابقون في المعاصي والظلم.**

﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ **وأكلهم الحرام. ولم يكتف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك، حتى أخبر أنهم يسارعون فيه، وهذا يدل على خبثهم وشرهم، وأن أنفسهم مجبولة على حب المعاصي والظلم، هذا وهم يدعون لأنفسهم المقامات العالية.**

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ **أي: بئس أعمالهم القبيحة تلك الأخلاق الشنيعة.**

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ **أي: هلا يزجرهم علماؤهم وأحبارهم الذين منّ الله عليهم بالعلم والحكمة، عن المعاصي والآثام وأكل الحرام.**

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ **أي: بئس صنيعهم ذلك تركهم النهي عن ارتكاب محارم الله، وقد تضمنت هذه الآية توبيخ العلماء والعباد على سكوتهم عن النهي عن معاصي الله. قال ابن عباس: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية يعني على العلماء.**

*** يطلع الله نبيه على شيء من مآثم اليهود وكان مما يسرونه بينهم أنهم قالوا ما فضحه الله ﷻ بقوله:**

﴿٦٤﴾-﴿٦٦﴾ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ **يخبر تعالى عن مقالة اليهود الشنيعة، أي: قال اليهود إن الله بخيل يقتر الرزق على العباد، قال ابن عباس: مغلولة أي بخيلة أمسك ما عنده بخلاً، ليس يعنون أن يد الله موثقة ولكنهم يقولون إنه بخيل.**

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ **دعاء عليهم بالبخل المذموم والفقر والنكد، أي: بجنس مقالتهم، وهكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم.**

﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ **وأبعدهم الله من رحمته بسبب تلك المقالة الشنيعة.**

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ **أي: ليس الأمر كما يفترونه على ربهم، بل هو جواد كريم، سابغ الإنعام، يرزق ويعطي كما يشاء على مقتضى الحكمة وما فيه مصلحة العباد، وفي الآية إثبات لصفة اليدين لله ﷻ كما يليق به من**

غير تشبيه ولا تكييف، وذكر اليدين مع كونهم لم يذكروا إلا اليد الواحدة مبالغة في الرد عليهم بإثبات ما يدل على غاية السخاء، فإن نسبة الجود إلى اليدين أبلغ من نسبته إلى اليد الواحدة.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ وليزيدنهم هذا القرآن الذي أنزل عليك يا محمد كفراً فوق كفرهم، وطغياناً فوق طغيانهم، إذ كلما نزلت آية كفروا بها فيزداد طغيانهم وكفرهم كما أن الطعام للأصحاء يزيد المرضى مرضاً، قال الطبري: أعلم تعالى نبيه أنهم أهل عتو وتمرد على ربهم وأنهم لا يذعنون لحق وإن علموا صحته ولكنهم يعاندونه، يسلي بذلك نبيه ﷺ في ذهابهم عن الله وتكذيبهم إياه.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وألقينا بين اليهود العداوة والبغضاء يعادي بعضهم بعضاً، وينفر بعضهم من بعض، فكلمتهم مختلفة وقلوبهم شتى، لا يزالون متباغضين متعادين فلا يتآلفون ولا يتناصرون إلى قيام الساعة.

﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ كلما تآمروا على المسلمين وأرادوا إشعال حرب ليكيدوا بها الإسلام وأهله رد الله كيدهم، وفرق شملهم. عن قتادة: لا تلقى يهودياً في بلد إلا وقد وجدته من أذل الناس.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ ويجتهدون في الكيد للإسلام وأهله ويسعون لإثارة الفتن بين المسلمين، ومن سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: لا يحب من كانت هذه صفته بل يبغضهم أشد البغض وسيجازيهم على ذلك.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ ولو أن اليهود والنصارى صدقوا بالله وبرسوله حق التصديق واتقوا محارم الله فاجتنبوها.

﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: محونا عنهم ذنوبهم التي اقترفوها، ولأدخلناهم مع ذلك في جنات النعيم، وهذا من كرمه وجوده، حيث ذكر قبائح أهل الكتاب ومعايبهم وأقوالهم الباطلة، ثم دعاهم إلى التوبة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ولو أنهم استقاموا على أمر الله وعملوا بما في التوراة والإنجيل وبما أنزل إليهم في هذا الكتاب الجليل الذي نزل على خاتم الرسل ﷺ.

﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ أي: لوسع الله عليهم الأرزاق وأغدق عليهم الخيرات، بإفاضة بركات السماء والأرض عليهم وهذا جزاء الدنيا.

﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي: من أهل الكتاب جماعة معتدلة مستقيمة غير غالية ولا مقصرة؛ عاملة بالتوراة والإنجيل، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ كعبد الله ابن سلام والنجاشي وسلمان.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ وكثير منهم أشرار، بئس ما يعملون من قبيح الأقوال وسوء الفعال.

* لما حذر تعالى المؤمنين من موالاة الكافرين، وكانت رسالته ﷺ تتضمن الطعن في أحوال الكفرة والمخالفين، وهذا يستدعي مناصبتهم العداء له ولأتباعه، أمره تعالى في هذه الآيات بتبليغ الدعوة، ووعده بالحفظ والنصرة، قال تعالى:

﴿٦٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هذا نداء تشريف وتعظيم ناداه تعالى بأشرف الأوصاف بالرسالة الربانية، أي: بلغ رسالة ووحي ربك غير مراقب أحداً ولا خائف أن ينالك مكروه. عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعاً وعرفت أن من الناس من يكذبني فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾» الآية.

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك فإن كتمت شيئاً منه فما بلغت رسالته، وهذا تأديب لحملة العلم من

أمته ألا يكتموا شيئاً من أمر شريعته، وقد بلغ ﷺ رسالة ربه كاملة فمن زعم أنه كتم شيئاً مما أنزل عليه، فقد أعظم على الله ورسوله الفرية.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ أي: بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك من أن ينالوك بسوء، وهذا وعد من الله بالحفظ والكلاءة، والمعنى: والله يضمن لك العصمة من أعدائك فما عذرك في مراقبتهم؟ روي أن رسول الله ﷺ كان يُحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة أدم وقال: «انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله ﷻ».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ والله هو الذي يهدي من يشاء ولا يوفق للرشد من حاد عن سبيل الحق وجحد ما جئت به من عند الله وإنما عليك البلاغ.

* ثم ذكر تعالى طرفاً من عقائد أهل الكتاب الفاسدة وبخاصة النصارى الذين يعتقدون بألوهية عيسى وأنه ثالث ثلاثة، ورد عليهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع. فقال تعالى:

﴿٦٨﴾، ﴿٦٩﴾ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ قل يا محمد لليهود والنصارى لستم على حظ من الدين أصلاً حتى تعملوا بما في التوراة الإنجيل وتقيموا أحكامها على الوجه الأكمل. عن ابن عباس قال: جاء جماعة من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: ألست تقر أن التوراة حق من عند الله؟ قال: «بلى»، فقالوا: فإنا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها، فأنزل الله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ...﴾ الآية.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ أي: وما جاءكم به محمد ﷺ من القرآن.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ﴾ اللام للقسم، أي: وأقسم ليزيدن هذا القرآن المنزل عليك يا محمد الكثير منهم غلواً في التكذيب وجحوداً لنبوتك وإصراراً على الكفر والضلال.

﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلا تحزن عليهم فإن تكذيب الأنبياء عادتهم ودأبهم، وهذه تسلية للنبي ﷺ وليس بنهي عن الحزن. ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدقوا الله ورسوله وهم المسلمون.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ وهم اليهود.

﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ وهم طائفة من النصارى عبدوا الكواكب.

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ وهم أتباع عيسى.

﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ من آمن من هؤلاء المذكورين بالله إيماناً صحيحاً خالصاً لا يشوبه ارتياب وباليوم الآخر وعمل صالحاً يقربه من الله.

﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ فلا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال يوم القيامة ولا هم يحزنون على ماخلفوا وراءهم من الدنيا بعد معاينتهم جزيل ثواب الله، قال ابن كثير: والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله واليوم الآخر وعملت عملاً صالحاً ولا يكون ذلك كذلك حتى يوافق الشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين، فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما تركوه وراء ظهورهم.

* ثم أخبر تعالى بما صدر من أسلاف اليهود من نقض الميثاق الذي أخذه تعالى عليهم بما اجترحوه من الجرائم العظام من تكذيب الأنبياء وقتل بعضهم، وهؤلاء أخلاف أولئك فغير بدع ما يصدر منهم للرسول من الأذى والعصيان إذ ذاك شنشنة من أسلافهم، قال تعالى:

﴿٧٠﴾، ﴿٧١﴾ ﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ * وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ

الجزءُ السادسُ سُورَةُ المَائِدَةِ

وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ
عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٧١
لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ
يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ
بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا
لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ
ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ
عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣
أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٤
مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ
صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ
ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦ قُلۡ
يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ
قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧

١٢٠

وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾.

﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ﴾ أي: أخذنا من اليهود العهد المؤكد على الإيمان بالله ورسله، وأرسلنا لهم الرسل يتوالون عليهم بالدعوة، ليرشدوهم ويبينوا لهم أمر الدين، ولكن ذلك لم ينجع فيهم، ولم يفد.

﴿كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ﴾ كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما يخالف أهواءهم وشهواتهم.

﴿فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ﴾ أي: كذبوا طائفة من الرسل، ويقتلون طائفة أخرى منهم، وإنما جيء بـ ﴿يَقۡتُلُونَ﴾ موضع قاتلوا على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها واستفظاعاً للقتل وتنبيها على أن ذلك من ديدنهم ماضياً ومستقبلاً ومحافظة على رؤوس الآي.

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: وظن بنو إسرائيل أن لا يصيبهم الله بالبلاء والعذاب لقتلهم الأنبياء وتكذيبهم الرسل، اغتراراً بإمهال الله ﷻ لهم.

﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ أي: تمادوا في الغي والفساد، فعموا عن الهدى فلم يبصروه، وصموا عن سماع الحق فلم ينتفعوا به، وهذا على التشبيه بالأعمى والأصم؛ لأنه لا يهتدي إلى طريق الرشد في الدين لإعراضه عن النظر.

﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أوقعت بهم الفتنة فتابوا، فتاب الله عليهم.

﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾ ثم عمي كثير منهم وصم بعدما تبين له الحق.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ عليم بما عملوا من خير وشر، وسيجازيهم عليه، وهذا وعيد لهم وتهديد.

* ثم ذكر تعالى كفر النصارى وبيان عقائدهم الضالة في المسيح، وإبطال أقوالهم الفاسدة بعد تفصيل قبائح اليهود، وهؤلاء الذين قالوا إن مريم ولدت إلهاً هم اليعقوبية، زعموا أن الله تعالى حل في ذات عيسى واتحد به، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، فقال:

٧٢-٧٥ ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ * لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ * مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾.

﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم إن الله هو المسيح ابن مريم، بشبهة أنه خرج من أم بلا أب، والحال أنه عليه السلام قد كذبهم في هذه الدعوى. ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ وقال المسيح: يا بني إسرائيل أنا عبد مثلكم، فاعبدوا خالقي وخالقكم الذي يذل له كل شيء ويخضع له كل موجود، فأثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق، قال ابن كثير: كان أول كلمة نطق بها وهو

صغير أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] ولم يقل: إني أنا الله، ولا ابن الله، بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: من يعبد مع الله غيره، فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة أبداً؛ لأنها دار الموحدين.

﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ ومصيره نار جهنم؛ لأنه سوى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له وهو العبادة الخالصة لغير من هي له، فاستحق أن يُخلد في النار.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: فلا ناصر ولا منقذ له من عذاب الله.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ لقد كفر من النصارى من قال: إن الله مجموع ثلاثة أشياء: هي الأب، والابن، وروح القدس.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ والحال أنه ليس في الوجود إلا إله واحد لا شريك له موصوف بالوحدانية، متعال عن المثيل والنظير، لم يلد ولم يولد، ثم توعدهم بقوله:

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ وإن لم يكفوا عن هذا الافتراء والكذب.

﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ليصيبنهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة بسبب كفرهم بالله.

ثم دعاهم إلى التوبة عما بدر منهم، وبيّن أنه يقبل التوبة عن عباده، وهذا من كرمه ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفك، فقال:

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ الاستفهام للتوبيخ، أي: أفلا ينتهون عن تلك العقائد الزائفة والأقاويل الباطلة، ويستغفرون الله عما صدر منهم.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ويرحمهم إن تابوا، وفي هذا الاستفهام ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ تعجيب من إصرارهم على الكفر. ثم ذكر تعالى حقيقة المسيح وأمه، الذي هو الحق، فقال:

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: ما غاية ومنتهى أمر المسيح ابن مريم عليه السلام إلا رسول كالرسل الخالية، الذين تقدموه، خصه الله تعالى ببعض الآيات الباهرات إظهاراً لصدقه كما خص بعض الرسل، فإن أحيا الموتى على يده، فقد أحيا العصا في يد موسى، وجعلت حية تسعى وهو أعجب، وإن خلق من غير أب فقد خلق آدم من غير أب ولا أم وهو أغرب، وكل ذلك من معجزاته ﷻ.

﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ وأمه مريم صديقة، مبالغة في الصدق، صدقت تصديقاً جازماً.

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ أي: أنهما مخلوقان كسائر المخلوقين، مركبان من عظم ولحم وعروق وأعصاب، وفيه إشارة لطيفة إلى أن من يأكل الطعام لا بد أن يكون في حاجة إلى إخراجه؛ ومن يكن هذا حاله فكيف يُعبد، أو كيف يتوهم أنه إله؟

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ تعجيب من حال الذين يدعون ألوهيته هو وأمه، أي: انظر كيف نوضح لهم الآيات الباهرة على بطلان ما اعتقدوه.

﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون ويضلون عن استماع الحق وتأمله بعد هذا البيان مع أنه أوضح من الشمس في رابعة النهار.

* ثم أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهم قولاً ملزماً وقاطعاً لشبهتهم، فقال:

﴿٧٦﴾، ﴿٧٧﴾ ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ قل يا محمد منكراً على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان كيف تشركون مع الله من لا يقدر لكم على النفع والضرر.

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: كيف تعبدون ما لا يملك ضراً ولا نفعاً، والحال أن الله هو السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم، وتضمنت الآية الإنكار عليهم حيث عبدوا من هو متصف بالعجز عن دفع ضر أو جلب نفع.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ قل يا محمد يا

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ
دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ
يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ
لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ
يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ
أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ
خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا
مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١ ۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ
لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ
أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ
ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ
لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى
ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ
مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣

١٢١

معشر اليهود والنصارى لا تتجاوزوا الحد في دينكم وتفرطوا كما أفرط أسلافكم فتقولوا عن عيسى إنه إله أو ابن إله.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ **ولا تتبعوا أسلافكم وأئمتكم الذين كانوا على الضلال قبل بعثة النبي ﷺ.**

﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ **أي: أضلوا كثيراً من الخلق بإغوائهم لهم.**

﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ **وضلوا عن الطريق الواضح المستقيم، فجمعوا بين الضلال والإضلال. وتكرير** ﴿وَضَلُّواْ﴾ **للإشارة إلى أنهم ضلوا من قبل وضلوا من بعد، والمراد الأسلاف الذين سنوا الضلالة وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى.**

*** ثم ذكر تعالى حال بني إسرائيل حيث لعنهم الله، فقال:**

(٧٨)-(٨١) ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ * كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ * تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ * وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ **أي: لعنهم الله ﷻ وطردهم من رحمته في الزبور، والإنجيل. قال ابن عباس: لعنوا بكل لسان، لعنوا على عهد موسى في التوراة، وعلى عهد داود في الزبور، وعلى عهد عيسى في الإنجيل، وعلى عهد محمد في القرآن. قال المفسرون: إن اليهود لما اعتدوا في السبت دعا عليهم داود فمسخهم الله قردة، وأصحاب المائدة لما كفروا بعيسى دعا عليهم عيسى فمسخوا خنازير.**

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ **ذلك اللعن والطرد بسبب عصيانهم واعتدائهم وظلمهم لعباد الله. ثم بيّن تعالى حالهم الشنيع، ومعاصيهم التي أحلت بهم المثلات وأوقعت بهم العقوبات أنهم:**

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ **أي: وكانوا يفعلون المعاصي يجاهرون بها ويرضونها، ولا ينهى بعضهم بعضاً عن قبيح فعلوه، وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيتهم خفيفة عليهم.**

﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ **أي: بئس شيئاً فعلوا، وبه استحقوا أن يطردوا من رحمة الله تعالى، وذلك أنهم جمعوا بين فعل المنكر، والتجاهر به، وعدم النهي عنه، والمعصية إذا فعلت ينبغي أن يستتر بها. في الحديث: «من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر»** [رواه مالك] **فإذا فعلت جهاراً وتواطأ الناس على عدم الإنكار كان ذلك تحريضاً على فعلها وسبباً مثيراً لإفشائها وكثرتها.**

﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ **أي: ترى يا محمد كثيراً من اليهود يوالون المشركين بالمحبة والنصرة بغضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين، والمراد كعب بن الأشرف وأصحابه.**

﴿لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ **أي: بئس ما قدموا من العمل لمعادهم في الآخرة من موالاتهم للكافرين وتركهم موالاة المؤمنين.**

﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ **وهذا هو**

المخصوص بالذم، أي: بئس ما قدموه لآخرتهم سخط الله وغضبه عليهم، وفي عذاب جهنم مخلدون أبد الآبدين

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لو كان هؤلاء اليهود يصدقون بالله ونبيهم وما جاءهم من الكتاب ما اتخذوا المشركين أولياء.

﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ولكن أكثرهم خارجون عن الإيمان وطاعة الله ﷻ.

* لما ذكر تعالى أحوال اليهود والنصارى وما هم عليه من الزيغ والضلال، ذكر هنا أن اليهود في غاية العداوة للمسلمين، ولذلك جعلهم قرناء للمشركين في شدة العداوة، وذكر أن النصارى ألين عريكة من اليهود وأقرب إلى المسلمين منهم، وهم أقرب الطائفتين إلى المسلمين، وإلى ولايتهم ومحبتهم، قال تعالى:

(٨٢)-(٨٦) ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ اللام للقسم، أي: قسماً لتجدن يا محمد اليهود الذين أشركوا مع الله غيره، كعبدة الأوثان وغيرهم، لتجدنهم أشد الناس عداوة للمؤمنين لعنادهم، وجحودهم، وغمطهم الحق وأكثرهم سعياً في إيصال الضرر إلى المسلمين، وما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهتة للحق، وغمط للناس وتنقص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ أي: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحابه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تعليل لقرب مودتهم، أي: كونهم أقرب مودة بسبب أن منهم علماء بدينهم، وعباد في الصوامع متنسكين، وأنهم يتواضعون لوداعتهم ولا يتكبرون كاليهود، وقد تضمن

الجزء السابع — سورة المائدة

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا
رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟
طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ
بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ
فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ
أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟
أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ
رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾

١٢٢

وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع. ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات، محمود وإن كان من كافر.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي: ومما يدل على قرب مودتهم للمسلمين أن فريقاً منهم وهم وفد الحبشة لما سمعوا القرآن المنزل على محمد رسول الله أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له.

﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: فاضت أعينهم بالدمع من خشية الله لرقة قلوبهم وتأثرهم بكلام الله الجليل، من أجل معرفتهم أنه كلام الله وأنه حق آمنوا به وأقروا به.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي: يقولون يا ربنا صدقنا بنبيك وكتابك.

﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: وتضرعوا إلى الله أن يكرمهم بشرف الشهادة مع أمة محمد ﷺ الذي يشهدون على الأمم يوم القيامة. قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: ما الذي يمنعنا عن الإيمان ويصدنا عن اتباع الحق وقد لاح لنا الصواب وظهر الحق المنير؟ قالوا: ذلك في جواب من عيرهم بالإسلام من اليهود.

﴿وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ والحال أننا نطمع أن يدخلنا ربنا الجنة بصحبة الصالحين من عباده الأبرار.

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ﴾ فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق واعتزازهم بإيمانهم بالإسلام، وطلبهم أن يكونوا مع القوم الصالحين، وإنما أنجح قولهم وعلق الثواب بالقول لاقترانه بالإخلاص.

﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار ماكثين فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون.

قال تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾

قال ابن عاشور: أكمل محاسن الجنات جريان المياه في خلالها وذلك شيء اجتمع البشر كلهم على أنه من أنفس المناظر.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: ذلك الأجر والثواب جزاء من أحسن عمله وأصلح نيته. ولما ذكر ثواب المحسنين، أخبر تعالى عن حال الأشقياء المسيئين، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: جحدوا بآيات الله وأنكروا نبوة محمد ﷺ فهم أهل الجحيم المعذبون فيها، وذكرهم بمقابلة المصدقين بآيات الله جمعاً بين الترغيب والترهيب.

* ثم نهى الله ﷻ المؤمنين أن يحرموا على أنفسهم شيئاً من المستلذات مما أحله الله لعباده، قال سبحانه:

﴿٨٧﴾، ﴿٨٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ * وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ أي: لا تمنعوا أنفسكم تلك اللذائذ وتقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغة في تركها وتقشفاً وتزهداً وتضيقوا ما وسع الله عليكم. عن عكرمة قال: كان أناس من أصحاب النبي ﷺ هموا بالخصاء وترك اللحم والنساء فنزلت هذه الآية.

﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أي: ولا تتعدوا حدود ما أحل الله لكم بتجاوز الحلال إلى الحرام، فإنه ﷻ يبغض المتجاوزين الحد، ويمقتهم ويعاقبهم، والإسلام يدعو إلى القصد دون إفراط وتفريط، ولهذا قال:

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ وكلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله وأعطاكم ومنحكم، وتمتعوا بالمأكل الحلال وبالنساء وغير ذلك، وإنما خص الأكل بالذكر لأنه أعظم حاجات الإنسان.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ هذا استدعاء إلى التقوى بألطف الوجوه، كأنه يقول: لا تضيعوا إيمانكم بالتقصير في طاعة الله ﷻ فتكون عليكم الحسرة العظمى؛ فإن الإيمان بالله تعالى يوجب المبالغة في تقوى الله.

﴿٨٩﴾ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ أي: لا يعاقبكم الله أيها المسلمون بما يسبق إليه اللسان من غير قصد ونية الحلف كقولكم لا والله، وبلى والله.

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ ولكن يعاقبكم بما وثقتم الأيمان عليه بالقصد والنية إذا حنثتم.

﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ **أي: كفارة اليمين عند الحنث أن تطعموا عشرة مساكين من الطعام الوسط الذي تطعمون منه أهليكم. قال ابن عباس: أي من أعدل ما تطعمون أهليكم.**

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ **أي: كسوة المساكين، لكل مسكين ثوب يستر البدن، والكسوة هي التي تجزئ في الصلاة.**

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ **أي: إعتاق عبد مملوك لوجه الله. والحانث مخير بين الإطعام والكسوة والعتق.**

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ **فمن لم يجد شيئاً من الأمور المذكورة؛ فكفارته صيام ثلاثة أيام.**

﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ **أي: هذه كفارة عدم الوفاء بأيمانكم.**

﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ **واحفظوها عن الابتذال ولا تحلفوا إلا عند الضرورة، ولا تتركوها بغير تكفير.**

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ **أي: مثل ذلك التبيين يبين الله لكم الأحكام الشرعية ويوضحها لتشكروه على هدايته وتوفيقه لكم.**

*** ثم نهى ﷻ عباده المؤمنين عن أربع محرمات، فقال:**

﴿٩٠﴾-﴿٩٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۞ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۞ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ **يا أيها الذين صدقوا بالله واتبعوا رسوله؛ إن الخمر، وهي جميع الأشربة التي تسكر، والميسر وهو القمار وذلك يشمل المراهنات ونحوها، مما فيه عرض من الجانبين، وصد عن ذكر الله.**

﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾ **وهي الحجارة التي كان المشركون يذبحون عندها تعظيماً لها.**

﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ **وهي القداح التي كان يستقسم بها الكفار قبل الإقدام على الشيء، أو الإحجام عنه.**

﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ **أي: كل ذلك إثم، وخبيث مستقذر من**

الجزء السابع — سورة المائدة

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ
فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ
ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ
ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا
ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ
مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ
بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ
مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا
عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ
أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا
سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

١٢٣

تزيين الشيطان، فاتركوا وابتعدوا عن هذه الآثام وكونوا في جانب آخر لتفوزوا بالثواب العظيم وهو الجنة.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ **أي: ما يريد الشيطان بهذه الرذائل والآثام إلا إيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين في شربهم الخمر ولعبهم بالقمار.**

﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ **ويمنعكم بالخمر والميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم، وعن الصلاة التي هي عماد دينكم، وذلك بغياب العقل في شرب الخمر، والاشتغال باللهو في لعب الميسر. وقد ذكر تعالى في الخمر والميسر مفسدتين: إحداهما دنيوية، والأخرى دينية، فأما الدنيوية فإن**

الخمر تثير الشرور والأحقاد وتؤول بشاربها إلى التقاطع، وأما الميسر فإن الرجل لا يزال يقامر حتى يبقى سليباً لا شيء له، وينتهي إلى أن يقامر حتى على أهله وولده، وأما الدينية فالخمر لغلبة السرور والطرب بها تلهي عن ذكر الله وعن الصلاة، والميسر سواء كان غالباً أو مغلوباً يلهي عن ذكر الله.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ الصيغة للاستفهام ومعناه الأمر، أي: انتهوا عن ذلك، ولذلك قال عمر: انتهينا ربنا انتهينا، وهذا الاستفهام من أبلغ ما ينهى به، كأنه قيل: قد تلي عليكم ما فيهما من المفاسد التي توجب الانتهاء فهل أنتم منتهون أم باقون على حالكم.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ﴾ وأطيعوا أمر الله وأمر رسوله واحذروا مخالفتهما في كل ما تفعلون وتتركون، واتقوا الله وراقبوه في ذلك.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فإن أعرضتم ولم تعملوا بأمر الله ورسوله.

﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ليس عليه هدايتكم وإنما عليه تبليغكم الرسالة وجزاؤكم علينا، وهذا من الله وعيد لمن تولى عن أمره ونهيه، يقول تعالى ذكره لهم: فإن توليتم عن أمري ونهيي فتوقعوا عقابي واحذروا سخطي، وفي هذا من الوعيد البالغ ما لا خفاء به إذ تضمن أن عقابكم إنما يتولاه المرسل لا الرسول.

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ قال ابن عباس: لما نزل تحريم الخمر، قال قوم كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر فنزلت، فأخبر تعالى أن الإثم والذم إنما يتعلق بفعل المعاصي والذين ماتوا قبل التحريم ليسوا بعاصين. عن أنس قال: كنت ساقي القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة وما شرابهم إلا الفضيخ والبسر والتمر، وإذا مناد ينادي إن الخمر قد حرمت قال: فأريقت في سكك المدينة، فقال أبو طلحة اذهب فأهرقها، فقال بعض القوم قتل قوم وهي في بطونهم فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾.

﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: ليس عليهم جناح فيما تناولوه من المأكول والمشروب إذا اتقوا المحرم وثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة.

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ أي: اتقوا المحرم وآمنوا بتحريمه، بمعنى اجتنبوا ماحرمه الله معتقدين حرمته، ثم استمروا على تقوى الله واجتناب المحارم، وعملوا الأعمال الحسنة التي تقربهم من الله.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: يحب المتقربين إليه بالأعمال الصالحة، وكرر التقوى مبالغة، وقيل: الرتبة الأولى: اتقاء الشرك، والثانية: اتقاء المعاصي، والثالثة: اتقاء ما لا بأس به حذراً مما به البأس.

﴿٩٤﴾، ﴿٩٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ أي: يختبرنكم الله في حال إحرامكم بالحج أو العمرة بشيء من الصيد تنال صغاره الأيدي وكباره بالرماح، حيث نزل في عام الحديبية ابتلاهم الله ﷺ بالصيد وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم محرمون، وكان الصيد مما تعيش به العرب وتتلذذ باقتناصه، ولهم فيه الأشعار والأوصاف الحسنة.

﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ يعني: أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سراً وجهراً، ليتميز الخائف من الله بطريق الغيب لقوة إيمانه وليقينهم بكمال علمه بهم، وذلك بإمساكهم وامتناعهم عن الصيد وهم محرمون، ممن لا يخاف الله لضعف إيمانه.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **فمن تعرض للصيد بعد هذا الإعلام والإنذار وهو محرم فله عذاب مؤلم موجع. ثم صرح بالنهي عن قتل الصيد في حال الإحرام، فقال:**

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ **أي: لا تقتلوا صيد البر وأنتم محرمون بحج أو عمرة.**

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ **ومن قتل الصيد متعمداً في حالة الإحرام، فعليه جزاء يماثل ما قتل من النعم؛ وهي الإبل والبقر والغنم. قيل: لأن قتله تجبُّرٌ؛ والمحرم في غاية التذلل.**

﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ **أي: يحكم بالمثل ويقدره حكمان عادلان من المسلمين.**

﴿هَدْيَۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ **أي: حال كونه هدياً ينحر ويتصدق به على مساكين وفقراء الحرم، فإن لم يكن للصيد مثل من النعم كالعصفور والجراد فعليه قيمته.**

﴿أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ﴾ **أي: وإذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم فيقوِّم الصيد المقتول، ثم يشتري بقيمة مثله طعاماً يهديه لفقراء الحرم.**

﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ **أو يصوم بدلاً من ذلك يوماً عن كل مد، ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام.**

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ **أي: عفا الله عن من قتل الصيد قبل التحريم، ومن عاد إلى قتل الصيد وهو محرم فإنه معرض لانتقام الله منه.**

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ **عزيز قوي منيع في سلطانه، غالب على أمره، منتقم ممن عصاه إذا أراد لا يمنعه من ذلك مانع.**

*** ولما كان الصيد يشمل الصيد البري والبحري، استثنى تعالى الصيد البحري، فقال:**

﴿٩٦﴾-﴿٩٩﴾ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ **أي: أحل لكم أيها الناس صيد البحر سواء كنتم محرمين أو غير محرمين.**

﴿وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ **أي: ما يطعم من صيده كالسمك وغيره منفعة وقوتاً لكم، وزاداً للمسافرين يتزودون في أسفارهم.**

الجزء السابع — سورة المائدة

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ
وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ
إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ * جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ
قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ
وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ
أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ
ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾
قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ
ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

١٢٤

قال ابن عباس: صيده: ما أخذ حيًّا، وطعامه: ما أخذ ميتاً.

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ **وحرم عليكم صيد البر ما دمتم محرمين بحج أو عمرة.**

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ **وخافوا الله الذي تبعثون إليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم، وهو وعيد وتهديد.**

*** لما ذكر تعالى في الآية المتقدمة أن الصيد على المحرم حرام، ونهى عن قتل الطير والوحش في حالة الإحرام، ذكر تعالى في هذه الآية أنه جعل الكعبة قياماً للناس إذ ركز في قلوبهم تعظيمها بحيث لا يقع فيها أذى لأحد، فكما أن الحرم سبب لأمن الوحش والطير فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات، وسبب لحصول**

الخيرات والسعادات في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي: امتن الله على عباده بأن جعل الكعبة المشرفة وهي البيت المحرم صلاحاً ومعاشاً للناس لقيام أمر دينهم ودنياهم، إذ هو سبب لانتعاشهم في أمور معاشهم ومعادهم، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويربح فيه التجار، ويتوجه إليه الحجاج والعمار.

﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: الأشهر الحرم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب قياماً لهم لأمنهم القتال فيها.

﴿وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ أي: وحرم تعالى الاعتداء على ما يُهدى إلى الحرم من بهيمة الأنعام، والبدن ذوات القلائد التي تقلد من شجر الحرم لتأمن هي وأصحابها جعلها الله أيضاً قياماً للناس.

﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: جعل هذه الحرمة للبيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد لتعلموا أيها الناس أن الله يعلم تفاصيل أمور السموات والأرض ويعلم مصالحكم، لذلك جعل الحرم آمناً يسكن فيه كل شيء فانظروا لطفه بالعباد مع كفرهم وضلالهم.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ اعلموا أيها الناس أن الله شديد العقاب لمن عصاه، وأنه غفور رحيم لمن تاب وأطاع وأناب. وجعل الرحمة صفة له مذكورة في أسمائه الحسنى، وأما العذاب والعقاب جعلها من مفعولاته غير مذكورين في أسمائه.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ يبين تعالى مهمة الرسول ﷺ، وأنه ليس عليه إلا أداء الرسالة وتبليغ الشريعة وهداية الدلالة، وقد بلغ ما وجب عليه فلا عذر لأحد في التفريط، وبيد الله ﷻ هداية التوفيق.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأعمالكم وسيجازيكم عليها، والجملة فيها تهديد إذ أخبر تعالى أنه مطلع على حال العبد ظاهراً وباطناً فهو مجازيه على ذلك ثواباً أو عقاباً.

* لما أخبر تعالى أنه يعلم ما يبدون وما يكتمون، ذكر أنه لا يستوي خبيثهم وطيبهم بل يميز بينهما، فيعاقب الخبيث، ويثيب الطيب، فقال تعالى:

﴿١٠٠﴾-﴿١٠٢﴾ ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۞ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ قل يا محمد لا يتساوى الخبيث والطيب ولو أعجبك أيها السامع كثرة الخبيث، وهو مثل ضربه الله للتمييز بين المؤمن والكافر والحلال والحرام، والمطيع والعاصي، والرديء والجيد، قال القرطبي: اللفظ عام في جميع الأمور يتصور في المكاسب، والأعمال، والناس، والمعارف من العلوم وغيرها، فالخبيث من هذا كله لا يفلح ولا ينجب ولا تحسن له عاقبة وإن كثر، والطيب وإن قل نافع حميد، جميل العاقبة.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ فاتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه يا ذوي العقول الراجحة، لتفلحوا وتفوزوا برضوان الله والنعيم المقيم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، أي: لا تسألوا الرسول عن أمور لا حاجة لكم بها إن ظهرت لكم ساءتكم، عن ابن عباس قال: كان قوم يسألون النبي ﷺ استهزاء فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ...﴾ الآية.

﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان نزول الوحي تظهر لكم تلك التكاليف التي تسؤكم، وقد تكلفونها فتعجزون عنها فلا تسألوا عنها.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَا﴾ عفا الله عن مسائلكم السالفة التي لا ضرورة لها وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية فلا تعودوا إلى مثلها.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: واسع المغفرة عظيم الفضل والإحسان، ولذلك عفا عنكم ولم يعاجلكم بالعقوبة، وهذه المسائل التي نهيتم عنها.

﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٌ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾ سأل أمثال هذه المسائل قوم قبلكم، فلما أعطوها وفرضت عليهم كفروا بها، ولهذا قال:

﴿ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ أي: فلما أمروا بها جحدوها، ولم ينفذوها، وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا.

* ثم ذم المشركين الذين شرعوا في دين الله ما لم يأذن به الله، وحرموا ما أحله الله، قال تعالى:

(١٠٣)، (١٠٤) ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ كان أهل الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها، أي: شقوها وحرموا ركوبها وهي البحيرة، وكان الرجل يقول: إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة لا تركب ولا يحمل عليها ولا تؤكل، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم، وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها وهي الوصيلة، وإذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره وهو الحام، فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادات كلها فلا بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ (١٠٣)﴾ ولكن الذين كفروا بالله يختلقون الكذب على الله وينسبون التحريم إليه، فيقولون الله أمرنا بهذا وأكثرهم لا يعقلون أن هذا افتراء؛ لأنهم يقلدون فيه الآباء، ولهذا قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ وإذا قيل لهؤلاء الكفار المحرمين ما أحل الله: هلموا إلى حكم الله ورسوله فيما حللتم وحرمتم.

﴿قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ أي: يكفينا دين آبائنا وما ورثناه عنهم من قول وفعل.

﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ الهمزة للإنكار

الجزء السابع سورة المائدة

وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا
مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ
شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ (١٠٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ
لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (١٠٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ
بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا
عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ
فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ
فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا
قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ (١٠٦) فَإِنۡ عُثِرَ
عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ
ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن
شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ
أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ
أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (١٠٨)

١٢٥

والغرض التوبيخ، أي: أيتبعون آباءهم فيما هم عليه من الضلال، ولو كانوا لا يعلمون شيئاً من الدين ولا يهتدون إلى الحق؟ فكيف يتبعونهم والحالة هذه.

* يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم، قال تعالى:

(١٠٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ أي: والزموها بالطاعة والعبادة، وداوموا على ذلك، احفظوها عن ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب والزموا إصلاحها.

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ **لا يضركم ضلال من ضل من الناس إذا كنتم مهتدين، ولزمتم طريق الاستقامة، حيث كان المسلمون تذهب أنفسهم حسرة على الكفرة يتمنون دخولهم في الإسلام فقيل لهم عليكم أنفسكم بإصلاحها والمشي بها في طرق الهدى لا يضركم الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين كما قال تعالى لنبيه ﷺ:** ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، **ولا يتوهمن أحد أن في الآية رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن من جملة الاهتداء أن ينكر. وقد روي أن الصديق قال يوماً على المنبر: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها غير موضعها وإني سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه عمهم الله بعقابه».**

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ **أي: مصيركم ومصير جميع الخلائق إلى الله ﷻ يوم القيامة، فيخبركم بأعمالكم، ويجازيكم عليها، وهذا وعد ووعيد للفريقين، وتنبيه على أن أحداً لا يؤاخذ بذنب غيره.**

*** ذكر ﷻ الوصية عند دنو الأجل، فقال تعالى:**

(١٠٦)-(١٠٨) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ۞ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۞ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾ **يا أيها المؤمنون إذا شارف أحدكم على الموت وظهر علائمه فينبغي أن يشهد على وصيته. عن ابن عباس قال: كان تميم الداري وعدي بن بداء يختلفان إلى مكة فخرج معهما فتى من بني سهم فتوفي بأرض ليس بها مسلم، فأوصى إليهما فدفعا تركته إلى أهله وحبسا جاماً من فضة مخوّصاً بالذهب، فاستحلفهما رسول الله ﷺ ما كتمتما ولا اطلعتما ثم وجد الجام بمكة فقالوا: اشتريناه من عدي وتميم، فجاء رجلان من ورثة السهمي فحلفا أن هذا الجام للسهمي ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا فأخذوا الجام، وفيهم نزلت هذه الآية:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ **الآية.**

﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ **أي: يشهد على الوصية شخصان عدلان من المسلمين، أو اثنان من غير المسلمين إن لم تجدوا شاهدين منكم.**

﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ **إن أنتم سافرتم فقاربكم الأجل ونزل بكم الموت.**

﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ **أي: وإن ارتبتم في شهادتهما فقفوهما من بعد الصلاة، أي صلاة المسلمين وبخاصة صلاة العصر؛ لأنه وقت اجتماع الناس، وكذا فعل رسول الله ﷺ استخلف عديّاً وتميماً بعد العصر عند المنبر.**

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ **أي: يحلفان بالله إن شككتم وارتبتم في شهادتهما، بخيانة وأخذ شيء من التركة فاحبسوهما وحلفوهما بالله.**

﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ **أي: يحلفان بالله قائلين: لا نحابي بشهادتنا أحداً ولا نحلف بالله كاذبين ولا نستبدل بالقسم بالله عرضاً من الدنيا، من أجل المال ولو كان من نقسم له قريباً لنا.**

﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ﴾ **ولا نكتم الشهادة التي أمرنا الله تعالى بإقامتها، إنا إن فعلنا ذلك كنا من الآثمين.**

﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ فإن ظهر واطلع بعد حلفهما على خيانتهما أو كذبهما في الشهادة أو الوصية.

﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ أي: فليقم مقامهما في الشهادة إثنان من الورثة المستحقين للتركة، يقومان مقام الشاهدين الخائنين وليكونا من أولى من يستحق الميراث.

﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أي: يحلفان بالله لشهادتنا أصدق وأولى بالسماع والاعتبار من شهادتهما لأنهما خانا.

﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧﴾ وما اعتدينا فيها قلنا فيهما من الخيانة إنا إذا كذبنا عليهم نكون من الظالمين.

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾ ذلك الحكم أقرب أن يأتوا بالشهادة على حقيقتها من غير تغيير ولا تبديل.

﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ﴾ أي: يخافوا أن يحلف غيرهم بعدهم فيفتضحوا.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: خافوا ربكم، وأطيعوا أمره.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ والله لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى جنته ورحمته.

* لما ذكر تعالى الوصية عند دنو الأجل وأمر بتقوى الله والسمع والطاعة، أعقبه بذكر اليوم المهول المخيف وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيها الأولين والآخرين للجزاء والحساب، قال تعالى:

(١٠٩) ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾.

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: اذكروا أيها الناس ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة، حين يجمع الله الرسل والخلائق للحساب والجزاء.

﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾ فيسألهم تعالى: ما الذي أجابتكم به أممكم؟ وما الذي رد عليكم قومكم حين دعوتموهم إلى الإيمان والتوحيد؟

﴿قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ﴾ أي: لا علم لنا إلى جنب علمك فأنت أعلم منا، قال ابن عباس: أي لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا.

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ أي: تعلم ما لا نعلم مما ظهر وبطن، وفيه إظهار للشكوى ورد للأمر إلى علمه تعالى بما لقوا من قومهم من الخطوب وكابدوا من الكروب والتجاء إلى ربهم في الانتقام منهم.

* ثم يذكر تعالى ما امتنّ به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات، وفيها تعريف الأمم

الجزء السابع | سورة المائدة

يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ
إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ
ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ
ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ
ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ
مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ
طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ
ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ
جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ
إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ
بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١
إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ
أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَ ١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا
وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣

١٢٦

بما خصهما الله به من الكرامة وميزهما به من علو المقام، فقال:

(١١٠)، (١١١) ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ * وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾.

قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ
خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ
مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾
وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي
وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ
مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي
وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ
إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ
شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ
وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن
تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ
ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

١٢٧

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ أي: اذكر نعمتي عليك في خلقي إياك من أم بلا أب، وجعلي إياك آية قاطعة على كمال قدرتي، وعلى والدتك حيث جعلتك برهاناً على براءتها مما اتهمها به الظالمون من الفاحشة. وذكر النعمة شكرها.

﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: ومن هذه النعم، حين قويتك وأعنتك بجبريل عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك.

﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي: وتكلم الناس في المهد صبيّاً وفي الكهولة نبياً، وتدعوهم إلى الله بما أوحاه الله إليه من التوحيد.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي: واذكر نعمتي عليك حين علمتك الكتابة والخط دون معلم، ووهبتك قوة الفهم والإدراك، والحكمة وهي العلم النافع، وعلمه التوراة التي أنزلها تعالى على موسى، والإنجيل الذي أنزل عليه هداية للناس.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي: ومن هذه النعم حين كنت تصور الطين كصورة الطير بتيسيري وأمري.

﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي﴾ فتنفخ في تلك الصورة والهيئة فتصبح طيراً بأمر الله ومشيئته.

﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ وتشفي الأعمى الذي لا يبصر، والأبرص الذي استعصى شفاؤه بأمري ومشيئتي.

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ أي: تحيي الموتى بأمري ومشيئتي، تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيئته، وكرر لفظ ﴿بِإِذْنِي﴾ مع كل معجزة رداً على من نسب الربوبية إلى عيسى، ولبيان أن تلك الخوارق من جهته سبحانه أظهرها على يديه معجزة له.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ واذكر حين منعت اليهود من قتلك لما هموا وعزموا على الفتك بك حين جئتهم بالحجج والمعجزات الدالة على نبوته.

﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فقال الذين جحدوا نبوتك ولم يؤمنوا بك؛ ما هذه الخوارق إلا سحر ظاهر واضح.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي﴾ واذكر نعمتي عليك حين أمرت الحواريين وقذفت في قلوبهم أن صدقوا بي وبرسولي عيسى ابن مريم فكانوا له أصحاباً وأنصاراً.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي: قال الحواريون: صدقنا يا رب بما أمرتنا، وأشهد بأننا مخلصون في هذا الإيمان، خاضعون لأمر الرحمن.

* ثم ذكر ﷻ قصة المائدة، وإليها تنسب السورة، فيقال سورة المائدة، وهي مما امتنَّ الله به على عبده ورسوله عيسى لما أجاب دعاءه بنزولها، قال تعالى:

﴿١١٢﴾-﴿١١٥﴾ ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ * قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا

عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ أي: واذكر حين قال الحواريون: يا عيسى هل تستطيع أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ والمائدة هي الخوان عليه الطعام. قال القرطبي: وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله ﷻ ويجوز أن يكون ذلك صدر ممن كان معهم من الجهال كما قال بعض قوم موسى ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وقال الحسن: لم يشكوا في قدرة الله وإنما سألوه سؤال مستخبر هل ينزل أم لا؟ فإن كان ينزل فاسأله لنا فسؤالهم كان للاطمئنان والتثبت.

﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فأجابهم المسيح ؑ قائلاً لهم: اتقوا الله في أمثال هذه الأسئلة إن كنتم مصدقين بكمال قدرته تعالى.

﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ قال الحواريون: نريد بسؤالنا المائدة أن نأكل منها تبركاً وتسكن نفوسنا بزيادة اليقين إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء.

﴿وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: ونعلم علماً يقيناً لا يحوم حوله شائبة من الشك بصدقك في دعوى النبوة، ونشهد بها عند من لم يحضرها من الناس.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أجابهم عيسى إلى سؤال المائدة لإلزامهم بالحجة الدامغة. وروي أنه لما أراد الدعاء لبس جبة شعر ورداء شعر وقام يصلي ويدعو ربه ويبكي، وقد نادى عيسى ربه مرتين: مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات، ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية إظهاراً لغاية التضرع.

﴿تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي: يكون يوم فرح وسرور لنا ولمن يأتي بعدنا.

﴿وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: وتكون المائدة دلالة وحجة وشاهدة على صدق رسولك، وارزقنا من عطائك الجزيل فإنك خير من يعطي ويرزق لأنك الغني الحميد.

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أي: أجاب الله دعاءه، فقال: إني سأنزل عليكم هذه المائدة من السماء.

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: من كفر بعد تلك الآية الباهرة فسوف أعذبه عذاباً شديداً ولا أعذب مثل ذلك التعذيب أحداً من البشر، وفي الحديث: «أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأمروا ألا يدخروا لغد ولا يخونوا فخانوا وادخروا ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير» [أخرجه الترمذي]، وقد جرت عادة الله ﷻ بعقاب من كفر بعد اقتراح آية فأعطيها، ولما كفر بعض هؤلاء مسخهم الله خنازير.

* ثم ذكر ﷻ ما يكون يوم القيامة على رؤوس الخلائق، قال تعالى:

﴿١١٦﴾-﴿١١٨﴾ ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ * مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ هذا عطف قصة على قصة ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾ قال ابن عباس: هذا القول يكون من الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق ليعلم الكفار أنهم كانوا على باطل. والمعنى: اذكر للناس يوم يخاطب الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم في الآخرة توبيخاً للكفرة وتبكيتاً لهم قائلاً: يا عيسى أأنت دعوت الناس إلى عبادتك والاعتقاد بألوهيتك وألوهية أمك؟!

﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل، أي: أجاب عيسى: أنزهك عما لا يليق بك يا رب، فما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله:

﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ أي: إن كان صدر مني هذا فإنك لا يخفى عليك شيء، وأنت العالم بأني لم أقله، وهذا اعتذار وبراءة من ذلك القول ومبالغة في الأدب، وإظهار الذلة والمسكنة في حضرة ذي الجلال.

﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ أي: تعلم حقيقة ذاتي وما انطوت عليه، ولا أعلم حقيقة ذاتك وما احتوت عليه من صفات الكمال، إنك أنت العالم بالخفايا والنوايا وعلمك محيط بما كان وما يكون. ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل، فقال:

﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾ أي: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به، فإنا عبد متبع لأمرك، لا متجرئ على عظمتك، ووضع القول موضع الأمر نزولاً على موجب الأدب لئلا يجعل نفسه وربه آمرين معاً.

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ أي: قلت لهم أعبدوا الله خالقي وخالقكم فأنا عبد مثلكم.

﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ وكنت شاهداً على أفعالهم وأقوالهم حين كنت بين أظهرهم.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ فلما قبضتني إليك بالرفع إلى السماء كنت أنت الحفيظ لأعمالهم، والشاهد على أفعالهم، المطلع على سرائرهم.

﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾ وأنت المطلع على كل شيء لا يخفى عليك شيء.

﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ إن تعذبهم فأنت أعلم بأحوالهم تفعل ما تشاء بعدلك، فأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت، لا اعتراض عليك.

﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ وإن تغفر لمن تاب منهم، فإنك أنت الغالب على أمره، الحكيم في صنعه. وهذه الآية ثناء على الله تعالى بحكمته وعدله، وكمال علمه.

* ثم قال تعالى يبين حال عباده يوم القيامة، ومن الفائز منهم، ومن الهالك، ومن الشقي ومن السعيد:

﴿١١٩، ١٢٠﴾ ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ * لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ﴾.

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ قال الله تعالى لعيسى يوم القيامة هذا يوم ينفع الموحدين توحيدهم ربهم، وانقيادهم لشرعه، وصدقهم في نياتهم وأقوالهم وأعمالهم؛ لأنه يوم الجزاء.

﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ لهم جنات تجري من تحت غرفها وأشجارها الأنهار؛ ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ أي: نالوا رضوان الله لصدقهم وقبول حسناتهم، ورضوا عن الله فيما أثابهم وجازاهم.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ ذلك هو الظفر والفور الكبير بجنات النعيم الذي لا أعظم منه.

﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ﴾ أي: الجميع ملكه وتحت قهره ومشيئته وهو القادر على كل شيء.

تم تفسير سورة المائدة
والحمد لله

تفسير سورة الأنعام
وهي مكية

* سورة الأنعام إحدى السور المكية الطويلة التي يدور محورها حول العقيدة وأصول الإيمان والألوهية والوحي والرسالة والبعث والجزاء.

نجد الحديث في هذه السورة مستفيضاً يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية للدعوة الإسلامية، ونجد سلاحها في ذلك الحجة الدامغة، والدلائل الباهرة، والبرهان القاطع في طريق الإلزام والإقناع لأن السورة

نزلت في مكة على قوم مشركين. قال العلماء: هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور. وقيل: في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد، وهي أجمع سور القرآن لأحوال العرب في الجاهلية.

سميت بـ «سورة الأنعام» لورود ذكر الأنعام فيها: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾ ولأن أكثر أحكامها الموضحة لجهالات المشركين تقرباً بها إلى أصنامهم مذكورة فيها. ومن خصائصها ما روي عن ابن عباس أنه قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح.

بدأ تعالى هذه السورة بالحمد لنفسه والثناء عليه بصفات الكمال ونعوت العظمة والجلال، تعليماً لعباده أن يحمدوه بهذه الصيغة الجامعة لصنوف التعظيم والتبجيل والكمال، وإعلاماً بأنه المستحق لجميع المحامد، فلا ند له ولا شريك، ولا نظير ولا مثيل، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٣﴾ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ * هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ * وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: احمدوا الله ربكم المتفضل عليكم بصنوف الإنعام والإكرام، الذي أوجد وأنشأ وابتدع خلق السموات والأرض بما فيهما من أنواع البدائع وأصناف الروائع، وبما اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة، وبما يدهش العقول والأفكار تبصرة وذكرى لأولي الأبصار، فإن من اخترع ذلك وأوجده، هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد، وخص خلق السموات والأرض بالذكر؛ لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد، وفيهما العبر والمنافع للعباد.

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ وأنشأ الظلمات والأنوار، وخلق الليل والنهار يتعاقبان في الوجود لفائدة العوالم بما لا يدخل تحت حصر أو فكر، قال الواقدي: كل ما في القرآن من الظلمات والنور فهو الكفر والإيمان إلا في هذه الآية، فإنه يريد بها الليل والنهار. وجمع الظلمات؛ لأن شعب الضلال متعددة ومسالكه متنوعة، وأفرد النور؛ لأن مصدره واحد هو الرحمن منور الأكوان، وفي الآية رد على المجوس في عبادتهم للنار وغيرها من الأنوار، وقولهم إن الخير من النور والشر من الظلمة، فإن المخلوق لا يكون إلها ولا فاعلاً لشيء من الحوادث ومع هذا الدليل ووضوح البرهان:

الجزء السابع سورة الأنعام

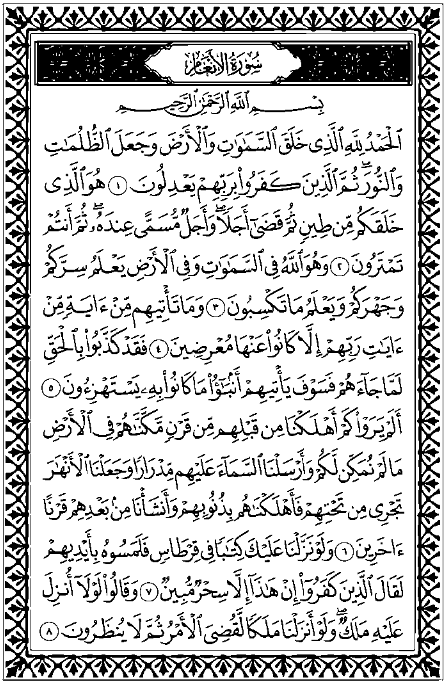
سُورَةُ الأَنۡعَامِ
بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ
وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١ هُوَ ٱلَّذِي
خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ
تَمۡتَرُونَ ٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ
وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ٣ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ
ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ
لَمَّا جَآءَهُمۡ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٥
أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ
مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا
ءَاخَرِينَ ٦ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ
لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ
عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨

١٢٨

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ ثم بعد تلك الدلائل الباهرة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته يشرك الكافرون بربهم فيساوون به أصناماً نحتوها بأيديهم، وأوهاماً ولدوها بخيالهم، ففي ذلك تعجيب من فعلهم وتوبيخ لهم، واستبعاد ما صنعه الكفار من كونهم بربهم يعدلون، مع ما تبين من أن الله سبحانه حقيق بالحمد على خلق السموات والأرض والظلمات والنور، فإن هذا يقتضي الإيمان به وصرف الثناء الحسن إليه، لا الكفر به واتخاذ شريك له، والآية دالة على قبح فعل الكافرين لأن المعنى أن خلقه السموات والأرض وغيرها قد تقرر، وآياته قد سطعت، وإنعامه بذلك قد تبين، ثم بعد هذا كله قد عدلوا بربهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أي: خلق أباكم آدم عليه السلام من طين وأنتم سلالة منه، والمطلوب بذكر هذه الأمور دفع كفر الكافرين بالبعث، ورد لجحودهم بما هو مشاهد لهم لا يمترون فيه.

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾ أي: حكم وقدر لكم أجلاً من الزمن في هذا الدار تموتون عند انتهائه، وجاء بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لما بين خلقهم وبين موتهم من التفاوت.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾ وأجل آخر مسمى عنده لا يعلمه إلا هو لبعثكم جميعاً، فالأجل الأول الموت، والثاني البعث والنشور.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ ثم أنتم أيها الكفار بعد هذا البيان التام وقطع الحجة تشكون في قدرة الله تعالى على البعث، وتنكرونه بعد ظهور تلك الآيات العظيمة، فإن من خلقكم من طين، وصيركم أحياء تعلمون وتعقلون، وخلق لكم هذه الحواس والأطراف، ثم سلب ذلك عنكم فصرتم أمواتاً، وعدتم إلى ما كنتم عليه من الجمادية، لا يعجزه أن يبعثكم ويعيد هذه الأجسام كما كانت، ويرد إليها الأرواح التي فارقتها بقدرته وبديع حكمته.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو الإله المعبود في السموات والأرض. قال ابن كثير: أي يعبده ويوحده ويقر له بالألوهية من في السموات والأرض، ويدعونه رغباً ورهباً ويسمونه الله.

﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي: ومن دلائل ألوهيته أنه يعلم جميع ما تخفونه - أيها الناس - وما تعلنونه، ويعلم جميع أعمالكم من خير أو شر، ولهذا فإنه -جل وعلا- وحده هو الإله المستحق للعبادة، فاحذروا معاصيه، وارغبوا في الأعمال التي تقربكم منه، وتدنيكم من رحمته، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته، وسيجازيكم عليه.

* ثم أخبر تعالى عن عناد المشركين وإعراضهم وشدة تكذيبهم وعداوتهم، رغم وجود الآيات والدلائل، فقال:

﴿٤﴾-﴿٦﴾ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ما يظهر للمشركين دليل من الأدلة، أو معجزة من المعجزات، أو آية من آيات القرآن الدالة على الحق دلالة قاطعة، الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله:

﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ إلا تركوا النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله ﷻ، والمعجزات التي أقامها لنبيه ﷺ التي يستدل بها على صدقه في جميع ما أتى به عن ربه وأعرضوا عن قبولها، ولم يلتفتوا إليها، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها، وولوها أدبارهم، لقلة خوفهم وتدبرهم في العواقب.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: كذبوا بالقرآن الذي جاءهم من عند الله، والحق حقه أن يتبع، ويشكر الله على تيسيره لهم، وإتيانهم به، فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به، فاستحقوا العقاب الشديد.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: سوف يحل بهم العقاب إن عاجلاً أو آجلاً، ويظهر لهم خبر ما كانوا به يستهزئون، وهذا وعيد بالعذاب والعقاب على استهزائهم. ثم حضهم تعالى على الاعتبار بمن سبقهم من الأمم، فقال:

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: ألا يعتبر هؤلاء الذين يجحدون وحدانية الله تعالى بمن أهلكنا من الأمم قبلهم لتكذيبهم الأنبياء. - والقرن يطلق على أهل كل عصر - وقد أمهلناهم قبل ذلك الإهلاك، بأن:

﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ منحناهم من أسباب السعة والعيش والتمكين في الأرض ما لم نعطكم يا أهل مكة.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ وأنزلنا المطر غزيراً متتابعاً في أوقات الحاجات يدر عليهم دراً.

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا
يَلْبِسُونَ ٩ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ
سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ١٠ قُلْ سِيرُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ
١١ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ
نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ
فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٢ ۞ وَلَهُۥ
مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٣ قُلْ
أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ
يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٤ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ
رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ
وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ١٦ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ
لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
١٧ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ١٨

١٢٩

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ **وأنعمنا عليهم بالأنهار تجري من تحت أشجارهم ومنازلهم حتى عاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار، وسقيا الغيث المدرار.**

﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ **فكفروا وعصوا فأهلكناهم بسبب ذنوبهم، وهذا تهديد للكفار أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء على حال قوتهم وتمكينهم في الأرض.**

﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ **وأحدثنا من بعد إهلاك المكذبين قوماً آخرين غيرهم، فهذه سنة الله ودأبه في الأمم السابقين واللاحقين، فاعتبروا بمن قص الله عليكم نبأهم، وفيه تعريض للمخاطبين بإهلاكهم إذا عصوا كما أهلك من قبلهم، وفيه بيان لكمال قدرته سبحانه، وقوة سلطانه وأنه يهلك من يشاء ويوجد من يشاء.**

*** ثم أخبر ﷺ رسوله عن شدة عناد الكافرين وصلابتهم، وطغيانهم وجحودهم ومكابرتهم للحق، فقال:**

(٧)-(١١) ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ * وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ **أي: لو نزلنا عليك -يا محمد- كتاباً من السماء مكتوباً على ورق كما اقترحوا.**

﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ **فعاينوا ذلك ومسوه باليد ليرتفع عنهم كل إشكال، ويزول كل ارتياب حيث يجتمع لهم إدراك الحاستين: حاسة البصر، وحاسة اللمس. وذكر تعالى اللمس ولم يذكر المعاينة؛ لأن اللمس أبلغ في إيقاع العلم من المعاينة، فإن السحر يجري على المرئي ولا يجري على الملموس.**

﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ **لقال الكافرون عند رؤية تلك الآية الباهرة تعنتاً وعناداً: ما هذا إلا سحر واضح بيِّن، والغرض أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم أوضح الآيات وأظهر الدلائل. روي أن مشركي مكة قالوا: ـ يا محمد ـ والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومع أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله، وأنك رسوله، فأنزل الله:** ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)﴾.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ **وقال هؤلاء المشركون تعنتاً مبنياً على الجهل، وعدم العلم بالمعقول: هلا أنزل الله تعالى على محمد ﷺ ملكاً يشهد بنبوته وصدقه، بحيث نراه ويكلمنا أنه نبي حتى نؤمن به ونتبعه، وهذا من أباطيلهم المحققة وخرافاتهم الملفقة التي يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل. قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشراً منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم وبصيرة وغيب.**

﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ **ولو أنزلنا ملكاً من السماء إجابة لطلبهم وعاينوه، ثم كفروا، لحق إهلاكهم كما جرت عادة الله بأن من طلب آية ثم لم يؤمن أهلكه الله حالاً، واستأصله بالعذاب.**

﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ ثم لا يمهلون ولا يؤخرون، بعد نزوله ومشاهدتهم له، والآية كالتعليل لعدم إجابة طلبهم، فإنهم - في ذلك الاقتراح - كالباحث عن حتفه بظلفه.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أي: لو جعلنا الرسول المرسل إليهم ملكاً كما اقترحوا، لكان في صورة رجل ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه؛ ولأنهم لا طاقة لهم على رؤية الملك في صورته والسماع منه ومخاطبته؛ ولأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك، وكان جبريل ﷺ يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، وجاء الملكان إلى داود في صورة رجلين.

﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم، فإنهم لو رأوا الملك في صورة إنسان، قالوا: هذا إنسان وليس بملك. قال ابن عباس: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور، فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم، ليدعو بعضهم بعضاً، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال.

ثم قال تعالى تسلية للنبي ﷺ ومصبراً، ومتهدداً أعداءه ومتوعداً:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: والله لقد استهزأ الكافرون من كل الأمم بأنبيائهم الذين بعثوا إليهم، فالاستهزاء بالأنبياء ليس أمراً حادثاً.

﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فأحاط ونزل بهؤلاء المستهزئين بالرسل عاقبة استهزائهم، وفي هذا الإخبار تهديد للكفار، فاحذروا - أيها المكذبون - أن تستمروا على تكذيبكم، فيصيبكم ما أصابهم، فإن شككتم في ذلك وارتبتم:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ قل - يا محمد - لهؤلاء المستهزئين الساخرين: سافروا في الأرض فانظروا وتأملوا ماذا حل بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب لتعتبروا بآثار من خلا من الأمم، كيف أهلكهم الله وأصبحوا عبرة للمعتبرين. والفرق بين فانظروا، وبين ثم انظروا، أن النظر جعل مسبباً عن السير ﴿ٱنظُرُوا۟﴾ فكأنه قيل سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين.

* ثم قال تعالى احتجاجاً عليهم وتبكيتا

ص لهم أنه مالك السموات والأرض، قال تعالى:

﴿١٢﴾-﴿١٦﴾ ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين بالله، مقرراً لهم وملزماً بالتوحيد، لمن الكائنات جميعاً خلقاً وملكاً وتصرفاً؟ والسؤال لإقامة الحجة على الكفار فهو سؤال تبكيت.

﴿قُل لِّلَّهِ﴾ أمره بالجواب عقيب السؤال ليكون أبلغ في التأكيد وآكد في الحجة، أي: قل لهم تقريراً وتنبيها هي: لله، لأن الكفار يوافقون على ذلك بالضرورة لأنه خالق الكل إما باعترافهم أو بقيام الحجة عليهم.

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي: ألزم نفسه الرحمة تفضلاً وإحساناً، فلا يعاجل عباده بالعقوبة، وذكر النفس هنا عبارة عن تأكد وعده، وارتفاع الوسائط دونه، والغرض التلطف في دعائهم إلى الإيمان وإنابتهم إلى الرحمن، وتسكين خواطرهم بأنه رحيم بعباده لا يعاجلهم بالعقوبة.

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذا قسم منه تعالى، ليحشرنكم من قبوركم مبعوثين إلى يوم القيامة الذي لا شك فيه ليجازيكم بأعمالكم، وقيل إن جملة ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مسوقة للترهيب بعد الترغيب، وللوعد بعد الوعيد.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أضاعوها بكفرهم

وأعمالهم السيئة في الدنيا فهم لا يؤمنون ولا يصدقـون بوعده ووعيـده، ولا يقرون بنبوة محمـد ﷺ، ولهذا لا يقام لهم وزن في الآخرة، وليس لهم نصيب فيها سوى الجحيم والعذاب الأليم.

وجل هذه السـورة قد اشتمل على تقرير التوحيد بكل دليل عقلي ونقلي، بـل كادت أن تكـون كلها في شـأن التوحيد ومجادلة المشركين بالله المكذبين لرسوله، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ ولله ﷻ ما حل واسـتقر في الليل والنهار، الجميـع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفـه، لا إله إلا هو، والمراد عموم ملكـه تعالى لكل شيء، وخص السكون بالذكر لأنه النعمة فيه أكثر، ولأن ما يتصف بالسـكون أكثر مما يتصف بالحركة.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ السـميع لأقوال وأصوات العباد، العليم بأحوالهم وحركاتهـم وسرائرهم وختم سـبحانه سـبع آيات لما تكلم عن الليـل ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ذلك أن السـمع في الليـل أقوى منه في النهايـة. ثم قال تعالى لعبده ورسـوله محمـد ﷺ، الـذي بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم:

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ الاستفهام للتوبيخ، أي: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين أغير الله أتخذ معبوداً ووليـاً وناصراً؟ وهـذا حين دعي إلى دين آبائه.

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ أي: وهو خالق السـموات والأرض ومبدعها ومـا فيهن على غير مثـال سـابق، وهو ـ جـل وعـلا ـ يـرزق خلقـه ولا يرزقـه أحد، وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم، فكيف يليق أن أتخذ ولياً غـير الخالق الـرزاق، الغنـي الحميد، وخص الإطعام دون غيره مـن ضروب الإنعام؛ لأن الحاجة إليه أمسّ.

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ﴾ قل لهم ـ يا محمد ـ إن ربي أمرني أن أكون أول من أسـلم لله بالتوحيد وخضع وانقاد له بالعبودية من هذه الأمة.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ونهيت أن أكون من المشركين معه غيره، وقد أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك.

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ قل لهم أيضاً: إننـي أخاف إن عبدت غير ربي وخالفـت أمره وأشركت معه غيره في عبادته، أن ينزل بي عذاب يوم عظيم، وهو يوم القيامة.

﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ﴾ من يصرف عنه ذلك العذاب الشديد يوم القيامة فقد رحمه الله الرحمة العظمى، وهي النجاة من النار.

﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ وذلك الـصرف هو النجـاة الظاهرة والظفر المبين.

الجُزءُ السَّابِعُ سُورَةُ الأَنعَامِ

قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا
ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً
أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ
١٩ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ
جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٢٢
ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣
ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤
وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ
وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥ وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ
أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٢٦ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ
يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧

١٣٠

* ومن أدلـة توحيـده وأنه الإله المعبـود، أنه تعـالى المنفرد بكشـف الضراء، وجلب الخير والسراء، ولهذا قال سبحانه:

١٧-٢١ ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ * وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ * قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ * ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ

أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ يقول تعالى مخبراً: أنه مالك الضر والنفع وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، ومن ذلك إن تنزل بك ـ يا محمد ـ شدة من فقر أو مرض، أو عسر، أو غم، أو هم أو نحوه، فلا رافع ولا صارف له إلا هو، ولا يملك كشفه سواه، فإذا كان هو وحده النافع الضار، فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية والإلهية.

قال ابن القيم: وأعظم الضر حجاب القلب عن الرب.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وإن يصبك بخير من صحة ونعمة فلا راد له؛ لأنه وحده القادر على إيصال الخير والضر، والآية برهان على الوحدانية لانفراد الله تعالى بالضر والخير، وكذلك ما بعد هذا من الأوصاف براهين ورد على المشركين.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ وهو الغالب الذي خضعت له الرقاب وذلت له الجبابرة وعنت له الوجوه وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه، وعظمته وعلوه، فلا يتصرف منهم متصرف، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته، وليس للملوك وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه، بل هم مُدبرون مقهورون، فإذا كان هو القاهر وغيره مقهوراً، كان هو المستحق للعبادة، وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة، وهو منع غيره عن بلوغ المراد. قال الطبري: إنما قال: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ لأنه وصف نفسه بقهره إياهم، وصفة كل قاهر أن يكون مستعلياً عليه.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ وهو الحكيم في جميع أفعاله وفيما خلق وقدر، الخبير بمواضع الأشياء، المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة التوحيد.

* لما أفاض جل ذكره في إقامة الدلائل والبراهين على قدرته ووحدانيته من أول السورة الكريمة، ذكر هنا شهادته تعالى على صدق نبوة محمد ﷺ، ثم ذكر موقف الجاحدين للقرآن المكذبين للوحي، وحسرتهم الشديدة يوم القيامة، قال تعالى:

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ أي: قل لهم ـ يا محمد ـ لما بينا لهم الهدى وأوضحنا لهم المسالك: أي شيء أعظم شهادة حتى يُشهد لي بأني صادق في دعوى النبوة؟ روي أن رؤساء مكة قالوا ـ يا محمد: ما نرى أحداً يصدقك بما تقول من أمر الرسالة، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم؟ فأنزل الله: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ...﴾ الآية.

﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أجبهم وقل لهم: الله يشهد لي بالرسالة والنبوة وكفى بشهادة الله لي شهادة، فلا أعظم منه شهادة ولا أكبر. قال ابن عباس: قال الله لنبيه محمد ﷺ قل لهم أي شيء أكبر شهادة؟ فإن أجابوك، وإلا فقل لهم: الله شهيد بيني وبينكم.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ وأوحي إليّ هذا القرآن لمنفعتكم ومصلحتكم ـ يا أهل مكة ـ لأنذركم به وأنذر كل من بلغه من القرآن من العرب والعجم إلى يوم القيامة.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ استفهام توبيخ وتقريع، أئنكم أيها المشركون لتقرون بوجود آلهة مع الله؟ فكيف تشهدون أن مع الله آلهة أخرى بعد وضوح الأدلة وقيام الحجة على وحدانية الله؟!

﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ قل لهم -يا محمد- لا أشهد بذلك، وذلك لكون هذه الشهادة باطلة.

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قل ـ يا محمد ـ إنما أشهد بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا شريك له، لا يستحق العبودية والإلهية سواه.

﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وأنا بريء من هذه الأصنام. ثم ذكر تعالى أن الكفار بين جاهل ومعاند، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ وهم اليهود والنصارى الذين عرفوا وعاندوا؛ يعرفون النبي ﷺ بحليته

ونعته على ما هو مذكور في التوراة والإنجيل، كما يعرف الواحد منهم ولده من بين الصبيان لا يشك في ذلك أصلاً لتحقق تلك المعرفة وكمالها، وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب وبصحة نبوته.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: ولكنهم اتبعوا أهواءهم، من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين، فخسروا أنفسهم حين كفروا بمحمد ﷺ وبما جاء به.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ الاستفهام إنكاري ومعناه النفي، أي: لا أحد أشد ظلماً ممن اختلق على الله الكذب فزعم أن له شركاء في العبادة، أو كذب بالقرآن والمعجزات الباهرة التي أيد بها رسله ـ عليهم السلام ـ وسماها سحراً.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا يفلح المفتري ولا المكذب، وفيه إشارة إلى أن مدعي الرسالة لو كان كاذباً لكان مفترياً على الله فلا يكون محلاً لظهور المعجزات.

* ثم يخبر تعالى عن مآل المشركين يوم القيامة، وأنهم يسألون ويوبخون، قال تعالى:

﴿٢٢﴾-﴿٢٦﴾ ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ۞ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ۞ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۞ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾.

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ أي: وليحذر هؤلاء المشركون المكذبون بآيات الله تعالى يوم نحشرهم، ثم نقول لهم على رؤوس الأشهاد، توبيخاً وتقريعاً.

﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ أين آلهتكم من الأصنام والأنداد التي جعلتموها شركاء مع الله ليشفعوا لكم؟ وأضاف الشركاء إليهم، لأنها لم تكن شركاء لله في الحقيقة، بل لما سموها شركاء أضيفت إليهم، وهي ما كانوا يعبدونه من دون الله، أو ما كانوا يعبدونه مع الله.

﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ﴾ أي: لم يكن حجتهم وجوابهم حين اختبروا بهذا السؤال ورأوا الحقائق.

﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ أي: أقسموا كاذبين وتبرؤوا منهم بقولهم؛ والله يا ربنا ما كنا مشركين، تبرؤوا من الشرك وانتفوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين. قال ابن عباس: يغفر الله لأهل الإخلاص ذنوبهم فإذا رأى المشركون ذلك قالوا تعالوا نقول: إن كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين، فيختم على أفواههم وتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: تأمل -يا محمد- متعجباً من هؤلاء المشركون ومن أحوالهم كيف كذبوا على أنفسهم بنفي الإشراك عنها أمام علام الغيوب، وهذا للتعجيب من كذبهم الصريح.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ وتلاشى وبطل ما كانوا يظنونه من شفاعة آلهتهم، وغاب عنهم ما كانوا يفترونه على الله من الشركاء. ثم وصف تعالى حال المشركين حين استماع القرآن، فقال:

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ ومن هؤلاء المشركين من يصغي إليك ـ يا محمد ـ حين تتلو القرآن.

﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ وجعلنا على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوا القرآن فلا يصل إلى قلوبهم لأنهم بسبب اتباعهم أهواءهم، وهذه الأكنة والوقر هي شدة البغض والنفرة والإعراض، التي لا يستطيعون معها سمعاً ولا عقلاً. عن ابن عباس أن أبا سفيان والوليد بن المغيرة والنضر ابن الحارث جلسوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟ فقال أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية، فأنزل الله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ...﴾ الآية.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ أي: وجعلنا في آذانهم ثقلاً وصمماً فلا تسمع ولا

بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ
وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ
بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا
بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ
٣٠ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ
بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ
عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ
إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ
٣٢ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ
وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ
رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ
نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ
٣٤ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ
نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ
ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥

تعي شيئاً، وهذا دليل على أن الله تعالى يقلب القلوب فيشرح بعضها للهدى، ويجعل بعضها في أكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن.

﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ **أي: مهما رأوا من الآيات والحجج الكثيرة، البينة الواضحة لا يصدقوا بها لفرط العناد، ولهذا قال:**

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ **أي: بلغوا من التكذيب والمكابرة إلى أنهم إذا جاؤوك مجادلين بعد مشاهدة الآيات الدالة على صدقك، يقولون عن القرآن: ما هذا إلا خرافات وأباطيل الأولين.**

﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُ﴾ **أي: هؤلاء المشركون بالله المكذبون لرسوله يجمعون بين الضلال والإضلال، ينهون الناس عن الإيمان بالقرآن، وعن اتباع محمد ﷺ، ويبتعدون بأنفسهم عنه.**

﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ **وما يهلكون بهذا الصنيع إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك، فهم قد جمعوا بين الفعلين القبيحين لا ينتفعون ولا يدعون أحداً ينتفع، ولا يعود وباله إلا عليهم.**

*** ثم يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، إذا وقفوا على النار وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، قال تعالى:**

﴿٢٧-٣٠﴾ ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ * وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ * وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ **ولو ترى - يا محمد - هؤلاء المشركين إذ عرضوا على النار لرأيت أمراً عظيماً شنيعاً تشيب لهوله الرؤوس، ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق، وتمنوا أن لو يردوا إلى الدنيا.**

﴿فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ **أي: لما رأوا الأهوال العظيمة، تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات الله.**

﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ **أي: إذا رجعنا إلى الدنيا نصدق ونؤمن بالله إيماناً صادقاً، فتمنوا العودة ليصلحوا العمل ويتداركوا الزلل. والأفعال الثلاثة داخلة تحت التمنى، أي: تمنوا الرد، وأن لا يكذبوا، وأن يكونوا مع المؤمنين. قال تعالى رداً لذلك التمني:**

﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُ﴾ **أي: ليس ذلك المتمنى منهم عن صدق نية وخلوص اعتقاد، بل هو لسبب آخر، حيث ظهر لهم يوم القيامة ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاء به الرسل في الدنيا وإن كانوا يظهرون لأتباعه خلافه، وعرفوا أنهم هالكون بشركهم، فعدلوا إلى التمني والمواعيد الكاذبة.**

﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ **ولو ردّوا - على سبيل الفرض؛ لأنه لا رجعة إلى الدنيا بعد الموت، لعادوا إلى الكفر والضلال والعناد، وإنهم لكاذبون في وعدهم بالإيمان.**

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ **وقال هؤلاء المشركون المنكرون للبعث: ما هي إلا**

هذه الحياة الدنيـا التي نحن فيها، وما نحن بمبعوثين بعد موتنا.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ولو ترى حالهم ـ يا محمد ـ إذ حبسوا للحساب أمام رب الأرباب لقضائه فيهم يوم القيامة، كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده للعقاب، لرأيت وشاهدت أمراً عظيماً، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف للتهويل من فظاعة الموقف.

﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إذ يقول ـ جل وعلا ـ أليس هذا المعاد بحق؟ أليس هذا البعث الذي كنتم تنكرونه في الدنيا حقاً، والهمزة للتقريع على التكذيب.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ اعترفوا بما أنكروا، وقالوا: بلى والله إنه لحق وأكدوا اعترافهم بالقسم.

﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال الله تعالى: فذوقوا العذاب بسبب كفركم في الدنيا وتكذيبكم رسل الله.

* ثم أخبر ـ تعالى عن هؤلاء الكفار وخسرانهم وضلالهم، فقال:

﴿٣١﴾، ﴿٣٢﴾ ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ * وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ لقد خسر وخاب هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ حتى إذا جاءتهم القيامة فجأة من غير أن يعرفوا وقتها، وفوجئوا بسوء المصير، نادوا على أنفسهم بالحسرة والندامة. وسميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها.

﴿قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي: قالوا يا ندامتنا على ما قصرنا وضيعنا في الدنيا من صالح الأعمال، ولكن هذا تحسر ذهب وقته.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: والحال أنهم يحملون أثقال ذنوبهم وآثامهم على ظهورهم، وهذا تمثيل لاستحقاقهم أوضار الآثام، وكناية عن تحمل الذنوب الظهور، وقيل: إنهم يحملونها على ظهورهم حقيقة، فقد روي أن الكافر يركبه عمله بعد أن يتمثل له في أقبح صورة، وأن المؤمن يركب عمله بعد أن يتمثل له في أحسن صورة.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بئس ما يحملونه من الأوزار. ثم ذكر تعالى حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، فقال:

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وما الحياة الدنيا في غالب أحوالها إلا غرور وباطل لا بقاء لها، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب، باطل وغرور لقصر مدتها وفناء لذتها.

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: والعمل الصالح للدار الآخرة خير للذين يخشون ربهم، وما فيها من أنواع النعيم خير لعباد الله المتقين من دار الفناء؛ لأنها دائمة لا يزول عنهم نعيمها ولا يذهب عنهم سرورها، وسميت آخرة لتأخرها عن الدنيا.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تعقلون أن الآخرة خير من الدنيا فتقدموا ما يبقى على ما يفنى.

* ثم سلَّى تعالى نبيه ﷺ لتكذيب قومه، وما ناله من الغم والحزن، فقال:

﴿٣٣﴾-﴿٣٦﴾ ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِىْ ٱلْمُرْسَلِينَ * وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ أي: قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم فاصبر واطمئن، قال الحسن: كانوا يقولون إنه ساحر وشاعر وكاهن ومجنون. روي أن الأخنس بن شريق التقى بأبي جهل بن هشام فقال له: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس عندنا

الجزء السابع سورة الأنعام

۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ ٣٦ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ
قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٧ وَمَا
مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ
مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ٣٨
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ
ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٣٩ قُلْ
أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ
تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ
مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ٤١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ
إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ
يَتَضَرَّعُونَ ٤٢ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن قَسَتْ
قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٤٣ فَلَمَّا
نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ
إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ٤٤

١٣٢

أحد غيرنا، قال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء، والسقاية، والحجابة، والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ...﴾ **الآية.**

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ **فإنهم في دخيلة نفوسهم لا يكذبونك بل يعتقدون صدقك ومدخلك ومخرجك، ولكنهم يجحدون عن عناد فلا تحزن لتكذيبهم، قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يسمى الأمين فعرفوا أنه لا يكذب في شيء ولكنهم كانوا يجحدون، فكان أبو جهل يقول: ما نكذبك - يا محمد - وإنك عندنا لمصدق وإنا نكذب ما جئتنا به.**

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟﴾ **ولقد كذب الكفار رسلاً من قبلك كما كذبتك قريش، أرسلهم الله تعالى إلى أممهم، وأوذوا في سبيله، فصبروا على ما نالهم من قومهم من التكذيب والاستهزاء، وهذا من جملة التسلية لرسول الله ﷺ.**

﴿وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ **وأوذوا في الله فصبروا على ذلك ومضوا في دعوتهم وجهادهم حتى نصرهم الله. وفي الآية إرشاد إلى الصبر، ووعد له بالنصر.**

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ **ولا ناقض لما حكم به، وقد حكم في كتابه بنصر أنبيائه - عليهم السلام، ووعده كائن. قال ابن عباس: أي لمواعيد الله وهي ما أنزل على نبيه محمد ﷺ من وعده إياه بالنصر على من عاداه، وفي هذه تقوية للوعد.**

﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ **ولقد جاءك - يا محمد - بعض أخبار المرسلين الذين كذبوا وأوذوا كيف أنجيناهم ونصرناهم على قومهم، فتسل ولا تحزن، ولك فيمن تقدم من الرسل أسوة وقدوة، وفيه ما يثبت فؤادك، ويطمئن قلبك فإن الله ناصرك كما نصرهم.**

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ **وإن كان شق وعظم عليك - يا محمد - إعراض قومك عن الإسلام وشق عليك صدودهم وانصرافهم عن الاستجابة لدعوتك، وكان ﷺ يحرص على إيمان قومه أشد الحرص، فبين له تعالى أن هذا الذي وقع منهم من توليهم عن الإجابة له، والإعراض عما دعا إليه، هو كائن لا محالة لما سبق في علم الله ﷻ وليس في استطاعته وقدرته إصلاحهم وإجابتهم قبل أن يأذن الله بذلك، ثم علق ذلك بما هو محال، فقال:**

﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ **فإن قدرت أن تطلب سرباً ومسكناً في جوف الأرض فتذهب فيه فتأتيهم بآية.**

﴿أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ **أي: مصعداً تصعد به إلى السماء فتأتيهم بآية مما اقترحوه فافعل، ولكنك لا تستطيع ذلك، فدع الحزن.**

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ **ولو أراد الله لهداهم إلى الإيمان، فلا تكونن - يا محمد - من الذين يجهلون حكمة الله ومشيئته الأزلية.**

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ **إنما يجيبك - يا محمد - إلى ما دعوت الله من الهدى الذين يسمعون سماع قبول وإصغاء فيتبعونه وينتفعون به دون من ختم الله على سمعه، وهنا تم الكلام ثم ابتدأ، فقال:**

﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ **وأما الكفار فهم في عداد الموتى؛ لأن الحياة**

الحقيقية إنما تكون بالإسلام. قال ابن كثير: يعني بذلك الكفار لأنهم موتى القلوب فشبههم الله بأموات الأجساد، وهذا من باب التهكم بهم والازدراء عليهم، وقال الطبري: يعني: والكفار يبعثهم الله مع الموتى، فجعلهم تعالى في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتاً، ولا يعقلون دعاءً، ولا يفقهون قولاً، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله ولا يعتبرون بآياته ولا يتذكرون فينزجرون عن تكذيب رسل الله.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ثم مرجعهم إلى الله فيجازيهم بأعمالهم.

* لما ذكر الله تعالى إعراض المشركين عن القرآن وعن الإيمان بالنبي ﷺ، ذكر في هذه الآيات السبب في ذلك وهو أن القرآن نور وشفاء يهتدي به المؤمنون، وأما الكافرون فهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يستجيبون، ثم ذكر اقتراح المشركين بعض الآيات؛ وشبههم بالصم البكم الذي لا يعقلون، قال تعالى:

﴿٣٧﴾-﴿٣٩﴾ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ * وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: قال كفار مكة ـ تعنتاً واستكباراً ـ هلا أنزل الله على محمد معجزة تدل على صدقه كالناقة والعصا والمائدة، وكان هذا منهم تعنتاً واستكباراً بعد ظهور البراهين وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة من مثله.

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ قل لهم ـ يا محمد ـ مجيباً إن الله قادر على أن يأتيهم بما اقترحوا من الآيات.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن إنزالها يستجلب لهم البلاء؛ لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السابقة.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أي: ما من حيوان يمشي على وجه الأرض، ولا من طائر يطير في الجو بجناحيه.

﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أي: إلا طوائف مخلوقة مثلكم، خلقها الله وقدر أحوالها وأرزاقها وآجالها، ونفذت فيها مشيئته وقدرته كما كانت نافذة عليكم، والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ ما تركنا وما أغفلنا في اللوح المحفوظ شيئاً من أمر الدين يحتاج الناس إليه في أمورهم إلا بيناه. وقيل: إن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، ويكون المعنى: ما تركنا في اللوح المحفوظ شيئاً فلم نكتبه.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي: يجمعون يوم القيامة فيقضي بينهم فيحاسب كلاً بعمله، قال الزمخشري: يعني الأمم كلها من الدواب والطير فيعوضها وينصف بعضها من بعض كما روي أنه يأخذ للجماء من القرناء.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: والذين كذبوا بالقرآن مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل صم لا يسمعون كلام الله سماع قبول، بكم لا يسمعون الخير لا ينطقون بالحق حائرون في ظلمات الظلم والجهل والكفر لم يختاروا طريق الاستقامة، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه.

﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ من يشأ الله إضلاله يضلله، ومن يشأ هدايته يرشده إلى الهدى ويوفقه لدين الإسلام؛ لأنه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، بحسب ما اقتضاه فضله وحكمته.

* ثم يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، وأنه لا معقب لحكمه، بل هو وحده لا شريك له، الذي إذا سُئل يجيب لمن يشاء، ولهذا قال:

﴿٤٠﴾-﴿٤٥﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم
مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ
ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ
بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا
نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ
عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ
إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ
رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ **استفهام تعجيب، أي: قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين: أخبروني إن أتاكم عذاب الله كما أتى من قبلكم، أو أتتكم القيامة بغتة.**

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ **هذا على طريقة التبكيت والتوبيخ، أي: أتدعون غير الله في هذا الحالة لكشف ما نزل بكم من البلاء، والضر؟ إن كنتم صادقين في أن الأصنام تنفعكم.**

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ **بل -هناك- تخصون ربكم الذي خلقكم لا غيره تعالى بدعائكم واستغاثتكم به في الشدائد، فيكشف الضر الذي تدعونه إلى كشفه إن أراد أن يتفضل عليكم.**

﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ **أي: تتركون الآلهة فلا تدعونها، لاعتقادكم أن الله تعالى هو القادر على كشف الضر وحده دون سواه.**

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ **هذه تسلية لرسول الله ﷺ، أي: والله لقد أرسلنا رسلاً إلى أمم كثيرين من قبلك يدعونهم إلى الله تعالى فكذبوا رسلنا وجحدوا آياتنا، فابتليناهم في أموالهم بشدة الفقر والبؤس وضيق المعيشة، وابتليناهم في أجسامهم بالأمراض والأسقام والأوجاع رحمة منا بهم.**

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ **رجاء أن يتذللوا إلى الله ويرجعوا إليه بالتوبة والإنابة، فالنفوس تتخشع عند نزول الشدائد. والتضرع: السؤال بالتذلل.**

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ **فهلَّا تضرعوا حين جاءهم العذاب، وهذا عتاب على ترك الدعاء، وإخبار عنهم أنهم لم يتضرعوا مع قيام مايدعوهم إلى التضرع.**

﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ **ولكن ظهر منهم النقيض فما رقت قلوبهم ولا خشعت، بل قست فلم تلن للإيمان ولم ينزجروا بما ابتلوا به.**

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ **وصاروا معجبين بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم من المعاصي والإصرار على الضلال.**

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ **أي: لما تركوا العمل بأوامر الله تعالى معرضين عنه.**

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ **من النعم والخيرات والأرزاق، فأبدلناهم بالبأساء رخاءً في العيش، وبالضراء صحة في الأجسام، استدراجاً منا لهم.**

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ **أي: بطروا وأعجبوا بما أعطيناهم من الخير والنعيم، وهذا فرح بطر مثل فرح قارون بما أصاب من الدنيا.**

﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ **أخذناهم بعذابنا فجأة وهم غير مترقبين لذلك، فإذا هم يائسون قانطون من كل خير.**

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: استؤصلوا وأُهلكوا عن آخرهم فلم يبق منهم أحد.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حمد الله نفسه على أن قطع دابرهم، وذكر الحمد لله تعليماً لهم ولمن آمن بهم، والمعنى: والشكر والثناء لله تعالى على نصر الرسل وإهلاك الكافرين، فإن بذلك تتبين آياته، وإكرامه لأوليائه، وإهانته لأعدائه، وصدق ما جاءت به المرسلون.

* ثم يخبر تعالى أنه كما أنه المتفرد بخلق الأشياء وتدبيرها، فإنه المتفرد بالوحدانية والإلهية، وفي الآيات تكرير للتوبيخ لقصد تأكيد الحجة عليهم، قال تعالى:

﴿٤٦﴾-﴿٤٩﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ * قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ قل -يا محمد- لهؤلاء المكذبين المعاندين من أهل مكة: أخبروني لو أذهب الله حواسكم فأصمكم حتى لا تسمعوا شيئاً، وأعماكم حتى لا تبصروا شيئاً أصلاً.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ وطبع على قلوبكم حتى زال عنها العقل والفهم، فأصبحتم لا تفقهون قولاً.

﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي: هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك، ولهذا قال:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: انظر كيف نبين ونوضح الآيات الدالة على وحدانيتنا، ثم هم بعد ذلك البيان التام يعرضون عنها فلا يعتبرون.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ قل - يا محمد - لهؤلاء المكذبين أخبروني إن نزل بكم عذاب الله العاجل فجأة، أو عياناً أو بالنهار.

﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، أي: ما يهلك بالعذاب إلا أنتم، لأنكم كفرتم وعاندتم.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: ما نرسل الرسل إلا لتبشير المؤمنين بالثواب والنعيم، وإنذار الكافرين بالعقاب والعذاب.

﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فمن آمن وصدق الرسل وأصلح عمله، فلا خوف عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على شيء فاتهم من حظوظ الدنيا، والمراد أنهم لا يخافون ولا يحزنون؛ لأن الآخرة دار الجزاء للمتقين.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ أي: وأما المكذبون بآيات الله فيصيبهم العذاب الأليم بسبب كفرهم وفسقهم، وخروجهم عن طاعة الله.

* ثم أمر ﷻ عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يرد قول المشركين حين اقترحوا الآيات، فأمره أن يقول لهم:

﴿٥٠﴾-﴿٥٤﴾ ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ * وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ * وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ قل - يا محمد - لهؤلاء الكفرة الذين

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا
جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ
رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا
بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾
وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ
﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل
لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ
﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا
تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ
خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ
ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ
مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ
وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ
ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

١٣٤

يقترحون عليك تنزيل الآيات وخوارق العادات: لست أدعي أن خزائن الله مفوضة إليّ، ولا أدعي أني أملكها وأتصرف فيها حتى تقترحوا عليّ تنزيل الآيات، ولا أدعي أيضاً أني أعلم الغيب حتى تسألوني عن وقت نزول العذاب، وأخبركم بما مضى وما سيكون.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي: ولست أدعي أني من الملائكة حتى تكلفوني الصعود إلى السماء، وعدم المشي في الأسواق وعدم الأكل والشرب، إنما أنا بشر من البشر، قال ذلك؛ لأن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه الآدمي ويشاهد ما لا يشاهده الآدمي، يريد لا أقول لكم شيئاً من ذلك فتنكرون قولي وتجحدون أمري، وأنا لا أدعي شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة حتى تجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلاً على عدم صحة رسالتي.

وهذه الآية نزلت حين قالوا له إن كنت رسولاً فاطلب من ربك أن يوسع علينا ويغني فقرنا، وأخبرنا بمصالحنا ومضارنا، فأخبر أن ذلك بيد الله سبحانه لا بيده.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ هذا الاستفهام للإنكار، أي: إنما أنا رسول من عند الله، أتبع ما يوحى إلي من وحيه الذي يوحيه إليّ.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ قل -يا محمد- لهؤلاء المشركين: هل يتساوى الكافر الذي عمي عن آيات الله تعالى فلم يؤمن بها، والمؤمن الذي أبصر آيات الله فآمن بها.

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ تقريع وتوبيخ، أفلا تتفكرون في آيات الله، لتبصروا الحق فتؤمنوا به؟

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: خوف - يا محمد - بهذا القرآن جميع الخلق، ولكن إنما ينتفع به المؤمنين المصدقين بوعد الله ووعيده الذين يوقنون أنهم يحشرون إلى ربهم، وكأنه قيل: أنذر بالقرآن من يرجى إيمانه، وأما الكفرة المعرضون فدعهم ورأيهم فقد طُمس على قلوبهم.

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ ليس لهم يومئذ غير الله وليٌّ ينصرهم، ولا شفيع يشفع لهم عنده تعالى.

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: أنذرهم لكي يتقوا الكفر والمعاصي بفعل الأوامر واجتناب النواهي، فإن الإنذار موجب لذلك وسبب من أسبابه.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ أي: لا تُبعد - يا محمد - عن مجالستك ضعفاء المسلمين الذين يعبدون ربهم ويسألونه دوماً أول النهار وآخره، يلتمسون بذلك القرب من الله والدنو من رضاه، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك، والآية نزلت في جماعة من ضعفاء المسلمين، قال المشركون لرسول الله ﷺ: لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك، وأراد النبي ﷺ ذلك طمعاً في إسلامهم.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾

قال القرطبي: «يدعون ربهم بالغداة لطلب التوفيق والتيسير وبالعشي لطلب العفو عن التقصير».

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: لا تؤاخذ بأعمالهم وذنوبهم، وهذا كالتعليل لما قبله، والمعنى: لا تؤاخذ بذنوبهم ولا بما في قلوبهم إن أرادوا بصحبتك غير وجه الله، وهذا على فرض تسليم ما قاله المشركون، وإلا فقد شهد الله لهم بالإخلاص بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ وهذا التأكيد لمطابقة الكلام، والمعنى: لا تؤاخذ أنت بحسابهم ولا هم بحسابك فلم تطردهم؟ وقيل إن المراد بالحساب الرزق، والمعنى: ليس رزقهم عليك فتملّهم ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾، ولا رزقك عليهم، وإنما يرزقك وإياهم الله رب العالمين.

﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تطردهم فإنك إن طردتهم تكون من المتجاوزين حدود الله، وهذا لبيان الأحكام وحاشاه من وقوع ذلك منه ﷺ، قال القرطبي: وهذا كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقد علم الله منه أنه لا يشرك ولا يحبط عمله، وقد امتثل ﷺ هذا الأمر أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم وألان لهم جانبه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه ﷺ.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ وكذلك ابتلى الله وامتحن بعض عباده ببعض بتباين حظوظهم من الأرزاق والأخلاق، فجعل بعضهم غنياً وبعضهم فقيراً، وبعضهم قوياً وبعضهم ضعيفاً، فأحوج بعضهم إلى بعض اختباراً منه لهم بذلك.

﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ أي: ليقول الأشراف والأغنياء محتقرين لمن يرونهم دونهم: أهؤلاء الضعفاء والفقراء منَّ الله عليهم بالهداية والسبق إلى الإسلام من دوننا، قالوا ذلك إنكاراً واستهزاء. قال تعالى رداً عليهم:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ هذا الاستفهام للتقرير، أي: الله أعلم بمن يشكر نعمته فيهديه، ومن يكفر فيخزيه.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ نزلت في الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم، أي: أمره الله بأن يقول لهم هذا القول تطييباً لخواطرهم وإكراماً لهم، فكان إذا رآهم ﷺ بدأهم بالسلام، وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام».

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي: وبشرهم برحمة الله الواسعة، فإنه تعالى ألزم نفسه الرحمة تفضلاً منه وإحساناً. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش أن رحمتي غلبت غضبي».

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: خطيئة من غير قصد. قال مجاهد: أي: لا يعلم حلالاً من حرام، ومن جهالته ركب الذنب.

﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم تاب من بعد ذلك الذنب، وأصلح عمله، فإن الله يغفر له، وهو وعد بالمغفرة والرحمة لمن تاب وأصلح.

﴿٥٥﴾-﴿٥٩﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۞ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۞ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: ومثل هذا البيان الذي بيناه لك ـ يا محمد ـ نبين الحجج الواضحة على ضلالات المشركين، وكذلك نبين ونوضح لكم أمور الدين.

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ولتتوضح وتظهر طريق المجرمين، فينكشف أمرهم وتستبين سبلهم.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى؛ إني نهيت أن أعبد هذه الأصنام التي زعمتموها آلهة وعبدتموها من دون الله وهي لا تملك نفعاً ولا ضرّاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ أي: لا أجري في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل وعبدتم غير الله، وفيه تنبيه على سبب ضلالهم.

﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت عن الصراط المستقيم، ولا أكون في زمرة المهتدين، ثم نبه على ما يجب اتباعه بقوله:

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين: إني على بصيرة وبيان وبرهان من شريعة الله التي أوحاها إليّ؛ وذلك بإفراده وحده بالعبادة.

﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ أي: ولكنكم أيها المشركون كذبتم بالحق الذي جاءني من عند الله.

﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ وليس عندي ما أبادركم به من العذاب، قيل: أراد به العذاب الذي استعجلوه في قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي: ما الحكم في أمر العذاب وغيره إلا لله وحده؛ فبيده كل شيء. يخبر الخبر الحق ويبينه البيان الشافي، وهو خير الحاكمين بين عباده في الدنيا والآخرة.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: قل - يا محمد - للمستعجلين بالعذاب جهلاً وعناداً وظلماً لو أن بيدي أمر العذاب الذي تستعجلونه.

﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لعجلته لم أمهلكم ساعة ولأهلكتكم غضباً لربي، ولكنه بيد الله.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ وهو تعالى أعلم بهم إن شاء عاجلهم، وإن شاء أخر عقوبتهم، وفيه وعيد وتهديد.

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ وعند الله ﷻ خزائن الغيب وهي الأمور المغيبة الخفية لا يعلمها ولا يحيط بها إلا هو، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]. وفي قوله ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ أسلوب حصر، فمن أساليب الحصر في اللغة تقديم ما حقه التأخير وأصلها «مفاتح الغيب عنده» فقدم ﷻ الخبر على المبتدأ. فأصبح المعنى: أن مفاتح الغيب ليست عند أحد غيره، لكن لو قال «ومفاتح الغيب عنده» يحتمل المعنى أنها عنده وعند غيره.

ومفاتح الغيب أمر لا يعلمه إلا الله، لا يُعطى لأحد، أما الغيب الباقي فيمكن أن يطلع عليه - جل وعلا - بعض عباده على بعض.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ويعلم ما في البر والبحر من الحيوانات جملة وتفصيلاً، وفي كل عوالم وعجائب وسعها علمه وقدرته، وخص البر والبحر بالذكر، لأنهما من أعظم مخلوقات الله.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيات، أي: لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها، والأرض التي تسقط عليها.

﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ ولا حبة صغيرة في باطن الأرض إلا يعلم مكانها وهل تنبت أو لا، وكم تنبت ومن يأكلها.

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ هذا عموم بعد خصوص، أي: ولا شيء فيه رطوبة أو جفاف إلا وهو معلوم عند الله ومسجل في اللوح المحفوظ، قد حواها واشتمل عليها. وانظر إلى حسن ترتيب هذه المعلومات: بدأ أولاً: بأمر معقول لا ندركه نحن بالحس وهو ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، ثم ثانياً: بأمر ندرك كثيراً منه بالحس وهو ﴿الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، ثم ثالثاً: بجزأين لطيفين أحدهما علوي وهو سقوط الورقة من علو، والثاني سفلي وهو اختفاء حبة في بطن الأرض؛ فدل ذلك على أنه تعالى عالم بالكليات والجزئيات.

قال القرطبي: «يعلم سبحانه متى تسقط وأين تسقط وكم دارت في الهواء حال سقوطها».

* لما أقام تعالى الأدلة والبراهين على وجوده ووحدانيته، أعقبه بذكر الأدلة على صفاته القدسية: علمه، وقدرته، وعظمته، وجلاله، وسائر صفات الجلال والجمال، ثم ذكر نعمته على العباد بإنجائهم من الشدائد، وقدرته على الانتقام ممن خالف أمره وعصى رسله، كل ذلك تقريراً آخر لإلوهيته وأنه المستحق للعبادة وحده، فقال:

﴿٦٠﴾-﴿٦٢﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا

إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ وهو سبحانه المتفرد بتدبير عباده، في يقظتهم ومنامهم، فهو الذي يقبض أرواحكم إذا نمتم بالليل، وليس ذلك موتاً حقيقة بل هو قبض الأرواح، بما يشبه قبضها عند الموت، ويعلم ما كسبتم من العمل بالنهار، وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليليهم ونهارهم، وفي حال سكونهم وحال حركتهم، وفي قبض الأرواح في المنام اعتبار واستدلال على البعث الأخروي.

﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ ثم يعيد أرواحكم إلى أجسامكم باليقظة من النوم نهاراً، بما يشبه الإحياء بعد الموت، لتُقضى آجالكم المحدودة في الدنيا لتبلغوا الأجل المسمى لانقطاع حياتكم، والضمير عائد على النهار؛ لأن غالب اليقظة فيه، وغالب النوم بالليل.

﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ ثم إلى الله تعالى مرجعكم يوم القيامة بعد بعثكم من قبوركم أحياء.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: يخبركم بأعمالكم ويجزيكم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ثم ذكر تعالى جلال عظمته وكبريائه، فقال:

﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ وهو تعالى الذي قهر كل شيء، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء، فليس عباده يملكون من الأمر شيئاً، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه، ومع ذلك فقد وكل بالعباد حفظة من الملائكة، فقال:

﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ أي: ويرسل ملائكة تحفظ العبد وتحفظ أعمال العباد ويحصونها، وهم الكرام الكاتبون، وفي ذلك حكمة جميلة ونعمة جليلة لأن المكلف إذا علم أن أعماله تحفظ عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد كان ذلك أزجر له عن تعاطي المعاصي والقبائح.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ حتى إذا انتهى أجل الإنسان توفته الملائكة الموكلون بقبض الأرواح، والمعنى أن حفظ الملائكة للأشخاص ينتهي عند نهاية الأجل، فهم مأمورون بحفظ ابن آدم ما دام حياً، فإذا انتهى أجله فقد انتهى حفظهم له.

﴿وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي: لا يقصرون في شيء مما أمروا به من الحفظ والتوفي، فلا يزيدون ساعة مما قدر الله وقضاه ولا ينقصون.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾ ثم يرد العباد بعد البعث إلى الله خالقهم، ومالكهم الذي له الحكم والتصرف والذي لا يقضي إلا بالعدل.

الجزء السابع — سُورَةُ الأَنۡعَامِ

وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ
يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ
يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ
وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ
رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ
أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن
ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ
هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ
ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٦٤ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن
فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم
بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥ وَكَذَّبَ
بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٖ
مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا
فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ
ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨

١٣٥

﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ أي: له - جل وعلا - الحكم وحده لا شريك له يوم القيامة، وله الفصل والقضاء، لا يشغله حساب عن حساب، ولا شأن عن شأن، يحاسب الخلائق كلهم أجمعين لكمال علمه وحفظه لأعمالهم. وقد سُئل ابن عباس كيف يحاسبهم في وقت واحد؟ فقال: كما رزقهم في وقت واحد.

* ثم يقول تعالى ممتناً على عباده، في انجائه المضطرين منهم في ظلمات البر والبحر، وموبخاً المشركين ومقرعاً لهم على الإشراك به، قال تعالى:

﴿٦٣﴾-﴿٦٥﴾ ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ

لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ * قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين الداعين مع الله آلهة أخرى، من ينقذكم ويخلصكم في أسفاركم من شدائد وأهوال البر والبحر؟

﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: أليس هو الله الذي تدعونه عند معاينة هذه الأهوال مخلصين له الدعاء والضراعة، تضرعاً بألسنتكم وخفية في أنفسكم. قال ابن عباس المعنى: تدعون ربكم علانية وسراً قائلين في تلك الحال:

﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لئن خلصتنا من هذه الظلمات والشدائد التي وقعنا فيها لنكونن من المؤمنين الشاكرين، والغرض: إذا خفتم الهلاك ودعوتموه فإذا نجاكم كفرتموه، وقد وبخهم تعالى في دعائهم إياه عند الشدائد وهم يدعون معه في حالة الرخاء غيره.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ قل لهم ـ يا محمد ـ الله وحده ينجيكم من هذه الشدائد ومن كل غم وكرب. والكرب غاية الغم الذي يأخذ النفس.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ثم أنتم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققه تشركون به ولا تؤمنون، وفي هذا تقريع وتوبيخ لهم.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قل ـ يا محمد ـ إنه تعالى قادر على إهلاككم بعذاب من فوقكم كالرجم أو الطوفان وما أشبه ذلك.

﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ بالخسف والزلازل والرجفة كما فعل بقارون وأصحاب مدين.

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أو يجعلكم فرقاً متناحرة على أهواء شتى متحزبين يقتل بعضكم بعضاً، والغرض منه الوعيد.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ انظر كيف نبين ونوضح لهم الآيات بوجوه العبر والعظات ليفهموا ويتدبروا عن الله آياته وبراهينه وحججه.

* ثم ذكر ﷻ تكذيب قريش لنبيه محمد ﷺ، وأمره أن يعرض عنهم حال استهزائهم بالله وبرسوله، قال تعالى:

٦٦-٦٩ ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ * لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: وكذب بهذا القرآن الكفار من قومك ـ يا محمد ـ وهم قريش، وهو الكتاب المنزل بالحق الذي لا مرية فيه ولا شك يعتريه.

﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: قل لهم: لست عليكم بحفيظ ومتسلط ولا رقيب، وإنما أنا رسول الله أبلغكم ما أرسلت به.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ لكل خبر من أخبار الله ﷻ وقت يقع فيه من غير خلف ولا تأخير، فيتبين الحق من الباطل، وهذا وعيد من الله للكفار، لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث وينكرونه.

﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مبالغة في الوعيد والتهديد أي: سوف تعلمون ـ أيها الكفار ـ ما يحل بكم من العذاب.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ وإذا رأيت ـ يا محمد ـ هؤلاء الكفار يخوضون في القرآن بالطعن والتكذيب والاستهزاء، وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ أي: فاتركهم ولا تجالسهم، وقم عنهم حتى يأخذوا في كلام آخر ويدعوا الخوض والاستهزاء بالقرآن. كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في النبي ﷺ، والقرآن فسبوه واستهزؤوا به، فأمرهم الله ألا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره.

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن
ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ
لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن
تُبْسَلَ نَفْسُۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ
وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ
وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ
هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ
حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ
هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ
أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن
فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ
عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

١٣٦

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ **أي: إن أنساك الشيطان النهي عن مجالستهم، فجالستهم على وجه الغفلة والنسيان ثم تذكرت.**

﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **فلا تجلس بعد تذكر النهي مع الكفرة والفساق الذين يهزؤون بالقرآن والدين.**

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ **أي: ليس على المؤمنين الذين يخافون الله تعالى، فيطيعون أوامره، ويجتنبون نواهيه شيء من حساب الكفار على استهزائهم وإضلالهم إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم.**

﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ **ولكن عليهم أن يذكروهم ويمنعوهم عما هم عليه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير، ويظهروا لهم الكراهة لعلهم يجتنبون الخوض في القرآن حياءً من المؤمنين إذا رأوهم قد تركوا مجالستهم، قال ابن عطية: ينبغي للمؤمن أن يمتثل حكم هذه الآية مع الملحدين وأهل الجدل والخوض فيه.**

﴿٧٠﴾ ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسُۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ **أي: اترك - يا محمد - هؤلاء المشركين الذين اتخذوا الدين الذي كان ينبغي احترامه وتعظيمه لعباً ولهواً باستهزائهم به.**

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ **وخدعتهم هذه الحياة الفانية حتى زعموا أن لا حياة بعدها أبداً.**

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسُۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ **وذكر وعظ بالقرآن ما ينفع الناس، مخافة أن تسلم نفس للهلاك وترهن بسوء عملها.**

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ **أي: ليس لتلك النفس ناصر وقريب ينجيها من العذاب، ولا شفيع يشفع لها عند الله.**

﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ **وإن تعط تلك النفس كل فدية لا يقبل منها، ولو بملء الأرض ذهباً.**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾ **أولئك الذين ارتهنوا بذنوبهم، وأسلموا للهلاك بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الشنيعة.**

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ **أي: هؤلاء الضالين شراب من ماء مغلي يتجرجر في بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم، ونار تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم المستمر، فلهم مع الشراب الحميم العذاب الأليم والهوان المقيم.**

﴿٧١﴾-﴿٧٣﴾ ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ
أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ
مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ
٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ
قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا
رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ
أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ
٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ
أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ
إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ
أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنٗاۚ
فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٨١

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ **الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: قل -يا محمد- للمشركين: أنعبد من دون الله تعالى وهو الضار والنافع، أوثاناً لا تنفع إن دعوناها ولا تضر إن تركناها؟**

﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ **أي: نرجع إلى الضلالة بعد الهدى، ومن الرشد إلى الغي، ومن الهداية إلى عبادة الأصنام، بعد أن هدانا الله للإسلام وشرح صدورنا له.**

﴿كَٱلَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ **أي: فيكون مثلنا كمثل الذي اختطفته الشياطين وأضلته وسارت به في المفاوز والمهالك فألقته في هوة سحيقة.**

﴿حَيْرَانَ﴾ **أي: متحيراً لا يدري أين يذهب.**

﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٞ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ﴾ **وله رفقة عقلاء مؤمنون يدعونه إلى الطريق الواضح، يقولون ائتنا، فلا يقبل منهم ولا يستجيب لهم.**

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ﴾ **قل لهؤلاء الكفار إن ما نحن عليه من الإسلام هو الهدى وحده، وما عداه ضلال.**

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **وأمرنا جميعاً بأن نستسلم لله ﷻ ونخلص له العبادة في جميع أمورنا وأحوالنا، وهذا تمثيل لمن ضل عن الهدى وهو يُدعى إلى الإسلام فلا يجيب. قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها وللدعاة الذين يدعون إلى الله، كمثل رجل ضل عن الطريق تائهاً ضالاً إذ ناداه مناد يا فلان بن فلان هلم إلى الطريق وله أصحاب يدعونه يا فلان هلم إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه في الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق.**

﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ﴾ **أي: وكذلك أُمرنا بإقامة الصلاة، وبتقوى الله في جميع الأحوال، وذلك بفعل ما أمر به، واجتناب ما عنه نهى.**

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ **أي: فكيف تخالفون أمره وأنتم سوف تجمعون إليه يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله.**

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ﴾ **وهو سبحانه الخالق المالك المدبر للسموات والأرض ومن فيهما، خلقهما بالحق، ولم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً.**

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ﴾ **أي: واتقوه واتقوا عقابه الشديد يوم يقول كن فيكون، وهو إشارة إلى سرعة الحساب.**

﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ **قوله سبحانه الصدق الواقع لا محالة، وله الملك يوم القيامة، خصه بالذكر مع أنه مالك كل شيء؛ لأنه تنقطع فيه الأملاك، فلا يبقى ملك إلا لله الواحد القهار.**

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ **يوم ينفخ إسرافيل في «القرن» النفخة الثانية، وهي نفخة الإحياء.**

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ **أي: يعلم ما خفي وما ظهر، وما يغيب عن الحواس والأبصار وما تشاهدونه بالليل والنهار.**

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ **أي: الذي له الحكمة التامة، والنعمة السابغة، والإحسان العظيم، والعلم المحيط بالسرائر والبواطن والخفايا، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.**

*** لما كانت الآيات تتحدث عن عقيدة التوحيد التي بعث الله بها الرسل، ومن أجلها أنزل الكتب، وذكر تعالى الحجج الدامغة الدالة على التوحيد وبطلان عبادة الأوثان،**

ذكـر هنا قصـة أبي الأنبيـاء إبراهيم لإقامة الحجة عـلى مشركي العرب في تقديسهم الأصنام، فإنه جاء بالتوحيد الخالص الذي يتنافى مع الإشراك بالله، وجميع الطوائف والملل معترفة بفضل إبراهيـم وجلالة قدره، ثم ذكر شرف الرسل من أبناء إبراهيم، وأمر رسوله بالاقتداء بهديهم الكريم، فقال تعالى:

﴿٧٤﴾-﴿٧٩﴾ ﴿وَإِذْ قَـالَ إِبْرَٰهِيـمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِـذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَـكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * وَكَذَٰلِكَ نُـرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّـمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُـونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَـنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَـالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِـينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَـةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَـٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيـمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًـا ءَالِهَةً﴾ أي: واذكر -يـا محمـد- لقومك عبـدة الأوثان قصة ومحاجة إبراهيـم ـ الذي يدعون أنهم على ملته ـ إذ قال لأبيه آزر منكراً عليه: يا أبت أتتخذ أصناماً آلهة تعبدها وتجعلها ربـاً دون الله الـذي خلقك فسواك ورزقك؟

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَـكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِـينٍ﴾ أي: فأنـت والسـالكين مسلكك في ضلال عن الحق واضح لا شك فيه، حيث عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئاً.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّـمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: وكـما هدينا ووفقنا إبراهيم عليه السلام للتوحيـد والدعـوة إليـه، نريه الملك العظيم والسـلطان الباهر وليرى ببصيرته ما اشـتملت عليه من الأدلـة القاطعة، والبراهين الساطعة الدالة على وحدانية الله ﷻ، في ملكه وخلقه، أنه لا إله غيره ولا رب سواه.

﴿وَلِيَكُـونَ مِـنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ أي: أريناه تلك الآيـات الباهرة، ليكون من الراسخين في الإيمان. قال مجاهد: فرجت له السـموات والأرض فـرأى ببصره الملكوت الأعلى والملكوت الأسفل.

﴿فَلَمَّـا جَـنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْـلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ فلما أظلـم على إبراهيـم عليه السلام الليل وغطاه، رأى كوكباً مضيئاً في السماء هو الزهرة أو المشتري، ناظر قومه ليثبت لهم أن دينهم باطل، وكانوا يعبدون النجوم.

﴿قَالَ هَـٰذَا رَبِّي﴾ أي: هذا ربي فهلم ننظـر، هل يسـتحق الربوبية، وهل يقـدم لنا دليلاً عـلى ذلك، قاله على سـبيل الرد عليهـم والتوبيخ لهم واسـتدراجاً لهم لأجـل أن يعرفهم جهلهـم وخطأهم في عبـادة غير الله، حيث كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكـب فـأراد أن ينبههـم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مـؤد إلى ألا يكون شيء منها إلهاً وأن وراءها محدثاً أحدثها، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها، وقولـه: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنـه مبطل، فيحكي قوله كما هـو غير متعصب لمذهبه؛ لأن ذلـك أدعـى إلى الحق، ثم يكـر عليه فيبطله بالحجة.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَـالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ فلـما غـاب ذلـك الكوكـب، قال إبراهيـم عليه السلام: لا أحـب عبـادة من كان كذلك؛ لأن الـرب لا يجوز عليه التغير والانتقال لأن ذلك من صفات الأجـرام، والمعبـود لا بـد أن يكون قائماً بمصالح مـن عبده، ومدبراً له في جميع شؤونه.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ فلـما رأى القمـر طالعاً منتشر الضوء، قـال لقومه: هـذا ربي، على الأسلوب المتقدم لفتاً لأنظار قومه إلى فساد ما يعبدونه وتسفيهاً لأحلامهم.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَـالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فلما غاب القمر، قـال إبراهيم: لئن لم يثبتني ربي على الهدى لأكونن من القوم الضالين. والأنبياء لم يزالوا يسألون الله تعالى الثبـات علـى الإيمان، وفيـه تعريض لقومه بأنهم على ضلال.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّـمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْـبَرُ﴾ فلما رأى

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ
وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ
قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾
وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا
مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ
وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾
وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ
وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي
بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ
وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ
بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ
قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

١٣٨

الشمس طالعة، قال لقومه: هذا أكبر من الكوكب والقمر.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ **فلما غابت الشمس وغربت، قال: أنا بريء مما تشركون من عبادة الأوثان والنجوم، والأصنام التي تعبدونها من دون الله، قال ابن كثير: والحق أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيارة وأشدهن إضاءة الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع** ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ **أي: قصدت بعبادتي وتوحيدي، الله وحده لا شريك له، الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق.**

﴿حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ **أي: مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، ولست ممن يعبد مع الله غيره فتبرأ من الشرك، وأذعن للتوحيد وأقام على ذلك البرهان.**

* **يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم، حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشبه من القول:**

﴿٨٠﴾-﴿٨٣﴾ ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ * وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾ **أي: وجادلوه وناظروه في شأن توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة دون سواه، جادلوه في آلهتهم وخوفوه بها فأجابهم منكراً عليهم.**

﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ **أي: أتجادلونني في الله ووحدانيته، وقد بصرني وهداني إلى الحق وأنا على بينه منه.**

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ **أي: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه، أن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله لا تؤثر شيئاً، وأنا لا أخافها ولا أباليها؛ لأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، وليست قادرة على شيء مما تزعمون.**

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ﴾ **إلا إذا أراد ربي أن يصيبني شيء من المكروه فيكون؛ لأنه النافع الضار سبحانه.**

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ **أي: أحاط علمه بجميع الأشياء فلا يخفى عليه خافية.**

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ **استفهام للتوبيخ، أي: أفلا تعتبرون وتتعظون؟ وفي هذا تنبيه لهم على غفلتهم التامة حيث عبدوا ما لا يضر ولا ينفع، وأشركوا مع ظهور الدلائل الساطعة على وحدانيته سبحانه.**

﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ﴾ **وكيف أخاف آلهتكم التي أشركتموها مع الله في العبادة، وحالها حال العجز وعدم النفع.**

﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ﴾ **أي: وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شيء الذي أشركتم به دون حجة ولا برهان بل بمجرد الهوى.**

﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن

كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: أينا أحق بالأمن من العذاب، أنحن وقد عرفنا الله بأدلة وخصصناه بالعبادة، أم أنتم وقد أشركتم معه الأصنام وكفرتم بالواحد الديان؟ قال الله تعالى فاصلاً وقاضياً بين الفريقين:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: الذين صدقوا الله واتبعوا رسوله، ولم يخلطوا إيمانهم بشرك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: لهم الطمأنينة والسلامة وهم الموفقون إلى طريق الحق، الآمنون يوم القيامة. روي أن هذه الآية لما نزلت أشفق منها أصحاب النبي ﷺ، فقالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: «ليس كما تظنون وإنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]» [رواه البخاري].

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ الإشارة إلى ماتقدم من الحجج الباهرة التي أيد الله بها خليله عليه السلام أي: هذا الذي احتج به إبراهيم على وحدانية الله من أفول الكواكب والشمس والقمر، ومن أدلتنا التي أرشدناه لها لتكون له الحجة الدامغة على قومه علا بها عليهم، وفلجهم بها.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ نرفع من نشاء من عبادنا مراتب في الدنيا والآخرة بالعلم والفهم والنبوة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: هو -جل وعلا- حكيم يضع الشيء في محله، عليم لا يخفى عليه شيء.

قيل: قدم ﴿حَكِيمٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾ لأن هذا التفضيل مظهر للحكمة. ثم عقب بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ ليشير إلى أن ذلك الإحكام جار على وفق العلم.

* لما ذكر تعالى عبده وخليله إبراهيم عليه السلام وذكر ما منَّ الله عليه به من العلم والدعوة والصبر، ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة، والنسل الطيب، وأن الله جعل صفوة الخلق من نسله، فقال:

﴿٨٤﴾-﴿٩٠﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: وهبنا لإبراهيم ولداً وولد ولد، لتقر عينه ببقاء العقب.

﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ وكلا منهما أرشدناه ووفقناه إلى سبيل السعادة وآتيناه النبوة والحكمة. قال ابن كثير: يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن في السن وأيس من الولد، وبشر بنبوته وبأن له نسلاً وعقباً وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة، وكان هذا مجازاة لإبراهيم حين اعتزل قومه وهاجر من بلادهم لعبادة الله، فعوضه الله عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه لتقرَّ بهم عينه، وإنما عدّ الله سبحانه هداية هؤلاء الأنبياء من النعم التي عدّدها على إبراهيم، لأن شرف الأبناء متصل بالآباء.

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ وكذلك وفقنا للحق نوحاً من قبل إبراهيم. وذكر تعالى نوحاً؛ لأنه أب البشر الثاني فذكر شرف أبناء إبراهيم، ثم ذكر شرف آبائه.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ أي: وكذلك وفق للحق من ذرية إبراهيم هؤلاء الأنبياء الكرام، وبدأ تعالى بذكر داود وسليمان؛ لأنهما جمعا الملك مع النبوة، وسليمان ابن داود فذكر الأب والابن.

﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ قرنهما لاشتراكهما في الامتحان والبلاء.

﴿وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ابني عمران، قرنهما لاشتراكهما في الأخوة، وقدم موسى؛ لأنه كليم الله.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الكريم لإبراهيم، نجزي من كان محسناً في عمله، صادقاً في إيمانه.

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ
قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى
لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم
مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ
يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ
يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ
وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى
غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ
ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا
فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ
ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ
شُرَكَـٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

١٣٩

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ﴾ **وكذلك هدينا زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، وقرن بينهم لاشتراكهم في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا.**

﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ **أي: الكاملين في الصلاح.**

﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ **وهدينا كذلك إسماعيل وهو ابن إبراهيم، ويونس بن متى، ولوط ابن هاران وهو ابن أخ إبراهيم.**

﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ **وكلاً من هؤلاء المذكورين في هذه الآية فضلناه بالنبوة على عالمي عصرهم وزمانهم.**

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ﴾ **أي: وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعات كثيرة.**

﴿وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ **واصطفيناهم وهديناهم إلى الطريق الحق المستقيم الذي لا عوج فيه. قال ابن عباس: هؤلاء الأنبياء كلهم مضافون إلى ذرية إبراهيم، وإن كان فيهم من لا يلحقه بولادة من قبل أم ولا أب.**

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ **ذلك الهدى إلى الطريق المستقيم هو هدى الله يهدي به من أراد من خلقه ويوفق إليه من شاء من عباده فاطلبوا منه الهدى، فإنه إن لم يهدكم فلا هادي لكم غيره.**

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ **ولو أشرك هؤلاء الأنبياء -على سبيل الفرض والتقدير - مع فضلهم وعلو قدرهم لبطل عملهم فكيف بغيرهم؛ لأن الله لا يقبل مع الشرك عملاً.**

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ﴾ **أولئك الأنبياء أنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية، والحكمة الربانية، والنبوة والرسالة.**

﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ﴾ **فإن يكفر بآياتنا الكفار من قومك - يا محمد - فقد استحفظناها واسترعيناها رسلنا وأنبياءنا.**

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ **أي: هؤلاء الرسل المتقدم ذكرهم هم الهداة المهديون، فتأس - يا محمد - واقتد بسيرتهم، واسلك سبيلهم.**

قال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ ولم يقل: (بهم) إشارة إلى أن الاقتداء يكون بالمنهج والطريق لا بالأشخاص.

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ﴾ **قل - يا محمد - لقومك الذين أعرضوا عن دعوتك لا أطلب منكم على تبليغ القرآن والرسالة شيئاً من الأجر والمال أو عوضاً من الدنيا، إن أجري إلا على الله.**

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ **أي: ما هذا القرآن إلا عظة وتذكير لجميع الخلق لعلهم يتذكرون به ما ينفعهم.**

*** ثم شنع تعالى على من نفى الرسالة من اليهود والمشركين، وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء، قال تعالى:**

﴿٩١﴾، ﴿٩٢﴾ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ * وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عرف هؤلاء المشركون الله حق معرفته، ولا عظموه حق تعظيمه.

﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ أي: حين أنكروا الوحي وبعثه الرسل، والقائلون هم اليهود تفوهوا بهذه العظيمة الشنعاء مبالغة في إنكار نزول القرآن على محمد ﷺ. عن سعيد بن جبير أن مالك ابن الصيف من اليهود جاء يخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟» ـ وكان حبراً سميناً ـ فغضب، وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له أصحابه الذين معه ويحك ولا على موسى؟ فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ...﴾ الآية. فرد الله ﷻ عليه:

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المعاندين مقرراً لهم وملزماً: من أنزل التوراة على موسى نوراً في ظلمات الجهل، وهداية من الضلالة لبني إسرائيل؟ ثم توجه الخطاب إلى اليهود زجراً لهم بقوله:

﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أي: تكتبونه في قراطيس مقطعة، وورقات مفرقة، تبدون منها ما تشاؤون، وتخفون ما تشاؤون، وتكتمون كثيراً منها، ومما كانوا يكتمونه إياهم؛ ما فيها من أمر محمد ﷺ ونبوته.

﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ وعلمكم الله يا معشر اليهود من دين الله وهدايته في هذا القرآن ما لم تعلموا به من قبل لا أنتم ولا آباؤكم

﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: قل لهم في الجواب: الله هو الذي أنزل هذا القرآن، ثم اتركهم في باطلهم الذي يخوضون فيه يهزؤون ويلعبون، حتى يأتيهم من الله اليقين، وهذا وعيد لهم وتهديد على إجرامهم.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ أي: وهذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، مبارك، كثير النفع، عظيم الفائدة. قال العلماء: هذا الكتاب مبارك كثير البركات والخيرات، فمن تعلمه، وعمل به غمرته الخيرات في الدنيا والآخرة، وكان بعض علماء التفسير يقول: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات والخيرات في الدنيا تصديقاً لهذه الآية.

﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: يصدق كتب الله المنزلة كالتوراة والإنجيل.

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: أنزلناه لتخوف به ـ يا محمد ـ أهل مكة ومن حولها وهم سائر أهل الأرض.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ والذين يصدقون بالحشر والنشر، وبالحياة الآخرة، يصدقون بهذا الكتاب لما انطوى عليه من ذكر الوعد والوعيد، والتبشير والتهديد.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يؤدون الصلوات الخمس على الوجه الأكمل في أوقاتها، وخص الصلاة بالذكر؛ لأنها أشرف العبادات، وعلم الإيمان وعماد الدين، فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها ظاهراً.

﴿٩٣﴾، ﴿٩٤﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ
يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ
مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ
فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟
أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ
تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ
تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ
عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَلَقَدْ
جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ
وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ
شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ
فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ
وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام معناه النفي، أي: لا أحد أشد ظلماً ممن كذب على الله فجعل له شركاء وأنداداً.

﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ أو زعم أن الله بعثه نبياً، كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي مع أن الله لم يرسله.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ
ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ
وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟
بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌۗ
قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ
خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ
دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ
مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ
وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ
﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ
صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ ومن ادعى أنه سينظم كلاماً يماثل ما أنزله الله ويجاريه في أحكامه، قيل: نزلت في النضر بن الحارث ومن معه من المستهزئين؛ لأنه عارض القرآن بكلام سخيف، لا يذكر لسخفه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ ولو ترى - يا محمد - هؤلاء الظلمة وهم في سكرات الموت وشدائده، لرأيت أمراً هائلاً، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُۖ﴾ وملائكة العذاب يضربون وجوه أولئك الظالمين وأدبارهم لتخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم: خلصوا أنفسكم من العذاب، قيل: المعنى يقولون هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم، وهذه عبارة عن العنف في السياق، والإلحاح الشديد في الإزهاق، من غير تنفيس وإمهال.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: تجزون العذاب الذي يقع به الهوان الشديد مع الخزي الأكيد، بافترائكم على الله ونسبتكم إليه الشريك والولد.

﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تتكبرون عن الإيمان بآيات الله، والانقياد له، فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: جئتمونا للحساب منفردين عن الأهل والمال والولد، حفاة عراة غرلاً، كما ورد في الحديث: «أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده..» [متفق عليه] ومعنى «غرلاً» أي: غير مختونين.

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ﴾ وتركتم ما أعطيناكم من النعم والأموال في الدنيا، فلم تنفعكم في هذا اليوم العصيب.

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ۚ﴾ وما نرى معكم آلهتكم الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم، والذين اعتقدتم أنهم شركاء لله في استحقاق العبادة.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: تقطع وصلكم وتشتت جمعكم الذي كان بينكم في الدنيا، وضاع وتلاشى ما زعمتموه من الشفعاء والشركاء لله في العبادة، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم وأهليكم وأموالكم.

* لما ذكر تعالى أمر التوحيد وأردفه بتقرير أمر النبوة، شرع في تعداد عجائب صنعه تعالى وذكر الأدلة الدالة على وجود الخالق وكمال علمه وقدرته وحكمته، وبعجائب الصنع ولطائف التدبير تنبيهاً على أن المقصود الأصلي إنما هو معرفة الله بذاته وصفاته وأفعاله، فقال:

﴿٩٥﴾-﴿٩٧﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ إن الله تعالى يشق الحب تحت الأرض لخروج النبات منها، ويشق النوى لخروج الشجر منها، وقيل: يشق النواة الميتة فيخرج منها ورقاً أخضر وكذلك الحبة.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ يخرج سبحانه النبات الغض الطري الحي؛ من الحب اليابس الذي هو كالجماد الميت، ويخرج الحب اليابس من النبات الحي النامي. وعن ابن عباس: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وعلى هذا فالحي والميت استعارة عن المؤمن والكافر.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فاعل هذا هو الله الخالق المدبر المستحق للعبادة، فكيف تصرفون عن الحق بعد هذا البيان فتعبدون معه غيره.

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ أي: كما أنه فالق الحب والنوى، كذلك هو الذي شق ضياء الصباح من ظلام الليل وكاشفه، وقيل: شق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده.

﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ وجعل الله الليل ساكناً، يسكن الناس فيه عن الحركات ويهدأون، ويستريحون.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ وجعل الشمس والقمر يجريان في فلكيهما بحساب دقيق متقن، لا يتغير ولا يضطرب فيه مصالح العباد، ويعرف بهما حساب الأزمان والليل والنهار.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي: ذلك التسيير بالحساب المعلوم، تقدير الغالب القاهر الذي لا يستعصي عليه شيء، العليم بمصالح خلقه وتدبير شؤونهم. والعزيز والعليم من أسماء الله الحسنى يدلان على كمال العزة والعلم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ والله سبحانه هو الذي خلق لكم النجوم لتهتدوا بها في أسفاركم في ظلمات الليل في البر والبحر، حين تشتبه عليكم المسالك، ويتحير في سيره السالك، وإنما امتنّ عليهم بالنجوم؛ لأن سالكي القفار وراكبي البحار إنما يهتدون في الليل لمقاصدهم بها.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قد بينا الدلائل على قدرتنا لقوم يتدبرون عظمة الخالق وشرعه.

* ثم ذكر تعالى نوعاً آخر من بديع خلقه الدال على كمال قدرته، فقال سبحانه:

﴿٩٨﴾، ﴿٩٩﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: والله سبحانه هو الذي خلقكم وأبدعكم من نفس واحدة؛ هي آدم عليه السلام إذ خلقه من طين، ثم كنتم سلالة ونسلاً منه.

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي: لكم استقرار في أرحام أمهاتكم وأصلاب آبائكم، قال ابن عباس: المستقر في الأرحام والمستودع في الأصلاب، وقال ابن مسعود: مستقر في الرحم ومستودع في الأرض التي تموت فيها.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ﴾ بينا الحجج وميزنا الأدلة لقوم يفهمون مواقع الحجج ومواضع العبر، وعبر هنا بـ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ إشارة إلى أن أطوار الإنسان وما احتوى عليه أمر خفي تتحير فيه الألباب، بخلاف النجوم فأمرها ظاهر مشاهد، ولذا عبر فيها بـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ والله هو الذي أنزل من السحاب مطراً متتابعاً وقت حاجة الناس إليه، فأخرج به كل ما ينبت من الحبوب والفواكه والثمار، والبقول والحشائش والشجر، والمعنى: أخرجنا به ما ينبت به كل شيء وينمو عليه ويصلح رحمة منه تعالى بخلقه.

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ أي: أخرجنا من النبات زرعاً وشجراً غضّاً أخضر، ثم أخرج من الزرع حبّاً يركب بعضه فوق بعض كسنابل الحنطة والشعير، والذرة والأرز، ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء، من أنواع الأشجار والنبات، ذكر الزرع والنخل، لكثرة نفعهما وكونهما قوتاً لأكثر الناس، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ

دَانِيَةٌ﴾ أي: وأخرج الله من طلع النخل - والطلع أول ما يخرج من التمر في أكمامه - عناقيد قريبة سهلة التناول، قال ابن عباس: يريد العراجين التي قد تدلت من الطلع دانية ممن يجتنيها.

﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: وأخرج سبحانه بالماء بساتين وحدائق من أعناب.

﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ أي: وأخرج به أيضاً شجر الزيتون وشجر الرمان مشتبهاً في المنظر وغير متشابه في القدر واللون والطعم، فهذه من الأشجار الكثيرة النفع، العظيمة الوقع، فلذلك خصها الله بالذكر بعد أن عمَّ جميع الأشجار والنوابت. قال قتادة: مشتبهاً ورقه مختلفاً ثمره، وفي ذلك دليل قاطع على الصانع المختار العليم القدير.

قيل: مشتبه الأوراق، مختلف المذاق، هذا جلاء للظلام، وهذا شفاء للسقام.

﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ أي: انظروا أيها الناس نظر تفكر واعتبار إلى خروج هذه الثمار من ابتداء خروجها إلى انتهاء ظهورها ونضجها، كيف تنتقل من حال إلى حال في اللون والرائحة والصغر والكبر، وتأملوا ابتداء الثمر حيث يكون بعضه مرّاً وبعضه مالحاً لا ينتفع بشيء منه، ثم إذا انتهى ونضج فإنه يعود حلواً طيباً نافعاً مستساغ المذاق، فسبحان القدير الخلاق.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في خلق هذه الثمار والزروع مع اختلاف الأجناس والأشكال والألوان؛ لدلائل باهرة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يصدقون بوجود الله، وأن الذي أخرج هذا النبات قادر على أن يحيي الموتى.

* ثم يخبر تعالى أنه مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم بآياته البينات، وحججه الواضحات، كفروا نعمته وعبدوا معه غيره، وهذا يتضمن نوعاً آخر من جهالاتهم وضلالاتهم، قال تعالى:

(١٠٠) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ وجعلوا هؤلاء المشركون الجن شركاء لله تعالى في العبادة، حيث أطاعوهم في عبادة الأوثان اعتقاداً منهم أنهم ينفعون أو يضرون.

﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أي: وقد علموا أنه تعالى هو الذي خلقهم وانفرد بإيجادهم، فكيف يكون المخلوق شريكاً لخالقه؟ وهذه غاية الجهالة.

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: واختلفوا ونسبوا إليه تعالى البنين والبنات، حيث قالوا: عزير ابن الله، والملائكة بنات الله سفهاً وجهالة.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزه الله - وتقدس وتعالى علوّاً كبيراً - عن هذه الصفات التي نسبها إليه الظالمون.

* واستمرت الآيات في تنزيه الله عن الولد والصاحبة، فقال تعالى:

(١٠١) ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: والله تعالى هو الذي أوجد وأبدع السموات والأرض وما فيهن من غير مثال سابق، وليس له في خلقهما مشارك.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ للإنكار والاستبعاد، أي: كيف يكون له ولد وليس له زوجة؟ والولد لا يكون إلا من زوجة -تعالى الله- عما يقول المشركون علوّاً كبيراً.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهو الذي خلق كل شيء من العدم، ولا يخفى عليه شيء من أمور الخلق، فذكر سبحانه بعد عموم خلقه للأشياء، ذكر إحاطة علمه بها، والغرض الرد على من نسب لله الولد من وجهين: أحدهما أن الولد لا يكون إلا من جنس والده، والله تعالى متعال عن الأجناس؛ لأنه مبدعها فلا يصح أن يكون له ولد، والثاني: أن الله خلق السموات والأرض، ومن كان هكذا فهو غني عن الولد وعن كل شيء.

* ثم أكد تعالى على وحدانيته وتفرده بالخلق والإيجاد فقال بعد هذه الأدلة الباهرة، والحجج الواضحة.

(١٠٢)، (١٠٣) ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ
يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم
بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا
وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ
وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ
مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ
﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا
وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ
عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ
بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ
يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

١٤١

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ذلكم الله خالقكم ومالككم ومدبر أموركم، لا معبود بحق سواه.

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: هو الخالق لجميع الموجودات، ومن كان هكذا فهو المستحق للعبادة وحده، وهو الحافظ والمدبر لكل شيء، ففوضوا أموركم إليه وتوسلوا إليه بعبادته.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: لا تصل إليه الأبصار، ولا تحيط به الأبصار في الدنيا؛ وهو يرى الأبصار ويحيط بها لشمول علمه تعالى للخفيات. أما في الدار الآخرة فإن المؤمنين يرون ربهم.

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ وهو اللطيف بعباده، الرفيق بهم، الخبير بمصالحهم ومنافعهم، قال ابن كثير: ونفي الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة إذ يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء، فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه تعالى وتقدس فلا تدركه الأبصار ولهذا كانت عائشة تثبت الرؤية في الآخرة وتنفيها في الدنيا وتحتج بهذه الآية.

* لما بين تعالى من الآيات البينات، والأدلة الواضحات، الدالة على الحق في جميع المطالب والمقاصد، نبه العباد عليها، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم، فقال تعالى:

﴿١٠٤﴾، ﴿١٠٥﴾ ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ * وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين: قد جاءكم البينات الواضحات، والحجج الباهرات التي اشتمل عليها القرآن، تبصرون بها الهدى من الضلال، وتميزون بها بين الحق والباطل.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: فمن تبين هذه البراهين وعرفها وآمن بمدلولها فلنفسه أبصر وإياها نفع، ومن لم يبصر الهدى بعد ظهور الحجة عليه فعلى نفسه جنى.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ وما أنا برقيب عليكم، ولست عليكم بحافظ أحصي أعمالكم، وإنما أنا منذر، والله هو الحفيظ عليكم، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وفق علمه وحكمته.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: وكما بينا في هذا القرآن للمشركين البراهين الظاهرة في أمر التوحيد والنبوة والمعاد؛ نبين لهم البراهين في كل ما جهلوه فيقولون عند ذلك كذباً وبهتاناً.

﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ أي: لكي لا يقولوا تعلمت - يا محمد - في الكتب وقرأت فيها وجئت بهذا القرآن.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ولنوضح بتصريفنا الآيات الحق لقوم يعلمون، فيتبعونه ويقبلونه.

* يقول ﷻ آمراً لرسوله ﷺ لمن اتبع طريقته، وسار على نهجه:

﴿١٠٦﴾، ﴿١٠٧﴾ ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ اتبع - يا محمد - ما أوحيناه إليك من الأوامر والنواهي التي أعظمها توحيد الله سبحانه والدعوة إليه، ولا تبال

بعناد المشركين، وادعائهم الباطل، ولا تشغل قلبك وخاطرك بهم، بل اشتغل بعبادة الله.

﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو سبحانه.

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ولا تحتفل بهم ولا تلتفت إلى آرائهم وعنادهم، واصفح واحتمل أذاهم.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْ﴾ ولو شاء الله هدايتهم لهداهم، فلم يشركوا، ولكنه سبحانه عليم بما سيكون من سوئهم، واختيارهم، واتباعهم أهواءهم المنحرفة.

﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ وما جعلناك ـ يا محمد ـ رقيباً، تحفظ عليهم أعمالهم أو تجازيهم عليها.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ ولست ـ أيها الرسول ـ بموكل على أرزاقهم وأمورهم، وتدبير مصالحهم، إن عليك إلا البلاغ.

* ثم قال ﷻ ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين:

(١٠٨) ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولا تسبوا -أيها المسلمون- آلهة المشركين وأصنامهم سداً للذريعة.

﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي: حتى لا يتسبب ذلك في سبهم الله جهلاً واعتداءً لعدم معرفتهم بعظمة الله، عن ابن عباس ﷺ قال: قال كفار قريش لأبي طالب إما أن تنهى محمداً وأصحابه عن سب آلهتنا والنيل منها وإما أن نسب إلهه ونهجوه، فنزلت: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ...﴾ الآية.

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ أي: كما حسنًّا لهؤلاء أعمالهم، كذلك حسنًّا لكل أمة عملهم عقوبة لهم على سوء اختيارهم، قال ابن عباس: زينا لأهل الطاعة الطاعة، ولأهل الكفر الكفر.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ثم معادهم ومصيرهم جميعاً إلى الله، فيجازيهم بأعمالهم، وهو وعيد بالجزاء والعذاب.

* ثم يذكر تعالى حال المشركين وواقعهم وماهم فيه من الضلال والغي:

(١٠٩)، (١١٠) ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَا﴾ أي: حلف كفار مكة المكذبون للرسول محمد ﷺ بأغلظ الإيمان وأشدها، لئن جاءنا - محمد - بمعجزة، أو أمر خارق مما اقترحوه لنصدقن بما جاء، وهذا الكلام الذي صدر منهم لم يكن قصدهم فيه الرشاد، وإنما قصدهم دفع الاعتراض عليهم، ورد ما جاء به الرسول قطعاً، والتلاعب بآيات الله.

﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قل لهم -يا محمد- أمر هذه الآيات عند الله لا عندي، هو القادر على الإتيان بها إذا شاء، ويمنعها إذا شاء.

﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وما يدريكم أيها المؤمنون لعلها إذا جاءتهم الآيات لا يصدق بها هؤلاء المشركون.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيه الداعي وتقوم عليهم الحجة، وذلك بأن نحول قلوبهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا بما أنزل من القرآن أول مرة، وهذا من عدل الله وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفي هذا بيان أن خالق الهدى والضلال هو الله لا غيره، فمن أراد له الهدى حول قلبه له، ومن أراد الله شقاوته حول قلبه لها.

﴿وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ ونتركهم في ضلالهم يتخبطون ويترددون، متحيرين لا يهتدون إلى الحق والصواب.

* لما ذكر تعالى دلائل التوحيد والنبوة والبعث، واقتراح المشركين بعض الآيات على رسول الله ﷺ، ذكر هنا أن رؤية المعجزات لن تفيد من عميت بصيرته، وأنه لو أتاهم بالآيات التي اقترحوها من إنزال الملائكة، وإحياء الموتى حتى يكلموهم، وحشر

۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا
عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ
عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا
يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي
حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ
وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ
بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن
يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا
مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

١٤٢

السباع والدواب والطيور وشهادتهم بصدق الرسول ما آمنوا بمحمد والقرآن لتأصلهم في الضلال، قال تعالى:

﴿١١١﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾ ولو أننا أجبنا طلب هؤلاء ونزلنا إليهم الملائكة فرأوهم عياناً، وأحيينا لهم الموتى فكلموهم وأخبروهم بصدق محمد ﷺ كما اقترحوا.

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ أي: وجمعنا لهم كل شيء من الخلائق عياناً ومشاهدة.

﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: لو أعطيناهم هذه الآيات التي اقترحوها وكل آية، لم يصدقوا بما دعوتهم إليه -يا محمد- ولم يؤمنوا إلا أن يشاء الله، لأن الهداية إليه لا إليهم، يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعال لما يريد، ذلك بيد الله لا يؤمن منهم إلا من هداه الله له فوفقه، ولا يكفر إلا من خذلته فأضلله. والغرض التيئيس من إيمانهم.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أي: ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون الحق الذي جئت به من عند الله تعالى، قال الطبري: أي يجهلون أن الأمر بمشيئة الله، يحسبون أن الإيمان إليهم والكفر بأيديهم متى شاؤوا آمنوا، ومتى شاؤوا كفروا، وليس الأمر كذلك.

* ثم يقول تعالى مسلياً لرسوله محمد ﷺ، بأن سنة الله ماضية وطريقته قديمة:

﴿١١٢﴾، ﴿١١٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۞ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ أي: وكما ابتليناك - يا محمد - بأعدائك من المشركين يعادونك ويخالفونك، كذلك ابتلينا جميع الأنبياء بأعداء من شياطين الإنس والجن، فاصبر على الأذى كما صبروا، ليعظم ثوابك وأجرك.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يوسوس ويلقي بعضهم إلى بعض بالضلال والشر ويزينه لهم.

﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي: يوسوسون بالكلام المزين والأباطيل المموهة ليغروا الناس ويخدعوهم فيضلوا عن سبيل الله. قال مقاتل: وكّل إبليس بالإنس شياطين يضلونهم فإذا التقى شيطان الإنس بشيطان الجن قال أحدهما لصاحبه: إني أضللت صاحبي بكذا وكذا، فأضلل أنت صاحبك بكذا وكذا، فذلك وحي بعضهم إلى بعض.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: لو شاء الله ما عادى هؤلاء أنبياءهم ولكن حكمة الله اقتضت هذا الابتلاء، وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء.

﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ اتركهم وما يدبرونه من المكائد فإن الله كافيك وناصرك عليهم، وهذا الأمر لتهديد الكفار.

﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ولتميل إلى هذا القول المزخرف قلوب الكفرة الذين لا يصدقون بالآخرة ولا يعملون لها.

﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ أي: ولتحب أنفسهم هذا الباطل، وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الآثام، وفي هذا تهديد عظيم لهم.

* يقول تعالى لنبيه ﷺ: قل لهؤلاء المشركين بالله، الذين يعبدون غيره:

﴿١١٤﴾، ﴿١١٥﴾ ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين: أفغير الله أطلب قاضياً بيني وبينكم؟ ذلك عندما قال مشركو قريش لرسول الله ﷺ: اجعل بيننا وبينك حكماً إن شئت من أحبار اليهود أو النصارى ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك، فنزلت الآية.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ﴾ وهو سبحانه الذي أنزل إليكم القرآن بأوضح بيان، مفصلاً فيه الحق والباطل، موضحاً الهدى من الضلال.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ﴾ وعلماء اليهود والنصارى يعلمون حق العلم أن القرآن حق لتصديقه ما عندهم من الكتب المنزلة، كالتوراة والإنجيل.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ فلا تكونن من الشاكين في شيء مما أوحينا إليك، وهذا من باب التهييج والإلهاب، وقيل: الخطاب للرسول والمراد به الأمة، ثم وصف تفصيلها، فقال:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ﴾ أي: تم كلام الله المنزل صدقاً فيما أخبر، وعدلاً فيما قضى وقدر.

﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: لا مغير لحكمه ولا راد لقضائه، وهو السميع لأقوال العباد، العليم بأحوالهم، وظواهرهم وبواطنهم.

* يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ محذراً عن طاعة أكثر الناس؛ لأن الحق لا يكون إلا بيد الأقلين، وهم الطائفة التي لا تزال على الحق، قال تعالى:

﴿١١٦﴾، ﴿١١٧﴾ ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وإن تطع هؤلاء الكفار وهم أكثر أهل الأرض يضلوك عن سبيل الهدى، وإنما قال: ﴿أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لأنهم كانوا حينئذ كفاراً ضلالاً، والمعنى: لا تطعهم فيما دعوك إليه فإنك إن أطعتهم ضللت ضلالهم وكنت مثلهم لأنهم؛ لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطؤوه.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: ما يتبعون في أمر الدين إلا الظنون والأوهام، يقلدون آباءهم ظناً منهم أنهم كانوا على الحق، وماهم إلا قوم يظنون ويكذبون.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إن ربك - يا محمد - أعلم بالفريقين، بمن ضل عن سبيل الرشاد، وبمن اهتدى إلى طريق الهدى والسداد، وهذه الجملة خبرية تتضمن الوعد والوعيد؛ لأن كونه تعالى عالماً بالضال والمهتدي كناية عن مجازاتهما.

* لما تقدم ذكر ما يصفه الكفار في الأنعام وضلالتهم، أمر الله المسلمين أن يأكلوا مما ذكر اسم الله عليه، قال تعالى:

﴿١١٨﴾، ﴿١١٩﴾ ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: كلوا مما ذبحتم وذكرتم اسم الله عليه إن كنتم حقاً مؤمنين ومصدقين ببراهين الله تعالى الواضحه، قال ابن عباس: قال المشركون للمؤمنين إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله، فما قتله الله - يريدون الميتة - أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم، فنزلت الآية.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: وأي شيء يمنعكم -أيها المسلمون- من أكل ما

ذبحتموه بأيديكم بعد أن ذكرتم اسم ربكم عليه عند ذبحه؟

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ وقد بين لكم ربكم جميع ما حرم عليكم، لكن ما دعت إليه الضرورة بسبب المجاعة وهو محرم عليكم كالميتة فإنه مباح لكم في حالة الاضطرار، ثم حذر عن طاعة كثير من الناس، فقال:

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وإن كثيراً من الكفار المجادلين ليضلون الناس بتحريم الحلال، وتحليل الحرام بغير شرع من الله، بل بمجرد الأهواء والشهوات.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ إن ربك -يا محمد- يعلم المجاوزين الحد في الاعتداء، فيحللون ويحرمون دون دليل شرعي من كتاب أو سنة، وفيه وعيد شديد، وتهديد أكيد لمن اعتدى حدود الله.

* ثم دعا عباده إلى طاعته وامتثال أمره، وترك المعاصي والآثام، قال تعالى:

﴿١٢٠﴾ ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ أي: اتركوا - أيها الناس - جميع المعاصي ظاهرها وباطنها وسرها وعلانيتها؛ لأنها لا تخلو من هذين الوجهين. والمراد بالإثم: جميع المعاصي التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم والحرج من الأشياء المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ أي: إن الذين يكسبون الإثم والمعاصي، ويأتون ما حرم الله، سيلقون في الآخرة جزاء ما كانوا يعملونه من السيئات في الدنيا قلت أو كثرت.

* ثم نهى سبحانه عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، بعد أن أمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه، فقال تعالى:

﴿١٢١﴾ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ولا تأكلوا -أيها المسلمون- مما ذبح لغير الله، أو ذكر اسم غير الله عليه، كالذي يذبح للأوثان والجن، وغير ذلك.

﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي: وإن الأكل من تلك الذبائح لمعصية وخروج عن طاعة الله.

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ وإن مردة الجن ليوسوسون إلى المشركين أوليائهم في الضلال لمجادلة المؤمنين بالباطل في قولهم: أتأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله؟ يعني الميتة.

الجزء الثامن سورة الأنعام

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ
لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا
لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ
﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ
سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ
يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ
إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ
﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ
فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ
زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا
فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا
يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ
آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ
أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ
عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

١٤٣

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وإن أطعتم هؤلاء المشركين في استحلال الحرام وساعدتموهم على أباطيلهم إنكم إذاً مثلهم، قال الزمخشري؛ لأن من اتبع غير الله تعالى في دينه فقد أشرك به، ومن حق ذي البصيرة في دينه ألا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كيفما كان للتشديد العظيم.

* ثم ضرب تعالى مثلاً للمؤمن الذي كان في الضلالة فهداه الله وأحياه، قال تعالى:

﴿١٢٢﴾ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي: أو من كان ميتاً في الضلالة هالكاً

حائراً، فاحيينا قلبه بالإيمان، وهديناه له، ووفقناه لاتباع سبيله،وقد كان بمنزلة الميت أعمى البصيرة كافراً ضالّاً، فأحيا الله قلبه بالإيمان، وأنقذه من الضلالة بالقرآن. ولما تقدم ذكر المؤمنين والكافرين، مثل تعالى بأن شبه المؤمن بالحي الذي له نور يتصرف به كيفما سلك، والكافر بالمتخبط في الظلمات المستقر فيها ليظهر الفرق بين الفريقين.

* ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ وجعلنا مع تلك الهداية النور العظيم الوضاء الذي يتأمل به الأشياء فيميز به بين الحق والباطل. وهذا يتضمن أموراً: أنه يمشي به في الناس بالنور وهم في الظلمة، وأنه يمشي فيهم بنوره فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور، والثالث: أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم.

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ كمن هو يتخبط في ظلمات الكفر والضلالة لا يعرف المنفذ ولا المخلص، وهو مثل لمن بقي في الضلالة لا يفارقها بحال. عن ابن عباس أن أبا جهل رمى رسول الله ﷺ بفرث -وحمزة لم يؤمن بعد- فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس، فقال أبو جهل: أما ترى ما جاء به سفه عقولنا، وسب آلهتنا، وخالف آباءنا، قال حمزة: ومن أسفه منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فأنزل الله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ الآية.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: وكما بقي هذا في الظلمات يتخبط فيها، كذلك حسنَّا للكافرين وزينَّا لهم ما كانوا يعملون من الشرك والمعاصي.

* ثم ذكر ﷻ سنته أن جعل في كل قرية أكابر فساقاً لأنهم أقرب إلى الكفر بما أعطوا من الرياسة والسعة.

﴿١٢٣﴾، ﴿١٢٤﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ أي: ومثل هذا الذي حصل من زعماء الكفار في مكة، من الصد عن دين الله تعالى كذلك جعلنا في كل بلدة مجرميها من الأكابر والعظماء ليفسدوا فيها، ويصدوا عن دين الله بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان، وذلك سنة الله تعالى أنه جعل في كل قرية أتباع الرسل ضعفاءهم.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وما يدرون أن وبال هذا المكر يحيق بهم وما يحسون ذلك وفي هذا تسلية للرسول ﷺ ووعد له بالنصر.

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ وإذا جاءت هؤلاء المشركين من أهل مكة حجة قاطعة وبرهان ساطع على صدق نبوة محمد ﷺ، قالوا لن نصدق برسالته حتى يعطينا الله من المعجزات مثل ما أعطى رسله السابقين، وإنما قالوا ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء ولو كانوا موقنين غير معاندين لاتبعوا رسل الله تعالى. روي أن أبا جهل قال: زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفَرَسيْ رهان، قالوا: منا نبي يوحى إليه!والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، فنزلت الآية، فرد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: الله أعلم من هو أهل للرسالة ومحلها، ومن يصلح لها من خلقه فيضعها فيه، وقد وضعها فيمن اختاره لها وهو محمد ﷺ دون أكابر مكة كأبي جهل والوليد بن المغيرة.

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ سيصيب هؤلاء المجرمين الذل والهوان، والعذاب الشديد يوم القيامة بسبب استكبارهم ومكرهم المستمر، وقدم الصغار على العذاب؛ لأنهم تمردوا عن اتباع الرسول وتكبروا طلباً للعز والكرامة فقوبلوا بالهوان والذل أولاً، ثم بالعقاب الشديد ثانياً،

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن
يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا
يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا
ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ
رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ
أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ
أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ
إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى
بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾
يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ
هَٰذَا قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا
وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

١٤٤

وهذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم.

(١٢٥) ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ **فمن شاء الله هدايته لقبول الحق، قذف في قلبه نوراً فينفسح له وينشرح، وذلك علامة الهداية للإسلام. قال ابن عباس: معناه يوسع قلبه للتوحيد والإيمان.**

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ **أي: ومن يرد شقاوته وإضلاله، يجعل صدره ضيقاً شديد الضيق لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان، وليس للخير فيه منفذ.**

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ **أي: كحال من يصعد في طبقات الجو العليا، فيصاب بضيق شديد في التنفس، وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه؛ لأنه ليس في وسعه.**

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ **أي: مثل جعل صدر الكافر شديد الضيق والانقباض، كذلك يلقي الله العذاب والخذلان على الذين لا يؤمنون بآياته جزاءً وفاقاً. قال مجاهد: الرجس كل ما لا خير فيه، وقيل: الرجس اللعنة في الدنيا، والعذاب في الآخرة.**

*** لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله، الصادين عنها، نبه على شرف ما أرسل به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق، فقال:**

(١٢٦)، (١٢٧) ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ **أي: وهذا الدين الذي أنت عليه - يا محمد - هو الطريق المستقيم الموصل إلى الله وإلى جنته ودار كرامته الذي لا عوج فيه، فاستمسك به.**

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ **قد بينا ووضحنا الآيات والبراهين لقوم يتدبرون بعقولهم فينتفعون به، وأعد الله لهم الجزاء الجزيل، والأجر الجميل، فلهذا قال:**

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ **أي: هؤلاء الذين يؤمنون ويعتبرون وينتفعون بالآيات؛ الجنة التي هي دار السلام لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر، وهم وغم، وهي نزل الله وضيافته، وأضافها إلى نفسه تعظيماً لها.**

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ **وهو تعالى حافظهم وناصرهم ومؤيدهم، الذي يلطف بهم في جميع أمورهم جزاء لأعمالهم الصالحة، قال ابن كثير: وإنما وصف تعالى الجنة هنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام.**

*** لما ذكر سبحانه أن البشر فريقان: مهتد وضال، وذكر أن منهم من شرح الله صدره وأنار قلبه فآمن واهتدى، ومنهم من اتبع الهوى وسار بقيادة الشيطان فضل وغوى، ذكر هنا أنه سيحشر الخلائق جميعاً يوم القيامة للحساب، لينال كل جزاءه العادل على ما قدم في هذه الحياة، قال تعالى:**

(١٢٨) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ

رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: واذكر - يا محمد - يوم يجمع الله الثقلين: الإنس والجن جميعاً للحساب، موبخاً للجن الذين أضلوا الإنس، وزينوا لهم الشر، وأزوهم إلى المعاصي:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم، وصدهم عن سبيل الله، فضلَّ منهم كثير، وهذا بطريق التوبيخ والتقريع فلا تسأل حينئذ، عما يحل بهم من النكال والخزي والوبال، ولهذا لم يذكر الله لهم اعتذاراً، وأما أولياؤهم من الإنس فأبدوا عذراً غير مقبول:

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ وقال الذين أطاعوهم من الإنس: ربنا انتفع بعضنا ببعض، والمعنى: انتفع الإنس بالجن بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل بها إليها، وانتفع الجن بالإنس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم.

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي: حصل منا من الذنوب ما حصل، ولا يمكن رد ذلك، ووصلنا إلى الموت والقبر ووافينا الحساب، وهذا منهم اعتذار واعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين واتباع الهوى وتحسر على حالهم، ولهذا حكم تعالى فيهم بحكمه العادل، الذي لا جور فيه:

﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ قال الله تعالى رداً عليهم: النار موضع مقامكم وهي منزلكم، ولما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه، ختم الآية بقوله:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ﴾ أي: ماكثين في النار في حال خلود دائم إلا من شاء الله عدم خلوده فيها من عصاة الموحدين، قيل: يخلدون في عذاب النار الأبد كله إلا ما شاء الله، أي: إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير، فقد روي أنهم يدخلون وادياً من الزمهرير فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ حكيم في أفعاله وتدبيره، عليم بجميع أمور عباده.

* ثم ذكر ﷻ نوعاً من العقوبات التي تقع على الظالمين، فقال:

﴿١٢٩﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: كما سلطنا شياطين الجن على كفار الإنس فكانوا أولياء لهم؛ كذلك من سنتنا أن نسلط بعض الظالمين على بعض بسبب كسبهم للمعاصي والذنوب، وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلط الله عليه ظالماً آخر. قال ابن عباس: إذا رضي الله عن قوم ولى أمرهم خيارهم، وإذا سخط الله على قوم ولي أمرهم شرارهم.

* ثم يقال لهم يوم القيامة على سبيل التوبيخ والتقريع:

﴿١٣٠﴾ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ أي: أيها المشركون من الجن والإنس، ألم تأتكم الرسل يتلون عليكم آيات ربكم التي فيها تفاصيل الأمر والنهي والخير والشر، والوعد والوعيد.

﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ﴾ ويخوفونكم عذاب يوم القيامة.

﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ﴾ أي: لم يجد هؤلاء المشركون في الإنس والجن إلا الاعتراف، فقالوا: بلى شهدنا على أنفسنا بأن رسلك قد أتتنا وأنذرتنا لقاء يومنا هذا فكذبناهم، وهذا إقرار منهم بالكفر واعتراف على أنفسهم بالتقصير.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وخدعتهم الدنيا بنعيمها وبهرجها الكاذب فاطمأنوا بها ورضوا، وألهتهم عن الآخرة.

﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ هذه شهادة أخرى منهم على أنفسهم، أي: وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا جاحدين لله تعالى ولرسله - عليهم السلام، وهذا ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيا ولذاتها الفانية،

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا
غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ
إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا
يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾
إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾
وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا
فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ
لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ
يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ
شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

١٤٥

وأعرضوا عن الآخرة بالكلية، حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا بالشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذيراً للسامعين من مثل حالهم.

* **ثم بين ﷻ أن الذي قص على محمد ﷺ من أمر الرسل وعذاب من كذبهم هو من عدله سبحانه، فقال:**

(١٣١)، (١٣٢) ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ **أي: إنما فعلنا هذا بهم من إرسال الرسل إليهم لإنذارهم سوء العاقبة؛ لأن ربك عادل لم يكن ليهلك قوماً دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر.**

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ **ولكل عامل بطاعة الله أو معصيته، منازل ومراتب من عمله يلقاها في آخرته إن كان خيراً فخير، وإن كان شرّاً فشر. وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط كتفاضل الدرج.**

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ **وليس الله بلاه أو ساه عن أعمال عباده، وفي ذلك تهديد ووعيد.**

(١٣٣)-(١٣٥) ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ * إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾ **وربك - يا محمد - الذي أمر الناس بعبادته هو - جل وعلا - المستغني عن الخلق وعبادتهم، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية، وكل خلقه محتاجون إليه.**

﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ **أي:** وهو سبحانه ذو التفضل التام، ذو الرحمة بأوليائه وأهل طاعته، بل بجميع الخلق، ومن رحمته تأخير الانتقام من المخالفين، وفيه تنبيه على أن ما سلف ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد، فما أحسن هذا الكلام وأبلغه، وما أقوى الاقتران بين الغنى والرحمة في هذا المقام، فإن الرحمة لهم مع الغنى عنهم هي غاية التفضل والتطوّل.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ **أي: لو شاء لأهلككم أيها العصاة بعذاب الاستئصال وأتى بخلق آخر أمثل منكم وأطوع. وفيه وعيد لأهل مكة.**

﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ **كما خلقكم وابتدأكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم، وتضمنت الآية التحذير من بطش الله في التعجيل بالإهلاك.**

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ﴾ **إن ما توعدون أيها المشركون من ربكم، من مجيء الساعة والبعث والحشر والثواب والعقاب لواقع لا محالة.**

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ **أي: لا تخرجون عن قدرة الله وعقابه وإن ركبتم في الهرب متن كل صعب وذلول، فأنتم تحت تدبيره وتصرفه.**

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ **قل لهم - يا محمد: يا قوم اثبتوا على كفركم ومعاداتكم لي واعملوا ما أنتم عاملون، والأمر هنا للتهديد والوعيد الشديد.**

﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ **ما أمرني به ربي من الثبات على دينه.**

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ **فسوف تعلمون -**

عند حلول النقمة بكم ـ من تكون له العاقبة المحمودة في الدار الآخرة.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا ينجح ولا يفوز برضوان الله تعالى والجنة من تجاوز حده، وظلم فأشرك مع الله غيره، في الآية طريق من الإنذار لطيف المسلك، فيه إنصاف في المقال وأدب حسن، مع تضمن شدة الوعيد، والوثوق بأن المنذر محق، والمنذر مبطل.

* ثم ذكر ﷻ المشركين ووبخهم على ما ابتدعوا من الكفر والشرك، فقال:

﴿١٣٦﴾ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ وجعل مشركو قريش لله مما خلق وبرأ من الزرع والثمار والأنعام جزءاً ونصيباً يقدمونه للفقراء والضيوف ولشركائهم نصيباً يصرفونه إلى سدنتها، وهذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، وجعلوا لله شركاء وهو خالق كل شيء سبحانه.

﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ فقالوا: هذا نصيب الله بدعواهم وقولهم من غير دليل ولا شرع، وأكثر ما يقال الزعم في الكذب.

﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ أي: وهذا النصيب لآلهتنا وأصنامنا، وكان أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سمي لله ردوه إلى ما جعلوه للوثن، وقالوا إن الله غني والأصنام أحوج، ولهذا قال:

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فما كان للأصنام فلا يصل إلى الله منه شيء.

﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ وما كان من نصيب الله فهو يصل إلى أصنامهم، قال مجاهد: كانوا يسمون جزءاً من الحرث لله وجزءاً لشركائهم وأوثانهم فما ذهبت به الريح من نصيب الله إلى أوثانهم تركوه وما ذهب من نصيب أوثانهم إلى نصيب الله ردوه، وكانوا إذا أصابتهم سنة وقحط أكلوا نصيب الله وتحاموا نصيب شركائهم.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس هذا الحكم الجائر حكمهم وقسمتهم، وإيثار آلهتهم على الله، وعملهم على ما لم يشرع لهم.

﴿١٣٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ أي: مثل ذلك التزيين في قسمة القربان بين الله وبين آلهتهم زين شياطينهم لهم قتل أولادهم بالوأد وبنحرهم لآلهتهم، وكان الرجل في الجاهلية يحلف لئن ولد له كذا غلاماً لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب.

﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي: ليهلكوهم بالإغواء، وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ ولو شاء الله ما فعلوا ذلك القبيح، ولكنه قدر ذلك لعلمه بسوء حالهم ومآلهم.

﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فدعهم ـ يا محمد ـ وما يختلقونه من الإفك على الله، فسيحكم الله بينك وبينهم، وهو تهديد ووعيد.

* ثم ذكر تعالى بعضاً من سفاهاتهم وقبائحهم وضلالاتهم أيضاً، فقال:

﴿١٣٨﴾ ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ وقال المشركون هذه أنعام وزروع أفردناها لآلهتنا، حرام ممنوعة على غيرهم.

﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ لا يأكلها إلا من يأذنون له -حسب ادعائهم- من خدمة الأوثان وغيرهم، بزعمهم وظنهم الباطل من غير حجة ولا برهان.

وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ
بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ
ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ
يَفۡتَرُونَ ١٣٨ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ
لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ
فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ
عَلِيمٞ ١٣٩ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ
عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ
وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٤٠ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ
مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا
أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ
كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ
وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ
حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢

١٤٦

﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾ أي: لا يحل ركوبها كالبحائر والسوائب والحوامي.

﴿وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾ أي: وهذه إبل لا يذكرون اسم الله تعالى عليها عند الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام، كذباً واختلاقاً منهم على الله.

﴿سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ سيجزيهم على إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل النافع، وهو تهديد شديد ووعيد.

* ثم ذكر تعالى نوعاً آخر من أنواع قبائحهم، فقال:

﴿١٣٩﴾ ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾.

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا﴾ قال المشركون: ما في بطون هذه البحائر والسوائب حلال لذكورنا خاصة.

﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ﴾ أي: لا يشاركهم ولا تأكل منه نساؤنا.

﴿وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ﴾ وإن كان هذا المولود منها ميتة اشترك فيه الذكور والإناث.

﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ أي: سيجزيهم الله جزاء وصفهم الكذب في التحليل والتحريم ما لم يأذن به تعالى.

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ حكيم حيث أمهل لهم، ومكنهم مما هم فيه من الضلال، عليم بخلقه لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه، وهو يعافيهم ويرزقهم -جل جلاله-.

* ثم بين تعالى خسرانهم وسفاهة عقولهم، فقال:

﴿١٤٠﴾ ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾.

﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾ أي: والله لقد خسر هؤلاء السفهاء الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله وافترائهم. قيل: نزلت في ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر.

﴿سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي: قتلوا أولادهم جهالة وسفاهة لخفة عقولهم، وجهلهم بأن الله هو الرازق لهم ولأولادهم.

﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وحرموا على أنفسهم الأنعام التي سموها: البحيرة والسائبة وشبهها، وهي ما جعلها تعالى رحمة لهم، ورزقاً لهم.

﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ حرموا ذلك كذباً واختلاقاً على الله، حيث قالوا إن الله أمرهم بها.

﴿قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ أي: لقد ضلوا عن الطريق المستقيم بصنيعهم القبيح، وما كانوا من الأصل مهتدين في شيء من أمورهم لسوء سيرتهم. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٤٠﴾.

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ
قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾
وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ
حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ
أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ
عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ
فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ
مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ
فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ
فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا
كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ
بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

١٤٧

* لما أخبر تعالى عن المشركين أنهم حرموا أشياء مما رزقهم الله وحكى طرفاً من قبائحهم وجرائمهم، ذكر تعالى هنا ما امتنَّ به عليهم من الرزق الذي تصرفوا فيه بغير إذنه تعالى افتراء منهم عليه واختلاقاً، ثم أعقبه باحتجاجهم على الشرك وعدم الإيمان بالقضاء والقدر، وهذا أيضاً من جملة الكذب والبهتان والافتراء على الله، قال تعالى:

﴿١٤١﴾، ﴿١٤٢﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ والله ﷻ هو الذي أنعم عليكم بأنواع النعم لتعبدوه وحده، فخلق لكم بساتين من الكروم، منها مرفوعات على عيدان وأعمدة، ومنها متروكات على وجه الأرض لم تعرش.

﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ وأنشأ تعالى لكم شجر النخيل المثمر بما هو فاكهة وقوت، وأنواع الزرع المحصل لأنواع القوت مختلفاً ثمره وحبه في اللون والطعم والحجم والرائحة، وخص تعالى النخل والزرع على اختلاف أنواعه؛ لكثرة منافعها، ولكونها هي القوت لأكثر الخلق.

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ أي: متشابهاً في اللون والشكل وغير متشابه في الطعم، مثل الرمانتين لونهما واحد وطعمها مختلف.

﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ أي: كلوا أيها الناس من ثمر النخل والزرع من رطبه وعنبه يوم قطافه، وأعطوا الفقير والمسكين من ثمره يوم الحصاد ما تجود به نفوسكم. وقال ابن عباس: يعني الزكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيله.

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ولا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن، فإنه تعالى لا يحب المتجاوزين حدوده. عن عطاء: نهوا عن السرف في كل شيء.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أي: وخلق وأنشأ لكم من الأنعام ما يحمل الأثقال لكبره وارتفاعه كالإبل، وما يفرش للذبح - أي يضجع كالبقر والغنم -، قال ابن أسلم: الحمولة ما تركبون، والفرش ما تأكلون وتحلبون.

﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: كلوا من الثمار والزروع والأنعام التي أباحها الله لكم، فقد جعلها الله لكم رزقاً، ولا تحرموا ما أحل الله منها اتباعاً لطرق الشيطان في التحليل والتحريم كفعل أهل الجاهلية.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: إن الشيطان ظاهر العداوة للإنسان فاحذروا كيده.

* وهذه الأنعام التي امتنَّ الله بها على عباده، وجعلها كلها حلالاً طيباً، فصلها بأنها:

﴿١٤٣﴾، ﴿١٤٤﴾ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا

﴿ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: وأنشأ لكم من الأنعام ثمانية أنواع أحل لكم أكلها، من الضأن ذكراً وأنثى، ومن المعز ذكراً وأنثى، قال القرطبي: يعني ثمانية أفراد، وكل فرد عند العرب يحتاج إلى آخر يسمى زوجاً: للذكر زوج وللأنثى زوج، ويراد بالزوجين من الضأن: الكبش والنعجة، ومن المعز: التيس والعنز.

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ هذا إنكار لما كانوا يفعلونه من تحريم ما أحل الله، أي: قل لهم ـ يا محمد ـ على وجه التوبيخ والزجر: آلذكرين من الضأن والمعز حرم الله عليكم أيها المشركون أم الأنثيين منهما؟

﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: أو ما حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى؟

﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: أخبروني عن الله بأمر معلوم لا بافتراء ولا بتخرص إن كنتم صادقين في نسبة ذلك التحريم إلى الله. وفي هذا تعجيز وتوبيخ.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ وأنشأ لكم من الإبل اثنين هما الجمل والناقة، ومن البقر اثنين هما الجاموس والبقر.

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ كرره هنا مبالغة في التقريع والتوبيخ، أي: قل ـ يا محمد ـ لأولئك المشركين: أحرم الله الذكرين أم الانثيين، أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين ذكوراً وإناثاً. والمقصود إنكار أن الله سبحانه حرم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعة وإظهار كذبهم في ذلك، فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة، وإناثها تارة، وأولادها تارة أخرى.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ زيادة في التوبيخ، أي: هل كنتم حاضرين حين وصاكم الله بهذا التحريم؟ وهذا من باب التهكم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فلا أحد أظلم ممن كذب على الله فنسب إليه تحريم ما لم يحرم بغير دليل ولا برهان ليصرف الناس بجهله عن طريق الهدى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إن الله تعالى لا يوفق للرشد من تجاوز حده، فكذب على ربه، وأضل الناس.

* لما ذكر تعالى ذم المشركين على ما حرموا من الحلال ونسبوه إلى الله، وأبطل قولهم، أمر تعالى رسوله أن يبين للناس ما حرمه الله عليهم، ليعلموا أن ما عدا ذلك حلال، من نسب تحريمه إلى الله فهو كاذب مبطل، لأن التحريم لا يكون إلا من عند الله على لسان رسوله، وقد قال لرسوله:

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٤٥).

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ أي: قل ـ يا محمد ـ لكفار مكة لا أجد فيما أوحاه الله إليّ من القرآن شيئاً محرماً على من يأكله مما تذكرون أنه حرم من الإنعام إلا أن يكون قد مات بغير تذكية، أو دماً سائلاً مصبوباً، أو يكون لحم خنزير فإنه قذر ونجس لتعوده أكل النجاسات.

﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أو يكون المذبوح فسقاً ذبح على اسم غير الله كالمذبوح على النصب، سمي فسقاً مبالغة كأنه نفس الفسق؛ لأنه ذبح على اسم الأصنام.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: من أصابته الضرورة واضطرته إلى أكل شيء من المحرمات بسبب الجوع الشديد، فلا إثم عليه إن كان غير باغ، أي: غير قاصد التلذذ بأكلها دون ضرورة، ولا عاد، أي: مجاوز قدر الضرورة التي تدفع عنه الهلاك، فالله غفور رحيم بالعباد.

الجزء الثامن — سورة الأنعام

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ
بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟
لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ
كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا
قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ
فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ
ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ
مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ
تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟
بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم
مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ
مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ
إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

١٤٨

* ثم بين تعالى أن ما حرمه على اليهود إنما كان بسبب بغيهم وعصيانهم، فقال:

(١٤٦) ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ وعلى اليهود خاصاً حرمنا عليهم كل ذي ظفر، وهي ذوات الظلف كالإبل والنعام وما ليس بذي أصابع منفرجة كالبط والأوز، وقدم ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ على الفعل للدلالة على أن هذا التحريم مختص بهم لا يجاوزهم إلى غيرهم.

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ أي: وحرمنا عليهم أكل شحوم البقر وشحوم الغنم.

﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ إلا الشحم الذي علق بالظهر منها.

﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ وهي الأمعاء والمصارين.

﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ كشحم الإلية والجنب، والمعنى: أن الشحم الذي تعلق بالظهور أو احتوت عليه المصارين أو اختلط بعظم كشحم الإلية والجنب جائز لهم.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي: ذلك التحريم على اليهود بسبب ظلمهم وعدوانهم الذي سبق من قتل الأنبياء وأكل الربا واستحلال أموال الناس بالباطل، فحرم الله عليهم هذه الأشياء عقوبة لهم ونكالاً، وإنا لصادقون فيما قصصنا عليك ـ يا محمد، وفي ذلك تعريض بكذب من حرم ما لم يحرم الله، والتعريض بكذب اليهود.

(١٤٧) ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ فإن كذبك ـ يا محمد ـ هؤلاء اليهود فيما جئت به من بيان التحريم، فقل متعجباً من حالهم: ربكم ذو رحمة واسعة، حيث لم يعاجلكم بالعقوبة مع شدة إجرامكم، فسارعوا إلى رحمته بأسبابها، التي رأسها وأسها ومادتها تصديق محمد ﷺ فيما جاء به، ثم أعقب وصفه بالرحمة الواسعة بالوعيد الشديد، فقال:

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: لا تغتروا بسعة رحمته، فإنه لا يرد عذابه وسطوته عمن اكتسبوا الذنوب واجترحوا السيئات، فهو مع رحمته ذو بأس شديد، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب حتى لا يقنط المذنب من الرحمة، ولا يغتر العاصي بحلم الله.

* ثم أخبر ﷻ بما سوف يقول المشركون لما لزمتهم الحجة وتيقنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرمه الله، فقال:

(١٤٨)-(١٥٠) ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ أي: سيقول مشركو العرب: لو أراد الله ما كفرنا ولا أشركنا لا نحن ولا آباؤنا، يريدون أن شركهم وتحريمهم لما حرموا كان بمشيئة الله، ولو شاء ألا يفعلوا ذلك ما فعلوه، قال تعالى في الرد عليهم:

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾ كذلك كذب من سبقهم من الأمم حتى أنزلنا عليهم العذاب، وبهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، ودمر عليهم، وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ استفهام إنكاري يقصد به التهكم، أي: قل لهم ـ يا محمد ـ هل عندكم كتاب وحجة، أو برهان من الله على صدق قولكم فتظهروه لنا.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي: ما تتبعون في ذلك إلا الظنون والأوهام، وما أنتم في الحقيقة إلا تكذبون على الله ﷻ فيما ادعيتموه.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قل لهم ـ يا محمد ـ إن لم تكن لكم حجة، فلله الحجة البينة الواضحة والحكمة البالغة التي بلغت غاية الظهور، والإقناع، فلو شاء لهداكم إلى الإيمان أجمعين، ولكنه تعالى ترك للخلق أمر الاختيار في الإيمان والكفر ليتم التكليف.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ أي: قل ـ يا محمد ـ لمن حرم ما أحل الله ونسب ذلك إلى الله: أحضروا لي من يشهد لكم على صحة ما تزعمون أن الله تعالى حرم هذه الأشياء التي تدعونها من البحيرة والسائبة وغيرهما.

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فإن حضروا وكذبوا في شهادتهم وزوروا فلا تشهد بمثل شهادتهم ولا تصدقهم؛ فإنه كذب بحت.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ ولا تتبع أهواء المكذبين بآيات الرحمن الذين لا يصدقون بالآخرة ولا يعملون لها.

﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ وهم يشركون بالله غيره فيعبدون الأوثان.

* لما ذكر تعالى ما حرمه الكفار افتراء عليه، وذكر ما أباحه تعالى لهم من الحبوب والفواكه والحيوان، ذكر هنا ما حرمه تعالى عليهم حقيقة من الأمور الضارة، وذكر الوصايا العشر التي اتفقت عليها الشرائع السماوية وبها سعادة البشرية، فقال:

(١٥١) ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ قل ـ يا محمد ـ هلموا وأقبلوا اقرؤوا الذي حرمه ربكم عليكم باليقين لا بالظن والتخمين.

﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تعبدوا معه غيره من مخلوقاته، بل اصرفوا جميع أنواع العبادة له وحده. وحقيقة الشرك بالله: أن يُعبد المخلوق كما يُعبد الله، أو يعظم كما يعظم، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا ترك العبد الشرك كله صار موحداً.

ثم بدأ بآكد الحقوق بعد حقه تعالى فقال:

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: وأوصاكم وأمركم بالوالدين، أن تحسنوا إليهم، بالبر والدعاء، وامتثال أمرهما ونهيهما، ونحو ذلك من الإحسان، وذكر ضمن المحرمات؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، فكأنه قال: ولا تسيئوا إلى الوالدين، والسر في ذلك المبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة إليهما غير كاف في قضاء حقوقهما، ولما ذكر حق الوالدين على الأولاد، ذكر حق الأولاد على الوالدين، فقال:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ ولا تقتلوا أولادكم من ذكور وإناث من أجل فقر نزل بكم، ومن

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ
وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ
ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾
وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ
أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ
رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ
وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ
عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ
﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ
مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ
يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

١٤٩

ذلك ما كانوا يفعلونه من دفن البنات أحياء من خوف الفقر.

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ أي: فإن الله يرزقكم ويرزقهم، فهو الرازق للعباد فليس عليكم منهم ضيق، فإن رزق العبيد على مولاهم.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾ ولا تقربوا المنكرات الكبائر علانيتها وسرها، والنهي عن قربان الفاحشة أبلغ من النهي عن مجرد فعلها، فإنه يتناول النهي عن مقدماتها ووسائلها الموصلة إليها. قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأساً في السر، ويستقبحونه في العلانية، فحرمه الله في السر والعلانية.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ ولا تقتلوا النفس البريئة التي حرم الله قتلها إلا بموجب، وقد فسره قول رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وإني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» [رواه مسلم].

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذلكم المذكور، هو ما أوصاكم تعالى بحفظه وأمركم به أمراً مؤكداً لعلك تسترشدون بعقولكم إلى فوائد هذه التكاليف ومنافعها في الدين والدنيا. وفي لفظ وصاكم من اللطف والرأفة، وجعلهم أوصياء له تعالى ما لا يخفى من الإحسان.

* ثم حذر من الظلم بجميع أنواعه وخص، فقال:

﴿١٥٢﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: لا تقربوا أيها الأوصياء مال اليتيم بوجه من الوجوه إلا بالخصلة التي هي أنفع له وأحسن لتثمير ماله والمحافظة عليه حتى يصير بالغاً رشيداً، والنهي عن القرب يعم وجوه التصرف؛ لأنه إذا نهي عن أن يقرب المال، فالنهي عن أكله أولى وأحرى. قال ابن عباس: هو أن يعمل له عملاً مصلحاً فليأكل منه بالمعروف.

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ وأقيموا العدل والتسوية والوفاء التام في الأخذ والعطاء.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لا نكلف أحداً إلا بمقدار طاقته بما لا يعجز عنه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ﴾ وإذا قلتم قولاً تحكمون به بين الناس، وتفصلون بينهم الخطاب فتحرّوا في قولكم العدل دون ميل عن الحق في خبر أو شهادة، أو حكم أو شفاعة؛ ولو كان الذي تعلق به القول ذا قرابة منكم، فلا تميلوا معه بغير حق.

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ﴾ أي: أوفوا بالعهد إذا عاهدتم، وهذا عام في جميع ما عهده الله إلى عباده، ويحتمل أن يراد به ما انعقد بين الناس، وأضيف إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ذلكم المتلو عليكم من الأحكام، وصاكم به ربكم لعلكم تتعظون وتتذكروا عاقبة أمركم.

* ولما بين تعالى كثيراً من الأوامر الكبار، والشرائع المهمة، أشار إليها وإلى ما هو أعم منها، فقال:

(١٥٣) ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي: ومما وصاكم الله به أن هذا دين الإسلام المستقيم وشرعه، فتمسكوا به وبأحكامه، وإنما وحد سبيله؛ لأن الحق واحد،، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ولا تتبعوا الأديان المختلفة والطرق الملتوية فتفرقكم وتزيلكم على سبيل الهدى. عن ابن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً ثم قال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطاً عن يمينه ويساره ثم قال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ...﴾ الآية.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ كرر الوصية على سبيل التوكيد، لعلكم تتقون النار بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه. قال ابن عطية: لما كانت المحرمات الأولى لا يقع فيها عاقل جاءت العبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والمحرمات الأخر شهوات وقد يقع فيها من لم يتذكر جاءت العبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، والسير في الجادة المستقيمة يتضمن فعل الفضائل ولا بد لها من تقوى الله جاءت العبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

(١٥٤)، (١٥٥) ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۞ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي: أعطينا موسى التوراة تماماً للكرامة والنعمة على من كان محسناً وصالحاً من أهل ملته، فإن إيتاء موسى الكتاب نعمة من الله عليه ومنة عظيمة لما سلف منه من صالح العمل وحسن الطاعة.

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في الدين.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ وهدى لبني إسرائيل ورحمة عليهم لعلهم بسبب إنزال الكتاب والبينات عليهم بلقاء الله يصدقون، وبالبعث وبالثواب والعذاب يوقنون.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ وهذا القرآن الذي أنزلناه على محمد كتاب عظيم الشأن، كثير المنافع، مشتمل على أنواع الفوائد الدينية والدنيوية، ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة؛ لأنه حبل الله المتين، وأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علماً وعملاً.

﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فتمسكوا به واجعلوه إماماً، واحذروا أن تخالفوه لتكونوا راجين للرحمة، فإن اتباعه وعدم مخالفته أكبر سبب لنيل رحمة الله.

(١٥٦)، (١٥٧) ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾.

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ أي: وأنزلنا هذا القرآن، لئلا تقولوا -يا كفار العرب- إنما أنزل الكتاب من السماء على اليهود والنصارى. قال ابن جرير: فقطع الله بإنزاله القرآن على محمد ﷺ حجتهم تلك.

﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي: وإنه الحال والشأن كنا عن معرفة ما في كتبهم ودراستهم ساهين غافلين لا يعلم ما فيها؛ لأنها لم تكن بلغتنا.

﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي: وقطعنا تعللكم أن تقولوا -أيها المشركون- لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على هاتين الطائفتين لكنا أهدى منهم إلى الحق وأسرع إجابة لأمر الرسول لمزيد ذكائنا وجدنا في العمل.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ
ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا
لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟
إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ
مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ
﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ
﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ
نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم
مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ
خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى
مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

١٥٠

﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ قرآن عظيم، فيه بيان للحلال والحرام، وهدى لما في القلوب، ورحمة من الله لعباده، وقد زال العذر بمجيء محمد ﷺ.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: فلا أشد ظلماً وعدواناً ممن كذب بالقرآن ولم يؤمن به، وأعرض عن آيات الله، وصرف الناس عنها فجمع بين الضلال والإضلال.

﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ وعيد لهم، أي: سنثيب هؤلاء المعرضين عن آيات الله وحججه السابقة شديد العقاب بسبب إعراضهم عن آيات الله وتكذيبهم لرسله.

*** ثم بين ﷻ ما ينتظره المشركون بعد بيان الآيات والحجج والبراهين، فقال:**

﴿١٥٨﴾ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: ما ينتظر هؤلاء المشركون الذين أعرضوا وصدوا عن سبيل الله، إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعذيبها، وهو وقت لا تنفع فيه توبتهم.

﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ أي: يأتي أمر ربك فيهم بالقتل وإهلاكهم، أو غيره.

﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أو يأتيهم بعض آيات ربك الدالة على قرب الساعة، وهو طلوع الشمس من مغربها.

﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ يوم يأتي بعض أشراط الساعة، وحينئذ لا ينفع الإيمان نفساً كافرة آمنت في ذلك الحين، ولا نفساً عاصية لم تعمل خيراً، وفي الحديث: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل»

[رواه البخاري].

﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أي: انتظروا ما يحل بكم، وهو أمر تهديد ووعيد شديد للكافرين.

*** ثم توعد تعالى الذين فرقوا دينهم وشتتوه، وتفرقوا فيه بعد أن قامت عليهم الحجة، قال تعالى:**

﴿١٥٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي: فرقوا الدين فأصبحوا شيعاً وأحزاباً، بعدما كانوا مجتمعين على توحيد الله والعمل بشرعه، وهم اليهود والنصارى فرقوا دين إبراهيم الحنيف وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم، فقال:

﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ أي: أنت - يا محمد - بريء منهم لست منهم وليسوا منك، لأنهم خالفوك وعاندوك.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إنما جزاؤهم وعقابهم على الله هو يتولى جزاءهم.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ثم هو سبحانه يخبرهم يوم القيامة

بشنيع فعالهم، ويجازي كلا منهم بما كان يفعل.

* لما توعد سبحانه المخالفين له بما توعد، بين عقب ذلك مقدار جزاء العاملين بما أمرهم به، الممتثلين لما شرعه لهم، فقال تعالى:

﴿١٦٠﴾ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ من جاء يوم القيامة بحسنة واحدة جوزي عنها بعشر حسنات أمثالها فضلاً من الله وكرماً، وهو أقل المضاعفة للحسنات، فقد تنتهي إلى سبعمائة أو أزيد.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ ومن جاء بالأعمال السيئة عوقب بمثلها دون مضاعفة، وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال:

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وهم لا ينقصون من جزائهم شيئاً، وفي الحديث القدسي: «يقول الله ﷻ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر» [رواه مسلم] فالزيادة في الحسنات من باب الفضل، والمعاملة بالمثل في السيئات من باب العدل.

* ثم أمر تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يقول ويخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، فقال:

﴿١٦١﴾-﴿١٦٣﴾ ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين المكذبين: إن ربي هداني إلى الطريق القويم وأرشدني إلى الدين الحق، دين إبراهيم.

﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ ديناً مستقيماً لا عوج فيه، هو دين الحنيفية السمحة الذي جاء به إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عليه السلام.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وما كان إبراهيم مشركاً، وفيه تعريض بإشراك من خالف دين الإسلام لخروجه عن دين إبراهيم وهذا عموم، ثم خصص من ذلك أشرف العبادات، فقال:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى﴾ قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله: إن صلاتي التي أعبد بها ربي.

﴿وَنُسُكِى﴾ أي: ذبحي لله وحده، لا للأصنام ولا للأموات ولا للجن ولا لغير ذلك مما تذبحون لغير الله، وعلى غير اسمه كما تفعلون.

﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ أي: حياتي ووفاتي، وما أقدمه في هذه الحياة من خيرات وطاعات.

﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ذلك كله لله خالصاً له دون ما أشركتم به، ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ لا أعبد غير الله، وليس هذا الإخلاص لله ابتداعاً مني، وبدعاً أتيته من تلقاء نفسي بل.

﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي: أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: أول من أقر وأذعن وخضع لله - جل وعلا - من هذه الأمة؛ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته.

﴿١٦٤﴾ ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ تقرير وتوبيخ للكفار، وسببها أنهم دعوه إلى عبادة آلهتهم والمعنى: قل - يا محمد - أأطلب رباً غير الله تعالى؟

﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ والحال هو خالق كل شيء ومالكه ومدبره، يربيني ويحفظني ويدبر أمري، فكيف يليق أن أتخذ إلهاً غير الله؟ ثم رغب ورهب بذكر الجزاء، فقال:

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ ولا تكون جناية نفس من النفوس إلا عليها؛ لأنه تعالى حكم وعدل.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يؤاخذ إنسان بجريرة غيره

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وهذا وعيد وتهديد، أي: مرجعكم إليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم، ويميز بين المحسن والمسيء.

﴿١٦٥﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أي: جعلكم خلفاً للأمم الماضية والقرون السالفة يخلف بعضكم بعضاً، بعد أن أهلك من قبلكم من القرون والأمم الخالية فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي: خالف وفاوت بين أحوالكم في الغنى والفقر، والعلم والجهل، والقوة والضعف، والأشكال والألوان، وغير ذلك مما وقع فيه التفضيل بين العباد.

﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أي: فتتفاوت أعمالكم، ليختبر شكركم على ما أعطاكم، من نعمة الجاه والمال، وكيف تشكرون تلك النعمة، وكيف يصنع الشريف بالوضيع، والغني بالفقير، والمالك بالمملوك، فيختبركم فيظهر منكم ما يكون به الثواب والعقاب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: إن ربك سريع العقاب لمن عصاه وكذب بآياته، وغفور رحيم لمن آمن به وأطاعه، وعمل صالحاً، وتاب من الموبقات، وفي هذا ترهيب وترغيب لعباده، وقد جمع بين الخوف والرجاء، وسرعة العقاب إما في الدنيا بتعجيل الأخذ، أو في الآخرة؛ لأن كل ما هو آت قريب.

تم تفسير سورة الأنعام
والحمد لله

تفسير سورة الأعراف
وهي مكية

* سورة الأعراف من أطول السور المكية، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء، وفي ثناياها تقرير أصول العقيدة من توحيد الله جل وعلا، وتقرير البعث والجزاء، وتقرير الوحي والرسالة.

وتعرضت السورة الكريمة في بدء آياتها للقرآن العظيم معجزة محمد ﷺ الخالدة، وقررت أن هذا القرآن نعمة من الرحمن على الإنسانية جمعاء، فعليهم أن يستمسكوا بتوجيهاته وإرشاداته ليفوزوا بسعادة الدارين.

ولفتت الأنظار إلى نعمة خلقهم من أب واحد، وإلى تكريم الله لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أب البشر آدم عليه السلام الذي أمر الله الملائكة بالسجود له، ثم حذرت من كيد الشيطان ذلك العدو المتربص الذي قعد على طريق الناس ليصدهم عن الهدى ويبعدهم عن خالقهم.

سميت هذه السورة بسورة الأعراف لورود ذكر اسم الأعراف فيها، وهو سور مضروب بين الجنة والنار يحول بين أهلهما. روى ابن جرير عن حذيفة أنه سُئل عن أصحاب الأعراف، فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة، وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٣﴾ ﴿المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿المص﴾ من الحروف المقطعة، والحكمة في ذكرها بيان إعجاز القرآن بالإشارة إلى أنه مركب من أمثال هذه الحروف، ومع ذلك فقد عجز بلغاؤهم وفصحاؤهم عن الإتيان بمثله.

﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا القرآن كتاب عظيم أنزله الله عليك يا محمد، حوى كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكماً مفصلاً.

﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ فلا يضق صدرك من تبليغه خوفاً من تكذيب قومك، فهو أصدق الكلام فلينشرح له صدرك، ولتطمئن

به نفسك، ولتصدع بأوامره ونواهيه، ولا تخش لائماً ولا معارضاً.

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لتنذر وتذكر بالقرآن الخلق، ولتذكر وتعظ المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون به. ثم خاطب الله العباد، وألفتهم إلى الكتاب، فقال:

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ اتبعوا -أيها الناس- القرآن الذي أنزل من أجلكم، فيه الهدى والنور والبيان المنزل إليكم من ربكم، وذلك بامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ ولا تتخذوا أولياء من دون الله كالأوثان والرهبان والكهان، تولونهم أموركم وتطيعونهم فيما يشرعون لكم.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: إنكم قليلاً ما تعتبرون وتتعظون، فترجعون إلى الحق، لو تذكرتم وعرضتم المصلحة، لما آثرتم الضار على النافع، والعدو على الولي.

* ثم حذرهم عقوباته تعالى للأمم الذين كذبوا ما جاءتهم به رسلهم لئلا يشابهوهم، ويقعوا فيما وقع فيه أولئك، فقال:

(٤)-(٧) ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: وكثير من القرى أهلكناها ودمرناها، والمراد بالقرية أهلها بسبب مخالفة رسلنا وتكذيبهم.

﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أي: جاءها عذابنا الشديد، مرة ليلاً، ومرة جاءهم عذابنا في وقت القيلولة، وهي النوم في وسط النهار، وخص مجيء البأس بهذين الوقتين؛ لأنهما وقتان للسكون والدعة والاستراحة والغفلة واللهو، فمجيء العذاب فيهما أفظع وأشد؛ لأنه يكون على غفلة من المهلكين لم يخطر الهلاك على قلوبهم، فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونهم، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ فما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين شاهدوا العذاب ورأوا أمارته، وأنهم حقيقون بالعذاب الذي نزل بهم.

﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ إلا اعترافهم بظلمهم تحسراً وندامة، وهيهات أن ينفع الندم.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: لنسألن الأمم قاطبة هل بلغكم الرسل وماذا أجبتم؟ ولنسألن الرسل أيضاً هل بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة؟ وعما أجابتهم به أممهم، وسؤال الأمم تقريع وتوبيخ يعقب الكفار والعصاة نكالاً وعذاباً، وسؤال الرسل تأنيس يعقب الأنبياء كرامة وثواباً.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ فلنخبرن الخلق كلهم بما فعلوا عن علم منا لأعمالهم في الدنيا فيما أمرناهم به، وما نهيناهم عنه، قال ابن عباس: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون.

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ وما كنا غائبين عنهم في وقت من الأوقات، حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم، وما قالوا وما عملوا من قليل وكثير، وجليل وحقير؛ لأنه تعالى الشهيد على كل شيء، لا

الجزء الثامن سورة الأعراف

سُورَةُ الأَعْرَافِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ (١) كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ
لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم
مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ
(٣) وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ
قَآئِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ
إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٥) فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ
ٱلْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ (٧)
وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ
أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ
(١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ
ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ (١١)

١٥١

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ
وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ
صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ
لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ
مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ
أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾
فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ
تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾

١٥٢

يغيب عنه شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور.

* ثم ذكر تعالى الجزاء على الأعمال، فقال:

﴿٨﴾، ﴿٩﴾ ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أي: والوزن للأعمال يوم القيامة كائن بالعدل والقسط الذي لا ظلم فيه، ولا جور بوجه من الوجوه، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فمن رجحت موازين أعمالهم لإيمانهم ولكثرة حسناتهم فأولئك الناجون غداً من العذاب، الفائزون بجزيل الثواب.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ومن خفت موازين أعماله -لكثرة سيئاته- بسبب الكفر واجتراح السيئات.

﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ أي: أضاعوا أنفسهم وسعادتهم وحظهم من رضوان الله تعالى؛ فحصل لهم العذاب الأليم.

﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم وجحودهم بآيات الله وعدم الانقياد لها. قال ابن كثير: والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً، يروى هذا عن ابن عباس: وقيل: يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة، وقيل: يوزن صاحب العمل كما في الحديث: «يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة» والكل صحيح فتارة توزن الأعمال، وتارة محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

* ثم يذكر تعالى منته على عباده وفضله بذكر المسكن والمعيشة، فقال:

﴿١٠﴾ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ أي: هيأنا لكم أيها الناس في الأرض مكاناً وقراراً، من سكناها وزرعها والتصرف فيها والانتفاع بها، وجعلنا لكم فيها ما تعيشون به وتحيون من المطاعم والمشارب، ومعادن الأرض، وأنواع الصنائع والتجارات، وسائر ما تكون به الحياة فإنه هو الذي هيأها وسخر أسبابها.

﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي: ومع هذا الفضل والإنعام بأصناف النعم، وصرف النقم؛ قليل منكم من يشكر ربه.

* ثم يقول تعالى مخاطباً لبني آدم، ومنبهاً على شرف أبيهم آدم:

﴿١١﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: أنعمنا عليكم بخلق أصلكم ومادتكم، وهو أبوكم آدم عليه السلام من العدم، ثم صورناه على هيئته المفضلة، وذلك في أبدع تصوير وأحسن تقويم، وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيماً له؛ لأنه أبو البشر.

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ثم أمرنا الملائكة بالسجود لآدم تكريماً له ولذريته، واحتراماً وإظهاراً لفضل آدم وذريته.

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: سجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس امتنع من

السجود تكبراً وعناداً، وإعجاباً بنفسه، وحسداً لآدم على هذا التكريم العظيم.

* ثم قال تعالى منكراً على إبليس موبخاً له على ترك السجود:

﴿١٢﴾ ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ قال الله تعالى لإبليس، أي: شيء منعك أن تدع السجود لآدم إذ أمرتك؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ قال إبليس معارضاً لربه: أنا أفضل من آدم خلقاً وأشرف منه، فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟ ثم ذكر العلة في الامتناع والبرهان على هذه الدعوى الباطلة بقوله:

﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ أي: أنا أشرف منه لشرف عنصري على عنصره، لأنني مخلوق من نار والنار أشرف من الطين، ولم ينظر المسكين لأمر من أمره بالسجود وهو تعالى، قال ابن كثير: نظر اللعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف والتعظيم وهو أن الله خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً فأخطأ قبحه الله في قياسه في دعواه أن النار أشرف من الطين، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم، والنار من شأنها الإحراق والطيش، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح والنار محل العذاب، ولهذا خان إبليس عنصره فأورثه الهلاك والشقاء والدمار، قال ابن سيرين: أول من قاس إبليس فأخطأ فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس.

* ولهذا لما جرى من إبليس ما جرى، انحط من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين:

﴿١٣﴾-﴿١٥﴾ ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ قال الله مخاطباً لإبليس: اهبط من الجنة لأنها دار ومحل المطيعين من الملائكة الذين لا يعصون الله فيما أمرهم، فما يصح ولا يستقيم ولا ينبغي أن تستكبر عن طاعتي وأمري وتسكن دار قدسي.

﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ فاخرج من الجنة، إنك من الذليلين الحقيرين، جزاءً على كبره وعجبه بالإهانة والذل، فإن الأرض هي مقر من يعصي ويطيع، والسماء لا تصلح لمن يتكبر، ويعصي أمر ربه مثلك، وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبسه الله الذل والصغار، فمن تواضع لله رفعه، ومن تكبر على الله وضعه.

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ استدرك إبليس حينما يئس من رحمة الله، فطلب من الله الإمهال إلى يوم البعث لينجو من الموت لأن يوم البعث لا موت بعده، وإنما جسَّره على السؤال مع وجود الزلل منه في الحال علمه بحلم ذي الجلال، ولما كانت حكمة الله مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم، ليتبين الصادق من الكاذب، ومن يطيعه ممن يطيع عدوه، أجابه تعالى لما سأل، بقوله:

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ أجابه تعالى إلى ما سأل، لما في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع، وقال: إنك ممن كتبت عليهم تأخير الأجل إلى النفخة الأولى في الصور، حيث يموت الخلق كلهم. قال ابن عباس: أنظره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين فأبى الله ذلك عليه ويؤيده الآية الأخرى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [ص: ٨٠-٨١].

* قال إبليس لما أبلس وأيس من رحمة الله:

﴿١٦﴾، ﴿١٧﴾ ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ قال إبليس: فبسبب إغوائك وإضلالك لي لأقعدن للخلق على طريق الحق وسبيل النجاة، ولأسعى غاية جهدي على صد الناس عنه وعدم سلوكهم إياه.

﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أي: آتي عبادك من كل جهة من الجهات والجوانب لأصدهم

عن دينك الذي فطرتهم عليه، قال الطبري: معناه لآتينهم من جميع وجوه الحق والباطل، فأصدهم عن الحق وأحسن لهم الباطل. قال ابن عباس: ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم لئلا يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى. ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب عليهم الغفلة على كثير منهم، وكان جازماً ببذل مجهوده على إغوائهم، ظن وصدق ظنه، فقال:

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ أي: مؤمنين مطيعين شاكرين لنعمك، فإن قيل كيف علم الخبيث ذلك؟ قيل: قاله ظناً فأصاب، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠].

* ثم ذكر تعالى عليه اللعنة والطرد والإبعاد والنفي عن محل الملأ الأعلى:

(١٨) ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ﴾ قال الله تعالى لإبليس لما قال ما قال: اخرج من الجنة خروج صغار واحتقار، مذموماً معيباً، مطروداً من رحمة الله، ومن كل خير.

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ اللام موطئة للقسم، أي: لأملأن جهنم منك وممن تبعك من بني آدم أجمعين، وهو وعيد بالعذاب لكل من انقاد للشيطان وترك أمر الرحمن، وأن النار دار العصاة من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

* ثم حذر تعالى من شر إبليس وفتنته، فقال:

(١٩)-(٢١) ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: قال الله ﷻ: يا آدم اسكن مع زوجك حواء الجنة بعد أن أهبط منها إبليس وأخرج وطرد.

﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ فكلا من ثمارها من أي مكان شئتما.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أباح لهما الأكل من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة عينها لهما، ونهاهما عن الأكل منها ابتلاءً وامتحاناً، فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في الوسوسة والمكر والخديعة ليسلبهما ماهما فيه من النعمة واللباس الحسن.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: ألقى لهما بصوت خفي، وتغلغل إليهما إبليس بمكره لإغرائهما بالأكل من الشجرة.

﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ أي: ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات التي يقبح كشفها، وفيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور، وأنه لم يزل مستقبحاً في الطباع والعقول.

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ وهذا توضيح لوسوسة اللعين، أي: قال في وسوسته لهما ومكره بهما كذباً وافتراء: ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا من أجل ألا تكونا ملكين، أو تصبحا من المخلدين في الجنة.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي: حلف وأقسم الشيطان لآدم وحواء بالله على ذلك أنه من جملة الناصحين حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله، فقال: إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما، وإبليس أول من حلف بالله كاذباً، فلما حلف ظنّ آدم أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً.

* فاغتر آدم وحواء بوسوسته وخدعته، وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل:

(٢٢)، (٢٣) ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ﴾ أي: خدعهما

الجُزْءُ الثَّامِنُ سُورَةُ الأَعْرَافِ

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ
مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ
لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ
ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا
لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ
حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا
بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ
وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾
فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟
ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

١٥٣

بما غرهما به من القسم بالله، وكان آدم يظن أنه لا يحلف أحد بالله كاذباً فغرهما بوسوسته وقسمه لهما، فأقدما على الأكل من الشجرة.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ فلما أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن الاقتراب منها، ظهرت عوراتهما بعدما كانت مستورة، وتهافت عنهما لباسهما فأبصر كل منهما عورة صاحبه فاستحيا وخجلا.

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: أخذا وشرعا يلصقان ويلزقان ورقة فوق ورقة، وهو ورق التين، ليسترا به بعد أن كانت كسوتهما من حُلل الجنة، وقال القرطبي: أي جعلا يقطعان الورق ويلزقانه ليسترا به، ومنه خصف النعل، وعن وهب ابن منبه قال: كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا؛ فلما أصاب الخطيئة بدت لهما سوآتهما.

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: ناداهما الله بطريق العتاب والتوبيخ قائلاً: ألم أحذركما من الأكل من هذه الشجرة وأخبركما بعداوة الشيطان اللعين؟ روي أنه تعالى قال لآدم: ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى وعزتك ولكن ما ظننت أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً، قال: فوعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كداً، فاعترفا بالخطيئة وتابا من الذنب، وطلبا من الله المغفرة والرحمة.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: قد فعلنا الذنب الذي نهيتنا عنه، وضرينا أنفسنا باقتراف الذنب، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا بمحو أثر الذنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا، قال ابن تيمية: فالمغفرة إزالة السيئات، والرحمة إنزال الخيرات.

قال الطبري: وهذه الآية هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه.

* وبعد ما جرى من آدم وحواء ما جرى، وتابا إلى الله:

﴿٢٤﴾، ﴿٢٥﴾ ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ الخطاب لآدم وحواء وإبليس ولهذا جاء بصيغة الجمع، أي: قال تعالى مخاطباً آدم وحواء وإبليس اهبطوا من السماء إلى الأرض تعيشون فيها، وسيكون بعضكم لبعض عدوّاً، فالشيطان عدو للإنسان، والإنسان عدو للشيطان.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ولكم في الأرض موضع استقرار وتمتع وانتفاع إلى حين انقضاء آجالكم بالموت.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي: قال الله تعالى لآدم وحواء، وذريتهما. في الأرض تعيشون، وفيها تقبرون، ومنها تخرجون للجزاء.

* ثم ذكر تعالى ما امتّن به على ذرية آدم من اللباس والرياش، والمتاع، فقال:

﴿٢٦﴾ ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ أي: يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يستر عوراتكم، وهو لباس الضرورة، ولباساً يزينكم وتتجملون به وهو من الكمال والتنعم، والريش لباس الزينة استعير من ريش الطير؛ لأنه لباسه وزينته، وقيل: إنما قال ﴿أَنزَلۡنَا﴾؛ لأن اللباس يكون في نبات الأرض، والنبات يكون بما ينزل من السماء.

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ ولباس الورع والخشية من الله تعالى خير ما يتزين به المرء، فإن طهارة الباطن أهم من جمال الظاهر.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ذلك الذي منَّ الله به عليكم من إنزال اللباس، من الدلائل على ربوبية الله تعالى ووحدانيته وفضله ورحمته بعباده.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: رجاء أن تتذكروا هذه النعم، فتشكرون الله عليها.

* ثم حذر تعالى بني آدم أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم، فقال:

(٢٧) ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يا بني آدم لا يخدعنكم الشيطان ويغوينكم بإضلاله فيزين لكم المعصية، فتنقادون له.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ كما زينها لأبويكم آدم وحواء بالأكل من الشجرة حتى أخرجها من الجنة.

﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ أي: ينزع عنهما لباسهما الذي سترهما الله به، لتظهر العورات، ونسب النزع إليه؛ لأنه المتسبب، وهذا هدف اللعين أن يهتك الستر عن الإنسان ويعريه من جميع الفضائل الحسية والمعنوية.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ أي: إن الشيطان يبصركم هو وجنوده وأعوانه من الجهة التي لا تبصرونه منها، فهو لكم بالمرصاد، فاحذروا كيده ومكره؛ لأن العدو إذا أتى من حيث لا يُرى كان أشد وأخوف.

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: جعلنا الشياطين أعواناً وقرناء للكافرين الذين لا يوحدون الله، ولا يصدقون رسله، ولا يعملون بهديه.

* ثم يقول تعالى مبيناً لقبح حال المشركين الذين يفعلون الذنوب، وينسبون أن الله أمرهم بها:

(٢٨)-(٣٠) ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ * قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾.

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ﴾ وإذا فعل المشركون فاحشة، وهي الفعلة المتناهية في القبح كالطواف حول البيت عراة.

﴿قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾ أي: اعتذروا عن ذلك الفعل القبيح بعذرين: الأول؛ أنهم فعلوا ذلك اقتداء بآبائهم، وأنهم ورثوه عن آبائهم، قيل: ومن أين أخذ آباؤكم، قالوا:

﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ وهذا العذر الثاني، أي: وإنه مما أمر الله به من التجرد من الثياب، إذ كيف نطوف في ثياب عصينا فيها الله، وهذا افتراء على ذي الجلال، وقد احتجوا بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء على الله سبحانه، فأعرض عن الأول لظهور فساده، ورد الثاني بقوله:

﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ قل لهم -يا محمد-: الله منزه عن النقص، لا يأمر عباده بقبائح الأفعال ومساوئ الخصال.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: أتكذبون على الله وتنسبون إليه القبيح دون علم ونظر صحيح؟

ثم ذكر ما يأمر به، فقال:

﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أي: بالعدل والاستقامة في العبادات والمعاملات.

﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وتوجهوا بكليتكم إلى الله عند كل سجود.

﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ واعبدوه مخلصين لـه العبادة والطاعة، قال ابن كثير: أي أمركم بالاستقامة في عبادته وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات وبالإخلاص لله في العبادة، فإن الله تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما بدأكم من العدم، فإنه قادر على إعادة الحياة إليكم مرة أخرى.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: هدى الله فريقاً منكم، وأضل فريقاً منكم، وهو الفعال لما يريد، لا يُسأل عما يفعل.

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هذا تعليل للفريق الذين حقت عليهم الضلالة، أي: اتخذوا الشياطين نصراء من دون الله.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: فأطاعوهم جهلاً منهم وظناً أنهم على بصيرة وهداية وهذا أشد في تمردهم وعنادهم.

* لما ذكر تعالى قصة آدم عليه السلام، وذكر ما امتن به على بنيه، وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يستر العورات، أمر هنا بأخذ الزينة والتجمل في المناسبات وعند إرادة الصلاة، قال تعالى:

(٣١) ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ يا بني آدم كونوا عند أداء الصلاة على حالة من الزينة المشروعة من ثياب ساترة لعوراتكم ونظافة وطهارة ونحو ذلك، فيستحب لها التزين والتعطر كما يجب التستر والتطهر، قال أهل التفسير: كان بنو عامر يطوفون بالبيت عراة، فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وأذن مؤذن رسول الله ﷺ: «ألا يطوف بالبيت عريان» [رواه مسلم].

قال ابن تيمية: أمر الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة وهو أخذ الزينة.

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ أي: ولا تسرفوا في الزينة والأكل والشرب بما يضر بالنفس والمال، ولا تتجاوزوا حدود الاعتدال في ذلك. عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «كل ما شئت، واشرب ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة». وقد جمعت هذه الآية أصول أحكام الشريعة كلها، فجمعت: الأمر والنهي، والإباحة والخبر.

الجُزْءُ الثَّامِنُ — سُورَةُ الأَعْرَافِ

۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ
وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ
بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ
أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ
﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ
ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

١٥٤

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المتعدين حدود الله فيما أحل وحرم في الطعام والشراب وغير ذلك، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية.

* ثم أنكر ﷻ على من تعنت، وحرم ما أحل الله من الطيبات:

(٣٢) ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذي يطوفون بالبيت عراة ويحرمون على أنفسهم ما أحللت

هم من الطيبات، من حرم عليكم التجمل بالثياب التي خلقها الله لنفعكم من النبات، والمستلذات من المآكل والمشارب! والاستفهام للإنكار والتوبيخ، وهذا التوسع من الله لعباده بالطيبات جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، فلم يبحه إلا لعباده المؤمنين، ولهذا قال:

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: هذه الزينة والطيبات في الدنيا مخلوقة للمؤمنين وإن شاركهم فيها الكفار، وستكون خالصة لهم يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد، لأن الله حرم الجنة على الكافرين.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: مثل ذلك التفصيل نبين ونوضح الآيات والأحكام لقوم يتدبرون حكمة الله ويفقهون تشريعه.

* ثم ذكر تعالى المحرمات التي حرمها الله في كل شريعة من الشرائع، فقال:

(٣٣) ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من المشركين ما حرم الله إلا القبائح من الأشياء التي تفاحش قبحها وتناهى ضررها، سواء ما كان منها في السر أو في العلن.

﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: وحرم المعاصي كلها، ومن أعظمها العدوان على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم فإن ذلك مجانب للحق.

﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: وحرم أن تعبدوا مع الله تعالى غيره، وتجعلوا له شركاء في عبادته دون حجة أو برهان، وحرم أن تنسبوا وتفتروا على الله الكذب في التحليل والتحريم كدعوى أن لله ولداً، وتحريم بعض الحلال من الملابس والمآكل.

(٣٤)-(٣٦) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ ولكل أمة كذبت رسلها وقت لحلول العقوبة بهم، وفي هذا وعيد للمشركين بالعذاب إذا خالفوا أمر ربهم.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فإذا جاء وقت عقوبتهم وهلاكهم المقدر لهم، لا يتأخر عنهم برهة من الزمن ولا يتقدم، وقيده بالساعة؛ لأنها أقل ما يستعمل في الإمهال.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ أي: يا بني آدم إذا جاءكم رسلي من أقوامكم يتلون عليكم آيات كتابي، ويبينون لكم البراهين على صدق ما جاؤوكم به، فأطيعوهم واتبعوهم.

﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: فمن اتقى منكم ربه بفعل الطاعات وترك المحرمات من الشرك والكبائر والصغائر، وأصلح أعماله الظاهرة والباطنة، فلا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله تعالى، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا، وإذا انتفى الخوف والحزن، حصل الأمن التام والسعادة الأبدية.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: وأما من كذب واستكبر عن الإيمان بما جاء به الرسل، فأولئك في نار جهنم ماكثون لا يخرجون منها أبداً كما استهانوا بآيات الله، ولازموا التكذيب بها.

(٣٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾

الاستفهام للإنكار، أي: لا أشد قبحاً، ولا أشنع فعلاً ممن تعمد الكذب على الله بنسبة الشريك له، أو النقص له، أو التقول عليه ما لم يقل، أو كذب بآياته المنزلة المبينة للحق الهادية إلى الصراط المستقيم؟

﴿أُولَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: يصيبهم حظهم في الدنيا مما كتب لهم وقدر من الأرزاق والآجال، وما وعدوا به من خير أو شر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: حتى إذا جاءت ملائكة الموت، بقبض أرواحهم واستيفاء آجالهم، قالت لهم الملائكة في تلك الحالة توبيخاً وعتاباً، أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله من الأصنام والأوثان، ادعوهم ليخلصوكم من العذاب.

﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: قال الأشقياء المكذبون؛ لقد غابوا وذهبوا عنا، فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم، وأقروا واعترفوا على أنفسهم بالكفر والضلال، وإنما قالوا ذلك على سبيل التحسر والاعتراف بما هم عليه من الخيبة والخسران.

* يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه، المكذبين بآياته:

(٣٨)، (٣٩) ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۞ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: يقول تعالى يوم القيامة لهؤلاء المكذبين بآياته: ادخلوا مع أمم أمثالكم من الفجرة في نار جهنم من كفار الأمم الماضية من الإنس والجن.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كلما دخلت طائفة من الأمم السابقة النار لعنت التي قبلها التي ضلت بالاقتداء بها، والمراد أن أهل النار يلعن بعضهم بعضاً.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ حتى إذا تلاحق واجتمع في النار الأولون من أهل الملل الكافرة، والآخرون منهم جميعاً.

﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ أي: قالت أخراهم دخولاً، وهم الأتباع، لأولاهم وهم المتبوعون؛ لأنهم أشد جرماً من أتباعهم فدخلوا قبلهم، قال الأتباع للقادة والرؤساء الذين أضلوهم:

الجزء الثامن سورة الأعراف

قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ
فِي ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ
فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ
عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ
﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ
فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ
وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي
مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا
لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ
وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

١٥٥

يا ربنا هؤلاء هم الذين أضلونا عن سبيلك وزينوا لنا طاعة الشيطان.

﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: أذقهم العذاب مضاعفاً؛ لأنهم تسببوا في كفرنا.

﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أي: قال الله تعالى لكل من القادة والأتباع عذاب مضاعف، أما القادة فلضلالهم وإضلالهم، وأما الأتباع فلكفرهم وتقليدهم، ولكن لا تعلمون ولا تدركون هول ما لكل فريق منكم من العذاب والآلام، ولهذا تسألون لهم مضاعفة العذاب.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: قال القادة للأتباع: لا فضل لكم علينا في تخفيف العذاب فنحن

متساوون في الضلال، وفي استحقاق العذاب الأليم.

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: قال الله تعالى لهم جميعاً: فذوقوا عذاب جهنم بسبب إجرامكم وبما كسبتم من المعاصي، قالوه لهم على سبيل التشفي؛ لأنهم دعوا عليهم بمضاعفة العذاب.

* ثم يخبر تعالى عن عقاب من كذب بآياته فلم يؤمن بها، واستكبر عنها فلم ينقد لأحكامها؛ بل كذب وتولى، فيذكر تعالى حالهم ومصيرهم:

﴿٤٠﴾، ﴿٤١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ * لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا﴾ إن الكفار الذين كذبوا بآياتنا مع وضوحها وبيانها، واستكبروا عن الإيمان بها والعلم بمقتضاها ولم يعملوا بشرعنا تكبراً واستعلاء.

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لا يصعد ولا يرفع لهم عمل صالح ولا دعاء، وقيل: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء إذا قبضت أرواحهم؛ لأنها خبيثة لا يصعد بها بل يهوى بها إلى سجين، وإنما تفتح أبواب السماء لأرواح المؤمنين وأدعيتهم وأعمالهم.

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ ولا يدخلون يوم القيامة الجنة، حتى يدخل الجمل - وهو البعير المعروف - الذي هو من أكبر الحيوانات جسماً، في ثقب الإبرة، الذي هو من أضيق الأشياء، وهذا تمثيل لاستحالة دخول الكفار الجنة؛ كاستحالة دخول الجمل على ضخامته في ثقب الإبرة على دقته؛ مبالغة في التصوير.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ومثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي أهل العصيان والإجرام.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: لهم فراش من النار من تحتهم، ومن فوقهم أغطية من النار تغشاهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: ومثل ذلك الجزاء الشديد نجزي كل من ظلم وتعدى حدود الله، وما ربك بظلام للعبيد.

* ولما ذكر تعالى وعيد الأشقياء الكافرين وما أعده لهم في الآخرة، أتبعه بذكر وعد السعداء المؤمنين المطيعين وما أعد لهم، فقال:

﴿٤٢﴾، ﴿٤٣﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه فجمعوا بين الإيمان والعمل.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ لا نكلف أحداً بما هو فوق طاقته أو بما يعجز عنه بل بما هو في وسعه، والجملة اعتراضية بين المبتدأ والخبر، وفائدته التنبيه على أن ذلك العمل في وسعهم وغير خارج عن قدرتهم، وفيه تنبيه على أن الجنة مع عظم ما فيها يوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هذا هو الخبر، أي: هؤلاء المتصفون بالإيمان والعمل الصالح، هم السعداء المستحقون للخلود الأبدي في جنات النعيم، لا يخرجون منها أبداً.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ وطهرنا قلوبهم من الحسد والبغضاء حتى لا يكون بينهم إلا المحبة والتعاطف، وهذا من كرمه وإحسانه، ومن جملة نعمه التي ينعم بها على أهل الجنة، كما ورد في الحديث: «يدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل» [أخرجه ابن أبي حاتم]، وصيغة الماضي تفيد التحقق والتثبت.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: ومن كمال نعيمهم أن الأنهار في الجنة تجري من تحت قصورهم زيادة في نعيمهم.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ وقال أهل الجنة حينما دخلوها ورأوا ما أنعم الله عليهم وأكرمهم به: الحمد لله الذي وفقنا لتحصيل هذا النعيم العظيم، ولولا هداية الله تعالى وتوفيقه لما وصلنا إلى هذه السعادة.

﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: والله لقد صدقنا الرسل فيما أخبرونا به عن الله ﷻ من الأخبار بوعد أهل طاعته ووعيد أهل معصيته، يقولون ذلك سروراً بما نالوا، وإظهاراً لما اعتقدوا وشكراً على ما وهبوا.

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: وتناديهم الملائكة إكراماً لهم وتحية: أن هذه هي الجنة التي أعطيتموها برحمة الله وفضله، وورثتم منازلها بأعمالكم الصالحة في الدنيا من الإيمان والعمل الصالح، وفي الحديث: «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة» [رواه مسلم].

* يقول تعالى لما ذكر استقرار كل من الفريقين في الدارين، ووجدوا ما أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب، من الثواب والعقاب، أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار، وهذه المناداة لم تكن لقصد الإخبار لهم بما نادوهم به، بل لقصد تبكيتهم وإيقاع الحسرة في قلوبهم:

(٤٤)، (٤٥) ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ * ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾.

الجزء الثامن — سورة الأعراف

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا
رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ
مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥ وَبَيۡنَهُمَا
حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ
أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦
۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا
مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم
بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨
أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ
لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ
ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ
إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا
وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ
لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١

١٥٦

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾ هذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، وعبر بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه، أي: ينادي أهل الجنة بعد دخولهم فيها أهل النار على وجه التقريع والتوبيخ، وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم، وشماتة بأهل النار، وزيادة في غمهم لمجرد الإخبار والاستخبار. يقولون: إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا على ألسنة رسله من النعيم والكرامة حقّاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من الخزي والهوان والعذاب حقّاً؟ قال أهل النار مجيبين: نعم وجدنا ما وعدنا ربنا حقّاً.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: أعلن معلن، ونادى مناد بين الفريقين، بأن لعنة الله على كل ظالم بالله تجاوز حدود الله وكفر بالله ورسله، ثم وصفهم بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ أي: الذين كانوا في الدنيا يمنعون الناس عن اتباع دين الله ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبينها ولا يتبعها أحد.

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ وهم بلقاء الله في الدار الآخرة مكذبون جاحدون.

* لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، نبه أن بين الجنة والنار حجاباً، فقال تعالى:

(٤٦)، (٤٧) ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حاجز عظيم، يقال له: الأعراف، وعلى هذا السور رجال يعرفون كلًّا من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم، أي: بعلامتهم التي ميزهم الله بها، بسواد وجوه أهل النار، وكبياض وجوه أهل الجنة. قال المفسرون: أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فليسوا من أهل الجنة ولا من أهل النار، يحبسون هناك على السور يقضي الله فيهم.

﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ونادى أصحاب الأعراف أهل الجنة حين رأوهم، أن سلام عليكم، أي: قالوا لهم: سلام عليكم، تحية لهم وإكراماً وتبشيراً، وهم إلى الآن لم يدخلوا الجنة، ولكنهم يطمعون في دخولها، ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم إلا بما يريد بهم من كرامته، قال تعالى:

﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي: لم يدخل أصحاب الأعراف الجنة وهم يرجون دخولها برحمة الله وعفوه وجوده.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإذا نظر أهل الأعراف إلى أهل الجنة سلموا عليهم: وإذا نظروا إلى أهل النار، تعوذوا بالله وفزعوا إلى رحمته، وقالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، سألوا الله ألا يجعلهم معهم. وفي التعبير بقوله: ﴿صُرِفَتْ﴾ دليل على أن أكثر أحوالهم النظر إلى أهل الجنة وأن نظرهم إلى أصحاب النار ليس من قِبَلهم بل هم محمولون عليه، والمعنى أنهم إذا حملوا على صرف أبصارهم ورأوا ما عليه أهل النار من العذاب الأليم والهول الفظيع استغاثوا بربهم من أن يجعلهم معهم.

* ثم ذكر تعالى الخصوص بعد العموم، فقال:

﴿٤٨﴾، ﴿٤٩﴾ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۞ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ ونادى أهل الأعراف رجالاً من رؤساء الكفرة الذين في النار.

﴿قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: فقال لهم أصحاب الأعراف، حين رأوهم منفردين في العذاب، بلا ناصر ولا مغيث: أيُّ شيء نفعكم جمعكم للمال، واستكباركم عن الإيمان، وقبول الحق، والاستفهام للتوبيخ.

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ هذا من كلام أهل الأعراف، أي: أهؤلاء المؤمنون الضعفاء الذين كنتم في الدنيا تسخرون منهم وتحقرونهم وتزدرونهم وتحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة، قد حنثتم في أيمانكم، والاستفهام استفهام تقرير وتوبيخ وشماتة، يوبخونهم بذلك.

﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي: يقولون للمؤمنين ادخلوا الجنة رغم أنوف الكافرين، لا خوف عليكم فيما يستقبل من المكاره، ولا أنتم تحزنون على ما مضى، بل آمنون مطمئنون فرحون بكل خير، وقيل: هذا من كلام أصحاب الأعراف يقولون لأهل الجنة المشار إليهم: دوموا في الجنة غير خائفين ولا محزونين على أكمل سرور وأتم كرامة.

* ثم يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم، وأنهم لا يجابون إلى ذلك:

﴿٥٠﴾، ﴿٥١﴾ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يخبر تعالى عن المحاورة بين أهل النار وأهل الجنة بعد أن استقر بكل من الفريقين القرار واطمأنت به الدار، وعن استغاثة أهل النار بأهل الجنة عند نزول عظيم البلاء من شدة العطش والجوع، والمعنى

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ
يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ
فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى
كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ
يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ
بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾
ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾
وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ
إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ
ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا
سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

١٥٧

فينادونهم يوم القيامة؛ أغيثونا بشيء من الماء لنسكن به حرارة النار والعطش، أو مما رزقكم الله من غيره من الأشربة. قال القرطبي: في هذه الآية دليل على أن سقي الماء من أفضل الأعمال.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ **أي: فأجابهم أهل الجنة بقولهم: إن الله منع الكافرين شراب الجنة وطعامها، وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله، قال ابن عباس: ينادي الرجل أخاه وأباه فيقول: قد احترقت فأفض عليّ من الماء! فيقال لهم أجيبوهم، فيقولون: إن الله حرمها على الكافرين، ثم وصف تعالى الكافرين بقوله:**

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ **أي: الذين هزؤوا من دين الله، وجعلوا الدين سخرية ولعباً، وخدعتهم الحياة الدنيا بزخارفها العاجلة وشهواتها القاتلة، واغتروا بطول البقاء، وهذا شأنها مع أهلها تغر وتضر، وتخدع ثم تصرع.**

﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ **أي: ففي هذا اليوم نتركهم في العذاب كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا فلم يخطر ببالهم ولم يهتموا به، والكلام خارج مخرج التمثيل، أي: نتركهم في النار وننساهم مثل نسيانهم لقاء هذا اليوم العظيم الذي ينبغي ألا ينسى، وقال ابن كثير: أي يعاملهم معاملة من نسيهم؛ لأنه تعالى لا يشذّ عن علمه شيء ولا ينساه.**

﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ **أي: وكما كانوا منكرين لآيات الله في الدنيا، يكذبون بها ويستهزئون، ننساهم في العذاب.**

*** لما ذكر تعالى حال الكفار الأشقياء وخسارتهم الفادحة في الآخرة، ذكر هنا أنه لا حجة لأحد، فقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لهداية الناس كافة، قال تعالى:**

﴿٥٢﴾، ﴿٥٣﴾ ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ **أي: ولقد جئنا أهل مكة بكتاب هو القرآن العظيم، أنزلناه عليك يا محمد، بينا معانيه، ووضحنا أحكامه على علم من الله، حتى جاء قيماً غير ذي عوج.**

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ **أي: هداية من الضلالة إلى الرشد، ورحمة وسعادة لمن آمن به، وخص أهل الإيمان دون غيرهم؛ لأنهم هم المنتفعون به.**

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ **أي: ما ينتظر أهل مكة إلا عاقبة ما وعدوا به من العذاب والنكال الذي يؤول إليه أمرهم.**

﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ **يوم يأتي ما يؤول إليه الأمر من الحساب والثواب والعقاب يوم القيامة، يقول الذين ضيعوا وتركوا العمل به في الدنيا متندمين متأسفين على ما مضى منهم، مقرين بما أخبرت به الرسل:**

﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ **أي: جاءتنا الرسل بالأخبار الصادقة، وتحقق لنا صدقهم، فلم نؤمن بهم ولم نتبعهم، قال الطبري: أقسم المساكين حين حل بهم العقاب أن رسل الله**

قد بلغتهم الرسالة ونصحت لهم وصدقتهم حين لا ينفعهم ولا ينجيهم من سخط الله كثرة القيل والقال.

﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ أي: هل لنا اليوم شفيع يخلصنا من هذا العذاب؟ استفهام فيه معنى التمني.

﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أو هل لنا من عودة إلى الدنيا لنعمل صالحاً غير ما كنا نعمله من المعاصي وقبيح الأعمال؟ قال تعالى ردّاً عليهم:

﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها، وذهب عنهم ما كانوا يعبدونه من دون الله، ويفترونه في الدنيا مما يعدهم به الشيطان، وبطل عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة والأصنام.

* ثم ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية، فقال:

﴿٥٤﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: إن معبودكم وخالقكم أيها الناس الذي تعبدونه هو المنفرد بقدر الإيجاد، الذي خلق السموات والأرض من العدم في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، وما فيهما على عظمهما وسعتهما وإحكامهما وإتقانهما، وبديع خلقهما، قال المفسرون: لو أراد لخلقها في لحظة ولكنه أراد أن يعلم العباد التثبت في الأمور.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ثم استوى سبحانه على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته، من غير تشبيه ولا تمثيل، ولا تعطيل ولا تحريف، كما هو مذهب السلف، قال الإمام مالك رحمه الله: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وقال الإمام أحمد رحمه الله: أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل فلا يقال: كيف؟ ولم؟ نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء، وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف أو يحدها حاد، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيها ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله ﷻ، وقال القرطبي: لم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: يدخل سبحانه الليل على النهار فيذهب بضوئه ويدخل النهار على الليل فيذهب ظلامه، وكل واحد منهما يطلب الآخر سريعاً دائماً.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: وهو سبحانه الذي خلق الشمس والقمر والنجوم، مذللات له، يسخرهن سبحانه كما يشاء، وهنَّ من آيات الله العظيمة، الجميع تحت قهره ومشيئته وتسخيره.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ أي: له سبحانه الملك والتصرف التام في الكائنات.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كثر خيره، وتعظم وتمجد وتنزه الخالق المبدع رب العالمين أجمعين.

* ولما ذكر من عظمته وجلاله ما يدل ذوي الألباب على أنه وحده المعبود، المقصود في الحوائج كلها، أمر بما يترتب على ذلك، فقال:

﴿٥٥﴾، ﴿٥٦﴾ ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۞ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ ادعوا أيها المؤمنون الله متذللين له خفية وسرّاً بخشوع وخضوع وبُعد عن الرياء.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي: إن الله تعالى لا يحب المتجاوزين في الدعاء بالتشدق ورفع الصوت، أو بأعظم التجاوز وهو الشرك بالله كدعاء غير الله من الأموات والأوثان ونحو ذلك، وفي الحديث: «أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً» [رواه البخاري]. قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً، ولقد كان المسلمون يجتهدون

في الدعاء وما يسمع لهم من صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ ولا تفسدوا في الأرض بالشرك والمعاصي بعد أن أصلحها الله ببعثة المرسلين.

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفاً من عذابه وعقابه، وطمعاً في رحمته ورجاءً لثوابه ومغفرته.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: رحمته تعالى قريبة من المطيعين الذين يمتثلون أوامره ويتركون زواجره، المحسنين إلى عباد الله، وفي هذا ترغيب للعباد إلى الخير وتنشيط لهم، فكلما كان العبد أكثر إحساناً كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريباً منه برحمته، وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى.

* ثم بين تعالى أثراً من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته، فقال:

﴿٥٧﴾، ﴿٥٨﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: والله تعالى هو الذي يرسل الرياح الطيبة اللينة مبشرة بالمطر، ومعنى بين يدي رحمته، أي: أمام نعمته وهو المطر الذي هو من أجل النعم وأحسنها أثراً على الإنسان.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي: حتى إذا حملت الرياح سحاباً مثقلاً بالماء، ساق الله السحاب إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها، قد كادت تهلك حيواناته، وكاد أهله أن ييأسوا من رحمة الله.

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ
إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾
أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ
عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ
عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ
إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾

١٥٨

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: أنزلنا في ذلك البلد الميت المطر الغزير من ذلك السحاب، فأخرجنا بذلك الماء من كل أنواع الثمرات.

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات، كذلك نخرج الموتى من قبورهم بعدما كانوا رفاتاً متمزقين لعلكم تعتبرون وتؤمنون، قال ابن كثير: وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله المثل ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها، ولهذا قال لعلكم تذكرون. ثم ذكر تعالى تفاوت الأراضي التي ينزل عليها المطر، فقال:

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: الأرض الطيبة التربة والمادة، إذا نزل عليها مطر يخرج النبات فيها وافياً حسناً غزير النفع بمشيئة الله وتيسيره، وهذا مثل للمؤمن يسمع الموعظة فينتفع بها.

﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: والأرض إذا كانت خبيثة التربة كالحرّة أو السبخة لا يخرج النبات فيها إلا بعسر ومشقة وقليلاً لا خير فيه ولا بركة، وهذا مثل للكافر الذي لا ينتفع بالموعظة، قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالمؤمن طيب، وعمله طيب كالأرض الطيبة ثمرها طيب، والكافر خبيث، وعمله خبيث كالأرض السبخة المالحة لا ينتفع بها.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي: كما ضربنا هذا المثل كذلك نبين وجوه الحجج ونكررها

آية بعد آية، وحجة بعد حجة لقوم يعترفون بنعمة الله ويشكرونه عليها، وإنما خص الشاكرين بالذكر؛ لأنهم المنتفعون بسماع القرآن، قال الألوسي: أي مثل هذا التصريف البديع نردد الآيات الدالة على القدرة الباهرة، ونكررها لقوم يشكرون نعم الله تعالى، وشكرها بالتفكر والاعتبار بها، وصرفها في طاعة الله.

* لما ذكر تعالى من أدلة التوحيد والآيات البينات في الكون، أيد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيده مع أممهم المنكرين لذلك، لتنبيه الأمة على الصواب، وأن لا يقتدوا بمن خالف الحق من الأمم السالفة، فقال تعالى:

﴿٥٩﴾-﴿٦٢﴾ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ اللام جواب قسم محذوف، أي: والله لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ليدعوهم إلى عبادة الله ﷻ، حين كانوا يعبدون الأوثان، ونوح شيخ الأنبياء؛ لأنه أطولهم عمراً، وهو أول نبي بعثه الله بعد إدريس، ولم يلق نبي من الأذى مثل نوح.

﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي: فقال نوح لقومه: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به فما لكم إله مستحق للعبادة غيره جل وعلا لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مُدبر، ليس له من الأمر شيء. ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب الله، فقال:

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: فإن أشركتم به ولم تؤمنوا، وبقيتم على عبادة أوثانكم، فإنني أخاف عليكم عذاب يوم يعظم فيه بلاؤكم، هو يوم القيامة، وهذا من شفقته عليه السلام ونصحه لقومه، فلما قال لهم هذه المقالة، ردوا عليه أقبح رد:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قال الأشراف والسادة من قومه: إنا لنراك يا نوح في ذهاب عن طريق الحق والصواب واضح جلي، ولم يجبه من قومه إلا أشرافهم وسادتهم وهم الذين يتعاصون على الرسل لانغماس عقولهم بالدنيا وطلب الرياسة، وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة، فرد نوح عليهم رداً لطيفاً وترفق لهم لعلهم ينقادون له:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: قال نوح: يا قوم ما أنا بضال في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا مرسل إليكم من عند ربكم، المالك لأموركم، الناظر لكم بالمصلحة، رب كل شيء ومليكه.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنا أبلغكم ما أرسلني الله به إليكم، وأقصد صلاحكم وخيركم، وأعلم من الأمور الغيبية أشياء لا علم لكم بها، قال ابن كثير: وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله، لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات.

* يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام عندما قال لهم:

﴿٦٣﴾، ﴿٦٤﴾ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجيب أن يوحي الله إلى رجل منكم تعرفون نسبه وصدقه، رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم.

﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: ليخوفكم هذا الرسول من العذاب إن لم تؤمنوا، ولتتقوا ربكم، وتنالكم الرحمة بتقواه.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: قال تعالى فكذبوا نوحاً مع طول مدة إقامته فيهم، فأنجاه الله والمؤمنين معه في السفينة، وأهلكنا المكذبين منهم بالغرق.

الجزء الثامن — سورة الأعراف

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن
جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ
آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾
قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ
أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم
مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ
الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ
﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ
هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ
اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

١٥٩

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ **عميت قلوبهم عن الهدى وعن الآيات البينات، فهم لا يبصرون الحق ولا يهتدون له، قال ابن عباس: عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد، وقد بين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين وأهلك أعداءهم من الكافرين.**

*** وبعد أن ذكر تعالى قصة نوح مع قومه، ذكر هنا قصة هود مع قومه، قال تعالى:**

﴿٦٥﴾-﴿٦٩﴾ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ **أي: ولقد أرسلنا إلى قوم عاد أخاهم - في النسب - هوداً، وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن.**

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ **قال لهم رسولهم اعبدوا الله وحده فليس لكم إله غيره يستحق العبادة.**

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ **أي: أفلا تخافون عذابه وعقابه وسخطه عليكم؟**

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ **قال السادة والقادة منهم.**

﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ **أي: نراك يا هود في خفة حلم وسخافة عقل، حيث تدعو إلى دين لا نعرفه.**

﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ **أي: وإننا لنظنك من الكاذبين في ادعائك الرسالة.**

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **قال هود: يا قوم ليس بي كما تزعمون نقص في العقل، ولكني مرسل إليكم بالهداية من رب الخلق أجمعين.**

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ **أبلغكم أوامر الله، وما أرسلني به ربي إليكم، وأنا ناصح لكم فيما أدعوكم إليه، أمين على ما أقول لا أكذب فيه، فالواجب عليكم أن تتلقوا ذلك بالقبول والانقياد وطاعة رب العباد، أجابهم بحلم وسعة صدر مع علمه بأن خصومه أضل الناس وأسفههم، قال الزمخشري: وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام ممن نسبهم إلى السفاهة والضلالة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم وترك المقابلة أدب حسن وخلق عظيم، وتعليم للعباد كيف يخاطبون السفهاء ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم.**

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ **أي: كيف تعجبون من أمر لا يتعجب منه، وهو أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم تعرفون نسبه وصدقه لينذركم لقاء الله ويخوفكم عذابه وعقابه ويدعوكم إلى ما فيه النفع لكم.**

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ **أي: واحمدوا ربكم واشكروا له نعمه حين استخلفكم في الأرض بعد إهلاك قوم نوح.**

﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أي: واذكروا نعمة الله عليكم التي خصكم بها، وهي أن زاد في أجسامكم قوة وضخامة، زيادة على ما كان عليه آباؤكم في الأبدان.

﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: اذكروا نعم الله الكثيرة عليكم لتفلحوا وتفوزوا بالسعادة في الدنيا والآخرة؛ لأن الذكر للنعمة سبب باعث لشكرها، ومن شكر فقد أفلح.

* فلما كان من قومه إلا العناد والمكابرة حين دعاهم إلى عبادة الواحد الأحد، قال تعالى:

﴿٧٠-٧٢﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: قالت عاد لنبيهم هود ﷺ: أدعوتنا لعبادة الله وحده، وهجر عبادة الأصنام التي ورثنا عبادتها عن آبائنا.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فأتنا بما تعدنا به من العذاب الذي تخوفنا به إن كنت من أهل الصدق فيما تقول، وهذا استعجال منهم للعذاب الذي كان هود يعدهم به لشدة تمردهم على الله، ونكوصهم عن طريق الحق، وبعدهم عن اتباع الصواب.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ قال هود لقومه: قد حل بكم عذاب وغضب من الله فإنه قد انعقدت أسبابه، وتحقق وقوعه، ثم استنكر عليهم ما وقع منهم من المجادلة، فقال:

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: أتخاصمونني في أصنام لا تضر ولا تنفع سميتموها أنتم وآباؤكم أسماء مختلفة، ما أنزل الله بعبادتها من حجة أو برهان، ثم توعدهم بأشد وعيد، فقال:

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: فانتظروا نزول العذاب عليكم الذي وعدتكم به، إني من المنتظرين لما يحل بكم، وهذا غاية في الوعيد والتهديد، ولهذا عقبه بقوله:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: فوقع عذاب الله بإرسال الريح الشديدة عليهم، فأنجى الله هوداً والذين معه من المؤمنين برحمة عظيمة منه تعالى فإنه الذي هداهم للإيمان، وجعل إيمانهم سبباً ينالون به رحمته.

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ واستأصلنا وأهلكنا الكفار من قومه بالكلية، ودمرناهم عن آخرهم، بأن سلط الله عليهم الريح العقيم، وما كانوا مؤمنين لجمعهم بين التكذيب بآيات الله وترك العمل الصالح، أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرعووا عن ذلك أبداً، فأهلكهم الله بالريح العظيم.

* لما ذكر تعالى في أول السورة قصة آدم، وما اتصل بها من آثار قدرته، وعجائب صنعته الدالة على توحيده وربوبيته، وأقام الحجة الدامغة على صحة البعث بعد الموت، أتبع ذلك بقصص الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم، فذكر نوحاً وهوداً، وأعقبه هنا بذكر قصة صالح وشعيب، وموقف المعاندين للرسل الكرام، فقال تعالى:

﴿٧٣-٧٨﴾ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ

ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود الذين يسكنون الحجر، أخاهم صالحاً لما عبدوا الأوثان من دون الله، فقال صالح لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده، فليس لكم من إله يستحق العبادة غيره سبحانه.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ أي: معجزة ظاهرة جلية تدل على صحة نبوتي وصدق رسالتي، إذ دعوت الله أمامكم فأخرج لكم من الصخرة، ناقة عظيمة كما سألتم.

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ﴾ هذا بيان للمعجزة، أي: هذه الناقة معجزتي إليكم، وإضافتها إلى الله للتشريف والتعظيم؛ لأنها خلقت بغير واسطة، حيث أخرج لهم الناقة حين سألوه من حجر صلد، وقال لهم نبيهم صالح ؈:

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: اتركوها تأكل من رزق ربها في المراعي، فلا عليكم من مؤونتها شيء، ولا تتعرضوا لها بأي أذى، إكراماً لها لأنها آية الله، والعذاب الأليم هو ما حل بهم حين عقروها.

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ واذكروا نعمة الله عليكم، إذ جعلكم تخلفون في الأرض من قبلكم، تتمتعون بها وتدركون مطالبكم، من بعد قوم عاد الذين أهلكهم الله، ولم يقل خلفاء عاد؛ إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً.

﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: أسكنكم في أرض الحجر، ومكن لكم فيها تبنون في سهولها قصوراً رفيعة.

﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ﴾ وتنحتون الجبال لسكناكم، وذلك لقوتهم وصلابة أبدانهم، ولطول أعمارهم، فإن الأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم.

﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: اذكروا نعم الله عليكم واشكروه على ما تفضل به ولا تعثوا في الأرض بالفساد والمعاصي.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: قال الأشراف المستكبرون من قوم صالح للمؤمنين المستضعفين من أتباع صالح ؈.

﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: إن الله أرسله إلينا وإليكم، وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: فقال المستضعفون بالأسلوب الحكيم: أنهم مصدقون بما أرسله الله به متبعون لشرعه مؤمنون برسالته.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: قال الذين استعلوا، إنا بالذي صدقتم به واتبعتموه من نبوة صالح جاحدون مستكبرون، نحن كافرون بما صدقتم به من نبوة صالح، وإنما لم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون إظهاراً لمخالفتهم إياهم ورداً لمقالتهم.

الجزء الثامن — سورة الأعراف

وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن
قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ
مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ
ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ
﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ
شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

١٦٠

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: نحروا الناقة استخفافاً منهم بوعيد صالح، واستكبروا عن امتثال أمر الله.

﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: وقالوا على سبيل الاستهزاء واستبعاد العذاب؛ جئنا يا صالح بما تعدنا من العذاب الذي تخوفنا به إن كنت ياصالح حقاً من رسل الله.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أخذت الذين كفروا الزلزلة الشديدة التي خلعت قلوبهم، فصاروا في منازلهم هامدين موتى لا حراك بهم.

* ثم ذكر تعالى ما كان من أمر صالح عليه السلام:

(٧٩) ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي: فأعرض عنهم صالح بعد هلاكهم ومشاهدة ما جرى عليهم، وقال على سبيل التفجع والتحسر عليهم: لقد بلغتكم الرسالة وحذرتكم عذاب الله، وبذلت وسعي في نصيحتكم، ولكن شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم، قيل: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ حكاية حال ماضية قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت وكان قد نصحه حياً فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة: يا أخي كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل مني؟

* ثم ذكر ﷻ لوطاً عليه السلام ودعوته لقومه، فقال تعالى:

(٨٠)، (٨١) ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: واذكر يا محمد وقت أن قال لوط عليه السلام لقومه أهل سدوم على سبيل الإنكار والتوبيخ: أتفعلون تلك الفعلة الشنيعة المتناهية في القبح التي ما عملها أحد قبلكم في زمن من الأزمان، والفاحشة هي إتيان الذكور في الأدبار، أنكر عليهم أولاً فعلها، ثم وبخهم بأنهم أول من فعلها. ولما كان هذا الفعل معهوداً قبحه، ومركوزاً في العقول فحشه، أتى به معرفاً بالألف واللام ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ بخلاف الزنى فإنه قال فيه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [النساء: ٢٢] فأتى به منكراً، والجملة المنفية ﴿مَا سَبَقَكُم﴾ تدل على أنهم أول من فعل هذه الفعلة القبيحة وأنهم مبتكروها، والمبالغة في ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ حيث زيدت من لتأكيد نفي الجنس، وفي الإتيان بعموم ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمعاً، قال عمرو بن دينار: ما رئي ذكر على ذكر قبل قوم لوط.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ هذا بيان للفاحشة وهو توبيخ آخر أشنع مما سبق لتأكيده بأن وباللام، أي: إنكم أيها القوم لتأتون الرجال في أدبارهم شهوة منكم لذلك الفعل الخبيث المكروه دون ما أحله الله لكم من النساء، ثم أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح واتباع الشهوات، فقال:

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ لا عذر لكم، بل أنتم عادتكم الإسراف وتجاوز الحدود لما حده الله، متجرئون على محارمه، وفي التقييد بقوله: ﴿شَهْوَةً﴾ وصف لهم بالبهيمية الصرفة، وتنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة، طلب الولد وبقاء النسل لا قضاء الشهوة.

(٨٢) ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: ماكان جواب الواقعين في هذه الفاحشة على ما أنكره عليهم منها ووبخهم على فعلهم القبيح، إلا أن قال بعضهم لبعض: أخرجوا لوطاً وأتباعه المؤمنين من بلدتكم؛ لأنهم أناس يتنزهون عما نفعله نحن من إتيان الرجال في الأدبار، قال ابن عباس ومجاهد: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: يتقذرون عن إتيان أدبار الرجال والنساء، قالوا ذلك سخرية واستهزاءً بلوط وقومه وعابوهم بما يمدح به الإنسان.

* فلما هموا بما لم ينالوا، أخرجه الله سالماً، وأهلكهم في أرضيهم صاغرين مهانين، قال تعالى:

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن
قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ
﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ
فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ
أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا
ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا
تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓاْ
إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ
ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ
حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

١٦١

(٨٣)، (٨٤) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ **أي: فأنجى الله لوطاً وأهله من العذاب الذي حل بقومه وأهله المؤمنين، إلا امرأته، فلم تنج وكانت من الباقين في ديارهم الهالكين، فإنها كانت للوط خائنة وبالله كافرة، فهلكت مع من هلك من قوم لوط حين جاءهم العذاب.**

قال ابن تيمية: من رضي عمل قوم لوط حشر معهم، كما حشرت امرأة لوط معهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ **أي: وأرسل الله عذاباً على الكفار من قوم لوط بأن أنزل عليهم مطراً من حجارة من سجيل، وشبه العذاب بالمطر المدرار لكثرته حيث المطر أرسل إرسالاً. يقال في العذاب: أمطر، وفي الرحمة: مطر.**

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ **أي: انظر أيها السامع إلى عاقبة هؤلاء الكافرين كيف كانت؟ وإلى أي شيء صارت؟ هل كانت إلا البوار والهلاك.**

*** ثم ذكر تعالى دعوة شعيب عليه السلام وما كان من قومه، قال تعالى:**

(٨٥) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ **أي: وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم في النسب شعيباً عليه السلام داعياً لهم إلى توحيد الله وعبادته، ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز، وهم أصحاب الأيكة.**

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ **أي: معجزة تدل على صدق ما أدعوكم إليه، قيل: إن البينة مجيء شعيب، وقيل: قد كانت لهم هذه الآية إلا أنها لم تذكر، وليست كل الآيات مذكورة في القرآن. ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، فقال:**

﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ **أي: أتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به، والوزن الذي تزنون به، ولا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم إياها، وكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل.**

﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ **أي: لا تعملوا بالمعاصي بعد إصلاحها ببعثة الرسل، وكل نبي بعث إلى قوم فهو صلاحهم.**

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ **أي: ما أمرتكم به من إخلاص العبادة لله وإيفاء الناس حقوقهم، وترك الفساد في الأرض خير لكم في دنياكم وأخراكم، إن كنتم مصدقين لي في قولي، عاملين بشرع الله.**

*** ثم نهاهم شعيب عن قطع الطريق الحسي والمعنوي، بقوله:**

(٨٦)، (٨٧) ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ

۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ
كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ
إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ
﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟
هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ
كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا
بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا
مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا
ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ **أي: لا تجلسوا بكل طريق تخوفون من آمن بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم، وتصدون عن سبيل الله القويم من صدق به ﷺ، وعمل صالحاً، قال ابن عباس: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه، ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه على نحو ما كانت تفعله قريش مع رسول الله ﷺ.**

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ **أي: تريدون أن تكون سبيل الله معوجة غير مستقيمة وتميلونها اتباعاً لأهوائكم، وتنفرون الناس عن اتباعها.**

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم قلة مستضعفين فأصبحتم كثرة أعزة، فاشكروا الله على نعمته.**

﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ **هذا تهديد لهم، أي: انظروا ما حل بالأمم السابقة والقرون الماضية حين عصوا الرسل كيف انتقم الله منهم، وماذا حل بهم، واعتبروا بهم.**

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ **أي: إذا كان جماعة منكم صدقوني فيما جئتهم به وجماعة لم يصدقون بذلك، فانتظروا حتى يفصل الله بحكمه العادل بيننا وهو خير الفاصلين، وهذا الكلام من أحسن ما تلطف به في المحاورة إذ برر المتحقق في صورة المشكوك وهو من بارع التقسيم فيكون وعداً للمؤمنين بالنصر، ووعيداً للكافرين بالعقوبة والخسار.**

※ ثم أخبر تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً ومن معه من المؤمنين:

﴿٨٨﴾، ﴿٨٩﴾ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۞ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ **أي: قال أشراف وسادة قومه المستكبرين عن الإيمان بالله ورسله.**

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ **أقسموا على أحد الأمرين: إما إخراج شعيب عليه السلام وأتباعه، وإما العودة إلى ملتهم، أي: إلى الكفر، والمعنى: لنخرجنك يا شعيب ومن آمن بك من بين أظهرنا أو لترجعن أنت وهم إلى ديننا. قال شعيب مجيباً لهم:**

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ **أي: قال لهم شعيب عليه السلام متعجباً من قولهم: أتجبروننا على الخروج من الوطن أو العودة في ملتكم ولو كنا كارهين لذلك لعلمنا ببطلانها؟ والاستفهام للإنكار.**

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ﴾ **أي: وقال شعيب لقومه**

مستدركاً؛ قد اختلقنا على الله الكذب إن عدنا إلى دينكم بعد أن أنقذنا الله منه بالإيمان وبصرنا بالهدى، وهذا تيئيس للكفار من العودة إلى دينهم.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ أي: لا ينبغي ولا يصح لنا أن نعود إلى ملتكم ودينكم إلا إذا شاء الله لنا الانتكاس والخذلان فيمضي فينا قضاؤه.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: وسع علمه كل الأشياء، فيعلم ما يصلح للعباد.

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ على الله وحده اعتمادنا، وهو الكافي لمن توكل عليه، ثم دعوا الله ﷻ قائلين:

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ أي: ربنا احكم بيننا وبينهم بحكمك الحق الذي لا جور فيه ولا ظلم، وأنت خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً.

* ثم أخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق:

﴿٩٠﴾-﴿٩٢﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ * ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي: وقال الأشراف والسادة المكذبون الرافضون لدعوة التوحيد إمعاناً في العتو والتمرد، محذرين من اتباع شعيب: إذا اتبعتم شعيباً وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه إنكم إذاً لهالكون لاستبدالكم الضلالة بالهدى، فلهذا عقبه بقوله:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي: فأخذت قوم شعيب الزلزلة العظيمة فأصبحوا في دارهم صرعى ميتين، جاثمين على الركب.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ أي: أهلك الله المكذبين كأنهم لم يقيموا في ديارهم منعمين.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الذين كذبوا شعيباً كأنهم لم يقيموا في ديارهم، ولم يتمتعوا فيها، حيث استؤصلوا فلم يبق لهم أثر، وهذا إخبار عنهم بالخسار بعد الهلاك والدمار.

* فما كان من شعيب عليه السلام بعد هذا البلاغ والنصح إلا الإعراض عنهم:

﴿٩٣﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ فأعرض شعيب عنهم حينما أيقن بحلول العذاب بهم، وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم بالدخول في دين الله والإقلاع عما أنتم عليه، قاله تأسفاً لشدة حزنه عليهم؛ لأنهم لم يتبعوا نصحه.

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ أي: كيف أحزن على قوم لا خير فيهم، جحدوا وحدانية الله، وكذبوا رسوله، وأتوجع لهلاكهم؟

* لما ذكر تعالى قصص الأنبياء نوح، هود، وصالح، ولوط، وشعيب وما حل بأقوامهم من العذاب والنكال حين لم تجد فيهم الموعظة، ذكر تعالى هنا سنته الإلهية في الانتقام ممن كذب أنبياءه وذلك بالتدرج معهم بالبأساء والضراء، ثم بالنعمة والرخاء، ثم بالبطش بهم إن لم يؤمنوا، قال تعالى:

﴿٩٤﴾، ﴿٩٥﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ في الكلام حذف، أي: وما أرسلنا في قرية من نبي يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عما هم فيه من الشرك، فكذبه أهلها.

﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ إلا ابتليناهم وعاقبناهم بالبؤس والفقر، والمرض وسوء الحال.

﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ رجاء أن يتضرعوا ويخضعوا ويتوبوا من ذنوبهم، ويحطوا أردية الكبر، ويرجعوا إلى الحق.

وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ
يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا
بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم
بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ
فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ
لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ
أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ
﴿١٠٠﴾ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ
رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن
قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا
لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾
ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ
فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٠٣﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

١٦٣

﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ **ثم إذا لم يفد فيهم، واستمر استكبارهم وزاد طغيانهم، أبدلناهم بالفقر والمرض، الغنى والصحة، فأصبحوا في عافية في أبدانهم، وسعة ورخاء في أموالهم.**

﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ **حتى كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم، إمهالاً لهم، ولعلهم يشكرون.**

﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ **أي: أبطرتهم النعمة وأشروا فقالوا كفراناً لها: هذه عادة الدهر، وقد مس آباءنا مثل ذلك من المصائب ومن الرخاء، وليست بعقوبة من الله فلنبق على ديننا، وهذا من شدة عنادهم وقوة تمردهم وعتوهم، والغرض أن الله ابتلاهم بالسيئة لينيبوا إليه فما فعلوا، ثم بالحسنة ليشكروا فما فعلوا، فلم يبق إلا أن يأخذهم بالعذاب، ولهذا قال تعالى:**

﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ **أي: أخذناهم بالهلاك والعذاب فجأة وهم آمنون من حيث لا يدرون، ولا يخطر لهم الهلاك على بال.**

*** لما ذكر تعالى أن المكذبين للرسل يبتلون بالضراء موعظة وإنذاراً، وبالسراء استدراجاً ومكراً، ذكر أهل القرى وأحوالهم، فقال تعالى:**

(٩٦)-(٩٩) ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ **ولو أن أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا آمنوا بالله ورسله واتقوا الكفر والمعاصي، ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح.**

﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ **لوسعنا عليهم الخير من كل وجه، من المطر، والثمار، وقيل: فتحنا عليهم أبواب السماء والأرض بالرزق.**

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ **ولكن كذبوا الرسل ولم يؤمنوا ويتقوا، فعاقبناهم بالعقوبات والبلايا ونزع البركات، وكثرة الآفات بسوء كسبهم وكفرهم.**

﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ **الهمزة للإنكار، أي: أيظن هؤلاء المكذبون أنهم في منجاة ومأمن من عذاب الله، أن يأتيهم ليلاً وهم نائمون غافلون عنه؟**

﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ **أم هل أمن أهل القرى أن يأتيهم عذابنا ونكالنا نهاراً جهاراً وهم يلهثون ويشتغلون بأمور دنياهم كأنهم يلعبون؟ وخص تعالى هذين الوقتين بالذكر؛ لأن الإنسان يكون أغفل ما يكون فيهما، فمجيء العذاب فيها أفظع وأشد.**

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ **أي: أفأمن أهل القرى المكذبة مكر الله وإمهاله لهم واستدراجه بالنعمة حتى يهلكوا في غفلتهم؟ فإنه لا يأمن ذلك إلا القوم الهالكون، قال الحسن البصري: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق خائف وجل، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو مطمئن آمن. وفي هذه الآية تخويف بليغ، فإن العبد لا ينبغي أن يكون آمناً على ما معه من الإيمان،**

بل لا يزال خائفاً أن يُبتلى ببلية تسلب إيمانه، ولا يزال داعياً بالثبات، وأن يسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن. فإن العبد ولو بلغت به الحال ما بلغت لا يأمن على نفسه.

* لما قص تعالى على نبيه محمد ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وما كان من إهلاك الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج، وعلى ألسنة الرسل عليهم السلام، قال تعالى:

(١٠٠) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أي: أو لم يتضح ويتبين للذين يخلفون الأرض بعد هلاك أهلها الذين كانوا يعمرونها قبلهم بسبب معاصيهم فساروا سيرتهم، والمراد بها كفار مكة ومن حولهم.

﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: لو أردنا لأهلكناهم بسبب ذنوبهم كما أهلكنا من قبلهم، فإن هذه سنته في الأولين والآخرين، وقد علمتم ما حل بهم، أفما تحذرون أن يحل بكم ما حل بهم؟ فذلك ليس بممتنع علينا لو شئنا.

﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: ونختم على قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تذكيراً.

* لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما كان من إهلاك الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج وعلى ألسنة الرسل عليهم السلام، قال تعالى:

(١٠١)، (١٠٢) ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾.

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾ أي: تلك القرى المذكورة التي تقدم ذكرها، وهي قرى نوح وهود، وصالح ولوط، وشعيب، نذكر لك يا محمد بعض أخبارها وما حصل لأهلها من الخسف والرجفة، والرجم بالحجارة ليعتبر بذلك من يسمع، ولينزجر مما حدث من أهول.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: جاءتهم رسلنا بالمعجزات والحجج القاطعات على صدقهم.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل لتكذيبهم إياهم قبل مجيئهم بالمعجزات، وبعد مجيئهم بها، فحالهم واحد في العتو والضلال، فهم قد استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرين لا يرعوون مع تكرر المواعظ عليهم وتتابع الآيات، ولهذا قال:

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع الشديد المحكم، نطبع على قلوب الكافرين بمحمد ﷺ، فلا يكاد يؤثر فيهم النذر والآيات، وفيه تحذير للسامعين.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ أي: ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء للعهد.

﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أي: بل وجدناهم خارجين عن الطاعة والامتثال لأمر الله ﷻ، قال ابن كثير: والعهد الذي أخذه هو ما فطرهم عليه وأخذه عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم فخالفوه وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع.

(١٠٣) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي: ثم بعثنا من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وأرسلنا موسى بن عمران بالمعجزات الباهرات والحجج الساطعات.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: أرسلناه إلى فرعون ملك مصر في زمن موسى وقومه، فكفروا وجحدوا بها ظلماً وعناداً، فلم ينقادوا للحق.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: انظر يا محمد

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ
جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ
لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ
﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ
لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن
نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟
أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟
هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾

١٦٤

متبصراً ما آل إليه أمر المفسدين الظالمين، وكيف أغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه، وهذا أبلغ في النكال لأعداء الله، وأشفى لقلوب أولياء الله.

* ثم يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وإلجامه إياه بالحجة، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى:

﴿١٠٤﴾-﴿١٠٦﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وقال موسى لفرعون محاوراً مبلغاً: إني رسول إليك من الخالق العظيم، رب كل شيء وخالقه ومليكه، وجعل ذلك عنواناً لكلامه؛ لأن من كان مرسلاً من جهة من هو رب العالمين أجمعين، فهو حقيق بالقبول لما جاء به.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي: جدير بي وحق عليَّ أن لا أخبر عن الله إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: جئتكم بحجة قاطعة من الله تشهد على صدقي، فخل واترك سبيل بني إسرائيل وأطلقهم من أسرك وقهرك وخل سبيلهم لعبادة الله. ولما كان فرعون قد ادعى الربوبية فاتحه موسى بقوله: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لينبهه على الوصف الذي ادعاه وأنه فيه مبطل لا محق، ولما كان قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أردفهما بما يدل على صحتها وهو قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ولما قرر رسالته، فرع عليها تبليغ الحكم وهو قوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال فرعون لموسى: إن كنت جئت بآية من ربك كما تدعي فاحضرها عندي ليثبت بها صدقك في دعواك، قال ذلك على سبيل التعجيز لموسى.

* وهنا بدأ موسى عليه السلام، بإظهار الآيات والمعجزات ليراها فرعون وقومه، قال تعالى:

﴿١٠٧﴾، ﴿١٠٨﴾ ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: فألقى موسى عصاه، فتحولت حية ضخمة طويلة، فاغرة فاها مسرعة نحو فرعون وهم يشاهدونها، و﴿مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر لا متخيل.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي: أخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء كاللبن من غير برص آية لفرعون، فإذا ردها عادت إلى لونها الأول، كسائر بدنه، قال ابن عباس: كان ليده نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض.

﴿١٠٩﴾، ﴿١١٠﴾ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: قال الأشراف منهم وهم أصحاب مشورته حين بهرهم ما رأوا من الآيات، ولم يؤمنوا، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة إن هذا عالم بالسحر ماهر فيه، وقولهم: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بالغ الغاية في علم السحر

وخدعه وفنونه، ثم خوفوا ضعفاء الأحلام وسفهاء العقول بأن موسى:

﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ﴾ أي: يريد أن يجليكم جميعاً من أرض مصر بسحره.

﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ أي: قال فرعون بأي شيء تأمرون أن نفعل في أمره؟ وبأي شيء تشيرونه فيه؟ وقيل: هو من قول الملأ، أي قالوا لفرعون وحده: فماذا تأمرون، كما يخاطب الجبارون والرؤساء: ما ترون في كذا.

* فلما تشاوروا في شأنه وائتمروا بما فيه، اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى:

﴿١١١﴾، ﴿١١٢﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي: قال من حضر مناظرة موسى من سادة قوم فرعون وكبرائهم حين استشارهم وطلب ما عندهم من الرأي: أخر موسى وأخاه هارون حتى ترى رأيك فيهما، كأنه هم بقتله فقالوا أخر قتله واحبسه ولا تقتله ليتبين سحره عند الخلق، وأرسل في أنحاء البلاد من يجمع لك السحرة.

﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ أي: يأتوك بكل ساحر مثله ماهر في السحر، وكان رؤوساء السحرة بأقصى صعيد مصر.

* ثم إن فرعون بعث إلى السحرة وأرسل إليهم، وطلب أن يُجمعوا له فحضروا، قال تعالى:

﴿١١٣﴾، ﴿١١٤﴾ ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ أي: فلما جاء السحرة فرعون قالوا له: إن لنا لأجراً عظيماً إن نحن غلبنا موسى وهزمناه وأبطلنا سحره؟

﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ قال فرعون: نعم لكم الأجر، وأزيدكم على ذلك بأن أجعلكم من المقربين، ومن أعز خاصتي وأهل مشورتي، زادهم على ما طلبوا ليجتهدوا ويبذلوا وسعهم وطاقتهم في مغالبة موسى.

* فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم، قال سحرة فرعون لموسى على سبيل التكبر وعدم المبالاة:

﴿١١٥﴾، ﴿١١٦﴾ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ * قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ أي: اختر إما أن تلقي عصاك أولاً، أو نلقي نحن أولاً، وتخييرهم إياه أدب حسن كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يخوضوا في الجدال، والأظهر أنهم قالوا ذلك من باب الاعتزاز بالنفس وتوهم الغلبة وعدم الاكتراث بأمر موسى، كما يقول المعتد بنفسه: أبدأ أو تبدأ.

﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون لأجل أن يرى الناس ما معهم وما مع موسى، غير مبال بهم ولا هائب لما جاءوا به، فلما ألقوا العصي والحبال سحروا أعين الناس وخيلوا إليهم ما لا حقيقة له.

﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ أي: أفزعوا الناس وأرهبوهم إرهاباً شديداً، حيث خيلوها حيات تسعى، وجاؤوا بسحر عظيم لم يوجد له نظير من السحر يهابه من رآه، وقيل: صف خمسة عشر ألف ساحر مع كل ساحر حباله وعصيه وفرعون في مجلسه مع أشراف مملكته فكان أول من اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كل رجل منهم ما في يديه من العصي والحبال فإذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً.

* ثم يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم:

﴿١١٧﴾-﴿١٢٢﴾ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ * فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ * وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ * قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ
مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ
﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ
أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ
إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا
وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ
وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ
أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ
لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾
قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ
عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ
فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ
بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾ أي: أوحى الله إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل، وأمره تعالى أن يلقي عصاه، فألقاها؛ فإذا هي تبتلع بسرعة ما يزورونه من الكذب، لا تمر بشيء من حبالهم وخشبهم التي ألقوها إلا التقمته.

﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: ثبت وظهر الحق لمن شهده وحضره، في أمر موسى، وأنه رسول الله يدعو إلى الحق، وبطل إفك السحر وكذبه ومخايله.

﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ أي: فغلب جميع سحرة فرعون وقومه في ذلك المجمع العظيم وصاروا ذليلين مقهورين قد تلاشى سحرهم، ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أي: خروا ساجدين كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم، معلنين إيمانهم برب العالمين وهو رب موسى وهارون، وهو الذي يجب أن تصرف له العبادة وحده دون من سواه، لأن الحق بهرهم لما عاينوا من عظيم قدرة الله، فكانوا أول النهار كفاراً سحرة، وفي آخره شهداء بررة.

* ولما وقع الحق وظهر وبان، توعد فرعون السحرة لما آمنوا بموسى:

﴿١٢٣﴾-﴿١٢٦﴾ ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ * قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾.

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾ أي: قال فرعون الجبار للسحرة متهدداً على الإيمان: صدقتم بموسى قبل أن آذن لكم بالإيمان به؟ والمقصود بالجملة التوبيخ؛ فقد كان فرعون حاكماً مستبداً على الأبدان والأقوال قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ﴾ أي: إن إيمانكم بالله وتصديقكم لموسى وإقراركم بنبوته لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا إلى الميعاد لتخرجوا منها القبط وتستولوا عليها، وتسكنوا بني إسرائيل فيستأثرون بخيراتها، قال هذا تمويها على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان.

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: فسوف تعلمون أيها السحرة ما يحل بكم من العذاب والنكال، وهذا وعيد وتهديد ساقه بطريق الإجمال للتهويل، ثم عقبه بالتفصيل، فقال:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ أي: لأقطعن أيديكم وأرجلكم أيها السحرة من كل واحد منكم يده ورجله من خلاف، وهو أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى فيخالف بين العضوين في القطع.

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ ثم لأعلقنكم جميعاً على جذوع النخل، تنكيلاً لكم ولأمثالكم، من المفسدين في الأرض.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ قال السحرة لفرعون: قد تحققنا إنا إلى الله راجعون بالموت لا محالة فلا نخاف مما تتوعدنا به ولا نبالي بالموت، فتوعدوه بعذاب الله في الآخرة، لما توعدهم بعذاب الدنيا.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وما تكره منا ولا تعيب علينا إلا إيماننا بالله وآياته، أرادوا وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها والشرف العظيم والخير الكامل وهو الإيمان، ثم دعوا الله وفزعوا إليه أن يثبتهم ويصبرهم، فقالوا:

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي: ربنا أفض علينا صبراً وثباتاً يغمرنا عند تعذيب فرعون إيانا، وتوفنا على ملة الإسلام غير مفتونين ولا مبدلين.

* ثم استنكر الأشراف من قوم فرعون والكبراء الأمر، فحرضوا فرعون على موسى ومن معه:

﴿١٢٧﴾-﴿١٢٩﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ۞ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۞ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ أي: قال الأشراف والكبراء من قوم فرعون لفرعون: أتترك موسى وجماعته ليفسدوا في أرض مصر بتغيير دينهم بعبادة إله واحد لا شريك له، وترك عبادتك عبادة آلهتك، وفي هذا إغراء لفرعون بموسى وقومه، وتحريض له على قتلهم وتعذيبهم.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ أي: قال فرعون مجيباً للملأ ومثبتاً لقلوبهم على الكفر: سنقتل أبناءهم الذكور، ونستبقي نساءهم للاستخدام كما كنا نفعل بهم ذلك، وإنا عالون فوقهم بقهر الملك والسلطان ما شئنا أن نفعله بهم فعلناه. ولما بلغ موسى ما قاله فرعون:

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ قال موسى لقومه تسلية لهم حين تضجروا وجزعوا مما سمعوا: اعتمدوا واستعينوا بالله على فرعون وقومه فيما ينالكم من أذاهم، واصبروا على حكم الله، ثم أخبرهم.

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: الأرض كلها لله يعطيها من أراد من عباده، أطمعهم في أن يورثهم الله أرض مصر، ثم بشرهم:

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: النتيجة المحمودة لمن اتقى الله، ففعل أوامره واجتنب نواهيه.

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أي: قال قوم موسى من بني إسرائيل لنبيهم موسى: ابتلينا وأوذينا من قبل أن تأتينا بالرسالة بقتل الأبناء والأعمال الشاقة، ومن بعد ما جئتنا بها، بإعادة القتل علينا والخوف على أنفسنا وأولادنا وأهلنا، يعنون أن المحنة لم تفارقهم فهم في العذاب والبلاء قبل بعثة موسى وبعد بعثته.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ قال موسى مرجياً لهم الفرج والخلاص من شرهم: لعل ربكم أن يهلك فرعون وقومه ويستخلفكم في أرضهم بعد هلاكهم، وينظر كيف تعملون بعد استخلافكم هل تشكرون أم تكفرون، والغرض تحريضهم على طاعة الله، وتصريح بما رمز إليه سابقاً من أن الأرض لله. وقد حقق الله رجاء موسى فأغرق فرعون وملك بني إسرائيل أرض مصر، وقد سلك موسى طريق الأدب مع الله وساق الكلام مساق الرجاء.

* لما كانت قصة الكليم مع الطاغية فرعون مملوءة بالعبر والعظات لذلك استطردت الآيات في الحديث عنهم، فتحدثت عما حل بقوم فرعون من البلايا والنكبات، وما ابتلاهم الله به من القحط والجدب، والطوفان، والجراد وغير ذلك من المصائب نتيجة

فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ
يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ
وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ
مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا
عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ
ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ
﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا
عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ
وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ
ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمۡنَا
مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا
غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ
مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ
رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا
مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

١٦٦

إصرارهم على الكفر وتكذيبهم بآيات الله، ثم ذكرت أنــواع النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل ومن أعظمها إهــلاك عدوهم وقطعهــم البحر مع السلامة والأمان، قال تعالى:

﴿١٣٠﴾، ﴿١٣١﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۞ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ **الـلام موطئـة لقسـم محذوف، أي: والله لقد ابتلينا واختبرنا فرعون وأتباعه بالجدب والقحط.**

﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ **أي: وابتليناهم بإذهاب الثمار وكثرة الآفـات والعاهات، بسبب عدم نزول المطر. قال المفسرون: كانــت النخلة لا تحمل إلا تمرة واحدة.**

﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ **لعلهــم يتعظــون وتــرق قلوبهــم، وينزجــروا عــن ضلالاتهم، ويفزعوا إلى ربهم بالتوبــة، فإن الشــدة تجلب الإنابة والخشية ورقة القلب. ثم بين تعالى أنهــم مع تلك المحن والشدائد لم يزدادوا إلا تمرداً وكفراً، فقال:**

﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾ **إذا جــاء فرعون وقومه الخصب والــرزق والرخاء، قالوا هذه لنــا، ونحــن مســتحقون لذلك فلم يشكروا الله عليها.**

﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ **وإذا جاءهم الجدب والشــدة تشــاءموا بموســى ومن معــه من المؤمنــين، وقالوا: هذا بشؤمهم. قال تعالى رداً عليهم:**

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ **أي: إن مــا يصيبهم مــن خير أو شر بتقدير وقضاء الله وقدره وليس بشؤم موســى، والأمــر من قبــل لله، ليس شؤمهم إلا من قبله وحكمه.**

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ **ولكن أكثــر قوم فرعون لا يعلمون أن ما لحقهم من القحط والشدائد من عند الله بســبب معاصيهم وكفرهم، لا من عند موسى.**

*** واستمر قوم فرعون في طغيانهم وعتوهم، مبينين لموسى أنهم لا يزالون، ولا يزولون عن باطلهم، قال تعالى:**

﴿١٣٢﴾-﴿١٣٥﴾ ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ۞ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۞ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾.

﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ **أي: قال قوم فرعون لموســى: قد تقرر عندنا أنك ســاحر، فمهــا جئت بآية جزمنا أنها ســحر، فلا نؤمن لك، ولا نصدق، فإنك تريد أن تصرفنا عما نحن عليه من دين، قال الزمخشري: فإن قلت كيف ســموها آية ثم قال: ﴿لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا﴾ قلت: ما ســموها آية لاعتقادهم أنها آية وإنما قصدوا بذلك الاســتهزاء والتلهي، قال تعالى:**

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ **أي: أرســلنا عليهم المطر الشــديد المتلف للزروع والثمار.**

﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ وأرسلنا عليهم كذلك الجراد فأكل زروعهم وثمارهم وأبوابهم وسقوفهم وثيابهم، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء.

﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ وأرسلنا عليهم السوس حتى نخر حبوبهم وتتبع ما تركه الجراد، وقيل: هو القمل المشهور كان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيمصه.

﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ جمع ضفدع، وهو الحيوان المعروف الذي يكون في الماء، حتى ملأت بيوتهم وطعامهم، وإذا تكلم أحدهم وثبت الضفدع إلى فمه.

﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي: صارت أنهارهم وآبارهم دماً، فما يستقون من بئر ولا نهر إلا وجدوه دماً، ولم يجدوا ماء صالحاً للشرب.

﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي: هذه علامات ظاهرات مبينات لا يقدر عليها غير الله تعالى، فيها عبر وعظات ومع ذلك استكبروا عن الإيمان بالله.

﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: استكبروا عن الإيمان بها لغلوهم في الإجرام والفسق عتواً وتمرداً.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ أي: وحين نزل العذاب المذكور الذي أرسله الله على فرعون وقومه.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: فزعوا إلى موسى وقالوا: ادع لنا ربك ليكشف عنا البلاء بما أوحى به إليك من رفع العذاب بالتوبة، أو بما اختصك به من النبوة.

﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ اللام لام القسم، أي: والله لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه يا موسى لنصدقن بما جئت به ولنطلقن سراح بني إسرائيل، فلا نمنعهم من أن يذهبوا حيث شاؤوا وقد كانوا يستخدمونهم في أرذل الأعمال.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ أي: فلما كشف الله عنهم العذاب بدعاء موسى إلى حد من الزمان هم واصلو إليه ولا بد، هو وقت الغرق.

﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ إذا هم ينقضون عهودهم ويصرون على الكفر والضلال.

* ثم يخبر تعالى عن انتقامه الشديد منهم، بعد أن طغوا وبغوا، وتمردوا، فقال تعالى:

﴿١٣٦﴾، ﴿١٣٧﴾ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فانتقمنا منهم حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم بالإغراق في البحر.

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي: بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عنها وعدم مبالاتهم بها، وتلك الغفلة هي سبب التكذيب.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ أي: وأورثنا بني إسرائيل الذين كانوا يستذلون بالخدمة وبالقتل أرض الشام وملكناهم جميع جهاتها ونواحيها: مشارقها ومغاربها. قيل: لم يذكر الشمال والجنوب في القرآن لقلة الخير وفقر الأرض.

﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالخيرات وكثرة الثمرات، والأنهار والأشجار.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: تم وعد الله الصادق بالتمكين لبني إسرائيل في الأرض ونصره إياهم على عدوهم، بسبب تمسكهم بدينهم وصبرهم على أذى فرعون وقومه.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ أي: خربنا وأهلكنا القصور والعمارات التي كان يشيدها فرعون وجماعته، وما كانوا يعرشون من الجنات والمزارع.

* وإلى هنا تنتهي قصة فرعون وقومه، ويبتدئ الحديث عن بني إسرائيل وما أغدق الله عليهم من النعم الجسام، وأراهم من الآيات العظام، تسلية لرسوله ﷺ مما رآه منهم، قال تعالى:

﴿١٣٨﴾، ﴿١٣٩﴾ ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ
عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا
لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ
مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ
أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم
مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ
أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ
مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ
وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ
مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ
سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ
رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ
ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا
تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ
أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ أي: عبرنا ببني إسرائيل البحر، وهو بحر القلزم «البحر الأحمر» بعدما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه، وأهلكهم الله، وبنو إسرائيل ينظرون.

﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ﴾ أي: فمروا على قوم يقيمون على عبادة أصنام لهم.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ قال بنو إسرائيل من سفاهتهم وجهلهم: أجعل لنا يا موسى صنماً نعبده ونتخذه إلهاً كما لهم أصنام يعبدونها، الظاهر أنهم استحسنوا ما رأوا فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى وفي جملة ما يتقرب به إلى الله.

﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ أي: قال موسى لهم: إنكم قوم تجهلون عظمة الله، ولا تعلمون أن العبادة لا تنبغي إلا لله الواحد القهار، وهو سبحانه منزه من الشريك والنظير، وتعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى، والمعجزة الكبرى فوصفهم بالجهل المطلق وأكده؛ لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ أي: قال لهم موسى: إن هؤلاء المقيمين على هذه الأصنام هالك مدمر ما هم فيه من الدين الباطل، وهو عبادة الأصنام.

﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: باطل عملهم، مضمحل بالكلية؛ لأنهم عبدوا ما لا يستحق العبادة.

* ثم ذكرهم موسى عليه السلام نعم الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، فقال:

(١٤٠)، (١٤١) ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾.

﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: قال موسى لقومه: أأطلب لكم معبوداً غير الله المستحق للعبادة، والحال أن الله فضلكم على غيركم من عالمي دهركم وزمانكم بكثرة الأنبياء فيكم، وإهلاك عدوكم وماخصكم به من الآيات، فيقتضي أن تقابلوا فضله وتفضيله بالشكر، وذلك بإفراده وحده بالعبادة، والكفر بما يعبد من دونه، ثم ذكرهم ما امتن الله به عليهم من النعم الجليلة، فقال:

﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل النعم التي سلفت مني إليكم؛ حين أنجيناكم من قوم فرعون يذيقونكم أفظع أنواع العذاب وأسوأه، ثم فسره بقوله:

﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ أي: يذبحون الذكور، ويستبقون الإناث لامتهانهن في الخدمة، وفي هذا العذاب اختبار وابتلاء من الله لكم عظيم، فنجاكم منه أفلا تشكرونه؟

* ثم ذكر ﷻ ما كرم الله به موسى عليه السلام وشرفه، فقال:

(١٤٢) ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ أي: وواعد الله ﷻ موسى لمناجاته بعد مضي ثلاثين ليلة، ثم زاده في الأجل بعد ذلك عشر ليال،

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي
فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا
لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ
شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ
دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا
وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ
ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ١٤٧ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ
عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ
وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨
وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن
لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩

١٦٨

فتمت المناجاة بعد أربعين ليلة، وقد أجمل ذكر الأربعين في البقرة وفصلها هنا.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ وقال موسى لأخيه هارون حين أراد المضي لمناجاة ربه كن خليفتي في قومي إلى أن أرجع.

﴿وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ وأصلح أمر بني إسرائيل واحملهم على طاعة الله وعبادته، وارفق بهم وتفقد أحوالهم، ولا تسلك طريق الذين يفسدون في الأرض بمعصيتهم لله.

* ثم ذكر ﷻ ما جرى لموسى كليم الله عندما جاء إلى الطور، قال تعالى:

﴿١٤٣﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ ولما جاء موسى في الوقت المحدد، وهو تمام أربعين ليلة، وكلمه ربه من غير واسطة بما كلمه من وحيه وأمره ونهيه، طمع في رؤية الله فطلب النظر إليه.

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ أي: أرني ذاتك المقدسة أنظر إليها، سأله النظر اشتياقاً إلى رؤية ربه لما أسمعه كلامه.

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾ أي: قال الله تعالى لموسى: لن تستطيع رؤيتي في الدنيا، فإنه لا طاقة لك بذلك، ولكن سأتجلى لما هو أقوى منك وهو الجبل فإن ثبت الجبل مكانه ولم يتزلزل فسوف تراني، أي تثبت لرؤيتي وإلا فلا طاقة لك.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾ أي: فلما ظهر من نور الله قدر نصف أنملة الخنصر اندك الجبل وتفتت وسقط موسى مغشياً عليه من هول ما رأى، قال ابن عباس: ما تجلى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر فصار ترابا وخر موسى مغشياً عليه، وفي الحديث: «فساخ الجبل» [رواه الترمذي].

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: فلما أفاق من غشيته قال تنزيها لك يا رب، وتبرئه أن يراك أحد في الدنيا: تبت إليك من سؤالي رؤيتك في الدنيا، وأنا أول المؤمنين بعظمتك وجلالك.

* ثم ذكر تعالى ما اختص به موسى عليه السلام بنوعين عظيمين من أنواع الإكرام، وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة، فقال:

﴿١٤٤﴾، ﴿١٤٥﴾ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ أي: قال الله يا موسى: إني اخترتك على أهل زمانك بالرسالة الإلهية، وبتكليمي إياك دون واسطة.

﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: خذ ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة بانشراح صدر، وتلقه بالقبول والانقياد، واشكر ربك على ما أعطاك من جلائل النعم، والآية مسوقة لتسليته عليه السلام من عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية، كأنه قيل: إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم أعط أحداً من العالمين فاغتنمها وثابر على شكرها.

﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: كتبنا لموسى في التوراة من كل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في دينهم

ودنياهم من المواعظ وتفصيل الأحكام مبينة للحلال والحرام.

﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: ليتعظوا بها ويزدجروا وتفصيلاً لكل التكاليف الشرعية.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: خذ التوراة بجد واجتهاد شأن أولي العزم، وأمر بني إسرائيل بالحث على اختيار الأفضل كالأخذ بالعزائم دون الرخص فالعفو أفضل من القصاص، والصبر أفضل من الانتصار، قال ابن عباس: أمر موسى أن يأخذها بأشد مما أمر به قومه.

﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: سترون منازل الفاسقين فرعون وقومه كيف أقفرت عنهم، ودمروا لفسقهم لتعتبروا فلا تكونوا مثلهم، فإن رؤيتها وهي خالية عن أهلها موجبة للاعتبار والانزجار.

* ثم ذكر تعالى أن الجزاء من جنس العمل، فقال:

﴿١٤٦﴾، ﴿١٤٧﴾ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: سأمنع المتكبرين عن فهم آياتي وحججي فلا يتفكرون ولا يتدبرون بما فيها، واطمس على قلوبهم عقوبة لهم على تكبرهم، وفيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين يصرفون عن آيات الله لتكبرهم وكفرهم بها لئلَّا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم.

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي: وإن يشاهد هؤلاء المتكبرون عن الإيمان كل آية قرآنية من الآيات المنزلة عليهم، أو يروا كل معجزة ربانية لا يصدقوا بها لإعراضهم ومحادتهم لله ورسوله.

﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: وإن يروا طريق الهدى والفلاح لا يسلكوه.

﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: وإن يروا طريق الضلال والفساد سلكوه واختاروه لأنفسهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي: ذلك الانحراف والصرف عن هدي الله وشرعه بسبب تكذيبهم بآيات الله، وعدم الإيمان بها، وغفلتهم عن الآيات التي بها سعادتهم حيث لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي: جحدوا بما أنزل الله وحججه العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا، وكذبوا بلقاء الله في الآخرة، أي لم يؤمنوا بالبعث بعد الموت.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت أعمالهم الخيرية التي عملوها في الدنيا من إحسان وصلة رحم وصدقة وأمثالها، وذهب ثوابها لعدم الإيمان بالله والتصديق بجزائه.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: هل يثابون أو يعاقبون إلا بما عملوا في الدنيا من الكفر والمعاصي، وهو الخلود في النار.

* يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري، فقال:

﴿١٤٨﴾، ﴿١٤٩﴾ ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ واتخذ قوم موسى من بعد ما فارقهم ماضياً لمناجاة ربه حين ذهابه إلى الطور معبوداً من ذهبهم عجلاً جسداً بلا روح، له صوت، وقد احتال بإدخال الريح فيه حتى صار يسمع له خوار، وهو صوت كصوت البقر.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي: كيف عبدوا العجل واتخذوه إلهاً مع أنه ليس فيه شيء من صفات الخالق الرازق، فإنه لا يملك قدرة الكلام، ولا قدرة هدايتهم إلى سبيل السعادة، فكيف يتخذ إلهاً؟

﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي: عبدوا العجل واتخذوه إلهاً وأقدموا على هذا المنكر، فكانوا ظالمين لأنفسهم حيث وضعوا الأشياء في غير موضعها، وتكرير لفظ ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ لمزيد التشنيع عليهم.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ﴾ أي: ولما ندم الذين عبدوا العجل من دون الله على جنايتهم، واشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل بعد أن رجع موسى إليهم وأخبرهم بضلالهم، وتبينوا ضلالهم وبعدهم عن دين الله تبيناً جلياً كأنهم أبصروه بعيونهم.

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ أي: لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته ويتوب علينا:

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: لنكونن من الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء وتضرع إلى الله ﷻ.

* لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، وما أغدق الله عليهم من النعم، وما قابلوها به من الجحود والعصيان، وقد ذكرت الآيات ما وقع من موسى عليه السلام بعد رجوعه، فقال تعالى:

﴿١٥٠﴾، ﴿١٥١﴾ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ أي: ولما رجع موسى من المناجاة وقد اشتد غضبه وأسفه مما فعله قومه من بني إسرائيل من عبادة العجل؛ لأن الله قد أخبره أنه قد فُتن قومه، وأن السامري قد أضلهم.

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي: قال موسى ذاماً قومه: بئس ما فعلتموه بعد غيبتي حيث عبدتم العجل.

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي: استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدر من الله ﷻ، والاستفهام للإنكار.

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ أي: طرح الألواح لما عراه من شدة الغضب، وفرط الضجر غضباً لله من عبادة العجل، وأخذ بشعر رأس أخيه هارون يجره إليه ظناً منه أنه قصر في كفهم عن ذلك، وكان عليه السلام شديد الغضب لله سبحانه.

﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾ قال هارون لموسى مستعطفاً مترفقاً: يا ابن أمي- وهذا ترقيق لأخيه، بذكر الأم وحدها، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه -: إن القوم استذلوني وقهروني وقاربوا قتلي حين نهيتهم عن ذلك، فأنا لم أقصر في نصحهم.

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تسيء إليّ حتى يُسرَّ الأعداء بي ويشمتوا بإهانتك إليّ، ولا تجعلني في غضبك مع القوم الذين خالفوا أمرك وعبدوا العجل، فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صنعه بأخيه، قبل أن يعلم براءته مما ظنه فيه التقصير.

الجُزْءُ التَّاسِعُ سُورَةُ الأَعْرَافِ

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى
مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ
يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ
وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ
غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ
بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾
وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا
هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ
قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ
رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى
مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

١٦٩

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لما تحقق لموسى عذر أخيه هارون عليه السلام من التقصير طلب عند ذلك المغفرة له أولاً ولأخيه هارون ثانياً، ليزيل عن أخيه ما خافه من الشماتة، فقال: رب اغفر لي غضبي، واغفر لأخي ما سبق بينه وبين بني إسرائيل، وأدخلنا في رحمتك الواسعة التي وسعت كل شيء، فإنك أرحم بنا من كل راحم، قال المفسرون: استغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه، ولأخيه مما عسى أن يكون فرط منه في حين الخلافة، وطلب ألا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة.

* ثم قال تعالى مبيناً حال أهل العجل الذين عبدوه:

﴿١٥٢﴾، ﴿١٥٣﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ

ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ۞ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: إن الذين عبدوا العجل وهو ذكر البقر واتخذوه إلهاً سيصيبهم غضب شديد من الله ﷻ، وينالهم في الدنيا الذل والهوان، أما الغضب الذي نال بني إسرائيل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً، وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا وكذلك خروجهم من ديارهم، وبه يصيرون أذلاء.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ أي: كما جازينا هؤلاء بإحلال الغضب والإذلال، كذلك نجزي كل من افترى الكذب على الله، قال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟﴾ أي: والذين عملوا القبائح والمعاصي، ثم تابوا ورجعوا إلى الله من بعد اقترافها وداوموا على إيمانهم وأخلصوا فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: إن ربك يا محمد من بعد تلك التوبة النصوح لغفور لذنوبهم رحيم بهم، وفي الآية إعلام بأن الذنوب وإن جلت وعظمت فإن عفو الله تعالى وكرمه أعظم وأجل.

فإن الله ﷻ لما ذكر عظم خبائثهم أولاً، أردفها بعظيم رحمته ليعلم أن الذنوب وإن جلت فالرحمة أعظم.

١٥٤ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي: لما سكن غضب موسى على أخيه وقومه، أخذ ألواح التوراة التي ألقاها على الأرض عند غضبه.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾.

قال ابن القيم: «لم يقل سبحانه: سكن؛ تنزيلاً للغضب منزلة الآمر الناهي الذي يقول لصاحبه افعل، لا تفعل، فهو مستجيب لداعي الغضب.

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي: وفيها نسخ فيها وكتب هداية للحق ورحمة للخلق بإرشادهم إلى ما فيه سعادة الدارين.

﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي: هذه الرحمة للذين يخافون الله، ويخشون عقابه على معاصيه.

۞ ثم شرع ﷻ في ذكر ما كان من موسى، ومن القوم الذين اختارهم، فقال تعالى:

١٥٥، ١٥٦ ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ أي: ولما تاب بنو إسرائيل وتراجعوا إلى رشدهم، اختار موسى منهم سبعين رجلاً ممن لم يعبدوا العجل، وخرج بهم إلى طور سيناء الذي وعده ربه الإتيان فيه للاعتذار والتوبة مما كان من سفهاء بني إسرائيل عن عبادة العجل.

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ فلما أتوا ذلك المكان، رجف بهم الجبل وصعقوا؛ لأنهم تجرؤوا على الله جرأة كبيرة، وأساؤوا الأدب معه، فلم يزل موسى عليه السلام يتضرع إلى الله ويتبتل:

﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾ أي: قال موسى عليه السلام على وجه التضرع والاستسلام لأمر الله: لو شئت يا رب أن تهلكنا قبل ذلك لفعلت، فإنا عبيدك وتحت قهرك، وأنت تفعل ما تشاء.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ أي: أتهلكنا وسائر بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء السبعون في قولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] والاستفهام استفهام استعطاف وتذلل وثقة برحمة الله، فكأنه يقول: لا تعذبنا يا الله بذنوب غيرنا.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ أي: ما هذه الفتنة التي حدثت لهم إلا محنتك وابتلاؤك تمتحن بها عبادك، تضل بهذه المحنة من تشاء إضلاله، وتهدي من تشاء هدايته.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾ أنت يا رب متولي أمورنا وناصرنا وحافظنا، فاغفر لنا ما قارفناه من المعاصي، وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ أي: أنت خير من صفح عن جرم، وستر عن ذنب، تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة.

﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ **هذا من جملة دعاء موسى عليه السلام، أي: واجعلنا ممن كتب له الصالحات من الأعمال، والعلم النافع، والرزق الواسع في الدنيا، وفي الآخرة حسنة؛ وهي ما أعد الله لأوليائه الصالحين من الثواب، والفصل الأول من الدعاء لدفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود.**

﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ **أي: إنا تبنا ورجعنا إليك من جميع ذنوبنا.**

(١٥٦) ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ **أي: قال الله تعالى لموسى: أما عذابي فأصيب به من أشاء من عبادي ممن كان شقياً، متعرضاً لأسبابه، وأما رحمتي فقد عمت خلقي كلهم، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها:**

﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ **أي: سأجعل هذه الرحمة خاصة في الآخرة بالذين يتقون الكفر والمعاصي، ويعطون زكاة أموالهم، ويصدقون بجميع الكتب والأنبياء.**

*** ثم بين سبحانه هؤلاء الذين كتب لهم هذه الرحمة، ببيان أوضح مما قبله وأصرح، فقال:**

(١٥٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

الجزء التاسع — سورة الأعراف

* وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ
إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي
وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ
فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ
عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ
ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ
عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ
ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧
قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي
لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ
فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ
وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨ وَمِن
قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩

١٧٠

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ **أي: هؤلاء الذين تنالهم الرحمة هم الذين يتبعون محمداً ﷺ النبي العربي الأمي، الذي لا يقرأ ولا يكتب، والسياق في أحوال بني إسرائيل، وأن الإيمان بالنبي محمد رسول الله شرط في دخولهم الإيمان، وإنما سماه رسولاً بالإضافة إلى الله تعالى، ونبياً بالإضافة إلى العباد.**

﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ **أي: الذي يجدون نعته وصفته في التوراة والإنجيل، قال ابن كثير: هذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثته وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم، ومن تلك الصفات أنه:**

﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ **يأمرهم بكل شيء مستحسن وينهاهم عن كل شيء قبيح.**

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ **ويحل لهم ما حرم عليهم من الأشياء الطيبة بشؤم ظلمهم، ويحرم عليهم ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير.**

﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ **أي: ومن وصفه: أن دينه سهل سمح ميسر، يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة التي تشبه الأغلال كقتل النفس في التوبة، وقطع موضع النجاسة من الثوب، والقصاص من القاتل عمداً كان القتل، أو خطأ وشبه ذلك.**

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ **أي: فالذين صدقوا**

بمحمد وعظموه ووقروه، ونصروا دينه على الأعداء.

﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: واتبعوا قرآنه المنير وشرعه المجيد، أولئك: هم الفائزون بما وعد الله به عباده المؤمنين من الخير والفلاح.

* ولما تقدم ذكر أوصاف رسول الله ﷺ المكتوبة في التوراة والإنجيل، أمره سبحانه أن يقول هذا القول المقتضي لعموم رسالته إلى الناس جميعاً، لا كما كان غيره من الرسل عليهم السلام فإنهم كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة، فقال تعالى:

(١٥٨) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ هذا بيان لعموم رسالته ﷺ لجميع الخلق، أي: قل يا محمد للناس إني رسول من عند الله إلى جميع أهل الأرض.

﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: المالك لجميع الكائنات الذي لا ينبغي أن تكون الألوهية والعبادة إلا له -جل ثناؤه-.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: لا رب ولا معبود بحق سواه، فهو الإله القادر على الإحياء والإفناء.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: صدقوا بآيات الله، وصدقوا برسوله المبعوث إلى جميع خلقه. الذي من صفاته أنه:

﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: آمنوا بالنبي الأمي محمد ﷺ، صاحب المعجزات الذي لا يقرأ ولا يكتب، المصدق بالكتب التي أنزلها الله عليه وعلى غيره من الأنبياء.

﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: اسلكوا طريقه واقتفوا أثره رجاء اهتدائكم إلى الطريق المستقيم.

* لما ذكر تعالى الذين تزلزلوا منهم في الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمتين: عبادة العجل، وطلب رؤية الله، ذكر أن منهم أمة موقنين ثابتين يهدون الناس بكلمة الحق ويدلونهم ويرشدونهم على الاستقامة.

(١٥٩) ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي: ومن بني إسرائيل جماعة مستقيمون على شريعة الله، يهدون الناس بكلمة الحق لا يجورون.

(١٦٠)-(١٦٢) ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أي: وفرقنا قوم موسى من بني إسرائيل فجعلناهم قبائل شتى، اثنتي عشرة قبيلة، من اثني عشر ولداً من أولاد يعقوب وهم الأسباط، وفرقناهم وميزناهم أسباطاً ليرجع أمر كل قبيلة إلى رئيسه يخفف أمرهم على موسى ولئلا يتحاسدوا فيقع الهرج، ولهذا فجر لهم اثنتي عشرة عيناً لئلا يتنازعوا ويقتتلوا على الماء.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ وأوحينا إلى موسى إذ طلب منه قومه السقيا حين استولى عليهم العطش في التيه.

﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ أي: فأوحى الله لموسى إجابة لطلبتهم أن ضرب بعصاك الحجر فضربه.

﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ فانفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عيناً من الماء، جارية سارحة بعدد الأسباط.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ قد عرف كل سبط وجماعة منهم عينهم الخاصة بهم، لا يدخل سبط على غيره في شربه.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ وجعلنا السحاب يسترهم من حر الشمس ويقيهم من أذاها، وكان الظل يسير بسيرهم ويسكن بإقامتهم.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ وأكرمناهم بطعام شهي

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

١٧١

هو: ﴿ٱلْمَنَّ﴾ وهي شيء حلو ينزل على الشجر يجمعونه ويأكلونه. ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ وهو طائر لذيذ اللحم يسمى السماني، فجمع الله لهم بين الظلال، والشراب، والطعام الطيب، من الحلوى واللحوم، على وجه الراحة والطمأنينة، كل ذلك من إفضال الله وإنعامه عليهم دون جهد منهم، وقيل لهم:

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: كلوا من هذا الشيء الطيب اللذيذ الذي رزقناكم إياه.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ في الكلام محذوف تقديره: فكفروا بهذه النعم الجليلة وملوه من طول المداومة عليه، وما ظلمونا بذلك، ولكن ظلموا أنفسهم حيث عرضوها بالكفر لعذاب الله حين لم يشكروا الله، ولم يقوموا بما أوجب عليهم.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي: واذكر يا محمد حين قلنا لأسلافهم؛ اسكنوا بيت المقدس وكلوا من مطاعمها وثمارها من أي جهة، ومن أي مكان شئتم منها.

﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ وقولوا حين دخولكم: يا الله حط عنا ذنوبنا واعف عنا.

﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ وادخلوا الباب خاضعين لله، مستكينين لعزته، شاكرين لنعمه.

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾ نمح عنكم جميع الذنوب التي سلفت منكم فلا نؤاخذكم عليها.

﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وسنزيد من أحسن عمله بامتثال أمر الله وطاعته وفوق الغفران دخول الجنان.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: غير الذين كفروا بالله منهم ما أمرهم الله به، بقولهم كلاماً لا يليق حيث قالوا بدل ﴿حِطَّةٌ﴾: حنطة في شعيرة، وبدل أن يدخلوا ساجدين خشوعاً لله، دخلوا يزحفون على أدبارهم سخرية واستهزاء بأوامر الله.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ فأرسلنا عليهم حين خالفوا أمر الله وعصوه عذاباً من السماء بسبب ظلمهم وعدوانهم، والمراد بالعذاب الطاعون؛ روي أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً.

﴿١٦٣﴾ ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ أي: واسأل يا محمد اليهود عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية التي كانت بقرب البحر وعلى شاطئه، ماذا حل بهم لما عصوا أمر الله واصطادوا يوم السبت؟ ألم يمسخهم الله قردة وخنازير؟ وهذه القرية هي أيلة وتقع على شاطئ بحر القلزم «البحر الأحمر».

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: يتجاوزون حد الله فيه وهو اصطيادهم يوم السبت؛ فابتلاهم الله وامتحنهم.

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي: حين كانت الحيتان جمع حوت «الأسماك» تأتيهم يوم السبت -وقد حرم عليهم الصيد فيه- كثيرة ظاهرة على وجه الماء.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي: وفي غير يوم السبت وهي سائر الأيام تذهب في البحر فلا يرون منها شيئاً، بل تغيب عنهم وتختفي ولا يرون منها شيئاً.

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي: مثل ذلك البلاء

العجيب نختبرهم ونمتحنهم بإظهار السمك لهم على وجه الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائها عنهم في اليوم الحلال بسبب فسقهم وانتهاكهم حرمات الله، روي أنها كانت في زمن داود عليه السلام وأن إبليس أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا الحياض فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الأحد ويحتالون في صيدها.

* يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحظور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، قال تعالى:

(١٦٤)-(١٦٦) ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: قالت جماعة من صلحاء أهل القرية لآخرين ممن كان يجتهد في وعظ المعتدين في السبت حين أيسوا من قبولهم للموعظة، وإقلاعهم عن المعصية؛ لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله، فلا فائدة في نهيكم إياهم؟

﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ قال الواعظون: إنما نعظهم وننهاهم لنعذر عند الله بقيامنا بواجب النصح والتذكير.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: ينزعون عن ما هم فيه من الإجرام، ويتقوا الله فينيبوا إلى طاعته ويتوبوا من معصيتهم إياه، وتعديهم الاعتداء في السبت.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ فلما تركت الطائفة التي اعتدت في يوم السبت ما ذُكرت به، واستمرت على غيها واعتدائها فيه، ولم تستجب لما وعظتها به الطائفة الواعظة، وما ذكرهم به صلحاؤهم ترك الناسي للشيء، وأعرضوا عن قبول النصيحة إعراضاً كلياً.

﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ أي: أنجى الله من العذاب الذين ينهون عن الفساد في الأرض.

﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ وأخذنا الظالمين العصاة الذين اعتدوا في السبت بعذاب شديد، بسبب فسقهم وعصيانهم لأمر الله.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ أي: فلما استعصوا وتكبروا عن ترك ما نهوا عنه من عدم الصيد في يوم السبت.

﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ أي: قال لهم الله: كونوا قردة أذلاء خاسئين؛ والمعنى: أنهم عذبوا أولاً بعذاب شديد، فلما لم يرتدعوا وتمادوا في الطغيان مسخوا قردة وخنازير، والحاصل أن أصحاب القرية انقسموا ثلاث فرق: فرقة عصت فحل بها العذاب، فرقة نهت ووعظت فنجاها الله من العذاب، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تقارف المعصية وقد سكت عنها القرآن، قال ابن عباس: ما أدري ما فعل بالفرقة الساكنة أنجوا أم هلكوا؟ قال عكرمة: فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا لأنهم كرهوا ما فعله أولئك، فكساني حلة.

(١٦٧) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: واذكر يا محمد حين أعلم ربك ليسلطن على اليهود إلى قيام الساعة من يذيقهم أسوأ العذاب بسبب عصيانهم ومخالفتهم أمر الله واحتيالهم على المحارم، وقد سلط الله عليهم على مر الأزمنة من يسومهم سوء العذاب، وقد فعل الله بهم ما أوعدهم به، فلا يزالون في ذل وإهانة تحت حكم غيرهم، ولا تقوم لهم راية ولا ينصر لهم علم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: سريع العقاب لمن عصاه واستحق عقابه، وغفور رحيم لمن أطاعه وتاب ورجع إليه.

* ثم ذكر تعالى عقوبته عليهم وما حل بهم من النكال، فقال تعالى:

(١٦٨)-(١٧٠) ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟

الجُزْءُ التَّاسِعُ سُورَةُ الأَعْرَافِ

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ
وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾
فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾
وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ
سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ
دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن
يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ
أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ
خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

١٧٢

ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ **أي: فرقنا بني إسرائيل في الأرض طوائف وفرقاً ففي كل بلدة فرقة منهم، وليس لهم إقليم يملكونه حتى لا تكون لهم شوكة، ولم تجتمع لهم كلمة. ثم بيّن تعالى أنهم ليسوا جميعاً فجاراً، بل فيهم الأخيار، وفيهم الأشرار، فقال:**

﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ **أي: منهم من آمن وهم قلة قليلة، ومنهم من انحط عن درجة الصلاح بالكفر والفسوق وهم الكثرة الغالبة.**

﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ **واختبرنا هؤلاء بالنعم والنقم، والشدة والرخاء لعلهم يرجعون عن الكفر والمعاصي.**

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ **أي: خلف من بعد ذلك الجيل الذي فيهم الصالح والطالح؛ خلف آخر لا خير فيهم ورثوا الكتاب وهو التوراة عن آبائهم يقرءونها ولا يعملون بها.**

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ **أي: يأخذون ذلك الشيء الدنيء من حطام الدنيا من حلال وحرام لشدة حرصهم وقوة نهمتهم، ويقولون متبجحين: سيغفر الله لنا ما فعلناه، وهذا اغترار منهم وكذب على الله.**

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ **أي: وإن يأت هؤلاء اليهود متاع زائل من أنواع الحرام يأخذوه، لا يبالون من حلال كان أو حرام، وهذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وإصرارهم على الذنوب.**

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ **الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: ألم يؤخذ عليهم العهد المؤكد في التوراة أن يقولوا الحق ولا يكذبوا على الله؟ فكيف يزعمون أنه سيغفر لهم مع إصرارهم على المعاصي وأكل الحرام؟**

﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ **في هذا أعظم التوبيخ لهم، أي: والحال أنهم درسوا ما في الكتاب وعرفوا ما فيه المعرفة التامة من الوعيد على قول الباطل والافتراء على الله.**

﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ **والآخرة خير للذين يتقون الله بترك الحرام، وفي هذا ترغيب في جزيل ثوابه، وتحذير من وبيل عقابه.**

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ **الاستفهام للإنكار، أي: أفلا ينزجرون ويعقلون؟ والمراد أنهم لو كانوا عقلاء لما آثروا الفانية على الباقية، ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ، فقال:**

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ **أي: يتمسكون في أمور دينهم بما أنزله الله ويعملون بما فيه من العقائد والأحكام ويحافظون على أداء الصلاة بحدودها ولا يضيعون أوقاتها.**

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ **أي: فإن الله يثيبهم على أعمالهم الصالحة، ولا يضيع أجرهم، بل يجزيهم على تمسكهم وصلاحهم أفضل وأكرم الجزاء.**

*** لما حكى تعالى عن بني إسرائيل عصيانهم وتمردهم على أوامر الله، حكى هنا ما عاقبهم به من اقتلاع جبل الطور وسحقهم به إن لم يعملوا بأحكام التوراة، قال تعالى:**

وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ
خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾
وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ
ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا
بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ
مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ
كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ
يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ
ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ
فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

﴿١٧١﴾ ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ **أي: اذكر يا محمد حين اقتلعنا جبل الطور ورفعناه فوق رؤوس بني إسرائيل.**

﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ **أي: كأنه لارتفاعه سحابة تظلهم.**

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ **وأيقنوا أنه ساقط عليهم إن لم يمتثلوا الأمر، قال المفسرون: روي أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها فرفع الله الطور على رؤوسهم، وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعنّ عليكم، فلما نظروا إلى الجبل خر كل واحد منهم ساجداً خوفاً من سقوطه، ثم قال تعالى:**

﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ **أي: وقلنا لهم خذوا التوراة بجد وعزيمة واجتهاد.**

﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ **واذكروا ما في كتابنا من العهود والمواثيق التي أخذناها عليكم بالعمل بما فيه، واعملوا به لتكونوا في سلك المتقين.**

*** يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، فقال تعالى:**

﴿١٧٢﴾، ﴿١٧٣﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ **أي: واذكر يا محمد إذ استخرج ربك أولاد آدم من أصلاب آبائهم، فقررهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض بذلك، قال ابن عباس: مسح الله ظهر آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة.**

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ **أي: وقررهم على ربوبيته ووحدانيته، فطرهم من أنه ربهم وخالقهم ومليكهم، فأقروا له بذلك والتزموه.**

﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ **أي: لئلّا تقولوا يوم الحساب إنا كنا عن هذا الميثاق والإقرار بالربوبية غافلين، ويزعمون أن حجة الله ما قامت عليهم.**

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ﴾ **أي: أو لئلّا تقولوا يوم القيامة اعتذاراً إنما أشرك آباءنا من قبلنا ونقضوا العهد، وكنا صغاراً من بعدهم، فاتبعنا منهاجهم واقتدينا بهم فنحن معذورون.**

﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ **أي: أفتعذبنا بإشراك من أشرك من آبائنا المضلين بعد اتباعنا واقتفائنا آثارهم.**

﴿١٧٤﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ **أي: وكما بينا الميثاق، ومثل ذلك التفصيل نبيّن الآيات ليتدبرها الناس وليرجعوا عما هم عليه من الإصرار على الباطل وتقليد الآباء، وينيبوا إلى ربهم وخالقهم.**

*** ثم ذكر تعالى تذكير أهل الكتاب بقصة مذكورة عندهم في التوراة، فقال تعالى:**

﴿١٧٥﴾-﴿١٧٧﴾ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى

﴿ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۞ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: واقصص يا محمد على أمتك خبر رجل من بني إسرائيل علمناه علم بعض كتب الله، فانسلخ من الآيات كما تنسلخ الحية من جلدها بأن كفر بها وأعرض عنها.

﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي: فلحقه الشيطان واستحوذ عليه حتى جعله في زمرة الضالين الراسخين في الغواية بعد أن كان من المهتدين الراشدين.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: لو شئنا لرفعناه بما آتيناه من الآيات إلى منزل العلماء الأبرار، ولكنه مال إلى الدنيا وسكن إليها، وآثر لذتها وشهواتها على الآخرة، واتبع ما تهواه نفسه فانحط أسفل سافلين.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ فمثل هذا الرجل في الخسة والدناءة، كمثل الكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث، وإن تركته على حاله لهث، وهو تمثيل بادي الروعة ظاهر البلاغة.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: هذا المثل السيِّء هو مثل لكل من كذب بآيات الله، وفيه تعريض باليهود، فقد أوتوا التوراة وعرفوا صفة النبي ﷺ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة.

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فاقصص يا محمد أخبار الأمم الماضية على أمتك مما أوحينا إليك، لعلهم يتدبرون فيها ويتعظون.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ أي: بئس مثلاً؛ مثل القوم المكذبين بآيات الله وأدلته، وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم، فإن وباله لا يتعداها.

* ثم بين تعالى أنه المتفرد بالهداية والإضلال، فقال:

١٧٨ ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: من هداه الله فهو السعيد الموفق، ومن أضله فهو الخائب الخاسر لا محالة، والغرض من الآية بيان أن الهداية والإضلال بيد الله.

* ثم أخبر تعالى أنه خلق خلقاً كثيراً من الجن والإنس للنار، فقال:

١٧٩ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي: خلقنا لجهنم ليكونوا حطباً لها خلقاً كثيراً كائناً من الجن والإنس، والمراد بهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة. ثم وصفهم فقال:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: لهم قلوب لا يفهمون بها الحق فلا يرجون ثواباً، ولا يخافون عقاباً.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ولهم أعين لا يبصرون بها دلائل قدرة الله بصر تدبر واعتبار.

﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ ولهم آذان لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ، وليس المراد نفي السمع والبصر بالكلية؛ وإنما المراد نفيها عما ينفعها في الدين.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي: هؤلاء الذين بهذه الأوصاف القبيحة كالحيوانات في عدم الفقه والبصر والاستماع، بل هم أسوأ حالاً من الحيوانات فإنها تدرك منافعها ومضارها، وهؤلاء لا يميزون بين المنافع والمضار ولهذا يقدمون على النار.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أي: الغارقون في الغفلة عن الإيمان بالله وطاعته.

* ثم بين تعالى عظمة وجلال وسعة أوصافه، بأن له الأسماء الحسنى، فقال:

١٨٠ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أي: لله الأسماء الدالة على كمال عظمته، وهي أحسن الأسماء وأجلها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها، فسموه بتلك الأسماء، واطلبوا منه بأسمائه ما تريدون.

قال القرطبي: سمى الله -سبحانه- أسماءه بالحسنى؛ لأنها حسنة في الأسماع والقلوب؛ فإنها تدل على توحيده، وكرمه، وجوده، ورحمته، وإفضاله.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ
بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ
أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩ وَلِلَّهِ
ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ
سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٨٠ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ
وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٨١ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم
مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ١٨٣ أَوَلَمْ
يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١٨٤
أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ
مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ
بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ١٨٥ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ
فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٨٦ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا
قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا
قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٧

١٧٤

﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ واتركوا الذين يميلون في أسمائه تعالى عن الحق، كما فعل المشركون حين اشتقوا لآلهتهم أسماء منها كاللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان.

﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: سينالون جزاء ما عملوا في الآخرة.

(١٨١) ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي: ومن جملة من خلقنا، أمة مستمسكة بشرع الله قولاً وعملاً يدعون الناس إلى الحق وبه يعملون ويقضون، والمراد في الآية هذه الأمة المحمدية لحديث: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» [متفق عليه] وهذه الطائفة لا تختص بزمان دون زمان، بل هم في كل زمان وفي كل مكان، فالإسلام دائماً يعلو ولا يعلى عليه، وإن كثر الفساق وأهل الشر فلا عبرة فيهم ولا صولة لهم، وفي الحديث بشارة عظيمة لهذه الأمة المحمدية بأن الإسلام في علو شرف؛ وأهله كذلك إلى قرب الساعة.

(١٨٢)، (١٨٣) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والذين كذبوا بالقرآن من أهل مكة وغيرهم، سنأخذهم قليلاً وندنيهم من الهلاك من حيث لا يشعرون، وذلك بأن تتواتر عليهم النعم، ويفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغي حتى تحق عليهم كلمة العذاب. قال سفيان الثوري: نسبغ عليهم النعم، ونمنعهم الشكر.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: وأمهلهم ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما في الحديث الشريف: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» [رواه البخاري].

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: أخذي وعقابي قوي شديد، وإنما سماه كيداً؛ لأن ظاهره إحسان، وباطنه خذلان.

* ثم أنكر جل وعلا على المكذبين الجاحدين، عدم تفكرهم في شأن رسول الله ﷺ، فقال:

(١٨٤) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: أو لم يتفكر هؤلاء المكذبون بآيات الله فيعلموا أنه ليس بمحمد ﷺ جنون، بل هو رسول الله حقاً أرسله الله لهدايتهم، وهذا نفي لما نسبه له المشركون من الجنون في قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ليس محمد إلا رسول منذر، أمره بيّن واضح لمن كان له لبّ، أو قلب يعقل به ويعي.

* ثم حثهم ﷻ على النظر المؤدي إلى العلم، فقال:

(١٨٥) ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله نظر استدلال في ملك الله الواسع مما يدل على عظم الملك وكمال القدرة، والاستفهام للإنكار والتعجب والتوبيخ.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أي: وكذلك لينظروا في جميع مخلوقات الله الجليل فيها والدقيق؛ فيستدلوا بذلك على كمال قدرة صانعها، وعظم شأن مالكها ووحدة خالقها ومبدعها؟

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: وأن يتفكروا لعلهم يموتون عن قريب، فينبغي لهم أن يسارعوا إلى النظر والتدبر فيما يخلصهم عند الله قبل حلول الأجل.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به وهو النهاية في الظهور والبيان، وفي هذا من التقريع والتوبيخ ما لا يقادر قدره.

* ثم ذكر ﷻ سبب هذه الغفلة عن الهداية ومعرفة الحق، فقال تعالى:

﴿١٨٦﴾ ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ أي: من كتب الله عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد.

﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: ويتركهم في كفرهم وتمردهم يترددون ويتحيرون.

* لما ذكر تعالى موقف المستهزئين من دعوة الرسول ﷺ ذكر هنا طرفاً من عنادهم واستهزائهم بسؤالهم الرسول ﷺ عن وقت قيام الساعة، فقال تعالى:

﴿١٨٧﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ يسألك يا محمد كفار مكة عن القيامة، روي أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: إن كنت نبياً فأخبرنا عن الساعة متى تقوم؟ فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾.

﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي: متى وقوعها وحدوثها؟ وسميت القيامة ساعة لسرعة ما فيها من الحساب.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ أي: قل لهم يا محمد لا يعلم الوقت الذي يحصل قيام القيامة فيه؛ إلا الله سبحانه، فقد استأثر بعلمها عنده، ثم أكد ذلك بقوله:

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يكشف أمرها ولا يظهرها للناس إلا هو سبحانه فهو العالم بوقتها.

﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: لما خفي علمها على أهل السموات والأرض كانت ثقيلة، وعظمت عليهم حيث يشفقون منها ويخافون شدائدها وأهوالها فإنها تأتي فجأة.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ أي: يسألونك يا محمد عن وقتها، كأنك كثير السؤال عنها شديد الطلب لمعرفتها.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يعلم وقتها؛ إلا الله؛ لأنها من الأمور الغيبية التي استأثر بها علام الغيوب، والتكرار لتقرير الحكم وتقريره.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون السبب الذي لأجله أخفيت، والحكمة في إخفاء الساعة عن العباد أنهم إذا لم يعلموا متى تكون كانوا على حذر منها فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية.

* ثم أمر عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى:

﴿١٨٨﴾ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: قل يا محمد لا أقدر على أن أجلب لنفسي خيراً، ولا أدفع عنها شراً إلا بمشيئته تعالى، فكيف أملك علم الساعة؟

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: لو كنت أعرف أمور الغيب لحصلت كثيراً من منافع الدنيا وخيراتها، ودفعت عني آفاتها ومضراتها، ولكني عبد لا أدري ما عند ربي، ولا ما قضاه فيّ وقدره لي.

﴿وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: لو كنت أعلم الغيب لاحترست من السوء، واتقيت ما يكون من الشر قبل أن يقع، ولكن لا أعلمه فلهذا يصيبني ما قدر لي من الخير والشر.

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي: ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة، وما من شأني أن أعلم الغيب.

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لقوم يصدقون بما جئتهم به من عند الله.

* ثم بدأ سبحانه يعدد نعمه وآلائه على عباده، وعدم مكافأتهم لها، مما

الجزء التاسع سورة الأعراف

قُلْ لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ
أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ
إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم
مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا
تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا
ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾
فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى
ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾
وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ
أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ
أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ
بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ
بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

١٧٥

يجب من الشكر والاعتراف بالعبودية، وأنه المنفرد بالإلهية، قال تعالى:

﴿١٨٩﴾، ﴿١٩٠﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: هو سبحانه ذلك العظيم الشأن الذي خلقكم جميعاً أيها الناس وحده من غير معين، من نفس واحدة؛ هي آدم عليه السلام.

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: وخلق منها زوجها حواء من ضلع من أضلاعه، وجعله منها ليطمئن إليها، ويستأنس بها، فإن الجنس بجنسه أسكن وإليه آنس.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ فلما جامعها حملت بالجنين حملاً خفيفاً دون إزعاج لكونه نطفة في بادئ الأمر، فإنه عند كونه نطفة أو علقة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك من المراتب، والتعرض لذكر خفته للإشارة إلى نعمته تعالى عليهم في إنشائه إياهم، متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود، ومن الضعف إلى القوة.

﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي: استمرت به تقوم وتقعد إلى حين ميلاده.

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: ثقل حملها، وصارت به ثقيلة لكبر الحمل في بطنها.

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: دعوا الله مربيهما ومالك أمرهما، لئن رزقتنا ولداً صالحاً سوي الخلقة لنشكرنك على ما وهبت لنا من الولد الصالح.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ أي: فلما وهبهما ما طلباه من الولد الصالح السوي.

﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: جعل هؤلاء الأولاد والذرية شركاء مع الله فعبدوا الأوثان والأصنام.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه وتقدس الله عما ينسبه إليه المشركون.

* ثم أنكر ﷻ على المشركين ما يعبدون من دون الله من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها، قال تعالى:

﴿١٩١﴾-﴿١٩٨﴾ ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ * إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ * وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ الاستفهام للتوبيخ، أي: أيشركون مع الله ما لا يقدر على خلق شيء أصلاً.

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: والحال أن تلك الأوثان والآلهة مخلوقة فكيف يعبدونها مع الله؟ وجمع الضمير بالواو والنون؛ لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع فأجريت مجرى الناس.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ أي: لا تستطيع

هذه الأصنام نصر عابديها، ولا ينصرون أنفسهم ممن أرادهم بسوء، فهم في غاية العجز والذلة فكيف يكونون آلهة؟

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ أي: وأن تدعوا أيها المشركون هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله لا تجيب إذا دعيت إلى خير أو رشاد، لأنها جمادات.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ أي: يتساوى في عدم الإفادة دعاؤكم لهم وسكوتكم؛ لأن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ إن الذين تعبدون أيها المشركون من دونه تعالى من الأصنام وتسمونهم آلهة مخلوقون مثلكم، بل الأناس أكمل منها؛ لأنها تسمع وتبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك، فلهذا قال:

﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أمر على جهة التعجيز والتبكيت والتحدي، أي: ادعوهم في جلب نفع أو دفع ضر إن كنتم صادقين في دعوى أنها آلهة.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ توبيخ إثر توبيخ، وكذلك ما بعده من الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي: هل لهذه الأصنام أرجل يسعون بها معكم في حوائجكم.

﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ أم هل لهم أيد تفتك وتبطش بمن أرادها بسوء ومكروه.

﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾ أم لهم هل لهم أعين ينظرون بها، فيعرفونكم ما عاينوا وأبصروا مما يغيب عنكم فلا ترونه.

﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أم هل لهم آذان تسمع بها الأصوات؟ والغرض بيان جهلهم وتسفيه عقولهم في عبادة جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابدها شيئاً؛ لأنها فقدت الحواس وفاقد الشيء لا يعطيه، والإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام لوجود العقل والحواس فيه، فكيف تعبدون من أنتم أفضل وأقدر منهم.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد لهؤلاء المشركين من عبده الأوثان ادعوا أصنامكم واستنصروا واستعينوا بها عليَّ.

﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: ابذلوا جهدكم أنتم وهم في الكيد لي وإلحاق الأذى والمضرة بي ولا تمهلون طرفة عين، فإني لا أبالي بكم لاعتمادي على الله، وذلك أنهم خوفوا الرسول ﷺ بآلهتهم فأمره تعالى أن يجابههم بذلك.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إن الذي يتولى نصري وحفظي هو الله الذي نزل عليَّ القرآن الذي فيه الهدى والشفاء والنور.

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهو جل وعلا يتولى عباده الصالحين بالحفظ والتأييد، وهو وليهم في الدنيا والآخرة.

الجزء التاسع — سورة الأعراف

إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ
١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ
وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ١٩٧ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟
وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ١٩٨ خُذِ ٱلْعَفْوَ
وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ
مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟
فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ٢٠١ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ
لَا يُقْصِرُونَ ٢٠٢ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا
قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ
وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ
فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٢٠٤ وَٱذْكُر رَّبَّكَ
فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ
وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ٢٠٦

١٧٦

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ والذين تدعون أنتم أيها المشركون من غير الله من الآلهة لا يستطيعون نصركم، ولا يقدرون على نصرة أنفسهم، كرره ليبيّن أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟﴾ أي: وإن تدعوا هذه الأصنام إلى الهداية والرشاد لا يسمعوا دعاءكم، فضلاً عن المساعدة والإمداد.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وترى يا محمد آلهة هؤلاء المشركين يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد لا تبصر لأن لهم صورة الأعين وهم لا يرون بها شيئاً.

* لما عدّد سبحانه ما عدده من أحوال المشركين وتسفيه رأيهم

وضلال سعيهم، أمر نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، فقال:

﴿١٩٩﴾، ﴿٢٠٠﴾ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: خذ بالسهل اليسير في معاملة الناس ومعاشرتهم، بغير تكلف ولا تجسس، ولا تطلب منهم ما يشق عليهم حتى لا ينفروا، وهذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف والجميل، والمستحسن من الأقوال والأفعال.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: إذا أقمت الحجة في أمرهم بالمعروف فلم يفعلوا، فلا تقابل السفهاء بمثل سفههم بل احلم عليهم وأعرض عنهم، وهذا وإن كان خطاباً لنبيه ﷺ فهو تأديب لجميع خلقه. وفيه أن الإنسان قد يعرض له من يحسن الإعراض عنهم والحلم عليهم.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

قال ابن تيمية: «هذه الآية فيها جماع الأخلاق الكريم ففي أخذه العفو من أخلاقهم احتمال أذاهم».

وقيل: «تضمن هذه الآية قواعد الشريعة، فلم يبق حسنة إلا وعتها ولا فضيلة إلا شرحتها».

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: وإما يصيبنك يا محمد طائف من الشيطان بالوسوسة والتشكيك في الحق، أو حث على الشر وتثبيط عن الخير، فلا تطعه واستجر بالله، والجأ إليه في دفعه عنك.

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لما تقول، عليم بما تفعل، فاستعذ به والتجئ إليه.

* ثم ذكر تعالى حال المتقين مع نزغات الشيطان، فقال:

﴿٢٠١﴾، ﴿٢٠٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ أي: الذين اتصفوا بتقوى الله، فخافوا عقابه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ أي: إذا أصابهم عارض من وسوسة الشيطان وحام حولهم بهواجسه، تذكروا عقاب الله وثوابه وما أوجبه عليهم.

﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي: يبصرون الحق بنور البصيرة ويتخلصون من وساوس الشيطان.

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ أي: وإخوان الشياطين الذين لم يتقوا الله وهم الكفرة الفجرة، فإن الشياطين تغويهم وتزين لهم سبل الضلال.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي: لا يمسكون، ولا يكفون عن إغوائهم.

﴿٢٠٣﴾ ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: وإذا لم تجئ يا محمد بمعجزة كما اقترح هؤلاء المشركين، قالوا: هلا اختلقتها يا محمد واخترعتها من عند نفسك، وهو تهكم منهم.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ أي: قل لهم يا محمد إنما أنا عبد متبع مدبَّر، ليس الأمر إليَّ حتى آتي بشيء من عند نفسي، وإنما أنا عبد أمتثل ما يوحيه الله إليَّ.

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: هذا القرآن الجليل حجج بينة، وبراهين نيرة، يغني عن غيره من المعجزات، فهو بمنزلة البصائر للقلوب، به يبصر الحق ويدرك.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وهداية من الضلال، ورحمة للمؤمنين من الشقاء لأنهم المقتبسون من أنواره، والمنتفعون من أحكامه.

﴿٢٠٤﴾ ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ أي: وإذا تليت آيات القرآن فاستمعوها بتدبر، واسكنوا عند تلاوته إعظاماً للقرآن وإجلالاً. ومن أعظم مواطن الإنصات الصلاة.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لكي تفوزوا بالرحمة والمغفرة. قيل: ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن لهذه الآية.

* ثم أمر تعالى عبده أن يذكره في نفسه، فإن الإخفاء أدخل في الإخلاص وادعى للقبول، فقال سبحانه:

﴿٢٠٥﴾، ﴿٢٠٦﴾ ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ أي: واذكر ربك سرّاً مستحضراً لعظمته

وجلاله، والذكر لله يكون بالقلب، وباللسان، وبهما معاً.

﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: متضرعاً إليه بلسانك، مكرراً لأنواع الذكر، وخائفاً منه بقلبك، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به.

﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: وسطاً بين الجهر والسر.

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي: في الصباح والعشي، أول النهار وآخره، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما مزية وفضيلة على غيرهما.

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي: ولا تغفل عن ذكر الله، ويلهون عنه في سائر أوقاتهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي: الملائكة الأطهار، لا يتكبرون عن عبادة ربهم بل ينقادون لأوامره.

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ أي: ينزهونه عما لا يليق به، وله وحده لا شريك له يسجدون، فليقتد العباد بهؤلاء الكرام، وليداوموا على عبادة الملك العلام.

تم تفسير سورة الأعراف
والحمد لله

تفسير سورة الأنفال
وهي مدنية

* سورة الأنفال إحدى السور المدنية التي عنيت بجانب التشريع، وبخاصة فيما يتعلق بالغزوات والجهاد في سبيل الله، فقد عالجت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب بعض الغزوات، وتضمنت كثيراً من أحكام الجهاد، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم لأعداء الله، وتناولت جانب السلم والحرب، وأحكام الأسر والغنائم.

نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب غزوة بدر التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام المجيد، وبداية النصر لجند الرحمن حتى سماها بعض الصحابة سورة بدر؛ لأنها تناولت أحداث هذه الموقعة بإسهاب، ورسمت الخطة التفصيلية للقتال، وبينت ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من البطولة والشهامة، والوقوف في وجه الباطل بكل شجاعة وجرأة وحزم وصمود.

وكانت هي الجولة الأولى من جولات الحق مع الباطل، ورد البغي والطغيان، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين قعد بهم الضعف في مكة، وأخذوا في الضراعة إلى الله أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها، وقد استجاب الله ضراعتهم فهيأ لهم ظروف تلك الغزوة، التي تم فيها النصر للمؤمنين على قلة في عددهم، وضعف في عُددهم، وعلى عدم تهيئهم للقتال، وبها عرف أنصار الباطل أنه مهما طال أمده، وقويت شوكته، وامتد سلطانه، فلا بد له من يوم يخرّ فيه صريعاً أمام جلال الحق وقوة الإيمان، وهكذا كانت غزوة بدر؛ نصر للمؤمنين، وهزيمة للمشركين.

وفي ثنايا سرد أحداث بدر جاءت النداءات الإلهية للمؤمنين ست مرات بوصف الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الأنفال: ١٥] كحافز لهم على الصبر والثبات في مجاهدتهم لأعداء الله، وكتذكير لهم بأن هذه التكاليف التي أمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلوا به، وأن النصر الذي حازوا عليه كان بسبب الإيمان لا بكثرة السلاح والرجال.

أما النداء الأول: فقد جاء فيه التحذير من الفرار من المعركة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥﴾ [الأنفال: ١٥] وقد توعدت الآيات المنهزمين أمام الأعداء بأشد العذاب.

أما النداء الثاني: فقد جاء فيه الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠] كما صورت الآيات الكافرين بالأنعام السارحة التي لا تسمع ولا تعي ولا تستجيب لدعوة الحق.

وأما النداء الثالث: فقد بين فيه أن ما يدعوهم إليه الرسول فيه حياتهم وعزتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وأما النداء الرابع: فقد نبههم فيه إلى أن إفشاء سر الأمة للأعداء خيانة

سُورَةُ الأنفَالِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ١ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ
قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ
رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ
مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥
يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ
وَهُمْ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا
لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ
ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٧
لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ٨

١٧٧

لله ولرسوله، وخيانة للأمة أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال: ٢٧].

وأما النداء الخامس: فقد لفت نظرهم فيه إلى ثمرة التقوى، وذكرهم بأنها أساس الخير كله، وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني، الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، وبه يفرق بين الرشد والغي، والهدى والضلال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ٢٩﴾ [الأنفال: ٢٩].

وأما النداء السادس: وهو النداء الأخير فقد وضع لهم فيه طريق العزة، وأسس النصر، وذلك بالثبات أمام الأعداء، والصبر عند اللقاء، واستحضار عظمة الله التي لا تحد، وقوته التي لا تقهر، والاعتصام بالمدد الروحي الذي يعينهم على الثبات، ألا وهو ذكر الله كثيراً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٤٥﴾ [الأنفال: ٤٥].

* الأنفال هي الغنائم التي ينفلها الله لهذه الأمة من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نزلت في قصة بدر أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله ﷺ عنها، فأنزل الله هذه الآيات، قال تعالى:

١ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾ أي: يسألك أصحابك ـ يا محمد ـ عن الغنائم التي غنمتها من بدر كيف تقسم؟ وعلى من تقسم.

﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ قل لهم: الحكم فيها لله ورسوله لا لكم، فالرسول يتولى قسمتها بأمر ربه، ويضعها حيث شاء، فلا اعتراض على حكم الله ورسوله.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾ أي: اتقوا الله بطاعته واجتناب معاصيه، واتركوا المنازعة والمخاصمة بسبب هذه الأموال، وأصلحوا الحال التي بينكم بالائتلاف وعدم الاختلاف، وترك التشاحن والتقاطع والتدابر، وتسليم أمر الغنيمة إلى الله والرسول ﷺ.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في الحكم في الغنائم، قال عبادة بن الصامت: نزلت فينا أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا، فنزع الله الأنفال من أيدينا وجعلها لرسول الله ﷺ، فقسمها على السواء، فكان في ذلك تقوى الله، وطاعة رسوله، وإصلاح ذات البين.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط حذف جوابه، أي: امتثلوا وأطيعوا هذه الأوامر الثلاثة إن كنتم حقاً مؤمنين بالله كاملين في الإيمان، فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله.

* ثم ذكر ﷻ حال المؤمنين إذا ذكروا الله ﷻ، فقال:

٢-٤ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: إنما الكاملون في الإيمان المخلصون فيه، هم الذين إذا ذكر اسم الله فزعت قلوبهم وخافت ورهبت لمجرد ذكره، واستعظاماً لشأنه، وتهيباً منه -جل وعلا-، فأوجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم. وذلك شأن أهل الإيمان، لأنهم يلقون السمع، ويحضرون قلوبهم لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب.

﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ أي: إذا تليت وقرأت عليهم آيات القرآن ازداد تصديقهم وطمأنينتهم ويقينهم بالله؛ لأنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانهم.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: وعلى ربهم وحده لا شريك له، يعتمدون في قلوبهم عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية فلا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ويثقون بأن الله سيفعل ذلك، وقد أخبر عنهم باسم الموصول بثلاثة مقامات عظيمة وهي: مقام الخوف، ومقام الزيادة في الإيمان، ومقام التوكل على الرحمن. قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ينبه تعالى بذلك على أعمالهم بعدما ذكر اعتقادهم، أنهم يؤدون الصلاة المفروضة على الوجه الأكمل بخشوعها وفروضها وآدابها.

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ وينفقون في طاعة الله مما أعطاهم الله، وهو عام في الزكاة ونوافل الصدقات، والخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ أي: المتصفون بما ذكر من الصفات الحميدة؛ هم المؤمنون إيماناً حقاً؛ لأنهم جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال، وقدم تعالى أعمال القلوب؛ لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها.

﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: لهم منازل ومراتب ومقامات رفيعة في الجنة درجات بعضها فوق بعض على قدر الأعمال وعلوها، وفي كونها عنده سبحانه زيادة تشريف لهم وتكريم وتعظيم وتفخيم.

﴿وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ أي: تكفير وتجاوز لما فرط منهم من الذنوب، ورزق دائم مستمر، مقرون بالإكرام والتعظيم، وهو الجنة.

* ثم ذكر تعالى غزوة بدر الكبرى، وما جرى فيها من أحداث قبل المعركة، قال تعالى:

﴿٥﴾-﴿٨﴾ ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ * يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ * وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ * لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: كما أخرجك ربك بالحق على كره، من فريق من المؤمنين كذلك يجادلونك في الحق بعدما تبيَّن، والحق الذي كانوا يجادلون فيه النبي ﷺ بعدما تبينوه هو القتال. وشبهت هذه القصة التي هي إخراجه من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال وكراهتهم لما وقع فيها، والمعنى: حالهم في كراهة تنفيل الغنائم كحالهم في حالة خروجك للحرب.

﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ أي: والحال أن فريقاً منهم كارهون للخروج لقتال العدو خوفاً من القتل، أو لعدم الاستعداد.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ يجادلك -يامحمد- فريق من المؤمنين في شأن الخروج للقتال وكراهية للقاء المشركين بعد أن وضح لهم وبان، وكان جدالهم هو قولهم: ما كان خروجنا إلا للعير ولو عرفنا لاستعددنا للقتال.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ شبه حالهم في فرط فزعهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة بحال من يعتل إلى القتل ويساق إلى الموت، وهم كارهون القتال كراهة من ينساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم،

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ
مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ
عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ
رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ
﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟
فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ
عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ
بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

١٧٨

وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ أي: اذكروا ـ أيها المجادلون ـ حين وعدكم الله إحدى الفرقتين أنها لكم غنيمة؛ إما العير وما تحمله من أرزاق، أو النفير وهو قتال الأعداء والانتصار عليهم.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي: وتحبون أن تلقوا الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا سلاح لها وهي العير؛ لأنها كانت محملة بتجارة قريش، قال المفسرون: روي أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة برئاسة أبي سفيان: ونزل جبريل عليه السلام فقال: «يا محمد: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين: إما العير وإما قريشاً»، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه فاختاروا العير لخفة الحرب وكثرة الغنيمة، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة، فنادى أبو جهل: يا أهل مكة النجاء النجاء، عيركم وأموالكم إن أصابها محمد فلن تفلحوا بعدها أبداً، فخرج المشركون على كل صعب وذلول ومعهم أبو جهل حتى وصلوا بدراً، ونجت القوافل؛ فأخبر الرسول ﷺ أصحابه وقال لهم: «إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل»، فقالوا يا رسول الله: عليك بالعير ودع العدو، فغضب رسول الله، فقام سعد بن عبادة، فقال: امض بنا لما شئت فإنا متبعوك، وقام سعد بن معاذ فقال: والذي بعثك بالحق لو خضت بنا البحر لخضناه معك فسر بنا على بركة الله، فسرَّ رسول الله ﷺ وقال لأصحابه: «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: وهو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بها، ويظهر ويثبت الدين الحق وهو الإسلام بقتل الكفار وإهلاكهم يوم بدر.

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويستأصل الكافرين ويهلكهم جملة من أصلهم، والمعنى: أنكم ترغبون في الفائدة العاجلة، وسلامة الأحوال، وسفساف الأمور، والله تعالى يريد معالي الأمور، وإعلاء الحق، والفوز في الدارين، شتان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم ذات الشوكة وأراكم عياناً خذلانهم، فنصركم وهزمهم، وأذلهم وأعزكم.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحة صدقه.

﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: ولو كره المشركون ذلك، أي: إظهار الإسلام، وإبطال الشرك فلا يبالي الله بهم.

* ولما علم المسلمون أن الأمر صرف إلى قتال المشركين، لجأوا إلى الدعاء والاستغاثة، قال تعالى:

﴿٩﴾، ﴿١٠﴾ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أي: اذكروا نعمة الله عليكم، حين تطلبون من ربكم الغوث بالنصر على المشركين يوم بدر لما قارب التقاؤكم بعدوكم، روي أن رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر، فاستقبل

القبلة ومد يديه يدعو: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تُعبد في الأرض»، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذه أبوبكر فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فنزلت هذه الآية.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: استجاب الله الدعاء وأرسل إليكم مدداً، وأعانكم بألف من الملائكة من السماء. قال ابن تيمية: القلوب الصادقة والأدعية الصالحة هي العسكر الذي لا يُغلب.

﴿مُرْدِفِينَ﴾ أي: متابعين يتبع، بعضهم بعضاً، قال المفسرون: ورد أن جبريل نزل بخمسمائة وقاتل بها في يمين الجيش، ونزل ميكائيل بخمسمائة وقاتل بها في يسار الجيش، ولم يثبت أن الملائكة قاتلت في وقعة إلا في بدر، وأما في غيرها فكانت تنزل الملائكة لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: وما جعل الله إمدادكم بالملائكة وإعلامه إياكم إلا بشارة لكم بالنصر، ولتسكن بهذا الإمداد نفوسكم، وتربط على قلوبكم، وتوقنوا بنصر الله.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: وما النصر في الحقيقة إلا من عند الله العلي الكبير لا بشدة بأسكم وقواكم، ولا من الملائكة، فثقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم وعدتكم، والمنصور من نصره الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز غالب لا يُغلب، حكيم يفعل ما تقضي به الحكمة.

* ثم يُذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم، ومن ذلك نصره واستجابته لدعائهم، فقال:

﴿١١﴾-﴿١٤﴾ ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أي: إذ يلقي الله عليكم النوم أمناً منه لكم من خوف عدوكم أن يغلبكم لكثرتهم وقلة عددكم، وعلامة على النصر والطمأنينة، وهذه معجزة لرسول الله ﷺ؛ حيث غشي الجميع النوم في وقت الخوف، فإن النوم يزيح الرعب ويريح النفس، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا ومافينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح، قال ابن كثير: وكان ذلك للمؤمنين عند شدة البأس، لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تعديد لنعمه أخرى، وذلك أنهم عدموا الماء في غزوة بدر، فأنزل الله عليهم المطر حتى سالت الأودية، وكان منهم من أصابته جنابة فتطهر بماء المطر.

﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي: من الأحداث والجنابات.

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ويدفع عنكم وسوسته وتخويفه إياكم من العطش، روي أنهم نزلوا في كثيب أعفر، تسوخ فيه الأقدام على غير ماء، وناموا فاحتلم أكثرهم فوسوس إليهم الشيطان، وقال: كيف تنصرون وقد غلبتم على الماء، وأنتم تصلون محدثين مجنبين وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله؟ فأنزل الله المطر حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أي: يقوي قلوبكم بالثقة بنصر الله فإن ثبات القلب، أصل ثبات اليدين، ويثبت بالمطر الأقدام؛ فإن الأرض كانت سهلة دهسة، تسوخ الأقدام فيها، فلما نزل عليها المطر تلبدت، وثبتت الأقدام؛ لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملة ميثاء فلبدها المطر حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾.

قال السعدي: «فثبات القلب أصل ثبات البدن».

ثم يُذكرهم تعالى بنعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها، فقال:

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن
تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ
فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ
وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

١٧٩

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: إن الله أوحى إلى الملائكة الذين أمد الله بهم المسلمين في غزوة بدر: بأني معكم بالعون والنصر والتأييد.

﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فثبتوا المؤمنين، وقووا أنفسهم على أعدائهم، ورغبوهم في الجهاد وفضله.

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ سأقذف في قلوب الكافرين الخوف الشديد والفزع والذلة حتى ينهزموا، وقد كان؛ فإن الله تعالى ثبت المؤمنين وألقى الرعب في قلوب الكافرين.

﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: اضربوا - أيها المؤمنون - رؤوس الكفار؛ لأنها فوق الأعناق، واضربوا منهم كل طرف ومفصل، وفائدة ذلك أن المقاتل إذا ضربت أصابعه تعطل عن القتال فأمكن أسره وقتله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: ذلك العذاب الفظيع الذي واقع عليهم من ضرب رؤوسهم وأعناقهم وأطرافهم، بسبب مخالفتهم وعصيانهم لأمر الله وأمر رسوله.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله بالكفر والعناد؛ فإن عذاب الله شديد له في الدنيا والآخرة، ومن عقابه تسليط أوليائه على أعدائه وتقتيلهم.

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: ذلكم العقاب الذي عجلته لكم يا معشر الكفار فذوقوه عاجلاً في الدنيا، ولكم العقاب الآجل في الآخرة وهو عذاب النار.

* يأمر تعالى عباده المؤمنين بالشجاعة الإيمانية، والقوة في أمره، والسعي في جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان، والنهي عن الفرار إذا التقى الزحفان، والوعيد على من فعل ذلك، قال تعالى:

﴿١٥﴾، ﴿١٦﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۞ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ أي: يا أيها الذين صدقوا الله واتبعوا رسوله: إذا لقيتم ودنوتم إلى أعدائكم الكفار مجتمعين متقاربين كأنهم لكثرتهم يزحفون زحفاً.

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي: فلا تنهزموا أمامهم واثبتوا لقتالهم، ولا تولوهم ظهوركم بل اثبتوا واصبروا، فإن الله معكم وناصركم عليهم.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ ومن يولهم يوم اللقاء ظهره منهزماً.

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي: إلا في حال التوجه إلى قتال طائفة أخرى، أو بالفر للكر، بأن يخيل إلى عدوه أنه منهزم ليغره مكيدة ثم يعطف عليه، وهو من خدع الحرب.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أو منضماً إلى جماعة المسلمين يستنجد بهم.

﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: فقد رجع بسخط عظيم من الله.

﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: مقره ومسكنه الذي يأوي إليه يوم ميعاده، نار جهنم، وبئس المرجع والمآل والمنقلب.

* يقول تعالى لما انهزم المشركون يوم بدر، وقتلهم المسلمون، مبيناً فضله ونعمته بهذا الخير الذي ساقه إليهم:

﴿١٧﴾، ﴿١٨﴾ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي: فلم تقتلوهم أيها المسلمون ببدر بقوتكم وقدرتكم، ولكن الله قتلهم بنصركم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي: وما رميت في الحقيقة أنت ـ يا محمد ـ أعين القوم بقبضة من التراب لأن كفّاً من تراب لا يملأ أعين الجيش الكبير، قال ابن عباس: أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال: «شاهت الوجوه»، فلم يبق أحد منهم إلا أصاب عينيه ومنخريه من تلك الرمية فولوا مدبرين.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي: بإيصال ذلك إليهم، فالأمر في الحقيقة من الله.

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي: فعل ذلك ليقهر الكافرين وينعم على المؤمنين نعمة عظيمة بالأجر والنصر والغنيمة، وليعرف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لدعائهم ولأقوالهم، عليم بما فيه صلاح عباده ومن يستحق النصر والغلب.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذه بشارة أخرى، مع ما حصل من النصر، أي: ذلك الذي حدث من قتل المشركين ورميهم حين انهزموا ونصر المؤمنين عليهم، هو من الله للمؤمنين، وأن الله ـ فيما يستقبل ـ مضعف ومبطل مكر الكافرين حتى يذلوا وينقادوا للحق أو يهلكوا، والغرض منه إضعاف وتوهين كيد الكافرين حتى لا تقوم لهم قائمة.

* ثم خاطب ـ جل وعلا ـ كفار قريش، فقال:

﴿١٩﴾ ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ أي: إن تطلبوا يا معشر الكفار الفتح والنصر على المؤمنين فقد جاءكم الفتح وهو الهزيمة والقهر، وهذا على سبيل التهكم بهم، قيل: إن أبا جهل يوم بدر قال: اللهم أينا كان أفجر، وأقطع للرحم، فأحنه اليوم ـ أي أهلكه ـ فأنزل الله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ فكان أبو جهل هو المستفتح.

﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: وإن تكفوا يا معشر قريش عن حرب الرسول ومعاداته، وعن الكفر بالله ورسوله فهو خير لكم في دنياكم وآخرتكم.

﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾ وإن تعودوا لحربه وقتاله، نعد لنصره عليكم كما فعلنا يوم بدر.

﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ ولن يدفع عنكم أعوانكم وأنصاركم الذين تستنجدون بهم شيئاً من عذاب الدنيا مهما كثر الأعوان والأنصار.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لأن الله سبحانه مع المؤمنين بالنصر والعون والتأييد.

* لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين حافظاً وناصراً ومؤيداً وموفقاً ومسدداً، أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون به معيته ومحبته، ورضاه ورحمته، فقال سبحانه:

﴿٢٠﴾-﴿٢٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله دوموا على امتثال أمر الله ورسوله وطاعتهما واجتناب نهيهما؛ يدم لكم العز الذي حصل ببدر.

﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي: لا تعرضوا عن هذا الأمر الذي هو طاعة الله وطاعة رسوله، بمخالفة

أمره وترك زواجره، وأنتم تسمعون القرآن والمواعظ والحجج والبراهين بعدما دعاكم إليه.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا تكونوا أيها المؤمنون في مخالفة الله ورسوله كالكفار الذين سمعوا بآذانهم دون قلوبهم، وهم لا يتدبرون ما سمعوا، ولا يفكرون فيه، ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة، فقال:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أن شر الخلق وشر البهائم التي تدب على وجه الأرض.

﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ﴾ أي: الصم الذين لا يسمعون الحق، الخرس الذين لا ينطقون به.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الذين فقدوا العقل الذي يميز به المرء بين الخير والشر، نزلت في جماعة من بني عبد الدار، كانوا يقولون: نحن صم بكم عما جاء به محمد، وتوجهوا لقتال الرسول ﷺ مع أبي جهل، وفي الآية غاية الذم للكافرين بأنهم أشر من الكلب والخنزير والحمير؛ لأنهم لم يستفيدوا من حواسهم فصاروا أخس من كل خسيس.

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء، أي: لو علم الله فيهم شيئاً من الخير لأسمعهم سماع تفهم وتدبر حتى يعقلوا عن الله ﷻ حججه وبراهينه.

﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ ولو فرض أن الله أسمعهم -وقد علم أن لا خير فيهم- لتولوا وهم معرضون عنه جحوداً وعناداً، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على عدم إيمان الكافرين.

* لما ذكر تعالى الكافرين، وشبههم بالأنعام السارحة؛ لأنهم أعرضوا عن قبول دعوة الله، أمر المؤمنين هنا بالاستجابة لله والرسول، وقبول دعوته التي فيها حياة القلوب، وبها السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

﴿٢٤﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يا أيها الذين صدقوا بالله رباً وبمحمد نبياً ورسولاً أجيبوا دعاء رسوله إذا دعاكم للإيمان الذي به تحيا النفوس، وتصلح الأمور وتستقيم، وبه تحيون الحياة الأبدية. قال قتادة: هو القرآن فيه الحياة والثقة، والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ واعلموا أنه تعالى المتصرف في جميع الأشياء، يصرف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها، فيفسخ عزائمه، ويغير مقاصده، ويلهمه رشده، أو يزيغ قلبه عن الصراط السوي، وفي الحديث: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» [رواه الترمذي] قال ابن عباس: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان. وفي ذلك حض على المراقبة، والخوف من الله تعالى، والمبادرة إلى الاستجابة له -جل وعلا-.

﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: واعلموا أنه سبحانه إليه مرجعكم ومصيركم، فيجازيكم بأعمالكم.

* ثم يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنة قد تعم الجميع إذا لم تدفع وترفع، قال تعالى:

﴿٢٥﴾ ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ أي: احذروا -يا أيها المؤمنون- بطش الله وانتقامه إن عصيتم أمره، واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تعم الجميع، بما فيهم الصالحين معهم إذا قدروا على إنكار الظلم ولم ينكروه، وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده» [رواه البخاري]، قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب، فيصيب الظالم وغير الظالم.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: شديد العذاب لمن عصاه وخالف أمره وجانب رضاه، وفي هذا وعيد شديد.

وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ
أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم
مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ
عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟
ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ
وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا
هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ
فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

١٨٠

* ثم يقول تعالى ممتناً على عباده في نصرهم بعد الذلة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العيلة، فضلاً منه وإحساناً، قال تعالى:

﴿٢٦﴾ ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم وقت أن كنتم قلة أذلة يستضعفكم الكفار في أرض مكة فيفتنونكم عن دينكم وينالونكم بالأذى والمكروه.

﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: تخافون المشركين أن يأخذوكم بسرعة بالقتل والسلب.

﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ أي: جعل لكم بلداً تأوون إليه، وتتحصنون به من أعدائكم وهو المدينة.

﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ أي: أعانكم وقواكم يوم بدر بنصره المؤزر حتى هزمتموهم.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: منحكم غنائمهم حلالاً طيبة، ولم تكن تحل لأحد من قبل.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لتشكروا الله على هذه النعم الجليلة، والغرض التذكير بالنعمة، فإنهم كانوا قبل ظهور الرسول ﷺ في غاية القلة والذلة، وبعد ظهوره صاروا في غاية العزة والرفعة، فعليهم أن يطيعوا الله ويشكروه على هذه النعمة. قال قتادة ابن دعامة السدوسي -رحمه الله-: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً، وأبينه ضلالاً، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم مُنعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله.

* يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيه، قال تعالى:

﴿٢٧﴾، ﴿٢٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ أي: لا تخونوا دينكم ورسولكم بإطلاع المشركين على أسرار المؤمنين.

﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ أي: ما ائتمنكم عليه من التكاليف الشرعية، قال ابن عباس: خيانة الله سبحانه بترك فرائضه، والرسول ﷺ بترك سنته وارتكاب معصيته، والأمانات: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد. أخرج ابن جرير عن الزهري أن رسول الله ﷺ لما حاصر يهود بني قريظة طلبوا الصلح فأمرهم أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فقالوا: أرسل لنا أبا لبابة فبعثه رسول الله ﷺ إليهم، فقالوا: يا أبا لبابة ما ترى؟ أننزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه يعني أنه الذبح، قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي عن مكانها حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، فقال: لا والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت، أو يتوب الله عليَّ، فنزلت الآية:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ...﴾ الآية ثم نزلت توبته.

﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: تعلمون أنه خيانة، وتعرفون تبعة ذلك ووباله، وهي أمانة يجب الوفاء بها.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ واعلموا -أيها المؤمنون- أن أموالكم وأولادكم محنة من الله ليختبركم كيف تحافظون معها على حدوده، وإنما كانت فتنة؛ لأنها تشغل القلب بالدنيا، وتصير حجاباً عن خدمة المولى. وقدم الأموال لأنها مظنة الحمل على الخيانة في هذا المقام.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ثوابه وعطاؤه خير لكم من الأموال والأولاد فاحرصوا على طاعة الله.

* رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئاً كثيراً، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها، وفي امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، قال تعالى:

﴿٢٩﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ أي: إن أطعتم الله واجتنبتم معاصيه يجعل لكم هداية ونوراً في قلوبكم، تفرقون به بين الحق والباطل، وفي الآية دليل على أن التقوى تنور القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة.

﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾ أي: يمحوا عنكم ما سلف من ذنوبكم، ويسترها عليكم فلا يؤاخذكم بها.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: واسع الفضل عظيم العطاء لمن اتقاه، وآثر رضاه على هوى نفسه.

* بعد تذكير المؤمنين بالنعمة العامة عليهم؛ بدأت الآيات في هذا التذكير بنعمة خاصة على الرسول ﷺ فقال تعالى:

﴿٣٠﴾ ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾.

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والمعنى: اذكر ـ يا محمد ـ حين تآمر عليك المشركون في دار الندوة، واشكر ربك على نجاتك من مكرهم.

﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ أي: يحبسوك ويوثقوك.

﴿أَوۡ يَقۡتُلُوكَ﴾ أي: بالسيف ضربة رجل واحد ليتفرق دمه ﷺ بين القبائل.

﴿أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾ أي: أو ينفوك من بلدك مكة.

قال تعالى: ﴿أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾. وفي الآية الأخرى: ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ قرن الله فراق الوطن بقتل النفس.

﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ أي: يحتالون ويتآمرون عليك ـ يا محمد، ويدبر لك ربك ما يبطل مكرهم ويفضح أمرهم.

﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ أي: مكره تعالى أنفذ من مكرهم وأبلغ تأثيراً. عن ابن عباس: إن نفراً من أشراف قريش اجتمعوا في دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال شيخ من العرب، سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح، قالوا: أجل فادخل، فقال: انظروا في شأن هذا الرجل -يعني محمداً ﷺ- فقال قائل: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك، فصرخ عدو الله وقال: والله ماهذا لكم برأي، فليوشكن أن يثب أصحابه عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه فإنه إذا خرج فلن يضركم ما صنع وأين وقع، فقال الشيخ المذكور: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذه القلوب بحديثه؟ والله لئن فعلتم لتجتمعن عليكم العرب حتى يخرجوكم من بلادكم ويقتلوا أشرافكم، قالوا: صدق فانظروا رأياً غير هذا، فقال أبو جهل: لا، ولأشيرن عليكم برأي، ما أرى غيره! قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلاماً شاباً جلداً، ونعطي كل واحد سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، ويتفرق دمه في القبائل كلها، ولا أظن بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلها فيقبلون الدية ونستريح منه ونقطع عنا أذاه، فصرخ عدو الله إبليس: هذا والله الرأي لا أرى غيره، فتفرقوا على ذلك،

فأتى جبريل النبي ﷺ فأخبره وأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأذن له بالهجرة، وأنـزل الله عليـه بعد قدومـه المدينة يذكره نعمته عليـه ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَـرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ...﴾ الآية.

* ثم بين تعالى عناد وتمرد المكذبين للرسول ﷺ، بقوله:

﴿٣١﴾-﴿٣٣﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: وإذا قرئت على هـؤلاء الذين كفروا آيات القرآن المبين الدالة على صدق ما جاء به الرسول.

﴿قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ أي: قالوا مكابرة وعناداً: قد سمعنا هذا الكلام، ولو أردنا لقلنا مثل هذا القرآن.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا القرآن الـذي تتلوه علينا إلا أكاذيب وأباطيل وحكايات الأمم السابقة سطروها وليس كلام الله تعالى، وهذا غاية المكابرة ونهاية العناد، كيف لا، ولو استطاعوا قول مثله لما تأخروا؛ فما الـذي كان يمنعهم وقـد تحداهم عشر سـنين؟ وقرعوا على العجز، ثم قورعوا بالسـيف فلم يعارضوه، مع أنفتهم، وفرط اسـتنكافهم أن يغلبوا لاسيما في باب البيان.

﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: واذكر ـ يا محمد ـ قول المشركين من قومك داعين الله: إن كان هذا القرآن الذي يدعو إليه محمد حقاً منزلاً من عندك.

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: أنزل علينـا حاصباً وحجـارة مـن السـماء كـما فعلت بأصحاب الفيل.

﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: بعذاب مـؤلم أهلكنا بـه، وهذا تهكم منهـم واسـتهزاء، وهذا مـن كثرة جهلهم وشـدة تكذيبهـم وعنادهم، وكان الأولى لهـم أن يقولوا: اللهم إن كان هـذا هو الحق من عنـدك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه، ولكنهم استعجلوا العقوبة والعذاب لسفههم.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ هذا جواب لكلمتهم الشنعاء، وبيان للسـبب الموجب لإمهالهم، أي: إنهـم مسـتحقون للعـذاب ولكنه لا يعذبهـم وأنـت فيهم إكرامـاً لك ـ يا محمد، فقد جرت سـنة الله وحكمته ألا يعذب أمة ونبيها بين ظهرانيها، قال ابن عباس: لم تعذب أمة قـط ونبيها فيها، والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

قال ابن تيمية: «أخبر الله سبحانه أنه لا يعذب مستغفراً؛ لأن الاستغفار بمحو الذنب؛ الذي هو سبب العذاب فيندفع العذاب.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: وما كان الله ليعذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون الله، وهو إشارة إلى استغفار من بقي بين أظهرهم من المسـلمين المسـتضعفين.

قـال ابن عبـاس: كان فيهم أمانان: نبي الله ﷺ، والاسـتغفار، أما النبي فقد مضى، وأما الاسـتغفار فهو باق إلى يوم القيامة.

* ثم أخبر تعالى أن هؤلاء المكذبين أهل لأن يعذبهم الله، فقال:

﴿٣٤﴾، ﴿٣٥﴾ ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: وما يمنعهم من أن يعذبوا؟ وكيف لا يعذبون وهم على ما هم عليه من العتو والضلال؟

﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: وحالهـم الصـد عن المسـجد الحـرام والطـواف بالبيت والصلاة فيه، كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي: ما كان المشركون أهلاً لولاية المسـجد الحرام مع إشراكهم.

﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ إن أولـيـاء الله إلا الذيـن يتقونه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولكن أكثرهم جهلة لا يعلمون، فلذلك ادعوا لأنفسـهم أمراً، غيرهم أولى بـه، فقـد كانوا يقولـون: نحن

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ
فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ
كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا
فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ
انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

١٨١

ولاة البيت والحرم، نصد من نشاء، وندخل من نشاء. والغرض من الآية بيان استحقاقهم لعذاب الاستئصال بسبب جرائمهم الشنيعة، ولكن الله رفعه عنهم إكراماً لرسوله ﷺ، ولاستغفار المسلمين المستضعفين.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ أي: ما كانت عبادة المشركين وصلاتهم عند البيت الحرام إلا صفيراً وتصفيقاً، وكانوا يفعلونها إذا صلى المسلمون ليخلطوا عليهم صلاتهم، والمعنى أنهم وضعوا مكان الصلاة والتقرب إلى الله التصفير والتصفيق، وكانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون. وهذا من جملة قبائحهم.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: فذوقوا عذاب القتل والأسر يوم بدر بسبب كفركم وأفعالكم القبيحة، التي لا يقدم عليها إلا الكفرة الجاحدون توحيد ربهم، ورسالة نبيهم.

* ثم ذكر تعالى مبيناً لعداوة المشركين وكيدهم ومكرهم، ومبارزتهم لله ولرسوله، وسعيهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وأن وبال مكرهم سيعود عليهم، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، قال تعالى:

﴿٣٦﴾، ﴿٣٧﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: أن الذين جحدوا الله وعصوا رسوله، يصرفون أموالهم ويبذلونها لمنع الناس عن الدخول في دين الإسلام، ولحرب محمد ﷺ، وذلك أنه لما أصيب كفار قريش يوم بدر، ورجع فلهم إلى مكة، قالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا، فنزلت الآية.

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ فسينفقون هذه الأموال ثم تصير ندامة وحسرة عليهم؛ لأن أموالهم تذهب ولا يظفرون بما كانوا يطمعون من إطفاء نور الله والصد عن سبيله.

﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ إخبار بالغيب، أي: ثم نهايتهم الهزيمة والاندحار وعدم الظفر، فكان ما وعد، وهذا من دلائل النبوة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ والذين أنفقوا أموالهم لصد الناس عن الإيمان بالله والصد عن سبيله، وماتوا على الكفر منهم يساقون إلى جهنم، فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك، وقال ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ لأن منهم من أسلم وحسن إسلامه.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: ليفرق الله بين جند الرحمن وجند الشيطان، ويفصل بين المؤمنين الأبرار والكفرة الأشرار، والمراد بالخبيث والطيب، الكافر والمؤمن.

﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يجعل الكفار بعضهم فوق بعض.

﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ أي: يجعلهم كالركام متراكماً بعضهم فوق بعض لشدة الازدحام، فيقذف بهم في نار جهنم.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الخسران، لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم التي اشتروا بها عذاب الآخرة.

* ثم دعا تعالى المشركين إلى التوبة والإنابة، وحذرهم من الإصرار على الكفر والضلال، وهذا من لطفه تعالى بعباده، لا يمنعه كفر العباد ولا استمرارهم في العناد من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى، وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغي والردى، فقال سبحانه:

(٣٨)-(٤٠) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ قل -يا محمد- لهؤلاء المشركين من قومك، إن ينتهوا عن الكفر ويؤمنوا بالله ويتركوا قتالك وقتال المؤمنين، يغفر لهم ما قد سلف من الذنوب والآثام، فالإسلام يجب ما قبله. وذلك من رحمة الله وعفوه، وذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم والمآثم، فلو كان بوجب مؤاخذتهم لما استدركوا أبداً توبة، ولا نالتهم مغفرة؛ فيسر الله عليهم قبول التوبة عند الإنابة، وبذل المغفرة بالإسلام، وهدم جميع ما تقدم، ليكون ذلك أقرب إلى دخولهم في الدين، وأدعى إلى قبولهم كلمة الإسلام.

﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: وإن عادوا إلى قتالك وتكذيبك ومكرهم وعنادهم، ويستمروا على ما هم فيه فقد مضت سنة الله في تدمير وإهلاك المكذبين لأنبيائه، فكذلك نفعل بهم، وهذا وعيد شديد لهم بالدمار إن لم يقلعوا عن المكابرة والعناد.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: قاتلوا يا معشر المؤمنين أعداءكم المشركين حتى لا يكون شرك ولا يُعبد إلا الله وحده، وحتى لا يفتن مؤمن عن دينه. قال ابن عباس: الفتنة: الشرك، أي حتى لا يبقى مشرك على وجه الأرض.

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: تضمحل الأديان الباطلة، وحتى يكون الدين والطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره، واضمحلالها إما بهلاك أهلها جميعاً، أو برجوعهم عنها خشية القتل، لقوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» [رواه البخاري].

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فإن انزجروا عن الكفر وأسلموا فإن الله مطلع على قلوبهم، يثيبهم على توبتهم وإسلامهم، وهو سبحانه لا يخفى عليه ما يعملون من ترك الكفر والدخول في الإسلام.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: وإن لم ينتهوا عن كفرهم وأعرضوا عن الإيمان؛ فاعلموا يا معشر المؤمنين أن الله ناصركم ومعينكم عليهم، فثقوا بنصرته وولايته ولا تبالوا بمعاداتهم لكم.

﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ نعم المعين والناصر لكم، هو مولاكم فإنه لا يضيع من تولاه، ونعم النصير لكم فإنه لا يغلب من نصره.

* لما أمر تعالى بقتال المشركين، وذكر فيما تقدم طرفاً من غزوة بدر، وكان لا بد بعد القتال من أن يغنم المجاهدون الغنائم - وهي أموال المشركين - على طريق القهر والظفر، ذكر سبحانه هنا حكم الغنائم وكيفية قسمتها، فقال:

(٤١) ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: اعلموا أيها المؤمنون أن ما ظفرتم به من عدوكم بالجهاد في سبيل الله سواء كان قليلاً أو كثيراً.

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ أي: وباقيه لكم أيها الغانمون، قال المفسرون: تقسم الغنيمة خمسة أقسام: فيعطى الخمس لمن ذكر الله تعالى في هذه الآية، والباقي يوزع على الغانمين.

﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ أي: سهم من الخمس يعطى للرسول ﷺ.

﴿وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: قرابة الرسول ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: ولهؤلاء الأصناف من

۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن
كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ
يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١ إِذۡ
أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ
أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ
وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ
هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ
لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ٤٢ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ
وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤٣ وَإِذۡ
يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ
فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ
تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ
فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥

١٨٢

اليتامى الذين مات آباؤهم، والفقراء من ذوي الحاجة، والمنقطع في سفره من المسلمين.

﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ جواب الشرط محذوف تقديره: إن كنتم آمنتم بالله؛ فاعلموا أن هذا هو حكم الله في الغنائم فامتثلوا أمره بطاعته وارضوا بهذه القسمة.

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ أي: وبما أنزلنا على محمد ﷺ من الآيات والمدد والنصر، يوم بدر؛ وسماه فرقاناً لأن الله فرق فيه بين الحق والباطل.

﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ أي: جمع المؤمنين وجمع الكافرين، والتقى فيه جند الرحمن بجند الشيطان، وفي هذا بيان لمنته تعالى وإحسانه إلى خلقه، بما فرق بين الحق والباطل ببدر.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر لا يعجزه شيء، ومنه نصركم مع قلتكم وكثرتهم.

* ثم ذكر حال وموقع المسلمين والمشركين في يوم بدر، فقال تعالى:

(٤٢) ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ أي وقت كنتم يا معشر المؤمنين بجانب الوادي القريب إلى المدينة، وأعداؤكم المشركون بجانب الوادي الأبعد عن المدينة.

﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾ أي: والعير التي فيها تجارة قريش في مكان أسفل من مكانكم؛ فيما يلي ساحل البحر الأحمر على ثلاثة أميال من بدر.

﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ أي: ولو حاولتم أن تضعوا موعداً لهذا اللقاء أنتم والمشركون على القتال لاختلفتم، ولكن الله بحكمته يسر وتم ذلك على غير ميعاد؛ لأن رسول الله ﷺ والمسلمون خرجوا يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير معاد، ولو تواعدتم أنتم وأهل مكة على القتال لخالف بعضكم بعضاً لقلتكم وكثرتهم.

﴿وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ أي: ولكن جمع بينكم على غير ميعاد ليقضي الله ما أراد بقدرته، من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، فكان أمراً متحققاً واقعاً لا محالة. والغرض من الآية أن يتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح، ليس إلا صنعاً من الله ﷻ خارقاً للعادات، فيزدادوا إيماناً وشكراً، وتطمئن نفوسهم بفرض الخمس.

﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ أي: فعل ذلك تعالى ليكفر من كفر عن وضوح وبيان، وحجة قامت عليه.

﴿وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ أي: ويؤمن من آمن عن وضوح وبيان، فإن وقعة بدر من الآيات الباهرات على نصر الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لأقوال العباد ودعائهم وتضرعهم، عليم بنياتهم لا يخفى عليه شيء.

* ثم ذكر تعالى ما كان من إرهاصات ومقدمات لنصر يوم بدر، فقال:

(٤٣)، (٤٤) ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ

الجزء العاشر — سورة الأنفال

وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ
رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟
كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ
لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ
ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ
عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا
تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ
ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ
وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ
تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾
كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

١٨٣

أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ﴾ أي: اذكر - يا محمد - حين أراك الله في المنام قلة عدوك في منامك، فبشرت بها أصحابك حتى قويت نفوسهم وتشجعوا على حربهم. قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم.

﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ ولو أراك ربك عدوك كثيراً لتردد أصحابك ولم يقدروا على ملاقاة القوم، وانظر إلى محاسن القرآن فإنه لم يسند الفشل إليه ﷺ؛ لأنه معصوم، بل قال: ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾ إشارة إلى أصحابه.

﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ﴾ أي: ولاختلفتم يا معشر الصحابة في أمر قتالهم، ولكن الله عصم وأنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع والفرقة.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: عليم بخفايا القلوب وطبائع النفوس يعلم ما يغير أحوالها من الشجاعة والجبن، والصبر والجزع. قال ابن عباس: علم ما في صدوركم من الحب لله ﷻ.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ هذه الرؤية باليقظة لا بالمنام، أي: واذكروا يا معشر المؤمنين حين التقيتم في المعركة فقلل الله عدوكم في أعينكم لتزداد جرأتكم عليهم، وقللكم في أعينهم حتى لا يستعدوا ويتأهبوا لكم. قال ابن مسعود: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل: أتراهم يكونون مائة؟ وهذا قبل التحام الحرب، فلما التحم القتال كثر الله المؤمنين في أعين الكفار فبهتوا وهابوا، وقلت شوكتهم، ورأوا ما لم يكن في الحسبان، وهذا من عظائم آيات الله في تلك الغزوة، ومن لطفه تعالى بالمؤمنين.

﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ﴾ أي: فعل ذلك، فجرأ المؤمنين على الكافرين، والكافرين على المؤمنين، لتقع الحرب ويلتحم القتال، وينصر الله جنده ويهزم الباطل وحزبه، وتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: مصير الأمور كلها إلى الله يصرفها كيف يريد، لا معقب لحكمه وهو الحكيم المجيد.

* ثم أرشد تعالى إلى سبيل النصر، ومقارعة الكفار، وآداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال تعالى:

﴿٤٥﴾، ﴿٤٦﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي: إذا لقيتم جماعة من الكفرة قد استعدوا لقتالكم، وترك وصفها؛ لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاء اسم غالب للقتال.

﴿فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فاثبتوا لقتالهم ولا تنهزموا، واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر الله بألسنتكم لتستمطروا نصره وعونه، وتفوزوا بالظفر عليهم. قال قتادة: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكونون: عند الضراب بالسيوف.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ أي: التزموا طاعة الله وطاعة رسوله في جميع أقوالكم وأفعالكم، ولا تخالفوا أمرهما في شيء، ولا تختلفوا فيما بينكم، فتضعفوا وتجبنوا عن لقاء عدوكم.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾ أي: تذهب قوتكم وبأسكم، ويدخلكم الوهن والخور.

﴿وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ واصبروا على لقاء العدو، وشدائد الحرب وأهوالها، فإن الله مع الصابرين بالنصر والعون، ولن يخذلهم. وقد كان للصحابة ﷺ في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله به، وامتثال ما أرشدهم إليه لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم.

* وبعد أن عدد تعالى موجبات النصر ودعائمه، حذر من ضده وما خالفه، ناهياً عباده المؤمنين عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم، فقال:

﴿٤٧﴾-﴿٤٩﴾ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٞ * وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: لا تكونوا ككفار قريش حين خرجوا لبدر عتواً وتكبراً، وطلباً للفخر والثناء، فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرائين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى والكآبة والحزن من خشية الله، مخلصين أعمالهم لله. والبطر: أن تشغله كثرة النعمة عن شكرها، والآية إشارة إلى قول أبي جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنشرب فيها الخمور وننحر الجزور، وتعزف علينا القيان ـ المغنيات ـ وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فذلك بطرهم ورياؤهم الناس، فسقوا مكان الخمر كؤوس المنايا، وناحت عليهم النوائح مكان القيان.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: ويمنعوا الناس عن الدخول في دين الله.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ وهو سبحانه عالم بجميع ذلك، لا يغيب عنه شيء، وسيجازيهم عليه، وهذا وعيد لهم.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: واذكروا حين حسن الشيطان للمشركين أعمالهم القبيحة من الشرك وعبادة الأصنام، وخروجهم لحرب الرسول ﷺ.

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: وقال لهم: لن يغلبكم محمد وأصحابه.

﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمْۖ﴾ أي: مجير ومعين لكم على محمد وأصحابه.

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: فلما تلاقى الفريقان المشركون ومعهم الشيطان، والمسلمون ومعهم الملائكة، ولى الشيطان هارباً مدبراً.

﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمْ﴾ وقال الشيطان للمشركين: إني بريء من عهد جواركم، وهذا مبالغة في الخذلان لهم.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ إني أرى الملائكة الذين جاؤوا مدداً نازلين لنصرة المؤمنين وأنتم لا ترون ذلك، وفي الحديث: «ما رُئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر، ولا أدحر، ولا أحقر، ولا أغيظ منه في يوم عرفة، إلا ما رأى يوم بدر، فإنه رأى جبريل يزرع الملائكة» [رواه مالك في الموطأ] أي: يصفها للحرب.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: إني أخاف الله أن يعذبني لشدة عقابه لمن عصاه، ولم يتب توبة نصوحاً. قال ابن عباس: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه؛ رأيته في صورة سراقة بن مالك فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل ﷺ إلى إبليس، فلما رآه -وكانت يده في يد رجل من

المشركين- انتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، وكذب عدو الله فإنه علم أنه لا قوة له ولا منعة، وذلك حين رأى الملائكة.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: واذكروا حين قال أهل الشك والنفاق الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر لضعف اعتقادهم بالله وهم يرون قلة المسلمين وكثرة عددهم.

﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ أي: اغتر المسلمون بدينهم فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به، ظنّوا أنهم سيهزمونهم، لا يشكون في ذلك. قال تعالى في جوابهم ما لم يدركوه ويعرفوه:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ومن يعتمد على الله ويثق به فإن الله ناصره؛ لأن الله عزيز، أي غالب لا يذل من استجار به، حكيم في أفعاله وصنعه.

* ثم ذكر تعالى مصارع المشركين وحالهم عند الموت، فقال:

﴿٥٠﴾، ﴿٥١﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولو رأيت وشاهدت - يا محمد - حالتهم ببدر حين تقبض ملائكة العذاب أرواح الكفرة المجرمين وتنزعها، وجواب (لَوْ) محذوف للتهويل، أي: لرأيت أمراً فظيعاً وشأناً هائلاً، لا يكاد يوصف.

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: تضربهم الملائكة من أمامهم في حال إقبالهم، ومن خلفهم حال فرارهم، وعلى وجوههم، وظهورهم بمقامع من حديد.

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: ويقولون لهم: ذوقوا يا معشر الفجرة عذاب النار المحرق، وهذا بشارة لهم بعذاب الآخرة، وقيل: كانت معهم أسواط من نار يضربونهم بها فتشتعل جراحاتهم ناراً.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: ذلك العذاب الذي أصابكم أيها المشركين في بدر فبسبب ما كسبتم من الكفر والآثام، وأنه تعالى عادل ليس بذي ظلم لأحد من العباد حتى يعذبه بغير ذنب، فقد أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأوضح لهم السبيل، وهداهم النجدين، وصيغة ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ ليست للمبالغة، وإنما هي للنسب، أي: ليس منسوباً إلى الظلم، فقد انتفى أصل الظلم عنه تعالى لكمال عدله.

* لما ذكر سبحانه ما أنزله بأهل بدر، أتبعه بما يدل على أن هذه سنته في فرق الكافرين، فقال تعالى:

﴿٥٢﴾ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: إن ما نزل بالمشركين يومئذ سنة الله في عقاب الطغاة دأب هؤلاء الكفرة من الأمم وطريقتهم، كقوم نوح وعاد وثمود في العناد والتكذيب والكفر والإجرام.

﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: جحدوا ما جاءهم به الرسل من عند الله، فأهلكهم بكفرهم وتكذيبهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: قوي البطش لا يُقهر، شديد العذاب لمن عصاه ولم يتب من ذنبه، لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب.

* ثم ذكر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه، فقال:

﴿٥٣﴾، ﴿٥٤﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي: ذلك الذي حل بهم من العذاب الشديد بسبب أن الله عادل في حكمه، لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، وأنه لا يبدل النعمة بالنقمة.

﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ حتى يبدلوا نعمة الله بالكفر والعصيان،

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ
يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ
فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾
إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ
﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ
مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم
مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ
خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ
﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ
﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ
تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ
لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ
فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾

١٨٤

كتبديل كفار قريش نعمة الله من الخصب والسعة والأمن والعافية؛ بالكفر والصد عن سبيل الله وقتال المؤمنين. قيل: نعمة الله على قريش محمد ﷺ فكفروا به وكذبوه، فنقله الله إلى المدينة وحل بالمشركين العقاب.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ وأنه سبحانه سميع لما يقولون، عليم بما يفعلون؛ وبمن يستحق العقاب منهم.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ كرره لزيادة التشنيع والتوبيخ على إجرامهم، أي: شأن هؤلاء وحالهم كشأن وحال المكذبين السابقين الذين كذبوا موسى، ومثل الذين كذبوا رسلهم من الأمم السابقة، حيث غيروا حالهم فغير الله نعمته عليهم.

﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي: فأهلكهم الله بسبب ذنوبهم كل بحسب جرمه، بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالحجارة، وبعضهم بالغرق ولهذا قال:

﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أي: أغرقنا فرعون وقومه معه في البحر، وكل من الفرق المكذبة كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي حيث عرضوها للعذاب.

* ثم ذكر أصنافاً جمعوا خصالاً ثلاثة: الكفر، وعدم الإيمان، والخيانة، بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ولا قول قالوه، قال تعالى:

﴿٥٥﴾-﴿٥٧﴾ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: شر ما يدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الذين أصروا على الكفر ورسخوا فيها، فهم لا يصدقون رسل الله ولا يقرون بوحدانيته، ولا يتبعون شرعه، ولا يرجعون عن الغواية أصلاً. نزلت الآية في بني قريظة من اليهود، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه عاهدهم رسول الله ﷺ ألا يحاربوه فنقضوا العهد.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ أي: من أولئك الأشرار اليهود الذين دخلوا معك في المعاهدات بأن لا يحاربوك ولا يظاهروا عليك أحداً، ثم ينقضون عهدهم المرة تلو المرة.

﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ أي: يستمرون على النقض للعهود مرة بعد مرة، وهم لا يخافون الله في نقض العهد ولا يبالون بما فيه من العار والنار. قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قد عاهد يهود بني قريظة ألا يحاربوه ولا يعاونوا عليه المشركين، فنقضوا العهد وأعانوا عليه كفار مكة بالسلاح يوم بدر، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا فعاهدهم مرة أخرى، فنقضوا العهد ومالؤوا الكفار يوم الخندق.

﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ أي: فإن تظفر بهؤلاء الناقضين للعهود والمواثيق في الحرب، فاقتلهم، ونكل بهم تنكيلاً شديداً ما يُدخل الرعب في قلوب الآخرين، ويشتت جموعهم وجموع غيرهم من الكفرة المجرمين.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لعل المشردين من ورائهم يتعظون بما شاهدوا فيرتدعوا، ولا يجترئون على مثل الذي أقدم عليه السابقون، فيكونون عبرة لغيرهم حتى لا يبقى لهم قوة على محاربتك.

(٥٨) ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ أي: وإن أحسست ـ يا محمد ـ من قوم معاهدين خيانة للعهد ونكثاً بأمارات ظاهرة تلوح لك.

﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: وإما تخافن من قوم ـ بينك وبينهم عهد ـ خيانة فانبذ إليهم العهد، أي: قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة وغدراً. قال النحاس: هذا من معجز ما جاء في القرآن مما لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ وهذا كالتعليل للأمر بنبذ العهد، أي: لا يحب من ليس عنده وفاء ولا عهد ولا ميثاق.

(٥٩)، (٦٠) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۞ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ﴾ أي: لا يظنن الذين جحدوا آيات الله أنهم فاتوا ونجوا يوم بدر من القتل أنهم فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هو في قبضتنا وتحت مشيئتنا وقهرنا، ولن يفلتوا من عذاب الله.

﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ كلام مستأنف، أي: إنهم لا يعجزون ربهم ولا يفوتونه، بل هو قادر على الانتقام منهم في كل لحظة، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء. ثم أمر تعالى، بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ وأعدوا ـ يا معشر المسلمين ـ لقتال أعدائكم ومواجهتهم، كل ما تقدرون عليه من عدد وعدة، وإنما ذكر القوة هنا لأنه لم يكن لهم في بدر استعداد تام من خيل وسلاح، فنبهوا على أن النصر من غير استعداد لا يتأتى في كل زمان.

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ أي: الخيل التي تربط في سبيل الله.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي: لتدخلوا بذلك الرهبة والخوف بتلك القوة في قلوب الكفار، أعداء الله وأعدائكم المتربصين بكم.

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ أي: وترهبون به آخرين غيرهم، لا تظهر لكم عداوتهم الآن. قيل: هم المنافقون، أو هم اليهود من بني قريظة.

﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي: لا تعلمون ما هم عليه من النفاق ولكن الله يعلمهم، ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذل النفقات المالية في جهاد الكفار؛ ولهذا قال تعالى مرغباً في ذلك وحاثاً عليه:

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: وما تنفقوا من مال وغيره في الجهاد والدفاع عن الإسلام وفي سائر وجوه الخيرات، تجدون جزاءه وافياً كاملاً يوم القيامة، ويخلفه الله عليكم في الدنيا، ويدخر لكم ثوابه إلى يوم القيامة.

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: لا تنقصون من ذلك الأجر شيئاً.

* لما أمر الله تعالى بإعداد العدة لإرهاب الأعداء، أمر هنا بالسلم لبعض الظروف والأحوال، بشرط العزة والكرامة متى وجد السبيل إليه، قال تعالى:

(٦١)-(٦٣) ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ أي: إن مال الكفار المحاربون إلى الصلح والمهادنة وترك الحرب، ورغبوا في مسالمتكم، فمل إليه وأجبهم إلى ما طلبوا إن كان فيه مصلحة.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: فوض الأمر إلى الله ليكون عوناً لك من السلامة، فإنه

وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ
بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ
مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ
ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ
يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ
ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ
صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ
أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ
أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ
ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ
مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ
مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾

١٨٥

هو سبحانه السميع لأقوالهم العليم بنياتهم.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: وإن أرادوا بالصلح خداعك والمكر بك ليستعدوا لقتالك، فإن الله يكفيك خداعهم وشرورهم بالنكث والغدر، وهو حسبك. ثم ذكره بنعمته عليه مما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: لا تخف من خدعهم ومكرهم، فإن الله هو الذي أنزل عليك نصره، وقواك وأعانك وشد أزرك بالمؤمنين، من المهاجرين والأنصار فيما مضى.

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ وجمع بين قلوبهم على ما كان بينهم من العداوة والبغضاء، فأبدلهم بالعداوة حباً، وبالتباعد قرباً، وكان تأليف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي ﷺ ومعجزاته؛ لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عليها، وكانوا أشد خلق حمية، فألف الله بينهم بالإيمان، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين.

﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: لو أنفقت في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال ما قدرت على تأليف قلوبهم واجتماعها على محبة بعضهم بعضاً؛ لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا الله تعالى.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي: ولكنه سبحانه بقدرته البالغة جمع بينهم على الإيمان فأصبحوا إخواناً متحابين، فإنه المالك للقلوب كيف يشاء.

﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ أي: غالب على أمره لا يفعل شيئاً إلا عن حكمة.

* ثم حرض تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، فقال:

﴿٦٤﴾-﴿٦٦﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ * ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يا أيها النبي إن الله وحده كافيك، وكافي أتباعك من شر أعدائكم، فلا تحتاجون معه إلى أحد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ يا أيها النبي حث وحض المؤمنين ورغبهم بكل جهدك على قتال المشركين؛ ثم بشرهم تثبيتاً لقلوبهم وتسكيناً لخواطرهم:

﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ إن يوجد منكم يا معشر المؤمنين عشرون صابرون على شدائد الحرب يغلبوا مائتين من عدوهم بعون الله وتأييده، وهذا وعد كريم منه تعالى بغلبة كل جماعة من المؤمنين صابرة على عشرة أمثالهم من الكفار بعون الله وتأييده.

﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: وإن يوجد منكم مائة مجاهدة صابرة، يغلبوا ألفاً من الكفار بمشيئة الله.

﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ الباء سببية، أي: سبب ذلك بأن الكفار قوم

جهلة لا يفقهون حكمة الله، ولا يعرفون طريق النصر وسببه، فهم يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب، فهم يقاتلون من أجل العلو في الأرض والفساد فيها فلذلك يغلبون. قال ابن عباس: كان ثبات الواحد للعشرة فرضاً، فلما شق ذلك عليهم نسخ وأصبح ثبات الواحد للاثنين فرضاً.

﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ أي: رفع عنكم ما فيه مشقة عليكم، وعلم ضعفكم فرحمكم في أمر القتال.

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ أي: إن يوجد منكم مائة صابرة على الشدائد يتغلبوا على مائتين من الكفرة.

﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: وإن يوجد منكم ألف صابرون في ساحة اللقاء، يتغلبوا على ألفين من الأعداء، بتيسير الله وتسهيله.

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ هذا ترغيب في الثبات وتبشير بالنصر، أي: الله معهم بالحفظ والرعاية والنصرة، ومن كان الله معه فهو الغالب.

* ثم ذكر ﷻ معاتبته لرسوله وللمؤمنين يوم بدر، إذ أسروا المشركين، وأبقوهم لأجل الفداء، فقال تعالى:

﴿٦٧-٦٩﴾ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: لا ينبغي ولا يصح لنبي من الأنبياء أن يأخذ الفداء من الأسرى إلا بعد أن يكثر القتل ويبالغ فيه، لإدخال الرعب في قلوبهم ويوطد دعائم الدين، عن عمر رضي الله عنه قال: لما هزم المشركون يوم بدر، وقتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً، فقال أبوبكر: يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، قال رسول الله: «ما ترى يا ابن الخطاب!» قلت: والله ما أرى ما رأى أبوبكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة على المشركين، هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبوبكر الصديق ولم يهو ما قلت فأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبوبكر وهما يبكيان، فقلت يا رسول الله: أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت، فقال ﷺ: «أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من الفداء، لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة؛ فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الآية.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ تريدون أيها المؤمنون بأخذ الفداء من أسرى بدر حطام الدنيا ومتاعها الزائل، وسماه عرضاً لقلة بقائه وسرعة فنائه.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ أي: يريد لكم الباقي الدائم، وهو ثواب الآخرة، بإعزاز دينه وقتل أعدائه وقهرهم.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ أي: عزيز في ملكه لا يقهر ولا يغلب، حكيم في تدبير مصالح العباد.

﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا حكم في الأزل من الله سبق به القضاء والقدر بإباحة الغنيمة وفداء الأسرى لهذه الأمة، وأنه تعالى لا يعذب المخطئ في اجتهاده.

﴿لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي: لأصابكم ونالكم في أخذ الغنيمة والفداء من الأسرى عذاب عظيم.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ أي: كلوا يا معشر المجاهدين مما أصبتموه من أعدائكم من الغنائم في الحرب حال كونه حلالاً أي محللاً لكم ﴿طَيِّبٗا﴾ أي؛ من أطيب المكاسب لأنه ثمرة جهادكم، وهذا من لطفه

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ
فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ
مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ
وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ
بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ
وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ
بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥

١٨٦

تعالى بهذه الأمة، أن أحل لها الغنائم، ولم يحلها لأمة قبلها، وفي الصحيح: «وجعل رزقي تحت ظل رمحي» [رواه البخاري].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ أي: خافوا الله في مخالفة أمره ونهيه شكراً لنعم الله عليكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: مبالغ في المغفرة لمن تاب، رحيم بعباده؛ حيث أباح لهم الغنائم وجعلها حلالاً طيباً.

﴿٧٠﴾، ﴿٧١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ * وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ أي: قل لهؤلاء الذين وقعوا في الأسر من الأعداء، يوم بدر.

﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ أي: لا تأسوا على الفداء الذي أخذ منكم، إن يعلم الله في قلوبكم إيماناً وإخلاصاً، وصدقاً في دعوى الإيمان.

﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ أي: يعطكم أفضل مما أخذ منكم من الفداء، بأن يشرح صدوركم للإسلام، ويمحو عنكم ما سلف من الذنوب.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: واسع المغفرة، عظيم الرحمة لمن تاب وأناب. نزلت في العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابني أخويه عقيل ونوفل، فقال يا محمد: تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت، فقال: «أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في جهتي هذه، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعيالك» فقال العباس: ما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربي تعالى»، قال: فأشهد أنك صادق، وأن لا إله إلا الله وأنك رسوله، والله لم يطلع عليه أحد، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي -يعني الموعود- بقوله تعالى: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: وإن يرد هؤلاء الأسرى الذين أطلقت سراحهم -يا محمد- خيانتك بما أظهروا من القول ودعوى الإيمان، فلا تيأس، فقد خانوا الله تعالى قبل هذه الغزوة غزوة بدر.

﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ أي: فقواك ونصرك الله عليهم؛ وجعلك تتمكن من رقابهم، فإن عادوا إلى الخيانة فسيمكنك منهم أيضاً. والخيانة نقض العهد، والعهد الذي أعطوه هو العهد بأن لا يعودوا إلى قتال المسلمين.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عالم بجميع ما يجري، يفعل ما تقضي به حكمته البالغة.

* ثم ساقت الآيات عقد موالاة ومحبة، عقدها الله بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله وتركوا أوطانهم لأجل الجهاد في سبيل الله، وبين الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ وأصحابه وأعانوهم في ديارهم وأموالهم وأنفسهم، قال تعالى:

﴿٧٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ أي: صدقوا الله ورسوله، وتركوا وهجروا الديار والأوطان إلى ديار الإسلام حبّاً في الله ورسوله.

﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: جاهدوا الأعداء بالأموال والأنفس؛ لإعزاز دين الله، وهم المهاجرون ﷺ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ آووا المهاجرين في ديارهم وواسوهم بأموالهم ونصروا رسول الله، وهم الأنصار ﷺ.

* ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: أولئك الموصوفون بالصفات الفاضلة بعضهم أولياء بعض في النصرة والأخوة، ولهذا آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ أي: آمنوا وأقاموا بمكة فلم يهاجروا إلى المدينة، وهذا هو الصنف الثالث من المؤمنين بعد أن ذكر المهاجرين والأنصار.

﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ أي: فلستم مكلفين بحمايتهم ونصرتهم حتى يهاجروا من بلد الكفر.

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ وإن وقع عليهم ظلم من الكفار، فطلبوا منكم النصرة لأجل إعزاز الدين، فعليكم أن تنصرهم على أعدائهم لأنهم إخوانكم.

﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ إلا إذا استنصركم على من بينكم وبينهم عهد ومهادنة فلا تعينوهم عليهم إذ الميثاق مانع من ذلك.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: رقيب على أعمالكم، فلا تخالفوا أمره.

* لما ذكر تعالى المؤمنين وقسمهم إلى ثلاثة أقسام: المهاجرون، والأنصار، والذين لم يهاجروا، فبدأ بالمهاجرين؛ لأنهم أصل الإسلام وقد هجروا الديار والأوطان ابتغاء رضوان الله، وثنى الأنصار؛ لأنهم نصروا الله ورسوله وجاهدوا بالنفس والمال، وجعل بين المهاجرين والأنصار الولاية والنصرة، ثم ذكر حكم المؤمنين الذين لم يهاجروا وبيّن أنهم حرموا الولاية حتى يهاجروا في سبيل الله، وبعد ذكر هذه الأقسام الثلاثة ذكر حكم الكفار، فقال:

(٧٣) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ والذين كفروا بعضهم نصراء وأعوان بعض، فهم في الكفر والضلال ملة واحدة.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: وإن لم تفعلوا ما أمرتم به من تولي المؤمنين وقطع الكفار.

﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي: تحصل في الأرض فتنة عظيمة ومفسدة كبيرة، لأنه يترتب على ذلك قوة الكفار وضعف المسلمين.

* لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا ومدحهم ذكر ما أعد لهم في الآخرة، فقال تعالى:

(٧٤)، (٧٥) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والذين آمنوا بالله ورسوله، وتركوا ديارهم قاصدين أهل الإسلام ودولتهم وجاهدوا لإعلاء كلمة الله؛ هم المهاجرون أصحاب السبق إلى الإسلام.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ وهم الأنصار أصحاب الإيواء والإيثار، نصروا إخوانهم المهاجرين وآووهم، وواسوهم بالمال والتأييد.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ أي: هؤلاء هم الكاملون في الإيمان، المتحققون في مراتب الإحسان؛ لأنهم صدقوا إيمانهم وحققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الأهل والسكن، والانسلاخ من المال والدنيا لأجل الدين والعقبى.

﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لهم مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم واسع في جنات النعيم، لا منة فيه ولا تنغيص. قال المفسرون: ليس في هذه الآيات تكرار، فالآيات السابقة تضمنت الولاية والنصرة بين المؤمنين، وهذا تضمنت الثناء والتشريف، ومآل حال

أولئك الأبرار من المغفرة والرزق الكريم في دار النعيم.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ هذا قسم رابع، وهم المؤمنون الذين هاجروا بعد الهجرة الأولى فحكمهم حكم المؤمنين السابقين في الثواب والأجر، جعلهم منهم تفضلاً وترغيباً.

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: أصحاب القرابات بعضهم أحق بإرث بعض من الأجانب في حكم الله وشرعه. قال العلماء: هذه ناسخة للإرث بالحلف والإخاء.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: أحاط بكل شيء علماً، فكل ما شرعه الله حكمة وصواب وصلاح، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهو ختم للسورة في غاية البراعة.

تم تفسير سورة الأنفال
والحمد لله

تفسير سورة التوبة
وهي مكية

* سورة التوبة من السور المدنية التي تعنى بجانب التشريع، وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ. فقد روى البخاري عن البراء بن عازب أن آخر سورة نزلت سورة براءة، وروى الحافظ ابن كثير: أن أول هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ عند مرجعه من غزوة تبوك، فقد بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة، ليقيم للناس، مناسكهم، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه مبلغاً عن رسول الله ﷺ ما فيها من الأحكام. نزلت في السنة التاسعة من الهجرة، وهي السنة التي خرج فيها رسول الله ﷺ لغزو الروم، واشتهرت بين الغزوات النبوية بـ «غزوة تبوك» وكانت في حرّ شديد، وسفر بعيد، حين طابت الثمار، وأخلد الناس إلى نعيم الحياة، فكانت ابتلاء لإيمان المؤمنين، وامتحاناً لصدقهم وإخلاصهم لدين الله، وتمييزاً بينهم وبين المنافقين، وقد استغرق الحديث عنهم معظم السورة بدءاً من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة: ٤٢ ـ ١١٠] ولهذا سماها بعض الصحابة الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين وكشفت أسرارهم. قال سعيد بن جبير: سألت ابن عباس عن سورة براءة، فقال: تلك الفاضحة ما زال ينزل: ومنهم ومنهم، حتى خفنا ألا تدع منهم أحداً. وروي عن حذيفة ابن اليمان أنه قال: إنكم تسمونها سورة التوبة، وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحداً من المنافقين إلا نالت منه، وهذا هو السر في عدم وجود البسملة فيها. قال ابن عباس: سألت علي بن أبي طالب لم لم يكتب في براءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قال: لأن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أمان، وبراءة نزلت بالسيف، ليس فيها أمان، وقال سفيان بن عيينة: إنما لم تكتب في صدر هذه السورة البسملة؛ لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت بالمنافقين وبالسيف، ولا أمان للمنافقين.

وتسمى هذه السورة بأسماء عديدة أوصلها بعض المفسرين إلى أربعة عشر اسماً، منها: براءة، والتوبة، والمقشقشة، والمبعثرة، والمشردة، والمخزية، والفاضحة، والمثيرة، والحافرة، والمنكلة، والمدمدمة، وسورة العذاب، قيل: لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق أي تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين، وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها، وتفضحهم، وتنكل بهم، وتشردهم، وتخزيهم، وتدمدم عليهم.

﴿١﴾، ﴿٢﴾ ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: هذه براءة من الله ورسوله من المشركين ومن عهودهم التي كانت بين المسلمين والمشركين. قال المفسرون: أخذت العرب تنقض عهوداً عقدتها مع رسول الله ﷺ فأمره الله بإلقاء عهودهم إليهم، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج ليقيم للناس المناسك، ثم أتبعه علياً ليعلم الناس بالبراءة، فقام علي فنادى في الناس بأربع: ألا يقرب البيت الحرام بعد العام مشرك،

وألا يطوف بالبيت عريان، وأنه لا يدخل الجنة إلا مسلم، ومن كان بينه وبين رسول الله مدة فأجله إلى مدته، والله بريء من المشركين ورسوله.

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ أي: فسيروا أيها المشركون في الأرض مدة أربعة أشهر تذهبون حيث شئتم آمنين من المؤمنين لا يقع بكم مكروه، وهو أمر إباحة في ضمنه تهديد. والسيح: السير على مهل، وبعد الأربعة الأشهر فلا عهد لكم ولا ميثاق. ثم أنذر المعاهدين في مدة عهدهم أنهم وإن كانوا آمنين فإنهم لن يعجزوا الله:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ واعلموا أن هذا الإمهال هذه المدة ليس لعجز، ولكن لمصلحة ليتوب من تاب، وفي ذلك ضرب من التهديد.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: وأن من استمر منكم على شركه فإن الله مذله في الدنيا بالأسر والقتل، وفي الآخرة بالعذاب الشديد.

* ثم ذكر تعالى ما وعد الله به المؤمنين من نصر دينه وإعلاء كلمته، وخذلان أعدائهم، فقال تعالى:

٣ ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: وإعلام من الله ورسوله وإنذار إلى كافة الناس؛ بتبرّؤ الله تعالى ورسوله من المشركين.

﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ أي: يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعاً، وقد وصف الحج بالأكبر؛ لأن العمرة تسمى الحج الأصغر، لنقصان أعمالها.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: إعلام لهم بأن الله بريء من المشركين وعهودهم، ورسوله بريء منهم كذلك. ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة، ورهبهم من الاستمرار على الشرك، فقال:

﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي: فإن تبتم - أيها المشركون - عن الكفر ورجعتم إلى توحيد الله فهو خير لكم من التمادي في الضلال.

﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ وإن أعرضتم عن قبول الحق والدخول في الإسلام، وأبيتم إلا الاستمرار على الغي والضلال، فاعلموا أنكم لا تفوتون الله طلباً، ولا تعجزونه هرباً بل أنتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: وأنذر - يا محمد - هؤلاء المعرضين عن الإسلام بعذاب مؤلم موجع يحل بهم في الدنيا بالقتل والأسر

الجزء العاشر سورة التوبة

سُورَةُ التَّوْبَةِ

بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١
فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي
ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ
إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ
وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ
أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا
وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ
فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ
وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ
ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ وَإِنۡ أَحَدٞ
مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ
ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦

١٨٧

والجلاء، وفي الآخرة بالنار وبئس القرار، وجعل الإنذار بشارة على سبيل الاستهزاء بهم، وفي هذا وعيد عظيم لهم.

* ثم استثنى تعالى من قوله ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ فقال:

٤ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: ويُستثنى من الحكم السابق الذين عاهدتموهم ولم ينقضوا العهد فأتموا إليهم عهدهم، ولا تجروهم مجراهم، ولا تجعلوا الوفي كالغادر.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ
إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟
لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾
كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا
ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن
سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ
فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن
تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى
ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن
نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ
فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ
يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ
وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ
أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

١٨٨

﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لم يقع منهم أي نقص من شروط الميثاق والعهد شيئاً وإن كان يسيراً، ولم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم.

﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي: فأوفوا لهم العهد كاملاً إلى انقضاء مدته ونهايته المحدودة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: يحب المتقين لربهم، الموفين لعهودهم، وفي هذا تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى، وكان قد بقي لحي من كنانة من عهدهم تسعة أشهر، فأتم ﷺ إليهم عهدهم.

* ثم ذكر تعالى حال المشركين بعد انقضاء هذه المدة، فقال:

﴿٥﴾ ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي: مضت وانقضت الأشهر الأربعة التي حرم فيها قتالهم، وأمنتم فيها المشركين، فاقتلوهم في أي مكان أو زمان في الحل والحرم، وفي الأشهر الحرم.

﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ أي: وأسروهم، واحبسوهم وامنعوهم من التقلب في البلاد، واحصروهم في القلاع والحصون حتى يضطروا إلى القتل أو الإسلام.

﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ واقعدوا لهم في كل طريق يسلكونه، وارقبوهم في كل ممر يجتازون منه في أسفارهم، وكونوا لهم رصداً لتأخذوهم من أي وجهة توجهوا، وهذا تنبيه على أن المقصود إيصال الأذى إليهم بكل وسيلة بطريق القتال أو بطريق الاغتيال حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال:

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فإن تابوا ورجعوا عن الشرك الذي هو سبب القتل ودخلوا الإسلام، وحققوا التوبة بفعل ما فرض عليهم من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، وخص الصلاة والزكاة؛ لأن الأولى: حق الله ﷻ، والثانية: هي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين.

﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ أي: كفوا عنهم واتركوهم، ولا تتعرضوا لهم، فقد أصبحوا إخوانكم في الإسلام، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب، يغفر الشرك فما دونه للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة، ثم قبولها منهم.

* ثم ذكر ﷻ حكم إجارة المشركين وتعليل ذلك، فقال:

﴿٦﴾ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي: وإذا طلب أحد من المشركين الذين استبيحت دماؤهم وأموالهم الدخول في جوارك -يا محمد- ورغب في الأمان ليسمع كلام الله.

﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ فأجبه إلى طلبه، وأمنه حتى يسمع القرآن ويتدبره، ويطلع على حقيقة الأمر، والمعنى إن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر، لا

عهد بينك وبينه، واستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، فأمنه حتى يسمع كلام الله ويتدبر ويطلع على حقيقة الأمر، وهذا غاية في حسن المعاملة وكرم الأخلاق ونفاذ الدعوة؛ لأن المراد ليس النيل من الكافرين، بل دلالتهم وهدايتهم حتى يعرفوا الحق فيتبعوه، ويتركوا ما هم عليه من الضلال.

﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾ ثم بعد ذلك السماع إن لم يسلم فأعده من حيث أتى آمناً من غير غدر ولا خيانة، وذلك لإقامة الحجة عليه، فإن قاتلك بعد ذلك فقدرت عليه فاقتله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: ذلك الأمر بالإجارة للمشركين، بسبب أنهم لا يعلمون حقيقة دين الله وتوحيده، فلا بد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويتدبروا ويفهموا الحق، وليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده.

* ثم بين تعالى الحكمة من البراءة من عهود المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا، فقال متعجباً:

﴿٧﴾ ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ استفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد، أي: كيف يكون للمشركين عهد معتد به عند الله ورسوله، وهم مشركون بالله، كافرون به وبرسوله، يغدرون وينقضون العهد، ثم استدرك واستثنى، فقال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي: ولكن من عاهدتم من المشركين عند المسجد الحرام في صلح الحديبية ولم ينقضوا العهد، قيل: هم أهل مكة، وقيل: هم قبائل بني بكر كانوا دخلوا وقت الحديبية في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن نقض عهده منهم.

﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡ﴾ أي: فما داموا مستقيمين على عهدهم موفين به، فاستقيموا لهم على العهد موفين به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: يحب من اتقى ربه، إذا وفى العهد، وترك الغدر والخيانة.

* ثم ذكر تعالى شأن المشركين وعدم وفائهم بالعهود، ونقضهم للمواثيق، ومحرضاً للمؤمنين على معاداتهم والتبري منهم، فقال تعالى:

﴿٨﴾ ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾.

﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد، أي: كيف يكون لهم عهد وحالهم هذه أنهم إن يظفروا بكم بالقوة والسلطة.

﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ﴾ لا يراعوا فيكم عهداً ولا ذمة ولا قرابة؛ لأنه لا عهد لهم ولا أمان، وهذا كله تقرير واستبعاد لثبات قلوبهم على العهد.

﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ يرضونكم ويطيعونكم بالكلام الجميل وبالوعد بالإيمان والوفاء بالعهد، إن كان الظفر لكم عليهم.

﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: وتمتنع قلوبهم من الإذعان والوفاء بما أظهروه، والمعنى: يعطونكم بألسنتهم من القول خلاف ما يضمرونه لكم في نفوسهم من العداوة والبغضاء، وتأبى قلوبهم أن يذعنوا بتصديق ما يبدونه لكم بألسنتهم.

﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ أي: وأكثر هؤلاء المشركون ناقضون للعهد، خارجون عن طاعة الله لا ديانة لهم ولا مروءة، وكان في المشركين من وفى بعهده، وأكثرهم نقضوا، فلهذا قال: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ﴾.

* ثم يقول تعالى ذماً للمشركين، وحثاً للمؤمنين على قتالهم:

﴿٩﴾-﴿١١﴾ ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ * فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ أي: استبدل هؤلاء المشركون بالقرآن عرضاً يسيراً من متاع الدنيا التافه.

قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ
قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾
أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ
وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ
وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ
ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ
ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى
ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ
ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

١٨٩

﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ فمنعوا الناس بأنفسهم، وصدوا غيرهم عن اتباع دين الإسلام والدخول فيه.

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بئس هذا العمل القبيح الذي عملوه وساء صنيعهم.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: إن هؤلاء المشركين حرب على الإيمان وأهله، لا يراعون في قتل مؤمن لو قدروا عليه عهداً ولا ذمة، والمعنى: لا تبقوا عليهم أيها المؤمنون كما لا يبقون عليكم لو ظهروا، ولا تكرار؛ لأن الأول على الخصوص حيث قال: ﴿فِيكُمْ﴾، والثاني على العموم؛ لأنه قال ﴿فِى مُؤْمِنٍ﴾.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ وأولئك الجامعون تلك الأوصاف الذميمة، هم المجاوزون الحد في الظلم والبغي والعدوان.

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: فإن تابوا عن الكفر، وأقلعوا عن عبادة غير الله، ونطقوا بكلمة التوحيد، وأقاموا الصلاة وأعطوا الزكاة، فهم إخوانكم في الدين، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم.

﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ونبين الحجج والأدلة لأهل العلم والفهم؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بها، والجملة اعتراضية للحث على التدبر والتأمل. قال ابن عباس: حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة.

* يقول تعالى بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء:

(١٢) ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ وإن نقض هؤلاء المشركون عهودهم الموثقة بالأيمان، فقاتلوكم، أو أعانوا على قتالكم.

﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ وعابوا الإسلام بالقدح والذم.

﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ فقاتلوهم فإنهم رؤساء وصناديد الكفر، وخصهم بالذكر لعظم جنايتهم؛ ولأن غيرهم تبع لهم، وليدل على أن من طعن في الدين وتصدى للرد عليه، فإنه من أئمة الكفر.

﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ أي: لا إيمان لهم ولا عهود يوفون بها.

﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أي: كي يكفوا عن الإجرام، وينتهوا عن الطعن في الإسلام، والمظاهرة عليكم، قال البيضاوي: وهو متعلق بـ «قاتلوا» أي ليكن غرضكم في المقاتلة الانتهاء عما هم عليه، لا إيصال الأذية بهم كما هو طريقة المؤذين، وهذا من غاية كرمه على المسيء.

* ثم حرض تعالى المسلمين وحضهم على القتال، فقال جل ذكره:

(١٣)-(١٥) ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ أي: لا تترددوا يا معشر المؤمنين في قتال هؤلاء القوم الذين نقضوا العهود وطعنوا في دينكم؟

﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: عزموا على إخراج الرسول ﷺ من مكة حين تشاوروا بدار الندوة على إخراجه من بين أظهركم، وهو الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه.

﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: هم البادئون بالإيذاء والقتال لكم أول الأمر، أتخافونهم أو تخافون ملاقاتهم في الحرب.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: أتخافونهم فتتركون قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم؟ فالله أحق أن تخافوا عقوبته إن تركتم أمره.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مصدقين بعذابه وثوابه، يعني أن قضية الإيمان الصحيح ألا يخشى المؤمن إلا ربه ولا يبالي بمن سواه.

ثم بعد الحض والحث أمرهم بقتالهم صراحة، وذكر ما يترتب على قتالهم من الفوائد، وذكر ستة منها، وكل هذا حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم، فقال:

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ أي: يا معشر المؤمنين قاتلوا أعداء الله، ووعدهم بالنصر ليثبت قلوبهم ويصحح نياتهم، فقتالكم لهم عذاب بأيدي أولياء الله وجهاد لمن قاتلهم.

﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ ويذلهم بالأسر والقهر والهزيمة.

﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ويمنحكم الظفر والغلبة عليهم، وهذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها، فكان دليلاً على صحة نبوته ﷺ.

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ ويشف قلوب المؤمنين بإعلاء دين الله، وتعذيب الكفار وخزيهم التي طالما لحق بها الحزن والغم من كيد هؤلاء المشركين. قال ابن عباس: هم قوم من اليمن قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيراً فشكوا إلى رسول ﷺ، فقال: «أبشروا فإن الفرج قريب».

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: يذهب ما بها من غيظ وكرْب ووجد.

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ كلام مستأنف، أي: يمنُّ الله على من يشاء منهم بالتوبة والهداية والدخول في الإسلام كأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عالم بالأسرار لا تخفى عليه خافية يعلم بصدق توبة التائب، حكيم لا يفعل إلا ما فيه حكمة ومصلحة، ولقد أنجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به على أجمل ما يكون، فكان إخباره ﷺ بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة.

* ثم ذكر تعالى سنة الابتلاء بعد الأمر بالجهاد، وأنه تعالى لا يترك الناس دون تمحيص، يظهر فيه الطيب من الخبيث، فقال سبحانه:

﴿١٦﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ﴾ أي: بل أظننتم يا معشر المؤمنين أن تتركوا مهملين بغير امتحان وابتلاء يعرف الصادق منكم في دينه من الكاذب فيه.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ أي: والحال أنه لم يتبين المجاهد منكم من غيره، والمراد بالعلم علم ظهور لا علم خفاء، فإنه تعالى يعلم ذلك غيباً، فأراد إظهار ما علم ليجازي على العمل.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: جاهدوا في سبيل الله ولم يتخذوا بطانة وأولياء من المشركين يفشون إليهم أسرارهم ويوالونهم من دون المؤمنين.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: يعلم جميع أعمالكم لا يخفى عليه شيء منها، ويجازيكم بها، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر.

* ثم ذكر ﷻ عمار المساجد ومن هم، فقال:

﴿١٧﴾، ﴿١٨﴾ ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يصح ولا يستقيم، ولا ينبغي، ولا يليق بالمشركين أن يعمروا شيئاً من المساجد.

يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا
نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ
عَظِيمٞ ٢٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ
وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ
وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن
كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ
وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ
كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ
بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ
ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ
كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ
ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ
سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا
لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦

١٩٠

﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِ﴾ **أي: حال كونهم مقرّين بالكفر، ناطقين به بأقوالهم وأفعالهم، ويجعلون لله ﷻ شركاء. روي أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر، وفيهم العباس بن عبدالمطلب فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فعيروهم بالشرك، وجعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوبخ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟ فقال: وهل لكم من محاسن؟ فقال: نعم إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحاج، فنزلت هذه الآية:** ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِ...﴾ **الآية.**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ **أي: بطلت أعمالهم بما قارنها من الشرك؛ لأنها لغير الله ﷻ، ومصيرهم الخلود في نار جهنم أبداً. ثم ذكر من هم عمار مساجد الله، فقال:**

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ **أي: إنما تستقيم عمارة المساجد وتليق بالمؤمن المصدق بوحدانية الله، الموقن بالآخرة.**

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ **وأقام الصلاة المكتوبة بحدودها، وأدى الزكاة المفروضة بشروطها.**

﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ **أي: ولا يخاف في الله لومة لائم، وفي هذا تنبيه على الإخلاص.**

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ **أي: هؤلاء العُمّار هم المهتدون إلى الحق، فعسى أن يكونوا في زمرة المهتدين يوم القيامة، ومن كانت هذه أوصافه فهو الحقيق بعمارة المساجد، قال ابن عباس: كل عسى في القرآن واجبة. إذ من جمع هذه الخصال الأربعة جعل حاله حال من ترجى له الهداية، فكيف بمن هو عار منها. وفيه ترجيح الخشية على الرجاء، ورفض الاغترار بالأعمال الصالحة.**

*** ثم أخبر تعالى أن عمارة المشركين للمسجد الحرام، وقيامهم على السقاية، لا تنفعهم مع الشرك بالله، قال تعالى:**

١٩-٢٢ ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ * يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ **الخطاب للمشركين، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، والمعنى: أجعلتم يا معشر المشركين سقاية الحجيج وسدانة البيت، كإيمان من آمن بالله وجاهد في سبيله؟ فالإيمان أصل الدين، وبه تقبل الأعمال وتزكو الخصال، وأما الجهاد في سبيل الله فهو ذروة سنام الدين، وهو رد على العباس حين قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة، فلقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج فنزلت. وهذا توبيخ من الله تعالى لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت الحرام، فأعلمهم أن الفخر في الإيمان بالله، واليوم الآخر، والجهاد في سبيله.**

﴿لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ **أي: لا تتساوى حال المؤمنين وحال الكافرين**

عند الله، ولا أعمال أولئك بأعمال هؤلاء ومنازلهم؛ لأن الله لا يقبل عملاً بغير الإيمان.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا كالتعليل، أي: والله سبحانه لا يوفق لأعمال الخير القوم الظالمين لأنفسهم بالكفر، ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان، وظلموا المسجد الحرام إذ جعلوه متعبداً لأوثانهم، وأثبت للمؤمنين الهداية في الآية السابقة، ونفاها عن المشركين هنا، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثم قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ هذا زيادة توضيح وبيان لأهل الجهاد والإيمان، والمعنى: إن الذين طهروا أنفسهم من دنس الشرك بالإيمان، وطهروا أبدانهم بالهجرة من الأوطان، وبذلوا أنفسهم وأموالهم للجهاد في سبيل الرحمن، هؤلاء المتصفون بالأوصاف الجليلة أعظم أجراً، وأرفع ذكراً من سقاة الحاج، وعمار المسجد الحرام وهم بالله مشركون.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ أي: وأولئك هم المختصون بالفوز العظيم في جنات النعيم.

﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ﴾ أي: يبشر المولى -جوداً منه وكرماً- هؤلاء المؤمنين المهاجرين برحمة عظيمة، أزال بها عنهم الشرور، ورضوان كبير لا سخط بعده.

﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾

والتنكير في الرحمة والرضوان والجنات للتعظيم، والمعنى أنه فوق وصف الواصفين، وتصور المتصورين.

﴿وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ وجنات عالية، قطوفها دانية، لهم في تلك الجنات نعيم دائم، لا زوال له ولا ينقطع.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ أي: ماكثين في الجنان لا نهاية لإقامتهم وتنعمهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي: ثوابهم عند الله عظيم، تعجز العقول عن وصفه، جزاء ما قدموه في الطاعات والعمل الصالح في حياتهم الدنيا، ولما وصف المؤمنين بثلاث صفات: الإيمان، والهجرة، والجهاد بالنفس والمال، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاثة: الرحمة، والرضوان، والجنان، فبدأ بالرحمة؛ لأنها أعم النعم في مقابلة الإيمان، وثنى بالرضوان الذي هو نهاية الإحسان في مقابلة الجهاد، وثلث بالجنان في مقابلة الهجرة وترك الأوطان، ولا يخفى أن وصف الجنان بأن لهم فيها نعيماً مقيماً جاء في غاية اللطافة؛ لأن الهجرة فيها السفر، الذي هو قطعة من العذاب.

* لما ذكر تعالى قبائح المشركين، وأثنى على المهاجرين المؤمنين الذين هجروا الديار والأوطان؛ حباً في الله ورسوله، حذر هنا من ولاية الكافرين وذكر أن الانقطاع عن الآباء والأقارب واجب بسبب الكفر، وقد ذكر بعض العلماء أن هذه الآية أشد آية نعَتْ على الناس، ما لا يكاد يتخلص منه إلا من تداركه الله سبحانه بلطفه، قال تعالى:

﴿٢٣﴾، ﴿٢٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ النداء بلفظ الإيمان للتكريم ولتحريك الهمة للمسارعة إلى امتثال أوامر الله، قال ابن مسعود: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تنهى عنه. والمعنى: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم الكافرين أنصاراً وأعواناً تودونهم وتحبونهم وتفشون إليهم أسرار المسلمين، وسبب نزولها أنه لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته: لقد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من تتعلق به زوجته وولده، فيقولون: نشدناك الله أن تدعنا من غير شيء فنضيع، فيرق فيجلس معهم ويدع الهجرة، فنزلت الآية تعاتبهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ...﴾ الآية.

ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ
نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ
وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ
إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ
مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ
وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ
وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم
بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ
قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ
وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ
مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ
لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١

١٩١

﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ **أي: ما داموا على الكفر واختاروه على الإيمان وأصروا عليه إصراراً.**

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ **ومن يتخذهم أولياء ويُلق إليهم المودة، فقد عصى الله تعالى، وظلم نفسه ظلماً عظيماً. قال ابن عباس: هو مشرك مثلهم؛ لأن من رضي بالشرك فهو مشرك.**

﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ **قل - يا أيها الرسول للمؤمنين - إن فضلتم هؤلاء الأقارب من الآباء والأبناء، والإخوان، والزوجات ومن سواهم.**

﴿وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾ **أي: جماعتكم التي تستنصرون بهم.**

﴿وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾ **وأموالكم التي اكتسبتموها وتعبتم في تحصيلها.**

﴿وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا﴾ **تخافون عدم رواجها.**

﴿وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ﴾ **أي: والبيوت التي أقمتم فيها، وتحبونها لطيبها وحسنها.**

﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ **هذا هو جواب كان، أي: إن كانت هذه الأشياء المذكورة أحب إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله.**

﴿وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ **أي: وأحب إليكم من الجهاد لنصرة دين الله فأنتم فسقة ظلمة.**

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ **أي: انتظروا، وهو وعيد شديد وتهديد.**

﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ **أي: بعقوبته العاجلة أو الآجلة التي لا مرد لها.**

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ **أي: لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى طريق السعادة، وهذا وعيد لمن آثر أهله، أو ماله، أو وطنه، على الهجرة والجهاد.**

*** ثم ذكرهم تعالى بالنصر على الأعداء في مواطن اللقاء، فقال:**

(٢٥)-(٢٧) ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾ **لقد أنزل الله نصره عليكم في مشاهد كثيرة، ومواقع عديدة يوم أخذتم بالأسباب، وتوكلتم على الله.**

﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ **أي: ونصركم أيضاً يوم غزوة حنين بعد الهزيمة التي منيتم بها حين أعجبكم كثرة عددكم فقلتم: لن نغلب اليوم من قلة، وكنتم اثنى عشر ألفاً وأعداؤكم أربعة آلاف، فلم تنفعكم الكثرة ولم تدفع عنكم شيئاً.**

﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ **وضاقت الأرض على رحبها وكثرة اتساعها بكم من شدة الخوف والهم والغم الذي أصابكم.**

﴿ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾ **أي: وليتم على أدباركم منهزمين، وفي هذا إخبار من الله؛ يخبرهم -تبارك وتعالى- أن النصر بيده ومن عنده، وأنه ليس بكثرة العدد، وأنه ينصر القليل على الكثير إذا شاء، ويخلي القليل فيهزم الكثير. قيل للبراء بن عازب: أفررتم عن رسول**

الله ﷺ يوم حنين؟ فقال البراء: أشهد أن رسـول الله ﷺ لم يفـر، ولقد رأيته على بغلته البيضاء -وأبـو سفيان آخذ بلجامها يقودها- فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول:

أنا النبي لا كـــذب

أنـا ابن عبـد المطـلب

ثم أخذ قبضـة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين، وقال: «شـاهت الوجـوه» ففـروا، فما بقـى أحد إلا ويمسح القذى عن عينيه، وقال البراء: كنا والله إذا حمي البأس نتقي برسـول الله ﷺ، وإن الشجاع منا الذي يحاذيه.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم أنزل الله بعـد الهزيمـة الأمـن والطمأنينة على رسـوله وعلى المؤمنـين رحمة بهم حتى سـكنت بها قلوبهم، واطمأنت نفوسهم، وزال خوفهم، وثبتوا.

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وأمدكم ربكم بجنود من الملائكة لم تروها.

﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: فنصركم عـلى عدوكم، وعذب الذين كفروا، بالقتل والأسر، وسلب الأموال، وسبي النساء والذراري.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: وذلك عقوبـة الله للصادين عن دينه، المكذبين لرسوله.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ومن رجع عن كفـره بعد ذلك ودخل الإسـلام فإن الله يتوب على من يشـاء فيوفقه ويهديه للإسلام، وهو إشارة إلى إسلام هوازن.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عظيم المغفرة، وواسع الرحمة.

* أمـر تعـالى عبـاده المؤمنـين الطاهريـن ديناً وذاتـاً بنفي المشركين الذيـن هم نجـس ديناً عن المسـجد الحرام وأن لا يقربـوه بعد نزول هذه الآية، فقال:

(٢٨)، (٢٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي: يا معشر المؤمنين إنما المشركون رجس وخبث، وأي نجاسـة أبلغ ممـن كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضرّ ولا تغني عنه شـيئاً. قال ابن عباس: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازيـر. والجمهور على أن هذا على التشـبيه، أي: هم بمنزلة النجس أو كالنجس؛ لخبث اعتقادهم وكفرهم بالله، جعلوا كأنهم النجاسـة بعينها مبالغة في الوصف.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: فلا يدخلوا الحرم، أطلق المسـجد الحرام وقصد به الحرم كله. وقيل: المراد المنع عن الحج والعمـرة، أي: لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا، وهو عام تسـع من الهجـرة، ويؤيـده حديث: «وألا يحج بعد هذا العام مشرك» وهو العام الذي نزلت فيه سورة براءة، ونادى بها عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه في المواسم.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: وإن خفتم أيها المسـلمون فقراً بسبب منعهم من دخـول الحـرام وانقطاع تجارتهم عنكم، فإن الله سبحانه يغنيكم عنهم بطريق آخر مـن فضله وعطائه من الغنائـم، أو المطر والنبات، أو من متاجر حجيج الإسلام. قال المفسرون: لما منع المسـلمون من تمكين المشركين من دخـول الحـرم، وكان المشركون يجلبـون الأطعمة والتجـارات إليهم في المواسـم، ألقى الشيطان في قلوبهم الحزن وخافـوا الفقر، وضيق العيش، فقال لهـم: من أين تأكلـون؟ وكيف تعيشـون وقد منعـت عنكم الأرزاق أو المكاسـب؟ فأمنهـم الله من الفقر والعيلة، ورزقهم الغنائم والجزية.

﴿إِن شَآءَ﴾ أي: يغنيكم بإرادته ومشـيئته، وقوله ﴿إِن شَآءَ﴾ تعليق للإغناء بالمشـيئة، لتنقطع الآمال إليه؛ ولأن الغنى في الدنيـا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل عـلى محبة الله، فلهذا علقها بالمشيئة، فإن الله يعطي الدنيا من يُحب ومـن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب.

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن
يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ
رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ
كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ
أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ
يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا
فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ
تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ
شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ
أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ
أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا
يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ **عليم بما يصلحكم، حكيم فيما حكم في المشركين. ولما ذكر حكم المشركين، ذكر حكم أهل الكتاب، فقال:**

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ **أي: أيها المسلمون قاتلوا الكفار الذين لا يؤمنون إيماناً صحيحاً بالله واليوم الآخر وإن زعموا الإيمان، فإن اليهود يقولون: عزير ابن الله، والنصارى يعتقدون بألوهية المسيح ويقولون بالتثليث.**

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ **أي: يجتنبون ما نهى الله عنه ورسوله، بل يأخذون بما شرعه لهم الأحبار والرهبان، ولهذا يستحلون الخمر والخنزير وما شابهها.**

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ **ولا يعتقدون بدين الإسلام الذي هو دين الحق.**

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ **هذا بيان للمذكورين، أي: من هؤلاء المنحرفين من اليهود والنصارى الذين نزلت عليهم التوراة والإنجيل.**

﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ **فبين الغاية التي تمد إليها العقوبة، أي: حتى يدفعوا إليك الجزية التي تفرضونها عليهم، منقادين مستسلمين ويعطوها بأيديهم عن قهر وذل، فلا يرسلون خادماً ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم.**

﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ **أي: تؤخذ منهم وهم أذلاء حقيرون مقهورين بسلطان الإسلام.**

*** ثم ذكر تعالى طرفاً من قبائحهم، وفي هذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى، فقال:**

﴿٣٠﴾، ﴿٣١﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۞ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ **أي: لقد أشرك اليهود بالله عندما زعموا أن عزيراً ابن الله، وهو سبحانه واحد أحد، فرد صمد، قيل: وإنما قالوا ذلك؛ لأنه لم يبق فيهم بعد بختنصر من يحفظ التوراة، فلما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً، فتعجبوا من ذلك، وقالوا: ما هذا إلا لأنه ابن الله.**

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ **أي: وأشرك النصارى بالله، عندما ادعوا أن المسيح ابن الله، قالوا: لأن عيسى ولد دون أب، ولا يمكن أن يكون ولد دون أب، فلا بد أن يكون ابن الله، قال تعالى رداً عليهم:**

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ **أي: ذلك القول الشنيع هو مجرد دعوى باللسان من غير دليل ولا برهان.**

﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ **يشابهون بهذا القول الشنيع قول المشركين قبلهم، الذين يقولون: الملائكة بنات الله.**

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ **دعاء عليهم بالهلاك، أي: أهلكهم الله كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل بعد وضوح الدليل حتى يجعلوا لله ولداً. والصيغة للتعجب وهو راجع إلى الخلق على عادة العرب في مخاطباتهم، والله تعالى عجب نبيه من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل.**

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أطاع اليهود أحبارهم، والنصارى رهبانهم في التحليل والتحريم وتركوا أمر الله فكأنهم عبدوهم من دون الله، والمعنى: أطاعوهم كما يطاع الرب وإن كانوا لم يعبدوهم وهو التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ، قال عدي ابن حاتم: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن»، قال وسمعته يقرأ سورة براءة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ فقلت يا رسول الله: لم يكونوا يعبدونهم، فقال عليه السلام: «أليس يحرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه، ويحلون ما حرم الله فيستحلونه؟!» فقلت: بلى، قال: «فذلك عبادتهم» [رواه أحمد].

﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ أي: واتخذ النصارى المسيح عيسى ابن مريم إلهاً فعبدوه.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا على لسان الأنبياء إلا بعبادة إله واحد، هو الله رب العالمين.

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق سواه، صفة ثانية لقوله ﴿إِلَٰهًا﴾.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزه الله عما يقول المشركون ـ وتعالى علواً كبيراً ـ عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

* لما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه، ولا برهان لما أصّلوه، وإنما هو مجرد قول قالوه، وافتراء افتروه، أخبر تعالى أنهم:

﴿٣٢﴾، ﴿٣٣﴾ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب أن يبطلوا دين الإسلام وشرع محمد عليه السلام، بمجرد جدالهم وافترائهم وكذبهم.

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ أي: ويأبى الله إلا أن يعلي كلمته ويرفع دينه ويظهره.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: ولو كره ذلك الجاحدون، ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الذي يأبى إلا إتمام دينه، هو الذي أرسل محمداً ﷺ بالهداية التامة والتوحيد والإسلام والقرآن.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان، ولو كره المشركون دين الحق وهو دين الإسلام وظهوره على الأديان.

* لما وصف تعالى رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية، وصفهم هنا بالطمع والجشع والحرص على أكل أموال الناس، تحقيراً لشأنهم وتسفيها لأحلامهم؛ لأنهم اتخذوا الدين مطية لنيل الدنيا، وذلك نهاية الذل والدناءة. فحذر تعالى عباده المؤمنين عن كثير من الأحبار والرهبان، وعلماء السوء وعبّاد الضلال، فقال:

﴿٣٤﴾، ﴿٣٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾ أي: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إن كثيراً من علماء اليهود الأحبار وعلماء النصارى الرهبان.

﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليأخذون أموال الناس بغير حق، كالرشوة وغيرها، ويمنعونهم عن الدخول في دين الإسلام، ويلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعونه إلى الخير وليسوا كما يزعمون بل هم دعاة إلى النار، والمقصود التحذير من علماء السوء، وعباد الضلال. قال ابن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى.

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ أي: يجمعون الأموال ويدخرون الثروات.

﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولا يؤدون زكاتها، ولا يبذلون منها في وجوه الخير الموصلة إلى الله. قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الكنز ما لم تؤد زكاته، وما أديت زكاته فليس بكنز.

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ أي: أخبرهم وأنذرهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم. وقيل: وإنما قرن بين الكانزين وبين اليهود والنصارى تغليظاً عليهم ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت، ومن لا يعطي من المسلمين من طيب ماله سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم.

﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ يوم يحمى على الكنوز بالنار المستعرة حتى تصبح حامية كاوية.

﴿فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ﴾ أي: فإذا اشتدت حرارتها، أحرقت بها جباه أصحابها وجنوبهم وظهورهم. قال ابن مسعود: والذي لا إله غيره لا يكوى عبد بكنز فيمس دينار ديناراً، ولا درهم درهماً، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته، وخصت هذه الأماكن بالكي؛ لأن البخيل إذا رأى الفقير قادماً يقطب جبهته، فإذا جاءه أعرض بجانبه، فإذا طالبه بإحسان ولاه ظهره. والكي في الوجه أشهر وأشنع، وفي الظهر والجنب آلم وأوجع، فلذلك خصها بالذكر من بين سائر الأعضاء.

﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ أي: يقال لهم تبكيتاً وتقريعاً: هذا مالكم الذي أمسكتموه ومنعتم منه حقوق الله، ولهذا يقال: من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عذب به، وفي صحيح مسلم: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار».

* ثم ذكر تعالى الشهور وعدتها، فقال سبحانه:

٣٦ ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا﴾ أي: إن عدد الشهور المعتد بها عند الله في شرعه وحكمه؛ هي اثنا عشر شهراً على منازل القمر، فالمعتبر به الشهور القمرية إذ عليها يدور فلك الأحكام الشرعية.

﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ.

﴿يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ كتبه يوم خلق السموات والأرض في الكتاب الإمام الذي عند الله.

﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ أي: منها أربعة شهور محرمة هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، وسميت حرماً؛ لأنها معظمة محترمة تتضاعف فيها الطاعات ويحرم القتال فيها. قال ابن عباس: اختص من ذلك أربعة أشهر، فجعلهن حرماً وعظم حرمتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ ذلك الشرع المستقيم والحساب الصحيح، والعدد المستوفي.

﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ فلا تظلموا في هذه الأشهر المحرمة أنفسكم بهتك حرمتهن وارتكاب ما حرم الله من المعاصي والآثام.

﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ أي: قاتلوهم جميعاً مجتمعين غير متفرقين كما يقاتلكم المشركون جميعاً.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: إنه تعالى معهم بالنصرة والتأييد، وهو بشارة وضمان لأهل التقوى.

* ثم ذم تعالى المشركين حيث شرعوا من تلقاء أنفسهم آراءً فاسدة، وغيروا أحكام الله، فأحلوا ما حرم الله، وحرموا ما أحل الله، وكان العرب أهل حروب وغارات، وكان القتال محرماً عليهم في الأشهر الحرم، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر، كأنهم يستقرضون حرمة شهر لشهر غيره، فربما أحلوا المحرم وحرموا صفر حتى يكمل في العام أربعة أشهر محرمة، فقال تعالى:

(٣٧) ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ **أي: إنما تأخير حرمة شهر لشهر آخر زيادة في الكفر؛ لأنه تحريم ما أحله الله، وتحليل ما حرمه، فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم، يضل الشيطان به الذين كفروا ضلالاً على ضلالهم.**

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾ **أي: يحلون المحرم عاماً والشهر الحلال عاماً، فيجعلون هذا مكان هذا والعكس.**

﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ **أي: ليوافقوا عدة الأشهر الحرم الأربعة.**

﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ **أي: فيستحلوا بذلك ما حرمه الله. قال مجاهد: كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له، فيقول أيها الناس: إني لا أعاب ولا أجاب، ولا مرد لما أقول، إنا قد حرمنا المحرم، وأخرنا صفراً، ثم يجيء العام المقبل ويقول: إنا قد حرمنا صفراً وأخرنا المحرم، فلذلك قوله تعالى:** ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾.

﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡ﴾ **أي: زين وحسن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة حتى حسبوها حسنة.**

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ **أي: لا يرشدهم إلى طريق السعادة.**

*** لما ذكر معايب أولئك الكفار، عاد إلى ترغيب المؤمنين في قتالهم، ثم وبخ على ترك الجهاد، وعاتب من تخلف عن غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحمارة القيظ، فقال تعالى:**

(٣٨)، (٣٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ **استفهام للتقريع والتوبيخ، والمعنى: ما لكم أيها المؤمنون إذا قيل لكم اخرجوا لجهاد أعداء الله تباطأتم وتثاقلتم، وملتم إلى الدنيا وشهواتها، وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه؟! لما رجع رسول الله ﷺ من الطائف وغزوة حنين، أمر الناس بالجهاد، لغزو الروم، وذلك في زمن عسرة من الناس، وجدب من البلاد، وشدة من الحر،**

الجُزْءُ العَاشِرُ — سُورَةُ التَّوْبَةِ

إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ
عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ
سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ
٣٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ
ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم
بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ
عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ
شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩ إِلَّا تَنصُرُوهُ
فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ
إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ
مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ
لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ
وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠

١٩٣

حين أثمرت النخل، وطابت الثمار، فعظم على الناس غزو الروم، وأحبوا الظلال والمقام في المساكن والمال، وشق عليهم الخروج إلى القتال؛ فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ...﴾ **الآية.**

﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ **أي: أرضيتم بنعيم الدنيا ومتاعها الفاني، بدل نعيم الآخرة وثوابها الباقي؟ ثم زهد -تبارك وتعالى- في الدنيا، ورغب في الآخرة، فقال:**

﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ **أي: فما التمتع بلذائذ الدنيا التي ملتم إليها في جنب الآخرة إلا شيء مستحقر قليل لا قيمة له. ثم توعدهم على ترك الجهاد، فقال:**

انفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ
وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ
لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ
حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ
﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن
يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾
إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ
وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ
أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ
فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم
مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ
ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

١٩٤

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: إن لا تخرجوا إلى الجهاد مع رسول الله يعذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً، باستيلاء العدو عليكم في الدنيا، وبالنار المحرقة في الآخرة.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ويهلككم ويستبدل قوماً آخرين خيراً منكم، يكونون أسرع استجابة لرسوله وأطوع.

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ ولا تضروا الله شيئاً بتثاقلكم عن الجهاد، وترككم النفير، فإنه سبحانه غني عن العالمين.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر على كل ما يشاء ومنه الانتصار على الأعداء دونكم، وهو تنبيه على شدة الزجر من حيث إنه تعالى قادر لا يجوز عليه العجز، فإذا توعد بالعقاب فعل.

* ثم اعلم ﷻ أنه المتكفل بنصر رسوله وإعزاز دينه، فقال تعالى: ﴿٤٠﴾ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: إن لا تنصروا رسوله فإن الله ناصره وحافظه ومؤيده وكافيه، وجواب الشرط محذوف تقديره: فسينصره الله، دل عليه قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ والمعنى: إن لم تنصروه أنتم فسينصره الله الذي نصره حين كان ثاني اثنين، حيث لم يكن معه أنصار ولا أعوان. قال الشعبي: عاتب الله ﷻ أهل الأرض جميعاً في هذه الآية إلا أبا بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: حين خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة، وأسند إخراجه إلى الكفار؛ لأنهم ألجؤوه إلى الخروج، وتآمروا على قتله حتى اضطر إلى الهجرة.

﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: هو ﷺ وأبوبكر الصديق رضي الله عنه، وفي الآية منقبة عظيمة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ أي: حين كان هو ﷺ والصديق مختبئين في النقب في جبل ثور بمكة.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: حين يقول النبي ﷺ لصاحبه أبوبكر الصديق تطميناً وتطييباً لما حزن واشتد قلقه: دع الحزن، ولا تخف إن الله معنا بنصره وتأييده، يقول أبوبكر: بينا أنا مع رسول الله ﷺ في الغار وأقدام المشركين فوق رؤوسنا، فقلت يا رسول الله: لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا فقال: «يا أبابكر: ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» ولم يكن حزن أبي بكر جبناً منه وإنما كان إشفاقاً وخوفاً على رسول الله ﷺ، فنهاه الرسول تسكيناً لقلبه. قال ابن القيم في إشارة لطيفة: إن من صحب الرسول ﷺ وما جاء به بقلبه وعمله وإن لم يصحبه ببدنه فإن الله معه.

وقد يعرض الحزن لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى -إذا نزل بالعبد- أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي: أنزل الله السكون والطمأنينة على رسوله ﷺ، وعلم أنهم لا يصلون إليه، وقواه بجنود من عنده من الملائكة يحرسونه في الغار لم تروها أنتم.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ أي: فأنجاه الله من عدوه وأذل الله أعداءه، وجعل كلمة الشرك سافلة ساقطة، أذل بها الشرك والمشركين.

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ أي: وكلمة التوحيد لا إله إلا الله، هي الغالبة الظاهرة، أعز الله بها المسلمون، وأذل الشرك والمشركين.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: قاهر غالب لا يغلب، عزيز في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب لا يُضام من لاذ ببابه واحتمى بالتمسك بخطابه، لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة.

* ثم يقول تعالى لعباده المؤمنين، مهيِّجاً لهم على الجهاد والنفير في سبيله:

(٤١) ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: اخرجوا للقتال يا معشر المؤمنين شيباً وشباناً، مشاة وركباناً، في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، في جميع الظروف والأحوال.

﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وأنفقوا أموالكم في سبيل الله، وقاتلوا بأيديكم لإعلاء كلمة الله، وابذلوا جهدكم والأنفس في ذلك لإعلاء كلمة الله.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: هذا النفير والجهاد خير من التثاقل إلى الأرض، والخلود إليها، والرضا بالقليل من متاع الحياة الدنيا، إن كنتم تعلمون ذلك، والخيرية في الدنيا بغلبة العدو ووراثة الأرض، وفي الآخرة بالثواب العظيم ورضوان الله.

* ثم ذكر تعالى أحوال المخلفين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وموقف المثبطين المنافقين منهم ووبخهم على ذلك، فقال:

(٤٢) ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: لو كان ما دعوا إليه غنيمة قريبة سهلة المنال من منافع الدنيا، وسفراً وسطاً قريباً سهلاً.

﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ أي: لخرجوا معك، لا لوجه الله بل طمعاً في الغنيمة ولعدم المشقة الكبيرة.

﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ ولكن لما دعوا إلى قتال الروم في أطراف بلاد الشام في وقت الحر، تخاذلوا، وتخلفوا، وبعدت عليهم الطريق والمسافة الشاقة، ولذلك اعتذروا عن الخروج لما في قلوبهم من النفاق.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: وسيحلفون لكم معتذرين بأعذار كاذبة؛ لو قدرنا على الخروج معكم لما تأخرنا، ولو كان لنا سعة في المال أو قوة في الأبدان؛ لخرجنا للجهاد معكم، قال تعالى رداً عليهم وتكذيباً لهم.

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: يوقعون أنفسهم في الهلاك بالكذب والنفاق.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: لكاذبون في دعواهم وأعذارهم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا، وهذا من دلائل النبوة؛ لأنه أخبر بما سيكون بعد القفول فقالوا كما أخبر.

* ثم تلطف ﷻ في عتاب الرسول ﷺ حيث قدم العفو على العتاب إكراماً له ﷺ، ووقّره ورفع محله بافتتاح الكلام بالدعاء له، قال تعالى:

(٤٣)-(٤٥) ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ * لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ المعنى: سامحك الله ـ يا محمد ـ وغفر لك ما أجريت وما وقع منك في ترك الأولى والأكمل، وهو إذنك لهؤلاء المنافقين في التخلف عن الخروج معك بمجرد الاعتذار. وقدم العفو على العتاب؛ إكراماً للنبي ﷺ، ووقره ورفع محله بافتتاح الكلام بالدعاء له. قال مورق العجلي: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذه؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: وهلا تركتهم حتى يظهر لك الصادق منهم في عذره من الكاذب المنافق. نزلت في المنافقين، قال أناس منهم: استأذنوا رسول الله، فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، فقد كانوا مصرّين على القعود

لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ
جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم
مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ
جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ
حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ
أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل
لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى
ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ
إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ
بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم
مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ
مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا
مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟
بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ
كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

عن الغزو وإن لم يأذن لهم، ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه أهل الإيمان، فقال:

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي: ليس من شأن من يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر أن يستأذنوك - يا محمد - في التخلف عن الجهاد والغزو.

﴿أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي: كراهية الجهاد بالمال والنفس؛ لأنهم يعلمون ما أعده الله للمجاهدين الأبرار من الأجر الجزيل، فكيف يتخلفون عنه؟ وإنما هذا شأن المنافقين.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: والله عليم بمن خافه فاتقاه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي: إنما يطلب الإذن للتخلف عن الجهاد المنافقون الذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم.

﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: لا يزالون في الشك وحيرة قلوبهم في الله وثوابه، فهم يترددون حيارى هلكى لا يدرون ما يصنعون، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً.

* لما ذكر تعالى المنافقين وتباطؤهم عن الخروج للجهاد، ذكر هنا بعض أعمالهم القبيحة من الكيد، والمكر، وإثارة الفتن بين المسلمين، والفرح بأذاهم، وذكر تعالى أنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما زادوا الجيش إلا ضعفاً واندحاراً بتفريق الجماعة وتشتيت الكلمة، قال سبحانه:

﴿٤٦﴾، ﴿٤٧﴾ ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ ولو أراد هؤلاء المنافقون الخروج معك للجهاد، أو كانت لهم نية في الغزو لاستعدوا له بالسلاح والزاد، فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف.

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي: ولكن كره الله خروجهم معك في الغزو، وإن كان أمرهم به شرعاً.

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: كسر عزمهم وجعل في قلوبهم الكسل.

﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أي: اجلسوا مع المخلفين من النساء والصبيان وأهل الأعذار، وهو ذم لهم لإيثارهم القعود على الخروج للجهاد، والآية تسلية له ﷺ على عدم خروج المنافقين معه، إذ لا فائدة فيه ولا مصلحة، بل فيه الأذى والمضرة، ولهذا ذكر الحكمة في ذلك، فقال:

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: لو خرج هؤلاء المنافقون معكم ما زادوكم إلا شرّاً وفساداً، وذلك بإيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر.

﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ أي: أسرعوا بينكم بالمشي بالنميمة، وفساد ذات البين.

﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: ولسعوا بينكم بالفتنة بإلقاء العداوة بينكم ونشر الاضطراب في الصفوف.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ وفيكم ضعفاء قلوب يصغون إلى قولهم ويطيعونهم ويستحسنون حديثهم.

قال ابن تيمية: فأخبر أن في المؤمنين من يستجيب للمنافقين ويقبل منهم، فإذا كان هذا في عهد النبي ﷺ كان استجابة بعض المؤمنين لبعض المنافقين فيما بعده أولى.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: عالم بالمنافقين علماً محيطاً بضمائرهم وظواهرهم، وسيجازيهم على ذلك.

* ثم يقول تعالى محرضاً لنبيه ﷺ على المنافقين:

﴿٤٨﴾ ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أي: لقد طلب المنافقون لك الشر بتشتيت شملك وتفريق صحبك عنك من قبل غزوة تبوك، كما فعل ابن سلول حين انصرف بأصحابه يوم أحد وكشف أمرهم.

﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أي: دبروا لك المكايد والحيل، وأداروا الآراء في إبطال دينك كما فعلوا يوم أحد، ويوم الخندق، ولم يقصروا في الكيد والمكر.

﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ حتى جاء نصر الله، وأعز جنده وظهر دينه وعلا على سائر الأديان، فبطل كيدهم واضمحل باطلهم.

﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ أي: والحال أنهم كارهون لذلك لنفاقهم.

* ثم ذكر ﷻ حال المنافقين ومراوغاتهم، فقال:

﴿٤٩﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يقول لك - يا محمد - ائذن لي في التخلف عن الجهاد ولا تفتني بسبب الأمر بالخروج، بما يعرض لي في حالة الخروج من فتنة النساء والأموال، نزلت في الجد بن قيس حين دعاه الرسول ﷺ إلى جلاد بني الأصفر، فقال يا رسول الله: ائذن لي في القعود عن الجهاد ولا تفتني بالنساء، فأعرض عنه النبي ﷺ، وقال: «قد أذنت لك».

قال الله تعالى مبيناً كذب هذا القول:

﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ أي: إلا إنهم قد سقطوا في عين الفتنة فيما أرادوا الفرار منه، بل فيما هو أعظم وهي فتنة التخلف عن الجهاد وظهور كفرهم ونفاقهم، وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة، المفصحة عن ترديهم في دركات الردى أسفل سافلين.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا مفر لهم منها ولا مناص، ولا فكاك ولاخلاص؛ لأنها محيطة بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم، وفيه وعيد شديد.

* ثم يقول تعالى مبيناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبغضون للدين صرفاً:

﴿٥٠﴾، ﴿٥١﴾ ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ * قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ إن تصبك -يا محمد- في بعض الغزوات حسنة وغنيمة، وظفر يسؤهم ذلك ويحزنهم.

﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: وإن تصبك مصيبة من هزيمة أو شدة، يفرحوا بها ويقولوا: قد احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحذر والتيقظ فلم نخرج للقتال من قبل أن يحل بنا البلاء والمصيبة.

﴿وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ أي: وينصرفوا وهم فرحون مسرورون بما صنعوا، وبما أصابك من السوء.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي: قل - يا محمد - لهؤلاء المتخاذلين زجراً لهم وتوبيخاً: لن يصيبنا خير ولا شر، ولا خوف ولا رجاء، ولا شدة ولا رخاء، إلا وهو مقدر علينا مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ.

﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: الله ناصرنا وحافظنا، وجاعل العاقبة لنا.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليفوض المؤمنون أمورهم إلى الله وحده، ولا يعتمدوا على أحد سواه.

* ثم أمر تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يقول للمنافقين الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر:

﴿٥٢﴾-﴿٥٤﴾ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ * قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ
٥٥ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ
قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا
لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ٥٧ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى
ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا
هُمْ يَسْخَطُونَ ٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ
إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ
وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ
وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً
مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٦٠ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ
ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ
بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦١

١٩٦

يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ **أي: هل تنتظرون بنا يا معشر المنافقين إلا إحدى العاقبتين الحميدتين: إما النصر على الأعداء، وإما الشهادة في سبيل الله، قال ﷺ: «تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة»** [رواه البخاري].

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ **أي: ونحن ننتظر لكم أسوأ العاقبتين الوخيمتين: أن يهلككم الله بعذاب من عنده يستأصل به شأفتكم كما أهلك الأمم الخالية، أو يسلطنا عليكم فنقتلكم بأيدينا.**

﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ **أي: انتظروا ما يحل بنا من الخير، ونحن ننتظر ما يحل بكم من الشر، وهو أمر يتضمن التهديد والوعيد.**

﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ **أي: قل لهم -يا محمد- أنفقوا يا معشر المنافقين طائعين أو مكرهين، فمهما أنفقتم الأموال فلن يتقبل الله منكم.**

﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ **تعليل لرد إنفاقهم، أي: لأنكم كنتم عتاة متمردين، عاتين خارجين عن دين الله وطاعته، ثم أكد هذا المعنى بقوله:**

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ **أي: وسبب عدم قبول نفقاتهم أنهم اضمروا الكفر بالله ﷻ، وتكذيب رسوله ﷺ.**

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ **ولا يأتون إلى الصلاة إلا وهم متثاقلون لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم فهم لا يرجون على أدائها ثواباً، ولا يخافون على تركها عقاباً.**

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ **أي: ولا ينفقون أموالهم إلا بالإكراه؛ لأنهم يعدونها مغرماً، فهم لا يرجون ثواب هذه الفرائض، ولا يخشون تركها عقاباً بسبب كفرهم، وقد ذكر تعالى السبب المانع من قبول نفقاتهم وهو الكفر وأتبعه بما هو مستلزم له، وهو إتيانهم الصلاة كسالى، وإيتاء النفقة وهم كارهون؛ لأنهم لا يرجون بذلك ثواباً ولا يخافون عقاباً. وذكر من أعمال البر هذين العملين الجليلين وهما: الصلاة، والنفقة؛ لأن الصلاة أشرف الأعمال البدنية، والنفقة في سبيل الله أشرف الأعمال المالية.**

*** ثم أمر تعالى رسوله ﷺ أن لا يستحسن ما معهم من الأموال والأولاد، فقال:**

٥٥ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ **أي: لا تستحسن أيها السامع ولا تفتتن بما أوتي هؤلاء المنافقون من زينة الدنيا، وبما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد، فظاهرها نعمة وباطنها نقمة، إنما يريد الله بذلك استدراجهم ليعذبهم بها في الدنيا، وعذابهم بها بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب، وهمُّ القلب فيها وتعب البدن، حيث لا يحتسبون ذلك عند الله.**

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ **أي: ويموتوا كافرين قلوبهم متعلقة بها وإرادتهم لا تتعداها فتكون منتهى**

مطلوبهم وغاية مرغوبهم، ولا يبقى في قلوبهم للآخرة نصيب، فيشتد في الآخرة عذابهم.

* ثم ذكر حال المنافقين وأنهم يدعون الإيمان، فقال:

﴿٥٦﴾،﴿٥٧﴾ ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ أي: ويقسمون بالله لكم إنهم لمؤمنون مثلكم، وما هم بمؤمنين لكفر قلوبهم.

﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي: ولكنهم يخافون منكم أن تقتلوهم كما تقتلون المشركين، فيظهرون الإسلام تقية، ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة. ثم ذكر شدة جبنهم، فقال:

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ أي: لو يجد هؤلاء المنافقون مأمناً وحصناً يحفظهم يلجؤون إليه عندما تنزل بهم الشدائد.

﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ أي: كهف في جبل يختفون فيه.

﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ أي: نفقاً في الأرض يدخلون فيه ولو ضيقاً.

﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: لأقبلوا إليه يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء كالفرس الجموح، والمراد من الآية تنبيه المؤمنين إلى أنَّ المنافقين لو قدروا على الهروب منهم ولو في شر الأمكنة وأضيقها لفعلوا لشدة بغضهم لكم، فلا تغتروا بأيمانهم الكاذبة أنهم معكم ومنكم.

* ثم ذكر تعالى نوعاً آخر من قبائحهم، فقال:

﴿٥٨﴾،﴿٥٩﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك - يا محمد - في قسمة الصدقات وينتقد عليك فيها، ومقصودهم أن يعطوا منها:

﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟﴾ فإن نالوا منها استحسنوا فعلك وسكتوا.

﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ وإن لم تعطهم وينالهم حظ منها سخطوا عليك وعابوك، وسخطهم لأنفسهم لا للدين وما فيه صلاح أهله. قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فجاء إليه رجل من المنافقين يقال له: ذو الخويصرة، فقال: اعدل - يا محمد - فإنك لم تعدل، فقال ﷺ: «ويلك إن لم أعدل فمن يعدل؟» الحديث.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: ولو أن هؤلاء الذين عابوك - يا محمد - رضوا بما أعطيتهم من الصدقات وقنعوا بتلك القسمة وإن قلَّت وطابت بها أنفسهم. قال أبو السعود: وذكر الله ﷻ للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول كان بأمره سبحانه.

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: وقالوا: كفانا فضل الله وإنعامه علينا، وأملوا فضله وإحسانه إليهم؛ بأن يقولوا:

﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي: سيرزقنا الله صدقة أو غنيمة أخرى، خيراً وأكثر مما آتانا.

﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ إنا إلى طاعة الله وإفضاله وإحسانه لراغبون، فيغنينا عن الصدقة وعن صدقات الناس. وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسرّاً شريفاً حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وهو قوله: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده، في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتثال أوامره وترك زواجره وتصديق أخباره والاقتضاء بآثاره، وجواب (لَوْ) محذوف تقديره لكان خيراً لهم، وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل.

* لما لمز المنافقون رسول الله ﷺ في قسمة الصدقات، ذكر تعالى مصرف الصدقات الثمانية، وحصرها فيها، وهي مصارف الزكاة في هذه الأصناف الثمانية، فلا يجوز أن يُعطى منها غيرهم، فقال:

﴿٦٠﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ

الجزء العاشر سورة التوبة

يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ
أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٦٢ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن
يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ
ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٣ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن
تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ
إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ
لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ
وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم
بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ
بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ٦٦ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ
بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ
عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ
إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٦٧ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ
وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ
حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٦٨

١٩٧

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ أي: إنما تعطى الزكوات الواجبة للفقراء الذين لا يملكون شيئاً، والمساكين الذين لا يملكون كفايتهم.

﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ وهم الجباة والسعاة الذين يجمعون الصدقات من أهلها، فيعطون منها فقراء كانوا أو أغنياء، فيعطون مثل أجر عملهم.

﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ وللذين تؤلفون قلوبهم بها ممن يرجى إسلامه أو قوة إيمانه أو نفعه للمسلمين، أو تدفعون بها شر أحد عن المسلمين، كما أعطى رسول الله ﷺ صفوان ابن أمية لما كان يرى من ميله إلى الإسلام، وقال صفوان بعد أن أعطاه الرسول ﷺ: لقد أعطاني رسول الله ﷺ وإنه لأبغض الناس إليّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي: وفي فك الرقاب لتخليصهم من الرق.

﴿وَٱلۡغَٰرِمِينَ﴾ وهم المديونون الذين أثقلهم الدين، وتعطى للغارمين لإصلاح ذات البين.

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم الغزاة المجاهدين والمرابطين، وما تحتاج إليه الحرب من السلاح والعتاد.

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو الغريب الذي انقطعت به النفقة في سفره.

﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه القسمة فرضها الله -جل وعلا- وأحبها، وحددها وقدرها.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أي: عليم بمصالح العباد، حكيم لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة، وإنما حصر مصرف الزكاة في تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها؛ فاتصلت هذه في المعنى بآية اللمز في الصدقات.

* لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين توضيحاً لخطرهم، وتحذيراً للمؤمنين من مكائدهم، وفي هذه الآيات ذكر تعالى نوعاً آخر من قبائحهم، وهو إيذاؤهم للرسول ﷺ، وإقدامهم على الأيمان الكاذبة، واستهزاؤهم بآيات الله وشريعته المطهرة، إلى غير ما هنالك من الأعمال المنكرة، والأفعال الخبيثة، قال تعالى:

(٦١) ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين أناس يؤذون الرسول بأقوالهم وأفعالهم.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ﴾ أي: إنه يستمع لكل ما يقال له فيصدقه، قصدوا به المذمة، وأنه من أهل سلامة القلوب والغرة؛ ففسره الله تعالى بأنه مدح له وثناء عليه، كان جماعة من المنافقين يؤذون رسول الله ﷺ ويقولون فيه ما لا ينبغي، فقال بعضهم: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا، فقال الجلاس بن سويد: نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإنما محمد أذن سامعة، فأنزل الله: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ...﴾.

﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾ قل لهم -يا محمد- هو أذن خير لا أذن شر، يسمع الخير فيعمل به، ولا يعمل بالشر إذا سمعه.

﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: يصدق الله فيما يقول، ويصدق المؤمنين ويقبل منهم فيما يخبرونه به لعلمه بإخلاصهم.

﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾ وهو رحمة للمؤمنين لمن اتبعه واهتدى بهداه، فإنهم به يهتدون، وبأخلاقه يقتدون.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والذين يعيبون ويؤذن الرسول ويقولون ما لا يليق بجنابه الشريف؛ لهم عذاب مؤلم موجع في الدنيا والآخرة، ومن العذاب الأليم أنه يحتم قتل مؤذيه وشاتمه ﷺ.

﴿٦٢﴾، ﴿٦٣﴾ ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ أي: يحلف المنافقون الأيمان الكاذبة لكم: أنهم ما قالوا شيئاً فيه انتقاص للرسول فيتبرؤوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها، فغايتهم أن ترضوا عليهم.

﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: والحال أنه تعالى ورسوله أحق وأولى بالإرضاء، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة، والمتابعة، وتعظيم أمره ﷺ، إن كانوا حقاً مؤمنين فليرضوا الله ورسوله.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنه من يعادي ويخالف الله والرسول، والاستفهام للتوبيخ.

﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ أي: فقد حق دخوله جهنم وخلوده فيها.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ذلك هو الذل العظيم، والشقاء الكبير، المقرون بالفضيحة العظيمة حيث يفتضحون على رؤوس الأشهاد.

* ثم ذكر تعالى خوف المنافقين من افتضاح أمرهم، فقال:

﴿٦٤﴾ ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: يخشى المنافقون أن تنزل في شأنهم سورة تكشف عما يسرونه في قلوبهم من الكفر، قال مجاهد: كان المنافقون يعيبون رسول الله ﷺ فيما بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي سرنا، فأنزل الله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ...﴾ الآية، قال قتادة: هذه السورة تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة، أثارت مخازيهم ومثالبهم.

﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ أي: قل لهم - يا محمد - استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية، وهو أمر للتهديد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي: إن الله مظهر ما تخفونه وتحذرون ظهوره من النفاق، حيث كانوا يستهزئون بالإسلام ويحذرون أن يفضحهم الله بالوحي، حتى قال بعضهم: والله لا أرانا إلا شر خلق الله، ولوددت أني جلدت مائة جلدة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا.

﴿٦٥﴾، ﴿٦٦﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي: ولئن سألت - يا محمد - هؤلاء المنافقين عما قالوا من الباطل والكذب، والقدح في حقك وفي حق الإسلام، ليقولون لك ما كنا جادين، وإنما كنا نمزح ونلعب للترويح عن النفس. وسبب نزول الآية: بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين، فقال رجل من المنافقين: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أغربنا بطوناً، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونلعب؛ فنزلت الآية.

﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ قل - يا محمد - لهؤلاء المنافقين: أتستهزئون بدين الله وشرعه، وكتابه ورسوله؟ والاستفهام للتوبيخ ثم كشف تعالى أمرهم وفضح حالهم، فقال:

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ لا تعتذروا - يا معشر المنافقين - بتلك الأيمان الكاذبة فإنها لا تنفعكم بعد ظهور أمركم، فقد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول بعد إظهاركم الإيمان.

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ أي: إن نعف عن فريق منكم لتوبتهم وإخلاصهم.

كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا
وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ
كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ
كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا
وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ
نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ
إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم
بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ
أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ
وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ
٧١ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ
وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢

١٩٨

﴿نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ **أي: نعذب فريقاً آخر لأنهم أصرُّوا على النفاق والإجرام.**

*** ثم ذكر جملة أحوال المنافقين وأن ذكورهم في ذلك كإناثهم، وأنهم متناهون في النفاق والبعد عن الإيمان، قال تعالى:**

٦٧، ٦٨ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ * وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾.

﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ **أي: المنافقون والمنافقات على دين واحد، وهم متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان، كتشابه أجزاء الشيء الواحد، فاشتركوا في تولي بعضهم بعضاً، ثم وصفهم بما يدل على مخالفة حالهم لحال المؤمنين، فقال:**

﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ **أي: يأمرون بالكفر والمعاصي والأخلاق السيئة، وينهون عن الإيمان والطاعة والآداب الحسنة.**

﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ **ويمسكون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله وطرق الخير، فوصفهم بالبخل والشح.**

﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ **أي: تركوا طاعته، فتركهم من رحمته وفضله فلم يوفقهم إلى خير، وجعلهم كالمنسيين.**

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ **أي: الكاملون في التمرد والعصيان، والخروج عن طاعة الرحمن، وكفى به زجراً لأهل النفاق.**

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ **أي: وعد الله المنافقين والمنافقات والمجاهرين بالكفر بأن مصيرهم نار جهنم.**

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡ﴾ **أي: ماكثين فيها أبداً، وهي عقاب على كفرهم، إذ ليس هناك عذاب يعادلها.**

﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ **أي: أبعدهم وطردهم من رحمته وأهانهم.**

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ **أي: دائم لا ينقطع، ولا ينفكون عنه، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق، والظاهر المخالف للباطن خوفاً من المسلمين، وما يحذرونه أبداً من الفضيحة ونزول العذاب إن أطلع على أسرارهم.**

*** ثم بين تعالى أن أفعال المنافقين من الاستهزاء والكفر، كأفعال الأمم السابقة، قال تعالى:**

٦٩ ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ **أي: حالكم يا معشر المنافقين كحال من سبقكم من المكذبين، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب.**

﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ **أي: كانوا أقوى منكم أجساماً وأشد بطشاً، وكانوا أوفر أموالاً، وأكثر أولاداً، ومع ذلك أهلكهم الله؛ فاحذروا أن يحل بكم ما حل بهم.**

﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ **أي: تمتعوا بنصيبهم وحظهم من ملاذ الدنيا.**

﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي: استمتعتم بملاذ الدنيا وشهواتها، كما استمتع أولئك الذين سبقوكم بنصيبهم منها.

﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ وخضتم في الباطل والضلال والكذب على الله كما خاضوا هم فيه، قال المفسرون: المعنى سلكتم أيها المنافقون سبيلهم في الاستمتاع بالدنيا كما استمتع الأمم الذين كانوا من قبلكم، وخضتم في الكذب والباطل على الله كخوض تلك الأمم قبلكم، فاحذروا أن يحل بكم من عقوبة الله مثل الذي حل بهم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أولئك الموصوفون بما ذكر من قبيح الفعال، ذهبت أعمالهم باطلاً فلا ثواب لها إلا النار.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ وأولئك هم الكاملون في الخسران.

* ثم ذكر ﷻ نبأ من قبلهم، واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل، فقال:

﴿٧٠﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر الأمم السابقين حين عصوا الرسل ماذا حل بهم من العقوبة؟ ثم ذكر طرفاً من هذه الأمم، فقال:

﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: قوم نوح الذين أهلكوا بالطوفان، وقوم هود «عاد» الذين أهلكوا بالريح، وقوم صالح «ثمود» الذين أهلكوا بالصيحة.

﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ كيف نصره الله عليهم، وأهلك ملكهم وأهلكوا بسلب النعمة.

﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾ قوم شعيب الذين أصابتهم الرجفة، وأهلكوا بعذاب يوم الظلة.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ قرى قوم لوط الذين انقلبت بهم فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارة من سجيل.

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: جاءتهم رسلهم بالمعجزات البيّنات فكذبوهم.

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فما أهلكهم الله ظلماً إنما أهلكهم بإجرامهم وسوء أعمالهم.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصي والتكذيب لرسل الله، أفأمن هؤلاء المنافقون أن يُسلك بهم في الانتقام سبيل أسلافهم المكذبين من أهل الإجرام؟

* ولما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة، أعقبها بذكر صفات المؤمنين الحميدة، فقال:

﴿٧١﴾ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ والمؤمنون والمؤمنات بالله ورسوله هم إخوة في الدين والموالاة والتراحم واجتماع الكلمة، يتناصرون ويتعاضدون، بسبب ما جمعهم من أمر الدين والإيمان بالله، ثم بين أوصافهم الحميدة، كما بين أوصاف من قبلهم من المنافقين، فقال:

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: يأمرون الناس بالإيمان والعمل الصالح، وبكل خير وجميل يرضي الله، وينهونهم عن كل قبيح يسخط الله، فهم على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يؤدونها على الوجه الكامل.

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يعطونها إلى مستحقيها ابتغاء وجه الله، وخصص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر من جملة العبادات؛ لكونهما الركنين العظيمين فيما يتعلق بالأبدان والأموال.

﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: في كل أمر ونهي؛ فهم مستجيبون مستسلمون.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟
وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟
بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ
ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا
مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم
مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ
بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾
أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ
عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ
فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: المتصفين بتلك الأوصاف سيدخلهم الله في رحمته، ويفيض عليهم جلائل نعمته وإحسانه. قال ابن تيمية: إن الله يجعل للمؤمن من الرحمة بما يجدونه من حلاوة الإيمان وانشراح الصدر بما لا يمكن وصفه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: غالب لا يُغلب من أطاعه، ويذل من عصاه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

﴿حَكِيمٌ﴾ يضع كل شيء في موضعه على أساس الحكمة، في النعمة والنقمة.

* ثم ذكر تعالى ما أعد للمؤمنين والمؤمنات من الثواب العظيم والخيرات والنعيم المقيم، فقال:

﴿٧٢﴾ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: وعد الله المؤمنين والمؤمنات على إيمانهم جنات جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وترح، تجري من تحت أشجارها ودورها الأنهار الغزيرة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: لابثين فيها أبداً، لا يزول عنهم نعيمها ولا يبيد.

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ ومنازل يطيب فيها العيش في جنات الخلد والإقامة، قد زخرفت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين. قال الحسن: هي قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد.

﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ورضوان من الله أكبر من ذلك النعيم كله وأعظم، وفي الحديث يقول الله تعالى لأهل الجنة: «يا أهل الجنة؛ فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» [رواه البخاري].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ذلك هو الظفر العظيم الذي لا سعادة بعده.

* ثم أمر ﷻ النبي ﷺ بالجهاد في سبيله، وهذ أمر لأمته من بعده، فقال:

﴿٧٣﴾، ﴿٧٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: بالغ في جهاد الكفار بالسيف والقتل، والمنافقين باللسان والحجة.

﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ واشدد على كلا الفريقين ولا تحابهم.

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ومسكنهم ومثواهم جهنم.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: بئس المكان الذي يصار إليه جهنم.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ أي: يحلف المنافقون أنهم ما قالوا الذي بلغك عنهم من الإساءة إليك وإلى المؤمنين، نزلت في عبدالله بن أُبي، وذلك أنه اقتتل رجلان: جهني وأنصاري، فعلا الجهني على الأنصاري، فقال ابن

سلول للأنصار: ألا تنصرون أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه يسأله فجعل يحلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية.

﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي: فلقد قالوا كلمة الكفر، هي قول ابن سلول: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل».

﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ وارتدوا بها عن الإسلام.

﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ هم نفر من المنافقين همّوا بالفتك بالنبي ﷺ عند عودته من تبوك وكانوا بضعة عشر رجلاً، فلم يمكنهم الله من ذلك.

﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: ما عابوا على الرسول، وما له عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته، ويُمن سعادته.

ثم دعاهم -تبارك وتعالى- إلى التوبة، فقال:

﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: فإن يتوبوا عن النفاق إلى الإيمان، يكن رجوعهم وتوبتهم خيراً لهم وأفضل؛ لأن التوبة أصل سعادة الدارين.

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: وإن يعرضوا عن التوبة والإنابة ويصروا على النفاق، يعذبهم عذاباً شديداً.

﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالنار وسخط الجبار.

﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ليس لهم من ينقذهم من العذاب، أو يشفع لهم فيخلصهم وينجيهم يوم الحساب.

* لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين، وتفضح أسرارهم، وتكشف أحوالهم، فهم داء عضال في الأمة وخطر عليها، قال تعالى:

﴿٧٥﴾-﴿٧٨﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ ومن هؤلاء المنافقين من يقطع العهد على نفسه.

﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ لئن أعطنا الله من فضله، ووسع علينا من الرزق.

﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: لنخرج الصدقة ونعطيها الفقراء والمساكين، ولنعملن فيها بعمل أهل الخير والصلاح. روي أن رجلاً يسمى ثعلبة جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، قال: «ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره، خير من كثير، لا تطيقه»، فقال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فلم يزل يراجعه حتى دعا له، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت حتى ترك الجمعة والجماعة، فسأل رسول الله ﷺ عنه فأخبروه بخبره، فقال: «يا ويح ثعلبة» ثلاثاً، فأنزل الله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ الآية، فهلك في خلافة عثمان.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ فلما رزقهم الله وأغناهم من فضله ونالوا مناهم.

﴿بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: بخلوا بالإنفاق ونقضوا العهد، ولم يفوا بما قالوا، وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي: فكان جزاء صنيعهم وعاقبتهم أن زادهم الله نفاقاً على نفاقهم، لا يستطيعون التخلص منه إلى يوم الحساب.

﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ أي: ذلك بسبب إخلافهم ما وعدوا الله عليه من التصدق والصلاح.

﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ وبسبب كذبهم ونفاقهم في دعوى الإيمان والإحسان.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم أسرارهم وأحوالهم، وما

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً
فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ
خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا
لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ
بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ
مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن
تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟
مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ
عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ
﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ
أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ
أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾

٢٠٠

يخفونه في صدورهم، وما يتحدثون به في مجالسهم من الكيد والمكر.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ لا يخفى عليه شيء مما غاب من الأسماع والأبصار والحواس، فسيجازيهم على أعمالهم التي أحصاها عليهم.

* ثم ذكر أيضاً من صفات المنافقين التي لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال، فقال:

﴿٧٩﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: ومع بخل المنافقين، لا يسلم المتصدقون من أذاهم، فهم يعيبون المتطوعين المتبرعين من المؤمنين في صدقاتهم ويتهمونهم بالرياء.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي: وإذا تصدق الفقراء بما في طاقتهم استهزؤا بهم، وقالوا سخرية: ماذا تجدي صدقتهم هذه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى النبي ﷺ، وجاء رجل من الأنصار بصاع من تمر، فقال بعض المنافقين: والله ماجاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياءً، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع فنزل.

﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: جازاهم على سخريتهم، وهو من باب المشاكلة، ولهم عذاب موجع، وهو عذاب الآخرة المقيم.

* ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ بأن صدور الاستغفار منه للمنافقين وعدمه سواء؛ وذلك لأنهم ليسوا بأهل لاستغفاره ﷺ قال تعالى:

﴿٨٠﴾ ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أمر ومعناه الخبر، أي: سواء -يا محمد- استغفرت لهؤلاء المنافقين، أم لم تستغفر لهم، فلن يغفر الله لهم.

﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ والمعنى: مهما أكثرت من الاستغفار لهم وبالغت فيه فلن يغفر الله لهم أبداً. وذكر السبعين في العدد للمبالغة فهو جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير في اليأس على طمع المغفرة، ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم، فقال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: بسبب كفرهم بالله ورسوله كفراً شنيعاً حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر وهذا هو سبب عدم المغفرة لهم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: لا يوفق للإيمان الخارجين عن طاعته، ولا يهديهم إلى سبيل السعادة.

* ثم يخبر تعالى مبيناً تبجح المنافقين بتخلفهم وعدم مبالاتهم بذلك، الدال على عدم الإيمان، واختيار الكفر على الإيمان، فقال:

﴿٨١﴾،﴿٨٢﴾ ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا

﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: فرح المنافقون الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك بقعودهم في المدينة بعد خروج الرسول ﷺ مخالفة له حين سار وأقاموا.

﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وكرهوا الخروج إلى الجهاد إيثاراً للراحة، وخوف إتلاف النفس والمال، لما في قلوبهم من الكفر والنفاق.

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ أي: وقال بعض المنافقين لبعض: لا تخرجوا إلى الجهاد في وقت الحر، وذلك أن النبي ﷺ استنفرهم إلى هذه الغزوة غزوة تبوك في حر شديد، وإنما قال: ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على قوله: «وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو» إيذاناً بأن الجهاد في سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب، وأشرف المطالب، التي يجب أن يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه، كما فرحوا بأقبح القبائح الذي هو القعود خلاف رسول الله ﷺ وقالوا لإخوانهم تواصياً فيما بينهم بالشر والفساد لا تنفروا في الحر، فقد جمعوا ثلاث خصال من الكفر والضلال: الفرح بالقعود، وكراهية الجهاد، ونهي الغير عن ذلك. قال تعالى رداً عليهم:

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ أي: قل لهم - يا محمد: نار جهنم التي تصيرون إليها بتثاقلكم عن الجهاد أشد حرّاً مما تحذرون من الحر المعهود، فإن حر الدنيا يزول ولا يبقى، وحر جهنم دائم لا يفتر، فما لكم لا تحذرون نار جهنم؟ وهذا استجهان لهم؛ لأن من تصوّن من مشقة ساعة، فوقع بذلك التصوّن في مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل.

﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ لو كانوا يفهمون لنفروا مع الرسول ﷺ في الحر، ليتقوا به حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا.

﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ أمر يراد به الخبر معناه: فسيضحكون قليلاً فرحاً بلذات الدنيا ونعيمها القصير، وسيبكون كثيراً في عذاب أليم. قال ابن عباس: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاؤوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله ﷻ استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أي: جزاءً لهم على ما اجترحوا من الكفر والنفاق، وعدم الانقياد لأوامر ربهم.

* ثم يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ:

(٨٣) ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: فإن ردك الله -يا محمد- من غزوة تبوك إلى طائفة من المنافقين الذين تخلفوا بغير عذر ولم يحزنوا على تخلفهم. وإنما قال: ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾. لأن منهم من تاب من النفاق ومنهم من هلك.

﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي: طلبوا الخروج معك لغزوة أخرى بعد غزوة تبوك إذا رأوا السهولة.

﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا﴾ قل لهم عقوبة لهم: لن تخرجوا معي للجهاد أبداً.

﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ أي: لن يكون لكم شرف القتال معي لأعداء الله، وسوف يغنيني الله عنكم وهو خبر معناه النهي للمبالغة، جار مجرى الذم لهم لإظهار نفاقهم.

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ أي: قعدتم عن الخروج معي أول مرة حين لم تخرجوا إلى تبوك، فاقعدوا مع المتخلفين عن الغزو من النساء والصبيان فإن جزاء السيئة السيئة بعدها، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

* ثم أمر تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتبرأ من المنافقين، فقال:

(٨٤) ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ ولا تصل - يا محمد - على أحد من هؤلاء المنافقين إذا مات؛ لأن صلاتك رحمة، وهم ليسوا أهلاً

رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ
لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
جَٰهَدُوا۟ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾
وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ
كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ
أَلِيمٞ ﴿٩٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ
مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾
وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ
مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ
حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى
ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟
مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾

٢٠١

للرحمة. عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فقال يا رسول الله: أعلى عدو الله تُصلي؟ فقال: «أخر عني يا عمر إني خيرت فاخترت، فقيل لي: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ الآية، لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت»، ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره فما كان إلا يسيراً حتى أنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾ الآية.

﴿وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ﴾ أي: لا تقف على قبره بعد الدفن، لتدعو له.

﴿إِنَّهُمۡ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تعليل للنهي، أي: لأنهم كانوا في حياتهم منافقين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ وماتوا وهم على نفاقهم خارجون من الإسلام متمردون في العصيان، وهذا حكم عام في كل من عُلِم نفاقه.

﴿٨٥﴾ ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡ﴾ أي: لا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: لا يريد الله بهم الخير، إنما يريد أن يعذبهم بها في الدنيا فيتعبون في تحصيلها، ويخافون زوالها، وتأتيهم المصائب والنكبات.

﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ وتخرج أرواحهم ويموتوا على الكفر وقلوبهم بها متعلقة، وأفئدتهم عليها متحرقة.

* ثم يذكر تعالى استمرار المنافقين على التثاقل عن الطاعات، وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات:

﴿٨٦﴾، ﴿٨٧﴾ ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُوا۟ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ * رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾ التنكير للتفخيم، أي: وإذا أنزلت سورة جليلة الشأن.

﴿أَنۡ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي: تأمر بالإيمان والإخلاص له، والجهاد مع الرسول لنصرة الحق وإعزاز الدين.

﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾ استأذنك - يا محمد - في التخلف أولو الغنى والمال الكثير من المنافقين.

﴿وَقَالُوا۟ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أي: دعنا نكن مع القاعدين العاجزين عن الخروج. قال تعالى تقبيحاً لهم، وذمّاً لفعلهم:

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ أي: رضي هؤلاء المنافقون لأنفسهم بالعار، وهو أن يقعدوا في البيوت مع النساء والمرضى والعجزة وأصحاب الأعذار.

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ أي: ختم الله على قلوبهم، فهم لا يفهمون ما في الجهاد وطاعة الرسول من الفوز والسعادة، وما في التخلف عنه من الهلاك والشقاوة.

* لما ذكر تعالى حال المنافقين وذمهم، بيّن حال الرسول والمؤمنين بالضد منه، حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه، قال تعالى:

﴿٨٨﴾، ﴿٨٩﴾ ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي: إن تخلف هؤلاء المنافقين عن الغزو والجهاد، فقد جاهد من هو خير منهم وأخلص نية واعتقاداً، جاهدوا بأموالهم وأنفسهم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ أي: لهم منافع الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بالمطلوب.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أعد الله لهم يوم القيامة على إيمانهم وجهادهم بساتين تجري من تحت قصورها الأنهار.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: لابثين في الجنة أبداً، ذلك هو الظفر العظيم الذي لا فوز وراءه.

* ثم بين تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد، فقال:

﴿٩٠﴾ ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: وجاء المعتذرون من الأعراب من أحياء العرب حول المدينة؛ الذين انتحلوا الأعذار وتخلفوا عن الجهاد.

﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي: وليبينوا له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج للغزو، وهذا بيان لأحوال المنافقين من الأعراب بعد بيان أحوال المنافقين من أهل المدينة، قال البيضاوي: وهم «أسد» و«غطفان» استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال.

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وقعد عن الجهاد الذين كذبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا عن تخلفهم.

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: سينال هؤلاء المتخلفين الكاذبين في دعوى الإيمان عذاب أليم بالقتل والأسر في الدنيا، والنار في الآخرة، وهذا وعيد لهم شديد.

* لما ذكر تعالى المعتذرين وكانوا على قسمين، قسم معذور في الشرع، وقسم غير معذور، ذكر ذلك بقوله تعالى:

﴿٩١﴾-﴿٩٣﴾ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ أي: ليس على أهل الأعذار من الشيوخ المسنين، ولا على المرضى العاجزين الذين لا يستطيعون الجهاد لعجزهم أو مرضهم.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ أي: ولا على الفقراء الذين لا يملكون من المال ما يتجهزون به للجهاد.

﴿حَرَجٌ﴾ أي: إثم في القعود.

﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إذا أخلصوا الإيمان والعمل الصالح، فلم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم، ولم يثيروا الفتن، فليس على هؤلاء حرج إذا تركوا الغزو؛ لأنهم أصحاب أعذار.

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: ليس عليهم جناح، ولا إلى معاتبتهم سبيل، وقد وصفهم بالمحسنين؛ لأنهم نصحوا لله ورسوله، ورفع عنهم العقوبة والتعنيف واللوم، وهذا من بليغ الكلام؛ لأن معناه: لا سبيل لعاتب عليهم، وهو جار مجرى المثل.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عظيم المغفرة والرحمة، حيث وسع على أهل الأعذار.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ وكذلك لا إثم على الذين إذا ما جاؤوك يطلبون أن تعينهم بحملهم إلى الجهاد. نزلت في البكائين

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا
لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى
اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ
لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا
عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن
تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ
مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ
الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ
الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ
الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ
قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ
سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

٢٠٢

الذين أرادوا الغزو مع رسول الله ولم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه، وهم سبعة من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ، وقالوا: قد نذرنا الخروج فاحملنا نغزوا معك، فقال ﷺ: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وهم يبكون.

﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ **أي: قلت لهم معتذراً: ليس عندي ما أحملكم عليه من الدواب.**

﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾ **أي: انصرفوا عنك وأعينهم تسيل دمعاً من شدة الحزن، وأسفاً على ما فاتهم من شرف الجهاد وثوابه. والحزن على فوات الطاعة من ثمرة حبها، والاهتمام بها؛ لأن المرء لا يحزن إلا على ما عز عليه.**

﴿أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ **أي: لأنهم لم يجدوا ما ينفقونه لغزوهم، ولم يكن عند الرسول ما يحملهم عليه.**

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ **إنما الإثم والحرج على المنافقين الذين يستأذنوك في التخلف وهم قادرون على الجهاد وعلى الإنفاق لغناهم.**

﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ **أي: اختاروا لأنفسهم بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة وأهل الأعذار.**

﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **وختم الله على قلوبهم فلا يدخلها إيمان، فهم لا يعلمون سوء عاقبتهم بتخلفهم عنك وتركهم الجهاد معك.**

*** لما ذكر تعالى تخلف المنافقين الأغنياء، وأنهم لا عذر لهم، أخبر تعالى بما سوف يكون منهم إذا رجعوا من الغزو، فقال:**

﴿٩٤﴾-﴿٩٦﴾ ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ **أي: عندما تعودون من جهادكم من غزوة تبوك؛ إذا رجعتم إليهم من سفركم وجهادكم يعتذر إليك هؤلاء المتخلفون عن غزوة تبوك بالأكاذيب.**

﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ **قل لهم - يا محمد - لا تعتذروا فلن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب.**

﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ **قد أخبرنا الله بأحوالكم، وما في ضمائركم من الخبث والنفاق.**

﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ **وسيظهر للناس أعمالكم في الدنيا.**

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ **ثم ترجعون بعد مماتكم إلى الله تعالى الذي يعلم السر والعلانية، ولا تخفى عليه خافية وفي هذا تخويف شديد.**

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ **فيخبركم عند وقوفكم بين يديه بأعمالكم كلها، ويجازيكم عليها الجزاء العادل.**

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ **أي: سيحلف لكم المنافقون بالله - كاذبين معتذرين، إذا رجعتم إليهم من تبوك معتذرين بالأعذار الكاذبة.**

﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ **لتصفحوا عنهم ولتعرضوا عن ذمهم.**

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ **أي: فدعوهم وأعرضوا عنهم إعراض مقت واجتناب، وخلوهم وما اختاروا**

لأنفسهم من الكفر والنفاق. قال ابن عباس: يريد ترك الكلام والسلام. ثم ذكر تعالى العلة، فقال:

﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أي: إنهم خبثاء البواطن، وليس التوبيخ والعقوبة مفيداً لهم.

﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: وتكفيهم عقوبة جهنم، هي مسكنهم ومأواهم.

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ جزاءً لهم على نفاقهم في الدنيا، وما اكتسبوه من الآثام.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ كرره لبيان كذبهم وللتحذير من الاغترار بمعاذيرهم الكاذبة، أي: يحلفون لكم -أيها المؤمنون- بأعظم الأيمان لينالوا رضاكم.

﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: فإن رضيتم -لأنكم لا تعلمون كذبهم- عنهم فإن رضاكم لا ينفعهم؛ لأن الله ساخط عليهم.

* أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، قال تعالى:

(٩٧)-(٩٩) ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ الأعراب ـ سكان البادية ـ أشد كفراً وأعظم نفاقاً من أهل الحضر، وذلك لجفائهم وقسوة قلوبهم، وبعدهم عن العلم والعلماء، ومجالس الوعظ والذكر.

﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي: وهم أحرى وأولى بألا يعلموا ما أنزل الله على رسوله من الأحكام والشرائع، وإنما كانوا أشد كفراً ونفاقاً لفخرهم وطيشهم وتربيتهم بلا سائس ولا مؤدب، فقد نشأوا كما شاؤوا، ولبعدهم عن العلم وأهله، ومشاهدة العلماء، ومعرفة كتاب الله وسنة رسوله، فكانوا أطلق لساناً بالكفر من منافقي المدينة.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بأحوالهم، حكيم في إمهالهم.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي: ومن هؤلاء الأعراب الجهلاء من يعد ما يصرفه في سبيل الله ويتصدق به غرامة وخسراناً؛ لأنه لا ينفقه احتساباً فلا يرجو له ثواباً.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أي: ينتظر بكم مصائب الدنيا ليتخلص من أعباء النفقة.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ جملة اعتراضية للدعاء عليهم، أي: عليهم يدور العذاب والهلاك، والمصائب والحروب التي يتوقعون وقوعها في المسلمين.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوالهم، عليم بأفعالهم وما يضمرونه.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هذا استثناء، وهو النوع الثاني من أنواع الأعراب، قسم ممدوح، أي: وليس الأعراب كلهم مذمومين، بل منهم من يصدق بوحدانية الله، وبالبعث بعد الموت على عكس أولئك المنافقين.

﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ﴾ ويتخذ ما ينفق في سبيل الله ما يقربه من رضا الله ومحبته.

﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي: ويجعلها وسيلة إلى دعاء الرسول واستغفاره له؛ لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم.

﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ ألا إن هذا الإنفاق قربة عظيمة تقربهم لرضا ربهم حيث أنفقوها مخلصين.

﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي: سيدخلهم الله في جنته التي أعدها للمتقين.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ غفور لأهل طاعته، رحيم بهم حيث وفقهم للطاعة.

* لما ذكر سبحانه أصناف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار، وبين أن منهم السابقين إلى الهجرة، وأن منهم التابعين لهم، فقال:

(١٠٠) ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ أي: والذين

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ
اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ
مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ
إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ
اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ
إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

سبقوا الناس أولاً إلى الإيمان بالله ورسوله من المهاجرين الذين هجروا قومهم وعشيرتهم وانتقلوا إلى دار الإسلام، والأنصار الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه الكفار.

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ أي: سلكوا طريقهم واقتدوا بهم في سيرتهم الحسنة، وهم التابعون ومن سار على نهجهم إلى يوم القيامة.

فرضي عن السابقين من غير اشتراط إحسان، ولم يرض عن التابعين إلا أن يتبعوهم بإحسان.

﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وعدٌ بالغفران والرضوان، أي: رضي الله عنهم وأرضاهم، ﷺ لطاعتهم إياه وإجابتهم نبيه، ورضوا عنه لما أجزل لهم من الثواب على الطاعة والإيمان، وهذا أرقى المراتب التي يسعى إليها المؤمنون، ويتنافس فيها المتنافسون؛ أن يرضى الله تعالى عنهم ويرضيهم، ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: وأعد لهم في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: مقيمين فيها من غير انتهاء لا يبغون عنها حولاً، ولا يطلبون منها بدلاً.

﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه. لما بيّن تعالى فضائل الأعراب المؤمنين، بيّن حال هؤلاء السابقين، ولكن شتان ما بين الثناءين، فهناك قال: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ وهنا قال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهناك ختم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهنا ختم ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، وفي هذه الآية تزكية للصحابة ﷺ وتعديل لهم، وثناء عليهم، ولهذا فإن توقيرهم من أصول الإيمان.

* ثم عادت الآيات إلى شرح أحوال المنافقين من أهل المدينة، ومن يقرب منها من الأعراب، قال تعالى:

﴿١٠١﴾ ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ وممن حولكم يا أهل المدينة منافقون من الأعراب، منازلهم قريبة من منازلكم.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ ومن أهل المدينة منافقون أيضاً.

﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي: لجُّوا في النفاق واستمروا عليه وثبتوا بحيث يخفى عليك -يا محمد- أمرهم، منهم ابن سلول، والجلاس، وأبو عامر الراهب.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا تعلمهم أنت ـ يا محمد ـ بأعيانهم لمهارتهم في النفاق بحيث يخفى أمرهم على كثيرين، ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم.

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أي: في الدنيا بالهم والحزن والغم والكراهة لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وبالقتل والأسر، وعند الموت بعذاب القبر.

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ ثم في الآخرة يردون إلى عذاب النار، الذي أعده الله للكفار والفجار.

* ثم ذكرت الآيات صنف ثالث من الناس، جرت عليهم أمور وتابوا منها، قال تعالى:

﴿١٠٢﴾ ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ

خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي: وقوم آخرون من أهل المدينة وممن حولها أقروا بذنوبهم وندموا عليها، ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة، وهم قوم من المسلمين تخلفوا عن غزوة تبوك لا لنفاقهم بل لكسلهم، ثم ندموا على ما فعلوا وتابوا.

﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ أي: خلطوا جهادهم السابق وخروجهم مع الرسول لسائر الغزوات، وتوبتهم واعترافهم بالذنب، وغير ذلك من الأعمال الصالحة بالعمل السيء، وهو تخلفهم عن غزوة تبوك هذه المرة، وغيره من الأعمال السيئة.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: لعل الله يوفقهم للتوبة ويقبلها منهم، ولم يذكر توبتهم؛ لأنه ذكر اعترافهم بذنوبهم، وهو دليل على التوبة، وعسى من الله واجب. ومعناه: سيتوب الله عليهم. ولكنه في كلام العرب بمعنى الترجي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ذو عفو لمن تاب، عظيم الرحمة لمن أناب.

* ثم قال تعالى لرسوله ولمن قام مقامه آمراً له بما يطهر المؤمنين ويتمم إيمانهم:

﴿١٠٣﴾، ﴿١٠٤﴾ ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي: خذ -يا محمد- من هؤلاء التائبين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً صدقة تطهرهم بها من الذنوب والأوزار، وتنمي بتلك الصدقة حسناتهم حتى يرتفعوا بها إلى مراتب المخلصين الأبرار.

﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡ﴾ أي: وادع لهم بالمغفرة، فإن دعاءك واستغفارك رحمة وطمأنينة لهم.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لدعائك، سمع إجابة وقبول، عليم بأحوال العباد ونياتهم، وسيجازي كل عامل بعمله.

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ الاستفهام للتقرير، أي: ألم يعلم أولئك التائبون أن الله تعالى هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده.

﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يتقبلها ممن أخلص النية ويثيب عليها، وفي هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحصها.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وأن الله وحده المستأثر بقبول التوبة لعباده إذا رجعوا إلى طاعته، الرحيم بهم إذا أنابوا إلى رضاه.

* ثم ذكر تعالى سعة رحمته، وجوده، وعموم كرمه، فقال:

﴿١٠٥﴾ ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ صيغة أمر متضمنة للوعيد، أي: وقل -يا محمد- لهؤلاء المنافقين وأمثالهم: اعملوا ما شئتم من الأعمال فأعمالكم لا تخفى على الله، وستعرض يوم الحساب على الرسول والمؤمنين وسيتبين أمركم.

﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وستردُّون إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر.

* ذكر سبحانه ثلاثة أقسام في المتخلفين: الأول: المنافقون الذين مردوا على النفاق، والثاني: التائبون المعترفون بذنوبهم، الثالث: الذين أمرهم موقوف في تلك الحال، وهم المرجون لأمر الله، قال تعالى:

﴿١٠٦﴾ ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ وآخرون من المتخلفين عنكم ـ أيها المؤمنون ـ في غزوة تبوك، مؤخرون إلى أن يظهر أمر الله فيهم، وهم كعب ابن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، ولم يسارعوا إلى التوبة والاعتذار، وكانوا من أصحاب بدر، فنهى النبي ﷺ عن كلامهم والسلام عليهم، فصاروا مرجئين لأمره تعالى؛ لا

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ
وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ
مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن
يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً
فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم
بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ
وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

يدرون أيعذبهم أم يرحمهم ويتجاوز عن سيئاتهم، حتى نزلت توبتهم بعد خمسين ليلة، فهو تعالى وحده الذي يقبل التوبة ويتوب على العبد دون غيره.

﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إما أن يعذبهم إن أصروا، ولم يتوبوا، وإما أن يوفقهم للتوبة ويغفر لهم، وهؤلاء الثلاثة هم الذين ندموا على ما فعلوا.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بأحوالهم، حكيم فيما يفعله بهم.

* لما ذكر الله أصناف المنافقين، وبين طرائقهم المختلفة، عطف على ما سبق هذه الطائفة منهم، وهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً، قال تعالى:

﴿١٠٧، ١٠٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ أي: ومن المنافقين جماعة بالغوا في الإجرام حتى اتخذوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، يدبرون فيه الشر، وسموه مسجداً مضارة للمؤمنين، وقد اشتهر باسم مسجد الضرار. روي أن أبا عامر الراهب وقد تنصر في الجاهلية وترهب، فلما خرج رسول الله ﷺ عاداه؛ لأنه ذهبت رياسته وقال: لا أجد قوماً يقاتلون إلا قاتلتك معهم -وسماه النبي ﷺ أبا عامر الفاسق- فلما انهزمت هوازن في حنين خرج إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لي مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر فآتي بجند الروم فأخرج محمداً وأصحابه، فبنوا مسجداً إلى جانب مسجد قباء، وأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا بنينا مسجداً لذي العلة، والحاجة، والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فدعا بثوبه ليلبسه فيأتيهم فنزل عليه القرآن، وأخبر الله رسوله خبر مسجد الضرار وما هموا به، فدعا ﷺ بعض الصحابة وقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله وأحرقوه»، فذهبوا إليه فحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله، وفيه نزلت: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ الآية.

﴿وَكُفْرًا﴾ أي: بالله ورسوله، ونصرة للكفر الذي يخفونه.

﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يفرقون بواسطته جماعة المؤمنين، ويصرفونهم عن مسجد قباء.

﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: ترقباً وانتظاراً لقدوم أبي عامر الفاسق الذي قال لرسول الله: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، وهو الذي أمرهم ببناء المسجد ليكون معقلاً له، ومكاناً للكيد للمسلمين.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ وليقسمن هؤلاء المنافقون: ما أردنا ببنائه إلا الخير والإحسان، من الرفق بالمسكين، والعاجز الذي لا يستطيع السير إلى مسجد قباء، والتوسعة على المصلين.

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ والله يعلم كذبهم في ذلك الحلف، وأتى بإن واللام لزيادة التأكيد، وقد هدم المسجد وأحرق. ثم نهى تعالى رسوله عن الصلاة في مسجد الضرار، فقال:

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: لا تصل فيه -يا محمد- أبداً؛ لأنه لم يُبْنَ إلا ليكون معقلاً لأهل النفاق.

﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ اللام لام لقسم، أي: لمسجد قباء الذي بني على تقوى الله وطاعته.

﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ أي: من أول يوم ابتدئ في بنائه.

﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أي: أولى وأجدر بأن تصلي فيه وتذكر الله تعالى، فهو فاضل، وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله:

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ أي: في المسجد رجال أتقياء -وهم الأنصار- يحبون أن يتطهروا من الذنوب والمعاصي.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ أي: المبالغين في الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

* ثم أشار تعالى إلى فضل مسجد التقوى على مسجد الضرار، فقال:

(١٠٩)، (١١٠) ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ﴾ أي: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى وخوف من الله تعالى وطلب لمرضاته بالطاعة.

﴿خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ﴾ أي: هل ذاك خير، أم هذا الذي أسس بنيانه على طرف واد متصدع مشرف على السقوط؟ فبنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المسلمين.

﴿فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فسقط به البناء في نار جهنم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا يوفق الظالمين إلى السداد، ولا يهديهم سبيل الرشاد، والآية الكريمة على سبيل التشبيه والتمثيل لعمل أهل الإخلاص والإيمان، وعمل أهل النفاق والضلال، والمعنى: هل من أسس بنيان دينه على التقوى والإخلاص كمن أسسه على الباطل والنفاق الذي يشبه طرف الوادي أو الجبل الذي أشفى على السقوط؟ ثم قال تعالى:

﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: لا يزال في قلوب أهل مسجد الضرار شك ونفاق، وغيظ وارتياب بسبب هدمه، يحسبون أنهم كانوا في بنائه محسنين، روي أن النبي ﷺ بعث إلى ذلك المسجد من هدَّمه وحرقه وأمر بإلقاء الجيف والنتن والقمامة فيه إهانة لأهله، فلذلك اشتد غيظ المنافقين وحقدهم.

﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: لا يزالون في ارتياب وغيظ إلا أن تتصدع قلوبهم فيموتوا.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله سبحانه عليم بأحوال المنافقين، حكيم في تدبيره إياهم ومجازاتهم بسوء نياتهم.

* لما ذكر تعالى أحوال المنافقين، المتخلفين عن الجهاد، المثبطين عنه، وفرّع على كل قسم منها ما هو لائق به، عاد على بيان فضيلة الجهاد، والترغيب فيه، وذكر صفات المؤمنين المجاهدين، الذين باعوا أنفسهم لله، قال تعالى:

(١١١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أي: إن الله -جل وعلا- اشترى بنفسه الكريمة؛ أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة، وهو تمثيل في ذروة البلاغة والبيان لأجر المجاهدين، مَثَّل تعالى جزاءهم بالجنة على بذلهم الأموال والأنفس في سبيله بصورة عقد فيه بيع وشراء. قال الحسن: بايعهم فأغلى لهم الثمن وانظروا إلى كرم الله، أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها، ثم وهبها لهم، ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالي فإنها لصفقة رابحة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه. وقال بعضهم: ناهيك عن بيع البائع فيه المؤمن، والمشتري فيه رب العزة، والثمن فيه الجنة، والصك فيه الكتب السماوية، والواسطة فيه محمد ﷺ. لما بايع الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة -وكانوا سبعين رجلاً- قال عبد الله ابن رواحة: يا رسول الله: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: «اشترط لربي أن تعبدوه

ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ
ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ
وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ
وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ
مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا
كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ
إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ
لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ
هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ
عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ
وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾
لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ
ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ
فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾

ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك، فما لنا؟ قال: «الجنة»، قالوا: ربح البيع لا نقيل، ولا نستقيل، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ...﴾ الآية.

﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يجاهدون لإعزاز دين الله وإعلاء كلمته.

﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ أي: في حالتي الظفر بالأعداء بقتلهم، أو الاستشهاد في المعركة بموتهم.

﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ أي: وعدهم به المولى وعداً قاطعاً.

﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أي: وعداً مثبتاً في أشرف الكتب التي أنزلت وأعلاها، وأكملها، وهي: التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد.

﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الاستفهام إنكاري، بمعنى النفي، أي: لا أحد أوفى من الله -جل وعلا-؛ لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبيح؟ ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ.

﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦ﴾ أي: أبشروا بذلك البيع الرابح وافرحوا به غاية الفرح، فقد ربحتم فيه ربحاً لم يربحه أحد من الناس، إلا من فعل مثل فعلكم.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه ولا أكبر.

* ثم ذكر من صفات هؤلاء المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم، ولهم البشارة بدخول الجنة بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة، فقال:

﴿١١٢﴾ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ أي: التائبون عن المعاصي الملازمون للتوبة في جميع الأوقات، العابدون المتصفون بالعبودية لله، المخلصون في العبادة، الحامدون لله في السراء والضراء، واليسر والعسر.

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ أي: السائرون في الأرض للغزو أو طلب العلم، من السياحة وهي السير والذهاب في المدن والقفار للعظة والاعتبار. وفسرت السياحة بالصيام.

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ أي: الراكعون في صلاتهم الساجدون فيها، المكثرون منها.

﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي: الداعون إلى الله، يدعون الناس إلى الرشد والهدى، وينهونهم عن الفساد والردى.

﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أي: المحافظون على فرائض الله، المتمسكون بما شرع الله من حلال وحرام، المنتهون إلى أمره ونهيه.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: بشر -يا محمد- هؤلاء المؤمنين المتصفين بهذه الصفات بجنات النعيم، حذف المبشر به إشارة إلى أنه لا يدخل تحت حصر، بل لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

* لما بين تعالى في أول السورة وما بعدها أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة، بين سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيداً، فقال تعالى:

﴿١١٣﴾، ﴿١١٤﴾ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ

لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا ينبغي ولا يصح للنبي والمؤمنين أن يدعوا بالمغفرة للمشركين. لما حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله» فقال أبو جهل وابن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: «لا إله إلا الله» فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ﴾ أي: لا تستغفر لهم ولو كان المشركون أقرباء لهم.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: من بعد ما وضح لهم أنهم من أهل الجحيم لموتهم على الكفر، والآية نزلت في أبي طالب.

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ هذا بيان للسبب الذي حمل إبراهيم على الاستغفار لأبيه آزر، أي: ما أقدم إبراهيم على الاستغفار.

﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ أي: إلا من أجل وعد تقدم له به، بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم: ٤٧] وأنه كان قبل أن يتحقق إصراره على الشرك.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ أي: فلما تبين لإبراهيم أن أباه مصرّ على الكفر ومستمر على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير تبرأ من أبيه بالكلية، فضلاً عن الاستغفار له موافقة لربه وتأدباً معه. ثم بيّن تعالى بأن الذي حمل إبراهيم على الاستغفار هو فرط ترحمه وصبره على أبيه، فقال:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ أي: رجاع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء، والاستغفار والإنابة إلى ربه.

﴿حَلِيمٌ﴾ أي: ذو رحمة بالخلق؛ صبور على ما يعترضه من الأذى، ولذلك حلم عن أبيه مع توعده له بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] فليس لغيره أن يتأسى به في ذلك. ولما كان استغفار إبراهيم لأبيه بصدد أن يُقتدى به؛ بيّن تعالى العلة في استغفار إبراهيم لأبيه، وهو الوعد الذي كان وعده به، فكان يرجو إيمانه فلما تبين له من جهة الوحي أنه عدو لله، وأنه يموت كافراً، وانقطع رجاؤه منه تبرأ منه، وقطع استغفاره.

* لما نزلت الآية المتقدمة في النهي عن الاستغفار للمشركين، خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب ذلك الاستغفار، فأنزل الله الآيات تأنيساً لهم، قال تعالى:

﴿١١٥﴾، ﴿١١٦﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾ أي: ما كان الله ليقضي على قوم بالضلال، وهذا إخبار عن نفسه الكريمة وحكمه العادل.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ بعد أن وفقهم ومنَّ عليهم بالإيمان والهداية.

﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ حتى يبين لهم ما يجتنبونه، فإن خالفوا بعد النهي استحقوا العقوبة، وفي هذا دليل على كمال رحمته بعباده.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ عليم بجميع الأشياء، ومنها أنه يعلم من يستحق الهداية، ومن يستحق الإضلال، ثم عظم نفسه، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: له سلطان السموات والأرض وملكها، وكل من فيهما عبيده ومماليكه لا شريك له في الخلق والتدبير والعبادة والتشريع.

﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: بيده وحده حياتهم وموتهم.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ليس لكم أيها الناس من أحد غير الله تلجؤون إليه،

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ
بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ
مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم
مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ
بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ
وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا
يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ
لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ
﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ
وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ
فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ
وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

أو تعتمدون عليــه، في جلب المنافع، ودفع المضار، قال الألوسي: لما منعهم سـبحانه عن الاسـتغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربـى، وتضمن ذلك وجـوب التـبري عنهـم، بيّن لهـم أن الله سـبحانه مالـك كل موجود، ومتـولي أمـره، والغالـب عليه، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصر إلا منه تعالى، ليتوجهـوا إليه بكليتهم، متبرئين عما سواه، غير قاصدين إلا إياه.

* يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه أن تـاب عـلى النبـي والمهاجريـن والأنصار، فقال تعالى:

﴿١١٧﴾-﴿١١٩﴾ ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ * وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ أي: لقد وفق الله نبيه محمداً ﷺ إلى الإنابــة إليه وطاعته، وتاب عـلى المهاجرين والأنصـار لما حصل منهـم من بعـض الهفـوات في غزوة تبوك، حيث تباطـأ بعضـهم، وتثاقل عن الجهاد آخرون، فغفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسـنات، ورقاهم إلى أعلى الدرجـات، والغـرض التوبة على من تخلفوا من المؤمنـين عن غزوة تبوك ثم تابوا وأنابـوا، وعلم الله صدق توبتهم فقبلها منهـم، وصدرهـا بتوبته على رسـوله وكبار صحبه جبراً لقلوبهم، وتنـويهاً لشـأنهم، وبعثاً للمؤمنين على التوبة، وأنـه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي والمهاجرون والأنصار.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ أي: خـرجـوا معـه لقتال الأعداء في غزوة تبوك وقت العسر في شدة الحر، وقلة الـزاد، والضيق الشـديد. عن عمـر رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسـول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شـديد، فنزلنا منـزلاً أصابنا فيه عطـش، حتى ظننا أن رقابنا سـتنقطع، حتـى إن الرجل لينحر البعير فيعصر فرثه فيشربه، فقال أبوبكر يا رسول الله: إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فـادع لنا، قال: «أتحب ذلك؟» قـال: نعم، فرفـع يديه فلم يرجعهما حتى سـكبت السماء فملؤوا ما معهـم، فرجعنا ننظـر فلم نجدها جاوزت العسكر.

وسـماها سـاعة تهوينـاً لأوقات الكروب وتشجيعاً على مواقعة المكاره؛ فإن أمدها يسير وأجرها عظيم.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: من بعد ما كادت قلـوب بعضهـم تميل عـن الحق، لما نالهم من المشقة والشـدة فيميلون إلى الدعة والسكون.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ تكرير للتوكيد، أي: وفقهم للثبات على الحق وقواهم، ومـنَّ عليهم بالتوبة، وقبلها منهم، وثبتهم عليها.

﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: لطيـف رحيـم بالمؤمنين. قـال ابن عباس: من تاب الله عليه لم يعذبه أبداً.

* ثم ذكـر ﷻ توبته عـلى الثلاثة الذي خلفوا، فقال تعالى:

﴿١١٨﴾، ﴿١١٩﴾ ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ أي: وتاب كذلك على الثلاثة الذين خلفوا عن الغزو، وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وقوله ﴿خُلِّفُوا۟﴾ إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، وأنهم لم يكن تخلفهم عن رغبة عن الخير ولهذا لم يقل «تخلفوا».

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: تخلفوا عن رسول الله ﷺ، وحزنوا حزناً شديداً، حتى ضاقت عليهم مع سعتها.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ ضاقت نفوسهم بما اعتراها من الغم والهم، بحيث لا يسعها أنس ولا سرور، وذلك بسبب أن الرسول ﷺ دعا لمقاطعتهم، فكان أحدهم يفشي السلام لأقرب أقربائه فلا يرد عليه، وهجرتهم نساؤهم وأهلوهم وأهملوهم، حتى تاب الله عليهم.

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ وأيقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا معتصم لهم من الله ومن عذابه، إلا بالرجوع والإنابة إليه سبحانه، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ أي: رجع عليهم بالقبول والرحمة، ليستقيموا على التوبة ويدوموا عليها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: المبالغ في قبول التوبة وإن كثرت الجنايات وعظمت، المتفضل على العباد بالرحمة الشاملة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم، وكونوا مع أهل الصدق واليقين، الذين صدقوا في الدين نية وقولاً وعملاً.

﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

قال الحسن: إذا أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا. والكف عن أهل الملة.

* ثم عاتب ﷻ من تخلف عن غزوة تبوك من أهل المدينة، ومن حولها من أحياء العرب، فقال تعالى:

﴿١٢٠﴾ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما صح ولا استقام لأهل المدينة، ومن حولهم من سكان البوادي أن يتخلفوا في أهلهم ودورهم عن الغزو مع رسول الله ﷺ إذا غزا، وفي هذا زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله ﷺ وتحريم التخلف عنه.

﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: ولا يرضوا لأنفسهم بالراحة، والرسول ﷺ في تعب ومشقة، بل عليهم أن يفدوه بالمُهج والأرواح، وأن يكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب، وقد أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها عليه، لا أن يضنوا بأنفسهم على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهي بليغ، وتهييج لمتابعته ﷺ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ أي: ذلك بأن المجاهدين في سبيل الله لا يصيبهم في سفرهم وجهادهم عطش.

﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ أي: ولا تعب ومشقة.

﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ولا مجاعة، في طريق الجهاد.

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأرجلهم أو حوافر خيولهم، يغضب الكفار وطؤهم إياها.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ ولا يصيبون أعداءهم بشيء، بقتل، أو أسر، أو هزيمة، قليلاً كان أو كثيراً.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ أي: إلا كان ذلك قربة لهم عند الله، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «من أغبرت قدماه في سبيل الله حرمها الله على النار» [رواه البخاري].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

* ثم قال ﷻ في الثناء عليهم:

﴿١٢١﴾ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة في سبيل الله، تمرة فما فوقها.

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: ولا يجتازون للجهاد في سيرهم وادياً مع رسول الله ﷺ في مسيرهم مقبلين أو مدبرين.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أي: أثبت لهم أجر عملهم، وآثارهم وخطاهم.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ليجزيهم على كل عمل لهم جزاء أحسن أعمالهم. على معنى أن لأعمالهم جزاءً حسناً وجزاء أحسن، وهو سبحانه اختار لهم أحسن جزاءً.

* ثم ذكر ﷻ منبهاً لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم:

﴿١٢٢﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ أي: لا ينبغي خروج جميع المؤمنين للغزو بحيث تخلو منهم البلاد، كما لا يستقيم لهم أن يقعدوا جميعاً. روي عن ابن عباس أنه تعالى لما شدد على المتخلفين قالوا: لا يتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبداً، فلما قدم الرسول إلى المدينة وأرسل السرايا إلى الكفار، نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوه وحده بالمدينة، فنزلت هذه الآية.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ أي: فإذا لم يكن نفير الجميع ولم يكن فيه مصلحة، فهلا خرج من كل جماعة كثيرة فئة قليلة تحصل بهم الكفاية والمقصود.

﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: ليصبحوا فقهاء ويتكلفوا المشاق في طلب العلم.

﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وليخوفوا قومهم ويرشدوهم إذا رجعوا إليهم بما تعلموه من العلم، لعلهم يخافون عقاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، قيل: وكان الظاهر أن يقال: (ليعلموا) بدل ﴿وَلِيُنذِرُواْ﴾ و(يفقهون) بدل ﴿يَحْذَرُونَ﴾ لكنه اختير ما في النظم الجليل للإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون غرض المعلم: الإرشاد والإنذار، وغرض المتعلم: اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار.

* أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، قال تعالى:

﴿١٢٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: يا أيها الذين صدقوا بالله واتبعوا رسوله، قاتلوا القريبين منكم، وطهروا ما حولكم من رجس المشركين، ثم انتقلوا إلى غيرهم، والغرض إرشادهم إلى الطريق الأصوب والأصلح، وهو أن يبتدئوا من الأقرب فالأقرب، حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد من ديار الإسلام، وقد حارب النبي ﷺ قومه، ثم غيرهم من عرب الحجاز، ثم الشام.

﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وليجد هؤلاء الكفار منكم شدة وحمية عليهم، واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والعون.

* ثم يقول تعالى مبيناً لبقية فضائح المنافقين وحالهم، وذكر بعدهم المؤمنين وحالهم عند نزول القرآن، وتفاوت ما بين الفريقين، فقال:

﴿١٢٤﴾،﴿١٢٥﴾ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ وإذا ما أنزل الله سورة من سور القرآن على رسوله ﷺ فيها الأمر والنهي، والخبر عن نفسه الكريمة، وعن الأمور الغائبة والحث على الجهاد.

﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ أي: فمن هؤلاء المنافقين من يقول إنكاراً واستهزاء: أيكم زادته هذه السورة تصديقاً بالله وآياته؟ على وجه الاستخفاف بالقرآن.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي: فأما المؤمنون فزادهم نزول السورة تصديقاً وإيماناً بالعلم بها وتدبرها واعتقادها والعمل بها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ
هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ
رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا
يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ
ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ
أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم
مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

سُورَةُ يُونُسَ

﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: وهم يفرحون لنزولها ويبشر بعضهم بعضاً؛ لأنه كلما نزل شيء من القرآن فرحوا به وازدادوا إيماناً.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق.

﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي: زادتهم نفاقاً إلى نفاقهم وكفراً إلى كفرهم.

﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: ماتوا على الكفر عقوبة لهم.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بما يصيبهم في البلايا والأمراض، وبما يبتلون به من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم.

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ثم هم مع ذلك لا يرجعون عما هم فيه من النفاق ولا يعتبرون.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ وإذا أنزلت سورة من القرآن تغامز المنافقون وهم في مجلس النبي ﷺ إنكاراً لنزولها وسخرية وغيظاً، ثم نظر بعضهم لبعض هل يراكم أحد من المسلمين إن قمتم من عند الرسول؛ فإن لم يرهم أحد قاموا وانصرفوا من عنده ﷺ مخافة الفضيحة.

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: صرف الله قلوبهم وصدها وخذلها عن الهدى والرشد والإيمان، لأجل أنهم لا يفهمون الحق ولا يتدبرون، فهم حمقى غافلون.

* ثم يمتن الله تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم:

﴿١٢٨﴾، ﴿١٢٩﴾ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ لقد جاءكم أيها القوم رسول عظيم القدر، من جنسكم عربي؛ قرشي، تعرفون حاله ونسبه وحسبه، وتتمكنون من الأخذ عنه، ولا تأنفون عن الانقياد له، يُبلغكم رسالة الله.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يشق عليه ما تلقون من المكروه والعنت والمشقة.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ حريص على هدايتكم وصلاح شأنكم، يحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: وهو بالمؤمنين كثير الرأفة والرحمة، شديد الشفقة والرحمة عليهم. قال ابن عباس: «سماه باسمين من أسمائه». ولم يجمع الله ذلك لأحد من أنبيائه إلا النبي محمد ﷺ فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد خص الله عز وجل نبينا محمداً في القرآن بوصف الرحمة، ولم يصف به غيره من الأنبياء.

ثم قال تعالى مخاطباً لرسوله ومسلياً ومرشداً له:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: فإن أعرض المشركون والمنافقون عن الإيمان بك -يا محمد- ولم يعملوا بما جئت به ولا قبلوه، فقل لهم: يكفيني ربي جميع ما أهمني.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: ولامعبود بحق سواه.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ عليه اعتمدت ووثقت به في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر، فلا أرجو ولا أخاف أحداً غيره فإنه ناصري ومعيني.

﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: هو سبحانه رب العرش المحيط بكل شيء، الذي هو أعظم المخلوقات؛ الذي لا يعلم مقدار عظمته إلا الله تعالى.

تم تفسير سورة التوبة
والحمد لله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ
إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ
مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ
يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ
وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ٤ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ
ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ
وَٱلْحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ
ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ٦

٢٠٨

تفسير سورة يونس وهي مكية

* سورة يونس من السور المكية، التي تعنى بأصول العقيدة الإسلامية من الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالكتب، والرسل، والبعث والجزاء وهي تتميز بطابع التوجيه إلى الإيمان بالرسالات السماوية، وبوجه أخص إلى القرآن العظيم خاتمة الكتب المنزلة، والمعجزة الخالدة على مدى العصور والدهور.

تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الرسالة والرسول، وبينت أن هذه سنة الله في الأولين والآخرين، فما من أمة إلا بُعث فيها رسول، فلا داعي للمشركين للعجب من بعثة خاتم المرسلين.

وتناولت السورة الكريمة موقف المشركين من الرسالة والقرآن، وذكرت أن هذا القرآن هو المعجزة الخالدة الدالة على صدق النبي الأمي، وأنه يحمل برهانه في تفرده المعجز، حيث تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا مع أنهم أساطين الفصاحة، وأمراء البيان ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾ [يونس: ٣٨].

وردت في سورة يونس؛ وقصة نوح وموسى مع فرعون ويونس والذي يجمع بينهم هو الماء فالله تعالى أغرق قوم نوح، وأغرق فرعون، ونجا يونس من بطن الحوت.

سميت السورة «سورة يونس» لذكر قصته عليه السلام فيها، وما تضمنته من العظة والعبرة برفع العذاب عن قومه حين آمنوا بعد أن كاد يحل بهم البلاء والعذاب، وهذا من الخصائص التي خصَّ الله بها قوم يونس لصدق توبتهم وإيمانهم، قال تعالى:

(١)، (٢) ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿الٓر﴾ إشارة إلى أن هذا الكلام البليغ المعجز، مكون من جنس الأحرف التي يتكون منها كلامكم، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب الحكيم، وهي في متناول أيديهم، ثم يعجزون عن الإتيان بمثل آية واحدة منه.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: هذه آيات القرآن المحكم المبين الذي لا يدخله شك، ولا يعتريه كذب ولا تناقض، دالة آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعية.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: أكان عجباً لأهل مكة إنزالنا الوحي بالقرآن على رجل منهم هو محمد ﷺ؟ والعجب: حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة. والهمزة للإنكار، أي: لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة أوحى إلى رسلهم ليبلغوهم رسالة الله. قال ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ أنكرت الكفار، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، أما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب؟ فأنزل الله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ...﴾ الآية.

﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أوحينا إليه بأن خوف الكفار عقاب الله وعذابه.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: وأن بشر الذين آمنوا به إيماناً صادقاً بأن لهم سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموا وأسلفوا من الأعمال الصالحة الصادقة.

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: فلما أتاهم رسول الله ﷺ

بوحي الله وتلاه عليهم، تعجبوا من هذا الرجل المرسل تعجباً حملهم على الكفر به. قال المشركون: إن محمداً لساحر ظاهر السحر، مبطل فيما يدعيه، وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارقة للعادة، معجزة إياهم عن المعارضة، وهو اعتراف من حيث لا يشعرون بأن ما جاء به خارج عن طوق البشر.

* يقول تعالى مبيناً لربوبيته وإلهيته وعظمته:

﴿٣﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: إن ربكم ومالك أمركم الذي ينبغي أن تفردوه بالعبادة؛ هو الذي خلق الكائنات في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا لما له من الحكمة في ذلك، ولو شاء لخلقهن في لمحة ولكنه أراد تعليم العباد التأني والتثبت في الأمور، ومن كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عن تصوره، كيف يكون إرساله لرسوله إلى الناس من جنسهم محلاً للتعجب.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ثم بعد خلق السموات والأرض استوى على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، وهذا بيان لجلالة ملكه وسلطانه، بعد بيان عظمة شأنه.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يدبر أمر الخلائق وحده على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، لا يشغله في تدبير خلقه أحد.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ أي: لا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له في الشفاعة ولو كان أفضل الخلق، وفي هذا دليل على عزته وكبريائه، ورد على المشركين في زعمهم أن الأصنام تشفع لهم.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ذلكم العظيم الشأن هو ربكم وخالقكم لا رب سواه، فاعبدوه وأخلصوا له العبادة.

﴿فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الآيات والحجج؟ تعجب منهم وإنكار عليهم، تعلمون أنه سبحانه المتفرد بالخلق ثم تعبدون معه غيره من الأوثان والأصنام.

* ولما ذكر تدبيره العام، وحكمه الديني وهو شرعه، الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له، ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال:

﴿٤﴾ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: إلى ربكم مرجعكم أيها الناس يوم القيامة جميعاً.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ تأكيد لتأكيد، أي: وعداً من الله لا يتبدل، وفيه رد على منكري البعث حيث قالوا: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: كما ابتدأ الخلق أول مرة كذلك يعيده بعد الموت كهيئته الأولى، ثم ذكر غاية ما يترتب على الإعادة، فقال:

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: ليجزي من صدق الله ورسوله، وعمل الأعمال الحسنة أحسن الجزاء بالعدل، ويوفيهم أجورهم بالجزاء الأوفى.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي: والذين جحدوا بالله وكذبوا رسله، لهم في جهنم شراب من ماء شديد الحرارة يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء. وخص الشراب من الحميم من بين أنواع العذاب الأليم؛ لأنه أكره أنواع العذاب في مألوف النفس.

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي: ولهم عذاب موجع بسبب كفرهم وإشراكهم، والآية كالتعليل لما سبق فإنه لما كان المقصود من البداء والإعادة مجازاة المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة.

* لما قرر ربوبيته وإلهيته، نبه ﷻ على دلائل قدرته ووحدانيته، فقال تعالى:

﴿٥﴾،﴿٦﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟
بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ
ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ
ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ
ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ
لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ
ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ
لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ
ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ
لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ
مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟
لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ
خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ **أي: هو تعالى بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهاج.**

﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ **أي: وجعل القمر منيراً بالليل، وهذا من كمال رحمته بالعباد، ولما كانت الشمس أعظم جرماً خصت بالضياء؛ لأنه هو الذي له السطوع واللمعان، قيل: المعنى أضاء الشمس وأنار القمر.**

﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ **أي: قدر سيره في منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها وهي البروج.**

﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ **لتعلموا أيها الناس حساب الأوقات، فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام.**

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ **ما خلق تعالى الشمس والقمر عبثاً بل لحكمة عظيمة، وفائدة جليلة، ودلالة على كمال قدرة الله وعلمه.**

﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ **أي: يبين الآيات الكونية ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله، ويتدبرون حكمته، ويعلمون الحكمة في إبداع الكائنات، فيستدلون بذلك على شؤون مبدعها جل وعلا.**

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ **أي: في تعاقبهما؛ يأتي الليل فيذهب النهار، ويأتي النهار فيذهب الليل.**

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **أي: وما خلق الله في السموات والأرض من عجائب الخلق وأوجد فيهما من أصناف المصنوعات.**

﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ **لآيات عظيمة وبراهين جليلة، على وجود الصانع ووحدته، وكمال علمه وقدرته، لقوم يتقون الله ويخافون عذابه، ويؤمنون به، خصهم بالذكر؛ لأنهم يحذرون الآخرة فيدعوهم الحذر إلى النظر، وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكر في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار.**

*** ثم ذكر تعالى حال من أعرض عن الآخرة، وكانت الدنيا همه ومبلغ علمه، فقال:**

﴿٧﴾، ﴿٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ **أي: لا يطمعون في لقاء الله بل أعرضوا عنه، فلم يخطر ببالهم لغفلتهم، وما يتلوه من الجزاء على الأعمال لإنكارهم البعث قد أعمتهم الشهوات عن التصديق بما بعد الممات.**

﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ **أي: رضوا بالدنيا عوضاً من الآخرة، وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي، وفرحوا بها وسكنوا إليها، وجعلوها غاية مرامهم ونهاية قصدهم.**

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ **أي: وهم عن الأدلة المثبتة في صحائف الأكوان غافلون، لا يعتبرون فيها، ولا يتفكرون، ولا ينتفعون.**

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ **أي: مثواهم ومقامهم نار جهنم في الآخرة، بسبب كفرهم وإجرامهم، وبما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا.**

*** شرع سبحانه في شرح أحوال من لا يؤمن بالمعاد، ومن يؤمن به، وذكر حال الأشقياء وجزاءهم، ثم أردفه بذكر حال السعداء، وثواب المطيعين، فقال:**

﴿٩﴾، ﴿١٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ

وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: إن الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات، يثيبهم الله أعظم الثواب بسبب إيمانهم ويهديهم ويرشدهم إلى جنة:

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ تجري من تحت قصورهم الأنهار، أو من تحت أسرتهم وهم مقيمون في جنات النعيم، وأضافها تعالى إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام الكامل.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي: دعاؤهم وعبادتهم في الجنة التسبيح: سبحانك اللهم، تلذذاً بذكره لا عبادة، كلامهم في الجنة تسبيح الله فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألذ عليهم من المآكل اللذيذة ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النَّفَس، من دون تكلفة ومشقة. وفي الحديث: «يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس» [رواه مسلم].

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: وتحية الله وملائكته لهم، وتحية بعضهم بعضاً سلام عليكم.

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وآخر دعائهم أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين. أي: الشكر والثناء لله خالق المخلوقات ومربيها بنعمه، فهم يفتتحون كلامهم بالتسبيح وبتعظيم الله وتنزيهه، ويختمونه بالشكر والثناء والتحميد.

* لما ذكر تعالى الوعيد على عدم الإيمان بالمعاد، ذكر ﷻ شيئاً من لطفه وإحسانه بعباده، فيقول:

(١١) ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم في الشر وفيما عليهم فيه مضرّة كاستعجالهم في الخير بالإجابة، ويدخل في هذا دعاء الرجل على نفسه أو ولده إذا غضب، اللهم أهلكه، اللهم لا تبارك فيه.

﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لهلكوا وعجل لهم الموت، ولكنه تعالى حليم حكيم.

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: فنترك المكذبين بلقائنا الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب، في تمردهم وعتوهم يترددون حائرين، والمعنى: نترك المجرمين ونمهلهم ونفيض عليهم النعم مع طغيانهم لتلزمهم الحجة.

* ثم يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو:

(١٢) ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أي: وإذا أصاب الإنسان الشدة والضر، من مرض، أو فقر، أو نحو ذلك، دعانا واستغاث بنا في جميع الحالات والأحوال: مضطجعاً لجنبه، أو قاعداً، أو قائماً، وألح في الدعاء لكشف ذلك الضر عنه.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ أي: فلما أزلنا ما به من ضر وشدة استمر على عصيانه وغفلته، على طريقته الأولى قبل مس الضر؛ ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه، وترك الشكر لربه الذي فرج عنه ما كان قد نزل به من البلاء، وهو عتاب لمن يدعو الله عند الضر، ويغفل عنه عند العافية.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: كما زين لذلك الإنسان الدعاء عند الضر والإعراض عند الرخاء، كذلك زين للمسرفين المتجاوزين الحد في الإجرام، ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر، ومتابعة الشهوات.

* ثم يخبر تعالى عن الأمم السابقة وما نزل بهم من العقوبة عندما كذبوا الرسل:

(١٣)، (١٤) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن

وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ
لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ
لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ
إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ قُل
لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ
فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦
فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ
إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا
عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا
فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨ وَمَا
كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ
سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ
١٩ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا
ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠

﴿قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أي: ولقد أهلكنا الأمم من قبلكم أيها المشركون لما كفروا وأشركوا، وتمادوا في الغي والضلال.

﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: جاؤوهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على صدقهم.

﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ﴾ أي: وما آمنوا بما جاءتهم به الرسل، أي: إنهم ظلموا وما آمنوا، فكان سبب إهلاكهم شيئان: ظلمهم، وعدم إيمانهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء - يعني الإهلاك - نجزي كل مجرم، فهذه سنة الله في جميع الأمم، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم رسول الله ﷺ.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: ثم استخلفناكم - أيها الناس - في الأرض من بعد إهلاك أولئك القرون، التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها.

﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: لننظر أتعملون خيراً أم شراً فنجازيكم على حسب عملكم، فإن أنتم اعتبرتم واتعظتم بمن قبلكم واتبعتم آيات الله، وصدقتم رسله، نجوتم في الدنيا والآخرة، وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم، أحل بكم ما أحل بهم، ومن أنذر فقد أعذر.

* ثم يذكر تعالى تعنت المكذبين لرسوله محمد ﷺ، بقوله -جل وعلا-:

﴿١٥﴾، ﴿١٦﴾ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ * قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ أي: وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين، التي أنزلناها إليك - يا محمد - واضحات لا لبس فيها ولا إشكال.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ قال الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب، ولا يرجون الأجر والثواب.

﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾ ائت -يا محمد- بكتاب آخر غير هذا القرآن، ليس فيه ما نكرهه عن عيب آلهتنا، وتسفيه أحلامنا، وإن لم ينزلها الله فقل أنت من عند نفسك.

﴿أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، ومكان سب آلهتنا مدحهم، ومكان الحرام حلالاً، وإنما قالوه على سبيل الاستهزاء والسخرية.

﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓ﴾ قل لهم - يا محمد - ما ينبغي ولا يصح لي أن أغير أو أبدل شيئاً من قبل نفسي.

﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: وإنما أتبع ما يوحيه إليَّ ربي، فيما آمركم به وأنهاكم عنه، فأنا عبد مأمور، ورسول مبلغ، أبلغكم رسالة الله.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ إني أخشى إن خالفت أمره، وبدلت وحيه، عذاب يوم شديد الهول هو يوم القيامة، فهذا قول خير الخلق وأدبه مع أوامر ربه ووحيه، - صلوات ربي وسلامه عليه.

﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ قل لهم - يا محمد - لو شاء الله ما تلوت هذا القرآن عليكم، وما تلوته إلا بمشيئته تعالى؛ لأنه من عنده وما هو من عندي.

﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: لا أعلمكم به على لساني.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ فقد مكثت بين أظهركم زمناً طويلاً، مدة أربعين سنة من قبل أن يوحى إليَّ القرآن، لا أعلمه أنا ولا أتلوه عليكم.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر لتعلموا أن مثل هذا الكتاب المعجز ليس إلا من عند الله؟ والمعنى: إن الكفار شاهدوا رسول الله ﷺ من أول عمره إلى ذلك الوقت، وكانوا عالمين بأحواله، وأنه ما طالع كتاباً، ولا تتلمذ لأستاذ، ولا تعلم من أحد، ثم بعد انقراض أربعين سنة جاءهم بهذا الكتاب العظيم، المشتمل على نفائس علم الأصول، ودقائق علم الأحكام، ولطائف علم الأخلاق، وأسرار قصص الأولين، وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء، وكل من له عقل سليم يعلم أن مثل هذا لا يكون إلا على سبيل الوحي والتنزيل.

* ثم حذر تعالى الكذب والافتراء على الله ﷻ، فقال:

﴿١٧﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام إنكاري، بمعنى النفي أي: لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب، والمقصود منه نفي الكذب عن مقامه الشريف ﷺ حيث زعم المشركون أن هذا القرآن من صنع محمد.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ أي: كذب بالحق الذي جاءت به الرسل.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لا يفوز بالسعادة من ارتكب الإجرام وكذب الرسل الكرام.

* ثم ذكر ﷻ قبائح المشركين، فقال:

﴿١٨﴾، ﴿١٩﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي: ويعبدون الأوثان التي هي جمادات لا تقدر على جلب نفع أو دفع ضر، وهذا من قبائحهم وسفاهتهم.

﴿وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: يزعمون أن الأصنام تشفع لهم عند الله، مع أنها حجارة لا تبصر ولا تسمع.

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قل -يا محمد- لهؤلاء المشركين: أتخبرون الله تعالى بشريك أو شفيع كائن في السموات أو الأرض لا يعلمه - جل وعلا، وهو علام الغيوب الذي أحاط علمه بجميع الكائنات، والاستفهام للتهكم والهزء بهم.

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه الله وتقدس أن يكون له شريك أو نظير، بل هو الله الأحد الفرد الصمد، تعالى عما يقول الظالمون، وينسبه إليه المشركون.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي: كان الناس على دين واحد هو الإسلام من لدن آدم إلى نوح، فاختلفوا في دينهم وتفرقوا بعد ذلك شيعاً وأحزاباً. قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعبدت الأوثان والأصنام، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ ولولا قضاء الله بتأخير الجزاء وإمهال العاصين، وعدم معاجلتهم بذنوبهم إلى يوم القيامة.

﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ لعجل عقابهم في الدنيا باختلافهم في الدين وسبق كلمته لحكمة وهي أن هذه الدار دار تكليف، وتلك الدار دار ثواب وعقاب.

* ثم ذكر تعالى هاهنا نوعاً رابعاً من مخازيهم، فقال:

﴿٢٠﴾ ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: ويقول هؤلاء الكفرة المعاندون: هلا أنزل على محمد معجزة من ربه كما كان للأنبياء من الناقة والعصا واليد، نعلم بها أنه على حق فيما يقول.

﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ قل لهم - يا محمد - أمر الغيب لله وحده، ولا يأتي بالآيات إلا هو، فإن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، وإنما أنا مبلغ.

وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ
فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ
(٢١) هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ
وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ
وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ
دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ
مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ
ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٢٣)
إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ
بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ
عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ
بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ
إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٢٥)

٢١١

﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ فانتظروا قضاء الله بيننا بالحق بإظهار المحق على المبطل فأنا ممن ينتظر ذلك.

※ لما ذكر تعالى الأدلة على فساد عبادة الأوثان، وشبهات المشركين حول الرسالة والقرآن، ذكر هنا أن عادة هؤلاء الأشقياء المكر، والجحود، والعناد، فإن أصابتهم الشدة تضرعوا، وإن جاءتهم الرحمة بطروا وكفروا، ثم ضرب تعالى المثل بالحياة الدنيا في الزوال والفناء، ثم عاد إلى ذكر الأدلة والبراهين، على وحدانية الله رب العالمين، قال تعالى:

(٢١)-(٢٣) ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۞ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ **وإذا أذقنا هؤلاء المشركين رخاءً بعد شدة، وخصباً بعد جدب وقحط أصابهم، وصحة بعد مرض، وغنى بعد فقر، والمراد بالناس كفار مكة. روي أن الله سلط عليهم القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون، فطلبوا منه ﷺ أن يدعو لهم بالخصب ووعدوه بالإيمان، فلما رحمهم الله بإنزال المطر رجعوا إلى الكفر والعناد، ونسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم، ولهذا قال:**

﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ **أي: إذا هم يكذبون، ويستهزئون بآيات الله.**

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾ **أي: أعجل عقوبة على جزاء مكرهم.**

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ **أي: إن الملائكة الحفظة يكتبون مكركم ويسجلون إجرامكم، وفيه تنبيه على أن ما دبروه غير خاف على الحفظة، فضلاً عن العليم الخبير، وأنه يجازيهم على ذلك، ولما ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء، واليسر بعد العسر، ذكر حالة تؤيد ذلك وهي حالهم في البحر عند اشتداده، والخوف من عواقبه، فقال:**

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ **أي: هو تعالى بقدرته وتيسيره الذي يحملكم في البر على الدواب، وفي البحر على السفن التي تسير على وجه الماء.**

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ **أي: حتى إذا كنتم في البحر على ظهور هذه السفن، وجرين بهم بالريح اللينة الطرية التي تسير السفن من غير انزعاج ولا مشقة.**

﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ **أي: فرح ركاب السفن بالريح الطيبة واطمأنوا إليها.**

﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ **أي: وفجأة جاءتها الريح الشديدة الهبوب المدمرة، وأحاطت بهم أمواج البحار من كل جهة.**

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: أيقنوا أن الهلاك قد أحاط بهم، فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، عندها:

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: أخلصوا الدعاء لله وتركوا ما كانوا يعبدون، وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً؛ لانقطاع الأسباب، ورجوعه إلى رب الأرباب.

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: وقالوا: لئن أنقذتنا من هذه الشدائد والأهوال والريح العاصف لنكونن من الشاكرين لك على نعمائك، والعاملين بطاعتك ومرضاتك، قيل: ومعنى الإخلاص إفراده بالدعاء من غير إشراك أصنام وغيرها. وقال الحسن: مخلصين لا إخلاص إيمان ولكن لأجل العلم بأنهم لا ينجيهم من ذلك إلا الله فيكون ذلك جارياً مجرى الإيمان الاضطراري.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: فلما خلصهم وأنقذهم الله ﷻ من هذه المحنة، إذا هم يعملون في الأرض بالفساد والمعاصي، وجعلوا البغي في الأرض بغير الحق مكان الشكر. قال ابن عباس: يبغون بالدعاء فيدعون غير الله ويعملون بالمعاصي. قال تعالى ردّاً عليهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي: وبال البغي والظلم عليكم، ولا يجني ثمرته إلا أنتم، ولا يرجع إلا عليكم، وغاية ما تأملون أن تنالوا شيئاً من:

﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تتمتعون في هذه الحياة بالشهوات الفانية، التي تعقبها الحسرات الباقية.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: مرجعكم بعد الموت إلينا فنجازيكم عليها، وفي هذا وعيد وتهديد، والآية الكريمة تمثيل لطبيعة الإنسان الجحود، لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة، ولا يرجع إلا وقت الكرب والشدة، فإذا نجاه الله من الضيق، وكشف عن الكرب، رجع إلى الكفر والعصيان، وتمادى في الشر والطغيان.

* ثم ضرب تعالى مثلاً للحياة الدنيا الزائلة الفانية وقصر مدة التمتع بها، ووضح في الآيات سرعة انقضائها وتحولها، فقال تعالى:

﴿٢٤﴾، ﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: صفة الحياة الدنيا وحالها العجيبة في فنائها وزوالها، وذهاب نعيمها واغترار الناس بها والتفاخر بظاهرها؛ كمثل مطر نزل من السماء فنبت به أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض، من كل لون.

﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ مما يأكله الناس من الحبوب والثمار والبقول، وما تأكله الحيوانات من الكلأ والتبن والشعير.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي: حتى إذا ظهر حسن هذه الأرض وبهاؤها، تزينت بالحبوب والثمار والأزهار، وهو تمثيل بالعروس إذا تزينت بالحلي والثياب.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: وحصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم، وأنهم متمكنون من الانتفاع بها، محصلون لثمرتها وغلتها، فبينما هم في تلك الحالة:

﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي: جاءها قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات والزينة، إما ليلاً وإما نهاراً.

﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: فجعلنا هذه النباتات والأشجار محصودة مقطوعة لا شيء فيها، كأنها لم تكن تلك الزروع والنباتات قائمة على ظهر الأرض قبل ذلك.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: مثل ما بينا هذا المثل الرائع للحياة الدنيا وعرفناكم بحقيقتها نبين الآيات، ونضرب

* لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ
وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ
كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ
مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا
بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾
هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ
ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ
ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ
فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ
ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

٢١٢

الأمثال بتقريب المعاني إلى الأذهان لقوم يتفكرون فيعتبرون بهذه الأمثال، وتخصيصهم بالذكر؛ لأنهم المنتفعون.

ولما نفر عباده عن الميل إلى الدنيا بما ضربه لهم من المثل السابق، رغبهم في الدار الآخرة، فقال:

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ والله ﷻ يدعو إلى الجنة دار السرور والإقامة التي أعدَّها لأوليائه، وسميت الجنة «دار السلام» لسلامتها من جميع الآفات والنقائص، وذلك لكمال نعيمها وتمامه، وبقائه وحسنه من كل وجه.

﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ أي: يوصل من شاء هدايته إلى الطريق المستقيم وهو دين الإسلام، وعمَّ بالدعوة لإظهار الحجة، وخص بالهداية استغناء عن الخلق.

* ولما دعا إلى دار السلام، كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله تعالى:

﴿٢٦﴾ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: للمؤمنين الذين أحسنوا عبادة الله بالإيمان والعمل الصالح، وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدرون عليه من الإحسان والنفع، لهم الحسنى، وهي الجنة الكاملة في حسنها.

﴿وَزِيَادَةٞ﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم في الجنة، وسماع كلامه، والفوز برضاه والبهجة بقربه، ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم، فقال:

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٞ﴾ أي: ولا يغشى وجوههم غبار ولا سواد كما يعتري وجوه أهل النار، ولا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه؛ لأن المكروه إذا وقع بالإنسان، تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكدر.

﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: هوان وصغار.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هؤلاء المتصفون بهذه الصفات هم أصحاب الجنة، ماكثون فيها أبداً لا زوال فيها، ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها.

* لما ذكر تعالى أصحاب الجنة، ذكر أصحاب النار، فقال:

﴿٢٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا﴾ والذين عملوا السيئات في الدنيا فكفروا وعصوا الله، فسيجزون على السيئة بمثلها لا يزادون على ذلك، فالحسنات مضاعفة بفضل الله، والسيئات جزاؤها بالمثل عدلاً منه تعالى.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٞ﴾ أي: يغشاهم هوان، وذلة في قلوبهم وخوف من عذاب الله.

﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٖ﴾ أي: ليس لهم أحد يعصمهم أو يمنعهم من سخط الله تعالى وعقابه.

﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ كأنما ألبست وجوههم من فرط السواد والظلمة قطعاً من ظلام الليل وسواده.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: هؤلاء هم أهل النار ماكثون فيها.

﴿٢٨﴾-﴿٣٠﴾ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

إن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ أي: واذكر -يا محمد- يوم نجمع جميع الخلائق للحساب: المؤمنين والكافرين، ثم نقول للذين أشركوا بالله:

﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ أي: الزموا مكانكم أنتم والذين عبدتموهم، لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل الله بكم.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ففرقنا وميزنا بين المشركين وبين معبوديهم، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، ثم تبرأ شركاؤهم منهم.

﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: تبرأ منهم الشركاء وهم الأصنام الذين عبدوهم من دون الله، يُنطق الله الأوثان، فتقول: ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون وما أمرناكم بعبادتنا كقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦].

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: تقول الشركاء للمشركين يوم القيامة: حسبنا الله شاهداً بيننا وبينكم.

﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي: ما كنا عن عبادتكم لنا إلا غافلين، لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل، لأنا كنا جماداً لا روح فينا.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: في ذلك اليوم تختبر كل نفس بما قدمت من خير أو شر، وتنال جزاء ما عملت إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر.

ورد الجميع إلى الله تعالى المتولي جزاءهم بالعدل والقسط فأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ضاع وذهب عن المشركين ما كانوا يزعمونه من أن الأوثان تشفع لهم، وفي الآية تبكيت شديد للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً.

* لما بين فضائح المشركين، أتبعها بإيراد الحجج الدامغة، من أحوال الرزق والحواس، والموت والحياة، والابتداء والإعادة، والإرشاد والهدى، وفي هذه الآيات الأدلة على وحدانية الله وربوبيته، بذكر آثار قدرته، الدالة على التدبير الحكيم، وما في هذا الكون المنظور من آثار القدرة الباهرة، التي هي أوضح البراهين على عظمة الله وجلاله وسلطانه، قال تعالى:

﴿٣١﴾-﴿٣٣﴾ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ * كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قل -يا محمد- لهؤلاء المشركين الذين أشركوا بالله: من ينزل لكم الغيث والقطر من السماء، ويخرج لكم الزروع والثمار من الأرض؟

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: من ذا الذي يملك ما تتمتعون به أنتم وغيركم من حواس السمع والبصر، التي تسمعون وتبصرون بها؟ ومن يستطيع أن يردها لكم إذا أراد الله أن يسلبكموها؟ وخص السمع والبصر بالذكر، لما فيهما من الصنعة العجيبة، والقدرة الباهرة العظيمة.

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ أي: ومن ذا الذي يملك الحياة والموت في الكون كله، فيخرج الإنسان من النطفة، والطير من البيضة، والسنبلة من الحبة، والنبات من الأرض، والمؤمن من الكافر؟

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ ومن يدبر أمر الخلائق، ويصرف شؤون الكائنات؟ فإذا سألتهم عن ذلك:

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: فسيقرون بأن فاعل ذلك كله هو الله رب العالمين، إذا لا مجال للمكابرة والعناد لغاية وضوحه.

قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ
ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣٤ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ
إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن
يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٥
وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٣٦ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ
لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٧ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ
بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ
٣٨ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩
وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ
بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤٠ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم
بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٤١ وَمِنۡهُم مَّن
يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ٤٢

﴿فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ قل لهم -يا محمد- إلزاماً بالحجة: أفلا تخافون عقابه ونقمته بإشراككم وعبادتكم غير الله؟

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ أي: هذا الذي يفعل هذه الأشياء الجليلة هو ربكم الحق، المألوه المعبود المحمود الثابت ربوبيته ووحدانيته بالبراهين القاطعة، المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ استفهام إنكاري، أي: ليس بعد الحق إلا الضلال، فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال.

﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن عبادة الله، إلى عبادة ما لا يخلق ولا يرزق، ولا يحيي ولا يميت؟

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ كذلك وجب قضاء الله وحكمه السابق، على الذين خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا واستمروا على شركهم.

﴿أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: لأنهم لا يصدقون بوحدانية الله ورسالة نبيه، بعدما رأوا الآيات البينات والبراهين النيرات، فلذلك حقت عليهم كلمة العذاب لشقاوتهم وضلالتهم.

* يقول تعالى مبيناً عجز آلهة المشركين وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله:

﴿٣٤﴾-﴿٣٦﴾ ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ * قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾.

﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ﴾ أي: قل لهم - يا محمد - على جهة التوبيخ والتقريع: هل من الأوثان والأصنام من ينشئ الخلق من العدم ثم يفنيه، ثم يعيده ويحييه؟ وفي هذا بيان عجز آلهة المشركين وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله، ولما كانوا لا يقدرون على دعوى ذلك، وفيه الحجة القاطعة، والدلالة الواضحة على أنهم في دعوى الأرباب كاذبون مفترون، أمر ﷺ بالجواب:

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ﴾ قل لهم - يا محمد: الله وحده الذي يحيي ويميت، ويبدأ ويعيد، وليس أحد من هؤلاء الآلهة المزعومة يفعل ذلك.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل؟

﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ﴾ توبيخ آخر في صورة استفهام، أي: قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين: هل من هذه الآلهة التي تعبدونها من يرشد ضالًّا؟ أو يهدي حائراً؟ أو يدل على طريق الحق وسبيل الاستقامة؟

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ أي: فقل لهم: إن عجزت آلهتكم عن ذلك؛ فالله وحده هو القادر على هداية الضال، وإنارة السبيل، وبيان الحق.

﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ﴾ أفمن يرشد إلى الحق وهو الله ﷻ، أحق بالاتباع، أم هذه الأصنام التي لا تهدي أحداً؟ ولا تستطيع هداية نفسها فضلاً عن هداية غيرها؟

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: ما لكم أيها المشركون تسوّون بين الأصنام وبين رب الأرباب، وتحكمون بهذا الباطل الصراح؟ وهو استفهام معناه التعجب والإنكار. ثم بين تعالى فساد نحلتهم بعد أن أفحمهم بالبراهين النيرة التي توجب التوحيد وتبطل التقليد، فقال:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين، في اعتقادهم ألوهية الأصنام، إلا اعتقاداً غير مستند لدليل أو برهان، بل مجرد أوهام باطلة، وخرافات فاسدة.

﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي: ومثل هذا الاعتقاد المبني على الأوهام والخيالات، ظن كاذب لا يغني من اليقين شيئاً، فليس الظن كاليقين.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: عالم بما هم عليه من الكفر والتكذيب، وهو وعيد على اتباعهم للظن، وإعراضهم عن البرهان.

* لما فرغ سبحانه من دلائل التوحيد وحججه، شرع في تثبيت أمر وصدق النبوة والوحي، فقال:

﴿٣٧﴾-﴿٤٠﴾ ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: لا يصح ولا يعقل، ولا يستقيم لذي عقل سليم، أن يزعم أن هذا القرآن مفترى مكذوب على الله؛ لأنه فوق طاقة البشر.

﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ولكن الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين وحجة على العباد أجمعين، مصدقاً لما قبله من الكتب السماوية التي أنزلها الله على أنبيائه كالتوراة والإنجيل؛ لأن دين الله واحد.

﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ أي: وفي هذا القرآن تفصيل وتبيين الشرائع والعقائد والأحكام.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه في أنه تنزيل رب العالمين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: بل أيقولون اختلق محمد هذا القرآن من قبل نفسه؟ فإنهم يعلمون أنه بشر مثلهم، وهو استفهام معناه التقريع.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ قل لهم - يا محمد - إن كان كما زعمتم فجيئوا بسورة شبيهة بهذا القرآن، في البلاغة وحسن النظم، فأنتم مثلي في العربية، وهو تعجيز لهم وإقامة حجة عليهم.

﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وادعوا من دونه تعالى من استطعتم من خلقه، من الإنس والجن للاستعانة بهم.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه، والمراد أنكم إن لم تفعلوا فلا شك أنكم كذبة، لأن محمداً لن يعدو أن يكون بشراً مثلكم، فإذا عجز الجميع من الخلق أن يأتوا بسورة مثله، فالواحد منهم أن يأتي بجميعه أعجز، قال تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ بل كذب هؤلاء المشركون بالقرآن العظيم، وسارعوا إلى الطعن به قبل أن يفقهوه ويتدبروا ما فيه، وكفروا بما لم يحيطوا بعلمه من ذكر البعث والجزاء، والجنة والنار وغير ذلك.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي: والحال لم يأتهم بعد عاقبة ما فيه من الوعيد.

﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: مثل تكذيب هؤلاء المشركين كذبت الأمم التي خلت قبلهم.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ فانظر - يا محمد - كيف أخذهم الله بالعذاب والهلاك بسبب ظلمهم وبغيهم، فكما فعل بأولئك يفعل بهؤلاء الظالمين الطاغين.

وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ
﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ
يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ
مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ
أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ
أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ
تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ
هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ
أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

٢١٤

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم - يا محمد - من يؤمن بهذا القرآن، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به.

﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ ومنهم من لا يصدق به حتى يموت على ذلك ويبعث عليه.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله.

* لما حكى تعالى عن الكافرين طعنهم في أمر النبوة والوحي، ذكر هنا أن منهم من يصدق بأن القرآن كلام الرحمن، ولكنه يكابر ويعاند، ومنهم من لا يصدق به أصلاً، قال تعالى:

﴿٤١﴾-﴿٤٤﴾ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي: وإن كذبك -يا محمد- هؤلاء المشركون فقل لهم: لي جزاء عملي، ولكم جزاء عملكم حقاً كان أو باطلاً.

﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يؤاخذ أحد بذنب الآخر.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ومن الكفار من يسمعون كلامك الحق إذا قرأت القرآن، وقلوبهم لا تعي شيئاً مما تقرؤه وتتلوه.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ أي: أنت - يا محمد - لا تقدر أن تُسمع من سلبه الله السمع.

﴿وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولو كانوا من الصمم لا يعقلون ولا يتدبرون؟ قال ابن كثير: المعنى ومن هؤلاء من يسمعون كلامك الحسن، والقرآن النافع، ولكن ليس أمر هدايتهم إليك، فكما لا تقدر على إسماع الأصم فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: ومن هؤلاء الكفار من ينظر إليك ويعاين دلائل نبوتك الواضحة، ولكنهم عمي لا ينتفعون بما رأوا، أفأنت - يا محمد - تقدر على هدايتهم ولو كانوا عمي القلوب؟ شبههم بالعمي لتعاميهم عن الحق، والمراد تسلية النبي ﷺ، أي: كما لا تقدر أن تخلق للأعمى بصيراً يهتدي به، فكذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء للإيمان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يعاقب أحداً دون ذنب، ولا يفعل بخلقه ما لا يستحقون؛ لأنه في جميع أفعاله متفضل عادل.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله ونهيه، وهذا إعلام من الله تعالى بأنه لم يسلب هؤلاء الإيمان ابتداءً منه بغير جرم سلف منهم، وإنما سلبهم ذلك الذنوب التي اكتسبوها، فحق عليهم أن يطبع الله على قلوبهم.

* ثم يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا، وتصرم أيامها، فقال:

﴿٤٥﴾ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: اذكر يوم نجمع هؤلاء المشركين للحساب يوم القيامة، كأنهم ما أقاموا في الدنيا إلا ساعة من النهار، لهول ما يرون من الأهوال.

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يعرف بعضهم بعضاً كما كانوا في الدنيا، وهو تعارف توبيخ وافتضاح، وليس تعارف محبة ومودة، يقول الواحد للآخر: أنت أغويتني وأضللتني.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ أي: لقد خسر حقاً هؤلاء الظالمون الذين كذبوا بالبعث والنشور، وما كانوا موفقين للخير في هذه الحياة.

﴿٤٦﴾، ﴿٤٧﴾ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء المكذبين إن أريناك - يا محمد - بعض عذابهم في الدنيا لتقر عينك منهم فذاك، وإن توفيناك قبل ذلك فمرجعهم إلينا في الآخرة، ولا بد من الجزاء إن عاجلاً أو آجلاً.

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: هو سبحانه شاهد على أفعالهم وإجرامهم في الدنيا ومعاقبهم على ما اقترفوا.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ ولكل أمة من الأمم التي خلت قبلكم رسول أرسل يدعوهم إلى توحيد الله ودينه.

﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضي بينهم بالعدل، قال ابن كثير: فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها، وكتاب أعمالها من خير وشر شاهد عليها، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يعذبون قبل إرسال الرسل، أو بغير ذنب، ولا يؤاخذون بلا جريرة.

﴿٤٨﴾-﴿٥٢﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ * أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ * ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: ويقول كفار مكة متى هذا العذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً؟ وهذا القول منهم على سبيل السخرية والاستهزاء.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ قل لهم - يا محمد - لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضرّاً، ولا أجلب إليها نفعاً، وليس ذلك لي ولا لغيري.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلا ما شاء الله أن أملكه وأقدر عليه، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم به من العذاب.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ لكل أمة وقت معلوم لهلاكهم وعذابهم.

﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فإذا جاء أجل هلاكهم فلا يمكنهم أن يستأخروا عنه ساعة فيمهلون ويؤخرون، ولا يستقدمون قبل ذلك؛ لأن قضاء الله واقع في حينه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ قل - يا محمد - لهؤلاء المكذبين أخبروني إن جاءكم عذاب الله ليلاً وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون، أو نهاراً وأنتم مشتغلون بطلب المعاش والكسب، فما نفعكم فيه؟

﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ استفهام معناه التهويل والتعظيم، أي: ما أعظم ما يستعجلون به؟ وأي عقاب ابتدروه؟

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ أي: أبعدما وقع عذاب الله بكم - أيها المشركون - صدقتم في وقت لا ينفعكم فيه التصديق.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: يقال لكم أيها المجرمون: الآن تؤمنون في حال الشدة والمشقة، وقد كنتم قبله تهزؤون وتسخرون وتستعجلون نزول العذاب؟

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ
ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٞ
مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحْمَةٞ لِّلْمُؤْمِنِينَ
﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٞ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٖ
فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى
ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٖ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٖ
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي
ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

٢١٥

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله: تجرعوا العذاب الدائم الذي لا زوال له ولا فناء.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: هل تعاقبون إلا بما كنتم تعملون في حياتكم من الكفر والتكذيب والمعاصي؟

﴿٥٣﴾، ﴿٥٤﴾ ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٖ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ﴾ أي: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ويستخبرونك هؤلاء المشركون من قومك، على وجه التعنت والعناد، فيقولون: أحق ما وعدتنا به من العذاب والبعث؟

﴿هُوَۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ﴾ قل لهم - يا محمد: مقسماً على صحته، نعم والله إنه كائن لا شك فيه ولا مرية.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لستم بمعجزين الله أن يبعثكم ويجازيكم فأنتم في قبضته وسلطانه.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٖ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لو أن لكل نفس أشركت وكفرت بالله جميع ما في الدنيا من خزائنها وأموالها، ومنافعها قاطبة.

﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ﴾ أي: لدفعته فدية لها لتنجو من عذاب الله، ولكن هيهات أن يقبل، إنما النفع والضر والثواب والعقاب، على الأعمال الصالحة والسيئة.

ثم قال تعالى مخبراً عن أسفهم وندمهم:

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ﴾ أي: أخفى هؤلاء الظلمة الحسرة لما عاينوا العذاب، مخافة التعيير والملامة.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: قضى الله ﷻ بين الخلائق بالعدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه، وهم لا يظلمون من أعمالهم شيئاً، ولا يعاقبون إلا بجريرتهم.

﴿٥٥﴾، ﴿٥٦﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ «ألا» كلمة تنبيه للسامع تزاد في أول الكلام، أي: انتبهوا لما أقول لكم، فكل ما في السموات والأرض ملك لله، لا شيء فيها لأحد سواه، هو الخالق وهو المالك.

﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ ألا إن وعد الله بالبعث والجزاء حق كائن لا محالة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لقصور عقولهم، واستيلاء الغفلة عليهم، فيقولون ما يقولون.

﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: هو سبحانه المتصرف بالإحياء والإماتة، وسائر أنواع التدبير، لا شريك له في ذلك، لا يتعذر عليه إحياء الناس بعد موتهم، وإليه مرجعكم يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم.

* يقول تعالى مرغباً للخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم، بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد، فقال:

﴿٥٧﴾، ﴿٥٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحْمَةٞ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٞ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ خطاب لجميع البشر، أي: قد جاءكم هذا القرآن العظيم الذي هو موعظة لكم من خالقكم تذكركم وتنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله، المقتضية لعقابه.

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: يشفي ما في القلوب من الشك والجهل والشهوات والمعاصي وسائر الأمراض.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ﴾

قدم سبحانه الموعظة على الشفاء فمن اتعظ بالقرآن شفي من الهموم والأحزان.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهداية من الضلال، ونعمة لأهل الإيمان، والمعنى قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد العظيمة من الموعظة، والتنبيه على التوحيد، ودواء الصدور من العقائد الفاسدة، ودعاء إلى الحق، ورحمة لمن آمن به منكم، وإذا حصل الهدى وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور، ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك، فقال:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ قل - يا محمد - لجميع الناس: بفضل الله وبرحمته، وهو ما جاءهم من الله من الهدى ودين الحق وهو الإسلام، ليفرحوا بهذا الذي جاءهم من الله، من القرآن والإسلام، الذي هو أعظم نعمة ومنة وفضل تفضل به على عباده، فإنه أولى ما يفرحون به.

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: هذا الفضل والرحمة هو خير مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية، والنعيم الزائل.

* ثم ينكر تعالى على المشركين ما ابتدعوا عن تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم، فقال:

﴿٥٩﴾، ﴿٦٠﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ * وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ خطاب لكفار العرب، والمعنى: أخبروني أيها المشركون عما خلقه الله لكم من الرزق الحلال الذي أنزله الله لكم من الحيوانات والنبات والخيرات.

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ أي: فحرمتم بعضه وحللتم بعضه كالبحيرة، والسائبة، والميتة. قال ابن عباس: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب، والحرث والأنعام.

﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ قل لهم - يا محمد - أخبروني: أحصل إذن من الله لكم بالتحليل والتحريم، فأنتم فيه ممتثلون لأمره، أم هو مجرد افتراء وبهتان على ذي العزة والجلال؟

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: وما ظن هؤلاء الذين يتخرصون على الله الكذب فيحلون ويحرمون من تلقاء أنفسهم، أيحسبون أن الله يصفح عنهم ويغفر لهم يوم القيامة؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: لذو إنعام عظيم على العباد حيث رحمهم بترك معاجلة العذاب، وبالإنعام عليهم ببعثة الرسل وإنزال الكتب.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ولكن أكثر الناس لا يشكرون النعم بل يجحدون ويكفرون، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يحرموا منها، ويردوا ما منَّ الله به على عباده، وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة ويثني بها على الله، ويستعين بها على طاعته.

* يخبر تعالى عن عموم مشاهدته واطلاعه على جميع أحوال العباد في حركاتهم وسكناتهم، وفي ضمن ذلك الدعوة لمراقبته على الدوام، فقال:

﴿٦١﴾ ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أي: ما تكون -يا محمد- في أمر من الأمور ولا عمل من الأعمال.

﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أي: وما تقرأ من كتاب الله شيئاً من القرآن.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ ولا تعملون أيها الناس من خير أو شر صغير أو كبير.

أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ
فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ
ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ
ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ
يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ
وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ
سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ
إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ
مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ
لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠

٢١٦

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ أي: إلا كنا شاهدين رقباء، مطلعين عليه، إذ تأخذون في ذلك، وتعملونه، فنحفظه عليكم ونجزيكم به، نحصي عليكم أعمالكم.

﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي: ما يغيب ولا يخفى عن علمه وسمعه وبصره ومشاهدته.

﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من وزن هباءة أو نملة صغيرة في الأرض ولا في السماء.

﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ أي: ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها إلا في كتاب مسجل في اللوح المحفوظ، والآية خبر منه تعالى أنه لا يخفى عليه أصغر الأشياء وإن خف في الوزن، ولا أكبرها وإن عظم في الوزن، فليكن عملكم أيها الناس فيما يرضي ربكم، فإنا محصوها عليكم ومجازوكم بها.

* يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه، الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة، ويذكر أعمالهم وأوصافهم وثوابهم، فقال:

﴿٦٢﴾-﴿٦٤﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: انتبهوا أيها الناس، واعلموا أن أحباب الله وأولياءه لا خوف عليهم فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال في الآخرة من عذاب الله، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا. ثم بين تعالى وصف هؤلاء الأولياء، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي: الذين صدقوا الله واتبعوا رسوله وما جاء به من عند الله، وكانوا يتقون ربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فالوليُّ هو المؤمن التقي، وفي الحديث: «إن لله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله»، قالوا: أخبرنا من هم؟ وما أعمالهم؟ فلعلنا نحبهم، قال: «هم قوم تحابوا في الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوهم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾» الآية.

﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: هؤلاء الأولياء ما يسرهم في الدارين، أما البشارة في الدنيا، فهي الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عنه مساوئ الإخلاق، وحيث تبشرهم الملائكة عند الاحتضار برضوان الله ورحمته، وفي القبر ما يبشر به من رضا الله تعالى والنعيم المقيم وفي الآخرة تمام البشرى بجنات النعيم والفوز العظيم والنجاة من العذاب الأليم.

﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا إخلاف لوعد الله ولا تغيير؛ لأنه الصادق في قيله، الذي لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي: هو الفوز الذي لا فوز وراءه، والظفر بالمقصود الذي لا يضاهي.

* ثم نهى ﷻ محمداً ﷺ عن الحزن من قول الكفار المتضمن للطعن عليه وتكذيبه والقدح في دينه، قال تعالى:

﴿٦٥﴾-﴿٦٧﴾ ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ

ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ ولا يحزنك ولا يؤلمك - يا محمد - قول المشركين في ربهم وتكذيبهم لك، وقولهم: لست نبياً مرسلاً. ثم ابتدأ تعالى، فقال مسلياً ومواسياً:

﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: القوة الكاملة، والغلبة الشاملة، لله وحده، يؤتيها من يشاء، ويمنعها ممن يشاء، فهو ناصرك ومانعك ومعينك، وهو المنفرد بالعزة يمنحها أولياءه، ويمنعها أعداءه.

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ السميع لأقوالهم، العليم بأعمالهم.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يخبر تعالى أن له كل من في السموات ومن في الأرض من الملائكة، والإنس، والجن وغير ذلك، الجميع له سبحانه عبيداً وملكاً وخلقاً.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي: وما يتبع هؤلاء المشركون الذين يعبدون غير الله آلهة على الحقيقة، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع، وهي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: ما يتبعون إلا شكاً باطلاً، وإن هم إلا يكذبون فيما ينسبونه إلى الله.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ تنبيه على القدرة الكاملة والمعنى: من دلائل قدرته الدالة على وحدانيته، أن جعل لكم أيها الناس الليل مظلماً راحة لأبدانكم، تستريحون فيه من التعب والنصب ومن عناء الحركة في طلب المعاش.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وجعل النهار مضيئاً تبصرون فيه الأشياء لتهتدوا إلى حوائجكم ومكاسبكم وأرزاقكم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ إن في اختلاف الليل والنهار وحال أهلهما، لعلامات ودلالات على وحدانية الله، لقوم يسمعون سماع فهم وقبول واسترشاد، لا سماع تعنت وعناد.

* ثم نبه تعالى على نوع آخر من أباطيل وضلال اليهود والنصارى والمشركين، فقال مخبراً عن بهت المشركين لرب العالمين:

﴿٦٨-٧٠﴾ ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ أي: نسب اليهود والنصارى لله ولداً، فقالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، كما قال كفار مكة: الملائكة بنات الله، فنزه نفسه عن ذلك، بقوله:

﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي: تنزه الله وتقدس عما يقول الظالمون في نسبة النقائص إليه علواً كبيراً. ثم برهن على ذلك بأنه الغنى المستغني عن جميع الخلق، فإن اتخاذ الولد إنما يكون للحاجة إليه، والله تعالى غير محتاج إلى شيء، فالولد منتف عنه.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: والبرهان الثاني أن الجميع خلقه وملكه وعبيده.

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ أي: هذا البرهان الثالث، قوله: هل عندكم من حجة وبرهان بهذا القول يدل على أن لله ولداً.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أتفترون على الله الكذب وتكذبون بنسبة الشريك والولد؟ وهو توبيخ وتقريع على جهلهم فإن هذا من أعظم المحرمات.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: كل من كذب على الله لا يفوز ولا ينجح ولا ينال مطلوبه، ولا يحصل مقصوده. ولفظ ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ وردت في القرآن مرتين، في هذه السورة وفي سورة النحل، وكلا الموضعين في الذين يفترون على الله الكذب.

﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: يتمتعون في الدنيا متاع قليل في الدنيا يمتعون به مدة حياتهم.

۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ
عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ
فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ
ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ
إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾
فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ
وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ
﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ
ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ
وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧٦﴾
قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ
ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا
وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾

٢١٧

﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ ثم معادهم ورجوعهم إلينا للجزاء والحساب.

﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ ثم في الآخرة نذيقهم العذاب الموجع الأليم بسبب كفرهم وكذبهم على الله.

* لما ذكر تعالى الدلائل على وحدانيته، ودفع الشبه، وذكر ما جرى بين رسول الله ﷺ وكفار مكة، ذكر هنا بعض قصص الأنبياء، تسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم فيهون عليه ما يلقاه من الشدائد والمكاره، وقد ذكر تعالى هنا ثلاث قصص: قصة نوح عليه السلام مع قومه، وقصة موسى وهارون عليهما السلام مع الطاغية فرعون، وقصة يونس عليه السلام مع قومه، وفي كل قصة عبرة لمن اعتبر، وذكرى لمن تدبر، قال تعالى:

(٧١)-(٧٣) ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ * فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ واقصص - يا محمد - على المشركين من أهل مكة خبر نوح عليه السلام في دعوته لقومه المكذبين.

﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾ أي: حين قال لقومه الجاحدين المعاندين يا قوم إن كان عظم وشق عليكم.

﴿مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: طول مقامي ولبثي فيكم، وتخويفي إياكم بآيات ربكم، وعزمتم على قتلي وطردي.

﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ على الله وحده اعتمدت، وفوضت أمري إليه، وبه وثقت فلا أبالي بكم، فهذا جندي وعُدتي، وأنتم فأتوا بما قدرتم عليه، من أنواع العَددَ والعُدد:

﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ أي: فاعزموا أمركم كلكم بحيث لا يتخلف منكم أحد، وأحضروا شركاءكم الذين تعبدونهم وتوالونهم من دون الله رب العالمين ودبروا ما تريدون لمكيدتي.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ أي: لا يكن أمركم في شأني مستوراً بل مكشوفاً مشهوراً.

﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: أنفذوا ما تريدونه في أمري ولا تؤخروني ساعة واحدة، إنما خاطبهم بذلك إظهاراً لعدم المبالاة، وثقة بالله وبوعده من عصمته وكلاءته وفي هذا برهان قاطع، وآية عظيمة على صحة رسالته، وصدق ما جاء به، حيث كان وحده، لا عشيرة تحميه، ولا جنود تؤويه.

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ﴾ فإن أعرضتم عن نصيحتي وتذكيري فليس لأني طلبت منكم أجراً حتى تمتنعوا، بل لشقاوتكم وضلالكم.

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ما أطلب ثواباً أو جزاءً على تبليغ الرسالة إلا من الله، وما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرض من أغراض الدنيا.

﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي: من الموحدين لله تعالى المنقادين لأمره وحكمه.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ أي: فأصرّوا واستمرّوا على

تكذيب نوح بعدما دعاهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، فنجيناه ومن معه من المؤمنين في السفينة.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: جعلنا من معه من المؤمنين سكان الأرض وخلفاً ممن غرق، وأغرقنا المكذبين بالطوفان بعد ذلك البيان، وإقامة البرهان.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: انظر ـ يا محمد ـ كيف كان نهاية المكذبين لرسلهم، وفيه تسلية للرسول ﷺ، والتحذير لكفار مكة أن يحل بهم ما حل بالسابقين.

﴿٧٤﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي: أرسلنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم، يعني هوداً، وصالحاً، ولوطاً، وإبراهيم، وشعيباً.

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: كل نبي أيّد دعوته بالمعجزات الواضحات، والآيات الدالة على صحة ما جاء به.

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي: ما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به الرسل، ولم يزجرهم عقاب السابقين.

﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ كذلك نختم على قلوب المجاوزين الحد في الكفر والتكذيب والعناد.

﴿٧٥﴾-﴿٧٨﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۞ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۞ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أي: بعثنا من بعد أولئك الرسل والأمم، موسى بن عمران كليم الرحمن، أحد أولي العزم من المرسلين، وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً، بعثناهما إلى فرعون وأشراف قومه.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بالبراهين والمعجزات الباهرة، الدالة على صدق ما جاء به من توحيد الله، والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى وهي الآيات التسع المذكورة في سورة الأعراف.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: تكبروا عن الإيمان بها وكانوا مفسدين، تعودوا الإجرام وارتكاب الذنوب العظام.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: فلما أتى فرعون وقومه الحق الذي جاء به موسى من اليد والعصا قالوا لفرط عتوهم وعنادهم: هذا سحر ظاهر بيّن أراد به موسى أن يسحرنا.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ أي: قال لهم موسى متعجباً من قولهم: أتقولون عن هذا الحق إنه سحر؟ ثم أنكر عليهم أيضاً باستفهام آخر:

﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ أي: أسحر هذا الذي جئتكم به؟ فانظروا وصفه وما شتمل عليه، فمجرد ذلك يجزم بأنه الحق.

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ أي: والحال أنه لا يفوز ولا ينجح الساحرون في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ قال فرعون وملؤه لموسى: أجئتنا لتصرفنا وتصدنا عن دين الآباء والأجداد؟ من الشرك وعبادة غير الله، وتأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له.

﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يكون لك ولأخيك هارون العظمة والملك والسلطان في أرض مصر، وهذا تمويه منهم، وترويج على جهالهم وتهييج لعوامهم على معاداة موسى وعدم الإيمان به.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولسنا لكما بمصدقين ومقرين بأنكما رسولان أرسلتما إلينا، لنعبد الله وحده لا شريك له، وهذا تكبر وعناد منهم، وقطعاً للطمع في إيمانهم.

﴿٧٩﴾-﴿٨٢﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۞ فَلَمَّا جَآءَ

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ
مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ
عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ
خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ
فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن
كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾
فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ
وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ
قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ
رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ
وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

٢١٨

ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ * فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ **أي: قال فرعون معارضاً للحق الذي جاء به موسى ومغالطاً لملئه وقومه: ائتوني بكل ساحر ماهر، عليم بفنون السحر متقن له.**

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ **فلما جاء السحرة للمغالبة مع موسى، قال لهم موسى: ألقوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعصيكم.**

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ **فلما ألقوا حبالهم وعصيهم، قال لهم موسى: ما جئتم به الآن هو السحر الحقيقي العظيم لا ما اتهمتموني به ولكن مع عظمته.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ **أي: سيمحقه وسيذهب به ويظهر بطلانه للناس.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ **أي: لا يصلح ولا يثبت عمل من سعى في أرض الله بالفساد بل يدمره.**

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ **أي: يثبت الله الحق ويقويه بحججه وبراهينه، ويعليه على باطلكم بكلماته وأمره، ولو كره ذلك الفجرة الكافرون من آل فرعون.**

*** ومع الآيات البينات والمعجزات الباهرات التي أتى بها موسى لم يؤمن معه إلا قليل، قال تعالى:**

﴿٨٣﴾ ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ **فما آمن مع موسى ولا دخل في دينه، مع مشاهدة تلك الآيات الباهرة إلا نفر قليل من أولاد بني إسرائيل. قال مجاهد: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم.**

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ **أي: وهم على خوف من فرعون وملأه أن يعذبهم ويصرفهم عن دينهم.**

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ **أي: لجبار مستكبر، فحقيق بهم أن يخافوا من بطشه بهم في الأرض.**

﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ **المتجاوزين الحد في الكفر والفساد.**

﴿٨٤﴾-﴿٨٦﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ **أي: قال موسى موصياً لقومه بالصبر لما رأى تخوف المؤمنين من فرعون: يا قوم إن كنتم صدقتم بالله وبآياته.**

﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ **أي: على الله وحده اعتمدوا، وثقوا به، والجؤوا إليه فإنه يكفيكم كل شرّ وضرّ.**

﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ **إن كنتم مستسلمين لحكم الله، منقادين لشرعه.**

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ **أي: فقال قوم موسى له ممتثلين لذلك: على الله وحده لا شريك له اعتمدنا وبه وثقنا.**

وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولاً لتجاب دعوته.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تسلطهم علينا حتى يعذبونا ويفتنونا بنا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وخلصنا وأنقذنا بفضلك وإنعامك من كيد فرعون وأنصاره الجاحدين؛ لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة.

* وحين اشتد الأمر على قوم موسى وهارون من فرعون وقومه وحرصوا على فتنتهم، قال الله تعالى:

﴿٨٧﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي: اتخذا لقومكما بيوتاً في مصر تكون مساكن وملاجئ تعتصمون بها.

﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: اجعلوها محلاً تصلون فيها عند الخوف، قال ابن عباس: كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وأدوا الصلاة المفروضة في أوقاتها، بشروطها وأركانها على الوجه الأكمل فإنها معونة على جميع الأمور.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وبشر يا موسى أتباعك المؤمنين بالنصر والغلبة على عدوهم وخص موسى عليه السلام بالبشارة تعظيماً لها وللمبشر بها.

* لما بالغ موسى عليه السلام في إظهار المعجزات وإقامة الحجج ولم يكن لذلك تأثير فيمن أرسل إليهم، فلما رأى موسى القسوة والإعراض من فرعون وملئه دعا عليهم. وعندما اشتد الكرب وضاق الأمر، فرجه الله ووسعه.

﴿٨٨﴾، ﴿٨٩﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: قال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم، زينة من متاع الدنيا وأثاثها، وأنواعاً كثيرة من المال.

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ اللام لام العاقبة، أي: آتيتهم تلك الأموال الكثيرة فلم يشكروك، وإنما استعانوا بها على إضلال الناس عن دينك، ومنعهم عن طاعتك وتوحيدك.

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ دعاء عليهم، أي: أتلف عليهم أموالهم، إما

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ
فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ
قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ
وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ
﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ
الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ
مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن
قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ
﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾
وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

بالهلاك أو بددها فلا ينتفعوا بها؛ لأنهم يستعينون بنعمتك على معصيتك.

﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ واختم على قلوبهم واطبع عليها، وقسِّها حتى لا تلين ولا تشرح للإيمان. قال ابن عباس: أي امنعهم الإيمان.

﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ دعاء عليهم بلفظ النفي، قال ذلك غضباً عليهم، حيث تجرؤوا على محارم الله، وأفسدوا عباد الله وصدوا عن سبيله، أي: اللهم فلا يؤمنوا حتى يذوقوا العذاب المؤلم ويوقنوا به حيث لا ينفعهم ذلك، وإنما دعا عليهم موسى لطغيانهم وشدة ضلالهم، وقد علم بطريق الوحي أنهم لن يؤمنوا فدعا عليهم. قال ابن عباس: كان موسى يدعو وهارون يؤمن فنسبت الدعوة إليهما.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ قال الله تعالى لهما: قد استجبت دعوتكما على فرعون وأشراف قومه وملئه وأموالهم، وهذا دليل على أن موسى كان يدعو، وهارون يؤمن على دعائه، وأن الذي يؤمن يكون شريكاً للداعي في ذلك الدعاء.

﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ أي: اثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الله وإلزام الحجة.

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تسلكا سبيل الجهلة في الاستعجال، أو عدم الاطمئنان بوعد الله تعالى، وروي أنه مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة ثم أغرق الله فرعون.

* لما ذكر تعالى دعاء موسى على فرعون لطغيانه، ذكر هنا ما حدث لفرعون وجنوده من الإغراق في البحر نتيجة البغي والعدوان، حيث جمع جنوده قاصيهم ودانيهم، وأن إيمانه لم ينفعه؛ لأنه إيمان المضطر، وأوحى إلى موسى لما وصل البحر، أن يضرب بعصاه، فضربه، فانفلق اثني عشر طريقاً وسلكه بنو إسرائيل، وساق فرعون وجنوده خلفه داخلين، فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر وفرعون وجنوده داخلين فيه أمر الله البحر فالتطم على فرعون وجنوده فأغرقهم، قال تعالى:

﴿٩٠﴾-﴿٩٢﴾ ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: قطعنا وعبرنا ببني إسرائيل البحر -بحر السويس- حتى جاوزوه.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ فلحقهم وأدركهم فرعون مع جنوده ظلماً وعدواناً، وطلباً للاستعلاء بغير حق.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ حتى إذا أحاط به الغرق وألجمه وأيقن بالهلاك.

﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: قال فرعون عندئذ: أقررت وصدقت بأنه لا إله إلا الله رب العالمين، الذي آمنت وأقرت به بنو إسرائيل.

﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ تأكيد لدعوى الإيمان، أي: وأنا ممن أسلم نفسه لله، وأخلص في إيمانه. قال ابن عباس: جعل جبريل عليه السلام في فم فرعون الطين مخافة أن تدركه الرحمة.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: آلآن يا فرعون تؤمن وقد نزل بك الموت، وقد بارزت الله بالكفر والتكذيب قبل نزول نقمته بك، وكنت من الغالين في الضلال والإضلال والصد عن دين الله؟ فلا تنفعك التوبة ساعة الاحتضار ومشاهدة الموت.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي: فاليوم نخرجك من البحر بجسدك الذي لا روح فيه. قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما في قلوبهم من الرعب العظيم من فرعون كأنهم لم يصدقوا بإغراقه، وشكوا في ذلك، فأمر الله البحر أن يلقيه على ربوة مرتفعة ببدنه، ليكون لهم عبرة وآية.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي: لتكون عبرة لمن بعدك من الناس، ومن الجبابرة والفراعنة، حتى لا يطغوا مثل طغيانك.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ أي: معرضون عن تأمل آياتنا لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

* ثم عدد ﷻ جملة من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل، فقال:

﴿٩٣﴾ ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: أنزلنا وأسكنا بني إسرائيل بعد إهلاك أعدائهم منزلاً صالحاً مرضياً في بلاد الشام ومصر.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ورزقناهم الرزق الحلال الطيب من خيرات الأرض المباركة من المطاعم والشراب وغيرهما.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ

﴿ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فما اختلفوا في أمر دينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم الموجب لاجتماعهم وائتلافهم، وهو التوراة التي فيها حكم الله، وهذا ذم؛ لأن اختلافهم كان بسبب الدين، والدين يجمع ولا يفرق، ويوحد ولا يشتت، كانوا قبل أن يبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته، والإقرار بمبعثه، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم، وآمن البعض، فذلك اختلافهم.

(٩٤)-(٩٧) ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ فإن كنت ـ يا محمد ـ في ريب من حقيقة ما أخبرناك به، وهذا على سبيل الفرض والتقدير؛ قال ابن عباس: لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل، وفرق عظيم بين قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠] بإثبات الشك على سبيل التأكيد والتحقيق وبين قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ بمعنى الفرض والتمثيل. وقال بعضهم: الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره.

﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: اسأل أهل الكتاب الذين يعرفون التوراة والإنجيل فإنهم يعلمون صحة ذلك، ويجدون صفتك في كتبهم.

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: جاءك -يا محمد- البيان الحق، والخبر الصادق، الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ فلا تكن من الشاكِّين المرتابين في صحة ذلك وحقيقته.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ولا تكونن -يا محمد- من الذين كذبوا بحجج الله وأدلته وآياته.

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فتصبح ممن خسر دنياه وآخرته. وهذا من باب التهييج والتثبيت وقطع أطماع المشركين عنه، وقيل: الخطاب في هاتين الآيتين للنبي ﷺ والمراد غيره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ أي: وجبت عليهم كلمة ربك -يا محمد- بطردهم من رحمته وعذابه لهم.

لا يصدقون ولا يؤمنون أبداً ولو جاءتهم البراهين والمعجزات لردهم الحق ومعاندته.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: فحينئذ يؤمنون، كما آمن فرعون ولكن لا ينفعهم الإيمان.

* ثم ذكر ﷻ حال قوم يونس، فقال:

(٩٨) ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ أي: فهلا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها، تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها في ذلك الوقت؛ لأنه لا ينتفع أحد بإيمانه حين يرى العذاب.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ أي: غير قوم يونس بن متى.

﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لما تابوا عن الكفر وآمنوا بالله، رفعنا عنهم العذاب المخزي المهين في الحياة الدنيا فهم مستثنون من العموم السابق ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا، ولم تدركها أفهامنا.

﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: أخرناهم إلى انتهاء آجالهم. روي أن يونس أنذرهم بالعذاب ثم خرج من بين أظهرهم، فلما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المُسُوح، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم، والتوبة والندم على ما مضى منهم، كشف الله عنهم العذاب.

* ثم ذكر تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له السعادة، ولا يضل إلا من

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ
لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ
كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ
﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ
عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ
﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ
قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي
رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾
قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْۖ وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

سبق له من الله الشقاوة، وهذه تسلية للنبي ﷺ وذلك أنه كان حريصاً على أن يؤمن جميع الناس، قال تعالى:

﴿٩٩﴾، ﴿١٠٠﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ **يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ لو أراد الله لآمن الناس جميعاً، ولكن لم يشأ ذلك؛ لكونه مخالفاً للحكمة، فإنه تعالى يريد من عباده إيمان الاختيار، لا إيمان الإكراه والاضطرار.**

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ **أفأنت -يا محمد- تكره الناس على الإيمان، وتضطرهم إلى الدخول في دينك؟ ليس ذلك إليك. والآية تسلية له ﷺ وترويح لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم، فقد كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول.**

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ **أي: ما كان لأحد أن يؤمن إلا بإرادته تعالى وتوفيقه، فلا تُجهد نفسك في ذلك، فإن أمرهم إلى الله.**

﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ **ويجعل العذاب والشر والضلال على الذين لا يتدبرون آيات الله، ولا يستعملون عقولهم فيما ينفع.**

*** لما بين سبحانه أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله، وجه عباده إلى النظر في السموات والأرض، نظر تفكر واعتبار وتأمل، لما فيها من العبر والعجائب، ولما تحوي عليه من دقة الصنع وعظمة الخالق فإن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون، وعبراً لقوم يوقنون، تدل على أن الله وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام، والأسماء والصفات العظام، قال تعالى:**

﴿١٠١﴾-﴿١٠٣﴾ ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ * فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **قل -يا محمد- لهؤلاء الكفار: انظروا نظر تفكر واعتبار، ما الذي في السموات والأرض من الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته سبحانه؟**

﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ **أي: وما تنفع الآيات والإنذارات قوماً سبق لهم من الله الشقاء لإعراضهم وعنادهم.**

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ **أي: هل ينتظر مشركو مكة إلا مثل أيام أسلافهم، وما حل بهم من العذاب والنكال؟**

﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ **قل لهم -يا محمد: انتظروا عاقبة البغي والتكذيب إني من المنتظرين هلاككم ودماركم.**

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ **أي: ثم إذا نزل العذاب بالمكذبين ننجي الرسل والمؤمنين إنجاءً مثل**

ذلك الإنجاء من مكاره الدنيا والآخرة وشدائدها، وكما نجينا أولئك ننجيك ـ يا محمد ـ ومن آمن بك ـ تفضلاً منا ورحمة ـ حقاً ثابتاً علينا من غير شك، قال الربيع بن أنس: خوفهم عذابه ونقمته، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمر أنجى الله رسله والذين آمنوا معه.

(١٠٤)-(١٠٧) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين من قومك إن كنتم في شك من حقيقة ديني وصحته الذي دعوتكم إليه وهو الإسلام، ومن ثباتي واستقامتي عليه، وترجون تحويلي عنه، فإني لست في شك منه.

﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فلا أعبد ما تعبدون من الأوثان والأصنام التي لا تنفع ولاتضر ولا تخلق ولا ترزق، ولا تدبر شيئاً من الأمور.

﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ أي: ولكني أعبد الله الذي يتوفاكم، وبيده محياكم ومماتكم. قال الطبري: وهذا تعريض ولحن من الكلام لطيف، وكأنه يقول: لا ينبغي لكم أن تشكّوا في ديني، وإنما ينبغي أن تشكّوا في عبادة الأصنام التي لا تعقل ولا تضر ولا تنفع، فأما إلهي الذي أعبده فهو الذي يقبض الخلق وينفع ويضر.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وأنا مأمور بأن أكون مؤمناً موحداً لله، لا أشرك معه غيره.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: وأمرت بالاستقامة في الدين، على الحنيفية السمحة ملة إبراهيم، غير مائل عنه إلى يهودية ولا نصرانية.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه لا في حالهم، ولا تكن معهم.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ تأكيد للنهي المذكور، أي: ولا تعبد ـ يا محمد ـ من دون الله شيئاً من الأوثان والإصنام، لأنها لا تنفع إن دعوتها، ولا تضر إن ترك دعاءها.

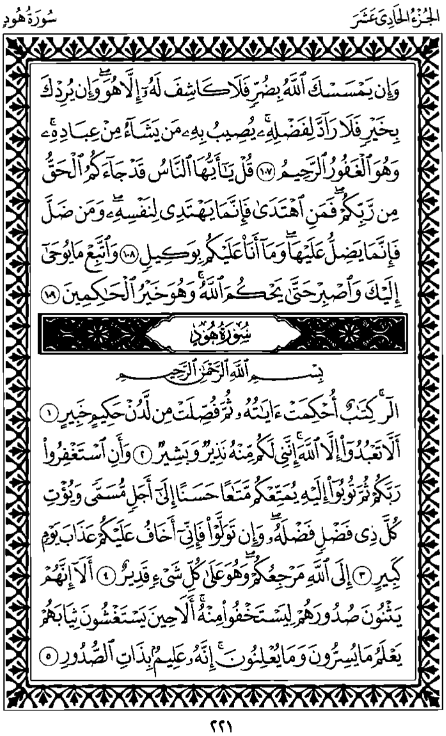
الجزء الحادي عشر — سورة هود

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

سورة هود

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

٢٢١

﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإن دعوت تلك الآلهة المزعومة كنت ممن ظلم نفسه؛ لأنك عرضتها لعذاب الله، والخطاب هنا للرسول ﷺ والمراد غيره.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ وإن يصبك الله بضر وشدة فلا دافع له إلا هو وحده، فإنه تعالى هو الضار النافع، وهذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة، فإنه النافع الضار، المعطي المانع.

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ وإن يردك بنعمة أو رخاء فلا يمنعه عنك مانع، وعبر بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى أنه يتفضل على عباده بما لا يستحقونه بأعمالهم.

﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يصيب بهذا الفضل والإحسان من شاء من العباد، وقطع بهذه الآية على عباده طريق الرغبة والرهبة إلا إليه والاعتماد إلاَّ عليه.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهو سبحانه الغفور لذنوب العباد، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

(١٠٨)،(١٠٩) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ * وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ قل -يا محمد- هؤلاء الناس: قد جاءكم القرآن العظيم الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، المشتمل على محاسن الأحكام.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ فمن اختار الهدى واتبع الحق فمنفعة اهتدائه له خاصة، والله غني عن عباده.

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومن انحرف عن الحق وأصر على الضلال فإنما ضلاله وضرره على نفسه.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: ولست بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم وأحاسبكم عليها، إنما أنا بشير ونذير. وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالاستمساك بشريعة الله، والصبر على ما يلقى من الأذى في سبيل الله.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي: اتبع -يا محمد- في جميع شؤونك ما يوحيه إليك ربك فاعمل به.

﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ واصبر على مخالفة من خالفك من الناس، حتى يقضي الله بينك وبين من كذبك.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ وهو سبحانه خير من يفصل بينكم فإن حكمه مشتمل على العدل التام، وهو المطلع على السرائر، والآية تسلية للنبي ﷺ ووعيد للمشركين.

تم تفسير سورة يونس
والحمد لله

تفسير سورة هود
وهي مكية

* سورة هود سورة مكية تقرر قواعد وأصول التوحيد، والرسالة، والبعث والجزاء، وقد عرضت لقصص الأنبياء بالتفصيل تسلية للنبي ﷺ على ما يلقاه من أذى المشركين لاسيما بعد تلك المدة العصيبة التي مرت عليه بعد وفاة عمه أبي طالب، وزوجه خديجة ﵂، فكانت الآيات تتنزل عليه وهي تقص عليه ما حدث لإخوانه الرسل من أنواع الابتلاء، ليتأسى بهم في الصبر والثبات.

في الحديث أن أبابكر ﵁ قال: يا رسول الله قد شبت، قال: «شيبتني هود، وأخواتها» [رواه الطبراني].

ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد القرآن العظيم، الذي أحكمت آياته، فلا يتطرق إليه خلل ولا تناقض؛ لأنه تنزيل الحكيم العليم، الذي لا تخفى عليه خافية من مصالح العباد؛ قال تعالى:

(١)-(٤) ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿الٓر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن، وأنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية.

﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: هو كتاب جليل القدر، نظمت آياته نظماً محكماً وأتقنت وأحسنت، فصيحة ألفاظه، بهية معانيه، لا يلحقه تناقض ولا خلل.

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ ثم بينت وميزت فيه أمور الحلال والحرام، وما يحتاج إليه العباد في أمور المعاش والمعاد.

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي: من عند الله، فصلها وبينها الخبير العالم بكيفيات الأمور، الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، ولذا كانت محكمة أحسن الإحكام ومفصلة أحسن التفصيل، فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير، فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة وسعة الرحمة. وإنما أنزل الله كتابه:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: لأجل إخلاص الدين كله لله، وأنه لا يشرك به أحد من خلقه، ثم أخبرهم رسول الله ﷺ:

﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ إنني -أيها الناس- مرسل إليكم من الله -جل وعلا-، أنذركم بعذابه إن كفرتم، وأبشركم بثوابه إن آمنتم.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: استغفروه عما صدر منكم من الذنوب، وأخلصوا التوبة، واستقيموا عليها بالطاعة والإنابة فيما تستقبلون من أعماركم. ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة، فقال:

﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به في هذه الدنيا من سعة الرزق، ورغد العيش وأمن ودعة، إلى وقت محدد، هو انتهاء أعماركم وآجالكم.

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ ويعطي كل محسن منكم في عمله، جزاء إحسانه من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهون.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإيمان، وتعرضوا عن طاعة الرحمن.

﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أي: أخاف عليكم عذاب يوم القيامة، ووصف العذاب بأنه كبير لما فيه من الأهوال الشديدة.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: إليه -جل وعلا- رجوعكم بعد الموت، وهو قادر على إماتتكم ثم إحيائكم، وعلى معاقبة من كذب لا يعجزه شيء، وفي الآية تهديد عظيم.

* أخبر تعالى بأن هذا الإنذار والتحذير والتوعد لم ينجع فيهم، ولا لانت له قلوبهم، بل هم مصرون على العناد، مصممون على الكفر وذلك من جهل المشركين، وشدة ضلالهم، فقال:

﴿٥﴾ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ نزلت في الأخنس ابن شريق كان يجالس رسول الله ﷺ والمؤمنين، ويخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة، ويظنون أن أحوالهم تخفى على الله، والمعنى: أنهم يطوون صدورهم على عداوة النبي والمؤمنين، يريدون بذلك أن يستخفوا من الله حتى لا يفتضح أمرهم. فأنزل الله ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ...﴾ الآية، وقيل: كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويحني ظهره ويتغشى بثوبه، ويقول: هل يعلم الله ما في قلبي. قال الله تعالى مبيناً خطأهم في هذا الظن:

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: حين يتغطون بثيابهم كراهة لاستماع كلام الله، فإنه تعالى يعلم ما يبطنون وما يظهرون، وكأن الآية تقول: ولا تظنوا أن تغطيتكم تحجبكم عن الله، بل الله يعلم سرائركم وظواهركم، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم، فالظاهر والباطن عنده سواء، والسر والجهر سيان.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: عالم بما في القلوب من الإرادات والوساوس التي لم ينطقوا بها.

* ثم توعدهم ﷻ بعلمه تعالى بجميع أحوالهم، وأنهم لا يخفون عليه، وسيجازيهم بصنيعهم. ثم أكد كونه عالماً بكل المعلومات بما فيه غاية الامتنان ونهاية الإحسان، قال تعالى:

﴿٦﴾ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي: ما من شيء يدب على وجه الأرض من إنسان أو حيوان إلا تكفل الله برزقه وقوته تفضلاً منه تعالى وكرماً، فكما كان هو الخالق كان هو الرازق.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: يعلم مستقر هذه الدواب، وهو: المكان الذي تقيم فيه وتستقر فيه، وتأوي إليه. ومستودعها: المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها، وعوارض أحوالها. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: المستقر أرحام الأمهات، والمستودع المكان الذي تموت فيه.

﴿كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: كل من الأرزاق، والأقدار، والأعمار، مسطر في اللوح المحفوظ المحتوي على

۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ
مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ وَهُوَ
ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ
عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن
قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ
أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ
مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ
٨ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ
لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ
مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ
١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم
مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ١١ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ
وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ
مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢

جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السموات والأرض، الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه ونفذت فيها مشيئته ووسعها رزقه، فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علماً بذواتها وصفاتها.

* ثم أكد دلائل قدرته بالتعرّض لذكر خلق السموات والأرض، وكيف كان الحال قبل خلقها، فقال:

٧، ٨ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ * وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، وفيه الحث للعباد على التأني في الأمور، فإن الإله القادر على خلق الكائنات بلمح البصر خلقها في ستة أيام.

﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ أي: وكان العرش قبل خلقها على الماء فوق السماء السابعة، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض.

﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ أي: خلقهن لحكمة بالغة، ليختبركم فيظهر المحسن من المسيء، ويجازيكم حسب أعمالكم. قال الفضيل بن عياض - رحمه الله - في قوله: ﴿أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ أي: أخلصه وأصوبه، قيل يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متبعاً فيه الشرع والسنة.

ثم لما كان الابتلاء يتضمن حديث البعث، أتبع ذلك بذكره، وذكر تكذيب المشركين بالجزاء، فقال:

﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ﴾ ولئن قلت -يا محمد- لأولئك المنكرين من كفار مكة إنكم ستبعثون بعد موتكم للحساب.

﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ ليقولن الكفار المنكرون للبعث والنشور غير مصدقين به، ما هذا القرآن إلا سحر واضح مكشوف.

﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ أي: إلى مدة من الزمن قليلة.

﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ أي: ليقولن استهزاءً واستعجالاً للعذاب: ما يمنعه من النزول.

﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾ أي: ألا فلينتبهوا، فإنه حين يأتيهم العذاب ليس مدفوعاً عنهم فيتمكنون من النظر في أمرهم.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ ونزل وأحاط بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون من العذاب، حيث تهاونوا به، حتى جزموا بكذب من جاء به.

* ثم يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان، وهو خالقه، وعالم بأحواله وطرائقه، قال تعالى:

٩-١١ ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ * وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ

ﭐلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ أي: أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من الصحة، والأمن، والرزق، والأولاد، وغيرها من النعم.

﴿ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾ ثم سلبنا تلك النعم منه.

﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ فإنه يستسلم لليأس، وينقاد للقنوط من رحمة الله، عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة الله، نساء له؛ شديد الكفر به، فلا يرجو ثواب الله ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلها، أو خيراً منها عليه.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ ولئن منحنا الإنسان نعمة من بعد مانزل به من الضر، وما أصابه من البلاء والفقر والمرض والشدة، وفي التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه، لأن الإذاقة والذوق: أقل ما يوجد به الطعم.

﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ أي: انقطع الفقر والضيق والمصائب وزالت الشدائد عني، ولن تصيبني بعد اليوم.

﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾ أي: بطر بالنعمة وفرح بها واغتر بها، فمتعاظم على الناس بما أوتي متطاول عليهم بما أعطي. والفرح: لذة في القلب بنيل المشتهى، والفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب، وذلك منهي عنه. والآية ذم لمن يقنط عند الشدائد، ويبطر عند النعم. وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده، وهم الذين استثناهم الله بقوله:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: هذه عادة الإنسان، إلا المؤمنين الذين يصبرون على الضراء، ويفعلون الخير في النعماء، فهم في حالتي المحنة والنعمة محسنون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ أولئك الموصوفون بالصفات الحميدة لهم مغفرة لذنوبهم، يزول بها عنهم كل محذور، وأجر كبير في الآخرة هو الجنة. ووصف الثواب بأنه كبير وذلك ما احتوى عليه من النعيم السرمدي، والأمن من العذاب، ورضا الله عنهم، والنظر إلى وجهه الكريم.

❊ ثم يقول تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ عن تكذيب المكذبين وتعنتهم، ومن ذلك أن المشركين كانوا يقترحون على رسول الله ﷺ أن يأتي بكنز أو يأتي معه ملك، وكانوا يستهزئون، بالقرآن قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ:

﴿١٢﴾-﴿١٤﴾ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ۞ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۞ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ فلعلك - يا محمد - لعظم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تارك بعض ما أنزل إليك من ربك فلا تبلغهم إياه لاستهزائهم ومخافة ردهم لك.

﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ أي: ويضيق صدرك من تبليغهم ما نزل عليك من ربك خشية التكذيب. ولم يقل ضيق، ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت؛ لأنه ﷺ كان أفسح الناس صدراً، والغرض تحريضه ﷺ على تبليغ الرسالة وعدم المبالاة بمن عاداه، وأن هذا لا ينبغي لمثله.

﴿أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ أي: لأجل أو كراهة أن يقولوا: هلَّا أنزل عليه مال كثير.

﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ أو جاء معه ملك يصدقه كما اقترحنا ويبين لنا صحة رسالته، هذا القول ناشئ من تعنت وظلم وعناد. قال تعالى محدداً مهمته ﷺ:

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞ﴾ أي: لست - يا محمد - إلا منذر تخوف المجرمين من عذاب الله وليس عليك إلا البلاغ.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ أي: قائم على شؤون العباد، يحفظ عليهم أعمالهم، فتوكَّل عليه وكل أمرك إليه، وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح غير ملتفت إلى استكبارهم، ولا مبال بسفههم

أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ
وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣
فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن
لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ
ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا
لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا
ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦
أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ
كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ
بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ
ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧ وَمَنۡ
أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ
رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ
أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩

واستهزائهم. ثم بين تعالى إعجاز القرآن فقال:

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ **أي: بل أيقولون اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من عند نفسه؟ فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقّاً، الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال دعوته، فإن كنتم صادقين.**

﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ **أي: إن كان الأمر كذلك فأتوا بعشر سور مثله في الفصاحة والبلاغة مفتريات، فأنتم عرب فصحاء.**

﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ **واستعينوا بمن شئتم وقدرتم غير الله سبحانه**

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ **في أن هذا القرآن مفترى.**

﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ **فإن لم يفعلوا ما طلبته منهم، وتحديتهم من الإتيان بعشر سور مثله، وعجزوا عن ذلك، فاعلموا أيها المشركون أنما نزل هذا القرآن بوحي من الله.**

﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ **أي: لا رب ولا معبود إلا الله المستحق للألوهية والعبادة؛ الذي أنزل هذا القرآن المعجز.**

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ **لفظه استفهام ومعناه أمر، أي: فأسلموا بعد ظهور هذه الحجة القاطعة، إذ لم يبق لكم عذر مانع من ذلك. وقيل: الاستفهام معناه استدعاء إلى الإسلام، وإلزام للكفار أن يسلموا لما قام الدليل على صحة الإسلام لعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن.**

*** ثم إن الله تعالى توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا، لا يطلب غيرها ولا يريد سواها، فقال:**

﴿١٥﴾، ﴿١٦﴾ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ **أي: من كان يقصد بأعماله الصالحة نعيم الدنيا وزخرفها، لأنه لا يعتقد بالآخرة ولا يؤمن بها.**

﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ **نعطيهم ما قسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا من الصحة والأمن والرزق.**

﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾ **وهم في الدنيا لا ينقصون شيئاً من أجورهم مما قدر لهم، ولكن هذا منتهى نعيمهم. قال قتادة: من كانت الدنيا همه ونيته جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يُعطى بها، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة.**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ **أي: هؤلاء الذين هدفهم الدنيا، ليس لهم في الآخرة إلا نار جهنم، وعذابها المخلد.**

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ **وبطل ما صنعوه من الأعمال الصالحة لأنهم قد استوفوا في الدنيا جزاءها. ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم، فقال:**

﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ **تأكيد لما سبق، أي: باطل ما كانوا يعملون في الدنيا من الخيرات؛ لعدم وجود شرط الإيمان والتصديق بالرسالة والبعث والجزاء.**

*** ثم يذكر ﷻ حال رسوله محمد ﷺ، ومن قام مقامه، من ورثته القائمين بدينه، فقال تعالى:**

﴿١٧﴾ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ

الجزء الثاني عشر — سورة هود

أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ
ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ٢٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ
أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ
فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ٢٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ
وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
٢٤ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢٥
أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ٢٦
فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا
وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ
وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ٢٧
قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ
عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨

٢٢٤

يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ **أفمن كان على نور واضح، وبرهان ساطع من الله تعالى، وهو النبي ﷺ والمؤمنون، وجوابه محذوف، أي كمن كان يريد الحياة الدنيا؟ يريد أن بينهما تفاوتاً كبيراً، وتبايناً بعيداً، فلا يستوي من أراد الله، ومن أراد الدنيا وزينتها.**

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ **ويتبعه شاهد منا بصدقه. قيل: هو جبريل عليه السلام.**

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ **أي: ثم شاهد ثالث، وهو التوراة الذي أُنزل على موسى من قبل إنزال القرآن. قدوة في الخير ورحمة لمن نزل عليهم. والمعنى: أفمن كان بهذا الوصف قد تواردت عليه شواهد الإيمان، وقامت لديه أدلة اليقين، كمن هو في الظلمات والجهالات ليس بخارج منها، لا يستوون عند الله، ولا عند عباده.**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ **أولئك الموصوفون بأنهم على نور من ربهم؛ يصدقون بالقرآن حق التصديق، فيثمر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة.**

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ **أي: ومن يكفر بالقرآن من أهل الملل والأديان وسائر الطوائف، فله نار جهنم يردها لا محالة.**

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ **أي: فلا تكن في أدنى شك من هذا القرآن، إنه الحق الثابت المنزل من عند الله.**

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ **أي: لا يصدقون أنه تنزيل رب العالمين إما جهلاً منهم وضلالاً، وإما ظلماً وعناداً وبغياً، وإلا فمن كان قصده حسناً وفهمه مستقيماً، فلا بد أن يؤمن به، لأنه يرى ما يدعوه إلى الإيمان من كل وجه.**

*** ثم بين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق، فقال:**

﴿١٨﴾-﴿٢٢﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ * ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ **يخبر تعالى أنه لا أحد أطغى ولا أظلم، ممن اختلق الكذب على الله، بنسبة الشريك والولد إليه.**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ **أي: هؤلاء الكاذبون والمكذبون يعرضون يوم القيامة في جملة الخلق على خالقهم ومالكهم ليجازيهم بظلمهم، فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد.**

﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ **ويقول الخلائق والملائكة الذين يشهدون على أعمالهم هؤلاء الذين كذبوا على الله. والغرض: فضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الأشهاد، والتشهير بهم خزياً ونكالاً.**

﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لظلمهم وافترائهم على الله. واللعنة: الطرد من رحمة الله.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: صدوا أنفسهم عن سبيل الله، وكذلك يمنعون الناس عن اتباع الحق، وسلوك سبيل الهدى الموصل إلى الله.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: ويريدون أن تكون السبيل معوجة، ويكون دين الله معوجاً على حسب أهوائهم، ثم وصف ظلمهم، فقال:

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: جاحدون بالآخرة منكرون للبعث والنشور، و﴿هُمْ﴾ الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ليسوا فائتين الله ولا هاربين من عذاب الله، وإن أمهلهم لأنهم تحت قبضته وفي سلطانه.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ليس لهم من يتولاهم أو يمنعهم من عذاب الله.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ جملة مستأنفة، أي: يضاعف ويزاد عليهم العذاب بسبب إجرامهم وطغيانهم، وقيل: يضاعف العذاب عليهم لإضلالهم الغير، واقتداء الاتباع بهم.

﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ أي: سبب تشديد العذاب ومضاعفته عليهم، أن الله جعل لهم سمعاً وبصراً، ولكنهم كانوا صمّاً عن سماع الحق، عمياً عن التفكر فيما ينفعهم ليقودهم إلى اتباعه، فلم ينتفعوا بما منحهم الله من حواس.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث فوتوا أعظم الثواب، واستحقوا أشد العذاب، وخسروا راحة أنفسهم لدخولهم نار جهنم.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ وغاب عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة والأصنام، ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله لما جاء أمر ربك.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي: حقاً وصدقاً أنهم يوم القيامة من أخسر الناس، ولا ترى أحداً أبين خسراناً منهم، لأنهم آثروا الفانية على الباقية، واستعاضوا عن الجنان بلظى النيران.

* ثم لما ذكر تعالى حال الكفار الأشقياء، ذكر حال المؤمنين السعداء، فقال:

﴿٢٣﴾، ﴿٢٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: جمعوا مع الإيمان والعمل الصالح بالإخبات؛ وهو الاطمئنان إليه سبحانه والخشوع له والانقطاع لعبادته، واستكانوا لعظمته وخوفه، ورجائه والتضرع إليه.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا تلك الصفات.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: منعمون في الجنة لا يخرجون منها أبداً.

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: فريق المؤمنين السعداء، وفريق الكافرين الأشقياء.

﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ أي: حال الفريقين العجيب كحال من جمع بين العمى والصمم، ومن جمع بين السمع والبصر. شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو من اللف والطباق.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ الاستفهام إنكاري، أي: لا يستويان مثلاً بل بينهما من الفرق ما لا يأتي عليه الوصف، فليس حال من يبصر نور الحق ويستضيء بضيائه كحال من يخبط في ظلمات الضلالة ولا يهتدي إلى سبق السعادة.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تعتبرون وتتعظون؟ والغرض التفريق بين أهل الطاعة والإيمان، وأهل الجحود والعصيان.

* لما ذكر تعالى عناد الكافرين من أهل مكة، وتكذيبهم لرسول الله ﷺ واتهامهم له بافتراء القرآن، أكد ذلك بذكر القصص على طريقة التفنن في الكلام، ونقله من أسلوب إلى أسلوب

لتكون الموعظة أظهر والحجة أبين، والقبول أتم، فذكر هنا قصة نوح عليه السلام أب البشر الثاني، لأنه لم ينج من الطوفان إلا نوح والمؤمنون الذين ركبوا معه في السفينة، وغرق كل من على وجه الأرض، وهو أطول الأنبياء عمراً، وأكثرهم بلاء وصبراً. ذكر قصته مع قومه الكافرين لتكون كالعظة والعبرة لمن كذب وعاند، ولتسلية الرسول ﷺ بسرد قصص المرسلين وما جرى لهم مع أقوامهم. قال تعالى:

﴿٢٥﴾-﴿٢٧﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي: ولقد أرسلنا نوحاً أول المرسلين رسولاً إلى قومه بعد أن امتلأت الأرض بشركهم وشرورهم.

﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بأني منذر لكم، ومخوف من عذاب الله إن لم تؤمنوا.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: أرسلناه بدعوة التوحيد وهي عبادة الله وحده وترك كل ما يعبد من دون الله.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ إني أخاف عليكم إن لم تقوموا بتوحيد الله وترك عبادة غيره، أن يصيبكم عذاب يوم شديد مؤلم.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ فقال السادة والكبراء والأشراف من قوم نوح رادين لدعوته، كما جرت العادة لأمثالهم، أنهم أول من رد دعوة المرسلين.

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ ما نراك إلا واحداً مثلنا، ولا فضل لك علينا، وهذا مانع بزعمهم عن اتباعه، وفيه تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، ثم عللوا بسبب ثان، فقالوا:

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي: ولم يتبعك أحد من الأشراف، وإنما اتبعك سفلة الناس من الفقراء والضعفاء، وإنما وصفوهم بذلك لفقرهم جهلاً منهم واعتقاداً بأن الشرف هو بالمال والجاه، وليس الأمر كذلك، بل المؤمنون أشرف منهم على فقرهم وخمولهم، فلا أرذل ولا أسفه ممن يسجد لصنم أو وثن.

﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي: إنما اتبعوك في ظاهر الرأي، من غير تفكر، أو روية.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ وما نرى لك ولأتباعك من مزية وشرف علينا يؤهلكم للنبوة، واستحقاق المتابعة فننقاد لكم.

﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ بل نظنكم كاذبين فيما تدعونه. أرادوا أن يحجوا نوحاً من وجهين: أحدهما: أن المتبعين له أراذل القوم ليسوا قدوة ولا أسوة، والثاني: أنهم مع ذلك لم يتروَّوا في اتباعه، ولا أمعنوا الفكر في صحة ما جاء به، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية، وغرضهم ألا تقوم الحجة عليهم بأن منهم من آمن به وصدقه.

* فما كان من نوح عليه السلام إلا أن دعاهم وجاوبهم، وتلطف مع قومه في الخطاب لاستمالتهم إلى الإيمان، بقوله:

﴿٢٨﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: قال لهم: أخبروني يا قوم إن كنت على برهان وأمر جلي من ربي بصحة دعواي.

﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ ورزقني هداية خاصة من عنده، وهي النبوة وأرسلني إليكم.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فخفي الأمر عليكم لاحتجابكم بالمادة عن نور الإيمان.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ أنكرهكم على قبولها ونجبركم على الاهتداء بها، والحال أنكم كارهون منكرون لها؟ وليس ذلك ضارنا وليس بقادح من يقيننا فيه، والاستفهام للإنكار.

* ثم بين لهم دعوته، وأنه ليس بطالب دنيا ولا غيرها، إنما هو لربه ساعياً، ولتوحيده منادياً، وللجنة داعياً، قال:

وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠
بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا
تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ
أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ
أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ
إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا
فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا
يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ
نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن
يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ
قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ
﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

٢٢٥

﴿٢٩﴾، ﴿٣٠﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ **أي: لا أسألكم على تبليغ الدعوة أجراً، ولا أطلب على النصيحة مالاً حتى تتهموني.**

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ **أي: ما أطلب ثوابي إلا من الله، فإنه هو الذي يثيبني ويجازيني.**

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ **أي: ولست بمبعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عن مجلسي، ولا بطاردهم عني كما طلبتم، فإن هذا لا ينبغي لي، ولا يليق بي، بل أتلقاهم بالرحب والإكرام، والإعزاز والإعظام.**

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ **أي: إنهم صائرون إلى ربهم، وفائزون بقربه ونائلون جنته، ولكنكم قوم تجهلون قدرهم فتطلبون طردهم، وتظنون أنكم خير منهم.**

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ **اي: وعلى فرض أني طردتهم، فمن يدفع عني عقاب الله وعذابه إن ظلمتهم؟ فإن طردهم موجب للعذاب والنكال الذي لا يمنعه من دون الله مانع.**

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ **أفلا تتفكرون فتعلمون ما هو الأنفع لكم والأصلح، وتتأملون خطأ رأيكم وتنزجرون عنه؟**

*** ثم بين نوح عليه السلام لقومه غايته، وأنه رسول الله إليهم، فقال:**

﴿٣١﴾ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ **لا أقول لكم عندي المال الوافر الكثير حتى تتبعوني لغناي، فليست خزائن الله عندي أدبرها أنا، وأعطي من أشاء وأحرم من أشاء.**

﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ **أي: ولا أقول لكم إني أعلم الغيب فأخبركم بسرائركم وبواطنكم، حتى تظنوا بي الربوبية.**

﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ **ولا أدعي رتبة ومنزلة فوق رتبتي ومنزلتي، ولا أقول لكم إني من الملائكة أرسلت إليكم فأكون كاذباً في دعواي.**

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ **أي: ضعفاء المؤمنين الذين يحتقرهم الملأ الذين كفروا.**

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ **أي: أعلم بسرائرهم وضمائرهم فإن كانوا صادقين في إيمانهم فلهم الخير الكثير، وإن كانوا غير ذلك فحسابهم على الله.**

﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **أي: إني إن قلت ذلك أكون ظالماً مستحقاً للعقاب، وهذا تأييس منه ﷺ لقومه، أن ينبذ فقراء المؤمنين أو يمقتهم، وتقنيع لقومه بالطرق المقنعة للمنصف.**

*** ولما أخذ نوح عليه السلام معهم وأبان حقيقة دعوته، ورأوا أنه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم، ولم يدركوا منه مطلوبهم.**

﴿٣٢﴾-﴿٣٤﴾ ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ أي: قال قوم نوح لنوح عليه السلام: قد خاصمتنا فأكثرت خصومتنا، وأطلت في دعوتنا.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فائتنا بالعذاب الذي كنت تعدنا به إن كنت صادقاً فيما تقول. عدلوا من جهلهم وظلمهم إلى الاستعجال بالعذاب، ولهذا أجابهم نوح عليه السلام:

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي: إن اقتضت مشيئته وحكمته أمر تعجيل العذاب فهو إليه تعالى لا إليَّ، فهو الذي يأتيكم به إن شاء، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: ولستم بفائتين الله هرباً؛ لأنكم في ملكه وسلطانه.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ ولا ينفعكم تذكيري إياكم ونصحي لكم؛ فإن الله هو الهادي إلى طريقه وجنته.

﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: إن أراد الله إضلالكم وهو جواب لما تقدم، والمعنى: ماذا ينفع نصحي لكم إن أراد الله شقاوتكم وإضلالكم؟

﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: هو خالقكم والمتصرف في شؤونكم، وإليه مرجعكم ومصيركم يحكم فيكم بما يريد، فيجازيكم على أعمالكم.

* ثم أنكر سبحانه عليهم قولهم: إن ما أوحي إلى نوح مفترى، فقال:

(٣٥) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: أيقول كفار قريش اختلق محمد هذا القرآن من عند نفسه.

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ قل لهم -يا محمد- إن كنت قد افتريت هذا القرآن فعليَّ وزري وذنبي، ولا تؤاخذون أنتم بجريرتي، ويحتمل أن الضمير يعود إلى نوح فتكون هذه الآية معترضة في أثناء قصة نوح وقومه.

﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ وأنا بريء من إجرامكم بكفركم وتكذيبكم، والآية اعتراض بين قصة نوح للإشارة إلى أن موقف مشركي مكة كموقف المشركين من قوم نوح في العناد والتكذيب.

* ثم أن الله ﷻ أخبر نوحاً بما هم عليه قومه من قساوة القلوب، ورد الحق، فقال:

(٣٦)-(٣٩) ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ * وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ أي: أوحى الله إلى نوح أنه لن يتبعك ويصدق برسالتك إلا من قد آمن من قبل.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ أي: فلا تحزن ولا تبال بهم ولا بأفعالهم، فإن الله قد مقتهم، وأحق عليهم عذابه الذي لا يُرد.

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي: واصنع السفينة -يا نوح- تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا، وتعليمنا لك ما تصنعه، وكما نأمرك.

الجُزْءُ الثَّانِي عَشَر سُورَةُ هُودٍ

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ
قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ
(٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا
مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ
وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ
فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
(٤١) وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ
وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٤٢)
قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ
مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ
ٱلْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى
وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ
بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى
مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٤٥)

٢٢٦

﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي: لا تشفع فيهم -يا نوح- ولا تراجعني فيهم، فإني مهلكهم لا محالة.

﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ قد حق عليهم القول، فهم هالكون غرقاً بالطوفان، عندها امتثل نوح أمر ربه وبدأ عليه السلام بالعمل.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية لاستحضارها في الذهن، أي: صنع نوح السفينة كما علمه ربه.

﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ أي: وكلما مرَّ عليه جماعة من كبراء قومه هزؤوا منه وضحكوا، وقالوا: يا نوح كنت بالأمس نبيّاً، وأصبحت اليوم نجاراً.

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ أي: إن تهزؤوا منا اليوم، فإنا سنسخر منكم في المستقبل عندما تغرقون، مثل سخريتكم منا الآن، وسترون عاقبة سخريتكم واستهزاءكم، فأنتم أولى بالسخرية والاستهزاء.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيد وتهديد، أي: سوف تعلمون عاقبة التكذيب والاستهزاء.

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: عذاب يذله ويهينه، وهو الغرق، وينزل عليه عذاب دائم لا ينقطع، وهو عذاب جهنم، وقد علموا ذلك حين حل بهم العقاب.

* ثم ذكر ﷻ موعدة منه لنوح عليه السلام، فقال:

(٤٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: جاء أمرنا وقدرنا بوقت نزول العذاب بهم.

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: فار الماء من التنور الذي يوقد به النار، وجعل الله ذلك علامة لنوح وموعداً لهلاك قومه، وقيل: التنور وجه الأرض، قال الطبري: والعرب تسمي وجه الأرض تنور الأرض. قيل له: إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك في السفينة وقال ابن كثير: التنور وجه الأرض أي صارت الأرض عيوناً تفور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماء، وهذا قول جمهور السلف والخلف.

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قلنا لنوح، احمل في السفينة من كل صنف من المخلوقات اثنين: ذكراً وأنثى، لتبقى مادة سائر الأجناس.

﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: واحمل قراباتك أيضاً وأولادك ونساءك إلا من حكم الله بهلاكه، والمراد به ابنه الكافر كنعان، وامرأته واعلة.

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ واحمل معك من آمن من أتباعك.

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: والحال أنه، ما آمن بنوح إلا نزر يسير مع طول إقامته بينهم وهي مدة تسعمائة وخمسين سنة، قال ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم. وقيل: كانوا عشرة.

* يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة:

(٤١)-(٤٣) ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ وقال نوح لمن آمن به اركبوا في السفينة، باسم الله يكون جريها على وجه الماء، وباسم الله يكون رسوها واستقرارها. والمعنى بسم الله حين تجري وتسير، وحين ترسي، وحين تقف.

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ساتر لذنوب التائبين حيث غفر لنا، ورحمنا حيث نجانا من الغرق، ثم وصف جريانها كأنا نشاهدها، فقال:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ والسفينة تسير بنوح ومن ركب معه وسط الأمواج، التي هي كالجبال في العظم والارتفاع، بإذن الله وعنايته ولطفه وحفظه. روي أن الله أرسل المطر أربعين يوماً وليلة، وخرج

قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ
مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ
﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا
تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ
ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ
وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ
مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ
وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾
وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ
إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ
أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾
وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ
عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ
مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ
بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾

الماء من الأرض ينابيع. والموج: ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الريح.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ﴾ **ونادي نوح ولده كنعان قبيل سير السفينة، وكان في ناحية منها لم يركب مع المؤمنين.**

﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ **أي: اركب معنا، ولا تهلك نفسك بالغرق.**

﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ **فتغرق كما يغرقون فيصيبك ما يصيبهم، فرد ابنه مكذباً لأبيه.**

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ **أي: سأصعد إلى رأس جبل أتحصن به من الغرق، ظناً منه أن الماء لا يصل إلى رؤوس الجبال.**

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ **قال له أبوه نوح: لا معصوم اليوم من عذاب الله، ولا ناجي من عقابه إلا من رحمه الله.**

﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ **أي: حال بين نوح وولده موج البحر، فغرق الابن.**

*** ولما أغرقهم الله ﷻ نتيجة طغيانهم وفسادهم، ونجى نوحاً ومن آمن معه كان الأمر:**

﴿٤٤﴾ ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ **أي: انشقي وابتلعي ما على وجهك من الماء الذي نزل إليك والذي خرج منك.**

﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ **أي: أمسكي عن المطر.**

﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ **أي: نقص ونضب وذهب في أغوار الأرض.**

﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ **أي: تم أمر الله بإغراق من غرق، ونجاة من نجا، واستقرت السفينة على جبل الجودي، بقرب الموصل.**

﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **أي: هلاكاً وخساراً وبعداً من رحمة الله لمن كفر بالله.**

*** وفي هذه الحال العظيمة وشدة الأمواج الهائلة:**

﴿٤٥﴾-﴿٤٧﴾ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ * قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ **أي: دعا نوح ربه متضرعاً إليه فقال: رب إن ابني كنعان من أهلي وقد وعدتني بنجاتهم.**

﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ **أي: وعدك حق ولا خلف فيه، وأنت يا الله أعدل الحاكمين بالحق، حكمت على قوم بالنجاة وعلى قوم بالهلاك.**

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ **أي: قال له ربه: يا نوح إن ولدك هذا ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم، لأنه كافر، ولا ولاية بين المؤمن والكافر.**

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ **أي: إن هذا الدعاء الذي دعوت به؛ لنجاة كافر لا يؤمن بالله ولا رسوله لا يصح.**

﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ **فلا تطلب مني أمراً لا تعلم عاقبته ومآله، وهل يكون خيراً أو غير خير.**

﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ **أي أنبهك وأنصحك خشية أن تكون من الجاهلين. وليس في ذلك وصف له بالجهل، بل فيه ملاطفة**

وإكرام، فحينئـذ ندم نوح عليه السلام ندامة شديدة على ما صدر منه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ قال نوح معتذراً إلى ربه عما صدر عنه: رب إني أستجير بك من أن أسألك أمراً لا يليق بي سؤاله.

﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ وإلا تغفر لي زلتي، وتتداركني برحمتك، أكن ممن خسر آخرته وسعادته.

طلب المغفرة ابتداء، ثم أعقبها بطلب الرحمة؛ لأنه إذا كان بمحل الرضى من الله كان أهلاً للرحمة.

* ثم يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أرست السفينة على الجودي، قال تعالى:

(٤٨) ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ أي: اهبط من السفينة بسلامة وأمن.

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ وخيرات عظيمة عليك وعلى ذرية من معك من أهل السفينة، فبارك الله في الجميع حتى ملؤوا أقطار الأرض ونواحيها ودخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة. والبركة: هي ثبوت الخير ودوامه.

﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: وأمم أخرى من ذرية من معك نمتعهم متاع الحياة الدنيا، وهم الكفرة المجرمون، ثم نذيقهم في الآخرة العذاب الأليم، وهو عذاب جهنم.

* ثم قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ بعدما قص عليه هذه القصة المبسوطة التي لا يعلمها إلا من منَّ عليه برسالته:

(٤٩) ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَ﴾ أي: هذه القصة وأشباهها من أخبار الغيوب السالفة التي لم تشهدها، نعلمك بها - يا محمد - بواسطة الوحي.

﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَا﴾ أي: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها من قبل هذا القرآن.

﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ فاصبر على أمر الله بتبليغ الدعوة كما صبر نوح، فإن العاقبة المحمودة لمن اتقى الله. فاحمد الله واشكره، واصبر على ما أنت عليه من الدين القويم، والصراط المستقيم والدعوة إلى الله، وفيه تسلية له على أذى المشركين فتكون العاقبة لك على قومك، كما كانت لنوح على قومه.

* ثم ذكر تعالى قصة هود عليه السلام مع قومه عاد الذي سميت السورة الكريمة باسمه، وهي القصة الثانية من القصص التي ذكرها الله في هذه السورة الكريمة، ثناءً على قيامه بأمر الدعوة إلى الله، فقد أرسله الله تعالى إلى قوم عاد العتاة المتجبرين، الذين اغتروا بقوة أجسامهم، وقالوا: من أشد منا قوة؟ فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، وقد أسهبت الآيات في الحديث عنهم بقصد العظة والعبرة للمتكبرين المتجبرين، قال تعالى:

(٥٠)-(٥٢) ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ * يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ * وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗا﴾ أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلة عاد وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف، من أرض اليمن نبياً منهم، اسمه هود، أخاً لهم في النسب ليتمكنوا من الأخذ عنه والعلم بصدقه.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ أي: اعبدوا الله وحده دون الآلهة والأوثان، ليس لكم معبود غيره يستحق العبادة.

﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ أي: ما أنتم في عبادتكم غير الله إلا كاذبون عليه - جل وعلا -، لأنه لا إله ولا رب سواه. ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد، فقال:

﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ أي: لا أطلب منكم على النصح والبلاغ جزاءً ولا ثواباً من أموال وغيرها، فتقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وإنما أدعوكم وأعلمكم لله ﷻ.

الجزء الثاني عشر — سورة هود

إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ
وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى
جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ
مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ
رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ
﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى
هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا
بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ
ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ
﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ
مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

٢٢٨

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ﴾ أي: ما ثوابي وجزائي إلا على الله الذي خلقني.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أتغفلون عن ذلك فلا تعقلون أن من يدعوكم إلى الخير دون إرادة جزاء منكم؛ هو لكم ناصح أمين؟ والاستفهام للإنكار والتقريع.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: استغفروه عما مضى منكم من الكفر والإشراك.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي: ارجعوا إليه بالطاعة والاستقامة على دينه والتمسك بالإيمان والتوحيد فيما تستقبلونه من أيامكم، فإنكم إن فعلتم ذلك.

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ يرسل عليكم المطر غزيراً متتابعاً، مرة بعد أخرى في أوقات الحاجة، فتخصب الأرض ويكثر خيرها، وإنما مقصد استمالتهم إلى الإيمان بكثرة المطر وزيادة القوة؛ لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين، فكانوا أحوج شيء إلى الماء.

روي أن عاداً كان حبس عنهم المطر ثلاث سنين حتى كادوا يهلكون، فأمرهم هود بالتوبة والاستغفار، ووعدهم ذلك بنزول الغيث والمطر، وفي الآية دليل على أن التوبة والاستغفار سبب للرحمة ونزول الأمطار.

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ ويزدكم عزاً وفخاراً فوق عزكم وفخاركم، وشدة إلى شدتكم، فإنهم كانوا في غاية القوة والبطش.

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه مصرين على الإجرام، وارتكاب الآثام.

* ثم يخبر تعالى عما ذكروا لنبيهم:

﴿٥٣﴾-﴿٥٦﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ قالوا رادين لقوله: ما جئتنا بحجة واضحة تدل على صدقك، وإنما قالوه لفرط عنادهم، أو لشدة عماهم عن الحق.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لسنا بتاركين عبادة الأصنام من أجل قولك، ولسنا بمصدقين لنبوتك ورسالتك، والجملة تقنيط من دخولهم في دينه. ثم نسبوه إلى الخبل والجنون، فقالوا:

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ أي: ما نقول إلا أصابك بعض آلهتنا بجنون لما سببتها ونهيتنا عن عبادتها، وقد دلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة، غلاظ الأكباد، لا يلتفتون إلى النصح، ولا تلين شكيمتهم للرشد، وقد دل قولهم الأخير على جهل مفرط، وبله متناه، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ قال لهم هود: إني أشهد الله على نفسي.

﴿وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ﴾ وأشهدكم أيضاً أيها القوم بأنني بريء مما تشركون في عبادة الله من الأوثان والأصنام.

﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ فاحتالوا في هلاكي أنتم وآلهتكم ثم لا تمهلوني طرفة عين، فإني لا أبالي بكم وبكيدكم ولا أخاف معرتكم وإن تعاونتم عليَّ، وكيف تضرني آلهتكم وما هي إلا جماد لا يضر ولا ينفع، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها وصددت عن عبادتها

بأن تخبلني وتذهب بعقلي. وهذا من أعظم المعجزات، فإنه ﷺ كان رجلاً مفرداً بين الجمع الغفير من عتاة عاد، الغلاظ الشداد، وقد حقرهم وهيجهم بانتقاص آلهتهم، وحثهم على التصدي له فلم يقدروا على مباشرة شيء، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً. وقال الزمخشري: من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة، ولكن لثقته بربه وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم، ومثله قول نوح: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١].

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ إني لجأت إلى الله وفوضت أمري إليه تعالى، مالكي ومالككم وخالقي وخالق الجميع.

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ ما من نسمة تدب على وجه الأرض إلا هي في قبضته وتحت قهره، فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه والأخذ بالناصية تمثيل للملك والقهر، والجملة تعليل لقوة توكله على الله وعدم مبالاته بالخلق.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إن ربي عادل، يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يظلم أحد شيئاً.

* قام هود ﷺ بدعوتهم والصدع بأمر أعذر إليهم، وقال:

٥٧-٦٠ ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ * وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ أي: فإن تعرضوا عن قبول دعوتي وما دعوتكم إليه، فقد أبلغتكم أيها القوم رسالة ربي، وقامت عليكم الحجة، وما على الرسول إلا البلاغ.

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: فسوف يهلككم الله ويستخلف قوماً آخرين غيركم، يقومون بعبادته ولا يشركون به شيئاً، وهذا وعيد شديد.

﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ ولا تضرون الله شيئاً بإشراككم، فالله لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة المطيعين.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ إنه سبحانه رقيب على كل شيء، وهو يحفظني من شركم ومكركم.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: ولما جاء أمرنا بالعذاب، وهو ما نزل بهم من الريح العقيم، نجينا من العذاب هوداً والمؤمنين بفضل عظيم ونعمة منا عليهم.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وخلصناهم من ذلك العذاب الشديد، وهي الريح المدمرة التي كانت تهدم المساكن، وتدخل في أنوف أعداء الله وتخرج من أدبارهم، وتصرعهم على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الإشارة لآثارهم، أي: تلك آثار المكذبين من قوم عاد، انظروا ماذا حل بهم، حين كفروا بالله، وأنكروا آياته في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته.

﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ وعصوا رسوله هوداً، وجمعه تفظيعاً لحالهم، وإظهاراً لكمال كفرهم وعنادهم، ببيان أن عصيانهم له عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وأطاعوا أمر كل متسلط على عباد الله بالجبروت، حائد عن الحق، لا يذعن له ولا يقبله، يريد به الرؤساء والكبراء.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: وألحقوا باللعنة والطرد من رحمة الله في الدنيا، ويوم القيامة أيضاً تلحقهم اللعنة، وقد جعل اللعن رديفاً لهم ومتابعاً إذ عبدوا غيره، وجحدوا بنعمته.

﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ هذا تشنيع لكفرهم وتهويل إذ كذبوا رسوله، فاستحقوا اللعنة في الدنيا، واللعنة في الآخرة.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أي: أبعدهم الله من الخير، وقربهم من كل شر، وأهلكهم عن بكرة أبيهم، وهي جملة دعائية بالهلاك واللعنة.

ثم ذكر سبحانه قصة نبيه صالح الذي أرسل إلى قومه في مدائن الحجر

بين تبوك والمدينة وكانوا بعد قوم عاد، قال تعالى:

(٦١)، (٦٢) ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ * قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي: ولقد أرسلنا إلى قوم ثمود صالحاً - أخاهم في النسب - وهم الذين يسكنون الحجر ووادي القرى.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ أي: اعبدوا الله ووحدوه واخلصوا له الدين، ليس لكم رب معبود سواه، لا من أهل السماء، ولا من أهل الأرض.

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ هو تعالى ابتدأ خلقكم من الأرض، فخلق آدم من تراب ثم ذريتهم من نطفة.

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عُمّارها وسكانها، تسكنون بها، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة.

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ فاستغفروه مما صدر منكم من الشرك والكفر والمعاصي، وأقلعوا عنها، وارجعوا إليه بالطاعة والإنابة والتوبة النصوح.

﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ أي: إنه سبحانه قريب الرحمة، مجيب الدعاء؛ يجيبه بإعطائه سؤله، وقبول دعوته، وإثابته عليها أجلّ الثواب.

* فلما أمرهم نبيهم صالح بالإنابة والتوبة، وترك عبادة غير الله ورغبهم في الإخلاص له وحده، ردوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة:

(٦٢)، (٦٣) ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ أي: كنا نرجو ونأمل أن تكون فينا سيداً مطاعاً، فيك العقل والنفع قبل تلك المقالة، فلما قلتها انقطع رجاؤنا فيك، وهذه شهادة منهم لنبيهم صالح أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه، ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة، قالوا تلك المقالة، وقالوا له على سبيل العيب والقدح بزعمهم.

﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أتنهانا يا صالح عن عبادة الأوثان التي عبدها آباؤنا؟

﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي: وإننا ما زلنا شاكين

الجزء الثاني عشر سورة هود

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى
مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى
غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ
ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا
نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ
خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ (٦٧)
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا
بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨) وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟
سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَءَآ
أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ
فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ (٧١)

٢٢٩

وغير مصدقين في دعواك، وأمرك مريب يوجب التهمة، وهم كذبة في ذلك، ولهذا بين كذبهم في قوله:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: أخبروني إن كنت على برهان وحجة واضحة من ربي.

﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي: وأعطاني النبوة والرسالة، ومنَّ عليّ بالوحي، أفأتابعكم على ما أنتم عليه وما تدعونني إليه.

﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ فمن يمنعني من عذاب الله إن عصيت أمره في تبليغ رسالته ومنعكم من عبادة الأوثان.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: فما تزيدونني بموافقتكم وعصيان أمر الله غير تضليل وإبعاد عن الخير.

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا
لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ
وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ
عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾
إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ
قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا
جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا
يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ
فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾
قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ
﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ
يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا
مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

٢٣٠

* **ثم ذكر ﷻ الآية العظيمة التي أتى بها صالح قومه.**

(٦٤)-(٦٨) ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ * وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ **أي: هذه الناقة معجزتي لكم وعلامة على صدقي لها شرب من البئر يوماً، ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شرب يوم معلوم، أضاف الناقة إلى الله تشريفاً لها؛ لأنها خرجت من صخرة صماء بقدرة الله حسب طلبهم.**

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ **فدعوها تأكل وتشرب في أرض الله من العشب والنبات، فليس عليكم رزقها ومؤنتها وعلفها، مع أن لكم نفعها.**

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ **ولا تنالوها بشيء من السوء والأذى، فيصيبكم عذاب عاجل لا يتأخر عنكم.**

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ **فذبحوا الناقة، فقال لهم صالح: استمتعوا بالعيش في بلدكم ثلاثة أيام ثم تهلكون. قال القرطبي: إنما عقرها بعضهم وأضيف إلى الكل؛ لأنه كان برضى الباقين، فعقرت يوم الأربعاء فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت، وأتاهم العذاب يوم الأحد.**

﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ **أي: وعد حق وصدق؛ غير مكذوب فيه.**

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ **أي: فلما جاء أمرنا بإهلاكهم ووقوع العذاب عليهم، نجينا صالحاً ومن آمن به.**

﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ **أي: بنعمة وفضل عظيم من الله، ونجيناهم من هوان ذلك اليوم وذله.**

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ **أي: القوي في بطشه، العزيز في ملكه، لا يغلبه غالب، ولا يقهره قاهر، أهلك الأمم الطاغية، القادر على إنجاء الرسل وأتباعهم.**

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ **أي: أخذتهم صيحة من السماء تقطعت لها قلوبهم، فأصبحوا هامدين موتى لا حراك بهم.**

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ **كأن لم يقيموا في ديارهم ولم يعمروها، ولم يتمتعوا بها، ولا تنعموا بها يوماً من الدهر.**

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ **أي: ألا فانتبهوا أيها القوم إن ثمود كفروا بآيات ربهم بعد أن جاءتهم الآية المبصرة فسحقاً لهم وبعداً، وهلاكاً ولعنة فما أشقاهم وأذلهم.**

* **ثم ذكر ﷻ قصة لوط عليه السلام وهلاك قومه المعذبين، وهي القصة الرابعة في هذه السورة، فقال تعالى:**

(٦٩)-(٧٣) ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ

﴿ٱللَّهِ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أي: جاءت الملائكة الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط إبراهيم بالبشارة بإسحاق، فإن الله ﷻ لما أنزل الملائكة لعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم فظنهم أضيافاً، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، كانوا أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسان الوجوه.

﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ أي: سلموا عليه سلاماً.

﴿قَالَ سَلَٰمٞ﴾ أي: قال لهم إبراهيم: سلام عليكم، قال المفسرون: رد عليهم التحية بأحسن من تحيتهم؛ لأنه جاء بها جملة اسمية وهي تدل على الثبات والاستمرار، وفي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ فما أبطأ إبراهيم عليه السلام ولا تأخر مجيئه حتى جاء بعجل مشوي فقدمه لهم، والعجل ولد البقرة ويسمى «الحسيل» وكان مال إبراهيم عليه السلام البقر. والحنيذ: المشوي بالحجارة المحماة في أخدود، وقيل: الذي يقطر دسمه ويدل عليه بعجل سمين، فقربه إليهم فقال: ألا تأكلون؟

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ﴾ فلما رآهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام، ولا يأكلون منه أنكرهم.

﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ أي: أحس منهم الخوف والفزع وظن أنهم أتوه بشر ومكروه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم، وكان العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم ظنوا أنه لم يجئ بخير، وأنه جاء يُحدث نفسه بشرٍّ.

﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ أي: قالت الملائكة: لا تخف يا إبراهيم فإنا ملائكة ربك لا نأكل، وقد أرسلنا لإهلاك قوم لوط.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ﴾ وامرأة إبراهيم واسمها سارة قائمة وراء الستر تسمع كلامهم، فضحكت حين سمعت بحالهم وما أرسلوا به، تعجباً، واستبشاراً بهلاك قوم لوط.

﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ أي: بشرتها الملائكة بإسحاق ولداً لها، ويأتيه مولود هو يعقوب ابناً لولدها.

﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ قالت سارة متعجبة: يا لهفي ويا عجبي؛ أألد وأنا امرأة مسنة وهذا زوجي إبراهيم شيخ هرم أيضاً فكيف يأتينا الولد؟ فهذان مانعان من وجود الولد.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ أي: إن هذا الأمر لشيء غريب لم تجر به العادة. قال مجاهد: كانت يومئذ ابنة تسع وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ قالت الملائكة: كيف تعجبين من قدرة الله وحكمته في خلق الولد من زوجين هرمين وهو لا يستحيل عليه شيء؟ ليس هذا بمكان عجب على قدر الله، وخصوصاً فيما يدبره ويمضيه لأهل هذا البيت المبارك.

﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ أي: لا تزال رحمته وإحسانه، وإنعامه وبركاته فيكم يا أهل بيت إبراهيم.

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ أي: إنه تعالى محمود مُمجَّد في صفاته وذاته، لأن صفاته صفات كمال، حميد الأفعال لأن أفعاله إحسان وجود، وبر وحكمة، وعدل وقسط، مستحق للحمد والتمجيد من عباده، وهو تعليل لما سبق من البشارة.

* لا تزال الآيات تتحدث عن قصة ضيوف إبراهيم، وهم الملائكة الذين مروا عليه وهم بطريقهم لإهلاك قوم لوط، وبشروه بالبشارة السارة بولادة غلام له، وقد ذكرت الآيات مرورهم على لوط وما حل بقومه من النكال والدمار، وهذه هي القصة الخامسة، من قصص الأنبياء في هذه السورة، وفي جميع هذه القصص عبر وعظات. قال تعالى:

﴿٧٤﴾-﴿٧٦﴾ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ * يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ أي: فلما ذهب عن إبراهيم الخوف الذي أوجسه في نفسه، واطمأن قلبه لضيوفه حين علم أنهم ملائكة.

﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ وجاءته البشارة بالولد، التفت حينئذ إلى الملائكة.

﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ أي: أخذ وظل يجادل ملائكتنا في شأن إهلاك قوم لوط، وغرضه تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون. قال المفسرون: لما قالت الملائكة ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال لهم: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟ قال: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، فما زال يتنزل معهم حتى قال لهم: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونهم؟ قالوا: لا، فقال لهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٢].

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ أي: ذو خلق حسن، وسعة صدر، غير عجول في الانتقام من المسيء إليه، صفوح عمن عصاه.

﴿أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾ أي: كثير التأوه والتأسف على الناس لرقة قلبه، منيب رجّاع إلى طاعة الله والإقبال عليه، والإعراض عما سواه.

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآ﴾ أي: قالت الملائكة: يا إبراهيم دع عنك الجدال في قوم لوط فقد نفذ القضاء بعذابهم.

﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ أي: جاء أمر الله بإهلاكهم.

﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ أي: نازل بهم عذاب غير مصروف عنهم ولا مدفوع، فلا فائدة في جدالك.

* ثم يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه، وأخبروه بإهلاك قوم لوط.

٧٧-٧٩ ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ * وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ * قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أي: ولما جاء الملائكة لوطاً بعد أن صدروا من إبراهيم، أصابه سوء وضجر، وشق عليه مجيئهم؛ لأنه ظن أنهم من البشر، فخاف عليهم من قومه لما رأى من هيئاتهم وجمالهم.

﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ أي: ضاق صدره بمجيئهم خشية عليهم من قومه الأشرار؛ لأنه علم أن قومه لا يتركونهم.

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ أي: حرج، شديد في الشر.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ أي: جاء قومه يسرعون إليه لطلب الفاحشة بالضيوف كأنهم يدفعون إلى ذلك دفعاً.

﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ومن قبل ذلك الحين كانت عادتهم إتيان الرجال وعمل الفاحشة، فلذلك لم يستحيوا حين جاؤوا يهرعون لها مجاهرين، وكان سبب إسراعهم أن امرأة لوط الكافرة لما رأت الأضياف وجمالهم، خرجت حتى أتت مجلس قومها فقالت لهم: إن لوطاً قد أضاف الليل فتية ما رأيت مثلهم جمالاً، فحينئذ جاؤوا يهرعون إليه.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ أي: قال لهم لوط: هؤلاء نساء البلدة أزوجكم بهن فذلك أطهر لكم وأفضل. وإنما قال بناتي لأن كل نبي أب لأمته في الشفقة والتربية.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓ﴾ أي: اخشوا عذاب الله، ولا تفضحوني وتهينوني، ولا تخزوني في ضيوفي.

﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ استفهام توبيخ، أي: أليس فيكم رجل عاقل يرشدكم إلى ترك هذا العمل القبيح؟ وينهاكم ويزجركم.

﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ أي: قال قومه: لقد علمت يا لوط ما لنا في النساء من أرب، وليس لنا رغبة فيهن.

﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي: وأنت تعلم غرضنا وهو إتيان الذكور، صرحوا له بغرضهم الخبيث قبحهم الله فنحن لا نريد إلا الرجال، فاشتد قلق لوط عليه السلام.

* ثم يخبر تعالى أن لوطاً عليه السلام توعد قومه:

﴿٨٠﴾، ﴿٨١﴾ ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ * قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٖ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٖ﴾.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي: لو كان لي قوة أستطيع أن أدفع أذاكم بها وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلى أقوى الأركان وهو الله.

﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ﴾ أي: ألجأ إلى عشيرة وأنصار تنصرني عليكم، وجواب «لو» محذوف تقديره لبطشت بكم، وفي الحديث: «رحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد» يريد ﷺ أن الله كان ناصره ومؤيده، فهو ركنه الشديد وسنده القوي. قال قتادة: وذُكِر لنا أن الله تعالى لم يبعث نبياً بعد لوط إلا في منعة من عشيرته، وحين سمع رسل الله تعالى تحسر لوط على ضعفه وانقطاعه من الأنصار، ولما سمعت الملائكة لوطاً عليه السلام يقول هذه المقالة، ووجدوا قومه قد غلبوه وعجز عن مدافعتهم.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ أي: قالت الملائكة للوط بعد أن اشتد به الكرب: إن ركنك لشديد، إنّا رسل ربك، أرسلنا لإهلاكهم، وإنهم لن يصلوا إليك بضرر ولا مكروه.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٖ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: اخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية وبطائفة من الليل.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ أي: لا ينظر أحد منكم وراءه إلا امرأتك فإنها ستهلك كما هلكوا. نهوا عن الالتفات لئلا تتفطر أكبادهم على قريتهم وليكون همهم النجاء والخروج، وذكر إن امرأة لوط لما سمعت هذا العذاب التفتت، وقالت: واقوماه! فأدركها حجر فقتلها.

﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ أي: إنه يصيب امرأتك من العذاب ما أصاب قومك لأنها تشارك قومها في الإثم، فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف.

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ أي: موعد عذابهم وهلاكهم الصبح، فكأن لوطاً استعجل ذلك، فقيل له:

﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٖ﴾ استعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه، فقالوا: أليس وقت الصبح قريباً؟ قال المفسرون: إن قوم لوط لما سمعوا بالضيوف هرعوا نحوه، فأغلق بابه وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب، فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما بلوط من الكرب، قالوا يا لوط: افتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم وعموا، وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النجاء، النجاء كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧] ثم إن لوطاً سرى بمن معه قبل الفجر، ولما حان وقت عذابهم أمر الله جبريل فاقتلع مدائن قوم لوط - وهي خمس - من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها، حتى سمع أهل السماء صراخ الديكة، ونباح الكلاب، ثم أرسلها مقلوبة وأتبعهم الله بالحجارة، ولهذا قال تعالى:

﴿٨٢﴾، ﴿٨٣﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي: فلما جاء وقت العذاب ونزوله، قلبنا بهم القرى فجعلنا العالي سافلاً.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ أي: أرسلنا على أهل تلك المدن حجارة صلبة شديدة من نار وطين، شبهها بالمطر لكثرتها وشدتها.

﴿مَّنضُودٖ﴾ أي: متتابعة، بعضها في إثر بعض.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: معلمة بعلامة، عليها علامة العذاب والغضب قد كتب على كل حجر اسم من يرمي به. وقوله ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ دليل على أنها ليست من حجارة الأرض.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ أي: ما هذه القرى المهلكة ببعيد عن قومك كفار قريش فإنهم يمرون عليها في أسفارهم أفلا يعتبرون؟ قال المفسرون: وقد صار موضع تلك المدن

فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا
حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ
وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ
شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ
وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ
وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤ وَيَٰقَوۡمِ
أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ
أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥ بَقِيَّتُ
ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم
بِحَفِيظٖ ٨٦ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ
مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ
لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ
عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ
أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ
مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨

٢٣١

بحراً أجاجاً يعرف بـ «البحر الميت»؛ لأن مياهه لا تغذي شيئاً من الحيوان وقد اشتهر باسم «بحيرة لوط» والأرض التي تليها قاحلة لا تنبت شيئاً.

*** ثم يذكر تعالى قصة نبي الله شعيب عليه السلام مع قومه، أهل مدين، وهذه هي القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة.**

٨٤ ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ **أي: وأرسلنا إلى قبيلة مدين في أدنى فلسطين، أخاهم في النسب شعيباً، وقد كان شعيب من نفس القبيلة ولهذا قال أخاهم، وذلك ليعرفونه وليتمكنوا من الأخذ عنه.**

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ **أي: قال لهم: اعبدوا الله وحده وأخلصوا له العبادة، فليس لكم رب سواه.**

﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ **أي: لا تنقصوا الناس حقوقهم في المكيال والميزان، وقد اشتهروا بتطفيف الكيل والوزن ولهذا نهاهم عن ذلك.**

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ **أي: إني أراكم في سعة من الرزق وكثرة من النعم والأموال تغنيكم عن نقص الكيل والميزان، فاشكروا الله على ما أعطاكم، ولا تكفروا نعمة الله فيزيلها عنكم.**

﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ **أي: إني أخاف عليكم إن لم تؤمنوا عذاب يوم مُهلك، يحيط بكم، ولا يفلت منه أحد، والمراد به عذاب يوم القيامة.**

٨٥، ٨٦ ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۞ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾.

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ **أي: أتموا الكيل والوزن للناس بالعدل الذي ترضون أن تعطوه، نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول لزيادة الترغيب فيه.**

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ **ولا تنقصوهم من حقوقهم شيئاً فتسرقوها بأخذها بنقص المكيال والميزان.**

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ **ولا تسعوا بالفساد في الأرض، فإن الاستمرار على المعاصي، يفسد الأديان والعقائد، والدين والدنيا، ويهلك الحرث والنسل. والعثي أشد الفساد.**

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ **أي: ما أبقاه الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير مما تأخذونه بالتطفيف، إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده.**

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ **أي: ولست برقيب ووكيل عليكم أحفظ عليكم أعمالكم، وأجازيكم بها، وإنما أنا ناصح مُبلِّغ، وقد أعذر من أنذر.**

*** لما أمرهم شعيب عليه السلام بعبادة الله تعالى وترك عبادة الأوثان، وبإيفاء الكيل والميزان، ردوا عليه على سبيل السخرية والتهكم والاستهزاء والاستبعاد لإجابتهم له.**

٨٧ ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ **أي: أصلاتك تدعوك لأن تأمرنا بترك عبادة الأصنام التي عبدها آباؤنا؟ إن هذا لا يصدر عن عاقل.**

وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ
قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم
بِبَعِيدٖ ٨٩ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي
رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ
وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ
عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ
وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ
مُحِيطٞ ٩٢ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ
سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ
وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا
شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤
كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥
وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ
وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧

٢٣٢

﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ **أي: وتأمرك بأن نترك تطفيف الكيل والميزان. قيل: إن شعيباً أمرهم بشيئين: بالتوحيد، وترك البخس، فأنكروا عليه أمره بهذين النوعين فقوله: ﴿مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ إشارة إلى التوحيد، وقوله: ﴿نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا﴾ إشارة إلى ترك البخس، وقد يراد بالصلاة الدين، والمعنى: دينك يأمر بذلك؟ وأطلق عليه الصلاة لأنها أظهر شعار الدين، وروي أن شعيباً كان كثير الصلاة وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا، فقصدوا بقولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ﴾ السخرية والهزء. ثم تهكموا به وقالوا:**

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ **أي: إنك لأنت العاقل المتصف بالحلم والرشد عند نفسك وفي اعتقادك؟ قالوا له أعداء الله ذلك على طريقة التهكم به والاستهزاء، وإنما سفهوه وجهلوه بهذا الكلام.**

٨٨ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ **أي: قال لهم شعيب: أخبروني إن كنت على برهان وبصيرة من ربي، وهو الهداية والنبوة.**

﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ **أي: أعطاني المال الحلال، فقد كان عليه السلام كثير المال.**

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ **أي: ولست أنهاكم عن شيء وأرتكبه، وإنما آمركم بما آمر به نفسي.**

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ **أي: لا أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه إلا إصلاحكم وإصلاح أمركم بقدر استطاعتي ولما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس، دفع هذا بقوله:**

﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ **أي: ليس التوفيق إلى الخير إلا بتأييده سبحانه ومعونته، لا بحولي ولا بقوتي.**

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ **أي: على الله سبحانه اعتمدت في جميع أموري ووثقت في كفايته، وإليه تعالى أرجع بالتوبة والإنابة، وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه، والإنابة إليه.**

٨٩، ٩٠ ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ * وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ **أي: لا يكسبنكم عداوتي ومخالفتي.**

﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖ﴾ **أي: يصيبكم العذاب كما أصاب قوم نوح بالغرق، وقوم هود بالريح، وقوم صالح بالرجفة. وقال الحسن: المعنى: لا يحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار.**

﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ **وما ديار الظالمين من قوم لوط بمكان بعيد، لا في الدار، ولا في الزمان أفلا تتعظون وتعتبرون.**

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ **أي: استغفروا ربكم من جميع الذنوب، ثم توبوا إليه توبة نصوحاً بالإنابة إليه بطاعته وترك مخالفته.**

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ **أي: إنه -جل وعلا- عظيم الرحمة، كثير الود والمحبة لمن تاب وأناب، يرحمه فيغفر له، ويتقبل توبته ويحبه، ومعنى الودود من أسمائه تعالى أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه.**

* فما كان منهم إلا أن قالوا لنبيهم شعيب على وجه الاستهانة والتضجر من نصائحه:

﴿٩١﴾،﴿٩٢﴾ ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: ما نفهم كثيراً مما تحدثنا به يا شعيب، وذلك لبغضهم لما يقول، ونفرتهم عنه، فقد جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ، وأنواع العلوم والمعارف، من قبيل التخليط والهذيان الذي لا يفهم معناه، ولا يدرك فحواه، وشعيب عليه السلام كان يسمى خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه.

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي: لا قوة لك ولا عز فيما بيننا، فلست من الكبار والرؤساء؛ بل أنت من المستضعفين، فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروهاً.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ أي: ولولا جماعتك وقبيلتك لقتلناك رمياً بالأحجار.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: ليس لك قدر في صدورنا، ولا احترام في أنفسنا، لست عندنا بمكرم ولا محترم حتى نمتنع من رجمك.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: قال لهم مترفقاً لهم: أتتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب -تبارك وتعالى-؟ فهل عشيرتي أعز عندكم من الله وأكرم؟ قال ابن عباس: إن قوم شعيب ورهطه كانوا أعز عليهم من الله وصغر شأن الله عندهم، عز ربنا وجل ثناؤه.

﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: جعلتم الله خلف ظهوركم لا تطيعونه ولا تعظمونه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يُعبأ به.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: إنه - جل وعلا- قد أحاط علماً بأعمالكم السيئة لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم وسيجازيكم عليها.

* ولما أعيوه ورأى إصرارهم على الكفر وعجز عنهم، ويئس من استجابتهم، قال:

﴿٩٣﴾-﴿٩٥﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ تهديد شديد، أي: اعملوا على طريقتكم إني عامل على طريقتي، كأنه يقول: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة، فأنا ثابت على الإسلام والمصابرة.

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ أي: سوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يذله ويهينه، وسوف تعلمون من هو الكاذب.

﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي: انتظروا عاقبة أمركم وما يحل بكم من العذاب، إنني منتظر معكم وما يحل بكم.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: ولما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا شعيباً والمؤمنين معه بسبب رحمة عظيمة منا لهم.

﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي: وأخذ أولئك الظالمين صيحة العذاب، حيث صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم.

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي: موتى هامدين لا تسمع لهم صوتاً، ولا ترى منهم حركة. قال ابن كثير: وذكر ههنا أنه أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ أي: كأن لم يعيشوا ويقيموا ويتنعموا في ديارهم قبل ذلك.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ ألا أبعد الله مدين من رحمته بإحلال نقمته، كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإنزال سخطه بهم.

* ثم ذكر جل قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وهذه هي القصة السابعة

يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ
ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ
ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ
مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾
وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ
أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ
ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾
وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ
إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي
ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾
۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾

٢٣٣

وهي آخر القصص في هذه السورة، قال تعالى:

﴿٩٦﴾-﴿٩٩﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ * يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ * وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ **أي: لقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف إلهية، وأيدناه بمعجزات قاهرة، وبينات باهرة، كالعصا واليد ونحوهما من الآيات، إلى فرعون وأشراف قومه.**

﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ **أي: فأطاع الملأ أمر فرعون وعصوا أمر الله، وما أمر فرعون بسديد؛ لأنه ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال، وهو تجهيل لمتبعيه حيث تابعوه على أمره وهو ضلال بين، وذلك أنه ادعى الألوهية، وهو بشر مثلهم، وجاهر بالظلم والشر، فكانت العاقبة أنه:**

﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ **أي: يتقدم أمامهم إلى النار يوم القيامة كما كان يتقدمهم في الدنيا.**

﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ **أي: أدخلهم نار جهنم، بئس المدخل والمدخول منه.**

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ **أي: ألحقوا فوق العذاب الذي عجله الله لهم لعنة في الدنيا، وأردفوا بلعنة أخرى يوم القيامة.**

﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ **أي: بئس ما اجتمع لهم، وترادف عليهم من عذاب الله، ولعنة الدنيا والآخرة.**

*** ولما ذكر ﷺ قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم، قال الله تعالى لرسوله:**

﴿١٠٠﴾، ﴿١٠١﴾ ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ * وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ﴾ **أي: ذلك القصص من أخبار القرى التي أهلكنا أهلها بكفرهم وتكذيبهم الرسل، نقصه عليك -يا محمد- ونخبرك عنه بطريق الوحي.**

﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾ **أي: من هذه القرى ما هو عامر قد هلك أهله وبقي بنيانه، ومنها ماهو خراب قد اندثر بأهله فلم يبق له أثر كالزرع المحصود.**

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ **أي: وما ظلمناهم بإهلاكهم بغير ذنب، ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي فاستحقوا عذاب الله ونقمته.**

﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ **أي: ما نفعتهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله، ولا دفعت عنهم شيئاً من عقاب الله وعذابه وهكذا حال كل من التجأ إلى غير الله، لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد.**

﴿لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ **أي: حين جاء قضاء الله بعذابهم.**

﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ **أي: وما زادتهم تلك الآلهة غير تخسير وتدمير بالضد مما خطر ببالهم.**

*** لما ذكر تعالى بعض قصص المرسلين، وما حل بأممهم من النكال والدمار، ذكر هنا العبرة من سرد هذه القصص، وهي أن تكون شاهداً على تعجيل العقوبة للمكذبين والانتقام**

العاجل منهم، وبرهاناً على تأييد الله ونصرته لأوليائه وأنبيائه، قال تعالى:

﴿١٠٢﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ أي: مثل ذلك الأخذ والإهلاك الذي ذكرت في الآيات السابقة، إن عذابه موجع شديد، وهذا مبالغة في التهديد والوعيد.

* وقد ذكرت الآيات يوم القيامة وانقسام الناس فيه إلى فريقين: سعداء، وأشقياء.

﴿١٠٣﴾-﴿١٠٥﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ * وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ * يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ إن في هذه القصص والأخبار لعظة وعبرة لمن خاف عذاب الله وعقابه في الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يوم القيامة يجتمع فيه الخلائق للحساب والثواب والعقاب، وليظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم ما به يعرفونه حق المعرفة.

﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ أي: يشهده أهل السماء والأرض، والأولون والآخرون، والمسلم والكافر، والبر والفاجر.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾ وما نؤخر إتيان -يوم القيامة- إلا لزمن معين سبق به قضاء الله لا يتقدم ولا يتأخر.

﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ يوم يأتي ذلك اليوم الرهيب ويجتمع الخلق، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله تعالى.

﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ فمن أهل الموقف شقي معذب، ومنهم سعيد مُنعم، فالأشقياء هم الذين كفروا بالله وكذبوا رسله وعصوا أمره، والسعداء هم: المؤمنون المتقون.

* ثم ذكر جزاء الأشقياء في الآخرة، فقال:

﴿١٠٦﴾،﴿١٠٧﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ﴾ أي: فأما الأشقياء الذين سبقت بهم الشقاوة فإنهم مستقرون في نار جهنم، لهم من شدة كربهم ﴿زَفِيرٞ﴾ وهو إخراج النفس بشدة ﴿وَشَهِيقٌ﴾ وهو رد النفس بشدة. وقد شبه صراخهم في جهنم بأصوات الحمير. قال قتادة: صوت الكافر في النار صوت الحمار، أوله زفير وآخره شهيق.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: لابثين ماكثين في جهنم أبداً دائماً دوام السموات والأرض. والمعنى: خالدين فيها أبداً.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ الاستثناء في أهل التوحيد؛ لأن لفظه ﴿شَقُواْ﴾ تعم الكفار والمذنبين، فاستثنى الله من خلود أهل الشقاوة العصاة من المؤمنين، فإنهم يطهرون في نار جهنم ثم يخرجون منها بشفاعة سيد المرسلين ﷺ ويدخلهم الله الجنة، ويقال لهم: ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي: يفعل ما يريد، يرحم ويعذب كما يشاء ويختار، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

* ثم ذكر جزاء وثواب السعداء أهل الجنة في الآخرة، فقال:

﴿١٠٨﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: وأما السعداء الأبرار فإنهم مستقرون في الجنة، لا يخرجون منها أبداً، دائمون فيها دوام السموات والأرض، أو ما دامت سموات الجنة وأرض الجنة حسب مشيئته تعالى، وقد شاء تعالى لهم الخلود والدوام. لم يرد لفظ السعادة في القرآن إلا في هذه الآية، فإن السعادة الأبدية في جنات النعيم.

﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ أي: عطاءً غير مقطوع عنهم، بل هو ممتد إلى غير نهاية.

* لما قص الله تعالى قصص عبدة الأوثان، وذكر ما حل بهم من نقمه، وما أعد لهم من عذابه، سلى رسوله ﷺ بشرح أحوال الكفرة من قومه، قال تعالى:

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ
﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ
﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ
إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ
لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ
ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ
لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ
عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْۗ وَٱتَّبَعَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا
كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

٢٣٤

﴿١٠٩﴾-﴿١١١﴾ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ * وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ أي: لا تكن في شك من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال، بمعنى: لا تشك في فساد دينهم وبطلانه، فليس لهم عليه دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم أنهم:

﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ﴾ أي: هم متبعون لآبائهم تقليداً من غير حجة ولا برهان، وهذه تسلية للرسول ﷺ ووعد له بالانتقام منهم، إذ حالهم حال من سبقهم من الضالين المكذبين، وقد بلغك ما نزل بأسلافهم فسينزل بهم مثله.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ وسنعطيهم جزاءهم من العذاب كاملاً غير منقوص. قال ابن عباس: ما قدر لهم من الخير والشر.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ﴾ يقول تعالى مسلياً نبيه في تكذيب مشركي قومه له: لا يحزنك -يا محمد- تكذيب هؤلاء، فلقد آتينا موسى التوراة كما آتيناك الفرقان، فاختلف في ذلك الكتاب، فكذب به بعضهم، وصدق به بعضهم، كما فعل قومك.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ﴾ ولولا حكم الله السابق بتأخير الحساب والجزاء إلى يوم القيامة لقضي بينهم في الدنيا فجوزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولكن سبق القدر بتأخير الجزاء إلى يوم الحساب.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ وإن كفار قومك لفي شك من هذا القرآن مريب لهم، إذ لا يدرون أحق هو أم باطل؟

وإذا كانت هذه حالهم مع كتابهم فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغرب من طائفة اليهود أن لا يؤمنوا به، وأن يكونوا في شك منه مريب.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ﴾ أي: وإن كلا من المؤمنين والكافرين لما ينالوا جزاء أعمالهم وسيوفيهم ربك جزاءها في الآخرة بحكمه العدل فيجازي كلاً بما يستحقه.

﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بأعمالهم جميعاً، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم دقيقها وجليلها وسيجازيهم عليها.

* ثم لما أخبر تعالى بعدم استقامتهم التي أوجبت اختلافهم وافتراقهم، أمر نبيه محمداً ﷺ، ومن تبعه من المؤمنين أن يستقيموا كما أمروا، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، قال تعالى:

﴿١١٢﴾، ﴿١١٣﴾ ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: استقم -يا محمد- على أمر الله واثبت وداوم على الاستقامة كما أمرك ربك.

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ﴾ أي: ومن تاب من الشرك والكفر وآمن معك، ولا تجاوزوا حدود الله بارتكاب المحارم.

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إنه تعالى مطلع على أعمالكم ويجازي عليها.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ ولا تميلوا إلى

الظلمة من الفسقة والفجرة، فإن وافقتموهم على ظلمهم، أو رضيتم ما هم عليه من الظلم، فتمسكم نار جهنم إن فعلتم ذلك. والركون هو الميل اليسير، أي لا تميلوا إليهم أدنى ميل فتمسكم النار بركونكم إليهم، وإذا كان الركون اليسير إلى من وجد منه ما يسمى ظلماً كذلك، فما ظنك بالركون للظالمين الموسومين بالظلم، والميل إليهم كل الميل.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: ليس لكم من يمنعكم من عذابه ثم لا تجدون من ينصركم من ذلك البلاء.

والآية دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي وعدم الركون إلى كل ظالم، والمراد بالركون الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقته على ذلك، والرضا بما هو عليه من الظلم، وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة، فكيف حال الظلمة بأنفسهم.

* ثم أمر ﷻ عباده المؤمنين بإقامة الصلاة، والصبر، فإن الجزاء لا يضيع، قال تعالى:

﴿١١٤﴾، ﴿١١٥﴾ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ * وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: أقم الصلاة المكتوبة على تمامها وكمالها أول النهار وآخره، والمراد صلاة الصبح والعصر لأنهما طرفا النهار.

﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: ساعات منه قريبة من النهار، والمراد بهما المغرب والعشاء ويتناول ذلك قيام الليل، فإنها مما تزلف العبد وتقرب به إلى الله تعالى، عن ابن مسعود أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها من دون أن أمسها، وأنا هذا فاقض فيَّ ما شئت! فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على نفسك، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً، فانطلق الرجل، ونزلت هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فأتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه فتلاها عليه.

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: إن الأعمال الصالحة ومنها الصلوات الخمس تكفر الذنوب الصغائر، لحديث: «الصلوات الخمس كفارة لما بينها ما اجتنبت الكبائر» [رواه أحمد]، قال المفسرون: المراد بالحسنات الصلوات الخمس واستدلوا على ذلك بسبب النزول، وهذا قول الجمهور، والأظهر أن المراد بها العموم، وهو اختيار ابن كثير، حيث قال: المعنى إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث: «ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له» [رواه أحمد].

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال ابن عاشور: وإذهاب السيئات إذهاب وقوعها بأن انسياق النفس إلى ترك السيئات سهلاً وهيناً.

﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ ذلك المذكور من الاستقامة والمحافظة على الصلاة، عظة للمتعظين وإرشاد للمسترشدين.

﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: احبس نفسك - يا محمد - على طاعة الله، وما تلقى من المكاره ومن أذى المشركين، فإن الله معك وهو لا يضيع ثواب المحسنين ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، وفي هذا ترغيب عظيم للزوم الصبر، بتشويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله كلما دنت وفترت.

* لما ذكر تعالى إهلاك الأمم المكذبة للرسل، ذكر تعالى أنه جعل في القرون الماضية بقايا من أهل الخير يدعون إلى الهدى، فقال:

﴿١١٦﴾، ﴿١١٧﴾ ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فهلا كان من الأمم الماضية قبلكم أولو عقل وفضل، وجماعة أخيار ينهون الأشرار عن الإفساد في الأرض.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن قليلاً منهم، نهوا عن الفساد وحصل من نفعهم ما بقيت به الأديان ولكنهم قليلون جداً نجاهم الله، والغرض التأسف على تلك الأمم التي لم تهتد كقوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكره.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ
﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ
عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ
ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ
﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ
فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا
عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ
ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ
أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

٢٣٥

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ واتبع أولئك الظلمة شهواتهم، وما نعموا به من الاشتغال بالمال واللذات، وآثروها على الآخرة ولم يبغوا بالدنيا بدلاً.

﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي: وكانوا قوماً مصرين على الإجرام فلذلك حق عليهم العذاب.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي: ما جرت عادة الله تعالى أن يهلك القرى ظلماً وأهلها مصلحون في أعمالهم، مستمرون عليها، لأنه تعالى منزه عن الظلم، وإنما يهلكهم بكفرهم ومعاصيهم.

﴿١١٨﴾، ﴿١١٩﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: لو شاء الله لجعل الناس كلهم مؤمنين مهتدين على ملة الإسلام، ولكنه لم يفعل ذلك للحكمة.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ ولا يزالون مختلفين على أديان شتى، وملل متعددة ما بين يهودي، ونصراني، ومجوسي، إلا ناساً هداهم الله من فضله، وهم أهل الحق، وأما من عداهم فهم مخذولون موكولون إلى أنفسهم، وقوله:

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: خلقهم لتكون العاقبة؛ اختلافهم ما بين شقي وسعيد، ومختلفون ومتفقون، ليتبين للعباد عدله وحكمته، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء، وقيل: المعنى؛ وللاختلاف بالشقاء والسعادة خلقهم، فريق في الجنة، وفريق في السعير.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: تم أمر الله ونفذ قضاؤه وحكمه بأن يملأ جهنم من الجن والإنس من الكفرة الفجرة جميعاً، يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

*** وجاء في ختام السورة الكريمة بيان الحكمة من ذكر قصص المرسلين، وذلك للاعتبار بما حدث للمكذبين في العصور السالفة، ولتثبيت قلب النبي ﷺ أمام تلك الشدائد والأهوال وهكذا تختم السورة بالتوحيد كما بدأت به ليتناسق البدء مع الختام، فقال:**

﴿١٢٠﴾ ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: كل هذه الأخبار التي قصصناها عليك يا محمد من أخبار الرسل السابقين، لتعلم ما لقيت الرسل قبلك من أممهم، وإنما هي بقصد تثبيتك على أداء الرسالة، وتطمين قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة فتصبر كما صبروا.

﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي: جاءك في هذه الأنباء التي قصها الله عليك النبأ اليقيني الصادق الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه.

﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وجاءك في هذه الأخبار أيضاً ما فيه عظة وعبرة للمعتبرين، وخص المؤمنين بالذكر لانتفاعهم بمواعظ القرآن، ولهذا قال:

﴿١٢١﴾، ﴿١٢٢﴾ ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ * وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ﴾ أي: اعملوا على طريقتكم ومنهجكم إنا عاملون على طريقتنا ومنهجنا، وهو أمر ومعناه التهديد والوعيد.

﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ تهديد آخر، أي: انظروا ما يحل بكم من عذاب الله؛ وقد فصل الله بين الفريقين، وأرى عباده نصره لعباده المؤمنين، وقمعه لأعداء الله المكذبين.

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالصبر على الأذى، والتوكل على الحي القيوم.

(١٢٣) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: علم ما غاب وخفي فيهما، كل ذلك بيده وبعلمه.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ وإليه يرد أمر كل شيء، من الأعمال والعمال فينتقم ممن عصى، ويثيب من أطاع، وفيه تسلية للنبي ﷺ، وتهديد للكفار بالانتقام منهم.

﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي: قم لعبادة ربك وحده، وفوض إليه أمرك، ولا تعتمد على أحد سواه، فإنه كافي من توكل عليه.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ويجازي كلًّا بعمله.

تم تفسير سورة هود
والحمد لله

تفسير سورة يوسف
وهي مكية

* سورة يوسف إحدى السور المكية التي تناولت قصص الأنبياء، وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله يوسف بن يعقوب عليهما السلام وما لاقاه من أنواع البلاء، ومن ضروب المحن والشدائد، من إخوته ومن الآخرين، في بيت عزيز مصر، وفي السجن، وفي تآمر النسوة، حتى نجاه الله من ذلك الضيق، والمقصود بها تسلية النبي ﷺ بما مر عليه من الكرب والشدة، وما لاقاه من أذى القريب والبعيد. وفيها آيات وعبر منوعة لكل من يسأل ويريد الهدى والرشاد، لما فيها من التنقلات من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن منة إلى منة، ومن ذلة ورق إلى عزّ ومُلك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وإدراك غايات، ومن حزن وترح إلى سرور وفرح، ومن رخاء إلى جدب، ومن جدب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه هذه القصة العظيمة فتبارك من قصها ووضحها وبينها.

والسورة الكريمة أسلوب فذ فريد، في ألفاظها، وتعبيرها، وأدائها، وفي قصصها الممتع اللطيف، تسري مع النفس سريان الدم في العروق، وتجري -برقتها وسلاستها- في القلب جريان الروح في الجسد، فهي وإن كانت من السور المكية، التي تحمل -في الغالب- طابع الإنذار والتهديد، إلا أنه اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طرية ندية، وفي أسلوب ممتع لطيف، سلس رقيق، يحمل جو الأنس والرحمة، والرأفة والحنان، ولهذا قال خالد بن معدان: سورة يوسف ومريم مما يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة، وقال عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها. وفي السورة تجلت مراتب الصبر التي نالها يوسف عليه السلام. فصبر الصبر الاضطراري: وهو صبره على أذية أخوته، وما ترتب عليها من بعده عن أبويه، وصبره في السجن بضع سنين، والصبر الاختياري: صبره عن مراودته سيدته امرأة العزيز إياها عن نفسه مع وجود الدواعي القوية من جمالها، وعلو منصبها، وكونها هي التي راودته عن نفسه، وغلقت الأبواب، وهو في ريعان الشباب، وهو في بلد غريب لا يُعرف فيها. وكما أنه كمل مراتب الصبر، فقد كمل مراتب العدل والإحسان للرعية حين تولى خزائن البلاد المصرية، وكل مراتب العفو والكرم حين عفى عن أخوته.

نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد سورة هود، في تلك المدة الحرجة العصيبة من حياة الرسول الأعظم ﷺ، حيث توالت الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين، وبالأخص بعد أن فقد عليه السلام نصيرته: زوجه الحنون العاقلة الراشدة أم المؤمنين خديجة، وعمه أبا طالب الذي كان له خير نصير، وخير معين، وبوفاتهما اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، حتى عرف ذلك العام بـعام الحزن.

في تلك الحقبة العصيبة من حياة الرسول الكريم، وفي ذلك الوقت الذي كان يعاني فيه الرسول والمؤمنون، الوحشة، والغربة، والانقطاع في جاهلية قريش، كان الله سبحانه ينزل على نبيه الكريم هذه السورة تسلية له، وتخفيفاً لآلامه، بذكر قصص المرسلين، وكأن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: لا تحزن يا محمد ولا تتفجع لتكذيب قومك، وإيذائهم لك، فإن بعد الشدة فرجاً، وإن بعد الضيق مخرجاً، انظر إلى أخيك يوسف وتمعن ما حدث له من صنوف البلايا والمحن، وألوان الشدائد والنكبات، وما ناله من ضروب المحن: محنة حسد إخوته وكيدهم له، ومحنة رميه في الجب، ومحنة تعلق امرأة العزيز به وعشقها له، ثم مراودته عن نفسه بشتى طرق الفتنة والإغراء، ثم محنة السجن بعد ذلك العز ورغد العيش؛ انظر إليه كيف أنه لما صبر على الأذى في سبيل العقيدة، وصبر على الضر والبلاء، نقله الله من السجن إلى القصر، وجعله عزيزاً في أرض مصر، وملكه الله خزائنها، فكان السيد المطاع، والعزيز المكرم؛ وهكذا أفعل بأوليائي، ومن صبر على بلائي، فلا بد أن توطد النفس على تحمل البلاء، اقتداءً بمن سبقك من المرسلين.

هكذا جاءت قصة يوسف الصديق تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه، وجاءت تحمل البشر والأنس، والراحة والطمأنينة لمن سار على درب الأنبياء، فلا بد من الفرج بعد الضيق، ومن اليسر بعد العسر، وفي السورة دروس وعبر، وعظات بالغات، حافلات بروائع الأخبار العجيبة، والأنباء الغريبة.

هذا هو جو السورة، وهذه إيحاءاتها ورموزها؛ تبشر بقرب النصر، لمن تمسك بالصبر، وسار على طريق الأنبياء والمرسلين، والدعاة المخلصين، فهي سلوى للقلب، وبلسم للجروح، وقد جرت عادة القرآن الكريم بتكرير القصة في مواطن عديدة، بقصد العظة والاعتبار ولكن بإيجاز دون توسع، لاستكمال جميع حلقات القصة، وللتشويق إلى سماع الأخبار دون سآمة أو ملل، وأما سورة يوسف فقد ذكرت حلقاتها هنا متتابعة بإسهاب وإطناب، ولم تكرر في مكان آخر كسائر قصص الرسل، لتشير إلى إعجاز القرآن في المجمل والمفصل، وفي حالتي الإيجاز والإطناب، فسبحان الملك العلي الوهاب.

قال القرطبي: ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن، وكررها بمعنى واحد، في وجوه مختلفة، وبألفاظ متباينة، على درجات البلاغة والبيان، وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر، ولا على معارضة غير المكرر، والإعجاز واضح لمن تأمل، وصدق الله ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]. قال تعالى:

①-③ ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

﴿الٓر﴾ إشارة إلى الإعجاز، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب المعجز.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك - يا محمد - هي آيات الكتاب المعجز في بيانه، الساطع في حججه وبراهينه، الواضح في معانيه، الذي لا تشتبه حقائقه، ولا تلتبس دقائقه، مبين والله بركته وهداه ورشده.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: أنزلناه بلغة العرب كتاباً عربيّاً مؤلفاً من هذه الحروف العربية؛ لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها، وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل الله أشرف الكتب بأشرف اللغات، وعلى أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتداء إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو رمضان فكمل من كل الوجوه.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: أنزلناه بلغتكم لكي تعلموا معانيه وتفهموا ما فيه، ولكي تعقلوا وتدركوا أن هذا الكتاب المعجز ليس من البشر، وهو وحي منزل من إله قدير، هو رب العالمين.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ أي: نحن نحدثك -يا محمد- ونروي لك أخبار الأمم السابقة، بأصدق كلام، وأحسن بيان وأجمل عبارة، وقيل المراد منه قصة يوسف عليه السلام خاصة، سمّاها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا، من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء، والصبر على أذى الأعداء، وحسن التجاوز عنهم بعد الالتقاء، وغير ذلك من الفوائد. وقيل: لأنه ليس في القرآن قصة تتضمن من العبر والحكم والنكت ما تتضمن هذه القصة. وقيل: لامتداد الأوقات بين مبتداها ومنتهاها. وقيل: لحسن محاورة يوسف وإخوته، وصبره على أذاهم، وإغضائه عن ذكر ما تعاطوه عند اللقاء، وكرمه في العفو. وقيل: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة، والشياطين والإنس والجن، والأنعام والطير، وسير الملوك والمماليك، والتجار والعلماء والجهال، والرجال والنساء ومكرهن وحيلهن، وفيها أيضاً ذكر التوحيد والفقه والسير، وتعبير الرؤيا والسياسة، والمعاشرة وتدبير المعاش، فصارت أحسن القصص لما فيها من المعاني والفوائد التي تصلح للدين والدنيا. وقيل: فيها ذكر الحبيب والمحبوب.

وقيل: في سورة يوسف أحسن القصص لاشتمالها على حاسد ومحسود، وعاشق ومعشوق، ومالك ومملوك، وشاهد ومشهود، وحابس ومحبوس، وخصب وجدب، وحزن وفرح، وغنى وفقر، ومنام ويقظة.

قال ابن تيمية: في قصة يوسف أنواع من العبرة للمظلوم، والمحسود، والمبتلى بدواعي الفواحش والذنوب.

وقيل: ﴿أَحۡسَنَ﴾ بمعنى أعجب.

﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: بإيحائنا إليك هذا القرآن المعجز وما اشتمل عليه، وبها فضلناك به على سائر الأنبياء، وذاك محضُ منّة من الله وإحسان.

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ أي: وإن الحال والشأن أنك كنت من قبل أن نوحي إليك هذا القرآن لمن الغافلين عن هذه القصة، لم تخطر ببالك، ولم تقرع سمعك، لأنك أمي لا تقرأ ولا تكتب، ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص، وأنها أحسن القصص على الإطلاق، فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب، مثل هذا القرآن، ذكر قصة يوسف، وأبيه وإخوته، القصة العجيبة الحسنة.

* ابتدأ ﷺ في ذكر قصة يوسف عليه السلام، فقال:

﴿٤﴾ ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾ أي: اذكر حين قال يوسف لأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم: يا أبي إني رأيت في المنام هذه الرؤيا العجيبة، رأيت أحد عشر نجماً من نجوم السماء خرت ساجدة لي.

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ أي: ورأيت في المنام الشمس والقمر ساجدة لي مع الكواكب، وإنما أخرهما عن الكواكب لإظهار مزيتهما وشرفهما. قال ابن عباس: كانت الرؤيا فيها وحياً. قال المفسرون: الكواكب الأحد عشر كانت إخوته، والشمس والقمر أبواه، وكان سنه إذ ذاك اثنتي عشرة سنة، وبين هذه الرؤيا واجتماعه بأبيه وإخوته في مصر أربعون سنة، وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق، لطفاً بعبده، وإحساناً إليه.

* أول الرؤيا يعقوب عليه السلام، بأن الشمس أمه، والقمر أبوه، والكواكب إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكراماً وإعظاماً، وإن الله سيبلغه مبلغاً من الحكمة، ويصطفيه للنبوة، وينعم عليه بشرف الدارين، فخاف عليه من حسد إخوته فنهاه أن يقص رؤياه عليهم.

﴿٥﴾ ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ أي: قال له يعقوب: لا تخبر بهذه الرؤيا إخوتك، فيحتالوا لإهلاكك حيلة

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ
إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ
رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ
وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ
وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ
وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ
إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨
ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ
وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ
لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ
ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ
يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ
وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ
أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣ قَالُواْ لَئِنۡ
أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤

٢٣٦

عظيمة لا تقدر على ردها حسداً من عند أنفسهم، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ أي: ظاهر العداوة، لا يفتر عنه ليلاً ولا نهاراً، ولا سرّاً ولا جهاراً، فيحملهم على الحسد والكيد.

﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾.

قال المفسرون: فيه مشروعية إخفاء النعم الدينية أو الدنيوية عن من لا يؤمن حسده أو شره ولو كان قريباً.

﴿٦﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: وكما أراك مثل هذه الرؤيا العظيمة من سجود الكواكب والشمس والقمر؛ كذلك يختارك ربك للنبوة، ويختارك بما يمنُّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ أي: يعلمك تفسير وتأويل الرؤيا، وبيان ما تؤول إليه الأحاديث الصادقة. وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا.

﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ ويتمم فضله وإنعامه عليك وعلى ذرية أبيك يعقوب في الدنيا والآخرة.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ أي: كما أكمل النعمة من قبل على جدك إبراهيم، وجدك إسحاق بالرسالة والاصطفاء، وبنعم عظيمة واسعة، دينية، ودنيوية.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أي: عليم بمن هو أهل للفضل، محيط بالأشياء، حكيم في تدبيره لخلقه يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

* يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، وعبر ومواعظ، فإنه خبر عجيب يستحق أن يُخبر عنه، قال تعالى:

﴿٧﴾-﴿١٠﴾ ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ۞ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۞ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۞ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾.

﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: لقد كان في خبر يوسف وإخوته الأحد عشر عبر وعظات للسائلين عن أخبارهم، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر؛ لحرصهم ورغبتهم في المعرفة.

﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ هذه هي المحنة الأولى ليوسف عليه السلام، أي: حين قال إخوة يوسف فيما بينهم: والله ليوسف وأخوه الشقيق بنيامين أحب منا عند أبينا، أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه، وإنما قالوا: ﴿وَأَخُوهُ﴾ وهم جميعاً إخوة لأن أمهما كانت واحدة.

﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ أي: والحال نحن جماعة ذوو عدد، نقدر على النفع والضر، بخلاف الصغيرين.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي: إنه في خطأ وخروج عن الصواب بين واضح، لإيثاره يوسف وأخاه علينا بالمحبة، حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده، والمراد منه الخطأ في تدبير أمر الدنيا، يقولون نحن أنفع في أمر الدنيا، وإصلاح أمر معاشه ورعي مواشيه من يوسف، فنحن أولى منه فهو مخطئ في صرف محبته إليه. قال القرطبي: لم يريدوا

ضلال الدين إذ لو أرادوه لكفروا، وإنما أرادوا أنه في خطأ بين في إيثار اثنين على عشرة. والمتعين على الأب أن يعدل بين أولاده، وينبغي له إذا كان يحب أحدهم أكثر من غيره أن يخفي ذلك ما أمكنه وأن لا يفضله بما يقتضيه الحب من إيثار بشيء من الأشياء، فإنه أقرب إلى صلاح الأولاد وبرهم، واتفاقهم فيما بينهم. ثم تشاور أخوة يوسف فيم يصنعون وماذا يفعلون به، فقالوا:

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: اقتلوا يوسف أو ألقوه في أرض بعيدة مجهولة لا يتمكن من رؤيته فيها، فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين:

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي: يخلص ويصفو لكم حب أبيكم، فيقبل عليكم، لأن يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه، فإذا فقده أقبل علينا بالمحبة والميل.

﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أي: وتتوبوا من بعد هذا الذنب والصنيع، وتصبحوا قوماً صالحين، فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلاً لفعله، وإزالة لشناعته، وتنشيطاً من بعضهم لبعض.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ أي: قال لهم أخوهم يهوذا، وهو أكبر ولد يعقوب: لا تقتلوا يوسف فإن قتله أعظم إثماً وأشنع، بل ألقوه في أسفل الجب وظلمته. وقال بعض أهل العلم: إنهم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة لهم، ولو فعلوا لهلكوا أجمعون. والجب: البئر غير المطوية.

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي: يأخذه بعض المارة من المسافرين، فيذهب به إلى ناحية أخرى فتستريحوا منه.

﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: إن كان لا بد من الخلاص منه فاكتفوا بذلك، وكان رأيه فيه أهون شرّاً من رأي غيره، وقد اشتمل فعلهم على جرائم: من قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، والغدر بالأمانة، وترك العهد، والكذب مع أبيهم، وعفا الله عنهم ذلك كله حتى لا ييأس أحد من رحمة الله.

* فلما اتفق أخوة يوسف على أن يلقوه في غيابات الجبّ، بدأوا في تنفيذه وتحقيقه:

﴿١١﴾، ﴿١٢﴾ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ أي: قال إخوة يوسف متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم يعقوب ﷺ، أيُّ شيء حدث لك حتى لا تأمنا على أخينا يوسف، وتخاف منا عليه، من غير سبب ولا موجب، ونحن جميعاً أبناؤك؟

﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ أي: ونحن نشفق عليه ونريد له الخير، ونحفظه حتى نرده إليك. قال المفسرون: لما أحكموا العزم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم أنهم في غاية المحبة ليوسف، وفي غاية الشفقة عليه، ليستنزلوه عن رأيه في تخوفه منهم، وكأنهم قالوا: لِمَ تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به، وهذا يدل على أن يعقوب ﷺ لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها، ولما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم، ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له، ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا:

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ أي: أرسله معنا غداً إلى البادية، يتنزه ويستأنس، يتسع في أكل ما لذ وطاب، ويلهو ويلعب بالاستباق وغيره.

﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي: ونحن نحفظه من كل سوء ومكروه، أكدوا كلامهم بإن واللام وهم كاذبون.

* فلما قالوا ما قالوا، ولان لهم أجابهم أبوهم يعقوب ﷺ بقوله:

﴿١٣﴾، ﴿١٤﴾ ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي: قال لهم يعقوب: إنه ليؤلمني فراقه، ويشق عليّ لقلة صبري عنه، فإنني لا أقدر على فراقه، ولو مدة يسيرة، فهذا مانع من إرساله.

﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ أي: وثم مانع آخر، وهو أنني أخاف أن يفترسه

فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ
إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ
أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ
وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ
بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ
بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ
وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ
فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ
بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ
دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ
أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ
ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

٢٣٧

الذئب في حال غفلتكم عنه، لأنه صغير لا يمتنع من الذئب وكأنه لقنهم الحجة، وقد اعتذر يعقوب عليه السلام إليهم بشيئين: أحدهما: أن ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة، والثاني: خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم، وقد أجابوه عن عذره الثاني دون الأول لأن ذلك كان يغيظهم.

﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ اللام للقسم، أي: والله لئن أكله الذئب ونحن جماعة أقوياء أشداء إنا لمستحقون أن يدعى علينا بالخسار والدمار، ولا خير فينا ولا نفع.

* فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، وعدم المانع، سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه، قال تعالى:

(١٥) ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ فلما أخذوه من عند يعقوب وابتعدوا به عنه.

﴿وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وعزموا واتفقوا على إلقائه في غور الجب، وكان من لطف الله ﷻ به ورحمته له وإنزاله اليسر في حال العسر:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أوحينا إلى يوسف وهو في تلك الحال الحرجة، لتخبرن إخوتك بفعلهم هذا الذي فعلوه بك وهم لا يشعرون في ذلك الوقت، ففيه بشارة له، بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين في الأرض، وفائدة هذا الوحي تأنيسه، في صغر سن ووحشة جب وفراق أهل، وتسكين نفسه، وإزالة الغم والوحشة عن قلبه، بأن سيحصل له الخلاص من هذه المحنة.

* ولما فعلوا ما فعلوا بيوسف وألقوه في الجب، ما رحموا صغر سنه، ووحشته في ظلام الجب وفراق الأهل، عادوا إلى أبيهم.

(١٦)-(١٨) ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ * قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ * وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ أي: رجعوا إلى أبيهم في ظلمة العشاء ليلاً وهم يبكون، ليكون إتيانهم متأخراً عن عادتهم للاستتار والتجسر على الاعتذار وأجرأ على الاعتذار بالكذب، وإخفاء لتعابير وجوههم حين الكذب، وبكاؤهم دليلاً لهم، وقرينة على صدقهم، روي أنه لما سمع يعقوب بكاءهم فزع، وقال: ما لكم يا بني، هل أصابكم في غنمكم شيء، قالوا: لا، قال: فما أصابكم، وأين يوسف؟ فكان العذر منهم.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نتسابق في العدو، أو في الرمي.

﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وتركنا يوسف عند ثيابنا وحوائجنا ليحفظها وراحة له من المشقة، فجاء الذئب فافترسه في حال غيبتنا عنه في استباقنا.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ أي: لست بمصدق لنا في هذه المقالة ولو كنا في الواقع صادقين، فكيف وأنت تتهمنا وغير واثق بقولنا؟

وكل هذا تأكيد لعذرهم، ومما أكدوا به قولهم ما فعلوه:

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: جاؤوا على ثوب يوسف بدم كاذب، زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب «كاذب»، وصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه. قال ابن عباس: ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص، فلما جاؤوا يعقوب قال: كذبتم لو أكله الذئب لخرق القميص، وروي أنه قال: ما أحلم هذا الذئب أكل ابني ولم يشق قميصه. وذلك أنهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقوه فلم يصدقهم أبوهم بذلك. قيل: كان في قميص يوسف ثلاث آيات: كان دليلاً ليعقوب على كذبهم، وإلقاءه على وجهه فارتد بصيراً، ودليلاً على براءة يوسف حين قُدَّ من دبره.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي: بل زينت لكم أنفسكم أمراً في يوسف، وليس كما زعمتم أن الذئب أكله؛ لأنه رأى من القرائن والأحوال، ومن رؤيا يوسف التي قصها عليه، ما دل على ما قال.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فأمري صبر جميل، لاشكوى فيه ولا جزع، سالماً من السخط والتشكي إلى الخلق.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ وهو سبحانه عوني على الصبر وعلى تحمل ما تصفون من الكذب.

* أما يوسف عليه السلام فبعد أن ألقاه إخوته في الجب مكث ما مكث، ثم ساق الله ﷻ حكاية خلاص يوسف وما كان بعد ذلك من خبره، فقال تعالى:

﴿١٩﴾، ﴿٢٠﴾ ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: قوم مسافرون مروا بذلك الطريق وكانت رفقة من مدين يريدون مصر، فأخطؤوا الطريق فانطلقوا يهيمون حتى هبطوا على الأرض التي فيها جب يوسف، وكان الجب في قفرة بعيد عن العمران فلما نزلوا بتلك الأرض.

﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ أي: بعثوا من يستقي لهم الماء. والوارد هو الذي يتقدم الرفقة إلى الماء فيهيِّء الأرشية والدلاء.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي: أرسل دلوه في البئر ليملأها، قال المفسرون: لما أدلى الوارد دلوه، وكان يوسف في ناحية من قعر البئر تعلق بالحبل فخرج فلما رأى حسنه وجماله، نادى:

﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ قاله على سبيل السرور والفرح لتبشير نفسه وجماعته، وقال: هذا غلام نفيس.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أي: أخفوا أمره عن الناس ليبيعوه في أرض مصر متاعاً كالبضاعة، والضمير يعود على الوارد وجماعته.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يخفى عليه سبحانه إسرارهم، وما عزموا عليه في أمر يوسف.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ هذه هي المحنة الثانية في حياة يوسف الصديق وهي محنة الاسترقاق، أي: باعه أولئك المارة الذين استخرجوه من البئر بثمن قليل منقوص يعد عداً لقلته، هو عشرون درهماً.

﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي: وكانوا في يوسف من الزاهدين، الذين لا يرغبون فيه؛ لأنهم التقطوه وخافوا أن يكون عبداً آبقاً فينتزعه سيده من أيديهم، ولذلك باعوه بأبخس الأثمان.

* ولما ذهبت به السيارة إلى مصر وباعوه بها، كانت ألطاف الله ﷻ بيوسف أن اشتراه صاحب أمر الملك، وكان على خزائن مصر يسمى العزيز، عزيز مصر:

﴿٢١﴾، ﴿٢٢﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أي: وقال الذي اشتراه من مدينة مصر لزوجته، وهو قطفير، وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر. أكرمي إقامته عندنا في المطعم والملبس والمقام لأنه أعجب به.

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ
وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ
إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا
لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ
وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا
ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ
قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ
أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ
أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ
ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ
مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ
هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ
﴿٢٩﴾ ۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا
عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ عسى أن يكفينا بعض المهمات إذا بلغ، أو نبيعه بالربح إذا أردنا البيع، أو نتبناه حيث لم يكن يولد لهما ولد.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: وكما نجيناه من الجب، جعلناه متمكناً في أرض مصر يعيش فيها بعز وأمان حيث إن الذي اشتراه هو عزيز مصر.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ أي: نوفقه لتعبير بعض المنامات إذ بقي لا شغل له ولا هم سوى العلم، صار ذلك من أسباب تعلمه علماً كثيراً، من علم الأحكام، وعلم التعبير، وغير ذلك.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ أي: أمره نافذ، لا يُبطله مبطل، ولا يعجزه تعالى شيء.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون لطائف صنعه، وخفايا فضله.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي: وبلغ يوسف منتهى شدته وقوته، وهو ثلاثون سنة، وصلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة من النبوة والرسالة.

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: أعطيناه حكمة وفقهاً في الدين، ومثل ذلك الجزاء العجيب نجزي المحسنين في أعمالهم، ودل هذا، على أن يوسف وفّى مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس، والعلم الكثير والنبوة.

* لما ذكر تعالى ما أكرم به يوسف من الإقامة في القصر مع عزيز مصر، ذكر هنا ما تعرض له عليه السلام من أنواع الفتنة والإغراء من زوجة العزيز، وثباته أمام تلك الفتنة العارمة، وما ظهر منه من العفة والنزاهة حتى آثر دخول السجن على عمل الفاحشة، وكفى بذلك برهاناً على عفته وطهارته. قال تعالى:

﴿٢٣﴾ ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ هذه هي المحنة الثالثة، بعد محنة الجب والاسترقاق وهي أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً، لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة. والمراودة الطلب برفق ولين، كما يفعل المخادع بكلامه المعسول، والمعنى: طلبت امرأة العزيز التي كان في بيتها منه أن يواقعها، ودعته برفق ولين إلى فعل الفاحشة، وتوسلت إليه بكل وسيلة فهو غلامها وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر، ولم يقل في الآية: امرأة العزيز، وزليخا؛ قصداً إلى زيادة التقرير مع استهجان التصريح باسم المرأة والمحافظة على الستر عليها.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ أي: غلقت أبواب البيوت عليها وعلى يوسف وأحكمت أغلاقها وصار المحل خالياً، وهما آمنان من دخول أحد عليهما، كانت سبعة أبواب غلقتها ثم دعته إلى نفسها.

﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ أي: هلم وأسرع إلى الفراش وافعل الأمر المكروه فليس ثمة ما يخشى، ومع هذا فهو غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ماهنالك، وهو شاب أعزب، وقد توعدته، إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو

العذاب الأليم، فصبر عن معصية الله، مع وجود الداعي القوي فيه، وتهيأ الأسباب، لكنه قدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء. وعند ذلك:

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: عياذاً بالله من فعل السوء، وهذه إشارة إلى أنه منكر هائل، يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه، لما أراه الله من البرهان النير على ما فيه من غاية القبح ونهاية السوء.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ أي: إن زوجك هو سيدي العزيز الذي أكرمني وأحسن تعهدي، فكيف أسيء إليه بالخيانة في أهله وأجيبك إلى ما تريدين من ذلك؟

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا يظفر الظالمون بمطالبهم، ومنهم الخائنون المجازون الإحسان بالسوء، وهذا تعليل آخر للامتناع منه عن إجابتها.

* ثم أخبر تعالى أن امرأة العزيز حاولت إيقاعه في شراكها، وتوسلت إليه بكل وسائل الإغراء، ولولا أن الله -جل وعلا- حفظه من كيدها لهلك، قال سبحانه:

﴿٢٤﴾ ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾.

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾ أي: همت بمخالطته عن عزم وقصد وتصميم، عزماً جازماً على الفاحشة لا يصرفها عنها صارف، وقصد إجباره على مطاوعتها بالقوة، بعد أن استحكمت من تغليق الأبواب، ودعوته إلى الإسراع، مما اضطره إلى الهرب إلى الباب.

﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: مالت نفسه إليها ميل الطباع مع الامتناع، وحدثته نفسه بالنزول عند رغبتها حديث نفس، دون عزم وقصد، فبين الهمين فرق كبير، والهم خطور الشيء بالبال أو ميل الطبع، كالصائم في الصيف يرى الماء البارد فتمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه، ولكن يمنعه دينه عنه، ولو كان همه كهمها لما مدحه الله تعالى بأنه من عباده المخلصين.

﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ جوابه محذوف، أي: لولا حفظ الله ورعايته ليوسف، وعصمته له لخالطها وأمضى ما حدثته نفسه به، ولكن الله عصمه بالحفظ والتأييد فلم يحصل منه شيء ألبتة، وقد نسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفساق، ويوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ ألبتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان، قال شيخ الإسلام: و«المقصود» أن يوسف لم يفعل ذنباً ذكره الله عنه، وهو سبحانه لا يذكر عن أحد من الأنبياء ذنباً إلا ذكر استغفاره منه، ولم يذكر عن يوسف استغفاراً من هذه الكلمة، كما لم يذكر عنه استغفاراً من مقدمات الفاحشة؛ فعلم أنه لم يفعل ذنباً في هذا ولاهذا؛ بل هم هماً تركه لله؛ فأثيب عليه حسنة.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: ثبتناه على العفة أمام دوافع الفتنة والإغراء لنصرف عنه المنكر والفجور، وهذه آية بينة، وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية، ولو كان كما زعموا لقال: «لنصرفه عن السوء والفحشاء» فلما قال: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ﴾ دل على أن ذلك شيء خارج عن الإرادة فصرفه الله عنه، بما منحه من موجبات العفة والعصمة. وفي الآية دلالة على أن الإخلاص لله تعالى أكبر الأسباب لحصول كل خير، واندفاع كل شر.

﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ أي: لنصرف عنه الزنى الذي تناهى قبحه.

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بفتح اللام؛ أي: الذين أخلصهم الله لطاعته، واصطفاهم واختارهم لوحيه ورسالته، فلا يستطيع أن يغويهم الشيطان.

* ثم أخبر تعالى عن حالها حين خرجا يستبقان إلى الباب: يوسف هارب والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، وبما حصل من المفاجأة العجيبة، حيث إن يوسف عليه السلام قام مبادراً إلى باب البيت هارباً وتبعته المرأة لتمسك بالباب حتى لا يخرج، فكان قدوم زوجها وهما يتسابقان نحو الباب، يوسف هارب منها وهي تلحق به.

﴿٢٥﴾-﴿٢٩﴾ ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ❁ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ❁ وَإِن كَانَ

قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۞ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ أي: تسابقا نحو باب القصر، هو للهرب، وهي للطلب. وفيه دلالة على أنه ينبغي للعبد أن يُبعد عن أسباب الفتن، ويهرب منها عند وقوعها.

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ أي: شقت ثوبه من خلف لأنها كانت تلحقه فجذبته فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي: وجدا العزيز عند باب القصر فجأة، وقد حضر في غير أوان حضوره، فرأى أمراً شق عليه، فبادرت إلى الكذب، لتبرئة ساحتها عند زوجها، وسترها، وأن المراودة قد كانت من يوسف، وعني بالسيد: الزوج، لأن القبط يسمون الزوج سيداً، وإنما لم يقل: سيدهما لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحاً، فلم يكن سيداً له.

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل: فما كان منها عند أن ألفيا سيدها لدى الباب، أي: ما جزاؤه إلا السجن أو الضرب ضرباً مؤلماً وجيعاً، وفي الإبهام للعذاب زيادة تهويل، ولم تقل: من فعل بأهلك سوءاً، تبرئة لها وتبرئة له أيضاً من الفعل. عندها برأ يوسف نفسه مما رمته به.

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ أي: قال يوسف مكذباً لها: هي التي دعتني إلى مقارفة الفاحشة، لا أني أردت بها السوء؛ فأبيت وفررت منها.

فحينئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما ولم يعلم أيهما، ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات، وأمارات تدل عليه، فانبعث شاهد من أهل بيتها، يشهد بقرينة من وجدت معه، فهو الصادق.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قال ابن عباس: كان طفلاً في المهد أنطقه الله، وقيل: كان ابن خالها، واقفاً مع العزيز في الباب، وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة.

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: قال الشاهد إن كان ثوبه قد شق من أمام فهي صادقة وهو كاذب؛ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها، المراود لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها فشقت قميصه من هذا الجانب.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: وإن كان ثوبه قد شق من الوراء فهي كاذبة وهو صادق، لأن ذلك يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب، ويستدل بشق الثوب من خلف إن كانت هي الطالبة له وهو الهارب.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي: فلما رأى زوجها قطفير أن الثوب قد شق من الوراء ورائه، عرف بذلك صدق يوسف وبراءته، وأنها هي الكاذبة.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي: قال لها: إن هذا الأمر من جملة مكركن واحتيالكن أيتها النسوة.

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ تأكيد لما سبق ذكره، أي: مكركن معشر النسوة واحتيالكن للتخلص مما دبرتن شيء عظيم. ثم إن سيدها لما تحقق الأمر، قال ليوسف عليه السلام:

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي: يا يوسف اكتم هذا الأمر ولا تتحدث به، ولا تذكره لأحد، طلباً للستر على أهله.

﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ أي: ثم أقبل على زوجته بالخطاب، فقال: توبي واطلبي المغفرة من هذا الذنب القبيح، وكأن هذا هو المهم محافظة على الظواهر، وكان العزيز رجلاً حليماً قليل الغيرة، حيث اقتصر على هذا القول.

﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ أي: أنك بسبب ذلك من القوم المتعمدين للذنب، وفي هذه إشارة إلى أن العزيز كان قليل الغيرة حيث لم ينتقم ممن أرادت خيانته، وتدنيس فراشه بالإثم والفجور، ويبدو من الأحداث أن زوجها لين العريكة سهلاً لها، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه.

* ثم إن خبر يوسف وامرأة العزيز اشتهر وشاع في البلد، وتحدث به النسوة، قال تعالى:

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا
وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنْهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ
أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ
إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ
عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ
وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ
إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ
﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْأٓيَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ
حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ
أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرٗاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي
خُبْزٗا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٞ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ
مِلَّةَ قَوْمٖ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

(٣٠)-(٣٤) ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنْهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ * قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ * قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ **أي: قال جماعة من النساء في مصر وتحدثن به، روي أنهن خمسة نسوة: امرأة ساقي العزيز، وامرأة الحاجب، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن، والأظهر أن تلك الواقعة شاعت في البلد، واشتهرت وتحدث بها النساء، وقلن:**

﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ **أي: امرأة عزيز مصر تطلب من خادمها وعبدها أن يواقعها وتخادعه وتتوسل إليه لقضاء وطرها منه، وتصريحهن بإضافتها إلى العزيز مبالغة في التشنيع؛ لأن النفوس أميل لسماع أخبار ذوي الجاه، وعبرن بـ ﴿تُرَٰوِدُ﴾ للدلالة على أن ذلك صار سجية لها فهي دائماً تخادعه عن نفسه؛ لأن المضارع يفيد التجدد والاستمرار وهي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها، وفي خدمتها عن نفسه، ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغاً عظيماً.**

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ **أي: بلغ حبه شغاف قلبها - وهو حجابه - وشقه حتى وصل إلى فؤادها، وهذا أعظم ما يكون من الحب.**

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ **أي: إنا لنعتقد أنها في ضلال عن طريق الرشد واضح بسبب هذه الحالة التي لا تنبغي منها، وهي حالة تحط قدرها وتضعه عند الناس، وأنها تركت ما يكون على أمثالها من العفاف والستر.**

وكان هذا القول منهن مكراً، ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز، لتحنق امرأة العزيز وتريهن إياه ليعذرنها، ولهذا سماه مكراً، فقال:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ **أي: فلما سمعت امرأة العزيز بحديثهن، وسماه مكراً؛ لأنه كان في خفية، كما يخفي الماكر مكره، وقيل: أردن أن يتوسلن بذلك إلى رؤية يوسف، فلهذا سمي قولهن مكراً.**

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ **أي: أرسلت إليهن تدعوهن إلى منزلها للضيافة، قال المفسرون: دعت أربعين امرأة من الذوات منهن النساء الخمس المذكورات، وهيأت لهن ما يتكئن عليه من الفرش والوسائد وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرته في تلك الضيافة طعام يحتاج إلى سكين، إما أترج، أو غيره.**

﴿وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾ ليقطعن فيها ذلك الطعام، وكان هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته.

﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾ وقالت ليوسف في حالة جماله وبهائه، وهن مشغولات بتقطيع ما يحتاج إلى التقطيع من الطعام، والسكاكين في أيديهن: اخرج عليهن، فلم يشعرن إلا ويوسف يمر من بينهن.

﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ فلما رأين يوسف أعظمنه وأجللنه في صدورهن، وبهتن من جماله ودهشن، وجرحن أيديهن بالسكاكين اللاتي معهن لفرط الدهشة المفاجئة، ولم يجدن الألم لشغل قلوبهن بيوسف.

﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: تنزه الله عن صفات العجز، وتعالت عظمته في قدرته على خلق مثله.

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ أي: ليس هذا من البشر، ما هو إلا ملك من الملائكة، فإن هذا الجمال الفائق، والحسن الرائع مما لا يكاد يوجد في البشر. وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء، ما كان به آية للناظرين، وعبرة للمتأملين. فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز.

﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ صرحت عند ذلك بما في نفسها من الحب ليوسف لأنها شعرت بأنها انتصرت عليهن، فقالت قولة المنتصرة: هذا الذي رأيتموه هو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتنني في محبته، فانظرن ماذا لقيتن منه من الافتتان والدهش والإعجاب. ولما رأين جماله الظاهر، أرادت أن تريهن جماله الباطن بالعفة التامة؛ لأنها علمت أن لا ملامة عليها منهن وقد أصابهم ما أصابها من رؤيته، فقالت:

﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ أي: أردت أن أنال وطري منه، وأن أقضي شهوتي معه، فامتنع امتناعاً شديداً، وأبى إباءً عنيفاً، والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها، ولم تزدها مرور الأوقات إلا قلقاً ومحبة وشوقاً لوصاله وتوقاً، ولهذا قالت له بحضرتهن:

﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: ولئن لم يطاوعني ليعاقبن بالسجن والحبس وليكونن من الأذلاء المهانين، عاودته المراودة بمحضر منهن، كاشفة لجلباب الحياء، هاتكة لستر العفاف، وتوعدت بالسجن إن لم يفعل، ولم تعد تخشى لوماً ولا مقالاً، خلاف أول أمرها إذ كان ذلك سرّاً بينها وبينه، وعندما ألجئته بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه، فلما سمع يوسف مقالها هذا، وعرف أنها عزمة منها مع ما قد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز، قال مناجياً لربه، مستعصماً به، مستعيناً به على كيدهن:

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ لجأ وفزع يوسف إلى ربه وجعل يناجيه في خشوع وتضرع، فقال: رب السجن الذي أوعدتني هذه به، آثر عندي وأحب إلى نفسي من اقتراف الفاحشة، وأسند الفعل إليهن؛ لأنهن جميعاً مشتركات في الدعوة بالتصريح أو التلويح، وقيل إنها لما توعدته نصحنه وزيَّن له مطاوعتها، ونهينه عن إلقاء نفسه في السجن، فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد.

﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ أي: وإن لم تدفع عني شرهن وتعصمني منهن، أميل إلى إجابتهن فإني ضعيف عاجز، إن لم تدفع عني السوء.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي: بسبب ما يدعونني إليه من القبيح، وهذا كله على سبيل التضرع والاستغاثة بجناب الله تعالى كعادة الأنبياء والصالحين. فالعبد لا حول له ولا قوة ولا عصمه إلا بالله، فالعبد مأمور بفعل المأمور وترك المحظور، والصبر على المقدور مع الاستعانة بالملك الشكور. قال شيخ الإسلام: وفي قول يوسف: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ عبرتان: إحداهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي، والثانية: طلب

وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ
لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ
ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ
٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ
وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ
أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا
فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ
مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١ وَقَالَ
لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ
٤٢ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ
سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣

٢٤٠

سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه، ويصرفه إلى طاعته، وإلا فإذا لم يثبت القلب وإلا صبا إلى الآمرين بالذنوب، وصار من الجاهلين. ففي هذا توكل على الله واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة، وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ﴾ **أي: أجاب الله دعاءه فنجاه من مكرهن، وثبته على العصمة والعفة.**

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ **أي: لدعاء الملتجئين إليه، العليم بأحوالهم وما انطوت عليه نيته الصالحة، ونياتهم.**

*** وهكذا اجتاز يوسف محنته الثالثة بلطف الله ورعايته وحفظه وعصمته. وهنا بداية المحنة الرابعة وهي الأخيرة من محن الشدة في حياة يوسف الصديق، وهي محنة السجن وكل ما بعدها فرخاء، قال تعالى:**

٣٥ ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾

والمعنى: ثم ظهر للعزيز وأهله ومن استشارهم بعد الدلائل القاطعة على براءة يوسف، أن من المصلحة سجنه مدة من الزمن غير معلومة، لينقطع بذلك الخبر، ويرخى الستر على القيل والقال، وينساه الناس، روي أن امرأة العزيز لما استعصى عليها يوسف وأيست منه، احتالت بطريق آخر، فقالت لزوجها: إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس، يقول لهم: إني راودته عن نفسه وأنا لا أقدر على إظهار عذري، فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر، وإما أن تحبسه، فعند ذلك بدا له سجنه. قال ابن عباس: فأمر به فحمل على حمار وضرب بالطبل، ونودي عليه في أسواق مصر، إن يوسف العبراني أراد سيدته فجزاؤه أن يسجن. قال أبو صالح: ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلا بكى.

*** ثم بعد أن بدا لهم الآيات ليسجننه حتى حين؛ فكانت حاله في السجن:**

٣٦ ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِ﴾ **أي: أدخل يوسف السجن، واتفق أنه أدخل حينئذ آخران من خدم الملك الخاص أحدهما خبازه، والآخر ساقيه، اتهما بأنهما أرادا أن يسماه فحبسهما، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على يوسف ليعبرها.**

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾ **أي: قال الساقي إني رأيت في المنام أني أعصر عنباً يؤول إلى خمر وأسقي منه الملك.**

﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُ﴾ **أي: وقال الخباز: إني رأيت في منامي أني أحمل على رأسي طبقاً فيه خبز، والطير تأكل من ذلك الخبز.**

﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ **أي: أخبرنا بتفسير ما رأينا وما يؤول إليه أمرهما، إنا نراك من الذين يحسنون تفسير الرؤيا، فأحسن إلينا كما أحسنت إلى غيرنا، وأخبراه عن رؤياهما لما علما أنه يجيد تفسير الرؤيا، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة، وصدق الحديث، وحسن السمت، وكثرة العبادة، والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم، والقيام بحقوقهم.**

*** فأجابهما يوسف عليه السلام إلى طلبهما:**

٣٧، ٣٨ ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ

قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ * وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَا﴾ أي: لا يأتيكما شيء من الطعام، إلا أخبرتكما ببيان حقيقته وماهيته وكيفيته قبل أن يصل إليكما، أخبرهما بمعجزاته ومنها معرفة المغيبات توطئة لدعائهما إلى الإيمان، في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه، ليكون أنجع لدعوته، وأقبل لهما. أراد أن يدعوهما إلى التوحيد ويرشدهما إلى الدين القويم قبل أن يسعفهما إلى ما سألاه عنه، كما هي طريقة الأنبياء في الهداية والإرشاد، فقدم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير، ثم قال:

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ إن ذلك الإخبار بالمغيبات والتعبير الذي سأعبره لكما، ليس بكهانة ولا تنجيم، وإنما هو بإلهام ووحي من الله وهو من علم الله الذي علمنيه، وأحسن إليَّ به، وذلك:

﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: خصني ربي بذلك العلم لأني من بيت النبوة، وقد تركت دين قوم مشركين لا يؤمنون بالله. والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه، يكون لمن لم يدخل فيه أصلاً، فلا يقال: إن يوسف كان من قبل، على غير ملة إبراهيم. بل هو ترك الابتداء.

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي: يكذبون بيوم القيامة، نبه على أصلين عظيمين: الإيمان بالله، والإيمان بدار الجزاء، إذ هما أعظم أركان الإيمان، وكرر لفظه ﴿وَهُم﴾ على سبيل التأكيد.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ أي: اتبعت دين الأنبياء، لا دين أهل الشرك والضلال، والغرض إظهار أنه من بيت النبوة، لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه، والوثوق بكلامه، ثم فسر تلك الملّة بقوله:

﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق بنا معاشر الأنبياء، أن نشرك بالله شيئاً مع اصطفائه لنا وإنعامه علينا.

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: ذلك الإيمان والتوحيد فضل من الله علينا حيث أكرمنا بالرسالة، وعلى الناس حيث بعث الرسل لهدايتهم وإرشادهم، فإنه لا أفضل من منة الله على العباد بالإسلام والدين القويم. قال قتادة: إن المؤمن ليشكر ما به من نعمة الله، ويشكر ما في الناس من نعم الله.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ أي: لا يشكرون فضل الله ونعمه عليهم فيشركون به غيره.

* ولما ذكر ﷺ ما هو عليه من الدين الحنيف الذي هو دين الرسل، تلطف في حسن الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفتيين من عبادة الأصنام، ثم صرح لهما بالدعوة، بعد أن أحسن إليهما بتعبير الرؤيا، فقال:

﴿٣٩﴾، ﴿٤٠﴾ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ * مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ أي: يا صاحبيَّ في السجن وساكناه، آلهة متعددة لا تنفع ولا تضر، ولا تستجيب لمن دعاها كالأصنام، ولا تعطي ولا تمنع، خير أم عبادة الواحد الأحد، المتفرد بالعظمة والجلال الذي له صفات الكمال الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه. ثم بين عجز الأصنام وضعفها، فقال:

﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: ما تعبدون يا معشر القوم من دون الله إلا أسماء فارغة سميتموها آلهة وهي لا تملك القدرة والسلطان لأنها جمادات، ولا فيها من صفات الألوهية شيء.

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ أي: ما أنزل الله لكم في عبادتها من

قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٍۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ
فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ
سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ
وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا
قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ
مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ
عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي
بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ
ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾
قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ
لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ
ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ
لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

حجة أو برهان، بل أنزل سبحانه النهي عن عبادتها، وبيان بطلانها.

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: ما الحكم في أمر العبادة والدين إلا لله رب العالمين، أمر سبحانه بإفراد العبادة له، لأنه لا يستحقها إلا من له العظمة والجلال.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ أي: ذلك الذي أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله، هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه، المستقيم الموصل إلى كل خير.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: يجهلون عظمة الله فيعبدون ما لا يضر ولا ينفع. تدرج ﷺ في دعوتهم وألزمهم الحجة بأن بين لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة المتعددة، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها من دون الله لا تستحق الألوهية والعبادة، ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم وهو عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد، وذلك من الأسلوب الحكيم في الدعوة إلى الله، حيث قدم الهداية والإرشاد والنصيحة والموعظة.

* ثم شرع يوسف ﷺ ببيان ما طلباه منه من تعبير وتفسير رؤياهما، فقال:

﴿٤١﴾ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا﴾ أي: يا صاحبيَّ في السجن، أما الذي رأى أنه يعصر خمراً فيخرج من السجن، ويعود إلى ما كان عليه من سقي سيده الخمر. وقال: ﴿أَحَدُكُمَا﴾ لم يعينه؛ لئلا يحزن الآخر؛ لذا أبهمه.

﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ أي: الذي رأى على رأسه الخبز، فيقتل ويعلق على خشبة، فتأكل الطير من لحم رأسه، وأما المناسبة في ذلك أن الطيور لا تقرب الحي، وإنما تتناول الميت إذا لم يكن عنده أحد، وهذا إنما يكون بعد قتله وصلبه. قال المفسرون: روي أنه لما أخبرهما بذلك جحدا، وقالا ما رأينا شيئاً، فقال:

﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ أي: انتهى، وتم قضاء الله، صدقتما أو كذبتما، فهو واقع لا محالة.

﴿٤٢﴾ ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا﴾ أي: قال يوسف للذي اعتقد نجاته وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً.

﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكرني عند سيدك وأخبره عن أمري وشأني، لعله يخرجني مما أنا فيه.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: أنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى، وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف، الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان، وذلك ليتم الله أمره وقضاءه.

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ أي: مكث يوسف في السجن سبع سنين؛ قال المفسرون: وإنما لبث في السجن بضع سنين، لأنه اعتمد ووثق بالمخلوق، وغفل أن يرفع حاجته إلى الخالق - جل وعلا -. قال وهب بن منبه: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين.

* ولما دنا فرج يوسف، وأراد الله أن يتم أمره، ويأذن بإخراجه من السجن، قدر لذلك أمراً، كان سبباً لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قدره، وهو رؤيا الملك الأكبر، الذي كان

العزيز وزيراً له، فقد رأى ملك مصر رؤيا عجيبة أفزعته، فجمع علماء قومه وذوي الرأي، وأخبرهم بما رأى في منامه، وسألهم عن تأويلها فأعجزهم الله جميعاً ليكون ذلك سبباً في خلاص يوسف من السجن وليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله، ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، قال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (٤٣)-(٤٩).

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي: قال ملك مصر إني رأيت في منامي سبع بقرات خرجت من نهر يابس، وفي أثرهن سبع بقرات هزيلة في غاية الهزال، فابتلعت العجاف السمان.

﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ هذا من تتمة الرؤيا، أي: ورأيت أيضاً سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعا أخر يابسات قد استحصدت، فالتوت اليابسات على الخضر فأكلنهن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي: يا أيها الأشراف من رجالي وأصحابي أخبروني عن تفسير هذه الرؤيا لأن تعبير الجميع واحد، وتأويله شيء واحد، إن كنتم تجيدون تعبيرها وتعرفون مغزاها فتحيروا، ولم يعرفوا لها وجهاً.

﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: أخلاط رؤيا كاذبة، لا حقيقة لها، ولا تأويل لها، ثم قالوا:

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أي: ولسنا نعرف إلا تأويل الرؤيا، وأما الأحلام مثل هذه فإنا لا نعبرها.

وهذا الأمر من لطف الله ﷻ بيوسف عليه السلام، فإنه لو عبرها ابتداء قبل أن يعجز عنها هؤلاء القوم، لم يكن لها ذلك الموقع.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: وقال الذي نجا من صاحبي السجن، وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه، وتذكر ما سبق له مع يوسف بعد مدة طويلة.

﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: أنا أخبركم عن تفسير هذه الرؤيا ممن عنده علم بتأويل المنامات.

﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: فأرسلوني إليه لآتيكم بتأويلها، خاطب الملك بلفظ التعظيم، قيل: لم يكن السجن في المدينة، ولهذا قال فأرسلون. فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعنفه يوسف على نسيانه بل استمع ما يسأله عنه، وأجابه عن ذلك، فقال:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ في الكلام محذوف دل عليه السياق وتقديره: فأرسلوه، فانطلق إلى السجن ودخل على يوسف، وقال له: يا يوسف يا أيها الصديق، وسماه صديقاً لأنه كان قد جرب صدقه في تعبير الرؤيا التي رآها في السجن، والصديق مبالغة من الصدق.

﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي: أخبرنا عن تأويل هذه الرؤيا العجيبة فإنهم مشتاقون لتعبيرها، وقد أهمتهم.

﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: لأرجع إلى الملك وأصحابه وأخبرهم بها ليعلموا فضلك وعلمك ويخلصوك من محنتك. وإنما قال ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة فخاف

۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ
إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٥٣) وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ
لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ (٥٤)
قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ (٥٥) وَكَذَٰلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ
بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجۡرُ
ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (٥٧) وَجَآءَ
إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ
(٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا
تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي
بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ (٦٠) قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ
وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ
لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ
(٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ
فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٦٣)

أن يعجز هو أيضاً عنها فلهذا السبب قال لعلّي، فبدأ يوسف بتعبير الرؤيا:

﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ أي: تزرعون سبع سنين دائبين بجد وعزيمة.

﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ أي: فما حصدتم من الزرع فاتركوه في سنبله لئلا يسوس، ولأنه أبقى له وأبعد عن الالتفات إليه.

﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾ أي: إلا ما أردتم أكله فادرسوه واتركوا الباقي في سنبله وليكن قليلاً، ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه.

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾ أي: ثم يأتي بعد سني الرخاء سبع سنين مجدبات ذات شدة وقحط على الناس، تأكلون فيها مما ادخرتم أيام الرخاء ولو كان كثيراً.

﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ أي: إلا القليل الذي تحرزونه وتخبئونه للزراعة.

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ أي: ثم يأتي بعد سني القحط والجدب العصيبة السبع، عام رخاء فيه يُمطر الناس ويغاثون، وفيه يعصرون الأعناب وغيرها لكثرة خصبه، تأول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً، كثير الخير، غزير النعم، وذلك من جهة الوحي.

* فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك وفرحوا بها فرحاً شديداً.

(٥٠)-(٥٣) ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ * قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ أي: ولما رجع الساقي إلى الملك وعرض عليه ما عبَّر به يوسف رؤياه واستحسن ذلك، قال لمن عنده: أحضروه لي لأسمع منه تفسيرها بنفسي ولأبصره، فقد رغب في رؤيته ومعرفة حاله بعد أن علم من فضله وعلمه من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: فلما جاء رسول الملك وأخبر يوسف بالأمر واستدعاه إلى حضرة الملك، وأمره بالخروج من السجن.

﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: امتنع يوسف عن المبادرة إلى الخروج من السجن، حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام، وقال يوسف للرسول: ارجع إلى سيدك الملك.

﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ أي: سله عن قصة وشأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن هل يعلم أمرهن؟ وهل يدري لماذا حبست ودخلت السجن؟ وأي ظلمت بسببهن؟ أبى عليه السلام أن يخرج من السجن حتى لا ينظر إليه الملك بعين التهمة والخيانة، ويصير إليه بعد زوال الشك عن أمره، وأن يعلم الناس جميعاً أنه حبس بلا جرم، وقوله ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ حيث سكت عن امرأة

العزيز رعاية لذمام الملك العزيز، أو خوفاً من كيدها وعظيم شرها، وذكر السؤال عن تقطيع الأيدي، ولم يذكر مراودتهن له تنزهاً منه عن نسبة ذلك إليهن، ولذلك لم ينسب المراودة إلى امرأة العزيز إلا بعد أن رمته بدائها وانسلت. واكتفى هنا بالإشارة بقوله:

﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أي: إنه تعالى هو العالم بخفيات الأمور وبما دبرت من كيد لي. ومن كرم يوسف وحسن أدبه أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب، واقتصر على ذكر المقطعات أيديهن، فما كان من الملك إلا أن جمع وأحضر النسوة ودعا امرأة العزيز معهن، فسألهن عن أمر يوسف:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ ما شأنكن الخطير حين دعوتن يوسف إلى مقارفة الفاحشة؟ وهل رأيتن منه ما يريب؟ فبرأنه، و:

﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ أي: معاذ الله أن يكون يوسف أراد السوء، وهو تنزيه له، وتعجب من نزاهته وعفته، فحينئذ زال السبب الذي تنبني عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز.

﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي: ظهر وانكشف الحق وبان بعد خفائه.

﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: أنا التي أغريته ودعوته إلى نفسي، وهو بريء من الخيانة وصادق في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦] وهذا اعتراف صريح ببراءة يوسف على رؤوس الأشهاد.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ الأظهر أن هذا من كلام يوسف قاله لما وصله براءة النسوة له، والمعنى: ذلك الأمر الذي فعلته من رد الرسول حتى تظهر براءتي ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته في غيبته بل تعففت عنها، ويحتمل أن ذلك من كلام امرأة العزيز: أي: ليعلم أني حين أقررت، أني راودت يوسف، أني لم أخنه حال غيبته، ولم يجر مني إلا مجرد المراودة.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي: لا يوفق الخائن ولا يسدد خطاه ولا بد أن يتبين أمره. ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف، استدركت، فقالت:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أي: لا أزكي نفسي ولا أنزهها من الخطأ والزلل، فإن النفس البشرية مياله إلى الشهوات، قاله يوسف على وجه التواضع، أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه، لئلا يكون لها مزكياً، وبحالها معجباً ومفتخراً.

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي: إلا من رحمه الله بالعصمة، وهذا من فضله ومنته.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: عظيم المغفرة واسع الرحمة، يقبل التوبة من عبده، ويوفقه للأعمال الصالحة.

قال القرطبي: «مازال النساء يملن إلى يوسف حتى نبأه الله فألقى عليه هيبة النبوة، فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه».

وقال ابن تيمية: «في قصة يوسف تنبيه على أن من كاد كيداً محرماً فالله يكيده، وهذه سنة الله في مرتكب الحيل المحرمة».

* ولما تحقق الملك والناس براءة يوسف التامة، وعرف أمانته وعلمه اشتاق الملك لرؤيته وكلامه، وأرسل إليه الملك.

﴿٥٤﴾، ﴿٥٥﴾ ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي: ائتوني بيوسف أجعله من خاصتي وخلصائي ومقرباً لدي، قال ذلك لما تحقق براءته وعرف عفته وشهامته وعلمه، وقد كان قبل ذلك خالصاً للعزيز.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: فلما أتوا به وكلمه يوسف وشاهد الملك فضله، ووفور عقله، وحسن كلامه مع حداثة سنه، زاد موقعه عنده، فقال له: إنك اليوم قريب المنزلة، رفيع الرتبة، مؤتمن على كل شيء.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أي: قال يوسف للملك طلباً للمصلحة العامة: اجعلني على خزائن جبايات مصر وغلالها، وكيلاً حافظاً مدبراً.

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي: حفيظ للذي أتولاه فلا يضيع منه شيء في غير

محله، عليم بكيفية التدبر والإعطاء والمنع. والأمانة والكفاية هما طلبة الملوك ممن يولونه. وإنما طلب يوسف منه الولاية رغبة في العدل، وإقامة الحق والإحسان، وليس هو من باب التزكية للنفس أو الحرص على الولاية، وإنما هو للإشعار بحنكته ودرايته لحفظ الأموال وإنفاقها على الوجه الصحيح.

* وبعد ذلك الطلب جعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها، قال تعالى:

﴿٥٦﴾، ﴿٥٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة، مكنا ليوسف في أرض مصر، وجعلنا له العز والسلطان بعد الحبس والضيق.

﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء، ويتصرف في المملكة كما يريد في عيش رغد، ونعمة واسعة، وجاه عريض.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ أي: نخص بإنعامنا وفضلنا من نشاء من عبادنا، وهذا من رحمة الله بيوسف التي أصابها بها وقدرها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: لا نضيع أجر من أحسن عمله، وأطاع ربه، بل نضاعفه له. قال مجاهد: فلم يزل يوسف عليه السلام يدعو الملك إلى الإسلام ويتلطف به حتى أسلم الملك وكثير من الناس، فهذا في أمر الدنيا.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي: أجر الآخرة وثوابها خير للمؤمنين المتقين من أجر الدنيا، وفيه إشارة إلى أن الطلب الأعلى هو ثواب الآخرة، وأن ما يدخر لهؤلاء المحسنين أعظم وأجل من هذا النعيم العاجل في الدنيا.

* ولما تولى يوسف عليه السلام، خزائن الأرض، دبرها أحسن تدبير، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين الخصبة زروعاً هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجبا من الأطعمة شيئاً كثيراً وحفظه. وضبطه ضبطاً تاماً، فلما دخلت السنون المجدبة، وسرى الجدب حتى وصل إلى فلسطين التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر، قال تعالى:

﴿٥٨﴾-﴿٦٢﴾ ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ * فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: جاءوا إلى مصر من أرض كنعان، ودخلوا على يوسف فعرف أنهم إخوته لأنه فارقهم رجالاً، ولكنهم لم يعرفوه لهيبة الملك، وبعد العهد، وتغير الملامح. قال ابن عباس: كان بين إلقائه في الجب وبين دخولهم عليه اثنتان وعشرون سنة فلذا أنكروه، وكان سبب مجيئهم أنه أصابتهم مجاعة في بلادهم بسبب القحط الذي عم البلاد، فخرجوا إلى مصر ليشتروا من الطعام الذي ادخره يوسف، فلما دخلوا على يوسف، قال كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ قالوا: جئنا للميرة، قال: لعلكم عيون جواسيس علينا؟ قالوا: معاذ الله قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كعنان وأبونا يعقوب نبي الله، قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثني عشر فذهب أصغرنا وهلك في البرية ـ وكان أحبنا إليه ـ وبقي شقيقه فاحتبسه ليتسلَّى به عنه، وجئنا نحن العشرة، فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: هيأ لهم الطعام والميرة وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم.

﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ أي: ائتوني بأخيكم بنيامين لأصدقكم فيما تقولون، ثم رغبهم في الإتيان به، فقال:

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أي: ألا ترون أني أتم الكيل من غير بخس.

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن
قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟
مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا
مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ
لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى
بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا
نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ
وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن
شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ
يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ
قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ
قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

٢٤٣

﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أي: خير من يكرم الضيفان وخير المضيفين لهم، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم، رغبهم بهذا الكلام على الرجوع إليه.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: إن لم تأتوني بأخيكم فليس لكم عندي بعد اليوم ميرة ولا طعاماً، ولا تقربوا بلادي مرة ثانية، رغبهم ثم توعدهم، والظاهر أن كل ما فعله يوسف عليه السلام كان بوحي من الله وإلا فمقتضى البر أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه، لكن الله أراد تكميل أجر يوسف ومحنته، ولتتفسر الرؤيا الأولى.

﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أي: سنخادعه ونحتال في انتزاعه من يده، ونجتهد في الطلب منه، وإنا لفاعلون ذلك، دل ذلك على أن يعقوب عليه السلام كان مولعاً به لا يصبر عنه، وكان يتسلى به بعد يوسف فلذلك احتاج إلى مراودة في بعثه معهم.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ أي: قال يوسف لغلمانه الكيالين الذين في خدمته، اجعلوا الدراهم الذي اشتروا بها الطعام في أوعيتهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ أي: لكي يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم، وفتحوا أوعيتهم لأجل التحرج من أخذها على ما قيل، والظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلاً وفياً.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لعلهم يرجعون إلينا إذا رأوها، فإنه علم أن دينهم يحملهم على رد الثمن؛ لأنهم مطهرون عن أكل الحرام، فيكون ذلك أدعى لهم إلى العودة إليه.

﴿٦٣﴾، ﴿٦٤﴾ ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ * قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ أي: فلما عادوا إلى أبيهم، قالوا له - قبل أن يفتحوا متاعهم - يا أبانا لقد أنذرنا بمنع الكيل في المستقبل إن لم نأت بأخينا بنيامين، فإن ملك مصر ظن أننا جواسيس، وأخبرناه بقصتنا فطلب أخانا ليتحقق صدقنا.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ أي: أرسل معنا أخانا بنيامين لنأخذ ما نستحقه من الحبوب التي تكال لنا، ثم التزموا له بحفظه، فقالوا:

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي: نحفظه من أن يناله مكروه، أو أن يعرض له ما يكره.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: قال لهم يعقوب: كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم بعد أن ضمنتم لي حفظه، ثم خنتم العهد، فأخاف أن تكيدوا له كما كدتم لأخيه؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما اثق بحفظ الله.

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ أي: حفظ الله خير من حفظكم فهو يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده عليّ، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: هو أرحم من والديه وإخوته، فأرجو أن يمُنَّ عليَّ بحفظه ولا يجمع عليَّ مصيبتين. قال كعب: لما قال يعقوب فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، قال الله تعالى وعزتي وجلالي لأردن عليك كليهما.

﴿٦٥﴾، ﴿٦٦﴾ ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۞ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: ولما فتحوا الأوعية التي وضعوا فيها الميرة وجدوا ثمن الطعام في متاعهم، قالوا ذلك ترغيباً في إرسال أخيهم معهم.

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أي: ماذا نبغي؟ وأيَّ شيء نطلب من إكرام الملك أعظم من هذا؟ حيث وفّ لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن، المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق.

﴿هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أي: هذا ثمن الطعام قد رد إلينا من حيث لا ندري، فهل هناك مزيد فوق هذا الإحسان، أوفى لنا الكيل، ورد لنا الثمن، أرادوا بذلك استنزال أبيهم عن رأيه.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نأتي بالميرة والطعام لأهلنا بما هو مضطرون إليه من القوت.

﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ أي: نحفظ أخانا بنيامين من المكاره، وكرروا حفظ الأخ مبالغة في الحض على إرساله.

﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: ونزداد باستصحابنا له حمل بعير، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير. روي أنه ما كان يعطي الواحد إلا كيل بعير من الطعام، فأعطاهم حمل عشرة جمال ومنعهم الحادي عشر حتى يحضر أخوهم.

﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: سهل على الملك إعطاؤه لسخائه؛ وسهل عليك لا ينالك ضرر؛ لأن المدة لا تطول والمصلحة قد تبينت.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ قال لهم أبوهم يعقوب: لن أرسل معكم بنيامين إلى مصر حتى تعطوني عهداً مؤكداً، وتحلفوا بالله لتردنه عليَّ.

﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا فلا تقدروا على تخليصه ويكون أمراً لا قبل لكم به، ولا تقدرون على دفعه، ولا يبقى لكم طريق أو حيلة إلى ذلك. قال مجاهد: إلا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذراً عندي.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: فلما حلفوا له وأعطوه العهد المؤكد على ما قال وأراد، قال الله شهيد رقيب على ذلك تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفاءته.

۞ ثم لما تجهز أولاد يعقوب للسير إلى مصر خاف عليهم أبوهم، فوصاهم إذا هم قدموا مصر:

﴿٦٧﴾، ﴿٦٨﴾ ﴿وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۞ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ أي: وقال لهم يعقوب لما أرادوا الخروج من عنده: لا تدخلوا مصر من باب واحد. قال المفسرون: خاف عليهم من العين إن دخلوا مجتمعين لكونهم أبناء رجل واحد، إذ كانوا أهل جمال وهيبة، وفي الحديث «إن العين تُدخل الرجل القبر، والجمل القدر» [رواه مالك في الموطأ] فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم.

﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: وهذا سبب؛ ولا أدفع عنكم بتدبيري شيئاً مما قضاه الله عليكم، فإن الحذر لا يدفع القدر، والمقدر لا بد أن يكون.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: القضاء قضاؤه والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع، عليه وحده اعتمدت، وبه وثقت لا على ما وصيتكم به من السبب.

﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وعليه فليعتمد أهل التوكل والإيمان، وليفوضوا أمورهم إليه، فإن بالتوكل على الله يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي: ولما ذهبوا، دخلوا من الأبواب المتفرقة كما أوصاهم أبوهم.

﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: ما كان دخولهم متفرقين ليدفع عنهم من قضاء الله شيئاً.

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ إلا خشية العين شفقة منه على بنيه ومحبة لهم، فحصل له في إظهارها لهم ووصيتهم بها نوع طمأنينة، وقضاء لما في خاطره، وليس هذا قصوراً في علمه، فإنه من الرسل الكرام، والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه:

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ وإن يعقوب لصاحب علم واسع، لتعليمنا إياه بطريق الوحي، لا بحوله وقوته وإدراكه بل بفضل الله وتعليمه، وهذا ثناء من الله تعالى عظيم على يعقوب، لأنه علم بنور النبوة أن القدر لا يدفعه الحذر.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون ما خص الله به أنبياءه، وأصفياءه من العلوم التي تنفعهم في الدارين.

* ثم تتحدث الآيات عن مجيء إخوة يوسف للمرة الثانية إلى مصر ومعهم بنيامين الأخ الشقيق ليوسف، وما كان من شأنه حين ظهر الصواع في رحله، فاحتجزه يوسف عنده بحكم شريعة يعقوب، ثم ما كان من تمام المحنة على يعقوب عليه السلام بفقد ولديه حتى ذهب الحزن ببصره، فقال تعالى:

﴿٦٩﴾ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: وحين دخل أولاد يعقوب على يوسف، ضم إليه أخاه الشقيق بنيامين الذي أمرهم بالإتيان به، واختصه من بين إخوته، ولما خلا به أخبره بحقيقة الأمر.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ أي: أنا أخوك يوسف، أخبره بذلك واستكتمه.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا تحزن بما فعلوا بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير. قال المفسرون: لما دخل إخوة يوسف عليه أكرمهم وأحسن ضيافتهم، ثم أنزل كل اثنين في بيت وبقي بنيامين وحيداً، فقال: هذا لا ثاني له فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه ويعانقه، وقال له: أنا أخوك يوسف فلا تحزن بما صنعوا، ثم أعلمه أنه سيحتال لإبقائه عنده، وأمره أن يكتم الخبر.

﴿٧٠﴾-﴿٧٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۞ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۞ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: ولما قضى حاجتهم وحمل إبلهم بالطعام والميرة ومن جملتهم أخوه بنيامين.

﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ أي: أمر يوسف أن تجعل السقاية -وهي صاع يكال به من ذهب مرصع بالجواهر- في متاع أخيه بنيامين، ثم لما انطلقوا ذاهبين، بعث من خلفهم من استوقفهم وحبسهم.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ أي: نادى مناد، يا أصحاب الإبل، يا أيها الركب المسافرون.

﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ أي: أنتم قوم سارقون، وإنما استحل أن يرميهم بالسرقة لما في ذلك من المصلحة من إمساك أخيه.

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ قال المفسرون: لما وصل المنادون إليهم قالوا: ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم؟ ونوف إليك

الجزء الثالث عشر سورة يوسف

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ
ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ٧٠ قَالُواْ
وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ٧١ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ
وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ٧٢ قَالُواْ تَٱللَّهِ
لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ
٧٣ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ
مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ
٧٥ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن
وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ٧٦ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ
فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ
وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ٧٧ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا
فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٧٨

٢٤٤

الكيل؟ ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم؟ قالوا: بلى وما ذاك؟ قالوا: فقدنا سقاية الملك ولا نتهم عليها غيركم، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أي التفتوا إليهم وسألوهم ماذا ضاع منكم وماذا فقد؟ وفي قولهم: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ بدل «ماذا سرقنا» إرشاد لهم إلى مراعاة حسن الأدب، وعدم المجازفة ولجزمهم بأنهم براء من سرقة مكيال الملك المرصع بالجواهر.

﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي: ضاع منا مكيال الملك المرصع بالجواهر، ولمن جاءنا بالمكيال ورده إلينا، حمل بعير من الطعام كجائزة له.

﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أنا كفيل وضامن بذلك وهذا يقوله المؤذن المتفقد.

* فما كان جواب أخوة يوسف إلا أن:

﴿٧٣﴾-﴿٧٦﴾ ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ * قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ * قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قسم فيه معنى التعجب، أي: قال إخوة يوسف متعجبين: والله لقد علمتم أيها القوم ما جئنا بقصد أن نفسد في أرضكم بأي نوع من أنواع المعاصي.

﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ أي: ولسنا ممن يوصف بالسرقة قط، لأننا أولاد أنبياء ولا نفعل مثل هذا الفعل القبيح، واستشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم من فرط أمانتهم، كرد البضاعة التي جعلت في رحالهم، وككتم أفواه الدواب لئلّا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي: ما عقوبة السارق في شريعتكم إن كنتم كاذبين في ادعاء البراءة.

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي: جزاء السارق الذي يوجد الصاع في متاعه، أن يسترق ويصبح مملوكاً لمن سرق منه، وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان مُلكاً لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا:

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: السراق بالاسترقاق، فنجازي من تعدى حدود الله بالسرقة وأمثالها، وهذا القول منهم هو الحكم في شريعة يعقوب، وقد نسخ بقطع الأيدي في الإسلام.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ أي: بدأ المفتش بتفتيش أوعية الإخوة العشرة قبل وعاء أخيه بنيامين. قال المفسرون: هذا من تمام الحيلة ودفع التهمة فإنهم لما ادعوا البراءة، قالوا لهم: لا بد من تفتيش أوعيتكم واحداً واحداً فانطلقوا بهم إلى يوسف فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين. قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر وعاء إلا استغفر الله مما قذفهم به، حتى بقي أخوه ـ وكان أصغر القوم ـ فقال: ما أظن هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نتركك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه، فذلك قوله تعالى:

﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ أي: استخرج الصواع من متاع أخيه بنيامين، ولم يقل: وجدها أو سرقها أخوه، مراعاة للحقيقة الواقعة، فلما أخرجها منه نكس الإخوة رؤوسهم من الحياء، وأقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له فضحتنا وسودت وجوهنا.

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: كذلك صنعنا ودبرنا ليوسف وألهمناه الحيلة ليستبقي أخاه عنده وتم له ما أراد على وجه لا يشعر به إخوته.

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين ملك مصر، لأن جزاء السارق عنده أن يُضرب ويغرم ضعف ما سرق فلو ردت الحكومة إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم، ليتم له ما أراد، وأخذ بنيامين رقيقاً.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: ما كان ليوسف أن يفعل ذلك إلا بمشيئته تعالى وإذنه، وقد دلت الآية على أن تلك الحيلة كانت بتعليم الله وإلهامه له.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي: نرفع بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقاصدها منازل من نشاء من عبادنا، كما رفعنا درجات يوسف.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي: فوق كل عالم من هو أعلم منه حتى ينتهي إلى ذي العلم البالغ إلى عالم الغيب والشهادة. قال الحسن: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي العلم إلى الله. وقال ابن عباس: الله العليم الخبير فوق كل عالم.

* ولا زالت المحاورة بين يوسف وإخوته بعد أن وجدوا الصواع في رحل أخيهم:

﴿٧٧﴾ ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي: إن سرق هذا الأخ فقد سرق أخوه الشقيق من قبله يعنون يوسف، تنصلوا من السرقة ورموا بها يوسف وأخاه، وفي هذا من البغض عليهما ما فيه. عن قتادة: كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجدة أبي أمه فكسره.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي: أخفى تلك المقولة في نفسه وكتمها ولم يظهرها لإخوته تلطفاً معهم.

﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ وقال في نفسه: أنتم شر منزلة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم، ثم طفقتم تفترون على البريء، ولم يواجههم بهذا الكلام وإنما قاله في نفسه.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: أعلم بما تتقولون وتفترون من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا براء منها.

* ثم سلكوا مع يوسف مسلك التملق، لعله يسمح لهم بأخيهم:

﴿٧٨﴾، ﴿٧٩﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي: قالوا مستعطفين مسترحمين يا أيها السيد المبجل إن أباه شيخ كبير في السن لا يكاد يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه.

﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ أي: خذ بدله واحداً منا، فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أتمم إحسانك علينا فقد عودتنا الجميل والإحسان، فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي: قال يوسف: نعوذ بالله من أن نأخذ أحداً بجرم غيره.

الجزء الثالث عشر سورة يوسف

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ
إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ
قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم
مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ
ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ
﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ
﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ
وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ
يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ
﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا
أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى
وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

٢٤٥

﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ أي: نكون ظالمين، إن فعلنا ذلك فنأخذ البريء بذنب من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل «من سرق» كل هذا لتحقيق الحق وتحرزاً من الكذب.

* يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك، قال تعالى:

﴿٨٠﴾-﴿٨٢﴾ ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ *

ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ۞ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ **أي: ولما يئسوا من يوسف إجابة طلبهم يأساً تاماً، وعرفوا أن لا جدوى من الرجاء، اعتزلوا جانباً يتناجون ويتشاورون وحدهم، ليس معهم غيرهم.**

﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ **أي: قال أكبرهم سناً وهو روبيل: أليس قد أعطيتم أباكم عهداً وثيقاً برد أخيكم وحفظه، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم؟**

﴿وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَ﴾ **أي: ومن قبل هذا، ألا تذكرون تقصيركم في يوسف؟ فكيف ترجعون إليه الآن؟ فاجتمع عليكم الأمران، تفريطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه اللاحق، فليس لي وجه أواجه به أبي.**

﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ **أي: سأقيم في أرض مصر ولا أزال بها، حتى يسمح لي أبي بالخروج منها.**

﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ **أي: يحكم لي بخلاص أخي، وهو سبحانه أعدل الحاكمين لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق، ثم وصاهم بما يقولون لأبيهم، فقال:**

﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ **أي: ارجعوا إلى أبيكم فأخبروه بحقيقة ما جرى، وقولا له إن ابنك بنيامين سرق ولم يحصل لنا أن نأتيك به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك.**

﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ **أي: ولسنا نشهد إلا بما تيقنا وعلمنا فقد رأينا الصاع في رحله.**

﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ **أي: ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ.**

﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾ **أي: و إن شككت في قولنا فأرسل إلى أهل مصر واسألهم عن حقيقة ما حدث وما جرى، واسأل أيضاً القافلة التي جئنا معهم، وهم قوم من كنعان كانوا بصحبتهم في هذه السفرة فقد اطلعوا على ما أخبرناك به.**

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ **أي: صادقين فيما أخبرناك من أمره، لم نكذب ولم نغير ولم نبدل، بل هذا هو الواقع.**

۞ **فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر اشتد حزنه، وتضاعف كمده، واتهمهم أيضاً في هذه القضية، كما اتهمهم في الأولى.**

(٨٣)-(٨٦) ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۞ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ۞ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾ **أي: زينت وسهلت لكم أنفسكم أمراً ومكيدة فنفذتموها، اتهمهم بالتآمر على بنيامين لما سبق منهم في أمر يوسف.**

﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌ﴾ **أي: لا أجد سوى الصبر الجميل، الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع، ولا شكوى للخلق، محتسباً أجري عند الله، ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد، والكربة انتهت، فقال:**

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ **عسى أن يجمع الله شملي بهم، ويقر عيني برؤيتهم جميعاً يوسف وبنيامين، وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر.**

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ **أي: العالم بحالي واحتياجي إلى تفريجه ومنته، واضطراري إلى إحسانه، الحكيم في تدبيره وتصريفه الذي جعل لكل شيء قدراً، ولكل أمر منتهى، بحسب ما اقتضته حكمته.**

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ **وتولى يعقوب عليه السلام وأعرض عن أولاده كراهة لما سمع منهم وبما أخبروه، واشتد به الأسف والأسى.**

﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ **أي: يا لهفي ويا حسرتي وحزني على يوسف، أضاف الأسف وهو أشد الحزن،**

والحسرة إلى نفسه. وإنما تأسف دون أخيه وكبيرهم لتمادي أسفه على يوسف دون الآخرين، وفيه دليل على أن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً عنده طرياً.

﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ أي: فقد بصره وعشي من شدة البكاء على ولديه من شدة الحزن الذي في قلبه، والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء، إذ أكثر الاستعبار ومحقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر، قيل: ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب.

﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ أي: مملوء القلب كمداً وغيظاً ولكنه يكتم ذلك في نفسه، وهو مغموم ومكروب لتلك الداهية الدهياء، فقد ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخوية؛ لأن ذكر يوسف كان آخذاً بمجامع قلبه لا ينساه ولأنه كان واثقاً بحياتها طامعاً في إيابها، وأما يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله وفضله، الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن في النفس، والأسى يبعث الأسى ويثير الأحزان.

فقال له أولاده متعجبين من حاله.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: قال أولاد يعقوب، ولا تزال تذكر يوسف وتتفجع عليه في جميع أحوالك.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ أي: حتى تكون مريضاً مشرفاً على الهلاك، أو تهلك أسى وحسرة وتموت.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: قال لهم يعقوب: لست أشكو غمي وحزني إليكم. وإنما أشكو ذلك إلى الله فهو الذي تنفع الشكوى إليه فقولوا ما شئتم، فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين.

قيل: البث أشد الحزن، سمي بذلك؛ لأنه صاحبه لا يصبر عليه حتى يبثه ويظهره.

﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: أعلم من رحمته وإحسانه مالا تعلمون أنتم، فأرجو أن يرحمني ويلطف بي، ويأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب، ويردهم عليَّ، ويقر عيني بالاجتماع بهم.

* يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام أنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين:

﴿٨٧﴾، ﴿٨٨﴾ ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ * فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ

يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ
مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ
ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ
مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا
ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ
﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ
جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ
وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ
ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ
عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ
﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ
بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ
ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن
تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: اذهبوا إلى الموضع الذي جئتم منه فالتمسوا يوسف وتعرفوا على خبره وخبر أخيه بحواسكم واحرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما.

﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ ولا تقنطوا من رحمة الله وفرجه وتنفيسه، فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس: يوجب التثاقل والتباطؤ. وأولى ما رجا العباد فضل الله وإحسانه، ورحمته وروحه.

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: فإنه لا يقنط من رحمته تعالى إلا الجاحدون المنكرون لقدرته ـ جل وعلا ـ فرحمته بعيدة عنهم، فلا تتشبهوا بالكافرين، ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله، ثم إن الأبناء استجابوا لطلب أبيهم فخرجوا راجعين يبحثون عنه في مصر.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ أي: فدخلوا على يوسف، فلما دخلوا قالوا متضرعين إليه: يا أيها العزيز أصابنا وأهلنا الشدة والجوع من الجدب والقحط.

﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ وجئنا ببضاعة رديئة كاسدة مرغوب عنها لقلتها، يعرض عنها ويدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً. قال ابن عباس: كانت دراهمهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام، وأظهروا له الذل والانكسار استرحاماً واستعطافاً.

﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أي: أتمم لنا الكيل ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا.

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي: برد أخينا إلينا، أو بالمسامحة عن رداءة البضاعة، أو زدنا على حقنا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي: يثيب المحسنين أحسن الجزاء. وتأمل في شؤم المعصية التي فعلوها بأخيهم. فأصبحوا يمدون أيديهم إليه ليتصدق عليهم.

* ولما بلغ بهم الأمر إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار أدركت يوسف عليه السلام الرأفة والرقة فارفضّ دمعه، ولم يتمالك أن باح لهم بما كان يكتمه من أمره:

﴿٨٩﴾-﴿٩٢﴾ ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ۝ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه، أما يوسف فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه، فلعله والله أعلم قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ والغرض تعظيم الواقعة كأنه يقول: ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه. وإنما قاله نصحاً لهم، وتحريضاً على التوبة، وشفقة عليهم لا تشفياً واستعلاءً.

﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ حال شبابكم وطيشكم؟ وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم أو توبيخ لهم، إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم، فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ أي: قال إخوته متعجبين مستغربين: أأنت يوسف حقاً؟

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ أي: فأجابهم قائلاً: نعم أنا يوسف، وهذا أخي الشقيق بنيامين.

﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ أي: أنعم الله ومنَّ علينا بالإيمان والتقوى، والتمكين في الأرض، والخلاص من البلاء، والاجتماع بعد الفرقة، والعزة بعد الذلة.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ إنه من يتق الله فيراقبه، ويصبر على البلايا والمحن والآلام والمصائب.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: لا يبطل أجرهم ولا يضيع إحسانهم، بل يجزيهم عليه أوفى الجزاء. ووضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر.

قال شيخ الإسلام: ولولم يصبر ويتق بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعاً من السجن لم يحصل له هذا الصبر والتقوى وفاته الأفضل باتفاق الناس فإن الزنا بامرأة الغير فيه حقان، كل منهما مستقل بالتحريم. فالفاحشة حرام لحق الله ولو رضي الزوج، وظلم الزوج في امرأته حرام لحقه، بحيث لو سقط حق الله بالتوبة منه، فحق هذا في امرأته لا يسقط كما لو ظلمه وأخذ ماله وتاب من حق الله لم يسقط حق المظلم بذلك.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: والله لقد اختارك الله وفضلك علينا بالتقوى والصبر، والعلم والحلم، ومكارم الأخلاق،

ومحاسن الشيم. وهذا اعتراف منهم بالخطيئة وإقرار بالذنب، قال العلماء: والعبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية.

﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي: وحالنا وشأننا أننا كنا مذنبين أسأنا إليك بصنيعنا الذي صنعنا بك غاية الإساءة، وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف، ولذلك أعزك الله وأذلنا، وأكرمك وأهاننا.

﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ أي: قال لهم يوسف كرماً وجوداً: لا عتب عليكم اليوم ولا عقوبة، بل أصفح وأعفو.

﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ ثم دعا لهم بالمغفرة، وهذا زيادة تكريم منه لما فرط منهم.

﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وهو - جل وعلا - المتفضل على التائب بالمغفرة والرحمة، أرحم بعباده من كل أحد، فسمح لهم يوسف سماحاً تاماً، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق؛ لأنه يجرحهم ويحزنهم. ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين.

* ذُكِرَ أن يوسف لما عرف نفسه وإخوته سألهم عن أبيهم، فقالوا: ذهب بصره من الحزن فعند ذلك أعطاهم قميصه، وأراد يوسف تبشير أبيه بحياته، وإدخال السرور عليه بذلك لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص لما كان فيه أثر ريح يوسف، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم، أراد أن يشمه فترجع إليه روحه، وتتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، ولله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر.

٩٣-٩٥ ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۞ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾.

﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي﴾ أي: خذوا قميصي هذا وألقوه على وجه أبي.

﴿يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ أي: يرجع إليه بصره ويعد مبصراً، وكان قد عمي من كثرة البكاء.

﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي: وجيئوني بجميع الأهل والذرية من أولاد يعقوب ليحصل تمام اللقاء، ويزول عنكم نكد المعيشة، وضنك الرزق.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ أي: خرجت من عريش مصر إلى الشام.

﴿قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾ قال يعقوب لمن حضر من قرابته، إني لأشم رائحة يوسف، قيل: هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف، وبينهما مسيرة ثمان ليال.

﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي: تسفهوني وتنسبوني إلى الخرف، وهو ذهاب العقل وجواب ﴿لَوۡلَآ﴾ محذوف تقديره لأخبرتكم أنه حي.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ أي: فوقع ما ظنه بهم، فقال حفدته ومن عنده: والله إنك لفي خطأ وذهاب عن طريق الصواب، قديماً في إفراط محبتك ليوسف. قال المفسرون: وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات.

* ثم تتحدث الآيات عن مجيء أسرة يعقوب بأسرهم إلى مصر، ودخولهم على يوسف وهو في عز السلطان وعظمة الملك، وتحقيق الرؤيا بسجود إخوته الأحد عشر له مع أبيه وأمه، واجتماع الشمل بعد الفرقة، وحلول الأنس بعد الكدر.

٩٦-٩٨ ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۞ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۞ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾ أي: فلما جاء المبشر بالخبر السار، قال مجاهد: كان البشير أخاه يهوذا الذي حمل قميص الدم، فقال: أفرحه كما أحزنته.

﴿أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾ أي: طرح البشير، القميص على وجه يعقوب، فعاد على حاله الأولى بصيراً، وعادت إليه قوته بعد الضعف لما حدث له من السرور والانتعاش.

﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ قال يعقوب عليه السلام لأبنائه: ألم أخبركم بأني أعلم ما لا تعلمونه من حياة يوسف،

الجزء الثالث عشر — سورة يوسف

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا۟
يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ
أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمَّا
دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟
لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم
مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ
رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (١٠٠) ۞ رَبِّ
قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ
فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ
تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١) ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ
ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ
وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

٢٤٧

وأن الله سيرده عليَّ لتحقق الرؤيا. قال المفسرون: ذكرهم بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] روي أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر، قال: ما أصنع بالملك! على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة، فأقروا بذنبهم ونجعوا بذلك.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ طلب أبناؤه أن يستغفر لهم لما فرط منهم ثم اعترفوا بخطئهم بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ أي: مخطئين فيما ارتكبنا مع يوسف حيث فعلنا ما فعلنا.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ قال يعقوب عليه السلام، مجيباً لطلبتهم، ومسرعاً لإجابتهم، ووعدهم بالاستغفار، قال المفسرون: أخر الاستغفار إلى السحر الفاضل ليكون أقرب إلى الإجابة، وقيل: أخره إلى يوم الجمعة ليتحرى ساعة الإجابة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: الساتر للذنوب الرحيم بالعباد، ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته.

* ثم تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكناها، وفي تلك السنوات الماضية دليل على ابتلاء الله ﷻ لأنبيائه وأصفيائه بالشدة والرخاء، والسرور والحزن، واليسر والعسر، ليستخرج منهم عبوديته في الحالين، بالشكر عند الرخاء، والصبر عند الشدة والبلاء، فتتم عليهم بذلك النعماء، قال تعالى:

(٩٩)، (١٠٠) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۞ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي: فلما دخل يعقوب وأبناؤه وأهلوهم على يوسف ضم إليه أبويه واعتنقهما واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام شيئاً عظيماً.

﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ أي: وقال لجميع أهله، مُرحباً: ادخلوا بلدة مصر آمنين من كل مكروه، وقد كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر ولا يدخلونها إلا بجواز منهم، وإنما قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تبركاً وتيمناً، فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: أجلسهما على سرير الملك ومجلس العزيز بجانبه.

قوله تعالى عن يوسف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾

قيل أباه وأمه، وقيل أباه وخالته، وعليه الجمهور؛ لأن أمه كانت قد ماتت.

﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أي: سجد له أبوه وأمه وإخوته حين دخولهم عليه، وكان السجود عندهم تحية وكرامة لا عبادة.

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ أي: قال يوسف: لما رأى هذه الحال ورأى سجودهم له: هذا تفسير الرؤيا التي رأيتها في منامي وذلك حين رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر لي ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت.

﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ أي: صدقاً، حيث وقعت كما رأيتها في النوم، يذكر نعم الله عليه. قيل: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ أي: أنعم عليَّ بإخراجي من السجن، وهذا من لطفه وحسن خطابه فلم يذكر قصة الجب مع كونه أشد بلاء من السجن، تكرماً منه لئلا يخجل إخوته ويذكرهم صنيعهم لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، ولأن نعمة الله عليه في إخراجه من السجن أعظم؛ لأنه بعد الخروج من الجب صار إلى العبودية والرق، وبعد الخروج من السجن صار إلى الملك.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي: جاء بكم من البادية لأنهم كانوا أهل إبل وغنم ببادية فلسطين، ذكرهم بنعمة الله على آل يعقوب حيث نقلهم من البادية إلى الحضر واجتمع شمل الأسرة بمصر، وذكر إتيانهم في البادية من إحسان الله إليه، فلم يقل: جاء بكم الجوع والنصب، ولا قال «أحسن بكم» بل قال: ﴿أَحْسَنَ بِيٓ﴾ جعل الإحسان عائداً إليه، ذكر أن يعقوب دخل مصر هو ومن معه من أولاده وأهاليهم وأبنائهم وهم أقل من مائة، وخرجوا منها يوم خرجوا وهم زيادة على ستمائة ألف.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ أي: أفسد ما بيني وبين إخوتي بالإغواء، وذكر هذا القدر من أمر إخوته لأن النعمة إذا جاءت إثر بلاء وشدة كانت أحسن موقعاً، ومن تمام أدبه لم يقل «نزغ الشيطان إخوتي» بل كأن الذنب والجهل صدر من الطرفين.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي: لطيف التدبير، يحقق مشيئته بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها، وقد يوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها. وحقيقة اللطيف الذي يوصل الإحسان إلى غيره بالرفق.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾.

قال الخطابي: «اللطيف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون».

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: العليم بخلقه الحكيم في صنعه، وفي وضع الأشياء مواضعها، قال المفسرون: إن يعقوب عليه السلام أقام مع يوسف في مصر أربعاً وعشرين سنة ثم مات، وكان قد أوصى أن يدفن بالشام إلى جنب أبيه إسحاق فمضى يوسف بنفسه ودفنه.

* ولما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين في الأرض والملك، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، وجمع شمله وأقر عينه بأبويه وإخوته، وبعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إياه، قال مقراً بنعمة الله، شاكراً لها، داعياً بالثبات على الإسلام؛ فلما تم أمره علم أن نعيم الدنيا لا يدوم، تاقت نفسه إلى الملك الدائم الخالد، واشتاق إلى لقاء الله وإلى آبائه الصالحين إبراهيم وإسحاق، وسأل الله تعالى حسن العاقبة، فقال تعالى:

﴿١٠١﴾ ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي: أعطيتني العز والجاه والسلطان، وذلك من نعمة الدنيا حيث إنه كان على خزائن الأرض وتدبيرها، ووزيراً كبيراً للملك.

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: علمتني من تأويل أحاديث الكتب المنزلة، وتأويل الرؤيا، وغير ذلك من نعمة العلم.

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يا مبدع السموات والأرض وخالقهما على غير مثال سابق.

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: أنت يا رب متولي أموري وشؤوني في الدارين، اقبضني إليك مسلماً وثبتني عليه حتى توفاني عليه، واجعل لحاقي بالصالحين. ابتهل إلى ربه أن يحفظ عليه إسلامه حتى يموت عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت.

قال ابن تيمية: «ولم يثن قصة يوسف؛ لأن الذين عادوا يوسف لم يعادوه على الدين، بل عادوه عداوة دنيوية».

* وإلى هنا تنتهي قصة يوسف الصديق، ثم يأتي التعقيب بعد ذلك بإقامة البرهان على صحة نبوة محمد ﷺ، قال تعالى:

﴿١٠٢﴾-﴿١٠٤﴾ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ
﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا
وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ
ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ
هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى
وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن
قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟
جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ
مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ **ذلك النبأ الذي أخبرناك عنه -يا محمد- من أمر يوسف وقصته، من الأخبار الغيبية التي لم تكن تعلمها قبل الوحي، وإنما نعلمك نحن بها عن طريق الوحي، على أبلغ وجه وأدق تصوير، ليظهر صدقك في دعوى الرسالة.**

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ **أي: وما كنت حاضراً مع إخوة يوسف حين تآمروا على أخيهم وأجمعوا أمرهم على إلقائه في الجب، وهم يحتالون ويمكرون به وبأبيه ليرسله معهم، وهم في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى، فإنك - يا محمد - لم تشاهدهم حتى تقف على حقيقة القصة وإنما جاءتك بوحي من العليم الخبير.**

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ **هذه تسلية للنبي ﷺ، أي: ليس أكثر الخلق ولو حرصت على إيمانهم وبالغت في إرشادهم بمصدقين لتصميمهم على الكفر فقد أصبحت مقاصدهم ومداركهم فاسدة.**

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ **أي: وما تطلب منهم على هذا النصح، والدعاء إلى الخير والرشد أجره حتى يثقل عليهم، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحاً لخلقه.**

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ **أي: ما هذا القرآن إلا عظة وتذكير للعالمين، يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم ليتركوه، وأنت لا تطلب في تلاوته عليهم مالاً، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا.**

*** يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض، قال تعالى:**

﴿١٠٥﴾-﴿١٠٧﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **أي: كم من الآيات والعلامات الدالة على وحدانية الله - جل وعلا - وعظمته، الكائنة في السموات والأرض كالشمس والقمر والنجوم، والجبال والبحار والأشجار، وسائر ما فيهما من العجائب.**

﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ **أي: يشاهدونها ليل نهار، ويمرون عليها بالعشي والإبكار، وهم لا يفكرون فيها ولا يعتبرون، فلا تتعجب من إعراضهم عنك، فإن إعراضهم عن هذه الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته أغرب وأعجب.**

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ **أي: لا يؤمن أكثر هؤلاء المكذبين من قومك إلا إذا أشركوا مع الله غيره، فإنهم يقرون بأن الله هو الخالق الرازق ويعبدون معه الأصنام.**

﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ **أفأمن هؤلاء المكذبون عقوبة من عذاب الله تغشاهم وتشملهم؟**

﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ **أو تأتيهم القيامة بأهوالها فجأة من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون؟ والاستفهام إنكاري وفيه معنى التوبيخ.**

*** ثم يقول ﷻ لنبيه محمد ﷺ مبيناً وموضحاً سننه وطريقته:**

﴿١٠٨﴾ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ

ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ قل - يا محمد - للناس هذه طريقي ومنهجي واضحة مستقيمة لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة، وهو السبيل الموصلة إلى الله، وإلى دار كرامته.

﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أحث الخلق إلى عبادة الله وطاعته، على بيان وحجة واضحة وأرغبهم في ذلك، وأرهبهم مما يبعدهم عنه.

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ أي: أنا ومن تبعني على ديني، أدعو على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية، وكذلك يدعو إلى الله من اتبعني.

﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: وأنزهه سبحانه عن الشركاء والأنداد، فأنا مؤمن موحد أعبد الله مخلصاً له الدين ولست من المشركين.

* ثم يذكر تعالى حال الرسل مع أقوامهم:

﴿١٠٩﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ أي: وما أرسلنا من قبلك - يا محمد - إلا رجالاً من البشر لا ملائكة من السماء، نوحي إليهم آياتنا للدعاء إلى طاعتنا. والآية رد على من أنكر أن يكون النبي من البشر، أو زعم أن في النساء نبيات.

﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ أي: من أهل المدن والأمصار لا من أهل البوادي. قال الحسن: لم يبعث الله نبياً من أهل البادية قط ولا من النساء ولا من الجن، قال المفسرون: وإنما كانوا من أهل الأمصار لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة.

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: وإذا لم يصدقوا قولك، فليسر هؤلاء المكذبين في الأرض فينظروا نظر تفكر وتدبر ما حل بالأمم السابقين ومصارع المكذبين فيعتبرون بذلك؟ والاستفهام للتوبيخ.

﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: الجنة وما فيها من النعيم المقيم خير للمؤمنين المتقين من هذه الدار التي ليس فيها قرار، أفلا تكون لكم عقول تؤثر الذي هو خير على الأدنى.

* ثم يخبر تعالى، أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللئام، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق، قال تعالى:

﴿١١٠﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: يئس الرسل من إيمان قومهم على كمال يقينهم وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ أي: أيقن الرسل أن قومهم كذبوهم، أتاهم النصر عند اشتداد الكرب، ففي اللحظة التي تستحكم فيها الشدة ويأخذ فيها الكرب بالمخانق، ولا يبقى أمل في غير الله، في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً.

﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ أي: فنجينا الرسل والمؤمنون بهم من دون الكافرين.

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ ولا يرد عذابنا وبطشنا عن المجرمين إذا نزل بهم بعد بيان الحجة والإمهال.

* ثم ختمت السورة الكريمة بخاتمة سعيدة بعدما جرى ليوسف ﷺ، وفيها تصبير لرسول الله ﷺ على أذى قريش، كأنه يقول: إن إخوة يوسف مع موافقتهم إياه في الدين ومع الأخوة؛ عملوا بيوسف ما عملوا من الكيد والمكر وصبر على ذلك، فأنت مع مخالفة قومك إياك في الدين أحرى أن تصبر على أذاهم، قال تعالى:

﴿١١١﴾ ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
بِغَيْرِ عَمَدٖ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ
كُلّٞ يَجْرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم
بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ
وَأَنْهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ
ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣ وَفِي ٱلْأَرْضِ
قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنْ أَعْنَٰبٖ وَزَرْعٞ وَنَخِيلٞ صِنْوَانٞ
وَغَيْرُ صِنْوَانٖ يُسْقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٖ
فِي ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَعْقِلُونَ ٤ ۞وَإِن تَعْجَبْ
فَعَجَبٞ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٖ جَدِيدٍۗ
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ
أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥

٢٤٩

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: لقد كان في قصة يوسف وإخوته عظة وتذكرة لأولي العقول النيرة يعتبرون بها، حيث نقل من غاية الحب إلى غيابة الجب، ومن الحصير إلى السرير، فصارت عاقبة الصبر سلامة وكرامة، ونهاية المكر وخامة وندامة.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ ما كان هذا القرآن أخباراً تروى، أو أحاديث تختلق.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولكن كان هذا القرآن مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية المنزلة من قبل يوافقها ويشهد لها بالصحة.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: تبيان كل ما يحتاج إليه العباد من أحكام الحلال والحرام، والشرائع والأحكام من أصول الدين وفروعه.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: هداية من الضلالة، ورحمة من العذاب لقوم يصدقون به، ويعملون بأوامره ونواهيه.

تم تفسير سورة يوسف
والحمد لله

تفسير سورة الرعد
وهي مدنية

* سورة الرعد من السور المدنية، موضوعها التوحيد، ومسرح آياتها السموات والأرض، وما فيها من بدائع الخلق ودلائل القدرة.

وقد ابتدأت السورة الكريمة بالقضية الكبرى، قضية الإيمان بوجود الله ووحدانيته، فمع سطوع الحق ووضوحه، كذب المشركون بالقرآن، وجحدوا وحدانية الرحمن، فجاءت الآيات تقرر كمال قدرته تعالى، وعجيب خلقه في السموات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والزروع والثمار، وسائر ما خلق الله في هذا الكون الفسيح البديع.

وسميت سورة الرعد لتلك الظاهرة الكونية العجيبة، التي تتجلى فيها قدرة الله وسلطانه، فالماء جعله الله سبباً للحياة، وأنزله بقدرته من السحاب، والسحاب جمع الله فيه بين الرحمة والعذاب، فهو يحمل المطر ويحمل الصواعق، وفي الماء الإحياء، وفي الصواعق الإفناء، وجمع النقيضين من العجائب، قال تعالى:

(١) ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿الٓمٓر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن وقال ابن عباس: معناه: أنا الله أعلم وأرى.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذه آيات القرآن المعجز، الذي فاق كل كتاب.

﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ والذي أوحي إليك - يا محمد - في هذا القرآن هو الحق الذي لا يلتبس بالباطل، ولا يحتمل الشك والتردد.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ومع وضوحه وجلائه كذب به أكثر الناس؛ إما جهلاً وإعراضاً عنه وعدم اهتمام به، وإما عناداً وظلماً، فلذلك أكثر الناس؛ غير منتفعين به، لعدم السبب الموجب للانتفاع.

* ثم يخبر تعالى عن انفراده بالخلق والتدبير، والعظمة والسلطان، الدال على ما يوجب الإيمان أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، قال تعالى:

(٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٖ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلّٞ يَجْرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي: خلقها مرتفعة البناء، قائمة بقدرته لا تستند على شيء حال كونكم تشاهدونها وتنظرونها ليس لها عمد من تحتها، وذلك دليل وجود الخالق المبدع الحكيم.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ثم بعد ما خلق السموات والأرض استوى على العرش، استواء يليق بجلاله، ويناسب كماله من غير تجسيم ولا تكييف ولا تعطيل.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ذلل الشمس والقمر لمصالح العباد ومنافع البلاد، كل يسير بقدرته تعالى سيراً منتظماً إلى زمن معين هو زمن فناء الدنيا.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ هذا جمع بين الخلق والأمر، أي: قد استوى الله العظيم على سرير الملك، يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغني ويفقر، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويقيل العثرات، ويفرج الكربات، وينفذ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه، وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: وينزل الكتب الإلهية على رسله، ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها.

﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي: لتصدقوا بلقاء الله وتوقنوا بالمعاد إليه، لأن من قدر على ذلك كله فهو قادر على إحياء الإنسان بعد موته.

* لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال تعالى:

﴿٣﴾، ﴿٤﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: هو تعالى بقدرته بسط الأرض وجعلها ممدودة فسيحة، وأودع فيها من مصالح العباد ما أودع.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: وخلق في الأرض جبالاً ثوابت رواسخ لئلَّا تضطرب بأهلها.

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي: وجعل فيها مياهاً جارية في الأرض تسقي الآدميين وبهائمهم وحروثهم، فأخرج بها من الأشجار والزروع والثمار خيراً كثيراً، ولهذا قال:

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: جعل فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين اثنين ذكراً وأنثى ليتم بينهما أسباب الإخصاب والتكاثر.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يلبسه إياه فيصير الجو مظلماً بعدما كان مضيئاً فتظلم الآفاق، فيسكن كل حيوان إلى مأواه، ويستريحون من التعب والنصب في النهار، ثم إذا قضوا مآربهم من النوم، غشى النهار الليل، فإذا هم مصبحون منتشرون في مصالحهم وأعمالهم في النهار.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن في عجائب صنع الله لدلالات وعلامات باهرة على قدرته ووحدانيته لمن تأمل وتفكر، وخص المتفكرون بالذكر؛ لأن ما احتوت عليه هذه الآيات من الصنيع العجيب لا يدرك إلا بالتفكر. ثم ذكر من الآيات على كمال قدرته، وبديع صنعه ما ذكر:

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أي: في الأرض بقاع مختلفة متلاصقات قريب بعضها من بعض، وهذه أرض طيبة تنبت، وهذه أرض سبخة إلى جنبها لا تنبت.

﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ أي: بساتين كثيرة من أشجار العنب.

﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي: وفي هذه القطع المتجاورة أنواع الزروع والحبوب والنخيل الرطب، منها ما ينبت منه من أصل واحد شجرتان فأكثر، ومنها ما ينبت منه شجرة واحدة.

﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ أي: الكل يسقى بماء واحد، والتربة واحدة، ولكن الثمار مختلفات الطعوم، فترى الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ، والكمثري، والعنب الأبيض

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن
قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ
أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ
هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ
وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ
أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ
بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ
يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟
مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا
لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا
وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

٢٥٠

والأسود، بعضها حلو، وبعضها حامض، وبعضها أفضل من بعض مع اجتماع جميعها على شرب واحد؛ فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها، أم ذلك تقدير العزيز الرحيم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: علامات باهرة ظاهرة لمن عقل وتدبر، وأما أهل الإعراض، وأهل البلادة فهم في ظلماتهم يعمهون.

* بعد أن بين لهم تعالى من خلق السموات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل في القدرة، قال تعالى:

﴿٥﴾ ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: إن تعجب ـ يا محمد ـ من شيء فليس ما هو أعجب من قول الكفار أئذا متنا وأصبحنا رفاتاً هل سنبعث من جديد؟ فإن إنكارهم للبعث حقيق أن يتعجب منه، فإن الذي قدر على إنشاء ما ذكرنا من السموات والأرض، والأشجار والثمار، والبحار والأنهار قادر على إعادتهم بعد موتهم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ أي: هؤلاء الذين أنكروا البعث هم الجاحدون لقدرة الله وهي أظهر الأشياء وأجلاها.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: يغلون بالسلاسل في أعناقهم يوم القيامة حيث دعوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا، وهم في جهنم مخلدون فيها أبداً، لا يموتون فيها، ولا يخرجون.

* ثم يخبر تعالى عن جهل المشركين به المكذبين لرسوله، فيقول سبحانه:

﴿٦﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: يستعجلك المشركون -يا محمد- بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية، استعجلوا ما هددوا به من عذاب الدنيا استهزاءً.

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ أي: والحال أنه قد مضت عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لا يعتبرون ولا يتعظون من وقائع الله وأيامه. ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي: لا يزال خيره إليهم، وإحسانه وبره وعفوه نازلاً إلى العباد، وهو ذو صفح عظيم للناس، لا يعجل لهم العقوبة، وإن كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: شديد العقاب لمن أصر على المعاصي ولم يتب من ذنوبه. قرن تعالى بين سعة حلمه وشدة عقابه ليبقى العبد بين الرغبة والرهبة، والرجاء والخوف.

* ولم يعتد المشركون بالآيات المنزلة على رسول الله ﷺ عناداً، فاقترحوا نحوا آيات موسى وعيسى من انقلاب العصا حية وإحياء الموتى، قال تعالى:

﴿٧﴾ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي: ويقترح الكفار عليك من الآيات، يقول المشركون

هلَّا أنزل على محمد معجزة تدل على صدقه مثل معجزات موسى وعيسى، لم يعتدوا بالآيات الخارقة المنزلة كانشقاق القمر، وانقياد الشجر، ونبع الماء من بين الأصابع وأمثال هذه المعجزات، فاقترحوا عناداً آيات أخرى ويجعلون هذا عذراً لهم في عدم الإجابة إلى الرسول، والحال أنه ﷺ، كما قال تعالى عنه:

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ جواب لما اقترحوا، أي: لست أنت - يا محمد - إلا محذر ومبصر، شأنك شأن كل رسول قبلك، فلكل قوم نبي يدعوهم إلى الله، وأما الآيات الخارقة فأمرها إلى مدبر الكون والعباد.

* ثم يخبر تعالى بعموم علمه، وسعة اطلاعه، وإحاطته بكل شيء، فقال:

﴿٨﴾، ﴿٩﴾ ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ * عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي: الله وحده الذي يعلم ما تحمله كل أنثى في بطنها هل هو ذكر أم أنثى؟ تام أم ناقص؟ حسن أو قبيح.

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ وما تنقصه الأرحام بإلقاء الجنين قبل تمامه أو يتضاءل أو يضمحل.

﴿وَمَا تَزۡدَادُ﴾ أي: وما تزداد على الأشهر التسعة. قال ابن عباس: ما تغيض بالوضع الأقل من تسعة أشهر، وما تزداد بالوضع الأكثر من تسعة أشهر، وعنه المراد بالغيض: السقط الناقص، وبالازدياد: الولد التام.

﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ وكل شيء من الأشياء عند الله تعالى بقدر محدود لا يتجاوزه حسب المصلحة والمنفعة بما تقتضيه حكمته وعلمه.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ما غاب عن الحس، وما كان مشاهداً منظوراً، فعلمه تعالى شامل للخفي والمرئي، لا يخفى عليه شيء.

﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ العظيم الشأن، الذي كل شيء دونه، المستعلي على كل شيء بقدرته، المنزه عن المشابهة والمماثلة.

* لما بين تعالى أنه عالم بما يسرونه في أنفسهم، وما يجهرون به لغيره، وأن ذلك لا يتفاوت عنده، قال:

﴿١٠﴾، ﴿١١﴾ ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ * لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ أي: يستوي في علمه تعالى ما أضمرته القلوب، وما نطقت به الألسنة.

﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: ويستوي عنده كذلك من هو مستتر بأعماله في ظلمات الليل وهو في غاية الاختفاء، ومن هو ذاهب في طريقه بوضح النهار مستعلن لا يستخفي فيما يعمل وهو في غاية الظهور.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لهذا الإنسان ملائكة موكلة به تتتابع في حفظه تأتي بعضهم يعقب بعضاً، من أمام الإنسان ومن ورائه يحفظون بدنه وروحه من كل من يريده بسوء، من الأخطار والمضار بأمره تعالى، ويحفظون عليه أعماله. قال مجاهد: ما من عبد إلا وملك موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ أي: لا يزيل نعمته وإحسانه ورغد العيش عن قوم ولا يسلبهم إياها، إلا إذا بدلوا أحوالهم بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها، وهذه من سنن الله الواضحة البينة، أنه تعالى لن يبدل ما بقوم من عافية ونعمة، وأمن وعزة إلا إذا كفروا تلك النعم وارتكبوا المعاصي، وفي الأثر: «أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية، ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون» [رواه ابن أبي شيبة].

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي: وإذا أراد تعالى هلاك قوم أو عذابهم، فلا يقدر على رد ذلك أحد فإن إرادته لا بد أن تنفذ فيهم.

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي: ليس لهم من دون الله وليٌّ يدفع عنهم العذاب والبلاء ويرده.

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا
كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ
إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ
لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ
تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ
ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ
كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ
وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ
ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟
لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

٢٥١

* ثم ذكر تعالى بيانـــاً لآثار قدرته تعالى المنبثة في الكون، فقال:

﴿١٢﴾، ﴿١٣﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۞ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: يريكم أيها الناس البرق الخاطف من خلال السـحاب، خوفاً من الصواعق وطمعــاً في الغيث، فإن البرق غالباً مــا يعقبه صواعق مدمرة، وقد يكون وراءه المطر المدرار الذي به حياة البلاد والعباد.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي: وبقدرته كذلك يخلق السحب الكثيفة المحملة بالماء الكثير الذي به نفع البلاد والعباد.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي: يسبح الرعد - وهـو الصوت - له تسـبيحاً مقترناً بحمده والثناء عليه، وتسـبح له الملائكـة خشـعاً لربهم، خائفـين مـن سـطوته. وتسـبيح الرعـد حقيقة دل عليها القـرآن فنؤمن بهـا، وإن لم نفهـم تلـك الأصوات، فهـو تعالى لا يخبر إلا بما هو حق.

﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ ويرسـل الصواعق المدمرة - وهـي النار التـي تخرج من السحاب - نقمة يهلك بها من شاء من عباده.

﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي: وكفار مكة يجادلون في وجـود الله ووحدانيته وفي قدرته على البعث، وهو تعالى شـديد القوة والبطش والنـكال، القادر على الانتقام ممن عصاه. عن أنس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً إلى جبار من فراعنة العرب فقال: «اذهب فادعه لي» فقال يا رسـول الله: إنه جبـار عات، قال: «اذهب فادعه لي»، فذهب إليه فقال: يدعوك رسـول الله ﷺ فقال: أخبرني عن إله محمـد أمِنْ ذهب هـو أو من فضة أو من نحاس؟ فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما قال الرجل وقال له: ألم أخبرك أنه أعتى مـن ذلك؟ فقال: «ارجع إليـه الثانية فادعه لي»، فرجع إليه فأعــاد عليه ذلك الكلام، فبينا هو يجادله إذ بعث الله عليه سـحابة حيال رأسـه، فرعدت فوقعت منها صاعقة فذهبـت بقحف رأسـه فأنـزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

* وبعد أن ذكر تعالى أنه هو وحده، الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التـي فيها مادة أرزاقهـم، وهو الذي يدبر الأمور، وتخضع لـه المخلوقات العظام التي يخاف منها، وتزعج العباد، وهو شديد القوة والقهر؛ فإنه هو الذي يسـتحق أن يعبد وحده لا شريك له، ولهذا قال سبحانه:

﴿١٤﴾ ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لله تعالى تتجه الدعوة الحق فهو الحقيق بأن يعبد وحـده بالدعاء والالتجـاء والخوف والرجاء، والحب، والرغبة، والرهبة، والإنابـة؛ لأن ألوهيتـه هـي الحق، وألوهية غيره باطلة.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ أي: والآلهة الذيـن يدعوهم الكفار مـن دون الله، لا يسـتجيبون لهم دعاءً، ولا يسـمعون لهم نداءً ولا ينفعونهم بشيء لا قليل ولا كثير، لا من أمور الدنيا، ولا من أمور الآخرة.

﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي: إلا كمن يبسط كفيه للماء من بعيد يدعوه ويناديه ليصل الماء إلى فمه، والماء جماد لا يحس ولا يسمع. شبه حال المشركين في عدم حصولهم عند دعاء آلهتهم على شيء أصلاً بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل، قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى فمه وليس الماء ببالغ فمه أبداً لكونه جماداً لا يشعر بعطشه.

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ أي: ما دعاؤهم والتجاؤهم لآلهتهم إلا في ضياع وخسار؛ لأنه لا يجدي ولا يفيد.

* ثم يخبر تعالى من عظمته وسلطانه، الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، قال تعالى:

﴿١٥﴾ ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ أي: ولله وحده يخضع وينقاد ويسجد أهل السموات وأهل الأرض، طائعين وكارهين. فالمؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كرهاً، أي في حال الفزع والاضطرار.

﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩﴾ أي: وتسجد ظلال المخلوقات أيضاً لله في أول النهار وأواخره، والغرض الإخبار عن عظمة الله تعالى وسلطانه الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، بأنه ينقاد لجلاله جميع الكائنات حتى ظلال الآدميين، والكل في نهاية الخضوع والاستسلام لأمره تعالى ولهذا ذكر بطلانها، وبرهن عليه بقوله:

﴿١٦﴾ ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾.

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين من خالق السموات والأرض ومدبر أمرهما؟ والسؤال للتهكم والسخرية بما عبدوا من دون الله.

﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ أي: قل لهم تقريعاً وتبكيتاً: الله خالقهما.

﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾ أي: قل لهم - إلزاماً لإقامة الحجة عليهم - أجعلتم لله شركاء وعبدتموهم من دونه وهم لا يقدرون على نفع أنفسهم، ولا على دفع الضر عنها، فكيف يستطيعونه لغيرهم؟

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ هذا تمثيل لضلالهم في عبادة غير الله، والمراد بالأعمى الكافر، وبالبصير المؤمن، وبالظلمات الضلال، وبالنور الهدى، أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير، وكما لا تستوي الظلمات والنور، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر ضياء الحق، والمشرك الذي عمي عن رؤية ذلك الضياء، فالفارق بين الحق والباطل واضح وضوح الفارق بين الأعمى والبصير، والفارق بين الإيمان والضلال ظاهر ظهور الفارق بين النور والظلام.

﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ هذا من تمام الاحتجاج عليهم والتهكم بهم، أي: أم اتخذ هؤلاء المشركون آلهة خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله فالتبس الأمر عليهم فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم؟ وهو تهكم لاذع فإنهم يرون كل شيء من خلق الله، ويرون هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئاً ثم بعد هذا كله يعبدونها من دون الله، وذلك أسخف وأحط ما تصل إليه عقول المشركين، ولما أقام الحجة عليهم جاء بهذا البيان الواضح:

﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ أي: الله الخالق لجميع الأشياء لا خالق غيره، وهو المتفرد بالألوهية والربوبية، الغالب لكل شيء، وجميع الأشياء تحت قدرته وقهره.

* وثم بعد ذكر الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على انفراده - جل وعلا - بالخلق والإيجاد، والإحياء والإماتة، والنفع والضر، وأن دعوة الله هي دعوة الحق، ودعوة ما يعبدون من دونه هي الباطل ضرب تعالى مثلين للحق والباطل؛ أحدهما: في الماء ينزل من السماء، فتسيل به الأودية والشعاب، ثم هو يجرف في طريقه

الجزء الثالث عشر سورة الرعد

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ
أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ
﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ
بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾
وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ
مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ
ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا
مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ
إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

٢٥٢

الغثاء، فيطفو على وجهه الزبد الذي لا فائدة فيه، والثاني: في المعادن التي تذاب لتصاغ منها الأواني وبعض الحلية كالذهب والفضة، وما يعلو هذه المعادن من الزبد والخبث، الذي لا يلبث أن يذهب جفاء ويضمحل ويتلاشى، ويبقى المعدن النقي الصافي.

*** وهما مثلان مضروبان للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، قال تعالى:**

﴿١٧﴾ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ **أي: أنزل تعالى من السماء مطراً، فجرت مياه الأودية بمقدار سعتها كل بحسبه، فالكبير بمقدار كبره، والصغير بمقدار صغره.**

﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ **أي: حمل السيل الذي حدث من الأمطار زبداً عالياً فوقه وهو ما يحمله السيل من غثاء، ورغوة تظهر على وجه الماء، وهذا مثل ضربه الله للحق والباطل، والإيمان والكفر، فمثل الحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله، مثل الماء الذي أنزل الله من السماء إلى الأرض، فاحتمل السيل زبداً عالياً، فالحق هو الماء الباقي الذي يمكث في الأرض، والزبد الذي لا ينتفع به هو الباطل، وهذا أحد مثلي الحق والباطل، والمثل الآخر قوله تعالى:**

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ **أي: ومن الذي يوقد عليه الناس من المعادن كالذهب والفضة والنحاس، مما يسبك في النار طلب الزينة أو الأشياء التي ينتفع بها كالأواني زبد مثل زبد السيل، لا ينتفع به كما لا ينتفع بزبد السيل.**

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ **أي: كذلك يضرب الله المثل للحق والمثل للباطل، فمثل الحق في ثباته واستقراره كمثل الماء الصافي الذي يستقر في الأرض فينتفع منها الناس، ومثل الباطل في زواله واضمحلاله كمثل الزبد والغثاء الذي يقذف به الماء يتلاشى ويضمحل.**

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ **فأما الزبد الذي لا خير فيه مما يطفو على وجه الماء والمعادن فإنه يجري به السيل ويقذفه ويتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي.**

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ **وأما ما ينتفع الناس به من الماء الصافي، والمعدن الخالص فيبقى ويثبت في الأرض.**

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ **أي: مثل المثلين السابقين يبين الله الأمثال للحق والباطل، والهدى والضلال ليعتبر الناس ويتعظوا، وليتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال.**

*** لما بين تعالى الحق من الباطل، ذكر أن الناس على قسمين: مستجيب لربه، فذكر ثوابه، وغير مستجيب فذكر عقابه، فقال:**

﴿١٨﴾ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ **أي: للمؤمنين الذين انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لربهم**

فيما يريده منهم، فلهم الحسنى وهي الجنة دار النعيم.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ أي: لم يجيبوا ربهم إلى الإيمان به وهم الكافرون بعد ما ضرب لهم الأمثال، وبين لهم الحق، لهم الحالة غير الحسنة.

﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أي: لو كان لهم جميع ما في الدنيا من الأموال والذهب والفضة وغيرها، ومثل جميع ما في الدنيا.

﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓ﴾ أي: لبذلوا كل ذلك فداءً لأنفسهم ليتخلصوا من عذاب الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: لهم الحساب السيء، يحاسبون بذنوبهم كلها لا يغفر لهم منها شيء، يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عذب، ولهذا قال:

﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي: المكان الذي يأوون إليه يوم القيامة نار جهنم الجامعة لكل عذاب من الجوع الشديد، والعطش الوجيع، والنار الحامية، والزقوم والزمهرير، والضريع، وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ أي: بئس هذا المستقر والفراش الممهد لهم في النار.

* ثم يقول تعالى مفرقاً بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم:

﴿١٩﴾ ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، أي: هل يستوي من آمن وصدق بما نزل عليك - يا محمد - ومن بقي يتخبط في ظلمات الجهل والضلال لا لب له كالأعمى؟ والمراد به عمى البصيرة، قيل: نزلت في حمزة وأبي جهل.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها ذوو العقول السليمة، والآراء الكاملة، وصفوة بني آدم.

* ثم عدد تعالى صفات أهل السعادة، فلا تجد أحسن من وصف الله لهم، بقوله:

﴿٢٠﴾-﴿٢٤﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ * وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ * وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ * جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ أي: يتمون عهد الله الذي وصاهم به وهي أوامره ونواهيه التي كلف بها عباده، فالوفاء بها توفيتها حقها من التتميم لها، والنصح فيها.

﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ أي: ومن تمام الوفاء بها أنهم لا يخالفون ما وثقوه على أنفسهم من العهود المؤكدة بينهم وبين الله وبين العباد.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي: وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله؛ ومنها صلة يصلون الأرحام التي أمر الله بصلتها والإحسان إليهم، وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف، والسبب الذي يجعل العبد واصلاً ما أمر الله به أن يوصل، خشية الله وخوف يوم الحساب، ولهذا قال:

﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ أي: يهابون ويخافون ربهم إجلالاً وتعظيماً فيمنعهم خوفهم منه، ومن القدوم عليه يوم الحساب، أن يتجرؤوا على معاصي الله، أو يقصروا في شيء مما أمر الله به، خوفاً من العقاب ورجاءً للثواب.

﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: يخافون الحساب السيء المؤدي لدخول النار، فهم لرهبتهم جادون في طاعة الله، محافظون على حدوده، ومن حق هذه الخيفة أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

قال جعفر بن محمد: صلة الرحم تهون يوم الحساب يوم القيامة، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: صبروا على المأمورات بالامتثال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد عنها، وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها ولكن بشرط أن يكون

ذلك الصبر ابتغاء مرضاة الله، لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: أدوا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها، وأنفقوا بعض أموالهم التي أوجبها الله عليهم في الخفاء والعلانية.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون الجهل بالحلم والأذى بالصبر، فيعطون من حرمهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم. قال ابن عباس: يدفعون بالعمل الصالح السيء من الأعمال، بمعنى: يفعلون الحسنات ليدرؤوا بها السيئات، وفي الحديث: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» [رواه الترمذي].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أولئك الذين وصفت صفاتهم الجليلة ومناقبهم الجميلة، لهم العاقبة المحمودة في الدار الآخرة وهي الجنة، وقد جاء تفسيرها في قوله:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ جنات إقامة خالدة، يدخلها أولئك الأبرار، ومن كان صالحاً من آبائهم ونسائهم وأولادهم، ليأنسوا بلقائهم ويتم بهم سرورهم، وذلك من تمام نعيمهم وقرة أعينهم، وإن لم يكونوا يستحقون هذه المنازل العالية بأعمالهم، فترفع منازل هؤلاء إكراماً لأولئك وذلك فضل الله، ثم إن لهم إكراماً آخر بينه تعالى بقوله:

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ والملائكة تدخل عليهم للتهنئة من كل باب من أبواب الجنة يهنئونهم بالسلامة وكرامة الله لهم، ويقولون لهم:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي: حلت عليكم السلامة والتحية من الله وحصلت لكم، وسلمتم من الآفات والمحن بصبركم في الدنيا، ولئن تعبتم فيما مضى فلقد استرحتم الساعة، وهذه بشارة لهم بدوام السلامة.

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: نعمت هذه العاقبة الحميدة عاقبتكم، وهي الجنة بدل النار.

* ولما ذكر تعالى أوصاف المؤمنين التسع، أعقبه بذكر أوصاف الكافرين الذميمة، فقال:

٢٥ ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي: ينقضون عهودهم بعدما وثقوا على أنفسهم لله أن يعملوا بما عهد إليهم من طاعته والإيمان به.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام التي أمر الله بوصلها.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي، والصد عن سبيل الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح لهم البعد من رحمته، والطرد من جنته، ولهم ما يسوءهم في الدار الآخرة، وهو عذاب جهنم بما فيها من العذاب الأليم.

* لما ذكر تعالى عاقبة المشركين ومآلهم، ذكر أنه الرازق لهم ولغيرهم، فقال:

٢٦ ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: هو وحده -جل وعلا-، يوسع الرزق على من يشاء من عباده، ويضيق على من يشاء، حسب الحكمة والمصلحة.

﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وفرح هؤلاء المشركون بنعيم الدنيا فرح أشر وبطر، لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم، وقد أوجب لهم الأشر والبطر أن يطمئنوا ويركنوا إليها، ويغفلوا عن الآخرة، وذلك لنقصان عقولهم، وهو إخبار في ضمنه ذم وتسفيه لمن فرح بالدنيا، ولذلك حقرها بقوله:

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ أي: قليل وشيء حقير بالنظر إلى الآخرة يتمتع به أهله قليلاً، ويفارق أهله وأصحابه، ويعقبهم ويلاً طويلاً.

* ثم يخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات الله يتعنتون على رسول الله، ويقترحون.

(٢٧)-(٢٩) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ **ويقول كفار مكة هلا أنزل على محمد معجزة من ربه مثل معجزة موسى في فلق البحر، ومعجزة عيسى في إحياء الموتى ونحو ذلك، وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا، فأجابهم الله بقوله:**

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ **أي: قل لهم - يا محمد - الأمر بيد الله وليس إليّ، يضل من يشاء إضلاله بعد ظهور المعجزات، فلا تغني عنه الآيات والنذر شيئاً، ويرشد إلى دينه من أراد هدايته لأنه رجع إلى ربه بالتوبة والإنابة، وقد خرج بالكلام مخرج التعجب حين طلبوا آية، والمعنى: قد جاءكم محمد ﷺ بالقرآن وآيات كثيرة فعميتم عنها، وطلبتم غيرها، وتماديتم على الكفر، فإنه تعالى يضل من يشاء مع ظهور الآيات، ويهدي من يشاء دون ذلك. ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين، فقال:**

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ **يزول قلقها واضطرابها وتحضرها أفراحها ولذاتها، وتسكن وتستأنس قلوبهم بذكر الله وتوحيده، وجيء بصيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره.**

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ **أي: حقيق بها، وحريٌّ أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألذ للقلوب، ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها، والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له يكون ذكرها له، وذكر الله يشمل التسبيح والتهليل والتكبير، وقراءة القرآن وغير ذلك.**

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

قال الألوسي: «الطمأنينة نور يُفيضه الله - تعالى - على قلب المؤمن بسبب ذكره، فيذهب ما فيها من القلق والوحشة».

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ **أي: أما المؤمنون أهل الأعمال الصالحة فقرَّة عين لهم وفرح، ونعم ما يلقون من الهناءة والسعادة والحالة الطيبة والمرجع الحسن؛ وذلك بما ينالون من رضوان الله وكرامته في الدنيا والآخرة.**

* **ثم ذكر تعالى تسلية لنبيه محمد ﷺ حال الأمم السابقة فقال:**

(٣٠) ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ **يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما أرسلنا الأنبياء من قبلك كذلك أرسلناك -يا محمد- في أمة قد مضت قبلها أمم كثيرة، فهي آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء، فلست ببدع من الرسل حتى يستنكروا رسالتك.**

﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ **أي: لتبلغهم هذا الوحي العظيم والذكر الحكيم.**

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ **أي: والحال أنهم يكفرون بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، ولم يقابلوا رحمته وإحسانه التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولاً، وأنزلنا عليك كتاباً بالقبول والشكر، بل قابلوه بالإنكار والرد. قال ابن عباس: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: «اسجدوا للرحمن» قالوا: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟ فأنزل الله:** ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

الجزء الثالث عشر — سورة الرعد

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ٢٩
كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ
عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّي
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ٣٠ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا
سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ
بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ
ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم
بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ
ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ٣١ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن
قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابِ ٣٢ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْۗ وَجَعَلُواْ
لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم
بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ٣٣ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ٣٤

٢٥٣

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين إن الرحمن الذي كفرتم وأنكرتم معرفته هو ربي الذي آمنت به لا معبود لي سواه وهذا متضمن للتوحيدين؛ توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، فهو ربي الذي رباني بنعمه منذ أوجدني، وهو إلهي الذي:

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: عليه وحده اعتمدت في جميع أموري، وإليه توبتي ومرجعي فيثيبني على مجاهدتكم، والغرض تسلية النبي ﷺ مما يلقاه من كفار قريش من الجحود والعناد فقد كذب قبلهم الأمم.

* ثم بين تعالى فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة، فقال:

(٣١) ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: لو كان كتاب من الكتب المنزلة سيرت بتلاوته الجبال وزعزعت عن أماكنها.

﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: شققت به الأرض حتى تتصدع وتصير قطعاً، أو خوطبت به الموتى حتى أجابت وتكلمت بعد أن أحياها الله بتلاوته عليها، وجواب (لَوْ) محذوف تقديره: لكان هذا القرآن، لكونه غاية في الهداية والتذكير، ونهاية في الإنذار والتخويف، لما آمنوا لغلوهم في المكابرة والعناد، وتماديهم في الضلال والفساد.

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بل للإضراب، والمعنى: لو أن قرآناً فعل به ما ذكر لكان ذلك هذا القرآن، ولكن الله لم يجبهم إلى ما اقترحوا من الآيات، لأنه هو المالك لجميع الأمور والفاعل لما يشاء منها من غير أن يكون لأحد عليه تحكم واقتراح.

﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي: أفلم يقنط وييأس المؤمنون من إيمان الكفار، ويعلموا أنه تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم؛ لأن الأمر له، ولكنه لا يشاء ذلك، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ ولا يزال كفار مكة يصيبهم بسوء أعمالهم وكفرهم داهية ونازلة تقرع أسماعهم وتقلق بالهم من صنوف البلايا والمصائب، وهم لا يعتبرون ولا يتعظون، والله تعالى يوالي عليهم القوارع التي تصيبهم في ديارهم.

﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أو تحل القارعة والداهية قريباً من ديارهم فيفزعون منها ويتطاير إليهم شررها وهم مصرون على كفرهم.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ الذي وعدهم به، لنزول العذاب المتصل الذي لا يمكن رفعه، ومن ذلك إظهار الإسلام وانتصار المسلمين عليهم بفتح مكة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لا يخلف وعده لرسله وأوليائه بنصرتهم على أعدائه، وهذا تهديد لهم وتخويف من نزول ما وعدهم به على كفرهم وعنادهم وظلمهم.

* ثم يقول ﷻ لرسوله محمد ﷺ، مثبتاً له ومسلياً، وذاكراً لحال من سبقه من الأنبياء:

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية وتأنيس للنبي ﷺ، أي: كما استهزأ بك المشركون، فقد استهزأ المجرمون برسلهم وأنبيائهم، فلست أول رسول كُذب وأوذي.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي: أمهلتهم وتركتهم لما كذبوا برسلهم في أمن ودعة حتى ظنوا أنهم غير معذبين ثم أخذتهم بأنواع العذاب.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف كان عقابي لهم على الكفر والتكذيب؟ كان عقاباً شديداً وعذاباً أليماً، فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك واستهزؤوا بك بإمهالنا، فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم، فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك.

(٣٣) ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ

فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: أفمن هو رقيب حفيظ على عمل كل إنسان لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، وهو الله تعالى، والخبر محذوف تقديره: كمن ليس بهذه الصفة من الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تملك من الأمر شيئاً.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ كأنه قيل: هل الله كشركائهم وهو الله الأحد الفرد الصمد، الذي لا شريك له، ولا ند ولا نظير؟ وهذا احتجاج عليهم في إشراكهم بالله؛ يعني أفالله الذي هو قائم رقيب على كل نفس صالحة أو طالحة بما كسبت من خير أو شر وقد أعد لكلٍ جزاءه كمن ليس كذلك.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ وجعل المشركون آلهة عبدوها معه من أصنام وأنداد في منتهى العجز والحقارة والجهالة.

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ قل لهم -يا محمد- إن كانوا صادقين سموهم لنا، وصفوهم لننظر هل لهم ما يستحقون به العبادة والشركة مع الله؟

﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أم تخبرون الله بشركاء لا يعلمهم سبحانه وهو استفهام للتوبيخ.

﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: أم تسمونهم شركاء بظن باطل فاسد لا حقيقة له، لفرط الجهل وسخافة العقل، وأما في الحقيقة، فلا إله إلا الله، وليس أحد من الخلق يستحق شيئاً من العبادة.

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: زين لهم الشيطان ذلك الكفر والضلال وتكذيبهم لآيات الله، ومنعوا عن طريق الهدى الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: ومن يضلله الله فما له أحد يهديه، لأنه ليس لأحد من الأمر شيء.

* ثم ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك:

(٣٤)، (٣٥) ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي: لهؤلاء الكفرة عذاب عاجل في هذه الحياة الدنيا بالقتل والأسر وسائر المحن، ولعذابهم في الآخرة أثقل وأشد إيلاماً من عذاب الدنيا لشدته ودوامه.

﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: وليس لهم من يحميهم ويقيهم من عذاب الله، أو يدفع عنهم سخطه وانتقامه، فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه. ثم لما ذكر تعالى ما يستحق الكفار من العذاب في الأولى والأخرى، ذكر ما أعدّه للمؤمنين، فقال:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: صفة الجنة العجيبة الشأن التي وعد الله بها عباده المتقين الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم الله به، أنها تجري من تحت قصورها وغرفها الأنهار؛ أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقي تلك البساتين والأشجار فتحمل من جميع أنواع الثمار.

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي: ثمرها دائم ولا ينقطع، وظلها دائم لا تنسخه الشمس.

۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ
أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ (٣٥) وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ
أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ
(٣٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ
مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)
يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ (٣٩) وَإِن مَّا
نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ
وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا
مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ
يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٤٢)

﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: تلك الجنة عاقبة المتقين ومآلهم التي إليها يصيرون.

﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ وأما عاقبة الكفار الفجار فهي النار، فكم بين الفريقين من الفرق المبين.

* لما ذكر تعالى ما أعد للكفار في الآخرة، ذكر ما أعد للمؤمنين في جنات النعيم، ثم توعد المشركين بالعذاب الأليم، قال تعالى:

﴿٣٦﴾، ﴿٣٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ * وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ والذين أنزلنا إليهم التوراة والإنجيل ـ ومننا عليهم به وبمعرفته ـ ممن آمن بك واتبعك ـ يا محمد ـ كعبد الله بن سلام والنجاشي وأصحابه يؤمنون بهذا القرآن ويصدقونه ويفرحون به، ولما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به.

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ ومن أهل الملل المتحزبين عليك وهم أهل أديان شتى من ينكر بعض القرآن ولا يصدقه، مكابرة مع يقينهم بصدقه؛ لأنه موافق لما معهم.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ قل ـ يا محمد ـ إنما أمرت بعبادة الله وحده لا أشرك معه غيره.

﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ إلى عبادته أدعو الناس وإليه مرجعي ومصيري فيجازيني بما قمت به من الدعوة إلى دينه، والقيام بما أمرت به.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: ومثل إنزال الكتب السابقة أنزلنا هذا القرآن بلغة العرب لتحكم به بين الناس؛ لأنه كتاب محكم متقن، بأوضح الألسنة، وأفصح اللغات لئلَّا يقع فيه شك واشتباه وليوجب أن يتبع وحده، ولا يداهن فيه، ولا يتبع ما يضاده ويناقضه، من أهواء الذين لا يعلمون، ولهذا توعد رسوله مع أنه معصوم ليمتن عليه بعصمته، ولتكون أمته أسوته في الأحكام، فقال:

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: ولئن اتبعت المشركين فيما يدعونك إليه من الأهواء والآراء بعدما آتاك الله من الحجج والبراهين البينة التي تنهاك عن اتباع أهوائهم.

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ أي: ليس لك ناصر يتولاك وينصرك فيحصل لك الأمر المحبوب، وليس لك واق يقيك من الأمر المكروه، والمقصود تحذير الأمة من اتباع أهواء الناس؛ لأن المعصوم إذا خوطب بمثل ذلك كان الغرض تحذير الناس، والخطاب للنبي ﷺ والمراد الأمة.

* ثم رد ﷻ على الكفار في تعنتهم ومكابرتهم للنبي ﷺ، فقال:

﴿٣٨﴾، ﴿٣٩﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك فلقد أرسلنا قبلك الرسل الكرام.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ وجعلنا لهم النساء والبنين، وهو رد على من عاب على الرسول ﷺ كثرة النساء، وقالوا: لو كان مرسلاً حقاً لكان مشتغلاً بالزهد وترك الدنيا والنساء، فرد الله مقالتهم وبين أن محمداً ﷺ ليس ببدع في ذلك، بل هو كمن تقدم من الرسل. قيل: عيَّرت اليهود رسول الله ﷺ وقالت: ما نرى لهذا الرجل مهمة إلا النساء والنكاح ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: لم يكن لرسول أن يأتي قومه بمعجزة إلا إذا أذن الله له فيها، وهذا ردٌّ على الذين اقترحوا الآيات.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل مدة مضروبة كتاب كتبه الله في اللوح المحفوظ، وكل شيء عنده بمقدار، لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجباً لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر، مع أنه

تعالى فعال لما يريد، لكل أمر قضاه الله كتاب قد كتبه فهو عنده.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: ينسخ الله ما يشاء نسخه من الشرائع، والأقدار والأحكام، وصحف الملائكة الكرام، ويثبت ما يشاء منها دون تغيير. قال ابن عباس: يبدل الله ما يشاء فينسخه إلا الموت والحياة والشقاء والسعادة فإنه قد فرغ منها، وقيل: إن المحو والإثبات عام في جميع الأشياء، لما روي أن عمر بن الخطاب كان يطوف بالبيت ويبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبت عليَّ شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، واجعله سعادة ومغفرة.

﴿وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الأشياء كلها فهو أصلها.

* ثم يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تعجل عليهم بإصابة ما يوعدون به من العذاب، فهم إن استمروا على طغيانهم وكفرهم، فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به، قال تعالى:

﴿٤٠﴾، ﴿٤١﴾ ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ * أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي: وإن أريناك يا محمد بعض الذي وعدناهم من العذاب فتقر بذلك عينك.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي: قبل إصابتهم، فليس ذلك شغلاً لك.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي: ليس عليك إلا تبليغ الرسالة والتبيين للخلق، وعلينا حسابهم وجزاؤهم، ثم قال متوعداً للمكذبين.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أولم ير هؤلاء المشركون أنا نمكن للمؤمنين من ديارهم ونفتح للرسول الأرض بعد الأرض حتى تنقص دار الكفر وتزيد دار الإسلام؟ وذلك من أقوى الأدلة على أن الله منجز وعده لرسوله ﷺ. وقيل: نقصانها: موت العلماء وذهاب الفقهاء.

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ أي: ليس يتعقب حكمه أحد بنقض ولا تغيير، وهذه الأحكام التي يحكم الله فيها، توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط، والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد، ولا سبيل إلى القدح فيها، بخلاف حكم غيره، فإنه قد يوافق الصواب، وقد لا يوافقه.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: سريع الانتقام ممن عصاه فلا يستعجلوا بالعذاب، فإن كل ما هو آت فهو قريب.

* ثم ذكر تعالى حال من كفر وجحد، فقال:

﴿٤٢﴾ ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مكر الكفار الذين خلوا بأنبيائهم كما مكر كفار قريش بك فلم يغن عنهم مكرهم، ولم يصنعوا شيئاً، فإنهم يحاربون الله ويبارزونه.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: له تعالى أسباب المكر جميعاً لا يضر مكرهم إلا بإرادته، فإذا كانوا يمكرون بدينه، فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم، فهو يوصل إليهم العذاب من حيث لا يعلمون.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: هو تعالى مطلع على أعمال العباد من خير وشر، فيجازي عليه، والمكر لا بد أن يكون من كسبها، فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكراً يضر الحق وأهله ويفيدهم شيئاً.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: لمن تكون العاقبة الحسنة في الآخرة، ألهم أو لرسله، ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين لا للكفر وأعماله.

* ثم يرد تعالى على الكفار الذين كذبوا برسالة محمد ﷺ:

﴿٤٣﴾ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ ويقول كفار مكة مكذبين لست - يا محمد - مرسلاً من عند الله.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ قل لهم إن طلبوا على ذلك

الجزء الثالث عشر سورة إبراهيم

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا
بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

سُورَةُ إِبۡرَاهِيمَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ
إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾
ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ
لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ وَمَآ
أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ
فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ
قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ
ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾

٢٥٥

شهيداً، حسبي شهادة الله بصدقي بما أيدني من المعجزات.

﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: وشهادة المؤمنين من علماء أهل الكتاب، وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله، ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم.

تم تفسير سورة الرعد
والحمد لله

تفسير سورة إبراهيم
وهي مكية

* سميت السورة الكريمة «سورة إبراهيم» تخليداً لمآثر أب الأنبياء، وإمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام الذي حطم الأصنام، وحمل راية التوحيد، وجاء بالحنيفية السمحة ودين الإسلام الذي بعث به خاتم المرسلين، وقد قص علينا القرآن الكريم دعواته المباركات بعد انتهائه من بناء البيت العتيق، وكلها دعوات إلى الإيمان والتوحيد، وتناولت السورة الكريمة موضوع العقيدة في أصولها الكبيرة: الإيمان بالله، الإيمان بالرسالة، الإيمان بالبعث والجزاء. ويكاد يكون محور السورة الرئيس «الرسالة والرسول» فقد تناولت دعوة الرسل الكرام بشيء من التفصيل، وبينت وظيفة الرسول، ووضحت معنى وحدة الرسالات السماوية، فالأنبياء -صلوات الله عليهم أجمعين-، جاؤوا لتشييد صرح الإيمان، وتعريف الناس بالإله الحق الذي تعنوا له الوجوه، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، فدعوتهم واحدة، وهدفهم واحد، وإن كان بينهم اختلاف في الفروع.

قال ابن تيمية: قصة إبراهيم في علم الأقوال النافعة عند الحاجة إليها، وقصة يوسف في علم الأفعال النافعة عند الحاجة إليها.

﴿١﴾-﴿٣﴾ ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ * ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ * ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ﴾.

﴿الٓرۚ﴾ هذا الكتاب المعجز مؤلف من جنس هذه الحروف المقطعة، فأتوا بمثله إن استطعتم.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ أي: هذا القرآن كتاب أنزلناه عليك -يا محمد-، لم تنشئه أنت وإنما أوحيناه نحن إليك.

﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: لتدعوهم وتخرجهم من ظلمات الجهل والضلال والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة.

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: بأمره وتوفيقه فإنه لا يحصل منهم المراد المحبوب لله، إلا بإرادة من الله ومعرفة، ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم. ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فقال:

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي: لتهديهم إلى طريق الله العزيز الذي لا يُغالب، المحمود بكل لسان، الممجد في كل مكان، وفي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ بعد ذكر الصراط الموصل إليه، إشارة إلى أن من سلكه، فهو عزيز بعز الله، قوي ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: المالك لما في السموات والأرض، الغني عن

الناس، المسيطر على الكون وما فيه، فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية؛ لأنهم ملكه، ولا يليق به أن يتركهم سدى، فلما بين الدليل والبرهان، توعد من لم ينقد لذلك، فقال:

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، ﴿وَوَيْلٌ﴾ كلمة تقال للعذاب والهلكة، أي: هلاك ودمار للكافرين، ويا ويلهم من عذاب الله الأليم الذي لا يقدر قدره، ولا يوصف أمره. ثم وضح صفات أولئك الكفار، بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: يفضلون الحياة الفانية على الحياة الآخرة الباقية ويؤثرونها فرضوا بها واطمأنوا، وغفلوا عن الدار الآخرة.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يصرفون الناس ويمنعونهم عن دين الإسلام، فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة والمحاربة.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ويطلبون أن تكون سبيل الله ودين الله معوجة لتوافق أهواءهم ويحرصون على تهجينها وتقبيحها للتنفير عنها.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة في ضلال عن الحق مبين، لا يرجى لهم صلاح ولا نجاح لأنهم ضلوا وأضلوا، وشاقوا الله ورسوله وحاربوهما.

* ثم يذكر ﷻ لطفه وعنايته بعباده، وأنه ما أرسل رسولاً إلا بلغة قومه ليأخذوا منه، وليفهموا عنه، قال تعالى:

﴿٤﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ وما أرسلنا في الأمم الخالية رسولاً من الرسل إلا بلغة قومه، ليبين لهم شريعة الله ويفهمهم مراده، وليتمكنوا من تعلم ما أتى به، لتتم الغاية من الرسالة بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم، فإذا قامت الحجة وبانت المحجة.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: وليست وظيفة الرسل إلا التبليغ، وأما أمر الهداية والإيمان فذلك بيد الله يضل من يشاء إضلاله، ويهدي من يشاء هدايته ممن اختصه برحمته، على ما سبق به قضاؤه المحكم.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهو العزيز في ملكه الذي انفرد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء، الحكيم في صنعه، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به.

* يخبر تعالى أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر الله به رسوله محمداً ﷺ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم، وخص موسى بالذكر لأن أمته أكثر الأمم المتقدمة على هذه الأمة المحمدية، قال تعالى:

﴿٥﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أن تفسيرية بمعنى، أي: والمعنى أي أخرج بني إسرائيل من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان والتوحيد، وفي قوله: ﴿قَوْمَكَ﴾ خصوص لرسالة موسى إلى قومه، بخلاف قوله لمحمد ﷺ: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ مما يدل على عموم الرسالة.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ وذكرهم بأياديه ونعمه عليهم وإحسانه إليهم وبأيامه في الأمم المكذبين، ووقائعه بالكافرين، ليشكروا نعمه، وليحذروا عقابه.

قال القرطبي: «دل قوله تعالى ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ . على جواز الوعظ المرقق للقلوب، المقوي لليقين، الخالي من كل بدعة، والمنزه عن كل ضلال وشبهة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في التذكير بأيام الله على العباد، لعبراً ودلالات لكل عبد منيب صابر على البلاء، شاكر للنعماء، فإنه يستدل بأيامه على كمال قدرته وعميم إحسانه، وتمام عدله وحكمته.

* ولهذا امتثل موسى ﵇ أمر ربه فذكرهم نعم الله، فقال:

﴿٦﴾-﴿٨﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ

وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ
إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ
وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي
ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ
لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي
لَشَدِيدٞ ٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي
ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ
مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا
بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩
۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ
مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا
عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠

وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ * وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ * وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ **أي: اذكروا نعم الله الجليلة عليكم بقلوبكم وألسنتكم، ومن نعمه:**

﴿إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ **أي: حين نجاكم من الذل والاستعباد من فرعون وزبانيته.**

﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ **يذيقونكم أسوأ أنواع العذاب وأشده، وفسر ذلك بقوله:**

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ **ويذبحون الذكور ويستبقون الإناث على قيد الحياة مع الذل والصغار.**

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ **وفي ذلكم الإنجاء نعمة عظيمة، أو في تلك المحنة ابتلاء واختبار لكم من ربكم عظيم. قال المفسرون: وكان سبب قتل الذكور أن الكهنة قالوا لفرعون: إن مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون ذهاب ملكك على يديه، فأمر بقتل كل مولود فكان هذا ابتلاء من الله عظيم لكم، لينظر هل تصبرون أم لا. وقال لهم حاثّاً على شكر نعم الله:**

﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ **هذا من تتمة كلام موسى، أي: واذكروا أيضاً حين وعد وأعلم ربكم إعلاماً لا شبهة فيه؛ لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي. فإن الشكر قيد الموجود، وصيد المفقود.**

﴿وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ **ولئن جحدتم نعمتي بالكفر والعصيان فإن عذابي شديد، ومن ذلك أن يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم وتوعد بالعذاب على الكفر، كما وعد بالزيادة على الشكر الذي هو اعتراف القلب بنعم الله، والثناء على الله بها، وصرفها في مرضاة الله تعالى وكفر النعمة ضد ذلك.**

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ **وقال موسى لبني إسرائيل بعد أن أيس من إيمانهم، لئن كفرتم أنتم وجميع الخلائق فلن تضروا الله شيئاً.**

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ **أي: هو غني عن شكر عباده، فالطاعات لا تزيد في ملكه، والمعاصي لا تنقصه، وهو كامل الغنى مستحق للحمد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو المحمود وإن كفره من كفر.**

*** ثم يقول ﷻ مخوفاً عباده ما أحله بالأمم المكذبة، حين جاءتهم الرسل، فكذبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسمعوه، فقال تعالى:**

٩ ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ **ألم يأتكم أخبار من قبلكم من الأمم المكذبة كقوم نوح وعاد وثمود ماذا حل بهم لما كذبوا بآيات الله؟ وقد ذكر الله قصصهم في كتابه وبسطها.**

﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ **أي: والأمم الذين جاؤوا بعدهم.**

﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ **أي: من كثرتهم، وكون أخبارهم اندرست،**

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم
بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ
عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ
﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ
أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟
وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ
مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ
ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ۖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ
عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ
كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

٢٥٧

لا يحصي عددهم ولا يعلمهم إلا الله فهؤلاء كلهم:

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ **أي: بالحجج الواضحات، والدلائل الباهرات على صدق ما جاؤوا به، فلم ينقادوا لها، بل استكبروا عنها.**

﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ **أي: وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم فلم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان. وقال ابن مسعود: عضوا أصابعهم غيظاً، وقالوا صريحاً لرسلهم: كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به.**

﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ **أي: في شك عظيم من دعوتكم، وقلق واضطراب من دينكم، وقد كذبوا في ذلك وظلموا.**

*** يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، قال تعالى:**

﴿١٠﴾-﴿١٢﴾ ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ **أي: أجابهم الرسل بقولهم: أفي أظهر الأشياء وأجلاها، أفي وجود الله ووحدانيته شك؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ؛ لأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة ولهذا لفتوا الانتباه إلى براهين وجوده بقولهم.**

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **أي: خالقهما ومبدعهما وموجودهما من العدم على غير مثال سابق.**

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ **أي: يدعوكم إلى الإيمان وإلى منافعكم ومصالحكم، ليغفر لكم ذنوبكم ويثيبكم على الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل والآجل.**

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ **أي: إن آمنتم أمد في أعماركم إلى منتهى آجالكم، ولم يعاقبكم في العاجل فيهلككم، فردوا على رسلهم رد السفهاء الجاهلين.**

﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ **أي: وقالوا للرسل: ما أنتم إلا بشر مثلنا في الصورة والجسم ولستم ملائكة، لا فضل لكم علينا فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة، وإنما هدفكم ومرادكم:**

﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ **أي: تريدون أن تصرفونا عن عبادة الأوثان التي كان عليها آباؤنا، وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا.**

﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ **فأتونا بحجة ظاهرة بينة على صدقكم. ومرادهم بينة يقترحونها هم، وإلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات.**

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ **أي: قالت الرسل مجيبين عن اقتراحهم واعتراضهم: نحن كما قلتم بشر مثلكم.**

﴿وَلَٰكِنَّ﴾ **أي: ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق فإن.**

﴿ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ **يتفضل على من يشاء بالنبوة**

والرسالة، فذلك فضله وإحسانه فانظروا ماجئناكم به، فإن كان حقاً فاقبلوه، وإن كان غير ذلك فردوه ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ماجئناكم به، ولم يذكروا فضلهم تواضعاً منهم وسلموا لقولهم وأنهم بشر مثلهم في البشرية وحدها، فأما ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم.

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: وما ينبغي لنا أن نأتيكم بحجة وآية مما اقترحتموه علينا إلا بمشيئة الله وإذنه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وعلى الله وحده لا على غيره فليعتمد المؤمنون في جميع أمورهم فهو من لوازم العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: قالت الرسل: أيُّ شيء يمنعنا من التوكل على الله؟ والحال أننا على الحق والهدى، وقد عرفنا أن لا ننال شيئاً إلا بقضائه وقدره.

﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ أي: والحال أنه قد بصرنا طريق النجاة من عذابه، وفي هذا كالإشارة من الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لقومهم بآية عظيمة، وهو أن قومهم ـ في الغالب ـ لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدتهم رسلهم بأنهم متوكلون على الله، في دفع كيدهم ومكرهم، وجازمون بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق.

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ أي: ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى، احتساباً للأجر، ونصحاً لكم، لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير، قال ابن الجوزي: وإنما قص هذا وأمثاله على نبينا ﷺ ليقتدي بما قبله في الصبر وليعلم ما جرى لهم.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ليس هذا تكراراً وإنما معناه الثبات على التوكل، أي: فليدوموا وليثبتوا على التوكل عليه وحده، لا على غيره، فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.

* لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك، وعدم مللهم، ذكر منتهى ما وصلت به الحال مع قومهم حيث توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أوطانهم والنفي من بين أظهرهم.

﴿١٣﴾-﴿١٧﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ * وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أي: قال الكفار للرسل متوعدين: والله لنطردنكم من ديارنا أو لترجعن إلى ديننا وهذا أبلغ ما يكون من الرد، وليس بعد هذا فيهم مطمع؛ لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى، بل توعدوهم بالإخراج من ديارهم ونسبوها إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظلم. ولما انتهى مكرهم بالرسل إلى هذه الحال، ما بقي حينئذ إلا أن يمضي الله أمره، وينصر أولياءه.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: أوحى الله إلى الرسل لأهلكن أعداءكم الكافرين المتجبرين بأنواع العقوبات، ولأمنحنكم سكنى أرضهم بعد هلاكهم وأجعل العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسل ومن تبعهم جزاء.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي: ذلك النصر للرسل وإهلاك الظالمين لمن خاف مقامه بين يدي وخاف عذابي ووعيدي، وقيل: ولما أقسموا على إخراج الرسل أو العودة في ملتهم، أقسم تعالى على إهلاكهم، وأي إخراج أعظم من الإهلاك بحيث لا يكون لهم عودة إليها أبداً.

﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: ما توعدت به من عصاني، فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله، والمبادرة إلى ما يحبه الله.

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: واستنصر الرسل بالله على قومهم، وخسر وهلك كل متجبر معاند للحق، معاند للرسل ومشاق لهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ
﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ
مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ
أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا
قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ
أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم
مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ
بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ
فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾

٢٥٨

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ من وراء ذلك الكافر جهنم بالمرصاد ويسقى فيها من ماء صديد، وهو من قيح ودم، لونه وطعمه ورائحته خبيثة، وهو في غاية الحرارة.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يتحساه ويشربه من العطش الشديد.

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: يبتلعه مرة بعد مرة لمرارته، ولا يكاد يستسيغه لقبحه وكراهته.

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب، وكل نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت، ولكن الله قضى أن لا يموت، ليستكمل عذابه.

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: ومن بين يدي هذا الجبار العنيد عذاب أشد مما قبله وأغلظ، لا يعلم وصفه وشدته إلا الله تعالى.

*** ثم يخبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها، ونهايتها ونتيجتها، قال تعالى:**

﴿١٨﴾ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: مثل أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا يبتغون بها الأجر من صدقة وصلة رحم وغيرها، مثل رماد عصفت به الريح فجعلته هباء منثوراً.

﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي: في يوم شديد هبوب الريح، فإنه لا يبقى منه شيء، ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل، فكذلك أعمال الكفار، وقد ضرب الله هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى.

﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: لا يقدر الكفار على تحصيل ثواب ما عملوا من البر في الدنيا لإحباطه بالكفر والتكذيب، كما لا يستطيع أن يحصل الإنسان على شيء من الرماد الذي طيرته الريح.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ أي: الخسران الكبير حيث بطل سعيهم، واضمحل عملهم.

*** ثم ينبه عباده على عظم مخلوقاته مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، قال تعالى:**

﴿١٩﴾، ﴿٢٠﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ألم تر أيها المخاطب بعين قلبك وتتأمل ببصيرتك أن الله العظيم الجليل انفرد بالخلق والإيجاد، وأنه خلق السموات والأرض ليستدل بهما على قدرته فإنه تعالى لم يخلقهن عبثاً؛ وإنما خلقهن لأمر عظيم، وأن قدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك، ولهذا قال:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: هو قادر على الإفناء ثم يعيدكم بالبعث خلقاً جديداً. قال ابن عباس: يريد يميتكم يا معشر الكفار ويخلق قوماً غيركم خيراً منكم وأطوع.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: ليس ذلك بصعب أو متعذر على الله، فإن القوي القادر لا يصعب عليه شيء.

*** وتحدثت السورة عن مشهد من مشاهد الآخرة، حيث يلتقي الأشقياء المجرمون بأتباعهم الضعفاء، وذكرت**

ما يدور بينهم من حوار طويل، ينتهي بتكدس الجميع في نار جهنم يصطلون سعيرها، قال تعالى:

(٢١) ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾.

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: خرج الخلائق، حين ينفخ في الصور، من قبورهم يوم البعث، وظهروا للحساب لا يسترهم عن الله ساتر، فيقفون في أرض مستوية قاع صفصف، فإذا برزوا صاروا يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أنى لهم ذلك.

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا﴾ أي: قال الأتباع والعوام والمقلدون للسادة الكبراء والقادة الذين أضلوهم في الدنيا، أنا كنا أتباعاً لكم في الدنيا نأتمر بأمركم ونطيع قولكم.

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ أي: هل أنتم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله ولو ذرة؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع.

﴿قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ أي: قال القادة معتذرين: لو هدانا الله للإيمان لهديناكم إليه، ولكن حصل لنا الضلال فأضللناكم، فلا ينفعنا العتاب ولا الجزع.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ أي: يستوي علينا الجزع والصبر، وقيل: إن الناس يجتمعون فيقول بعضهم لبعض: إنما أدرك أهل الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله فتعالوا نبكي ونتضرع إلى الله، فبكوا فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا نصبر فصبروا صبراً لم ير مثله، فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا:

﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ أي: ليس لنا من ملجأ نلجأ إليه ولا مهرب لنا من عذاب الله.

قال مقاتل: جزعوا خمسمائة عام، وصبروا خمسمائة عام.

* ثم يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعدما قضى الله بين عباده، قال تعالى:

(٢٢)، (٢٣) ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ * وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ هذه هي الخطبة البتراء التي يخطب بها إبليس في محفل الأشقياء في جهنم، أي: لما فرغ من الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: وعدكم وعداً حقاً بإثابة المطيع وعقاب العاصي فوفى لكم وعده فلم تطيعوه، فلو أطعتموه لأدركتم الفوز العظيم.

﴿وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ أي: وعدتكم ألا بعث ولا ثواب ولا عقاب، فكذبتكم وأخلفتكم الوعد.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ أي: لم يكن لي قدرة وتسلط وقهر عليكم فأقهركم على الكفر والمعاصي.

﴿إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ أي: إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بالوسوسة والتزيين فهذا نهاية ما عندي، فاستجبتم لي باختياركم فإذا كانت الحال بهذه الصورة.

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ أي: لا ترجعوا باللوم عليَّ اليوم ولكن لوموا أنفسكم فإن الذنب ذنبكم فأنتم السبب، وعليكم المدار في موجب العقاب.

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ أي: ما أنا بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها، ولا أنتم بمغيثي من عذاب الله، كل له قسط من العذاب.

﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ أي: كفرت بإشراككم لي مع الله في الطاعة فلست شريكاً لله، ولا تجب طاعتي، ولقد قام لهم الشيطان في هذا اليوم مقاماً يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم، فأوضح لهم أولاً: أن مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله سبحانه، وأنه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد ولم يف لهم بشيء منها، ثم أوضح لهم ثانياً: بأنهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول، ثم أوضح ثالثاً:

بأن لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان، ثم نعى عليهم ما وقعوا فيه، ثم ذكر لهم خامساً: بأن لا نصر عنده ولا إغاثة. ثم صرح لهم سادساً: بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له. فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب.

﴿إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: إن المشركين لهم عذاب مؤلم بطاعة الشيطان. قال المفسرون: هذه الخطبة إنما تكون إذا استقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فيأخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه فيقوم فيما بينهم خطيباً بما أخبر عنه القرآن، وقال الحسن: يقف إبليس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعاً.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي: وأدخل الذين قاموا بالدين، قولاً، وعملاً، واعتقاداً.

﴿جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: أدخلهم الله تعالى جنات تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ماكثين فيها أبداً لا بحولهم وقوتهم، بل بأمره تعالى وتوفيقه وهدايته وحوله وقوته.

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾ أي: تحييهم الملائكة بالسلام مع الإجلال والإكرام، ويحيي بعضهم بعضاً بالسلام، والتحية والكلام الطيب. لما ذكر تعالى أحوال الأشقياء وعقابهم؛ ذكر بعده أحوال السعداء ونجاتهم، ليبقى العبد بين الرغبة والرهبة، وبين الخوف والرجاء.

الجزء الثالث عشر — سورة إبراهيم

تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن
قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ
مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا
وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ
ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ
تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ
بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ
فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

٢٥٩

※ لما ذكر سبحانه مثل أعمال الكفار، ثم ذكر نعيم المؤمنين وما جازاهم به من إدخالهم الجنة خالدين فيها، ذكر تعالى هنا مثلاً للكلمة الطيبة، فقال تعالى:

﴿٢٤﴾-﴿٢٦﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۞ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ هذا مثل ضربه الله لكلمة الإيمان وكلمة الإشراك، فمثل لكلمة الإيمان بالشجرة الطيبة، ولكلمة الإشراك بالشجرة الخبيثة. قال ابن عباس: الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله». وقيل: الشجرة الطيبة المؤمن.

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: أصلها راسخ في الأرض وأغصانها ممتدة نحو السماء.

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي: تعطي ثمرها كل وقت بتيسير الخالق وتكوينه، كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن، وعمله يصعد إلى السماء ويناله بركته وثوابه في كل وقت، وهي النخلة أصلها ثابت في الأرض، وفرعها منتشر في السماء، وهي كثيرة النفع دائماً تؤتي ثمرها كل حين فكذلك شجرة الإيمان، أصلها ثابت في قلب المؤمن، علماً واعتقاداً وفرعها من الكلم الطيب، والعمل الصالح، والأخلاق المرضية والآداب الحسنة، في السماء دائماً، يصعد إلى الله منه الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان، ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره، والحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة، هي أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء، عرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عال، كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يبين لهم الأمثال؛ لأن في ضرب الأمثال زيادة أفهام وتذكير وتصوير للمعاني، كذلك من أجل أن يتعظون فيؤمنون، ثم ذكر تعالى ضد الشجرة الطيبة.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ أي: ومثل كلمة الكفر الخبيثة، كشجرة الحنظل الخبيثة المأكل والمطعم.

﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: استؤصلت من جذورها واقتلعت من الأرض لعدم ثبات أصلها فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة تنتجها، بل إن وجد فيها ثمرة فهي ثمرة خبيثة، كذلك كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث وعمل خبيث، يستضر به صاحبه ولا ينتفع، ولا ينفع نفسه ولا ينتفع به غيره.

﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: ليس لها استقرار وثبات، كذلك كلمة الكفر لا ثبات لها ولا فرع ولا بركة، قال ابن الجوزي: شبه ما يكسبه المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بثمرتها المجتناة في كل حين، فالمؤمن كلما قال: «لا إله إلا الله» صعدت إلى السماء ثم جاء خيرها ومنفعتها، والكافر لا يقبل عمله ولا يصعد إلى الله تعالى؛ لأن ليس له أصل في الأرض ثابت، ولا فرع في السماء.

* ثم ذكر تعالى الحال عند الموت وما بعده، فقال:

(٢٧) ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: يثبتهم على كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وعلى الإيمان في هذه الحياة فلا يزيغون ولا يفتنون.

﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ عند سؤال الملكين في القبر كما في الحديث: «المسلم إذا سُئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» [متفق عليه].

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يهديهم في الحياة، ولا عند سؤال الملكين وقت الممات، فهم بعيدون عن الصواب في الدنيا والآخرة.

﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: من هداية المؤمن وإضلال الكافر، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه، ونعيمه، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة وصفتها، ونعيم القبر وعذابه.

* ثم قال تعالى مبيناً حال المكذبين لرسوله من كفار قريش وما آل إليه أمرهم، فقال:

(٢٨)-(٣٠) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ * وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ استفهام للتعجب، أي: ألا تعجب أيها السامع من أولئك الذين غيروا نعمة الله بالكفر والتكذيب؟ قال المفسرون: هم كفار مكة فقد أسكنهم الله حرمه الآمن، وجعل عيشهم في السعة، وصدوا عنها بأنفسهم، وبعث فيهم محمداً ﷺ فلم يعرفوا قدر هذه النعمة، وكفروا به وكذبوه، فابتلاهم الله بالقحط والجدب.

﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ أي: أنزلوا قومهم دار الهلاك بكفرهم وطغيانهم، ثم فسرها بقوله:

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي: أحلوهم في جهنم يذوقون سعيرها وبئست جهنم مستقراً.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وجعلوا لله شركاء ونظراء مماثلين، عبدوهم كعبادته ليضلوا الناس عن دين الله.

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ قل لهم متوعداً ومهدداً: استمتعوا بنعيم الدنيا قليلاً فليس ذلك بنافعكم، فإن مردكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم.

* لما أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول للمبدلين نعمة الله كفراً ما قاله لهم، أمره سبحانه أن يقول للطائفة المقابلة لهم، وهي طائفة المؤمنين هذا القول:

(٣١) ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: قل - يا محمد - لعبادي الذين آمنوا فليقيموا الصلاة المفروضة عليهم ويؤدوها على الوجه الأكمل قبل أن لا يمكنهم ذلك. خصهم بالإضافة إليه تشريفاً.

﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ ولينفقوا مما أنعمنا عليهم به من الرزق خفية وجهراً قليلاً أو كثيراً، وهذا يشمل النفقة الواجبة والمستحبة.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا صداقة، ولا فداء ولا شفاعة، ولا سبيل إلى استدراك ما فات.

* ولما أطال تعالى الكلام في وصف أحوال السعداء والأشقياء، ختم ذلك بذكر الدلائل الدالة على وجود الخالق الحكيم، فقال:

(٣٢)-(٣٤) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يعدد تعالى نعمه على خلقه، ويخبر أنه وحده الذي أبدعها واخترعها على غير مثال سابق على اتساعها وعظمها.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي: أنزل من السحاب المطر، فأخرج بذلك الماء، من أنواع الزروع والثمار رزقاً للعباد يأكلونه ورزقاً لأنعامهم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: ذلل السفن الكبيرة لتسير بمشيئته وأمره، تركبونها وتحملون فيها أمتعتكم من بلد إلى بلد فهو الذي يسّر لكم صنعتها، وأقدركم عليها، وحفظها على تيار الماء لتحملكم، وتحمل تجاراتكم وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أي: الأنهار العذبة لتشربوا منها، وتسقوا وتزرعوا.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أي: وذلل لكم الشمس والقمر يجريان بانتظام لا يفتران ولا ينيان، لصلاح أنفسكم ومعاشكم من حساب أزمنتكم، ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم، وثماركم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان في الضياء والظلمة، والنقصان والزيادة، لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضله بالنهار، هذا لمنامكم وذاك لمعاشكم.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ وأعطاكم كل ما تحتاجون إليه ومن كل ما تعلقت به أمانيكم وحاجتكم، وما يصلح أحوالكم ومعاشكم، مما سألتموه بلسان الحال أو المقال.

الجزء الثالث عشر — سورة إبراهيم

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ
لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ٣٤ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ
رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ
ٱلْأَصْنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن
تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٦ رَّبَّنَآ
إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ
ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ
تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ
٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي
وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
ٱلدُّعَآءِ ٣٩ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا
وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ٤٠ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ٤١ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ
ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ٤٢

٢٦٠

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي: وإن تعدوا نعم الله عليكم لا تطيقوا حصرها وعدها، فهي أكبر وأكثر من أن يحصيها عدد؛ فضلاً عن قيامكم بشكرها.

كان الحسن يردد هذه الآية ويقول: إن فيها لمعتبراً، ما نرفع طرفاً ولا نرده إلا وقع على نعمة، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ الإنسان اسم جنس، أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو مبالغ في الظلم والجحود، ظالم لنفسه بتعديه حدود الله، جحود لنعم الله، وقيل: ظلوم في الشدة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع.

* لما ذكر تعالى بالدلائل الحسية والسمعية انفراده بالألوهية وأن لا معبود إلا الله، ذكر هنا أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام، في هذه الحالة المهيبة وهو يبني البيت العتيق:

(٣٥)، (٣٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ أي: إذ دعا إبراهيم عليه السلام وقال: رب اجعل مكة بلداً آمناً يأمن أهله وساكنوه، فاستجاب الله دعاءه شرعاً وقدراً، فحرمه الله في الشرع، ويسر من أسباب حرمته قدراً ما هو معلوم، حتى إنه لم يرده ظالم بسوء، إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم، ولما دعا له بالأمن، دعا له ولبنيه بالأمن، فقال:

﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ أي: احمني يا رب وجنبني وأولادي عبادة الأصنام والإلمام بها، والغرض تثبيته على ملة التوحيد والإسلام، ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه، بكثرة من افتتن وابتلي بعبادتها، فقال:

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يا رب إن هذه الأصنام أضلت كثيراً من الخلق عن الهداية والإيمان.

﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي: فمن أطاعني وتبعني على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين، فإنه من أهل ديني وملتي لتمام موافقته، ومن أحب قوماً وتبعهم التحق بهم.

﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ومن خالف أمري فإنك يا رب غفار للذنوب رحيم بالعباد، وهذا من شفقة الخليل عليه السلام حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله - تبارك وتعالى - أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من تمرد عليه.

* ثم ذكر تعالى قصة إبراهيم عليه السلام، لما أتى بهاجر أم إسماعيل وبابنها إسماعيل عليه السلام، وهو في الرضاع من الشام، حتى وضعهما في مكة، وهي - إذا ذاك - ليس فيها سكن، ولا داع ولا مجيب، فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء، فقال متضرعاً متوكلاً على ربه:

(٣٧) ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي: يا ربنا إني أسكنت من أهلي وبعض أولادي - ولدي إسماعيل وزوجي هاجر - لأن إسحاق في الشام، وباقي بنيه كذلك، وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته.

﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ أي: بوادٍ ليس فيه زرع، وهو وادي مكة شرفها الله تعالى، لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة، في جوار بيتك المحرم.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية، فمن أقامها كان مقيماً لدينه، وهكذا رحل إبراهيم بأهله من الماء الوفير والزروع والثمار في الشام إلى واد غير ذي زرع للعبادة وطاعة الرحمن. جاء بهم من الخضراء إلى الغبراء؛ لإقامة دينه. وكرر النداء رغبة في الإجابة وإظهاراً للتذلل والالتجاء إلى الله تعالى.

﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: يا ربنا لكي يعبدوك ويقيموا الصلاة أسكنتهم بهذا الوادي. فاجعل قلوب الناس تحن وتسرع إليهم. قال ابن عباس: لو قال: «أفئدة الناس» لازدحمت عليه فارس والروم والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فهم المسلمون؛ فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذرية إسماعيل محمداً ﷺ، حتى دعا ذريته إلى الإسلام، وإلى ملة أبيهم إبراهيم، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة، وافترض الله حج هذا البيت الذي اسكن به ذرية إبراهيم، وجعل فيه سرّاً عجيباً جاذباً للقلوب، فهي تحجه، ولا تقضي منه وطراً على الدوام، بل كلما أكثر العبد التراد إليه ازداد شوقه، وعظم ولعه وتوقه، وهذا سر إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة.

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ وارزقهم في ذلك الوادي القفر من أنواع الثمار ليشكروك على جزيل نعمك، وقد استجاب الله دعاءه فجعل مكة حرماً آمناً يجبى

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٢﴾

٢٦١

إليها ثمـرات كل شيء رزقاً من عند الله، فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت، والثمار فيها متوافرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب على مر الأزمنة والعصور.

* ثـم ذكـر إبراهيـم عظمة الله وقدرته، ودعا إبراهيم عليه السلام بدعوات أخر، فقال:

﴿٣٨﴾-﴿٤١﴾ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ * رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ * رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ﴾ أي: يا ربنا إنك العالم لما في القلوب تعلم ما نسر وما نظهر.

﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لا يغيب عليه تعالى شيء في الكائنات، سواء منها ما كان في الأرض أو في السماء، فكيف تخفى عليه وهو خالقها وموجدها؟

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ الحمد لله الذي رزقني على كبر سني وشيخوختي إسماعيل وإسحاق. قال ابن عباس: ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة؛ فهبتهم من أكبر النعم وكونهم على الكبر في حال الإياس من الأولاد نعمة أخرى، وكونهم أنبياء وصالحين، أجل وأفضل.

﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: مجيب لدعاء من دعاه، وقد دعوته، فلم يخيب رجائي، ثم دعا لنفسه وذريته:

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ هذه هي الدعوة السادسة من دعوات الخليل عليه السلام، أي: يا رب اجعلني ممن حافظ على الصلاة، واجعل من ذريتي من يقيمها أيضاً، وهذه خير دعوة يدعوها المؤمن لأولاده فلا أحب له من أن يكون مقيماً للصلاة هو وذريته؛ لأنها عماد الدين.

قال ابن عاشور: قال إبراهيم ﷺ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ لم يقل (وذريتي)؛ لأن يعلم أن حكمة الله لم تجر بأن يكون جميع نسل الإنسان ممن يصلحون لأن يقتدى بهم.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ أي: تقبل واستجب دعائي فيما دعوتك به.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ هذه هي الدعوة السابعة، وبها ختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بالاستغفار له ولوالديه ولجميع المؤمنين، يوم يقوم الناس لرب العالمين، قال المفسرون: استغفر لوالديه قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله، ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة؛ لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه.

* وينتقل السياق إلى مشاهد القيامة وما فيها من الأهوال حين تتزلزل القلوب والأقدام، وفيه تسلية للمظلوم، وتهديد ووعيد شديد للظالم، قال تعالى:

﴿٤٢﴾، ﴿٤٣﴾ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ﴾ أي: لا تظنن - يا محمد - أن الله ساه عن أفعال الظلمة، غافل عنهم، مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، فإن سنة الله إمهال العصاة، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

قال ميمون بن مهران: هي تعزية للمظلوم ووعيد للظالم.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ إنما يؤخر عقوبتهم ليوم رهيب عصيب، تشخص فيه

الأبصار من الفزع والهلع، فتظل مفتوحة مبهوتة لا تطرف ولا تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، لا يلتفتون إلى شيء رافعين رؤوسهم مع إدامة النظر، قد غُلَّت أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رؤوسهم. قال الحسن: وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: لا يطرفون بعيونهم من الخوف والجزع، وقلوبهم خالية من العقل لشدة الفزع؛ لكنها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق.

﴿٤٤﴾-﴿٤٦﴾ ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أي: خوف ـ يا محمد ـ الكفار من هول يوم القيامة حين يأتيهم العذاب الشديد.

﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: فيتوجه الظالمون يومئذ إلى الله بالرجاء، يقولون: يا ربنا أمهلنا إلى زمن قريب لنستدرك ما فات نادمين على ما فعلوا، سائلين للرجعة في غير وقتها.

﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ أي: نجب دعوتك لنا إلى الإيمان ونتبع رسلك فيما جاؤونا به وهذا كله لأجل التخلص من العذاب، وإلا فهم كذبة في هذا الوعد، ولهذا سيوبخون، ويقال لهم توبيخاً وتبكيتاً:

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ ألم تحلفوا أنكم باقون في الدنيا لا تنتقلون إلى دار أخرى؟ والمراد إنكارهم للبعث والنشور.

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ وسكنتم في ديار الظالمين بعد أن أهلكناهم، فهلا اعتبرتم بمساكنهم؟ وكيف أحل الله بهم العقوبات؟

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: عرفتم بالإخبار والمشاهدة كيف أهلكناهم وانتقمنا منهم، وبينا لكم الأمثال في الدنيا فلم تعتبروا.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: مكر المشركون بالرسول وبالمؤمنين حين أرادوا قتله، وعند الله جزاء هذا المكر فإنه محيط بهم وبمكرهم.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ وإن كان مكرهم من القوة والتأثير حتى ليؤدي إلى زوال الجبال بسببه عن أماكنها، ولكن الله عصم ووقى منه، ويدخل في هذا كل من مكر من المخالفين للرسل لينصر باطلاً، أو يبطل حقاً، والقصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئاً، ولم يضروا الله شيئاً وإنما ضروا أنفسهم.

* ثم يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً:

﴿٤٧﴾، ﴿٤٨﴾ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ أي: لا تظنن أيها المخاطب أن يخلف رسله ما وعدهم به من النجاة والنصر، وأخذ الظالمين المكذبين وإهلاكهم وخذلانهم في الدنيا.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ أي: إنه تعالى غالب لا يعجزه شيء، منتقم ممن عصاه.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ أي: ينتقم من أعدائه يوم الجزاء، يوم تتبدل هذه الأرض أرضاً أخرى، وتتبدل السماوات سموات أخرى. قال ابن مسعود: تبدل الأرض بأرض كالفضة نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة.

قالت عائشة ﵂ لرسول الله ﷺ: فأين يكون الناس يومئذ؟ فقال: «على الصراط» [رواه مسلم].

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم، ومثلوا أمام أحكم الحاكمين، لا يسترهم ساتر، ولا يقيهم واق، ليسوا في دورهم ولا في قبورهم، وإنما هم في أرض

المحشر أمام الواحد القهار المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة.

* وفي هذا المشهد المهول والموقف العظيم تبتدى حال الكفار في أسوأ حال، وأشد نكال، قال تعالى:

﴿٤٩﴾-﴿٥١﴾ ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ * لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ وفي ذلك اليوم الرهيب تبصر المجرمين الذين وصفهم الإجرام وكثرة الذنوب مشدودين مع شياطينهم بالقيود والأغلال، مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد وهي الأغلال والسلاسل.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ﴾ أي: ثيابهم التي يلبسونها من قطران وهي مادة يسرع فيها اشتعال النار، تطلى بها الإبل الجرب، فيحرق الجرب بحره جلدته، وهو أسود اللون منتن الريح سريع الاشتعال.

﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تعلوها وتحيط بها النار، جزاء المكر والاستكبار. والوجوه هي أشرف ما في أبدانهم، وفيها الحواس المدركة، وإنما هذا عدل من الله ﷻ جزاء ما قدموا وكسبوا، ولهذا قال:

﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ أي: برزوا يوم القيامة لأحكم الحاكمين ليجازيهم الله على أعمالهم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، عدل لا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: لا يشغله شأن عن شأن، يحاسب جميع الخلق في أعجل ما يكون من الزمان، في مقدار نصف نهار من أيام الدنيا كما ورد به الأثر، يحاسب الخلق في ساعة واحدة، كما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة.

* ولما بين البيان المبين في هذا القرآن العظيم، قال في مدحه:

﴿٥٢﴾ ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ أي: هذا القرآن بلاغ لجميع الخلق من إنس وجان، أنزل لتبليغهم بما فيه من فنون العبر والعظات.

﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: لكي ينصحوا به ويخوفوا من عقاب الله لما فيه من الترهيب من أعمال الشر وما أعد الله لأهلها من العقاب.

﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أي: ولكي يتحققوا بما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة، على أنه تعالى واحد أحد، فرد صمد.

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: وليتعظ بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة، وهم السعداء أهل النهى والصلاح.

تم تفسير سورة إبراهيم
والحمد لله

تفسير سورة الحجر
وهي مكية

* سورة الحجر من السور المكية، التي تستهدف المقاصد الأساسية للعقيدة من الوحدانية، والنبوة، والبعث والجزاء، ومحور السورة يدور حول مصارع الطغاة والمكذبين لرسل الله في شتى الأزمان والعصور، ولهذا ابتدأت السورة بالإنذار، والتهديد، ملفعاً بظل من التهويل والوعيد.

سميت السورة الكريمة «سورة الحجر» لأن الله تعالى ذكر ما حدث لقوم صالح، وهم قبيلة ثمود -وديارهم في الحجر بين المدينة والشام- فقد كانوا أشداء ينحتون الجبال ليسكنوها، وكأنهم مخلدون في هذه الحياة، لا يعتريهم موت ولا فناء، فبينما هم آمنون مطمئنون جاءتهم صيحة العذاب في وقت الصباح ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾ [الحجر: ٨٣-٨٤].

سبب النزول: عن ابن عباس قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت إبطه فأنزل الله ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ٢٤﴾.

عرضت السورة لدعوة الأنبياء، وبينت موقف أهل الشقاوة والضلالة

الجزء الرابع عشر سورة الحجر

سُورَةُ الحِجۡرِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١ رُّبَمَا يَوَدُّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ
وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا
مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ
أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ
ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ
إِذٗا مُّنظَرِينَ ٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩
وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠ وَمَا يَأۡتِيهِم
مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ
فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ
١٣ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤
لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥

٢٦٢

من الرسل الكرام، فما من نبي إلا سخر منه قومه الضالون، من لدن بعثة شيخ الأنبياء نوح عليه السلام إلى بعثة خاتم المرسلين، وقد بينت السورة أن هذه سنة المكذبين، في كل زمان وحين، قال تعالى:

(١)-(٣) ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ * رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ * ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿الٓر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن، أي: هذا الكتاب العجيب المعجز كلام الله تعالى وهو منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، الألف واللام والراء، وهناك خمس سور بدأت بـ ﴿الٓر﴾ وهي: يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر. ثم يقول تعالى معظماً لكتابه، ومادحاً له:

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، الدالة على أحسن المعاني وأفضل المطالب.

﴿وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ أي: قرآن عظيم الشأن، واضح بيِّن، لا خلل فيه ولا اضطراب وهذا مما يوجب على الخلق الانقياد له، والتسليم لحكمه، وتلقيه بالقبول والفرح والسرور، أما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها والكفر بها، فإنه من المكذبين الضالين، الذي سيأتي عليهم وقت.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ أي: ربما تمنى الكفار، لو كانوا في الدنيا موحدين، وهذا إخبار عنهم أنهم سيندمون وذلك عند معاينة أهوال الآخرة ومقدمات الموت، ولكنهم في هذه الدنيا مغترون.

﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ أي: دعهم - يا محمد - يأكلوا كما تأكل البهائم، ويستمتعوا بدنياهم الفانية، وهو أمر إهانة لهم وقطع طمع الرسول ﷺ من ارعوائهم.

قال بعض أهل العلم: ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ تهديد، وقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ تهديد آخر، فمتى يهنأ العيش بين تهديدين؟

﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾ أي: يشغلهم الأمل بطول الأجل والطمع، وعن التفكر فيما ينجيهم من عذاب الله.

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: عاقبة أمرهم، إذا رأوا القيامة، وذاقوا وبال ما صنعوا، ولا يغتروا بإمهال الله تعالى، فإن هذا سنته في الأمم وهو وعيد وتهديد، وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين.

* ثم يخبر تعالى عن عدله وحكمته، فقال:

(٤)، (٥) ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ * مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ أي: وما أهلكنا أهل قرية من القرى الظالمة التي كذبت رسل الله، إلا لها أجل محدود لإهلاكها لا نهلكهم حتى يبلغوه.

﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي: لا يتقدم هلاك أمة قبل مجيء أوانه، وإلا فالذنوب لا بد من وقوع أثرها، وإن تأخر.

﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ أي: ولا يتأخر عنهم فتنقص منه، قال ابن كثير: وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من العناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك.

* ثم ذكر تعالى كفر واستهزاء كفار مكة بالنبي ﷺ، فقال:

(٦)-(٩) ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ *

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۞ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي: وقال كفار قريش المكذبون لمحمد ﷺ على جهة الاستهزاء والتهكم: يا من تزعم وتدعي أن القرآن نزل عليك.

﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: إنك حقاً لذاهب العقل، أكدوا الخبر بإن واللام، مبالغة في الاستخفاف والاستهزاء بمقامه الشريف عليه السلام وذكروا تنزيل الذكر على سبيل الاستهزاء.

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: هلا جئتنا بالملائكة لتشهد لك بالرسالة إن كنت صادقاً في دعواك أنك رسول الله، فلما لم تأت بالملائكة فلست بصادق، وهذا من أعظم الظلم والجهل. قال تعالى رداً عليم:

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ما ننزل ملائكتنا إلا بالعذاب الذي لا إمهال فيه لمن لم يؤمن وأردنا إهلاكه.

﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ أي: وعند نزول العذاب لا إمهال ولا تأجيل، والغرض أن عادة الله تعالى قد جرت في خلقه أنه لا ينزل الملائكة إلا لمن يريد إهلاكهم بعذاب الاستئصال، وهو لا يريد ذلك مع أمته ﷺ لعلمه تعالى أنه يخرج من أصلابهم من يعبد الله، ففيه رد عليهم فيما اقترحوا ويكفيهم من الآيات إن كانوا صادقين، هذا القرآن العظيم، ولهذا قال هنا:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ أي: نحن بعظمة شأننا نزلنا عليك القرآن - يا محمد - فيه ذكرى لكل شيء، من المسائل والدلائل الواضحة، وفيه يتذكر من أراد التذكر.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي: ونحن الحافظون لهذا القرآن، في حال إنزاله من استراق السمع كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله، واستودعه فيها ثم في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل، ومن حفظه أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلط عليهم عدّواً يجتاحهم. قال المفسرون: تكفل الله بحفظ هذا القرآن، فلم يقدر أحد على الزيادة فيه ولا النقصان ولا على التبديل والتغيير كما جرى في غيره من الكتب فإن حفظها موكول إلى أهلها، لقوله تعالى: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] وانظر الفرق بين هذه الآية ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ حيث ضمن حفظه وبين الآية السابقة حيث وكل حفظه إلى الربانيين والأحبار فبدلوا وغيروا.

* بعد أن ذكر تعالى معجزة القرآن ونعمته ذكر لنبيه مسلياً ومواسياً حين كذبه المشركون، أن هذا لم يزل دأب الأمم الخالية، والقرون الماضية.

﴿١٠﴾-﴿١٣﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۞ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ولقد أرسلنا من قبلك - يا محمد - رسلاً في طوائف وفرق الأمم الأولين.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: وما جاءهم رسول يدعوهم إلى الحق والهدى، إلا سخروا منه واستهزؤوا به، وهذا تسلية للنبي ﷺ فكما فعل بك هؤلاء المشركون، فكذلك فُعل بمن قبلك من الرسل؛ فلا تحزن.

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كذلك نسلك الباطل والضلال والاستهزاء بأنبياء الله في قلوب المجرمين، كما سلكناه وأدخلناه في قلوب أولئك المستهزئين من قومك، اشتبهت قلوبهم بالكفر والتكذيب، تشابهت معاملتهم لأنبيائهم ورسلهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان، ولهذا قال:

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: لا يصدقون بهذا القرآن الذي أنزلناه إليك، وقد مضت سنة الله بإهلاك الكفار، فهذه عادة الله فيهم، بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله، فما أقرب هؤلاء من الهلاك والدمار.

* ثم بين تعالى أن كفار مكة لا ينقصهم توافر براهين الإيمان فهم معاندون مكابرون، وفي ضلالهم وعنادهم سائرون، ولو جاءتهم كل آية عظيمة لم يؤمنوا وكابروا، فقال:

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾
وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ
فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ
فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا
عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا
الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ
لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾
وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ
﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن
قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا
مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾

(١٤)،(١٥) ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ **أي: لو فرض أننا أصعدنا كفار مكة إلى السماء، وفتحنا لهم باباً من أبوابها، فظلوا يصعدون فيه حتى شاهدوا الملائكة والملكوت عياناً بأنفسهم.**

﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ **أي: لما صدقوا، ولقالوا - لفرط مكابرتهم وعنادهم وظلمهم - إنما سدت أبصارنا وخدعت بهذا الارتقاء والصعود حتى رأينا ما لم نر.**

﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ **أي: سحرنا محمداً وخيل إلينا ذلك وليس هذا بحقيقة، وما هو إلا سحر مبين، قال بعض المفسرين: لو ظل المشركون يصعدون في تلك المعارج وينظرون إلى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه، وإلى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكوا في تلك الرؤية، وبقوا مصرين على الكفر والعناد كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر، والقرآن المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله.**

*** لما ذكر تعالى كفر الكافرين وعجزهم وعجز أصنامهم، وعرضت السورة إلى الآيات الباهرات، المنبثة في صفحة هذا الكون العجيب، الذي ينطق بآثار القدرة الباهرة، ويشهد بجلال عظمة الخالق - جل وعلا - بدءاً بمشهد السماء، فمشهد الأرض، فمشهد الرياح اللواقح، فمشهد الحياة والموت، فمشهد الحشر والنشر، وكلها ناطقة بعظمة الله وجلاله، وشاهدة بوحدانيته وقدرته، وهي آيات دالة على ما جاءت به الرسل من الحق، قال تعالى:**

(١٦)-(٢٠) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ **يبين تعالى كمال اقتداره ورحمته بخلقه، بأن خلق في السماء منازل تسير فيها الأفلاك والكواكب ويستدل بذلك على الطرقات، والأوقات، والخصب والجدب.**

﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ **أي: زيناها بالنجوم ليسر الناظر إليها، ويتأملون فيعتبرون، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر.**

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ **أي: حفظنا السماء الدنيا من كل شيطان لعين مطرود من رحمة الله؛ كي لا يصل إليها، وإن استرق السمع. اتبعته الشهب الثواقب، فبقيت السماء، ظاهرها مجملاً بالنجوم النيرات، وباطنها محروساً ممنوعاً من الآفات.**

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ **إلا من اختلس شيئاً من أخبار السماء فأدركه ولحقه شهاب ثاقب فأحرقه وربما ألقاها إلى وليه قبل أن تدركه الشهب، فيضمها ويكذب معها مئة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التي سمعت في السماء.**

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ **أي: بسطناها ووسعناها سعة يتمكن الآدميون والحيوانات كلها على الامتداد بأرجائها، والتناول من أرزاقها، والسكون في نواحيها، وجعلنا فيها جبالاً ثوابت تحفظ الأرض بإذن الله أن تميد، وتثبتها أن تزول.**

﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ **أي: أنبتنا في الأرض من**

الزروع والثمار من كل شيء موزون بميزان الحكمة، بدقة وإحكام وتقدير؛ ما بين نخيل وأعناب، وأصناف الأشجار، وأنواع النبات مما يحتاج إليه العباد.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أي: وجعلنا لكم في الأرض ما تعيشون به من الحرث، ومن الماشية، ومن أنواع المكاسب والحرف.

﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ أي: وجعلنا لكم من العيال والمماليك والأنعام ما تنتفعون به، وليس رزقهم عليكم، وإنما هو على الله رب العالمين تفضلاً وتكرماً.

* ثم ذكر ﷻ أنه مالك كل شيء، وأن الأشياء عنده خزائنها لا يخرج منها شيء إلا بعلمه، قال تعالى:

﴿٢١﴾-﴿٢٥﴾ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي: ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ومستودعاته، لا يملكها أحد إلا الله، فخزائنها بيده، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بحسب حكمته ورحمته الواسعة.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: ولكن لا ننزله إلا على حسب حاجة الخلق إليه، وعلى حسب المصالح، كما نشاء ونريد، على مقدار حاجة العباد إليه.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ أي: وسخرنا الرياح، رياح الرحمة تلقح السحاب كما يلقح الذكر الأنثى فيدر ماء، وتلقح الشجر فيتفتح عن أوراقه وأكمامه، فالريح كالفحل للسحاب والشجر.

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: فأنزلنا من السحاب ماء عذباً، جعلناه لسقياكم ولشرب أرضكم ومواشيكم، ويبقى في الأرض مدخراً لحاجاتهم، وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته.

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي: لستم بقادرين على خزنه وادخاره، بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم في العيون والآبار والأنهار، ونسلكه ينابيع في الأرض، رحمة بكم وإحساناً إليكم، ولو شئنا لجعلناه غائراً في الأرض فهلكتم عطشاً.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أي: هو وحده لا شريك له، الذي يحيي الخلق من العدم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ويميتهم لآجالهم التي قدرها فالحياة والموت بيدنا ونحن الباقون بعد فناء الخلق، نرث الأرض ومن عليها، وإلينا يرجعون، والغرض من ذلك الاستدلال بهذه الأمور على وحدانية الله ﷻ وكمال قدرته، وأنه القادر على البعث والنشور والجزاء لعباده.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ أي: وليس ذلك بعزيز ولا ممتنع على الله فإنه تعالى أحاط علماً بالخلق أجمعين، الأموات منهم والأحياء، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، وما تفرق من أجزائهم وهو الذي قدرته لا يعجزها معجز. قال ابن عباس المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة. وقال مجاهد: المستقدمون: الأمم السابقة، والمستأخرون أمة محمد ﷺ. والغرض أنه تعالى محيط علمه بمن تقدم وبمن تأخر، لا يخفى عليه شيء من أحوال العباد، وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ وإن ربك -يا محمد- هو يجمعهم للحساب والجزاء.

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: حكيم في صنعه وتدبيره، يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، عليم بخلقه، يجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر، لا يخفى عليه شيء.

* ولما ذكر تعالى الموت والفناء، والبعث والجزاء، نبههم إلى مبدأ أصلهم وتكوينهم من نفس واحدة، ليشير إلى أن القادر على الإحياء قادر على الإفناء والإعادة، فقال:

﴿٢٦﴾، ﴿٢٧﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾ يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أبينا آدم عليه السلام، أي: خلقنا آدم من

قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن
لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾
قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ
مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ
أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ
مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ
ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾
لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ
ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ
﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾
۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى
هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾

٢٦٤

طين يابس يسمع له صلصلة، إذا نقرته سمعت له صوتاً.

﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ من طين أسود متغير لونه وريحه من طول مكثه.

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: ومن قبل آدم خلقنا الجان ـ أي الشياطين، ورئيسهم إبليس ـ من نار السموم، وهي النار الحارة الشديدة، التي تنفذ في المسام فتقتل بحرها، قال المفسرون: عني بالجان هنا إبليس أبا الجن؛ لأن منه تناسلت الجن فهو أصل لها، كما أن آدم أصل للإنس، وسمي جاناً لتواريه عن الأنظار، والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهاره محتده.

*** وعرضت السورة إلى قصة البشرية الكبرى قصة الهدى والضلال ممثلة في خلق آدم عليه السلام، وعدوه اللدود إبليس، وما جرى من سجود الملائكة لآدم، واستكبار إبليس عن السجود، واعتراضه على أمر الله وتوعده لذرية آدم، قال تعالى:**

﴿٢٨﴾-﴿٣٣﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي: اذكر ـ يا محمد ـ حين قال ربك للملائكة: إني خالق بشراً من طين يابس، أسود متغير، قال ابن كثير: فيه تنويه بذكر آدم في الملائكة قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له، وامتناع إبليس عدوه عن السجود له حسداً وكفراً.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أي: سويت خلقه وأكملت صورته، وجعلته إنساناً كاملاً معتدل الأعضاء، وأفضت عليه من الروح التي هي خلق من خلقي فصار بشراً حياً، والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان، وأضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً، وهي من إضافة الملك إلى المالك، والصنعة إلى الصانع.

﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أي: خروا له ساجدين، سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي: فامتثل الملائكة أمر ربهم، وسجد لآدم جميع الملائكة، لم يمتنع منهم أحد تأكيد بعد تأكيد، ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد؛ وذلك تعظيماً لأمر الله، وإكراماً لآدم حيث عُلِّم ما لم يعلموا.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ الاستثناء منقطع؛ لأن إبليس خلق آخر غير الملائكة، فهو من نار وهم من نور، وهم لا يعصون الله ما أمرهم وهو أبى وعصى، فليس هو من الملائكة بيقين، ولكنه كان بين صفوفهم فتوجه إليه الخطاب والمعنى: سجد جميع الملائكة لكن إبليس امتنع من السجود بعد أن أمره الله عز وجل بذلك، وهذه أول عداوته لآدم وذريته.

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: قال الله عز وجل لإبليس ما المانع لك من السجود؟ وأيُّ داع دعا بك إلى الإباء والامتناع؟ وهو استفهام تبكيت وتوبيخ.

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ

مَّسۡنُونٖ﴾ أي: قال إبليس مظهراً كبره وحسده: لا ينبغي ولا يليق لمثلي أن يسجد لآدم وهو مخلوق من طين يابس متغير، فهو من طين وأنا من نار فكيف يسجد العظيم للحقير، والفاضل للمفضول؟ رأى عدو الله نفسه أكبر من أن يسجد لآدم، ومنعه كبره وحسده عن امتثال أمر الله واستكبر على أمر الله، وأبدى العداوة لآدم وذريته، وأعجب بعنصره، وقال أنا خير من آدم.

* قال الله تعالى معقباً على كفره واستكباره، وتمرده وعصيانه:

﴿٣٤﴾-﴿٣٨﴾ ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ * وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾.

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ أي: اخرج من الجنة فإنك مطرود من رحمتي مبُعد من كل خير.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: وإن عليك الذم والعيب والبعد عن رحمة الله إلى يوم الجزاء والعقوبة، ففيها وما أشبهها دليل على أنه سيستمر على كفره وبعده عن الخير.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ قال إبليس: رب أمهلني وأخرني إلى اليوم الذي تبعث فيه عبادك، وهو يوم القيامة.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ قال له الله: إنك من المؤجلين إلى اليوم الذي يموت فيه كل الخلق، بعد النفخة الأولى، قال القرطبي: أراد بسؤاله الإنظار ـ إلى يوم يبعثون ـ ألا يموت؛ لأن البعث لا موت بعده، فأجابه المولى بالإنظار إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم موت الخلائق، فيموت إبليس ثم يبعث؛ وليس إجابة دعائه كرامة في حقه، وإنما ذلك امتحان وابتلاء من الله له وللعباد، ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه ممن ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير، وبين لنا ما يريده منا.

* يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه:

﴿٣٩﴾-﴿٤٤﴾ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ * قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ * لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: قال إبليس: رب بسبب إغوائك وإضلالك لي، لأزينن لذرية آدم المعاصي والآثام وأدعوهم إلى إيثار الدنيا على الآخرة، حتى يكونوا منقادين لكل معصية.

﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ أي: ولأضلنهم وأصدهم عن طريق الهدى أجمعين، إلا من استخلصته واجتبيته من عبادك لطاعتك ومرضاتك، فلا قدرة لي على إغوائه.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ أي: قال الله تعالى: هذا طريق مستقيم واضح، موصل إليَّ وإلى دار كرامتي، وسنة أزلية لا تتخلف وهي:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ إن عبادي المؤمنين لا قوة لك تميلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات، بسبب عبوديتهم لربهم وانقيادهم لأوامره، أعانهم الله وعصمهم من الشيطان.

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ استثناء منقطع لأن الغاوين ليسوا من عباد الله المخلصين، والمعنى: لكن من غوى وضل ورضي بولايتك وطاعتك من الكافرين فلك عليهم تسلط، لأن الشيطان إنما يتسلط على الشاردين عن الله، كما يتسلط الذئب على الشاردة من القطيع.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ﴾ أي: وإن النار الشديدة لموعد إبليس وأتباعه جميعاً، وصفتها أن لها سبعة أبواب يدخلوا منها لكثرتهم، وروي عن عليّ أنها أطباق، طبق فوق طبق وأنها دركات بعضها أشد من بعض.

﴿لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ لكل جماعة من أتباع إبليس باب معين معلوم، بحسب أعمالهم، قال ابن كثير: كل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في درك بقدر عمله.

* ولما ذكر تعالى حال الأشقياء من أهل الجحيم وما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النكال والعذاب الشديد، أعقبهم بذكر حال السعداء من أهل النعيم، وما أعد لأوليائه من الفضل العظيم، والنعيم المقيم، فقال:

﴿٤٥﴾-﴿٥٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ * نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ إن الذين اتقوا طاعة الشيطان، وما يدعوهم إليه من الفواحش والشرك، لهم في الآخرة البساتين الناضرة، والعيون المتفجرة بالماء والسلسبيل والخمر والعسل، ويقال لهم حال دخولها:

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ أي: ادخلوا الجنة سالمين من كل الآفات، آمنين من الموت، ومن زوال هذا النعيم الذي هم فيه، أو نقصانه، ومن المرض، والحزن، والهم، وسائر المكدرات.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: أزلنا ما في قلوب أهل الجنة من الحقد والعداوة، والبغضاء والشحناء فتبقى قلوبهم سالمة من كل غل وحسد، متصافية، متحابة:

﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي: حال كونهم إخوة متحابين لا يكدر صفوهم شيء، على سرر متقابلين وجهاً لوجه، دل ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحسن أدبهم فيما بينهم، في كون كل منهم مقابلاً للآخر لا مستدبراً له؛ تواصلاً وتحاباً، زيادة في الأنس والإكرام؛ متكئين على تلك السرر المزينة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر، قال ابن عباس: على سرر من ذهب مكللة بالدر والياقوت والزبرجد.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي: لا يصيبهم في الجنة إعياء وتعب ولا مشقة وأذى، لا ظاهراً ولا باطناً؛ وذلك لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة، لا تقبل شيئاً من الآفات، ولا يخرجون منها ولا يردون: نعيمهم خالد، وبقاؤهم دائم، لأنها دار الصفوة والسرور، وفي هذا الخلود الدائم، وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم.

ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرهبة من مفعولات الله من الجنة والنار ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى، فقال:

﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: أخبر ـ يا محمد ـ عبادي المؤمنين خبراً جازماً مؤيداً بالأدلة، بأني واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب، فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته سعوا في الأسباب الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها، لينالوا مغفرته، ومع هذا فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال، فنبئهم بما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف:

﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ أي: وأخبرهم أن عذابي شديد لمن أصر على المعاصي والذنوب، قال أبو حيان: وجاء قوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى﴾ في غاية اللطف إذ لم يقل على وجه المقابلة (وإني المعذب المؤلم) وكل ذلك ترجيح لجهة العفو والرحمة، وفي هذا تحذير وإبعاد عن كل سبب يوجب لهم العقاب، فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائماً بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها، روي أن النبي ﷺ خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال: «أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنار؟ فشق ذلك عليهم فنزلت: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾».

* ومن قصة آدم تنتقل السورة إلى قصص بعض الأنبياء، تسلية لرسول الله ﷺ، وتثبيتاً لقلبه الشريف مما يجده ويلاقيه من قومه، فتذكر قصة لوط، وشعيب، وصالح ـ عليهم السلام ـ، وما حل بأقوامهم المكذبين، وابتداء سبحانه بتلك القصة العجيبة التي جرت لإبراهيم عليه السلام مما يوجب لهم العبرة والاقتداء بهم، فإننا قد أمرنا أن نتبع ملة إبراهيم عليه السلام، وضيفه هم الملائكة الكرام، أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه، قال تعالى:

﴿٥١﴾-﴿٥٦﴾ ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ
إِبۡرَٰهِيمَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ
سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ * قَالُواْ
لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ *
قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ
فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ
فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ * قَالَ وَمَن
يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ **وأخبرهم عن قصة ضيف إبراهيم، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وكانوا عشرة على صورة غلمان حسان، معهم جبريل.**

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ **أي: حين دخلوا على إبراهيم فسلموا عليه فرد عليهم ثم قدم لهم الطعام فلم يأكلوا:**

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ﴾ **قال إبراهيم إنا خائفون منكم، فزعون لأنهم لم يأكلوا طعامه، أو لدخولهم بغير إذن وبغير وقت.**

﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ **أي: قالت الملائكة لا تخف، فإنا جئنا نبشرك بغلام واسع العلم بالدين، عظيم الذكاء، وهو إسحاق ، تضمنت هذه البشارة، بأنه ذكر لا أنثى، كثير العلم، فقال متعجباً من هذه البشارة:**

﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ **أي: قال إبراهيم أبشرتموني بالولد على حالة الكبر والهرم، وصار نوع إياسي منه وزوجتي كذلك، فبأي شيء تبشروني وقد عدمت الأسباب؟ قال ذلك على وجه التعجب والاستبعاد.**

﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾ **أي: بشرناك باليقين الثابت الذي لا شك فيه، لأن الله على كل شيء قدير، فلا تستبعده، ولا تيأس من رحمة الله وفضله وإحسانه أن يولد لك.**

﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ **استفهام إنكاري، أي: قال إبراهيم لا ييأس من رحمة الله إلا المخطئون طريق المعرفة والصواب، الذين يستبعدون وجود الخير، الجاهلون برب الأرباب، أما القلب العامر بالإيمان المتصل بالرحمن، فلا ييأس ولا يقنط، وإنما استبعد إبراهيم الولد لكبر سنه لا لقنوطه من رحمة الله، وكان تعجب إبراهيم باعتبار العادة دون القدرة، فإن الله تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين، فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر؟ ولذلك أجابهم بذلك الجواب.**

*** ثم لما بشروه بهذه البشارة، عرف أنهم مرسلون لأمر مهم، وشأن عظيم، فسألهم عما لأجله أرسلهم الله سبحانه:**

﴿٥٧﴾-﴿٦٠﴾ ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ
أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ
إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ * إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ
إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ
قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾.

﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ **أي: قال إبراهيم الخليل ما شأنكم وما أمركم الذي جئتم من أجله، ولأي شيء أرسلتم من عند الله أيها الملائكة الكرام؟**

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ **أي: أرسلنا ربنا إلى قوم مشركين ضالين، كثر فسادهم وعظم شرهم؛ لإهلاكهم وعقابهم، يعنون قوم لوط.**

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ **أي: إلا أتباع لوط وأهله المؤمنين، فسننجيهم من ذلك العذاب أجمعين.**

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ **إلا امرأة لوط فقد قدر الله**

إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢ قَالُواْ
لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٥٣ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن
مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ
فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ٥٥ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ
رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ
٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ
إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ
ٱلۡغَٰبِرِينَ ٦٠ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١ قَالَ
إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٦٢ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ
يَمۡتَرُونَ ٦٣ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤ فَأَسۡرِ
بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ
وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ
دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ
يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠

قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا
سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾
فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ
ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ
﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾
وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي
وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا
مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ
إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

بقاءها في العذاب مع الكفرة الهالكين، وقد: استثنى من آل لوط امرأته، وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين في الهلاك.

*** يخبر تعالى عن لوط عليه السلام لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه، قال تعالى:**

﴿٦١﴾-﴿٦٤﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ **أي: فلما أتى ووصل رسل الله لوطاً عليه السلام.**

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ **قال لهم إنكم قوم لا أعرفكم، ولا أدري من أنتم، فماذا تريدون؟**

﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ **أي: قالوا له لا تخف، بل نحن رسل الله، جئناك بما كان قومك يشكون فيه وهو نزول العذاب الذي وعدتهم به، وجئناك بالحق اليقين الذي ليس بالهزل، من عذابهم، وإنا لصادقون فيما نقول.**

*** ولأجل قدوم العذاب، ونزوله على آل لوط، قالت الملائكة للوط عليه السلام:**

﴿٦٥﴾، ﴿٦٦﴾ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ **أي: اخرج من بينهم بأهلك في طائفة من الليل حين تنام العيون، ولا يدري أحد عن مسراك.**

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ **أي: كن من ورائهم وسر خلفهم لتطمئن عليهم حتى لا يتخلف أحد، لا يلتفت أحد منكم وراءه لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم فيرتاع، أو جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف، لأن من يلتفت لا بد له في ذلك من أدنى وقفة.**

﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ **سيروا واسرعوا حيث يأمركم الله ﷻ وهو الشام أو مصر، لتكونوا في مكان أمين.**

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ **أي: أوحينا إلى لوط ذلك الأمر العظيم، أن أولئك المجرمين سيتسأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد.**

﴿مُّصْبِحِينَ﴾ **أي: إذا دخل الصباح تم هلاكهم واستئصالهم.**

*** ثم ذكر تعالى ما كان من قوم لوط عند وصول الملائكة إلى قريتهم، فقال:**

﴿٦٧﴾-﴿٧٢﴾ ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ * قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ **أي: جاء أهل مدينة سدوم ـ وهم قوم لوط ـ مسرعين يستبشرون بأضيافه، طمعاً في ارتكاب الفاحشة بهم، ظناً منهم أنهم أناس مثلهم، قال المفسرون: أخبر أولئك السفهاء أن في بيت لوط شباناً مرداً حساناً فأسرعوا فرحين يبشر بعضهم بعضاً بأضياف لوط، فجاؤوا حتى وصلوا إلى بيت لوط، فجعلوا يعالجون لوطاً على أضيافه، ولوط يستعيذ منهم.**

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ **أي: قال لوط لقومه:**

هؤلاء ضيوفي وهم في حمايتي، فلا تقصدوهم بسوء فتلحقوا بي العار وتفضحوني أمامهم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾ أي: خافوا الله أن يحكم بكم عقابه وراقبوه، ولا تهينوني بالتعرض لهم بالمكروه إن كان ليس فيكم خوف من الله.

﴿قَالُوٓاْ أَوَ لَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قالوا له جواباً عن قوله ولا تخزون: ألم نمنعك عن ضيافة أحد من العالمين، لأنا نريد منهم الفاحشة؟

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ قال لهم لوط من شدة الأمر الذي أصابه: هؤلاء النساء فتزوجوهن ولا تركنوا إلى الحرام إن كنتم تريدون قضاء الشهوة، قال المفسرون: المراد بقوله: ﴿بَنَاتِيٓ﴾ بنات أمته لأن كل نبي يعد أباً لقومه، فلم يبالوا بقوله، ولهذا قال الله تعالى لرسول ﷺ:

﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ يقسم الخالق بمن يشاء وبما يشاء، أما المخلوق فلا يجوز له القسم إلا بالله، وقد أقسم الله تعالى بحياة محمد ﷺ تشريفاً له وتكريماً، وما أقسم الله سبحانه بحياة أحد غير محمد ﷺ لأنه أكرم البرية عنده. قال ابن عباس: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم على الله من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره. والمعنى: إن قوم لوط لفي ضلالهم وجهلهم يتخبطون ويترددون، لا يبالون معها بعذل ولا لوم، وهذه جملة اعتراضية جاءت ضمن قصة لوط.

* فلما بينت لهم الرسل حالهم، زال عن لوط ما كان يجده من الضيق والكرب، فامتثل أمر ربه وسرى بأهله ليلاً فنجوا، وأما أهل القرية:

﴿٧٣﴾-﴿٧٧﴾ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ * فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾ أي: أخذتهم صيحة العذاب المهلكة المدمرة وقت شروق الشمس حين كانت العقوبة عليهم أشد.

﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي: قلبنا عليهم قراهم فجعلنا أعالي المنازل أسافلها. قال المفسرون: حمل جبريل عليه السلام قريتهم واقتلعها من جذورها، حتى رأوا الأفلاك وسمعوا تسبيح الأملاك ثم قلبها بهم.

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي: أنزلنا عليهم حجارة كالمطر من طين طبخ بنار جهنم تتبع فيها من شذ من البلد منهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي: إن فيما حل بهم من الدمار والعذاب لدلالات وعلامات للمعتبرين، المتأملين بعين البصر والبصيرة، يفهمون بها ما أريد بذلك، من أن من تجرأ على معاصي الله خصوصاً هذه الفاحشة العظيمة، أن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات، كما تجرؤوا على أشنع السيئات.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ﴾ أي: وإن هذه القرى المهلكة، وما ظهر فيها من أثر قهر الله وغضبه، لبطريق ثابت لم يندرس، يراها المجتازون في أسفارهم أفلا يعتبرون.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إن فيما جرى لعبرة للمصدقين.

* ثم ذكر ﷻ قصة قوم شعيب عليه السلام، فقال:

﴿٧٨﴾،﴿٧٩﴾ ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ * فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾.

﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ أي: وإنه الحال والشأن كان قوم شعيب ـ وهم أصحاب الأيكة، أي: الشجر الكثير الملتف ـ ليذكر نعمته عليهم، وأنهم ما قاموا بها، بل جاءهم نبيهم شعيب فدعاهم إلى التوحيد وترك ظلم الناس في المكاييل والموازين، فاستمروا على ذلك، على ظلمهم في حق الخالق، وفي حق الخلق، ولهذا وصفهم هنا بالظلم، وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ أي: أهلكناهم بالرجفة وعذاب يوم الظلة لما كذبوا شعيباً. قال المفسرون: اشتد الحر عليهم سبعة أيام حتى قربوا من الهلاك، فبعث الله عليهم سحابة كالظلة، فالتجؤوا إليها واجتمعوا تحتها للتظلل بها، فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم جميعاً.

﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ أي: وإن قرى قوم لوط وشعيب لطريق واضح

يمر به المسافرون كل وقت، أفلا تعتبرون بهم يا أهل مكة؟

* ثم ذكر ﷻ قصة صالح عليه السلام هذه القصة وهي الرابعة في هذه السورة، فقال تعالى:

(٨٠)-(٨٤) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ * وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: كذبت ثمود نبيهم صالحاً -والحجر وادٍ بين المدينة والشام وآثاره باقية يمر عليها المسافرون- ومن كذب واحداً من الرسل فكأنما كذب الجميع، ولذا قال: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لأنهم على دين واحد.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ وأريناهم معجزاتنا قوم صالح، الدالة على قدرتنا مثل الناقة وما فيها من العجائب، فكانوا لا يعتبرون بها ولا يتعظون، كبراً وتجبراً على الله. قال ابن عباس: كان في الناقة آيات: خروجها من الصخرة، ودنوا ولادتها عند خروجها، وعظم خلقها فلم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى كان يكفيهم جميعاً، فلم يتفكروا فيها ولم يستدلوا بها.

﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ وكانوا من كثرة إنعام الله عليهم، ينقبون الجبال فيبنون فيها بيوتاً آمنين من المخاوف، مطمئنين في ديارهم، لا يخافون أن تسقط عليهم أو تخرب، لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تنهدم، ومن نقب اللصوص والأعداء، فلو شكروا النعمة وصدقوا نبيهم صالحاً عليه السلام، لأدر الله عليهم الأرزاق، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولكنهم لما كذبوا وعقروا الناقة، وعتوا من أمر ربهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي: أخذتهم صاعقة العذاب حين أصبحوا، فتقطعت قلوبهم في أجوافهم، وأصبحوا في ديارهم جاثمين هلكى، مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعنة المستمرة.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: ما دفع عنهم عذاب الله ما كانوا يشيدونه من القلاع والحصون، لأن أمر الله إذا جاء، لا يرده كثرة جنود، ولا قوة أنصار، ولا غزارة أموال.

* ثم لما ذكر تعالى ما جرى للأمم الماضية من العقوبات، قال تعالى:

(٨٥)،(٨٦) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: وما خلقنا الخلائق كلها سماءها وأرضها وما بينهما إلا خلقاً ملتبساً بالحق، لا عبثاً ولا باطلاً كما يظن ذلك أعداء الله، ومن ذلك الحق أن يكونا بما فيهما دالتين على كمال خلقهما واقتداره، وسعة رحمته وحكمته وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وكذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء المكذبين لئلّا يعم الفساد.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ أي: وإن الساعة التي تقوم فيها القيامة لآتية لا محالة، فيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فأعرض -يا محمد- عن هؤلاء السفهاء وعاملهم معاملة الحليم لتنال من ربك الأجر والثواب، وكان هذا قبل الأمر بالقتال.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: الخالق لكل شيء، العليم بأحوال العباد لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ولا يخفى عليه.

* ثم يذكر ﷻ منته ونعمته على الرسول ﷺ بالنعمة العظمى عليه، بإنزال هذا الكتاب المجيد المعجز، وتأمره بالصبر والسلوان على ما يلقاه من أذى المشركين، وتبشره بقرب النصر له وللمؤمنين، قال تعالى:

(٨٧)،(٨٨) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ أي: ولقد أعطيناك وأنزلنا عليك -يا محمد- فاتحة القرآن، وهي سبع آيات تكرر قراءتها في كل صلاة، وفي الحديث: «الحمد لله رب

ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٣) فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ
عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ (٩٥) ٱلَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ
أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن
مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٩٨) وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ (٩٩)

سُورَةُ النَّحْلِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ
(١) يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ (٢) خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ
ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) وَٱلْأَنْعَٰمَ
خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
(٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)

العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» [رواه البخاري]، وقيل: هي السور السبع الطوال «البقرة»، و«آل عمران»، و«النساء»، و«المائدة»، و«الأنعام»، و«الأعراف»، و«الأنفال»، والأول أرجح.

﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ أي: وآتيناك القرآن العظيم، الجامع لكمالات الكتب السماوية، وبعد هذا العطاء الجزيل قال بعده:

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: لا تنظر بعينيك - يا محمد - ولا تتمنَّ ما متعنا به بعض هؤلاء الكفار، فإن الذي أعطيناك أعظم منها وأشرف وأكرم، وكفى بإنزال القرآن عليك نعمة، واستغن بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم.

قال بعض العلماء: من أعطاه الله جل وعلا فهم القرآن ثم ظن مع ذلك أنَّ أحدًا من أهل الدنيا أعطي أكثر مما أعطي فقد عظم صغيرًا، وصغر عظيماً.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تغتم لعدم إيمانهم، فإنهم لا خير فيهم يُرجى، ولا نفع يرتقب، فلك في المؤمنين عنهم أحسن البدل، وأفضل العوض.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ألن جانبك وتواضع لمن آمن بك من المؤمنين وضعفائهم، محبة وإكراماً وتودداً.

* ثم أمر نبيه ﷺ أن يعلم الناس ويقول لهم عن مهمته ورسالته:

(٨٩)-(٩٣) ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ * كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ * ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: قم بما عليك من النذارة، وأداء الرسالة، والتبليغ للقريب والبعيد، والعدو والصديق، فإنك إن فعلت ذلك، فليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ الكاف للتشبيه، والمعنى: أنزلنا عليك القرآن كما أنزلنا على أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعضه، فانقسموا إلى قسمين.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أي: جعلوا القرآن أجزاء متفرقة وقالوا فيه أقوالاً مختلفة، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم بقولهم: سحر، وشعر، وأساطير، بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب مثل فعل كفار مكة.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: فأقسم بربك - يا محمد - لنحاسب الخلائق أجمعين عما كانوا يعملون في الدنيا من عبادة الأوثان والمعاصي والآثام، وفي هذا ترهيب وزجر عن الإقامة على الشرك والمعاصي.

* ثم أمر رسوله أن لا يبالي بهم ولا بغيرهم، وأن يصدع بما أمر الله، ويعلن بذلك لكل أحد ولا يعوقه عن أمره عائق، قال تعالى:

(٩٤)-(٩٩) ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ * ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ * وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾.

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: فاجهر بتبليغ دعوة الحق التي أمرك ربك بها، ولا تلتفت إلى ما يقول المشركون ولا تبال بما هم عليه من الكذب والاستهزاء، والسخرية والطعن؛ فقد برأك الله مما يقولون.

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ أي: كفيناك شر أعدائك الساخرين، المستهزئين بإهلاكنا إياهم، وكانوا خمسة من صناديد قريش، وهذا وعد من الله لرسوله أن لا يضره المستهزؤون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة، وقد فعل تعالى، فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به إلا أهلكه الله وقتله شر قتلة.

ثم ذكر وصفهم، وأنهم كما يؤذونك -يا محمد-، فإنهم أيضاً يؤذون الله، ويجعلون معه شركاء.

﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: الذين أشركوا مع الله غيره من الأوثان والأصنام فهو ربهم وخالقهم ومدبرهم.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد وتهديد، أي: سوف يعلمون عاقبة أمرهم في الدارين.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: يضيق صدرك بالاستهزاء والتكذيب فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب، والتعجيل لهم بما يستحقون، ولكن الله يمهلهم ولا يهملهم.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: فافزع فيما نالك من مكروه إلى التسبيح والصلاة، والإكثار من ذكر الله، فإن ذلك يوسع الصدر ويشرحه، ويعينك على أمورك ويكفيك ما أهمك.

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أي: اعبد ربك ـ يا محمد ـ واستمر على ذلك مدة حياتك، حتى يأتيك الموت، سمي يقيناً لأنه متيقن الوقوع والنزول، فامتثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائباً في العبادة حتى أتاه اليقين من ربه ﷺ.

تم تفسير سورة الحجر
والحمد لله

تفسير سورة النحل
وهي مكية

* سورة النحل من السور المكية، سميت هذه السورة الكريمة «سورة النحل» لاشتمالها على تلك العبرة البليغة التي تشير إلى عجيب صنع الخالق، وتدل على الألوهية بهذا الصنع العجيب. وتسمى سورة النِعَم، فإن الله ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها، فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق، ليستدل بها العباد على عظمة خالقها، وما له من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما مسكناً لعباده الذين يعبدونه، فقد خلق في ذلك العالم الفسيح السموات والأرض، والبحار والجبال، والسهول والوديان، والماء الهاطل، والنبات النامي، والفلك التي تجري في البحر، والنجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل، إلى آخر تلك المشاهد التي يراها الإنسان في حياته، ويدركها بسمعه وبصره، وهي صور حية مشاهدة، دالة على وحدانية الله -جل وعلا-، وناطقة بآثار قدرته التي أبدع بها الكائنات. وقد افتتحت سورة النحل بالنهي عن الاستعجال واختتمت بالأمر بالصبر، قال تعالى:

(١) ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: قرب ودنا قيام الساعة فلا تستعجلوا العذاب الذي أوعدكم به محمد، وإنما أتى بصيغة الماضي لتحقق وقوع الأمر وقربه. قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] قال الكفار بعضهم لبعض: إن محمداً يزعم أن القيامة قد اقتربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر، فلما امتدت الأيام قالوا ـ يا محمد ـ: ما نرى شيئاً مما تخوفنا به فأنزل الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ...﴾ الآية.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزه الله عما يصفه به الظالمون، وتقدس عن إشراكهم به غيره من الأنداد والأوثان، فإنه الإله حقاً، الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

* ثم تناولت السورة الكريمة في البدء أمر الوحي الذي كان مجال إنكار المشركين واستهزائهم، فقد كذبوا بالوحي واستبعدوا قيام الساعة، واستعجلوا الرسول ﷺ أن يأتيهم بالعذاب الذي خوفهم به، وكلما تأخر العذاب زادوا استعجالاً، وزادوا استهزاءً واستهتاراً، قال تعالى:

(٢) ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ أي: ينزل الملائكة بالوحي والنبوة بإرادته وأمره، على من يشاء من عباده المرسلين، وسمى الوحي روحاً لأنه تحيا به القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان.

﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: بأن خوفوا الناس من الشرك، وأنه لا معبود إلا الله، فخافوا عذابي وانتقامي.

* ثم لفت الأنظار -جل وعلا- إلى قدرة الله الواحد القهار وآثار صنع الله الدالة على عظمته سبحانه، وأنه لا إله إلا هو بما ذكر، مما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والأرض، فقال:

﴿٣﴾، ﴿٤﴾ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: خلقهما بالحق الثابت، والحكمة الفائقة، ليستدل بهما العباد على عظمة خالقهما، وأنه وحده المستحق للعبادة.

﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تمجد وتقدس وتنزه عن الشريك والنظير.

ولما ذكر خلق السماوات والأرض، ذكر خلق ما فيهما، وبدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان، فقال:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: خلق هذا الجنس البشري من نطفة مهينة ضعيفة هي المنيُّ، لم يزل يدبرها، ويرقيها، وينميها، حتى صارت بشراً كاملاً تاماً، كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة قد غمره بنعمه الغزيرة، حتى إذا استتم، ففخر بنفسه، وأعجب بها:

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: فإذا هو بعد تكامله بشراً مخاصماً لخالقه، واضح الخصومة، يكابر ويعاند في إنكار البعث، وقد خلق ليكون عبداً لا ضداً، أفلا يستدل بأوله على آخره، وبأن من قدر على إيجاده أولاً قادر على إعادته ثانياً. وفي الآية بيان القدرة وكشف قبيح ما فعلوه من جحود نعم الله مع ظهورها عليهم.

* ثم يمنّ تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وما فيها من المنافع والمصالح، فقال:

﴿٥﴾-﴿٧﴾ ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ أي: وخلق الأنعام من الإبل والبقر والغنم لمصالحكم ولأجل منافعكم، ومن جملة منافعها العظيمة أن:

﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: لكم فيها ما تستدفئون به من البرد مما تلبسون وتفترشون من الأصواف والأوبار والأشعار والجلود.

الجُزْءُ الرَّابِعَ عَشَرَ — سُورَةُ النَّحْلِ

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ
ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ
وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾
وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم
مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم
بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ
﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا
أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا
وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ
فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

٢٦٨

﴿وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: ولكم فيها منافع عديدة غير ذلك، في ألبانها، وجلودها وركوبها، ونتاجها، ومن لحومها تأكلون، وهو من أعظم المنافع لكم.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: ولكم في هذه الأنعام والمواشي زينة وجمالة تُدخل السرور عليكم حين رجوعها عشيّاً من المرعى، وحين غدوها صباحاً لترعى، جمال الاستمتاع بمنظرها صحيحة سمينة فارهة. وقدم الرواح لأن المنافع تؤخذ منها بعد الرواح، ومالكها يكون أعجب بها إذا راحت، لأن الجمال في الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطون، حافلة الضروع.

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ ومن فوائدها أنها: تحمل ما ثقل من أمتعتكم التي تعجزون عن حملها إلى بلد بعيد، لم تكونوا لتصلوا إليه إلا بجهد ومشقة، ولكن الله ذللها لكم وسخرها.

﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: إن ربكم أيها الناس الذي سخر لكم هذه الأنعام، لعظيم الرأفة والرحمة بكم فله الحمد، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وسعة جوده وبره.

* ثم ذكر تتمة النعمة على عباده، فقال:

﴿٨﴾ ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾ أي: وخلق لكم الخيل والبغال، والحمير، وسخرها للحمل والركوب، وهي كذلك زينة وجمال ومنظر حسن، ولم يذكر الأكل، لأن البغال والحمر محرم أكلها، والخيل لا تستعمل -في الغالب- للأكل، بل ينهى عن ذبحها لأجل الأكل، خوفاً من انقطاعها، وإلا فقد ثبت في الصحيحين، أن النبي ﷺ أذن في لحوم الخيل.

﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: ويخلق في المستقبل ما لا يعلمه العباد، فيشمل كل شيء لا يحيط علمهم به، ومن هذا وصفه وكماله وسعة علمه يتعالى عن أن يُشرك به غيره.

* ولما ذكر تعالى الطريق الحسي، وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها، ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه، فقال:

﴿٩﴾ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ وعلى الله -جل وعلا- بيان الطريق المستقيم لهدايتكم، وهو الإسلام الموصل لمن يسلكه إلى جنات النعيم الذي هو أقرب الطرق وأخصرها، موصل إلى الله.

﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾ أي: ومن هذه السبيل طريق مائل عن الحق منحرف عنه، لا يوصل سالكه إلى الله وهو طريق الضلال، كاليهودية والنصرانية والمجوسية، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضل الغاوون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة.

﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي: لو شاء أن يهدي الناس إلى الإيمان لهداهم جميعاً، ولكنه هدى بعضاً كرماً وفضلاً، ولم يهد آخرين، حكمة منه وعدلاً.

* ولما استدل سبحانه على وجوده وكمال قدرته وبديع صنعته بعجائب أحوال الحيوانات، أراد أن يذكر الاستدلال على المطلوب بإنزال المطر وبغرائب أحوال النبات، فقال:

﴿١٠﴾، ﴿١١﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ﴾ أي: أنزل المطر بقدرته القاهرة من السحاب.

﴿لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: أنزله عذباً فراتاً لتشربوه فتسكن حرارة العطش، وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم ويعود عليكم درُّها ونفعها.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ﴾ أي: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ ومن كل الفواكه والثمار يخرج لكم أطايب الطعام، ولم يقل كل الثمرات؛ لأنها كلها لا تكون إلا في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعضها من كلها للتذكرة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن في إنزال الماء، وإخراج الثمار لدلالة واضحة على قدرة الله ووحدانيته وكمال قدرته، لقوم يتدبرون في صنعه ويستدلون بها عليه فيؤمنون، وقد: ختم الآية بقوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ لأن النظر في ذلك يحتاج إلى فضل تأمل واستعمال فكره، ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وضعت في الأرض ومر عليها زمن معين لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به فيشق أعلاها فتصعد منه شجرة إلى الهواء، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرة أخرى وهي العروق، ثم ينمو الأعلى ويقوى وتخرج الأوراق والأزهار، والأكمام والثمار، المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع والألوان والأشكال والمنافع وذلك بتقدير قادر مختار وهو الله تعالى.

* ثم بدأ يعدد نعماً أخرى أنعم بها على عباده لمنافعهم وأنواع مصالحهم، بحيث لا يستغنون عنها أبداً، وجمع -سبحانه- لعباده في هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الأرضية والسماوية والبحرية. فقال تعالى:

﴿١٢﴾، ﴿١٣﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ وصف تسخيرها للناس تصييرهما نافعين لهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم وتستدعيه حاجاتهم، حيث ذلل وسخر الليل لراحتكم والنهار لمعاشكم، يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران لمصالحكم ومنافعكم فبالليل تسكنون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معايشكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر، من الضياء، والنور، والإشراق، وإصلاح الأشجار والثمار والنبات، وتجفيف الرطوبات، وإزالة البرودة الضارة للأرض والأبدان، وغير ذلك من الضروريات والحاجيات، التابعة لوجود الشمس والقمر.

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: والنجوم تجري في فلكها بأمره تعالى لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، وفيها وفي النجوم من الزينة للسماء والهداية في ظلمات البر والبحر، ومعرفة الأوقات، وحساب الأزمنة، وما تتنوع دلالاتها، وتنصرف آياتها لعبرة وعظة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: إن في ذلك الخلق والتسخير لدلائل باهرة عظيمة، لأصحاب العقول السليمة على وجود الصانع وتفرده، وعدم وجود شريك له، وذكر العقل لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة، ثم لما نبه تعالى على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة، قال:

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ أي: وما خلق لكم في الأرض من الأمور العجيبة، من الحيوانات والنباتات، والمعادن والجمادات، على اختلاف ألوانها وأشكالها، وخواصها ومنافعها، آية على كمال قدرة الله، وعميم إحسانه، وسعة بره، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: إن في ذلك التسخير لهذه الأمور لعبرة لقوم يتعظون ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه، حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

* ثم امتن ﷻ على عباده بجملة من النعم التي أنعم بها على عباده مع ما فيها من الدلالة على وحدانيته سبحانه

الجزء الرابع عشر سورة النحل

وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ
﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ
غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ
وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم
مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا
يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم
مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ
أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم
بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ
مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

٢٦٩

وكمال قدرته، قال تعالى:

﴿١٤﴾-﴿١٨﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: وهو لا شريك له بقدرته ورحمته ذلل لكم البحر المتلاطم الأمواج للركوب فيه والغوص في أعماقه، وهيأه لمنافعكم المتنوعة.

﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ لتأكلوا من البحر السمك والحوت الطري الذي تصطادونه منه، ووصفه

بالطراوة لأن الفساد يسرع إليه، فيؤكل سريعاً طرياً خيفة الفساد.

﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وتستخرجوا منه الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان فتزيدكم جمالاً، وحسناً إلى حسنكم.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ وترى السفن العظيمة والمراكب تشق عباب البحر جارية فيه، وهي تحمل الأمتعة والأقوات من قطر إلى قطر. قال قتادة: مقبلة ومدبرة وهو أنك ترى سفينتين إحداهما تقبل والأخرى تدبر تجريان بريح واحدة.

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: سخر لكم البحر لتنتفعوا بها ذكر ولتطلبوا من فضل الله ورزقه وإحسانه سبل معايشكم بالتجارة.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ولتشكروا ربكم على عظيم إنعامه وجليل إفضاله على ما أنعم لكم وهيأ، وتثنون على الله الذي منَّ بها.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: وألقى تعالى ونصب في الأرض لأجل عباده، جبالاً ثوابت راسيات لئلّا تضطرب بهم وتميل، فيتمكنون من حرث الأرض والبناء والسير عليها.

﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: ومن رحمته وفضله أن جعل فيها أنهاراً وطرقاً ومسالك لكي تهتدوا إلى مقاصدكم.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: وجعل في الأرض علامات يستدلون بها على الطرق كالجبال والأنهار، وبالنجوم يهتدون ليلاً في البراري والبحار.

وقد جمع الله سبحانه لعباده في هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الأرضية والسماوية والبحرية، فأرشدهم إلى النظر والاستدلال بالآيات المتنوعة المختلفة الأمكنة إتماماً للحجة، وتكميلاً للإنذار، وتوضيحاً لمنازع الاستدلال ومناطات البرهان. ولما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة، وما أنعم به من النعم العميمة، ذكر أنه لا يشبهه أحد، ولا كفء له، ولا ند له، فقال:

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ الاستفهام إنكاري، أي: أتسوون بين الله ﷻ الخالق لتلك الأشياء العظيمة والنعم الجليلة، وبين من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً فضلاً من غيره؟ أتشركون هذا الصنم الحقير مع الخالق الجليل؟ وهو تبكيت للكفرة وإبطال لعبادتهم الأصنام.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتذكرون عظمة الله، فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره، فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته، وهو توبيخ آخر.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ إن تحاولوا حصر نعم الله عليكم عدداً مجرداً عن الشكر لا تضبطوا عددها، لكثرتها وتنوعها، فضلاً عن أن تطيقوا شكرها، فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات، من جميع أصناف النعم، مما يعرف العباد، ومما لا يعرفون، وما يدفع عنهم من النقم فأكثر من أن تحصى، وما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذي لا يلتبس على إنسان مشيراً إلى عظيم غفرانه، وسعة رحمته، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: غفور لما صدر منكم من تقصير في أداء شكر النعمة، رحيم بالعباد حيث ينعم عليهم ولا يقطعها عنهم مع تقصيرهم وعصيانهم، ولهذا فهو سبحانه يرضى من عباده اليسير من الشكر، مع إنعامه الكثير.

قال الحسن: من لم ير لله عليه نعمة في غير مطعم أو مشرب فقد قلَّ علمه وحضر عذابه.

* وكما أن رحمته واسعة، وجوده عميم، ومغفرته شاملة للعباد، فعلمه محيط بهم، قال تعالى:

﴿١٩﴾-﴿٢١﴾ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ والله سبحانه يعلم ما تخفونه وما تظهرونه من النوايا والأعمال، وسيجازيكم عليها، وهو وعيد شديد.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ والذين يعبدونهم من دون الله كالأوثان والأصنام لا يقدرون على خلق شيء أصلاً، والحال وإن صغر فإنهم مخلوقون صنعهم البشر بأيديهم، فكيف يكونون آلهة تُعبد من دون الله؟ ومع هذا، ليس

فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علم ولا غيره فكيف يعبدونها.

﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أي: وتلك الأصنام أموات لا أرواح فيها، لا تسمع ولا تبصر، لأنها جمادات لا حياة فيها، فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها لما فيكم من الحياة.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ وما تشعر هذه الأصنام متى يبعث عابدوها، وفيه تهكم بالمشركين؛ لأنهم عبدوا جماداً لا يحس ولا يشعر.

* ثم بعد هذه الحجج الواضحة والبينات الباهرة، قال تعالى:

﴿٢٢﴾،﴿٢٣﴾ ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: إلهكم المستحق للعبادة، إله واحد لا شريك له، فأهل الإيمان والعقول أجلته قلوبهم وعظمته، وأحبته حباً عظيماً، وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى، وصفاته وأفعاله المقدسة.

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ أي: فالذين لا يصدقون بالبعث والجزاء قلوبهم تنكر وحدانية الله ﷻ الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلاً وعناداً، فلا يؤثر فيها وعظ ولا ينجع فيها تذكير.

﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: متكبرون متعظمون عن قبول الحق بعدما سطعت دلائله.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: حقاً إن الله تعالى لا تخفى عليه خافية من أحواله، يعلم ما يخفون وما يظهرون من الأعمال القبيحة.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أي: لا يحب المتكبرين عن التوحيد والإيمان؛ بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم.

* ثم يخبر تعالى عن شدة تكذيب المشركين بآياته، قال سبحانه:

﴿٢٤﴾،﴿٢٥﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أي: وإذا سُئل هؤلاء الجاحدون: أيّ شيء أنزل ربكم على رسوله ﷺ؟ من الوحي والقرآن الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد، فيكون جوابهم أقبح جواب وأسمجه.

﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: قالوا على سبيل الاستهزاء: إنه كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا خرافات وأباطيل الأمم السابقين ليس كلام رب العالمين، قال المفسرون: كان المشركون يجلسون على مداخل مكة ينفرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحاج ماذا أنزل على محمد؟ قالوا أباطيل وأحاديث الأولين؛ فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها.

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: قالوا ذلك البهتان ليحملوا ذنوبهم كاملة من غير أن يكفر منها شيء، وإنما ذكر الكمال؛ لأن البلايا التي تلحقهم في الدنيا وما يفعلون فيها من الحسنات لا تكفر عنهم شيئاً.

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: وليحملوا من ذنوب الأتباع الذين أضلوهم بغير دليل أو برهان، فقد كانوا رؤساء يقتدى بهم في الضلالة ولذلك حملوا أوزارهم وأوزار من أضلوهم.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ألا للتنبيه، أي: فانتبهوا أيها القوم بئس وقبح الحمل الذي حملوه على ظهورهم؛ من وزرهم، ووزر من أضلوه، والمقصود المبالغة في الزجر.

* ثم ذكر تعالى مكر الأمم السابقة مع أنبيائهم، وماذا جرى لهم من العذاب والعقاب، وذلك تسلية للنبي ﷺ على ما يجد من مكر قومه، قال تعالى:

﴿٢٦﴾،﴿٢٧﴾ ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ
ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ
لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى
هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ
لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾
ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ
ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن
تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾
فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

٢٧٠

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قد دبر الكفار من قبل هؤلاء المشركين المكايد لرسلهم وأرادوا إطفاء نور الله من قبل كفار مكة، واحتالوا بأنواع الحيل على رد ما جاؤوهم به، وبنوا من مكرهم قصوراً هائلة.

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي: قلع بنيانهم من قواعده وأسسه، وهذا تمثيل لإفساد ما أبرموا من المكر بالرسل.

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ فسقط عليهم سقف بنيانهم، فتهدم البناء، وماتوا، فصار ما بنوه عذاباً عذبوا به.

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وجاءهم الهلاك والدمار من مأمنهم، ومن حيث لا يخطر على بالهم، وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفعهم ويقيهم العذاب، فصار عذابهم فيما بنوه وأقاموه، والآية مشهد كامل للدمار والهلاك، وللسخرية من مكر الماكرين، وتدبير المدبرين، الذين يقفون لدعوة الله ويحسبون مكرهم لا يُرد، وتدبيرهم لا يخيب، والله من ورائهم محيط.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يفضحهم بالعذاب، ويذلهم ويهينهم على رؤوس الخلائق، ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على الله.

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: يقول تعالى لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: أين هؤلاء الشركاء الذين كنتم تخاصمون من أجلهم الأنبياء والمؤمنين وتعادونهم لأجلهم؟ وتزعمون أنهم شركاء لله أحضروهم ليشفعوا لكم، والأسلوب استهزاء وتهكم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يقول الدعاة والعلماء الربانيون، شماتة بأولئك الأشقياء، إن الذل والهوان والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله ورسله، وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه.

* ثم ذكر تعالى حال الكفار وماذا يفعل بهم عند الوفاة ونزع الروح، وفي القيامة، قال تعالى:

﴿٢٨﴾، ﴿٢٩﴾ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: تقبض الملائكة أرواحهم الخبيثة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالكفر والإشراك بالله، وقد علم ما يلقى الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة.

﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ أي: استسلموا وانقادوا لأمر الله حين رأوا الموت، على خلاف عادتهم في الدنيا من العناد والمكابرة، وقالوا ما أشركنا ولا عصينا.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يكذبهم الله ويقول: بلى قد كذبتم وعصيتم وكنتم مجرمين فلا يفيدكم الجحود شيئاً فإن الله عليم بأعمالكم كلها، وسيجازيكم عليها.

﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: كلُّ أهل عمل يدخلون من الباب اللائق والمناسب لحالهم، فادخلوا جهنم ماكثين بها أبداً.

﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بئست جهنم مقرّاً ومقاماً للمتكبرين عن طاعة الله، فإنها مثوى الحسرة والندامة، ومنزل الشقاء والألم،

ومحـل الهمـوم والغمـوم، وموضع السخط من الحي القيوم.

* لما أخبر تعالى عن حال الأشقياء الذيـن كفـروا نعمـة الله، وطعنوا في القـرآن فزعموا أنه أسـاطير الأولين، وبـين ما يكونون عليـه في الآخرة من الفضيحة والذل والهـوان، ذكر هنا ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزله الله نعمـة عظيمة، وذكر تعالى مـا أعـده للمتقين مـن وجـوه التكريم في دار النعيـم، ليظهر الفارق بين حال أهل السعادة وحال أهل الشقاوة، وبين الأبرار والفجـار على طريقة القرآن في المقارنة بين الفريقين، قال تعالى:

﴿٣٠﴾-﴿٣٢﴾ ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ * جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ أي: قيل للفريق الثاني وهم أهل التقوى والإيمان.

﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗا﴾ أي: ماذا أنزل ربكم على رسوله محمد ﷺ؟ قالوا أنزل الله عليه الخير والهدى، قال المفسرون: هذا كان في أيام الموسم يأتي الرجل مكة فيسـأل المشركين عن محمـد وأمـره، فيقولون: إنه سـاحر وكاهـن وكـذاب، فيـأتي المؤمنـين ويسألهم عن محمد وعمّا أنزل الله عليه، فيقولـون: أنزل الله عليه الخير والهدى والقـرآن، قال تعـالى بيانـاً لجزائهم الكريم:

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ فـي عبادة الله تعالى وأحسنوا إلى عباد الله تعالى فلهم:

﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾ لهم مكرمة كبيرة مـن النصر لهم في الدنيا، وسعة الرزق، وعيشة هنية، وطمأنينة قلب، وأمن وسرور.

﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ ولدار الآخـرة خير وأعظم ممـا أوتوه في دار الدنيا، ومـا فيها من أنـواع اللذات، والمشـتهيات، فإن هذه نعيمها قليل، مـليء بالآفـات منقطـع، بخـلاف الآخرة، ولهذا قال:

﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ولنعم دار المتقين الخائفين من الله، دار الآخرة، وهي:

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ أي: جنات إقامة دائمة يستقرون فيها.

﴿يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ يدخلون تلك الجنان التي تجري من بين أشجارها وقصورها الأنهار.

﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ لهم في تلك الجنات ما تشتهيه أنفسهم دون كد ولا تعب، ولا انقطاع ولا نصب، فتبارك الذي لا نهاية لكرمه، ولا حد لجوده.

﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: مثل هذا الجـزاء الكريم يجزي الله عباده المتقين لمحارمه، المتمسكين بأوامره.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي: هـم الذيـن تقبض الملائكة أرواحهم حال كونهم أبراراً، قد تطهروا من دنس الشرك والمعاصي، طيبة نفوسهم بلقاء الله.

﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ أي: تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة، تحيـة كاملة حاصلة لكم، والسـلامة من كل آفة. قـال ابن عباس: الملائكة يأتونهم بالسلام من قبل الله ويخبرونهم أنهم من أصحاب اليمين، وقد سلمتم من كل ما تكرهون.

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: هنيئاً لكـم الجنة بما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال من الإيمان بالله والانقياد لأمره، فإن العمل هو السـبب والمـادة الأصل في دخول الجنة والنجـاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمـة الله ومنته عليهم، لا بحولهم وقوتهم.

* ثم عاد الكلام إلى تقريع المشركين وتوبيخهم عـلى تماديهـم في الباطل، واغترارهم بالدنيا، فقال تعالى:

﴿٣٣﴾،﴿٣٤﴾ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ * فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ والمعنى: ما ينتظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا، إلا أحد أمرين: إما نزول الموت بهم وقبض أرواحهم، أو حلول

الجزء الرابع عشر سورة النحل

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن
شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ
فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ
﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ
وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ
حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾
وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ
وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ
لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ
لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ
يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

٢٧١

العذاب العاجل الذي يهلكهم، أوَ ليس في مصير المكذبين قبلهم عبرة وغناء؟

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كذلك صنع من قبلهم من المجرمين حتى حل بهم العذاب ونزل بهم.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وما ظلمهم الله بتعذيبهم وإهلاكهم، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي فإنها مخلوقة لعبادة الله ليكون مآلها إلى دار كرامته، وتركوا ما خلقت له، وعرضوها للإهانة الدائمة والشقاء اللازم.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ أي: أصابهم عقوبات كفرهم وجزاء أعمالهم الخبيثة.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاط ونزل بهم العذاب الأليم في دركات الجحيم جزاء استهزائهم وسخريتهم.

* ثم ذكر تعالى ما احتج به المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأن لو شاء الله ما أشركوا.

(٣٥)-(٣٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ * إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ أي: قال أهل الكفر والإشراك وهم كفار قريش.

﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ أي: لو شاء الله ما عبدنا الأصنام لا نحن ولا آباؤنا، ولا حرمنا شيئاً لم يحرمه، قالوا هذا على سبيل الاستهزاء لا على سبيل الاعتقاد، وغرضهم أن إشراكهم وتحريمهم لبعض الذبائح والأطعمة واقع بمشيئة الله، فهو راض به وهو حق وصواب، وهذه حجة باطلة، فإنها لو كانت حقاً ما أصاب الأمم المكذبة.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من قبلهم من المجرمين، واحتجوا مثل احتجاجهم الباطل، وتناسوا كسبهم لكفرهم ومعاصيهم، وأن كل ذلك كان بمحض اختيارهم بعد أن أنذرتهم رسلهم عذاب النار وغضب الجبار، وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاءت به الرسل، وإلا فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله، فإن الله أمرهم ونهاهم، ومكنهم من القيام بما كلفهم، وجعل لهم قوة ومشيئة تصدر عنها أفعالهم، فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، هذا وكل أحد يعلم بالحس، قدرة الإنسان على كل فعل يريده، من غير أن ينازعه منازع، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله، وتكذيب الأمور العقلية والحسية.

﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ليس على الرسل إلا التبليغ البين الظاهر لما كلفوا به، وأما أمر الهداية والإيمان فهو إلى الله -جل وعلا-.

ثم يخبر -جل وعلا- أن حجته قامت على جميع الأمم، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي: أرسلنا الرسل إلى جميع الخلق بأن اعبدوا الله ووحدوه، اتركوا كل معبود دون الله، كالشيطان والكاهن

والأموات والصنم، وكل من دعا إلى الضلال ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلهذا قال:

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: فكان من هذه الأمم التي بعث الله إليها رسله، من أرشده الله إلى عبادته ودينه، فآمن واستجاب لدعوة الرسل علماً وعملاً.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ ومنهم من وجبت له الشقاوة والضلالة فكفر واتبع سبيل الغي، أَعْلَمَ تعالى أنه أرسل الرسل لتبليغ الناس دعوة الله فمنهم من استجاب فهداه الله، ومنهم من كفر فأضله الله.

﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: سيروا يا معشر قريش في أكناف الأرض بأبدانكم وقلوبكم، ثم انظروا ماذا حل بالأمم المكذبين لعلكم تعتبرون.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أي: إن تحرص -يا محمد- على هداية هؤلاء الكفار وتبذل جهدك في ذلك، فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: ليس لهم من يمنعهم من عذابه تعالى ويقيهم بأسه.

* ثم يخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله:

﴿٣٨-٤٠﴾ ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ أي: حلف المشركون أيماناً مؤكدة مغلظة على تكذيب الله، وأن الله لا يبعث من يموت، استبعدوا البعث ورأوه أمراً عسيراً بعد ما بلي وتفرق، قال تعالى ردّاً عليهم:

﴿بَلَىٰ﴾ سيبعثهم ويجمعهم الله حقاً، ليوم لا ريب فيه.

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: وعد بذلك وعداً قاطعاً لا بد منه لا يخلفه ولا يغيره.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثرهم لا يعلمون قدرة الله، فينكرون البعث والنشور، ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث، فقال:

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: سيبعث الله جميع العباد، ليكشف ضلالهم في إنكارهم البعث، وليظهر لهم الحق فيما اختلفوا فيه، وليحقق العدل وهو التمييز بين المطيع والعاصي، وبين المحق والمبطل، وبين الظالم والمظلوم.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ أي: وليعلم الجاحدون للبعث، والمكذبون لوعد الله الحق أنهم كانوا كاذبين حين حلفوا أن لا بعث.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: إن أمر البعث يسير علينا، لا يحتاج الأمر إلى كبير جهد وعناء، فإنا نقول للشيء كن فيكون، قال المفسرون: هذا تقريب للأذهان، والحقيقة أنه تعالى لو أراد شيئاً لكان بغير احتياج إلى لفظ ﴿كُن﴾.

* ثم يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين الذين هاجروا وتركوا أوطانهم وأهلهم في شأن الله سبحانه وفي رضاه، فقال:

﴿٤١، ٤٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ * ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ وهم أصحاب النبي ﷺ ظلمهم أهل مكة وأخرجوهم من ديارهم، حتى لحق منهم طائفة بالحبشة، ثم بوأ الله لهم المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين، فعلوا ذلك في شأن الله، وابتغاء رضوانه، من بعد ما عذبوا في الله ووقع عليهم الظلم، قال القرطبي: هم صهيب وبلال وخباب وعمار، عذبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا، فلما خلوهم هاجروا إلى المدينة.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: لنسكننهم داراً حسنة خيراً مما فقدوا. قال ابن عباس: بوأهم الله

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ
ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ
ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤
أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ
أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ
فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ
رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ٤٧ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ
يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ
٤٨ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ
وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ٥٠ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ
ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢ وَمَا بِكُم مِّن
نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا
كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤

المدينة فجعلها لهم دار هجرة فذكر الله لهم ثوابين، ثواباً عاجلاً في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء، الذي رأوه عياناً بعد ما هاجروا، وانتصروا على أعدائهم وافتتحوا البلدان، وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتمولوا، وآتاهم الله في الدنيا حسنة.

﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: ثواب الآخرة الذي وعدهم الله على لسان رسوله، أعظم وأشرف وأكبر من أجر الدنيا الذي أعطاهم، لو كان الناس يعلمون. ثم ذكر وصف أوليائه، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: هم الذين صبروا على أوامر الله وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الشدائد والمكاره، فهجروا الأوطان، وفارقوا الإخوان، واعتمدوا على الله وحده يبتغون أجره ومثوبته فاستحقوا هذه المنزلة العظيمة، فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحداً شيء من الخير إلا لعدم صبره وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله.

* ثم ذكر ﷻ حال الرسل السابقين وأن محمداً ﷺ واحد منهم، فقال:

﴿٤٣﴾، ﴿٤٤﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ * بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: لست ببدع من الرسل، فما أرسلنا من قبلك ـ يا محمد ـ إلى الأمم الماضية ملائكة، بل رجالاً كاملين لا نساء، نوحي إليهم كما أوحينا إليك، من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد، من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم، قال المفسرون: أنكر مشركو قريش نبوة محمد ﷺ، وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فهلا بعث إلينا ملكاً، فنزلت الآية.

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: وإن كنتم يا مشركي قريش لا تصدقون بذلك فاسألوا العلماء بالتوراة والإنجيل، يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً إن كنتم لا تعلمون ذلك وشككتم فيه، والآية عامة في كل مسألة من مسائل الدين، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها من العلماء الراسخين في العلم.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ أي: أرسلناهم بالحجج والبراهين الساطعة الدالة على صدقهم، وبالزبر أي الكتب المقدسة.

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: القرآن المذكر الموقظ للقلوب الغافلة الذي فيه ما يحتاج إليه العباد في أمور دينهم ودنياهم، الظاهرة والباطنة، لتعرف الناس الأحكام، والحلال والحرام وهذا شامل لتبيين ألفاظه، وتبيين معانيه.

﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ولعلهم يتفكرون في هذا القرآن فيتعظون.

* ثم يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويخوف الله ﷻ أهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، بقوله:

﴿٤٥﴾-﴿٤٧﴾ ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ * أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ * أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي:

هل أمن هؤلاء الكفار الذين مكروا برسول الله ﷺ واحتالوا لقتله في دار الندوة، هل أمنوا أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون؟

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: يأتيهم العذاب بغتة في حال أمنهم واستقرارهم، من حيث لا يخطر ببالهم، ومن جهة لا يعلمون بها.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: يهلكهم في أثناء أسفارهم للتجارة، واشتغالهم بالبيع والشراء، فإنهم على أي حال لا يعجزون الله، فما هم بسابقين الله ولا فائتيه، ولا ناجين من عذابه؛ لأنه القوي الذي لا يعجزه شيء.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي: يهلكهم الله حال كونهم خائفين مترقبين مما ينزل بهم من الأعاصير، ونقص الأموال، وهلاك بعضهم، قال ابن كثير: فإنه يكون أبلغ وأشد فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ولكن ربكم رؤوف رحيم بخلقه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم.

* لما خوّف سبحانه الماكرين بما خوف، أتبعه ذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوي والسفلي ومكانهما، وينبه على عظمته وجلاله وكبريائه، الذي خضع له كل شيء ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها، فقال:

(٤٨)-(٥٠) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ أو لم يعتبر هؤلاء الكافرون الشاكّون في توحيد ربهم وعظمته وكماله، ويروا آثار قدرة الله وجميع مخلوقاته، وأنه ما من شيء من الجبال والأشجار والأحجار ومن سائر ما خلق الله.

﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ أي: تميل ظلالها من جانب إلى جانب، ساجدة لله سجود خضوع لمشيئته تعالى وانقياد، لا تخرج عن إرادته ومشيئته.

﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ خاضعون صاغرون، فكل هذه الأشياء منقادة لقدرة الله وتدبيره، فكيف يتعالى ويتكبر على طاعته أولئك الكافرون؟

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: له تعالى وحده يخضع وينقاد كل ما في السموات وما في الأرض من دابة.

﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ يسجدون لله، خص الملائكة الكرام بعد العموم لفضلهم وشرفهم، وكثرة عبادتهم، ولهذا قال:

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته، على كثرتهم، وعظمة أخلاقهم وقوتهم. وسجود المخلوقات لله تعالى قسمان: سجود اضطرار، ودلالة على ماله من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق، من مؤمن وكافر، وبر وفاجر، وحيوان ناطق وغيره، وسجود اختيار يختص بأوليائه وعباده المؤمنين من الملائكة وغيرهم من المخلوقات.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ ولما مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله، مدحهم بالخوف منه ﷻ، أي: يخافون ربهم الذي هو فوقهم بالذات والقهر وكمال الصفات، ويمتثلون أوامره على الدوام فهم أذلاء تحت قهره، وفي الآية صفة العلو والفوقية لله على جميع خلقه، كما يليق بجلاله وكماله.

* لما ذكر تعالى أن كل ما في الكون منقاد لأمر الله، خاضع لسلطانه، أمر هنا بإفراده بالعبادة وحده لا شريك له، ويستدل على ذلك بانفراده بالنعم فهو الخالق الرازق، ثم ضرب الأمثال في ضلالات أهل الجاهلية، وذكر الناس بنعمه الجليلة ليعبدوه ويشكروه، قال تعالى:

(٥١)-(٥٥) ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ * وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ

لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ
لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ
تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ
﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾
يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ
أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ
وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ
سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَۚ وَتَصِفُ
أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ
وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ
فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ
ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

٢٧٣

يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ **وقال الله لعباده: لا تعبدوا إلهين اثنين، فإن الإله الحق واحد لا يتعدد فخافوني دون سواي.**

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ **أي: إلهكم واحد أحد، فرد صمد، متوحد في الأوصاف العظيمة، متفرد بالأفعال كلها.**

﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ **أي: خافون دون سواي وامتثلوا أمري، واجتنبوا نهيي، من غير أن تشركوا بي شيئاً من المخلوقات، فإنها كلها لله تعالى مملوكة.**

﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **أي: ملكاً وخلقاً وعبيداً.**

﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ **وله وحده الطاعة والعباده، والإخلاص والانقياد واجباً ثابتاً، فهو الإله الحق لا معبود بحق سواه.**

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ **الهمزة للإنكار والتوبيخ، أي: كيف تتقون وتخافون غيره، من أهل الأرض، أو أهل السماوات، ولا نفع ولا ضر إلا بيده؟ وهو سبحانه المتفرد بالعطاء والإحسان.**

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ **أي: ما تفضل عليكم أيها الناس من رزق ونعمه ظاهرة وباطنة، وعافية ونصر فمن فضل الله وإحسانه لا أحد يشركه فيها، فهو المنعم بها عليكم.**

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ **ثم إذا أصابكم الضر من فقر ومرض، وبأس وشدة وقحط؛ فإليه وحده ترفعون أصواتكم بالدعاء، لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو، فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده.**

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ **أي: إذا رفع عنكم البلاء والسقم رجع فريق منكم إلى الإشراك بالله، ومعنى الكلام التعجيب من الإشراك بعد النجاة من الهلاك وجحدان النعمة وكفرانها.**

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ **ليجحدوا نعمته تعالى من كشف الضر والبلاء حيث نجيناهم من الشدة، وخلصناهم من المشقة.**

﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ **أي: تمتعوا في دنياكم قليلاً، فسوف تعلمون عاقبة كفركم وما ينزل بكم من العذاب، وهو أمر للتهديد والوعيد.**

*** ثم يخبر ﷻ عن جهل المشركين وظلمهم وافترائهم على الله الكذب، قال تعالى:**

﴿٥٦﴾-﴿٦٠﴾ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ **أي: ومن قبيح أعمالهم أنهم يجعلون للأصنام التي لا يعلمون ربوبيتها ببرهان ولا بحجة نصيباً من أموالهم التي رزقهم الله بها تقرباً إليها، فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة.**

﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ **أي: والله أيها المشركون لتسألن عما كنتم تختلقونه من الكذب على الله، والمراد سؤال توبيخ وتقريع.**

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: ومن جهل هؤلاء المشركين وسفاهتهم أن جعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إلى الله البنات وجعلوا لهم البنين، تنزه الله وتعظم عن هذا الإفك والبهتان.

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: ويجعلون لأنفسهم ما يحبون من الذكور، حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة ويأنفون منهن، فكان أحدهم كما قال تعالى عنهم:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: وإذا جاء من يخبر أحدهم بولادة أنثى، صار وجهه متغيراً وهو كناية عن الغم والحزن وليس يريد السواد، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسود وجهه.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: مملوء غيظاً وغماً، والأسف إذا بشر بالأنثى، حتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه.

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ يختفي من قومه خوفاً من العار الذي يلحقه بسبب البنت التي ولدت له، كأنها بلية وليست هبة إلهية، ثم يفكر فيما يصنع ويعمل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بشر بها.

﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أيبقي هذه الأنثى من غير قتل على ذل وهوان، أم يدفنها في التراب حية؟ وهو الوأد الذي ذم الله به المشركين.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء صنيعهم وساء حكمهم، حيث نسبوا لخالقهم البنات ـ وهي عندهم بتلك الدرجة من الذل والحقارة ـ وأضافوا البنين إليهم، -تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً-.

ولما كان هذا من أمثال السوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: هؤلاء الذين لم يصدقوا بالآخرة ونسبوا لله البنات سفها وجهلاً، صفة السوء القبيحة والعيب التام، التي هي كالمثل في القبح، فالنقص إنما ينسب إليهم لا إلى الله.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: له ـ جل وعلا ـ الوصف العالي الشأن، والكمال المطلق، والتنزه عن صفات المخلوقين، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز في ملكه الذي قهر جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات بأسرها، الحكيم في تدبيره الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يأمر ولا يفعل، إلا ما يحمد عليه، ويُثنى على كماله فيه.

* ثم أخبر تعالى عن حلمه بالعباد مع ظلمهم وافترائهم عليه، فقال:

﴿٦١﴾، ﴿٦٢﴾ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ ولو يؤاخذهم بكفرهم ومعاصيهم ويعاجلهم بالعقوبة من غير زيادة ولا نقصان.

﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ما ترك على الأرض أحداً يدب على ظهرها من إنسان وحيوان، فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل، ولكن يؤخرهم ويمهلهم بحلمه عن تعجيل العقوبة عليهم إلى وقت معين تقتضيه الحكمة.

لأنَّ العجلة من شأن من يخاف فوات الفرصة، ورب السموات والأرض لا يفوته شيء أراده.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: فإذا جاء الوقت المحدد لهلاكهم، لا يتأخرون برهة يسيرة من الزمن، ولا يتقدمون عليها، فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال، قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ يخبر تعالى أن المشركين، يجعلون له تعالى البنات مع كراهتهم لهن، وهو تأكيد لما سبق للتقريع والتوبيخ.

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: يجعلون لله ما يجعلون، ومع ذلك يزعمون أن لهم العاقبة الحسنى عند الله، وأنهم أهل الجنة، ورد تعالى عليهم بقوله:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: حقاً إن لهم مكاناً ما أملوا نار جهنم التي ليس وراء عذابها عذاب.

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم
مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ
٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا
حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ
أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ
كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا
شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ
يَتَفَكَّرُونَ ٦٩ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ
أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠
وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ
بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ
ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢

﴿وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ﴾ أي: معجلون إليها ومقدمون إليها، ماكثون فيها، غير خارجين منها أبداً.

*** ثم ذكر تعالى نعمته في إرسال الرسل ليتأسى - صلوات الله عليه - بهم في الصبر على تحمل الأذى، وأنه ليس أول رسول كُذِّب، وأن مثل صنيع قريش قد وقع من سائر الأمم، فقال مسلياً لرسوله ﷺ:**

٦٣-٦٥ ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ * وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ * وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ **أي: والله لقد بعثنا قبلك -يا محمد- رسلاً إلى أقوامهم يدعونهم إلى التوحيد، فحسَّن الشيطان أعمالهم القبيحة حتى كذبوا الرسل وردوا عليهم ما جاؤوهم به من البينات، فلما زين لهم الشيطان أعمالهم.**

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ **أي: فصار الشيطان وليهم في الدنيا وزين لهم أعمالهم، وبئس الناصر، فأطاعوه واتبعوه وتولوه، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم حيث تولوا عن ولاية الرحمن، ورضوا بولاية الشيطان، فاستحقوا لذلك عذاب الهوان.**

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ **أي: ما أنزلنا عليك القرآن -يا محمد- إلا لتوضح للناس ما اختلفوا فيه من الدين والأحكام، لتقوم الحجة عليهم ببيانك.**

﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ **أي: وأنزلنا القرآن هداية للقلوب، ورحمة وشفاء لمن آمن به.**

ثم ذكر تعالى عظيم قدرته الدالة على وحدانيته وتفرده بالإلهية بذكر آياته العظام، فقال:

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ **أي: أنزل بقدرته الماء من السحاب، فأحيا بذلك الماء النبات والزرع بعد جدب الأرض ويبسها.**

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ **أي: إن في هذا الإحياء لدلالة باهرة على عظيم قدرته لقوم يسمعون التذكير فيتدبرونه ويعقلونه، فيستدلون بذلك على أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لأنه المنعم بإنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات، وعلى أنه على كل شيء قدير، وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات، وأن الذي نشر هذا الإحسان لذو رحمة واسعة، وجود عظيم.**

*** ثم عدد تعالى بعض آلائه ونعمه على عباده، فقال:**

٦٦، ٦٧ ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ * وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾ **أي: وإن لكم أيها الناس في هذه الأنعام، وهي: الإبل والبقر والغنم، لعظة وعبرة يعتبر بها العقلاء، ففي خلقها وتسخيرها لمنافعكم دلالة على قدرة الله وعظمته ووحدانيته وسعة إحسانه.**

﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ **أي: نسقيكم من بعض الذي في بطون هذه الأنعام، من بين الروث والدم، ذلك**

الحليب الخالص واللبن النافع، فيجري بقدرته ﷻ الدم في العروق واللبن في الضروع، ويبقى الفرث كما هو.

﴿سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ أي: سهل المرور في حلقهم، لذيذاً هنيئاً لا يغص به من شربه، فأخرج لكم سبحانه ذلك اللبن اللذيذ المغذي، من بين بطونها المشتملة على الفرث والدم وما ذلك إلا قدرة إلهية لا أموراً طبيعية، فأي شيء يقلب العلف الذي تأكله البهيمة، والشراب الذي تشربه من الماء العذب والمالح، لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

قال ابن كثير: لا يغص به أحد فسبحان الله العظيم، وجزم القرطبي رحمه الله أنه لم يشرق أحد باللبن رغم إمكان الشرق بالماء.

ثم امتنَّ على عباده بنعم أخرى، فقال:

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ أي: ومن نعمنا عليكم مما فيه عبرة وعظة؛ ما تأخذونه من ثمرات النخيل والأعناب من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد، طريّاً ونضيجاً، وحاضراً ومدخراً، وطعاماً وشراباً يتخذ من عصيرها ونبيذها، وكذلك ما تجعلون منه خمراً يسكر، وإنما نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ثم حرمت بعد.

﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ كالتمر والزبيب. قال ابن عباس: الرزق الحسن: ما أحل من ثمرتها، والسكر: ما حرم من ثمرتها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: إنما فيما ذكر لآية باهرة، ودلالة قاهرة على وحدانيته سبحانه وكمال اقتداره لقوم يتدبرون بعقولهم، وناسب ذكر العقل هنا؛ لأنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها.

* ولما ذكر تعالى ما يدل على باهر قدرته، وعظيم حكمته من إخراج اللبن من بين فرث ودم، وإخراج الرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب، ذكر إخراج العسل الذي جعله شفاء للناس من النحل، وهي حشرة ضعيفة وفيها عجائب بديعة وأمور غريبة، وكل هذا يدل على وحدانية الخالق وقدرته وعظمته، فقال تعالى:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي: ألهم ربك ـ يا محمد ـ النحل إلى مصالحها وأرشدها إلى بناء بيوتها المسدسة العجيبة، تأوي إليها في ثلاثة أمكنة: الجبال، والشجر، وفيما يبني الناس من البيوت والسقفُ.

﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: ابني البيوت، ثم كلي من كل الأزهار والثمار التي تشتهينها من الحلو والمر، والحامض، فإن الله بقدرته يحيلها إلى عسل.

﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أي: ادخلي الطرق في طلب الرزق حال كونها مسخرة لك في الجبال وخلال الشجر، لا تضلين في الذهاب أو الإياب، حيث يسر الله لها المراعي وإن بعدت.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: يخرج من بطون النحل عسل لذيذ مختلف الألوان، منه أحمر، وأبيض، وأصفر، بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من الأمراض، فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يعبد غيره ويدعى سواه، قال بعض المفسرين: فإن قالوا كيف يكون شفاء للناس وهو يضر بالصفراء؟ فالجواب: أنه تعالى لم يقل: إنه شفاء لكل الناس، ولكل داء، وفي كل حال، بل لما كان شفاء للبعض ومن بعض الأدواء صلح بأن يوصف بأن فيه شفاء. وفي الآية تعديداً للنعم، وتعجيباً لكل سامع، وتنبيهاً على الغير، وإرشاداً إلى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا الحيوان الشبيه بالذباب.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن فيما يصنعه النحل لدلالة واضحة، وعبرة لقوم يتفكرون في عظيم خلق الله، وبديع صنعه.

* لما ذكر سبحانه بعض أحوال الحيوان وما فيها من عجائب الصنعة الباهرة، وخصائص القدرة القادرة، أتبعه بعجائب خلق الإنسان وما فيه من العبر، فهو أنه الذي خلق العباد، ونقلهم في الخلقة، طوراً بعد طور، قال تعالى:

﴿٧٠﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ أي: خلقكم بقدرته بعد أن لم تكونوا شيئاً، ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم صبياناً أو شباباً أو كهولاً.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي: يعمره حتى يرد إلى أرذل وأضعف العمر، ضعف في القوى الظاهرة، لينسى ما يعلم فيشبه الطفل في نقصان القوة والعقل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي: عليم بتدبير خلقه، قدير على ما يريده، فكما قدر على نقل الإنسان من العلم إلى الجهل، فإنه قادر على إحيائه بعد إماتته. قال عكرمة: من قرأ القرآن لم يُردَّ إلى أرذل العمر.

* ثم لما بين سبحانه خلق الإنسان وتقلبه في أطوار العمر، ذكر طرفاً من أحواله، لعله يتذكر عند ذلك، فقال:

﴿٧١﴾ ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ أي: كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون، إلا أنه تعالى فاوت بينكم فيما أعطاكم في الدنيا من الرزق، فمنكم غني ومنكم فقير، ومنكم مالك ومنكم مملوك، وكما جعل التفاوت بين عباده في المال جعله بينهم في العقل والعلم والفهم وقوة البدن وضعفه، والحسن والقبح، والصحة والسقم، وغير ذلك من الأحوال.

﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: ليس هؤلاء الأغنياء بمشركين لعبيدهم المماليك فيما رزقهم الله من الأموال حتى يستووا في ذلك مع عبيدهم، فإذا لم يرضوا بذلك لأنفسهم، فلماذا رضوا أن يجعلوا لله شركاء في عبيده، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين. قال ابن عباس: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟ وهل هذا إلا من أعظم الظلم، والجحود لنعم الله، ولهذا قال:

﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أيشركون معه غيره وهو المنعم المتفضل عليهم؟ إن هذا لمن أعظم الظلم والجحود لنعمة الله.

* ثم يخبر تعالى عن جزيل عطائه، ومنته العظيمة على عباده حيث جعل لهم أزواجاً ليسكنوا إليها، فقال:

﴿٧٢﴾ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: هو تعالى بقدرته خلق النساء من جنسكم وشكلكم ليحصل الائتلاف والمودة والرحمة بينكم ولتستريح نفوسكم معهن.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ وجعل لكم من هؤلاء الزوجات الأولاد وأولاد الأولاد، سموا حفدة؛ لأنهم يخدمون أجدادهم، ويسارعون في طاعتهم وتقر بهم أعينهم.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: ورزقكم وأعطاكم من أنواع اللذائذ من الثمار والحبوب والحيوان، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها، و﴿مِّنَ﴾ للتبعيض، لأن الطيبات لا تكون مجتمعة إلا في الجنة.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أبعد تحقق ما ذكر من نعم الله يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن؟ وهو استفهام للتوبيخ والتقريع.

﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يجحدونها، ويستعينون بها على معاصي الله والكفر به، هل هذا إلا من أظلم الظلم، وأفجر الفجور وأسفه السفه.

* ثم يخبر تعالى عن حال المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق، وحده لا شريك له، قال تعالى:

﴿٧٣﴾، ﴿٧٤﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۞ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

٢٧٥

﴿وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ أي: ويعبد هؤلاء المشركون أصناماً؛ والحال أنهم لا يملكون لهم رزقاً من السماوات والأرض، ولا تقدر أن ترزقهم قليلاً أو كثيراً فلا ينزلون مطراً، ولا رزقاً، ولا إخراج زرع أو شجر.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: ليس لها ذلك ولا تقدر عليه لو أرادت فهذه صفة آلهتهم، كيف جعلوها مع الله، وشبهوها بمالك الأرض والسماوات، الذي له الملك كله، والحمد كله والقوة كلها.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: وإذا علمتم أن الأصنام والأوثان لا تنفع فلا تمثلوا لله الأمثال، ولا تشبهوا له الأشياء، فإنه تعالى لا مثل له ولا نظير ولا شبيه وهو تعالى، يعلم كل الحقائق، وأنتم لا تعلمون قدر عظمة الخالق، ولا تعلمون خطأكم وسوء عاقبتكم.

* لما ذكر تعالى سفاهة المشركين في عبادتهم لغير الله، وضربهم الأمثال الباطلة، علمهم سبحانه كيف تضرب الأمثال، فذكر مثلين توضيحاً لبطلان عبادة الأوثان التي لا تضر ولا تنفع، ولا تستجيب ولا تسمع، ثم ذكر الناس ببعض النعم التي أفاضها عليهم ليعبدوه ويشكروه، ويخلصوا له العمل طائعين منيبين، فقال:

﴿٧٥﴾ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام التي أشركوها مع الله -جل وعلا-، يبين فيه فساد عقيدة أهل الشرك، أي: مثل هؤلاء في إشراكهم مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، وبين حر مالك يتصرف في أمره كيف يشاء.

﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ أي: وهو كريم محب للإحسان، فهو ينفق منه سرّاً وجهراً، ينفق ماله في الخفاء والعلانية ابتغاء وجه الله.

﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ أي: هل يستوي العبيد والأحرار الذين ضرب لهم المثل، وهل يقول عاقل بالتساوي بين الرجلين، فالأصنام كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، والله تعالى له الملك، وبيده الرزق، وهو المتصرف في الكون كيف يشاء، فكيف يسوي بينه وبين الأصنام؟ هل يستوي هذا وذاك، لا يستويان مع أنهما مخلوقان؛ غير محال استواؤهما، فإذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي المخلوق الذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه، بالرب المالك لجميع الممالك، القادر على كل شيء، ولهذا حمد نفسه واختص بالحمد بأنواعه، فقال:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: الحمد لله وحده، فهو المستحق للحق والثناء، وشكراً لله على بيان هذا المثال ووضوح الحق فقد ظهرت الحجة فلِمَ سوّى المشركون آلهتهم بالله.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن المشركين بسفههم وجهلهم يسوون بين الخالق والمخلوق، والمالك والمملوك، فلو علموا الحقيقة لم يتجرؤوا على الشرك العظيم.

* ثم في زيادة بيان وتوضيح ضرب الله مثلاً ثان بعد الأول، فقال:

﴿٧٦﴾ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ هذا هو المثل الثاني لبطلان الشرك، وللتفريق بين الإله الحق والأصنام الباطلة. قال مجاهد: هذا مثل مضروب للوثن، والحق تعالى، فالوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير، ولا يقدر على شيء بالكلية؛ لأنه إما حجر أو شجر.

﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي: ثقيل، عالة على وليه أو سيده، حيثما أرسله وبعثه سيده لم ينجح في مسعاه؛ لأنه ثقيل عالة على وليه، فهو ناقص من كل وجه ولا يعود عليه بخير.

﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: هل يتساوي هذا الأخرس، وذلك الرجل البليغ المتكلم بأفصح بيان، وهو على طريق الحق والاستقامة، مستنير بنور القرآن؟ ينفع نفسه وغيره، يأمر بالإنصاف وإذا كان العاقل لا يسوي بين هذين الرجلين، فكيف تمكن التسوية وبين صنم أو حجر.

* ثم ذكر عظمة الله ﷻ وقدرته في الخلق والتدبير، فقال تعالى:

(٧٧)-(٧٩) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو سبحانه المختص بعلم الغيب المنفرد به، يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض فلا يعلم الخفايا والبواطن والأسرار إلا هو، ومن ذلك علم الساعة فلا يدري أحد متى تأتي إلا الله.

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي: ما شأن الساعة في سرعة المجيء وقرب كونها إلا كنظرة سريعة بطرف العين، بل هو أقرب؛ لأنه تعالى يقول للشيء: كن فيكون، وهذا تمثيل لسرعة مجيئها فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم، وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال، ولذلك قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر على كل الأشياء، ومن جملتها القيامة وقدرته الشاملة، وأحياؤه الموتى التي يكذب بها الكافرون.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي: أخرجكم وتفرد بهذه النعم ومن ذلك أن إخراجكم من أرحام الأمهات بعد مدة الحمل، لا تعرفون شيئاً أصلاً، ولا تقدرون على شيء، ثم إنه:

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: خلق لكم الحواس التي بها تسمعون وتبصرون وتعقلون لتشكروه على نعمه وتحمدوه على آلائه، وتفرده ﷻ بالعبادة، وخص هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها وفضلها، ولأنها مفتاح كل علم، فلا وصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة، وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاكم إياها لأجل أن تشكروه باستعمالها في طاعته فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه، وقابل النعمة بأقبح المقابلة.

وقدم السمع على البصر، لأن أكثر ما ينسب الناس أقوالهم إلى السمع، ولأن إدراك السمع أعظم وأشمل من إدراك البصر.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ هذا من الأدلة على قدرة الله تعالى ووحدانيته، والمعنى: ألم يشاهد المشركون الطيور مذللات للطيران في ذلك الفضاء الواسع بين السماء والأرض بأمر الله ما يمسكهن عن الوقوع إلا هو سبحانه بما خلقه لها، وأقدرها عليه، ووجه الآية فيها أن الله تعالى خلقها بخلقه تصلح للطيران، ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف، ثم أودع فيها من قوة الحركة وما قدرت به على ذلك.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: ما يمسكهن عن السقوط عند قبض أجنحتهن وبسطها إلا هو سبحانه بقدرته الباهرة، فإن ثقل أجسامها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها لأنها لم تتعلق بشيء من فوقها ولا اعتمدت على شيء تحتها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن فيما ذكر من التذليل والإمساك لدلالات ظاهرة، وعلامات

باهرة على وحدانيته تعالى وقدرته العظيمة، ودليل على كمال حكمته، وعلمه الواسع، وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته لقوم يصدقون بما جاءت به رسل الله.

* ثم يذكر تعالى لعباده بعض نعمه وآلائه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها، فقال:

(٨٠)-(٨٣) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ * وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ * يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ هذا تعداد لنعم الله على العباد، أي: جعل لكم هذه البيوت من الدور والقصور ونحوها، لتسكنوا فيها أيام مقامكم في أوطانكم، تكنكم من الحر والبرد وتستركم، أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وفيها حفظ أموالكم وحرمكم، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة. ولما ذكر سبحانه بيوت المدن، وهي التي للإقامة الطويلة، عقبها بذكر بيوت البادية والرحلة، فقال:

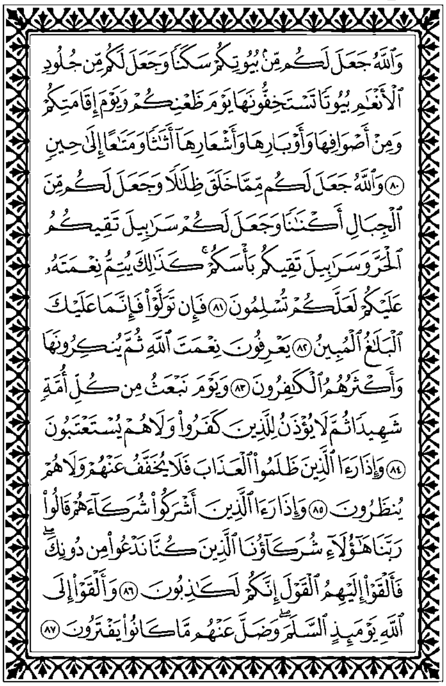
الجزء الرابع عشر سورة النحل

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ
ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ
وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ
٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ
ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ
ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ
عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ
ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا
وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ
شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ
٨٤ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ
يُنظَرُونَ ٨٥ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ
رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ
فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٨٦ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى
ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٨٧

٢٧٦

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ وجعل لكم بيوتاً أخرى في سفركم، وهي الخيام والقباب المتخذة من الشعر والصوف والوبر.

﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ أي: يخف عليكم حملها ونقلها في أسفاركم، وهي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر.

﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا﴾ أي: وجعل لكم من صوف الغنم، ووبر الإبل، وشعر المعز، ما تلبسون وتفرشون به بيوتكم، وهذا شامل لكل ما يتخذ منها، من الآنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة وغير ذلك.

﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: تنتفعون وتتمتعون بها في الدنيا إلى حين الموت، ثم لما كان الإنسان قد لا يكون له خيام، أو أبنية يستظل بها لفقر، أو لعارض آخر فيحتاج إلى غيرها، نبه سبحانه على ذلك، فقال:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا﴾ أي: جعل لكم من مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها من الشجر والجبال والأبنية وغيرها ظلالاً تتقون بها حر الشمس.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ أي: وجعل لكم في الجبال مواضع تسكنون فيها كالكهوف والمغارات والحصون، تقيكم البرد والحر والأمطار والأعداء، ولما كانت بلاد العرب شديدة الحر، وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شديدة، فلهذا ذكر تعالى هذه المعاني في معرض النعمة العظيمة.

﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ أي: جعل لكم الثياب من القطن والصوف والكتان لتحفظكم من الحر، ولم يذكر الله البرد؛ لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم، وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم، فإنه من الضرورة وقد ذكره في أولها في قوله: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ﴾ [النحل: ٥]، وقيل خص الحر ولم يذكر البرد اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر؛ لأن ما وقي من الحر وقي من

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا
فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ٨٨ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي
كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ
شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ
شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩ ۞إِنَّ ٱللَّهَ
يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ
ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ
٩٠ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ
بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ
غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا
بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ
بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ
٩٢ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن
يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٣

البرد. فكل منها وقاية من الأذى الذي يكون سموماً مؤذياً كالحر والشمس والبرد، وما يكون من بني آدم من النظر بالعين واليد وغير ذلك.

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡ﴾ أي: وجعل لكم من الحديد دروعاً تشبه الثياب، تتقون بها شر وأذى أعدائكم في الحرب.

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: مثل ما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر؛ فإنه يتم نعمة الدنيا والدين عليكم ببيان الصراط المستقيم. وقد ذكر تعالى في أول السورة أصول النعم، وذكر هنا ما يدفع البرد فإنه من المهلكات، وذكر في أثنائها تمام النعمة، وما يدفع الحر فإنه من المؤذيات.

قال ابن تيمية: جمع الله في آيات النحل بين المساكن والملابس، لأن المساكن من جنس الملابس، كلاهما جعل في الأصل للوقاية، ودفع الضرر، كما جعل الأكل والشرب لجلب المنفعة فاللباس يتقي الإنسان به الحر والبرد، ويتقي به سلاح العدو، وكذلك المساكن يتقي بها الحر والبرد، ويتقي بها العدو.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ أي: لعلكم إذا ذكرتم نعمة الله، ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه تخلصوا لله الربوبية، ولا تشركوا به شيئاً في عبادته، وتعلموا أنه لا يقدر على هذه الإنعامات أحد سواه، فكثرة النعم من الأسباب الجالبة من العباد مزيد الشكر، والثناء بها على الله تعالى، ولكن أبى الظالمون إلا تمرداً وعناداً، ولهذا قال الله عنهم:

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: فإن أعرضوا عن الإيمان وعن طاعة الرحمن، ولم يؤمنوا بما جئتهم به ـ يا محمد ـ فلا ضرر ولا عتب عليك؛ لأن وظيفتك التبليغ، فإنهم يرون الإحسان، ويعرفون نعمة الله، ولكنهم ينكرونها ويجحدونها، وقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة فحسابهم على الله.

﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ أي: يعرف هؤلاء المشركون نعم الله التي أنعم بها عليهم ويعترفون بأنها من عند الله، ثم ينكرونها بعبادتهم غير المنعم، وقيل: نعمة الله هي محمد ﷺ عرفوا نبوته، ثم جحدوها وكذبوه.

﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي: أكثرهم يموتون كفاراً جاحدون لنعم الله، وفيه إشارة إلى أن بعضهم يهتدي للإسلام، وأما أكثرهم فمصرون على الكفر والضلال لفساد مشاعرهم وسوء قصودهم، وسيرون جزاء الله لكل جبار عنيد، كفور للنعم، متمرد على الله وعلى رسله.

* ثم يخبر تعالى عن حال الذين كفروا يوم القيامة، وأنه لا يقبل لهم عذر، ولا يرفع عنهم العقاب، قال تعالى:

(٨٤)-(٨٨) ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ * وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ * وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ * وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ * ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾.

﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ أي: واذكر لهم ـ يا محمد ـ ما يكون يوم القيامة حيث نحشر الخلائق للحساب، ونبعث في كل أمة نبيها

يشهد عليها بالإيمان والكفر، وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى.

﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: لا يؤذن للذين كفروا في الاعتذار عما وقع منهم؛ لأن اعتذارهم بعد ما علم يقيناً بطلان ما هم عليه اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئاً، فهم يعلمون بطلانه وكذبه.

﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم أن يسترضوا ربهم بقول أو عمل، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء، وجاء وقت الحساب والعقاب. والعتبى هي رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب، وأصل الكلمة من العتب وهي الوجدة، فإذا وجد عليه، يقال: عتب، وإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾ أي: وإذا رأى المشركون عذاب جهنم فلا يفتر عنهم ساعة واحدة.

﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي: بل يبادرهم العذاب الشديد الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونه؛ لأنهم لا حساب عليهم؛ لأنهم لا حسنات لهم، وإنما تعد أعمالهم وتحصى ويوقفون عليها ويقرون بها ويفتضحون.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ﴾ أي: وإذا أبصر يوم القيامة، المشركون شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويزعمون أنهم شركاء الله في الألوهية وعلموا بطلانها، ولم يمكنهم الإنكار.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَ﴾ أي: هؤلاء الذين عبدناهم من دونك، ليس عندها نفع ولا شفع، فذكروا بأنفسهم بطلانها، وكفروا بها، وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها، وهذا اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك والتماس لتخفيف العذاب.

﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: ردت عليهم شركاؤهم بالتكذيب فيما قالوا في تقرير وتوكيد؛ أنكم الكاذبون حيث جعلتمونا شركاء لله فاللوم عليكم، وذلك مما يوجب زيادة الغم والحسرة في قلوبهم.

﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: استسلم أولئك الظالمون لحكم الله تعالى فيهم بعد الإباء والاستكبار في الدنيا وعلموا أنهم مستحقون للعذاب.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي: بطل وغاب عنهم ما كانوا يؤملون من أن آلهتهم تشفع لهم عند الله.

ثم أخبر تعالى عن مآلهم بعد أن أخبر عن حالهم، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: كفروا بالله ومنعوا الناس عن الدخول في دين الإسلام وحاربوا رسله، وصاروا دعاة إلى الضلال.

﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: زدناهم عذاباً في جهنم فوق عذاب الكفر، لأنهم ارتكبوا جريمة صد الناس عن الهدى فوق جريمة الكفر، فضوعف لهم العذاب جزاءً وفاقاً.

﴿بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ أي: بسبب إفسادهم في الدنيا بالكفر والمعصية وتعمدهم إفساد وإضلال العباد.

* ولما ذكر تعالى فيما تقدم أنه يبعث في كل أمة شهيداً، ذكر ذلك أيضاً هنا، وخص منهم هذا الرسول الكريم، فقال:

﴿٨٩ ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: اذكر - يا محمد - للناس يوم القيامة وهوله وشدائده، حين نبعث في كل أمة نبيها ليشهد عليها، وهو الرسول الذي بعثه الله إليهم من أنفسهم وبلسانهم.

﴿وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وجئنا بك - يا محمد - شهيداً على أمتك، تشهد عليهم بالخير والشر، وهذا من كمال عدل الله تعالى، أن كل رسول يشهد على أمته؛ لأنه أعظم اطلاعاً من غيره على أعمال أمته، وأعدل وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون.

﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: ونزلنا عليك القرآن المنير بياناً شافياً بليغاً لكل ما يحتاج الناس إليه من أمور الدين كالحلال والحرام، والثواب والعقاب، وغير ذلك، فلا حجة لهم ولا معذرة. قال ابن مسعود: قد بين لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء.

﴿وَهُدَىٰ وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي: فصار القرآن بهذا الكمال هداية للقلوب، يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة للعباد، ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة لمن صدق به، وبشارة طيبة للمؤمنين بحسن مصيرهم، فالهدى ما نالوه من علم نافع وعمل صالح، والرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة، وبشارة للمسلمين المهتدين.

* ثم ذكر ﷻ ما يأمر به عباده في هذا القرآن العظيم، في آية جامعة لأصول التكليف كلها تصديقاً لذلك، فيها الأمر بالعدل، والندب إلى الإحسان، قال تعالى:

(٩٠) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ أي: يأمر بمكارم الأخلاق، بالعدل بين الناس، والإحسان إلى جميع الخلق، فالعدل الذي أمر الله به، يشمل العدل في حقه، بتوحيده وعدم الإشراك به، وفي حق عباده بإعطاء كل ذي حق حقه، ويأمر بالإحسان في حقه بعبادته وأداء فرائضه على الوجه المشروع وإلى الخلق في الأقوال والأفعال. والإحسان فوق العدل، وذلك أن العدل هو أن يعطي ما عليه ويأخذ ما له، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد على العدل، فتحري العدل واجب، وتحري الإحسان ندب وتطوع ولذلك عظم ثواب أهل الإحسان.

﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: مواساة الأقرباء، وخصهم بالذكر اهتماماً بهم ولتأكد حقهم، وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك.

﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ﴾ أي: ينهى عن كل قبيح من قول، أو فعل، أو عمل. والفحشاء كل ما تناهى قبحه كالزنى والشرك، والمنكر كل ما تنكره الفطرة، والبغي هو الظلم وتجاوز الحق والعدل.

﴿يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: يؤدبكم بما شرع من الأمر والنهي لتتعظوا بكلام الله ويذكركم العواقب لكي تتذكروا أوامر الله وتنتفعوا بها. قال ابن مسعود: هذه أجمع آية في القرآن لخير يمتثل، ولشر يجتنب.

* لما استقصى تعالى في الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وذكر جملة المكارم والفضائل، حذر تعالى هنا من نقض العهود والمواثيق وعصيان أوامر الله تعالى، لأن العصيان سبب البلاء والحرمان، قال تعالى:

(٩١)، (٩٢) ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ * وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾.

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ أي: التزموا وحافظوا على العهود التي عاهدتم عليها الرسول أو الناس وأدوها على الوفاء والتمام، وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه، من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها، إذا كان الوفاء بها براً، ويشمل أيضاً ما تعاقد عليه هو وغيره كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره، ويؤكده على نفسه فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها فيما لا يخالف كتاب الله وسنة نبيه، فقال:

﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ أي: ولا تنقضوا أيمان البيعة بعد توثيقها بذكر الله تعالى.

﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ﴾ أي: جعلتم الله شاهداً ورقيباً على تلك البيعة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ أي: عليم بأفعالكم، وسيجازي كل عامل بعمله، على حسب نيته ومقصده.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ هذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده، شبهت الآية الذي يحلف ويعاهد ويبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتله محكماً ثم تحله أنكاثاً، أي: أنقاضاً، قال المفسرون: كان بمكة امرأة حمقاء تغزل غزلاً ثم تنقضه، وكان الناس يقولون: ما أحمق هذه.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: تجعلون أيمانكم خديعة

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ
ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ
عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا
عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ
يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم
بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا
مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ
وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾
فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ
﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ
هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ
وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ
لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ
لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

٢٧٨

ومكراً، تخدعون بها الناس ولا تنبغي هذه الحالة منكم.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍ﴾ أي: لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وأوفر مالاً من غيرها. قال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك.

﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ إنما يختبركم الله بما أمركم به من الوفاء بالعهد، لينظر المطيع من العاصي، حيث قيض من أسباب المحن الذي يمتحن به الصادق الوفي من الفاجر الشقي.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ وليبين لكم يوم القيامة، ما كنتم فيه تختلفون في الدنيا من الإيمان بالله ونبوة محمد ﷺ؛ ليجازي كل عامل بعمله، من خير وشر.

* ثم بين سبحانه أنه قادر على أن يجمع المؤمنين والكافرين على الإيمان، فقال:

﴿٩٣﴾-﴿٩٦﴾ ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ * وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ * وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: لو شاء الله لجمع الناس على الهدى، وجعلهم أهل ملة واحدة، لا يختلفون ولا يفترقون وهي الإسلام والإيمان لزمكم به.

﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ ولكنه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، اقتضت حكمته أن يتركهم لاختيارهم، ناس للسعادة، وناس للشقاوة، فيضل من يشاء بخذلانه إياهم عدلاً منه، ويهدي من يشاء بتوفيقه إياهم فضلاً منه.

﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيجازيكم على الفتيل والقطمير أتم الجزاء وأعدله.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ كرره تأكيداً ومبالغة في تعظيم شأن العهود، أي: لا تعقدوا الأيمان وتجعلوها خديعة ومكراً تغرون بها الناس لتحصلوا على بعض منافع الدنيا الفانية.

﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي: فتهلكوا بعد أن كنتم آمنين، كمن زلقت قدمه بعد ثبوتها، فتزل أقدامكم عن طريق الاستقامة وعن محجة الحق بعد رسوخها فيه. قال ابن كثير: هذا مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة، المشتملة على الصد عن سبيل الله؛ لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال:

﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يصيبكم العقاب الدنيوي العاجل الذي يسوءكم لصدكم غيركم عن اعتناق الإسلام بسبب نقض العهود.

﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ ولكم في الآخرة عذاب كبير في نار جهنم.

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ أي: لا تستبدلوا ولا تنقضوا عهد الله وعهد رسوله بحطام الدنيا الفاني.

﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: ما عند الله من الأجر والثواب لمن آثر رضاه، وأوفى بما عاهد عليه الله، أفضل لكم من متاع الدنيا العاجل إذا كنتم تعلمون الحقيقة، ثم علل ذلك بقوله:

﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ أي: ما عندكم أيها الناس فإنه فان زائل لا يبقى، وما عند الله فإنه باق دائم، لا انقطاع له ولا نفاد، فآثروا ما يبقى على ما يفنى، وفي هذا الحث والترغيب على الزهد في الدنيا.

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: ولنثيبن الصابرين بأفضل الجزاء، وتعظيم الأجر الوافي على أحسن الأعمال، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، مع التجاوز عن السيئات، وهذا وعد كريم بمنح أفضل الجزاء على أفضل العمل، ليكون الجزاء على أحسن العمل دون سواه، وكل ذلك بفضل الله وكرمه. كان لحفصة بنت سيرين ابنٌ عظيم البر بها، فمات، فقالت حفصة: لقد رزق الله عليه من الصبر ما شاء أن يرزق، غير أني أجد غصة لا تذهب، قالت: فبينا أنا ذات ليلة أقرأ سورة النحل إذ أتيت على هذه الآية، فأعدتها، فأذهب الله ما كنت أجد.

* ثم ذكر ﷻ جزاء العاملين في الدنيا والآخرة، من الحياة الطيبة الكريمة، وهذا شروع في ترغيب كل مؤمن في كل عمل صالح، فقال:

﴿٩٧﴾ ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ أي: من فعل الصالحات ذكراً كان أو أنثى، بشرط الإيمان؛ لأنه شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح.

﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ فلنحيينه في الدنيا حياة طيبة، بطمأنينة قلبه وسكون نفسه، وبالقناعة والرزق الحلال من حيث لا يحتسب، والتوفيق لصالح الأعمال. قال الحسن: لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة لأنها حياة بلا موت، وغنى بلا فقر، وصحة بلا سقم، وسعادة بلا شقاوة.

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: ولنجزيهم في الآخرة بجزاء أحسن أعمالهم، وما أكرمه من جزاء.

* ثم لما ذكر سبحانه العمل الصالح والجزاء عليه أتبعه بذكر الاستعاذة التي تخلص بها الأعمال الصالحة عن الوساوس الشيطانية، فقال:

﴿٩٨﴾-﴿١٠٠﴾ ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾.

﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: إذا أردت تلاوة القرآن الذي هو أشرف الكتب وأجلها، وفيه صلاح القلوب، والعلوم الكثيرة، فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها، فالطريق إلى السلامة:

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي: فاسأل الله أن يحفظك من وساوس الشيطان وخطراته، كيلا يوسوس لك عند القراءة فيصدك عن تدبر القرآن والعمل بما فيه، وقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: إن الشيطان ليس له تسلط وقدرة على المؤمنين بالله ورسوله، بالإغواء والكفر؛ لأنهم في كنف الرحمن وحفظه ورعايته.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون على الله فيما نابهم من شدائد.

﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ إنما تسلطه وسيطرته على الذين يطيعونه ويتخذونه لهم ولياً، وذلك بتخليهم عن ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان وانضمامهم لحزبه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ أي: بسبب إغوائه أصبحوا مشركين في عبادتهم، وذبائحهم، ومطاعمهم، ومشاربهم.

* ثم ذكر ﷻ عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم أن المكذبين بهذا القرآن يتبعون ما يرونه حجة لهم، فرد عليهم بقوله تعالى:

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ
ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ
﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾
مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ
مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ
صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى
ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَٰرِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ
أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ
لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ
وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

٢٧٩

﴿١٠١﴾، ﴿١٠٢﴾ ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ أي: وإذا أنزلنا آية مكان آية، وجعلناها بدلاً منها، بأن ننسخ تلاوتها أو حكمها.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ جملة اعتراضية سيقت للتوبيخ، أي: والله أعلم بما هو أصلح للعباد وبما فيه خيرهم فيما يغير ويبدل من أحكامه، فإن مثل آيات هذا الكتاب كمثل الدواء يعطى منه للمريض جرعات حتى يماثل الشفاء، ثم يستبدل بما يصلح له من أنواع أخرى من الأطعمة.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي: قدح الكفرة الجاهلون في الرسول، وقالوا: إنما أنت ـ يا محمد ـ متقول كاذب على الله.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: أكثرهم جهلة لا يعلمون حكمة الله وشرعه، فيقولون ذلك سفهاً وجهلاً. قال ابن عباس: كان إذا نزلت آية فيها شدة ثم نسخت، قال كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر من أصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم غداً عنه، وإنه لا يقول ذلك إلا من عند نفسه، فنزلت:

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ قل لهم ـ يا محمد ـ: ليس القرآن مختلقاً من عندي، إنما نزله جبريل الأمين من عند أحكم الحاكمين بالصدق والعدل، المنزه عن كل عيب وخيانة.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: نزوله بالحق، وهو مشتمل على الحق في أخباره، وأوامره ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحاً صحيحاً، لأنه إذا علم أنه الحق، علم أن ما عارضه وناقضه باطل.

﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ليثبت قلوب المؤمنين بما فيه من الحجج والبراهين، فيزدادوا إيماناً ويقيناً، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئاً فشيئا، حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي.

﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وهداية وبشارة لأهل الإسلام الذين انقادوا لحكمه تعالى، فهو يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويبشرهم أن لهم أجراً حسناً، وفيه تعريض بالكفار الذين لم يستسلموا لله تعالى.

* ثم يخبر تعالى عن قيل المشركين المكذبين لرسوله ﷺ في شبهة أخرى:

﴿١٠٣﴾-﴿١٠٥﴾ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ أي: قد علمنا مقالة المشركين الشنيعة ودعواهم أن هذا القرآن من تعليم بشر من بني آدم، هو جبر الرومي، وقد رد تعالى عليهم بقوله:

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أي: لسان الذي يزعمون أنه علمه وينسبون إليه التعليم أعجمي لا يفصح.

﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ وهذا القرآن عربي في غاية الفصاحة والوضوح والبيان، فكيف يمكن لمن لسانه أعجمي أن يعلم محمداً هذا الكتاب العربي المبين؟ ومن أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه. روي أن

النبـي ﷺ كان يجلس عنـد المروة إلى غلام نصراني يقال لـه جبر وكان يقرأ الكتب، فقـال المشركـون: والله ما يعلمه ما يأتي به إلا جبر الرومي، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ...﴾ الآية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ إن الكفار الذيـن لا يصدقـون بهـذا القـرآن، لا يوفقهـم الله لإصابـة الحـق، ولا يرشـدهم إلى طريق النجاة والسعادة، حيث جاءهم الهدى، فردوه، فعوقبوا بحرمانه، وخذلان الله لهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم في الآخرة عذاب موجع مؤلم، وهذا تهديد لهم، ووعيد على كفرهـم وافترائهم، ولما وقع منهم شبه الافتراء إلى رسول الله ﷺ؛ رد عليهم بقوله:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: إنما يصدر افتراء الكذب على الله ممن لم يؤمن بالله ولا بآياته، لأنه لا يخاف عقاباً يردعه، فالكذب جريمة فاحشة لا يقدم عليها مؤمن، وهذا رد لقولهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ وأولئك هم الكاذبون على الحقيقة، لا محمد الرسول الأمين، فإنه مؤمن بربه خاضع له، فمحال أن يكذب على الله، ويقول عليه ما لم يقله.

* ثم يخبر تعالى عن شـناعة حال من عرف الهدى فحاد عنه وضل، قال تعالى:

(١٠٦)-(١٠٩) ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ * أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ﴾ أي: إنما يفترى الكذب من تلفظ بكلمة الكفـر، وارتد عن الدين بعد ما دخل فيـه، ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى.

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ أي: إلا مـن تلفظ بكلمة الكفـر ونطق بهـا مكرهـاً وخوفاً من الهـلاك، والحـال أن قلبه مملـوء إيماناً ويقيناً، راضياً بـه مطمئناً، والآية تغليظ لجريمة المرتد؛ لأنه عرف الإيمان وذاقه، ثم ارتد إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة. قال المفسرون: نزلـت في عمار بن ياسر أخذه المشركون فعذبـوه حتى أعطاهم مـا أرادوا مكرهاً، فقال الناس: إن عماراً كفر، فقال رسول الله ﷺ: «إن عمار ملئ إيماناً من فرقه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه»، فأتى رسول الله ﷺ وهو يبكي فقال له رسول الله ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان، قال: «إن عادوا فعد» [رواه البيهقي].

﴿وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: طابت نفسـه بالكفر واعتقده، وانشرح صدره له.

﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولهم غضب شـديد مع عذاب جهنم، إذ لا جرم أعظم من جرمهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ذلك العذاب بسبب أنهم آثروا الدنيا واختاروها على الآخرة، وارتدوا على أدبارهم، طمعاً في شيء من حطـام الدنيا، ورغبة فيه، وزهداً في خير الآخرة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: لا يوفقهم إلى الإيمان والحق الصواب، ولا يعصمهم من الزيغ والضلال.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ أي: ختـم عـلى قلوبهم وأسـماعهم وأبصارهـم بالكفـر، فجعـل عليها غلافاً بحيث لا تذعن للحق ولا يصل إليه نور الهداية، ولا تسمعه سماع تدبر وفهم، ولا تبصره، فلا يرون البراهين الدالة على ألوهية الله.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ أي: الكاملون في الغفلة، إذ أغفلتهم الدنيا عن تدبر العواقب.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ أي: حقاً ولا شـك ولا ريـب في أنهم الخـاسرون في الآخرة، لأنهم ضيعوا أعمارهـم في غير منفعة تعود عليهم. قال المفسرون: وصفهم تعالى بسـت صفات هي: الغضب من الله، والعـذاب العظيـم، واختيارهـم الدنيا عـلى الآخـرة، وحرمانهم من الهدى، والطبع على قلوبهم، وجعلهم من الغافلين.

* ثم ذكر ﷻ صنفاً آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقوهم على الفتنة، قال تعالى:

(١١٠)، (١١١) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ * يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ أي: ثم إن ربك - يا محمد - الذي ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه، لغفور رحيم لمن هاجروا في سبيله وتركوا ديارهم وأموالهم، طلباً لمرضاة الله، بعد ما فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب.

﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ﴾ ثم جاهدوا في سبيل الله، وصبروا على مشاق الجهاد وآلامه، وصبروا على ما أصابهم من الكفار.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: إن ربك بعد تلك الهجرة والجهاد والصبر سيغفر لهم ويرحمهم، فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا.

﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ أي: ذكرهم - يا محمد - بيوم القيامة حين تأتي كل نفس تخاصم عن ذاتها سعياً في خلاصها، وتعتذر بكل المعاذير لا يهمها شأن غيرها، ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير.

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ تعطى جزاء ما عملت من غير بخس ولا نقصان.

﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ لا ينقصون أجورهم، بل يعطونها كاملة وافية، فلا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

* لما ذكر تعالى حال من كفر بلسانه، وحال من كفر بلسانه وجنانه، ذكر هنا الجزاء العادل الذي يلقاه الجاحدون، وما أعده من العقاب العاجل في الدنيا لبعض المكذبين، قال تعالى:

(١١٢)، (١١٣) ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ * وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾.

الجُزءُ الرَّابعَ عَشَر سُورَةُ النَّحلِ

* يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا
قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن
كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ
ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ
رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ
١١٣ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ
نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤ إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ
ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ١١٥ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ
هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ
وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ
مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨

٢٨٠

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ﴾ هذا مثل ضربه الله لأهل مكة وغيرهم؛ بقوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فعصوا وتمردوا، فبدل الله نعمتهم بنقمة.

﴿كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ﴾ كان أهلها في أمن واستقرار، وسعادة ونعيم، لا يهاج أهلها ولا يُغار عليها. وفي تقدم الأمن على الطمأنينة لأن الطمأنينة لا تحصل دون الأمن، كما أن الخوف يسبب الانزعاج والقلق.

﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾ أي: يسر الله رزقها وأقواتها، فالخيرات والأرزاق تأتيها بسعة وكثرة من كل الجهات من البر والبحر.

﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي: لم يشكروا الله على ما آتاهم من خير، وما وهبهم من رزق.

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ أي: سلبهم الله نعمة الأمن والاطمئنان، وأذاقهم آلام الخوف والجوع والحرمان، بسبب كفرهم ومعاصيهم وعدم شكرهم، وهذا مثل أهل مكة؛ لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة والخصب، ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد ﷺ فكفروا به، وبالغوا في إيذائه، فعذبهم الله بالقحط والجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام.

وفي إضافة اللباس إلى الجوع والخوف سر لطيف تشعر وكأن ذلك ملازم

للإنسان ملازمة اللباس للابسه. قال القرطبي: سمى الجوع والخوف لباساً لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس. وقد تقدم الأمن في الآية على الطمأنينة، فالطمأنينة لا تحصل بدون الأمن كما أن الخوف يسبب القلق.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ ولقد جاءهم محمد بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة وهو رسول منهم يعرفون أصله ونسبه، وصدقه وأمانته، فلم يصدقوه، ولم يؤمنوا برسالته، والآية دالة على أن المراد بهم أهل مكة.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: فأصابتهم الشدائد والنكبات، وهم ظالمون بارتكاب المعاصي والآثام.

* ثم لما وعظهم الله سبحانه بما ذكروه من حال أهل القرية المذكورة، أمر ﷻ عباده بأكل ما رزقهم من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها، قال تعالى:

﴿١١٤﴾-﴿١١٧﴾ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ فكلوا ـ أيها المؤمنون ـ من نعم الله التي أباحها لكم حال كونها حلالاً طيباً، متصفة بهذين الوصفين.

﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ واشكروا الله على نعمه الجليلة التي أنعم بها عليكم واعرفوا حقها، وذلك بالاعتراف بها بالقلب، والثناء على الله بها، وصرفها في طاعة الله، إن كنتم مخلصين في إيمانكم لا تعبدون أحداً سواه، ولا تشكروا إلا إياه. ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم، فقال:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ أي: لم يحرم ربكم عليكم أيها الناس إلا ما فيه أذى لكم وضرر عليكم، كالميتة ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة، ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسمك، والدم المسفوح، وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر، ولحم الخنزير لقذارته وخبثه، وذلك شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه.

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: وما ذبح على اسم غير الله تعالى كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها، لأنه مقصود به الشرك، وقد كرر سبحانه ذكر هذه المحرمات في البقرة والمائدة والأنعام وهنا في سورة النحل، قطعاً للأعذار وإزالة للشبهة.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فمن اضطر لأكل ما حرم الله من المذكورات ـ بأن حملته الضرورة، وخاف إن لم يأكل أن يهلك ـ وهو غير ظالم ولا متجاوز حد الضرورة؛ فإن الله واسع المغفرة، عظيم الرحمة، لا يؤاخذ من كان مضطراً.

ثم وبخ تعالى المشركين الذين حللوا وحرموا من تلقاء أنفسهم فقال:

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ ولا تقولوا أيها المشركون في شأن ما تصفه ألسنتكم من الكذب، هذا حلال وهذا حرام، فتحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم، من غير دليل ولا برهان.

﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: لتكذبوا وتفتروا على الله بنسبة ذلك إليه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ إن الذين يختلقون الكذب على الله، لا يفوزون ولا يظفرون بمطلوبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا ينجون من عذابه، ولا بد أن يظهر الله خزيهم، وإن تمتعوا في الدنيا، فإنه:

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: انتفاعهم واستمتاعهم في الدنيا قليل؛ لأنه زائل، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع.

* ثم ذكر تعالى ما حرم على اليهود، في شريعتهم قبل أن ينسخها، فقال:

﴿١١٨﴾، ﴿١١٩﴾ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ
ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ
إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ
﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ
﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ
مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ
فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا
كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ
وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ
﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن
صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ
إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ
﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

٢٨١

قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ﴾ **أي: وعلى اليهود خاصة حرمنا عليهم ما قصصنا عليك - يا محمد - مما سبق ذكره في سورة الأنعام عقوبة لهم، وهي شحوم البقر والغنم وكل ذي ظفر.**

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ **وما ظلمناهم بذلك التحريم، ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والبغي فاستحقوا التحريم ذلك عقوبة لهم.**

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ **ثم إن ربك - يا محمد - للذين ارتكبوا تلك القبائح بجهل وسفه، فكل عاص لله خاطئاً أو متعمداً فهو جاهل بهذا الاعتبار وإن كان عالماً بالتحريم.**

﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾ **ثم رجعوا إلى ربهم وأنابوا، وأصلحوا العمل بعد ذلك الزلل. ثم كرّر ذلك تأكيداً وتقريراً، فقال:**

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ **إنه تعالى واسع المغفرة عظيم الرحمة، يقبل التوبة ويعيد التائب إلى حالته الأولى، أو أعلى منها، والآية تأنيس لجميع الناس، وفتح لباب التوبة، ودعوة إلى الإنابة وحض عليها.**

*** لما فرغ سبحانه من دفع شبه المشركين وإبطال مطاعنهم، وكان إبراهيم ﷺ من الموحدين وهو قدوة كثير من النبيين، ذكر تعالى عما فضل به خليله إبراهيم ﷺ، وخصه به من الفضائل العالية، والمناقب الكاملة، فقال:**

﴿١٢٠﴾-﴿١٢٣﴾ ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ * وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ **إن إبراهيم كان إماماً قدوة، جامعاً لخصال الخير، هادياً مهتدياً معلماً للخير، ولذلك اختاره الله لخلته.**

﴿قَانِتٗا لِّلَّهِ﴾ **مطيعاً لربه، قائماً بأمره، مخلصاً له الدين.**

﴿حَنِيفٗا﴾ **مقبل على الله بالمحبة، والإنابة، والعبودية، معرضاً عمن سواه، مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق.**

﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ **في قوله وعمله، وجميع أحواله؛ لأنه إمام الموحدين الحنفاء، وفي هذا تأكيد لما سبق، ورد على اليهود والنصارى في زعمهم أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً.**

﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِ﴾ **قائماً بشكر نعم الله، الظاهرة والباطنة التي وهبها إياه، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن:**

﴿ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ **أي: اختاره واصطفاه ربه للنبوة، وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين، وهداه إلى الإسلام، وإلى عبادة الواحد الأحد، فعلم بالحق وآثره على غيره.**

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ **أي: جعلنا له الذكر الجميل في الدنيا، والرزق الواسع، والزوجة الحسناء والذرية الصالحة، والأخلاق المرضية، وهو في الآخرة من أصحاب الدرجات الرفيعة، والمنازل العالية، وفي أعلى مقامات الصالحين.**

لما وصف تعالى إبراهيم بتلك الأوصاف الشريفة أمر نبيه محمداً ﷺ أن يتبع ملته، فقال:

﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ **ثم أمرناك -يا محمد- باتباع دين إبراهيم وملته الحنيفية السمحة، وهذا من أعظم فضائله، أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم، أن يتبع ملة إبراهيم ويقتدي به هو وأمته.**

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ **أي: وما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، وإنما كان حنيفاً مسلماً، وهو تأكيد آخر لرد مزاعم اليهود والنصارى أنهم على دينه.**

* وذكر ﷻ أصحاب السبت وذم عليهم، فقال:

﴿١٢٤﴾ ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ أي: لم يكن تعظيم يوم السبت وترك العمل فيه من شريعة إبراهيم ولا من شعائر دينه، وإنما جعل تغليظاً على اليهود لاختلافهم في الدين وعصيانهم أمر الله، حيث نهاهم عن الاصطياد فيه فاصطادوا، فمسخهم قردة وخنازير.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أي: وسيفصل الله تعالى بينهم يوم القيامة، فيبين لهم المحق من المبطل، والمستحق للثواب ممن استحق العقاب.

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والصبر والعفو عما يلقاه من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله. وذكر طرقها وأساليبها، وذلك بالأسلوب الأمثل للمدعو، من الرفق واللين والتلطف؛ لأنها دعوة رحمة وهداية، قال تعالى:

﴿١٢٥﴾ ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾.

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ ادع - يا محمد - أنت ومن اتبعك الناس إلى دين الله وشريعته وطريقه المستقيم بالأسلوب الحكيم، واللطف واللين، بما يؤثر فيهم وينجع، لا بالزجر والتأنيب والقسوة والشدة، وأنصح لهم نصحاً حسناً، يرغبهم في الخير، وينفرهم من الشر.

﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ وجادل المخالفين بالطريقة التي هي أحسن، من طرق المناظرة والمجادلة بالحجج والبراهين، والرفق واللين، ولما حث سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة بيّن أن الرشد والهداية ليس إلى النبي ﷺ، وإنما ذلك إليه تعالى، فقال:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ إن ربك - يا محمد - هو العالم بحال الضالين وحال المهتدين، فعليك أن تسلك الطريق الحكيم في دعوتهم ومناظرتهم، فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل وليس عليك - يا محمد - هدايتهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

* ثم يقول تعالى مبيحاً للعدل، ونادباً للفضل والإحسان.

﴿١٢٦﴾-﴿١٢٨﴾ ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ * وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾.

﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم، واعتدى عليكم، وأساء إليكم بالقول والفعل، فعاملوه بالمثل ولا تزيدوا. قال المفسرون: نزلت في شأن حمزة بن عبدالمطلب لما بقر المشركون بطنه يوم أحد، قال النبي ﷺ: «لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم» [رواه الطبراني].

﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ ولئن عفوتم وتركتم القصاص فهو خير لكم وأفضل من الاستيفاء، وهذا ندب إلى الصبر، وترك عقوبة من أساء، فإن العقوبة مباحة، وتركها أفضل.

﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ واصبر - يا محمد - على ما ينالك من صنوف الأذى في سبيل الله، حتى يأتيك الفرج، فهو الذي يعينك ويثبتك، فما تنال هذه المرتبة الرفيعة إلا بمعونة الله وتوفيقه.

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ ولا تحزن على الكفار إذا دعوتهم، فلم تر منهم قبولاً لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئاً، ولا يضق صدرك ولا تغتم بما يقولون من السفه والجهل، ولا بما يدبرون من المكر والكيد.

قال ابن القيم: الحزن من عوارض الطريق إلى الله، وليس من مقامات الإيمان، ولم يأمر الله به في موضع قط، ولا أثني عليه، بل نهي عنه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ إن الله ﷻ مع الذين اتقوا الفواحش والكبائر بالنصر والتأييد، ومع الذين يحسنون أداء فرائضه والقيام بحقوقه ولزوم طاعته بالحفظ والرعاية، والعون والتوفيق والنصر، ومن كان الله معه فلن يضره كيد الكائدين.

قال ابن تيمية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ هذان الأصلان هما جماع الدين العام كما يقال، التعظيم لأمر الله، والرحمة لعباد الله، فالتعظيم لأمر الله يكون بالخشوع والتواضع وذلك أصل التقوى، والرحمة لعباد الله بالإحسان إليهم.

تفسير سورة الإسراء
وهي مكية

* سورة الإسراء من السور المكية التي تهتم بشؤون العقيدة، شأنها كشأن سائر السور المكية من العناية بأصول الدين: من الوحدانية، والرسالة، والبعث ولكن العنصر البارز في هذه السورة الكريمة هو شخصية الرسول ﷺ، وما أيده الله به من المعجزات الباهرة، والحجج القاطعة، الدالة على صدقه ﷺ. وقد افتتحت السورة بالتسبيح وختمت بالتحميد.

سميت السورة الكريمة سورة الإسراء، إشارة لتلك المعجزة الباهرة معجزة الإسراء، التي خص الله تعالى بها نبيه ﷺ، فقد تعرضت السورة الكريمة لمعجزة الإسراء، التي كانت مظهراً للتكريم الإلهي لخاتم الأنبياء والمرسلين، وآية باهرة تدل على قدرة الله - جل وعلا - في صنع العجائب والغرائب، وقد بدأت السورة بالتسبيح لأن هناك إشعار أن الحديث بعدها سيكون عن أمر عظيم لا يقدر عليه إلا الله، والعلماء يعدون التسبيح لله أحد طريقين أثنى الله -تعالى- بهما على نفسه إما التسبيح أو الحمد. قال تعالى:

١ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

﴿سُبْحَٰنَ﴾ أي: تنزه وتقدس عما لا يليق بجلاله، الله عليّ الشأن؛ لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة التي لا يقدر عليها أحد سواه، لا إله غيره، ولا رب سواه، التي من جملتها أنه:

﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ الذي انتقل بعبده ونبيه محمد ﷺ في جزء من الليل بجسده وروحه يقظة لا مناماً.

قيل: سر قوله: ﴿لَيْلًا﴾: إفادة تقليل الوقت الذي كان الإسراء والرجوع فيه.

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس، وسمي بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام.

الجُزْءُ الخَامِسَ عَشَرَ سُورَةُ الإِسْرَاء

سُورَةُ الإِسْرَاء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ
هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾
ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾
وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا
بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ
ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ
عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا
﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا
جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

٢٨٢

قال المفسرون: وإنما قال: ﴿لَيْلًا﴾ لفظ التنكير لتقليل مدة الإسراء، أنه قطع به المسافات الشاسعة البعيدة في جزء من الليل وكانت مسيرة أربعين ليلة، وذلك أبلغ في القدرة والإعجاز، ولهذا كان بدء السورة بلفظ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ الدال على كمال القدرة، وبالغ الحكمة، ونهاية تنزهه تعالى عن صفات المخلوقين، ثم وصف المسجد الأقصى بقوله:

﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي: الذي باركنا ما حوله بأنواع البركات، بركات الدين والدنيا لأنه مُتعبَّد الأنبياء - عليهم السلام - ومهبط الوحي، وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة، ومن بركته تفضيله على غيره من المساجد، سوى المسجد الحرام، ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة، والصلاة فيه.

وقد اقتصر عن وصف المسجد الأقصى في هذه الآية بذكر بركته، وعدم ذكرها في حق المسجد الحرام؛ ذلك أن شهرة المسجد الحرام بالبركة وبكونه مقام إبراهيم معلومة للعرب.

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي: لنري محمداً ﷺ آياتنا العجيبة العظيمة، وليشاهد عجائب قدرة الله وأدلة وحدانيته، ونطلعه على ملكوت السموات والأرض، فقد رأى -صلوات الله عليه- السموات العلا، والجنة والنار، وسدرة المنتهى، والملائكة والأنبياء، وغير ذلك من العجائب والآيات التي تدل على قدرة الله تعالى.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي: إنه تعالى هو السميع لأقوال محمد،

البصير بأفعاله، فلهذا خصه بهذه الكرامات والمعجزات احتفاء وتكريماً، وخوله نعماً فاق بها الأولين والآخرين.

* ثم ذكر تعالى موسى عليه السلام، وكثير ما يقرن بين نبوة محمد ﷺ ونبوه موسى ﷺ، وبين كتابيهما، وشريعتيهما؛ لأن كتابيهما أفضل الكتب، وشريعتيهما أكمل الشرائع، ونبوتيهما أعلى النبوات، وأتباعهما أكثر المؤمنين، ولهذا قال:

﴿٢﴾،﴿٣﴾ ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: وكما كرمنا محمداً بالإسراء، كرم الله موسى بإعطائه التوراة، هداية لبني إسرائيل، يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر، إلى نور العلم والإيمان.

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي: وقلنا ذلك، وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك ليعبدوا الله وحده، وينيبوا إليه، ويتخذوه وحده وكيلاً ومدبراً لهم، في أمور دينهم ودنياهم. قال المفسرون: لما ذكر المسجد الأقصى وهو قلب الأرض المقدسة التي أسكنها الله بني إسرائيل، جاء الحديث عنهم في مكانه المناسب من سياق السورة.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: يا أبناء المؤمنين وذرياتهم الذين كانوا مع نوح في السفينة، لقد نجينا آباءكم من الغرق لا تشركوا بالله في عبادته، وكونوا شاكرين لنعمه، مقتدين بنوح عليه السلام.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ أي: إن نوحاً كان كثير الشكر، يحمد الله على كل حال فاقتدوا به، وفي النداء لهم تلطف وتذكير بنعمة الله، وحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم.

* ثم تحدثت الآيات عن بني إسرائيل، وما كتب الله عليهم من التشرد في الأرض مرتين، بسبب طغيانهم وفسادهم وعصيانهم لأوامر الله، قال تعالى:

﴿٤﴾-﴿٨﴾ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أخبرناهم وأعلمناهم وأوحينا إلى بني إسرائيل في التوراة التي أنزلت عليهم.

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ أي: ليحصلن منكم الإفساد في أرض فلسطين وما حولها مرتين، بالظلم وقتل الأنبياء. قال ابن عباس: أول الفساد قتل زكريا، والثاني قتل يحيى - عليهما السلام - وقصة قتل عيسى عليه السلام.

﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: تتكبرون وتطغون في الأرض المقدسة طغياناً كبيراً، بالظلم والعدوان وانتهاك محارم الله، وهذا تحذير لهم وإنذار، لعلهم يرجعون فيتذكرون.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ أي: فإذا وقع منهم الإفساد الأول، سلطنا عليكم من عبادنا، أناساً جبارين للانتقام منكم.

﴿أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: أصحاب قوة وبطش في الحرب شديد. قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما استحلوا المحارم وسفكوا الدماء، سلط الله عليهم بختنصر ملك بابل، فقتل منهم سبعين ألفاً حتى كاد يفنيهم هو وجنوده، وذلك أول الفسادين.

﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أي: طافوا وسط البيوت، يروحون ويغدون للتفتيش عنكم واستئصالكم بالقتل والسلب والنهب، لا يخافون من أحد.

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ وكان ذلك التسليط والانتقام قضاء جزماً حتماً لا يقبل النقض والتبديل لا بد من وقوعه، لوجود سببه منهم، واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المسلطين، إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار، إما من أهل العراق، أو الجزيرة، أو غيرها، سلطهم الله على بني إسرائيل لما كثرت فيهم المعاصي، وتركوا كثيراً من

شريعتهم، وطغوا في الأرض.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم لما تبتم وأنبتم، أهلكنا أعداءكم ورددنا لكم -يا بني إسرائيل- الدولة والغلبة عليهم والظهور على أعدائكم الذين سلطوا عليكم بعد ذلك البلاء الشديد فأجليتموهم من دياركم.

﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ أي: أعطيناكم الأموال الكثيرة والذرية الوفيرة، وكثرناكم، وقويناكم عليهم بعد نهب أموالكم وسبي أولادكم.

﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ وجعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من عدوكم، لتستعيدوا قوتكم وتبنوا دولتكم، بسبب إحسانكم وخضوعكم لله ﷻ.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ إن أحسنتم أفعالكم وأقوالكم يا بني إسرائيل، فإحسانكم لأنفسكم، ونفعه عائد عليكم، لا ينتفع الله منها بشيء.

﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ وإن أسأتم فلأنفسكم يعود الضرر وعقاب ذلك عائد عليكم لا يتضرر الله بشيء منها، فهو الغني عن العباد، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

قال الرازي: «لم يقل: وإن أسأتم أسأتم لها؛ كأنه أظهر إحسانه بأن أعاده، وستر إساءته بأن لم يذكرها إلا مرة».

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: فإذا جاء وعد موعد الإفساد الثاني من إفسادكم بقتل يحيى عليه السلام وانتهاك محارم الله، سلطنا عليكم أعداءكم مرة ثانية.

﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي: بعثناهم ليهينوكم ويغلبوكم؛ ويجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية على وجوهكم بالإذلال والقهر.

﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وليدخلوا عليكم بيت المقدس فيخربوه كما خربوه أول مرة.

﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ أي: وليدمروا ويهلكوا ما غلبوا عليه تدميراً، فيخربوا بيوتكم ومساجدكم وحروثكم، فقد سلط الله عليهم مجوس الفرس فشردوهم في الأرض وقتلوهم ودمروا مملكتهم تدميراً.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أي: لعل الله يرحمكم ويعفو عنكم -يا بني إسرائيل- إن تبتم وأنبتم وأصلحتم، وهذا وعد منه تعالى بكشف العذاب عنهم إن رجعوا إليه، و﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة فرحمهم وجعل لهم الدولة، وتوعدهم على المعاصي، فقال:

﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي: وإن عدتم إلى الإفساد والإجرام في الأرض، عدنا إلى العقوبة والانتقام، فعادوا لذلك، فسلط الله عليهم رسوله محمداً ﷺ فانتقم الله به منهم. وقال ابن عباس ﷺ سلط عليهم المؤمنون إلى يوم القيامة، فهذا جزاء الدنيا، وما عند الله من النكال أعظم وأشنع، ولهذا قال:

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ وجعلنا جهنم محبساً وسجناً للكافرين، لا يقدرون على الخروج

الجزء الخامس عشر سورة الإسراء

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ
حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾
وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾
وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾
وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ
ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ
ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ
إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا
يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا
﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ
رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا
فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ
مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

٢٨٣

منها أبد الآبدين، وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة من العمل بالمعاصي لئلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل، فسنة الله واحدة لا تتبدل ولا تتغير.

* ثم بين تعالى مزية التنزيل الكريم، وشرفه وجلالته، الذي فاق بها سائر الكتب السماوية، فقال:

﴿٩﴾، ﴿١٠﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ إن هذا القرآن العظيم الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ، يرشد الناس لأحسن الطرق وأوسع السبل، ولما هو أعدل وأصوب وهي ملة الإسلام، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن، كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره.

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ
جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ
ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ
سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ
عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ
فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ
تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا
﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا
يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ
أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا
جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى
صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ
فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ
وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ
كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

٢٨٤

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ما رأيت شيئاً يغذي العقل والروح ويحفظ الجسم، ويضمن السعادة أكثر من إدامة النظر في كتاب الله تعالى».

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ويبشر المؤمنين الذين يعملون بمقتضاه من الواجبات والسنن بالأجر العظيم الذي أعده الله لهم في جنات النعيم.

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: ويبشرهم بأن لأعدائهم الذين لا يصدقون بالآخرة العقاب الأليم في دار الجحيم، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب، فالقرآن مشتمل على البشارة والنذارة، وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة، وهو الإيمان والعمل الصالح، والتي تستحق بها النذارة وهو ضد ذلك.

* ثم ذكر تعالى عجز الإنسان وجهله وعجلته، فقال:

﴿١١﴾ ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي: يدعو الإنسان أحياناً على نفسه أو ولده أو ماله بالشر وذلك عند الغضب كدعائه لها بالخير، وهذا من جهل الإنسان وعجلته، ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك؛ لأن الله ﷻ بلطفه يستجيب له في الخير، ولا يستجيب له بالشر. قال ابن عباس: هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له: اللهم أهلكه، اللهم دمره، ونحوه.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ أي: ومن طبيعة الإنسان العجلة، يتعجل بالدعاء على نفسه، ويسارع لكل ما يخطر بباله، دون النظر في عاقبته.

* لما ذكر سبحانه دلائل النبوة والتوحيد؛ أكدها بدليل آخر من عجائب صنعه وبديع خلقه، ألا هو النظام الدقيق الذي يحكم الليل والنهار، ويسير وفق ناموس ثابت لا يتبدل، ومن ذلك آيات الله الكونية في هذا الوجود، التي كل منها برهان نير على وحدانية الله وعظمته، فقال تعالى:

﴿١٢﴾ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ أي: علامتين عظيمتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته ووحدانيته، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: طمسنا الليل وعلامته القمر فجعلناه مظلماً لتسكنوا فيه طلباً للراحة والنوم، وجعلنا علامة النهار وهي الشمس مضيئة مشرقة بالنور ليحصل به الإبصار في ضوء النهار.

﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتطلبوا في النهار أسباب معايشكم وصنائعكم وتجاراتكم وأسفاركم، وتخلدوا في الليل إلى السكن والراحة.

﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: وليعلم الناس بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر، عدد الأيام والشهور وحسابها، وما ينفع الناس في مصالحهم كمعرفة مواسم الزراعة وغيرها.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي: وكل أمر من أمور الدنيا والدين، بيناه أحسن تبيين، وصرفناه، لتتميز الأشياء، ويستبين الحق من الباطل، وليس شيء من أمر هذا الوجود متروكاً للمصادفة والجزاف، وإنما هو بتقدير وتدبير حكيم.

* ثم بعد ذكر الزمان، وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم، يذكر ﷻ عدله، بقوله:

﴿١٣﴾، ﴿١٤﴾ ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ أي: إن الإنسان مرهون بعمله مجزي به، وعمله ملازم له؛ لزوم القلادة للعنق لا ينفك عنه أبداً، فلا يحاسب بعمل غيره، ولا يحاسب غيره بعمله.

وقيل خصَّ العنق: لأن عمله لا يخلو إما أن يكون خيرًا أو شرًّا، وذلك مما يزين أو يشين كالحلي والغل، فأضيف إلى الأعناق.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ ويظهر الله له في الآخرة كتاب أعماله مفتوحاً، فيه حسناته وسيئاته، صغيرة وكبيرة، فيرى عمله مكشوفاً لا يملك إخفاءه أو تجاهله.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي: يقال له: اقرأ كتاب عملك، فيقرأ، وإن لم يكن يعرف القراءة في الدنيا، كفى أن تكون اليوم شهيداً بما عملت، لا تحتاج إلى شاهد أو حسيب، وهذا من تمام العدل والإنصاف أن يقال للعبد: حاسب نفسك ليعترف بما عليه من الحق الموجب للعقاب. قال بعض السلف: والله لقد أنصفك من جعلك حسيباً على نفسك.

* ثم بين ﷻ أن ثواب العمل الصالح وعقاب ضدّه يختصان بفاعلهما، لا يتعديان منه إلى غيره، قال تعالى:

﴿١٥﴾ ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ من اهتدى فاتبع طريق الحق فثواب اهتدائه له، ومن حاد واتبع طريق الباطل فعقاب كفره وضلاله عليها.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جان إلا على نفسه.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ والله تعالى أعدل العادلين، لا يعذب أحداً من الخلق حتى يبعث لهم الرسل مذكرين ومنذرين فتقوم عليهم الحجة.

﴿١٦﴾ ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ أي: وإذا أراد الله هلاك قوم من الأقوام، أمر المتنعمين فيها، والقادة والرؤساء بالطاعة على لسان الرسل، فعصوا أمرهم وخرجوا عن طاعتهم وفسقوا وفجروا، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب.

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ فوجب عليهم العذاب بالفسق والطغيان، فأهلكناهم إهلاكاً مريعاً لا مرد له.

* ثم ذكر ﷻ عن أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب، من بعد قوم نوح، كعاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم ممن عاقبهم الله لما كثر بغيهم، واشتد كفرهم، أنزل الله بهم عقابه العظيم، قال تعالى:

﴿١٧﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ أي: وكثير من الأمم الطاغية المكذبين للرسل أهلكناهم من بعد نوح، كقوم عاد وثمود وفرعون، والآية إنذار لكفار قريش، والمعنى: إنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم؛ وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي: كفى - يا محمد - أن يكون ربك رقيباً على أعمال العباد، يدرك بواطنها وظواهرها وإن أخفوها في الصدور، ويجازي عليها لا تخفى عليه خافية وإن أرخوا عليها الستور.

* ثم بين تعالى ثواب من طلب الدنيا وثواب من طلب الآخرة، فقال:

﴿١٨﴾، ﴿١٩﴾ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي: من كان يريد بعمله الدنيا فقط، ولها يعمل ويسعى، ليس له هم إلا الدنيا، عجلنا له فيها ما نشاء تعجيله، من نعيمها، لا كل ما يريد، ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ ثم جعلنا له في الآخرة جهنم يدخلها مهاناً حقيراً مطروداً من رحمة الله.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ومن أراد الدار الآخرة، وما فيها من النعيم المقيم، فرضيها وآثرها على الدنيا، وعمل لها وسعى لها بطاعة الله تعالى، وهو مؤمن صادق الإيمان بالله وثوابه وعظيم جزائه.

﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ فأولئك الجامعون للخصال الحميدة من الإخلاص، والعمل الصالح، والإيمان؛ كان عملهم مقبولاً عند الله أحسن القبول، مثاباً عليه مدخراً لهم محفوظاً.

* ثم بين سبحانه كمال رأفته وشمول رحمته، فقال:

﴿٢٠﴾، ﴿٢١﴾ ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۞ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ أي: كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا، والذين أرادوا الآخرة، نعطيه من عطائنا الواسع تفضلاً منّا وإحساناً، فنعطي المؤمن والكافر والمطيع والعاصي.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: ما كان عطاؤه تعالى محبوساً ممنوعاً عن أحد، بل جميع الخلق راتعون بفضله وإحسانه.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: تأمل ـ يا محمد ـ كيف فاوتنا بينهم في الأرزاق والأخلاق، والسعة والكمال في هذه الحياة الدنيا، فهذا غني وذاك فقير، وهذا شريف وذاك حقير، وغير ذلك من الأمور، التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها.

﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي: ولتفاوتهم في الدار الآخرة أعظم من التفاوت في هذه الدار، لأن الآخرة دار القرار، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

* لما جعل تعالى الإيمان والعمل الصالح أساً للفوز بالسعادة الأبدية، حذر وأنذر من الشرك، فقال:

﴿٢٢﴾ ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾.

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ لا تجعل ـ أيها الإنسان ـ مع الله شريكاً له في عبادته ولا تتخذ غيره إلها تعبده.

﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ أي: فتصير ملوماً عند الله، مخذولاً منه، لا ناصر لك ولا معين.

* لما نهى تعالى عن الشرك به وحذر منه، أمر بالتوحيد، وإفراد العبادة له وحده دونما سواه، ثم وصى بالبر بالوالدين، فقال:

﴿٢٣﴾، ﴿٢٤﴾ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ أي: حكم تعالى أيها الإنسان ـ وأمر وألزم بأن لا تعبدوا أحداً من أهل الأرض والسماوات الأحياء والأموات.

﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد.

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال:

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ أي: وأمر ووصى بأن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً وعطافاً بالغاً، بجميع وجوه الإحسان القولي والفعلي، لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه والقرب، ما يقتضي تأكد الحق ووجوب البر. قال المفسرون: قرن تعالى بعبادته بر الوالدين لبيان حقهما العظيم على الولد لأنهما السبب الظاهر لوجوده وعيشه، ولما كان إحسانهما إلى الولد؛ قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسان الولد إليهما كذلك، وقد جعل سبحانه في آية أخرى شكرهما مقترناً بشكره، فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، ثم خص سبحانه حالة الكبر بالذكر لكونها إلى البر من الولد أحوج من غيرها، فقال:

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ أي: قد أوصينا بهما وبخاصة إذا كبرا، أو كبر أحدهما، وإنما خص بحالة الكبر لأنهما حينئذ أحوج إلى البر والقيام بحقوقهما لضعفهما، فهما يحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف، ومعنى ﴿عِندَكَ﴾ أي في كنفك وكفالتك.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أي: لا تسمعهما قولاً سيئاً، ولا أقل كلمة

تظهر الضجر، كلمة أف، ولا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولو بكلمة التأفف وهو أدنى مراتب القول السيء ولا تؤذهما أدنى أذية. قال ابن عقيل: من أحسن ظني بربي، أن لطفه بلغ أن وصى بي ولدي إذا كبرت.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولا تزجرهما، وتتكلم لهما كلاماً خشناً.

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ وقل لهما بدل التأفيف والنهر قولاً حسناً، ليناً طيباً، بأدب ووقار وتعظيم وحياء، تطمئن له قلوبهما، وتنشرح به صدورهما.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: وكن لأبيك وأمك ذليلاً متواضعاً وألن جانبك، وتواضع لهما بتذلل وخضوع من فرط رحمتك وعطفك عليهما، واحتساباً للأجر والمثوبة. وخفض الجناح دلالة على القرب والدنو وترك الارتفاع. ومن برّك وإحسانك أن تدعو الله ﷻ لهما:

﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أي: واتبع القيام بحقهما الدعاء، فادع لهما بالرحمة أحياءً وأمواتاً، وقل في دعائك: يا رب ارحم والديَّ برحمتك الواسعة كما أحسنا إليَّ في تربيتهما في حال الصغر وأنا طفل ضعيف الحول والقوة، وفهم من هذا أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق، وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودنياه، تربية صالحة غير الأبوين، فإن له على من رباه حق التربية، ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ثم ضيق الأمر حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من التضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد يصبر الإنسان معها، ولقد بالغ سبحانه في التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقوق وتقف عندها شعورهم.

قال السعدي: والأمر بالإحسان إلى الوالدين وإطلاقه يدخل فيه كل ما عده الناس إحساناً، وذلك يختلف باختلاف الأوقات والأحوال والأشخاص.

* ثم بين تعالى أنه مطلع على السرائر، عالم بما تخفيه النفوس، فقال:

(٢٥) ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي: ربكم - أيها الناس - مطلع على نفوسكم وضمائركم من إرادة البر أو العقوق.

﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ أي: إن تكونوا قاصدين للبر والصلاح دون العقوق والفساد، فإنه - جل وعلا - يتجاوز عن سيئاتكم ويغفر للأوابين، وهم الذين كلما أخطؤوا عادوا إلى ربهم مستغفرين. قال المفسرون: والمقصود من هذه الآية أن الأولى لما دلت على وجوب تعظيم الوالدين، ثم إن الولد قد يظهر منه ما يخل بتعظيمهما فإن كانت تلك الهفوة ليست لأجل العقوق بل ظهرت بمقتضى الجبلة البشرية كانت في محل الغفران.

* وتعرضت السورة إلى بعض الآداب الاجتماعية، والأخلاق الفاضلة الكريمة، فحثت عليها، ودعت إلى التحلي بها، وبعد الأمر بوجوب الإحسان إلى الوالدين يأمر تعالى بالإحسان إلى الأقارب والضعفاء والمساكين، يقول تعالى:

(٢٦)-(٢٨) ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ وأحسن وأعط كل من له قرابة بك حقه من البر والإحسان والإكرام، الواجب، والمسنون، وذلك الحق يتفاوت بتفاوت الأحوال، والأقارب، والحاجة وعدمها.

﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ وأعط المسكين المحتاج لتزول حاجته ومسكنته، والغريب المنقطع في سفره، أعطه حقه أيضاً. ولما أمر بالإنفاق نهى تعالى عن التبذير، فقال:

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ أي: لا تنفق مالك في غير طاعة الله فتكون مبذراً، والتبذير الإنفاق في غير حق. قال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مدّاً في غير حق كان مبذراً. وقال قتادة: التبذير النفقة في معصية الله تعالى وفي غير الحق والفساد.

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ هذا تعليل للنهي، وهو غاية في الذم والتقبيح، أي: إن المبذرين كانوا أمثال الشياطين وأشباههم في الإفساد، لأنهم ينفقون في الباطل، وينفقون في الشر والمعصية، لأن

الجزءُ الخامسَ عشَرَ سُورَةُ الإسْرَاءِ

وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا
مَّيۡسُورٗا ٢٨ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا
كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ
لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٣٠ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ
أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ
خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ
سَبِيلٗا ٣٢ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ
وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي
ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ٣٣ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي
هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ
مَسۡـُٔولٗا ٣٤ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ
ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ
ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦
وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ
ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨

٢٨٥

الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك، فإذا عصاه، دعاه إلى الإسراف والتبذير.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ أي: مبالغاً في كفران نعمة الله، لا يؤدي حق النعمة، كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حق النعمة، وحقها أن ينفقوها في الطاعات والحقوق، غير متجاوزين ولا مبذرين.

﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾ أي: إن أعرضت من ذوي القربى والمساكين وابن السبيل إذا لم تجد ما تعطيهم من رزق ربك، فقل لهم قولاً سهلاً ليناً كالدعاء لهم بالغنى وسعة الرزق، وعدهم وعداً جميلاً بأن الله إذا يسر من فضله رزقاً أنك تعطيهم منه. قيل: وهذا من لطف الله تعالى بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه. لأن انتظار ذلك عبادة، وكذلك وَعْدُهم بالصدقة والمعروف عند التيسر، عبادة حاضرة، لأن الهم بفعل الحسنة حسنة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، وينوي فعل ما لم يقدر عليه، ليثاب على ذلك، ولعل الله ييسر له بسبب رجائه.

* لما ذكر سبحانه أدب المنع بعد النهي عن التبذير، بيّن أدب الإنفاق، فقال تعالى:

﴿٢٩﴾، ﴿٣٠﴾ ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾.

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ كناية عن شدة الإمساك والبخل، أي: لا تكن بخيلاً منوعاً في سبيل الخير، لا تعطي أحداً شيئاً، مضيقاً على نفسك وأهلك والمحتاجين؛ كمن حبست يده عن الإنفاق وشدت إلى عنقه.

﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ تمثيل للتبذير، أي: ولا تتوسع في الإنفاق توسعاً مفرطاً فتعطي فوق طاقتك بحيث لا يبقى في يدك شيء، والغرض من الآية لا تكن بخيلاً ولا مسرفاً.

﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ أي: إن فعلت ذلك، تلام على ما فعلت من الخلق والخالق، منقطعاً من المال لا شيء عندك تنفقه، كمن انقطع في سفره بانقطاع مطيته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ أي: إن ربك يوسع الرزق على من يشاء من الناس ويضيق على من يشاء، وهو القابض، الباسط المتصرف في خلقه، بما يشاء حسب الحكمة، ثم علل ما ذكره من البسط للبعض والتضييق على البعض بقوله:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ أي: إنه عالم بمصالح العباد، والتفاوت في الأرزاق ليس لأجل البخل، بل لأجل رعاية المصالح، فهو تعالى يعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم فيجزيهم على ما يعلمه صالحاً لهم، ويدبرهم بلطفه وكرمه.

* ثم ذكر ﷻ من رحمته بعباده، النهي عن قتل أولادهم خشية الفقر، وقد كانوا يفعلون ذلك، وهذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده، من الوالد بولده، قال تعالى:

﴿٣١﴾ ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا﴾.

﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ﴾ أي: وإذا علمتم أن الرزق بيد الله سبحانه، فلا تقدموا على قتل أولادكم مخافة الفقر.

﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ﴾ أي: فإنه سبحانه هو الرزاق لعباده، يرزق الأبناء كما يرزق الآباء، فلا تخافوا الفقر بسببهم.

﴿إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا﴾ وإن قتلهم ذنب عظيم وجرم خطير،

لـزوال الرحمة من القلـب، والعقوق العظيم، والتجـرؤ على قتل الأطفال، الذين لم يجر منهم ذنـب ولا معصية. قـال المفـسرون: كان أهـل الجاهلية يئـدون البنات مخافة الفقـر أو العار، فنهاهم الله عن ذلك وضمن أرزاقهم.

* ولما نهى سبحانه عن قتل الأولاد المسـتدعي لإفناء النسـل، ذكر النهي عن الزنا المفضي إلى ذلـك، لما فيه من اختلاط الأنساب، فقال:

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ أي: لا تدنوا من الزنى وهو أبلغ من «لا تزنوا»؛ لأنه يفيد النهي عن مقدمات الزنى، ودواعيه كاللمـس، والقبلة، والنظـر، والغمز، وغير ذلك مما يجر إلى الزنى، فالنهي عن القرب أبلغ من النهي عن مجرد فعله، ثم وصف تعالى الزنى وقبحه:

﴿إِنَّـهُۥ كَانَ فَٰحِشَـةً﴾ أي: إن الزنـى كان فعلـة قبيحـة متناهية في القبح يسـتفحش في الـشرع والعقل والفطـر، لتضمنه التجرئ على الحرمة في حق الله، وحـق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب، وغير ذلك من المفاسد.

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: بئس الطريق طريق من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

* ولـما فرغ مـن ذكـر النهي عن القتل لخصـوص الأولاد، وعن النهي عن الزنـا الذي يفـضي إلى ما يفضي إليه قتل الأولاد من اختلاط الأنساب وعدم استقرارها، نهى عن قتل النفس المعصومة على العموم، فقال:

﴿٣٣﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾.

﴿وَلَا تَقْتُلُـوا النَّفْـسَ﴾ وهذا شامل لكل نفس.

﴿الَّـتِي حَـرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها، من صغـير وكبـير، وذكر وأنثـى، وحر وعبد، ومسلم وكافر له عهد.

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والمراد بالحق الذي اسـتثناه هو ما يباح بـه قتل الأنفس، المعصومـة في الأصل، وذلك كالنفس بالنفـس، والزاني المحصـن، والتارك لدينه المفـارق للجماعـة، والباغي في حال بغيه إذا لم يندفع إلا بالقتل.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُـلْطَٰنًا﴾ أي: ومن قتل ظلماً بغير حق يوجب قتله، فقد جعلنا لولي أمره من وارث أو حاكم حجة ظاهرة في طلب قتل قاتله أو الدية.

﴿فَلَا يُـسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ أي: فـلا يتجاوز الولي الحد المشروع بأن يقتل غـير القاتل، أو يمثل بـه أو يقتل اثنين بواحـد، كما كان أهل الجاهلية يفعلون، فحسبه أن الله قد نصره على خصمه فليكن عادلاً في قصاصه.

* ثم لـما ذكر ـ عزوجـل ـ النهي عن إتلاف النفوس، أتبعه بالنهي عن إتلاف الأمـوال، وكان أهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيـم، وهذا من لطفه ورحمته باليتيم، فقال سبحانه:

﴿٣٤﴾،﴿٣٥﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ حَـتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْـطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: ولا تتصرفوا في مال اليتيم، ـ الذي فقد والده وهو صغير ـ وصار في كفالتكـم إلا بالطريقة التي هي أحسـن، وهي حفظه واستثماره، والنهي عن قربانه مبالغة في النهي عن المباشرة له وإتلافه.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُـدَّهُۥ﴾ حتى يبلغ اليتيم سـن الرشـد ويحسـن التصرف في مالـه، فإذا بلـغ أشـده، زالت عنه الولاية، وصار ولي نفسه، ودفع إليه ماله.

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْـدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أي: وفوا بالعهود سواءً كانـت مع الله، أو مـع الناس، لأنكم تسـألون عنها يوم القيامة فإن وفيتم. فلكم الثـواب الجزيـل، وإن لم توفوا فعليكم الإثم العظيم، فإن العهد يسأل الله عنه صاحبه يوم القيامة.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْـلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْـتَقِيمِ﴾ أي: أتموا الكيـل إذا كلتـم لغيركـم من غير تطفيـف ولا بخس، وزنـوا بالميزان العدل السوي بلا احتيال ولا خديعة.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وفاء الكيـل وإقامة الوزن خير في الدنيا وأحسن مآلا وعاقبة في الآخرة، به يسلم العبد من التبعات، وبه تنزل البركات.

* ثم أمر سبحانه بإصلاح اللسان والقلب، فقال:

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم
بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾
وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾
قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا
﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن
لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأۡتَ
ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا
مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ
وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴿٤٦﴾
نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ
إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرۡ
كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾
وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾

﴿٣٦﴾ ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾.

﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ أي: لا تتبع أيها الإنسان ما ليس لك به علم، ولا يعنيك، بل تأكد وتثبت من كل خبر. قال قتادة: لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله.

﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ أي: إن الإنسان يسأل يوم القيامة عن حواسه: عن سمعه، وبصره، وقلبه، وعما اكتسبته جوارحه، فإذا استعملها في الخير نال الثواب، وإذا استعملها في الشر نال العقاب.

* ثم يقول تعالى ناهياً عن التجبر والتبختر في المشية:

﴿٣٧﴾، ﴿٣٨﴾ ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا * كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾.

﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ ولا تمش في الأرض كبراً وتيهاً وبطراً، متكبراً على الحق، ومتعاظماً على الخلق.

﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ هذا تعليل للنهي عن التكبر، والمعنى: أنك أيها الإنسان ضئيل هزيل لا يليق بك التكبر، ولن تنال بكبرك وبطرك شيئاً، كيف تتكبر على الأرض ولن تجعل فيها خرقاً أو شقاً، وكيف تتطاول وتتعظم على الجبال ولن تبلغها طولاً، فأنت أحقر وأضعف من كل واحد من الجمادين، فكيف تتكبر وتتعالى وتختال وأنت أضعف من الأرض والجبال؛ وفي هذا تهكم وتقريع للمتكبرين.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾ كل ذلك المذكور الذي نهى الله عنه كان عمله قبيحاً وسيئاً، ومحرماً عند الله تعالى.

﴿٣٩﴾ ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾ أي: ذلك الذي بيناه ووضحناه من الأحكام الجليلة، من الأمر بمحاسن الأعمال، والنهي عن أراذل الأخلاق بعض الذي أوحاه إليك ربك يا محمد من المواعظ البليغة، والحكم الفريدة، ثم ختمها بالنهي عن عبادة غير الله، كما افتتحها بذلك، فقال:

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ أي: ولا تشرك مع الله غيره من وثن أو بشر، فتقذف في جهنم خالداً مخلداً، ملوماً تلوم نفسك ويلومك الله والخلق، مطروداً مبعداً من كل خير، وقد ختم به الأحكام كما ابتدأها إشارة إلى التوحيد مبدأ الأمور ومنتهاها، وهو رأس الأشياء وأساسها، والأعمال من دونه باطلة لا تفيد شيئاً.

* وتحدثت الآيات عن ضلالات المشركين حيث نسبوا إلى الله تعالى الصاحبة والولد، والعجيب في أمرهم أنهم يكرهون البنات، ثم ينسبونها إلى العلي الكبير، المنزه عن الشبيه والنظير.

﴿٤٠﴾ ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا﴾.

﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ خطاب على وجه التوبيخ للعرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله، والمعنى: أفخصكم ربكم وأخلصكم بالذكور، واختار لنفسه ـ على زعمكم ـ البنات؟ كيف يجعل لكم الأعلى من النسل ويختار لنفسه الأدنى.

﴿إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا﴾ أي: إنكم لتقولون قولاً عظيماً في

شناعته وبشاعته وعظيم جرأته على الله، حيث تنسبون إليه البنات وتجعلون لله ما تكرهون.

* ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة، التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به، ونهى عن ضده، وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئاً كثيراً، ومن الأدلة على ذلك هذا الدليل العقلي، قال تعالى:

﴿٤١﴾ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ ولقد بيَّنا ووضحنا للناس في هذا القرآن العظيم الأمثال والمواعظ، والوعد والوعيد، ليتذكروا ويتفكروا بما فيها من الحجج النيرة والبراهين الساطعة، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والضلال.

﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: وما يزيدهم هذا البيان والتذكير إلا تباعداً عن الحق، وغفلة عن النظر والاعتبار.

* ثم أقام عليهم الحجة العقلية الواضحة، فقال تعالى:

﴿٤٢﴾، ﴿٤٣﴾ ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۞ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ قل - يا محمد - للمشركين الذي يجعلون مع الله إلهاً آخر، لو فرضنا أن مع الله آلهة أخرى كما يزعم هؤلاء المشركون إذاً لطلبوا طريقاً إلى مغالبة ذي العزة والجلال، ليسلبوا ملكه كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: تنزه تعالى وتقدس عما يقول أولئك الظالمون، وتعالى ربنا عما نسبوه إليه من الزور والبهتان تعالياً كبيراً، فإن مثل هذه الفرية مما يتنزه عنه مقامه الأسمى، وذكر العلو بعد عنوانه بـ ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ في أعلى مراتب البلاغة؛ لأنه المناسب للعظمة والجلال.

* ثم ذكر من عظمته وجلال قدره أنه:

﴿٤٤﴾ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي: تسبح له الكائنات وتنزهه وتقدسه الأرض والسموات، ومن فيهن من جميع المخلوقات.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: وما من شيء في هذا الوجود إلا ناطق بعظمة الله، شاهد بوحدانيته - جل وعلا - بلسان الحال، ولسان المقال، تنزيهاً مقروناً بالثناء والحمد له سبحانه.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ولكن لا تفهمون ولا تدركون تسبيح هذه الأشياء؛ لأنها ليست بلغاتكم، بل يحيط بها علّام الغيوب، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ إنه تعالى حليم بالعباد لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، غفور لمن تاب وأناب، ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر.

* ثم يخبر تعالى عن عقوبته للمكذبين بالحق، الذين ردوه وأعرضوا عنه، أنه يحول بينهم وبين الإيمان، وهذا من أعظم العقوبات وأشدها، قال تعالى:

﴿٤٥﴾، ﴿٤٦﴾ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۞ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ وإذا قرأت - يا محمد - القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالآخرة، جعلنا بينك وبينهم حجاباً خفيّاً، يحجب عنهم فهم القرآن والانتفاع به، وإدراك أسراره وحكمه، والانقياد لما يدعو إليه من الخير، عقاباً لهم على كفرهم وإنكارهم.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: وجعلنا على قلوب هؤلاء الكفار أغطية لئلَّا يفهموا القرآن، بل يسمعونه سماعاً تقوم به عليهم الحجة.

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمماً يمنعهم من استماعه.

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ داعياً لتوحيده، ناهياً عن الشرك به.

۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي
صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ
فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن
يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ
إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ
إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا
مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ
يُعَذِّبْكُمْۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ
بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن
دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ
وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ
مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

٢٨٧

﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ فـرَّ المشركون من ذلك هرباً من استماع التوحيد من شدة بغضهم له، واستكباراً واستعظاماً ومحبتهم لما هم عليه من الباطل.

* يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ بما يتناجى به رؤساء قريش حين جاؤوا يستمعون قراءته ﷺ، قال تعالى:

﴿٤٧﴾، ﴿٤٨﴾ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا * ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ نحن أعلم بالغاية التي يستمعون كفار قريش من أجلها للقرآن إذ يستمعون إليك، ومقاصدهم سيئة وهي الاستهزاء والسخرية. قال المفسرون: كان المشركون يجلسون عند النبي ﷺ مظهرين الاستماع، وفي الواقع قاصدين الاستهزاء، فنزلت الآية تسلية للرسول وتهديداً للمشركين.

﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي: حين يستمعون إلى قراءتك ـ يا محمد ـ، ثم يتناجون، ويتحدثون بينهم سرّاً.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي: حين يقول أولئك الفجرة في مناجاتهم: ما تتبعون إلا رجلاً سحر فجنَّ، فاختلط كلامه.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ﴾ انظر ـ يا محمد ـ متعجباً من قولهم: كيف يقولون تارة عنك إنك ساحر، وتارة إنك شاعر، وتارة إنك مجنون، وقد ضلوا بهذا البهتان والزور. أو فصارت سبباً لضلالهم، لأنهم بنوا عليها أمرهم، والمبني على فاسد أفسد منه.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: لا يجدون طريقاً إلى الهدى والحق المبين فنصيبهم الضلال المحض، والظلم الصرف.

* لما ذكر تعالى موقف المشركين من القرآن العظيم، وذكر تعاميهم عن فهم آياته البينات، أردفه بذكر شبهاتهم في إنكار البعث والنشور، وكرّ عليها بالإبطال والتفنيد، ورد على قول المنكرين للبعث، وتكذيبهم به، واستبعادهم بقولهم:

﴿٤٩﴾-﴿٥٢﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ استفهام تعجب وإنكار، أي: قال المشركون المكذبون بالبعث أئذا أصبحنا عظاماً نخرة، وذرات بالية متفتتة كالتراب.

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ كرر الاستفهام الدال على الاستنكار والاستبعاد تأكيداً وتقريراً، أي: هل سنبعث ونخلق خلقاً جديداً بعد أن نبلى ونفنى؟ محال ذلك بزعمهم.

﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ أي: قل لهم ـ يا محمد ـ على جهة التعجيز: لو كنتم حجارة أو حديداً في الشدة والقوة لقدر الله على بعثكم وإحيائكم، فضلاً عن أن تكونوا عظاماً ورفاتاً، فإن الله لا يعجزه شيء، فالحجارة والحديد أبعد عن الحياة وهي أصلب الأشياء ولو كانت أجسامكم منها لأعادها الله، فكيف لا يقدر على إعادتكم إذا كنتم عظاماً ورفاتاً؟

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أو كونوا خلقاً آخر

أوغل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يصعب في نفوسكم تصور الحياة فيه، فسيبعثكم الله. قال مجاهد: المعنى كونوا ما شئتم فستعادون.

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ من الذي يردنا إلى الحياة بعد فنائنا.

﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قل لهم يعيدكم القادر العظيم الذي خلقكم وأنشأكم من العدم أول مرة، فإن من قدر على الإنشاء قادر على الإعادة.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: يحركون رؤوسهم متعجبين مستهزئين، ويقولون استنكاراً واستبعاداً، متى يكون البعث والإعادة؟ لا إقراراً منهم لأصل البعث، بل ذلك سفه منهم، وتعجيز.

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: لعله يكون قريباً، فليس في تعين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار على تقريره، والإقرار به واتباعه، وإلا فكل ما هو آت فإنه قريب.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ يوم يناديكم خالقكم وينفخ في الصور للخروج من قبوركم، للبعث والنشور، والحساب والجزاء.

﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ فتجيبون لأمره، ولا تستعصون عليه، وقوله ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: هو المحمود تعالى على ما يفعله ويجزي العباد، إذا جمعهم ليوم التناد.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وتظنون لهول ما ترون، أنكم ما أقمتم في الدنيا إلا زمناً قليلاً من سرعة وقوعه، وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان.

* ثم من لطفه تعالى بعباده، أمر بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال، الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿٥٣﴾ ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: قل لعبادي المؤمنين يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلمة الطيبة، ويختاروا من الكلام ألطفه وأحسنه، وينطقوا دائماً بالحسنى. والقول الحسن: داع لكل خلق جميل، وعمل صالح، فإن من ملك لسانه، ملك جميع أمره.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: إن الشيطان يفسد ويسعى بين الناس بالشر، ويشعل نار الفتنة بالكلمة تفلت بها اللسان لا يقيم لها وزناً، فيفسد على المرء دينه ودنياه.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي: ظاهر العداوة للإنسان من قديم الزمان، يتلمس سقطات لسانه ليحدث العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه.

﴿٥٤، ٥٥﴾ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ ربكم أعلم أيها الناس؛ أعلم بدخائل نفوسكم، إن يشأ يرحمكم بالتوفيق للهداية والإيمان، وإن يشأ يعذبكم بالإماتة على الكفر والعصيان.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ وماجعلناك - يا محمد - حفيظاً على أعمال الكفار، كفيلاً عنهم لتقسرهم على الإيمان وتدبر أمرهم، وتقوم بمجازاتهم، وإنما الله هو الوكيل، وأنت مبلغ هاد إلى صراط مستقيم، إنما أرسلناك نذيراً فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ انتقال من الخصوص إلى العموم، أي: ربك - جل وعلا - أعلم بعباده، بأحوالهم ومقاديرهم، فيخص بالنبوة من شاء من خلقه، وهو أعلم بالسعداء والأشقياء. والآية رد على المشركين حيث استبعدوا النبوة على رسول الله ﷺ وقالوا: كيف يكون يتيم أبي طالب نبيّاً؟ وكيف يكون هؤلاء الفقراء الضعفاء أصحابه دون الأكابر والرؤساء؟

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: فضلنا بعض الأنبياء على بعض، حسب علمنا وحكمتنا، وخصصناهم بمزايا فريدة، فاصطفينا إبراهيم بالخلة، وموسى بالتكليم، وسليمان بالملك العظيم، ومحمداً بالإسراء والمعراج وجعلناه سيد الأولين والآخرين، وكل ذلك فعل الحكيم العليم الذي لا يصدر شيء إلا عن حكمته.

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ وأنزلنا الزبور على داود المشتمل على الحكمة

وفصل الخطاب، فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض، وآتى بعضهم كتباً، فلم ينكر المكذبون لمحمد ﷺ ما أنزله الله عليه، وما فضله به من النبوة والكتاب.

* ثم رد ﷻ على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنها صور الملائكة، وعلى طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بإلهية عيسى ومريم، وعزير، قال تعالى:

﴿٥٦﴾،﴿٥٧﴾ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أنداداً يعبدونهم كما يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعون الله، ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه تعالى قال الحسن: يعني الملائكة وعيسى وعزيراً، فقد كانوا يقولون: إنهم يشفعون لنا عند الله.

﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ فلا يستطيعون رفع البلاء عنكم من مرض، أو فقر، أو شدة، ونحو ذلك، فلا يدفعونه بالكلية، ولا تحويله إلى غيركم، ولا يملكون أيضاً تحويله من شخص إلى آخر، ومن شدة إلى ما دونها، فإذا كانوا بهذه الصفة، فلأي شيء تدعونهم من دون الله، والمعنى: أن الذي يقدر ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أولئك الذين يدعونهم من دون الله من الأنبياء والصالحين والملائكة، هم أنفسهم يبتغون القرب إلى الله، ويتوسلون إليه بالطاعة والعبادة، ويتنافسون في القرب من ربهم، فكيف تعبدونهم معه؟

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ أي: ويأملون بعبادتهم رحمته تعالى، ويخافون عقابه، ويتسابقون إلى رضاه، ولا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: عذابه تعالى شديد، ينبغي أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله، والتوقي من أسبابه.

وهذه الأمور الثلاثة، الخوف، والرجاء، والمحبة، التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده، وهي الأصل والمادة في كل خير، فمن تمت له، تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها، ترحلت عنه الخيرات، وأطاحت به الشرور، وعلامة المحبة ما ذكره الله، أن يجتهد العبد في كل ما يقربه إلى الله وينافس في قربه، بإخلاص الأعمال كلها لله، والنصح فيها، وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك فهو كاذب.

* ثم بين تعالى مآل الدنيا وأهلها، فقال:

﴿٥٨﴾ ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: وما من قرية من القرى الكافرة التي عصت أمر الله وكذبت رسله، إلا وسيهلكها الله قبل يوم القيامة، إما بالاستئصال الكلي أو بالعذاب الشديد لأهلها.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ كان ذلك حكماً مسطراً في اللوح المحفوظ لا يتغير، فليبادر المكذبون بالإنابة إلى الله وتصديق رسله قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب، ويحق عليهم القول.

* ثم يذكر تعالى رحمته بالعباد، بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المكذبون، قال تعالى:

﴿٥٩﴾ ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ المعنى: ما منعنا من إرسال المعجزات والخوارق التي اقترحها قومك إلا تكذيب من سبقهم من الأمم حيث اقترحوا ثم كذبوا فأهلكهم الله ودمرهم. قال المفسرون: اقترح المشركون على رسول الله ﷺ معجزات عظيمة منها أن يقلب

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ
وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا
ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ
فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ
قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى
كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ
مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ
فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى
ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

لهم الصفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال، فأخبره تعالى أنه إن أجابهم إلى ما طلبوا، ثم لم يؤمنوا استحقوا عذاب الاستئصال، وقد اقتضت حكمته تعالى إمهالهم لأنه علم أن منهم من يؤمن، وأن من أولادهم من يؤمن، فلهذا السبب ما أجابهم إلى ما طلبوا، عن ابن عباس أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم لعلنا نجتبي منهم، وإن شئت نعطيهم الذي سألوا فإن كفروا أهلكوا، فقال: «لا بل أستأني بهم»، فنزلت: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ...﴾ الآية.

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ وأعطينا ثمود قوم صالح الناقة آية بينة ومعجزة ساطعة واضحة، فكفروا بها، وجحدوا بعد أن سألوها، فأهلكهم الله، وهؤلاء كذلك، لو جاءتهم الآيات العظيمة لم يؤمنوا.

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ وما نرسل بالآيات الكونية كالزلازل والرعد والخسوف والكسوف إلا تخويفاً للعباد من المعاصي، وليس القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان الذي لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب ليرتدعوا عمّا هم عليه. قال قتادة: إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويرجعون.

* ثم يذكر ﷻ سعة علمه وإحاطته بالأشياء، فقال:

﴿٦٠﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ أي: واذكر - يا محمد - حين أخبرناك أن الله أحاط بالناس علماً في الماضي والحاضر والمستقبل، فهو تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالهم، وقد علم أنهم لن يؤمنوا ولو جئتهم بما طلبوا من الآيات والمعجزات.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ وما جعلنا الرؤية التي أريناكها عياناً ليلة الإسراء والمعراج من عجائب الأرض والسماء إلا امتحاناً وابتلاءً لأهل مكة، حيث كذبوا وكفروا وارتد بعض الناس لما أخبرهم بها. قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، وليست برؤيا منام.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: وما جعلنا الشجرة الملعونة التي ذكرت في القرآن، وهي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم إلا فتنة أيضاً للناس.

فإن الله ﷻ لما ذكر شجرة الزقوم في القرآن، قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمداً يخوفكم بشجر الزقوم، ألستم تعلمون أن النار تحرق الشجرة؟ ومحمد يزعم: أن النار تنبت الشجر، فهل تدرون ما الزقوم؟ هو التمر والزبد، يا جارية ابغينا تمراً وزبداً، فجاءته به فقال: تزقموا من هذا الذي يخوفكم به محمد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ أي: ونخوف هؤلاء المشركين بأنواع العذاب والآيات الزاجرة، فما يزيدهم تخويفنا إلا تمادياً وغيّاً واستمراراً على الكفر والضلال، فماذا تنفع معهم الخوارق؟ ما زادتهم خارقة الإسراء والمعراج، ولا خارقة التخويف بشجرة الزقوم إلا استهزاءً وإمعاناً في الضلال.

* ثم أشار تعالى إلى أن هذا الطغيان سببه إغواء الشيطان، ولهذا ذكر قصته عقب ذلك، ونبه - تبارك وتعالى - عباده على شدة عداوة الشيطان، وحرصه على إضلالهم، وأنه لما خلق الله آدم، استكبر عن السجود له، وقد ذكر الله ﷻ هذه القصة في سبعة مواضع في القرآن، فقال تعالى:

﴿٦١﴾، ﴿٦٢﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أي: اذكر - يا محمد - حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم، فسجدوا كلهم، إلا إبليس استكبر وأبى عن السجود، افتخاراً على آدم واحتقاراً له.

﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ استفهام إنكاري، أي: قال متكبراً: أأسجد وأنا العظيم الكبير لهذا الضعيف الحقير، الذي خلقته من الطين؟ وبزعمه أنه خير منه، لأنه خلق من نار، فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم:

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ أي: قال إبليس جراءة على الرب وكفراً به: أترى هذا المخلوق الذي فضلته عليَّ وجعلته أكرم مني عندك؟

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لئن أنظرتني وأبقيتني حيّاً إلى يوم القيامة، لأستأصلنهم ولأستميلنهم وأضلنهم إلا قليلاً منهم، عرف الخبيث أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويطيعه.

﴿٦٣﴾-﴿٦٥﴾ ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا * وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي: قال الله ﷻ: اذهب فقد أنظرتك وابذل جهدك فيهم فمن أطاعك من ذرية آدم واختارك على ربه ووليه الحق، فإن جزاءك وجزاءهم نار جهنم كاملاً وافراً لا ينقص لكم منه شيء، والأمر في ﴿ٱذْهَبْ﴾ أمر إهانة، والمعنى: اجهد جهدك فقد أنظرناك، ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم، فقال:

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ أي: استخفف واستجهل وحرك من أردت أن تستفزه فتخدعه بدعائك إلى الفساد، ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية. قال ابن عباس: صوته كل داع يدعو إلى معصية الله تعالى وقال مجاهد: صوته الغناء والمزامير واللهو.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي: صح عليهم بأعوانك وجنودك من كل راكب وراجل، ويدخل فيه كل راكب وماشي في معصية الله، فهو من خيل الشيطان ورجله، قال الطبري: المعنى اجمع عليهم من ركبانك جندك ومشاتهم من يصيح عليهم بالدعاء إلى طاعتك، والصرف عن طاعتي.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ أي: اجعل لنفسك شركة في أموالهم وأولادهم، أما الأموال فبكسبها من الحرام وإنفاقها في المعاصي، وأما الأولاد فبتحسين اختلاط الرجال بالنساء حتى يكثر الفجور ويكثر أولاد الزنى، وعدم تأديب الأولاد، وتربيتهم على الخير وترك الشر، بل ذكر كثير من المفسرين، أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد، ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع، وأنه إذا لم يسم الله في ذلك، شارك فيه الشيطان كما ورد فيه الحديث.

﴿وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وعدهم بالوعود المغرية الخادعة، والأماني الكاذبة، كالوعد بشفاعة الأصنام، والوعد بالغنى من المال الحرام، والوعد بالعفو والمغفرة وسعة رحمة الله، والوعد باللذة والسرور في ارتكاب الموبقات، وكل هذه الأماني لا حقيقة لها، بل باطلة مضمحلة كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة.

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد، وذكر ما يعتصم به من فتنته وهو عبودية الله، والقيام بالإيمان والتوكل، فقال:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: إن عبادي المؤمنين المخلصين

وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا
نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ
أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ
لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً
أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ
ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ
ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟
كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ
فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن
كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ
عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ
لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ
ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

٢٨٩

ليس لك عليهم تسلط بالإغواء لأنهم في حفظي وأماني، فالله ﷻ يدفع عنهم - بقيامهم بعبوديته - كل شر، ويحفظهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفايتهم، وفي إضافة العباد إليه إضافة تشريف.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ وكفى بالله تعالى عاصماً وحافظاً لعباده من كيد الشيطان وشره.

* ثم ذكر تعالى العباد بإحسانه ولطفه ونعمه عليهم، وبآثار قدرته ووحدانيته بما سخر لهم في الفلك والسفن والمراكب، وألهمهم كيفية صنعها، وسخر لها البحر المتلاطم، يحملها على ظهره، قال تعالى:

﴿٦٦﴾ ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ ربكم أيها الناس هو الذي يسير ويجري لكم السفن في البحر لتطلبوا من رزقه في أسفاركم وتجاراتكم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي: هو تعالى رحيم بالعباد، ولهذا سهل لهم أسباب ذلك، فإنه لم يزل بهم رحيماً رؤوفاً، يؤتيهم من كل ما تعلقت به إرادتهم ومنافعهم.

* ثم ذكر تعالى من رحمته الدالة على أنه وحده المعبود دون ما سواه، أنهم يدعونه في حال الشدة فينجيهم ويستجيب لهم، قال تعالى:

﴿٦٧﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: وإذا أصابتكم الشدة والكرب في البحر وخشيتم من الغرق، ذهب عن خاطركم من كنتم تعبدونه من الآلهة ولم تجدوا غير الله مغيثاً يغيثكم، فالإنسان في تلك الحالة لا يتضرع إلى الصنم والوثن، والملك والفلك، وإنما يتضرع إلى الله تعالى وحده لا شريك له.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: فلما نجاكم سبحانه من الغرق، وأخرجكم إلى البر، أعرضتم عن الإيمان والإخلاص كفراً منكم لنعمه.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ أي: ومن طبيعة الإنسان جحود نعم الرحمن، إلا من هدى الله.

* ثم خوفهم تعالى بقدرته العظيمة والإخلاص، فإن الإنسان يظن بجهله أنه قد أعجز الله، ولم يخطر بقلبه شيء من العواقب الدنيوية، فضلاً عن أمور الآخرة، ولهذا ذكرهم الله ذلك، بأن الهلاك لا يكون إلا في البحر فحسب، بل في غيره، قال تعالى:

﴿٦٨﴾ ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أي: أغفلتم أيها الناس حين نجوتم من الغرق في البحر أن يخسف الله بكم الأرض فيخفيكم في باطنها؟ إنكم في قبضة الله في كل لحظة، فكيف تأمنون بطش الله وانتقامه بزلزال أو رجفة أو بركان؟

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أو يمطركم بحجارة من السماء، تقتلكم كما فعل بقوم لوط، ثم لا تجدوا من يقوم بأموركم ويحفظكم من عذابه تعالى.

* ثم ذكر تعالى أنه قد يقوي دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا فتركبوا البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم؛ فينتقم منكم، قال تعالى:

﴿٦٩﴾ ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: يعيدكم في البحر مرة أخرى.

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ أي: يرسل عليكم وأنتم في البحر ريحاً شديدة مدمرة، لا تمر بشيء إلا كسرته ودمرته.

﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: يغرقكم بسبب كفركم.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ أي: لا تجدوا من يأخذ لكم بالثأر منا أو يطالبنا بتبعة إغراقكم، فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة.

* لما ذكر تعالى ما امتنَّ به على الناس من تسيير السفن في البحر، ومن تنجيتهم من الغرق، تمم ذكر المنَّة بما أنعم به على بني آدم من تكرمتهم، ورزقهم، وتفضيلهم على سائر المخلوقات، قال تعالى:

(٧٠) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي: لقد شرفنا ذرية آدم على جميع المخلوقات بالعقل، والعلم، والنطق، وتسخير جميع ما في الكون لهم، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: وحملناهم على ظهور الركاب، من الإبل والبغال، والحمير في البر، والمراكب البرية، والسفن والمراكب في البحر.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من لذيذ المطاعم والمشارب، فما من طيب تتعلق به حوائجهم، إلا وقد أكرمهم الله به، ويسره لهم غاية التيسير. قال مقاتل: السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى، وجعلنا من خلقنا رزق الحيوان التبن والعظام وغيرها.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ وفضلناهم على جميع من خلقنا من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات من الجن والبهائم والدواب والوحش والطير وغير ذلك تفضيلاً عظيماً؛ أفلا يقومون بشكر من أولى النعم ودفع النقم.

* ثم يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة، قال تعالى:

(٧١)، (٧٢) ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي: اذكر يوم الحشر حين ننادي كل إنسان بكتاب عمله ليسلم له وينال جزاءه، والإمام الكتاب الذي سجل فيه عمل الإنسان. قال ابن عباس: الإمام ما عمل وأملى فكتب عليه، فمن بعث متقياً لله جعل كتابه بيمينه فقرأه واستبشر.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي: فمن كان منهم صالحاً أعطي كتاب عمله بيمينه، فهم السعداء أولي البصائر والنهى المتقون لله، فكثرت حسنات، وقلت سيئات.

﴿فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ يقرؤون حسناتهم بفرح واستبشار وسرور لأنهم أخذوا كتبهم بأيمانهم.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا ينقصون من أجور أعمالهم شيئاً ولو كان بمقدار الفتيل، وهو الخيط الذي في شق النواة.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ﴾ ومن كان في الدنيا أعمى القلب، لا يهتدي إلى الحق ولا إلى الخير، ولم ينقد له، بل اتبع الضلال. ولم يذكر -جل وعلا- الدنيا ولم يسمها في الآية صراحة استهانة بها وتحقيراً لشأنها.

﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فهو في الآخرة أشد عمى وأشد ضلالاً، عن طريق السعادة والنجاة. وقيل: من كان في هذه الدنيا أعمى عما عاين من نعم الله وخلقه وعجائبه، فهو فيما يغيب عنه من أمر الآخرة أشد عمى وأضل طريقاً، وفي هذا زيادة العقوبة.

* ثم يذكر تعالى منته على رسوله محمد ﷺ وحفظه من أعدائه الحريصين على فتنة بكل طريق، قال تعالى:

(٧٣)-(٧٥) ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وإن كان الحال والشأن أن المشركين قاربوا أن يصرفوك عن الذي أوحيناه إليك - يا محمد - من بعض الأوامر والنواهي.

﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥ﴾ لتأتي بغير ما أوحاه الله إليك، وتخالف تعاليمه فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك.

﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ أي: لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك صاحباً وصديقاً وحبيباً. قال المفسرون: حاول المشركون محاولات كثيرة ليثنوا رسول الله ﷺ عن المضي في دعوته، منها: مساومتهم له أن يعبدوا إلهه مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم، ومنها: مساومة بعضهم أن يجعل أرضهم حراماً كالبيت العتيق الذي حرمه الله، ومنها: طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقر، فعصمه الله من شرهم وأخبر أنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره.

﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ ولولا أن ثبتناك على الحق بعصمتنا إياك وامتناننا عليك بعدم الإجابة لداعيهم.

﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ أي: لقاربت أن تميل إليهم وتسايرهم على ما طلبوا، من كثرة المعالجة، ورغبتك لهدايتهم.

وفي الآية دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه، وأنه ينبغي له أن لا يزال متلفًا لربه أن يثبته على الإيمان، ساعياً في كل سبب موصل إلى ذلك.

﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ أي: لو ركنت إليهم بما يهوون، لضاعفنا لك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، لأن الذنب من العظيم جرم كبير يستحق مضاعفة العذاب، ولكمال نعمة الله عليك، وكمال معرفتك، والغرض من الآية بيان فضل الله على الرسول في تثبيته على الحق، وعصمته من الفتنة، ولو تخلى عن عصمته لمال إليهم بعض الشيء و﴿وَلَوۡلَآ﴾ حرف امتناع لوجود؛ أي امتنع الركون إليهم لعصمته تعالى وتثبيته له، فليس في الآية ما ينقص من قدر الرسول ﷺ وإنما هي بيان لفضل الله العظيم على نبيه الكريم، وفي هذه الآيات، دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه، وأنه ينبغي له أن لا يزال متملقاً لربه، أن يثبته على الإيمان، ساعياً في كل سبب موصل إلى ذلك.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾ أي: لا تجد من ينصرك منا، أو يدفع عنك عذابنا، ولكن الله عصمك من أسباب الشر، ومن البشر، فثبتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه، فله عليك أتم نعمة وأبلغ منحة.

* ثم ذكر ﷻ شدة إيذاء المشركين للنبي ﷺ وبعض مكرهم وكيدهم، فقال تعالى:

(٧٦)، (٧٧) ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا * سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾.

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

٢٩٠

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ﴾ أي: وإن كاد المشركون بمكرهم وإزعاجهم، وشدة بغضهم لمقامك بين أظهرهم، قد كادوا أن يخرجوك - يا محمد - من أرض مكة ويجلوك عنها.

﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: لو أخرجوك لم يلبثوا بعد خروجك إلا زمناً يسيراً وفق سنة الله التي لا تتبدل مع الذين يخرجون رسلهم من أوطانهم. قال قتادة: هم أهل مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة ولو فعلوا ذلك ما أمهلوا، ولكن الله تعالى منعهم من إخراجه حتى أمره بالخروج.

﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾ أي: هذه عادة الله مع رسله في إهلاك كل أمة أخرجت رسولها من بين

أظهرهم، ولن تجد - يا محمد - لسنتنا تبديلاً أو تغييراً.

* لما ذكر تعالى الإلهيات والمعاد والجزاء، أردفها بذكر بما يعين على الصبر، وتحمل المشاق، وهي أشرف الطاعات، فقال:

﴿٧٨﴾، ﴿٧٩﴾ ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ أي: حافظ - يا محمد - على الصلاة في أوقاتها، من وقت زوال الشمس عند الظهيرة إلى وقت ظلمة الليل، فيدخل في ذلك صلاة الظهر، وصلاة العصر، وصلاة المغرب والعشاء. قال المفسرون: في الآية الكريمة إشارة إلى الصلوات المفروضة، فدلوك الشمس زوالها، وهو إشارة إلى الظهر والعصر، وغسق الليل ظلمته وهو إشارة إلى المغرب والعشاء، وقرآن الفجر صلاة الفجر، فالآية رمز إلى الصلوات الخمس.

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: وأقم صلاة الفجر، وإنما عبر عنها بقرآن الفجر لمشروعية إطالة القراءة فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة حيث يشهدها الله ﷻ، وملائكة الليل، وملائكة النهار.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: تشهده ملائكة الليل والنهار كما في الحديث: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر، وصلاة الفجر...» الحديث.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: وقم - يا محمد - من نومك بعض الليل، فاقرأ القرآن في صلاة الليل.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي: لعل ربك - يا محمد - يقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً، يحمدك فيه الأولون والآخرون، وهو مقام الشفاعة العظمى، قال المفسرون: ﴿عَسَىٰٓ﴾ في كلام الله للتحقيق؛ لأنه وعد كريم وهو لا يتخلف. قال ابن عباس: عسى من الله واجبة تفيد القطع.

﴿٨٠﴾-﴿٨٤﴾ ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا * وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا * وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا * وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا * قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي: اجعل مداخلي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك وذلك لتضمنها الإخلاص وموافقة الأمر. وقيل: المراد دخوله المدينة، وخروجه من مكة وذلك حين أخرجه المشركون بعد أن تآمروا على قتله ﷺ.

قال ابن القيم: هذه الدعوة من أنفع الدعاء للعبد، فإنه لا يزال داخلاً في أمر وخارجاً من أمر.

﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي﴾ قال ابن القيم: هذه الدعوة من أنفع الدعاء للعبد، فإنه لا يزال داخلاً في أمر، وخارجاً من أمر.

﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ أي: اجعل لي من عندك حجة ظاهرة، وقوة ومنعة، تنصرني بها على أعدائك وتعز بها دينك، وقد استجاب الله دعاءه فنصره على الأعداء، وأعلا دينه على سائر الأديان.

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ وقل - يا محمد - للمشركين سطع نور الحق وضياؤه وهو الإسلام، وهلك وذهب الباطل وأنصاره، وهو الكفر وعبادة الأصنام، فلا شرك ولا وثنية بعد إشراق نور الإيمان.

﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي: هذا وصف الباطل، وإن الباطل لا بقاء له ولا ثبوت؛ لأنه يضمحل ويتلاشى، وإن كانت له صوْلة وجوْلة فسرعان ما يضمحل، فلا يبقى له حراك، ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمنة والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبيناته، روي أن النبي ﷺ لما دخل مكة عام الفتح كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ فما بقي منهم صنم إلا خر لوجهه، ثم أمر بها فكسرت.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وننزل من آيات القرآن العظيم ما يشفي القلوب من أمراض الجهل والضلال والشك والنفاق، وما يشفي الأبدان برقيتها به، ويذهب صدأ النفس من الهوى والدنس، والشح والحسد، وما هو

إلا رحمة للمؤمنين بما فيه من الإيمان والحكمة والخير المبين.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ ولا يزيد هذا القرآن الكافرين به عند سماعه إلا هلاكاً ودماراً؛ لأنهم لا يصدقون به فيزدادون كفراً وضلالاً.

﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من هداه الله، فإن الإنسان ـ عند إنعام الله عليه ـ كالصحة والغنى يفرح بها، ويعرض وينأى بجانبه عن ربه، فلا يشكره ولا يذكره.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾ أي: وإذا أصابته الشدائد والمصائب كالمرض والفقر ونحوه، أصبح بائساً قانطاً من رحمة الله؛ لأنه لا يثق بفضل الله تعالى. والآية تمثيل لطغيان الإنسان فإن أصابته النعمة بطر وتكبر، وإن أصابته الشدة أيس وقنط.

﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قل ـ يا محمد ـ كل واحد من الناس يعمل على نهجه وطريقته في الهدى والضلال، وعلى ما يليق به من الأحوال، فإن كانت نفس الإنسان مشرقة صافية صدرت عنه أفعال كريمة فاضلة، وإن كانت نفسه فاجرة كافرة صدرت عنه أفعال سيئة شريرة.

﴿فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾ أي: ربكم أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه.

* ثم يرد ﷻ من يسأل المسائل، التي لا يقصد بها إلا التعنت والتعجيز، قال تعالى:

﴿٨٥﴾ ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أي: يسألك ـ يا محمد ـ الكفار عن الروح ما هي؟ وما حقيقتها؟ فقل لهم إنها من جملة مخلوقاته، وهي من الأسرار الخفية التي لا يعلمها إلا رب البرية.

قال ابن عيينة: إذا جاء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبر الله نبيه بالجواب، وأما إذا جاء: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يخبره الله بالجواب.

وقال ابن عثيمين: «كل الآيات التي فيها: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾ فهي تعني أن النبي ﷺ توقف حتى أنزل الله جواب السؤال».

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ وما اطلعتم أيها الناس من العلم إلا شيئاً قليلاً، لأن علمكم قليل بالنظر إلى علم الله. عن ابن عباس ﷺ قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل! فقالوا: سلوه عن الروح فأنزل الله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي...﴾ الآية.

* يخبر تعالى أن القرآن والوحي الذي أوحاه إلى رسوله، رحمة منه عليه وعلى عباده، هو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله، قال تعالى:

﴿٨٦﴾-﴿٨٩﴾ ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا * إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا * قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا * وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾.

﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أي: لو أردنا لمحونا هذا القرآن ـ الذي هو منّة الرحمن ـ من صدرك ـ يا محمد ـ فإن ذلك في قدرتنا.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾ أي: لا تجد لنفسك ناصراً يمنعنا من فعل ذلك أو يرد عليك القرآن.

﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: لكن رحمة من ربك تركناه محفوظاً في صدرك وصدر أصحابك.

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ٨٧ قُل
لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ
لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨
وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ
ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٨٩ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ
لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ
وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ
كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ
قَبِيلًا ٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ
وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ
سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ
أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا
رَّسُولٗا ٩٤ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ
لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ٩٥ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٩٦

٢٩١

﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ أي: فضل الله عليك عظيم حيث أنزل عليك القرآن، وأعطاك المقام المحمود. وجعلك خاتم المرسلين وسيد الأولين والآخرين، وغير ذلك مما لم يؤته أحداً من العالمين فلتغتبط به، وتقر به عينك، ولا يحزنك تكذيب المكذبين، واستهزاء الضالين، والمقصود بالآية الامتنان على الرسول بالقرآن والتحذير له عن التفريط فيه، والخطاب له ﷺ والمراد أمته.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي: لو اتفق واجتمع أرباب الفصاحة والبيان من الإنس والجان، وأرادوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن لما أطاقوا ذلك، ولو تعاونوا وتساعدوا على ذلك جميعاً، فإن هذا أمر لا يستطاع وليس بمقدور أحد؛ وهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول وصدقه، حيث تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بينا ونوعنا للناس في هذا القرآن، من الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق بالآيات والعبر، والترغيب والترهيب، لأجل أن يتذكروا ويتقوا.

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: ومع البراهين القائمة والحجج الواضحة أبى أكثر الناس إلا جحوداً للحق وإنكاراً لحجج الله وأدلته وتكذيباً لله ورسوله.

* لما ذكر تعالى القرآن وما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على صدق النبي الأمي، وتحداهم فظهر عجزهم بوضوح إعجازه، وتحدث عن البعث والنشور، والمعاد والجزاء، الذي كثر حوله الجدل، وأقام الأدلة والبراهين على إمكانه، تحدثت الآيات عن القرآن العظيم، معجزة محمد ﷺ الخالدة، وذكرت تعنت المشركين في اقتراحاتهم، حيث طلبوا معجزة أخرى غير القرآن، أن يفجر لهم الأنهار، ويجعل مكة حدائق وبساتين وغيرها من الخوارق الأخرى، قال تعالى:

﴿٩٠﴾-﴿٩٣﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ لما تبين إعجاز القرآن ولزمتهم الحجة وغلبوا، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات والخوارق، والمعنى: قال المشركون لن نصدقك ـ يا محمد ـ ونعمل بما تقول حتى تشقق لنا من أرض مكة عيناً غزيرة لا ينقطع منها الماء.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ أي: يكون لك بستان فيه أنواع النخيل والاعناب.

﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: تجعل الأنهار تتفجر فيها وتسير وسطها بقوة وغزارة فتستغني بها عن المشي في الأسواق والذهاب والمجيء. عن ابن عباس أن رؤساء قريش اجتمعوا عند الكعبة فقالوا: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه إن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فجاءهم سريعاً ـ وكان حريصاً على رشدهم ـ فقالوا: ـ يا محمد ـ: إنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فإن كنت إنما جئت بهذا لتطلب مالاً جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً ـ أي تابعاً من الجن ـ بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك، فقال رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً؛ فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»، فقالوا: ـ يا محمد ـ إن كنت غير قابل منا ما عرضنا فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً، ولا أشد عيشاً منا، فسل ربك يسير لنا هذه الجبال ويجري لنا أنهاراً، يبعث من مضى من آبائنا حتى نسألهم أحق ما تقول؟ وسله أن يجعل لك جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة تغنيك عنا فأنزل الله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن

نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنبُوعًا...﴾ الآية.

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ هذا هو الاقتراح الثالث، أي: تجعل السماء تتساقط علينا قطعاً من العذاب كما كنت تخوفنا، وتزعم أن الله سيعذبنا إن لم نؤمن بك. قال المفسرون: أشاروا إلى قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩].

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي: تحضر لنا الله وملائكته مقابلة وعياناً فنراهم، يشهدون لك بما جئت به.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: يكون لك قصر مشيد عظيم من ذهب، لا من حجر أو طين.

﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ هذا هو الاقتراح السادس والأخير، وكلها تدل على سفه وجهل كبير بسنة الله في خلقه وبحكمته وجلاله، أي: أو تصعد -يا محمد- إلى السماء بسلم ولن نصدقك لمجرد صعودك، حتى تعود ومعك كتاب من الله تعالى منشور أنك عبده ورسوله نقرؤه بأنفسنا، ولما كانت هذه تعنتات وتعجيزات، وكلام أسفه الناس وأظلمهم، المتضمنة لرد الحق وسوء الأدب مع الله، وإن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات، أمره الله أن ينزهه، فقال:

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ قل لهم -يا محمد- تعجباً من فرط كفرهم وعنادهم: سبحان الله هل أنا إله حتى تطلبوا مني أمثال هذه المقترحات؟ ما أنا إلا رسول من البشر بعثني الله إليكم، ليس بيدي شيء من الأمور، فلم هذا الجحود والعناد.

* ثم حكى سبحانه عن المعاندين شبهة أخرى قد تكرر في الكتاب العزيز التعرّض لإيرادها، وردها في غير موضع، فقال:

﴿٩٤﴾، ﴿٩٥﴾ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي: إن السبب الذي منع المشركين من الإيمان بعد وضوح المعجزات هو استبعاد أن يبعث الله رسولاً إلى الخلق من البشر، فلماذا يكون بشراً ولا يكون ملكاً؟ وقد رد تعالى عليهم بقوله:

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: قل لهم -يا محمد-: لو كان أهل الأرض ملائكة يمشون على أقدامهم كما يمشي الناس ساكنين في الأرض مستقرين فيها.

﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ أي: لنزلنا عليهم رسولاً من الملائكة ليمكنهم التلقي عنه، ولكن أهل الأرض بشر؛ فالرسول إليهم بشر من جنسهم، إذ جرت حكمة الله أن يرسل إلى كل قوم رسولاً من جنسهم ليمكنهم الفهم عنه ومخاطبته، وهذا تسفيه وتجهيل لمنطق المشركين.

* يقول تعالى مرشداً نبيه ﷺ إلى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به:

﴿٩٦﴾ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: كفى الله شاهداً بيني وبينكم على صدقي وحقيقة نبوتي.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي: هو تعالى العالم بأحوال العباد، بصير بأعمالهم، وسيجازيهم عليها.

* ثم يخبر ﷻ أنه المتفرد بالهداية والإضلال، وأنه لا معقب له في حكمه، قال تعالى:

﴿٩٧﴾ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أي: من يهده الله إلى الحق فهو السعيد الرشيد.

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ ومن يضلله الله ويخذله ويصرفه عن الحق بسبب سوء اختياره، فلن تجد لهم أنصاراً يعصمونهم من عذاب الله.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: وهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم، تجرهم الزبانية من أرجلهم إلى جهنم، كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه.

﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ أي: يحشرون حال كونهم عمياً وبكماً وصماً، يعني فاقدي الحواس، لا يرون،

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ
مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا
وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا
وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾
قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ
ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ
إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ
هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ
يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

٢٩٢

ولا ينطقون، ولا يسمعون، ثم يرد الله إليهم أسماعهم وأبصارهم ونطقهم فيرون النار ويسمعون زفيرها، وينطقون بما حكى الله عنهم، عن أنس قيل يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم» [رواه الترمذي].

﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ **أي: مستقرهم ومقامهم ودارهم في جهنم، كلما سكن لهبها وخمدت نارها، زدناهم ناراً ملتهبة ووهجاً وجمراً.**

*** ثم ذكر تعالى هذا الذي وصف من العذاب إنما هو عقاب للمشركين، على كفرهم وتكذيبهم، قال تعالى:**

(٩٨)، (٩٩) ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ **أي: ذلك العذاب الذي أوجبه الله لهم واستحقوه عنده، بسبب كفرهم بآيات الله، وتكذيبهم بالبعث والنشور، وقولهم استنكاراً - إذا أمروا بالتصديق بالبعث - أئذا متنا وصرنا عظاما نخرة، وذرات متفتتة سنخلق ونبعث مرة ثانية؟ لا يكون هذا لأنه في غاية البعد عند عقولهم الفاسدة. وقد رد تعالى عليهم بقوله:**

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ **أي: أولم يعلم هؤلاء المشركون أن الله العظيم الجليل الذي خلق هذا الكون الهائل بسمواته وأرضه قادر على إعادة جسد الإنسان بعد فنائه؟ فإن القادر على الإحياء، قادر على الإعادة بطريق الأحرى، نبههم تعالى على عظيم قدرته وباهر حكمته بقوله:** ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ **وهو استفهام إنكار وتوبيخ على استبعادهم الإعادة، واحتجاج عليهم بأنهم قد رأوا قدرة الله على خلق هذه الأجرام العظيمة التي بعض ما تحويه البشر، فكيف يقرون بخلق هذا المخلوق العظيم ثم ينكرون إعادته.**

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ **أي: جعل لهؤلاء المشركين موعداً محدداً لموتهم وبعثهم، لا شك ولا ريب في مجيئه، فأبى هؤلاء الكافرون الظالمون - مع وضوح الحق وسطوعه - إلا جحوداً وتمادياً في الكفر والضلال.**

*** ثم بين ﷻ أن الكافرين لا يقنعون، بل يقولون على بخلهم وشحهم، فقال:**

(١٠٠) ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ **قل - يا محمد - لهؤلاء المعاندين المكابرين، المقترحين للخوارق والمعجزات: لو كنتم تملكون خزائن رزق الله وسائر نعمه التي أفاضها على العباد التي لا تنفد ولا تبيد.**

﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ **إذا لبخلتم به وامتنعتم على الإنفاق خوفاً من نفادها.**

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ **وكان الإنسان شحيحاً مبالغاً في البخل، إلا من عصم الله بالإيمان. قال ابن عباس:** ﴿قَتُورًا﴾ **أي بخيلاً منوعاً.**

*** ثم قال تعالى مسلياً ومواسياً نبيه محمداً ﷺ لست أول رسول كذبه الناس، فقد أرسلنا قبلك موسى بن عمران كليم الله إلى فرعون وقومه، بالآيات الباهرات فكذبوه، فإن كثرة الخوارق لا تنشئ الإيمان في القلوب الجاحدة، وها هو ذا موسى قد أوتي تسع آيات بينات ثم كذب بها فرعون وملؤه فحل بهم الهلاك جميعاً، قال تعالى:**

﴿١٠١﴾-﴿١٠٤﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا * فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا * وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ أي: والله لقد أعطينا موسى تسع معجزات واضحات الدلالة على نبوته وصحة ما جاء به من عند الله، وهي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وانفلاق البحر، والسنين، كل واحدة منها تكفي لمن قصده اتباع الحق، فإن شككت في شي من ذلك.

﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ فاسأل ـ يا محمد ـ بني إسرائيل عما جرى بين موسى وفرعون فإنهم يعلمونها مما لديهم في التوراة، وفي هذا يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ما ذكره الرسول، فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد. ومع هذه الآيات الباهرات التي أتى بها موسى عليه السلام:

﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ أي: إني لأظنك يا موسى قد سحرت فتخبط عقلك بما تأتيه من غرائب الأفعال.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ أي: فرد عليه موسى توبيخاً وتبكيتاً: لقد تيقنت يا فرعون أن هذه الآيات التسع ما أنزلها إلا رب السموات والأرض، فهي دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته، وهي شاهدة على صدقي، تبصر الناس بقدرة الله وعظمته لكنك مكابر معاند.

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ وإني لأعتقدك يا فرعون هالكاً خاسراً، ملقى في العذاب، لك الويل والذم واللعنة.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أراد فرعون أن يخرج موسى وقومه بني إسرائيل من أرض مصر، أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال.

﴿فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي: فأغرقنا فرعون وجنده أجمعين في البحر، وأورث تعالى بني إسرائيل أرضهم وديارهم، ولهذا قال:

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ وقلنا لبني إسرائيل من بعد إغراق فرعون وجنده، اسكنوا أرض الشام.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ فإذا جاء يوم القيامة جئنا بكم من قبوركم إلى المحشر مختلطين؛ فيكم المؤمن والكافر، والبر والفاجر، ثم نفصل بينكم ونميز السعداء من الأشقياء.

* ثم عادت الآيات إلى تعظيم حال القرآن وجلالة قدره، فقال تعالى:

﴿١٠٥﴾، ﴿١٠٦﴾ ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا﴾.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: وأنزلنا هذا القرآن على محمد ﷺ متلبساً بالحق، لا يعتريه شك أو ريب، فيه الحكم والمواعظ والأمثال التي اشتمل عليها القرآن، وهكذا أنزل من عند الله.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: وما أرسلناك ـ يا محمد ـ إلا مبشراً بالجنة لمن أطاع، ومنذراً بالنار لمن عصى وكفر.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ وقرآناً نزلناه عليك ـ يا محمد ـ مفرقاً منجماً، فارقاً بين الهدى والضلال، والحق والباطل، لتقرأه على الناس على تؤدة ومهل، ليكون حفظه أسهل، والوقوف على دقائقه أيسر، فيتدبروه ويتفكروا في معانيه ويستخرجوا علومه.

﴿وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا﴾ أي: نزلناه شيئاً بعد شيء على حسب الحوادث ومقتضيات الأحوال والمصالح، مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة.

* ثم ذكر ﷻ أنه إذا تبين أن هذا القرآن الحق الذي لا شك فيه ولا ريب، بوجه من الوجوه.

﴿١٠٧﴾-﴿١٠٩﴾ ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾.

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ خطاب للمشركين الذين اقترحوا المعجزات على وجه التهديد والوعيد، أي: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المكذبين آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً، وتكذيبكم

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾
وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾
قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ
وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ
خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ
بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن
لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

سُورَةُ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ
﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾
مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

٢٩٣

له لا يورثه نقصاً، وإنما ضرره عليكم، فإن لله عباداً غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ **أي: إن العلماء الذين قرؤوا الكتب السالفة كالتوراة من صالحي أهل الكتاب إذا سمعوا القرآن تأثروا به غاية التأثر فخروا ساجدين لله رب العالمين، والجملة تعليل لما تقدم؛ والمعنى: إن لم تؤمنوا به أنتم فقد آمن به من هو خير منكم وأعلم.**

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ **أي: يقول هؤلاء الذين أوتوا العلم عند سماع القرآن، تنزه الله عن إخلاف وعده، إنه كان وعده كائناً لا محالة.**

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ **أي: ويخرون لناحية الأذقان ساجدين على وجوههم، باكين عند استماع القرآن، ويزيدهم تواضعاً لله. والفائدة في هذا التكرير اختلاف الحالين وهو خرورهم للسجود، وفي حال كونهم باكين عند استماع القرآن.**

*** ثم ختمت السورة بكيفية الدعاء والخشوع، وبتنزيه الله عن الشريك والولد، وعن صفات النقص، قال تعالى:**

﴿١١٠﴾، ﴿١١١﴾ ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ **أي: نادوا ربكم الجليل باسم ﴿اللَّهَ﴾ أو باسم ﴿الرَّحْمَٰنَ﴾.**

﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ **أي: بأي هذين الاسمين ناديتموه فكله حسن، فإنكم تدعون رباً واحداً؛ لأن أسماءه جميعها حسنى وهذان منها. قال المفسرون: سببها أن الكفار سمعوا النبي ﷺ يدعو: «يا الله، يا رحمن» فقالوا: إن كان محمد ليأمرنا بدعاء إله واحد وهاهو يدعو إلهين، فنزلت الآية مبينة أنهما لمسمى واحد.**

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ **ولا تجهر ـ يا محمد ـ بقراءتك في الصلاة فيسمعك المشركون فيسبوا القرآن ومن أنزله، ولا تسرَّ بقراءتك بحيث لا تسمع من خلفك. عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ مختفيًّا بمكة، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله ﷻ لنبيه: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.**

﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ **أي: اقصد طريقاً وسطاً بين الجهر والمخافتة.**

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ **وقل ـ يا محمد ـ الحمد لله الذي تنزه عن الولد؛ له الكمال والثناء، والحمد والمجد من جميع الوجوه، المنزه عن كل آفة ونقص.**

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ **أي: ليس له شريك في ألوهيته، بل الملك كله لله الواحد القهار.**

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ **أي: ليس بذليل فيحتاج إلى الولي والنصير؛ فهو الغني القوي، وهم الفقراء المحتاجون إليه.**

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ **أي: عظم ربك عظمة تامة، واذكره بصفات العز والجلال، والعظمة والكمال، وعظمه تعظيماً تاماً بالثناء عليه وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له.**

في قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ **أبلغ لفظه للعرب في معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر».**

وختمت السورة كما بدأت بحمد الله وتقرير وحدانيته بلا ولد ولا شريك، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولي والنصير، وهو العلي الكبير.

تم تفسير سورة الإسراء

والحمد لله

عقد الجمان في تفسير القرآن

المجلد الثاني

د. عبد الملك القاسم

دار القاسم

تفسير سورة الكهف
وهي مكية

* سورة الكهف من السور المكية، وهي إحدى سور خمس بدئت بـ «الحمد لله» وهذه السور هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، وكلها تبتدئ بتمجيد الله ـ جل وعلا ـ وتقديسه، والاعتراف له بالعظمة والكبرياء، والجلال والكمال، وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة منها: قول النبي ﷺ: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين» [رواه النسائي في الكبرى].

ومنها قوله ﷺ: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال»، وفي رواية: «من آخر سورة الكهف» [رواه مسلم].

وسميت «سورة الكهف» لما فيها من المعجزة الربانية في تلك القصة العجيبة الغريبة، قصة أصحاب الكهف. ولاحظ بعض العلماء أن أفعال الحركة والسعي في السورة كثيرة، وتستفاد من «فانطلقا، فآووا، قاموا، فقالوا، فابعثوا، ابنوا، بلغا، جاوزا، فوجدوا، أتنا» وكأن المعنى أن المطلوب من الناس السعي في الأرض لأنها تعصم من الفتن، ولهذا قال ذو القرنين ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: دعاهم إلى الحركة والمساعدة.

قال ابن تيمية: قصة ذي القرنين أحسن قصص الملوك، وقصة أهل الكهف أحسن قصص أولياء الله الذين كانوا في زمن الفترة.

وفي السورة ثلاثة أمثلة واقعية، لبيان أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان، وإنما هو مرتبط بالعقيدة، المثل الأول: للغني المزهو بماله، والفقير المعتز بعقيدته وإيمانه، في قصة أصحاب الجنتين. والثاني: للحياة وما يلحقها من فناء وزوال، والثالث: مثل التكبر والغرور مصوراً في حادثة امتناع إبليس عن السجود لآدم، وما ناله من الطرد والحرمان، وكل هذه القصص والأمثال بقصد العظة والاعتبار. وفي أوائل السورة يحمد تعالى نفسه المقدسة، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٥﴾ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا * مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: الثناء الكامل مع التعظيم والإجلال لله الذي تفضل فأنزل على رسوله محمد القرآن العظيم نعمة عليه وعلى سائر الخلق إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، وفيه وصف الرسول ﷺ بمقام العبودية، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم. وإنزال الكتب عليهم الذي هو سبب نجاتهم، ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين:

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ أي: جعله كتاباً مستقيماً، ولم يجعل فيه شيئاً من الزيغ أو العوج، أو الميل، لا في ألفاظه، ولا في معانيه.

﴿قَيِّمًا﴾ أي: جعله الله كتاباً بيناً جليّاً، مستقيماً لا اختلاف فيه ولا عيب ولا تناقض. وقد جمع تعالى لهذا الكتاب بين نفي العوج، وإثبات الاستقامة.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: لينذر بهذا القرآن، الكافرين عذاباً شديداً من عنده تعالى، وهذا يشمل عقاب الدنيا، وعقاب الآخرة، وهذا أيضاً من نعمه، أن خوف عباده، وأنذرهم ما يضرهم ويهلكهم.

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي: وأنزل الله على عبده الكتاب ليبشر المصدقين به الذين كمل إيمانهم، فأوجب لهم عمل الصالحات، وهي الأعمال الصالحة

مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ
أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ
عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ٦ إِنَّا
جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ٨ أَمْ حَسِبْتَ
أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ٩
إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ
رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ
فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ
ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ١٢ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم
بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ١٣
وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ١٤
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم
بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ١٥

من واجب ومستحب التي جمعت الإخلاص والمتابعة، وفق ما شرعه الله ﷻ ورسوله ﷺ.

﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الثواب الذي رتبه الله على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمه وأجله أن لهم الجنة، وما فيها من النعيم المقيم.

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: مقيمين في ذلك الثواب والنعيم الذي لا انتهاء له ولا انقضاء، لا يزول عنهم، ولا يزولون عنه، ولا يفارقونه أبداً.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ أي: ويخوف أولئك الكافرين من اليهود والنصارى والمشركين ـ الذين نسبوا لله الولد ـ عذابه الأليم، وخصهم بالذكر وكرر الإنذار استعظاماً لكفرهم، وإنما لم يذكر المنذر به استغناء بتقدم ذكره.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بالولد أو باتخاذه، وما لهم بذلك الافتراء الشنيع شيء من العلم أصلاً، بل قالوه عن جهل.

﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ أي: ولا لأسلافهم الذين قلدوهم شيء من العلم، فتاهوا جميعاً في بيداء الجهالة والضلالة.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: عظمت تلك المقالة الشنيعة، التي ظهرت من أفواه أولئك المجرمين واشتدت عقوبتها، وهي في غاية الفساد والبطلان، وليس لها مستند سوى قولهم.

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي: ما يقولون ذلك إلا سفهاً، وزوراً وكذباً محضاً ما فيه من الصدق شيء.

* ولما كان النبي ﷺ حريصاً على هداية الخلق، ساعياً في ذلك أعظم السعي، فكان يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين شفقة منه ﷺ، ورحمة بهم، أرشده تعالى أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، ومسلياً لرسوله ﷺ في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، فقال تعالى:

(٦-٨) ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي: فلعلك قاتل نفسك ـ يا محمد ـ ومهلكها غماً وأسفاً وحزناً على فراقهم، وتوليهم وإعراضهم عن الإيمان.

﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ أي: إن لم يؤمنوا ويصدقوا بهذا القرآن حسرة وأسفاً عليهم، فما يستحق هؤلاء أن تحزن وتأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، والآية تسلية للنبي ﷺ.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ أي: جعلنا ما عليها من مشارب، ومساكن طيبة، وأشجار وأنهار، وزخارف ورياش، ومتاع وذهب وفضة، وأصوات شجية، وصور مليحة وغيرها، زينة للأرض ولأهلها، كما زينا السماء بالكواكب، وهي فتنة واختبار.

﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: لنختبر الخلق ونمتحنهم، أيهم أطوع لله وأحسن، وأصلح عملاً لآخرته. وأحسن العمل: أخلصه وأصوبه. ثم زهد في الدنيا وعدم الميل إليها، وأخبر بزوالها وفنائها وخرابها بقوله:

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي: سنجعل ما عليها من الزينة والنعيم حطاماً وركاماً، وتراباً لا نبات فيه، حتى تصبح كالأرض الجرداء التي لا نبات فيها ولا حياة بعد أن كانت

خضراء ذات بهجة. والآية وردت لتسلية النبي ﷺ، والمعنى: لا تهتم - يا محمد - للدنيا وأهلها فإنا إنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلها، فمنهم من يتدبر ويؤمن، ومنهم من يكفر، ثم إن يوم القيامة بين أيديهم، فلا يعظمن عليك كفرهم فإنا سنجازيهم.

* ثم يذكر ﷻ قصة «أصحاب الكهف» وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة، وهم الفتية المؤمنون الذين خرجوا من بلادهم فراراً بدينهم، ولجؤوا إلى غار في الجبل، ثم مكثوا فيه نياماً ثلاثمائة وتسع سنين، ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة، وفي ذلك من آيات الله وقدرته الأمر الباهر، قال تعالى:

٩-١٢ ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ هذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي، أي: لا تظنن - يا محمد - أن قصة أهل الكهف - على غرابتها - هي أعجب آيات الله، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف، فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على وحدانية الله ﷻ، وعلى قدرته تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء. قال مجاهد: أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا؟ قد كان في آياتنا ما هو أعجب منهم، وهذه بداية قصة أصحاب الكهف. وهو المتسع في الجبل. والرقيم: هو اللوح الذي كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وبدأت الآيات في ذكر سياق القصة، فقال تعالى:

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي: اذكر حين التجأ الشباب إلى الغار في جبل «مخلوس»، وجعلوه مأواهم ليختفوا عن قومهم، يريدون التحصن والتحرير من فتنة قومهم لهم وإرغامهم على عبادة الأصنام.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ قال السعدي: «في هذا دليل على أن من حرص على العافية عافاه الله، ومن أوى إلى الله آواه الله، وجعله هداية لغيره».

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ فقالوا حين دخلوا سائلين الله رحمته ولطفه، أعطنا من خزائن رحمتك الخاصة مغفرة، ورزقاً، وتثبيتاً، وتوفيقاً للخير وحفظاً من الشر، والأمن من الأعداء.

﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: أصلح لنا أمرنا كله ويسره لنا، واجعلنا من الراشدين المهتدين، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم وقيض لهم ما لم يكن في حسابهم، فقال:

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي: ألقينا عليهم النوم في الغار حين دخلوه، فناموا سنين كثيرة وهي ثلاث مئة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور، حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم، وليكون آية بينة.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ قال ابن عاشور: «الضرب على الآذان كناية عن الإنامة، وهذه الكناية من خصائص القرآن لم تكن معروفة قبل هذه الآية وهي من الإعجاز.

وقال الدميري: «هذا من فصاحات القرآن التي أقرت العرب القصور عن الإتيان بمثله».

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ ثم أيقظناهم من بعد نومهم الطويل، لنرى أيَّ الفريقين من أصحاب الكهف، أدق إحصاءً للمدة التي ناموها في الكهف؟ قال بعضهم: يوماً أو بعض يوم، وقال آخرون: ربكم أعلم بما لبثتم.

* ثم شرع ﷻ في ذكر تفصيل قصتهم، وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق، الذي لا شك فيه ولا شبهة بوجه من الوجوه، فقال:

١٣-١٦ ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا * هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا * وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا

وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ
يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا
﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ
ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ
مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن
يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا
وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم
بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ
لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا
يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟
أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ
طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ **نحن نقص عليك ـ يا محمد ـ خبر أصحاب الكهف العجيب، على وجه الصدق دون زيادة ولا نقصان، ثم بدأ يذكر ذلك، بقوله تعالى:**

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ **أي: إنهم جماعة من الشباب، آمنوا بالله، فثبتناهم على الدين، وزدناهم يقيناً. وفتية من جموع القلة، يدل ذلك على أنهم دون العشرة، وذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين عتوا وانغمسوا في دين الباطل.**

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ **أي: قوينا قلوبهم بالإيمان، وشددنا عزيمتهم به، وألهمناهم الصبر حتى أصبحت قلوبهم ثابتة، راسخة، مطمئنة إلى الحق، معتزة بالإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش والسعادة والنعمة، وفروا بدينهم إلى الكهف.**

﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **أي: حين قاموا بين يدي الملك الكافر الجبار من غير مبالاة، وهو يلومهم على ترك عبادة الأصنام، فقالوا له مفتخرين: ربنا هو خالق السموات والأرض، لا ما تدعونا إليه من عبادة الأوثان والأصنام التي لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك نفعاً ولا ضرّاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فاستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية، ولهذا قالوا:**

﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ **أي: لن نشرك معه غيره، فهو واحد بلا شريك.**

﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ **أي: لئن عبدنا غير الله ﷻ نكون قد تجاوزنا الحق، وحدنا عن الصواب، وأفرطنا في الظلم والضلال.**

ولما ذكروا ما منّ الله به عليهم من الإيمان والهدى، التفتوا إلى ما كان عليه قومهم من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وقالوا:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ **أي: قال بعضهم لبعض: هؤلاء أهل بلدنا وقومنا عبدوا الأصنام من دون الله تقليداً من غير حجة.**

﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ **أي: هلا يأتون على عبادتهم لها بحجة وبرهان ظاهر، والغرض من التحضيض ﴿لَّوْلَا﴾ التعجيز، كأنهم قالوا إنهم لا يستطيعون أن يأتوا بحجة ظاهرة على عبادتهم للأصنام ـ وهذا محال ـ فهم إذاً كذبة على الله.**

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ **استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك إليه والولد. ثم قال بعضهم لبعض:**

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ **خطاب من بعضهم لبعض حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم، أي: وإذ فارقتم وخالفتم أيها الفتية قومكم وما يعبدون من الأوثان غير الله تعالى، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم.**

﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ **أي: التجؤوا إلى الكهف واختفوا فيه لعبادة ربكم وحده.**

﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ **ويبسط ربكم ويوسع عليكم من رزقه ورحمته ما يستركم به في الدارين.**

﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ **أي: يسهل عليكم أسباب الرزق، وما تنتفعون به من أسباب العيش، والحفظ والصيانة في هذا الغار.**

* فكان من حفظهم وصيانتهم ما قصه الله ﷻ عن المحل الذي ناموا فيه، فقال:

(١٧) ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: ترى أيها المخاطب الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم جهة اليمين ولا يقع شعاعها، وهذا فيه دليل على أن باب الكهف كان من نحو الشمال. وفيها أن الله ﷻ يسخر المخلوقات لعباده الصالحين.

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ وإذا غربت تقطعهم وتعدل عنهم جهة الشمال، والغرض أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ولا عند غروبها، كرامة لهم من الله لئلا تؤذيهم بحرها فتفسد أبدانهم بها.

﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في متسع من الكهف وفي وسطه، بحيث لا تصيبهم الشمس لا في ابتداء النهار، ولا في آخره، وليطرقهم الهواء والنسيم، فلا تؤذيهم حرارة الشمس، ولا ينقطع عنهم الهواء.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: ذلك الصنيع الذي فعلناه بهؤلاء الفتية وأرشدناهم إليه، من دلائل قدرة الله الباهرة التي يُعتبر بها، فلو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم، ولو أنهم لا يتقلبون لأكلتهم الأرض.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أي: من يوفقه الله للإيمان ويرشده إلى طريق السعادة، فهو المهتدي والموفق حقاً.

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ ومن يضلله الله بسوء عمله، فلن تجد له من يهديه ويتولاه ويدبره؛ لأن التوفيق والخذلان بيد الله وحده.

* ثم ذكر الله حالهم وهم في الكهف نائمين، فقال تعالى:

(١٨) ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي: لو رأيتهم أيها الناظر لظننتهم أيقاظاً لتفتح عيونهم وتقلبهم، والحال أنهم نيام. ذكر بعض العلماء أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم، لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة كان أبقى لها.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: ومن عنايتنا بهم، نقلبهم من جانب إلى جانب. قال بعض السلف: يقلبون في العام مرتين، ولو لم يقلبوا لأكلت الأرض أجسامهم.

﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ وكلبهم الذي صاحبهم، مادٌّ يديه بفناء الكهف كأنه يحرسهم، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته.

قال ابن كثير: «وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد» كأن جلوسه خارج الباب لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب».

ولما ذكر حفظهم في الأرض، ذكر حفظهم من الآدميين، فأخبر أنه حماهم بالرعب الذي نشره الله عليهم، قال تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي: لو شاهدتهم - يا محمد - وهم على تلك الحالة، لفررت منهم هارباً رعباً منهم، وذلك لما ألقى الله عليهم الهيبة، فرؤيتهم تثير الرعب حتى لا يصل إليهم أحد ولا تمسهم يد لامس، إذ يراهم الناظر نياماً كالأيقاظ، يتقلبون ولا يستيقظون، وكل هذه الأسباب مجتمعة جعلها الله سبباً، فلم يعثر عليهم أحد، مع قربهم من المدينة، والدليل أنهم لما استيقظوا أرسلوا أحدهم يشتري لهم طعاماً من المدينة، وبقوا في انتظاره.

* ثم ذكر ﷻ أنه بعد أن أنامهم وحفظهم ورعاهم هذه المدة الطويلة، أيقظهم من نومهم على هيئتهم دون تغير، قال تعالى:

(١٩)، (٢٠) ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۞ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ أي: كما أنمناهم في الكهف، تلك النومة، كذلك أيقظناهم من النوم، وبعثناهم بعد تلك الرقدة الطويلة التي تشبه الموت، ليسأل

وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ
ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ
أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ
رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ
رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ
أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ
ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ
إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ
إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا
﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا
﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ
فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ
رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾

بعضهم بعضاً عن مدة مكثهم وإقامتهم في الغار، وكأنه وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم، فلهذا:

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ أي: قال أحدهم: كم مكثنا في هذا الكهف؟ وذلك أنهم استنكروا طول نومهم فقالوا: مكثنا فيه يوماً أو بعض اليوم. قال المفسرون: إنهم دخلوا في الكهف صباحاً وبعثهم الله في آخر النهار فلما استيقظوا ظنوا أن الشمس قد غربت، فقالوا لبثنا يوماً، ثم رأوها لم تغرب فقالوا أو بعض يوم، وما دروا أنهم ناموا ثلاثمائة وتسع سنين.

﴿قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾ أي: ثم فوضوا علم ذلك لله، قال بعضهم: الله أعلم بمدة إقامتنا ولا طائل وراء البحث عنها، فخذوا بما هو أهم وأنفع لكم، وهو احتياجكم إلى الطعام والشراب.

﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾ أي: فأرسلوا واحداً منكم إلى المدينة بهذه النقود الفضية، فليختر لنا أحل الطعام وأطيبه، أو أكثره وأرخصه، فليشتر لنا منه قوتاً وطعاماً تأكلونه.

﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ أي: وليترفق في دخول المدينة وخروجه منها، وشراء الطعام حتى لا يشعر ولا يعرف، ولا يعلمن بأمرنا أحد، وذكروا المحذور من اطلاع قومهم عليهم، وهما:

﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾ أي: إن يظفروا بكم، ويعرفوا مكانكم، يقتلوكم بالحجارة، أو يردوكم إلى دينهم الباطل فتصيروا كفاراً.

﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ أي: وإن عدتم إلى دينهم ووافقتموهم على كفرهم فلن تفوزوا بخير أبداً. وهكذا يتناجى الفتية فيما بينهم خائفين حذرين أن يظهر عليهم الملك الجبار فيقتلهم أو يردهم إلى عبادة الأوثان، فيوصون صاحبهم بالتلطف بالدخول والخروج والذهاب والإياب، وليختف كل ما يقدر عليه، مع أخذ الحيطة والحذر.

*** ثم يخبر ﷻ، أنه كما أنامهم سنين كثيرة، وأيقظهم بقدرته بعد ذلك، أطلع الناس على حال أهل الكهف بعد أن كشف البائع نوع الدراهم التي جاء بها مبعوثهم، فقال تعالى:**

﴿٢١﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ أي: وكما أنمناهم وبعثناهم من نومهم، لما في ذلك من الحكمة، كذلك أطلعنا الناس عليهم ليستدلوا بذلك على صحة البعث، ويوقنوا أن القيامة لا شك ولا ريب فيها، فتكون قصة أصحاب الكهف حجة واضحة ودلالة قاطعة على إمكان البعث والنشور، فإن القادر على بعث أهل الكهف بعد نومهم ثلاثمائة عام قادر على بعث الخلق بعد مماتهم.

﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ﴾ أي: حين تنازع القوم في أمر الكهف بعد أن اطلعهم الله عليهم، وانكشف أمرهم، ثم قبض أرواحهم.

﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ﴾ أي: قال بعض الناس: ابنوا على باب كهفهم بنياناً ليكون علماً عليهم، واتركوهم وشأنهم.

﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ﴾ أي: الله أعلم بحالهم وشأنهم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ أي: قال

الفريق الآخر وهم الأكثرية الغالبة وأصحاب الكلمة والنفوذ: لنتخذن على باب الكهف مسجداً نصلي فيه ونعبد الله فيه، ونذكر أحوالهم وما هم فيه من العبادة، فجعل اتخاذ القبور على المساجد من فعل أهل الغلبة على الأمور، وذلك يشعر بأن مستنده القهر والغلبة واتباع الهوى، وأنه ليس من فعل أهل العلم والفضل المتبعين لما أنزل الله على رسله من الهدى، وهذه الحالة محظورة، نهى عنها النبي ﷺ، وذم فاعليها، ولعن من فعل ذلك في آخر وصاياه لأمته، كما أنه نهى عن البناء على القبور مطلقاً، وعن تجصيصها والكتابة عليها؛ لأن ذلك من الغلو الذي قد يؤدي إلى عبادة من فيها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجداً.

* ثم يخبر ﷻ عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف، اختلافاً صادراً عن رجمهم بالغيب، وتقولهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال، قال تعالى:

﴿٢٢ ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي: سيقول هؤلاء القوم الخائضون في قصتهم في عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب، هم ثلاثة رجال يتبعهم كلبهم.

﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ ويقول البعض: إنهم خمسة سادسهم الكلب، قذفاً بالظن من غير يقين ولا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه.

﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ويقول البعض، إنهم سبعة، والثامن هو الكلب.

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ قل - يا محمد - الله أعلم بحقيقة عددهم.

﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: لا يعلم عدتهم إلا قليل من الناس. قال ابن عباس: أنا من ذلك القليل، كانوا سبعة؛ إن الله عدهم حتى انتهى إلى السبعة. قال المفسرون: إن الله تعالى لما ذكر القول الأول والثاني أردفه بقوله ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ ولما ذكر القول الأخير لم يقدح فيه بشيء، فكأنه أقر قائله. ثم نبّه رسوله إلى الأفضل والأكمل وهو رد العلم إلى علام الغيوب، فقال تعالى:

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ فلا تجادل وتحاج أهل الكتاب في عدتهم، إلا جدالاً سهلاً هيناً، متيقناً عالماً بحقيقة الخبر.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ ولا تسأل أحداً عن قصتهم ولا تسألهم عن عددهم وأحوالهم، ولا ترجع إلى قولهم بعد أن أخبرناك بالحقيقة الواضحة.

* ثم أرشد تعالى رسوله إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله ﷻ، عالم الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، قال تعالى:

﴿٢٣﴾، ﴿٢٤﴾ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا تقولن لأمر عزمت عليه إني سأفعله غداً وفيما يستقبله من الزمان إلا إذا قرنته بالمشيئة، فقل: إن شاء الله. قال ابن كثير: سبب نزول الآية أن النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف قال: «غداً أجيبكم» فتأخر الوحي عنه خمسة عشر يوماً.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: إذا نسيت أن تقول إن شاء الله ثم تذكرت، فقلها لتبقى نفسك مستشعرة عظمة الله. ولما كان العبد مفتقراً إلى الله في توفيقه للإصابة، وعدم الخطأ في أقواله وأفعاله، أمره بالدعاء والرجاء.

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي: لعل الله يوفقني ويرشدني إلى ما هو أصلح من أمر ديني ودنياي.

* لما نهى الله ﷻ عن استفتاء أهل الكتاب، في شأن أهل الكهف لعدم علمهم بذلك، وكان الله عالم الغيب والشهادة، العالم بكل شيء، أخبره بمدة لبثهم وبقائهم في الكهف، قال تعالى:

وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ
أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن
شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ
وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ
ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ
فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ
لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ
تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ
لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

٢٩٧

﴿٢٥﴾، ﴿٢٦﴾ ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ۞ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ **أي: مكثوا في الكهف نائمين ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وهي المدة منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان.**

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ **أي: وإذا سُئلت - يا محمد - عن مدة لبثهم في الكهف، وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله، فلا تتقدم فيه بشيء؛ بل قل: الله أعلم بمدة لبثهم في الكهف على وجه اليقين.**

﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **أي: هو تعالى المختص بعلم الغيب، وقد أخبرك بالخبر القاطع عن أمرهم الحكيم الخبير.**

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ **أي: ما أبصره تعالى بكل موجود، وما أسمعه لكل مسموع، يدرك الخفيات كما يدرك الجليات، لا يغيب عن سمعه وبصره شيء، ولهذا قال:**

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ **أي: إنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر، الذي لا معقب لحكمه، وليس للخلق ناصر ولا معين غيره تعالى، هو الذي تولى أصحاب الكهف، بلطفه وكرمه، ولم يكلهم إلى أحد من خلقه.**

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ **أي: ليس له شريك ولا مثيل ولا نظير، ولا يقبل في قضائه وحكمه وتشريعه أحداً؛ لأنه الغني عما سواه.**

*** ولما أخبر أنه تعالى له غيب السموات والأرض، فليس لمخلوق إليه طريق، إلا من الطريق التي يخبر بها عباده، وكان هذا القرآن قد اشتمل على كثير من الغيوب، أمر تعالى بالإقبال عليه، فقال تعالى:**

﴿٢٧﴾، ﴿٢٨﴾ ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۞ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ **أي: اقرأ واتبع - يا محمد - ما أوحاه إليك ربك من آيات الذكر الحكيم.**

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ **أي: فإنه الكتاب الذي لا يقدر أحد أن يغيره، أو يبدله، أو يزيله لأنه كلام الله - جل وعلا -.**

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ **ولن تجد ملجأ لك غير الله تعالى أبداً، فإذا تعين أنه وحده الملجأ في كل الأمور، تعين أن يكون هو المألوه المعبود المرغوب إليه، في السراء والضراء، المفتقر إليه في جميع الأحوال، المسؤول في جميع المطالب.**

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ **أي: احبس نفسك، واجلس - يا محمد - مع الضعفاء والفقراء من المسلمين، الذين يعبدون ربهم، ويدعونه في الصباح والمساء.**

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ **أي: يبتغون بدعائهم وجه الله تعالى ورضاه، لا عرضاً من أعراض الدنيا.**

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ **أي: اجلس معهم وخالطهم، ولا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوي الغنى والشرف.**

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ **أي: تبتغي بمجالستهم الشرف والفخر. قال ابن عباس: لا تجاوزهم إلى غيرهم تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة. وقد كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم ولم يكن مريداً**

لزينة الدنيا قط، فأمر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين، وأن يعرض عن أولئك العظماء والأشراف من المشركين.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: لا تطع كلام الذين سألوك طرد المؤمنين، فقلوبهم غافلة عن ذكر الله، وقد شُغلوا عن الدين وعبادة ربهم بالدنيا. قال المفسرون: نزلت في عيينة بن حصن وأصحابه، أتى النبي ﷺ وعنده جماعة من الفقراء منهم سلمان الفارسي وعليه شملة صوف قد عرق فيها، فقال عيينة للنبي ﷺ: أما يؤذيك ريح هؤلاء؟ ونحن سادة مضر وأشرافها إن أسلمنا يسلم الناس، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء، فنحهم عنك حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلساً، فهَمّ رسول الله ﷺ أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فلما نزلت الآية خرج رسول الله يلتمس هؤلاء الفقراء، فلما رآهم جلس معهم، قال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني ربي أن أصبر نفسي معهم».

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: لا تتبع ولا تطع من سار مع هواه وآثره على طاعة مولاه، وترك أمر الله.

﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي: مصالح دينه ودنياه، ضائعة معطلة.

* ثم أمر الله ﷻ نبيه محمداً ﷺ أن يقول لهؤلاء الغافلين:

﴿٢٩﴾ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ظاهره أمر، وحقيقته وعيد وتهديد شديد، أي: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء الغافلين، لقد ظهر الحق وبان بتوضيح الرحمن، فإن شئتم فآمنوا فهو خير لكم، وإن شئتم فاكفروا، ومن كفر فما ظلم إلا نفسه.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: هيأنا للكافرين بالله ورسوله، ناراً حامية شديدة، أحاط بهم سورها كإحاطة السوار بالمعصم، ليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية.

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ وإن يطلبوا من شدة العطش فطلبوا الماء، أغيثوا بماء شديد الحرارة كالنحاس المذاب أو كعكر الزيت المحمى، يشوي وجوههم إذا قرب منهم من شدة حره، فكيف بالإمعاء والبطون؟

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: بئس ذلك الشراب الذي يراد ليطفئ العطش، وساءت جهنم منزلاً ومقيلاً يرتفق به أهل النار وفي هذا تهديد شديد لمن أعرض عن الحق، فلم يؤمن برسالة محمد ﷺ، ولم يعمل بمقتضاها.

* لما ذكر تعالى حال الأشقياء، أعقبه بذكر حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، فقال تعالى:

﴿٣٠﴾، ﴿٣١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح لهم أعظم المثوبة، فإن الله ﷻ لا يضيع ثواب من أحسن عمله وأخلص فيه، بل يزيده وينميه.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: لهم جنات إقامة دائمة، تجري من تحت غرفهم ومنازلهم أنهار الجنة.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ يحلون في الجنة بأساور الذهب. قال المفسرون: ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أساور: سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ.

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي: وهم رافلون في ألوان من الحرير، برقيق الحرير وهو السندس، وبغليظه وهو الإستبرق. قال الطبري: معنى الآية أنهم يلبسون من الحلي أساور من ذهب، ويلبسون من الثياب السندس، وهو ما رق من الديباج، والإستبرق وهو ما غلظ فيه

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ
أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ
خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ
بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾
لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ
جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ
مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ
عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ
مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ
فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ
عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ
فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ
لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

وثخن، فجمع لهم بين حسن منظر اللباس، والتذاذ العين به، وبين نعومته والتذاذ الجسم به.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي: متكئين في الجنة على السرر الذهبية المزينة بالثياب والستور، مكللة بالدر والياقوت عليها الحجال، مما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وخص الاتكاء؛ لأنه هيئة المتنعمين والملوك على أسرتهم.

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: نعم ذلك جزاء المتقين، وحسنت الجنة منزلاً ومكاناً، ومقيلاً لهم.

* لما ذكر تعالى قصة أهل الكهف وهي تمثل صور التضحية والبطولة في سبيل العقيدة والإيمان، أعقبها بذكر قصة صاحب الجنتين، وهي نموذج آخر للعقيدة ممثلة في قصة الأخوين من بني إسرائيل: المؤمن المعتز بإيمانه، والكافر وهو صاحب الجنتين، وما صدر من كل منهما من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل ليعتبروا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، قال تعالى:

﴿٣٢﴾-﴿٣٦﴾ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا * وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ أي: اضرب لهؤلاء الكفار المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، وطلبوا منك أن تطرد الفقراء، اضرب هذا المثل. قال المفسرون: هما أخوان من بني إسرائيل، أحدهما مؤمن، والآخر كافر، ورثا مالاً عن أبيهما، فاشترى الكافر بماله حديقتين، وأنفق المؤمن ماله في مرضاة الله حتى نفد ماله، فعيره الكافر بفقره، فأهلك الله مال الكافر الذي أبطرته النعمة ويحسب أن هذه النعمة خالدة لا تفنى. وضرب هذا مثلاً للمؤمن الذي يعمل بطاعة الله، الذي يرى النعمة دليلاً على المنعم، موجبة لحمده وذكره لا لجحوده وكفره.

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ جعلنا لأحدهما ـ وهو الكافر ـ بستانين من شجر العنب، مثمرين بأنواع العنب اللذيذ.

﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي: أحطنا هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصاً أشرف الأشجار العنب والنخل، فالعنب في وسطها، والنخل قد حف بذلك.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي: وأنبتنا وسط هذين البستانين زروعاً مختلفة نافعة، ويتفجر بينهما نهر، وإنه لمنظر بهيج يصوره القرآن أروع تصوير، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الكرم المحفوفتين بأشجار النخيل، تتوسطهما الزروع وتتفجر بينهما الأنهار.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: كل واحدة من الحديقتين أثمرت ثمرها، يانعاً في غاية الجودة والطيب، ولم تنقص منه شيئاً.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: وجعلنا النهر يسير وسط الحديقتين لسقيهما بسهولة ويسر.

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ أي: وكان للكافر من جنتيه، أنواع من الفواكه والثمار كثير وعظيم، كما يفيد التنكير.

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ أي: قال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن وهو يجادله ويخاصمه، ويفتخر عليه ويتعالى: أنا أغنى منك وأشرف، وأكثر أنصاراً وخدماً وأعواناً. فخر بكثرة المال والخدم، وهذا جهل منه، ولهذا قال عنه تعالى:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ أي: أخذ بيد أخيه المؤمن ودخل حديقته، يطوف به فيها ويريه ما فيها من أشجار وثمار وأنهار؛ وهو ظالم لنفسه بالعجب والكفر والتمرد وإنكار المعاد.

﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾ أي: لما أعجبته ثمارها وجمالها، قال: ما أعتقد أنها تفنى وتهلك أبداً؛ حيث راقه حسنها وغرته زهرتها، وتمادى في غفلته، فتوهم أنها لا تفنى.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ أي: وما أعتقد القيامة كائنة وحاصلة، أنكر فناء جنته، وأنكر البعث والنشور.

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا﴾ ولئن كان هناك بعث ورجعة ومرد إلى الله ـ على سبيل الفرض والتقدير كما تزعم أيها المؤمن ـ فسوف يعطيني الله خيراً من هذا وأفضل.

﴿مُنقَلَبٗا﴾ أي: مرجعاً وعاقبة، فكما أعطاني هذا في الدنيا، فسيعطيني في الآخرة لكرامتي عليه، ومنزلتي عنده.

* بعد ذكر سياق الرجل الظالم نفسه، ذكر الله ماذا قال له صاحبه المؤمن على وجه النصيحة، مذكراً له حاله الأولى، التي أوجده الله فيها في الدنيا.

﴿٣٧﴾-﴿٤١﴾ ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا * لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا * وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا * فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا * أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ قال له صاحبه المؤمن الفقير، وهو يراجع أخاه ويجادله، ناصحاً ومبيناً وواعظاً له.

﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي: أجحدت الله الذي خلق أصلك من تراب، ثم من منيّ، ثم سواك إنساناً سوياً؟ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل عليك النعم، ويسر لك الأسباب، فلم تحصل على الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك.

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ أي: لكن أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف بوجود الله، فهو ربي وخالقي.

﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له، لا أشرك به أحداً من المخلوقين.

ثم أخبره أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام، ولو مع قلة ماله وولده، أنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها معرض للزوال.

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: فهلا حين دخلت حديقتك وأعجبت بها فيها من الأشجار والثمار، قلت: هذا من فضل الله، وحمدت الله على ما أنعم به عليك، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: لا قدرة لنا على طاعته إلا بتوفيقه ومعونته، ولا أقدر على حفظ مالي أو دفع شيء عنه إلا بالله، وأتبرأ من حولي وقوتي، وأسلم الأمر إلى مالكه سبحانه، وأعلم أنه لا قوة للمخلوقين إلا بالله، فلا يخاف منهم، إذ قواهم لا تكون إلا بالله، وذلك يوجب الخوف من الله وحده.

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾ أي: قال المؤمن للكافر: إن كنت ترى أنني أفقر منك، وتعتز عليَّ بكثرة مالك وأولادك وتتكبر، فما عند الله خير وأبقى، ولهذا قال:

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ جواب الشرط، أي: إني أتوقع من صنع الله تعالى وإحسانه أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى، فيرزقني جنة خيراً من جنتك؛ لإيماني به، ويسلب عنك نعمته لكفرك به، وطغيانك وغرورك بها، ويخرب بستانك ويسلبك نعمته.

﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: يرسل على جنتك في

الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى آفة تجتاحها، أو صواعق من السماء تدمرها.

﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي: تصبح الحديقة الجميلة النضرة، بسبب ذلك أرضاً ملساء لا تثبت عليها قدم، جرداء لا ينبت فيها شجر، ولا نفع فيها.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أي: يغور ماؤها في الأرض فيصعب إخراجه، فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر، وحينئذ لا تستطيع طلبه فضلاً عن إعادته ورده، وإنما دعا على جنة المؤمن غضباً لربه، لكونها غرته وأطغته، واطمأن إليها، لعله ينيب، ويراجع رشده، ويبصر في أمره.

* وينتهي الحوار هنا، وتكون المفاجأة المدهشة فيتحقق رجاء المؤمن وتوقعه بزوال النعيم عن الكافر، وفجأة ينقلنا السياق من مشهد البهجة والازدهار إلى مشهد البوار والدمار، ومن هيئة البطر والاستكبار، إلى هيئة الندم والاستغفار، قال تعالى:

﴿٤٢﴾-﴿٤٤﴾ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا * وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي: هلكت جنة الكافر بالكلية، واستولى عليها الخراب والدمار في الزروع والثمار، وذلك أن الله أرسل عليها ناراً فأهلكتها، وغار ماؤها.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي: فأصبح صاحبها الكافر يقلب كفيه ظهراً لبطن، أسفاً وحزناً وحسرة وندامة على ماله الضائع وجهده الذاهب، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض.

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: مهشمة محطمة قد سقطت السقوف على الجدران، فأصبحت خراباً يباباً.

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أي: وهو نادم على إشراكه بالله، وشركه، ويتمنى أن لم يكن قد كفر النعمة، ندم حين لا ينفع الندم، قال تعالى:

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولم تكن له جماعة، أو عشيرة، أو ولد ممن افتخر بهم يمنعونه، أو ينصرونه، أو يدفعون عنه الهلاك، فإنه لما نزل العذاب بجنته، ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله لصاحبه، أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً.

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ أي: وما كان ممتنعاً بنفسه عن انتقام الله سبحانه، فلم تنفعه العشيرة والولد حين اعتز وافتخر بهم، وما استطاع بنفسه أن يدفع عنه العذاب، وكيف يكون له أنصار على قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه وقدره، لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه لم يقدروا. ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة، التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، ورجع إلى رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا، وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول.

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: في ذلك المقام، وتلك الحال، تكون النصرة لله وحده، لا يملكها غيره، ولا يقدر عليها أحد، فهو الولي الحق الذي ينصر أولياءه.

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: الله خير جزاء في الدنيا والآخرة لمن آمن به، وهو خير عاقبة لمن اعتمد عليه ورجاه وتولاه.

* بعد ذكر الله تعالى مثلاً لجنة صغيرة كيف عاد حالها ومآلها بعد كفر صاحبها، يضرب تعالى مثلاً آخر للدنيا كلها، وبهرجها الخادع، يشبه مثل الجنتين في الفناء والزوال، ليعرفوا حقيقتها ظاهراً وباطناً، قال تعالى:

﴿٤٥﴾، ﴿٤٦﴾ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا * ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ والمعنى: اضرب - يا محمد - للناس - وبخاصة ذوو الكبر منهم - مثل وصفة هذه الحياة في زوالها وفنائها وانقضائها، بماء نزل من السماء

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ
خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى
ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟
عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ
أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟
حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟
لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ
أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ
بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا
﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ
ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

٢٩٩

فخرج به النبات وافياً غزيراً، وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه، وعلاه الزهر والنور والنضرة، ثم بعد هذا كله.

﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ أي: صار النبات عن قريب يابساً متكسراً من اليبس متفتتاً، تنسفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي: قادراً على الإماتة والإحياء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: الأموال والأولاد التي يفتخر بها أصحابها، إنما هي: زينة الحياة الفانية، ذاك مثلها، وهذه زينتها، والكل إلى فناء وزوال، لا يغتر بها إلا الأحمق الجهول، وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا؛ لأن في المال جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوة ودفعاً.

قيل: تقديم المال على البنين في الذكر؛ لأنه أسبق لأذهان الناس، ولأنه يرغب فيه الصغير والكبير.

ثم ذكر ﷻ ما يبقى ويدوم، فقال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: أعمال الخير تبقى ثمرتها أبدا الآباد، فهي خير ما يؤمله الإنسان ويرجوه عند الله. قال ابن عباس: الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس، وعنه أيضاً أنه قال: كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة، وفي الحديث: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هن الباقيات الصالحات» [رواه أحمد]، وهكذا يقع التوجيه الإلهي للرسول ﷺ في أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم في الغداة والعشي يريدون وجهه، مع إيحاء قصة الجنتين والمثل المضروب للحياة الدنيا.

* لما ذكر الدنيا ومآلها، ذكر القيامة وأهوالها، وما يقع فيها من الشدائد والكروب، والأمور العظام، فقال تعالى:

﴿٤٧﴾-﴿٤٩﴾ ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا * وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ أي: واذكر يوم نزيل الجبال عن أماكنها، ونسيرها كما نسير السحاب، فنجعلها هباءً منبثاً، ثم تتلاشى وتضمحل.

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: وترى الأرض ظاهرة للعيان ليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان، قد قلعت جبالها، وهدم بنيانها، فهي بارزة ظاهرة.

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: جمعنا الأولين والآخرين على تلك الأرض، لموقف الحساب، فلم نترك منهم أحداً، لا صغيراً ولا كبيراً.

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ أي: عرضوا على رب العالمين مصطفين، لا يحجب أحد أحداً، وفي الحديث: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد» [رواه البخاري]. قال مقاتل: يعرضون صفاً بعد صف، كالصفوف في الصلاة، كل أمة وزمرة صفاً، ويحكم فيهم بحكمه العدل، الذي لا جور فيه وظلم، ويقول لهم:

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: يقال للكفار على وجه التوبيخ والتقريع: لقد جئتمونا حفاة عراة لا شيء معكم من المال والولد، كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة، ثم قال مخاطباً للمنكرين للبعث، وقد شاهدوه عياناً.

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي: بل ظننتم أن لا بعث ولا جزاء، ولا حساب ولا عقاب، فها قد رأيتموه وذقتموه.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: وضعت صحائف أعمال البشر التي كتبتها الملائكة وعرضت عليهم، فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تزول.

﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ فترى المجرمين خائفين مما فيه من الجرائم والذنوب.

﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ أي: يا حسرتنا ويا هلاكنا على ما فرطنا في حياتنا الدنيا.

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي: ما شأن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ضبطها وأحاط بها؟ قال قتادة: اشتكى القوم كما تسمعون الإحصاء، ولم يشتك أحد ظلماً، فإياكم والمحقرات من الذنوب، فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه، قيل: اشتكوا من العدل لا من الظلم. وقال عون بن عبد الله: ضج - والله - القوم من الصغار قبل الكبار.

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ أي: مكتوباً مثبتاً في الكتاب لا يقدرون على إنكاره.

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: فيحكم يوم القيامة بين عباده في أعمالهم جميعاً، لا يعاقب إنساناً بغير جرم، ولا ينقص من ثواب المحسن، بل هو حكم عدل.

* ثم يخبر تعالى عن عداوة إبليس لآدم وذريته، ومقرعاً لمن اتبعه منهم، وخالف خالقه ومولاه، وهو الذي أنشأه وابتداه، وبألطافه رزقه وغذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله، قال تعالى:

﴿٥٠﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ أي: اذكر - يا محمد - حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم، سجود تشريف وتحية وتكريم، وامتثالاً لأمر الله، لا سجود عبادة، وأمرنا إبليس بها أمروا به.

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: سجد جميع الملائكة امتثالاً وطاعة، لكن إبليس الذي هو من الجن، خرج عن طاعة ربه ولم يسجد كبراً وحساداً، والآية صريحة في أن إبليس من الجن لا من الملائكة، فتبين بهذا عداوته لله، ولأبيكم ولكم.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ نبه تعالى على قبح هذه الموالاة، أي: أفتتخذون - إبليس - يا بني آدم هو وأولاده الشياطين أولياء من دون الله، وهم لكم أعداء.

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ أي: بئست عبادة الشيطان، بدلاً عن عبادة الرحمن.

* ثم يقول تعالى عن هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً، وكذلك:

﴿٥١﴾ ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما أحضرت ولا شاورت هؤلاء الشياطين الذين عبدتموهم من دوني خلق السموات والأرض فأستعين بهم على خلقها.

﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ولا أشهدت بعضهم خلق بعض، فهم عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً.

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ وما كنت متخذ الشياطين أنصاراً وأعواناً في الخلق، فكيف تطيعونهم من دوني، وأنا خالق كل شيء؟!

* ولما ذكر حال من أشرك به في الدنيا، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال، وحكم بجهل صاحبه وسفهه، أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة، تقريعاً لهم وتوبيخاً، فقال تعالى:

﴿٥٢﴾، ﴿٥٣﴾ ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا * وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ ويوم يقول الله يوم القيامة للمشركين: أدعوا بصوت عال، شركائي بزعمكم، ليمنعوكم وينقذوكم من عذابي، ويشفعوا لكم.

﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ أي: فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم، ولم يجيبوهم ولم ينصروهم؛ لأن الحكم والملك يومئذ لله، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره.

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾ أي: جعلنا بين العابدين والمعبودين، وبين أهل الهدى وأهل الضلال، مهلكة لا يجتازها هؤلاء، وهي النار.

﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي: وعاين المشركون النار، وهي تتغيظ حنقاً عليهم، فأيقنوا أنهم داخلوها، وواقعون فيها.

﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾ ولم يجدوا عن النار معدلاً يعدلون إليه؛ وذلك لأنها أحاطت بهم من كل جانب، فلم يقدروا على الهرب منها، وفي هذا من التخويف والترهيب، ما ترعد له الأفئدة والقلوب.

* ثم يخبر تعالى عن عظمة القرآن، وجلالته، وعمومه، وأنه ضرب فيه من كل مثل، وفصل فيه الأمور ووضحها، قال تعالى:

(٥٤) ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾.

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ أي: بينا للناس في هذا القرآن الأمثال وكررنا الحجج والمواعظ ليتذكروا ويتعظوا، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن، وتلقيه بالانقياد والطاعة.

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ أي: وطبيعة الإنسان الجدل والخصومة، لا ينيب لحق، ولا ينزجر لموعظة، مع بيان هذا القرآن وعظمته.

* وبعد أن ذكر تعالى حجج القرآن الواضحة البينة، وأن هناك من الناس من يعاند ويجادل بغير هدى ولا كتاب منير، ذكر الذي أوجب ذلك منهم، وعدم الإيمان بالله إنما هو الظلم والعناد، لا لقصور في بيانه وحجته وبرهانه، وإلا فلو جاءهم العذاب، وجاءهم ما جاء قبلهم من الأمم، لم تكن هذه حالهم، ولهذا قال:

(٥٥)، (٥٦) ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا * وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ وما منع الناس من الإيمان حين جاءهم القرآن والإسلام والبيان من الله الذي يحصل به الفرق بين الهدى والضلال، والحق والباطل.

﴿وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ أي: وما منعهم من الاستغفار من الذنوب والآثام.

الجزء الخامس عشر — سورة الكهف

وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ
ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا (٥٤) وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ
إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ
ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا (٥٥) وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ
لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا (٥٦)
وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ
مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ
وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا
أَبَدٗا (٥٧) وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ
لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ
مَوۡئِلٗا (٥٨) وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا
لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا (٥٩) وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ
أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ
بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا (٦١)

٣٠٠

﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ إلا انتظارهم أن تأتيهم سنة الأولين، وهي الإهلاك.

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾ أي: يأتيهم عذاب الله عياناً ومقابلة، ومعنى الآية: أنه ما منعهم من الإيمان والاستغفار إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عيناً ومواجهة.

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ وما نرسل الرسل إلا لغرض التبشير والإنذار، لا للإهلاك والدمار، مبشرين لأهل الإيمان، ومنذرين لأهل العصيان، فتقوم بذلك حجة الله على العباد. ثم أخبر عن حال الكفار.

﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ أي:

ومع وضوح الحق وبيانه وسطوع أنواره، يجادل الكفار بالباطل ليلغبوا به الحق ويبطلوه، ويزيلوه، وليس ذلك بحاصل لهم، فهم حين يطلبون الخوارق ويستعجلون العذاب، لا يريدون الإيمان، وإنما يستهزئون ويسخرون.

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ أي: اتخذوا القرآن، وما خوفوا به من العذاب والآيات والحجج، سخرية واستهزاءً.

* ثم ذكر ﷻ أنه لا أعظم ظلماً، ولا أكبر جرماً ممن ذكرهم تعالى بقوله:

٥٧-٥٩ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ۞ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ۞ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ أي: لا أحد أظلم ممن وعظ بآيات الله البينة، وحججه الساطعة، فتعامى عنها، وتناساها، ولم يلق لها بالاً.

﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ ونسي ما عمله من الجرائم الشنيعة، والأفعال القبيحة، ولم يتفكر في عاقبتها، فكان أن عاقبه الله بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه لذنوبه، ورضاه لنفسه حالة الشر مع علمه بها، وسدّ عليه أبواب الهداية، قال تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ أي: جعلنا على قلوبهم أغطية، تحول دون فقه هذا القرآن وفهمه، وإدراك أسراره، والانتفاع بما فيه من المواعظ والأحكام، فلا تحيا به قلوبهم ولا تستفيد منه.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ وفي آذانهم صمماً معنوياً؛ يمنعهم أن يسمعوه سماع تفهم وانتفاع.

﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ وإن دعوتهم - يا محمد - إلى الإيمان والقرآن، فلن يستجيبوا لك أبداً؛ لأنهم لا يفقهون ولايسمعون، فللهدى قلوب متفتحة مستعدة لقبول الإيمان، وهؤلاء كالأنعام ليس لهدايتهم سبيل. ثم ذكر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، فقال:

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ أي: وربك - يا محمد - واسع المغفرة، إذا تابوا وأنابوا، ومن رحمته أنه: عظيم الرحمة بالعباد مع تقصيرهم وعصيانهم.

﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ أي: لو يعاقب الكفار بما اقترفوا من المعاصي والإجرام لعجل لهم عذاب الدنيا، ولكنه تعالى حليم، يمهلهم ويؤخر عنهم العذاب الذي يستعجلونه به رحمة بهم، وقد جرت سنته بأن يُمهل الظالم ولكنه لايُهمله، والذنوب لابد من وقوع آثارها، وإن تأخر عنها مدة طويلة، ولهذا قال:

﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ أي: لهم موعد آخر في القيامة، يرون فيه الأهوال ولن يجدوا لهم فيه ملجأ ولا منجى، حيث يجازون بأعمالهم، أن خير فخير، وإن شر فشر، وإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعداً لهم، أنزل بهم بأسه، ولهذا قال:

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أي: تلك هي أخبار الأمم السالفة والقرون الخالية، القريبة منكم، كقوم هود، وصالح، ولوط، وشعيب، أهلكناهم حين ظلموا وكفروا.

﴿وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾ أي: جعلنا لهلاكهم وعذابهم وقتا محدداً معلوماً، لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون، أفلا يعتبر هؤلاء المكذبون المعاندون؟ والآية وعيد وتهديد لكفار قريش، والمعنى فاحذروا أيها المشركون أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتم أعظم نبي وأشرف رسول، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذري.

* ثم ذكر تعالى القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة وهي قصة موسى مع الخضر، وما فيها من أمور غيبية عجيبة، وهي قصة التواضع في سبيل طلب العلم وشدة رغبته في الخير، وما جرى من الأخبار الغيبية التي أطلع الله عليها ذلك العبد الصالح الخضر، ولم يعرفها موسى عليه السلام حتى أعلمه بها الخضر كقصة السفينة، وحادثة قتل الغلام، وبناء الجدار، قال تعالى:

٦٠-٦٥ ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ۞ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا
هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ
ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا
قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا
وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن
تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ
صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ
قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ **أي: اذكر حين قال موسى الكليم لفتاه وخادمه الذي يلازمه في حضره وسفره «يوشع بن نون» لا أزال أسير وأتابع السير وإن طالت عليّ الشقة، ولحقتني المشقة، حتى أصل إلى ملتقى بحر فارس وبحر الروم، مما يلي جهة المشرق وهو مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحي إليه أنك ستجد فيه عبداً من عباد الله العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك.**

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ **أي: أسير زماناً طويلاً إلى أن أبلغ ذلك المكان، والمعنى: أن الشوق والرغبة، حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة، وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه.**

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ **أي: فلما وصل موسى وفتاه مجمع البحرين، نسي «يوشع» أن يخبر موسى بأمر الحوت، وما شاهده منه من الأمر العجيب، روي أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يأخذ معه حوتاً فيجعله في مكتل، فحيثما فقد الحوت فهناك الرجل الصالح.**

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ **أي: اتخذ الحوت سبيله في البحر مسلكاً، وهذا من الآيات. قال المفسرون: كان الحوت مشوياً فخرج من المكتل ودخل في البحر، وأمسك الله جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه وجمد الماء حوله، وكان ذلك آية من آيات الله الباهرة لموسى عليه السلام.**

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ **أي: فلما فارقا ذلك المكان الذي نسيا فيه الحوت، وهو مجمع البحرين الذي جعل موعداً للملاقاة، وشعر موسى بالجوع، قال لخادمه: أعطنا طعام الغداء.**

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ **أي: لقينا في هذا السفر المشقة والتعب، وكان قد سار ليلة وجزءاً من النهار بعد أن جاوز الصخرة.**

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ **أي: قال الخادم «يوشع بن نون» حين طلب موسى منه الحوت للغداء، أرأيت حين التجأنا إلى الصخرة التي نمت عندها ماذا حدث من الأمر العجيب؟ لقد خرج الحوت من المكتل، ودخل البحر، وأصبح عليه مثل الكوة، وقد نسيت أن أذكر لك ذلك حين استيقظت.**

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ **أي: وقد أنساني الشيطان أن أخبرك عن قصته الغريبة.**

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ **أي: تعجب الخادم من الحوت الميت الذي دبت فيه الحياة، وقفز في البحر واتخذ طريقه في البحر بعد أن كان حوتاً مشوياً؛ كيف دبت فيه الحياة ودخل البحر، فكان الحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً.**

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ **أي: قال موسى هذا الذي نطلبه ونريده؛ لأنه علامة على غرضنا، وهو لقيا الرجل الصالح.**

﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ **أي: رجعا في طريقهما الذي جاءا منه، يتتبعان أثرهما الأول لئلا يخرجا عن الطريق، حتى انتهيا إلى الصخرة.**

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ أي: وجدا الخضر عند الصخرة التي فقد عندها الحوت، والخضر كان عبداً صالحاً، لا نبياً على الصحيح، وفي الحديث: «أن موسى وجد الخضر مسجى بثوبه مستلقياً على الأرض، فقال له: السلام عليك، فرفع رأسه، وقال: وأنى بأرضك السلام؟» [رواه البخاري].

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: وهبناه نعمة عظيمة، وفضلاً كبيراً، وهي الكرامات التي أظهرها الله على يديه.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي: علماً خاصاً بنا، لا يُعلم إلا بتوفيقنا، وهو علم الغيوب، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء.

* فلما اجتمع موسى بالخضر، قال موسى على وجه الأدب والمشاورة للخضر:

﴿٦٦-٧٠﴾ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي: هل تأذن لي في مرافقتك لأقتبس من علمك ما يرشدني في حياتي؟ قال المفسرون: هذه مخاطبة فيها ملاطفة وتواضع من نبي الله الكريم، وكذلك ينبغي أن يكون الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ أي: قال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك، ولكنك لا تستطيع الصبر على ما ترى، وإنما قال ذلك لأنه علم أنه يرى أموراً منكرة، ولا يجوز للأنبياء، أن يصبروا على المنكرات، ثم بين عذره في ترك الصبر.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ أي: كيف تصبر على أمر ظاهره منكر، وأنت لا تعلم باطنه؟ وما علمت المقصود منه ومآله.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ أي: قال موسى: ستراني صابراً ولا أعصي أمرك إن شاء الله، وقد استثنى؛ لأنه لم يثق نفسه بالصبر، وطلباً لعون الله وتوفيقه.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فوافق الخضر وشرط على موسى قبل بدء الرحلة، ألا يسأله ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له سرها، ويكون هو الذي يخبر بحاله ويبينه له بنفسه، فنهاه عن سؤاله، ووعده، أن يوقفه على حقيقة الأمر، فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم مع العالم.

* وبعد هذه المحاورة والاتفاق، بدأت الرحلة، قال تعالى:

﴿٧١-٧٣﴾ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أي: انطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر حتى مرت بهما سفينة، فعرفوا الخضر فحملوهما دون أجر، فلما ركبا السفينة عمد الخضر إلى فأس فقلع لوحاً من ألواح السفينة فخرقها، بعد أن أصبحت في لجة البحر.

﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ أي: فلم يصبر موسى عليه السلام؛ لأن ظاهره أنه منكر، لأنه عيب للسفينة وسبب لغرق أهلها قال له موسى مستنكراً: أخرقت السفينة لتغرق الركاب؟ وقد حملونا بغير أجر؟ وفيه دلالة على أن قلوب المؤمنين مجبولة على إنكار المنكر، وغير مالكة للصبر على احتماله؛ لأن موسى عليه السلام وعد الخضر أن يصبر على ما يراه منه، فلما رأى ما رأى أنكره عليه.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ أي: فعلت شيئاً عظيماً هائلاً، وهذا من عدم صبره عليه السلام، يروى أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فجعله مكان الخرق، ثم قال للخضر: قوم حملونا بغير أجر وعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهل السفينة، لقد فعلت أمراً منكر عظيماً.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ قال الخضر: ألم أخبرك من أول الأمر أنك لا تصبر على ما ترى من صنيعي؟ ذكره بلطف في مخالفته الشرط، وكان هذا من موسى نسياناً، فقال:

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: لا تؤاخذني بمخالفتي الشرط ونسياني العهد. قال ابن عباس: إنه لم ينس ولكنه من معاريض الكلام، فكأنه نسي شيئاً آخر.

﴿وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾ **أي: لا تكلفني مشقة في صحبتي إياك، وعاملني باليسر لا بالعسر، فجمع بين الأقرار به والعذر منه.**

*** فقبل الخضر عذر موسى ﷺ، وسمح عنه:**

(٧٤)-(٧٦) ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا * قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا * قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ﴾ **أي: وانطلقا نزولاً من السفينة يمشيان، فمرا بغلمان يلعبون، وفيهم غلام وضيء الوجه جميل الصورة، فأمسكه الخضر واقتلع رأسه بيده ثم رماه في الأرض، فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحمية الدينية، وأنكر عليه:**

﴿قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾ **أي: قال موسى: أقتلت نفساً طاهرة لم تبلغ حد التكليف، ولم ترتكب جرماً، ولم تقتل نفساً حتى تقتل به.**

﴿لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾ **أي: فعلت أمراً منكراً عظيماً، لا يمكن السكوت عنه. لم يكن موسى ناسياً في هذه المرة ولا غافلاً، ولكنه قاصد أن ينكر المنكر الذي لا يصبر على وقوعه بالرغم من تذكره لوعده، وقال هنا: ﴿نُّكۡرٗا﴾ أي منكراً فظيعاً وهو أبلغ من قوله ﴿إِمۡرٗا﴾ في الآية السابقة. ذكر القرطبي أن موسى ﷺ لما قال للخضر** ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ﴾ **غضب واقتلع كتف الصبي الأيسر وقشر اللحم عنه فإذا مكتوب في عظم كتفه كافر لا يؤمن بالله أبداً.**

﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ **قال الخضر لموسى معاتباً مذكراً: ألم أقل لك أنت على التعيين والتحديد لن تستطيع الصبر على ما ترى من أفعالي مما لم تحط به علماً؟ قال المفسرون: وقره في الأول فلم يواجهه بكاف الخطب، فلما خالف في الثاني واجهه بقوله: ﴿لَّكَ﴾ لعدم العذر هنا، ويعود موسى لنفسه ويجد أن خالف وعده مرتين، فيندفع ويقطع على نفسه الطريق، ويجعلها آخر فرصة أمامه.**

﴿قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِي﴾ **قال موسى للخضر: إن أنكرت عليك بعد هذه المرة، واعترضت على ما يصدر منك لا تصحبني معك.**

﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾ **أي: قد أعذرت إليَّ في ترك مصاحبتي ولم تقصر، فأنت معذور عندي بمخالفتي لك ثلاث مرات.**

(٧٧)، (٧٨) ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا * قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ **أي: مشيا حتى وصلا إلى قرية، قيل: هي أنطاكية، فطلبا طعاماً على سبيل الضيافة، وكان أهلها لئاماً لا يطعمون جائعاً، ولا يستضيفون ضيفاً، فامتنعوا عن إضافتهما أو إطعامهما. قال قتادة: شر القرى التي لا تضيف الضيف.**

وقال السيوطي: وفيه أن صنع الجميلا لا يُترك مع اللئام.

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ **أي: وجدا في القرية حائطاً مائلاً يوشك أن يسقط ويقع.**

الجزء السادس عشر — سورة الكهف

* قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٥ قَالَ إِن
سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا
٧٦ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ
أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ
قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي
وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨ أَمَّا
ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ
أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩ وَأَمَّا
ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا
وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ
رُحۡمٗا ٨١ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ
وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن
يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ
وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢
وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ٨٣

٣٠٢

﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ أي: مسحه الخضر بيده فاستقام وصار مستوياً، وقيل إنه هدمه ثم بناه وأعاده جديداً، كانت الحال، حال اضطرار وافتقار إلى المطعم، وقد لزمتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسألة، فلم يجدا مواسياً.

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: قال موسى للخضر: لو أخذت منهم أجراً نستعين به على شراء الطعام حيث لم يضيفونا. أنكر عليه موسى صنيع المعروف مع غير أهله. روي أن موسى قال للخضر: قوم استطعمناهم فلم يطعمونا، وضيفناهم فلم يضيفونا، ثم قعدت تبني لهم الجدار لو شئت لاتخذت عليه أجراً. فحينئذ لم يف موسى عليه السلام بما قال، واستعذر الخضر منه.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ قال الخضر لموسى: هذا وقت فراق بيني وبينك، فإنك شرطت ذلك على نفسك، فلم يبق الآن عذر، ولا موضع للصحبة.

﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ سأخبرك بحكمة هذه المسائل الثلاث التي أنكرتها عليّ، ولم تستطع عليها صبراً، وأنبئك بما لي في ذلك من المآرب، وما يؤول إليه الأمر، وفي الحديث: «رحم الله أخي موسى لوددت أنه صبر حتى يقص الله علينا من أمرهما، ولو لبث مع صاحبه لأبصر العجب» [رواه البخاري].

* ثم ذكر الخضر لموسى بياناً وتفصيلاً للأحداث العجيبة التي رآها موسى، ولم يطق لها صبراً:

(٧٩) ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ أما السفينة التي خرقتها، فكانت لأناس ضعفاء مساكين يقتضي ذلك الرقة عليهم، والرأفة بهم، لا يقدرون على مدافعة الظلمة، يشتغلون بها في البحر بقصد التكسب وسعياً وراء الرزق.

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي: أردت بخرقها أن أجعلها معيبة، لئلا يغتصبها الملك الظالم.

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي: كان أمامهم ملك كافر ظالم، يغتصب كل سفينة صالحة لا عيب فيها، فأردت أن أخرقها ليكون فيها عيب، فتسلم من ذلك الظالم.

* ثم ذكر له سبب قتله للغلام، فقال:

(٨٠)، (٨١) ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ أي: وأما الغلام الذي قتلته فكان كافراً فاجراً، وكان أبوه وأمه مؤمنين، وفي الحديث: «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً» [رواه مسلم].

﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي: فخفنا لو بقي الغلام حيّاً، أن يحملهما حبه على اتباعه في الكفر والضلال، إما لأجل محبتهما إياه، أو للحاجة إليه، أو يجبرهما على ذلك، فقتلته، لأن الله تعالى أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره، سلامة لدين أبويه المؤمنين. وفيه تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قطعاً من الأكباد، ومن سلم للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ فأردنا بقتله أن يرزقهما الله ولداً صالحاً خيراً من ذلك الكافر، وأقرب براً ورحمة بوالديه، فإن الغلام الذي قتل لو بلغ لعقهما أشد العقوق بحملهما على الكفر والطغيان. وقيل: أقرب رحماً، أي: ابنة بشفقتها وحنوها.

* ثم ذكره ما الذي دفعه إلى بناء الجدار وإقامته، فقال:

(٨٢) ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ أي: وأما الحائط الذي بنيته وأقمته دون أجر، والذي كان يوشك أن يسقط، فقد خبئ تحته كنز من ذهب وفضة لغلامين يتيمين في القرية التي فيها الحائط، حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما، لكونهما صغيرين عدما أباهما.

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا
٨٥ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ
وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۖ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ
فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ
فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً
ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٩ حَتَّىٰٓ
إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن
دُونِهَا سِتۡرٗا ٩٠ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ٩١ ثُمَّ
أَتۡبَعَ سَبَبًا ٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا
لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ
وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن
تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي
بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ
بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ
قِطۡرٗا ٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ أي: وكان والدهما صالحاً تقياً، فحفظ الله لهما الكنز لصلاح الوالد، وفيه دليل على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم. قال المفسرون: إن صلاح الآباء ينفع الأبناء، وتقوى الأصول تنفع الفروع. قيل: كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء. وقال محمد بن المنكدر: إن الله يحفظ بصلاح العبد ولده، وولد ولده، وعترته وعشيرته وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا﴾ فأراد الله بهذا الصنيع، أن يكبرا ويشتد عودهما، ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار لئلا يضيع ويفقد.

﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: هذا فعلته رحمة من الله بهما لصلاح أبيهما.

﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِي﴾ أي: ما فعلت يا موسى ما رأيت من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، عن رأيي واجتهادي، بل فعلته بأمر الله وإلهامه، وإنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالديّ الغلام، وولدي الرجل الصالح.

﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ أي: ذلك تفسير الأمور التي لم تستطع الصبر عليها، وعارضت فيها، قبل أن أخبرك عنها.

وفي قصة موسى مع الخضر قاعدة عظيمة في الرضا والتسليم بالقضاء والقدر؛ فإن الإنسان لا يرى ما وراء الحجب ولا يعلم الغيب، وأمر المؤمن كله له خير.

* لما ذكر تعالى قصة الخضر، أعقبها بالقصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة، وهي قصة ذي القرنين، وهو ملك مكّن الله تعالى له بالتقوى والعدل أن يبسط سلطانه على المعمورة، وأن يملك مشارق الأرض ومغاربها، وما كان من أمره في بناء السد العظيم، وبناؤه للسد في وجه يأجوج ومأجوج، قال تعالى:

﴿٨٣﴾، ﴿٨٤﴾ ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ أي: يسألك اليهود - يا محمد - عن ذي القرنين الملك الصالح، ما شأنه؟ وما قصته؟ على جهة الامتحان. قال قتادة: إن اليهود سألوا النبي ﷺ عن ذي القرنين فأنزل الله الآيات.

﴿قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا﴾ قل لهم سأقص عليكم من نبأ ذي القرنين وخبره، قرآناً ووحياً، فيه نبأ مفيد، وخطاب عجيب، تتذكرونه، وتعتبرون به.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾ أي: يسرنا له أسباب الملك والسلطان والفتح والعمران، وأعطيناه من كُلِّ أسباباً وطرقاً، يتوصل بها إلى ما يريد من فتح المدائن وقهر الأعداء وغير ذلك. قال المفسرون: ذو القرنين هو «الإسكندر اليوناني» ملك المشرق والمغرب فسمي ذا القرنين، وكان ملكاً مؤمناً، مكن الله له في الأرض فعدل في حكمه وأصلح، كان في الفترة بين عيسى ومحمد - صلوات الله عليهما -. روي أن الذين ملكوا الأرض أربعة: مؤمنان وكافران، أما المؤمنان فسليمان وذو القرنين، وأما الكافران فنمرود وبختنصر.

﴿٨٥﴾-﴿٨٨﴾ ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۖ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا * قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ

رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: سلك طريقه الذي يسره الله له بجد واجتهاده، وسار جهة المغرب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: حتى إذا وصل ذو القرنين إلى مغرب الشمس.

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: وجد الشمس في مرأى العين كأنها تغرب في عين ماء حارة ذات طين أسود.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي: وجد عند تلك العين الحارة ذات الطين أمة من الأمم.

﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي: قلنا له بطريق الإلهام: إما أن تعذبهم بقتل، أو ضرب، أو أسر ونحوه؛ إن لم يقروا بتوحيد الله، وإما أن تحسن إليهم، وتدعوهم بالحسنى إلى الهداية والإيمان، وتبصرهم الرشاد. قال المفسرون: كانوا كفاراً فخيره الله بين أن يعذبهم بالقتل، أو يدعوهم إلى الإسلام فيحسن إليهم، ومعنى هذا أن الله تعالى مكنه منهم، وحكمه فيهم، وأظفره بهم.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ قال ذو القرنين: أما من أصر على الكفر فسوف تحصل له العقوبتان عقوبة الدنيا بالقتل.

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: وعقوبة أخرى، هي الآخرة حيث يرجع إلى ربه، فيعذبه عذاباً منكراً فظيعاً في نار جهنم، وفي هذا إثبات المعاد والجزاء.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وأما من آمن بالله فصدق به، ووحده، وأحسن العمل في الدنيا، وقدم الصالحات فجزاؤه الجنة يتنعم فيها.

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: نيسر عليه في الدنيا وسنحسن إليه، فلا نكلفه بما هو شاق، بل بالسهل الميسر، اختار الملك العادل دعواتهم بالحسنى، فمن آمن فله الجنة، والمعاملة الطيبة والمعونة والتيسير، ومن بقي على الكفر فله العذاب والنكال في الدنيا والآخرة، وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين والأولياء العادلين العالمين، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد بما يليق بحاله.

* ثم بين تعالى أنه سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلبهم، ودعاهم إلى الله ﷻ، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم، واستباح أموالهم، قال تعالى:

﴿٨٩-٩١﴾ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا * كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: لما وصل إلى مغرب الشمس كر راجعاً، قاصداً مطلعها حيث سلك طريقاً بجنده نحو المشرق، متبعاً الأسباب التي أعطاه الله إياها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ حتى إذا وصل أقصى المعمورة من جهة الشرق حيث مطلع الشمس في عين الرائي.

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: وجد الشمس تشرق على أقوام ليس لهم من اللباس والبناء والأشجار ما يسترهم من حر الشمس، فإذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب تحت الأرض، وإذا غربت خرجوا لمكاسبهم، إما لعدم استعدادهم في المساكن، وذلك لزيادة همجيتهم وتوحشهم، وعدم تمدنهم، وإما لكون الشمس دائمة عندهم. قال قتادة: مضى ذو القرنين يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل الرجال إلا من آمن، حتى أتى مطلع الشمس فأصاب قوماً في أسراب عراة، ليس لهم طعام إلا ما أنضجته الشمس إذا طلعت، حتى إذا زالت عنهم الشمس خرجوا من أسرابهم في طلب معايشهم، وذكر لنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان، ويقال إنهم الزنج.

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي: كذلك فعل بأهل المشرق، من آمن تركه، ومن كفر قتله، كما فعل بأهل المغرب. وقد أحطنا علماً بأحواله وأخباره، وعتاده وجنوده، فأمره من العظمة وكثرة الرجال بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير.

* ثم أخبر ﷻ عن ذي القرنين

ومسيره وأين بلغ، فقال تعالى:

﴿٩٢-٩٦﴾ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: ثم سار ذو القرنين بالطرق والأسباب التي منحه الله إياه، وسلك طريقاً ثالثاً: بين المشرق والمغرب يوصله جهة الشمال حيث الجبال الشاهقة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ حتى إذا وصل إلى منطقة بين حاجزين عظيمين بمنقطع أرض بلاد الترك مما يلي أرمينية وأذربيجان.

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ وجد من وراء السدين قوماً متخلفين، لا يكادون يعرفون لساناً غير لسانهم إلا بمشقة وعسر من إشارة ونحوها. قال المفسرون: إنما كانوا لا يفقهون القول لغرابة لغتهم، وبطء فهمهم، وبعدهم عن مخالطة غيرهم، وما فهم كلامهم إلا بواسطة ترجمان.

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: قال القوم لذي القرنين، مشتكين لما وقع عليهم من الضرر: إن يأجوج ومأجوج ـ قبيلتان من بني آدم في خلقهم تشويه، ومنهم مفرط في الطول، ومنهم مفرط في القصر ـ قوم مفسدون بالقتل والسلب والنهب، وسائر وجوه الشر، وقيل: كانوا من أكلة لحوم البشر، يخرجون في الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه، وأدخلوه أرضهم، وقد لقوا منهم أذى شديداً وقتلاً.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي: هل نفرض لك جزءاً من أموالنا، وهذا استدعاء منهم لقبول ما يبذلونه على جهة حسن الأدب.

﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ أي: لتجعل حاجزاً يحمينا من شر يأجوج ومأجوج، ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد. ولما كان هدف ذي القرنين الإصلاح ودفع الظلم عنهم، أجاب طلبهم لما فيه من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجرة؛ ديانة وصلاحاً وقصداً للخير، وشكر ربه على تمكينه واقتداره.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ قال ذو القرنين: ما بسطه الله عليَّ من القدرة والملك والمال واليسار، خير مما تبذلونه لي من المال.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي: لا حاجة لي إلى المال، فأعينوني بالأيدي والرجال الذين يحسنون البناء والعمل وبالآلات، أجعل بينكم وبينهم حاجزاً منيعاً، وسداً حصيناً، وهذه شهامة منه حيث رفض قبول المال، وتطوع ببناء السد، واكتفى بعون الرجال، والردم: أكبر من السد.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ أي: أعطوني قطع الحديد الكبيرة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ حتى إذا جاؤوا به ووضعوه وحاذوا به جانبي الجبلين وساوى البناء بين جانبي الجبلين، بنى بينهما السد، ثم.

﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ أي: قال ذو القرنين للعملة: انفخوا بالمنافيخ عليه، وأوقدوها إيقاداً عظيماً، وفي القصة أنه جعل الفحم والحطب في خلال زبر الحديد، ثم قال انفخوا في النار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أي: جعل ذلك الحديد المتراكم كالنار بشدة الإحماء.

﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي: أعطوني أصب عليه النحاس المذاب، قيل: لما ألانوه بقطع الحديد وضع بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسد ما بين الجبلين إلى أعلاهما ثم وضع المنافخ عليها حتى إذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فالتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً، فاستحكم السد استحكاماً هائلاً، وامتنع به من وراءه من الناس، من ضرر يأجوج، ومأجوج.

﴿٩٧-٩٩﴾ ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا * قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي
حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا
﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا
أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا
﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ
صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ
بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا
لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ
الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا
أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو
لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

٣٠٤

حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: فما استطاعت يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويتسوروه لعلوه وملاسته. والتاء من حروف الشدَّة، نقول في الشيء القريب الأمر: ما اسطعتُه، وفي الشديد: ما استطعته.

﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ أي: وما استطاعوا نقبه من أسفل لصلابته ولبعد عرضه وقوته وشدته، وما أطاقوا ظهوره لضعفهم، وبهذا السد المنيع أغلق ذو القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج، فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى موليها.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: قال ذو القرنين: هذا السد نعمة من الله وفضل وإحسان عليَّ، ورحمة على عباده، حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العبث والفساد في الأرض، وهذا حال الصالحين، إذا منَّ الله عليهم بالنعم الجليلة ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: فإذا دنا مجيء يوم القيامة وشارف أن يأتي؛ بخروج يأجوج ومأجوج.

﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي: جعل الله ذلك السد المحكم المتقن مستوياً بالأرض، وعاد متهدماً كأن لم يكن بالأمس.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: كان وعده تعالى بخراب السد، وقيام الساعة كائنا لا محالة.

وهنا تنتهي قصة ذي القرنين العجيبة، ثم يأتي الحديث عن أهوال الساعة وشدائد القيامة، قال تعالى:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: تركنا الناس يوم قيام الساعة يضطرب بعضهم ببعض- لكثرتهم- كاضطراب موج البحر.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أي: وإذا نفخ إسرافيل في القرن النفخة الثانية أعاد الله الأرواح للأجساد، ثم حشرهم وجمعهم للحساب والجزاء في صعيد واحد، جمعاً لم يتخلف منهم أحد.

* وفي هذا الموقف العظيم والحال المهولة، يذكر الله ﷻ، أحوال أهل النار وما ينالهم من العذاب، فيقول تعالى:

(١٠٠)-(١٠٢) ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا * أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ أي: أبرزنا جهنم وأظهرناها للكافرين يوم جمع الخلائق حتى شاهدوها بأهوالها، عرضاً مخيفاً مفزعاً وهذا آثار أعمالهم، وجزاء أفعالهم، فإنهم في الدنيا في حال أخرى، فهم:

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ أي: هم الذين كانوا في الدنيا معرضين عن الذكر الحكيم والقرآن الكريم، وعمياً عن دلائل قدرة الله ووحدانيته، فلا ينظرون ولا يتفكرون.

﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: سمع القبول والإيمان لغلبة الشقاوة عليهم، فهم لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى لظلمة قلوبهم، ولبغضهم القرآن والرسول، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية، وتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار فكأنهم عمي صم.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ، أي: أفظن الكافرون أن يتخذوا بعض عبادي آلهة يعبدونهم دوني كالملائكة وعزير والمسيح ابن مريم، وأن ذلك ينفعهم أو يدفع عنهم عذابي؟ وجواب الاستفهام محذوف تقديره، أفحسبوا أن ذلك ينفعهم، أو لا أعاقبهم.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ أي: هيأنا جهنم وجعلناها ضيافة لهم كالنزل المعد للضيف، وفيه تهكم بهم، وتنبيه على أن لهم وراءها من العذاب ما تستحقر جهنم دونه.

﴿١٠٣﴾-﴿١٠٦﴾ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا * ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ قل - يا محمد - لهؤلاء الكافرين محذراً: هل نخبركم بأخسر الناس أعمالاً عند الله؟

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بطل عملهم وضاع في هذه الحياة الدنيا؛ لأن الكفر لا تنفع معه طاعة، فقد أتعبوا أنفسهم في عمل يرجون به فضلاً ونوالاً، فنالوا هلاكاً وبواراً، وهكذا حال أرباب الأعمال التي كانت لغير الله ﷻ، أو على غير سنة رسول الله ﷺ.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي: يظنون ويعتقدون أنهم محسنون بأفعالهم، وأنهم مقبولون محبوبون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: جحدوا بالقرآن، وبالبعث والنشور، فبطلت أعمالهم.

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ أي: ليس لهم عند الله قيمة ولا وزن، ولا قدر ولا منزلة، لأنها خالية عن الخير، وفي الحديث: «ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، فلا يزن عند الله جناح بعوضة» [رواه البخاري].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ أي: ذلك جزاؤهم وعقوبتهم وحبوط أعمالهم؛ نار جهنم بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسله.

* وبعد أن ذكر حال الكفار والطغاة، انتقل إلى ذكر حال الأبرار والتقاة، قال تعالى:

﴿١٠٧﴾،﴿١٠٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إن الذين آمنوا بالله ورسوله بقلوبهم، وعملوا بالصالحات بجوارحهم.

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ أي: لهم أعلى درجات الجنة، وهي الفردوس منزلاً ومستقراً؛ وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إذ سألتم الله الجنة، فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة».

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي: ماكثين فيها أبداً لا يطلبون عنها تحولاً ولا انتقالاً إلى غيرها، رضاً بما أعطوا، وهذا هو تمام النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع، والمراد نفي التحول وتأكيد الخلود.

* ثم ذكر ﷻ مثالاً لسعة علمه، فقال:

﴿١٠٩﴾ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ قل لهم - يا محمد - مخبراً عن عظمة الباري، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء منها، والمعنى: لو كان ماء بحار الدنيا حبراً ومداداً وكتبت به كلمات الله وحكمه وعجائبه. قال ابن عباس: قالت اليهود - يا محمد - تزعم أنا قد أوتينا الحكمة، وفي كتابك من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، ثم تقول: وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً، فأنزل هذه الآية.

﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ أي: لفني ماء البحر على كثرته، وانتهى، وكلام الله لا ينفد؛ لأنه غير متناه كعلمه -جل وعلا-، وفي الآية إثبات صفة الكلام لله تعالى حقيقة كما يليق بجلاله وكماله.

﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ ولو أتينا بمثل ماء البحر وزدناه به حتى يكثر، فإن كلام الله لا يتناهى.

* ثم علم -جل وعلا- رسوله التواضع حتى لا يزهو على خلقه، وهذا تعليم لأمته من بعد، أن يقروا ويقولوا:

﴿١١٠﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: قل ـ يا محمد ـ للكفار وغيرهم: إنما أنا إنسان مثلكم لست بإله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله، وإنما أنا عبد من عبيد ربي أكرمني بالوحي، وأمرني أن أخبركم أنه واحد أحد لا شريك له.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ فمن كان يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه.

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فليخلص له العبادة الموافقة لشرع الله، من واجب ومستحب.

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ ولا يرائي بعمله، بل يعمله خالصاً لوجه الله، ولا يبتغي بما يعمل غير الله، فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، صواباً موافقا لهدي وسنة نبيه الكريم ﷺ، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم الصحيح المستمد من الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح.

تم تفسير سورة الكهف
والحمد لله

تفسير سورة مريم
وهي مكية

* سورة مريم سورة مكية، ومضمونها تحقيق عبادة الله وحده، وتنزيه الله ـ جل وعلا ـ عما لا يليق به، وتثبيت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء، والإيمان بوجود الله ووحدانيته، وبيان منهج المهتدين، ومنهج الضالين. وأن خواص الخلق هم عباده. وهذه السورة «سورة المواهب» وهي ما وهبه الله لأنبيائه من الذرية الطيبة، والعمل الصالح، والعلم النافع.

سميت «سورة مريم» تخليداً لتلك المعجزة الباهرة والآية العظيمة، في خلق إنسان بلا أب، ثم إنطاق الله للوليد وهو طفل في المهد، وما جرى من أحداث عجيبة رافقت ميلاد عيسى عليه السلام.

عرضت السورة الكريمة لقصص بعض الأنبياء مبتدئةً بقصة نبي الله زكريا وولده يحيى، الذي وهبه على الكبر من امرأة عاقر لا تلد، ولكن الله قادر على كل شيء، يسمع دعاء المكروب، ويستجيب لنداء الملهوف، ولذلك استجاب الله دعاءه، ورزقه الغلام النبيه. وقد تكرر في هذه السورة صفة الرحمن ست عشرة مرة، وذكر اسم الرحمة أربع مرات، فأنبأ بأن من مقاصدها تحقيق وصف الله تعالى بصفة الرحمن، والرد على المشركين الذين انكروا هذا الوصف، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٦﴾ ﴿كٓهيعٓصٓ * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

﴿كٓهيعٓصٓ﴾ حروف مقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وتقرأ: «كاف، ها، يا، عين، صاد».

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ أي: هذا ذكر رحمة ربك لعبده زكريا، نقصه عليك ـ يا محمد ـ ونفصله تفصيلاً فإن في ذلك عبرة للمعتبرين.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ أي: حين ناجى ربه ودعاه سرّاً، بصوت خفي لا يكاد يسمع. وذلك أنه رأى من نفسه الضعف وخاف أن يموت، ولم يكن أحد ينوب منابه في دعوة الخلق إلى ربهم والنصح لهم. قال المفسرون: لأن الإخفاء في الدعاء أحب إلى الله، وأرجى للإجابة، وأدخل في الإخلاص وأكمل، وأبعد من الرياء، فإن الله يعلم القلب التقي، ويسمع الصوت الخفي.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ أي: دعا في ضراعة، فقال يا رب: لقد كبرت، وضعف عظمي ورق، وذهبت قوتي من الكبر، وإذا ضعف العظم الذي هو عماد البدن وقوامه، ضعف غيره.

سُورَةُ مَرْيَمَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ① ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ② إِذۡ
نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي
وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا
④ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي
عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ⑤ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ
ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ⑥ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا
نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا
⑦ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا
وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ⑧ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ
رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ
شَيۡـٔٗا ⑨ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ⑩ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ
ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ⑪

٣٠٥

﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ أي: انتشر الشيب في رأسي انتشار النار في الهشيم، والشيب دليل الضعف والكبر، ورسول الموت ورائده ونذيره، والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة؛ التوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه وشيبته، وهذا من أحب الوسائل إلى الله؛ لأنه يدل على التبرّي من الحول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته.

﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ أي: لم تخيب دعائي في وقت من الأوقات ولم تحرمني من الإجابة قبل اليوم، بل عودتني الإحسان والجميل، ولم تزل ألطافك تتوالى عليَّ وإحسانك واصلاً إليَّ، وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه وإحسانه إليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقاً، وعوده بالإجابة وأطمعه فيها، أن يتمم إحسانه لاحقاً. فاللهم استجب دعائي الآن، كما كنت تستجيبه فيما مضى، ومن حق الكريم أن لا يخيب من أطمعه.

﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾ أي: خفت من يتولى على بني إسرائيل بعد موتي، من بني العم والعشيرة أن يضيعوا الدين ولا يقوموا به، ولا يحسنوا وراثة العلم والنبوة، وظاهر هذا أنه لم ير فيهم أحداً فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصحه، وأن طلبه للولد، ليس كطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين، ومعدن الرسالة، ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولداً، يقوم بالدين من بعده، واشتكى من حال امرأته، فقال:

﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ أي: عقيماً لا تلد، لكبر سنها أو لم تلد قط، ذكر الأسباب المانعة التي لا تستعصي على الله ﷻ، ثم طلبه ودعاه.

﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ أي: فارزقني من محض فضلك ولداً صالحاً يتولاني؛ لأن امرأتي لا تصلح للولادة، وهذه الولاية؛ ولاية الدين، وميراث النبوة والعلم والعمل، ولهذا قال:

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ أي: ولداً يرثني ويرث أجداده آل يعقوب في العلم والنبوة، والمعنى: أنه يصلح؛ لأن يوحى إليه، فإن الأنبياء لا يورثون المال.

﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ أي: اجعله يا رب مرضياً منك ومن عبادك، براً تقياً، وقد قدم زكريا عليه السلام على طلب الولد أموراً ثلاثة: أحدها: كونه ضعيفاً، والثاني: أن الله ما رد دعاءه ألبتة، والثالث: كون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين، ثم صرح بسؤال الولد وذلك مما يزيد الدعاء توكيداً لما فيه من الاعتماد على حول الله وقوته والتبري عن الأسباب الظاهرة.

* وبعد هذه الدعوات المخلصة رحم الله عبده زكريا واستجاب دعاءه، وبشره بغلام، قال تعالى:

⑦ ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ أي: نبشرك بواسطة الملائكة بإجابة دعائك، وقد وهبنا لك غلاماً وسماه الله يحيى تشريفاً له، وكان اسماً موافقاً لمسماه، يحيا حياة حسية، فتتم به المنة، ويحيا حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح بالوحي والعلم والدين.

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: لم يسم أحد قبله بيحيى، فهو اسم غير مسبوق، سماه تعالى به، ولم يترك تسميته لوالديه. قال مجاهد: ليس له شبيه في الفضل والكمال، وهذا دليل على أن الاسم الغريب جدير بالأثرة.

* وبعد أن ساق الله البشارة بهذا المولود الذي طلبه، فرح فرحاً شديداً واستغرب وتعجب زكريا من حاله وكبر سنه، وعدم تيسر الأمور الطبيعية للإنجاب.

﴿٨﴾، ﴿٩﴾ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۞ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ أي: كيف يكون لي غلام؟ وهو استفهام تعجيب وسرور بالأمر العجيب، واستكشاف أنه بأي طريق يكون؟ والوجه الذي يأتيه منه الولد.

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي: والحال أن امرأتي كبيرة السن لم تلد في شبابها، فكيف وهي الآن عجوز.

﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أي: بلغت في الكبر والشيخوخة نهاية العمر، والمعنى: اليبس والجساوة في المفاصل والعظام. قال المفسرون: كان قد بلغ مائة وعشرين سنة، وامرأته ثمان وتسعين سنة، فأراد أن يطمئن ويعرف الوسيلة التي يرزقه بها هذا الغلام، وكأنه عليه السلام لم يستحضر هذا المانع لقوة الوارد في قلبه، وشدة الحرص العظيم على الولد، وفي هذه الحال حين قبلت دعوته، تعجب من ذلك، فإجابه الله بقوله:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: قال الله لزكريا: هكذا الأمر أخلقه من شيخين كبيرين، وخلقه وإيجاده سهل يسير عليَّ، وإن كان الأمر مستغرباً في العادة، وفي سنة الله في الخليقة، لكن الأمر سهل وهين على الخالق - جل وعلا -. ثم ذكر تعالى لزكريا ما هو أعجب مما سأل عنه، فقال:

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ أي: وقد خلقتك أنت من قبل يحيى ولم تك شيئاً مذكوراً، فأنا قادر على خلق يحيى منكما. قال المفسرون: ليس في الخلق هين وصعب على الله، فوسيلة الخلق للصغير والكبير، والجليل والحقير واحد ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وإنما هو أهون في اعتبار الناس، فإن القادر على الخلق من العدم قادر على الخلق من شيخين هرمين.

* قال زكريا زيادة، في اطمئنانه:

﴿١٠﴾، ﴿١١﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۞ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي: اجعل لي علامة تدل على ما بشرتني الملائكة به، من حمل امرأتي ليطمئن بها قلبي ولتستقر نفسي، فأجابه الله إلى طلبه رحمة به.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: علامتك ألا تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليهن، وأنت سوي الخلق صحيح معافى، ليس بك خرس ولا علة، قال المفسرون: اعتقل لسانه من غير مرض، وحبس لسانه فكان لا يستطيع أن يكلم أحداً، وهو مع ذلك يسبح ويقرأ التوراة، ولم يكن الإنجيل ظهر بعد الآن، هذا قبل ولادة عيسى عليه السلام فإذا أراد كلام الناس لم يستطع أن يكلمهم، فاطمأن قلبه، واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وامتثل لأمر الله له بالشكر بعبادته وذكره، فعكف في محرابه.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي: أشرف زكريا عليهم من مصلاه، وهو المكان الذي بُشر فيه بالولد وهو بتلك الصفة، متغيراً لونه لا يقدر على الكلام، فأنكروه، فقالوا: مالك يا زكريا؟

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: أشار بإصبعه إلى قومه بأن سبحوا الله في أوائل النهار وأواخره، شكراً له تعالى وكان كلامه مع الناس بالإشارة.

* دلت الآيات السابقة على ولادة يحيى عليه السلام، وشبابه، وتربيته، فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب، وبلغ السن الذي يؤمر فيه، علمه الله الكتاب وهو التوراة، وأمره أن يأخذ الكتاب بجد واجتهاد، قال تعالى:

﴿١٢﴾-﴿١٥﴾ ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۞

وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ **أي: قال الله له: يا يحيى خذ التوراة بجد وحرص واجتهاد، فامتثل أمر ربه، وأقبل على الكتاب، فحفظه وفهمه، وجعل الله فيه من الذكاء والفطنة ما لا يوجد في غيره، ولهذا قال:**

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ **أي: أعطيناه الحكمة ورجاحة العقل وفهم التوراة والفقه في الدين وهو في حال صغره وصباه قبل بلوغه سن الرجال. روي أن الصبيان قالوا ليحيى: اذهب بنا نلعب، فقال لهم: ما للعب خلقت.**

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ **أي: فعلنا ذلك رحمة ورأفة منا بأبويه، وعطفاً عليه، وتزكية له من الدنس والآثام والذنوب، والخصال الذميمة، تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله.**

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ **أي: عبداً صالحاً طاهراً متقياً لله، لم يعمل بذنب ولا بمعصية ولا هم بها قط.**

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ **لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته عقوقهما قولاً وفعلاً، أمراً ونهياً، أي: وجعلناه باراً بأبيه وأمه مطيعاً لهما، لا يعصيهما، محسناً إليهما بالقول والفعل، ولم يكن متكبراً عاصياً لربه، ولا مترفعاً على عباد الله، ولا على والديه، بل كان متواضعاً، متذللاً، مطيعاً، فجمع بين القيام بحق الله، وحق خلقه. ثم قال تعالى بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك:**

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ **أي: أمان من الله له، من حين مولده إلى حين مبعثه، في يوم ولادته، وفي يوم موته، ويوم يبعث من قبره حياً، وذلك يقتضي سلامته من الشيطان، والشر، والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال. وحياه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف، والحاجة، والافتقار إلى الله. وقال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الإنسان في هذه الأحوال، يوم يولد فيخرج مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث حياً فيرى نفسه في محشر لم ير مثله، فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلامة في هذه المواطن التي هي مظان العطب ومواطن الوحشة.**

*** ولما ذكر ﷻ قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة، انتقل منها إلى ما هو أعجب منها، تدرجاً من الأدنى إلى الأعلى، وهذه هي القصة الثانية في هذه السورة وهي أعجب من قصة ميلاد يحيى لأنها ولادة عذراء من غير بعل، وهي أغرب من ولادة عاقر من بعلها الكبير في السن. فعرضت السورة لقصة مريم العذراء وإنجابها لطفل من غير أب، وقد شاء الله ﷻ، أن يظهر تلك المعجزة الخارقة بميلاد عيسى من أم بلا أب، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلة أمام الأبصار، بعظمة الواحد القهار، قال تعالى:**

﴿١٦﴾-﴿٢١﴾ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا

الجزء السادس عشر — سورة مريم

يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾
وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ
يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ
وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ
مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا
فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ
أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ
رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى
غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً
مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ
مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ
قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾
فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾
وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾

٣٠٦

زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ أي: اذكر - يا محمد - في القرآن قصة مريم العجيبة الغريبة الدالة على كمال قدرة الله، وفيه الثناء على مريم، في حالها الحسنة، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل؛ فهذا من أعظم فضائلها أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل وسعيها الكامل.

﴿إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي: حين تنحت واعتزلت أهلها وقومها، في مكان شرقي بيت المقدس لتتفرغ لعبادة الله، وتقنت له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: جعلت بينها وبين قومها ستراً وحاجزاً يسترها عنهم وعن الناس.

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي: أرسلنا إليها جبريل ، والإضافة للتشريف، وإنما سمي روحاً؛ لأن الدين يحيا به وبوحيه.

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي: تصور لها في صورة إنسان تام الخلق، قال ابن عباس: جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعد الشعر مستوي الخلقة. قال المفسرون: إنما تمثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على السماع لكلامه، ودل على عفافها وورعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة في الحسن ونادته من بعيد.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي: فلما رأته مريم فزعت وخشيت أن يكون إنما أرادها بسوء، وهي في مكان منفرد، وبينها وبين قومها حجاب، فقالت له: إني أحتمي وألتجئ إلى الله منك، وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كنت تقياً، تخاف الله فاتركني، ولا تؤذني فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخويفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي: أمنها جبريل مما خافت، وقال لها مزيلاً لما حصل عندها من الخوف: لست مما تظنين، ما أنا إلا ملك مرسل من عند الله إليك.

﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ بإذن الله تعالى أو لأكون سبباً في هبة الغلام بالنفخ في الدرع، ليهب لك غلاماً طاهراً من الذنوب، وهذه بشارة بالولد وزكائه.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ أي: قالت مريم: كيف يكون لي ابن؟ وعلى أي صفة يوجد هذا مني؟

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي: ولست بذات زوج حتى يأتيني ولد، ولست بزانية، ولا يكون الولد عادة إلا من أحد هذين.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ قال جبريل: كذلك الأمر كما قلت يا مريم، لكن حكم ربك بمجيء الغلام منك وإن لم يكن لك زوج، فإن إعطاء الولد بلا أب سهل يسير على الله، يدل على كمال قدرة الله تعالى، ولهذا قال:

﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: وليكون مجيء هذا الغلام دلالة وعلامة للناس على قدرتنا العجيبة، وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوّع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى، فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، فلا إله غيره ولا رب سواه.

﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: ورحمة منَّا به، وبوالدته، وبالناس، يهتدون به وبشريعته، يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، وكان وجود عيسى أمراً مفروغاً منه لا يتغير ولا يتبدل؛ لأنه في سابق علم الله الأزلي مسطوراً في اللوح المحفوظ، فلا بد من نفوذه، فنفخ جبريل في جيبها.

* انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء، واستسلمت لقضاء الله تعالى. قال المفسرون: إن جبريل نفخ في جيب درعها فدخلت النفخة في جوفها، فحملت به، وتنحت إلى مكان بعيد عن الناس.

فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ
إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦ فَأَتَتۡ
بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧
يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ
أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي
ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي
نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي
جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ
وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ
ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ
إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ
فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ
بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ
وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨

﴿٢٢﴾، ﴿٢٣﴾ ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا * فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾.

﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ **أي: أنها حملت بالجنين وخافت من الفضيحة وكانت سنها ثلاث عشرة سنة فاعتزلت ـ وهو في بطنها ـ مكاناً بعيداً عن أهلها خشية أن يعيروها بالولادة من غير زوج.**

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ **أي: فلما قرب ولادها، ألجأها ألم الطلق وشدة الولادة ووجعها، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، إلى ساق نخلة يابسة لتعتمد عليه عند الولادة.**

﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ **أي: قالت جزعاً مما أصابها: يا ليتني كنت قد مت قبل هذا اليوم، وكنت شيئاً تافها لا يُعرف ولا يذكر. قال ابن كثير: عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود، فتمنت الموت استحياءً من الناس وخوف الفضيحة؛ لأنها عرفت أن الناس لا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عاهرة زانية، ولذلك قالت ما قالت.**

*** وفي هذه الحالة الصعبة، والطلق قد اشتد بها، وبها من آلام النفاس والنفس وهمومها الشيء الكثير، جاءها أمر سرى عنها ما هي فيه.**

﴿٢٤﴾-﴿٢٦﴾ ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا * وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا * فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ **أي: فناداها الملك من تحت النخلة قائلاً لها: لا تحزني ولا تهتمي بالوحدة، وعدم الطعام والشراب ومقالة الناس.**

﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ **أي: جعل بقربك جدول ماء صغير يجري أمامك تشربين منه. قال ابن عباس: ضرب جبريل برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولاً.**

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ **أي: حركي جذع النخلة اليابسة. وفي ذلك دلالة على القيام بالأسباب وبذلها وإلا فالله قادر على أن يسقط الرطب دون عمل أو بذل جهد وكد.**

﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ **أي: يتساقط عليك رطباً شهياً طرياً جُني من ساعته. أمر تعالى مريم المرأة الضعيفة النفساء بهز جذع النخلة التي تثقل الرجال –والله قادر أن يكرمها برزق– كما في سورة آل عمران ليعلم الناس أهمية بذل السبب، قال المفسرون: أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع بعد رؤيتها عين الماء العذب الذي جرى جدولاً، وذلك ليسكن ألمها وتعلم أن ذلك كرامة من الله لها، وقيل: التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت. قال غير واحد من السلف: ما من شيء خير للنفساء من الرطب، ولو كان لأطعمه الله مريم وقت نفاسها بعيسى.**

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي﴾ **أي: كلي يا مريم من هذا الرطب الشهي، واشربي من هذا الماء العذب السلسبيل.**

﴿وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ **أي: طيبي نفساً بهذا المولود الرضي، ولا تحزني، فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكل والمشرب الهني، وأما من جهة قالة الناس فأمرها ﷻ بقوله:**

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي: فإن رأيت أحداً من الناس وسألك عن شأن المولود.

﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: قولي: أوجبت على نفسي لله سكوتاً وصمتاً عن الكلام، وكانوا يصومون عن الكلام، كما يصومون عن الأكل والشرب.

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أي: لن أكلم اليوم أحداً من الناس، لا تخاطبيهم بكلام لتستريحي من قولهم وكلامهم، وكان معروفاً عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة. أمرت بالكف عن الكلام ليكفيها ولدها ذلك فتكون آية باهرة.

* فلما ولدته وأُمرت أن لا تكلم الناس، وأنها ستُكفى أمرها، ويُقام بحجتها، فأخذت وليدها وأتت به إلى قومها تحمله، قال تعالى:

﴿٢٧﴾-﴿٣٣﴾ ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا * يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا * وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا * وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ أي: أتت مريم قومها من ذلك المكان البعيد، بعد أن طهرت من النفاس، تحمل ولدها عيسى على يديها، وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأتت غير مبالية ولا مكترثة.

﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: فلما رأوها وابنها أعظموا أمرها واستنكروه، وقالوا لها: لقد جئت شيئاً عظيماً منكراً، وأرادوا بذلك البغاء، حاشاها من ذلك.

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ أي: يا شبيهة هارون ـ وهو أخ لها ـ في الصلاح والعبادة، ما كان أبوك عمران رجلاً فاجراً يأتي الفواحش (وهارون ليس هو هارون بن عمران أخا موسى؛ لأن بينهما قروناً كثيرة).

﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أي: وما كانت أمك زانية، فكيف صدر هذا منك، وأنت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة؟

وهكذا البيوت الصالحة يستهجن ويستغرب من أهلها طريقاً غير طريق الصلاح والفلاح.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي: لم تجبهم مريم، وأشارت إلى مولودها عيسى ليكلموه ويسألوه، فغضبوا وتعجبوا من ذلك.

﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي: إنهم لما استرابوا في أمرها، واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا منكرين عليها: كيف نكلم طفلاً رضيعاً لا يزال في السرير يغتذي بلبن أمه؟ ولم تجر به عادة ولا حصل من أحد في ذلك السن. روي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وكلمهم، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان.

﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ قال عيسى وهو في مهده يرضع: أنا عبد الله خلقني بقدرته من دون أب، قدم ذكر العبودية، ليبطل قول من ادعى فيه الربوبية، فإن أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى، وبرأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه.

﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ أي: قضى ربي أن يؤتيني الكتاب، وهو: الإنجيل، ويجعلني نبيّاً، وإنما جاء بلفظ الماضي؛ لإفادة تحققه، فإن ما حكم به الله أزلاً لا بد إلا أن يقع، وفي هذه تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة، فأخبرهم بأنه عبد الله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من كماله لنفسه، ثم ذكر تكميله لغيره، فقال:

﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي: جعل فيَّ البركة والخير والنفع العظيم للعباد حيثما كنت وأينما حللت، فالبركة جعلها الله فيَّ من تعلم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، فكل من جالسه، أو اجتمع به، نالته بركته، وسعد به مُصاحبه.

﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: وأمرني بالقيام

بحقوقه التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده، التي أجلها الزكاة ما بقيت حيّاً.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ أي: وأمرني أيضاً، أن أبر بوالدتي، فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها، لشرفها وفضلها، ولكونها والدة لها حق الولادة وتوابعها. ذكر بره بوالدته بعد طاعة الله ﷻ؛ لأنه سبحانه كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ ولم يجعلني متعظماً متكبراً على أحد، شقياً عاقاً في حياتي، بل جعلني مطيعاً له، خاضعاً خاشعاً متذللاً، متواضعاً لعباد الله.

وقد خصه الله -تعالى- بذلك بين قومه؛ لأن بر الوالدين كان ضعيفاً في بني إسرائيل يومئذ وخاصة الوالدة تستضعف ولأن فرط حنانها وشفقتها قد يجرئان الولد على التساهل في البر بها.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي: ومن فضل ربي وكرمه، حصلت لي السلامة في يوم ولادتي، وفي يوم مماتي، وفي يوم خروجي حيّاً من قبري، من الشر والشيطان والعقوبة هذا ما نطق به المسيح عليه السلام وهو طفل رضيع في المهد، وهذا إثبات منه لعبوديته لله ﷻ، وأنه مخلوق من خلق الله يحيى ويموت ويبعث كسائر الخلائق.

* وهكذا يعلن عيسى عبوديته لله، فليس هو إلهاً، ولا ابن إله، ولا ثالث ثلاثة كما يزعم النصارى، إنما عبد ورسول، يحيا ويموت كسائر البشر، خلقه الله من أم دون أب، ليكون آية على قدرة الله الباهرة، ثم أكد ﷻ بأن عيسى الموصوف بتلك الصفات هو قول الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، قال تعالى:

(٣٤)-(٣٧) ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: ذلك الذي قصصنا عليك -يا محمد- هو القول الحق في عيسى ابن مريم، من غير شك ولا مرية، لا ما يصف النصارى من أنه ابن الله، أو اليهود من أنه ابن زنى، ويشكون في أمره ويختلفون.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ أي: ما ينبغي لله ولا يجوز له ولا يليق به أن يتخذ ولداً؛ لأن ذلك من الأمور المستحيلة؛ لأنه الغني الحميد، المالك لجميع المماليك، فكيف يتخذ من عباده ومماليكه ولداً؟

﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ أي: تنزه الله وتقدس عن الولد، والشريك، والنقص.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: إذا أراد شيئاً وحكم به، من الأمور الصغار والكبار، قال له: كن فيكون، ولا يحتاج إلى معاناة أو تعب، ومن كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ قال المفسرون: وهذا كالدليل لما سبق، كأنه قال: إن اتخاذ الولد شأن العاجز الضعيف المحتاج الذي لا يقدر على شيء، وأما القادر الغني الذي يقول للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ لا يحتاج في اتخاذ الولد إلى إحبال الأنثى وحيث أوجده بقوله: ﴿كُن﴾ لا يسمى ابناً له بل هو عبده، فهو تبكيت وإلزام لهم بالحجج الباهرة.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: ومما أمر به عيسى قومه وهو في المهد، أن أخبرهم أن الله ربه وربهم الذي خلقهم وصورهم، فليفردوه بالعبادة، واجتهدوا إليه في الإنابة، هذا هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه. وبين تعالى حال عيسى ابن مريم الذي لا يُشك فيه ولا يمترى، وذكر أمر الاختلاف فيه، فقال:

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي: اختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى وصاروا أحزاباً متفرقين، فمنهم من يزعم أنه ابن الله، ومنهم من يزعم أنه ابن زنى، وكلها أقوال باطلة، وآراء فاسدة، وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا قال:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: تهديد ووعيد شديد للذين كفروا بالله ورسله وكتبه، من المشهد الهائل ومن شهود هول الحساب والجزاء، يوم القيامة.

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
٣٩ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ٤٠ وَٱذْكُرْ
فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ
لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ٤٢ يَٰٓأَبَتِ
إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا
سَوِيًّا ٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ
عَصِيًّا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ٤٥ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ٤٦ قَالَ
سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ٤٧
وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ
أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ٤٩
وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ٥٠
وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ٥١

٣٠٨

*** يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة: إنهم يكونون أسمع شيء وأبصره، قال تعالى:**

(٣٨)-(٤٠) ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ **أي: ما أسمعهم وأبصرهم في ذلك اليوم الرهيب يوم يقومون لله، فيقرون بكفرهم وشركهم وأقوالهم.**

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ **لكن الظالمون في هذه الدنيا في بعد وغفلة عن الحق واضح جلي، ليس لهم عذر؛ لأنهم بين معاند ضال على بصيرة، عارف بالحق صادف عنه، وبين ضال عن طريق الحق، ولكنه راض بضلاله وما هو عليه من سوء أعماله.**

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ **وأنذر -يا محمد- وأعلم الخلائق وخوفهم يوم الندامة، وهو يوم القيامة، يوم يتحسر المسيء إذ لم يحسن، والمقصر إذ لم يزدد من الخير. وهي حسرات متلاحقة، يوم حسرتهم وندمهم على ما فرطوا في جنب الله، وحسرتهم يوم أورثت مساكنهم من الجنة أهل الإيمان بالله والطاعة له، وحسرتهم يوم أدخلوا من النار، وأيقن الفريقان بالخلود الدائم، والحياة التي لا موت بعدها، فيالها من حسرة وندامة.**

﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ **أي: قضى أمر الله في الناس، فريق في الجنة، وفريق في السعير.**

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ **أي: وهم اليوم في غفلة سادرون، لا يصدقون بالبعث والنشور.**

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ **أي: الله ﷻ تفرد بالملك والبقاء، وهو الوارث للأرض وما عليها من الكنوز والبشر، يميت سكان الأرض ويهلكهم جميعاً، ويبقى وحده فيرثهم -جل وعلا-.**

﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ **أي: مرجع الخلائق ومردهم ومصيرهم إلينا للحساب والجزاء.**

*** لما ذكر تعالى قصة مريم واختلاف النصارى في شأن عيسى حتى عبدوه من دون الله، أعقبها بذكر قصة إبراهيم وتحطيمه الأصنام لتذكير الناس بما كان عليه خليل الرحمن من توحيد الرب الديان، وسواء في الضلال من عبد بشراً أو عبد حجراً، فالنصارى عبدوا المسيح، ومشركو العرب عبدوا الأوثان، قال تعالى:**

(٤١)-(٤٥) ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا * يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ **واذكر -يا محمد- في الكتاب العزيز خليل الرحمن إبراهيم ﷺ، وقصته مع أبيه.**

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ **أي: ملازماً للصدق مبالغاً فيه، جامعاً بين الصديقية والنبوة، والغرض تنبيه العرب إلى فضل إبرهيم الذي يزعمون الانتساب إليه، ثم يعبدون الأوثان مع أنه إمام الحنفاء، وقد جاء بالتوحيد الصافي الذي دعاهم إليه خاتم المرسلين.**

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ أي: ناداه متلطفاً بخطابه، مستميلاً له نحو الهداية والإيمان ذاكراً أبوته الدالة على توقيره، ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال، يا أبت لم تعبد حجراً لا يسمع، ولا يبصر، ولا يجلب لك نفعاً، أو يدفع عنك ضرّاً؟

﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ كرر النصح باللطف، ولم يصف أباه بالجهل الشنيع في عبادته للأصنام، وإنما ترفق وتلطف في كلامه، وعدل إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى، أي: جاءني من العلم بالله ومعرفة صفاته القدسية ما لا تعلمه أنت.

﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي: اقبل نصيحتي، وأطعني أرشدك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك، وهو دين الله الذي لا عوج فيه، وهو عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ أي: لا تطع أمر الشيطان فيما يزين لك من الكفر وعبادة الأوثان، فإن من عبد غير الله فقد عبد الشيطان.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا﴾ إن الشيطان عاص للرحمن، مستكبر على عبادة ربه، فمن أطاعه أغواه، قال القرطبي: وإنما عبر بالعبادة عن الطاعة؛ لأن من أطاع شيئاً في معصية الله فقد عبده، وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن، إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتغلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته، ولهذا قال:

﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾ تحذير من سوء العاقبة، والمعنى: أخاف أن تموت على كفرك فيحل بك عذاب الله الأليم، وتكون قريناً للشيطان بالخلود في النيران، ومن تلطفه في الدعوة نسب الخوف إلى نفسه دون أبيه، كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه، وإيراد الكلام بلفظ ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ في كل خطاب دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب، وإرشاده إلى الصواب، وقد رتب إبراهيم الكلام في غاية الحسن؛ لأنه نبهه أولاً إلى بطلان عبادة الأوثان، ثم أمره باتباعه في الاستدلال وترك التقليد الأعمى، ثم ذكره بأن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام مع رعاية الأدب والرفق، وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ دليل على شدة تعلق قلبه بمصالحه قضاء لحق الأبوة.

ابتدأ إبراهيم الخليل خطابه بذكر أبوته الدالة على التوقير، ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال، ولم يقل: لا تعبد، ثم قال: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ولم يقل: أنت جاهل، ونسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه، وقال: ﴿يَمَسَّكَ﴾ فذكر لفظ المس الذي هو ألطف من غيره، ثم نكر العذاب، ثم ذكر الرحمن، ولم يقل الجبار ولا القهار، فأي خطاب ألطف وألين من هذا.

* فلما كان بعد هذه الدعوات والنداءات من إبراهيم لأبيه، إلا أن إجابة أباه بجواب جاهل، فقال:

﴿٤٦﴾-﴿٤٨﴾ ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا * قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: قال له أبوه آزر مجيباً له: أتارك - يا إبراهيم - عبادة آلهتي ومنصرف عنها، استفهام فيه معنى التعجيب والإنكار لإعراضه عن عبادة الأوثان، كأن ترك عبادتها لا يصدر عن عاقل، وقد قابل أبوه استعطافه ولطفه في الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد، فناداه باسمه ولم يقابل قوله: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ بـ «يا ابني» وقدم الخبر وصدره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة كأنها مما لا يرغب عنها عاقل ولأنه كان أنعم عنده، ثم هدده بقوله:

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي: لئن لم تترك شتم وعيب آلهتي ودعوتي إلى عبادة الله، لأرجمنك بالحجارة.

﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ ولا تكلمني

زمناً طويلاً، أبداً بهذه الجهالة. تلقى آزر الدعوة إلى الهدى، وبهذه القسوة قابل القول المؤدب المهذب، وكذلك شأن الكفر مع الإيمان، وشأن القلب الذي هذبه الإيمان، والقلب الذي أفسده الطغيان.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ أي: قال إبراهيم في جوابه: سلام توديع ومتاركة، أو تقريب وملاطفة، ولذا وعده بالاستغفار، والمعنى: أما أنا سلمت مني، فلا ينالك مني أذى ولا مكروه، ولا أقول لك بعد ما يؤذيك لحرمة الأبوة، وسأسأل الله أن يهديك ويغفر لك ذنبك، وقد استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه مدة طويلة وبعد أن هاجر إلى الشام، وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق ـ عليهما السلام ـ في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين في ابتداء الإسلام، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك، حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤] الآية، يعني إلا في القول، فلا تتأسوا به، ثم بين تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ أي: مبالغاً في اللطف بي والاعتناء بشأني، فلم يزل يستغفر الله له رجاء أن يهديه الله، فلما تبين أنه عدو الله، وأنه لا يفيد فيه شيئاً، ترك الاستغفار له وتبرأ منه.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أترككم وأفارقكم وما تعبدون من دون الله من الأوثان، وأرتحل عن دياركم، فهاجر عليه السلام من أرض بابل إلى بلاد الشام.

﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ أي: وأعبد ربي وحده مخلصاً له العبادة، ثم قال تواضعاً وهضماً للنفس ومعرضاً بشقاوتهم بدعاء آلهتهم.

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ أي: راجياً بسبب إخلاصي العبادة له أن يسعدني وألا يجعلني شقياً، وفيه تعريض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم.

* وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم للأوثان، وهجر الأهل والأوطان، فلم يتركه الله وحيداً بل وهب له ذرية وعوضه خيراً، قال تعالى: ﴿٤٩﴾، ﴿٥٠﴾ ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۞ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ لما هاجر إبراهيم إلى أرض الشام، واعتزل أباه وفارق قومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، فوهب له إسحاق ويعقوب أولاداً أنبياء، فآنس الله بهما وحشته عن فراق قومه بأولئك الأولاد الأطهار، يعقوب وإسحاق، وهما شجرتا الأنبياء فقد جاء من نسلهما أنبياء بني إسرائيل. قال ابن كثير: المعنى جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء، أقر الله بهم عينه في حياته بالنبوة، ودل على أن اعتزال الكفار والأوثان والبراءة منهم من فوائده: تفضل الله تعالى بالذرية الطيبة الصالحة على فاعله.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ...﴾

قال ابن عاشور: «رتب جزاء الله إبراهيم ترتيباً بديعاً؛ إذ جوزي بنعمة الدنيا وهي العقب الشريف، ونعمة الآخرة وهي الرحمة، وبأثر النعمتين وهو لسان الصدق».

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ أي: كل واحد منهما جعلنا نبياً.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ وأعطينا الجميع -إبراهيم وإسحاق ويعقوب- كل الخير الديني والدنيوي، من المال والولد والعلم والعمل، وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة. والأخوة رحمة من رحمات الله.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي: رزقناهم الثناء الحسن، وجعلنا لهم ذكراً رفيعاً حسناً في الناس؛ لأن جميع أهل الملل والأديان يثنون عليهم، لما لهم من الخصال المرضية، ويصلون على إبراهيم وعلى آله إلى قيام الساعة.

* لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل عليه السلام وأثنى عليه، عطف بذكر الكليم موسى ابن عمران عليه السلام على وجه التبجيل والتعظيم، والتعريف بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة، فقال تعالى:

﴿٥١﴾-﴿٥٣﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا * وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا * وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ **أي: اذكر -يا محمد- لقومك في القرآن العظيم خبر موسى الكليم.**

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾ **أي: استخلصه الله لنفسه، واصطفاه من بين الخلق لكلامه.**

﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ **أي: من الرسل الكبار، والأنبياء الأطهار، جمع الله له بين الوصفين الجليلين، فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع، دقه وجله، والنبوة تقتضي إيحاء الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق، وإنما أعاد لفظ «كان» لتفخيم شأن النبي المذكور.**

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ **أي: ونادى الله موسى وكلمه من جهة جبل الطور، من ناحية اليمين حين كلمه بلا واسطة حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة، وفي هذا إثبات صفة الكلام لله تعالى، كما يليق بجلاله وكماله.**

﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ **أي: أدنيناه للمناجاة وشرفناه حين كلمناه. قال ابن عباس: أدني موسى من الملكوت ورفعت له الحجب حتى سمع صرير الأقلام. وفي هذه إثبات الكلام لله تعالى، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.**

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾ **أي: وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه؛ أي: وهبنا له من نعمتنا عليه وترؤفنا عليه، أخاه هارون فجعلناه نبياً إجابة لدعائه يؤيده ويؤازره، وهذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه، ونصحه لأخيه هارون، أنه سأل ربه أن يشركه في أمره وأن يجعله رسولاً مثله، فاستجاب الله له ذلك. قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً.**

*** ثم ذكر ﷻ في القرآن الكريم، إسماعيل ؏، هذا النبي العظيم، الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذي منهم سيد ولد آدم، قال تعالى:**

﴿٥٤﴾، ﴿٥٥﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا * وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَ﴾ **أي: اذكر -يا محمد- في القرآن العظيم خبر جدك «إسماعيل» الذبيح ابن إبراهيم، وهو أبو العرب جميعاً.**

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ **أي: كان صادقاً في وعده، لا يعد بوعد إلا وفَّى به. قال المفسرون: وذكر بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً وإكراماً؛ ولأنه المشهور**

وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن
رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ
صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ
كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ
ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن
ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ
ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾ ۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ
خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا
﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ
وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ
بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا
سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي
نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ
مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾

من خصاله؛ ولأنه عانى في الوفاء بالوعد ما لم يعانه غيره من الأنبياء، فمن مواعيده الصبر وتسليم نفسه للذبح، فلذلك أثنى الله عليه.

﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ **أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة، قال ابن كثير: وفي الآية دليل على شرف إسماعيل حيث بعث رسولاً إلى جرهم.**

﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ **أي: كان مقيماً لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فكمل نفسه، وكمل غيره، وخصوصاً أخص الناس عنده، وهم أهله، لأنهم أحق بدعوته من غيرهم.**

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ **أي: قائماً لله بطاعته، فنال رضاه وجعله من**

خواص عباده وأوليائه المقربين، وهذا نهاية المدح؛ لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات.

* ثم ذكر ﷻ إدريس عليه السلام، على وجه التعظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال، فقال تعالى:

(٥٦)، (٥٧) ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا * وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ أي: اذكر - يا محمد - في الكتاب الجليل خبر - إدريس - إنه كان ملازماً للصدق في جميع أحواله، موحى إليه من الله. قال المفسرون: إدريس هو جد نوح، وأول مرسل بعد آدم، وأول من خط بالقلم ولبس المخيط، وكانوا من قبل يلبسون الجلود، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة.

﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أي: رفعنا ذكره وأعلينا قدره في الدنيا والآخرة، بشرف النبوة والزلفى عند الله، فكان عالي الذكر، عالي المنزلة.

* لما ذكر تعالى الأنبياء في الآيات السابقة، وذكر فضائلهم ومناقبهم، ومراتبهم، قال:

(٥٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: هؤلاء الذين قصصنا عليك خبرهم - يا محمد - هم أنبياء الله ورسله الكرام، الذين أنعم الله عليهم بشرف النبوة وهم عشرة، أولهم زكريا، وأخرهم إدريس. و﴿مِّنَ﴾ للبيان؛ لأن جميع الأنبياء منعم عليهم.

﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ أي: من نسل آدم كإدريس ونوح.

﴿وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ﴾ ومن ذرية من حملنا مع نوح في السفينة، كإبراهيم، فإنه من ذرية سام بن نوح.

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ كإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

﴿وَإِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ومن ذرية إسرائيل وهو يعقوب، كموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، فهذه خير بيوت العالم.

﴿وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾ وممن هديناهم للإيمان واصطفيناهم لرسالتنا ووحينا.

﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا﴾ أي: أخبر الله أن الأنبياء إذا سمعوا كلام الله سجدوا، وبكوا من خشية الله، خضوعاً واستكانة وحمداً وشكراً، على ما هم فيه من النعم العظيمة، مع ما لهم من علو الرتبة، وسمو النفس، والزلفى من الله تعالى، وذلك لما في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة. قال القرطبي: وفي الآية دلالة على أن لآيات الرحمن تأثيراً في القلوب، وفي إضافة الآيات إلى اسمه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دلالة على أن آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم حيث هداهم إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة، وهنا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعاً لمنوالهم. قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم، فسجد، وقال: هذا السجود فأين البكي؟ يريد البكاء.

* لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء المخلصين المتبعين لمرضاة ربهم، المنيبين إليه، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره، المؤدين فرائض الله التاركين لزواجره، ذكر من أتى بعدهم، وبدلوا ما أمروا به، فقال تعالى:

(٥٩)، (٦٠) ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ أي: جاء من بعد هؤلاء الأنبياء والأتقياء قوم أشقياء، تركوا الصلوات المفروضة، أو فوتوا وقتها، أو تركوا أركانها وواجباتها، وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع، لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد، واتبعوا طريق الشهوات والمعاصي.

﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ أي: سوف يلقون كل شر وخسار ودمار في جهنم. قال ابن عباس: غي واد في جهنم، وإن أودية جهنم لتستعيذ بالله من حره. ثم استثنى تعالى، قال:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ إلا من تاب عن الشرك والبدع والمعاصي، وأناب وأصلح عمله على مقتضى شريعة الله، قاصداً به وجه ربه، على سنة نبيه ﷺ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ أي: فأولئك الذين جمعوا بين التوبة، والإيمان، والعمل الصالح، يدخلون الجنة المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم، ولا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً بل يجدونها كاملة، موفورة أجورها، مضاعفاً عددها.

* ولما ذكر دخولهم الجنة، ذكر أن هذه الجنة ليست كسائر الجنات، وإنما هي جنات إقامة، وأنس وفرح وسرور، قال تعالى:

﴿٦١﴾-﴿٦٣﴾ ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ۞ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۞ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: هي جنات إقامة دائمة التي وعدهم بها ربهم، فآمنوا بها بالغيب قبل أن يروها تصديقاً بوعده تعالى. وأضاف ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ لأنها فيها من الرحمة والإحسان والفضل والإكرام، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ أي: إن موعوده تعالى بالجنة آت وحاصل، لا يخلف الله الميعاد.

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا﴾ أي: لا يسمع أهل الجنة فيها شيئاً من فضول الكلام وفحشه، لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم على وجه التحية والإكرام.

﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ أي: ولهم ما يشتهون في الجنة من أنواع المطاعم والمشارب دون كد ولا تعب، ولا تنغص ولا انقطاع على مقدار طرفي النهار من الدنيا، إذ لا ليل ولا نهار، والرزق بالبكرة والعشي أفضل العيش عند العرب، فوصف الله جنته بذلك، ثم ذكر هذه الأوصاف، فقال:

﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ أي: هذه الجنة التي وصفناها بهذه الصفات العظيمة، هي التي نورثها لعبادنا المتقين الذين يفعلون المأمورات ويجتنبون المحذورات، فجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه، ولا يبغون عنه حولاً.

﴿٦٤﴾،﴿٦٥﴾ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ۞ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ﴾ وقل - يا جبريل - لمحمد: ما نتنزل -نحن الملائكة- من السماء إلى الأرض إلا بأمر الله وإذنه فليس لنا من الأمر شيء. عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» فنزلت الآية ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ...﴾ الآية.

﴿لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: لله -جل وعلا- جميع الأمر، أمر الدنيا والآخرة، وهو المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة، فكيف نقدم على فعل شيء إلا بأمره وإذنه؟

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾ أي: لا يترك شيئاً من أعمال العباد، ولم يكن الله لينساك ويهملك. والناسي: التارك.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ﴾ أي: هو رب العوالم علويها وسفليها، ومالك ذلك كله وخالقه ومدبره، وكون السموات والأرض على أحسن نظام وأكمله، ليس فيه غفلة ولا إهمال، ولا سدى، ولا باطل، برهان قاطع على علمه الشامل، فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغلها بما ينفعك ويعود عليك طائلة، وهو عبادته وحده لا شريك له.

﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي: اصبر نفسك على تكاليف العبادة وجاهدها، واصبر على المشاق، لأجل عبادة الخلاق.

رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ
هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ
أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ
وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ
لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ
هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ
حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ
فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾
وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾
قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟
مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى
وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

٣١٠

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أي: هل تعلم لله له شبيهاً ونظيراً، ومماثلاً من المخلوقين، وهذا استفهام بمعنى النفي؟ ليس كمثله شيء في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله. وقيل في قوله تعالى ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ أنها جمعت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

ومن مظاهر تفرده تعالى أنك لا تجد على وجه الأرض ومر الزمان من تسمى باسم (الله) أو (الرحمن) سواه تعالى.

* لما ذكر تعالى طائفة من قصص الأنبياء للعظة والاعتبار، وذكر أصحاب الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، ذكر إثبات قدرته تعالى على الإحياء بعد الفناء، وإثبات يوم المعاد، وذكر هنا بعض شبهات المكذبين للبعث النشور، المستبعدين لوقوعه، ورد عليها بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، فقال تعالى:

﴿٦٦﴾-﴿٧٠﴾ ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا * فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أي: يقول الكافر الذي لا يصدق بالبعث بعد الموت على وجه الإنكار والاستبعاد: أئذا مت وأصبحت تراباً ورفاتاً فسوف أخرج من القبر حيّاً؟ هذا لا يكون ولا يتصور، وهذا بحسب عقله الفاسد ومقصده السيء. قال ابن كثير: يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته، واللام في «لسوف» للمبالغة في الإنكار، وهو إنكار منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى، أين كان؟ وكيف كان؟ ولو تذكر لعلم أن الأمر أيسر مما يتصور.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ أي: أولا يلفت نظره، ويتذكر هذا المكذب الجاحد أول خلقه فيستدل بالبداءة على الإعادة؟ ولم يك شيئاً، ويعلم أن الله الذي خلقه من العدم قادر على أن يعيده بعد الفناء وتشتت الأجزاء؟ قال بعض العلماء: لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها، إذ لا شك أن الإعادة ثانياً أهون من الإيجاد أولاً، وفي قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعوة للنظر، بالدليل العقلي، بألطف خطاب، وأن إنكار من أنكر ذلك، مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه، لم ينكر ذلك.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ فوربك - يا محمد - قسم من الله تعالى بنفسه الشريفة وهو أصدق القائلين بربوبيته، ليحشر هؤلاء المكذبين بالبعث مع الشياطين الذين أغووهم. قال المفسرون: يحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة.

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ أي: نأتين بهؤلاء المجرمين حول جهنم قعوداً على الركب، من ضيق المكان، وشدة الهول والفزع، لا يطيقون القيام على أرجلهم لما يدهمهم من شدة الأمر، منتظرين الحكم الكبير المتعال، ولهذا ذكر حكمه فيهم، فقال:

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: لنأخذن ولنخرجن من كل فرقة وجماعة ارتبطت بمذهب.

﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ أي: من منهم أعصى لله وأشد تمرداً وجرأة، وأعظمهم ظلماً وفجوراً، والمراد أنه يؤخذ من هؤلاء المجرمين ليقذف في جهنم الأعتى فالأعتى. قال ابن مسعود: يبدأ بالأكابر جرماً.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي: علمنا محيط بكل شيء، فنحن أعلم بمن هم أحق بدخول النار والاصطلاء بحرها، وبمن يستحق تضعيف العذاب، فنبدأ بهم.

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة، وعن أهوال ذلك اليوم الرهيب، حيث يجثو فيه الكفرة المجرمون حول جهنم ليقذفوا فيها، ويكونوا وقوداً لها. ثم أتت الآيات في سياق عام لسائر الخلائق برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فقال تعالى:

﴿٧١﴾، ﴿٧٢﴾ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي: وما منكم أحد من بر أو فاجر إلا وسيرد على النار بالمرور على الصراط المنصوب على متن جهنم، المؤمن للعبور، والكافر للقرار.

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: كان ذلك الورود قضاء لازماً لا يمكن خلفه.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ أي: ننجي من جهنم بعد مرور الجميع عليها الذين اتقوا ربهم بطاعته، والبعد عن معصيته.

﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ ونترك الظالمين لأنفسهم بالكفر بالله في جهنم قعوداً على الركب، والآية دليل على أن المراد بالورود، الجثو حواليها، وأن المؤمنين يفارقون الفجرة إلى الجنة بعد نجاتهم، ويبقى الفجرة فيها على هيئاتهم.

* ثم يخبر تعالى عن حال الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة، بينة الحجة، واضحة البرهان، قال تعالى:

﴿٧٣﴾، ﴿٧٤﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: إذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين، واضحات الإعجاز، بينات المعاني، واضحات الدلالة على وحدانية الله وصدق رسله، توجب لمن سمعها صدق الإيمان وشدة الإيقان، قابلوها بضد ما يجب لها.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: قال الكفرة المترفون لفقراء المؤمنين، أيُّ الفريقين: ـ نحن أو أنتم ـ أحسن مسكناً، وأطيب عيشاً، وأكرم منتدى ومجلساً؟ وذلك أن المشركين لما سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها، أخذوا في الافتخار، وبما لهم من حظوظ الدنيا، والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم لقصور نظرهم، وكثيراً ما يكون ذلك سبباً لهلاك صاحبه، وشقائه وشره، ولهذا رد الله على شبهتهم، بقوله:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ أي: وكثير من الأمم المكذبين بآياتنا، أهلكناهم بكفرهم كانوا أكثر من هؤلاء متاعاً، وأجمل هيئة ومنظراً، فكما أهلكنا السابقين نهلك اللاحقين، فلا يغتر هؤلاء بما لديهم من النعيم والمتاع.

* لما ذكر تعالى دليلهم الباطل، الدال على شدة عنادهم، وقوة ضلالهم، بين سبحانه أمراً آخر، فقال:

﴿٧٥﴾ ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين الزاعمين أنهم على حق: من كان في الكفر منا ومنكم بأن رضيه لنفسه وسعى فيه، فليمهله الرحمن فيما هو فيه، وليدعه في طغيانه، ويزيده فيها حباً، عقوبة له على اختيارها على الهوى، حتى يلقى ربه وينقضي أجله، وهذا غاية في التهديد والوعيد.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: حتى يرى القائلون، ما يحل بهم من وعد الله.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا
٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ٧٨ كَلَّا
سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ٧٩ وَنَرِثُهُۥ
مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ٨٠ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً
لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ
عَلَيْهِمْ ضِدًّا ٨٢ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ٨٣ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ٨٤
يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ
إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ٨٦ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ
ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ٨٧ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ٨٨ لَّقَدْ
جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ
وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا
٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ
وَعَدَّهُمْ عَدًّا ٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ٩٥

﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: إما عذاب الدنيا بالقتل والأسر، أو عذاب الآخرة بما ينالهم يوم القيامة من الشدائد والأهوال.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي: فحينئذ تتكشف الحقائق وتتضح الأمور، أي الفريقين شر منزلة عند الله، وأقل فئة وأنصاراً، هل هم الكفار أم المؤمنون؟ وهذا في مقابلة قولهم ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

*** ولما ذكر تعالى أنه يمد الظالمين في ضلالهم، ويزيدهم في غيهم جزاء عنادهم ومكابرتهم، ذكر حال المهتدين وما يسبغ عليهم من آلائه ونعمه، فقال تعالى:**

﴿٧٦﴾ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ ويزيد الله المؤمنين المهتدين، إيماناً وإيقاناً على يقينهم، وبصيرة وهداية. والهدى يشمل العلم النافع والعمل الصالح.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ذخراً في الآخرة، خير عند الله من كل ما يتباهى به أهل الأرض من حيث الأجر والثواب.

﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ وخير رجوعاً وعاقبة، فإن نعيم الدنيا زائل، ونعيم الآخرة باق دائم، وهذا في مقابل نعيم المكذبين الزائل والفاني، وفيه تهكم بالكفار؛ لأنهم قالوا للمؤمنين: أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً.

*** ثم ذكر ﷻ قصة الكافر المعاند الذي أنكر البعث والنشور، قال تعالى:**

﴿٧٧﴾-﴿٨٠﴾ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا * كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ الاستفهام للتعجب، أي: تعجب وأخبر -يا محمد- عن قصة هذا الكافر الذي جحد بآيات الله، وزعم أن الله سيعطيه في الآخرة المال والبنين، عن خباب ابن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً ـ أي حداداً ـ وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ـ أي: تموت الآن وتبعث أمامي وهذا من باب المستحيل ـ قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي مال أعطيتك، فأنزل الله الآيات.

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ أي: هل اطلع وأحاط علمه بالغيب الذي تفرد به علام الغيوب؟ فرأى أن له مالاً وولداً.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أم أعطاه الله عهداً موثقاً بذلك فهو يتكلم عن ثقة ويقين؟ وإذا انتفى هذان الأمران، علم بذلك بطلان الدعوى، ولهذا قال تعالى:

﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ رد عليه وردع لما قبلها، وتأكيد لما بعدها، ولفظة «كلا» للردع والزجر، أي: ليس الأمر كما زعم ذلك الكافر، ليرتدع عن تلك المقالة الشنيعة وسنحفظ عليه ما يقول فنجازيه به في الآخرة.

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: سنزيد له في العذاب ونطيله عليه جزاء طغيانه واستهزائه، ونضاعف له مدد العذاب مكان الإمداد بالمال والولد.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي: ونرثه ما يخلفه من المال والولد بعد إهلاكه، ويأتينا وحيداً لا مال معه ولا

ولد، ولا نصير له ولا سند، فيرى من وخيم العذاب وأليم العقاب، ما هو جزاء أمثاله من الظالمين.

* ثم ذكر ﷻ حال الكفار وعبادتهم غير الله ﷻ وأن من عقوبة ذلك في الدنيا، أن سلط عليهم الشياطين وقيضها لهم تغويهم وتغريهم، وتفسد عليهم حياتهم، قال تعالى:

﴿٨١﴾-﴿٨٤﴾ ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا * أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا * فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا﴾.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ واتخذ هؤلاء المشركون أصناماً عبدوها من دون الله لينالوا بها العز والشرف والنصر، ويكونوا لهم شفعاءً وأنصاراً ينقذونهم من العذاب كما زعموا.

﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ أي: ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا، فإن الآلهة التي عبدوها ستتبرأ من عبادتهم، ويكونون لهم أعداء يوم القيامة. قال ابن تيمية: ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله لا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل. ثم عجب نبيه ﷺ بقوله:

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ أي: ألم تر ـ يا محمد ـ أنا سلطنا الشياطين على الكافرين عقوبة لهم تغريهم إغراء بالشر، وتحثهم وتهيجهم تهييجاً بالوساوس والتسويلات حتى يركبوا المعاصي، والإرسال هنا إرسال كوني قدري كإرسال الرياح، وليس بإرسال ديني شرعي، فهو إرسال تسليط.

﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا﴾ أي: لا تتعجل ـ يا محمد ـ في طلب هلاك هؤلاء الكافرين، فإنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس نعدها عليهم عداً، ثم يصيرون إلى عذاب شديد، وإذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها عدد فما أسرع ما تنفذ، ويا ويل من يعد الله عليه ذنوبه وأعماله وأنفاسه، ويتبعها ليحاسبه الحساب العسير.

* ثم أخبر تعالى عن تفاوت الفريقين: المتقين، والمجرمين، يوم القيامة، فقال تعالى:

﴿٨٥﴾-﴿٨٧﴾ ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا * وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا * لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾.

﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ يوم نحشر المتقين ـ الذين اتقوا الشرك والبدع والمعاصي ـ إلى ربهم الرحيم بهم، وفوداً معززين مكرمين، مبجلين معظمين، راكبين على النوق، كما يفد الوفود على الملوك، منتظرين لكرامتهم وإنعامهم.

﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴾ ونسوق المجرمين المكذبين كما تساق البهائم مشاة عطاشاً إلى الماء، يساقون على وجه الذل والصغار سوقاً شديداً إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنم.

﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي: لا يشفعون لأحد، ولا يُشفع لهم، فهم لا يملكونها، وليست لهم.

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ الاستثناء منقطع، أي: لكن من تحلى بالإيمان والعمل الصالح فإنه يملك الشفاعة، وسمى الله الإيمان به واتباع رسله عهداً؛ لأنه عهد في كتبه، وعلى ألسنة رسله، بالجزاء الجميل لمن اتبعهم.

* لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى ﷺ وذكر خلقه من مريم بلا أب، ثم قبح ﷻ وشنع على أقوال المعاندين الجاحدين كالنصارى واليهود والمشركين. ختمت السورة الكريمة بتنزيه الله عن الولد، والشريك، والنظير، وردت على ضلالات المشركين بأنصع بيان، وأقوى برهان، فقال تعالى:

﴿٨٨﴾-﴿٩٥﴾ ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا * لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا * وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا * لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا * وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ أي: قال اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، ومن زعم من المشركين أن الملائكة بنات الله.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ
ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ
ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم
مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

سُورَةُ طه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً
لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾
ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ
فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ
ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا
فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ
أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

٣١٢

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ لقد أتيتم أيها المشركون بهذه المقالة منكراً عظيماً، تناهى في القبح والشناعة، ومن عظيم أمره، أنه:

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي: تكاد السموات على عظمها وصلابتها تشقق من هول هذا القول، وتنخسف وتتصدع كذلك الأرض وتندك الجبال، وتهد هدا، غضباً لله، واستعظاماً للكلمة الشنيعة.

﴿أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي: من أجل أن جعلوا لله ما لا يليق به سبحانه، وهو اتخاذ الولد؛ لأن الولد يدل على النقص والحاجة، وهو الغني الحميد، المنزه والمبرأ عن الشبيه والنظير، والغني عن المعين والنصير.

ونفى سبحانه عن نفسه الولد في التعبير باسم الله (الرحمن) في هذا المقام: إشارة إلى صبره تعالى على أذاهم وإمهاله لهم لعلهم يرجعون ويتوبون.

﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ أي: ما من مخلوق في العالم العلوي والسفلي إلا وهو عبد لله، سيأتي ربه يوم القيامة ذليلاً خاضعاً بين يديه، منقاداً مطيعاً له كما يفعل العبيد.

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي: علم الله ﷻ عدد خلقه كلهم، وأحاط علمه بهم فلا يخفى عليه شيء من أمورهم.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ أي: وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة وحيداً فريداً، بلا مال ولا مجير، ولا معين ولا نصير، ليس معه إلا عمله.

* لما ذكر أحوال المجرمين، ذكر أحوال المؤمنين، وما أفاض عليهم من سحائب جوده وكرمه، وفضله وإحسانه، قال تعالى:

﴿٩٦﴾-﴿٩٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ أي: إن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، سيحدث لهم في قلوب عباده الصالحين في السماء والأرض محبة ومودة، يحبهم الله ويحببهم إلى الناس، وإذا كان لهم في القلوب ودٌّ، تيسر لهم كثير من أمورهم، وحصل لهم من الخيرات والدعوات، والإرشاد والقبول والإنابة ما حصل، وبكل حال، فطلبُ شرف الآخرة يحصلُ معه شرف الدنيا، وإن لم يرده صاحبه ولم يطلبه، وطلب شرف الدنيا لا يجامع شرف الآخرة ولا يجتمع معه، والسعيد من آثر الباقي على الفاني.

ثم يخبر تعالى عن نعمته تعالى بهذا القرآن.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أي: فإنما يسرنا وسهلنا ـ يا محمد ـ هذا القرآن بلسانك العربي تقرأه، وجعلناه سهلاً يسيراً لمن تدبره ليحصل المقصود منه، والانتفاع به، لتبشر به المؤمنين المتقين، وتخوف به قوماً معاندين شديدي الخصومة والجدال بالباطل فتنذرهم، فتقوم عليهم الحجة، وتتبين لهم المحجة. ثم توعدهم بإهلاك المكذبين قبلهم، فقال:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: وكثيراً أهلكنا ـ يا محمد ـ من الأمم الماضية قبل قومك بتكذيبهم الرسل، من نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، وغيرهم و«كم» للتكثير، وفي هذا تخويف لهم وإنذار.

﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ هل ترى وتجد من تلك الأمم أحداً.

﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أو تسمع لهم صوتاً خفياً؟ والمعنى: أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم الديار، وأوحشت منهم المنازل فلم يبق منهم عين ولا أثر، فكما أهلكنا أولئك، فكذلك الكفار من قومك، نهلكهم كما أهلكنا السابقين من قبلهم، وفي هذا تهديد ووعيد بإهلاك المكذبين المعاندين.

تم تفسير سورة مريم
والحمد لله

تفسير سورة طه
وهي مكية

* سورة طه سورة مكية، تركز على جانب العقيدة ونبذ الشرك وإخلاص العبادة لله ﷻ، ووجوب إخلاص التوحيد لله ﷻ، واتباع رسوله ﷺ، والإيمان به، والإيمان بالبعث والنشور. وسورة «طه» مضمونها تخفيف أمر القرآن وما أنزل الله تعالى من كتبه، فهي سورة «كتبه» كما أن مريم «سورة عباده ورسله».

في هذه السورة الكريمة تظهر شخصية الرسول ﷺ، في شد أزره، وتقوية روحه، حتى لا يتأثر بما يلقى إليه من الكيد والعناد، والاستهزاء والتكذيب، ولإرشاده إلى وظيفته الأساسية، وهي التبليغ والتذكير، والإنذار والتبشير، وليس عليه أن يجبر الناس على الإيمان. قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٨﴾ ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢﴾ الحروف المقطعة للتنبيه إلى أعجاز القرآن، وليس اسماً للنبي ﷺ. وقال ابن عباس: معناها يا رجل. وسميت «سورة طه» وهو اسم من أسمائه الشريفة ﷺ، تطيباً لقلبه، وتسلية لفؤاده عما يلقاه من صدود وعناد، ولهذا ابتدأت السورة بملاطفته بالنداء؛ ومعنى الآية: ليس المقصود بالوحي وإنزال القرآن عليك ـ يا محمد ـ لتشقى بها لا طاقة لك به من العمل، إنما أنزلناه رحمة وسعادة، وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة الأبدان. روي أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه القرآن صلى هو وأصحابه فأطال القيام، فقالت قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فنزلت هذه الآية. قال قتادة في قوله تعالى ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢﴾ لا، والله ما جعله الله شقياً، ولكن جعله الله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة.

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أي: ما أنزلناه إلا عظة وتذكيراً لمن يخشى الله، ويخاف عقابه، وهو المؤمن المستنير بنور القرآن، لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار، ولا في قلبه من خشية الله مثقال ذرة. ثم ذكر سبحانه جلالة هذا القرآن العظيم وعظمته، فقال:

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ أي: أنزله خالق الأرض، ومبدع الكون، ورافع السموات الواسعة العالية، والآية إخبار عن عظمته وجبروته وجلاله. ووصف السموات بالعلى، دليل على عظمة قدرة من اخترعها، إذا لا يمكن وجود مثلها في علوها من غيره تعالى.

﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ أي: ذلك الرب الموصوف بصفات الكمال والجمال؛ هو الرحمن الذي استوى على عرشه الذي هو أرفع المخلوقات وأعظمها وأوسعها، استواء يليق بجلاله ويناسب عظمته، من غير تجسيم، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، كما هو مذهب السلف.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ أي: له سبحانه ما في الوجود كله: السموات السبع، والأرضون، وما بينهما من المخلوقات، وما تحت التراب من معادن ومكنونات، الكل ملكه، وتحت تصرفه وقهره وسلطانه، ليس لهم من الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً، ولا حياة ولا نشوراً.

﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ أي: وإن تعلن ـ يا محمد ـ بالقول أو تخفه في نفسك ولم تنطق به، فسواء عند ربك، فإنه يعلم السر وما هو أخفى منه، كالوسوسة والهاجس والخاطر. والغرض من الآية طمأنينة قلبه عليه السلام بأن ربه معه يسمعه، ولن يتركه وحيداً يواجه الكافرين بلا سند، فإذا كان يدعوه جهراً فإنه يعلم السر وما هو أخفى، والقلب حين يستشعر قرب الله منه، وعلمه بسره ونجواه يطمئن، ويرضى، ويأنس بهذا القرب الكريم.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: ربكم هو الله المتفرد بالوحدانية، لا معبود بحق سواه، ذو الأسماء الحسنة التي هي في غاية الحسن، ومن حسنها: أنها كلها أسماء دالة على المدح، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد، ومن حسنها أنها ليست أعلاماً محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف، ومن حسنها أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها، ومن حسنها أنه أمر العباد أن يدعوه بها؛ لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من حفظها، ويحب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها، وفي الحديث: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة» [رواه الترمذي]، إن معرفة أسماء الله وصفاته على الوجه الذي أخبر به ﷻ ورسوله ﷺ توجب على العبد القيام بعبوديته سبحانه على الوجه الأكمل، فكلما كان الإيمان بها أكمل، كان الحب والإخلاص والتعبد أقوى، وأكملهم عبودية المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر، فالإيمان بما تقتضيه الأسماء والصفات يوجد استقامة كاملة في العبد، وإن النفوس قد تهفو إلى مقارفة الفواحش والذنوب، فتذكر أن الله يراها، ويبصرها، وتذكر وقوفها بين يدي الله ﷻ فترعوي وتتجانب المعصية، وقد يقع الإنسان في الذنب والمعصية ثم يذكر سعة رحمه الله، فلا يتمادى في الخطيئة، ولا يوغل في طريق الهاوية، بل يعود إلى التواب الرحيم، قارعاً بابه فيجده تواباً رحيماً ودوداً.

* ثم عرضت الآيات لقصص الأنبياء، تسلية لرسول الله ﷺ وتطميناً لقلبه الشريف، فذكرت بالتفصيل قصة موسى وهارون، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم، وسار بأهله قاصداً بلاد مصر، بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، قال تعالى:

﴿٩﴾، ﴿١٠﴾ ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾.

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ الاستفهام للتقرير، وغرضه التشويق لما يلقى إليه، أي: وقد بلغك ـ يا محمد ـ خبر موسى بن عمران عليه السلام وقصته العجيبة الغريبة؟ لتتأسى به في تحمل أعباء النبوة بالصبر على المكاره، ولتنال الدرجات العليا كما نالها موسى.

﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ أي: حين رأى ناراً موقدة، فقال لامرأته: انتظروا فإني أبصرت ناراً. قال ابن عباس: هذا حين قضى الأجل وسار بأهله من مدين يريد مصر، وكان قد أخطأ الطريق وكانت ليلة مظلمة شاتية فجعل يقدح بالزناد فلا يخرج منها شرر فبينما هو كذلك إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق، فلما رآها ظنها ناراً وكانت من نور الله، فقال لأهله أقيموا في مكانكم.

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: لعلي آتيكم بشعلة من النار، تستدفئون وتصطلون بها.

﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ أي: أجد هادياً يدلنا على الطريق.

﴿١١﴾-﴿١٦﴾ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى * وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ * إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ * إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ أي: فلما أتى النار التي آنسها من بعيد، وجدها ناراً بيضاء تتقد في شجرة خضراء، وناداه ربه يا موسى: إني أنا ربك الذي أكلمك، وأمره أن

وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ
أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ
عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ
بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا
يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ
إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ
مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ
رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن
لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ
أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ
كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ
أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾

٣١٣

يستعد ويتهيأ لمناجاته، ويهتم لذلك، ويلقي نعليه من قدميه رعاية للأدب، وقيل له: أقبل.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾.

﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي: فإنك بالوادي المطهر المبارك المسمى طوى، ولو لم يكن من تقديسه، إلا أن الله اختاره لمناجاة كليمه موسى لكفى.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ أي: اصطفيتك من الناس للنبوة، وهذه أكبر نعمة ومنّة أنعم الله بها عليه تقتضي من الشكر ما يليق بها، ولهذا قال: فاستمع لما أوحيه إليك مني، وألق سمعك للذي أوصي إليك، فإنه حقيق بذلك، وفيه نهاية الهيبة والجلالة، فكأنه قال: لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له، واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه. ثم بين الذي يوحيه إليه، بقوله:

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ أي: أنا الله لا إله غيري ولا معبود بحق إلا أنا، الذي لا شريك لي ولا مثيل ولا كفو ولا سميّ، فأفردني بالتوحيد والطاعة وأنواع العبادة ظاهرها وباطنها، ثم خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في جملة العبادات لفضلها، وشرفها، وعلو مكانتها، وتضمنها عبودية القلب واللسان والجوارح، فهي أفضل أركان الدين بعد التوحيد، فقال:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ أي: أقم الصلاة لتذكرني فيها، فالقلب المعطل عن ذكر الله، معطل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب. قال مجاهد: إذا صلى ذكر ربه لاشتمالها على الأذكار.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي: إن الساعة التي يُبعث فيها الناس، قادمة وحاصلة لا محالة، أكاد أخفيها عن نفسي، فكيف أطلعكم عليها؟ وذكر ذلك على عادة العرب إذا بالغوا في كتمان الشيء، فإنهم يقولون كتمته حتى من نفسي، أي لم أطلع عليه أحداً.

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ لتنال كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر، فهي الباب لدار الجزاء. قال المفسرون: والحكمة من إخفائها وإخفاء وقت الموت، أن الله تعالى حكم بعدم قبول التوبة عند قيام الساعة وعند الاحتضار، فلو عرف الناس وقت الساعة أو وقت الموت، لاشتغلوا بالمعاصي ثم تابوا قبل ذلك، فيتخلصون من العقاب، ولكن الله عمى الأمر ليظل الناس على حذر دائم، وعلى استعداد دائم، من أن تبعثهم الساعة أو يفاجئهم الموت.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ أي: لا يصرفنك ويشغلك يا موسى عن التأهب للساعة والتصديق بها والإيمان بها من لا يوقن بها.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ أي: مال مع الهوى، وأقبل على اللذائذ والشهوات، ولم يحسب حساباً لآخرته، فتهلك وتشقى، فإن الغفلة عن الآخرة مستلزمة للهلاك.

* لما بين تعالى لموسى أصل الإيمان، أراد أن يبين له ويريه من آياته ما يطمئن به قلبه، وتقر به عينه، ويقوى إيمانه بتأييد الله له على عدوه، فقال تعالى:

﴿١٧﴾-﴿٢١﴾ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ * قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ * فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: وما هذه التي بيمينك يا موسى؟ أليست عصا؟ والغرض من الاستفهام التقرير والإيقاظ، والتنبيه إلى ما سيبدو من عجائب صنع الله في الخشبة اليابسة بانقلابها إلى حية، لتظهر لموسى القدرة الباهرة، والمعجزة القاهرة. قال ابن كثير: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها؟ فسترى ما نصنع بها الآن؟

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ قال موسى: هي عصاي أعتمد عليها في حال المشي، وإذا عييت، فيحصل فيها معونة.

﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أي: أهز بها الشجرة، وأضرب بها على الأغصان ليتساقط ورقها فترعاه غنمي، فذكر هاتين المنفعتين، الأولى منفعة لجنس الآدمي، والثانية منفعة للبهائم، وهذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام، الذي من آثاره، حسن رعاية الحيوان البهيم، والإحسان إليه دل على عناية من الله له، واصطفاء، وتخصيص تقتضيه رحمة الله وحكمته.

﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي: ولي فيها مصالح ومنافع وحاجات أخر غير هذين الأمرين، مما يستعمل فيه العصا في السفر، فكان يحمل بها الزاد، ويشد بها الحبل فيستقي الماء من البئر، ويقتل بها الحيات وغير ذلك من المنافع. قال المفسرون: كان يكفي أن يقول هي عصاي ولكنه زاد في الجواب؛ لأن المقام مقام مباسطة، وقد كان ربه يكلمه بلا واسطة، فأراد أن يزيد في الجواب ليزداد تلذذاً بالخطاب، وكلام الحبيب مريح للنفس ومذهب للعناء، ومن أدب موسى عليه السلام، أن الله لما سأله عما في يده، ولما كان السؤال محتملاً عن السؤال عن عينها، أو منفعتها، أجابه بعينها، ومنفعتها.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: قال الله تعالى: اطرح هذا العصا التي بيدك يا موسى لترى من شأنها ما ترى.

﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ أي: فلما ألقاها، صارت في الحال حية عظيمة، تنتقل وتتحرك في غاية السرعة. قال ابن عباس: انقلبت ثعباناً ذكراً يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه يبتلع كل شيء خافه ونفر منه وولى هارباً. قال المفسرون: لما رأى هذا الأمر العجيب الهائل، لحقه ما يلحق البشر عند رؤية الأهوال والمخاوف، لا سيما هذا الأمر الذي يذهب بالعقول، وإنما أظهر له هذه الآية وقت المناجاة تأنيساً له بهذه المعجزة الهائلة حتى لا يفزع إذا ألقاها عند فرعون لأنه يكون قد تدرب وتعود.

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ قال له ربه آمراً إياه: خذها يا موسى ولا تخف منها، وليس عليك منها بأس.

﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ سنعيدها إلى حالتها وهيئتها الأولى كما كانت، فأمسكها موسى عليه السلام فعادت عصا.

* ثم ذكر سبحانه آية أخرى لموسى عليه السلام، فقال تعالى:

﴿٢٢﴾-﴿٣٥﴾ ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ * لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى * ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُواْ قَوْلِي * وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: أدخل يدك إلى جنبك تحت العضد، ثم أخرجها تخرج نيرة مضيئة بياضاً ساطعاً كضوء الشمس والقمر من غير عيب ولا برص. قال ابن كثير: كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر من غير برص ولا أذى.

﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ معجزة ثانية غير العصا تدل على صدقك.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ أي: فعلنا ذلك، لنريك بذلك بعض آياتنا العظيمة وقدرتنا وعظيم سلطاننا، أراه الله معجزتين: العصا واليد، وهي بعض ما أيده الله به من المعجزات الباهرة، الدالة على صحة رسالتك، وحقيقة ما جئت به، فيطمئن قلبك ويزداد علمك، وتثق بوعد الله لك بالحفظ والنصرة، ولتكون حجة وبرهاناً لمن أرسلت إليهم.

ثم أمر ﷻ وأوحى إليه، أن يتوجه إلى فرعون رأس الكفر والطغيان.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: اذهب بما معك من الآيات إلى فرعون، إنه تكبر وتجبر وجاوز الحد في الطغيان حتى ادعى الألوهية، فامتثل موسى أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب؛ لأنه عرف أنه كلف أمراً عظيماً يحتاج إلى صدر فسيح، ودعا ربه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ قال موسى: رب وسع صدري ليتحمل المشاق ورديء الأخلاق من فرعون وجنده، ونوره بالإيمان والنبوة.

﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ أي: سهل عليَّ القيام بما أمرتني به، من تبليغ الرسالة إلى فرعون.

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ أي: حل وأزل هذه اللكنة الحاصلة في لساني حتى يفهموا كلامي، قال المفسرون: عاش موسى في بيت فرعون فوضعه فرعون مرة في حجره وهو صغير، فجر لحية فرعون بيده، فهم بقتله، فقالت له زوجته آسية: إنه لا يعقل وسأريك بيان ذلك؛ قدم إليه جمرتين ولؤلؤتين، فإن أخذ اللؤلؤة عرفت أنه يعقل، وإن أخذ الجمرة عرفت أنه طفل لا يعقل، فقدم إليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه فكان في لسانه حبسة.

﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى﴾ أي: اجعل لي معيناً وظهيراً يساعدني ويكون من أهلي، وهو أخي هارون لأنه من باب البر، وأحق ببر الإنسان قرابته.

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ أي: لتقوي به يا رب ظهري، ويكون عوناً لي.

﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ واجعله شريكاً لي في النبوة، وتبليغ الرسالة كما جعلتني، ثم ذكر الفائدة في ذلك، فقال:

﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ أي: كي نتعاون على تنزيهك عما لا يليق بك، ونذكرك بالدعاء والثناء عليك، ونتعاون على البر والتقوى.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أي: عالماً بأحوالنا وضعفنا، وعجزنا، وافتقارنا إليك في كل الأمور، لا يخفى عليك شيء من أعمالنا. طلب موسى من ربه أن يعينه بأخيه يشد به أزره، لما يعلم منه من فصاحة اللسان، وثبات الجنان، وأن يشركه معه في المهمة لما يعلم من طغيان فرعون وتكبره وجبروته.

* بعد أن أطال موسى سؤله وبسط حاجته، وكشف عن ضعفه، وطلب العون والتيسير من ربه، وهو العارف به، وبجوده وكماله وإحسانه، سؤال فقير محتاج، ضعيف يطلب العون، فما كان من الجواد الكريم، إلا أن استجاب دعاء موسى، وأتم له مراده، قال تعالى:

﴿٣٦﴾-﴿٤٠﴾ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ * إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ * أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ * إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ﴾.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ أي: قال الله: أعطيت يا موسى جميع ما سألت، وما طلبت. ثم ذكره تعالى بالنعم العظام عليه ليزيده اطمئناناً وأنساً بموصول رحمته وقديم رعايته.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ أي: أنعمنا عليك يا موسى بمنة أخرى غير هذه المنة. لما ذكر تعالى منته على عبده ورسوله، موسى بن عمران، في الدين والوحي، والرسالة وإجابة سؤاله، ذكر نعمته عليه، وقت التربية، والتنقلات في أطواره، فقال:

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ أي: ألهمناها ما يلهم، مما كان سبباً في نجاتك، ثم فسر ذلك الإلهام وعدد نعمه عليه، فقال:

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: ألهمناها أن اجعلي هذا الطفل في الصندوق، ثم اطرحيه في نهر النيل.

﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾، ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ أمر معناه الخبر جاء بصيغة الأمر مبالغة إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها، فاتخذت أم موسى تابوتاً ووضعت فيه موسى ثم ألقته في النيل، وكان يشرع

إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ
فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ
عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ
هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا
وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ
فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾
وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا
تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا
لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ
عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ
﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ
ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ
كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾

منه نهر كبير في دار فرعون، فأمر الله اليم أن يلقيه النهر على شاطئه، وقيض الله أن يأخذه فرعون عدوي وعدوه، فبينما فرعون جالس على رأس البركة مع امرأته آسية، إذ تابوت يجيء به الماء، فأمر الغلمان والجواري بإخراجه، فأخرجوه وفتحوا رأسه، فإذا صبي من أصبح الناس وجهاً، فلما رآه فرعون أحبه بحيث لم يتمالك، فذلك قوله تعالى:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ أي: زرعت في القلوب محبتك بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك، حتى أحبك عدوك فرعون، قال ابن عباس: أحبه الله وحببه إلى خلقه.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ ولتربى بعين الله، بحفظه ورعايته. ثم أنه لما استقر عند آل فرعون، وعرضوا عليه المراضع فأباها.

﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ أي: حين تمشي أختك وتتبع أثرك، فتقول لآل فرعون حين طلبوا لك المراضع: هل أدلكم على من يضمن لكم حضانته ورضاعته؟ قال المفسرون: لما التقطه آل فرعون جعل لا يقبل ثدي امرأة؛ لأن الله حرم عليه المراضع وبقيت أمه بعد قذفه في اليم مغمومة، فأمرت أخته أن تتبع خبره، فلما وصلت إلى بيت فرعون ورأته، قالت هل أدلكم على امرأة أمينة فاضلة تتعهد لكم رضاع هذا الطفل؟ فطلبوا منها إحضارها، فأتت بأم موسى فلما أخرجت ثديها التقمه، ففرحت زوجة فرعون فرحاً شديداً، وقالت لها: كوني معي في القصر، فقالت: لا أستطيع أن أترك بيتي وأولادي ولكن آخذه معي وآتي لك به كل حين، فقالت: نعم، وأحسنت إليها غاية الإحسان، فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أغنى وأجزل فذلك قوله تعالى:

﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: رددناك إلى أمك بعدما صرت في أيدي فرعون لكي تسر بلقائك، وتطمئن بسلامتك ونجاتك، ولكيلا تحزن على فقدك وفراقك.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ هذه منة أخرى على موسى، أي: قتلت القبطي خطأ حين أصبحت شاباً، فنجيناك من غم القتل، وصرفنا عنك شر فرعون وزبانيته.

﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أي: ابتليناك ابتلاءً عظيماً بأنواع من المحن، فوجدناك مستقيماً في أحوالك. وقال ابن عباس: إن الفتون وقوعه في محنة بعد محنة خلصه الله منها، أولها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم إلقاؤه في البحر في التابوت، ثم منعه الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم بقتله، ثم تناوله الجمرة بدل الدرة، ثم قتله القبطي، وخروجه إلى مدين خائفاً.

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ فخرجت خائفاً إلى أهل مدين، ومكثت سنين عديدة عند شعيب.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ ثم جئت من مدين على موعد ووقت مقدر للرسالة والنبوة، موافقاً لقدر الله وإرادته، والأمر كله لله -تبارك وتعالى-.

* ولما ذكر تعالى نعمته على موسى باستجابة دعائه وإعطائه سؤله، ذكر هنا ما خصه به وأنعم عليه من الاصطفاء والاجتباء، وأمره بالذهاب إلى فرعون مع أخيه هارون لتبليغه دعوة الله، ثم ذكر ما دار من الحوار بين موسى وفرعون وما كان من أمر السحرة، وسجودهم لله رب العالمين.

﴿٤١﴾-﴿٤٤﴾ ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي * ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أي: اخترتك واصطفيتك لوحيي ورسالتي، وأجريت عليك صنائعي ونعمي. ولما امتن الله على موسى بما امتن به ومن النعم الدينية والدنيوية، قال له:

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ أي: اذهب مع هارون بحججي وبراهيني ومعجزاتي. قال المفسرون: المراد بالآيات هنا، اليد والعصا التي أيد الله بها موسى.

﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي: لا تفترا وتقصرا وتكسلا عن ذكر الله وتسبيحه. قال ابن كثير: والمراد ألا يفترا عن ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: تجبر وتكبر، وبلغ النهاية في العتو والطغيان، والكفر، والعدوان.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أي: قولا لفرعون قولاً لطيفاً رفيقاً، دون فحش ولا غلظة في المقال، أو فظاظة في الأفعال، وهذا اللين في الأسلوب والطريقة، ولم يكن في المضمون والعقيدة، وفي هذه الآية عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين.

فسبحانه ما أعظمه وأحلمه، يتحبب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه.

﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي: لعله يتذكر عظمة الله، أو يخاف عقابه فيرتدع عن طغيانه، ويعرف ما يضره فيتركه، فإن القول اللين داع لذلك، والقول الغليظ منفر عن صاحبه. قرأ رجل عند يحيى بن معاذ ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ فبكى يحيى، وقال له: إلهي هذا رفقك بمن يقول أنا الإله، هذا رفقك بمن قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] فكيف بمن قال «سبحان ربي الأعلى».

* ثم يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ أنهما قالا مستجيرين بالله تعالى، شاكين إليه:

﴿٤٥﴾-﴿٤٨﴾ ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ * فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أي: قال موسى وهارون: يا ربنا إننا نخاف إن دعوناه الى الإيمان أن يعجل علينا العقوبة بالقتل، أو يجاوز الحد في الإساءة إلينا قبل أن نبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي: لا تخافا من سطوته وجبروته، إنني معكما بالنصرة والعون والحفظ والتأييد، أسمع جوابه لكما، وأرى ما يفعل بكما، أنتما بحفظي ورعايتي، فزال الخوف عنهما واطمأنت قلوبهما بوعد ربهما، ومع الطمأنينة والهداية إلى صورة الدعوة وطريق الجدال.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أي: فأتيا فرعون بهذين الأمرين لدعوته، وقالا: إنا رسولان من عند ربك، أرسلنا إليك، وتخصيص الذكر بلفظ ﴿رَبِّكَ﴾ علامه أنه مربوب وعبد مملوك لله إذ كان يدعي الربوبية، وفي ضمن الكلام: إنا لم نأتك لننازعك ملكك، ولا نشركك فيه.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي: أطلق سراح بني إسرائيل وخلِّ عنهم، ولا تعذبهم بتكليفهم بالأعمال الشاقة.

﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ قد جئناك بمعجزة وحجة تدل على صدق ما ادعيناه.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ والسلامة من عذاب الله لمن اهتدى وآمن بالله. قال المفسرون: لم يقصد به التحية لأنه ليس بابتداء الخطاب، وإنما قصد به السلام من عذاب الله وسخطه، أو هو خبر محض، فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق دون

قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي
جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟
وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا
خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ
أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا
مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ
فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا
سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى
﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم
مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ
وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟
ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم
مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾
فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّاۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

٣١٥

من خالفه. فجمعت الآية طلب الإنصاف، وإقامة الحجة، وبيان ما يستحقه السامع المطيع، وما يستحقه المكذب المتولي، بألطف خطاب، وألين قول، وأبلغ ترغيب وترهيب.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: وقد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا، أن العذاب الأليم على من كذب أنبياء الله وأعرض عن الإيمان، وتولى عن الانقياد لهم واتباعهم، وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما، والترهيب من ضد ذلك.

﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾. قال ابن عباس: «هذه أرجى آية للموحدين؛ لأنهم لم يكذبوا ولم يتولوا».

وفي الآية تدرج عجيب، ففي البدء إيضاح قاعدة رسالتهما ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ليقر منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلهاً هو ربه، ثم إيضاح لموضوع رسالتهما ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ﴾، ثم استشهاد على صدقهما في الرسالة ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ ثم ترغيب واستمالة. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ثم تهديد وتحذير غير مباشرين كي لا يثيرا كبرياءه وطغيانه ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

* ولما قالا ذلك لفرعون، لم يفد فيه هذا الوعظ ولم يُجد له التذكير، فأنكر ربه وكفر، وجادل في ذلك ظلماً وعناداً، قال تعالى:

﴿٤٩﴾-﴿٥٢﴾ ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: خاطبهما، ثم نادى أحدهما؛ لأن موسى هو الأصل في النبوة، وهارون تابعه، فقال فرعون لموسى على وجه الإنكار: ومن هذا الرب الذي تدعوني إليه يا موسى؟ فإني لا أعرفه؟ ولم يقل: من ربي؛ لغاية عتوه، ونهاية طغيانه، بل أضافه إلى موسى وهارون ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾.

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: قال موسى بجواب شاف كاف واضح: ربنا هو الذي أبدع كل شيء خلقه، ثم هداه لمنافعه ومصالحه، وهذا جواب في غاية البلاغة والبيان والاختصار، ودلالته على جميع الموجودات بأسرها. قال مجاهد: أعطى كل شيء صورته ولم يجعل خلق الإنسان كخلق البهائم، ولا خلق البهائم كخلق الإنسان. والجواب ما أخصره وأجمعه وأبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: قال فرعون: ما شأن وما خبر من هلك من القرون الماضية؟ لِمَ لَمْ يبعثوا ولم يحاسبوا إن كان ما تقول حقاً؟ شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى، كأنه يقول: ما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك، بل عبدوا غيره؟

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾ قال موسى مجيباً: علم أحوالها وأعمالها عند ربي مسطر محفوظ في اللوح المحفوظ ولا علم لي به.

﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ لا يخطئ ربي ولا يغيب عن علمه شيء منها.

* ثم شرع موسى يبين له الدلائل على وجود الله، وآثار قدرته الباهرة، فقال:

﴿٥٣﴾-﴿٥٦﴾ ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۞ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۞ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: جعل الأرض كالمهد تمتهدونها، ويسرها للانتفاع بها، وتستقرون عليها رحمة بكم.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ وجعل لكم طرقاً تسلكونها فيها لقضاء مصالحكم، حتى كان الآدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، وينتفعون بأسفارهم، أكثر مما ينتفعون بإقامتهم.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: أنزل لكم من السحاب المطر عذباً فراتاً.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ فأخرج بذلك الماء أنواعاً وأصنافاً من النباتات المختلفة الطعم والشكل والرائحة، كل صنف منها زوج، وفيه التفات من الغيبة إلى المتكلم تنبيهاً على عظمة الله.

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ أي: كلوا ـ أيها الناس ـ من هذه النباتات والثمار، واتركوا أنعامكم تسرح وترعى من الكلأ الذي أخرجه الله، والأمر للإباحة تذكيراً لهم بالنعم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي: إن فيما ذكر لعلامات واضحة لأصحاب العقول السليمة على وجود الله ووحدانيته وفضله وإحسانه.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: من الأرض خلقناكم أيها الناس، وإليها تعودون بعد مماتكم، فتصيرون تراباً.

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى للبعث والحساب، فكما أوجدناكم منها من العدم، وقد علمتم ذلك وتحققتم، فسنعيدكم بالبعث منها بعد موتكم، وهذان دليلان عقليان واضحان: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها في إيجادهم.

ثم أخبر تعالى عن عتو فرعون وعناده، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ أي: والله لقد بصرنا فرعون بالمعجزات الدالة على نبوة موسى من العصا، واليد، والطوفان، والجراد، وسائر الآيات التسع.

﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ أي: كذب بها مع وضوحها وزعم أنها سحر، وأبى قبول الحق والإيمان والطاعة، لعتوه واستكباره.

* ثم مع كفر فرعون ورؤيته للآيات الباهرات، بدأ يجادل بالباطل ليضل الناس، لأن حجة موسى عليه السلام في جداله واضحة وسلطانه فيه قوي، وعندها لجأ إلى اتهام موسى بالسحر، قال تعالى:

٥٧-٥٩ ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۞ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۞ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ قال فرعون لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه، فصارت ثعباناً عظيماً، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء: أجئتنا يا موسى بهذا السحر لتخرجنا من أرض مصر؟ أخبر فرعون أن موسى هذا قصده ليبغضوه، ويسعوا في محاربته.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي: فلنعارضنك بسحر مثل الذي جئت به، ليظهر للناس أنك ساحر ولست برسول.

﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: فاضرب بينا وبينك أجلاً وميقاتاً فنعارض ما جئت به، بما عندنا من السحر.

﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ أي: نلتزم بذلك الوعد من جهتنا ومن جهتك، ويكون بمكان معين ووقت معين.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ قال موسى: موعدنا للاجتماع يوم العيد ـ يوم من أيام أعيادهم ـ وأن يجتمع رؤوس الأشهاد، وقت الضحى لتكون أبعد عن الريبة، وأبين، ولتحصل رؤية الأشياء على حقائقها ويشيع ذلك في الأقطار بظهور معجزه للناس.

* ولما ضرب الموعد بين موسى وفرعون، ذكر الله ﷻ ما كان من أمر فرعون الطاغية المعاند، فقال:

٦٠-٦٤ ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ

كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ * قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ * فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ * قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ * فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي: فأدبر فرعون معرضاً عما أتاه به موسى عن الحق، فجمع ما يقدر عليه، مما يكيد به موسى من السحرة الماهرين في سحرهم، وكان السحر إذ ذاك متوافراً، وعلمه علماً مرغوباً فيه، ثم أتى الموعد ومعه السحرة وأدواتهم، وما جمعه من كيد، ليطفئ نور الله. قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل ساحر منهم حبال وعصي، فكان الجمع حافلاً، حضره الرجال والنساء، والملأ، والأشراف، والعوام، والصغار، والكبار، وحضوا الناس على الاجتماع، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة، وأقبل موسى عليه السلام متوكئاً على عصاه ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفاً، وهو يحرضهم ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم، فحين اجتمعوا وعظهم موسى عليه السلام وأقام عليهم الحجة.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖ﴾ أي: قال موسى واعظاً للسحرة لما جاء بهم فرعون: احذروا لا تختلقوا على الله الكذب، فيهلككم ويستأصلكم بعذاب هائل من عنده ويبيدكم.

﴿وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ أي: خسر وهلك من كذب على الله، قدم لهم النصح والإنذار لعلهم يثوبون إلى الهدى، ولما سمع السحرة منه هذه المقالة، هالهم ذلك، ووقعت في نفوسهم مهابته، ولذلك تنازعوا في أمره.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ أي: فاختلف السحرة في أمر موسى بينهم، وتحادثوا سراً، فقال بعضهم: ما هذا بقول ساحر، إنما هذا كلام نبي، وأخفوا ذلك عن الناس، وأخذوا يتناجون سرّاً.

﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا﴾ أي: قالوا بعد المناظرة والتشاور، ما هذان إلا ساحران يريدان الاستيلاء على أرض مصر، وإخراجكم منها بهذا السحر.

﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ أي: غرضهما إفساد دينكم وشريعتكم الذي أنتم عليه، والذي هو أفضل المذاهب والأديان، فتشاوروا في السر وتجاذبوا أهداب القول، ثم قالوا:

﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗا﴾ أي: أحكموا أمركم، واعزموا عليه من غير اختلاف بينكم، ولا تتنازعوا، وارموا عن قوس واحدة، متساعدين فيه، متناصرين، ثم ائتوا إلى الميدان مصطفين ليكون أهيب في صدور الناظرين، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبهروا الأبصار، وتغلبوا سحر موسى وأخيه.

﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ أي: فاز اليوم من علا وغلب. قال المفسرون: أرادوا بالفلاح ما وعدهم به فرعون من الإنعامات العظيمة والهدايا الجزيلة مع التقريب والتكريم.

* ولما اجتمعوا وجمعوا عدتهم، وأتوا بكل سبب ووسيلة، وممكن، ومكيدة، يكيدون بها الحق، وانحصر مقصدهم، ولم يبق إلا العمل.

﴿٦٥-٧٠﴾ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ * قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ * فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ * قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ * وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ * فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ أي: قال السحرة لموسى: إما أن تبدأ أنت بإلقاء عصاك أو نبدأ نحن؟ وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه، وكأنه تعالى ألهمهم ذلك، أو أنهم خيروه ثقة منهم بالغلبة لموسى؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن أحداً لا يقاومهم في هذا الميدان. ولعل ذلك ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغوا من

بهرجهم، جاء الحق الواضح الجلي بعد تطلُّب له، وانتظار منهم لمجيئه فيكون أوقع في النفوس، وكذا كان.

﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾ أي: قال لهم موسى: بل ابدؤوا أنتم بالإلقاء. قال ذلك مقابلة للأدب بأحسن من أدبهم، حيث بت القول بإلقائهم أولاً، وإظهار لعدم المبالاة بسحرهم ليبرزوا ما معهم من مكايد السحر، ويستفرغوا أقصى جهدهم وقصارى وسعهم، ثم يظهر الله سلطانه، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ في الكلام حذف دل عليه المعنى، أي: فألقوا، فإذا تلك الحبال والعصي التي ألقوها يتخيلها موسى ويظنها ـ من عظمة السحر ـ أنها حيات تتحرك وتسعى على بطونها، والتعبير يوحي بعظمة السحر، حتى إن موسى فزع منها واضطرب.

﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾ أي: أحس موسى الخوف في نفسه بمقتضي الطبيعة البشرية؛ لأنه رأى شيئاً هائلاً، أو أنه خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه.

﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أي: قال الله لموسى تثبيتاً وتطميناً: لا تخف مما توهمت؛ فإنك أنت الغالب المنتصر.

﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾ أي: ألق عصاك التي بيمينك، تبتلع بفمها ما صنعوه من السحر. ولم يقل عصاك تعظيماً، أي: لا تحتفل بما صنعوا فإن ما في يمينك أعظم منها.

﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ﴾ أي: إن الذي اخترعوه وافتعلوه، هو من باب الشعوذة والسحر.

﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ أي: لا يسعد الساحر حيث كان، ولا يفوز بمطلبه؛ لأنه كاذب مضلل، هذا والناس ينظرون لذلك الصنيع، فعلم السحرة علماً يقيناً أن هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا للإيمان.

﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾.

قال الشنقيطي: «يعم نفي جميع الفلاح عن الساحر، وأكد ذلك بالتعميم في الأمكنة بقوله: ﴿حَيۡثُ أَتَىٰ﴾.

﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ أي: فألقى موسى عصاه فابتلعت ما صنعوا، فخر السحرة حينئذ سجداً لله رب العالمين لما رأوه من الآية الباهرة، وبعدما ظهر الحق، وقامت الحجة عليهم. قال ابن كثير: لما ألقى موسى العصا صارت ثعباناً عظيماً هائلاً، ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق شيئاً إلا ابتلعته، والناس ينظرون إلى ذلك عياناً ونهاراً، فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، علموا علم اليقين أن هذا

الجزء السادس عشر سورة طه

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ
أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا
تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ
كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا
قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ
لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ
وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ
أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ
ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا
عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا
فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ
عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

٣١٦

ليس من قبيل السحر والحيل وأنه حق ولا مرية فيه، فعند ذلك وقعوا سجداً لله، فقامت المعجزة واتضح البرهان، ووقع الحق وبطل السحر.

وما أسرع الأمر، ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود. قال ابن عباس: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة.

* وكان ما وقع من ظهور الآيات والمعجزات رحمة للمؤمنين، وحجة على المعاندين، وكان من فرعون ما ذكره الله ﷻ عنه من الكفر والطغيان، قال تعالى:

﴿٧١﴾-﴿٧٣﴾ ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ

وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ * قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ * إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾.

﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾ أي: قال فرعون للسحرة: أصدقتم بموسى وأقررتم بما جاء به واتبعتموه، قبل أن أسمح لكم بذلك، وقبل أن تستأذنوني؟

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾ أي: إن موسى رئيسكم الذي علمكم السحر، فاتفقتم معه لتذهبوا بملكي، وإنما أراد فرعون بقوله هذا أن يلبس على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم، ثم عدل إلى استعمال جاهه وسلطانه وتوعدهم، وهددهم بالقتل والتعذيب، فقال:

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ أي: فوالله لأقطعن الأيدي والأرجل منكم، مختلفات بقطع اليد اليمنى، والرجل اليسرى، أو بالعكس، كما يفعل بالمحارب الساعي بالفساد.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ أي: لأعلقنكم على جذوع النخل، وأقتلنكم شر قتلة، لأجل أن تشتهروا وتخزوا، وخص النخل لطول جذوعها.

﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ ولتعلمن أيها السحرة من هو أشد منا عذاباً وأدوم، هل أنا أم رب موسى الذي صدقتم به وآمنتم، ولهذا لما عرف السحرة الحق، ورزقهم الله من العقل ما يدركون به الحقائق، أجابوه بقولهم:

﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: قال السحرة لفرعون: لن نختارك ونفضلك على الهدى والإيمان الذي جاءنا من الله على يد موسى ولو كان في ذلك هلاكنا.

﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَا﴾ قسم بالله، أي: مقسمين بالله الذي خلقنا.

﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ فاصنع ما أنت صانع من القطع، والصلب، والعذاب.

﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ إنما ينفذ أمرك في هذه الحياة الدنيا، وهي فانية زائلة، ورغبتنا في النعيم الخالد. قال عكرمة: لما سجدوا أراهم الله في سجودهم منازلهم في الجنة، فلذلك قالوا ما قالوا.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ أي: آمنا بالله ليعفوا عن ذنوبنا التي اقترفناها، وما صدر منا من الكفر والمعاصي، فإن الإيمان مكفر للسيئات.

﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِ﴾ أي: ويغفر لنا السحر الذي عملناه لإطفاء نور الله، وهذا دليل على أنهم غير مختارين في عملهم المتقدم، وإنما أكرههم فرعون إكراهاً.

﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ والله خير منك ثواباً وأجراً، ومنزلة لمن أطاعه، وأبقى عذاباً لمن عصاه، أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء، وهذا جواب قوله: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾.

* ولما آمن السحرة، واهتدوا، وصدقوا، بدأوا في وعظ فرعون ودعوته، يحذرونه من نقمة الله وعذابه، ويرغبونه في ثوابه، فقالوا:

(٧٤)-(٧٦) ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ * وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ * جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ هذا من تتمة كلام السحرة عظة لفرعون، أي: من يلقى ربه يوم القيامة وهو مجرم باقترافه المعاصي وموته على الكفر، فإن له نار جهنم يعذب بها.

﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ لا يموت في جهنم فينقضي عذابه ويستريح، ولا يحيا حياة طيبة هنيئة ينتفع بها، وإنما حياته محشوة بعذاب القلب والروح والبدن.

﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾ أي: ومن يلقى ربه مؤمناً موحداً، وقد عمل الطاعات وترك المنهيات، فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات، لهم المنازل الرفيعة عند الله.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ بيان للدرجات العلى، أي: جنات إقامة ذات الدرجات

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا
فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ
وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ
جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن
طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى
وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ
وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن
قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ
رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ
يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ
أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم
مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ
أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾

٣١٧

العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: تجري من تحت غرفها وسررها أنهار الجنة، من الخمر، والعسل، واللبن، والماء، ماكثين في الجنة دوماً، لا يخرجون منها أبداً.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: وذلك ثواب من تطهر من دنس الكفر والمعاصي، وفي الحديث: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، فإذا سألتم الله فسألوه الفردوس» [رواه الترمذي].

* لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام، ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل، ويريه الله من الآيات والعبر، فلم تفد ولا تنفع، ولما أراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم، وأن يهلك فرعون وقومه، أمر موسى أن يخرج بهم من مصر ليلاً، قال تعالى:

(٧٧)-(٧٩) ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي: أوحينا إلى موسى بعد أن تمادى فرعون في الطغيان، أن أسر ببني إسرائيل ليلاً من أرض مصر.

﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ اضرب البحر بعصاك، ليصبح لهم طريقاً يابساً يمرون عليه.

﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ لا تخاف لحاقاً من فرعون وجنوده، ولا تخشى الغرق في البحر.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ فلحقهم فرعون مع جنوده ليقتلهم، فأصابهم من البحر ما أصابهم، وغشيهم من الأهوال ما لا يعلم كنهه إلا الله، والتعبير يفيد التهويل لما دهاهم عند الغرق.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ أي: أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى خير ولا نجاة، وذلك بما زين لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافه إياهم.

* ثم يذكر ﷻ عنايته بموسى وقومه، وإنجائهم وإهلاك عدوهم، ومنته العظيمة على بني إسرائيل حيث أنجاهم من عدوهم فرعون، وأقرأ عينهم منه وهم ينظرون إليه، وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، وما وصاهم به من المحافظة على شكرها وتحذيرهم من التعرض لغضب الله بكفرها، فقال تعالى:

(٨٠)-(٨٢) ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ * كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ * وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ خطاب لبني إسرائيل بعد خروجهم من البحر، وإغراق فرعون وجنوده، والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم، حين نجيتكم من فرعون وقومه، الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب.

﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ أي: وعدنا موسى للمناجاة وإنزال التوراة عليه جانب طور سيناء الأيمن، وإنما نسبت المواعدة إليهم لكون منفعتها راجعة إليهم، إذ في نزول التوراة صلاح دينهم ودنياهم.

﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ أي: رزقناكم وأنتم في أرض التيه بالمن، وهو يشبه العسل. والسلوى، وهو من أجود الطيور لحماً، تفضلاً منا عليكم، وفي هذا الترتيب غاية الحسن حيث بدأ بتذكيرهم بنعمته الدينية، ثم بالنعمة الدنيوية.

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي: وقلنا لكم، كلوا من الحلال اللذيذ الذي أنعمت به عليكم، واشكروه على ما أسدى إليكم من النعم.

﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِي﴾ أي: لا تحملنكم السعة والعافية والرزق، فتستعملونها في معاصيه، وتبطرون النعمة، فإن فعلتم ذلك، نزل بكم عذابي.

﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ ومن ينزل عليه غضبي وعقابي فقد هلك، وشقي، وخاب، وخسر، ومع هذا فالتوبة معروضة، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، فلهذا قال:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي: وإني لعظيم المغفرة لمن تاب من الشرك، وحسن إيمانه وعمله، ثم استقام على الهدى والإيمان علق المغفرة على أربعة شروط. وفي الآية ترغيب لمن وقع في شيء من المعاصي ببيان المخرج كيلا ييأس.

وقد جمعت هذه الآية الأسباب التي تدرك بها مغفرة الله.

* ثم ذكر سبحانه قصة موسى، وما جرى من قومه بعده، من انتكاس بني إسرائيل بعبادتهم العجل، فقال تعالى:

﴿٨٣﴾-﴿٨٩﴾ ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ * قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي * قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ * فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾.

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: أيُّ شيء عجل بك عن قومك يا موسى؟ وكان موسى قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور على الموعد المضروب، ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه وسبقهم إلى جانب الطور الأيمن، وخلفهم وراءه.

﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ أي: قومي قريبون مني، لم أتقدمهم إلا بشيء يسير، وسوف يلحقون بي.

﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ وعجلت إلى الموضع الذي أمرتني بالمجيء إليه لتزداد رضى عني. اعتذر موسى أولاً، ثم بين السبب في إسراعه قبل قومه، وهو الشوق إلى مناجاة الله ابتغاءً لرضاه.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ أخبر الله تعالى موسى: أنه قد ابتلى قومه بعد فراقه إياهم بعبادة العجل.

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي: وأوقعهم السامري في الضلالة بسبب تزيينه لهم عبادة العجل، وكان السامري ساحراً منافقاً من قوم يعبدون البقر. قال المفسرون: كان موسى حين جاء لمناجاة ربه قد استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، وأمره أن يتعهدهم بالإقامة على طاعة الله، وفي أثناء غيبة موسى جمع السامري الحلي ثم صنع منها عجلاً ودعاهم إلى عبادته، فعكفوا عليه، وكانت تلك الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوماً.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ أي: رجع موسى من الطور بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة، شديد الحزن والغضب على ما صنع قومه من عبادة العجل.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًا﴾ أي: ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً بإنزال التوراة فيها الهدى والنور؟ والاستفهام للتوبيخ.

﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن

فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ
وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا
وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ
مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي
وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ
إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢
أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ٩٣ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي
وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ
وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ٩٤ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ٩٥ قَالَ
بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ
ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ٩٦ قَالَ
فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ
مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ
عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ٩٧ إِنَّمَآ
إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ٩٨

٣١٨

رَبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ أي: هل طال عليكم مدة مفارقتي واستبطأتم الوعد، حتى نسيتم العهد، أم أردتم بصنيعكم هذا أن ينزل عليكم سخط الله وغضبه، فأخلفتم وعدي، وعبدتم العجل، وتركتم الالتزام بأوامري؟ وكانوا وعدوه بأن يتمسكوا بدين الله وسنة موسى عليه السلام ولا يخالفوا أمر الله أبداً، فأخلفوا موعده بعبادته العجل.

﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾ أي: ما أخلفنا العهد بطاقتنا وإرادتنا، واختيارنا، بل كنا مكرهين، ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر، فقالوا:

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ أي: حملنا أثقالاً وأحمالاً من حلي آل فرعون، فطرحناها في حفرة فيها نار بأمر السامري. قال مجاهد: أوزاراً: أثقالاً، وهي الحلي التي استعاروها من آل فرعون.

﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي: كذلك فعل السامري، ألقى ما كان معه من حلي القوم في النار. قال المفسرون: كان بنو إسرائيل قد استعاروا من القبط الحلي قبل خروجهم من مصر، فلما أبطأ موسى في العودة إليهم، قال لهم السامري: إنما احبس عليكم لأجل ما عندكم من الحلي فجمعوه ودفعوه إلى السامري، فرمى به في النار، وصاغ لهم منه عجلاً، ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس جبريل عليه السلام فجعل يخور، فذلك قوله تعالى:

﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾ أي: صاغ لهم السامري من تلك الحلي المذابة عجلاً جسداً بلا روح له خوار، وهو صوت البقر.

﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أي: فقال المفتونون به منهم للآخرين: هذا العجل إلهكم وإله موسى، نسيه موسى وغفل عنه وذهب يطلبه في الطور. قال قتادة: نسي موسى ربه عندكم، فعكفوا عليه يعبدونه، ومن عجيب أمرهم: أنهم لم يكتفوا بكونه إلههم حتى جعلوه إله موسى، فنسبوا موسى عليه السلام إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى، بل عبادة أبلد الحيوانات، وأقلها دفعاً عن نفسه، بحيث يضرب به المثل في البلادة والذل، فجعلوه إله كليم الرحمن، ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى عليه السلام ضالاً مخطئاً فقالوا: ﴿فَنَسِيَ﴾. قال تعالى رداً عليهم وبياناً لسخافة عقولهم في عبادة العجل:

﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ أفلا يرى الذين عبدوا العجل الذي زعموا أنه إلههم، أنه لا يكلمهم ابتداءً ولا يرد لهم جواباً، ولا يقدر أن يدفع عنهم ضراً، أو يجلب لهم نفعاً، لا في دنياهم ولا في أخراهم، فكيف يكون إلهاً؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع، فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم، وعدم ملك الضر والنفع دليل على عدم الإلهية، وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإله لا بد أن يُكلم ويتكلم، ويملك، بيده الضر والنفع، وإلا لم يكن إلهاً.

﴿٩٠﴾، ﴿٩١﴾ ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي * قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾.

﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ أي: قال هارون لبني إسرائيل من قبل رجوع موسى إليهم ناصحاً ومذكراً: إنما ابتليتم وأضللتم بهذا العجل ليظهر المؤمن منكم من الكافر.

﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ أي: وإن ربكم

المستحق للعبادة هو الرحمن الذي منه النعم الظاهرة والباطنة، لا العجل، فاقتدوا بي فيما أدعوكم إليه من عبادة الله، وأطيعوا أمري بترك عبادة العجل، فأبوا.

﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أي: قال عُبّاد العجل منهم: لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يعود إلينا موسى فننظر في الأمر.

٩٢-٩٤ ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ۝٩٣ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ في الكلام حذف، أي: فلما رجع موسى ووجدهم عاكفين على عبادة العجل، امتلأ غضباً لله وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه، وقال له: أيّ شيء منعك حين رأيتهم كفروا بالله أن لا تتبعني في الغضب لله والإنكار عليهم، والزجر لهم عن ذلك الضلال؟

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ أي أخالفتني وتركت أمري ووصيتي؟ قال المفسرون: وأمره هو ما كان أوصاه به فيما حكاه تعالى عنه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] ثم أخذ موسى بلحية هارون ورأسه يجره إليه.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ أي: قال له هارون استعطافاً وترقيقاً: يا ابن أمي - وإلا فهو شقيقه - لا تأخذ بلحيتي ولا بشعر رأسي. قال ابن عباس: أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه؛ لأن الغيرة في الله ملكته، ثم ذكر عذره، فقال:

﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: إني خفت إن زجرتهم بالقوة، أن يقع قتال بينهم فتلومني على ذلك، وتقول لي: لقد أشعلت الفتنة بينهم.

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ أي: لم تنتظر أمري فيهم، ولم تحفظ وصيتي حين قلت لك: اخلفني في قومي، وأصلح، أي: أرفق بهم، فمن أجل ذلك رأيت ألا أفعل شيئاً حتى ترجع إليهم لتتدارك الأمر بنفسك. قال ابن عباس: وكان هارون هائباً مطيعاً له.

* وبعد هذه المحاورة بين موسى وهارون، وغضب موسى لما صنع القوم، سأل السامري عما أحدث وفعل:

٩٥-٩٨ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ۝ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۝ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ﴾ أي: ما شأنك يا سامري فيما صنعت؟ وما الذي حملك عليه يا سامري، حيث فعلت ما فعلت.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ قال السامري: رأيت ما لم يروه، وهو أن جبريل حين جاءك لهلاك فرعون على فرس الحياة، فألقي في نفسي أن أقبض من أثره قبضة، فما ألقيته على شيء إلا دبت فيه الحياة.

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: قبضت شيئاً من أثر فرس جبريل، فطرحتها على العجل، فكان له خوار.

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ وكذلك حسنت وزينت لي نفسي الأمارة بالسوء هذا الصنيع.

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قال موسى للسامري: تباعد عني واستأخر مني واخرج من بيننا طريداً، وعقوبتك في الدنيا ألا تمس أحداً ولا يمسك أحداً، وكأن الله ﷻ شدد عليه المحنة فصار السامري يهيم في البرية مع الوحوش والسباع، لا يمس أحداً ولا يمسه أحد.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ وإن لك موعداً للعذاب والعقاب في الآخرة لن يتخلف، ولا مذهب لك عنه.

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: انظر إلى معبودك

العجل الذي زعمت أنه إلهك، وأقمت ملازماً على عبادته.

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ أي: لنحرقنه بالنار، ثم لنطيرنه ولنذرينه رماداً في البحر لا يبقى منه عين ولا أثر، فلو كان إلهاً، لامتنع ممن يريده بأذى، ويسعى بالإتلاف، وأراد بهذا موسى إزالة ما في قلوب بني إسرائيل من حبه، كما زال شخصه، فلما تبين لهم بطلانه أخبرهم موسى:

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: يقول موسى لبني إسرائيل: إنما معبودكم المستحق للعبادة هو الله الذي لا رب سواه، فلا يؤله ولا يحب، ولا يرجى، ولا يخاف، ولا يدعى إلا هو.

﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ أي: وسع علمه كل شيء، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، المحيط علمه بجميع الأشياء.

* لما ذكر تعالى قصة موسى بالتفصيل، أعقبها بذكر أن هذا القصص وحي من الله، وأن محمداً ﷺ ما كان له علم بهذه الأخبار والأنباء العجيبة، لولا أن الله تعالى أوحى إليه، وهذه منته من الله ﷻ على نبيه، وهي من أكبر الدلائل والبراهين على صدق الرسالة، قال تعالى:

(٩٩)-(١٠١) ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا * مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا * خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾.

الجُزْءُ السَّادِسَ عَشَرَ — سُورَةُ طه

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا
ذِكۡرٗا ﴿٩٩﴾ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا
﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴿١٠١﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ
فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ
بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ
أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ
فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾
لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ
لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا
﴿١٠٨﴾ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ
قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ
عِلۡمٗا ﴿١١٠﴾ ۞وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ
ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ
ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا
فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١١٣﴾

٣١٩

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَ﴾ أي: كما قصصنا عليك يا محمد خبر موسى مع فرعون وقومهما، وما فيه من الأنباء الغريبة، كذلك نخبرك بأخبار الأمم السابقين لك، تكثيراً لبيناتك وزيادة في معجزاتك.

﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾ أي: أعطيناك منة من عندنا قرآناً يتلى منطوياً على المعجزات الباهرة، مشتملاً على القصص والأخبار، الدال على معجزات أوتيها عليه السلام الحقيقة بالتفكر والاعتبار.

﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾ أي: من أعرض عن هذا القرآن فلم يؤمن به، ولم يتبع ما فيه، أو تهاون بأوامره ونواهيه، فإنه يحمل يوم القيامة حملاً ثقيلاً، وذنباً عظيماً يثقله في جهنم.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾ أي: مقيمين في ذلك العذاب بأوزارهم، وبئس ذلك الحمل الثقيل حملاً لهم، شبه الوزر بالحمل لثقله.

* ثم استطرد ﷻ ذكر أحوال يوم القيامة وأهواله، فقال:

(١٠٢)-(١٠٤) ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا * يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا * نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾.

﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾ يوم ينفخ إسرافيل في القرن النفخة الثانية، ونحشر المجرمين إلى أرض المحشر زرق العيون، سود الوجوه، تغيرت ألوانهم وعيونهم من شدة الأحداث والأهوال.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا﴾ يتهامسون بينهم، ويسر بعضهم إلى بعض، قائلين: ما مكثتم في الدنيا إلا عشر ليال، استقصروا مدة لبثهم فيها لما عاينوا الشدائد والأهوال.

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ نحن أعلم بما يتناجون بينهم.

﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي: إذ يقول أعقلهم وأعدلهم قولاً ما لبثتم إلا يوماً واحداً، قصر ذلك في أعينهم في جنب ما استقبلهم من أهوال يوم القيامة. والمقصود من هذا الندم العظيم، كيف ضيعوا الأوقات القصيرة، وقطعوها ساهين لاهين، معرضين عما ينفعهم، مقبلين على ما يضرهم.

* وفي ثنايا السورة الكريمة تبرز بعض مشاهد القيامة، في عبارات يرتجف لها الكون، وتهتز لها القلوب هلعاً وجزعاً، ويعتري الناس الذهول والسكون، فقد ذكر تعالى أهوال يوم القيامة، وما فيها من الزلازل والقلاقل، فقال:

﴿١٠٥﴾-﴿١٠٨﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ أي: ويسألوك -يا محمد- قومك عن حال الجبال ومصيرها يوم القيامة وماذا يصنع بها؟ وهل تبقى أو تزول؟ فقل لهم: إن ربي يقلعها ويفتتها كالرمل، ثم يرسل عليها الرياح فيطيرها. قال ابن عباس: سأل رجل من ثقيف رسول الله ﷺ: كيف تكون الجبال يوم القيامة؟ فأنزل الله هذه الآية.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: فيدع أماكن الجبال من الأرض أرضاً ملساء مستوية، لا نبات فيها ولا بناء.

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ أي: لا يرى الناظر إليها من استوائها ميلاً وانخفاضاً ولا ارتفاعاً، فتبرز الأرض، وتتسع للخلائق، ويمدها الله من الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، ولهذا قال:

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: في ذلك اليوم العصيب يتبع الناس صوت داعي الله الذي يدعوهم لأرض المحشر، لا محيد عن دعوة الداعي، يأتونه سراعاً لا يزيغون عنه ولا ينحرفون، بل يتبعونه سراعاً.

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: ذلت وسكتت أصوات الخلائق هيبة من الرحمن -جل وعلا- وإجلالاً له. ووصف الأصوات بالخشوع والمراد أهلها.

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: إلا وطء الأقدام، أو لا تسمع إلا صوتاً خفياً لا يكاد يسمع. عن ابن عباس: هو همس الأقدام في مشيها إلى المحشر.

* وعرضت السورة ليوم الحشر الأكبر، حيث يتم الحساب العادل، ويعود الطائعون إلى الجنة، ويذهب العصاة إلى النار، تصديقاً لوعد الله الذي لا يتخلف، بإثابة المؤمنين وعقاب المجرمين. يذكر الله ﷻ في ذلك الموقف موقع الشفاعة وأثرها، وأنها لا تنفع إلا بشروطها، قال تعالى:

﴿١٠٩﴾-﴿١١٢﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا * وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ أي: في ذلك اليوم الرهيب لا تنفع الشفاعة أحداً من الخلق، إلا لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له، ورضي لأجله شفاعة الشافع، وهو الذي كان في الدنيا مؤمناً مخلصاً من أهل لا إله إلا الله.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعلم تعالى أحوال الخلائق وما بين أيدي الناس من أمر القيامة، وما خلفهم، فلا تخفى عليه خافية من أمور الدنيا وأمور الآخرة.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ أي: لا يحيط خلقه به علماً -جل وعلا-.

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ أي: ذلت وخضعت وجوه الخلائق للواحد القهار، جبار السموات والأرض الذي لا يموت، القائم على تدبير شؤون خلقه، وقيل: المراد بالوجوه وجوه العصاة وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة والشقوة وسوء الحساب، صار وجوههم عانية، أي: ذليلة خاضعة، مثل وجوه العناة وهم الأسارى.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: خسر يوم القيامة من أشرك بالله أحداً

من خلقه، ولم ينجح ولا ظفر بمطلوبه، فإن الله ﷻ سيؤدي كل حق إلى صاحبه، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء، ولما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنى بالمتقين وحكمهم، فقال:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ ومن يعمل الأعمال الصالحة بشرط الإيمان، فلا يخاف ظلماً بزيادة سيئاته، ولا بخسا ونقصاً لحسناته.

قال القرطبي في الفرق بينهما: «الظلم: المنع من الحق كله. الهضم: المنع من بعضه».

* ثم ذكر تعالى منته وفضله وإحسانه، بإنزال هذا القرآن بلغة العرب، رحمة للعالمين، قال تعالى:

(١١٣)، (١١٤) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: مثل إنزال الآيات المشتملة على القصص العجيبة، أنزلنا هذا الكتاب عليك - يا محمد - بكلام العرب الذي تفهمونه وتفقهونه، لا لبس فيه ولا عي، ولا يخفى عليكم لفظه ولا معناه، ليعرفوا أنه في الفصاحة والبلاغة خارج عن طوق البشر.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: كررنا وبينا فيه الإنذار والوعيد.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: كي يتقوا الكفر والمعاصي، أو يحدث لهم موعظة في القلوب، ينشأ عنها امتثال الأوامر واجتناب النواهي، فكونه عربيّاً، وكونه مصروفاً فيه من الوعيد أكبر سبب، وأعظم داع للتقوى والعمل الصالح، فلو كان غير عربي، أو غير مصرف فيه، لم يكن له هذا الأثر.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: جل الله وتقدس، وتنزه الملك الحق عن كل نقص، الذي قهر سلطانه كل ملك وجبار، تعالى عما يصفه به المشركون من خلقه.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أي: إذا أقرأك - يا محمد - جبريل القرآن فلا تبادر بالقراءة معه، بل استمع إليه واصبر حتى يفرغ من تلاوته، وحينئذ تقرأه أنت. قال ابن عباس: كان ﷺ يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً على حفظ القرآن ومخافة النسيان فنهاه الله عن ذلك؛ لأنه تعالى قد ضمن له جمعه في صدره ﷺ، ولما كانت عجلته ﷺ، على تلقف الوحي ومبادرته إليه، تدل على محبته التامة للعلم وحرصه عليه، أمره الله تعالى أن يسأله زيادة العلم، فإن العلم خير، وكثرة الخير مطلوبة، وهي من الله، والطريق إليها الاجتهاد، والشوق للعلم، وسؤال الله، والاستعانة به والافتقار إليه في كل وقت.

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي: سل الله ﷻ زيادة العلم النافع، وبالقرآن ومعانيه. قال الطبري: أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم. وقيل: ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم.

* ثم عرضت السورة لقصة آدم، ورعاية الله له وعنايته به أن حذره من عدوه إبليس عقب نشوزه وعصيانه، ثم برزت رحمة الله لآدم بعد الخطيئة، وهدايته لذريته بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، ثم ترك الخيار لهم لاختيار طريق الخير أو الشر، قال تعالى:

(١١٥)-(١٢٢) ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا

الجزء السادس عشر سورة طه

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن
يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا (١١٤) وَلَقَدْ عَهِدْنَآ
إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦)
فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا
مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ
(١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ
ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ
لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ
(١٢١) ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا
جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى
فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ
عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥)

٣٢٠

* وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾ أي: وصيناه وأمرناه بأمرنا، فالتزمه وأذعن إليه، وهو أن لا يأكل من الشجرة من قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدك وتركوا الإيمان بي، وقلنا له: إن إبليس عدو لك ولزوجك، فلا يخرجنكما من الجنة، فتشقى أنت وزوجك في الدنيا، فوسوس إليه الشيطان فأطاعه. قيل: إن أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده كان من عدم العلم والعزم.

﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي: نسي أمرنا ولم نجد له حزماً وصبراً عما نهيناه عنه، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعته، نسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ فخطئوا، وتأمل أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده، كيف كان من عدم العلم والعزم. ثم يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه وما فضله به على كثير من الخلق:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أي: واذكر - يا محمد - حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم، فامتثلوا الأمر وأطاعوا إلا إبليس، فإنه أبى السجود وعصى أمر ربه. وقد كررت هذه القصة في سبع سور من القرآن تعليماً للعباد امتثال الأوامر، واجتناب النواهي وتذكيراً لهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم.

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ أي: ونبهنا آدم فقلنا له إن إبليس شديد العداوة لك ولحواء حيث لم يسجد لك ولم ير فضلك، فاحذرا منه، ولا تطيعاه بمعصيتي.

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ أي: لا تطيعاه فيكون سبباً لإخراجكما من الجنة فتتعبان وتنصبان،، وإنما اقتصر على شقائه مراعاة للفواصل، ولاستلزام شقائه لشقائها، قال ابن كثير: المعنى إياك أن يسعى في إخراجك من الجنة فتتعب وتشقى في طلب رزقك، فإنك ههنا في عيش رغيد، بلا كلفة ولا مشقة، وتأمل كيف شرك بينهما في الخروج من الجنة، وخص الذكر بالشقاء؛ لأن الأصل أن الذكر هو الذي يشتغل بالكسب والمعاش، وأما المرأة فهي في خدرها.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ أي: إن لك يا آدم، ألا ينالك في الجنة الجوع، ولا العري عن الملابس؛ لأنها معدة أبداً فيها، وقرن بين الجوع والعري؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أي: ولك أيضاً ألا يصيبك العطش فيها ولا حر الشمس، إذ ليس فيها شمس فأهلها في ظل ممدود؛ ولأن الجنة دار السرور والحبور، لا تعب فيها ولا نصب، ولا حر ولا ظمأ، بخلاف دار الدنيا، فضمن له استمرار الطعام والشراب، والكسوة والماء، وعدم التعب والنصب، وقرن به الظمأ والضحى فالظمأ حر الباطن وهو العطش، والضحى حر الظاهر، لكنه نهاه عن أكل شجرة معينة، فلم يزل الشيطان يسول لهما ويزين أكل الشجرة.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فوسوس الشيطان لآدم، وحدثه خفية بطريق الوسوسة.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ قال له إبليس مظهراً ومدعياً النصيحة: هل أدلك يا آدم على شجرة من أكل منها خلد ولم يمت أصلاً، ونال الملك الدائم الذي لا يزول أبداً؟ أضاف الشجرة إلى الخلد، وهذه مكيدة ظاهرها النصيحة، مع تلطف في العبارات، فاغتر به آدم.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي: أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عنها، فظهرت لهما عوراتهما وكانت مستورة عن أعينهما. قال ابن عباس: عريا عن النور الذي كان الله تعالى قد ألبسهما إياه حتى بدت فروجهما.

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦
وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ
أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧ أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ
يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ١٢٨
وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ١٢٩
فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ
وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ
تَرۡضَىٰ ١٣٠ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ
بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ
لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم
بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ
مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ
ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْ
فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٥

٣٢١

﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ أي: شرعا يأخذان من أوراق الجنة، وهو ورق التين ويغطيان بها عوراتهما ليسترا بها.

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ أي: خالف آدم أمر ربه بالأكل من الشجرة، فضل عن المطلوب، الذي هو الخلود في الجنة، حيث اغتر بقول العدو، لكنه بادر إلى التوبة والإنابة. وفي وصفه بالعصيان والغواية - مع صغر زلته - تعظيم لها وزجر بليغ لأولاده عن أمثالها.

﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ ثم اصطفاه واختاره ربه فرده إليه، وقربه، وقبل توبته، وهداه إلى الثبات على التوبة، والتمسك بأسباب الطاعة، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها.

* ثم ذكر تعالى ما جرى لآدم بعد أن أكل من الشجرة، قال تعالى:

﴿١٢٣﴾-﴿١٢٦﴾ ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ * وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾.

﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ أي: قال الله ﷻ لآدم وحواء: انزلا من الجنة إلى الأرض جميعاً مع إبليس؛ بعض ذريتكما لبعض عدو بسبب الكسب والمعاش واختلاف الطبائع والرغبات.

﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ أي: فإن جاءكم من جهتي الكتب والرسل والبيان، لهدايتكم ودلالتكم.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ فمن تمسك بشريعتي واتبع رسلي فلا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، فنفى عنه الضلال، الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح معاً، فهو منعم القلب والبدن بالهدى والفلاح. قال ابن عباس: ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وتلا الآية.

﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ ومن تولى عن أمري، وما أنزلته على رسلي من الشرائع والأحكام، وترك تدبره والعمل به، فإن له في الدنيا معيشة قاسية شديدة، وإن تنعم ظاهره وبدا في أهل الفضل واليسار.

﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ أي: ونحشر هذا المعرض في الآخرة أعمى البصر، أعمى عن الرؤية وعن الحجة. قال ابن كثير: من أعرض عن أمر الله وتناساه فإن له حياة ضنكا في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه في قلق، وحيرة وشك. وقيل: يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا﴾ أي: قال الكافر المعرض: يا رب، بأي ذنب عاقبتني بالعمى، وقد كنت في الدنيا بصيراً؟ فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ قال الله تعالى له: حشرتك أعمى؛ لأنك قد أتتك آياتنا واضحة جلية فتعاميت عنها، وتركتها ولم تؤمن بها، وكذلك تترك اليوم في العذاب جزاءً وفاقاً.

* ولما توعد الله ﷻ المعرض عن ذكره بعقوبتين: المعيشة الضنك في الدنيا، وحشره أعمى في العقبى، ختم آيات الوعيد، بقوله:

﴿١٢٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي: ومثل ذلك الجزاء الموافق للخيانة والتكذيب بآيات الله، نعاقب من أسرف بالانهماك في الشهوات، ولم يصدق بكلام ربه وآياته البينات.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: عذاب جهنم المعد لهم أشد من عذاب الدنيا، أضعافاً مضاعفة؛ لأن عذابها أدوم وأثبت؛ لأنه لا ينقطع، ولا ينقضي.

﴿١٢٨﴾-﴿١٣٠﴾ ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ * وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى * فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي: أفلم يتبين لكفار مكة الذين كذبوك، كم أهلكنا قبلهم من الأمم الخالية المكذبين لرسلهم، فبادوا وهلكوا، فليس لهم باقية، ولا عين ولا أثر.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي: ترون مساكن وديار عاد وثمود، وتعاينون آثار هلاكهم، أفلا تتعظون وتعتبرون؟

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ أي: إن في آثار هذه الأمم البائدة لدلالات وعبراً لذوي العقول السليمة، فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم من أسباب الهداية، لكونها من الآيات الدالة على صحة رسالة الرسل الذين جاؤوهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي: ولولا قضاء الله بتأخير العذاب عنهم ووقت مسمى لهلاكهم، حتى تقوم الحجة عليهم، لكان العذاب واقعاً بهم، وفي الآية تقديم وتأخير، والمعنى: ولولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاماً، أي: لكان العذاب لازماً لهم، كما لزم القرون الماضية الكافرة، وهذه تسلية للرسول ﷺ، وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين المعرضين.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فاصبر - يا محمد - على ما يقول هؤلاء المكذبون من قومك، من أوصاف وأباطيل، وأمره أن يتعوض عن ذلك ويستعين عليه بالتسبيح.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي: صل وأنت حامد لربك قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل غروبها صلاة العصر.

﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ أي: وصل لربك في ساعات الليل، وفي أول النهار، وآخره.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ لعلك تُعطى ما يرضيك، وليطمئن قلبك، وتقر عينك بعباده ربك، وأكثر المفسرين على أن هذه الآية إشارة إلى الصلوات الخمس: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاة العصر، ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ صلاة العشاء، ﴿فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ صلاة المغرب والظهر، لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول، وغروب الشمس آخر طرف النهار الأخير.

* وختمت السورة ببعض التوجيهات الربانية للرسول ﷺ في الصبر، وتحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله، قال تعالى:

﴿١٣١﴾،﴿١٣٢﴾ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي: لا تنظر معجباً، ومستحسناً إلى ما متعنا به أصنافاً من الكفار من نعيم الدنيا وبهرجها الخادع.

﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: فإنها زينة زائلة في هذه الحياة الدنيا.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبتليهم ونختبرهم بهذا النعيم حتى يستوجبوا العذاب بكفرهم، وإنما جعلها الله فتنة واختباراً، ليعلم من يقف عندها، ويغتر بها.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: وأنت آتاك الله خيراً مما آتاهم، وثواب الله خير من هذا النعيم الفاني وأدوم. قال المفسرون: الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته؛ لأنه عليه السلام كان أزهد الناس في الدنيا وأشد رغبة فيما عند الله، وفي هذه الآية، إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحاً إلى زينة الدنيا، وإقبالاً عليها، أن يذكر ما أمامه من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ وأمر وحث - يا محمد - أهلك وأمتك بالصلاة، واستنقذهم من عذاب الله، واصبر أنت على أدائها بخشوعها وآدابها.

وفي قوله: ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أمر زائد على الصبر. لما فيها من الديمومة والاستمرار وعدم اليأس.

﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي: لا نكلفك أن ترزق نفسك وأهلك، بل نحن نتكفل برزقك وإياهم، فإذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: العاقبة الحميدة وحسنها لأهل التقوى، وهي الجنة.

* ثم يخبر ﷻ عن طلب الكفار آية تدل على صدق محمد ونبوته، قال تعالى:

﴿١٣٣﴾-﴿١٣٥﴾ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ * قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: قال المشركون المكذبون للرسول ﷺ: هلا تأتينا - يا محمد - بمعجزة تدل على صدقك؟ وهذا تعنت منهم وعناد وظلم.

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ أي: أولم يكتفوا بالقرآن المعجزة الكبرى لمحمد ﷺ المحتوي على أخبار الأمم الماضية والمصدق لما فيها؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع، وإنما ذكر ههنا أعظم الآيات التي أعطيها عليه السلام، وهو القرآن، وإلا فله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر.

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: لو أنا أهلكنا كفار مكة من قبل نزول القرآن وبعثة محمد ﷺ.

﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ لقالوا، يا ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً حتى نؤمن به ونتبعه.

﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ أي: فنتمسك بآياتك من قبل أن نذل بالعذاب، ونفتضح على رؤوس الأشهاد. قال المفسرون: أراد تعالى أن يبين أنه لا حجة لأحد على الله بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب، فلم يترك لهم حجة ولا عذراً، وأن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ قل - يا محمد - لهؤلاء المكذبين، كل منا ومنكم منتظر دوائر الزمان وبما يؤول إليه أمرنا وأمركم، ولمن يكون النصر والفلاح.

﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أمر تهديد، أي: فانتظروا العاقبة والنتيجة.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ فستعلمون عن قريب إذا جاءت القيامة من هم أصحاب الطريق المستقيم، هل نحن أم أنتم؟

﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ أي: اهتدى إلى الحق وسبيل الرشاد، وإلى النعيم المقيم، ومن بقي على الضلال، وفي هذا ضرب من الوعيد، والتخويف، والتهديد، ختمت به السورة الكريمة.

تم تفسير سورة طه
والحمد لله

تفسير سورة الأنبياء
وهي مكية

* سورة الأنبياء من السور المكية، وهي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية في ميادينها الكبيرة من الرسالة، والوحدانية والبعث والجزاء، وتتحدث عن الساعة وشدائدها، والقيامة وأهوالها، وسورة الأنبياء سورة الذكر، وسورة الأنبياء الذين عليهم نزل الذكر، وفيها قصص الأنبياء والمرسلين.

سميت «سورة الأنبياء»؛ لأن الله تعالى ذكر فيها جملة من الأنبياء الكرام في استعراض سريع، يطول أحياناً ويقصر أحياناً، وذكر جهادهم وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله، وتفانيهم في تبليغ الدعوة لإسعاد

سورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١)
مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ
يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ
ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ
تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ
افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ
(٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ
(٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ
الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا
لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ
الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩)
لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠)

٣٢٢

البشرية، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن غفلة الناس عن الآخرة، وعن الحساب والجزاء، بينما القيامة تلوح لهم، وهم في غفلة عن ذلك اليوم الرهيب، وقد شغلتهم مغريات الحياة عن الحساب المرقوب.

ومطلع السورة مؤثر حقاً في النفوس المؤمنة، ومما يزيدها تأثيراً أن نصفها إنذار للناس، والنصف الثاني توبيخ لهم على غفلاتهم، قال تعالى:

(١)-(٦) ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ **أي: هذا تعجب من حالة الناس، وغفلتهم، وتنبيه من الله ﷻ على اقتراب الساعة ودنوها، وأنه قد قرب ودنا وقت محاسبة الله للناس على أعمالهم يوم القيامة. جاء في ترجمة الآمدي لعامر ابن ربيعة أنه كان قد نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه، وقد أصاب أرضاً، فقال له: إني استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً في العرب، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا:** ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ **أي: وهم مستغرقون في الشهوات، غافلون عن ذلك اليوم الرهيب، لا يعملون للآخرة ولا يستعدون لها، وإنما وصف الآخرة بالاقتراب؛ لأن كل ما هو آت قريب.**

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ **أي: ما يأتيهم شيء من الوحي والقرآن من عند الله متجدد في النزول، فيه عظة لهم وتذكير.**

﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ **أي: إلا كان سماعهم للقرآن سماع لعب واستهزاء، لا يتعبرون ولا يتعظون. قال الحسن: كلما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل.**

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ **أي: ساهية قلوبهم عن كلام الله، غافلة عن تدبر معناه، معرضة عن ذكر الله، لاهية بمطالبها الدنيوية.**

﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ **أي: تناجى المشركون فيما بينهم سرّاً وخفية على وجه العناد، ومقابلة الحق بالباطل، ثم بين سرهم الذي تناجوا به، فقال:**

﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ **أي: قالوا فيما بينهم خفية، هل محمد الذي يدعي الرسالة إلا شخص مثلكم، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ فما الذي فضله عليكم، وخصه من بينكم، فلا تطيعوه، ولا تصدقوه، وأنه ساحر، فانفروا عنه، ونفروا الناس عنه، وقولوا:**

﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ **أي: أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر؟ قال الألوسي: أرادوا أن ما أتى به محمد ﷺ من**

قبيل السحر، وذلك بناءً على ما ارتكز في اعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكاً، وأن كل ما جاء به من الخوارق من قبيل السحر، وعنوا بالسحر القرآن؛ حملهم على ذلك الشقاء والظلم والعناد، والله تعالى قد أحاط علماً بما تناجوا به، وسيجازيهم عليه، ولهذا قال مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب:

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: قل - يا محمد - ﷺ إن ربي لا يخفى عليه شيء مما يقال في السماء والأرض، ويعلم ما أسررتموه من حديثكم.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم، وبما في الضمائر، وأكنة السرائر، وفي هذا تهديد لهم ووعيد.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ هذا إضراب من جهته تعالى وانتقال إلى ما هو أشنع وأقبح، حيث قالوا عن القرآن إنه أباطيل وأقاويل، وإخلاط منامات لا حقيقة له.

﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: ومنهم من قال: اختلقه وتقوله محمد من تلقاء نفسه وليس ما جاء به وحياً.

﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي: ومنهم من قال: بل محمد شاعر، وما أتى به شعر يخيل للسامع أنه كلام رائع مجيد. حكى تعالى عنهم هذه الأقوال الكثيرة، ليظهر اضطراب أمرهم، وبطلان أقوالهم فهم متحيرون لا يستقرون على شيء.

﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: فإن أراد منا أن نصدقه فليأتنا محمد بمعجزة خارقة تدل على صدقه كما أرسل موسى بالعصا، وصالح بالناقة.

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ما صدق قبل مشركي مكة أهل القرى الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات، بل كذبوا فأهلكهم الله، أفيصدق هؤلاء بالآيات لو رأوها؟ كلا إنهم لا يؤمنون، وهذا استبعاد وإنكار، أي: هؤلاء أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات فلو أعطيناهم ما اقترحوا لكانوا أضل من أولئك واستحقوا عذاب الاستئصال، ولكن الله تعالى حكم بإبقائهم لعلمه أنه سيخرج منهم مؤمنون.

* ثم رد على المكذبين شبههم وعنادهم، قال تعالى:

﴿٧﴾-﴿٩﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ وما أرسلنا قبلك - يا محمد - إلا رسلاً من البشر لا من الملائكة، فكيف ينكر هؤلاء المشركون رسالتك ويقولون: ما هذا إلا بشر مثلكم؟ وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسل، تشابهوا في الكفر فتشابهت أقوالهم.

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فاسألوا يا أهل مكة، العلماء بالتوراة والإنجيل، هل كان الرسل الذين جاؤوهم بشراً أم ملائكة؟ إن كنتم لا تعلمون ذلك، فما بال محمد ﷺ، تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته، وهي موجودة في إخوانه المرسلين، وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم، نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ وما جعلنا الرسل أجساداً لا يأكلون ولا يشربون كالملائكة، بل هم كسائر البشر يأكلون ويشربون، وينامون ويموتون.

﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ أي: ما كانوا مخلدين في الدنيا بل كانوا يعيشون ثم يموتون.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ ثم أنجزنا للأنبياء وأتباعهم ما وعدناهم به من نصرهم وإهلاك مكذبيهم، وإنجائهم مع أتباعهم المؤمنين.

﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وأهلكنا المكذبين للرسل، المجاوزين الحد في الكفر والضلال، وهذا تخويف لأهل مكة.

* ثم يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن، ومحرضاً لهم على معرفة قدره:

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ
دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ
لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ
عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ
﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾
لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا
مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ
مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

٣٢٣

﴿١٠﴾-﴿١٥﴾ ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ **اللام للقسم، أي: والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر العرب كتاباً عظيماً مجيداً، لا يماثله كتاب، فيه شرفكم وعزكم لأنه بلغتكم.**

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ **أفلا تعقلون هذه النعمة وتتلقونها بالقبول، فتؤمنون بما جاءكم به محمد ﷺ، فتعرفون ما ينفعكم وما يضركم، وهذه الآية مصداقها ما وقع، فإن المؤمنين بالرسول، الذين تذكروا بالقرآن، من الصحابة فمن بعدهم، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر، والشرف ماهو أمر معلوم لكل أحد.**

ثم حذر سبحانه هؤلاء الظالمين المكذبين للرسول، بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل، فقال:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ **أي: وكثير من أهل القرى الذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله، أهلكناهم بعذاب أبادهم جميعاً. والقصم: الكسر.**

﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ **وأوجدنا بعدهم أمماً آخرين سواهم.**

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ **أي: فلما رأى هؤلاء الظالمون عذابنا بحاسة البصر وتيقنوا نزوله، لم يمكن لهم الرجوع، ولا طريق لهم إلى النزوع، وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم، ندماً وقلقاً، وتحسراً على ما فعلوا وهروباً من وقوعه. لما أدركتهم مقدمة العذاب ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين فقيل لهم على وجه التهكم بهم:**

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ **أي: تناديهم الملائكة سخرية واستهزاءً بهم: لا تركضوا ولا تهربوا من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور، ولين العيش، إن كان لكم اقتدار.**

﴿وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ **أي: ارجعوا إلى مساكنكم المشيدة.**

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ **لعلكم تسألون عما جرى عليكم، وهذا كله من باب الاستهزاء والتوبيخ، ولما ذهب عنهم عزهم وشرفهم ودنياهم، وحضرهم ندمهم وتحسرهم.**

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ **قالوا: يا هلاكنا ودمارنا، فقد ظلمنا أنفسنا بالإشراك وتكذيب الرسل، اعترفوا، وأقروا على أنفسهم بالظلم، وندموا حين لا ينفعهم الندم.**

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ **فما زالت تلك الكلمات التي قالوها يكررونها ويرددونها، وهي الدعاء على أنفسهم بالهلاك والاعتراف بالظلم.**

﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ **حتى أهلكناهم بالعذاب، وتركناهم مثل الحصيد موتى، كالزرع المحصود قد خمدت منهم الحركات، وسكنت منهم الأصوات.**

*** وتناولت السورة دلائل القدرة في الأنفس والآفاق، لتنبه على عظمة الخالق المدبر الحكيم، فيما خلق وأبدع، قال تعالى:**

(١٦)-(٢٠) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي: لم نخلق ذلك عبثاً وباطلاً، وإنما خلقناهما دلالة على قدرتنا ووحدانيتنا ليعتبر الناس ويستدلوا بالخلق على وجود الخالق المدبر الحكيم، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما وعظمهما، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ هذا رد على من قال اتخذ الله ولداً، والمعنى: لو أردنا أن نتخذ ما يتلهى به، من زوجة، أو ولد، على الفرض والتقدير المحال.

﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: لاتخذناه من عندنا، من الحور العين، أو الملائكة.

﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: لو أردنا فعل ذلك لاتخذنا من لدنا، ولكنه مناف للحكمة، ولا يليق بالربوبية فلم نفعله. ثم يخبر تعالى، أنه تكفل بإحقاق الحق، وإبطال الباطل.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أي: بل نرمي بالحق المبين على الباطل المتزعزع فيقمعه ويبطله ويتبين بطلانه.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: هالك تالف، وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية، في إحقاق باطل، أو رد حق، إلا وفي أدلة الله، من القواطع العقلية والنقلية، ما يُذهب ذلك القول الباطل ويقمعه، فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد، وهذا يتبين باستقراء المسائل مسألة، مسألة، فإنك تجدها كذلك. ثم قال:

﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ولكم يا معشر الكفار العذاب والدمار من وصفكم الله تعالى بما لا يجوز ولا يليق، من اتخاذ الزوجة والولد ومن الأنداد والشركاء.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وله ـ جل وعلا ـ جميع المخلوقات ملكاً وخلقاً وتصرفاً، فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبد ومخلوق له؟

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: والملائكة الذين عبدتموهم من دون الله لا يتكبرون عن عبادة مولاهم، ولا يعيون ولا يملون، ولا ينقطعون عن العبادة لشدة رغبتهم، وكمال محبتهم، وقوة أبدانهم.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي: هم في عبادة دائمة، ينزهون الله عما لا يليق به، ويصلون ويذكرون الله ليل نهار، لا يضعفون ولا يسأمون. قال كعب الأحبار: التسبيح لهم كالنفس لبني آدم. وهذه المخلوقات العظيمة وعبادتها من أعظم الدلائل على وحدانية الله، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

* لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمته، وخضوع كل شيء له، أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض، في غاية العجز وعدم القدرة، قال تعالى:

(٢١)-(٢٣) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لما ذكر الدلائل على وحدانيته، وأن من في السموات والأرض ملك له وأن الملائكة المقربين في طاعته وخدمته، عاد إلى ما كان عليه من توبيخ المشركين وذمهم وتسفيه أحلامهم، و﴿أَمِ﴾ منقطعة، بمعنى: بل، والهمزة فيها استفهام، معناه: التعجب والإنكار، والمعنى: هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض، من الخشب والحجارة قادرين على إحياء الموتى؟ كلا بل اتخذوا آلهة جماداً لا تتصف بالقدرة على شيء فهي ليست بآلهة على الحقيقة؛ لأن من صفة الإله القدرة على الإحياء والإماتة.

﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدرون على نشرهم وحشرهم. فكيف جعلوها نداً وعبدوها معه -جل وعلا-.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ
بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم
بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ
وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ
٢٨ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ
جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا
مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ
رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ
يَهۡتَدُونَ ٣١ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ
ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ٣٢ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ
وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٣٣ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ
ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ
ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥

﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ هذا برهان على وحدانيته تعالى، أي: لو كان في الوجود آلهة غير الله ﷻ لفسد نظام الكون كله وتقوضت أركانه، لما يحدث بين الآلهة من الاختلاف والتنازع في الخلق التدبير وقصد المغالبة، ألا ترى أنه لا يوجد ملكان في مدينة واحدة، ولا رئيسان في دائرة واحدة؟ لهذا قال هنا:

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تنزه الله وتقدس عن كل نقص لكماله، فهو الواحد الأحد، خالق العرش العظيم عما يصفه به أهل الجهل من الشريك والزوجة والولد، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه.

﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾ لا يُسأل تعالى عما يفعل؛ لأنه مالك كل شيء، والمالك يفعل في ملكه ما يشاء، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه، لا بقول، ولا بفعل؛ ولأنه حكيم فأفعاله كلها جارية على الحكمة، يضع الأشياء مواضعها وإتقانها، فلا يتوجه إليه سؤال؛ لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال.

﴿وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ أي: وهم المخلوقون كلهم يسألون عن أعمالهم وأفعالهم؛ لعجزهم وفقرهم، ولأنهم عبيد.

* ثم عاد إلى تهجين حال المشركين، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة، فقال لهم موبخاً ومقرعاً:

﴿٢٤﴾، ﴿٢٥﴾ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ * وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةَ﴾ كرر هذا الإنكار استعظاماً للشرك ومبالغة في التوبيخ والإفادة، فالأول: الإنكار من حيث العقل، والثاني: من حيث النقل، أي: هل اتخذوا آلهة من دون الله تصلح للعبادة والتعظيم؟ وتنفع وتضر، وتحيي وتميت؟

﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾ قل -يا محمد- لأولئك المشركين ائتوني بالحجة والبرهان على ما تقولون، ولن تجدوا لذلك سبيلاً، بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه، ولهذا قال:

﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِي﴾ أي: هذا القرآن الذي معي والكتب التي من قبلي كالتوراة والإنجيل ليس فيها ما يقتضي الإشراك بالله، ففي أي كتاب نزل هذا؟ في القرآن أم في الكتب المنزلة على سائر الأنبياء؟! فما زعمتموه من وجود الإله، لا تقوم عليه حجة لا من جهة العقل ولا النقل، بل كتب الله السابقة شاهدة بتنزيهه عن الشركاء والأنداد.

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ بل أكثر المشركين لا يعلمون التوحيد، فهم معرضون عن النظر والتأمل في دلائل الإيمان. ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين، وأمر بالرجوع إليها في بيان هذه المسألة، بينها أتم تبين في قوله:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ أي: وما بعثنا قبلك -يا محمد- رسولاً من الرسل، إلا أوحينا إليه أنه لا رب ولا معبود بحق سوى الله.

﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ أي: فاعبدوني وحدي، وخصوني بالعبادة، ولا تشركوا معي أحداً، وهذه الآية مقررة لما سبقها من آي التوحيد.

* لما بين تعالى أحوال المشركين وأقام الأدلة والبراهين على وحدانية الله وبطلان تعدد الآلهة، ذكر هنا أن دعوة الرسل جميعاً إنما جاءت ببيان التوحيد، ثم ذكر بقية الأدلة على قدرة الله ووحدانيته في هذا الكون العجيب. قال تعالى:

﴿٢٦﴾-﴿٢٩﴾ ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ * لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ * يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ * وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ أي: قال المشركون اتخذ الله من الملائكة ولداً. قال المفسرون: هم حي من خزاعة، قالوا: الملائكة بنات الله.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزه الله وتقدس عما يقول الظالمون، ثم أخبر عنهم.

﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ بل هم عباد مبجلون، اصطفاهم الله، فهم مكرمون عنده في منازل عالية، ومقامات سامية، وهم في غاية الطاعة والخضوع، قد أكرمهم الله وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الخضوع والامتثال لأوامره تعالى.

﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: لا يقولون شيئاً حتى يقوله، شأنهم شأن العبيد المؤدبين، وهم بطاعته وأوامره يعملون، لا يخالفون ربهم في أمر من الأوامر، لكمال أدبهم، وعلمهم بكمال حكمته وعلمه.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ أي: وما من أعمال الملائكة عمل سابق أو لاحق إلا بعلمه ﷻ، علمه محيط بهم لا يخفى عليه منهم خافية، فلا خروج لهم عن علمه، كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره.

﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ أي: لا يشفعون يوم القيامة إلا لمن رضي الله عنه، وهم أهل الإيمان، كما قال ابن عباس: هم أهل شهادة لا إله إلا الله.

﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ وهم من خوف الله ورهبته خائفون حذرون، لأنهم يعرفون عظمة الله. قال الحسن: يرتعدون من خشية الله. ثم ذكر تعالى أنه لا حظ لهم، ولا بمجرد الدعوى في الألوهية.

﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ أي: ومن يدع من الملائكة إنه إله ومعبود مع الله، على سبيل الفرض والتنزل، فعقوبته جهنم. قال المفسرون: هذا على وجه التهديد وعلى سبيل الفرض والتقدير؛ لأن هذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه والملائكة معصومون.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الشديد، نجزي من ظلم وتعدى حدود الله.

* ثم تعجب تعالى من حال المشركين وإعراضهم دلائل العبودية المشاهدة، والتي تدل على أن الله تعالى هو الرب المحمود، الكريم المعبود، قال تعالى:

﴿٣٠﴾-﴿٣٣﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ * وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ * وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَا﴾ استفهام توبيخ لمن ادعى مع الله آلهة، ورد على عبدة الأوثان، أي: أو لم يعلم هؤلاء الجاحدون قدرة الله التامة وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات، أن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتصقتين، ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي، وأقرَّ الأرض كما هي؟ قال الحسن وقتادة: كانت السموات والأرض ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء. وقال ابن عباس: كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات.

﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾ أي: جعلنا الماء أصل كل

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا
ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ
كَٰفِرُونَ ٣٦ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ
ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ
لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا
هُمۡ يُنصَرُونَ ٣٩ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا
يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٤٠ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ
بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ
بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٤١ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ
مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ٤٢
أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ
أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ٤٣ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي
ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤

الأحياء، وسبباً للحياة، فلا يعيش من دونه إنسان ولا حيوان ولا نبات. قيل: هذا على وجه التكثير، يعني أن أكثر الأحياء في الأرض مخلوق من الماء، أو بقاؤه بالماء.

﴿أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أفلا يصدقون بقدرة الله، ويؤمنون إيماناً صحيحاً، لا شك فيه ولا شرك، وأنه المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد معه غيره، أو يشرك به ما سواه. ثم عدد تعالى الأدلة الأفقية، فقال:

﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ أي: ومن الأدلة على قدرة الله وكماله ووحدانيته ورحمته، أن خلق في الأرض جبالاً ثوابت، لئلا تتحرك وتضطرب، فلا يستقر لهم عليها قرار.

﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أي: ومن حكمته ورحمته، أنه سبحانه جعل في هذه الجبال مسالك وطرقاً واسعة كي يهتدوا إلى مقاصدهم في الأسفار. قال ابن كثير: جعل في الجبال ثغراً يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم.

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗا﴾ أي: جعل سبحانه السماء كالسقف للأرض محفوظة من الوقوع والسقوط. قال ابن عباس: حفظت بالنجوم من الشياطين.

﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ أي: والكفار عن الآيات الدالة على وجود الصانع وقدرته من الشمس والقمر والنجوم وسائر الأدلة والعبر معرضون، لاهون، لا يتفكرون فيما أبدعته يد القدرة من الخلق العجيب والتنظيم الفريد، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة. قال القرطبي: بيّن تعالى أن المشركين غفلوا عن النظر في السموات وآياتها، ومن ليلها ونهارها، وشمسها وقمرها، وأفلاكها ورياحها، وما فيها من القدرة الباهرة، إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعاً قادراً واحداً يستحيل أن يكون له شريك.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ أي: وهو تعالى بقدرته نوّع الحياة، فجعل فيها ليلاً ونهاراً هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضيائه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى بالعكس، وخلق الشمس والقمر آيتين عظيمتين دالتين على وحدانيته.

﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ أي: كل من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء، إلى أجل محتوم ووقت معلوم، ثم بعد هذا ستزول وتضمحل ويفنيها الذي أوجدها ويسكنها الذي حركها، وينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار، يجدون فيها جزاء أعمالهم، كاملاً موفراً، ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر، لا محل إقامة.

* لما كان أعداء الرسول ﷺ يقولون، تربصوا له ريب المنون، بين الله تعالى أن هذا طريق مسلوك، ومعبد منهوك، قال تعالى:

(٣٤)، (٣٥) ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ * كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾.

﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَ﴾ وما جعلنا لأحد من البشر قبلك - يا محمد - البقاء الدائم، والخلود في الدنيا.

﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾ أي: فهل إذا مت - يا محمد - يخلدون بعدك في هذه الحياة؟ لا لن يكون لهم ذلك بل كل

إلى الفناء، فأعلم تعالى بأن الأنبياء قبله ماتوا وتولى الله دينه بالنصر والحياطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: كل مخلوق إلى الفناء مهما عُمِّر، ولا يدوم إلا الحي القيوم.

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي: وما وجودكم في الحياة إلا ابتلاء واختبار بالتكليف أمراً ونهياً، وبالمصائب والنعم لنرى الشاكر من الكافر، والصابر من القانط. قال ابن عباس: نبتليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال.

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ وإلينا مرجعكم ومعادكم؛ فنجازيكم بأعمالكم.

* وبعد عرض الأدلة والبراهين، الشاهدة على وحدانية رب العالمين، تذكر السورة حال المشركين وهم يتلقون الرسول ﷺ بالاستهزاء والسخرية والتكذيب، وتعقب على ذلك بسنة الله الكونية في إهلاك الطغاة المجرمين. قال تعالى:

﴿٣٦﴾،﴿٣٧﴾ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ * خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: وإذا رآك كفار قريش كأبي جهل وأشياعه ما يتخذونك إلا مهزوءاً به متنقصاً منه، وذلك من شدة كفرهم، مرَّ النبي ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان: هذا نبي بني عبد مناف!! فغضب أبو سفيان وقال: ما تنكر أن يكون لبني عبد مناف نبي؟ فرجع رسول الله ﷺ إلى أبي جهل وقال له: «ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة»، فنزلت: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا...﴾ الآية.

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ استفهام فيه إنكار وتعجيب، أي: أهذا المحتقر بزعمهم الذي يسب آلهتكم، ويقع فيها ويسفه أحلامكم؟

﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: وهم كافرون بالله ومع ذلك يستهزئون برسول الله، قال القرطبي: كان المشركون يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن، وهذا غاية الجهل، والعجب كيف قابلوا ـ الرحمن مسدي النعم كلها ـ ودافع النقم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا إياه.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: ركب ابن آدم على العجلة، فخلق عجولاً، يستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مضرة، فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين، ويتباطؤونها، والكافرون يتولون ويستعجلون بالعذاب تكذيباً وعناداً. قال ابن كثير: والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا، أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلوا ذلك، ولهذا قال:

﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ سأوريكم انتقامي واقتداري على من عصاني، فلا تتعجلوا الأمر قبل أوانه.

* يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم، تكذيباً وجحوداً، وكفراً وعناداً، واستبعاداً، فقال:

﴿٣٨﴾-﴿٤٠﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: ويقول المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية والاغترار: متى هذا العذاب الذي يعدنا به محمد إن كنتم يا معشر المؤمنين صادقين فيما أخبرتمونا به، قال تعالى:

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ أي: لو عرف الكافرون فظاعة العذاب، حين لا يستطيعون دفع العذاب عن وجوههم

قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا
مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ
ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ
مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾
وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا
لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ
مُشۡفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا
بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ
أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ
لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا
بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾
وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾

وظهورهم؛ لأنه محيط بهم من جميع جهاتهم لما استعجلوا الوعيد، وجواب (لَوْ) محذوف؛ لأنه أبلغ في الوعيد وأهيب، وتقديره ما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم هو الذي هونه عندهم.

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ناصر لهم من عذاب الله.

﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾ بل تأتيهم الساعة فجأة، فتدهشهم وتحيرهم عند ذلك ويخافون خوفاً عظيماً.

﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ فلا يقدرون على صرفها عنهم فهم أذل وأضعف من ذلك، ولا يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار.

* يقول تعالى مسلياً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب:

﴿٤١﴾-﴿٤٣﴾ ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ * قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ * أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾.

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء المشركين من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، أي: والله لقد استهزئ برسل من قبلك - يا محمد - أولي شأن خطير وذوي عدد كثير.

﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فنزل وحل بالساخرين من الرسل، العذاب الذي كانوا يستهزئون به. سلاه تعالى بأن من تقدمه من الرسل وقع من أممهم الاستهزاء بهم، وأن ثمرة استهزائهم جنوها هلاكاً وعقاباً في الدنيا والآخرة، فكذلك حال هؤلاء المستهزئين. ثم يقول تعالى ذاكراً عجز هؤلاء الذين اتخذوا من دونه آلهة، وأنهم محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن، الذي رحمته شملت البر والفاجر، في ليلهم ونهارهم، فقال:

﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي: قل - يا محمد - لهؤلاء المستهزئين: من يحفظكم ويحرسكم من بأس الرحمن في ليلكم إذا كنتم نائمين على فرشكم وذهبت حواسكم، أو بالنهار وقت انتشاركم وغفلتكم؟ ومن يدفع عنكم عذابه وانتقامه إن أراد إنزاله بكم، هل يحفظكم أحد غيره، لا حافظ إلا هو؟ وهو سؤال تقريع وتنبيه كيلا يغتروا بما نالهم من نعم الله. وقدم الليل؛ لأنه زمن المخاوف، لأن الظلام يعين أسباب الضر على الوصول إلى مبتغاها من إنسان وحيوان وعلل الأجسام.

﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ بل هؤلاء الظالمون معرضون عن كلام الله ومواعظة لا يتفكرون ولا يعتبرون، وإلا فلو أقبلوا على ذكر ربهم وتلقوا نصائحه، لهُدوا لرشدهم، ووفقوا في أمرهم.

﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي: هل من آلهتهم آلهة تمنعهم من العذاب والسوء، ليس الأمر كما توهموا، ولا كما زعموا، بل الله القادر وحده على ذلك ولهذا قال:

﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: هذه الآلهة التي يعبدونها، لا يقدرون على نصر أنفسهم، فكيف ينصرون عابديهم؟ فهم مخذولون في أمورهم، لا يستطيعون جلب منفعة، ولا دفع مضرة.

﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾ أي: وليست هذه الآلهة تستطيع أن تجير نفسها من عذاب الله؛ لأنها في غاية العجز والضعف.

* ثم ذكر الله ﷻ الذي أوجب لهم الاستمرار على كفرهم، وشركهم، وعنادهم، فقال تعالى:

﴿٤٤﴾-﴿٤٧﴾ ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ * قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ * وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي: أمددنا هؤلاء المشركين وآباءهم من قبلهم بما رزقناهم من حطام الدنيا، حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة، وحسبوا أن ذلك يدوم فاغتروا بذلك، ثم قال لهم واعظاً لهم.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ أفلا ينظرون فيعتبرن، بأننا نأتي أرضهم فننقصها من أطرافها بالفتح على النبي ﷺ وتسليط المسلمين عليها؟

﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ استفهام بمعنى التقريع والإنكار، أي: أفهم الغالبون والحالة هذه، أم المغلوبون؟ بل هم المغلوبون الأخسرون الأرذلون.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ قل - يا محمد - للناس كافة إنما أخوفكم وأحذركم بوحي من الله لا من تلقاء نفسي، فأنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال.

﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ أي: ولكنكم أيها المشركون لشدة جهلكم وعنادكم، الصم الذين لا يسمعون الكلام والإنذار، فلا يتعظون ولا ينزجرون.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ ولئن أصابهم شيء خفيف مما أنذروا به من عذاب الله ولو كان يسيراً.

﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ليعترفن بجريمتهم، ولعلموا عاقبة تكذيبهم، ويقولون: يا هلاكنا ويا ويلنا، لقد كنا ظالمين لأنفسنا بتكذيبنا رسل الله. ثم يخبر تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم في يوم القيامة، فقال:

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: ويقيم الله ﷻ الموازين العادلة التي توزن بها الأعمال في يوم القيامة التي يبين فيها مثاقيل الذر، الذي توزن بها الحسنات والسيئات.

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ فلا ينقص محسن من إحسانه، ولا يزاد مسيء على إساءته.

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ وإن كان العمل الذي عملته زنة حبة من خردل، والتي هي أصغر الأشياء وأحقرها؛ فإن حبة الخردل مثل في الصغر، جئنا بها وأحضرناها ليجازى بها صاحبها.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ أي: كفى بربك أن يكون عالماً ومحصياً لأعمال العباد، مجازياً عليها، والغرض منه التحذير فإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شيء، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء، فحقيق بالعاقل أن يكون على أشد الخوف منه.

* ولما ذكر تعالى الحساب والثواب والجزاء، ذكر موسى وما أعطاه الله من التوراة، وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذكر موسى ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهما - وبين كتابيهما، ولهذا قال:

﴿٤٨﴾-﴿٥٠﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ * وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ولقد أعطينا موسى وهارون التوراة الفارقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، نوراً وضياء، وتذكيراً للمؤمنين المتقين، يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، وخص المتقين بالذكر، لأنهم المتنفعون بذلك، علماً وعملاً. ثم فسر المتقين، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ الذين يخافون الله ولم يروه؛ لأنهم عرفوا

بالنظر والاستدلال أن لهم ربّاً عظيماً قادراً، يجازي على الأعمال فهم يخشونه وإن لم يروه.

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ وهم من أهوال القيامة وشدائدها، خائفون، وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف.

﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾ وهذا القرآن العظيم، كتاب عظيم الشأن، كثير الخير، غزير النفع، فيه ذكر لمن تذكر، وعظة لمن اتعظ، أنزلناه عليكم بلغتكم، وقد وصفه تعالى بوصفين جليلين، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن العظيم.

﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أفأنتم يا معشر العرب جاحدون له، وهو في غاية الجلاء والظهور؟ والاستفهام للتوبيخ، والخطاب لأهل مكة فإنهم من أهل اللسان يدركون مزايا الكلام ولطائفه، ويفهمون من بلاغة القرآن ما لا يدركه غيرهم مع أن فيه شرفهم وصيتهم، فلو أنكره غيرهم لكان لهم مناصبته وعداؤه.

* لما ذكر تعالى الدلائل على التوحيد والنبوة والمعاد، أتبع ذلك بذكر قصص الأنبياء، وما نال كثيراً منهم من الابتلاء تسلية للرسول الأعظم ﷺ ليتأسى بهم في الصبر واحتمال الأذى في سبيل الله تعالى، وتوطين النفس على مجابهة المشركين، وبعد أن ذكر تعالى موسى ومحمداً -صلى الله عليهما وسلم- وكتابيهما، ذكر هنا إبراهيم عليه السلام، مع قومه الوثنيين، في أسلوب مشوق، فيه من نصاعة البيان، وقوة الحجة والبرهان ما يجعل الخصم يقر بالهزيمة في خنوع واستسلام، وفي قصته عبر وعظات. قال تعالى:

﴿٥١-٥٦﴾ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ * إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ * قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ * قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ * قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ أي: والله لقد أعطينا إبراهيم عليه السلام هداه وصلاحه إلى وجوه الخير في الدين والدنيا، فكمل به نفسه، ودعا الناس إليه.

﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: من صغره، حيث وفقناه للنظر والاستدلال إلى وحدانية ذي الجلال، وأضاف الرشد إليه، لكونه رشداً بحسب حاله وعلو مرتبته، وإلا فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان.

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: وكنا بإبراهيم عالمين، أنه أهل لما آتيناه من الفضل والنبوة، ولهذا ذكر محاجته لقومه، ونهيهم عن الشرك، وتكسير الأصنام، وإلزامهم بالحجة، فقال:

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ هذا بيان للرشد الذي أوتيه إبراهيم من صغره، أي: حين قال لأبيه آزر وقومه المشركين ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها، وأين عقولكم التي ذهبت حتى أفنيتم أوقاتكم بعبادتها؟ وفي قوله: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ تحقير لها، وتصغير لشأنها، وتجاهل بها، مع علمه بتعظيمهم لها، فأجابوا بغير حجة، جواب العاجز، الذي ليس بيده أدنى شبهة، فقالوا:

﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ أي: نعبدها تقليداً لأسلافنا، لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال، فرد عليهم إبراهيم مضللاً للجميع:

﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي: لقد كنتم وأسلافكم الذين عبدوا هذه الأصنام في خطأ بين بعبادتكم إياها، إذ هي جمادات لا تنفع، ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر.

﴿قَالُوٓاْ﴾ على وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتسفيههم، وتسفيه آبائهم.

﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ أي: هل أنت جاد فيما تقول أم لاعب؟ وهل قولك حق أم مزاح؟ استعظموا إنكاره عليهم، واستبعدوا أن يكون ماهم عليه ضلالاً، ورجوا أن ما قاله على سبيل المزاح لا الجد،

فأضرب عن قولهم، وأخبر أنه جاد فيما قال، غير لاعب، وإنما رددوا الكلام بين الأمرين؛ لأنهم نزلوه منزلة المتقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم كلام سفيه لا يعقل ما يقول، فرد عليهم إبراهيم رداً بيّن به وجه سفههم، وقلة عقولهم:

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ ذكر لهم الدليل العقلي الحسي المملوس، أي: ربكم الجدير بالعبادة الذي أدعوكم إلى عبادته، هو رب السموات والأرض الذي خلقهن وأبدعهن، لا هذه الأصنام المزعومة.

﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وأنا شاهد لله بالوحدانية بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة، كالشاهد الذي تقطع به الدعاوى.

* لما بين إبراهيم عليه السلام أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء، أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها، وليكيد كيداً يحصل به إقرارهم بذلك، فلهذا قال:

(٥٧)-(٦٣) ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ * قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أي: وأقسم بالله لأمكرن بآلهتكم وأكسرها على وجه الكيد، وأحتالن في وصول الضر إليها بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم. قال المفسرون: كان لهم عيد يخرجون إليه في كل سنة ويجتمعون فيه، فقال آزر لإبراهيم: لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا، فخرج معهم إبراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض، وقال: إني سقيم أشتكي رجلي فتركوه ومضوا ثم نادى في آخرهم ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ فسمعها رجل فحفظها.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ أي: فلما تولوا مدبرين ذهب إلى الأصنام بخفية وكسرها حتى جعلها قطعاً صغيرة، فصارت فتاتاً وحطاماً.

﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي: إلا الصنم الكبير فإنه لم يكسره. قال مجاهد: ترك الصنم الأكبر، وعلق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه ليحتج به عليهم.

﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي: ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لعلهم يرجعون إليه فيسألونه عمن كسر

فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
(٥٨) قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٩)
قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ (٦٠) قَالُوا۟ فَأْتُوا۟
بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ
فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ
هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا۟
عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ
أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
(٦٩) وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَٰهُ
وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا
لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ (٧٢)

الأصنام، فيتبين لهم عجزه، وتقوم الحجة عليهم.

﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في الكلام محذوف تقديره: فلما رجعوا من عيدهم ونظروا إلى آلهتهم، ورأوا ما فعل بها، قالوا على جهة البحث والإنكار، والتشنيع والتوبيخ: إن من حطم هذه الآلهة لشديد الظلم، عظيم الجرم لجراءته على الآلهة المستحقة للتعظيم والتوقير، رموا إبراهيم بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها، ولم يدروا أن تكسيره لها من أفضل مناقبه، ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة.

﴿قَالُوا۟﴾ يعنى الذين سمعوا قول إبراهيم: وتالله لأكيدن أصنامكم.

﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ قالوا: سمعنا شاباً يذكرهم

بالذم ويسبهم، ويعيبهم، يسمى إبراهيم، فلعله هو الذي حطم الآلهة، فلما تحققوا أنه إبراهيم.

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: قال نمرود وأشراف قومه، أحضروا إبراهيم بمرأى من الناس حتى يروه، والغرض أن تكون محاكمته على رؤوس الأشهاد بحضرة الناس كلهم، ليكون عقابه عبرة لمن يعتبر، وليكون ذلك حجة عليه، وهذا الذي أراد إبراهيم، وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس، ليشاهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾ أي: لعلهم يحضرون عقابه، ويرون ما يصنع به، فلما أتوا به.

﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ أي: وجيء بإبراهيم وسألوه منكرين، أأنت الذي حطمت وكسرت يا إبراهيم آلهتنا، يعنون أصنامهم؟ وتم لإبراهيم ما أراد من إظهار سفههم على مرأى منهم.

﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾ أي: قال إبراهيم والناس شاهدون محتجّاً عليهم معرِّضاً بغباوتهم: بل حطمها الصنم الكبير؛ لأنه غضب أن تعبدوا معه هذه الصغار فكسرها، والغرض تبكيتهم وإقامة الحجة عليهم، ولهذا قال:

﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ أي: اسألوا هذه الأصنام من كسرها؟ إن كانوا يقدرون على النطق، وأنتم تعلمون عجزهم عنه.

* وهنا أسقط في أيديهم وبدا لهم ضلالهم، وقامت عليهم الحجة الظاهرة البينة، قال تعالى:

﴿٦٤﴾-﴿٦٧﴾ ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ * أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: تفكروا بقلوبهم ورجعوا إلى عقولهم:

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: أنتم الظالمون في عبادة ما لا ينطق، وكيف تعبدون من هي عاجزة عن أن تدفع عن نفسها شيئاً؟ وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، فإن من لا يدفع عن رأسه الفأس، كيف يدفع عن عابديه البأس.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: انقلبوا من الإذعان، إلى المكابرة والطغيان وانتكست عقولهم، وضلت أحلامهم، وأدركتهم الشقاوة، فردوا إلى الكفر بعد أن أقروا على أنفسهم بالظلم، فقالوا لإبراهيم.

﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ أي: قالوا في لجاجهم وعنادهم: لقد علمت يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تتكلم ولا تجيب، فكيف تأمرنا بسؤالها؟ وهذا إقرار منهم بعجز الآلهة، وحينئذ توجهت لإبراهيم الحجة عليهم فأخذ يوبخهم ويعنفهم، معلناً بشركهم على رؤوس الأشهاد، ومبيناً عدم استحقاق آلهتهم للعبادة.

﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾ أي: قال لهم إبراهيم محتجّاً عليهم: تعبدون جمادات لا تضر إن تركتم عبادتها، ولا تنفع إن عبدتموها؟

﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: قبحاً لكم وتباً لكم، وللأصنام التي عبدتموها من دون الله.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أفلا تعقلون قبح صنيعكم وسوء ما أنتم عليه.

* فلما لزمتهم الحجة، وعجزوا عن الجواب، وظهر الحق واندفع الباطل، انصرفوا إلى القوة والقهر، والبطش والتنكيل.

﴿٦٨﴾-﴿٧٠﴾ ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ * قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ * وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾.

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ أي: احرقوا إبراهيم بالنار انتقاماً لآلهتكم ونصرة لها، إن كنتم ناصريها حقّاً، فاختاروا له أهول المعاقبات، وهو الإحراق بالنار.

﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: ذات برد وسلامة، وجاءت العبارة هكذا للمبالغة، لم ينله فيها أذى ولا أحس بمكروه. قال المفسرون: لما أرادوا إحراق إبراهيم

وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ
ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا
عَٰبِدِينَ ٧٣ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ
ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ
فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
٧٥ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ
وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ
أَجۡمَعِينَ ٧٧ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ
إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨
فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا
مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩
وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ
فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ
إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١

٣٢٨

جمعوا له حطباً مدة شهر حتى كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحرق إبراهيم، ثم جعلوه في حفرة من الأرض وأضرموها ناراً، فكان لها لهب عظيم حتى إن الطائر ليمر من فوقها فيحترق من شدة وهجها وحرها، ثم أوثقوا إبراهيم وجعلوه في منجنيق ورموه في النار، فجاء إليه جبريل، فقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، فقال جبريل: فاسأل ربك، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فقال الله: يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. ولم تحرق النار منه سوى وثاقه. قال ابن عباس: لو لم يقل الله ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لآذى إبراهيم بردها.

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ أي: أراد القوم بإبراهيم الهلاك، وعزموا على تحريقه بالنار.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ أي: أخسر الناس، وأخسر من كل خاسر حيث كادوا لنبي الله، فرد الله كيدهم في نحورهم، وجعلهم المغلوبين الأسفلين.

* وبعد هذا الاضطراب في دفاعهم عن الآلهة، واتجاههم لتحريق إبراهيم عليه السلام، وإنقاذ الله له، نجا الله ﷻ إبراهيم، ولوطاً الذي كان الوحيد من قومه الذي آمن به، قال تعالى:

(٧١)-(٧٥) ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ * وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ * وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ * وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ * وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ ونجينا إبراهيم مع ابن أخيه لوط من نمرود وقومه، حيث هاجرا من العراق إلى الشام التي بارك الله فيها بالخصب، وكثرة الأنبياء، ووفرة الأنهار والأشجار، ومن بركة الشام أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجراً لخليله، وفيها أحد بيوته الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا لها، وهو بيت المقدس. قال ابن الجوزي: وبركتها أن الله ﷻ بعث أكثر الأنبياء منها وأكثر فيها الخصب والأنهار.

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗ﴾ وأنعمنا على إبراهيم بإسحاق ـ بعدما اعتزل قومه، وسأل ربه الولد ـ، وأعطيناه كذلك يعقوب نافلة، أي زيادة وفضلاً من غير سؤال، وعلى كبر سن، وكانت امرأته عاقراً. قال المفسرون: سأل إبراهيم ربه ولداً فأعطاه الله إسحاق، وزاده يعقوب نافلة زيادة على ما سأل؛ لأن ولد الولد كالولد.

﴿وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ﴾ وكلا من إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، جعله الله مطيعاً له، من أهل الخير والصلاح.

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ أي: جعلنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب قدوة ورؤساء لغيرهم، قائمين بحقوقه وحقوق عباده، يرشدون الناس إلى الدين بأمر الله، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي: يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات، من حقوق الله وحقوق عباده.

وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ
ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ
رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ
وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ
﴿٨٤﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ
﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾
وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ
فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي
كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ
مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ
إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ
﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا
لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ
وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

٣٢٩

﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ﴾ أي: وأمرناهم بطريق الوحي بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وإنما خصهما بالذكر؛ لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية التي فيها حق الله ﷻ، والزكاة أفضل العبادات المالية التي فيها الإحسان لخلقه؛ ولأن من كملهما كما أمر، كان قائماً بدينه، ومن ضيعهما، كان لما سواهما أضيع.

﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أي: موحدين لله مخلصين في العبادة، لا للأصنام، فأنتم يا معشر العرب أولاد إبراهيم، فاتبعوه في ذلك.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ أي: وأعطينا لوطاً النبوة والعلم والفهم السديد. قال ابن كثير: كان لوط قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه؛ وهاجر معه كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ [العنكبوت: ٢٦] فآتاه الله حكماً وعلماً، وأوحى إليه، وجعله نبياً، وبعثه إلى «سدوم» فكذبوه، فأهلكهم الله ودمر عليهم، كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز.

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾ وخلصناه من أهل قرية سدوم، الذين كانوا يعملون الأعمال الخبيثة، كاللواط، وقطع السبيل، وغير ذلك.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾ أي: كانوا بسبب الخبائث والمنكرات التي يأتونها أشراراً خارجين عن طاعة الله.

﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: وأتم الله عليه النعمة، فأدخله في رحمته بإنجائه مما حل بقومه، وذلك؛ لأنه من عبادنا الصالحين الذين صلحت أعمالهم، وزكت أحوالهم.

* ثم ذكر ﷻ نوحاً، مثنياً عليه مادحاً له، فقال تعالى:

﴿٧٦﴾، ﴿٧٧﴾ ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ۞ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ﴾ أي: واذكر - يا محمد - قصة نوح حين دعا على قومه من قبل إبراهيم ولوط، وذلك حين بعثه الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويُبدي فيهم ويعيد، فلما رآهم لا ينجع فيهم الوعظ ولا يفيد لديهم الزجر، دعا عليهم بالهلاك حين كذبوه، بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: استجبنا دعاءه، ونجيناه من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ﷻ، فلم يؤمن منهم إلا القليل، وكانوا يتصدون لأذاه ويتواصون قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل على خلافه، وأنجاه الله من الكرب، فأنقذه ومن معه من المؤمنين - ركاب السفينة - من الطوفان والغرق، الذي كان كرباً وغماً شديداً يكاد يأخذ بالأنفاس.

﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ أي: منعناه من شر قومه المكذبين، فنجيناه وأهلكناهم.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي: كانوا منهمكين في الشر، فأغرقناهم جميعاً ولم نبق منهم أحد، ونصره الله على قومه المستهزئين.

* ثم ذكر الله ﷻ قصة نبيين كريمين هما داود، وسليمان، مثنياً مبجلاً، إذ قال سبحانه:

﴿٧٨﴾-﴿٨٢﴾ ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ * وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ * وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ * وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ أي: واذكر قصة داود وسليمان حين يحكمان في شأن الزرع.

﴿إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ أي: وقد رعت فيه غنم القوم ليلاً فأفسدته وأكلت زرعه، فحكم داود بأن تكون الغنم لصاحب الزرع ملكاً بما أتلفه، فقيمتهما سواء.

﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ أي: كنا مطلعين على حكم كل منهما، عالمين به لم يغب عنا.

﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾ أي: علمنا وألهمنا سليمان الحكم في القضية.

﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ وكلًّا من داود وسليمان أعطينا الحكمة والعلم الواسع مع النبوة. قال المفسرون: تخاصم إلى داود رجلان دخلت غنم أحدهما على زرع الآخر بالليل فأفسدته فلم تبق منه شيئاً، فقضى بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم، فخرج الرجلان على سليمان وهو بالباب، فأخبراه بما حكم به أبوه فدخل عليه، فقال: يا نبي الله لو حكمت بغير هذا كان أرفق للجميع! قال: وما هو؟ قال: يأخذ صاحب الغنم الأرض فيصلحها ويبذرها حتى يعود زرعها كما كان، ويأخذ صاحب الزرع الغنم وينتفع بألبانها وصوفها ونسلها، فإذا خرج الزرع ردت الغنم إلى صاحبها والأرض إلى ربها، فقال له داود: وفقت يا بني وقضى بينهما بذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾ لما ذكر تعالى أنه فهم سليمان القضية ذكر ما خص به كلاً منهما، فقال:

﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَ﴾ وذللنا وجعلنا الجبال والطير تسبح مع داود إذا سبح، وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم ذكراً وتسبيحاً وتمجيداً. قال ابن كثير: وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور فكان إذا ترنم بها تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويباً. وإنما قدم ذكر الجبال على الطير؛ لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأغرب، وأدخل في الإعجاز لأنها جماد، وهذا من فضل الله عليه وإحسانه، فلهذا قال:

﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: وكنا قادرين على فعل ذلك.

﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ﴾ أي: علم الله داود واختصه بصنع الدروع بإلانة الحديد له، فهو أول من صنعها وعلمها، وسرت صناعته إلى من بعده. قال قتادة: أول من صنع الدروع داود وكانت صفائح، فهو أول من سردها وحلقها، والفائدة فيها كبيرة.

﴿لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡ﴾ أي: لتقيكم في القتال واشتداد البأس، وشر الأعداء.

﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ استفهام يراد به الأمر، أي: اشكروا الله على ما أنعم به عليكم، حيث أجراها على يد عبده داود.

ولما ذكر تعالى ما خص به نبيه داود عليه السلام ذكر ما خص به ابنه سليمان، فقال:

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ﴾ أي: وسخرنا لسليمان الريح عاصفة، أي: شديدة الهبوب، سريعة المرور.

﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾ أي: تسير بمشيئته وإرادته إلى أرض الشام المباركة بكثرة الأشجار والأنهار والثمار، وكانت مسكنه ومقر ملكه.

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾ أي: قد أحاط علمنا بجميع الأشياء، فما أعطيناه تلك المكانة إلا لما نعلمه من الحكمة.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أي: وسخرنا لسليمان بعض الشياطين يستخدمهم فيما يعجز عنه

غيرهم، فكانوا يغوصون في الماء، ويدخلون في أعماق البحار ليستخرجوا له الجواهر واللآلئ.

﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ ويعملون أعمالاً أخرى سوى الغوص، كبناء المدن والقصور الشاهقة، والأمور التي يعجز عنها البشر.

﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أي: نحفظهم عن الزيغ عن أمره، أو الخروج عن طاعته، بل حفظهم الله له، بقوته وعزته، وسلطانه.

* لما ذكر تعالى جملة من الأنبياء: إبراهيم، نوح، لوط، داود، سليمان، وما نال كثيراً منهم من الابتلاء، ذكر هنا قصة أيوب وابتلاء الله له بأنواع المحن، في ماله وولده وجسده، ثم أعقبها بذكر محنة يونس وزكريا وعيسى، وكل ذلك بقصد التسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم، قال تعالى:

﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ۝٨٤﴾.

﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: واذكر - يا محمد - قصة نبي الله أيوب مثنياً، معظماً له، رافعاً لقدره، حين ابتلاه ببلاء شديد، فوجده صابراً، راضياً عنه، ومكث في مرضه مدة طويلة،واشتد به البلاء، ومات أهله وذهب ماله، فصبر واحتسب، ودعا ربه بتضرع وخشوع.

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ قيل: ليس شكاية وإنما هو دعاء، حيث توسل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه، أي: نالني البلاء والكرب والشدة. قال المفسرون: كان أيوب نبياً من الروم، وكان له أولاد ومال كثير، فأذهب الله ماله فصبر، ثم أهلك الأولاد فصبر، ثم سلط البلاء والمرض على جسمه فصبر، فمر عليه ملأ من قومه، فقالوا: ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم، فعند ذلك تضرع إلى الله فكشف عنه ضره.

﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: أكثرهم رحمة فارحمني، ولم يصرح بالدعاء ولكنه وصف نفسه بالعجز والضعف، ووصف ربه بغاية الرحمة ليرحمه، فكان فيه من حسن التلطف، ما ليس في التصريح بالطلب. وقد جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة، ووجود طعم المحبة في المتملق له، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه سبحانه وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلي هذا كشف عنه بلواه.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أي: أجبنا دعاءه وتضرعه.

﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ أي: أزلنا ما أصابه من ضر وبلاء، وضعف وسقم، إنعاماً عليه. وفي الآية من كمال التوحيد: التنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهم والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كمال لله، وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله وإقالة عثرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلى ربه فهاهنا، أربعة أمور: قد وقع التوسل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ أي: ورددنا عليه ما فقده من أهل وولد، ومال مضاعفاً. قال ابن مسعود: مات أولاده وهم سبعة من الذكور، وسبعة من الإناث، فلما عوفي أحيوا له، وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات. والمعنى: أعطيناه أهله في الدنيا، ورزقناه من زوجته مثل ما كان له من الأولاد والأتباع.

﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ أي: من أجل رحمتنا إياه، حيث صبر ورضي، فأثابه الله ثواباً عاجلاً قبل ثواب الآخرة.

﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ أي: جعلناه تذكرة وعظة وعبرة لغيره من العابدين، ليصبروا كما صبر، فيجعلوه أسوة وقدوة، عندما يصيبهم الضر، فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء، وفي هذا تذكير للعباد لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب ومحنته وصبره؛ وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا، مثل ما فعل أيوب، وهو أفضل أهل زمانه. يروى أن أيوب مكث في البلاء ثمان عشرة سنة، فقالت له امرأته يوماً: لو دعوت الله ﷻ فقال لها: كم لبثنا في الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة، فقال: إني

أستحيي من الله أن أدعوه وما مكثت في بلائي المدة التي مكثتها في رخائي.

* ثم قال ﷻ ذاكراً عباده المصطفين وأنبياءه المرسلين بأحسن الذكر، وأجمل الثناء، قال تعالى:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٥، ٨٦).

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ أي: واذكر لقومك قصة إسماعيل بن إبراهيم، وإدريس بن شيث، وذا الكفل، وهما نبيان من أنبياء بني إسرائيل.

﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: كل من هؤلاء الأنبياء المذكورين، من أهل الإحسان والصبر، جاهدوا في الله وصبروا على ما نالهم من الأذى، فاستحقوا الذكر بالثناء الجميل.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: أدخلناهم بصبرهم وصلاحهم الجنة، دار الرحمة والنعيم، لأنهم من أهل الفضل والصلاح، ويشمل صلاح القلوب، بمعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان، بأن يكون رطباً من ذكر الله، وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله، وكفها عن المعاصي، فبصبرهم وصلاحهم أدخلهم الله برحمته.

* ثم ذكر ﷻ عبده ونبيه ذا النون، أي: صاحب الحوت وهو يونس ابن متى عليه السلام، ذكره بالذكر الجميل، والثناء الحسن، فقال تعالى:

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧، ٨٨).

﴿وَذَا النُّونِ﴾ أي: واذكر لقومك قصة يونس بن متى أرسله الله إلى قومه فدعاهم فلم يؤمنوا، فتوعدهم بالعذاب فلم ينيبوا، ولم يصبر عليهم كما أمر الله، وخرج من بينهم غاضباً عليهم، ضائقاً صدره بعصيانهم، وظن أن الله لن يضيق عليه ويؤاخذه بهذه المخالفة، فابتلاه الله بشدة الضيق والحبس فابتلعه الحوت، والنون هو الحوت نسب إليه؛ لأنه التقمه.

﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ أي: حين خرج من بلده مغاضباً لقومه، إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون حتى أصابه ضجر منهم، وأنفة لدينه وخشي حلول العقاب عليهم.

﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: ظن أن لن نضيق عليه بالعقوبة.

﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: نادى ربه في ظلمة الليل وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، تائباً معترفاً بظلمه، لتركه الصبر على قومه، قائلاً:

﴿أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ أي: نادى بأن لا إله إلا أنت يا رب، فأقر لله تعالى بكمال الألوهية، ونزهه عن كل نقص وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه.

﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: تنزهت يا رب عن النقص والظلم، وقد كنت من الظالمين لنفسي، وأنا الآن من التائبين النادمين، فاكشف عني المحنة وفي الحديث: «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له» [رواه الترمذي].

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي: استجبنا لتضرعه واستغاثته ونجيناه من الشدة والضيق والكرب، والوحدة والوحشة، الذي ناله حين التقمه الحوت.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من كل كرب، إذا دعونا واستغاثوا بنا، كما نجينا يونس من تلك المحنة، ننجي المؤمنين من الشدائد والأهوال إذا استغاثوا بنا، وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم، أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه، ويخفف لإيمانه كما فعل بـ«يونس» عليه السلام.

* ثم ذكر ﷻ عبده ورسوله ذكريا، منوهاً بذكره، ناشراً مناقبه وفضائله، التي من جملتها هذه المنقبة العظيمة المتضمنة لنصحه للخلق، قال تعالى:

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (٨٩، ٩٠).

وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا
وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ
أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢
وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣
فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ
لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ٩٤ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ
أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ
يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦
وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ٩٧ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨ لَوۡ كَانَ
هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩
لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ
سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ أي: واذكر ـ يا محمد ـ خبر رسولنا زكريا، حين دعا ربه دعاء مخلص منيباً لما كبرت سنه، قائلاً: رب لا تتركني وحيداً بلا ولد ولا وارث، وذلك لما تقارب أجله خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله. قال ابن عباس: كان سنه مائة، وسن زوجته تسعاً وتسعين.

﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ أي: وأنت يا رب خير من يبقى بعد كل من يموت، وخير من يخلفني بخير، وفيه مدح له تعالى بالبقاء، وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء، واستمطار لسحائب لطفه ﷻ فهو دعاء وثناء مناسب للمسألة.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ أي: أجبنا دعاءه، ورزقناه ولداً اسمه يحيى على شيخوخته، وهو النبي الكريم الذي لم يجعل الله له سمياً.

﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ أي: جعلناها ولوداً بعد أن كانت عاقراً. قال ابن عباس: كانت سيئة الخلق طويلة اللسان، فأصلحها الله تعالى فجعلها حسنة الخلق. ثم لما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين، كُلاً على انفراده، أثنى عليهم عموماً، فقال:

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي: إنما استجبنا دعاء من ذكر من الأنبياء؛ لأنهم كانوا صالحين يجدون في طاعة الله، ويتسابقون في فعل الخيرات، ويبادرون لعمل الصالحات. ولم يقل: يسارعون إلى الخيرات، لأنهم الآن منهمكون في أعمال خيرة، فهمهم المسارعة فيها، والازدياد منها، بخلاف من يسارع إلى شيء، فكأنه لم يكن فيه أصلاً، فهو يسرع إليه ليكون فيه.

﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗا﴾ أي: طمعاً ورجاء في رحمتنا، وخوفاً وفزعاً من عذابنا، لا غافلون، ولا لاهون، ولا مدلون.

﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي: كانوا متواضعين متذللين، خاضعين لله، يخافونه في السر والعلن، وهذا لكمال معرفتهم بربهم. قال الحسن: دام خوفهم من ربهم فلم يفارق خوفه قلوبهم، إن نزلت بهم رغبة خافوا أن يكون ذلك استدراجاً من الله لهم، وإن نزلت بهم رهبة خافوا أن يكون الله ﷻ قد أمر بأخذهم لبعض ما سلف منهم.

* ثم بعد هؤلاء الأنبياء، ذكر مريم ـ عليها السلام ـ، مثنياً عليها، مبيناً لقدرها، شاهراً لشرفها، فقال تعالى:

٩١ ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ أي: واذكر مريم البتول التي أعفت نفسها عن الفاحشة وعن الحرام بل ومن الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، ولا يذكر هنا اسم مريم؛ لأن المقصود في سلسلة الأنبياء هو ابنها عليه السلام وقد جاءت هي تبعاً له في السياق. قال ابن كثير: ذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيي؛ لأن تلك مربوطة بهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، وامرأة عجوز لم تكن تلد في حال شبابها، وهذه أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر، ولذلك ذكر قصة مريم بعدها.

﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أي: أمرنا جبريل فنفخ في جيب ـ قميصها ـ فدخلت النفخة إلى رحمها، فخلق الله بذلك النفخ عيسى عليه السلام، فحملت به من غير زوج، وأضاف الروح إليه تشريفاً لعيسى عليه السلام.

﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ حيث حملت به دون

زوج، ووضعته دون مسيس أحد. أي: وجعلنا مريم مع ولدها عيسى، علامة وأعجوبة للخلق، تدل على قدرتنا الباهرة حيث خلق وولد من غير أب، ليعتبر بها الناس، ويتحدثون بها جيلاً بعد جيل.

* ولما ذكر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، قال تعالى مخاطباً للناس:

٩٢-٩٤ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ * فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: هؤلاء الرسل المذكورون، هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتمون، وبهديهم تقتدون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد، ورب واحد ـ جل وعلا ـ، ولهذا قال: دينكم وملتكم التي يجب أن تكونوا عليها أيها الناس ملة واحدة غير مختلفة وهي ملة الإسلام، والأنبياء كلهم جاؤوا برسالة التوحيد، والمقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله.

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ وأنا إلهكم لا رب سواي، ربيتكم فاعبدوني شكراً، وافتخاراً، فأفردوني بالعبادة.

وكان اللائق، الاجتماع على هذا الأمر وعدم التفرق فيه، ولكن البغي والاعتداء، أبيا إلا الافتراق والتقطع، ولهذا قال:

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: اختلف الأحزاب المنتسبون لاتباع الأنبياء فرقاً في الدين، وأصبحوا فيه شيعاً وأحزاباً فمن موحد، ومن يهودي، ونصراني، ومجوسي، ومنهم مصدق ومكذب، ولهذا قال:

﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ أي: كل من الفرق المتفرقة وغيرهم رجوعهم إلينا وحسابهم علينا.

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ أي: فمن التزم الإيمان بالله ورسله، وعمل ما يستطيع من صالح الأعمال والطاعات وأعمال البر والخير، بشرط الإيمان بما يجب الإيمان به، واتباع الرسل فيما شرعوا.

﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ أي: لا بطلان لثواب عمله، ولا يضيع شيء من جزائه، بل يشكر ويثاب عليه، ونضاعفه له أضعافاً كثيرة.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي: نكتب عمله وسعيه في صحيفته، والمراد أمر الملائكة بكتابة أعمال الخلق.

* ثم قرر ﷻ وقدّر، أن كل أهل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة، فقال:

٩٥-٩٧ ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ * وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ أي: يمتنع على أهل القرى المهلكة المعذبة أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا مرة ثانية، ليستدركوا ما فرطوا فيه من الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ أي: هذا تحذير من الله للناس، أن يقيموا على الكفر والمعاصي، وأنه قد قرب انفتاح سد يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم.

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ وهم لكثرتهم من كل مرتفع من الأرض، ومن كل أكمة وناحية يسرعون النزول، والانتشار في جنباتها، والمراد أن يأجوج ومأجوج لكثرتهم يخرجون من كل طريق للفساد في الأرض. والحدب: هو المرتفع من الأرض.

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: ودنا وقت القيامة. وقد جعل الله خروج يأجوج ومأجوج علماً على قرب الساعة، قال ابن مسعود: الساعة من الناس بعد يأجوج ومأجوج كالحامل المتمم لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولدها ليلاً أو نهاراً.

﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الضمير للقصة والشأن، أي: فإذا شأن الكافرين أن أبصارهم شاخصة من هول ذلك اليوم، وما

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ
خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾
يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ
أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ
كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا
عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ
عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ
﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ
أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ
وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ
ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى
لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم
بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

سُورَةُ الحَجِّ

٣٣١

كانوا يعرفون من جناياتهم وذنوبهم، لا تكاد تطرف من الحيرة وشدة الفزع ويقولون:

﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: يا حسرتنا وهلاكنا، قد كنا في الدنيا في غفلة تامة عن هذا المصير المشؤوم، واليوم الرهيب.

﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أضربوا عن القول السابق، وأخبروا بالحقيقة المؤلمة، والمعنى: لم نكن في غفلة حيث ذكرتنا الرسل ونبهتنا الآيات، بل كنا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب وعدم الإيمان.

* لما اعترفوا بظلمهم وعدل الله فيهم، فحينئذ يؤمر بهم إلى النار، هم وما كانوا يعبدون، ولهذا قال:

﴿٩٨﴾-﴿١٠٣﴾ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إنكم أيها المشركون وما تعبدونه من دون الله من الأوثان والأصنام، ومن رضي بعبادتكم إياه من الجن والإنس.

﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: حطب جهنم ووقودها، والحصب ما يحصب به، أي: يرمى به في نار جهنم، وقبل أن يرمى به لا يطلق عليه حصب إلا مجازاً.

﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أي: أنتم داخلوها فيها مع الأصنام، وإنما جمع الله الكفار مع معبوداتهم في النار لزيادة غمهم وحسرتهم برؤيتهم الآلهة التي عبدوها معهم في عذاب الجحيم.

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ أي: لو كانت هذه الأصنام التي عبدتموها آلهة، تستحق العبادة كما زعمتم، ما دخلوا جهنم معكم أيها المشركون.

﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: العابدون والمعبودون، كلهم في جهنم مخلدون، لا يخرجون منها، ولا ينتقلون عنها.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: لهؤلاء الكفرة في النار من شدة العذاب زفير، وهو صوت النفس الذي يخرج من قلب المغموم، وهو يشبه أنين المحزون والمكلوم.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يسمعون في جهنم شيئاً، لأنهم يحشرون صماً، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها، لشدة غليانها واشتداد زفيرها وتغيظها. قال القرطبي: وسماع الأشياء فيها روح وأنس، فمنع الله الكفار ذلك في النار.

عن ابن عباس قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ شق ذلك على كفار قريش وقالوا: شتم آلهتنا، وأتوا ابن الزبعري وأخبروه، فقال: لو حضرته لرددت عليه، قالوا: وما كنت تقول له؟ قال: أقول له: هذا المسيح تعبده النصارى، وهذا عزير تعبده اليهود؛ أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أن محمداً قد خُصم فأنزل الله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ إن الذين سبقت لهم سابقة السعادة الحسنة في علمنا بكونهم من أهل الجنة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي: هم عن النار مبعدون، لا يصلون

حرهـا، ولا يذوقـون عذابهـا ولا يكونون قريباً منها. قـال ابن عباس: أولئك أولياء الله يمرون على الصراط مـرّاً أسرع من الـبرق، ويبقى الكفار فيها جثيّاً.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ لا يسمعون حس النار ولا حركة لهبها وصوتها الخفي، وهذه مبالغة في الإبعاد عنها.

﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ وهـم في الجنة دائمون، قد سكنوا منازلهم فيها وأصبحوا فيها كما تشـتهيه الأنفس وتلذ الأعين مستمر لهم ذلك، يزداد حسنه على الأحقاب.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ لا تصيبهم أهوال يوم القيامة والبعث؛ لأنهم في مأمن منهم، قد أمنهم الله مما يخافون.

﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وتستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم، قائلين:

﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي: هـذا ثوابكـم الذي وعدتم فيـه الكرامة مـن الله، وجزيل الثـواب والنعيـم، فأبـشروا بالهنـاء والسرور لما أمامكم من الفرح والسرور.

* ثم ذكـر ﷻ حال السـماء يوم القيامـة وتبدلها، وفي هـذا دليل على عظمة الله وقدرته، قال تعالى:

(١٠٤) ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي: اذكر يوم نطوي السـماء ـ على عظمها واتساعها ـ طياً مثل طي الصحيفة على ما كتب فيها، فتنتثر نجومها، ويكور شمسـها وقمرها، وتزول عن أماكنها.

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ أي: نحشر الخلق حفاة عراة غرلا على الصورة التي بدأنـا خلقهم فيها أول مـرة، وإعادتنا للخلق، مثـل ابتدائنا له، وفي الحديث: «إنكم محشـورون إلى الله حفاة عراة غرلاً: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ألا وإن أول الخلـق يكسـى يوم القيامـة إبراهيم عليه السلام» [رواه البخاري].

﴿وَعْدًا عَلَيْنَا﴾ أي: وعداً مؤكداً لا يخلف ولا يبدل، لازم علينا إنجازه والوفاء به.

﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي: قادرين على ما نشـاء محققين هذا الوعد، وهو تأكيـد لوقوع البعث، لكـمال قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء.

* يقـول تعـالى مخبراً عـما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السـعادة في الدنيا والآخـرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة.

(١٠٥)-(١٠٧) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ أي: سجلنا وسـطرنا في الزبور المنزل على داود عليه السلام.

﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ من بعد ما سطرنا في اللوح المحفوظ أزلاً.

﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أي: كتبنا أن الجنة يرثها المؤمنون الصالحـون، الذين قاموا بما أُمروا بـه واجتنبوا ما نُهـوا عنه وهم أمة محمد ﷺ. والآيـة علم من أعلام نبوة محمـد ﷺ، فإنه أخبر ذلك بمكة، وأهـل الأرض كلهم كفـار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومسـاكنهم وشتتوهم في أطـراف الأرض، ثـم كانت الأرض لأمة محمد ﷺ في سنوات معدودة.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ إن في هـذا المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد، والمواعـظ البالغـة، لكفايـة لقـوم خاضعين متذللـين لله ـ جل وعلا ـ المؤثرين لطاعة الله على طاعة الشيطان، ثم أثنى على رسوله الذي جاء بالقرآن، فقال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: وما أرسـلناك ـ يا محمد ـ إلا رحمـة للخلق أجمعين، وفي الحديث: «إنما أنا رحمـة مهداة» [رواه البيهقي] فمن آمن بك وقبل هذه الرحمة، وشـكر هذه النعمة، سـعد في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن خاب وخسر.

(١٠٨)-(١١٢) ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي

أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ * إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ * وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ * قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أي: قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين: إنها أوحى إليَّ ربي أن إلهكم إله واحد أحد، فرد صمد، لا يستحق العبادة إلا هو، ولهذا قال:

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ استفهام ومعناه الأمر، أي: فأسلموا له، وانقادوا لحكمه وأمره، فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما منَّ عليهم بهذه النعمة التي فاقت المنن.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ فإن أعرضوا عن الإسلام، وعن الانقياد لعبودية ربهم، فحذرهم حلول المثلات ونزول العقوبات.

﴿فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖ﴾ فقل لهم: أعلمتكم بالحق على استواء في الإعلام، لم أخص أحد دون أحد.

﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي: وما أعلم متى يكون ذلك العذاب؟ ولا متى يكون أجل الساعة؟ فهو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده؛ لأن علمه عند الله، وهو بيده، ليس لي من الأمر شيء.

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ أي: الله هو العالم الذي لا يخفى عليه شيء، يعلم ما تجهرون به من أقوالكم وما تكتمونه في سرائركم، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، وسيجازي كلا بعمله. قال بعض العلماء: اختص الله تعالى بعلم الجهر من القول من جهة أنه إذا اشتدت الأصوات وتداخلت فإنها حالة لا يسمع فيها إنسان، ولا يميز الكلام، أما الله ﷻ فإنه يسمع كلام كل شخص بعينه، ولا يشغله سمع كلام من سمع آخر.

﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ﴾ أي: وما أعلم لعل هذا الإمهال وتأخير عقوبتكم امتحان لكم واستدراج لنرى كيف صنيعكم، وهل هو استدراج ثم يكون أعظم لعقوبتكم.

﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: ولعل هذا التأخير لتستمتعوا إلى زمن معين، ثم يأتيكم عذاب الله الأليم.

ثم يتوجه الرسول ﷺ إلى ربه، وقد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، وآذنهم على سواء، وحذرهم بغتة البلاء.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ أي: قال النبي ﷺ: رب احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين، وافصل بيننا بالحق، فاستجاب الله هذا الدعاء، وحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة.

قال البقاعي: «في الآية أعظم حث على لزوم الإنسان بالحق ليتأهل لهذه الدعوة».

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: أستعين بالله على الصبر على ما تصفونه من الكفر والتكذيب والافتراء عليه، فهو الرحمن الذي أرسلني رحمة للعالمين.

ختم السورة الكريمة بأمر النبي ﷺ بتفويض الأمر إليه، وتوقع الفرج من عنده، فهو نعم الناصر ونعم المعين.

تم تفسير سورة الأنبياء
والحمد لله

تفسير سورة الحج
وهي مدنية

* سورة الحج سورة مدنية، فيها من التوحيد والحكم والمواعظ على اختصارها ما هو بين لمن تدبره، ومنها ذكر الواجبات والمستحبات كلها توحيداً وصلاة وزكاة وصياماً. ومع أن السورة مدنية إلا أنه يغلب عليها طابع السور المكية، فموضوع الإيمان، والتوحيد، حاضر فيها، حتى ليكاد يخيل للقارئ أنها من السور المكية، هذا إلى جانب الموضوعات التشريعية من الإذن بالقتال، وأحكام الحج والهدي، والأمر بالجهاد في سبيل الله، وغير ذلك من المواضيع التي هي من خصائص السورة المدنية، حتى لقد عدها بعض العلماء من السور المشتركة بين المدني والمكي.

قال ابن تيمية: سورة الحج فيها من التوحيد والحكم والمواعظ على اختصارها ما هو بيِّن لمن تدبره.

سميت «سورة الحج» تخليداً لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام، حين انتهى من بناء البيت العتيق، ونادى الناس لحج بيت الله الحرام فتواضعت الجبال حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع نداؤه من في الأصلاب والأرحام وأجابوا النداء «لبيك اللهم لبيك».

وفي السورة سجدتان وذلك لأن آياتها في محاجة ومجادلة الكفار الذين يأبون السجود لله ﷻ.

ابتدأت السورة الكريمة بمطلع مهيب مخيف، ترجف له القلوب، وتطيش لهول العقول، ذلك هو الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ
(١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ
كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم
بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ (٣)
كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ
إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ
مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ
ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ
لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ
نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ
وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ
بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا
ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (٥)

٣٣٢

ويزيد في الهول على خيال الإنسان؛ لأنه لا يدك الدُّور والقصور فحسب، بل يصل هوله إلى المرضعات الذاهلات عن أطفالهن، والحوامل المسقطات حملهن، والناس الذين يترنحون كأنهم سكارى من الخمر، وما بهم شيء من السكر والشراب، ولكنه الموقف المرهوب، الذي تتزلزل له القلوب وتنفطر من هوله الأفئدة، قال تعالى:

(١)، (٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ خطاب لجميع البشر، أي: خافوا عذاب الله وأطيعوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فهو الذي رباهم بالنعم الظاهرة والباطنة، فحقيق بهم أن يتقوه، بترك الشرك والفسوق والعصيان، ويمتثلوا أوامره مهما استطاعوا، ثم ذكر ما يعينهم على التقوى، ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأهوال القيامة، وما يستقبلونه من شدائدها وكربها، فقال:

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ تعليل للأمر بالتقوى، أي: إن الزلزال الذي يكون بين يدي الساعة أمر عظيم وخطب جسيم لا يكاد يتصور لهوله، ولا يقدر قدره، والزلزلة شدة التحريك والإزعاج، ولهذا قال:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ أي: حين تشاهدون في ذلك اليوم تلك الزلزلة وترون هول مطلعها في ذلك اليوم العصيب، ومن شدتها.

﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: تغفل وتذهل - مع الدهشة وشدة الفزع - كل أنثى مرضعة عن رضيعها، إذ تنزع ثديها من فم طفلها وتنشغل - لهول ما ترى - عن أحب الناس إليها ومن جبلت على شدة محبتها له، خصوصاً في هذه الحال التي لا يعيش إلا بها، وهو طفلها الرضيع. والمرضع من لها ولد ترضعه، والمرضعة من ألقمت الثدي للرضيع، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أبلغ في هذا المقام، فإن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة؛ فإذا التقم الثدي برضاعة لم تذهل عنه إلا لأمر هو أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ وتضع كل حبلى من شدة الفزع والهول ولدها قبل تمامه. تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها بغير تمام.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ أي: تحسبهم - أيها الرائي لهم - سكارى، يترنحون ترنح السكران من هول ما يدركهم من الخوف والفزع.

﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ وما هم على الحقيقة بسكارى من الخمر.

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيد﴾ استدراك لما دهاهم، أي: ليسوا بسكارى ولكن أهوال الساعة وشدائدها أطارت عقولهم وسلبت أفكارهم، فهم من خوف عذاب الله مشفقون.

* ثم ذكر ﷻ ذاماً طائفة وفرقة، سلكوا طريق الضلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق، قال تعالى:

(٣)، (٤) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: وبعض من الناس من يخاصم وينازع ويشكك في قدرة الله وصفاته بغير دليل ولا برهان

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي
ٱلۡقُبُورِ ٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى
وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي
ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ذَٰلِكَ
بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ
أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ
هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ
وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن
ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣
إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤ مَن كَانَ
يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥

٣٣٣

ويقول ما لاخير فيه من الأباطيل، قال المفسرون: نزلت في النضر بن الحارث وكان جدلاً يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، ولا بعث بعد الموت. والآية عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين.

﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ ويطيع ويقتدي بكل عات متمرد مستمر في الشر كرؤساء الكفر الصادين عن الحق.

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ حكم الله وقضى على هذا الشيطان المريد أنه من تولاه واتخذه ولياً واتبعه.

﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فإن الشيطان يغويه ويجنبه الصراط المستقيم، ويسوقه إلى عذاب جهنم المستعرة.

* لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد، ألزم الحجة وأقام الدليل على منكري البعث بما يشاهد من بدئه للخلق، فقال تعالى:

٥-٧ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ أي: إن شككتم في قدرتنا على إحيائكم بعد موتكم، فمزيل ريبكم وشككم أن تنظروا في أصل خلقكم ليزول ريبكم وتصدقوا رسله في ذلك، ولكن إذا أبيتم إلا الريب، فقد خلقنا أصلكم «آدم» من التراب، وذلك بخلقي أبي البشر آدم عليه السلام، ومن قدر على خلقكم أول مرة قادر على أن يعيدكم مرة ثانية، والذي قدر على إخراج النبات من الأرض، بعد موتها قادر على أن يخرجكم من قبوركم.

﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ ثم جعلنا نسله من المني الذي ينطف من صلب الرجل، وهذا ابتداء أول التخليق. والنطف: القطر سمي نطفة لقلته.

﴿ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ أي: تنقلب تلك النطفة إلى علقة، وهو الدم الجامد الذي يشبه العلقة التي تظهر حول الأحواض والمياه.

﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ﴾ أي: من قطعة من لحم مقدار ما يمضغ، وتلك المضغة تارة تكون:

﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ أي: مستبينة الخلق مصور منها خلق الآدمي، وغير مصورة. قيل: المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين، وغير مخلقة التي لم يخلق فيها شيء.

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾ أي: خلقناكم بهذا التدرج على هذا النموذج البديع لنبين أصل نشأتكم، وأسرار قدرتنا وحكمتنا، ولتستدلوا بقدرته في ابتداء الخلق على قدرته على الإعادة؛ لأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانياً، ولا تناسب بين التراب والماء، وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر، ثم يجعل العلقة

مضغة والمضغة عظاماً، قادر على إعادة ما بدأه، بل هذا أدخل في القدرة وأهون في القياس.

﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ونثبت من الحمل في أرحام الأمهات من أردنا أن نقره فيها حتى يتكامل خلقه، إلى زمن معين وهو وقت الوضع.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: ثم نخرج هذا الجنين من بطن أمه طفلاً ضعيفاً في بدنه، وسمعه، وبصره، وحواسه، ثم نعطيه القوة شيئاً فشيئاً ويلطف به، ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ أي: ثم نربيكم إلى كمال قوتكم وعقلكم.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ ومنكم من يموت في ريعان شبابه وقوته قبل بلوغ الكبر.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ ومنكم من يتجاوز عمر الشباب، ويعمر حتى يصل إلى الشيخوخة والهرم، وضعف القوة والخرف.

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي: ليعود هذا العمر إلى ما كان عليه في أوان الطفولة من ضعف البنية، وسخافة العقل، وقلة الفهم، فينسى ما علمه وينكر ما عرفه، ويعجز عما قدر عليه. ثم ساق ﷻ دليلاً ثانياً لمن شك في البعث، فقال تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ هذه هي الحجة الثانية على إمكان البعث، أي: وترى أيها المخاطب أو أيها المجادل الأرض يابسة ميتة ولا نبات فيها.

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات وانتفخت، وزادت، وحييت بعد موتها.

﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي: وأخرجت من كل صنف عجيب من أصناف النبات ما يسر الناظر ببهائه ورونقه، فهذان الدليلان القاطعان، يدلان على أن:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ذلك المذكور من خلق الإنسان، والنبات، لتعلموا أن الله هو الخالق المدبر، وأن ما في الكون من آثار قدرته شاهد بأن الله هو الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: وبأنه القادر على إحياء الموتى كما ابتدأ الخلق، وكما أحيا الأرض الميتة بالنبات.

﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وبأنه قادر على ما أراد، كما أشهدكم من بديع قدرته وعظيم صنعته ما أشهدكم.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: وليعلموا أن الساعة كائنة لا شك فيها ولا مرية، ولا وجه لاستبعادها.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي: يحيي الأموات ويعيدهم بعدما صاروا رماداً، ويبعثهم أحياء إلى موقف الحساب، فيجازيكم بأعمالكم حسنها وسيئها.

* وبعد أن ذكر تعالى المجادلة المتقدمة للمقلد، ذكر هنا المجادلة للشيطان المريد، الداعي إلى البدع، فأخبر أنه يجادل بالباطل ليدحض به الحق، قال تعالى:

﴿٨﴾-﴿١٠﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: ومن الكفار من يجادل بالباطل في الله وتوحيده واختياره رسوله ﷺ، أو إنزاله القرآن من غير تمسك بعلم صحيح يهدي إلى المعرفة، ولا كتاب نير بيِّن الحجة، بل بمجرد الرأي والهوى، وكرر هذه على وجه التوبيخ، ورتب سبحانه هذه الأمور الثلاثة أحسن ترتيب فبدأ بالأعم وهو العلم، وأخبر أنه لا علم عند المعارض لآياته بعقله، ثم انتقل منه إلى ما هو أخص، وهو الهدى، ثم انتقل إلى ما هو أخص، وهو الكتاب المبين.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ أي: معرضاً عن الحق لاوياً جانبه وعنقه كناية عن كبره عن الحق، واحتقاره للخلق، فقد فرح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهل الحق وما معهم من الحق. وثني العطف عبارة عن الكبر والخيلاء فهو كتصعير الخد.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بمجادلته يصد الناس عن دين الله

وشرعه، وليكون من دعاة الضلال. ثم ذكر عقوبته الدنيوية والأخروية، فقال:

﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ له هوان وذل ذلك في الحياة الدنيا وهذا من آيات الله العجيبة، فإنك لا تجد داعياً من دعاة الكفر والضلال، إلا وله من المقت بين العالمين، واللعنة، والبغض، والذم، ماهو حقيق به، كل بحسب حاله.

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ ونذيقه في الآخرة النار المحرقة.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ ذلك الخزي والعذاب بسبب ما فعلت واقترفته من الكفر والضلال، وكنى باليد؛ لأن اليد آلة الكسب.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ وأن الله عادل، لا يظلم أحداً من خلقه.

* ثم ذكر ﷻ حال بعض الناس ممن هم في قلق واضطراب في دينهم، فقال:

﴿١١﴾-﴿١٣﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ * يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ * يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ ومن الناس من يعبد الله على شك وطرف من الدين، فهو ضعيف الإيمان، ولم تخالطه بشاشته، بل دخل فيه، إما خوفاً، وإما عادة، على وجه لا يثبت عند المحن، وهذا تمثيل للمذبذبين الذين لا يعبدون الله عن ثقة ويقين بل عن قلق واضطراب، كالذي يكون على طرف من الجيش فإن أحس بظفر أو غنيمة استقر وإلا فر. قال الحسن: هو المنافق يعبده بلسانه دون قلبه. وقال ابن عباس: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً وأنتجت خيله، قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء.

﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ﴾ فإن ناله خير في حياته من صحة ورخاء ورغد عيش، ولم يحصل له من المكاره شيء اطمأن بذلك الخير وسكن، وأقام على دينه.

﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ وإن ناله شيء يفتتن به من مكروه وبلاء، أو زوال محبوب، ارتد فرجع إلى ما كان عليه من الكفر.

﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: أضاع دنياه وآخرته، فشقي الشقاوة الأبدية.

﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ أي: يدعو ويلجأ هذا الراجع على وجهه إلى صنم أو وثن، الذي يضره ولا ينفعه إن أطاعه وعبده.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ ذلك هو الخسران الواضح البين الذي لا خسران مثله. ثم ذكر ﷻ أين يقصد هذا الذي يعبد الله على حرف وبمن يلوذ، ومن يعبد؟

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ أي: يعبد وثناً أو صنماً ضره في الدنيا بالخزي والذل أسرع من نفعه الذي يتوقعه بعبادته وهو الشفاعة له يوم القيامة. وقيل: الآية على الفرض والتقدير: أي:، ولو سلمنا نفعه أو ضره لكان ضره أكثر من نفعه، والآية سيقت تسفيهاً وتجهيلاً لمن يعتقد أن ينتفع بعبادة غير الله حين يستشفع بها.

﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ ذلك هو نهاية الضلال الذي لا ضلال بعده، شبه حالهم بحل من أبعد في التيه ضالاً عن الطريق.

﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ أي: بئس الناصر وبئس القريب والصاحب هذا المعبود من دون الله.

* لما ذكر تعالى المجادل بالباطل، وأنه على قسمين، مقلد، وداع، ذكر أن التسمي بالإيمان أيضاً على قسمين: قسم لم يدخل الإيمان قلبه كما تقدم، والقسم الثاني المؤمن حقيقة، صدق ما معه من الإيمان بالأعمال الصالحة، فأخبر تعالى منزلتهم ومكانتهم، لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين المذبذبين ذكر حال المؤمنين في الآخرة، فقال تعالى:

﴿١٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي

مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ والمعنى: إن الله يدخل المؤمنين الصادقين جنات تجري من تحت قصورها وغرفها أنهار اللبن والخمر والعسل، وهم في روضات الجنات يحبرون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: يثيب من يشاء، ويعذب من يشاء لا مُعقِّب لحكمه، فللمؤمنين الجنة بفضله، وللكافرين النار بعدله.

* ثم ذكر ﷻ حال المعادي للرسول ﷺ، الساعي في إطفاء دينه الذي يظن بجهله، أن سعيه سيفيده شيئاً، وأنه مهما فعل من الأسباب، وسعى في كيد الرسول، فإن ذلك لا يذهب غيظه، ولا يشفى كمده، فدين الله عزيز منصور.

﴿١٥﴾، ﴿١٦﴾ ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ * وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ من كان يظن أن الله لن ينصر رسوله ﷺ في الدنيا والآخرة وأن دينه سيضمحل، فإن النصر من الله ينزل من السماء، وإن الله ناصر دينه ومقيم شريعته، فمن ظن من أعاديه غير ذلك.

﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ فليمدد ذلك الظان بحبل إلى السقف ثم ليقطع عنقه وليختنق به.

﴿فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ أي: من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة. وهذه الآية الكريمة، فيها من الوعد والبشارة بنصر الله لدينه ولرسوله وعباده المؤمنين ما لا يخفى، ومن تأييس الكافرين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ أي: ومثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحكم البالغة، أنزلنا القرآن الكريم كله آيات واضحات الدلالة على معانيها الرائقة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾ أي: ومع هذه الآيات المعجزات فإن الله هو الهادي لا هادي سواه، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومن لم يرد الله هدايته، فلو جاءته كل آية ما آمن، ولم ينفعه القرآن شيئاً، بل يكون حجة عليه.

* ثم يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض، وأن الله يفصل بينهم:

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ
﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ
يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ
وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ
ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن
مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ﴿١٨﴾ ۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ
ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ
مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصۡهَرُ بِهِۦ
مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ
أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ
ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ
أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾

٣٣٤

يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدقوا الله ورسوله، وهم أتباع محمد ﷺ.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: اليهود، وهم المنتسبون إلى موسى عليه السلام.

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ هم قوم يعبدون النجوم.

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ هم المنتسبون إلى ملة عيسى عليه السلام.

﴿وَٱلۡمَجُوسَ﴾ هم عبدة النيران.

﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ هم العرب عبدة الأوثان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ إن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة ويفصل ويقضي بحكمه

العدل بين المؤمنين وبين الفرق الخمسة، الضالة، فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد على أعمال خلقه، عالم بكل ما يعملون.

* ثم يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وذكر مخلوقات تسجد له ثلاث في السماء: الشمس والقمر والنجوم، وثلاث في الأرض: الجبال والشجر والدواب. قال تعالى:

﴿١٨﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ألم تعلم ـ يا محمد ـ علماً يقوم مقام العيان، أن الله يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً، الملائكة في أقطار السموات، والإنس والجن وسائر المخلوقات في العالم الأرضي.

﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ أي: وهذه الأجرام العظمى مع سائر الجبال والأشجار والحيوانات تسجد لعظمته، سجود انقياد وخضوع، وخص الشمس والقمر والنجوم بالذكر؛ لأنها قد عُبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة.

﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ويسجد له كثير من الناس؛ يعني المسلمين، سجود طاعة وعبادة متعبداً بذلك.

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ وكثير من الناس، وجب له العذاب بكفره واستكباره وإبائه السجود.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾ أي: من أهانه الله بالشقاء والكفر، فلا يقدر أحد على دفع الهوان عنه وجلب السعادة إليه وإكرامه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩﴾ أي: يعذب ويرحم، ويعز ويذل، ويغني ويفقر، ولا اعتراض لأحد عليه.

* لما ذكر تعالى أهل السعادة وأهل الشقاوة، ذكر هنا ما دار بينهم من الخصومة في دينه وعبادته. فقال:

﴿١٩﴾-﴿٢٢﴾ ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ * يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ * كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾.

﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾ أي: هذان فريقان مختصمان فريق المؤمنين، وفريق الكفرة المجرمين.

﴿ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ اختلفوا وتنازعوا من أجل الله ودينه، كل يدعي أنه المحق، فالمؤمنون يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الله، ثم ذكر فصل الخصومة بينهم، فقال:

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ فالذين كفروا بالله فصلت لهم ثياب من نار على قدر أجسادهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار، وشبهت النار بالثياب؛ لأنها لباس لهم كالثياب، ومعنى ﴿قُطِّعَتۡ﴾ خيطت وسويت، وذكر بلفظ الماضي لأن الموعود منه كالواقع المحقق.

﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ أي: يصب على رؤوسهم الماء الحار المغلي بنار جهنم.

﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ أي: يذاب به ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء مع الجلود، وهذا نوع من أنواع العذاب. قال ابن عباس: لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها، وفي الحديث: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر، ثم يعاد كما كان» [رواه الترمذي].

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ﴾ ولهم مطارق وسياط من الحديد بيد الملائكة الغلاظ الشداد، يضربون بها ويدفعون، وفي الحديث: «لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها».

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي: كلما أراد أهل النار الخروج من النار من شدة غمها وكربها ردوا إلى أماكنهم فيها. قال الحسن: إن النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً.

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي: تقول لهم الملائكة: ذوقوا عذاب جهنم المحرق الذي كنتم به تكذبون.

* ولما ذكر تعالى ما أعد للكفار من العذاب والدمار، ذكر ما أعده للمؤمنين من الثواب والنعيم، فقال:

﴿٢٣﴾، ﴿٢٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ * وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: يدخل المؤمنين الصالحين في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار العظيمة المتنوعة.

﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ أي: تلبسهم الملائكة في الجنة الأساور الذهبية رجالهم ونساؤهم كحلية وزينة، يتزينون بها.

﴿وَلُؤۡلُؤٗا﴾ أي: ويحلون باللؤلؤ كذلك إكراماً من الله لهم.

﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ ولباسهم في الجنة الحرير، ولكنه أعلى وأرفع مما في الدنيا، فتم نعيمهم بذكر أنواع المأكولات، وذكر الأنهار السارحات، وأنواع اللباس، والحلي الفاخر، وذلك بسبب أنهم:

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي: أرشدوا في الدنيا إلى الكلام الطيب، والقول النافع، الذي أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيبة التي فيها ذكر الله، أو إحسان إلى عباد الله.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي: إلى صراط الله، وهو الجنة دار المتقين. والحميد، هو الله المحمود في أفعاله، وذكر الحميد هنا، ليبين أنهم نالوا الهداية بحمد ربهم، ومنته عليهم.

* ثم عدد تعالى بعض جرائم المشركين وشناعة ما هم عليه، وأنهم جمعوا بين الكفر بالله ورسوله، وبين الصد عن سبيل الله، ومنع الناس من الإيمان، والصد أيضاً عن المسجد الحرام، ثم ذكر عظم حرمة البيت العتيق وبناء الخليل له، وعظم كفر هؤلاء المشركين الذين يصدون الناس عن سبيل الله والمسجد الحرام، قال تعالى:

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ
﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ
ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ
وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ
﴿٢٥﴾ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ
بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ
كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ
مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ
عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا
وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ
وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾
ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ
رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ
فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾

٣٣٥

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي: جحدوا بما جاء به محمد ﷺ ويمنعون المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام لأداء المناسك فيه، وذلك حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عام الحديبية، وإنما قال: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ بصيغة المضارع ليدل على الاستمرار، فكأن المعنى: أن الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله.

﴿ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِ﴾ أي: الذي جعلناه منسكاً ومتعبداً للناس جميعاً، سواء فيه المقيم الحاضر، والذي يأتيه من خارج البلاد.

﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ﴾ ومن يرد فيه سوءاً أو ميلاً عن القصد، أو يهم فيه بمعصية. ذكر تعالى أن مجرد إرادة الظلم والإلحاد في الحرم، موجب للعذاب، وإن كان غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم، فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم، من الكفر والشرك، وفي الآية الكريمة، وجوب احترام الحرم، وشدة تعظيمه، والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها.

﴿نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ أي: نذقه أشد أنواع العذاب الموجع. قال

ابن مسعود: لو أن رجلاً بعدن هم بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذاباً أليماً، وقال مجاهد: تضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات.

* ثم يذكر تعالى عظمة البيت الحرام، وجلالته، وعظمة بانيه، وهو خليل الرحمن، وفيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، فقال:

﴿٢٦﴾،﴿٢٧﴾ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ * وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: واذكر ـ يا محمد ـ حين أرشدنا إبراهيم وألهمناه مكان البيت وقد كان غير معروف وأنزلناه إياه، وجعل قسماً من ذريته من سكانه.

﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ أي: أمرناه ببناء البيت العتيق خالصاً لله. قال ابن كثير: أي ابنه على اسمي وحدي.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: طهر بيتي من الشرك والمعاصي والأوثان والأقذار لمن يعبد الله فيه بالطواف والصلاة، وأضافه الرحمن إلى نفسه لشرفه وفضله، ولتعظم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأفئدة من كل جانب. وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة؛ لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف، لاختصاصه بجنس المساجد. والقائمون هم المصلون، وذكر تعالى من أركان الصلاة أعظمها وهو القيام والركوع والسجود.

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ أي: أعلم وناد في الناس داعياً لهم لحج بيت الله العتيق الذي أمرناك ببنائه. قال ابن عباس: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قيل له: أذن في الناس بالحج، قال يا رب: وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن وعلي الإبلاغ فصعد إبراهيم على جبل أبي قبيس وصاح: يا أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة، ويجيركم من عذاب النار فحجوا، فأجابه من كان في أصلاب الرجال، وأرحام النساء: لبيك اللهم لبيك.

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: فإنك إذا دعوتهم أتوك مشاة على أقدامهم، أو ركباناً على كل جمل خفيف اللحم، قد أتعبه وأنهكه بعد المسافة.

﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: تأتي الإبل الضامرة من كل طريق بعيد. قال القرطبي: ورد الضمير إلى الإبل ﴿يَأْتِينَ﴾ تكرمة لها لقصدها الحج مع أربابها، كما قال: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١] في خيل الجهاد تكرمة لها حين سعت في سبيل الله، وأما تقديم الرجال على الركبان ففيه فائدة جليلة، وهي: أن الله شرط في الحج الاستطاعة ولا بد من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، وقدم الرجال اهتماماً بهذا المعنى وتأكيداً، ومن الناس من يقول: قدمهم جبراً لهم؛ لأن نفوس الركبان تزدريهم وتوبخهم وتقول إن الله لم يكتبه عليكم ولم يرده منكم وربما توهموا أنه غير نافع لهم، فبدأ بهم جبراً لهم ورحمة.

* ثم ذكر ﷻ فوائد زيارة بيت الله الحرام، مرغباً فيها، فقال:

﴿٢٨﴾،﴿٢٩﴾ ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي: ليحضروا ولينالوا ببيت الله منافع لهم كثيرة دينية ودنيوية. وإنما نكر المنافع؛ لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات.

﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ وهذا من المنافع الدينية والدنيوية، أي: ويذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم الله في أيام النحر، شكراً لله على نعمائه، وعلى ما رزقهم وملكهم من الأنعام ويسرها لهم، وهي: الإبل والبقر والغنم والمعز.

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أي: فإذا ذبحتموها فكلوا من لحوم الأضاحي أمر إباحة وليس بواجب، وإنما قال ذلك؛ لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئاً.

﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ وأطعموا منها البائس الذي أصابه بؤس وشدة. والبؤس: أشد الفقر، والفقير الذي أضعفه الإعسار. قال ابن عباس: البائس الذي ظهر بؤسه في

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ
السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ
﴿٣١﴾ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾
لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ
﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى
مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ
أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ
قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ
اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ
جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا
لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا
وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا
اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ
عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

ثيابه وفي وجهه، والفقير الذي لا يكون كذلك، ثيابه نقية ووجهه وجه غني.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أي: ثم بعد الذبح ليزيلوا وسخهم الذي أصابهم حال الإحرام، وذلك بالحلق والتقصير، وإزالة الشعث، وقص الشارب والأظافر.

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ أي: وما أوجبوه على أنفسهم بالنذر طاعة لله من الحج والعمرة، والهدايا.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وليطوفوا حول البيت القديم، أفضل المساجد على الإطلاق، طواف الإفاضة وهو طواف الزيارة الذي به تمام التحلل. والعتيق: القديم، سمي به لأنه أول بيت وضع للناس.

وقيل: سمي البيت بالعتيق؛ لأنه محرر غير مملوك لإنسان، شبه بالعبد العتيق في أنه لا ملك لأحد عليه.

* ثم بين ﷺ أن ما ذكر من تلك الأحكام، وما فيها من تعظيم حرمات الله وإجلالها وتكريمها وأنها خير لمن قام بها في دينه ودنياه، قال تعالى:

﴿٣٠﴾، ﴿٣١﴾ ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر والشأن، وما ذكر من أعمال الحج.

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: من يعظم ما شرعه الله من أحكام الدين، ويجتنب المعاصي والمحارم.

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ أي: ذلك التعظيم خير له ثواباً في الآخرة.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي: أحللنا لكم جميع الأنعام، إلا ما استثني في الكتاب المجيد، كالميتة والمنخنقة، وما ذبح لغير الله وغير ذلك.

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تجتنب الأنجاس، وهو غاية المبالغة في النهي عن عبادتها وتعظيمها.

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ أي: واجتنبوا شهادة الزور، وجميع الأقوال المحرمة كالكذب والبهتان.

ثم أمرهم أن يكونوا:

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ أي: مخلصين له، مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه، مائلين إلى الحق مسلمين لله، غير مشركين به أحداً.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ تمثيل للمشرك في ضلاله وهلاكه، أي: ومن أشرك بالله فكأنما سقط من السماء فتخطفه الطير وتمزقه كل ممزق.

﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: أو تأخذه عاصفة شديدة من الريح فتقذفه في بعض المهالك البعيدة. فالإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة، ومن ترك الإيمان، بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والبليات.

* ثم بين تعالى ما ذكر من تعظيم حرماته وشعائره، دلالة على الإيمان والتقوى، قال تعالى:

﴿٣٢﴾، ﴿٣٣﴾ ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أي: ذلك ما وضحه الله لكم من الأحكام والأمثال، ومن يعظم أمور الدين، ومنها أعمال الحج والأضاحي والهدايا.

﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ فإن تعظيمها من أفعال المتقين لله؛ لأنها صادرة من ذوي تقوى القلوب،

فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله. قال القرطبي: أضاف التقوى إلى القلوب؛ لأن حقيقة التقوى في القلب، وفي الحديث: «التقوى ههنا» وأشار إلى صدره [رواه مسلم].

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لكم في الهدي منافع كثيرة من الدر والنسل والركوب إلى وقت نحرها.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ ثم مكان ذبحها في الحرم بمكة أو منى. وخص البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم فإذا ذبحت، أكلوا منها وأهدوا، وأطعموا البائس الفقير.

* يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل، قال تعالى:

﴿٣٤﴾، ﴿٣٥﴾ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: شرعنا لكل أمة من الأمم السابقة من عهد إبراهيم مكاناً للذبح تقرباً لله. قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل. والحكمة في جعل الله لكل أمة منسكاً، لإقامة ذكره، والالتفات لشكره، ولهذا قال:

﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ أي: أمرناهم عند الذبح أن يذكروا اسم الله وأن يذبحوا لوجهه تعالى دون غيره، فكل الشرائع متفقة على هذا الأصل.

﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: شكراً لله على ما أنعم به عليهم من بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم عند نحرها وذبحها. وقد بين تعالى أنه يجب أن يكون الذبح لوجهه تعالى وعلى اسمه؛ لأنه هو الخالق الرازق لا كما كان المشركون يذبحون للأوثان.

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: فربكم أيها الناس ومعبودكم إله واحد لا شريك له، وفيه دليل على أن ذكر اسم الله شرط الذبح.

﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ فأخلصوا له العبادة، واستسلموا لحكمه وطاعته، وبشر المطيعين المتواضعين الخاشعين، بجنات النعيم. ثم وصف تعالى المخبتين بأربع صفات، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: إذا ذكر الله خافت وارتعشت لذكره قلوبهم، لخوفهم ووجلهم منه وحده.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ أي: يصبرون في السراء والضراء على الأمراض والمصائب والمحن وسائر المكاره، فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربهم، محتسبين ثوابه، مرتقبين أجره.

﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: الذين يؤدونها في أوقاتها مستقيمة كاملة مع الخشوع والخضوع.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: ومن بعض الذي رزقناهم من فضلنا ينفقون في وجوه الخيرات، وأتى بـ «من» المفيدة للتبعيض، ليعلم سهولة ما أمر الله به ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رزق الله، ليس للعبد في تحصيله قدرة، لولا تيسير الله له ورزقه إياه.

* ثم ذكر سبحانه أن الشعائر عام في جميع أعلام الدين الظاهرة، فقال:

﴿٣٦﴾ ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ والإبل السمينة ـ سميت بدناً؛ لبدانتها وضخامة أجسامها ـ جعلناها من أعلام الشريعة التي شرعها الله لعباده، وإضافتها إلى اسمه تعظيم لها، وكونها من شعائر الدين أنها تهدى إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يهدى.

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: لكم فيها نفع في الدنيا من الأكل والانتفاع، والصدقة، وأجر في الآخرة من الثواب والأجر.

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ أي: اذكروا اسم الله عليها عند نحرها حال كونها صواف، أي: قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن، وتنحر الإبل واقفة قد صفت ثلاث من قوائمها وقيدت الرابعة.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ فإذا سقطت على الأرض بعد نحرها، وهو كناية عن الموت.

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ أي: كلوا من هذه الهدايا وأطعموا القانع، أي: المتعفف الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح. والمعتر أي: السائل الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال، أي: أعطوا الفقير الذي لا يسأل، والفقير الذي يسأل، فكل منهما له حق فيها.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: مثل ذلك التسخير البديع، جعلنا البدن منقادة ومسخرة لكم مع ضخامة أجسامها لتتمكنوا من نحرها لكي تشكروا الله وتحمدوه على إنعامه.

* ثم ذكر ﷻ أن الذبح عبادة لا يجوز صرفها لغيره تعالى وذكر أنه ليس المقصود من ذبحها إلا الإخلاص فيها، والاحتساب، والنية الصالحة، ولهذا قال:

﴿٣٧﴾ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ لن يصل إليه تعالى شيء من لحومها ولا دمائها لكونه الغني الحميد.

﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ولكن يصل إليه التقوى منكم بامتثالكم أوامره وطلبكم رضوانه، وفي هذا حث على أن يكون القصد وجه الله وحده، لا فخراً ولا رياء، ولا سمعة، ولا مجرد عادة، بل لا بد أن يقترن بها الإخلاص وتقوى الله.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ كرره للتأكيد، أي: كذلك ذللها لكم وجعلها منقادة لرغبتكم، لتعظموا الله، وتجلوه، ولتكبروه على ما أرشدكم إليه من أحكام دينه.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وبشر المحسنين في أعمالهم بالسعادة والفوز بدار النعيم، فالمحسنون لهم البشارة من الله، بسعادة الدنيا والآخرة، وسيحسن الله إليهم، كما أحسنوا في عبادته ولعباده.

* لما بين تعالى مناسك الحج وما فيه من منافع الدنيا والآخرة، وذكر أن الكفار صدوا المؤمنين عن دين الله وعن دخول مكة، بين هنا أنه يدافع عن المؤمنين، وذكر الحكمة من مشروعية القتال ومنها الدفاع عن المقدسات، وحماية المستضعفين، وتمكين المؤمنين من عبادة الله، وهذا إخبار ووعد وبشارة من الله للذين آمنوا، قال تعالى:

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: ينصر المؤمنين ويدفع عنهم بأس المشركين، ويدفع عنهم كل مكروه ويكلؤهم ويحفظهم، وهذه بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار وكف كيدهم عنهم، فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله، ومادة الإيمان وقوته بذكر الله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً وأكثر ذكراً كان دفع الله تعالى عنه ودفاعه أعظم، ومن نقص نقص، ذكراً بذكر ونسياناً بنسيان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ أي: إنه تعالى يبغض كل خائن للأمانة، فيبخس حقوق الله عليه ويخونها، ويخون الخلق، جاحد نعمة الله، يوالي عليه الإحسان ويتوالى منه الكفر والعصيان.

* لما كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار، ومأمورين بالصبر عليهم، لحكمة إلهية، فلما بلغ أذى المشركين مداه خرج النبي ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، وحصل لهم منعة وقوة تغيرت الحال. انتقلت الآيات للحديث عن الحكمة من الإذن بقتال الكفار، وتناولت الحديث عن القرى المدمرة بسبب ظلمها وطغيانها، وذلك لبيان سنة الله في الدعوات، وتطميناً للمسلمين بالعاقبة التي تنتظر الصابرين، قال تعالى:

﴿٣٩﴾، ﴿٤٠﴾ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٖ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ فيه محذوف تقديره: أذن لهم في القتال بسبب أنهم ظلموا بمنعهم من دينهم، وأذيتهم عليه، وإخراجهم من ديارهم. قال المفسرون: هم أصحاب رسول الله ﷺ كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديداً، وكانوا

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ
﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟
رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ
صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ
عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ
وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ
لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ
ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ
مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ
لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا
لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

يأتون رسول الله ﷺ بين مضروب ومشجوج ويتظلمون إليه، فيقول لهم: اصبروا فإني لم أؤمر بقتالهم، حتى هاجروا، فأنزل الله ﷻ هذه الآية، وهي أول آية أذن فيها بالقتال، بعدما نهي عنه في أكثر من سبعين آية.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أي: هو تعالى قادر على نصر عباده من غير قتال، ولكنه يريد منهم أن يبذلوا جهدهم في طاعته لينالوا أجر الشهداء، فليستنصروه، وليستيعنوا به، ثم ذكر صفة ظلمهم، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: أخرجوا من أوطانهم ظلماً وعدواناً وأذية وفتنة، بغير سبب موجب للإخراج. قال ابن عباس: يعني محمداً وأصحابه أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق.

﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي: ما كان لهم إساءة ولا ذنب، إلا أنهم وحدوا الله ولم يشركوا به أحداً، وهذا هو الذي نقم منه أعداؤهم.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: لولا ما شرعه الله من الجهاد، وقتال الأعداء، ودفع الظلم والباطل بالقتال؛ لهزم الحق في كل أمة ولخربت الأرض، ولاستولى أهل الشرك على أهل الأديان وتعطلت الشعائر، ولكنه تعالى دفع شرهم بأن أمر بقتالهم.

﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ﴾ أي: لتهدمت معابد الرهبان، وكنائس النصارى، وكنائس اليهود.

﴿وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي: ومساجد المسلمين التي يعبد فيها الله بكرة وأصيلاً. ومعنى الآية: أنه لولا كفه تعالى المشركين بالمسلمين، وإذنه بمجاهدة المسلمين للكافرين لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمانهم فهدموا موضع عباداتهم، ولم يتركوا للنصارى بيعاً، ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود كنائس، ولا للمسلمين مساجد، ولغلب المشركون أهل الأديان، وإنما خص المساجد بهذا الوصف ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ تعظيماً لها وتشريفاً؛ لأنها أماكن العبادة الحقة.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ قسم، أي: والله سينصر من ينصر دينه ورسوله مخلصاً في ذلك، ويقاتل في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ إنه تعالى كامل القوة عزيز لا يرام، قادر لا يعجزه شيء، عزيز لا يقهر ولا يغلب، وصف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، فأبشروا يا معشر المسلمين، فإنكم وإن ضعف عَدَدكم وعُددكم، وقوي عدد عدوكم وعدتهم، فإن ركنكم القوى العزيز.

* ثم ذكر علامة من ينصره، وبها يعرف، أن من ادعى أن ينصر الله وينصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف فهو كاذب، فقال:

﴿٤١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض.

﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: هؤلاء الذين يستحقون نصرة الله هم الذين إن جعلنا لهم سلطاناً في الأرض وتملكاً واستعلاء؛ عبدوا الله وحافظوا على الصلاة في أوقاتها، وحدودها، وأركانها وشروطها في الجمعة والجماعات وأداء الزكاة التي عليهم خصوصاً، وعلى رعيتهم

عموماً، آتوها أهلها الذين هم أهلها. قال ابن عباس: هم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان.

﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: دعوا إلى الخير ودلوا الناس عليه، ونهوا عن الشر وحذروا الناس منه.

﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مرجع الأمور إلى حكمه تعالى وتقديره.

* ثم ذكر ﷻ آيات في تسلية الرسول ﷺ ووعيد للمشركين. فقال:

﴿٤٢﴾-﴿٤٦﴾ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ أي: إن كذبك أهل مكة؛ فاعلم أنك لست أول رسول يكذبه قومه، فقد كان قبلك أنبياء كذبوا، كنوح، وهود، وصالح، فصبروا إلى أن أهلك الله المكذبين، فاقتد بهم واصبر، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على ما يجد من قومه من مكابرة وعناد.

﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ أي: وكذب كذلك قوم إبراهيم، وقوم لوط، وقوم شعيب.

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ أي: وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته، وعظم معجزاته، كذبه فرعون والقبط. ولم يقل وقوم موسى؛ لأن موسى ما كذبه بنو إسرائيل وإنما كذبه غير قومه، فإذا كان هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام - كذبوا، فما ظنك بغيرهم؟

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي: أمهلتهم وأخرت عقوبتهم فلم أعاجلهم حتى استمروا في طغيانهم يعمهون، ثم أخذتهم بالعقوبة والعذاب.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استفهام تقريري، أي: فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب، ألم يكن أليماً؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة، وبالكثرة قلة، وبالعمارة خراباً؟ فكذلك أفعل بالمكذبين من أهل مكة.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: وكم من قرية أهلكنا أهلها بالعذاب الشامل والخزي الدنيوي، وهي مشركة كافرة بالله، ومكذبة لرسله، لم يكن عقوبتنا لها ظلماً منا.

﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف، فهي مخربة مهدمة، بعد أن كانت عامرة.

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أي: وكم من بئر عطلت، فتركت لا يستقى منها، ولا يردها أحد، لهلاك أهلها.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أي: وكم من قصر تعب عليه أهله، فشيدوه، ورفعوه، وحصنوه، أصبح خالياً بلا ساكن، أليس في ذلك عبرة للمعتبر ومثالاً لمن فكر ونظر؟ ولهذا دعا الله عباده إلى السير في الأرض، لينظروا ويعتبروا، فقال:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ أفلم يسافر أهل مكة ليشاهدوا بأعينهم ويتفكروا بقلوبهم في مصارع الكفار، فيعتبروا بما حل بهم من النكال والدمار، وهلا عقلوا ما يجب أن يعقل من الإيمان والتوحيد.

﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أو تكون لهم آذان يسمعون بها المواعظ والزواجر وأنباء القرون المعذبين.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: فما عميت أبصارهم عن الإبصار، بل قلوبهم عن الاعتبار، فإن العمى على الحقيقة، عمى البصيرة لا عمى البصر، فمن كان أعمى القلب لا يعتبر ولا يتدبر، وأما عمى البصر، فغايته بلغة، ومنفعته دنيوية، وبصر القلب هو البصر النافع.

﴿٤٧﴾، ﴿٤٨﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ ويستعجلك - يا محمد - كفار قريش لشدة جهلهم بالعذاب استهزاءً، وظلماً وعناداً، وتعجيزاً وتكذيباً، ولا يمنعهم منه مانع لكن لوقوعه أجل لا يتعداه؛ لأنه تعالى لا يخلف الميعاد، وليس ذلك

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا
عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ
﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ
إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي
ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ
مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ
فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ
تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

٣٣٨

إليك ـ يا محمد ـ وقد عجل لهم ذلك في الدنيا يوم بدر، بالقتل والأسر والذل.

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: هو تعالى حليم لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حلمه، فلم إذاً يستبعدونه ويستعجلون العذاب؟ ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: وكثير من أهل قرية أخرت إهلاكهم وأمهلتهم مدة طويلة مع استمرارهم على الظلم، فاغتروا بذلك التأخير، فلم يكن مبادرتهم بالظلم موجباً لمبادرتنا بالعقوبة.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: ثم أخذتهم بالعذاب، بعد طول الإمهال، وإلي المرجع والمآب، ولما كان تعالى قد أمهل قريشاً حتى استعجلت بالعذاب ذكر الآية تنبيهاً على أن السابقين أمهلوا ثم أهلكوا، وأن قريشاً وإن أملى تعالى لهم وأمهلهم فإنه لا بد من عذابهم، فلا يفرحوا بتأخير العذاب عنهم.

* ثم يأمر ﷻ عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يخاطب الناس جميعاً، بأنه رسول الله حقاً، قال تعالى:

﴿٤٩﴾-﴿٥١﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المستعجلين للعذاب، إنما أنا منذر لكم أخوفكم عذاب الله، وأنذركم إنذاراً بيناً، من غير أن يكون لي أمر في تعجيل العذاب أو تأخيره. ثم ذكر تفصيل النذارة والبشارة، فقال:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ فالمؤمنون الصادقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، لهم عند ربهم مغفرة لما سلف من ذنوبهم، ورزق حسن في جنان النعيم، وقد بين سبحانه أن من جمع بينهما فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم. قال القرطبي: «إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فاعلم أنه الجنة». ثم أنذر سبحانه، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: كذبوا بآياتنا، وسعوا في إبطالها مغالبين مشاقين يثبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ يريدون إطفاء نور الله.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: فأولئك هم أصحاب النار الحارة الموجعة، الشديد عذابها ونكالها، شبههم من حيث الدوام بالصاحب.

* ثم يخبر تعالى بحكمته البالغة، واختياره لعباده، فقال:

﴿٥٢﴾-﴿٥٤﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ وما أرسلنا قبلك ـ يا محمداً ـ رسولاً ولا نبياً.

﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ إلا إذا أحب شيئاً وهويته نفسه وحدث به نفسه مما لم يؤمر به.

﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: إلا إذا حدث، ألقى الشيطان في

حديثه ومراده، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته، ويقال: أمنيته: قراءته، ومعنى الآية: وما أرسلنا رسولاً ولا نبيّاً فحدث نفسه بشيء، وتمنى لأمته الهداية والإيمان إلا ألقى الشيطان الوساوس والعقبات في طريقه بتزيين الكفر لقومه وإلقائه في نفوسهم مخالفة لأمر الرسول، وكأن الآية تسلية للرسول ﷺ تقول له: لا تحزن ـ يا محمد ـ على معاداة قومك لك فهذه سنة المرسلين، ولكن هذا الإلقاء من الشيطان، غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال:

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يزيل ويبطل الله ما يلقيه الشيطان من الوساوس والأوهام، ولهذا قال:

﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يتقنها، ويحررها ويحفظها في نفس الرسول، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: مبالغ في العلم بما أوحى إلى نبيه وبقصد الشيطان، حكيم يضع الأشياء في مواضعها ولا يدعه حتى يكشفه ويزيله، وفي الآية دلالة على جواز السهو من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، وتطرق الوسوسة إليهم.

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾ ليجعل تلك الشبه والوساوس التي يلقيها الشيطان فتنة لطائفتين، لا يبالي الله بهم.

﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: الطائفة الأولى: المنافقون الذين في قلوبهم شك وارتياب وعدم تصديق تام، فيؤثر في قلوبهم أدنى شبهة تطرأ عليهم، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، داخلهم الريب والشك، فصار فتنة لهم.

﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: وفتنة للكافرين الغليظة قلوبهم الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله، وهم خواص من الكفار عتاة كأبي جهل، والنضر، وعتبة، وهم الطائفة الثانية، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، جعلوه حجة لهم على باطلهم، وجادلوا به وشاقوا الله ورسوله، ولهذا قال:

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: وإن هؤلاء المذكورين من المنافقين والمشركين لفي عداوة شديدة لله ولرسوله، ووصف الشقاق بلفظ ﴿بَعِيدٍ﴾ لأنه في غاية الضلال والبعد عن الخير.

* ثم ذكر ﷻ الطائفة الثالثة التي يكون رحمة في حقها، وهم المذكورون في قوله:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وليعلم أهل العلم بالله وبدينه وبالآيات، الذين يفرقون بين الحق والباطل: أن القرآن هو الحق النازل من عند الله تعالى؛ لأن الله منحهم من العلم ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي، فيميزون بين الأمرين.

﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: يؤمنوا بهذا القرآن ويزداد إيمانهم.

﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخشع وتطمئن وتسكن له قلوبهم، وهذا من هدايته إياهم بخلاف من في قلبه مرض.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: مرشد المؤمنين بسبب إيمانهم، إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.

* ثم يخبر ﷻ عن حالة الكفار، وأنهم لا يزالون في شك مما جاءهم به محمد ﷺ لعنادهم وإعراضهم، قال تعالى:

﴿٥٥﴾-﴿٥٧﴾ ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ * ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ ولا يزال هؤلاء المشركون في شك وريب من هذا القرآن، لا يبرحون مستمرين على هذه الحال.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ حتى تأتيهم القيامة فجأة، دون أن يشعروا. قال قتادة: ما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله؛ إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ أو يأتيهم عذاب يوم القيامة، وسمي عقيماً؛ لأنه لا يوم بعده، والمراد به الساعة أيضاً كأنه قيل: أو يأتيهم عذابها، ووضع ذلك موضع الضمير لمزيد التهويل.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: الملك والسلطان يوم القيامة لله

ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ
مُّهِينٞ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ
أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ
خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ
وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩ ۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ
مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي
ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ
بَصِيرٞ ٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ
مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢
أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ
مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤

٣٣٩

وحده، لا منازع له فيه ولا مدافع، يفصل بين عباده بالعدل، فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار، ولهذا قال:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ فالذين صدقوا الله ورسوله، وفعلوا صالح الأعمال، لهم النعيم المقيم، نعيم القلب والروح والبدن، في جنات الخلد لا يحول ولا يزول.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله، وآياته الهادية للحق والصواب، لهم العذاب المخزي مع الإهانة والتحقير في دار الجحيم.

* ثم بشر الله عباده الصالحين، ببشارة عظيمة، وخصهم بفضيلة جليلة لمن هاجر في سبيل الله ابتغاء مرضاته، فقال تعالى:

(٥٨)-(٦٠) ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ * لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ * ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: تركوا وفارقوا أوطانهم وديارهم وأموالهم، وأولادهم، ابتغاء مرضاة الله، وجاهدوا لإعلاء كلمة الله.

﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾ أي: قتلوا في الجهاد، أو ماتوا على فرشهم حتف أنفسهم.

﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: ليعطينهم نعيماً خالداً لا ينقطع أبداً، وهو نعيم الجنة، لأنه تعالى خير من أعطى، فإنه يرزق بغير حساب.

﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥ﴾ ليدخلنهم مكاناً يرضونه وهو الجنة، أو ما يفتحه الله عليهم من البلدان، خصوصاً فتح مكة المشرفة، فإنهم فيها بعد دخولها في حالة الرضا والسرور، وتكون الآية جمعت بين الرزقين، رزق الدنيا، ورزق الآخرة.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ عليم بدرجات العاملين، حليم عن عقابهم، يعصيه الخلق ويبارزونه بالعظائم وهو لا يعاجلهم بالعقوبة مع كمال اقتداره.

﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أي: ذلك الأمر الذي قصصنا عليك من إدخال المهاجرين الجنة، ومن اعتُدي عليه وظلم فقد أذن له أن يقابل الجاني بمثل ما ظلمه وفعلته ولا حرج عليه.

﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ أي: ثم اعتدى الظالم عليه ثانياً، لينصرن الله ذلك المظلوم، إذ لا يجوز أن يعتدي عليه بسبب انتصافه لنفسه؛ والنصر إليه أقرب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ مبالغ في العفو والغفران، وفيه تعريض بالحث على العفو والصفح، فإنه تعالى مع كمال قدرته على الانتقام يعفو ويغفر، فغيره أولى بذلك.

* ثم ذكر ﷻ أن ذلك الذي شرع لعباده تلك الأحكام الحسنة العادلة، هو حسن التصرف في تقديره وتدبيره، الذي من قدرته وحكمته:

(٦١)،(٦٢) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ أي: ذلك النصر بسبب أن الله قادر، ومن آيات قدرته إيلاج الليل في النهار، أي أنه يدخل كلًّا منهما في الآخر، بأن ينقص من الليل فيزيد في النهار وبالعكس،

وهــذا مشــاهد ملمــوس في الصيف والشتاء فيترتب على ذلك قيام الفصول، ومصالــح الليــل والنهار والشــمس والقمــر، التي هي من أجــل نعمه على العباد، وهي من الضروريات لهم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ أي: سميع لأقوال عبــاده، بصير بأحوالهم، لا تخفى عليه خافية مما يجري على أيدي العباد من الخير والشر والبغي والإنصاف.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الوصــف بخلقه الليل والنهــار وإحاطتــه بما يجــري فيهما وإدراكه قولهم وفعلهم.

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الثابت، الذي لا يزال ولا يزول، كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد، الذي وعده حق، ولقاؤه حق، ودينه حق، وعبادته هي الحق، النافعة الباقية على الدوام.

﴿وَأَنَّ مَــا يَدۡعُــونَ مِــن دُونِهِۦ هُــوَ ٱلۡبَٰطِــلُ﴾ أي: وأن الذي يدعوه المشركون من الأصنام والأوثان والأنداد هو الباطل، الذي لا يقدر على شيء.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُــوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أي: هو العــالي على كل شيء، لا أعلى منه شأناً ولا أكبر سلطاناً، ذو العظمة والكبرياء، فلا أعلى منه ولا أكبر.

* لما ذكر تعالى مــا دل على قدرته الباهــرة من إيــلاج الليــل في النهار، والنهــار في الليل ونبه بــه على نعمه، أتبعه هنــا بأنواع أخر من الدلائل على قدرتــه وحكمته، وجعلهــا كالمقدمة لإثبات البعــث والنشــور، وفي هذا حث منه تعالى وترغيب في النظر بآياته الدالات على وحدانيته، وكماله، فقال:

﴿٦٣﴾-﴿٦٦﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيــفٌ خَبِيــرٞ * لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ * أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّــا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَــعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَــرَءُوفٞ رَّحِيمٞ * وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾.

﴿أَلَــمۡ تَــرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنــزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ استفهام تقريري، أي: ألم تعلم أيها السامع، وتشاهد ببصرك وبصيرتــك، أن الله بقدرتــه أنزل من السحاب المطر؟

﴿فَتُصۡبِــحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡــضَرَّةً﴾ فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد يبسها ومحولها، وجاء بصيغة المضارع ﴿فَتُصۡبِحُ﴾ لاستحضار الصورة وإفادة بقائها كذلك مدة من الزمن.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيــفٌ خَبِيــرٞ﴾ أي: لطيف بأرزاق العباد واصل فضله إلى كل شيء، يدرك بواطن الأشياء، وخفياتها، وسرائرها، الذي يسوق إلى عبده الخير، ويدفع عنه الــشر، خبير بسرائر الأمور، وخفايا الصــدور وخفايا الأمور، خبير بما في قلوبهم مــن القنوط. والغرض من الآية: إقامة الدليل على كمال قدرته وعلى البعث والنشــور فمن قدر على هذا قدر على إعادة الحيــاة بعد الموت، ولهذا قال: ﴿وَهُــوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾.

﴿لَّهُۥ مَــا فِي ٱلسَّــمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جميــع ما في الكــون ملكه ـ جل وعــلا ـ، خلقاً وملــكاً وتصرفاً، يتصرف فيهــم بملكه وحكمته وكمال اقتــداره، ليس لأحد غــيره من الأمر شيء، فالكل محتاج إلى تدبيره وإتقانه.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَــنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي: هو تعالى غني عن الأشــياء كلها، ومن غناه: أنه لا يحتاج لأحد من خلقه، وهو المحمود في ذاته، وفي أسمائه لكونها حســنى، وفي صفاتــه، لكونهــا كلها صفات كمال، وفي أفعالــه لكونها دائرة بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة.

ثــم يذكرهم تعالى بنعمة أخرى:

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ألم تر أيها العاقل وتشاهد ببصرك وقلبــك أن الله ســخر لعباده جميع مــا يحتاجون إليه مــن الحيوانات والأشجار والأنهار والمعادن.

﴿وَٱلۡفُلۡــكَ تَجۡــرِي فِي ٱلۡبَحۡــرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: وســخر لكم الســفن العظيمة المثقلة بالأحمال والرجال، تسير في البحر لمصالحكم بقدرته ومشيئته.

﴿وَيُمۡسِــكُ ٱلسَّــمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ويمســك بقدرته السماء كيلا تسقط على الأرض فيهلك من فيها.

﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ إلا إذا شــاء وذلك عند قيام الساعة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: وذلك من لطفه بكم ورحمته لكم حيــث هيأ لكــم أســباب المعاش في الأرض، وعدد نعمه مقرونة بأســمائه ليشكروه على آلائه ويذكروه بأسمائه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى
فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا
بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾
لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ
فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾
وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ
ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ
عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا
بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ
يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن
ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ أي: أنشأكم وأوجدكم ولم تكونوا شيئاً.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انتهاء آجالكم.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بعد موتكم للحساب، والثواب والعقاب.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ مبالغ في الجحود لنعم الله. قال ابن عباس: المراد بالإنسان الكافر، والغرض من الآيات توبيخ المشركين كأنه يقول: كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف.

﴿٦٧﴾-﴿٦٩﴾ ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ * وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ يخبر تعالى أنه جعل لكل نبي من الأنبياء وأمة من الأمم السابقين وضعنا لهم شريعة ومتعبداً ومنهاجاً.

﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ هم عاملون به، أي: بذلك الشرع.

﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ فلا يجادلك أحد من المشركين فيما شرع الله لك ولأمتك، فقد كانت الشرائع في كل عصر وزمان، وهو نهي يراد به النفي، أي: لا ينبغي منازعة النبي ﷺ؛ لأن الحق قد ظهر بحيث لا يسع النزاع فيه.

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: ادع الناس إلى عبادة ربك، وإلى اتباع شرعه ودينه، فإنك على طريق واضح لا اعوجاج فيه، موصل إلى جنات النعيم.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وإن خاصموك بعد ظهور الحق وقيام الحجة عليهم، فقل لهم: الله أعلم بأعمالكم القبيحة وبما تستحقون عليها من الجزاء، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد.

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: الله يفصل في الآخرة بين المؤمنين والكافرين فيما كانوا فيه يختلفون من أمر الدين، فيعرفون حينئذ الحق من الباطل، وفي هذه الآية أدب حسن في الرد على من جادل تعنتاً واستكباراً.

* ثم يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، قال تعالى:

﴿٧٠﴾ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الاستفهام تقريري، أي: لقد علمت -يا محمد- أن الله أحاط علمه بما في السماء والأرض فلا تخفى عليه أعمالهم.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ إن ذلك كله مسطر في اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إن حصر المخلوقات تحت علمه وإحاطته سهل عليه يسير لديه.

* ثم بين سبحانه ما يقدم عليه الكفار من عبادة غير الله، مع عظيم نعمه، ووضوح دلائله، فقال:

﴿٧١﴾،﴿٧٢﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي:

ويعبد كفار قريش غير الله تعالى، أصناماً لا تنفع ولا تسمع.

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: ما لم يرد به حجة ولا برهان من جهة الوحي والشرع، وما ليس عندهم به علم من جهة العقل، وإنما هو مجرد التقليد الأعمى للآباء.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: ليس لهم ناصر يدفع عنهم عذاب الله إذا نزل بهم وحل.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ وإذا تليت على هؤلاء المشركين آيات القرآن الواضحة الساطعة المستلزمة لبيان الحق من الباطل، وما فيها من الحجج القاطعة على وحدانية الله لم يلتفتوا إليها، ولم يرفعوا بها رأساً، بل:

﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: ترى في وجوه الكفار الإنكار بالعبوس والكراهة والبغض.

﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يكادون يبطشون ويوقعون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم القرآن فهذه الحالة من الكفار بئس الحالة، وشرها بئس الشر، ولكن ثم ما هو شر منها وهي حالتهم التي يؤولون إليها.

﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: قل لهم: هل أخبركم بما هو أسوأ أو أشنع من تخويفكم للمؤمنين وبطشكم بهم؟ إنه نار جهنم وعذابها ونكالها.

﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: أعدها الله للكافرين المكذبين بآياته في الآخرة، وبئس الموضع الذي يصيرون إليه.

* وفي ختام السورة ضربت مثلاً لعبادة المشركين للأصنام، وبقبح عبادة الأوثان وحقارتها، وبيان نقص عقول وسخافة من عبدها، وبينت أن هذه المعبودات أعجز وأحقر من أن تخلق ذبابة فضلاً عن أن تخلق إنساناً سميعاً بصيراً، ودعت إلى اتباع ملة الخليل إبراهيم كهف الإيمان، وركن التوحيد. قال تعالى:

﴿٧٣﴾، ﴿٧٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي: يا معشر المشركين: بيّن الله مثلاً لما يعبد من دون الله من الأوثان والأصنام فألقوا إليه أسماعكم، وتدبروه حق التدبر، واعقلوا ما يقال لكم؛ فإنه يقطع مواد الشرك من القلب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: جميع ما تعبدون من دون الله لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها وحقارتها، وإن اجتمعت على ذلك فكيف بخلق ما هو أكبر، فكيف يليق بالعاقل جعلها آلهة وعبادتها من دون الله، قال القرطبي: وخص الذباب لأربعة أمور: لمهانته، وضعفه، ولاستقذاره، وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوهم من دون الله على خلق مثله ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأرباباً مطاعين؟ وهذا من أقوى الحجة وأوضح البرهان، بل وذكر أعظم من ذلك فقال:

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: لو اختطف هذا الخلق الأقل الأذل ـ الذباب ـ وسلب شيئاً من الطيب الذي كانوا يضمخون به الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه منه رغم ضعفه وحقارته، وهذه غاية ما يصير من العجز.

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ ضعف العابد الذي يطلب الخير من الصنم، والمطلوب الذي هو الذباب، فكل منهما حقير ضعيف.

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عظموه حق تعظيمه وما عرفوه حق معرفته، حيث جعلوا الأصنام ـ على حقارتها ـ شركاء للقوي العزيز، ولهذا قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: هو تعالى قادر لا يعجزه شيء، غالب لا يُغلب، فكيف يسوون بين القوي العزيز، والعاجز الحقير؟!

* لما بين تعالى كماله وقدرته وضعف الأصنام ومهانتها، وأنه المعبود حقاً، بين حالة الرسل، وتميزهم عن الخلق بما تميزوا به من الفضائل، فقال:

﴿٧٥﴾، ﴿٧٦﴾ ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ
وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ
ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا
وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ
أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ
وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي
ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ
فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ
ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ
وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

٣٤١

* يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ **أي: الله يختار رسلاً من الملائكة كجبريل وميكائيل وإسرافيل ليكونوا وسطاء لتبليغ الوحي إلى أنبيائه، ويختار رسلاً من البشر لتبليغ شرائع الدين لعباده كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم ـ عليهم السلام ـ والآية رد على من أنكر أن يكون الرسول من البشر، بل الله يختار الرسل من صفوة الخلق على الإطلاق.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ **يسمع ما يقولون، ويرى ما يفعلون.**

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ **أي: يعلم ما قدموا، وما أخروا من الأفعال والأقوال والأعمال، وإلى الله وحده ـ جل وعلا ـ ترد أمور العباد فيجازيهم عليها.**

٧٧، ٧٨ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ * وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ **أي: صلوا لربكم خاشعين، وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود؛ لأنهما أشرف أركان الصلاة.**

﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ **أي: أفردوه بالعبادة ولا تعبدوا غيره.**

﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ **وافعلوا ما يقربكم من الله من أنواع الخيرات والمبرات، كصلة الأرحام، ومواساة الأيتام، والصلاة بالليل والناس نيام، وعلق تعالى الفلاح على هذه الأمور، فقال:**

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ **أي: لتفوزوا وتظفروا بنعيم الآخرة.**

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ **وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم لإعلاء كلمة الله، حق الجهاد في ذات الله ومن أجله، باستفراغ الوسع والطاقة.**

﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ **هو اختاركم من بين الأمم لنصرة دينه، وخصكم بأكمل شرع، وأكرم رسول، فقابلوا هذه المنحة العظيمة بالعمل لهذا الدين ونصرته.**

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ **وما جعل عليكم في هذا الدين من ضيق ولا مشقة، ولا كلفكم ما لا تطيقون بل يسره غاية التيسير، ولهذا قال:**

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ **أي: دينكم الذي لا حرج فيه، وهو دين إبراهيم فالزموه؛ لأنه الدين القيم.**

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا﴾ **أي: الله سماكم المسلمين في الكتب المتقدمة وفي هذا القرآن، ورضي لكم الإسلام ديناً، فلما خصكم بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تردوا تكاليفه.**

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ **أي: ليشهد عليكم الرسول بتبليغه الرسالة لكم، وتشهدوا أنتم على الخلائق أن رسلهم قد بلغتهم.**

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ **أي: وإذا قد اختاركم الله لهذه المرتبة الجليلة فاشكروا الله على نعمته، قابلوا هذه النعمة العظيمة بأداء الصلاة، ودفع الزكاة المفروضة لمستحقيها شكراً لله على ما أولاكم.**

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: استمسكوا بحبله المتين، وثقوا واستعينوا بالله في جميع أموركم، ولا تتكلوا على حولكم وقوتكم.

﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: الله ﷻ الذي يتولى أموركم، فيدبركم بحسن تدبيره، ويصرفكم على أحسن تقديره.

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي: هو تعالى نعم المولى لمن تولاه، فحصل له مطلوبه، الناصر والمعين لمن استنصره فدفع عنه المكروه.

تم تفسير سورة الحج
والحمد لله

تفسير سورة المؤمنون
وهي مكية

* سورة المؤمنون من السور المكية التي تؤصل وتؤكد على توحيد الله ﷻ وإفراده بالعبادة، وتذكر بالرسالة وتجلي البعث والجزاء والحساب، وسميت بهذا الاسم الجليل «المؤمنون»؛ تخليداً لهم وإشادة بمآثرهم وفضائلهم الكريمة التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى في جنات النعيم، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿١١﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: فاز وسعد ونجح وحصل على البغية والمطلوب المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة و﴿قَدْ﴾ للتأكيد والتحقيق، فكأنه يقول: لقد تحقق ظفرهم ونجاحهم بسبب الإيمان والعمل الصالح، وهذا تنويه من الله بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم.

ثم عدد تعالى مناقبهم، وبأي شيء بلغوا تلك المنزلة، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ مدح الله الخاشعين في صلاتهم الذين هم: خائفون بالقلب، ساكنون بالجوارح. خائفون متذللون في صلاتهم لجلال الله وعظمته لاستيلاء الهيبة على قلوبهم، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي: عن الكذب والشتم والهزل، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، فتراهم ينزهون أنفسهم عنه، وعن حضور مجالسه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ أي: يؤدون زكاة أموالهم للفقراء والمساكين، طيبة بها نفوسهم طلباً لرضى الله، فأحسنوا في عبادة الخالق، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة.

الجزء الثامن عشر سورة المؤمنون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ
﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ
فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ
أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ
ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ
لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ
ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن
سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾
ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا
ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ
لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ
خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾

٣٤٢

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ هذا هو الوصف الرابع، أي: عفُّوا عن الحرام وصانوا فروجهم عما لا يحل، من الزنى واللواط وكشف العورات. علق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه، فلا سبيل إلى الفلاح دونه، وهذا يتضمن ثلاثة أمور: أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنه من الملومين، ومن العادين، ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم، فمقاساة ألم الشهوة، ومعاناتها أيسر من بعض ذلك.

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي: هم حافظون لفروجهم في جميع الأحوال، إلا من زوجاتهم وإمائهم المملوكات، فإنهم غير مؤاخذين بقربها؛ لأن الله تعالى أحلها.

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ أي: فمن طلب قضاء شهوة من غير الزوجات والمملوكات، فأولئك هم المعتدون المجاوزون الحد في البغي والفساد، المتجرؤون على محارم الله.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ أي: قائمون عليها بحفظها وإصلاحها، لا يخونون إذا ائتمنوا، ولا ينقضون عهدهم إذا عاهدوا. والظاهر عموم الأمانات، فيدخل فيها ما ائتمن الله تعالى عليه العبد من قول وفعل واعتقاد، وما ائتمنه الإنسان من الودائع والأمانات والأسرار ونحوهما.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ هذا هو الوصف السادس، أي: يواظبون ويداومون على الصلوات الخمس ويؤدونها في أوقاتها، كرر ذكر الصلاة ليبين أن المحافظة عليها واجبة، كما أن الخشوع فيها واجب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ أولئك الجامعون لهذه الأوصاف الجليلة، هم الجديرون بوراثة جنة النعيم.

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ الذين يرثون أعالي الجنة التي تتفجر منها أنهار الجنة، الذي هو أعلى الجنة، ووسطها، وأفضلها، وفي الحديث: «فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة» [رواه البخاري].

﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هم دائمون فيها، لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حولاً لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه من غير مكدر ولا منغص.

* ثم ذكر تعالى الأدلة والبراهين على قدرته ووحدانيته، فذكر تعالى في الآيات اللاحقة، أطوار الآدمي وتنقلاته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه، فقال:

﴿١٢﴾-﴿١٦﴾ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ * ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ * ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ اللام جواب قسم، أي: والله لقد خلقنا جنس الإنسان من صفوة استلت من الطين وخلاصته، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والخبيث، وبين ذلك.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾ أي: ثم جعلنا ذرية آدم وبنيه منيّاً ينطف من أصلاب الرجال، في مستقر متمكن هو الرحم، محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك.

﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ﴾ ثم صيرنا هذه النطفة، ـ وهي الماء الدافق ـ دماً جامداً يشبه العلقة بعد أربعين يوماً من النطفة.

﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ﴾ أي: ثم بعد أربعين يوماً، جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة، أي: قطعة لحم لا شكل فيها ولا تخطيط.

﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا﴾ أي: صيرنا قطعة اللحم عظاماً صلبة لتكون عموداً للبدن.

﴿فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾ أي: سترنا تلك العظام باللحم، وجعلناه كالكسوة لها وذلك في الأربعين الثالثة.

﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ ثم بعد تلك الأطوار نفخنا فيه الروح، فصيرناه خلقاً آخر في أحسن تقويم، ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب. قيل: جعلناه خلقاً مبايناً للخلق الأول حيث صار إنساناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم، وبصيراً وكان أكمه، وأودع كل عضو من أعضائه عجائب فطرة، وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ فتعالى وتعاظم الله في قدرته وحكمته، أحسن الصانعين صنعاً.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ ثم إنكم أيها الناس بعد تلك النشأة والحياة لصائرون إلى الموت.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ أي: تبعثون من قبوركم للحساب والمجازاة.

* ولما ذكر تعالى الأطوار في خلق الإنسان وبدايته ونهايته، ذكر دلائل الإيمان في الآفاق في خلق السموات والأرض، وكلها أدلة ساطعة على وجود الله، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان، قال تعالى:

﴿١٧﴾ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾.

أي: والله لقد خلقنا وأوجدنا فوقكم سبع سموات، سقفاً للبلاد، ومصلحة للعباد، سميت طرائق؛ لأن بعضها فوق بعض، وما كنا مهملين أمر الخلق، بل نحفظهم وندبر أمرهم.

* ثم ذكر ﷻ توافر النعم على عباده من كل وجه، وأنه فتح عليهم الأرزاق والبركات من السماء. فقال:

﴿١٨﴾-﴿٢٢﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي: أنزلنا من السحاب القطر والمطر بحسب الحاجة، وبقدر ما يكفيهم للمعيشة لا كثيراً فيفسد الأرض، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، ولا في غير أوانه فيذهب بدداً بلا فائدة، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماءً كثيراً لزرعها، ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى كما في أرض مصر، ويقال لها: الأرض الجزر، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر فيسقي أرض مصر ويقر الطين على أراضيهم ليزرعوا فيها؛ لأن أرضهم سبخة يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير، الرحيم الغفور.

﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا هذا الماء ثابتاً مستقراً في الأرض لتنتفعوا به وقت الحاجة.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ وعيد وتهديد، أي: ونحن قادرون على إذهابه بالتغوير في الأرض فتهلكون عطشاً أنتم ومواشيكم. قال ابن كثير: لو شئنا لجعلناه إذا نزل يغور في الأرض إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا، ولكن بلطفه تعالى ورحمته ينزل عليكم المطر من السحاب عذباً فراتاً، فيسكنه في الأرض، ويسلكه ينابيع فيها فيفتح العيون والأنهار، ويسقي الزروع والثمار، فتشربون منه أنتم ودوابكم وأنعامكم.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ فأخرجنا لكم بذلك الماء حدائق وبساتين، فيها النخيل والأعناب، وخص النخيل والأعناب بالذكر لأنها أكثر فواكه العرب.

﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ لكم في هذه البساتين أنواع الفواكه والثمار، تتفكهون بها.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: ومن ثمر الجنات تأكلون صيفاً وشتاءً، كالرطب والعنب والتمر والزبيب، وإنما خص النخيل والأعناب بالذكر، لكثرة منافعها، فإنهما يقومان مقام الطعام، ومقام الإدام، ومقام الفواكه رطباً ويابساً، وهما أكثر فواكه العرب.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ أي: ومما أنشأنا لكم بالماء أيضاً، شجرة الزيتون التي تخرج حول جبل الطور، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى. خصت بالذكر، لأن مكانها خاص في أرض الشام، ولمنافعها، التي ذكر بعضها في قوله:

﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ أي: تنبت الدهن، أي: فيها الزيت الذي فيه منافع عظيمة، وإدام للآكلين، سمي صبغاً لأنه يلون الخبز إذا غمس فيه، جمع الله في هذه الشجرة بين الأدم والدهن، وفي الحديث: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة» [رواه الترمذي].

الجزء الثامن عشر — سورة المؤمنون

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ
ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ
وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً
تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾
وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا
مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ
﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا
الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ
﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ
الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ
فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ
الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

٣٤٣

ثم يعرج من عالم النبات وقدرة الله في إنباته، إلى عالم الحيوان وخلقها وتسخيرها للإنسان بقدرة الله وتدبيره.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ أي: ومن نعمه عليكم، أن سخر لكم ربكم من الأنعام، وهي: الإبل والبقر والغنم، لعظة بالغة تعتبرون بها، ومنافع للمنتفعين.

﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ أي: نخرج لكم من بطونها من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ ولكم في هذه الأنعام منافع عديدة: تشربون من ألبانها، وتلبسون من أصوافها، وتركبون ظهورها، وتحملون عليها الأحمال الثقال.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أفضل المآكل من لحم وشحم.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي: وتحملون على الإبل في البر كما تحملون على السفن في البحر، فإن الإبل سفائن البر كما أن الفلك سفائن البحر، فالذي أنعم بهذه النعم، وصنف أنواع الإحسان، وأدر علينا من خيره المدرار، هو الذي يستحق كمال الشكر، وكمال الثناء، والاجتهاد في عبوديته، وأن لا يستعان بنعمه على معاصيه.

* لما ذكر تعالى دلائل التوحيد في خلق الإنسان والحيوان، والنبات، وفي خلق السموات والأرض، وعدد نعمه على عباده، ذكر هنا أمثالاً لكفار مكة من المكذبين من الأمم السابقة وما نالهم من العذاب، حيث عرضت السورة لقصص بعض الأنبياء تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين، فذكرت قصة نوح، ثم قصة هود، ثم قصة موسى، ثم قصة مريم البتول وولدها عيسى، ثم عرضت لكفار مكة وعنادهم ومكابرتهم للحق بعدما سطع سطوع الشمس في رابعة النهار، وأقامت الحجج والبراهين على البعث والنشور، وهو الأمر الذي توضحه السورة وتبينه، وأهم ما يجادل فيه المبطلون، فقصمت ببيانها الساطع ظهر الباطل، قال تعالى:

﴿٢٣﴾-﴿٢٥﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي: والله لقد أرسلنا رسولنا نوحاً إلى قومه داعياً لهم إلى الله، فأمرهم بعبادة الله وحده. قال المفسرون: هذه تعزية لرسول الله ﷺ بذكر هذا الرسول، ليتأسى به في صبره، وليعلم أن الرسل قبله قد كذبوا.

﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي: أخلصوا له العبادة، فليس لكم رب سواه، وفيه إبطال ألوهية غير الله، وإثبات الإلهية لله تعالى.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ زجر ووعيد، أفلا تخافون عقوبته بعبادتكم غيره؟

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي: فقال أشراف قومه ورؤساؤهم المعنون في الكفر والضلال لعوامهم على وجه المعارضة لنبيهم نوح، والتحذير من اتباعه:

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما هذا الذي يزعم أنه رسول إلا رجل من البشر، يريد أن يطلب الرياسة والشرف عليكم بدعواه النبوة لتكونوا له أتباعاً، وعجب بضلال هؤلاء؛ استبعدوا أن تكون النبوة لبشر، وأثبتوا الربوبية لحجر. وقالوا هنا:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لو أراد الله أن يبعث رسولاً لبعث ملكاً ولم يكن بشراً.

﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما سمعنا بمثل هذا الكلام الذي يدعونا إليه نوح، في الأمم الماضية، والدهور الخالية.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي: ما هو إلا رجل به جنون يزعم أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحي.

﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: انتظروا واصبروا عليه مدة إلى أن يضيق، فيترك دعوته، أو يأتيه الموت فتستريحوا منه.

* فلما طال أمد الدعوة، ورأى نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه إلا فراراً وأيس من إيمانهم دعا الله عليهم بالانتقام منهم:

فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى
نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ
خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا
مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ
مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ
﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ
﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا
ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ
ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾

٣٤٤

﴿٢٦﴾-﴿٣٠﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۞ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۞ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۞ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: قال نوح بعدما يئس من إيمانهم: رب انصرني عليهم بإهلاكهم عامة بسبب تكذيبهم إياي.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: فأجبنا دعاءه؛ وأمرناه عند ذلك أن اصنع السفينة بمرأى منا وحفظنا وكلاءتنا، لئلّا يعترض لك ولا يفسد عليك مفسد عملك، وفي هذا إثبات صفة العين لله سبحانه بما يليق به دون تشبيه ولا تكييف.

﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي: بأمرنا وتعليمنا إياك صنعتها.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: فإذا جاء أمرنا بإنزال العذاب الذي هو الطوفان، وفار الماء في التنور الذي يخبز فيه. قال المفسرون: جعل الله ذلك علامة لنوح على هلاك قومه.

﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: فأدخل في السفينة من كل صنف من الحيوان زوجين - ذكراً وأنثى - لئلّا ينقطع نسل ذلك الحيوان التي اقتضت الحكمة الربانية إيجادها في الأرض.

﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي: واحمل نساءك وأولادك أيضاً إلا من سبق عليه القول بالهلاك ممن لم يؤمن، كزوجته وابنه.

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ولا تسألني الشفاعة للظالمين عند مشاهدة هلاكهم، شفقة عليهم، وطمعاً في تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فقد قضيت أنهم مغرقون، محكوم عليهم بالغرق.

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: فإذا علوت واعتدلت أنت ومن معك من المؤمنين على السفينة، واستقلت بكم في تيار الأمواج، ولجج اليم.

﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: احمدوا الله على هلاكهم، وعلى تخليصه إياكم من الغرق، وهذا تعليم منه له ولمن معه، أن يقولوا هذا شكراً له وحمداً على نجاتهم، من القوم الظالمين في عملهم وعذابهم، وإنما قال: ﴿فَقُلِ﴾ ولم يقل فقولوا؛ لأن نوحاً كان نبيّاً لهم وإماماً فخطابه خطاب لهم.

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي: وبقيت عليكم نعمة أخرى، فادعوا الله فيها، وهي أن ييسر لكم منزلاً مباركاً. قال ابن عباس: هذا حين خرج من السفينة وفي هذا تعليم من الله ﷻ لعباده إذا نزلوا أن يقولوا هذا.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ وأنت يا رب خير المنزلين لأوليائك والحافظين لعبادك.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: إن فيما جرى على أمر نوح والسفينة وإهلاك أعداء الله، لدلائل وعبر يستدل بها أولوا الأبصار على أن الله وحده المعبود، وعلى أن رسوله نوحاً صادق، وأن قومه كاذبون، وعلى رحمة الله

بعباده، وأنه تعالى فاعل لما يشاء، قادر على كل شيء، عليم بكل شيء.

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: وإن الحال والشأن، كنا مختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

* لما ذكر نوحاً وما جرى لهم من منَّة الله وفضله عليهم، ذكر ما جرى بعد ذلك، فقال تعالى:

﴿٣١﴾-﴿٤١﴾ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: ثم أوجدنا من بعد قوم نوح، قوماً آخرين يخلفونهم، وهم قوم عاد.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أرسلنا إليهم رسولاً من عشيرتهم يعرفون نسبه وحسبه وصدقه، ليكون ذلك أسرع لانقيادهم، وهو هود عليه السلام، فقال لهم:

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي: اعبدوه وحده لا تشركوا به أحداً؛ لأنه ليس لكم رب سواه.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافون عذابه وانتقامه إن كفرتم؟

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: قال أشراف قومه الكفرة المكذبون بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب.

﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وسعنا عليهم نعم الدنيا من الأموال والأولاد حتى بطروا، ونعمناهم في هذه الحياة حتى أطغاهم.

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: قالوا لأتباعهم مضلين لهم: ما هذا الذي يزعم أنه رسول إلا إنسان مثلكم ومن جنسكم، ولا مزية له عليكم، فهو:

﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ يأكل مثلكم ويشرب مثلكم، فلا فضل له عليكم؛ لأنه محتاج إلى الطعام والشراب فكيف يدعي رسالة الله من بينكم.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ ولئن أطعتموه وصدقتموه وجعلتموه لكم قائداً ودليلاً، فإنكم لمغبونون وخاسرون حقاً، حيث أذللتم أنفسكم باتباعه، فلما أنكروا رسالته وردوها، أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت، والمجازاة على الأعمال، فقالوا:

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ استفهام على وجه الاستهزاء والاستبعاد، أي: أيعدكم بالحياة بعد الموت بعد أن تصبحوا رفاتاً وعظاماً بالية؟

﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ أنكم ستخرجون أحياء من قبوركم، وكرّر لفظ ﴿أَنَّكُم﴾ تأكيداً؛ لأنه لما طال الكلام حسن التكرار.

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أي: بعد بعد هذا الذي توعدونه من الإخراج من القبور، وغرضهم بهذا الاستبعاد أنه لا يكون أبداً.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا، يموت بعضنا، ويولد بعضنا إلى انقراض العصر، يموت أناس، ويحيا أناس.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي: لا بعث ولا نشور بعد الموت.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: ما هو إلا رجل كاذب يكذب على الله فيما جاءكم به من الرسالة، والإخبار بالمعاد.

﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولسنا له بمصدقين فيما يقوله.

ولما يئس نبيهم من إيمانهم ورأى إصرارهم على الكفر، دعا عليهم بالهلاك:

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: رب انصرني عليهم بسبب تكذيبهم إياي.

﴿قَالَ﴾ الله مجيباً لدعوته.

﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ أي: عن قريب من الزمان سيصيرون نادمين على كفرهم وتكذيبهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ فأخذتهم صيحة العذاب المدمر عدلاً من الله لا ظلماً، لا بالظلم والجور، بل بالعدل وبما كسبت أيديهم فأهلكناهم عن آخرهم.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ أي: صرعى هلكى كغثاء السيل. قال المفسرون: صاح بهم جبريل صيحة رجفت لها الأرض من تحتهم فصاروا لشدتها غثاء كغثاء السيل، وهو الشيء التافة الحقير الذي لا ينتفع منه شيء.

﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فسحقاً وهلاكاً لهم بكفرهم وظلمهم، أتبعوا مع عذابهم، البعد واللعنة والذم من العالمين.

* ثم لما أهلكت هذه الأمم، أنشأ الله من بعدهم أمماً وخلائق، فقال:

﴿٤٢﴾-﴿٤٤﴾ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: أوجدنا من بعد هلاك هؤلاء أمماً وخلائق آخرين، كقوم صالح وإبراهيم وقوم لوط وشعيب. قال ابن عباس: هم بنو إسرائيل، وفي الكلام حذف تقديره: فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم، دل عليه قوله:

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي: ما تقدم أمة من الأمم المهلكة عن الوقت الذي عين لهلاكهم ولا تتأخر عنه.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أي: بعثنا الرسل متلاحقين واحداً بعد واحد، يتبع بعضهم بعضاً.

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ تشنيع عليهم بكمال ضلالهم، أي: أنهم سلكوا في تكذيب أنبيائهم مسلك من سبقهم من الضالين المكذبين مع ما جاءهم من الآيات البينات، ولهذا قال:

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أي: ألحقنا الأمم والقرون بعضهم في إثر بعض بالهلاك والدمار فلم يبق منهم باقية، وتعطلت مساكنهم من بعدهم.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أخباراً تروى وأحاديث تذكر، يتحدث الناس بما جرى عليهم تعجباً وتسلية، ويكونون عبرة للمتقين، ونكالاً للمكذبين، وخزياً عليهم مقروناً بعذابهم.

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فهلاكاً ودماراً لقوم لا يصدقون الله ورسله.

* ثم ذكر تعالى قصة موسى مع فرعون الطاغية، فقال تعالى:

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا
تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا
وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ
وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا
وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ
﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا
ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ
﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ
فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم
بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ
﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

٣٤٥

﴿٤٥﴾-﴿٤٩﴾ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا البينات، الدالة على صدقهما، وصحة ما جاءا به، وهي الآيات التسع: العصا، اليد، الجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، والطوفان، والسنون، ونقص من الثمرات.

﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وحجة واضحة ظاهرة ملزمة للخصم من قوتها، أن

تقهر القلوب، وتتسلط عليها لقوتها فتنقاد لها قلوب المؤمنين، وتقوم بها الحجة البينة على المعاندين.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أرسلناهما إلى حاكم مصر فرعون، وأشراف قومه المتكبرين كهامان وغيره، من رؤسائهم.

﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ أي: امتنعوا عن الإيمان بالله وعبادته، واستكبروا على أنبيائه، وكانوا متكبرين متمردين، قاهرين لغيرهم بالظلم.

﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ فقالوا كبراً وتيهاً، وتحذيراً لضعفاء العقول، وتمويهاً: أنصدق رجلين مثلنا ونتبعهما؟

﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ والحال أن قوم موسى وهارون وهم بنو إسرائيل منقادون لنا كالخدم والعبيد؟

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ أي: فكذبوا رسولينا فكانوا من المغرقين في البحر.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: بعدما أهلك الله فرعون، وخلص الشعب الإسرائيلي مع موسى، وتمكن حينئذ من إقامة أمر الله فيهم، وإظهار شعائره، أنزل الله على موسى التوراة ليهتدي بها بنو إسرائيل ويعملون بها.

* ثم ذكر ﷻ ما امتن به على عيسى ابن مريم وأمه، وفيها الدلالة على قدرة الله ﷻ على ما يشاء؛ لأنه خلق عيسى من غير أب، فقال:

﴿٥٠﴾ ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ وجعلنا قصة مريم وابنها عيسى، معجزة عظيمة تدل على كمال قدرتنا حيث حملته وولدته من غير أب، وتكلم في المهد صبياً، وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى.

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أي: وجعلنا منزلهما ومأواهما إلى مكان مرتفع من أرض بيت المقدس. والربوة المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات.

﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ أي: أرض مستوية واسعة يستقر عليها ساكنوها، ذات ثمر وماء جار ظاهر للعيون.

* ثم أمر سبحانه رسله بالأكل من الطيبات، التي هي الرزق الطيب الحلال، وشكر الله بالعمل الصالح، فقال:

﴿٥١﴾،﴿٥٢﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ أي: قلنا يا أيها الرسل كلوا من الحلال، وتقربوا إلى الله بالأعمال الصالحة، والاستقامة على ما توجبه الشريعة والنداء لكل رسول في زمانه؛ وصى به كل رسول إرشاداً. وفي الآية دليل على أن أكل الحلال عون على العمل الصالح، وأن عاقبة الحرام وخيمة، ومنها رد الدعاء.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وعيد وتحذير، أي: إني عالم بما تعملون لا يخفى عليَّ شيء من أمركم، قال القرطبي: شمل الكل في الوعيد، وإذا كان هذا مع الرسل والأنبياء، فما ظن كل الناس بأنفسهم؟

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: دينكم وشريعتكم يا معشر الأنبياء دين وشريعة واحدة، وملتكم ملة واحدة، وهي دين الإسلام.

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: وأنا ربكم لا شريك لي، فخافوا عذابي وعقابي وذلك بامتثال أوامري واجتناب زواجري.

* لما ذكر تعالى قصص الأنبياء والمرسلين، أتبعه بذكر أخبار الكفرة المتمردين، من أقوامهم واختلافهم وتفرقهم في الدين حتى أصبحوا فرقاً وأحزاباً، ليجتنب الإنسان طرق أهل الضلال. قال تعالى:

﴿٥٣﴾-﴿٥٦﴾ ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: تفرقت الأمم في أمر دينهم فرقاً عديدة، وأدياناً مختلفة، هذا مجوسي، وهذا يهودي، وهذا نصراني؛ بعدما أمروا بالاجتماع.

﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ كل فريق منهم مغتبط مسرور بما اتخذه لنفسه من العلم والدين معجب به، يرى أنه المحق الرابح، وأن غيره المبطل الخاسر.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والضمير لكفار مكة، أي: فاترك - يا محمد - هؤلاء المشركين في غفلتهم وجهلهم وضلالهم، ودعواهم أنهم هم المحقون.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى حين موتهم ونزول العذاب بهم، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للمشركين.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ أيظن هؤلاء الكفار أن الذي نعطيهم في الدنيا من الأموال والأولاد.

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: هل هو تعجيل ومسارعة لهم في الإحسان؟ وثواباً لأعمالهم لمرضاتنا عنهم، كلا ليس الأمر كما يظنون بل هو استدراج لهم، واستجرار إلى زيادة الإثم، ولهذا قال:

﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي: إنما نملي لهم ونمهلهم ونمدهم بالنعم، ليزدادوا إثماً، وليتوفر عقابهم في الآخرة.

ولما ذم تعالى المشركين وتوعدهم. وذكر الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف، وعقب ذلك بمدح المؤمنين وذكرهم بأبلغ صفاتهم، فقال:

الجزء الثامن عشر سورة المؤمنون

وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

٣٤٦

﴿٥٧﴾-﴿٦١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي: هم من جلال الله وعظمته خائفون، ومن خوف عذابه حذرون، وخوفهم نابع أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى، وخوفاً على إيمانهم من الزوال، ومعرفة منهم بربهم، وما يستحق من الإجلال والإكرام، وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب، والتقصير في الواجبات.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون بكتب الله كلها لا يفرقون بين كتبه، كالذين تقطعوا أمرهم بينهم وهم أهل الكتاب، ويؤمنون ويصدقون كذلك بآياته الكونية، وهي الدلائل والبراهين الدالة على وجوده سبحانه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويخلصون العمل لوجهه، قال بعض المفسرين: وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله فإن ذلك داخل في الآية السابقة، بل المراد منه نفي الشرك الخفي وذلك بأن يخلص في العبادة لوجه الله وطلباً لرضوانه.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هذه هي الصفة الرابعة من أوصاف المؤمنين، أي: يعطون العطاء من زكاة وصدقة، ويتقربون بأنواع القربات من أفعال الخير والبر، وهم يخافون أن لا تقبل منهم أعمالهم. قال الحسن: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءةً وأمناً وقد كان السلف الصالح يجتهدون في إتمام العمل وإكماله وإتقانه، ثم يهتمون بعد ذلك بقوله، ويخافون من رده. قال سهل بن عبد الله: إنما خوف الصديقين من سوء

الخاتمة عند كل خطرة، وعند كل حركة. وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.

﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝﴾ وذلك لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الطاعات والأعمال الصالحة، ولاعتقادهم وعملهم ويقينهم أنهم سيرجعون إلى ربهم للحساب. روي أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عن الآية الكريمة فقالت: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يزني، ويسرق، ويشرب الخمر وهو يخاف الله ﷻ؟ فقال لها: «لا يا بنت الصديق! ولكنه الذي يصلي، ويصوم، ويتصدق، ومع ذلك يخاف الله ﷻ» [رواه ابن ماجه].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة، هم الذين يسابقون في الطاعات والأعمال الصالحات لنيل أعلى الدرجات، دأبهم المسارعة إلى كل عمل صالح.

﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي: هم الجديرون بالخيرات، والسابقون إليها، قد بلغوا ذروتها. وترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن، فالصفة الأولى: دلت على حصول الخوف الشديد، الموجب للاحتراز عما لا ينبغي، والثانية: دلت على التصديق بوحدانية الله، الثالثة: دلت على ترك الرياء في الطاعات، والرابعة: دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف والتقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين، رزقنا الله الوصول إليها.

* ولما ذكر تعالى مسارعتهم إلى الخيرات وسبقهم إليها، ربما وهم واهم أن المطلوب منهم ومن غيرهم، أمر غير مقدور، أو متعسر، فأخبر تعالى عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا، بقوله:

۝٦٢-۝٦٧ ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ * لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا نكلف أحد من العباد ما لا يطيق تفضلاً منا ولطفاً. أتى بهذه الآية عقب أوصاف المؤمنين إشارة إلى أن أولئك المخلصين لم يكلفوا بما ليس في قدرتهم، وأن جميع التكاليف في طاقة الإنسان.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ وعندنا صحائف أعمال العباد، التي سطر فيها ما عملوا من خير أو شر نجازيهم في الآخرة عليها، ولهذا قال:

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يبخسون من أعمالهم شيئاً بنقص الثواب، أو زيادة العقاب. والآية تهديد، وتأمين من الحيف والظلم.

ثم يخبر تعالى عن قلوب المكذبين.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ بل قلوب الكفرة المجرمين في غطاء وغفلة وعماية عن هذا القرآن، فلا يهتدون به، ولا يصل إلى قلوبهم منه شيء.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ ولهم أعمال سيئة كثيرة غير الكفر والإشراك.

﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: للكفار أعمال خبيثة من المعاصي، والخطايا سيعملونها في المستقبل لتحق عليهم الشقاوة، فقد جمعوا بين الكفر وسوء الأعمال، فحقت عليهم كلمة العذاب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾ حتى إذا أخذنا أغنياءهم وكبراءهم المتنعمين في هذه الحياة على غير ما اعتادوا عليه من الترف والنعيم، وذلك بالعذاب العاجل كالجوع والقتل والأسر.

﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ أي: إذا هم يصيحون ويرفعون أصواتهم بالاستغاثة، وهو الجوع الذي عذبوا به سبع سنين؛ لأنه أمر خالف ما هم عليه، ويستغيثون، فيقال لهم:

﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ لا تستغيثوا اليوم من العذاب.

﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: لا تمنعون من عذابنا، فلا ينفعكم صراخ ولا استغاثة، فكأنه قيل: ما السبب الذي أوصلكم إلى هذه الحال؟ قال:

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لقد كنتم تسمعون آيات القرآن تقرأ عليكم لتؤمنوا بها، وتقبلوا عليها، فلم تفعلوا ذلك.

﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ فكنتم تنفرون عن تلك الآيات كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع إلى ورائه، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الحق بالراجع إلى الخلف.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: تفعلون ذلك مستكبرين على الناس بغير الحق بسبب بيت الله الحرام، تقولون: نحن أهله لا نغلب فيه ولا نخاف أحداً، ونحن أهل بيت الله وولائه.

﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ أي: متحدثين ليلاً تسمرون، تقولون في سمركم الهجر، وهو القول الفاحش من الطعن في القرآن، وسب النبي ﷺ.

* فلما كانوا جامعين لتلك الرذائل، لا جرم حقت عليهم العقوبة، ولما وقعوا فيها، ولم يكن لهم ناصر ينصرهم، ولا مغيث ينقذهم، ويوبخون عند ذلك بهذه الأعمال الساقطة، قال تعالى:

﴿٦٨﴾-﴿٧٥﴾ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ * وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ * وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أفلم يتدبروا ويتفكروا في هذا القرآن العظيم، ليعرفوا بما فيه من الدلالات والبراهين على أنه كلام الله، فيصدقوا به؟

﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أم جاءهم من الله بشيء مبتدع لم يأت مثله في آبائهم السابقين؟ لأن مجيء الكتب من جهته تعالى إلى الرسل سنة قديمة لا يكاد يتسنى إنكاره، وأن مجيء القرآن على طريقته، فمن أين ينكرونه؟

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ توبيخ آخر لهم، أي: أم لم يعرفوا محمداً ﷺ بالأمانة والصدق وحسن الأخلاق. وبخهم أولاً: بترك الانتفاع بالقرآن، وثانياً: بأن ما جاءهم قد جاء مثله لآبائهم الأولين، وثالثاً: بأنهم يعرفون محمداً ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، ورابعاً: اتهامهم له بالجنون، وقد

الجزء الثامن عشر — سورة المؤمنون

* وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِي طُغْيَٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ
وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ
إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ
وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ
ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ
ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ
إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن
فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ
بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

٣٤٧

علموا أنه عليه السلام أرجحهم عقلاً وأسدهم رأياً، ولهذا قال بعده:

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي: أم يقولون إن محمداً مجنون، وليس كذلك؛ لأنهم يعلمون أنه أرجحهم عقلاً وأثقبهم ذهناً، وهذا توبيخ آخر، وتعجيب من تفننهم في العناد، وتلونهم في الجحود.

﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، ﴿بَلْ﴾ للإضراب، أي: ليس الأمر كما زعموا بل جاءهم محمد بالحق الساطع والأمر الثابت الذي لا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه، وبالقرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الإسلام، نعم جاءهم بالحق.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ أي: ومع وضوح الدعوة، فإن أكثر

المشركين يكرهون الحق لما في قلوبهم من الزيغ والانحراف والحسد والبغي.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: لو كان ما كرهوه من الحق ـ الذي هو التوحيد والعدل ـ موافقاً لأهوائهم الفاسدة، ومتمشياً مع رغباتهم الزائغة.

﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي: لفسد نظام العالم أجمع علويه وسفليه، وفسد من فيه من المخلوقات، لفساد أهوائهم واختلافهم. وفي هذا كله تبيين عجز العباد، واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وتدبيره لخلقه.

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ بل أتيناهم بما فيه فخرهم وشرفهم، وهو هذا القرآن العظيم، الذي أكرمهم الله تعالى به، وذلك حين يقومون به، ويكونون به سادة الناس وذلك؛ لأن الرسول منهم، والقرآن بلغتهم.

﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ فهم عن شرفهم وعزّهم معرضون عن هذا القرآن؛ شقاوة منهم وعدم توفيق، وكان اللائق بهم الانقياد له وتعظيمه؛ لأنه شرفهم وعزّهم، وأعاد لفظ «الذكر» تعظيماً للقرآن.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ أم تسألهم ـ يا محمد ـ أجراً على تبليغ الرسالة فلأجل ذلك لا يؤمنون، وفيه تشنيع عليهم لعدم الإيمان، فمحمد لا يطلب منهم أجراً، فلماذا إذاً يكذبونه ويعادونه؟

﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: رزق الله وعطاؤه خير لك ـ يا محمد ـ، وهو تعالى أفضل من أعطى ورزق؛ لأنه يعطي لا لحاجة، وغيره يعطي لحاجة.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: وإنك ـ يا محمد ـ لتدعوهم إلى الطريق المستقيم، وهو الإسلام الموصل إلى جنات النعيم.

ولما ذكر تعالى في الآيات السابقة، كل سبب موجب للإيمان، وذكر الموانع، وبين فسادها، واحداً بعد واحد، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ وإن الذين لا يصدقون بالبعث والثواب، والعقاب، لعادلون عن الطريق المستقيم، منحرفون عنه، فأين يذهبون إن لم يتابعوك. وأين يسيرون إن لم يتجهون معك.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ ولو رحمنا هؤلاء المشركين الذين كذبوك وعاندوك ورفعنا عنهم ما أصابهم من قحط وجدب وكشفنا عنهم البلاء.

﴿لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ لاستمروا وتمادوا في ضلالتهم وتجاوزهم الحد، يترددون ويتخبطون حيارى، وهذا بيان لشدة تمردهم وعنادهم.

عن ابن عباس قال: نزلت في قصة ثمامة بن آثال لما أسرته السرية وأسلم وخلى رسول الله ﷺ سبيله، حال بين مكة وبين الميرة، وقال: والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، وأخذ الله قريشاً بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعلهز، قيل وما العلهز؟ قال: كانوا يأخذون الصوف والوبر فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه، فقال أبو سفيان: أنشدك الله والرحم، أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين؟ قال: «بلى»، قال: فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف، وقتلت الأبناء بالجوع، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

* لما ذكر تعالى إعراض المشركين عن دعوة الإيمان، ذكر هنا سبب الإعراض والطغيان، قال تعالى:

(٧٦)-(٨٣) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ * قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد،

وبالقحط والجوع. قال المفسرون: المراد بذلك الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأن الله ابتلاهم بذلك، ليرجعوا إليه بالذل والاستسلام، فلم ينجع فيهم، ولا نجح منهم أحد.

﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ أي: ما خضعوا لله ولا ذلوا لجلاله، وما ردهم ذلك عما هم فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على غيهم وضلالهم.

﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: وما دعوا ربهم لكشف البلاء، بل استمروا على العتو والاستكبار، والغرض أنه لم يحصل منهم تواضع ورجوع إلى الله في الماضي، ولا التجاء إلى الله في المستقبل لشدة جبروتهم وطغيانهم كأنه لم يصبهم، لم يزالوا في غيهم، وكفرهم، ولكن وراءهم العذاب الذي لا يرد، وهو قوله:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ حتى إذا جاءتهم أهوال الآخرة، وأتاهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون.

﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: إذا هم آيسون من كل خير، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم. قيل: المراد بالعذاب عذاب الآخرة كما ينبئ عنه التهويل والوصف بالشدة، والمعنى: أنا محناهم بكل محنة من القتل، والأسر، والجوع وغير ذلك فما رئي منهم لين ولا توجه إلى الإسلام إلى أن يروا عذاب الآخرة فحينئذ يبلسون وتخضع رقابهم. ثم ذكرهم تعالى بنعمه ودلائل وحدانيته، فقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي: خلق لكم هذه الحواس، لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا، وفيه توبيخ للمشركين حيث لم يصرفوا النعم في مصارفها؛ لأن السمع خلق ليسمع به ما يرشد، والبصر ليشاهد به الآيات على كمال أوصاف الله، وبالعقل ليتأمل به في مصنوعات الله وباهر قدرته، فمن لم يصرف تلك النعم في مصارفها، فهو بمنزلة عادمها، وخص هذه الثلاثة بالذكر؛ لأنها يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: قليلاً تشكرون ربكم، و﴿قَلِيلًا﴾ لتأكيد القلة، أي: ما أقل شكركم لله على كثرة إفضاله وإنعامه عليكم؟

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: هو - جل وعلا - الذي خلقكم، وبثكم في الأرض بطريق التناسل. وإليه وحده تجمعون بعد موتكم للجزاء والحساب.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ وهو تعالى وحده، الذي يحيي الرمم، ويميت الخلائق والأمم، المتصرف في الحياة والموت، وهو وحده لا شريك له.

﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: إن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان، ومجيء أحدهما عقيب الآخر، بفعله وتدبيره سبحانه وحده ليقيم الدليل على وجوده وقدرته. ولهذا قال:

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفليس لكم عقول تدركون بها دلائل قدرته، وآثار قهره، فتعلمون أن من قدر على ذلك ابتداءً، قادر على إعادة الخلق بعد الفناء؟

﴿بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾، ﴿بَلْ﴾ للإضراب، أي: ليس لهم عقل ولا نظر في هذه الآيات والعبر، بل قال هؤلاء المشركون - من كفار مكة - مثل ما قال الأمم المتقدمون وسلكوا مسالك المكذبين.

﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: أئذا بلينا وصرنا ذرات ناعمة، وعظاماً نخرة أئنا لمخلوقون ثانية؟ هذا لا يتصور ولا يكون أبداً بزعمهم.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ لقد وعدنا بهذا البعث، نحن ومن سبقنا فلم نر له حقيقة ولم يأت بعد.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا إلا أكاذيب وأباطيل المتقدمين.

* ولما أنكروا البعث والنشور، أمر تعالى رسوله أن يفحمهم بالحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل، ويقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى الله الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فقال:

﴿٨٤﴾-﴿٩٠﴾ ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن

بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن
وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ
وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾
عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ
إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى
هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ
أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن
يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ
ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا
كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾
فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ
﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ
خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

٣٤٨

رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ **قل - يا محمد - جواباً لهؤلاء المكذبين بالبعث: لمن الأرض ومن فيها من المخلوقات؟ ومن مالكها والمتصرف فيها بالإيجاد والإفناء؟**

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **إن كان عندكم علم فأخبروني بذلك، وفيه استهانة بهم وتقرير لجهلهم، قال القرطبي: يخبر تعالى في الآية بربوبيته ووحدانيته، وملكه الذي لا يزول، وقدرته التي لا تحول. ودلت هذه الآيات - وما بعدها - على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم، ونبهت على أن من ابتدأ بالخلق والإيجاد، والإبداع، هو المستحق للألوهية والعبادة.**

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ **أي: فسيقولون ويقرون بأن الله خالقها وموجدها، ولا بد لهم من الاعتراف بذلك.**

﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ **أي: أفلا تعتبرون، فتعلمون أن من ابتدأ ذلك قادر على إعادته؟ وأنه لا تنبغي العبادة، إلا للخالق الرازق لا لغيره.**

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ **أي: من هو خالق السموات الطباق بما فيها الشموس، والكواكب والأقمار، ومن هو خالق العرش الكبير الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها؟**

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ **أي: سيقولون: الله خالقه وهو رب ذلك كله، قل لهم حين يقرون بذلك:**

﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ **أفلا تخافون من عذابه فتوحدونه، وتتركون عبادة غيره من الأوثان والأصنام.**

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ **الملكوت من صفات المبالغة، أي: من بيده الملك الواسع التام؟ ومن بيده خزائن كل شيء؟ ومن هو المتصرف في هذه الأكوان بالخلق والإيجاد والتدبير؟**

﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ **وهو سبحانه وعز سلطانه يحمي من استجار به من عباده والتجأ إليه، ولا يغيث أحد منه أحداً.**

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **أي: إن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك واجيبوني.**

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ **سيقولون ويجيبون: الملك كله والتدبير لله - جل وعلا -.**

﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ **قل لهم حين يقرون بذلك: فكيف تُخدعون وتصرفون عن طاعته وتوحيده، مع اعترافكم وعلمكم بأنه وحده المتصرف المالك؟ وقد رتب هذه التوبيخات الثلاثة بالتدريج فقال أولاً: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ثم قال ثانياً: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وذلك أبلغ؛ لأن فيه زيادة تخويف، ثم قال ثالثاً: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ وفيه من التوبيخ ما ليس في غيره.**

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ **بل جئناهم هؤلاء المكذبين بالقول الصدق في أمر التوحيد والبعث والجزاء.**

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ **أي: كاذبون فيما ينسبون لله من الشركاء، والأولاد، وإنكار البعث.**

* **لما بالغ في الحجج عليهم بالآيات السابقة، أعقبها بهذه الآية كالوعيد والتهديد، ثم بين بطلان**

الشرك والولد بالبرهان القاطع ونزه نفسه عن ذلك، فقال:

﴿٩١﴾، ﴿٩٢﴾ ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ﴾ أي: ما اتخذ الله ولداً مطلقاً لا من الملائكة ولا من البشر؛ لأنه منزه عن ذلك، وليس معه من يشاركه في الألوهية والربوبية.

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ أي: لو كان معه إله - كما زعم عبدة الأوثان - لانفرد كل إله بخلقه الذي خلق واستبد به، وتميز ملك كل واحد عن ملك الآخر.

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: ولغلب بعضهم على بعض، كحال ملوك الدنيا، فالغالب يكون هو الإله، قال ابن كثير: المعنى لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض وما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق غاية الكمال فدل على تنزه الله عن الولد والشرك، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان، كذلك يستحيل أن يكون له إلهان معبودان، ولهذا قال:

﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تنزه الله وتقدس عما يصفه به الظالمون من الأنداد والأولاد.

﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ أي: هو تعالى عالم بما غاب عن الأنظار، وبما تدركه الأبصار، لا تخفى عليه خافية من شؤون الخلق.

﴿فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدس وتنزه عن الشريك والولد.

* لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة، فلم يلتفتوا لها، ولم يذعنوا لها، حق عليهم العذاب، ووعدوا بنزوله وأرشد الله رسوله أن يقول:

﴿٩٣﴾-﴿٩٨﴾ ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ * وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ * ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: قل، يا رب إن كان ولا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا.

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ هذا جواب الشرط ﴿إِمَّا﴾ وكرر قوله: ﴿رَبِّ﴾ مبالغة في الدعاء والتضرع، أي: رب فلا تجعلني في جملة الظالمين، واعصمني واحمني عند حلول النقم، واجعلني ممن رضيت عنهم، ولكنه أمر أن يدعو بذلك إظهاراً للعبودية وتواضعاً لله.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ﴾ أي: ونحن قادرون على أن نريك العذاب الذي وعدناهم به ولكن نؤخره لحكمة. ثم أرشد تعالى إلى الأسلوب الأمثل في مخالطة الناس، فقال:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: إذا أساء إليك أعداؤك - يا محمد - بالقول أو الفعل، فادفع إساءتهم بالصفح عنهم، وتجمل بمكارم الأخلاق. قال ابن كثير: أرشده إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة، وبغضه محبة. وقيل: اسلك مسلك الكرام، ولا تلحظ جانب المكافأة، ادفع بغير عوض، ولا تسلك مسلك المبايعة.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ نحن أعلم بحالهم وبما يكون منهم من التكذيب والاستهزاء بالحق، وسنجازيهم عليه.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ أي: أمتنع وأعتصم بحولك وقوتك من نزغات الشياطين ووساوسهم المغرية على الباطل والمعاصي.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ وأعتصم وأحتمي بك يا رب من أن يصيبوني بسوء أو يكونوا معي في أموري، كرر ذلك للمبالغة والاعتناء بشأن الاستعاذة.

* ثم يخبر تعالى عن حال من حضره الموت، من المفرطين الظالمين في أمر الله، وشدة ندمه وحسرته، قال تعالى:

﴿٩٩﴾،﴿١٠٠﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ حتى إذا حضر الموت أحد المشركين، وعاين أهواله وشدائده، وعلم قبح أعماله.

﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ قال تحسراً على ما فرط منه، وصيغة الجمع للتعظيم: رب ردَّني إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها، وإنما ذلك:

﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ لكي أعمل بطاعتك فيما ضيعت من عمري وفرطت في جنب الله، تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها، ورجعة يسألها فلا يجاب إليها.

﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ ﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر، أي: لا رجوع إلى الدنيا فليرتدع عن ذلك، فإن طلبه للرجعة كلام لا فائدة فيه، فلا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه.

﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وأمامهم حاجز يمنعهم عن الرجوع إلى الدنيا ـ هو عالم البرزخ ـ وهو الحاجز ما بين الدنيا والآخرة، الذي يحول بينهم وبين الرجعة، فيلبثون فيه إلى يوم القيامة.

* ثم يذكر ﷻ عن هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم من الشدائد والكرب، والأهوال والشدائد التي يلقاها الكفار وقت الاحتضار وهم في سكرات الموت، وقد تمنوا العودة للدنيا ليتداركوا ما فاتهم من صالح العمل، ولكن هيهات فقد انتهى الأجل، وضاع الأمل. وختمت السورة بالحديث عن يوم القيامة حيث ينقسم الناس إلى فريقين: سعداء وأشقياء، وينقطع الحسب والنسب فلا ينفع إلا الإيمان والعمل الصالح، وسجلت المحاورة بين الملك الجبار وبين أهل النار وهم يصطرخون فيها فلا يغاثون ولا يجابون، قال تعالى:

﴿١٠١﴾-﴿١٠٤﴾ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ * فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية، وهي نفخة البعث والنشور وقام الناس من القبور.

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ فلا قرابة ولا نسب ينفعهم يوم القيامة، لزوال التراحم والتعاطف من شدة الهول والدهشة، بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه.

﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً عن شأنه لاشتغال كل واحد بنفسه. وفي القيامة مواضع، يشتد كربها، ويعظم وقعها، كالميزان الذي يميز به أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل ماله وما عليه، وتبين فيه مثاقيل الذر، من الخير والشر.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فهم السعداء الذين فازوا، فنجوا من النار وأدخلوا الجنة.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: زادت وثقلت سيئاته على حسناته، فهم الأشقياء الذين خسروا سعادتهم الأبدية حيث لا يجبر مصابها، ولا يستدرك فائتها.

﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ أي: هم مقيمون في جهنم، لا يخرجون منها أبد الآبدين. ثم ذكر تعالى مصير أهل النار، فقال:

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تحرق وجوههم بشدة حرها، وتخصيص الوجوه بالذكر؛ لأنها أشرف الأعضاء.

﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ وهم في جهنم عابسون مشوهو المنظر. قال ابن مسعود: قد بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم كالرأس المشيط بالنار.

* ومن شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه، يقال لهم توبيخاً ولوماً:

﴿١٠٥﴾-﴿١٠٧﴾ ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾.

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُواْ
رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ (١٠٦) رَبَّنَآ
أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ (١٠٧) قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا
وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا
فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٠٩) فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ
سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠)
إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (١١١) قَٰلَ
كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ
يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ (١١٣) قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ
إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلْكَٰفِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١١٨)

سُورَةُ النُّورِ

٣٤٩

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ **يقال لهم تعنيفاً وتقريعاً: ألم تكن آيات القرآن الساطع تقرأ عليكم في الدنيا لتؤمنوا؟**

﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ **فكنتم لا تصدقون بها مع وضوحها؛ ظلماً منكم وعناداً.**

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ **بدأوا بذكر الأعذار وتقديم الاعتذار، قالوا: غلبت علينا شقاوتنا الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع.**

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ **أي: وكنا ضالين عن الهدى بسبب اتباعنا للملذات والأهواء.**

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ **أي: أخرجنا من النار، وردنا إلى الدنيا، فإن رجعنا إلى الكفر والمعاصي بعد ذلك نكون قد تجاوزنا الحد في الظلم والعدوان. أقروا أولاً بالإجرام، ثم تدرجوا من الإقرار إلى الرغبة والتضرع، فجاء الجواب بالتيئيس والزجر، وهم مع ذلك كاذبون في وعدهم هذا.**

* **قال الله ﷻ جواباً لسؤالهم الخروج من النار، والرجعة إلى هذه الدار:**

(١٠٨)-(١١١) ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ **أي: اسكتوا سكوت ذلة وهوان، في النار، وامكثوا فيها صاغرين مهانين، ولاتكلموني في رفع العذاب. قيل: اخسؤوا: كلمة تستعمل في زجر الكلاب ففيها إهانة وإبعاد، وهذا القول - نسأله تعالى العافية أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخييب والتوبيخ والتيئيس من كل خير. ثم ذكر تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا، والحال التي أوصلتهم إلى العذاب، وقطعت عنهم الرحمة، فقال:**

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ **جمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة، والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته، ومنته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته، وعموم إحسانه. وفي ضمنه، ما يدل على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لربهم، وخوفهم ورجائهم، فهؤلاء سادات الناس وفضلاؤهم. قال مجاهد: هم بلال، وخباب، وصهيب، وغيرهم من ضعفاء المسلمين كان أبو جهل وأصحابه يهزؤون بهم.**

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ **أي: فسخرتم منهم واستهزأتم بهم.**

﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ **أي: حتى نسيتم بتشاغلكم بهم، واستهزائكم عليهم عن طاعتي وعبادتي، وكنتم تضحكون من صنيعهم وعبادتهم في الدنيا استهزاء وسخرية.**

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ **أي: جزيتهم بسبب صبرهم على أذاكم وعلى طاعتي، أحسن الجزاء حتى وصلوا إليّ، فهم الفائزون بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم.**

* ثم يقول تعالى منبهاً لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، قال تعالى:

﴿١١٢﴾-﴿١١٦﴾ ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ * قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾.

﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ قال تعالى للكفار على وجه اللوم والتوبيخ: كم كانت إقامتكم في الدنيا، وكم عمرتم فيها من السنين؟

﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ أي: مكثنا يوماً أو أقل من يوم، وكلامهم هذا مبني على استقصارهم جداً لمدة مكثهم في الدنيا.

﴿فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ أي: الحاسبين المتمكنين من العد. قال ابن عباس: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب المدة التي لبثوها.

﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ أي: ما أقمتم حقاً في الدنيا إلا قليلاً، كأنه قيل لهم: صدقتم ما لبثتم فيها إلا قليلاً فقد انقضت ومضت، والغرض تعريفهم قلة أيام الدنيا في مقابلة أيام الآخرة.

﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ لو كان لكم علم وفهم لعرفتم حقارة الدنيا ومتاعها الزائل.

﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ أي: أظننتم ـ أيها الناس ـ أنما خلقناكم باطلاً وهملاً، بلا ثواب ولا عقاب، كما خلقت البهائم، وأنه لا رجوع لكم إلينا للجزاء؟ لا ليس الأمر كما تظنون وإنما خلقناكم للتكليف والعبادة ثم الرجوع إلى دار الجزاء.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: فتنزه وتقدس الله الكبير الجليل عن هذا الظن الباطل، الذي يرجع إلى القدح في حكمته كما نزه نفسه عن الشريك والولد، والصاحبة وسائر العيوب والنقائص.

﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ أي: صاحب السلطان، المتصرف في ملكه بالإيجاد والإعدام، والإحياء، والإفناء، تنزه عن العبث والنقائص وعن أن يخلق شيئاً سفهاً؛ لأنه حكيم.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ أي: لا رب سواه، ولا خالق غيره، خالق العرش العظيم، وصفه بالكريم؛ لأن الرحمة والخير والبركة تنزل منه، ولنسبته إلى أكرم الأكرمين.

* ثم يقول ﷻ متوعداً من أشرك به غيره، وعبد معه سواه:

﴿١١٧﴾، ﴿١١٨﴾ ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ * وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ ومن يجعل لله شريكاً ويعبد معه سواه، لا حجة له به ولا دليل.

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ﴾ أي: جزاؤه وعقابه عند الله.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي: لا يفوز ولا ينجح من جحد وكذب بالله ورسله، افتتح السورة بقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، وختمها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ليظهر التفاوت بين الفريقين، فشتان ما بين البدء والختام.

ثم أرشد تعالى عباده إلى هذا الدعاء العظيم:

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ﴾ أمر رسوله بالاستغفار والاسترحام تعليماً للأمة طريق الثناء والدعاء، رب تجاوز عن الذنوب، حتى تنجينا من المكروه. فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس.

﴿وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وارحمنا، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير، فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ﴾.

قال ابن كثير: «الغفر: معناه محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال».

تم تفسير سورة المؤمنون
والحمد لله

تفسير سورة النور
وهي مكية

* سورة النور من السور المدنية، فيها حجج التوحيد، ودلائل الأحكام، والكل آيات بينات، فحجج العقول ترشد إلى مسائل التوحيد، ودلائل الأحكام ترشد إلى وجه الحق، وترفع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
(١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم
بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ
عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً
وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
(٣) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ
فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ
شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ
الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ
(٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ
الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ
(٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

٣٥٠

غمة الجهل، وهذا هو شرف السورة، فيكون شرفاً للنبي ﷺ في الولاية، شرفا لنا في الهداية.

سميت «سور النور» لما فيها من إشعاعات النور الرباني، بتشريع الأحكام والآداب، والأخلاق الفاضلة التي هي قبس من نور الله على عباده، وفيض من فيوضات رحمته وجوده.

قال القرطبي: مقصود السورة؛ ذكر أحكام العفاف والستر.

هذه السورة الكريمة فيض رباني يلامس أخلاق الأمة وفضائلها ويحذر من سفاسف الأمور ورذائلها، فقد عالجت جانباً من أهم الجوانب الاجتماعية هي «مسألة الأسرة» وما يحفها من أخطار، وما يعترض طريقها من عقبات ومشكلات، تؤدي بها إلى الانهيار ثم الدمار، هذا عدا عما فيها من آداب سامية، وحكم عالية، وتوجيهات رشيدة، إلى أسس الحياة الفاضلة الكريمة، ولهذا كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل الكوفة يقول لهم: علموا نساءكم سورة النور، قال تعالى:

(١)،(٢) ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ أي: هذه سورة عظيمة الشأن والقدر، من جوامع سور القرآن، أوحينا بها إليك ـ يا محمد ـ.

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي: أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً.

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: أنزلنا فيها آيات تشريعية وأحكاماً جليلة واضحة بينة، لتكون لكم ـ أيها المؤمنون ـ قبساً ونبراساً، وتكرير لفظ الإنزال لإبراز كمال العناية بشأنها، فكأنه يقول: ما أنزلتها عليكم لمجرد التلاوة وإنما أنزلتها للعمل والتطبيق.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي تعتبروا وتتعظوا بهذه الأحكام وتعملوا بموجبها.

ثم شرع تعالى بذكر تلك الأحكام المشار إليها، وبدأ بحد الزنى فقال:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ أي: فيما شرعت لكم وفرضت عليكم أن تجلدوا كل واحد من الزانيين اللذين لم يسبق لهما الزواج، مائة ضربة بالسوط عقوبة لهما على هذه الجريمة الشنيعة، وثبت في السنة مع هذا الجلد التغريب لمدة عام. وقدم ذكر الزانية على الزاني؛ لأن المرأة هي الباعث على زنى الرجل، فلو منعت المرأة نفسها ما وجد الرجل إلى الزنى تمكيناً.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ قبيح منهما لكنه من المرأة أقبح لحيائها فبدأ بها.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي: لا تأخذكم بها رقة ورحمة في حكم الله تعالى فتتركوا العقوبة أو تخففوا الضرب، أو تنقصوا العدد، بل أوجعوهما ضرباً، قال مجاهد: لا تعطلوا حدود الله ولا تتركوا إقامتها شفقة ورحمة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: انعطاف القلوب على أهل الفواحش والرأفة بهم، يُدخل كثير من الناس في الدياثة وقلة الغيرة، وقد يظن أن هذا من رحمة الخلق، ولين الجانب بهم، ومكارم الأخلاق، وإنما ذلك مهانة، وعدم دين وضعف إيمان، وتدخل النفس به في الدياثة، كما دخلت عجوز السوء مع قومها في استحسان ما كانوا يتعاطونه من إتيان الذكران والمعاونة لهم على ذلك.

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هذا من باب التهييج والغضب لله ولدينه والإلهاب، أي: إن كنتم مؤمنين حقاً تصدقون بالله

وباليوم الآخر، فلا تعطلوا الحدود ولا تأخذكم شفقة بالزناة، فإن جريمة الزنى أكبر من أن تستدر العطف أو تدفع إلى الرحمة.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وليحضر عقوبة الزانيين جماعة من المؤمنين، ليكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، فإن الفضيحة قد تنكل أكثر مما ينكل التعذيب.

* ثم ذكر ﷻ بيان رذيلة الزنا، وأنه يدنس عرض صاحبه، فقال:

﴿٣﴾ ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ أي: الزاني لا يليق به أن يتزوج العفيفة الشريفة، إنما ينكح مثله أو أخس منه كالبغي الفاجر، أو المشركة الوثنية. روي أن امرأة تدعى أم مهزول كانت من البغايا فكانت تسافح الرجل وتشرط أن تنفق عليه، فأراد رجل من المسلمين أن يتزوجها فذكر ذلك لرسول الله ﷺ؛ فأنزل الله ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ الآية.

﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ أي: والزانية لا يليق أن يتزوج بها المؤمن العفيف، إنما يتزوجها من هو مثلها أو أخس منها، كالزاني الخبيث أو المشرك الكافر؛ فإن النفوس الطاهرة تأبى الزواج بالفواجر الفاسقات، وفي الآية تزهيد في نكاح البغايا، إذ الزنا عديل الشرك في القبح، والإيمان قرين العفاف والتحصن.

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وحرم الزنى على المؤمنين لشناعته وقبحه، أو حرم نكاح الزواني على المؤمنين لما فيه من الأضرار الجسيمة. قال الإمام أحمد: لا أعلم بعد قتل النفس ذنباً أعظم من الزنا.

* لما عظم تعالى أمر الزنا، بين تعالى تعظيم الإقدام على الأعراض بالرمي بالزنا، وشرع تعالى في بيان حد القذف، فقال:

﴿٤﴾،﴿٥﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي: يقذفون بالزنى العفيفات الشريفات وكذلك الرجال، ثم لم يأتوا على دعواهم وعلى ما رموا به بأربعة شهود عدول يشهدون عليهن بما نسبوا إليهن من الفاحشة.

﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ أي: اضربوا كل واحد من الرامين ثمانين ضربة بالسوط ونحوه؛ لأنهم كذبة يتهمون البريئات، ويخوضون في أعراض الناس.

﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ أي: وزيدوا لهم في العقوبة فلا تقبلوا شهادة أي واحد منهم ما دام مصراً على كذبه وبهتانه.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: هم الخارجون عن طاعة الله ﷻ؛ لإتيانهم بالذنب الكبير، والجرم الشنيع. قال ابن كثير: أوجب تعالى على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام: أحدها: أن يجلد ثمانين جلدة، الثاني: أن ترد شهادته أبداً، الثالث: أن يكون فاسقاً ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: إلا الذين تابوا وندموا على ما فعلوا من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب بالتوبة.

﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ أي: أصلحوا أعمالهم وأظهروا التوبة فلم يعودوا إلى قذف المحصنات.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فاعفوا عنهم واصفحوا وردوا إليهم اعتبارهم بقبول شهادتهم، فإن الله غفور رحيم يقبل توبة عبده إذا تاب وأناب وأصلح سيرته وحاله.

* وقد ذكر في هذه السورة الكريمة بعض الحدود الشرعية التي فرضها الله كحد الزنى، وحد القذف، وحد اللعان، وكل هذه الحدود إنما شرعت تطهيراً للمجتمع من الفساد والفوضى، واختلاط الأنساب، والانحلال الخلقي، وحفظاً للأمة من عوامل التردي في بؤرة الإباحية

والفساد، التي تسبب ضياع الأنساب، وذهاب العرض والشرف، ثم ذكر تعالى حكم من قذف زوجته وهو المعروف باللعان، فقال:

﴿٦﴾-﴿١٠﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۞ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۞ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ أي: يقذفون زوجاتهم بالزنى. عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء فقال النبي ﷺ: «البينة أو حد في ظهرك» فقال يا رسول الله: إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ والذي بعثك بالحق إني لصادق، لينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ...﴾ الآية.

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي: وليس لهم شهود يشهدون بما رموهن به من الزنى سوى شهادة أنفسهم.

﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ﴾ فشهادة أحدهم التي تزيل عنه حد القذف أربع شهادات بالله تقوم مقام الشهداء الأربعة، وإنما كانت شهادات الزوج على زوجته، دارئة عنه الحد؛ لأن الغالب، أن الزوج لا يقدم على رمي زوجته، التي يدنسه ما يدنسها إلا إذا كان صادقاً؛ ولأن له في ذلك حقاً، وخوفاً من إلحاق أولاد ليسوا منه به.

﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: إنه صادق فيما رمى به زوجته من الزنى.

﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي: ويزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة، أن يحلف في المرة الخامسة بأن لعنة الله عليه، إن كان كاذباً في قذفه لها بالزنى، فإذا تم لعانه، سقط عنه حد القذف.

﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾ ويدفع عن الزوجة المقذوفة حد الزنا الذي ثبت بشهادة الزوج.

﴿أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي: أن تحلف أربع مرات إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنى.

﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: وتحلف في المرة الخامسة بأن غضب الله وسخطه عليها إن كان زوجها صادقاً في اتهامه لها بالزنى فخصها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم بالستر في ذلك، وجواب ﴿وَلَوۡلَا﴾ محذوف لتهويل الأمر تقديره: لهلكتم أو لفضحكم أو عاجلكم بالعقوبة، ورب مسكوت عنه أبلغ من المنطوق.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة، حكيم في ما شرع من الأحكام ومن جملتها حكم اللعان. قال أبو السعود: وجواب لولا محذوف لتهويله كأنه قيل: ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته بكم لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه لاشتراكه في الفضيحة، ولو جعل شهاداته موجبة لحد الزنى عليها لفات النظر لها، ولو جعل شهاداتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له، ـ فسبحانه ـ ما أعظم شأنه، وأوسع رحمته، وأدق حكمته. وفيه إشارة إلى فائدة مشروعية اللعان وحكمته، وهي الستر عن هذه الفاحشة العظيمة.

* لما ذكر تعالى فيما تقدم، تعظيم الرمي بالزنا عموماً وبيان حكم القذف، صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة التي وقعت على أشرف النساء، أم المؤمنين عائشة ﵂، فهي أنموذج لقذف العفيفات الطاهرات فقد نزلت هذه العشر آيات كلها في شأن عائشة أم المؤمنين ﵂ حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله ﷻ لها ولنبيه ﷺ، فأنزل الله تعالى

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ
هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ
كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢ لَّوۡلَا
جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ
عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ
فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤
إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ
وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ
قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ
١٦ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧
وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ
فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ١٩ وَلَوۡلَا
فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٢٠

براءتها صيانة لعرض رسول الله ﷺ، فقال تعالى:

١١ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ أي: جاؤوا بأسوأ الكذب، وأشنع صور البهتان، وهو قذف عائشة رضي الله عنها بالفاحشة. والإفك: أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقد أجمع المسلمون على أن المراد ما أفك به على عائشة وهي زوجة الرسول المعصوم.

﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ أي: جماعة منكم أيها المؤمنون، منهم المؤمن الصادق في إيمانه ولكنه اغتر بترويج المنافقين، ومنهم المنافق وعلى رأسهم ابن سلول، رأس النفاق.

﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُم﴾ أي: لا تظنوا هذا القذف والاتهام شرّاً لكم يا آل أبي بكر.

﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ لما فيه من الشرف العظيم بنزول الوحي ببراءة أم المؤمنين، وهذا غاية الشرف والفضل. قال المفسرون: والخير في ذلك من خمسة أوجه: تبرئة أم المؤمنين، وكرامة الله لها بإنزال الوحي في شأنها، والأجر الجزيل لها في الفرية عليها، وموعظة المؤمنين، والانتقام من المفترين.

﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ لكل فرد من العصبة الكاذبة جزاء ما اجترح من الذنب على قدر خوضه فيه، وهذا وعيد شديد لهم.

﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ والذي تولى معظمه وأشاع هذا البهتان وأذاعه، وهو عبد الله بن أبي ابن سلول رأس النفاق.

﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي: له في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم على سوء صنيعه وما اقترفه.

* ثم أرشد تعالى عباده، عند سماع مثل هذا الكلام، إلى الطريق الأسلم والفعل الأمثل، فقال:

١٢، ١٣ ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ * لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾.

﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ أي: هلا حين سمعتم يا معشر المؤمنين هذا الافتراء وقذف الصديقة عائشة رضي الله عنها.

﴿ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ أي: هلا ظنوا الخير، ولم يسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيها النزاهة والطهارة؟ فإن مقتضى الإيمان ألا يصدق مؤمن على أخيه قول عائب ولا طاعن. قال ابن كثير: هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء، وهلا قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق بهم، فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى. روي أن امرأة أبي أيوب قالت له: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة! قال: نعم وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة والله خير منك.

﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ أي: قالوا في ذلك الحين هذا كذب ظاهر مبين لا يليق بها.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي: هلا جاء أولئك المفترون بأربعة شهود عدول، يشهدون على ما قالوا.

﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: فإن عجزوا ولم يأتوا على دعواهم بالشهود، فأولئك هم المفسدون الكاذبون في حكم الله وشرعه، وفيه توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك ولم ينكروه أول وهلة.

١٤، ١٥ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ ولولا فضله تعالى عليكم ـ أيها الخائضون في شأن عائشة ـ ورحمته بكم في الدنيا والآخرة، حيث أمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة.

﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لأصابكم ونالكم بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك، عذاب شديد هائل يستحقر دونه الجلد والتعنيف، لاستحقاقكم ذلك بما قلتم. قال القرطبي: هذا عتاب من الله بليغ لمن خاضوا في الإفك، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا، ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: وذلك حين تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه. قال مجاهد: أي يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا سمعته من فلان، وقال فلان كذا.

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: تقولون ما ليس له حقيقة في الواقع، وإنما هو محض كذب وبهتان والأمران محظوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم؛ إنما قيد بالأفواه مع أن القول لا يكون إلا بالفم؛ لأن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب ثم يترجم عنه اللسان، وهذا الإفك ليس إلا قولاً يدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب.

﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ وتظنونه ذنباً صغيراً لا يلحقكم فيه إثم فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك.

﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي: والحال أنه عند الله من أعظم الموبقات والجرائم؛ لأنه وقوع في أعراض المسلمين، وفيه الزجر البليغ عن التهاون في إشاعة الباطل، أو إتيان بعض الذنوب على وجه التهاون بها، وقد عاتبهم تعالى على ثلاثة أشياء: الأول: تلقيه بالألسنة أي السؤال عنه، والثاني: التكلم به، والثالث: استصغاره حيث حسبوه هيناً وهو عند الله عظيم، وفائدة قوله بألسنتكم وبأفواهكم الإشارة إلى أن ذلك الحديث كان باللسان دون القلب؛ لأنهم لم يعلموا حقيقته بقلوبهم.

* ثم قال سبحانه في تأديب آخر بعد الأول، الآمر بظن الخير:

١٦-١٨ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ عتاب لجميع المؤمنين، أي: وهلا إذا سمعتم ـ أيها المؤمنون ـ كلام أهل الإفك كان ينبغي عليكم أن تنكروه أول سماعكم له، وتقولوا: لا ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد.

﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ أي: سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسول الله الطاهرة البريئة فإن هذا الافتراء كذب واضح، أعظم الجرم. وهو بمعنى التعجب من عظيم الأمر والاستبعاد له، والأصل في ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجائب.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: يذكركم وينهاكم الله ويعظكم بالمواعظ الشافية لكي لا تعودوا إلى مثل هذا العمل أبداً من رمي المؤمنين بالفجور.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم حقاً مؤمنين، فإن الإيمان وازع عن مثل هذا البهتان، ودل ذلك على أن الإيمان الصادق، يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا
فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ
مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ
لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ
ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ
لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ
أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ
وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

٣٥٢

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ ويوضح لكم الآيات الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب، لتتعظوا وتتأدبوا بها.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عالم بما يصلح العباد، حكيم في تدبيره وتشريعه.

* ثم ذكر ﷻ تأديباً ثالثاً لمن سمع شيئاً من الكلام السيء، فقام بذهنه شيء منه وتكلم به، فلا يكثر منه ولا يشيعه ويذيعه، فقد قال تعالى:

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ﴾ أي: يريدون أن ينتشر الفعل القبيح المفرط في القبح، كإشاعة الرذيلة والزنى وغير ذلك من المنكرات.

﴿فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: في المؤمنين الأطهار.

﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: لهم عذاب موجع مؤلم في الدنيا بإقامة الحد، وغيرها من البلايا الدنيوية، وفي الآخرة بعذاب جهنم. قال الحسن: عنى بهذا الوعيد واللعن المنافقين، فإنهم أحبوا وقصدوا أذية الرسول ﷺ وذلك كفر وملعون صاحبه، فإذا كان هذا الوعيد، لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك، من إظهاره ونقله. قال ابن رجب: من كان مستوراً لا يُعرف بشيء من المعاصي، فإذا وقعت منه هفوة، أو زلة، فإنه لا يجوز كشفها ولا هتكها، ولا التحدث بها؛ لأن ذلك غيبة محرمة.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: هو تعالى عالم بالخفايا والنوايا وأنتم لا تعلمون ذلك. وهذه الجملة فيها حسن الموقع بهذا الموضع؛ لأن محبة القلب كامنة ونحن لا نعلمها إلا بالأمارات، أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شيء، فصار هذا الذكر نهاية في الزجر؛ لأن من أحب إشاعة الفاحشة وإن بالغ في إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه، ويعلم قدر الجزاء عليه.

* لما ذكر تعالى حادثة الإفك، أتبعها بالتحذير من سلوك طريق الشيطان المتربص بالإنسان الذي يدعو إلى السوء والشر والفساد، ذكر تعالى آداب الاستئذان والزيارة؛ لأن أهل الإفك إنما وجدوا السبيل إلى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة فصارت طريقاً للتهمة، فأوجب تعالى ألا يدخل إنسان بيت غيره إلا بعد الاستئذان والسلام، ثم أتبعها بآيات غض البصر، فقال تعالى:

﴿٢٠﴾، ﴿٢١﴾ ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، ﴿وَلَوۡلَا﴾ جواب لولا محذوف لتهويل الأمر، أي: لولا فضله تعالى على عباده ورحمته بهم لأهلكهم وعذبهم، وكان ما كان مما لا يكاد يتصوره الإنسان فوق الوصف والبيان، وكرر سبحانه المنّة بترك المعاجلة بالعقاب مبالغة في المنة عليهم والتوبيخ لهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ يا من صدقتم بالله ورسوله لا تتبعوا آثار الشيطان ولا

تسلكوا مسالكه وطرقه بإشاعة الفاحشة، والإصغاء إلى الإفك والقول به.

﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ ومن يتبع سيرة الشيطان وطريقته، فإنه يضل الإنسان ويغويه؛ لأنه يأمر بالفحشاء وهي ما أفرط قبحه، والمنكر وهو ما ينكره الشرع، وتنفر منه العقول السليمة. وهذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ ولولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بالتوفيق للتوبة الماحية للذنوب، وبشرع الحدود المكفرة للخطايا، ما تطهر أحد منكم من الأوزار أبد الدهر.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ ولكن الله بفضله ورحمته يطهر من يشاء بتوفيقه للتوبة النصوح وقبولها منه، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي، قال القرطبي: والغرض أن تزكيته لكم، وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأعمالكم.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وضمائركم.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ أي: لا يحلف أهل الفضل في الدين، وأصحاب الغنى واليسار:

﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أن يمنعوا أقاربهم من الفقراء والمهاجرين ما كانوا يعطونهم إياه من الإحسان لذنب فعلوه، وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ وليعفوا عما كان منهم من جرم، وليصفحوا وليعرضوا عما بدر منهم من إساءة، وليعودوا إلى ما كانوا عليه من الإنعام والإحسان.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ألا تحبون أيها المؤمنون أن يغفر الله لكم على عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم؟ فإن الجزاء من جنس العمل. روي أن أبا بكر لما سمع الآية قال: بلى أحب أن يغفر الله لي، وهذا يدل على فضل أبي بكر؛ فإن الله تعالى امتدحه بقوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ﴾ وكفى به دليلاً على فضل الصديق - رضي الله عنه وأرضاه -.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على العقاب، فتأدبوا بأدب الله؛ واغفروا وارحموا.

* ثم توعد تعالى الذين يرمون العفائف المحصنات الطاهرات، فقال:

﴿٢٣﴾-﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ أي: يقذفون بالزنى العفيفات، السليمات الصدور، النقيات القلوب عن كل سوء وفاحشة، ولم يخطر ذلك بقلوبهن. وذكرهن بالغافلات وصف لطيف محمود يجسد المجتمع البريء، والبيت الطاهر الذي تشب فتياته على الفضيلة والستر والحشمة.

﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: المتصفات بالإيمان، مع طهارة القلب.

﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أي: طردوا وأبعدوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة. واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير، وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين. وقيل: نزلت في مشركي مكة، كانت المرأة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفوها وقالوا خرجت لتفجر. قال ابن عباس: هذا اللعن فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذ ليس له توبة، ومن قذف مؤمنة جعل الله له توبة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولهم مع اللعنة، عذاب هائل، ولا يكاد يوصف بسبب ما ارتكبوا من إثم وجريمة.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ
وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا
غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا
تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا
فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾
وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ
فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ
بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ
أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ
أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ
الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ
وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا
إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

أي: وذلك العذاب الشديد في ذلك اليوم الرهيب ـ يوم القيامة ـ حين تشهد على الإنسان جوارحه فتنطق الألسنة والأيدي والأرجل بما اقترف من سيء الأعمال.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أي: يوم القيامة يناله حسابهم وجزاؤهم العادل من أحكم الحاكمين.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ ويعلمون حينئذ أن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً، الظاهر عدله في تشريعه وحكمه.

* ثم ذكر تعالى بالدليل القاطع، والبرهان الساطع براءة عائشة ونزاهتها، فهي زوجة رسول الله الطيب الطاهر، وقد جرت سنة الله أن يسوق الجنس إلى جنسه، فلو لم تكن عائشة طيبة؛ لما كانت زوجة لأفضل الخلق ﷺ، ولهذا قال:

﴿٢٦﴾ ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ أي: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، وكذلك الطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، وهذا كالدليل على براءة عائشة؛ لأنها زوجة أشرف رسول وأكرم مخلوق على الله، وما كان الله ليجعلها زوجة لأحب عباده لو لم تكن عفيفة طاهرة شريفة.

قال الشنقيطي في «دفع إيهام الاضطراب»: فالغالب أن الله يُقيض الرجل الخبيث للمرأة الخبيثة والطيب للطيبة.

﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: أولئك الفضلاء منزهون مما تقول أهل الإفك في حقهم من الكذب والبهتان، ولهم على ما نالهم من الأذى مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم في جنان النعيم. قال ابن كثير: وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة.

* لما حذر تعالى من قذف المحصنات وشدد العقاب فيه، وكان طريق هذا الاتهام مخالطة الرجال للنساء، ودخولهم عليهن في أوقات الخلوات، أرشد تعالى إلى الآداب الشرعية في دخول البيوت فأمر بالاستئذان قبل الدخول وبالتسليم بعده. ووضحت السورة الآداب الشرعية التي يجب أن يتمسك بها المؤمنون في حياتهم الخاصة والعامة، كالاستئذان عند دخول البيوت، وغض الأبصار، وحفظ الفروج، وحرمة اختلاط الرجال بالنساء والاجنبيات، وما ينبغي أن تكون عليه الأسرة المسلمة والبيت المسلم من العفاف والستر، والنزاهة والطهر، والاستقامة على شريعة الله، صيانة لحرمتها، وحفاظاً عليها من عوامل التفكك الداخلي، والانهيار الخلقي، الذي يهدم الأمم والشعوب، قال تعالى:

﴿٢٧﴾-﴿٢٩﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ يرشد الباري عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان، فإن في ذلك عدة مفاسد.

﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ أي: لا تدخلوا بيوت الغير حتى تستأذنوا وتسلموا على أهل المنزل وصفة ذلك، ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أأدخل؟»، ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا رجع [رواه الترمذي].

وقوله: ﴿تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ لا يراد به مجرد الاستئذان، وإنما المراد به معرفة أنس أهل البيت بدخول الزائر ورغبتهم بزيارته.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: ذلك الاستئذان والتسليم خير لكم من الدخول بغتة، لاشتماله على عدة مصالح.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتتعظوا وتعملوا بموجب هذه الآداب الرشيدة، قال القرطبي: المعنى أن الاستئذان والتسليم خير لكم من الهجوم بغير إذن ومن الدخول على الناس بغتة، أو من تحية الجاهلية، فقد كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته قال: حييتم صباحاً، وحييتم مساء ودخل، فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف. روي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أأستأذن على أمي؟ قال: «نعم»، قال: ليس لها خادم غيري، أأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: «أتحب أن تراها عريانة؟» قال: لا، قال: «فاستأذن عليها» [رواه مالك].

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا﴾ أي: فإن لم تجدوا في البيوت أحداً، يأذن لكم بالدخول إليها.

﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي: فاصبروا ولا تدخلوها حتى يسمح لكم بالدخول؛ لأن للبيوت حرمة، ولا يحل دخولها إلا بإذن أصحابها.

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾ وإن لم يؤذن لكم وطلب منكم الرجوع، فارجعوا ولا تلحوا؛ لأن للإنسان أحوالاً يكره اطلاع أحد عليها، ولا يأخذ أحدكم الكبر والاشمئزاز من هذه الحال.

﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: الرجوع أطهر وأكرم لنفوسكم، وسلامة صدوركم، وهو خير لكم من اللجاج والانتظار على الأبواب، فإذا نهي عن ذلك لأدائه إلى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها من قرع الباب بعنف والتصيح بصاحب الدار وغير ذلك.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي: هو تعالى عالم بالخفايا والنوايا وبجميع أعمالكم فيجازيكم عليها. وفيه توعد لأهل التجسس على البيوت.

ثم إنه تعالى لما ذكر حكم الدور المسكونة ذكر بعدها حكم الدور غير المسكونة، فقال:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: ليس عليكم إثم وحرج.

﴿أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أن تدخلوا بغير استئذان بيوتاً لا تختص بسكنى أحد، كالرباطات والفنادق والخانات. قال مجاهد: هي الفنادق التي في طرق السابلة لا يسكنها أحد، بل هي موقوفة ليأوي إليها كل ابن سبيل.

﴿فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ﴾ أي: فيها منفعة لكم، أو حاجة من الحاجات كالاستظلال من الحر، وإيواء الأمتعة والرحال.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: يعلم ما تظهرون وما تسرون في نفوسكم فيجازيكم عليه. وهذا وعيد لمن يدخل مدخلاً لفساد أو اطلاع على عورات.

* ثم أرشد تعالى إلى الآداب الرفيعة من غض البصر، وحفظ الفروج، حماية من الانزلاق في الرذيلة أو الوقوع في الزنا، فقال:

٣٠ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ أي: قل - يا محمد - لأتباعك المؤمنين وأرشدهم أن يكفوا أبصارهم عن النظر إلى الأجنبيات من غير المحارم، فإن النظرة تزرع في القلب الشهوة، ورب شهوة أورثت حزناً طويلاً، وهذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعاً، ولما كان غض البصر أصلاً لحفظ الفرج بدأ بذكره.

﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ أي: يصونوا فروجهم عن الزنى، وعن الإبداء، والكشف.

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: ذلك الغض والحفظ أطهر للقلوب، وأتقى للدين، وأحفظ من الوقوع في الفجور، فإن من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم الذي تطمع إليه النفس وتدعوا إليه. وجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج، وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر، ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر، جليلة القدر، حلاوة الإيمان، ونور القلب، وصحة الفراسة، وقوة القلب وثباته وشجاعته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ أي: هو تعالى رقيب عليهم، مطلع على أعمالهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم، فعليهم أن يتقوا الله في السر والعلن، وليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات، وقدم سبحانه غض الأبصار على حفظ الفروج؛ لأن النظر بريد الزنى، ورائد الفجور، والبلوى فيه أشد وأكثر، ولا يكاد يحترس منه، وفي الآية ترغيب وترهيب.

* ولما أمر في الآيات السابقة المؤمنين بغض الأبصار وحفظ الفروج، أمر هنا النساء المؤمنات كذلك، وغيرة منه لأزواجهن عباده المؤمنين، وتميز لهن عن صفة نساء الجاهلية، وفعال المشركين، فقال تعالى:

٣١ ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ وقل أيضاً للمؤمنات يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن النظر إليه، ويحفظن فروجهن عن الزنى وعن كشف العورات. قال المفسرون: أكد تعالى الأمر للمؤمنات بغض البصر وحفظ الفروج، وزادهن في التكليف على الرجال بالنهي عن إبداء الزينة إلا للمحارم، فقال:

﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ أي: كالثياب الجميلة والحلي، وجميع البدن كله من الزينة، ولما كانت الثياب الظاهرة، التي جرت العامة بلبسها لا بد لها منها، قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ وهي الثياب الظاهرة، التي جرت العادة بلبسها إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها، ولم يقل: إلا ما أظهرن منها. قال ابن كثير: أي: لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه، كما قال ابن مسعود: الزينة زينتان: فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب، فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء منها إلا لضرورة.

﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ وهذا لكمال الاستتار، ويدل ذلك على أن الزينة التي يحرم إبداؤها، يدخل فيها جميع البدن، أي: وليلقين الخمار وهو غطاء الرأس على فتحات صدورهن مغطيات وجوههن ليكمل سترهن، ولئلَّا يبدو شيء من النحر والصدر، وفي لفظ الضرب مبالغة في الصيانة والتستر، عن عائشة ﵂ أنها قالت: يرحم الله النساء المهاجرات الأول؛ لما أنزل الله: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها. قال المفسرون: كانت المرأة في الجاهلية تمر بين الرجال مكشوفة الصدر، بادية النحر، حاسرة الذراعين، وربما أظهرت مفاتن جسمها وذوائب شعرها لتغري الرجال، وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى صدورهن مكشوفة عارية، فأمرت المؤمنات بأن يلقينها من قدامهن حتى يغطينها ويدفعن عنهن شر الأشرار.

﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ ولا يظهرن زينتهن الخفية التي حرم الله كشفها إلا لأزواجهن، كرر النهي عن

إبداء زينتهن ليستثني منه قوله: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾، وكل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ولكن من غير اقتصاء وتبهرج، وبعضها كالوجه واليدين يباح لمحارمها كما في الآية.

﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: أو لآبائهن أو آباء أزواجهن وهو العم أبو الزوج فإنه من المحارم، فإن الأب يصون عرض ابنته، ووالد الزوج يحفظ على ابنه ما يسوؤه، ثم عدد بقية المحارم، فقال:

﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ فذكر تعالى الأبناء، وأبناء الأزواج، والإخوة، وأبناء الإخوة، وأبناء الأخوات، وكلهم من المحارم الذين يحرم الزواج بهم لما جبل الله في الطباع من النفرة من ممارسة القريبات ونكاحهن.

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: المسلمات، وخرج بذلك النساء الكافرات. قال مجاهد: المراد نساؤهن المسلمات، ليس المشركات من نسائهن، وليس يحل للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي مشركة. وقال ابن عباس: هن المسلمات ولا تبدي زينتها أمام يهودية أو نصرانية لئلَّا تصفهن لرجالهن.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي: من الإماء المشركات. قال ابن جرير: يعني من نساء المشركين، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها وإن كانت مشركة؛ لأنها أمتها.

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي: الخدام غير أولي الميل والشهوة والحاجة إلى النساء كالبله والحمقى والمغفلين الذين لا يدركون من أمور الجنس شيئاً. وقيل: هو الأبله الذي يريد الطعام ولا يريد النساء ولا يهمه إلا بطنه.

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا حد الشهوة، ولا يعرفون أمور الجماع لصغرهم، فلا حرج أن تظهر المرأة زينتها أمامهم.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ ولا يضربن بأرجلهن الأرض، لئلا يسمع الرجال صوت الخلخال فيطمع الذي في قلبه مرض. قال ابن عباس: كانت المرأة تمر بالناس وتضرب برجلها ليسمع صوت خلخالها، فنهى الله تعالى عن ذلك لأنه من عمل الشيطان. ويؤخذ من هذا ونحوه، قاعدة سد الذرائع، وأن الأمر إذا كان مباحاً ولكنه يفضي إلى المحرم، أو يخاف من وقوعه فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض الأصل أنه مباح ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة منع منه، وإذا كانت المرأة منهية عن الضرب بالأرجل خوفاً من افتتان الرجل بما يسمع من صوت خلخالها ونحوه فتغطية الوجه وستره من باب أولى، لأنه موضع الجمال والفتنة.

* ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووصى بالوصايا المستحسنة، وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك، أمر الله تعالى بالتوبة، فقال:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: ارجعوا أيها المؤمنون إلى ربكم، لا لمقصد آخر، وذلك بامتثال الطاعات، والكف عن الشهوات، وبالتوبة النصوح، ثم علق على ذلك الفلاح، لتنالوا رضاه وتفوزوا بسعادة الدارين.

* ثم ساق الله ﷻ جملة من الآيات الكريمات المبنية على جمل من الأحكام المحكمة والأوامر المبرمة، فقال سبحانه:

﴿٣٢﴾-﴿٣٤﴾ ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ يأمر تعالى الأولياء والأسياد، بتزويج من تحت ولايتهم من الأيامى وهم: من لا زوج لهم من الرجال والنساء

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن
يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾
وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ
وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ
عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟
فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟
مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ
ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ
لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ
نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ
لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ
وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾

٣٥٤

من أحرار رجالكم ونسائكم. الأيامى جمع أيم، يوصف بـه الذكر والأنثى، يقال: رجـل أيم، وامـرأة أيمة إذا لم يكن لها زوج.

﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أي: وانكحوا كذلك أهل التقى والصلاح من عبيدكم وجواريكم. وتخصيص الصالحين لأن إحصان دينهم والاهتمام بشـأنهم أهم، وفيه إشارة إلى مكانة التقى والصلاح في الإنسان.

﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: إن يكن هؤلاء الذين تزوجونهم أهـل فاقة وفقر فلا يمنعكم فقرهم مـن إنكاحهم، ففي فضل الله ما يغنيهم، فـلا يمنعكم ما تتوهمـون. من أنـه إذا تـزوج افتقر، بسـبب كثـرة العائلة ونحـوه، وفيه حث عـلى التزوج، ووعد للمتـزوج بالغنـى بعـد الفقر.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسـع الفضـل، جـواد كريم، يعطـي الرزق من يشاء وهو عليم بمصالح العباد، يعلم من يسـتحق فضله الدينـي والدنيوي، أو أحدهمـا، فيعطى كلاً ما علمه واقتضاه حكمه.

قال القرطبي: وهذا وعد بالغنـى للمتزوجين طلباً لـرضى الله، واعتصامـاً مـن معاصيه، وقـال ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح وتلا هذه الآيـة، وفي الحديث: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريـد الأداء، والغازي في سـبيل الله» [رواه الترمـذي]. وهنا سر عظيم مـن أسرار التنزيـل، وإعجاز القرآن الكريـم، ذلـك أن الله تعالى لما ذكر في فاتحة سـورة النور شـناعة جريمة الزنـى، وتحريمها تحريماً غائيًّا، ذكر سـبحانه من فاتحتها إلى تمام هذه الآية أربع عشرة وسيلة وقائية، تحجب هذه الفاحشـة، وتقـاوم وقوعها في مجمع الطهر والعفاف جماعة المسلمين، وهذه الوسـائل الواقية: فعلية وقولية وإرادية.

ثـم ذكـر ﷻ حكـم العاجز عن النكاح، فقال:

﴿وَلْيَسْـتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: وليجتهد في العفة وقمع الشهوة الذين لا تتيسر لهم سبل الزواج إما لفقرهم أو فقر أوليائهم وأسيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم وليس لهم من قدرة على إجبارهم على ذلك.

﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: وعد للمسـتعفف أن الله سيغنيه وييسر له أمره، وأمرٌ له بانتظار الفرج، لئلا يشـق عليه ما هو فيه حتى يوسع الله عليه ويسـهل له أمر الزواج، فإن العبـد إذا اتقى الله جعل لـه من أمره فرجاً ومخرجاً.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُـونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ أي: المماليك الذين يريدون أن يتحرروا مـن رق العبودية بمكاتبة أسيادهم من العبيد والأرقاء.

﴿فَكَاتِبُوهُـمْ إِنْ عَلِمْتُـمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فكاتبوهم على قدر من المال إن عرفتم منهم الأمانة والرشـد والقدرة عـلى التكسـب، وصلاحـاً في دينه ليصيروا أحراراً.

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّـالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: أعطوهم مما أعطاكم الله من الـرزق ليكون لهـم عوناً على فكاك أنفسهم.

﴿وَلَا تُكْرِهُـوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَـآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًـا﴾ أي: لا تجـبروا إماءكم على الزنـى، إن أردن التعفف من مقارفة الفاحشـة، وليس هذا للقيـد أو الشرط وإنـما هو لبيان فظاعـة الأمر وشـناعته، فالأصل في

المملوكة أن يحصنها سيدها، أما أن يأمرها بالزنى وتمتنع وتريد العفة فذلك منتهى الخسة والدناءة منه. قال المفسرون: نزلت في عبدالله ابن سلول المنافق كان له جاريتان إحداهما تسمى مسيكة، والثانية تسمى أميمة، فكان يأمرهما بالزنى للكسب، ويضربها على ذلك، فشكتا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية.

﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لأجل أن تنالوا حطام هذه الحياة الزائل، وتحصلوا على المال بطريقة الفاحشة والرذيلة، ثم دعا من جرى منه الإكراه إلى التوبة، فقال:

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فليتب إلى الله، وليقلع عما صدر منه مما يغضبه، فإذا فعل ذلك، غفر الله ذنوبه، ورحمه كما رحم نفسه بفكاكها من العذاب، وكما رحم أمته بعدم إكراهها على ما يضرها.

* ثم ذكر ﷻ تعظيماً وتفخيماً لهذه الآيات التي تلاها على عباده، ليعرفوا قدرها، ويقوموا بحقها، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: والله لقد أنزلنا إليكم أيها المؤمنون آيات واضحات وأحكاماً مفصلات.

﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وضربنا لكم الأمثال بمن سبقكم من الأمم لتتعظوا وتعتبروا.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وعظة وذكرى للمتقين.

* لما وصف تعالى نفسه بأنه أنزل آيات مبينات، وأقام دلائل واضحات على وحدانيته، واختصاصه بتشريع الأحكام التي بها سعادة المجتمع، عقبه بذكر مثلين: أحدهما في بيان أن دلائل الوحدانية والإيمان في غاية الظهور، والثاني: في بيان أن أديان الكفرة في نهاية الظلمة والخفاء، وبالمقارنة بين المثلين يتضح الصبح لذي عينين. قال تعالى:

(٣٥) ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الحسي والمعنوي ـ وذلك أنه تعالى بذاته نور، وحجابه نور الذي لولا لطفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ـ نور، وبه استنار العرش والكرسي، والشمس والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة، وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور، فلولا نوره تعالى، لتراكمت الظلمات، ولهذا، كل محل يفقد نوره، فثمَّ الظلمة والحصر.

والله ـ جل وعلا ـ منور السموات والأرض، أنار السموات بالكواكب المضيئة، والأرض بالشرائع والأحكام وبعثة الرسل الكرام. وهو سبحانه هادي أهل السموات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: مثل نور الله سبحانه في قلب عبده المؤمن.

﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي: ككوة في الحائط لا منفذ لها ليكون أجمع للضوء، وضع فيها سراج ثاقب ساطع، والمعنى صفة نور الله في وضوحه كصفة مشكاة فيها مصباح على أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة، وإنما شبه بالمشكاة ـ وإن كان نور الله أعظم ـ لأن ذلك هو ما يدركه الناس من الأنوار ضرب لهم به المثل.

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ أي: في قنديل من الزجاج الصافي وذكر الزجاجة لأن النور وضوء النار فيها أبين من كل شيء.

﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ أي: تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها وبهائها. وفي هذا إعجاز عجيب، فلم يشبهها بالشمس والقمر، لأنه الشمس والقمر يلحقهما الخسوف، والكواكب لا يلحقها الكسوف.

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: يشعل ذلك المصباح الذي في تلك الزجاجة الدرية من زيت شجرة مباركة.

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ
وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾
لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ
يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ
بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا
وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾
أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ
سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ
يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ
قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى
سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ
وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾

٣٥٥

﴿زَيْتُونَةٍ﴾ أي: هي من شجر الزيتون الذي خصه الله بمنافع عديدة، لأن الزيت يسرج به، وهو أضوأ وأصفى الأدهان، وناره من أنور ما يكون.

﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: ليست في جهة الشرق ولا في جهة الغرب، وإنما هي في صحراء منكشفة تصيبها الشمس طول النهار لتكون ثمرتها أنضج، وزيتها أصفى. قال ابن عباس: هي شجرة بالصحراء لا يظلها شجر، ولا جبل، ولا كهف، ولا يواريها شيء وهو أجود لزيتها. ثم قال ﷻ مبالغة في وصف صفاء الزيت وحسنه وجودته:

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: يكاد زيت هذه الزيتونة يضيء من صفائه وحسن ضيائه ولو لم تمسه نار، فكيف إذا مسته النار؟

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: نور فوق نور، فقد اجتمع نور السراج، وحسن الزجاجة، وصفاء الزيت، فاكتمل النور الممثل به.

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يوفق الله لاتباع نوره ـ وهو القرآن ـ من يشاء من عباده ممن يعلم زكاءه وطهارته.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ أي: يبين لهم الأمثال تقريباً لأفهامهم، ليعتبروا ويتعظوا بما فيها من الأسرار والحكم.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: هو سبحانه واسع العلم علمه محيط بجميع الأشياء، لا يخفى عليه شيء من أمر الخلق، وفيه وعد ووعيد. قال الطبري: ذلك مثل ضربه الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به فقال: مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد مثل كوة في الحائط لا منفذ لها فيها مصباح أي سراج، وجعل السراج مثلاً لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات البينات، ثم قال: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ وذلك مثل للقرآن في قلب المؤمن الذي أنار الله صدره فخلص من الكفر والشك، ثم قال: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ أي: كأن الزجاجة في صفائها وضيائها كوكب يشبه الدر في الصفاء والضياء والحسن ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: يوقد هذا المصباح من دهن شجرة مباركة هي شجرة الزيتون، ليست شرقية تطلع عليها الشمس بالعشي دون الغداة، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب فيكون زيتها أجود وأصفى وأضوأ ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: يكاد زيت هذه الزيتونة يضيء من صفاته وحسن ضيائه وعنى بها أن حجج الله على عباده تكاد من بيانها ووضوحها تضيء لمن فكر فيها ونظر ولو لم يزدها الله بياناً ووضوحاً بنزول هذا القرآن، فكيف وقد نبههم به وذكرهم بآياته فزادهم به حجة، وذلك بيان من الله ونور على البيان. قال ابن القيم: وقد تضمنت الآية ذكر الأمور الأربعة كلها على وجه التفصيل، فالفاعل: هو الله تعالى مفيض الأنوار، الهادي لنوره من يشاء، والقابل: العبد المؤمن، والمحل: قلبه، والحامل: همته وعزيمته وإرادته، والمادة قوله وعمله.

* ثم لما ذكر تعالى هدايته لمن يشاء من عباده، ذكر مواطن هذه العبادة وهي المساجد، أحب البقاع إلى الله، لأن نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في المساجد، ذكرها منوهاً بها، فقال:

﴿٣٦﴾-﴿٣٨﴾ ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ * لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أي: أمر ووصى تعالى أن تبنى وتشاد على اسمه خاصة، وأن تعظم ويرفع شأنها لتكون منارات للهدى فهي أحب البقاع إلى الله. قال ابن عباس: المساجد بيوت الله في الأرض، تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض.

﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي: يعبد فيها الله بتوحيده، ويدخل في ذلك الصلاة كلها، فرضها ونفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح والتهليل، وتعلم العلم، والاعتكاف وغير ذلك من العبادات.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ إخلاصاً.

﴿فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي: يصلي لله تعالى في هذه المساجد في الصباح والمساء المؤمنون. قال ابن عباس: كل تسبيح في القرآن فهو صلاة، وخص هذين الوقتين لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته.

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم، فلا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها عن ذكر ربهم، ولا يلهيهم البيع والشراء عن طاعة الله. قال المفسرون: نزلت هذه الآية في أهل الأسواق من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا إذا سمعوا النداء تركوا كل شغل وبادروا لطاعة الله، وخص الرجال بالذكر في هذه المساجد لأنه ليس على النساء جمعة ولا جماعة في المسجد.

﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: ولا تشغلهم الدنيا عن إقامة الصلاة في أوقاتها، ودفع الزكاة للفقراء والمستحقين بحدودها وشروطها، ولما كان ترك الدنيا شديداً على أكثر النفوس، وحب المكاسب بأنواع التجارات محبوباً لها، ويشق عليها تركه في الغالب، ذكر ما يدعوها إلى ذلك ـ ترغيباً وترهيباً ـ، فقال:

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: يخافون يوماً رهيباً تضطرب من شدة هوله وفزعه قلوب الناس وأبصارهم، فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل وترك ما يشغل عنه.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ ليكافئهم على أعمالهم في الدنيا بأحسن الجزاء، ويجزيهم على الإحسان إحساناً، وعلى الإساءة عفواً وغفراناً.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يتفضل عليهم فوق ذلك الجزاء، زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم.

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يعطي من شاء من خلقه عطاءً واسعاً دون حد ولا عد، يقال فلان ينفق بغير حساب، أي: يوسع كأنه لا يحسب ما ينفقه، وقد نبه به على كمال قدرته، وكمال جوده وسعة إحسانه، فإنه سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعاتهم، ويزيدهم الفضل الذي لا حد له في مقابلة خوفهم.

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

قال السعدي: «وأما رزق القلوب من العلم والإيمان ومحبة الله وخشيته ورجائه فلا يعطيها إلا من يحب».

* ولما ذكر تعالى حال المؤمن وسعادته، ذكر حال الكافر وخسارته، وضرب لذلك مثلين: الأول: لعمله، وذهابها سدى، وتحسر عامليها منها، والثاني: لاعتقاده وتخبطه في الظلمات، فقال:

(٣٩)، (٤٠) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بربهم، وكذبوا رسله.

﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ أي: إن أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا وظنوها أعمالاً صالحة نافعة لهم في الآخرة كالسراب الذي يرى في القيعان التي لا شجر فيها ولا نبات، وهو ما يرى في الفلوات من ضوء الشمس في الهجيرة حتى يظهر كأنه ماء يجري على وجه الأرض.

﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ أي: يظنه شديد العطش من بعيد ماءً جارياً، ويتوهم ما لا يتوهم غيره، فيقصده ليزيل ظمأه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ أي: حتى إذا وصل إليه، لم ير ماءً ولا شراباً، وإنما رأى سراباً فعظمت حسرته وزاد ندمه، بسبب انقطاع رجائه.

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ أي: وجد الله له بالمرصاد، فوفاه جزاء عمله، لم يَخْفَ عليه من عمله نقير ولا قطمير، ولن يعدم منه قليلاً ولا كثيراً، فكذلك الكافر يحسب أن عمله ينفعه، حتى إذا مات وقدم على ربه لم يجد شيئاً من الأعمال لأنها ذهبت هباءً منثوراً.

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: يعجل الحساب لأنه لا يشغله محاسبة واحد عن آخر، فلا يستبطئ الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لابد من إتيانه. ثم ذكر المثل الثاني لبطلان أعمال الكفار، فقال:

﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ المعنى: أو مثلهم كظلمات متكاثفة في بحر عميق لا يدرك قعره، طويل مداه.

﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ﴾ أي: يغطي ذلك البحر ويعلوه موج متلاطم بعضه فوق بعض شبه تلاطم أمواج الشبه، والباطل في صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر، وأنها أمواج بعضها فوق بعض.

﴿مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞ﴾ أي: من فوق ذلك الموج الثاني سحاب كثيف.

﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ أي: هي ظلمات متكاثفة متراكمة بعضها فوق بعض. قال قتادة: الكافر يتقلب في خمس من الظلم: فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار.

﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾ هذا من تتمة التمثيل، أي: إذا أخرج ذلك الإنسان الواقع في هذه الظلمات يده لم يقارب رؤيتها مع قربها إليه، فكيف بغيرها فإن ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السحاب قد تكاثفت حتى حجبت عنه رؤية أقرب شيء إليه من شدة الظلمة، فكذلك شأن الكافر يتخبط في ظلمات الكفر والضلال.

﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي: ومن لم يهده الله للإيمان وينور قلبه بنور الإسلام لم يهتد أبد الدهر.

* ثم ذكر تعالى للكافر مثالين: الأول لعمله الصالح؛ ومثل له بالسراب الخادع، والثاني: لاعتقاده السيء؛ ومثل له بالظلمات المتراكم بعضها فوق بعض، ثم ختم الآية الكريمة ذلك الختام الرائع ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ مقابل قوله في المؤمن ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ فكان هذا التمثيل والبيان في غاية الحسن والجمال. ولما وصف سبحانه أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد منبهاً تعالى عباده على عظمته، وكمال سلطانه، وافتقار جميع المخلوقات له في ربوبيتها، وعبادتها، فقال:

(٤١)، (٤٢) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ۝ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ألم تعلم ـ يا محمد ـ علماً يقيناً أن الله العظيم الكبير يسبح له كل من في الكون من ملك، وإنس، وجن، ينزهه ويقدسه ساكنوها؟

﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖ﴾ والطير باسطات أجنحتهن حال الطيران تسبح ربها، وتعبده كذلك، تسبح من ألهمها وأرشدها إليه تعالى وهو يعلم ما هي فاعلة.

﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾ أي: كل من هذه المخلوقات قد أرشده الله وهداه إلى طريقته ومسلكه الى عبادته، وما كلف به من الصلاة والتسبيح.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أي: لا تخفى عليه طاعتهم يوم القيامة، ولا تسبيحهم وقد جمع بين علمه بأعمالها وذلك بتعليمه، وبين علمه بأعمالهم، المتضمن للجزاء.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: هو المالك المتصرف في الكون، وجميع المخلوقات تحت ملكه يتصرف فيهم تصرف القاهر الغالب.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ وإليه مرجع الخلائق ومآلهم يوم القيامة، فيجازيهم على أعمالهم وهو تذكير يتضمن الوعيد.

* ثم أشار تعالى إلى ظاهرة كونية تدل على قدرته ووحدانيته، فقال:

(٤٣)، (٤٤) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ * يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ **أي: ألم تشاهد ببصرك، عظيم قدرة الله، وكيف يسوق بأمره وقدرته السحاب قطعاً متفرقة إلى حيث يشاء، ثم يجمع بين تلك القطع بعد تفرقه.**

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ **أي: يجعله كثيفاً متراكماً مثل الجبال بعضه فوق بعض.**

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ **فترى المطر يخرج من بين السحاب الكثيف.**

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ **وينزل من السحاب الذي هو كأمثال الجبال برداً.**

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ **فيصيب بذلك البرد من شاء من العباد، فيضره في زرعه وثمرته وماشيته.**

﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ **ويدفعه عمن يشاء فلا يضره، فهو تعالى كما ينزل المطر من السماء وهو نفع للعباد كذلك ينزل منها البرد وهو ضرر للعباد، فسبحان من جعل السماء منشأ للخير والشر.**

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ **أي: يقرب ضوء برق ذلك السحاب من شدته، أن يخطف أبصار الناظرين من شدة إضاءته وقوة لمعانه.**

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ **أي: يتصرف فيهما بالطول والقصر، والظلمة والنور، والحر والبرد، ويديل الأيام على عباده.**

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ **إن فيما تقدم ذكره لدلالة واضحة، وعظة بليغة على وجود الصانع المبدع.**

﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ **لذوي البصائر المستنيرة، والعقول النافذة، وخصهم بالذكر لأنهم المنتفعون حيث يتأملون فيجدون الماء والبرد، والظلمة والنور تخرج من شيء واحد، فالبصير ينظر نظر تفكر واعتبار وتدبر لما أريد بها ومنها، والمعرض الجاهل نظره إليها نظر غفلة، بمنزلة نظر البهائم، فسبحان القادر على كل شيء.**

*** وبعد أن استدل على وحدانيته بتسبيح أهل السماء والأرض، ثم بتصريف السحاب وإنزال المطر، ثم بأحوال الحيوانات، يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد، قال سبحانه:**

الجُزْءُ الثَّامِنَ عَشَرَ | سُورَةُ النُّورِ

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن
يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ
وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ
يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ
أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا
كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن
يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن
يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ
﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل
لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

٣٥٦

(٤٥) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ **يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد، ولكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة:**

﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ **فمنهم من يزحف على بطنه كالحية والزواحف.**

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ **كالآدميين، وكثير من الطيور.**

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾

كالأنعام وسائر الدواب. قدم ما هو أظهر في القدرة وأعجب وهو الماشي بغير آلة من رجل وقوائم، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع.

﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يخلق تعالى بقدرته ما يشاء من المخلوقات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: كما أنزل المطر على الأرض، وهو لقاح واحد، والأم واحدة، وهي الأرض، والأولاد تختلف الأصناف والأوصاف، هو قادر على ما يشاء لا يمنعه مانع، ولا يدفعه دافع.

* ثم ذكر امتداد رحمته وسعتها بإنزال الآيات البينات، فقال تعالى:

﴿٤٦﴾ ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: لقد أنزلنا إليكم أيها الناس آيات واضحات، دالات على طريق الحق والرشاد.

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: يرشد بلطفه ومشيئته من يشاء من خلقه إلى الدين الحق وهو الإسلام، عمم البيان التام لجميع الخلق، وخصص الهداية من يشاء، فهذا فضله وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون، وذاك عدله، وقطع الحجة للمحتج.

* ولما ذكر دلائل التوحيد أخبر عن حال الظالمين، ممن في قلبه مرض وضعف إيمان، أو نفاق وريب وضعف علم، وحذر من النفاق والمنافقين، فقال تعالى:

﴿٤٧﴾-﴿٥٢﴾ ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ أي: يقول المنافقون صدقنا بالله وبالرسول، وأطعنا الله ورسوله.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: ثم يعرض جماعة منهم عن قبول حكمه، من بعد ما صدر منهم ما صدر من دعوى الإيمان.

﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وليس أولئك الذين يدعون الإيمان والطاعة بمؤمنين على الحقيقة. قال الحسن: نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر.

﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: وإذا دعوا إلى حكم الله أو حكم رسوله عندما تكون هناك خصومة، استنكفوا وأعرضوا عن الحضور إلى مجلس الرسول، يريدون أحكام الجاهلية.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أي: وإن كان الحق لهم لا على غيرهم، جاؤوا إلى رسول الله طائعين سامعين، لعلمهم أنه ﷺ يحكم بالحق. نبه تعالى على أنهم إنما يعرضون متى عرفوا أن الحق لغيرهم؛ أما إذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الإعراض وأذعنوا ببذل الرضا لأنه موافق لهواهم؛ فليسوا ممدوحين في هذه الحالة ولهذا ذمهم، فقال:

﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾ أي: هل في قلوبهم نفاق؟ أم شكوا في نبوته ﷺ هذا استفهام ذم وتوبيخ يعني هم كذلك.

﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: أم يخافون أن يظلمهم رسول الله في الحكم، والاستفهام للمبالغة في التوبيخ والذم.

﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بل هم الكاملون في الظلم والعناد لإعراضهم عن حكم رسول الله، ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعي، ذكر حال المؤمنين الممدوحين، فقال:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إنما كان قول المؤمنين حقيقة، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم حين يدعون إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، سواء، أوافق أهواءهم أو خالفها.

﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة سالمة من الحرج. وكان الواجب عليهم عندما يدعون إلى رسول الله للفصل بينهم وبين خصومهم أن يسرعوا ويقولوا سمعنا الدعاء وأطعنا بالإجابة، فلو كان هؤلاء مؤمنين لفعلوا ذلك، قال الطبري: ولم يقصد به الخبر ولكنه تأنيب من الله للمنافقين وتأديب منه لآخرين.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي: وأولئك المسارعون إلى مرضاة الله هم الفائزون بسعادة الدارين، حصر الفلاح فيهم، لأنه لا يفلح إلا من حكم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله. ولما ذكر فضل الطاعة في الحكم خصوصاً، ذكر فضلها عموماً، في جميع الأحوال، فقال:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ومن يطع أمر الله وأمر رسوله ويمتثل في كل فعل وعمل.

﴿وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ﴾ ويخاف الله تعالى لما فرط منه من الذنوب، ويمتثل أوامره ويجتنب زواجره.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا به طاعة الله وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه.

﴿هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ أي: هم السعداء الناجون من عذاب الله، الفائزون برضوانه. ذكر أن بعض بطارقة الروم سمع هذه الآية فأسلم، وقال: إنها جمعت كل ما في التوراة والأنجيل.

* لما ذكر تعالى المنافقين وما هم عليه من صفات قبيحة، أعقبه بذكر ما انطوت عليه نفوسهم من المكر والاحتيال والحلف الكاذب بأغلظ الأيمان، وأخبر عن حالهم مع الرسول ﷺ في الجهاد وغيره، وختم السورة الكريمة بالتحذير من سلوك طريق المنافقين، فقال:

(٥٣)،(٥٤) ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ * قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أي: حلف المنافقون بغاية الأيمان المغلظة.

﴿لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّ﴾ أي: لئن أمرتهم - يا محمد - بالخروج إلى الجهاد فيما يستقبل ليخرجن معك. قال مقاتل: لما بين الله إعراض

الجزء الثامن عشر — سورة النور

قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ
وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ
إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ
لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ
بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥
وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ
تُرۡحَمُونَ ٥٦ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ
وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ
ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ
ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ
وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨

٣٥٧

المنافقين وامتناعهم عن قبول حكمه عليه السلام أتوه فقالوا: لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا، وإن أمرتنا بالجهاد لجاهدنا، فنزلت:

﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْ﴾ أي: لا تحلفوا فإن أيمانكم كاذبة.

﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌ﴾ أي: طاعتكم لله ورسوله معروفة، فإنها باللسان دون القلب، وبالقول دون العمل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: بصير لا يخفى عليه شيء من خفاياكم ونواياكم، وأنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم.

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: أطيعوا الله بإخلاص النية وترك النفاق، وأطيعوا الرسول بالاستجابة لأمره والتمسك بهديه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: فإن تتولوا وتعرضوا عن طاعته وتتركوا ما جاءكم به.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي: على الرسول ما كلف به من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، وقد بلغ ﷺ الرسالة، وأدى الأمانة.

﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ وعليكم ما كلفتم به من السمع والطاعة، واتباع أمره ﷺ وتعظيمه والقيام بمقتضاه.

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ أي: وإن أطعتم أمره فقد اهتديتم إلى طريق السعادة والفلاح.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ليس عليه إلا التبليغ الواضح للأمة، ولا ضرر عليه إن خالفتم وعصيتم، فإنه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة.

* ثم ذكر ﷻ ما أعده لأهل الإيمان، فقال تعالى:

﴿٥٥﴾ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: وعد الله المؤمنين المخلصين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح.

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: وعدهم بميراث الأرض، وأن يجعلهم فيها خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم، كما استخلف المؤمنين قبلهم فملكهم ديار الكفار. قال المفسرون: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة رمتهم العرب عن قوس واحدة، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا في لأمتهم - أي سلاحهم - فقالوا أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لانخاف إلا الله ﷻ، فنزلت الآية، وهذا وعد ظهر صدقه بفتح مشارق الأرض ومغاربها، لهذه الأمة، وفي الحديث بشارة كذلك، فقد قال ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها».

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ أي: وليجعلن دينهم - الإسلام - الذي ارتضاه لهم واختاره لهم، عزيزاً مكيناً، عالياً على كل الأديان.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ أي: وليغيرن حالهم التي كانوا عليها من الخوف والفزع إلى الأمن والاستقرار وقد تم ذلك، وهو من آيات الله العجيبة الباهرة.

﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ استئناف بطريق الثناء عليهم كالتعليل للاستخلاف في الأرض، أي: يوحدونني ويخلصون لي العبادة، لا يعبدون إلهاً غيري. فأنجز الله وعده، وأظهر دينه، ونصر أولياءه، وأبدلهم بعد الخوف أمناً وبسطاً في الأرض.

﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: فمن جحد شكر هذه النعم من التمكين والسلطنة التامة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: هم الخارجون عن طاعة الله وأمره.

* ولما أمر ﷻ بطاعة الله وطاعة رسوله، ووعدهم بالتمكين في الأرض والنصر على الأعداء، قال سبحانه:

﴿٥٦﴾، ﴿٥٧﴾ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أمر من الله ﷻ للمؤمنين بإقامة الصلاة وأداء الزكاة على الوجه الأكمل الذي يرضي الله، والصلاة والزكاة أكبر الطاعات وأجلها بعد التوحيد، فهما جامعتان لحقه تعالى وحق خلقه، ثم عطف عليهما الأمر العام، فقال:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: أطيعوا الرسول في سائر ما أمركم به رجاء الرحمة فمن أرادها فهذا طريقها.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تسلية للنبي ﷺ ووعد له بالنصر، أي: لا تظنن -

يا محمد - الكافرين الذين عاندوك وكذبوك معجزين لله في هذه الحياة، بل الله قادر عليهم في كل حين وآن، ولهذا قال:

﴿وَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: مرجعهم نار جهنم، وبئس المرجع والمآل الذي يصيرون إليه، مآل الحسرة والعقوبة الأبدية.

* ثم ذكر ﷻ بعض آداب البيوت، فبعد أن ذكر سبحانه استئذان الأجانب بعضهم على بعض في أول السورة ذكر هنا استئذان الأقارب بعضهم على بعض، فقال تعالى:

(٥٨)-(٦٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

الجزءُ الثامن عشر — سُورَةُ النُّور

وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)

٣٥٨

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: يا أيها المؤمنون الذين صدقوا الله ورسوله وأيقنوا بشريعة الإسلام نظاماً وحكماً ومنهاجاً ليستأذنكم في الدخول عليكم العبيد والإماء الذين تملكونهم ملك اليمين. روي أن رسول الله ﷺ بعث غلاماً من الأنصار يقال له مدلج إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه فوجده نائماً، فدق عليه الغلام الباب ودخل، فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شيء فقال: وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول في هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق إلى رسول الله فوجد الآية قد أنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ...﴾ فخر ساجداً شكراً لله تعالى.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ أي: والأطفال الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال الأحرار ليستأذنوا أيضاً.

﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ أي: في ثلاث أوقات في اليوم والليلة، وهي:

﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: في الليل وقت نومكم وخلودكم إلى الراحة.

﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ أي: وقت الظهر حين تخلعون ثيابكم للقيلولة.

﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ أي: ووقت إرادتكم النوم واستعدادكم له.

﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ أي: هي ثلاثة أوقات يختل فيها تستركم، العورات فيها بادية والتكشف فيها غالب، فعلموا عبيدكم وخدمكم وصبيانكم ألا يدخلوا عليكم في هذه الأوقات إلا بعد الاستئذان وما عدا هذه الأحوال الثلاثة، فقال:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: ليس عليكم ولا على المماليك والصبيان حرج في الدخول عليكم بغير استئذان، لأنه يشق الاستئذان منهم في كل وقت، ولهذا قال:

﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: لأنهم خدمكم

يترددون عليكم للخدمة وقضاء الحوائج، حيث يمضون ويجيئون ويدخلون عليكم في المنازل غدوة وعشية بغير إذن إلا في تلك الأوقات.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: مثل ذلك التوضيح والبيان يبين الله لكم الأحكام الشرعية لتتأدبوا بها.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عالم بأمور خلقه، حكيم في تدبيره لهم.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ أي: وإذا بلغ هؤلاء الأطفال الصغار مبلغ الرجال وأصبحوا في سن التكليف.

﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: فعلموهم الأدب السامي، أن يستأذنوا في كل الأوقات كما يستأذن الرجال البالغون.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يفصل ويوضح لكم أمور الشريعة والدين.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بخلقه حكيم في تشريعه، كرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: والنساء العجائز اللواتي قعدن عن التصرف وطلب الزواج لكبر سنهن.

﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يطمعن في الزواج ولا يرغبن فيه، لانعدام دوافع الشهوة فيهن.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي: لا حرج ولا إثم عليهن في أن يضعن بعض ثيابهن كالرداء الذي يكون فوق الثياب، ويظهرن أمام الرجال بملابسهن المعتادة التي لا تلفت انتباها، ولا تثير شهوة.

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أي: غير متظاهرات بالزينة لينظر إليهن، أو مظهرات زينة كالشعر والنحر والساق. وحقيقة التبرج إظهار ما يجب إخفاؤه، ورب عجوز شمطاء يبد منها الحرص على أن يظهر بها جمال.

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ وإن يسترن بإرتداء الجلباب ولبس الثياب كما تلبسه الشابات من النساء، مبالغة في التستر والتعفف خير لهن وأكرم، وأزكى عند الله وأطهر.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: يعلم خفايا النفوس والنيات، ويجازي كل إنسان بعمله، وفيه وعد وتحذير.

* ثم يخبر تعالى عن منته على عباده، وأنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج، بل يسره غاية التيسير، فقال:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦١﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ أي: ليس على أهل الأعذار: الأعمى، والأعرج، والمريض، حرج ولا إثم في القعود عن الغزو لضعفهم وعجزهم.

﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: وليس عليكم أيها الناس إثم أن تأكلوا من بيوت أزواجكم وعيالكم، ويدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيته، لقوله ﷺ: «إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه، وإن ولده من كسبه».

﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ أي: لا حرج في الأكل من بيوت هؤلاء الأقارب. والظاهر أن إباحة الأكل لا تتوقف على الاستئذان لأن العادة أن هؤلاء القوم تطيب أنفسهم بأكل الأقارب.

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ أي: البيوت التي توكلون عليها وتملكون مفاتيحها في غياب أهلها، قالت عائشة رضي الله عنها: كان المسلمون يذهبون مع رسول الله في الغزو ويدفعون مفاتحهم إلى

ضمنائهم ويقولون: قد أحللنا لكم الأكل منها فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم وإنما نحن أمناء، فأنزل الله ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾.

﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾ أو بيوت أصدقائكم وأصحابكم. قال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه.

﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾ أي: ليس عليكم إثم أو حرج أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين. قال المفسرون: نزلت في حي من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده، يمكث يومه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً، وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه، فأخبر تعالى بأن الرجل إذا أكل وحده لا حرج عليه.

﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: إذا دخلتم بيوتاً مسكونة فسلموا على من فيها من الناس.

﴿تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ﴾ أي: حيوهم بتحية الإسلام التي شرعها الله ﷻ، وهي: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» وهي التحية المباركة الطيبة التي شرعها الله لعباده المؤمنين، قال القرطبي: وصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب المودة، ووصفها بالطيب لأن سامعها يستطيبها.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ لما ذكر تعالى في هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة، والشرائع المبرمة، نبه عباده على أنه يبين لهم الآيات بياناً شافياً ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون.

* ثم أرشد سبحانه إلى أدب عظيم مع النبي ﷺ، فقال تعالى:

﴿٦٢﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان، الذين صدقوا الله ورسوله تصديقاً جازماً لا يخالجه شك.

﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ وإذا كانوا مع الرسول في أمر هام فيه مصلحة للمسلمين.

﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾ أي: لم يتركوا مجلسه حتى يستأذنوه فيأذن لهم. قال المفسرون: نزلت هذه الآية في وقت حفر الخندق، فإن بعض المؤمنين كانوا يستأذنون في الانصراف لضرورة، وكان المنافقون يذهبون بغير استئذان، فنزلت تمدح المؤمنين الخالصين، وتعرض بذم المنافقين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا توكيد لما تقدم ذكره تفخيماً وتعظيماً لشأن الرسول ﷺ، أي: إن الذين يستأذنونك - يا محمد - أولئك هم المؤمنون حقاً، وقد أعاده مؤكداً على أسلوب أبلغ فإن جعل المستأذنين هم المؤمنين عكس الأسلوب الأول وفيه تأكيد للأول بذكر لفظ الله ورسوله فيكون مصداقاً ودليلاً على صحة الإيمان.

﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾ أي: فإذا استأذنك هؤلاء المؤمنون لبعض شؤونهم ومهامهم، فاسمح لمن

الجُزْءُ الثَّامِنَ عَشَرَ — سُورَةُ النُّورِ

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ
عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ
لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ
ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ
بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ
أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ
لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ
يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾

سُورَةُ الفُرۡقَانِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا
﴿١﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن
لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾

٣٥٩

أحببت بالانصراف إن كان فيه حكمة ومصلحة، وفيه رفع شأنه ﷺ.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ وادع الله لهم بالعفو والمغفرة، فإن الاستئذان ولو لعذر قصور، لأنه تقديم لأمر الدنيا على أمر الدين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: عظيم العفو، واسع الرحمة.

* ثم بين تعالى آداب مخاطبة النبي ﷺ، وجلال قدره، ورفعة منزلته، فقال:

﴿٦٣﴾ ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾ أي: لا تنادوا الرسول باسمه كما ينادي بعضكم بعضاً باسمه، بل قولوا: يا نبي الله، ويا رسول الله في لين وتواضع، تفخيماً لمقامه وتعظيماً لشأنه، ولما كان التداعي بالأسماء على عادة البداوة. أمروا بتوقير رسول الله ﷺ ودعائه بأحسن ما يدعى به نحو: يا رسول الله، يا نبي الله، ألا ترى إلى بعض جفاة من أسلم كان يقول ـ يا محمد ـ فنهوا عن ذلك، قال قتادة: أمرهم تعالى أن يفخموه ويشرفوه، ولما مدح المؤمنين بالله ورسوله، الذين كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، توعد من لم يفعل ذلك، وذهب من غير استئذان، فقال:

﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗا﴾ أي: قد علم الله الذين ينسلون قليلاً قليلاً، ويخرجون من الجماعة في خفية يستتر بعضهم ببعض. قال الطبري: واللواذ هو أن يلوذ القوم بعضهم ببعض، يستتر هذا بهذا وهذا بهذا.

﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ أي: فليخف الذين يخالفون أمر الرسول، ويتركون سبيله ومنهجه وسنته.

﴿أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: تنزل بهم محنة عظيمة في الدنيا، من قتل، أو زلازل وأهوال، أو تسليط سلطان جائر، أو قسوة القلب عن معرفة الرب، أو إسباغ النعم استدراجاً، أو ينالهم عذاب شديد في الآخرة.

* ثم يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم، قال تعالى:

﴿٦٤﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: له ـ جل وعلا ـ ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً.

﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: قد علم ما في نفوسكم من الإيمان، أو النفاق، والإخلاص أو الرياء.

﴿وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: ويوم القيامة يرجعون إليه فيخبرهم بما فعلوا في الدنيا من صغير وكبير، وجليل وحقير، ويجازي كلاً بعمله، ولما قيد علمه بأعمالهم، ذكر العموم بعد الخصوص، فقال:

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ أي: لا يخفى عليه خافية لأن الكل خلقه وملكه.

تم تفسير سورة النور
والحمد لله

تفسير سورة الفرقان
وهي مكية

* سورة الفرقان سورة مكية، تكلم سبحانه في هذه السورة على التوحيد؛ لأنه أقدم وأهم، ثم في النبوة؛ لأنها الواسطة، ثم في المعاد؛ لأنه الخاتمة، وساقت الآيات بعض القصص للعظة والاعتبار.

سميت السورة الكريمة: سورة الفرقان؛ لأن الله تعالى ذكر فيها هذا الكتاب المجيد الذي أنزله على عبده محمد ﷺ، وكان النعمة الكبرى والمنة العظمى؛ لأنه النور الساطع والضياء المبين، الذي فرق الله به بين الحق والباطل، والنور والظلام، والكفر والإيمان، ولهذا كان جديراً بأن يسمى الفرقان. وفي الآيات إيناس لرسول الله ﷺ وتسرية، وتطمين له وتقوية، وهو يواجه مشركي قريش، وعنادهم له، وتطاولهم عليه، وتعنتهم معه.

ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن الذي تفنن المشركون بالطعن فيه، والتكذيب بآياته، فتارة زعموا أنه أساطير الأولين، وأخرى زعموا أنه من اختلاق محمد ﷺ أعانه عليه بعض أهل الكتاب، وثالثة

زعموا أنه سحر مبين، فرد الله تعالى عليهم هذه المزاعم الكاذبة، والأوهام الباطلة، وأقام الأدلة والبراهين على أنه تنزيل رب العالمين، قال تعالى:

(١)، (٢) ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا * ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ أي: تمجد وتعظم، وتكاثر خير الله، الذي أعظم خيراته ونعمه، أن نزل هذا القرآن العظيم، الفارق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والهدى والضلال، على عبده ورسوله محمد ﷺ. وعبده صفة مدح وتشريف؛ لأنه أضافه إلى عبوديته، وعلل التنزيل، بقوله:

﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ليكون محمد نبياً للإنس والجن، مخوفاً لهم من عذاب الله. ثم إنه سبحانه وصف نفسه بصفات أربع: الأولى:

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو تعالى المالك لجميع ما في السموات والأرض، خلقاً وملكاً وعبيداً. والصفة الثانية:

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وليس له ولد، كما زعم اليهود والنصارى.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ وهي الصفة الثالثة: أي: وليس معه إله كما قال عبدة الأوثان، وكيف يكون له ولد أو شريك، وهو المالك وغيره مملوك، وهو القاهر، وغيره مقهور، وفيه رد على طوائف المشركين. والصفة الرابعة:

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أي: أوجد وأعطى كل شيء بقدرته مع الإتقان والإحكام، فهيأه لما يصلح له بلا خلل فيه ولا تفاوت، فهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره، وقد وصف سبحانه ذاته بأربع أنواع من صفات الكبرياء: الأول: أنه المالك للسموات والأرض وهذا كالتنبيه على وجوده، والثاني: أنه هو المعبود أبداً، والثالث: أنه المنفرد بالألوهية، والرابع: أنه الخالق لجميع الأشياء مع الحكمة والتدبير.

* يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء، ثم دفعهم تعالى بالحجة الواضحة، والبرهان الساطع، فقال:

(٣) ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: عبد المشركون غير الله من الأوثان والأصنام، وهم لا يقدرون على خلق شيء أصلاً، بل هم مصنوعون بالنحت والتصوير، فكيف يكون آلهة مع الله؟ قيل: عبر عن الآلهة بضمير العقلاء، جرياً على اعتقاد الكفار أنها تضر وتنفع.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولا يستطيعون دفع ضر عنهم، ولا جلب نفع لهم، لا قليل ولا كثير، وقدّم ذكر الضر؛ لأن دفعه أهم من جلب النفع.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ ولا تملك تلك الأوثان أن تميت أحداً، ولا أن تحيي أحداً، ولا أن تبعث أحداً، من الأموات، فكيف أنهم آثروا على عبادة الله عبادة آلهة لا يقدرون على شيء، وإذا عجزوا عن دفع الضرر وجلب النفع الذي يقدر عليه العباد

الجُزْءُ الثَّامِنَ عَشَرَ — سُورَةُ الفُرْقَانِ

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ
إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا
وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾
وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى
ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾
أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ
ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ
كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

٣٦٠

الجزء الثامن عشر سورة الفرقان

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾
وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا
﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾
قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ
لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي
هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ
يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ
وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾
فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا
وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾
وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ
لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

٣٦١

كانوا عن الموت والحياة والنشور ـ الذي لا يقدر عليها إلا الله ـ أعجز.

*** ولما فرغ من بيان التوحيد وإبطال عقائد المشركين، شرع في ذكر شبه منكري النبوة، فقال:**

﴿٤﴾-﴿٦﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ **وقال كفار قريش: ما هذا القرآن إلا كذب وبهتان، اختلقه واخترعه محمد من تلقاء نفسه. والإفك: أسوأ الكذب.**

﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ **وساعده على هذا الاختلاق قوم من أهل الكتاب، فرد عليهم الله، بأن هذا مكابرة منهم، وإقدام على الظلم والزور.**

﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ **أي: جاؤوا بالظلم والبهتان، حيث جعلوا العربي يتلقى من العجمي كلاماً عربيّاً، أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب، فالقرآن ليس مما يمكن لبشر أن يختلقه، فكان كلامهم فيه محض الكذب والزور.**

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ **وقالوا في حق القرآن أيضاً، إنه خرافات الأمم السابقين وقصصهم وأحاديثهم التي تتلقاها الأفواه، وينقلها كل أحد، أمر أن تكتب له؛ لأنه كان لا يكتب.**

﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ **أي: فهي تلقى، وتقرأ عليه، ليحفظها صباحاً ومساءً، أول النهار وآخره، قال ابن عباس: والقائل هو «النضر بن الحارث» وأتباعه. فأجاب سبحانه عن هذه الشبهة، بقوله:**

﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ **هذا رد عليهم في تلك المزاعم، أي: قل لهم ـ يا محمد ـ أن الذي أنزل هذا القرآن الله العليم القدير الذي لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض، وهذا القرآن اشتمل على علم الغيوب التي يستحيل عادة أن يعلمها محمد ﷺ من غير تعليم، فدل ذلك على أنه من عند علام الغيوب.**

﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ **أنه تعالى لم يعجل لكم العقوبة، وإن استوجبوها بمكابرتهم بل أمهلكم، رحمة بكم؛ لأنه واسع المغفرة؛ رحيم بالعباد، فمنهم مع ما قالوا من الفجور والعناد يدعوهم إلى التوبة والأوبة عما هم فيه إلى الإسلام والهدى.**

*** ثم ذكر تعالى مقالة المكذبين للرسول، التي قدحوا بها في رسالته بلا حجة ولا دليل منهم، واقترحوا أن يكون الرسول ملكاً لا بشراً، وأن تكون الرسالة ـ على فرض تسليم الرسول من البشر ـ خاصة بذوي الجاه والثراء، فتكون لإنسان غني عظيم، لا لفقير يتيم، وقد رد الله تعالى شبهتهم بالبرهان القاطع والحجة الدامغة، التي تقصم ظهر الباطل، فقال عنهم:**

﴿٧﴾-﴿١٤﴾ ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن

كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ وقال المشركون قول تهكم واستهزاء: ما لهذا الذي يزعم ويدعي الرسالة يأكل الطعام كما نأكل، وهذا من خصائص البشر، ويمشي في الأسواق لطلب المعاش كما نمشي؟ وهذا بزعمهم لا يليق بمن يكون رسولاً، إنه ليس بملَكٍ ولا ملَكَ؛ لأن الملائكة لا تأكل، والملوك لا تتبذل في الأسواق، وفي قولهم: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ مع إنكارهم لرسالته، تصغير لشأن المشار إليه وهو رسول الله ﷺ، وسموه رسولاً استهزاء وسخرية، ثم نزلوا عن ذلك الاقتراح إلى قولهم:

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ أي: هلا بعث الله معه ملكاً يساعده ويعاونه، وليكون له شاهداً على صدق ما يدعيه، ثم نزلوا إلى أن يكون مرفوداً بكنز فقالوا:

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ أو يأتيه مال مجموع من غير تعب، أو كنز من السماء فيستعين به ويستغني عن طلب المعاش.

﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أو يكون له بستان يأكل من ثماره ويستغني بذلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرزق.

﴿وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ وقال الكافرون: ما تتبعون أيها المؤمنون إلا إنساناً سحر، فغلب على عقله، فهو يزعم أنه رسول الله، حملهم على القول ظلمهم لا اشتباه منهم.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّواْ﴾ انظر كيف قالوا في حقك ـ يا محمد ـ تلك الأقاويل العجيبة، الجارية لغرابتها مجرى الأمثال، وكيف اخترعوا تلك الصفات والأحوال الشاذة، فضلوا بذلك عن الهدى والحق، ليتوصلوا بها إلى تكذيبك.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فلا يجدون طريقاً إلى الحق ومخرجاً عن الضلالة بعد أن ضلوا عنه بتكذيبك وإنكار رسالتك، ذكروا له ﷺ خمس صفات وزعموا أنها تخل بالرسالة زعماً منهم أن فضيلة الرسول على غيره تكون بأمور جسمانية، وهي غاية الجهالة والسفاهة، فرد الله عليهم بأمرين: الأول: تعجيب الرسول ﷺ من تناقضهم فتارة يقولون عنه شاعر، وتارة ساحر، وأخرى يقولون إنه مجنون؛ حتى أصبحت تلك الأقوال الغريبة الشاذة والأمور العجيبة جارية مجرى الأمثال، والثاني: أن الله تعالى لو أراد لأعطى نبيه خيراً مما اقترحوا، وأفضل مما يتصورون وهو المراد بقوله:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي: تمجد وتعظم الله وتكاثر خير الكبير الجليل، الذي لو أراد لجعل لك خيراً من ذلك الذي ذكروه من نعيم الدنيا، ثم بين ذلك الخير، فقال:

﴿جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ أي: لو شاء لأعطاك بساتين، وحدائق تسير فيها الأنهار، لا جنة واحدة كما قالوا، ويجعل لك مع الحدائق القصور الرفيعة المشيدة كما هو حال الملوك. لما عيَّر المشركون رسول ﷺ بالفاقة، حزن عليه السلام فنزل جبريل معزياً له فبينما النبي وجبريل يتحدثان إذ فتح باب من السماء، فقال جبريل: أبشر ـ يا محمد ـ هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضى من ربك، فسلم عليه، وقال: ربك يخيرك بين أن تكون نبيّاً ملكاً، وبين أن تكون نبيّاً عبداً ـ ومعه سقط من نور يتلألأ ـ ثم قال: هذه مفاتيح خزائن الأرض، فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل عليه السلام كالمستشير فأومأ بيده أن تواضع، فقال رسول الله ﷺ: «بل نبيّاً عبداً» فكان ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئاً حتى فارق الدنيا. ولما كانت تلك الأقوال التي قالوها معلومة الفساد، أخبر تعالى أنها لم تصدر منهم لطلب الحق، ولا لاتباع البرهان، وإنما صدرت منهم تعنتاً وظلماً وتكذيباً بالحق، فقالوا ما بقلوبهم من ذلك، ولهذا قال:

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ﴾ أي: ما كذبوك، لأنك تأكل الطعام، وتمشي في الأسواق، بل كذبوا وأتوا بأعجب من ذلك كله، وهو تكذيبهم بالقيامة تعنتاً واستكباراً، فلهذا قال:

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ وهيأنا لمن كذب بالآخرة والبعث، ناراً عظيمة شديدة الاستعار.

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أي: إذا رأت جهنم هؤلاء المشركين المكذبين قبل وصولهم ووصولها إليهم، من مسافة بعيدة وهي خمسمائة عام، وفيه مزيد تهويل لأمرها، سمعوا صوت لهيبها وغليانها، كالغضبان إذا غلا صدره من الغيظ، وسمعوا لها صوتاً كصوت الحمار، وهو الزفير. قال ابن عباس: إن الرجل ليجر إلى النار فتشهق إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير، تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف.

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ وإذا ألقوا في جهنم في مكان ضيق، ووصف المكان بالضيق للدلالة على زيادة الشدة، وتناهي البلاء عليهم.

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: مصفدين، قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل وجمع لهم شدة العذاب، في مكان ضيق المكان، وتزاحم السكان، وتقرينهم بالسلاسل والأغلال. فإذا حبسوا في شر حبس.

﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ دعوا في ذلك المكان الضيق على أنفسهم بالويل والهلاك، يقولون: يا هلاكنا، نادوه، نداء المتمني للهلاك ليسلموا مما هو أشد منه، وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم، ولا مغنية من عذاب الله، بل يقال لهم:

﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ يقال لهم تهكماً: لا تدعوا اليوم بالهلاك على أنفسكم مرة واحدة، بل ادعوا مرات ومرات، فإن ما أنتم فيه من العذاب الشديد يستوجب تكرير الدعاء في كل حين وآن، وفيه إقناط لهم من استجابة الدعاء وتخفيف العذاب.

* لما بين جزاء الظالمين، ناسب أن يذكر جزاء المتقين، كعادة الآيات في الجمع بين الترغيب والترهيب، قال تعالى:

﴿١٥﴾،﴿١٦﴾ ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ۞ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ أي: قل لهم - يا محمد - على سبيل التقريع والتهكم، أذلك السعير خير، أم جنة الخلود التي وعدها المتقون؟ كانت لهم ثواباً على عملهم وتقواهم، ومآلاً ومصيراً يرجعون إليه في الآخرة، ويستقرون فيه، ويخلدون دائماً أبداً.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ﴾ أي: لهم في الجنة ما يطلبون من النعيم، وضروب الملاذ، ماكثين فيها أبداً سرمداً، بلا زوال ولا انقضاء.

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ كان ذلك الجزاء والدخول، وعداً على ذي الجلال، حقيقاً بأن يسأل ويطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون، وهو وعد واجب، والآية تصور الدارين المذكورتين فأيهما خير وأولى بالإيثار؟!

* ثم يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة، وتبريهم منهم، وبطلان سعيهم، فقال:

﴿١٧﴾-﴿١٩﴾ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۞ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ۞ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: واذكر ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - حين يجمع الله الكفار والأصنام، وكل من عبد من دون الله كعيسى، وعزير، والملائكة.

﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: فيقول تعالى للمعبودين توبيخاً وتقريعاً لعبدتهم: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم؟ وزينتم لهم ذلك، أم هم ضلوا الطريق، فعبدوكم من تلقاء أنفسهم؟

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ قال المعبودون تعجباً مما قيل لهم: تنزهت يا الله عن الأنداد، وبرؤا أنفسهم من ذلك بكونهم ملائكة، أو أنبياء معصومين، أو جمادات لا تعقل.

﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: ما يحق لنا ولا يليق بنا، ولا لأحد من الخلق، أن يعبد غيرك، ولا أن يشرك معك سواك، ثم ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين، فقالوا:

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ ولكن أكثرت وأفضلت عليهم وعلى آبائهم النعمة، ومتعتهم بالأموال والأولاد وطول العمر والسلامة من العذاب، ـ وكان يجب عليهم شكرها والإيمان بما جاءت به الرسل ـ.

﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ فكان ذلك سبباً للإعراض عن ذكرك وشكرك، فحافظوا على دنياهم، وضيعوا دينهم.

﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ وكانوا عند الله قوماً هالكين، لا خير فيهم. قال تعالى توبيخاً للكفرة وتقريعاً:

﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ فقد كذبكم هؤلاء المعبودون في قولكم إنهم آلهة، فحق عليكم العذاب.

ثم قال إخباراً عن حالهم يومئذ:

﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗا﴾ أي: فما تستطيعون أيها الكفار دفعاً للعذاب عنكم ولا نصراً لأنفسكم من هذا البلاء، وأما المعاند منهم، الذي عرف الحق وصرف عنه، فقال في حقه:

﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا﴾ ومن يشرك منكم بالله فيظلم نفسه، نذقه عذاباً شديداً في الآخرة، لا يقادر قدره، ولا يبلغ أمره، وهذا وعيد لكل ظالم.

* ثم قال تعالى ردّاً وجواباً لقول المكذبين المعاندين حين قالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وتسلية ومواساة للنبي ﷺ:

(٢٠) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ وما أرسلنا قبلك ـ يا محمد ـ أحداً من الرسل، إلا وهم بشر يأكلون، ويشربون، ويتجولون في الأسواق، للتكسب والتجارة، فتلك هي سنة المرسلين من قبلك، فلم ينكرون ذلك عليك؟

﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ وجعلنا بعض الناس بلاءً لبعض ومحنة، وهذا عام في جميع الخلق ابتلى الله الرسول للمرسل إليه، وابتلى الله الغني بالفقير، والشريف بالوضيع، والصحيح بالمريض، ليختبر صبركم وإيمانكم، أتشكرون فيثيبكم مولاكم، أم تكفرون ولا تصبرون فتستحقوا العقوبة. قال الحسن: يقول الأعمى: لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان، ويقول الفقير: لو شاء الله لجعلني غنياً

* وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا
(٢١) يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ
حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا (٢٢) وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ
هَبَآءٗ مَّنثُورًا (٢٣) أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا
وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا (٢٤) وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
تَنزِيلًا (٢٥) ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى
ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا (٢٦) وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ
يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا (٢٧) يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ
أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا (٢٨) لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ
وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا (٢٩) وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ
إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا (٣٠) وَكَذَٰلِكَ
جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا
وَنَصِيرٗا (٣١) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ
وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا (٣٢)

مثل فلان، ويقول السقيم: لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان.

﴿أَتَصۡبِرُونَ﴾ يعني: على هذه الحالة من الفقر والشدة والأذى، وتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبة، فيثيبكم مولاكم، أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ يعلم أحوالكم، عالماً بمن يطيع أو يعصي، وبمن يصبر أو يجزع، وبمن يشكر أو يكفر.

* لما حكى تعالى إنكار المشركين لنبوة محمد ﷺ وتكذيبهم للقرآن، أعقبه بذكر بعض شبههم الأخرى التي قدحوا بها في النبوة.

(٢١)-(٢٤) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ

وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا * وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا * أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وقال المكذبون للرسول، المكذبون بوعد الله ووعيده، الذين لا يرجون لقاء الله، ولا يخشون عقابه لتكذيبهم بالبعث والنشور.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: هلا نزلت الملائكة علينا، فأخبرونا بصدق محمد ودعوى رسالته، وأنه رسول من عند الله.

﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ أو نرى الله عياناً، فيخبرنا أنك رسوله، وهذا كله على سبيل التعنت، وإلا فما جاءهم به من المعجزات كاف لو وفقوا.

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: تكبروا وتعاظموا في شأن أنفسهم، واستعلوا حين تفوهوا بمثل هذه العظيمة، وطلبوا ما لا ينبغي.

﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ وتجاوزوا الحد في الظلم والطغيان، حتى بلغوا أقصى العتو، وهو غاية الاستكبار.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ يوم يرى المكذبون الملائكة، حين تنزل لقبض أرواحهم وقت الاحتضار، لن يكون للمجرمين يومئذ بشارة تسرهم، بل لهم الخيبة والخسران والغضب من الجبار.

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: تقول الملائكة لهم: حرام ومحرم عليكم الجنة والبشرى والغفران. قال ابن كثير: وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، فتقول للكافر عند خروج روحه: أخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سموم وحميم، وظل من يحموم، فتأبى الخروج وتتفرق في البدن فيضربونه بمقامع الحديد، بخلاف المؤمنين حال احتضارهم فإنهم يبشرون بالخيرات وحصول المسرات.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ﴾ هذا وعيد آخر؛ أي: وعمدنا إلى أعمال الكفار التي يعتقدونها برّاً، كإطعام المساكين وصلة الأرحام، وإغاثة الملهوف، ويظنون أنها تقربهم إلى الله، ورجوا أن تكون خيراً، وتعبوا فيها.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي: جعلناه مثل الغبار الخفيف المنثور في الجو لا ينفعهم؛ لأنه لا يعتمد على أساس ولا يستند على إيمان، وذلك أن العمل لا ينفع في الآخرة إلا إذا توافرت في صاحبه: الإيمان بالله، والإخلاص له، والمتابعة لرسوله محمد ﷺ. والهباء: هو الذي يرى كهيئة الغبار إذا دخل ضوء الشمس من كوة، والمنثور المتفرق.

لما بين تعالى حال الكفار وأنهم في الخسران الكلي والخيبة التامة، شرح وصف أهل الجنة وأنهم في غاية السرور والحبور، تنبيها على أن السعادة كل السعادة في طاعة الله ﷻ.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ أي: أصحاب الجنة في ذلك اليوم الهائل العصيب الشديد، وهو يوم القيامة، خير من الكفار مستقرّاً ومنزلاً ومأوى، فراحتهم تامة، ونعيمهم لا يشوبه كدر.

﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وأحسن منهم مكاناً للتمتع وقت القيلولة، وهي الاستراحة نصف النهار، فالمؤمنون في الآخرة في الفردوس والنعيم المقيم، والكفار في دركات الجحيم، وقد استنبط بعض العلماء من هذه الآية أن حساب أهل الجنة يسير وأنه ينتهي في نصف نهار. قال ابن مسعود: لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

* وبعد الآيات العظيمة، يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة وهوله، وما فيه من الشدة والكروب، ومزعجات القلوب، وبعض حوادث ذلك اليوم المهول، فقال تعالى:

﴿٢٥﴾-﴿٢٩﴾ ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا * ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا * وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي: واذكر - يا محمد - ذلك اليوم الرهيب، يوم تشق السماء وتنفطر عن الغمام الذي يُسوِّد الجو ويظلمه، ويغم القلوب مرآه لكثرته وشدة ظلمته.

﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ ونزلت الملائكة فأحاطت بالخلائق في المحشر، ويأتي الله - تبارك وتعالى - لفصل القضاء بين العباد.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: الملك في ذلك اليوم لله الواحد القهار، الذي تخضع له الملوك، وتعنوا له الوجوه، وتذل له الجبابرة، لا مالك يومئذ سواه، ولا ملك يقضي سواه، وأضاف الملك في يوم القيامة لاسمه «الرحمن» الذي وسعت رحمته كل شيء.

﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ وكان ذلك اليوم صعباً شديداً على الكفار، لما ينالهم من العقاب والعذاب الأليم؛ لأنه يوم عدل وقضاء فصل، وهو على المؤمنين يسير غير عسير، ففي الحديث: «إنه يهون حتى يكون على المؤمن أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا» [رواه أحمد]، ثم تعرض الآيات مشهداً من مشاهد ذلك اليوم، وحال الظالم فيه:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ واذكر - يا محمد - يوم يندم الظالم ويتحسر على نفسه لما فرط في جنب الله، وعض اليدين كناية عن الندم والحسرة والحزن والأسف، والمراد بالظالم - عقبة بن أبي معيط - كما في سبب النزول، وهي تعم كل ظالم. قال ابن كثير: يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ وسلك سبيلاً غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعضَّ على يديه حسرة وأسفاً، وسواء كان نزولها في عقبة بن معيط أو غيره، من الأشقياء فإنها عامة في كل ظالم.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ دعاء على نفسه بالويل والثبور، أي: يقول الظالم يا ليتني اتبعت الرسول محمداً ﷺ، فاتخذت معه طريقاً إلى الهدى في الدنيا، ينجيني من العذاب.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ أي: يا هلاكي وحسرتي، يا ليتني لم أصاحب فلاناً وأجعله صديقاً لي، ولفظ ﴿فُلَانًا﴾ كناية عن الشخص الذي أضله وهو: أبي بن خلف، وكنى عنه ولم يصرح باسمه لتتناول جميع من فعل مثل فعله.

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ أي: لقد زين لي ما هو عليه من الضلال، وأبعدني عن الهدى والإيمان بعد أن اهتديت وآمنت. ثم قال تعالى:

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ أي: يضله ويغويه، ثم يتبرأ منه وقت البلاء، فلا ينقذه ولا ينصره. وفي هذه الآيات التحذير من مصاحبة قرين السوء، فإنه قد يكون سبباً لإدخال قرينه النار. والشيطان: كل متمرد عات من الإنس والجن، وكل من صد عن سبيل الله فهو شيطان.

* لما أكثر المشركون الطعن في القرآن وكانوا لا يصغون له ولا يستمعون ضاق صدر الرسول ﷺ، وشكاهم إلى الله، قال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣١﴾.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ وقال محمد ﷺ يا رب إن قريشاً كذبت بالقرآن، ولم تؤمن به، وجعلته وراء ظهورها متروكاً وأعرضوا عن استماعه، قال المفسرون: وليس المقصود من حكاية هذا القول الإخبار بما قال المشركون، بل المقصود منها تعظيم شكايته، وتخويف قومه؛ لأن الأنبياء إذا التجؤوا إلى الله وشكوا قومهم حل بهم العذاب، ولم يمهلوا. وفيه تلويح بأن من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن، كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم. قال ابن القيم: وهجر القرآن أنواع: أحدها: هجر سماعه والإيمان به، والإصغاء إليه، والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به، والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته اللفظية لا تحصل العلم، والرابع: هجر تدبره وفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه. والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا
﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ
شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا
إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾
وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ
آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ
وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا
ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى
الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا
بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ
إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ
لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ
مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

٣٦٣

ثم قال الله مسلياً لرسوله، ومخبراً، أن هؤلاء الخلق لهم سلف، صنعوا كصنيعهم:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ **أي: كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك، جعلنا لكل نبي عدواً من كفار قومه، فاصبر كما صبروا، والمراد تسلية النبي ﷺ بالتأسي بغيره من الأنبياء فتلك سنة جارية.**

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ **وكفى أن يكون ربك - يا محمد - هادياً لك، وناصراً لك على أعدائك، فلا تبال بمن عاداك فاكتف به، وتوكل عليه.**

*** وتستمر الآيات في ذكر عناد المشركين وتكذيبهم، وكثرة اقتراحاتهم، وتعنتاتهم، قال تعالى:**

﴿٣٢﴾-﴿٣٤﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا * الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ **أي: وقال كفار مكة، هلا نزل هذا القرآن على محمد جملة واحدة كما أنزلت التوراة والإنجيل والزبور؟ وهذا زعم باطل ودعوى داحضة، وأي محذور من نزوله على هذا الوجه أكمل وأحسن، ولهذا قال تعالى رداً على شبهتهم:**

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ **كذلك أنزلناه مفرقاً لنقوي قلبك على تحمله، فتحفظه وتزداد به طمأنينة، فتعيه وتحمله، وبيناه في تثبت ومهلة، حتى تعمل بمقتضى ما فيه.**

﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ **وبيناه وفصلناه، تفصيلاً بديعاً، الترتيل في القراءة الترسل والتثبت، يقول: علمناكه شيئاً بعد شيء حتى تحفظه.**

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ **ولا يأتيك هؤلاء الكفار بحجة أو شبهة أو بسؤال عجيب للقدح فيك، أو في القرآن، إلا أتيناك - يا محمد - بالحق الواضح، والنور الساطع لندمغ به باطلهم.**

﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ **وأحسن بياناً وتفصيلاً.**

ثم ذكر تعالى حال هؤلاء المشركين المكذبين للقرآن وسوء مآلهم ومنقلبهم، فقال:

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ **أي: تسحبهم ويجرهم ملائكة العذاب إلى النار على وجوههم.**

﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ **أي: هم شر منزلاً ومصيراً، وأخطأ ديناً وطريقاً، وفي الحديث: قيل يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»** [رواه مسلم].

*** ثم ذكر تعالى قصص الأنبياء تسلية لرسول الله ﷺ ورهاباً من مشركي قومه ومن خالفه، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله. كقوم نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وغيرهم من الكافرين الجاحدين، فقال تعالى:**

﴿٣٥﴾-﴿٤٠﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ

ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا * وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ والله لقد أعطينا موسى التوراة، وأعناه بأخيه هارون، فجعلناه وزيراً له، يناصره ويؤازره.

﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فأمرنا موسى وهارون، وقلنا لهم: اذهبا إلى فرعون وقومه، بالآيات الباهرات، والمعجزات الساطعات، فذهبا إليهم، فدعواهم إلى الإيمان بالله، وطاعته، وعدم الإشراك به، فكذبوهما.

﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أي: فأهلكناهم إهلاكاً عظيماً لما كذبوا رسلنا.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي: وأغرقنا قوم نوح بالطوفان، لما كذبوا رسولهم نوحاً، وجعلناهم عبرة لمن يعتبر،وإنما قال الرسل بالجمع مع أنهم كذبوا نوحاً وحده؛ لأنه تكذيب للجميع لاتفاقهم على التوحيد والإسلام.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: وأعددنا لهم ولمن سلك سبيلهم في التكذيب يوم القيامة، عذاباً شديداً مؤلماً، سوى ما حل بهم في الدنيا.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ أي: وأهلكنا عاداً قوم هود، وثمود قوم صالح، وأصحاب البئر الذين انهارت بهم، وأصحاب الرس وهم قوم كانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم شعيباً، فكذبوه، فبينما هم حول الرس ـ وهي البئر غير المطوية ـ انهارت فخسفت بهم وبديارهم.

﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ وأمماً وخلائق كثيرين، لا يعلمهم إلا الله بين أولئك المكذبين أهلكناهم أيضاً.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ وكلا من هؤلاء، بينّا لهم الحجج، ووضحنا لهم الأدلة، إعذاراً وإنذاراً، ومع ذلك لم يؤمنوا.

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي: وأهلكناه إهلاكاً، ودمرناه تدميراً، لما لم تنجع فيهم المواعظ.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ ولقد مرت قريش مراراً في متاجرهم إلى الشام، على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء، وهي قرية «سدوم» عظمى قرى قوم لوط.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا﴾ توبيخ لهم على تركهم الاتعاظ والاعتبار، أي: أفلم يكونوا في أسفارهم يرونها، ويشاهدونها بأبصارهم، فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال، بسبب تكذيبهم لرسولهم ومخالفتهم لأوامر الله؟ فقد كانت قريش في تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط.

﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي: إنهم لا يعتبرون؛ لأنهم لا يرجون معاداً يوم القيامة، ولا يخافون عذاباً ونكالاً، لتكذيبهم بالبعث.

* لما ذكر تعالى شبهات المشركين حول القرآن والرسول، ورد عليهم بالحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، ذكر هنا طرفاً من استهزائهم وسخريتهم بالرسول، فلم يقتصروا على تكذيبه، بل زادوا عليه بالاستهزاء والاحتقار، وقد كان عندهم قبل البعثة ذا مكانة من بيته ومن خلقه حتى لقب بالأمين، وقد كان ملء السمع والبصر، قال تعالى:

﴿٤١﴾-﴿٤٤﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا * أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ وإذا رآك المشركون المكذبون ـ يا محمد ـ ما يتخذونك إلا موضع هزء وسخرية وقالوا على وجه الاحتقار والاستصغار:

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ أي: غير مناسب ولا لائق، أن يبعث الله هذا الرجل، وهذا من شدة ظلمهم وعنادهم، والمقصد قدحهم واستهزائهم به ﷺ، وإلا فله قبل البعثة المكانة السامية والمنزلة الرفيعة عندهم، ولهذا قال:

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا
كَالْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ
ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا
﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ
مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ
لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم
بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا
عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا
وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ
نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

٣٦٤

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي: إن كاد هـذا الرجل ليصرفنا عن عبادة آلهتنا، فنترك عبادتها، لولا أن ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها، وهو دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم وعرض المعجزات حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام. والاستهزاء من خصائص أهل الأهواء، فهم يلجؤون إلى السخرية بالفضلاء، والتهكم على المؤمنين العقلاء، وذلك لأنهم عدموا المنطق المقنع، فلجأوا إلى اللغو المفزع، قال تعالى رداً عليهم:

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وعيد وتهديد، وسوف يعلمون في الآخرة عند مشاهدة العذاب، من أخطأ طريقاً وأضل ديناً، أهم أم محمد؟ وهو كالجواب عن قولهم: إن كاد ليضلنا.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تعجيب من ضلال المشركين، أرأيت - يا محمد - من جعل هواه إلهاً كيف يكون حاله؟ قال ابن عباس: كان الرجل من المشركين يعبد حجراً فإذا رأى حجراً أحسن منه رماه، وأخذ الثاني فعبده. ثم تأت الآيات تعزي وتسلي الرسول ﷺ على عنادهم واستهزائهم، فهو لم يقصر في الدعوة، ولم يقصر في إقامة الحجة، بل بلغ البلاغ المبين.

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ الاستفهام للإنكار، أي: حافظاً تحفظه من اتباع هواه؟ حتى ترده إلى الإيمان وتخرجه من الكفر، ليس الأمر لك، وهذا تيئيس من إيمانهم، وإشارة للرسول ﷺ ألا يتأسف عليهم، وإعلام أنهم في الجهل بالمنافع، وقلة النظر في العواقب مثل البهائم.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أتظن أن هؤلاء المشركين يسمعون ماتقول لهم سماع قبول وتدبر؟ أو يعقلون ما تورده عليهم من الحجج والبراهين الدالة على الوحدانية، فتهتم بشأنهم وتطمع في إيمانهم؟

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: ما هم في الانتفاع بما يسمعونه إلا كالبهائم، التي هي مسلوبة الفهم والعقل، بل هم أبشع حالاً، وأسوأ مآلاً من الأنعام السارحة؛ لأن البهائم تهتدي لمراعيها، وتنقاد لأربابها وتتعرف من يحسن إليها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم، فشبه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد، وفي هذا لفتة عجيبة في هذا التشبيه بعد استهزائهم بالرسول ﷺ.

* لما فرغ سبحانه من ذكر جهالة الجاهلين وضلالتهم، أتبعه بذكر طرفاً من الدلائل الدالة على وحدانيته، وكمال قدرته على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، ويندب عباده إلى رؤية صنعته وقدرته وحكمته في هذا اللون العظيم، فقال:

﴿٤٥﴾-﴿٤٧﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ ألم تنظر ببصرك وبصيرتك إلى بديع صنع الله وقدرته، كيف بسط تعالى الظل، ومده وقت النهار، حتى يستريح الإنسان بظل الأشياء

من حرارة الشمس المتوهجة، إذ لولا أن الله خلق الظل لأتعبت الشمس الإنسان وكدرت حياته.

﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ ولو أراد سبحانه لجعله دائماً ثابتاً في مكان لا يزول ولا يتحول عنه، ولكنه بقدرته ينقله من مكان إلى مكان، ومن جهة إلى جهة، فتارة يكون جهة المشرق، وتارة جهة المغرب، وأخرى من أمام أو خلف تبعاً لحركة الشمس.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: وجعلنا طلوع الشمس دليلاً على وجود الظل، فلولا وقوع ضوئها على الإجرام لما عرف أن للظل وجوداً، ولما ظهرت آثار هذه النعمة الجليلة للعباد، والأشياء إنما تعرف بأضدادها فلولا الظلمة ما عرف النور، ولولا الشمس ما عرف الظل؛ وفي دلالة الشمس على الظلال: ما تعرف به أوقات الصلوات، وما مضى من اليوم، وما بقي منه، وفي تحركه وانتقاله: ما يبرد به من حر الشمس، وينفع الحيوانات والشجر والنبات، فهو من آيات الله الدالة عليه.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: فكلما ارتفعت الشمس أزلنا هذا الظل شيئاً فشيئاً، وقليلاً قليلاً، لم يقبضه جملة لئلا تختل المصالح، فهذان أعظم آياته الدالة على عظيم قدرته وكمال حكمته، قال ابن عباس: الظل من وقت طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس.

ثم أشار تعالى إلى آثار قدرته، وجليل نعمته الفائضة على الخلق، فذكر ثلاثاً من نعمه ـ جل وعلا ـ على العباد، هي: الليل الساتر، والنوم المريح، والنهار الباعث، فقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: هو سبحانه من رحمته بكم وعطفه أن جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه، كما يستركم اللباس بزينته، وصف الليل باللباس تشبيها من حيث يستر الأشياء فصار لهم ستراً، يستترون به، كما يستترون بالثياب التي يكتسونها.

﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ وجعل النوم راحة لأبدانكم وقطعاً لأعمالكم وأصل السبت القطع، والنائم مسبوت؛ لأنه انقطع عمله وحركته.

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي: يقظة ووقتاً لانتشار الناس فيه لمعايشهم، ومكاسبهم، وأسباب رزقهم.

* ويستمر تعالى في تعداد بعض آلائه ونعمه على عباده، وقدرته التامة وسلطانه العظيم، وهذه الآيات دلائل يستدل بها على وحدانيته، قال تعالى:

﴿٤٨﴾-﴿٥٠﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا * لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: أرسل الرياح تحمل السحاب مبشرة بنزول الغيث والمطر، ويستعدوا له قبل أن يفاجئهم دفعة واحدة؛ لأنه ريح، ثم سحاب، ثم مطر.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ وأنزلنا من السحاب الذي ساقته الرياح، ماء طاهراً مطهراً، تشربون وتتطهرون به، وصيغة «طهور» بناء مبالغة في «طاهر» فاقتضى أن يكون طاهراً مطهراً.

﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ لنحيي بهذا المطر أرضاً ميتة لا زرع فيها ولا نبات، فتختلف أصناف النوابت والأشجار فيها، مما يأكل الناس والأنعام، وليشرب من هذا المطر الحيوان والإنسان، لأن الماء حياة كل حي، والناس محتاجون إليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وسقي مواشيهم. وتنكير الأنعام والأناسي؛ لأن حياة البشر بحياة أرضهم وأنعامهم، وأكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الأودية والإنهار، فهم في غنية عن شرب مياه المطر، وكثير منهم نازلون في البوادي فلا يجدون المياه للشرب إلا عند نزول المطر، ولهذا قال:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ولقد أنزلنا المطر على أرض دون أخرى، ليذكر الذين أنزلنا عليهم المطر نعمة الله عليهم، فيشكروا له، وليذكر الذين منعوا منه، فيسارعوا بالتوبة إلى الله ـ جل وعلا ـ ليرحمهم ويسقيهم. قال ابن عباس: ما من عام بأمطر من عام، ولكن الله يصرفه في الأرض.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ
مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧ وَتَوَكَّلۡ
عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ
بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ
وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ
فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ
وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ٦٠ تَبَارَكَ
ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا
مُّنِيرٗا ٦١ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ
أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ
عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا
٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤ وَٱلَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ
غَرَامًا ٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦ وَٱلَّذِينَ إِذَآ
أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧

٣٦٥

﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ فأبى الكثير من البشر إلا الجحود والتكذيب وكفران النعمة، لفساد أخلاقهم وطبائعهم، وهو أنهم إذا مطروا، قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا.

* ثم يخبر تعالى عن نفوذ مشيئته، وعظيم قدرته.

٥١-٥٤ ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا * فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا * وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا * وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا﴾.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ ولو أردنا لخففنا عنك أعباء النبوة، فبعثنا في كل أهل قرية نبياً ينذرهم، ولكنا خصصناك بالبعثة إلى جميع أهل الأرض إجلالاً لك، وتعظيماً لشأنك، فقابل هذا الإجلال بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ فلا تطع الكفار فيما يدعونك إليه من الكف عن آلهتهم، وموافقتهم ومداهنتهم، وجاهدهم بالقرآن جهاداً كبيراً بالغاً نهايته لا يصاحبه فتور، واتل عليهم ما فيه من القوارع، والزواجر، والأوامر، والنواهي. ثم تذكر الآيات بعض مشاهد الكون، فيعقب بعد مشهد الرياح المبشرة والماء الطهور، بمشهد البحار العذبة والمالحة وما بينهما من حجاز، فقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾ وهو تعالى بقدرته خلى وأرسل البحرين متجاورين متلاصقين، بحيث لا يتمازجان، أحدهما شديد العذوبة، قاطع للعطش من فرط عذوبته.

﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ والآخر بليغ الملوحة، مر شديد المرارة.

﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا﴾ وجعل بينهما حاجزاً من قدرته يفصل بينهما لا يختلط العذب بالملح، ولا الملح بالعذب.

﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ أي: مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر ويتمزج به.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا﴾ وهو الله وحده لا شريك له، الذي خلق من النطفة الضعيفة إنساناً فسواه وعدله وجعله سميعاً بصيراً.

﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗا﴾ أي: قسمهم من نطفة واحدة قسمين: ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم؛ لأن النسب إلى الآباء، وإناثاً يصاهر بهن، فبالنسب يتعارفون ويتواصلون، وبالمصاهرة: تكون المحبة والمودة، واجتماع الغريب بالغريب، وكل ذلك من ماء مهين.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا﴾ أي: مبالغاً في القدرة، ومن جملة قدرته الباهرة أن خلق من النطفة الواحدة ذكراً وأنثى.

* ولما شرح دلائل التوحيد ومشاهد الحياة الناشئة من ماء السماء وماء النطفة عاد إلى تهجين سيرة المشركين في عبادة الأوثان، التي لا تملك ضراً ولا نفعاً، وقبح أفعالهم وفضح سيرتهم، فقال تعالى:

٥٥-٦٠ ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا * وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا * قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا * وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ

خَبِيرًا * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ ويعبدون أصناماً وأمواتاً لا تنفع ولا تضر، ويجعلونها أنداداً لمالك العطاء والمنع.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي: معيناً للشيطان على معصية الرحمن؛ لأن عبادته للأصنام معاونة للشيطان. وهذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه، فالمؤمن دائماً مع الله على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه، وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ يخبر تعالى أنه أرسل محمداً ﷺ مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم لمن أطاعه، ومنذراً للكافرين بعذاب الجحيم وهذا مهمته ﷺ.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ قل لهم ـ يا محمد ـ: لا أسألكم على تبليغ الرسالة، مالاً ولا جاهاً، ولا حظّاً من حظوظ الدنيا.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: لكن من شاء أن يتخذ طريقاً يقربه إلى الله بالإيمان والعمل الصالح والنفقة في مرضاة الله، فليفعل، كأنه يقول: لا أسألكم مالاً ولا أجراً وإنما أسألكم الإيمان بالله، وطاعته وأجري على الله. ولما بين سبحانه أن الكفار متظاهرون على رسول الله، وأمره أن لا يطلب منهم أجراً ألبتة، أمره أن يتوكل عليه في دفع المضارّ وجلب المنافع، فقال:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ أي: اعتمد في جميع أمورك على الواحد الأحد، الدائم الباقي الذي لا يموت أبداً، فإنه كافيك وناصرك ومظهر دينك على سائر الأديان، وخص صفة الحياة، إشارة إلى أن الحي هو الذي يوثق به في المصالح، ولا حياة على الدوام إلا لله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم، فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ نزه الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار مما لا يليق به من الشركاء والأولاد والأنداد، واقرن بين حمده وتسبيحه.

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: حسبك أن الله مطلع على أعمال العباد، لا يخفى عليه شيء منها، وسيحاسبهم عليها ويجازيهم بها، وهذه الكلمة يراد بها المبالغة، وهي بمعنى حسبك، فأنت لا تحتاج معه إلى غيره؛ لأنه خبير بأحوالهم، قادر على مجازاتهم، وذلك وعيد شديد، وليس عليك من هداهم شيء، وإنما ذلك كله بيد الله.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: هذا الإله العظيم الذي ينبغي أن تتوكل عليه، هو القادر على كل شيء، الذي خلق السموات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين في كثافتها وامتدادها في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، وهو ـ جل وعلا ـ قادر على أن يخلقها في لحظة، ولكن علم خلقه الرفق والتثبت.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: بعد ذلك استوى على العرش، الذي هو سقف المخلوقات، وأعلاها، وأوسعها، وأجملها، استواء يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: هو الرحمن، ذو الجود والإحسان، فسل عنه من هو خبير عارف بجلاله ورحمته، وقيل الضمير يعود إلى الله، أي: فاسأل الله الخبير بالأشياء، العالم بحقائقها يطلعك على جلية الأمر.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: وإذا قيل للمشركين، اسجدوا لربكم الرحمن الذي وسعت رحمته الأكوان، قالوا جحداً وكفراً: من هو الرحمن؟ استفهموا عنه استفهام من يجهله وهم عالمون به.

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أنسجد لما تأمرنا بالسجود له، من غير أن نعرفه؟ بل لمجرد قولك، وزادهم الأمر بالسجود بعداً عن الدين ونفوراً منه.

* لما ذكر إعراض المشركين عن عبادة الرحمن، أعقبها بذكر آياته الكونية الدالة على الوحدانية، ثم ختم السورة الكريمة بقوله:

٦١، ٦٢ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أي: تمجد وتعظم الله الذي جعل في السماء تلك الكواكب العظام المنيرة، وكرر تعالى في هذه السورة الكريمة قوله ﴿تَبَارَكَ﴾ ثلاث مرات، وهذه السورة فيها من الاستدلال على عظمته، وسعة سلطانه، ونفوذ مشيئته، وعموم علمه وقدرته، ما يدل على سعة رحمته، وواسع جوده، وكثرة خيراته.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ وجعل في السماء الشمس المتوهجة في النهار كالسراج في الوجود، والقمر المضيء بالليل، وهذا من أدلة عظمته، وكثرة إحسانه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ وهو الذي جعل بقدرته أن يذهب أحدهما، فيخلفه الآخر ويتعاقبان، فيأتي النهار بضيائه ثم يعقبه الليل بظلامه.

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ لمن أراد أن يتذكر آلاء الله، ويتفكر في بدائع صنعه.

﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: أراد شكر الله على إفضاله ونعمائه وألطافه، قال الطبري: جعل الله الليل والنهار يخلف كل واحد منهما الآخر، فمن فاته شيء من الليل أدركه بالنهار، ومن فاته شيء من النهار أدركه بالليل.

* ثم ذكر تعالى عن جملة كثرة خيره، ومن ذلك منته على عباده الصالحين، وتوفيقهم للأعمال الصالحات، التي أكسبتهم المنازل العاليات، في غرف الجنات، ومدح عباده بأحسن أوصافهم وأجل أعمالهم، ذكر صفات عباد الرحمن، التي استحقوا بها دخول الجنان، وما أكرمهم الله به من الأخلاق الحميدة التي استحقوا بها الأجر العظيم في جنات النعيم. وقد جمعت الآيات وصفهم في حركتي الأرجل والألسن بأحسنها وألطفها وأحكمها وأوقرها، فقال:

٦٣-٦٧ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۞ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۞ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۞ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۞ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ الإضافة للتشريف، وإشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته. أي: العباد الذين يحبهم الله وهم جديرون بالانتساب إليه، هم الذين يمشون على الأرض في رفق ولين وسكينة ووقار، لا يضربون بأقدامهم أشراً ولا بطراً، ولا يتبخترون في مشيتهم، وهؤلاء في موضع تشريف في مقابل ما يقول المشركون ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

قال ابن القيم: «لما كانت العثرة عثرتين: عثرة الرجل، وعثرة اللسان جاءت إحداهما قرينة الأخرى».

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ وإذا خاطبهم السفهاء بغلظة وجفاء وأذى وبما يكرهون، قالوا قولاً يسلمون فيه من الإثم، فهم لا يجهلون على أحد، وإن جهل عليهم حلموا، هذه حالهم في النهار ومع الناس، وأما في الليل فقد خلوا بربهم:

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ أي: يحيون الليل بالصلاة ساجدين لله على جباههم، أو قائمين على أقدامهم في طاعته وعبادته، فإنه لما ذكر سيرتهم في النهار من وجهين: ترك الإيذاء، وتحمل الأذى، بيّن هنا سيرتهم في الليالي، وهو اشتغالهم بعبادة الخالق الواحد الأحد.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ والذين هم مع اجتهادهم في العبادة، يخافون الله ويدعونه أن ينجيهم من عذاب النار، ويبتهلون إليه أن يدفع عنهم عذابها، وذلك بالعصمة من أسبابه، ومغفرة ما وقع منه، مما هو مقتض للعذاب.

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: لازماً دائماً غير مفارق، بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه. وصفهم بإحياء الليل ساجدين قائمين، ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذاناً بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون متضرعون إلى الله في صرف العذاب عنهم.

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: بئست جهنم منزلاً، وبئس المستقر، وبئس المقام، فهم مع طاعتهم مشفقون خائفون من عذاب الله، وهذا الدعاء منهم، على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه. قال الحسن: خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرقاً من عذاب جهنم.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ هذا هو الوصف الخامس من أوصاف عباد الرحمن، والمعنى: ليسوا مبذرين في إنفاقهم في المطاعم والمشارب

وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ
ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ
يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ
فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا
فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ
إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ
بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا
لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ
وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ
حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي
لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴿٧٧﴾

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

٣٦٦

والملابس، ولا مقصرين ومضيقين، بحيث يصبحون بخلاء أشحاء.

﴿وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ أي: وكان إنفاقهم وسطاً معتدلاً بين الإسراف والتضييق عدلاً خياراً، ولاهذا ولاهذا. قال مجاهد: لو أنفقت مثل جبل أبي قبيس ذهباً في طاعة الله ما كان سرفاً، ولو انفقت صاعاً في معصية الله كان سرفاً، وقد أجمل حالتهم في أحسن حال وهم في حياتهم نموذج القصد والاعتدال والتوازن.

* لما فرغ سبحانه من ذكر المؤمنين وإتيانهم الطاعات، شرع في بيان اجتنابهم للمعاصي والمنكرات، فقال:

﴿٦٨﴾-﴿٧١﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا * يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ مدح ثان لهم، أي: والذين يوحدون الله، لا يعبدون معه تعالى إلها آخر، بل يوحدونه مخلصين له الدين، حنفاء، مقبلين عليه، معرضين عما سواه.

﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ ولا يقتلون النفس التي حرم الله قتلها، إلا بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو القتل قصاصاً.

﴿وَلَا يَزۡنُونَ﴾ ولا يرتكبون جريمة الزنى التي هي من أفحش الجرائم. ونفي هذه الكبائر عن عباده الصالحين تعريض لما كان عليه أعداؤهم من قريش، وغيرهم، كأنه قيل: والذين طهرهم الله مما أنتم عليه.

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ ومن يقترف تلك الموبقات العظيمة، من الشرك والقتل والزنى، يجد في الآخرة النكال والعقوبة، ثم فسرها بقوله:

﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ أي: يضاعف عقابه ويغلظ بسبب الشرك، وبسبب المعاصي، ويخلد في ذلك العذاب، حقيراً ذليلاً، أبد الآبدين.

ثم هو - الرحمن - يفتح باب التوبة لمن أراد أن ينجو من هذا المصير السيء، والنهاية المخزية.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ إلا من تاب في الدنيا من هذه المعاصي وغيرها، التوبة النصوح وآمن بالله إيماناً صحيحاً، يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات، وأحسن عمله ابتغاء مرضات الله وهذا من أعظم البشارة للتائبين، إذا اقترن بتوبتهم، إيمان وعمل صالح.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ أي: يكرمهم الله في الآخرة فيجعل مكان السيئات حسنات، وهذه قاعدة التوبة وشروطها، وفي الحديث: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها، رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول يا رب: قد عملت أشياء لا أرها ههنا»، قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه [رواه مسلم].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ واسع المغفرة لمن تاب، يكفر السيئات ويبدلها بالحسنات، كثير الرحمة بعباده، حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بأكبر المعاصي.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ ومن تاب عن المعاصي وأصلح سريرته، فإن الله يتقبل توبته، ويكون مرضياً عند الله تعالى، والمقصود من هذا، الحث على تكميل التوبة، وإيقاعها على أفضل الوجوه وأجلها.

* وتستمر الآيات الكريمة في ذكر صفات عباد الرحمن وسماتهم، قال تعالى:

﴿٧٢﴾-﴿٧٤﴾ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ هذا هو الوصف السابع من أوصاف عباد الرحمن، أي: لا يشهدون الشهادة الباطلة وهي: شهادة الزور، التي فيها تضييع لحقوق الناس. ولم يقل سبحانه «بالزور» لأن ﴿يَشْهَدُونَ﴾ بمعنى يحضرون، فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور، فكيف بالتكلم به، وفعله.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ وإذا مروا بمجالس اللغو - وهي الأماكن التي يكون فيها الكلام الذي لا خير فيه، ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم - نزهوا أنفسهم ومروا معرضين مكرمين أنفسهم عن أمثال تلك المجالس، وفي قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد، يكرمون أنفسهم عنه.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي: إذا وعظوا بآيات القرآن وخوفوا بها، لم يعرضوا ويتغافلوا عنها بل سمعوها، بآذان واعية، وقلوب وجلة، فيزداد إيمانهم، ويتم بها إيقانهم، وتحدث لهم نشاطاً، ويفرحون بها سروراً واغتباطاً، وفي الآية تعريض بالمشركين الذين ينكبون على آلهتهم وعقائدهم، كالصم والعميان لا يسمعون ولا يبصرون.

ثم ذكر ﷻ أن عباد الرحمن لا يكفيهم أنهم يبيتون لربهم سجداً وقياماً؛ بل يرجون أن تعقبهم ذرية تسير على نهجهم وتقتفي أثرهم، فتقرّ عيونهم وتطمئن بهم قلوبهم.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي: يسألون الله ﷻ بأن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له، فيكون ذلك لهم قرة عين، وفرح وسرور، تهنأ بها نفوسهم، ويكونون لك مطيعين منيبين، وليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله تعالى.

﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ واجعلنا قدوة يقتدي بنا المتقون، دعاة إلى الخير هداة مهتدين، وأوصلنا بفضلك إلى هذه الدرجة الرفيعة، والمكانة العالية. قال ابن عباس: أي أئمة يتقدى بنا في الخير.

ووحد سبحانه لفظ ﴿إِمَامًا﴾ ولم يقل واجعلنا للمتقين -أئمة- هو أن المتقين كلهم على طريق واحد؛ فدينهم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد ومعبودهم واحد، فكأنهم كلهم إمام واحد لمن بعدهم.

* ولما كانت هممهم عالية، ومطالبهم رفيعة، كان الجزاء من جنس العمل، فجازاهم بأحسن الجزاء وأوفره، وأكمله، قال تعالى:

﴿٧٥﴾-﴿٧٧﴾ ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أولئك المتصفون بالأوصاف الجليلة السابقة، ينالون الدرجات العالية، يوم القيامة، ويثابون أعلى المراتب والمنازل الرفيعة، وذلك برحمة الله، وبسبب صبرهم على أمر الله وطاعتهم له سبحانه والغرفة: كل بناء مرتفع عال.

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ويُلقون في الجنة بالتحية والسلام من الملائكة الكرام، والحياة الطيبة والسلامة من الآفات، ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات، مقيمين في ذلك النعيم، لا يموتون ولا يخرجون من الجنة؛ لأنها دار الخلود.

﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: ما أحسنها مقرّاً وأطيبها منزلاً لمن اتقى الله. ثم بين سبحانه أنه غني عن طاعة الكل، وإنما كلفهم لينتفعوا بالتكليف.

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ قل لهم - يا محمد -: إن الله ﷻ لا يكترث ولا يبالي ولا يحفل بكم أيها الناس، لولا تضرعكم إليه، واستغاثتكم إياه في الشدائد ودعاؤكم له، وقيامكم بحقه وعبادته، فهو سبحانه لم يخلقكم إلا لعبادته، وفي التعبير سند للرسول ﷺ وإعزاز.

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ فقد كذبتم أيها الكافرون بالرسول والقرآن، فسوف يكون العذاب ملازماً لكم في الآخرة، وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين.

تم تفسير سورة الفرقان

والحمد لله

تفسير سورة الشعراء
وهي مكية

* سورة الشعراء سورة مكية، مقدمتها حول القرآن الكريم، وخاتمتها حول القرآن الكريم، وبين المقدمة والخاتمة قصص سبع من الأمم بعث فيها الأنبياء فكذبت أنبياءها فهلكت.

سميت سورة الشعراء؛ لأن الله تعالى ذكر فيها أخبار الشعراء، وذلك للرد على المشركين في زعمهم أن محمداً كان شاعراً، وأن ما جاء به من قبيل الشعر، فرد الله عليهم ذلك الكذب والبهتان.

ابتدأت السورة الكريمة بالإشارة إلى هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله هداية للخلق، ونوراً وهدى وشفاء، وذكر موقف المشركين منه، فقد كذبوا به مع وضوح آياته، وسطوع براهينه، وطلبوا معجزة أخرى غير القرآن الكريم، عناداً واستكباراً، قال تعالى:

(١)-(٩) ﴿طسٓمٓ * تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ * إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ * وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ * فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ * أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿طسٓمٓ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، وأنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ أي: هذه آيات القرآن الواضح الجلي، الظاهرة إعجازه لمن تأمله، الفاصل بين الهدى والضلال.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ لعلك ـ يا محمد ـ قاتل نفسك ومهلكها من شدة حرصك على هدايتهم، وشاق عليها لعدم إيمان هؤلاء الكفار، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الهداية بيد الله، وقد أديت ما عليك من التبليغ، وفيه تسلية للرسول عليه السلام وتهوين الأمر عليه؛ حتى لا يحزن ولا يتأثر على عدم إيمانهم.

﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ﴾ أي: لو شئنا لأنزلنا على المكذبين آية من السماء تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكن قد سبق القضاء بأنا لا ننزل ذلك.

﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ فنظل أعناقهم منقادة خاضعة للإيمان قسراً وقهراً، ولكن لانفعل؛ لأنا نريد أن يكون الإيمان اختياراً لا اضطراراً، والمعنى لا تحزن على عدم إيمانهم فلو شئنا إيمانهم لأنزلنا معجزة تأخذ بقلوبهم فيؤمنون قهراً عليهم، ولكن سبق في علمنا شقاؤهم.

الجُزْءُ التَّاسِعَ عَشَرَ سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا
يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ
أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ
إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ
بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ
كَرِيمٍ ٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٨ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٩ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ١١ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ
أَن يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ
إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤ قَالَ
كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ١٥ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ
فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ
١٧ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ
١٨ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩

٣٦٧

﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ وما يأتي هؤلاء الكفار شيء من القرآن، أو الوحي منزل من عند الرحمن، يأمرهم وينهاهم، ويذكرهم بما ينفعهم ويضرهم.

﴿مُحۡدَثٍ﴾ أي: جديد في النزول، ينزل وقتاً بعد وقت.

﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾ إلا كذبوا به واستهزؤوا، وأعرضوا عنه بقلوبهم وأبدانهم، ولم يتأملوا بما فيه من المواعظ والعبر.

﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فقد بلغوا النهاية في الإعراض والتكذيب بالقرآن، وصار التكذيب لهم سجية، لا تتغير ولا تتبدل، فسوف يأتيهم أخبار ما كذبوا واستهزؤوا به.

الجُزْءُ التَّاسِعَ عَشَرَ سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ
فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ
تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ
﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ
﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ
﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ
﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾
وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ
إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم
بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ
حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ
لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

٣٦٨

ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه، وجلالة قدره في مخلوقاته ومصنوعاته، الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ **أي: أكذبوا ولم ينظروا إلى عجائب الأرض، كم أخرجنا فيها من كل نوع حسن محمود، نافع من النبات، كثير الخير والمنفعة؟ والاستفهام للتوبيخ على تركهم الاعتبار والتفكر.**

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ **إن في ذلك الإنبات من الأرض لآية باهرة، تدل على وحدانية الله وقدرته على إحياء الموتى بعد موتهم، كما أحيا الأرض بعد موتها.**

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ **وما كان أكثر القوم يؤمن في علم الله تعالى، فمع ظهور الدلائل الساطعة يستمر أكثرهم على كفرهم.**

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ **أي: هو سبحانه الغالب القاهر، القادر على الانتقام ممن عصاه، الرحيم بخلقه حيث أمهلهم ولم يعجل لهم العقوبة مع قدرته عليهم، قال أبو العالية: العزيز في نقمته ممن خالف أمره وعبد غيره، الرحيم بمن تاب إليه وأناب.**

*** أعاد تعالى قصة موسى وثناها في القرآن ما لم يثن غيرها، لكونها مشتملة على حكم عظيمة وعبر، وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن، وفي الآيات طمأنة الرسول ﷺ وتسليته عما يلقاه من إعراض المشركين وتكذيبهم، قال تعالى:**

﴿١٠﴾-﴿٢٢﴾ ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ * وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ **أي: واذكر - يا محمد - لأولئك المعرضين المكذبين من قومك، حين نادى ربك نبيه موسى من جانب الطور الأيمن ونبأه وأرسله، أن يذهب إلى فرعون وملئه.**

﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **أي: بأن ائت هؤلاء الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، واستعباد الضعفاء من بني إسرائيل، وعلو على أهلها، وادعى كبيرهم الربوبية.**

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ **أي: هم قوم فرعون، وهو عطف بيان كأن القوم الظالمين، وقوم فرعون شيء واحد.**

﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ **أي: قل لهم، بلين قول، ولطف عبارة، ألا يخافون مغبة ظلمهم، ألا يخشون عقاب الله؟ الذي خلقكم ورزقكم، وفيه تعجيب من غلوهم في الظلم وإفراطهم في العدوان.**

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ **قال موسى: يا رب بأني أخاف أن يكذبوني في أمر الرسالة. والخوف: غم يلحق الإنسان لأمر سيقع.**

ودل على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء، ومع معرفتهم بالله. وهذا خوف طبيعي يدفع بالتوكل والعزم.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ **أي: ويملأ صدري الغم من تكذيبهم إياي، ولا ينطلق لساني بأداء الرسالة على الوجه الكامل.**

﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ فأرسل إلى هارون ليعينني وليؤازرني على تبليغ رسالتك. قال المفسرون: التمس موسى العذر بطلب المعين بثلاثة أعذار كل واحد منها مرتب على ما قبله؛ وهي: خوف التكذيب، وضيق الصدر، وعدم انطلاق لسانه وحبسه، ثم زاد اعتذاراً آخر بقوله:

﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ أي: ولفرعون وقومه عليَّ دعوى ذنب، وهو أني قتلت منهم قبطيّاً، فأخاف أن يقتلوني به قصاصاً، وفيه دليل على أن الخوف قد يحصل مع الأنبياء فضلاً عن الفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله، وأن لا فاعل إلا هو، إذ قد يسلِّط من شاء على من يشاء، ولكن هذا خوف طبيعي يدفع بالتوكل والعزم.

﴿قَالَ كَلَّاۖ﴾ أي: قال الله تعالى لموسى: لا تخف من شيء من ذلك، وهو ردع وزجر عن هذا الظن، وأمر بالثقة بالله تعالى أي: ثق بالله وانزجر عن خوفك منهم فإنهم لايقدرون على قتلك، ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى، مع منابذته له غاية المنابذة، وتسفيه رأيه، وتضليله وقومه.

﴿فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ أي: وقد أجبت طلبك في هارون اذهب أنت وهارون بالبراهين والمعجزات الباهرة الدالة على صدقكما، وصحة ما جئتما به، فأنا معكما بالعلم والعون والنصرة، أسمع ما تقولان وما يجيبكما به، وصيغة الجمع «معكم» أريد به التثنية، فكأنهما لشرفهما عند الله عاملهما في الخطاب معاملة الجمع، تشريفاً لهما وتعظيماً.

﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فائتيا فرعون الطاغية، وقولا له: إنا مرسلان من عند رب العالمين إليك لتؤمن به وبنا، وتنقاد لعبادته، وتذعن لتوحيده.

﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: فكف عنهم عذابك، وارفع عنهم يدك ليعبدوا ربهم ويقيموا أمر دينهم.

فلما جاءا فرعون، وقالا له ماقال الله لهما، لم يؤمن فرعون، ولم يلن وجعل يعارض موسى.

﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾ في الكلام حذف يدل عليه، المعنى تقديره: فأتياه فبلغاه الرسالة، فقال فرعون لموسى عندئذ ممتناً عليه: ألم نربك في منازلنا صبياً صغيراً؟ قصد فرعون بهذا الكلام المنَّ على موسى والاحتقار له، كأنه يقول: ألست أنت الذي ربيناك صغيراً وأحسنا إليك.

﴿وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ومكثت بين ظهرانينا سنين عديدة، نحسن إليك ونرعاك؟ فمتى كان هذا الذي تدعيه؟ قال مقاتل: ثلاثين سنة.

﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾ فجازيتنا على أن ربيناك أن كفرت نعمتنا، وقتلت منا نفساً حين ضربته ودفعته، والتعبير بالفعلة لتهويل الواقعة وتعظيم الأمر، ومراده قتل القبطي.

﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وأنت من الجاحدين لإنعامنا، الكافرين بإحساننا. قال ابن عباس: من الكافرين لنعمتي، إذ لم يكن فرعون يعلم ما الكفر.

﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال موسى: فعلت تلك الفعلة، وأنا من المخطئين الجاهلين، لأنني لم أتعمد قتله وكنت أردت تأديبه، ولم يقصد ﷺ الضلال عن الهدى؛ لأنه معصوم منذ الصغر.

﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ﴾ فهربت إلى أرض مدين، ومكثت سنين، حين خفت على نفسي أن تقتلوني، وتؤاخذوني بما لا أستحقه.

﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ فأعطاني الله النبوة والحكمة والعلم والفهم، واختارني رسولاً إليك، فإن آمنت سلمت، وإن جحدت هلكت.

﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: كيف تمن عليَّ بإحسانك إليَّ وقد استعبدت قومي؟ وجعلتهم لك بمنزلة العبيد، وأنا قد أسلمتني من تعبيدك وتسخيرك، وجعلتها عليَّ نعمة، فما تعده نعمة ما هو إلا نقمة. قال ابن كثير: المعنى ما أحسنت إليَّ وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماً، أفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم.

* لما سمع فرعون قول موسى وهارون ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال مستفسراً لهما عن ذلك، عازماً على الاعتراض لما قالاه، تمرداً وطغياناً وجحوداً.

٢٣-٢٨ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال فرعون متعالياً متكبراً: من هو هذا الذي تزعم أنه رب العالمين؟ هل هناك إله غيري؟ مع تيقن صحة ما دعاه إليه موسى.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ قال موسى مجيباً له على وفق سؤاله: هو خالق السموات والأرض، والمتصرف فيهما بالإحياء والإعدام، وهو الذي خلق الأشياء كلها من بحار وقفار، وجبال وأشجار، ونبات وثمار، وغير ذلك من المخلوقات البديعة.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة، فهذا أمر ظاهر جلي، فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته، قائلاً لهم على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أي: قال فرعون لمن حوله من أشراف قومه لعله يصرفهم عن التأثر به: ألا تسمعون جواب موسى وتعجبون من أمره؟ أسأله عن حقيقة الله فيجيبني عن صفاته، فلا عهد لنا به، ولا قاله أحد نعرفه، فأجاب موسى وزاد في البيان والحجة.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال موسى: الرب الذي أدعوكم إليه هو الذي خلقكم وخلق آباءكم الأولين، فكيف تعبدون من هو مخلوق مثلكم. وبعد أن ذكر دليل خلق السموات والأرض، ذكر الدليل الخاص؛ لأن دليل الأنفس أقرب من دليل الآفاق، وأوضح عند التأمل فعند ذلك غضب فرعون معانداً للحق، قادحاً بمن جاء به.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ قال فرعون لخاصته، مستهزئاً بموسى، يستثير غضبهم لتكذيب موسى إياه: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون لا عقل له، أسأله عن شيء فيجيبني عن شيء، وأضافه إلى المخاطبين استنكافاً من نسبته له، فلم يحفل موسى بسخرية فرعون، وعاد إلى تأكيد الحجة بتعريف ثالث أوضح من الثاني، ولم يشتغل موسى بدفع ما نسبه إليه فرعون من الجنون، بل بين لفرعون شمول ربوبية الله سبحانه للمشرق والمغرب، وما بينهما.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: قال موسى: هو تعالى الذي يطلع الشمس من المشرق ويجعلها تغرب من المغرب، وهذا مشاهد كل يوم يبصره العاقل والجاهل، ولهذا قال:

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: إن كان لكم عقول أدركتم أن هذا لا يقدر عليه إلا رب العالمين، وهذا من أبلغ الحجج التي تقصم ظهر الباطل.

* ولما انقطع فرعون وأبلس في الحجة ودفعه موسى بالآيات البينات والحجج الواضحات رجع إلى الاستعلاء متوعداً بالبطش والعنف.

٢٩-٣٧ ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾.

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ أي: لئن اتخذت رباً غيري لألقينك في غياهب السجن. قال المفسرون: وكان سجنه شديداً يحبس الشخص في مكان تحت الأرض وحده لا يبصر ولا يسمع فيه أحداً حتى يموت، ولهذا لم يقل: «لأسجننك» وإنما قال: لأجعلنك ممن عرفت حالهم في سجوني؛ لأن سجنه

كان أشد من القتل، قال المفسرون: لما أظهر فرعـون الجهل بالله فقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أجابه موسـى بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقال: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ تعجبـاً من جوابه، فزاد موسـى في إقامـة الحجة بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ لأن وجـود الإنسـان وآبائـه أظهر الأدلة عند العقلاء، وأعظم البراهين، فـإن أنفسـهم أقرب الأشـياء إليهم فيستدلون بها على وجود خالقهم، فلما ظهرت هذه الحجـة حاد فرعون عنها ونسب موسى إلى الجنون مغالطة منه، وأيده بـالازدراء والتهكم في قوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ لأن طلوع الشمس وغروبها آية ظاهرة لا يمكن أحد جحدها ولا أن يدعيها لغـير الله، فلما انقطـع فرعون بالحجة رجع إلى الاسـتعلاء والتغلب فهدده بالسـجن، فأقام موسـى عليه الحجة بالمعجزة وذكرهـا له بتلطف طمعاً في إيمانه، وإرخاء لعنان المناظرة معه.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ أي: قال موسى لفرعون: أتسجنني، ولو جئتك بأمر ظاهر، وبرهان قاطع تعرف به صدقي؟ وإنما قال ذلك موسـى؛ لأن من أخلاق الناس السكون إلى الإنصاف والإجابة إلى الحق بعد البيان.

﴿قَـالَ فَأْتِ بِـهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِـينَ﴾ قال فرعـون: فأت بما تقول، إن كنت صادقاً في دعواك.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَـإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِـينٌ﴾ أي: رمـى موسـى عصاه فإذا هـي حية عظيمـة في غاية الجلاء والوضـوح، ذات قوائـم، وفم كبير، وشـكل هائل مزعـج، لا خيال ولا تشبيه كما يفعل السحرة.

﴿وَنَـزَعَ يَـدَهُۥ فَـإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ وأخرج يـده من جيبه، فإذا هي تتلألأ كالشـمس السـاطعة، لها نور عظيم، يكاد يعشي الأبصار، ويسد الأفق.

﴿قَالَ لِلْمَـلَإِ حَـوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ قال فرعون لأشراف قومه الذين كانوا حوله معارضاً للحق ومن جاء به، وخوفاً أن يؤمنوا. إن هذا لساحر عظيم بارع في فن السحر؛ لأنه من المتقرر عندهم، أن السـحرة يأتون من العجائب بما لا يقدر عليه الناس، أراد أن يُعمـي على قومه تلك المعجزة برميه بالسـحر، خشـية أن يتأثروا بما رأوا، ثم أغوى قومه على موسى بقوله:

﴿يُرِيـدُ أَن يُخْرِجَكُـم مِّـنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي: يريـد أن يسـتولي عـلى بلادكم بسـحره العظيم، فبأي شيء تأمروني، وبم تشيرون عليَّ أن أصنع به؟

لما رأى فرعون تلك الآيات الباهرة خـاف على قومـه أن يتبعـوه، فتنزل إلى مشـاورتهم بعد أن كان مسـتبداً بالرأي والتدبير، تألفاً لهم، واستجلاباً لمودتهم، وقد كان مـن قبل يدعي أنه إلههم ويذعنـون له بذلك، ويصدقونه في دعواه، فمتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون!

﴿قَالُـوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَـاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِـنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي: أخر أمرهما ولا تباغت قتلهـما خوفاً مـن الفتنة، وأرسـل في أطراف مملكتك من يجمع لك السحرة المهرة، من كل مكان؛ لأن الساحر يُقابل بسحر من جنس سحره.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ يجيئوك بكل ساحر ماهر، عليم بضروب السحر، وجاؤا بكلمة الإحاطة وصيغة المبالغة ليسكنوا بعض روعه وقلقه. قال ابن كثير: وكان هذا من تسخير الله تعالى ليجتمع الناس في صعيد واحد، وتظهر آيـات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة.

* ومن لطف الله وتدبيره أن يجمع فرعون هذه الأمة من الناس والسحرة، ويري سـبحانه العباد بطلان ما موّه به فرعون الضال المضل، فكان أن قامت الحجـج والبراهين بكذب مـا ادعاه وظهر الحق وبان، قال تعالى:

﴿٣٨﴾-﴿٤٨﴾ ﴿فَجُمِـعَ ٱلسَّـحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَـلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُـونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّـحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُـمُ ٱلْغَٰلِبِينَ * فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّـا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُـم مُّوسَىٰٓ أَلْقُـوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُـونَ * فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُـوا۟ بِعِـزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّـا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُـونَ * فَأَلْقَىٰ مُـوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِىَ

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ
﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ
لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ
إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ
أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ
﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

٣٦٩

ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ * قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ **أي: فاجتمع السحرة للموعد الذي حدده موسى، وهو وقت الضحى من يوم الزينة، وهو يوم يتفرغون فيه من أشغالهم، ليظهر الحق ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد.**

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ **أي: نودي بعموم الناس بالاجتماع والمبادرة إليه، وبرروا ذلك بقولهم: لكي نتبع السحرة في دينهم إن غلبوا موسى وليس غرضهم هذا، وإنما الغرض الكلي أن لا يتبعوا موسى.**

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ **فلما وصل السحرة إلى مجلس فرعون قالوا له: إن غلبنا بسحرنا موسى فهل تكرمنا بالمال والأجر الجزيل؟**

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ **أي: قال لهم فرعون: نعم أعطيكم ما تريدون، وأجعلكم من المقربين عندي، ومن خاصة جلسائي، قال ذلك ليزدادوا نشاطاً، ويأتوا بكل مقدورهم في معارضة ما جاء به موسى.**

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ **في الكلام إيجاز دل عليه السياق، تقديره: فقالوا لموسى عند ذلك إما أن تلقي، وإما أن نكون نحن الملقين كما ذكر في سورة الأعراف، فأجابهم موسى بقوله: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ أي: ابدؤوا بإلقاء ما تريدون من السحر، فأنا لا أخشاكم، ولم يقيده بشيء دون شيء، لجزمه ببطلان ما جاؤوا به من معارضة الحق، ثقة بنصر الله له وتوسلاً لإظهار الحق.**

﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ **فألقوا ما بأيديهم من الحبال والعصي، فإذا هي حيات تسعى، وسحروا بذلك أعين الناس، وقالوا عند الإلقاء: نقسم بعظمة فرعون وسلطانه إنا نحن الغالبون لموسى، استعانوا بعزة عبد ضعيف، عاجز من كل وجه وهو من أيمان الجاهلية.**

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ **فألقى موسى العصا، فانقلبت حية عظيمة، فإذا هي تبتلع وتزدرد الحبال والعصي التي اختلقوها باسم السحر، حيث خيلوها للناس حيات تسعى، وهي إفك وكذب وزور.**

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ **أي: سجدوا لله رب العالمين، بعدما شاهدوا البرهان الساطع، والمعجزة الباهرة، وتيقنوا لعلمهم أن هذا ليس بسحر، بل هي معجزة، تنبئ بصدق موسى، وصحة ما جاء به.**

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ **أي: وقالوا عند سجودهم آمنا بالله العزيز الكبير الذي يدعونا إليه موسى وهارون، قال الطبري: لما تبين للسحرة أن الذي جاءهم به موسى حق لا سحر، وأنه مما لا يقدر عليه غير الله الذي فطر السموات والأرض، خرّوا لوجوههم سجداً لله مذعنين له بالطاعة، قائلين: آمنا برب العالمين الذي دعانا موسى لعبادته، دون فرعون وملئه، قال عكرمة: أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء.**

*** وعندما قامت الحجة ووضح البرهان، وسجدوا لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق، عمد فرعون إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعدهم:**

﴿٤٩﴾-﴿٥١﴾ ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: قال فرعون للسحرة متعجباً من جراءتهم عليه، وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه وأمره: آمنتم لموسى قبل أن تستأذنوني؟

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ إنه رئيسكم الذي تعلمتم منه السحر، وتواطأتم معه ليظهر أمره، أراد فرعون بهذا الكلام التلبيس على قومه لئلا يعتقدون أن السحرة آمنوا عن بصيرة وظهور حق، وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل، ثم توعدهم بقوله:

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: سوف تعلمون عند عقابي وبال ما صنعتم من الإيمان به. أجمل التهديد أولاً للتهويل، ثم صرح به فقال:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: لأقطعن يد كل واحد منكم اليمنى ورجله اليسرى، كما يفعل بالمفسد في الأرض.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولأصلبن كل واحد منكم على جذع شجرة وأتركه حتى الموت، كأنه أراد به ترهيب العامة لئلا يتبعوهم في الإيمان. فقال السحرة حين وجدوا حلاوة الإيمان، وذاقوا لذته.

﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: لا ضرر علينا ولا حرج في وقوع ما أوعدتنا به في الدنيا، ولا نبالي به؛ لأننا نرجع إلى ربنا مؤملين غفرانه.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ إنا نرجو أن يغفر لنا الله ذنوبنا التي سلفت منا قبل إيماننا به فلا يعاقبنا بها.

﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بسبب أن بادرنا قومنا إلى الإيمان، وكنا أول من آمن بموسى.

* ذكر الله ﷻ في هذه السورة سبع قصص: أولها: قصة موسى وهارون، وثانيها: قصة إبراهيم، وثالثها: قصة نوح، ورابعها: قصة هود، وخامسها: قصة صالح، وسادسها: قصة لوط، وسابعها: قصة شعيب، وكل تلك القصص لتسلية الرسول ﷺ عما يلقاه من المشركين وشد لأزره للقيام بتبليغ الرسالة.

ولا تزال الآيات تتحدث عن قصة موسى عليه السلام فإنه لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر، وبعد هذه الأحداث العظام وظهور الحق وانبلاجه لفرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون، آن لبني إسرائيل أن ينجيهم الله من أسرهم، ويمكن لهم في الأرض، ويري فرعون العذاب والنكال، قال تعالى:

﴿٥٢﴾-﴿٥٩﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ أي: أمر الله سبحانه موسى بطريق الوحي أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً إلى جهة البحر وسماهم عباده لأنهم آمنوا بموسى، وبما جاء به، وعلل الأمر بالإسراء، بقوله:

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي: يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم إلى أرض مصر ويقتلوكم. ووقع الأمر كما أوحى الله ﷻ فإنهم لما أصبحوا، وإذا بنوا إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي: فلما بلغ فرعون مسيرهم أرسل في طلبهم، وأمر أن يجمع له الجيش من كل المدن، قائلاً لهم ومهوناً الأمر:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي: بنوا إسرائيل لطائفة وعصابة حقيرة قليلة العدد، قال الطبري: كان بنو إسرائيل ستمائة وسبعين ألفاً، ولكنه قللهم بالنسبة إلى كثرة جيشه.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ وإنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا، ونريد أن ننفذ غيظنا في هؤلاء العبيد الذي أبقوا وهربوا منا، ومن خدمتنا وطاعتنا.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ أي: ونحن قوم متيقظون منتبهون، من

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾
قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ
ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ
﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ
﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾
وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ
﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ
يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟
بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ
تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ
إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ
يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى
يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى
يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾

٣٧٠

عادتنا التيقظ والحذر، واستعمال الحزم في الأمور، فنحن نحذر من غائلتهم، وهذه معاذير اعتذر بها إلى قومه لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه، قال تعالى:

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ فأخرج الله فرعون وقومه في جيش عظيم، ونفير عام، لم يتخلف منهم سوى أهل الأعذار الذين منعهم العجز، تاركين وراءهم بساتين مصر وجنانها الفائقة، وعيونها المتدفقة، وزروع قد ملأت أراضيهم، وعمرت بها حاضرتهم وبواديهم.

﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي: وأخرجناهم من الأموال التي كنزوها من الذهب والفضة، ومن المنازل الحسنة والمجالس البهية.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: مثل ذلك الإخراج الذي وصفناه فعلنا بهم، وأورثنا بني إسرائيل ديارهم وأموالهم، بعد إغراق فرعون وقومه.

* ثم تستمر الآيات في ذكر سياق ما يجرى من الأحداث والوقائع، بعد إعلان التعبئة العامة والنفير العام من فرعون وقومه، قال تعالى تتمة لما جرى:

﴿٦٠﴾-﴿٦٨﴾ ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي: أسرى موسى بعباد الله، بوحي من الله وتدبير، فلحق قوم فرعون، قوم موسى وقت شروق الشمس، وساقوا خلفهم محثين، على غيظ وحنق وبطر.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: فلما رأى كل منهما الآخر وشاهده، والمراد جمع موسى وجمع فرعون.

﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي: ملحقون، يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا، قالوا ذلك حين رأوا فرعون الجبار وجنوده وراءهم، والبحر أمامهم، وساءت ظنونهم، قالوا ذلك شاكين لموسى وحزنين.

في الآيات السابقة قال: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ فسماهم بالاسم الشريف، وقال عنهم: ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.

﴿قَالَ كَلَّآ﴾ قال موسى مثبتاً لهم، ومخبراً لهم بوعد ربه الصادق: كلا لن يدركوكم، فارتدعوا عن مثل هذا الكلام وانزجروا.

﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ إن ربي معي بالحفظ والنصرة، وسيهديني إلى طريق النجاة والخلاص. قوى نفوسهم بأمرين: أحدهما أن ربه معه، وهذا دلالة النصرة والتكفل بالمعونة، والثاني قوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: إلى طريق النجاة والخلاص، وإذا دله على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية في النصرة.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: أمرنا موسى بطريق الوحي أن يضرب البحر بعصاه.

﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: فضربه، فانشق، وانفلق، فكان كل جزء منه كالجبل الشامخ الثابت، وصار فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبط منهم طريق.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أي: وقربنا هنا فرعون وجماعته حتى دخلوا البحر على إثر دخول بني إسرائيل.

﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾ وأنجينا موسى والمؤمنين معه جميعاً من الغرق، لما استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد.

﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ أي: أغرقنا فرعون وقومه، قال المفسرون: لما انفلق البحر جعله الله يبساً لموسى وقومه، وصار فيه اثنا عشر طريقاً ووقف الماء بينها كالطود العظيم، فلما خرج أصحاب موسى وتكامل دخول أصحاب فرعون أمر الله البحر أن يطبق عليهم فغرقوا فيه، فقال بعض أصحاب موسى: ما غرق فرعون! فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ إن في إغراق فرعون وقومه لعبرة عظيمة على إنجاء الله لأوليائه، وإهلاكه لأعدائه، وصدق ما جاء به موسى عليه السلام، وبطلان ما عليه فرعون وقومه.

﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: ومع مشاهدة هذه الآية العظمى لم يؤمن أكثر البشر، لفساد قلوبهم، وفيه تسلية للنبي ﷺ، ووعيد لمن عصاه واستنكف عن طاعته.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه، بعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجى موسى ومن معه أجمعين.

* مضت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه، وانتهت بتلك النهاية، وفيها البشرى للمؤمنين المستضعفين المضطهدين ـ كما كانت القلة المؤمنة يومذاك في مكة ـ، ثم تناولت الآيات قصة الخليل إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء، وموقفه من قومه وأبيه في عبادتهم للأوثان والأصنام، ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبري من الشرك وأهله، وقد أظهر لهم بقوة حجته، ونصاعة بيانه، بطلان ما هم عليه من عبادة ما لا يسمع ولا ينفع، وأقام لهم الأدلة القاطعة على وحدانية رب العالمين، الذي بيده النفع والضر، والإحياء والإماتة.

(٦٩-٧٧) ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ * إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ * قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ * قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ * أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ * قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ * قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ * أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ * فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ هذه بداية قصة إبراهيم. أي: أقصص على كفار مكة ـ يا محمد ـ خبر إبراهيم المهم وشأنه العظيم، الذين يزعمون أنهم يتبعون دينه، أتله عليهم، وإبراهيم عليه السلام يستنكر ما كان يعبده أبوه وقومه من أصنام كالتي يعبدها مشركو مكة.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ أي: حين قال لأبيه وعشيرته، أيَّ شيء تعبدون؟ سألهم مع علمه بأنهم يعبدون الأصنام، ليبين لهم سفاهة عقولهم في عبادة ما لا ينفع، ويقيم عليهم الحجة، وقدم أبيه على قومه لحقه في الدعوة ومبالغة في أن الرابطة هي رابطة العقيدة.

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ أي: نعبد أصناماً فننحتها ونعملها بأيدينا، فنبقى مقيمين على عبادتها لا نتركها، قالوا ذلك على سبيل الابتهاج والافتخار، وكان يكفيهم أن يقولوا: نعبد الأصنام ولكنهم زادوا ﴿نَعۡبُدُ﴾ في الجواب كالمفتخر بما يصنع.

﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ﴾ قال لهم إبراهيم على سبيل التبكيت والتوبيخ، ومبيناً لهم عدم استحقاقها للعبادة: هل يسمعون دعاءكم حين تلجؤون إليهم بالدعاء؟

﴿أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ أو هل يبذلون لكم منفعة إن عبدتموها، أو يدفعون عنكم مضرة إن تركتم عبادتها؟ ولما لم يجدوا جواباً صواباً وحاروا فيه.

﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ أي: وجدنا آباءنا يعبدونهم ففعلنا مثلهم وسلكنا سبيلهم، اعترفوا بأنها لا تنفع ولا تضر بالمرة، واضطروا إلى إظهار الحقيقة وهي أنه لا سند لهم سوى التقليد، وهذا من علامات انقطاع الحجة، وفيه إبطال التقليد في الدين.

﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾ أي: قال إبراهيم: أفأبصرتم بتدبر هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله أنتم وآباؤكم الأولون، وهي لا تسمع ولا تنفع ولا تضر؟

﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فإن هذه الأصنام أعداء لي لا أعبدهم،

وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ
يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ
﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ
أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ
أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ
قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

ولكن أعبد الله رب العالمين فهو وليي في الدنيا والآخرة، أسند العداوة لنفسه تعريضاً بهم، وهو أبلغ في النصيحة من التصريح.

* ثم بدأ يعدد بعضاً من آلاء الله ونعمه، وإظهار مقدرته وعظم فضله، وصلته به في كل حال، وفي كل حين:

﴿٧٨﴾-﴿٨٢﴾ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي: الله الذي خلقني في أحسن صورة، وهو الذي يرشدني إلى مصالح الدنيا والدين، لا هذه الأصنام، ثم خصص منها بعض الضروريات، فقال:

﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ وهو تعالى الذي ينعم عليَّ بالطعام والشراب، فهو الخالق الرازق الذي ساق المزن، وأنزل المطر، وأخرج به أنواع الثمرات رزقاً للعباد، أضاف الإطعام إلى وليِّ الإنعام، لأن الركون إلى الأسباب عادة الأنعام.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وإذا أصابني المرض فإنه لا يقدر على شفائي ولا يعافيني منه أحد غيره، وإنما أسند المرض إلى نفسه واسند الشفاء إلى الله رعاية للأدب، وإلا فالمرض والشفاء من الله ـ جل وعلا ـ فاستعمل في كلامه حسن الأدب.

﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ وهو تعالى المحيي المميت لا يقدر على ذلك أحد سواه، يميتني إذا شاء، ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي، وكل هذه دلائل قاطعة، وحجج باهرة، لا تقدرون أنتم وآباؤكم على معارضتها وإنكارها، ثم بعد أن عدد بعضاً من نعمه وآلائه وفضله اتجه إليه بالضراعة والدعاء:

﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: أرجو من واسع رحمته أن يغفر لي ذنبي يوم الحساب والجزاء، حيث يجازي العباد بأعمالهم، وفيه تواضع الأنبياء لربهم وهضم لأنفسهم وتعليم للأمة أن يستغفروا من ذنوبهم، ويقروا بخطاياهم.

* ثم لما ذكر دلائل وحدانية الله وقدرته وعظمته، توجه إليه بالدعاء والتضرع والاستكانة، فقال:

﴿٨٣﴾-﴿٨٩﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ * وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ * وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ * وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: ربي امنحني الفهم، والعلم، وألحقني في زمرة عبادك الصالحين، ولقد أجابه حيث قال تعالى: وإنه في الآخرة لمن الصالحين.

﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ واجعل لي ذكراً حسناً وثناءً عاطراً، وقبولاً عامّاً في الأمم التي تجيء بعدي إلى يوم القيامة، أذكر به ويقتدى بي، فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم، ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوباً مقبولاً، معظماً مثنى عليه، في جميع الملل، في كل الأزمان. إذ ليس أحد يصلي على النبي ﷺ إلا وهو يصلي على إبراهيم وخاصة في الصلوات، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات.

﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: من السعداء في الآخرة، الذين يستحقون ميراث جنان الخلد، فأجاب الله دعاءه، فرفع منزلته في جنات النعيم.

﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾ أي: اصفح عنه واهده إلى الإيمان، وقال هذا قبل أن يتبين له أنه عدو الله.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: ممن ضل عن سبيل الهدى، وقد أجابه الله تعالى في جميع دعواته سوى الدعاء بالغفران لأبيه، وكان أبوه وعده أن يؤمن به فلذلك استغفر له، فلما بان له أنه لا يفي تبرأ منه.

﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: لا تذلني، ولا تهني، ولا تفضحني، يوم تبعث الخلائق للحساب، وفيه معرفة إبراهيم عليه السلام بهول اليوم الآخر، ومدى حيائه من ربه، وخشيته من الخزي أمامه، وخوفه من تقصيره، وهو النبي الكريم، وهذا تواضع منه أمام عظمة الله وجلاله، وإلا فقد أثنى الله عليه في آيات عدة.

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ أي: في ذلك اليوم العصيب لا ينفع أحدا فيه مال ولا ولد.

﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ أي: إلا من جاء ربه في الآخرة، بقلب نقي طاهر، سليم من الشرك والنفاق، والحسد والبغضاء؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال القرطبي: «خص القلب بالذكر؛ لأنه الذي إذا سلم؛ سلمت الجوارح، وإذا فسد: فسدت الجوارح». وإلى هنا تنتهي دعوات الخليل إبراهيم.

* ثم ذكر تعالى من صفات ذلك اليوم العظيم، الذي تتطاير فيه الصحف وترتجف الأفئدة، وما فيه من الثواب والعقاب، فقال:

﴿٩٠﴾-﴿١٠٤﴾ ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ * فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ * وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ * قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ * تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ * إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ * فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: قربت وأدنيت الجنة للمتقين ليدخلوها، وهم الذين اتقوا عقاب الله بطاعتهم إياه في الدنيا، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ وأظهرت النار للمجرمين الضالين، حتى رأوها بارزة أمامهم مكشوفة للعيان، فالمؤمنون يرون الجنة فتحصل لهم البهجة والسرور، والغاوون يرون جهنم، فتحصل لهم المساءة والأحزان.

﴿وَقِيلَ لَهُمۡ﴾ أي: قيل للمجرمين على سبيل التقريع والتوبيخ، في ذلك الموقف العصيب:

﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أين آلهتكم الذين عبدتموهم من الأصنام والأنداد؟ وتزعمون أنها تشفع لكم اليوم.

﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ هل ينقذونكم من عذاب الله، أو يستطيعون أن يدفعوه عن أنفسهم؟ وهذا كله توبيخ.

﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾ أي: فجمعوا وألقوا على رؤوسهم في جهنم، ورمي وطرح بعضهم على بعض، منكبين على وجوههم، الأصنام والمشركون والعابدون والمعبودون.

ولم يقل (فكبوا) وإنما كرر الكلمة دليلاً على التكرير في المعنى.

﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ﴾ وأتباع إبليس قاطبة من الإنس والجن، الذين أزهم إلى المعاصي أزّاً.

﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ﴾ قال جنود إبليس الغاوون معترفين بخطئهم لمعبوديهم وأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها، وهم في الجحيم يتنازعون ويتخاصمون ويجادل بعضهم بعضاً.

﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي: نقسم بالله، لقد كنا في ضلال واضح، وبعد عن الحق ظاهر.

﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: حين عبدناكم مع رب العالمين، المستحق للعبادة وحده، وجعلناكم مثله في استحقاق العبادة.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ وما أوقعنا في هذا المصير السيء، إلا الرؤساء والكبراء الذين زينوا لنا

قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ
لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ
﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ
رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن
مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ
﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ
أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتۡ
عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمۡ
رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ
مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ
ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾
وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ
﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ
﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾

٣٧٢

الكفر والمعاصي، ودعونا إلى عبادة غير الله فاتبعناهم.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾ أي: ليس لنا حينئذ من يشفع لنا من هول هذا اليوم، ولا صديق خالص الود، ينقذنا من عذاب الله. وإنما جمع الشافع لكثرة الشافعين، ووحد الصديق لقلته، قال الحسن: ما اجتمع ملأ على ذكر الله، فيهم عبدٌ من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم في بعض، وهم عند الله شافعون مشفّعون.

﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: لو أن لنا رجعة إلى الدنيا وعودة إليها، فنؤمن بالله ونحسن عملنا ونطيع ربنا، لنسلم من العقاب، ونستحق الثواب. هيهات هيهات، قد حيل بينهم وبين ما يشتهون، تلك أماني باطلة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾ أي: إن فيما ذكر من نبأ إبراهيم وقومه، وإقامة الحجج عليهم في التوحيد لعبرة ودلالة واضحة، يعتبر بها أولو الأبصار.

﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ وما كان أكثر هؤلاء المشركين الذين تدعوهم إلى الإسلام، وسمعوا هذا النبأ بمومنين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: العزيز الذي لا يغلب، المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه المؤمنين.

* لما قص تعالى على نبيه محمد ﷺ خبر موسى وإبراهيم، أتبعه بذكر قصة نوح، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد، وكل ذلك تسلية لرسول الله ﷺ فيما يلقاه من قومه، وبيان لسنة الله في عقاب المكذبين، قال تعالى:

﴿١٠٥﴾-﴿١١٠﴾ ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي: كذب قوم نوح رسولهم نوحاً، وإنما قال: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ لأن من كذب رسولاً فقد كذب الرسل، وقد بدأ ذكر قوم نوح نهاية الدعوة ثم تبدأ الآيات تفصل:

﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ﴾ أي: أخوهم في النسب، لا في الدين؛ لأنه كان منهم، وإنما ابتعث الله الرسل من نسب من أرسل إليهم، لئلا يأنفوا من الانقياد له؛ ولأنهم يعرفون حقيقته، فقال لهم مخاطباً بألطف خطاب، كما هي طريقة الرسل:

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ألا تخافون عقاب الله في عبادة الأصنام؟ فتتركون ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان، وتخلصون العبادة لله وحده.

﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ أي: مرسل من الله إليكم، وكونه رسولاً إليهم بالخصوص مدعاة إلى الإيمان به وشكر الله على ما خصهم به، ناصح، أمين في نصحي لا أخون ولا أكذب، ولا أتقوّل على الله، ولا أزيد في وحيه ولا أنقص.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به، وأنهاكم عنه، واجعلوا طاعة الله وقاية لكم من عذابه، وهذا ثمرة الاستجابة للرسول الأمين، خافوا عذاب الله وأطيعوا أمري.

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ أي: لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم ولا أطمع في ذلك منكم، فيكون هذا حاجزاً ومانعاً عن طاعتي.

﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ما أطلب ثوابي وأجري إلا من الله تعالى.

﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرره تأكيداً وتنبيهاً على أهمية الأمر الذي دعاهم إليه، وليقرره في نفوسهم مع تعليق كل واحد منها بعلة فعله، الأول: كونه أميناً فيما بينهم، وعلة الثاني: حسم طمعه منهم.

* وكعادة المكذبين والمعاندين، ردّوا على نوح بسؤال عجيب، يدل على الكبر والغطرسة والعناد، حيث لا مفر من الحقيقة.

﴿١١١﴾-﴿١١٥﴾ ﴿قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ أي: أنصدقك يانوح فيما تقول، وحالك ومن معك كما نرى والاستفهام للإنكار، وكيف نصدقك ونتبعك، والذين اتبعوك هم السفلة والفقراء والضعفاء؟ وهذا القول من سخافة عقلهم، وقصور رأيهم فقد قصروا الأمر على حطام الدنيا حتى جعلوا اتباع الفقراء له مانعاً عن اتباعهم وإيمانهم بدعوة نوح.

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال نوح ردّاً عليهم، ليس عليَّ أن أبحث عن خفايا ضمائرهم، وأن أنقب عن أعمالهم هل اتبعوني إخلاصاً أو طمعاً؟ والاعتبار بالإيمان لا بالحسب والنسب والحرف والصنائع، قال القرطبي: كأنهم قالوا: إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً في العزة والمال، فقال في جوابهم: إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إليّ ظاهرهم.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي: ما حسابهم وجزاؤهم إلا على الله، فإنه المطلع على السرائر والضمائر لو تعلمون ذلك، إنما عليَّ التبليغ، وأنتم دعوهم عنكم، إن كان ما جئتكم به الحق، فانقادوا له، وكل له عمله.

﴿وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لست بمبعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عني، ولا بطاردهم عن مجلسي، مهما تكن حالهم، تلبية لرغبتكم، وهذا مشعر بأنهم طلبوا منه ذلك كما طلب رؤساء قريش من رسول الله ﷺ أن يطرد من آمن من الضعفاء.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما أنا إلا نذير لكم من عذاب الله، أخوفكم بأسه وسطوته، فمن أطاعني نجا سواءً كان شريفاً أو وضيعاً، أو جليلاً أو حقيراً.

* ومع هذا البلاغ، استمر نوح عليه السلام على دعوتهم ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً، فلم يزدادوا إلا نفوراً، حين عجزوا عن المضي في قبول الحجة والبرهان، لجؤوا إلى الطغيان، قال تعالى حاكياً عنهم:

﴿١١٦﴾-﴿١٢٢﴾ ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ أي: لئن لم تنته يا نوح عن دعوى الرسالة، وتقبيح ما نحن عليه لتكونن من المرجومين بالحجارة، خوفوه بالقتل بالحجارة، وعدلوا من المحاورة إلى التهديد، فعند ذلك حصل اليأس لنوح من فلاحهم فدعا عليهم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ قال نوح، يا رب إن قومي أصروا على تكذيبي، ولم يؤمنوا بي، ولم يسمعوا قولي، فاحكم بيني وبينهم بما تشاء، واقض بيننا بحكمك العادل.

﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنقذني والمؤمنين معي، من مكرهم وكيدهم. فلما دعا ربه بهذا الدعاء استجاب له، فقال:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ فأنجينا نوحاً ومن معه من المؤمنين في السفينة المملوءة بالرجال والنساء والحيوان، وصنوف المخلوقات التي حملها معه.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أي: بعد إنجاء نوح ومن معه أغرقنا الباقين الذين لم يؤمنوا من قومه، وردوا عليه النصيحة.

إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ
فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٤٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ
قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣)
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦)
فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨)
وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ (١٤٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
(١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَآ أَنتَ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٥٤) قَالَ
هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟
نَٰدِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٥٩)

٣٧٣

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ إن في نجاة نوح وأتباعه، وهلاك من كذبه، لعبرة عظيمة لمن تفكر وتدبر، دالة على صدق رسلنا، وصحة ما جاؤوا به، وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون بهم.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وما أكثر الذين سمعوا هذه القصة بالله وبرسوله وشرعه، وما هم بمؤمنين ولا مصدقين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وإن ربك يا محمد لهو الغالب الذي لا يقهر، العزيز في انتقامه ممن كفر به وخالف أمره، الرحيم بالعباد، حيث لا يعاجلهم بالعقوبة.

* ثم شرع تعالى في ذكر قصة هود عليه السلام، وأنه دعا قومه عاداً، وكانوا يسكنون الأحقاف قريباً من حضرموت، وكان زمانهم بعد نوح، قال تعالى:

(١٢٣)-(١٣٥) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كذبت قبيلة عاد رسولهم هوداً عليه السلام، ومن كذب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين؛ لاتفاق الدعوة واتحادها في أصولها وغاياتها.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ أي: في النسب.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: قال لهم بلطف وحسن خطاب، ألا تخافون وتخشون عذاب الله وانتقامه، في عبادتكم لغيره.

﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: أمين على الوحي، ناصح لكم في الدين، أرسلني الله إليكم، رحمة بكم، واعتناء بكم.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فأدوا حق الله تعالى وهو التقوى فخافوا عذاب الله، وأدوا حقي وذلك أن تطيعوا أمري.

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: لا أطلب منكم على تبليغ الدعوة شيئاً من المال، إنما أطلب أجري من الله، كررت الآيات للتنبيه إلى أن دعوة الرسل واحدة.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ استفهام إنكاري، أتبنون بكل موضع مرتفع من الطريق بناء شامخاً كالعلم لمجرد اللهو والعبث؟ وتشرفون منه فتسخرون من الماره. قال ابن كثير: الريع المكان المرتفع، كانوا يبنون عند الطرق المشهورة بنياناً محكماً هائلاً باهراً لمجرد اللهو واللعب وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك؛ لأنه تضييع للزمان، وإتعاب للأبدان، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ وتتخذون قصوراً مشيدة محكمة ترجون الخلود في الدنيا كأنكم لا تموتون؟

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ وإذا اعتديتم على أحد، فعلتم فعل الجبارين من البطش والغلظة، دون رأفة أو رحمة، فعلتم ذلك قاهرين ظالمين، وإنما أنكر عليهم ذلك؛ لأنه صادر عن ظلم عادة الجبابرة المتسلطين. والجبار: الذي يقتل

ويضرب على الغضب، وقد وصفهم تعالى بثلاثة أمور: اتخاذ الأبنية العالية وهو يدل على السرف وحب العلو، واتخاذ المصانع ـ القصور المشيدة والحصون ـ وهو يدل على حب البقاء والخلود، والجبارية وهي تدل عل حب التفرد بالعلو، وكل ذلك يشير على أن حب الدنيا قد استولى عليهم، بحيث استغرقوا فيه حتى خرجوا عن حد العبودية، وحاموا حول دعاة الربوبية، وحب الدنيا رأس كل خطيئة.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: خافوا الله في البطش، وامتثلوا ما أدعوكم إليه، واتركوا هذه الأفعال وأطيعوا أمري، ثم شرع يذكرهم نعم الله، فقال:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: خافوا الله واتركوا هذه الأفعال وأطيعوا أمري، ثم شرع يذكرهم نعم الله وآلائه وفضله، فقال:

﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ﴾ أعطاكم أصول الخيرات من المواشي، والبنين، وقرن البنين بالأنعام لأنهم يعينون على حفظها والقيام عليها.

﴿وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ البساتين، والأنهار، وأغدق عليكم النعم فهو الذي يجب أن يعبد ويشكر ولا يكفر، ثم وعظهم، وحذرهم.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ قال هود ﵇ محذراً لهم: إني أخشى عليكم إن لم تشكروا هذه النعم، وأشركتم وكفرتم، عذاب يوم هائل، تشيب لهوله الولدان.

* واستمر هود في دعوتهم إلى الله بالترغيب والترهيب، وبلغ في دعائهم بالوعظ والتخويف النهاية القصوى في البيان، فكان جوابهم معاندين للحق، مكذبين لنبيهم، قال تعالى:

﴿١٣٦﴾-﴿١٤٠﴾ ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ * إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ * وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ أي: ردّوا عليه رداً سيئاً، وقالوا: يستوي عندنا تذكيرك وتخويفك لنا وعدمه، فلا نبالي بما تقول، ولا نرعوي عما نحن عليه، فلن نؤمن لك ولن نصدقك، وقد جعلوا قوله وعظاً على سبيل الاستخفاف وعدم المبالاة بما خوفهم به إذ لم يعتقدوا صحة ما جاء به، وأنه كاذب فيما ادّعاه.

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي: ما هذا الذي جئتنا به، إلا كذب وخرافات الأولين، وأن لا بعث ولا جزاء، ولا حساب ولا عذاب، فانكروا ذلك كله.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ أي: فكذبوا رسولهم هوداً، صار التكذيب سجية لهم وخلقاً، لا يردعهم عنه رادع، فأهلكناهم بريح باردة شديدة. قال ابن كثير: وكان إهلاكهم بالريح الشديدة الهبوب، ذات البرد الشديد وهي الريح الصرصر العاتية، وكان سبب إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد، فحصبت الريح كل شيء حتى كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه، وترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه، فتشدخ رأسه ودماغه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: إن في إهلاكهم لعظة وعبرة، وما أكثر الناس مع رؤيتهم للآيات الباهرة بمؤمنين بك، ومصدقين برسالتك.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وإن ربك ـ يا محمد ـ لهو العزيز في انتقامه من أعدائه، الذي أهلك بقوته قوم هود، على قوتهم وبطشهم، الرحيم بعباده المؤمنين حيث نجا نبيه هوداً ومن معه من المؤمنين.

* لما فرغ سبحانه من ذكر قصة هود وقومه، شرع تعالى في ذكر قصة صالح، فقال:

﴿١٤١﴾-﴿١٤٥﴾ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ كذبت قبيلة ثمود نبيهم صالحاً في رسالته ودعوته إلى توحيد الله،

ومن كذب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين، وثمود القبيلة المعروفة في مدائن الحجر.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ قال لهم أخوهم في النسب صالح، برفق ولين، ألا تخافون وتخشون عذاب الله وانتقامه في عبادتكم غيره.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كررت الآيات للتنبيه على أن دعوة الرسل واحدة، فكل رسول يذكر قومه بالغاية من بعثته ورسالته، وأنها لصالح البشر.

* ثم ذكرهم بحال الدنيا وسرعة زوالها وفنائها، فقال:

﴿١٤٦﴾-﴿١٥٢﴾ ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ * فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ * ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ أي: أيترككم ربكم في هذه الدنيا آمنين، مخلدين في النعيم، كأنكم باقون في الدنيا بلا موت؟ وكانوا معمرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم. وكانت أعمارهم طويلة فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم، لأن الواحد منهم كان يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف، فقرعهم صالح ووبخهم، وقال: تظنون أنكم باقون في الدنيا بلا موت.

﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ أي: في بساتين مثمرة وأنهار جاريات، وسهول فسيحة فيها من أنواع الزروع والنخيل الرطب اللين؟ أتتركون في كل ذلك النعيم دون حساب ولا جزاء. قال المفسرون: كانت أرض ثمود كثيرة البساتين والماء والنخل فذكرهم صالح بنعم الله الجليلة من إنبات البساتين والجنات، وتفجير العيون الجاريات، وإخراج الزروع والثمرات، ومعنى «الهضيم» اللطيف الدقيق وقيل: اليانع النضيج، وفي ذكر النخل على سائر الشجر تفضيل له.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ أي: وتبنون وتنقبون بيوتاً في الجبال، أشرين بطرين من غير حاجة لسكناها. وظاهر هذه الآيات يدل على أن الغالب على قوم «هود» هو اللذات الخيالية وهي الاستعلاء، والبقاء والتجبر، والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية وهي طلب المأكول، والمشروب، والمساكن الطية.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: فاتقوا عقاب الله، وأطيعوني في نصيحتي لكم، ولا تنقادوا لأمر الكبراء المجرمين، الذين تجاوزوا الحد.

﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي: الذين عادتهم ودأبهم الفساد في الأرض لا الإصلاح. قال الطبري: وهم الرهط التسعة الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨].

* ثم قال ﷻ مخبراً عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح ؏، حين دعاهم إلى عبادة ربهم ﷻ:

﴿١٥٣﴾-﴿١٥٩﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أي: قالت ثمود لنبيها صالح، ما أنت إلا من المسحورين، سُحرت سحراً كثيراً حتى غلب على عقلك، فأنت تهذي بما لا معنى له. والمسحَّر مبالغة من المسحور.

﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: لست يا صالح إلا رجلاً مثلنا، وأي فضيلة فقتنا بها؛ فكيف تزعم أنك رسول الله؟ وكيف أوحي إليك دوننا.

﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فأتنا بمعجزة تدل على صدقك، وثبوت رسالتك إن كنت صادقاً في دعواك أن الله أرسلك إلينا.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾ أي: فقال لهم نبيهم صالح: هذه معجزتي إليكم؛ وهي الناقة التي تخرج من الصخر الأصم بقدرة الله. روي أنهم اقترحوا عليه ناقة عشراء ـ حامل ـ تخرج من صخرة معينة وتلد أمامهم، فقعد صالح عليه السلام يتفكر فجاءه جبريل فقال: صلِّ ركعتين وسل ربك الناقة ففعل، فخرجت الناقة وولدت أمامهم وبركت بين أيديهم، فقال لهم: هذه ناقة يا قوم.

﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: لها حظ ونصيب من الماء، تشرب ماءكم يوماً فلا تزاحموها فيه، ويوماً تشربون أنتم الماء لا تزاحمكم هي فيه، قال قتادة: إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله، وشربهم في اليوم الذي لا تشرب هي فيه، وتلك آية أخرى.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ولا تنالوها بأي ضرر، بالعقر أو بالضرب، أو القتل، أو نحو ذلك، فيصيبكم عذاب من الله هائل لا يكاد يوصف. قال ابن كثير: حذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر، ترد الماء وتأكل الورق والمرعى، وينتفعون بلبنها، يحلبون منها ما يكفيهم شرباً وريّاً، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالؤوا على قتلها وعقرها.

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾ فقتلوها رمياً بالسهام، ورماها أشقاهم ـ قدار بن سالف ـ بأمرهم ورضاهم، فأصبحوا نادمين على قتلها خوف العذاب، فلم ينفعهم ندمهم، ولم يكن ندمهم ندم التائبين، لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ فنزل بهم العذاب الموعود، وكان صيحة خمدت لها أبدانهم، وانشقت لها قلوبهم، وزلزلت الأرض تحتهم زلزالاً شديداً، وصبت عليهم حجارة من السماء فماتوا عن آخرهم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ إن في إهلاك ثمود، لعظة وعبرة، لمن عقل وتدبر لهذا المصير.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، بمؤمنين ومعتبرين بهذا المصير.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وإن ربك لهو العزيز القاهر المنتقم من أعدائه المكذبين، الرحيم بمن آمن من خلقه.

* ثم شرع تعالى في ذكر القصة السادسة من قصص الأنبياء مع قومهم، وهي قصة لوط عليه السلام، الذي بعثه الله ﷻ إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم ـ عليهما السلام ـ، وكانوا يسكنون سدوم، فقال:

﴿١٦٠-١٦٤﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: كذبت قوم لوط برسالة رسولهم لوطاً.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: قال لهم أخوهم لوط: ألا تخافون عقاب الله وانتقامه في عبادتكم غيره.

﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه هي الدعوة والمقولة التي قالها من قبل صالح، وهود، ونوح مما يؤكد أن دعوة الرسل واحدة، وغايتها واحدة، وأن منشأها هو الوحي السماوي.

* وتستمر الآيات في ذكر دعوة لوط عليه السلام مستنكراً ومستهجناً فعلتهم الشنعاء:

﴿١٦٥-١٧٥﴾ ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ
﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ
أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم
مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿١٦٨﴾
رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم
مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم
مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ
لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمۡ
رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ
مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا
تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾
وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع، أي: أتنكحون الذكور في أدبارهم، وتنفردون بهذا الفعل الشنيع من بين سائر الخلق؟

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ﴾ وتتركون ما أباح لكم ربكم من الاستمتاع بالإناث والتناسل من أزواجكم؟ قال مجاهد: تركتم فروج النساء إلى أدبار الرجال.

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ بل أنتم قوم مجاوزون الحد في الإجرام والفساد بهذه المعصية، وبخهم على إتيانهم الذكور، ثم أضرب عنه إلى ما هو أبلغ في التوبيخ؛ كأنه يقول خرجتم عن حدود الإنسانية إلى مرتبة البهيمية بعدوانكم وارتكابكم هذه الجريمة الشنيعة، فالذكر من الحيوان يأنف عن إتيان الذكر، وأنتم فعلتم ما يتورع عنه الحيوان.

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ قال قوم لوط له: لئن لم تترك إنكارك علينا، وتقبيح ما نحن عليه، لنخرجنك من بين أظهرنا، وننفيك من بلدنا كما فعلنا بمن قبلك، توعدوه بالنفي والطرد من بلادهم.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ﴾ أي: إني لعملكم القبيح من المبغضين غاية البغض، وأنا بريء منكم. ثم لما يئس لوط من استجابتهم دعا ربه، قائلاً:

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ أي: أنقذني وأهلي من العذاب الذي يستحقونه بعملهم القبيح، فاستجاب الله لدعوته، قال تعالى:

﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي: نجيناه مع أهله جميعاً، والمستجيبين لدعوته أجمعين، إلا امرأته كانت من الهالكين، الباقين في العذاب، حيث لم تشاركهم في الإيمان. قال ابن كثير: والمراد بالعجوز امرأته فقد كانت عجوز سوء، بقيت فهلكت مع من بقي من قومها حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته.

﴿ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾ أي: ثم أهلكناه من عداهم من الكفرة، أشد إهلاك وأفظعه بالخسف والحصب، وأمطرنا عليهم حجارة من السماء كالمطر الزاخر.

﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ أي: بئس هذا المطر مطر القوم المنذرين الذين أنذرهم نبيهم فكذبوه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: إن في ذلك العقاب الذي نزل بقوم لوط، لعبرة وعظة لأولي البصائر، وما كان أكثر الناس مع رؤيتهم للآيات الباهرة بمؤمنين بك، ومصدقين برسالتك.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: وإن ربك ـ يا محمد ـ لهو العزيز في انتقامه من أعدائه، الذي أهلك بقوته قوم لوط على قوتهم وبطشهم، الرحيم بعباده المؤمنين حيث نجا نبيه لوطاً ومن معه من المؤمنين.

* ثم شرع تعالى في ذكر قصة شعيب عليه السلام مع قومه أهل مدين، فقال:

﴿١٧٦﴾-﴿١٨٠﴾ ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي: كذب أصحاب مدين نبيهم شعيباً في رسالته. والأيكة: الشجر الملتف.

وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ
ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩)
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٩١) وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ
ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ
عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً
أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ
(١٩٨) فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ
فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُواْ
هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَءَيْتَ
إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ (٢٠٦)

٣٧٥

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ألا تخافون الله تعالى، فتتركون ما يسخطه ويبغضه، من الكفر والمعاصي. ولم يقل أخوهم؛ لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين قال أخاهم شعيباً؛ لأنه كان منهم.

﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ يترتب على ذلك، أن تتقوا الله وتطيعوه، وكانوا مع شركهم يبخسون المكاييل والموازين، فلذلك قال لهم:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فخافوا عقاب الله، واتبعوا ما دعوتكم إليه من هداية الله لترشدوا.

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وما أطلب منكم على دعائي لكم إلى الإيمان بالله أي جزاء، ما جزائي إلا على رب العالمين.

* ثم أمرهم ﷺ بإيفاء المكيال والميزان، ونهاهم عن التطفيف فيهما، قال تعالى:

(١٨١)-(١٨٤) ﴿أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ * وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ أي: قال لهم شعيب، وقد كانوا ينقصون الكيل والميزان، أتموا الكيل وأكملوا، وأوفوا الناس حقوقهم في الكيل والوزن، ولا تكونوا من المنقصين المطففين في المكيال والميزان.

﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي: زنوا بالميزان العدل السوي الذي لا يميل، ولا تنقصوا الناس شيئاً من حقوقهم بأي طريق، سواء كان بالهضم، أو الغبن، أو الغصب، ونحو ذلك.

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تفسدوا في الأرض بأنواع الفساد من قطع الطريق والغارة، والسلب والنهب وارتكاب المعاصي.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: خافوا واحذروا عقوبة الله، الذي خلقكم وخلق الخليقة المتقدمين، فأفردوه بالعبادة والتوحيد. قال مجاهد: الجبلة: الخليقة ويعني بها الأمم السابقين.

* فلما دعاهم شعيب ﷺ إلى الإيمان والتوحيد، وعدم بخس حقوق الناس، قالوا له مكذبين له، رادين لقوله:

(١٨٥)-(١٩١) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أي: قالوا: إنما أنت يا شعيب من الذين أصابهم السحر إصابة شديدة، حتى غلب على عقلك.

﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: أنت إنسان مثلنا، ولست برسول، فليس فيك فضيلة اختصصت بها علينا، وما نظنك يا شعيب إلا كاذباً، تكذب علينا فتقول أنا رسول الله وهذا ظلم منهم وقول زور، قد انطووا على خلافه.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: أنزل علينا العذاب قطعاً من السماء تستأصلنا، وهو مبالغة في التكذيب.

الجزء التاسع عشر سورة الشعراء

مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا
لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٠٩ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ
ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ٢١١ إِنَّهُمۡ عَنِ
ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ
مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ٢١٣ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ
جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي
بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي
يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ
كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ٢٢٣
وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ٢٢٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ
يَهِيمُونَ ٢٢٥ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ٢٢٦ إِلَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ
بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧

سُورَةُ النَّمۡلِ

٣٧٦

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إن كانت صادقاً أنك نبي، وإنما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه، فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه، فعندها أجابهم شعيب.

﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: قال شعيب عليه السلام الله أعلم بأعمالكم من الشرك والمعاصي، فإن كنتم تستحقون عقاباً فإليه الحكم والمشيئة.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ أي: فكذبوا شعيباً، واستمروا على تكذيبه، فأخذهم ذلك العذاب الرهيب، عذاب يوم الظلة، وهي السحابة التي أظلتهم. قال المفسرون: بعث الله عليهم حرّاً شديداً فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة أظلتهم من الشمس، فوجدوا لها برداً، ونادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم ناراً فاحترقوا جميعاً، وكان ذلك من أعظم العذاب، ولهذا قال:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: كان عذاب يوم هائل، عظيم في الشدة والهول.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ إن في ذلك العقاب، وصحة ما دعا إليه، وبطلان رد قومه عليه الذي نزل بهم لدلالة واضحة على قدرة الله في مؤاخذة المكذبين وآية دالة على صدق شعيب.

﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ مع رؤيتهم الآيات؛ لأنه لا زكاء فيهم، ولا خير لديهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي امتنع بقوته عن إدراك أحد، وقهر كل مخلوق، ومن عزته أن أهلك أعداءه، حين كذبوا رسله.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي الرحمة وصفه، فرحم عباده المؤمنين ونجاهم من العذاب الأليم.

وإلى هنا ينتهي آخر القصص السبع التي أوحيت لرسول الله ﷺ لصرفه عن الحرص على إسلام قومه، وقطع رجائه ودفع تحسره عليهم كما قال في أول السور: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ففيها تسلية لرسول الله وتخفيف عن أحزانه وآلامه، وإنما كرر في نهاية كل قصة قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٧-٦٨] ليكون ذلك أبلغ في الاعتبار، وأشد تنبيها لذوي القلوب والأبصار.

* وبعد أن تابعت السورة في بيان قصص الأنبياء: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب -عليهم الصلاة والسلام-، وبينت سنة الله في عذاب المكذبين لرسله، عادت للتنويه بشأن الكتاب العزيز، تفخيماً لشأنه، وبياناً لمصدره، ما يدل على نبوة الرسول ﷺ ومعجزاته، من تنزيل هذا القرآن المعجز.

١٩٢-١٩٥ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وإن هذا القرآن المعجز الذي ذكرت فيه هذه القصص الصادقة، لمنزل من خالق الخلق، ومالك الأمر كله، ومن تعظيمه وشدة الاهتمام فيه، من كونه نزل من الله لا من غيره، مقصوداً فيه نفعكم وهدايتكم.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ نزل به ملك كريم هو: أمين السماء، ذو مكانة عند الله، مطاع في الملأ الأعلى، هو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم.

﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ أي: فتلاه عليك، -يا محمد- حتى وعيته بقلبك حفظاً وفهماً، لتحفظه وتهدي به إلى طريق الرشاد، وتنذر بآياته المكذبين.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أنزلناه باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً، قاطعاً للعذر مقيماً للحجة، دليلاً إلى المحجة لئلَّا يبقى لهم عذر، فيقولوا: ما فائدة كلام لا نفهمه؟

وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل العظيمة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

* ثم ذكر ﷻ أن هذا القرآن العظيم مُبشَّر به في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم، فقال تعالى:

﴿١٩٦﴾-﴿١٩٩﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وإن ذكر القرآن وخبره، لموجود في كتب الأنبياء السابقين، قد بشرت به وصدقته.

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: أو لم يكف هؤلاء المكذبين من كفار مكة علامة ودلالة على صحة القرآن.

﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أن يعلم ذلك علماء بني إسرائيل الذين يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم، كعبد الله بن سلام وأمثاله.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ ولو نزلنا هذا القرآن بنظمه الرائق المعجز على بعض الأعجمين، الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية.

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ فقرأه على كفار مكة قراءة صحيحة فصيحة، وانضم إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء ما آمنوا بالقرآن لفرط عنادهم واستكبارهم، ولقالوا لا ندري ما يدعو إليه؛ ولانتحلوا لجحودهم عذراً.

* ثم ذكر ﷻ حال الكفار مع القرآن، وأن عدم تصديقهم به إنما هو تكذيب وجحود وعناد، قال تعالى:

﴿٢٠٠﴾-﴿٢٠٩﴾ ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ * وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كذلك أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، فسمعوا به وفهموه، وعرفوا فصاحته وبلاغته، وتحققوا من إعجازه، ثم لم يؤمنوا به وجحدوه.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: لا يصدقون بالقرآن، مع ظهور إعجازه، حتى يشاهدوا عذاب الله المؤلم، فيؤمنوا حيث لا ينفع الإيمان.

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: فينزل بهم عذاب الله فجأة، وعلى حين غفلة، وهم لا يعلمون قبل ذلك بمجيئه ولا يدرون، ليكون أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم.

﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أي: فيقولوا حين يفجأهم العذاب ـ تحسراً على ما فاتهم من الإيمان وتمنياً للإمهال ـ هل نحن مؤخرون لنؤمن ونصدق؛ لنتوب إلى الله من شركنا، ونستدرك ما فاتنا.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ إنكار وتوبيخ وتهديد، أي: أغر هؤلاء المشركون إمهالي فيستعجلون، وحالهم عند نزول العذاب أنهم يطلبون الإمهال والنظرة؟

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أفعلمت ـ يا محمد ـ إن متعناهم بالحياة سنين طويلة بتأخير آجالهم، مع وفور الصحة، ورغد العيش، ثم جاءهم العذاب الذي وعدوا به.

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ﴾

قال الشنقيطي: «هذه هي أعظم آية في إزالة الداء العضال الذي هو طول الأمل كفانا الله والمؤمنين شره.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ أي: ماذا ينفعهم حينئذ

ما مضى من طول أعمارهم، وطيب معاشهم؟ هل ينفعهم ذلك النعيم في تخفيف الحزن، أو دفع العذاب؟ والقصد الحذر من وقوع العذاب، واستحقاقهم له، وأما تعجيله أو تأخيره، فلا أهمية تحته، ولا جدوى عنده.

ثم يخبر تعالى عن كمال عدله في إهلاك المكذبين.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي: وما أهلكنا أهل قرية من القرى، ولا أمة من الأمم، إلا بعدما ألزمناهم الحجة، بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين.

﴿ذِكۡرَىٰ﴾ لهم وإقامة حجة عليهم، وليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ وما كنا ظالمين في تعذيبهم؛ لأننا أقمنا الحجة عليه وأنذرناهم، وأعذرنا إليهم.

* ثم إنه تعالى بعد أن نبه على إعجاز القرآن، وصدق نبوة محمد ﷺ، رد على قول من زعم من الكفار أن القرآن من إلقاء الجن والشياطين، كسائر ما ينزل على الكهنة، فقال:

(٢١٠)-(٢١٢) ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ * إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ذكر ﷻ أن هذا القرآن العظيم يمتنع على الشياطين من ثلاثة أوجه، الأول: أن الشياطين ما تنزلت بهذا القرآن -على محمد-، كما يزعم الكفرة، بل نزل به الروح الأمين.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ أي: وما يصح ولا يستقيم أن يتنزل بهذا القرآن الشياطين، وهذا هو الثاني.

﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أي: ولو انبغى لهم ما استطاعوا ذلك وما قدروا، وهذا هو الثالث.

﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ أي: لأنهم منعوا من استراق السمع منذ بعث محمد ﷺ، وحيل بينهم وبين السمع بالملائكة والشهب، فكيف يستطيعون أن يتنزلوا به؟ قال ابن كثير: ذكر تعالى أنه يمتنع ذلك عليهم من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه ما ينبغي لهم؛ لأن سجاياهم الفساد، وإضلال العباد، وهذا فيه نور وهدى وبرهان عظيم، الثاني: أنه لو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، وهذا من حفظ الله لكتابه وتأييده لشرعه، الثالث: أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك، لأنهم بمعزل عن استماع القرآن؛ لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً، فلم يخلص أحد من الشياطين لاستماع حرف واحد منه لئلا يشتبه الأمر.

* ثم ينهى تعالى رسوله أصلاً، وأمته أسوة له في ذلك، عن دعاء غير الله، من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب السرمدي، لكونه شركاً، ويكلفه إنذار عشيرته الأقربين، ويأمره بالتوكل على الله، الذي يلحظه دائماً ويرعاه، قال تعالى:

(٢١٣)-(٢٢٠) ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ * وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ * وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ * وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ * إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد غيره، أي: لا تعبد - يا محمد - مع الله معبوداً آخر، فيعذبك الله بنار جهنم، وينزل بك من العذاب ما نزل بهؤلاء الذين عبدوا مع الله غيره، قال ابن عباس: يحذر به غيره، يقول: أنت أكرم الخلق عليَّ، ولو اتخذت من دوني إلها لعذبتك. ثم أمر تعالى رسوله بتبليغ الرسالة، فقال:

﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ أي: خوف - يا محمد - أقاربك من عذاب الله إن لم يؤمنوا، وخص الأقربين؛ لأن الاهتمام بشأنهم أولى وهم أحق بالإحسان الديني والدنيوي، وهم داخلون في عموم دعوته ﷺ. قال المفسرون: وإنما أمر ﷺ بإنذار أقاربه أولاً لئلا يظن أحد به المحاباة واللطف معهم، فإذا تشدد على نفسه وعلى أقاربه كان قوله أنفع، وكلامه أنجع.

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وتواضع وألن جانبك لأتباعك المؤمنين، وتودد وتحبب إليهم، وقد فعل ﷺ ذلك، وصور اللين والتواضع

والرفق صورة خفض الجناح، كما يخفض الطائر جناحيه حين يهم بالهبوط.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: فأنذر قومك، فإن لم يطيعوك وخالفوا أمرك، فتبرأ منهم ومن أعمالهم، وما هم عليه من الشرك والضلال.

ثم دله تعالى على أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به، وهو الاعتماد على ربه، والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالمأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه، فقال:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: فوض جميع أمورك إلى الله العزيز، الذي يقهر أعداءك بعزته، وينصرك عليهم برحمته. والتوكل: هو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه.

ختم بالعزيز، فهو القوي القادر على أن يكفيك ويحميك، وبالرحيم: لأن فيه معنى العناية والرعاية ومعرفة ما ينفعك.

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: يراك حين تكون وحدك، تقوم من فراشك أو مجلسك. وقال ابن عباس: حين تقوم إلى الصلاة.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: ويرى تقلبك مع المصلين، في الركوع والسجود، والقيام، والمعنى: يراك وحدك ويراك في الجماعة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إنه تعالى السميع لتلاوتك وذكرك، العليم بنيتك وعملك وفي هذا إيناس بالرعاية والقرب والملاحظة في كل حين ووقت للنبي ﷺ.

* ثم ختمت السورة بالرد على افتراء المشركين، في زعمهم أن القرآن من تنزل الشياطين، ثم ساق جواباً لمن قال من مكذبي الرسول: إن محمداً ينزل عليه شيطان وقول من قال إنه شاعر، ليتناسق البدء مع الختام، في أروع تناسق والتئام، قال تعالى:

(٢٢١-٢٢٧) ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ * وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ أي: قل ـ يا محمد ـ لكفار مكة: هل أخبركم الخبر الحقيقي الذي لا شك فيه ولا شبهة، على من تتنزل الشياطين؟ وهذا رد عليهم حين قالوا: إنما يأتيه بالقرآن الشياطين.

﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: تتنزل على كل كذاب فاجر، مبالغ في الكذب والعدوان، هذا الذي تتنزل عليه الشياطين، وتناسب حاله حالهم.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ أي: تلقي الشياطين ما استرقوه من السمع إلى أوليائهم الكهنة، وأكثرهم يكذبون فيما يوحون به إليهم، لأنهم يُسمعونهم ما لم يسمعوا، وفي الحديث: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها ـ أي يلقيها ـ في أذن وليه كقرقرة الدجاج، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة» [رواه البخاري].

ثم رد تعالى على من زعم أن محمداً شاعر، فقال:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ والشعراء يقوم شعرهم على الباطل والكذب، ويتبعهم الضالون، لا أهل البصيرة والرشاد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ ألم تر أيها السامع العاقل أنهم يسلكون في المديح والهجاء كل طريق، يمدحون الشيء بعد أن ذموه، ويعظمون الشخص بعد أن احتقروه، تارة في مدح، وتارة في نوح، وتارة في صدق، وتارة في كذب، وتارة يتغزلون، وأخرى يسخرون، ومرة يمدحون، وآونة يحزنون، فلا يستقر لهم قرار، ولا يتبعون على حال من الأحوال. قال الطبري: وهذا مثل ضربه الله لهم في افتتانهم في الوجوه التي يفتنون فيها بغير حق، فيمدحون بالباطل قوماً ويهجون آخرين.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: يكذبون فينسبون لأنفسهم ما لم يعملوه، وقد أخبر تعالى عن الشعراء بالأحوال التي تخالف حال النبوة، إذ أمرهم كما ذكر من اتباع الغواة لهم،

وسلوكهم أفانين الكلام من مدح الشيء وذمه، ونسبة ما لا يقع منهم إليهم، وهذا مخالف لحال النبوة فإنه طريقة واحدة لا يتبعها إلا الراشدون، ثم استثنى تعالى فقال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: استثنى الله من الشعراء، الشعراء الذين اهتدوا بالإيمان وصدقوا في إيمانهم، وأخلصوا في أعمالهم، ولم يشغلهم الشعر عن ذكر الله، ولم يجعلوه همهم وديدنهم.

﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ أي: هجوا المشركين دفاعاً عن الحق ونصرة للإسلام.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ وعيد عام في كل ظالم، تتفتت له القلوب وتتصدع لهوله الأكباد، أي: وسيعلم الظالمون المعادون لدعوة الله ومعهم الشعراء الغاوون.

﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ أيَّ مرجع يرجعون إليه، وأي مصير يصيرون إليه، فإن مرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع، ومصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير. وفي الآية تهديد ووعيد شديد.

تم تفسير سورة الشعراء
والحمد لله

تفسير سورة النمل
وهي مكية

* سورة النمل من السور المكية، التي تهتم بالحديث عن أصول العقيدة خاصة: التوحيد، والرسالة، والبعث، وهي إحدى سور ثلاث نزلت متلاحقة، ووضعت في المصحف متلاحقة وهي: الشعراء، والنمل، والقصص، ويكاد يكون منهاجها واحداً، في سلوك مسلك العظة والعبرة، عن طريق قصص الغابرين.

سميت سورة النمل؛ لأن الله تعالى ذكر فيها قصة النملة، التي وعظت بني جنسها، وذكرت، ثم اعتذرت عن سليمان وجنوده، ففهم نبي الله كلامها وتبسم من قولها، وشكر الله على ما منحه من الفضل والإنعام، وفي ذلك أعظم الدلالة على علم الحيوان، وأن ذلك من إلهام الواحد الديان.

وتناولت السورة الكريمة القرآن العظيم، معجزة محمد الكبرى، وحجته البالغة إلى يوم الدين، فوضحت أنه تنزيل من حكيم عليم، قال تعالى:

١-٦ ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ * وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

﴿طسٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن. ثم ينبه تعالى عباده على عظمة القرآن، ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم، فقال:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: هذه الآيات المنزلة عليك - يا محمد - هي آيات القرآن المعجز في بيانه، الساطع في برهانه.

﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: كتاب واضح لمن تفكر فيه وتدبر، فقد أبان الله فيه الأحكام، وهدى به الأنام.

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تلك آيات القرآن الهادي للمؤمنين إلى صراط مستقيم، والمبشر لهم بجنات النعيم، خص المؤمنين بالذكر لانتفاعهم به. ثم ذكر من صفاتهم، أنهم:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يؤدونها على الوجه الأكمل بخشوعها، وآدابها، وأركانها، ويدفعون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم لمستحقيها وأربابها.

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: يصدقون بالآخرة تصديقاً جازماً لا يخالجه شك أو ارتياب، وما فيها من ثواب وعقاب، والجملة اعتراضية كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة، فما يوقن بالآخرة حق الإيقان، إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: لا يصدقون بالبعث، والجزاء، والحساب، ولا يعملون لها، حسنَّا لهم أعمالهم السيئة، حتى رأوها حسنة، والمراد من التزيين: هو أن يخلق في قلبه العلم بما فيها من المنافع واللذات، ولا يخلق في قلبه العلم بما فيها من المضار والآفات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم
بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ
أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ
وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن
لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم
مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا
نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَۚ
فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ
إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ
سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ
غَيْرِ سُوٓءٍۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ
﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾

٣٧٧

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ فهم في ضلال أعمالهم القبيحة يترددون حيارى، لا يميزون بين الحسن والقبيح كما يكون حال الضال عن الطريق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي: لهم أشد العذاب في الدنيا بالقتل والأسر والتشريد، وخسارتهم في الآخرة أشد من خسارتهم في الدنيا، لمصيرهم إلى النار المؤبدة والجحيم والأغلال.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: وإن هذا القرآن الذي ينزل عليك، وتتلقفه وتتلقنه ـ يا محمد ـ.

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: وحياً، من عند الله الحكيم بتدبير خلقه، العليم بما فيه صلاحهم وسعادتهم، وهذه الآية بسط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه.

* ثم تحدثت الآيات عن قصص الأنبياء بإيجاز في البعض، وإسهاب في البعض، فذكرت بالإجمال قصة موسى، وقصة صالح، وقصة لوط، وما نال أقوامهم من العذاب والنكال، بسبب إعراضهم عن دعوة الله، وتكذيبهم لرسله الكرام، فذكر الله ﷻ أولاً: قصة موسى ﵇، كيف اصطفاه الله وكلمه وناجاه، وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة، والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملئه، فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، قال تعالى:

﴿٧﴾-﴿١٤﴾ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ * فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: اذكر ـ يا محمد ـ حين سار موسى بأهله فأضل الطريق، وذلك في ليل دامس، فآنس من جانب الطور ناراً، قال موسى لأهله ـ أي زوجته ـ: إني أبصرت ناراً ورأيتها من بعيد تتأجج وتضطرم، وهذا عندما سار من مدين إلى مصر، وكان في ليلة مظلمة باردة، وقد ضل عن الطريق وأخذ زوجته الطلق.

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي: سآتيكم بخبر عن الطريق إذا وصلت إليها، لأنه كان قد ضله، أو آتيكم بشعلة مقتبسة من النار.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: لكي تستدفئوا بها من شدة البرد، وهذا دليل على أنه تائه، ومشتد برده، هو وأهله.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أي: فلما وصل موسى إلى مكان النار التي أبصرها، رأى منظراً هائلاً عظيماً، حيث رأى النار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقداً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء. قال ابن عباس: لم تكن ناراً وإنما كانت نوراً يتوهج، فوقف موسى متعجباً مما رأى، وجاءه النداء العلوي، و:

الجُزءُ التَّاسِعَ عَشَرَ سُورَةُ النَّمْلِ

وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ
وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ
ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾
وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ
يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ
لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ
أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ
صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ
مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ
أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

٣٧٨

﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أي: نودي من جانب الطور، بأن بوركت يا موسى، وبورك من حولك وهم الملائكة، وهذا تحية من الله ﷻ لموسى بالبركة. وبدؤه بالنداء تبشير لموسى وتأنيس له ومقدمة لمناجاته، وجدير أن يبارك من في النار ومن حواليها إذ قد حدث أمر عظيم، وهو تكليم الله لموسى وتنبيهه.

﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: تقدس وتنزه رب العزة، العليُّ الشأن، الذي لا يشبه شيئاً من مخلوقاته لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، بل هو الكامل في وصفه وفعله.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه، هو ربه، أي: أنا الله القوي القادر، العزيز الذي لا يقهر، الحكيم الذي يفعل كل شيء بحكمة وتدبير.

﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَ﴾ عطف على السابق، أي: ونودي -موسى-، أن ألق عصاك لترى معجزتك بنفسك فتأنس بها.

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ في الكلام حذف، والتقدير فألقاها من يده، فلما رآها تتحرك حركة سريعة كأنها ثعبان خفيف الحركة، سريع الجري.

﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ ولى موسى الأدبار وهرب ولم يرجع، ولم يلتفت، لما دهاه من الخوف والفزع، لحقه ما لحق طبع البشر، إذا رأى أمراً هائلاً جداً، وهو انقلاب العصا حية تسعى، ولهذا ناداه ربه.

﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ أي: أقبل ولا تخف؛ لأنك بحضرتي ومن كان فيها فهو آمن.

﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أي: فأنت رسولي، ورسلي الذين اصطفيتهم للنبوة لا يخافون غيري. قال ابن الجوزي: نبهه على أن من آمنه الله بالنبوة من عذابه لا ينبغي أن يخاف من حية.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ﴾ الاستثناء منقطع، أي: لكن من ظلم من سائر الناس لا من المرسلين، فإنه يخاف، إلا إذا تاب وبدل عمله السيء إلى العمل الحسن.

﴿فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: عظيم المغفرة واسع الرحمة، فلا ييأس من رحمة الله ومغفرته وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل سيء، ثم أقلع ورجع وتاب وأناب فإن الله يتوب عليه.

﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ هذه معجزة أخرى لموسى تدل على باهر قدرة الله، والمعنى: ادخل يا موسى يدك في فتحة ثوبك ثم أخرجها تخرج مضيئة ساطعة بيضاء تتلألأ كالبرق الخاطف دون مرض أو برص.

﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾ أي: هاتان المعجزتان: العصا واليد، ضمن تسع معجزات أؤيدك بهن، وأجعلهن برهاناً على صدقك، لتذهب بها إلى فرعون وقومه.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعتنا، ممعنين في الكفر والضلال، فسقوا بشركهم وعتوهم، وعلوهم على عباد الله، واستكبارهم في الأرض بغير الحق، فذهب موسى ؑ إلى فرعون وملئه، ودعاهم إلى الله تعالى وأراهم الآيات.

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي: فلما رأوا تلك المعجزات الباهرة، واضحة بينة ظاهرة، تدل على الحق والهدى، وأنكروها وزعموا أنها سحر واضح، ظاهر لكل أحد.

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: كفروا، وكذبوا تلك الخوارق ولم يقروا أنها من عند الله، وقد أيقنوا بقلوبهم وضمائرهم أنها من عند الله، وليست من قبيل السحر.

﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي: جحدوا بها شركاً من أنفسهم، واستكباراً عن اتباع الحق، وأيُّ ظلم أفحش ممن يعتقد ويستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند الله، ثم يكابر بتسميتها سحراً؟ ولهذا قال:

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: انظر أيها السامع وتدبر بعين الفكر والبصيرة ماذا كان مآل أمر الطاغين، من الإغراق في الدنيا، والإحراق في الآخرة؟ قال ابن كثير: وفحوى الخطاب كأنه يقول وفيه إشارة: احذروا أيها المكذبون لمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم مثل ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى، فإن محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى، عليه من ربه ـ أفضل الصلاة والتسليم ـ.

* وتحدثت الآيات بالتفصيل عن قصة داود وولده سليمان، وما أنعم الله عليهما من النعم الجليلة، وما خصهما به من الفضل الكبير، بالجمع بين النبوة والملك الواسع، ثم ذكرت قصة سليمان مع بلقيس ملكة سبأ. وفي هذه القصة مغزى دقيق لأصحاب الجاه والسلطان، والعظماء والملوك، فقد اتخذ سليمان الملك وسيلة للدعوة إلى الله، فلم يترك حاكماً جائراً ولاملكاً كافراً إلا دعاه إلى الله، وهكذا كان شأنه مع بلقيس حتى تركت عبادة الأوثان، وأتت مع جندها خاضعة مسلمة، مستجيبة لدعوة الرحمن، قال تعالى:

﴿١٥-١٩﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ هذه هي القصة الثانية في السورة الكريمة، وهي قصة داود وسليمان، والمعنى: والله لقد أعطينا داود وابنه سليمان علماً واسعاً من علوم الدنيا والدين، وجمعنا لهما بين سعادة الدنيا والآخرة. وكذلك علم كلام الطير والدواب وغير ذلك مما خصهم الله بعلمه.

﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقالا شكراً لله واعترافاً بمنته وفضله: الحمد لله الذي فضلنا بما آتانا من النبوة، والعلم، وتسخير الإنس والجن والشياطين على كثير من عباده المؤمنين، ولم يفضلوا أنفسهم على الكلّ تواضعاً منهم، وفي الآية دليل على شرف العلم وتقدم حملته وارتفاع أهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من العباد، ومنح شرفاً جليلاً.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: ورث سليمان أباه في النبوة، والعلم، والملك دون سائر أولاده، وكان لداود تسعة عشر ولداً فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه، قالوا أوتي النبوة مثل أبيه، فكأنه ورثه وإلا فالنبوة لا تورث، ولو كانت وراثة مال لكان جميع أولاده فيه سواه.

﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ وقال تحدثاً بنعمة الله وشكراً له ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة: يا أيها الناس: لقد أكرمنا الله فعلمنا منطق وكلام الطير، وأصوات جميع الحيوانات، وقدّم منطق الطير، لأنها نعمة خاصة به، لا يشاركه فيها غيره.

﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ وأعطانا الله من كل شيء ـ والمراد به كثرة ما أوتي ـ من خيرات الدنيا ومن أسباب الملك، ومن السلطنة والقهر، ما لم يؤته أحداً من الآدميين وجاء سليمان بنون العظمة، والمراد نفسه، بياناً لحاله من كونه مطاعاً لا يخالف، لا تكبراً وتعظيماً لنفسه.

الجزء التاسع عشر سورة النمل

إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا
عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥ ٱللَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ٢٦ قَالَ سَنَنظُرُ
أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٧ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا
فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ٢٨ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ
بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١
قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ
تَشۡهَدُونِ ٣٢ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ
إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً
أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤
وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥

٣٧٩

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: إن ما أعطانا، وما خصنا الله به من أنواع النعم لهو الفضل الواضح الجلي، الذي يميزنا على من سوانا، قاله على سبيل الشكر والمحمدة، لا على سبيل العلو والكبرياء.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ﴾ وجمع لسليمان جيوشه وعساكره، وأحضرت له في مسيرة كبيرة، فيها طوائف الجن والإنس والطير، يتقدمهم سليمان في أبهة وعظمة كبيرة.

﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ أي: فهم يكفون ويمنعون عن التقدم بين يديه. قال ابن عباس: جعل على كل صنف من يرد أولاها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير كما تصنع الملوك.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ أي: حتى إذا وصلوا إلى وادٍ بالشام كثير النمل، قالت إحدى النملات منبهة لرفيقاتها وبني جنسها ادخلوا بيوتكم، خاطبتهم مخاطبة العقلاء؛ لأنها أمرتهم بما يؤمر به العقلاء.

﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: لا يكسرنكم سليمان وجيوشه بأقدامهم، وهم لا يشعرون بكم، ولا يريدون حطمكم عن عمد، حذرت ثم اعتذرت؛ لأنها علمت أنه نبي رحيم، فسمع سليمان كلامها وفهم مرامها فإن قولها: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ وصف لهم بالتقوى والتحفظ من مضرة الحيوان، فلما سمع ذلك سليمان عليه السلام منها.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ فتبسم سروراً بما سمع من ثناء النملة عليه وعلى جنوده، ولفهمها واهتدائها إلى مصالحها ونصيحتها للنمل، وأكثر ضحك الأنبياء التبسم. وقد أكد تعالى التبسم بقوله: ﴿فَتَبَسَّمَ﴾ إذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضا، ألا تراهم يقولون تبسم تبسم الغضبان، وتبسم تبسم المستهزئين، وتبسم الضحك إنما هو عن سرور، ولا يسرّ نبي بأمر دنيا، وإنما سرّ بما كان من أمر الآخرة والدين وهذا حال الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الأدب الكامل، والتعجب في موضعه، وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم. فإن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب، وعدم التبسم والعجب مما يتعجب منه يدل على شراسة الخلق والجبروت، والرسل منزهون عن ذلك.

وقد استشعر سليمان نعمة الله عليه، فتوجه إليه داعياً:

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ أي: ألهمني ووفقني لشكر نعمائك وأفضالك التي أنعمت بها عليّ من النبوة والملك والعلم، وعلى أبويَّ؛ لأن الإنعام على الوالدين إنعام على الولد.

﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ أي: ووفقني لعمل الخير الذي يقربني منك، والذي تحبه وترضاه، لكونه موافقاً لأمرك، مخلصاً فيه.

﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وأدخلني برحمتك إذا توفيتني في نعيم جنتك دار الرحمة، ـ إذ لا يدخل الجنة أحد إلا برحمته ـ مع عبادك الصالحين الذين ارتضيت أعمالهم.

* ثم ذكر تعالى نموذجاً آخر من مخاطبته للطير، فقال:

﴿٢٠﴾، ﴿٢١﴾ ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ أي: بحث وطلب سليمان وفتش عن جماعة الطير المسخرة له، وحال ما غاب منها، دل

هذا على كمال عزمه وحزمه، وحسن تنظيمه لجنوده، وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار حتى إنه لم يهمل هذا الأمر، وهو تفقد الطير.

﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ أي: لم لا أرى الهدهد ههنا؟ قال المفسرون: كان الطير تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها، فلما فصل سليمان عن وادي النمل ونزل في قفر من الأرض، عطش الجيش فسألوه الماء، وكان الهدهد يدله على الماء، فإذا قال: ههنا الماء، شقت الشياطين وفجرت العيون، فطلبه في ذلك اليوم فلم يجده، فقال: ما لي لا أراه.

﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أم منقطعة بمعنى: «بل» أي: بل هو غائب، ذهب دون إذن مني فحينئذ تغيظ عليه وتوعده، فقال:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لأعاقبنه عقاباً أليماً بالسجن، أو نتف الريش، أو الذبح، أو ليأتيني بحجة واضحة تبين عذره.

* وبعد برهة من الزمن يسيرة، جاء الهدهد إلى سليمان بأمر عظيم، وشأن ذي بال، فقال:

﴿٢٢﴾-﴿٢٦﴾ ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ۩﴾.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: فأقام الهدهد زماناً يسيراً غير طويل، ثم جاء إلى سليمان، فعاتبه على مغيبه وتخلفه، فقال الهدهد لسليمان اطلعت على ما لم تطلع عليه، وعرفت ما لم تعرفه، وبلغت ما لم تبلغه أنت ولا جنودك.

﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ وأتيتك من مدينة سبأ ـ باليمن ـ بخبر مهم له شأن، وأمر صادق خطير، ثم فسر هذا النبأ، فقال:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ أي: من عجائب ما رأيت، أن امرأة ـ تسمى بلقيس ـ هي ملكه لهم، وهم يدينون بالطاعة لها.

قال الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾. ولم يقل ملكة تملكهم؛ كأنه استقبح أن تحكمهم امرأة، فهي محل الستر والحياء لا الملك.

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ وأعطيت من كل شيء من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك، من أسباب الدنيا، من سعة المال، وكثرة الرجال، ووفرة السلاح والعتاد.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ولها سرير كبير، عظيم القدر، تجلس عليه لإدارة ملكها، مكلّل بالدر والياقوت. قال قتادة: كان عرشها من ذهب، قوائمه من جوهر، مكلّل باللؤلؤ، قال الطبري: وعني بالعظيم في هذا الموضع؛ العظيم في قدره وخطره، لا عظمه في الكبر والسعة، ثم أخذ يحدثه عما هو أعظم وأخطر، فقال:

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: وجدتهم جميعاً مجوساً يعبدون الشمس، ويتركون عبادة الواحد الأحد.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: حسن لهم إبليس عبادتهم الشمس وسجودهم لها من دون الله، ومنعهم بسبب هذا الضلال عن طريق الحق والصواب.

﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ فهم بسبب إغواء الشيطان لا يهتدون إلى الله وتوحيده، ثم قال الهدهد متعجباً.

﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أيسجدون للشمس ولا يسجدون لله الخالق العظيم، الذي يعلم الخفايا ويعلم كل خبيئة في السماء والأرض.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ويعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه، من الأقوال والأفعال، يعلم السر والعلن، وما ظهر وما بطن.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: هو تعالى المتفرد بالعظمة والجلال، رب العرش الكريم المستحق للعبادة والسجود لا غيره، وخص العرش بالذكر؛ لأنه أعظم المخلوقات، وعرش ملكة سبأ وإن كان عظيماً فهو

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ
ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم
بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧
قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ
٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ
وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠
ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ
قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا
يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤٠ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا
عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ٤١ فَلَمَّا
جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا
وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ٤٢ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن
قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٤٣ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ
وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ
إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤

٣٨٠

صغير وحقير في جنب عرشه ﷻ. وإلى هنا انتهى كلام الهدهد.

* فرد عليه سليمان، متثبتاً لكمال عقله ورزانته، وتأنيه في الأمور.

﴿٢٧﴾-﴿٣١﴾ ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ * ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ * قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ * إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾.

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي: قال سليمان للهدهد: سنتأمل في قولك، ونتثبت هل أنت صادق فيما أخبرت أم كاذب فيه؟ قال ابن الجوزي: وإنما شك في خبره؛ لأنه أنكر أن يكون لغيره سلطان. ثم كتب كتاباً وختمه بخاتمه، ودفعه إلى الهدهد، وقال:

﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ أي: اذهب بهذا الكتاب وأوصله إلى ملكة سبأ وجندها، ثم تنح إلى مكان قريب، مستتراً عنهم لكون التنحي بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التي يتأدب بها رسول الملوك.

﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ أي: فانظر ماذا يردون من الجواب وما يتراجعون به؟

قال المفسرون: أخذ الهدهد الكتاب وذهب إلى بلقيس وقومها، فرفرف فوق رأسها ثم ألقى الكتاب في حجرها.

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٞ﴾ أي: قالت بلقيس لأشراف قومها وكبراؤهم: إنه أتاني كتاب عظيم جليل من أكبر ملوك الأرض، قيل: وصفته بـ ﴿كَرِيمٞ﴾ لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله ﷻ وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سبًّا أو لعناً، ولا ما يغير النفس، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق على عادة الرسل في الدعاء إلى الله ﷻ. ثم بينت المكتوب فقالت:

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: إن هذا الكتاب مرسل من سليمان، ثم فتحته وبينت مضمونه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، وهو استفتاح شريف بارع فيه إعلان الربوبية لله، ثم الدعوة إلى توحيد الله والانقياد لأمره.

﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ أي: لا تتكبروا عليَّ ولا تترفعوا كما يفعل الملوك، وجيئوني مؤمنين، موحدين، طائعين. وهذا في غاية الوجازة مع البيان التام، وحصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، فإنه تضمن نهيهم عن العلو عليه، والبقاء على حالهم التي هم عليها، والانقياد لأمره، ومجيئهم إليه، ودعوتهم إلى الإسلام، وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة، وتقديم الاسم في أول عنوان الكتاب.

* فما كان من بلقيس إلا أن جمعت كبار دولتها، ورجال مملكتها، وذلك من حزمها، وعقلها.

﴿٣٢﴾-﴿٣٥﴾ ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ * قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ * قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ * وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ أي: قالت لأشراف قومها: أشيروا عليَّ في الأمر وأخبروني، وأجيبوني فيما أشاوركم فيه، ثم زادت في التأدب واستجلاب خواطرهم، فقالت:

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ أي: ما كنت لأقضي أمراً

دون حضوركم ومشورتكم، قصدت بذلك تطييب أنفسهم ليمالئوها ويقوموا معها ويشيروا عليها بالصواب.

﴿قَالُوا۟ نَحۡنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأۡسٍ شَدِيدٍ﴾ قالوا مجيبين لها: نحن أصحاب كثرة في الرجال والعتاد، وأصحاب شدة في الحرب، وهذا تعريض منهم بالقتال إن أمرتهم بذلك، ثم قالوا:

﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾ أي: وأمرنا إليك وأنت صاحبة الرأي، فمرينا بما شئت نمتثل أمرك، مطيعون لكِ، وقولهم هذا دليل على الطاعة المفرطة، ودليل لعلمهم بصحة رأيها وقوة عقلها. قال القرطبي: أخذت في حسن الأدب مع قومها ومشاورتهم في أمرها في كل ما يعرض لها، فراجعها الملأ بما يقر عينها، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلموا الأمر إلى نظرها، وهذه محاورة حسنة من الجميع، فلما أحست منهم الميل إلى المحاربة مالت إلى المصالحة ورتبت الجواب، فزيفت أولاً ما ذكروه وأرتهم الخطأ فيه حيث:

﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾ أي: فقالت لهم بلقيس مقنعة لهم عن رأيهم، مجيبة لهم عن التعريض للقتال، ومحذرة لهم من مواجهة سليمان بالعداوة، أن عادة الملوك أنهم إذا استولوا على بلدة عنوة وقهراً، خربوها وأسروا ونهبوا وأتلفوا.

﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةً﴾ أي: أهانوا أشرافها وكبراءها، وأذلوهم بالقتل والأسر والتشريد، فذكرت لهم سوء عاقبة الحرب، ثم قالت:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ أي: وهذه عادتهم وطريقتهم في كل بلد يدخلونها قهراً، وهذا رأي غير سديد، ثم عدلت إلى المهادنة والمسالمة، ومعرفة أحوالهم وتقصي أخبارهم حتى تكون على بصيرة من أمرها، فقالت:

﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ وإني سأبعث إليه بهدية عظيمة تليق بمثله، فأنظر هل يقبلها أم يردها؟ والهدية هي العطية على طريق الملاطفة، قال قتادة: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس، وقال ابن عباس: قالت لقومها إن قبل الهدية فهو ملك يريد الدنيا فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي صادق فاتبعوه.

* ثم ذكرت الآيات أنها أرسلت له هدية، مع رسل من عقلاء قومهم، وذوي الرأي منهم:

﴿٣٦﴾،﴿٣٧﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ۞ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ أي: فلما جاء رسل بلقيس إلى سليمان بالهدية العظيمة، قال منكراً عليهم: أتصانعونني بالمال والهدايا لأتركم على كفركم وملككم؟

﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ فما أعطاني الله من النبوة والملك الواسع أفضل مما أعطاكم من زينة الحياة، فلا حاجة لي بهديتكم، ولا أفرح بها، قد أغناني الله عنها وأكثر عليَّ النعم.

﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ أي: أنتم تفرحون بالهدايا لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا، وليست الدنيا من حاجتي لأن الله تعالى قد مكنني فيها وأعطاني منها ما لم يعط أحداً، ومع ذلك أكرمني بالدين والنبوة، ثم قال لرئيس الوفد من غير كتاب، لما رأى من عقله، وأنه سينقل كلامه على وجهه:

﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: ارجع إليهم بهديتهم، فوالله لنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بمقابلتها، ولا قدرة لهم على مقاتلتها.

﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ ولنخرجنهم من أرضهم ومملكتهم أذلاء حقيرين إن لم يأتوني مسلمين وينقادوا لدين الله وحده، ويتركوا عبادة من سواه، قال ابن عباس: لما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها الخبر، قالت: قد عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وبعثت إلى سليمان إني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك، وما تدعو إليه من دينك، ثم ارتحلت إلى سليمان في اثني عشر ألف قائد.

* ثم أراد سليمان أن يريها بعض ما خصه الله به من العجائب الدالة على عظيم قدرة الله وعظم سلطانه، وصدقه في دعوى النبوة، ويختبر عقلها، في معجزة يأتي بها في عرشها، بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفه أم تنكره.

﴿٣٨﴾-﴿٤٠﴾ ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُا۟ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي

مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ **قال سليمان لأشراف من حضره من جنده: أيكم يأتيني بسريرها المرصع بالجواهر قبل أن تصل إليّ مع قومها منقادين طائعين؟**

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ **قال مارد من مردة الجن، والعفريت ـ هو القوي النشيط جداً ـ: أنا أحضره إليك قبل أن تقوم من مجلس الحكم ـ وكان يجلس من الصبح إلى الظهر في كل يوم ـ، وغرضه أنه يأتيه به في أقل من نصف النهار، والظاهر أن سليمان إذ ذاك في الشام، فيكون بينه وبين سبأ نحو مسيرة أربعة أشهر، شهران ذهاباً، وشهران إياباً.**

﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ **أي: وإني على حمله لقادر، وأمين على ما فيه من الجواهر والدرر وغير ذلك، فقال سليمان: أريد أسرع من هذا.**

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ **قال المفسرون: هو أصف بن برخيا كان من الصديقين يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى، وهو الذي أتى بعرش بلقيس، وقال لسليمان: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، أي: آتيك به بلمح البصر، فأذن له سليمان فدعا الله، فأتى بالعرش حالاً.**

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ **فلما نظر سليمان ورأى العرش ـ السرير ـ حاضراً لديه، ثابتاً عنده، محمولاً إليه من مأرب باليمن إلى الشام في قدر ارتداد الطرف، قال: هذا من فضل الله ونعمته عليّ، وإحسانه إليّ بلا استحقاق مني.**

﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ **أي: ليختبرني أأشكر إنعامه، أم أجحد فضله وإحسانه؟ ثم بين أن الشكر لا ينتفع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه، فقال:**

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ **أي: ومن شكر فمنفعة الشكر لنفسه؛ لأنه يستزيد من فضل الله، فالشكر قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة.**

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ **أي: ومن لم يشكر وجحد فضل الله، فإن الله مستغن عنه وعن شكره، كريم بالإنعام والإفضال على من يكفر نعمته.**

* **ولما قرب وصول ملكة سبأ إلى بلاده، أمر بأن تغير بعض معالم عرشها امتحاناً لها.**

٤١-٤٤ ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ * قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ **قال سليمان: غيروا بعض أوصاف سرير ملكها وهيئته بزيادة ونقصان، كما يتنكر الإنسان حتى لا يُعرف.**

﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ **أي: لننظر إذا رأته هل تهتدي إلى أنه عرشها وتعرفه، أم تكون من الجاهلين الذين لا يهتدون؟ أراد بذلك اختبار ذكائها وعقلها وفطنتها.**

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ **بلقيس قادمة على سليمان، عرض عليها عرشها، وكان عهدها به قد خلفته في بلدها. قيل لها: أمثل هذا العرش الذي رأيتيه عرشك؟ ولم يقل: أهذا عرشك؟ لئلّا يكون تلقينا لها.**

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ **أي: يشبهه ويقاربه، ولم تقل: نعم خوفاً من أن تكذب، ولم تقل: لا، خوفاً من**

التكذيب، وهذا غاية في الذكاء والحزم. فقال سليمان متعجباً من هدايتها، وعقلها، وشاكراً لله أن أعطاه أعظم منها:

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ أي: قال سليمان تحدثاً بنعمة الله: لقد أوتينا العلم والهداية والعقل والحزم ـ من قبل هذه المرأة ـ تحدثاً بنعمة الله وبقدرته، وكنا مسلمين منقادين لله من قبلها، فنحن أسبق منها علماً وإسلاماً.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: منعها عن الإيمان بالله عبادتها القديمة للشمس والقمر.

﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾ أي: بسبب كفرها ونشوئها بين قوم مشركين فنشأت بينهم، ولم تعرف إلا عبادة الشمس، وإلا فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل، ولكن العقائد الباطلة تذهب ببصيرة القلب. ثم إن سليمان أراد أن ترى من سلطانه ما يبهر العقول.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ أي: ادخلي القصر العظيم الفخم، وكان مجلساً مرتفعاً من قوارير تجري من تحته الأنهار.

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ أي: فلما رأت ذلك الصرح الشامخ ظنته لجة ماء، أي: ماء غمراً كثيراً ـ وكشفت عن ساقيها لتخوض فيه ـ ومن عادة النساء والحرائر ذوات الخدور عدم إظهار الزينة وابدائها من الساق أو غيره، فعلت ذلك وهي كافرة عفة وحشمة. ومن عقلها وأدبها، فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل الذي أمرت بدخوله، لعلمها أنها لم تستدع إلا للإكرام. فلما استعدت للخوض.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي: قال سليمان: إنه قصر مملس من زجاج؛ لأن القوارير شفافة، يرى الماء الذي تحتها، كأنه بذاته يجري، ليس دونه شيء إلا الزجاج الصافي، فلا حاجة منك لكشف الساقين، فحينئذ لما وصلت إلى سليمان، وشاهدت ما شاهدت، وعلمت نبوته ورسالته، تابت ورجعت عن كفرها.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ أي: قالت بلقيس حينئذ: رب إني ظلمت نفسي بالشرك وعبادة الشمس.

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: وتابعت سليمان على دينه، فدخلت في الإسلام مؤمنة برب العالمين.

والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة، ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله، وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره، انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله عز وجل.

* لما ذكر تعالى في أول السورة قصة موسى، ثم أعقبها بقصة داود وسليمان، وما فيها من العجائب والغرائب، ذكر هنا قصة قبيلة ثمود، وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام حين بعثه الله إليهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكل هذه القصص عرضها سبحانه للتذكير والاعتبار، وبيان سنة الله في إهلاك المكذبين، قال تعالى:

(٤٥)-(٤٧) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اللام جواب قسم محذوف، أي: والله لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود، أخاهم ـ في النسب لا في الدين ـ صالحاً عليه السلام، يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته.

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: فلما أتاهم صالح داعياً إلى توحيد الله وعبادته وحده، صار قومه فريقين، أحدهما مؤمنون به، والآخر كافرون بدعوته يتنازعون في شأن الدين، وكل منهم يزعم أن الحق معه، واختصامهم: اختلافهم وجدالهم في الدين، وجاء الفعل بالجمع ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ حملاً على المعنى.

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ قال صالح للفريق الكافر، بطريق التلطف والرفق: يا قوم لم تطلبون العذاب والعقوبة قبل التوبة؟ ولأي شيء تستعجلون بالعذاب، ولا تطلبون الرحمة.

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: هلا تتوبون إلى الله

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ
بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ
عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ
تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾
قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ
مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟
مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ
ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ
شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

٣٨١

من الشرك، لكي يتوب الله عليكم ويرحمكم؟ قال المفسرون: كان الكفار يقولون لفرط الإنكار: يا صالح ائتنا بعذاب الله، فقال لهم: هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر.

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: قالوا لنبيهم: تشاءمنا بك يا صالح وبأتباعك المؤمنين، فإنكم سبب ما حل بنا من بلاء، وكانوا قد أصابهم قحط وجوع عند مبعثه.

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: قال لهم صالح: حظكم في الحقيقة من خير أو شر، هو عند الله وبقضائه، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم. ولما لاطفهم نبيهم صالح في الخطاب أغلظوا له في الجواب، وقالوا تشاءمنا بك وبمن معك، فأخبرهم أن شؤمهم بسبب عملهم لا بسبب نبيهم صالح والمؤمنين.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي: بل الحقيقة أنكم جماعة يفتنكم الشيطان بوسوسته وإغوائه، ولذلك تقولون ما تقولون.

* ثم يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤسائهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح، ولا تذكر السورة هنا قصة الناقة التي عقرها القوم، فقال تعالى:

﴿٤٨﴾-﴿٥٣﴾ ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ * وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي: وكان في المدينة التي فيها صالح ـ وهي ثمود ـ تسعة رجال من أبناء أشرافهم، وقيل: كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة.

﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي: شأن هؤلاء التسعة الإفساد، وإيذاء العباد بكل طريق ووسيلة، وهم غواة قوم صالح، وهم الذين عقروا الناقة.

﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي: قال هؤلاء التسعة بعضهم لبعض: احلفوا بالله، بأن يحلف كل واحد للآخرين، لنقتلن صالحاً وولده ومن تبعه ليلاً.

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ ثم نقول لولي دمه إذا قام علينا، ما حضرنا مكان هلاكه، ولا عرفنا قاتله ولاقاتل أهله فكيف توليناه.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي: ونحلف لهم إنا لصادقون، وكان هذا مكراً منهم.

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾ ومكرهم، أي: ما دبروا من مكيدة لقتل صالح وأهله على درجة الخفية.

﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ومكر الله إهلاكهم، أي: جازيناهم على مكرهم بتعجيل هلاكهم، من حيث لا يشعرون ولا يعلمون، سماه مكراً بطريق المشاكلة. قال ابن عباس: أتوا دار صالح شاهرين سيوفهم، فرمتهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: فتأمل وتفكر ـ يا محمد ـ في عاقبة أمرهم ونتيجة كيدهم، كيف أنا أهلكناهم أجمعين بالصيحة، وكان مآلهم الخراب والدمار.

﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ فتلك مساكنهم ودورهم خالية، ليس فيها منهم أحد لأنهم أهلكوا، بسبب ظلمهم وكفرهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ إن في هذا التدمير العجيب لقوم ثمود، لعبرة عظيمة لقوم يعلمون قدرة الله فيتعظون في الظلم وعواقبه، وهذه سنتنا فيمن يكذب المرسلين.

﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ وأنجينا من العذاب المؤمنين المتقين، الذين آمنوا مع صالح.

* وتستمر الآيات الكريمة في ذكر الأنبياء وما جرى لهم مع أقوامهم. وهنا ذكر تعالى قصة نبيه لوط عليه السلام مع قومه، حيث أنذرهم نقمة الله بهم في فعل الفاحشة، التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، قال تعالى:

(٥٤)-(٥٨) ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ * أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ * وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾.

﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ أي: واذكر رسولنا لوطاً، حين قال لقومه أهل سدوم داعياً إلى الله وناصحاً لهم.

﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ تكرير للتوبيخ مع التصريح بأن تلك الفاحشة هي اللواطة، أي: أئنكم أيها القوم لفرط سفهكم تشتهون الرجال وتتركون النساء؟ ويكتفي الرجال بالرجال بطريقة الفاحشة القبيحة.

﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ بل أنتم قوم سفهاء ماجنون، ولذلك تفضلون العمل الشنيع على ما أباح الله لكم من النساء.

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ أي: فما كان جواب أولئك المجرمين إلا المعارضة والمناقضة، أن قالوا لبعضهم: أخرجوا لوطاً وأهله من بلدتكم، فهذا جزاء الناصح ورسولهم الأمين!

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾ أي: إنهم قوم يتنزهون عن القاذورات ويعدون فعلنا قذراً، وهو تعليل لوجوب الطرد والإخراج، قال قتادة: عابوهم والله بغير عيب، واستهزؤا بأنهم يتطهرون من أعمال السوء.

﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ فخلصنا لوطاً وأهله من العذاب الواقع بالقوم إلا زوجته، وجعلناها بقضائنا وتقديرنا من المهلكين، الباقين في العذاب؛ لأنها كانت عوناً لقومها على أفعالهم القبيحة راضية بها.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ وأنزلنا عليهم حجارة من السماء مكتوباً عليها اسم صاحبها، كالمطر، فأهلكناهم وهذا التأكيد يدل على شدة المطر، وأنه غير معهود.

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ أي: بئس هذا العذاب الذي أمطروا به، وهو الحجارة من سجيل منضود.

* ولما ذكر تعالى قصص الأنبياء وما جرى لهم مع أقوامهم، أتبعه بالأمر بحمده تعالى والثناء عليه بما هو أهله، ثم ذكر بعض دلائل القدرة والوحدانية، فقال:

(٥٩)،(٦٠) ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ * أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

الجزء العشرون — سورة النمل

* فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ
لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيۡنَٰهُ
وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ (٥٧) وَأَمۡطَرۡنَا
عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ (٥٨) قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ
وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ
(٥٩) أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن
تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ (٦٠)
أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ
لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ
بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا
دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ
أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي
ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ
رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (٦٣)

٣٨٢

مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾.

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ قل - يا محمد - الحمد لله على إفضاله وإنعامه.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾ أي: وسلام على عباده المرسلين الذين اصطفاهم لرسالته، واختارهم لتبليغ دعوته، فهم أكرم الخلق على الله، وأخصهم بالزلفى لديه، ويكفي في شرفهم وفضلهم أن الله اختصهم بوحيه، وجعلهم أمناءه على رسالته، وواسطته بينه وبين عباده، وخصهم بأنواع كراماته، فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه مكاناً علياً على سائر درجات، ولم يجعل لعباده طريقاً للوصول إليه إلا من طريقهم، ولا دخولاً إلى جنته إلا خلفهم. قال الزمخشري: أمر الله رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الدالة على وحدانيته، الناطقة بالبراهين على قدرته وحكمته، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه، وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وهو حمد الله والصلاة على رسله، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب، فحمدوا الله وصلوا على رسوله أمام كل علم، وقبل كل عظة وتذكرة.

﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي: هل الخالق المبدع الحكيم، خير أم الأصنام التي عبدوها وهي لا تسمع ولا تستجيب؟ وفي هذا تبكيت للمشركين وتهكم بهم، ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف ويتعين أنه الإله المعبود، وأن عبادته هي الحق، وعبادة ما سواه هي الباطل، فقال:

﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ برهان آخر على وحدانية الله، أي: أَمَّن أبدع الكائنات، فخلق تلك السموات في ارتفاعها وصفائها، وجعل فيها الكواكب المنيرة، وخلق الأرض وما فيها من الجبال والسهول والأنهار والبحار، خير أما يشركون؟

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ أي: وأنزل لكم بقدرته المطر من السحاب، فأخرج به الحدائق والبساتين، ذات الجمال والخضرة والنضرة، والمنظر الحسن البهيج.

﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ أي: ما كان للبشر ولا يتهيأ لهم، وليس بمقدورهم، ومستطاعهم، أن ينبتوا شجرها فضلاً عن ثمرها؛ لأنهم لا يقدرون عليها.

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ استفهام إنكار، أي: هل معه معبود سواه حتى تسوّوا بينهما، وهو المتفرد بالخلق والتكوين؟

﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ بل هم قوم يشركون بالله، فيجعلون له عديلاً ومثيلاً، ويسوّون بين الخالق الرازق والوثن.

* وتناولت السورة الكريمة الدلائل والبراهين على وجود الله ووحدانيته، من آثار مخلوقاته وبدائع صنعه، وساقت بعض الأهوال والمشاهد الرهيبة، التي يراها الناس يوم الحشر الأكبر، حيث يفزعون ويرهبون، وينقسمون إلى قسمين: السعداء الأبرار، والفجار الأشقياء، الذين يكبون على وجوههم في النار، قال تعالى:

(٦١) ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾ برهان آخر، أي: من جعل الأرض مستقرّاً، لا تميد بأهلها، ولا تتحرك، بحيث يمكنهم الإقامة بها والاستقرار عليها، وجعل في شعابها وأوديتها، الأنهار العذبة الطيبة، تسير خلالها شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، فينتفع بها العباد.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًا﴾ أي: وجعل جبالاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها، لئلَّا تميد وتضطرب بكم، وجعل بين الماء العذب، والمالح، فاصلاً ومانعاً، يمنعها من الاختلاط؛ لئلَّا يفسد ماء البحار المالحة المياه العذبة.

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا ثبت أنه لا يقدر على ذلك إلا الله، فهل إله في الوجود يصنع صنعه، ويخلق خلقه، فكيف يشركون به ما لا يضر ولا ينفع.

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: أكثر المشركين لا يعلمون الحق، وسلطانه وقدرته، فيشركون مع الله غيره.

* ثم ينبه تعالى في برهان ثالث على وحدانية الله ﷻ وأنه المدعو وحده عند الشدائد، المرجو عند النوازل، قال تعالى:

(٦٢)، (٦٣) ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي

ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: أمّن يجيب المكروب المجهود الذي مسه الضر ولا حول له ولا قوة، فيستجيب دعاءه ويلبي نداءه؟ ويكشف عنه الضر والبأساء والشر والنقمة؟

قال القرطبي: ضمن الله -تعالى- إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجاء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه، وللإخلاص عنده -سبحانه- موقع وذمة، وجد من مؤمن أو كافر طائع أو فاجر.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ ويجعلكم سكان الأرض تعمرونها قوماً بعد قوم، وجيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أإله مع الله يوليكم هذه النعم الجسام حتى تعبدوه؟ لا أحد يفعل مع الله شيئاً من ذلك.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقل تذكركم واعتباركم فيما تشاهدون؟ فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ برهان رابع على وحدانية الله وقدرته، أي: أعباده ما تشركون بالله خير، أم من يرشدكم إلى مقاصدكم بالنجوم وفي أسفاركم في الظلام الدامس، وفي البراري، والقفار، والبحار، والبلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار؟

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: ومن الذي يسوق الرياح مبشرة بنزول المطر، الذي هو رحمة للبلاد والعباد؟

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: أإله مع الله يقدر على شيء من ذلك، فتدعون من دونه؟

﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعظم وتقدس وتمجد الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق.

* وتستمر الآيات في ذكر دلائل وحدانية الله ﷻ، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، قال تعالى:

(٦٤) ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ برهان خامس لإثبات تفرد الله ﷻ بالخلق، أي: واسألهم من الذي ينشئ خلق الإنسان ثم يعيده بعد فنائه؟ كانوا يقرون بأن الله سبحانه هو الخالق، فألزمهم الإعادة، فمن قدر على الابتداء قدر على الإعادة.

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ومن الذي ينزل عليكم من مطر السماء، وينبت من بركات الأرض الزروع والثمار؟ ولما كان إيجاد بني آدم إنعاماً إليهم وإحساناً عليهم، ولا تتم النعمة إلا بالرزق قال تعالى:

الجُزْءُ العِشْرُونَ سُورَةُ النَّمْلِ

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل
لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى
شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا
كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا
نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾
قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ
﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ
أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ
فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ
يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

٣٨٣

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: أإله مع الله يفعل ذلك ويقدر عليه حتى تجعلونه شريكاً؟

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: أحضروا حجتكم ودليلكم على ما تزعمون إن كنتم صادقين في أن مع الله إلهاً آخر، أو هاتوا حجتكم أن ثمّ صانعاً يصنع كصنعه، وفي هذا تبكيت لهم وتهكم بهم.

* ثم تتناول الآيات ذكر تفرد الله ﷻ بعلم الغيب، وأن الأمر كله بيده ﷻ.

(٦٥)، (٦٦) ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يخبر سبحانه أنه هو وحده المختص بعلم الغيب، فلا يعلم أحد من ملك أو بشر

الغيب، إلا الله علام الغيوب، الذي استأثر سبحانه بعلمه، وقيل: نزلت في المشركين حين سألوا النبي ﷺ عن قيام الساعة.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ وما يدري ولا يشعر الخلائق متى يبعثون وينشرون بعد موتهم عند قيام الساعة؟

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: هل تتابع وتلاحق علم المشركين بالآخرة وأحوالها حتى يسألوا عن الساعة وقيامها؟ بل ضعف وقل، ولم يكن يقيناً، ولا علماً واصلاً إلى القلب، وهذا أقل وأدنى درجة العلم، ضعفه ووهاؤه، بل ليس عندهم علم ولا ضعيف.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾ إضراب عن السابق، أي: هم اليوم شاكون في الآخرة لا يصدقون بها، ولذلك يعاندون ويكابرون، ثم أضرب عن ذلك إلى ما هو أشدّ منه، فقال:

﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ بل هم في عمى عن الآخرة، وجهل كبير في أمرها وشأنها، ليس لهم بصيرة يدركون بها دلائل وقوعها؛ لأن اشتغالهم باللذات النفسانية من شهوة البطن والفرج صيرهم كالبهائم والأنعام، لا يتدبرون ولا يبصرون، قال ابن كثير: هم شاكون في وقوعها ووجودها، بل هم في عماية وجهل كبير في أمرها.

* لما ذكر تعالى الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، ذكر هنا شبهات المشركين في الإيمان بالآخرة والبعث والنشور، وأردفها بذكر الدلائل القاطعة، وذكر بعض الأهوال التي تكون بين يدي الساعة.

﴿٦٧-٧٠﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ * وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ أي: قال مشركو مكة المنكرون للبعث: أإذا متنا وأصبحنا رفاتاً وعظاماً بالية، فهل سنخرج من قبورنا ونحيا مرة ثانية؟ استبعدوا هذا وأنه غير ممكن، قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرتهم الضعيفة.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: ما زلنا نسمع بهذا الذي وعدنا به محمد بالبعث والجزاء، كما وعد من قبله آباءنا الأولين، فلو كان حقاً لحصل.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا إلا خرافات وأباطيل السابقين، ينكرون البعث وينسون أنهم خُلقوا من العدم، ثم نبههم على صدق ما أخبرت به الرسل، فقال:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء الكفار المكذبين: سيروا في أرجاء الأرض، فانظروا ـ نظر اعتبار إلى ديار من كان قبلكم من المجرمين، ـ كيف كان مآل المكذبين للرسل؟ ألم يهلكهم الله ويدمرهم؟ فما حدث للمجرمين من قبل، يحدث للمجرمين من بعد، والآية وعيد وتهديد.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ تسلية للرسول ﷺ، أي: لا تحزن ـ يا محمد ـ، ولا تأسف على هؤلاء المكذبين إن لم يؤمنوا، وأعرضوا عنك، ولا يضيق صدرك من مكرهم فإن الله يعصمك منهم وناصرك عليهم، وفي هذا دلالة على رغبة الرسول ﷺ في هداية قومه وبذل الوسع في ذلك، مع ما يلاقيه من شدة مكرهم وأذاهم حتى إنه ليضيق صدره بذلك ﷺ.

* ثم ذكر تعالى مخبراً عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة، واستبعادهم وقوع ذلك:

﴿٧١-٧٥﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: يقول مشركو قومك ـ يا محمد ـ استهزاءً: متى يجيئنا العذاب الذي تعدنا به أنت وأتباعك، إن كنتم صادقين فيما تقولون؟

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قل لهم ـ يا محمد ـ لعل الذي تستعجلون به من العذاب قد دنا وقرب منكم

بعضه. قال المفسرون: هو ما أصابهم من القتل والأسر يوم بدر، ثم ينبه على سعة جوده، وكثرة أفضاله، ويحثهم على شكرها، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لذو إفضال وإنعام على الناس، بترك تعجيل عقوبتهم على معاصيهم وكفرهم، ولكن أكثرهم لا يعرفون حق النعمة، ولا يشكرون ربهم، ولا يعرفون فضله وإحسانه، فيؤمنون به، ويخلصوا له العبادة.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وإنه تعالى ليعلم ما يخفون في صدورهم، وما يعلنون من عداوة الرسول وكيدهم له، وسيجازيهم عليه، فليحذروا من عالم السرائر والظواهر وليراقبوه.

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ليس من شيء في غاية الخفاء على الناس والغيوبة عنهم، إلا وقد علمه الله وأحاط به، وأثبته في اللوح المحفوظ عنده، فما من شيء سر في السموات والأرض أو علانية إلا وعند الله علمه فلا تخفى عليه سبحانه خافية.

* لما ذكر تعالى أمر المبدأ والمعاد والنبوة، وكان القرآن من أعظم الدلائل والبراهين على صدق محمد وصدق ما جاء به، أعقبه هنا بذكر القرآن المجيد وذكر أوصافه، وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان، قال تعالى:

(٧٦)-(٨١) ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ * إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: إن هذا القرآن المنزل على خاتم الرسل لهو الكتاب الحق، الذي يبين لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه من أمر الدين، ومن جملته اختلافهم في أمر المسيح، وتفرقهم فيه فرقاً كثيرة، حتى لعن بعضهم بعضاً، فلو كانوا منصفين لأسلموا؛ لأن القرآن جاءهم بالأمر الساطع، والخبر القاطع.

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وإن هذا القرآن لهداية لقلوب المؤمنين من الضلالة والغي والشبه، ورحمة لهم من العذاب، لمن أنصف منهم وآمن من بني إسرائيل ومن غيرهم، وإنما خص المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون به، فهؤلاء تحصل لهم

وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم
بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى
ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ
إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن
تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ
ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ
ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ
فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ
أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ
دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ
صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

٣٨٤

به الهداية إلى الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ إن ربك - يا محمد - يفصل بين بني إسرائيل يوم القيامة بحكمه العادل، وقضائه المبرم، فيجازي المحق والمبطل.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: المنيع الغالب، الذي لا يرد أمره ولا قضاؤه، العليم بأفعال العباد وأقوالهم، فلا يخفى عليه شيء منهم، ولا يلتبس عليه حق بباطل.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: فوض إليه أمرك، واعتمد عليه في جميع شؤونك فإنه ناصرك، فإنك - يا محمد - على الدين الحق، الواضح المنير، فالعاقبة لك بالنصر على الكفار، وإذا قمت بأعباء

الرسالة، وتوكلت على الله في ذلك، فلا يضرك ضلال من ضل، وليس عليك هداهم، فلهذا قال:

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إنك ـ يا محمد ـ لا تسمع الكفار لتركهم التدبر والاعتبار، فوصف الكافر بأنه ميت، وأنه بمنزلة أصحاب القبور، لا حس لهم ولا عقل.

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ ولا تسمعهم دعاءك ونداءك إذا ذكرتهم بالله أو دعوتهم إلى الإيمان، لأنهم كالصم الذين في آذانهم وقر، فلا يستجيبون الدعاء، لا سيما إذا تولوا عنك معرضين، فإن الأصم إذا تولى مدبراً ثم ناديته، كان أبعد عن السماع، حيث انضم إلى صممه بُعد المسافة.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ وما أنت ـ يا محمد ـ بمرشد من أعماه الله عن الحق، وليس بوسعك ـ يا محمد ـ أن تصرف عُمي القلوب عن كفرهم وضلالهم.

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: ما تسمع ـ سماع تدبر وإفهام ـ إلا المؤمنين، ولا يستجيب لدعوتك إلا أهل الإيمان، وهم الذين انقادوا وأسلموا وجوههم للرحمن.

* بعد أن شبه سبحانه من لا يسمع ولا يعقل بالموتى في أنهم لا يسمعون وإن كانوا أحياء، ثم شبههم ثانياً بالصم، وبالعمى وإن كان سليمي الحواس، وأكد عدم سماعهم. ذكر تعالى بياناً لما يكون بين يدي الساعة، وخروج الدابة المشهودة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة، فقال:

(٨٢) ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وإذا قرب نزول العذاب وقيام الساعة، وحان وقت عذاب الكفار.

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أخرجنا للكفار هذه الآية الكبيرة «دابة الأرض»، تكلم الناس وتناظرهم، وتقول من جملة كلامها: ألا لعنة الله على الظالمين، الذين لا يصدقون ولا يؤمنون بآيات الله، وخروج الدابة من أشراط الساعة وفي الحديث: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات..» وعد منها «طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة..» [رواه أبو داود]، قال ابن كثير: هذه الدابة تخرج في آخر الزمان، عند فساد الناس وتركهم أوامر الله، وتبديلهم الدين الحق، فتكلم الناس وتخاطبهم مخاطبة. قال ابن عباس وعطاء: تكلمهم كلاماً فتقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، وروي أن خروجها حين ينقطع الخير، ولا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، ولا يبقى منيب ولا تائب، وهي آية خاصة خارقة للعادة.

* ثم ذكر تعالى بعض مشاهد القيامة وطرفاً مجملاً من أهوالها، وحال المكذبين بآيات الله ورسله بين يدي الله ﷻ، ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا، تقريعاً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً، فقال:

(٨٣)-(٨٦) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ * أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي: واذكر يوم نجمع للحساب والعقاب، من كل أمة من الأمم جماعة وزمرة.

﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: من الجاحدين المكذبين بآياتنا ورسلنا، فهم يجمعون، ثم يساقون بعنف ليعمهم السؤال، والتوبيخ واللوم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ حتى إذا حضروا موقف الحساب والسؤال، قال لهم تعالى موبخاً ومقرعاً: أكذبتم بآياتي المنزلة على رسلي، من غير تفكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بها، وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب.

﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تقريع وتوبيخ آخر، أي: أيَّ شيء كنتم تعملون في الدنيا؟ وبخهم أولاً بقوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي﴾ ثم أضرب عنه إلى استفهام تقرير وتبكيت، كأنه قيل:

دعوا ما نسبته إليكم من التكذيب، وقولوا لي أي شيء كنتم تعملونه في الدنيا غير التكذيب؟

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ أي: بهتوا فلم يكن لهم جواب، وقامت عليهم الحجة وحق عليهم العذاب، بسبب ظلمهم وشركهم وتكذيبهم بآيات الله.

﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ فهم لا يتكلمون؛ لأنه ليس لهم عذر، ولا حجة، وقد شغلوا بالعذاب عن الجواب.

ثم لما ذكر تعالى أهوال القيامة، ذكر الأدلة والبراهين على توحيد الله، وقدرته التامة وسلطانه العظيم، وشأنه الرفيع، الذي تجب طاعته والانقياد لأوامره، وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذي لا محيد عنه، فقال:

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ ألم ير هؤلاء المكذبون قدرة الله، فيعتبروا أنه تعالى جعل الليل مظلماً ليناموا ويستريحوا من تعب الحياة، وجعل النهار منيراً مشرقاً ليتصرفوا فيه في طلب المعاش والرزق والمكاسب والأسفار، ووصف النهار بالإبصار، وهو وصف للناس مبالغة في إضاءته، كأنه يبصر ما فيه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في تقليب الليل والنهار من نور إلى ظلمة، ومن ظلمة إلى نور؛ لآيات باهرة، ودلائل قاطعة، على قدرة الله لقوم يصدقون، فيعتبرون.

* ثم أشار تعالى عن هول نفخة الفزع في الصور، وأحوال الناس في ذلك اليوم، فقال:

﴿٨٧﴾-﴿٩٠﴾ ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ * وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ * مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ * وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: واذكر ـ يا محمد ـ يوم ينفخ إسرافيل في الصور نفخة الفزع، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا خاف وفزع إلا من شاء الله من الملائكة والأنبياء والشهداء. قال المفسرون: هذه نفخة الفزع، ثم تتلوها نفخة الصعق ـ وهو الموت ـ ثم بعد ذلك نفخة النشور من القبور، وهي نفخة القيام لرب العالمين.

﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ وكل من الأموات الذين أحيوا وبعثوا رجعوا إلى ربهم وحضروا إليه، صاغرين مطيعين لم يتخلف منهم أحد.

الجُزْءُ العِشْرُونَ سُورَةُ النَّمْلِ

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾
وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ
ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ
﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ
وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

سُورَةُ القَصَصِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ
مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ
طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾

٣٨٥

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي: ومن هول ذلك اليوم ترى أيها المخاطب الجبال وقت النفخة الأولى، تظنها ثابتة في مكانها وواقفة مستقرة.

﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي: تزول عن أماكنها، تسير سيراً سريعاً كالسحاب.

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: ذلك صنع الله البديع، الذي أحكم كل شيء خلقه، وأودع فيه من الحكمة ما أودع.

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: هو عليم بما يفعل العباد من خير وشر، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء.

ثم بيّن تعالى حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم الرهيب، وكيفية حسابه وجزائه، وهو الحكم العدل، فقال:

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ من جاء يوم القيامة بتوحيد الله والإيمان به وعبادته وحده، والأعمال الصالحة يوم القيامة فله من الأجر العظيم ما هو خير منها وأفضل، وهو الجنة، ومن جاء بحسنة من الحسنات، فإن الله يضاعفها له إلى عشر حسنات إلى أضعاف كثيرة، ويعطيه بالعمل القليل الثواب الأبدي.

﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ وهم من خوف ذلك اليوم العصيب آمنون وإن كانوا يفزعون معهم.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: ومن جاء بالشرك والأعمال السيئة، فجزاؤهم أن يلقيهم الله على وجوههم في النار يوم القيامة. قال ابن عباس: السيئة: الإشراك بالله، أي: ومن جاء يوم القيامة مسيئاً لا حسنة له أو مشركاً بالله، فإنه يكب في جهنم على وجهه منكوساً، ويلقى فيها مقلوباً.

﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: يقول لهم خزنة جهنم توبيخاً: هل تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من الشرك والمعاصي وسيء الأعمال؟

* لما فرغ سبحانه من بيان أحوال المبدأ والمعاد، أمر رسوله ﷺ أن يبين لهم المستحق للعبادة وحده ـ جل وعلا ـ فقال:

(٩١)-(٩٣) ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ * وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ * وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي: قل لهم ـ يا محمد ـ: لقد أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة، رب البلد الأمين ـ مكة ـ الذي جعله حرماً آمناً لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها، ولا يقطع شجرها، فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول، وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها، والاعتناء بها.

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ أي: هو تعالى الخالق والمالك لكل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه.

﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ وأمرت أن أكون من المخلصين لله بالتوحيد، المنقادين لأمره، المستسلمين لحكمه، المبادرين لطاعته.

﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: وأمرت أيضاً بتلاوة القرآن لتنكشف لي حقائقه وعجائبه، وأن أقرأه على الناس فهذا الذي عليَّ، وقد أديته، وقمت به.

﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ أي: فمن اهتدى بالقرآن، واستنار قلبه بالإيمان، واهتدى بما فيه واتبع ما جئت به، فإن ثمرة هدايته راجعة إليه.

﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ أي: ومن ضل عن الإيمان وأخطأ عن طريق الهدى، ولم يتبعني فوبال ضلاله مختص به وراجع عليه، وقل ـ يا محمد ـ إنما أنا رسول ما عليَّ إلا البلاغ وقد بلغتكم رسالة الله ولي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم عن أداء الرسالة إليهم، وقد نسختها آية القتال.

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ وقل -يا محمد-: الحمد لله على ما خصني به من شرف النبوة والرسالة، وما أكرمني من رفيع المنزلة والمقام، فهو صاحب النعمة ومسديها.

﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَا﴾ سيريكم آياته الباهرة، الدالة على عظيم قدرته وسلطانه، في الأنفس والآفاق، فتعرفونها حين لا تنفعكم المعرفة.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ وما ربك بغافل عن أعمال العباد، بل هو على كل شيء شهيد، وسيجازيكم على ذلك، وفيه وعد ووعيد.

تم تفسير سورة النمل
والحمد لله

تفسير سورة القصص
وهي مكية

* سورة القصص سورة مكية تهتم بجانب العقيدة وخاصة التوحيد، والرسالة، والبعث، وهي تتفق في منهجها وهدفها مع سورتي النمل، والشعراء، كما اتفقت في جو النزول، فهي تكمل أو تفصل ما أجمل في السورتين قبلها.

سميت سورة القصص، لأن الله تعالى ذكر فيها قصة موسى مفصلة موضحة من حين ولادته إلى حين

رسالته، وفيها من غرائب الأحداث العجيبة، ما يتجلى فيه بوضوح عناية الله بأوليائه، وخذلانه لأعدائه، نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة والمشركون هم أصحاب الحول والطول، والجاه والسلطان.

قال ابن تيمية: قصة موسى هي أعظم قصص الأنبياء المذكورين في القرآن، وهي أكبر من غيرها وتبسط أكثر من غيرها. وقد وردت في القرآن قرابة ثلاثين مرة، وسورة القصص أوسع سورة تحدثت عن موسى -عليه السلام-.

محور السورة الكريمة يدور حول الحق والباطل، ومنطق الإذعان والطغيان، وتصور قصة الصراع بين جند الرحمن وجند الشيطان، وقد ساقت في سبيل ذلك قصتين: أولاهما: قصة الطغيان بالحكم والسلطان، ممثلة في قصة فرعون الطاغية المتجبر، الذي أذاق بني إسرائيل سوء العذاب، فذبح الأبناء، واستحيا النساء، وتعالى على الله حتى تجرأ على ادعاء الربوبية، والثانية: قصة الاستعلاء والطغيان بالثروة والمال، ممثلة في قارون مع قومه، وكلا القصتين رمز إلى طغيان الإنسان في هذه الحياة، سواء بالمال، أو الجاه، أو السلطان وكانت النهاية واحدة، هذا خسف به وبداره، وذاك أخذه اليم هو وجنوده.

وقد ابتدأت السورة بالحديث عن طغيان فرعون، وعلوه وفساده في الأرض، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٦﴾ ﴿طسٓمٓ * تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ * إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾.

﴿طسٓمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، والإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ أي: هذه آيات القرآن الواضح الجلي، الظاهر في إعجازه، الواضح في تشريعه وأحكامه.

﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: نقرأ عليك يا محمد بواسطة الروح الأمين من الأخبار الهامة عن موسى وفرعون من الحق الذي لا يأتيه الباطل، والصدق الذي لا ريب فيه ولا كذب، فإن نبأهما غريب، وخبرها عجيب.

﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لقوم يصدقون بالقرآن، فينتفعون.

ثم بدأ بذكر قصة فرعون الطاغية، فقال:

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾ أي: استكبر وتجبر وطغى، وجاوز الحد في الطغيان في أرض مصر، فصار من أهل العلو فيها، لا من الأعلين فيها، وجعل أهلها فرقاً وأصنافاً، وطوائف متفرقة في استخدامه وطاعته، وينفذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته.

﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: يستعبد ويستذل فريقاً منهم وهم بنو إسرائيل - وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم -، فيسومهم سوء العذاب، وبلغت به الحال إلى أنه:

﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ أي: يقتل أبناءهم الذكور خوفاً من أن يكثروا، فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك، ويترك الإناث على قيد الحياة لخدمته وخدمة الأقباط. قال المفسرون: سبب تقتيله الذكور أن فرعون رأى في منامه أن ناراً عظيمة أقبلت من بيت المقدس وجاءت إلى أرض مصر فأحرقت القبط دون بني إسرائيل، فسأل عن ذلك، فقالوا له: إن مولوداً يولد في بني إسرائيل، يذهب ملكك على يديه، ويكون هلاكك بسببه، فأمر أن يقتل كل ذكر من أولاد بني إسرائيل، وفيه دليل على حمق فرعون، فإنه إن صدق لم ينفعه القتل، وإن كذب فما معنى القتل.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي: من الراسخين في الفساد، الذين لا قصد لهم في إصلاح الدين، ولا إصلاح الدنيا، المتجبرين في الأرض، ولذلك ادعى الربوبية، وأمعن في القتل وإذلال العباد.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ونريد برحمتنا أن نتفضل وننعم على المستضعفين من بني إسرائيل، فننجيهم من بأس فرعون وطغيانه.

﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ أي: ونجعلهم أئمة في الدين، وقادة في

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ
أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾
فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾
وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ
عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾
وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ
أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ
لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ
﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

الخير يقتدى بهم، بعد أن كانوا أذلاء مسخرين، ونجعل هؤلاء الضعفاء، وارثين لملك فرعون وقومه بعد إهلاكهم، يرثون ملكهم ويسكنون مساكنهم بعد أن كان القبط أسياد مصر وأعزتها.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ **أي: ونملكهم بلاد مصر والشام، ونجعلها لهم مكاناً يستقرون فيه، ويتصرفون فيها كيف يشاؤون.**

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ **أي: ونري فرعون الطاغية، ووزيره هامان والأقباط من أولئك المستضعفين، ما كانوا يخافونه ويحذرونه، من ذهاب ملكهم، وهلاكهم على يد مولود من بني إسرائيل، بل يكون هذا الغلام الذي احترز من وجوده، وقتل بسببه ألوفاً من الولدان، إنما منشؤه ومرباه في دار فرعون.**

*** ثم انتقلت الآيات إلى الحديث عن ولادة موسى، فقد ولد في ظل أوضاع قاسية، وطاغية ظالم يهلك الحرث والنسل، ولهذا خافت أمه عليه، من بطش فرعون، فكانت خائفة على صغيرها حين وضعته، وأمر الله تعالى لها بإلقائه في البحر في خوف ثان من الضياع أو الغرق، ليعيش معززاً مكرماً في حجر فرعون وكنفه ورعايته، قال تعالى:**

﴿٧﴾-﴿١١﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ * وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ **أي: وحين ولدته وخشيت عليه أن يذبحه فرعون كما يذبح أبناء بني إسرائيل، فلما ضاقت بوليدها ذرعاً، وخشيت عليه ألهمت في سرها، وألقي في خلدها، ونفث في روعها وقذفنا في قلبها بواسطة الإلهام أو الرؤيا، أن أرضعيه مطمئنة وإنما أمرها الله بإرضاعه لتقوى بُنيته بلبان أمه؛ فإنه أسعد بالطفل في أول عمره من لبان غيرها.**

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ **فإذا خشيت عليه أن يُعرف أمره ويقتله فرعون، فضعيه واجعليه في صندوق مغلق، وألقيه في نيل مصر بلا خوف ولا حزن.**

﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ **أي: ألقيه ولا تخافي عليه الهلاك، ولا الغرق ولا الضياع، ولا تحزني لفراقه. والفرق بين الخوف والحزن، أن الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع، والحزن غم يلحقه لواقع.**

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ **أي: فإنا سنرده إليك، ونعيده إليك بوجه لطيف لتربيته، ونجعله رسولاً نرسله إلى هذا الطاغية لننجي بني إسرائيل على يديه؛ فبشرها تعالى، بأن سيرده عليها، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم، ويجعله الله رسولاً، وهذا من أعظم البشائر الجليلة لأم موسى، ليطمئن قلبها، ويسكن روعها، فإنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به فألقته في أليم بعد أن وضعته في صندوق، وفي هذه الآية**

أمران، ونهيان، وخبران، وبشارتان، وقُدر لهذه الأم مما كانت تخشاه وتخافه.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أي: فأخذه وأصابه أعوان فرعون ليكون لهم قرة عين، فكان عاقبة ذلك أن صار لهم عدواً، ومصدر حزن وبلاء وهلاك، فذكر الحال والمآل، لأنهم إنما أخذوا الحال بالمآل.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ أي: كانوا عاصين مشركين آثمين، فأردنا أن نعاقبهم على خطئهم، ونكيدهم جزاءً على مكرهم وكيدهم، فعاقبهم الله بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم. قال العلماء: الخاطئ من تعمد الذنب والإثم، والمخطئ من فعل الذنب من غير تعمد. فلما التقطه آل فرعون، حنَّن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة: آسية بنت مزاحم.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ أي: قالت زوجة فرعون لفرعون لما رأت أنه هم بقتله: هذا الغلام سيكون مصدر فرحة ومسرة لي ولك، لعلنا نسر به، فيكون قرة عين لي ولك، وفي هذا فضل الفأل الحسن، وقد نالها ما رجت من النفع: أما في الدنيا فهداها الله به وجعل لها أحسن ثناء في الآخرين، واستعملها الله ﷻ بطاعته وصيّرها إلى فسيح جنته. قال الطبري: ذكر أن المرأة لما قالت هذا القول لفرعون، قال لها: أما لك فنعم، وأما لي فليس بقرة عين. قال ابن عباس: لو قال قرة عين لي لهداه الله به ولآمن، ولكنه أبى.

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ أي: قالت امرأة فرعون لفرعون، لا تقتله، وأبقه لنا، ليقر به أعيننا، ونستمر به في حياتنا، خاطبته بلفظ الجمع كما يخاطب الجبارون تعظيماً له ليساعدها فيما تريد.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي: عسى أن ينفعنا في الكبر، وقد حصل نفعه لها، وهداها الله به، وأسكنها الجنة بسببه، أو نتبناه فنجعله لنا ولداً تقر به عيوننا، فإن فيه مخايل اليمن، ودلائل النفع. قال المفسرون: وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها، قال تعالى:

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وهم لا يشعرون أن هلاك فرعون وزبانيته، سيكون على يديه وبسببه، فقد جرى بذلك القلم ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه، وهذا من لطفه تعالى، فإنهم لو شعروا، لكان لهم وله شأن آخر.

* ولما فقدت أم موسى وليدها، حزنت حزناً شديداً، حيث ذهب ولدها في البحر، وأصبحت في هم وغم، على مقتضى الحالة البشرية، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها برده، قال تعالى:

(١٢)-(١٣) ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۞ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ أي: صار قلبها خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من هم موسى وذكره، وقيل المعنى: طار عقلها من فرط الجزع والغم.

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي: إنها كادت أن تكشف أمره وتظهر ما في قلبها، وأنه ابنها من شدة الوجد والحزن، وكادت تصيح وا ابناه، وذلك حين سمعت بوقوعه في يد فرعون، لولا أن ثبتناها بالعصمة وألهمناها الصبر.

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لتكون بذلك الصبر والثبات، من المصدقين بوعد الله برده عليها حين قال لها: إنا رادوه إليك، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه. وقد أمرت أم موسى بشيئين، ونهيت عن شيئين، وبشرت ببشارتين، فلم ينفعها الكل حتى تولى الله حياطتها، فربط على قلبها.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ وقالت أم موسى لمريم أخت موسى حين ألقت موسى في اليم: اتبعي أثره حتى تعلمي خبره، وتطلبي شأنه من نواحي البلد وكيف يصنع به، وانظري ماذا يفعلون به؟ فخرجت لذلك.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: فأبصرته وتتبعت أثره عن بعد، وهم لا يشعرون أنها

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ
فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ
مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ
ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ
إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ
﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ
يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

٣٨٧

أخته؛ لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى وصل الصندوق إلى بيت فرعون وهي ترقبه مستخفية عنهم، كأنها مارة لا قصد لها فيه وهذا من تمام الحزم والحذر.

ثم كان من لطف الله ﷻ بموسى وأمه، أن منعه من قبول ثدي امرأة غير ثدي أمه، وهو تحريم منع لا تحريم شرع.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ومنعنا موسى أن يقبل ثدى أي مرضعة من المرضعات اللاتي أحضروهن لإرضاعه من قبل مجيء أمه، وذلك لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه، ولأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعه، وهي آمنة مطمئنة بعدما كانت خائفة وجلة. قال المفسرون: بقي أياماً كلما أتي بمرضع لم يقبل ثديها، فأهمهم ذلك واشتد عليهم الأمر فخرجوا به يبحثون له عن مرضعة خارج القصر، فجاءت أخته، وهم بتلك الحال حائرون فيمن يرضعه.

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ أي: فقالت أخت موسى وقد دخلت بين المراضع ورأته لا يقبل ثدياً: هل أدلكم على مرضعة له تكفله وترعاه لكم؟ وهذا جُلّ غرضهم، فإنهم أحبوه حباً شديداً، وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت.

﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ أي: لا يقصرون في إرضاعه وتربيته، قالوا: نعم فأتينا بها، فدلتهم على أم موسى، فانطلقت إلى أمها، وأخبرتها بحال ابنها، وجاءت بها إليهم، والصبي على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع، فدفعه إليها فلما وجد ريح أمه قبل ثديها وجعل يمصه، فقال فرعون: من أنت منه، فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح، طيبة اللبن، لا أكاد أوتى بصبي إلا قبلني، فدفعه إليها، فرجعت إلى بيتها من يومها، ولم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالهدايا والجواهر، فذلك قوله تعالى:

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: أعدنا موسى إلى أمه تحقيقاً للوعد، كي تسعد وتهنأ بلقاء ولدها، ولا تحزن على فراقه، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك قد أبدلها لها الله بعد خوفها أمناً، في عز وجاه ورزق ودار. بل وتعود به إلى دارها؛ لأنه طلب منها أن ترضعه وتقيم عندهم، فأبت وقالت إن لي بعلاً وأولاداً، ولا أقدر على المقام عندكم، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرت عليها النفقة والصلات والكساوي والإحسان الجزيل، ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل، يوم وليلة أو نحوه، أتاها ابنها ترضعه جهراً وتأخذ عليه أجراً وتسمى أمه شرعاً وقدراً. فسبحان من جعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً، وبعد كل ضيق مخرجاً، ولهذا قال:.

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: لتتحقق من صدق وعد الله برده عليها، وحفظه من شر فرعون، وجعله من المرسلين.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولكن أكثر الناس يرتابون، ويشكون في وعد الله القاطع، ولا يعلمون حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس وعاقبته محمودة في نفس الأمر.

ها هو موسى يعود إلى أمه الملهوفة، معافى في بدنه مرموقاً في مكانته، يحميه فرعون، وترعاه أمه، وهو آمن مطمئن، يحميه ويحافظ عليه من يقتل

أمثاله فسبحان من يجري الأمور وفق تقديره ومشيئته.

* ولما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام عند آل فرعون، يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوها عليه، بعد ذلك، تحدثت الآيات عن بلوغ موسى سن الرشد، وعن قتله للقبطي، وعن هجرته إلى أرض مدين وتزوجه بابنة شعيب، وتكليف الله له بالعودة إلى مصر لدعوة فرعون الطاغية إلى الله، وما كان من أمر موسى مع فرعون بالتفصيل إلى أن أغرقه الله، قال تعالى:

﴿١٤﴾-﴿١٧﴾ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: ولما بلغ موسى كمال الرشد، ونهاية القوة، وتمام العقل والاعتدال، وهو سن الأربعين، أعطيناه الفهم والعلم، والتفقه في الدين، فعلم موسى وحكم قبل أن يُبعث نبياً.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الله، والمحسنين لخلق الله، نعطيهم علماً وحكماً بحسب إحسانهم، ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي: دخل موسى مصر مستخفياً وقت الظهيرة والناس يخلدون للراحة عند القيلولة. وقيل لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم، فأخافوه، فلا يدخل المدينة إلا على تغفل.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ فوجد شخصين يتخاصمان ويتقاتلان: أحدهما من بني إسرائيل من قوم موسى، والآخر قبطي من قوم فرعون.

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: فاستنجد الإسرائيلي بموسى، وطلب غوثه ليدفع عنه شر القبطي، فأغاثه، لأن نصر المظلوم واجب، فضربه موسى بجمع كفه فقتله، استجابة لاستغاثة الإسرائيلي، وفي هذا دلالة على قوة موسى البدنية ونصره للمظلومين وإعانة المحتاجين، وفعل موسى ذلك وهو لا يريد قتله، إنما قصد دفعه، فكانت فيها نفسه وكانت القاضية، فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه. و:

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: قال موسى حين قتله: هذا من إغواء الشيطان وتزيينه، فهو الذي هيج غضبي حتى ضربت هذا فهلك.

﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: إن الشيطان عدو لابن آدم، مضل له عن سبيل الرشاد، ظاهر العداوة، وهذا العمل من موسى عليه السلام قبل النبوة. ونسبه إلى الشيطان من حيث إنه لم يؤمر بقتل القبطي، وظهر له أن قتله خلاف الأولى لما يترتب عليه من الفتن، والشيطان تفرحه الفتن، ولذلك ندم على فعله، ثم استغفر ربه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: قال موسى: يا رب إني ظلمت نفسي بقتل القبطي من غير أمر فاعف عني، ولا تؤاخذني بخطيئتي فاستجاب الله إلى ضراعته، فغفر الله له زلته، إنه تعالى المبالغ في المغفرة للعباد، الواسع الرحمة لهم.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ قال موسى: رب بسبب إنعامك عليَّ بالقوة، وبما أكرمتني به من الجاه والعز، وبالتوبة والمغفرة؛ فلن أكون عوناً لأحد من المجرمين، وهذه معاهدة عاهد موسى ربه عليها، وهذا يفيد أن النعم تقتضي من العبد فعل الخيرات وترك الشر. قال ابن عباس: لم يستثن فابتلي به في اليوم الثاني.

* ثم تستمر الآيات في ذكر الأحداث اللاحقة لتلك القصة، حيث أصبح موسى لما جرى منه من قتل القبطي خائفاً، قال تعالى:

﴿١٨﴾،﴿١٩﴾ ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ
ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ
مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا
شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ
رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا
تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ
أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ
لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا
يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن
تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ
وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ
قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾

٣٨٨

بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ * فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾.

﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ **فأصبح موسى في المدينة التي قتل فيها القبطي خائفاً على نفسه، يتوقع وينتظر المكروه، ويخاف أن يؤخذ بجريرته؛ لأنه قد علم أنه لا يتجرأ على مثل هذه الحال سوى موسى من بني إسرائيل. فبينما هو على تلك الحال.**

﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥ﴾ **أي: فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي خلصه بالأمس، يقاتل قبطياً آخر، فلما رأى موسى أخذ يصيح به مستغيثاً لينصره من عدوه.**

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ﴾ **أي: قال موسى للإسرائيلي: إنك لبين الغواية ظاهر الضلال، فإني وقعت بالأمس فيما وقعت فيه من قتل رجل بسببك، وتريد أن توقعني اليوم في أخرى؟ ولم يزل اللجاج بين القبطي والإسرائيلي، وهو يستغيث بموسى، فأخذته الحمية، حتى هم أن يبطش بالقبطي.**

﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا﴾ **أي: فحين أراد موسى أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدو له وللإسرائيلي. والبطش: هو الأخذ بقوة وعنف.**

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِ﴾ **أي: قال القبطي لموسى زاجراً له عن قتله: أتريد قتلي كما قتلت غيري بالأمس؟**

﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ **أي: ما تريد يا موسى إلا أن تكون من الجبابرة المفسدين في الأرض؛ لأن من أعظم آثار الجبار في الأرض قتل النفس بغير حق.**

﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ **وما تريد أن تكون من الذين يصلحون بين الناس، وإلا فلو أردت الإصلاح لحلت بيني وبينه من غير قتل أحد.**

*** لا تزال الآيات تتحدث عن قصة موسى، وقد تناولت الآيات السابقة قصة ولادته وإرضاعه، وتربيته في بيت فرعون إلى أن شب وبلغ سن الرشد والكمال، ثم قتله للفرعوني. ثم تذكر الآيات ما جرى لموسى، بعد أن انكف عن قتل القبطي، وارعوى لوعظه وزجره، وشاع الخبر بما جرى من موسى في هاتين القضيتين، حتى تراود فرعون وملأه على قتله، وتشاوروا على ذلك، وقيض الله ذلك الرجل الناصح، وبادرهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع عليه رأي ملئهم، ثم تتحدث الآيات عن هجرته إلى أرض مدين وتزوجه بابنة شعيب، ثم عودته إلى مصر، ونزول النبوة عليه، وهلاك فرعون على يديه، قال تعالى:**

﴿٢٠﴾ ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾ **وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه من أبعد أطراف المدينة، يشتد ويسرع في مشيه ركضاً على قدميه من شدة نصحه لموسى، وخوفاً أن يوقعوا به قبل أن يشعر.**

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ **أي: قال لموسى: أن أشراف فرعون، ووجوه دولته يتشاورون فيك، بقصد قتلك، فاخرج من المدينة قبل أن يدركوك، فأنا ناصح لك مشفق عليك.**

* فما كان من موسى إلا أن قبل نصيحة ذلك الرجل الناصح، حين أخبره بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره، فخرج من مصر، ولم يألف ذلك قبله، بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة، قال تعالى:

(٢١)-(٢٤) ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: فخرج موسى من مصر، خائفاً على نفسه يترقب وينتظر الطلب أن يدركه فيأخذه، ثم التجأ إلى الله سبحانه بالدعاء لعلمه بأنه لا ملجأ له سواه.

﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: خلصني من الكافرين واحفظني من شر فرعون وملئه.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: قصد بوجهه ناحية مدين، بلدة شعيب عليه السلام وهي جنوبي فلسطين حيث لا ملك لفرعون ولا سلطان على تلك النواحي.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: دعا ربه أن يرشده إلى الطريق السوي الذي يوصله إلى مقصوده، فاستجاب الله دعاءه، وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة، فجعله هادياً مهدياً. قال المفسرون: خرج خائفاً بغير زاد ولا مركب، وكان بين مصر ومدين مسيرة ثمانية أيام، ولم يكن له علم بالطريق سوى حسن ظنه بربه، فبعث الله إليه ملكاً فأرشده إلى الطريق، ويروى أنه لما وصل مدين كانت خضرة البقل تتراءى من بطنه من الهزل؛ لأنه كان في الطريق يتقوت ورق الشجر.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ ولما وصل إلى مدين بلدة شعيب، وورد ماءها وجد على البئر الذي يستقي منه الرعاة جمعاً كثيفاً من الناس، يسقون مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة.

﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: ووجد سوى الجماعة الرعاة، امرأتين تكفّان وتمنعان غنمهما عن الماء لعجزهما عن مزاحمة الرجال وبخلهم، وعدم مروءتهم عن السقي لهما.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما مع ما هو فيه من التعب والمشقة وقال لهما: ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء؟ ولم لا تسقيان مع السقاة؟

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: قالت له المرأتان: من عادتنا التأني ولا نسقي غنمنا حتى ينصرف الرعاة مع أغنامهم عن الماء، ولا طاقة لنا على مزاحمة الأقوياء، ولا نريد مخالطة الرجال، وأبونا رجل مسن لا يستطيع لضعفه أن يباشر سقاية الغنم، ولذلك اضطررنا إلى أن نسقي بأنفسنا. وفيه اعتذار لموسى عن مباشرتهما السقي بأنفسهما، وتنبيه على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخوخته وكبره، واستعطاف لموسى في إعانتهما، فرق لهما موسى عليه السلام ورحمهما.

وقد أخبره عن سبب خروجها مع أنه لم يطلب منهم ذلك، وما ذلك إلا لأن هذا الخروج غير معتاد، فاستدعى ذكر السبب.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي: فسقى لهما غنمهما رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف، ورحمة بهما غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه الله، ثم تنحى جانباً فجلس تحت ظل شجرة، وكان ذلك وقت شدة حر، وسط النهار بدليل أنه تولى إلى الظل مستريحاً لذلك الظلال من التعب، ثم قال في تلك الحالة مسترزقاً ربه.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ جملة جامعة للشكر والثناء والدعاء وقد رزق الله بها موسى ﷺ الزوجة والسكن والعمل. والمعنى: إني يا رب محتاج إلى فضلك وإحسانك، وإلى الطعام الذي أسد به جوعي، طلب من الله ما يأكله وكان قد اشتد عليه الجوع، وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، وفيها استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان عالماً بها، لأنه تعالى يحب تضرع عبده من أظهار ذله ومسكنته. وفي هذا إشارة إلى سبب عظيم من أسباب إجابة الدعاء، وهو إظهار الافتقار إلى الله ﷻ. قال الضحاك: مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعماً إلا بقل الأرض، وقال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين، ليس له طعام إلا البقل

وورق الشجر، وكان حافياً فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل ـ وهو صفوة الله من خلقه ـ وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة.

* ذكرت الآيات أن موسى بقي على تلك الحال يدعو ربه، أما المرأتان، فرجعتا إلى أبيهما، فاستنكر سرعة مجيئهما، فسألهما، وكان من عادتها الإبطاء فأخبرتاه بما كان من أمر الرجل، فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى.

(٢٥)-(٢٨) ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ * قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾.

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ أي: جاءته حال كونها تمشي مشية الحرائر بحياء وخجل، قد سترت وجهها بثوبها استحياء، وهذا يدل على كرم عنصرها وخلقها الحسن، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة وخصوصاً في النساء. قال عمر: لم تكن بسلفع من النساء خراجة ولاجة.

﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ أي: قالت المرأة: إن أبي يطلبك ليعوضك عن أجر السقاية لغنمنا، قال ابن كثير: وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة، وقد ظهر لهما من عزة نفسه وحسن أخلاقه، ودعته ليجزيه والدها، لا ليمنَّ عليه؛ لأنه الذي ابتدأ بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى، فمشت المرأة ومشى موسى خلفها، فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف ردفها، فكره موسى أن يرى ذلك منها، فقال لها: امشي خلفي ودليني على الطريق إن أخطأت ففعلت ذلك.

قيل: ولما كان الحياء كأنه مركب لها وهي متمكنة منه، مالكة لزمامه، عبر بأداة الاستعلاء، فقال: ﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ أي: حياء موجود منها؛ لأنها كلفت الإتيان إلى رجل أجنبي؛ تكلمه، وتماشيه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فمضى موسى معها إلى أبيها، فلما جاءه وذكر له ما كان من أمره، وسبب هربه من مصر، قال له شعيب: لا تخف فأنت في بلد آمن لا سلطان لفرعون عليه، وقد نجاك الله من كيد المجرمين، فطب نفساً وقر عيناً.

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ أي: قالت إحدى ابنتيه: استأجره أجيراً عندك لرعي أغنامنا وسقايتها، إن أفضل من تستأجره من كان قوياً على العمل وأداء الأمانة، فإنها شاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده بذلك وجه الله تعالى. وقولها كلام حكيم جامع؛ لأنه إذا اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمر من الأمور فقد فرغ بالك فتم مرادك. روي أن شعيباً قال لها: وما أعلمك بقوته وأمانته؟ فقالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال لي: كوني من ورائي ودليني على الطريق، ولما أتيته خفض بصره فلم ينظر إليَّ، فرغب شعيب في مصاهرته وتزويجه بإحدى بناته.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ أي: قال صاحب مدين عند ذلك، لموسى: إني أريد أن أزوجك إحدى بنتي هاتين، الصغرى أو الكبرى. وفيه مشروعية عرض وليّ المرأة لها على الرجل، وهذه سنة ثابتة في الإسلام، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبي بكر، وعثمان، وكذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على رسول الله ﷺ.

﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ أي: بشرط أن تكون أجيراً لي ثماني سنين ترعى فيها غنمي.

قيل: جاء بحرف ﴿عَلَىٰٓ﴾ ليشعره بعظم المهر، ولو جاء باللام، لكان النفع لشعيب وحده.

﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ﴾ فإن أكملتها عشر سنين من

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ
ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم
مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٢٩
فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ
ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٠ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا
جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ
إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ٣١ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ
بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ
فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ
كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ٣٢ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا
فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا
فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤
قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا
يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ٣٥

٣٨٩

الرعي فذلك تفضل منك، وليس بواجب عليك، فجعل ما زاد على الثمانية الأعوام إلى تمام عشرة أعوام، موكلاً إلى المروءة.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ أي: وما أريد أن أوقعك في المشقة باشتراط العشر إلا أن تتبرع، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالاً شاقة، وإنما أستأجرك لعمل سهل يسير، لا مشقة فيه.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ستجدني إن شاء الله حسن المعاملة، لين الجانب، وفياً بالعهد، فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح، ينبغي له أن يُحسِّن خلقه مهما أمكن، وأن الذي يُطلب منه أبلغ من غيره.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ قال موسى: إن ما قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعاً لا نخرج عنه، وأيَّ المدتين الثماني، أو العشر، أديتها لك، فلا إثم ولا حرج عليَّ.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ والله شاهد على ما تعاهدنا وتواثقنا عليه، ويعلم ما تعاقدنا عليه فلا سبيل لأحدنا إلى الخروج عن شيء من ذلك، وهذا الرجل، أبو المرأتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف.

* ثم ذكرت الآيات الكريمة أن موسى قضى المدة المضروبة بينهما، واشتاق إلى الوصول إلى أهله ووالدته وعشيرته ووطنه، وعلم من طول المدة، أنهم قد تناسوا ما صدر منه، قال تعالى:

(٢٩)-(٣٢) ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ * ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أي: فلما أتم موسى المدة التي اتفقا عليها، حيث قضى أتم الأجلين وأكملهما وأوفاهما وهو عشر سنين، وهذه عادة الكرماء وصفوة الخلق، وفي الحديث أخبر ﷺ عن موسى أنه: «قضى أكثرهما وأطيبهما» [رواه البخاري].

﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ ومشى بزوجته مسافراً بها إلى مصر في ليلة مطيرة مظلمة باردة.

﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ أي: أبصر من بعيد ناراً تتوهج من جانب جبل الطور.

﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: قال موسى لزوجته: امكثي هنا فقد أبصرت ناراً عن بعد. وكانت ليلة باردة وقد أضلوا الطريق، وهبت ريح شديدة فرقت ماشيته، وأخذ أهله الطلق، فعند ذلك أبصر ناراً بعيدة، فسار إليها لعله يجد من يدله على الطريق، فذلك قوله تعالى:

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: لعلي آتيكم بخبر الطريق، وأرى من يدلني عليه؛ لأنه كان قد أخطأ الطريق، أو آتيكم بشعلة من النار لعلكم تستدفئون بها.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: فلما وصل إلى مكان

النار، التي أبصرها لم يجدها ناراً، وإنما وجدها نوراً، وجاءه النداء من جانب الوادي الأيمن في ذلك المكان المبارك من ناحية الشجرة؛ لأن الله كلم موسى هناك وبعثه نبياً.

﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: نودي يا موسى إن الذي يخاطبك ويكلمك هو أنا الله العظيم الكبير، المنزه عن صفات النقص، رب الإنس والجن والخلائق أجمعين.

﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ﴾ أي: ونودي بأن اطرح عصاك التي في يدك.

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ أي: فألقاها فانقلبت إلى حية، فلما رآها تتحرك مع عظم خلقها كأنها ثعبان خفيف سريع الحركة، انهزم هارباً منها ولم يلتفت إليها. قال ابن كثير: انقلبت العصى إلى حية وكانت كأنها جان في حركتها السريعة مع عظم خلقتها، واتساع فمها، واصطكاك أنيابها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها، تنحدر في فمها تتقطع كأنها حادرة في واد، فعند ذلك ولى مدبراً ولم يلتفت؛ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك، فنودي:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ أي: فنودي يا موسى: ارجع إلى حيث كنت، ولا تخف، فأنت آمن من المخاوف، وهذا أبلغ ما يكون في التأمين وعدم الخوف، فرجع وأدخل يده في فم الحية، فعادت عصا، ثم أراه الآية الأخرى، فقال:

﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ أي: أدخل يدك في جيب قميصك ـ وهو فتحة الثوب مكان دخول الرأس ـ ثم أخرجها تخرج مضيئة منيرة تتلألأ، كأنها قطعة قمر في لمعان البرق من غير أذى ولا برص.

﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ واضمم يدك إلى صدرك من الخوف يذهب عنك الرعب. قال المفسرون: المراد بالجناح اليد؛ لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر، وإذا أدخل يده اليمني تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه وبذلك يذهب عنه الخوف من الحية ومن كل شيء. قال ابن عباس: كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه. وقال ابن كثير: فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده فإنه يزول عنه ما يجده أو يخافه إن شاء الله.

﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ﴾ أي: فهذان ـ العصا واليد البيضاء ـ دليلان قاطعان، وحجتان نيرتان واضحتان، من الله تعالى تدلان على صدقك، وهما آيتان إلى فرعون وأشراف قومه الطغاة المتجبرين.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، مخالفين لأمره ودينه فلا يكفيهم مجرد الإنذار، أو أمر الرسول إياهم، بل لا بد من الآيات الباهرة، إن نفعت.

* ولما رأى موسى الآيات الباهرات، وأن الله ﷻ أرسله إلى قومه، قال لربه معتذراً، وسائلاً له المعونة على ما حمله، وذاكراً له الموانع التي فيه، ليزيل ربه ما يحذره منها:

٣٣-٣٥ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ * وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ قال موسى يا رب إني قتلت قبطياً من آل فرعون، وأخشى إن أتيتهم أن يقتلوني به، قال المفسرون: هو القبطي الذي وكزه فمات، فطلب من ربه ما يزداد به قوة على مجابهة فرعون بإرسال أخيه هارون معه، فقال:

﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ وأخي هارون هو أوضح بيانا، وأطلق لساناً؛ لأن موسى كان في لسانه حبسة من أثر الجمرة التي تناولها في صغره.

﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾ فأرسله معي معيناً ومساعداً يبين لهم عني ما أكلمهم به، بتوضيح الحجج والبراهين؛ لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد، ولهذا قال:

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ أي: أخاف إن لم يكن لي وزير ولا معين أن يكذبني فرعون وقومه؛ لأنهم لا يكادون يفقهون عني.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ أي: أجابه

الجزء العشرون سورة القصص

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ
مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن
تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧
وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ
غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ
أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨
وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ
أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ
فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠
وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ
وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا
مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ
بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣

٣٩٠

تعالى إلى طلبه، وقال له: سنقويك بأخيك ونعينك به، إذ اليد تشتد بشدة العضد؛ لأنه قوام اليد، ثم أزال عنه محذور القتل، ونجعل لكما غلبة وتسلطاً على فرعون وقومه، وهذه بشارة عظيمة لموسى وتطمين له.

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ **أي: لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما، بسبب ما أيدتكما به من المعجزات الباهرات.**

﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ **أي: العاقبة لكما ولأتباعكما في الدنيا والآخرة، وأنتم الغالبون على القوم المجرمين، وهذا وعد من أصدق القائلين سبحانه لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، لا معين له ولا ناصر، وقد رجع إلى بلده، بعد ما كان شريداً، فلم تزل الأحوال تتطور، والأمور تنتقل، حتى أنجز الله له موعوده، ومكنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.**

*** فاستعان موسى بربه وتوكل عليه، وسار لتبليغ رسالته، وإظهار حججه وبراهينه، قال تعالى:**

﴿٣٦﴾،﴿٣٧﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ **فلما جاء موسى فرعون وقومه بالبراهين الساطعة، والمعجزات القاطعة، الدالة على صدقه وأنه رسول من عند الله.**

﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ **قالوا على وجه الظلم والعلو والعناد: ما هذا الذي جئتنا به من العصا واليد إلا سحر مكذوب مختلق، افتريته من قبل نفسك وتنسبه إلى الله.**

﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ **وما سمعنا بمثل هذه الدعوى ـ دعوى التوحيد ـ في آبائنا وأجدادنا السابقين، وقد كذبوا في ذلك، فإن الله أرسل يوسف عليه السلام قبل موسى.**

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ **أجمل موسى في جوابهم تلطفاً في الخطاب، وإيثاراً لأحسن الوجوه في المجادلة معهم، والمعنى: إن ما جئتكم به حق وهدى وليس بسحر، وربي عالم بذلك، يعلم إني محق وأنتم مبطلون، ويعلم من تكون له العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة.**

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ **أي: لا يسعد ولا ينجح من كان ظالماً فاجراً كاذباً على الله، فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه، والفلاح والفوز، وصار لأولئك الخسار وسوء العاقبة والهلاك.**

*** وبعد الآيات الواضحة البينة، رد فرعون ماجاء به موسى، وقال معانداً متجرئاً على ربه، ومموهاً على قومه السفهاء، أخفاء العقول:**

﴿٣٨﴾-﴿٤٢﴾ ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ * وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ * فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ قال فرعون لأشراف قومه وسادتهم: ما علمت لكم إلهاً غيري. قال ابن عباس: كان بين هذه القولة الفاجرة وبين قوله: أنا ربكم الأعلى، أربعون سنة، وكذب عدو الله بل علم أن له ربّاً هو خالقه وخالق قومه، وانظر إلى هذا الورع التام من فرعون، حيث لم يقل (ما لكم من إله غيري) بل تورع وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ وهذا؛ لأنه عندهم العالم الفاضل الذي مهما قال فهو الحق، ومهما أمر أطاعوه، فلما قال هذه المقالة التي قد تحتمل أن ثم إلهاً غيره، أراد أن يحقق النفي، الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فرجع إلى تكبره وتجبره، وإيهام قومه بكمال اقتداره، فقال لهامان وزيره:

﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ أي: فأشعل لي يا هامان على الطين ناراً حتى يشتد، وابن لي منه قصراً شاخاً رفيعاً ونادى بـ(يا) في وسط الكلام دليل التعظيم والتجبر.

﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ لعلي أصعد وأرى وأشاهد إله موسى الذي زعم أنه أرسله، قال ذلك على سبيل التهكم، ولهذا قال بعده:

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وإني لأظن موسى كاذباً في ادعائه أن في السماء رباً، فانظر هذه الجرأة العظيمة على الله، التي ما بلغها آدمي، كَذَّبَ موسى، وادعى أنه إله، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل الأسباب، ليتوصل إلى إله موسى، قال تعالى:

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: واستعلى وتعظم فرعون وقومه عن الإيمان بموسى، في أرض مصر بالباطل والظلم.

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ واعتقدوا أن لا بعث ولا نشور، ولا حساب ولا جزاء، فلذلك تمادوا في غيهم وضلالهم.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فأخذناه مع جنوده عندما استمروا في عنادهم وبغيهم، فطرحناهم في البحر، وأغرقناهم فلم يبق منهم أحد، وهذا من الكلام المفخم الذي دل به على عظمة شأنه، شبههم استقلالاً لعددهم وإن كانوا الجم الغفير بحصيات أخذهن بكفه فطرحهن في البحر.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فانظر يا محمد ـ بعين قلبك نظر اعتبار، كيف كان مآل هؤلاء الظالمين الذين بلغوا من الكفر والطغيان أقصى الغايات؟ وحذر قومك فإنك منصور عليهم.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ وجعلنا فرعون وقومه في الدنيا، قادة وزعماء في الكفر يقتدي بهم أهل الضلال، ويوم القيامة ليس لهم ناصر يدفع عنهم العذاب، بسبب كفرهم وتكذيبهم رسول ربهم وإصرارهم على ذلك.

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: جعلنا اللعنة والخزي تلحق فرعون وقومه في هذه الحياة الدنيا من الله والملائكة والمؤمنين.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ وفي الآخرة هم من المبعدين، المطرودين من رحمة الله ﷻ، الذين اجتمع عليهم مقت الله ومقت خلقه، ومقت أنفسهم.

* بعد أن ذكر تعالى نعمته على بني إسرائيل بإهلاك فرعون رأس الطغيان وتخليصهم من شره، ذكر هنا ما أنعم به عليهم من إنزال التوراة التي فيها الهدى والنور، كما ذكر نعمته على العرب بإنزال القرآن العظيم خاتمة الكتب السماوية، فقال تعالى:

(٤٣) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ اللام موطئة للقسم، أي: والله لقد أعطينا موسى التوراة من بعد ما أهلكنا الأمم التي كانت قبله، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط وغيرهم من المكذبين لرسلهم.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: ضياء لبني إسرائيل ونوراً لقلوبهم، يتبصرون بها الحقائق، ويميزون بها بين الحق والباطل.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وهدى من الضلال، لمن عمل به، ورحمة لمن آمن بها، ليتعظوا بما فيها من المواعظ والإرشادات الإلهية.

* ولما قص الله على رسوله ما قص، من هذه الأخبار الغيبية، نبه العباد على أن هذا خبر إلهي محض، ليس للرسول

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ
مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ
ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾
وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ
رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ
لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ
﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ
أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ
هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

٣٩١

طريق إلى علمه إلا من جهة الوحي، ولهذا قال:

﴿٤٤﴾-﴿٤٧﴾ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ **أي: وما كنت ـ يا محمد ـ بجانب الجبل الغربي من موسى، وهو المكان الذي كلم الله تعالى به موسى، حين كلمنا، وأوحينا إلى موسى بالنبوة، وأرسلناه إلى فرعون وقومه.**

﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ **وما كنت من الحاضرين في ذلك المكان فتذكره من تلقاء نفسك، ولكن الله أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهاناً على صدقك. قال ابن كثير: يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كان سامعه شاهد وراءٍ لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، والمعنى: ما كنت حاضراً لذلك ولكن الله أوحاه إليك لتخبرهم بتلك المغيبات.**

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ **ولكننا خلقنا أمماً وأجيالاً من بعد موسى، فمكثوا زماناً طويلاً، وطالت المدة فنسوا عهد الله، وتركوا أمره، وبدلوا وحرفوا الشرائع، فأرسلناك ـ يا محمد ـ لتجدد أمر الدين.**

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ **وما كنت ـ يا محمد ـ مقيماً في أهل مدين، فتعلم خبر موسى وشعيب وابنتيه وماذا قال لقومه، وما ردوا عليه، وما جرى لهم بعد ذلك، فتتلوا ذلك على أهل مكة.**

﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ **ولكنا أرسلناك في أهل مكة، وأخبرناك بتلك الأخبار، ولولا ذلك ما علمتها.**

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ **وما كنت أيضاً بناحية الجبل وقت ندائنا لموسى وتكليمنا إياه.**

﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ **أي: لم تشاهد ـ يا محمد ـ شيئاً من أخبار وقصص الأنبياء، ولكنا أوحيناها إليك، وقصصناها عليك، رحمة من ربك، لتخوف قوماً ما جاءهم رسول ولا نذير من قبلك.**

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ **أي: لعلهم يتعظون ويهتدون بما جئتهم به من الآيات البينات، فيدخلوا في دينك. قال المفسرون: المراد بالقوم الذين كانوا في زمن الفترة بين عيسى ومحمد ـ صلوات الله عليهما ـ وهو نحو من ستمائة سنة.**

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ **أي: ولولا أن ينزل بهؤلاء الكفار عذاب وعقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم.**

﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ **أي: فيقولوا عند ذلك، ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً يبلغنا آياتك فنتبعها ونكون من المصدقين بها. والمعنى: لولا أن تصيبهم مصيبة**

الجزء العشرون — سورة القصص

۞وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ
ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ
مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ
بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ
ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ
عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾
وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ
نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا
مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن
قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ
بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

٣٩٢

بكفرهم لم نرسل الرسل، وإنما أرسلناهم على وجه الإعذار وإقامة الحجة عليهم، لئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين.

*** ثم أخبر تعالى عن عناد المشركين وتعنتهم في رد الحق، فقال:**

﴿٤٨﴾-﴿٥١﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ * قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ **أي: فلما جاء أهل مكة الحق المبين، وهو محمد بالقرآن المعجز من عندنا قالوا - على وجه التعنت والعناد - هلا أعطي محمد من الآيات الباهرة، والحجج القاهرة، مثل ما أعطي موسى من العصا واليد وغيرها من الآيات التي أجراها الله تعالى على يد موسى عليه السلام.**

قال تعالى رداً عليهم لأنهم لم يكونوا صادقين في حجتهم، ولا مخلصين في اعتراضهم:

﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ **أي: أو لم يكفر اليهود بما أوتي موسى من المعجزات، فرد الله عليهم بأنهم كفروا بآيات موسى. وقيل الذين قالوا لولا أوتي محمد مثل ما أوتي موسى هم قريش، وذلك أن تكذيبهم لمحمد ﷺ تكذيب لموسى، ونسبتهم السحر للرسول نسبة السحر لموسى، إذ الأنبياء من واد واحد، فمن نسب إلى أحد من الأنبياء ما لا يليق، كان ناسباً ذلك إلى جميع الأنبياء.**

﴿قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ **قال المشركون: ما التوراة والقرآن إلا من قبيل السحر، فموسى ومحمد سحران تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر، وصدق كل واحد منهما الآخر.**

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ **أي: إنا بكل من الكتابين كافرون، وهذا تصريح بكفرهم بهما، وذلك لغاية عتوهم، وتماديهم في الكفر والطغيان.**

﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ **أمر على وجه التعجيز، أي: قل لهم - يا محمد - إنكم إذ كفرتم بهذين الكتابين، بالتوراة والإنجيل مع ما تضمنا من الشرائع والأحكام ومكارم الأخلاق، فائتوني بكتاب منزل من عند الله أهدى منهما وأصلح أتمسك به.**

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ **أي: إن كنتم صادقين في زعمكم في أنهما سحران. قال ابن كثير: وقد علم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم من الكتاب الذي أنزله على محمد ﷺ وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى، وهو الكتاب الذي قال فيه:** ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] **والإنجيل إنما أنزل متمماً للتوراة ومحللاً لبعض ما حرم على بني إسرائيل.**

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ **فإن لم يجيبوك إلى ما طلبته منهم ويتبعوا الحق، ويأتوا بكتاب أهدى منهما، فاعلم أن كفرهم عناد واتباع للأهواء لا بحجة**

وبرهان. وفي الآية دليل على أن كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول، فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحد أضل ممن اتبع هواه بغير رشاد، ولا بيان من الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يوفق للحق من كان معانداً ظالماً، بالانهماك في اتباع الهوى، والإعراض عن سبيل الهدى.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ولقد تابعنا ووالينا لقريش القرآن يتبع بعضه بعضاً، وعداً ووعيداً، وقصصاً وعبراً، ونصائح ومواعظ ليتعظوا ويتذكروا بما فيه، ومخبراً عن الأمم الخالية كيف عذبوا لعلهم يتعظون.

* ثم يذكر تعالى عظمة القرآن وصدقه وحقه، وأن العلماء الأولياء من أهل الكتاب يؤمنون بالقرآن، قال تعالى:

﴿٥٢﴾-﴿٥٥﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل من قبل هذا القرآن ـ من مسلمي أهل الكتاب ـ ولم يغيروا ولم يبدلوا، هم بهذا القرآن يصدقون، وهم من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ أي: وإذا قرئ عليهم القرآن استمعوا له واذعنوا، وقالوا صدقنا بما فيه لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقة لما ذكر في الكتب.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ أي: كنا من قبل نزوله موحدين لله، مستسلمين لأمره، مؤمنين بأنه سيبعث محمداً وينزل عليه القرآن، فدين الله واحد، وهو الإسلام، قال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أولئك الذين آمنوا بالكتابين، والموصوفون بالصفات الجميلة، يعطون ثوابهم مضاعفاً، مرة على إيمانهم بكتابهم، ومرة على إيمانهم بالقرآن، وفي الحديث: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي...» [رواه البخاري].

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: بسبب صبرهم على الإيمان واتباع الحق، وتحملهم الأذى في سبيل الله، قال قتادة: نزلت في أناس من أهل الكتاب، كانوا على شريعة من الحق يأخذون بها وينتهون إليها، حتى بعث الله محمداً ﷺ فآمنوا به وصدقوه، فأعطاهم الله أجرهم مرتين بما صبروا، وذكر أن منهم سلمان وعبدالله بن سلام.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ ومن خصالهم الفاضلة التي من آثار إيمانهم الصحيح، أنهم يدفعون الكلام القبيح كالسب والشتم بالحسنة، أي: الحلم، والكلمة الطيبة، ولا يقابلون السيئ بمثله، ولكن يعفون ويصفحون.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وبعد أن ذكر سماحة نفوسهم بالإحسان، ذكر سماحتهم بالمال، أي: ومن الذي رزقناهم من الحلال ينفقون في سبيل الخير والبر. ثم مدحهم سبحانه بإعراضهم عن اللغو، فقال:

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ وإذا سمعوا الباطل من القول كالشتم والأذى من الكفار، وسمعوا ساقط الكلام، لم يلتفتوا إليه، ولم يردوا على أصحابه ولا يخالطونهم ولا يعاشرونهم تكرماً، وتنزهاً، وتأدباً بآداب الشرع، ولهذا قال عنهم بعد ذلك:

﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: لنا طريقنا ولكم طريقكم، كل سيجازى بعمله الذي عمله وحده.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سلام متاركة ومباعدة، لا سلام التحية لم يريدوا التحية وإنما أرادوا بيننا وبينكم المتاركة.

﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: لا نطلب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال، حيث كان المشركون يسبون مؤمني أهل الكتاب، ويقولون: تباً لكم أعرضتم عن دينكم وتركتموه، فيعرضون عنهم ويقولون لنا أعمالنا

ولكم أعمالكم. مدحهم تعالى بالإيمان، ثم مدحهم بالإحسان، ثم مدحهم بالعفو والصفح عن أهل العدوان، وهذا من خير ما يقوله الدعاة إلى الله.

* ثم ذكر الله ﷻ أن أمر الهداية بيده، ومرجع ذلك له وحده سبحانه فإنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، بحكمته وعدله، قال تعالى:

﴿٥٦﴾،﴿٥٧﴾ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ * وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ إنك -يا محمد- لا تقدر على هداية أحد من الناس، هداية توفيق، مهما بذلت فيه من مجهود، وجاوزت في السعي كل حد معهود، ولا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم، فهو سبحانه أعلم بمن يستحق الهداية، ممن يستحق الغواية.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ولكنه تعالى بقدرته يهدي من قدر له الهداية، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، فسلم أمرك إليه فإنه أعلم بأهل السعادة والشقاوة.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو تعالى العالم بمن فيه استعداد للهداية والإيمان فيهديه. قال المفسرون: نزلت في عمه أبي طالب، حين عرض عليه الإسلام عند موته فأبى، فإنه لما حضرت أبا طالب الوفاة، قال له رسول الله ﷺ: «يا عم قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة» فقال أبو طالب: لولا أن تعيرني قريش، يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك، وقد أجمع المسلمون على أنها نزلت في «أبي طالب».

ثم ذكر تعالى شبهة من شبهات المشركين، ورد عليها بالبيان الواضح، فقال:

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ وقال كفار قريش: إن اتبعناك -يا محمد- على دينك وتركنا ديننا، نخاف أن تتخطفنا العرب فيجتمعون على محاربتنا، ويخرجوننا من أرضنا، والتخطف الانتزاع بسرعة، وهذا الكلام منهم، وهم بهذا لا ينكرون أنه الهدى ولكنهم يخافون أن يتخطفهم الناس؛ يدل على سوء ظن بالله تعالى، وأنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته.

قال -تعالى رداً عليهم، مكذباً لهم، ومبيناً لهم عظم نعمه وجزيل فضله عليهم دون الناس، وأن الله اختصهم بها:

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي: أو لم نعصم دماءهم، ونجعل مكانهم حرماً ذا أمن، بحرمة البيت العتيق؟ وذلك أن العرب في الجاهلية كانت تغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضاً، وأهل مكة آمنون حيث كانوا، لحرمة الحرم، فكيف يكون الحرم آمناً لهم في حال كفرهم، ولا يكون آمناً لهم في حال إسلامهم؟ وهو الذي.

﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: تجلب وتحمل إليه الأرزاق من كل مكان، مع أنه بوادٍ غير ذي زرع، رزقاً لهم من عندنا، فليحمدوا الله على هذا الأمن التام، والرزق الكثير الذي يجيء إليهم من كل مكان.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثرهم جهلة، لا يتفكرون في ذلك ولا يتفطنون، ولا يعلمون قدر هذه النعم عليهم، فيشكروا من أنعم عليهم بها ويطيعوه، وقد قطع الله حجتهم بهذا البيان الناصع إذا كانوا وهم كفار بالله، عباد أصنام قد أمنوا في حرمهم، والناس في غيره يتقاتلون، وهم مقيمون في بلد غير ذي زرع، ويجيء إليهم ما يحتاجون من الأقوات، فكيف إذا آمنوا واهتدوا؟ ولما اتبعت قريش الهدى فيما بعد سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من الزمان، ذلك هو الهدى.

* ثم ذكر حال أمم كفرت، وأعرضت عن اتباع الرسل، وما حل بها، معرِّضاً بأهل مكة، قال تعالى:

﴿٥٨﴾،﴿٥٩﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾.

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا
فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ
ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا
هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ
مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ
﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾
فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا
مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ
﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ
ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

٣٩٣

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: وكثير من أهل قرية كانوا في خفض عيش، ودعة، ورخاء فطغت وأشرت، وكفرت نعمة الله، أكلوا رزق الله، وعبدوا الأصنام فدمر الله عليهم وخرب ديارهم، وأزال عنهم النعمة، وأحل بهم النقمة.

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فتلك مساكنهم باقية الآثار، خاوية بما ظلموا، لم تسكن من بعد تدميرهم إلا زماناً قليلاً؛ إذ لا يسكنها إلا المارة والمسافرون يوماً أو بعض يوم، كبلاد ثمود وقوم شعيب وغيرهم.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: وكنا نحن الوارثين لأملاكهم وديارهم، ثم نعيدهم إلينا، فنجازيهم بأعمالهم. والآية تخويف لأهل مكة، من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم، من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن، وخفض العيش، فكفروا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر فدمرهم الله وخرب ديارهم.

ثم ذكر تعالى مخبراً عن عدله، وأنه لا يهلك أحد ظالماً له.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: ومن حكمته ورحمته أن لا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم، وما جرت عادة الله -جل شأنه- أن يهلك أهل القرى الكافرة إلا بعد إرسال الرسل.

﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ حتى يبعث في أعظمها وأكبرها وعاصمتها رسولاً، يبلغهم رسالة الله، لقطع الحجج والمعاذير حتى لا يخفى على أحد أخبارها؛ لأن المدن مظنة الظهور والانتشار وفيها أشراف القوم، وأهل الفهم والرأي ويرد إليها من حولها.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ وما كنا لنهلك القرى إلا وقد استحق أهلها الإهلاك، لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم ببعثة المرسلين، وفي هذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم، ولا يهلكهم - مع كونهم ظالمين - إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل، ولا يجعل علمه تعالى بأحوالهم حجة عليهم.

* ثم حث تعالى عباده على الزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة في الأخرى، وجعلها مقصود العباد ومطلوبه، فقال:

﴿٦٠﴾،﴿٦١﴾ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ أي: وما أعطيتم أيها الناس من مال وأولاد وخير، فهو متاع قليل تمتعون به في حياتكم ينقضي ويفنى، وفي هذا إخبار عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة، والزهرة الفانية، بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة، من النعيم العظيم المقيم.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: وما عند الله لأهل طاعته من الأجر والثواب، والنعيم الدائم الباقي، خير وأفضل من هذا النعيم الزائل.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ توبيخ لهم، أي: أفلا تعقلون أن الباقي أفضل من الفاني؟

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أفمن وعدناه وعداً قاطعاً بالجنة، وما فيها من النعيم المقيم الخالد، فهو لا محالة مدركه؛ لأن وعد الله لا يتخلف.

﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كمن متعناه في الحياة الدنيا

بمتاع زائل، مشوب بالأكدار، مملوء بالمتاعب، مستتبع للحسرة على انقطاعه؟

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ ثم هو في الآخرة من المحضرين للحساب والجزاء، فهل يساوي العاقل بينهما؟

* ثم أخبر تعالى عن حال الخلائق يوم القيامة، وسؤالهم، فقال تعالى:

﴿٦٢﴾-﴿٦٧﴾ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ * فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: واذكر حال المشركين يوم يناديهم الله، فيقول لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: أين هؤلاء الشركاء والآلهة من الأصنام والأنداد الذين عبدتموهم من دوني في الدنيا، وزعمتم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم؟

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: قال رؤساؤهم وكبراؤهم الذين وجب عليهم العذاب لضلالهم وطغيانهم، قالوا مقرين بغوايتهم وإغوائهم.

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي: هؤلاء أتباعنا الذين أضللناهم عن سبيلك السوي وطريقك المستقيم، أضللناهم كما ضللنا، لا بالقسر والإكراه، ولكن بطريق الوسوسة، وتزيين القبيح، فضلوا كما ضللنا نحن.

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ تبرأنا إليك يا الله من عبادتهم إيانا، فما كانوا يعبدوننا وإنما كان يعبدون أهواءهم وشهواتهم فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم، ثم تبرءوا من عبادتهم.

﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ وقيل للكفار يوم القيامة: استغيثوا بآلهتكم وأصنامكم التي عبدتموها في الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم عذاب الله، وهذا على سبيل التهكم بهم في هذا الوقت الحرج، الذي يضطر فيه العابد إلى من عبده.

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ فاستغاثوا بهم ليدفعوا عنهم من عذاب الله من شيء، فلم يجيبوهم، ولم ينتفعوا بهم، وهذا من سخافة عقولهم ولم يكن منتظراً غير ذاك، ولكنه الإذلال والإعنات.

﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ وشاهدوا العذاب الذي سيحل بهم عياناً بأبصارهم بعدما كانوا مكذبين به، منكرين له، وتمنوا حين شاهدوا العذاب، لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحق.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ توبيخ آخر للمشركين، أي: ويوم يناديهم الله ويسألهم: ماذا أجبتم رسلي؟ هل صدقتموهم أم كذبتموهم وخالفتموهم؟

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: فخفيت واشتبهت عليهم الحجج، وأظلمت عليهم الأمور، حتى صاروا كالعمي الذين لا يهتدون، فلم يعرفوا ما يقولون، فهم حيارى واجمون، لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة والحيرة.

ثم لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم، ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي: فأما من تاب من الشرك، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح فعسى أن يكون من الفائزين بجنات النعيم. والترجي في القرآن بمنزلة التحقق، لأنه وعد كريم من رب رحيم، ومن شأنه تعالى أنه لا يخلف وعده.

* ثم تأتي الآيات لتبين عموم خلق الله تعالى لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات، قال تعالى:

﴿٦٨﴾-﴿٧٠﴾ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ
٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ
فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٧٢ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ٧٣ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ٧٤ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا
هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم
مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ٧٥ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ
فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ
بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ
وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ
وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ٧٧

٣٩٤

وَمَا يُعْلِنُونَ ۞ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ **أي: هو تعالى الخالق المتصرف، يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد، فلا اعتراض لأحد على حكمه. قال مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة حين قال:** ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ **ما كان لأحد من العباد اختيار، إنما الاختيار والإرادة لله وحده.**

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ **أي: تنزه الله العظيم الجليل وتقدس أن ينازعه أحد في ملكه، أو يشاركه في اختياره وحكمته. قال القرطبي: المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه، ويختار من يشاء لنبوته، والخيرة له تعالى في أفعاله، وهو أعلم بوجوه الحكمة، فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه.**

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ **وهو تعالى العالم بما تخفيه قلوبهم وما تنطوي عليه سرائرهم، من الكفر والعداوة للرسول والمؤمنين، وما يظهرونه على ألسنتهم من الطعن في شخص رسوله ﷺ حيث يقولون: ما أنزل الله الوحي إلا على يتيم أبي طالب.**

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ **أي: هو - جل وعلا - الله المستحق للعبادة، لا أحد يستحقها إلا هو، له الثناء الكامل، والشكر في الدنيا والآخرة، لأنه تعالى المتفضل على العباد بالنعم كلها في الدارين.**

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ **وله القضاء النافذ والفصل بين العباد لا معقب له؛ لقهره وغلبته وحكمته ورحمته؛ حكم لأهل طاعته بالمغفرة، ولأهل معصيته بالشقاء.**

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ **وإليه وحده مرجع الخلائق بعد البعث يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر.**

۞ **لما ذكر تعالى أنه هو الخالق المختار، وسفَّه المشركين في عبادتهم لغير الله، عقبَّه بذكر بعض الأدلة والبراهين الدالة على عظمته وسلطانه، تذكيراً للعباد بوجوب شكر المنعم، وممتناً عليهم بما سخر لهم من المخلوقات، وذلك مدعاة لشكره وعبادته وحده لا شريك له، قال تعالى:**

﴿٧١﴾-﴿٧٣﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۞ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ **أي: قل - يا محمد - لهؤلاء الجاحدين من كفار مكة: أخبروني لو جعل الله عليكم الليل بظلامه دائماً مستمرّاً، بلا انقطاع إلى يوم القيامة.**

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ **أي: هل لكم إله من الآلهة التي تعبدونها يقدر على أن يأتيكم بالنور الذي تستضيئون به في حياتكم لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى؟**

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ **أي: أخبروني من يقدر على هذا، أفلا تسمعون سماع فهم وقبول، فتستدلوا بذلك على وحدانية الله تعالى؟**

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: أخبروني لو جعل الله عليكم النهار دائماً مستمراً بلا انقطاع.

﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِ﴾ من هو الإله القادر على أن يأتيكم بليل تستريحون فيه من الحركة والنصب، غير الله تعالى؟ وهذا من فضله ومنته على عباده

﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلال؟ خصّ سبحانه النهار بذكر البصر، لأنه محله، وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع؛ لأن سلطان السمع يكون بالليل، ويُسمع فيه ما لا يسمع في النهار؛ لأنه وقت هدوء الأصوات، وخمود الحركات، وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر، والنهار بالعكس، فيه قوة سلطان البصر، وضعف سلطان السمع.

ثم نبه تعالى إلى كمال رحمته بالعباد، فقال:

﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ومن آثار قدرته، ومظاهر رحمته ـ أيها الناس ـ أن خلق لكم الليل والنهار يتعاقبانه بدقة وإحكام.

﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: لتستريحوا بالليل من نصب الحياة وهمومها وأكدارها، ولتلتمسوا من رزقه بالمعاش والكسب في النهار.

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ ولتشكروا ربكم على نعمه الجليلة التي لا تحصى، ومنها نعمة الليل والنهار، والإنسان في هذه الحياة ينسى هذه النعم العظيمة لتواليها وإلفها، فلا يعبأ بالنعمة ولا يشكرها.

* ثم ذكر ﷻ عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء، وعن عبادة الله وإجابة رسله، فقال:

(٧٤)،(٧٥) ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ * وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ هذا نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلها آخر؛ لأنهم ينادون مرة، فيدعون الأصنام، وينادون أخرى فيسكتون، وهنا يناديهم الله على رؤوس الأشهاد: أين شركائي الذين زعمتموهم في الدنيا؟ وترجون نفعهم، ودفع الضرر عنهم فلا يجيبون.

﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ أي: أخرجنا من كل أمة شهيداً منهم، يشهد عليهم بأعمالهم، وهو نبيهم، فقلنا لتلك الأمم التي كذبت رسلها، وما جاءت به من عند الله: هاتوا حجتكم على ما كنتم عليه من الكفر، وهذا إعذار لهم، وتوبيخ وتعجيز.

﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ﴾ فعلموا حينئذ بطلان قولهم وفساده، وأن الحق لله ـ جل وعلا ـ وأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي: وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع، ما كانوا يتخرصون في الدنيا من الشركاء والأنداد.

* مضت الآيات السابقة في عرض وقائع موسى وما جرى له مع فرعون، فعرضت قوة السلطان والحكم وكيف باءت بالبوار مع البغي والظلم، وفي الآيات الآتية تعرض قصة قارون لتعرض سلطان المال والعلم وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر، ونهاية الغرور والطغيان، وبينت الفارق العظيم بين منطق الإيمان، ومنطق الطغيان، فقال:

(٧٦)،(٧٧) ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ * وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ أي: من عشيرته وجماعته من بني إسرائيل، الذين فضلوا على العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتن الله عليهم بما امتن به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة. قال ابن عباس: كان ابن عم موسى.

﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: تجبر وتكبر على قومه وظلمهم، واستعلى عليهم،

وتجاوز حدَّه في الكبر والتجبر عليهم، بسبب ما منحه الله من الكنوز والأموال، ثم ذكر تعالى حال هذه الكنوز ومبلغها.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ أي: وأعطيناه من الأموال الوفيرة، والكنوز الكثيرة ما يثقل على الجماعة أصحاب القوة والشدة حمل مفاتيح خزائنه لكثرتها وثقلها، فضلاً عن حمل الخزائن والأموال، والآية تصوير لما كان عليه قارون من كثرة المال والغنى والثراء. والكنز: هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾ أي: قال له قومه من بني إسرائيل ناصحين له، محذرين له عن الطغيان، لا تأشر ولا تبطر، ولا تلهيك الأموال عن الآخرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: لا يحب البطرين الذين لا يشكرون الله على إنعامه، ويتكبرون بأموالهم على عباد الله.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: اطلب والتمس فيما أعطاك الله من الأموال رضى الله، وذلك بفعل الحسنات والصدقات والإنفاق من الطاعات، ولا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه والعمل في دنياك لآخرتك.

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أحسن إلى عباد الله، كما أحسن الله إليك بهذه الأموال الكثيرة، ولا تطلب بهذا المال البغي والتطاول على الناس، والإفساد في الأرض بالمعاصي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: لا يحب من كان مجرماً باغياً مفسداً في الأرض، بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة. قيل في الآيات السابقة: هي كلمات متباعدة في المواقع، نائية المطارح، قد جعلها النظم البديع أشد تآلفاً من الشيء المؤتلف في الأصل، وأحسن توافقاً من المتطابق في أول الوضع.

* وبعد هذه النصائح الموفقة في حفظ المال وإنفاقه، وعدم التكبر والبغي، أعرض قارون، وقال رداً لنصيحتهم، كافراً لنعمة ربه:

﴿٧٨﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ لما وعظه قومه، أجابهم بهذا على وجه الرد عليهم، والتكبر عن قبول الموعظة، قال: إنما أعطيت هذا المال على علم عندي بوجوه المكاسب، ولولا رضى الله عني ومحبته

الجزء العشرون ۝ سورة القصص

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ
مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا
وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا
مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠ فَخَسَفْنَا بِهِۦ
وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ٨١ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟
مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا
وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٢ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا
لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ
٨٣ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا
يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٨٤

٣٩٥

لي، ومعرفته بفضلي واستحقاقي له ما أعطاني هذا المال.

قال تعالى رداً عليه، مبيناً أن عطاءه ليس دليلاً على حسن حالة المعطى:

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي: أو لم يعلم هذا الأحمق المغرور، أن الله قد أهلك من قبله من الأمم الخالية، من هو أقوى بدناً وأكثر مالاً؟! فلو كان إعطاء المال والجاه، يدل على رضاء الله سبحانه عمن آتاه ذلك وشرف قدره وعلو منزلته عنده، لما أهلك من آتاه من ذلك أكثر مما أتى قارون، فلما أهلكهم مع سعة هذا العطاء وبسطته علم أن عطاءه إنما كان ابتلاء وفتنة، لا محبة ورضا واصطفاء لهم على غيرهم. والآية تعجب وتوبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله، مع علمه

بذلك؛ لأنه قرأه في التوراة، وسمعه من حفاظ التواريخ.

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لا حاجة أن يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم وكميتها؛ لأنه عالم بكل شيء، ولا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤالهم بل متى حق عليهم العذاب أهلكهم بغتة.

* ثم أشار تعالى إلى أن قارون لم يعتد بنصيحة قومه، بل تمادى في غطرسته وغيه، فقال تعالى:

﴿٧٩﴾، ﴿٨٠﴾ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ فخرج قارون على قومه ذات يوم في زينة عظيمة بأتباعه الكثيرين، ركباناً متحلين بملابس الذهب والحرير، على خيول موشحة بالذهب، ومعه الجواري والغلمان في موكب حافل باهر، فانقسم فيه الناظرون إلى قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ﴾ أي: فلما رآه ضعفاء الإيمان ممن تخدعهم الدنيا ببريقها وزخرفها وزينتها، وصارت منتهى رغبتهم كعادة البشر، قالوا: يا ليت لنا مثل هذا الثراء والغنى والجاه الذي أعطيه قارون.

﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ذو نصيب وافر من الدنيا؛ لأنها منتهى آمالهم، ونهاية رغباتهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وقال لهم العقلاء من أهل العلم والفهم والاستقامة، الذين عرفوا حقائق الأمور وحقارة وفناء الدنيا.

﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ أي: ارتدعوا وانزجروا عن مثل هذا الكلام، فإن جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين العاجل من لذة العبادة ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والآجل من الجنة وما فيها ومما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، خير مما ترون وتتمنون من حال قارون. وأصل «ويلك» الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع، والبعث على ترك ما لا يرتضى.

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ أي: ولا يعطى هذه المرتبة والمنزلة في الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

* لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم، وأزينت الدنيا عنده، وكثر بها إعجابه، قال تعالى تنبيهاً لنهايته المشؤومة حيث بغته العذاب:

﴿٨١﴾، ﴿٨٢﴾ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۞ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: جعلنا الأرض تغور بقارون وبكنوزه، جزاءً على عتوه وبطره، جزاءً من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد الله، أنزله الله أسفل السافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثاثه ومتاعه.

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما كان له جماعة أو أحد من الأنصار والأعوان يدفعون عنه عذاب الله ونكاله.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ وما كان من المنتصرين بنفسه، بل كان من الهالكين.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ وصار الذين تمنوا منزلته وغناه، وحاله بالأمس القريب، بعد أن شاهدوا ما نزل به من الخسف يتندمون على ذلك التمني.

﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ يقولون ندماً وأسفاً على ما صدر منهم من التمني، وخائفين من

وقوع العذاب بهم: اعجبوا أيها القوم من صنع الله، كيف أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ـ بحسب مشيئته وحكمته ـ لا لكرامته عليه، ويضيق الرزق على من يشاء ـ لحكمته وقضائه ابتلاءً ـ لا لهوانه عليه، وتنبه القوم على خطئهم في تمنيهم منزلة قارون وتندموا، وقالوا:

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي: لولا أن الله لطف بنا، وتفضل علينا بالإيمان والرحمة، ولم يعطنا ما تمنيناه، ولم يعاقبنا على ما قلنا، لكان مصيرنا مصير قارون، وخسف بنا الأرض كما خسفها به؛ لأنا وددنا أن نكون مثله فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره.

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: أعجب من فعل الله حيث لا ينجح ولا يفوز بالسعادة الكافرون لا في الدنيا، ولا في الآخرة، وإلى هنا تنتهي قصة قارون، وهي قصة الطغيان بالمال.

* بعد أن ذكر تعالى قصة الطغيان بالجاه والسلطان في قصة فرعون وموسى، وقصة الطغيان والعلو بالمال يأتي التعقيب المباشر يخبر عن الدار الآخرة ونعيمها المقيم، الذي لا يحول ولا يزول، قال تعالى:

﴿٨٣﴾، ﴿٨٤﴾ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ الإشارة للتفخيم والتعظيم، أي: تلك الدار العالية الرفيعة التي سمعت خبرها، وبلغك وصفها، هي دار النعيم الخالد السرمدي، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نجعلها داراً وقراراً للمتقين، الذين لا يريدون التكبر والطغيان، ولا الظلم والعدوان، والفساد في هذه الحياة الدنيا، وأشار إلى مجرد الإرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ والعاقبة المحمودة والفلاح والفوز، للذين يخشون الله ويراقبونه، ويبتغون رضوانه ويحذرون عقابه.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي: من جاء يوم القيامة بحسنة من الحسنات، فإن الله يضاعفها له أضعافاً كثيرة، وهذا إخبار عن فضله وجوده وكرمه، وتمام عدله وهذا مقام الفضل.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ومن جاء يوم القيامة بالسيئات، وهي كل ما نهى الشارع عنه نهي تحريم، فلا يجزى إلا بمثلها، وهذا من فضل الله على عباده أنه يضاعف لهم الحسنات ولا يضاعف لهم السيئات، وهذا مقام الفضل والعدل.

* وختمت السورة الكريمة بالإرشاد إلى طريق السعادة، وهو طريق الإيمان الذي دعى إليه الرسل الكرام، وفي الآيات تسلية ومؤانسة للنبي ﷺ، قال تعالى:

﴿٨٥﴾-﴿٨٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ * وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: إن الذي أنزل عليك ـ يا محمد ـ القرآن وأمرك بالعمل به، وبيّن الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين.

﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: يوم القيامة، حيث يجازى فيه المحسنون بإحسانهم، والمسيؤون بمعصيتهم، وقيل: لرادك إلى مكة كما أخرجك منها، وما هو بتاركك للمشركين، وهذا وعد من الله بفتح مكة ورجوعه عليه السلام إليها بعد أن هاجر منها. لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة، فأنزل الله عليه هذه الآية في هذا الوقت العصيب

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ
أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ
تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا
تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ
كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ
لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ
لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن
جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

۳۹٦

والمكان، ليمضي في طريقه آمناً مطمئناً وأنقاً بنصر الله ووعده.

قال القرطبي:

«ختم السورة ببشارة نبيه محمد ﷺ برده إلى مكة قاهراً لأعدائه».

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ **قل - يا محمد - لمن خالفك وكذبك من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم: ربي أعلم بالمعتدي والضالّ هل أنا أو أنتم؟ فهو - جل وعلا - الذي يعلم المحسن من المسيء، ويجازي كلاً بعمله، وهو جواب لقول كفار مكة: إنك يا محمد في ضلال مبين. ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم وهو مقام عظيم ما كنت تتطلع إليه قبل أن توهبه.**

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ **أي: وما كنت - يا محمد - تطمع وتؤمل أن تنال النبوة، ولا مستعداً له، ولا متصدياً لأعبائها، ولا أن ينزل عليك الكتاب، ولكن رحمك الله بذلك، ورحم العباد ببعثتك؛ فإذا منحك الله هذه النعمة العظيمة.**

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ **أي: لا تكن عوناً لهم على دينهم، ومساعداً لهم على ضلالهم، بالمداراة والمجاملة، ولكن نابذهم وخالفهم. قال المفسرون: دعا المشركون الرسول إلى دين آبائه، فأمر بالتحرز منهم وأن يصدع بالحق، والخطاب بهذا وأمثاله، له ﷺ، والمراد أمته لئلّا يظاهروا الكفار ولا يوافقوهم.**

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ **ولا تلتفت إلى هؤلاء المشركين، الذين يصرفونك عن تبليغ آيات ربك وحججه، ولا تركن إلى قولهم فيصدوك عن اتباع ما أنزل الله إليك من الآيات البينات ولا تتأثر لمخالفتهم لك.**

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ **وادع الناس إلى توحيد ربك وعبادته وحده لا شريك له، دعوه خالصة واضحة لا لبس فيها ولا غموض، وبلغ الآيات، ولا تبال بمكرهم.**

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ **أي: بمسايرتهم على أهوائهم، فإن من رضي بطريقتهم كان منهم.**

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ **أي: ولا تعبد إلهاً سوى الله، وأخلص لله عبادتك، فإنه: لا معبود بحق إلا الله تعالى، ولا أحد يستحق أن يؤله ويحب ويعبد، إلا الله الكامل الباقي، وهذا وما قبله للتهييج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم.**

﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ **كل شيء يفنى ويزول، المال والجاه، والسلطان والقوة، وكل شيء، وتبقى ذاته المقدسة، أطلق الوجه وأراد ذات الله - جل وعلا -. قال ابن كثير: وهذا إخبار بأن تعالى الدائم الباقي، الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، وفي الآية إثبات صفة الوجه لله تعالى، كما يليق بكماله وعظمة جلاله.**

﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ **له القضاء النافذ في الخلق، في الدنيا والآخرة، وإليه مرجعهم جميعاً يوم المعاد، لا إلى أحد سواه، فيجزيهم بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر، فلا مناص من حكمه، ولا مفر من قضائه، ولا ملجأ دونه ولا مهرب.**

تم تفسير سورة القصص

والحمد لله

تفسير سورة العنكبوت وهي مكية

* سورة العنكبوت سورة مكية، وموضوعها العقيدة في أصولها الكبرى: الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء، ومحور السورة الكريمة يدور حول الإيمان، وسنة الابتلاء في هذه الحياة؛ لأن المسلمين في مكة كانوا في أقسى أنواع المحنة والشدة، ولهذا جاء الحديث عن حقيقة الإيمان، وسنة الفتنة والابتلاء في هذه السورة مطولاً مفصلاً، وبوجه خاص عند ذكر قصص الأنبياء.

سميت سورة العنكبوت؛ لأن الله ضرب العنكبوت فيها مثلاً للأصنام المنحوتة، والآلهة المزعومة.

ذكر سبحانه أنه لا بد أن يمتحن خلقه ويفتنهم ليتبين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، ومن يشكره ويعبده، ممن يكفره ويعرض عنه ويعبد غيره، وذكر أحوال الممتحنين في العاجل والآجل، وذكر أئمة الممتحنين في الدنيا، وهم الرسل وأتباعهم وعاقبة أمرهم وما صاروا إليه، قال تعالى:

(١)-(٤) ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ * وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ * أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾.

﴿الٓمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، أي: أظن الناس أن يتركوا من غير افتتان ولا اختبار لمجرد قولهم باللسان آمنا؟ يتركهم بلا ابتلاء ولا اختبار، لا ليس كما ظنوا بل لا بد من امتحانهم ليتميز الصادق من المنافق، فالإيمان ليست كلمة تقال: إنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال. نزلت في قوم من المؤمنين كانوا بمكة مستضعفين، منهم عمار بن ياسر وغيره، وكان كفار قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام، فضاقت صدورهم بذلك فآنسهم الله بهذه الآية ووعظهم وأخبرهم أن ذلك اختبار، ليوطنوا أنفسهم على الصبر على الأذى، والثبات على الإيمان، وأعلمهم أن تلك سيرته في عباده، يسلط الكفار على المؤمنين ليمحصهم بذلك، ويظهر الصادق في إيمانه من الكاذب.

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ ولقد اختبرنا وامتحنا من سبقهم من الأمم بأنواع التكاليف والمصائب والمحن، يعني الأنبياء والمؤمنون، فمنهم من نُشر بالمنشار ومنهم من قتل، والمعنى أن ذلك سنة قديمة، جارية في الأمم كلها، فلا ينبغي أن يتوقع خلافه.

﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ فليميزن الله بالامتحان بين الصادقين في دعوى الإيمان، وبين الكاذبين فيه. وعبر عن الصادقين بلفظ الفعل ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ وعن الكاذبين باسم الفاعل ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ للإشارة إلى أن الكاذبين وصفهم مستمر، وأن الكذب راسخ فيهم بخلاف الصادقين فإن الفعل يفيد التجدد ويتبين صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء، فمن شكر في أيام الرخاء وصبر في أيام البلاء فهو من الصادقين، ومن بطر في أيام الرخاء وجزع في أيام البلاء فهو من الكاذبين.

﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَا﴾ أي: أيظن المجرمون الذين يرتكبون المعاصي والموبقات أنهم يفوتون من عقابنا ويعجزوننا؟ فلا نقدر على الانتقام منهم، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم.

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ أي: بئس ما يظنون، والآية انتقال من توبيخ إلى توبيخ أشد، فالأول توبيخ للناس على ظنهم أنهم يفوتون عذاب الله ويفرون منه مع دوامهم على كفرهم.

* لما كان زمن التألم والعذاب صبره طويل، فأنفاسه ساعات، وساعاته أيام، وأيامه شهور وأعوام، سلى سبحانه الممتحنين فيه بأن لذلك الابتلاء أصلاً ثم ينقطع، وزمناً ثم ينقضي وضرب لأهله أجلاً للقائه يسليهم به، ويسكّن نفوسهم، ويهون عليهم أثقاله، فإذا تصور العبد أجل ذلك البلاء وانقطاعه، وما يناله من ثواب الله وجزاءه هان عليه ما هو فيه، وخف عليه حمله، فقال:

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ
وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٧ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ
بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ
فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ
٩ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ
فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ
إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ
١٠ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ
١١ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا
وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن
شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ
أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ
١٣ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ
إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤

٥-٧ ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ * وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ **لما بيّن تعالى أن العبد لا يترك في الدنيا سدى، بيّن هنا أن من اعترف بالآخرة وعمل لها لا يضيع عمله، ولا يخيب أمله، والمعنى: من كان يأمل ثواب الله فليصبر في الدنيا على المجاهدة في طاعة الله حتى يلقى الله فيجازيه، فإن لقاء الله قريب الإتيان، وكل ما هو آتٍ قريب، والآية تسلية للمؤمنين ووعد لهم بالخير في دار النعيم.**

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ **وهو تعالى السميع لأقوال العباد، العليم بأحوالهم الظاهرة والباطنة.**

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ **ومن جاهد الكفار في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، وجاهد نفسه بالصبر على الطاعات، والكف عن الشهوات، فمنفعة جهاده إنما هي لنفسه، فإن العامل إذا علم أن ثمرة عمله وتعبه يعود عليه وحده، لا يشركه فيه غيره، كان أتم اجتهاداً وأوفر سعياً.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ **أي: مستغن عن العباد، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، وإنما أمر ونهى سبحانه، رحمة لعباده.**

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ **أي: إن الذين منّ الله عليهم وجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، لنمحون عنهم خطيئاتهم التي سلفت منهم، بسبب إيمانهم وعملهم الصالح، لأن الحسنات يذهبن السيئات.**

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ **ونجزيهم بأحسن أعمالهم الصالحة وهي الطاعات والقربات، ولأن الممتحن لا بد أن ينحرف عن طريق الصبر والمجاهدة لدواعي طبيعته وهواه وضعفه عن مقاومة ما ابتلي به، وعده سبحانه أن يتجاوز له عن ذلك ويكفره عنه، لأنه لما آمن به والتزم طاعته اقتضت رحمته أن كفر عنه سيئاته وجازاه بأحسن أعماله.**

*** ثم انتقلت الآيات إلى لمسات حانية، وكلمات مضيئة، في التعامل مع الوالدين والوصية بذلك، وذكر سبحانه ابتلاء العبد بأبويه وما أمر به من طاعتهما وصبره على مجاهدتهما له على أن لا يشرك به. قال تعالى:**

٨، ٩ ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗا﴾ **أي: أمرنا الإنسان، أمراً مؤكداً بالإحسان إلى والديه غاية الإحسان بالقول والعمل، لأنهما سبب وجوده ولهما عليه غاية الفضل والإحسان، الوالد بالإنفاق، والوالدة بالإشفاق، وإنما أمر الله الأولاد ببر الوالدين دون العكس؛ لأن الأولاد جبلوا على القسوة وعدم طاعة الوالدين، فكلفهم الله بما يخالف طبعهم، والآباء مجبولون على الرحمة والشفقة بالأولاد فوكلهم لما جبلوا عليه.**

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآ﴾ **أي: وإن بذلا ـ أيها الإنسان ـ كل ما في وسعهما، وحرصا كل الحرص، على**

أن تكفر بالله وتشرك به شيئاً لا يصح أن يكون إلها ولا يستقيم، فلا تطعهما في ذلك لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، وهذا تعظيم لأمر الشرك.

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إليَّ مرجع الخلائق جميعاً، مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فأجازي كلاً بما عمل، وفيه وعد حسن لمن بر والديه واتبع الهدى، ووعيد لمن عق والديه واتبع سبيل الردى.

عن سعد بن أبي وقاص قال: كنت رجلاً باراً بأمي، فلما أسلمت، قالت: ما هذا الدين الذي أحدثت يا سعد؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بي، فيقال: يا قاتل أمه، قلت: لا تفعلي يا أماه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء أبداً، قال: فمكثت يوماً وليلة لا تأكل، فأصبحت قد جهدت، ثم مكثت يوماً آخر وليلة لا تأكل، فلما رأيت ذلك قلت: تعلمين والله يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء أبداً، فإن شئت فكلي، وإن شئت فدعي، فلما رأت ذلك أكلت فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا...﴾ الآية.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي: من آمن بالله وعمل صالحاً فإن الله وعده وعد صدق، ليدخلنهم في زمرة وجملة عباد الله الصالحين في الجنة. وكرر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحريك النفوس إلى نيل مراتبهم، وفي قوله ﴿الصَّالِحِينَ﴾ مبالغة، أي: الذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته. ومن لطيف مناسبة هذا الظرف في هذا المقام أن المؤمن لما أمر بعصيان والديه إذا أمراه بالشرك، كان ذلك مما يثير بينه وبين أبويه جفاء وتفرقة، فجعل الله جزاء عن وحشته تلك التفرقة أنساً يجعله في عداد الصالحين يأنس بهم.

* ولما ذكر تعالى ما أعده للمؤمنين الخلص، ذكر حال المنافقين المذبذبين، وأنه ﷻ يمتحن من ادعى الإيمان، كما جرت به سنة الله واقتضت حكمته، ليظهر الصادق من الكاذب، فإن من الناس فريقاً لا صبر لهم على المحن، ولا ثبات لهم على بعض المكاره، ويجزع من ذلك ويفر منه ومن أسبابه، كما يفر من عذاب الله، قال تعالى:

﴿١٠﴾،﴿١١﴾ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ أي: أصابه بلاء، بضرب، أو أخذ مال، أو تعيير، ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل.

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ جعل أذى الناس وعذابهم، كعذاب الله في الآخرة، وجزع من عذاب الناس ولم يصبر عليه، فأطاع الناس، كما يطيع الله من يخاف عذابه، قال المفسرون: والتشبيه ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ من حيث إن عذاب الله مانع للمؤمنين من الكفر فكذلك المنافقون جعلوا أذاهم مانعاً لهم من الإيمان، وكان مقتضى إيمانهم أن يصبروا ويتشجعوا، ويروا في العذاب عذوبة، وفي المحنة منحة، فإن العاقبة للمتقين، وأقسام المكلفين ثلاثة: مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده، وكافر مجاهر بكفره وعناده، ومذبذب بينهما يظهر الإيمان بلسانه، ويضمر الكفر في فؤاده، فلما ذكر تعالى القسمين بقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ ذكر القسم الثالث هنا ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ واللطيفة في الآية أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر، وخسة المنافق الكافر، فقال هناك: أوذي المؤمن في سبيل الله ليترك سبيله ولم يتركه، وأوذي المنافق الكافر فترك الله بنفسه، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم ويكون قلبه مطمئناً بالإيمان، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية.

﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: ولئن جاء ـ يا محمد ـ نصر قريب من ربك للمؤمنين، وفتح ومغانم، قال أولئك المنافقون للمؤمنين: إنا كنا معكم ننصركم على أعدائكم، فقاسمونا فيما حصل لكم من الغنائم، لأنه موافق للهوى، قال تعالى رداً عليهم ومكذباً:

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ
﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ
وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟
فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ
مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن
وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **استفهام تقرير، أي: أو ليس الله هو العالم بما انطوت عليه الضمائر من خير وشر، وبما في قلوب الناس من إيمان ونفاق؟ بلى إنه بكل شيء عليم، ثم أكد تعالى ذلك بقوله:**

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ **أي: وليظهرن الله لعباده حال المؤمنين الذين صدقوا فثبتوا على الإسلام عند البلاء وحال المنافقين بترك الإسلام عند نزول البلاء، حتى يتميزوا، فيفتضح المنافق، ويظهر شرف المؤمن الصادق، فلذلك قدر محناً وابتلاء، قال المفسرون: والمراد ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ إظهار علمه للناس حتى يصبح معلوماً لديهم، وإلا فالله عالم بما كان، وما يكون، وما هو كائن لا تخفى عليه خافية، فهو إذاً علم إظهار وإبداء، لا علم غيب وخفاء بالنسبة لله تعالى.**

*** ثم أخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك، تحذير المؤمنين من الاغترار بهم، والوقوع في مكرهم، فقال:**

﴿١٢﴾، ﴿١٣﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ **وقال كفار قريش للمؤمنين، اكفروا كما كفرنا، واتركوا دينكم، واتبعوا ديننا، ونحن نحمل عنكم الإثم والعقاب، إن كان هناك عقاب، وهذا الأمر ليس بأيديهم، فلهذا قال تعالى مكذباً لهم:**

﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ **وما هم حاملين شيئاً من خطاياهم، كما قالوا، لا قليل ولا كثير، لأنه لا يحمل أحد وزر أحد.**

﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ **أي: وإنهم لكاذبون فيما قالوا من حمل خطاياهم، ثم قال تعالى:**

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ **وليحملن أوزارهم وأوزار من أضلوهم عن سبيل الله، دون أن ينقص من أوزار أولئك شيء، كما في الحديث: «...ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه من غير أن ينقص من آثامهم شيء»** [رواه البخاري].

﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ **أي: وليسألن سؤال توبيخ وتقريع، عما كانوا يختلقونه من الكذب والأباطيل على الله ﷻ.**

*** وتمضي السورة تتحدث عن محنة الأنبياء وما لاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله، بدءاً بقصة نوح، ثم إبراهيم، ثم لوط، ثم شعيب، وتتحدث عن بعض الأمم الطغاة المتجبرين كعاد، وثمود، وقارون، وهامان وغيرهم، وتذكر ما حل بهم من الهلاك والدمار.**

وفي قصص الأنبياء دروس من المحن والابتلاء، تتمثل في ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة، وفي هذا تسلية وتطييب خاطر للنبي ﷺ وللدعاة من بعده، فهذا نوح عليه السلام يمكث في قومه تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله، فما يؤمن معه إلا قليل، وهذا أبو الأنبياء إبراهيم الخليل يحاول هداية قومه بكل وسيلة، ويجادلهم بالحجة والبرهان، فما تكون النتيجة إلا العلو والطغيان، قال تعالى:

﴿١٤﴾، ﴿١٥﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ أي: ولقد بعثنا نوحاً إلى قومه فمكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى توحيد الله - جل وعلا -، وكانوا عبدة أصنام، فكذبوه وعصوه، بل استمروا على كفرهم وطغيانهم، حتى دعا عليهم نوح مع شدة صبره وحلمه واحتماله.

قيل: والنكتة في اختيار السنة أولاً أنها تطلق على الشدة والجدب بخلاف العام، فتناسب اختيار السنة لزمان الدعوة الذي قاسى -عليه السلام- فيه ما قاسى من قومه.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: بعد تمام المدة المذكورة أهلكهم الله بالماء الذي نزل من السماء بكثرة، ونبع من الأرض بشدة، وهم مصرون على الكفر والضلال والشرك.

والطوفان: كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة، ومنه السيل والريح والظلام، وقد غلب على طوفان الماء.

وفي قوله: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ إشارة إلى لطيفة، وهي أن الله لايعذب على مجرد وجود الظلم، وإنما يعذب على الإصرار على الظلم، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ يعنى أهلكهم وهم على ظلمهم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: فأنجينا نوحاً من الغرق، ومن ركب معه في السفينة، من أهله وأولاده وأتباعه المؤمنين، وجعلنا تلك الحادثة الهائلة عظة وعبرة للناس بعدهم يتعظون بها، على أن من كذب الرسل، آخر أمره إلى الهلاك، وأن المؤمنين سيجعل الله لهم من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً.

* وبعد قصة نوح يطوى السياق القرون حتى يصل إلى الرسالة الكبرى حيث يذكر تعالى عبده وخليله إبراهيم إمام الحنفاء، ودعوته لقومه، وما جرى منهم، فقال تعالى:

﴿١٦﴾-﴿١٨﴾ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ واذكر - يا محمد - إبراهيم عليه السلام حين دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم، لا مسدي لها غيره، ثم ثنى هذه الدعوة بتحبيبها إليهم، وما تتضمنه من الخير لهم:

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: عبادة الله وتقواه خير لكم من الشرك وعبادة الأوثان، إن كنتم تعلمون الخير من الشر وتفرقون بينهما، وفي الخطوة الثالثة بين لهم فساد ما هم عليه من العقيدة من عدة وجوه فقال:

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ بين لهم - إبراهيم - أنهم يعبدون من دون الله أصناماً، يعبدون شيئاً لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع ولا يبصر. وإنما تعبدون أصناماً من حجارة صنعتموها بأيديكم وتخلقون لها أسماء الآلهة.

﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ وتصنعون أصناماً بأيديكم فتسمونها آلهة، كذباً وباطلاً، قال ابن عباس: تنحتون وتصورون إفكاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ إن هؤلاء الذين تعبدونهم لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئاً من الرزق، وإذا كان كذلك فإن لكم إلهاً يرزقكم وهذا الجانب يهمهم ويمس حاجتهم خاصة أن الرزق مشغلة النفوس، وبخاصة تلك التي لم يستغرقها الإيمان.

﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ فاطلبوا الرزق من الله وحده، فإنه القادر على ذلك، الميسر له، المقدر، المجيب لدعوة من دعاه في أمر دينه ودنياه، فاسألوه من فضله، ووحدوه دون غيره.

﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي: وخصوه وحده بالعبادة لا شريك له، واخشعوا واخضعوا له، واشكروه على نعمه التي أنعم بها عليكم فإن الشكر موجب لبقائها، وسبب للمزيد عليها.

﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله.

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ لما فرغ من بيان

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ
فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ
(٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ
فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
بِبَعْضٖ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضٗا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٢٥) ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ
إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٦)
وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ
ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ
فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٖ
مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ
ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ (٣٠)

٣٩٩

التوحيد، أتى بعده بالتهديد، أي: وإن تكذبوا أيها الناس رسولي محمداً ﷺ فيما دعاكم إليه من عبادة الله وحده، فلن تضروني بتكذيبكم وإنما تضرون بأنفسكم فقد سبق قبلكم أمم كذبوا رسلهم مثل عاد وثمود وغيرهم، فحل بهم عذاب الله وأهلكوا، وسيحل بكم ما حل بهم.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا﴾ أي: وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله، وليس عليه هداية الناس، قال الطبري: ومعنى: ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: الذي يبين لمن سمعه ما يراد به، ويفهم منه ما يعني به، وقد فعل ﷺ وبلغ البلاغ الواضح.

* وتعود الآيات لتقرير حقيقة التوحيد، وأن الله ﷻ هو الخالق المبدئ المعيد، وضرب مثلاً بذلك في أنفسهم، من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، قال تعالى:

(١٩)-(٢٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ * قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ * يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ الاستفهام للتوبيخ لمنكري البعث والحشر، أي: أو لم ير المكذبون بالدلائل الساطعة كيف خلق تعالى الخلق ابتداءً من العدم، فيستدلون بالخلقة الأولى على الإعادة في الحشر؟ قال قتادة: المعنى أو لم يروا بالدلائل والنظر كيف يجوز أن يعيد الله الإجسام بعد الموت؟

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ أي: إن الإعادة سهل عليه تعالى فكيف ينكرون البعث والنشور؟ فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة، قال القرطبي: ومعنى الآية على ما قاله البعض: أو لم يروا كيف يبدئ الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبداً، وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً، وخلق من الولد ولداً، وكذلك سائر الحيوان فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد، فهو القادر على الإعادة، لأنه إذا أراد أمراً قال له كن فيكون. ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله، فقال تعالى:

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المنكرين للبعث سيروا في أرجاء الأرض فانظروا نظر تفكر وتدبر، كيف أن الله العظيم القدير، خلق الخلق على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم الله، لتعلموا بذلك كمال قدرته ﷻ.

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأٓخِرَةَ﴾ ثم هو تعالى بعد الإعادة، ينشئهم عند البعث نشأة أخرى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: لا يعجزه تعالى ومنه البدء والإعادة، وكما قدر بها على ابتداء الخلق، فقدرته على الإعادة من باب أولى وأحرى.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد،

لا معقب لحكمه، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فله الخلق والأمر، يعذب من يشاء، من خلقه على ما أسلف من جرمه في أيام حياته، ويرحم من يشاء منهم، ممن تاب وآمن وعمل صالحاً.

وابتدئ بذكر العقاب؛ لأن الخطاب جار مع منكري البعث الذي حظهم فيه هو التعذيب.

﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ وإليه تردون وترجعون يوم القيامة فيجازيكم بما عملتم.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وما أنتم -أيها الناس- بمعجزين الله في الأرض ولا في السماء، ولا تفوتون من عذاب الله، وليس لكم مهرب في الأرض ولا في السماء.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ليس لكم غير الله وليّ يحميكم من بلائه، ولا نصير ينصركم من عذابه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي: كفروا بالقرآن والبعث، ولقاءه يوم القيامة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: أولئك المنكرون الجاحدون قنطوا من رحمة الله وجنته، وذلك في الآخرة عند رؤية العذاب، لهم عذاب موجع مؤلم.

* ثم قال تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم وما جرى له من قومه، من كفرهم وعنادهم ودمغهم الحق بالباطل، فقال:

﴿٢٤﴾، ﴿٢٥﴾ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ أي: فما كان رد قومه عليه حين دعاهم إلى الله ونهاهم عن الأصنام، وأقام عليهم الحجة والبرهان إلا شر مجاوبة، حيث قال كبراؤهم المجرمون: اقتلوه لتستريحوا منه، أو حرقوه بالنار.

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: فألقوه في النار، فجعلها برداً وسلاماً عليه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في إنجائنا لإبراهيم من النار لآية، وعجز الطغيان عن إيذاء رجل واحد يريد له النجاة لآية، وهي دلائل وبراهين ساطعة على قدرة الله لقوم يصدقون بوجود الله، وكمال قدرته وجلاله.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ وقال إبراهيم في جملة ما قاله من نصحه لقومه، وتوبيخاً لهم وتقريعاً: إنما عبدتم هذه الأوثان والأصنام وجعلتموها آلهة مع الله.

﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: من أجل أن تدوم المحبة والألفة بينكم في هذه الحياة باجتماعكم على عبادتها.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ ثم في الآخرة ينقلب الحال فتصبح هذه الصداقة والمودة عداوة وبغضاء، حيث يقع التناكر ويتبرأ القادة من الأتباع، ويلعن الأتباع القادة؛ لأن صداقتهم في الدنيا لم تكن من أجل الله.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: مصيركم جميعاً العابدين، والمعبودين، جهنم، وليس لكم ناصر أو معين يخلصكم منها.

* ويذكر تعالى أن إبراهيم عليه السلام لم يزل يدعو قومه، وهم مستمرون على عنادهم، إلا أنه آمن له بدعوته لوط.

﴿٢٦﴾، ﴿٢٧﴾ ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي: فآمن مع إبراهيم لوط وصدقه، وهو الذي نبأه الله وأرسله إلى قومه، وهو ابن أخيه، وأول من آمن به لما رأى من الآيات الباهرة.

﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ وقال الخليل إبراهيم، حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئاً: إني تارك دار قومي ومهاجر من بلدي، رغبة ورجاء في رضى الله، ملتجأ إلى حماه. فهاجر من سواد العراق إلى فلسطين والشام ابتغاء إظهار الدين والتمكن من نشره.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ إن ربي هو العزيز الذي يمنعني من

أعدائي، ولا يذل من اعتمد عليه، الذي له القدرة، وهو يقدر على هدايتكم، الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها ولا يأمرني إلا بما هو خير، ولما اعتزلهم وفارقهم وهم بحالهم؛ أقر الله عينه وعوضه عن قومه وعن أهله، فقال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: وهبنا لإبراهيم ـ لما فارق قومه في الله ـ ولداً صالحاً هو إسحاق، وولد ولد وهو يعقوب بن إسحاق ولم يذكر إسماعيل لشهرته.

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ وخصصناه بهذا الفضل العظيم حيث جعلنا كل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته ونسله، فإن إبراهيم شجرة الأنبياء، وجعلنا الكتب السماوية نازلة على الأنبياء من بنيه، قال ابن كثير: وهذه خصلة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً، وجعله إماماً للناس، أن جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة ولده يعقوب، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سوى النبي العربي ﷺ.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: أعطينا إبراهيم الزوجة الجميلة، والرزق الواسع، والأولاد الذين بهم قرت عينه، ومعرفة الله ومحبته، والإنابة به وإليه، والثناء الحسن له في جميع الأديان.

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: وهو في الآخرة في الجنة، في عداد الكاملين في الصلاح، وهذا ثناء عظيم على أب الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

* لما ذكر تعالى قصة نوح وإبراهيم، وما فيهما من مواطن العظة والعبرة، ذكر هنا قصص الأنبياء: لوط، وشعيب، وهود، وصالح، على سبيل الاختصار لبيان عاقبة الله في المكذبين، وكل ذلك لتأكيد ما ورد في صدر السورة الكريمة من أن الابتلاء سنة الحياة، وأنه من السنن الكونية على مر العصور والدهور فقال عن لوط عليه السلام ودعوته لقوم كانوا يتبجحون بالرذيلة دون حياء أو خجل:

(٢٨)-(٣٠) ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: واذكر ـ يا محمد ـ رسولنا لوطاً عليه السلام حين قال لقومه، إنكم يا معشر القوم لترتكبون الفعلة المتناهية في القبح.

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ما تقدمكم بهذه الشنيعة، والفعلة القبيحة -وهي اللواط- أحد من الخلق، وفي هذا تقرير لكمال قبح هذه الخصلة، وأنهم منفردون بذلك لم يسبقهم إلى عملها أحد من الناس على اختلاف أجناسهم. ثم بين سبحانه هذه الفاحشة، فقال:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ أي: إنكم لتأتون الذكور في الأدبار، وذلك منتهى القذارة والخسة. قال المفسرون: لم يقدم أحد قبلهم عليها اشمئزازاً منها في طباعهم لإفراط قبحها حتى أقدم عليها قوم لوط، ولم ينز ذكرٌ على ذكر قبل قوم لوط.

﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وتقطعون الطريق على المارة بالقتل، وأخذ المال، وكانوا قطاع الطريق، يقفون في طريق الناس يقتلونهم، ويأخذون أموالهم.

﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ وتفعلون في مجلسكم ومنتداكم ما لا يليق من أنواع المنكرات علناً وجهاراً لا ينكر بعضكم على بعض، أما كفاكم قبح فعلكم حتى ضممتم إليه قبح الإظهار والإعلان؟! قال مجاهد: كانوا يأتون الذكور أمام الملأ يرى بعضهم بعضاً، وقال ابن عباس: كانوا يحذفون بالحصى من مر بهم مع الفحش في المزاح وحل الإزار، والصفير وغير ذلك من القبائح، وفي هذا إعلام بأنه لا يجوز أن يجتمع الناس على المنكر مما نهى الله ورسوله عنه. ولا يقال للمجلس ناد إلا مادام فيه أهله.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ فما كان رد قومه عليه حين أنكر عليهم ونصحهم، وذكرهم وحذرهم، إلا أن قالوا على سبيل الاستهزاء والعناد: ائتنا يا لوط بالعذاب الذي تعدنا به.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ
أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ
وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ
أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًاۖ
وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا
ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ
هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ
﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ
وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم
مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إن كنت صادقاً فيما تهددنا به من نزول العذاب، ثم إن لوطاً لما يئس منهم طلب النصرة عليهم من الله سبحانه:

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: قال لوط، رب أهلكهم وانصرني عليهم، فإنهم سفهاء مفسدون لا يرجى منهم صلاح، وقد أغرقوا في الغيّ والفساد، فهم يفسدون في الحال، ولا يرجى منهم صلاح في المآل، فطلب من ربه إنزال العذاب، فاستجاب الله دعاءه، فأرسل الملائكة لإهلاكهم، فمروا بإبراهيم قبلُ، وبشروه بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ثم سألهم إبراهيم أين يريدون، فأخبروه أنه يريدون إهلاك قوم لوط.

* لما استنصر لوط عليه السلام بالله عز وجل عليهم، بعث الله عز وجل لنصرته ملائكة، قال تعالى:

﴿٣١﴾-﴿٣٥﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ * وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ * إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي: لما جاءت الملائكة تبشر إبراهيم بالخبر السار من الله، والبشرى هي تبشير إبراهيم بالولد، بغلام حليم هو يعقوب.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أي: قالوا لإبراهيم: جئنا لنهلك قرية سدوم، وهي قرية قوم لوط، لأن أهلها ممعنون في الظلم والفساد، طبيعتهم البغي والعناد.

قال المفسرون: لما دعا لوط على قومه، استجاب الله دعاءه، وأرسل ملائكته لإهلاكهم، فمرُّوا بطريقهم على إبراهيم أولاً فبشروه بغلام وذرية صالحة، ثم أخبروه بما أرسلوا من أجله، فجادلهم بشأن ابن أخيه لوط.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ أي: قال إبراهيم للملائكة: كيف تهلكون أهل القرية وفيهم هذا النبي الصالح لوط وهو بريء من الظلم، فقالت الملائكة له: نحن أعلم به، وبمن فيها من الأخيار والأشرار.

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: سوف ننجيه مع أهله من العذاب، إلا امرأته فستكون من الهالكين لأنها كانت تمالئهم على الكفر. ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شبان حسان.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ ولما دخلوا على لوط حزن بسببهم، وضاق صدره مجيئهم؛ لأنهم حسان الوجوه في صورة أضياف، لأنه ظنهم ضيوفاً من البشر، فخاف عليهم من قومه، وعجز عن تدبيرهم وحزن، لعلمه خبث فعل قومه، فأعلموه أنهم رسل ربه.

﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ أي: وقالت الملائكة: لا تخف علينا من قومك ولا تحزن بسببنا، فلن يصل هؤلاء المجرمون إلينا.

﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: من العذاب الذي أمرنا الله بأن ننزله بهم، واستثنوا امرأته؛ لأنها كانت تمالئهم، فكانت من الهالكين الباقين في العذاب.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ

وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾
فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ
ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ
ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ
لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن
دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ
ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ
﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ
وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

٤٠١

ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ **أي: منزلون عليهم عذاباً من السماء بسبب فسقهم المستمر. قال ابن كثير: وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم، وأرسل عليهم حجارة من سجيل منضود، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد.**

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ **أي: ولقد تركنا من هذه القرية علامة بينة واضحة، وعبرة ظاهرة هي آثار منازلهم الخربة، لقوم يتفكرون ويتدبرون، ويستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار.**

*** ثم أخبر تعالى عن قصة شعيب عليه السلام، ودعوته لقومه بإفراد العبادة لله وحده لا شريك له، فقال:**

﴿٣٦﴾،﴿٣٧﴾ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ **أي: وأرسلنا إلى قوم مدين أخاهم شعيباً.**

﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ **فقال لقومه ناصحاً ومذكراً: يا قوم وحدوا الله، وخافوا عقابه الشديد ونقمته وسطوته يوم القيامة.**

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ **نهاهم عن العبث في الأرض بالفساد وهي السعي فيها بأنواع البغي والعدوان على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله.**

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ **فكذب أهل مدين رسولهم شعيباً، فأهلكهم الله برجفة عظيمة مدمرة، زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة هائلة أخرجت القلوب من حناجرها.**

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ **أي: فأصبحوا هلكى، باركين على الركب، ميتين. لم ترد في القرآن كلمة ديارهم إلا مع العذاب بالصيحة؛ لأنها تصيب عدداً أكبر وتبلغ لقوة الصوت والتأثير دياراً عديدة، كما في سورة هود** ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ **أما الرجفة فيكون تأثيرها في مكانها فقط؛ لذا جاء استخدام في دارهم مع الرجفة** ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

*** وكما أخبر تعالى عن بعض الأنبياء وما جرى لهم مع أقوامهم، يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، قال تعالى:**

﴿٣٨﴾-﴿٤٠﴾ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ **أي: وأهلكنا عاداً قوم هود وكانوا يسكنون الأحقاف، وثموداً قوم صالح كانوا يسكنون**

الحجر، وقد ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم بالحجاز واليمن خرابها وخلاؤها منهم، آية في هلاكهم، أفلا تعتبرون؟ وكان أهل مكة يمرون على تلك الديار في أسفارهم فيبصرونها.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وحسن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الكفر والمعاصي حتى رأوها حسنة، وظنوا أنها أفضل مما جاءتهم به الرسل.

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي: فمنعهم عن طريق الحق، وكانوا عقلاء متمكنين من النظر والاستدلال، لكنهم لم يفعلوا تكبراً وعناداً.

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ أي: وأهلكنا كذلك الجبابرة الظالمين، قارون: صاحب الكنوز الكثيرة، وفرعون صاحب الملك والسلطان، ووزيره هامان، الذي كان يعينه على الظلم والطغيان.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ولقد جاءهم موسى عليه السلام، بالحجج الباهرة والآيات الظاهرة، فاستكبروا عن عبادة الله، وطاعة رسوله.

﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ وما كانوا ليفلتوا من عذابنا، بل كنا مقتدرين عليهم.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ فكلاً من هؤلاء المجرمين أهلكناه، بسبب ذنبه، وعاقبناه بجنايته، وكانت عقوبته بما يناسبه، وفي هذا إشارة وتخويف لكفار مكة أن يحل بهم ما حل بالأمم السابقة.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي: ريحاً عاصفة مدمرة فيها حصباء وهي الحصى الصغار، فترجمهم بها، وهم قوم لوط.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ ومنهم من أخذته صيحة العذاب مع الرجفة، كثمود، وأهل مدين.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: خسفنا به وبأملاكه الأرض حتى غاب فيها، كقارون وأصحابه.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ أي: أهلكناه بالغرق، كقوم نوح، وفرعون وجنده.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ وما كان الله ليعذبهم من غير ذنب فيكون لهم ظالماً، لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والطغيان فاستحقوا العذاب والدمار.

* ثم ضرب تعالى مثلاً للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، وأنها لا تنفع ولا تضر ولا تغني شيئاً، فقال:

﴿٤١-٤٣﴾ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: مثل الذين اتخذوا من دون الله أصناماً يعبدونها في اعتمادهم عليها ورجائهم نفعها ونصرها.

﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتاً لا يغني عنها في حر ولا برد، ولا مطر ولا أذى، ولا تقي ما تقي البيوت، فكذلك الأوثان لا تنفعهم في الدنيا والآخرة، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً.

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وإن أضعف البيوت لبيت العنكبوت لتفاهته وحقارته، لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم ما عبدوها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ أي: هو تعالى عالم بما عبدوه من دونه لا يخفى عليه ذلك، وسيجازيهم على كفرهم.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: وهو - جل وعلا - العزيز في ملكه، الغالب الذي لا شريك له، الحكيم في ترك المعاجلة بالعقوبة، وفيه تجهيل لهم حيث عبدوا جماداً لا علم له ولا قدرة، وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء الحكيم الذي لا يفعل كل شيء إلا بحكمة وتدبير.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي: هذا المثل وغيره من الأمثال والأشباه، نبينها للناس في القرآن لتقريبها إلى أذهانهم، لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم، وكان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك، فلذلك قال:

۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ
إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ
﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ
ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا
يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن
قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ
ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ
لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ
وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ
ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ
لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ
شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ أي: وما يدركها ويفهمها إلا العالمون الراسخون، الذين يعقلون عن الله ﷻ مراده، وفي القرآن بضعة وأربعون مثلاً. وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه بكى، ويقول: لست من العالمين.

* ثم يخبر تعالى عن قدرته العظيمة، وأنه خلق السموات والأرض على صفة الكمال والإتقان، على وجه الحكمة البالغة، قال تعالى:

﴿٤٤﴾، ﴿٤٥﴾ ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾.

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: خلقهما بالحق الثابت والعدل والقسط، لا على وجه العبث واللعب، هو المنفرد بخلق السماوات، على علوها وارتفاعها، وحسنها، وما فيها من الشمس والقمر، والكواكب والملائكة، والأرض، وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار والأشجار ونحوها، وسخرها وذللها لمصالح عباده.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يخبر تعالى أن في خلقهما بذلك الشكل البديع، والصنع المحكم لعلامة، ودلالة للمصدقين بوجود الله ووحدانيته، إذا تدبرها المؤمن رأى ذلك فيها عياناً، وخص المؤمنين؛ لأنهم الذين ينتفعون بذلك.

﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: اقرأ ـ يا محمد ـ هذا القرآن المجيد الذي أوحاه إليك ربك، واعمل به، ولتقف على ما أمر به، ونهى عنه، وتقرب إليه بتلاوته وترداده وتدبره، والتفكر في معانيه؛ لأن فيه محاسن الآداب ومكارم الأخلاق. ومعنى تلاوته اتباعه، بامتثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: دم واستمر على إقامتها بأركانها وشروطها وآدابها، فإنها عماد الدين، وذكر الصلاة من باب عطف الخاص على العام، لفضل الصلاة وشرفها، وآثارها الحميدة، وهي:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ أي: إن الصلاة الجامعة لشروطها وآدابها، المستوفية لخشوعها وأحكامها، إذا أداها المصلي كما ينبغي، وكان خاشعاً في صلاته، متذكراً لعظمة ربه، متدبراً لما يتلو، نهته عن الفواحش والمنكرات. والفحشاء: ما قبح من الأعمال، والمنكر: ما لا يعرف في الشرع. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فإن الصلاة فيها دفع مكروه وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل محبوب وهو ذكر الله.

﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ ولذكر الله أكبر من كل شيء في الدنيا، وهو أن تتذكر عظمته وجلاله، وتذكره في صلاتك وفي بيعك وشرائك، وفي أمور حياتك، ولا تغفل عنه في جميع شؤونك.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ أي: يعلم جميع أعمالكم وأفعالكم من الخير والطاعة، لا يخفى عليه شيء، فيجازيكم عليها أحسن المجازاة. قال أبو العالية: إن الصلاة فيها ثلاث خصال: الإخلاص، والخشية، وذكر الله؛ فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله ـ القرآن ـ يأمره وينهاه، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذا الجلال فليست بصلاة.

* لما بين تعالى ضلال من اتخذ أولياء من دون الله، وضرب المثل ببيت العنكبوت، أمر هنا بالتلطف في دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان، بحسن خلق، ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتهجينه، قال تعالى:

(٤٦) ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: لا تدعوا أهل الكتاب إلى الإسلام وتناقشوهم في أمر الدين، إلا بالطريقة الحسنى كالدعاء إلى الله، بآياته، والتنبيه على حججه وبيناته، ولا تكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدح بجميع ما معهم، من حق وباطل، فهذا ظلم، وخروج عن الواجب وآداب النظر.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أي: إلا من كان ظالماً لكم، محارباً لكم، مجاهداً في عداوتكم، فجادلوهم بالغلظة والشدة، فجالدوهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي: وقولوا لهم: آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا وبالتوراة والإنجيل التي أنزلت إليكم.

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي: ربنا وربكم واحد لا شريك له في الألوهية، ولا ضد، ولا ند، ونحن له مطيعون، مستسلمون لحكمه وأمره، متذللون بالطاعة فيما أمرنا به، ونهانا عنه.

* ثم مدح سبحانه أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم، وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم، قال تعالى:

(٤٧)-(٤٩) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ * بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: وكما أنزلنا الكتاب على من قبلك ـ يا محمد ـ، أنزلنا عليك هذا القرآن العظيم، المبين كل نبأ عظيم، الداعي إلى كل خلق فاضل وأمر كامل، المصدق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الاقدمون.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: فالذين أعطيناهم الكتاب كعبد الله بن سلام ومن معه ممن أسلم من اليهود والنصارى يؤمنون بالقرآن، ولم يداخلهم حسد وهوى.

﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ أي: ومن أهل مكة من يؤمن بالقرآن كذلك إيماناً على بصيرة ويقين.

﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي: وما يكذب بآياتنا وينكرها مع ظهورها وقيام الحجة عليها إلا المتوغلون في الكفر، المصرّون على العناد. قال قتادة: وإنما يكون الجحود بعد المعرفة. ثم تتبع الآيات مواضع شبه الكفار وترد عليها بأوضح وأجمل عبارة.

﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ أي: ومن معجزاتك البينة ـ يا محمد ـ أنك ما كنت تعرف القراءة ولا الكتابة قبل نزول هذا القرآن عليك لأنك أمي. قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ أمياً لا يقرأ شيئاً ولا يكتب. وخص اليمين؛ لأن الكتابة غالباً تكون باليمين.

﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي: لو كنت تقرأ أو تكتب من قبل أن يوحى إليك، لشك الكفار في القرآن، وقالوا: لعله التقطه وتعلمه من كتب الأوائل ونسبه إلى الله، والآية احتجاج على أن القرآن من عند الله؛ لأن النبي أمي وجاءهم بهذا الكتاب المعجز، المتضمن لأخبار الأمم السابقة، والأمور الغيبية، وذلك أكبر برهان على صدقه ﷺ. قال ابن كثير: المعنى قد لبثت في قومك ـ يا محمد ـ من قبل أن تأتي بهذا القرآن ـ عمراً لا تقرأ كتاباً، ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك يعرف أنك أمي لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً، إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة، ولا يخط حرفاً ولا سطراً بيده، بل كان له كتاب يكتبون له الوحي.

﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي: ليس الأمر كما حسب الظالمون والمبطلون، بل القرآن آيات واضحات الإعجاز، ساطعات الدلالة على أنها من عند الله،

محفوظة في صدور العلماء الذين حملوا القرآن. قال المفسرون: من خصائص القرآن العظيم أن الله حفظه من التبديل والتغيير بطريقين، الأول: الحفظ في السطور، والثاني: الحفظ في الصدور، بخلاف غيره من الكتب فإنها مسطرة لديهم غير محفوظة في صدورهم ولهذا دخلها التحريف.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: وما يكذب بآياتنا الواضحة إلا المتجاوزون الحد في الكفر والعناد الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه.

* ثم ذكر سبحانه طلب الكفار آية من محمد ﷺ تدل على صدقه، فذكر سبحانه إنزال القرآن وأنه دلالة وعلامة على صدقه ونبوته ﷺ، قال تعالى:

﴿٥٠﴾-﴿٥٢﴾ ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: وقال كفار مكة معترضين: هلا أنزل على محمد آيات خارقة من ربه تدل على صدقه كما أنزل على الأنبياء من قبل، مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: قل لهم - يا محمد -: إنما أمر هذه الخوارق والمعجزات لله وليست بيدي، إن شاء أرسلها، وإن شاء منعها، ولست أملك شيئاً منها.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وإنما بعثت نذيراً أخوفكم عذاب الله، وشدة بأسه وعقابه، وليس من شأني أن آتي بالآيات، وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الاستفهام للتوبيخ وهو جواب لقولهم ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: أو لم يكف هؤلاء المشركين في علمهم بصدقك - يا محمد - أن أنزلنا عليك من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي لا يزال يقرع أسماعهم؟ وكيف يطلبون آية، والقرآن أعظم الآيات، وأوضحها دلالة على صحة نبوتك؟ لا تزول كما تزول كل آية بعد كونها. قال ابن كثير: بيَّن تعالى كثرة جهلهم، وسخافة عقلهم، حيث طلبوا آيات تدل على صدق محمد ﷺ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة سورة منه، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، ولهذا قال بعده:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن في إنزال هذا القرآن لنعمة عظيمة على العباد بإنقاذهم من الضلالة، يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية، وتذكرة بليغة لقوم غرضهم الإيمان لا التعنت.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: قل لهم: كفى أن يكون الله - جل وعلا - شاهداً على صدقي، يشهد لي أني رسوله وهذا القرآن كتابه.

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا تخفى عليه خافية من أمر العباد، فلو كنت كاذباً عليه؛ لانتقم مني فهو مطلع على أمري وأمركم وعالم بحقي وباطلكم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: والذين آمنوا بالأوثان وكفروا بالرحمن، أولئك هم الكاملون في الخسران، حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

* ثم يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به، وأنهم يقولون ذلك استعجالاً للعذاب، وزيادة في التكذيب، وعناداً واستكباراً، قال تعالى:

﴿٥٣﴾-﴿٥٥﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ أي: يستعجلك - يا محمد - المشركون بالعذاب في الدنيا، وهو استعجال على جهة التكذيب والاستهزاء.

﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: لولا أن الله قدر لعذابهم وهلاكهم وقتاً محدوداً، لجاءهم العذاب حين طلبوه، وليأتينهم فجأة، وهم ساهون لاهون، لا يشعرون بوقت مجيئه، فوقع كما أخبر تعالى. لما قدموا بدراً بطريق مفاخرين، فأهانهم الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشرارهم، ولم يبق فيهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة، فأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، هذا وإن لم ينزل بهم العذاب الدنيوي، فإن أمامهم العذاب الأخروي الذي لا يخلص منهم أحد منه، سواء عوجل بعذاب الدنيا، أو أمهل.

﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أعاده تأكيداً وتعجباً من قلة فطنتهم، ومن تعنتهم وعنادهم. والمعنى: كيف يستعجلون العذاب والحال أن جهنم جامعة لهم يوم القيامة لا يبقى أحد منهم إلا دخلها، لا مفر لهم منها، ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم بهم، فقال:

﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ أي: يوم القيامة يصيبهم ويجللهم العذاب، ويحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم، ومن جميع جهاتهم.

﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: ويقول الله ﷻ لهم: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا من الاستهزاء والإجرام، وسيىء الأعمال.

* ثم لما بيّن تعالى حال المكذبين الجاحدين من كفرة أهل الكتاب، ومن المشركين، وجمعهم في الأنداد وجعلهم من أهل النار، اشتد عنادهم، وزاد فسادهم، وسعوا في إيذاء المسلمين بكل وجه، جعل الله لهؤلاء المستضعفين ممن آمنوا فرجاً ومخرجاً، وذلك بالهجرة، فقال تعالى:

وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ
وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٣ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٤ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ
مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ
٥٥ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ
٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ
صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ
رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠ وَلَئِن
سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ
عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم
مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣

٤٠٣

﴿٥٦-٦٠﴾ ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ * كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ * ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ * وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ خطاب تشريف وتكريم للتحريض على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، أي: يا من شرفكم الله بالعبودية له، هاجروا من مكة إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان فيها، ولا تجاوروا الظلمة فأرض الله واسعة. قال مقاتل: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة.

﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ أي: فخصوني بالعبادة ولا تعبدوا أحداً سواي.

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ أي: وكل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت وكربه لا محالة، كما يجد الذائق طعم المذوق، فكونوا دائماً وأبداً في طاعة الله، وحيث أمرتم فهاجروا، فلا يصعب عليكم ترك الأوطان، ومفارقة الأخوان، فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه. خوفهم بالموت لتهون عليهم الهجرة، ثم بعد الموت إلى الله المرجع والمآب.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾ أي: والذين جمعوا بين

إخلاص العقيدة وإخلاص العمل، لننزلنهم أعالي الجنة ولنسكننهم منازل رفيعة فيها، وفي هذا الترغيب إلى الهجرة، وأن جزاء من هاجر أن يكون في غرف الجنة.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة، ماكثين فيها إلى غير نهاية، لا يخرجون منها أبداً.

﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي: نعمت تلك المساكن العالية في جنات النعيم أجراً للعاملين.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ هذا بيان للعاملين، أي: هم الذين صبروا على تحمل المشاق والشدائد، من الهجرة والأذى في سبيل الله، فصبرهم على عبادة الله يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصي، وعلى ربهم يعتمدون في جميع أمورهم، فالتوكل يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به. وهذان جماع الخير كله: الصبر، وتفويض الأمر إليه تعالى. ولما أمر رسول الله ﷺ من أسلم من مكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة فقالوا: كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال، فمن يطعمنا بها ويسقينا، فلما هاجروا وتوكلوا كانوا في مهاجرهم أوسع رزقاً وأطيب، ثم بعد زمن يسير صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار، فنزلت:

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: كم من دابة ضعيفة ذات حاجة إلى غداء، لا تقدر على كسب رزقها، ولا ترفع رزقها معها، ولا تدخر شيئاً لغد مثل البهائم والطير، ولكن الله يرزقها مع ضعفها.

﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: فكلكم عيال الله، القائم برزقكم، كما قام بخلقكم وتدبيركم، والله يرزقها كما يرزقكم، فهو الذي يقيض لها الرزق على ضعفها وييسره عليها، وقد تكفل برزق جميع الخلق، فلا تخافوا الفقر إن هاجرتم، فالرازق هو الله. والقصد بالآية التقوية لقلوب المؤمنين إذا خافوا الفقر والجوع في الهجرة من أوطانهم، فكما يرزق الله الحيوانات الضعيفة كذلك يرزقكم إذا هاجرتم من بلدكم.

عن ابن عباس أن النبي ﷺ أمر المؤمنين بالهجرة حين آذاهم المشركون فقال لهم: «أخرجوا إلى المدينة وهاجروا، ولا تجاوروا الظلمة»، قالوا: ليس لنا بها دار ولا عقار، ولا من يطعمنا ولا من يسقينا، فنزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ...﴾ الآية.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: هو السميع لقولكم نخشى الفقر والعيلة؛ فلا يخفى عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية فإنه السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم وبما في ضمائركم.

* ثم عاد الحديث إلى توبيخ المشركين في عبادة غير الله، وإقامة البراهين الساطعة والحجج الواضحة على وحدانية الله وتفرده بالعبادة، وأنه مستحق لذلك، فقال:

﴿٦١﴾-﴿٦٣﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: ولئن سألت - يا محمد - المشركين من خلق العالم العلوي والسفلي على كبرهما وسعتهما وما فيهما من العجائب والغرائب؟ ومن ذلل الشمس والقمر وسخرهما لمصالح العباد يجريان بنظام دقيق؟ ليقولون: الله وحده خالق ذلك، ولاعترفوا بعجز الأوثان، ومن عبدوه مع الله على شيء من ذلك.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: فاعجب لإفكهم وكذبهم، فكيف يصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بهذا كله.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي: هو - جل وعلا - الخالق وهو الرازق، يوسع الرزق لمن يشاء من عباده امتحاناً،

ويضيق الرزق على من يشــاء ابتلاءً، ليظهر الشاكر والصابر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: إنــه تعالى واســع العلــم، يعلم أحوالكم وأموركم، ويفعل ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ توبيخ آخر، وإقامة حجة أخرى عليهم، أي: ولئن ســألت - يا محمد - المشركين من الذي أنزل المطر من الســماء فأخرج به أنواع الــزروع والثمار بعد جــدب الأرض ويبسها؟ ليقولون معترفين مقرين: الله وحده الذي أنزل المطر وأنبت الزرع.

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي: قــل - يا محمد -: حمداً لله على إنزالــه الماء، وحمداً له على ظهور الحجة، ثم ذمهم بأن أكثرهم لا يتدبرون بما فيهم مــن العقول، حيث يقــرون بأن الله هــو الخالــق الرازق ويعبدون غيره.

* ثم يخبر تعالى عن حالــة الدنيا وحقارتها وزوالهــا وسرعة انقضائها، وأنهــا لا دوام لهــا، وفي ضمن ذلك، التزهيد في الدنيا والتشويق للأخرى، قال تعالى:

(٦٤)-(٦٦) ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ * فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞ﴾ أي: ومــا الحيــاة في هذه الدنيا لسرعــة زوالها عن أهلها وموتهم، وحقيقتها إلا غرور ينقــضي سريعاً ويزول، كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون. واللهو: الاســتمتاع بلذات الدنيا. واللعب: العبث.

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: وأما الــدار الآخرة هي دار الحيــاة الحقيقية، التي لا موت فيهــا ولا تنغيص، لــو كان - الناس - عندهم علــم لم يؤثروا دار الفناء؛ على دار البقاء، لأن الدنيا حقيرة لا تزن عند الله جناح بعوضة.

﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ إقامة حجة ثالثــة عــلى المشركــين في دعائهم الله عند الشــدائد، ثم يشركون به في حال الرخاء، والمعنى: إذا ركب المشركون في السفن وانقطع رجاؤهم من الحياة، وخافوا الغــرق رجعــوا إلى الفطرة، فدعوا الله مخلصين له الدعاء، وحدوا الله وأخلصوا له في الدعــاء، وتركوا الأصنــام، لعلمهــم أنه لا يكشــف الشــدائد عنهــم إلا هــو، وفي لفظ ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ ضرب من التهكم.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ أي: فلــما خلصهم من أهوال البحر، ونجاهم إلى جانب البر وســلموا من المهالك، إذا هم يعودون إلى كفرهم وإشراكهم، ناسين ربهــم الذي أنقذهم مــن الشدائد والأهــوال وهــذا إخبار عن عنادهم.

ذكر في الآية أســفارهم في البحر؛ لأن أسفارهم في البر كانوا لا يعتريهم فيها خوفٌ يعم جميع السفر لأنهم كانوا يســافرون قوافلَ، معهم سلاحهم، ويمرون بسبل يألفونها فلا يعترضهم خوف عــام، فأما ســفرهم في البحر فإنهم يَفْرَقــون من هوْلــه ولا يدفعه عنهــم وفرة عدد ولا قــوة عُدد، فهم يضرعون إلى الله بطلب النجاة ولعلهم لا يدعون أصنامهم حينئذ.

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ

الجزء الحادي والعشرون سورة العنكبوت

وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ
ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ
مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥
لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٦٦
أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ
حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ٦٧
وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ
أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ٦٨ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ
فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩

سُورَةُ الرُّومِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ
بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ
مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤
بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥

٤٠٤

﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ أمر على وجه التهديد، أي: فليكفروا بما أعطيناهم من نعمة الإنجاء من البحر، وليتمتعوا في هذه الحياة الدنيا بباقي أعمارهم، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم في الآخرة، فما هكذا تقابل النعمة بالإساءة، وفي هذا تهديد عظيم لهم.

* ثم امتنَّ الله ﷻ على قريش بنعمة الأمن، وسعة الرزق، ورغد العيش، وذلك مدعاة إلى عبادته وحده لا شريك له، فقال:

﴿٦٧﴾-﴿٦٩﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ * وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ * وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾ أي: أو لم يشاهد كفار مكة، رؤية تفكر واعتبار، أنا جعلنا بلدهم - مكة - حرماً مصوناً عن السلب والنهب، آمنا أهله من القتل والسبي، والناس حولهم يقتل بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً وهم يشاهدون ذلك ويعلمونه.

﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾ أي: أفبعد هذه النعم الجليلة يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن؟ فأين ذهبت عقولهم، وانسلخت أحلامهم حيث آثروا الضلال على الهدى، والباطل على الحق، والشقاء على السعادة.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ أي: لا أحد أشد عقوبة ممن عبد غير الله، وكذب بالقرآن، حين جاءه على يد رسوله محمد ﷺ؛ فزعم أن لله شريكاً وأنه أمر بالفواحش.

﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: أليس في جهنم مأوى وموضع إقامة للكافرين بآيات الله، جزاء افترائهم وكفرهم.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ أي: والمؤمنون الذين جاهدوا النفس، والشيطان، والهوى، والكفرة أعداء الدين، ابتغاء مرضاتنا، ومن أجلنا ولوجهنا خالصاً، لنهدينهم طريق السير الموصلة إلينا، ونثبتهم على الصراط المستقيم. فعلق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: مع المؤمنين بالنصر والعون والهداية والتوفيق في الدنيا وبالثواب، والمغفرة في العقبى.

تم تفسير سورة العنكبوت
والحمد لله

تفسير سورة الروم
وهي مكية

* سورة الروم سورة مكية، توضح وتبين أسس العقيدة الإسلامية من الإيمان بالوحدانية، والرسالة، والبعث والجزاء.

سميت «سورة الروم» لذكر تلك المعجزة الباهرة، التي تدل على صدق أنباء القرآن العظيم.

فقد ابتدأت السورة الكريمة بالتنبؤ عن حدث غيبي مهم، أخبر عنه ﷻ قبل حدوثه، ألا وهو انتصار الروم على الفرس في المعركة التي ستقع قريباً بينهما، حيث كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال ما يكون بين الدول الكبرى، فكان ذلك من أظهر الدلائل على صدق محمد ﷺ فيما جاء به من الوحي، ومن أعظم معجزات القرآن، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٧﴾ ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ * يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾.

﴿الٓمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن.

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هزم جيش فارس، الروم في أقرب أرضهم إلى فارس.

﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ وهم أي: الروم من بعد انهزامهم وغلبة فارس لهم، سيغلبون الفرس وينتصرون عليهم.

﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ أي: في مدة لا تتجاوز بضعة أعوام، والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع. قال المفسرون: كان بين فارس والروم حرب، فغلبت فارس الروم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فشق ذلك عليهم، وفرح المشركون بذلك؛ لأن أهل فارس كانوا مجوساً ولم يكن لهم كتاب، والروم أصحاب كتاب، فقال المشركون لأصحاب رسول الله ﷺ: إنكم أهل كتاب، والروم أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، فلنظهرن عليكم، فقال أبوبكر: لا يقرُّ الله أعينكم، فأنزل الله ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ وقد التقى الجيشان في السنة السابعة من الحرب، وغلبت الروم فارس وهزمتهم، وفرح المسلمون بذلك. وهذه الآيات من البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة، وكون القرآن من عند الله ﷻ حيث أخبر عن الغيب الذي لا يعلمه إلا العليم الخبير، ووقع كما أخبر.

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: لله ﷻ الأمر أولاً وآخراً، من قبل الغلبة ومن بعدها، فكل ذلك بأمر الله وإرادته، ليس شيء منها إلا بقضائه، فإن غلبة الغالب، وخذلان المغلوب، بأمر الله وقضائه لا لمجرد وجود الأسباب.

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ويوم يهزم الروم الفرس ويتغلبون عليهم، ويحل ما وعده الله من غلبتهم، يفرح المؤمنون بنصر الله لأهل الكتاب على المجوس؛ لأن أهل الكتاب أقرب إلى المؤمنين من المجوس، وقد تحقق ذلك بعد سبع سنين، وصادف ذلك اليوم يوم غزوة بدر. قال ابن عباس: كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان، وعبدة النيران.

﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: ينصر ويجعل الغلبة لمن شاء من عباده، وهو العزيز بانتقامه من أعدائه، الرحيم بأوليائه وأحبابه.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أي: ذلك وعد مؤكد وعد الله به، فلا يمكن أن يتخلف؛ لأن وعده حق وكلامه صدق، فتيقنوا ذلك، واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من نصر الروم النصارى على الفرس الوثنيين.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولكن أكثر كفار مكة لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وذلك لجهلهم وعدم تفكرهم أن ما وعد الله به حق.

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: أكثر الناس يعلمون أمور الدنيا ومصالحها، وما يحتاجون إليه فيها من أمور الحياة كالزراعة والتجارة والبناء ونحو ذلك، ويعلمون أمر معايشهم متى يزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يغرسون، وكيف يبنون فهم حذاق أذكياء وأساتذة في تحصيلها، ووجوه مكاسبها، وهذا كله علم سطحي، يتعلق بظاهر هذه الحياة، وهم لا يتجاوزون هذا الظاهر.

﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي: وهم عمي عن أمر الآخرة، لا يرون ببصيرتهم ما وراءه، من النعم الدائمة واللذة الخالصة، ساهون غافلون عن التفكر فيها، والعمل لها وقد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإرادتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، وقيل: ومعنى الآية أن علمهم منحصر في الدنيا، وهم مع ذلك لا يعلمون الدنيا كما هي وإنما يعلمون ظاهرها، وهي ملاذها وملاعبها، ولا يعلمون باطنها وهي مضارها ومتاعبها، ويعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها وهم عن الآخرة غافلون، ولعل في التعبير بقوله: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ إشارة إلى أنهم عرفوا القشور، ولم يعرفوا اللباب، فكأن علومهم إنما هي علوم البهائم. قال الحسن البصري: والله لبلغ من أحدهم بدنياه أن يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يُصلي.

* وقد ساقت الآيات دلائل وشواهد على انتصار الحق على الباطل، في شتى العصور والدهور، وتلك هي سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، قال سبحانه:

وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ
٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ
غَٰفِلُونَ ٧ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا
مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ
أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا
عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩ ثُمَّ كَانَ
عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ
بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ
١١ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن
شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ
١٣ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥

٨-١٠ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: أولم يتفكروا هؤلاء المكذبون لرسل الله ولقائه بعقولهم، فيعلموا أن الله العظيم الجليل، هو الذي خلقهم ولم يكونوا شيئاً، وأنه تعالى ماخلق السموات والأرض عبثاً، وإنما خلقهما بالحكمة البالغة، لإقامة الحق لوقت ينتهيان إليه وهو يوم القيامة؟ وفي هذا تنبيه على الفناء، وعلى أن لكل مخلوق أجلاً، وعلى ثواب المحسن، وعقاب المسيء.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ أي: وأكثر الناس بيوم الحساب والجزاء كافرون منكرون جاحدون، فلذلك لم يستعدوا للقائه ولم يصدقوا رسله، ثم نبههم على صدق رسله فيما جاؤوا به عنه، بما أيدهم من المعجزات والدلائل الواضحات من إهلاك من كفر بهم ونجاة من صدقهم، فقال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: أو لم يسافروا هؤلاء المكذبون بالله، الغافلون عن الآخرة، سير تأمل واعتبار فيشاهدوا مصارع الأمم قبلهم كيف أهلكوا بتكذيبهم رسلهم فيعتبروا، وهي دعوة إلى التأمل في مصائر الغابرين عبرة وعظة.

﴿كَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: كانوا أقوى منهم أجساداً، وأكثر أموالاً وأولاداً.

﴿وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: وأقدر على التمتع بالحياة، حيث حرثوا الأرض للزراعة، وحفروها؛ لاستخراج المعادن. وعمروها بالأبنية المشيدة، والصناعات الفريدة أكثر مما عمرها أهل مكة، وفي الآية تهكم بأهل مكة من حيث إنهم مغترون بالدنيا، مفتخرون بها، وهم أضعف حالاً فيها، إذ مدار أمرها على السعة في البلاد، والتسلط على العباد، والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة، وهم ضعفاء ملجؤون إلى دار لا نفع فيها، ثم وقفوا عند ظاهر الحياة الدنيا لا يتجاوزونه إلى ما وراءه.

﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: وجاءتهم الرسل بالمعجزات الواضحات والآيات البينات، فكذبوهم، فما كان الله ليهلكهم ويعذبهم ظلماً لهم بغير جرم.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب، فاستحقوا الهلاك والدمار.

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي: ثم كان عاقبة المجرمين، العقوبة التي هي أسوأ العقوبات، وهي نار جهنم.

﴿أَن كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: لأجل أنهم كذبوا بآيات الله المنزلة على رسله، واستهزؤوا بها.

* ثم تناولت الآيات الحديث عن الساعة والقيامة، وعن المصير المشؤوم

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ
فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ
وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ١٨ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ
ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ
١٩ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ
تَنتَشِرُونَ ٢٠ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ
أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ
خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ٢٢ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم
بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٢٣ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ
خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ
بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٤

لأهل الكفر والضلال في ذلك اليوم العصيب، حيث يكون المؤمنون في روضات يحبرون، ويكون المجرمون في العذاب محضرين، وتلك نهاية المطاف للأبرار والفجار، والعاقبة للمحسنين والمجرمين، قال تعالى:

﴿١١﴾-﴿١٦﴾ ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ * وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ * وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ * وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي: الله ـ جل وعلا ـ وحده المتفرد بقدرته، ينشئ خلق الناس ثم يعيد خلقهم بعد موتهم، وهو تعالى المتفرد بإبداء المخلوقات، ثم إليه مرجع الخلق للحساب والجزاء، يوم القيامة، فيجازي كلاً بعمله، وابتداء بذكر أهل الشر، فقال:

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي: ويوم تقوم القيامة، ويحشر الناس للحساب، يسكت المجرمون وتنقطع حجتهم وييأسوا من النجاة من العذاب، فلا يستطيعون أن ينبسوا ببنت شفة. وأُبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته.

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ أي: ولم يكن للمشركين في ذلك اليوم من الأصنام التي عبدوها، شفعاء يشفعون لهم.

﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ أي: في ذلك الوقت، تبرؤوا منها وتبرأت منهم، فالشفاعة لله وحده، ولا تُطلب من غيره.

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ كرر لفظ قيام الساعة للتهويل والتخويف؛ لأن قيام الساعة أمر هائل، أي: ويوم تقوم القيامة يومئذ يتفرق المؤمنون والكافرون، ويصبحون فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، ولهذ قال:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ أي: فأما المؤمنون المتقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فهم في رياض الجنة، فيها سائر أنواع النبات، وأصناف المشتهيات، يسرون وينعمون، ويكرمون بها لذ وطاب.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ أي: وأما الذين جحدوا بالقرآن، وكذبوا بالبعث بعد الموت، فأولئك في عذاب جهنم مقيمون على الدوام، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتها، جزاء ما كذبوا به في الدنيا.

* ثم يأمر ﷻ ويحث المؤمنين على تسبيحه وتنزيهه، عن الشريك والصاحبة والولد، قال تعالى:

﴿١٧﴾-﴿١٩﴾ ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ * وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ * يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾.

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ أي: سبحوا الله ونزهوه عما لا يليق به من صفات النقص، حين تدخلون في المساء، وحين تدخلون في الصباح.

﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ أي: وهو ـ جل وعلا ـ المحمود في السموات

والأرض، يحمده أهل السموات وأهل الأرض ويصلون له، والعشي: من صلاة المغرب إلى العتمة، و﴿تُظْهِرُونَ﴾ أي: تدخلون وقت الظهر.

ثم بين من آثار قدرته خلق الأشياء المتقابلة، فقال:

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي: يخرج سبحانه المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: والنبات من الحب، والحب من النبات، والحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان.

﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: ويحيي الأرض بالنبات بعد يبسها وجفافها وجدبها.

﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي: بيّن تعالى كمال قدرته، فكما يخرج الله النبات من الأرض، ومثل هذا الإحياء كذلك يخرجكم من قبوركم للبعث يوم القيامة.

* لما ذكر تعالى أحوال الناس في الآخرة، وقدرته على البدء والإعادة، ذكر هنا الأدلة على الربوبية والوحدانية، في خلق البشر، واختلاف الألسنة والصور، وإحياء الأرض بالمطر، وفي قيام الناس ومنامهم، ثم ضرب الأمثال للمشركين في عبادتهم لغير الله مع أنه وحده الخالق الرازق، قال تعالى:

﴿٢٠﴾، ﴿٢١﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: ومن آياته الباهرة الدالة على عظمته وكمال قدرته، الدالة على البعث، أن خلق أصلكم آدم من تراب، وإنما أضاف الخلق إلى الناس ﴿خَلَقَكُم﴾ لأن آدم أصل البشر.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ أي: ثم أنتم تتطورون من نطفة إلى علقة، إلى مضغة، إلى بشر عقلاء، تتصرفون فيما هو قوام معايشكم، فسبحان من خلقهم وسيرهم، وسخرهم وصرفهم في فنون المعايش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: من آياته الدالة على عظمته، وكمال قدرته، ورحمته وعنايته بعباده؛ أن خلق لكم من صنفكم وجنسكم، نساءً آدميات مثلكم، تناسبكم وتناسبونهن، ولم يجعلهن من جنس آخر، ولو أنه تعالى جعل الإناث من جنس آخر، من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل النفرة، وذلك من تمام رحمته ببني آدم.

﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي: لتميلوا إليهن، وتألفوهن بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي: وجعل بين الأزواج والزوجات محبة وشفقة، وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر من غير رحم بينهما. قال ابن عباس: المودة: حب الرجل امرأته. والرحمة: شفقته عليها أن يصيبها بسوء.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن فيما ذكر لعبراً عظيمة، لقوم يتفكرون، ويتدبرون في قدرة الله وعظمته، فيدركون حكمته العلية.

* وتناولت السورة بعد ذلك بعض المشاهد الكونية، والدلائل الغيبية، الناطقة بقدرة الله ووحدانيته لإقامة البرهان على عظمة الواحد الديان، الذي تخضع له الرقاب، وتعنوا له الوجوه، وضربت بعض الأمثلة للتفريق والتمييز بين من يعبد الرحمن، وبين من يعبد الأوثان، قال تعالى:

﴿٢٢﴾، ﴿٢٣﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ أي: ومن آياته العظيمة الدالة على كمال قدرته خلق السموات في ارتفاعها بغير عمد واتساعها، وخلق الأرض في كثافتها وانخفاضها وامتدادها، واختلاف اللغات من عربية، وعجمية، وتركية، ورومية، واختلاف الألوان من أبيض وأسود وأحمر، حتى

لا يشتبه شخص بشخص، ولا إنسان بإنسان، مع أنهم جميعاً من ذرية آدم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ أي: إن في هذا لعبرة لكل ذي علم، ومدعاة إلى التفكر لمن عنده فهم وبصيرة.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: ومن آياته الدالة على كمال قدرته ورحمته بعباده، نومكم في ظلمة الليل، ووقت الظهيرة بالنهار راحة لأبدانكم، وذهاب التعب.

﴿وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: وجعل لكم النهار تنتشرون فيه لطلب الرزق والمعاش.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: أن في ذلك لدلائل على كمال قدرة الله، ونفوذ مشيئته لقوم يعون، ويسمعون الموعظة سماع تفهم وتفكر وتأمل.

وقد ربط القرآن بين النوم ﴿مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وبين السمع ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ فالحاسة الوحيدة التي تعمل أثناء النوم هي السمع . ولذا اختتمت آية النوم بالإشارة إلى ذلك ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

* وتستمر الآيات في ذكر بعض آيات الله ومخلوقاته الدالة على وحدانيته وتفرده بالخلق والرزق، قال تعالى:

﴿٢٤﴾، ﴿٢٥﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا
مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن
شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ
كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ
فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ
وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ
لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟
دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

٤٠٧

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: ومن آياته العظيمة الدالة على قدرته ووحدانيته، أن يريكم البرق خوفاً من الصواعق، وطمعاً في الغيث والمطر. قال قتادة: خوفاً للمسافر، وطمعاً للمقيم.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: وينزل المطر من السماء، فينبت به الأرض بعد أن كانت هامدة جامدة، لا نبات فيها ولا زرع، وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: إن في ذلك المذكور لدلالات على عموم إحسانه، وسعة علمه، وكمال إتقانه، وعظيم حكمته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها، وكل ذلك لعبر وعظات لقوم يتدبرون بعقولهم آلاء الله.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أي: ومن آياته الباهرة الدالة على عظمته، أن تستمسك السموات بقدرته بلا عمد، فلم تتزلزل ولم تسقط السماء على الأرض، وأن تثبت الأرض بتدبيره وحكمته فلا تتكفأ بسكانها ولا تنقلب بأهلها.

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي: ثم إذا دعيتم إلى الخروج من القبور، إذا أنتم فوراً تخرجون للجزاء والحساب، لا يتأخر خروجكم طرفة عين، وذلك حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية، ويقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين، إلا قامت تنظر.

* وبعد أن ساق تعالى بعضاً من آثار ربوبيته وخلقه، قرر وبين أن كل من في السموات والأرض ملكه وعبيده، قال تعالى:

﴿٢٦﴾، ﴿٢٧﴾ ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: وله وحده ـ جل وعلا ـ كل من في السموات والأرض من الملائكة، والإنس والجن، والحيوان، والنبات، والجماد، ملكاً وخلقاً وتصرفاً، لا يشاركه فيها أحد، جميعهم خاشعون، خاضعون، منقادون لأمره تعالى.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: وهو وحده تعالى ينشئ الخلق من العدم، ثم يعيدهم بعد موتهم للحساب والجزاء.

﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ أي: إعادة الخلق بعد الموت أهون عليه من بدء خلقهم، وكلاهما عليه هيّن، وأيسر، ولكنه إنما يخاطب الناس بحسب إدراكهم، ففي تقدير الناس أن بدء الخلق أصعب من إعادته. قال المفسرون: خاطب تعالى العباد بما يعقلون، فإذا كانت الإعادة أسهل من الابتداء في تقديركم وحكمكم، فإن من قدر على الإنشاء كان البعث أهون عليه حسب منطقكم وأصولكم. ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به يعتبر المعتبرون، ويتذكر المؤمنون ويتبصر المهتدون، وذكر الأمر العظيم، والمطلب الكبير، فقال:

﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أي: له الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يدانيه فيه من الجلال والكمال، والعظمة والسلطان.

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: يصفه به من فيهما، وهو أنه الذي ليس كمثله شيء.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ له العزة الكاملة، القاهر لكل شيء، الحكيم الذي كل أفعاله على مقتضى الحكمة والمصلحة.

* ثم ساق ـ جل وعلا ـ مثلاً ضربه، لقبح الشرك وتهجينه، وبطلان عبادتهم للأوثان مثلاً من أنفسكم، لا يحتاج إلى حل وترحال، وإعمال الجمال، فقال:

﴿٢٨﴾، ﴿٢٩﴾ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ * بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ﴾ أي: ضرب الله مثلاً لكم أيها المشركون، مثلاً واقعياً من أنفسكم.

﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي: هل يرضى أحدكم أن يكون عبده ومملوكه شركاً له في ماله الذي رزقه الله تعالى؟ فإذا لم يرض أحدكم لنفسه ذلك، فكيف ترضون لله شريكاً له وهو في الأصل مخلوق وعبدٌ لله؟

﴿فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ هذه من تتمة المثل، أي: لستم وعبيدكم سواء في أموالكم، ولستم تخافونهم كما تخافون الأحرار مثلكم، وأنتم لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم في أموالكم، فكيف رضيتم لله شريكاً في خلقه وملكه؟

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي: مثل ذلك البيان الواضح نبيّن الآيات، بتوضيحها بأمثلتها تفصيلاً واضحاً، وبياناً جلياً لقوم يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال، فلما لم ينزجروا، أضرب عنهم، فقال:

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ أي: ليس للمشركين حجة ولا معذرة في إشراكهم بالله، بل ذلك بمجرد هوى النفس، وتقليد آبائهم بغير علم ولا برهان، فقد قامت عليهم الحجة.

﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ لا أحد يستطيع أن يهدي من أراد الله إضلاله، وقد تمادى في الكفر والعناد؛ لأن الرشاد والهداية بتقدير الله وإرادته.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: ليس لهؤلاء الذين أضلهم الله، من يحولون بينهم وبين عذاب الله منقذ ولا ناصر، حين تحق عليهم كلمة العذاب.

* لما ذكر تعالى المشركين وإشراكهم مع الله، ساق آيات للنبي ﷺ ومن تبعه من المؤمنين، فقال:

﴿٣٠﴾-﴿٣٢﴾ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ **أي: أخلص دينك لله ـ يا محمد ـ أنت ومن اتبعك ـ وأقبل على الإسلام بهمة ونشاط، وخص الله إقامة الوجه؛ لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويترتب على الأمرين سعي البدن، ولهذا قال:**

﴿حَنِيفًا﴾ **أي: مقبلاً على الله في ذلك، معرضاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق، وهو الإسلام.**

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ **أي: هذا الدين الحق الذي أمرناك بالاستقامة عليه، هو خلقة الله التي خلق الناس عليها، وهو فطرة التوحيد كما في الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه...»** [رواه البخاري].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ **أي: لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها.**

﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **أي: ذلك الذي أمرنا به، هو الدين المستقيم الموصل إلى الله، ولكن أكثر الناس جهلة، لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالقاً معبوداً، فهم ناكبون عنه.**

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ **أي: أقيموا وجوهكم أيها الناس على الدين الحق حال كونكم منيبين إلى ربكم، راجعين إليه بالتوبة وإخلاص العمل له، وخافوه وراقبوه في أقوالكم وأفعالكم، وأقيموا الصلاة تامة بأركانها وواجباتها وشروطها على الوجه الذي يرضي الله.**

﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ **ولا تكونوا ممن أشرك بالله وعبد غيره، لكون الشرك مضاداً للإنابة، التي روحها الإخلاص من كل وجه. ثم ذكر حالة المشركين مهجناً لها، ومقبحاً، بقوله:**

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ **أي: ولا تكونوا من المشركين وأهل الأهواء الذين اختلفوا في دينهم وغيروه وبدلوه، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض فأصبحوا شيعاً وأحزاباً، فأخذوا بعضه وتركوه بعضه تبعاً لأهوائهم، كل يتعصب لدينه، وكل يعبد هواه. كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومذاهب باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء.**

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ **أي: كل جماعة وفرقة متمسكون بما أحدثوه، مسرورون بما هم عليه من الدين المعوج، يحسبون باطلهم حقاً.**

* **ثم قال تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الشدة والكربة والاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، وإذا أسبغ عليهم النعم وفرج عنهم الكروب، إذا هم من أخلصوا له العبادة يشركون معه غيره في الرخاء، قال تعالى:**

﴿٣٣﴾-﴿٣٧﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ * وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ **أي: وإذا أصاب الناس شدة وبلاء، وفقر ومرض، وغير ذلك من أنواع البلاء.**

﴿دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ **أي: أفردوه تعالى بالتضرع والدعاء لينجوا من ذلك الضر، وتركوا أصنامهم لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله تعالى، فلهم في ذلك الوقت إنابة وخضوع.**

﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ **ثم إذا أعطاهم السعة والرخاء والصحة، وخلصهم من ذلك الضر والشدة والكرب، إذا جماعة منهم يشركون بالله ويعبدون معه غيره، والغرض من الآية التشنيع على المشركين، فإنهم يدعون الله في الشدائد، ويشركون به في الرخاء.**

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم
مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ
ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ
سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا
ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ
حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ
وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا
لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن
زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن
شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ
أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

٤٠٨

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أمر على وجه التهديد، أي: ليكفروا بنعم الله، وليتمتعوا في هذه الدنيا، فسوف تعلمون أيها المشركون عاقبة تمتعكم بزينة الحياة ونعيمها الفاني.

ثم أنكر تعالى عليهم ووبخهم بقوله:

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ أي: هل أنزلنا على هؤلاء المشركين حجة واضحة قاهرة على شركهم، أو كتاباً من السماء فهو ينطق ويشهد بشركهم وبصحة ما هو عليه؟ ليس الأمر كما يتصورون، والمراد ليس لهم حجة بذلك، بل هي أهواء النفوس، ونزغات الشيطان.

ثم أخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس في حالي الرخاء والشدة، منكراً عليهم إلا من عصمه الله ووفقه، فقال:

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ وإذا أنعمنا على الناس بالخصب والسعة والعافية والرخاء، استبشروا، وسروا بها، وهو فرح بطر، لا فرح شكر وحمد.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ وإن أصابهم حال تسوؤهم، وبلاء وعقوبة بسبب معاصيهم وذنوبهم، إذا هم ييأسون من الرحمة والفرج، وهذا جهل منهم وعدم معرفة وهذا بخلاف وصف المؤمن فإنه يشكر عند النعمة، ويرجو ربه عند الشدة، قال ابن كثير: وهذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله، إذا أصابته نعمة بطر، وإذا أصابته شدة قنط وأيس.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: أولم يعلموا قدرة الله في البسط والقبض، وأنه تعالى يوسع الخير في الدنيا لمن يشاء ويضيق على من يشاء، فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط من رحمته تعالى.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن في ذلك التوسيع والتضييق لدلالة واضحة على قدرة الله، لقوم يصدقون بحكمة الخالق الرازق، ويعرفون بذلك حكمة الله ورحمته وجوده، وجذب القلوب لسؤاله في جميع مطالب الرزق.

* ولما ذكر رزقه وفضله وما ساق من النعم؛ ذكر الصدقة والعطاء والبذل ابتغاء مرضاة الله، قال تعالى:

﴿٣٨﴾-﴿٤٠﴾ ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ * ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أي: فأعط القريب منك ـ على حسب قربه وحاجته ـ حقه الذي أوجبه الشارع، أو حض عليه من البر والصلة، وقد أمر بإيتاء ذي القربى لقرب رحمه، وخير الصدقة ما كان على القريب وفيها صلة الرحم. ولما تقدم أنه سبحانه يبسط الرزق ويقدر، أمر من وسع عليه الرزق أن يعطي الفقير كفايته، ليمتحن شكر الغني، والخطاب للنبي ﷺ والمراد هو وأمته.

﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ وكذلك أعط المسكين الذي أسكنه الفقر والحاجة، أعطه ما تزيل به حاجته وتدفع به ضرورته من إطعامه وسقيه وكسوته.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ واعط المسافر الغريب المنقطع به في غير بلده، الذي في

مظنة شدة الحاجة؛ لأنه لا مال معه، ولا كسب، أعطه من الصدقة والإحسان.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: ذلك الإيتاء والإحسان خير للذين يبتغون بعملهم وجه الله ويريدون ثوابه؛ لأنه من أفضل الأعمال، والنفع المتعدي الذي وافق محله المقرون به الإخلاص.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: وأولئك الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله، هم الفائزون بالدرجات العالية، الناجون من عقابه.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: وما أعطيتم من أموالكم يا معشر الأغنياء على وجه الربا ليزيد مالكم ويكثر به، فلا يزيد ولا يزكو ولا يضاعف عند الله؛ لأنه كسب خبيث لا يبارك الله فيه، بل يمحقه ويبطله.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: وما أعطيتم من صدقة، أو إحسان خالصاً لوجه الله الكريم.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي: فأولئك هم الذين لهم الضعف من الأجر والثواب، الذين تضاعف لهم الحسنات، فيعطون بالحسنة عشر أمثالها أو تزيد. ثم نبه العباد على أنه الرازق الوهاب، فقال:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ يخبر - جل وعلا - أنه وحده الخالق الرازق للعباد، يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر، ثم يرزقه بعد ذلك المال والمتاع والأملاك.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ثم يميتكم بانتهاء آجالكم في هذه الحياة، ثم يحييكم ويبعثكم يوم القيامة من القبور، ليجازيكم على أعمالكم.

﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ هل يستطيع أحد ممن تعبدونهم من دون الله أن يفعل شيئاً من ذلك. بل الله تعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة. وفي ذلك دعوة إلى التفكر في وحدانية الله ﷻ وأنه المستحق للعبادة وحده.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه - جل وعلا - وتقدس عن أن يكون له شريك أو مثيل، أو ولد أو والد، - وتعالى عما يقول المشركون علواً كبيراً -.

* لما شنَّع على المشركين في عبادتهم لغير الله، ذكر في هذه الآيات الأسباب الموجبة للمحنة والابتلاء، وهي الكفر، وانتشار المعاصي، وكثرة الفجور والموبقات، التي بسببها تقل الخيرات وترتفع البركات، وضرب الأمثال بهلاك الأمم السابقة، تنبيهاً لقريش وأمراً لهم بالاعتبار بمن سبقهم من المشركين المكذبين كيف أهلكهم الله بسبب طغيانهم وإجرامهم، إذ لم تنفعهم الآيات والنذر ومهما رأوا من الآيات الباهرة، والبراهين الساطعة، لا يعتبرون ولا يتعظون؛ لأنهم كالموتى لا يسمعون ولا يبصرون، وكل ذلك بقصد التسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين، والصبر حتى يأتي النصر، قال تعالى:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ۝٤٢﴾.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: استعلن الفساد وظهرت البلايا كالجدب وقلة الأمطار، وكثرة الأمراض والأوبئة، والنكبات في بر الأرض وبحرها بسبب معاصي الناس وذنوبهم، وقيل المراد بالفساد الجدب وكثرة الحرق والغرق، ومحق البركات، وكثرة المظالم بشؤم معاصي الناس؛ أو بكسبهم إياه، وكذلك النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة.

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: ليصيبهم وبال وعقوبة بعض أعمالهم في الدنيا، قبل أن يعاقبهم بها جميعاً في الآخرة، فعجل لهم نموذجاً من جزاء أعمالهم في الدنيا، لعلهم يتوبون ويرجعون عما هم عليه من المعاصي والآثام، فتصلح أحوالهم وتستقيم أمورهم.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أي: قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين سيروا في

قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُۚ
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن
قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن
كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾
لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم
مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ
فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ
﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ
إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

٤٠٩

البلاد بقلوبكم وأبدانكم سير اعتبار وتأمل، فانظروا إلى مساكن الذين ظلموا كيف كان آخر أمرهم وعاقبة تكذيبهم للرسل، كقوم نوح، وعاد وثمود، ألم يخرب الله ديارهم ويجعلهم عبرة لمن يعتبر، حيث كانوا كافرين بالله فأهلكوا وعذبوا.

*** ثم تأتي التوجيهات الربانية آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته، والمبادرة إلى الخيرات، قال تعالى:**

﴿٤٣﴾-﴿٤٥﴾ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ * مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ **أي: فأقبل بوجهك، وتوجه بقلبك، واسع ببدنك، وتوجه بكليتك إلى الدين المستقيم دين الإسلام، واستقم عليه في حياتك، منفذاً أوامره، مجتنباً نواهيه، واستمسك به.**

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ **من قبل أن يأتي هو يوم القيامة، ذلك اليوم الرهيب، الذي لا يقدر أحد على رده، لأن الله قضى به.**

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ **أي: يومئذ يتفرقون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتاً متفاوتين ليروا أعمالهم، فريق في الجنة، وفريق في السعير.**

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ **أي: من كفر منهم بالله وجحد رسالته، فعليه أوزار كفره، مع خلوده في النار المؤبدة.**

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ **ومن فعل خيراً وأطاع الله فلأنفسهم يقدمون الخير، ويلقون ماتقر به أعينهم في دار النعيم، فهم يوطئون ويهيئون لأنفسهم في الآخرة فراشاً ومسكناً وقراراً بالعمل الصالح. ومهدت الفراش أي بسطته ووطأته.**

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ **أي: ليجزيهم الله الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات من فضله الذي وعد به عباده المتقين، وهذا بخلاف الكافرين فإن الله لما أبغضهم ومقتهم عاقبهم وعذبهم، فلهذا قال:**

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ **أي: لا يحب الكافرين بل يمقتهم ويبغضهم، يجازي المؤمنين بفضله، والكافرين بعدله.**

*** ثم ذكر ﷻ جملة من الآيات والأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى، وأنه الإله المعبود، والملك المحمود، قال تعالى:**

﴿٤٦﴾، ﴿٤٧﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ **أي: ومن آياته الدالة على وحدانيته، وكمال قدرته أن يرسل الرياح تسوق السحاب، مبشرة بنزول المطر والإنبات والرزق، فتستبشر بذلك النفوس وتسر وتفرح بتلك النعمة العظيمة.**

﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ **أي: ولينزل عليكم من رحمته الغيث الذي يحيي به الله البلاد والعباد.**

﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ **أي: ولتسير**

السفن في البحر عند هبوب الرياح بإذنه وإرادته، ولتطلبوا الرزق بالتجارة وغيرها في البحر.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ولتشكروا من سخر لكم الأسباب، وسير لكم الأمور، ولتعلموا نعم الله الجليلة عليكم، رجاء أن تشكروا له نعمه بتوحيده وطاعته فهذا المقصود من النعم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ هذه تسلية للرسول وتأنيس له بقرب النصر، أي: ولقد أرسلنا من قبلك ـ يا محمد ـ رسلاً كثيرين إلى قومهم المكذبين، مبشرين ومنذرين، يدعون إلى التوحيد والإخلاص، وبطلان ما هم عليه من الكفر كما أرسلناك رسولاً إلى قومك.

﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: جاؤوهم بالمعجزات الواضحات، والحجج البينات الدالة على صدقهم، فلم يؤمنوا، ولم يزولوا عن غيهم، فكفر أكثرهم بربهم.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أي: فانتقمنا من الكفرة المجرمين، فأهلكناهم ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كان حقاً واجباً علينا أن ننصر المؤمنين على الكافرين إن استمروا على تكذيبك ولم يؤمنوا، وهو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكرماً وتفضلاً، والآية اعتراضية جاءت بين الآيات المفصلة لأحكام الرياح تسلية للنبي ﷺ، ووعداً له بالنصر، ووعيداً لأهل الكفر.

* ثم ذكر تعالى الحكمة من هبوب الرياح، وهي إثارة السحب وإخراج الماء منه، فقال:

(٤٨)-(٥١) ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي: هو سبحانه الذي يبعث الرياح من الأرض فتحرك السحاب وتسوقه أمامها.

﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فينشره تعالى ويمده، ويوسعه في أعالي الجو كيف يشاء، خفيفاً أو كثيفاً، مطبقاً أو غير مطبق.

﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ ويجعله أحياناً قطعاً متفرقة.

﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ فترى المطر يخرج من بين السحاب نقطاً صغاراً متفرقة، لا تنزل جميعاً، فتفسد ما أتت عليه.

﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: فإذا أنزل ذلك الغيث على من يشاء من خلقه، إذا هم يسرون ويفرحون بالمطر، ويبشر بعضهم بعضاً بنزوله، وذلك لشدة حاجتهم وضرورتهم إليه، فلهذا قال:

﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: وإن كانوا قبل نزول المطر عليهم يائسين قانطين، بسبب احتباسه عنهم، والتكرير للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم.

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: فانظر أيها العاقل نظر تدبر وتأمل واستبصار إلى ما ينشأ عن آثار نعمة الله بالمطر وحسن تأثيره في الأرض من خضرة الأشجار، وتفتح الأزهار، وكثرة الثمار، وكيف أن الله يجعل الأرض تنبت بعد أن كانت هامدة جامدة؟

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أي: إن ذلك القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: مبالغ في القدرة على جميع الأشياء، لا يعجزه شيء.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: ولئن أرسلنا على زرعهم ونباتهم بعد خضرته ونموه ريحاً ضارة مفسدة، فرأوا الزرع مصفراً من أثر تلك الريح.

﴿لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: لمكثوا بعد اصفراره يجحدون ويكفرون بالله ونعمته، فشأنهم أنهم

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ
﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟
مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا
مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم
مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ
قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ
﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ
سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ
فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ
لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ
وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

٤١٠

يفرحون عند الخصب، فإذا جاءتهم مصيبة في زرعهم جحدوا سابق نعمة الله عليهم.

* ثم نبه تعالى إلى أن هؤلاء الكفار كالأموات، لا ينفع معهم نصح ولا تذكير، فقال:

﴿٥٢﴾،﴿٥٣﴾ ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أي: فإنك ـ يا محمد ـ لا تسمع من مات قلبه، أو سد أذنه عن سماع الحق، ولا تسمع من كان في أذنيه صمم تلك المواعظ المؤثرة، ولو أن أصمَّ ولى عنك مدبراً ثم ناديته لم يسمع، فكذلك الكافر لا يسمع، ولا ينتفع بما يسمع. قال المفسرون: هذا مثل ضربه الله للكفار، فشبههم بالموتى وبالصم والعمى.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي: ولست بمرشد من أعماه الله عن الهدى، فلا تجزع ولا تحزن على عدم إيمان هؤلاء المشركين بك.

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: ما تسمع إلا من يصدق بآياتنا، فهم الذين ينتفعون بالموعظة لخضوعهم وانقيادهم لطاعة الله.

* ثم يخبر تعالى عن سعة علمه، وعظيم اقتداره، وكمال حكمته، وينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال، قال تعالى:

﴿٥٤﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي: الله الذي خلقكم أيها الناس من أصل ضعيف هو النطفة، وجعلكم تتقلبون في أطوار: الجنين، الوليد، الرضيع، المفطوم، وهي أحوال في غاية الضعف، فصار كأن الضعف مادة خلقتكم.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ أي: ما زال الله يزيد في قوته شيئاً فشيئاً حتى بلغ سن الشباب، واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلى الضعف والشيبة، قال تعالى:

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ أي: ثم جعل من بعد قوة الشباب، ضعف الهرم والشيخوخة.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: يخلق ما يشاء من ضعف وقوة، وشباب وشيب، بحسب حكمته. ومن حكمته أن يرى العبد ضعفه، وأن قوته محفوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له، لما وصل إلى قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة لطغى وبغى وعتا.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ أي: وهو العليم بتدبير الخلق، القدير على كل شيء، وجعل الخلق من ضعف، لكثرة ضعف الإنسان أول نشأته وطفولته، ثم حال الشيخوخة والهرم، والتردد في هذه الهيئات شاهد بقدرة الصانع وعلمه.

* ثم أخبر تعالى عن يوم القيامة، وسرعة مجيئه، وجهل الكفار في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿٥٥﴾-﴿٥٧﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أي: ويوم تجيء القيامة ويبعث الناس من قبورهم للحساب، يحلف الكافرون المجرمون بأنهم ما مكثوا في الدنيا غير ساعة، اعتذاراً منهم، لعله ينفعهم العذر، واستقصار مدة لبثهم في الدنيا بالنسبة إلى مدة عذابهم في الآخرة أو نسياناً منهم.

﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كذلك كانوا في الدنيا يصرفون من الحق إلى الباطل، ومن الصدق إلى الكذب.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أي: وقال العقلاء من أهل الإيمان والعلم، ردّاً عليهم وتكذيباً لهم: لقد مكثتم فيما كتبه الله في سابق علمه إلى يوم البعث الموعود، فعمرتم عمراً يتذكر فيه المتذكر ويتدبر فيه المتدبر، ويعتبر فيه المعتبر، حتى صار البعث ووصلتم إلى هذه الحال.

﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه، ولكنكم لم تصدقوا به لتفريطكم في طلب الحق واتباعه، قال تعالى:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ففي يوم القيامة لا ينفع الظالمين اعتذارهم، ولا يقال لهم ارضوا ربكم بتوبة أو طاعة؛ لأنه قد ذهب أوان التوبة، بل يعاقبون بسيئاتهم ومعاصيهم.

* ثم يقول ﷻ للناس: لقد بينا الحق ووضحناه، وضربنا الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه، قال تعالى:

﴿٥٨﴾-﴿٦٠﴾ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ * كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: ولأجل عنايتنا ورحمتنا، ولطفنا وحسن تعليمنا، بيَّنَّا في هذا القرآن العظيم ما يحتاج الناس إليه من المواعظ والأمثال، والأخبار والعبر، مما يوضح الحق، ويزيل اللبس، ويقيم الحجة عليهم.

﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: ووالله لئن جئتهم - يا محمد - بما اقترحوا من الآيات: كالعصا، والناقة، واليد، التي تدل على صدقك، ليقولن المشركون من قومك لفرط عنادهم ما أنت وأصحابك إلا قوم مبطلون، تدجلون علينا وتكذبون.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع على قلوب الجهلة المجرمين، يختم الله على قلوب الكفرة الذين لا يعلمون توحيد الله ولا صفاته، فلا يدخلها خير، ولا تدرك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحق باطلاً، والباطل حقّاً.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فاصبر - يا محمد - على أذى قومك وتكذيبهم لك وعداوتهم واستمر على ما أمرت به، وعلى دعوتهم، ولو رأيت منهم إعراضاً، فلا يصدنك ذلك، فإن وعد الله بنصرتك، وإظهار دينك حق لابد من إنجازه وهذا مما يعين على الصبر، فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع، بل سيجده كاملاً، هان عليه ما يلقاه من المكاره، ويسر عليه كل عسير، واستقل من عمله كل كثير.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: لا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً مما يقول أولئك الضالون الشاكون، ولا تترك الصبر بسبب تكذيبهم وإيذائهم، وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل، يسهل عليه الصبر، وكل ضعيف اليقين، ضعيف العقل خفيفه.

تم تفسير سورة الروم
والحمد لله

تفسير سورة لقمان
وهي مكية

* هذه السورة الكريمة، من السور المكية، التي تعالج موضوع العقيدة، تعنى بالتركيز على الأصول الثلاثة لعقيدة الإيمان وهي: الوحدانية، والنبوة، والبعث والنشور، كما هو الحال في السور المكية.

ابتدأت السورة الكريمة بذكر الكتاب الحكيم، معجزة محمد الخالدة، الباقية الدائمة على مدى الزمان، وأن الله ﷻ جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين، وأقامت الحجج والبراهين على وحدانية رب العالمين، وذكرت دلائل القدرة الباهرة، والإبداع العجيب، في هذا الكون الفسيح، المحكم النظام

سُورَةُ لُقْمَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ٢ هُدًى وَرَحْمَةً
لِّلْمُحْسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم
بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا
كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٩ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ
بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا
فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا
خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ١١

المتناسق في التكوين، في سمائه وأرضه، وشمسه وقمره، ونهاره وليله، وفي جباله وبحاره، وأمواجه وأمطاره، ونباته وأشجاره، وفي سائر ما يشاهد المرء من دلائل القدرة والوحدانية، مما يأخذ بالقلب، ويبهر العقل، ويواجه الإنسان مواجهة جاهرة لا يملك معها إلا التسليم بقدرة الخالق العظيم.

وسميت «سورة لقمان»؛ لاشتمالها على قصة لقمان الحكيم ووصاياه التي تضمنت فضيلة الحكمة، وسر معرفة الله تعالى وصفاته، وذم الشرك، والأمر بمكارم الأخلاق، والنهي عن القبائح والمنكرات، وما تضمنته كذلك من الوصايا الثمينة التي أنطقه الله بها، وكانت من الحكمة والرشاد بمكان، قال تعالى:

١-٥ ﴿الٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿الٓمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وللإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز الذي أفحم العلماء والأدباء والفصحاء والبلغاء منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية «ألف، لام، ميم» وهي في متناول أيدي الناطقين بالعربية، وهم عاجزون أن يؤلفوا منها كتاباً مثل هذا الكتاب بعد التحدي والإفحام، وهذا من أظهر الدلائل وأوضح البراهين على أنه تنزيل الحكيم العليم.

وهناك ست سور في القرآن بدأت بـ ﴿الٓمٓ﴾ وهي: البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب البديع، الذي فاق كل كتاب في بيانه وتشريعه، وأحكامه.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: ذي الحكمة البالغة، والعجائب الرائقة، الناطق بالحكمة والبيان، والإشارة بالبعيد عن القريب، للإيذان ببعد منزله في الفضل والشرف.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هذه الآيات هداية ورحمة للمحسنين، الذين أحسنوا العمل في الدنيا، بما أنزل في هذا القرآن، وما جاءهم به رسوله ﷺ، وإنما خصوا بالذكر؛ لأنهم هم المنتفعون بما فيه. ثم وضح تعالى صفاتهم، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يؤدونها في أوقاتها، على الوجه الأكمل بأركانها وخشوعها وآدابها، ويدفعون الزكاة إلى مستحقيها طيبة بها نفوسهم، ابتغاء مرضاة الله.

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: يصدقون بالبعث والجزاء في الآخرة، ويعتقدون بها اعتقاداً جازماً لا يخالطه شك ولا ارتياب، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك لم يراؤوا به، ولا أرادوا جزاءً من الناس ولا شكوراً، وكرّر الضمير «هم»؛ للتأكيد وإفادة الحصر.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة، على نور وبصيرة، ومنهج واضح سديد، من الله العزيز الحميد.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم الفائزون السعداء في الدنيا والآخرة، وكرر الإشارة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ تنبيهاً على عظم قدرهم وفضلهم.

* ولما ذكر السعداء المهتدين بالقرآن، المقبلين عليه، المنتفعين بسماعه، ذكر من أعرض عنه ولم يرفع به رأساً، وأنه عوقب على ذلك، بأن تعوض عنه كل باطل من القول، فترك أعلى الأقوال، وأحسن الحديث، واستبدل به أسفل قول وأقبحه، أعرض عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبل على استماع الغناء والمزامير، فلذلك قال سبحانه:

﴿٦﴾،﴿٧﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: ومن الناس من هو مخذول محروم، يشتري ما يلهي عن طاعة الله، ويصد عن سبيله ومرضاته، مما لا خير ولا فائدة فيه. واللهو كل باطل ألهى عن الخير، نحو السمر بالأساطير، والتحدث بالخرافات المضحكة، وفضول الكلام وما لا ينبغي، وسُئل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن الآية، فقال: والله الذي لا إله إلا هو - يكررها ثلاثاً - إنما هو الغناء. وقال الحسن البصري: نزلت هذه الآية في الغناء والمزامير. وروي أن النضر بن الحارث كان يشتري المغنيات، فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته المغنية فيقول لها: أطعميه، واسقيه الخمر، وغنيه، ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد، من الصلاة والصيام، وأن تقاتل بين يديه، فأنزل الله هذه الآية.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: فهذا الصنف من الناس، يشتري لهو الحديث عن هدي الحديث، ليصد ويصرف الناس عن طريق الهدى إلى طريق الهوى، ويبعدهم عن دينه القويم، بغير حجة ولا برهان، ولا يتم له هذا حتى يقدح في الهدى والحق، جاهلاً بما عليه من الوزر به.

﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي: ويتخذ آيات الكتاب المجيد سخرية واستهزاءً، وهذا أدخل في القبح، وأعرق في الضلال.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: لهم عذاب شديد مع الذلة والهوان، بما ضلوا وأضلوا، واستهزؤا بآيات الله، وكذبوا الحق الواضح، ولهذا قال:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا قرئت عليه آيات القرآن ليؤمن بها وينقاد لها.

﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: أعرض وأدبر متكبراً عنها، كأنه لم يسمعها، شأن المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام، مستكبراً عنها، راداً لها ولم تدخل قلبه ولا أثرت فيه، بل أدبر عنها.

﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ كأن في أذنيه ثقلاً وصمماً لا تصل إليه الأصوات، فهذا لا حيلة في هدايته، ومن كانت هذه حاله:

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: بشره - يا محمد - ببشارة تؤثر في قلبه الحزن والغم، وفي بشرته السوء والظلمة والغبرة، وأنذره - يا محمد - بعذاب مؤلم، مفرط في الشدة والإيلام مؤلم لقلبه ولبدنه، ووضع البشارة مكان الإنذار تهكم وسخرية، وتضمنت هذه الآية ذم المشتري من وجوه: التولية عن الحكمة، ثم الاستكبار عن الحق، ثم عدم الالتفات إلى سماع الآيات، ثم الإيغال في الإعراض مشبهاً حال من لم يسمعها، لكونه لا يلقي لها بالاً ولا يلتفت إليها، ثم التهكم به بالبشارة بأشد العذاب.

* ثم لما بين تعالى حال من يعرض عن الآيات، بين حال من يقبل عليها، وفيها بشارة أهل الخير والطاعة والإنابة، فقال:

﴿٨﴾،﴿٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ * خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وبين صدق النية وإخلاص العمل، لهم على إيمانهم واستقامتهم على شريعة الله جنات الخلد يتنعمون فيها بأنواع الملاذ، من المآكل والمشارب والملابس، والنساء والحور العين، وسائر ما أكرمهم الله به من الفضل والإنعام، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ أي: دائمين في جنات النعيم، نعيم القلب، والروح والبدن، لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حولاً، وعداً من الله قاطعاً، كائناً لا محالة، لا خلف فيه؛ لأن الله لا يخلف الميعاد؛ لأنه المنان الفعال لما يشاء، القادر على كل شيء.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: هو تعالى العزيز الذي لا يغلبه شيء ليمنعه عن إنجاز وعده، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

* ثم نبه تعالى إلى دلائل قدرته، وآثار عظمته وجلاله، وعدد بعضاً من آثار قدرته، وبدائع من بدائع حكمته، ونعماً من آثار رحمته، لإقامة البراهين على وحدانيته، فقال:

﴿١٠﴾، ﴿١١﴾ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي: خلق السموات السبع في سعتها وعظمتها وإحكامها بغير عمد ودعائم ترتكز عليها، كما تشاهدونها كذلك واقفة من غير أن تستند على شيء، وإنما استقرت واستمسكت بقدرة الله العليّ الكبير.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: جعل فيها جبالاً ثوابت لئلّا تتحرك وتضطرب بكم، فتهلككم بأن تقلبكم عن ظهرها، أو تهدم بيوتكم بتزلزلها.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: ونشر وفرق في أرجاء الأرض من كل أنواع الحيوانات والدواب، من مأكول ومركوب، مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها، وجعلها مسخرة لبني آدم، ولمصالحهم ومنافعهم، ولما بثها في الأرض، علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: وأنزلنا لحفظكم وحفظ دوابكم المطر من السحاب.

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ فأنبتنا في الأرض من كل نوع من النبات، ومن كل صنف من الأغذية والأدوية.

﴿كَرِيمٍ﴾ أي: كثير المنافع، بديع الخلق والتكوين، فرتعت فيه الدواب المنبثة، وسكن إليه كل حيوان.

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: وكل هذا الذي تشاهدونه وتعاينونه أيها المشركون هو من مخلوقات الله، وحده لا شريك له، فانظروا في السموات والأرض، والإنسان، والنبات، والحيوان، وسائر ما خلق الله ثم تفكروا في آثار قدرته، وبديع صنعته.

﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: ثم أخبروني، أيُّ شيء خلقته آلهتكم التي عبدتموها من دون الله من الأوثان والأصنام؟ وهو سؤال على جهة التهكم والسخرية بهم وبآلهتهم المزعومة، ثم أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال الواضح، فقال:

﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بل المشركون في جهل وعمى، وخسران ظاهر، وضلال واضح ما بعده ضلال؛ لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها، وعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، فهو أضل من الحيوان الأعجم؛ لأن من عبد صنماً جامداً، وترك خالقاً عظيماً مدبراً، يكون أحط شأناً من الحيوان.

* لما لفت أنظار المشركين إلى دلائل القدرة والوحدانية منبثة في هذا الكون البديع، وهزت كيانهم هزّاً، بين تعالى فساد اعتقاد المشركين، بسبب عنادهم، وإشراكهم من لا يخلق شيئاً بمن هو خالق كل شيء، وذكر هنا وصايا لقمان الحكيم، وهي وصايا ثمينة في غاية الحكمة والدعوة إلى طريق الرشاد، وقد جاءت هذه الوصايا مبدوءة بالتحذير من الشرك الذي هو أقبح الذنوب، وأعظم الجرائم عند الله، قال تعالى:

﴿١٢﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ يخبر تعالى عن امتنانه على عبده لقمان، بأن أعطاه الحكمة وهي الفقه في الدين، والإصابة في القول، والسداد في الرأي، والنطق بما يوافق الحق، ولما أسبغ الله ﷻ عليه هذه النعم أمره بالشكر فقال:

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي: وقلنا له: أشكر الله على إنعامه وإفضاله عليك، حيث خصك بالحكمة وجعلها على لسانك، قال المفسرون: والصحيح الذي عليه الجمهور أن لقمان كان حكيماً ولم يكن نبياً.

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ ومن يشكر ربه فثواب شكره راجع لنفسه، وفائدته إنما تعود عليه، إذ به تستبقى النعمة، وبسببه يستجلب المزيد لها؛ لأن الله تعالى لا ينفعه شكر من شكر، ولا يضره كفر من كفر، ولهذا قال بعده:

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: ومن جحد نعمة الله وجعل الكفر مكان الشكر، فإنما أساء إلى نفسه؛ لأن الله مستغن عن العباد، غني عن شكرهم، محمود على كل حال، مستحق للحمد لذاته وصفاته، وهو سبحانه غير محتاج إلى شكر حتى يتضرَّر بكفر الكافر، فهو في نفسه محمود، سواء شكره الناس، أم لم يشكروه.

* ثم ذكر تعالى بعض نصائح لقمان لابنه الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف، وبدأ بالتحذير له من الشرك، الذي هو نهاية القبح والشناعة، فقال:

﴿١٣﴾-﴿١٥﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ * وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الجُزْءُ الحَادِي وَالعِشْرُونَ سُورَةُ لُقْمَانَ

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ
لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ
وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ
إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ
وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ
خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ
بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ
مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ
مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ
وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

٤١٢

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي: واذكر -يا محمد- لقومك موعظة لقمان الحكيم لولده، حين قال له واعظاً وناصحاً ومرشداً بكلمة فيها تحبب ورفق وتلطف: يا بني كن عاقلاً ولا تشرك بالله أحداً، بشراً أو صنماً أو ولداً وبدأ بالتحذير من الشرك لأنه أهم من غيره، ثم بين له السبب في ذلك، فقال:

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي: إن الشرك لأعظم الكبائر وأبشعها، وهو ظلم صارخ؛ لأنه وضع للشيء في غير موضعه، فمن سوى بين الخالق والمخلوق، وبين الإله والصنم فهو -بلا شك- أحمق الناس، وأبعدهم عن منطق العقل والحكمة، وحري به أن يوصف بالظلم ويجعل في عداد البهائم، فهل أعظم من هذا الظلم شيء.

ولما أمر تعالى بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين، فقال:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي: عهدنا إليه، وأمرناه بالإحسان إليهما لا سيما الوالدة، ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقال:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: حملته مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين كان جنيناً في بطنها، وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف، ومشقة على مشقة، من حين الحمل إلى حين الولادة؛ لأن الحمل كلما ازداد وعظم، ازدادت به ثقلاً وضعفاً، ثم وجع الولادة وكرباتها.

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي: وفطامه في تمام عامين وهو ملازم لحضانة أمه وكفالتها ورضاعتها وعنايتها.

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ هو تفسير لوصينا، أي: وقلنا له: اشكر ربك على نعمة الإيمان والإحسان، بالقيام بعبوديتي وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي، واشكر والديك على نعمة التربية بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما، وإكرامهما، وإجلالهما، والقيام

بمؤونتهـا، فوصيناه بهـذه الوصية، وأخبرناه أن:

﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك وكلفك بهذه الحقوق، إلى الله المرجع والمآب، فيجازى المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته. قال سفيان بن عيينة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: وإن بذلا جهدهمـا، وأقصى ما في وسعهما، ـ أيها الولد المؤمن ـ ليحملاك على الكفر والإشراك بالله فلا تطعهما؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإن هذا ليس من الإحسان إليهما؛ لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، فلاتطعهما بالشرك، وأما برهما فاستمر عليه.

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: وصاحبهما في الحياة الدنيا بالمعروف، وبالخلق الجميل، والحلم والبر والصلة، والإحسان إليهما فيما لا إثم فيه ـ ولو كانا مشركين ـ؛ لأن كفرهما بالله لا يستدعي نسيان الإحسان والمتاعب التي تحملاها في تربية الولد، ولا التنكر بالجميل.

والتعبير بهذه اللفظة ﴿وَصَاحِبْهُمَا﴾ من ألطف ما يكون في الحث على بر الوالدين؛ ذلك أن الصحبة في هذه الآية تقتضي الملازمة، ومن شأن الملازمة الدوام على تقلب الأحوال؛ فالصحبة الطويلة يعتريها الملل، والفتور؛ فإذا استحضر الولد هذا الإرشاد الإلهي علم أن لوالديه حقًّا عظيماً، فيلزم صحبتهما بالمعروف

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ أي: واسلك طريق المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسوله. من رجع إلى الله بالتوحيد والطاعة والعمل الصالح، واتباع سبيلهم، أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلى الله، التي هي انجذاب دواعي القلب وإرادته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن، فيما يرضي الله ويقرب منه.

﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: مرجع الخلق، الطائع والعاصي، والمنيب وغيره إلى الله، فيجازيهم على أعمالهم، فلا يخفى على الله منهم خافية، والحكمة من ذكر الوصية بالوالدين ـ ضمن وصايا لقمان ـ تأكيد ما أفادته الآية الأولى من تقبيح أمر الشرك ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فكأنه تعالى يقول: مع أننا وصينا الإنسان بوالديه، وأمرناه بالإحسان إليهما والعطف عليهما، وألزمناه طاعتهما بسبب حقهما العظيم عليه، مع كل هذا فقد نهيناه عن طاعتهما في حالة الشرك والعصيان؛ لأن الإشراك بالله من أعظم الذنوب، وهو في نهاية القبح والشناعة.

* ثم عاد السياق إلى وصايا لقمان ليمتثلها الناس ويقتدوا بها، فقال تعالى:

(١٦)-(١٩) ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: يا ولدي إن الخطيئة والمعصية مهما كانت صغيرة حتى ولو كانت وزن حبة الخردل في الصغر، وهي أصغر الأشياء وأحقرها.

﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي: فتكن تلك السيئة ـ مع كونها في أقصى غايات الصغر ـ في أخفى مكان وأحرزه، كجوف الصخرة الصماء، أو في أعلى مكان في السماء أو في الأرض، يُحضرها الله سبحانه، ويحاسب عليها لسعة علمه، وتمام خبرته، وكمال قدرته، والغرض التمثيل بأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: هو سبحانه لطيف بالعباد خبير لا تخفى

عليه الأشياء، عالم ببواطن الأمور، وخفايا القفار والبحار، والمقصود من هذا؛ الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح قلَّ أو كثر.

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: حافظ على الصلاة تامة في أوقاتها، وبخشوعها وآدابها؛ لأنها أكبر العبادات البدنية، ولهذا حث عليها وخصها.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: وأمر الناس بكل خير وفضيلة، وانههم عن كل شر ورذيلة، بلطف ولين وحكمه، بحسب جهدك وطاقتك، وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه، والأمر بهما لا يتم الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق، والصبر، وقد صرح به في قوله:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ أي: اصبر على المحن والبلايا؛ لأن الداعي إلى الحق معرض أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر، قيل: لما نهاه أولاً عن الشرك، وأخبره ثانياً بعلمه تعالى وباهر قدرته، أمره بما يتوسل به إلى الله من الطاعات، فبدأ بأشرفها وهي الصلاة، ثم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بالصبر على ما يصيبه من المحن بسبب الأمر بالمعروف، فكثيراً ما يؤذى فاعل ذلك.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: إن ذلك المذكور من الوصايا التي أمر الله بها، لا يوفق لها إلا أهل العزائم، فإن من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تمل وتعبس بوجهك عن الناس، تكبراً واحتقاراً وتعاظماً عليهم، وإعجاباً بنفسك؛ وتحقيراً لهم.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: لا تمش بين الناس متبختراً متكبراً بطراً، فخراً بالنعم، ناسياً المنعم، معجباً بنفسك لا تفعل ذلك فيبغضك الله، ولهذا قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ تعليل للنهي، أي: لأن الله يكره المتكبر في نفسه وقوله، الذي يرى العظمة لنفسه، ويتكبر على عباد الله، وكذلك لا يحب المتبختر في مشيته، الفخور الذي يفتخر على غيره. ثم لما نهاه عن الخلق الذميم، أمر بالخلق الكريم، فقال:

﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: توسط وتواضع في مشيتك، فامشي متواضعاً مستكيناً، واعتدل فيها بين الإسراع والبطء، عدلاً وسطاً بين بين.

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: اخفض من صوتك أدباً مع الناس ومع الله، فلا ترفعه عالياً، فإنه قبيح لا يجمل بالعاقل.

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: إن أوحش وأبشع الأصوات صوت الحمير، فمن رفع صوته كان مماثلاً لهم، وأتى بالمنكر القبيح، وكان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات فرد عليهم بأنه لو كان خيراً لفضلتهم به الحمير، وقال قتادة: أقبح الأصوات صوت الحمير، أوله زفير وآخره شهيق.

* لما حذر تعالى من الشرك، وأكده بوصايا لقمان الحكيم في الإيمان ومكارم الأخلاق، ذكر هنا الأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة على وحدانيته تعالى، ونبه بالصنعة على الصانع، وما له من نعم لا تحصى من تسخير السموات بما فيها من الشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، وتسخير الأرض وما فيها من الحيوان، والنبات والمعادن، والبحار، وغير ذلك من الأدلة الشاهدة بوحدانيته، يدعوهم بذلك إلى شكرها ورؤيتها وعدم الغفلة عنها، قال تعالى:

﴿٢٠، ٢١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ألم تعلموا وتشاهدوا، وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم أيها الناس، أن الله العظيم الجليل سخر لكم ما في السموات من شمس وقمر ونجوم لتنتفعوا بها، وسخر لكم ما في الأرض من جبال وأشجار، وثمار، وأنهار وحيوان ومعادن، وغير ذلك مما لا تحصى.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي: وأتم عليكم، وعمكم، وغمركم أيها الناس بنعمه العديدة،

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا
مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ
الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ
وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ
وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ
إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ
مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ
وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

الظاهرة المرئية، كنعمة الإسلام والسمع، والبصر والصحة، والباطنة الخفية كالقلب والعقل والفهم والمعرفة، وما أشبه ذلك من نعمه المحسوسة والمعقولة، ماتعرفونه وما لاتعرفونه، فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم بمحبة المنعم، والخضوع له، وصرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان منها على معصيته.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾

قال مجاهد: «أما (الظاهرة) فالإسلام والرزق. وأما (الباطنة) فما ستر من العيوب والذنوب».

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ **أي: ولكن مع توالي هذه النعم، من الناس فريق لم يشكرها، فهم جاحدون، يخاصمون، ويجادلون في توحيد الله وصفاته بغير علم ولا فهم، ولا حجة ولا برهان، ولا كتاب منزل من عند الله، الواضح البين المنقذ من ظلمه الجهل والضلال. نزلت في يهودي جاء إلى النبي ﷺ فقال ـ يا محمد ـ: أخبرني عن ربك من أيّ شيء هو؟ فجاءت صاعقة فأخذته، ولهذا قال:**

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ **وإذا قيل هؤلاء المجادلين بالباطل في توحيد الله وإفراده بالعبادة، اتبعوا ما أنزل الله على رسوله، محمد ﷺ وصدقوا به فإنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال.**

﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ **أي: قالوا معارضين على ذلك: بل نسير على طريقة آبائنا ونقتدي بهم في عبادة الأوثان والأصنام، قال تعالى في الرد عليهم وعلى آبائهم:**

﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ **الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والمعنى: أيتبعونهم ولو كانوا ضالين، حتى ولو كان الشيطان يدعوهم إلى النار المستعرة ذات العذاب الشديد بتزيينه لهم سوء أعمالهم، وكفرهم بالله.**

*** ثم بعد أن ذكر المجادل المعاند بغير علم، ذكر من أسلم وجهه لله وأخلص له العمل، وانقاد لأمره واتبع شرعه، قال تعالى:**

﴿٢٢﴾-﴿٢٤﴾ ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ **أي: ومن يقبل على طاعة الله، وينقاد لأوامره ويفوض إليه أمره، ويخلص قصده وعبادته له وحده.**

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ **أي: وهو مؤمن موحد، بأن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه. قال القرطبي: لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع، فلا بد من الإيمان والإحسان.**

﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ **أي: تمسك بحبل لا انقطاع له، وتعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب، سلم من الهلاك، وفاز بكل خير، وأوثق العرى جانب الله، لأن كل ما عداه هالك منقطع، وهو باق لا انقطاع له.**

﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ **أي: إلى الله وحده ـ لا إلى أحد سواه ـ مرجع ومصير الأمور كلها، فيجازي العامل عليها أحسن الجزاء.**

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ **تسلية للرسول ﷺ، أي: لا يهمنك ـ يا محمد ـ كفر من كفر، ولا**

ضلال من ضل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإنا سننتقم منهم إن عاجلاً أو آجلاً، وأنت أديت ما عليك من الدعوة والبلاغ فقد وجب أجرك على الله، ولم يبق للحزن موضع على عدم اهتدائهم؛ لأنه لو كان فيهم خير لهداهم الله.

﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ يخبر تعالى أن رجوعهم ومصيرهم يوم القيامة إليه، فيخبرهم بأعمالهم التي عملوها في الدنيا من كفرهم وعدوانهم، وسعيهم في إطفاء نور الله، وأذى رسله، ثم نجازيهم عليها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: عليم بما في قلوبهم من المكر والكفر والتكذيب فيجازيهم عليها.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: نبقيهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها ليزداد إثمهم، ويتوافر عذابهم، ثم نلجئهم في الآخرة ونسوقهم إلى عذاب شديد، هو عذاب النار، الفظيع الشاق على النفس.

* ثم لما بيّن تعالى استحقاقهم للعذاب، بيّن تناقضهم في الدنيا، وهو اعترافهم بأن الله خالق السموات والأرض، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها ملك له، وأنها مخلوقاته، فقال:

﴿٢٥﴾، ﴿٢٦﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: ولئن سألت - يا محمد - هؤلاء المشركين المكذبين بالحق من كفار مكة من خلق السموات والأرض؟ ليقولن - لغاية وضوح الأمر - الله خلقهن، فقد اضطروا إلى الاعتراف به، فإذا قالوا ذلك:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: فقل لهم ملزماً لهم، ومحتجاً عليهم بما أقروا به على ما أنكروا: الحمد لله على ظهور اعترافكم والحجة عليكم، وعلى أن دلائل الإيمان ظاهرة للعيان.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بل أكثر هؤلاء المشركين لا يفكرون ولا يتدبرون، فلذلك لا يعلمون، ويشركون به غيره، ورضوا بتناقض ما ذهبوا إليه، على وجه الحيرة والشك. ثم قال تعالى مبيناً سعة ملكه:

﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: له - جل وعلا - كل ما في السموات والأرض ملكاً وعبيداً وإيجاداً وتقديراً، فلا يستحق العبادة أحد غيره.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: الغني عما سواه، المستغني عن خلقه وعن عبادتهم، المحمود في صنعه وآلائه.

* ثم أخبر تعالى عن سعة كلامه وعظمة قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبهر له العقول، وتحير فيه الأفئدة، وتسبح في معرفته أولو الألباب والبصائر، فقال:

﴿٢٧﴾، ﴿٢٨﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً يكتب بها.

﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي: وجعل البحر بسعته حبراً ومداداً، وأمده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله.

﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: لانتهت وفنيت تلك الأقلام والبحار وما انتهت كلمات الله، لأن الأشجار والبحار متناهية، وكلمات الله غير متناهية. قال القرطبي: لما ذكر تعالى أنه سخر لهم ما في السموات وما في الأرض، وأنه أسبغ النعم، نبه على أن الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحار لو كانت مداداً، فكتب بها عجائب صنع الله، الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: غالب لا يعجزه شيء، له العزة جميعاً، حكيم لا يخرج عن علمه وحكمته أمر.

ثم ذكر عظمه قدرته وكمالها، وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال:

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: ما خلقكم أيها الناس ابتداءً، ولا بعثكم بعد الموت انتهاءً، في السهولة واليسر إلا كخلق نفس واحدة وبعثها بل خلق

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ
وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٩ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ
مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ٣٠ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٣١ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ
كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ
فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ
٣٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ
عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ
ٱلْغَرُورُ ٣٣ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ
وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ٣٤

سُورَةُ السَّجْدَة

العالم وبعثه برمته كخلق نفس واحدة وبعثها، فهو لا يصعب عليه شيء. لأنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾

قال السعدي: «هذا شيء يحير العقول إن خلق جميع الخلق على كثرته وبعثهم بعد موتهم بعد تفرقهم في لمحة واحدة كخلقه نفساً واحدة.

ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات وبصره لجميع المبصرات، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: سميع لأقوال العباد، بصير بأعمالهم، وسيجازيهم عليها.

* ثم أشار تعالى إلى دلائل قدرته في الآفاق، وانفراده بالتصرف والتدبير، فقال:

﴿٢٩﴾، ﴿٣٠﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ أي: ألم تعلم أيها المخاطب علماً قوياً جارياً مجرى الرؤية، أن الله العظيم الجليل يدخل ظلمة الليل على ضوء النهار، ويدخل ضوء النهار على ظلمة الليل، ويزيد في هذا فيطول النهار ويقصر الليل والعكس، وينقص من هذا حسب الحكمة الأزلية.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ذللهما بالطلوع والأفول تقديراً للآجال، وإتماماً للمنافع، لم يختلا منذ خلقهما، كل منهما يسير في فلكه إلى غاية محدودة هي يوم القيامة، حين تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنتهي دار الدنيا، وتبتدئ الدار الآخرة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: وأنه تعالى عالم بأحوالكم وأعمالكم لا تخفى عليه خافية، فإن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق، والتدبير الفائق، لا يكاد يغفل عن كون صانعه ـ جل وعلا ـ محيطاً بكل أعماله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ذلك الذي شاهدتموه من عجائب الصنع وباهر القدرة، وبين لكم من عظمته وصفاته لتتأكدوا أن الله هو الإله الحق الذي يجب أن يعبد وحده.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: وأن كل ما يعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام باطل لا حقيقة له، فالجميع خلق الله وعبيده، ولا يملك أحد تحريك ذرة إلا بإذنه.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: وأنه تعالى هو العليُّ في صفاته، الكبير في ذاته فوق جميع مخلوقاته، الذي له الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض، وكل ما عداه خاضع له، فهو وحده المستحق أن يُعبد دون من سواه.

* ثم امتن على عباده بنعمة أخرى من نعمه، كان فيها الناس بين شاكر وكافر، فقال تعالى:

﴿٣١﴾، ﴿٣٢﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ ألم تر أيها العاقل آثار قدره ورحمته وعنايته بعباده، أن السفن العظيمة تسير في البحر بقدرة الله وبتسخيره ولطفه بالناس وإحسانه إليهم، لتهيئة أسباب الحياة، فإنه لولا

ماجعل في الماء من قوة يحمل بها السفن ماجرت، ولهذا قال بعده:

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: ليريكم بعض عجائب صنعه، ودلائل قدرته. ووحدانيته، ففيها الانتفاع والاعتبار.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في تسخير هذه السفن وما تحمله من الطعام والأرزاق والتجارات، لآيات باهرة، وعبراً جليلة لكل عبد منيب، صبار في الضراء، شكور في الرخاء، ولفظه «صبار» و«شكور» مبالغة في الصبر والشكر، وهما صفتا المؤمن، فالإيمان نصفان، نصفه شكر ونصفه صبر. ووجه إيثار خلقي الصبر والشكر هنا: أنهما أنسب بمقام السير في البحر؛ إذا راكب البحر بين خطر وسلامة، وهما مظهر الصبر والشكر.

ثم ذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر، فقال:

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: وإذا ركب المشركون السفن وعلتهم الأمواج من حولهم كالسحب والجبال، أصابهم الخوف والذعر من الغرق، ففزعوا إلى الله، وأخلصوا دعاءهم لله حين علموا أنه لا منجي لهم غيره، فلا يدعون لخلاصهم سواه، لأنهم يعلمون أنه لا يضر، ولا ينفع سواه.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ فلما أنقذهم من شدائد البحر، وأخرجهم إلى شاطئ النجاة في البر، انقسموا إلى فريقين:

﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ في الآية حذف تقديره: فمنهم مقتصد، ومنهم جاحد، ودل عليه قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ والمقتصد: المتوسط في العمل، وهذا من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال، والأمور العظام، ورأى الآيات الباهرة في البحر، ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام، والمبادرة إلى الخيرات، والدؤوب في العبادات، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ أي: وما يكذب بآياتنا إلا كل غدار، مبالغ في كفران نعم الله تعالى، ومن غدره أنه عاهد ربه، لئن أنجيتنا من البحر وشدته لنكونن من الشاكرين، فغدر ولم يف بذلك. والختر: أسوأ الغدر وأقبحه.

* وختمت السورة الكريمة بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب الذي لاينفع فيه مال ولا بنون، آمراً لهم بتقواه والخوف منه، قال تعالى:

(٣٣)،(٣٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: اتقوا ربكم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ويذكرهم بيوم القيامة وشدته وهوله.

﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ وخافوا واحذروا يوماً رهيباً عصيباً، لا ينفع والد فيه ولده، ولا يدفع عنه مضرة، أو يقضي عنه شيئاً مما تحمله، لاشتغاله بنفسه.

﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي: ولا ولد يغني أو يدفع عن والده شيئاً، أو يقضي عنه شيئاً من جنايته ومظالمه، وقد ذكر سبحانه فردين من القرابات، وهو الوالد، والولد، وهما الغاية في الحنو والشفقة على بعضهم البعض، فما عداهما من القرابات لا يجزي بالأولى فكيف بالأجانب.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: وعده بالثواب والعقاب، والبعث والجزاء حق لا يتخلف فلا تمتروا فيه، وتعملوا عمل غير المصدق، فلهذا قال:

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: لا تخدعكم الحياة الدنيا بمفاتنها ولذاتها، وزينتها وزخارفها، فتركنوا إليها، ولا يخدعنكم بالله خادع من شياطين الإنس والجن، الذي يغر الخلق ويمنيهم بأباطيله ويلهيهم عن الآخرة.

* ثم ذكر سبحانه أنه قد أحاط علمه بالغيب والشهادة، والظواهر والبواطن، وقد يطلع الله عباده على كثير من الأمور الغيبية، وذكر أموراً خمسة طوى علمها عن جميع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ
أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ
إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ
عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ
كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ
نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن
رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى
خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم
مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

المخلوقات، فلا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، فضلاً عن غيرهم، قال تعالى:

﴿٣٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ **هذه هي مفاتيح الغيب التي اختص الله بعلمها، وهي خمس، كما جاء في الحديث الصحيح: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله» وتلا الآية، والمعنى: عنده تعالى وحده لا غيره معرفة وقت قيام الساعة التي تقوم فيها القيامة ليبقى الناس على حذر دائم، وتوقع دائم.**

ومعنى حصر مفاتح الغيب في هذه الخمسة، أنها من الأمور المغيبة، المتعلق بأحوال الناس في هذا العالم، وأن التعبير عنها بالمفاتح أنها تكون مجهولة للناس، فإذا وقعت فكأن وقوعها فتح لما كان مغلقاً.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ **أي: هو المنفرد بإنزال المطر من السحاب وعنده معرفة وقت نزوله ومحل نزوله، ولا يقدر على ذلك أحد غيره.**

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ **أي: فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو من ذكر أو أنثى، وشقي أو سعيد.**

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ **أي: من النفوس كائنة ما كانت من غير فرق بين الملائكة أوالأنبياء، والجن، والإنس، ما يدري أحد ماذا يحدث له في غد، وماذا يفعل من خير أو شر من كسب دينها ودنياها ومن نفع وضر، ومن يسر وعسر، ومن صحة ومرض.**

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ **أي: كما لا يدري أحد أين يموت، ولا في أي مكان يقبر، ولما خصص هذه الأشياء، عمم علمه بجميع الأشياء، فقال:**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ **أي: مبالغ في العلم، يعلم كل الأمور، خبير بظواهر الأشياء وبواطنها، لا يخفى شيء منها.**

تم تفسير سورة لقمان
والحمد لله

تفسير سورة السجدة
وهي مكية

*** سورة السجدة، سورة مكية، وهي كسائر السور المكية تعالج أصول العقيدة الإسلامية: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والكتب والرسل، والبعث والجزاء، والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو البعث بعد الفناء، الذي طالما جادل المشركون حوله، واتخذوه ذريعة لتكذيب الرسول ﷺ.**

سميت سورة السجدة: لما ذكر تعالى فيها من أوصاف المؤمنين الأبرار، الذين إذا سمعوا آيات القرآن العظيم ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥]، **وفي الحديث عن أبي هريرة، قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة «آلم تنزيل» السجدة، و«هل أتى على الإنسان»** [رواه مسلم].

تبتدئ السورة الكريمة بالحديث عن المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ، الذي لا تحوم حول ساحته الشبهات والأباطيل، ومع وضوح إعجازه، وسطوع آياته، وإشراقة بيانه، وسمو أحكامه، اتهم المشركون الرسول بأنه افترى هذا القرآن، واختلقه من تلقاء نفسه، فجاءت السورة الكريمة ترد هذا البهتان، بروائع الحجة والبرهان بدفع الشك والارتياب، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٣﴾ ﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن

﴿رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

﴿الٓمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ هو القرآن، الذي لا شك أنه من عند الله ﷻ، تنزيل من رب العالمين الذي رباهم بنعمته، ومن أعظم ما رباهم به هذا الكتاب، الذي فيه كل ما يصلح أحوالهم، ويتمم أخلاقهم، وأنه لا ريب فيه ولا شك ولا افتراء، ومع ذلك استنكر الله ﷻ قول المكذبون للرسل:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: بل أيقول المشركون اختلق محمد القرآن وافتراه من تلقاه نفسه؟ لا ليس الأمر كما يدعون واستنكار لما يقولون.

﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: كذبوا في مقالتهم، بل هو القول الحق، والكلام الصدق المنزل من ربك ـ يا محمد ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. أشار أولاً إلى إعجازه، ثم رتب عليه أنه تنزيل من رب العالمين، وقرر ذلك بنفي الريب عنه، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك، إنكاراً له وتعجباً منه، ثم بين المقصود من إنزاله، بقوله:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: أنزله إليك رحمة من ربك لتنذر به قوماً ما جاءهم رسول قبلك يا محمد، وهم العرب، وكانوا أمة أمية لم يأتهم رسول. قال المفسرون: هم أهل الفترة بين عيسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ، وقد جاء الرسل قبل ذلك كإبراهيم وهود وصالح، ولكن لما طالت الفترة على هؤلاء؛ أرسل الله إليهم محمد ﷺ لينذرهم عذاب الله، ويقيم عليهم الحجة بذلك.

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: كي يهتدوا إلى الحق، ويؤمنوا بالله العزيز الحميد.

* ثم شرع تعالى في ذكر أدلة التوحيد، وتحدثت الآيات عن دلائل القدرة والوحدانية، ببيان آثار قدرة الله في الكائنات العلوية والسفلية، لافتة الأنظار إلى إبداع الواحد القهار، قال تعالى:

﴿٤﴾-﴿٦﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: الله ـ جل وعلا ـ هو الذي خلق السموات في ارتفاعها وإحكامها، والأرض في عجائبها وإبداعها، وما بينهما من المخلوقات في مقدار ستة أيام، من أيام الدنيا ولو شاء لخلقها بلمح البصر، ولكن أراد أن يعلم عباده التأني في الأمور، وقد عرفهم تعالى كمال قدرته ليسمعوا القرآن ويتأملوه.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ثم علا وارتفع على عرشه، استواء يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل، والعرش هو سقف المخلوقات. يقرن تعالى استواءه على العرش باسم الرحمن كثيراً؛ لأن العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات فلذلك وسعت رحمته كل شيء.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: ليس لكم أيها الناس من غير الله ناصر يمنعكم من عذابه، ولا شفيع يشفع لكم عنده إلا بإذنه، بل هو الذي تولى مصالحكم ويدبر أموركم، ويتولاكم في شؤونكم.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتدبرون وتتعظون هذا، فتؤمنون وتفردوا الله بالألوهية، وتُخلصوا له العبادة؟

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: ينزل القضاء والقدر من السماء إلى الأرض، وينزل ما دبره وقضاه، ثم يصعد إليه ذلك الأمر والتدبير كله يوم القيامة ليفصل فيه.

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: في يوم عظيم ـ هو يوم القيامة ـ طوله ألف سنة من أيام الدنيا التي تعدونها لشده أهواله.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ذلك الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة، الذي استوى على العرش العظيم، المدبر لأمور الخلق، هو العالم بكل شيء، يعلم ما هو غائب عن المخلوقين، وماهو مشاهد لهم، قال القرطبي: وفي الآية معنى التهديد والوعيد، كأنه يقول: أخلصوا أعمالكم وأقوالكم فإني مجازيكم عليها، ومعنى الغيب والشهادة ما غاب عن الخلق وما حضرهم.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: الغالب على أمره، الرحيم، البالغ لطفه وتيسيره بعباده في تدبيره لشؤونهم.

* ثم ذكر تعالى شبهة المشركين الخفية في إنكارهم للبعث والنشور، ورد عليها بالحجج القاطعة والأدلة الساطعة، التي تنتزع الحجة من الخصم الجاحد العنيد، فلا يلبث أن يقر على نفسه بالهزيمة أمام قوارع القرآن، وروائع الحجة والبيان، قال تعالى:

﴿٧﴾-﴿٩﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي: ذلك الخالق المدبر لشؤون العالمين، أتقن وأحكم كل شيء أوجده وخلقه، ووضع كل شيء في موضعه. وهذا أبلغ في الامتنان، ولهذا قال ابن عباس: ليست القردة بحسنة، ولكنها متقنة محكمة. قال بعض العلماء: لو تصورت مثلاً أن للفيل مثل رأس الجمل، وأن للأرنب مثل رأس الأسد، وأن للإنسان مثل رأس الحمار، لوجدت في ذلك نقصاً كبيراً، وعدم تناسب وانسجام، ولكنك إذا علمت أن طول عنق الجمل، وشق شفته ليسهل تناوله الكلأ عليه أثناء السير، وأن الفيل لولا خرطومه الطويل لما استطاع أن يبرك بجسمه الكبير لتناول طعامه وشرابه، لو علمت كل هذا ليقنت أنه صنع الله الذي أتقن كل شيء، ولقلت: تبارك أحسن الخالقين. ثم خص الآدمي لشرفه وفضله.

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ أي: الله الذي أحكم خلق كل شيء، وبدأ خلق أبي البشر آدم عليه السلام من طين.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: جعل ذرية آدم يتناسلون من خلاصة من ماء ضعيف رقيق حقير، هو المنيُّ، وسميت الذرية سلالة، لأنها تسلّ من الأصل، وتنفصل عنه.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أي: ثم أتم خلق الإنسان وأبدعه، وقوم أعضاءه، وعدل خلقته في رحم أمه، ونفخ بعد ذلك فيه الروح، وذلك بإرسال الملك له، لينفخ فيه الروح، فإذا هو في أكمل صورة وأحسن تقويم، وأضاف الروح إليه تعالى تشريفاً للإنسان، وإيذاناً بأنه خلق عجيب، وصنع بديع، وأن له شأناً جليلة مناسبة إلى حضرة الربوبية.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي: مازال يعطيكم من المنافع شيئاً فشيئاً، حتى أعطاكم وخلق لكم هذه الحواس: السمع لتسمعوا به الأصوات، وتميزوا بينها، والبصر لتبصروا به الأشخاص، والعقل لتدركوا به الحق والهدى، والنافع والضار.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: قليلاً شكركم لربكم، على ما أنعم به عليكم، و﴿مَّا﴾ لتأكيد القلة.

* ثم ذكر ﷻ عن المشركين استبعادهم البعث والنشور، فقال:

﴿١٠﴾،﴿١١﴾ ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: وقال كفار مكة المنكرون للبعث والنشور على وجه الاستبعاد: أئذا هلكنا وصرنا عظاماً، ولحومنا تراباً مختلطاً بتراب الأرض حتى غابت فيه ولم تتميز عنه.

﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أنبعث ونصير أحياء، بعد ذلك خلقاً جديداً، ونعود إلى الحياة مرة ثانية؟ وهو استبعاد للبعث مع الاستهزاء، والاستنكار، ولهذا قال تعالى:

﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: بل هناك ما هو أبلغ وأشنع من الاستهزاء، وهو كفرهم وجحودهم بلقاء الله في دار الجزاء.

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ قل - يا محمد - هؤلاء المشركين رداً على مزاعمهم الباطلة: يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بقبض أرواحكم هو وأعوانه إذا انتهت آجالكم، ولن تتأخروا لحظة واحدة.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ثم تردون إلى الله يوم القيامة أحياء للحساب والجزاء. قال ابن كثير: والظاهر أن ملك الموت شخص معين، وقد سمي في بعض الآثار بـ «عزائيل» وهو المشهور، وله أعوان - كما ورد في الحديث - ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت. وقال مجاهد: جمعت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء.

* لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة، أخبر تعالى بحال المجرمين ومقامهم بين يديه، وما هم فيه من الذل والهوان، فقال:

(١٢)-(١٤) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ولو ترى - أيها المخاطب - أمراً عظيماً وخطباً جسيماً، وهو حال المجرمين المصرين على الذنوب العظيمة يوم القيامة، وهم مطرقوا رؤوسهم أمام ربهم من الخجل والحياء، والخزى والعار، وجواب (لَوْ) محذوف تقديره لرأيت أمراً فظيعاً لا يقادر قدره من هوله وفظاعته، قائلين في ذلك الموقف.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ
رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ
(١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ
ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ
(١٣) فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ
وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) إِنَّمَا يُؤْمِنُ
بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ
عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ
جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا
لَّا يَسْتَوُۥنَ (١٨) أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ
جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟
فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا
وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢٠)

﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: يقولون: ربنا أبصرنا حقيقة الأمر وبان لنا، وسمعنا ما كنا ننكر من أمر الرسل، وكنا عمياً وصماً.

﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: قد تبنا إليك ما أمرتنا، فردنا إلى دار الدنيا لنعمل صالحاً، فنحن الآن مصدقون تصديقاً جازماً، وموقنون أن وعدك حق، ولقاءك حق، والبعث والجزاء حق، وأيقنا الآن بوحدانيتك، وأنه لا يصلح أن يعبد سواك، ولا ينبغي أن يكون رب سواك، وأنك تحيي وتميت، وتفعل ما تشاء. قال تعالى رداً عليهم:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ هذا رد عليهم لما طلبوا الرجعة، أي: لو أردنا في الدنيا هداية ورشد جميع الخلق لفعلنا، ولكن ذلك ينافي حكمتنا، لأنا نريد منهم الإيمان بطريق الاختيار، لا بطريق الإكراه والإجبار.

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ أي: ولكن ثبت ووجب قولي بعذاب المجرمين، وتقرر وعيدي.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ لأملأن جهنم بالعصاة من الجن والإنس جميعاً، وذلك لاختيارهم الضلالة على الهدى، فهذا الوعد لا بد منه، ولا محيد عنه، فلا بد من تقرير أسبابه من الكفر والمعاصي.

﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ أي: يقال لهؤلاء المشركين عند دخولهم النار الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا، يقال لهم على سبيل التقريع

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ
لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (٢١) وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ
أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا
مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ
هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (٢٣) وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا
لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ
(٢٥) أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ
يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ
(٢٦) أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ
بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ
(٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٢٨)
قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ
يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)

سُورَةُ الأَحزَابِ

٤١٧

والتوبيخ: ذوقوا -بسبب نسيانكم الدار الآخرة وانهماككم في الشهوات- هذا العذاب المخزي الأليم.

﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾ أي: نترككم اليوم في العذاب، كما تركتم العمل بآياتنا جزاء من جنس عملكم.

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: وذوقوا العذاب الدائم الخالد الغير منقطع في جهنم، بسبب كفركم وتكذيبكم.

* ثم لما ذكر حال الأشقياء وعاقبتهم الوخيمة، أتبعه بذكر حال السعداء وما أعده لهم من النعيم المقيم في دار الجزاء، ليظل العبد بين الرهبة والرغبة والخوف والرجاء، قال تعالى:

(١٥)-(١٧) ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ أي: إنما يصدق بآيات القرآن، ويعمل بها المؤمنون، الذين إذا وعظوا بآيات ربهم، وتليت عليهم آيات القرآن، سقطوا على وجوهم ساجدين لله تعظيماً لآياته خاضعين لأوامره، خضوع ذكر، وفرح بمعرفته.

﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أي: وسبحوا ربهم على نعمائه، وهم لا يستكبرون عن طاعته وعبادته، قد تلقوها بالقبول، والتسليم، وقابلوها بالانشراح والتسليم. ثم ذكر ﷻ من كريم فعالهم، أنهم:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ أي: تتنحى وتتباعد أطرافهم عن الفرش ومواضع النوم. والغرض أن نومهم بالليل قليل لانقطاعهم للعبادة، يتهجدون لربهم في صلاة الليل، تركوا لذيذ النوم إلى ما هو ألذ عندهم وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى، ولهذا قال:

﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ﴾ أي: في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية.

﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ أي: يدعون ربهم جامعين بين الوصفين، خوفاً أن ترد أعمالهم، وطمعاً في قبولها، خوفاً من عذابه، وطمعاً في رحمته وثوابه.

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ أي: ومما أعطيناهم من الرزق قليلاً كان أو كثيراً ينفقون في وجوه البر والإحسان، أما جزاؤهم.

﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ أي: فلا يعلم أحد من الخلق مقدار ما يعطيهم الله من النعيم الغزير، ومن الخير الكثير، واللذة والحبور مما تقر به العين، وينشرح له الصدر، جزاءً لهم على أعمالهم الصالحة، فكما صلوا في الليل ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، جزاءً وفاقاً، قال الحسن: أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين، ولم يخطر على قلب بشر، ولهذا قال:

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: ثواباً لما قدموه في الدنيا من صالح الأعمال.

قال بعض العلماء: هذه لذة الخبر، فكيف بلذة النظر، وقال الحسن: أخفى قوم عملهم، فأخفى الله لهم ما لم ترَ عين، ولم يخطر على قلب بشر.

* لما ذكر تعالى حال المجرمين في الآخرة، وما أعده لهم من العذاب والنكال في دار الجحيم، وحال المؤمنين المتقين، وما أعده لهم من الكرامة في دار النعيم الدائم في جنات الخلد، ذكر هنا

أنه لا يتساوى الفريقان: فريق الأبرار، وفريق الفجار؛ لأن عدل الله يقتضي التمييز بين المؤمن الصالح، والفاسق الفاجر، قال تعالى:

﴿١٨﴾-﴿٢٢﴾ ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أفمن كان في الحياة الدنيا مؤمناً متقياً لله قد عمر قلبه بالإيمان، مطيعاً لله ورسوله مصدقاً بوعده ووعيده، كمن كان فاسقاً خارجاً عن طاعة الله، قد خرب قلبه وتعطل من الإيمان وكفر بالله ورسوله وكذب باليوم الآخر، روي أنه كان بين علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط تنازع وخصومة، فقال الوليد بن عقبة لعلي: اسكت فإنك صبي، وأنا والله أبسط منك لساناً، وأشجع منك جناناً، وأملأ منك حشواً في الكتيبة، فقال له علي: اسكت فإنك فاسق فنزلت الآية.

﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾ أي: لا يستوون في الآخرة بالثواب والكرامة، كما لم يستووا في الدنيا بالطاعة والعبادة، وهذا من عدله تعالى وكرمه، أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة، من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله، بمن كان فاسقاً خارجاً عن طاعة ربه، مكذباً رسل الله، ثم فصل تعالى جزاء الفريقين، فقال:

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ أي: أما المتقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فلهم الجنات التي فيها المساكن والدور والغرف العالية، يأوون إليها ويستمتعون بها، ويقيمون في نعيمها ضيافة لهم، فالجنة هي المأوى الحقيقي، والدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة.

﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ضيافة مهيأة ومعدة لإكرامهم، كما تهيأ التحف للضيف، وذلك بسبب ما قدموه من صالح الأعمال في الدنيا.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ وأما الذين خرجوا عن طاعة الله، فملجؤهم ومنزلهم ومقرهم نار جهنم، التي جمعت كل عذاب وشقاء.

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي: إذا دفعهم لهب النار إلى أعلاها ردوا إلى موضعهم فيها، قال الفضيل بن عياض: والله ما طمعوا في الخروج لأن الأيدي لموثقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: وتقول لهم خزنة جهنم تقريعاً وتوبيخاً: ذوقوا عذاب النار المخزي الذي كنتم تكذبون به في الدنيا وتهزؤون منه. ثم توعدهم بعذاب عاجل في الدنيا، فقال:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ أي: ولنذيقن الفاسقين المكذبين من العذاب الأقرب، وهو عذاب الدنيا، من القتل والأسر والجوع والبلايا والمحن، والخذلان ومصائب الدنيا وأسقامها؛ مما يبتلي به العبيد حتى يتوبوا.

﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ أي: قبل العذاب الأكبر يوم القيامة الذي ينتظرهم وهو عذاب الآخرة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: ولما كانت الإذاقة من العذاب الأدنى في الدنيا، قد لا يتصل بها الموت، فأخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك لعلهم يتوبون عن الكفر والمعاصي. ثم بعد أن توعدهم وهددهم، بين استحقاقهم للعذاب، فقال:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: لا أحد أشد ظلماً لنفسه ممن وعظ وذكر بآيات الرحمن، فلم يتعظ بمواعظه، ولكنه استكبر عنها. قال قتادة: إياكم والإعراض من ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرّة، وأعوز أشد العوز، وعظم من أعظم الذنوب. ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك:

﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي: سأنتقم ممن كذب بآياتي وأعرض عنها أشد الانتقام.

* لما ذكر تعالى آياته التي ذكر بها عباده، وهو القرآن، الذي أنزله على محمد ﷺ، ذكر أنه ليس ببدع من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل، فقال تعالى:

﴿٢٣﴾-﴿٢٥﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أعطينا موسى التوراة كما آتيناك القرآن - يا محمد -.

﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ فلا تكن - يا محمد - في شك من تلقي القرآن كما تلقى موسى التوراة. والمقصود تقرير رسالته ﷺ، وتحقيق أن ما معه من الكتاب وحي سماوي، وكتاب إلهي.

﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: جعلنا التوراة هداية بني إسرائيل من الضلالة، تدعوهم إلى الحق، وإلى طريق مستقيم.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: جعلنا من بني إسرائيل قادة، وقدوة، ودعاة يقتدى بهم في الخير.

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون الخلق إلى طاعتنا ويرشدونهم إلى الدين بأمرنا وتكليفنا.

﴿لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي: وإنما نالوا هذه الدرجة العالية حين صبروا على تحمل المشاق في سبيل الله، وكانوا يصدقون بآياتنا أشد التصديق وأبلغه، وفي هذا تنبيه لقريش أنكم إن أطعتم وآمنتم جعلت منكم أئمة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: إن ربك - يا محمد - يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار، من بني إسرائيل وغيرهم، فيميز بين المحق والمبطل يوم القيامة، ويجازي كلا بما يستحق، فيما اختلفوا فيه من أمور الدين، والبعث، والثواب والعقاب.

* ثم نبه تعالى على آثار قدرته في مخلوقاته، وأقام الحجة على الكفار بالأمم السالفة الذين كفروا فأهلكوا، فقال:

﴿٢٦﴾، ﴿٢٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي: أغفل هؤلاء المشركون، ولم يتبين لهم كثرة من أهلكناهم من الأمم الماضية الذين كذبوا رسل الله؟

﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي: حال كون أهل مكة يسيرون في دورهم، ويشاهدون في أسفارهم منازل هؤلاء المهلكين، كقوم هود، وصالح، ولوط، فلا يرون فيها أحد ممن كان يسكنها ويعمرها أفلا يعتبرون؟

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ إن في إهلاكهم لدلالات عظيمة على صدق الرسل التي جاءتهم، وبطلان ما هم عليه من الشرك، أفلا يسمعون سماع تدبر واتعاظ؟ ثم ذكر تعالى دلائل الوحدانية ولطفه بخلقه وإحسانه إليهم، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أولم يشاهد المكذبون بالبعث بأبصارهم كمال قدرتنا ونعمتنا، في سوقنا الماء إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها من شدة العطش نحييها؟

﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ أي: فنخرج بذلك الماء أنواع الزروع والثمار، تأكل منه دوابهم من الكلأ والحشيش، وأنفسهم من الحب والخضر والفواكه والبقول.

﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: أفلا يرون تلك النعم، وتلك المنة، التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستدلون به على كمال قدرته تعالى وفضله، ويعلمون أن الذي أحيا الأرض الميتة قادر على إعادتهم بعد وفاتهم؟

* ثم قال ﷻ مخبراً عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم:

﴿٢٨﴾-﴿٣٠﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ

يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ❊ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يستعجل هؤلاء المشركون العذاب، ويقول كفار مكة للمسلمين على سبيل السخرية والتهكم: متى ستنصرون علينا ويكون لكم الغلبة، والفتح علينا؟ إن كنتم صادقين في دعواكم، وقد كان المسلمون يقولون إن الله سيفتح لنا على المشركين، ويفصل بيننا وبينهم، وكان أهل مكة إذا سمعوهم يقولون بطريق الاستعجال تكذيباً واستهزاءً: متى هذا الفتح؟ فنزلت:

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ قل لهم - يا محمد - توبيخاً وتبكيتاً: إن يوم القيامة هو يوم الفتح الحقيقي الذي يفصل تعالى فيه بيننا وبينكم، ولا ينفع فيه الإيمان ولا الاعتذار، فلماذا تستعجلون؟

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ولا هم يؤخرون ويمهلون للتوبة.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فأعرض - يا محمد - عن هؤلاء الكفار لما وصل خطابهم إلى حالة الجهل، واستعجال العذاب.

﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ وانتظر ما يحل بهم من عذاب الله، إنهم منتظرون كذلك ما يحل بكم، من حوادث الزمان.

تم تفسير سورة السجدة

والحمد لله

تفسير سورة الأحزاب
وهي مدنية

❊ سورة الأحزاب من السور المدنية، التي تتناول الجانب التشريعي لحياة الأمة الإسلامية، شأن سائر السور المدنية، وقد تناولت حياة المسلمين الخاصة والعامة، وبالأخص أمر الأسرة، فشرعت الأحكام بما يكفل للمجتمع السعادة والاستقرار، وأبطلت بعض التقاليد والعادات الموروثة مثل التبني، والظهار، واعتقاد وجود قلبين لإنسان، وطهرتُه من رواسب المجتمع الجاهلي، ومن تلك الخرافات والأساطير التي كانت متفشية في ذلك الزمان.

سميت «سورة الأحزاب»؛ لأن المشركين تحزبوا على المسلمين من كل جهة، فاجتمع كفار مكة مع غطفان وبني قريظة وأوباش العرب على حرب المسلمين، ولكن الله ردهم مدحورين وكفى المؤمنين القتال بتلك المعجزة الباهرة، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ❊ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ❊ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ النداء على سبيل التشريف والتكرمة؛ لأن لفظ النبوة مشعر بالتعظيم والتكريم، فإن مواجهة العظماء بأسمائهم في النداء لا تليق. أي: أثبت على تقوى الله ودُمْ عليها، وأزدد منه فهو باب لا يدرك مداه.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: ولا تطع أهل الكفر من أهل مكة، ومن هم على مثل كفرهم، ولا تطع أهل النفاق الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، واحترس منهم فيما يدعونك إليه من اللين والتساهل، وعدم التعرض لآلهتهم بسوء، ولا تقبل أقوالهم وإن أظهروا أدنى نصيحة. قال المفسرون: دعا المشركون رسول الله ﷺ أن يرفض ذكر آلهتهم بسوء، وأن يقول إن لها شفاعة، فكره ﷺ ذلك، ونزلت الآية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ إنه تعالى عالم بأعمال العباد وما يضمرونه في نفوسهم، عليم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله، ولهذا قال تعالى:

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: واعمل بما يوحيه إليك ربك من الشرع القويم، والدين الحكيم، واستمسك بالقرآن المنزل عليك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: إن الله الذي يوحي إليك خبير بأعمالكم لا تخفى عليه خافية من شؤونكم، وهو مجازيكم عليها.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: اعتمد عليه، والجأ في أمورك إليه، واعتمد عليه اعتماد من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: وحسبك أن يكون الله حافظاً وناصراً لك ولأصحابك، فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسر، وصعب يسهل، وخطوب تهون، وكُربٍ تزول،

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ
مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ٢ وَتَوَكَّلۡ
عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٣ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن
قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ
مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم
بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ٤
ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ
فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ
أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورٗا رَّحِيمًا ٥ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ
وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ
فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ
أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦

٤١٨

وأحوال وحوائج تقضى، وبركات تنزل، ونقم تدفع، وشرور ترفع، وهناك ترى العبد الضعيف، الذي فوض أمره لسيده، قد قام بأمور لا يقوم بها أمة من الناس، وقد سهل الله عليه ما كان يصعب على فحول الرجال.

* ثم رد تعالى مزاعم الجاهليين ببيان الحق الساطع، وعاتب تعالى عباده عن التكلم بأمور غير صحيحة ويترتب عليها منكرات من الشرع، وهذه قاعدة عامة في التكلم في كل شيء، والإخبار بوقوع ووجود ما لم يجعله الله تعالى، وخص أموراً لوقوعها وشدة الحاجة إلى بيانها، فقال:

٤، ٥ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ * ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ﴾ أي: ما خلق الله لأحد من الناس أياً كان قلبين في صدره. نزلت في رجل من قريش كان يُدعى «ذا القلبين» من دهائه، وكان يقول: إنَّ في جوفي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ أي: وما جعل زوجاتكم اللواتي تظاهرون منهن أمهاتكم، وهذا أمر لا يجوز، (والظهار أن يقول الرجل لامرأته: أنت عليَّ كظهر أمي، وقد كان هذا طلاقاً في الجاهلية، فبين الله أن الزوجة لا تصير أماً بحال).

﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ أي: وما جعل الأبناء من التبني الذين ليسوا من أصلابكم أبناء لكم حقيقة، فأراد الله أن يبطله ويزيله، فقدم بين يدي ذلك بيان قبحه، وأنه باطل وكذب.

﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡ﴾ ذلكم القول الذي تقولون في الدعي: أنه ابن فلان الذي ادعاه، أو والده فلان، إنما هو مجرد قول بالفم، لا حقيقة له من الواقع ولا يعتدُّ به.

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾ والله تعالى يقول الحق الموافق للواقع، والمطابق له من كل الوجوه.

﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ وهو -جل وعلا- يبين لعباده سبيله ويرشدهم إلى طريق الرشاد. والغرض من الآية التنبيه على بطلان مزاعم الجاهلية، فكما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، فكذلك لا يمكن أن تصبح الزوجة المظاهر منها أماً، ولا الوالد المتبنَّى ابناً؛ لأن الأم الحقيقية هي التي ولدته، والابن الحقيقي هو الذي ولد من صلب الرجل، فكيف يجعلون الزوجات المظاهر منهن أمهات؟ وكيف يجعلون أبناء الآخرين أبناءً لهم مع أنهم ليسوا من أصلابهم؟ ثم أمر تعالى برد نسب هؤلاء إلى آبائهم، وصرح لهم بترك الحالة الأولى المتضمنة للقول الباطل، فقال:

﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: انسبوا هؤلاء الذين جعلتموهم لكم أبناء، انسبوهم لآبائهم الحقيقيين الذين ولدوهم؛ لأن ذلك أعدل وأقوم، وأهدى عند الله.

﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: فإن لم تعرفوا آباءهم الحقيقيين فتنسبوهم

إليهم، فهم إخوانكم في الإسلام عوضاً عما فاتهم من النسب.

﴿وَمَوَٰلِيكُمۡ﴾ أي: أولياءكم في الدين، فليقل أحدكم: يا أخي ويا مولاي، يقصد أخوة الدين وولايته، ولهذا قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «أنت أخونا ومولانا»، وقال ابن عمر: ما كنا ندعو «زيد بن حارثة» إلا زيد بن محمد حتى نزلت: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ أي: وليس عليكم أيها المؤمنون ذنب أو إثم فيمن نسبتموهم إلى غير آبائهم خطأً لم تتعمدوه، فهذا غير مؤاخذ به.

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ أي: ولكن الإثم والمؤاخذة، فيما تقصدتم وتعمدتم نسبته إلى غير أبيه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ أي: واسع المغفرة، عظيم الرحمة، يعفو عن المخطئ، ويرحم المؤمن التائب.

* ثم بيَّن تعالى شفقة الرسول ﷺ على أمته ونصحه لهم، ويعرفهم بحاله ﷺ ومرتبته، فيعاملوه بمقتضى تلك الحالة، قال تعالى:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ ٦.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: هو ﷺ أرأف بهم وأعطف عليهم، وأحق بهم من أنفسهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا، وحكمه أنفذ، وطاعته أوجب، لأنه ﷺ بذل لهم من النصح والشفقة والرأفة، ما كان به أرحم الخلق وأرأفهم.

﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ أي: وحرمه أزواج النبي ﷺ على أمته كحرمة أمهاتهم، فلا يجوز نكاح زوجات الرسول ﷺ من بعده، وفي هذا وجوب تعظيمهن واحترامهن، وتحريم نكاحهن، وهن منزلات منزلة الأمهات، في التحريم واستحقاق التعظيم، وأما فيما عدا ذلك فهن كالأجنبيات.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ أي: أهل القرابات، قربوا أو بعدوا.

﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ أي: أحق بالإرث من المهاجرين والأنصار في شرع الله ودينه فيرث بعضهم بعضاً، ويبر بعضهم بعضاً، وكان المسلمون في أول الإسلام يتوارثون بالهجرة والإيمان دون الرحم، ثم نُسخ ذلك بآية المواريث.

﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾ إلا أن تحسنوا إلى إخوانكم المؤمنين والمهاجرين -من غير الورثة- في حياتكم، أو توصوا إليهم عند الموت فإن ذلك جائز، وبسط اليد بالمعروف مما حث الله عباده عليه.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ أي: كان حكم التوارث بين ذوي الأرحام مكتوباً مسطراً في الكتاب العزيز لا يبدل ولا يغير، قال قتادة: أي: مكتوباً عند الله ﷻ ألا يرث كافر مسلماً، وفي الآية وجوب كون النبي ﷺ أحبَّ إلى العبد من نفسه، ووجوب كمال الانقياد له، وفيها وجوب احترام أمهات المؤمنين، وزوجاته ﷺ، وأن من سبَّهن فقد باء بالخسران.

* ثم أخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عموماً، ومن أولي العزم خصوصاً ميثاقهم الغليظ، وعهدهم الثقيل المؤكد على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، قال تعالى:

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ ٨.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾ أي: اذكر -يا محمد- حين أخذنا من النبيين عهدهم المؤكد باليمين، أن يفوا بها التزموا، وأن يصدق بعضهم بعضاً، وأن يؤمنوا برسالة محمد ﷺ ورسالاتهم.

﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ أي: وأخذنا منك -يا محمد- الميثاق، ومن نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخص هؤلاء لأنهم أولو العزم ومشاهير الرسل، وأرباب الشرائع،

وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ
وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧
لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا
٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ
جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ
مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ
وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ
زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ١١ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم
مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ
مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ
مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ
إِلَّا فِرَارٗا ١٣ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ
لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ١٤ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ
ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ١٥

وقدم نبينا ﷺ لشرفه وتعظيماً له وتكريماً لشأنه، ثم رتبهم بحسب وجودهم في الزمان.

﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ أي: وأخذنا من الأنبياء عهداً وثيقاً عظيماً على الوفاء بما التزموا به من تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، وأن يصدق بعضهم بعضاً.

﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡ﴾ أي: أخذ الله ذلك العهد من أولئك الرسل؛ ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الصادقين عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم، والحكمة في سؤال الرسل مع علمه تعالى بصدقهم هو التقبيح على الكفار يوم القيامة وتبكيتهم وتوبيخهم، وفي الآية تنبيه على أن الأنبياء إذا كانوا يسألون يوم القيامة فكيف بمن سواهم؟

﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أي: وأعد الله للكافرين عذاباً مؤلماً موجعاً، بسبب كفرهم وإعراضهم عن قبول الحق.

* ثم شرع تعالى في ذكر غزوة الأحزاب، وما فيها من نعم فائضة، وآيات باهرة للمؤمنين، فقد تحدثت السورة بالتفصيل عن غزوة الأحزاب وصورتها تصويراً دقيقاً، بتألب قوى البغي والشر على المؤمنين، وكشفت عن خفايا المنافقين، وحذرت من طرقهم في الكيد والتخذيل والتثبيط، وأطالت الحديث عنهم في بدء السورة وفي ختمها، حتى لم تبق لهم ستراً، ولم تخف لهم مكراً، وذكرت المؤمنين بنعمة الله العظمى عليهم في رد كيد أعدائهم بإرسال الملائكة والريح، كما تحدثت عن غزوة بني قريظة ونقض اليهود عهدهم مع الرسول ﷺ، قال تعالى:

(٩)، (١٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا * إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: يا معشر المؤمنين اذكروا نعمة الله، وفضله وإنعامه عليكم، ويحثهم على شكرها.

﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ أي: وقت مجيء جنود الأحزاب وتألبهم عليكم في المدينة، وتعاهدهم على استئصال الرسول والصحابة، حيث اجتمع عليكم الأحزاب، فقدم المشركون من قريش وغطفان من خارج المدينة، واليهود من يهود قريظة وبني النضير والمنافقون من المدينة وما حولها، فأحاطوا بكم، وكانوا زهاء اثني عشر ألفاً، فلما سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم ضرب الخندق بينه وبين المشركين، واشتد الخوف وظنَّ المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق في المنافقين حتى قال معتب بن قشير: يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ فأرسلنا على الأحزاب ريحاً شديدة، وجنوداً من الملائكة لم تروهم وكانوا قرابة ألف. قال المفسرون: بعث الله عليهم ريحاً عاصفاً وهي ريح الصبا في ليلة شديدة البرد والظلمة، فقلعت بيوتهم، وكفأت قدورهم، وصارت تلقي الرجل على الأرض، وأرسل الله الملائكة فزلزلتهم - ولم تقاتل - بل ألقت في قلوبهم الرعب.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي: وهو تعالى مطلع على ما تعملون من حفر الخندق، والثبات على معاونة النبي ﷺ في ذلك الوقت، لا يخفى عليه من ذلك شيء.

﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ أي: حين جاءتكم الأحزاب من فوقكم

من أعلى الوادي من قبل المشرق، ومنه جاءت أسد وغطفان.

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: ومن بطن الوادي من جهة المغرب، ومنه جاءت قريش وكنانة وأوباش العرب، والغرض أن المشركين جاؤوهم من جهة المشرق والمغرب، وأحاطوا بالمسلمين إحاطة السوار بالمعصم، وأعانهم يهود بني قريظة فنقضوا العهد مع الرسول وانضموا إلى المشركين، فاشتد الخوف، وعظم البلاء، ولهذا قال:

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: وحين مالت وشخصت الأبصار عن سننها ومستوى نظرها، حيرة وشخوصاً، لشدة الهول والرعب.

﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أي: زالت عن أماكنها من الصدور حتى كادت تبلغ الحناجر، وهذا تمثيل لشدة الرعب والفزع الذي دهاهم، حتى كأن أحدهم قد وصل قلبه إلى حنجرته من شدة ما يلاقي من الهول، وفي الآيات تصوير عجيب للهول الذي روع المدينة، والكرب الذي شملها، والذي لم ينج منه أحد من أهلها.

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أي: وكنتم في تلك الحالة الشديدة تظنون الظنون المختلفة، قال الحسن البصري: ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون، وأن الله لا ينصر دينه ولا يعلي كلمته، وغلب عليهم اليأس، وظن المؤمنون أنهم ينصرون، فالمؤمنون ظنوا خيراً، والمنافقون ظنوا شراً، وقال ابن عطية: كاد المؤمنون يضطربون ويقولون: ما هذا الخلف للوعد؟ وهذا عبارة عن خواطر خطرت للمؤمنين لا للبشر دفعها، لأنهم خافوا الزلل وضعف الاحتمال عند البلاء، وأما المنافقون فتعجلوا ونطقوا وقالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً.

* وفي هذا الوضع الحرج والموقف الصعب، والمسلمون في غاية الجهد والضيق، ذكر الله الحال، بقوله تعالى:

﴿١١﴾-﴿١٣﴾ ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: في ذلك الزمان والمكان والموقف العصيب، امتحن المؤمنون واختبروا بهذه الفتنة العظيمة، ليتميز المخلص الصادق من المنافق، وكان هذا الابتلاء بالخوف والقتال، والجوع والحصر والنزال.

﴿وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أي: وحركوا تحريكاً عنيفاً، واضطربوا اضطراباً عظيماً من شدة ما دهاهم، حتى لكأن الأرض تتزلزل بهم وتضطرب تحت أقدامهم من الخوف والقلق والجوع، وأصل الزلزلة شدة التحريك وهو هنا عبارة عن اضطراب القلوب وتزعزعها.

وفي هذا الجو المضطرب ثبت أهل الإيمان ممن ثبتهم الله ﷻ، وتبين نفاق المنافقين وظهر ما كانوا يضمرون، قال تعالى:

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: واذكر حين يقول المنافقون، والذين في قلوبهم مرض الشك والنفاق، لأن الإيمان لم يخالط قلوبهم، وهذه عادتهم عند الشدائد والمحن لا يثبت إيمانهم، قالوا:

﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: ما وعدنا الله ورسوله من النصر والتمكين، إلا باطلاً وخداعاً، والقائل هو معتب بن قشير الذي قال: يعدنا محمد بفتح فارس والروم، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط فرقاً، ما هذا إلا وعد غرور، يغرنا به محمد.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: واذكر -يا محمد- حين قالت جماعة من المنافقين وهم: أوس بن قيظي وأتباعه، وأبي بن سلول وأشياعه، بعدما جزعوا وقلَّ صبرهم، وصاروا أيضاً من المخذلين، فلا صبروا بأنفسهم، ولا تركوا الناس من شرهم، فقالت هذه الطائفة منادين المؤمنين.

﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي: يا أهل المدينة لا قرار لكم ههنا، ولا إقامة في معركة خاسرة، نادوهم باسم الوطن، وفيه إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية، ليس له في قلوبهم قدر.

قال السعدي: إن المناداة بالوطنية وترك الأخوة الإيمانية والرابطة الإسلامية من أعمال الجاهلية وليست من الإسلام.

﴿فَٱرْجِعُواْ﴾ أي: فارجعوا إلى منازلكم وبيوتكم داخل المدينة، واتركوا محمداً وأصحابه، فهذه

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا
لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٦ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ
إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧ ۞قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ
لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨ أَشِحَّةً
عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ
كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم
بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ
ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٩ يَحۡسَبُونَ
ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم
بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم
مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ٢٠ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ
لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١
وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ٢٢

٤٢٠

الطائفة تخذل عن الجهاد، وهي أشر الطوائف وأضرها، وطائفة أخرى دونهم، أصابهم الجبن والجزع، وأحبوا أن ينخذلوا عن الصفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعذار الباطلة، وهم الذين قال الله فيهم:

﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ **ويستأذن جماعة من المنافقين النبي ﷺ في الانصراف، متعللين بعلل واهية.**

﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾ **أي: غير محصنة، فنخاف عليها العدوّ والسُّرّاق ونحن غُيَّب عنها، فأذن لنا نرجع إليها، فنحرسها، وهم كذبة في ذلك.**

﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾.

قال ابن قتيبة: «فكأن الرجال ستر وحفظ للبيوت فإذا ذهبوا أعورت البيوت».

﴿وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍ﴾ **تكذيب من الله تعالى لهم، أي: ليس الأمر كما يزعمون، وما قصدهم.**

﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾ **أي: ما يريدون بها طلبوا من الرسول ﷺ إلا الهرب من القتال، والفرار من الجهاد، ولكن جعلوا هذا الكلام وسيلة وعذراً لهم، والتعبير بالمضارع** ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ﴾ **لاستحضار الصورة في النفس، فكأن السامع يبصرهم الآن وهم يستأذنون.**

*** ثم فضحهم تعالى وبيّن كذبهم ونفاقهم، فقال:**

﴿١٤﴾-﴿١٧﴾ ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا * وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا * قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا * قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾.

﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا﴾ **أي: ولو دخل الأحزاب على هؤلاء المنافقين من جميع نواحي المدينة وجوانبها.**

﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا﴾ **أي: ثم طلب إليهم أن يكفروا ويشركوا، ويرجعوا عن الإسلام، وأن يقاتلوا المسلمين، لأعطوها من أنفسهم، ولأجابوا إلى ذلك.**

﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا﴾ **أي: لفعلوا ذلك مسرعين، مبادرين ولم يتأخروا عنه لشدة فسادهم، وذهاب الحق من نفوسهم، فهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع، وهذا ذمٌّ لهم في غاية الذم، والحال أنهم:**

﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ **أي: ولقد كان هؤلاء المنافقون أعطوا ربهم العهود والمواثيق على يد رسوله من قبل غزوة الخندق وبعد بدر، ألا يفروا من القتال إن شهدوا الحرب، ولا يتأخرون إذا دعوا إلى الجهاد.**

﴿وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا﴾ **أي: وكان هذا العهد منهم جديراً بالوفاء لأنهم سيسألون عنه، وفيه تهديد ووعيد، لأنهم خانوا عهدهم. قال قتادة: لما غاب المنافقون عن بدر، ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر، قالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن.**

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ﴾ **قل يا أيها النبي لهؤلاء المنافقين، الذين يفرون من القتال طمعاً في البقاء وحرصاً على الحياة، إن فراركم لن يطول أعماركم ولن يؤخر آجالكم، ولن يدفع الموت عنكم**

أبداً، ولو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، والأسباب تنفع، إذا لم يعارضها القضاء والقدر، فإذا جاء القضاء والقدر، تلاشى كل سبب، وبطلت كل وسيلة ظنها الإنسان تنجيه.

﴿وَإِذَا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولئن هربتم وفررتم فإذاً لا تمتعون بعده إلا زمناً يسيراً، بقدر أعماركم المحدودة لأن الموت مآل كل حي، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره. ثم بين أن الأسباب كلها لا تغني عن العبد شيئاً إذاً أراده الله بسوء، فقال:

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قل -يا محمد- لهم: من يستطيع أن يمنعكم منه تعالى أو يجيركم من عذابه.

﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي: إن قدر هلاككم ودماركم، أو قدر بقاءكم ونصركم؟ فإنه هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع السوء إلا هو.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: وليس لهم من دون الله مجير ولا مغيث يتولاهم، فلا قريب ينفعهم ولا ناصر ينصرهم.

* ثم توعد تعالى بعد هذه الآيات المخذلين المعوقين لغيرهم عن شهود الحرب وتهددهم، فقال:

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝١٩﴾.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي: لقد علم الله تعالى ما كان من أمر أولئك المنافقين، المثبطين للعزائم، الذين يعوقون الناس عن الجهاد، ويصدونهم عن القتال.

﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: والذين يقولون لإخوانهم في الكفر والنفاق الذين خرجوا: تعالوا إلينا واتركوا محمداً وصحبه يهلكوا، ولا تقاتلوا معهم، فإنا نخاف عليكم الهلاك بهلاكه، وهم مع تعويقهم وتخذيلهم من أجبن الناس وأشدهم حرصاً على التخلف، قال تعالى:

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولا يحضرون القتال إلا قليلاً منهم رياء وسمعة وخوف الفضيحة، وعدم وجود الداعي لذلك في نفوسهم من الإيمان والصبر، فهم يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم، ولا تراهم يقاتلون إلا شيئاً قليلاً إذا اضطروا إليه، فقتالهم رياء ليس بحقيقة.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بخلاء عليكم -أيها المؤمنون- بالمودة والشفقة والنصح والنفس والجهد والمال، لما في نفوسهم من العداوة والحقد حباً في الحياة وكراهة للموت؛ ولأنهم لا يريدون لكم الخير ولا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: فإذا حضر القتال رأيت أولئك المنافقين في شدة رعب لا مثيل لها، من شدة الجبن الذي خلع قلوبهم، والقلق الذي أذهلهم، وخوفاً من إجبارهم على ما يكرهون من القتال، حتى إنهم لتدور أعينهم في أحداقهم يميناً وشمالاً، كحال المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حذراً وخوراً. قال القرطبي: وصفهم بالجبن، وكذا سبيل الجبان ينظر يميناً وشمالاً محدداً بصره، وربما غشي عليه من شدة الخوف.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ فإذا ذهب الخوف عنهم وانجلت المعركة وصاروا في حال الأمن والطمأنينة، آذوكم بالكلام بألسنة سليطة، مؤذية، وبالغوا فيكم طعناً وذماً. وإذا كان وقت قسمة الغنيمة بسطوا ألسنتهم فيكم، يقولون: أعطونا أعطونا فإنا قد شهدنا معكم، ولستم أحق بها منا، فأما عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحق، وأما عند الغنيمة فأشح قوم وأبسطهم لساناً.

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي: خاطبوكم بما خاطبوكم به حال كونهم أشحة أي: وتراهم عند قسمة الغنائم بخلاء وحسدة، بخلاء على المال والغنيمة، وهذا شر ما في الإنسان، أن يكون شحيحاً بما أمر به، شحيحاً بماله أن ينفقه في وجهه، شحيحاً في بدنه أن يجاهد أعداء الله، أو

يدعو إلى سبيل الله، شحيحاً بجاهه، شحيحاً بعلمه، ونصيحته ورأيه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ أي: أولئك الموصوفون بما ذكر من صفات السوء، لم يؤمنوا حقيقة بقلوبهم وإن أسلموا ظاهراً.

﴿فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ أي: أبطلها بسبب كفرهم ونفاقهم، لأن الإيمان شرط في قبول الأعمال، وكان ذلك الإحباط سهلاً هيناً على الله.

* ثم أخبر تعالى عنهم بما يدل على جبنهم وخورهم، فقال:

﴿٢٠﴾ ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْ﴾ أي: يظن المنافقون من شدة خوفهم وجبنهم، أن الأحزاب - وهم كفار قريش - ومن تحزب معهم - بعد انهزامهم لم ينصرفوا عن المدينة وهم قد انصرفوا، فخاب ظنهم، وبطل حسبانهم.

﴿وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ أي: وإن يرجع إليهم الكفار كرة ثانية للقتال، يتمنوا لشدة جزعهم أن يكونوا غائبين عن المدينة، بين أعراب البادية حذراً من القتل وتربصاً للدوائر.

﴿يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ﴾ أي: يسألون ويتجسسون عن أخباركم من بعيد، وما وقع لكم، فيقولون: أهلك المؤمنون؟ أغلب أبو سفيان؟ ليعرفوا حالكم بالاستخبار لا بالمشاهدة.

﴿وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: ولو أنهم كانوا بينكم وقت القتال واحتدام المعركة ما قاتلوا معكم إلا قتالاً قليلاً، لجبنهم وذلتهم وضعف يقينهم، وحرصهم على الحياة فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

* لما ذكر تعالى غزوة الأحزاب، وموقف المنافقين المذبذبين منها، بالقعود عن الجهاد، وتثبيط العزائم، أمر المؤمنين في هذه الآيات بالاقتداء بالرسول الكريم في صبره وثباته، وتضحيته وجهاده.

﴿٢١﴾،﴿٢٢﴾ ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا * وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾.

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ أي: لقد كان لكم أيها المؤمنون في هذا الرسول العظيم قدوة حسنة، تقتدون به ﷺ في إخلاصه، وجهاده، وصبره، حيث حضر الهيجاء بنفسه الكريمة، وباشر موقف الحرب، فهو المثل الأعلى الذي يجب أن يُقتدى به، في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، لأنه لا ينطق ولا يفعل عن هوى، بل عن وحي وتنزيل، فلذلك وجب عليكم تتبع نهجه، وسلوك طريقه، والتأسي به في أفعاله وأحواله. قال ابن كثير: وهذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله.

﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ أي: لمن كان مؤمناً مخلصاً يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه، وأكثر من ذكر ربه، بلسانه وقلبه، استغفاراً، وشكراً له على كل حال، وفي كل حال، في الخوف والرجاء والشدة والرخاء. قال ابن كثير: أمر - تبارك وتعالى - الناس بالتأسي بالنبي ﷺ في صبره ومصابرته، ومجاهدته ومرابطته، ولهذا قال للذين تضجروا وتزلزلوا، واضطربوا يوم الأحزاب: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ والمعنى: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ.

ولما ذكر حالة المنافقين عند الخوف، حكى تعالى موقف المؤمنين الصادقين في غزوة الأحزاب، في أثناء رؤيتهم جنود قريش ومن تحزب معهم، وما صدر عن المؤمنين من إخلاص ويقين، تظهر فيه بوضوح روح الإيمان والتضحية، فقال:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ولما شاهد المؤمنون الكفار قادمين نحوهم، وقد أحاطوا بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم، تذكروا أن موعد النصر قد قرب، فقالوا: هذا ما وعدنا به الله ورسوله، من المحنة والابتلاء، ثم النصر على الأعداء.

﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ أي:

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن
قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ
ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ
يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ
ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ
فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ
سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ
ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾
يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ
لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

٤٢١

فأنجز الله وعده، وصدق رسوله فيما بشرنا به. قال المفسرون: لما كان المسلمون يحفرون الخندق اعترضتهم صخرة عظيمة عجزوا عن تكسيرها، فأخبروا الرسول ﷺ بها فجاء، وأخذ المعول، وضربها ثلاث ضربات أضاءت له منها مدائن كسرى، وقصور الروم، فقال: «أبشروا بالنصر» فلما أقبلت جموع المشركين ورأوهم قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ أي: وما زادهم ما رأوه من كثرة جند الأحزاب، ومن شدة الضيق والحصار، إلا إيماناً قوياً عميقاً بالله، واستسلاماً لقضائه وقدره، وانقياداً لأوامره.

*** ولما ذكر أن المنافقين عاهدوا الله، لا يولون الأدبار، ونقضوا ذلك العهد، ذكر وفاء المؤمنين به، فقال:**

﴿٢٣﴾، ﴿٢٤﴾ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا * لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: ولقد كان من أولئك المؤمنين رجال صادقون، نذروا أنهم إذا أدركوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا، فوفوا بالعهد، وأتموه، وأكملوه، فبذلوا مهجهم في مرضاته، وسبّلوا أنفسهم في طاعته.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي: فمنهم من وفّى بنذره، وإرادته ومطلوبه وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله كأنس بن النضر وحمزة رضي الله عنهما.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ أي: ومنهم من ينتظر إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة في سبيل الله.

﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي: وما غيروا عهدهم الذي عاهدوا عليه ربهم أبداً، كما بدل غيرهم، ولا نقضوه ولا بدلوه كفعل المنافقين.

﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: ليثيب الله أهل الصدق بسبب صدقهم وبلائهم، وحسن صنيعهم، ووفائهم بالعهد، واستواء ظاهرهم وباطنهم أحسن الجزاء في الآخرة.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ويعذب المنافقين الناقضين للعهود، الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه، وذلك بأن يميتهم على النفاق، فيعذبهم إن شاء تعذيبهم بأن لا يوفقهم للتوبة النصوح قبل الموت، فيموتوا على الكفر، أو يتوب عليهم فيرحمهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: واسع المغفرة لذنوب المسرفين على أنفسهم، رحيماً بالعباد، حيث وفقهم للتوبة، ثم قبلها منهم وستر عليهم ما اجترحوه، ولما كانت رحمته ورأفته -تبارك وتعالى- هي الغالبة لغضبه ختم به الآية الكريمة.

*** ثم ذكر تعالى ما جرى للأحزاب واندحارهم، وخذلانهم، فقال:**

﴿٢٥﴾ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾ ورد الله الأحزاب الذين تألبوا على غزو المدينة خائبين خاسرين، ومغتاظين، لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا قد غرتهم جموعهم، وأعجبوا بتحزبهم، وفرحوا بعددهم وعددهم.

﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ أي: حال كونهم لم ينالوا أيَّ خير، لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل قد اكتسبوا الآثام في مبارزة الرسول ﷺ وهمّهم بقتله.

﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي: كفاهم شر أعدائهم بما أيدهم به من الأسباب، بأن أرسل عليهم الريح والملائكة، وضربهم الله بالرعب حتى ولوا الأدبار منهزمين.

﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ وكان الله قوياً قادراً على الانتقام من أعدائه، عزيزاً غالباً لا يقهر، عزيزاً في ملكه وسلطانه، ردّ الأحزاب خائبين لم ينالوا خيراً، وأعز الإسلام وأهله، وصدق وعده، ونصر رسوله وعبده.

* لما انجلت المعركة وعادت الأحزاب، ذكر ما جرى لبني قريظة عندما خافوا العهد ونقضوه، قال تعالى:

﴿٢٦﴾، ﴿٢٧﴾ ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: وأنزل اليهود -وهم بنو قريظة- الذين أعانوا المشركين ونقضوا عهدهم وانقلبوا على النبي وأصحابه، أنزلهم من حصونهم وقلاعهم التي كانوا يتحصنون فيها.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي: وألقى الله في قلوبهم الخوف الشديد، حتى فتحوا الحصون وانهزموا واستسلموا، وخضعوا وذلوا، وسلموا أنفسهم للقتل، وأولادهم ونساءهم للسبي. نزلت الآية في يهود بني قريظة وذلك أنهم كانوا معاهدين لرسول الله ﷺ فنقضوا عهده وصاروا مع قريش، فلما انهزم المشركون وانصرفت قريش عن المدينة حاصر رسول الله بني قريظة حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم بأن يُقتل رجالهم، وتُسبى نساؤهم وذرينهم، فذلك قوله:

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ أي: تقتلون منهم فريقاً، يعني الرجال المقاتلين، وقتل منهم يومئذ ما بين الثمانمائة والتسعمائة.

﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ يعني النساء والذرية.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي: غنّمكم وملككم يا معشر المؤمنين أرض بني قريظة وعقارهم ونخيلهم، وديارهم، ومنازلهم وحصونهم، وأموالهم التي تركوها، كالحلي والأثاث والمواشي والسلاح والدراهم وغيرها.

﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ أي: وأرضاً أخرى كانت من قبل من شرفها وعزتها عند أهلها لم تتمكنوا من وطئها بعد بأقدامكم، وهي - خيبر -؛ لأنها أخذت بعد قريظة، وكل أرض فتحها المسلمون بعد ذلك.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي: قادراً على كل ما أراد، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن قدرته قدّر لكم ما قدّر، وختم تعالى هذه الآية ببيان قدرته على كل شيء، وكأن في ذلك إشارة إلى فتحه على المسلمين بعد ذلك.

* لما اجتمع نساء رسول الله ﷺ عليه في الغيرة وطلبن منه النفقة والكسوة، طلبن منه أمراً لا يقدر عليه في كل وقت، ولم يزلن في طلبهن متفقات في مراده متعنتات، فشق ذلك على الرسول، حتى وصلت به الحال إلى أنه آلى منهن شهراً، فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله، وأن يرفع درجة زوجاته ويُذهب عنهن كل أمر ينقص أجرهن، فأمر رسوله أن يخيرهن، فقال تعالى:

﴿٢٨﴾، ﴿٢٩﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: قل لزوجاتك اللاتي اجتمعن عليك يطلبن منك زيادة في النفقة، إن رغبتن في سعة الدنيا، ونعيمها، وبهرجها الزائل.

﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: فأقبلن حتى أدفع لكن شيئاً مما عندي من الدنيا، متعة الطلاق، وأطلقكن طلاقاً من غير

* وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ
أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ
لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ
فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا
يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾
إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ
وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ
وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا
وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

ضرار، ولا مغاضبة، ولا مشـاتمة، بل بسعة صدر، وانشراح بال.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: وإن كنتن ترغبن في رضوان الله ورسوله، والفوز بالنعيم الوافر في الدار الآخرة، وهذا مرادكن وغايـة مقصودكن، فاصـبرن على ما أنتنَّ عليه، وأطعن الله ورسوله.

﴿فَـإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ جواب الشرط، أي: فإن الله تعالى قد هيأ للمحسـنات منكن بمقابلة إحسـانهن ثواباً كبيراً لا يوصـف، وهو الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سـمعت، ولا خطر على قلـب بشر، قال المفسـرون: لما نصر الله نبيه، وفرق عنه الأحـزاب، وفتح عليه قريظة والنضير، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم، فقعدن حوله وقلن يا رسول الله: بنات كسرى وقيصر في الحـلي والحُلَل، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق، وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال، وأن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم، فأمره الله أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن، وأزواجه إذ ذاك تسـع زوجـات، فاخترن ﵅، الله ورسـوله والدار الآخـرة كلهن ولم يتخلف منهن واحدة.

* ثـم بعد مـا عـرض النبي ﷺ لزوجاتـه مـا عـرض واختـرن الله ورسـوله والـدار الآخرة، واسـتقر أمرهن تحت رسـول الله، فناسـب أن يخبرهن بحكمهـن وتخصيصهن دون سائر النساء، فقال ﷻ مذكراً وواعظاً نساء النبي ﷺ:

﴿٣٠﴾، ﴿٣١﴾ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَـيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِـيرًا * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُـنَّ لِلَّهِ وَرَسُـولِهِۦ وَتَعْمَـلْ صَٰلِحًـا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

﴿يَٰنِسَـآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَـةٍ مُّبَيِّنَـةٍ﴾ أي: مـن تفعل منكن كبيرة مـن الكبائر، أو ذنبـاً تجـاوز الحـد في القبح، وقد عصمهن الله عن ذلك، وبرأهن وطهرهن. قـال ابن عباس: يعني النشوز وسوء الخلق.

﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي: يكون جزاؤها ضعف جزاء غيرها من النساء، لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة والشرف.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِـيرًا﴾ أي: كان ذلك العقاب سهلاً يسيراً على الله، لا يمنعه منه كونهن أزواج ونساء النبـي ﷺ، وفي الآية تلوين للخطاب، فبعد أن كانت المخاطبة لهم على لسان رسـول الله ﷺ، وجه الخطاب إليهن هنا مباشرة لإظهـار الاعتناء بأمرهن ونصحهن، وهـذه الآيات خطاب من الله لأزواج النبي ﷺ إظهاراً لفضلهن، وعظم قدرهـن عند الله تعـالى؛ لأن العتاب والتشـديد في الخطاب مشعر برفعة رتبتهن، لشدة قربهن من رسول الله ﷺ ولأنهن أزواجه في الجنة، فبقدر القرب من رسول الله يكون القرب من الله. ثم ذكر تعالى عدله وفضله في قوله:

﴿وَمَـن يَقْنُـتْ مِنكُـنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي: ومن تواظب منكن على طاعـة الله وطاعة رسـوله، وتتقرب إلى الله بفعل الخير، وعمل الصالحات.

﴿نُّؤْتِهَـآ أَجْرَهَـا مَرَّتَيْنِ﴾ أي: نعطها الثواب مضاعفاً، ونثيبها مرتين: مرة على الطاعة والتقوى، وأخرى على طلبهن رضاء رسـول الله ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي: وهيأنا لها في الجنة - زيادة على ما لها من أجر - رزقاً حسناً مرضياً لا ينقطع.

* ثم أظهر فضيلتهن على النساء وذكر آداباً أمر الله ﷻ بها نساء النبي، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال:

﴿٣٢﴾-﴿٣٤﴾ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا * وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا * وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الخطاب لنساء النبي ﷺ كلهن، أي: أنتن تختلفن عن سائر النساء من جهة أنكن أفضل وأشرف من غيركن، لكونكن زوجات خاتم الرسل، وأفضل الخلق محمد ﷺ، فليست الواحدة منكن كالواحدة من آحاد النساء.

﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ شرط حذف جوابه لدلالة ما قبله، أي: إن خفتن الله، فأنتن بأعلى المراتب فلا تتحدثن مع الأجانب. قال القرطبي: بيّن تعالى أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى، لما منحهن الله من صحبة رسوله سيد الأولين والآخرين. وقال ابن عباس: يريد أن اتقيتن، فشرط عليهن التقوى بياناً فضيلتهن إنما تكون بالتقوى، لا بنفس اتصالهن برسول ﷺ فلهذا أرشدهن إلى قطع وسائل المحرم، فقال:

﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أي: فلا ترققن الكلام عند مخاطبة الرجال.

﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ أي: فيطمع من كان في قلبه فجور وريبة، وحب لمحادثة النساء، ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله:

﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ أي: وقلن قولاً حسناً عفيفاً لا ريبة فيه، ولا لين ولا تكسر عند مخاطبتكن للرجال. ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، ولا تخاطب الأجنبي كما تخاطب زوجها، وهذا أدب واجب على كل امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر.

﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي: الزمن بيوتكن ولا تخرجن لغير حاجة، لأنه أسلم وأحفظ لكن، ولا تكثرن الخروج مظهرات محاسنكن، متجملات أو متطيبات، كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين، فكل هذا دفع للشر وأسبابه.

وذكر أن عائشة ﷺ إذا قرأت هذه الآية تبكي حتى تبلّ خمارها، وقيل لسودة ﷺ: لم لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك؟ فقالت: قد حججت واعتمرت، وأمرني أن أقرّ في بيتي.

ولما أمرهن بالتقوى عموماً، وبجزئيات من التقوى، نص عليها لحاجة النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصاً الصلاة والزكاة، فقال تعالى:

﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: حافظن على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. قال ابن كثير: نهاهن أولاً عن الشر، ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده، وإيتاء الزكاة، وهي الإحسان إلى المخلوقين؛ ثم أمرهن بالطاعة عموماً، فقال:

﴿وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: أطعن الله ورسوله في جميع الأوامر والنواهي، وكل ما أمر الله به ورسوله أمر إيجاب أو استحباب، لتنلن مرتبة المتقيات.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ إنما يريد الله بأمركن بما أمركن به، ونهيكن بما نهاكن عنه، أن يخلصكن من دنس المعاصي، ويطهركن من الآثام، التي يتدنس بها عرض الإنسان كما يتلوث بدنه بالنجاسات.

﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ أي: يا أهل بيت النبوة، وفي ذلك تشريف وتكريم واختصاص عظيم.

﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ أي: ويطهركم من الذنوب والمعاصي تطهيراً بليغاً، وفي العبارة تلطف ببيان علة التكليف وغايته، ولما أمرهن بالعمل الذي هو فعل وترك، أمرهن بالعلم، وبين لهن طريقه، فقال:

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ أي: واقرأن آيات القرآن، واعرفن سنة النبي ﷺ، فإن فيهما الفلاح والنجاح. قال الزمخشري: ذكرهن أن بيوتهن مهابط الوحي، وأمرهن ألا ينسين ما يتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين:

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ
لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا
مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ
أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ
مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ
مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ
أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا
﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى
ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ
يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن
رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ
لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

آيات بينات تدل على صدق النبوة، وحكمة وعلوم وشرائع سماوية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: عالماً بما يصلح لأمر العباد، خبيراً بمصالحهم، ولذلك شرع للناس ما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم، فلطفه وخبرته يقتضي حثهم على الإخلاص وإسرار العمل، ومجازاة الله على تلك الأعمال. ومن معاني اللطيف: الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشر، بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقاً له إلى أعلى الدرجات، وأرفع المنازل.

* لما ذكر تعالى ثواب زوجات الرسول ﷺ وعقابهن، لو قدر عدم الامتثال، وأنه ليس مثلهن أحد من النساء، ذكر بقية النساء غيرهن؛ ثم أخبر تعالى أن المرأة والرجل في الجزاء والثواب سواء، فقال:

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ أن المنقادين لأوامر الله والمنقادات، والمتمسكين بأوامر الإسلام المتخلقين بأخلاقه رجالاً ونساءً، وهذا في الشرائع الظاهرة، إذا كانوا قائمين بها، وبدأ سبحانه بذكر الإسلام الذي هو مجرد الدخول في الدين، والانقياد له مع العمل، ثم عطف على المسلمين - المسلمات - تشريفاً لهن بالذكر.

﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: المصدقين بالله وآياته، وما أنزل على رسله وأنبيائه وهذا في الأمور الباطنة، من عقائد القلب وأعماله.

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ أي: العابدين الطائعين، المداومين على الطاعة.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ أي: الصادقين في إيمانهم، ونياتهم، وأقوالهم، وأعمالهم.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ أي: الصابرين على الطاعات، وعن الشهوات في المكره والمنشط.

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ أي: الخاضعين الخائفين من الله -جل وعلا-، المتواضعين له بقلوبهم وجوارحهم، خاصة في صلواتهم.

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ أي: المتصدقين بأموالهم على الفقراء بالإحسان، وأداء الزكوات والصدقات.

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ أي: الصائمين لوجه الله شهر رمضان وغيره من الأيام، فالصوم زكاة البدن يزكيه ويطهره.

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ أي: عن المحارم والآثام، وعما لا يحل من الزنى ومقدماته، وكشف العورات.

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ أي: المديمين ذكر الله بألسنتهم وقلوبهم في كل الأوقات والأمكنة، خاصة أوقات الأوراد المقيدة، كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: أعد هؤلاء المتقين الأبرار، المتصفين بالصفات الجليلة أعظم الأجر والثواب وهو الجنة، مع تكفير الذنوب بسبب ما فعلوه من الأعمال الصالحة.

* عن العباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لمولاه زيد بن حارثة، فاستنكفت منه وكرهت وأبت، فنزلت الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ...﴾ الآية فأذعنت زينب حينئذ وتزوجته، وفي رواية: «فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش، فلما نزلت الآية، جاء أخوها فقال: يا رسول الله مرني بما شئت قال: «فزوجها من زيد»، فرضي وزوجها.

٣٦ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: ولا ينبغي ولا يصح ولا يليق بأي واحد من المؤمنين والمؤمنات.

﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ أي: إذا أمر الله ﷻ، وأمر رسوله بشيء من الأشياء، وحتما به وألزما به، وذكر اسم الله للتعظيم وللإشارة إلى أن قضاء رسول الله هو قضاء الله، لكونه لا ينطق عن الهوى.

﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: أن يكون لهم رأي أو اختيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل عليهم الانقياد والتسليم. قال ابن كثير: وهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ولا رأي ولا قول، ولهذا شدَّد النكير فقال:

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أي: ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله فقد حاد عن الطريق السوي، وبعد عن طريق الصواب، وضل ضلالاً بيناً واضحاً، فذكر تعالى أولاً: السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضلال، الدال على العقوبة والنكال.

* ثم ذكر الله ﷻ مخبراً عما قاله النبي ﷺ لمولاه زيد بن ثابت، قال تعالى:

٣٧ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: اذكر أيها الرسول وقت قولك للذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام.

﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالتحرير من العبودية والإعتاق، وهو زيد بن حارثة كان من سبي الجاهلية اشترته خديجة رضي الله عنها ووهبته لرسول الله ﷺ فكان مملوكاً عنده، ثم أعتقه وتبناه، وزوجه ابنة عمته زينب بن جحش رضي الله عنها أي: حين جاءك مشاوراً في فراقها، فقلت له ناصحاً ومخبراً بمصلحته مع وقوعها في قلبك.

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: أمسك زوجتك زينب في عصمتك ولا تطلقها، واتق الله في أمرها واصبر على ما جاءك منك.

﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: وتضمر -يا محمد- في نفسك ما سيظهره الله وهو إرادة الزواج بها، والذي أخفاه رسول الله ﷺ أمر جائز مباح لا إثم فيه ولا عتب، ولكنه خاف أن يقول الناس تزوج امرأة ابنه إذ كان قد تبناه، فأخفاه حياء وحشمة وصيانة لعرضه من ألسنتهم، فالذي أخفاه ﷺ هو إرادة تزوجها ليبطل حكم التبني، فأبدى الله ذلك بأن قضى له بتزوجها.

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ أي: تهاب أن يقول المنافقون تزوج محمد حليلة ابنه، والله أحق أن تخشاه وحده، وأن تجهر بما أوحاه إليك من أنك ستتزوج بها بعد أن يطلقها زيد. قال ابن عباس: خشي أن يقول المنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ أي: فلما قضى زيد حاجته من نكاحها، وطابت نفسه، ورغب عنها، وطلقها، زوجناك إياها يا محمد، وهذا نص قاطع صريح على أن الذي أخفاه رسول الله ﷺ هو إرادة الزواج بها بعد تطليق زيد لها تنفيذاً لأمر الوحي، لا حباً لها كما زعم الأفاكون، ومعنى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ جعلناها زوجة لك. قال المفسرون: إن الذي تولى تزويجها هو الله -جل

وعلا-، فلما انقضت عدتها، دخل عليها رسول الله ﷺ بلا إذن ولا عقد ولا مهر ولا شهود، وكان خصوصية للرسول ﷺ. روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ وتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني ربي من فوق سبع سموات». ثم ذكر تعالى الحكمة من هذا الزواج فقال:

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي: لئلا يكون في تشريع الله على المؤمنين ضيق ومشقة، وتأثم في حق تزوج مطلقات الأبناء من التبني، إذا لم يبق لأزواجهن حاجة فيهن، والمعنى زوجناك زينب - وهي امرأة زيد الذي تبنيته - لكيلا يظن أن امرأة المتبني لا يحل نكاحها.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ وكان أمر الله لك، ووحيه إليك بتزوج زينب مقدراً محتماً، كائناً لا محالة.

* ولما نفى الحرج عن المؤمنين، نفى الحرج عن سيد المرسلين بخصوصه على سبيل التكريم والتشريف، ودفع طعن من طعن في الرسول ﷺ في كثرة أزواجه، وأنه طعن بما لا مطعن فيه، فقال:

(٣٨) ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: لا حرج ولا إثم ولا عتاب على النبي فيما أباح الله له وللأنبياء قبله وقسم من الزوجات. وكان اليهود عابوه بكثرة النكاح، فرد الله عليه بقوله:

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: هذه سنة الله في جميع الأنبياء السابقين حيث وسع عليهم فيما أباح لهم، وهي سنة الأنبياء الماضية كداود وسليمان، فكان لداود مائة امرأة ولسليمان ثلاثمائة امرأة، عدا السريات.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي: قضاء مقضياً، وحكماً مقطوعاً به من الأزل، لا يتغير ولا يتبدل.

* ثم أثنى تعالى على جميع الأنبياء والمرسلين، بقوله:

(٣٩)، (٤٠) ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا * مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ أي: هؤلاء الذين يبلغون رسالات الله إلى الناس - يا محمد، وجعلت لك قدوة بهم، هم الذين يبلغون رسالات الله إلى من أرسلوا إليه، فيتلون على العباد آيات الله وحججه وبراهينه، ويدعونهم إلى الله.

﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: يخافون الله وحده ولا يخافون أحداً سواه، فاقتد -يا محمد- بهم.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: يكفي أن يكون الله محاسباً عباده على جميع الأعمال والأفعال، فينبغي أن لا يخشى غيره.

ثم أبطل تعالى حكم التبني الذي كان شائعاً في الجاهلية، فقال:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أي: لم يكن أبا رجل منكم على الحقيقة، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح فقطع انتساب زيد بن حارثة منه من هذا الباب. قال المفسرون: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب، قال الناس: إن محمداً قد تزوج امرأة ابنه فنزلت الآية.

﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أي: ولكنه ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين، ختم الله به الرسالات السماوية، فلا نبي بعده، إلى يوم القيامة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: هو العالم بأقوالكم وأفعالكم، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم، ويعلم حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح لفضله ومن لا يصلح.

* ثم يأمر ﷻ عباده بكثرة ذكرهم له، فهو المنعم والمتفضل عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن، قال تعالى:

(٤١)-(٤٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا
إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم
مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ
وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ
مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ
فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ
إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ
وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً
مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا
خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا
عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا
يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أي: يا أيها الذين صدقوا الله واتبعوا رسوله، اذكروا الله بالتهليل والتحميد، والتمجيد والتقديس ذكراً كثيراً، بالليل والنهار، والسفر والحضر، وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات، على جميع الأحوال، فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح، وداع إلى محبة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكف اللسان عن الكلام القبيح.

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: وسبحوا ربكم ونزهوه في الصباح والمساء، وخصها بالذكر لأنها أفضل الأوقات بسبب تنزل الملائكة فيها.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ أي: من رحمته بالمؤمنين، ولطفه بهم، أن جعل صلاته عليهم وثنائه، وصلاة ملائكته ودعائهم، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل، إلى نور الإيمان والتوفيق، والعلم والعمل، فهو -جل وعلا- يرحمهم على الدوام، ويعتني بأمرهم، وبكل ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ أي: وملائكته يصلون عليكم أيضاً بالدعاء والاستغفار وطلب الرحمة. قال ابن كثير: والصلاة من الله سبحانه وثناؤه على العبد عند الملائكة، وقيل: الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة: الدعاء والاستغفار.

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لينقذكم من الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمات العصيان إلى نور الطاعة والإيمان. ثم أخبر سبحانه برحمته للمؤمنين تأنيساً لهم وتثبيتاً.

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي: واسع الرحمة بالمؤمنين، حيث يقبل القليل من أعمالهم، ويعفو عن الكثير من ذنوبهم، لإخلاصهم في إيمانهم، فهذه رحمته في الدنيا، وأما رحمتهم في الآخرة، فأجل رحمه، وأفضل ثواب، وهو:

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ أي: تحية هؤلاء المؤمنين يوم يلقون ربهم السلام والإكرام في الجنة، وأمان لهم من العذاب.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي: وهيأ لهم أجراً حسناً، وهو الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، وما فيها من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والملاذ والمناظر، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

* ثم لما بيّن تعالى أنه أخرج المؤمنين من ظلمات الكفر والضلال إلى أنوار الهداية والإيمان، عقبه بذكر أوصاف السراج المنير الذي أضاء الله به الأكوان، وأحيا به القلوب، وهي أوصاف رسالته وزبدتها وأصولها التي اختص بها، فقال:

﴿٤٥﴾-﴿٤٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا * وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ أي: شاهداً على أمتك وعلى جميع الأمم، بأن أنبياءهم قد بلغوهم رسالة ربهم.

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أي: مبشراً للمؤمنين بالرحمة وبالجنة، وبما أعده لهم من جزيل الثواب وعظيم الأجر.

﴿وَنَذِيرًا﴾ أي: ومنذراً للعصاة وللكافرين من عذاب الجحيم، وبما أعده الله لهم من عظيم العقاب.

وقدمت البشارة على النذارة؛ لأن النبي ﷺ غلب عليه التبشير، لأنه رحمة للعالمين ولكثرة عدد المؤمنين في أمته.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ وداعياً للخلق إلى توحيد الله وعبادته وطاعته،

بأمره -جل وعلا- لا من تلقاء نفسك، وفي ذكر هذه الصفة ما يستلزم استقامته على ما يدعو إليه، وإخلاص الدعوة لربه، لا إلى نفسه، وهذا ما امتن الله به على رسوله ﷺ.

﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أي: وأنت -يا محمد- كالسراج الوهاج المضيء للناس، يُهتدى بك في الدهماء، كما يهتدى بالشهاب في الظلماء، وكالشمس في إشراقها وإضائتها لا يجحدها إلا معاند، وقد شبه بالسراج المنير؛ لأن الله جلى به ظلمات الشرك، واهتدى به الضالون، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به، ووصفه تعالى بخمسة أوصاف كلها كمال وجمال، وثناء وجلال، وختمها بأنه - صلوات الله عليه - هو السراج الوضاء الذي بدّد به ظلمات الضلال - فصلوات ربي وسلامه عليه - في كل حين وآن.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ أي: وبشر -يا محمد- المؤمنين خاصة بأن لهم من الله العطاء الواسع الكبير في جنات النعيم، وذكر هذا الفضل مما يحث وينشط العاملين.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾.

قال السعدي: «الفضل الكبير هو النصر في الدنيا وهداية القلوب وغفران الذنوب وكشف الكروب».

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: لا تطعهم فيما يطلبونه منك من المساهلة والملاينة في أمر الدين، بل اثبت على ما أوحي إليك. وفي الآية تعريض لغيره من أمته، لأنه ﷺ معصوم عن طاعتهم في شيء مما يريدونه ويشيرون به عليه.

﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أي: ولا تكترث بأذيتهم لك، وصدهم الناس عنك، فإن ذلك جالب لهم، وداع إلى قبول الإسلام، وإلى كف كثير من أذيتهم له ولأهله.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: اعتمد في جميع أمورك وأحوالك على الله.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: إن الله يكفي من توكل عليه في أمور الدنيا والآخرة، وفي الآية إشارة إلى أن التوكل أمره عظيم، فمن توكل على الله كفاه ما أهمه.

* ثم أخبر تعالى المؤمنين أنهم إذا نكحوا المؤمنات، ثم أرادوا الفراق والطلاق من نساء المؤمنين فعليهم بالطريقة المثلى في تطليقهن، قال تعالى:

﴿٤٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يا أيها المؤمنون الذين صدقوا بالله ورسوله، إذا عقدتم عقد الزواج على المؤمنات وتزوجتموهن.

﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ ثم طلقتموهن من قبل أن تجامعوهن، وإنما خص المؤمنات بالذكر مع أن الكتابيات يدخلن في الحكم، للتنبيه على أن الأليق بالمسلم أن يتخير لنطفته، وألا ينكح إلا مؤمنة عفيفة.

﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ أي: فليس لكم عليهم حق في العدة تستوفون عددها عليهن؛ لأنكم لم تعاشروهن، فليس هناك احتمال للحمل حتى تحتبسوا المرأة من أجل صيانة نسبكم.

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: فالواجب عليكم إكرامهن وإعطاؤهن من أموالكم متعة يتمتعن بها بحسب الوسع، بما تطيب نفوسكم به من مال أو كسوة، تطييباً لخاطرهن، وتخفيفاً لشدة وقع الطلاق عليهن.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: وخلوا سبيلهن تخلية بالمعروف مع الستر الجميل، من غير إضرار ولا إيذاء، ولا هضم لحقوقهن، قيل: السراح الجميل هو كلمة طيبة دون أذى ولا منع واجب.

* ثم ذكر تعالى ما يتعلق بأحوال زوجات الرسول ﷺ، فقال:

﴿٥٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: إنا قد أبحنا لك -يا محمد- أنواعاً

۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ
مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ
وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ
مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ٥١ لَّا يَحِلُّ لَكَ
ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ
حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ
إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ
إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ
لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ
وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ
مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ
وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ
مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣
إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٥٤

من النساء، توسعة عليك وتيسيراً لك في تبليغ الدعـوة، فمن ذلك أننا أبحنا لك زوجاتك اللاتي تزوجتهن بصداق مسمى، وهن في عصمتك.

﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ **أي: وأبحنا لك أيضاً النسـاء الـلاتي تملكهـن في الحرب بطريـق الانتصار على الكفـار، وإنما قدمهن بطريـق الغنائم؛ لأنهن أفضل من اللائي يملكـن بالشراء، فقد بذل في إحرازهن جهد ومشـقة لم يكن في الصنف الثاني.**

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ **أي: وأبحنـا لك قريباتـك من بنـات الأعـمام والعمات، والأخوال والخالات بشرط الهجرة معك.**

﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ **أي: وأحللنا لك النسـاء المؤمنات الصالحات اللواتي وهبن أنفسهن لك، حباً في الله ورسوله وتقرباً لك.**

﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ **أي: إن أردت -يـا محمـد- أن تتـزوج من شـئت منهن دون مهر.**

﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ **أي: خاصـة لك -يـا محمد- دون سائر المؤمنين فإنه لا يحل لهم التـزوج دون مهر، ولا تصح الهبة، بل يجب مهر المثل.**

﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ **أي: قد علمنا ما أوجبنـا على المؤمنين من نفقة، ومهر، وشـهود في العقد، وعدم تجاوز أربع من النسـاء، وما أبحنا لهم من ملك اليمين عدا الحرائر، وأما أنت فقد خصصناك بخصائص تيسيراً لك.**

﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞ﴾ **لئلا يكون عليك مشقة أو ضيق، وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ.**

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ **أي: عظيم المغفرة، واسع الرحمة.**

*** ثم ساق الله ﷻ من نعمه وفضله على رسـوله ورحمته به أن أباح له ترك القسم بين زوجاته على الوجوب، وأنه إن فعل ذلك فهو تبرع منه، ومع ذلك فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، قال تعالى:**

٥١ ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا﴾.

﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ **أي: ولك - أيها النبي - الخيـار في أن تطلق من تشاء من زوجاتك، وتمسك من تشاء منهن أو تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك ولا تبيت عندها.**

﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَ﴾ **أي: وإذا أحببت أن تؤوي إليك امـرأة ممن عزلت من القسـمة فلا إثم عليك، ولا عتب، ثم بين الحكمة في ذلك:**

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ **أي: ذلـك التخيير والتوسـعة الذي خيرناك ووسـعنا عليـك في أمرهن أقـرب أن ترتاح قلوبهـن فلا يحزن، ويرضين بصنيعك؛ لأنهن إذا علمن أن هذا أمر من الله، كان أطيب لأنفسهن فلا يشعرن بالحزن والألم لعلمهن أنك لم تترك واجباً، ولم تفرط في حق لازم.**

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ خطاب للنبي على جهة التعظيم، أي: يعلم ما في قلبك -يا محمد- وما في قلب كل إنسان، من عدل أو ميل، ومن حب أو كراهية، وإنما خيرناك فيهن تيسيراً عليك فيما أردت.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا﴾ أي: واسع العلم، يعلم جميع ما تظهرون وما تخفون، حليماً يضع الأمور في نصابها، ولا يعاجل بالعقوبة، بل يؤخر ويمهل لكنه لا يهمل.

* ثم ذكرت الآيات شكر الله، الذي لم يزل شكوراً لزوجات رسوله ﷺ، حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم، فكان جزاؤهن، أن رحمهن وقصر رسوله عليهن، فقال:

﴿٥٢ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ أي: لا يحل لك أيها النبي النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتي في عصمتك، ولا يحل لك أن تطلق واحدة منهن وتنكح مكانها أخرى، فحصل بهذا أمنهن من الضرائر، ومن الطلاق، لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة.

﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾ أي: ولو أعجبك جمال غيرهن من النساء فلا يحللن لك، إلا ما كان من الجواري والإماء، فلا بأس في ذلك لأنهن لسن زوجات.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ أي: مطلعاً على أعمالكم شاهداً عليها، وفيه تحذير من مجاوزة حدوده، وتخطي حلاله وحرامه.

* لما ذكر تعالى أحوال النبي ﷺ مع أزواجه، ذكر هنا الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمنون عند دخولهم بيوت النبي ﷺ من الاستئذان وعدم الإثقال، ثم بيّن شرف الرسول بصلاة الله والملائكة عليه، قال تعالى:

﴿٥٣، ٥٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا * إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ الإضافة للتشريف والتكريم، والآية توجيه للمؤمنين لهذا الأدب السامي العظيم. والمعنى: لا تدخلوا بيوت النبي في حال من الأحوال إلا في حال الإذن لكم منه ﷺ، مراعاة لحقوق نسائه، وحرصاً على عدم إيذائه والإثقال عليه.

﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي: لا تدخلوها بغير إذن للدخول، إلا حين يدعوكم إلى طعام غير منتظرين نضجه.

﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ وفيه تأكيد للمنع وبيان الوقت الذي يكون فيه الدخول، أي: ولكن إذا دعيتم، وأذن لكم في الدخول فادخلوا.

﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ فإذا انتهيتم من الطعام فتفرقوا إلى دوركم، ولا تمكثوا.

﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ معطوف على: ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ﴾ أي: لا تدخلوا بيوته منتظرين للطعام، ولا مستأنسين لحديث بعضكم بعضاً، وبهذا نهوا أن يطيلوا الجلوس؛ يستأنس بعضهم ببعض لحديث يحدثه به، ثم بين حكمة النهي وفائدته، فقال:

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ أي: إن صنيعكم وانتظاركم هذا يؤذي الرسول، ويضايقه ويثقل عليه، ويشق عليه حبسكم إياه عن شؤون بيته، ويمنعه من قضاء كثير من مصالحه وأموره.

﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ﴾ أي: فيستحيي من إخراجكم، ويمنعه حياؤه أن يأمركم بالانصراف، لخلقه الرفيع، وقلبه الرحيم، وكان ﷺ يحتمل إطالتهم كرماً منه، فيصبر على الأذى في ذلك، فعلّم الله من يحضره

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَا
أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدًا
﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابٗا
مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ
مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنٗا وَإِثْمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا
يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ۞لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ
وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ
لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَۖ
أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي
ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلٗا ﴿٦٢﴾

٤٢٦

الأدب، وصار أدباً لهم ولمن بعدهم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ **والله -جل وعلا- لا يترك بيان الحق، ولا يمنعه مانع من إظهار الحق وتبيانه لكم. قال القرطبي: هذا أدبٌ أدَّبَ الله به الثقلاء.**

ثم ساقت الآيات أدباً عظيماً في خطاب زوجات النبي ﷺ؛ ونساء الأمة تبعاً لهن.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖ﴾ **أي: وإذا أردتم حاجة أو متاعاً من أزواجه أمهات المؤمنين، فاطلبوه من وراء حاجز وحجاب بينكم وبينهن.**

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖ﴾

قال العز بن عبد السلام: «البعد عن مظان الريب حزم ديني وقد يجب في بعض المواطن ويستحب في بعضها».

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ **أي: سؤالكم إياهن المتاع من وراء حجاب أزكى لقلوبكم وقلوبهن وأطهر، وأنفى للريبة وسوء الظن، وخواطر السوء التي تعرض للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال، وهذه كلمة جامعة وقاعدة عامة، وفي هذا أدب لكل مؤمن، وتحذير له من أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له، والمكالمة من دون حجاب لمن تحرم عليه.**

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ **أي: وما ينبغي لكم ولا يليق بكم يا معاشر المؤمنين، أن تؤذوا رسولكم أذية قولية أو فعلية، بجميع ما يتعلق به.**

﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ **أي: ولا أن تتزوجوا زوجاته من بعد وفاته أبداً؛ لأنهن كالأمهات لكم، وهو كالوالد فهل يليق بكم أن تؤذوه في نفسه وأهله؟**

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ **أي: إن إيذاءه ونكاح أزواجه من بعده أمر عظيم، وذنب كبير، لا يغفره الله لكم، وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله ﷺ وإيجاب حرمته حياً وميتاً ما لا يخفى، وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه. ثم قال تعالى:**

﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٗا﴾ **أي: إن تظهروا أمراً من الأمور على ألسنتكم، أو تخفوه في صدوركم، فإنه عالم به وسيجازيكم عليه، قال البيضاوي: وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل ومبالغة في الوعيد.**

*** ثم لما أنزل تعالى الحجاب وأنهن لا يسألن متاعاً إلا من وراء حجاب، قال الآباء والأبناء وغيرهم من المحارم: يا رسول الله أو نحن أيضاً نكلمهن من وراء الحجاب، استثنى الله المحارم، فقال:**

﴿٥٥﴾ ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدًا﴾.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ **أي: لا حرج ولا إثم على النساء في ترك الحجاب أمام المحارم من الرجال.**

والمراد بـ ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ **نساء المؤمنين، قال ابن عباس؛ لأن نساء اليهود والنصارى يصفن لأزواجهن النساء المسلمات، فلا يحل للمسلمة أن تبدي شيئاً منها لئلا تصفها لزوجه الكافر.**

﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ **أي: خفن الله يا معشر النساء، واخشينه في الخلوة والعلانية، أن تتعدين ما حد لكن، فتبدين من زينتكن ما ليس لكن أن**

تبدينـه، أو تتركن الحجـاب أمام من يجب عليكن الاحتجاب منه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ أي: لا تخفى عليـه خافية من أموركن، يعلم خطرات القلوب كما يعلم حركات الجوارح، وهذا في غاية الحسـن في هذا الموضع؛ لأن ما سبق إشـارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشـف لهم، فختمها بأن الله شـاهد عند اختلاء بعضهم ببعض، فالخلـوة عنده مثل الجلـوة، فعليهم أن يتقوا الله.

* ثم بـيَّن تعـالى قدر الرسـول العظيم، ومنزلتـه، ورفعة درجته عند الله، وعند خلقه، فقال:

﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ أي: إن الله -جل وعلا- يرحم نبيه، ويعظم شـأنه ويرفع قدره ويثني عليه، وملائكته الأبرار يدعون للنبي ويسـتغفرون له، ويطلبون من الله أن يمجـد عبده ورسـوله وينيله أعلى المراتب. والصـلاة من الله رحمته ورضوانـه، ومـن الملائكـة الدعاء والاسـتغفار، ومـن الأمـة الدعاء والتعظيم لأمره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ أي: اقتدوا بالله وملائكتـه، فأنتم أيهـا المؤمنون أكثروا من الصلاة عليه والتسليم، فحقه عليكم عظيم، فقد كان المنقذ لكم من الضلالة إلى الهدى، والمخـرج لكم من الظلمات إلى النور، وجـزاء له على بعض حقوقه عليكـم، وتكميلاً لإيمانكـم، وتعظيماً له ﷺ، وزيادة في حسـناتكم، وتكفيراً من سـيئاتكم. عن كعب بن عجرة قلنا يا رسـول الله: قد عرفنا التسليم عليك فكيف الصلاة عليك؟ فقـال: «قولوا اللهم صل على محمـد وعلى آل محمد كما صليت عـلى إبراهيم..» الحديث، وحكمة صلاة الملائكـة والمؤمنين على النبي ﷺ تشريفهم بذلك، حيث اقتدوا بالله -جـل وعـلا- في الصـلاة عليه وتعظيمه، ومكافـأة لبعض حقوقه على الخلـق؛ لأنه الواسـطة العظمى في كل نعمة وصلت لهم، وحق على من وصل له نعمة من شخص أن يكافئه، ولما كان الخلق عاجزين عـن مكافأته ﷺ طلبوا مـن القادر الملك أن يكافئـه، وهذا هو السر في قولهم: «اللهم صل على محمد».

* لما أمر الله تعالى بتعظيم رسوله ﷺ، ونهى عن أذيته، وتوعد عليها، وتهدد من آذاه، بمخالفة أوامـره وارتكاب زواجره على ذلك، وإيذاء رسوله بعيب أو بنقص، فقال تعالى:

﴿٥٧﴾، ﴿٥٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا * وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يؤذون الله بالكفر ونسبة الصاحبة والولد له، ووصفه بما لا يليق به -جل وعـلا- كقولـة اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وقول النصارى: ﴿ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ويؤذون الرسول بالتكذيب برسالته، والطعـن في شريعتـه، والاسـتهزاء بدعوته، قـال ابن عبـاس: نزلت في الذيـن طعنوا على الرسـول ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي.

﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: طردهم من رحمته، ومن كل خير في الدنيا والآخرة، وأحل عليهم سخطه وغضبه في الدنيا بالهوان والصغار، وفي الآخرة بالخلود في عذاب النار.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ أي: وهيأ لهم عذاباً شـديداً، بالـغ الغاية في الإهانـة والتحقير، فأذية الرسـول ليسـت كأذية غـيره، وإن كانت أذية المؤمنين عظيمة، ولهذا قال:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾ أي: يؤذون أهل الإيمان بغير ما فعلوه، وبغير جناية واستحقاق للأذى.

﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ أي: فقـد حملوا أنفسـهم البهتان والكذب، والـزور، والذنب الواضح الجلي. قـال القرطبي: أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأن إيذاء الله ورسـوله لا يكـون إلا بغير حق أبـداً، وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ومنه.

* لما فرغ سـبحانه مـن الزجر لمن يؤذي رسـوله، والمؤمنين، والمؤمنات من عباده، سـاقت الآيات آية عظيمة تسـمى آية الحجاب، فأمر الله نبيه أن

يأمر النساء عموماً، ويبدأ بزوجاته وبناته، لأنهن آكد من غيرهن، ولأن الآمر لأهله، ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم، فقال تعالى:

﴿٥٩﴾-﴿٦٢﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا * لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا * مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا * سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أي: قل -يا محمد- لزوجاتك - أمهات المؤمنين - وبناتك الكريمات، وسائر نساء المؤمنين، قل لهن يلبسن الجلباب الواسع، الذي يستر جميع بدن المرأة ويغطي رؤوسهن ووجوههن وصدورهن وسائر أجسامهن؛ لأن ذلك يستر محاسنهن وزينتهن، ويدفع عنهن ألسنة السوء، ويحفظهن ويحميهن من النظرات الفاجرة، ويميزهن عن صفات نساء الجاهلية.

روى الطبري عن ابن عباس أنه قال في الآية: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عينا واحدة،

وروى ابن كثير عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة السلماني عن قول الله ﷻ: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى.

ثم ذكر تعالى حكمة ذلك، فقال:

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾ أي: ذلك التستر وإدناء الجلابيب أقرب بأن يعرفن بالعفة والتستر والصيانة، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد، وقيل: أقرب بأن يعرفن أنهن حرائر، ويتميزن عن الإماء والعواهر، فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن.

قال السعدي: «دل على وجود أذية، إن لم يتحجبن؛ وذلك لأنهن إذا لم يتحجبن ربما ظن أنهن غير عفيفات.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ أي: إنه تعالى غفور لما سلف منهن من تفريط وترك إدناء الجلابيب، بأن بين لكم الأحكام، وأوضح الحلال والحرام.

وأما من جهة أهل الشر والمنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر فقد توعدهم، بقوله:

﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ لئن لم يترك هؤلاء المنافقون - الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر - نفاقهم، والزناة - الذين في قلوبهم مرض فجور - فجورهم.

﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ الذين ينشرون الأراجيف والأكاذيب لبلبلة الأفكار، وخلخلة الصفوف، ونشر أخبار السوء.

﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: لنسلطنك عليهم - يا محمد، ونأمرك بعقوبتهم وقتالهم، ثم يخرجون من المدينة فلا يعودون إلى مجاورتك فيها إلا زمناً قليلاً، ريثما يتأهبوا للخروج، بهذا وعد الله نبيه أن يخرج أعداءه من المدينة وينفيهم على يده إظهاراً لشوكته.

﴿مَّلۡعُونِينَ﴾ أي: مبعدين عن رحمته تعالى.

﴿أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ أينما وجدوا وأدركوا، أخذوا على وجه الغلبة والقهر، ثم قتلوا لكفرهم بالله تقتيلاً.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُ﴾ أي: هذه سنة الله في المنافقين وعادته فيمن سبق منهم أن يفعل بهم ذلك. قال القرطبي: أي سن الله ﷻ فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويقتل.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ أي: ولن تتغير أو تتبدل سنة الله، لأنها سنة ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء في الخلف والسلف، وفي الآية تسلية للنبي ﷺ، أي فلا تحزن على وجود المنافقين - يا محمد، فإن ذلك سنة قديمة لم يخل منهم زمن من الأزمان.

* ثم ذكر تعالى الساعة وأهوالها وأحوال الكفار فيها، فقال:

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ
لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ
وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا
فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ
وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ
ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ
لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ
عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

﴿٦٣﴾-﴿٦٨﴾ ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا * إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ * وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ * رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ **أي: يسألك -يا محمد- المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية، والتكذيب لوقوعها عن وقت قيام الساعة وحصولها.**

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ **قل لهم: لست أعرف وقتها ولا زمن وقوعها، وإنما يعلم ذلك علام الغيوب، فليس لي ولا لغيري بها علم، فإن الله أخفاها لحكمة، ولم يطلع عليها ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، ومع هذا، فلا تستبطؤوها.**

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ **أي: وما يعلمك أن الساعة تكون في وقت قريب؟ وفيه تهديد للمستعجلين، وتبكيت للمتعنتين، والإظهار في موضع الإضمار للتهويل وزيادة التقرير.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ **أي: طرد الكافرين وأبعدهم عن رحمتهم، لأن الكفر صار دأبهم وطريقهم، وهيأ لهم في الآخرة ناراً شديدة مستعرة.**

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ **أي: مقيمين في السعير أبد الآبدين، لا يجدون لهم من ينجيهم وينقذهم من عذاب الله.**

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ **أي: يوم تتقلب وتسحب وجوههم في النار من جهة إلى جهة كاللحم يشوى؛ فيذوقون حرها، ويشتد عليهم أمرها، ويتحسرون على ما أسلفوا.**

قال ابن عاشور: «تخصيص الوجوه بالذكر من بين سائر الأعضاء؛ لأن حر النار يؤذي الوجوه أشد مما يؤذي بقية الجلد».

﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ **يقولون متحسرين على ما فاتهم: يا ليتنا أطعنا الله ورسوله حتى لا نبتلى بهذا العذاب المهين، ولكن أمنيتهم فات وقتها، فلم تفدهم إلا حسرة وندماً، وهماً، وغماً، وألماً.**

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ **أي: وقال الكافرون: ربنا أطعنا القادة والأشراف فينا وقلدناهم على ضلالهم فأضلونا طريق الهدى والإيمان.**

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ **أي: اجعل عذابهم ضعفي عذابنا، لأنهم كانوا سبب ضلالنا وإغوائنا، واطردهم من رحمتك طرداً شديداً.**

*** ثم حذر تعالى من إيذاء الرسول، كما أذى اليهود نبيهم، فقال:**

﴿٦٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ **أي: يا أيها الذين صدقوا الله واتبعوا رسوله، لا تكونوا أمثال بني إسرائيل الذين آذوا نبيهم موسى واتهموه ببرص في جسمه، أو آذوه لفرط تستره وحيائه، فأظهر الله براءته وأكذبهم فيما اتهموه به، روى البخاري**

عن أبي هريرة أن رسـول الله ﷺ قال: «إن موسـى كان رجلاً حيياً ستيراً، لا يُرى من جلده شيءٌ استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيـل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص وإما أدرة - انتفاخ الخصية - وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسـل، فلما فرغ أقبل على ثيابـه ليأخذهـا وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسـى عصـاه، وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتـى انتهى إلى مـلإ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسـن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون...» الحديث.

﴿وَكَانَ عِنـدَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ وكان موسـى ذا وجاهة، ورفعة ومكانة عند ربه، مستجاب الدعوة عند الله، لم يسأل شـيئاً إلا أعطاه، من وجاهته العظيمة عند الله أنه شـفع في أخيـه هارون أن يرسله معه، فأجاب الله سؤاله.

* وبعد أن نهى ﷻ عن أذية رسوله ﷺ، أمر المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه، قال تعالى:

﴿٧٠﴾، ﴿٧١﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَـا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُـواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلًا سَـدِيدًا * يُصۡلِـحۡ لَكُمۡ أَعۡمَـٰلَكُـمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُـمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَـن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَـا ٱلَّذِينَ ءَامَنُـواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا﴾ يأمر تعالى المؤمنين بتقواه ومراقبته في جميع أقوالهم وأفعالهـم، وأن يقولوا قولاً مسـتقيماً صوابـاً، وحقاً مرضيـاً لله، أي: قولاً قاصداً غير جائـر، حقاً غير باطل. ثم ذكر ما يترتب على تقواه، وقوله القول السديد، فقال:

﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَـٰلَكُمۡ﴾ أي: يوفقكم لصالح الأعمال، ويكون ذلك سبباً أن يتقبلها منكم، قال ابن عباس: يتقبل حسناتكم.

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ أي: يمحو عنكم الذنـوب والأوزار التي هي السـبب في هلاككـم، فالتقوى تسـتقيم بها الأمـور، ويندفع بها كل محذور، ولهذا قال:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُـولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ أي: ومن أطاع الله والرسول فقد نال غاية مطلوبه.

قال القرطبي: وعد ﷻ بأن يجازي على القول السـداد بإصـلاح الأعمال وغفـران الذنوب، وحسـبك بذلك درجة ورفعة ومنزلة.

* ثم لمـا أرشـدهم إلى مـكارم الأخلاق، نبههم على قـدر التكاليف الشرعيـة التي كلف الله بهـا البشرية، وعظم تعالى شـأن الأمانة التي ائتمن الله عليها المكلفين، فقال تعالى:

﴿٧٢﴾، ﴿٧٣﴾ ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّـمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡـفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَـٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِـينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿إِنَّـا عَرَضۡنَـا ٱلۡأَمَانَـةَ عَلَى ٱلسَّـمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَـا وَأَشۡـفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ أي: عرضنا الفرائض والتكاليف الشرعية عـلى السـموات والأرض والجبـال الراسـيات، فأعرضـن عـن حملها، وخفن من ثقلها وشـدتها، والغرض تصوير عظم الأمانة وثقل حملها، وأن تلك الأمانة في عظم الشأن بحيث لـو كلفـت هاتيك الأجرام العظام - التي هـي مثل في القوة والشـدة - وكانت ذات شـعور وإدراك عـلى مراعاتهـا لأبين قبولها وأشـفقن منها. والأمانة هـي التكاليـف الشرعية مـن التزام الطاعات، وتـرك المعـاصي، وقيل: هي الأمانـة في الأمـوال، والصحيح العموم في التكاليف، وعرضها يحتمل وجهين: أحدهمـا: أن يكون الله خلق لهـا إدراكاً فعرضـت عليهـا الأمانة حقيقة فأشـفقت منهـا وامتنعت من حملها، والثـاني: أن يكون المراد تعظيم شـأن الأمانة وأنها مـن الثقل بحيث لو عرضت على السـموات والأرض والجبـال، لأبين من حملها وأشـفقن منها، فهذا ضرب من المجاز كقولك: عرضت الحمـل العظيم عـلى الدابة فأبـت أن تحمله، والمـراد أنها لا تقدر على حمله.

﴿وَحَمَلَهَـا ٱلۡإِنسَـٰنُۖ إِنَّـهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ أي: التزم الإنسـان بحقهـا، وهـو في ذلك شـديد الظالم لنفسـه، مبالغـاً في الجهـل بعواقب الأمور، قال ابن الجوزي: لم يرد بقوله: ﴿فَأَبَيۡنَ﴾ المخالفة، وإنما أبين للخشية والمخافة، لأن العـرض كان تخييراً لا إلزاماً، وعندما حمل الإنسان هذا الحمل الثقيل، انقسـم الناس بحسب قيامهم بهـا وعدمه إلى ثلاثة أقسـام: منافقون أظهروا أنهـم قاموا بها ظاهراً لا باطناً،

ومشركـــون تركوها ظاهـــراً وباطناً، ومؤمنون قائمون بها ظاهـــراً وباطناً، فذكر تعالى أعمال هذه الأقسام الثلاثة، وما لهم من الثواب والعقاب، فقال:

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي: إنما حمـل بنـو آدم الأمانة وهـــي التكاليف، ليعذب الله المنافقين الذيـــن يظهـــرون الإيمان ويبطنون الكفر، والمشركين الذين ظاهرهم وباطنهم على الكفر.

﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: ويرحم أهل الإيمان، من الخلق، الذين آمنـوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، العاملين بطاعته، ويعود عليهم بالتوبة والمغفرة والرضوان.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: واسع المغفرة للمؤمنين، حيث عفا عما سلف منهم، رحيماً بهم، حيث أثابهم، وأكرمهم بأنواع الكرامات.

تم تفسير سورة الأحزاب
والحمد لله

تفسير سورة سبأ
وهي مكية

* سورة ســبأ من الســور المكية، التي تشع نوراً وهداية، وتتناول أصل الدين، من إثبـات الوحدانية والنبوة، والبعث والنشور.

سميت سورة ســبأ؛ لأن الله تعالى ذكر فيها قصة سبأ، وهم ملوك اليمن، وقـد كان أهلهـا في نعمـة ورخاء، وسرور وهنـاء، وكانت مســاكنهم حدائـق وجنات، فلما كفـروا النعمة دمرهم الله بالســيل العـرم، وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

سُورَةُ سَبَإٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ
فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا
يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ
ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ
قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ
ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ
وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ
ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ
يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

٤٢٨

ابتـدأت الســورة الكريمة بتمجيد الله -جل وعلا-، الذي أبدع الخلق، وأحكـم شـؤون العالم، ودبر الكون بحكمته، فهو الخالق المبدع الحكيم، الذي لا يغيب عـن علمه مثقال ذرة في الســموات ولا في الأرض، وهــذا من أعظم البراهين على وحدانية رب العالمين، قال تعالى:

﴿١﴾، ﴿٢﴾ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الثناء الكامل على جهة التعظيم والتبجيل لله، الذي له كل ما في الكـون خلقاً وملكاً وتصرفاً، الجميع ملكـه وعبيده، وتحت قهره وتصرفه، فله الحمد في الدنيا لكمال قدرته، وفي الآخرة لواســع رحمته، فكان حقيقاً أن يحمد سراً وجهراً.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وله الحمد بأجمعه، لا يســتحقه أحد ســواه. لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة. والفرق بين الحمدين، أن الحمد في الدنيا عبادة، وفي الآخرة تلذذ وابتهاج؛ لأنه قد انقطعت التكاليف فيها.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الحكيم في صنعـه، وأمـره ونهيـه، وملكـه وتدبـيره، الخبير بخلقـه، المطلع على سرائر الأمـور وخفاياها، ولهذا فصل علمه بقوله:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ يعلم ما يدخل في جوف الأرض من المطر والكنوز والأموات، وما يخرج مـن الأرض مـن الزروع والنباتات، وماء العيون والآبار.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: ومـا ينزل من السماء، من المطر، والملائكة، والرحمة، والأقدار، وما يصعد إليها من الملائكة والأعـمال الصالحـات، والدعوات الزاكيات. ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيهـا، وعلمه بأحوالهـا، ذكر مغفرته ورحمته لها، فقال:

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ أي: الرحيم بعباده بإنزال ما يحتاجون إليه،

الغفور عن ذنوب التائبين حيث لا يعاجلهم بالعقوبة.

قال ابن تيمية: وهنا ختمت الآية بتقديم الرحيم على الغفور، خلاف باقي الآيات لارتباط العلم بالرحمة.

* ولما بين تعالى عظمته بما وصف به نفسه، وكان هذا موجباً لتعظيمه وتقديسه والإيمان به، ذكر أن من أصناف الناس طائفة لم تقدر ربها حق قدره، ولم تعظمه حق عظمته، بل كفروا به، وأنكروا قدرته على إعادة الأموات وقيام الساعة، وعارضوا بذلك رسله، فأمر الرسول ﷺ أن يقسم بربه العظيم، على وقوع المعاد، بعد فناء الأجساد، قال تعالى:

﴿٣﴾-﴿٦﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ * لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ * وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ * وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: وقال الكافرون المنكرون للبعث من قومك، لا قيامة أبداً ولا بعث ولا نشور، وهو إنكار لمجيئها أو استبطاء، واستهزاء بالوعد به، فأمر الله رسوله أن يرد قولهم ويبطله، ويقسم على البعث، وأنه سيأتيهم.

﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ أي: قل لهم - يا محمد-: أقسم بالله العظيم لتأتينكم الساعة، فإنها واقعة لا محالة.

وهذه إحدى الآيات الثلاث التي أمر الله رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوعها، والثانية في يونس: ﴿قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ [يونس: ٥٣]، والثالثة في التغابن: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: هو -جل وعلا- العالم بما خفي عن الأبصار، وغاب عن الأنظار، لا يعزب ولا يغيب عنه مقدار وزن الذرة في العالم العلوي أو السفلي.

﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ أي: ولا أصغر من الذرة، ولا أكبر منها.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ أي: إلا ويعلمه الله تعالى وهو في اللوح المحفوظ. والغرض أن الله تعالى لا تخفى عليه ذرة في الكون، فكيف يخفى عليه البشر وأحوالهم؟ فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو تعالى عالم أين ذهبت وتفرقت، ثم يعيدها يوم القيامة، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط، ثم ذكر المقصود من البعث، فقال:

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: أثبت ذلك في الكتاب المبين لكي يثيب المؤمنين، الذين أحسنوا في الدار الدنيا بأحسن الجزاء، حيث آمنوا بقلوبهم، وصدقوا الله، وصدقوا رسله تصديقاً جازماً، وأطاعوا وامتثلوا أمر ربهم ورسله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ أي: لهم مغفرة لذنوبهم، بسبب إيمانهم وعملهم، يندفع بها كل شر وعقاب، ولهم رزق حسن كريم في دار النعيم بإحسانهم، يحصل لهم به كل مطلوب، ومرغوب، وأمنية.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: وأما الذين بذلوا جهدهم وجدوا في إبطال القرآن مغالبين لرسولنا، يظنون أنهم يعجزونه، ويفوتوننا بما يثيرونه من شبهات حول رسالته والقرآن.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ أي: فهؤلاء المجرمون لهم عذاب من أسوأ العذاب، شديد الإيلام. قال قتادة: الرجز: سوء العذب.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي: ويعلم الذين أعطوا العلم من أصحاب النبي ﷺ، ومن جاء بعدهم من العلماء العاملين.

﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: يعلمون أن هذا القرآن الذي أنزل عليك - يا محمد، هو الحق الذي لا يأتيه الباطل.

﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ ويرشد من تمسك به إلى الإسلام، طريق الله الغالب الذي لا يقهر. الحميد، أي: المحمود في ذاته وصفاته وأفعاله.

* ثم ذكر تعالى أساليب المشركين في الصد عن دين الله، والسخرية برسول الله، فقال:

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ
فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ
أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ
يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ
سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ
وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ
رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾
يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ
وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ
ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ
إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ
أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

﴿٧-٩﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۞ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ **وقال الكافرون من مشركي مكة، المنكرون للبعث والجزاء، على سبيل التكذيب، والاستهزاء، والاستبعاد.**

﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ **أي: هل نرشدكم إلى رجل يحدثكم بأعجب الأعاجيب؟ - يعنون محمداً ﷺ - وإنما نكروه، مع أنه كان مشهوراً علماً في قريش، ومن ذلك قوله بالبعث والنشور، فهو يقول:**

﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ **أي: إذا بليتم في القبور، وتفرقت أجسادكم في الأرض، وذهبتم كل مذهب، بحيث صرتم تراباً ورفاتاً.**

﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ **أي: إنكم ستخلقون خلقاً جديداً بعد ذلك التمزيق والتفريق؟ والغرض من هذا المقال هو السخرية والاستهزاء، والقائلون هم كفار قريش قالوه على جهة التعجب والاستهزاء.**

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ **أي: هذا الرجل اختلق الكذب على الله وتجرأ عليه، أم به جنون فهو يتكلم بما لا يدري؟ وكل هذا منهم على وجه العناد والعظمة. قال تعالى رداً عليهم:**

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾ **أي: ليس الأمر كما يزعمون من الكذب والجنون، بل الذين يجحدون البعث ولا يصدقون بالآخرة.**

﴿فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ **أي: بل هؤلاء الكفار في شك وحيرة عن الحق توجب لهم عذاب النار، فهم واقعون في الضلال والشقاء وهم لا يشعرون، وذلك غاية الجنون والحماقة.**

ولما ذكر تعالى ما يدل على إثبات الساعة، ذكر دليلاً عقلياً يتضمن التوحيد مع التهديد، فقال:

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **أي: ألم يشاهد هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة عظيم قدرة الله، وما هو محيط بهم من جميع جوانبهم من السماء والأرض؟ فإن الإنسان أينما توجه وحيثما نظر رأى السماء والأرض أمامه وخلفه، وعن يمينه وشماله، وهما يدلان على وحدانية الصانع، أفلا يتدبرون ذلك، فيعلمون أن الذي خلقهما قادر على بعث الناس بعد موتهم؟ ثم هددهم بقوله:**

﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ **أي: لو شئنا لخسفنا بهم الأرض كما فعلنا بقارون، أو أسقطنا عليهم قطعاً من السماء كما فعلنا بأصحاب الأيكة؛ لأن الأرض والسماء تحت تدبيرنا، فمن أين لهم المهرب؟**

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ **إن فيما يشاهدون من آثار القدرة والوحدانية وفيما ترون بين السماء والأرض، لدلالة وعبرة، تدل على قدرتنا على البعث، لكل عبد تائب رجاع إلى الله، متأمل فيما يرى، فإن العبد كلما كان أعظم إنابة إلى الله، كان انتفاعه بالآيات أعظم. قال ابن كثير: يريد أن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها**

وأعراضها، قادر على إعادة الإجسام، ونشر الرميم من العظام.

* وتناولت السورة قصص بعض الرسل، فذكر تعالى قصة داود وما خصه الله به من الفضل العظيم، فذكرت «داود» وولده «سليمان» - عليهما السلام، وما سخر الله لهما من أنواع النعم، كتسخير الريح لسليمان، وتسخير الطير والجبال، تسبح مع داود؛ إظهاراً لفضل الله عليهما في ذلك العطاء الواسع، وذكر ﷻ ما امتن به على عبده ورسوله داود ﵇ من العلم النافع، والعمل الصالح، والنعم الدينية والدنيوية بسبب إنابته فضلاً منه على سائر الأنبياء، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٠)، (١١).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ اللام موطئة لقسم محذوف تقديره: وعزة الله وجلاله، لقد أعطينا داود منا فضلاً عظيماً واسعاً لا يقدر. قال المفسرون: الفضل هو النبوة، والزبور، والملك، وتسخير الجبال، والطير، وإلانة الحديد، وتعليمه صنع الدروع، إلى غير ذلك.

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ أي: وقلنا ياجبال سبحي معه ورجعي التسبيح إذا سبح، وكذلك أنتم يا طيور. قال ابن عباس: كانت الطير تسبح معه إذا سبح، وكان إذا قرأ، لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته وبكت لبكائه. ثم ذكر فضلاً تعالى آخر عليه:

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: وسخرنا وجعلنا الحديد ليناً بين يديه حتى كان كالعجين، فكان لا يحتاج أن يدخله ناراً، ولا يضربه بمطرقة، وكان بين يديه كالشمع والعجين.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ أي: اعمل منه الدروع التامات الواسعات، التي تقي الإنسان شر الحرب. قال المفسرون: كان يأخذ الحديد بيده فيصير كأنه عجين يعمل به ما يشاء، ويصنع الدرع في بعض يوم، يساوي ألف درهم فيأكل ويتصدق. والسابغات، صفة لموصوف محذوف تقديره دروعاً سابغات، وهي الدروع الكوامل التي تغطي لابسها حتى تفضل عنه فيجرها على الأرض.

﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: وقدر المسامير في حلق الدرع، بحيث تتناسب حلقاتها. والسرد: نسج الدروع، والمعنى: اجعل كل حلقة مساوية لأختها ضيقة لا ينفذ منها السهم لغلظها، ولا تثقل حاملها واجعل الكل بنسبة واحدة. ولما ذكر ما امتنَّ به عليه وعلى آله، أمره بشكره، فقال:

﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ واعملوا يا آل داود عملاً صالحاً، ولا يكلوا على عز أبيكم وجاهه، فإني مطلع على أعمالكم، مراقب لها، وسأجازيكم بها.

* ولما ذكر تعالى فضله على داود ﵇ ذكر فضله على ابنه سليمان ﵇، حيث آتاه من الفضل الواسع العظيم، من النبوة والملك والجاه العظيم، فقال:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ (١٢)، (١٣).

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: وسخرنا لسليمان الريح تسير بأمره، وسيرها من الصباح إلى الظهر مسيرة شهر للسائر المجد، ومن الظهر إلى الغروب مسيرة شهر. قال المفسرون: سخر الله له الريح تقطع به المسافات الشاسعة في ساعات معدودات، تحمله مع جنده فتنتقل به من بلد إلى بلد، تغدو به مسيرة شهر إلى نصف النهار، وترجع به مسيرة شهر إلى آخر النهار، فتقطع به مسيرة شهرين في نهار واحد. قال الحسن: لما شغلت نبي الله سليمان الخيلُ عن الصلاة، فعقرها أبدله الله خيراً منها وأسرع وهي الريح.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: وأذبنا له النحاس، حتى كان يجري كأنه عين ماء متدفقة من الأرض. قال المفسرون: أجرى الله لسليمان النحاس، كما ألان لداود الحديد، آية باهرة، ومعجزة ظاهرة.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: وسخرنا له الجن تعمل بأمره وإرادته ما شاء مما يعجز عنه البشر، وكل ذلك بأمر الله وتسخيره.

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: ومن يعدل منهم عما أمرناه به من طاعة سليمان، نذقه النار المستعرة في الآخرة. ثم أخبر تعالى عما كلف به الجن من الأعمال، فقال:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ أي: يعمل هؤلاء الجن لسليمان ما يرد من القصور الشامخة، والأبنية الفخمة.

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ أي: والتماثيل العجيبة من النحاس والزجاج. قال الحسن: ولم تكن يومئذ محرمة، وقد حرمت في شريعتنا سداً للذريعة لئلّا تعبد من دون الله.

﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ أي: وقصاع ضخمة تشبه الأحواض، والبرك الكبار، يعملونها لسليمان للطعام، لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره.

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ أي: ويعملون له قدوراً كبيرة ثابتات لا تتحرك، ولا تتحول عن أماكنها لعظمها وكبرها وضخامتها، فلما ذكر منته عليهم، أمرهم بشكرها، فقال:

﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ وهم داود وأولاده وأهله؛ لأن المنة على الجميع، وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم، أي: وقلنا لهم اشكروا يا آل داود ربكم على هذه النعم الجليلة، فقد خصكم بالفضل العظيم والجاه العريض، واعملوا بطاعة الله شكراً له -جل وعلا-، على ما أعطاكم، ومقابلة لما أولاكم.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي: وقليل من العباد من يشكر الله على نعمه، وكان داود وآله من القليل، وفيه تنبيه وتحريض على شكر الله. والشكر: اعتراف القلب بمنَّة الله تعالى، وتلقيها افتقاراً إليها، وصرفها في طاعة الله تعالى وصونها عن صرفها في المعصية.

وفيه وجوب الشكر وأنَّه يكون بالعمل ولا يختص باللسان، لأن حقيقة الشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله.

قال الزركشي: الحمد الذي ما قال (الشاكر) لأن الشاكر هو المثني بالقليل والكثير، أمَّا (الشكور) فصيغة مبالغة بمعنى: الموفي نعم الله حقها من الشكر، ولذلك وصف الشكورين بالقلة.

* لم يزل الشياطين يعملون لسليمان ﷺ كل بناء، وكانوا قد موهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب ويطلعون على المكنونات، فأراد الله تعالى أن يُري العباد كذبهم في هذه الدعوى، قال تعالى:

⑭ ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: حكمنا على سليمان بالموت ونزل به.

﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي: ما دل الجن على موته إلا تلك الحشرة وهي الأرضة -السوسة التي تأكل الخشب- تأكل عصا سليمان، حتى بادت وسقطت العصا، فسقط سليمان ﷺ.

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ أي: فلما سقط سليمان عن عصاه، ظهر للجن واتضح لهم أنهم لو كانوا يعرفون الغيب كما زعموا.

﴿مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ ما مكثوا في الأعمال الشاقة تلك المدة الطويلة، قال المفسرون: كانت الإنس تقول: إن الجن يعلمون الغيب الذي يكون في المستقبل، فمات ومكث على ذلك سنة، والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة ولا تعلم بموته، فصاروا إذا مروا به وهو متكئ عليها، ظنوه حيّاً وهابوه، ولو كانوا كذلك ما بقوا تلك المدة الطويلة في الأعمال الشاقة، وهم يظنون أنه حي، وهو ﷺ ميت.

* لما بيَّن تعالى حال الشاكرين لنعمه بذكر دواد وسليمان، بيَّن حال الجاحدين لنعمه بقصة سبأ، موعظة لقريش وتحذيراً، وتنبيهاً إلى ما جرى من المصائب والنكبات على من كفر بأنعم الله، قال تعالى:

⑮-⑰ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ
كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ
(١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ
جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ
(١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً
وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ (١٨)
فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا
فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ
إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ
وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن
دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢)

* ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ اللام موطئة للقسم، أي: والله لقد كان لقوم سبأ، وهم قبيلة معروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها مأرب، كان لهم علامة عظيمة دالة على كمال قدرة الله -جل وعلا- وعلى بديع صنعه وقدرته على مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فإن قوم سبأ لما كفروا نعمة الله خرب الله ملكهم، وشتت شملهم، ومزقهم شر ممزق، وجعلهم عبرة لمن يعتبر، ومن نعم الله ولطفه بالناس عموماً، وبالعرب خصوصاً، أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين، ممن كان يجاور العرب ويشاهد آثاره، ويتناقل الناس أخباره، ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة. ثم بيّن تعالى وجه تلك النعمة، فقال:

﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: حديقتان عظيمتان فيهما من كل أنواع الفواكه والثمار، عن يمين الوادي بساتين ناضرة، وعن شماله كذلك، وكان لهم وادٍ عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وقد بنوا سداً محكماً، يكون مجمعاً للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هنا ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم التي عن يمين ذلك الوادي وشماله. قال قتادة: كانت بساتينهم ذات أشجار وثمار، تستر الناس بظلالها، وكانت المرأة تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، فيتساقط من الأشجار ما يملؤه من غير كلفة ولا قطاف، لكثرته ونضجه.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي: وقلنا لهم على لسان الرسل: كلوا من فضل الله وإنعامه، من ثمار الجنتين، واشكروا ربكم على هذه النعم، واعملوا بطاعته.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: هذه بلدتكم التي تسكنونها بلدة طيبة، كريمة التربة، حسنة الهواء، كثيرة الخيرات، وربكم الذي رزقكم وأمركم بشكره، رب غفور لمن شكره.

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي: حين أعرضوا عن طاعة الله وأمره، وشكره، واتباع رسله، نقب ذلك السد الذي كان يحبس عنهم السيول، ثم فاض الماء على جناتهم فغرقها، وخرب أرضهم وديارهم سيل مدمر مخرب لا يطاق لشدته وكثرته، فغرق بساتينهم ودورهم.

﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي: وأبدلناهم بتلك البساتين الغناء، بساتين قاحلة جرداء، ذات أكل مر بشع. والخمط كل شجرة لها شوك وثمرتها مرة.

﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وشيء من الأشجار التي لا ينتفع بثمرها كشجر الأثل والسدر. والأثل نوع من الطرفاء، ولا يكون عليه ثمرة إلا في بعض الأوقات، يكون عليه شيء كالحمص أو أصغر منه في طعمه وطبعه، والسدر معروف، وقال فيه: ﴿قَلِيلٍ﴾ لأنه كان أحسن أشجارهم. وقد بيّن تعالى بالآية طريقة الخراب؛ وذلك لأن البساتين التي فيها الناس تكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة، فإذا تركت سنين تصبح كالغيضة والأجمة، تلتف الأشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها، فتقل الثمار وتكثر الأشجار. قال المفسرون: وتسمية البدل «جنتين» فيه ضرب من التهكم؛ لأن الأثل والسدر وما كان فيه خمط لا يسمى جنة؛ لأنها أشجار لا يكاد ينتفع بها، وإنما جاء التعبير على سبيل المشاكلة.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ أي: ذلك الجزاء الفظيع الذي عاقبناهم به إنما جاء بسبب كفرهم. وعدم شكرهم نعم الله، وما نجازي بمثل هذا الجزاء الشديد إلا الكافر المبالغ في كفره. قال مجاهد: أي: ولا يعاقب إلا الكفور؛ لأن المؤمن يكفر الله عنه سيئاته، والكافر يجازى بكل سوء عمله.

﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾.

في الآية إيحاء أن المؤمنين يجازون بالغفران لشرف الإيمان الذي سلكوا سبيله.

* ثم ذكر تعالى تتمة ذكر ما أنعم الله به عليهم، فقال:

﴿١٨﴾، ﴿١٩﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ * فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾.

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾ أي: وجعلنا بين بلاد سبأ وبين القرى الشامية التي باركنا فيها للعالمين، قرى متواصلة من اليمن إلى الشام، ظاهرة لأبناء السبيل يرى بعضها من بعض لتقاربها.

﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَ﴾ أي: جعلنا السير بين قراهم وبين قرى الشام سيراً مقدراً من منزل إلى منزل، ومن قرية إلى قرية، بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد والمزاد.

﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أي: وقلنا لهم، سيروا بين هذه القرى متى شئتم لا تخافون في ليل ولا في نهار، وهذا من تمام نعمة الله عليهم، أن أمنهم من الخوف، فكان الغادي منهم يقيل في قرية، والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام، لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عدوّاً، ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، وتقديم الليالي على الأيام؛ للاهتمام بها في مقام الامتنان؛ لأن المسافرين أحوج إلى الأمن في الليل منهم إليه في النهار؛ لأن الليل تعترضهم فيه القطاع والسباع. وكانوا يسيرون آمنين لا يخافون شيئاً، فاعرضوا عن المنعم، وعن عبادته، وبطروا النعمة وملوها، حتى وصل بهم الحال:

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ إخبار بما قابلوا به النعم من الكفران، أي: إنهم حين بطروا النعمة، وملوا رغد العيش والأمن، وسئموا الراحة، طلبوا من الله أن يباعد بين قراهم المتصلة ليمشوا في المفاوز ويتزودوا للأسفار، فعجل الله إجابتهم، بتخريب تلك القرى، وجعلها مفاوز قفاراً.

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: وظلموا أنفسهم بكفرهم وجحودهم النعمة، فعاقبهم الله بهذه النعمة التي أطغتهم.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ أي: جعلناهم أخباراً تروى للناس بعدهم، ولهذا أصبحت قصتهم يضرب بها المثل فيقال: ذهبو أيدي سبأ.

﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: وفرقناهم في البلاد في كل ناحية وواد.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ أي: إنما فيما ذُكر من قصتهم لعبراً وعظات، لكل عبد صابر على البلاء، شاكر في النعماء. والمقصود من ذكر قصة سبأ تحذير الناس من كفران النعمة لئلَّا يحل بهم ما حل بمن قبلهم.

* ثم ذكر تعالى سبب ضلال المشركين، فقال:

﴿٢٠﴾، ﴿٢١﴾ ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾.

﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي: تحقق ظن إبليس اللعين في هؤلاء الضالين؛ حيث ظن أنه يستطيع أن يغويهم بتزيين الباطل لهم، وهذا ظن من إبليس لا يقين؛ لأنه لا يعلم الغيب، فتحقق ما كان يظنه. قال مجاهد: ظنَّ ظناً فكان كما ظن فصدق ظنه.

﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: فاتبعه الناس فيما دعاهم إليه من الضلالة، إلا فريقاً هم المؤمنون لم يكفروا بنعمة الله، فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس فإنهم لم يتبعوه.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ أي: وما كان لإبليس تسلط واستيلاء، وقهر وقسر على ما يريده منهم، ولكن حكمه الله تعالى اقتضت تسليطه وتسويله لبني آدم بالوسوسة والإغواء.

﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖ﴾ أي: إلا لحكمة جليلة، وهي أن يظهر علمنا للعباد بمن هو مؤمن مصدق بالآخرة، ومن هو شاك مرتاب في أمرها، فنجازي كلًّا بعمله، وإبليس لم يقهرهم على الكفر، وإنما كان منه

وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن
قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ
٢٣ ۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ
وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤ قُل
لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥ قُلۡ
يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ
٢٦ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ
بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٩
قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ
٣٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا
بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ
رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ
ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١

الدعاء والتزيين. قال الحسن: والله ما ضربهم بعصا، ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غرور وأماني، دعاهم إليها فاجابوه.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ﴾ وربك -يا محمد- على كل شيء رقيب، لا تخفى عليه خافية من أفعال العباد، فهو الذي يحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ جزاءها، فيوفيهم إياها كاملة موفرة.

* ثم قال ﷻ مبيناً للمشركين بطلان آلهتهم، وأنها لا تنفع ولا تضر، وقطع أنواع التعلقات التي يتعلق بها المشركون بأندادهم وأوثانهم، قال تعالى:

(٢٢)، (٢٣) ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ * وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: قل -يا محمد- لهؤلاء المشركين، ادعوا شركاءكم الذين عبدتموهم من الأصنام، وزعمتم أنهم آلهة من دون الله، ادعوهم ليجلبوا لكم الخير، ويدفعوا عنكم الضر، والأمر بدعاء الآلهة للتعجيز وإقامة الحجة عليهم وهم مع هذا كله:

﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ أي: لا يملكون وزن ذرة من خير، أو نفع أو ضر.

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في العالم العلوي أو السفلي، وليسوا بقادرين على أمر من الأمور في الكون بأجمعه.

﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ أي: وليس لتلك الآلهة شركة مع الله، لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصرفاً، لا قليلاً ولا كثيراً.

﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ أي: وليس له تعالى من الآلهة معين يعينه في تدبير أمرهما، بل هو وحده الخالق لكل شيء، المنفرد بالإيجاد والإعدام، فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين مجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك، وسدت بها عليهم الباب أبلغ سد وأحكمه. ثم لما نفى عنها الخلق والملك، نفى عنها الشفاعة أيضاً، فقال:

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي: لا تكون شفاعة الشفاعة لأحد عند الله من ملك أو نبي، حتى يؤذن له في الشفاعة، لعظمته تعالى وجلاله وكبريائه، فكيف يزعمون أن آلهتهم يشفعون لهم؟

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: حتى إذا زال الفزع والخوف عن قلوب الشفعاء، من الملائكة والأنبياء.

﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم في أمر الشفاعة؟ فأجابوهم بقولهم: قد أذن فيها للمؤمنين، قال القرطبي: إن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة، وهم على غاية الفزع من الله، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل، والخوف الشديد أن يقع منهم تقصير، فإذا سرّي عنهم، قالوا للملائكة فوقهم: ماذا قال ربكم؟ أي بماذا أمر الله؟ قالوا: الحق، أي إنه أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أي: هو تعالى المتفرد بالعلو والكبرياء، العظيم في سلطانه وجلاله، وهذا من تمام كلام الشفعاء، قالوه اعترافاً بغاية عظمة جناب الله ﷻ، فليس لأحد أن يتكلم إلا بإذنه.

* وتناولت السورة بعض شبهات المشركين، حول رسالة خاتم الأنبياء

والمرسلين، ففندتها بالحجة الدامغة والبرهان الساطع، كما أقامت الأدلة والبراهين على وجود الله ووحدانيته، ووبخ تعالى المشركين في عبادتهم غير الخالق الرازق، فقال:

﴿٢٤﴾-﴿٢٧﴾ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ * قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: قل لهم -يا محمد- وقررهم: من الذي يرزقكم من السموات بإنزال المطر، ومن الأرض بإخراج النبات والثمرات والمعادن وغير ذلك؟

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي: قل لهم: الله الرازق لا آلهتكم، قال ابن الجوزي: وإنما أمر ﷺ أن يسأل الكفار عن هذا احتجاجاً عليهم بأن الذي يرزق هو المستحق للعبادة، وهم لا يثبتون رازقاً سواه، ولهذا جاء الجواب ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ لأنهم لا يجيبون بغير هذا.

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وأحد الفريقين منا أو منكم لعلى هدى أو في ضلال بين، وهذا نهاية الإنصاف مع الخصم، حيث أخرج الكلام مخرج الشك، ومعلوم أن من عبد الله وحده كان مهتدياً، ومن عبد غيره من جماد كان ضالاً، وفي هذا إنصاف وتلطف في الدعوى، وفيه تعريض بضلالهم، وهو أبلغ من الرد بالتصريح.

قال بعض أهل العلم دائماً تأتي مع الهدى (على) وفي الضلال (في) لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى، ولأن صاحب الضلال منغمس فيه ومحتقر.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: قل لهم - يا محمد، لا تؤاخذون على ما ارتكبنا من إجرام، ولا نؤاخذ نحن بما اقترفتم؛ لأننا بريئون منكم ومن كفرهم، وإنما يعاقب كل إنسان بجريرته، وهذه ملاطفة وتنزل في المجادلة إلى غاية الإنصاف، وهذا أدخل في الإنصاف وأبلغ من الأول، حيث أسند الإجرام لأنفسهم والعمل إلى المخاطبين، وأما الأعمال فلها دار أخرى، يحكم فيها أحكم الحاكمين، ويفصل بين المختصمين أعدل العادلين، ولهذا قال:

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يجمع الله بيننا وبينكم يوم القيامة، ثم يحكم بيننا ويفصل بالحق بلا جور ولا ميل، ويتبين الصادق من الكاذب.

﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وهو الحاكم العادل الذي يقضي بيننا بالحق، ولا يظلم أحداً، العالم بأحوال الخلق، فيدخل المحق الجنة، والمبطل النار، وهو خير الفاتحين.

﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ توبيخ آخر على إشراكهم وإظهار لخطئهم العظيم، أي: قل لهم - يا محمد، أروني بالحجة والدليل هذه الأصنام التي ألحقتموها بالله وجعلتموها شركاء معه في الألوهية، هل هم في الأرض؟ أم في السماء؟ لأنظر بأي صفة استحقت العبادة مع الذي ليس كمثله شيء؟ وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزام الحجة عليهم.

﴿كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ردع لهم وزجر، أي: ليس الأمر كما زعمتم من اعتقاد شريك له، ليس لله شريك، ولا ند، ولا ضد، بل هو الإله الواحد الأحد، الغالب على أمره، الحكيم في تدبيره لخلقه، فلا يكون له شريك في ملكه أبداً.

﴿٢٨﴾-﴿٣٠﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وما أرسلناك -يا محمد- للعرب خاصة وإنما أرسلناك لعموم الخلق، مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم، ومنذراً للكافرين من عذاب الجحيم، فليس لك من الأمر شيء، وكل ما اقترح عليك أهل التكذيب والعناد، فليس من وظيفتك، إنما ذلك بيد الله تعالى.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن هؤلاء الكافرين لا

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ
عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ
تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ
هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ
مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤
وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥
قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ
عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ
ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ
يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨
قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ
وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩

يعلمون ذلك علماً صحيحاً؛ بل إما جهال أو معاندون، فيحملهم ذلك على ما هم عليه من الغي والضلال، فيما اقترحوه استعجالهم العذاب الذي أنذرهم به، فقال:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ **أي: ويقول المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية: متى هذا العذاب الذي تخوفونا به إن كنتم صادقين فيما تقولون؟ والخطاب للنبي والمؤمنين، وهذا ظلم منهم، فأي: ملازمة بين صدقه وبين الإخبار بوقت وقوعه؟**

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ **قل لهم -يا محمد- مخبراً بوقت وقوعه الذي لا شك فيه، لكم زمان معين للعذاب يجيء في أجله الذي قدره الله له، لا يستأخر لرغبة أحد، ولا يتقدم لرجاء أحد، فلا تستعجلوا عذاب الله فهو آت لا محالة.**

*** ومع هذه الحجج الواضحة والبراهين الساطعة، يستمر المشركون في طغيانهم يعمهون، ولهذا أخبر تعالى عن تمادي المشركين في العناد والتكذيب، فقال:**

﴿٣١-٣٣﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ **أي: لن نصدق بالقرآن، ولا بما سبقه من الكتب السماوية التي قبله من التوراة والإنجيل والزبور، الدالة على البعث والنشور، فقد كذبوا بجميع كتب الله.**

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ **ولو شاهدت -يا محمد- حال الظالمين المنكرين للبعث، وهم محبوسون في موقف الحساب.**

﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾ **أي: يتراجعون الكلام فيما بينهم، يلوم بعضهم بعضاً، ويؤنب بعضهم بعضاً، وجواب (لَوْ) محذوف للتهويل، تقديره: لرأيت أمراً فظيعاً مهولاً.**

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾ **أي: يقول الأتباع للرؤساء: لولا إضلالكم لنا، لكنا مؤمنين مهتدين، ولكنكم حُلتم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفر، فتبعناكم على ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم.**

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم﴾ **أي: قال الرؤساء جواباً للمستضعفين، مستفهمين لهم ومخبرين: أنحن منعناكم عن الإيمان بعد أن جاءكم ببراهينه وآياته البينة؟ لا، ليس الأمر كما تقولون.**

﴿بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾ **بل أنتم كفرتم من ذات أنفسكم، بسبب أنكم كنتم مجرمين راسخين في الإجرام.**

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وقال الأتباع للرؤساء: بل مكركم بنا في الليل والنهار هو الذي صدنا عن الإيمان وأوقعنا في التهلكة.

﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾ أي: فكنتم تطلبون منا وقت دعوتكم لنا أن نكفر بالله، وأن نجعل له شركاء، ولولا تزيينكم لنا الباطل وتقولون أنه الحق، ما كفرنا، فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئاً، إلا تبري بعضهم من بعض، والندامة العظيمة، ولهذا قال:

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ أي: أخفى كل من الفريقين الندامة على ترك الإيمان حين رأوا العذاب، أخفوها مخافة التعيير، فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق.

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وجعلنا السلاسل في رقاب الكفار، يغلون كما يغل المسجون الذي سيهان في سجنه، زيادة على تعذيبهم بالنار.

﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: لا يجزون إلا بأعمالهم التي عملوها، ولا يعاقبون إلا بكفرهم وإجرامهم وعصيانهم. وفي الآية تحذير شديد من متابعة دعاة الضلال وأئمة الطغيان.

* لما قص سبحانه حال من تقدم من الكفار، أتبعه بما فيه التسلية لرسوله، وبيان أن كفر الأمم السابقة بمن أرسل إليهم من الرسل هو كائن مستمر، وأخبر عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل، أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ، وأن الله إذا أرسل رسولاً في قرية من القرى كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم وفخروا بها، قال تعالى:

(٣٤)-(٣٩) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ * وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ * وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ * قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي: لم نبعث في أهل قرية رسولاً من الرسل، يدعو إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة، ينذرهم عذابنا.

﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ وهم أهل الغنى والتنعم في الدنيا، المنغمسون في اللذات والشهوات من أهلها.

﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: لا نؤمن برسالتكم ولا نصدقكم بما جئتم به، من الرسالة والتوحيد والإيمان، والمترفون هم جبابرتهم وقادتهم ورؤساؤهم في الشر، وهم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء، والقصد بالآية تسلية النبي ﷺ على تكذيب أكابر قريش له، وما جرى منهم نحوه.

﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ وقال مشركوا مكة: نحن أكثر أموالاً وأولاداً، من هؤلاء الضعفاء المؤمنين ممن اتبع الحق.

﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي: إن الله لا يعذبنا؛ لأنه راض عنا، ولو لم يكن راضياً عنا لما بسط لنا في الرزق وأحسن إلينا في الدنيا، قاسوا أمر الدنيا على الآخرة، وظنوا أن الله كما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا لا يعذبهم في الآخرة، وقد نص تعالى على المترفين؛ لأنهم أول المكذبين للرسل، لما شغلوا به من زخرف الدنيا، وما غلب على عقولهم منها، فقلوبهم أبداً مشغولة منهمكة، بخلاف الفقراء فإنهم خالون من مستلذات الدنيا، فقلوبهم أقبل للخير، ولذلك كانوا أكثر أتباع الأنبياء، فأجابهم الله تعالى، بأن بسط الرزق وتضييقه، ليس دليلاً على زعمهم.

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ قل لهم - يا محمد-: إن توسعة الرزق وتضييقه ليس دليلاً على رضى الله، فقد يوسع الله على الكافر والعاصي، ويضيق على المؤمن والمطيع، ابتلاءً وامتحاناً، فلا تظنوا أن كثرة الأموال والأولاد

وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ
يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ
يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ
بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ٤٢ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ
قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ
وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٤٣ وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ
يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ٤٤ وَكَذَّبَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ
رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٥ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن
تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن
جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦ قُلۡ
مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ٤٧ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٤٨

٤٣٣

دليل المحبة والسعادة، بل هي تابعة للحكمة والمشيئة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ولكن أكثر هؤلاء الكفرة لا يعلمون الحقيقة، فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة، وكثيراً ما يكون للاستدراج، ولهذا أكد ذلك بقوله:

﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ أي: ليست أموالكم ولا أولادكم التي تفتخرون بها وتتكاثرون فيها هي التي تدنيكم من الله قربى، وإنما يقرب الإيمان والعمل الصالح، ولا يعتبر الناس بكثرة المال والولد، لهذا قال تعالى بعده:

﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أي: إلا المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله، ويعلم ولده الخير ويربيه على الصلاح، فإن هذا الذي يقرب من الله.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: تضاعف حسناتهم، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف وبأكثر.

﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ وهم في منازل الجنة العالية آمنون من كل عذاب ومكروه.

ولما ذكر جزاء المؤمنين، ذكر عقاب الكافرين، ليظهر التباين بين الجزاءين، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: يسعون في الصد عن سبيل الله، واتباع آياته ورسله، معاندين لنا، يظنون أنهم يفوتوننا بأنفسهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ أي: فهم مقيمون في العذاب، محضرون يوم القيامة للحساب تجرهم الزبانية فلا يخرجون منها.

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾ قل - يا محمد -: إن ربي يوسع الرزق لمن يشاء من خلقه، ويقتر على من يشاء، فلا تغتروا بالأموال التي رزقكم الله إياها.

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ أي: وما أنفقتم نفقة واجبة أو مستحبة قليلاً أو كثيراً، فإن الله تعالى يعوضه عليكم إما عاجلاً أو آجلاً، إما في الدنيا، وإما في الآخرة، فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وهو تعالى خير المعطين، فإن عطاء غيره بحساب، وعطاؤه تعالى بغير حساب، فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها. قال المفسرون: لما بيّن أن الإيمان والعمل الصالح هو الذي يقرب العبد إلى ربه، ويكون مؤدياً إلى تضعيف حسناته، بيّن أن نعيم الآخرة لا ينافي سعة الرزق في الدنيا، بل الصالحون قد يبسط لهم الرزق في الدنيا، مع ما لهم في الآخرة من الجزاء الأوفى والمثوبة الحسنى بمقتضى الوعد الإلهي.

* ثم ذكر تعالى يوم يحشر الله المشركين والمعبودين من دون الله من الملائكة، وهنا يظهر التبرؤ، قال تعالى:

٤٠-٤٢ ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ * فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: واذكر يوم يحشر الله المشركين جميعاً، من تقدم ومن تأخر، للحساب والجزاء.

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ للمشركين، أي: يقول الله -جل وعلا- للملائكة أهؤلاء عبدوكم من دوني، وأنتم أمرتموهم بذلك؟ فتبرأوا من عبادتهم.

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ قالت الملائكة: تعاليت وتقدست يا ربنا عن أن يكون معك إله وشريك في العبادة، أنت ربنا ومعبودنا الذي نتولاه ونعبده ونخلص له العبادة، مفتقرون إلى ولايتك، مضطرون إليها، فكيف ندعوا غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح لأن نتخذ من دونك أولياء وشركاء، ونحن نتبرأ إليك منهم ولكن هؤلاء المشركون:

﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ بل كانوا يعبدون الشياطين وهم إبليس وجنوده، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة غير الله، فأطاعوهم.

﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ أي: أكثرهم بالجن مطيعون، ومصدقون، يزعمون أنهم بنات الله، -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-.

قال تعالى رداً على مزاعم المشركين:

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: ففي هذا اليوم -يوم الحساب- لا ينفع العابدون ولا المعبودون بعضهم لبعض، لا بشفاعة ونجاة، ولا بدفع عذاب وهلاك، ويخاطبون بذلك على رؤوس الأشهاد، إظهاراً لعجزهم وقصورهم عن نفع عابديهم، وإظهاراً لخيبة رجائهم بالكلية، ونسبة عدم النفع والضرر إلى البعض للمبالغة في المقصود، كأن نفع الملائكة لعبدتهم في الاستحالة، كنفع العبدة لهم.

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: ونقول للظالمين الذين عبدوا غير الله بعدما ندخلهم النار، ذوقوا عذاب جهنم التي كذبتم بها في الدنيا فها قد وردتموها، جزاء لتكذيبكم، وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب من عدم الهرب من أسبابها.

* ثم بيّن تعالى لوناً آخر من كفرهم وضلالهم، فقال:

﴿٤٣﴾-﴿٤٥﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ * وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ يخبر تعالى عن حالة المشركين إذا تليت عليهم آيات القرآن واضحات المعاني، بينات الإعجاز، وسمعوها غضة طرية، من لسان الرسول ﷺ.

﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي: قال المشركون: ما هذا الذي يزعم الرسالة إلا رجل مثلكم، يريد أن يمنعكم عما كان يعبد أسلافكم من الأوثان والأصنام، ولما احتجوا بفعل آبائهم، وجعلوها دافعة لما جاءت به الرسل، طعنوا بعد هذا بالحق.

﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: ما هذا القرآن إلا كذب مختلق على الله، افتراه هذا الرجل الذي جاء به.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله ومكابرتهم للحق النير: ما هذا القرآن إلا سحر واضح ظاهر لا يخفى على لبيب، وفي الآية تعجيب من أمرهم بليغ، حيث القضاء على أنه سحر، ثم بتوه على أنه بيّن ظاهر.

ثم بيّن تعالى أنهم لم يقولوا ذلك عن بينة، ولم يكذبوا محمداً عن يقين، بل عن ظن وتخمين، فقال:

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: وما أنزلنا على أهل مكة كتاباً قبل القرآن يقرؤون فيه ويتدارسونه، حتى تكون عمدة لهم ومرجعاً، فتدلهم على ما يزعمون.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي: وما بعثنا إليهم قبلك -يا محمد- رسولاً يدعوهم إلى الحق، ينذرهم بالعذاب قبل محمد ﷺ حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله ما يدفعون به ما جئتهم به، فليس عندهم علم ولا آثارة من علم. ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين، فقال:

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي: وكذب قبلهم أقوام من الأمم السابقين كعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وغيرهم، وما بلغ كفار مكة عشر ما آتينا الأمم التي كانت قبلهم من القوة والمال وطول العمر.

﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: وحيث كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال والعقوبة، ولم يغن عنهم ما كانوا فيه من القوة، فكيف حال هؤلاء إذا جاءهم العذاب والهلاك؟ وفيه تهديد لقريش.

* وختمت السورة بدعوة المشركين إلى الإيمان بالواحد القهار، الذي بيده تدبير أمور الخلق أجمعين، وقال تعالى:

﴿٤٦﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: قل -يا محمد- لهؤلاء المشركين: إنما أنصحكم، وأوصيكم بخصلة واحدة، ثم فسرها بقوله:

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: هي أن تتحروا الحق لوجه الله، والتقرب له مجتمعين ووحداناً، أو اثنين اثنين، وواحداً واحداً، وهذا القيام معناه القيام إلى طلب الحق، لا القيام الذي هو ضد القعود.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: ثم إذا قمتم لله مثنى وفرادى، تتفكروا في أمر محمد لتعلموا أن من ظهر على يديه هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون به مس من الجنون أو يكون مجنوناً، وإنما قال: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ لأن الجماعة يكون مع إجتماعهم تشويش الخاطر والمنع من التفكر، كما يكون في الدروس التي يجتمع لها الجماعة، وأما الاثنان إذا نظرا نظر إنصاف، وعرض كل واحد منهما على صاحبه ما ظهر له، فلا يكاد الحق أن يعدوهما، وإذا كان الواحد جيد الفكر عرف الحق، فإذا تفكروا عرفوا أن نسبته ﷺ للجنون لا يمكن، ولا يذهب إلى ذلك عاقل.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ما هو إلا رسول منذر لكم إن كفرتم من عذاب شديد في الآخرة؛ لأنه ﷺ حين النظر في حاله وأمره، ليس بكاهن ولا بساحر، ولا مجنون، بل هيئته أحسن الهيئات وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل الخلق أدباً، وسكينة وتواضعاً، ووقاراً، لا يكون إلا لأرزن الرجال عقلاً، ثم تأملوا في كلامه وثمرته وهو يدعو مخلصاً لا يبتغي منكم أجراً ولا مالاً، فبين الله تعالى نزاهة رسوله ﷺ عن هذا الأمر.

* ثم قال تعالى أخبرهم -يا محمد- أنك لا تطلب جزاءً ولا شكوراً، ولا مالاً ولا دنيا، مقابل دعوتك إياهم وصبرك على أذاهم.

﴿٤٧﴾-﴿٥٠﴾ ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ * قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ قل لكفار مكة: لا أسألكم على إنذاري وتبليغ الرسالة أجراً، قال القرطبي: المعنى إني لم أسألكم على ذلك جعلاً فتتهموني، وتظنوا أني إنما دعوتكم إلى اتباعي لمال آخذه منكم.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: ما أجري وثوابي إلا على الله رب العالمين، وهو تعالى رقيب وحاضر على أعمالي وأعمالكم، وهو مطلع يعلم صدق وخلوص نيتي لا يخفى عليه شيء، وسيجازي الجميع.

ولما بين البراهين الدالة على صحة الحق وبطلان الباطل، أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته:

قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ (٥٤)

سُورَةُ فَاطِرٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣)

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ **أي: يبين الحجة ويظهرها، ويرمي الباطل بالحق فيدمغه وذلك بسبب بيان.**

﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ **وهو تعالى الذي أحاط علماً بجميع الغيوب التي غابت وخفيت عن الخلق، ويعلم ما تنطوي عليه القلوب من الوساوس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك ويدفعه.**

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ **أي: جاء نور الحق وسطع ضياؤه، وهو القرآن والإسلام.**

﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ **أي: ذهب وبطل أمره، فليس له بدء ولا عود.**

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ **قل -يا محمد- لهؤلاء المشركين، إن حصل لي ضلال عن الطريق الحقة الواضحة - كما زعمتم -فإن إثم ضلالتي على نفسي لا يضر غيري-.**

﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ **وإن اهتديت إلى الحق ولزمت الصراط المستقيم، فبهداية الله وتوفيقه، ليس من نفسي وحولي وقوتي.**

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ **سميع لمن دعاه، قريب الإجابة لمن رجاه، يعلم قول كل من المهتدي والضال وفعله، وإن بالغ في إخفائهما.**

*** ثم ذكر سبحانه حال الكفار وشدة خوفهم يوم الفزع، وما ينالهم من الكروب والشدائد، قال تعالى:**

(٥١)-(٥٤) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ * وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ **أي: لو ترى -يا محمد- حال المشركين عند فزعهم إذا خرجوا من قبورهم، ورأوا العذاب، وما أخبرتهم به الرسل، وما كذبوا به، لرأيت أمراً هائلاً وحالة منكرة.**

﴿فَلَا فَوْتَ﴾ **فلا مخلص لهم ولا مهرب ولا ينجو منهم ناج.**

﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ **أي: أخذوا من الموقف -أرض المحشر- إلى النار، وجواب (لَوْ) محذوف تقديره: لرأيت أمراً عظيماً، وخطباً جسيماً، ترتعد له الفرائص.**

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ **أي: وقال الكفار في تلك الحال، عندما عاينوا العذاب، آمنا بالقرآن وبالرسول، وصدقنا ما به كذبنا، ومن أين لهم تناول الإيمان وهم الآن في الآخرة، ومحل الإيمان في الدنيا، وقد ذهبت الدنيا فصارت منهم بمكان بعيد؟**

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ **والحال أنهم قد كفروا بالقرآن وبالرسول من قبل ذلك في الدنيا، فكيف يحصل لهم الإيمان بهما في الآخرة.**

﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ **أي: ويرمون بظنونهم في الأمور المغيبة، فيقولون: لا بعث، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار، يقولون ذلك، من جهة بعيدة، ليس فيها مستند، لظنهم الباطل، والعرب تقول لكل من تكلم بما لا يعرف، هو يقذف ويرجم بالغيب، على جهة التمثيل لمن يرمي ولا يصيب، فكذلك الباطل، في المحال أن يغلب الحق أو يدفعه، وإنما له صولة وقت غفلة الحق عنه، فإذا برز الحق وقاوم الباطل قمعه.**

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ **أي: حيل بينهم وبين الإيمان، ودخول الجنان، كما حيل بينهم وبين التوبة والعودة إلى الدنيا ليؤمنوا، كما فعل بأشباههم وأمثالهم في الكفر، من الأمم السابقة حين جاءهم الهلاك.**

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبِۭ﴾ تعليل لما قبلها، أي: كانوا في الدنيا في شك وارتياب من أمر الحساب والعذاب، وقوله: ﴿مُّرِيبِۭ﴾ من باب التأكيد كقولهم: عجب عجيب. قال قتادة: إياكم والشك والريبة فإن من مات على شك بعث عليه، ومن مات على يقين بعث عليه.

تم تفسير سورة سبأ
والحمد لله

تفسير سورة فاطر
وهي مكية

* سورة فاطر سورة مكية، نزلت قبل هجرة رسول الله ﷺ، فهي تسير في الغرض العام الذي نزلت من أجله الآيات المكية، والتي يرجع أغلبها إلى المقصد الأول من رسالة كل رسول، وهو الدعوة إلى توحيد الله، وإقامة البراهين على وجوده، وهدم قواعد الشرك، والحث على تطهير القلوب من الرذائل، والتحلي بمكارم الأخلاق.

سميت سورة فاطر، لذكر هذا الاسم الجليل، والنعت الجميل في طليعتها، لما في هذا الوصف من الدلالة على الإبداع والاختراع والإيجاد لا على مثال سابق، ولما فيه من التصوير الدقيق، المشير إلى عظمة ذي الجلال، وباهر قدرته، وعجيب صنعه، فهو الذي خلق الملائكة وأبدع تكوينهم بهذا الخلق العجيب.

تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الخالق المبدع، الذي فطر الأكوان، وخلق الملائكة والإنس والجان، وأقامت الأدلة والبراهين على البعث والنشور، في صفحات هذا الكون المنظور، إذا بالأرض تحيا بعد موتها، بنزول الغيث، وبخروج الزروع والفواكه والثمار، بتعاقب الليل والنهار، وفي خلق الإنسان في أطوار، وفي إيلاج الليل والنهار، وغير ذلك من دلائل القدرة والوحدانية،

وفي القرآن خمس سور بدأت بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ذكر فيها النعم وأعظمها نعمة الإسلام، قال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهي سورة: الفاتحة، وسورة الأنعام وسورة الكهف، وسورة سبأ، وسورة فاطر، وفي السورة عتاب ونداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

قال تعالى:

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الثناء الكامل، والذكر الحسن، مع التعظيم والتبجيل لله -جل وعلا-، خالق السموات والأرض ومنشئها ومبدعها من غير مثال سبق، ولما ذكر الخلق، ذكر بعد ما يتضمن الأمر، وهو أنه:

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ أي: جاعل الملائكة وسائط بين الله وأنبيائه لتبليغهم أوامر الله، يرسلهم إلى الأنبياء وإلى ما شاء من الأمور، وفي ذكره أنه جعل الملائكة رسلاً، ولم يستثن منهم أحداً، دليل على كمال طاعتهم لربهم وانقيادهم لأمره، ولما كانت الملائكة مدبرات بإذن الله ما جعلهم الله موكلين فيه، ذكر قوتهم على ذلك وسرعة سيرهم، بأن جعلهم:

﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي: أصحاب أجنحة تطير بها. والأجنحة جمع جناح، بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة، وبعضهم له أربعة، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون بها إلى السماء.

﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ يزيد في خلق الأجنحة، أو يزيد في بعض مخلوقاته على بعض، في صفة خلقها، وفي الحسن، وفي الملاحة في العينين، والحسن في الأنف، والحلاوة في الفم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو تعالى قادر على ما يريد، له الأمر والقوة والسلطان، لا يمتنع عليه فعل شيء أراده، ولا يأبى عليه خلق شيء أراده.

وقد وصف تعالى نفسه في هذه الآيات بصفتين جليلتين تحمل كل منهما صفة القدرة وكمال الإنعام.

الأولى: أنه فاطر السموات والأرض، أي: خالقهما ومبدعهما من غير مثال يحتذيه، ولا قانون ينتحيه، وفي ذلك دلالة على كمال قدرته وشمول نعمته، فهو الذي رفع السماء بغير عمد، وجعلها مستوية من غير أَوَد، وزينها بالكواكب والنجوم، وهو الذي بسط الأرض، وأودعها الأرزاق والأقوات، وبث فيها البحار والأنهار، وفجر فيها العيون والآبار، إلى غير ما

هنالك من آثار قدرته العظيمة، وآثار صنعته البديعة، وعبر عن ذلك كله بقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

والثانية: اختيار الملائكة ليكونوا رسلاً بينه وبين أنبيائه، وقد أشار إلى طرف من عظمته وكمال قدرته -جل وعلا- بأن خلق الملائكة بأشكال عجيبة، وصور غريبة، وأجنحة عديدة، فمنهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له ستمائة جناح، ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب، كما هو وصف جبريل عليه السلام، ومنهم من لا يعلم حقيقة خلقته وضخامة صورته إلا الله -جل وعلا-، فقد روى الزهري أن جبريل قال للنبي ﷺ: «-يا محمد- كيف لو رأيت إسرافيل! إن له لاثني عشر ألف جناح، ومنها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب، وإن العرش لعلى كاهله».

* ثم بيّن تعالى نفاذ مشيئته، ونفوذ أمره في العالم الذي فطره ومن فيه، وأخضعه لإرادته وتصرفه، فقال:

﴿٢﴾ ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَا﴾ أي: أيُّ شيء يمنحه الله لعباده ويتفضل به عليهم من خزائن رحمته، من نعمة، وصحة، ومطر، وأمن، وعلم، وحكمة، ورزق، وإرسال رسل لهداية الخلق، وغير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحيط بها عد، فلا يقدر أحد على إمساكه وحرمان خلق الله منه، فهو الملك الوهاب الذي لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.

﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: وأيُّ شيء يمسكه ويحبسه عن خلقه من خيري الدنيا والآخرة، فلا أحد يقدر على منحه للعباد بعد أن أمسكه - جل وعلا -.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ وهو تعالى الغالب على كل شيء، الحكيم في صنعه، الذي يفعل ما يريد على مقتضى الحكمة والمصلحة، قال المفسرون: والفتح والإمساك عبارة عن العطاء والمنع، فهو الذي يضر وينفع، ويعطي ويمنع، وفي الحديث: «أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد: اللهم لا مانع لما أعطيت، ولامعطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» [رواه مسلم].

* ثم ذكرهم تعالى بنعمه الجليلة عليهم، ليعبدوه ويوحدوه، فقال:

﴿٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم، وهذا شامل لذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناءً، وبالجوارح انقياداً، فإن ذكر نعمه تعالى داع لشكره، ثم نبههم على أصول النعم، وهي الخلق والرزق، فقال:

﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ استفهام إنكاري، بمعنى النفي، أي: لا خالق غيره تعالى، لا ما تعبدون من الأصنام.

﴿يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: حال كونه تعالى هو المنعم على العباد بالرزق والعطاء، فهو الذي ينزل المطر من السماء، ويخرج النبات من الأرض، فكيف تشركون معه ما لا يخلق ولا يرزق من الأوثان والأصنام؟ ولهذا قال تعالى بعده:

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا رب ولا معبود، إلا الله الواحد الأحد.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون بعد هذا البيان، ووضوح البرهان، إلى عبادة الأوثان؟ والغرض: تذكير الناس بنعم الله، وإقامة الحجة على المشركين. وقد نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى الاستدلال على توحيده، بوجوب إفراد العبادة له، فكما أنه المستقل بالخلق والرزق، فكذلك يجب أن يفرد بالعبادة، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأوثان.

* ثم ذكر سبحانه ما يطيب خاطر نبيه ﷺ ويسليه، ويصبره مما جرى من الأمم السابقة مع رسلها، فقال تعالى:

﴿٤﴾-﴿٦﴾ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ * إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾ وإن يكذبك -يا محمد- هؤلاء المشركون فلا تحزن لتكذيبهم، فهذه سنة الله في الأنبياء من قبلك، فقد كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا، فلك بهم أسوة، ولابد أن ينصرك الله عليهم وينجيك وأتباعك.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ
(٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا
وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (٥) إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ
عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (٦) ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ
ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ
حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ
ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ (٩) مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ
إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ
يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ
(١٠) وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ
وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١١)

٤٣٥

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ إلى الله تعالى وحده مرجع أمرك وأمرهم، وسيجازي كلاً بعمله، وفيه وعيد وتهديد للمكذبين.

ثم ذكرهم تعالى بذلك الموعد المحقق، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: إن وعده لكم بالبعث والجزاء، والجنة والنار، حق ثابت لامحالة، لا شك فيه، ولا مرية، ولا تردد، فلا تلهكم الحياة الدنيا بزخرفها ونعيمها عن الحياة الآخرة، ولا تتلهوا عن تلك الحياة الباقية، بهذه الزهرة الفانية.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ ولا يخدعنكم الشيطان المبالغ في الغرور فيطمعكم في عفو الله وكرمه، ويمنيكم بالمغفرة مع الإصرار على المعاصي. ثم بيّن تعالى عداوة الشيطان للإنسان، فقال:

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ إن الشيطان لكم أيها الناس عدو لدود، وعداوته قديمة لا تكاد تزول، فعادوه كما عاداكم ولا تطيعوه، وكونوا على حذر منه، فهو دائماً لكم بالمرصاد.

﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: إنما غرضه أن يقذف بأتباعه في نار جهنم التي تتوقد على أهلها.

*** ثم ذكر تعالى أن الناس انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلى قسمين، وذكر جزاء كل منها، فقال:**

(٧)، (٨) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: الذين جحدوا بالله ورسله لهم عذاب دائم شديد، لا يقادر قدره، ولا يوصف هوله في نار جهنم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لهم عند ربهم مغفرة وستر لذنوبهم، وأجر كبير وهو الجنة، وإنما قرن الإيمان بالعمل الصالح ليشير إلى أنهما لا يفترقان، فالإيمان: تصديق، وقول، وعمل.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ الاستفهام للإنكار، وجوابه محذوف، والتقدير: أفمن حسّن له الشيطان عمله السيء القبيح حتى رآه حسناً، واستحسن ما هو عليه من الكفر والضلال، كمن استقبحه واجتنبه واختار طريق الإيمان؟

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: الكل بمشيئة الله، هو تعالى الذي يصرف من يشاء عن طريق الهدى، ويهدي من يشاء بتوفيقه للعمل الصالح والإيمان.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ أي: فلا تغتم -يا محمد- ولا تهلك نفسك حزناً وأسى على تركهم الإيمان، فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هداهم شيء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي: هو -جل وعلا- العالم بما يصنع هؤلاء من القبائح ومجازيهم عليها، وفيه وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

*** ثم يخبر سبحانه عن كمال اقتداره، وسعه جوده، قال تعالى:**

٩-١١ ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ * مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ أي: والله تعالى بقدرته هو الذي أرسل الرياح مبشرة بنزول المطر.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي: فحركت السحاب وأهاجته، والتعبير بالمضارع عن الماضي.

﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي: فسقنا السحاب الذي يحمل الغيث إلى بلد مجدب قاحل.

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فيه حذف، تقديره، فأنزلنا به الماء، فأحيينا به الأرض بعد جدبها ويبسها، فتخضر الأرض بالنبات.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: كما أحيا الله الأرض الميتة بالماء، كذلك يحيي الموتى من قبورهم، روى الإمام أحمد عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله: كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال: «أما مررت بوادٍ أهلك مُحلاً، ثم مررت به يهتز خضراً؟» قلت: نعم يا رسول الله، قال: «فكذلك يحيي الله الموتى، وتلك آيته في خلقه»، وكثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لانبات فيها، فإذا أرسل الله إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] كذلك الأجساد إذا أراد الله بعثها ونشورها.

ثم نبه تعالى عباده إلى السبيل الذي تنال به العزة في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ من كان يطلب العزة الكاملة، والسعادة الشاملة، فليطلبها من الله تعالى وحده فإن العزة كلها لله -جل وعلا-، ولا تنال إلا بطاعته، والبعد عن معصيته، فمن اعتز بالخالق أعزه الله.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ إليه -جل وعلا- يرتفع كل كلام طيب من ذكر، ودعاء، وتلاوة قرآن، وتسبيح وتمجيد ونحوه. قال الطبري: إلى الله يصعد ذكر العبد إياه وثناؤه عليه.

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ والعمل الصالح من أعمال القلوب وأعمال الجوارح، يتقبله الله تعالى ويثيب صاحبه عليه.

ولما ذكر حال أهل الطاعة والعبادة، ذكر أهل السيئات والمعاصي، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: والذين يحتالون بالمكر والخديعة لإطفاء نور الله، والكيد للإسلام والمسلمين، لهم في الآخرة عذاب شديد، في نار جهنم.

﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي: ومكر أولئك المجرمين هالك وباطل، ما أسر أحد سوءاً ودبره إلا أبداه الله وأظهره. قال المفسرون: والإشارة هنا إلى مكر قريش برسول الله ﷺ حين اجتمعوا في دار الندوة، وأرادوا أن يقتلوه ﷺ، أو يحبسوه، أو يخرجوه.

ثم ذكرهم تعالى بدلائل التوحيد والبعث، بعد أن ذكرهم بآيات قدرته وعزته، فقال:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ يذكر تعالى خلقه للآدمي، وتنقله في هذه الأطوار، أي: خلق أصلكم وهو آدم من تراب.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: خلقكم ذكوراً وإناثاً، وزوج بعضكم من بعض ليتم البقاء في الدنيا إلى انقضائها.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ وما تحمل أنثى في بطنها من جنين، ولا تلد إلا بعلمه تعالى، يعلم أذكر هو أو أنثى، ويعلم أطوار هذا الجنين في بطن أمه، لا يخفى عليه شيء من أحواله.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: وما يطول عمر أحد من الخلق فيصبح هرماً، ولا ينقص من عمر أحد

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا
مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ
حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ
ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن
تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ
وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ
﴿١٤﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ
ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾
وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن
تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ
إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

٤٣٦

فيموت وهو صغير أو شاب، إلا وهو مسجل في اللوح المحفوظ، لا يزاد فيما كتب الله ولا ينقص.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل هين؛ لأن الله قد أحصى ذلك كله، وأحاط بكل شيء علماً، فهذه ثلاثة أدلة من أدلة البعث والنشور، كلها عقلية، نبه الله عليها في هذه الآيات: إحياء الأرض بعد موتها، وأن الذي أحياها سيحيي الموتى، وتنقل الآدمي في تلك الأطوار.

* ثم أخبر تعالى عن قدرته وحكمته ورحمته بما سخر للعباد من الأرزاق والخيرات، فقال:

﴿١٢﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ﴾ أي: وما يستوي ماء البحر، وماء النهر.

﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ أي: هذا ماء حلو شديد الحلاوة، يكسر وهج العطش، ويسهل انحداره في الحلق لعذوبته.

﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: وهذا ماء شديد الملوحة، يحرق حلق الشارب لمرارته وشدة ملوحته، فكما لا يتساوى البحران: العذب، والمالح، فكذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البر مع الفاجر، وهذا مثل ضرب للمؤمن والكافر. والفرات الذي يكسر العطش، والسائغ الذي يسهل انحداره لعذوبته، والأجاج الذي يحرق بملوحته.

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي: ومن كل من البحرين تأكلون سمكاً غضاً طرياً، مختلف الأنواع والطعوم والأشكال.

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي: وتستخرجون منهما اللؤلؤ والمرجان وغيرهما، للزينة والتحلي، فهذه مصالح عظيمة للعباد، ومن المنافع الأخرى أن سخر الفلك فيه:

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي: ترى أيها المخاطب السفن العظيمة، تمخر وتشق عباب البحر مقبلة ومدبرة، تحمل على ظهرها الأثقال والبضائع والرجال، وهي لا تغرق فيه؛ لأنها بتسخير الله -جل وعلا-، وفي هذا دلالة على قدرة الله ووحدانيته.

﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: لتطلبوا بركوبكم هذه السفن العظيمة من فضل الله بأنواع التجارات، والسفر إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة، فيحصل بذلك من فضل الله وإحسانه شيء كثير يستوجب شكره، ولذا قال:

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ولكي تشكروا ربكم على إنعامه وإفضاله في تسخيره ذلك لكم.

* ثم انتقل إلى آية أخرى من آيات قدرته وسلطانه في الآفاق، وهي من نعمه الظاهرة التي سخرها للعباد، فقال:

﴿١٣﴾، ﴿١٤﴾ ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ أي: يدخل الليل في النهار، ويدخل النهار في الليل، فيضيف من هذا إلى هذا وبالعكس، فيتفاوت بذلك طول الليل والنهار بالزيادة والنقصان، حسب الفصول والأمصار، آية من آيات الله تشاهد لا يستطيع إنكارها جاحد أو مؤمن، ويحس بآثارها الأعمى والبصير، آية شاهدة على قدرة الله ودقة تصرفه في خلقه، وهذه الظاهرة الكونية دستور لا يتغير، ونظام محكم لا يأتي بطريق الصدفة، وإنما هو صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه، فسبحان المدبر الحكيم العليم.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: ذللهما لمصالح العباد، كل منهما يسير ويدور في مداره الذي قدره الله له لا يتعداه إلى أجل معلوم، هو يوم القيامة، فجعل من تسخيره الضياء والنور، والحركة والسكون، وانتشار العباد في طلب فضله وغير ذلك.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ أي: ذلك الفاعل لهذه الأمور البديعة، الذي انفرد بخلق هذه المذكورات وتسخيرها، هو ربكم العظيم الشأن، المألوه المعبود، الذي له الملك والسلطان، والتصرف الكامل في الخلق.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ أي: والذين تعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام لا يملكون شيئاً ولو بمقدار القطمير، وهو القشرة الرقيقة التي بين التمرة والنواة. قال المفسرون: هو مثل يضرب في القلة والحقارة، والأصنام لضعفها، وهوان شأنها وعجزها عن أي تصرف، صارت مضرب المثل في حقارتها بأنها لا تملك فتيلاً ولا قطميراً. ثم أكد تعالى ذلك بقوله:

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ أي: إن دعوتم هذه الأصنام لم يسمعوا دعاءكم، ولم يستجيبوا لندائكم؛ لأنها جمادات لا تسمع ولا تفهم.

﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ ولو سمعوا لدعائكم - على الفرض والتسليم - ما استجابوا لكم؛ لأنها ليست ناطقة فتجيب.

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ أي: وفي الآخرة حين ينطقهم الله يتبرؤون منكم، ومن عبادتكم إياهم، ولا يخبرك -يا محمد- على وجه اليقين أحد أصدق من - الله - الخالق العليم الخبير. قال قتادة: يعني نفسه ﷻ.

* لما عدد تعالى نعمه على العباد، وأقام الأدلة والبراهين على قدرته وعزته وسلطانه، ذكرهم هنا بحاجتهم إليه، وأخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم في مزيد حاجتهم إلى فضله ومفتقرون إليه، واستغنائه -جل وعلا- عن جميع الخلق، قال تعالى:

﴿١٥﴾-﴿١٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۞ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۞ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ۞ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ الخطاب لجميع البشر لتذكيرهم بنعم الله الجليلة عليهم، أي: أنتم المحتاجون إليه تعالى في بقائكم وفي كل أحوالكم، وفي الحركات والسكنات، فقراء إلى هدايته، ورزقه، وتعليمه ما لا يعلمون، وغير ذلك.

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي: وهو -جل وعلا- الغني عن العالم على الإطلاق، المحمود على نعمه التي لا تحصى، وهذه آية موعظة وتذكير، وأن جميع الناس محتاجون إلى إحسان الله تعالى وإنعامه، في جميع أحوالهم، لا يستغني أحد عنه طرفة عين، وهو الغني عن العالم على الإطلاق، المحمود على ما يسديه من النعم، المستحق للحمد والثناء. ثم قرر استغناءه عن الخلق، بقوله:

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ أي: لو شاء تعالى لأهلككم وأفناكم وأتى بقوم آخرين غيركم، يطيعونه؛ ولا يعصونه، وفي هذا وعيد وتهديد.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ أي: وليس ذلك بصعب ولا معجز له، أو ممتنع على الله، بل هو سهل يسير، عليه سبحانه، لأنه يقول للشيء كن فيكون.

وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ
٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ٢١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا
ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي
ٱلۡقُبُورِ ٢٢ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا
وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤ وَإِن يُكَذِّبُوكَ
فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ
فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ
جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧
وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ
إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا
رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ
أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠

٤٣٧

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ **أي: في يوم القيامة لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى، ولاتعاقب بذنب غيرها كما يفعل جبابرة الدنيا من أخذ الجار بالجار، والقريب بالقريب.**

﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ **وإن تدع نفس مثقلة بالأوزار أحداً ليحمل عنها بعض أوزارها، لا تحمل عنها ولو كان المدعو قريباً لها كالأب والابن، فلا غياث يومئذ لمن استغاث، وهو تأكيد لما سبق في أن الإنسان لا يتحمل ذنب غيره.**

قال ابن عباس: يلقى الأب والأم ابنه فيقول: يا بني احمل عني بعض ذنوبي، فيقول: لا أستطيع حسبي ما علي.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ **أي: إنما تنذر -يا محمد- بهذا القرآن، الذين يخافون عقاب ربهم يوم القيامة، ويخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب.**

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ **أي: احتفلوا بأمرها وأدوها على الوجه الأكمل، فضموا إلى طهارة نفوسهم، طهارة أبدانهم بالصلاة المفروضة في أوقاتها.**

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦ﴾ **ومن طهر نفسه من أدناس المعاصي، فإنما ثمرة ذلك التطهر عائدة عليه، فصلاحه وتقواه مختص به ولنفسه.**

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ **إليه تعالى وحده مرجع الخلائق يوم القيامة، فيجازي كلاً بعمله، في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وهو إخبار متضمن معنى الوعيد.**

*** وتحدثت الآيات عن الفارق الكبير بين المؤمن والكافر، وضربت لهما الأمثال بالأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور، قال تعالى:**

١٩-٢٦ ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ * وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ * إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ * إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ * وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ **هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، أي: كما لا يتساوى الأعمى -المسلوب حاسة البصر- مع البصير - الذي له ملكة البصر، فكذلك لا يتساوى المؤمن المستنير بنور القرآن، والكافر الذي تخبط في الظلام.**

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ **أي: لا يتساوى كذلك الكفر والإيمان، كما لا يتساوى النور والظلام.**

﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ﴾ **أي: وكذلك لا يستوي الحق والباطل، والهدى والضلال، كما لا يستوي الظل الظليل مع شدة حرارة الشمس المتوهجة. قال المفسرون: ضرب الله الظل مثلاً للجنة وظلها الظليل، وأشجارها اليانعة تجري من تحتها الأنهار، كما جعل الحرور مثلاً للنار وسعيرها، وشدة أوارها وحرها، وجعل الجنة مستقراً للأبرار، والنار مستقراً للفجار، ثم أكد ذلك، فقال:**

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُ﴾ **أي: كما لا يستوي العقلاء أحياء القلوب بالإيمان، ولا الجهلاء أموات القلوب بالكفر، وترتيب هذه**

الأشـياء في بيان عدم الاسـتواء جاء في غاية الفصاحة، فقـد ذكر الأعمى والبصير مثلاً للمؤمن والكافر، فذكر ما عليه الكافر مـن ظلمة الكفر، وما عليه المؤمن من نـور الإيمان، ثم ذكر مآلهما وهـو الظل والحـرور، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة، والكافر بكفره في حر وتعب، ثم ذكر مثلاً آخر على أبلغ وجه، وهو، الحـي والميت، فالأعمى قد يكون فيـه بعض النفـع بخلاف الميت. وجمع الظلمات؛ لأن طرق الكفر متعددة، وأفـرد النـور لأن التوحيد والحق واحد لا يتعدد، وقدم الأشرف في المثلـين الأخيريـن وهمـا «الظل، والحـي» وقـدم الأوضـح في المثلين الأولين وهما «الأعمـى، والظلمات» ليظهر الفـرق جليّـاً، ولا يقال ذلك لأجل السـجع، لأن معجـزة القرآن ليسـت في مجرد اللفظ، بـل في المعنى أيضاً، ثم زاد في الإيضاح والبيان فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡـمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ إن الله يسمع من يشاء إسـماعه دعوة الحق، سـماع فهم وقبول، فيحييـه بالإيمان ويشرح صـدره للإسـلام، وما أنت -يا محمد- بمسـمع هـؤلاء الكفار، لأنهم أموات القلوب لا يدركون ولا يفقهون. قال ابن الجوزي: أراد بمن في القبور الكفار، وشبههم بالموتى، أي: فكما لا يقدر أن يسـمع من في القبور كتاب الله وينتفـع بمواعظه، فكذلك من كان ميت القلب لا ينتفع بما يسمع.

﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: ما أنت إلا رسول منذر، تخوف هؤلاء الكفار من عذاب النار وغضبه وعقابه.

﴿إِنَّآ أَرۡسَـلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِـيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أي: بعثنـاك بالهدى ودين الحق، مبشراً بالجنة من صدقك وعمل بهديـك، ومحذراً ومنـذراً من كذبك وعصاك بالنار.

﴿وَإِن مِّـنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَـلَا فِيهَا نَذِيـرٞ﴾ أي: ما من أمـة من الأمم في العصـور والأزمنة الخاليـة، إلا وقد جاءها رسـول يقيم عليهم حجة الله، واقتصر على ذكر النذير دون البشـير، لأنه ألصق بالمقام.

﴿وَإِن يُكَذِّبُـوكَ فَقَـدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ تسـلية للنبي ﷺ للتأسي بالأنبيـاء في الصبر على تحمل الأذى والبـلاء، أي: وإن يكذبك -يا محمد- هـؤلاء المشركون من قومك، فقد كـذب الذين من قبلهم من الأمم السابقة رسلهم فلست أول من كُذِّب من الرسل، ثم قال تعالى عن الأمم:

﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُـلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ جاءتهم الرسـل بالمعجزات البينات، والحجـج الواضحـات، فكذبوهم وأنكروا ما جاؤوا به من عند الله.

﴿وَبِٱلزُّبُـرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ أي: وجاؤوهم بالزبر، أي: الصحف المنزلة على الأنبياء، وبالكتب السماوية المقدسـة المنـيرة الموضحـة، وهـي أربعة: التـوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، ومـع ذلك كذبوهم وردوا عليهم رسالتهم، فاصبر كما صبروا.

﴿ثُمَّ أَخَـذۡتُ ٱلَّذِيـنَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِـيرِ﴾ أي: ثم بعد إمهالهم أخذت هؤلاء الكفار بالهلاك والدمـار وأنواع العقوبـات، فكيف كانت عقوبتـي لهم وإنكاري عليهم؟ ألم آخذهم أخذ عزيز مقتدر؟ ألم أبدل نعمتهم نقمة، وسـعادتهم شـقاوة، وعمارتهم خراباً؟ وهكـذا أفعل بمن كذب رسـلي، والمعنى: إياكم يا كفار قريش وتكذيب هذا الرسول الكريم، فيصيبكـم كـما أصـاب أولئك، من العذاب الأليم والخزي الوخيم.

* ثم ذكر سـبحانه نوعاً من أنواع قدرتـه الباهرة، وخلقاً مـن مخلوقاته البديعة، ودلائل القـدرة في اختلاف أنواع الثمار، وفي سائر المخلوقات من البشر والدواب والأنعام، وفي اختلاف أشكال الجبال والأحجار، وتنوعها ما بين أبيض وأسود وأحمر، وكلها ناطقة بعظمة الواحد القهار، قال تعالى:

(٢٧)،(٢٨) ﴿أَلَمۡ تَـرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِـنَ ٱلسَّـمَآءِ مَـآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًـا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِـفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيـبُ سُـودٞ * وَمِـنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰـمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡـشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ ألم تر أيها المخاطب أن الله العظيم الكبير الجليل، أنزل من السحاب المطر بقدرته؟

الجُزْءُ الثَّانِي وَالعِشْرُونَ سُورَةُ فَاطِر

وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ
يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ
ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم
مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ
فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣
وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ
شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا
فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ
نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ
عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ
فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ
أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ
فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ
غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨

٤٣٨

﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا﴾ فأخرجنا بذلك الماء أنواع النباتات والفواكه والثمار، المختلفات الأشكال والألوان والطعوم، مختلف أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرهما مما لا يحصر، أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة، ونحوها.

﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا﴾ أي: وخلق الله الجبال كذلك، فيها الطرائق المختلفة الألوان - وإن كان الجميع حجراً أو تراباً - فمن الجبال جدد - أي طرائق، جمع طريق - مختلفة الألوان، بيض مختلفة البياض، وحمر مختلفة في حمرتها.

﴿وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ أي: وجبال سود غرابيب، أي: شديدة السواد، قال ابن جزي: قدم الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر، وذلك لقصد التأكيد، وكثيراً ما يأتي مثل هذا في كلام العرب، والغرض بيان قدرته تعالى، فليس اختلاف الألوان قاصراً على الفواكه والثمار، بل إن في طبقات الأرض، وفي الجبال الصلبة ما هو أيضاً مختلف الألوان، حتى لتجد الجبل الواحد ذا ألوان عجيبة، وفيه عروق تشبه المرجان، ولاسيما في صخور المرمر، فسبحان القادر على كل شيء.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ﴾ أي: وخلق من الناس، والدواب، والأنعام، والإبل، والبقر، والنعم، خلقاً مختلفاً ألوانه كذلك، كاختلاف الثمار والجبال، فهذا أبيض، وهذا أحمر، وهذا أسود، والكل خلق الله، فتبارك أحسن الخالقين.

ثم لما عدد آيات الله، وأعلام قدرته، وآثار صنعه، وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس، أتبع ذلك بقوله:

﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ أي: إنما يخشاه تعالى العلماء لأنهم عرفوه حق معرفته، وقدرته على كل شيء، ومنها اختلاف هذه المخلوقات مع اتخاذ سببها، ويتدبرون ما فيها من عظات وعبر. قال ابن كثير: أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم، والعلمية أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ أي: غالب على كل شيء بعظمته كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات، غفور لمن تاب وأناب من عباده.

* ثم أخبر عن صفات هؤلاء الذين يخافون الله ويرجون رحمته، فقال:

﴿٢٩﴾،﴿٣٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: يستمرون ويداومون على تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار، ثم خص من التلاوة بعدما عمّ الصلاة التي هي عماد الدين، فقال:

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدوها على الوجه الأكمل في أوقاتها، بخشوعها وآدابها، وشروطها، وأركانها.

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ وأنفقوا بعض أموالهم في سبيل الله، وابتغاء رضوانه في السر والعلن.

﴿يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ يرجون بعملهم هذا تجارة رابحة، لن تكسد ولن تهلك بالخسران أبداً، وهذا فيه أنهم يخلصون بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئاً.

﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ أي: ليوفيهم الله جزاء

أعمالهم، وثواب ما فعلوا من صالح الأعمال، ويزيدهم -فوق أجورهم- من فضله وإنعامه وإحسانه، وقيل: توفية الأجور هو ما يستحقه المطيع من الثواب، والزيادة: التضعيف فوق ذلك، أو النظر إلى وجه الله.

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: مبالغ في الغفران لأهل القرآن، شاكر لطاعتهم. قال ابن كثير: كان مطرف إذا قرأ هذه الآية قال: هذه آية القراء.

(٣١) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ والذي أنزلنا إليك -يا محمد- وهو القرآن العظيم، هو الحق الذي لا شك فيه، ولا ريب في صدقه.

﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من الكتب الإلهية المنزلة، كالتوراة والإنجيل والزبور، لأنها أخبرت به، فلما وجد وظهر، ظهر به صدقها، فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدقها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ أي: هو -جل وعلا- خبير بعباده محيط ببواطن أمورهم وظواهرها، بصير بهم، لا تخفى عليه خافية من شؤونهم.

* ولما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولاً، وأحسنهم أفكاراً، وأرقهم قلوباً، وأزكاهم أنفساً، اصطفاهم الله تعالى، واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب، ولهذا قال:

(٣٢) ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ أي: ثم أورثنا هذا القرآن العظيم لأفضل الأمم -وهم أمة محمد ﷺ-، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة، الذين اخترناهم على سائر الأمم، وخصصناهم بهذا الفضل العظيم، القرآن المعجز خاتمة الكتب السماوية.

ثم قسمهم إلى ثلاثة أصناف، فقال:

﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: فمن هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب من هو مقصر في عمل الخير، يتلو القرآن ولا يعمل به، وهو الظالم لنفسه، ومنهم من هو متوسط في عمل الخيرات والصالحات، يعمل بالقرآن في أغلب الأوقات، ويقصر في بعض الأوقات، وهو المقتصد، ومنهم من هو سباق في العمل بكتاب الله، يستبق الخيرات، وقد أحرز قصب السبق في فعل الطاعات بتوفيق الله وتيسيره، وهو السابق بالخيرات بإذن الله، وأكثر المفسرين أن هذه الأصناف الثلاثة في أمة محمد ﷺ فالظالم لنفسه: العاصي، والسابق: التقي، والمقتصد: بينهما. وقال الحسن البصري: السابق من رجحت حسناته على سيئاته، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته، وجميعهم يدخلون الجنة. وقوله ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ راجع إلى السابق بالخيرات، لئلا يغتر بعمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه. وقيل في سبب تقديم الظالم لنفسه على السابق بالخيرات - مع أن السابق أعلى مرتبة منه - لئلا ييأس الظالم من رحمة الله وأخر السابق لئلا يعجب بعمله.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أي: ذلك الإرث والاصطفاء لأمة محمد ﷺ لحمل أشرف الرسالات والكتب السماوية هو الفضل العظيم، الذي لا يدانيه فضل ولا شرف، فقد تفضل الله عليهم بهذا القرآن المجيد، والباقي مدى الدهر.

* ثم أخبر تعالى عن جزاء الذين أورثهم الكتاب، فقال:

(٣٣)-(٣٥) ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ * وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ * ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ أي: جنات إقامة، أضافها للإقامة؛ لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها، ينعمون فيها بأنواع النعيم، وهي مراتب ودرجات متفاوتة، حسب تفاوت الأعمال، وإنما ﴿جَنَّٰتُ﴾؛ لأنها جنات كثيرة وليست جنة واحدة، فهناك جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة النعيم،

وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة السلام، وجنة عليين، وفي كل جنة مراتب ونزل، بحسب مراتب العاملين.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي: يزينون في الجنة بأساور من ذهب، مرصعة باللؤلؤ، وهو الحلي الذي يجعل في اليدين.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي: وجميع ما يلبسونه في الجنة من الحرير، بل فرشهم وستورهم كذلك، قال القرطبي: لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان، جعل الله ذلك لأهل الجنة، وليس أحد من أهل الجنة إلا في يده ثلاثة أسورة: سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ أي: ولما تم نعيمهم، وكملت لذتهم، وطاب مقامهم، قالوا عند دخولهم الجنة: الحمد لله الذي أذهب عنا جميع الهموم والأكدار والأحزان. قال المفسرون: عبر بالماضي ﴿أَذْهَبَ﴾ لتحقق وقوعه. والحزن يعم كل ما يكدر صفو الإنسان من خوف المرض، والفقر، والموت، وأهوال القيامة، وعذاب النار، وغير ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ واسع المغفرة للمذنبين، شكور لطاعة المطيعين، وكلا اللفظتين للمبالغة، أي: واسع الغفران يغفر الجنايات وإن كثرت، عظيم الشكر والإحسان، يقبل الطاعات وإن قلت.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾ أي: أنزلنا الجنة وأسكننا فيها، وجعلها مقراً لنا وسكناً، لا نتحول عنها أبداً، وكل ذلك من إنعامه وتفضله علينا.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي: لا يصيبنا فيها تعب، ولا مشقة، ولا يصيبنا فيها إعياء ولا فتور، ويدل هذا على أنهم لا ينامون، لأن النوم فائدته زوال التعب، وحصول الراحة به، وأهل الجنة بخلاف ذلك؛ ولأنه موت أصغر وأهل الجنة لا يموتون. وإنما سميت الجنة ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾؛ لأنهم يقومون فيها ويمكثون ولا يخرجون منها. والنصب تعب البدن، واللغوب تعب النفس الناشئ عن تعب البدن.

* لما ذكر تعالى حال السعداء الأبرار، أهل الجنة ونعيمهم وجزاء عبادة الصالحين، ذكر حال الأشقياء الفجار أهل النار وعذابهم وجزاء عباده الصالحين، فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله، فإن لهم نار جهنم المستعرة، جزاءً وفاقاً على كفرهم.

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ أي: لا يحكم عليهم بالموت فيها حتى يستريحوا من عذاب النار، ولا يخفف عنهم شيء من العذاب، بل هم في عذاب دائم مستمر لا ينقطع.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: مثل ذلك العذاب الشديد الفظيع، نجازي ونعاقب كل مبالغ في الكفر والعصيان.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: وهم يتصارخون في جهنم ويستغيثون برفع أصواتهم، قائلين: ربنا أخرجنا من النار، وردنا إلى الدنيا لنعمل عملاً صالحاً يقربنا منك غير الذي كنا نعمله، فنؤمن بدل الكفر، ونطيع بدل المعصية، ونمتثل أمر الرسل، وفي قولهم: ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ اعتراف بسوء عملهم، وتندم عليه وتحسر. قال تعالى رداً عليهم وموبخاً لهم:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي: أولم نترككم ونمهلكم في الدنيا عمراً مديداً، يكفي لأن يتذكر فيه من يريد التذكر والتفكر؟ فماذا صنعتم في هذه المدة التي عشتموها؟ وما لكم تطلبون عمراً آخر؟ وفي الحديث «أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة» [رواه البخاري] ومعنى «أعذر» أي: بلغ به أقصى العذر.

﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أي: وجاءكم الرسول المنذر، وهو محمد ﷺ، الذي بعث بين يدي الساعة. وقيل:

الجُزْءُ الثَّانِي وَالعِشْرُونَ — سُورَةُ فَاطِرٍ

هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَلَا
يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ
كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارٗا ٣٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبٗا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنْهُۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ
بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ٤٠ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٖ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ
إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ
نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٞ
مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٤٢ ٱسْتِكْبَارٗا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ
وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ
ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا
٤٣ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٖ
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤

٤٣٩

﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ هو الشيب، والأول أظهر.

﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: فذوقوا العذاب يا معشر الكافرين، فليس لكم اليوم ناصر ولا معين يدفع عنكم عذاب الله. والأمر أمر إهانة ﴿فَذُوقُواْ﴾ وفيه إشارة إلى الدوام، وإنما وضع الظاهر ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ موضع الضمير «لكم» لتسجيل الظلم عليهم، وأنهم بكفرهم وظلمهم ليس لهم نصير أصلاً، لا من الله ولا من العباد.

* وبعد أن ذكر تعالى جزاء أهل الدارين، وذكر أعمال الفريقين، أخبر تعالى عن سعة علمه، واطلاعه على غيب السموات والأرض، التي غابت عن إبصار الخلق وعن علمهم، قال تعالى:

﴿٣٨﴾، ﴿٣٩﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارٗا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو تعالى العالم الذي أحاط علمه بكل ما خفي في الكون من غيب السموات والأرض، لا يخفى عليه شأن من شؤونهما.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: يعلم -جل وعلا- مضمرات الصدور، وما تخفيه من الهواجس والوساوس، فكيف لا يعلم أعمالهم الظاهرة؟ قال المفسرون: والجملة لتأكيد ما سبق من دوام عذاب الكفار في النار، لأن الله تعالى يعلم من الكافر أنه تمكن الكفر في قلبه، بحيث لو دام في الدنيا إلى الأبد ما آمن بالله ولا عبده، فالعذاب الأبدي مساو لكفرهم الأبدي.

ثم ذكر تعالى عن كمال حكمته ورحمته بعباده، أنه قدر بقضائه السابق، أن يجعل بعض الناس يخلف بعضاً في الأرض، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو تعالى جعلكم أيها الناس خلائف في الأرض، بعد عاد وثمود، ومن مضى قبلكم من الأمم، تخلفونهم في مساكنهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن.

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: أنه يرسل الرسل، ويرسل لكل أمة من الأمم النذر، فمن كفر بالله فعليه وبال كفره، لا يضر بذلك إلا نفسه.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتٗا﴾ أي: ولا يزيدهم كفرهم إلا طرداً من رحمة الله، وبعداً وبغضاً شديداً من الله. ثم أمره سبحانه أن يوبخهم، ويبكتهم، فقال:

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارٗا﴾ ولا يزيدهم كفرهم إلا هلاكاً وضلالاً، وخسران العمر الذي ما بعده شر وخسار. وفي الآية تنبيه على أنه تعالى استخلفهم بدل من كان قبلهم، فلم يتعظوا بحال من تقدمهم من المكذبين للرسل وما حل بهم من الهلاك، ولا اعتبروا بمن كفر، ولا اتعظوا بمن تقدم. والمقت أشد الاحتقار والبغض، والخسار خسار العمر، كأن لعمر رأس مال الإنسان فإذا انقضى في غير طاعة الله فقد خسره، واستعاض به بدل الربح سخط الله وغضبه، بحيث صار إلى النار المؤبدة.

* ثم وبخ تعالى المشركين في عبادتهم ما لا يسمع ولا ينفع، فقال:

﴿٤٠﴾، ﴿٤١﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٞ

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: قل -يا محمد- للمشركين تبكيتاً لهم، أخبروني عن هؤلاء الشركاء من الأوثان والأصنام، وعما استحقوا به الإلهية والشركة، الذين عبدتموهم من دون الله، وأشركتموهم معه في العبادة، بأي شيء استحقوا هذه العبادة؟

﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أروني أيَّ شيء خلقوه في هذه الدنيا من المخلوقات حتى عبدتموهم من دون الله؟ هل خلقوا بحراً أم خلقوا جبالاً، أو خلقوا حيواناً.

﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أم شاركوا الله في السموات فاستحقوا بذلك الشركة معه في الألوهية؟ فإذا لم يخلقوا شيئاً ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فلم عبدتموهم ودعوتموهم مع إقراركم بعجزهم؟ فانتفى الدليل العقلي على صحة عبادتهم، ودل على بطلانها، ثم ذكر الدليل السمعي وأنه أيضاً منتف، فلهذا قال:

﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُ﴾ أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً ينطق بأنهم شركاء الله، فهم على بصيرة وحجة وبرهان في عبادة الأوثان. فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي والنقلي قد دلا على بطلان الشرك، فما الذي حمل المشركين على الشرك، وفيهم ذوو العقول والذكاء والفطنة، أجاب تعالى بقوله:

﴿بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: ذلك الذي مشوا عليه، ليس لهم فيه حجة، فإنما ذلك بتوصية بعضهم لبعض به، إنما اتخذوهم آلهة بتضليل الرؤساء للأتباع بقولهم: الأصنام تشفع لهم، وهو غرور باطل وزور، وهو تغرير الأسلاف للأخلاف، وإضلال الرؤساء للأتباع بأنهم يشفعون لهم عند الله.

ثم ذكر تعالى دلائل قدرته وكمال وحدانيته، وتمام رحمته، وسعة حلمه ومغفرته، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾ أي: هو -جل وعلا- بقدرته وبديع حكمته، يمنع السموات والأرض من الزوال، والسقوط، والوقوع. لما بيّن أن آلهتهم لا تقدر على خلق شيء من السموات والأرض، بين أن خالقهما وممسكهما هو الله، فلا يوجد حادث إلا بإيجاده، ولا يبقى إلا ببقائه.

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ أي: ولئن زالتا عن أماكنهما - فرضاً، ما أمسكهما أحد بعد الله، بمعنى: أنه لا يستطيع أحد على إمساكهن، إنما هما قائمتان بقدرة الواحد القهار.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ أي: إنه تعالى حليم لا يعاجل العقوبة للكفار مع استحقاقهم لها، واسع المغفرة والرحمة لمن تاب منهم وأناب.

* ثم ذكر تعالى شيئاً من عناد الكفار ومكابرتهم لدعوة الرسول ﷺ، فقال تعالى:

﴿٤٢﴾،﴿٤٣﴾ ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا * ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أي: حلف المشركون بالله أشد الأيمان وأبلغها، وكانوا يحلفون بآبائهم وأصنامهم فإذا أرادوا التأكيد والتشديد حلفوا بالله.

﴿لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ لئن جاءهم رسول من عند الله منذر، يخوفهم عقاب الله.

﴿لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِ﴾ ليكونن أكثر استقامة واتباعاً للحق من جميع الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من أهل الكتاب، بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى، أتتهم الرسل فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من اليهود والنصارى وغيرهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ أي: فلما جاءهم محمد ﷺ أكرم مرسل، وكان

من أنفســهم، لم يهتـدوا، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل:

﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: ما زادهم مجيئه، إلا تباعداً عن الهدى والحق، وهرباً منه، وضلالاً وبغياً وعناداً.

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أي: نفـروا منه، بسـبب اسـتكبارهم عن اتباع الحق، وعتوهم وطغيانهـم في الأرض، من أجل المكر السيء بالرسـول وبالمؤمنـين، ليفتنوا ضعفـاء الإيمان عن ديـن الله، وليس إقسامهم المذكور، لقصد حق، وطلباً للحق، وإلا لوفقوا لـه، ولكنه صادر عـن اسـتكبار في الأرض على الخلق وعلى الحـق، وبهرجة في كلامهم هذا، يريدون به المكـر والخداع، وأنهم أهل الحق، الحريصون عـلى طلبه، فيغتر به المغترون، ويمشي خلفهـم المقتدون. قال تعالى رداً عليهم:

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أي: ولا يحيـط وبـال المكر السـيء إلا بمـن مكره ودبـره. وقال ابن القيم: وقد شـاهد النـاس عياناً أن من عاش بالمكر؛ مـات بالفقر. ولما ذكر سبحانه مكرهم وأنه عاد في نحورهم ورد كيدهم في صدورهم، فلم يبق إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، قال تعالى:

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: فهـل ينتظر هؤلاء المشركون، إلا عادة الله وسنته في الأمم المتقدمـة، مـن تعذيبهـم وإهلاكهم بتكذيبهم للرسل؟

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: لـن تتغـير، ولن تتبدل سـنته تعالى في خلقه.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: ولا يستطيع أحد أن يحول العذاب عنهم إلى غيرهم، قال القرطبي: أجـرى الله العـذاب على الكفار، فـلا يقدر أحد أن يبدل ذلـك، ولا أن يحول العذاب عن نفسه إلى غيره. والسنة هي الطريقة.

* ثـم حثهـم تعـالى وحضهـم على السـير في الأرض، لا لمجـرد النظر والغفلة، بل يتفكروا في مشاهدة آثار من قبلهم من المكذبين ليعتبروا، فقال:

﴿٤٤﴾، ﴿٤٥﴾ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا * وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾.

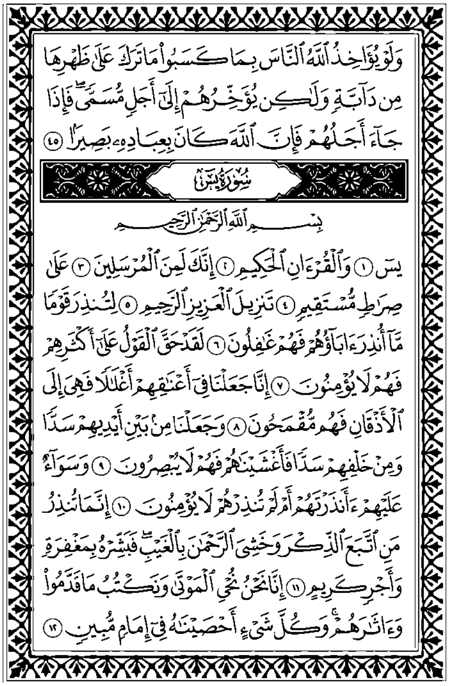
الجزء الثاني والعشرون — سورة يس

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا
مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا
جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

سُورَةُ يسٓ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى
ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ
عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ
مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ
وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ
وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

٤٤٠

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أو لم يسافر كفار مكة ويمروا على القرى المهلكـة، وما حل بهم من الدمـار، وبديارهم من الخراب، حين كذبوا رسلهم، ماذا صنع الله بهم؟

﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وكان أولئك الكفـرة أقوى مـن أهل مكة أجسـاداً، وأطول أعماراً، وأكثر منهم أموالاً وأولاداً.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: إنـه سـبحانه لا يفوته شيء، ولا يصعب عليه أمر في هذا الكون.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي: بالـغ العلـم والقدرة، عالم بشـؤون الخلق، قادر على الانتقام ممن عصاه.

ثم ذكر تعـالى كمال حلمه، ورحمته بعباده وشـدة إمهاله وانظاره؛ أرباب الذنوب والمعاصي، فقال:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: لو أخذهم بجميع ذنوبهم، ما ترك على ظهر الأرض أحداً يدب عليها من إنسان أو حيوان، مما دب ودرج.

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ولكنه تعالى من رحمته بعباده، ولطفه بهم، يمهلهم إلى زمن معلوم، وهو يوم القيامة فلا يعجل لهم العذاب، فهو سبحانه يمهلهم ولا يهملهم.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ أي: فإذا جاء ذلك الوقت، جازاهم بأعمالهم، إن خيراً فخيراً، وإن شر فشر؛ لأنه تعالى العالم بشؤونهم المطلع على أحوالهم، قال ابن جرير: بصيراً بمن يستحق العقوبة، وبمن يستوجب الكرامة. وفي الآية وعيد للمجرمين، ووعد للمتقين.

تم تفسير سورة فاطر
والحمد لله

تفسير سورة يس
وهي مكية

* سورة «يس» سورة مكية وقد تناولت بناء العقيدة خلال مواضيع أساسية ثلاثة، وهي: الإيمان بالبعث والنشور، وقصة أهل القرية، والأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين.

سميت السورة «سورة يس»، لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بها، وفي الافتتاح بها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم.

ابتدأت السورة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحي، وصدق رسالة محمد ﷺ، ثم ذكرت كفار قريش، الذين تمادوا في الغي والضلال، وكذبوا سيد الرسل محمد بن عبدالله، فحق عليهم عذاب الله وانتقامه. قال تعالى:

﴿١-٧﴾ ﴿يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يسٓ﴾ الحروف المقطعة في أوائل بعض السور الكريمة للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه مصوغ من جنس هذه الحروف الهجائية التي يعرفونها ويتكلمون بها، ولكن نظمه البديع المعجز آية على كونه من عند الله.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قسم من الله تعالى بالقرآن، والحكيم معناه المُحكم، الذي لا يلحقه تغيير ولا تبديل، ولا يعتريه تناقض أو بطلان، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أقسم تعالى بهذا الكتاب المحكم، المعجز في نظمه، وبديع معانيه، المتقن في تشريعه وأحكامه، الذي بلغ أعلى طبقات البلاغة، على أن محمداً رسوله، وفي هذا القسم من التعظيم والتفخيم لشأن الرسول ما فيه.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جواب القسم أي: إنك -يا محمد- لمن المرسلين من رب العالمين لهداية الخلق. ثم أخبر بأعظم أوصاف الرسول ﷺ، الدالة على رسالته، وهو أنه:

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على طريق ومنهج قويم، وشرع مستقيم، لا انحراف فيه ولا اعوجاج، هو الإسلام دين الرسل قبلك، الذين جاؤوا بالإيمان والتوحيد، وهو خبر بعد خبر، أي إنك لمن المرسلين، وإنك على صراط مستقيم.

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: هذا القرآن الهادي المنير، تنزيل من رب العزة -جل وعلا-، العزيز في ملكه، الغالب بفصاحة نظم كتابه أوهام ذوي العناد، الرحيم بخلقه حيث أرسل رسله وأنزل كتبه. قد حماه بعزته عن التغيير والتبديل، ورحم به عباده، رحمة اتصلت بهم حتى أوصلتهم إلى دار رحمته.

ولما أقسم تعالى على رسالته وأتام الأدلة عليها، ذكر شدة الحاجة إليها، واقتضاء الضرورة لها وحكمة هذا التنزيل، فهي الإنذار والتبليغ، قال تعالى:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ لتنذر -يا محمد- بهذا القرآن العرب، الذين ما جاءهم رسول ولا كتاب، لتطاول زمن الفترة عليهم، والمراد بالإنذار: تخويفهم من عذاب الله.

﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ فهم بسبب ذلك ساهون عن الهدى والإيمان، يتخبطون في ظلمات الشرك وعبادة الأوثان، وكل أمة ينقطع عنها الإنذار تقع في الغفلة، وفي هذا دليل على وجوب الدعوة والتذكير على العلماء بالله وشرعه لإيقاظ المسلمين من غفلتهم، ولا شك أن الغفلة أشد ما يفسد القلوب.

ثم بين تعالى استحقاقهم للعذاب بإصرارهم على الكفر والتكذيب، فقال تعالى:

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اللام موطئة للقسم، أي: والله لقد وجب عذاب النار على أكثر هؤلاء المشركين، بسبب إصرارهم على الكفر والإنكار، وعدم تأثرهم بالتذكير والإنذار، فهم لا يصدقون بالله ولا برسوله، ولا يعملون بشرع، لذلك لا يؤمنون بما جئتهم به - يا محمد -.

* ثم بيّن تعالى سبب تركهم الإيمان وتكذيبهم بالرسالة، فقال:

﴿٨﴾-﴿١٢﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۞ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۞ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۞ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ إنا جعلنا هؤلاء الكفار الذين عرض عليهم الحق فردوه وأصروا على الكفر وعدم الإيمان، كمن جعل في عنقه غل، وجمعت يداه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه فصار مقمحاً، والمقمح هو الرافع رأسه من شدة الغل، واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين؛ لأن الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق.

﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أي: فالأغلال منتهية إلى أذقانهم، فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم، غاضون أبصارهم، بحيث لا يكادون يرون الحق، أو ينظر إلى جهته.

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ وهذا تتمة للتمثيل وتكميل له، أي: وجعلنا من أمام الكافرين سداً عظيماً، ومن ورائهم سدّاً، كذلك حاجز يحجزهم عن الإيمان.

﴿فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: فغطينا بهما أبصارهم، فهم بسبب ذلك لا يبصرون شيئاً أصلاً؛ لأنهم أصبحوا محصورين بين سدين هائلين، وهذا بيان لكمال فظاعة حالهم، وكونهم محبوسين في مطمورة الغي والجهالات، محرومين عن النظر في الأدلة والآيات، وهذا كله تمثيل لسد طرق الإيمان عليهم، ومن سدت عليه الطرق فهو لا يهتدي لمقصوده.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أي: يستوي عند هؤلاء الكفار إنذارك -يا محمد- وتخويفك لهم وعدمه؛ لأن من خيم على عقله ظلام الضلال، وعشعشت في قلبه شهوات الطغيان، وأضله الله على علم وبرهان، فلقد قضى الله فيهم بأمره، فلا تنفعه القوارع والزواجر.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: فهم بسبب ذلك، لا يصدقون ولا يعملون، ولا يؤمنون، لأن الإنذار لا يؤثر في القلوب الميتة، إنما يوقظ القلب الحي المستعد لتلقي الإيمان، وهذا تسلية له ﷺ وكشف لحقيقة ما انطوت عليه قلوبهم من الطغيان. أما القسم الثاني: الذين قبلوا النذارة، فقد ذكرهم الله، بقوله:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: إنما ينفع إنذارك وتحذيرك - يا محمد، من آمن بالقرآن، وعمل بما فيه، واتعظ بنصحك.

﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: خاف ولم يقع في المعصية حيث لا يراه أحد إلا الله - تبارك وتعالى، يعلم أن الله مطلع عليه، وعالم بما يفعل، قال أبو حيان: ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ أي: المتصف بالرحمة، والرحمة تدعو إلى الرجاء، لكنه مع علمه برحمته يخشاه - جل وعلا-؛ خوفاً من أن يسلبه ما أنعم به عليه، ومعنى «بالغيب» أي: بالخلوة عند مغيب الإنسان عن عيون البشر.

من اتصف بهذين الأمرين: القصد الحسن في طلب الحق، وخشية الله تعالى، فهم الذين ينتفعون برسالتك، ويزكون بتعليمك، وهذا الذي وفق لهذين الأمرين.

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ لما انتفع بالإنذار كان جديراً بالبشارة، أي: فبشره -يا محمد- بمغفرة عظيمة من الله لذنوبه، وأجر كريم في الآخرة في جنات النعيم، والأجر الكريم هو الكثير الواسع، الحسن الجميل، وذلك إنما يكون في الجنة.

ولما ذكر تعالى أمر الرسالة، ذكر بعدها أمر البعث والنشور، ودقة الحساب، الذي لا يفوته شيء، فقال:

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ
﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ
إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ
رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ
وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن
ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ
رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ
مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ
ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً
إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا
وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ
بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي
يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: نبعثهم من قبورهم بعد موتهم للحساب والجزاء يوم القيامة.

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ ونكتب ما قدموا في الدنيا من خير وشر، ومن صالح الأعمال وسيئها.

﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ التي كانوا سبباً فيها في حياتهم وبعد مماتهم من خير، كالولد الصالح، والعلم النافع، والصدقة الجارية، ومن شر كالشرك، والعصيان. وقيل: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ أي: وآثار خطاهم بأرجلهم إلى المساجد، وفي الحديث عن جابر قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد - والبقاع خالية - فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم» فقالوا: ما كان يسرنا أنا كنا تحولنا [رواه مسلم].

والآثار: هي آثار الخير وآثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم.

وهو سبحانه يكتب ما عملوه وما تولد من أعمالهم، فيكون المتولد عنها كأنهم عملوه في الخير والشر، وهو أثر أعمالهم، وفي الحديث أنه ﷺ قال: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً» [رواه مسلم].

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ وكل شيء من الأعمال والنيات وغيرها جمعناه وضبطناه في كتاب مسطور، هو صحائف الأعمال وهو اللوح المحفوظ.

* ثم ساقت الآيات قصة أهل القرية وهي: أنطاكية، الذين كذبوا الرسل، فأهلكهم الله بصيحة من السماء، للتحذير من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة، على طريقة القرآن في استخدام القصص للعظة والاعتبار، قال تعالى:

﴿١٣﴾-﴿١٧﴾ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي: واذكر -يا محمد- لقومك الذين كذبوك، قصة أصحاب القرية إنطاكية التي هي في الغرابة كالمثل السائر والقول العجيب، لتكون لهم موعظة وعبرة.

﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: حين جاءهم رسلنا الذين أرسلناهم لهدايتهم، يأمرونهم بعباده الله وحده، وإخلاص الدين له، وينهوهم عن الشرك والمعاصي، أرسل الله إليهم ثلاثة رسل وأمر تعالى بإنذار هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حل بكفار أهل القرية.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: حين بعثنا إليهم رسولين فبادروهما بالتكذيب.

﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث، اعتناء من الله بهم، وإقامة للحجة بتوالي الرسل إليهم.

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ فقال الثلاثة لأهل القرية: نحن رسل

الله مرسلون لهدايتكم، فأجابوهم بالجواب الذي ما زال مشهوراً عند من رد دعوة الرسل، فـ:

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ قال أهل القرية للمرسلين: ليس لكم فضل علينا، وما أنتم إلا بشر مثلنا، فكيف أوحى الله إليكم دوننا؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ أي: لم ينزل الله شيئاً من الوحي والرسالة. ثم أنكروا أيضاً المخاطبين لهم، فقالوا:

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ أي: ما أنتم إلا كذبة، تكذبون في دعوى الرسالة، فكان الجواب:

﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ أي: أجابهم الرسل مؤكدين بقولهم؛ الله يعلم أننا رسله إليكم، ولو كنا كذبنا، لانتقم منا أشد الانتقام.

﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: وليس علينا إلا أن نبلغكم رسالة الله، بلاغاً واضحاً، جلياً لا غموض فيه، ولا نملك هدايتكم، فالهداية بيد الله وحده، فإن آمنتم فلكم السعادة، وإن كذبتم فلكم الشقاوة، وفي هذا وعيد لهم، ووصف البلاغ بـ ﴿ٱلْمُبِينُ﴾؛ لأنه الواضح بالآيات الشاهدة بصحة الإرسال.

* وكعادة المكذبين الظالمين، لا يأبهون بالدعوة والدعاة، فتأخذهم العزة بالإثم، قال أصحاب القرية لرسلهم:

﴿١٨﴾، ﴿١٩﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: إنا تشاءمنا بكم ونفرت نفوسنا منكم، وبدعوتكم القبيحة لنا إلى الإيمان، وترك عبادة الأوثان. ووجه تشاؤمهم بالرسل أنهم دعوهم إلى دين غير ما يدينون به، ثم توعدوا الرسل بقولهم:

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: والله لئن لم تمتنعوا عن قولكم، ودعوتكم لنا إلى التوحيد، ورفض ديننا، لنرجمنكم رجماً بالحجارة حتى تموتوا، ولنقتلنكم شر قتلة، ولينالكم منا عذاب أليم موجع.

﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: قال الرسل لهم: ليس شؤمكم بسببنا، وإنما شؤمكم بسببكم، وبكفركم، وعصيانكم، وسوء أعمالكم، المقتضي لوقوع المكروه والنقمة، وارتفاع المحبوب والنعمة.

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ شرط، جوابه محذوف لدلالة السياق عليه، أي: أئن ذكرناكم، ووعظناكم، ودعوناكم إلى التوحيد وطاعة الله، تشاءمتم بنا وتوعدتمونا بالرجم والتعذيب، أفهذا جزاء التذكير والنصح لكم؟

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: ليس الأمر كما زعمتم، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في العصيان والإجرام والتكذيب، وهو توبيخ لهم مع الزجر والتقريع.

* ثم ذكرت الآيات حرص رجل على دعوة قومه، حين سمع ما دعت إليه الرسل، وآمن به، وعلم جواب قومه عليه، قال تعالى:

﴿٢٠﴾-﴿٢٥﴾ ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ * ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ وجاء من أبعد أطراف المدينة رجل يعدو، ويسرع في مشيه، وذلك حين علم أن أهل القرية هموا بقتل رسلهم، فجاءهم يسعى لينصرهم من قومه، وهو - حبيب النجار - كان يعمل الحرير وهو الحباك، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: أطيعوا الرسل الكرام الداعين إلى توحيد الله، وإنما قال: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ تأليفاً لقلوبهم واستمالة لها لقبول النصيحة، ثم كرر القول تأكيداً وبياناً لما شهد به، ودعا إليه، فقال:

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: أطيعوا هؤلاء الرسل الصادقين المخلصين، الذين لا

الجزء الثالث والعشرون سورة يس

۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا
كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ
﴿٢٩﴾ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ
أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ
﴿٣٢﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا
فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ
وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ
وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي
خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ
وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ
فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ
ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ
عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ
ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾

٤٤٢

يسألونكم أجرة ولا مالاً على الإيمان. وعلى تبليغ الرسالة، وهم على هدى وبصيرة فيما يدعونكم إليه من توحيد الله، وفي هذا بيان فضل من سعى إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فكان من قومه أن لم يقبلوا نصحه، بل عادوا لائمين له على اتباع الرسل، وإخلاص الدين لله وحده، فقال:

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ تلطف في الإرشاد لهم كأنه ينصح نفسه، ويختار لهم ما يختار لنفسه، وفيه نوع تقريع على ترك عبادة خالقهم، والمعنى: أي شيء يمنعني من أن أعبد خالقي الذي أبدع خلقي، ثم أقبل عليهم مخوفاً لهم تخويف الناصح، بأن إليه سبحانه المعاد والمرجع بعد الموت فيجازي كلاً بعمله؟ ولهذا قال:

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ استفهام إنكاري، أي: أأعبد من دون الله آلهة لا تسمع ولا تنفع، ولا تغني عن عابدها شيئاً؟

﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ أي: هي في المهانة والحقارة، بحيث لو أراد الله أن ينزل بي شيئاً من الضرر والأذى، وشفعت لي لم تنفع شفاعتهم، ولم يقدروا على إنقاذي، فكيف وهي أحجار، لا تسمع، ولا تنفع، ولا تشفع؟

﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي: ولا يقدرون على إنقاذي من عذاب الله.

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي: إني إن عبدت غير الله، واتخذت الأصنام آلهة لفي خسران ظاهر جلي، فجمع في هذا الكلام، بين نصحهم والشهادة للرسل بالرسالة، والاهتداء، والإخبار بتعيين عبادة الله وحده، وذكر الأدلة عليها، وأن عبادة غيره باطلة، وذكر البراهين عليها، والإخبار بضلال من عبدها، والإعلان بإيمانه جهراً، مع خوفه الشديد من قتلهم، وبعد النصح والتذكير أعلن إسلامه، وأشهر إيمانه، فقال:

﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ أي: إني آمنت بربكم الواحد الأحد الذي خلقكم، فاسمعوا قولي واعملوا بنصيحتي، ولما قال لهم ذلك ونصحهم وأعلن إيمانه، وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه أذاهم.

* ثم ذكر ﷻ ومآل الدعاة والمصلحين في الدار الآخرة، وما ينالونه من الرفعة والمكانة العظيمة في جنات عدن، قال حكاية عن هذا الرجل:

﴿٢٦﴾-﴿٢٩﴾ ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ * وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ قيل له بعد قتله، ادخل الجنة إكراماً له، فدخلها فهو يرزق فيها، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا، وحزنها، ونصبها.

﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ أي: فلما دخل الجنة وعاين النعم والكرامة، ورأى ما أكرمه الله بها لإيمانه وصبره، تمنى أن يعلم قومه بحاله، ليعلموا حسن مآله، وقال مخبراً بما وصل إليه من الكرامة على توحيده وإخلاصه، وناصحاً لقومه بعد وفاته، كما نصح لهم في حياته، يا ليتهم يعلمون بالسبب الذي من أجله غفر لي ربي ذنوبي، وأكرمني بدخول جنات النعيم. وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب الثواب والأجر؛ بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان، جرياً على سنن الأولياء في الترحم على الأعداء.

قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً، لا تلقاه غاشاً لمّا عاين من كرامة الله، تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله.

ثـم أخبر تعالى أنـه انتقم مـن قومه بعـد قتلهم إيـاه غضباً منه - تبـارك وتعالى -؛ لأنم كذبوا رسـله، وقتلوا وليه، قال في عقوبتهم:

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ هذا تحقير لهم وتصغير لشـأنهم، أي: ما احتجنـا أن نتكلف في عقوبتهم، فننزل جنداً من السـاء لإتلافهـم، لعـدم الحاجـة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشدة ضعف بنـي آدم، وأنهم أدنى شيء يصبهم من عذاب الله يكفيهم.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ أي: ما كاثرناهم بالجمـوع، الأمر كان أيـسر علينا من ذلك، ما كانـت عقوبتهم إلا صيحة واحدة صـاح بهم جبريل، فـإذا هم ميتـون لا حـراك بهم، قـد أخمدت أنفاسهم حتى صاروا كالنار الخامدة، ولايطيل هنا في وصف مصرع القوم، تهويناً لشـأنهم، وتصغـيراً لقدرهم، فماكانـت إلا صيحة واحـدة أخمدت أنفاسـهم. قال المفـسرون: وفي الآية اسـتحقار لإهلاكهـم فإنهـم أذل وأهون على الله، من أن يرسل الملائكة لإهلاكهـم. وقـد روى أنه لـما قتل «حبيب النجـار» غضب الله تعالى له، فعجل لهم النقمة، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم، فجعل طريق استئصالهم بالصيحة.

* ثم قال تعالى متوجعاً للعباد:

٣٠-٣٢ ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ * وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: يا أسفاً على هؤلاء المكذبين لرسل الله، المنكرين لآياته، ويا حسرة عليهم، فما أعظم شـقاءهم، وأطول عناءهم، وأشـد جهلهم، ما جاءهم رسول إلا كذبوه واسـتهزؤوا بـه، وهكذا عادة المجرمـين في كل زمـان ومكان، إنهم أحقاء بأن يتحسروا على أنفسـهم أو يُتحسـر عليهم، فإن الأمـر لفخامته وشـدته، بلغ إلى حـسرة وخيبة على هؤلاء المحرومين، حيث بدلوا الإيمان بالكفر، والسعادة بالشقاوة. وفي الآية تعريـض بكفار قريـش حيث كذبوا سيد المرسلين، كما مثل حال كفار مكة بحال أصحاب القرية، ووبخ المشركين على عدم اعتبارهم بمن سبقهم، فقال:

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: ألم يتعـظ هـؤلاء المشركون بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل في كل عصر، ويعلموا أن هؤلاء المهلكين لا عودة لهم إلى الدنيا بعد هلاكهم؟

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: وأن جميـع الأمم الماضية والآتية، سـتحضر للحساب والجـزاء يوم القيامة بـين يدي أحكم الحاكمـين، فيجازيهـم بأعمالهم كلها خيرها وشرها. وجـاءت هذه الجملة بعد ذكر الإهلاك، تبيناً إلى أن الله تعالى لا يترك المهلكـين، بل بعد الهلاك جمع وحساب، وثواب وعقاب.

* لما ذكر تعـالى قصة أهل القرية، وإهـلاك الله لهـم بالصيحة بسـبب تكذيبهم المرسـلين، ذكـر هنا الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية، في إخراج الزروع والثمار، وتعاقب الليل والنهار، وفي الشـمس والقمر يجريان بقدرة الواحد القهار. ثم ذكر شبهات المشركين حـول البعـث، ورد عليها بالأدلة القاطعة، والبراهين السـاطعة، فقال تعالى:

٣٣-٣٦ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ أي: ومن الآيات الباهرة، والعلامات الظاهـرة الدالة على كمال قـدرة الله ووحدانيته، وعـلى البعث والنشـور، هذه الآيـة العظيمة، وهي

الأرض اليابسة الهامدة التي لا نبات فيها ولا زرع، أحييناها بالمطر، وأخرجنا منها أنواع النبات، ومن أحيا الأرض بالنبات أحيا الخلق بعد المات. قال المفسرون: موت الأرض جدبها، وإحياؤها بالغيث، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قال تعالى بعده:

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي: وأخرجنا بهذا الماء أنواع الحبوب ليتغذوا به ويعيشوا. نبههم تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكرهم على توحيده وكمال قدرته، بالأرض الميتة أحياها بالنبات، وإخراج الحب منها، فمن الحب يأكلون وبه يتغذون.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ وجعلنا في تلك الأرض الميتة، بساتين ناضرة، فيها من أنواع النخيل والعنب اللذان هما أشرف الأشجار.

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي: وجعلنا فيها ينابيع من الماء العذب، والأنهار السارحة في بلدان كثيرة ما يسقيها ويحييها.

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم، عطف بذكر الثمار وأنواعها وأصنافها، أي: كل ذلك ليأكل العباد من ثمرات ما ذكر من الجنات والنخيل التي أنشأها الله لهم، ومما عملته أيديهم مما غرسوه وزرعوه بأنفسهم.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ للتقريع والتوبيخ، أي: وساق لهم من هذه النعم، وأسبغ عليهم من جوده وإحسانه، وما ذاك إلا من رحمة الله بهم، لا بسعيهم ولا بكدهم، ولا بحولهم وبقوتهم؛ أفلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم؟ ثم نزه نفسه عما وقع منهم من ترك الشكر لنعمه المذكورة. والتعجب من إخلالهم بذلك.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي: تنزه وتقدس الله العلي الجليل الذي خلق الأصناف كلها، المختلفة الألوان والطعوم، والأشكال من جميع الأشياء.

﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: مما تخرج الأرض من النخيل والأشجار، والزروع والثمار، ومن أنفسهم من الذكور والإناث، ومما لا يعلمون من المخلوقات العجيبة، والأشياء الغريبة، فنوع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده. - فسبحانه وتعالى - أن يكون له شريك أو ظهير، أو عوين، أو وزير، أو صاحبة، أو ولد، أو سميٌّ، أو شبيه، أو مثيل في صفات كماله ونعوت جلاله، أو يعجزه شي يريده.

* وتستمر الآيات في ذكر آيات باهرة، ودلائل واضحة، على قدرة الله ووحدانيته، وأنه الإله الحق، الواحد الأحد، قال تعالى:

﴿٣٧﴾-﴿٤٠﴾ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي: وعلامة أخرى لهم تدل على مشيئته الله وكمال قدرته، وتوحيده وإحيائه الموتى بعد موتهم، هذا الليل نزيل عنه الضوء ونفصله عن النهار فإذا هم داخلون في الظلام، وفي الآية رمز إلى أن الأصل هو الظلام والنور عارض، فإذا غربت الشمس ينسلخ النهار من الليل ويكشف ويزول فيظهر الأصل وهو الظلمة، فتطلع الشمس فتضيء الأقطار، وينتشر الخلق لمعاشهم ومصالحهم، ولهذا قال:

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي: وآية أخرى لهم الشمس، تسير بقدرة الله في فلك لا تجاوزه، ولا تخطاه لزمن تستقر فيه، ولوقت تنتهي إليه، وهو يوم القيامة، حيث ينقطع جريانها ويبطل سيرها، وتسكن حركتها، وتكور، وينتهي هذا العالم إلى غايته.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي: ذلك الجري والدوران بانتظام وبحساب دقيق، هو تقدير الإله العزيز في ملكه، العليم بخلقه، الذي جعلها مصالح لعباده، ومنافع في دينهم ودنياهم.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ والقمر آية في خلقه، قدرنا مسيره في منازل، يسير فيها لمعرفة الشهور، وهي ثمانية وعشرون منزلاً، في ثمانية وعشرين ليلة، ينزل كل ليلة في واحد منها، لا يتخطاها ولا يتعداها.

﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: فإذا كان في آخر منازله يصغر جداً، فيعود مثل عِذْق النخل اليابس، وهو عنقود التمر حين يجف ويصغر ويتقوس. قال ابن كثير: جعل الله القمر لمعرفة الشهور، كما جعل الشمس لمعرفة الليل والنهار، وفاوت بين سير الشمس وسير القمر، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره، وتنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاء، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وهي كوكب نهاري، وأما القمر فقدره منازل، يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية ويرتفع منزله، ثم كلما ارتفع ازداد ضياؤه، حتى يتكامل نوره؛ في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر، حتى يصير كالعرجون القديم.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ أي: لا يمكن للشمس ولا يصح لها أن يجتمع مع القمر بالليل فتمحو نوره، لأن ذلك يخل بتلوين النبات، ومصلحة العباد، لا الشمس يصلح لها إدراك القمر، فيذهب ضوؤها نوره، فتكون الأوقات كلها نهاراً، لا ليل فيها.

﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: ولا الليل يسبق النهار حتى يدركه فيذهب بضيائه، فتكون الأوقات كلها ليلاً.

﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وكل من الشمس والقمر والنجوم تدور في فلك السماء، فكل هذا دليل ظاهر وبرهان باهر، على عظمة الخالق وعظمة أوصافه، والغرض من الآية: بيان قدرة الله في تسيير هذا الكون بنظام دقيق، فالشمس لها مدار، والقمر لها مدار، وكل كوكب من الكواكب له مدار لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه، ولا يطغى أحدهما على الآخر، حتى يأتي الأجل المعلوم بخراب العالم، فيجمع الله بين الشمس والقمر فيختل نظام الكون، وتقوم القيامة، وتنتهي أيام الدنيا.

الجزء الثالث والعشرون سورة يس

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا
لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ
وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا
مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ
يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ
ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً
وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

٤٤٣

* ولما ذكر سبحانه النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها، بدأ في ذكر الفلك السابح في الماء يحمل ذرية بني آدم. مناسبة في الشكل والحركة، وفي تسخير الله ﷻ هذا وذلك بأمره، وحفظه بقدرته في السموات والأرض سواء، قال تعالى:

﴿٤١﴾-﴿٤٤﴾ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: ودليل وبرهان واضح للناس على كمال قدرة الله، وأنه المستحق للعبادة، أننا حملنا آباءهم الأقدمين - وهم ذرية آدم - في سفينة نوح عليه السلام التي أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، وإنما خص ذريتهم بالذكر؛ لأنه أبلغ في الامتنان عليهم؛ ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة، وهذا من نعم الله عليهم حيث إنه المنعم بالنعم، الصارف للنقم، وهذا من جملة نعمه عليهم.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ وخلقنا لهؤلاء المشركين من مثل سفينة نوح، السفن العظيمة التي يركبونها ويبلغون عليها أقصى البلدان كالإبل وسائر المركوبات.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ ولو أردنا لأغرقناهم في البحر، فلا يجدون مغيثاً

هم من غرقهم. ولا أحد يستطيع أن ينقذهم ويخلصهم من الغرق.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلا أن نرحمهم فننجيهم ونمتعهم إلى أجل، لعلهم يرجعون ويستدركون ما فرطوا فيه، وفي الآيات السابقة؛ بيَّن تعالى أن ركوبهم السفن في البحر من الآيات العظيمة، فإن سير السفينة بما فيها من الرجال والأثقال فوق سطح الماء آية باهرة، فقد حملتهم قدرة الله ونواميسه التي تحكم الكون وتصرفه بحكم خواص السفن، وخواص الماء، وخواص الريح، وكلها من أمر الله وخلقه وتقديره، والسفينة في البحر الخضم كالريشة في مهب الهواء، وإلا تدركها رحمة الله فهي هالكة في لحظة من ليل أو نهار، والذين ركبوا البحار، وشاهدوا الأخطار، يدركون هول البحر المخيف، ويحسون معنى رحمة الله وأنها وحدها هي المنجي لهم من بين العواصف والتيارات. ومع تلك الآيات الواضحات البينات فالعباد في غفلة وإعراض، لا تتوجه أنظارهم، ولا تستيقظ قلوبهم، ولا يكفون عن سخريتهم وتكذيبهم.

* لما ذكرهم تعالى بدلائل قدرته، وآثار رحمته، أخبر هنا عن تعاميهم عن الحق، وإعراضهم عن الهدى والإيمان، مع كثرة الآيات الواضحات، والشواهد الباهرات، فقال:

﴿٤٥﴾-﴿٤٧﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: واذ قيل للمشركين احذروا سخط الله وغضبه، واعتبروا بما حل بالأمم السابقين قبلكم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل، واحذروا ما وراءكم من عذاب الآخرة لكي ترحموا؛ أعرضوا، ولم يجيبوا إلى ذلك.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: وما تجيء هؤلاء المشركين علامة من العلامات الواضحة الدالة على صدق الرسول - كالمعجزات الباهرة التي أيده الله بها - إلا أعرضوا عنها على وجه التكذيب، والاستهزاء، وإضافة الآيات إلى اسم الرب -جل وعلا- لتفخيم شأنها.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: وإذا قيل لهؤلاء الكفار بطريقة النصيحة، أنفقوا بعض ما أعطاكم الله من فضله على الفقراء والمساكين، الذي منَّ به الله عليكم، ولو شاء لسلبكم إياه.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ قال الكفار للمؤمنين تهكماً بهم: أننفق أموالنا على هؤلاء المساكين الذين أفقرهم الله؟ معارضين للحق، محتجين بالمشيئة.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: يقول الكافرون: ما أنتم أيها المؤمنون إلا في ضلال ظاهر واضح، حيث تأمروننا أن ننفق أموالنا على من أفقرهم الله. قال ابن عباس: كان بمكة زنادقة فإذا أمروا بالصدقة على المساكين، قالوا: لا والله لا نفعل، أيفقره الله ونطعمه نحن؟ وغرضهم الرد على المؤمنين فكأنهم يقولون: لو كان الأمر كما تزعمون أن الله قادر وأن الله رازق لأطعم هؤلاء الفقراء، فما بالكم تطلبون إطعامهم منا؟ وما علم هؤلاء السفهاء أن خزائن الأرزاق بيد الخلاق، وأنه تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعض الخلق ابتلاء، لينظر كيف عطف الغني، وكيف صبر الفقير، فقد منع الدنيا عن الفقير لا بخلاً، وأمر الغني بالإنفاق عليه لا حاجة إلى ماله، ولكن للابتلاء والله يفعل ما يشاء، لا اعتراض لأحد في مشيئته ولا في حكمه.

* ثم أخبر عن إنكار المشركين للآخرة، واستبعادهم لقيام الساعة، فقال:

﴿٤٨﴾-﴿٥٠﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۞ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ويقول هؤلاء الكفار على وجه التكذيب والاستعجال، متى

يوم القيامة الذي تتوعدوننا به؟ ومتى هذا العذاب الذي تخوفوننا به إن كنتم صادقين في دعواكم، أن هناك بعثاً ونشوراً وحساباً وعذاباً؟ قال تعالى رداً عليهم:

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ﴾ أي: ما ينتظر هؤلاء المشركون الذين يستعجلون بوعيد الله إياهم، إلا صيحة واحدة تصيبهم مفاجأة من حيث لا يشعرون، وهي نفخة الصور.

﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي: وهم لاهون عنها، وهم يتخاصمون في معاملاتهم وأسواقهم، فلا يشعرون إلا بالصيحة قد أخذتهم بغتة، فيموتون في أماكنهم. قال ابن كثير: وهذا - والله أعلم - نفخة الفزع، ينفخ إسرافيل في الصور والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذا أمر الله إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا لوى عنقه يستمع الصوت من قبل السماء، فذلك قوله تعالى:

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: فلا يستطيع بعضهم أن يوصي بعضاً بأمر من الأمور لا قليله ولا كثيره، ولا يستطيعون أن يرجعوا إلى أهلهم ومنازلهم، لأن الأمر أسرع من ذلك، وفي الحديث: «لتقومن الساعة، وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة، وهو يليط حوضه - أي يصلحه بالطين - فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة، وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها» [رواه البخاري]، ثم تكون هناك النفخة الثانية، وهي «نفخة الصعق» التي يموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم، ثم تكون النفخة الثالثة وهي «نفخة البعث والنشور» التي يخرج الناس بها من القبور، وهي التي أشارت إليها الآية الكريمة.

* ولما ذكر الله تعالى النفخة الأولى وهي نفخة الفزع والموت، ذكر نفخة البعث والنشور وبين النفختين أربعون سنة، وتحدثت الآيات عن القيامة وأهوالها، وعن نفخة البعث والنشور، التي يقوم الناس فيها من القبور، وعن أهل الجنة وأهل النار، والتفريق بين المؤمنين والمجرمين في ذلك اليوم الرهيب، حتى يستقر السعداء في روضات النعيم، والأشقياء في دركات الجحيم. قال تعالى:

(٥١)-(٥٤) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ أي: ونفخ في الصور فإذا هؤلاء الأموات ترد أرواحهم إلى أجسادهم، فإذا هم من قبورهم يخرجون، يسرعون المشي والحضور بين يديه -جل وعلا-، ومعنى: ﴿يَنسِلُونَ﴾ أي: يخرجون سراعاً.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ أي: ويقول المكذبون بالبعث نادمين، في دهش وذعر: يا هلاكنا من الذي أنشرنا، وأخرجنا من قبورنا التي كنا فيها؟ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد، فإذا قالوا ذلك أجابتهم الملائكة أو المؤمنون.

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ هذا الذي وعدكم الله به من البعث بعد الموت، والحساب والجزاء، وصدق رسله الكرام فيما أخبرونا به عن الله؛ ولا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع لمجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم، سيرون من رحمته ما لا يخطر على الظنون، ولا حسب به الحاسبون.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: ما كان أمر بعثتهم إلا صيحة واحدة، يصيح بهم فيها إسرافيل، فإذا هم جميع عندنا حاضرون، الأولون، والآخرون، والإنس والجن، ليحاسبوا على أعمالهم، وهذه الصيحة هي قول إسرافيل: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتقطعة، والأجزاء المتفرقة، والشعور المتمزقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، ثم ينفخ في الصور، فإذا هم مجموعون في موقف الحساب. ثم ذكر ما يقاع في ذلك اليوم:

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ
فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ
وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨ وَٱمۡتَٰزُواْ
ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ
أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ
ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ
جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي
كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤
ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم
بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ
فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ٦٦ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ
عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ
٦٧ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ٦٨
وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ
٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٠

٤٤٤

أي: ففي هذا اليوم -يوم القيامة- لا تظلم نفس شيئاً سواءً كانت هذه النفس برة أو فاجرة، مؤمنة أو كافرة، ولا يحمل الإنسان وزر غيره وإنما يُجازى كل بعمله، لا ينقص من حسناته، ولا يزاد في سيئاته، يقال لهم ذلك تقريعاً حين يرون العذاب.

* لما ذكر تعالى أن كل أحد لا يجازى إلا ما عمله، ذكر جزاء الفريقين، وأخبر عن حال المجرمين، بدأ بجزاء أهل الجنة الأبرار المتقين، فقال تعالى:

﴿٥٥﴾-﴿٥٨﴾ ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ * هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ * لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ * سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾.

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ يخبر تعالى عن أهل الجنة، أنهم يوم القيامة، إذا ارتحلوا من العرصات، فنزلوا في روضات الجنات، فإنهم مشغولون بما هم فيه من اللذات والنعيم عن التفكير بأهل النار، يتفكهون ويتلذذون بالحور العين، وبالأكل والشرب والسماع للأوتار، والظاهر أن الشغل هو النعيم الذي قد شغلهم عن كل ما يخطر بالبال شغلوا بافتضاض الأبكار، وسماع الأوتار عن أهاليهم من أهل النار، لا يذكرونهم لئلَّا يتنغصوا.

﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ﴾ من الحور العين، اللاتي قد جمعن حسن الوجوه والأبدان، وحسن الأخلاق.

﴿فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ في ظلال الجنان الوارفة، حيث لا شمس فيها ولا زمهرير، متكئون على السرر المزينة بالثياب والستور اتكاء على كمال الراحة، والطمأنينة، واللذة.

﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ أي: لهم في الجنة فاكهة كثيرة، من كل أنواع الثمار اللذيذة، من عنب وتين ورمان، وغيرها.

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي: ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون ويطلبون، فمهما طلبوه وتمنوه أدركوه، ولهم أيضاً:

﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ أي: ولهم نعيم آخر أكبر، حين يكلمهم ربهم الرحيم بهم، بالسلام عليهم، وفي الحديث: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم» [رواه ابن ماجه]، وإذا سلم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه.

* ولما ذكر تعالى حال السعداء الأبرار، وما لهم في الجنة من النعيم المقيم، أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار، وما لهم من الخزي والدمار، على طريقة الآيات في الترغيب والترهيب. قال تعالى:

﴿٥٩﴾-﴿٦٢﴾ ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ * أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ * وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ * وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾.

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي: تميزوا عن المؤمنين، وانفصلوا يا معشر الكفرة المجرمين عن عبادي المؤمنين، انفردوا عنهم وكونوا جانباً، يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال، وحين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، والتذكير للكفرة المجرمين، أي: ألم أوصكم وآمركم يا بني آدم على ألسنة رسلي.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ ألا تطيعوا الشيطان فيما دعاكم إليه من معصيتي؟

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليل للنهي، أي: لأنه عدو لكم ظاهر العداوة، فكيف يطيع الإنسان عدوه؟

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ أي: وأمرتكم بأن تعبدوني وحدي وذلك بتوحيدي وطاعتي وامتثال أمري.

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ هذا هو الدين الصحيح، والطريق الحق المستقيم، ألا وهو طاعتي وعبادتي، ومعصية الشيطان.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ تأكيد للتعليل، أي: ولقد أضل الشيطان خلقاً كثيراً عن طاعتي حتى عبدوه، وأغواهم عن سلوك طريق الحق.

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفما كان لكم عقل يردعكم عن طاعة الشيطان، ومخالفة أمر ربكم؟ وهو توبيخ وتقريع آخر للكفرة الفجار.

* ثم بشر بما ينتظرهم من العذاب، توبيخاً وتقريعاً، فقال:

﴿٦٣﴾-﴿٦٧﴾ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾.

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي: هذه نار جهنم التي كنتم توعدون على ألسن الرسل وكذبتم بها، وهذا خطاب لهم وهم على شفير جهنم، والمقصود منه زيادة التبكيت والتقريع، ثم يكمل ذلك بأن يؤمر بهم إلى النار، ويقال لهم:

﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ذوقوا حرارتها، وقاسوا أنواع عذابها اليوم، بسبب كفركم في الدنيا، وهو أمر إهانة وتحقير.

ثم أخبر تعالى عن فضيحتهم يوم القيامة، على رؤوس الأشهاد، فقال:

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: في هذا اليوم - يوم القيامة - نختم على أفواه الكفار ختماً يمنعها عن الكلام، فلا يقدرون على إنكار ما عملوه من الكفر والتكذيب.

﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: تنطق عليهم جوارحهم وأيديهم، وأرجلهم بأعمالهم القبيحة، روى ابن جرير الطبري عن أبي موسى الأشعري أنه قال يُدعى الكافر والمنافق يوم القيامة للحساب، فيعرض عليه ربه عمله فيجحده ويقول: أي: رب وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل، فيقول الملك: أما عملت كذا، في يوم كذا، في مكان كذا فيقول: لا وعزتك، أي رب ما عملته، فإذا فعل ذلك ختم على فيه، وتكلمت أعضاؤه، ثم تلا: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ وفي الحديث: «يقول العبد: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول العبد: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، ثم يختم على فيه، ويقال لجوارحه: انطقي، فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكن وسحقاً، فعنكن كنت أناضل» [رواه مسلم]، مشهد مهيب رهيب من مشاهد يوم الفزع الأكبر، تذهل من تصوره القلوب، وتفزع من تذكره النفوس.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ أي: لو شئنا لأعميناهم كما طمسنا نطقهم، فابتدروا طريقهم ذاهبين كعادتهم فكيف يبصرون حينئذ؟ والمعنى: لو نشاء لأعميناهم عن الهدى فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحق، وهو تهديد لقريش.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: لو نشاء لمسخناهم مسخاً يقعدهم في مكانهم فلا يستطيعون الحركة. والمسخ تبديل الخلقة وقلبها حجراً أو جماداً أو بهيمة.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: إذا مسخوا في مكانهم لم يقدروا أن يذهبوا ولا أن يرجعوا، وهو تهديد آخر للكفرة المجرمين.

أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا
مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ
٧٢ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٧٣ وَٱتَّخَذُواْ
مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ
نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ٧٥ فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ
إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٦ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا
خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا
مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨
قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ
٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم
مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ٨٠ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ
بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨١
إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢
فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٣

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

٤٤٥

* ثم ذكر تعالى دلائل قدرته على مسخ الكفار بتطاول الأعمار، وأن ابن آدم كلما طال عمره رد إلى الضعف بعد القوة، والعجز بعد النشاط، فقال:

(٦٨)-(٧٠) ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ * وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ * لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ ومن نطل عمره من بني آدم، نقلبه في أطوار منتكساً في الخلق، فيصير كالطفل لا يعلم شيئاً، فيصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا، فطول العمر يُصيِّر الشباب هرماً، والقوة ضعفاً، والزيادة نقصاً، وشتان بين صغير يرجى كبره، وكبير يُنظر إلى نهايته.

﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي: أفلا يعقلون أن من قدر على أن ينقلهم من الشباب إلى الهرم، ومن القوة إلى الضعف، ومن رجاحة العقل إلى الخوف وقلة التمييز، قادر على إعمائهم أو مسخهم؟ وقادر على بعثهم وإحيائهم مرة ثانية، والقصد من ذلك الاستدلال على قدرته تعالى على مسخ الكفار، كما قدر على تنكيس الإنسان إذا هرم.

ثم ينزه تعالى نبيه محمداً ﷺ عما رماه به المشركون، من أنه شاعر، وأن الذي جاء به شعر، فقال:

﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ وما علمنا محمداً الشعر، ولا يصح ولا يليق به أن يكون شاعراً، هذا ردٌّ على الكفار في قولهم إنه شاعر، وإن ما أتى به من قبيل الشعر، فالرسول ﷺ ليس بشاعر، والقرآن ليس بشعر، لأن الشعر؛ كلام مزخرف موزون، مبني على خيالات وأوهام واهية، والشعر انفعال يتقلب من حال إلى حال، والنبوة وحي على منهج ثابت، على صراط مستقيم؛ فأين ذلك من القرآن العزيز الذي نزه عن مماثلة كلام البشر. والشعر كلام، والكلام منه حسن، ومنه قبيح.

﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ قال الشعبي: «ما ولد عبد المطلب ذكرا ولا أنثى إلا يقول الشعر إلا رسول الله عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ أي: ما هذا الذي يتلوه محمد إلا عظة وتذكير من الله -جل وعلا- لعباده، وقرآن واضح ساطع لا يلتبس به الشعر، بحال من الأحوال.

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ لينذر بهذا القرآن من كان حي القلب، مستنير البصيرة، وهم المؤمنون لأنهم المنتفعون به، فيكون القرآن لقلوبهم بمنزلة الأرض الطيبة الزاكية، أما الكافر فهو كالميت لا يعقل ما يخاطب به في أنه لا يتدبر ولا يتفكر.

﴿وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: وتجب كلمة العذاب على الكافرين المعاندين؛ لأنهم قامت عليهم بالقرآن حجة الله البالغة.

* ثم ذكر سبحانه قدرته العظيمة، وإنعامه على عبيده، وجحد الكفار لنعمه وفضله، وأعاد ذكر دلائل القدرة والوحدانية، ليستدلوا على وجوده -جل وعلا-، في إطار من مشاهدات القوم، وهم لا يشكرون، قال تعالى:

(٧١)-(٧٣) ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ * وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ * وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾ الهمزة للإنكار والتعجيب، أي: أولم ينظروا نظر اعتبار، ويتفكروا فيما أبدعته أيدينا -

من غير واسطة، ولا شريك ولا معين، فآية الله هنا مشهودة منظورة، قريبة محسوسة، إنها مما خلقناه لهم ولأجلهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمال قدرتنا؟! وإسناد العمل إلى الأيدي مبالغة في الاختصاص، والتفرد بالخلق.

﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ أي: فهم متصرفون فيها كيف يشاؤون، تصرف المالك بماله.

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ وسخرناها لهم، وجعلناهم يقهرونها وهي ذليلة لهم لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه وهو ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطار مائةبعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير، فسبحان من سخر هذا لعباده.

﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي: فمن هذه الأنعام ما يركبونه في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال كالإبل التي هي سفن البر، ومنها ما يأكلون لحمه كالبقر والغنم.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾ ولهم فيها منافع عديدة - غير الأكل والركوب - كالجلود والأصواف والأوبار، أثاثاً ولباساً وغير ذلك، ولهم فيها مشارب أيضاً يشربون من ألبانها.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: أفلا يشكرون ربهم على هذه النعم الجليلة؟ التي أنعم بها عليهم، ويخلصون له العبادة، والغرض من الآيات تعديد النعم وإقامة الحجة عليهم.

* ثم ذكر سبحانه جهلهم واغترارهم ووضعهم كفران النعم مكان شكره، فوبخهم وعنفهم في عبادة ما لا يسمع ولا ينفع من الأوثان والأصنام، وذلك نهاية الغي والضلال، والعجب أنهم يتخذون تلك الآلهة يبتغون أن ينالوا بها النصر، بينما كانوا هم الذين يقومون بحمايتها وحراستها أن يعتدي عليها معتد، أو يصيبها بسوء، فقال تعالى:

﴿٧٤﴾-﴿٧٦﴾ ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ * فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: وعبد المشركون آلهة من الأحجار رجاء أن ينصروا بها إذا حزبهم أمر، وهي صماء بكماء، لا تسمع الدعاء ولا تستجيب للنداء، وهذا بيان لبطلان آلهة المشركين، التي اتخذوها مع الله تعالى، ورجوا نصرها وشفاعتها، فإنها في غاية العجز.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: لا تستطيع هذه الآلهة المزعومة نصرهم بحال من الأحوال، لا بشفاعة ولا بنصرة أو إعانة، ولا أنفسهم ينصرون، وهؤلاء المشركون كالجند والخدم لأصنامهم في التعصب لهم، والذب عنهم، وفدائهم بالروح والمال، مع أنهم لا ينفعونهم أي نفع، بل هم مجموعون في العذاب، متبرئ بعضهم من بعض.

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: لا تحزن -يا محمد- ولا يهمك كفرهم، وتكذيبهم لك وأذاهم، وإتهامهم بأنك شاعر أو ساحر، وهذه تسلية للنبي ﷺ، وهنا تم الكلام، ثم قال تعالى:

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: نحن أعلم بما يخفونه في صدورهم، وما يظهرونه من أقوالهم وأفعالهم، فنجازيهم عليه، وكفى بربك أنه على كل شيء شهيد.

* ثم أقام تعالى الدليل القاطع، والبرهان الساطع، على البعث والنشور، ورد الشبه في ذلك، بأتم جواب وأحسنه وأوضحه، فقال:

﴿٧٧﴾-﴿٨٠﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ، أي: أو لم ينظر هذا الإنسان الكافر المنكر للبعث والشاك فيه، نظر اعتبار، فيستدل به على معاده، ويتفكر في قدرة الله، فيعلم أنا خلقناه من شيء مهين حقير هو النطفة، «المني» الخارج من مخرج النجاسة، ثم تنقله في الأطوار شيئاً فشيئاً، حتى كبر وشب، وتم عقله واستتب.

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة، فإذا هو شديد الخصومة والجدال بالباطل، يخاصم ربه وينكر قدرته، ويكذب بالبعث والنشور، أفليس

الإله الذي قدر على خلق الإنسان من نطفة، قادر على أن يخلقه مرة أخرى عند البعث؟ والآية نزلت في «أبي بن خلف» جاء بعظم رميم، وفتته في وجه النبي الكريم وقال ساخراً: أتزعم -يا محمد- أن الله يحيينا بعد أن نصبح رفاتاً مثل هذا؟ فقال ﷺ له: «نعم يبعثك ويدخلك النار».

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أي: ضرب مثلاً لا ينبغي لأحد أن يضربه، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، وهو تكميل للتعجب في حال الإنسان، وبيان جهله بالحقائق، أي: وضرب لنا هذا الكافر المثل بالعظم الرميم، مستبعداً على الله إعادة خلق الإنسان بعد موته وفنائه، ونسي أنا أنشأناه من نطفة ميتة، وركبنا فيه الحياة، نسي خلقه العجيب وبدأه الغريب، وجوابه من نفسه حاضر، وفسر المثل:

﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ وقال هذا الكافر في استفهام إنكاري: من يحيي العظام وهي بالية أشد البلى، متفتتة متلاشية؟ أي لا أحد يحييها بعدما بليت وتلاشت، أورد كلاماً عجيباً في الغرابة هو كالمثل، حيث قاس قدرتنا على قدرة الخلق، فأجاب سبحانه عن هذا الاستبعاد بجواب كاف شاف، فقال:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قل -يا محمد- تحريساً وتبكيتاً لهذا الكافر وأمثاله: يخلقها ويحييها الذي أوجدها من العدم، وأبدع خلقها أول مرة من غير شيء، فالذي قدر على البداءة، قادر على الإعادة، وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي: يعلم كيف يخلق ويبدع، فلا يصعب عليه بعث الإجساد بعد الفناء، وهذا أيضاً دليل ثان من صفات الله تعالى وهو أن علمه تعالى محيط بجميع مخلوقاته في جميع أحوالها، في جميع الأوقات، ويعلم ما تنقص الأرض من أجساد الأموات وما يبقى، ويعلم الغيب والشهادة، فإذا أقر العبد بهذا العلم العظيم، علم أنه أعظم وأجل من إحياء الموتى من قبورهم. ثم ذكر دليلاً ثالثاً، فقال:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ أي: هو سبحانه، الذي أخرج لكم بقدرته من الشجر الأخضر ناراً محرقة، لا يمتنع عليه فعل ما أراد، ولا يعجزه إحياء العظام البالية وإعادتها خلقاً جديداً، حيث ذكر تعالى لهم ما هو أغرب من خلق الإنسان من النطفة، وهو إبراز الشيء من ضده، وذلك أبدع شيء، وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر، ألا ترى الماء يطفئ النار؟ ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء.

﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي: فإذا أنتم تقدحون النار من هذا الشجر الأخضر، فهو القادر على إخراج الضد من الضد.

* ثم ذكر تعالى دليلاً رابعاً، فقال:

﴿٨١﴾-﴿٨٣﴾ ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۞ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۞ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أو ليس الذي خلق السموات والأرض مع كبر جرمهما، وعظم شأنهما قادر على أن يخلق أجساد بني آدم بعد فنائها؟ فإن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس.

﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بلى هو القادر على ذلك، فهو الكثير المخلوقات، المبدع في الخلق والتكوين، العليم بكل شيء، لا يخفى عليه شيء، وهذا دليل خامس، فإنه تعالى الخلاق، الذي جميع المخلوقات، متقدمها ومتأخرها، صغيرها وكبيرها، كلها أثر من آثار خلقه وقدرته، وأنه لا يستعصي عليه مخلوق أراد خلقه؛ فإعادته للأموات، فرد من آثار خلقه، ولهذا قال:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم كل شيء.

﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: لا يصعب عليه -جل وعلا- شيء، لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فمتى أراد تعالى شيئاً وجد، دون تعب ولا جهد، ولا كلفة ولا عناء، ومن ذلك الإماتة والإحياء، والبعث والنشور.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: تنزه وتمجد عن صفات النقص، الإله العظيم الجليل،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾

٤٤٦

الذي بيده الملك الواسع، والقدرة التامة على كل الأشياء، والملكوت لفظ مبالغة في الملك كالجبروت.

فهو سبحانه المتصرف في شؤون خلقه بلا منازع أو ممانع، وقد ظهرت دلائل قدرته وتمام نعمته، وإليه ترجعون للحساب والجزاء، وهذا دليل سادس، فإنه تعالى هو الملك المالك لكل شيء، الذي جميع ما سكن في العالم العلوي والسفلي ملك له، وعبيد مسخرون ومدبرون يتصرف فيهم بأقداره الحكمية، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية، فإعادتهم إياهم بعد موتهم، لينفذ فيهم حكم الجزاء من تمام ملكه، ولهذا قال:

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وإليه وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء، من غير امتراء ولا شك. وختم تعالى السورة الكريمة بهذا الختم العظيم، الدال على كمال القدرة، وعظمة الملك والسلطان، الذي تفرد به خالق الأكوان.

تم تفسير سورة يس
والحمد لله

تفسير سورة الصافات وهي مكية

* سورة الصافات سورة مكية ترسخ بناء العقيدة في النفوس، وتخليصها من شوائب الشرك في كل صوره وأشكاله.

سميت السورة «سورة الصافات» تذكيراً للعباد بالملأ الأعلى من الملائكة الأطهار، الذين لا ينفكون عن عبادة الله وبيان وظائفهم التي كلفوا بها.

وابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الملائكة الأبرار، الصافات قوائمها في الصلاة، أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله، الزاجرين للسحاب يسوقونه حيث شاء الله، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٥﴾ ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾.

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالقسم ببعض مخلوقاته، إظهاراً لعظم شأنها وكبر فوائدها، وتنبيها للعباد على جلالة قدرهم، وكثرة عبادتهم، فهم مع عظيم خلقهم ورفعة شأنهم لا ينفكون عن عبادة الله، يصطفون للعبادة كاصطفاف المؤمنين في الصلاة، مع الخشوع والخضوع للعزيز الجبار، الذي دانت له الخلائق، وخضعت لجلال هيبته الرقاب، بما فيهم حملة العرش والملائكة الأطهار.

﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ من الزجر بمعنى السوق والحث، أي: الملائكة التي تزجر السحاب وغيره بأمر الله، يسوقونه إلى حيث شاء الله.

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ وصف ثالث للملائكة الأبرار، إشادة بذكر محاسنهم ومناقبهم العلوية، أي: وأقسم بالملائكة التالين لآيات الله على أنبيائه وأوليائه، مع التسبيح والتقديس، والتحميد والتمجيد، فلما كانوا متألهين لربهم، ومتعبدين في خدمته، ولا يعصونه طرفة عين،أقسم بهم على ألوهيته، فقال:

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ هذا هو المقسم عليه، أي: إن إلهكم الذي تعبدونه - أيها الناس - إله واحد لاشريك له، فأخلصوا له العبادة. قال مقاتل: إن الكفار بمكة قالوا: أجعل الآلهة إلها واحداً؟ وكيف يسع هذا الخلق إله فرد؟ فأقسم الله بهؤلاء تشريفاً. ثم بين تعالى معنى وحدانيته وألوهيته، فقال:

﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو تعالى خالق السموات

والأرض ومالكهـا ومـا بينهـما مـن المخلوقات والموجودات، فإن وجودهما وانتظامهـا على هـذا النمـط البديع، من أوضـح الدلائـل على وجـود الله ووحدانيته.

﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ﴾ وهـو رب مشارق الشـمس ومغاربها في الشتاء والصيف، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالة الكلام عليه.

* ثـم أخبر عـن قدرتـه بتزيين السـماء بالكواكب، بعد أن أخبر عن وحدانيتـه. وتحدثت الآيات عن الجن وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة، رداً على أساطير أهل الجاهلية في اعتقادهم بأن هناك قرابة بين الله سـبحانه وبين الجن، فقال:

﴿٦﴾-﴿١٠﴾ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّـمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَـةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًـا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّـمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُـونَ مِـن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًاۖ وَلَهُـمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّـمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ أي: زينا السـماء القريبة منكم بالكواكـب المنيرة المضيئة، التي تبدو وكأنها جواهر تتلألأ.

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ أي: وحفظناها حفظاً من كل شيطان عـات متمرد، خارج عـن طاعة الله. خص السـماء الدنيا بالذكر؛ لأنها هي التي تشـاهد بالأبصار، وفيها وحدها يكـون الحفظ مـن الشـياطين. قال قتادة: خلقت النجوم لثلاث: رجوماً للشـياطين، ونوراً يُهتـدى بها، وزينة للسماء الدنيا.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: لئلا تستطيع الشياطين أن تصل إلى الملأ الأعلى، وهي السموات ومن فيها من الملائكة، فتستمع إليهم إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى من شرعه وقدره.

﴿وَيُقْذَفُونَ مِـن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًاۖ﴾ ويرجمون بالشـهب من كل جهـة يقصدون السـماء منهـا، طرداً وابعـاداً عن اسـتماع ما يقـول الملأ الأعلى. والدحر: هو الدفع والإبعاد.

﴿وَلَهُمْ عَـذَابٌ وَاصِبٌ﴾ ولهم في الآخـرة عذاب دائـم موصول، لا ينقطـع، لتمردهم عـن طاعة ربهم، ولولا أنـه تعالى اسـتثنى؛ لكان ذلك دليـلاً على أنهم لا يسـتمعون شـيئاً أصلاً، ولكن قال:

﴿إِلَّا مَنْ خَطِـفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ إلا من اختلس شيئاً مسارقة، وتلقف من الشـياطين المردة الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقة.

﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِـهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: فلحقـه نجم مـضيء، نافـذ بضوئه وشـعاعه فأحرقه. قال المفسرون: قد يخطف الشـيطان المارد خطفة سريعة مما يدور في الملأ الأعلى، فيتبعه شهاب يلاحقـه في هبوطـه فيصيبـه ويحرقه حرقاً، وليست الشهب التي يرجم بها الشياطين من الكواكب الثوابت؛ لأن الثابتة تجري ولا ترى حركاتها، وهذه الشهب ترى حركاتها.

* ولما بين هذه المخلوقات العظيمة، قال تعالى:

﴿١١﴾-﴿١٩﴾ ﴿فَٱسْـتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ * بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّـرُواْ لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْـخِرُونَ * وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِـحْرٌ مُّبِـينٌ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ * فَإِنَّمَـا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾.

﴿فَٱسْـتَفْتِهِمْ﴾ أي: فسـل -يا محمد- هؤلاء المنكرين للبعث.

﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآۚ﴾ أي: أيهم أقوى بنية وأشد خلقاً وأشق؛ هـل هـم، أم السـموات والأرض ومـا بينهما من الملائكـة والمخلوقات العظيمة العجيبة؟ فلابـد أن يقرر أن خلـق السـموات والأرض أكبر من خلـق النـاس، فيلزمهـم إذاً الإقرار بالبعـث، بل لو رجعوا إلى أنفسـهم وفكروا فيها، لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب، أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم، ولهذا قال:

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ بين سـبحانه أنـه خلقهـم من شيء ضعيف، أي: من طـين رخو لزج، لا قوة فيه، وأما وصفـه باللزوب؛ لأنه تراب مخلوط بماء وكذلك خلق ابن آدم من تراب وماء، ونار وهواء، والتراب إذا خلـط بـماء، صـار طينـاً لازباً.

والغرض من الآية: إقامة البرهان على إعادة الإنسان، فالذي خلقه من العدم وخلق هذه الخلائق، قادر على إعادة الأجسام بعد الفناء.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أي: بل عجبت -يا محمد- من تكذيبهم للبعث مع رؤيتهم آثار قدرة الله الباهرة، وأعجب من إنكارهم وأبلغ منه أنهم يسخرون منك ومما تقول لهم في ذلك. والمعنى: عجبت من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم للبعث، وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾ أي: ومن العجب أيضاً، أنهم إذا وعظوا بالقرآن وخوفوا به، لا يتعظون ولا يتدبرون.

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ وإذا رأوا آية باهرة، أو معجزة قاهرة تدل على صدقك ونبوتك كانشقاق القمر، وتكليم الشجر والحجر، يبالغون في السخرية، أو يدعون غيرهم للسخرية والاستهزاء.

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما هذا الذي جئتنا به -يا محمد- إلا سحر واضح بين، والإشارة بـ «هذا» إلى ما ظهر على يديه ﷺ من الخارق المعجز من انشقاق القمر وغيره.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والاستهزاء، أي: أئذا أصبحت أجسادنا بالية، وتفتت أجزاؤها إلى تراب وعظام سوف نبعث؟

﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: أيبعث أيضاً آباؤنا الأولون كذلك؟ وهذا زيادة في استبعاد الأمر، يعنون أنهم أقدم، فبعثهم أبعد وأبطل، ولما كان هذا منتهى ما عندهم، وغاية ما لديهم، أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على ترهيبهم، فقال:

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: قل لهم نعم تبعثون، وأنتم أذلاء صاغرون لا تمتنعون، ولا تستعصون على قدرة الله.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي: وما هي إلا صيحة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور للقيام من القبور، فإذا هم مبعوثون من قبورهم، قيام في أرض المحشر، ينظر بعضهم إلى بعض. قال القرطبي: الزجرة: الصيحة وهي النفخة الثانية، وسميت زجرة لأن مقصودها الزجر، كزجر الإبل، والخيل عند السوق.

* ثم يخبر تعالى عن قيل الكافر يوم القيامة وهم في تلك الحال، حيث يظهر الندم والخزى والخسار، ويدعون بالويل والثبور، عند معاينتهم أهوال القيامة، فقال:

﴿٢٠﴾-﴿٢٦﴾ ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: يا هلاكنا وخسارتنا هذا هو يوم الجزاء والحساب، فقد أقروا بما كانوا في الدنيا به يستهزؤون. فتقول لهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتقريع:

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: هذا يوم الفصل بين الخلائق الذي كنتم تنكرونه وتكذبون به، ففيه التفريق بين المحسن والمسيء، وإذا أحضروا يوم القيامة، وعاينوا ما به يكذبون، ورأوا ما به يستسخرون، يؤمر بهم إلى النار، التي بها كانوا يكذبون، فيقال:

﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ خطاب الله للملائكة، أي: اجمعوا الظالمين وأشباههم من العصاة والمجرمين، كل إنسان مع نظرائه وأشباهه، الزاني مع الزاني، وشارب الخمر مع شارب الخمر، والسارق مع السارق.

﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وما كانوا يعبدون من الأوثان والأصنام في الدنيا، وذلك زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم.

﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ فعرفوهم، وسوقوهم إلى طريق الجحيم، ووجهوهم إليها، وفي لفظ ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ تهكم وسخرية، فإذا لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم.

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ واحبسوهم عند الصراط قبل أن توصلوهم إلى جهنم؛ لأنهم سيسألون

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾
قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ
بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾
فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ
﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا
لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ
لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾
فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ
﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ
﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ
الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾

٤٤٧

عن جميع أقوالهم وأفعالهم، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ **أي: ويقال لهم توبيخاً ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً وأنتم هنا جميعاً؟ وكلكم في حاجة إلى الناصر والمعين؟ فكأنهم لا يجيبون هذا السؤال؛ لأنهم قد علاهم الذل والصغار، واستسلموا لعذاب الله، وخشعوا وخضعوا فلم ينطقوا، ولهذا قال:**

﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ **أي: بل هم اليوم أذلاء منقادون لأمر الله، عاجزون عن الانتصار لأنفسهم، سواء منهم العابدون والمعبودون.**

*** ولما جمعوا هم وأزواجهم وآلهتهم، وهدوا إلى صراط الجحيم، ووقفوا فسئلوا، فلم يجيبوا، كانت لهم حال ذكرها الله ﷻ، بقوله:**

﴿٢٧﴾-﴿٣٧﴾ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ **وأقبل الرؤساء والأتباع يتلاومون ويتخاصمون، وسؤالهم إنما هو سؤال توبيخ بطريق الخصومة والجدال.**

﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ **أي: قال الأتباع منهم للمتبوعين: إنكم كنتم تأتوننا من قبل الحق، وتزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن اتباع طريق الهدى، ولولا أنتم لكنا مؤمنين.**

﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ **أي: يقول لهم الرؤساء: لم نحملكم نحن على الضلال ولم نمنعكم من الإيمان، بل كفرتم ولم تؤمنوا باختياركم، فليس الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان.**

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ **أي: ما كان لنا عليكم من قوة وقدرة نقهركم بها على متابعتنا، بل كان فيكم فجور وطغيان، واستعداد للعصيان، فلذلك استجبتم لنا واتبعتمونا.**

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ **أي: يقول الكبراء للمستضعفين، فوجب علينا جميعاً، ولزمنا وعيد الله لنا بالعذاب نحن وأنتم، بما قدمنا من ذنوبنا ومعاصينا في الدنيا.**

﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ **أي: فإنا لذائقو هذا العذاب لا محالة ونازل بنا.**

﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ **أي: فزينا لكم الباطل، ودعوناكم إلى الغيّ، لأننا كنا على غيٍّ وضلال. قال تعالى مخبراً عن حالهم:**

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ **أي: فإن الاتباع والمتبوعين جميعاً يوم القيامة مشتركون في العذاب، كل بحسبه، كما كانوا مشتركين في الغواية والمعصية.**

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ **أي: مثل هذا الفعل بهؤلاء نفعل بالأشقياء المجرمين، الذين اختاروا معاصي الله في الدنيا على طاعته. ثم بيّن تعالى السبب، فقال:**

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ **أي: أن أولئك المشركين كانوا إذا قيل لهم في الدنيا،**

قولوا كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» يتكبرون ويتعظمون، ويستكبرون عنها وعلى من جاء بها.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ أي: ويقولون عندما يُدعون إلى التوحيد: أنترك عبادة الأوثان لقول شاعر مجنون؟ يعنون بذلك رسول الله ﷺ. قال تعالى تكذيباً لهم، ورداً عليهم:

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: ليس الأمر كما يفترون، بل جاءهم محمد بالتوحيد والإسلام الذي هو الحق الأبلج، وجاء بمثل ما جاء به الرسل قبله، ولم يخالفهم، ولا جاء بشيء لم تأت به الرسل قبله، وقد جمع المشركون بين إنكار الوحدانية، وإنكار الرسالة، ثم خلطوا في كلامهم بقولهم شاعر مجنون، فإن الشاعر عنده من الفهم والحذق ما ينظم به المعاني الغريبة، ويصوغها في قالب الألفاظ البديعة، ومن كان مجنوناً لا يصل إلى شيء من ذلك، فكلامهم تخليط وهذيان.

* ثم ذكر ﷻ عقاب الكفار المكذبين، واتبعه بذكر حال أهل الجنة وجزاءهم ونعيمهم، قال تعالى:

﴿٣٨-٤٩﴾ ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ * وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ إنكم أيها المجرمون لمعذبون أشد العذب.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: لا تعاقبون في الآخرة إلا جزاء مثل عملكم في الدنيا من المعاصي، لأن الشر يكون جزؤه بقدره، بخلاف الخير فجزاؤه بأضعاف مضاعفة.

ولما ذكر شيئاً من أحوال الكفار وعذابهم، ذكر شيئاً من أحوال المؤمنين ونعيمهم، على طريقة القرآن في الموازنة بين الفريقين ترغيباً وترهيباً، فقال تعالى:

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الاستثناء منقطع أي: لكن عباد الله المخلصين الموحدين، فإنهم لا يذوقون العذاب، ولا يناقشون الحساب، بل يتجاوز الله عن سيئاتهم، يجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. ثم أخبر عن جزائهم وما اختصهم برحمته، وجاد عليهم بلطفه، فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي: أولئك الأخيار الأبرار لهم رزقهم في الجنة صباحاً ومساء، معلوم في حسنه وطيبه، وعدم انقطاعه، معلوم الخصائص من حسن المنظر، ولذة الطعم، وطيب الرائحة، رزق عظيم جليل، لا يجهل أمره، ولا يبلغ كنهه. ثم فسره بقوله:

﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أي: فواكه متنوعة من جميع ما يشتهون، تتفكه بها النفس، للذاتها في لونها وطعمها، وهم في الجنة معززون، مجلون، يخدمون، وينعمون. وخص الفواكه بالذكر، لأن كل ما يؤكل في الجنة إنما هو على سبيل التفكه والتلذذ.

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: رياض وبساتين يتنعمون فيها، ومن كرامتهم عند ربهم، وإكرام بعضهم بعضاً، أنهم:

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي: على مجالس مرتفعة مكللة بالدّر والياقوت، تدور بهم كيف شاؤوا، لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلاً وتحاباً، متكئون عليها على وجه الراحة والطمأنينة والفرح، متقابلين فيما بينهم، قد صفت قلوبهم ومحبتهم فيما بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض، فإن مقابلة وجوههم، تدل على مقابلة قلوبهم، وتأدب بعضهم مع بعض، فتم ما بينهم كمال السرور، وكمال الأدب، وصفاء النفس وقرار العين.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ لما ذكر الطعام أعقبه بذكر الشراب، أي: يطوف عليهم خدم الجنة بكأس من الخمر، من نهر جار خارج من عيون الجنة. قال ابن عباس: كل كأس في القرآن فهي الخمر.

﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: هذه الخمر تخالف خمر الدنيا من كل وجه، فهي: بيضاء أشد بياضاً من اللبن ذات لذة للشاربين، يلتذ بها وقت شربها وبعده.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي: ليس فيها ما يغتال

يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا
لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى
لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا
ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾
لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ
ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ
تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ
﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ
عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾
إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم
مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾
إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ
ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

عقولهم فيفسدها، ولا هم يسكرون بشربها كما تفعل خمر الدنيا. قال ابن كثير: نزه الله سبحانه خمر الجنة عن الآفات التي هي في خمر الدنيا، من صداع الرأس، ووجع البطن، وذهاب العقل، فخمر الجنة طعمها طيب كلونها، وتلك أجمل أوصاف الشراب، التي تحقق لذة الشراب، وتنفي أكداره وأضراره، فلا خمر يصدع الرؤوس، ولا سكر ولا عربدة يذهب لذة الاستمتاع، كما هي الحال في خمرة الدنيا. ثم فصل في أنواع النعيم لتعلم النفوس ذلك فتشتاق إليها، فذكر أزواجهم، فقال:

﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: وعند أهل دار النعيم الحور العين، العفيفات اللواتي قصرن أعينهن على النظر إلى أزواجهن حياء وعفة، فهن عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

﴿عِينٌ﴾ أي: وهنَّ مع العفة، واسعات جميلات حسان الأعين. قال الطبري: أي: نجل العيون، جمع عيناء، وهي المرأة الواسعة العين مع الحسن والجمال، وهي أحسن ما تكون من العيون.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي: كأن الحور، اللؤلؤ المكنون في أصدافه، المصون الذي لم تمسه الأيدي، والغرض أنهن مع هذا الجمال الباهر، مصونات كالدُّر في أصدافه، مع رقة ولطف ونعومه ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ لا تبتذله الأيدي، ولا العيون، والعرب تشبه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها، وقد ذكر تعالى في هذه الآيات، أولاً: الرزق وهو ما تتلذذ به الأجسام، وثانياً: الإكرام وهو ما تتلذذ به النفوس، ثم ذكر المحل: وهو جنات النعيم، ثم لذة التأنس والاجتماع ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ وهو أتم للسرور وآنس، ثم ذكر المشروب وهو الخمر التي تدار عليهم بالكؤوس ولا يتناولونها بأنفسهم، ثم ختم باللذة الجسدية - أبلغ الملاذ - وهي التأنس بالنساء.

* لما ذكر الله ﷻ نعميهم وتمام سرورهم، بالمآكل والمشارب، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة، ذكر تذاكرهم فيما بينهم، ومطارحتهم للأحاديث عن الأمور الماضية، وكيف كانوا في الدنيا، فأخبر تعالى عما يتحدث به أهل الجنة للأنس والسرور، وهم على موائد الشراب يتلذذون بكل ممتع، وينعمون بتجاذب أطراف الحديث، قال تعالى:

﴿٥٠﴾-﴿٦١﴾ ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ * يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ﴾.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: وهم في تمام الأنس والسرور أفضى ذلك بهم، إلى أن جلسوا يتحدثون عما جرى لهم في الدنيا، يتذاكرون نعيمهم، وحال الدنيا، وثمرة الإيمان.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ قال قائل من أهل الجنة في حال إقبال بعضهم على بعض بالحديث: إني كان لي في الدنيا صديق وجليس ملازم لي، ينكر البعث، ويلومني على تصديقي به.

﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ أي: ويقول لي مستنكراً: أتصدق بالبعث والجزاء؟ الذي في غاية الاستغراب.

﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي: هل إذا متنا وأصبحنا ذرات من التراب وعظاماً نخرة، أئنا لمحاسبون ومجزيون بأعمالنا؟ يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد.

﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي: قال ذلك المؤمن لإخوانه وجلسائه في الجنة: هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين، فنزداد غبطة وسروراً بما نحن فيه، ويكون ذلك رأي العين؟

﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: فنظر فأبصر صاحبه الكافر في وسط الجحيم يتلظى سعيرها، والعذاب قد أحاط به.

﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ أي: فخاطبه المؤمن شامتاً، وقال له: والله لقد قاربت أن تهلكني بإغوائك، وبصدك إياي عن الإيمان لو أطعتك.

﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ أي: ولولا فضل الله عليَّ بتثبيتي على الإيمان، وعصمته لي وتوفيقه، لكنت معك في النار محضراً ومعذباً في الجحيم، فشكر الله وحمده أن أنجاه من النار، ثم خاطبه مستهزئاً ساخراً كما كان ذلك الكافر يستهزئ به في الدنيا:

﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي: هل لا تزال على اعتقادك بأننا لن نموت إلا موتة واحدة، وأنه لا بعث ولا جزاء ولا حساب ولا عذاب؟ وهو أسلوب ساخر لاذع يظهر فيه التشفي من ذلك القرين الكافر، والتحدث بنعمة الله عليه، ولهذا قال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي: إن هذا النعيم الذي ناله أهل الجنة لهو الفوز العظيم، ففيها الخلود الدائم والسلامة من العذاب.

﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ أي: لمثل هذا الجزاء الكريم والنعيم الكامل، والخلود الدائم، يجب أن يعمل العاملون ويجتهد المجتهدون.

* لما ذكر تعالى ما أعده للإبرار في دار النعيم، ذكر ما أعده للأشرار في دار الجحيم، ليظهر التمييز بين الفريقين. فقال تعالى:

(٦٢)-(٧٠) ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ * طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ * فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ * ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ * إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ * فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ﴾.

﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ أي: أنعيم الجنة خير ضيافة وعطاء، أم شجرة الزقوم التي في جهنم؟ أيها خير وأفضل؟ فالفواكه والثمار طعام أهل الجنة، وشجرة الزقوم طعام أهل النار، والغرض منه توبيخ الكفار.

﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إنا جعلنا شجرة الزقوم فتنة وعذاباً ونكالاً، وابتلاءً لأهل الضلالة. قال المفسرون: لما سمع الكفار ذكر شجرة الزقوم، قالوا: كيف يكون في النار شجر، والنار تحرق الشجر؟ وكان أبو جهل يقول لأصحابه: أتدرون ما الزقوم؟ إنه الزُّبد والتمر، ثم يأتيهم به، ويقول: تزقموا، هذا الذي يخوفنا به محمد.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: تنبت في قعر جهنم، ثم هي متفرعة فيها، وأغصانها ترفع إلى دركاتها، ثم قال تعالى:

﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: ثمرها وحملها كأنه رؤوس الشياطين في تناهي القبح والبشاعة، وإنما شبهها برؤوس الشياطين، وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر.

﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ أي: فإن هؤلاء الكفار لشدة جوعهم، مضطرون إلى الأكل منها حتى تمتلئ منها بطونهم، فهي طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة، وفي الحديث: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن تكون طعامه؟» [رواه الترمذي].

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ ثم إن لهم بعد الأكل منها وقد غلبهم العطش، لمزجاً من ماء حار، قد انتهت حرارته يشاب به الطعام -أي يخلط- ليجمع لهم بين مرارة الزقوم، وحرارة الحميم، تغليظاً لعذابهم.

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (٧٨) سَلَٰمٌ
عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُۥ
مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (٨٢) ۞ وَإِنَّ مِن
شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣) إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ
(٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ (٨٨)
فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ
فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا
بِٱلْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ
(٩٥) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ
فِى ٱلْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ (٩٨)
وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
(١٠٠) فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ
إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ
ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢)

٤٤٩

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: ثم مصيرهم ومآلهم بعد شرب الحميم، إلى دركات الجحيم. قال مقاتل: الحميم خارج الجحيم، فهم يوردون الحميم لشربه ثم يردون إلى الجحيم. ثم علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد، بقوله:

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ أي: وجدوا آباءهم على الضلالة عريقون فيها، فاقتدوا بهم واتبعوهم.

﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ فهم يسرعون في اتباع خطاهم من غير دليل ولا برهان، ولم يلتفتوا إلى ما دعتهم إليه الرسل، ولا إلى ما حذرتهم عنه الكتب، ولا إلى أقوال الناصحين، وشبهه بالهرولة كمن يسرع إسراعاً نحو الشيء.

* ثم ذكر تعالى أحوال الأمم السابقة، وأن أكثرهم كانوا ضالين، يجعلون مع الله آلهة أخرى، وذكر أنه أرسل فيهم الرسل، فكانت النهاية، كما قال تعالى:

(٧١)-(٧٤) ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ * فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ضلَّ قبل قومك -يا محمد- أكثر الأمم الماضية، وقليل منهم آمن واهتدى، وكان ضلالهم بعد الإنذار والتحذير.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي: أرسلنا فيهم رسلاً كثيرين يخوفونهم من عذاب الله، ولكنهم تمادوا في الغي والضلال.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فانظر -يا محمد- كيف كان مصير أمر هؤلاء المكذبين؟ ألم نهلكهم فنصيرهم عبرة للعباد؟ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على ضلالهم، فيصيبهم مثل ما أصابهم.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ لكن عباد الله المؤمنين الذين أخلصهم تعالى لطاعته، ووحدوه وعبدوه، فإنهم نجوا من العذاب.

* ثم أفاضت السورة الكريمة في ذكر سبع قصص من قصص الأنبياء، بدءاً بنوح، ثم إبراهيم، ثم إسماعيل، ثم قصة موسى وهارون، ثم إلياس ولوط، ثم قصة يونس، وذكرت بالتفصيل قصة الإيمان والابتلاء في حادثة الذبيح إسماعيل، وما جرى من أمر الرؤيا للخليل إبراهيم، حين أمر بذبح ولده ثم جاءه الفداء، تعليماً للمؤمنين كيف يكون أمر الانقياد والاستسلام لأمر أحكم الحاكمين، وفي ذكر كل تلك تسلية للرسول ﷺ وإيناس له، وتنبيه لقومه أن يجري لهم ما جرى لغيرهم من الأمم المكذبة.

وقد بدأ بذكر قصة نوح في إشارة شريفة تبين العاقبة، وتقرر عناية الله بعباده المخلصين، قال تعالى:

(٧٥)-(٨٢) ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ اللام موطئة للقسم، أي: وبالله لقد استغاث بنا أول الرسل نوح عليه السلام لما كذبه قومه، فقال: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] فاستجبنا له، فلنعم المجيبون نحن له، وصيغة الجمع ﴿ٱلْمُجِيبُونَ﴾ للعظمة والكبرياء.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: اجنباه، ونجيناه ومن آمن معه من أهله وأتباعه من أذى المشركين، ومن الغرق بالطوفان العظيم. قال المفسرون: وكانوا ثمانين ما بين رجل وامرأة. وإنجاء الله إياه نعمة عليه، وإنجاء أهله نعمة أخرى، وهلاك ظالميه نعمة كبرى، وجعل عمران الأرض بذريته نعمة دائمة يدعون له، ويذكر بينهم مصالح أعماله وذلك مما يرحمه الله لأجله.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا في الأرض بعد هلاك قومه؛ وذلك لأنه لما غرق الناس في الطوفان، ونجا نوح ومن كان معه في السفينة، تناسل الناس من أولاده الثلاثة: سام، وحام، ويافث. قال ابن عباس: أهل الأرض كلهم من ذرية نوح.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي: وجعلنا له ذكر جميلاً، وثناءً حسناً مستمرّاً في كل أمة إلى يوم القيامة؛ وذلك لأنه مُحسن في عباده الخالق، محسن إلى الخلق.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: سلام عاطر وأمان من الله تعالى والخلائق على نوح، من أن يذكر بسوء في الآخرين، بل هو ذكر حسن له باق على الدوام بدون انقطاع.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: مثل جزاء نوح هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى؛ بإجابة دعائه، ونجاته في الشدائد والمضائق، وبقاء ذريته، ونشر الذكر الجميل له إلى آخر الدهر، وهذه سنته تعالى في المحسنين، أن ينشر لهم من الثناء على حسب إحسانهم.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كان مخلصاً في العبودية لله، كامل الإيمان واليقين، علّل هذه التكرمة السنية بكونه من أولي الإحسان، ثم علّل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً، إظهاراً لجلالة قدر الإيمان وأصالة أمره، وجعل الدنيا مملوءة من ذريته تنقية لذكره الجميل في ألسنة العالمين.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أي: وبعد إنجاء نوح ومن معه، أغرقنا الكافرين الذين لم يؤمنوا به عن آخرهم، فلم تبق منهم عين تطرف، ولا ذكر ولا أثر.

* ثم شرع تعالى في بيان قصة إبراهيم عليه السلام وماجرى له مع قومه، فقال:

﴿٨٣﴾-﴿٨٧﴾ ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: وإن من أنصار نوح وأعوانه، وممن كان على منهاجه وسنته إبراهيم الخليل، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة، وكان بينهما نبيان هما: هود وصالح - صلوات الله عليهم أجمعين-.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: حين جاء ربه بقلب طاهر، مخلص من الشك والشرك وآفات القلوب، والشهوات المانعة من تصور الحق، والعمل به. وإذا كان قلب العبد سليماً، سلم من كل شر، وحصل له كل خير، ومن سلامته أنه سليم من غش الخلق وحسدهم، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق، ولهذا نصح الخلق في الله، وبدأ بأبيه وقومه.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: حين قال لأبيه آزر وقومه: ما الذي تعبدونه من الأوثان والأصنام؟ وهو استفهام بمعنى الإنكار التوبيخ، وإلزام لهم بالحجة.

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي: أتعبدون آلهة من دون الله من أجل الإفك والكذب والزور؟ والإفك: أسواء الكذب، وهو الذي لا يثبت، ويضطرب.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استفهام توبيخ وتحذير، أي: أيَّ شيء تظنون برب العالمين؟ هل تظنون أنه يترككم بلا عقاب وقد عبدتم غيره؟ وأيَّ شيء تظنون أيها القوم أنه يصنع بكم إن لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ أو ما الذي ظننتم برب العالمين من النقص حتى جعلتم له أنداداً وشركاء.

* ولما وبخهم إبراهيم على عبادة غير الله، أراد أن يريهم أن أصنامهم لا تضر ولا تنفع، وأراد أن يخلو بها حتى يكسرها، فاحتال للبقاء وعدم الخروج معهم إلى عيد لهم. قال تعالى:

﴿٨٨﴾-﴿٩٨﴾ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ

فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾
قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ
هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا
عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ
بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ
وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا
عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا
ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ
﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا
مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ
ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾

أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ **فنظر إبراهيم عليه السلام، وقلب نظره كعادة من يفكر في السماء، فقال: إني سقيم، أراد أنه سقيم القلب من عبادتهم للأوثان، وما هم عليه من صرف العبادة لغير الله، فهو في هم وغم وضيق، وإنما تمرض صاحبها وتسقم ذويه.**

﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ **فتركوه إعراضاً عنه، وتخلف عنهم ليتم له الكيد بآلهتهم. وعندما خرجوا إلى عيدهم حانت الفرصة.**

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ **فلما ذهبوا وتركوه، توجه إلى الأصنام ومال إليها في خفية وسرعة.**

﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ **فقال متهكماً بالأصنام، ألا تأكلون من هذا الطعام؟ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً لتبارك لهم فيه، ولم تجبه الأصنام بطبيعة الحال، فاستطرد في تهكمه، وعليه طابع الغيظ والسخرية:**

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ **ما لكم لا تجيبوني على سؤالي، فكيف يليق أن تُعبد، وهي أنقص من الحيوانات التي تأكل أو تكلم، فهذه جماد لا تأكل ولا تكلم، وعرض الأكل عليها واستفهامها عن النطق إنما هو على سبيل الهزء؛ لأنها منحطة عن رتبة عابديها، إذ هم يأكلون وينطقون بخلافها. وعندها بدأ بعد القول، بالفعل:**

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ **أي: فأقبل على الأصنام مستخفياً يحطمها بيمينه بفأس كان معه، حتى جعلها جذاذاً إلا كبيراً لهم، لعلهم إليه يرجعون، وخص الضرب باليمين؛ لأنها أقوى والضرب بها أشد.**

﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ **أي: أقبل قومه نحوه مسرعين غاضبين، كان بعضهم يدفع بعضاً؛ لأنهم أُخبروا بما صنع إبراهيم، فلما أدركوه قالوا: ويحك نحن نعبدها وأنت تكسرها؟ فلقيهم إبراهيم بثبات قلب، ويقين صادق، مؤنباً وموبخاً:**

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ **ذكر لهم الدليل الدال على فساد عبادتها، فقال: أتعبدون أصناماً تنحتونها بأيديكم، وتصنعونها بأنفسكم؟**

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ **أي: والله -جل وعلا- خلقكم وخلق عملكم، وكل الأشياء مخلوقة له، فكيف تعبدون المخلوق وتتركون الخالق، أليس لكم عقل أيها الناس؟ خلقكم وخلق أصنامكم التي تعملونها، وهذا أليق بسياق الكلام، وأقوى في قصد الاحتجاج على الذين عبدوا الأصنام فما كان من أولئك القوم المكذبون، إلا أن:**

﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ **لما غلبهم إبراهيم عليه السلام في الحجة، مالوا إلى الغلبة بقوة البطش والشدة، تشاوروا فيما بينهم ثم قرروا أن يطرحوه في النار، انتصاراً لأصنامهم وآلهتهم، وقال أصحاب الأمر والنهي فيهم: ابنوا له مكاناً وأضرموه ناراً، ثم ألقوه في تلك النار المتأججة المستعرة جزاء على ما فعل من تكسير آلهتهم.**

﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ **أي: أرادوا بإبراهيم شرّاً ومكراً، واحتالوا لإهلاكه وقتله أشنع قتله، فنجيناه من النار وجعلناها برداً وسلاماً عليه، وجعلناهم الأذلين**

المقهورين؛ لأنه لم ينفذ فيه مكرهم، ولا كيدهم.

* ولما فعلوا هـذه الفعل بإبراهيم وأرادوا أن يقتلـوه وقد أقـام عليهم الحجة، وأعذر منهم، وأيس من إيمانهم بعد ما شـاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم.

(٩٩)-(١١٣) ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ لما نجـا الله إبراهيم من النـار، وخلصه من كيد الفجار، هجر قومه واعتزلهم، والمعنـى: إني مهاجر من بلد قومي إلى حيث أمـرني ربي، وهو أول من هاجر من الخلق مع سارة إلى الأرض المباركة أرض الشـام، وقد هجر وهو الموحد لربه أصنامهم وتبرأ منها.

﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: يدلنـي إلى ما فيـه الخير لي، من أمر ديني ودنياي، ثم دعا ربه، وفي هذه الحالة وهو وحيد لا عقب له، وتـرك وراءه أواصر الأهل والقربـى، اتجه إلى ربه يسـأله الذرية المؤمنة والخلـف الصالح الذي تقر به عينه، وتوكل على ربه، وقال:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وذلك عندمـا أيس من قومـه ولم ير فيهم خـيراً، دعـا الله أن يرزقه ولداً من الصالحين يونسـه في غربته، يريد أولاداً مطيعين يكونوا عوضاً عن قومه وعشـيرته الذين فارقهم، ينفع الله به في حياته وبعد مماتـه، دعا ربه وهو في هجرتـه دعاء العبـد الصالح المتجرد الذي ترك وراءه كل شيء، وجاء إليه بقلب سليم، فاستجاب الله له، وقال:

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ أي: فاسـتجبنا دعاءه وبشرناه بغلام يكون حليـماً في كبره، وهو إسـماعيل ﷺ، وقـد جمع الله له في بشـارات ثلاث: بشارة أنه غلام، وأنه يبلغ أوان الحُلم، وأنـه يكـون حليـماً؛ لأن الصغير لا يوصف بذلك. وجمهور المفسرين على أن هذا الغلام المبشر به هو إسـماعيل؛ لأن الله تعـالى قـال بعـد تمـام قصة الذبيح ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ فدل ذلك على أن الذبيح هو إسماعيل.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: فلما كبر وترعرع وشـب الغلام، وبلغ السـن الثالثة عشرة، وهي السـن التي يمكنه أن يسـعى مع أبيه في أشـغاله وحوائجه، في سـن يكون غالباً أحب ما يكون لوالديه، وقد ذهبت مشـقته وأقبلـت منفعته. وفي تلك الفـترة وإبراهيم عـلى كبر، مقطوع من الأهـل والقرابة، مهاجـر في الأرض والوطـن، مفارق للأهـل والأصحاب، يرزق بغلام طالما تطلع إليه، ودعا أن يرزقه ربه إياه، حتـى جاءه ابتـلاء من الله ﷻ واختبار وامتحان.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ أي: إني أمرت في المنام أن أذبحك، ورؤيا الأنبياء حق. قال محمد بن كعب: كانت الرسل يأتيهم الوحي مـن الله تعالى أيقاظـاً ورقـوداً؛ لأن الأنبياء تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم.

﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ أي: فانظر في الأمر، مـا رأيك فيه، فـإن أمر الله تعالى لابد مـن تنفيذه؟ وإنما أعلم ابنه بذلك ليكـون أهون عليـه، وليختبر صـبره وجلده وعزمه عـلى طاعة الله تعالى وطاعة أبيه، فإن قيل: لم شاوره في أمر هو حتم مـن الله؟ فالجواب: أنه لم يشـاوره ليرجع إلى رأيه، ولكن ليعلم ما عنده فيثبت قلبه ويوطن نفسـه على الصبر، فأجابه بأحسن جواب:

﴿قَالَ﴾ إسـماعيل صابراً محتسباً، مرضياً لربه، وباراً بوالده.

﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: امض لمـا أمـرك الله به مـن ذبحي، فسـتجدني صابراً إن شـاء الله، وقرن ذلك بمشـيئة الله تعالى؛ لأنه لا يكون

شيء بدون مشيئة الله تعالى فهو لم يأخذ الأمر بطولة أو حمية وشجاعة، بل أخذها طاعة واستسلاماً لله ﷻ؛ وهو جواب من أوتي الحلم والصبر وامتثال الأمر، والرضا بقضاء الله.

وقد عدل عن قول: اذبحني إلى ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ للجمع بين الإذن وتعليله.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي: فلما استسلما - الأب إبراهيم وابنه إسماعيل - لأمر الله، وصرعه على وجهه ليذبحه، جازماً بقتل ابنه وثمرة فؤاده، امتثالاً لأمر ربه، وخوفاً من عقابه، والابن قد وطن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه ورضا والده.

﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي: جذب إبراهيم إسماعيل وكبه على وجهه، ليضجعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه لئلّا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ أي: ناديناه يا إبراهيم في تلك الحال المزعجة والأمر المدهش، قد نفذت ما أمرت به وفعلته، وحصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح. روي أنه أمرَّ السكين بقوته على حلقه مراراً فلم يقطع. والحكمة في هذه القصة أن إبراهيم اتخذه الله تعالى خليلاً، والخلة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة، ويقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبوب، فلما سأل ربه الولد ووهبه له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبة ولده، فأراد الله تعالى أن يصفي وُدّه، ويختبر خلته، فأمره بذبح المحبوب لتظهر صفاء الخلة، فامتثل أمر ربه وآثره على هواه، وقدم محبته على محبة ولده، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه. قال ابن عباس: فلما عزم على ذبح ولده ورماه على شقه قال الابن: يا أبت أشدد رباطي حتى لا أضطراب واكفف ثيابك لئلّا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن، وأحد شفرتك وأسرع بها على حلقي ليكون الموت أهون عليَّ، وإذا أتيت أمي فأقرئها مني السلام، وإن رأيت أن ترد قميصي عليها فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني، فقال له إبراهيم: نعم العون أنت يا بني على أمر الله.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لتفريج الكربة، أي: كما فرجنا شدتك، كذلك نجازي المحسنين بتفريج الشدة عنهم ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: إن هذا الذي امتحنا به إبراهيم عليه السلام، ابن يذبح، ويكون الذبح بيده، لهو الابتلاء والامتحان الشاق الواضح، الذي يتميز فيه المخلص من المنافق، والذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخلته، فلهذا قال:

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي: صار بدله، ذبحٌ من الغنم عظيم من الجنة فداءً عنه، ذبحه إبراهيم، فكان عظيماً من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قرباناً وسنَّة إلى يوم القيامة. قال ابن عباس: كبش عظيم قد رعى في الجنة أربعين خريفاً.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي: وأبقينا عليه ثناءً حسناً إلى يوم الدين، كما كان في الأولين، فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام، فإنه فيه محبوب، معظم، مثنى عليه.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ سلام منا على إبراهيم عاطر كريم، ودعاء له بالسلامة من كل آفة.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كما جزينا إبراهيم على طاعته لنا وامتثاله أمرنا، نجزي المحسنين من عبادنا، كرَّر ذكر الجزاء مبالغة في الثناء، ثم علَّل ذلك بأنه كان من الراسخين في الإيمان مع اليقين والاطمئنان.

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: وبشرناه بغلام آخر بعد تلك الحادثة، هو إسحاق الذي سيكون نبيّاً، الذي ورائه يعقوب، فبشر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبياً من الصالحين، فهي بشارات متعددة-.

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي: أفضنا على إبراهيم وإسحاق بركات الدنيا والدين، التي هي النمو والزيادة، في علمهما وعملهما وذريتهما، فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ أي: ومن ذريتهما محسن ومسيء. والمحسن هو المؤمن، والظالم لنفسه هو الكافر.

﴿مُبِينٌ﴾ أي ظاهر الكفر، وفي الآية وعيد لليهود ومن كان من ذريتهما ممن لم يؤمن بمحمد ﷺ، وفيها دليل على أن البَرّ قد يلد الفاجر ولا يلحقه من ذلك عيب ولا منقصة.

* ولما ذكر قصة الخليل إبراهيم، وقصة الذبيح والفداء، أعقبها بذكر قصص بعض الأنبياء، كموسى وهارون، ويونس ولوط، وما في هذه القصص من العظات والعبر، وختم السورة الكريمة ببيان أن النصر والغلبة للرسل وأتباعهم المؤمنين، قال تعالى:

﴿١١٤﴾-﴿١٢٢﴾ ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ * وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ * وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ اللام موطئة للقسم، أي: وعزتنا وجلالنا، لقد أنعمنا على موسى وهارون بأنواع النعم والمنافع الدينية والدنيوية؛ ومنها نعمة النبوة والرسالة، ثم بدأ بتعداد النعم.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: ونجيناهما وقومهما - بني إسرائيل - من الغم والمكروه العظيم، وهو استعباد فرعون إياهم مع التعذيب بقتل الأبناء، واستحياء النساء.

﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ الضمير يعود على موسى وهارون وبني إسرائيل، أي: ومن نعمنا عليهم، أن نصرناهم على أعدائهم - فرعون وآله من القبط - فكانوا بسبب ذلك هم الغالبين عليهم بعد أن كانوا تحت أيديهم مقهورين مستضعفين.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ أي: ومن النعم أيضاً أن أعطيناهما الكتاب البليغ في بيانه، الكامل في حدوده وأحكامه، وهو التوراة.

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وهديناهما الطريق المستقيم، بأن شرع لهما ديناً ذا أحكام وشرائع مستقيمة، لا اعوجاج فيه موصلة إلى الله، ومنَّ عليهما بسلوكه، وهذا من النعم.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي: تركنا عليهما الثناء الجميل، والذكر الحسن، ومن باب أولى وأحرى في الأولين.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي: سلام منا على موسى وهارون، وثناءٌ ودعاء لهما بالسلامة من كل آفة؛ فهذه نعم متتالية، وموجبها.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كذلك نفعل بمن أحسن، وأخلص العبودية لله، أنهما من عبادنا الراسخين في الإيمان.

* ثم مدح سبحانه عبده ورسوله إلياس ﷺ بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، فقال تعالى:

﴿١٢٣﴾-﴿١٣٢﴾ ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ * ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: وإن إلياس بن ياسين، من سبط هارون أخي موسى لأحد المرسلين إلى قومه.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: حين قال لقومه من بني إسرائيل، ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أتعبدون هذا الصنم - المسمى بعلاً - الذي لا ينفع ولا يضر ولا يخلق ولا يرزق، وتتركون عبادة المستحق للعبادة وحده لا شريك له، الذي خلق الخلق، وأحسن خلقهم، ورباهم فأحسن تربيتهم.

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: تتركون عبادة أحسن الخالقين، الذي هو ربكم ورب آبائكم السابقين، وتدعون ربّاً اختلقتموه وهو هذا الصنم.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ فكذبوا نبيهم إلياس فيما دعاهم إليه، فلم ينقادوا له، فتوعدهم الله ﷻ بأنهم لمحضرون في العذاب يوم القيامة.

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ
﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ
﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ
لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ
يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾
فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ
﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ
يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا
عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ
يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ
أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا
وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ
اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ **لكن عباد الله المؤمنين الموحدين الذين أخلصهم الله ومنَّ عليهم باتباع نبيهم، فإنهم نجوا من العذاب، ولهم من الله جزيل الثواب.**

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ **أي: تركنا على إلياس، الثناء الحسن الجميل إلى يوم الدين.**

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ **سلام منا عليه وعلى آل ياسين، وهم إلياس ومن آمن معه.**

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ **أثنى الله عليه، كما أثنى على إخوانه - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وإنما ختم الآيات بعد ذكر كل رسول بالسلام عليه، وبهاتين الآيتين الكريمتين لبيان فضل الإحسان والإيمان، وأن هؤلاء الرسل الكرام كانوا جميعاً من المتصفين بهذه الصفات، فلذلك استحقوا التحية والسلام، والذكر الحسن بين الأنام - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-.**

*** ثم أثنى الله ﷻ على عبده ورسوله لوطاً بالنبوة والرسالة، ودعوته إلى قومه، ونهيهم عن الشرك، وفعل الفاحشة، قال تعالى:**

﴿١٣٣﴾-﴿١٣٨﴾ ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ **وإن لوطاً، إصطفيناه، فجعلناه رسولاً لهداية قومه.**

﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ **أي: اذكر حين خلصناه من العذاب، هو ومن آمن معه من أهله وأولاده.**

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ **إلا عجوزاً هرمة هي امرأته الكافرة، فإنها لم تؤمن، فكانت من الباقين في العذاب، ومن الهالكين.**

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ **ثم أهلكنا المكذبين من قومه أشد إهلاك وأفظعه وأشنعه، وذلك بقلب قراهم حيث جعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل.**

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ﴾ **وإنكم يا أهل مكة لتمرون على منازل قوم لوط في أسفاركم، وتشاهدون آثار هلاكهم صباحاً ومساءً، وليلاً ونهاراً.**

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ **أي: أتشاهدون ذلك ثم لا تعتبرون؟ ألا تخافون أن يصيبكم مثل ما أصابهم؟ وفي هذا تهديد لهم.**

*** ثم أثنى الله ﷻ أيضاً على عبده ورسوله يونس بن متى، كما أثنى على إخوانه المرسلين بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله، قال تعالى:**

﴿١٣٩﴾-﴿١٤٨﴾ ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ **أي: وإن يونس ذا النون، وهو ابن متى، لأحد رسلنا المرسلين لهداية قومه.**

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ **أي: أذكر حين هرب وركب سفينة مملوءة ركاباً وأمتعة، فلما أحاطت بها الأمواج العظيمة.**

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ **أي: فقارع أهل السفينة فكان من المغلوبين بالقرعة فألقوه في البحر.**

قال المفسرون: إن يونس ضاق صدراً بتكذيب قومه، فأنذرهم بعذاب قريب، وغادرهم مغضباً لأنهم كذبوه، فقاده الغضب إلى شاطئ البحر حيث ركب سفينة مشحونة، فناوأتها الرياح والأمواج، فقال الملاحون: ههنا عبد أبق من سيده، ولا بد لنجاة السفينة من إلقائه في الماء لتنجو من الغرق، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه، فألقوه في البحر.

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ فابتلعه الحوت وهو آت بما يلام عليه من تخليه عن المهمة التي أرسله الله بها، وترك قومه مغاضباً لهم، وخروجه بغير إذن من ربه.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: لولا أنه كان من الذاكرين الله كثيراً في حياته في وقت الرخاء قبل وقوعه في بطن الحوت وبعده. قال الحسن: ما كان له صلاة في بطن الحوت ولكنه قدم عملاً صالحاً في حال الرخاء، فذكره الله به في حال البلاء.

﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، وأصبح بطنه قبراً له فلم ينج أبداً، ولكنه سبح الله واستغفره، وناداه وهو في بطن الحوت بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فاستجاب الله تضرعه ونداءه، وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد والمضائق. وقد قيل: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر.

﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: فاستجبنا له، فألقيناه من بطن الحوت على الساحل، بأن قذفه الحوت من بطنه بالأرض الفضاء التي لا شجر فيها ولا ظل، وهو سقيم مريض، ضعيف البدن مما ناله من الكرب. قال عطاء: أوحى الله تعالى إلى الحوت إني قد جعلت بطنك له سجناً، ولم أجعله لك طعاماً، فلذلك بقي سالماً لم يتغير منه شيء.

﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ وأنبتنا فوقه شجرة لتظله وتقيه حر الشمس، وهي شجرة القرع، وإنما خص القرع بالذكر لأنه يجمع كبر الورق، وبرد الظل، وأنه أسرع الأشجار نباتاً وامتداداً وارتفاعاً، والذباب لا يقربه، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب، وهذا من تدبير الله ولطفه به وبره، فلما استكمل قوته وعافيته امتن عليه منّة عظمى، حيث إنه رده الله إلى قومه، ولهذا قال:

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي: وأرسلناه بعد ذلك إلى قومه الذين هرب منهم، وهم مائة ألف من الناس، بل يزيدون.

﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فآمنوا بعد أن شاهدوا أمارات العذاب الذي وعدوا به فصاروا في موازينه؛ لأنه الداعي لهم، فأبقيناهم ممتعين في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم. روي أنهم خرجوا بالأطفال وأولاد البهائم، وفرقوا بينهم وبين الأمهات، وناحوا وتضرعوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم.

* ولما انتهى -جل وعلا- من الحديث عن الرسل الكرام، وما جرى لهم، وماحصل لهم من عظات وعبر، رجع إلى الحديث عن المكذبين من كفار مكة، فقال:

﴿١٤٩﴾-﴿١٦٠﴾ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ أي: اسأل -يا محمد- واستخبر كفار مكة - على سبيل التوبيخ والتقريع لهم، كيف زعموا أن الملائكة بنات الله، فجعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور؟ إنهم يكرهون البنات ولا يرضون نسبتهن لأنفسهم، فكيف يرضونها لله ﷻ ويختصون بالبنين؟ ثم قال تعالى في بيان كذبهم:

﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ توبيخ آخر على بهتانهم واستهزاء بهم وتجهيل، أي: بل أخلقنا الملائكة حين خلقناهم، وجعلناهم إناثاً وهم شاهدون لذلك حتى يقولوا

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾
فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ
نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾
مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا
لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ
﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا
عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ
سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾
وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ
فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ
فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ
فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ
﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

سُورَةُ صٓ

٤٥٢

مثل هذا البهتان؟ فدل على أنهم قالوا هذا القول بلا علم، بل افتراء على الله، ولهذا قال:

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: ألا فانتبهوا أيها الناس، إن هؤلاء المشركين من كذبهم وافترائهم الواضح البين ينسبون إلى الله الذرية والولد، وهم كاذبون قطعاً في قولهم الملائكة بنات الله.

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ توبيخ وتقريع، أي: لأي شيء؟ هل اختار -جل وعلا- البنات، وفضلهن على البنين؟

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ تسفيه لهم وتجهيل، أي: أيُّ شيء حصل لكم حتى حكمتم بهذا الحكم الجائر؟ كيف يختار لنفسه أخسَّ الجنسين في زعمكم؟

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتعظون، أفليس لكم تمييز وإدراك تعرفون به خطأ هذا الكلام؟ ببديهة العقل، فإنه مركوز في عقل كل ذكي وغبي.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ توبيخ آخر، أي: أم لكم برهان بيِّن وحجة واضحة على أن الله اتخذ الملائكة بناتاً له؟ وكل هذا غير واقع، ولهذا قال:

﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فأتوا بهذا الكتاب الذي يشهد بصحة دعواكم فيما تزعمون، والغرض تعجيزهم وبيان أنهم لا يستندون - في أقوالهم الباطلة - على دليل شرعي، ولا منطق عقلي، وينتقل إلى أسطورة أخرى لفقها المشركون، حيث زعموا أن هناك صلة بين الله سبحانه وبين الجن، وأنه من التزاوج بين الله تعالى والجنة ولدت الملائكة، فيقول:

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ أي: جعل هؤلاء المشركون بين الله وبين الجن قرابة ونسباً، حيث قالوا: إنه نكح من الجن فولدت له الملائكة - سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً - ثم زعموا أن الملائكة إناث، وأنهن بنات الله. قال مجاهد: قال المشركون الملائكة بنات الله تعالى، فقال أبوبكر رضي الله عنه: فمن أمهاتهن.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: لقد علمت الشياطين أنهم محضرون في العذاب، وهذا زيادة في تبكيتهم وتكذيبهم، كأنه قيل: هؤلاء الذين عظمتموهم وجعلتموهم بنات الله، أعلم بحالكم وما يؤول إليه أمركم.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تنزه وتقدس الله عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به هؤلاء الظالمون الملحدون علواً كبيراً.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن عباد الله المخلصين فإنهم ينزهونه عن قول هؤلاء الظالمين؛ لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله، وبذلك كانوا مخلصين أنهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي مرسل.

* ثم قال تعالى مخاطباً للمشركين:

﴿١٦١﴾-﴿١٧٠﴾ ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ * وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ * وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: فإنكم أيها الكفار، وكل ما تعبدونه من الأصنام

والشياطين لستم بقادرين على أن تضلوا أحداً من عباد الله، إلا من قضى الله عليه الشقاوة، وقدر أنه يدخل النار ويصلاها. ثم ذكر تعالى اعتراف الملائكة بالعبودية لله، فقال:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ أي: وما منا ملك إلا له مرتبة ومنزلة ووظيفة لا يتعداها، فمنا الموكل بالأرزاق، ومنا الموكل بالآجال، ومنا من يتنزل بالوحي، ولكل منزلته من العبادة، والتقريب، والتشريف، وهذا فيه بيان براءة الملائكة -عليهم السلام- عمّا قاله فيهم المشركون.

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ أي: الواقفون في العبادة صفوفاً.

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ أي: المنزهون الله سبحانه عن كل ما لا يليق بعظمته وكبريائه، نسبح الله في كل وقت وحين، وفي هذا الكلام الذي قالته الملائكة ردٌّ على من قال إنهم بنات الله، وشركاء الله؛ لأنهم اعترفوا على أنفسهم بالعبودية والطاعة لله، والتنزيه له -جل وعلا-.

﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ أي: وإن كان الحال والشأن أن كفار مكة كانوا - قبل أن ينزل عليهم القرآن، يقولون لو نزل علينا كتاب من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل لكنا أعظم إيماناً منهم، وأكثر عبادة وإخلاصاً لله منهم، فلما جاءهم القرآن كفروا به، ولهذا قال:

﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: فكفروا وكذبوا بالقرآن أشرف الكتب السماوية.

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: فسوف يرون عاقبة كفرهم بآيات الله، وهو وعيد وتهديد على كفرهم بربهم ﷻ، وتكذيبهم رسوله ﷺ.

* وختمت السورة الكريمة ببيان نصرة الله لأنبيائه وأوليائه في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين. فقال تعالى:

﴿١٧١﴾-﴿١٧٩﴾ ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ * وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ * وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ * وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي: سبق وعدنا وقضاؤنا للرسل الكرام.

﴿إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ إنهم هم المنصورون على أعدائهم، بالحجة والقوة.

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ وإن جندنا المؤمنين المجاهدين في سبيلنا لهم الغالبون في الدنيا والآخرة؛ في الدنيا بالحجة والبرهان، وفي الآخرة بدخول الجنان. قال المفسرون: نصر الله للمؤمنين محقق، ولا يقدح في ذلك انهزامهم في بعض المعارك، فإن القاعدة هي بالظفر والنصرة، وإنما يغلبون في بعض الأحيان بسبب تقصير منهم، أو ابتلاءً ومحنة، والعبرة للغالب.

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿١٧٤﴾ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ أي: اصبر -يا محمد- على أذاهم لك، وأعرض عمن عاندوا، ولم يقبلوا الحق، إلى مدة يسيرة، إلى أن تؤمر بقتالهم، وأنظرهم وارتقب حين ينزل بهم العذاب والنكال، فسوف يرون عاقبة كفرهم.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ استفهام إنكاري للتهديد، أي: أيستعجلون بعذاب الله؟ روي أنه لما نزل ﴿فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ استهزؤوا، وقالوا: متى هذا يكون؟ فنزلت الآية، ثم قال تعالى:

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ أي: لا يستبعدوا ذلك فإن العذاب إذا نزل بفناء المكذبين، فبئس هذا الصباح صباحهم، شبهه بجيش هجم عليهم وقت الصباح فقطع دابرهم.

﴿وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿١٧٨﴾ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ كرره تأكيد للتهديد، وتسلية للرسول ﷺ، وتأكيداً لوقوع الميعاد.

* ثم نزّه تعالى نفسه عما وصفه به الكفار مما لا يليق به سبحانه، فإنه حكى عنهم في هذه السورة أقوالاً كثيرة شنيعة، وختم بتعميم السلام على الرسل الكرام، وبحمده سبحانه، وهو تعليم للعباد.

﴿١٨٠﴾-﴿١٨٢﴾ ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ * وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تنزه وتقدس ذو العزة والجبروت عما يصفه به المشركون، من الولد والصاحبة والشريك.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وسلام منا على الرسل الكرام لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسموات. وعمَّ الرسل بعد ما خص البعض في السورة، والحمد في البدء والختام لله؛ رب الخلائق أجمعين.

تم تفسير سورة الصافات
والحمد لله

تفسير سورة ص
وهي مكية

* سورة «ص» سورة مكية، تعالج قضية التوحيد، والوحي المنزل إلى محمد ﷺ، وأمر الآخرة، والجزاء والحساب.

تسمى السورة الكريمة «سورة ص» وهو حرف من حروف الهجاء للإشادة بالكتاب المعجز، الذي تحدى الله به الأولين والآخرين، وهو المنظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية.

وقد ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن المعجز المنزل على النبي الأمي، المشتمل على المواعظ البليغة، والأخبار العجيبة، على أن القرآن حق، وأن محمد نبي مرسل. واشتملت على خصومات متعددة: فأولها: خصومة الكفار مع النبي ﷺ وقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصم الملأ الأعلى في العلم، ثم مخاصمة إبليس. قال تعالى:

(١)-(٣) ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

﴿صٓ﴾ تقدم الكلام على الحروف الهجائية، وبينا أن فيها الإشارة إلى إعجاز القران.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قسم، أقسم به الباري -جل وعلا-، والقرآن ذي الشرف الرفيع، وذي الشأن والمكانة، وجواب القسم محذوف تقديره: إن هذه القرآن لمعجز، وإن محمداً لصادق.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ بل الكافرون في حمية وتكبر عن الإيمان به، واستكباراً وشقاقاً له، وفي خلاف وعداوة للرسول ﷺ، أي: وما كفروا بالقرآن لخلل وجدوه فيه.

والتعبير بـ ﴿فِى﴾ في قوله ﴿فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ للإشعار بأن ما هم عليه من عناد ومن مخالفته للحق، قد أحاط بهم من كل جوانبهم، كما يحيط الظرف بالمظروف.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ كم أهلكنا قبل أهل مكة من أمم كثيرة من القرون الخالية، لكبرهم عن الحق ومعاداتهم لرسلهم، والآية وعيد لأهل مكة على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب من قبلهم من المستكبرين.

﴿فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ فاستغاثوا واستجاروا عند نزول العذاب طلباً للنجاة، وليس حين نزوله فرار ومهرب ونجاة مما أصابهم، وليس الوقت وقت قبول توبة.

* ثم تحدثت الآيات عن الوحدانية وإنكار المشركين لها، ومبالغتهم في العجب من دعوة الرسل ﷺ لهم إلى توحيد الله وأفراده بالعبادة، قال تعالى:

(٤)-(١١) ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ * وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ * أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ * أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ * جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾.

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ وعجب هؤلاء المشركون في أمر ليس محل عجب، أن جاءهم رسول منهم وهو محمد ﷺ، ليتمكنوا من التلقي عنه، وليعرفوه حق المعرفة؛ ولأنه من قومهم، فلا تأخذهم النخوة القبلية عن اتباعه، فهذا مما يوجب الشكر عليهم، وتمام الانقياد له. ولكنهم عكسوا القضية، فتعجبوا تعجب إنكار.

﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ وقال كفار مكة: إن محمداً ساحرٌ فيما يأتي به من المعجزات، مبالغ في الكذب ودعوى أنه رسول الله، ولم

يقل: وقالـــوا، إظهاراً للغضب عليهم وذماً لهم، ودلالة على أن هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المنهمكون في الغي، إذا لا كفر أبلغ من أن يسموا من صدقه الله كاذباً ساحراً، ويتعجبوا من التوحيد وهو الحق الأبلج.

﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: أزعم - محمد - أن الرب المعبود واحد لا إلـــه إلا هو؟ كيف ينهـــى عن اتخاذ الـــشركاء والأنـــداد، ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده، وكيف يســـع الخلق كلهم إله واحد.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ إن هذا الذي يقوله محمـــد - أن الإله واحد - شيء بليغ في العجب، لبطلانه وفساده.

قال المفـــسرون: إن قريشـــاً اجتمعوا وقالـــوا لأبي طالب: كـــف ابن أخيك عنـــا، فإنه يعيـــب ديننا، ويـــذم آلهتنا، ويســـفه أحلامنـــا، فدعاه أبـــو طالب وكلمة في ذلك، فقال ﷺ: «يا عم، إنما أريد منهم كلمة واحدة، يملكون بها العجم، وتدين لهم بها العرب»، فقال أبو جهل والمشركـــون: نعم نعطيكها وعـــشر كلمات معها، فقـــال: «قولوا: لا إلـــه إلا الله» فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ فنزلت الآيات.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي: وانطلق أشراف قريش ورؤســـاء الضـــلال فيهم، وخرجـــوا من عند الرســـول ﷺ يحرضون قومهم، ويقـــول بعضهم لبعض: ســـيروا واصبروا عـــلى عبادة آلهتكم، وتمســـكوا بما أنتم عليه مـــن الـــشرك، ولا تطيعوا محمداً فيما يدعوكم إليه من عبادة الله الواحد الأحد.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: هذا أمرٌ مدبّر، له قصد ونية، يريـــد محمد من ورائه أن يصرفكم عن دين آبائكم لتكـــون له العزة والســـيادة عليكم، فاحذروا أن تطيعوه ثم عللوا توليهم ذلك.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: ما ســـمعنا بمثل هذا القول في دين آبائنـــا من قريش، ولا في ملـــة النصرانيـــة التـــي هـــي آخـــر الملل، فإنهـــم يقولـــون بالتثليث لا بالتوحيد، فكيف يزعم محمـــد أن الله واحد؟

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي: ما هـــذا الذي يدعيه محمـــد إلا كذب وافـــتراء. ثم أنكـــروا اختصاصه ﷺ بالوحي من بينهم، فقالوا:

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ الاســـتفهام للإنـــكار، أي: هل تنزل القرآن على محمد دوننا، مع أن فينا من هو أكثر منه مالاً، وأعلى رياسة، وأكبر ســـنّاً؟ أنكروا أن يختص ﷺ بالشرف من بين أشرافهم ورؤســـائهم، وهذا الإنكار هو ما كانت تغلي به صدورهم من الحســـد على ما أوتي ﷺ من شرف النبوة من بينهم.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ إضراب عن مقـــدر تقديره: إنكارهم للقرآن ليس عن علم، بل هم في شك، فلذلك كفـــروا، وتوعدهـــم الله على كذبهم وكفرهم.

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي: سبب شـــكهم أنهم لم يذوقوا العذاب إلى الآن، ولـــو ذاقوه لأيقنـــوا بالقرآن وآمنوا به، وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ هذا ردّ على المشركـــين فيما أنكروا من اختصاص محمد ﷺ بالنبوة، والمعنى: هل عندهم خزائـــن رحمته تعالى حتى يعطوا النبوة من شاؤوا، ويمنعوها من شـــاؤوا؟ فالنبوة عطية من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده، فإنه:

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ أي: الغالب الـــذي لا يغلـــب، الذي لـــه أن يهب ما يشـــاء من فضله ورزقه، لمن يشـــاء في خلقه.

الجُزْءُ الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ — سُورَةُ صٓ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾
كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟
أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾
أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ
مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾
مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ
عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ
﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ
مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ
لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ
فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا
مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾

٤٥٣

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: أم هؤلاء المشركين شيء من ملك السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات؟ بحيث يكونون قادرين على ما يريدون، ويتكلمون في الأمور الربانية، والتدابير الإلهية، وهو إنكار وتوبيخ.

﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي: إن كان لهم شيء من ذلك وإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق، والتصرف في قسمة الرحمة، وكان عندهم من الحكمة ما يميزون بها بين من هو حقيق بالنبوة من غيره، فليصعدوا في المعارج والمراقي التي يتوصلون بها إلى السماء، حتى يدبروا أمر الكون، وينزلوا الوحي على من يختارون، وهو غاية التهكم بهم.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ التنكير للتقليل والتحقير، و(مَا) لتأكيد القلة، أي: ما هم إلا جند من الكفار، المتحزبين على رسل الله، هم عما قليل يُهزمون ويولون الأدبار، فلا تبال بما يقولون، ولا تكترث بما يهذون.

* ولما ذكر سبحانه أحوال الكفار المعاصرين لرسول الله ﷺ، ذكر أمثالهم ممن تقدمهم وعمل عملهم من الكفر والتكذيب، وضرب الأمثال لكفار مكة بمن سبقهم من الطغاة المتجبرين، الذين أسرفوا بالتكذيب والضلال، وما حل بهم من العذاب والنكال، بسبب إفسادهم وإجرامهم، محذراً أن يفعل بهم ما فعل بالأمم من قبلهم، الذين كانوا أعظم قوة منهم وتحزباً على الباطل، وفي هذا أيضاً تعزية وتسلية للنبي ﷺ فقد ذكر آثار رحمته بالرسل قبله، وما أغدق عليهم وأفاض من نعمه وفضله، وما آتاهم من ملك وسلطان ومن رعاية وإنعام. وذلك رداً على عجب قومه من اختيار الله له، وما هو ببدع من الرسل، قال تعالى:

﴿١٢-١٦﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ * وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ * وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي: كذب قبل كفار قريش أمم كثيرون منهم قوم نوح، وقوم هود وهم قبيلة «عاد»، وفرعون الجبار ذو الملك الثابت بالأوتاد و ذو الجموع الكثيرة. قال المفسرون: سمي بذي الأوتاد؛ لأنه كان يوتد من يريد تعذيبه بأربعة أوتاد في يديه ورجليه ويتركه حتى يموت، وقيل: لأنه صاحب الإهرامات والمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض كالأوتاد.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ أي: وكذبت ثمود وهم قوم صالح، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، أي: الشجر الكثير الملتف، وهم قوم شعيب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أولئك الأمم الذين تحزبوا على الكفر والتكذيب، واجتمعوا عليه، وعلى الاستهزاء، وعدم الاستجابة لرسلهم، فأهلكهم الله، مع أنهم أكثر منكم أموالاً وأولاداً وأشدة قوة يا كفار مكة فاحذروا أيها المكذبون لرسول الله، أن يصيبكم ما أصاب أسلافكم.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: ما كل من هؤلاء الأحزاب والأمم إلا كذب رسوله الذي أرسل إليه فاستحقوا عذاب الله، وحل بهم عقابه.

﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: فثبت ووجب عليهم عقابي، وهؤلاء ما الذي يطهرهم ويزكيهم، أن لا يصيبهم ما أصاب أولئك.

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: وما ينتظر هؤلاء المشركون كفار مكة إلا نفخة واحدة، ينفخ فيها إسرافيل في الصور فيصعقون.

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد، ليس لها من توقف ولا تكرار، وما لها من رجوع. قال المفسرون: أي إن هذه الصيحة إذا جاءت لا تستأخر ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة وهي المسافة بين الحلبتين لأنها تجيء في موعدها المحدد، الذي لا يتقدم ولا يتأخر.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: وقال هؤلاء المكذبون من مكة على سبيل الاستهزاء والسخرية، ومن جهلهم ومعاندتهم الحق، مستعجلين للعذاب: عجل لنا يا ربنا نصيبنا من العذاب الذي وعدته لنا، قبل أن يجيء يوم القيامة إن كان

الأمر كما يقول محمد، فعلامة صدقك أن تأتينا بالعذاب.

* ثم تناولت الآيات قصص بعض الرسل الكرام، تسلية للنبي ﷺ، عما يلقاه من كفار مكة من الاستهزاء والتكذيب، وتخفيفاً لآلامه وأحزانه، فذكرت قصة نبي الله داود، وولده سليمان، الذي جمع الله له بين النبوة والملك، وما نال كلاً منهما من الفتنة والابتلاء، ثم أعقبتها بذكر فتنة أيوب، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، وذا الكفل، هكذا في عرض سريع لبيان سنة الله، في ابتلاء أنبيائه وأصفيائه، فقال لرسوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر:

﴿١٧﴾-﴿٢٠﴾ ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾.

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: اصبر -يا محمد- على تكذيبهم وأقوالهم الباطلة، كما صبر من قبلك من الرسل، فإن الله ناصرك عليهم، وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد للكفار، ولما أمر الله رسوله بالصبر على قومه، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده، ويتذكر حال العابدين، ومن أعظم العابدين، نبي الله داود عليه السلام.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ أي: وتذكر عبدنا داود ذلك النبي الشاكر الصابر، ذا القوة في الدين والعلم، والقوة في البدن والقلب، فقد كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان يقوم نصف الليل، وفي الصحيحين عن رسول ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً، ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى، وأنه كان أواباً...». ثم ذكر الله صفة من صفات نبيه داود، فقال عنه:

﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: كثير الرجوع والإنابة إلى الله، والأَوَّابُ: الرجاع إلى الله، في جميع الأمور بالإنابة إليه، والحب والتأله، والخوف والرجاء، وكثرة التضرع والدعاء. ولا يكون أواباً إلا من كان قويّاً في دينه خائفاً من ربه. والعبد إذا رزقه الله نعمة فاستعملها في طاعة الله بارك الله له فيها وزاده من خيرها، فداود عليه السلام لما استعمل قوته في إعزاز الدين وكثرة العبادة والطاعة ألان الله ﷻ له الحديد. ولما كانت مقالة المشركين تقتضي الاستخفاف بالدين، أمر تعالى نبيه بالصبر على أذاهم، وذكر قصصاً للأنبياء «داود، وسليمان، وأيوب»

الجزء الثالث والعشرون سورة ص

اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا
سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ
مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا
الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ
خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً
وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ
لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ
مَا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩
﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾
يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

٤٥٤

وغيرهم، وما عرض لهم فصبروا حتى فرج الله عنهم، وصارت عاقبتهم أحسن عاقبة، فكذلك أنت تصبر ويؤول أمر إلى أحسن مآل.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي: ومن شدة إنابته لربه وعبادته، أن سخرنا الجبال لداود تسبح معه في المساء والصباح، وتسبيح الجبال معجزة لداود عليه السلام كما قال تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ أي: وسخرنا له الطير مجموعة إليه تسبح معه، كل من الجبال والطير، فهو رجاع إلى طاعته تعالى بالتسبيح والتقديس، وكانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجيعه، إذا مرَّ به

الطير وهو سابح في الهواء فسمعه يترنم بقراءة الزبور يقف في الهواء ويسبح معه، وكذلك الجبال الشامخات كانت ترجع معه وتسبح تبعاً له. قال قتادة: ﴿أَوَّابٌ﴾ أي مطيع وهذه منة الله عليه بالعبادة، ثم ذكر منته عليه بالملك العظيم.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ وجعلنا له ملكاً كاملاً، وقوينا ملكه وثبتناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود، ثم ذكر منته عليه بالعلم، فقال:

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ وأعطيناه النبوة والعلم العظيم، والفهم والإصابة في الأمور.

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ أي: الكلام البين الذي يفهمه من يخاطب به، وقيل: يعني إصابة القضاء وفهمه. قال المفسرون: كان ملك داود قوياً عزيزاً، وكان يسوسه بالحكمة والحزم معاً، ويقطع ويجزم برأي لا تردد فيه مع الحكمة والقوة، وذلك غاية الكمال في الحكم والسلطان.

* ولما ذكر تعالى أنه آتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفاً بذلك مقصوداً، ذكر نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلها الله فتنة لداود، قال تعالى:

﴿٢١﴾-﴿٢٥﴾ ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ * إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ * فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ هذا الاستفهام للتعجيب وتشويق السامع إلى ما يُلقى إليه، والمعنى: هل أتاك -يا محمد- خبر الجماعة المتنازعين، الذين تسوروا على داود محل عبادته في وقت اشتغاله بالعبادة والطاعة؟ فإنه نبأ عجيب.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ أي: حين دخلوا عليه من أعلى السور فخاف وارتعد منهم، وإنما فزع داود منهم؛ لأنهم دخلوا عليه بغير إذن، ودخلوا من غير الباب، وفي وقت اتخذه وجعله للعبادة.

﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: لا تخف منا، فنحن فوجان مختصمان تعدى بعضنا على بعض بالظلم.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ فاقض بيننا بالعدل، ولا تجر، ولا تمل مع أحدنا، ولا تظلم في الحكم.

﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ وأرشدنا إلى وسط الطريق، يعني إلى الطريق الحق الواضح.

﴿إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى﴾ هذه بداية قصة الخصمين، نص على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة، لاقتضائها عدم البغي، وأن بغيه الصادر منه أعظم من غيره.

﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ قال أحدهما: إن هذا أخي، أي: صاحبي هذا يملك تسعة وتسعين نعجة -وهي أنثى الضأن- وذلك خير كثير، يوجب عليه القناعة بما آتاه الله، وأملك أنا نعجة واحدة، فطمع فيها. قال المفسرون: وقد يكنى بها عن المرأة فيكون الغرض أن عنده تسعاً وتسعين امرأة وعندي امرأة واحدة.

﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: دعها لي، واجعلها تحت كفالتي.

﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي: غلبني في الخصومة، وشدد عليَّ في القول، وأغلظ فلم يزل بي حتى أدركها أو كاد.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ أي: قال له داود لقد ظلمك بهذا الطلب، حين أراد انتزاع نعجتك منك ليكمل ما عنده إلى مائة، وهذه عادة الخلطاء، والقرناء الكثير منهم، فقال:

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: وإن الكثيرين من الشركاء والأصحاب ليتعدى بعضهم على بعض ويظلمه غير مراع لحقه؛ لأن الظلم من صفة النفوس.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: إلا المؤمنين الذين يعملون الصالحات فإنهم لا يبغون وهم قليل؛ لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح، يمنعهم من الظلم.

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي: علم وأيقن، أنما اختبرناه بهذه الحادثة، وتلك الخصومة.

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي: طلب المغفرة من الله لزلته وخرَّ ساجداً لله تعالى، ورجع إليه بالتوبة والندم على ما فرط منه، وقد ذكر المفسرون في القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء، والذي يدل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس، دخلوا عليه من غير المدخل وفي غير وقت جلوسه للحكم، وأنه فزع منهم ظناً منه أنهم يغتالونه إذ كان منفرداً في محرابه لعبادة ربه، فلما اتضح له أنهم جاؤوا في خصومة، وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قص الله تعالى، فاستغفر من ذلك الظن، وخرَّ ساجداً لله ﷻ، ثم قال تعالى:

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أي: فسامحناه وعفونا عنه ذلك الظن السيء بالرجلين وإن له لقربة، وكرامة بعد المغفرة.

﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وحسن مرجع في الآخرة، وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قص الله علينا من لطفه به، وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها.

* ثم ذكر سبحانه وصية عظيمة لداود عليه السلام ولمن أتى بعده من ولاة الأمر، أن يحكموا بالحق المنزل من الله - تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله، قال تعالى:

(٢٦) ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: استخلفناك على الناس لتدبير شؤونهم ومصالحهم.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ فاحكم بينهم بالعدل، وبشريعة الله التي أنزلها عليك.

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تتبع هوى النفس في الخصومات وغيرها، فيضلك اتباع الهوى عن دين الله القويم، وشرعه المستقيم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ إن الذين ينحرفون عن دين الله وشرعه، لهم عذاب شديد يوم القيامة، وفي هذا تهديد ووعيد.

﴿بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: بسبب نسيانهم وتركهم سلوك سبيل الله، وعدم إيمانهم بيوم الحساب؛ لأنهم لو آمنوا به لأعدوا الزاد ليوم المعاد. قال المفسرون: وجعله تعالى داود خليفة في الأرض يدل على مكانته عليه السلام واصطفائه له، ويدفع في صدر من نسب إليه شيئاً مما لا يليق بمنصب النبوة.

* ولما ذكر تعالى إنكار المشركين للقرآن والرسالة والحشر والنشر، وأعقبها بذكر قصة داود تسلية للنبي ﷺ، ذكر هنا بعض البراهين على البعث والنشور، وأشارت الآيات إلى دلائل القدرة والوحدانية، في هذا الكون المنظور وما فيه من بدائع الصنعة، للتنبيه على أن هذا الكون لم يخلق عبثاً، وأنه لا بد من دار ثانية يجازى فيها المحسن والمسيء، ثم بين الحكمة من نزول القرآن، قال تعالى:

(٢٧)-(٢٩) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ * كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ أي: ما خلقنا هذا الكون البديع بما فيه من المخلوقات العجيبة عبثاً وسدى وأنه ما خلق الخلق إلا لعبادته وتوحيده، ثم يجمع العباد يوم القيامة، فيثيب المطيع، ويعذب الكافر، ولهذا قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: خلق ما ذكر لا لحكمه، هو ظن الكفار

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ
﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ
﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ
حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ
فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ
وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ
لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ
كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا
عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ
مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ
بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

٤٥٥

الفجار، الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فويل للكفار من عذاب النار، لظنهم الباطل، وكفرهم بالله. ثم وبخهم تعالى على هذا الظن السيء، فقال:

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هل نجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين؟

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أم نجعل الأخيار الأبرار، كالأشرار الفجار؟ والغرض: أنه لا يتساوى في حكمته تعالى المحسن مع المسيء، ولا البرُّ مع الفاجر، ففي الآية استدلال على الحشر والجزاء، وفيها أيضاً وعدٌ ووعيد. وقد بيّن تعالى أنه ليس من عدله وحكمته أن يساوي بين المؤمنين والكافرين، وإذا كان الأمر كذلك فلا بدَّ من جزاء ودار يثاب فيها المطيع، ويعاقب فيها الفاجر، وقد دلت العقول السليمة على أنه لا بدَّ من جزاء ومعاد، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت دون عقاب، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بد في حكمة الحكيم العليم إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة وهي الدار الآخرة.

ثم بين تعالى الغاية من نزول القرآن وهي العمل والتفكر، فقال:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ أي: هذا الكتاب الموحى إليك -يا محمد- كتاب عظيم جليل، وذكر له صفة أخرى أنه كثير الخيرات والمنافع الدينية والدنيوية.

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: أنزلناه ليتدبروا آياته، ويتفكروا بما فيها من الأسرار العجيبة، والحكم الجليلة.

القرآن نور ولا يشاهد ذلك إلا من جمع بين أمرين؛ التدبر والتذكر، وقد جعل التذكر بعد التدبر؛ لأنه لا يمكن أن يتعظ الإنسان بالشيء إلا إذا عرف معناه.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وليتعظ بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة. قال الحسن البصري: والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً، وقد أسقطه والله كله، ما يُرى للقرآن عليه أثر في خُلق ولا عمل.

* ثم يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان، أي؛ نبياً وإلا قد كان له بنون غيره، قال تعالى:

﴿٣٠﴾-﴿٣٣﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ شروع في بيان قصة سليمان بن داود - عليهما السلام، أي: رزقنا عبدنا داود بالولد الصالح المسمى سليمان وأعطيناه النبوة. قال المفسرون: المراد بالهبة هنا هبة النبوة، وإلا فقد كان له أولاد كثيرون غيره.

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: وأقررنا به عينه، وعلل كونه ممدوحاً بكونه أواباً، نعم العبد سليمان فإنه كان كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ أي: اذكر حين عرض على سليمان عشية يوم من الأيام - بعد العصر - الخيل الواقفة على طرف الحافر، السريعة الجري. وقد وصفت تلك الخيل بوصفين: الأول: الصفون وهو صفة دالة على فضيلة الفرس، الثاني: الجياد وهي الشديدة

الجري، والمراد وصفها بالفضيلة والكمال في حالتي الوقوف والحركة، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً في جريها.

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ أي: آثرت حبَّ الخيل حتى شغلتني عن ذكر الله. قال المفسرون: عرضت عليه آلاف من الخيل تركها له أبوه، فأجريت بين يديه عشياً فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها عن ذكر له خاص.

وسميت الخيل خيراً؛ لأنه معقود بنواصيها الخير؛ الأجر والمغنم.

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ أي: حتى غابت الشمس واختفت عن الأنظار وفاته وقت ذكره المخصص، عندها قال:

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ﴾ أي: قال سليمان ردُّوا هذه الخيل عليّ.

﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أي: فشرع يذبحها ويقطع أرجلها، تقرباً إلى الله، لتكون طعاماً للفقراء لأنها شغلته عن ذكر الله.

* ثم ذكر تعالى ما جرى لعبده ونبيه سليمان، وما منَّ الله عليه به من النعم، فقال:

(٣٤)-(٤٠) ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ * فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ * هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ * وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾.

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ﴾ هذه إشارة إلى ابتلاء آخر ابتلي به سليمان، ثم تاب وأناب من تلك الهفوة والزلة، ولعلَّ هذه الفتنة ما روي في الصحيح، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله - ولم يقل: إن شاء الله - فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة، جاء بشق رجل، والذي نفسي بيده: لو قال إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون».

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ أي: تاب وعاد، ودعا ربه بقوله: اغفر لي ما صدر مني، وأعطني ملكاً واسعاً لا يكون لأحد غيري، ليكون دلالة على نبوتي، وقدم الاستغفار على استيهاب الملك؛ جرياً على عادة الأنبياء - عليهم السلام - والصالحين في تقديم الاستغفار على السؤال.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ أي: واسع الفضل، واسع كثير الجود جزيل العطاء.

﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ فاستجاب الله لدعوته، فذلل الريح لطاعته إجابة لدعوته، ثم بين كيفية التسخير لها.

﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾ أي: تسير بأمره، لينة طيبة مع قوتها وشدتها حيث قصد وأراد.

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾ أي: وسخرنا له الشياطين كذلك تعمل بأمره، منهم من يستخدمه لبناء الأبنية الهائلة العجيبة، ومنهم من يغوص في البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان.

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ أي: وآخرين من الشياطين - وهم المردة - موثوقون في الأغلال، مربوطون بالقيود والسلاسل لكفرهم وتمردهم عن طاعة سليمان. والصفد: القيد.

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ وقلنا له: هذا عطاؤنا الواسع لك، من الملك والمال والبسطة، فأعط وأمنن وأحسن إلى من شئت، وامنع من شئت، لا حساب عليك في ذلك؛ لأنك مطلق اليد فيما وهب الله لك من سلطة، ومن نعمة.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ وإن له عندنا لمكانة رفيعة في الدنيا، وحسن مرجع في الآخرة.

* ثم ذكر سبحانه قصة عبده أيوب، وهي القصة الثالثة في هذه السورة، وما فيها من ابتلاء له حيث أصابه الضر في جسده، وماله وولده، قال تعالى:

(٤١)-(٤٤) ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ * ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ * وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ * وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾.

الجزء الثالث والعشرون سورة ص

وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ
﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ
ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي
ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾
وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ
وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ
لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ
فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ
ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا
لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ
﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ
وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ
مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ
بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾
قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾

٤٥٦

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ الإضافة للتشريف، أي: اذكر -يا محمد- عبدنا الصالح أيوب عليه السلام، بأحسن الذكر، واثن عليه بأحسن الثناء، حين أصابه الضر، فصبر على ضره، فلم يشتك لغير ربه ولا لجأ إلا إليه.

﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ أي: حين نادى ربه متضرعاً إليه، قائلاً: إني مسني الشيطان بتعب ومشقة، وألم شديد في بدني، وكان أن سلط على جسده فنفخ فيه حتى تقرح، ثم تقيح بعد ذلك واشتد به الأمر، وكذلك هلك أهله وماله. قال المفسرون: وأما نسب ذلك إلى الشيطان فهو تأدباً مع الله تعالى وإن كانت الأشياء كلها خيرها وشرها من الله تعالى، وكان أيوب قد أصيب في ماله وأهله وبدنه، وبقي في البلاء ثماني عشرة سنة. وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل، فاستجاب ربه لدعائه وأمره:

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ أي: وقلنا له أضرب برجلك الأرض، فضربها فنبعت له عين ماء صافية.

﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ أي: وقلنا له هذا ماء تغسل به، وشراب تشرب منه، فاغتسل منها فذهب ما كان بظاهر جسده، وشرب منها فذهب كل مرض كان داخل جسده، والجمهور على أنه نبعت له عينان، شرب من إحداهما، واغتسل من الأخرى، فشفي بإذن الله.

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ أي: أحيا الله من مات من أهله، وعافى المرضى، وجمع عليه من شتت منهم. قال المفسرون: الأقرب أن الله تعالى متعة بصحته وبماله وقواه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك.

﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ أي: رحمة منا بعبدنا أيوب، لصبره وإخلاصه، فأثبناه من رحمتنا ثواباً عاجلاً وآجلاً.

﴿وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: وعبرة لذوي العقول المستنيرة، ليعلموا أن عاقبة الصبر: الفرج والمخرج، وكشف الضر.

﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ وقلنا له خذ بيدك حزمة من القضبان الرفيعة - شماريخ، فاضرب بها زوجتك لتبر بيمينك ولا تحنث. قال المفسرون: كان أيوب قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط إذا برئ من مرضه، وسبب ذلك أنها كانت تخدمه في حالة مرضه، فلما اشتد به البلاء، وطالت به المدة، وسوس إليها الشيطان: إلى متى تصبرين؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر، فقالت له: إلى متى هذا البلاء؟ فغضب من هذا الكلام وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط، فأمره الله أن يأخذ حزمة من قضبان خفيفة فيها مائة عود، ويضربها بها ضربة واحدة ويبرَّ في يمينه، رحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته، وصبرت على بلائه، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه، ولهذا قال:

﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ﴾ أي: ابتليناه، فوجدناه صابراً على الضراء.

﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ أي: نعم العبد أيوب الذي كمل مراتب العبودية في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء، وكان كثير الرجوع إلى الله بالتوبة، والإنابة والعبادة.

والله يمن على العبد بأكثر مما فقد إذا صبر واحتسب فهذا أيوب -عليه السلام- أهله ومثلهم معهم لما صبر واحتسب.

* ثم ذكر سبحانه مخبراً عن فضائل عباده المرسلين، وأنبيائه العابدين، فقال:

﴿٤٥﴾-﴿٤٨﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ * إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ

﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ * وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: اذكر -يا محمد- هؤلاء الأنبياء الأخيار إبراهيم الخليل وابنه اسحاق، وابن ابنه يعقوب وتأسَّ بهم، الذين جمعوا بين القوة في العبادة، والبصائر في الدين، أي: العمل الصالح والعلم النافع.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ أي: إنا خصصناهم بخصلة خالصة عظيمة الشأن، هي عدم التفاتهم إلى الدنيا وتذكرهم للدار الباقية، فعملوا لها بطاعتنا، ودعوا الناس إليها وذكروهم بها.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي: وهم عندنا المختارون المجتبون على سائر الناس لأنهم أخيار أبرار لهم كل خلق كريم، وعمل مستقيم.

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ واذكر -يا محمد- هؤلاء الرسل أيضاً: إسماعيل، واليسع، وذا الكفل، بأحسن الذكر وأثن عليهم أحسن الثناء، فإن كلاً منهم من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق، فاقتد بهم في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله.

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي: هذا الذي قصصناه عليك -يا محمد- من سيرة الرسل الكرام، ذكر جميل لهم في الدنيا، وهذا نوع من أنواع الذكر وهو ذكر أهل الخير، وشرف يذكرون به أبداً.

* ثم ذكرت الآيات مكان ومنزلة المتقين وحالهم ومآلهم، وما يتنعمون به في الجنة، قال تعالى:

﴿٤٩﴾-﴿٥٤﴾ ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ * جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ * مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ * إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: وإن لكل متق لله، مطيع لرسله، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، من كل مؤمن ومؤمنة، لحسن مرجع ومنقلب، فسره وفصله، بقوله:

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ أي: جنات إقامة في دار الخلد والنعيم، قد فتحت لهم أبوابها انتظاراً لقدومهم. قال المفسرون: إن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا المؤمنين فتحوا لهم أبوابها، وهذا دليل على الأمان التام، وأنه ليس في جنان عدن، ما يوجب أن تغلق لأجله أبوابها وحيوهم بالسلام، فيدخلون كذلك محفوفين بالملائكة على أعز حال، وأجمل هيئة.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ قال ابن القيم: «تأملها، تجد تحتها معنى بديعاً؛ فهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها، بعكس أبواب النار فهي موصدة على أهلها. وقال رحمه الله: «أشار إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب». قال القرطبي: «إنما قال: ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ ولم يقل: (مفتوحة)؛ لأنها تفتح لهم بالأمر لا باللمس».

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي: متكئين متربعين في الجنة على الأرائك، وهي السرر الوثيرة والمجالس المزخرفات. والاتكاء: من علامات الراحة والأمان.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ أي: وهم متكئون على الأسرة يطلبون أنواع الفواكه، وألوان الشراب كعادة الملوك في الدنيا، ومهما طلبوا وجدوا، ومن أي أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدام. والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ، دون التغذي، لأنه لا جوع في الجنة.

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ وعندهم الحور العين، اللواتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن. وأتراب: أي في سن واحدة أعدل سن الشباب وأحسنه وألذه.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة، جزاؤكم أيها المتقون الذي وعدتم به في الدنيا، جزاءً على أعمالكم الصالحة.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي: هذا النعيم الذي أوردناه على دار النعيم، عطاؤنا لأهل الجنة، لا زوال له، ولا انقطاع، ولا انتهاء أبداً.

* ولما ذكر تعالى مآل السعداء المتقين، ثنى بذكر حال الأشقياء المجرمين، ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم، وحسابهم، قال تعالى:

﴿٥٥﴾-﴿٦٤﴾ ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ * هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ *

وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ
سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ
ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٦٥﴾
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ
عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ
إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذۡ قَالَ
رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ
فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ
أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ
يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ
مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ
﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ
﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾

٤٥٧

قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ * قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ * وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ * أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ * إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾.

﴿هَٰذَا﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر هذا، وهي بمنزلة أما بعد، ثم قال:

﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ وإن للكافرين الذين كذبوا الرسل، لشر منقلب ومرجع يصيرون إليه في الآخرة، ثم فسر هذا المصير بقوله:

﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ أي: جهنم التي جمع فيها كل عذاب، يذوقونها، ويصلون سعيرها، وبئست جهنم فراشاً ومعاداً لهم، وبئس ما مهدوا لأنفسهم. لما تم ذكر أهل الجنة بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ ابتدأ بذكر وصف أهل النار، وعنى بالطاغين الكفار.

﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾ أي: هذا هو العذاب الأليم فليذوقوه وهو الحميم، أي: الماء الحار المحرق، والغساق هو ما يسيل من صديد أهل النار، وقيل هو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم.

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾ أي: وعذاب آخر من مثل هذا العذاب المذكور، كالزمهرير، والسموم، وأكل الزقوم، لهم منه أنواع وأصناف.

ثم حكى ما يقال للرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار، فقال:

﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡ﴾ أي: تقول لهم خزنة جهنم: هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، ودخلوها بصحبتكم، كما اقتحموا معكم في الجهل والضلال، لا أهلاً ولا مرحباً لهم.

﴿إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ أي: إنهم ذائقو النار، وداخلوها كما دخلتموها أنتم. والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها، وهذا من كلام خزنة جهنم لرؤساء الكفرة عن أتباعهم، والعرب تقول لمن يدعون له: مرحباً، أي: أتيت رحباً في البلاد لا ضيقاً، ثم يدخلون عليها كلمة «لا» في دعاء السوء.

﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡ﴾ أي: قال الأتباع للرؤساء الطغاة الذين أضلوهم. بل أنتم لا أهلا بكم ولامرحبا. قال المفسرون: عندما يدخل الأتباع جهنم تتلقاهم الرؤساء بقولهم: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡ﴾ أي لا تلقون هنا رحباً ولا خيراً - وهذا تحية أهل النار، فعند ذلك يقول لهم الداخلون: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡ﴾ فكذلك أهل النار يتلقون بعضهم باللعنات والشتائم، بدل التحايا والسلام. ثم يعلّل الأتباع ذلك بقول:

﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ أي: أنتم قدمتم لنا هذا العذاب وكنتم السبب في ضلالنا، فبئس المنزل والمستقر لنا ولكم نار جهنم. ثم دعوا على المغوين لهم:

﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ﴾ هذا أيضاً من كلام الأتباع، دعوا الله يضاعف العذاب لرؤسائهم الذين أوجبوا لهم العذاب، وزينوا لهم سبيل الغواية في الدنيا.

﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾ هذا إخبار عن الكفار في النار، أي: وقال الطغاة من رؤساء الكفر وأئمة الضلال: ما لنا لا نرى في النار هؤلاء الذين كنا نعدهم في الدنيا من الأشرار الأشقياء؟ يعنون بهم المؤمنين، يريدون أصحاب

محمد ﷺ. يقول أبو جهل: مالي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً؟ وهذا ضرب مثل وإلا فكل الكفار هذا حالهم، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخلها الكفار افتقدوهم فلم يجدوهم، ثم قالوا:

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: ويؤنبون أنفسهم قائلين: أجعلنا هؤلاء المؤمنين في الدنيا هزءاً وسخرية؟ أم هم معنا في النار ولكن لا نراهم؟ وهذا إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخار من المؤمنين، كأنهم قالوا: ليسوا ههنا في النار؟ أم مالت عنهم أبصارنا فلا نراهم؟ قال تعالى:

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ أي: إن هذا الذي أخبرناك به -يا محمد- من أقوال أهل النار وتخاصمهم، هو الحق الذي لا بد وأن يتكلموا به، فنحن نخبرك عن تخاصمهم في جهنم، وعن أقوالهم وهم فيها، وإنما سمى الله تعالى تلك الكلمات تخاصماً لأن قول الرؤساء ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ وقول الأتباع: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ من باب الخصومة.

* ثم شرعت الآيات في بيان مهمة الرسول ﷺ، وفي إثبات الوحدانية، والمعاد، والجزاء:

﴿٦٥﴾-﴿٧٠﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ * رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ * قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ أي: قل -يا محمد- هؤلاء المشركين: إنما أنا رسول من رب العالمين، أنذركم وأخوفكم من عذابه إن لم تؤمنوا، ولست بساحر ولا شاعر ولا كاهن، أما الأمر فلله تعالى يهدي من يشاء، ويضل من يشاء.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي: وليس لكم رب ولا معبود إلا الواحد الأحد، الغالب على خلقه، القاهر لكل شيء.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: مالك السموات والأرض وما بينهما سبحانه، خالق جميع ما في الكون من الخلائق والعجائب، والمتصرف فيها بالإيجاد والإعدام.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي: الغالب على أمره الذي لا يُغلب، المبالغ في المغفرة لمن شاء من العباد، قال المفسرون: لما ذكر أنه ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ وهذا مشعر بالترهيب والتخويف، أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب وذكر ثلاث صفات دالة على الرحمة، والفضل والكرم، وهي: الرب، العزيز، الغفار، فكونه رباً مشعر بالتربية والإحسان، وكونه عزيزاً مشعر بأنه قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء، وكونه غفاراً مشعر بالترغيب وأنه يرجى فضله وثوابه، فلو بقي الإنسان على الكفر سبعين سنة، ثم تاب فإن الله سبحانه يغفر له برحمته جميع ذنوبه، ويمحو اسمه من ديوان المذنبين، ويوصله إلى درجات الأبرار.

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ قل -يا محمد- لقومك مخوفاً ومحذراً، ومنهضاً لهم ومنذراً: إن هذا القرآن الذي جئتكم به هو نبأ مهم، وأمر عظيم الشأن، أنتم عنه غافلون لا تلتفتون إليه ولا تعلمون قدره.

﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: لولا الوحي المنزل عليّ من أين لي العلم باختلاف الملائكة في شأن خلق آدم؟

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما يوحى إلي، إلا لأني رسول مرسل إليكم لأنذركم عذاب الله. ومعنى النذير المنذر المخوف من عذاب الله.

* ثم شرع تعالى في ذكر قصة آدم وإبليس، وامتناعه عن السجود لآدم، تحذيراً للبشر من عدوهم الأكبر، ومن وساوسه وإغوائه، قال تعالى:

﴿٧١﴾-﴿٨٥﴾ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ * قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ * قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ

قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ
أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ
﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ الزُّمَرِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ
ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا
لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ
مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ
بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ
كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴿٣﴾ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ
مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ
﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى
ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ
كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٥﴾

ٱلدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ * قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ * لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾ **اذكر لهم -يا محمد- حين أعلم ربك الملائكة أنه سيخلق إنساناً من طين وهو آدم عليه السلام.**

﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ **فإذا أتممت خلقه، ونفخت فيه الروح، فاسجدوا إكراماً له وإعظاماً، وهذا سجود تحية، لا سجود عبادة، فالعبادة لا تكون إلا لله وحده.**

﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ **فسجد جميع الملائكة خضوعاً له، وتعظيماً لأمر الله بالسجود له.**

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ **أي: لكن إبليس استكبر عن طاعة الله وأبى السجود لآدم فصار من الكافرين. قال ابن كثير: امتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنساً كان من الجن، فخانه طبعه وجبلته فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى أنه خير من آدم، فكفر بذلك وطرده الله عن باب رحمته، ومحل أنسه، وحضرة قدسه.**

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ **أي: قال له ربه موبخاً ومعاتباً: ما الذي صرفك وصدك عن السجود لمن خلقته بذاتي من غير واسطة أب وأم؟ قال القرطبي: أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً لآدم وإن كان خالق كل شيء، كما أضاف إلى نفسه الروح، والبيت، والناقة، والمساجد، فخاطب الناس بما يعرفونه، وفي الآية صفة اليدين لله - تبارك وتعالى، على الوجه اللائق به سبحانه.**

﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ **أي: استكبرت في امتناعك الآن عن السجود، أم كنت قديماً من المتكبرين على ربك؟ وهذا على جهة التوبيخ له لاستنكافه عن السجود.**

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ **قال إبليس معارضاً لربه ومناقضاً: أنا خير من آدم، وأشرف وأفضل.**

﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ **أي: لأنني مخلوق من النار، وآدم مخلوق من الطين، والنار خير من الطين، فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟**

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ **قال الله له: اخرج من الجنة فإنك لعين مبعد مدحور، مطرود من كل خير وكرامة.**

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ **أي: وأنت مبعدٌ عن رحمتي إلى يوم الجزاء والعقوبة، ثم تلقى ما هو أفظع وأشنع من اللعنة.**

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ **أي: أخرني وأمهلني إلى اليوم الذي تبعث فيه الخلائق من القبور، أراد بذلك أن يجد فسحة لإغوائهم، ويأخذ منهم ثأره، وينجو من الموت بالكلية؛ إذ لا موت بعد البعث، فأجابه الله: بأنه مؤخر إلى وقت النفخة الأولى، لا وقت البعث الذي طلبه.**

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ **أي: قال الله مجيباً لدعوته، حيث اقتضت حكمته ذلك: إنك من المهلين إلى وقت النفخة الأولى حيث يموت الناس، وتنتهي مهمتك، فلما علم أنه مُنظر، بادى ربه من خبثه، بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته:**

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال إبليس: أقسم بعزتك وعظمتك لأضلن بني آدم أجمعين.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ إلا الذين أخلصتهم لعبادتك وعصمتهم مني، لأنه يعلم أن الله سيحفظهم من كيده وشره.

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: قال تعالى أقسم بالحق، ولا أقول إلا الحق، فالحق وصفي، والحق قولي، لأملان جهنم منك ومن أتباعك.

* ولما بين الرسول ﷺ للناس الدليل ووضح لهم السبيل، قال الله له:

﴿٨٦﴾-﴿٨٨﴾ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ قل لهم - يا محمد-: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، ولا أطلب منكم جزاءً على دعوتكم وهدايتكم، ولست من الذين يتصنعون ويتحيلون حتى انتحل النبوة وأتقول القرآن.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ ما هذا الوحي والقرآن إلا عظة وذكرى للإنس والجن والعقلاء، يتذكرون به كل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفاً ورفعة للعاملين به، وإقامة حجة الله على المعاندين.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ولتعلمن أيها المشركون خبره وصدقه عن قريب، وهذا وعيد وتهديد. قال الحسن البصري: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

تم تفسير سورة ص
والحمد لله

تفسير سورة الزمر
وهي مكية

* سورة الزمر، سورة مكية، تحدثت عن عقيدة التوحيد بالإسهاب والتفصيل، حتى لتكاد تكون هي المحور الرئيس للسورة الكريمة لأنها أصل الإيمان، وأساس العقيدة الصحيحة، وأصل كل عمل صالح.

ابتدأت السورة بالحديث عن القرآن، المعجزة الكبرى الدائمة الخالدة لمحمد بن عبدالله ﷺ، وأمرت الرسول بإخلاص الدين لله، وتنزيهه -جل وعلا- عن مشابهة المخلوقين، وذكرت شبهة المشركين في عبادتهم للأوثان واتخاذهم شفعاء، وردّت على ذلك بالدليل القاطع.

وسميت «سورة الزمر» لأن الله تعالى ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة، وزمرة الأشقياء من أهل النار، أولئك مع الإجلال والإكرام، وهؤلاء مع الهوان والصَّغار، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٤﴾ ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ * لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ يخبر تعالى عن عظمة هذا القرآن، وجلالة من تكلم به ونزل منه، وأنه تنزيل من الله -جل وعلا-.

﴿الْعَزِيزِ﴾ أي: القادر الذي لا يُغلب.

﴿الْحَكِيمِ﴾ أي: الذي يفعل كل شيء بحكمة وتقدير وتدبير.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي: نحن أنزلنا عليك -يا محمد- القرآن العظيم متضمناً الحق الذي لا مرية فيه، والصدق الذي لا يشوبه باطل أو هزل، ولما كان نازلاً من الحق؛ مشتملاً على الحق لهداية الخلق، على أشرف الخلق، عظمت فيه النعمة وحلت، ووجب القيام بشكرها، وذلك بإخلاص الدين لله، فلهذا قال:

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أي: فاعبد الله وحده مخلصاً له في عبادتك، ولا تقصد بعملك ونيتك غير ربك.

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي: ألا فانتبهوا أيها الناس: إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم؛ لأنه المتفرد بصفات الألوهية، المطّلع على السرائر والضمائر. ومعنى الخالص: الصافي من شوائب الشرك والرياء.

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم
مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ
اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ
لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾
۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً
مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ
عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ
﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ
وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ
آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ
وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

ولما أمر سبحانه بعبادته على وجه الإخلاص، وأن الدين الخالص له لا لغيره، بيّن بطلان الشرك الذي هو مخالف للإخلاص.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: وهؤلاء المشركون الذين عبدوا من دونه الأوثان معتذرين عن أنفسهم وقائلين:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي: قالوا: ما نعبد هذه الآلهة والأصنام إلا ليقربونا إلى الله قربى، ولترفع حوائجنا إلى الله، وإلا فنحن نعلم أنها لا تخلق، ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: يحكم بين الخلائق يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، فيدخل المؤمنين الجنة، والكافرين النار.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يوفق للهدى، ولا يرشد للدين الحق من كان كاذباً على ربه، مبالغاً في كفره، وفي الآية إشارة إلى كذبهم في تلك الدعوى.

ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة والمعاندون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى، فقال تبارك وتعالى:

﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي: لو شاء الله اتخاذ ولد على سبيل الفرض والتقدير، كما زعمه من زعمه من سفهاء الخلق.

﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: لاختار من مخلوقاته ما يشاء ولداً على سبيل التبني - إذ يستحيل أن يكون ذلك في حقه تعالى بطريق التوالد المعروف - ولكنه لم يشأ ذلك، ولم يكن له حاجة إلى اتخاذ الصاحبة، ولهذا نزه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد على الإطلاق، فقال:

﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: تنزه -جل وعلا- وتقدس عن الشريك والولد، لأنه هو الإله الواحد الأحد، ثم وصف نفسه بالواحد؛ لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد، لأنه لو كان له ولد لكان من جنسه ولا جنس له لأنه واحد، ولكان له إدلال على أبيه ومناسبه منه، ووصف نفسه بالقهار ليدل على نفي الشركاء والأنداد، لأن كل شيء مقهور تحت قهره تعالى، فكيف يكون شريكاً له؟

*** ثم ذكرت الآيات الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، في إبداعه لخلق السموات والأرض، وفي ظاهرة الليل والنهار، وفي تسييره للشموس والأقمار، وفي خلق الإنسان في أطوار في ظلمات الأرحام، وكلُّها براهين ساطعة على قدرة الله ووحدانيته. قال تعالى:**

﴿٥﴾، ﴿٦﴾ ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۞ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ يخبر تعالى أنه خلقهما على أكمل الوجوه وأبدع الصفات، بالحق الواضح والبرهان الساطع، وبالحكمة والمصلحة، وليأمر العباد وينهاهم، ويثيبهم ويعاقبهم، ومن كان هذا الخلق العظيم خلقه، استحال أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد.

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي:

يدخل كلاً منهما على الآخر، ويحله محله، يغشي الليل على النهار، ويغشي النهار على الليل، وكأنه يلفُّ عليه لفَّ اللباس على اللابس، وتكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوؤه، ويغشي النهار على الليل فيذهب ظلمته.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: ذللهما بسير متقن لمصالح العباد.

﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: كل من الشمس والقمر يسير إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم ينقضي يوم القيامة حين تكور الشمس وتنكدر النجوم، ومع هذه المقدرة والقوة فهو سبحانه غفار لمن تاب وأناب.

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي: هو -جل وعلا- كامل القدرة لا يغلبه شيء، عظيم الرحمة والمغفرة والإحسان، وقد صدرت الجملة بحرف التنبيه «ألا» للدلالة على كمال الاعتناء بمضمونها؛ كأنه قال: تنبهوا يا عبادي فإني أنا الغالب على أمري، الستار لذنوب خلقي، فأخلصوا عبادتكم ولا تشركوا بي أحداً.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: خلقكم ربكم - أيها الناس، على كثرتكم، واختلاف أجناسكم، وأصنافكم، وألسنتكم، وألوانكم، من نفس واحدة هي آدم، وهذا من جملة أدلة وحدانيته، وانفراده بالعزة والقهر، وجميع صفات الألوهية.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ثم خلق تعالى من آدم حواء ليحصل التجانس والتناسل، يعني حواء خلقها من ضلع من أضلاعه.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ وأوجد لكم وخلقها بقدر نازل منه، رحمة بكم من الأنعام المأكولة وهي: الإبل، والبقر، والغنم، والمعز ثمانية أزواج من كل نوع ذكر وأنثى، وخصها بالذكر مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم غيرها، لكثرة نفعها، وعموم مصالحها ولشرفها. قال قتادة: من الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، كل واحد زوج، وسميت أزواجاً لأن الذكر زوج الأنثى، والأنثى زوج الذكر.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: يخلقكم في بطون أمهاتكم أطواراً، وأنتم في حال لا يد مخلوق تمسكم، ولا عين تنظر إليكم، والأطوار طوراً بعد طور، فإن الإنسان يكون نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، إلى أن يتم خلقه، ثم ينفخ فيه الروح، فيصير خلقا آخر.

﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ هي: ظلمة البطن، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة، وهو -الكيس الذي يغلف الجنين- وكل حجاب من هذه الحجب له ظلمة تخصه.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ذلكم الخالق المبدع المصور هو الله رب العالمين، ربكم ورب آبائكم الأولين الذي رباكم ودبركم، فكما أنه الواحد في خلقه وتربيته لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته لا شريك له.

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ له الملك والتصرف التام، في الإيجاد والإعدام.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا الله، ولا رب لكم سواه، هو المستحق للإخلاص وحده دون عبادة الأوثان، التي لا تدبر شيئاً، وليس لها من الأمر شيء.

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟

* ثم بعد أن ذكرهم تعالى بآياته ونعمه، حذرهم من الكفر والجحود لفضله وإحسانه فقال:

﴿٧، ٨﴾ ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾.

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ أي: إن تكفروا أيها الناس بعدما شاهدتم من آثار قدرته وفنون نعمائه، فإن الله مستغن عنكم وعن إيمانكم، وشكركم وعبادتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم.

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: لا يرضى الكفر لأحد من البشر

لكمال إحسانه بهم، وعلمه أن الكفر يشقيهم شقاوة لا يسعدون بعدها؛ ولأنه خلقهم لعبادته، فهي الغاية التي خلق لها الخلق، فلا يرضى أن يدعوا ماخلقهم لأجله.

﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ وإن تشكروا ربكم بتوحيده وإخلاص الدين له يرض هذا الشكر منكم، لأجلكم ومنفعتكم، لا لانتفاعه بطاعتكم ويزدكم منه، وعدم رضائه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفع مضرتهم؛ رحمة بهم لا لتضرره تعالى بذلك، ورضاه بشكرهم لأجلهم ومنفعتهم لأنه سبب فوزهم بسعادة الدارين، ولهذا فرق بين اللفظين فقال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ وقال هنا: ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لأن المراد بالأول تعميم الحكم ثم تعليله بكونهم عباده.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا تحمل نفس ذنب نفس أخرى، بل كل يؤاخذ بذنبه.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ثم مرجعكم ومصيركم إليه تعالى يوم القيامة، فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: يعلم ما تكنه السرائر وتخفيه الضمائر، وفيه تهديد للعاصي، وبشارة للمطيع، والمقصود من هذا الإخبار بالجزاء العدل التام.

ثم يخبر سبحانه عن كرمه بعبده وإحسانه وبره، وقله شكر عبده ونسيان فضله سبحانه.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: وإذا أصاب الإنسان الكافر شدة من فقر ومرض وبلاء، أو وقوع في كربة أو شدة، تضرع إلى ربه في إزالة تلك الشدة، مقبلاً إليه مخبتاً مطيعاً؛ لأنه يعلم أنه لا ينجيه في هذا الحال إلا الله.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: ثم إذا أعطا سبحانه عبده نعمة منه وفرج عنه كربته، ترك هذا العبد الضر الذي كان يدعو ربه لكشفه، وتمرد وطغى واستمر على شركه، وقيل: نسي الدعاء الذي كان يتضرع به وتركه.

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وجعل لله شركاء في العبادة ليصد عن دين الله وطاعته، ليضل بنفسه، ويضل غيره.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أمر للتهديد، أي: أخبر -يا محمد- هذا العاتي الذي بدل نعمة الله كفراً: تمتع بهذه الحياة الدنيا الفانية، وتلذذ فيها وأنت على كفرك، عمراً قليلاً وزمناً يسيراً، حتى موتك وانتهاء أجلك.

﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: فمصيرك إلى نار جهنم، وأنت من المخلدين فيها، ولن يغنيك ما تمتعت به إذا كان هذا هو المآل.

* ولما ذكر سبحانه حال الكافر الجاحد لنعمة ربه، ذكر سبحانه حال المؤمن الطائع المصلي، وهذا مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، قال تعالى:

﴿٩﴾ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ استفهام حذف جوابه لدلالة الكلام عليه، أي: أمن هو مطيع عابد في ساعات الليل يتعبد ربه في صلاته ساجداً وقائماً، فوصفه بكثرة العمل وأفضله، كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً؟ قال القرطبي: بيّن تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضى ذكره.

﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ أي: حال كونه خائفاً من عذاب الآخرة، راجياً رحمة ربه وهي الجنة، فيجمع بين الرجاء والخوف، وما اجتمعا في قلب رجل إلا فاز، فوصفه سبحانه بالعمل الظاهر والباطن، هل يستوي هذا المؤمن التقي مع ذلك الكافر الفاجر؟ لا يستوون عند الله، ثم ضرب مثلاً، فقال:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قل - يا محمد-: هل يتساوى العالم والجاهل؟ فكما لا يستوي هذان، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلام، والماء والنار.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ (١١) وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ
أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (١٢) قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ
(١٣) قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي (١٤) فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ
قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ
أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ
وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ (١٦)
وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ
فَبَشِّرۡ عِبَادِ (١٧) ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (١٨)
أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ (١٩)
لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ (٢٠) أَلَمۡ تَرَ
أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ
يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ
يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٢١)

إنما يعتبر ويتعظ أصحاب العقول السليمة، وهذه الآية دالة على أسرار عجيبة، فأولها: أنه بدأ فيها بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم، أما العمل فهو القنوت، والسجود، والقيام، وأما العلم ففي قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم.

* لما نفى سبحانه المساواة بين من يعلم، ومن لا يعلم، وبين أنه ما يتذكر إلا أولو الألباب، أمر رسوله ﷺ بأن يأمر المؤمنين من عباده بالثبات على تقواه والإيمان به، فقال:

﴿١٠﴾-﴿١٢﴾ ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ * قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ * وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ قل -يا محمد- لعبادي المؤمنين، يجمعوا بين الإيمان وتقوى الله، وهي البعد عن محارم الله. قال المفسرون: نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة، والغرض منها التأنيس لهم والتنشيط إلى الهجرة، ومعنى التقوى: امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وكأن العبد بذلك يجعل بينه وبين النار وقاية، وذكر لهم الثواب المنشط في الدنيا، فقال:

﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾ أي: لمن أحسن العمل في عبادة ربه في هذه الدنيا حسنة عظيمة في الآخرة، وهي الجنة دار الأبرار. ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ وأرض الله فسيحة فهاجروا من دار الكفر إلى دار الإيمان، ولا تقيموا في أرض لا تتمكنون فيها من إقامة شعائر الله، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في ذلك.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: إنما يعطي الصابرون جزاءهم بغير حصر، ودون عدد أو وزن، وليس يوزن لهم ولا يكال إنما يغرف غرفاً، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور. والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة. وتجتمع الثلاثة كلها في الصوم. قال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه، فعاضه من ذلك الصبر إلا كان ما عاضه الله أفضل مما انتزع منه

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ قل -يا محمد- إني أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، قال المفسرون: وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر لينبه على أن غيره بذلك أحق، فهو كالترغيب للغير.

﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ وأمرت أيضاً بأن أكون أول المسلمين من هذه الأمة، وكذلك كان، فإنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها، وأسلم وجهه لله وآمن به ودعا إليه.

﴿١٣﴾-﴿١٦﴾ ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ * قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي * فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ * لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ قل -يا محمد- للناس، وأخاف إن عصيت أمره أن يعذبني يوم القيامة بنار جهنم، والمقصود منها زجر الغير عن المعاصي، لأنه ﷺ إذا كان خائفاً مع كمال طهارته وعصمته فغيره أولى، وذلك سنة الأنبياء والصالحين حيث يخبرون غيرهم بما اتصفوا به ليكونوا مثلهم.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ قل لهم -يا محمد- لا أعبد إلا الله وحده، مخلصاً له طاعتي وعبادتي من كل شائبة، وليس هذا بتكرار، لأن الأول إخبار بأنه ﷺ مأمور بالعبادة، والثاني: إخبار بخوفه من عذاب الله إن عصى أمره، والثالث: إخبار بامتثاله الأمر مع إفادة الحصر، كأنه يقول: أعبد الله ولا أعبد أحداً سواه.

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ صيغة أمر على جهة التهديد والوعيد، أي: اعبدوا ما شئتم من دون الله من الأوثان والأصنام، فسوف ترون عاقبة كفركم.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: حقيقة الخسران الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، حيث صاروا إلى نار مؤبدة يصلون سعيرها يوم القيامة، فهؤلاء هم الخاسرون كل الخسران. قال ابن عباس: إن لكل رجل منزلاً وأهلاً وخدماً في الجنة، فإن أطاع الله أعطي ذلك، وإن كان من أهل النار حرم ذلك، فخسر نفسه وأهله ومنزله.

﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: ألا فانتبهوا أيها القوم، ذلك هو الخسران الواضح، الذي ليس بعده خسران، وهو خسران مستمر، لا ربح بعده، بل ولا سلامة. ثم لما ذكر خسرانهم في الدنيا، ذكر حالهم ومآلهم في الآخرة، وشدة ما يحصل لهم من الشقاء، فقال:

﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ أي: تغشاهم نار جهنم من فوقهم ومن تحتهم، وتحيط بهم من جميع جوانبهم، ومعنى الظلل أطباق من نار جهنم، وتسميتها ظللاً تهكم بهم، لأنها محرقة والظلة تقي من الحر.

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ ذلك العذاب الشديد الفظيع، إنما يقصه تعالى ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم.

﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: يا أوليائي خافوا عذابي وسطوتي ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي، وهذه عظة من الله تعالى لعباده ونصيحة بالغة. والحكمة من ذكر أحوال النار تخويف المؤمنين منها ليتقوها ويجتنبوها بطاعة ربهم؛ فجعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو عباده إلى التقوى، وزاجر عما يوجب العذاب، فسبحان من رحم عباده في كل شيء وسهل لهم الطرق الموصلة إليه.

* لما ذكر وعيد عبدة الأوثان، ذكر وعد أهل الفضل والإحسان، من احترز عن الشرك والعصيان، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد، فيحصل كمال الترغيب والترهيب. قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٨﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ أي: والذين انتهوا عن عبادة الأوثان وطاعة الشيطان، وتباعدوا عنها كل البعد. والطاغوت: البالغ أقصى غاية الطغيان كالرحموت والعظموت، والمراد به الشيطان، وصف به للمبالغة.

﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أي: رجعوا إلى طاعة الله وعبادته وإخلاص الدين له، لهم البشرى السارة من الله تعالى بالفوز العظيم بجنات النعيم، وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والبشرى في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة البشرى ما يبشرهم به الرب الكريم، من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة. ولما أخبر أن لهم البشرى أمره الله ببشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة، فقال:

﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ فبشر عبادي المتقين الذين يستمعون الحديث والكلام فيتبعون أحسن ما فيه. قال ابن عباس: هو الرجل يسمع الحسن والقبيح، فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به. وهذا ثناء من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم، وتمييزهم الأحسن من الكلام، فإذا سمعوا قولاً تبصروه وعملوا بما فيه، وأحسن الكلام

كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وإنما وضع الظاهر ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ بدل الضمير «فبشرهم» تشريفاً لهم وتكريماً بالإضافة إليه سبحانه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين هداهم الله لما يرضاه، ووفقهم لنيل رضاه.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: وأولئك هم أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة.

(١٩)، (٢٠) ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ * لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أفمن وجبت له الشقاوة من الله تعالى، باستمراره على غيه وعناده وكفره، وجوابه محذوف دل عليه ما بعده، أي: هل تقدر على هدايته؟ لا. ثم قال تعالى:

﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: هل تستطيع -يا محمد- أن تنقذ من هو في الضلال والهلاك؟ قال القرطبي: كان النبي ﷺ يحرص على إيمان قومه وقد سبقت لهم من الله الشقاوة فنزلت الآية. وقال ابن عباس: يريد «أبا لهب» وولده ومن تخلف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان، وكرر الاستفهام «أفأنت» تأكيداً لطول الكلام، والمعنى: أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه؟

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ أي: لكن المؤمنون الأبرار، والمتقون لله في الدنيا، المتمسكون بشريعته وطاعته، لهم في الجنة درجات عالية، وقصور شاهقة بعضها فوق بعض، مبنية من زبرجد وياقوت.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ﴾ تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار الجنة من غير أخدود.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: وعدهم الله بذلك وعداً مؤكداً لا يمكن أن يتخلف؛ لأنه وعد العزيز القدير.

* ولما ذكر سبحانه الآخرة، ووصفها بوصف يوجب الرغبة فيها، والشوق إليها، أتبعه بذكر الدنيا، ووصفها بوصف يوجب الرغبة عنها، والنفرة منها، فذكر تمثيلاً لها في سرعة زوالها، وقرب اضمحلالها، مع ما في ذلك من ذكر نوع من أنواع قدرته الباهرة، وصنعه البديع، فقال:

(٢١)، (٢٢) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ * أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ألم تر أيها الإنسان العاقل أن الله بقدرته أنزل المطر من السحاب.

﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أدخله مسالك وعيوناً في الأرض وأجراه فيها، وهذا دليل على أن ماء العيون من المطر، تحبسه الأرض ثم ينبع شيئاً فشيئاً. قال ابن عباس: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: ثم يخرج بهذا الماء النازل من السماء والنابع من الأرض أنواع الزروع، المختلفة الأشكال والألوان، من أحمر وأبيض وأصفر، والمختلفة الأصناف من قمح وأرز وعدس وغير ذلك، أو كيفياته من خضرة وحمرة وغيرهما.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾ أي: ثم ييبس فتراه بعد خضرته مصفراً، قد خالطه اليبس، ثم يصبح فتاتاً وهشيماً متكسراً.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إن فيما ذكر لعظة وعبرة، ودلالة على قدرة الله ووحدانيته لذوي العقول المستنيرة. والآية فيها تمثيل لحياة الإنسان بالحياة الدنيا، فمهما طال عمر الإنسان فلا بد من الانتهاء، إلى أن يصير مصفر اللون، متحطم الأعضاء، متكسراً كالزرع بعد نضرته، ثم تكون عاقبته أن يكون هرماً، كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: أفيستوي من وسع الله صدره للإسلام، واستضاء قلبه بنوره حتى ثبت ورسخ فيه.

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ
لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾
ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ
جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ
إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن
يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ
ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ
﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ
لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ
ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي
هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا
غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ
شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم
مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فهو على بصيرة ويقين من أمر دينه، وعلى هدى من ربه بتنوير الحق في قلبه، وفي الآية محذوف دل عليه سياق الكلام تقديره كمن هو أعمى القلب، معرض عن الإسلام؟ وترك الجواب اجتزاءً بمعرفة السامعين وبدلالة ما بعده وتقدير: كمن أقسى الله قلبه وأخلاه من ذكره حتى ضاق عن استماع الحق، واتباع الهدى؟

﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ فويل للذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع لكتابه، ولا تتذكر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربها، ملتفتة إلى غيره، فهؤلاء لهم الويل الشديد، والشر الكبير.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي: أولئك الذين قست قلوبهم في بعد عن الحق ظاهر.

* ولما بين تعالى ذلك أردفه بما يدل على أن القرآن سبب لحصول النور والهداية والشفاء، وأخبر سبحانه عن كتابه الذي نزله ومدحه وأثنى عليه، ولما كان القرآن في غاية الجزالة والبلاغة اقشعرت الجلود منه إعظاماً له، وتعجباً من حسن ترصيعه، وتهيباً لما فيه، قال تعالى:

﴿٢٣﴾ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ أي: الله نزل القرآن العظيم أحسن الكلام، قرآناً متشابهاً يشبه بعضه بعضاً في الفصاحة، والبلاغة، والتناسب، بدون تعارض ولا تناقض.

﴿مَّثَانِيَ﴾ أي: تُثنَّى وتكرر فيه المواعظ والأحكام، والحلال والحرام، تردد فيه القصص والأخبار دون سأم أو ملل، وهذا من جلالته وحسنه. ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثر في قلوب أولي الألباب المهتدين، فلهذا قال تعالى:

﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ أي: تعتري هؤلاء المؤمنين خشية، وتأخذهم قشعريرة عند تلاوة آيات القرآن، هيبة من الرحمن وإجلالاً لكلامه.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: تطمئن وتسكن قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله. قال ابن كثير: هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار، إذا قرؤوا آيات الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر جلودهم من الخشية والخوف، وإذا قرؤوا آيات الرحمة؛ لانت جلودهم وقلوبهم، لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ذلك القرآن الذي تلك صفته، هو هدى الله يهدي به من شاء من خلقه، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ ومن يخذله الله فيجعل قلبه قاسياً مظلماً، فليس له مرشد ولا هاد بعد الله.

﴿٢٤﴾-﴿٢٦﴾ ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ * كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ * فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: فمن يجعل وجهه وقاية من عذاب جهنم الشديد، وخبره محذوف تقديره كمن هو آمن من العذاب؟ قال المفسرون: الوجه أشرف الأعضاء فإذا وقع الإنسان في

شيء من المخاوف فإنه يجعل يده وقاية لوجهه، وأيدي الكفار مغلولة يوم القيامة، فإذا ألقوا في النار لم يجدوا شيئاً يتقونها به إلا وجوههم.

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي: وتقول خزنة جهنم للكافرين توبيخاً وتقريعاً: ذوقوا وبال ما كنتم تكسبونه في الدنيا من الكفر والمعاصي.

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ كذب الذين من قبل قومك -يا محمد- من الأمم السالفة فأتاهم العذاب من جهة لا تخطر ببالهم، وذلك عند أمنهم وغفلتهم جاءهم في أول النهار، أوهم قائلون.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فأذاقهم الله بذلك العذاب الذل والصَّغار والهوان في الدنيا.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: ولعذاب الآخرة الذي أعد لهم أعظم بكثير من عذاب الدنيا، فليحذر هؤلاء من المقام على التكذيب، فيصيبهم ما أصاب أولئك من التعذيب، لو كان عندهم علم وفهم ما كذبوا.

* ثم ذكر سبحانه أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال، أمثال أهل الخير، وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء، إيضاحاً للحق وتبياناً له، قال تعالى:

﴿٢٧﴾-﴿٣١﴾ ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ * قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ * ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ * إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ ولقد بينا ووضحنا للناس في هذا القرآن من كل الأمثال النافعة، والأخبار الواضحة ما يحتاجون إليه، فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان.

﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعلهم يتعظون ويعتبرون بتلك الأمثال والزواجر.

﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ أي: حال كونه قرآناً عربياً واضح الألفاظ، سهل المعاني، لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه، ولا تعارض ولا تناقض، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك، لكي يتقوا الله ويجتنبوا محارمه ويعملوا بما فيه من الوعد.

* احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول، وذكرت السورة مثلاً يوضح الفارق الكبير بين من يعبد إلهاً واحداً، ومن يعبد آلهة متعددة لا تسمع ولا تستجيب، وهو مثل للعبد الذي يملكه شركاء متخاصمون، والعبد الذي يملكه سيد واحد، فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإلهه الحق، لا يستويان. ثم ذكرت حالة المشركين النفسية عندما يسمعون توحيد الله تنقبض قلوبهم، وإذا سمعوا ذكر الطواغيت هشوا وبشوا. قال تعالى:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ ضرب الله لكم أيها الناس هذا المثل: رجل من المماليك اشترك فيه ملاك سيئو الأخلاق، بينهم اختلاف وتنازع، يتجاذبونه في حوائجهم، هذا يأمره بأمر وذاك يأمره بمخالفته، وهو متحير موزع القلب، لا يدري لمن يرضي؟

﴿وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ﴾ هذا من تتمة المثل، أي: ورجلاً آخر لا يملكه إلا شخص واحد، حسن الأخلاق، فهو عبد مملوك لسيد واحد، يخدمه بإخلاص ويتفانى في خدمته، ولا يلقى من سيده إلا إحساناً.

﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ الاستفهام للإنكار، أي: هل يستوي هذا وهذا في حسن الحال، وراحة البال؟ فكذلك لا يتساوى المؤمن الموحد مع المشرك الذي يعبد آلهة شتى، يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، وهذا مثل ضرب في غاية الحسن في تقبيح الشرك، وتحسين التوحيد.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لما كان المثل بينا واضحاً في غاية الجلاء والوضوح، ختم به الآية، والمعنى: الحمد لله على إقامة الحجة عليهم وتبين الحق من الباطل وإرشاد

الجُزْءُ الرَّابِعُ وَالعِشْرُونَ   سُورَةُ الزُّمَرِ

۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ
إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى
جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾
لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾
لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم
بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ
عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ
فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ
أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ
ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ
قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَـٰقَوْمِ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

٤٦٢

الجهال، بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الحق فهم لفرط جهلهم يشركون بالله.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ **إنك -يا محمد- ستموت كما يموت هؤلاء، ولا يخلد أحد في هذه الدار.**

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ **ثم تجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما بينكم من المظالم وأمر الدنيا والدين، ويفصل بينكم أحكم الحاكمين.**

*** ثم يقول ﷻ مخاطباً وموبخاً المشركين الذين افتروا على الله وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولداً - تعالى عن قولهم علواً كبيراً، وكذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، قال ﷻ:**

﴿٣٢﴾-﴿٣٥﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ * وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ **الاستفهام إنكاري، بمعنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك له والولد والصاحبة.**

﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ **وكذب بالقرآن والشريعة وقت مجيئه من غير تدبر ولا تأمل؟ أي: لا أحد أظلم ممن حاله ذلك، فإنه أظلم من كل ظالم؛ لأنه ردّ الحق بعدما تبين له، فإن كان جامعاً بين الكذب على الله والتكذيب بالحق، كان ظلماً على ظلم.**

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ **أليس في جهنم مقام ومأوى لهؤلاء الكافرين المكذبين؟ والاستفهام هنا تقريري، أي: بلى لهم مأوى ومكان، ولما ذكر الكاذب المكذب وجنايته وعقوبته، ذكر الصادق المصدق وثوابه، فقال:**

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ **أي: وأما الذين جاؤوا بالصدق وهم الأنبياء، والذين صدقوا به وهم المؤمنون أتباع الرسل، فأولئك الموصوفون بالصفات الحميدة هم أهل التقوى من الحور، والقصور، والملاذ، والنعيم.**

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ **من الثواب، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.**

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ **الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم.**

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ **أي: هؤلاء الذين صدقوا الأنبياء سيغفر الله لهم ما أسلفوا من الأعمال السيئة فلا يعاقبهم بها.**

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ **أي: ويثيبهم على طاعاتهم في الدنيا بحساب الأحسن الذي عملوه فضلاً منه وكرماً، قال المفسرون: العدل أن تحسب الحسنات وتحسب السيئات، ثم يكون الجزاء، والفضل هو الذي يتجلى به الله على عباده المتقين، فيكفر عنهم أسوأ أعمالهم، فلا يبقى لها حساب في ميزانهم، وأن يجزيهم أجرهم بحساب أحسن الأعمال، فتزيد حسناتهم وتعلو وترجح كفة الميزان، وهذا من زيادة الكرم والإحسان.**

*** ثم ذكر سبحانه كرمه وجوده، وعنايته بعبده، أكرم الخلق واشرف الأنبياء والمرسلين، فقال:**

(٣٦)-(٤٠) ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ * قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ الهمزة للتقرير، أي: أليس الله كافياً عبده ورسوله محمداً ﷺ من شر من يريده بسوء؟ وإضافته إليه تشريف عظيم لنبيه، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عما قالت له قريش: لتكفن عن شتم آلهتنا، أو ليصيبنك منها خبل أو جنون. والكفاية على حسب العبودية، فكلما ازدادت طاعة العبد لله ازدادت كفاية الله له.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ ويخوفونك -يا محمد- بهذه الأوثان والأصنام أن تنالك بسوء وهي التي لا تضر ولا تنفع، وهذا من غيهم وضلالهم.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ ومن أشقاه الله وأضله فلن يهديه أحد كائناً من كان.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ ومن أراد الله سعادته فهداه إلى الحق، ووفقه لسلوك طريق المهتدين، فلن يقدر أحد على إضلاله.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: هو تعالى منيع الجناب لا يضام من لجأ إلى بابه، وهو القادر على أن ينتقم من أعدائه لأوليائه، لأنه غالب لا يغلب، ذو انتقام من أعدائه. وفي الآية وعيد للمشركين، ووعد للمؤمنين.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ هذه الآية إقامة برهان على تزييف طريقة عبدة الأوثان، أي: ولئن سألت -يا محمد- هؤلاء المشركين عمن خلق السموات والأرض ليقولن الله خالقهما، لوضوح الدليل على تفرده تعالى بالخالقية. لأن العلم بوجود الإله القادر الحكيم، لا نزاع فيه بين جمهور الخلائق، وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم، فإن من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض، وفي عجائب أحوال النبات والحيوان، وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة، والمصالح العجيبة، علم أنه لا بد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم، ولهذا أقر المشركون بوجود الله.

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قل لهم -يا محمد- توبيخاً وتبكيتاً وتعجيزاً: أخبروني - بعد أن تحققتم أن خالق العالم هو الله - عن هذه الإلهة التي تعبدونها من دون الله.

﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أخبروني لو أراد الله أن يصيبني بشدة أو بلاء، هل تستطيع هذه الأصنام أن تدفع عني ذلك السوء والضرَّ؟ وإنما قال كاشفات وممسكات على التأنيث بعد قوله ويخوفونك بالذين من دونه لأنهن أناث وهن اللات والعزى ومناة، وفيه تهكم بهم وبمعبوديهم.

﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: ولو أراد الله بي نفعاً من نعمة ورخاء هل تستطيع أن تمنع عني هذه الرحمة؟ والجواب محذوف لدلالة الكلام عليه، يعني فسيقولون: لا، لا تكشف السوء، ولا تمنع الرحمة، قل لهم بعدما تبين الدليل القاطع على أنه وحده المعبود، وأنه الخالق للمخلوقات، النافع الضار وحده، وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق والنفع والضر، مستجلباً كفايته، مستدفعاً مكرهم وكيدهم.

﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: الله كافيني فلا ألتفت إلى غيره، وعليه وحده يعتمد المعتمدون، والغرض الاحتجاج على المشركين في عبادة ما لا يضر ولا ينفع، وإقامة البرهان على الوحدانية.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أي: اعملوا على طريقتكم من المكر والكيد والخداع، إني عامل على طريقتي، من الدعوة إلى الله وإظهار دينه.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فسوف تعلمون لمن

إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ
فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم
بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي
لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ
وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ
أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل
لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ
إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ
قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن
دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ
فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي
ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

٤٦٣

سيكون العذاب الذي يذل ويخزي الإنسان.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ **أي: وينزل عليه عذاب دائم لا ينقطع وهو عذاب النار، هل هذا العذاب سيصيبني أو يصيبكم؟ والغرض التهديد والتخويف. وفي الآية مبالغة في الوعيد، وإشعار بأن حاله عليه السلام لا تزال تزداد قوة بنصر الله وتأييده، وفي خزي أعدائه دليل غلبته عليه السلام وأخزاهم يوم بدر.**

*** ثم يقول ﷻ مخاطباً رسوله محمداً ﷺ:**

﴿٤١﴾، ﴿٤٢﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ * ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ **أي: يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله محمد هذا القرآن المعجز في بيانه، الساطع في برهانه، لجميع الخلق، بالحق الواضح الذي لا يلتبس به الباطل.**

﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾ **فمن اهتدى بنوره واتبع أوامره فقد نفع نفسه، ومن ضل بعدما تبين له الهدى فضرر ضلاله لا يعود إلا عليه.**

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ **أي: لست بموكل عليهم حتى تجبرهم على الإيمان، وفي هذا تسلية له ﷺ. والمعنى: ليس هداهم بيدك حتى تقهرهم وتجبرهم عليه، وإنما هو بيدنا، فإن شئنا هديناهم وإن شئنا أبقيناهم على ما هم عليه من الضلالة، وإنما أنت مبلغ تؤدي إليهم ما أمرت به.**

ثم أخبر سبحانه أنه المتفرد بالتصرف بالعباد، فقال:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ **أي: يقبضها من الأبدان عند نهاية آجالها، وهي الوفاة الكبرى.**

﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾ **أي: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، وهي الوفاة الصغرى، وقال ابن كثير: أخبر تعالى بأنه المتصرف في الوجود كما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة - الملائكة - الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام.**

﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ **فيمسك من هاتين النفسين، النفس التي قضى على صاحبها الموت، فلا يردها إلى البدن.**

﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ **ويرسل الأنفس النائمة إلى بدنها عند اليقظة إلى وقت محدود، وهو أجل موتها الحقيقي، قال ابن عباس: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فتتعارف ما شاء الله لها، فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها، أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها.**

وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته تعالى، وانفراده بالألوهية، وأنه يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء لا يقدر على ذلك سواه، ولهذا قال:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ **إن في هذه الأفعال العجيبة لعلامات واضحة قاطعة، على كمال قدرة الله وعلمه، لقوم يجيلون أفكارهم فيها فيعتبرون.**

*** ثم ينكر تعالى على من اتخذ من دونه شفعاء، يتعلق بهم ويسألهم ويعبدهم.**

﴿٤٣﴾-﴿٤٥﴾ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ **أم للإضراب، أي: لم يتفكروا بل اتخذوا لهم شفعاء من الأوثان والأصنام، فانظر إلى فرط جهالتهم حيث اتخذوا من لا يملك شيئاً أصلاً شفعاء لهم عند الله، وهذا ذمٌ للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله - وهي الأصنام - والأوثان التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم، بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً بكثير من الحيوانات.**

﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ **الاستفهام توبيخي، أي: قل لهم -يا محمد- مبيناً جهلهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة: أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا على هذه الصفة جمادات لا تقدر على شيء، ولا عقل لها ولا شعور؟**

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ **أي: قل لهم، الشفاعة لله وحده، لا يملكها أحد إلا الله تعالى، ولا يستطيع أحد أن يشفع إلا بأذنه، لأن الأمر كله لله، وهو الذي يشفع بنفسه إلى نفسه ليرحم عبده، فيأذن هو لمن يشاء، أن يشفع فيه، فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له.**

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **أي: هو المتصرف في الملك والملكوت مالك الملك كله، لا يملك أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه.**

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ **ثم مصيركم إليه يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجازي كلا بعمله. ثم ذكر تعالى نوعاً آخر من أفعال المشركين القبيحة، فقال:**

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ **وإذا أُفرد الله بالذكر توحيداً له، ولم يذكر معه آلهتهم، وقيل أمام المشركين: لا إله إلا الله.**

﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ **أي: نفرت وانقبضت من شدة الكراهة قلوب هؤلاء المشركين.**

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ **وإذا ذكرت الأوثان والأصنام ودعا الداعي إلى عبادتها ومدحها، إذا هم يفرحون ويسرون بذكر معبوداتهم، لافتتانهم بها، ولكون الشرك موافقاً لأهوائهم، قال بعض المفسرين: هذا نوع آخر من قبائح المشركين، فإنك إذا ذكرت الله وحده وقلت: لا إله إلا وحده لا شريك له، ظهرت آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم، وصدورهم، وذلك يدل على الجهل والحماقة، لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات، وذكر الأصنام الجمادات رأس الجهالات والحماقات، فنفرتهم عن ذكر الله واستبشارهم بذكر الأصنام، من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ، والحمق الشديد.**

*** لما أخبر عن سخافة عقولهم باشمئزازهم من ذكر الله، واستبشارهم بذكر الأصنام أمر رسوله أن يدعوه بأسمائه العظمى من القدرة والعلم ليفصل بينه وبين أعدائه، وفي ذلك وعيد للمشركين وتسلية للرسول ﷺ، قال تعالى:**

﴿٤٦﴾-﴿٤٨﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **قل، يا الله يا خالق ومبدع السموات والأرض، على غير مثال سابق.**

﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ **أي: يا عالم السر والعلانية، يامن لا تخفى عليه خافية، مما هو غائب عن الأعين أو مشاهد بالأبصار.**

﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ **أنت تفصل بين الخلائق بعدلك وقضائك، فافصل بيني وبين هؤلاء المشركين.**

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ **ولو أن هؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب القرآن والرسول.**

﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ **لو ملكوا كل ما في الأرض من أموال، وملكوا مثل ذلك معه.**

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ
نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ
أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ
مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ
مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟
مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن
قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ
مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ
بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ
عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾

﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: لجعلوا كل ما لديهم من أموال وذخائر، فدية لأنفسهم من ذلك العقاب الشديد يوم القيامة.

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: وظهر لهم من أنواع العقوبات، ما لم يكن في حسابهم من سخط الله وشدة عذابه، وهذه غاية من الوعيد لا غاية وراءها.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ وظهر لهم في ذلك اليوم المفزع سيئات أعمالهم التي اكتسبوها.

قال مجاهد: عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات، فإذا هي سيئات.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: وأحاط ونزل بهم من العذاب والنكال من كل الجوانب، جزاء ما كانوا يستهزئون به في الدنيا.

* ثم ذكر سبحانه وهو العليم الخبير، حال الإنسان إذا مسه الضر ونزل به مرض، أو شدة، أو كرب، فقال:

﴿٤٩﴾-﴿٥٢﴾ ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ فإذا أصاب هذا الإنسان الكافر شيء من الشدة والبلاء، تضرع إلى الله وأناب إليه ولجأ إليه، وألح عليه في الدعاء وطلب تفريج ما نزل به.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ ثم إذا أعطيناه نعمة منا، وكشفنا ضره وأزلنا مشقته، تفضلاً عليه وكرماً، عاد كافراً بربه، ولمعروفه جاحداً ولفضله منكراً.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قال ذلك الإنسان الكافر الجاحد إنما أعطيته على علم مني بوجوه المكاسب والمتاجر ولأني مستحق له.

﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، بل هي اختبار وامتحان له، لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصي؟

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن إعطاءهم المال فتنة واختبار وابتلاء، فلذلك يبطرون.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قال تلك الكلمة والمقالة الكفار قبلهم كقارون وغيره، حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨] فهم لا يقرون بنعمه الله ﷻ، ولا يرون له حقاً.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فما نفعهم ما جمعوه من الأموال، ولا ما كسبوه من الحطام حين جاءهم العذاب.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ فنالتهم العقوبات جزاء أعمالهم السيئة.

﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: والذين ظلموا من هؤلاء المشركين - كفار قريش، سينالهم جزاء أعمالهم القبيحة كما أصاب أولئك، وقد أصابهم ذلك، فإنهم قد قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الجيف، وقتل ببدر صناديدهم.

﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: وليسوا بفائتين من عذابنا، لا يعجزوننا هرباً ولا يفوتوننا طلباً.

ثم رد عليهم زعمهم فيما أوتوا من المال وسعة الحال، فقال:

﴿أَوَ لَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ أولم يعلم هؤلاء المشركون أن الله يوسع الرزق على قوم، ويضيقه على آخرين؟ فليس أمر الرزق تابعاً لذكاء الإنسان أو غبائه، إنما هو تابع للقسمة والحكمة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: إن في بسط الرزق وقبضه، لعبراً وحججاً لقوم يصدقون بآيات الله، وخص المؤمن بالذكر؛ لأنه هو الذي يدبر الآيات وينتفع بها، ويعلم أن سعة الرزق قد يكون استدراجاً، وأن تقتيره قد يكون رفعة وإعظاماً.

* لما ذكر تعالى أحوال الفجرة المشركين، وذكر ما يكونون عليه في الآخرة من الذل والهوان، دعا المؤمنين إلى الإنابة والتوبة قبل فوات الأوان، وجاءت الآيات طريّة نديّة تدعو العباد إلى الإنابة لربهم، والرجوع إليه، قبل أن يداهمهم الموت بغتة، أو يفاجئهم العذاب من حيث لا يشعرون، وحينئذ يتوبون ويندمون، في وقت لا ينفع فيه توبة، ولا ندم.

(٥٣)-(٥٩) ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ * أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ * أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أخبر -يا محمد- عبادي المؤمنين الذين أفرطوا في الجناية على أنفسهم بالمعاصي والآثام.

﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ لا تيأسوا من مغفرة الله ورحمته، وتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، ولكن تأملوا في فضل الله، وتعرضوا لرحمته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي: إنه تعالى يعفو عن جميع الذنوب لمن تاب وعاد، وإن كانت مثل زبد البحر. هذه الآية أرجا آية في كتاب الله سبحانه لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولاً: أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب أولى، وبفحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك، ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾. قال ابن مسعود: ما في القرآن آية أعظم فرجاً من آية في سورة الفرق - أي الزمر -.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: عظيم المغفرة واسع الرحمة، وظاهر الآية أنها دعوة للمؤمنين إلى عدم اليأس من رحمة الله لقوله: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ﴾ قال ابن كثير: هي دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها مهما

الجُزْءُ الرَّابِعُ وَالعِشْرُونَ — سُورَةُ الزُّمَرِ

أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٥٧ أَوۡ تَقُولَ
حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ
٥٨ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ
مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٩ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى
ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ
٦٠ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ
وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦١ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣ قُلۡ
أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤ وَلَقَدۡ
أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ
لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ
ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ
قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ
مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧

٤٦٥

كثرت. وبعد هذه البشارات العظيمة دعاهم ﷻ إلى العودة والأوبة، فقال:

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ أي: ارجعوا إلى الله، واستسلموا لـه بالطاعة والخضوع، والعمل الصالح، وأنيبوا له بقلوبكم، وأسلموا لـه بجوارحكم، وفي هـذا دليل على وجـوب الإخـلاص لله ﷻ وإفـراد العبادة له وحده دون سواه.

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ من قبل حلول نقمته تعالى بكم، ثم لا تجدون من يمنعكم من عذابه.

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أي: اتبعـوا القرآن العظيـم، بامتثال أوامـره واجتناب نواهيـه، والزموا أحسـن كتاب أنزل إليكم فيه سعادتكم وفلاحكم.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ أي: بادروا بالتوبة والعمـل الصالح، من قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة وأنتم غافلون لا تدرون بمجيئه، لتتداركوا وتتأهبوا، وكل هـذا حث على عبادتـه وانتهاز الفرصة، ثم حذرهم.

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ﴾ لئلّا تقول بعض النفوس التي أسرفت في العصيان:

﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ يا حسـرتي وندامتي على تفريطي وتقصيري في طاعة الله وفي حقه، ويا حسرتا على ما ضيعت من أمره.

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي: وإن الحال والشـأن أنني كنت من المسـتهزئين بشريعة الله ودينه، لم يكفه أن ضيع طاعته حتى سخر من أهلها.

﴿أَوۡ تَقُـولَ لَـوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِـنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ «أو» للتمني أو للتنويع، أي: يقول الكافر والفاجر هذا أو هذا، والمعنى: لو أن الله أرشدني لاهتديـت إلى الحـق، وأطعـت الله، وكنت من عبـاده الصالحين، يتحسر المجرم ويـود لو كان من المحسـنين المخلصين، المطيعين لله ﷻ.

﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: أو تقول تلك النفس الفاجرة حين مشـاهدتها العذاب وتجزم بوروده، لو أن لي رجعة إلى الدنيـا لأعمل بطاعة الله، وأحسن سيرتي وعملي.

﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي﴾ الدالة دلالـة لا يمترى فيها عـلى الحق، فقد جاء الهدى من الله بإرسـاله الرسـل، وإنزاله الكتب.

﴿فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِـنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فكذبـت بالآيات، وتكـبرت عـن الإيـمان، وكنـت من الجاحدين، وفيها إن الكافر أولاً يتحسر، ثم يحتج بحجج واهية، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا، ولو ردّ؛ لعاد إلى ضلاله.

* وختمـت السـورة الكريمة بذكر نفخة الصعق، ثم نفخة البعث والنشور، وما يعقبها من أهوال الآخرة وشدائدها، وتحدثـت عن يوم الحـشر الأكبر، حيث يسـاق المتقون الأبـرار إلى الجنـة زمراً، ويسـاق المجرمـون الأشرار إلى جهنـم زمراً، في مشـهد هائل يحضره الأنبياء والصديقون والشهداء الأبرار، والوجود كله يتجه إلى ربه بالحمد والثناء في خشوع واستسلام. قال تعالى:

﴿٦٠﴾، ﴿٦١﴾ ﴿وَيَـوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِيـنَ كَذَبُـواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡـوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّـمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ۞ وَيُنَـجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّـهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَـةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُـم مُّسۡـوَدَّةٌۚ﴾ ويـوم القيامة، ترى أيهـا المخاطب الذين كذبوا على الله بنسبة الشريك له والولد وجوههم سوداء، مظلمة بكذبهم وافترائهم.

﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ اسـتفهام تقريـري، أليس في جهنـم مقام ومأوى للمستكبرين عن الإيمان، وعن طاعة الرحمـن؟ بلى إن لهـم منزلاً ومـأوى في دار الجحيم. ولما ذكر حال الكاذبين على الله، ذكر حال المتقين لله، فقال:

﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ﴾ وينجي الله المتقين من جهنم وعذابها بسبب فلاحهم وفوزهم بمطلوبهـم، وهو الجنة دار الأبرار.

﴿لَا يَمَسُّـهُمُ ٱلسُّـوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ لا ينالهم هلع ولا جزع ولا يمسـهم من عذاب جهنم شيء، ولا هم يحزنون في الآخرة، بل هم آمنون، فنفى عنهم مبـاشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان.

* ثـم عـاد إلى دلائـل الألوهية والتوحيـد، فيخـبر ﷻ عـن عظمته

وكماله، الموجب لخسران من كفر به، بعد أن أفاض في الوعد والوعيد، فقال:

٦٢-٦٦ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ * لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ * قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ * وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ * بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الله -جل وعلا- خالق جميع الأشياء وموجد جميع المخلوقات، والمتصرف فيها كيف يشاء، لا إله غيره ولا رب سواه.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ وهو القائم على تدبير كل شيء، وإخباره بأنه على كل شيء وكيل، يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته على تدبيرها، وكمال تدبيره، وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: بيده -جل وعلا- مفاتيح خزائن كل الأشياء علماً وتدبيراً، لا يملك أمرها ولا يتصرف فيها غيره.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ والذين كذبوا بآيات القرآن الظاهرة، والمعجزات الباهرة، أولئك هم الخاسرون أشد الخسران.

﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخ، أي: قل -يا محمد- لهؤلاء الجاهلين، الذين دعوك إلى عبادة غير الله، أتامرونني أن أعبد غير الله بعد سطوع الآيات والدلائل على وحدانيته؟ قال ابن كثير: إن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه فنزلت الآية.

﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ اللام موطئة للقسم، أي: والله لقد أوحي إليك -يا محمد- وإلى جميع الأنبياء.

﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي: ولئن أشركت بالله غيره، ليبطلن ويفسدن عملك الصالح.

﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ ولتكونن في الآخرة من جملة الخاسرين بسبب ذلك، لأنه لا يُقبل مع الشرك عمل صالح، وهذا على سبيل الفرض والتقدير، وإلا فالرسول ﷺ قد عصمه الله وحاشاه أن يشرك بالله، وهو الذي جاء لإقامة صرح الإيمان والتوحيد. والكلام وارد على طريقة الفرض لتهييج الرسل، وإقناط الكفرة، والإيذان بغاية شناعة الإشراك وقبحه.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ أخلص -يا محمد- العبادة لله وحده، ولا تعبد أحداً سواه، وفي هذا رد على المشركين حيث أمروه بعبادة الأصنام.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وكن من الشاكرين لإنعام ربك وتوفيقه، فكما أنه تعالى يشكر على النعم الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق وغيره، كذلك يشكر ويثنى عليه بالنعم الدينية، كالتوفيق للإخلاص، والتقوى، بل نعم الدين، هي النعم على الحقيقة، وبها صلاح الحال والمآل.

* ثم ذكرت الآيات جهل المشركين معرفة قدر الله وقدرته، فذكر لهم بعض الشواهد على ذلك، قال تعالى:

٦٧ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ أي: وما عرف هؤلاء المشركون الله حق معرفته، ولا عظموه حق تعظيمه، إذا أشركوا معه غيره، مما لا ينفع ولا يضر، وساووا بينه وبين الحجر والخشب في العبادة، فسووا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم. ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه، فقال:

﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ الجملة حالية، والمعنى: ما عظموه حق تعظيمه، والحال أنه موصوف بهذه القدرة الباهرة، التي هي غاية العظمة والجلال، فالأرض مع سعتها وبسطتها يوم القيامة تحت قبضته وسلطانه.

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ والسموات على سعتها وعظمتها مطويات بيمينه، وفي الحديث: «يقبض الله تعالى الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟» [رواه البخاري] وفي

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ
إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ
٦٨ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ
بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
٦٩ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ٧٠
وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا
فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ
هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
٧١ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى
ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ
زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا
سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَقَالُواْ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ
نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ٧٤

٤٦٦

الآية دليل على إثبات القبضة واليمين، والطيِّ لله، كما يليق بجلاله وعظمته من غير تكييف ولا تشبيه.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ **أي: تنزه الله وتقدس عما يصفه به المشركون من صفات العجز والنقص.**

*** ثم قال - تبارك وتعالى - مخبراً عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة، والزلازل الهائلة:**

﴿٦٨-٧٠﴾ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ **الصور: هو قرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام بأمر الله، والمراد بالنفخة هنا نفخة الصعق، التي تكون بعد نفخة الفزع. قال ابن كثير: وهي النفخة الثانية التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض.**

﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ **أي: فخر ميتاً كل من في السموات والأرض، لما سمعوا نفخة الصور، أزعجتهم من شدتها وعظمها، وما يعلمون أنها مقدمة له.**

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ **إلا من ثبته الله عند النفخة فلم يصعق، كالشهداء أو بعضهم، وغيرهم.**

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ **أي: نفخ فيه نفخة أخرى، وهي نفخة البعث والإحياء.**

﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ **فإذا جميع الخلائق الأموات يقومون من القبور، قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم ينظرون ماذا يؤمرون وماذا يفعل الله بهم.**

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ **وأضاءت أرض المحشر بنور الله يوم القيامة، حين تجلى الباري -جل وعلا- لفصل القضاء بين العباد، لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحق بين أهلها.**

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ **أي: أحضرت صحائف أعمال الخلائق للحساب، وجيء بالأنبياء ليسألهم رب العزة عما أجابتهم به أممهم، وبالشهداء، وهم الحفظة الذين يشهدون على الناس أعمالهم، من الملائكة، والأعضاء، والأرض، وجيء بالنبيين، والشهداء لتكميل الحجة، وقطع المعذرة.**

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ **أي: وقضي بين العباد جميعاً بالقسط العظيم، والعدل التام، وهم في الآخرة لا يظلمون شيئاً من أعمالهم، لا بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب، حيث لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم. وختم الآية بنفي الظلم كما افتتحها بإثبات العدل.**

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ **أي: جوزي كل إنسان بما عمل من خير أو شر.**

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ **أي: هو تعالى أعلم بما عمل كل إنسان، ولا حاجة به إلى كتاب ولا إلى شاهد، ومع ذلك تشهد الكتب إلزاماً للحجة.**

*** لما ذكر تعالى حكمه بين عباده، وفصله واجتماعهم في موقف القيامة، فرقهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر، والتقوى والفجور، وفصل في ذكر مآل كل من الأشقياء والسعداء، فقال:**

﴿٧١﴾، ﴿٧٢﴾ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا

فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ وسيق الكفرة المجرمون إلى نار جهنم جماعات جماعات، متفرقة بعضها في إثر بعض، يساقون سوقاً عنيفاً كما يساق الأشقياء في الدنيا إلى السجون.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ حتى إذا وصلوا إلى ساحتها، فتحت أبواب جهنم السبعة فجأة لتستقبلهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ وقال لهم سدنة جهنم، تقريعاً وتوبيخاً وزجراً: ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم الكتب المنزلة من السماء الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين؟

﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ ويخوفونكم من شر هذا اليوم العصيب؟ وهذا يوجب عليكم اتباعهم، والحذر من عذاب هذا اليوم.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: فأجابوا مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم، قالوا: بلى قد جاؤونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ولكننا كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقاوة، وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم، وقيل للجاحدين إهانة لهم وإذلالاً.

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ قيل لهم على وجه الإهانة والإذلال، ادخلوا جهنم لتصلوا سعيرها ماكثين فيها أبداً، بلا زوال ولا انتقال، كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها.

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فبئس المقام والمأوى جهنم للمتكبرين عن الإيمان بالله وتصديق رسله.

* ثم ذكر حال أهل الجنة في ذلك اليوم المهول، فقال تعالى:

٧٣، ٧٤ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۞ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ وسيق الأبرار المتقون لله إلى الجنة جماعات جماعات، راكبين على النجائب، سوق إكرام وإعزاز وتشريف. المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. قال القرطبي: سوق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان، كما يفعل بالمجرمين الخارجين على السلطان، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، كما يفعل بالوافدين على الملوك فشتان ما بين السوقين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ أي: حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها.

وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمراً، من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم، كل زمرة على حدة، كمشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم، مستبشرين أقوياء القلوب، كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، كذلك يؤنس بعضهم بعضاً، ويفرح بعضهم بعضاً، وكذلك أصحاب الدار الآخرة، النار يساقون إليها زمراً، يلعن بعضهم بعضاً، ويتأذى بعضهم ببعض، وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة. من أن يساقوا واحد واحداً.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ أي: وقال لهم حراس الجنة، تهنئة لهم وترحيباً: سلام عليكم أيها المتقون الأبرار من كل آفة وشر حال عليكم.

﴿طِبْتُمْ﴾ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبته وخشيته، وألسنتكم بذكره، وجوارحكم بطاعته، وطهرتم من دنس المعاصي والذنوب، فادخلوا الجنة دار الخلود، وهي دار طيبة لا يدخلها إلا الطيبون.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ وقالوا عند دخولهم الجنة واستقرارهم فيها: الحمد لله الذي حقق لنا ما وعدنا به من دخول الجنة.

﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾

وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ غَافِرٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ
وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ
تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ
مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ
وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ
كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ
وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ
لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾

أي: وملكنا أرض الجنة نتصرف فيها تصرف المالك في ملكه، وننزل فيها حيث نشاء، لا ينازعنا فيها أحد، فنعم أجر العاملين بطاعة الله الجنة.

* وختمت السورة بذكر حال الملائكة الأبرار وتسبيحهم وتنزيههم لله ﷻ، قال تعالى:

﴿٧٥﴾ ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ وترى -يا محمد- الملائكة في ذلك اليوم العظيم محيطين بعرش الرحمن، محدقين به من كل جانب.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ينزهون الله ويمجدونه وينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله، تلذذاً لا تعبداً، لزوال التكليف.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ وقضي بين العباد بالعدل، بين الأولين والآخرين في الخلق بالحق والعدل فأسكن أهل الإيمان الجنة، وأهل الكفر النار.

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقيل الحمد لله على عدله وقضائه، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة. والقائل هم المؤمنون والكافرون. المؤمنون يحمدون الله على فضله، والكافرون يحمدونه على عدله، نطق الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه، لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل، بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد.

تم تفسير سورة الزمر
والحمد لله

تفسير سورة غافر
وهي مكية

* سورة غافر سورة مكية، تعنى بأمور العقيدة. ويكاد يكون موضوع السورة البارز هو المعركة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ولهذا جاء جو السورة مشحوناً بطابع العنف والشدة، وكأنه جو معركة رهيبة، يكون فيها الطعن والنزال، ثم تسفر عن مصارع الطغاة فإذا بهم حطام وركام.

سميت «سورة غافر» لأن الله تعالى ذكر هذا الوصف الجليل - الذي هو من صفات الله الحسنى - في مطلع السورة الكريمة ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] وكرر ذكر المغفرة في دعوة الرجل المؤمن: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ [غافر: ٤٢] وتسمى «سورة المؤمن» لذكر قصة مؤمن آل فرعون.

ابتدأت السورة الكريمة بالإشادة بصفات الله الحسنى، وآياته العظمى، ثم عرضت لمجادلة الكافرين في آيات الله، فمع وضوح الحق وسطوعه، جادل فيه المجادلون، وكابر فيه المكابرون.

وعرضت السورة لمصارع الغابرين وقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فلم يفلت منهم إنسان، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٣﴾ ﴿حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وللإرشاد على أن هذا القرآن المعجز منظوم من أمثال الحروف الهجائية.

وسورة غافر هي أول سبع سور تبدأ بحرفي ﴿حمٓ﴾ فتسمى ذوات الحاميم أو الحواميم وهي: فصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا القرآن تنزيل من الله المألوه المعبود، لكماله وانفراده بأفعاله.

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ العزيز في ملكه الذي قهر بعزته كل مخلوق، العليم بكل شيء.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ أي: الذي يعفو عن ذنوب العباد، ويقبل توبة العصاة لمن تاب منهم وأناب.

﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ شديد العقاب لمن تكبر وطغى، وتجرأ على الذنوب ولم يتب منها، وأعرض عن طاعة المولى.

قال الحسن: قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ «لمن لم يتب» ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ لمن تاب.

قال ابن عاشور: يجمع للمذنب التائب بين رحمتين بين أن يقبل توبته فيجعلها له طاعة ، وبين أن يمحو عنه بها الذنوب التي تاب منها وندم على فعلها ، فيصبح كأنه لم يفعلها . وهذا فضل من الله.

﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ ذي الفضل والإنعام، والإحسان الشامل، وترك العطف بين ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ لنكتة بديعة، وهي دلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه، تجمع بين شدة العقاب والرحمة والمغفرة. فلما قرر ما قرر من كماله، وكان ذلك موجباً؛ لأن يكون وحده المألوه الذي تخلص له الأعمال، قال تعالى:

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي لا نظير له في جميع صفاته، فلا معبود بحق إلا الله، ولا رب في الوجود سواه.

﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ إليه وحده مرجع الخلائق في اليوم الآخر فيجازيهم بأعمالهم، وإنما قدم المغفرة والتوبة على العقاب، للإرشاد إلى سعة الفضل، وأن رحمته سبقت عذابه.

* ثم لما ذكر أن القرآن هداية الله للعالمين، أعقبه بذكر المجادلين المعاندين، فقال تعالى:

(٤)-(٦) ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۞ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: ما يدفع الحق ويجادل في هذا القرآن - بعد وضوح آياته وظهور إعجازه - إلا الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه، المعاندون لرسله.

﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ فلا تغتر أيها العاقل بتصرفهم وتقلبهم في هذه الدنيا بالمساكن والمزارع، والممالك والتجارات، فإنهم أشقى الناس، وما هم عليه من النعيم متاع قليل، وظل زائل، فإني وإن أمهلتهم لا أهملهم، بل آخذهم بعد ذلك النعيم أخذ عزيز مقتدر، والآية تسلية للنبي ﷺ ووعيد شديد للكفار. ثم هدد من جادل بآيات الله ليبطلها، كما فعل من قبله من الأمم، فقال تعالى:

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ أي: كذب قبل كفار مكة أقوام كثيرون، منهم قوم نوح والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم، ولم يقبلوا ما جاؤوا به من عند الله، كقوم عاد وثمود وفرعون وأمثالهم.

﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ أي: وبلغت بهم الحال أن حرصت كل أمة من هذه الأمم المكذبين أن يقتلوا رسولهم ويبطشوا به بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله. والأخيذ: الأسير.

﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ وجادلوا رسلهم بالباطل ليزيلوا به الحق الواضح الجلي ويبطلوه.

﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ أي: فأهلكتهم إهلاكاً مريعاً.

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ استفهام تعجب، أي: فكيف كان عقابي لهم؟ ألم يكن شديداً فظيعاً؟

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وكذلك وجبت وثبتت كلمة العذاب على هؤلاء المكذبين من قومك، كما وجبت لمن سبقهم من الكفار.

﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: لأنهم مستحقون للنار، أي: كما حق على الأمم التي كذبت رسلها وحل بها عقابي، كذلك وجبت كلمة العذاب، على الذين كفروا بالله من قومك؛ لأنهم أصحاب النار.

* وفي ثنايا هذا الجو الرهيب، يأتي مشهد حملة العرش، في دعائهم الخاشع المنيب للملك الديان، يغمرهم رهبة وخشوع، وإذا القلوب لدى الحناجر تكاد لشدة الفزع والهول تنخلع، وفي ذلك الموقف الرهيب، واليوم العصيب، يلقى الإنسان جزاءه إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر. ويخبر سبحانه عن كمال لطفه تعالى بعباده المؤمنين وما قيض من الأسباب لسعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم، من استغفار الملائكة المقربين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم، وفي ضمن ذلك، الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله.

رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ
مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ
أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ
أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ
إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ
وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ
ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ
مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤ رَفِيعُ
ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ
مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦

وقربهم من ربهم، وكثرة عبادتهم، ونصحهم لعباد الله؛ لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم، فقال:

(٧)-(٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ * وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ **إخبار عن الملائكة الذين يحملون عرش الرحمن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها، وأقربها من الله تعالى، الذي وسع الأرض والسموات والكرسي.**

﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ **أي: هؤلاء العباد المقربون - حملة العرش - ومن حول العرش من أشراف الملائكة وأكابرهم، ممن لا يحصي عددهم إلا الله، هم في عبادة دائبة لله، ينزهونه عن صفات النقص، ويثنون عليه بصفات الكمال. ولا يخفى أن حملة العرش وجميع المؤمنين يؤمنون بالله، لكن ذكر أنهم يؤمنون به؛ لإظهار فضيلة الإيمان وشرفه والترغيب فيه.**

﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ **ويصدقون بوجوده تعالى، وبأنه لا إله لهم سواه، ولا يستكبرون عن عبادته، فهم خاشعون له، أذلاء بين يديه، ولا يخفى أن حملة العرش وجميع الملائكة يؤمنون بالله؟ لكن ذكر أنهم يؤمنون به، لإظهار فضيلة الإيمان وشرفه والترغيب فيه.**

﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ **وهم مع عبادتهم واستغراقهم في تسبيح الله وتمجيده، يطلبون من الله المغفرة للمؤمنين، وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جداً، أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، قائلين:**

﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ **أي: يا ربنا وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، فرحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم، وحركاتهم وسكناتهم.**

وفي وصف الله تعالى بالرحمة والعلم - وهو ثناءٌ قبل الدعاء - تعليم العباد أدب السؤال والدعاء، فهم يبدؤون دعاءهم بأدب، ويستمطرون إحسانه وفضله وإنعامه.

﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ **أي: فاصفح عن المسيئين المذنبين، التائبين عن الشرك والمعاصي، المتبعين لسبيل الحق الذي جاء به أنبياؤك ورسلك. قال ابن الجوزي: علمت الملائكة أن الله ﷻ يحب عباده المؤمنين، فتقربوا بالشفاعة فيهم، وأحسن القرب أن يسأل المحب إكرام حبيبه، فإنك لو سألت شخصاً أن يزيد في إكرام ولده لارتفعت عنده، حيث تحثه على إكرام محبوبه.**

﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ **أي: وزحزحهم عن عذاب جهنم واحفظهم من أسبابه.**

﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ **وأدخلهم جنات النعيم والإقامة التي وعدتهم إياها على ألسنة رسلك.**

﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ **أي: وأدخل الصالحين من الآباء والأزواج والأولاد في جنات النعيم أيضاً ليتم سرورهم بهم، وأجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في الجنة بمنازل متجاورة.**

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ **أي: العزيز الذي لا يغلب ولا يمتنع**

عليه شيء، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هذا من تمام دعاء الملائكة، أي: احفظهم يا رب من فعل المنكرات والفواحش التي توبق أصحابها.

﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ أي: ومن حفظته من نتائجها وعواقبها يوم القيامة، فقد لطفت به ونجيته من العقوبة.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وذلك الغفران ودخول الجنان، هو الظفر العظيم الذي لا ظفر مثله.

* ولما تحدث -جل وعلا- عن أحوال المؤمنين، ذكر شيئاً من أحوال الكافرين أصحاب النار، وأنها حقت عليهم كلمة العذاب، وذكر سبحانه أحوالهم بعد دخولهم النار من الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة، والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال تعالى:

(١٠)-(١٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ * قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ * ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ * هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ * فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تناديهم الملائكة يوم القيامة على جهة التوبيخ والتقريع: لبغض الله الشديد لكم في الدنيا أعظم من بغضكم اليوم لأنفسكم.

﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أي: حين كنتم تدعون إلى الإيمان فتكفرون كبراً وعتواً. قال قتادة: بغض الله لأهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي: قال الكفار لما رأوا الشدائد والأهوال ربنا أمتنا مرتين، وأحييتنا مرتين.

﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ فاعترفنا بما جنيناه من الذنوب في الدنيا من تكذيب الرسل، والإشراك بالله، وترك توحيده، فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وقد جعلوا اعترافهم هذا مقدمة لقولهم.

﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: يقولونها مقولة تحسر وندم، فهل تردنا يا رب إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؟ وهل تخرجنا من النار لنسلك طريق الأبرار؟ قال المفسرون: الموتة الأولى حين كانوا في العدم، والموتة الثانية حين ماتوا في الدنيا، والحياة الأولى حياة الدنيا، والحياة الثانية حياة البعث يوم القيامة، فهاتان موتتان وحياتان، وإنما قالوا ذلك على سبيل التعطف والتوسل إلى رضى الله، بعد أن عاينوا العذاب، وقد كانوا يكفرون وينكرون، ولهذا جاء الجواب.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ أي: ذلكم العذاب والخلود في جهنم بسبب كفركم وعدم إيمانكم بالله، فإذا دعيتم إلى التوحيد كفرتم به، واشمأزت لذلك قلوبكم، ونفرتم غاية النفور.

﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ وإن دعيتم إلى اللات والعزى وأمثالها من الأصنام، آمنتم وصدقتم بألوهيتها.

﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ أي: فالقضاء لله وحده، لا للأوثان والأصنام، ولا سبيل إلى نجاتكم؛ لأن الله هو المتعالي على خلقه، العظيم في ملكه، الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

ولما ذكر تعالى ما يوجب التهديد الشديد للمشركين، أردفه بذكر نعمه العظيمة على عباده، ما يدل على كمال قدرته وحكمته، ليصير بمنزلة البرهان على عدم جواز عبادة الأوثان، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: الله -جل وعلا- هو الذي يريكم أيها الناس العلامات الدالة على دلائل توحيده، وعلى قدرته الباهرة في مخلوقاته، في العالم العلوي والسفلي الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، من الريح والسحاب، والرعد والبرق والصواعق، ونحوها. ولما ذكر أنه يُري عباده آياته، نبه على آية عظيمة، فقال:

﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ وينزل لكم من السماء المطر

الجزء الرابع والعشرون سورة غافر

ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ
ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ
لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ
يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ
يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ
بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ
كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ
بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ
كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ
إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا
وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ
فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ
عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ
نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾

٤٦٩

الذي هو سبب الرزق، وبه تخرج الزروع والثمار، وذلك يدل على أن النعم كلها منه سبحانه، فمنه نعم الدين، والنعم الدنيوية. وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود، الذي يتعين إخلاص الدين له، كما أنه - وحده - المنعم. وقد جمع سبحانه بين إظهار الآيات وإنزال الأرزاق؛ لأن بإظهار الآيات قوام الدين، وبالأرزاق قوام الأبدان.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ وما يعتبر ويتعظ بهذه الآيات الباهرة، إلا من يرجع إلى الله بالتوبة والإنابة، والعمل الصالح البعيد عن الرياء والنفاق، فيستدل بها على التوحيد، وصدق الوعد والوعيد. ولما كانت الآيات تثمر التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص لله، رتب على ذلك بالفاء الدالة على السببية، فقال:

﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: فاعبدوا الله أيها المؤمنون المنيبون، مخلصين له العبادة والطاعة، ولا تعبدوا معه غيره.

﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ هذه للمبالغة، أي: اعبدوه وأخلصوا له قلوبكم، حتى ولو كره الكافرون ذلك، وغاظهم إخلاصكم وقاتلوكم عليه.

* ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له، فقال سبحانه:

﴿١٥-١٧﴾ ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ * يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ * ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي: العلي الأعلى، عظيم الشأن والسلطان، صاحب الرفعة والمقام العالي.

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: صاحب العرش العظيم، الذي هو أعظم المخلوقات، ولا شيء يشبهه من مخلوقات الله، وأخبر تعالى عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها، وقد ذكر أن العرش من ياقوته حمراء ولا يعلم سعته إلا الله.

﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ أي: ينزل الوحي على من شاء من خلقه، ويختص بالرسالة والنبوة من أراد من عباده، فيكونون على بصيرة من أمرهم. وإنما سمى الوحي روحاً؛ لأنه يسري في القلوب كسريان الروح في الجسد، وسماه روحاً؛ لأن الناس يحيون به من موت الكفر، كما تحيا الأبدان بالأرواح.

﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي: ليخوف الرسول الموحى إليه يوم القيامة الكبرى، حيث يجمع أهل السماء بأهل الأرض، والخالق والخلق، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم.

﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي: يوم هم ظاهرون على الأرض، بادون للعيان، لا شيء يكنّهم ولا يظلهم ولا يسترهم من جبل أو أكمة أو بناء؛ لأنهم في أرض مستوية هي أرض المحشر.

﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞ﴾ لا يخفى على الله شيء من أحوالهم وأعمالهم، ولا من سرائرهم وبواطنهم. والحكمة في تخصيص ذلك اليوم - مع أن الله لا يخفى عليه شيء في سائر الأيام - أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم إذا استتروا بالحيطان مثلاً لا يراهم الله، وفي هذا اليوم لا يتوهمون هذا التوهم.

﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: ينادي الله سبحانه والناس بارزون في أرض المحشر: لمن الملك اليوم؟ ويسكت الخلائق هيبة لله تعالى وفزعاً، فيجيب تعالى نفسه قائلاً:

﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ أي: لله المتفرد بالملك، الذي قهر بالغلبة كل

ما سواه. قال الحسن: هو تعالى السائل وهو المجيب؛ لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه، فيجيب نفسه.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ لما قرر سبحانه أن الملك له وحده في ذلك اليوم عدد نتائج ذلك في ثلاثة أمور، أي: في ذلك اليوم - يوم القضاء والفصل بين العباد - تجازى كل نفس بما عملت من خير أو شر، وهذا أول الأمور.

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: لا يظلم أحد شيئاً، لا بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب، وهذا ثاني الأمور.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ثالث الأمور: أي: سريع حسابه، لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسب الخلائق جميعاً في وقت واحد، قال القرطبي: كما يرزقهم في ساعة واحدة، يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة، وفي الحديث: «لا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار»

[رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين].

* وتستمر مشاهد الآخرة، والتخويف من هول وشدة يوم القيامة، قال تعالى:

﴿١٨﴾-﴿٢٠﴾ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ * وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ أي: خوفهم -يا محمد- ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة، وإن استبعدوه، والآزفة اسم من أسماء القيامة، سميت بذلك لقربها.

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ أي: تكاد قلوبهم لشدة الخوف والجزع تبلغ الحناجر - وهي الحلوق - مكان البلعوم.

﴿كَـٰظِمِينَ﴾ أي: ممتلئين غماً وحسرة شأن المكروب. ومعنى الآية: أن القلوب قد صعدت من الصدور لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر، ويحتمل أن يكون ذلك حقيقة أو مجازاً عبر به عن شدة الخوف.

﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: ليس للظالمين قريب ولا صاحب وصديق ينفعهم، ولا شفيع يشفع لهم لينقذهم من شدة العذاب؛ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم فلا يقبلها.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ أي: يعلم -جل وعلا- العين الخائنة بمسارقتها النظر إلى محرم. قال ابن عباس: هو الرجل يكون جالساً مع الناس، فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها.

﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ أي: ويعلم السر المستور الذي تخفيه الصدور، من أمانة وخيانة، فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يقضي ويحكم بالعدل، فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير وشر.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ أي: والذين يعبدونهم من دون الله من الأوثان والأصنام وغيرها، لا حكم لهم أصلاً لأنهم لا يعلمون شيئاً، ولا يقدرون على شيء، فكيف يكونون شركاء لله؟ وهذا تهكم بهم؛ لأن الجماد لا يقال في حقه يقضي أو لا يقضي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي: هو السميع لأقوال العباد، البصير بأفعالهم، وهذا تقرير لقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾.

* لما خوفهم الله بأحوال الآخرة وشدة الحساب، أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا وما يقع فيها من العقوبات، فقال تعالى:

﴿٢١﴾،﴿٢٢﴾ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أولم يسر في الأرض هؤلاء المكذبون برسالتك - يا محمد، يسيروا بقلوبهم وأبدانهم، سير نظر واعتبار، وتفكر في الآثار.

﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فينظروا ما حل بالمكذبين من العذاب والنكال؟ فإن العاقل من اعتبر بغيره.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ
أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾
وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ
بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ
يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ
جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ
كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ
ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ
إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ
إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ
عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ
وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾
وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ
مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

٤٧٠

﴿كَانُوٓا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ **أي: كانوا أشدة قوة من هؤلاء الكفار من قومك، وأقوى آثاراً في الأرض من الحصون والقصور والجند الأشداء، ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، أهلكهم الله لما كذبوا الرسل.**

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ **أي: أهلكهم الله إهلاكاً فظيعاً بسبب إجرامهم وتكذيبهم رسل الله، وما كان لهم أحد يدفع عنهم عذاب الله، ولا يقيهم من عقابه. ثم ذكر تعالى سبب عقابه لهم، فقال:**

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ **أي: ذلك العذاب الذي حل بالمكذبين السابقين، بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات الباهرات، والآيات الساطعات الواضحات.**

﴿فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ **أي: فكفروا مع هذا البيان والبرهان فأهلكهم الله ودمرهم.**

﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ **أي: إنه تعالى ذو قوة عظيمة، قوي لا يقهر، عقابه شديد لمن عصاه، وعذابه أليم وجيع.**

*** ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام، حيث قصة الإيمان والطغيان، ممثلة في دعوة موسى عليه السلام لفرعون الطاغية الجبار، ففرعون يريد - بكبريائه وجبروته - أن يقضي على موسى وأتباعه خشية أن ينتشر الإيمان بين الأقوام. وتبرز في ثنايا هذه القصة حلقة جديدة، لم تعرض في قصة موسى من قبل، ألا وهي ظهور رجل مؤمن من آل فرعون يخفي إيمانه، يصدع بكلمة الحق في تلطف وحذر، ثم في صراحة ووضوح، وتنتهي القصة بهلاك فرعون الطاغية الجبار بالغرق في البحر مع أعوانه وأنصاره، وبنجاه الداعية المؤمن وسائر المؤمنين، قال تعالى:**

﴿٢٣﴾-﴿٢٧﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ **اللام موطئة للقسم أي: والله لقد بعثنا رسولنا موسى بالآيات البينات، والدلائل الواضحات، وبالبرهان البين الظاهر وهو معجزة اليد والعصا ونحوهما من الآيات البينات.**

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾ **إلى فرعون الطاغية الجبار وهو ملك القبط بالديار المصرية، ووزيره في مملكته هامان، وقارون وكان صاحب كنوز وأموال، وخصَّ قارون وهامان بالذكر لمكانتهما في الكفر؛ ولأنهما أشهر أتباع فرعون.**

﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ **أي: فقالوا عن موسى إنه ساحر فيما أظهر من المعجزات، كذاب فيما ادعاه أنه من عند الله، وصيغة كذاب للمبالغة.**

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ **أي: فلما جاءهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على صدقه، والتي أيده الله بها، الموجبة لتمام الإذعان، لم يقابلوها بذلك، ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها**

ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن:

﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: اقتلوا الذكور لئلَّا يتناسلوا، واستبقوا الإناث للخدمة، وهــذا القتل غير الأول؛ لأن فرعون بعد ولادة موسـى أمسك عن قتل الأولاد، فلما بعث موسـى وعجز عـن معارضته أعـاد القتل في الأولاد ليمتنع الناس مـن الإيمان، ولئلَّا يكثر جمعهـم فيكيدوه، فأرسـل الله عليهم أنواع العـذاب كالضفـادع والقُمَّل والـدم والطوفان، إلى أن خرجـوا مـن مصـر فأغرقهـم الله تعالى وجعل كيدهم في نحورهم.

﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: وما تدبيرهم ومكرهم إلا في خسران وهلاك؛ لأن الله لا ينجح سعيهم.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: قال فرعون متكبراً متجـبراً مغروراً لقومه السـفهاء، أتركوني حتـى أقتل لكم موسـى، وليناد ربه حتى يخلصه مني، وإنما ذكره على سبيل الاستهزاء، وكأنه يقول: لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى، وغرضه أن يوهمهم بأنه إنما امتنع عن قتله رعاية لقلوب أصحابه. قال بعض المفسرين: والظاهر أن فرعون لعنه الله وكان قتَّالاً سـفَّاكاً للدماء لأهـون شيء، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه يثل عرشـه ويهـدم ملكـه، ولكنه يخـاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك، وكان كلامه

للتمويه على قومـه وإيهامهم أنهم هم الذين يكفونه، وما كان يكفه إلا شدة الخوف والفزع، ثـم ذكر الحامل على إرادة قتله، وأنه نصـح لقومه، وإزالة للشر في الأرض، فقال:

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ أي: وإني أخشـى أن يغير ما أنتم عليه من عبادتكـم لي، إلى عباده ربه، أو أن يثير الفتن والقلاقل في بلدكم، ويكون بسببه الهرج، وخرج بهذا واعظاً لقومه.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ رداً على مقالة فرعـون تلـك المقالة الشـنيعة، التي أوجبها له طغيانه، واستعان فيها بقوته واقتداره، قال موسى مستعيناً بربه.

﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾ أي: إني استجرت بالله واعتصمت به ليحفظني.

﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: من شر كل جبار عنيد متكبر عـن الإيمان بالله، لا يصدق بالآخـرة. وإنما قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ ولم يذكره باسـمه ليشـمل فرعـون وغيره، وليكـون فيه وصف لغير فرعون بذلك الوصف القبيح.

* ثم ذكر الله ﷻ أنه منعه وحفظه بلطفه مـن كل متكـبر لا يؤمن بيوم الحسـاب، وتبقى له من الأسـباب ما اندفع به عنه شر فرعون، وملئه، ومن جملة الأسباب هذا الرجل الذي ذكره سبحانه، فقال:

﴿٢٨﴾، ﴿٢٩﴾ ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۞ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ كان هذا الرجل ابن عم فرعـون، وكان قبطياً يُخفي إيمانه عن فرعون، اجتمعـت له الثلاث الصفات: الإيـمان، وأنه مـن آل فرعـون، ويكتم إيمانـه، فلما سـمع قول الجبـار متوعداً موسى بالقتل، نصحهم بقوله:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ اسـتفهام إنـكاري للتبكيـت عليهم، أي: أتقتلون رجلاً لا ذنب له إلا لأجل أن قال ربي الله، من غير تفكر ولا تأمل في أمره؟

﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: والحال أنـه قد أتاكم بالمعجزات الظاهرة التي شـاهدتموها من عند ربكم الدالة على صدقه.

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ احتج عليهم بطريق التقسـيم فإنه لا يخلو مـن أن يكون كاذبـاً أو صادقاً، فـإن كان كاذبـاً في دعوى الرسـالة فضرر كذبـه لا يتعداه. قال القرطبي: ولم يكن ذلك لشـك منه في رسـالته

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى
شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ
مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ
أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ
وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ
وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ
يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ
إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ
دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ
وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

٤٧١

وصدقه، ولكن تلطفاً في الاستكفاف، واستنزالاً عن الأذى.

﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي: وإن كان صادقاً في دعواه أصابكم بعض ما وعدكم به من العذاب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ هذا من تمام كلام الرجل المؤمن، أي: لا يوفق للهداية والإيمان من هو مسرف في الضلال، مبالغ في الكذب على الله، وفي هذا إشارة إلى رفع شأن موسى؛ لأن الله هداه وأيده بالمعجزات، وتعريض بفرعون في أنه مسرف في عزمه على قتل موسى، كذاب في إقدامه على ادعاء الإلهية، والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته، بل يبطله ويهدم أمره، وفي الآية نسمات من علم البيان، فمؤمن آل فرعون جاءهم من باب النصح والملاطفة، فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يذكر اسمه بل قال رجلاً ليوهمهم أنه لا يعرفه، ثم قال: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل رجلاً مؤمناً بالله أو هو نبي الله؛ إذ لو قال ذلك لعلموا أنه متعصب ولم يقبلوا قوله، ثم أتبعه بقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ فقدم الكذب على الصدق موافقة لرأيهم فيه، ثم تلاه بقوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ ولم يقل هو صادق، وكذلك قال: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ ولم يقل كل ما يعدكم، ولو قال ذلك لعلموا أنه متعصب له، وأنه يزعم نبوته وأنه يصدقه، ثم أتبعه بكلام يفهم منه أنه ليس بمصدق له، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وفيه تعريض بفرعون، إذ هو في غاية الإسراف والكذب على الله، إذ ادعى الألوهية والربوبية.

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كرر الرجل المؤمن النصح مع التلطف، والمعنى: يا قوم لكم السلطان اليوم، أنتم غالبون عالون على بني إسرائيل في أرض مصر، قد قهرتموهم واستعبدتموهم اليوم، فراعو هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله وعذابه إن كذبتم رسوله.

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي: فمن ينقذنا من عذاب الله وينجينا منه إن قتلتم رسوله، قال الرازي: ﴿يَنصُرُنَا﴾ و﴿جَآءَنَا﴾ لأنه كان يظهر لهم أنه منهم، وأن الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه، وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركاً بينه وبينهم، ليفهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

وهنا تأخذ فرعون العزة بالإثم، ويستبد به الجبروت والطغيان، ويوهم قومه أنه لهم من النصيحة، والرعاية بمكان مكين، وأنه لا يسلك بهم إلا طريقاً يكون فيه جلب النفع لهم، ودفع الضر عنهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ قال فرعون معارضاً له في ذلك، أي: ما أشير عليكم برأي سوى ما ذكرته من قتل موسى حسماً لمادة الفتنة.

﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ وما أهديكم بهذا الرأي إلا طريق الصواب والصلاح.

* ثم كرر ذلك الرجل المؤمن من آل فرعون تذكيرهم، وحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم، فقال الله حاكياً عنه:

﴿٣٠﴾-﴿٣٥﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَٰقَوْمِ

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ * يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ * وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ * ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أي: قال الذي آمن مكرراً دعوة قومه، غير آيس من هدايتهم، يا قوم أخشى عليكم مثل أيام العذاب التي عذب بها المتحزبون على الأنبياء واجتمعوا على معارضتهم ثم بينهم، فقال:

﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ هذا تفسير للأحزاب، أي: مثل عادة قوم نوح وعاد وثمود وما أصابهم من العذاب والدمار بتكذيبهم لرسلهم.

﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: والمكذبين بعد أولئك كقوم لوط.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ أي: لا يعاقب العباد دون ذنب، أو جريرة، وإن دمر عليهم فإن تدميرهم كان عدلاً وقسطاً منه تعالى؛ لأنهم استوجبوه بأعمالهم، وفيه مبالغة حيث جعل المنفي إراده الظلم، ومن كان بعيداً عن إرادة الظلم، كان عن الظلم أبعد.

ولما خوفهم مؤمن آل فرعون العقوبات الدنيوية، خوفهم العقوبات الأخروية، فقال:

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ خوفهم بعذاب الآخرة بعد أن خوفهم بعذاب الدنيا، والمعنى إني أخاف عليكم من ذلك اليوم الرهيب يوم الحشر الأكبر، حيث ينادى المجرمون بالويل والثبور.

﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ أي: تولون منصرفين منهزمين من هول عذاب جهنم. قال المفسرون: إن الكفار إذا سمعوا زفير النار أدبروا هاربين، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة يتلقونهم يضربون وجوههم، فيرجعون إلى مكانهم فتتلقفهم جهنم.

﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ أي: ليس لكم مانع ولا دافع يصرف عنكم عذاب الله.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ أي: ومن يضلله الله فليس له من يهديه إلى طريق النجاة؛ لأن الهدى بيد الله تعالى.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: يا أهل مصر، والله لقد جاءكم يوسف بن يعقوب، من قبل موسى بالمعجزات الظاهرات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له.

﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أي: فلم تزالون في حياته، شاكين في رسالته، كافرين بما جاء به من عند الله.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا﴾ أي: حتى إذا مات يوسف قلتم على سبيل التشهي والتمني من غير حجة ولا برهان، لن يأتي أحد يدعي الرسالة بعد يوسف، وليس هذا تصديقاً لرسالة يوسف، كيف وما زالوا في شك منه، وإنما المعنى لا رسول من عند الله فيبعثه إلى الخلق، ففيه نفي الرسول ونفي بعثته، فكفروا به في حياته، وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ أي: مثل ذلك الضلال الفظيع يضل الله كل مسرف في العصيان، شاك في الدين، بعد وضوح الحجج والبراهين.

ثم ذكر وصف المسرف الكذاب، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ هذا في تتمة كلام الرجل المؤمن، والمعنى الذين يجادلون في شريعة الله بغير حجة وبرهان جاءهم من عند الله.

﴿كَبُرَ مَقۡتًا﴾ ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم، كأنه خارج عن حد أمثاله من الكبائر.

﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: عظم بغضاً عند الله وعند المؤمنين جدالهم بغير برهان، وقد عدل الواعظ عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب، لحسن محاورته لهم، واستجلاب قلوبهم، لئلا يفجأهم بالخطاب.

۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾
تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ
عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا
تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ
وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ
﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ
إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟
وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ
عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ
فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ
فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ
تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ
بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ
ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ **أي: كما ختم على قلوب هؤلاء المجادلين، كذلك يختم بالضلال على قلب كل متكبر عن الإيمان، متجبر على العباد، حتى لا يعقل الرشاد، ولا يقبل الحق، وإنما وصف القلب بالتكبر والجبروت لكونه مركزهما ومنبعهما، وهو سلطان الأعضاء، فمتى فسد فسدت.**

*** ثم ذكر سبحانه فرعون وعتوه، وتمرده وافترائه، في تكذيبه موسى ﵇، فقال تعالى حكاية عن فرعون:**

﴿٣٦﴾، ﴿٣٧﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۞ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ **أي: لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، وخاف فرعون أن يتمكن كلامه في قلوب القوم، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد، فأمر وزيره هامان ببناءٍ عظيم مرتفع، قال فرعون مكذباً لموسى في دعوته إلى الإقرار برب العالمين والتسليم له، حيث قال لوزيره هامان: ابن لي قصراً عالياً، وبناءً شامخاً منيفاً.**

﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ **أي: لعلي أصل وأنتهي إلى طرق السموات وما يؤدي إليها، وكررها للتفخيم والبيان.**

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ **فأنظر إلى إله موسى نظر عيان.**

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ **وإني لأعتقد موسى كاذباً في إدعائه أن له إلهاً غيري. وبلوغ أسباب السموات غير ممكن، لكن فرعون أبرزه في صورة الممكن تمويهاً على سامعيه، ولما قال: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ كان ذلك إقراراً بالإله فلذلك استدرك هذا الإقرار بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾.**

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ **أي: مثل ذلك التزيين، زُيّن لفرعون عمله السيء حتى رآه حسناً.**

﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ **أي: ومنع بضلاله عن طريق الهدى ومع كل محاولات الصد عن دين الله فإن مآله في النهاية إلى خسران.**

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ **أي: وما تدبير فرعون ومكره إلا في خسار وهلاك، خسر ملكه في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بالخلود في النار.**

*** وتستمر مداولات الكلام والنصائح بين مؤمن آل فرعون وقوم فرعون، حيث يدعو إلى الله ﷻ معيداً نصيحته لقومه:**

﴿٣٨﴾-﴿٤٠﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۞ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۞ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ **كرّر مؤمن آل فرعون نصحه لهم بعد تلك المراوغة التي لقيها من فرعون، ودعا قومه إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وكشف لهم عن قيمة الحياة الزائلة، وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية، وحذرهم من عذاب الله، ومعنى الآية: امتثلوا يا قوم أمري واسلكوا طريقي، أرشدكم طريق الفوز والنجاة طريق الجنة.**

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ **ناداهم واستثار همتهم بندائه يا**

قوم، أي: يا قوم ليست الدنيا إلا متاعاً زائلاً، لا ثبات له ولا دوام، فلا تغرنكم وتخدعنكم عمّا خلقتم له. والمتاع: هو ما يتمتع به صاحبه برهة ثم ينقطع ويفنى، فما عيبت الدنيا بأبلغ من ذكر فنائها وتقلب أحوالها، فإنما هي أيام وتنقضي، وساعات تمر مر السحاب وتنتهي.

﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ وإن الدار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود، التي لا زوال لها، ولا انتقال منها، ولا ظعن عنها إلى غيرها، فإما خلود في النعيم، أو خلود في الجحيم، ومراده بالدار الآخرة الجنة والنار؛ لأنهما لا يفنيان.

﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ أي: من عمل في هذه الدنيا سيئة من شرك أو فسوق أو عصيان، فلا يعاقب ولا يعذب في الآخرة إلا بمقدارها دون زيادة، رحمة منه تعالى بالعباد.

﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ أي: ومن فعل في الدنيا العمل الصالح سواء كان ذكراً أو أنثى بشرط الإيمان والتوحيد وإخلاص العبادة لله.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: فأولئك المحسنون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، يدخلون جنات النعيم، ويعطون جزاءهم بغير تقدير، بل أضعافاً مضاعفة فضلاً من الله وكرماً، فقد اقتضى فضله تعالى أن تضاعف الحسنات دون السيئات، ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: لا يتقدر بجزاء، بل يثيبه الله ثواباً كثيراً عظيماً، لا انقضاء له ولا نفاد.

* ولا يزال الحديث عن مؤمن آل فرعون يدعو قومه ويتلطف بهم ويوضح لهم، وصرح بإيمانه، ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامه لهم أنه منهم، وأنه إنما تصدى التذكير كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى.

﴿٤١﴾-﴿٤٦﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ * تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ * فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ * فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ * ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾.

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: ما لي أدعوكم إلى الإيمان الموصل إلى الجنان وذلك باتباع رسوله موسى، وتدعونني إلى الكفر الموصل إلى النار؟ والاستفهام للتعجب، كأنه يقول: أنا أتعجب من حالكم هذه، أدعوكم إلى النجاة والخير، وتدعونني إلى النار والشر؟ ثم وضح ذلك وفسره، بقوله:

﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ تدعونني للكفر بالله، وأن أعبد ما ليس لي علم بربوبيته، وما ليس بإله كفرعون.

﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ وأنا أدعوكم إلى عبادة الله الواحد الأحد، العزيز الذي لا يغلب، الغفار لذنوب العباد، وتكرير النداء لزيادة التنبيه لهم والإيقاظ عن سنة الغفلة.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: حقاً يقيناً أن ما تدعونني لعبادته من الأصنام والأنداد، لا يصلح أن يُعبد؛ لأنه لا يستجيب لنداء داعيه، ولا يقدر على تفريج كربته لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: وأن مرجعنا إلى الله وحده فيجازي كلا بعمله، وإن المسرفين في الضلال والطغيان سيخلدون في النار.

فلما نصحهم وحذرهم وأنذرهم، ولم يطيعوه ولا وافقوه، قال لهم:

﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ أي: فستذكرون صدق كلامي عندما يحل بكم العذاب، وتعلمون أني قد بالغت في نصحكم، وتذكيركم، وفي هذا الإبهام من التخويف والتهديد ما لا يخفى.

﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أتوكل على الله، وأسلم أمري وألجأ إليه وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم؛ هذا عندما هددوه وأرادوا قتله.

قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ
قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ٥٠
إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ
وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٥٢ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى
ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٥٣ هُدٗى
وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٤ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ
حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ
وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٥٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ
مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡبَصِيرُ ٥٦ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ
خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧
وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ٥٨

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي: هو سبحانه مطلع على أعمالهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته فإن سلطكم عليَّ، فبحكمة منه تعالى، وعن إرادته ومشيئته صدر ذلك.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ أي: فوقى ونجا القوي الرحيم؛ ذلك الرجل المؤمن الموفق من شدائد مكرهم، ومن أنواع العذاب الذي أرادوا إلحاقه به.

وفيه دليل على أن من فوض أمره إلى الله ﷻ كان الله معه.

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ ونزل بفرعون وجماعته أسوأ العذاب، وهو الغرق في الدنيا، والحرق في الآخرة. ثم فسره بقوله:

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ أي: النار يحرقون بها صباحاً ومساء، والمراد بالنار هنا، نار القبر وعذابهم في القبور بدليل قوله بعده:

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: ويوم القيامة يقال للملائكة: أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم التي هي أشد من عذاب الدنيا.

* ثم يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار، وعتاب بعضهم بعضاً، واستغاثتهم بخزنة النار، وعدم الفائدة في ذلك، فقال:

﴿٤٧﴾-﴿٥٠﴾ ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ * قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾.

﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: واذكر حين يختصم الرؤساء والأتباع في نار جهنم.

﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ أي: فيقول الأتباع الضعفاء للرؤساء المستكبرين عن الإيمان وأتباع الرسل، إنا كنا لكم في الدنيا أتباعاً كالخدم ننقاد لأوامركم، ونطيعكم فيما تدعوننا إليه من الكفر والضلال.

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ فهل أنتم دافعون عنا جزءاً من هذا العذاب الذي نحن فيه؟ وهم قد علموا أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف، وإنما مقصودهم من هذا الكلام المبالغة في تخجيل الرؤساء، وإيلام قلوبهم؛ لأنهم سعوا في إيقاعهم في أنواع الضلالات.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾ أي: قال الرؤساء جواباً لهم، ومبينين لعجزهم، ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع: إنا جميعاً في نار جهنم لكل قسطه من العذاب، فلو قدرنا على إزالة العذاب عنكم لدفعناه عن أنفسنا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ أي: قضى قضاءً مبرماً لا مرد له، بدخول المؤمنين الجنة، والكافرين النار، فلا نستطيع أن نفعل لكم شيئاً.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ لما يئس أهل النار بعضهم من بعض، التجؤوا إلى حراس جهنم وطلبوا منهم التخفيف، وإنما وضعت جهنم موضع الضمير ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ بدلاً من «لخزنتها» للتهويل والتفظيع.

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: ادعوا لنا الله أن

يخفف عنا ولو مقدار يوم واحد من هذا العذاب، لعله تحصل بعض الراحة.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: أجابتهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتقريع: ألم تأتكم الرسل بالمعجزات الظاهرات فكفرتم بهم وكذبتموهم؟

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي: قال الكافر نعم جاؤونا بالبينات، وقامت علينا حجة الله البالغة، فظلمنا وعاندنا الحق بعدما تبين.

﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْ﴾ أي: قالت لهم الملائكة: فادعوا الله أنتم فإنا لا نجترئ على ذلك. وليس قولهم: ﴿فَٱدۡعُواْ﴾ لرجاء المنفعة، ولكن للدلالة على الخيبة، فإن الملائكة المقربين إذا لم يُسمع دعاؤهم، فكيف يسمع دعاء الكفار؟ ثم يصرحون لهم بأنه لا أثر لدعائهم فيقولون:

﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ قال خزنة جهنم لهم توبيخاً، دعاؤكم لا ينفع ولا يُجدي، لأن دعاء الكافرين ما هو إلا في خسار وتبار، فالكفر محبط لجميع الأعمال، صادّ لإجابة الدعاء.

* لما ذكر تعالى عقوبة آل فرعون في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وذكر حالة أهل النار الفظيعة، الذين نابذوا رسله وحاربوهم، قال في بشارات عظيمة، وتسلية للرسول ﷺ:

﴿٥١﴾-﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ * يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ * وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ * هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ * فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: ننصر الرسل والمؤمنين بالحجة والبرهان، والظفر والانتقام لهم من الكفرة المجرمين في هذه الحياة الدنيا.

﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ أي: وفي الآخرة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل، يوم يحضر الأشهاد الذين يشهدون بأعمال العباد، من ملك ونبي ومؤمن، والآية وعد من الله تعالى لرسوله بأن ينصره على أعدائه في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ أي: لا ينفع المجرمين اعتذارهم، ولا ينفع أهل الشرك اعتذارهم؛ لأنهم لا يعتذرون إلا بباطل.

﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: الطرد والإبعاد من رحمة الله، ولهم سوء العاقبة، جهنم أسوأ مرجع ومصير، وبئست النار المنزل والمقيل.

ثم ذكر سبحانه ما منَّ به على موسى عليه السلام ونصره وهو نموذج من نماذج نصر الله:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: والله لقد أعطينا موسى بن عمران، ما يهتدى به في الدين، من المعجزات والصحف والشرائع.

﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: أورثناهم العلم النافع، والكتاب الهادي وهو التوراة، يتوارثونها خلفاً عن سلف.

﴿هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: هادية إلى سبيل الرشاد، وتذكرة لأصحاب العقول السليمة.

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ فاصبر -يا محمد- على أذى المشركين، فإن وعد الله لك ولأتباعك بالنصر على الأعداء حق، لا يمكن أن يتخلف؛ لأن الله لا يخلف الميعاد. لما بيّن تعالى أن ينصر رسله، وضرب المثال في ذلك بحال موسى، خاطب بعده رسوله بقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ والمراد أن الله ناصرك كما نصرهم، ومنجز وعده لك كما أنجزه في حقهم.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ واطلب المغفرة من ربك على ما فرط منك من ترك الأولى والأفضل، والمقصود من هذا الأمر تعليم الأمة ذلك، وإلا فرسول الله ﷺ معصوم من الذنوب جميعاً، صغائر وكبائر قبل النبوة وبعدها على التحقيق، وهذا تهييج للأمة على الاستغفار، فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور.

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ أي: ودم على تسبيح

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ
دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ
فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ
خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾
كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ
وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ
لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞قُلۡ إِنِّي
نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ
ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾

٤٧٤

ربك في المساء والصباح. والمراد منه الأمر بالمواظبة على ذكر الله، وألا يفتر اللسان عنه، حتى يصبح في زمرة الملائكة الأبرار، الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون. والمراد بالتسبيح تنزيه الله عن كل ما لا يليق به.

ثم نبّه تعالى إلى السبب الدافع للكفار إلى المجادلة بالباطل، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ أي: يخاصمون في الآيات المنزلة بالشبه الفاسدة، بلا برهان ولا حجة من الله.

﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ أي: ما في قلوبهم إلا تكبر، وتعاظم يمنعهم من اتباعك، والانقياد إليك.

﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ أي: ما هم بواصلين إلى مرادهم من إطفاء نور الله، ولا بمؤملين مقصودهم بالعلو عليك؛ لأن الله ﷻ مذلهم.

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي: فالتجئ وتحصن بالله من كيدهم، فإن الله يدفع عنك شرهم؛ لأنه هو السميع لأقوالهم، العليم بأحوالهم، فهو ناصرك عليهم وعاصمك من شرهم.

* ثم تعرض السورة إلى بعض الآيات الكونية، الشاهدة بعظمة الله، الناطقة بوحدانيته، وجلاله، الذي يشركون به ويكفرون بآياته، وتضرب مثلاً للمؤمن والكافر بالبصير والأعمى، فالمؤمن على نور من الله وبصيره، والكافر يتخبط في الظلام. قال تعالى:

﴿٥٧﴾-﴿٥٩﴾ ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ * وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ اللام لام الابتداء، أي: لخلق الله للسموات والأرض وإنشاؤهما وابتداعهما من غير شيء أعظم من خلق البشر، فمن قدر على خلقهما مع عظمهما كيف يعجز عن خلق ما هو أحقر وأهون؟ والغرض الاستدلال على البعث؛ لأن الإله الذي خلق السموات والأرض على كبرها، قادر على إعادة الأجسام بعد فنائها، وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث دلالة قاطعة بمجرد نظر العاقل إليها.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، لأنهم لا يتأملون لغلبة الجهل عليهم، وفرط غفلتهم واتباعهم لأهوائهم. ثم لما ذكر سبحانه الجدال بالباطل، ذكر مثالاً للباطل والحق، وأنهما لا يستويان، فقال:

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾ أي: كما لا يتساوى الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي المؤمن والكافر، ولا البر والفاجر والمطيع والعاصي.

﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لا تتعظون بهذه الأمثال إلا قليلاً، والمراد أنه كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار، والكفرة الفجار، ما أقل ما يتذكر كثير من الناس؟

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ أي: إن القيامة آتية لا محالة، لا شك في ذلك ولا مرية، قد أخبرت بها الرسل الذين هم أصدق الخلق، ونطقت بها الكتب السماوية، التي جميع أخبارها أعلى مراتب الصدق، وقامت عليها الشواهد المرئية والآيات الأفقية.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ولكن أكثر الناس لا يصدقون بمجيئها، ولا يصدقونه لقصور أفهامهم وضعف عقولهم عن أدراك الحجة، ولذلك ينكرون البعث والجزاء، والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث والقيامة.

* ثم بين تعالى لطفه بعباده ونعمته العظيمة، حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وأمرهم بدعائه دعاء العبادة، ودعاء المسألة، ووعدهم أن يستجيب لهم، وتوعد من استكبر عنها، فقال:

(٦٠) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: ادعوني أجبكم فيما طلبتم، وأعطكم ما سألتم. قال ابن كثير: ندب تعالى عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة فضلاً منه وكرماً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ إن الذين يتكبرون عن دعاء الله سيدخلون جهنم أذلاء صاغرين، وهذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله، وفيه لطف بعباده عظيم، وإحسان إليهم جليل، حيث توعد من طلب الخير منه، واستدفع الشر به بهذا الوعيد البالغ، وعاقبة بهذه العقوبة العظيمة.

* ثم ذكر تعالى من آثار قدرته ووحدانيته، ما يلزم منه إفراده بالعبادة والشكر، فذكر سعة رحمته وجزيل فضله، ووجوب شكره، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه. وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء، وكمال حياته، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة، وما فعله من الأفعال الحسنة، له مقاليد الأمور وإليه المعاد، فقال:

(٦١)-(٦٥) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ❁ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ❁ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ❁ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ❁ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: الله -جل وعلا- بقدرته وحكمته هو الذي جعل لكم الليل مظلماً لتستريحوا فيه من تعب وعناء العمل بالنهار، وجعل النهار مضيئاً بالشمس لتتصرفوا فيه بأسباب الرزق والأسفار وطلب المعاش.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: إنه تعالى متفضل على العباد، وهو صاحب الجود والإحسان إليهم.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على إحسانه، ويجحدون فضله وإنعامه.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: ذلكم المتفرد بالخلق والإنعام هو الله ربكم، خالق كل شيء.

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: لا معبود في الوجود سواه، فكيف تصرفون عن عبادة الخالق المالك إلى عبادة الأوثان؟

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ كذلك يُصرف عن الهدى والحق الذين جحدوا بآيات الله وأنكروها، وهذه تسلية للنبي ﷺ. والمعنى: لا تحزن -يا محمد- على إنكار قومك فإن من قبلهم فعل ذلك، ثم زاد في البيان ودلائل القدرة، فقال:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: وجعل الله الأرض مستقراً لكم، ويسر لكم الإقامة عليها، وجعلها بساطاً ممهداً تعيشون عليها، وتتصرفون فيها، وتمشون في مناكبها، وجعلها منزلاً لكم في حال الحياة وبعد الموت.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: وجعل السماء سقفاً محفوظاً، كالقبة المبنية مرفوعة فوقكم، قد جعل فيها ما تنتفعون به من الأنوار والعلامات التي يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ وخلقكم في أحسن تصوير، وفي

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ
يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ
وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ
تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ
فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ
وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ
فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ
ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ
تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن
نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾
ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ
تَمۡرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى
ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ
بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٧٧﴾

٤٧٥

أحسن الأشكال، متناسبي الأعضاء، ولم يجعلكم كالبهائم منكوسين تمشون على أربع.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ورزقكم من أنواع اللذائذ، وهذا شامل لكل طيب من مأكل ومشرب، ومنكح وملبس، ومنظر ومسمع، وغير ذلك من الطيبات.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ أي: ذلكم الفاعل لهذه الأشياء، والمنعم بهذه النعم هو ربكم لا إله إلا هو.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: فتعالى وتمجد وكثر خيره وإحسانه، وتقدس رب جميع المخلوقات الذي لا تصلح الربوبية إلا له.

﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو تعالى الباقي الذي لا يموت، لا إله سواه، المتفرد بالحياة الكاملة التامة، المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية التي لا تتم حياته إلا بها كالسمع والبصر، والقدرة والعلم، والكلام وغير ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله.

﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فاعبدوه وحده مخلصين له العبادة والطاعة ظاهراً وباطناً، قائلين:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: جميع المحامد والمدائح والثناء والشكر لله مالك جميع المخلوقات، لا للأوثان التي لا تملك شيئاً.

* ولما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده، وبيّن صفات الجلال والعظمة، وذكر الأدلة على ذلك والبينات، صرح بالنهي عن عبادة ما سواه، وأنه لا يستحق العبادة أحد سواه، فقال سبحانه:

﴿٦٦﴾-﴿٦٨﴾ ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ * هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قل - يا محمد، إن ربي العظيم الجليل نهاني أن أعبد هذه الآلهة التي تعبدونها من الأوثان والأصنام، ولست على شك من أمري، بل على يقين وبصيرة، وهذا أمر من الله تعالى لنبيه أن يخاطب قومه بذلك زجراً لهم، حيث استمروا على عبادة غير الله، بعد ظهور الأدلة العقلية والنقلية، ولهذا قال:

﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ أي: حين جاءتني الآيات الواضحات من عنده، الدالة على وحدانيته. والبينات هي أن إله العالم قد ثبت كونه موصوفاً بصفات الجلال والعظمة، وصريح العقل يشهد بأن العبادة لا تليق إلا به، وأن جعل الحجارة المنحوتة والأخشاب المصورة، شركاء له في المعبودية مستنكر في بديهة العقل.

﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وأمرت أن أذل وأخضع وأنقاد لله وحده، وأن أخلص له ديني، وأطهر نفسي من عبادة غيره، ثم أردف هذا بذكر دليل من الأدلة على التوحيد.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ هذا بيان للأطوار التي مرَّ بها خلقُ الإنسان، أي: هو -جل وعلا- بقدرته الذي أوجدكم أيها الناس من العدم، فخلق أصلكم آدم من تراب، ثم خلق ذريته من النطفة وهي المنيُّ، ثم من علقة وهي الدم الغليظ، إلى آخر تلك الأطوار.

﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ أي: ثم بعد أن ينفصل الجنين من بطن الأم يكون طفلاً، ثم هكذا تنتقلون في الخلقة الإلهية.

﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ أي: ثم لتبلغوا كمالكم في القوة والعقل، وهو سنُّ الأربعين.

﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ﴾ أي: ثم لتصبحوا في سنِّ الهرم والشيخوخة. وقد رتب تعالى عمر الإنسان على ثلاث مراتب: الطفولة، وبلوغ الأشد، والشيخوخة، وهذا ترتيب مطابق للعقل، فإن الإنسان في أول عمره يكون في النماء والنشوء وهو المسمى بالطفولة، إلى أن يبلغ إلى كمال النشوء من غير أن يحصل له ضعف، وهذا بلوغ الأشد، ثم يبدأ بالتراجع ويبدأ فيه الضعف والنقص، وهذه مرتبة الشيخوخة.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾ ومنكم من يتوفى قبل أن يخرج إلى العالم وهو السقط، أو قبل بلوغ الأشد أو من قبل سن الشيخوخة.

﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ أي: ولتصلوا إلى الزمان الذي حدد لكل شخص حيث تنتهي عنده أعماركم، وهو الموت.

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: ولكي تعقلوا دلائل قدرته تعالى فتعلمون أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له، وأن تؤمنوا بأنه الواحد الأحد.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ أي: هو القادر -جل وعلا- على الإحياء والإماتة وهو المنفرد بها، فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب إلا بإذنه.

﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: فإذا أراد أمراً من الأمور فلا يحتاج إلى تعب وعناء، وإنما يوجد فوراً دون تأخير. وهذا تمثيل لكمال قدرته، وتصوير لسرعة وجودها من غير أن يكون هناك آمر ومأمور.

* ثم تعود الآيات إلى ذم المجادلين في آيات الله بالباطل وبالحديث عن مصارع المكذبين، والطغاة المتجبرين، ومشهد العذاب يأخذهم وهم في غفلتهم سادرون. قال تعالى:

﴿٦٩-٧٦﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ * ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ * إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ * فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ * ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ * ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ﴾ الاستفهام للتعجب، أي: ألا ترى أيها السامع وتعجب من حال هؤلاء المكابرين، الذين يجادلون في آيات الله الواضحة البينة، كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال؟ ثم بيَّنهم بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ﴾ أي: الذين كذبوا بالقرآن، وبسائر الكتب والشرائع السماوية التي أنزلها الله على رسله لهداية الناس.

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: سوف يعلمون عاقبة تكذيبهم ووبال كفرهم، وفيه وعيد وتهديد.

﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ أي: حين يدخلون النار، وتربط أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل.

﴿يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ أي: يسحبون بتلك السلاسل في الماء الحار المسخن بنار جهنم، ثم يوقدون ويحرقون فيها. قال ابن كثير: ومعنى الآية أن السلاسل متصلة بالأغلال وهي بأيدي الزبانية، يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ هذا توبيخ وتقريع لهم، أي: ثم قيل لهم تبكيتاً وهم في هذه الحالة التعيسة: أين هم الأوثان والأصنام التي كنتم تعبدونها وتجعلونها شركاء لله؟

﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: فيقولون: غابوا عن عيوننا فلا نراهم، ولا ننتفع ولا نستشفع بهم.

﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ بل لم نكن نعبد شيئاً، جحدوا

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ
بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ
هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ
لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ
وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ
﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ
ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟
بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ
مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ
ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

٤٧٦

عبادتهم، وإنما فعلوا ذلك لحيرتهم واضطرابهم، ويحتمل أن مرادهم بذلك الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون بعبادة معدوم الإلهية.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ **أي: مثل إضلال هؤلاء المكذبين يضل الله كل كافر. ويقال لأهل النار.**

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ **أي: ذلكم العذاب الذي نوع عليكم بما كنتم تظهرونه في الدنيا من السرور بالمعصية، وكثرة المال وإنفاقه في المحرمات.**

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ **أي: وبسبب بطركم وأشركم وخيلائكم، وهذا وإن كان ذمّاً في الكفار، إلا أنه يجرُّ بذيله على كل من توسع في معاصي الله، فله من هذا الوعيد نصيب.**

﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ **أي: ادخلوا من أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم، ماكثين فيها أبداً، فبئست جهنم مقرّاً وسكناً للمستكبرين عن آيات الله، المعرضين عن دلائل الإيمان والتوحيد.**

*** ثم أمر سبحانه نبيه محمد ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، ووعده بالنصر والظفر عليهم، فقال تعالى:**

﴿٧٧﴾، ﴿٧٨﴾ ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ **أي: فاصبر -يا محمد- على تكذيب قومك لك، وامض في طريق الدعوة، فإن وعد الله بتعذيبهم كائن لا محالة، وهذا تسلية من الله لنبيه ﷺ ووعد حسن بالنصر له على أعدائه.**

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ **أي: إن أريناك بعض الذي نعدهم من العذاب، وجواب الشرط محذوف تقديره فذلك هو المطلوب، أو لتقرَّ به عينك.**

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ **أي: أو نتوفينك ونميتك -يا محمد- قبل إنزال العذاب عليهم، فإلينا مرجعهم يوم القيامة، فنتقم منهم أشد الانتقام.**

ثم أخبره تعالى بأنباء الرسل تسلية، له ﷺ فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ **أي: والله لقد بعثنا -يا محمد- رسلاً كثيرين قبلك، وأيدناهم بالمعجزات الباهرة، فجادلهم قومهم وكذبوهم، فصبروا على أذاهم، فتأسَّ بهم في الصبر على ما ينالك، قال القرطبي: عزّاه تعالى بما لقيت الرسل من قبله.**

﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ **أي: من هؤلاء الرسل من أخبرناك عن قصصهم مع قومهم، ومنهم من لم نخبرك عن قصصهم وأخبارهم.**

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ **أي: وما صح ولا استقام لرسول من الرسل أن يأتي قومه بشيء من المعجزات والآيات إلا بأمر الله، وهذا ردٌّ على قريش؛ حيث قالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا الصفا ذهباً وغير ذلك من اقتراحهم الآيات عناداً.**

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾ **فإذا جاء الوقت المسمى**

لعذابهم أهلكهم الله، وهو وعيد ورد عقيب اقتراحهم الآيات.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: خسر في ذلك الحين المعاندون الذين يجادلون في آيات الله، ويقترحون المعجزات على سبيل التعنت.

* ثم امتن تعالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام، التي لهم فيها منافع كثيرة، فقال:

﴿٧٩﴾-﴿٨١﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ أي: الله -جل وعلا- الذي لا تصلح الألوهية إلا له، هو الذي خلق وسخر لكم هذه الأنعام، الإبل والبقر والغنم، وخلقها لكم ولمصلحتكم ومن ذلك.

﴿لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: لتركبوا على ظهور بعض هذه الحيوانات، وتأكلوا من لحومها وتشربوا من ألبانها.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ ولكم في هذه الأنعام منافع عديدة أخرى، من الوبر والصوف والشعر، واللبن والزبد والسمن.

﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ بحمل الأثقال في الآفاق البعيدة.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وعلى هذه الإبل في البرّ، وعلى السفن في البحر تحملون، وإنما قرن بين الإبل والسفن لما بينهما من شدة المناسبة، حتى سميت الإبل سفن البر.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: ويريكم أيها الناس حججه وأدلته، وقدرته على وحدانيته في الآفاق والأنفس.

﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ توبيخ لهم على إنكارهم لوحدانيته مع ظهور آياته الكثيرة، والمعنى: أي آية من تلك الآيات الباهرة والدلائل الكثيرة الساطعة تنكرون مع وضوحها وجلائها وكثرتها؟ فإن هذه الدلائل لظهورها لا تقبل الإنكار.

* ثم في الآيات اللاحقة يحث تعالى المكذبين لرسولهم على السير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم، ليروا ما حل بالأمم المكذبة في الزمن الغابر من العذاب الشديد مع قوتهم وشدة بأسهم، قال تعالى:

﴿٨٢﴾-﴿٨٥﴾ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الاستفهام إنكاري، أي: أفلم يسر هؤلاء المشركون في أطراف الأرض ليتأملوا وليعرفوا عاقبة المتكبرين المتمردين، وآثار الأمم السالفة قبلهم، ماذا حل بهم من العذاب والدمار بسبب كفرهم وتكذيبهم؟

﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كانوا أكثر عدداً من أهل مكة، وأقوى منهم قوة، وآثارهم لا تزال باقية بعدهم، من الأبنية والقصور والمباني الضخمة كعاد وثمود وغيرهم، ممن كانوا أعظم منهم قوة وأكثر أموالاً.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أي: فلم ينفعهم ما كانوا يكسبونه من الأبنية والأموال شيئاً، ولا دفع عنهم العذاب. ثم ذكر جرمهم الكبير، فقال:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فلما جاءتهم الرسل بالمعجزات الظاهرات، والآيات الواضحات، والعلم النافع المبين للهدى من الضلال والحق من الباطل.

﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: فرح الكفار بما هم عليه من العلم الدنيوي، الخالي عن نور الهداية والوحي، فرح بطر وأشر، واغتروا بذلك العلم.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب جزاء كفرهم، واستهزائهم بالرسل والآيات.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ فلما شاهدوا شدة العذاب وعاينوا أهواله وشدائده، قالوا آمنا بالله الواحد الأحد.

﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أي: كفرنا بالأصنام والأوثان التي أشركناها في العبادة مع الله.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: فلم يكن ينفعهم ذلك الإيمان حين شاهدوا العذاب؛ لأنه إيمان عن قسر وإلجاء وضرورة، لا إيمان اختيار ورغبة.

﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أي: سنَّ الله ذلك سنة ماضية في العباد، أنه لا ينفع الإيمان إذا رأوا العذاب.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: وخسر في ذلك الوقت الكافرون بربهم، الجاحدون لتوحيد خالقهم.

تم تفسير سورة غافر
والحمد لله

تفسير سورة فصلت
وهي مكية

* هذه السورة الكريمة سورة مكية، وهي تتناول جوانب العقيدة الإسلامية، من الوحدانية، والرسالة، والبعث، والجزاء، وهي الأهداف الأساسية لسائر السور المكية التي تهتم بأركان الإيمان، وساقت الآيات الكريمات طريقة الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة.

سميت «سورة فصلت» لأن الله تعالى فصَّل بها الآيات، ووضع فيها الدلائل على قدرته ووحدانيته، وأقام البراهين القاطعة على وجوده وعظمته، وخلقه لهذا الكون البديع الذي ينطق بجلال الله وعظيم سلطانه.

ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن المنزل من عند الرحمن، بالحجج الواضحة، والبراهين الساطعة، الدالة على صدق محمد ﷺ، فهو المعجزة الدائمة الخالدة للنبي الكريم، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٥﴾ ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾.

﴿حم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن.

﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أي: هذا القرآن المجيد منزل من الرحمن الرحيم، أنزله -جل وعلا- رحمة بعباده، وإنما خص هذين الاسمين ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ إشارة إلى أن نزوله من أكبر النعم، ولا شك أن القرآن نعمة عظيمة باقية إلى يوم القيامة. ثم أثنى على الكتاب بتمام البيان، فقال:

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: كتاب جامع للمصالح الدينية والدنيوية، بُيِّنت معانيه، ووضحت أحكامه، بطريق القصص والمواعظ والأحكام والأمثال، في غاية البيان والكمال.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: في حال كونه قرآناً عربيّاً، واضحاً جلياً، نزل بلسان العرب، لقوم يفهمون تفاصيل آياته، ودلائل إعجازه، فإنه في أعلى طبقات البلاغة، ولا يتذوق أسراره إلا من كان عالماً بلغة العرب.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ صفات أخريات، أي: مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم، ومنذراً للكافرين بعذاب الجحيم.

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: فأعرض أكثر المشركين عن تدبر آياته مع كونه نزل بلغتهم، فهم لا يسمعون سماع تفكر وتأمل، وسماع قبول وإجابة. والسورة نزلت تقريعاً وتوبيخاً لقريش في إعجاز القرآن، فهم لا يسمعون سماعاً ينتفعون به. ثم أخبر تعالى عن عتوهم وضلالهم، فقال:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: وقال هؤلاء المعرضون عن القرآن لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الإيمان: قلوبنا في أغطية مغشاة مانعة لنا من فهم ما تدعونا إليه، لا يصل إليها شيء مما تدعونا إليه من التوحيد والإيمان.

﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ وفي آذاننا صمم وثقل يمنعنا من فهم ما تقول، وقد شبهوا أسماعهم بآذان فيها صمم، من حيث إنها تمج الحق ولا تميل إلى استماعه.

﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: وبيننا وبينك -يا محمد- حاجز ساتر يمنع أن يصل إلينا شيء مما تقول، فنحن معذورون في عدم اتباعك، لوجود المانع من جهتنا وجهتك، القصد من ذلك، أنهم أظهروا

الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه والرضا بما هم عليه، ولهذا قال: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا، واستمر على دينك فإنا مستمرون على ديننا، وما ذكر في الآيات بعض مما أصاب النبي ﷺ في دعوته، وما واجه به قومه من الاستمرار في التبليغ.

* وتحدثت السورة عن أمر الوحي والرسالة، فقررت حقيقة الرسول، وأنه بشر خصه الله تعالى بالوحي، وأكرمه بالنبوة، واختاره من بين سائر الخلق ليكون داعياً إلى الله، قال تعالى:

﴿٦-٨﴾ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أي: قل -يا محمد- لأولئك المشركين المكذبين: لستُ إلا بشراً مثلكم خصني الله بالرسالة والوحي، وأنا داع لكم إلى توحيد خالقكم وموجدكم، الذي قامت الأدلة العقلية والشرعية على وحدانيته ووجوده، فلا داعي إلى تكذيبي.

وفي الآية تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها الوصول إلى الله، وإلى دار كرامته، فبذلك يكون عمله خالصاً نافعاً، وبفواته يكون عمله باطلاً.

﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: توجهوا إليه بالاستقامة على التوحيد والإيمان، والإخلاص في الأعمال واسألوه المغفرة لسالف الذنوب.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ ولما كان العبد ولو حرص على الاستقامة لابد أن يحصل منه خلل بتقصير مأمور، أو ارتكاب منهي، أمره بدواء ذلك، بالاستغفار المتضمن للتوبة فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾. ثم توعد من ترك الاستقامة فقال: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: دمار وهلاك للمشركين الذين لا يفعلون الخير، ولا يتصدقون ولا ينفقون في طاعة الله فلا إخلاص منهم للخالق، ولا نفع فيهم للخلق، وقرعهم بالشح الذي يأنف منه الفضلاء. وفي الآية دلالة على أن الكافر يعذب بمنع الزكاة مع عذابه على كفره. وإنما خص منع الزكاة وقرنه بالكفر بالآخرة؛ لأن المال شقيق الروح فإذا بذله الإنسان في سبيل الله كان دليلاً على قوته وثباته في الدين.

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي: كفروا بالبعث والنشور، وكذبوا بالحساب والجزاء.

ولما ذكر الكافرين ووعيدهم، أردفه بذكر حال المؤمنين ووصفهم وجزاءهم، وما لهم من الوعد الكريم، فقال:

الجزء الرابع والعشرون سورة فصلت

سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ
قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ
فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ
وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ
٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ
فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨ ۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ
لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ
ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا
وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ
لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ
لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١

٤٧٧

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ لما ذكر حال الكفار، والمعنى: الذين صدقوا الله ورسوله، وجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، لهم في الآخرة أجر غير مقطوع عند ربهم، بل هو دائم مستمر بدوام الجنة.

* ثم انتقلت السورة للحديث عن دلائل قدرته ووحدانيته، فذكرت مشهد الخلق الأول للحياة، وخلق السموات والأرض، بذلك الشكل الدقيق المحكم، الذي يلفت أنظار المعرضين عن آيات الله، للنظر والتفكر والتدبر، ولكن ظلمات الكفر هي التي تحول بينهم وبين الإيمان، فالكون كله ناطق بعظمة الله، شاهد بوحدانيته -جل وعلا-، قال تعالى:

﴿٩-١٢﴾ ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا
وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ
عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً
فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي
ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ
ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ
﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ
عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ
لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى
ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ
﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ
إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ
سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

٤٧٨

لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ **الاستفهام للتوبيخ والتعجب، أي: كيف تكفرون بالله وهو الإله العلي الشأن، القادر على كل شيء، خالق الأرض العظيمة في يومين؟**

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ **أي: تجعلون له شركاء وأمثالاً تعبدونها معه.**

﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **أي: ذلك الخالق المبدع هو رب العالمين كلهم، فكيف يجوز جعل الأصنام الخسيسة شركاء له في الإلهية والمعبودية؟ والاستفهام** ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ **للإنكار والتشنيع عليهم، والمعنى: أنتم تعلمون أنه لا شريك له في العالم العلوي والسفلي، فكيف تجعلون له شريكاً؟**

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ **أي: جعل في الأرض جبالاً ثوابت لئلّا تميد بالبشر.**

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ **أي: أكثر خيرها بما جعل فيها من المياه، والزروع، والضروع، وبما خلق فيها من المنافع للعباد. وقدر أرزاق أهلها ومعاشهم، وخلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها.**

﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ **أي: في تمام أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان، للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها، يومان خلق فيها الأرض، ويومان جعل فيها رواسي وقدر فيها أقواتها.**

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ **أي: وبعد أن خلق الأرض عمد إلى خلق السماء وقصد إلى تسويتها وهي بهيئة الدخان. قال ابن كثير: والمراد بالدخان بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض.**

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ **أي: استجيبا لأمري طائعتين أو مكرهتين ولم يقل طائعتين؛ لأنه ذهب به إلى السموات والأرض ومن فيهن.**

﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ **أي: قالت السموات والأرض أتينا أمرك طائعين، لا نخالف ولا نعصي أمرك، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع.**

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ **أي: أتم صنعهن وأبدع خلقهن سبع سموات في وقت مقدر بيومين، فتم خلق السموات والأرض في ستة أيام، ولو شاء لخلقهن بلمح البصر، وذلك لحكمة يعلمها تعالى.**

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ **أي: أوحى في كل سماء ما أراده، وما أمر به فيها. رتب في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو.**

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ **أي: وزينا السماء الأولى القريبة منكم، بالكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، وحرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى.**

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ **أي: ذلك المذكور من الخلق والإبداع هو صنع الله، العزيز في ملكه، العليم بمصالح خلقه.**

*** وعرضت السورة للتذكير بمصارع المكذبين، وضربت على ذلك**

الأمثلة بأقوى الأمم وأعتاها قوم عاد، وذكر ما حل بهم وبثمود من الدمار الشامل، والهلاك المبين، حين تمادوا في الطغيان وكذبوا رسل الله. قال تعالى:

(١٣)-(١٨) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: فإن أعرض هؤلاء المكذبون عن الإيمان بعد هذا البيان، فقل لهم: إني أخوفكم عذاباً هائلاً، وهلاكاً مثل هلاك عاد وثمود القبيلتين المعروفتين، حيث اجتاحهم العذاب، وحل عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم. وعبر بالماضي إشارة إلى تحققه وحصوله.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: حين جاءتهم الرسل من كل جوانبهم، واجتهدوا في هدايتهم من كل جهة، وأعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلا العتوّ والإعراض.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: يأمرون بالإخلاص لله، وينهونهم عن الشرك، فردوا رسالتهم وكذبوهم.

﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لو شاء ربنا إرسال رسوله لجعله ملكاً لا بشراً.

﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: فإنا كافرون برسالتكم، لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا، وفي قولهم ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ ضرب من التهكم والسخرية بهم.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هذا تفصيل لما حاق بعاد وثمود من العذاب، أي: فأما عاد فبغوا وعتوا وعصوا، وتكبروا على عبد الله هود ومن آمن منهم معه، بغير استحقاق للتعظم والاستعلاء.

﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: وقالوا اغتراراً بقوتهم لما خوفوا بالعذاب: لا أحد أقوى منا، فنحن نستطيع أن ندفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا، وكانوا ذوي أجسام طوال، وخلق عظيم، وقد بلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ جملة اعتراضية للتعجب من مقالتهم الشنيعة، والمعنى: أغفلوا عن قدرة الله ولم يعلموا أن الله العظيم الجليل الذي خلقهم وخلق الكائنات، هو أعظم منهم قوة وقدرة؟

﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: وكانوا بمعجزاتنا يجحدون، قيل: إنهم كانوا يعرفون أنها حق ولكنهم جحدوا كما يجحد المودع الوديعة فكان عاقبة ذلك.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي: فأرسلنا على عاد ريحاً باردة شديدة البرد، وشديدة الصوت والهبوب، تهلك بشدة صوتها وبردها، في أيام مشؤومات غير مباركات، فدمرتهم وأهلكتهم.

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لكي نذيقهم العذاب المخزي المذل في الدنيا، والسبب أنهم استكبروا عن الإيمان، فقابل الله ذلك الاستكبار بإيصال الذل والهوان إليهم.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: ولعذابهم في الآخرة أعظم وأشد إهانة وخزياً من عذاب الدنيا، وليس لهم ناصر يدفع عنهم ذلك العذاب.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: وأما ثمود وهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحجر وحواليه، فبينا لهم طريق الهدى لله ودللناهم على سبيل السعادة، وهذه هي هداية البيان، فاختاروا الضلالة على الهداية، والكفر على الإيمان.

وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ
أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾
وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ
وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم
مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟
فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم
مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ
خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ
ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ
﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ
وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: **فأخذتهم قارعة العذاب الموقع في الإهانة والذل، بسبب إجرامهم وطغيانهم وتكذيبهم لنبي الله صالح، بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً، وعذاباً ونكالاً، بتكذيبهم صالحاً وعقرهم الناقة.**

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ أي: **ونجينا نبينا صالحاً** ومن اتبعه من المؤمنين المتقين المجانبين للشرك والمعاصي من ذلك العذاب.

* لما ذكر تعالى قصة عاد وثمود، وما أصابهم من العقوبة في الدنيا بطغيانهم وإجرامهم، ذكر هنا ما يصيب الكفار عامة في الآخرة من العذاب والدمار، ليحصل منه تمام الاعتبار، في الزجر والتحذير عن ارتكاب المعاصي والكفر بنعم الله. قال تعالى:

(١٩)-(٢٤) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: **واذكر يوم يجمع أعداء الله المجرمون في أرض المحشر لسوقهم إلى النار. ووصفهم بكونهم أعداء الله مبالغة في ذمهم.**

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: **تجمعهم الزبانية ويحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا.**

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ **حتى إذا وقفوا للحساب ووردوا النار التي حشروا إليها.**

﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: **نطقت جوارحهم وشهدت عليهم بما اقترفوه من إجرام وآثام، وفي الحديث: «فيختم على فيه - أي فمه - ثم يقال لجوارحه انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكن وسحقاً، فعنكن كنت أناضل»** [رواه مسلم].

﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ أي: **وعاتبوا وقالوا لأعضائهم وجلودهم، توبيخاً وتعجباً من هذا الأمر الغريب: لم أقررتم علينا وشهدتم بها فعلنا، وإنما كنا نجادل وندافع عنكم، وهذا دليل على أن الشهادة تقع من كل عضو.**

﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: **قالوا معتذرين: ليس الأمر بيدنا وإنما أنطقنا الله بقدرته، الذي ينطق الجماد والإنسان والحيوان، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح.**

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: **هو أوجدكم من العدم، وأحياكم بعد أن لم تكونوا شيئاً، فمن قدر على هذا قدر على إنطاقنا.**

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: **وإليه وحده تردون بالبعث، قيل: المعنى ليس نطقنا بعجب من قدرة الله، الذي أنطق كل حي، فإن من قدر على خلقكم وإنشائكم أولاً، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه ثانياً، لا يتعجب من إنطاقه لجوارحكم.**

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: وما كنتم تستخفون من هؤلاء الشهود في الدنيا حين مباشرتكم الفواحش؛ لأنكم لم تظنوا أنها تشهد عليكم، وهذا تقريع لهم وتوبيخ.

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: ولكن ظننتم بإقدامكم على المعاصي، أن الله تعالى لا يعلم كثيراً من القبائح المخفية، ولذلك اجترأتم على المعاصي والآثام.

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي: وذلكم الظن القبيح برب العالمين - أنه لا يعلم كثيراً من الخفايا - هو الذي أوقعكم في الهلاك والدمار فأوردكم النار.

﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: فخسرتم سعادتكم وأنفسكم وأهليكم، وهذا تمام الخسران والشقاء.

﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ أي: فإن يصبروا على العذاب، فالنار مقامهم، لا محيد ولا محيص لهم عنها، وإن يطلبوا إرضاء الله ويسألوه الرجوع إلى الدنيا، فما هم من المرضي عليهم ولا يجابون لما يريدون، قال القرطبي: والعُتبى: رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب، تقول: استعتبته فأعتبني أي استرضيته فأرضاني. عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر: قرشيان وثقفي، قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ فقال: أحدهم: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إن جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ...﴾ الآية.

* ثم يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم في أفعاله بما قيض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن، قال تعالى:

﴿٢٥﴾-﴿٢٩﴾ ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ * ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ وهيأنا لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق، قرناء سوء من الشياطين، ومن غواة الإنس.

﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: حسنوا لهم أعمالهم القبيحة، الحاضرة والمستقبلة. وحسنوا لهم أعمالهم فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين سبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته، وجحودهم الحق.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: ثبت وتحقق عليهم كلمة العذاب، وهو القضاء المحتم بشقائهم.

﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي: في جملة أمم من الأشقياء المجرمين قد مضت من قبلهم، ممن فعلوا كفعلهم من الجن والإنس.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب، أي: لأنهم كانوا الخاسرين في الدنيا والآخرة؛ فلذلك استحقوا العذاب الأبدي.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ لما أخبر تعالى عن كفر عاد وثمود وغيرهم، أخبر عن مشركي قريش وأنهم كذبوا القرآن، والمعنى: قال الكافرون بعضهم لبعض لا تستمعوا لمحمد إذا قرأ القرآن، وتشاغلوا عنه، وإياكم أن تلتفتوا أو تصغوا إليه، ولا إلى من جاء به.

﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي: ارفعوا أصواتكم عند قراءته حتى لا يسمعه أحد لكي تغلبوه على دينه. قال ابن عباس: قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول وهذه شهادة من الأعداء، وأوضح الحق ما شهدت به الأعداء، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا في حال الأعراض عنه والتواصي بذلك.

الجُزْءُ الرَّابِعُ وَالعِشْرُونَ — سُورَةُ فُصِّلَتْ

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ
ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ
فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢ وَمَنۡ أَحۡسَنُ
قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ
ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ
بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ
وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ
إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ
فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ
ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ
وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ
إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ٣٧ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ
رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ٣٨

٤٨٠

ولما كان هذا ظلماً منهم وعناداً، لم يبق فيهم مطمع للهداية، فلم يبق إلا عذابهم ونكالهم، لهذا قال:

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ أي: فوالله لنذيقن هؤلاء الكفار المستهزئين بالقرآن عذاباً شديداً لا يخف ولا ينقطع.

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ولنجازينهم بشر أعمالهم، وسيء أفعالهم، أسوأ وأقبح الجزاء.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أي: ذلك العذاب الشديد - الذي هو أسوأ الجزاء - هو نار جهنم جزاء المجرمين، أعداء الله ورسوله، لهم في جهنم دار الإقامة، لا يخرجون منها أبداً.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ أي: جزاءً لهم على كفرهم بالقرآن، واستهزائهم بآيات الرحمن. وسمى لغوهم بالقرآن جحوداً؛ لأنهم لما علموا أن القرآن بالغ إلى حد الإعجاز، خافوا إن سمعه الناس أن يؤمنوا به، فاخترعوا تلك الطريقة الفاسدة، وذلك يدل على أنهم علموا كونه معجزاً إلا أنهم جحدوه حسداً.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ أي: ويقول الكفار إذا دخلوا جهنم على وجه الحنق على من أظلهم، ربنا أرنا كل من أغوانا وأضلنا من الجن والإنس، وإنما جاء بلفظ الماضي «وقال» لتحققه ومعناه المستقبل.

﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ أي: نطأهما بأقدامنا، انتقاماً وتشفياً، ليكونا في الدرك الأسفل من النار، وهي أشد عذاب جهنم؛ لأنها درك المنافقين.

* ولما ذكر تعالى حال الأشقياء المجرمين، أردفه بذكر حال السعداء المؤمنين المتقين، الذين استقاموا على شريعة الله ودينه، فأكرمهم الله بالأمن والأمان في دار الجنان، مع النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، وفي ضمن ذلك تنشيطهم والحث على الإقتداء بهم، فقال:

﴿٣٠﴾-﴿٣٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ * نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ أي: آمنوا بالله إيماناً صادقاً وأخلصوا العمل له، ثم استقاموا على توحيد الله وطاعته، وثبتوا على ذلك حتى الممات، والغرض: أنهم استقاموا على شريعة الله في سلوكهم، وأخلاقهم وأقوالهم، وأفعالهم فكانوا مؤمنين حقاً، مسلمين صدقاً. قال الزهري: تلا عمر هذه الآية، ثم قال: استقاموا - والله - لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ أي: تتنزل عليهم ملائكة الرحمة عند الموت بأن لا تخافوا مما تقدمون عليه من أحوال القيامة، ولا تحزنوا على ما خلفتموه في الدنيا من أهل ومالٍ وولد فنحن نخلفكم فيه، ونفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل.

﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ أي: وأبشروا بجنة الخلد التي وعدكم الله بها على لسان الرسل، ويقولون لهم أيضاً مثبتين لهم ومبشرين.

﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: تقول لهم الملائكة: نحن أنصاركم وأعوانكم في الدنيا نحثكم على الخير، ونزينه لكم، ونرهبكم عن الشر ونقبحه في قلوبكم،

وندعوا الله لكم، ونثبتكم عند المصائب والمخاوف، ونحن في الآخرة نرشدكم إلى ما فيه خيركم وسعادتكم.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: ولكم في الجنة ما تشتهيه نفوسكم، وتقر به عيونكم من أنواع اللذائذ والشهوات فقد أعد وهيَّأ ضيافة وإنعاماً لكم، ولكم فيها ما تطلبون وتتمنون.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي: هذا الثواب الجزيل، والنعيم المقيم، ضيافة وكرامة من رب واسع المغفرة، عظيم الرحمة لعباده المتقين.

* ثم ذكر ﷻ حالة الداعية إلى الحق والهدى، ودين الإسلام، قال تعالى:

﴿٣٣﴾-﴿٣٦﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بتعليم الجاهل، ووعظ الغافل، ومجادلة المبطلين، والدفاع عن الإسلام والملة، باللسان والبيان. والدعوة إلى الله هي وظيفة المرسلين وأتباعهم.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: مع دعوته الخلق إلى الله، بادر هو بنفسه إلى امتثال أمر الله، بالعمل الصالح الذي يُرضي ربه.

﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: المنقادين لأمره، السالكين في طريقه، هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر، أي: لا أحد أحسن قولاً مما دعا إلى توحيد الله وطاعته، بقوله وفعله وحاله، وفعل الصالحات، وجعل الإسلام دينه ومذهبه. والآية عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث: أن يكون مؤمناً معتقداً لدين الإسلام، عاملاً بالخير، داعياً إليه، وماهم إلا طبقة العلماء العاملين. والاعتزاز بالدين عمل صالح ولكنه خص بالذكر؛ لأنه أريد به غيظ الكافرين. ومثال هذا ما وقع يوم أحد حين صاح أبو سفيان: أُعْلُ هبل، فقال النبي ﷺ: «قولوا: الله أعلى وأجل»، فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم».

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ أي: لا يتساوى فعل الحسنة مع فعل السيئة، بل بينهما فرق عظيم في الجزاء وحسن العاقبة. ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك، فقال:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن، مثل أن تدفع الغضب بالصبر، والجهل بالحلم، والإساءة بالعفو، ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك، خصوصاً من لهم حق كبير عليك، كالأقارب والأصحاب ونحوهم، وإذا قابلت الإساة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: فإذا فعلت ذلك صار عدوك كالصديق القريب، الخالص الصداقة في مودته ومحبته لك.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: وما ينال هذه المنزلة الرفيعة، والخصلة الحميدة، وهي دفع السيئة بالحسنة، إلا من جاهد نفسه بكظم الغيظ واحتمال الأذى.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: وما يصل إليها وينالها إلا ذو نصيب وافر من السعادة والخير، لكونها من خصال خواص الخلق، ومن أكبر خصال مكارم الأخلاق التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة.

ولما ذكر تعالى ما يقابل به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان، ذكر ما يدفع به العدو الجني، فقال:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: وإن وسوس إليك الشيطان بترك ما أمرت به من الدفع بالتي هي أحسن، وأراد أن يحملك على البطش والانتقام، فاستعذ بالله من كيده وشره، واسأله مفتقراً إليه، أن يعيذك ويعصمك منه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: هو السميع لأقوال العباد، العليم بأفعالهم وأحوالهم.

* ثم ذكر تعالى دلائل قدرته الباهرة، وحكمته البالغة في الآيات الكونية المعروضة للأنظار، في هذا الكون الفسيح، الزاخر بالحكم

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ
ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن
يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ
إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ
وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ
لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ
﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ
ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا
فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

٤٨١

والعجائب، وموقف الملحدين بآيات الله، المتعامين عن كل تلك الآيات الظاهرة الباهرة، فقال:

(٣٧)-(٣٩) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ **أي: ومن علاماته الدالة على وحدانيته وكمال قدرته تعاقب الليل والنهار، وتذليل الشمس والقمر، مسخرين لمصالح البشر، ثم لما بين أن ذلك من آياته نهاهم عن عبادة الشمس والقمر.**

﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ **أي: لا تسجدوا للمخلوق، واسجدوا للخالق، الذي خلق هذه الأشياء وأبدعها.**

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ **أي: إن كنتم تفردونه بالعبادة فلا تسجدوا لأحد سواه.**

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ **فإن استكبر الكفار عن السجود لله، فإنهم لن يضروا الله شيئاً، والله غني عنهم، وله عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال:**

﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ **أي: فالملائكة الأبرار يعبدونه بالليل والنهار، وهم لا يملون من عبادته، لقوتهم وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك.**

ولما ذكر تعالى صفات المؤمنين الأبرار، وأردفها بذكر الدلائل الدالة على وجوده سبحانه ووحدانيته، وكمال علمه وحكمته، فذكر هنا ما يدل على البعث والنشور، من صفحات هذا الكون المنظور. قال تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ **أي: ومن البراهين والعلامات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته وإعادة الموتى، أنك ترى الأرض يابسة جرداء غبراء لا نبات فيها، تشبه الرجل الخاضع الذليل.**

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ **فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت حركة شديدة، وانتفخت وعلت بالنبات، وأخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار.**

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ **أي: إن الإله الذي أحيا الأرض بعد موتها، هو الذي يحيي الأموات ويبعثهم من القبور.**

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ **أي: لا يعجزه -جل وعلا- شيء، فكما أخرج الزروع والثمار من الأرض المجدبة، فإنه قادر على إحياء الموتى.**

*** ثم توعد تعالى من يلحد في آياته بعد ظهور الأدلة والبراهين على وجوده بالعذاب الشديد، فقال:**

(٤٠)-(٤٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ * مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ **أي: إن الذين يطعنون**

في آياتنا، بالتحريف والتكذيب والإنكار لها والعناد لما فيها، لا يغيب أمرهم عنا، فنحن لهم بالمرصاد، وفيه وعيد وتهديد.

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هذا الاستفهام للتقرير، أي: أفمن يطرح في جهنم مع الخوف والفزع أفضل أم من يكون في الجنة آمناً من عذاب الله يوم القيامة؟ والغرض التنبيه على أن الملحدين في آيات الله يلقون في النار، وأن المؤمنين بآيات الله يكونون آمنين يوم القيامة، وشتان ما بينهما، ولما تبين الحق من الباطل، والطريق المنجي من عذابه من الطريق المهلك، قال:

﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ أي: افعلوا ما تشاؤون في هذه الحياة، وهو تهديد، لا إباحة، ملفع بظل الوعيد، بدليل قوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: هو تعالى مطلع على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم، وسيجازيكم عليها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: إن الذين كذبوا بالقرآن حين جاءهم من عند الله نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم، وخبر «إن» محذوف لتهويل الأمر، كأنه قيل: سيجازون بكفرهم جزاءً لا يكاد يوصف لشدة بشاعته وفظاعته.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ وإنه لكتاب غالب بقوة الحجة، جامع الأوصاف الكمال، لا نظير له، لما احتوى عليه من الإعجاز، يدفع كل جاحد، ويقمع كل معاند، منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء، ولهذا قال:

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات، ولا مجال للطعن فيه، لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، لا بسرقه ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقص فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل من أنزله سبحانه بحفظه. قال ابن كثير: أي ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه منزل من رب العالمين.

﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي: هو تنزيل من إله حكيم في تشريعه وأحواله وأفعاله، محمود من خلقه بسبب كثرة نعمه. ثم سلّى تعالى نبيه على ما يصيبه من أذى الكفار، فقال:

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: ما يقول لك كفار قومك، إلا ما قد قال الكفار للرسل قبلهم من الكلام المؤذي، والطعن فيما أنزل الله، وفي هذا تعزية وتسلية للنبي ﷺ من أذى وتكذيب قومه. ثم دعاهم إلى التوبة والإتيان بأسباب المغفرة، وحذرهم من الاستمرار على الغيّ، فقال:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ إن ربك -يا محمد- لهو الغفور لذنوب المؤمنين، ذو العقاب الشديد للكافرين، ففوض أمرك إليه، فإنه ينتقم لك من أعدائك.

* ثم يخبر تعالى عن فضله وكرمه، حيث أنزل كتابه عربياً، على الرسول العربي، بلسان قومه، ليبين لهم، وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به. ثم ذكر تعالى تعنت الكافرين ومكابرتهم للحق بعد سطوعه وظهوره، فقال:

﴿٤٤﴾،﴿٤٥﴾ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي: لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم، لقال المشركون: هلا بينت آياته بلسان نفهمه، وهلا نزل بلغتنا.

﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ استفهام إنكاري، أي: أقرآن أعجمي ونبي عربي؟ ذكروا أن الكفار كانوا يقولون لتعنتهم: هلا نزل القرآن بلغة العجم؟! فأجيبوا بأن الأمر لو كان كما تقترحون لم تتركوا الاعتراض.

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ قل لهم - يا محمد-: إن هذا القرآن هدى للمؤمنين من الضلالة، وشفاء لهم من الجهل والشك والريب، ومن الأسقام والآلام.

۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ
شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم
مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾
لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ
قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ
لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ
رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟
وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ
أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ
﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ
مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا
فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ
أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ
فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ والذين لا يصدقون بهذا القرآن، في آذانهم صمم عن سماعه، ولذلك تواصوا باللغو فيه.

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي: كما أن هذا القرآن رحمة للمؤمنين، هو شقاء وتعاسة على الكافرين.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: أولئك الكافرون بالقرآن، كمن ينادى من مكان بعيد، فإنه لا يسمع ولا يفهم ما ينادى به وهذا على سبيل التمثيل. قال ابن عباس: يريد مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاءً ونداءً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: والله لقد أعطينا موسى التوراة فاختلف فيها قومه ما بين مصدق لها ومكذب، وأوذي في سبيل دعوته، وهكذا حال قومك بالنسبة للقرآن، وهذا تسلية للنبي ﷺ، أي لا يحزنك اختلاف قومك في كتابك، فقد اختلف من قبلهم في كتابهم، فآمن به قوم وكذب به قوم، وأخبره سبحانه أن هذه عادة قديمة في أمم الرسل.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ ولولا أن الله حكم بتأخير الحساب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة، لعذبهم وأهلكهم في الدنيا.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ وإن هؤلاء الكفار لفي شك من القرآن، لتبلد عقولهم وعمى بصائرهم، موقع لهم في أشد الريبة والاضطراب فلذلك كذبوه وجحدوه.

﴿٤٦﴾-﴿٤٨﴾ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ۞ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ من عمل شيئاً من الصالحات التي أمر الله بها ورسوله في هذه الدنيا، فإنما يعود نفع ذلك على نفسه، ومن أساء في الدنيا فإنما يرجع وبال ذلك وضرره عليه.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: وليس الله منسوباً إلى الظلم حتى يعذب بغير إساءة، فهو تعالى لا يعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يعاقبه إلا بجرمه.

ثم أخبر عن سعة علمه تعالى واختصاصه بالعلم الذي لا يطلع عليه سواه.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إليه تعالى وحده علم وقت الساعة لا يعلمه غيره، ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما هدَّد الكفار بقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ ومعناه أن جزاء كل أحد يصل إليه في يوم القيامة، فكأن سائلاً قال: ومتى يكون ذلك اليوم؟ فبين تعالى أن معرفة ذلك اليوم لا يعلمه إلا الله.

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: وما تخرج ثمرة من الثمرات من غلافها ووعائها إلا وهو يعلمها علماً تفصيلياً.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: ولا تحمل أنثى من بني آدم وغيرهم، من أنواع الحيوانات، جنيناً في بطنها، ولا تلده إلا متلبساً بعلمه تعالى، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فكيف سوى المشركون به تعالى من لا علم عنده ولا سمع ولا بصر؟

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ أي: ويوم القيامة ينادي الله المشركين، أين شركائي الذين زعمتم أنهم آلهة؟ وفيه تقريع وتهكم بهم.

﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾ أي: قال المشركون مقرين ببطلان إلهيتهم وشركتهم مع الله، أعلمناك وأخبرناك الآن بالحقيقة، ما منا من يشهد اليوم بأن لك شريكاً، قالوا ذلك لما عاينوا القيامة حينها تبرؤوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم، وأعلنوا إيمانهم وتوحيدهم في وقت لا ينفع فيه إيمان.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: وغاب عنهم ما كان يعبدونه في الدنيا من الآلهة المزعومة.

﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ أي: وأيقنوا في تلك الحال أنه لا مهرب ولا مخلص لهم من عذاب الله، فهذه عاقبة من أشرك بالله غيره، يبينها الله لعباده ليحذروا الشرك به.

* ثم أخبر سبحانه عن طبيعة الإنسان، من حيث هو، وعدم صبره وجلده، لا على الخير ولا على الشر، إلا من نقله الله من هذه الحال إلى حال الكمال، فقال:

﴿٤٩﴾-﴿٥١﴾ ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ * وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ * وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾.

﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: لا يمل الإنسان دائماً من سؤاله ودعائه بالخير لنفسه، كالمال والولد والصحة والعز والسلطان، وغير ذلك من مطالب الدنيا.

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ أي: وإن أصابه فقر، أو مرض، أو مكروه، فهو عظيم اليأس من الخير، قانط من روح الله ورحمته.

قيل: والحكمة في تصدير النعمة ﴿وَإِذَآ﴾ والبلاء بـ ﴿وَإِن﴾ هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول بخلاف البلاء؛ لأن رحمة الله تغلب غضبه.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ أي: ولئن أعطيناه غنى وصحة من بعد شدة وبلاء.

﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ ليقولن هذا بسعيي واجتهادي، سمى النعمة رحمة، إذ هي من آثار رحمة الله.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ أي: وما أعتقد أن القيامة ستكون، وهذا إنكار منه للبعث، وكفر للنعمة والرحمة التي أذاقها الله له.

﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: وعلى فرض أن القيامة حاصلة كما يقول المسلمون، فليحسنن إليَّ ربي كما أحسن إليَّ في هذه الدنيا. قال ابن كثير: يتمنى على الله ﷻ مع إساءته العمل وعدم اليقين.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: فوالله لنعلمن هؤلاء الكافرين بحقيقة أعمالهم، ولنبصرنهم بإجرامهم.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ ولنعذبنهم أشد العذاب، وهو الخلود في نار جهنم.

﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ وإذا أنعمنا على الإنسان بصحة أو رزق أو غيرهما، أعرض عن شكر ربه، واستكبر عن الانقياد لأوامره، وشمخ بأنفه تكبراً وترفعاً.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ وإذا أصابه المكروه من مرض أو فقر أو غيرهما، فهو ذو دعاء كثير، يديم التضرع ويكثر من الابتهال، ويطيل المسألة، وهكذا طبيعة الإنسان الجحود والنكران، يعرف ربه في البلاء، وينساه في الرخاء.

* وختمت السورة بوعد الله للبشرية، بأن يطلعهم على بعض أسرار هذا الكون، ليستدلوا على صدق ما أخبر عن القرآن. قال تعالى:

﴿٥٢﴾-﴿٥٤﴾ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ * سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ * أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ قل -يا محمد- هؤلاء المكذبين بالقرآن المسارعين إلى الكفران: أخبروني يا معشر المشركين، إن كان هذا القرآن من عند الله، وكفرتم به من غير تأمل ولا نظر، كيف يكون حالكم؟

﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ الاستفهام إنكاري، بمعنى النفي أي: لا أحد أضل منكم لفرط شقاقكم وعداوتكم.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ أي: سنظهر لهؤلاء المشركين دلالاتنا وحججنا، على أن القرآن حق، منزل من عند الله.

﴿فِي ٱلْآفَاقِ﴾ أي: في أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم، والأشجار والنبات وغير ذلك من العجائب العلوية والسفلية.

﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: وفي عجائب قدرة الله في خلقهم وتكوينهم، قال القرطبي: المراد ما في أنفسهم من لطيف الصنعة، وبديع الحكمة، حتى سبيل الغائط والبول، فإن الرجل يأكل ويشرب من مكان واحد، ويتميز ذلك من مكانين، ومن بديع صنع الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء، ينظر بهما من الأرض إلى السماء، مسيرة خمسمائة عام، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة، وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: حتى يظهر من هذه الآيات بياناً لا يقبل الشك لهم، أن هذا القرآن حق.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ توبيخ وتقريع، أي: أو لم يكفهم برهاناً على صدقك أن ربك لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء؟ وأنه مطلع على كل شيء لا تخفى عليه خافية؟

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ ألا، استفتاح لتنبيه السامع إلى ما يقال، أي: ألا فانتبهوا أيها القوم إن هؤلاء المشركين في شك من الحساب والبعث والجزاء، ولهذا لا يتفكرون ولا يؤمنون، ولا يعملون له، ولا يحذرون منه.

﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي: ألا فانتبهوا فإنه تعالى قد أحاط علمه بكل الأشياء جملة وتفصيلاً، فهو يجازيهم على كفرهم.

تم تفسير سورة فصلت
والحمد لله

تفسير سورة الشورى
وهي مكية

* سورة الشورى سورة مكية، توضح وتبين أمور العقيدة وتركز كثيراً على الوحي والرسالة، والإيمان بها.

وسميت سورة الشورى، تنويها بمكانة الشورى في الإسلام، وتعليماً للمؤمنين أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج الأمثل الأكمل، لما له من أثر عظيم جليل في حياة الفرد والمجتمع من تأليف القلوب وجمع الكلمة وحسن الرأي.

تبتدئ السورة بتقرير مصدر الوحي، ومصدر الرسالة، فالله ربُّ العالمين هو الذي أنزل الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي اصطفى لرسالاته من شاء من عباده، ليخرجوا الإنس والجن من ظلمات الشرك والضلال، إلى نور الهداية والإيمان، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٦﴾ ﴿حمٓ * عٓسٓقٓ * كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وإثارة انتباه الإنسان بحروف أولية، وبدء غير مألوف.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: مثل ما أوحى إليك ربك -يا محمد- هذا القرآن، أوحى إلى الرسل من قبلك في الكتب المنزلة، الله العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ له ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً. وذكر سبحانه لنفسه هذا الوصف، وهو ملك جميع ما في السموات والأرض، لدلالته على كمال قدرته، ونفوذ تصرفه في جميع مخلوقاته.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ وهو المتعالي فوق خلقه، المنفرد بالكبرياء والعظمة، الذي من عظمته:

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: تكاد السموات يتشققن، وكل واحدة فوق التي تليها من عظمة

سُورَةُ الشُّورَىٰ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ
ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ
وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي
ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ
مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ
٦ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ
حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
ٱلسَّعِيرِ ٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن
يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٨ أَمِ
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٩ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ
إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ١٠

٤٨٣

الله وجلاله، ومن شناعة ما يقوله المشركون من اتخاذ الله الولد. ووجه تخصيص جهة الفوق أنها أقرب إلى الآيات العظيمة والمصنوعات الباهرة.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ والملائكة الأبرار دائبون في تسبيح الله، ينزهونه عما لا يليق به، ويصفونه بكل كمال خاضعين لما يرون من عظمته، والملائكة أهل طاعة مطلقة، فقد كانوا أولي الخلق بالطمأنينة، ولكنهم دائبون في تسبيح ربهم، لما يحسون من علوه وعظمته، ولما يخشون من التقصير في حمده وطاعته.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ويسألون الله المغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إعلام بذلك وتنويه به، أي: ألا فانتبهوا أيها القوم، إن الله هو الغفور لذنوب عباده، الرحيم بهم حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وعصيانهم. قال القرطبي: هيَّب وعظَّم -جل وعلا- في الابتداء، وألطف وبشَّر في الانتهاء.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: إن الذين جعلوا له شركاء وأنداداً يتولونهم بالعبادة والطاعة.

﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ الله تعالى رقيب على أحوالهم وأعمالهم، لا يفوته منها شيء، وهو محاسبهم عليها، ومجازيهم بها يوم القيامة.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما أنت -يا محمد- بموكل على أعمالهم حتى تقسرهم على الإيمان، إنما أنت منذر ومبلغ فحسب وعلينا الحساب.

* ثم ذكر منّته على رسوله وعلى الناس، حيث أنزل كتابه الكريم، فقال:

﴿٧﴾، ﴿٨﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ * وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أوحينا إلى الرسل قبلك، أوحينا إليك -يا محمد- قرآناً عربياً، واضحاً جلياً، بيناً معجزاً، بلسان العرب لا لبس فيه ولا غموض، وفي نزوله بلغة العرب شرف لهم، وإقامة للحجة عليهم.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ لتنذر بهذا القرآن أهل مكة ومن حولها من البلدان، وأمُّ القرى أصل القرى وهي مكة، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها، لأن فيها البيت ومقام إبراهيم، والعرب تسمي أصل كل شيء أمه.

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ وتخوف الناس ذلك اليوم الرهيب، يوم القيامة، يوم اجتماع الخلائق للحساب في صعيد واحد.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك في وقوعه، ولا محالة من حدوثه.

﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: في ذلك اليوم ينقسم الناس إلى قسمين، فريق منهم في جنات النعيم وهم المؤمنون بفضل من الله، وفريق منهم في دركات الجحيم وهم الكافرون، عدل من الله ﷻ، حيث ينقسمون بعد الحساب إلى أشقياء وسعداء.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: لو شاء الله لجعل الناس كلهم على ملة واحدة مهتدين، أهل دين واحد، وملة واحدة، وهي الإسلام، أو ضالين كافرين، ولكنه تعالى فاوت بينهم فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة، ولهذا قال تعالى:

فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا
وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ
لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا
وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ
يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟
إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ
فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ
ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ
ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْۖ لَا حُجَّةَ
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ﴾ أي: ولكنه تعالى حكيم لا يفعل إلا ما فيه المصلحة، فمن علم منه اختيار الهدى يهديه فيدخله بذلك في جنته، ومن علم منه اختيار الضلال يضله فيدخله بذلك السعير، ولهذا قال:

﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: والكافرون ليس لهم ولي يتولاهم ويدفع عنهم العذاب يوم القيامة، ولا نصير ينصرهم من عذاب الله. والآية تسلية للرسول ﷺ عما كان يقاسيه من كفر قومه، وتوقيف على أن ذلك راجع إلى مشيئته -جل وعلا-، ولكن من سبقت له السعادة أدخله في رحمته، يعني دين الإسلام.

* ثم تعرض الآيات لحالة بعض المشركين، ونسبتهم لله الذرية والولد، حتى إن السموات ليكدن يتفطرن من هول تلك المقالة الشنيعة، وبينما هؤلاء المشركون في ضلالهم يتخبطون، إذا بالملأ الأعلى في تسبيحهم وتمجيدهم لله يستغرقون، وذلك للمقارنة بين كفر أهل الأرض وطغيانهم، وإيمان أهل السماء وإذعانهم، قال تعالى:

(٩)-(١٢) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ * لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، أي: بل اتخذ المشركون من دون الله آلهة، يستعينون بهم، ويطلبون نصرهم وشفاعتهم.

﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ فالله وحده هو الوليُّ الحق، الناصر للمؤمنين، لا ولي سواه.

﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وهو تعالى القادر على إحياء الموتى، لا تلك الأصنام التي لا تضر ولا تنفع.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: لا يعجزه شيء، فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً دون من سواه.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ومهما اختلفتم فيه أيها الناس من شيء من أمر الدنيا أو الدين، فالحكم فيه إلى الله -جل وعلا-، هو الحاكم فيه بكتابه، أو بسنة نبيه ﷺ.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ أي: قل لهم - يا محمد -: إن الموصوف بهذه الصفات هو ربي وحده، ووليي ومالك أمري، الذي يحيي الموتى، ويحكم بين المختلفين.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ عليه وحده اعتمدت في جميع أموري.

﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ وإليه وحده أرجع في كل ما يعرض عليَّ من مشكلات ومعضلات، لا إلى أحد سواه، فلا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه، وهذان الأصلان - الإنابة والتوكل - كثيراً ما يذكرهما الله في كتابه، لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويفوته الكمال بفوتهما، أو فوت أحدهما.

ثم بيَّن تعالى صفاته الجليلة القدسية، التي هي من آثار ومظاهر الربوبية، فقال:

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو -جل وعلا- خالقهما ومبدعهما، بقدرته وحكمته ومشيئته، على غير مثال سابق.

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أوجد لكم بقدرته من

جنسكم نساء من الآدميات، لتسكنوا إليها، وتنتشر منكم الذرية، ويحصل لكم من النفع ما يحصل، وكل ذلك منَّه عليكم وتفضلاً.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي: وخلق لكم كذلك من الإبل والبقر والضأن والمعز أصنافاً، ذكوراً وإناثاً، لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة.

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يكثركم بسببه بالتوالد، ولولا أنه خلق الذكر والأنثى، لما كان ثمة تناسل، ولا توالد.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي: ليس له تعالى مثيل ولا نظير، لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد. والغرض: تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، والكاف هنا لتأكيد النفي، أي: ليس مثله شيء.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وهو تعالى السميع لأقوال وأصوات العباد، البصير بأفعالهم، وهذه الآية ونحوها، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات، وفيها رد على المشبهة في قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وعلى المعطلة في قوله ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ له ملك السموات والأرض، وبيده -جل وعلا- مفاتيحها وخزائنها من المطر والنبات وسائر الحاجات، فكل الخلق مفتقرون إلى الله، في جلب مصالحهم، ودفع المضار عنهم، في كل الأحوال ليس بيد أحد من الأمر شيء، ولأن مفاتيح الرزق بيده، فهو:

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وكل هذا تابع لعلمه وحكمه، ولهذا قال:

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم أحوال عباده، يعلم إذا كان الغنى خير للعبد أو الفقر، وكل ذلك بحكمته ومشيئته.

* ثم ساق آيات ذكر فيها أكبر نعمة أنعم الله بها على عباده، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها، وأزكاها وأطهرها، دين الإسلام، فقال تعالى:

﴿١٣﴾، ﴿١٤﴾ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: سن وبيّن وأظهر لكم أيها المؤمنون من الشريعة السمحة والدين الحنيف، ما وصى به الرسل، وأرباب الشرائع من أولي العزم، كنوح ومحمد -عليهما السلام-.

﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ وما أمرنا به بطريق الإلزام إبراهيم وموسى وعيسى من أصول الشرائع والأحكام، وخصَّ هؤلاء بالذكر؛ لأنهم أكابر الأنبياء، وأولوا العزم، وأصحاب الشرائع المعظمة، فلكل واحد من هؤلاء الرسل شرع جديد، وأما من عداه، فإنما كان يبعث بتبليغ شرع من قبله، ولم يزل الأمر يتأكد بالرسل، ويتناصر بالأنبياء، واحداً بعد واحد، وشريعة إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل، ملة أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ، فتبين أن شريعة الإسلام قد جمعت جميع الشرائع المتقدمة في أصول الاعتقادات، وأصول الأحكام، ولهذا قال تعالى:

﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي: وصيناهم بأن أقيموا الدين الحق - دين الإسلام، الذي هو توحيد الله وطاعته من غير خلاف فيه ولا اضطراب في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة، وهي: التوحيد، والصلاة، والصيام والزكاة، والحج، وغيرهما، فهذا كله مشروع ديناً واحداً وملة متحدة.

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ عظم وشقَّ على الكفار ماتدعوهم إليه من عبادة الله، وتوحيد الواحد القهار ونبذ الأوثان.

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ الله يصطفي ويختار للإيمان والتوحيد من يشاء من عباده، ويهدي إلى دينه الحق من يرجع إلى طاعته، فيوفقه له ويقربه إليه رحمة وإكراماً، فحُسن مقصد العبد مع

اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها. ولما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق، أخبر بما جرى لأهل الكتاب من التفرق، فقال تعالى:

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ وما تفرق أهل الأديان المختلفة من اليهود والنصارى وغيرهم، إلا من بعد ما قامت عليهم الحجج والبراهين من النبي المرسل إليهم.

﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: التفرق بعد العلم أنما سببه الظلم والتعدي، والحسد والعناد.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ ولولا أن الله قضى بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة.

﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: لعجل لهم العقوبة في الدنيا سريعاً باستئصالهم، ولكن حكمته وحلمه، اقتضى تأخير ذلك عنهم.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ وإن بقية أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين عاصروا رسول الله ﷺ من بعد أسلافهم السابقين.

﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ لفي شك من التوراة والإنجيل، موقع لهم في أشد الحيرة والريبة؛ لأنهم ليسوا على يقين من أمر دينهم وكتابهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان.

* ولما ذكر سبحانه ما أوحى به إلى موسى وعيسى، وما حصل من قومهما من الاختلاف، ثم جاء محمد ﷺ بالوحي وأنه خاتم الرسل، قال سبحانه:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ﴿١٥﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات كل منها منفصلة عن التي قبلها، حكم برأسها، قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها عشرة فصول كهذه.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾ فلأجل ذلك التفرق والشك الذي حدث لأهل الكتاب، أمرناك -يا محمد- أن تدعو الناس إلى دين الحنيفية.

﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ كما أمرك ربك على وجه الاستمرار على ذلك، فأمر ﷺ بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وبتكميل غيره بالدعوة إلى ذلك.

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ ولا تتبع أهواء المشركين المختلفة الباطلة، فيما يدعونك إليه من ترك دعوة التوحيد.

ولم يقل: (ولا تتبع دينهم) لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم هو دين الرسل كلهم، ولكنهم لم يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم، واتخذوا دينهم هواً ولعباً.

﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾ وقل لهم عند جدالهم ومناظرتهم، آمنت وصدقت بكل كتاب أنزل الله تعالى، لا نفرق بين أحد منهم ونؤمن بجميع الكتب السماوية، لأن أهل الكتاب المتفرقين في دينهم آمنوا ببعض وكفروا ببعض.

﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ﴾ وأمرني ربي بأن أعدل بينكم في الحكم، فيما اختلفتم فيه فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم يا أهل الكتاب من العدل بينكم في الحكم.

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾ أي: والله خالقنا جميعاً، ومتولي أمورنا فيجب أن نفرده بالعبادة.

﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ أي: نحن برآء منكم، لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم، من خير أو شر، لا نستفيد من حسناتكم ولا نتضرر من سيئاتكم، وهذا تبرؤ منهم.

﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ﴾ أي: لا جدال ولا مناظرة بيننا وبينكم، فإن الحق قد ظهر وبان، كالشمس في رابعة النهار، وأنتم تعاندون وتكابرون.

﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ الله يجمع بيننا يوم القيامة لفصل القضاء، وإليه المرجع والمآب، فيجازي كل أحد بعمله من خير وشر فإن الحق قد ظهر، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، وبعد العناد لاحجة ولا جدل، والله يفصل بين الخلائق يوم المعاد، ويجازي كلاً بعمله.

* ثم في الآيات التالية، يقول تعالى متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله، من آمن به:

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ
دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ
(١٦) ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ
لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ (١٧) يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ
بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ
أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ (١٨)
ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ
(١٩) مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن
كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ
مِن نَّصِيبٍ (٢٠) أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ
مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ
وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٢١) تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ
مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم
مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ (٢٢)

٤٨٥

(١٦)-(١٨) ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ * ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ * يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ يخاصمون في دينه بالحجج الباطلة والشبه المتناقضة لصد الناس عن الإيمان.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي: من بعد ما استجاب الناس له ودخلوا في الإسلام، ليردوهم إلى دين الجاهلية.

﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ حجتهم باطلة لا ثبوت لها عند الله، وسماها حجة وإن كانت شبهة لزعمهم أنها حجة. قال ابن عباس: نزلت في طائفة من بني إسرائيل همّت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومحاجتهم بالباطل.

﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ وعليهم غضب عظيم من الله في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة.

ولما ذكر تعالى أن حججه واضحة بينة، بحيث استجاب لها كل من فيه خير، وذكر أصلها وقاعدتها، بل جميع الحجج التي أوصلها إلى العباد، قال:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: نزل القرآن وسائر الكتب الإلهية متلبساً بالصدق القاطع، والحق الساطع، في أحكامه وتشريعاته وأخباره.

﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أي: ونزل الميزان، أي: العدل والإنصاف، وسمي العدل ميزاناً لأن الميزان يحصل به العدل والإنصاف، فهو من تسمية الشيء باسم السبب. ثم قال مخوفاً للمستعجلين لقيام الساعة المنكرين لها.

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ أي: وما ينبئك أيها المخاطب لعل وقت الساعة قريب؟ فإن الواجب على العاقل أن يحذر منها، ويستعدَّ لها، ووجه اتصال الآية بما سبق، أن الساعة يوم الحساب، فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم، فيه ترغيباً فيها، وترهيباً منها، وتزهيداً في الدنيا. وتذكر الآيات موقف المؤمنين من الساعة وموقف غير المؤمنين.

﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا﴾ يستعجل بالقيامة المشركون الذين لا يصدقون بها، فيقولون على سبيل الاستهزاء والعناد والتكذيب، وظناً منهم أنها غير آتية: متى تكون؟

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾ أي: والمؤمنون المصدقون بها، خائفون وجلون من قيامها، ويعلمون أنها كائنة لا ريب فيها، وحاصلة لا محالة.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ أي: الذين يجادلون في أمر القيامة في ضلال بعيد عن الحق، لإنكارهم عدل الله وحكمته.

*** ثم أخبر سبحانه عن لطفه بعباده ليعرفوه ويحبوه، ويتعرضوا لكرمه وجوده وإحسانه، فقال:**

(١٩)-(٢٢) ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ * مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ * أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ * تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا

كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي: بار رحيم بالخلق كثير الإحسان بهم، بالغ الرأفة لهم، يفيض عليهم من الخيرات والبركات مع عصيانهم، ومن لطفه بعبده المؤمن، أن هداه إلى الخير هداية لا تخطر بباله، بما يسر له من الأسباب الداعية إلى ذلك. وألطافه على عباده المؤمنين كثيرة متوالية بل هو سبحانه لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم؛ فهؤلاء البشر أعجز من أن يرزقوا أنفسهم شيئاً، ومن لطفه في الرزق وجهين، أحدهما: أنه جعل الرزق من الطيبات، والآخر: أنه لم يدفعه إلى العبد مرة واحدة.

﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء، وفي تفضيل قوم بالمال حكمة، ليحتاج البعض إلى البعض، وهذا من لطفه بالعباد، وأيضاً ليمتحن الغني بالفقير، والفقير بالغني.

﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: القادر على كل ما يشاء، لا يعجزه شيء، الغالب الذي لا يُغالب ولا يدافع.

ثم لما بين كونه لطيفاً بالعباد، كثير الإحسان إليهم، أشار إلى أن الإنسان ما دام في هذه الحياة فعليه أن يسعى في طلب الخيرات لأسباب السعادة فقال:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ﴾ أي: من كان يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها، نزد له في أجره وثوابه، بمضاعفة حسناته، وبالتوفيق في إحسانه.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ ومن كان يريد بعمله متاع الدنيا ونعيمها فقط، نعطه بعض ما يطلبه من المتاع العاجل مما قدر الله له وقسم.

﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ وليس له في الآخرة حظ من الثواب والنعيم واستحق النار وجحيمها. وحرث الآخرة عبارة عن العمل لها، وكذلك حرث الدنيا، وهو مستعار من حرث الأرض؛ لأن الحراث يعمل وينتظر المنفعة بما عمل. ثم أخذ ينكر على الكفار عبادتهم لغير الله، مع أنه الخالق المتفضل على العباد، فقال:

﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ الاستفهام للتقرير والتوبيخ، أي: لهؤلاء الكفار شركاء من الشياطين أو آلهة من الأوثان، شرعوا لهم الشرك والعصيان الذي لم يأمر به الله؟ وإسناد الشرع إلى الأوثان، وهي جمادات إسناد مجازي، من إسناد الفعل إلى السبب، وسماه ديناً للمشاكلة والتهكم.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾ ولولا أن الله حكم وقضى في سابق أزله، أن الثواب والعقاب يكونان يوم القيامة، لحكم بين الكفار والمؤمنين، بتعجيل العقوبة للظالم، وإثابة المؤمن.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وإن الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان، لهم عذاب موجع مؤلم في الآخرة.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ ترى أيها المخاطب، الكافرين يوم القيامة خائفين خوفاً شديداً من جزاء السيئات التي ارتكبوها في الدنيا، وهذا وصف لحالهم في الآخرة عند معاينة العذاب، فهذا إشفاق مقرون بالاستيحاش؛ لأنه قد علم أنه صائر إليه، كمن قدم إلى العقوبة ورأى أسبابها فهو مشفق منها إذا رآها، لعلمه بأنه صائر إليها، يستوحشون مما كانوا به فرحين في الدنيا.

﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾ أي: الجزاء عليها نازل بهم يوم القيامة لا محالة، سواء خافوا أو لم يخافوا.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ والذين آمنوا بقلوبهم بالله وبكتبه ورسله وما جاؤوا به، وعملوا الصالحات من أعمال القلوب، وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فهم في رياض الجنة يتمتعون، في أطيب بقاعها ومساكنها، وفي أعلى منازلها، كانوا يخافون ويشفقون من ذلك اليوم، فهم اليوم في أمن وعافية ونعيم.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ لهم في الجنات ما يشتهونه من صنوف النعم، وأنواع اللذائذ والنعيم، والثواب العظيم عند رب كريم، فأين هذا من هذا؟ أين من هو في الذل والهوان، ممن هو في روضات الجنان؟ فيها يشاء من مآكل ومشارب وملاذ؟ ولهذا قال تعالى:

ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ
قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ
حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ٢٣ أَمۡ يَقُولُونَ
ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ
ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤
وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٢٥ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ
شَدِيدٞ ٢٦ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧ وَهُوَ
ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ
٢٨ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ
وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ٢٩ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا
كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ
فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١

٤٨٦

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ ذلك النعيم والجزاء والنعمة التامة هو الفوز الأكبر الذي لا يوازيه شيء، وذلك الفضل الذي لا يوصف، ولا تهتدي العقول إلى حقيقة صفته؛ لأن الحق -جل وعلا- إذا قال «كبير» فمن ذا الذي يقدر قدره؛ وهو فضل كبير على العمل القليل.

* وهذا الفضل والخير والجزاء والثواب العظيم، هو من الجواد الكريم، البر الرحيم، لعباده الذين أطاعوه وامتثلوا أمره، فهو يبشرهم بالنعيم، قال تعالى:

(٢٣)، (٢٤) ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ * أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: ذلك الإكرام والإنعام، هو الذي يبشر الله به عباده المؤمنين المتقين، ليتعجلوا السرور ويزدادوا شوقاً إلى لقائه.

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ قل لهم -يا محمد- لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح مالاً، وإنما أطلب أن تذروني حتى أبلغ رسالات ربي، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة.

﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًا﴾ ومن يكتسب ويفعل طاعة من الطاعات نضاعف له ثوابها، ونشرح بها صدره، ونيسر أمره، وتكون سبباً للتوفيق لعمل آخر، ويزاد بها عمل المؤمن، ويرتفع عند الله وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والآجل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ غفور للذنوب، شاكر لإحسان المحسن، لا يضيع عنده عمل العامل، ولهذا يغفر الكثير من السيئات، ويُكثِّر القليل من الحسنات، يشكر لعباده، وهو وهبهم التوفيق على الإحسان، ثم هو يزيد لهم في الحسنات، ويغفر لهم السيئات، ويشكر لهم بعد هذا وذاك سبحانه ما أكرمه وأعظمه.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ أي: بل أيقول كفار قريش إن محمداً اختلق الكذب على الله بنسبة القرآن إليه؟ وهذا استفهام إنكار وتوبيخ للمشركين على هذه المقالة، أي: مثله لا يُنسب إلى الكذب على الله مع اعترافكم له قبل بالصدق والأمانة.

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ أي: لو افتريت -يا محمد- على الله الكذب كما يزعم هؤلاء المجرمون، لختم على قلبك فأنساك هذا القرآن، وسلبه من صدرك، ولكنك لم تفتر على الله كذباً ولهذا أيدك وسددك. والآية استشهاد على بطلان ما قالوا ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعاً، بالختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله معنى من معانيه، ولم ينطق بحرف من حروفه.

﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أي: يزيل الله الباطل بالكلية، ويثبت الله الحق ويوضحه بكلامه المنزل، وبحججه وبراهينه.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: عالم بما في القلوب، يعلم ما تكنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر، والمراد أنك لو حدثت نفسك أن تفتري الكذب، لعلمه الله وطبع على قلبك.

* بعد ذكر مشهد الظالمين المشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم، ذكر سبحانه

كمال كرمه وسعة جوده، وتمام لطفه، يرغب من يريد التوبة والرجوع عما هو فيه من ضلالة، فقال تعالى:

﴿٢٥﴾-﴿٢٨﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ * وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ * وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ هذا امتنان من الرحمن على العباد، أي: هو -جل وعلا- بفضله وكرمه يتقبل التوبة من عباده إذا أقلعوا عن المعاصي، وأنابوا بصدق وإخلاص نية.

وفي ذكر اسم العباد دون نحو: الناس أو التائبين أو غير ذلك؛ إيماء إلى أن الله رفيق بعباده لمقام العبودية، فإن الخالق والصانع يحب صلاح مصنوعه.

﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ويصفح عن الذنوب صغيرها وكبيرها، ويمحوها لمن يشاء، ويعود التائب كريماً، كأنه ما عمل سوءاً قط.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: يعلم جميع ما تصنعون من خير أو شر. ولما دعا سبحانه عبادة إلى التوبة والعودة، انقسموا بحسب الاستجابة له إلى قسمين، أولهما مستجيبين، وصفهم بقوله:

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: ويزيدهم من جوده وكرمه فوق ما سألوا واستحقوا؛ لأنه الجواد الكريم، البرُّ الرحيم، وأما غير المستجيبين لله، وهم المعاندون الذين كفروا به وبرسله، فإنه عاقبهم على ذلك، فذكر الكافرين ومآلهم يوم القيامة:

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: وأما الكافرون بالله فلهم العذاب الموجع الأليم في دار الجحيم.

وفضل الله في الآخرة بلا حساب، وبلا حدود ولا قيود، فأما رزقه لعباده في الأرض فهو مقيد محدود، فذكر سبحانه أن من لطفه بعباده أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة تضر بأديانهم، فقال:

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ولو وسع الله الرزق على عباده وأغناهم، لطغوا وبغوا وأفسدوا في الأرض بالمعاصي والآثام، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا؛ لأن الغنى يوجب الطغيان.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ ولكنه تعالى ينزل أرزاق العباد بما تقتضيه الحكمة والمصلحة، كما جاء في الحديث القدسي: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه» [رواه الطبراني].

﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: عالم بأحوالهم وما يصلحهم، فيعطي ويمنع، ويبسط ويقبض، حسبما يقتضيه علمه وحكمته، ولو أغناهم جميعاً لغووا، ولو أفقرهم لهلكوا.

ثم يُذكرهم سبحانه بجانب من فضله على عباده، وقد غاب عنهم الغيث، وانقطع عنهم المطر، ووقفوا عاجزين، فتداركهم برحمته، وفيض إحسانه وإنعامه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ تعديد لنعمه على العباد، أي: هو تعالى الذي ينزل المطر، الذي هو أنفع أنواع الرزق، وأعمها فائدة، وأكثرها مصلحة، فيغيثهم من الجدب، من بعد ما انقطع عنهم مدة ويئسوا من نزوله.

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: ويبسط خيراته وبركاته على العباد، من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعاً عظيماً، ويستبشرون بذلك ويفرحون، فيعرفون بهذا الإنزال للمطر بعد القنوط مقدار رحمته لهم، ويشكرون له ما يجب الشكر عليه. وفي الآية ذكر الغيث امتداد لطلب الغوث والنجدة من منقطعين، الموت أقرب إليهم من الحياة، ثم يأتي بعده نشر الرحمة، رحمة عامة للأرض والدواب والبشر، فتدخل على النفس الأنس والراحة والطمأنينة في الأقوات والأرزاق. فكما تتفتح الأرض وتهتز بالنبات، فالقلوب تحيا بالغيث والمطر أنساً وفرحاً، وسروراً وحبوراً.

تفرق الآيات في الاستعمال بين المطر والغيث؛ فنرى المطر في مواطن العذاب والانتقام كقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَمْطَرْنَا

عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أما الغيث فيغلب وروده في مواطن الرحمة والخير المقترن بالبشرى والخصب والنماء قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ وهو الوليُّ الذي يتولى عباده بأنواع الإحسان والتدبير، المحمود بكل لسان على ما أسدى من النعماء.

ومناسبة ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين ﴿ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ دون غيرهما، لمناسبتها للإغاثة؛ لأن الولي يحسن إلى مواليه، والحميد يعطي ما يحمد عليه.

* ثم بدأ سبحانه يعدد جُملاً من نعمه، ويذكر بعضاً من آلائه على عباده، فقال:

﴿٢٩-٣١﴾ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ * وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ * وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ومن دلائل قدرته، وعجائب حكمته، الدالة على وحدانيته، خلق السموات والأرض بهذا الشكل البديع مع عظمها.

﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖ﴾ وما نشر وفرق في السموات والأرض من مخلوقات، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن، وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم وأجناسهم وأنواعهم. والدابة اسم لكل ما دبّ.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ وهو تعالى قادر على جمع الخلائق للحشر والحساب والجزاء، في أي وقت شاء، فقدرته ومشيئته صالحان لذلك.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ يخبر سبحانه أنه ما أصاب العباد من مصيبة من المصائب في النفس أو المال، فإنما هي بسبب معاصيهم التي اكتسبوها، وعبر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تزاول بها.

﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ ويصفح عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها، ولو آخذكم بكل ما كسبتم، لهلكتم، وفي الحديث: «لا يصيب ابن آدم خدش عود، أو عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو عنه أكثر» [رواه البيهقي] وفي الآية يتجلى عدل الله، وتتجلى رحمته بهذا الإنسان الضعيف، فكل مصيبة تصيبه لها سبب مما كسبت يداه، ولكن الله لا يؤاخذه بكل ما يقترف، وهو يعلم ضعفه، وما ركب في فطرته من دوافع تغلبه في أكثر الأحيان، فيعفو عن كثير، رحمة به وسماحة منه. قال علي رضي الله عنه: هذه الآية أرجى آية في كتاب الله ﷻ، وإذا كان يكفر عني بالمصائب ويعفو عن كثير، فما يبقى بعد كفارته وعفوه.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ولستم أيها المشركون فائتين من عذاب الله، ولا هاربين من قضائه، وإن هربتم من أقطارها كل مهرب.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ أي: وليس لكم غير الله ولي يتولى أموركم ويتعهد مصالحكم، ولا نصير لكم عن عذابه وانتقامه، وفي هذه الآية يتجلى ضعف هذا الإنسان، فما هو بمعجز في الأرض، وما له من دون الله من ولي ولا نصير، فأين يذهب؟ إلا أن يلتجئ، إلى الولي والنصير.

* وبعد أن عدد سبحانه جملة من نعمه على عباده في البر، ساق نعماً أخرى في البحر، دلالة على وحدانيته واستحقاقه للعبادة، قال تعالى:

﴿٣٢-٣٥﴾ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ * إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ * أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ * وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ أي: ومن علاماته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم وعنايته بعباده، السفن الجارية السائرة في البحر، كأنها الجبال من عظمها وضخامتها، وهو الحافظ لها سبحانه في لجج البحار، وهو الذي سخرها لعباده، تحملهم وتحمل امتعتهم إلى بلاد بعيدة.

﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ﴾ أي: لو شاء تعالى لأسكن الرياح وأوقفها، فتبقى السفن سواكن وثوابت على ظهر البحر لا تجري، لأن من شروط مشيها وجود الريح.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ
فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ
﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا
غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ
ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ
بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى
ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ
ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى
ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

٤٨٧

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إن في تسيرها لعبراً وعظات لكل مؤمن صابر في البأساء، شاكر في الرخاء، وإنما ذكر السفن الجارية في البحر، لما فيها من عظيم دلائل القدرة، من جهة أن الماء جسم لطيف شفاف، يغوص فيه الثقيل، والسفن تحمل الأجسام الثقيلة الكثيفة، ومع ذلك جعل الله تعالى في الماء قوة يحملها بها ويمنعها من الغوص، ثم جعل الرياح سبباً لسيرها، فإذا أراد أن ترسو أسكن الريح فلا تبرح عن مكانها. والصبر والشكر كثيراً ما يقترنان في القرآن، الصبر على الابتلاء والشكر على النعماء، وهما قوام النفس المؤمنة في الضراء والسراء.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي: وإن يشأ يجعل الرياح عواصف، فيغرق هذه السفن وأهلها، بسبب ما اقترفوا من جرائم.

﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ ويتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك، ولو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: وليعلم الكفار إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أنه لا ملجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم؛ فيخلصون له العبادة.

* وبعد أن ذكر سبحانه دلائل التوحيد، وعدد جملة من النعم التي وهبها لعباده، ذكر أن هذه إنما هي إلى أجل ونهاية، فالعمر قصير، والدنيا قصيرة، كل ذلك ترغيباً وترهيباً، وحثاً على الطاعة والعبادة، قال تعالى:

﴿٣٦﴾-﴿٣٩﴾ ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ * وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فما أعطيتم وحصلتم أيها الناس من شيء من نعيم الدنيا وزهرتها الفانية، من ملك ورياسة، وأموال وبنين، وصحة وعافية بدنية، فإنما هو نعيم زائل، تتمتعون به مدة حياتكم ثم يزول، وهي نعم وهبها الله لعباده في الأرض، تلطفاً ومنَّة، وهبةً خالصة.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ وما عند الله من الثواب والنعيم، خير من الدنيا وما فيها؛ لأن نعيم الآخرة دائم مستمر، لا منغص فيه، ولا كدر ولا انتقال، فلا تقدموا الفاني على الباقي.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: وهذا الثواب والنعيم، للذين صدقوا الله ورسوله، وصبروا على ترك الملاذ في الدنيا.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: واعتمدوا على الله وحده في جميع أمورهم، لأن التوكل هو الآلة لكل عمل، فكل عمل لا يصحبه التوكل فغير تام، وفي الآيات بيان أن المؤمن والكافر يستويان في أن الدنيا متاع لهم يتمتعان بها، فإذا صارا إلى الآخرة كان ما عند الله خيراً للمؤمن.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: وهؤلاء المؤمنون هم الذين يجتنبون كبائر الذنوب، كالشرك والقتل، وعقوق الوالدين.

﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ يعني الزنى ونحوه.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية، وإذا غضبوا على أحد ممن اعتدى عليهم عفوا وصفحوا؛ لأن

الغضب يحمل صاحبه على أن يقول غير الحق، ويفعل غير العدل، وخص الغضب بالغفران، لأن استيلاءه على طبع الإنسان، وغلبته عليه شديدة، فلا يغفر عند سورة الغضب إلا من شرح الله صدره، وخصه بمزية الحلم، ومن مكارم الأخلاق التجاوز والحلم عند حصول الغضب، ولكن يشترط أن يكون الحلم غير مخل بالمروءة ولا واجباً؛ كما إذا انتهكت حرمات الله، فالواجب حينئذ الغضب لا الحلم، وقد جمع في اجتناب الإثم والفواحش مع الصفح والعفو لمن ظلمهم، جمع لهم بين التوحيد والعفة والعدل، التي هي جماع الخير كله.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ أي: أجابوا ربهم وانقادوا لطاعته، وإلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة، قيل: نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدوها بشروطها وآدابها، وحافظوا عليها في أوقاتها.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتشاورون في الأمور ولا يعجلون، ولا يبرمون أمراً من مهمات الدنيا والدين إلا بعد المشورة، وهذا من أسباب الاجتماع والألفة والتواد، والتحاب وكمال العقول. فالشورى ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب إلى الصواب. وما تشاور قوم قط إلا هُدُوا.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: وينفقون مما أعطاهم الله في سبيل الله بالإحسان إلى الخلق.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي: ينتقمون ممن بغى عليهم وظلمهم، لقوتهم وعزتهم ولا يستسلمون لظلم المعتدي، وهو وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر الفضائل، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران فإن كلاً في موضعه محمود. وقد ذكر سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض المدح، كما ذكر الغفران عند الغضب في معرض المدح، لأن التذلل عن بغي ليس من صفات من جعل الله له العزة. والآيات الكريمة تحرص على صيانة النفس من الحقد والغيظ، ومن الضعف والذل، ومن الجور والبغي، وتعلقها بالله ورضاه في كل حال، وتجعل الصبر زاد الرحلة الأصيل.

* ثم ذكر تعالى، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل، وفضل، وظلم، فقال:

﴿٤٠-٤٣﴾ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَا﴾ أي: وجزاء العدوان أن ينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي عليه بالزيادة، والاقتصار على المساواة، وهذه مرتبة العدل، ولما ذكر أنهم ينتصرون على من بغى عليهم، أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيداً بالمثل دون زيادة، وإنما سمى ذلك سيئة لأنها تسوء من تنزل به.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فمن عفا عن الظالم، وأصلح بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء، فإن الله يثيبه على ذلك الأجر الجزيل، وشرط الله في العفو، الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأموراً به، وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه فليعف عنهم. قال ابن كثير: شرع تعالى العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، فمن عفا فإن الله لا يضيع له ذلك، كما جاء في الحديث: «وما زاد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزاً» [رواه مسلم] وهذه هي المنزلة الثانية: العفو والإصلاح عن المسيء، وقد أبهم سبحانه الأجر تعظيماً لشأنه، وتنبيهاً على جلالته.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذه هي المرتبة الثالثة. أي: إنه -جل وعلا- يبغض البادئين بالظلم، والمعتدين في الانتقام، ويقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم.

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: انتصر ممن ظلمه دون عدوان.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ فليس عليهم عقوبة شرعية ولا مؤاخذة، لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ إنما العقوبة الشرعية والمؤاخذة على المعتدين الذين يظلمون الناس ويبدئون بعدوانهم.

﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾

وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ
مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ
فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسۡتَجِيبُواْ
لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم
مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ
فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ
أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ
بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا
وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ
وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ ۞وَمَا كَانَ
لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ
رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾

٤٨٨

ويتكبرون في الأرض تجبراً وفساداً، بالمعاصي والاعتداء على الناس في الدماء والأموال والأعراض.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أولئك الظالمون الباغون لهم عذاب مؤلم موجع بسبب ظلمهم وبغيهم، ثم رغب سبحانه في الصبر، والعفو، فقال:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ ولمن صبر على ما يناله من الأذى، وغفر لمن ظلمه، وترك الانتصار لوجه الله تعالى، فإن ذل الصبر والتجاوز من الأمور الحميدة التي أمر الله بها وحث وأكد عليها، اهتماماً به وترغيباً فيه، وللإشارة إلى أنه محمود العاقبة لا يوفق إليها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر وسعة الخلق، والتلذذ فيه.

* ثم أخبر سبحانه أنه المنفرد بالهداية والإضلال؛ وتنتقل الآيات للحديث عن المكذبين بالقرآن، المنكرين للبعث والجزاء، وتنذرهم بالعذاب الشديد في يوم تشيب له الرؤوس وتطير لهوله الأفئدة، بينما هم في الدنيا يهزؤون ويسخرون، ويستعجلون قيام الساعة، فقال تعالى:

﴿٤٤﴾-﴿٤٦﴾ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ * وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ * وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ ومن يضلله الله بسبب ظلمه فليس له ناصر، ولا هاد يهديه إلى الحق.

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ وترى الكافرين حين شاهدوا يوم القيامة عذاب جهنم، وهو موقف فظيع، صعب شنيع، يظهرون الندم العظيم، والحزن على ما سلف منهم، والظالمون كانوا طغاة بغاة، فناسب أن يكون الذل هو مظهرهم البارز في يوم الجزاء.

﴿يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ أي: يسألون ربهم الرجوع إلى الدنيا لهول ما يشاهدون من العذاب، ويقولون: هل هناك طريق لعودتنا إلى الدنيا؟ ويطلبون أن يردُّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله ﷻ فلا يُجابون.

﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ وتراهم أيها المخاطب يعرضون على النار.

﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: متضائلين صاغرين مما يلحقهم من الذل والهوان الذي في قلوبهم نتيجة أعمالهم.

﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ أي: يسارقون النظر خوفاً منها وفزعاً، كما ينظر من قُدِّم ليقتل بالسيف، فإنه لا يقدر أن ينظر إليه بملء عينه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حل بالكفار: إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم

خسروا أنفسهم وأهليهم بخلودهم في نار جهنم، أما خسرانهم لأنفسهم، فلكونهم صاروا في النار معذبين بها، وأما خسرانهم لأهليهم، فلأنهم إن كانوا معهم في النار، فلا ينتفعون بهم، وإن كانوا في الجنة، فقد حيل بينهم، وبينهم.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ بالكفر والمعاصي في عذاب دائم لا ينقطع، لا خروج لهم منه، ولا محيد لهم عنه.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وما كان لهم من أعوان ونصراء ينقذونهم من عذاب الله كما كانوا يرجون ذلك في الدنيا.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ ومن يضلله الله فليس له خلاص ولا نجاة، وليس له طريق يصل به إلى الحق في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة، لأنه قد سدت عليه طريق النجاة.

* وبعد أن تحدثت الآيات عن دلائل الإيمان في هذا العالم المنظور، الذي هو أثر من آثار صنع الله الباهر وحكمته وقدرته، تدعو الناس إلى الاستجابة لدعوة الله والانقياد والاستسلام لحكمه، قبل أن يفاجئهم ذلك اليوم العصيب، الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، قال تعالى:

(٤٧)، (٤٨) ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ * فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ أي: أجيبوه أيها الناس إلى ما دعاكم إليه ربكم من الإيمان والطاعة.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من قبل أن يأتي يوم القيامة، ذلك اليوم الرهيب الذي لا يقدر أحد على ردِّه، لأنه ليس له دافع ولا مانع.

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم مفر تلتجئون إليه، وليس لكم منكر ينكر ما ينزل بكم من العذاب. وهذه الآية ونحوها، فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفاتٍ.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: فإن أعرض المشركون عن الإيمان، وعما جئتهم به ولم يقبلوا هداية الرحمن، فما أرسلناك - يا محمد - رقيباً على أعمالهم ولا محاسباً لهم.

﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: ما عليك إلا أن تبلغهم رسالة ربك، وقد فعلت، والآية تسلية للرسول ﷺ وتأنيس له، وإزالة لهمه بهم.

ثم أخبر تعالى أن طبيعة الإنسان، وحالته الكفران لنعم الله، فقال:

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ المعنى: إنا إذا أكرمنا الإنسان بنعمة من النعم، من صحة وغنى، وأمن وغيرها، بطر وتكبر، نِعَمُ الله في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر، فلذلك سماها ذوقاً.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ أي: وإن أصاب الناس جدب ونقمة، وبلاء وشدة، ومرض وفقر، بسبب ما اقترفوه من آثام، فإن الإنسان مبالغ في الجحود والكفران، ينسى النعمة ويذكر البلية، قال الصاوي: والحكمة في تصدير النعمة بـ «إذا» والبلاء بـ «إن» هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول، بخلاف البلاء لأن رحمة الله تغلب غضبه، فبيَّن تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير في الدنيا فإنه يفرح بها ويعظم غروره بسببها ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المُنى، وذلك لجهله بحال الدنيا وبحال الآخرة.

* ولما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها، أخبر سبحانه عن سعة ملكه تعالى، ونفوذ تصرفه في الملك؛ في الخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، وإنه يُقسِّم النعمة والبلاء كيف أراد، ويهب لعباده من الأولاد ما يشاء فيخص بعضاً بالإناث، وبعضاً بالذكور، وبعضاً بالصنفين جميعاً، ويجعل البعض عقيماً، والذرية مظهر من مظاهر المنح والمنع والعطاء والحرمان، وهي قريبة من نفس الإنسان، ولهذا ذكرها سبحانه مظهراً قدرته ومنته، قال تعالى:

(٤٩)، (٥٠) ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ
وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا
وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا
لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا
لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا
أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

٤٨٩

يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: هو تعالى المالك للكون كله، علويه وسفليه، والمتصرف فيه بالخلق والإيجاد، كيفما شاء، والمقصود من الآية أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه، وأن يعلم أن الكل ملك لله وحده، وبيده مقاليد التصرف في السموات والأرض، يعطي ويمنع، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ أي: يخص من شاء من عباده بالإناث دون البنين.

﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ أي: ويخص من شاء بالذكور دون الإناث. قيل من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر، لأن الله تعالى بدأ بالإناث.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ أي: ويجعلهم إن شاء من النوعين، فيجمع للإنسان بين البنين والبنات.

قال ابن القيم: بدأ بذكر الإناث، فقدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات، حتى كانوا يئدونهن، أي: هذا النوع المؤخر عندكم، مقدم عندي في الذكر، وتأمل كيف نكر سبحانه الإناث، وعرف الذكور، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم، وجبر التأخير للذكور بالتعريف، فإن التعريف تنويه.

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ ويجعل بعض الرجال عقيماً فلا يولد له، وبعض النساء عقيماً فلا تلد، والمعنى يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة، على مقتضى المشيئة، فيهب لبعض إما صنفاً واحداً من ذكر أو أنثى، أو الصنفين جمعاً، ويُعقم آخرين. قيل: هذا في الأنبياء - عليهم السلام - فلوط لم يولد له ولد، وله ابنتان، وإبراهيم عليه السلام لم يولد له أنثى، ورزق الذكور، ومحمد له بنون وبنات، ويحيى وعيسى - عليهما السلام - لم يولد لهما، وهذا على وجه التمثيل، والآية عامة في حق كافة الناس، والمراد من الآية: بيان نفاذ قدرته تعالى في الكائنات كيف يشاء، ولهذا قال:

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي: مبالغ في العلم والقدرة، يفعل ما فيه مصلحة وحكمة، وقد جعل تعالى الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه النوعين الذكور والإناث، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد، فسبحان العليم القدير.

* ثم ذكر ﷻ مقامات الوحي وأقسامه وأنواعه، فقال:

﴿٥١﴾-﴿٥٣﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ * وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: وما صح لأحد من البشر أياً كان أن يكلمه الله إلا بطريق الوحي في المنام أو بالإلهام، لأن رؤيا الأنبياء حق.

وجاءت الآية لفظ (البشر) بدلاً عن (الإنسان) للتأكيد على بشرية الأنبياء، والتبشير بالخير وحسن الهيئة.

﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ أي: أو يكلمه من وراء حجاب، كما كلم موسى عليه السلام، وفي الآية إثبات صفة الكلام لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله وعظيم سلطانه.

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ أو يرسل ملكاً فيبلغ الوحي إلى الرسول بأمره تعالى ما يشاء تبليغه، كما نزل جبريل بالوحي على الأنبياء.

وقد بيّن تعالى في الآية أن كلامه لعباده على ثلاثة أوجه: أحدها: الوحي بطريق الإلهام أو المنام، والآخر: أن يسمعه كلامه من وراء حجاب، والثالث: الوحي بواسطة الملك.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ إنه تعالى متعال عن صفات المخلوقين، عليٌّ بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، حكيم في أفعاله وصنعه وتدبير أمور خلقه، تجري أفعاله على موجب الحكمة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي: وكما أوحينا إلى غيرك من الرسل، أوحينا إليك -يا محمد- هذا القرآن، وسمّاه روحاً لأن فيه حياة النفوس والقلوب من موت الجهل، وتحيا به مصالح الدنيا والدين.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ ما كنت -يا محمد- تعرف قبل الوحي ما هو القرآن، ولا كنت تعرف شرائع الإيمان ومعالمه على وجه التفصيل، وخص الإيمان لأنه رأسها وأساسها، وهذا منّة من الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: ولكن جعلنا هذا القرآن نوراً وضياء، نهدي به عبادنا المتقين، يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق ويهتدون به إلى الصراط المستقيم، فجمع في الآيات بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزل على رسوله ﷺ متضمن للأمرين، فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء به وتشرق به.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: وإنك يا محمد لترشد وتدل إلى دين قيم مستقيم هو الإسلام، تبينه لهم وتوضحه، وتنيره وترغبهم فيه، وتنهاهم عن ضده، وترهبهم منه. ثم فسر الصراط المستقيم، فقال:

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هذا الدين الذي لا اعوجاج فيه، هو دين الله الذي له كل ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته، وفي إضافة الصراط إلى الاسم الشريف تعظيماً وتفخيماً لشأنه.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: ألا إلى الله وحده ترجع الأمور، فيفصل فيها بين العباد بحكمه العادل وقضائه المبرم، كل الأمور تنتهي إليه وتلتقي عنده، وهو يقضي فيها بأمره.

تم تفسير سورة الشورى
والحمد لله

تفسير سورة الزخرف
وهي مكية

* سورة الزخرف سورة مكية، تناولت أسس العقيدة الإسلامية وأصول الإيمان بالوحدانية، وبالرسالة، وبالبعث والجزاء، كشأن سائر السور المكية.

وسميت سورة الزخرف، لما فيها من التمثيل الرائع - لمتاع الدنيا الزائل وبريقها الخادع - بالزخرف اللامع، الذي ينخدع به الكثيرون، مع أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولهذا يعطيها الله للأبرار والفجار، وينالها الأخيار والأشرار، أما الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده المتقين، فالدنيا دار الفناء، والآخرة دار البقاء.

وعرضت السورة لإثبات مصدر الوحي، وصدق هذا القرآن، الذي أنزله الله على النبي الأمي بأفصح لسان، وأنصع بيان، ليكون معجزة واضحة للنبي العربي، وتعرضت الآيات إلى جوانب في الدعوة إلى الله في بدايتها وما تلاقيه من مصاعب وعقبات، ومن جدال واعتراضات، وفي السورة تصحيح لانحرافات عقدية، ورد للنفوس إلى فطرتها، وإظهار قدرة الله تعالى ودلائل وحدانيته. قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٨﴾ ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ * أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ * وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القران.

وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا
كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ
لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ
ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ
ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا
لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ
لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم
بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا
ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِى
ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ
ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ
شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ
مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ
كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا إِنَّا
وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ قسم؛ أقسم الله به، أي: أُقْسِمُ بالقرآن البين الواضح الجلي، المظهر طريق الهدى من طريق الضلال، المبين للبشرية ما تحتاج إليه من الأحكام والدلائل الشرعية.

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ هذا هو المُقسم عليه، أي: أنزلناه بلغة العرب، مشتملاً على كمال الفصاحة والبلاغة، بأسلوب مُحكم، وبيان معجز. وذكر الحكمة في ذلك، فقال:

﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تفهموا أحكامه، وتتدبروا ألفاظه ومعانيه، وتعقلوا أن أسلوبه الحكيم خارج عن طريق البشر، وقد أقسم تعالى بالقرآن على أنه جعله قرآناً عربياً، وهو من البدائع لتناسب القسم والمُقسم عليه، تنبيهاً على أنه لا شيء أعلى منه فيقسم به، وهذا يدل على شرف القرآن وعزته بأبلغ وجه وأدقه.

﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾ أي: وإن هذا الكتاب لدينا في الملأ الأعلى؛ في اللوح المحفوظ عندنا ذو مكانة عظيمة، وشرف وفضل.

﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ أي: رفيع الشأن عظيم القدر والشرف، ذو حكمة بالغة ومكانة فائقة، محكم لا اختلاف فيه ولا تناقض، وقد بيّن شرف القرآن في الملأ الأعلى، ليشرفه ويعظمه أهل الأرض.

قال قتادة: لو أن هذا القرآن رفع حين رده الأوائل لهلكوا، ولكن الله برحمته كرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة.

ثم أخبر ﷻ أن حكمته وفضله يقتضي أن لا يترك عباده هملاً، لا يرسل إليهم رسولاً، ولا ينزل عليهم كتاباً، ولو كانوا مسرفين ظالمين، فقال:

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ الاستفهام إنكاري، أي: أنترك تذكيركم، ونترك إنزال الذكر إليكم لأجل إعراضكم وعدم انقيادكم له، ونعتبركم كالبهائم فلا نعظكم بالقرآن؟

﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي: لأجل أنكم مسرفون في التكذيب والعصيان؟ لا، بل نذكركم ونعظكم به إلى أن ترجعوا إلى طريق الحق، فهو تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير، وإلى الذكر الحكيم، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل يأمر به ليهتدي به من قدر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم الأولين؟ فهذه سنتنا في الخلق، أن لا نتركهم هملاً، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، وآمراً له بالصبر عليها. والمعنى: تسل -يا محمد- ولا تحزن فإنه وقع للرسل قبلك ما وقع لك.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: ولم يكن يأتيهم نبي إلا سخروا منه، واستهزؤوا به جحداً لما جاء به، وتكبراً على الحق.

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ فأهلكنا قوماً كانوا أشد قوة من كفار مكة، وأعتى منهم وأطغى.

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: وسبق في القرآن أحاديث إهلاكهم وأخبارهم، ليكونوا عظة وعبرة لمن بعدهم من المكذبين، فإن كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم، فليحذروا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك، فقد ضربنا لهم مثلهم.

* ثم عرضت الآيات إلى دلائل قدرته تعالى ووحدانيته، منبثة في هذا الكون الفسيح، في السماء والأرض، والجبال والوهاد، والبحار والأنهار،

والماء الهاطل من السماء، والسفن التي تسير فوق سطح الماء، والأنعام التي سخرها الله للبشر ليأكلوا لحومها ويركبوا ظهورها، قال تعالى:

﴿٩﴾-﴿١٤﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ولئن سألت -يا محمد- هؤلاء المشركين من قومك، من خلق السموات والأرض بهذا الشكل البديع؟

﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: ليعترفن بالله الذي خلقهن وحده لا شريك له، العزيز في ملكه الذي دانت لعزته جميع المخلوقات، العليم بخلقه، قال القرطبي: أقروا له بالخلق والإيجاد، ثم عبدوا معه غيره جهلاً منهم وسفهاً.

ثم بيّن تعالى لهم صفاته الجليلة، الدالة على كمال القدرة والحكمة، وذلك بما خلقه لعباده، فقال:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: بسط الأرض وجعلها كالفراش لكم، تستقرون عليها وتقومون وتنامون.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ وجعل لكم فيها طرقاً بين الجبال والأودية تسلكونها في أسفاركم، حيث جعل منافذ بين سلاسل الجبال المتصلة، تنفذون إلى ما وراءها من الأقطار.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ في سيركم من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ولكي تهتدوا إلى قدرة الخالق الحكيم، مودع هذا النظام العجيب.

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أي: نزل بقدرته الماء من السماء بمقدار ووزن معلوم، لا ينقص بحيث لا يكون فيه نفع، ولا يزيد بحيث يضر العباد والبلاد، بل بحسب الحاجة والكفاية.

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ فأحيينا به أرضاً ميتة مقفرة من النبات.

﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ كذلك نخرجكم من قبوركم كما نخرج النبات من الأرض الميتة.

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي: خلق جميع الأصناف من الحيوان والنبات وغير ذلك. قال ابن عباس: الأزواج: الأصناف والأنواع كلها، كالحلو والحامض، والأبيض والأسود، والذكر والأنثى.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: وسخر لكم وذلل لكم ويسر لكم من السفن في البحر، والإبل في البر ما تركبونه في أسفاركم. وقدم الفلك على الأنعام؛ لأن إظهار القدرة يتضح في الفلك أكثر، فالفلك تجري على الماء، والجريان على الماء أعظم إظهاراً لقدرة الله من مشي الأنعام على أرض مستقرة.

﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: لتستقروا على ظهور هذا المركوب، سفينة كانت أو جملاً.

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: وتتذكروا نعمة ربكم الجليلة عليكم حين تستقرون فوقها فتشكروه بقلوبكم.

﴿وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ وتقولوا بألسنتكم عند ركوبكم: سبحان الله الذي ذلل ويسر لنا ركوب هذا المركوب.

﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: وما كنا قادرين ولا مطيقين لركوبه لولا تسخيره تعالى لنا، ولكن من لطفه وكرمه، سخرها وذللها ويسر أسبابها، والمقصود من هذا، بيان أن الرب الموصوف بما ذكره، من إفاضة النعم على العباد، هو الذي يستحق أن يُعبد، ويُصلى له ويُسجد.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي: وإنا إلى ربنا لراجعون، وصائرون إليه بعد الموت، وإليه سيرنا الأكبر، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، وليس المراد من ذكر النعمة تصورها وإخطارها في البال، بل المراد تذكر أنها نعمة حاصلة بتدبير

القادر العليم الحكيم، مستدعية لطاعته وشكره، فإن من تفكر في أن ما يركبه الإنسان من الفلك والأنعام، أكثر قوة وأكبر جثة من راكبه، ومع ذلك كان مُسخراً لراكبه يتمكن من تصريفه إلى أي جانب شاء، وتفكر أيضاً في خلق البحر والريح وفي كونهما مسخرين للإنسان مع ما فيهما من المهابة والأهوال، استغرق في معرفة عظمة الله تعالى وكبريائه، وكمال قدرته وحكمته، فيحمله ذلك الاستغراق على أن يقول متعجباً من عظمة الله ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾.

وقد ذكر في الآية أركان الشكر الثلاثة؛ الاعتراف والتذكير لنعمة الله، والتحدث بها والثناء على الله بها والاستعانة بها على عبادته.

* ثم تناولت السورة ما كان عليه المجتمع الجاهلي من الخرافات والوثنيات فقد كانوا يكرهون البنات، ومع ذلك اختاروا لله البنات سفها وجهلاً، فزعموا أن الملائكة بنات الله، فجاءت الآيات لتصحيح تلك الانحرافات، ورد النفوس إلى الفطرة، وإلى الحقائق الأولى القطعية وذكر بعده ما يدل على سفههم وجهلهم في عبادة غير الله، فقال:

(١٥)-(٢٠) ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ * أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ * وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ * وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾.

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًا﴾ وجعل المشركون لله نصيباً وبعضاً، حيث قالوا: الملائكة بنات الله.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾ أي: إن القائل لهذا، المبالغ في الكفر، عظيم الجحود والطغيان، لأن نسبة الولد إليه - تعالى - من فرط الجهل به والتحقير لشأنه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ إنكار وتعجب من حالهم، أي: هل اتخذ تعالى لنفسه البنات، وخصكم واختار لكم البنين؟ وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تعالى تمام الإنكار، فقال:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا﴾ وإذا بشر أحد المشركين بالأنثى التي جعلها مثلاً لله بنسبة البنات له.

﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: صار وجهه كأنه أسود من الكآبة والحزن، وهو ممتلئ غيظاً وغمّاً من سوء ما بشر به، والمقصود من الآية التنبيه على قلة عقولهم وسخافة تفكيرهم، فإن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحد، كيف يجوز للعاقل إثباته لله، - تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً -.

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ أي: أيجعلون لله من يُربى في الزينة، ويجمل فيها وينشأ، ويكبر عليها وهن الإناث؟

﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ أي: ومن هو في الجدال غير مظهر لحجته لضعف رأيه؟ أَوَ مَنْ يكون هكذا ينسب إلى جناب الله العظيم؟

﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ كفر آخر تضمنه قولهم الشنيع، أي: واعتقد كفار العرب بأن الملائكة الذين هم أكمل العباد وأكرمهم على الله - إناث - وحكموا عليهم بذلك.

﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾ أي: أحضروا وقت خلق الله لهم حتى عرفوا أنهم إناث؟ وهذا تجهيل وتهكم بهم.

﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾ أي: سنأمر الملائكة بكتابة شهادتهم الكاذبة في ديوان أعمالهم ويسألون عنها يوم القيامة، وهو وعيد شديد مع التهديد. وقد حكى تعالى عن كفار العرب ثلاثة أقوال شنيعة: الأول: أنهم نسبوا إلى الله الولد، والثاني: أنهم نسبوا إليه البنات دون البنين، الثالث: أنهم حكموا على الملائكة المكرمين بالأنوثة بلا دليل ولا برهان، فكذبهم القرآن الكريم في تلك الأقوال، ثم زادوا ضلالاً وبهتاناً فزعموا أن ذلك برضى الله.

﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾ هذا فن آخر من فنون كفرهم بالله جاءوا به للاستهزاء والسخرية، فاحتجوا على عبادة الملائكة بالمشيئة، وقالوا: لو شاء الله

ما عبدنا هـؤلاء الملائكة ولا الأصنام لعلمنـا أن الله أراد منهـم ذلك، وقد كذبهم الله بقوله:

﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ ما لهم بذلك القول حجـة، وهي حجة باطلة في نفسها عقلاً وشرعاً، ولا برهان لهم بذلك.

﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ أي: ما هـم إلا يكذبون كذبـاً لا دليل عليه، ويتخبطون خبط عشـواء، ويتقولون على الله كذباً وزوراً.

* ثـم رد الله ﷻ أقوالهم قولاً بعد قول، قال تعالى:

﴿٢١﴾-﴿٢٥﴾ ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ * بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ * وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ * قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾ رد آخر عليهم، أي: أم أنزلنا علـى هـؤلاء المشركين كتاباً من قبل القرآن فهم بذلك الكتاب متمسكون يعملون بتوجيهاته؟

﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ بل، للإضراب وهو الانتقال من كلام إلى آخر، أي: لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية على ما زعموا، بل اعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة.

والأمة: الديـن، والطريقة أمة: لأنها تؤم وتقصد.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي: ونحن ماشـون عـلى طريقتهم، مهتدون بآثارهم، فلا نتبع ما جاء به محمد ﷺ.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي: وكـما تبع هـؤلاء الكفـار آباءهم بغـير حجـة ولا برهان، كذلك فعل من قبلهم من المكذبين، فـما بعثنا قبلك رسولاً في أمة من الأمم.

﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ أي: إلا قـال المتنعمـون فيهـا الذين أبطرتهم النعمـة، وأعمتهم الشـهوات والملاهي عن تحمل المشـاق في طلب الحق، وجدنا أسـلافنا على ملة وديـن، وإنا مقتدون بهـم في طريقتهم. والآية تسلية لرسول الله ﷺ ودلالة على أن التقليد في نحو هذا ضلال وداء قديم، وأسـلافهم لم يكن لهم سند منظور يعتد به، وإنما خص المترفين بالذكر للإشـعار بـأن التنعم وحب البطالـة صرفهم عن النظـر إلى التقليد الأعمـى، وذكر هنا ﴿مُّقۡتَدُونَ﴾ وهناك ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ تفننا لأن معناهما واحد.

﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ أي: قال كل نبـي لقومه حـين أنذرهم عذاب الله: أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم بدين أهدى وأرشد مما كانوا عليه؟

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: قالوا إنا كافرون بكم وبما أرسـلتم به من التوحيد والإيمان والبعث والنشـور، فعلـم بهذا أنهم مـا أرادوا اتباع الحق والهـدى، وإنما قصدهم اتباع الباطل والهوى.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: فعاقبنا الأمـم المكذبـة بـما اسـتحقوه على إصرارهم بأنواع العذاب، من خسف وغرق وغير ذلـك، فانظر كيف صار حالهم ومآلهم، وفي هذا تهديد ووعيد.

* ثم ذكرت الآيـات بإيجاز دعوة الخليـل إبراهيم عليه السلام، الـذي يزعم المشركـون وأهـل الكتـاب أنهم من سـلالته، وكلهم يزعم أنه على طريقته

الجُزْءُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ — سُورَةُ الزُّخْرُفِ

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ
إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾
* قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ
قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ
إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ
﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلۡ
مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿٢٩﴾
وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ
لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ
يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم
بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوۡلَآ
أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ
لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾

٤٩١

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن
كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا
فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ
أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ
بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ
إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ
ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا
نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى
وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ
إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ
أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾

٤٩٢

وملته، فكذبتهم في تلك الدعوى، وبينت الآيات أن إبراهيم أول من تبرأ من الأوثان، قال تعالى:

(٢٦)-(٣٥) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي: واذكر - يا محمد، حين قال إبراهيم الخليل لأبيه وقومه المشركين: إني بريء من هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله، ومبغض ومجتنب لها، معاد لأهلها.

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ لكن ربي الذي خلقني وأنشأني من العدم فإنه يرشدني إلى الدين الحق، ويهديني إلى طريق السعادة ويثبتني على الهداية.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ وجعل إبراهيم هذه الكلمة - كلمة التوحيد - باقية في ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله، فهي أم الخصال وأساسها، وهي إخلاص العبادة لله وحده، والتبري من عبادة ما سواه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: رجاء أن يرجع إلى الإيمان من أشرك منهم، ويرجعون عما هم عليه إلى دين إبراهيم.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بل متعت أهل مكة وآباءهم، - وهم من عقب إبراهيم - بالإمداد في العمر والنعمة، فاغتروا بالمهلة، واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات عن كلمة التوحيد.

﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ حتى جاءهم القرآن ورسول ظاهر الرسالة، مؤيد بالمعجزات الباهرة من عند الله، لا شك فيه ولا مرية.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ ولما جاءهم القرآن لينبههم من غفلتهم، ويرشدهم إلى التوحيد، ازدادوا عتواً وضلالاً، فقالوا عن القرآن إنه سحر، وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل ولا جحده، فلم يرضوا حتى قدحوا به قدحاً شنيعاً، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل.

﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: ونحن كافرون به، لا نصدق أنه كلام الله، ودفعوا بالصدور والراح كفراً وحسداً وبغياً.

ثم انتقلت إلى تفنيد تلك الشبهة السقيمة، التي أثارها المشركون حول رسالة محمد ﷺ، فقد اقترحوا أن تتنزل الرسالة على رجل من أهل الجاه والثراء، لا على يتيم فقير كمحمد ﷺ، واستحقروا رسول الله ﷺ ليتمه وفقره فجاءت الآيات لتقرير أن الجاه والثراء ليسا ميزاناً لكرامة الإنسان واستحقاقه المناصب الرفيعة، وأن الدنيا من الحقارة والمهانة بحيث لو شاء الله لأغدقها على الكافرين ومنعها عباده المؤمنين، قال تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وقال المشركون مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة ومستهينين به: هلا أنزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير في مكة أو الطائف! يعنون الوليد بن المغيرة في مكة، أو عروة بن مسعود الثقفي في الطائف. استبعدت قريش نزول القرآن على محمد وهو فقير يتيم، واقترحوا أن ينزل على أحد الرؤساء والعظماء، وهم يعتبرون الجاه والمال مقياساً لذلك، وهذا رأي الجاهلين في كل زمان ومكان، أما المقياس عند الله تعالى وعند العقلاء، فإنما هو عظمة النفس، وسمو الروح، ومن أعظم نفساً وأسمى روحاً من محمد بن عبدالله ﷺ ولهذا رد - تبارك وتعالى - عليهم، بقوله:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ تعجباً وإنكاراً، أي: أهم يمنحون النبوة ويخصون بها من شاؤوا من العباد، حتى يقترحوا أن تكون لفلان الغني، أو فلان الكبير من الناس؟ والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً.

ثم بين أنه سبحانه هو الذي قسم بينهم ما يعيشون به من أمور الدنيا، فقال:

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ نحن بحكمتنا جعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً، وفاوتنا بينهم في الأموال والأرزاق، وإذا كان أمر المعيشة - وهو تافه حقير - لم نتركه لهم بل تولينا قسمته بأنفسنا، فكيف نترك أمر النبوة - وهو عظيم وخطير - لأهوائهم ومشتهياتهم.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: فاضلنا بين الخلق في الرزق والعيش، وجعلناهم مراتب: هذا غني، وهذا فقير، وهذا متوسط الحال.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ليكون كل منهم مسخراً للآخر، ويخدم بعضهم بعضاً، لينتظم أمر الحياة، ولو كانوا سواء في جميع الأحوال لم يخدم أحدٌ أحداً، فيفضي إلى خراب العالم وفساد نظامه، وفي قوله ﴿نَحْنُ﴾ تزهيد في الإكباب على طلب الدنيا، وعون على التوكل على الله، ومن قسمة الله ﷻ أنك تلقى ضعيف القوة، قليل الحيلة، عيي اللسان؛ وهو موسع عليه في الرزق، وتلقى شديد الحيلة، بسيط اللسان، وهو مقتر عليه في الرزق. قال حاتم الأصم: رأيت الناس يذم بعضهم بعضاً، ويغتاب بعضهم بعضاً، فوجدت أصل ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم، فتأملت في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فعلمت أن القسمة كانت من الله في الأزل، فما حسدت أحداً، ورضيت بقسمة الله.

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: وإنعامه تعالى عليك بالنبوة، خير مما يجمع الناس من حطام الدنيا الفاني، من الأموال والمتاع.

ثم بيّن تعالى حقارة الدنيا ودناءتها، وأردفه بما يقرر قلة قدرها عند الله، فقال:

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ أي: ولولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الرزق، ويصيروا أمة واحدة في الكفر، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار، وجعلنا لهم القصور الشاهقة المزخرفة بأنواع الزينة والنقوش، سقفها من الفضة الخالصة.

﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: وجعلنا لهم مصاعد وسلالم من فضة عليها يرتقون ويصعدون.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا﴾ ولبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً من فضة، زيادة في الرفاهية والنعيم.

﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ أي: على تلك الأسرة الفضية يتكئون ويجلسون.

﴿وَزُخْرُفًا﴾ أي: وجعلنا لهم زينة من ستور ونمارق ونقوش.

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وما كل ذلك النعيم العاجل الذي نعطيه للكفار، إلا شيء يتمتع به في الحياة الدنيا القصيرة الزائلة الحقيرة.

﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: والجنة وما فيها من أنواع الملاذ والنعم التي يقصر عنها البيان، هي خاصة بالمتقين لا يشاركهم فيها أحد. والآيات سبقت لبيان حقارة الدنيا وقلة شأنها، وأنها من الهوان بحيث لو لا الفتنة لخص بها الكافرين، فجعل بيوت الكفرة ودرجها وسقوفها من ذهب وفضة، وأعطى الكافر

كل ذلك النعيم في الدنيا لعدم حظه في الآخرة، ولكنه - تعالى - رحيم بالعباد، فلذلك أغنى بعض الكفار وأفقر بعضهم، وأغنى بعض المؤمنين وأفقر بعضهم، قال الزمخشري: فإن قلت فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم، من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام؟ قلت التوسعة عليهم مفسدة أيضاً لما تؤدي إليها من دخول الناس في الإسلام لأجل الدنيا وذلك من دين المنافقين، فكانت الحكمة فيما دبر، حيث جعل الفريقين أغنياء وفقراء، وغلب الفقر على الغنى.

* ثم أخبر ﷻ عن عقوبته البليغة، لمن أعرض عن ذكره، فقال:

(٣٦)-(٤٥) ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ * وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ * فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ * وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ومن يعرض ويصد ويتغافل عن القرآن وعبادة الرحمن، وقد قضى سبحانه أنه حين يغفل قلب الإنسان عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه، فيلزمه، ويصبح له قرين سواء ويسول له، ويزين له السوء. والعشى كلال البصر عن الرؤية.

﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ نهيء ونيسر له في الدنيا شيطاناً متسلط عليه، لا ينفك عن الوسوسة له والإغواء جزاءً؛ له على إعراضه عن ذكر الله.

﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ فهو ملازم ومصاحب له، لا يفارقه ويعده ويمنيه، ويؤزه إلى المعاصي أزاً.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وإن الشياطين ليمنعون هؤلاء الكفار الضالين عن طريق الهدى والدين القويم، وهذا أسوأ ما يصنعه قرين بقرين، ثم لا يدعه يفيق، أو يتبين الضلال فيثوب.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ويحسب الكفار أنهم على نور وبصيرة وهداية من أمرهم، فهذه حالة المعرض عن ذكر الله في الدنيا مع قرينه، وهو الضلال والغي، وانقلاب الحقائق، وأما حاله في الآخرة فكما ذكر سبحانه. والتعبير هنا بالفعل المضارع «ليصدونهم»، «ويحسبون» يصور الأمر بأنه قائم ومستمر، حتى تحين لحظة الإفاقة ووقت العودة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ حتى إذا جاء الكافر مع قرينه في شر الأحوال، وقد ربطا بسلسلة واحدة.

﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ قال الكافر لقرينه: يا ليت بيني وبينك مثل بعد ما بين المشرق والمغرب.

وقال: ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ ولم يقل: بيننا؛ لأنه أراد قمة البراءة، فيسعى حثيثاً للتخلص منه، ففصل حتى الألفاظ.

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أي: فبئس الصاحب أنت، لأنك كنت سبباً في شقائي بتزيينك الباطل لي.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي: ولن ينفعكم ويفيدكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، ولن يخفف ذلك عنكم شيئاً بسبب ظلمكم، فإن لكل واحد نصيبه الأوفر منه، والمراد أنه لا ينفعهم اشتراكهم في العذاب، ولا يجدون راحة التأسي التي يجدها المكروب في الدنيا إذا رأى غيره قد أصابه مثل ما أصابه؛ لأن المصيبة إذا عمت هانت، فدفع تعالى ذلك التوهم بأن اشتراكهم في العذاب، لا يخفف عنهم البلاء.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أفأنت -يا محمد- تقدر أن تسمع هؤلاء الكفار الذين هم كالصم والعمي، ومن كان في ضلال واضح؟ ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك إن كفروا، والآية تسلية للنبي ﷺ فقد

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم
بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ
قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن
تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ
وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ
مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ
فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا
ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ
سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا
إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ
هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ
إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾
وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

كان يجتهد في دعائهم إلى الإيمان، ولا يزدادون إلا تعامياً عن الحق وطغياناً وضلالاً.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أي: إن عجلنا وفاتك قبل الانتقام منهم، فإنا سنتقم منهم بعد وفاتك، ونشفي صدور المؤمنين منهم.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أو نرينك -يا محمد- العذاب الذي وعدناهم به في حياتك، فإنا قادرون عليهم فهم في قبضتنا لا يفوتوننا، قد أراه الله ذلك يوم بدر، ولم يقبض الله تعالى رسوله حتى أقر عينه من أعدائه، حكَّمه في نواصيهم.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: فتمسك وخذ -يا محمد- بالقرآن الذي أوحيناه لك، وإن كذب به من كذب، فإنك على الحق الواضح، والطريق المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ وإن هذا القرآن لشرف عظيم لك ولقومك من قريش، إذ أنزل بلغتهم وعلى رجل منهم، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة، ويكفيك أن فتحوا مشارق الدنيا ومغاربها وصارت فيهم الخلافة والملك، فارتفعتم وانتفعتم، وهذا القرآن شرف لكل من تبعه، وسوف تسألون عن شكر هذه النعمة هل قمتم به، أم لم تقوموا به، فيكون حجة عليكم، وكفراً منكم بهذه النعمة.

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ هذا على سبيل الفرض، وفي الكلام محذوف أي: إن كنت -يا محمد- شاكاً في أمر التوحيد فسل من سبقك من الرسل.

﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أي: هل هناك أحد من الرسل دعا غير الله؟ والمراد بالآية الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه حتى يُكذب ويعادى.

※ لما أعلم الله سبحانه نبيه بأنه منتقم له من عدوه، وذكر اتفاق الأنبياء على التوحيد، اتبعه بذكر قصة موسى ودعوته، التي هي أشد ما يكون من دعوات الرسل، ولأن الله تعالى أكثر من ذكرها في كتابه، فذكر حاله مع فرعون، وذكرت السورة قصة «موسى وفرعون» لتأكيد تلك الحقيقة السابقة، فها هو فرعون الجبار يعتز ويفخر على موسى بملكه وسلطانه، كما يعتز الجاهلون من رؤساء قريش على النبي ﷺ، ثم تكون نتيجته الغرق والدمار، قال تعالى:

﴿٤٦﴾-﴿٥٠﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ۞ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۞ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أي: والله لقد أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرة الدالة على صدقه إلى فرعون وقومه الأقباط، ومن معجزاته العصا والحية، وإرسال الجراد، والقُمَّل، وغيرها من الآيات العظيمة.

﴿فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فقال له موسى: إني رسول الله إليك، أرسلني لأدعوك وقومك إلى عبادة الله وحده.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ فلما جاءهم بتلك الآيات الباهرة الدالة على رسالته، ردوها وأنكروها وضحكوا سخرية

واستهزاءً به، إنما ضحكوا منها ليوهموا أتباعهم أن تلك الآيات سحر، وأنهم قادرون عليها، قال تعالى:

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ وما نريهم من آيات العذاب والطوفان، والجراد، والقُمَّل، إلا وهي في غاية الكبر والظهور، بحيث تكون أوضح من سابقتها.

﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: عاقبناهم بأنواع العذاب الشديد، كالجراد والقمل والضفادع والدم؛ آيات مفصلات، لعلهم يعودون إلى الإسلام ويذعنون له، ويرجعون عما هم عليه من الكفر والتكذيب.

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ كانوا يقولون للعالم الماهر: ساحر؛ لأن السحر كان علم زمانهم، ولم يكن مذموماً، فنادوه بذلك على سبيل التعظيم، أي: وقالوا لما عاينوا العذاب يا أيها الساحر، يعنون موسى عليه السلام ادع لنا ربك ليكشف عنا هذا البلاء والعذاب.

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بالعهد الذي أعطاك إياه من استجابة دعائك.

﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي: لنؤمن بك إن كشف عنا العذاب بدعائك.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ فلما رفعنا عنهم العذاب بدعوة موسى، إذا هم ينقضون العهد ولا يفون به، ويصرون على الكفر والعصيان.

* ثم ذكر سبحانه ما جرى من فرعون، من استكبار وعتو في الأرض، لما رأى تلك الآيات وخاف ميل القوم إلى موسى، قال تعالى:

﴿٥١﴾-﴿٥٦﴾ ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ * فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ أي: نادى فرعون رؤساء القبط وعظماءهم، لما رأى الآيات الباهرة من موسى وخاف أن يؤمنوا.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ أي: قال مفتخراً مستعلياً بباطله قد غره ملكه، وأطغاه ماله وجنوده: أليست بلاد مصر الواسعة الشاسعة ملكاً لي، اتصرف فيها كيف أشاء؟ وهذه الخلجان والأنهار المتفرعة من نهر النيل تجري من تحت قصوري؟

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: أفلا تبصرون عظمتي وسعة ملكي، وتستدلون به على قوة ملكي وعظيم قدري، وقلة موسى وذلته، وضعفه عن مقاومتي؟ لما افتخر فرعون بهذه الأنهار عُذب بما افتخر به فأُغرق في البحر، وعاد عذبت بألطف الأشياء -وهي الريح- لما تعالت بقوتها وقالت من ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. ثم رجع فرعون إلى تهوين أمر موسى وشأنه، فقال:

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أي: بل أنا خير من هذا الضعيف الحقير الذي لا عز له ولا جاه ولا سلطان، يعني موسى عليه السلام، فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحقارته وضعفه؟

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: لا يكاد يفصح عن كلامه، ويوضح مقصوده، للثغة التي في لسانه، فكيف يصلح للرسالة؟ قال فرعون ذلك افتراءً على موسى، وتنقيصاً له عليه السلام في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه من عقدة، ولكن الله أذهبها عنه بدعائه ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧-٢٨]. وإنما حمله على هذا الكفر والعناد وهو ينظر إلى موسى ﷺ بعين كافرة شقية، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر إبصار ذوي الألباب، ثم قال فرعون:

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: فهلا إن كان صادقاً، ألقى الله إليه أسورة من ذهب كرامة له ودلالة على نبوّته، وكانوا إذا أرادوا أن يجعلوا رجلاً رئيساً عليهم، سوروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهب علامة لسيادته، ليكون مزيناً مجملاً بالحلى والأسوار.

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أو جاءت معه الملائكة يمشون، يعاونونه على دعوته، ويكتنفونه خدمة له وشهادة بصدقه.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ فاستخفف بعقول قومه واستجهلهم

لخفة أحلامهم، فأطاعوه ووافقوه فيما دعاهم إليه من الضلالة، وكذبوا موسى.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي: إنما أجابوه لفسقهم، وخروجهم عن طاعة الله.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فلما أغضبونا وغاظونا، انتقمنا منهم بأشد أنواع العقاب، وبهذا انتهت مرحلة الابتلاء والإنذار والتبصير.

وكل ما جاء في القرآن من الأسف على معناه الحقيقي كقوله: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ من التأسف، إلا في هذه الآية فإنه بمعنى أغضبونا.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فأغرقنا فرعون وقومه في البحر أجمعين فلم نبق منهم أحداً، اغتر فرعون بالعظمة والسلطان والأنهار التي تجري من تحته، فأهلكه الله بجنس ما تكبر به وقومه وذلك بالغرق بماء البحر، وفيه إشارة إلى أن من تعزز بشيء أهلكه الله به.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ أي: جعلنا قوم فرعون قدوة لمن بعدهم من الكفار في استحقاق العذاب والدمار، ومثلاً يعتبرون به ويتعظون بأحواله لئلا يصيبهم مثل ذلك.

* ثم ذكر تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل، ورد الحق والاغترار بالباطل، فقال:

(٥٧)-(٦٥) ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ * وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ولما ذكر عيسى ابن مريم في القرآن، وضرب المثل بالآلهة التي عُبدت من دون الله، إذا مشركو قريش يضجون وترتفع أصواتهم بالصياح إعجاباً بذلك.

قال المفسرون: لما قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، قال ابن الزبعرى: أهذا لنا ولآلهتنا، أم لجميع الأمم؟ فقال عليه السلام: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم» فقال: قد خصمتك ورب الكعبة؟ أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود

الجُزْءُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ سُورَةُ الزُّخْرُفِ

وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ
﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ
وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ
﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ
مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن
تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ
عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ
تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ
وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

٤٩٤

يعبدون عزيراً؟ وبنو فلان يعبدون الملائكة، فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، فسكت ﷺ انتظاراً للوحي، فظنوا أنه ألزم الحجة، فضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] قال القرطبي: ولو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها، لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ولم يقل «ومن تعبدون» وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي: آلهتنا خير أم عيسى؟

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ أي:

ما قالوا هذا القول لك إلا على وجه الجدل والمكابرة لا لطلب الحق.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: بل هم قوم شديدو الخصومة واللجاج بالباطل، فإنهم ما ضربوا لك هذا المثال إلا على وجه الجدل والمغالطة، وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب من يناظره، سواء غلبه بحق أو بباطل.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: ما عيسى إلا عبد كسائر العبيد، أنعمنا عليه بالنبوة وشرفناه بالرسالة، وليس هو إلها ولا ابن إله كما زعم النصارى.

﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾ وجعلناه آية وعبرة لبني إسرائيل، يستدلون بها على قدرة الله تعالى، حيث خُلق من أم بلا أب.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي: لو أردنا لجعلنا بدلاً منكم ملائكة يسكنون في الأرض يكونون خلفاً عنكم، ويعمرون الأرض بدلاً منكم.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ أي: وإن عيسى علامة على قرب الساعة، فخروج عيسى عليه السلام من أعلام الساعة وأشراطها؛ لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة. وفي الآية أن القادر على إيجاد عيسى عليه السلام من أم بلا أب، قادر على بعث الموتى من قبورهم.

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تشكوا في أمر الساعة ولا تكذبوا بها، فإنها آتية لا محالة، فإن الشك فيها كفر.

﴿وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ وقل لهم - يا محمد-: اتبعوا هداي وشرعي فيما أخبرتكم، فإن هذا الذي أدعوكم إليه دين قيم وطريق مستقيم يوصل إلى الله عز وجل.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: لا تغتروا بوساوس الشيطان، واحذروا أن يصدكم عن اتباع الحق، والإيمان بالساعة، فإنه لكم عدو ظاهر العداوة، حيث أخرج أباكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ أي: ولما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع الواضحات، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص وغيرها، قال قد جئتكم بما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع.

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: وجئتكم لأبين لكم ما اختلفتم فيه من أمور الدين، فيزول عنكم اللبس، وإنما قال: ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ دون الكل؛ لأن الأنبياء إنما يبنون أمور الدين لا أمور الدنيا.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأطيعوا أمري فيما أبلغه إليكم من التكاليف.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ إن الله -جل وعلا- هو الرب المعبود لا رب سواه، فأخلصوا له الطاعة والعبادة، وأنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده.

وتقديم نفسه على قومه في قوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ لقصد سد ذرائع الغلو في تقديس عيسى.

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ هذا تمام كلام عيسى عليه السلام، أي: هذا التوحيد والتعبد بالشرائع، طريق مستقيم موصل إلى جنات النعيم.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ أي: اختلفت فرق النصارى في شأن عيسى، وصاروا شيعاً وأحزاباً فيه، منهم من يُقرُّ بأنه عبدُ الله ورسوله -وهو الحق، ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول إنه الله - تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً-.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فهلاك ودمار لهؤلاء الكفرة الظالمين من عذاب يوم مؤلم وهو يوم القيامة، حيث قالوا في عيسى ما كفروا به.

(٦٦)-(٧٣) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ * يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل إلا إتيان

الساعة ومجيئها فجأة.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهم غافلون عنها مشتغلون بأمور الدنيا، وحينئذ يندمون حيث لا ينفعهم الندم.

ثم ذكر تعالى أحوال القيامة وأنها إذا جاءت فلا تسأل عن أحوال من كذب بها، واستهزأ بمن جاء بها، فقال:

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: الأصدقاء والأحباب على المعصية في الدنيا، يوم القيامة يصبحون أعداء إلا من كانت صداقته ومحبته لله؛ لأن محبتهم في الدنيا لغير الله فانقلبت عداوة، وصارت كل خلة عداوة يوم القيامة. قال الحسن: استكثروا من الأصدقاء المؤمنين، فإن الرجل منهم يشفع في قريبه وصديقه.

﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إلا المتقين تشريفاً وتطييباً لقلوبهم فهم أخلاء في الدنيا والآخرة، فيقول:

﴿يَٰعِبَادِ﴾ المؤمنين الذين تحققتم في العبودية لرب العالمين.

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ في هذا الموقف العصيب.

﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتكم من الدنيا، وهو حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله يومئذ، ثم وضحهم بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ أي: هم الذين صدقوا بالقرآن، واستسلموا وانقادوا لحكم الله وأمره، وانقادوا لطاعته.

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ أي: يقال لهم: أدخلوا الجنة التي هي دار القرار، أنتم ونساؤكم المؤمنات، تنعمون فيها وتكرمون، وتسرون سروراً يظهر أثره على وجوهكم.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: يطاف على أهل الجنة بأوان من الذهب فيها الطعام، والصحاف: جمع صحفه، وهي القصعة الواسعة، وأقداح من ذهب فيها الشراب، وفي الحديث: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة» [رواه البخاري].

لما ذكر الجنة وأنها موضع الحبور؛ ذكر ما فيها من النعم، فذكر أولاً المطاعم، ثم ذكر المشارب، ثم بعد ذلك التفصيل ذكر بياناً كلياً بقوله تعالى:

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ أي: وفي الجنة كل ما تشتهيه النفوس من أنواع اللذائذ والمشتهيات، وتسر به الأعين من فنون المناظر الجميلة، والمشاهد اللطيفة، وهذا حصر لأنواع النعم لأنها إما مشتهيات في القلوب، أو مستلذة في العيون، ثم ذكر تمام النعمة بالخلود في دار النعيم.

وقد جمع ﷻ بهاتين اللفظين ما لو اجتمع الخلق كلهم على وصف ما فيها على التفصيل لم يخرجوا عنه.

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: وأنتم في الجنة باقون دائمون، لا تخرجون منها أبداً، وهذا إتمام للنعمة وإكمال للسرور، فإن كل نعيم زائل موجب لخوف الزوال.

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: وتلك الجنة الموصوفة بتلك الأوصاف الجليلة أعطيتموها بسبب أعمالكم الصالحة التي قدمتموها في الدنيا، فكانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحد الجنة بعمله، ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات، وفي الحديث: «ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]» [رواه ابن ماجه] ولما ذكر الطعام والشراب، ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة.

﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: لكم في الجنة من أنواع الفواكه والثمار الشيء الكثير سوى الطعام والشراب، من هذه الفواكه تأكلون تفكهاً وتلذذاً، يأكل أهل الجنة من بعض الثمار، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، لا ترى فيها شجرة تخلو من ثمرها لحظة، فهي مزينة بالثمار أبداً، لأن كل ما يؤكل يخلف بدله، في الحديث: «إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى» [رواه الطبراني].

* ولما ذكر حال السعداء الأبرار، وذكر نعيم الجنة وما يناله أهلها من اللذات والسرور والحبور، أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار، وذكر بعض أحوال الآخرة وشدائدها وأهوالها،

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ
فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾
وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ
جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا
فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ
وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ
ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ
ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ
إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا
مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ
لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

وبيان حال الأشقياء المجرمين، وهم يتقلبون في غمرات الجحيم، قال تعالى:

﴿٧٤﴾-﴿٨٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ * أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ **أي: إن الكافرين الراسخين في الإجرام في العذاب الشديد؛ في جهنم دائمون فيها أبداً، والمراد بالمجرمين الكفار؛ لأنهم ذكروا في مقابلة المؤمنين.**

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ **أي: لا يخفف عنهم العذاب لحظة بإزالته، ولا بتهوين عذابه، وهم في ذلك العذاب يائسون من كل خير، غير راجين للفرج.**

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **أي: وما ظلمناهم بعقابنا لهم، وما عذبناهم بغير ذنب، ولكن كانوا هم الظالمين لتعريضهم أنفسهم للعذاب الخالد.**

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ **أي: ونادى الكفار مالكاً خازن النار قائلين: ليمتنا الله وليقبض أرواحنا حتى نستريح من العذاب، فيجيبهم بعد ألف سنة.**

﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ **أي: أجابهم مالك خازن النار، إنكم مقيمون في العذاب أبداً، لا خلاص لكم منه بموت ولا بغيره.**

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ **خطاب توبيخ وتقريع، أي: لقد جئناكم أيها الكفار بالحق الساطع المبين، وبيناه لكم ووضحناه وفسرناه، ولكنكم كنتم كارهين لدين الله لا تقبلونه، مشمئزين منه لكونه مخالفاً لأهوائكم وشهواتكم، فلذلكم شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها.**

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ **الكلام عن كفار قريش، أي: أم أحكم هؤلاء المشركون أمراً في كيد محمد ﷺ فإنا محكمون أمرنا في نصرته وحمايته، وإهلاكهم وتدميرهم. قال مقاتل: نزلت في تدبيرهم المكر بالنبي ﷺ في دار الندوة.**

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ **أي: أم يظنون أنا لا نسمع ما حدثوا به أنفسهم، وما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي. والسر ما يحدث به الإنسان نفسه أو غيره في خفيه، والنجوى ما تكلموا به بينهم.**

﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ **بلى إنا نسمع سرهم وعلانيتهم ونطلع عليها، وملائكتنا الحفظة يكتبون عليهم أعمالهم. روي أنها نزلت في «الأخنس بن شريق» و«الأسود بن عبد يغوث» اجتمعا فقال الأخنس: أترى الله يسمع سرنا؟ فقال الآخر: يسمع نجوانا ولا يسمع سرنا.**

﴿٨١﴾-﴿٨٩﴾ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ * سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ * وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا

مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ * فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: قل -يا محمد- لهؤلاء المشركين الذين جعلوا لله ولداً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد: لو فرض أن لله ولداً وصح ذلك ببرهان، لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد، ولكنه -جل وعلا- منزه عن الزوجة والولد، وهذا كما تقول لمن تناظره: إن ثبت ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقده، وهذا مبالغة في الاستبعاد، وترقيق في الكلام، ولا يلزم من هذا الكلام صحة وجود الولد وعبادته له، بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه، وإنكاره للولد ليس للعناد والمراء، بل لو كان لكان أولى الناس بالاعتراف به، فإن النبي يكون أعلم بالله، وبما يصح له وما لا يصح، إنما هو ملاطفة في الخطاب.

ثم نزه نفسه سبحانه عما يقولون من الكذب، فقال:

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تعالى وتنزه وتقدس الله العظيم الجليل، ورب السموات والأرض، ورب العرش العظيم، عما يصفه به الكافرون من نسبة الولد إليه، فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفء له فلا ولد له.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ أي: اترك كفار مكة في جهلهم وضلالهم، يخوضوا في باطلهم وغيهم، ويلعبوا بدنياهم. ثم توعدهم بما أمامهم من يوم القيامة، فقال:

﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي: إلى ذلك اليوم الرهيب الذي وعده - وهو يوم القيامة - فسوف يعلمون حينئذ كيف يكون حالهم ومصيرهم ومآلهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي: هو -جل وعلا- معبود في السماء ومعبود في الأرض، يعبده أهلهما وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه لأنه هو الإله الحق، المستحق للعبادة في السماء والأرض.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: هو الحكيم في تدبير خلقه، وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا شرع شيئاً إلا لحكمة، العليم بكل شيء يعلم السر وأخفى، عليم بمصالحهم، وهذا كالدليل على وحدانيته تعالى.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: تمجد وتعظم الله الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات، من الإنس والجن والملائكة، فهو الخالق والمالك والمتصرف في الكائنات بلا ممانعة ولا مدافعة، انفرد بعلم كثير من الغيوب، التي لم يطلع عليها أحد من الخلق، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، ولهذا قال:

﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: وعنده وحده علم زمان قيام الساعة، ومن تمام ملكه وسعته، أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال:

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: في الآخرة، إليه لا إلى غيره مرجع الخلائق للجزاء، فيجازي كلاً بعمله.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ ولا يملك أحد ممن يعبدونهم من دون الله أن يشفع عند الله لأحد؛ لأنه لا شفاعة عند الله إلا بإذنه سبحانه، ولا يشفع إلا لمن ارتضى، ولهذا قال:

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: إلا لمن شهد بالحق، وآمن عن علم وبصيرة، فإنه تنفع شفاعته عند الله، وهم يعلمون أن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه. قال المفسرون: والمراد بـ ﴿مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ عيسى وعزير والملائكة، فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية لله، فهؤلاء تنفع شفاعتهم للمؤمنين وإن كانوا قد عُبدوا من دون الله.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ولئن سألت -يا محمد- كفار مكة من الذي خلقهم وأوجدهم؟ ليقولن الله خلقنا، فهم يعترفون بأنه الخالق، ثم يعبدون غيره ممن لا يقدر على شيء.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف ينصرفون عن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان؟ فهم في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقول.

سورة الدخان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ
إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا
مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ
إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ
وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴿٩﴾
فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ
هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ
﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ
إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ
﴿١٦﴾ ۞وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ
﴿١٧﴾ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٨﴾

٤٩٦

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: وقول محمد في شكواه لربه، يا رب إن هؤلاء قوم معاندون جبارون لا يصدقون برسالتي ولا بالقرآن، هذا قول نبيكم ﷺ يشكو قومه إلى ربه ﷻ متحزناً على ذلك، متحسراً على عدم إيمانهم، فالله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معاجلتهم بالعقوبة، ولكنه تعالى حليم، يمهل العباد ويستأني بهم، لعلهم يتوبون ويرجعون، ولهذا قال:

﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞ﴾ فأعرض عنهم -يا محمد- وسامحهم، ولا تقابلهم بمثل ما يقابلونك به من الأذى والاستهزاء. فقابلهم ﷺ بالعفو والصفح، ولم يقابلهم ﷺ إلا بالإحسان إليهم والخطاب الجميل.

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ فسوف يعلمون عاقبة إجرامهم وتكذيبهم، وهو وعيد عظيم وتهديد شديد للمشركين، وتسلية لرسول الله ﷺ.

تم تفسير سورة الزخرف
والحمد لله

تفسير سورة الدخان
وهي مكية

* سورة الدخان سورة مكية، تتناول أهداف السور المكية من التوحيد، والرسالة، والبعث، لترسيخ العقيدة وتثبيت دعائم الإيمان.

سميت السورة بسورة الدخان؛ لأن الله تعالى جعل الدخان آية لتخويف الكفار، حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ، وبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكوا، ثم نجاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ.

ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم - المعجزة الخالدة - الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون، وقد تحدثت عن إنزال الله تعالى له في ليلة مباركة من أفضل ليالي العمر هي ليلة القدر، وبينت شرف تلك الليلة العظيمة التي تفصل وتدبر فيها أمور الخلق، والتي اختارها الله لإنزال خاتمة الكتب السماوية على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ. قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٨﴾ ﴿حمٓ * وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ * أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ * رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ * رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن.

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ أي: أقسم الله بالقرآن البين الواضح، الفارق بين طريق الهدى والضلال، البين في إعجازه، الواضح في أحكامه، وجوابه.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: الله تعالى أنزل القرآن في ليلة فاضلة كريمة، كثيرة الخير والبركة هي ليلة القدر، هي خير من ألف شهر، فأنزل سبحانه أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام، على أفضل الأنام، وكيفية إنزاله فيها أنه أُنزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ شيئاً بعد شيء.

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي: لننذر به الخلق، ونبين لهم ما ينفعهم وما يضرهم، لأن من شأننا وعادتنا ألا نترك الناس دون إنذار وتحذير من العقاب، لتقوم الحجة عليهم.

﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: في ليلة القدر يفصل ويبين كل أمر محكم من أرزاق العباد وآجالهم، وسائر أحوالهم فلا يُبدل ولا يغير. قال ابن عباس: يحكم الله أمر الدنيا

إلى السنة القابلة ما كان من حياة، أو موت، أو رزق، فهو تعالى ينسخ من اللوح المحفوظ في ليلة القدر، ما يكون في تلك السنة من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم من خير وشر، وصالح وطالح، حتى إن الرجل ليمشي في الأسواق وينكح ويولد له وقد وقع اسمه في الموتى.

وفي قوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ ليتبين للمؤمن أن أوامره محكمة متقنة، ليس فيه خلل ولا نقص، ولا سفه ولا باطل، ذلك تقدير العزيز العليم.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ أي: جميع ما يقدره الله في تلك الليلة وما يوحي به إلى الملائكة من شؤون العباد، هو أمر حاصل من جهة الله، وبعلمه وتدبيره.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: نرسل الأنبياء إلى البشر بالشرائع الإلهية، لهدايتهم وإرشادهم.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن، رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة، فإنه من أجل ذلك وسببه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ السميع لأقوال العباد، العليم بأفعالهم وأحوالهم، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه، فرحمهم بذلك، ومنّ عليهم. ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على عظيم قدرته الباهرة، فقال:

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: الذي أنزل القرآن، هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما ومن فيهما، إن كنتم من أهل الإيمان واليقين.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: لا رب غيره ولا معبود سواه، لأنه المتصف بصفات الجلال والكمال، يحيي الأموات، ويميت الأحياء وسيجمعكم بعد موتكم فيجزيكم بعملكم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: هو خالقكم وخالق من سبقكم من الأمم الماضين مربيهم بالنعم، الدافع عنهم النقم. والمقصود من الآية، أن المُنزِّل إذا كان موصوفاً بهذا الجلال والكبرياء، كان المنزل -الذي هو القرآن- في غاية الشرف والرفعة.

* لما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته، بما يوجب العلم التام ويدفع الشك، أخبر عن موقف المشركين من هذا القرآن العظيم، وأنهم في شك وارتياب من أمره، مع وضوح آياته، وسطوع براهينه، قال تعالى:

﴿٩﴾-﴿١٦﴾ ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ * فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ تحقيراً لشأنهم، وإبعاداً لهم عن موقف الخطاب، لكونهم من أهل الشك والامتراء، وكون أفعالهم الهزء واللعب لعدم التفاتهم إلى البراهين القاطعة، وعدم تمييزهم بين الحق والباطل، والضار والنافع. ثم لما بين أن شأنهم الحماقة والطغيان التفت مسلياً للنبي ﷺ، وإقناطاً من إيمانهم، فقال:

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ فانتظر -يا محمد- عذابهم، فإنه قد قرب وآن أوانه، يوم تأتي السماء بدخان كثيف، بيّن واضح يراه كل أحد. قال ابن مسعود: إن قريشاً لما عصت الرسول ﷺ دعا عليهم فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» [رواه البخاري] فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف، وكان الرجل يحدث أخاه فيسمع صوته ولا يراه لشدة الدخان المنتشر بين السماء والأرض، ثم قال ابن مسعود: خمس قد مضين: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللزام. وقال ابن عباس: لم يمض الدخان بل هو من أمارات الساعة، وهو يأتي قبيل القيامة، يصيب المؤمن منه مثل الزكام، وينضج رؤوس الكافرين والمنافقين، حتى يصبح رأس الواحد كالرأس المشوي، ويغدو كالسكران فيملأ الدخان جوفه ويخرج من منخريه وأذنيه ودبره.

وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ
بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾
فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ
تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ
كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا
بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ
نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ
كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾
إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ
بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ
خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا
مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ
﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

٤٩٧

﴿يَغْشَى النَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **صفة ثانية للدخان، أي: يشمل كفار قريش ويعمهم ويحيطهم من كل جانب، ويقولون حين يصيبهم الدخان: هذا عذاب أليم.**

﴿رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ **أي: ويقولون مستغيثين: ربنا ارفع عنا العذاب، فإننا مؤمنون بمحمد وبالقرآن إن كشفته عنا، وهذا وعد بالإيمان إن كشف العذاب عنهم.**

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ **استبعاد لإيمانهم، أي: من أين يتذكرون ويتعظون عند كشف العذاب؟**

﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ **أي: والحال أنه قد أتاهم رسول بين الرسالة، مؤيد بالبينات الباهرة، والمعجزات القاهرة، ومع هذا لم يؤمنوا به ولم يتبعوه؟**

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ **أي: ثم أعرضوا عنه ولم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل جاوزوه وبهتوه، وقالوا معلم يعلمه بشر، ونسبوه إلى الجنون - وحاشاه، فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير؟!**

﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ **أي: سنكشف عنكم العذاب زمناً قليلاً، ثم تعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك والعصيان. والمقصود التنبيه على أنهم لا يوفون بعهدهم، وأنهم في حال العجز يتضرعون إلى الله تعالى، فإذا زال الخوف عادوا إلى الكفر وتقليد الأسلاف، وكان كذلك، فإنه سبحانه لما كشف عنهم العذاب باستسقاء النبي ﷺ عادوا إلى تكذيبه.**

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ **أي: واذكر يوم نبطش بالكفار بطشتنا الكبرى انتقاماً منهم. والبطش: الأخذ بقوة وشدة، قيل إن البطشة الكبرى: يوم بدر، والظاهر أن ذلك يوم القيامة.**

*** ثم تحدثت الآيات عن قوم فرعون، وما حل بهم من العذاب والنكال نتيجة الطغيان والإجرام، وعن الآثار التي تركوها بعد هلاكهم، من قصور ودور، وحدائق وبساتين، وأنهار وعيون، وعن ميراث بني إسرائيل لهم، ثم ما حدث لهم من تشرد وضياع، بسبب عصيانهم لأوامر الله، قال تعالى:**

﴿١٧﴾-﴿٣٣﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ **ولقد اختبرنا وبلونا قبل هؤلاء المشركين، قوم فرعون، وهم أقباط مصر، ابتليناهم بالنعمة والسلطان والتمكين في الأرض، والإملاء في الرخاء، وكان من الابتلاء أن جاءهم موسى عليه السلام.**

﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ﴾ وجاءهم رسول شريف الحسب والنسب، من أكرم عباد الله وهو موسى الكليم - عليه أفضل الصلاة والتسليم - لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا من سراة قومه وكرامهم.

﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أي: فقال لهم موسى: ادفعوا إليَّ عباد الله وأطلقوهم من العذاب، يريد بني إسرائيل.

﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ إني رسول من رب العالمين، مؤتمن على الوحي غير متهم، وأنا لكم ناصح فاقبلوا نصحي.

﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا تتكبروا على الله، ولا ترفعوا عن طاعته واتباع آياته والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه.

﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أي: قد جئتكم بحجة واضحة، وبرهان ساطع، يعترف بها كل عاقل.

﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ﴾ أي: التجأت إليه تعالى واستجرت به من أن تقتلوني، لأنهم توعدوه بالقتل وذلك بالرجم بالحجارة فاستجار بالله.

﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ﴾ وإن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل ما أتيكم به من الحجة، فكفوا عن أذاي وخلو سبيلي، ولا تتعرضوا لي، ودعوا الأمر مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ فدعا عليهم شاكياً لربه لما كذبوه، قائلاً: يا رب إن هؤلاء قوم مجرمون فانتقم منهم.

﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ فاستجاب الله دعاءه. في الكلام حذف تقديره، فأوحينا، إليه وقلنا له: أسر بعبادي، أي: اخرج ببني إسرائيل ليلاً فإن فرعون وقومه يتبعونكم، ويكون ذلك سبباً لهلاكهم.

﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾ واترك البحر ساكناً منفرجاً على هيئته بعد أن تجاوزه ليسلكه فرعون وجنوده.

﴿إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾ أي: إن فرعون وقومه سيغرقون فيه، فإن موسى لما جاوز البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق، فأمر الله بأن يتركه ساكناً كما هو ليدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه،، وإنما أخبره تعالى بذلك ليبقى فارغ القلب من شرهم وإيذائهم، مطمئناً إلى أنهم لن يدركوا بني إسرائيل، ثم أخبر تعالى عن هلاكهم وغرقهم وتركهم ماتمتعوا به من الحياة الدنيا، وأورثه الله بني إسرائيل، الذين كانوا مستعبدين لهم. فقال:

﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ كم للتكثير، أي: لقد تركوا - بعد الغرق - كثيراً من البساتين والحدائق الغناء والأنهار والعيون الجارية.

﴿وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾ أي: ومزارع عديدة، فيها أنواع المزروعات ومجالس ومنازل حسنة. قال قتادة:

﴿وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾ هي المواضع الحسان من المجالس والمساكن وغيرها.

﴿وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ أي: وتنعم بالعيش مع الحسن والنضارة كانوا فيها ناعمين بالرفاهية وكمال السرور. بيَّن تعالى أنهم بعد غرقهم تركوا هذه الأشياء الخمسة، وهي: الجنان، والعيون، والزروع، والمقام الكريم -وهو المجالس والمنازل الحسنة- ونَعمْة العيش وهي حُسنه ونضارته.

﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ كذلك فعلنا بهم حيث أهلكناهم وأورثنا ملكهم وديارهم لقوم آخرين، كانوا مستعبدين في يد القبط وهم بنو إسرائيل، ثم استولوا - بعد غرق فرعون وقومه - على الممالك القبطية، والبلاد المصرية.

﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: لما أتلفهم الله وأهلكهم وماتوا كفاراً لم يحزن على فقدهم أحد، ولا تأثر بموتهم كائن من الخلق، والمؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، وهؤلاء لم يكن يصعد لهم عمل صالح فتبكي السماء على فقده، ولا لهم على الأرض عمل صالح فتبكي الأرض عليه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه يبكي عليه مصلاه من الأرض -يعني المؤمن- ومصعد عمله من السماء.

﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ وما كانوا مؤخرين وممهلين إلى وقت آخر، بل عجل عقابهم في الدنيا، وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليهم.

والمعنى: أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فقد.

ثم امتن تعالى على بني إسرائيل، فقال:

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي: والله لقد أنقذنا بني إسرائيل من العذاب الشديد، المفرط في الإذلال والإهانة، وهو قتل أبنائهم واستخدام نسائهم، وإرهاقهم في الأعمال الشاقة.

﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ من طغيان فرعون وجبروته إنه كان متكبراً جباراً، متجاوزاً الحد في الطغيان والإجرام، وهذا من جملة تعداد النعم على بني إسرائيل، والمقصود من ذلك تسليته ﷺ وتبشيره بأنه سينجيه وقومه المؤمنين من أيدي المشركين، فإنهم لم يبلغوا في التجبر مثل فرعون وقومه.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: اصطفينا بني إسرائيل وشرفناهم على علم منا باستحقاقهم لذلك الشرف على جميع الناس في زمانهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ وآتينا بني إسرائيل من الحجج والبراهين وخوارق العادات ما فيه اختبار وامتحان ظاهر جلي لمن تدبر وتبصر. والآيات مثل: فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغيرها من الآيات الباهرة، التي ما أظهر الله مثلها على أحد سواهم.

* وتناولت السورة الكريمة مشركي قريش، وإنكارهم للبعث والنشور، واستبعادهم للحياة مرة أخرى ولذلك كذبوا الرسول، وبينت أن هؤلاء المكذبين ليسوا بأكرم على الله ممن سبقهم من الأمم الطاغية، وأن سنة الله لا تتخلف في إهلاك الطغاة المجرمين.

﴿٣٤﴾-﴿٣٧﴾ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يخبر تعالى أن هؤلاء المكذبين من كفار قريش ليقولون مستبعدين للبعث والنشور: لن نموت إلا موتة واحدة، وهي موتتنا الأولى في الدنيا، وفي قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تحقير لهم وازدراء بهم، ولما كان الحديث في أول السورة عن كفار مكة، وجاءت قصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة والكفر، رجع إلى الحديث عن كفار قريش، والغرض من قولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ إنكار البعث، كأنهم قالوا: إذا متنا فلا بعث ولا حياة ولا نشور. ثم صرحوا بذلك بقولهم:

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي: وما نحن بمبعوثين فلا حساب ولا جزاء، ولا جنة ولا نار. ثم قالوا متجرئين على ربهم معجزين له:

﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ خطاب للرسول ﷺ والمؤمنين على وجه التعجيز، أي: أحيوا لنا آباءنا ليخبرونا بصدقكم إن كنتم صادقين في أن هناك حياة بعد هذه الحياة.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ استفهام إنكار مع التهديد، أي: أهؤلاء المشركون أقوى وأشد، أم أهل سبأ ملوك اليمن؟ سمي تبعاً لكثرة أتباعه الذين كانوا أكثر أموالاً، وأعظم نعيماً من كفار مكة؟

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي: والذين سبقوهم من الأمم العاتية أهلكناهم، وخربنا بلادهم، وفرقناهم شذر مذر، والمراد بهم عاد وثمود وأضرابهم من كل جبار عنيد، أولي بأس شديد، فأولئك كانوا أقوى من هؤلاء، وقد أهلكهم الله مع ما كانوا عليه من غاية القوة والشدة، فإهلاك هؤلاء أولى.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ تعليل للإهلاك، أي: أهلكناهم ودمرناهم بسبب إجرامهم، وفيه وعيد وتهديد لقريش أن يفعل الله بهم ما فعل بقوم تُبَّع والمكذبين.

* ثم نبه تعالى إلى دلائل البعث وهو خلق العالم بالحق، وذلك دال على كمال قدرته، وتمام حكمته وتنزيهه لنفسه عن اللعب والعبث والباطل، فقال:

﴿٣٨﴾-﴿٤٢﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى
عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ
ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ
ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ
صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ
﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ
﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾
كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ
فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا
ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن
رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ **وما خلقنا هذا الكون وما فيه من المخلوقات البديعة لعباً وعبثاً أو لغير غرض صحيح.**

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ **ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات إلا بالعدل والحق المبين، لنجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.**

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، ولا يتفكرون في خلق السموات والأرض فينكرون البعث والجزاء.** قال المفسرون: إن الله تعالى خلق النوع الإنساني، وخلق ما ينتظم به أسباب معاشهم، ثم كلفهم بالإيمان والطاعة، فآمن البعض وكفر البعض، فلا بد إذاً من دار جزاء يثاب فيها المحسن، ويعاقب فيها المسيء لتجزى كل نفس بما كسبت، ولو لم يحصل البعث والجزاء لكان هذا الخلق لهواً وعبثاً، وتنزه الله عن ذلك، ولهذا قال بعده:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ **إن يوم القيامة موعد حساب الخلائق أجمعين.** سمي: ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ **لأن الله تعالى يفصل فيه بين الخلق في ذلك الموقف.**

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: في **ذلك اليوم الرهيب، لا يدفع قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه، ولا ينفع أحدٌ أحداً، ولا ينصره ولو كان قريبه.**

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ **استثناء متصل، أي: لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين، فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض.** وقيل: استثناء منقطع، أي: لكن من رحمه الله فإنه يشفع وينفع. قال ابن عباس: يريد المؤمن فإنه تشفع له الأنبياء والملائكة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: **هو المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.**

* ولما ذكر الأدلة على القيامة، وأنه يفصل بين عباده فيه، أردفه بوصف ذلك اليوم العصيب، وذكر افتراقهم إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وهم الآثمون بعمل الكفر والمعاصي فذكر وعيد الكفار أولاً، ثم وعد الأبرار ثانياً، للجمع بين الترهيب والترغيب، فقال تعالى:

﴿٤٣﴾-﴿٥٠﴾ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ * كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ * إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ أي: **إن هذه الشجرة الخبيثة - شجر الزقوم - التي تنبت في أصل الجحيم، - وسماها الشجرة الملعونة - طعام كل فاجر، صاحب الآثام الكبيرة التي أكبرها الشرك بالله، ليس له طعام غيرها، فإذا جاعوا التجئوا إليها فأكلوا منها.** والأثيم صيغة مبالغة وهو الكثير الآثام، وفسر بالمشرك.

﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾ أي: **هي في شناعتها وفظاعتها إذا أكلها الإنسان كالنحاس المذاب الذي تناهى حره، فهو يجرجر في البطن.**

﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي: **يغلي في بطونهم كغليان الماء الشديد الحرارة، وشجرة الزقوم هي الشجرة التي خلقها الله في جهنم، وسماها الشجرة**

الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها، فغلت في بطونهم كما يغلي الماء الحار، وشبه تعالى ما يصير منها إلى بطونهم بالمهل وهو النحاس المذاب، والمراد بالأثيم الفاجر ذو الإثم وهو أبو جهل، وذلك أنه كان يقول: يعدنا محمد أن في جهنم الزقوم، وإنما هو الثَّريد بالزبد والتمر، ثم يأتي بالزبد والتمر ويقول لأصحابه: تزقموا، سخرية واستهزاء بكلام الله، قال تعالى:

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: يقال للزبانية: خذوا هذا الفاجر اللئيم، فسوقوه وجروه من تلابيبه بعنف وشدة إلى وسط الجحيم.

﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ ثم صبوا فوق رأس هذا الفاجر عذاب ذلك الحميم الذي تناهى حره.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ أي: يقال له على سبيل الاستهزاء والإهانة: ذق هذا العذاب فإنك أنت المعزَّز المكرم. قال عكرمة: التقى النبي ﷺ بأبي جهل فقال النبي ﷺ: «إن الله أمرني أن أقول لك ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤]» فقال: بأي شيء تهددني! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه، فقتله الله يوم بدر وأذله، ونزلت هذه الآية.

﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ إن هذا العذاب هو ما كنتم تشكون به في الدنيا، ولا تؤمنون به فذوقوه اليوم.

* ولما ذكر تعالى أحوال أهل النار، أتبعه بذكر أحوال أهل الجنة ومستقرهم ونعيمهم، ولهذا سُمي القرآن مثاني، فقال:

(٥١)-(٥٩) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ * كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي: الذين اتقوا الله في الدنيا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ هم اليوم في موضع إقامة يأمنون فيه من الآفات والمنغصات والمكاره وهو الجنة، ولهذا قال بعده:

﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: في حدائق وبساتين ناضرة، وعيون جارية، وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الحميم.

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ يلبسون ثياب الحرير، الرقيق منه وهو السندس، والسميك منه وهو الإستبرق. ثم وصف نعيم نفوسهم، بعضهم مع بعض في مجالسهم ومحادثاتهم بقوله:

﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي: متقابلين في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض. والتقابل، يعني صفاء القلوب ومحبة النظر إلى من يتحدث إليه، والإقبال عليه، والاستئناس برؤيته وحديثه.

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ كذلك أكرمناهم بأنواع الإكرام، وزوجناهم أيضاً بالحور الحسان في الجنان. والحوراء: البيضاء، والعيناء: عظيمة العينين. وإنما وصف تعالى نعيمهم بذلك؛ لأن الجنات والأنهار من أقوى أسباب نزهة الخاطر، وانفراجه عن الغم، ثم ذكر الحور الحسان؛ لأنه بها اكتمال سعادة الإنسان. ثم زاد في بيان النعيم، فقال:

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ أي: يطلبون في الجنة من الخدم إحضار جميع أنواع الفواكه في الجنة، لأجل أنهم آمنون من مضرته، وآمنين من كل مكدر، فلا تعب في الجنة ولا وصب.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ استثناء منقطع، أي: لا يذوقون في الجنة الموت البتة، لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا فلم يعد ثمة موت، بل خلود أبد الآبدين.

﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: مع هذا النعيم العظيم المقيم، خلصهم ونجاهم من عذاب جهنم الشديد الأليم، فحصل لهم المطلوب ونجاهم من المرهوب.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: فعل ذلك بهم تفضلاً منه تعالى عليهم.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: ذلك الذي أعطوه من النعيم، هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فإنما سهلنا القرآن بلغتك

- وهي لسان العرب - لعلهم يتعظون وينزجرون، ويعملون بما فيه.

﴿فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾ أي: فانتظر - يا محمد - ما يحل بهم، إنهم منتظرون هلاكك، وسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر في الدنيا والآخرة، وفيه وعد للرسول ﷺ، ووعيد للمشركين.

تم تفسير سورة الدخان
والحمد لله

تفسير سورة الجاثية
وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ
لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ
يَعۡقِلُونَ ٥ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ
ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ
٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ
مُّهِينٞ ٩ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا
وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠ هَٰذَا
هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ١١
۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ
مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣

٤٩٩

* سورة الجاثية سورة مكية، تناولت العقيدة الإسلامية في إطارها الواسع: الإيمان بالله تعالى ووحدانيته، والإيمان بالقرآن ونبوة محمد ﷺ، والإيمان بالآخرة والبعث والجزاء، ويكاد يكون المحور الذي تدور حوله السورة الكريمة هو إقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين.

سميت سورة الجاثية، للأهوال التي يلقاها الناس يوم الحساب، حيث تجثو الخلائق من الفزع على الركب في انتظار الحساب، ويغشى الناس من الأهوال ما لا يخطر على البال.

تبتدئ السورة الكريمة بالحديث عن القرآن ومصدره، وهو الله العزيز في ملكه، الحكيم في خلقه، الذي أنزل كتابه المجيد رحمة بعباده، ليكون نبراساً مضيئاً ينير للبشرية طريق السعادة والخير.

ثم ذكرت الآيات الكونية المنبثة في هذا العالم الفسيح، ففي السموات البديعة آيات، وفي الأرض الفسيحة آيات، وفي خلق البشر وسائر الأنعام والمخلوقات آيات، وفي تعاقب الليل والنهار وتسخير الرياح والأمطار آيات، وكلها شواهد ناطقة بعظمة الله وجلاله، وقدرته ووحدانيته، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٥﴾ ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ * إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ * وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ * وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن.

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي: هذا القرآن تنزيل من الله المألوه المعبود؛ لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من النعم، العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، الذي لا يصدر عنه إلا كل ما فيه حكمة ومصلحة لعباده.

ثم أخبر تعالى عن دلائل الوحدانية والقدرة الباهرة، وكلها آيات بينات، وأدلة واضحات. فقال:

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إن في خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات العجيبة، والأحوال الغريبة، والأمور البديعة، لعلامات باهرة على كمال قدرة الله وحكمته، لقوم يُصدقون بوجود الله ووحدانيته.

﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ وفي خلقكم أيها الناس من نطفة، ثم من علقة، متقلبة في أطوار مختلفة إلى تمام الخلق، وفيما ينشره تعالى ويفرقه من أنواع المخلوقات التي تدب على وجه الأرض، آيات باهرة أيضاً لقوم يصدقون عن إذعان ويقين بقدرة رب العالمين.

﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وفي تعاقب الليل والنهار، دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وذاك بضيائه، بنظام محكم دقيق.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ وفيما أنزله الله - تبارك وتعالى - من السحاب، من المطر الذي به حياة البشر في معاشهم وأرزاقهم، وسمى تعالى المطر رزقاً لأن به يحصل الرزق.

﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فأحيا بالمطر الأرض بعدما كانت هامدة يابسة لا نبات فيها ولا زرع، فأخرج فيها من أنواع الزروع والثمرات والنبات.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ﴾ وفي تقليب الرياح من جميع الجهات، وتصريفها لمنافعكم، ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء للأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج.

﴿ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: علامات ساطعة واضحة، وأدلة وحجج باهرة على وجود الله ووحدانيته، لقوم لهم عقول نيرة وبصائر مشرقة. وذكر الله ﷻ من الدلائل ستة في ثلاث آيات، ختم الأولى بـ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، والثانية بـ ﴿يُوقِنُونَ﴾ والثالثة بـ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ ووجه التغاير بينها في التعبير، أن الإنسان إذا تأمل في السموات والأرض، وأنه لا بد لها من صانع آمن، وإذا نظر في خلق نفسه ونحوها ازداد إيماناً فأيقن، وإذا نظر في سائر الحوادث كمل عقله واستحكم علمه.

* بعد أن ذكر سبحانه القسم الذين يؤمنون بالله ويوقنون، ويستدلون بالآيات ويتفكرون بها، أو ينتفعون فيرتفعون. بدأ في ذكر القسم الآخر الذين يسمعون آيات الله سماعاً تقوم به الحجة عليهم، ثم يعرض عنها ويستكبر، كأنه ما سمعها، لأنها لم تزك قلبه، ولا طهرته، بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه، قال تعالى:

٦-١١ ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ * وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَـٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: هذه آيات الله وحججه وبراهينه، الدالة على وحدانيته وقدرته، نقصها عليك -يا محمد- بالحق المبين الذي لا غموض فيه ولا التباس.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وإذا لم يصدق كفار مكة بكلام الله، ولم يؤمنوا بحججه وبراهينه، فبأي كلام يؤمنون ويصدقون؟ والغرض: استعظام تكذيبهم للقرآن بعد وضوح بيانه وإعجازه وذِكر الاسم الشريف ليس إلا لقصد تعظيم الآيات.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: هلاك ودمار لكل كذاب في كلامه، أثيم في أفعاله، وهذا وعيد عظيم. والأفاك الكذاب، والأثيم المبالغ في اقتراف الآثام. والويل: واد في جهنم.

﴿يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: يسمع آيات القرآن تقرأ عليه، وهي في غاية الوضوح والبيان.

﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ ثم يدوم على حاله من الكفر ويتمادى فيه، ويتمادى في غيه وضلاله، مستكبراً عن الإيمان بالآيات كأنه لم يسمعها.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فبشره -يا محمد- بعذاب مؤلم، وسماه «بشارة» تهكماً بهم، لأن البشارة هي الخبر السار. قال المفسرون: نزلت في «النضر بن الحارث» كان يشتري أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن، والآية عامة في كل من كان موصوفاً بالصفة المذكورة.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أي: إذا بلغه شيء من الآيات التي أنزلها الله على محمد، سخر واستهزأ بها.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أولئك الأفاكون المستهزئون بالقرآن لهم عذاب شديد مع الذل والإهانة.

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: أمامهم جهنم تنتظرهم لما كانوا فيه من التعزز في الدنيا والتكبر عن الحق.

﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ ولا ينفعهم ما ملكوه في الدنيا من المال والولد.

﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ولا تنفعهم الأصنام التي عبدوها من دون الله.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهم في جهنم عذاب دائم مؤلم، لما بين سبحانه آياته القرآنية والعيانية، وأن الناس فيها على قسمين، أخبر أن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية أنه هدى، فقال:

﴿هَٰذَا هُدٗى﴾ أي: هذا القرآن كامل في الهداية، بيان من الضلالة، لمن آمن به واتبعه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: جحدوا بالقرآن مع سطوعه، وفيه زيادة تشنيع على كفرهم به، وتفظيع حالهم.

﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾ لهم عذاب من أشد أنواع العذاب مؤلم موجع، والرجز أشد العذاب.

* ثم لما توعدهم بأنواع العذاب ذكرهم تعالى بنعمه الجليلة ليشكروه ويوحدوه، ويتفكروا في آلائه التي أسبغها عليهم، ويعلموا أن الله وحده هو مصدر هذه النعم، الظاهرة والباطنة، وأنه لا خالق ولا رازق إلا الله. قال تعالى:

﴿١٢﴾-﴿١٥﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ * قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ يخبر تعالى بفضله على عباده، وأحسانه إليهم، بتسخير البحر على ضخامته وعظمته وجعله على صفة يتمكنون بها من الركوب عليه.

﴿لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: لتسير السفن على سطحه بمشيئته وإرادته سبحانه، دون أن تغوص في أعماقه، فخلق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها السفن، وخلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء دون أن تغوص فيه، وذلك لا يقدر عليه أحد إلا الله.

﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ ولتطلبوا من فضل الله من المتاجر والمكاسب بسبب التجارة، والغوص على اللؤلؤ والمرجان، وصيد الأسماك وغيرها.

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ ذكر تعالى كمال قدرته، وتمام نعمته على عباده، وبين أنه خلق ما خلق لمنافعهم، وكل ذلك من فعله وخلقه، وإحسان منه وإنعام، أي: ولأجل أن تشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم وتفضل.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ وخلق لكم كل ما في هذا الكون، من كواكب، وجبال، وبحار، وأنهار، ونبات، وأشجار، الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه، من عنده وحده -جل وعلا- فلا تجعلوا لله أنداداً.

الجُزْءُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ | سُورَةُ الجَاثِيَةِ

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ
قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ
وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا
بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ
فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ
يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ
﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ
أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ
شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ
﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾
أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ
مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ
وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾

٥٠٠

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن فيما ذكر من التسخير لعبراً وعظات، لقوم يتأملون في بدائع صنع الله فيستدلون على قدرته ووحدانيته ويؤمنون، وخص المتفكرين؛ لأنه لا ينتفع بها إلا من تفكر فيها، فإنه ينتقل من التفكر إلى الاستدلال بها على التوحيد.

ثم لما بين تعالى دلائل التوحيد والقدرة، والحكمة، أردفه بتعليم فضائل الأخلاق، ومحاسن الأفعال، فقال:

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي: قل لهم تجاوزوا عن الذين لا يخافون وقائع الله، ولا يبالون نقمته، واصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك كالتأليف لهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد.

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: إذا صفحوا عنهم في الدنيا، فإن الله ﷻ مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة، وهو تسامح مغفرة ورحمة، وقوة وعزة، فمن لا يؤمن بالله مسكين يستحق العطف في دعوته والشفقة عليه.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: من فعل خيراً في الدنيا فنفعه لنفسه، ومن ارتكب سوءاً وشراً فضرره عائد عليها، ولا يكاد يسري عمل إلى غير عامله، فتعودون يوم القيامة إلى ربكم فيجزيكم على أعمالكم خيرها وشرها.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ثم مرجعكم يوم القيامة إلى الله وحده، فيجازي كلاً بعمله، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

* ولما ذكر بالنعم العامة، أردفه بذكر النعم الخاصة على بني إسرائيل، ومقابلتهم ذلك الفضل والإحسان بالجحود والعصيان، وذكرت الآيات موقف الطغاة المجرمين من دعوة الرسل الكرام، وبيّنت أنه لا يتساوى في عدل الله وحكمته أن يجعل المجرمين كالمحسنين، ولا أن يجعل الأشرار كالأبرار، ثم بيّنت سبب ضلال المشركين، وهو إجرامهم واتخاذهم الهوى إلهاً ومعبوداً حتى طمست بصيرتهم فلم يهتدوا إلى الحق أبداً، قال تعالى:

﴿١٦﴾-﴿٢٠﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي: والله لقد أعطينا وأنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس وآتيناهم التوراة والإنجيل، وفصل الخصومات بين الناس، وجعلنا فيهم الأنبياء والمرسلين، وخصهم بالذكر لكثرة الأنبياء - عليهم السلام - فيهم.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ورزقناهم مما أحل الله وأطاب من الأرزاق؛ من أنواع النعم الكثيرة من المآكل والمشارب، والأقوات والثمار، وإنزال المن والسلوى عليهم.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وفضلناهم على سائر الأمم في زمانهم حيث آتيناهم ما لم نوت من عداهم من خلق البحر ونحوه، والمقصود من ذلك تسليته ﷺ، كأنه قال: لا تحزن -يا محمد- على كفر قومك، فإننا آتينا بني إسرائيل الكتاب والنعم العظيمة، فلم يشكروا بل أصرُّوا على الكفر، فكذلك قومك.

﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: وآتينا بني إسرائيل التوراة وبينا لهم فيها أمر الشريعة، وأمر محمد ﷺ على أكمل وجه. قال ابن عباس: يعني أمر النبي ﷺ وشواهد نبوته بأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب وينصره أهلها.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ فما اختلفوا في ذلك الأمر، إلا من بعد ما جاءتهم الحجج والبراهين، والأدلة القاطعة على صدقه.

﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: حسداً وعناداً وطلباً للرياسة. والمقصود من الآية التعجب من هذه الحالة؛ لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف، وهنا صار العلم سبباً لحصول الأختلاف، لأنه لم يكن مقصودهم نفس العلم، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والتقدم، فلذلك علموا وعاندوا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: هو -جل وعلا- الذي يفصل بين العباد يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، وفي الآية زجر للمشركين أن يسلكوا مسلك من سبقهم من الأمم العاتية الطاغية.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ ثم جعلناك -يا محمد- على طريقة واضحة، ومنهاج سديد رشيد من أمر الدين، فاتبع ما أوحي إليك من ربك من الدين القيم، فإن في اتباعه السعادة الأبدية، والصلاح والفلاح.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولا تتبع ضلالات المشركين،

لا تتبع آراء الجهال التابعة للشهوات، وهم رؤساء قريش، حيث قالوا: ارجع إلى دين آبائك.

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لن يدفعوا عنك شيئاً من العذاب إن سايرتهم على ضلالهم واتبعت أهواءهم.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ وإن الظالمين يتولى بعضهم بعضاً، وينصر بعضهم بعضاً في الدنيا، ولا ولي لهم في الآخرة.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وهو تعالى ناصر ومعين المؤمنين المتقين في الدنيا والآخرة.

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: هذا القرآن نور وضياء للناس بمنزلة البصائر في القلوب، وهو رحمة لمن آمن به وأيقن.

* وختمت السورة بذكر الجزاء العادل يوم الدين، حيث ينقسم الناس إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، قال تعالى:

(٢١)-(٢٣) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الاستفهام للإنكار، والمعنى: هل يظن الكفار الفجار الذين اكتسبوا المعاصي والآثام.

﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أن نجعلهم كالمؤمنين الأبرار، الذين قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه، ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم.

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ
وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ
إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾
وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا
مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا
قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي: نساوي بينهم في المحيا والممات؟ لا يمكن أن نساوي بين المؤمنين والكفار، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فإن المؤمنين عاشوا على التقوى والطاعة، والكفار عاشوا على الكفر والمعصية، وشتان بين الفريقين. قال مجاهد: المؤمن يموت مؤمناً ويبعث مؤمناً، والكافر يموت كافراً ويبعث كافرًا.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء ما يقصون في تسويتهم بين أنفسهم وبين المؤمنين. قال ابن كثير: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار. قال إبراهيم بن الأشعث: كثيراً ما رأيت الفضيل بن عياض يردد من أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها، ثم يقول: ليت شعري من أي الفريقين أنت. فكانت هذه الآية تسمى «مبكاة العابدين».

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ وخلق الله السموات والأرض بالعدل، والأمر الحق، ليدل بهما على قدرته ووحدانيته فإنه ﷻ لما خلق السموات والأرض لأجل إظهار الحق، وكان خلقهما من جملة حكمته وعدله، لزم من ذلك أن ينتقم من الظالم لأجل المظلوم، فثبت بذلك حشر الخلائق للحساب.

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: ولكي يُجزى كل إنسان بعمله، وبما اكتسب من خير أو شر، دون أن يُنقص في ثواب المؤمن أو يزاد في عذاب الكافر.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: أخبرني -يا محمد- عن حال من ترك عبادة الله وعبد هواه فهو

مطاوع هوى نفسه يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه، وذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه. قال ابن عباس: ما ذكر الله هوىً في القرآن إلا ذمه. وسمي الهوى بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية.

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: وأضل الله ذلك الشقي في حال كونه عالماً بالحق غير جاهل به، فهو أشد قبحاً وشناعة ممن يضل عن جهل؛ لأنه يعرض عن الحق والهدى عناداً.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ أي: طبع على سمعه حتى لا يسمع المواعظ، وطبع على قلبه حتى لا يتفكر في الآيات والنذر، وجعل على بصره غطاء حتى لا يبصر الرشد، ولا يرى حجة يستضيء بها. والغشاوة: هي غطاء العين، وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب، فإن ما في القلب يظهر على العين من الخير والشر، فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه.

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ فمن الذي يستطيع أن يهديه بعد أن أضله الله؟ لا أحد يقدر على ذلك، وما ظلمه الله، ولكن هو الذي ظلم نفسه وتسبب لمنع رحمة الله عليه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون أيها الناس، وتتعظون وتعرفون ما ينفعكم فتسلكونه، وما يضركم فتجتنبونه؟ وصف تعالى الكفار أربعة أوصاف: الأول: عبادة الهوى، الثاني: ضلالهم على علم، الثالث: الطبع على أسماعهم وقلوبهم، الرابع: جعل الغشاوة على أبصارهم، وكل وصف منها مقتض للضلالة، فلا يمكن إيصال الهدى إليهم بوجه من الوجوه.

* ثم حكى تعالى عن المشركين شبهتهم في إنكار القيامة، وفي إنكار الإله القادر العليم، فقال:

﴿٢٤﴾-﴿٢٦﴾ ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: وقال المشركون: لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا، يموت بعضنا ويحيا بعضنا، ولا آخرة، ولا بعث، ولا نشور وهذا قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد.

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أي: وما يهلكنا إلا مرور الزمان، وطول العمر، وتعاقب الليالي والأيام، ومرادهم؛ ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وليس هناك معاد ولا قيامة. فلا خالق يحيي ولا بعث ولا نشور، ولا حساب ولا جزاء، وهؤلاء جمعوا بين إنكار الإله، وبين إنكار البعث والقيامة، قال تعالى رداً عليهم:

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ما قالوا هذه المقالة إلا شاكين غير عالمين بالحقيقة، فأنكروا المعاد، وكذبوا الرسل الصادقين؛ فإن الله ﷻ هو الذي يحيي ويميت.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: فانكروا المعاد، وكذبوا الرسل الصادقين.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: وإذا قرئت آيات القرآن على المشركين، واضحات الدلالة على البعث والنشور.

﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: ما كان متمسكهم في دفع الحق الصريح إلا أن يقولوا: أحيوا لنا آباءنا الأولين، إن كان ما تقولونه حقاً، سمي قولهم الباطل حجة على سبيل التهكم.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ قل لهم - يا محمد-: الله الذي خلقكم ابتداءً حين كنتم نطفاً وهو الذي يميتكم عند انقضاء آجالكم، لا كما زعمتم أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر.

﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثم بعد الموت يبعثكم للحساب والجزاء كما أحياكم في الدنيا، فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء في يوم القيامة، الذي لا شك فيه ولا ارتياب.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر الناس لجهلهم

وقصورهم في النظر والتفكر، لا يعلمون قدرة الله فينكرون البعث والجزاء.

* ثم أخبر سبحانه عن سعة ملكه، وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات، وإمكان الحشر والنشر؛ فذكر تفاصيل أحوال يوم القيامة، قال تعالى:

(٢٧)-(٢٩) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ * وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو -جل وعلا- المالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: ويوم القيامة، يجمع الله الخلائق للجزاء والحساب، فيخسر الكافرون الجاحدون بآيات الله.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ وترى أيها المخاطب في ذلك اليوم كل أمة من الأمم جالسة باركة على الركب من شدة الهول والفزع والخوف، كما يجثوا الخصوم بين يدي الحاكم بهيئة الخائف الذليل. قال ابن كثير: وهذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثاً على ركبتيه.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ كل أمة من تلك الأمم تدعى إلى صحائف أعمالها، وإلى شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم في هذا اليوم الرهيب، تنالون جزاء أعمالكم من خير أو شر حيث تنقسم الحشود الحاشدة والأمم المختلفة، على مدى الإجيال واختلاف الأجناس إلى فريقين اثنين الذين آمنوا، والذين كفروا.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: هذا كتاب أعمالكم يشهد عليكم بالحق من غير زيادة ولا نقصان، وأضاف الكتاب تارة إليهم وتارة إلى الله تعالى، لأن أعمالهم ثابتة فيه، وأضافة إلى الله تعالى لأنه ملكه وأنه هو الذي أمر الملائكة أن يكتبوه.

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: كنا نأمر الملائكة بكتابة أعمالكم، وإثباتها عليكم.

* ثم بيّن تعالى أحوال كل من المطيعين والعاصين، فقال:

(٣٠)-(٣٧) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ * ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: فأما المؤمنون الصالحون المتقون لله في الحياة الدنيا، الذين آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة، وهي الخالصة الموافقة للشرع، فيدخلهم الله في الجنة. سميت الجنة رحمة لأنها مكان تنزل رحمة الله.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ذلك الإدخال في رحمته هو الفوز العظيم، البيّن الظاهر الذي لا فوز وراءه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وأما الكافرون فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً، أفلم تكن الرسل تتلو عليكم آيات الله؟

﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: فتكبرتم عن الإيمان بها، وأعرضتم عن سماعها، وكنتم قوماً مغرقين في الإجرام، وهي الآثام.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: وإذا قيل لكم إن البعث كائن لا محالة، والقيامة آتية لا شك في ذلك ولا ريب.

﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: قلتم لغاية عتوكم: أيُّ شيء هي؟

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ
٣٣ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ٣٤ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا
وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
٣٥ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٣٦
وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣٧

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ مَا خَلَقْنَا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ
كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ٣ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن
دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي
السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ ٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن
لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ٥

٥٠٢

أحق أم باطل؟ قالوا هذا استغراباً واستبعاداً وإنكاراً لها.

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ **أي: لا نصدق بها، ونتوهم بها توهماً، ولسنا مصدقين بالآخرة يقيناً، وهذا تأكيد منهم لإنكار القيامة.**

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ **أي: وظهر لهم في الآخرة قبائح أعمالهم، ونزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به في الدنيا.**

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ **أي: ويقال لهم: اليوم نترككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي، كما تركتم الطاعة التي هي الزاد ليوم المعاد، فلم تعملوا لآخرتكم، فإن الجزاء من جنس العمل.**

﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ **أي: ومستقركم ومقركم في نار جهنم، وليس لكم من ينصركم ويخلصكم من عذاب الله.**

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ **أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء، بسبب أنكم سخرتم من كلام الله واستهزأتم به، وخدعتكم الدنيا بزخارفها وأباطيلها، حتى ظننتم ألا حياة سواها، وألا بعث ولا نشور.**

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ **فاليوم لا يخرجون من النار، ولا يطلب منهم أن يرضوا ربهم بالتوبة والطاعة لعدم نفعها يومئذ.**

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **فلله الحمد خاصة، لا يستحق الحمد أحد سواه؛ لأنه الخالق والمالك لجميع المخلوقات والكائنات، حيث خلقهم ورباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.**

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ **وله العظمة والجلال والسلطان، والبقاء والكمال في السموات والأرض.**

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ **أي: الغالب القاهر الذي لا يُغلب، الحكيم في صنعه وفعله وتدبيره، يضع الأشياء في مواضعها، فلا يشرع ما يشرعه إلا بحكمة ومصلحة، ولا يخلق ما يخلقه إلا لفائدة ومنفعة.**

تم تفسير سورة الجاثية
والحمد لله

تفسير سورة الأحقاف وهي مكية

* **سورة الأحقاف سورة مكية، أثنى الله ﷻ فيها على كتابه العزيز وأظهر وبين تعظيمه له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره، والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه، والعمل بأحكامه، والالتزام بآدابه، وقد ورد في السورة ما يلقاه الرسل من عناد الكافرين وإعراضهم، وختمت بحث لرسول الله ﷺ أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، قال تعالى:**

١-٦ ﴿حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ

كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية.

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي: هذا الكتاب المجيد منزل من عند الإله العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه.

﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات عبثاً، وإنما خلقناهما خلقاً متلبساً بالحكمة، لتدل على وحدانيتنا وكمال قدرتنا، ليعرف العباد عظمة خالقها، ويستدلوا على كماله.

﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: وإلى زمن معيَّن، هو زمن فنائها يوم القيامة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ أي: وهؤلاء الكفار معرضون لاهون عما خُوِّفوه من العذاب، ومن أهوال الآخرة، لا يتفكرون فيه ولا يستعدون له.

ثم لمّا بيّن وجود الإله العزيز الحكيم، ردَّ على عَبَدة الأصنام تبكيتاً لهم، فقال:

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: قل -يا محمد- لهؤلاء المشركين: أخبروني عن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، وتزعمون أنها آلهة.

﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أرشدوني وأخبروني أيَّ شيء خلقوا من أجزاء الأرض، ومما على سطحها من إنسان أو حيوان؟ أم لهم مشاركة ونصيب مع الله في خلق السموات؟

﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ أي: هاتوا كتاباً من الكتب المنزلة من عند الله قبل هذا القرآن، يأمركم بعبادة هذه الأصنام؟ وهو أمر تعجيز وتبكيت لهم وإظهار لعجزهم؛ لأنهم ليس لهم كتاب يدل على الإشراك بالله؛ بل الكتب كلها ناطقة بالتوحيد وأفراد العبادة لله وحده.

﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ أو بقية من علم من علوم الأولين شاهدة بذلك.

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم أنها شركاء مع الله، والآية لتوبيخهم، لأن كل كتب الله المنزلة ناطقة بالتوحيد وإبطال الشرك، فليس لهم مستند من نقل أو عقل.

ثم أخبر تعالى عن ضلال المشركين وخسرانهم، فقال:

﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: لا أحد أضل وأجهل ممن يعبد ويدعو أصناماً لا تسمع دعاء الداعين، ولا تعلم حاجات المحتاجين، ولا تستجيب لمن ناداها أبداً؛ لأنها جمادات لا تسمع ولا تعقل.

﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ وهم لا يسمعون لمن ناداها أبداً؛ لأنها جمادات لا تسمع ولا تعقل، هذا حالهم في الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشركهم.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ وإذا جمع الناس للحساب يوم القيامة، كانت الأصنام أعداء لعابديها يضرونهم ولا ينفعونهم، ويتبرؤون منهم.

﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ أي: وتبرأ الأصنام من الذين عبدوها. قال المفسرون: إن الله تعالى يحيي الأصنام يوم القيامة فتتبرأ من عابديها.

* ثم ذكر سبحانه حال المشركين في كفرهم وعنادهم، وبعدهم عن الحق، فقال:

٧-٩ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ * أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ وإذا قرئت على المكذبين آيات القرآن الواضحات الظاهرات أنها من كلام الله.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ أي: قال الكافرون عن القرآن الحق لما جاءهم من عند الله، هذا سحر واضح لا شبهة فيه.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ أي: يقولون اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من تلقاء نفسه؟ وهو إنكار توبيخي.

الجُزْءُ السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ سُورَةُ الأَحْقَافِ

وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ٦ وَإِذَا
تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا
سِحْرٌ مُّبِينٌ ٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ
لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ
وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠
إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ
فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ١١ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ
إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ١٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا
ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٣
أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٤

٥٠٣

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ **قل لهم -يا محمد- إن افتريته - على سبيل الفرض - فالله حسبي في ذلك وهو الذي يعاقبني على الافتراء عليه، ولا تقدرون أنتم على أن تردُّوا عني عذاب الله، فكيف أفتريه من أجلكم وأتعرض لعقابه وسخطه.**

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ **أي: هو -جل وعلا- أعلم بما تخوضون في القرآن وتقدحون به من قولكم: هو شعر، هو سحر، هو افتراء، وغير ذلك من وجوه الطعن.**

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ **أي: كفى أن يكون تعالى شاهداً بيني وبينكم، يشهد لي بالصدق والتبليغ، ويشهد عليكم بالجحود والتكذيب.**

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ **وهو الغفور لمن تاب، الرحيم بعباده المؤمنين، وفي هذا وعد لهم بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر، وإشعار بحلمه تعالى عليهم إذ لم يعاجلهم بالعقوبة.**

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ **أي: ما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم، قد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم السابقة.**

﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ **أي: ولا أدري بما يقضي الله عليَّ وعليكم، فيما يستقبل من الزمان، فإن قدر الله مُغيب.**

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ **أي: لا أتبع إلا ما ينزل الله عليَّ من الوحي، ولا أبتدع شيئاً من عندي، وما أنا إلا رسول منذر لكم من عذاب الله، بيِّن الإنذار بالشواهد الظاهرة، والمعجزات الباهرة وقد أنذرتكم، ومن أنذر فقد أعذر.**

*** ثم يذكر الله ﷻ أدلة أخرى على صديق رسالة محمد ﷺ وأن القرآن حق منزل من رب العالمين، قال تعالى:**

﴿١٠-١٤﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ * وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ **قل -يا محمد- ﷺ: أخبروني يا معشر المشركين إن كان هذا القرآن وصحته كلام الله حقّاً وقد كذبتم به وجحدتموه، وجوابه محذوف تقديره: كيف يكون حالكم؟**

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ **أي: وقد شهد رجل من علماء بني إسرائيل على صدق القرآن وصحته، فآمن به واستكبرتم أنتم عن الإيمان، كيف يكون حالكم، ألستم أضل الناس وأظلم الناس؟ والشاهد من بني إسرائيل هو عبدالله بن سلام وذلك حين قدم رسول الله ﷺ المدينة جاء إليه ابن سلام ليمتحنه، فلما نظر إلى وجهه علم أنه ليس بوجه كذاب، وتأمله فتحقق أنه هو النبي المنتظر، فقال له: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهنَّ إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فلما أجابه ﷺ قال: أشهد أنك رسول الله حقّاً.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يوفق للخير والإيمان من كان فاجراً ظالماً. ثم ردَّ تعالى على شبهة أخرى من شبه المشركين، فقال:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي: وقال كفار مكة في حق المؤمنين: لو كان هذا القرآن والدين خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء الفقراء الضعفاء؛ مثل عمار، وصهيب، وخباب، وبلال، وأشباههم من المستضعفين والعبيد والإماء ممن صدق وآمن بالنبي ﷺ.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي: ولما لم يهتدوا بالقرآن مع وضوح إعجازه، قالوا هذا كذب قديم مأثور عن الأقدمين، أتى به محمد ونسبه إلى الله تعالى.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي: ومن قبل القرآن التوراة التي أنزلها الله على موسى قدوة يؤتم بها في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام، ورحمة لمن آمن بها وعمل بما فيها، وذكر هنا التوراة؛ لأن المشركين طعنوا في صحة القرآن، وقالوا لو كان خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء الضعفاء الصعاليك، فرد الله عليهم بأنكم لا تُنازعون أن الله أنزل التوراة على موسى، وجعل هذا الكتاب - التوراة - إماماً يُقتدى به، ثم إن التوراة مشتملة على البشارة بمحمد ﷺ، فإذا سلمتم كونها من عند الله، فاقبلوا حكمها بأن محمداً ﷺ رسول حقاً من عند الله.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ وهذا القرآن كتاب عظيم الشأن، مصدق للكتب قبله بلسان عربي فصيح، فكيف ينكرونه وهو أفصح بياناً، وأظهر برهاناً، وأبلغ إعجازاً من التوراة؟

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ليخوف كفار مكة الظالمين من عذاب الجحيم، ويبشر المؤمنين المطيعين المحسنين بجنات النعيم.

* ولما بيَّن تعالى أحوال المشركين المكذبين بالقرآن، أردفه بذكر أحول المؤمنين المستقيمين على شريعة الله، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان والتوحيد، والاستقامة على شريعة الله مدة حياتهم.

قال ابن رجب: «الذين قالوا ربنا الله كثير ولكن أهل الاستقامة قليل».

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: فلا يلحقهم مكروه من فزع يوم القيامة وأهواله، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم من حظوظ الدنيا كالأموال والأولاد وغيرها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: أولئك المؤمنون المستقيمون في دينهم، هم أهل الجنة ماكثين فيها أبداً. وفي هذه الآية من الترغيب أمر عظيم، فإن نفي الخوف والحزن على الدوام، والاستقرار في الجنة على الأبد مما لا تطلب الأنفس سواه، ولا تتشوق إلى ما عداه.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: نالوا ذلك النعيم برحمة الله تعالى، وبما قدموا من أعمالهم الصالحة في الدنيا.

* ولما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له، وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، فمن لطف الله ﷻ وعنايته ساق آيات عظيمة وصى فيها الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان، برّاً بهما في حياتهما وبعد مماتهما، فقال سبحانه:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: أمرنا الإنسان أمراً جازماً مؤكداً بالإحسان إلى الوالدين والحنو عليهما، ثم بيَّن السبب، فقال:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: حملته بكُرهٍ ومشقة، ووضعته بكره ومشقة، وقاست بسبب ذلك آلاماً وتعباً.

﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ أي: ومدة حمله ورضاعه

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ
كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ
أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ
عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ
إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ
عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ
ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ
لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن
قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ
مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ
فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ
﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ
ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

عامان ونصف، فهي لا تزال تعاني التعب والمشقة طيلة هذه المدة، فقد قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً، من وحم، وغثيان وثقل، وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ووضعته بمشقة أيضاً من الطَّلق وشدّته، وفي ذكر المشاق التي تتحملها الأم دون الأب، دليل على أن حقها على ولدها أعظم من حق الأب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي: حتى إذا عاش هذا الطفل وبلغ كمال قوته وعقله، وشب وارتجل، واستمر في الشباب والقوة حتى بلغ أربعين سنة، وهو نهاية اكتمال العقل والرشد، وفيها تكتمل جميع القوى والطاقات. قيل: وإنما حصل زمان بلوغه الأشد لأنه زمن يكثر فيه الكلف بالسعي للرزق إذ يكون له فيه زوجة وأبناء، وتكثر تكاليف المرأة فيكون لها زوج وبيت وأبناء، فيكونان مظنة أن تشغله التكاليف من تعهد والديه والإحسان إليهما، فنبها بأن لا يفتر عن الإحسان إلى الوالدين.

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ أي: قال بلسان الشاكر العارف لنعمة ربه: رب وفقني وألهمني شكر نعمتك التي أنعمت بها عليَّ وعلى والدي حتى ربياني صغيراً.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي: ووفقني لكل عمل صالح يرضيك عني.

﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أي: اجعل ذريتي ونسلي صالحين. وقد طلب هذا الداعي من الله ثلاثة أشياء، الأول: أن يوفقه الله للشكر على النعمة، والثاني: أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله، والثالث: أن يصلح له في ذريته، وهذه كمال السعادة البشرية، وقدم بين يدي دعائه التوبة الخالصة والإسلام، فقال:

﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: إني يا رب تبت إليك من جميع الذنوب والمعاصي، وإني من المستمسكين بالإسلام، وفي الآية إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله ﷻ ويعزم عليها.

وفي إدماج تلقين الدعاء بإصلاح ذريته مع أن سياق الكلام في الإحسان إلى الوالدين، إيماء إلى أن المرء يلقى من إحسان أبنائه إليه مثلما لقي أبواه من إحسانه إليهما، ولأن دعوة الأب لابنه مرجوة الإجابة. ثم ذكر تعالى جزاءهم فقال:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أولئك الموصوفون بما ذُكر، نتقبل منهم طاعاتهم، ونجازيهم على أعمالهم بأفضلها. وفي هذا إيماء إلى أن هذا الدعاء مرجو الإجابة، لأن الله تولى تلقينه مثل هذا الدعاء الذي في سورة الفاتحة ودعاء آخر سورة البقرة.

﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ ونصفح عن خطيئاتهم وزلاتهم، في جملة أصحاب الجنة الذين نكرمهم بالعفو والغفران.

﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ أي: بذلك الوعد الصادق الذي وعدناهم به على ألسنة الرسل، بأن نتقبل من محسنهم ونتجاوز عن مسيئهم.

* ولما مثَّل تعالى لحال الإنسان البار بوالديه، وما آل إليه حاله من الخير والسعادة، مثَّل لحال الإنسان العاق لوالديه، وما يؤول إليه أمره من الشقاوة والتعاسة، فقال:

﴿١٧﴾-﴿٢٠﴾ ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ

وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ أي: وأما الولد الفاجر الذي يقول لوالديه إذا دعواه إلى الإيمان: إفٍّ لكما، أي: قبحاً لكما، وتباً لكم على هذه الدعوة. ثم ذكر وجه استبعاده وإنكاره لذلك، فقال:

﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ أي: أتعدانني أن أُبعث بعد الموت، وقد مضت قرون من الناس قبلي ولم يُبعث منهم أحد؟

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ أي: وأبواه يسألان الله أن يغيثه ويشرح صدره، ويهديه للإسلام، قائلين له: ويلك، وليس المراد به الدعاء عليه، بل الحث على الإيمان والتصديق بالبعث والنشور، أي: وإلا هلكت.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: وعد الله صدق لا خلف فيه.

﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فيقول ذلك الابن الشقي: ما هذا الذي تقولان من أمر البعث إلا خرافات وأباطيل سردها الأولون في الكتب، مما لا أصل له، قال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أولئك المجرمون هم الذين حق عليهم ووجب قول الله: بأنهم أهل النار.

﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي: في جملة أمم من أصحاب النار قد مضت قبلهم، من الكفرة الفجار، من الجن والإنس.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أي: كانوا كافرين، لذلك ضاع سيعهم وخسروا آخرتهم، وهو تعليل لدخولهم جهنم.

وبعد بيان العاقبة والجزاء إجمالاً للمهتدين والضالين، يذكر سبحانه دقة الحساب لكل فرد من أولئك، وهو الحكم العدل:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ ولكل من المؤمنين والكافرين مراتب ومنازل بحسب أعمالهم، فمراتب المؤمنين في الجنة عالية، ومراتب الكافرين في جهنم سافلة.

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وليعطيهم جزاء أعمالهم وافية كاملة، المؤمنون بحسب الدرجات، والكافرون بحسب الدركات، من غير نقصان بالثواب، ولا زيادة في العقاب.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: وذكرهم -يا محمد- يوم يكشف الغطاء عن نار جهنم، وتبرز للكافرين فيقربون منها وينظرون إليها.

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ في الكلام حذف؛ أي: ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً، أذهبتم طيباتكم، أي: لقد نلتم وأصبتم لذائد الدنيا وشهواتها فلم يبق لكم نصيب اليوم في الآخرة، والطيبات هنا المستلذات من المآكل والمشارب، والملابس والمفارش، والمراكب والمواطئ، وغير ذلك مما يتنعم به أهل الرفاهية. ذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: لو شئت كنت أطيبكم طعاماً، وألينكم لباساً، ولكني أستبقي طيباتي.

﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ أي: وتمتعتم بتلك اللذائد والطيبات في الدنيا، والمراد بالآية إنكم لم تؤمنوا حتى تنالوا نعيم الآخرة، بل اشتغلتم بشهوات الدنيا ولذائذها عن الإيمان والطاعة، وأفنيتم شبابكم في الكفر والمعاصي، وآثرتم الفاني على الباقي، فلم يبق لكم بعد ذلك شيء من النعيم، ولهذا قال بعده:

﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ففي هذا اليوم - يوم الجزاء - تنالون عذاب الذل والهوان، بسبب استكباركم في الدنيا عن عبادة الله، والإيمان به، وعن الطاعة والعبادة. وليس في الآية ما يقتضي منع المسلم من تناول الطيبات في الدنيا، إذا توخى حلالها وعمل بما أمر الله عز وجل، وإن كان الزهد في الاعتناء بذلك أرفع درجة وهي درجة رسول الله ﷺ وخاصه صفوته من أصحابه.

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي: وبسبب فسقكم وخروجكم عن

وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ
مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ
عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ
وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا
رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ
بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ
شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي
ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ
وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ
وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا
مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٧﴾
فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ
بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾

٥٠٥

طاعة الله، وارتكاب الفجور والآثام، وهذه الآية تدل على المنع من التنعم، لأن هذه الآية وردت في حق الكافر. وإنما وبّخ الله الكافر؛ لأنه يتمتع بالدنيا ولا يؤدي شكر المنعم بطاعته والإيمان به، وأما المؤمن فإنه يؤدي بإيمانه شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه.

*** ثم ذكر ﷻ مسلياً لنبيه محمد ﷺ، في تكذيب من كذب من قومه:**

﴿٢١﴾-﴿٢٥﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ * قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾ **أي: اذكر -يا محمد- لهؤلاء المشركين، قصة نبي الله هود عليه السلام مع قومه عاد ليعتبروا بها، وذكر هنا صفة الأخوة لقومه ليصور صلة الود بينه وبينهم، وصلة القرابة التي كانت كفيلة بقبول دعوته، وهي ذات الصلة بين محمد ﷺ وقومه الذين يقفون منه موقف الملاحاة والخصومة.**

﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ **أي: حين حذّر قومه من عذاب الله إن لم يؤمنوا، وهم مقيمون بالأحقاف -وهي تلال عظيمة من الرمل في بلاد اليمن-. والأحقاف جمع حقف وهو الكثيب المرتفع من الرمل.**

﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ **وقد مضت الرسل بالإنذار من قبل هود ومن بعده، والجملة اعتراضية وهي إخبار من الله تعالى أنه قد بعث رسلاً متقدمين قبل هود وبعده.**

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ **أي: حذرهم هود عليه السلام قائلاً لهم: بأن لا تعبدوا إلا الله.**

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ **أي: إني أخاف عليكم إن عبدتم غير الله، عذاب يوم هائل، وهو يوم القيامة.**

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ **أي: قالوا جواباً لإنذاره: أجئتنا يا هود لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟ وهو استفهام، يراد منه التسفيه والتجهيل بما دعاهم إليه.**

﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ **أي: فأتنا بالعذاب الذي وعدتنا به إن كنت صادقاً فيما تقول، استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم لوقوعه.**

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ **أي: قال لهم هود في تجرده من كل ادعاء في أدب جم مع ربه: ليس علم وقت العذاب عندي، إنما علمه عند الله.**

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ **وإنما أنا مبلغ ما أرسلني به الله إليكم.**

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ **فلذلك صدر منكم ما صدر من هذه الجرأة الشديدة، فأرسل الله عليهم العذاب العظيم، وهي الريح التي دمرتهم وأهلكتهم.**

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ **أي: فلما رأوا العذاب معترضاً كالسحاب في أفق السماء متجهاً نحو أوديتهم، استبشروا به.**

﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ قالوا مستبشرين: هذا السحاب يأتينا بالمطر. قال المفسرون: كانت عاد قد أبطأ عنهم المطر، وقحطوا مدة طويلة من الزمن، فلما رأوا ذلك السحاب العارض ظنوا أنه مطر ففرحوا به واستبشروا، وقالوا: هذا عارض ممطرنا.

﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ﴾ أي: قال لهم هود: ليس الأمر كما زعمتم أنه مطر، بل هو ما استعجلتم به من العذاب، ثم فسره بقوله:

﴿رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ صفة الريح، أي: هو ريح عاصفة مدمرة فيها عذاب فظيع مؤلم.

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ هذه الجملة صفة ثابتة لريح، أي: تُخَرِّب وتُهلك كل شيء أتت عليه من رجال ومواش وأموال، بأمره تعالى وإذنه. قال ابن عباس: أول ما جاءت الريح على قوم عاد، كانت تأتي على الرجال والمواشي فترفعهم من الأرض، وتطير بهم إلى السماء حتى يصبح الواحد منهم كالريشة، ثم تضربهم على الأرض، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم، فهي التي قال الله فيها ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾، وفي الحديث عن عائشة ﵂ قالت: كان ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف في وجهه، فقلت يا رسول الله: الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة ما يُؤَمِّنُني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾» [رواه مسلم].

﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ أي: فأصبحوا هلكى لا ترى إلا مساكنهم، لأن الريح لم تبق منهم إلا الآثار والديار خاوية.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: بمثل هذه العقوبة الشديدة نعاقب من كان عاصياً مجرماً، فهذه سنة جارية وقدر مطرد في المجرمين وفي هذا تخويف لأهل مكة.

* ثم ذكر سبحانه ما امتن به على قوم عاد من النعم العظيمة والآلاء الجسيمة، ولم يغن ذلك عنهم شيء لما عصوا وبغوا وطغوا، قال تعالى:

﴿٢٦﴾-﴿٢٨﴾ ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ * وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ * فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾ ولقد مكّنا عاداً في الذي لم نمكنكم فيه يا أهل مكة من القوة، والسّعة، وطول الأعمار، وهو خطاب لكفار مكة على وجه التهديد.

﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ﴾ أي: وأعطيناهم الأسماع والأبصار والقلوب، ليعرفوا تلك النعم ويستدلوا بها على الخالق المنعم.

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ أي: فما نفعتهم تلك الحواس أي نفع، ولا دفعت عنهم شيئاً من عذاب الله، والمعنى أنا فتحنا عليهم أبواب النعم: أعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الدلائل، وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها في تأمل العبَر، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في معرفة الله، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها، فلا جرم أنها لم تغن عنهم من عذاب الله شيئاً.

﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تعليل لما سبق، أي: لأنهم كانوا يكفرون وينكرون آيات الله المنزلة على رسله، ويكذبون رسله.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: ونزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلون به بطريق الاستهزاء.

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ تخويف آخر لكفار مكة، أي: ولقد أهكنا القرى المجاورة لكم يا أهل مكة والمحيطة بكم، كقرى عاد، وثمود وسبأ، وقوم لوط، والمراد بإهلاك القرى إهلاك أهلها.

﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أي: وكررنا الحجج والدلالات،

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا
حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ
٢٩ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ
٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ
فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٣٢ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ
إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٣٣ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ
أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٣٤ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ
وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا
سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٣٥

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

والمواعظ والبينات، أوضحناها وبيّناها لهم لعلهم يرجعون عن كفرهم وضلالهم.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ أي: فهلا نصروا آلهتهم التي تقربوا بها إلى الله بزعمهم، وجعلوها شفعاءهم لتدفع عنهم العذاب.

﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي: غابوا عن نصرتهم وهم أحوج ما يكونون إليهم، وفي الآية تهكم بهم كأن عدم نصرهم كان لغيبتهم.

﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ وذلك الذي أصابهم هو كذبهم وافتراؤهم على الله، حيث زعموا أن الأصنام شركاء لله وشفعاء لهم عند الله.

* ثم ذكر الله ﷻ قصة نفر من الجن ساقهم إلى النبي ليستمعوا لهذا القرآن، قال تعالى:

﴿٢٩-٣٢﴾ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: واذكر -يا محمد- حين وجهنا إليك وبعثنا جماعة من الجن ليستمعوا القرآن، والنفر دون العشرة. روي أنهم وافوا رسول الله ﷺ بوادي النخلة عند منصرفه من الطائف يقرأ في تهجده القرآن.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ فلما حضروا القرآن عند تلاوته، قال بعضهم لبعض: اسكتوا لاستماع القرآن وهذا أدب منهم، والآية توبيخ لمشركي قريش، أي: إن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله، وأنتم معرضون مصرون على الكفر.

﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ فلما فرغ ﷺ من قراءة القرآن، رجعوا إلى قومهم مؤمنين به، داعين إلى التوحيد، مخوفين لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا.

﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي: سمعنا كتاباً عظيماً مجيداً منزلاً على رسول من بعد موسى. قال ابن عباس: إن الجن لم تكن قد سمعت بأمر عيسى عليه السلام.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مصدقاً لما قبله من التوراة.

﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: هذا القرآن يرشد إلى الحق المبين، وإلى دين الله القويم، ولما مدحوا القرآن وبينوا محله ومرتبته، دعوهم إلى الإيمان به، فقالوا:

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: أجيبوا محمداً ﷺ فيما يدعوكم إليه من الإيمان، وصدقوا برسالته.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: يمحو الله عنكم الذنوب والآثام، ويخلصكم وينجيكم من عذاب شديد مؤلم.

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا ترهيب بعد الترغيب، أي: ومن لم يؤمن بالله ويستجب لدعوة رسله، فإنه لا يفوت الله طلباً، ولا يعجزه هرباً.

﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي: وليس له أنصار يمنعونه من عذاب الله.

﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: أولئك الذين لا يستجيبون لدعوة الله في خسران واضح، وإلى هنا آخر كلام الجن الذي سمعوا القرآن.

* ثم ذكر تعالى الأدلة على قدرته ووحدانيته، فقال:

﴿٣٣﴾-﴿٣٥﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أو لم يعلم هؤلاء الكفار المنكرون للبعث والنشور، أن الله العظيم القدير الذي خلق السموات والأرض ابتداءً، من غير مثال سابق.

﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: ولم يضعف، ولم يتعب بخلقهن، قادر على أن يعيد الموتى بعد الفناء، ويحييهم بعد تمزق الأشلاء؟

﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بلى إنه تعالى قادر لا يعجزه شيء، فكما خلقهم يعيدهم.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي: اذكر -يا محمد- لهؤلاء المشركين الأهول والشدائد التي يرونها في الآخرة، وذكرهم يوم يعرضون على النار فيقال لهم.

﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ أي: أليس هذا العذاب الذي تذوقونه حق؟

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ قالوا بلى وعزة ربنا، أكَّدوا كلامهم بالقسم طمعاً في الخلاص. والمقصود بالآية التهكم بهم، والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده.

﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: فيقال لهم:ذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم.

ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين، المعادين له، وأن يستمر داعياً لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، قال تعالى:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ فاصبر -يا محمد- على أذى المشركين كما صبر أولوا العزم من الرسل، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وأنت منهم -عليهم السلام-.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي: ولا تدع على كفار قريش بتعجيل العذاب، فإنه نازل بهم لا محالة.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ أي: كأنهم حين يعاينون العذاب في الآخرة، لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة من النهار، لما يشاهدون من شدة العذاب وطوله.

﴿بَلَاغٌ﴾ أي: هذا بلاغ وإنذار.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: لا يكون الهلاك والدمار بالعقوبات إلا للكافرين الخارجين عن طاعة الله، وهذا من عدله ﷻ أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب. قال قوم: ما في الرجاء لرحمة الله آية أقوى من هذه الآية.

تم تفسير سورة الأحقاف
والحمد لله

تفسير سورة محمد
وهي مدنية

* سورة محمد من السور المدنية، وتسمى سورة القتال، لأنها تناول أحكام القتال، والأسرى، والغنائم، وأحوال المنافقين،وغالب آياتها تتحدث عن موضوع الجهاد في سبيل الله.

ابتدات السورة الكريمة بدءاً عجيباً، بإعلان حرب سافرة على الكفار أعداء الله، وأعداء رسوله، الذين حاربوا الإسلام، وكذبوا الرسول ﷺ، ووقفوا في وجه محمد ﷺ، ليصدوا الناس عن دين الله.

ثم بيّنت طريق العزَّة والنصر، ووضعت الشروط لنصرة الله لعباده المؤمنين، وذلك بالتمسك بشريعته، ونصرة دينه. قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٣﴾ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن
رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ
ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ٣ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ
إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ
أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم
بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤ سَيَهۡدِيهِمۡ
وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠ ذَٰلِكَ
بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١

٥٠٧

كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا إعلان حرب من الله تعالى على أعدائه وأعداء دينه، والمعنى: الذين جحدوا بآيات الله وأعرضوا عن الإسلام، ومنعوا الناس عن الدخول فيه.

﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: أبطل الله وأحبط أعمالهم، وجعلها ضائعة لا ثواب لها، لأنها لم تكن لله فبطلت، والمراد أعمالهم التي عملوها في كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم الأخلاق، كإطعام الطعام وصلة الأرحام، وفك الأسارى، وقرى الأضياف، وحفظ الجوار.

قال قتادة: من استطاع منكم أن لا يبطل عملاً صالحاً عمله بعمل سيء فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فإن الخير ينسخ الشر، وإن الشر ينسخ الخير، وإن ملاك الأعمال خواتيمها.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان الصادق، والعمل الصالح.

﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ أي: صدقوا بما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ، تصديقاً جازماً لا يخالجه شك ولا ارتياب، وهو عطف خاص على عام، والنكتة فيه تعظيم أمره والاعتناء بشأنه، إشارة إلى أن الإيمان لا يتم دونه، ولذا أكده بقوله:

﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: وهو الثابت المؤكد المقطوع بأنه كلام الله ووحيه المنزل من عند الله، والجملة اعتراضية لتأكيد السابق.

﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ أي: أزال ومحا سبحانه عنهم ما مضى من الذنوب والأوزار، وإذا كفرت سيئاتهم نجوا من عذاب الدنيا والآخرة، وأصلح شأنهم وحالهم، في دينهم ودنياهم. ثم بيّن تعالى سبب ضلال الكفار، واهتداء المؤمنين، فقال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ أي: ذلك الإضلال لأعمال الكفار بسبب أنهم سلكوا طريق الضلال، واختاروا الباطل على الحق.

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: وأن المؤمنين سلكوا طريق الهدى، وتمسّكوا بالحق والإيمان المنزل من عند الرحمن.

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ أي: مثل ذلك البيان الواضح، بيّن الله أمر كل من الفريقين -المؤمنين والكافرين- بأوضح بيان، وأجلى برهان ليعتبر الناس ويتعظوا.

*** وبعد إعلان هذه الحرب السافرة على الكافرين؛ أمر تعالى المؤمنين بجهادهم، فقال:**

﴿٤﴾-﴿٩﴾ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ * سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ * وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ فإذا أدركتم الكفار في الحرب، فاحصدوهم حصداً بالسيوف، وأصله فاضربوا الرقاب ضرباً، عبّر عنه بضرب الرقاب لأنه

الغالب في صفة القتل، وفيه من الغلظة والشـدة ما ليس في لفظ القتل، لما فيها من تصوير القتل بأشـنع صورة، وهو حزُّ العنق وإطاره رأس البدن.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي: حتـى إذا هزمتموهم وأكثرتـم فيهم القتـل والجراحات، ولم تبق لهم قـوة للمقاومة، فأسروهم وكفُّوا عن قتلهم. والوثاق: اسـم لما يُربط من حبل وغيره.

﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي: ثم أنتم مخيَّرون بعد أسرهم؛ إما أن تمنُّوا عليهم وتطلقوا سراحهـم بلا مقابل من مـال، أو تأخذوا منهـم مالاً فداء لأنفسـهم، ولكن بعـد أن تكونوا قد كسرتم شوكتهم، وأعجزتموهم بكثرة القتل والجراح.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ حتـى تنقضي الحـرب وتنتهي بوضع آلاتهـا وأثقالها، وتنتهـي الحرب بين المسـلمين والمناوئين لـه، وذلك بعزة الإسلام واندحار المشركين.

﴿ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ أي: الأمـر فيهم مـا ذكر، ولو أراد الله لانتـصر منهم وأهلكهم بقدرتـه، دون أن يكلفكـم -أيهـا المؤمنون- إلى قتالهم.

﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٍ﴾ ولكنه أمركم بجهادهم ليختبر إيمانكم وثباتكـم، فيظهر حال الصادق في الإيمان مـن غيره، وليبتـلي المؤمنين بالكافرين، والكافرين بالمؤمنين، فيصير من قتل من المؤمنين إلى الجنة، ومن قتل من الكافرين إلى النار، ولهذا قال:

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: والذين استشهدوا في سـبيل الله فلن يبطل الله عملهم، بل يكثره ويضاعفه وينميه.

﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ أي: سـيهديهم إلى مـا ينفعهـم في الدنيا والآخـرة، بتوفيقهم إلى العمل الصالـح، وإرشـادهم إلى الجنة، دار الأبـرار، ويصلـح حالهم وشـأنهم. وإصلاح البـال: نعمة كبرى تلي نعمة الإيمان في القدر والقيمة والأثر. ومتى صلح البال، استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلـب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس، واستمتعت بالأمن والسلام.

﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ ويدخلهـم الجنـة دار النعيـم، بيَّنها لهم بحيث يعلـم كل واحـد منزله، ويهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، لا يخطئـون كأنهـم سـاكنوها منـذ خلقوا، وفي الحديث: «فوالذي نفس محمد بيده لأحدهـم، أهدى بمنزله في الجنـة منه بمنزلـه كان في الدنيا» [رواه البخـاري]. قـال مجاهـد: يهتدي أهل الجنة إلى بيوتهم ومسـاكنهم، لا يخطئون كأنهم سـاكنوها منذ خلقوا لا يسـتدلون عليها أحـداً. وقال ابن عباس: هم أعـرف بمنازلهم من أهل الجنة إذا انصرفوا إلى منازلهم.

ثم أمـر ﷻ المؤمنين أن ينـصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ أي: إن تنصروا دينه ينصركم على أعدائكم.

﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ أي: ويثبتكم في مواطن الحرب.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ أي: والذين كفروا بالله وآياته، فهلاكاً وشقاء لهم، وهو دعاء عليهم بالتعاسة والخيبة والخذلان.

﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: أبطلها وأحبطها؛ لأنها كانت في طاعة الشيطان.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: ذلـك التعـس والإضلال بسـبب أنهم كرهوا ما أنـزل الله من الكتب والشرائع، وما أنزل الله فيه من التكاليف والأحـكام؛ لأنهم قد ألفوا الإهمال وإطلاق العنان في الشـهوات والملاذ، فشق عليهم ذلك وتعاظمهم.

﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: أذهبها وأضاعهـا؛ لأن الإيـمان شرط لقبول الأعمال، والشرك محبط للعمل.

* ثـم ضرب لكفار مكـة الأمثال بالطغاة المتجبرين من الأمم السـابقة، وكيف دمَّر الله عليهم بسبب إجرامهم وطغيانهـم وخوفهم عاقبة الكفر، وفي هذا تهديد عنيف للكافرين. قال تعالى:

(١٠)-(١٣) ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ
وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ
ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن
رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٤ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي
وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ
طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ
فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ
مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا
خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ
زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ
أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ
ذِكۡرَىٰهُمۡ ١٨ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ
وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩

٥٠٨

ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ * وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾.

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أفلم يسافر هؤلاء المشركين بالله المكذبين لرسوله، ليروا ما حل بمن سبقهم من الأمم الطاغية، كعاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم من المجرمين، كيف كان مآلهم؟ وماذا حل بهم من العذاب؟ فإن آثار ديارهم تنبئ عن أخبارهم.

﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أهلكهم الله وعاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، واستأصل كل ما يخصهم من مال وبنين ومتاع، فإذا هو أنقاض متراكمة وإذا هم تحت هذه الأنقاض. و«دمر عليهم»، أبلغ من «دمّرهم» لأن من معناها أهلكهم مع أموالهم ودورهم وأولادهم، وأطبق عليهم الهلاك إطباقاً فلم يبق شيء إلا شمله الدمار.

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ أي: ولكفار مكة أمثال تلك العاقبة الوخيمة، والعذاب المدمر.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: وليُّهم وناصرهم ومغيثهم.

﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بالله تعالى، حيث قطعوا عنهم ولاية الله، وسدوا على أنفسهم رحمته.

﴿لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ لا ناصر لهم، ولا معين، ولا مغيث.

ثم بيّن تعالى مآل كل من الفريقين – المؤمنين والكافرين – في الآخرة، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: يدخل المؤمنين جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ أي: والكافرون في الدنيا، ينتفعون بشهواتها ولذائذها، ويأكلون كما تأكل البهائم في معالفها ومسارحها، غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح، فليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم.

﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ وجهنم مقامهم ومنزلهم في الآخرة.

ثم سلى تعالى رسوله ﷺ، فقال:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ أي: وكم من أهل قرية عاتية ظالمة، كانوا أقوى من أهل مكة الذين أخرجوك منها.

﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ؛ والمعنى: أهكلناهم بأنواع العذاب لما كذبوا رسلنا، فلم ينصرهم أحد؛ فكذلك نفعل بهؤلاء. قال ابن عباس: لما خرج النبي ﷺ من مكة واختفى بالغار، ثم خرج مهاجراً إلى المدينة، التفت إلى مكة، ثم قال: «إنك لأحب البلاد إلى الله، وأحب البلاد إليَّ، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت» فنزلت الآية.

* ثم ذكر ﷻ حال المؤمنين من سلكوا الطريق المستقيم واتبعوا سيد المرسلين وقال للكفار الذين عاندوا الحق، وجانبوا الصواب، فقال:

﴿١٤﴾، ﴿١٥﴾ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم * مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: لا يستوي من هو على بصيرة وحجة، وثبات ويقين من أمر دينه.

﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: كمن زين له عمله القبيح فرآه حسناً.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: انهمكوا في الضلال حتى عبدوا الهوى؟ ليس هذا كهذا، فما أبعد الفرق بين الفريقين، ثم مثل بعده بالفارق الكبير بين الجنة والنار، فقال:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: صفة الجنة الغريبة الشأن، التي وعد الله بها عباده الأبرار، وأعدَّها للمتقين الأخيار، فيها أنهار جاريات من ماء غير متغير اللون، والريح، والطعم.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: وأنهار جاريات من لبن لم يتغير بحموضة ولا غيرها، وأنهار جاريات من خمر لذيذة الطعم، يتلذذ بها الشاربون، وإنما قيَّدها بأنها لذة للشاربين، لأن الخمر كريهة الطعم في الدنيا لا يلتذ بها إلا فاسد المزاج، وأما خمر الآخرة فهي طيبة الطعم والرائحة والفعل، يشربها أهل الجنة لمجرد الالتذاذ.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي: وأنهار جاريات من عسل في غاية الصفاء، وحسن اللون والريح، لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وفضلات النحل.

وبدئ بالماء؛ لأنه في الدنيا مما لا يستغنى عنه، ثم باللبن إذ كان يجري مجرى المطعم لكثير من العرب في كثير من أوقاتهم، ثم بالخمر؛ لأنه إذا حصل الري والطعوم تشوقت النفس إلى ما يتلذذ به ثم بالعسل؛ لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخر بالرتب.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: ولهم في الجنة أنواع متعددة من جميع أصناف الفواكه والثمار، وفي ذكر الثمرات بعد المشروب، إشارة إلى أن مأكول أهل الجنة للذَّة لا للحاجة.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ولهم فوق ذلك النعيم الحسن، نعيم روحي، وهو المغفرة من الله مع الرحمة، حيث رفع عنهم التكاليف فيما يأكلونه ويشربونه، بخلاف الدنيا فإن مأكولها ومشروبها يترتب عليه الحساب والعقاب، ونعيم الآخرة لا حساب عليه ولا عقاب فيه. وتنكير مغفرة للتعظيم، أي: ولهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم.

﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: كمن هو مخلد في الجحيم؟ والاستفهام للإنكار، أي: لا يستوي من هو في ذلك النعيم المقيم، بمن هو خالد في الجحيم؟

﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ أي: وسقوا مكان تلك الأشربة ماء حاراً شديد الغليان، فقطع أحشاءهم من فرط حرارته؟ والأمعاء: جمع معّي، وهي ما في البطون من الحوايا، والحميم الماء إذا بلغ الغاية في الحرارة، إذا دنا منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رؤوسهم، فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم.

* ولما بين تعالى حال الكافرين، ذكر حال المنافقين، فقال:

﴿١٦-١٩﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ * وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ * فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ * فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين، جماعة يستمعون إلى حديثك - يا محمد، حتى إذا خرجوا من مجلسك.

﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: قالوا لعلماء الصحابة - كابن عباس وابن مسعود - ماذا قال محمد قريباً في تلك الساعة؟ وهذا إخبار من الله عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه، فلا يفهمون منه شيئاً، فإذا خرجوا من عنده، قالوا لأهل العلم من الصحابة: ماذا قال محمد ﴿ءَانِفًا﴾ أي الساعة، لا يعقلون ما قال، ولا يكترثون به تهاوناً منهم واستخفافاً.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: ختم على قلوبهم بالكفر، وساروا وراء أهوائهم الباطلة.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ
مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ
(٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ
فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ
ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ
أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ (٢٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم
مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ
لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ
سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦)
فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَٰرَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ
وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ
ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ (٢٩)

٥٠٩

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي: وأما المؤمنون المتقون الذين اهتدوا بالإيمان والانقياد، واتباع ما يرضي الله فقد زادهم سبحانه هدى، وألهمهم رشدهم. ولما بيّن تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع، ويستعيد ولا يستفيد، بيّن أن حال المؤمن المهتدي بخلافه، فإنه يستمع فيفهم، ويعمل بما يعلم، وفيه فائدة وهو قطع عذر المنافق، فإنه لو قال ما فهمت كلامه لغموضه، يرد عليه بأن المؤمن فهم واستنبط، فذلك لِعَمَاء القلوب، لا لِخفاء المطلوب.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو ينتظرون إلا قيام الساعة فجأة، فتبغتهم وهم سادرون، لاهون غافلون؟

﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: فقد جاءت أماراتها وعلاماتها الدالة على قربها، ومنها بعثة خاتم الرسل ﷺ.

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ أي: فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة، حيث لا ينفع ندم ولا توبة؟ وفي هذا الحث على الاستعداد قبل مفاجاة الموت، فإن موت الإنسان قيام ساعته.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: فدم -يا محمد- على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله، والعلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته، واطلب من الله المغفرة لك، وللمؤمنين والمؤمنات. وقدم -جل وعلا- العلم قبل العمل حتى يسير المسلم على طريق واضح بيّن. قال ابن تيمية: فالتوحيد يذهب أصل الشرك، والاستغفار يمحو فروعه، فأبلغ الثناء قول: لا إله إلا الله، وأبلغ الدعاء، قول: استغفر الله.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أي: يعلم تصرفكم وأعمالكم في الدنيا، ومصيركم في الآخرة، فأعدوا الزاد ليوم المعاد.

* ثم ذكر تعالى شوق المؤمنين إلى الجهاد ونصرة الدين، بخلاف المنافقين الذين يكرهون ذلك، قال تعالى:

(٢٠)-(٢٣) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ ويقول المؤمنون المخلصون شوقاً إلى الجهاد وحرصاً على ثوابه: هلا أنزلت سورة فيها الأمر بالجهاد.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ فإذا أنزلت سورة صريحة ظاهرة الدلالة على الأمر بالقتال ملزم العمل بها، رأيت المنافقين الذين في قلوبهم شك ونفاق.

﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: ينظرون إليك -يا محمد- تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً، كما ينظر من أصابته الغشية من حلول الموت.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: فويل لهم وهي كلمة معناها التهديد والدعاء.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ مبتدأ محذوف الخبر تقديره: خير لهم طاعة وقول معروف، أي: أحسن وأمثل.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ

ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: فإذا جدَّ الجدُّ وفرض القتال، فلو أخلصوا نياتهم وجاهدوا بصدق ويقين لكان ذلك خيراً لهم من التقاعس والعصيان.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: فلعلكم إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، من الإفساد في الأرض بالمعاصي، وقطع الأرحام.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وهم الذين أفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم، طردهم الله وأبعدهم من رحمته.

﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي فأصمهم عن استماع الحق، وعمى قلوبهم عن طريق الهدى فلا يهتدون إلى سبيل الرشاد. أخبر تعالى أن من فعل ذلك حقت عليه اللعنة، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره، حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل.

﴿٢٤﴾-﴿٢٨﴾ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۞ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الاستفهام توبيخي، أي: أفلا يتفهمون القرآن ويتصفحونه، ليروا ما فيه من المواعظ والزواجر، حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات؟!

قال الشوكاني: «دلت الآية على وجوب تدبر القرآن ليعرف معناه».

وقال ابن كثير: «ترك تدبره من هجرانه».

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ «أم» بمعنى «بل» وهو انتقال من توبيخهم على عدم التدبر إلى توبيخهم على ظلمة القلوب وقسوتها حتى لا تقبل التفكر والتدبر. والمعنى: بل قلوبهم قاسية مظلمة كأنها مكبَّلة بالأقفال الحديدية؛ فلا ينفذ إليها نور ولا إيمان.

* ثم أخبر ﷻ من حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران، ذلك لا عن دليل دلهم ولا برهان، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان وتزيين لهم، وتحدثت السورة بإسهاب عن صفات المنافقين، باعتبارهم الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين، فكشفت عن مساوئهم ومخازيهم، ليحذر الناس مكرهم وخبثهم، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ أي: رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان، وبعد أن وضح لهم طريق الهدى بالدلائل الظاهرة والمعجزات الواضحة.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: الشيطان زين لهم ذلك الأمر، وغرهم وخدعهم بالأمل، وطول الأجل.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي: ذلك الإضلال، بسبب أنهم قالوا لليهود الذين كرهوا القرآن الذي نزله الله حسداً وبغياً.

﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ سنطيعكم في بعض ما تأمروننا به كالقعود عن الجهاد، وتثبيط المسلمين عنه، وغير ذلك مما يوافق أهواءهم.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: وهو -جل وعلا- يعلم خفاياهم، وما يبطنونه من الكيد والدس، والتآمر على الإسلام والمسلمين. قال المفسرون: قال المنافقون لليهود ذلك سراً فأظهره الله تعالى وفضحهم.

﴿فَكَيْفَ﴾ ترى حالهم الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة.

﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الموكلون بقبض أرواحهم.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ بالمقامع من الحديد يضربون بها وجوههم وظهورهم؟ والمعنى على التخويف والتهديد، أي: إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر. قال ابن عباس: لا يُتوفى أحد على معصية إلا تضربه الملائكة في وجهه وفي دبره.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي: ذلك العذاب الذي استحقوه بسبب أنهم سلكوا طريق النفاق، وكرهوا ما يرضي الله من الإيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات.

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أبطل ما عملوه حال إيمانهم من أعمال البر.

* وتستمر الآيات في ذكر بعض صفات المنافقين، قال تعالى:

وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى
لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ
ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ
﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ
وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟
وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ
أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟
يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا
فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ
تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ
فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن
تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

﴿٢٩﴾-﴿٣١﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ * وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ **أي: أيعتقد المنافقون الذين في قلوبهم شك ونفاق وشبهة وشهوة، أن الله لن يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ وأنه لن يظهر بغضهم وأحقادهم على الإسلام والمسلمين؟ لا بدَّ أن يفضحهم ويكشف أمرهم.**

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ **أي: لو أردنا لأريناك -يا محمد- أشخاصهم فعرفتهم عياناً بعلامتهم التي هي كالوسم في وجوههم، ولكن الله ستر عليهم، إبقاء عليهم وعلى أقاربهم من المسلمين، لعلهم يتوبون.**

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ **ولتعرفن -يا محمد- المنافقين من فحوى كلامهم وأسلوبه، فيما يعرضونه بك من القول الذي ظاهره إيمان وإسلام، وبطانة كفر ومسبة، قال الكلبي: لم يتكلم بعد نزولها عند النبي ﷺ منافق إلا عرفه.**

قال ابن تيمية: فهذا مقسم عليه، محقق لا شرط فيه، وذلك أن ظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره في وجهه، لكن يبدو في الوجه بدواً خفيًّا يعلمه الله.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ **أي: لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فيجازيكم بحسب قصدكم، ففيه وعد ووعيد.**

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ **أي: ولنختبرنكم أيها الناس بالجهاد وغيره من التكاليف الشاقة، حتى نعلم - علم ظهور - المجاهدين في سبيل الله، والصابرين على مشاق الجهاد.**

﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ **أي: ونختبر أعمالكم حسنها وقبيحها. وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: اللهم لا تبتلينا فإنك إذا ابتليتنا فضحتنا، وهتكت أستارنا.**

*** ثم أخبر ﷻ عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وتوعده وعيداً شديداً لأنه جمع أنواع الشر كلها، من الكفر بالله، وصد الخلق عن سبيله، فقال تعالى:**

﴿٣٢﴾-﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ * فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ **أي: جحدوا بآيات الله ومنعوا الناس عن الدخول في الإسلام.**

﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ **أي: عادوا الرسول وخرجوا عن طاعته، من بعد ما ظهر لهم صدقه، وأنه رسول الله بالحجج والآيات.**

﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ **أي: لن يضروا الله بكفرهم وصدهم شيئاً من الضرر، ولا ينقص به ملكه، وسيبطل أعمالهم من صدقة ونحوها، فلا يرون لها في الآخرة ثواباً، ولا تقبل لعدم إيمانهم.**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ **يأمر الله ﷻ**

المؤمنين بأمـــر به تتم أمورهم، وهو أن يمتثلوا أوامره وأوامر رسوله.

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يشمل النهي عـــن إبطالها بعـــد عملـها، بما يفســدها، من منٍّ بها وإعجاب، وفخر وســمعة، ومن عمـل بالمعـاصي التي تضمحل معهـا الأعمال، ويحبط أجرها، ويشمل النهي عن إفسادها حال وقوعها بقطعها، أو الإتيان بمفسد من مفسداتها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَـرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَـبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: جحـدوا بآيات الله وصدُّوا الخلق عن طريق الهدى والإيمان.

﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُـمْ كُفَّارٌ﴾ وماتوا على الكفر ولم يتوبوا.

﴿فَلَن يَغْفِـرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: فلن يغفر الله لهم بحال مـن الأحوال، وهذا قطع بـأن من مات على الكفـر لا يغفر الله له؛ لقوله تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النسـاء: ٤٨]. ومفهوم الآية الكريمـة أنهم إن تابـوا من ذلك قبل موتهم، فـإن الله يغفر لهم ويرحمهم، ويدخلهم الجنة، فسبحان الحليم الغفور.

* وختمـت السـورة الكريمـة بدعوة المؤمنين إلى سلوك طريق العزة والنصر، بالجهاد في سـبيل الله وعدم الوهـن والضعـف أمام قـوى الشر والبغـي، وحـذَّرت مـن الدعوة إلى الصلح مع الأعداء، حرصاً على الحياة والبقاء، فإن الحيـاة الدنيا زائلة فانية، وما عند الله خير للأبرار.

وهكذا ختمت السورة بالدعوة إلى الجهاد، كـما بدأت بالدعوة إليه، حفزاً لعزائم المؤمنين، وليتناسـق البدء مع الختام ألطف التئام! قال تعالى:

﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي: فلا تضعفوا ولا يسـتولي عليكم الخوف، وتدعـوا إلى المهادنة والصلح مع الكفـار إذا لقيتموهم، بل اصبروا واثبتوا، ووطنوا أنفسـكم على القتال والجلاد، طلباً لمرضـاة ربكم ونصحاً للإسلام، وإغضاباً للشيطان.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي: وأنتـم الأعزة الغالبـون لأنكم مؤمنون، والله معكم بالعون والنصر.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم. قال ابن كثير: وفي قوله ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بشـارة عظيمة بالنـصر والظفر على الأعـداء، وإذا عـرف الإنسـان أن الله تعالى لا يضيع عمله وجهاده، أوجب لـه ذلك النشـاط، وبـذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب.

* ثم أخبر سـبحانه عـن حقيقة الدنيا وحقارتها، وتهويناً لشأنها، وأنها دار ممر لا دار مقر، فقال تعالى:

﴿٣٦﴾-﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُـواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۞ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُـمْ تَبْخَلُـواْ وَيُخْـرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ۞ هَٰٓأَنتُـمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَـوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَـبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَـرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْـتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: ما الحياة الدنيـا إلا زائلة فانية، لا قرار لهـا ولا ثبات، كاللعـب واللهو الذي يتلهى به الأولاد، لعب في الأبدان ولهو في القلـوب، فلا يزال العبد لاهياً في مالـه وأولاده، وزينتـه، ولذاته من النسـاء، والمآكل والمشارب والمساكن والمجالس حتى يحضر إليه أجله.

﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُـواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي: وإن تؤمنوا بالله وتتقوه حق تقـواه، يعطكم ثـواب أعمالكم كاملاً، وهـذا هو الذي ينفـع العبد، وهـو الذي ينبغـي أن يتنافـس فيه، وتبذل الهمم والأعـمال في طلبه، وهو مقصود الله من عبـاده ليثيبهم الثواب الجزيل، رحمة بهم ولطفاً.

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُـمْ﴾ أي: ولا يطلب منكـم أن تنفقوا جميع أموالكم، بل الـزكاة المفروضة فيها. وهو سـبحانه غني عنكـم لا يطلب منكـم شـيئاً، وإنـما فـرض عليكم الصدقـات مـن الأمـوال مواسـاة لإخوانكم الفقراء، ليعـود نفع ذلك وثوابه عليكم.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُـمْ تَبْخَلُـواْ﴾ أي: إن يسـألكم جميـع أموالكم ويبالغ في طلبها، ويلح عليكم في إنفاقهـا تبخلـوا، والآيات توحي برحمته سبحانه ولطفه بالنفوس.

﴿وَيُخْـرِجْ أَضْغَٰنَكُـمْ﴾ أي: ويخـرج مـا في قلوبكم مـن البخل وكراهة الإنفاق، وذلك لأن الإنسـان جبل على محبـة الأموال، ومن نُوزع في

سُورَةُ الفَتْحِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢
وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ٣ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٤ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ
سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٥ وَيُعَذِّبَ
ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ
بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ
وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٧ إِنَّآ
أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩

٥١١

حبيبه ظهرت سرائره، فمن رحمته تعالى على عباده، عدم التشديد عليهم في التكاليف، والدليل على أن الله لو طلب أموالكم، وأحفاكم بسؤالها، أنكم تمتنعون منها. والأضغان جمع ضغن، وهو ما يضمر من المكروه.

قال قتادة: قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان، وصدق، فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ها أنتم معشر المخاطبين تُدعون للإنفاق في سبيل الله، وقد كلفتم ما تطيقون.

﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي: فمنكم من يشح عن الإنفاق ويمسك عنه، ومن بخل عن الإنفاق في سبيل الله، فإنما يعود ضرر بخله على نفسه، لأنه يمنعها الأجر والثواب.

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ أي: إنه سبحانه لا يأمر بذلك لحاجته إليه، لأنه مستغن عن إنفاقكم ليس بمحتاج إلى أموالكم، وأنتم محتاجون إليه، فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لا ينفكون عنه.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أي: وإن تعرضوا عن طاعته واتباع شرعه، يخلف مكانكم قوماً آخرين يكونون أطوع لله منكم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ ولا يكونون مثلكم في البخل عن الإنفاق، بل يكونوا كرماء أسخياء.

تم تفسير سورة محمد
والحمد لله

تفسير سورة الفتح
وهي مدنية

* سورة الفتح سورة مدنية، سميت «سورة الفتح» لأن الله ﷻ بشر المؤمنين بالفتح المبين، وهو فتح مكة، وآيات السورة تُعنى بجانب التشريع شأن السور المدنية التي تعالج الأسس التشريعية في المعاملات، والعبادات، والأخلاق، والتوجيه.

وذكر تعالى في السورة الكريمة «صلح الحديبية» الذي تم بين الرسول ﷺ وبين المشركين سنة ست من الهجرة، والذي كان بداية للفتح الأعظم «فتح مكة»، وبه تم العز والنصر والتمكين للمؤمنين، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

وقد نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية، ولما نزلت هذه السورة قال - صلوات الله عليه - كما روى ذلك الإمام أحمد: «لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة هي أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾»، تفتتح هذه السورة بهذا الفيض الإلهي على رسوله ﷺ: فتح مبين، ومغفرة شاملة، ونعمة تامة، وهداية ثابتة، ونصر عزيز، قال تعالى:

١-٣ ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا * لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾.

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ أي: قد فتحنا لك -يا محمد- مكة فتحاً بيناً ظاهراً، وحكمنا لك بالفتح المبين على أعدائك، والمراد بالفتح؛ فتح مكة، وعده الله به قبل أن يكون، وذكره بلفظ الماضي لتحققه، وكانت بشارة عظيمة من الله تعالى لرسوله وللمؤمنين، ورتب -جل وعلا- على هذا الفتح عدة أمور، قال:

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي: ليغفر لك ربك - يا محمد، جميع ما فرط منك من ترك الأولى، وتسميته ذنباً بالنظر إلى منصبه الجليل، وهذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وفيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ إذ هو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة، وهو في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لامن الأولين ولامن الآخرين، ولما كان أطوع خلق الله بشَّره الله بالفتح المبين، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ التي أكرمه الله ﷻ بها.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي: ويكمل نعمته عليك بإعلاء الدين ورفع مناره، ونصرك على أعدائك، واتساع كلمتك.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: ويرشدك إلى الطريق القويم، الموصل إلى جنات النعيم؛ بما يشرعه لك من الدين العظيم لتنال به السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: وينصرك الله على أعدائك نصراً قوياً منيعاً، فيه عزة وغلبة، يجمع لك به بين عز الدنيا والآخرة.

* ثم بعد ذلك ذكر -جل وعلا- آثار هذا الفتح المبين على المؤمنين في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿٤﴾-﴿٧﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۞ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۞ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هو -جل وعلا- الذي جعل السكون والطمأنينة في قلوب المؤمنين، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة؛ منةً منه عليهم.

﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: ليزدادوا يقيناً مع يقينهم، وتصديقاً مع تصديقهم، برسوخ العقيدة في القلوب، والتوكل على علام الغيوب.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ولله - جلت عظمته - كل جنود السموات والأرض، من الملائكة والجن، والحيوانات، والصواعق المدمرة، والزلازل، والخسف، والغرق، جنود لا تُحصى ولا تُغلب، يسلطها على من يشاء. قال ابن كثير: ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده الجهاد، لما له في ذلك من الحجة القاطعة والحكمة البالغة، ولذلك قال:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليماً بأحوال خلقه، حكيماً في تقديره وتدبيره. وأراد سبحانه بإنزال السكينة في قلوب المؤمنين «أهل الحديبية» حين بايعوا رسول الله ﷺ على مناجزة الحرب مع أهل مكة، بعد أن حصل لهم ما يزعج النفوس ويزيغ القلوب، من صد الكفار لهم عن دخول مكة، ورجوع الصحابة دون بلوغ مقصودهم، فلم يرجع منهم أحد عن الإيمان، بعد أن هاج الناس وماجوا، وزلزلوا، حتى جاء عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ وقال: ألست نبيَّ الله حقاً؟ قال: «بلى» قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» قال: فلم نُعط الدنيَّة في ديننا إذن؟ قال: «إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري».. إلخ.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ليدخلهم - على طاعتهم وجهادهم - حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحتها أنهار الجنة، ماكثين فيها أبداً.

﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: يستر ويمحو عنهم خطاياهم وذنوبهم فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح، ويغفر ويستر، ويرحم ويشكر. وقدم إدخالهم الجنة على تكفير السيئات مع أن الأمر بالعكس للمسارعة إلى ما هو المطلب الأعلى، والمقصد الأسنى.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ وكان ذلك الإدخال في

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ
أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ
بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ١٠ سَيَقُولُ
لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا
فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ قُلْ
فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ
نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ١١ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن
يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي
قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ١٢ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ
بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ١٣ وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٤ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا
ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ
أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ
فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٥

٥١٢

الجنات والتكفير عن السيئات، فوزاً كبيراً وسعادة لا مزيد عليها، إذ ليس بعد نعيم الجنة نعيم.

ولما ذكر سبحانه ما أعده للمؤمنين، ذكر هنا جزاء الكافرين وأعوانهم، فقال تعالى:

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ **أي: وليعذب الله أهل النفاق والإشراك، بما يصل إليهم من الهموم والغموم، لما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام، وقهر المخالفين له، وبما يصابون به من القهر والقتل والأسر، وفي الآخرة بعذاب جهنم. وقدمهم على المشركين؛ لأنهم أشد منهم عذاباً، وأعظم خطراً وضرراً من الكفار المجاهرين بالكفر، وجمعت الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع.**

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ **أي: الظانين بربهم أسوأ الظنون، ظنوا أن الله تعالى لن ينصر رسوله والمؤمنين، وأن المشركين يستأصلونهم جميعاً، كما قال تعالى:** ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الحجرات: ١٢] **قال القرطبي: ظنوا أن النبي ﷺ لا يرجع إلى المدينة ولا أحد من أصحابه حين خرج إلى الحديبية.**

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ **دعاء عليهم، أي: عليهم ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين من الهلاك والدمار.**

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ **أي: سخط تعالى عليهم بكفرهم ونفاقهم، وأبعدهم وأقصاهم عن رحمته.**

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ **أي: وهيأ لهم في الآخرة ناراً مستعرة هي نار جهنم، وساءت مرجعاً ومنقلباً لأهل النفاق والضلال.**

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **ذكر سبحانه الأخبار بأن له ملك السموات والأرض وما فيهما من الجنود، تأكيداً للانتقام من الأعداء، أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين، وكرر اللفظ؛ لأن جنود الله قد يكون إنزالهم للرحمة، وقد يكون للعذاب، فذكرهم أولاً: لبيان الرحمة بالمؤمنين، وثانياً: لبيان إنزال العذاب على الكفرين.**

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ **عزيزاً في ملكه وسلطانه، حكيماً في صنعه وتدبيره، قال بعض المفسرون: ذكر هذه الآية أولاً في معرض الخلق والتدبير فذيلها بقوله:** ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ **وذكرها ثانياً في معرض الانتقام فذيلها بقوله:** ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ **وهو في منتهى الترتيب الحسن؛ لأنه تعالى ينزل جنود الرحمة لنصرة المؤمنين، وجنود العذاب لإهلاك الكافرين.**

*** ثم امتن تعالى على رسوله الكريم بتشريفه بالرسالة، وبعثه إلى كافة الخلق، فقال:**

﴿٨﴾-﴿١٠﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ **أيها الرسول الكريم.**

﴿شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ **شاهداً على الخلق يوم القيامة، وشاهداً على المقالات والمسائل حقها وباطلها، وشاهداً لله تعالى بالوحدانية، والانفراد بالكمال من كل وجه، ومبشراً للمؤمنين بالجنة، ومنذراً للكافرين من عذاب النار.**

﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ **أي: أرسلنا الرسول لتؤمنوا أيها الناس بربكم ورسولكم حق الإيمان، إيماناً عن اعتقاد ويقين، لا يخالطه شك ولا ارتياب.**

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تفخموه وتعظموه.

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تحترموا وتجلوا أمره مع التعظيم والتكريم، والضمير فيهما للنبي ﷺ.

﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وتسبحوا ربكم في الصباح والمساء، ليكون القلب متصلاً بالله في كل آن، فذكر سبحانه في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو التعزير والتوقير، والمختص بالله، وهو التسبيح له والتقديس بصلاة أو غيرها، ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ إن الذين يبايعونك -يا محمد- في الحديبية، إنما يبايعون في الحقيقة الله، وهذا تشريف للنبي ﷺ حيث جعل مبايعته بمنزلة مبايعة الله، لأن الرسول ﷺ سفير ومعبر عن الله، والمراد بالبيعة هنا بيعة الرضوان بالحديبية، حين بايع الصحابة رسول الله ﷺ على الموت، كما روى الشيخان عن سلمة ابن الأكوع أنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على الموت».

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: هو تعالى حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ﷺ، والمعنى: أن من بايع الرسول فقد بايع الله، كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: فمن نقض البيعة فإنما يعود ضرر نكثه عليه، لأنه حرم نفسه الثواب، وألزمها العقاب، بنقضه العهد والميثاق الذي عاهد به ربه.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ومن وفَّى بعهده كاملاً موفراً، فسيعطيه الله ثواباً جزيلاً، لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه إياه.

* بعد أن ذكر سبحانه أهل بيعة الرضوان ومقام أهلها ومكانتهم، ذم سبحانه المتخلفين عن رسوله، في الجهاد في سبيله، من الأعراب الذين ضعف إيمانهم، وكان في قلوبهم مرض، وسوء ظن بالله تعالى، فقال:

﴿١١﴾-﴿١٤﴾ ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا * بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا * وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا * وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: سيقول لك -يا محمد- المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج معك عام الحديبية من أعراب المدينة.

﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ أي: شغلنا عن الخروج معك بالأموال والأولاد، فاطلب لنا من الله المغفرة؛ لأن تخلفنا لم يكن باختيار بل عن اضطرار، وسمَّاهم تعالى بالمخلفين؛ لأنهم تخلفوا عن غزوة الحديبية-. والأعراب هم أهل البوادي من العرب -؛ لما خرج رسول الله ﷺ إلى مكة يعتمر، رأوا أنه يستقبل عدواً كثيراً من قريش وغيرهم فقعدوا عن الخروج معه، ولم يكن إيمانهم متمكناً فظنوا أنه لا يرجع هو والمؤمنون من ذلك السفر، ففضحهم الله في هذه السورة، وأعلم تعالى رسوله ﷺ بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم، وأعلمه أنهم كاذبون في اعتذارهم.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يقولون خلاف ما يُبطنون وهذا هو النفاق المحض، فهم كاذبون في الاعتذار وطلب الاستغفار؛ لأنهم قالوه رياء من غير صدق ولا توبه.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ أي: قل لهم: من يمنعكم من مشيئة الله وقضائه، إن أراد أن يلحق بكم أمراً يضركم كالهزيمة، أو أمراً ينفعكم كالنصر والغنيمة؟ وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول ﷺ يدفع عنهم الضر، ويعجل لهم النفع.

﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ أي: ليس الأمر كما زعمتم، بل الله مطلع على ما في قلوبكم من الكذب والنفاق.

الجزء السادس والعشرون — سورة الفتح

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ
وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ
عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ
عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى
قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ
كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ
مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ
ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا
مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ
ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

٥١٣

ثم أظهر تعالى ما يخفونه في نفوسهم وسبب تخلفهم، فقال:

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ **أي: بل ظننتم أيها المنافقون أن محمداً وأصحابه لن يرجعوا إلى المدينة أبداً، بل سيقتلون ويستأصلون، ولهذا لم تخرجوا معه.**

﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ **وزين ذلك الضلال في قلوبكم واطمأننتم إليه.**

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ **أي: ظننتم أنهم يُستأصلون بالقتل، ولا يرجع منهم أحد.**

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ **وكنتم قوماً هالكين عند الله، مستوجبين لسخطه وعقابه.**

ولما بين حال المتخلفين عن رسول الله، وبين حال ظنهم الفاسد، وأنه يفضي بصاحبه إلى الكفر، حرضهم على الإيمان والتوبة على سبيل العموم.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ **ومن لم يؤمن بالله ورسوله بطريق الإخلاص والصدق، فجزاؤهم ما أعده الله لهم، فإنا هيأنا للكافرين ناراً شديدة مستعرة، وهو وعيد شديد للمنافقين.**

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **أي: له -جل وعلا- جميع ما في السموات والأرض، يتصرف في الكل كيف يشاء، لا يحتاج إلى أحد من خلقه، وإنما تعبدهم بما تعبدهم ليثيب من أحسن ويعاتب من أساء، ولهذا قال:**

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ **أي: يرحم من يشاء من عباده، ويعذب من يشاء، وهذا قطع لطمعهم في استغفار رسول الله ﷺ لهم.**

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ **أي: واسع المغفرة، عظيم الرحمة، لا يزال سبحانه يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطائين، ويقبل توبة التائبين، وينزل خيره المدرار، آناء الليل والنهار.**

﴿١٥﴾ ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ **سيقول الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، عند ذهابكم إلى مغانم خيبر لتحصلوا عليها.**

﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ **أي: اتركونا نخرج معكم إلى خيبر، لنقاتل معكم.**

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ **أي: يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعده لأهل الحديبية، من جعل غنائم خيبر لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد، عوضاً عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح.**

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ **هذا النفي هو في معنى النهي. أي: قل لهم -يا محمد- لا تتبعونا فلن يكون لكم فيها نصيب.**

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ **أي: كذلك حكم الله تعالى بأن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية، ليس لغيرهم فيها نصيب قبل رجوعنا منها.**

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ **فسيقول المنافقون ليس هذا من الله، بل هو حسداً منكم لنا عليم شاركتكم في الغنيمة. قال تعالى رداً عليهم.**

﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ **أي: لا يفهمون إلا فهماً قليلاً، وهو حرصهم على الغنائم وأمور الدنيا.**

﴿١٦﴾، ﴿١٧﴾ ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ

﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۞ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ **أي: قل لهؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية - كرَّر وصفهم بهذا الاسم إظهاراً لشناعته ومبالغة في ذمهم - ستدعون إلى حرب قوم أشداء، هم بنو حنيفة - قوم مسيلمة الكذاب - أصحاب الردة.**

﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ **أي: إما أن تقتلوهم، أو يدخلوا في دينكم بلا قتال.**

﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ **أي: فإن تستجيبوا وتخرجوا لقتالهم، يعطكم الله الغنيمة والنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة.**

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ **وإن تتخلفوا عن الخروج كما تخلفتم زمن الحديبية، يعذبكم الله عذاباً شديداً مؤلماً في نار جهنم.**

ثم ذكر تعالى الأعذار التي يعذر بها العبد عن الخروج إلى الجهاد، فقال:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ **أي: ليس على هؤلاء إثم أو ذنب في ترك الخروج للجهاد لعدم استطاعتهم، لما بهم من الأعذار الظاهرة. ثم قال ﷻ مرغباً في الجهاد، وطاعة الله ورسوله:**

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ **أي: من يطع أمر الله وأمر الرسول، يدخله جنات النعيم خالداً فيها.**

﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ **أي: ومن ينكل عن الجهاد لغير عذر يعذبه الله عذاباً شديداً، في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار.**

*** ثم يذكر الله في آيات عظيمة جهاد المؤمنين، و«بيعة الرضوان» التي بايع فيها الصحابة ﷺ رسول الله ﷺ على الجهاد في سبيل الله حتى الموت، وكانت بيعة جليلة الشأن ولذلك باركها الله، ورضي عن أصحابها، وسجلها في كتابه العظيم في سطور من نور، قال تعالى:**

﴿١٨، ١٩﴾ ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۞ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ **اللام موطئة لقسم محذوف، أي: والله لقد رضي الله عن المؤمنين حين بايعوك -يا محمد- «بيعة الرضوان» تحت ظل الشجرة بالحديبية. وسبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ لما بلغ الحديبية أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أهل مكة يخبرهم أنه إنما جاء معتمراً، وأنه لا يريد حرباً، فلما ذهب عثمان حبسوه عندهم، فجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ أن عثمان قد قُتل، فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة على أن يدخلوا مكة حرباً، وبايعوه على الموت، فكانت بيعة الرضوان، فلما بلغ المشركين ذلك أخذهم الرعب، وأطلقوا عثمان، وطلبوا الصلح من رسول الله ﷺ على أن يأتي في العام القابل، ويدخلها ويقيم فيها ثلاثة أيام، وكانت هذه البيعة تحت شجرة سمرة بالحديبية وقد سميت «بيعة الرضوان» ولما رجع المسلمون يعلوهم الحزن والكآبة، أراد الله تسليتهم وإذهاب الحزن عنهم، فأنزل هذه السورة على رسوله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية** ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ **وكان عدد الذين بايعوا رسول الله ﷺ ألفاً وأربعمائة رجل، وفيهم نزلت الآية الكريمة** ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ **ولم يتخلف عن البيعة إلا «الجد بن قيس» من المنافقين، وحضر هذه البيعة روح القدس جبريل الأمين، ولهذا سطرت في الكتاب المبين.**

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ **فعلم تعالى ما في قلوبهم من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة عند مبايعتهم لك على حرب الأعداء.**

قال ابن تيمية: «القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه سبحانه أرقها وأصلبها وأصفاها».

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ **أي: رزقهم الطمأنينة، وسكون النفس عند البيعة.**

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ
بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾
هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ
مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ
بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ
وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾
لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ
ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ
لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ
فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ
ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

٥١٤

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ **وجازاهم على بيعة الرضوان بفتح خيبر، وما فيها من النصر والغنائم، زيادة على ثواب الآخرة.**

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ **أي: وجعل لهم الغنائم الكثيرة التي غنموها من خيبر. قال ابن كثير: هو ما أجرى الله ﷻ على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام بفتح خيبر، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم، وماحصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى:**

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ **أي: غالباً على أمره، حكيماً في تدبيره وصنعه، ولهذا نصركم عليهم، وغنّمكم أرضهم وديارهم وأموالهم.**

*** وبعد الآيات التي تحدثت عن البيعة، يعد الله ﷻ المؤمنين بغنائم كثيرة فيما يستقبلونه من أيامهم، قال تعالى:**

﴿٢٠﴾-﴿٢٤﴾ ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا * وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا * وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ **أي: وعدكم الله معشر المؤمنين - على جهادكم وصبركم - الفتوحات الكثيرة، والغنائم الوفيرة تأخذونها من أعدائكم، وهذا يشمل كل غنيمة يغنمها المسلمون إلى يوم القيامة. وفي هذا دليل على أن الله قد يثيب المؤمن رزقاً في الدنيا على العمل الصالح ولا يحط ذلك من درجة فضله، ألا ترى أن الغنائم أطيب وجوه الكسب.**

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ **أي: فعجل لكم غنائم خيبر، دون جهد وقتال.**

﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ **أي: واحمدوا الله إذ منع أيدي الناس أن تمتد إليكم بسوء، والمراد أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان، حين جاؤوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب.**

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ **أي: يعتبرون بذلك، ولتكون الغنائم، وفتح مكة، ودخول المسجد الحرام، علامة واضحة تعرفون بها صدق الرسول فيما أخبركم به عن الله.**

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ **أي: ويهديكم تعالى إلى الطريق القويم، الموصل إلى جنات النعيم بجهادكم، وإخلاصكم، وجزاء طاعتكم وامتثالكم، وهكذا يجمع الله لهم بين المغنم ينالونه، والهداية يرزقونها، فيتم لهم الخير من كل جانب. والآية للإشارة إلى أن ما أعطاهم من الفتح والمغانم، ليس هو كل الثواب، بل الجزاء أمامهم، وإنما هي شيء عاجل عجّله لهم لينتفعوا به، ولتكون آية لمن بعدهم من المؤمنين، تدل على صدق وعد الله في وصول ما وعدهم به كما وصل إليكم، ويمُّن عليهم ويبشرهم بأخرى غير هذه لم يقدروا عليها بقوتهم، ولكن الله تولاها عنهم بقدرته وتقديره.**

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ **أي: وغنيمة أخرى يسرها لكم، لم تكونوا بقدرتكم تستطيعون عليها، ولكن الله بفضله وكرمه فتحها لكم، والمراد بها فتح مكة.**

﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: قد استولى الله عليها بقدرته ووهبها لكم، فهي كالشيء المحاط به من جوانبه محبوس لكم لا يفوتكم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي: قادراً على كل شيء، لا يعجزه شيء أبداً، فهو القادر على نصرة أوليائه، وهزم أعدائه.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ تذكير لهم بنعمة أخرى، وبشارة من الله لعباده المؤمنين بنصرهم على أعدائهم الكافرين، بحيث لو قاتلكم أهل مكة ولم يقع الصلح بينكم وبينهم، لغلبوا وانهزموا أمامكم ولم يثبتوا.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ثم لا يجدون من يتولى أمرهم بالحفظ والرعاية، ولا من ينصرهم من عذاب الله.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: تلك طريقة الله وعادته التي سنّها فيمن مضى من الأمم، من هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: وسنته تعالى لا تتبدل ولا تتغير. ثم قال ﷻ ممتناً على عباده بالعافية، من شر الكفار ومن قتالهم:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي: وهو تعالى بقدرته وتدبيره صرف أيدي كفار مكة عنكم، كما صرف عنهم أيديكم بالحديبية التي هي قريبة من البلد الحرام.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من بعد ما أخذتموهم أسارى وتمكنتم منهم، وذلك أن ثمانين من المشركين طافوا بعسكر المؤمنين ليصيبوا منهم، فأخذوا وأتي بهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلى سبيلهم، فكان ذلك سبب الصلح، فكفُّ أيدي الكفار هو هزيمتهم وأسرهم، وكفُّ أيدي المؤمنين عن الكفار هو إطلاقهم من الأسر وسلامتهم من القتل.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي: هو تعالى بصير بأعمالكم وأحوالكم، يعلم ما فيه مصلحة لكم، ولذلك حجزكم عن الكافرين رحمة بكم، وحرمة لبيته العتيق لئلا تسفك فيه الدماء.

* ثم يذكر الله ﷻ خصومهم الكفار، ومن هم في أعمالهم الفاسدة، استحقاق المشركين للعذاب والدمار، فقال تعالى:

﴿٢٥﴾،﴿٢٦﴾ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۞ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: هم كفار قريش المعتدون، الذين كفروا بالله والرسول، ومنعوا المؤمنين عن دخول المسجد الحرام، لأداء مناسك العمرة عام الحديبية.

﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: وصدُّوا الهدي أيضاً - وهو ما يُهدى لبيت الله لفقراء الحرم - معكوفاً، أي: محبوساً عن أن يبلغ مكانه الذي يذبح فيه وهو الحرم، يعني قريشاً منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام عام الحديبية، حين أحرم رسول الله ﷺ مع أصحابه بالعمرة، ومنعوا الهدي وحبسوه عن أن يبلغ محله، وهذا كانوا لا يعتقدونه، ولكنه حملتهم الأنفة ودعتهم الحمية الجاهلية، والبغي والعناد، على أن يفعلوا ما لا يعتقدونه ديناً، فوبخهم الله على ذلك وتوعّدهم عليه، وأدخل الأنس على رسول الله ببيانه ووعده.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي: ولولا أن في مكة رجالاً ونساء من المؤمنين المستضعفين، الذين يخفون إيمانهم خوفاً من المشركين، لا تعرفونهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين.

﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: كراهة أن توقعوا بهم وتقتلوا منهم دون علم منكم بإيمانهم، فينالكم بقتلهم إثم

وعيب، وجواب «لولا» محذوف تقديره: لأذن لكم في دخول مكة، ولسلطكم على المشركين.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: إنما فعل ذلك ليخلص المؤمنين من بين أظهر المشركين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام، قال القرطبي: أي: لم يأذن الله لكم في قتال المشركين، ليُسلم بعد الصلح من قضى أن يُسلم من أهل مكة، وكذلك كان، أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه، ودخلوا في رحمته وجنته.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: لو تفرقوا وتميز بعضهم عن بعض، وانفصل المؤمنون عن الكفار، لعذبنا الكافرين منهم أشد العذاب، بالقتل والسبي، والتشريد من الأوطان.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ أي: حين دخل إلى قلوب الكفار الأنفة والكبرياء بالباطل، فرفضوا أن يكتبوا في كتاب الصلح «بسم الله الرحمن الرحيم» ورفضوا أن يكتبوا «محمد رسول الله» وقولهم: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي: أنفة وغطرسة وعصبية جاهلية.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: جعل الطمأنينة والوقار في قلب الرسول والمؤمنين، ولم تلحقهم العصبية الجاهلية كما لحقت المشركين بل صبروا لحكم الله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمات الله ولو كانت ما كانت.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: اختار لهم كلمة التقوى -إلزام تكريم وتشريف- وهي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله».

﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أي: وكانوا أحق بهذه الفضيلة من كفار مكة، لأن الله اختارهم لدينه وصحبة نبيه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: عليماً بمن هو أهل للفضل، فيخصه بمزيد من الخير والتكريم.

* ثم أخبر تعالى عن رؤيا رسول الله ﷺ في المنام - وهي رؤيا حق - لأنها جزء من الوحي فقال:

﴿٢٧﴾، ﴿٢٨﴾ ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ اللام موطئة للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد جعل الله رؤيا رسوله صادقة محققة لم يدخلها الشيطان؛ لأنها رؤيا حق، وكان رسول الله قد رأى في منامه أنه دخل مكة هو وأصحابه وطافوا بالبيت، ثم حلق بعضهم وقصر بعضهم، فحدث بها أصحابه ففرحوا واستبشروا، ولما خرج إلى الحديبية مع الصحابة، وصده المشركون عن دخول مكة، ووقع ما وقع من قضية الصلح، وكثر في ذلك الكلام حتى إنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ: ألم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ فقال: «أخبرتكم أنه العام» قالوا: لا، قال: «فإنكم ستأتونه وتطوفون به» قال الله هنا ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك تأخر تأويلها.

﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: لتدخلن -يا محمد- أنت وأصحابك المسجد الحرام بمشيئة الله، وفي هذا تعليم للعباد، فإن الله استثنى فيما يعلم، ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون.

﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: تدخلونها آمنين من العدو، تؤدون مناسك العمرة ثم يحلق بعضكم رأسه، ويقصر بعض.

﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أي: غير خائفين، وليس فيه تكرار، لأن المراد آمنين وقت دخولكم، وحال المكث، وحال الخروج.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ أي: فعلم تعالى ما في الصلح من الحكمة والخير والمصلحة لكم ما لم تعلموه أنتم، يريد ما قدّره تعالى من ظهور الإسلام في تلك المدة، فإنه لما انعقد الصلح وارتفعت الحرب، رغب الناس في الإسلام، فكان رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية في ألف وأربعمائة، وغزا «غزوة الفتح» بعدها بعامين ومعه عشرة آلاف.

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: فجعل قبل ذلك فتحاً عاجلاً لكم وهو «صلح الحديبية»، وسمي فتحاً لما ترتب عليه من الآثار

الجليلة، والعواقب الحميدة، من دخول الناس في الإسلام وعلو شأنه.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: هو -جل وعلا- الذي أرسل محمداً بالهداية التامة الشاملة الكاملة، والدين الحق المستقيم دين الإسلام.

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليعليه على جميع الأديان، ويرفعه على سائر الشرائع السماوية بالحجة والبرهان، ويكون داعياً لإخضاعهم بالسيف والسنان.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ وكفى بالله شاهداً على أن محمداً رسوله.

* ثم أثنى تعالى على أصحاب رسول الله بالثناء العاطر، وشهد لرسوله بصدق الرسالة، وأنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب، فقال:

(٢٩) ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾.

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الرسول المسمَّى محمداً، هو رسول الله حقّاً؛ لا كما يقول المشركون.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ وهذه صفات المؤمنين، أي: وأصحابه الأبرار الأخيار، غلاظ على الكفار متراحمون فيما بينهم، وقد بلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تمسَّ أبدانهم، وكان الواحد منهم إذا رأى أخاه في الدين صافحه وعانقه.

وفي الجمع بين هاتين الخلتين المتضادتين، الشدة والرحمة، إيماء إلى إصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم تصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد، فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى، ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الروية.

﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ وصف لهم بكثرة العمل الصالح، أي: تراهم أيها السامع راكعين ساجدين من كثرة صلاتهم وعبادتهم، التي أجل أركانها الركوع والسجود.

﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ يطلبون بعبادتهم رحمة الله ورضوانه، قال ابن كثير: وصفهم بكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص لله ﷻ والاحتساب عنده بجزيل الثواب، وهو الجنة، المشتملة على فضل الله ورضاه.

قال: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ ولم يقل: (يبتغون أجراً) ففيه اعتراف منهم بالتقصير، وطمع بالفضل الإلهي الذي لا منتهى ولا حد له، والذي هو أعظم من الأجرة التي يستحقونها على عملهم.

وفي الآيات ذكر سبحانه حال المؤمنين مع بعضهم، ثم حال عبادتهم ثم، حال بواطنهم وقلوبهم، رجاء ما عند الله ﷻ، فقال:

﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: قد أثرت العبادة - من كثرتها وحسنها - في وجوههم حتى استنارت، لما استنارت بالصلاة بواطنهم استنارت بالجلال ظواهرهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور.

﴿مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي: هذا وصفهم، كالذي وصفهم الله به، مذكور بالتوراة هكذا.

﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ أي: وأما مثلهم في الإنجيل، فإنهم موصوفون بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعارفهم كزرع أخرج فراخه وفروعه.

﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ أي: فقوّاه حتى صار غليظاً.

﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي: فقام الزرع واستقام على أصوله.

﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي: يعجب هذا الزرع الزرَّاع، بقوته وكثافته وحسن منظره، ليغتاظ بهم الكفار وهذا مثل في غاية البيان، فالزرع محمد ﷺ، والشطء أصحابه، كانوا قليلاً فكثروا، وضعفاء فقووا، فكان النبي ﷺ حين بدأ بالدعوة ضعيفاً، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفاً فيقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ بنانه، وأفراخه، فكان هذا من أصح مثل، وأقوى بيان.

الجُزْءُ السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ — سُورَةُ الحُجُرَاتِ

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ
تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ
فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي
ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ
عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ
أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ
لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ
ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤

٥١٥

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ **حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك النزال، وانتزع الإمام مالك -رحمه الله- بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم، قال: لأنهم يبغضونهم، ومن غاض الصحابة - رضي الله عنهم - فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء -رحمهم الله- على ذلك.**

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ **أي: وعدهم تعالى بالآخرة، بالمغفرة التامة والأجر العظيم، والرزق الكريم في جنات النعيم، وهذه أكبر نعمة وأعظم منه.**

تم تفسير سورة الفتح
والحمد لله

تفسير سورة الحجرات وهي مدنية

*** هذه السورة الكريمة سورة مدنية، وسميت سورة «الحجرات» لأن الله تعالى ذكر فيها حرمة بيوت النبي ﷺ، وهي الحجرات التي كان يسكنها أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، وهي على وجازتها سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق التربية الخالدة وأسس المدنيَّة الفاضلة وفيها الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب، حتى سمَّاها بعض المفسرين «سورة الأخلاق».**

ابتدأت السورة الكريمة بالأدب الرفيع الذي أدَّب الله به المؤمنين، تجاه شريعة الله وأمر رسوله، وهو ألا يُبرموا أمراً، أو يُبدوا رأياً، أو يقضوا حكماً في حضرة الرسول ﷺ، حتى يستشيروه، ويستمسكوا بإرشاداته الحكيمة، قال تعالى:

(١)-(٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ **أي: يا أيها المؤمنون، يا من اتصفتم بالإيمان، وصدقتم بكتاب الله، لا تقدموا أمراً أو فعلاً بين يدي الله ورسوله، وحذف المفعول للتعميم، ليذهب ذهن السامع إلى كل ما يمكن تقديمه من قول أو فعل، كما إذا عرضت مسألة في مجلسه ﷺ لا يسبقونه بالجواب، وإذا حضر الطعام لا يبتدئون بالأكل، وإذا ذهبوا معه إلى مكان لا يمشون أمامه ونحو ذلك، وذكر الله تعظيماً له، إشعاراً بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله.**

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ **أي: واتقوا الله فيما أمركم به، إن الله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم، وأحوالكم، وأفعالكم. وفي ذكر الأسمين الكريمين - بعد النهى عن التقدم بين يدي الله ورسوله والأمر بتقواه، حث على الامتثال وزرع للمهابة في النفوس، والروعة في النفس.**

ثم أرشد تعالى المؤمنين إلى وجوب توقير الرسول وإجلاله واحترامه فقال:

ومن ذلك خفض الصوت إذا تحدثوا مع الرسول ﷺ تعظيماً لقدره الشريف، واحتراماً لمقامة السامي، فإنه ليس كعامة الناس بل هو رسول الله، ومن واجب المؤمنين أن يتأدبوا معه في الخطاب مع التوقير والتعظيم والإجلال، قال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ **هذا**

أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين، أي: إذا كلمتم رسول الله ﷺ فاخفضوا أصواتكم، ولا ترفعوها على صوت النبي.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: ولا تبلغوا حدَّ الجهر عند مخاطبته ﷺ كما يجهر بعضكم في الحديث مع البعض، ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضكم، فتقولوا: -يا محمد-، ولكن قولوا يا نبي الله، ويا رسول الله، تعظيماً لقدره، ومراعاة للأدب. قال المفسرون: نزلت في بعض الأعراب الجفاة الذين كانوا ينادون رسول الله باسمه، ولا يعرفون توقير الرسول الكريم.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: خشية أن تبطل أعمالكم من حيث لا تشعرون ولا تدرون، فإن في رفع الصوت والجهر بالكلام في حضرته ﷺ استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحبط للعمل، وفي هذا تحذير شديد ووعيد عظيم. قال ابن كثير: روي أن ثابت بن قيس كان رفيع الصوت، فلما نزلت الآية، قال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار، حبط عملي، وجلس في أهله حزيناً، فافتقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه، فقالوا له: تفقَّدك رسول الله ﷺ مالك؟ فقال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ حبط عملي أنا من أهل النار، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال النبي ﷺ: «لا بل هو من أهل الجنة» وفي رواية: «أترضى أن تعيش حميداً، وتُقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟» فقال: رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ.

ثم لما ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عند الرسول ﷺ، وحث على ذلك وأرشد إليه، ورغب فيه، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: إن الذين يخفضون أصواتهم في حضرة الرسول ﷺ إجلالاً له، أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى وجعلها أهلاً ومحلاً، وفي هذا دليل على أن الله يمتحن القلوب، بالأمر والنهي والمحن.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لهم في الآخرة صفح عن ذنوبهم، وثواب عظيم في جنات النعيم..

* ثم ذم تعالى الأعراب الجفاة الذين كانوا لا يتأدبون في ندائهم للرسول ﷺ، فقال:

﴿٤﴾،﴿٥﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ أي: يدعونك من وراء الحجرات، وهي منازل أمهات المؤمنين.

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: أكثر هؤلاء غير عقلاء، إذ العقل يقتضي حسن الأدب، ومراعاة العظماء عند خطابهم، سيّما لمن كان بهذه المنزلة العظيمة، قيل إن الذي ناداه «عيينة بن حصن» و«الأقرع بن حابس» وَفَدا على رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا: -يا محمد- اخرج إلينا.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ ولو أن هؤلاء المنادين لم يزعجوا الرسول ﷺ بمناداتهم، وصبروا حتى يخرج إليهم لكان ذلك الصبر خيراً لهم، وأفضل عند الله وعند الناس، لما فيه من مرعاة الأدب في مقام النبوة.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: الغفور لذنوب العباد، الرحيم بالمؤمنين حيث اقتصر على نصحهم وتقريعهم، ولم ينزل العقاب بهم.

* ومن الأدب الخاص، إلى الأدب العام، تنتقل السورة لتقرير دعائم المجتمع الفاضل، فتأمر المؤمنين بعدم السماع للإشاعات، وتأمر بالتثبت من الأنباء والإخبار، لا سيما إن كان الخبر صادراً عن شخص غير عدل، أو شخص متَّهم، فكم من كلمة نقلها فاجر فاسق سبَّبت كارثة من الكوارث، وكم من خبر لم يتثبت منه سامعه جرَّ وبالاً، وأحدث انقساماً، فقال تعالى محذراً:

﴿٦﴾-﴿٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ * وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن
تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)
وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ
إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧)
فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) وَإِن طَائِفَتَانِ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا
عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ
فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
(٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ
عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا
مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ
الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)

٥١٦

اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ أي: إذا أتاكم رجل فاسق - غير موثوق بصدقه وعدالته - بخبر من الأخبار، وخص الفاسق لأنه مظنة الكذب.

وإنما كان الفاسق معرضا خبره للريبة والاختلاق، لأن الفاسق ضعيف الوازع الديني في نفسه، وضعف الوازع يجرئه على الاستخفاف بالمحظور، وبما يخبر به في شهادة أو خبر يترتب عليهما إضرار بالغير أو بالصالح العام.

﴿فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ أي: فتثبتوا من صحة الخبر، لئلا تصيبوا قوماً وأنتم جاهلون حقيقة الأمر.

﴿فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ أي: فتصيروا نادمين أشد الندم على صنيعكم. والندم ضرب من الغم.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: واعلموا -أيها المؤمنون- أن بين أظهركم الرسول المعظم، والنبي المكرم، والمعصوم عن اتباع الهوى فعظموه، ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره.

وفي قوله تعالى: ﴿فِيكُمْ﴾ وتقديمها ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ تتضمن تشريفًا فقد اختصكم الله ﷻ بهذا الشرف، فهو فيكم لا في غيركم، كما أن فيها تكليفًا بما يوجبه هذا الرسول العظيم ﷺ بينهم.

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي: لو يسمع وشاياتكم، ويصغي بسمعه لإرادتكم، ويطيعكم في غالب ما تشيرون عليه من الأمور، لوقعتم في الجهد والهلاك. قال ابن كثير: أي: اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ولو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجكم.

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: ولكنه تعالى بمنه وفضله، نوّر بصائركم، فحبب إلى نفوسكم الإيمان، وحسنه بتوفيقه في قلوبكم، حتى أصبح أغلى عندكم من كل شيء.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أي: وبغّض إلى نفوسكم أنواع الضلال، من الكفر والمعاصي، والخروج عن طاعة الله. قيل المراد بالفسوق: الذنوب الكبار، وبالعصيان: جميع المعاصي، وهذا تدريج لكمال النعمة.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي: أولئك المتصفون بالنعوت الجليلة هم المهتدون، الراشدون في سيرتهم وسلوكهم، والجملة تفيد الحصر، أي: هم الراشدون لا غيرهم.

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: هذا العطاء، تفضل منه تعالى عليكم وإنعام، وهو سبحانه عليم بمن يستحق الهداية، حكيم في خلقه، وصنعه وتدبيره.

* ثم عقب تعالى على ما يترتب على سماع الأنباء المكذوبة من تخاصم وتباغض وتقاتل، وساق قاعدة تشريعية عظيمة، لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك، وحماية للأرواح والأنفس، فقال تعالى:

(٩)، (١٠) ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ

فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ أي: وإن حدث أن فئتين وجماعتين من إخوانكم المؤمنين جنحوا إلى القتال، فأصلحوا بينهما، واسعوا جهدكم للإصلاح والتوفيق بينهما.

﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ فإن بغت إحداهما على الأخرى، وتجاوزت حدَّها بالظلم والطغيان والاستطالة، ولم تقبل الصلح وصمَّمت على البغي.

﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: فقاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله وشرعه، وتقلع عن البغي والعدوان، وتعمل بمقتضى أخوة الإسلام.

﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ أي: فإن رجعت وكفت عن القتال، فأصلحوا بينهما بالعدل، دون حيف على إحدى الفئتين، واعدلوا في جميع أموركم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: يحبُّ العادلين الذين لا يجورون في أحكامهم. والآية نزلت في قتال حدث بين «الأوس» و«الخزرج» في عهده ﷺ، كان فيه ضرب بالسعف والنعال، وهي تدل على أن الباغي مؤمن، وأنه إذا كف عن الحرب تُرك، وأنه يجب تقديم النصح والسعي في المصالحة.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٞ﴾ أي: ليس المؤمنون إلا إخوة، جمعتهم رابطة الإيمان، وهذا عقد عقده الله بين المؤمنين، فلا ينبغي أن تكون بينهم عداوة ولا شحناء، ولا تباغض ولا تقاتل، وفي الآية إشارة إلى أن أخوة الإسلام أقوى من أخوة النسب، بحيث لا تعتبر أخوة النسب إذا خلت عن أخوة الإسلام.

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فأصلحوا بين إخوانكم المؤمنين، ولا تتركوا الفرقة تدبُّ، والبغضاء تعمل عملها.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ واتقوا الله تعالى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، لتنالكم رحمته، وتسعدوا بجنته ومرضاته، وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

ودلت الآية على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

* وحذَّرت الآيات من السخرية والهمز واللمز، ونفَّرت من الغيبة والتجسس، والظن السيء بالمؤمنين، ودعت إلى مكارم الأخلاق، والفضائل الاجتماعية، وحين حذَّرت من الغيبة، جاء النهي في تعبير رائع عجيب، في غاية الإبداع، في صورة رجل يجلس إلى جنب أخ له ميت ينهش منه ويأكل لحمه، ويا له من تنفير عجيب، قال تعالى:

﴿١١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٞ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرٗا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرٗا مِّنْهُنَّۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٞ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرٗا مِّنْهُمْ﴾ أي: يا معشر المؤمنين، يا من اتصفتم بالإيمان، وصدقتم بكتاب الله وبرسوله، لا يهزأ جماعة بجماعة، ولا يسخر أحد من أحد، فقد يكون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر، ورب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره.

﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرٗا مِّنْهُنَّۖ﴾ ولا يسخر نساء من نساء، فعسى أن تكون المحتقر منها خيراً عند الله وأفضل من الساخرة وإفراد النساء بالذكر؛ لأن السخرية منهن أكثر.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ أي: ولا يعب بعضكم بعضاً، ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء، وإنما قال: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾؛ لأن المسلمين كأنهم نفس واحدة. قال بكر بن عبد الله المزني: إذا أردت أن تنظر العيوب جمة فتأمل عيَّاباً، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب.

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ بئس أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن صار مؤمناً، وفي الآية دلالة على أن التنابز فسقٌ، والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح.

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: ومن لم يتب عن اللمز والتنابز، فأولئك هم الظالمون بتعريض أنفسهم للعذاب.

ولهذا ينبغي أن لا يتجرأ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا كان رث الحال أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبيق في محادثته، فلعله أخلص ضميرًا

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ
إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن
يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ
تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ
شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن
قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾
إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ
وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ
عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ
عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ
غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾

٥١٧

وأتقى قلباً ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله، والاستهانة بمن عظمه الله.

*** ولما كان مقتضى الأخوة التراحم والتواصل والتناصر، أمر سبحانه بما يبقي هذه العلائق، فقال تعالى:**

(١٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ **أي: ابتعدوا عن التهمة والتخون، وإساءة الظن بالأهل والناس، وعبّر بالكثير ليحتاط الإنسان في كل ظن ولا يسارع فيه، بل ويتأمل ويتحقق، وفي الحديث عنه ﷺ، أنه قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»** [رواه البخاري].

﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ **أي: إن في بعض الظن إثماً وذنباً، يستحق صاحبه العقوبة عليه.**

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ **أي: لا تبحثوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوا معايبهم، والتجسس قد يكون هو الحركة اللاحقة للظن، وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات والاطلاع على السوءات.**

﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ **ولا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته بما يكرهه. والغيبة الذكر بالعيب في ظهر الغيب، قال ﷺ: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»** [رواه مسلم].

ثم ذكر سبحانه مثلاً منفراً عن الغيبة، فقال:

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾ **تمثيل لشناعة الغيبة وقبحها بما لا مزيد عليه من التقبيح، أي: هل يحب منكم أحد أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت؟ وهذا من أحسن التمثيل، فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه. ولما كان المغتاب يمزق عرض أخيه في غيبته، كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت، فإن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه.**

﴿فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾ **أي: فكما تكرهون الغيبة طبعاً، فاكرهوها شرعاً، فإن عقوبتها أشد من هذا، وقد شبّه تعالى الغيبة بأكل لحم الأخ حال كونه ميتاً، وإذا كان الإنسان يكره لحم الإنسان - فضلاً عن كونه أخاً، وفضلاً عن كونه ميتاً، وجب عليه أن يكره الغيبة بمثل هذه الكراهة أو أشد.**

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ **أي: خافوا الله واحذروا عقابه، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ **أي: إنه تعالى كثير التوبة، عظيم الرحمة، لمن اتقى الله وتاب وأناب، وفيه حث على التوبة، وترغيب بالمسارعة إلى الندم، والاعتراف بالخطأ، لئلّا يقنط الإنسان من رحمة الله.**

*** ثم ذكر سبحانه أن ذكر المعايب والنقائص، والترفع على المسلمين وغيبتهم، ليست محمودة، وإنما المحمود التقوى، قال تعالى:**

(١٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ الخطاب لجميع البشر، أي: نحن بقدرتنا خلقناكم من أصل واحد، وأوجدناكم من أب وأم، فلا تفاخر بالآباء والأجداد، ولا اعتداد بالحسب والنسب، كلكم لآدم، وآدم من تراب.

﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أي: وجعلناكم شعوباً شتى وقبائل متعددة، ليحصل بينكم التعارف والتآلف، لا التناحر والتخالف، وليعرف الإنسان نسبه، فيقال فلان ابن فلان من قبيلة كذا، لا أن نتفاخر بالآباء والأجداد.

﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ أي: إنما يتفاضل الناس بالتقوى لا بالأحساب والأنساب، فمن أراد شرفاً في الدنيا ومنزلة في الآخرة فليتق الله كما قال ﷺ: «من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله» [رواه أحمد].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ عليم بالعباد، مطلع على ظواهرهم وبواطنهم، يعلم التقي والشقي، والصالح والطالح.

* وفي ختام السورة تأتي المناسبة لبيان حقيقة الإيمان وقيمته ومنزلته؛ وذلك في الرد على الأعراب الذين قالوا: آمنا، وظنوا الإيمان كلمة تقال باللسان، وجاؤوا يمنون على الرسول إيمانهم، فتبين الآيات حقيقة الإيمان، وحقيقة الإسلام، وشروط المؤمن الكامل، وهو الذي جمع الإيمان والإخلاص، والجهاد والعمل الصالح.

﴿١٤﴾-﴿١٨﴾ ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ * إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ * قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ * يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ * إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ أي: زعم الأعراب أنهم آمنوا، قل لهم -يا محمد-: إنكم لم تؤمنوا بعد، لأن الإيمان تصديق مع ثقة واطمئنان قلب، ولم يحصل لكم، وإلا لما مننتم على الرسول بالإسلام وترك المقاتلة، ولكن قولوا استسلمنا خوف القتل والسبي، والآية نزلت في نفر من بني أسد، قدموا المدينة في سنة جُدبة، وأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وفلان، يريدون الصدقة ويمنون على الرسول ﷺ، وقد دلت الآية على أن الإيمان مرتبة أعلى من الإسلام، الذي هو الاستسلام والانقياد بالظاهر، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ ولم يدخل الإيمان إلى قلوبكم، ولم تصلوا إلى حقيقته بعد. قال ابن كثير: وهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا منافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك.

وذكر ابن القيم أن من شروط قبول العمل؛ شهود المنة، أي: منة الله على العبد، فلولا فضله ومنته ما كان هذا العمل، وشهود المنة يكون قبل العمل وأثناء العمل وبعده.

﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي: وإن أطعتم الله ورسوله بالإخلاص الصادق، والإيمان الكامل، وعدم المن على الرسول، لا ينقصكم من أجوركم شيئاً.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: إنما المؤمنون الصادقون في دعوى الإيمان، الذين صدقوا الله ورسوله، فأقروا لله بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، عن يقين راسخ، وإيمان كامل.

﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ ثم لم يشكوا ويتزلزلوا في إيمانهم، بل ثبتوا على التصديق واليقين.

﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: وبذلوا أموالهم ومهجهم في سبيل الله، وابتغاء رضوانه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أولئك الذين صدقوا في ادعاء الإيمان، صدق في العقيدة وصدق في القول.

وقد وصف تعالى المؤمنين الكاملين بثلاثة أوصاف: الأول: التصديق الجازم بالله ورسوله، الثاني: عدم الشك والارتياب، الثالث: الجهاد بالمال والنفس، فمن جمع هذه الأوصاف فهو المؤمن الصادق.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: قل لهم - يا محمد-: أتخبرون الله وتعلمونه بما في ضمائركم وقلوبكم؟

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو -جل وعلا- العليم بأحوال جميع العباد، لا تخفى عليه خافية لا في السموات ولا في الأرض.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع العلم، رقيب على كل شيء، لا يعزب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

* وبعد حقيقة الإيمان التي لم يدركوها ولم يبلغوها، يتوجه إلى الرسول ﷺ بالخطاب عن منِّهم عليه بالإسلام، وهذا المن دليل على أن حقيقة الإيمان لم تكن قد استقرت بعد في تلك القلوب، وأن حلاوة الإيمان لم تكن بعد قد تذوقتها تلك الأرواح، قال تعالى:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ أي: يعدون إسلامهم عليك -يا محمد- منَّة، يستوجبون عليها الحمد والثناء.

﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ أي: قل لهم لا تمنوا عليَّ بإسلامكم، فإن نفع ذلك عائد عليكم.

﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: بل لله المنة العظمى عليكم، بالهداية للإيمان والتثبيت عليه، إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان.

ومعنى اسم المنان: هو الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض التي تخفى على الخلق، كالذي في لجج البحار، ومهامه القفار، وما جنَّه الليل أو واراه النهار، يعلم قطرات الأمطار، وحبات الرمال، ومكنونات الصدور، وخبايا الأمور، والذي يعلم غيب السموات والأرض يعلم غيب النفوس، ومكنون الضمائر.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مطلع على أعمال العباد، لا تخفى عليه خافيه، كرر تعالى الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وإحاطته بجميع المخلوقات، ليدل على سعة علمه، وشموله لكل صغيرة وكبيرة، في السر والعلن، والظاهر والباطن.

تم تفسير سورة الحجرات
والحمد لله

تفسير سورة «ق»
وهي مكية

* سورة «ق» سورة مكية جمعت من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي؛ حيث تتركز على إثبات البعث والنشور، حتى ليكاد يكون هو الطابع الخاص للسورة الكريمة، وقد أوردته الآيات بالبرهان الناصع، والحجة الدامغة، وهذه السورة رهيبة، شديدة الوقع على الحس، تهز القلب هزاً، وترج النفس رجاً، وتثير فيها روعة الإعجاب، ورعشة الخوف بما فيها من الترغيب والترهيب، وكان رسول الله ﷺ يخطب بها في العيد والجمعة، فيجعلها هي موضوع خطبته ومادتها.

قال ابن كثير رحمه الله: «والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار كالعيد والجمع لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار، والثواب والعقاب والترغيب والترهيب».

ومن سورة (ق) إلى سورة (الناس) يسمى الفصل، وهي سور القرآن التي كثر الفصل بينها بالبسملة، سمي مفصلاً لكثرة فواصله.

ابتدأت السورة بالقضية الأساسية التي أنكرها كفار قريش، وتعجبوا منها غاية العجب، وهي قضية الحياة بعد الموت، والبعث بعد الفناء، قال تعالى:

(١)-(٥) ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۞ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۞ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۞ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۞ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

﴿قٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وللإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز، منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ قسم حذف جوابه، أي: أقسم بالقرآن الكريم، ذي المجد والشرف على سائر الكتب السماوية لتبعثن بعد الموت.

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: تعجب المشركون من إرسال رسول إليهم من البشر يخوفهم من عذاب الله، ويأمرهم بما ينفعهم، ولم يكتفوا بمجرد الشك والرد، بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة.

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: فقال كفار مكة: هذا شيء في منتهى الغرابة والعجب، والآية إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، فإنهم قد عرفوا صدق الرسول وأمانته ونصحه، فكان الواجب عليهم أن يسارعوا إلى الإيمان، لا أن يعجبوا ويستهزئوا، ثم أخبر تعالى عن وجه تعجبهم، فقال:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أي: إذا متنا واستحالت أجسادنا إلى تراب هل سنحيا، ونرجع كما كنا؟

﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ ذلك رجوع بعيد غاية البعد، مستحيل حصوله، والمعنى أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه. قال الله تعالى ردّاً عليهم:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: قد علمنا ما تنقصه الأرض من أجسادهم، وما تأكله من لحومهم وأشعارهم ودمائهم إذا ماتوا، فلا يضل عنا شي حتى تتعذّر علينا الإعادة.

وفي الآية إشارة إلى أن الأرض لا تأكل كل الأجساد، فالأنبياء عليهم السلام حرم الله على الأرض أكل أجسادهم، كما قال ﷺ: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»، كما يبقى من جميع الأجساد عجب الذنب لا تأكله الأرض، منه يركب الإنسان، ويعاد خلقه.

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ أي: ومع علمنا الواسع، عندنا كتاب حافظ لعددهم وأسمائهم، وما تأكله الأرض منهم، وهو اللوح المحفوظ الذي يحصي تفصيل كل شيء، ثم انتقلوا إلى ما هو أفظع وأشنع من التعجب، وهو التكذيب بالقرآن العظيم.

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: كذبوا بالقرآن حين جاءهم، مع سطوع آياته، ووضوح بيانه.

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: فهم في أمر مختلط مضطرب، فتارة يقولون: عن الرسول: إنه ساحر، وتارة يقولون إنه شاعر، وتارة يقولون إنه كاهن، وهكذا قالوا أيضاً عن القرآن: إنه سحر، أو شعر، أو أساطير الأولين إلى غير ذلك.

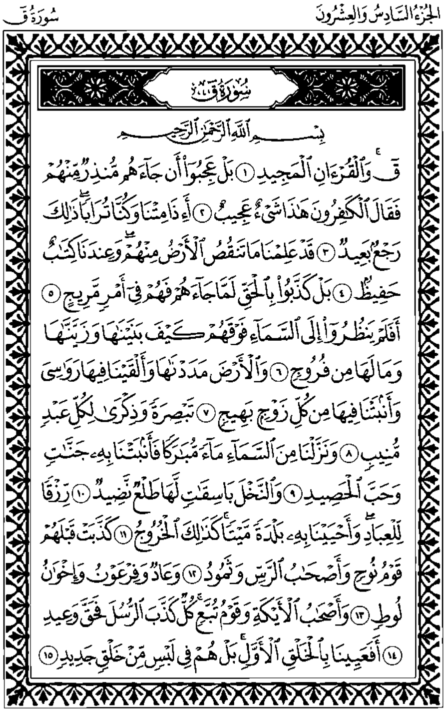
الجُزءُ السَّادِسُ وَالعِشرُونَ سُورَةُ قٓ

سُورَةُ قٓ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ
فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ② أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ
رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ③ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ
حَفِيظٌۢ ④ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ⑤
أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا
وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ⑥ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ
وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۢ بَهِيجٍ ⑦ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ
مُّنِيبٍ ⑧ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ
وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ⑨ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ⑩ رِّزْقًا
لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ⑪ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ
قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ⑫ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ
لُوطٍ ⑬ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ
⑭ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑮

٥١٨

* ثم لفتت السورة أنظار المشركين - المنكرين للبعث - إلى قدرة الله العظيمة، ودلائل الوحدانية الدالة على عظمة رب العالمين المتجلية في صفحات هذا الكون المنظور؛ في السماء والأرض، والماء والنبات، والثمر والطلع، والنخيل والزرع، وكلها براهين قاطعة على قدرة العلي الكبير، قال تعالى:

⑥-⑪ ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۢ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي: أفلم ينظروا نظر تفكر واعتبار، إلى السماء في ارتفاعها وإحكامها، فيعلموا أن القادر على إيجادها قادر على إعادة الإنسان بعد موته؟

﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي: كيف رفعناها بلا عمد، وزيناها بالنجوم، وما لها من شقوق، وفتوق، وصدوع.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: والأرض بسطناها ووسعناها

حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار، وجعلنا فيها جبالاً ثوابت، تمنعها من الاضطراب بأهلها.

﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: وأنبتنا فيها من كل نوع من النبات، حسن المنظر، بهيج، يسر الناظر إليه؛ فإن في النظر إلى هذه الأشياء.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: فعلنا ذلك تبصيراً منا، وتذكيراً على كمال قدرتنا، لكل عبد راجع إلى الله، متفكر في بديع مخلوقاته. وقيد تعالى التبصرة والذكرى للعبد بوصفه ﴿مُّنِيبٍ﴾ وهو الراجع إلى مولاه، لأنه هو المنتفع بالذكرى، وفي قوله بعدها ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أطلق الوصف بغير تقييد، لأن الرزق حاصل لكل أحد، غير أن المنيب يأكل ذاكراً شاكراً للأنعام، وغيره يأكل كما تأكل الأنعام.

ثم يذكر سبحانه إنزال الماء من السماء، وإنبات الشجر، في تذكير بقضية الإحياء والبعث.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ ونزلنا من السحاب ماء كثير المنافع والبركة، وفيه حياة كل شيء.

﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ فأخرجنا بهذا الماء البساتين الناضرة، والأشجار المثمرة، وحبَّ الزرع المحصود، كالحنطة والشعير وسائر الحبوب التي تحصد.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي: وأخرجنا شجر النخيل طوالاً مستويات، لها طلع منضود، منظم بعضه فوق بعض، يريد لكثرة الطلع وتراكمه وكثرة ما فيه من الثمر وخص النخل بالذكر لفضلها وشرفها.

فهي أهم الأشجار عندهم، وثمره أكثر أقواتهم، ولاتباعه بالأوصاف له ولطلعه مما يثير تذكر بديع قوامه وأنيق جماله.

وفي الآية إشارة إلى جمال هيئتها، فضلاً عن حلاوة ثمرتها مما يزيد الناظر بهجة ومتعة.

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: أنبتنا كل ذلك رزقاً للخلق لينتفعوا به.

وأحيينا بذلك الماء أرضاً جدبة، لا ماء فيها ولا زرع، فأنبتنا فيها الكلأ والعشب. امتن سبحانه على عباده بالماء والجنات والحب، والنخل، والطلع، رزقاً يسوقه، ويتولى نبته، ويطلع ثمره للعباد.

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها كذلك نخرجكم أحياء بعد موتكم، وهذه الأرض الميتة كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت، فكما أحيا الله الأرض الميتة كذلك يحيي الله الموتى.

* ثم ذكر تعالى كفار مكة بما حل بمن سبقهم من المكذبين من الأمم السالفة، وما حلَّ بهم من الكوارث وأنواع العذاب، إنذاراً لهم وإعذاراً فقال:

﴿١٢﴾-﴿١٥﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۞ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۞ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۞ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: كذب قبل هؤلاء الكفار، قوم نوح.

﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ أي: وأصحاب البئر وهم بقية من ثمود، رسوا نبيهم فيها، أي: دسُّوه فيها.

﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ ومن جملة من كذب قوم عاد وفرعون، وإخوان لوط، سمَّاهم إخوانه لأنه صاهرهم، وتزوج منهم.

﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أي: وأصحاب الشجر الكثير الملتف، وهم قوم شعيب عليه السلام، نُسبوا إلى الإيكة، لأنهم كانت تحيط بها البساتين والأشجار الكثيرة، الملتف بعضها على بعض.

﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو تُبَّع اليماني ملك كان باليمن، أسلم ودعا قومه إلى الإسلام، فكذبوه.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي: جميع هؤلاء المذكورين كذبوا رسولهم، وإنما جمع الرسل؛ لأن من كذب رسولاً فإنما كذب جميع الرسل.

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: فوجب عليهم وعيدي وعقابي، وحل بهم ما قدره الله عليهم من الخسف، والمسخ، والإهلاك بأنواع العذاب. والآية تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكفرة المجرمين، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصاب من كذب الرسل.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي: أفعجزنا عن ابتداء الخلق حتى نعجز عن إعادتهم بعد الموت؟ وهو توبيخ لمنكري البعث، وجواب لقولهم: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: بل هم في خلط وشبهة وحيرة من البعث والنشور.

* ثم نبه تعالى على سعه علمه، وكمال قدرته. وتحدثت الآيات عن سكرة الموت، ووهلة الحشر، وهول الحساب، وما يلقاه المجرم في ذلك اليوم العصيب من أهوال وشدائد، تنتهي به بإلقائه في الجحيم، قال تعالى:

﴿١٦﴾-﴿٢٢﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ * وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ * لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي: خلقنا جنس الإنسان ونعلم ما يجول في قلبه وخاطره، لا يخفى علينا شيء من خفاياه ونواياه. والوسوسة الصوت الخفي، ووسوسة النفس ما يخطر ببال الإنسان ويحبس في ضميره من حديث النفس.

وفائدة الإخبار بأن الله يعلم ما توسوس به نفس كل إنسان، التنبيه على سعة علم الله تعالى بأحوالهم كلها، فإذا كان يعلم حديث النفس فلا عجب أن يعلمَ ما تنقص الأرض منهم.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ ونحن أقرب إليه من حبل وريده، وهو عرق كبير في العنق متصل بالقلب، والمراد ملائكتنا أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: حين يتلقي الملكان الموكلان بالإنسان، ملك عن يمينه يكتب الحسنات، وملك عن شماله يكتب السيئات، وفي الكلام حذف تقديره: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. قال مجاهد: وكل الله بالإنسان - مع علمه بأحواله - ملكين بالليل، وملكين بالنهار، يحفظان عمله، ويكتبان أثره إلزاماً للحجة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فإذا علم العبد ذلك - مع علمه بإحاطة الله تعالى بعلمه - ازداد رغبة في الحسنات، وانتهاء عن السيئات.

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ أي: ما يتلفظ كلمة من خير أو شر، إلا وعنده ملك يرقب قوله ويكتبه.

﴿عَتِيدٌ﴾ أي: حاضر معه أينما كان، مهيأ لكتابة ما أمر به، فإذا مات ابن آدم طويت صحيفته، وقيل له يوم القيامة: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: وجاءت هذا الغافل المكذب بآيات الله، غمرة الموت وشدته، التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله، بالأمر الحق من أهوال الآخرة حتى يراها المنكر لها عياناً. وإنما قال: جاء بالماضي لتحقق الأمر وقربه.

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ ذلك ما كنت تفر منه وتميل عنه وتهرب منه وتفزع، وفي الحديث عن عائشة أن النبي ﷺ لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات» [رواه البخاري]، ومن سكرة الموت، إلى وهلة الحشر، وهول الحساب.

الجُزْءُ السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ سُورَةُ قٓ

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ
قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ
ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ
يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ
كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ
﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ
وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾
يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ
ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ
﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا
بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

٥١٩

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: ونفخ في القرن نفخة البعث الثانية، ذلك هو اليوم الذي وعد الله الكفار به بالعذاب، وعبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: وجاء كل إنسان براً كان أو فاجراً، ومعه ملكان: أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله. قال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد من أنفسهم وهي الأيدي والأرجل.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة، هذا الكلام توبيخاً، ولوماً وتعنيفاً، لقد كنت مكذباً بهذا تاركاً للعمل له.

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي: فأزلنا عنك الحجاب الذي على قلبك، وسمعك وبصرك في الدنيا.

﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: فبصرك اليوم قوي نافذ، ترى به ما كان محجوباً عنك، لزوال الموانع بالكلية، ينظر ما يزعجه ويروعه من أنواع العذاب والنكال.

* ثم قال سبحانه مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم، أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل.

﴿٢٣﴾-﴿٢٩﴾ ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: وقال الملك الموكل به: هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله. وعتيد: أي: معتمد محضر، بلا زيادة ولا نقصان.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: يقول تعالى للملكين، السائق والشهيد، اقذفا في جهنم كل كافر معاند للحق، لا يؤمن بيوم الحساب.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: مبالغ في المنع، لكل حق واجب عليه في ماله.

﴿مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ ظالم غاشم، شاك في الدين.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: أشرك بالله، ولم يؤمن بوحدانيته.

﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ فألقياه في نار جهنم، وكرر اللفظ ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ للتوكيد.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ قال قرينه متبرئاً منه وهو الشيطان المقيَّض له، ربنا ما أضللته.

﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: ولكنه ضل باختياره، وآثر العمى على الهدى، من غير إكراه أو إجبار، وفي الآية محذوف دل عليه السياق كأن الكافر قال: يا رب إن شيطاني هو الذي أطغاني، فيقول قرينه: ربنا ما أطغيته، بل كان هو نفسه ضالاً معانداً للحق، فأعنته عليه.

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ أي: فيقول الله ﷻ للكافرين وقرنائهم من الشياطين: لا تتخاصموا هنا فما ينفع الخصام ولا الجدال، وقد سبق أن أنذرتكم على ألسنة الرسل بعذابي، وحذرتكم شديد عقابي، فلم تنفعكم الآيات والنذر.

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أي: ما يغير كلامي، ولا يبدل حكمي بعقاب الكفرة المجرمين. قال المفسرون: المراد وعده تعالى بعذاب الكافر وتخليده في النار بقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: ولست ظالماً حتى أعذب أحداً دون استحقاق، وأعاقبه دون جرم.

* وفي هذا الموقف العظيم والمجمع الهائل يقول الله ﷻ:

﴿٣٠﴾-﴿٣٥﴾ ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ * وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي: اذكر

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟
فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن
كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا
مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ
﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ
عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ
وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾

٥٢٠

ذلك اليوم الرهيب، يوم يقول الله تعالى لجهنم هل امتلأت، وذلك من كثرة ما ألقي فيها، وتقول هل هناك من زيادة؟ غضباً لربها، وغيظاً على الكافرين، وفي الحديث: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فتقول: قط، قط، وعزتك وكرمك - أي قد اكتفيت - وينزوي بعضها إلى بعض».

ثم أخبر تعالى عن حال السعداء بعد أن ذكر حال الأشقياء، حيث وعلى الضفة الأخرى من هذا الهول مشهد آخر وديع أليف، رضيّ جميل، إنه مشهد الجنة، قربت من المتقين، حتى تتراءى لهم من قريب، مع الترحيب والتكريم، قال تعالى:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: قربت وأدنيت الجنة من المؤمنين المتقين مكاناً غير بعيد، بحيث تكون بمرأى منهم مبالغة في إكرامهم.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي: يقال للمتقين الذين قُربت لهم الجنة: هذه الجنة وهذا الذي ترونه من النعيم العظيم، هو ما وعده الله لكل عبد أواب، أي: رجاع إلى الله، حافظ لعهده وأمره فلا ينقضه ولا ينكثه، أعده الله ﷻ بمنه وفضله لأوليائه:

﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: خاف الرحمن فأطاعه دون أن يراه لقوة يقينه، وجاء بقلب تائب خاضع خاشع. ﴿أَوَّابٍ﴾ كثير الرجوع إلى ربه كثير التوبة إليه، وهو الذي كلما أذنبت استغفر وتاب، ﴿حَفِيظٍ﴾ أي: حافظ لأوامر الله فيفعلها، ولنواهيه فيحذرها ويجتنبها، ولذنوبه فيتوب منها، ولتوبته فلا ينقضها.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أي: يقال لهم تكريماً وترحيباً، ادخلوا الجنة بسلامة من العذاب والهموم والأكدار، ذلك هو يوم البقاء الذي لا انتهاء له أبداً؛ لأنه لا موت في الجنة ولا فناء.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي: لهم في الجنة من كل ما تشتهيه أنفسهم، وتلذ به أعينهم، وعندنا زيادة على ذلك الإنعام والإكرام، وهو النظر إلى وجه الله الكريم والتمتع بسماع كلامه، والتنعم بقربه.

※ ثم خوف تعالى كفار مكة بما حدث للمكذبين قبلهم، فقال:

﴿٣٦﴾-﴿٤٠﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ※ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ※ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ※ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ※ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: وأهلكنا قبل كفار قريش أمماً كثيرين من الكفار المجرمين.

﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: هم أقوى من كفار قريش قوة، وأعظم منهم فتكاً وبطشاً.

﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: فساروا في البلاد، وطوفوا فيها وجالوا في أقطارها، وبنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا وعمروا، فهل كان لهم من الموت مهرب؟ وهل كان لهم من عذاب الله مخلص؟

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: إن فيما ذكر من إهلاك

القرى الظالمة، لتذكرة وموعظة لمن كان له عقل يتدبر به، أو أصغى إلى الموعظة وهو حاضر القلب ليتذكر ويعتبر.

ثم ذكر سبحانه قدرته العظيمة، ومشيئته النافذة، التي أوجد بها أعظم المخلوقات، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ المعنى: والله خلق السموات السبع في ارتفاعها وعظمتها، والأرض في كثافتها وسعتها، وما بينهما من المخلوقات البديعة في ستة أيام، وما مسَّنا من إعياء وتعب. هذه الآية رد على اليهود حيث زعموا أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة وأنه تعب فاستراح يوم السبت واستلقى على ظهره فوق العرش، فكذبهم الله تعالى.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فاصبر -يا محمد- على ما يقوله اليهود وغيرهم من كفار قريش، من الذم لك، والتكذيب بما جئت به، واشغل نفسك بالطاعة والعبادة، واهجرهم هجراً جميلاً.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ أي: ونزه ربك عما لا يليق به، وصل له واعبده، وقتي الفجر والعصر، وخصهما بالذكر لزيادة فضلهما وشرفهما.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ ومن الليل فصل لله تهجداً وأعقاب الصلوات المفروضة. قال ابن كثير: كانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتان قبل طلوع الشمس، وثنتان قبل الغروب، وكان قيام الليل واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ كل ذلك ليلة الإسراء بخمس صلوات، وبقي منهم صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن صيحة الحق، وهي الصيحة التي يخرج الناس بها من القبور كأنهم جراد منتشر، ويساقون للحساب والجزاء، لا يخفى على الله منهم أحد، وفيه إثبات للبعث والنشور الذي كذب به المشركون، قال تعالى:

﴿٤١﴾-﴿٤٥﴾ ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۞ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۞ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۞ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۞ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ واستمع -يا محمد- النداء والصوت، حين ينادي إسرافيل بالحشر من موضع قريب يصل صوته إلى الكل على السواء، وفيه تهويل وتفظيع لشأن المخبر به، والمنادي هو إسرافيل عليه السلام، يقول: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.

والتعبير بـ ﴿قَرِيبٍ﴾ للإشارة إلى سرعة حضور المنادين، وهو الذي فسرته جملة ﴿قَرِيبٍ﴾ لأن المعروف أن النداء من مكان قريب لا يخفى على السامعين بخلاف النداء من مكان بعيد.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ أي: يوم يسمعون صيحة البعث التي تأتي بالحق، - وهي النفخة الثانية في الصور، ذلك هو يوم الخروج من القبور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: نحيي الخلائق ونميتهم في الدنيا، وإلينا رجوعهم للجزاء في الآخرة، لا إلى غيرنا.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي: يوم تنشق الأرض عن الأموات، فيخرجون من القبور مسرعين إلى موقف الحساب، استجابة لنداء المنادي.

﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: ذلك جمع وبعث سهل هين على الله ﷻ، لا يحتاج إلى عناء.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ نحن أعلم بما يقول كفار قريش، من إنكار البعث والسخرية، والاستهزاء بك وبرسالتك، وفيه تسلية للنبي ﷺ وتهديداً لهم.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ وما أنت -يا محمد- بمسلط عليهم تجبرهم على الإسلام، إنما بعثت مذكراً.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: عظ بهذا القرآن من يخاف وعيدي، ختم السورة الكريمة بالتذكير بالقرآن كما افتتحها بالقسم بالقرآن ليتناسق البدء مع الختام.

تم تفسير سورة «ق»
والحمد لله

تفسير سورة الذاريات
وهي مكية

* سورة الذاريات سورة مكية، والسور المكية يرد فيها الحديث كثيراً عن العقيدة ووسائل تثبيتها في النفوس، ووجوب التفكر في عظيم صنع الله ﷻ، ومن ذلك ما ذكره سبحانه عن جملة من المخلوقات العظيمة التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع، ومنها الرياح التي تذرو الغبار، وتسير المراكب في البحار، وعن السحب التي تحمل مياه الأمطار، وعن السفن الجارية على سطح الماء بقدرته سبحانه، وعن الملائكة الأطهار المكلفين بتدبير شؤون الخلق، وكل ذلك لبيان وتوكيد أن الحشر والمعاد كائن لا محالة وأنه آت.

ولما خُتمت السورة السابقة «ق» بذكر البعث واشتملت على ذكر الجزاء، والجنة والنار، وغير ذلك من أحوال يوم القيامة، افتتح هذه السورة بالإقسام على أن ما توعدون من ذلك لصادق. وأن الدين - وهو الجزاء - لواقع. قال تعالى:

﴿١﴾-﴿١٤﴾ ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ أقسم سبحانه بالرياح التي تذرو التراب فتفرقه، وتحمل الرمال من مكان إلى مكان بلينها، ولطفها، وقوتها، وإزعاجها.

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ وأقسم سبحانه بالسحب التي تحمل أثقال الأمطار، وهي محملة بالماء الذي فيه حياة البشر.

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ وأقسم سبحانه أيضاً، بالسفن التي تجري بالرياح على وجه الماء بيسر وسهولة. أو هي النجوم التي تجري على وجه اليسر والسهولة، فتتزين بها السماوات، ويُهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ وهذا قسم رابع، حيث أقسم سبحانه بالملائكة التي تقسم الأرزاق والأمطار بين العباد وكل ملك مخصص بأمر، فجبريل صاحب الوحي إلى الأنبياء، وميكائيل صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل صاحب الصور، وعزرائيل صاحب قبض الأرواح. وقد أقسم سبحانه بهذه الأشياء لشرفها، ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعه وقدرته، وقد أتت في ترتيب عجيب، والانتقال من السافل إلى العالي، فإنه بدأ بالرياح، وفوقها السحاب، وفوقها النجوم، وفوقها الملائكة، وأقسم سبحانه بهذه الأمور الأربعة لمكان العبرة، والآية، والدلالة الباهرة على ربوبيته ووحدانيته، وعظم قدرته، فكل ذلك يقضي بوجود خالق مصرف لها، مدبر لها، يصرفها كيف يشاء، ويأمرها حيث يشاء.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ هذا جواب القسم، أي: إن الذي توعدونه من الثواب والعقاب، والحشر والنشر، لأمر صدق محقق لا كذب فيه.

﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ أي: وإن الجزاء لكائن لا محالة.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ قسم من الله ﷻ بالسماء ذات الجمال والبهاء، والطرائق المحكمة الحسنة، والبنيان المتقن.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا
فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن
كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا
مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ
﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ
عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ
وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ
أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ
أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ
هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ
﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾
كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾
وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ
لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ
وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ
تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ
دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ
﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾
فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ
﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

٥٢١

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ **جواب القسم، أي: إنكم أيها الكفار المكذبون لفي قول مضطرب من أمر محمد لا يلتئم ولا يجتمع، منكم من يقول: إنه ساحر، ومنكم من يقول إنه شاعر، وآخرون يقولون إنه مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة، الدالة على حيرتهم وشكهم، وأن ما هم عليه باطل.**

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ **أي: يصرف الله عن الإيمان بالقرآن وبمحمد ﷺ، من حُرم الهداية والسعادة.**

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ **دعاء عليهم، أي: لعن وأبعد وطرد الكذابون، الذين كذبوا على الله، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل، ليدحضوا به الحق.**

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ **أي: من صفاتهم أنهم في غفلة، وعمى، وجهاله، لاهون غافلون عن أمر الآخرة.**

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ **أي: يقولون تكذيباً واستهزاءً وشكّاً وعناداً: متى يوم الجزاء والحساب.**

فرد الله ﷻ عليهم بقوله:

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ **أي: ما يكذبون به ويستهزئون كائن لا محالة، يوم يدخلون جهنم ويحرقون بها ويعذبون.**

﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ **أي: تقول لهم خزنة النار استهزاءً؛ ذوقوا جزاءكم الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا.**

*** ولما ذكر سبحانه حال الكفار، بدأ في ذكر حال المؤمنين الأبرار، فقال تعالى:**

﴿١٥﴾-﴿٢٣﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ * وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ **أي: إن الذين اتقوا الله بطاعة أوامره، واجتناب نواهيه، في بساتين؛ فيها عيون جارية سارحة.**

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ **أي: راضين بما أعطاهم ربهم من النعيم والكرامة.**

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ **أي: أن هذا الجزاء، كان لإحسانهم في الأعمال الصالحة، التي منها أنهم:**

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ **أي: أن المحسنين كانوا ينامون قليلاً من الليل، ويصلون أكثره. وفي الآية دلالة على فضل قيام الليل، وأنه من أعظم الإحسان، لأن الله وصف المتقين بأنهم محسنون، ثم ذكر من أول صفاتهم قيام الليل، فدل على أنه من أفضل وأعظم الإحسان.**

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ **وفي آخر الليل قبيل الفجر وبعد صلاتهم؛ يستغفرون الله من تقصيرهم، فهم مع عملهم يعدون أنفسهم مقصرين، ولذلك يكثرون من الاستغفار، وهذا مدح ثان لهم. وأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار.**

قال الرازي: «هذه سيرة الكريم يأتي بأبلغ وجوه الكرم، ويستقله، ويعتذر من التقصير».

والأسحار وقت إجابة الدعاء، وقال أكثر المفسرين في قول يعقوب عليه السلام: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٩٨] **أنه أخرهم إلى وقت السحر لأنه وقت إجابة الدعاء.**

وكان النبي ﷺ إذا سلّم من صلاته استغفر ثلاثًا، وأمره الله سبحانه أن يختم عمره بالاستغفار، وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار، وشرع ﷺ للمتوضئ أن يختم وضوءه بالتوبة، فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار.

* ولما وصفهم سبحانه بالصلاة وكثرة الاستغفار، ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال:

﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ مدح ثالث، أي: وفي أموالهم نصيب معلوم قد أوجبوه على أنفسهم بمقتضى الكرم للسائل المحتاج، وللمتعفف الذي لا يسأل الناس لتعففه.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ وفي الأرض دلائل واضحة وعلامات وعبر ظاهرة وشاهدة على عظمة الله ﷻ وقدرته، مما فيها من النباتات والحيوانات، والجبال والبحار، والمهاد، والقفار والأنهار وغيرها كثير، تدلكم على وحدانية خالقكم، وأنه لا إله لكم يستحق العبادة سواه. ثم خص أمراً آخر وهو التفكر، فقال:

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: وفي خلق أنفسكم آيات وعبر في كل حركة وسكنة، وعرق ومفصل، ولغة ولون، وغيرها تدل على عظيم صنع الله. قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولُيِّنت مفاصلة للعبادة.

﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أفلا تنظرون بعين البصيرة، فتستدلون بذلك على الخالق الرازق المتفرد بالألوهية، وأنه لا شريك له ولا ضد ولا ند.

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ وفي السماء أسباب رزقكم ومعاشكم؛ وهو المطر الذي به حياة البلاد والعباد، كذلك في السماء ما توعدون من الثواب والعقاب.

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة، أن ما توعدهم به من الرزق والبعث والنشور لحق كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه مثل نطقكم.

* ثم انتقلت الآيات الكريمة إلى ذكر إبراهيم عليه السلام وما جرى له مع ضيوفه، تسلية لقلب النبي ﷺ ببيان أن غيره من الأنبياء عليهم السلام كان مثله. واختار تعالى إبراهيم لكونه شيخ المرسلين، وفيها إنذار لقومه بما جرى ومن إنزال الحجارة على المذنبين المضلين، قال تعالى:

﴿٢٤﴾-﴿٣٠﴾ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ * فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ * فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ * قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ الاستفهام للتشويق والتفخيم شأن القصة، أي: هل وصل إلى سمعك -يا محمد- خبر ضيف إبراهيم ونبأهم العجيب، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجاؤوه في صورة أضياف، وقد ذكر سبحانه هذه القصة في سورة هود والحجر.

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ أي: حين دخلوا على إبراهيم، فقالوا: سلام عليك سلاماً.

﴿قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أي: قال عليكم سلام، وقال في نفسه أنتم قوم غرباء لا نعرفكم، فمن أنتم؟ وإنما أنكر أمرهم؛ لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ فمضى ومال إلى أهله في سرعة وخفية عن ضيفه، وهذا من حسن الأدب والضيافة، ويدل هذا على مشروعية الضيافة، وساقها الله ﷻ هنا على وجه المدح والثناء.

﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ أي: فجاءهم بعجل سمين مشوي، واختاره كاملاً سميناً زيادة في إكرامهم، ولم يقل فأمر لهم، بل هو الذي ذهب وجاء به بنفسه، وهذا أبلغ في إكرام الضيف.

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ فأدناه منهم ووضعه بين أيديهم فلم يأكلوا، فقال في تلطف وهو يناديهم: ألا تأكلون هذا الطعام؟ وهذا التلطف في الكلام اللين من حسن الضيافة والإكرام، وقد جمعت الآية آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب.

﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ أي: فلما رآهم لا يأكلون أحسَّ في نفسه خوفاً منهم.

﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ أي: قالوا له: لا تخف إنا رسل ربك، ثم بشروه بولد يولد له من زوجته سارة يكون عالماً عند بلوغه، والمبشر به هو إسحاق عليه السلام.

﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾ أي: فلما سمعت ـ سارة ـ البشارة أتت وأقبلت نحوهم في صيحة وضجة، أرادت أن تستطلع الأمر.

﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ فلطمت وجهها على عادة النساء عند التعجب، وقالت لهم:

* قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ
مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ
لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا
فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ
ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ
مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ
فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ
ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾
وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ
وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا
فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ
فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾
وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

أنا عجوز، عقيم؛ فثم مانعان فكيف ألد؟! وفي الآية حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام ما يتأدى به الحاجة، فإنها قالت «عجوز عقيم»، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة، لم تذكر غيره.

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي: قالت الملائكة لها: الله الذي قدر ذلك وأمضاه فلا عجب من قدرته.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: إنه من رب حكيم في صنعه، عليم بمصالح خلقه. وقدّم في هذه الآية ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ على ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ مع أن الغالب في القرآن العكس، وذلك ـ والله أعلم ـ للتأمل في حكمة الله ﷻ في عدم ولادة سارة في شبابها، ومن ثم ولادتها بعد أن صارت عجوزاً واعتقدت أنها عقيم.

* **وتستمر الآيات في ذكر أحاديث قصة ضيف إبراهيم، وما جرى بعد ذلك من العذاب للكفار، قال تعالى:**

﴿٣١-٣٧﴾ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: ما شأنكم وما تريدون وما الذي أرسلتم إليه أيها الملائكة الكرام؟ لأنه اتضحت له حقيقتهم.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ فأجابوه: إن الله أرسلنا لإهلاك قوم لوط، فإنهم قد أجرموا، وأشركوا بالله وكذبوا رسولهم، وأتوا الفاحشة الشنعاء التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ لنهلكهم بحجارة من طين متحجر مطبوخ بالنار وهو السجيل.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: معلمة من عند الله بعلامة، على كل واحدة منها اسم صاحبها الذي يهلك بها.

﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحد في الفجور.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأخرجنا من كان في قرى أهل لوط من المؤمنين، لئلّا يهلكوا.

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: فما كان فيها بعد البحث والتفتيش غير أهل بيت واحد من المسلمين، وهم بيت لوط عليه السلام إلا امرأته، فإنها من المهلكين، وخصت بالإسلام ظاهراً دون الإيمان.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ وأبقينا في تلك القرى المهلكة بعد إهلاك الظالمين علامة على هلاكهم بجعل عاليها سافلها، ليعلم من بعدهم أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون مصدقون.

﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وهذه العلامة إنما هي للذين يخافون ربهم ويخشون عذابه.

* ولما ذكر تعالى قصة ضيف إبراهيم الذين أُرسلوا لهلاك قوم لوط، أتبعه بذكر قصص الأمم الطاغية، فذكر منهم فرعون وجنوده، وعاداً، وثمود، وقوم نوح؛ تسلية للنبي ﷺ، وتذكيراً للأنام بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله، فقال في قصة موسى:

﴿٣٨-٤٦﴾ ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ * وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ

* ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وجعلنا في قصة موسى أيضاً آية وعبرة عندما أرسلناه إلى فرعون بحجة واضحة ودليل باهر.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: فأعرض عن الإيمان بموسى بمجموعه وأجناده، وقوته وسلطانه، وقال عنه: إنه ساحر أو مجنون، قال ذلك تمويهاً على قومه لا شكّاً في صدق موسى عليه السلام.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: كانت العاقبة أن طرحناه في البحر مع أصحابه وجنوده، وهو آتٍ بما يلام عليهم من الكفر والطغيان.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أي: وجعلنا في قصة عاد لما كذبوا رسولهم هوداً عليه السلام كذلك آية لمن تأمل، حين أرسل الله ﷻ عليهم الريح المدمرة وتسمى الدبور، وهي ريح للإهلاك؛ فهي لا تحمل ماء ولا حياة كما توقعوا، وكذا شبهت بعقم المرأة التي لا تحمل ولا تلد.

﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ ما تترك شيئاً مرت عليه في طريقها مما أراد الله تدميره وإهلاكه إلا جعلته كالهشيم المتفتت البالي، وقد استمرت عليهم ثمانية أيام متتابعة، فكانت تهدم البنيان وتنزع الرجال فترفعهم إلى السماء حتى يرى الواحد منهم كالطير، ثم ترمي به إلى الأرض جثة هامدة. ثم ذكر ﷻ آية ثالثة في ثمود:

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: وفي ذكر ثمود عظة وعبرة، حين أرسل الله إليهم نبيه صالحاً عليه السلام، فكذّبوه، وعاندوه، وبعث الله له الناقة آية مبصرة، فلم يزدهم ذلك إلا عتوّاً ونفوراً، حيث قيل لهم تمتعوا بالدنيا إلى وقت الهلاك بعد عقرهم للناقة، وهو ثلاثة أيام.

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبروا عن امتثال أمر الله، وعصوا رسولهم فعقروا الناقة.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ فأخذتهم الصيحة العظيمة المهلكة ـ صيحة العذاب ـ وهم يشاهدونها، لأنها اتتهم في وضح النهار.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ ينجون به من العذاب، وما قدروا على الهرب والنهوض من شدة الصيحة.

﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ أي: وما كانوا ممن ينتصر لنفسه فيدفع عنها العذاب.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وهي ما فعل الله بقوم نوح، حين كذبوا نوحاً عليه السلام، وفسقوا عن أمر الله، فأرسل الله عليهم السماء والأرض بالماء المنهمر، فأغرقهم الله تعالى وهذه آية رابعة.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل للهلاك، أي: لأنهم كانوا فسقة خارجين عن طاعة الرحمن.

* وبعد هذه القصص للأمم السابقة وما جرى لهم من العذاب، ذكر ﷻ دلائل قدرته ووحدانيته، وعظم خلقه، ووجوب إفراده بالعبادة وحده لا شريك له، فقال تعالى:

﴿٤٧﴾-﴿٥١﴾ ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: وشيدنا السماء وأحكمنا خلقها بقوة وقدرة عظيمة، وإنا لموسعون في خلق السماء وقادرون على ذلك.

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي: مهدناها وبسطناها، ومددنا فيها لتنتفعوا بها، والفرش يوحي باليسر والراحة والعناية، فنعم الباسطون الموسعون لها نحن، وصيغة الجمع للتعظيم.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ومن كل شيء خلقنا صنفين ونوعين مختلفين ذكراً وأنثى، لكي تتذكروا نعمة الله وعظمته فتؤمنوا به.

ولما دعا العباد إلى النظر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه، أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ
(٥٢) أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ
بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ
ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ
أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ (٥٨)
فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ
(٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)

سُورَةُ الطُّورِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ (١) وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَٱلْبَيْتِ
ٱلْمَعْمُورِ (٤) وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ (٥) وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ
عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ (٧) مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ
مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ
(١١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ
جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤)

٥٢٣

الغفلة إلى ذكر الله، فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله وقد زال عنه المرهوب، وحصل له نهاية المراد والمطلوب، قال تعالى:

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: الجؤوا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم، واهرعوا إلى توحيده وطاعته، والفرار عادة يكون مما يخاف شره، والفرار إلى الله يرجى فيه الأمنة والراحة والاطمئنان، فهو لجوء وعودة، وتوبة وأوبة، فرار وهروب من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر، فزع إلى الصلاة، وهذا فرار إلى الله. قال السعدي: وسمى الله الرجوع إليه فراراً، لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواع المحابِّ والأمن.

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ أي: بأني أنذركم عذاب الله، وأخوفكم انتقامه.

﴿مُّبِينٌ﴾ أي: واضح أمري، فقد أيدني الله بالمعجزات والآيات.

﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ولا تشركوا مع الله أحداً من بشر، أو حجر، أو غير ذلك.

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كرر اللفظ للتأكيد والتنبيه إلى خطر الإشراك بالله.

* بعدما ذكر سبحانه وعدد بعض آلائه ونعمه، دعا الخلق إلى عبادته وحده لا شريك له، وذكر الله ﷻ ما جرى في الأقوام السابقة تسلية وتعزية للنبي محمد ﷺ، فقال:

﴿٥٢﴾-﴿٦٠﴾ ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ * فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: كما كذبك قومك -يا محمد-، وقالوا ساحر أو مجنون، كذلك قال المكذبون الأولون لرسلهم، فلا يحزنك قولهم.

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ استفهام للتقريع والتوبيخ، أي: هل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: لم يوصِ بعضهم بعضاً بذلك، بل حملهم الطغيان على التكذيب والعصيان، فلذلك قالوا ما قالوا.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ فأعرض عنهم ولا تبال بهم -يا محمد-، فلا لوم عليك ولا عتاب، لأنك قد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، وبذلت الجهد والنصح والإرشاد.

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ومع إعراضك -يا محمد- عنهم وعدم الالتفات إلى تحذيرهم لا تدع التذكير والموعظة فإن القلوب المؤمنة تنفع وتتأثر بالموعظة الحسنة وفيها إقامة الحجة على المعرضين. وهي آية غليظة على من لا ينتفع بالموعظة، لما يُخشى عليه من النفاق.

ثم ذكر سبحانه الغاية من خلق الجن والإنس، فقال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: وما خلقت الثقلين الإنس والجن إلا لعبادتي، وتوحيدي وليس لشيء آخر. وقد ذكر سبحانه عبادته بعد أن ذكر خلق السموات وما فيها للاستدلال بها على توحيده وعظمته.

وتقديم الجن في الذكر؛ للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن؛ ليعلموا أن الجن عباد الله تعالى.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ هذه الجملة فيها بيان استغنائه سبحانه عن عباده، أي: ولا أريد منهم أن يطعموا خلقي ولا أن يطعموني، فأنا الغني الحميد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ إن الله ﷻ هو الرزاق المتكفل بأرزاق العباد وحاجاتهم، أُتي باسم الجلالة الظاهر للتفخيم والتعظيم.

﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ﴾ ذو القوة والقدرة الباهرة.

﴿ٱلۡمَتِينُ﴾ أي: شديد القوة، لا يطرأ عليه عجز ولا ضعف.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾ فإن لهؤلاء الكفار الذين كذبوا الرسول ﷺ نصيباً من العذاب، مثل نصيب أسلافهم الذين أُهلكوا، كقوم نوح، وعاد، وثمود.

﴿فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ فلا يتعجلوا عذابي فإنه واقع لا محالة إن عاجلاً أو آجلاً.

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي: هلاك ودمار، وشدة عذاب لهؤلاء الكفار في يوم القيامة الذي وعدهم الله به.

تم تفسير سورة الذاريات

والحمد لله

تفسير سورة الطور
وهي مكية

* سورة الطور سورة مكية، وسميت بالطور لأن الله تعالى بدأ السورة الكريمة بالقسم بجبل الطور الذي كلم الله تعالى عليه موسى ﵇، وقد اقسم سبحانه بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له.

وفي الحديث عن جبير بن مطعم ﵁ قال: «قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ فلما قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ فكأنما صدع قلبي، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب، فلما انتهى إلى هذه الآية: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ كاد قلبي أن يطير» [رواه البخاري].

قال تعالى:

﴿١﴾-﴿١٦﴾ ﴿وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ * فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ * وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ * وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ * وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ * يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا * وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا * فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ * يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ* أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ * ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ أقسم تعالى بجبل الطور الذي كلم الله عليه موسى، وأقسم بالكتاب الذي أنزله على محمد ﷺ، وهو القرآن العظيم المكتوب.

﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ أي: المكتوب في أديم من الجلد الرقيق، مبسوط غير مطوي وغير مختوم، لا تخفى حاله على كل عاقل بصير.

﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾ أي: وأقسم بالبيت المعمور الذي فوق السماء السابعة، تطوف به الملائكة الأبرار، وهو لأهل السماء كالكعبة المشرفة لأهل الأرض.

﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ أي: والسماء العالية المرتفعة، الواقفة بقدرة الله بلا عمد.

﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ والبحر المسجور الموقد ناراً يوم القيامة.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ هذا جواب القسم، أي: إن عذاب الله لنازل بالكافرين لا محالة. وكان عمر ﵁ إذا قرأ هذه الآية يمرض حتى يُعاد.

﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ أي: ليس دافع يدفعه، ولا مانع يمنعه عنهم. ثم ذكر الله وصف ذلك اليوم، الذي يقع فيه العذاب، فقال:

﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ أي: تتحرك السماء، وتضطرب اضطراباً شديداً من هول ذلك اليوم.

﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ أي: تُنسف نسفاً عن وجه الأرض، وتزول عن أماكنها فتكون هباءً منثوراً، وتسير كسير السحاب، والحكمة والله أعلم من مور السماء وسير الجبال؛ الإنذار والإعلام بأن لا رجوع ولا عود إلى الدنيا.

﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: هلاك دوماً، وشدة عذاب للمكذبين في ذلك اليوم.

أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟
أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ
وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم
بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا
بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا
كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾
يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ
غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ
﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا
مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ
رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ
ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ الذين هم في الدنيا يخوضون في الباطل، غافلون ساهون عما يراد بهم.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي: يوم يدفعون إلى نار جهنم دفعاً بشدة وعنف، ويقال لهم توبيخاً ولوماً.

﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: هذه نار جهنم التي تهزؤون وتكذبون بها في الدنيا.

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: وتقول لهم الزبانية تقريعاً وتوبيخاً: هل هذا الذي ترونه بأعينكم من العذاب سحرٌ، أم أنتم اليوم عميٌ كما كنتم في الدنيا عمياً عن الخير والإيمان.

﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾ أي: ادخلوا النار وقاسوا شدتها، فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا، وهو توبيخ آخر.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يتساوى عليكم الصبر والجزع؛ لأنكم مخلدون في جهنم أبداً، إنما تنالون هذا العذاب؛ جزاء أعمالكم القبيحة من الكفر والتكذيب.

* وعلى طريقة وعادة آي القرآن الكريم في الجمع بين الترهيب والترغيب، وبعد أن ذكر في الآيات حال الكفرة الأشقياء، تذكر الآيات حال المؤمنين السعداء أرباب العلوم النافعة والأعمال الصالحة، والاعتقادات الصحيحة، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء، قال تعالى:

﴿١٧﴾-﴿٢٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ إن الذين اتقوا ربهم في الدنيا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هم في الآخرة في بساتين عظيمة، ونعيم مقيم خالد، شامل لنعيم القلب والروح والبدن.

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: متنعمين ومتلذذين بما أعطاهم ربهم من الخير والكرامة، وأصناف الملاذ من مآكل ومشارب، وملابس ومراكب، أو غير ذلك من ملاذ الجنة. جمع سبحانه لهم بين النعيمين، نعيم القلب بالتفكه، ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح، وسلموا من عذابه وعقابه فأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقاً؛ لأنهم تركوا ما يكره وأتوا ما يحب.

﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: وقد نجاهم ربهم مما يكرهون، وهو عذاب النار وصرف عنهم أهوالها، وتلك نعمة مستقلة بذاتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة التي فيها من السرور؛ ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم: كلوا واشربوا، أكلاً وشرباً هنيئاً لا تنغيص فيه ولا نكد، بسبب ما قدمتم من صالح الأعمال. ثم أخبر سبحانه عن حالهم عند أكلهم وشربهم، فقال:

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ الاتكاء: هو الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار. والسرر: هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية. ووصف سبحانه السرر بأنها مصفوفة ليدل ذلك على كثرتها، وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم.

﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: وجعلنا لهم زوجات حسان من الحور العين، وهن نساء بيض واسعات العيون ـ من الحور ـ وهو شدة البياض. والبياض مع سعة العين نهاية الحسن والجمال.

* ثم ذكر سبحانه توالي نعمه وتتابع آلائه وفضله، ولطفه بخلقه وإحسانه، فإنه لما فرغ من ذكر أهل الجنة على العموم، ذكر حال طائفة منهم على الخصوص، فقال سبحانه:

﴿٢١-٢٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ أي: كانوا مؤمنين وشاركهم أولادهم في الإيمان.

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ألحقنا الأبناء بالآباء لتقرَّ بهم أعينهم وإن لم يبلغوا أعمالهم، فيجمع سبحانه لأهل الجنة أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم، كما كان يحب أن يجتمعوا في الدنيا، وهذا من كرمه وجوده وفضله، وإحسانه وإنعامه. وهذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء.

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ وما نقصنا الآباء من ثواب عملهم شيئاً، فهو سبحانه يلحق المقصر بالمحسن، ولا ينقص المحسن من أجره شيئاً.

ولما أخبر سبحانه ـ عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك، أخبر عن مقام العدل وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد، فقال:

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ كل إنسان مرتهن بعمله، لا يُحمل عليه ذنب غيره، سواء كان أباً أو ابناً.

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: وزدنا أهل الجنة ـ فوق ما لهم من النعيم ـ فواكه ولحوماً من أنواع شتى مما يُستطاب ويشتهى.

وفي تقديم الفاكهة على اللحم يدل على أنها تؤكل قبل اللحم، وأن ذلك أنفع للجسم، بخلاف ما عليه كثير من الناس.

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: ومن النعيم أنهم يتعاطون في الجنة كأساً من الخمر يتجاذبونها تجاذب ملاعبة وملاطفة، كما يفعل ذلك الندامى في الدنيا لشدة سرورهم، لا يقع بينهم بسبب شربها هذيان حتى يتكلموا بساقط الكلام، ولا يلحقهم إثم كما يلحق شارب الخمر في الدنيا.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ إخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة، أي: ويطوف عليهم للخدمة غلمان شباب مماليك خصهم تعالى لخدمتهم، كأنهم في الحسن، والبياض، والصفاء اللؤلؤ المصون في الصدف.

وفي هذه الإيناس والسعادة والحبور، تذكر الآيات مشهداً من مشاهد أهل الجنة، وما هم فيه من النعيم والمحادثة، والملاطفة والمؤانسة، قال تعالى:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: أقبل أهل الجنة يتحادثون، يسأل بعضهم بعضاً عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، تلذذاً بالحديث واعترافاً بالنعمة.

﴿قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: قال المسؤلون: إنا كنا في دار الدنيا خائفين من ربنا، مشفقين من عذابه وعقابه.

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ فأكرمنا الله بالمغفرة والجنة، وأجارنا مما نخاف، وحمانا من عذاب جهنم النافذة في المسام نفوذ الريح الحارة الشديدة، وهي تسمى السموم.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ قال أهل الجنة: إنا كنا في الدنيا نعبد الله ونتضرع إليه أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، فاستجاب لنا فأعطانا سؤلنا، فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة، والمعنى: إنا كنا من قبل نخلص له العبادة. وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم، لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره، فإن الله سبحانه يسأله من في السموات ومن في الأرض، والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة، لا بمجرد السؤال والطلب.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ إنه تعالى هو المحسن، المتفضل على عباده بالرحمة والغفران، فمن بره بنا ورحمته إيانا، أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

* ولما ذكرت الآيات بعضاً من أحوال المعذبين والناجين، أمر تعالى

أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٣٢ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ
بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ
٣٤ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ
أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۜيۡطِرُونَ ٣٧ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ
مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٣٨ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ٣٩
أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ
فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ٤١ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ٤٢
أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٣ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ٤٤ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ
يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ٤٥ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا
وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٧ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ
بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ٤٩

سُورَةُ النَّجۡمِ

رسوله بالتذكير، إنذاراً للكافرين، وتبشيراً للمؤمنين، قال تعالى:

(٢٩)-(٣٤) ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ * أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ * قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ * أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ * أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ * فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ﴾ **فذكر -يا محمد- بالقرآن قومك وعظهم به، فما أنت بإنعام الله عليك بالنبوة وإكرامه لك بالرسالة.**

﴿بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ **أي: لست كاهناً تخبر بالأمور الغيبية من غير وحي، ولا مجنوناً فاقد العقل كما زعم المشركون، إنما تنطق بالوحي.**

ثم أنكر عليهم مزاعمهم الباطلة في شأن الرسول، فقال:

﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ **أي: بل أيقول المشركون هو شاعر يقول الشعر، ننتظر به الموت وحوادث الدهر وصروفه حتى يهلك فنستريح منه.**

﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ **قل لهم -يا محمد- جواباً لكلامهم: انتظروا بي الموت، فإني منتظر كما تنتظرون هلاكي، وهو تهكم بهم مع التهديد والوعيد.**

﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ﴾ **أم تأمرهم عقولهم بهذا الكذب والبهتان، وفي هذا تهكم لاذع، وقد أزرى الله بعقولهم حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل.**

﴿أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ **أي: بل هم قوم مجاوزون الحد في الكفر والطغيان، والمكابرة والعناد.**

﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ **أي: أم يقولون إن محمداً اختلق القرآن وقاله، وافتراه من عنده؟ ليس الأمر كما زعموا بل لا يصدقون بالقرآن استكباراً وعناداً. ثم ألزمهم تعالى الحجة، فقال:**

﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ **فليأتوا بكلام مماثل للقرآن في نظمه وحسنه وبيانه، إن كانوا صادقين في قولهم أن محمداً افتراه، وهو تعجيز لهم مع التوبيخ.**

*** ثم تتابعت الآيات لإقامة الحجة على المعاندين المكذبين بالرسول ﷺ، فقال سبحانه لإثبات الربوبية، وتوحيد الألوهية:**

(٣٥)-(٤٣) ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ * أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ * أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۜيۡطِرُونَ * أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ * أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ * أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ * أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ * أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ * أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾ **أي: هل خُلق هؤلاء المشركون، وأوجدوا من غير رب ولا خالق؟**

﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ **أي: أم هم الخالقون الموجدون لأنفسهم، حتى تجرؤا فأنكروا وجود الله ﷻ؟ وكلا الأمرين باطل ومستحيل. وبهذا يتعين أن الله سبحانه هو الذي خلقهم، وهو وحده الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له.**

﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ **أم هم خلقوا السموات والأرض، وإنما خص السموات والأرض بالذكر من بين سائر المخلوقات لعظمها**

وشرفها، وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له.

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ بل لا يصدقون، ولا يؤمنون بوحدانية الله وقدرته على البعث، ولذلك ينكرون الخالق.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي: أعندهم خزائن رزق الله ورحمته حتى يعطوا النبوة من شاؤوا ويمنعوها عمن شاؤوا؟ أم هم الغالبون القاهرون حتى يتصرفوا في الخلق كما يشاؤون؟

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أم لهم مرقى ومصعد إلى السماء يستمعون فيه كلام الملائكة والوحي، فليأت من يزعم ذلك بحجة بينه واضحة على صدق استماعه، كما أتى محمد بالبرهان القاطع.

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ أي: كيف تجعلون لله البنات ـ مع كراهتكم لهن ـ وتجعلون لأنفسكم البنين؟ وهذا تسفيه لأحلامهم وتوبيخ وتقريع لهم.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي: هل تسألهم -يا محمد- أجراً على تبليغ الرسالة وتعليم أحكام الدين، فهم بسبب ذلك الأجر والغرم الثقيل الذي أوجبته عليهم مجهدون متعبون، فلذلك يزهدون في اتباعك؟

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: أعندهم علم الغيب حتى يعلموا أن ما يخبرهم به الرسول ﷺ من أمور الآخرة والحشر والنشر باطل، فلذلك يكتبون هذه المعلومات عن معرفة ويقين؟

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ أي: أيريد هؤلاء المجرمون بقدحهم فيك وفيما جئتهم به أن يتآمروا عليك -يا محمد-، فالذين جحدوا رسالة محمد، هم المجزيون بكبرهم، لأن ضرر ذلك عائد عليهم، وبالراجع على أنفسهم.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: ألهم إله خالق رازق غير الله تعالى حتى يلجؤوا إليه وقت الضيق والشدة، وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزه وتقدس الله عما يشركون به من الأوثان والأصنام.

* ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس:

﴿٤٤﴾-﴿٤٩﴾ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ * فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أي: لو عذبناهم بسقوط قطع من السماء نزلت عليهم لم ينتهوا ولم يرجعوا، ولقالوا عناداً واستهزاءً: إنه سحاب مركوم، أي: إنه سحاب متراكم بعضه فوق بعض قد سقط علينا.

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي: اتركهم -يا محمد- يتمادون في غيهم وضلالهم، حتى يلاقوا ذلك اليوم الرهيب ـ يوم القيامة ـ الذي يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم ويسلب ألبابهم.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: يوم لا ينفع كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا، ولا يدفع عنهم شيئاً من العذاب، ولا هم يُمنعون من عذاب الله في الاخرة.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ وإن للذين كفروا عذاباً شديداً في الدنيا قبل عذاب الآخرة، وهو إما عذاب القبر، أو الجوع والقحط.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن العذاب نازل بهم.

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: اصبر -يا محمد- على قضاء ربك وحكمه، فيما حملك به من أعباء الرسالة وما يلحقك من أذى قومك، فإنك بحفظنا ورعايتنا، نحرسك ونرعاك، فلا تبال بهم، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ ومؤانسة له على الشدائد التي يلاقيها في سبيل الدعوة إلى الله، ومع هذا الإيناس والإعزاز للنبي ﷺ فإن الله ﷻ يأمره بذكره في كل حين.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ونزه ربك عما لا يليق به من صفات النقص، حين تقوم من منامك ومن كل مجلس.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ ومن الليل فاذكره واعبده بالتلاوة، والصلاة والناس نيام.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ
ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥
ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨
فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠
مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ
نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥
إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ
مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ
ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ
ضِيزَىٰٓ ٢٢ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ
وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣ أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ٢٤ فَلِلَّهِ
ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ٢٥ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي
شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦

﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: وصل له في آخر الليل، حين تدبر وتغيب النجوم بضوء الصبح.

تم تفسير سورة الطور
والحمد لله

تفسير سورة النجم
وهي مكية

*** سورة النجم سورة مكية، محور آياتها في تأصيل العقيدة والإيمان بالبعث والنشور، وذكر الله ﷻ فيها المعجزة العظيمة للنبي ﷺ، معجزة الإسراء والمعراج، قال تعالى:**

(١)-(٤) ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ * إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾.

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ **أقسم الله ﷻ بالنجم ووقت سقوطه من علو، والخالق سبحانه يُقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا يجوز له أن يُقسم إلا بالخالق.**

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ **جواب القسم، أي: ما ضل - محمد - عن طريق الهداية، ولا حاد عن طريق الاستقامة، وقال: ﴿صَاحِبُكُمۡ﴾ لينبههم على ما يعرفونه فيه من الصدق والهداية، وأنه لا يخفى عليهم أمره.**

﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ **أي: وما اعتقد باطلاً قط، بل هو في غاية الهدى والرشد، والخطاب لقريش.**

قال ابن تيمية: فوصفه بأنه ليس بضال وهو الجاهل، ولا غاوٍ وهو الظالم، فإن صلاح العبد في أن يعلم الحق ويعمل به، فمن لم يعلم الحق فهو ضال عنه، ومن علمه فخالفه واتبع هواه فهو غاوٍ، ومن علمه وعمل به كان من أولي الأيدي عملاً، ومن أولي الأبصار علمًا.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ **أي: وما يتكلم ﷺ عن هوى نفسي، ورأي شخصي.**

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ **أي: لا يتكلم إلا عن وحي من الله ﷻ، وقوله: ﴿يُوحَىٰ﴾ صفة الوحي تفيد الاستمرار التجددي.**

*** ثم ذكر سبحانه تلقي الوحي من جبريل وبعض صفاته، قال تعالى:**

(٥)-(١٨) ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ * فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ * أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ * عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ * إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ **أي: علم محمداً القرآن، ملك شديد قواه وهو جبريل الأمين.**

﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ **أي: ذو حصافة في العقل، وقوة في الجسم.**

﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ **يعني جبريل ﷺ.**

﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ **وهو بأفق السماء حيث تطلع الشمس جهة المشرق.**

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ **ثم اقترب جبريل من محمد وزاد في القرب منه لإيصال الوحي إليه، فكان في قربه منه على مقدار قوسين أو أقل.**

﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ **فأوحى الله بواسطة جبريل إلى عبدالله ورسوله محمد ﷺ ما أوحى إليه من أوامر الله ﷻ، وفي قوله: ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾ أبهمه لعظمه، فإن الإبهام قد يقع للتعظيم.**

﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ **ما كذب قلب - محمد - ما رآه ببصره من صورة جبريل الحقيقية.**

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ **أفتجادلونه وتكذبونه يا معشر المشركين على ما رأى ليلة الإسراء والمعراج.**

﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ **أي: والله لقد رأى الرسول ﷺ جبريل مرة أخرى، عند سدرة المنتهى وهي - شجرة نَبْق - في السماء السابعة، سميت سدرة المنتهى، لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله من الوحي وغيره.**

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ أي: عند سدرة المنتهى الجنة التي تأوي إليها الملائكة وأرواح الشهداء والمتقين.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ أي: رآه وقت ما يغشى السدرة ما يغشى من العجائب. ثم وصف أدب النبي ﷺ في ذلك المقام مع ما يصاحب ذلك من ثبات الجأش وسكون القلب وطمأنينته، وهذا غاية الكمال.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: ما مال بصر النبي ﷺ في ذلك المقام يميناً ولا شمالاً، وما جاوز البصر الحد الذي رأى، وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة، فإنه مافعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أُعطي. وذلك من كمال أدب النبي ﷺ وحيائه.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أي: ولقد رأى ﷺ ليلة المعراج عجائب ملكوت الله، رأى سدرة المنتهى، والبيت المعمور، والجنة والنار، ورأى جبريل، وغير ذلك من الآيات العظام.

* ولما زكىّ تعالى ما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق، وأمر بعبادته وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، فقال موبخاً لهم ومقرعاً:

(١٩)-(٢٦) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ * إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ * أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ * فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي: أخبرونا يا معشر الكفار عن هذه الآلهة التي تعبدونها. واللات، والعزى، ومناة، أصنام تعبد في الجاهلية. والأخرى: هي صفة ذم، أي: المتأخرة الوضيعة المقدار وهي مناة.

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ توبيخ وتقريع، أي: ألكم يا معشر المشركين النوع المحبوب من الأولاد وهم الذكور، وله تعالى النوع المذموم بزعمكم وهو الأنثى؟

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ تلك القسمة قسمة جائرة ظالمة، حيث جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم، ولو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً.

ثم قال تعالى منكراً عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: ما هذه الأوثان إلا أسماء مجردة لا معنى تحتها، لأنها لا تضر ولا تنفع، سميتموها آلهة أنتم وآباؤكم بمقتضى أهوائكم الباطلة، وهي مجرد تسميات ألقيت على جمادات.

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي: ما يتبعون في عبادتها إلا الظنون والأوهام، وما تهواه أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم.

قال ابن تيمية: كل من خالف الرسول ﷺ، فلابد أن يتبع الظن وما تهوى الأنفس.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: والحال أنه قد جاءهم من ربهم البيان الواضح الناصع، والبرهان القاطع على أن الأصنام ليست بآلهة.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي: ليس للإنسان كل ما يشتهي، حتى يطمع في شفاعة الأصنام.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ أي: فالملك كله لله، يُعطي من يشاء ويمنع من يشاء؛ لأنه مالك الدنيا والآخرة، وليس الأمر كما يشتهي ويتمنى الإنسان، بل هو تعالى يُعطي من اتبع هداه وترك هواه.

وبدأ بالآخرة؛ لأن ملك الله في الآخرة يظهر أكثر مما في الدنيا. فالدنيا فيها ملوك ورؤساء وفيها زعماء يرى العامة أن لهما تدبيراً، لكن الآخرة لا يوجد فيها هذا.

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: وكثير من الملائكة الأبرار الأطهار المنبثين في السموات.

﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: إن الملائكة مع علو منزلتهم ورفعة شأنهم لا تنفع شفاعتهم أحداً إلا بإذن الله، فكيف تشفع الأصنام مع حقارتها.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ إلا من بعد أن يأذن تعالى في الشفاعة لمن يشاء من أهل التوحيد

الجزء السابع والعشرون — سورة النجم

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾
وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ
ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴿٢٨﴾ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ
ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن
سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ
بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ
إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ
وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ
بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ
﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ
مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ
﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ
﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾
وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾

٥٢٧

والإيمان ويرضى عنه، وإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون شفاعة الأصنام والأنداد عند الله تعالى.

*** ثم قال سبحانه منكراً على المشركين في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وجعلهم لها أنها بنات الله، ـ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ـ:**

﴿٢٧﴾-﴿٣٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا * فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا * ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ **إن الذين لا يصدقون بالبعث والحساب، ليزعمون أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله.**

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ﴾ **أي: لا علم لهم بما يقولون أصلاً؛ لأنهم لم يشاهدوا خلق الملائكة، ولا جاءهم عن الله حجة أو برهان.**

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ **أي: ما يتبعون في هذه الأقوال الباطلة إلا الظنون والأوهام.**

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ **وإن الظن لا يجدي شيئاً، ولا يقوم أبداً مقام الحق.**

﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ **فأعرض -يا محمد- عن هؤلاء المشركين الذين استنكفوا عن الإيمان والقرآن، وليس لهم همٌّ إلا الدنيا، وما فيها من النعيم الزائل والمتعة الفانية.**

﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ **أي: ذلك نهاية علمهم، وغاية إدراكهم أن آثروا الدنيا على الآخرة.**

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ **أي: هو عالم بالفريقين: الضالين والمهتدين ويجازيهم بأعمالهم، وفي هذا إنذار شديد للعصاة المعرضين عن العمل بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، المؤثرين لهوى النفس وحظوظ الدنيا على الآخرة.**

*** ثم أخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الغني عما سواه، الحاكم في خلقه بالعدل، وخلق الخلق بالحق، قال تعالى:**

﴿٣١﴾، ﴿٣٢﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى * ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ **أي: له كل ما في الكون خلقاً وملكاً وتصرفاً، ليس لأحدٍ من ذلك شيء أصلاً.**

﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ **أي: ليجازي المسيء بإساءته، وليجازي المحسن بالجنة، جزاء إحسانه. ثم ذكر سبحانه صفات المتقين المحسنين، فقال تعالى:**

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ **أي: يبتعدون عن كبائر الذنوب، كالشرك والقتل، وأكل مال اليتيم، ويبتعدون عن الفواحش، جمع فاحشة كالزنى وغيره.**

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ **إلا ما قلَّ وصغر من الذنوب التي لا يصر عليها صاحبها، ولا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله.**

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ **أي: هو تعالى غفار الذنوب، ستار العيوب.**

﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ **هو ﷻ أعلم بأحوالكم**

منكم قبل أن يخلقكم، ومن حين أن خلق أباكم آدم من التراب.

﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي: ومن حين أن كنتم مستترين في أرحام أمهاتكم، فهو تعالى يعلم التقي والشقي، والمؤمن والكافر، علم ماذا تفعلون، وإلى ماذا تصيرون.

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ فلا تمدحوها ولا تزكوها على سبيل الإعجاب، ولا تشهدوا لها بالكمال والتقى، ولا تمنوا بها.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أي: هو سبحانه العالم بمن أخلص العمل، وأتقى ربه في السر والعلن.

* ولما ذكر سبحانه في الآيات السابقة سفاهات المشركين وضلالاتهم في عبادتهم للأصنام، وميز بين المؤمنين والمجرمين، ذكر هنا نوعاً خاصاً من الإجرام، فقال سبحانه:

٣٣-٤١ ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ * أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ أي: أخبرني -يا محمد- عن هذا الفاجر الأثيم الذي أعرض عن الإيمان واتباع الهوى.

﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾ وأعطى لصاحبه الذي عيَّره قليلاً من المال المشروط ثم بخل بالباقي، قيل نزلت في الوليد بن المغيرة.

﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والمعنى: أعند هذا المكدي علم بالأمور الغيبية حتى يعلم أن صاحبه يتحمل العذاب.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ أي: ألم يُخبر هذا المدعي بما في التوراة المنزلة على موسى.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ أي: وبما في صحف إبراهيم الذي تمَّم ما أُمر به من طاعة الله وتبليغ رسالته.

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: أن لا تحمل نفس ذنب غيرها، ولا يؤاخذ أحدٌ بجريره غيره.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: وأنه ليس للإنسان إلا عمله وسعيه، وأن عمله سيعرض عليه يوم القيامة ويراه في ميزانه.

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ ثم يُجزى بعلمه الجزاء الأتم الأكمل، وهو وعيدٌ للكافر ووعد للمؤمن.

* ثم عادت الآيات الكريمات إلى ذكر قدرة الله ﷻ في الأنفس، وفي الأمم السابقة، تحذيراً وإنذاراً، قال تعالى:

٤٢-٥٥ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ أي: إليه ﷻ المرجع والمآب والمصير، فيعاقب ويثيب، وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، والفرح والحزن، والسرور والغم، فأضحك في الدنيا من أضحك، وأبكى من أبكى، أضحك أهل الجنة، وأبكى أهل النار.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي: خلق الموت والحياة فهو ﷻ القادر على الإماتة والإحياء لا غيره، ولهذا كرر الإسناد ﴿هُوَ﴾، لبيان أن هذا من خصائص الله.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ أي: أوجد الصنفين الذكر والأنثى من أولاد آدم، ومن كل حيوان فهو سبحانه المتفرد بخلقها.

﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أي: خلق الذكر والأنثى من نطفة إذا تدفقت من صلب الرجل، وصُبت في رحم المرأة.

وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ
﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ
هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ
أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ
﴿٥٢﴾ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ
﴿٥٧﴾ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ
تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ
﴿٦١﴾ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩ ﴿٦٢﴾

سُورَةُ القَمَرِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ
سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣﴾
وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ
ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴿٦﴾

٥٢٨

﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ **وأن عليه ﷻ إعادة خلق الناس للحساب والجزاء، وإحياؤهم بعد موتهم، ولما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار. وبولغ فيها بقوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ﴾ كأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه.**

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ **أغنى من شاء من خلقه بالمال، وملكه لهم وأرضاهم به، وأفقر من شاء.**

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ **أي: هو رب الكوكب المضيء المسمَّى بالشعرى، وخصه الله بالذكر وإن كان رب كل شيء؛ لأن هذا النجم كانوا يعبدونه في الجاهلية.**

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ **أي: أهلك قوم عاد القدماء الذين بُعث لهم نبي الله هود عليه السلام، وكانوا من أشد الناس وأقواهم، وأعتاهم على الله وأطغاهم، فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية.**

﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ **وثمود، قوم صالح عليه السلام، أرسله الله إليهم فكذبوه، فأهلكهم الله ودمَّرهم، فلم يُبق منهم أحداً.**

﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُ﴾ **أي: وأهلك قوم نوح من قبل إهلاك عاد وثمود.**

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ **أي: كانوا أظلم من الفريقين، وأشد تمرداً وطغياناً ممن سبقهم. دعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، كلما هلك قرن نشأ قرن، حتى كان الرجل يأخذ بيد ابنه يمشي به إلى نوح ليحذره منه ويقول له: يا بني إن أبي مشى بي إلى هذا، وأنا مثلك يومئذ، فإياك أن تصدقه، فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على بغض نوح.**

﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾ **المؤتفكة مدائن قوم لوط، أي: أهواها فأسقطها على الأرض بعد أن انقلبت بهم فصار عاليها سافلها، وذلك أن جبريل رفعها إلى السماء ثم أهوى بها.**

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ **فغطَّاها من فنون العذاب ما غطَّى، وفيه تهويل للعذاب وتعميم لما أصابهم منه.**

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ **هذا خطاب للإنسان المكذب: فبأي نعم ربك، نعم الله الدالة على وحدانيته وقدرته تتشكك أيها الإنسان وتكذب.**

وقدم في الآية ذكر عاد وثمود على ذكر قوم نوح مع أن هؤلاء أسبق؛ لأن عاداً وثموداً أشهر في العرب، وأكثر ذكراً بينهم، وديارهم في بلاد العرب.

*** بعد أن ذكر قصص الأمم السابقة وما نزل بهم بعد كفرهم وعنادهم، ذكر سبحانه أن محمداً منذر مثل من سبقه من الرسل، وذكر دنو القيامة وقرب أجلها، فقال:**

﴿٥٦﴾-﴿٦٢﴾ ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ * أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ * لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ * وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ * وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ * فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩﴾.

﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾ **هذا هو محمد رسول منذر كسائر الرسل، ومن جنس المنذرين الأولين وقد علمتم ما حلَّ بالمكذبين.**

﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ **أي: دنت الساعة واقتربت القيامة، سميت آزفة لدنوها وقرب قيامها، ولا يقدر على كشفها وردها إذا غشيت الخلق بأهوالها وشدائدها إلا الله تعالى.**

﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ﴾ **استفهام للتوبيخ، أي: أفمن هذا القرآن وهو كلام رب العالمين، هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تعجبون يا معشر المشركين أن يكون صحيحاً؟**

﴿وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ﴾ **أي: وتضحكون عند سماعه؛ استهزاءً وسخرية، ولا تبكون من زواجره**

وآياته؟ وقد كان حقكم أن تبكوا بدل الدمع حزناً على ما فرطتم.

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أي: وأنتم لاهون، غافلون، مستكبرون؟

﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾ أي: فاسجدوا لله الذي خلقكم، واخضعوا له وأفردوه بالعباده، ولا تعبدوا اللات والعزى، ومناة والشعرى، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا يليق السجود والعبادة إلا له ﷻ.

تم تفسير سورة النجم
والحمد لله

تفسير سورة القمر
وهي مكية

* سورة القمر، سورة مكية، وهي من بدئها إلى نهايتها حملة عنيفة مفزعة على المكذبين بآيات القرآن العظيم، ويرد فيها التهديد والوعيد، والإعذار والإنذار مع صور شتى من مشاهد العذاب والدمار. في الحديث عن عمر رضي الله عنه أنه سأل أبا واقد الليثي: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [رواه أبو داود].

وسبب نزولها: أن كفار مكة قالوا للرسول ﷺ: إن كنت صادقاً فشقَّ لنا القمر فرقتين، ووعدوه بالإيمان إن فعل، وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربَّه أن يعطيه ما طلبوا، فانشقَّ القمر نصفين، نصف على جبل الصفا، ونصف على جبل قيقعان المقابل له، حتى رأوا حراء بينهما، فقالوا: سحرنا محمد، ثم قالوا: إن كان سحرنا، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم! فقال أبو جهل: اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي، فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سحر محمد أعيننا، فجاؤوا فأخبروا بانشقاق القمر، فقال أبو جهل والمشركون: هذا سحرٌ مستمر، أي دائم، فأنزل الله.

﴿١﴾-﴿٥﴾ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾.

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ أي: دنت القيامة، وقد انشق القمر، وحمل الماضي على المستقبل بعيد.

﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾ وإن يرَ كفار قريش علامة واضحة، ومعجزة ساطعة، تدل على صدق محمد ﷺ يعرضوا عن الإيمان.

﴿وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ ويقولوا هذا الذي شاهدناه من الحجج سحرٌ دائم، سحر به محمد أعيننا، لكي يصدوا الآخرين.

﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ وكذبوا النبي ﷺ، وما عاينوه من قدرة الله تعالى في انشقاق القمر، واتبعوا ما زين لهم الشيطان من الباطل.

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ وكل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ولقد جاء كفار مكة من أخبار الأمم الماضية المكذبين للرسل، ما فيه واعظ لهم عن التمادي في الكفر والضلال.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ أي: هذا القرآن الذي جاءهم حكمة بالغة، بلغت النهاية في الهداية والبيان.

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي: أيَّ شيء تُغني النذر عن قوم أعرضوا وكذبوا بها؟!

* ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ: بأن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم والتولي عنهم.

﴿٦﴾-﴿٨﴾ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض -يا محمد- عن هؤلاء المجرمين وانتظرهم.

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ يوم يدعو إسرافيل إلى شيء منكر فظيع، تنكره النفوس لشدته وهوله، وهو يوم القيامة وما فيه من البلاء والأهوال.

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: ذليلة أبصارهم من الفزع، لا يستطيعون رفعها من شدة الهول.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي: يخرجون من القبور، كأنهم في انتشارهم، وكثرتهم، وسرعة إجابتهم للداعي، جرادٌ منتشر في الآفاق، لا يدرون أين يذهبون من الخوف والحيرة، وإنما شبههم بالجراد المنتشر، لأن الجراد لا جهة له يقصدها، فهم يخرجون من القبور فزعين ليس لأحد منهم جهة يقصدها، والداعي هو إسرافيل.

خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ٧
مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ٨ ۞كَذَّبَتۡ
قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩ فَدَعَا
رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ
١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢
وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ
كُفِرَ ١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥ فَكَيۡفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧
كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا
صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ
مُّنقَعِرٖ ٢٠ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٢١ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ
لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٢٢ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا
مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ
مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ٢٥ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ
٢٦ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ٢٧

٥٢٩

﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ أي: إن حالهم بعد خروجهم من القبور، مسرعين، مادّي أعناقهم إلى الداعي، لا يتلكؤون ولا يتأخرون.

﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ يقول الكافرون هذا يوم صعب شديد، وفيه إشارة إلى أن ذلك اليوم يومٌ شديد على الكافرين لا على المؤمنين.

* ولما ذكر - تبارك وتعالى - حال المكذبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم، ولا تجدي عليهم شيئاً، أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسل، وكيف أهلكهم الله وأحل بهم عقابه، قال تعالى:

﴿٩﴾-﴿١٧﴾ ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ * فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ * وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ * وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ * تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ * فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾.

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ أي: كذب قبل قومك - يا محمد - قوم نوح، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ، مما أصابه وناله من تكذيب قومه.

﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾ فكذبوا نبيهم نوحاً وقالوا إنه مجنون، وانتهروه وزجروه عن دعوى النبوة بالسب والتخويف والوعيد. وإنما قال ﴿عَبۡدَنَا﴾ تشريفاً له وخصوصية بالعبودية.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ فدعا نوح ربه، وقال: يا ربّ إني ضعيف عن مقاومة هؤلاء المجرمين، فانتقم لي منهم وانتصر اللهم لي منهم ولدينك. وإنما دعا عليهم بعدما يئس منهم وتفاقم أمرهم، وكان الواحد من قومه يخنقه إلى أن يخر مغشياً عليه، وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ أي: فأجبنا دعاءه فأرسلنا المطر من السماء منصباً بقوة وغزارة، وهو تمثيلٌ لكثرة الأمطار وشدة انصبابها.

﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ أي: جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة بالماء. ولم يقل: (وفجرنا عيون الأرض) فكأن الأرض كلها كانت عيوناً متفجرة، حتى التنور الذي هو أبعد ما يكون عن الماء لحرارته ويبوسته صار يفور كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾.

﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ فالتقى ماء السماء وماء الأرض على حال قد قدّرها الله في الأزل، وقضاها بإهلاك المكذبين غرقاً.

﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾ وحملنا عبدنا نوحاً على السفينة التي أنشأها، ذات الألواح الخشبية العريضة المشدودة بالدسر، وهي: المسامير.

﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي: تسير على وجه الماء بحفظنا وكلاءتنا، وتحت رعايتنا.

﴿جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: أغرقنا قوم نوح انتصاراً لعبدنا نوح؛ لأنه كان قد كذب وجحد فضله.

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ أي: تركنا تلك الحادثة والطوفان عبرة وعظة لمن بعد نوح، فهل من معتبر ومتعظ؟

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ استفهام تهويل وتعجب، أي فكيف كان عذابي وإنذاري لمن كذب رسلي، ولم يتعظ بآياتي؟

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ أي: والله لقد سهلنا القرآن، وهونا قراءته، للحفظ والتدبر والاتعاظ، وأيسر شيء - بحمد الله تعالى - على النفوس تحصيله وحفظه وفهمه، لما اشتمل عليه من أنواع المواعظ والعبر.

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ وردت في أربعة مواضع: فهو ميسر القراءة. ميسر الحفظ، ميسر التدبر، ميسر العمل به.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فهل من متعظ بمواعظه، معتبر بقصصه وزواجره؟ وفيه الحث على تعليم القرآن والاشتغال به؛ لأنه قد يسره الله وسهله على من يشاء من عباده، بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير، والعربي والعجمي، والمتعلم وغيره.

* ثم لما ذكر سبحانه قوم نوح وما جرى لهم من العذاب عندما كذبوه، ذكر سبحانه مخبراً عن عاد قوم هود عليه السلام وما جرى لهم، قال تعالى:

(١٨)-(٢٢) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ كذبت عاد ـ وهي القبيلة المعروفة باليمن ـ رسولهم هوداً، فكيف كان إنذاري لهم بالعذاب؟

ثم شرع سبحانه في بيان ما حلَّ بهم من العذاب الفظيع المدمر، فقال:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: أرسلنا عليهم ريحاً عاصفة باردة، شديدة الهبوب والصوت، والصرصر: الشديدة البرد أو الشديدة الصوت.

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي: في يوم مشؤوم دائم الشؤم، استمر عليهم بشؤمه، فلم يبق منهم أحدٌ إلا هلك فيه، مستمر عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: من شدتها، تقلع الريح القوم، ثم ترمي بهم على رؤوسهم، فتدقُّ رقابهم وتتركهم.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أي: كأن جثثهم بعد هلاكهم، مثل جذوع النخل الخاوي الذي أصابته الريح فسقط على الأرض، شُبهوا بالنخل لطولهم وضخامة أجسامهم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تهويل لما حلَّ بهم من العذاب وتعجبٌ من أمرهم، أي: كيف كان عذابي وإنذاري لهم؟ ألم يكن هائلاً فظيعاً؟

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ كرره للتنبيه على فضل الله على المؤمنين بتيسير حفظ القرآن، أي: ولقد سهلنا القرآن للحفظ والفهم، فهل من متعظ ومعتبر بزواجر القرآن؟!

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ وردت في سورة القمر في أربعة مواضع: فهو ميسر القراءة، وميسر الحفظ، وميسر التدبر، وميسر العمل به.

قال ابن حجر: «الذي يداوم على تلاوة القرآن يذل لسانه، ويسهل عليه قراءته، فإذا هجره ثقلت عليه القراءة وشقت عليه».

* وبعد أن أخبر سبحانه عن قوم عاد التي في جنوب جزيرة العرب، ذكر سبحانه قبيلة ثمود التي في الشمال والتي خلفت عاداً في القوة والتمكين، فأخبر تعالى عن قوم ثمود المكذبين لرسولهم صالح عليه السلام، فقال:

(٢٣)-(٣٢) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ * فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ * أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ * فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ كذبت ثمود بالإنذارات والمواعظ التي أنذرهم بها نبيهم صالح.

﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أنتَّبع إنساناً مثلنا من آحاد الناس، ليس من الأشراف ولا العظماء، ونحن جماعة كثيرون؟ قالوا ذلك حسداً منهم، واستبعاداً أن يكون نوع من البشر يفضل بعضه بعضاً هذا الفضل.

﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ إنا إذا اتبعناه لفي خطأ وشقاء، وذهاب عن الحق واضح، وجنون دائم.

﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ استفهام إنكاري، أي: هل خصَّ بالوحي والرسالة وحده دوننا، وفينا من هو أكثر منه مالاً وأحسن حالاً؟

ثم رموه بالكذب، فقالوا:

﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ بل هو كاذب في دعوى النبوة، متجاوز في حد الكذب، متكبرٌ بطِرٌ يريد العلو علينا، وإنما وصفوه بأنه ـ أشر ـ مبالغة منهم في رفض دعواه، كأنهم قالوا إنه كذب لا لضرورة وحاجة إلى الخلاص كما يكذب الضعيف، وإنما تكبّر وبطر وطلب

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ
فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا
كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ
﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى
وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟
عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾
وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ
أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ
فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ
وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾
إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ
وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

الرياسة عليكم، وأراد أن تتبعوه فكذب على الله، فلا يُلتفت إلى كلامه لأنه جمع بين رذيلتين: الكذب والتكبر، وكل منهما مانع من اتباعه. قال تعالى تهديداً لهم ورداً لبهتانهم.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ سيعلمون في الآخرة من هو الكذاب الأشر، هل هو صالح عليه السلام أم قومه المكذبون المجرمون؟

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: مخرجو الناقة من الصخرة الصماء محنة لهم واختباراً كما شاؤوا وطلبوا، لأن الله أخرج لهم ناقة عظيمة عشراء، من صخرة صماء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به.

﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ فانتظرهم يا صالح وتبصَّرْ ما يصنعون وما يُصنع بهم، واصبر على أذاهم فإن الله ناصرك عليهم.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ وأعلمهم أن الماء الذي يمرُّ بواديهم، مقسومٌ بين ثمود وبين الناقة.

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي: كل نصيب وحصة من الماء يحضرها من كانت نوبته، فإذا كان يوم الناقة حضرت شربها، وإذا كان يومهم حضروا شربهم.

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ أي: فنادت قبيلة ثمود أشقى القوم، واسمه ـ قدار بن سالف ـ لقتل الناقة، فتناول الناقة بسيفه فقتلها غير مكترث بالأمر العظيم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي: فكيف كان عقابي وإنذاري لهم؟ ألم يكن فظيعاً شديداً لمن عصى رسلي؟! ثم ذكر جل جلاله هذا العقاب فقال:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: أهلكناهم بصيحة واحدة، صاح بها جبريل عليه السلام فلم تبق منهم عين تطرف فبادوا عن آخرهم.

﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ أي: فصاروا هشيماً متفتتاً كيابس الشجر إذا بلي وتحطم وداسته الأقدام. والمحتظر: هو الذي يجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر والشوك يحفظهن فيها من الذئاب والسباع، وما سقط من ذلك فداسته فهو الهشيم.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: يسرناه للحفظ والاتعاظ، فهل من معتبر؟ روي أنه لم يحفظ شيء من كتب الله عن ظهر قلب إلا القرآن.

* ثم ساق سبحانه في مواعظ متلاحقة قصص الأنبياء مع أقوامهم، وذكر في الآيات قوم لوط حين كذبوا رسولهم ـ لوط عليه السلام ـ، وما جرى لهم بعد ذلك من العذاب الأليم، قال تعالى:

﴿٣٣﴾-﴿٤٠﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ * نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي: كذبوا بالإنذارات التي أنذرهم بها نبيهم لوط عليه السلام.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي: أرسلنا عليهم حجارة قُذفوا بها من السماء، حيث أمر تعالى جبريل فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأُتبعت بحجارة من سجيل منضود.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ أي: غير لوط وأتباعه المؤمنين، نجيناهم من الهلاك قبيل الصبح، وقت السَّحر.

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: إنعاماً منَّا عليهم، نجيناهم من العذاب.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ أي:

مثل ذلك الجزاء الكريم، نجزي من شكر نعمتنا بالإيمان والطاعة.

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي: ولقد خوفهم لوط عقوبتنا الشديدة، وانتقامنا منهم بالعذاب، فتشككوا، وكذبوا بالإنذار والوعيد.

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ أي: طلبوا منه أن يسلم لهم أضيافه وهم الملائكة ليفعلوا بهم الفاحشة.

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أي: أعمينا أعينهم وأزلنا أثرها، حتى فقدوا أبصارهم. قال المفسرون: لما جاءت الملائكة إلى لوط في صورة شباب حسان، أضافهم لوط عليه السلام، فجاء قومه يُهرعون إليه لقصد الفاحشة بهم، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، فخرج عليهم جبريل فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم وعموا.

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ فذوقوا عذابي وإنذاري الذي أنذركم به لوط.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: جاءهم وقت الصبح عذاب دائم متصل بعذاب الآخرة، وذلك أن جبريل قلع بلادهم فرفعها، ثم قلبها بهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، واتصل عذاب الدنيا بعذاب الآخرة، فلا يزول عنهم حتى يصلوا إلى النار.

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي: فذوقوا أيها المجرمون عذابي الأليم، وإنذاري لكم على لسان رسولي.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ولقد يسرنا القرآن للحفظ والتدبر فهل من متعظ ومعتبر؟ قال المفسرون: حكمة تكرار ذلك في كل قصة، التنبيه على الاتعاظ والتدبر في إنباء الغابرين، وللإشارة إلى أن تكذيب كل رسول مقتض لنزول العذاب.

* وبعد قوم لوط عليه السلام ذكر سبحانه فرعون وقومه، وما جرى لهم، فقال:

(٤١)-(٤٦) ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ * كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ * أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ * بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ أي: جاء فرعون وقومه ـ موسى عليه السلام ـ جاءهم بالآيات البينات والمعجزات الباهرات، فلم يعتبروا وقد صُدِّرت قصتهم بالقسم المؤكد لإبراز كمال الاعتناء بشأنها، لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها، وهول ما لا قوه من العذاب.

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: كذبوا بالمعجزات التسع التي أعطيها موسى، فانتقمنا بإغراقهم في البحر، وأخذناهم بالعذاب أخذ إله غالب في انتقامه، قادر على إهلاكهم لا يعجزه شيء. ثم خوَّف تعالى كفار مكة بعد ذكر مشاهد العذاب والنكال بالأمم المكذبة، فقال:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ الاستفهام إنكاري للتقريع والتوبيخ، أي: أكفاركم يا معشر العرب خير من أولئكم الكفار الذين أحللت بهم نقمتي مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وفرعون، حتى لا أعذبهم؟

﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي: أم لكم يا كفار قريش براءة من العذاب في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء. والمعنى: إنكار أن تكون لهم براءة من عذاب الله في شيء من كتب الأنبياء.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي: بل أيقولون نحن جمع كثير، واثقون بكثرتنا وقوتنا، منتصرون على محمد؟ قال تعالى ردّاً عليهم:

﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ سيهزم جمع المشركين ويولون الأدبار منهزمين، وهذا مما أخبر الله به نبيه من علم الغيب، فكانت الهزيمة يوم بدر وولوا الأدبار، وقتل رؤساء الشرك وأساطين الكفر ولله الحمد.

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي: ليس هذا تمام عقابهم، بل القيامة موعد عذابهم.

﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي: أعظم داهية، وأشدُّ مرارة من القتل والأسر، وهي أكبر من كل ما يتوهم، أو يدور بالبال.

* ثم بعد ذكر الأمم الغابرة، وما نالها ونزل بها من العذاب والنكال بتكذيبهم الرسل، ذكر سبحانه حال المجرمين في النار، فقال:

(٤٧)-(٥٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ * وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ * وَلَقَدْ

وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ
أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (٥١) وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ
(٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ
فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ (٥٤) فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ (٥٥)

سُورَةُ الرَّحۡمَٰن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحۡمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ (٢) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ (٤)
ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ (٥) وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ (٦)
وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ (٨)
وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ (٩) وَٱلۡأَرۡضَ
وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ (١١)
وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
(١٣) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن
مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ (١٥) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ
ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ (١٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)

٥٣١

أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ * وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ * إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ * فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾ إن المجرمين في حيرة وتخبط وخسران وجنون في الدنيا، وفي نيران مسعَّرة في الآخرة.

﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ يوم يُجرُّون في النار على وجوههم عقاباً وإذلالاً لهم، والوجوه هي أشرف الأعضاء، وألمها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون.

﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ أي: يقال لهم: قاسوا أيها المكذبون حر جهنم، وشدة عذابها. وسقر علمٌ لجهنم.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ أي: إنا خلقنا كل شيء مقدَّراً مكتوباً في اللوح المحفوظ من الأزل.

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ وما شأننا في الخلق والإيجاد إلا مرة واحدة كلمح البصر في السرعة، نقول للشيء: كن فيكون.

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ أي: ووالله لقد أهكلنا أشباهكم ونظراءكم في الكفر والضلال من الأمم السالفة الذين عملوا كما عملتم، وكذبوا كما كذبتم.

﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ فهل من يتذكر ويتعظ؟ ويعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة.

﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أي: وجميع ما فعلته الأمم المكذبة من خير وشر مكتوب عليهم، مسجل في كتب الحفظة التي بأيدي الملائكة.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ وكل صغير وكبير من الأعمال مسطورٌ في اللوح المحفوظ، مثبتٌ فيه. وقدم صغير الأعمال حتى لا يتهاون بها، وأن من أحصى الصغير فمن باب أولى الكبير.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾ أي: المتقين لله، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر، في جنات النعيم، وأنهار، يعني أنهار الماء، والخمر، والعسل، واللبن.

﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ أي: في مكان مرضي، ومقام حسن، في دار كرامة الله ورضوانه، وفضله وامتنانه، وجوده وإحسانه، عند رب عظيم جليل، قادر في ملكه وسلطانه، لا يعجزه شيء، وهو الله رب العالمين.

قوله ﴿مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ لأن القربة من الملوك لذيذة، كلما كان الملك أشد اقتداراً كان المتقرب منه أشد التذاذاً، وفيه إشارة إلى أن مخالفة معنى القرب من الملوك فإن الملوك يقربون فمن يكون، من يحبونه وممن يرهبونه، مخافة أن يعصوا عليهم ويتجاوزوا فيغلونه، والله تعالى قال: ﴿مُّقۡتَدِرِۭ﴾ لا يقرب أحدًا إلا بفضله.

تم تفسير سورة القمر

والحمد لله

تفسير سورة الرحمن
وهي مدنية

* سورة الرحمن من السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية، وهي كالعروس بين سائر السور الكريمة، ولهذا ورد في الحديث الشريف: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن» [رواه البيهقي].

وهذه السورة الكريمة الجليلة افتتحت باسم الرحمن الدال على سعة رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل بره، وواسع فضله، ثم ذكر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والأخروية، وبعد كل جنس ونوع من نعمه، ينبه الثقلين لشكره، ويقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ابتدأت السورة بتعديد آلاء الله الباهرة، ونعمه الكثيرة الظاهرة على العباد، التي لا يحصيها عد، وفي

مقدمتها نعمة تعليم القرآن بوصفه المنة الكبرى على الإنسـان، تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان.

ثم فتحت السـورة صحائف الوجود، الناطقة بآلاء الله الجليلـة، وآثاره العظيمة التي لا تحصى. الشـمس والقمر، والنجم والشجر، والسـماء المرفوعة بلا عمد، وما فيها من عجائب القدرة وغرائب الصنعة، والأرض التي بث فيها من أنواع الفواكه، والزروع، والثمار، رزقاً للبشر.

ثم بعد ذلك الاسـتعراض السريع لصفحـة الكـون المنظـور، تُطـوى صفحات الوجـود، وتتلاشي الخلائق بأسرها، فيلفها شـبح الموت الرهيب، ويطويهـا الفناء، ولا يبقـى إلا الحي القيوم متفرداً بالبقاء، قال تعالى:

(١)-(١٣) ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ * ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ * وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ * وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ * أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ * وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ * وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ * فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ * وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: الله الرحمن علَّم القـرآن، ويسَّره للحفظ والفهم. وقد عدَّد سـبحانه بعض نعمه عـلى عباده، فقـدم أعظمها نعمـة، وأعلاهـا رتبة، وهو القرآن العزيز؛ لأنه أعظم وحي الله إلى أنبيائه، وأشرفه منزلة عنـد أوليائه وأصفيائه، وأكثره ذكراً، وأحسنه في أبواب الدين أثراً، وهو سنام الكتب السماوية المنزلة على أفضل البرية ﷺ.

ولأن معظم السـورة تعـداد للنعم والآلاء فافتتحها باسم (الرحمن) براعة استهلال وهي السورة الوحيدة المفتتحة باسم من أسماء الله لا يتقدمه شيء.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أي: خلق الإنسان السـميع البصير الناطق في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مسـتوفي الأجزاء، محكم البناء، وأبان أنه إنما خلقه لطاعته وعبادته.

﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ هذه ثالثة النعم التي امتن الله ﷻ بها؛ أي: ألهمه النطق الذي يسـتطيع به أن يبين عن مقاصده ورغباته، ويتميز به عن سائر الحيوان. والمقصود تعداد ما أنعم الله به على نوع الإنسان، حثاً على شكره، وتنبيهاً على تقصيرهم فيه، وإنما قدم تعليم القرآن على خلق الإنسـان، لأنه أصل النعم الدينية فقدم الأهم.

﴿ٱلشَّـمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡـبَانٖ﴾ أي: الشـمس والقمر يجريان بحساب معلوم في بروجهما، ويتنقلان في منازلهما لمصالـح العبـاد، فيجريـان متعاقبين بحساب مقنّن لا يختلف ولا يضطرب، ليعرف العباد عدد السنين والحساب.

﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ أي: ونجوم السماء، وأشجار الأرض، تعرف ربها وتسجد له، وتطيع وتخشع وتنقاد لما سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم.

﴿وَٱلسَّـمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ أي: والسـماء خلقهـا عالية محكمـة البناء، رفيعة القدر والشأن، وأمر بالميزان عند الأخذ والإعطاء لينال الإنسان حقه وافياً، ولإقامة العدل بين الناس في الأقوال والأفعال.

﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ أي: لئلا تبخسوا في الميزان وتخونوا من وزنتم له.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡـطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ أي: اجعلوا الوزن مستقيماً بالعدل والإنصاف، ولا تطففوا الوزن إذا وزنتم للنـاس، ولا تُنقصوه بضده، وهو الجور والظلم والطغيان.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ والأرض بسـطها ومهدها سـبحانه لأجل الخلق، ليسـتقروا عليها، وينتفعـوا بما خلق على ظهرهـا. ثم ذكر مـا فيها مـن الأقوات الضرورية، فقال:

﴿فِيهَـا فَٰكِهَـةٞ﴾ أي: فيها من أنـواع الفواكـه المختلفـة الألـوان والطعوم والروائح.

﴿وَٱلنَّخۡـلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ أي: وفيهـا النخل التـي يطلع فيهـا أوعية الثمر، وقد أفرد النخـل بالذكر لشرفه ونفعه رطباً ويابساً. والأكمام هي أوعية الطلع، وهو الذي يطلـع فيه القنو، ثم ينشـق عنـه العنقود، فيكـون بسراً ثم رطباً، ثم ينضج ويتناهي ينعه واستواؤه.

﴿وَٱلۡحَـبُّ ذُو ٱلۡعَصۡـفِ﴾ أي: ذو السـاق الذي يداس، فينتفع بتبنه للأنعام وغيرهـا، ويدخـل في ذلـك حـب البر والشعير والذرة والدخن وغير ذلك.

﴿وَٱلرَّيۡحَـانُ﴾ أي: وفيهـا كل مشموم طيب الريح من النبات كالورد، والفُلّ، والياسمين ومـا شاكلهـا. ذكر تعـالى الفاكهة أولاً ونكـر لفظها؛ لأن الانتفاع بها نفسها، ثم ثنى بالنخل فذكر الأصـل ولم يذكر ثمرها وهـو التمر، لكثرة الانتفاع بها من ليف، وسـعف، وجريد، وجذوع، وجُمَّار، وتمر، ثم ذكر الحب الذي هو قوام عيش الإنسان وهو البُرُّ والشعير وكل ما له سنبل وأوراق، ووصفه بطوله: تنبيهاً على إنعامه عليهم

مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٣ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٢٤
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٥ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ
رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٨
يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٠ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ٣١ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٢ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ
أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ
إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا
شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ٣٦ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ
٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٨ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن
ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ٣٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٠
يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ٤١

بها يقوتهم به من الحب، وما يقوت بهائمهم من ورقه وهو التبنُ. وبدأ بالفاكهة وختم بالمشموم ليحصل ما به يُتفكه، وما به يُتقوَّت، وما به تقع اللذاذة من الرائحة الطيبة.

*** ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين، الإنس والجن، قررهم تعالى بنعمه، فقال:**

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ **أي: فبأي نعم الله يا معشر الإنس والجن تكذبان؟ أليست نعم الله عليكم كثيرة لا تُحصى؟ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا، فقال: «ما لي أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم؟ ما أتيت على قول الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد»** [رواه أحمد].

*** ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته، وآثار نعمه على عباده، حيث أراهم آثار قدرته وبديع صنعته، فإنه سبحانه لما ذكر خلق العالم الكبير، وهو السماء والأرض وما فيها، ذكر خلق العالم الصغير ـ الإنسان ـ وهو سبحانه بعد الامتنان عليهم بآلائه في الكون يمتن عليهم بآلائه في ذوات أنفسهم، وفي خاصة وجودهما وإنشائهما، فقال:**

١٤-٢٥ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ * وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ * بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ **أي: خلق أباكم آدم من طين مبلول، قد أحكم بله وأتقن حتى جف، فصار له صلصلة، أي: صوت إذا نقر. قال المفسرون: ذكر تعالى في هذه السورة أن خلق آدم ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ وفي سورة الحجر** [٢٦] ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ **أي من طين أسود متغير، وفي** [الصافات: ١١] ﴿مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ **أي: يلتصق باليد، وفي** [آل عمران: ٥٩] ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ **ولا تنافي بينها؛ وذلك لأن الله تعالى أخذه من تراب الأرض، فعجنه بالماء فصار طيناً لازباً، أي: متلاصقاً يلصق باليد، ثم تركه حتى صار حمأً مسنوناً؛ أي طيناً أسود منتناً، ثم صوره كما تصور الأواني، ثم أيبسه حتى صار في غاية الصلابة كالفخار إذا نقر صوت، فالمذكور ههنا آخر الأطوار.**

﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾ **وخلق الجن من مارج، أي: من لهب خالص، لا دخان فيه من النار، وفي الحديث: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»** [رواه مسلم].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ **أي: فبأي نعم الله يا معشر الإنس والجن تكذبان؟ والتكرار في الفواصل للتأكيد والتنبيه والتحريك، وقيل إن هذا التكرار إنما هو لاختلاف النعم، فكلما ذكر نعمة كرر قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وقيل: التكرير للغفلة وتأكيد للحجة. وقد ذكر هذه الآية إحدى وثلاثين مرة، والاستفهام فيها للتقريع والتوبيخ.**

﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ **أي: هو ﷻ رب مشرق الشمس والقمر، ورب مغربهما، ولما ذكر**

الشـمس والقمر في قوله: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ ذكر هنا أنه رب مشرقهما ومغربهما.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي نعم الله التي لا تحصى تكذبان؟

﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ﴾ أي: أرسـل البحر المالح والنهـر العذب يتجاوران ويلتقيان ولا يمتزجان.

﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ بينهما حاجزٌ مـن قدرة الله تعـالى لا يطغى أحدهما على الآخـر بالممازجة. والمراد بالبحرين: الملح والحلـو، فالملح هذه البحار، والحلو هذه الأنهار السـارحة بين الناس، وجعل تعالى بينهما برزخاً، وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعم الله أيها الثقلان تكذبان؟

﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ أي: يخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان، كما يخرج من الـتراب الحب والعصف والريحان، واللؤلؤ صغار الدُّر، والمرجان كباره، وفي الآية بيان لعجائب صنع الله حيث يخرج من المـاء المالح أنواع الحلية كالدر والياقوت والمرجان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعمة مـن نعم الله تكذبان؟ فإن في ذلك ما لا يستطيع أحد تكذيبه، ولا يقدر على إنكاره.

* وتحدثت السـورة عـن دلائل القـدرة الباهـرة في تسـيير الأفلاك، وتسخير السـفن الكبيرة تمخر عباب البحار، وكأنها الجبال الشـاهقة علوّاً وارتفاعاً وسعة وضخامة، وهي تجري فوق سطح الماء، فقال سبحانه:

﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ وله ﷻ السفن المرفوعات الجاريات في البحر، كالجبال في العظم والضخامة.

﴿كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ أي: كالجبـال، والعلم الجبـل الطويل، فالسـفن في البحر كالجبال في البر. ووجه الامتنان بهـا أن الله تعالى سـير هذه السـفن الضخمة التي تشـبه الجبال على وجه الماء، وهو جسـم لطيف مائع، يحمل فوقه هـذه السـفن الكبـار المحملة بالناس والأرزاق والمكاسب والمتاجر من قطر إلى قطر، ومن إقليم إلى إقليم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعمة مـن نعم الله تكذبان؟ فإن ذلك من الوضوح والظهور بحيث لا يمكن تكذيبه ولا إنكاره.

* وبعـد تعداد هـذه النعم وذكر هذه المنن العظيمة، تـأتي النهاية لكل شيء في الوجود، ويتجلى وجه الكريم الباقي، متفرداً بالبقاء، متفرداً بالجلال والدوام، قال تعالى:

﴿٢٦-٣٠﴾ ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ * وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ أي: كل من على وجه الأرض من إنس وجن، ودواب، وسـائر المخلوقـات، يفنى ويموت، ويبيد.

﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ أي: يبقى ذات الله الواحد الأحد، ذو العظمة والكبرياء والإنعام والإكرام.

قال الشعبي: إذا قرأت ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ فلا تسـكت حتى تقرأ ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾. وفي وصلها يتبين نقص المخلوق وكمال الخالق.

﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ قال ابن عاشور: «وقوع هذه الجملة عقب ما عدد من النعم، فيه إيحاء إلى أن مصير نعم الدنيا إلى الفناء».

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعمة من نعم الله تكذبان، ووجه النعمة في فناء الخلق، أن الموت سبب النقلة إلى دار الثواب والجزاء.

﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، يفتقر إليه تعالى كل من في السـموات والأرض، ويطلبون منه العون والرزق بلسان المقال أو بلسان الحال، ولا يستغنون عنه طرفة عين، ولا أقل من ذلك، وهو تعالى.

﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ أي: كل سـاعة ولحظة هو تعالى في شـأن من شؤون الخلق، يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، يُغني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعـم الله الجليلة تكذبان أيها الإنس والجان؟ فإن اختلاف شـؤونه سـبحانه في تدبير عباده نعمة لا يمكن جحدها، ولا يتيسر لمكذب تكذيبها.

* وبعد هذه النهاية وبقاء الحي الذي لا يمـوت، يأتي الموقـف العظيم، وهو موقف الجزاء والحساب للجن والإنس، وفي هذا تهديد ووعيد، قال تعالى:

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ
﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ
لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾
فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾

﴿٣١﴾-﴿٣٦﴾ ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ وعيد شديد من الله ﷻ للجن والأنس، أي: سنحاسبكم على أعمالكم في الدنيا يا معشر الجن والإنس.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي نعم ربكما تكذبان فهذا موقف الجزاء والحساب، وهو من نعم الله على الثقلين، ومن عدله سبحانه.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فيقول لهم: إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين، فارين من قضائي فاخرجوا منها، وخلصوا أنفسكم من عقابه، والأمر للتعجيز.

﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: لا تقدرون على الخروج إلا بقوة وقهر وغلبة، وأنى لكم ذلك؟

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعم ربكما تكذبان، وقد أسبغ عليكم وأفاض منها. ثم ذكر سبحانه ما أعد لهم في ذلك الموقف العظيم:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ أي: يرسل عليكما يوم القيامة، لهب النار الحامية، ونحاس مذاب يصبُّ على رؤوسهم يوم القيامة.

﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي: فلا ينصر بعضكم بعضاً، ولا يخلصه من عذاب الله، ولما كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم، وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب امتن عليه، فقال:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعم ربكما تكذبان؟

* وتبدأ الآيات العظيمة، تذكر صور التبدل والتحول في الكون يوم القيامة، والآيات تشير إلى وقوع أمور عظيمة في الأجرام والأكوان وغيرها، قال تعالى:

﴿٣٧﴾-﴿٤٥﴾ ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ فإذا انصدعت يوم القيامة لتنزل الملائكة منها لتحيط بالخلائق من كل جانب.

﴿فَكَانَتْ﴾ من شدة الخوف والانزعاج، ورهبة ذلك اليوم العظيم.

﴿وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ أي: فكانت مثل الورد الأحمر من حرارة النار، ومثل الأديم الأحمر، أي: الجلد الأحمر.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: بأي نعم ربكما تكذبان؟

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي: ففي ذلك اليوم الرهيب يوم تنشق السماء، لا يُسأل أحد من المذنبين من الإنس والجن عن ذنبه؛ لأن للمذنب علامات تدل على ذنبه كاسوداد الوجوه، وزرقة العيون.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: بأي نعم ربكما تكذبان؟

* وتناولت السورة بعض أهوال القيامة، فتحدثت عن حال الأشقياء المجرمين، وما يلاقونه من الفزع والشدائد في ذلك اليوم العصيب.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ يُعرف يوم القيامة أهل الإجرام بعلامات تظهر عليهم، وهي ما يغشاهم من الكآبة والحزن.

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أي: فتأخذ الملائكة بنواصيهم، أي: بشعور مقدم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في جهنم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: بأي نعم ربكما تكذبان وهذا مقام عدله ﷻ؟

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها، ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أي: يترددون بين نار جهنم وبين ماء حار بلغ النهاية في الحرارة. قال قتادة: يطوفون مرة بين الحميم ومرة بين الجحيم. والجحيم النار، والحميم الشراب الذي انتهى حره.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعم الله تكذبان يا معشر الإنس والجان.

* لما فرغ سبحانه من تعداد النعم الدنيوية على الثقلين، ذكر نعمه الأخروية التي أنعم بها عليهم، وبعد الحديث عن مشهد العذاب للمجرمين، تناولت السورة مشهد النعيم للمتقين في شيء من الإسهاب والتفصيل، حيث يكونون في الجنان مع الحور والولدان، فقال تعالى:

﴿٤٦﴾-﴿٥٣﴾ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ أي: وللعبد الذي يخاف قيامه بين يدي ربه للحساب، جنتان: جنة لسكنه، وجنة لأزواجه وخدمه، كما هي حال ملوك الدنيا حيث يكون له قصر ولأزواجه قصر، وإنما كانتا اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى جهة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: بأي نعم ربكما تكذبان؟ وقد أفاض عليكما من نعمه وجوده وكرمه.

ثم وصف تعالى الجنتين فقال:

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ أي: ذواتا أغصان متفرعة وثمار متنوعة. وخص الأفنان ـ وهي الغصون ـ بالذكر لأنها التي تورق وتثمر، ومنها تمتد الظلال وتجنى الثمار.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي: في كل واحدة من الجنتين عين جارية، تجري بالماء الزلال، فماؤهما غزير وسهل يسير.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: بأي نعم ربكما تكذبان؟

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ هذه صفة ثالثة للجنتين، أي: فيهما من جميع أنواع الفواكه والثمار صنفان: معروف، وغريب لم يعرفوه في الدنيا. قال ابن عباس: ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل، إلا أنه حلو، وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: بأي نعم ربكما تكذبان؟

* ثم ذكر سبحانه بعض ما ينالهم من النعيم وتمام الأنس، فقال تعالى:

﴿٥٤﴾-﴿٦١﴾ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي: مضطجعين في جنان الخلد على فرش وثيرة، بطائنها من ديباج ـ وهو الحرير السميك ـ المزين بالذهب، وهذا يدل على نهاية شرفها؛ لأن البطانة إذا كانت بهذا الوصف فما بالك بالظهارة؟

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجنى هو الثمر المستوي، أي: ثمرها قريب يناله القاعد، والقائم، والنائم، لا يتعب في قطافه، بخلاف ثمار الدنيا فإنها لا تنال إلا بكد وتعب.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: بأي نعم ربكما تكذبان؟

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: في تلك الجنان نساء قاصرات الطرف، قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم. قال الحسن: قاصرات الطرف على أزواجهن لا يردن غيرهم، والله ما هن متبرجات ولا متطلعات. وفيه دلالة على عظم خُلق الحياء وأنه ممتد للآخرة.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي: لم يمسسهن ولم يجامعهن أحد قبل أزواجهن لا من الإنس ولا من الجن، بل هن أبكار عذارى، متحببات إلى أزواجهن، بحسن التبعل والتغنج والملاحة والدلال.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن؟

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ هذه صفة للقاصرات، أي: يشبهن الياقوت والمرجان في صفائهن وحمرتهن، وجمال منظرهن وبهائهن، فهن ناضرات لامعات.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: بأي نعم الله الجليلة ربكما تكذبان؟

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ أي: ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يُحسن إليه في الآخرة. والغرض أن من قدم المعروف والإحسان استحق الإنعام والإكرام.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: بأي نعم الله الجليلة وإحسانه تكذبان؟

* ثم ذكر سبحانه جنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، فقال تعالى:

﴿٦٢-٧٨﴾ ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي: ومن دون تلك الجنتين في الفضيلة والقدر، جنتان أخريان. قال المفسرون: الجنتان الأوليان للسابقين، والأخريان لأصحاب اليمين.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن؟

﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي: تلك الجنتان سوداوان من شدة الخضرة والري. والخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد وذلك من كثرة الري بالماء.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإنها كلها حق، ونعم لا يمكن جحدها. ثم وصف سبحانه هاتين الجنتين الأخريين، فقال:

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ في الجنة عينان، فوارتان بالماء لا تنقطعان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعم الله الجليلة تكذبان؟ فإنها ليست بموضع للتكذيب، ولا بمكان للجحد.

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ أي: في الجنتين من أنواع الفواكه كلها وأنواع النخل والرمان، وإنما ذكر النخل والرمان؛ تنبيهاً على فضلهما وشرفهما على سائر الفواكه، ولأنهما غالب فاكهة العرب.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي نعم الله العظيمة تكذبان؟

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أي: في تلك الجنان نساء صالحات كريمات الأخلاق، حسان الوجوه، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن، وحسن الخَلق والخُلق.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعم الله وآلائه تكذبان؟

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ أي: هنَّ الحور العين المخدرات المستورات لا يخرجن لكرامتهن وشرفهن، قد قصرن في خدورهن في خيام اللؤلؤ المجوف، وأعددن أنفسهن لأزواجهن، والنساء تُمدح بذلك؛ إذ ملازمتهن البيوت تدل علي صيانتهن.

قال ابن جزي: «المقصورات: المحجوبات؛ لأن النساء يُمدحن بملازمة البيوت ويُذممن بكثرة الخروج».

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي نعم الله وفضله تكذبان؟

﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ أي: لم يجامعهن ولم يغشهن أحد قبل أزواجهم لا من الإنس ولا من الجن، فهن ذوات صون وعفاف.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن؟

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ﴾ أي: أصحاب هاتين الجنتين مستندين على وسائد خضر من وسائد الجنة لزيادة البهاء وحسن المنظر. والاتكاء؛ مظهر من مظاهر النعيم والرفاهية.

﴿وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ العبقري: نسبة لكل منسوج نسجاً حسناً فاخراً، وهي نسبة إلى «عبقر» قرية ناحية اليمن، ينسج فيها بسط منقوشة بلغت النهاية في الحسن وحسن المنظر، ونعومة الملمس، فقرب الله لنا فرش الجنتين بتلك البسط المنقوشة، وهاتان الجنتان دون الجنتين الأولين.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي نعمة من نعم الله تعالى تكذبان يا معشر الإنس والجن؟، قال ابن تيمية: ليس في القرآن تكرار محض؛ بل لابد من فوائد في كل خطاب.

* وختمت السورة بتمجيد الله ﷻ والثناء عليه، على ما أنعم على عباده من فنون النعم والإكرام، وهو أنسب ختام لسورة الرحمن، قال تعالى:

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ أي: هو أهل أن يجَلّ فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، وأن يذكر فلا ينسى، وهو صاحب العظمة والكبرياء. وناسب هنا ذكر البركة وهي النماء والزيادة عقب امتنانه على المؤمنين في دار كرامته وما آتاهم من الخير والفضل في دار النعيم، فقد تعاظم وزاد وكثر خيره ﷻ.

تم تفسير سورة الرحمن
والحمد لله

تفسير سورة الواقعة وهي مكية

* سورة الواقعة سورة تشتمل على أحوال يوم القيامة وذكر أهوالها وشدائدها، وما يكون بين يدي الساعة من اهوال وانقسام الناس إلى ثلاث طوائف: أصحاب اليمين، أصحاب الشمال، والسابقون. قال مسروق: من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة.

وذكرت السورة عن مآل كل فريق، وما أعده الله تعالى لهم من الجزاء العادل يوم الدين، كما أقامت الدلائل على وجود الله ووحدانيته، وكمال قدرته في بديع خلقه وصنعه، في خلق الإنسان، وإخراج النبات، وإنزال الماء، وما أودعه الله من القوة في النار، ثم نوهت بذكر القرآن العظيم، وأنه تنزيل رب العالمين، وما يلقاه الإنسان عند الاحتضار من شدائد وأهوال. قال مسروق: من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل

الجزء السابع والعشرون سورة الواقعة

فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٧١﴾ حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ
وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾
تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ
﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴿٥﴾ فَكَانَتۡ
هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴿٦﴾ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ﴿٧﴾ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ
مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾
فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ
﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾

٥٣٤

الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة، وفي الحديث قال أبوبكر: يا رسول الله قد شبت، قال: «شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت» [رواه الترمذي].

وقد ورد في فضلها: ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً» [رواه البيهقي].

(١)-(١٢) ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ * لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا * وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا * فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا * وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ * فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ * وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ * وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ الواقعة اسم من أسماء القيامة، كالصاخة والآزفة والطامة، وهذه الأسماء تقتضي عظم شأنها.

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي: إذا قامت القيامة التي لا بد من وقوعها، وحدثت الداهية الطامة التي ينخلع لها قلب الإنسان، وكان من الأهوال ما لا يصفه الخيال، سميت واقعة لتحقق وقوعها.

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: لا شك فيها، ولا يكون عند وقوعها نفس كاذبة تكذب بوقوعها كحال المكذبين اليوم؛ لأن كل نفس تؤمن حينئذ لأنها ترى العذاب عياناً، وإذا وقعت الواقعة، تتبدل أقدار الناس، وأوضاع الأرض، فالكرب شديد، والخطب عظيم، قال تعالى:

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أي: هي خافضة لأقوام في أسفل سافلين، رافعة لآخرين في أعلى عليين، تخفض أعداء الله في النار، وترفع أولياء الله في الجنة.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ أي: إذا زلزلت زلزالاً عنيفاً، واضطربت اضطراباً شديداً، بحيث ينهدم كل ما فوقها من بناء شامخ، وطود راسخ، حتى ينهدم كل ما عليها من بناء، وينكسر كل ما فيها من جبال وحصون. قال المفسرون: تُرج كما يرج الصبي في المهد.

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي: فتتت تفتيتاً حتى صارت كالدقيق المبسوس، ـ وهو المبلول ـ بعد أن كانت شامخة.

﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنۢبَثًّا﴾ أي: فصارت الأرض غباراً متفرقاً منتشراً متطايراً في الهواء، كالذي يُرى في شعاع الشمس إذا دخل النافذة، فهذا هو الهباء.

ثم ذكر سبحانه أحوال الناس في ذلك اليوم العصيب واختلافهم، فذكر ذلك النعيم أو العذاب مفصلاً أوفى تفصيل؛ كأن العين تراه، والقلب يحس به ويشاهده؛ فقال:

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً﴾ وكنتم ـ أيها الناس ـ أصنافاً وفرقاً ثلاثة: أهل اليمين، وأهل الشمال، وأهل السبق؛ فأما السابقون فهم أهل الدرجات العُلى في الجنة، وأما أصحاب اليمين فهم سائر أهل الجنة، وأما أصحاب الشمال فهم أهل النار، هذه مراتب الناس في الآخرة. ثم فصَّلهم تعالى بقوله:

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ استفهام للتفخيم لأحوالهم والتعظيم بشأنهم، أي: هل تدري أيُّ شيء أصحاب الميمنة؟ من هم وما هي حالهم وصفتهم؟ إنهم الذين يؤتون صحائفهم في أيمانهم، فهو تعجيب لحالهم، وتعظيم لشأنهم في دخولهم الجنة وتنعمهم بها.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: هل تدري من هم؟ وما هي حالهم وصفتهم؟ إنهم الذين يؤتون صحائفهم بشمالهم، ففيه تعجيب لحالهم في دخولهم النار وشقائهم. والتكرير للتفخيم والتعجيب.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هذا هو الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة، والتكرير فيه للتفخيم والتعظيم، أي: والسابقون إلى الخيرات والحسنات، هم السابقون إلى النعيم والجنات، ثم أثنى عليهم بقوله:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: أولئك هم المقربون من الله، في جواره، وفي ظل عرشه، ودار كرامته، والسابقون المقربون جماعة كثيرة من الأمم السالفة.

وقال ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ حتى يفهم أن ماهم فيه من الله عز وجل وليس شيئًا نالوه بأنفسهم، وإن كان عملهم الصالح وإيمانهم إنما هو في أول الأمر وآخره فضل من الله عز وجل.

قال ابن عثيمين: «ذكر منزلتهم قبل ذكر منزلهم، فالقرب من الله لا يعدله شيء».

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: هم في جنات الخلد يتنعمون فيها. قيل: وأخر ذكر السابقين وكانوا أولى بالتقديم على أصحاب اليمين؟ فيه لطيفة؛ وذلك أن الله ذكر في أول السورة الأمور الهائلة عند قيام الساعة تخويفاً لعباده، فإما محسن فيزداد رغبة في الثواب، وإما مسيء فيرجع عن إساءته خوفاً من العقاب؛ فلذلك قدم أصحاب اليمين ليسمعوا ويرغبوا، ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا، ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ليجدوا ويجتهدوا.

* ثم بدأ سبحانه مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين، فقال تعالى:

(١٣)-(٢٦) ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ *

كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ * جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: السابقون المقربون جماعة كثيرة من الأمم السالفة، لا يحصر عددها.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: وهم قليل من هذه الأمة، وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متأخريها، لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ أي: جالسين على أسرَّة منسوجة بقضبان الذهب، مرصَّعة بالدر والياقوت.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾ أي: حال كونهم مضطجعين على تلك الأسرة شأن المنعمين المترفين، في طمأنينة وراحة واستقرار، وخلو بال من المشاغل.

﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ أي: مستقرين، وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد، وهذا أتم في السرور، واجمع للقلوب، وأكمل في أدب الجلوس.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: يدور على أهل الجنة للخدمة أطفال في نضارة الصبا، لا يموتون ولا يهرمون.

﴿بِأَكْوَابٍ﴾ أي: بأقداح كبيرة مستديرة لا عرى لها.

﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق، أي: وبأباريق لها عرى تبرق من صفاء لونها.

﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ وكأس من خمر لذة جارية من العيون.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا تتصدع رؤوسهم من شربها كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربها، ولا يسكرون فتذهب بعقولهم كخمر الدنيا.

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي: ولهم فيها فاكهة كثيرة يختارون ما تشتهيه نفوسهم لكثرتها وتنوعها.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ولحم طير مما يحبون ويشتهون. قيل: قدم ذكر الفاكهة على اللحم، لأن الفواكه أعز، ولذلك جعل التخير للفاكهة، والاشتهاء للحم، ولأن الاشتهاء أعلق بالطعام منه بالفواكه، فلذة كسر الشهية بالطعام لذة زائدة على لذة حسن طعمه، وكثر التخير للفاكهة فيه لذة أخرى هي لذة تلوين الأصناف، فهم من لذة عظمى إلى مثلها.

﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ أي: ولهم مع ذلك النعيم نساء من الحور العين، الواسعات العيون، في غاية الجمال والبهاء، كأنهن اللؤلؤ في الصفاء والنقاء، الذي لم تمسه الأيدي.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: جعلنا لهم ذلك كله جزاءً لعملهم الصالح في الدنيا. ثم أخبر تعالى عن كمال نعيمهم في الجنة، فقال:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي: لا يطرق آذانهم في جنات

الجزء السابع والعشرون — سورة الواقعة

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ
(١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ
(٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ
ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا
وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا (٢٦) وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ
ٱلْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ
(٣٠) وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ
(٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً (٣٥) فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا
(٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٩)
وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ (٤٠) وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ
(٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ
وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُواْ
يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا
تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ
ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠)

٥٣٥

النعيم، فاحش الكلام، ولا يلحقهم إثم مما يسمعون.

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ أي: إلا كلاماً طيباً وهو قول بعضهم لبعض سلاماً سلاماً، يُحيي به بعضهم بعضاً، ويفشون السلام فيما بينهم.

* ولما فرغ سبحانه من ذكر أحوال السابقين، وما أعدّه لهم من النعيم المقيم، ذكر أحوال أصحاب اليمين، وهم الأبرار، فقال تعالى:

(٢٧)-(٤٠) ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا *

لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ * ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ استفهام للتعظيم والتعجيب من حالهم، أي: ما أدراك من هم، وما هي حالهم؟ فشأنهم عظيم وحالهم جسيم، فهم:

﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ أي: هم تحت أشجار السدر. وللسدر من الخواص، الظل الظليل، وراحة الجسم فيه. قال المفسرون: والسدر: شجر النبق، والمخضود الذي خُضد أي قطع شوكه.

﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ هو شجر الموز. ومعنى منضود، أي: متراكم قد نُضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه.

﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ وظل دائم باق، لا يزول ولا تنسخه الشمس؛ لأن الجنة ظلٌّ كلها لا شمس فيها.

﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾ وماء جار دائماً لا ينقطع يجري في غير أخدود.

﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ وفاكهة كثيرة متنوعة، ليست بالقليلة العزيزة كما كانت في بلادهم، لا تنقطع كما تنقطع ثمار الدنيا في الشتاء، وليست ممنوعة عن أحد.

﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾ أي: عالية، وطيئة، ناعمة، مرفوع بعضها فوق بعض، أو مرفوعة على الأسرة.

﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ أي: خلقنا نساء الجنة خلقاً جديداً، وأبدعنا إبداعاً عجيباً، فجعلناهن عذارى، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً.

﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب، وهي المتحببة لزوجها، العاشقة له بحسن لفظها، وجمال هيئتها، ودلالها وبهائها. فجمع سبحانه بين حُسن صورتها وحسن عشرتها، وهذه غاية ما يطلب من النساء، وبه تكمل لذة الرجل بهن.

﴿أَتۡرَابٗا﴾ أي: مستويات في السن مع أزواجهن، في سن أبناء ثلاث وثلاثين.

﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: أنشأنا هؤلاء النساء الأبكار لأصحاب اليمين ليستمتعوا بهن في الجنة.

﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي: هم جماعة كثيرة من الأولين من الأمم الماضية، وجماعة كثيرة من المتأخرين من أمة محمد ﷺ.

* وبعد أن ذكر سبحانه أهل الجنة وهم السابقون، وأحوال أهل اليمين، ذكر الصنف الثالث المعاند المكذب، وهم أهل النار، والعياذ بالله، فقال:

﴿٤١﴾-﴿٥٦﴾ ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ * وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ * لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ * وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ * وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ * قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ * ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ * لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ * فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ استفهام بمعنى التهويل والتفظيع والتعجيب من حالهم. أي: وأصحاب الشمال ـ وهم الذين يعطون كتبهم بشمائلهم ـ ما أصحاب الشمال؟ أي: ما حالهم، وكيف مآلهم وأي شيء هم فيه؟ ثم فصَّل تعالى حالهم، فقال:

﴿فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ﴾ أي: في ريح حارة من النار تنفذ في المسام. والحميم: وهو الماء الشديد الحرارة.

﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾ أي: وفي ظل من دخان أسود، شديد السواد.

﴿لَّا بَارِدٖ﴾ أي: ليس هذا الظل بارداً يستروح به الإنسان من شدة الحر.

﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي: وليس حسن المنظر يُسرُّ به من يستفيء بظله. ثم ذكر سبحانه أعمالهم التي أوصلتهم إلى هذا الجزاء، فقال:

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾ أي: لأنهم كانوا في الدنيا منعَّمين، مقبلين على الشهوات والملذات، فألهاهم الأمل عن إحسان العمل.

﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: وكانوا يداومون على الذنب العظيم وهو الشرك بالله، لفظ الإصرار يدل على المداومة على المعصية. والحنث: هو الذنب الكبير والمراد به هنا الكفر بالله.

﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ أي: وكانوا ينكرون البعث استبعاداً لوقوعه،

ويقولون: هل سنبعث بعد أن تصبح إجسادنا تراباً وعظاماً نخرة؟ وهذا استبعادٌ منهم لأمر البعث وتكذيب له.

﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ تأكيد للإنكار ومبالغة فيه، أي: وهل سيبعث آباؤنا الأوائل بعد أن بليت أجسامهم وتفتّت عظامهم؟ قال تعالى جواباً لهم، ورداً عليهم:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: قل لهم -يا محمد-: إن الخلائق جميعاً السابقين منهم واللاحقين، سيجمعون ويحشرون ليوم الحساب الذي حدّده الله بوقت معلوم، لا يتقدم ولا يتأخر.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ أي: ثم إنكم يا معشر كفار مكة الضالون عن الهدى، المكذبون بالبعث والنشور، لآكلون من شجر الزقوم الذي ينبت في أصل الجحيم، وهو أقبح الأشجار وأخسها، وأنتنها ريحاً، وأبشعها منظراً.

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ فمالئون بطونكم من تلك الشجرة الخبيثة لغلبة الجوع عليكم، فيلتهب في أكبادهم، وتكاد تنقطع منه أفئدتهم.

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي: فشاربون عليه الماء الحار، الذي اشتد غليانه.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ أي: فشاربون شرب الإبل العطاش.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: هذا الطعام والشراب، ضيافتهم وكرامتهم يوم القيامة، والنُّزُل في الأصل ما يُهيأ للضيف أول قدومه من التحف والكرامة، فتسمية الزقوم نُزلاً، تهكم بهم.

* ولما ذكر تعالى الأشقياء المجرمين وأحوالهم في نار جهنم، ذكر هنا الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته في بديع خلقه وصنعه، لتقوم الحجة على المنكر المكذب بوجود الله، قال تعالى:

﴿٥٧﴾-﴿٦٢﴾ ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: نحن خلقناكم أيها الناس من العدم، فهلا تصدقون بالبعث؟ فإن من قدر على البدء قادر على الإعادة، وفي هذا تبكيت لهم، وإلزام للحجة.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي: أخبروني عما تصبونه من المني في أرحام النساء.

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ استفهام استنكاري، أي: هل أنتم تخلقون هذا المنيَّ بشراً سويّاً، أم نحن بقدرتنا خلقناه وصورناه؟

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: نحن قضينا وحكمنا عليكم بالموت وساوينا بينكم فيه، سواء

الجزء السابع والعشرون | سورة الواقعة

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾
فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ
شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا
تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ
ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾
عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ
عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ
﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ
حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ
مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ
مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا
تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ
شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا
لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ
بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

٥٣٦

فيه الشريف والوضيع، والأمير والصعلوك والصغير والكبير.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ وما نحن بعاجزين ومغلوبين.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ على أن نهلككم ونستبدل قوماً غيركم، يكونون أطوع لله منكم.

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: ولسنا بعاجزين أيضاً أن نعيدكم يوم القيامة في خلقة لا تعلمونها، ولا تصل إليها عقولكم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ولقد عرفتم أن الله أنشأكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة.

﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فهلا تتذكرون بأن الله قادر على إعادتكم كما قدر على خلقكم أول مرة؟

* ثم ذكر سبحانه بامتنانه على عباده، ما يدعوهم إلى توحيده وعبادته والإنابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزرع والثمار، فتخرج منه الأقوات والأرزاق، قال تعالى:

﴿٦٣﴾-﴿٧٤﴾ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ * نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ هذه حجة أخرى على وحدانية الله وقدرته، أي: أخبروني عن البذر الذي تلقونه في الطين بعد تحريكه.

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ أي: أأنتم تنبتونه وتنشئونه حتى يكون فيه السنبل والحبُّ، أم نحن الفاعلون لذلك؟ فإذا أقررتم أن الله هو الذي يُخرج الحبَّ ويُنبت الزرع، فكيف تُنكرون إخراجه الأموات من الأرض؟

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: لو أردنا لجعلنا هذا الزرع هشيماً متكسراً، لا يُنتفع به في طعام ولا غيره، فظللتم وبقيتم تتحسرون وتحزنون على الزرع مما حلَّ به، وتقولون:

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي: إنا المحمَّلون الغرم في إنفاقنا حيث ذهب زرعنا، وغرمنا الحبَّ الذي بذرناه. والمغرم: الذي ذهب ماله بغير عوض.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ بل نحن محرومون الرزق، غرمنا قيمة البذر، وحرمنا خروج الزرع.

ولما ذكر سبحانه نعمته على عباده بالطعام، ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي تقوم به حياتهم، فقال تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ أي: أخبروني عن الماء الذي تشربونه عذباً فراتاً لتدفعوا به عنكم شدة العطش، واقتصر سبحانه على ذكر الشرب مع كثرة فوائد الماء ومنافعه؛ لأن الشرب أعظم فوائده، وأجل منافعه.

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ هل أنتم الذين أنزلتموه من السحاب، أم نحن المنزلون له بقدرتنا؟ ذكرهم تعالى نعمته عليهم بإنزال المطر الذي لا يقدر عليه إلا الله ﷻ.

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ لو شئنا لجعلناه ماء مالحاً شديد الملوحة، لا يصلح لشرب ولا لزرع، ولا غيرهما.

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي: فهلا تشكرون ربكم على نعمه الجليلة عليكم؟! وفي الحديث أن النبي ﷺ كان إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي سقانا عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا» [رواه البيهقي].

ثم ساق لعباده نعمة أخرى، ليتذكروا حق المنعم المتفضل ﷻ، فقال تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ أي: أخبروني عن النار التي تقدحونها وتستخرجونها من الشجر الرطب.

﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ هل أنتم الذين خلقتم شجرها، أم نحن الخالقون المخترعون بقدرتنا؟ ومعنى الإنشاء: الخلق وعبر عنه بالإنشاء؛ للدلالة على ما في ذلك من بديع الصنعة، وعجيب القدرة.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ أي: جعلنا نار الدنيا تذكيراً للنار الكبرى إذا رآها الرائي ذكر بها نار جهنم، فيخشى الله ويخاف عذابه.

﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ ومنفعة للمسافرين، وأهل البوادي النازلين في الأراضي المقفرة، يقال: أرض قواء، أي: مقفرة.

وجعل الله النار تذكرة للمقوين؛ أي: المسافرين، مع أن منفعتها عامة؛ تنبيهاً لعباده على أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر، ليس مقيمين ولا مستوطنين.

ولما ذكر سبحانه دلائل القدرة والوحدانية في الإنسان، والنبات، والماء والنار، أمر رسوله بتسبيح ربه الواحد القهار، فقال:

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فنزه -يا محمد- ربك العظيم، كامل الأسماء والصفات، عما أضافه إليه المشركون من صفات العجز والنقص، وقل: سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته وسخَّرها لنا بحكمته، -

سبحانه ما أعظم شأنه، وأكبر سلطانه.

وفي الآيات السابقة عدد ﷻ بعض نعمه على عباده، فبدأ بذكر خلق الإنسان، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ ثم بما به قوامه ومعيشته وهو الزرع، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ ثم بما به حياته وبقاؤه وهو الماء، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ ثم بما يصنع به طعامه، ويصلح به اللحوم والخضار وهو النار، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ فياله من إله كريم، ومنعم عظيم.

* ثم شرع بالقسم على جلال القرآن ورفعته، وعلو شأنه ومنزلته، وأنه تنزيل العزيز الحكيم، فقال:

(٧٥)-(٨٢) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: فأقسم بمنازل النجوم، وأماكن دورانها في أفلاكها وبروجها.

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وإن هذا القسم العظيم، جليل، لو عرفتم عظمته لآمنتم وانتفعتم به، لما في المُقسم به من الدلالة على عظيم القدرة، وكمال الحكمة، وفرط الرحمة، ومن مقتضيات رحمته تعالى أن لا يترك عباده سُدى.

والمناسبة بين المقسم به وهو النجوم، وبين المقسم عليه، وهو القرآن، في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ أن النجوم جعلها الله ليهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يُهتدى بها في ظلمات الجهل والضلالة، وتلك ظلمات حسية، وهذه ظلمات معنوية، فالقسم هنا جاء جامعاً بين الهدايتين: الحسية للنجوم، والمعنوية للقرآن.

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ هذا هو المقسم عليه، وأنه حق لا ريب فيه، ولا شك يعتريه، وأنه كريم كثير الخير، غزير العلم، فكل خير وعلم، فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه.

﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ أي: هذا القرآن في كتاب مصون عند الله تعالى، محفوظ عن الباطل، وعن التبديل والتغيير، وهذا الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: لا يمس ذلك الكتاب المكنون إلا المطهرون، وهم الملائكة الموصوفون بالطهارة من الشرك والذنوب والأحداث، أو لا يمسُّه إلا من كان متوضئاً طاهراً.

قال ابن تيمية: كما أن اللوح المحفوظ الذي كتب فيه حروف القرآن لا يمسه إلا بدن طاهر، فمعاني القرآن لا يذوقها إلا القلوب الطاهرة، وهي قلوب المتقين.

الجزء السابع والعشرون — سورة الواقعة

إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا
ٱلْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ
أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلَآ
إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ
إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ
(٨٦) تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٨٧) فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ
(٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ
(٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٩٦)

سُورَةُ الحَدِيدِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ
ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣)

٥٣٧

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ صفة رابعة للقرآن، أي: إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة، هو تنزيل رب العالمين منزَّل من عند الله ﷻ. ثم لمَّا عظم أمر القرآن ومجَّد شأنه، وبَّخ الكفار وعاتبهم، فقال:

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ أفبهذا القرآن العظيم يا معشر الكفار تكذبون وتكفرون؟

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون برازقكم، وتضيفون النعمة لغير مسديها ومولِيها، وهو سبحانه المنعم المتفضل عليكم؟ وفي هذا إنكار على من يتهاون بأمر القرآن ولا يبالي بدعوته، ثم قال تعالى:

(٨٣)-(٨٧) ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ

﴿إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ أي: فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم عند معالجة سكرات الموت.

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ وأنتم في ذلك الوقت تنظرون إلى المحتضر، وما يكابده من شدائد وأهوال.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ أي: ونحن بعلمنا واطلاعنا أقرب إلى الميت منكم ولكن لا تعلمون ذلك، ولا تبصرون ملائكتنا الذين حضروه لقبض روحه، قال ابن كثير: ومعنى الآية ملائكتنا أقرب إليه منكم ولكن لا ترونهم.

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: فهلا إن كنتم غير مجزيين بأعمالكم كما تزعمون.

﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تردون نفس هذا الميت إلى جسده بعد ما بلغت الحلقوم. والمعنى: إن كان الأمر كما تقولون أنه لا بعث ولا حساب، ولا إله يجازي، فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم؟ وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم، وهو الله تعالى فآمنوا به، قال:

* وختمت السورة بذكره تعالى طبقات الناس عند الموت وعند البعث، وبين درجاتهم في الآخرة بذكر الطوائف الثلاث، وهم أهل السعادة، وأهل الشقاوة، والسابقون إلى الخيرات من أهل النعيم، وبيّنت عاقبة كل منهم، ذكرت أحوالهم عند الموت والاحتضار، فكان ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من لإجمال، والإشادة بذكر مآثر المقربين في البدء والختام، قال تعالى:

﴿٨٨﴾-﴿٩٦﴾ ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي: فأما إن كان هذا الميت من المحسنين السابقين بالدرجات العلا السابقين المذكورين في أول السورة الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات، والمكروهات، وفضول المباحات، فلهم عند ربهم روح: أي راحة وطمأنينة، وسرور وبهجة، ونعيم القلب والروح. وريحان: وهو اسم جامع لكل لذة بدنية، ورزق حسن، وجنة واسعة يتنعم فيها.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين، وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، فهم من السعداء أهل الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم.

﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ فسلام لك -يا محمد- منهم، لأنهم في راحة وسعادة ونعيم.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وأما إن كان المحتضر من المنكرين للبعث، الضالين عن الهدى والحق، وهم أصحاب الشمال المتقدم ذكرهم، وتفصيل أحوالهم.

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ فضيافتهم التي يكرمون بها أول قدومهم، الحميم الذي يصهر البطون لشدة حرارته. والنزل أول شيء يقدم للضيف.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: ولهم إصلاء بنار جهنم، وإذاقة لهم من حرها. والتصلية: من صلاء الله النار فهو تصلية، وذلك إذا أحرقه بها.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ إن هذا الذي قصصناه عليك -يا محمد- من جزاء السابقين، والسعداء، والأشقياء، لهو الحق الثابت الذي لا شك فيه ولا ريب، وهو عين اليقين الذي لا يمكن إنكاره، فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم إلى اليقين؛ وعن درجة اليقين إلى حقه.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فنزه ربك عن النقص والسوء، وعما يصفه به الظالمون. ولما نزلت هذه الآية الكريمة، قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال ﷺ: «اجعلوها في سجودكم» [رواه أبو داود].

تم تفسير سورة الواقعة
والحمد لله

تفسير سورة الحديد
وهي مدنية

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية، التي تعنى بالتشريع والتربية والتوجيه، وتبني المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية، والخلق الكريم، والتشريع الحكيم، وسميت السورة، «سورة الحديد» لذكر الحديد فيها، وهو قوة الإنسان في السلم والحرب.

وقد ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن عظمة الخالق ﷻ الذي سبَّح له كل ما في الكون من شجر وحجر، ومدر، وإنسان، وحيوان، وجماد، فالكل ناطق بعظمته، شاهد بوحدانيته، وفي القرآن العظيم خمس سور بدأت بالتسبيح وهي سور: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن. قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٣﴾ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يخبر سبحانه عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه، أن جميع ما في الكون من إنسان، وحيوان، ونبات، تسبح بحمده، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وأنها قانتة لربها، منقادة لعزته، قد ظهرت فيها آثار حكمته، ولهذا قال:

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهو العزيز الغالب على أمره، الذي لا يمانعه ولا ينازعه شيء، الحكيم في أفعاله، الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة. ثم ذكر تعالى عظمته وقدرته، فقال:

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: هو -جل وعلا- المالك المتصرف في خلقه، يحيي من يشاء، ويُميت من يشاء.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولفظ ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغة في القادر؛ لأن «فعيل» من صيغ المبالغة.

ثم ذكرت الآيات صفات الله الحسنى، وأسماءه العليا، فهو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، والظاهر بآثار مخلوقاته، والباطن الذي لا يعرف كنه حقيقته أحد، وهو الخالق للإنسان والمدبر للأكوان.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبله شيء.

﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء.

﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ الذي ليس فوقه شيء.

﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ الذي ليس دونه شيء.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهو تعالى عالمٌ بكل ذرة في الكون، لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء.

* ثم جلى بعض آياته في الكون، وعظيم صنعه في الآفاق، فقال تعالى:

﴿٤﴾-﴿٦﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ * يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هذا بيان لبعض ملكه للسموات والأرض، أي: خلقهما في مقدار ستة أيام، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، ولو شاء لخلقهما بلمح البصر، وهو تحقيق لعزته، وكمال قدرته.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ يعلم ما يدخل في الأرض من مطر وأموات وحب، وما يخرج منها من معادن، ونبات، وشجر، وحيوان، وغير ذلك.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ وما ينزل من السماء من الأرزاق، والملائكة، والرحمة، والعذاب، وما يصعد فيها من الملائكة، والأعمال الصالحة.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي: هو ﷻ حاضرٌ مع كل أحد بعلمه وإحاطته وهو رقيب عليكم، شهيداً على أعمالكم، حيث كنتم وأين كنتم، من بر وبحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو القفار، الجميع في علمه على السواء، يسمع كلامكم، ويرى مكانكم، ويعلم سرَّكم ونجواكم.

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ
عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ
﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم
مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾
وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ
أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ
ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ
وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ
وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا
ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: رقيب على أعمال العباد، مطلع على كل صغيرة وكبيرة، لا يخفى عليه من أعمالكم شيء.

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كرره للتأكيد والتمهيد لإثبات الحشر والنشر، أي: هو المعبود على الحقيقة، المتصرف في الخلق كيف يشاء.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ إليه وحده مرجع أمور الخلائق في الآخرة، فيجازيهم على أعمالهم.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ أي: هو المتصرف في الكون كيف يشاء، يقلب الليل والنهار بحكمته وتقديره، ويدخل كلا منهما في الآخر، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وأخرى بالعكس.

﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وهو العالم بالسرائر والضمائر، وما فيها من النوايا والخفايا، ومن كانت هذه صفته فلا يجوز أن يُعبد سواه.

* ثم لما ذكر دلائل عظمته وقدرته، أمر بتوحيده وطاعته، تلتها الآيات التي تدعو المسلمين إلى البذل والسخاء، والإنفاق في سبيل الله، بما يحقق عزة الإسلام ورفعة شأنه، فلا بدَّ للمؤمن من الجهاد بالنفس والمال، لينال السعادة في الدنيا، والمثوبة في الآخرة، قال تعالى:

﴿٧﴾-﴿١١﴾ ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: صدقوا بأن الله واحد، وأن محمداً عبده ورسوله.

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ وتصدقوا من الأموال التي جعلكم الله خلفاء في التصرف فيها، فهي في الحقيقة لله لا لكم.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ فالذين جمعوا بين الإيمان الصادق والإنفاق في سبيل الله ابتغاء وجهه الكريم، لهم أجر عظيم، وهو الجنة، وفي هذا ترغيب في الإيمان، والإنفاق في الطاعة.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ، أي: أيُّ عذرٍ لكم في ترك الإيمان بالله وعدم التصديق؟

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ والحال أن الرسول ﷺ يدعوكم للإيمان بربكم وخالقكم، بالبراهين القاطعة، والحجج الدامغة.

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ وقد أخذ الله ميثاقكم - وهو العهد المؤكد - بالبراهين، بما ركز في العقول من الأدلة الدالة على وجود الله.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط حذف جوابه، أي: إن كنتم مؤمنين في وقت من الأوقات، فالآن أحرى الأوقات لقيام الحجج والبراهين عليكم. ثم ذكر تعالى بعض الأدلة على وجوب الإيمان، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: هو تعالى الذي ينزل على محمد ﷺ القرآن العظيم، المعجز في بيانه، الواضح في أحكامه.

﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ليخرجكم الله بالقرآن من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

لما ذكر تعالى في القرآن ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جمع، والنور مفرد، وهذا من إعجاز القرآن؛ لأن طريق الحق واحد وطرق الباطل متشعبة متعددة.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: مبالغ في الرأفة والرحمة بكم، حيث أنزل الكتب، وأرسل الرسل لهدايتكم، ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للتقريع والتوبيخ، أي: أيُّ شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، وفيما يقربكم من ربكم، وأنتم تموتون وتخلفون أموالكم، وهي صائرة إلى الله تعالى؟ وهذا من أبلغ الحث على الإنفاق في سبيل الله.

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أي: لا يستوي في الفضل من أنفق ماله، وقاتل الأعداء مع رسول الله قبل فتح مكة، مع من أنفق ماله وقاتل بعد الفتح، وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم؛ لأن حاجة الإسلام إلى الجهاد والإنفاق كانت أشد، ثم أعز الله الإسلام بعد الفتح وكثر ناصريه، ودخل الناس في دين الله أفواجاً. قال ابن تيمية: وبالشجاعة والكرم في سبيل الله فضل السابقون.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ أي: أعظم أجراً، وأرفع منزلة من الذين أنفقوا من بعد فتح مكة وقاتلوا لإعلاء كلمة الله.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وكلاً ممن آمن وأنفق قبل الفتح، ومن آمن وأنفق بعد الفتح، وعده الله الجنة مع تفاوت الدرجات.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عالمٌ بأعمالكم، مطلع على خفاياكم ونواياكم، ومجازيكم عليه، وفي الآية وعدٌ ووعيد.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: من ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله ابتغاء رضوانه. سمى ذلك الإنفاق قرضاً حسناً، حثاً للنفوس وبعثاً لها على البذل، لأن الباذل متى علم أن المستقرض مليء وفيّ محسن، كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه.

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي: يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً.

﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: وله مع المضاعفة ثواب عظيم كريم وهو الجنة. ومن كرم الله تعالى أن سماه قرضاً، والمال ماله، والعبد عبده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافاً كثيرة، وهو الكريم الوهاب وتلك المضاعفة محلها وموضعها يوم القيامة، يوم كل تبين فقر، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزاء الحسن.

* وتحدثت الآيات عن أهل الإيمان، وأهل النفاق، فالمؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فرحين مغتبطين به يوم القيامة والمنافقون يتخبطون في الظلمات، كما كانوا في الدنيا يعيشون كالبهائم، في ظلمات الجهل والغي والضلال، قال تعالى:

﴿١٢﴾-﴿١٥﴾ ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ * فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، صار الناس في الظلمة، ونصب الصراط على متن جهنم، فحينئذ ترى أنوار المؤمنين والمؤمنات تتلألأ من أمامهم، ومن جميع جهاتهم ليستضيئوا بها على الصراط، وتكون وجوههم مضيئة، كإضاءة القمر في سواد الليل.

﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: ويقال لهم: أبشروا اليوم بجنات الخلد والنعيم، التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنة.

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ
لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ
فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ
وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ
وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ
حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ
فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ
قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ
مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا
لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ
وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾

٥٣٩

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبداً.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: دخول الجنة والخلود فيها، هو الفوز الذي لا فوز بعده؛ لأنه سبب السعادة الأبدية. روي أن نور كل أحد على قدر إيمانه، وأنهم متفاوتون في النور، فمنهم من يضيء نوره ما قرب من قدميه، ومنهم من يطفأ نوره مرة ويظهر مرة.

ولما شرح تعالى حال المؤمنين يوم القيامة، أتبع ذلك بشرح حال المنافقين، فقال:

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا وهم على الصراط، انتظرونا لنستضيء من نوركم، فإن الله تعالى يعطي المؤمنين نوراً يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويترك الكافرين والمنافقين بلا نور، فيستضيء المنافقون بنور المؤمنين، فبينما هم يمشون إذ بعث الله ريحاً وظلمة، فبقوا في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم، فيقولون للمؤمنين: انتظرونا لنستضيء بنوركم.

﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ فيقول المؤمنون للمنافقين والمنافقات، سخرية واستهزاءً بهم: ارجعوا إلى الدنيا، فالتمسوا هذه الأنوار هناك، وقد علموا أن لا نور وراءهم، وإنما هو إقناط لهم.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ﴾ أي: فجعل بين المؤمنين والمنافقين حاجز له باب، يحجز بين أهل الجنة وأهل النار.

﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ أي: في باطن السور الذي هو جهة المؤمنين الرحمة، وهي الجنة، وفي ظاهره وهو جهة الكافرين العذاب، وهو: النار. قال ابن كثير: هو سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب، وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين من وراء السور: ألم نكن معكم في الدنيا، نُصلي كما تصلون ونصوم كما تصومون، ونحضر الجمعة والجماعات، ونقاتل معكم في الغزوات؟

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: قال لهم المؤمنون: نعم كنتم معنا في الظاهر، ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق والمعاصي.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: انتظرتم بالمؤمنين الدوائر، وشككتم في أمر الدين، ولم تصدقوا ما نزل من القرآن.

﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ وخدعتكم الأماني الفارغة بسعة رحمة الله.

﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي: حتى جاءكم الموت، وخدعكم الشيطان الماكر، بقوله: إن الله عفو كريم لا يعذبكم.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ففي هذا اليوم العصيب لا يقبل منكم بدل ولا عوض يا معشر المنافقين، ولا من الكافرين الجاحدين بالله وآياته.

﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: مقامكم ومنزلكم، نار جهنم، هي عونكم وسندكم وناصركم، لا ناصر لكم غيرها، وهو تهكم بهم.

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وبئس المرجع والمنقلب نار جهنم.

* لما ذكر تعالى اغترار المنافقين والكافرين بالحياة الدنيا، نبَّه المؤمنين ألا يكونوا مثلهم، أو مثل أهل الكتاب بالاغترار بدار الفناء، ثم ضرب مثلاً للحياة الدنيا وبهرجها الخادع الكاذب، وذكر دلائل وحدانيته وعظمته مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة لعظمته، فعاتب الله

المؤمنين عتاباً فيه ود، وفيه الحض، فقال تعالى:

﴿١٦﴾،﴿١٧﴾ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۞ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: أما حان للمؤمنين أن ترق قلوبهم وتلين لمواعظ الله؟

قال ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلا أربع سنين [رواه مسلم].

﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ولما نزل من آيات القرآن المبين.

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ولا يكونوا كاليهود والنصارى، الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيل.

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فطال عليهم الزمن الذي بينهم وبين أنبيائهم، فلم يثبتوا على الطاعة والاستقامة بل طالت عليهم المدة، واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وكثير من أهل الكتاب خارجون عن طاعة الله، رافضون لتعاليم دينهم، من فرط قسوة القلب.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ اعلموا يا معشر المؤمنين أن الله يحيي الأرض القاحلة المجدبة بالمطر، ويخرج منها النبات بعد يبسها، وهو تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر وتلاوة القرآن، كما تحيا الأرض المجدبة بالغيث الهتان.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: وضحنا لكم الحجج والبراهين الدالة على كمال قدرتنا ووحدانيتنا، لكي تعقلوا وتتدبروا ما أنزل الله في القرآن.

* ثم ذكر سبحانه حافزاً لأهل البذل والعطاء، في المال والنفس والفداء، ويخبر عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة، والفقر، والمسكنة، قال تعالى:

﴿١٨﴾،﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۞ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ أي: الذين تصدقوا بأموالهم على الفقراء ابتغاء وجه الله، والذين أنفقوا في سبيل الله، وفي وجوه البر والإحسان طيبة بها نفوسهم.

﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخراً لهم، وذخراً عند ربهم.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يضاعف لهم ثوابهم بأن تكتب الحسنة بعشر أمثالها، ولهم فوق ذلك ثواب حسن جزيل، وهو الجنة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ أي: صدَّقوا بوحدانية الله ووجوده، وآمنوا برسله إيماناً راسخاً كاملاً، لا يخالجه شك ولا ارتياب. والإيمان عند أهل السنة والجماعة، هو: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح والأركان.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: أولئك الموصوفون بالإيمان بالله ورسله، هم الذين جمعوا أعلى المراتب، فحازوا درجة الصديقية والشهادة في سبيل الله. ومقام الصديقين مقام رفيع كما فصلته وذكرته الأحاديث النبوية، ومع علو هذا المقام، فهو بفضل الله ميسور لمن سعى لنيله وطلبه. والصديق: الكثير الصدق.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ لهم في الآخرة الثواب الجزيل، والنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: والذين جحدوا بوحدانية الله وكذبوا بآياته أولئك هم المخلدون في دار الجحيم.

* ولما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين، ذكر بعدها حقيقة الدنيا وما هي عليه، وبين غايتها وغاية أهلها، وذكر ما يدل على حقارة الدنيا، وكمال حال الآخرة، فقال:

﴿٢٠﴾،﴿٢١﴾ ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ
عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ
ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ
وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ
مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ
مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠
سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ
ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١ مَآ أَصَابَ
مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن
قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا
تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ
لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٤

٥٤٠

وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ * سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ **أي: اعلموا - أيها الناس - أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا لعب يتعب الناس فيها أنفسهم كإتعاب الصبيان أنفسهم باللعب، أو شغل للإنسان يشغله عن الآخرة وطاعة الله.**

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ﴾ **«اللعب واللهو غير محمودين عند عقلاء الناس، وأما الزينة فهي متاع يذهب وليس بثابت».**

﴿وَزِينَةٞ﴾ **أي: وزينة يتزين بها الجهلاء كالملابس الحسنة، والمراكب البهية، والمنازل الرفيعة.**

﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ **أي: ومباهاة وافتخار بالأحساب والأنساب، والمال والولد، ومباهاة بكثرة الأموال والأولاد.**

ثم ضرب للدنيا مثلاً، بغيث نزل على الأرض، ثم ماذا كان حاله ونهايته، فقال تعالى:

﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ **أي: كمثل مطر غزير أصاب أرضاً، فأعجب الزُّرّاع نباته الناشئ عنه.**

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾ **أي: ثم ييبس بعد خضرته ونضرته، فتراه مصفر اللون بعد أن كان زاهياً ناضراً، ثم يتحطم ويتكسر بعد يبسه وجفافه، فيصبح هشيماً تذروه الرياح، كذلك حال الدنيا.**

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞ﴾ **أي: والجزاء في الآخرة؛ إما عذاب شديد للفجار، وإما مغفرة من الله ورضوان للأبرار.**

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ **أي: وليست الحياة الدنيا في حقارتها وسرعة انقضائها إلا متاع فانٍ زائل، ينخدع بها الغافل، ويغتر بها الجاهل.**

ولما حقَّر سبحانه الدنيا وصغَّر أمرها، وعظَّم الآخرة وفخَّم شأنها، حثَّ على المسارعة إلى نيل مرضاته، التي هي سبب للسعادة الأبدية في دار الخلود والجزاء، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة، من التوبة النصوح، والاستغفار، والبعد عن الذنوب، فقال:

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ **أي: تسابقوا أيها الناس، وسارعوا بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم. كأنهم في ميدان سباق يجرون إلى غاية مسابقين إليها، سابقوا إلى سبب مغفرة، وهو الإيمان، وعمل الطاعات، سباقاً إلى ذلك المُلك العريض.**

﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ **أي: وسارعوا إلى جنة واسعة فسيحة، عرضها كعرض السموات السبع مع الأرض مجتمعة.**

﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ **أي: هيأها الله وأعدها للمؤمنين المصدقين بالله ورسله.**

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ **قال العلماء هذه الجملة تشمل أركان الإيمان الستة.**

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ **أي: ذلك الموعود به من المغفرة والجنة هو عطاء الله الواسع، يتفضل به على من يشاء من عباده من غير إيجاب.**

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ **ذو العطاء الواضح والإحسان الجليل، وهذا من أعظم فضله ومنه على عباده.**

*** ثم انتقلت الآيات إلى ذكر عموم قضاء الله ﷻ وقدره في الكون والأنفس، قال تعالى:**

﴿٢٢﴾-﴿٢٤﴾ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما يحدث في الأرض من المصائب: كقحط، وزلزلة، وعاهة في الزروع، ونقص في الثمار وغيرها، وهو شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق.

﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من الأمراض، والأوصاب، والفقر، وذهاب الأولاد.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ إلا وهي مكتوبة في اللوح المحفوظ، من قبل أن نخلقها ونوجدها، فلابد من نفوذه ووقوعه.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إن إثبات ذلك على كثرته، سهل هين على الله ﷻ وإن كان عسيراً على العباد.

ثم بين تعالى لنا الحكمة في إعلامنا عن كون هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر، فقال:

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: أثبت وكتب ذلك، كي لا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا.

﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ولكي لا تبطروا بما أعطاكم الله من زهرة الدنيا ونعيمها فإن ذلك يزول عن قريب، وكل زائل عن قريب لا يستحق أن يفرح بحصوله، ولا يحزن على فواته.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: لا يحب كل متكبر معجب بما أعطاه الله من حظوظ الدنيا، فخور به على الناس، ينسبها إلى نفسه وتطغيه وتلهيه. ثم بيّن تعالى أوصاف هؤلاء المذمومين، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ أي: يبخلون بالإنفاق في سبيل الله، ولا يكفيهم ذلك حتى يأمروا الناس بالبخل ويرغبوهم في الإمساك، فهم أمسكوا وبخلوا بأموالهم، وحثوا الناس على هذا الخلق الذميم.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: ومن يعرض عن الإنفاق وطاعة الله، فإن الله مستغن عنه وعن إنفاقه، محمود في ذاته وصفاته، لا يضره الإعراض عن شكره، ولا تنفعه طاعة الطائعين، وفيه وعيد وتهديد.

* ثم ذكر ﷻ الغاية من بعثة الرسل الكرام، وما أنزله معهم من البيان الواضح والحجة الدامغة، فقال تعالى:

﴿٢٥﴾ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ اللام موطئة لقسم محذوف، أي: والله لقد بعثنا رسلنا بالحجج القواطع والمعجزات البينات، الدالة على صدق ما جاءوا به.

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ وأنزلنا معهم الكتب السماوية التي فيها سعادة البشرية، وأنزلنا الشرائع والأحكام التي يُحكم بها بين الناس. وفسّر بعضهم الميزان بأنه العدل.

﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: ليقوم الناس بالحق والعدل في معاملاتهم.

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: وخلقنا وأوجدنا الحديد فيه قوة شديدة؛ لأن آلات الحرب تُتخذ منه، كالدروع، والرماح، والتروس، وغير ذلك.

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: وفيه منافع كثيرة للناس، كسكك الحراثة والسكين، والفأس، وآلات الزراعة، والنجارة، والصناعة، وغير ذلك، وما من صناعة إلا والحديد آلة فيها. وقرن تعالى في هذا الموضع بين الكتاب والحديد؛ لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان، والسيف الناصر بإذن الله.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وأنزلنا الحديد ليقاتل به المؤمنون أعداءهم، ويجاهدوا لإعلاء كلمة الله، وليعلم الله من ينصر دينه ورسله باستعمال السيوف والرماح وسائر الأسلحة، مؤمناً بالغيب. وبما أعد الله للشهداء والمجاهدين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: قادر على الانتقام من أعدائه بنفسه، عزيزٌ، أي: غالب لا يُغالب؛ فهو غني بقدرته وعزته عن كل أحد، وهو قوي عزيز ينصر من شاء من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلوا بعضهم ببعض.

* لما ذكر بعثة الرسل، ذكر إجمالاً نوع تفصيل، وذكر هنا شيخ الأنبياء نوحاً عليه السلام، وأبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام وبيّن أنه جعل في نسلهما النبوة والكتب السماوية، فهي شجرة واحدة باسقة، متشابكة الفروع فيها النبوة والكتاب، قال تعالى:

﴿٢٦﴾، ﴿٢٧﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ
بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ
بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ
وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم
بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا
فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً
ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ
فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا
تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ
أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ
ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

٥٤١

مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ **أي: وبالله لقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا النبوة في نسلهما، كما أنزلنا الكتب الأربعة وهي: التوراة والزبور، والإنجيل والقرآن، على ذريتهما، وإنما خص نوحاً وإبراهيم بالذكر تشريفاً لهما وتخليداً لمآثرهما الحميدة.**

﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ **أي: فمن ذرية نوح وإبراهيم أناس مهتدون، وكثير منهم عصاة خارجون عن الطاعة وعن الطريق المستقيم.**

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ **ثم أتبعنا بعدهم برسلنا الكرام، أرسلناهم رسولاً بعد رسول، موسى، وإلياس، وداود، وسليمان، ويونس وغيرهم.**

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ **أي: أرسلنا رسولاً بعد رسول، حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم؛ لأنه كان آخر الأنبياء من بني إسرائيل، وأنزلنا عليه الإنجيل، الذي فيه البشارة بمحمد ﷺ.**

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ **وجعلنا في قلوب أتباعه الحواريين الشفقة واللين، ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوباً، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام.**

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ **أي: وعبادة ابتدعها القُسُس والرهبان وأحدثوها من عند أنفسهم، ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها.**

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ **أي: ما أمرناهم إلا بما يرضي الله.**

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ **فما قاموا بها حق القيام، ولا حافظوا عليها كما ينبغي، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوا على أنفسهم. ومنهم من هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال:**

﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ **فأعطينا الصالحين من أتباع عيسى الذين ثبتوا على العهد، وآمنوا بمحمد ﷺ ثوابهم مضاعفاً.**

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ **وكثير من النصارى خارجون عن حدود الطاعة، منتهكون لمحارم الله.**

*** ثم أمر سبحانه المؤمنين بالرسل المتقدمين بالتقوى والإيمان بمحمد ﷺ، وختم السورة ببيان فضيلة التقوى والعمل الصالح، فقال:**

﴿٢٨﴾، ﴿٢٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ **أي: يا من صدقتم بالله، اتقوا الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وداوموا، واثبتوا على الإيمان.**

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ **أي: يعطكم ضعفين من رحمته، بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل.**

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ **أي: ويجعل لكم في الآخرة نوراً تمشون به على الصراط، ويغفر لكم ما أسلفتم من المعاصي.**

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **أي: عظيم المغفرة، واسع الرحمة.**

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: إنما بالغنا في هذا البيان ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بهم، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة فيهم. قال المفسرون: إن أهل الكتاب كانوا يقولون الوحي والرسالة فينا، والكتاب والشرع ليس إلا لنا، والله خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين، فردَّ الله عليهم بهذه الآية الكريمة.

﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ وأن أمر النبوة والهداية والإيمان بيد الرحمن، يعطيه لمن يشاء من خلقه.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فلا يستكثر هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم، الذي عم فضله أهل السموات والأرض، فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك.

تم تفسير سورة الحديد

والحمد لله

تفسير سورة المجادلة
وهي مدنية

* سورة المجادلة سورة مدنية، وتسمى سورة «قد سمع» تصور الآيات في أولها حالة وقعت في بيت من البيوت يقبع في أطراف المدينة، ويتنزل الوحي ليتدخل في شأن يومي لأسرة صغيرة فقيرة مغمورة. والآيات وما جرى فيها من أحداث تملأ قلب المؤمن بوجود الله وقربه وعطفه ورعايته، وكلاءته وعنايته.

قال ابن عاشور في أغراض سورة المجادلة: «تعليماً لنساء الأمة الإسلامية ورجالها واجب الذود عن مصالحها».

وقد نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكته زوجته إلى الله، وجادلته إلى رسول الله ﷺ لما حرمها على نفسه بعد الصحبة الطويلة، والأولاد، وكان هو رجلاً شيخاً كبيراً.

وقد ورد اسم الجلالة (الله) في كل آية منها، ومجيء اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ يغلب في مقام الأحكام ومقام الإجلال والمهابة.

وفي السورة جملة من الأحكام التشريعية كأحكام الظِّهار، والكفارة التي تجب على المظاهر، وحكم التناجي، وآداب المجالس، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ، وأحكام الولاء والبراء وعدم مودة الكافرين. وختمت السورة ببيان حقيقة الحب في الله، والبغض في الله، الذي هو أصل الإيمان، وأوثق عرى الدين، قال تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ (١).

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أي: حقاً لقد سمع الله قول المرأة التي تحاورك وتُراجعك الكلام في شأن زوجها وأمره وما جرى بينهما.

﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وتتضرع إلى الله تعالى في تفريج كربتها، وتظهر ما بها من المكروه. عن عائشة قالت: «ـ تبارك ـ الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله أكَلَ شبابي، ونَثَرْتُ له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ وهو أوس بن الصامت أحد الأنصار».

﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ أي: ما تتراجعان به من الكلام والحديث، ماذا قالت لك، وماذا رددت عليها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ لجميع الأصوات، سميع بمن يناجيه ويتضرع إليه.

﴿بَصِيرٌ﴾ بمن يشكو إليه، يبصر دبيب النملة السوداء على الصخرة

الجزء الثامن والعشرون سورة المجادلة

سورة المجادلة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٦

٥٤٢

الصماء في الليلة الظلماء، وفي هذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطته بالأمور الدقيقة والجليلة، وهو كالتعليل لما قبله، وكلاهما من صيغ المبالغة في العلم بالمسموعات والمبصرات، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله تعالى سيزيل شكواها، ويرفع بلواها، ولهذا ذكر حكمها، وحكم غيرها على وجه العموم. ويؤخذ من الآية وجوب رفع الشكوى إلى المولى ﷻ الذي يكشف الضر ويرفع البلوى.

* ثم ذم ﷻ الظهار، وبين حكمه وجزاء فاعله، فقال:

﴿٢﴾-﴿٤﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ معنى الظهار أن يقول الرجل لامرأته: أنتِ عليّ كظهر أمي، يقصد بذلك تحريم زوجته عليه كتحريم أمه، وفي قول ﴿مِنكُمْ﴾ توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم في الظهار.

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ أي: ما نساؤهم بأمهاتهم، فذلك كذب منهم، وفي هذا توبيخ للمظاهرين وتبكيت لهم.

﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ أي: ليست أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم من بطونهن، وهو تأكيد لقوله ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي: وإن المظاهرين ليقولون قولاً شنيعاً، وهو تشبيهه زوجته التي يطؤها بأمه، وفي هذا أشد الإهانة لأمه. والزور: الكذب.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: بليغ العفو والمغفرة لمن صدر منه بعض المخالفات، إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم عن هذا المنكر.

ثم ذكر سبحانه الظهار إجمالاً، ووبخ فاعله، وشرع في تفصيل أحكامه، فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ أي: يظاهرون من زوجاتهم بتشبيههن بالأمهات.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ يعودون لما كانوا عليه من إرادة الجماع، وعودة الزوجات إليهم.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فعليهم كفارة، وهي إعتاق رقبة مؤمنة، أي: أمة أو عبد مملوك، من أجل ما قالوا.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ المراد بالتماس: الجماع، فلا يجوز للمظاهر وطء زوجته حتى يُكفِّر برقبة.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الحكم الذي ذكرناه لكم.

﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي: تؤمرون به، أو تزجرون به عن ارتكاب الظهار، ولا تعودوا إليه.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عالم بظواهر الأمور وبواطنها، فيجازي كل عامل بعلمه.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ فمن لم يجد رقبة يعتقها، بأن لم يجدها أو لم يجد ثمنها.

﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي: فعلى المظاهر صيام شهرين متتابعين متواليين لا يفطر فيهما، فإن أفطر استأنف إن كان الإفطار لغير عذر، فلو جامعها ليلاً أو نهارًا عمدًا استأنف.

﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ يعني: صيام شهرين متتابعين لكبر أو مرض.

﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ فيجب عليه إطعام ستين مسكيناً، لكل مسكين نصف صاع من برٍّ أو تمرٍ أو أرزٍ أو نحوها، وله أن يطعمهم طعاماً جاهزاً حتى يشبعوا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الحكم الذي بيناه لكم، ووضحناه لكم من الكفارات على الترتيب.

﴿لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: حكمنا بذلك لتصدّقوا أن الله أمر به وشرعه، وتقفوا عند حدود الشرع ولا تتعدّوها، ولا تعودوا إلى الظهار الذي هو منكر من القول وزورًا.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: وتلك الأحكام المذكورة في الظهار والكفارة حدود الله، فلا تجاوزوا حدوده التي حدَّها لكم، فإنه قد بيَّن لكم أن الظهار معصية، وأن كفارته المذكورة توجب العفو والمغفرة.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: وللجاحدين والمكذبين بهذه الحدود الذين لا يقفون عند حدود الله.

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو عذاب جهنم.

* ولما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدود الله، ذكر المحادين المخالفين، من شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه، فقال تعالى:

﴿٥﴾-﴿٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: إن الذين يخالفون أمر الله ورسوله، ويعادون الله ورسوله. والمحادّة: المشاقّة والمعاداة والمخالفة.

﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: أُذِلُّوا وأُخزوا وأهينوا، كما فُعل بمن قبلهم جزاءً وفاقاً من الكافرين والمنافقين.

﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات فيها الحلال والحرام، والفرائض والأحكام.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وللكافرين الذين جحدوا آياتنا ولم يعملوا بها، عذاب شديد، يهينهم ويذهب عزهم. والفرق بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ ...﴾ والآية التي قبلها ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الفرق أن الكافرين على نوعين: فالكافر غير المحاد لله ورسوله له عذاب أليم، أما الكافر المحاد والمعادي لله ورسوله فله مع العذاب الأليم الكبت والإذلال والقهر والخيبة في الدنيا والآخرة.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: اذكر ذلك اليوم الرهيب حين يحشر الله المجرمين مجتمعين في حالة واحدة، لا يبقى منهم أحد لم يُبعث.

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ فيخبرهم توبيخاً وتشهيراً بحالهم، بما ارتكبوا من خير وشر في الدنيا من الأعمال القبيحة، لتكميل الحجة عليهم.

﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أي: ضبطه الله وحفظه عليهم في صحائف أعمالهم، ولم يغب عنه شيء، وهم لم يحفظوه، لاعتقادهم أن لا حساب ولا جزاء فوجدوه حاضراً مكتوباً في صحائفهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع وناظر، شهيد بالظواهر والسرائر، والخبايا والخفايا، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه شيء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ألم تعلم أيها السامع العاقل أن الله مطلع على كل ذرة في الكون، لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه سر ولا علانية.

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ ما يوجد من تناجي ثلاثة أشخاص، وقد تكون في الخير، وتكون في الشر.

﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلا كان الله رابعهم في الاطلاع على تلك النجوى.

﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ لأنه سبحانه مع كل عدد، قلّ أو كثُر، يعلم السر والجهر، لا تخفى عليه خافية.

﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ﴾ أي: ولا أقل من العدد المذكور؛ كالواحد، والاثنين، ولا أكثر منه؛ كالستة والسبعة.

الجُزْءُ الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ — سُورَةُ المُجَادَلَةِ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن
نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ
مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا
عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٧ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ
وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ
بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ
جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا
تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ
وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٩ إِنَّمَا
ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ
شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٠ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ
ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ
وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١

٥٤٣

﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ يعلم ما يتناجون به لا يخفى عليه منه شيء، والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسروه فيما بينهم، في أي مكان من الأمكنة.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: يخبرهم تعالى بما عملوا من حسن وسيء، ليعلموا أن نجواهم لم تكن عليه خافية، وليكون إعلامه لمن يتناجون بالسوء توبيخًا، لهم وتبكيتًا وإلزامًا للحجة، ويجازيهم عليه يوم القيامة لأنه عالم بكل شيء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لينبه إلى إحاطة علمه ﷻ، وأنه لا يغيب عنه شيء، لأنه قد أحاط بكل شيء علماً.

* ثم بين سبحانه سعة علمه، وإحاطته بجميع الأشياء، وأنه تعالى يرى الخلق ويسمع كلامهم ويرى مكانهم، حيث كانوا ومتى قالوا، وماذا قالوا، فقال تعالى:

﴿٨-١٠﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾.

للتعجب من حالهم، حيث كان اليهود إذا مرّ بهم الرجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظنّ المؤمن شرًا، فنهاهم الله فلم ينتهوا، فنزلت:

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ ثم يرجعون إلى المناجاة التي نُهوا عنها.

﴿وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ﴾ أي: بغيبة المؤمنين وأذاهم ونحو ذلك، كالكذب والظلم.

﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي: ما يكون فيه عدوان على المؤمنين. قيل بدأ بالإثم لعمومه، ثم بالعدوان لعظمته في النفوس إذ هي ظُلامات العباد، ثم ترقى إلى ما هو أعظم:

﴿وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ وهي مخالفته وعدم طاعته ﷺ.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ المراد اليهود، كانوا يأتون النبي ﷺ فيقولون: السام عليك، يريدون السلام ظاهراً، وهم يعنون الموت باطنًا، وذلك من إساءة الأدب مع النبي ﷺ في تحيتهم له، فيقول النبي ﷺ: «وعليكم».

﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: يسرون ويظهرون ما ذكره عالم الغيب والشهادة عنهم بقولهم فيما بينهم، لو كان محمد نبياً لعذبنا الله بما يتضمنه قولنا من الاستخفاف به، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم، أن ما يقولون غير محذور. قال تعالى رداً عليهم:

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يكفيهم عذابها عن الموت الحاضر، يدخلونها.

﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: بئست جهنم مرجعاً ومستقراً لهم.

* ولما فرغ سبحانه عن نهي اليهود والمنافقين من النجوى، أرشد المؤمنين إذا تناجوا فيما بينهم أن لا يتناجوا بما فيه إثم وعدوان، ومعصية لرسول الله، كما يفعله اليهود والمنافقون، قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ كما يفعله اليهود والمنافقون.

﴿وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ﴾ أمر سبحانه المومنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة.

﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ التقوى: اسم جامع لترك المحارم والمآثم.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجزيكم بأعمالكم.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ بالإثم والقطيعة ومعصية الرسول.

﴿مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ لا من غيره، أي: من تزيينه وتسويله.

﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: لأجل أن يوقعهم في الحزن بما يحصل لهم من التوهم أنهم في مكيدة يكادون بها، وهو غاية المكر ومقصوده.

﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا﴾ أي: وليس الشيطان، أو التناجي الذي يزينه الشيطان، بضارّ المؤمنين شيئاً من الضرر، ومن أحس من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكل على الله، فإنه لا يضره شيء.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بمشيئته وقضائه وقدرته، فإن الله تعالى وعد المؤمنين بالكفاية والنصر على الأعداء.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يكلون أمرهم إليه، ويفوّضونه في جميع شؤونهم، ويستعيذون بالله من الشيطان، وليعتمدوا عليه ويثقوا بوعده، فإن من توكل على الله كفاه، وتولى أمر دينه ودنياه، ولا يبالون بما يزينه من النجوى، أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه».

* ولما نهى تعالى عباده المؤمنين عمّا يكون سبباً للتباغض والتنافر، أمرهم بما يصير سبباً لزيادة المحبة والمودة، وهو التوسع في المجالس بأن يفسح بعضهم لبعض، وفي ذلك أدب رفيع وخلق جميل، فقال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١١).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ﴾ أمرهم الله سبحانه بحسن الأدب بعضهم مع بعض بالتوسعة في المجلس وعدم التضايق فيه. قال قتادة ومجاهد: كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ فأُمروا أن يفسح بعضهم لبعض.

﴿فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: فوسّعوا يوسع الله لكم في الجنة، وهي عامة في كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير والأجر، سواءٌ كان مجلس حرب أو ذكر، أو خطبة الجمعة، وكل واحدٍ أحقّ بمكانه الذي سبق إليه، ولكن يوسع لأخيه، قال ﷺ: «لا يُقِمِ الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا» [رواه البخاري].

قال الرازي: «إيصال أي خير إلى المسلم، وإدخال السرور عليه يوسع الله عليك خيرات الدنيا والآخرة ولا تُقيد بالتفسح في المجلس».

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾ أي: إذا طلب من بعض الجالسين في المجلس أن ينهضوا من أماكنهم ليجلس فيها أهل الفضل في الدين، وأهل العلم بالله، فليقوموا لتحصيل تلك المصلحة.

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ يرفع الله المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله، والعالمين منهم؛ خاصة الذين أوتوا العلم منكم درجات عالية في الكرامة في الدنيا، والثواب في الآخرة، فمن جمع الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات، ثم رفعه بعلمه درجات، ومن جملة ذلك رفعه في المجالس، وفي هذه الآية بيان لفضيلة العلم، وأن زينته وثمرته التأدب بآدابه والعمل بمقتضاه.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشراً.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢) * ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٣).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ أي: إذا أردتم مسارَرَة الرسول ﷺ ومحادثته سرّاً في أمر من أموركم فقدموا قبل مسارَرتكم له صدقة، تتصدقون بها على الفقراء، وذلك أن الناس سألوا رسول الله ﷺ، وأكثروا حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف على نبيه ويثبطهم ويردعهم عن ذلك فأمرهم أن يقدموا صدقة على المناجاة مع الرسول ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية انتهى أهل الباطل عن مناجاة النبيّ ﷺ، لأنهم لم يقدموا بين يدي نجواهم صدقة، وشق ذلك على أهل الإيمان وامتنعوا عن النجوى لضعف كثير منهم عن الصدقة، ومشقتهم عليها، ثم خفف الله عنهم بالآية التي بعد هذه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: تقديم الصدقة بين يدي النجوى.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ لما فيه من طاعة الله.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني: من كان منهم لا يجد تلك الصدقة، فلا حرج عليه في النجوى بدون صدقة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ
صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ
(١٢) ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ
وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (١٣) ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ
قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ
وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ (١٥) ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ
عَذَابٞ مُّهِينٞ (١٦) لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ
شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١٧) يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ
ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ
عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ (١٨) ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ
هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (١٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ
(٢٠) كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ (٢١)

٥٤٤

﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ﴾ **عتاب للمؤمنين رقيق رفيق، أي: أخفتم الفقر والعيلة إذا تصدقتم قبل مناجاتكم للرسول ﷺ، والغرض: لا تخافوا فإن الله يرزقكم لأنه غني بيده خزائن السموات والأرض. ثم نسخ تعالى الحكم؛ تيسيراً على المؤمنين، فقال:**

﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ **ما أمرتم به من الصدقة بين يدي النجوى لثقلها عليكم.**

﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ **أي: خفف عنكم، وعفا لكم عن ذلك.**

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ **أي: فأتموا الصلاة بأركانها وشروطها، وجميع حدودها ولوازمها.**

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ **وأدوا الزكاة المفروضة في أموالكم إلى مستحقيها. وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بها على الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده.**

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ **أي: أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في جميع أحوالكم.**

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ **فيعلم تعالى أعمالهم، وعلى أي وجه صدرت، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم، وهذا وعد ووعيد.**

*** ثم ذكر في الآيات اللاحقة شناعة حال المنافقين الذين يتولون الكافرين، من اليهود والنصارى وغيرهم ممن غضب الله عليهم، فقال تعالى:**

(١٤)-(١٩) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ * أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ * لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ * يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ * ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا﴾ **أي: لا تعجب -يا محمد- من أمر المنافقين الذين اتخذوا اليهود أصدقاء يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين.**

﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ **المغضوب عليهم: هم اليهود.**

﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ **أي: ليسوا مؤمنين ظاهراً وباطناً؛ لأن باطنهم مع الكفار، ولا مع الكفار ظاهراً وباطناً؛ لأن ظاهرهم مع المؤمنين، فهم ليسوا من المؤمنين الخلَّص، ولا من الكافرين الخلّص، لا ينتسبون إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء.**

﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾ **أي: ويحلفون كاذبين أنهم مسلمون، أو يحلفون أنهم ما نقلوا الأخبار إلى اليهود.**

﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ **أي: يعلمون بطلان ما حلفوا عليه، وأنه كذب لا حقيقة له.**

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ **أي: هيأ لهم تعالى بسبب نفاقهم، وبسبب هذا التولي، والحلف على الباطل، عذاباً في نهاية الشدة والألم، وهو الدرك الأسفل من النار.**

﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ **أي: بئس ما فعلوا، وبئس ما صنعوا من الأعمال القبيحة حيث عملوا بما يسخط الله، ويوجب عليهم العقوبة واللعنة.**

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ **أي: جعلوا أيمانهم الكاذبة الفاجرة وقاية لأنفسهم، ويحلفون بأنهم من المسلمين، توقّيًا من القتل بالكفر،**

فجعلوا هذه الأيمان وقاية وسترة دون دمائهم، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل، ولم تؤمن قلوبهم.

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: فمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام، بسبب ما يصدر عنهم من التثبيط، وتهوين أمر المسلمين، وتضعيف شوكتهم، وإلقاء الشبهات في قلوب الضعفاء، والمكر والخداع بالمسلمين.

﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي: فلهم عذاب شديد، يهينهم ويخزيهم في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحانثة.

﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ أي: لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم في الآخرة، فلن تدفع عنهم شيئاً من العذاب، ولا تحصل لهم قسطاً من الثواب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: هم أهل النار الذين لا يخرجون منها أبد الآبدين.

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ أي: يحشرهم يوم القيامة جميعاً للحساب والجزاء.

﴿فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾ أي: يحلفون لله يوم القيامة على الكذب، كما يحلفون لكم في الدنيا، فيقولون: والله ربنا ما فعلنا ذلك، وهذا من شدّة شقاوتهم، فإن الحقائق يوم القيامة قد انكشفت، وصارت الأمور معلومة بضرورة المشاهدة.

﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ أي: يظنون في الآخرة أنهم بتلك الأيمان الكاذبة، على شيء مما يجلب نفعًا، أو يدفع ضررًا، كما كانوا يظنون ذلك في الدنيا.

ثم قال تعالى منكراً عليهم حسبانهم، ومخبراً عن حالهم:

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ أي: ألا فانتبهوا أيها الناس إن هؤلاء هم البالغون في الكذب الغاية القصوى.

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ﴾ أي: غلب عليهم واستعلى، واستولى وأحاط بهم، فتركوا أوامر الله والعمل بطاعاته.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: جنوده وأتباعه ورهطه. ثم ذكر حالهم ومآلهم.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي: أتباع الشيطان وجنوده هم الكاملون في الخسران والضلالة؛ لأنهم باعوا الجنة بالنار، والهدى بالضلالة، وكذبوا على الله وعلى نبيه، فسوف يخسرون في الدنيا والآخرة.

* ثم ذكر سبحانه مخبراً عن الكافرين المعاندين المحادين لله ورسوله، المجانبين للحق المشاقين له أن منزلتهم منزلة الأذلين، وأن العزة والنصر والتمكين والرفعة في الدنيا والآخرة للمؤمنين، قال تعالى:

(۲۰)-(۲۲) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۞ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۞ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ هذا وعد ووعيد لمن يعادون الله ورسوله ويخالفون أمرهما بالكفر والمعاصي.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ أولئك من جملة من أذلّه الله من الأمم في الدنيا والآخرة، لا عاقبة لهم حميدة، ولا راية لهم منصورة.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ أي: قضى الله سبحانه قضاءً ثابتاً في سابق علمه وحكمه؛ أن الغلبة والعزة والنصر لدينه ورسوله وعباده المؤمنين بالحجة والقدرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ أي: هو تعالى قويٌّ على نصر أوليائه،غالب لأعدائه، لايغلبه أحد، لا يُقهر ولا يُغلب.

﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا إذا كان عاملاً على مقتضى الإيمان ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته ولو كان أقرب الناس إليه، فإنه لا يجتمع في قلب واحد حب الله وحب أعدائه. ومعنى يوادّون: يحبون ويوالون من عادى الله

الجُزْءُ الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ سُورَةُ الحَشْرِ

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

سُورَةُ الحَشْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾

٥٤٥

ورسوله وشاقهما. وغرض الآية النهي عن مصادقة ومحبة الكفرة والمجرمين، ولكنها جاءت بصورة إخبارية مبالغة في النهي والتحذير.

﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: ولو كان المحادّون لله ورسوله أقرب الناس إليهم، كالآباء، والأبناء، والإخوان، والعشيرة، فإن الإيمان يزجر عن ذلك ويمنع منه، ورعايته أقوى من رعاية الأبوّة والبنوّة والأخوّة والعشيرة، وبدأ بالآباء لأن طاعتهم واجبة على الأولاد، ثم بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب، ثم بالإخوان؛ لأن بهم التعاضد، ثم بالعشيرة؛ لأن بهم التناصر والمقاتلة والتغلب على الأعداء.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني: الذين لا يوادّون من حادّ الله ورسوله.

﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: أثبت الإيمان ومكنه، وجمعه وجعله في قلوبهم، فهي قلوب مؤمنة موقنة مخلصة.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ وقوّاهم بنصر منه وتأييده على عدوّهم في الدنيا، وسمى نصره لهم روحاً؛ لأن به يحيا أمرهم.

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ويدخلهم في الآخرة بساتين فسيحة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، ماكثين فيها أبد الآبدين.

﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: قَبِل أعمالهم فرضي عنهم، وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة والآجلة.

﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي: فرحوا بما أعطاهم الله عاجلاً وآجلاً، وإنما ذكر رضوانه عليهم بعد دخولهم الجنة لأنه أعظم النعم، وأجل المراتب. وفي الآية سر بديع وهو أنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله تعالى، عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم والفضل العميم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ أي: جنده وخاصته، وأولياؤه الذين يمتثلون أوامره، ويقاتلون أعداءه، وينصرون أولياءه، وفي إضافتهم إلى الله سبحانه تشريف لهم عظيم، وتكريم فخيم.

وفي وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ للذي للبعيد للدلالة على علو مقامهم ورفعتهم.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة المجادلة
والحمد لله

تفسير سورة الحشر
وهي مدنية

* سورة الحشر سورة مدنية، نزلت في المدينة. وتسمى هذه السورة: سورة بني النضير، وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة وقت بعثة النبي ﷺ، فلما بُعث ﷺ وهاجر إلى المدينة هادن سائر طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد وقعة بدر بستة أشهر أو نحوها، خرج إليهم النبي ﷺ فغدروا به وأرادوا قتله، فظهرت بعض آثار قدرة الله ومظاهر عزته بإجلاء اليهود من ديارهم وأوطانهم، مع ما كانوا فيه من الحصون والقلاع، وكانوا يعتقدون أنهم في عزة ومنعة لا يستطيع أحد عليهم، فجاءهم بأس الله وعذابه من حيث لم يكن في حسابهم، وسورة الحشر من المسبحات، وهي السور المفتتحة بالتسبيح، وتسمى عرائس القرآن وهي سبع سور؛ الإسراء والحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والأعلى. قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٥﴾ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ

وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۞ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۞ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ افتتح سبحانه هذه السورة بالإخبار أن جميع من فوق السموات والأرض تسبح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخضع لعظمته، وقدرته وجلاله.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه. ثم بين ﷻ آثار قدرته الباهرة وعزته الظاهرة، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي: هو ﷻ الذي أخرج يهود بني النضير من مساكنهم بالمدينة. وبنو النضير، رهط من اليهود من ذرية هارون، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل، فغدروا بالنبيّ ﷺ بعد أن عاهدوه، وصاروا عليه مع المشركين، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى رضوا بالجلاء، وكانوا أوّل من أُجلي من أهل الكتاب من جزيرة العرب، ثم أُجلي آخرهم في زمن عمر رضي الله عنه، فكان جلاؤهم أوّل حشر من المدينة، وآخر حشر إجلاء عمر لهم، وقيل: آخر الحشر هو حشر جميع الناس إلى أرض المحشر.

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾ أي: ما ظننتم أيها المسلمون أن بني النضير يخرجون من ديارهم وأوطانهم في مدة حصاركم لهم وقصرها وكانت تسعة أيام، وذلك لعزتهم ومنعتهم، وشدة بأسهم، حيث كانوا أهل حصون مانعة، وعقار ونخيل واسعة، وأهل عدد وعدة.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: وظنّ بنو النضير أن حصونهم تمنعهم وتقيهم من بأس الله فأعجبوا بها وغرتهم، وحسبوا أنهم لا يُنالُون بها، ولا يقدر عليها أحد.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ فجاءهم أمر الله وبأسه وعذابه من جهة لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره منها، وهو أنه سبحانه أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلائهم، وكانوا لا يظنون أن الأمر يصل إلى ذلك، بل كانوا عند أنفسهم أعز وأقوى.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي: وألقى وأثبت في قلوب بني النضير الرعب، وهو أشد الخوف، مما أضعف قوتهم، وسلبهم الأمن والطمأنينة، حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وفي الحديث: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» [رواه البخاري ومسلم]. ثم ذكر ﷻ حالهم ومآلهم فقال عنهم:

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم، فجعلوا يخربونها من داخلها، فيقلعون العُمد، وينقضون السقوف، وينقبون الجدران، والمسلمون من الخارج يخربون سائر الجوانب من ظاهرها ليقتحموا حصونهم.

﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ فاتعظوا وانظروا بما جرى عليهم ياذوي العقول والألباب، اعلموا أن الله يفعل مثل ذلك بمن غدر وحادّ الله.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لولا أن كتب الله عليهم الخروج من أوطانهم مع الأهل والأولاد، لعذبهم في الدنيا بالسيف والسبي كما فعل بإخوانهم بني قريظة.

والفرق بين الجلاء والإخراج وإن كان معناهما في الإبعاد واحداً من جهتين؛ إحداهما: أن الجلاء كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد. الثاني: أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة والإخراج لجماعة ولواحد.

﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ ولهم يوم القيامة العذاب الشديد، عذاب جهنم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ذلك الجلاء والعذاب بسبب عداوتهم لله ورسوله، ونقضهم العهد استحقوا هذا العقاب.

﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ومن يخالف أمر الله، ويعاد دينه، فالله ينتقم منه؛ لأن عذابه شديد، وعقابه أليم، واقتصر هنا على مشاقة الله؛ لأن مشاقته مشاقة لرسوله.

* لما قام بعض المسلمين في معركة بني النضير بقطع نخيل الكفار لإغاظتهم، قال بنو النضير وهم أهل كتاب: -يا محمد- ألست تزعم أنك نبي تريد الصلاح؟ أفمن الصلاح

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ
أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ
دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ
وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ
﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن
قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ
حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ
وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

قطع النخل وحرق الشجر؟ وهل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد في الأرض؟ فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ ووجد المسلمون في أنفسهم، فنزلت الآية:

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ **أي: إن كل ما جرى من المؤمنين من قطع النخيل، وإحراق بعض الأشجار المثمرة، إن ذلك الفعل ليس من الفساد، بل كان بأمر الله وإرادته.**

﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ **أي: ليذلّ الخارجين عن الطاعة؛ وهم اليهود، ويغيظهم في قطعها وتركها، فإنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون في أموالهم كيف شاءوا ازدادوا غيظًا وخزيًا.**

*** ثم انتقلت الآيات الكريمات إلى موضوع الفيء والغنيمة، فبينت شروطه وأحكامه، ووضحت الحكمة من تخصيص الفيء بالفقراء، لئلا يستأثر بها الأغنياء، بما يحقق مجتمعاً متكافلاً متعاضداً تسوده المحبة والألفة والتعاون، قال تعالى:**

﴿٦﴾، ﴿٧﴾ ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ **أي: وما أعاد الله وردّه غنيمة على رسوله من أموال يهود بني النضير.**

﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ **الإيجاف: إسراع الراكب فرسه، أي: إن ما ردّه الله تعالى على رسوله من أموال بني النضير، ولم تركبوا لتحصيله خيلاً ولا إبلاً، ولا تجشمتم لها مشقة، ولا لقيتم بها حربًا، وإنما كانت من المدينة على ميلين، أتتكم صفواً عفواً، فجعل الله سبحانه أموال بني النضير لرسوله ﷺ خاصة لهذا السبب، فإنه افتتحها صلحًا وأخذ أموالها، ولم يقسمها بين الغانمين.**

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ **أي: أن ما خوّل الله رسوله من أموال بني النضير شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة، ولكن سلطه الله عليهم وعلى ما في أيديهم، كما كان يسلط رسله على أعدائهم.**

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ **يسلط من يشاء على من أراد، ويعطي من يشاء، ويمنع من يشاء.**

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ **أي: ما جعله الله غنيمة لرسوله بدون قتال من أموال الكفار، وهذا لرسول الله ﷺ خاصة، وهو حكم كل قرية يفتحها رسول الله ﷺ والمسلمون بعده إلى يوم القيامة صلحًا بغير قتال، ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب، وفيه بيان لمصارف الفيء.**

﴿فَلِلَّهِ﴾ **يحكم فيها بما يشاء.**

﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ **يكون ملكًا له يصرفها على نفسه، ثم في مصالح المسلمين.**

﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ **أي: ولأقرباء الرسول من بني هاشم وبني المطلب، أي: لفقرائهم؛ لأنهم قد مُنِعوا من الصدقة، فجعل لهم حقاً في الفيء.**

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ **الصغار الذين مات آباؤهم قبل مرحلة البلوغ.**

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ **وهم الفقراء ذوي الحاجة والفقر.**

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ **وهو الغريب الذي نفدت نفقته وانقطع في سفره.**

﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ **وبيان هذه المصارف لئلا ينتفع بهذا المال ويستأثر**

بـه الأغنيـاء والرؤسـاء بينهم دون الفقراء والضعفاء، فيتداولوه بينهم.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ أي: ما أعطاكم الرسـول ﷺ فاقبلوه، وما نهاكم عنـه فاجتنبوه، أي: ما أعطاكم من مال الفيء فخذوه، وما نهاكم عن أخذه فانتهوا عنه ولا تأخذوه، والآية نزلت في أموال الفيء، إلا أنها عامة في كل ما أمر به النبي ﷺ أو نهى عنه.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: خافوا ربكم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فـإن عقابه أليم وعذابه شديد، لمن عصاه وخالف ما أمره به.

* ثم بين سـبحانه مـن له الحق في الفيء والحكمة في ذلك، فقال:

﴿٨﴾-﴿١٠﴾ ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ هذا متعلق بما سبق من حكم الفيء، كأنه يقول: الفـيء والغنائم لهؤلاء الفقراء المهاجرين مـن مكة، الذيـن ألجأهم الكفـار إلى الخروج منهـا فخرجوا، فجعل لهم في الفيء حقاً ليغنيهم.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: يطلبون الرزق في الدنيا والرضوان في الآخرة.

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: قاصديـن بالهجرة إعـلاء كلمة الله، ونصرة دينه بجهاد الكفار.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: هؤلاء الموصوفون بالصفات الحميدة، هم الصادقـون في إيمانهم وجهادهم. جمعوا بين صـدق اللسـان، وصدق الأفعـال؛ لأن أفعالهم في أمر هجرتهم إنما كانت وفق أقوالهم. وفي هذه الآية وصف شـامل للمهاجرين في دوافع الهجـرة؛ أنهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، وغايتها: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، والحكم لهـم بأنهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

* ثم تناولـت الآيـات اللاحقة أصحاب رسـول الله بالثناء العاطر، فنوهـت بفضائل المهاجريـن ومآثر الأنصار، فالمهاجـرون هجروا الديار والأوطان حباً في الله، والأنصار نصروا دين الله، وآثروا إخوانهـم المهاجرين بالأمـوال والديار على أنفسـهم مع فقرهم وحاجتهم وقلـة ذات يدهم. قـال ﷻ في مـدح الأنصـار وبيان فضلهم وشرفهم:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هم الأنصار سـكنوا واسـتقروا المدينـة قبـل المهاجرين، وآمنوا بالله ورسـوله، وجعلوا الإيمان مستقراً ومتوطناً لتمكنهم واستقامتهم عليه كما جعلوا المدينة كذلك.

وفي ذكر الدار ﴿ٱلدَّارَ﴾ وهي: المدينة مع ذكر الإيمان؛ إيماء إلى فضيلة المدينة.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: من كرمهم وشرف أنفسـهم يحبون إخوانهم المهاجرين، فقد أحسـنوا إلى المهاجرين وأشركوهم في أموالهم ومساكنهم.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ حسدًا أو غيظًا أو حزازة.

﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: ممـا أوتي المهاجرون دونهم من الفيء، بل طابت أنفس الأنصار بذلـك ولم يعطوا منها شـيئاً. قال ابن كثير: أحسـن ما قيل فيه: لا يحسدون إخوانهم على فضل ما أعطاهم الله.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يقدّمون المهاجريـن ويفضلونهم على أنفسـهم في حظـوظ الدنيـا من مال ومسكن وغيره.

﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: حاجة وفقر وفاقه، فإيثارهم ليس عن غنى عن المال، ولكنه عن حاجة وفقر، وذلك غاية الإيثار ﷺ.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: مـن كفاهُ الله حرص نفسـه وبخلها فأدّى ما أوجبه الشرع عليه في ماله مـن زكاة أو حق فقد فاز ونجح، ولم يفز من بخل بذلك وشحت به نفسه، فإن الشح هو البخل الشـديد مع الجشـع والطمـع، وهو

الجزء الثامن والعشرون سورة الحشر

وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا
ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ
ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ
لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا
وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ
﴿١١﴾ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ
وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمۡ
أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ
لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ
أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا
وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
أَلِيمٞ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا
كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾

٥٤٧

غريزة في النفس ولذلك أضيف إليها.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ **أي: من بعد المهاجرين والأنصار، وهم الصنف الثالث من المؤمنين المستحقين للإحسان والفضل، وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة.**

﴿يَقُولُونَ﴾ **أي: يدعون لهم قائلين على وجه المحبة لأنفسهم ولسائر المؤمنين.**

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ **وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، وقد وصفوهم بالسبق بالإيمان اعترافاً بفضلهم ومعرفة لحقهم ومنزلتهم.**

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ **ولا تجعل في قلوبنا وصدورنا غشاً وبغضاً وحسدًا لأحد من المؤمنين، فيدخل في ذلك الصحابة دخولاً أولياً لكونهم أشرف المؤمنين، ولكون السياق فيهم، فمن وجد في قلبه لهم غلًّا؛ كالرافضة، فقد أصابه نزغ من الشيطان، وحلّ به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه وخير أمة نبيه ﷺ، وليس له في الفيء حق، وكذلك من سبّهم أو آذاهم أو تنقّصهم.**

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ **ختموا دعاءهم باسمين كريمين، دالين على كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، فكل من كان في قلبه غلّ على أحد من الصحابة ولم يترحم على جميعهم فإنه ليس ممن عناه الله بهذه الآية؛ لأن الله تعالى رتب المؤمنين على ثلاثة منازل: المهاجرين والأنصار والتابعين الموصوفين بما ذكر، فمن لم يكن من التابعين بهذه الصفة كان خارجاً من أقسام المؤمنين.**

*** ولما ذكر الله ﷻ المهاجرين والأنصار وأثنى عليهم، ذكر في الآيات التالية حال المنافقين الأشرار، الذي تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام، وضربت لهم الآيات أسوأ الأمثال، فمثلتهم بالشيطان الذي يُغري الإنسان بالكفر والضلال ثم يتخلى عنه ويخذله، وهكذا شأن المنافقين مع إخوانهم اليهود، قال تعالى:**

﴿١١﴾-﴿١٧﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ * لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ * لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ * كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ * كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ **ألا تعجب -يا محمد- من شأن هؤلاء المنافقين الذين أظهروا خلاف ما أضمروا؟ وهم عبد الله بن أبيّ وأصحابه، بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا وتمنَّعوا فإننا لا نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم لنخرجن معكم، فهم:**

﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: يقولون ليهود بني قريظة والنضير الذين كفروا برسالة محمد ﷺ.

﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ أي: لئن أخرجتم من المدينة، لنخرجن من ديارنا معكم في صحبتكم.

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي: في شأنكم، ومن أجلكم لا نطيع أمر محمد في قتالكم، ولا نسمع من أحدنا إذا أمرنا بخذلانكم ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم، وإن طال الزمان.

﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ ولئن قاتلكم أحد لنعاوننكم على عدوّكم، وهذا هو الوعد الذي غروا به إخوانهم.

ثم كذبهم سبحانه، فقال مخبراً عن حال المنافقين بالتفصيل:

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فيما قالوه، ووعدوهم به من الخروج معهم، والنصرة لهم.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ أي: لئن أخرج اليهود من ديارهم جلاء ونفياً، لا يخرج المنافقون معهم لمحبتهم للأوطان وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بوعدهم.

﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ أي: ولئن قوتل اليهود لا ينصرهم المنافقون ولا يقاتلون معهم حيث يستولي عليهم الجبن، ويخذلون إخوانهم أحوج ما كانوا إليهم، وقد كان الأمر كذلك، فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أُخرج من اليهود، وهم بنو النضير ومن معهم، ولم ينصروا من قتلوا من اليهود، وهم بنو قريظة وأهل خيبر، وفي هذا دليل على صحة نبوة محمد ﷺ من جهة أمر الغيب؛ لأنهم أُخرجوا فلم يخرجوا معهم، وقوتلوا فلم ينصروهم كما أخبر الله عنهم.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على سبيل الفرض والتقدير.

﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ أي: ليحصل منهم الإدبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يصير المنافقون منصورين بعد ذلك، بل يذلهم الله ولا ينفعهم نفاقهم، والسبب الذي أوجب لهم ذلك، أنكم - أيها المؤمنون - وهذه بشارة مستقلة بذاتها.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لأنتم يا معاشر المسلمين أشد خوفًا وخشيةً في صدور المنافقين، أو صدور اليهود، من رهبة الله، فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله. المنافق يخوف بالناس، والمؤمن يخوف بالله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يعرفون مراتب الأمور، ولا يعلمون حقائق الأشياء، ولو كان لهم فقهٌ لعلموا عظمة الله سبحانه حتى يخشوه حق خشيته، ولعرفوا أنه هو الذي سلطكم عليهم، فهو أحقّ بالرهبة منكم.

* ثم أخبر سبحانه عن حال اليهود والمنافقين: بأنهم جبناء من شدة الهلع، وأنهم لا يقدرون على قتال المسلمين إلا إذا كانوا متحصنين في قلاعهم وحصونهم، قال تعالى:

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: لا يقدر اليهود على مقاتلتكم مجتمعين.

﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي: لا يبرزون لقتالكم إنما يقاتلونكم متحصنين بالقرى المحصنة بالأسوار والخنادق.

﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ أي: من خلف الحيطان والأسوار التي يستترون بها، لجبنهم ورهبتهم وهلعهم.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: بعضهم غليظ فظ على بعض، وعداوتهم فيما بينهم شديدة، لا آفة في أبدانهم ولا في قولهم، وإنما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال:

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي: تظن اليهود والمنافقين حين تراهم مجتمعين ومتظاهرين، لكن اجتماعهم إنما هو في الظاهر، مع تخالف قلوبهم في الباطن، مختلفة آراؤهم وأهواؤهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التفرق الذي أوجب كفرهم وتشتتهم.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا عقل عندهم، ولا لب، ولو عقلوا لعرفوا الحقّ واتبعوه فتوحدوا ولم يختلفوا، فهم كالبهائم لا تتفق على حالة، ومثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا، وعدم نصر من وعدهم بالمعاونة.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي:

فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ
مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾
وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ
ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا
ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ
ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ
﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ
هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ
ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ
ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ
ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ
لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

سُورَةُ المُمْتَحَنَة

٥٤٨

صفة بني النضير فيما وقع لهم من الجلاء والذل، كصفة كفار مكة فيما وقع لهم يوم بدر من الهزيمة والأسر من كفار المشركين الذين زين لهم الشيطان أعمالهم.

﴿قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ يعني: في زمن قريب، ذاقو ووجدوا سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم للرسول ﷺ.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في الدنيا بقتلهم يوم بدر، وكان ذلك قبل غزوة بني النضير بستة أشهر.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ يعني: مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، كمثل وعد الشيطان.

﴿إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ﴾ أغراه بالكفر وزينه له، وحمله عليه.

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾ فلما كفر الإنسان مطاوعة للشيطان وقبولاً لتزيينه، تخلى عنه وخذله، قال الشيطان: إني بريء منك، ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغن عنك مثقال ذرة من الخير.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هذا من قول الشيطان، كذباً منه ورياءً على وجه التبري من الإنسان، لأنه لو خاف الله؛ لامتثل أمره وما عصاه.

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه من المنافقين واليهود وغيرهم.

﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَا﴾ أي: فكان عاقبة المنافقين واليهود، مثل عاقبة الشيطان والإنسان حيث صاروا إلى النار المؤبدة.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وذلك جزاء كل ظالم، فاجر منتهك لحرمات الله والدين، وهو جزاء الذين اشتركوا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته.

* وبعد أن ذكر الله ﷻ المنافقين والكفار وحالهم ومآلهم ومصيرهم، وما يجري بينهم من الدلالة على الكفر والشر، ذكّر الله ﷻ المؤمنين ووعظهم رهيب يوم لا ينفع فيه حسب ولا نسب ولا جاه ولا مال، وأمر عباده المؤمنين بالتقوى والاستعداد لليوم الآخر، ثم ذكر الله في سياق الآيات حال أصحاب الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وحال الكفار والمنافقين وما هم فيه من الشقاء والعذاب الأليم، قال تعالى:

﴿١٨﴾-﴿٢٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ * وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ * لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: خافوا الله، واحذروا واتقوا عقابه بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه.

﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ ولتنظر كل نفس، أي شيء قدّمت من الأعمال ليوم القيامة من خير أو شر. ونكر النفس تقليلاً للأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة، وسُمي يوم القيامة غداً لقرب مجيئه، والتنكير فيه للتفخيم والتهويل. وهذه الآية أصل في محاسبة النفس وتقويمها.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ كرر الأمر بالتقوى للتأكيد، ولبيان منزلة التقوى التي هي وصية الله تعالى للأولين والآخرين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ ولا تكونوا يا معشر المؤمنين كالذين تركوا أمره، ولم يبالوا بطاعته.

﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له، فلم يشتغلوا بالأعمال التي تنجيهم من العذاب، وقيل: نسوا الله في الرخاء فأنساهم أنفسهم في الشدائد، وقيل هذا من المجازاة على الذنب بالذنب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: هم الفجرة الخارجون عن طاعة الله، الهالكون يوم القيامة، الخاسرون يوم معادهم.

﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: لا يستوي في المنزلة والرتبة: البر والفاجر، والمؤمن والكافر، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم عرج على الفائزين منهم وأنهم أصحاب الجنة، من أطاعه واتبع أمره وصدق برسله.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي: الظافرون بكلّ مطلوب، الناجون من كلّ مكروه، السالمون من عذاب الله ﷻ، وهذه الآيات الكريمة، أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن كان في خير فليحمد الله، وليسابق مع المتسابقين، وإن كان من المتأخرين فليعلم نفسه ويصلح حاله ويتدارك ما بقي من عمره بالتوبة والإنابة.

* ثم ذكر سبحانه عظمة هذا القرآن، ومبيناً علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه، لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد، وكيف هو تأثيره على الصم الراسيات من الجبال، فقال تعالى:

﴿٢١-٢٤﴾ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: بلغ من شأن هذا القرآن وعظمته وبلاغته واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب؛ أنه لو أُنزل على جبل من الجبال لرأيته مع كونه في غاية القسوة وشدّة الصلابة وضخامة الجرم متشققًا من خشية الله، حذرًا من عقابه، وخوفًا من أن لا يؤدّي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله، وذلك لكمال تأثيره في القلوب، والمراد بذلك توبيخ الإنسان بأنه لا يتخشع عند تلاوة القرآن، بل يُعرض عما فيه من عجائب وعظائم، وهذه الآية في بيان عظمة القرآن، ودناءة حال الإنسان.

قال الألوسي: «هذا توبيخ للإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن».

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: وتلك الأمثال نفصلها ونوضحها للناس فيما يجب عليهم التفكر فيه ليتعظوا بالمواعظ، وينزجروا بالزواجر.

* ولما ذكر ﷻ أنه يضرب الأمثال للناس للتدبر والتفكر، ذكر سبحانه وصف القرآن بالرفعة والعظمة، ثم أتبعه بشرح وبيان عظمة الله ﷻ وجلاله. ثم ساق آيات عظيمة اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى، وأوصافه العلى، عظيمة الشأن، بديعة البرهان، فقال تعالى:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بدأ باسم الجلالة (ٱللَّهُ) الذي يجمع صفات الكمال. أي: إنه الله المألوه المعبود، الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم، وإحسانه الشامل، وتدبيره العام، وفي هذا تقرير للتوحيد ودفع للشرك. ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: هو عالم السر والعلن، يعلم ما غاب عن الإحساس مما لم يبصره، وما شاهدوه وعلموه.

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هو تعالى ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، ووصلت إلى كل حي، فهو سبحانه رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرر اللفظ اعتناء بأمر التوحيد، أي: لا معبود ولا رب سواه.

﴿ٱلْمَلِكُ﴾ أي: المالك لجميع المخلوقات، المتصرف في خلقه بالأمر والنهي، والإيجاد والإعدام.

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ أي: الطاهر من كل عيب، المنزّه عن كلّ نقص، وقيل: معناه الذي سلم الخلق من ظلمه، المعظم الممجد، لأن القدوس يدل على التنزيه عن كل نقص، والتعظيم لله في أوصافه وجلاله. السالم من كل عيب وآفه ونقص.

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي: من جميع العيوب والنقائص، بكماله في ذاته وصفاته وأفعاله، الذي سلم الخلق من عقابه، وأمنوا من جوره.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ
إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ
وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي
وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ
وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن
يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم
بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ
لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا
بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ
إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ
رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾

٥٤٩

﴿الْمُؤْمِنُ﴾ أي: الذي وهب لعباده الأمن من الظلم، وقيل: المصدّق لرسله بإظهار المعجزات، والبراهين القاطعات والحجج الواضحات.

﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ أي: الشاهد على عباده بأعمالهم، الرقيب عليهم.

﴿الْعَزِيزُ﴾ أي: القاهر الغالب غير المغلوب الذي قهر كل شيء، وخضع له كل شيء.

﴿الْجَبَّارُ﴾ جبروت الله عظمته، وقيل: الجبار الذي لا تطاق سطوته، الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير.

والجبار يشمل ثلاث معان: جبر القوة والقهر، وجبر الرحمة وإحلال الفرج والطمأنينة، وجبر العلو، فهو فوق خلقه عال عليهم وقريب منهم ليسمع أقوالهم، وقد ورد الدعاء باسم الجبار: «سبحانه ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة». [رواه أبو داود].

﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة ولا تليق إلا به، والمتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور، الذي تكبَّر عن كل نقص، وتعظَّم عما لا يليق به. والكبرياء في صفات الله مدح، وفي صفات المخلوقين ذمّ.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه الله وتقدس في جلاله وعظمته، وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده.

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ﴾ أي: هو ﷻ الإله الخالق لجميع المخلوقات، المقدّر للأشياء على مقتضى إرادته ومشيئته.

ومن أسماء الله الحسنى الخالق، والخلاق وقد ورد اسم الخالق ثمان مرات بصيغة الإفراد ومرتين بصيغة التفضيل، وورد اسم الخلاق مرتين.

﴿الْبَارِئُ﴾ أي: المنشئ المخترع للأشياء، الموجد لها من العدم.

﴿الْمُصَوِّرُ﴾ أي: الموجد للصور، المركِّب لها على هيئات مختلفة، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك.

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ له الأسماء الرفيعة الكثيرة جداً، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا الله، ومع ذلك فكلها حسنى، أي: صفات كمال دالة على محاسن المعاني، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسنها أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ينطق بتنزيهه بلسان الحال أو المقال جميع ما في الكون.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: العزيز في ملكه الذي لا يريد شيئاً إلا ويكون، ولا يكون شيئاً إلا لحكمة ومصلحة.

﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وصنعه وتدبيره ﷻ.

قال ابن الجوزي: والله لو أن مؤمناً عاقلاً قرأ سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، وآية الكرسي، وسورة الإخلاص بتفكير وتدبر لتصدع من خشية الله قلبه، وتحير في عظمة الله لبه.

تم تفسير سورة الحشر
والحمد لله

تفسير سورة الممتحنة
وهي مدنية

* سورة الممتحنة سورة مدنية، تدور شرائعها في محيط الولاء للمؤمنين والبراءة من المشركين، والحب والبغض في الله الذي هو أوثق عرى الإيمان. وقد ذكر كثير من المفسرين، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب ابن أبي بلتعة، حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قريش يخبرهم بسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتخذ بذلك يداً عندهم، لا شكاً ولا نفاقاً، وأرسله مع امرأة، فأخبر الله ﷻ النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة

قبل وصولها وأخذ منها الكتاب، وعاتب حاطباً، فاعتذر رضي الله عنه بعذر قبله النبي ﷺ.
وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاة الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان، قال تعالى:
①-③ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۞ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۞ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يا معشر المؤمنين، اعملوا بمقتضى إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان، ومعاداة من عاداه، فإنه عدو لله وللمؤمنين.

﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لا تتخذوا الكفار الذين هم أعدائي وأعداؤكم أصدقاء وأحباء، فتسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها، فإن المودة إذا حصلت، تبعتها النصرة والموالاة. والآية تدلّ على النهي عن موالاة الكفار بوجه من الوجوه.

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: تحبونهم وتصادقونهم وتوصلون إليهم أخبار النبيّ ﷺ بسبب المودة التي بينكم وبينهم.

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: كفروا بالله والرسول وما جاءكم به من القرآن، والهداية الإلهية. ومن عداوتهم البليغة أنهم:

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: أخرجوا محمداً ﷺ وإياكم من مكة، وذلك بالتضييق عليكم وأذاكم حتى خرجتم مهاجرين، فكيف توادّونهم؟ وقدم الرسول تشريفاً له؛ ولأنه الأصل للمؤمنين.

﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: وسبب العداوة والإخراج لكفرهم بما جاء من الحق والهدى يخرجونكم بسبب إيمانكم بالله، أو كراهة أن تؤمنوا.

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي﴾ أي: إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وابتغاء مرضاة الله، فاعملوا بمقتضى ذلك من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه.

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: كيف تفضون إليهم الأخبار والنصيحة بسبب المودة؟

﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي: أعلم من كل أحد بما تفعلونه من إرسال الأخبار إليهم وإن خفي على المؤمنين، فلا يخفى على الله تعالى شيء منه، والغرض منه التوبيخ والعتاب.

﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي: موالاة الكافرين بعدما حذركم الله منها.

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: ومن يصادق أعداء الله، ويفشى أسرار الرسول ﷺ فقد أخطأ طريق الحق والصواب، وضلّ عن قصد السبيل؛ لأنه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع.

ثم بين سبحانه شدة عداوة الكافرين للمؤمنين المستحكمة في قلوبهم، كل ذلك تهييجاً للمؤمنين على عداوتهم، فقال:

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ إنهم إن يجدوكم ويصادفوكم يظهروا لكم ما في قلوبهم من العداوة الشديدة، ولا يكونوا لكم أولياء كما أنتم.

﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ ويمدّوا إليكم أيديهم بالقتل، وبالضرب ونحوه، وألسنتهم بالقول الذي يسوء من الشتم والسب ونحوه.

﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وتمنوا ارتدادكم ورجوعكم إلى الكفر، وهذا غاية ما يريدون منكم. فإن احتججتم وقلتم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال، فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئاً.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ أي: لن تفيدكم قراباتكم ولا أولادكم الذين توالون الكفار من أجلهم يوم القيامة شيئاً، كما وقع في قصة حاطب، بل الذي ينفعكم هو ما أمركم الله به من معاداة الكفار وجهادهم وترك موالاتهم وخص الأولاد بالذكر مع دخولهم في الأرحام لمزيد المحبة لهم، والحنو عليهم.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: في ذلك اليوم العصيب، يحكم الله بين المؤمنين والكافرين، فيدخل أهل طاعته الجنة، وأهل معصيته النار.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: مطلع على جميع أعمالكم، فلذلك

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ
وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ٦ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
٧ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم
مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ
٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن
دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٩ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ
فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا
تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم
مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ
وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ
ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٠ وَإِن فَاتَكُمْ
شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ
أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ١١

٥٥٠

حذركم من مــوالاة الكافرين، الذي تضركم موالاتهم.

۞ ثم ذكر سـبحانه أسـوة وقدوة للمؤمنين في مسـألة الـولاء والبراء، وهــو أبـا الأنبيــاء إبراهيم عليه السلام وما جرى له مع أبيه وقومه، فقال تعالى:

٤-٦ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۞ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ **قـد كانت لكم يــا معشر المؤمنين قــدوة صالحــة، وخصلة حميدة، تقتدون بها.**

﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ **أي: وهذه القدوة والأسوة في الخليل إبراهيم ومن معه من المؤمنين.**

﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾ **أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين مــن قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله، وقالوا نحن بريئون منكم، فلسنا منكم ولستم منا، لكفركم بالله.**

﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ **أي: تبرأنا منكــم، ومن الأصنام التي تعبدونها من دون الله.**

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ **أي: صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، وقالوا كفرنا بدينكم، وبأفعالكم وطريقتكم.**

﴿وَبَدَا﴾ **أي: ظهر وبان.**

﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ **أي: زالت المودة وظهــر البغض بالقلــوب، والعداوة بالأبــدان، وليــس لتلــك العــداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك أبداً ما دمتم مستمرين على كفركم.**

﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ **أي: إلى أن تؤمنوا بالله وحده، وتتركوا ما أنتــم عليه من الــشرك، فإذا فعلتم ذلك صــارت تلك العــداوة موالاة، والبغضاء محبة.**

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ **أي: قد كانت لكم أسوة حسنة في كل مقالات إبراهيم، إلا قوله لأبيه آزر المشرك الكافر المعاند حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فقال إبراهيم:**

﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ **أي: فلا تتأسوا بإبراهيم فتســتغفروا للمشركين، فإن استغفاره لأبيه عن موعدة وعدها إياه رجاء إسلامه.**

﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ **هذه تتمة كلام إبراهيم لأبيه، أي: لا أملــك مــن هدايــة ومغفرة وتوفيق، وما أدفع عنك من عذاب الله شـيئًا، لكني أدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا.**

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ **أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا، ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك.**

﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ **أي: رجعنا وأقبلنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، وتبنا من جميع الذنوب والخطايا.**

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ **إليك المعاد والمرجع في الدار الآخرة.**

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ **أي: لا تسـلطهم علينا بذنوبنا فيفتنوننا، ولا تعذبنا بأيديهم، ولا بعــذابٍ من عنــدك؛ فيقولوا: لو كان هؤلاء على حقّ ما أصابهم هذا.**

﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ أي: اغفر لنا ما فرط من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: أنت يا الله الغالب الذي لا يذل من التجأ إليه، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه الخير والمصلحة، وتكرار النداء للمبالغة في التضرع والجؤار.

ثم كرر الحث لهم على الاقتداء والاتساء بإبراهيم ﷺ وقومه، تقريراً وتأكيداً عليهم، والتكرير والمبالغة في الحث على الاقتداء به ﷺ، ولذلك صُدِّر بالقسم، فقال:

﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: لقد كان لكم في إبراهيم والذين معه قدوة حسنة وسيرة بينة في التبرؤ من الكفار.

﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ أي: أن هذه الأسوة إنما تكون لمن يطمع في الخير من الله في الدنيا وفي الآخرة، ويرجو الأجر والثواب وهو مما يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له الإكثار من الاقتداء بالأنبياء والصالحين.

وكرر الحث على الاقتداء بهم، فقال: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب، يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له الإكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء المرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقراً إلى ذلك غاية الاضطرار.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: يعرض عن طاعة الله والإيمان والتأسي برسله ويوال الكفار.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن خلقه، الذي له الغنى التام من جميع الوجوه فلا يحتاج إلى أحد من خلقه.

﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه محمود على ذلك كله.

* لما نزلت الآيات السابقة وتشدد المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين، أطمعهم سبحانه في تحول الحال إلى خلافه، وفيها أخبر أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ماداموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان، فإن الحكم يدور مع علته، فإن المودة الإيمانية ترجع، فلا تيأسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان، قال تعالى:

﴿٧﴾-﴿٩﴾ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ * لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ * إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗ﴾ أي: لعل الله ﷻ يجعل بينكم وبين أقاربكم من مشركي مكة مودة، وذلك بأن يسلموا فيصيروا من أهل دينكم، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة وحسن إسلامهم، ووقعت بينهم وبين من تقدّمهم في الإسلام مودّة، وجاهدوا وفعلوا الأفعال المقرّبة إلى الله، وقد تزوّج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، ولم تحصل المودّة معه إلا بعد إسلامه يوم الفتح، وترك أبو سفيان العداوة لرسول الله ﷺ. عن أبي هريرة قال: أوّل من قاتل أهلَ الردّة على إقامة دين الله أبو سفيان بن حرب، وفيه نزلت هذه الآية: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗ﴾.

﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٞ﴾ أي: قادر لا يعجزه شيء، يقدر على تقلب القلوب وهدايتها، وتغيير الأحوال، وتسهيل أسباب المودة.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: مبالغ في المغفرة والرحمة، لمن تاب إليه وأناب، لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره.

ولما نزلت هذه الآيات الكريمات المهيجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنوا أن ذلك داخل فيما

نهى الله عنه، فأخبرهم سبحانه أن ذلك لا يدخل في المحرم، فقال تعالى:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة والإحسان والمكافأة والقسط للمشركين من أقاربكم وغيرهم ممن لم يحاربوكم لأجل دينكم، ولم يخرجوكم من أوطانكم كالنساء والصبيان.

﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تفعلوا معهم ما هو من البرّ؛ كصلة الرحم ونفع الجار والضيافة، وتعدلوا فيما بينكم وبينهم بأداء ما لهم من الحق؛ كالوفاء لهم بالوعد، وأداء الأمانة، وأداء أثمان ما تشترونه منهم كاملة غير منقوصة، وهذا النهي عن الظلم في حق المشرك فكيف في حق المسلم. والبر: زيادة في الفضل، والإقساط: العدل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين، والمعنى: إن الله سبحانه لا ينهى عن برّ أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال، وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ إنما ينهاكم الله عن صداقة ومودة الذين ناصبوكم العداوة، وقاتلوكم لأجل دينكم عداوة لدين الله، وأخرجوكم، وطردوكم من بيوتكم وأوطانكم، أو لمن قام به وهم صناديد الكفر من قريش وأشباههم ممن هم حرب على المسلمين.

﴿وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ أي: عاونوا الذين قاتلوكم وأخرجوكم على ذلك، وهم سائر أهل مكة، ومن دخل معهم في عهدهم.

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ أن تتخذوهم أولياء وتناصروهم بالمودة والنصرة، وبالقول والفعل، وأما بركم وإحسانكم، الذي ليس بتولٍ للمشركين، فلم ينهكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الآدميين.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنهم تولوا من يستحق العداوة، لكونه عدوًّا لله ولرسوله ولكتابه، وذلك الظلم يكون حسب التولي، فإن كان توليًا تامًا، صار ذلك كفرًا مخرجًا عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ وما هو دون ذلك.

* لما كان صلح الحديبية، صالح النبي ﷺ المشركين، على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلمًا، أنه يُرَد إلى المشركين، وكان هذا لفظًا عامًا يدخل في عمومه النساء والرجال، فأما الرجال، فإن الله لم ينه رسوله عن ردهم إلى المشركين وفاء بالشرط وتتميمًا للصلح الذي هو من أكبر المصالح، وأما النساء، فلما كان ردهن فيه مفاسد كثيرة، أمر الله المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات وشكوا في إيمانهن أن يمتحنوهن، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝١١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ أي: يا أيها المؤمنون إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات من بين الكفار، وذلك أن النبي ﷺ لما صالح قريشًا يوم الحديبية على أن يردّ عليهم من جاءهم مسلمًا، فلما هاجر إليه النساء أبى الله أن يُرددن إلى المشركين، وأمر بامتحانهنّ.

﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي: اختبروهنّ وابتلوهن، لتعلموا مدى رغبتهنّ في الإسلام، فقد كن يُستحلفن بالله ما خرجن من بغض زوج، ولا رغبة من أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، بل حبًا لله ولرسوله ورغبة في دينه، فإذا حلفت على ذلك أعطى النبي ﷺ لزوجها مهرها وما أنفقه عليها، ولم يردّها إليه.

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ لبيان أن حقيقة حالهنّ في دعوى الإيمان، لا يعلمها إلا الله سبحانه، ولم يتعبدكم بذلك، وإنما تعبدكم بامتحانهنّ حتى يظهر لكم ما يدلّ على صدق دعواهنّ في الرغبة في الإسلام.

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: فإن تحققتم إيمانهن بحسب الظاهر بعد الامتحان الذي أمرتم به، فلا تردوهن إلى أزواجهنّ الكافرين.

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي: لا تحل المؤمنة للمشرك، ولا يحل للمؤمن نكاح المشركة، وفي ردهن مفسدة كبيرة راعاها الشارع وراعى أيضاً الوفاء بالشرط، فالمؤمنة لا تحلّ لكافر، وإسلام المرأة يوجب فرقتها من زوجها، لا مجرّدَ هجرتها.

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ أي: أعطوا أزواجهن الكفار ما أنفقوا عليهن من المهور، هذا شرط عدم ردهن إلى المشركين بأن يعطوا أزواج هؤلاء اللاتي هاجرن وأسلمن مثل ما أنفقوا عليهنَّ من المهور.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي: ولا حرج ولا إثم عليكم أن تتزوجوا هؤلاء المهاجرات، لأنهنّ قد صرن من أهل دينكم.

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنّ، وذلك بعد انقضاء عدّتهنّ.

﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ والمعنى: أن من كانت له امرأة كافرة فليست له بامرأة لانقطاع عصمتها باختلاف الدين، وكان الكفار يزوجون المسلمين، والمسلمون يتزوجون المشركات، ثم نُسخ ذلك بهذه الآية، وهذا خاص بالكوافر المشركات دون الكوافر من أهل الكتاب.

﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ أي: اطلبوا يا أيها المؤمنون مهور نسائكم إذا ارتددن ولحقن بالكفار.

﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ كان من ذهب من المسلمات مرتدّة إلى الكفار من أهل العهد، يقال للكفار: هاتوا مهرها، ويقال للمسلمين إذا جاءت امرأة من الكفار إلى المسلمين وأسلمت: ردّوا مهرها على زوجها الكافر.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: إرجاع المهور من الجهتين.

﴿حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ أي: مع المشركين بعد صلح الحديبية بخلاف المشركين الذين لا عهد لهم، وقد نُسِخَ هذا. وكان مخصوصًا بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة، أي ما يتعلق برد المهور، لا التفريق بين الزوجين إذا أسلم أحدهما.

﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يفصل بينكم في هذا الأمر بشرعه وحكمه العادل بينكم وبين أعدائكم.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بمصالح العباد، فيعلم تعالى، ما يصلح لكم من الأحكام ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة البالغة.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ بأن ارتدت وفرت زوجة أحد من المسلمين ولحقت بالكفار.

﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي: فرددتم وغنمتم وكانت الغنيمة لكم حتى غنمتم.

﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ أي: أُمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل مهورهن من الفيء والغنيمة إذا لم يرد عليه المشركون مهرها.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وراقبوا الله في أقوالكم وأفعاكم، واحذروا عذابه وانتقامه إن خالفتم أوامره.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ الذي آمنتم وصدقتم بوجوده، فإن من مستلزمات الإيمان تقوى الرحمن.

* ولما فتح رسول الله ﷺ مكة جاء نساء أهل مكة يُبايعنه على الإسلام كما بايعه الرجال، وهذه الشروط المذكورة في هذه الآية تسمى: مبايعة النساء اللاتي كن يبايعن على إقامة الواجبات المشتركة، التي تجب على الذكور والنساء في جميع الأوقات، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ أي: -يا محمد- إذا جاء إليك النساء المؤمنات قاصدات لمبايعتك على الإسلام فبايعهن على هذه الأمور الستة المهمة، وفي مقدمتها عدم الإشراك بالله ﷻ.

﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ كائنًا ما كان، وهذا كان يوم فتح مكة، فإن نساء أهل مكة أتين رسول الله ﷺ

الجزءُ الثامنُ والعشرونَ سُورةُ الصَّفِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ
شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ
بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي
مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ
١٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ
يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ
١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢
كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣ إِنَّ
ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم
بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ
تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ
أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥

٥٥١

يبايعنه، فأمره الله أن يأخذ عليهنّ أن لا يشركن، ويفردن الله وحده بالعبادة.

﴿وَلَا يَسۡرِقۡنَ﴾ أي: ولا يرتكبن جريمة السرقة.

﴿وَلَا يَزۡنِينَ﴾ أي: ولا جريمة الزنا، كما كان ذلك موجوداً كثيراً في البغايا ذوات الأخدان، وعندها قالت هند بنت عتبة: يا رسول الله! وهل تزني الحرة؟ قال: «لا، والله ما تزني حرة».

﴿وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ وهو ما كانت تفعله الجاهلية من وأد البنات.

﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ البهتان: الافتراء على الغير، أي: لا يُلحقن بأزواجهنّ أولاداً ليسوا منهم. قال المفسرون: كانت المرأة إذا خافت مفارقة زوجها لها لعدم الحمل، التقطت ولداً ونسبته له ليبقيها عنده، فالمراد بالآية اللقيط، وليس المراد الزنى لتقدمه في النهي صريحاً. وقيل: المرأة تلد جارية فتجعل مكانها غلاماً.

﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ أي: من كل أمر هو طاعة لله؛ كالنهي عن النوح، وتمزيق الثياب، وجزّ الشعر، وشقّ الجيب، وخمش الوجوه، والدعاء بالويل.

﴿فَبَايِعۡهُنَّ﴾ إذا التزمن بجميع ما ذكر.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ عن تقصيرهن، وتطييباً لخواطرهن، اطلب من الله المغفرة لهنّ بعد هذه المبايعة لهنّ منك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ أي: كثير المغفرة للعاصين، والإحسان إلى المذنبين التائبين.

﴿رَّحِيمٞ﴾ وسعت رحمته كل شيء، وعم إحسانه في البرايا.

* ثم وردت آيات تكرر التحذير من موالاة الكفار، وهم قوم كفروا بالله وعصوه، قال تعالى:

(١٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يا أيها المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه ومجانبين لسخطه.

﴿لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ لا تصادقوا يا معشر المؤمنين الكفرة أعداء الدين، وهم جميع طوائف الكفر. وقيل: اليهود خاصة، وإنما غضب عليهم لكفرهم.

﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: أولئك قد حرموا من خير الآخرة، لا إنهم لا يوقنون بالآخرة ألبتة بسبب كفرهم.

﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ أي: كما يئس الكفار المكذبون بالبعث والنشور من بعث موتاهم لاعتقادهم عدم البعث.

تم تفسير سورة الممتحنة

والحمد لله

تفسير سورة الصف
وهي مدنية

* سورة الصف سورة مدنية، فيها بيان لعظمة الله تعالى وقهره، وذل جميع الخلق له ـ تبارك وتعالى ـ، وأن جميع من في السموات والأرض يسبحون بحمد الله ويعبدونه ويسألونه حوائجهم، وفي السورة ذكر لأمر الجهاد في سبيل الله، وجهاد الأعداء، لإعزاز دينه وإعلاء كلمته، ولهذا سميت سورة الصف، وقد ورد في سورة الممتحنة ذكر الجهاد في سبيل الله وبسطه في هذه السورة أبلغ بسط. وأوضحه وأبينه، قال تعالى:

(١)-(٤) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ * كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: نزهه وقدسه وعظمه جميع من في السموات والأرض.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ وهو الغالب في ملكه، الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره، الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، لم تقولون بألسنتكم شيئاً ولا تفعلونه، وهو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ. عن ابن عباس قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: وددنا لو أن الله أخبرنا بأحبّ الأعمال فنعمل بها، فلما أخبرهم أن أحبّ الأعمال إليه الجهاد؛ كره ذلك أناس من المؤمنين وشق عليهم أمره، فنزلت هذه الآية.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: إن الله تعالى يمقت ذلك مقتًا عظيمًا. وقيل: هي في قوم كانوا يأتون إلى النبي ﷺ فيقول أحدهم: قاتلت بسيفي، وضربت كذا وكذا، وهم لم يفعلوا ذلك. والمقت: أشد البغض، لم يطلقه الله في القرآن إلا على الكفر والنفاق والفاحشة. ثم حث سبحانه العباد على الجهاد في سبيله وبين محبته لهم، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ يبيّن الله تعالى لهم هنا أن القتال في سبيل الله هو أعلى ما يحبه الله من عباده، وفي الحديث: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله» [رواه الترمذي].

﴿صَفًّا﴾ أي: يصفون أنفسهم صفًا متراصاً متساوياً، ويثبتون في أماكنهم عند لقاء العدو.

﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ كأنهم في تراصهم وثبوتهم في المعركة بناء ملتزق قد رصّ بعضه ببعض حتى يصير كقطعة واحدة، وهذا من شدتهم وقوتهم في أمر الله، ليس فيهم عن ذلك تراخ، ولا ينفذهم العدو. قال قتادة: ألم تر إلى صاحب البنيان، كيف لا يحب أن يختلف بنيانه؟ فكذلك الله ﷻ لا يختلف أمره، إن الله صف المؤمنين في قتالهم، وصفهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله، فإنه عصمة لمن أخذ به.

* لما ذكر تعالى أمر الجهاد، بين أن موسى وعيسى - عليهما السلام - أمرا بالتوحيد وجاهدا في سبيل الله، وأوذيا بسبب ذلك، فقال في قصة عيسى ابن مريم عليه السلام:

﴿٥، ٦﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۞ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ أي: واذكر -يا محمد- لقومك قصة عبده وكليمه موسى بن عمران، حيث قال لقومه:

﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ موبخاً على صنيعهم، ومقرعاً لهم على مخالفة ما أمرهم به من الشرائع التي افترضها الله عليهم، وبأذيته بالشتم والانتقاص، وبالأقوال والأفعال.

﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي: كيف تؤذونني مع علمكم بأني رسول الله، والرسول يُحترم ويُعظم، ولم يبق معكم شك في الرسالة لما قد شاهدتم من المعجزات التي توجب عليكم الاعتراف برسالتي، وتفيدكم العلم بها علمًا يقينيًا، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من كفار مكة.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ فلما انصرفوا ومالوا عن الحق بقصدهم، وآذوا نبيهم، أمال الله قلوبهم عن طاعته، عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: وهو سبحانه لا يوفق للخير والهدى، من لا يليق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، فهم قوم فسق، وفي هذا تنبيه على عظم إيذاء الرسل، حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى.

* ثم ذكر الله ﷻ ما فيه عظة وعبرة وتسلية لنبينا محمد ﷺ، وذلك بذكر قصة عيسى عليه السلام مع قومه بني إسرائيل وما لاقاه من العناد والصد، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: واذكر -يا محمد- لقومك هذه القصة إيضاً، حين قال عيسى لبني

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا
جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ
(٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْكَٰفِرُونَ (٨) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ
عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ
تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١)
يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ
طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ
مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟
أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ
قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ (١٤)

٥٥٢

إسرائيل، إني رسول الله أُرسلت إليكم، ولم يقل يا قوم كما قال موسى؛ لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه فإنه لم يكن له فيهم أب.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ أي: إني رسول الله إليكم بالإنجيل.

﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: ومما يدل على صدقي كوني جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية، ولم آتكم بشيء يخالف التوراه حتى تنفروا عني وتخالفوني، بل هي مشتملة على التبشير بي.

﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ أي: وجئت لأبشركم ببعثة رسول يأتي بعدي يسمى أحمد، وأحمد اسم نبينا ﷺ. وتفسيره في الأصل: الذي يُحمد بما فيه من خصال الخير أكثر ممن يُحمد غيره، وعيسى عليه السلام كالأنبياء، يُصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق، بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فلما جاءهم عيسى بالمعجزات الواضحات من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من المعجزات الدالة على صدقه في دعوى الرسالة.

﴿قَالُوا۟﴾ عن عيسى معاندين للحق، مكذبين له.

﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: لما جاءهم عيسى بالمعجزات، قالوا هذا الذي جاءنا به سحر واضح ظاهر.

وقيل: المراد محمد ﷺ، أي: لما جاءهم بذلك قالوا: ساحر، وقد بشر كل نبي قومه بنبينا محمد ﷺ، وإنما أفرد تعالى ذكر عيسى بالبشارة في هذا الموضع لأنه آخر نبي قبل نبينا ﷺ.

* ثم ذكر سبحانه أشد الظلم وأقبحه، ومراد الظلمة من ظلمهم هذا، فقال تعالى:

(٧)-(٩) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ استفهام بمعنى النفي: أي لا أحد أشد ظلماً ممن يكذب على الله بهذا وغيره، والحال أنه لا عذر له، وقد انقطعت حجته.

﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ الذي هو خير الأديان وأشرفها؛ لأن من كان كذلك فحقه ألا يفتري على غيره الكذب، فكيف يفتريه على ربه.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يوفق ولا يرشد إلى الفلاح والهدى الذين لا يزالون على ظلمهم، لا تردهم عنه موعظة ولا يزجرهم بيان ولا برهان، والمذكورون من جملتهم.

ثم ذكر سبحانه أن التهكم بدين الله بقولهم: إنه سحر، إنما القصد والمراد منه لإطفاء نور الله والصد عن دينه، قال تعالى:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: إن حالهم في محاولتهم كبت الإسلام ومنع هدايته بأقوالهم الكاذبة كحال من يريد أن يطفئ النور العظيم بنفخ من فمه، وفيه تهكم وسخرية بهم لضعفهم ووهنهم.

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ والله قد تكفل بنصر دينه، وبإظهار دين الإسلام في الآفاق، وإعلائه على غيره من الأديان، وأن ذلك كائن لا محالة.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: ولو بذلوا بسبب كراهتهم كل سبب يتوصلون به إلى إطفاء نور الله، فإنهم مغلوبون.

ثم ذكر سبحانه سبب الظهور والانتصار لدين الإسلام، الحسي والمعنوي، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: هو ﷻ بقدرته وحكمته ورحمته بعث رسوله محمداً ﷺ بالقرآن، وبالعلم النافع، والعمل الصالح.

﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الدين الذي يدان بـه، ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق، لا نقص فيه، ولا خلل يعتريه.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليجعله ظاهرًا منتصرًا عالياً على جميع الأديان، عاليًا عليهـا غالبًا لها على مر الأزمـان، ويظهـر أهلـه القائمين به بالسيف والسـنان، فأما نفس الدين، فهذا الوصف مـلازم له في كل وقت، فـلا يمكـن أن يغالبـه مغالـب، أو يخاصمه مخاصـم إلا فلجـه وقهره، وأما المنتسـبون إليه، فإنهـم إذا قاموا به واسـتناروا بنوره واهتـدوا بهديه، فكذلك لا يقوم لهـم أحد، ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتسـاب إليه، لم ينفعهم ذلك، وصار إهمالهم له سـبب تسليط الأعداء عليهم، والأمر مشاهد على مر الأزمان والعصور.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أي: ولو كره ذلـك أعداء الله فـإن ظهور هذا الدين كائن لا محالة.

* ثـم سـاق الله ﷻ وصية ودلالة إرشـاد من أرحـم الراحمـين لعباده المؤمنـين، لأعظـم تجـارة، وأجـلّ مطلوب، وأعـلى مرغوب، يحصل بها النجاة مـن العذاب الأليـم، والفوز بالنعيم المقيم، وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسـمو إليه كل لبيب، فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها، فقال:

(١٠)-(١٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٖ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٞ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدْنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ﴾ أي: يـا مـن صدقتم الله ورسـوله، وآمنتم بربكم حق الإيمان، هل أدلكم على تجـارة رابحة جليلة الشـأن؟ والاستفهام للتشويق.

﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ تخلصكم وتنقذكم من عذاب شديد مؤلم، وقد جعل العمل بمنزلـة التجارة؛ لأنهم يربحـون فيه كـما يربحون فيهـا، وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم مـن النار، وهذه التجارة هي التي بيّنها بالآيتين اللاحقتين، فـإن معناهما: أن الإيمان والجهاد ثمنهما من الله الجنة، وذلك بيعٌ رابحٌ.

﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: إيماناً صادقاً، لا يشوبه شك، ولا نفاق، فإن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المسـتلزم لأعمال الجوارح، ومن أجل أعـمال الجوارح الجهاد في سبيل الله، فلهذا قال:

﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أي: وتجاهـدون أعداء الديـن، وذلـك بـأن تبذلوا نفوسـكم ومهجكـم لمصادمـة أعداء الإسـلام، والقصد نـصر دين الله وإعـلاء كلمته، وتنفقـون ما تيسر مـن أموالكم في ذلك المطلـوب، فـإن ذلك. ولـو كان كريها للنفوس شـاقاً عليها، وقد قدم الأموال عـلى الأنفس؛ لأنها هي التـي يبدأ بها في الإنفاق والتجهز للجهاد.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٞ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: مـا أمرتكـم به من الإيمان والجهاد في سبيل الله، خير لكم مـن كل شيء في هذه الحيـاة، فإن فيه الخير الدنيوي من النصر على الأعداء والعـز المنافي للذلة والرزق الواسـع، وسعة الصدر وانشراحه.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: يغفر ويمح الله عنكم ذنوبكم، وهـذه المغفرة شـاملة للصغائر والكبائر. فـإن الإيمان بالله والجهـاد في سـبيله مكفـر للذنوب ولـو كانت كبائـر، ذكـر أولاً البضاعة التي يتاجـرون بها، ويذكر هنا الثمن الذي وعدهم به أي: إن تؤمنوا يغفر لكم.

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ويدخلكم حدائق وبسـاتين تجري من تحـت قصورها ومسـاكنها وغرفها وأشجارها، أنهار من مـاء غير آسـن، وأنهـار من لبن لم يتغـير طعمه، وأنهار مـن خمرة لذة للشـاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات.

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدْنٖ﴾ أي: يسكنكم في جناتٍ إقامةً دائمـةً لا تنقطع بمـوتٍ ولا بخروجٍ منهـا، جمعـت كل طيب، مـن علو وارتفاع، وحسن بناء وزخرفة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: ذلك المذكور من المغفـرة وإدخال الجنات؛

هو الفوز الذي لا فوز بعده، والظفر الذي لا ظفر يماثله.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ويمنّ عليكم بخصلة أخرى تعجبكم ولها في قلوبكم موقع حسن، وهي: نصر من الله لكم على الأعداء، يحصل به العز والفرح.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ يفتحه عليكم، يعني: النصر على قريش وفتح مكة. وقيل فتح فارس والروم.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بشّر -يا محمد- المؤمنين بالنصر والفتح في الدنيا، وبالجنة في الآخرة، وبالثواب العاجل والآجل، وجمع لهم ما يسرهم في العاجلة بفتح البلاد، والآجالة وهي جنات عدن.

* ثم دعا سبحانه المؤمنين إلى نصرة النبي ﷺ والقيام بحقه، فقال تعالى:

(١٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي: داوموا على ما أنتم عليه من نصرة الدين والقيام بأمره والحفاظ على بيضته بالأقوال والأفعال.

وهذه الآية حجة واضحة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ لا يشك أحد أن نصر الله إنما هو نصر دينه، ولا يكون نصره إلا بالمعونة على إقامة أمره ونهيه وعلوهما، والأخذ على من يريد ذله وإهانته.

ثم هيج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين، قال لهم عارضاً ومنبهاً انصروا دين الله مثل نصرة الحواريين، بقوله:

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ لما قال لهم عيسى:

﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فقالوا له وابتدروه.

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ والمعنى: من منكم يتولى نصرتي وإعانتي فيما يقرّب إلى الله. والحواريون: هم أنصار المسيح وخُلّص أصحابه، وأوّل من آمن به، وكانوا اثني عشر رجلاً.

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بعيسى عليه السلام بما قام به هو والحواريون من الدعوة.

﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ به منهم، فلم ينقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين.

﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أي: قوينا المحقين منهم على المبطلين، ونصرناهم عليهم.

﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ أي: عالين غالبين، وقاهرين لهم، فأنتم يا أمة محمد كونوا أنصار الله ودعاة دينه، ينصركم الله كما نصر من قبلكم ويظهركم على عدوكم. عن قتادة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ قال: قد كان ذلك بحمد الله، جاءه سبعون رجلاً، فبايعوه عند العقبة، وآووه ونصروه حتى أظهر الله دينه، قال رسول الله ﷺ للنفر الذين لقوه بالعقبة: «أخرجوا إليّ اثني عشر منكم يكونون كفلاء على قومهم، كما كفلت الحواريون لعيسى ابن مريم»، ثم قال ﷺ للنقباء: «إنكم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل قومي»، قالوا: نعم [رواه ابن سعد، وابن أبي شيبة].

تم تفسير سورة الصف
والحمد لله

تفسير سورة الجمعة
وهي مدنية

* سورة الجمعة سورة مدنية، بين الله ﷻ فيها أحكام صلاة الجمعة التي فرضها على المؤمنين، ولهذا سميت السورة بهذا الاسم، وكان ﷺ يقرأ بها في صلاة الجمعة؛ وفي ثنايا السورة الإشارة إلى بعثة الرسول ﷺ، وأنه خاتم الأنبياء، وأنه رحمة للعالمين. وذكر الله ﷻ في السورة اليهود وانحرافهم عن شريعة الله، قال تعالى:

(١)-(٤) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ينزه الله ويمجده

سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْحَكِيمِ ١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ
مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ
ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ٤ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ
يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ
٥ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن
دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ
أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٧ قُلْ
إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ
إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٨

٥٥٣

ويقدسه وينقاد لأمره، ويتألهه ويعبده، جميع ما في السموات والأرض، لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع مماليكه وتحت تدبيره، وصيغة المضارع في قوله ﴿يُسَبِّحُ﴾ لإفادة التجديد والاستمرار، فهو تسبيح دائم على الدوام.

﴿ٱلْمَلِكِ﴾ أي: هو الإله المالك لكل شيء، المتصرف في خلقه بالايجاد والإعدام.

﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ أي: المعظم المنزّه عن كل آفة ونقص، المتصف بصفات الكمال.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ العزيز في ملكه، القاهر للأشياء كلها.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في خلقه وأمره، وهذه الأوصاف مما تدعو إلى عبادته وحده لا شريك له.

﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي: إنه ﷻ برحمته وحكمته الذي أرسل في الأميين رسولاً، وهم العرب. والأمي: الذي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، وكان غالب العرب كذلك، فامتن الله تعالى عليهم منّة عظيمة؛ أعظم من منته على غيرهم. والحكمة في اقتصاره على ذكر الأميين مع أنه رسوله إلى كافة الخلق؛ تشريف العرب حيث أضيف ﷺ إليهم، وكفى بذلك شرفاً للعرب.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يقرأ عليهم القرآن، مع كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يتعلّم من أحد؛ لأن أول تبليغ الدعوة بإبلاغ الوحي، وثنّى بالتزكية:

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم من دنس الكفر والذنوب وسيء الأخلاق، ويجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: ويعلمُهم الكتاب: وهو القرآن، والحكمة: وهي السنّة. وقيل الكتاب: الخط بالقلم، والحكمة: الفقه في الدين، فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية منه أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وإن الحال والشأن أنهم كانوا من قبل إرسال محمد ﷺ في شرك وذهاب عن الحق، فالله مَنَّ عليهم ببعثة هذا الرسول ﷺ أكمل نعمة، وأجل منحة.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ أي: وبعث الرسول إلى قوم آخرين لم يلحقوا بهم في ذلك الوقت، وسيلحقون بهم من بعد، يدينون بدينهم وهم التابعون ومن بعدهم إلى يوم القيامة. أي: يزكيهم ويزكي آخرين منهم، وهم من جاء بعد الصحابة من مسلمي العرب وغيرهم إلى يوم القيامة. أخرج البخاري عن أبي هريرة، قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ حين نزلت سورة الجمعة، فتلاها، فلما بلغ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ قال له رجل: يا رسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فوضع يده على سلمان الفارسي وقال: «والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء» [رواه الترمذي].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القوي الغالب في ملكه، عزيز في تمكينه رجلاً أمياً من ذلك الأمر العظيم وتأييده عليه، واختياره إياه من بين كافة البشر.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ذلك الشرف الذي امتاز به سيد البشر، وهو كونه مبعوثاً إلى كافة الناس، وما شرّف الله به العرب من نزول القرآن بلغتهم، وإرسال خاتم الرسل إليهم، هو فضل الله يعطيه لمن يشاء من خلقه.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: هو ﷻ ذو الفضل الواسع على جميع خلقه في الدنيا والآخرة.

* ولما ذكر الله فضله على هذه الأمة الذين ابتعث فيهم النبي الأمي، وما خصهم الله به من المزايا والمناقب التي لا يلحقهم فيها أحد، وهم الأمة الأمية الذين فاقوا الأولين والآخرين، ضرب الله مثلاً بالأمم السابقة، فقال تعالى:

(٥)-(٨) ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ * قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ هذا المثل ضربه سبحانه لليهود الذين أُعطوا التوراة، أي: كُلفوا القيام بها والعمل بما فيها.

﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي: ثم لم يعملوا بموجبها، ولا أطاعوا ما أمروا به فيها.

﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢا﴾ أي: مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل الأسفار. والأسفار: جمع سِفْرٍ وهو الكتاب الكبير، فالحمار لا يدري أسفر على ظهره أم غير ذلك؟ وليس له إلا ثقل الحمل من غير فائدة، فهو يتعب في حملها ولا ينتفع بما فيها. قال ابن القيم: وإن كان قد ضرب لليهود، فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته.

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بئس هذا المثل الذي ضربناه لليهود، وهذا المشبه به وهو الحمار، الذي يشبهه اليهود بحق، هو أقبح ما يمثل به للمكذبين. أي: فلا تكونوا أيها المسلمون مثلهم، فقدم الله هذا تحذيرًا للذين تركوا رسول الله ﷺ على المنبر قائمًا يخطب وذهبوا إلى التجارة.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يوفقهم للخير، ولا يرشدهم إلى مصالحهم، ما دام الظلم لهم وصفاً، والعناد لهم نعتاً.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: قل -يا محمد- لهؤلاء الذين تهوّدوا وتمسكوا بملة اليهودية، إن كنتم أولياء الله وأحباءه حقاً، وذلك أن اليهود ادّعوا الفضيلة على الناس، وأنهم أولياء لله من دون الناس، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، فأمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم لما ادعوا هذه الدعوى الباطلة.

﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: فتمنوا من الله أن يُميتكم لتصيروا إلى الكرامة في زعمكم، إن كنتم في هذا الزعم صادقين، فإن من علم أنه من أهل الجنة أحبّ الخلاص من هذه الدار.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ولا يتمنون الموت بحال من الأحوال، بسبب ما أسلفوه من الكفر والمعاصي، وتكذيب محمد ﷺ. ومن معجزات الرسول ﷺ في هذا أنه لم يتمن أحد الموت منهم، لأنهم كانوا موقنين بصدقه ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: عالم بهم وما صدر منهم، فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصي، والتحريف والتبديل، وهذا وعيد لهم.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ أي: قل -يا محمد-: إن هذا الموت الذين تهربون منه ولا تجسرون أن تتمنوه، هو آت إليكم من الجهة التي أنتم فارّون إليها، وسيقابلكم وجهًا لوجه.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ترجعون إلى من لا تخفى عليه خافية، وذلك يوم القيامة، فيجازيكم على ما عملتم من الأعمال القبيحة.

* ثم يأمر الله ﷻ عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، والسعي إليها من حين ينادى لها، فقال تعالى:

(٩)،(١٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: يا معاشر المؤمنين المصدقين بالله ورسوله.

﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ أي: إذا سمعتم المؤذن يُنادي لصلاة الجمعة ويؤذن لها. والمراد: بالأذان؛ الأذان الذي يرفع إذا جلس

الإمام على المنبر يوم الجمعة؛ لأنه لم يكن على عهد رسول الله ﷺ نداءٌ سواه، أما الأذان الأول للجمعة فقد زاده عثمان رضي الله عنه بمحضر الصحابة لما اتسعت المدينة.

﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ أي: فامضوا إلى سماع خطبة الجمعة وأداء الصلاة، واتركوا البيع إذا نودي للصلاة، وامضوا إليها، أراد الأمر بترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا، وإنما خص البيع من بينها لأن يوم الجمعة يتكاثر فيه البيع والشراء عند الزوال.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ السعي إلى ذكر الله، والصلاة وترك البيع.

﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي: خير من فعل البيع والشراء، وعليكم بالسعي، لما في الامتثال من الأجر والجزاء.

﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أن ما عند الله خير وأبقى، وكنتم من أهل العلم القويم، والفهم السليم.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي: إذا أديتم الصلاة وفرغتم منها.

﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أمر إباحة، أي: فتفرقوا في الأرض للتجارة والتصرف فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم.

﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ أي: من رزقه الذي يتفضل به على عباده، من الأرباح في المعاملات والمكاسب، ولما كان الاشتغال في التجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال:

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ أي: لا تنسوا في أثناء بيعكم وشرائكم أن تذكروه ذكراً كثيراً، بالشكر له على ما هداكم إليه من الخير الأخروي والدنيوي، وكذا اذكروه بما يقربكم إليه من الأذكار: كالحمد والتسبيح والتكبير والاستغفار ونحو ذلك.

قال الكرجي: «كلما أكثر المرء ذكر الله كان أزيد لفلاحه، وأجدر لنجاحه، وأقرب إلى النجاة من عذاب ربه».

﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي: كي تفوزوا بخير الدارين وتظفروا به، فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح. ولهذا ينبغي للمؤمن الموفق وقت اشتغاله في مكاسب الدنيا أن يقصد بذلك الاستعانة على قيامه بالواجبات، وأن يكون مستعيناً بالله في ذلك، طالباً لفضله، جاعلاً الرجاء والطمع في فضل الله نصب عينيه، فإن التعلق بالله والطمع في فضله من الإيمان ومن العبادات.

* ثم أخبر سبحانه عن حال فريق من الناس يؤثرون الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، ويفضلون العاجل على الأجل، فقال:

﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ هذا عتاب لبعض الصحابة الذين انصرفوا عن رسول الله ﷺ. وسبب نزول هذه الآية: أنه كان بأهل المدينة فاقة وحاجة، فأقبلت قافلة من الشام، والنبيّ ﷺ يخطب يوم الجمعة، فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً في المسجد. ومعنى انفضوا إليها: تفرقوا خارجين إليها.

﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾ أي: وتركوا الرسول ﷺ على المنبر قائماً يخطب يوم الجمعة.

﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: قل لهم -يا محمد-: إن ما عند الله من الثواب والنعيم، والجزاء العظيم وهو الجنة؛ لمن لازم الخير، وصبَّر نفسه على عبادة ربه.

﴿خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾ أي: خير مما ذهبتم إليه، وتركتم البقاء في المسجد، وسماع خطبة النبيّ ﷺ لأجلها، وإن حصل منها بعض المقاصد، فإن ذلك قليل منغص، مفوت لخير الآخرة، وليس الصبر مفوتاً للرزق، على أنه ينبغي للعبد ـ المقبل على عبادة الله ـ وقت دواعي النفس لحضور اللهو والتجارات والشهوات أن يذكرها بما عند الله من الخيرات وما يؤثر رضاه على هواه.

﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: هو تعالى خير من رزق وأعطى، فإن من اتقى الله رزقه من حيث لا يحتسب.

وفي يوم الجمعة أمرنا بالعبادة ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ وأمرنا بطلب الرزق وهو عبادة عند احتساب ذلك ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ وأيام المسلم كلها عبادة.

تم تفسير سورة الجمعة

والحمد لله

تفسير سورة المنافقين
وهي مدنية

* سورة المنافقون سورة مدنية، فإن النبي ﷺ لما قدم المدينة مهاجراً واستقر فيها، وكثر المسلمون واعتز الإسلام

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ
إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ
مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾
وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ قُلْ مَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ
لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ
أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْۖ وَإِن يَقُولُواْ
تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ
عَلَيْهِمْۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

٥٥٤

بهم، صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج، من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ليبقى جاههم، وتحقن دماءهم، وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما بــه يعرفون لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة، قال تعالى:

(١)-(٤) ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۞ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ **أي: إذا أتاك -يا محمد- المنافقون، ووصلوا إليك، وحضروا مجلسك.**

﴿قَالُواْ﴾ **بألسنتهم على وجه الكذب.**

﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ **أكدوا شهادتهم بإن واللام، للإشعار بأنها صادرة من صميم قلوبهم، مع إخلاصهم في اعتقادهم، ومعنى نشهد: نعلم.**

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ **أي: والله ﷻ يعلم أنك -يا محمد- رسوله حقاً، وهذا تصديق من الله ﷻ لما تضمنه كلامهم من الشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة، ولئلا يفهم عود التكذيب الآتي إلى ذلك.**

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ **أي: والله يشهد بكذب المنافقين في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم.**

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ **أي: جعلوا حلفهم الذي حلفوه لكم وقاية تقيهم منكم، وسترة يستترون بها من القتل والأسر.**

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ **أي: منعوا عن سبيله بأنفسهم، وصدوا غيرهم لمن يخفي عليهم حالهم عن الإيمان والجهاد وأعمال الطاعة بسبب ما يصدر منهم من التشكيك والقدح في النبوة.**

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ **أي: قبح عملهم وصنيعهم من النفاق والصدّ، وإظهار الإيمان وإبطان الكفر، وفي ساء معنى التعجب.**

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ **أي: ذلك الحلف الكاذب، والصد عن سبيل الله بسبب أنهم لم يثبتوا على الإيمان بل آمنوا.**

﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ **في الباطن، وقيل: نزلت الآية في قوم آمنوا، ثم ارتدّوا.**

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ **أي: ختم عليها بسبب كفرهم، فلا يدخلها إيمان ولا نور بعد ذلك، فهم لا يعرفون الخير والإيمان، ولا يعرفون ما فيه صلاحهم ورشادهم.**

ثم ذكر الله ﷻ بعد أوصافهم القلبية، أوصافهم الجسمية، فقال:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ **وإذا رأيت هؤلاء المنافقين أعجبتك هيئاتهم ومناظرهم ومناصبهم، تعجب من يراها لما فيها من الحسن والنضارة والرونق.**

﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ **أي: وإن يتكلموا تُصغ لكلامهم فتحسب أن قولهم حقّ وصدق لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم، وقد كان عبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين فصيحاً جسيماً جميلاً، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدي الصالح شيء، وأما المؤمنون فعكس هذه الصفات، حالهم مستضعفون في ظاهر أجسامهم وكلامهم؛ لأنهم اشتغلوا بعمارة قلوبهم**

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ
وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ
أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ
لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ
خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ
﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ
مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ
أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم
مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن
يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

سُورَةُ التَّغَابُنِ

وأرواحهم عن عمارة أجسادهم، أما بواطنهم فقوية عامرة ثابتة يؤدون بها الأعمال الشاقة في طاعة الله من الجهاد والعبادات ما لا يستطيع المنافق مكابدته لضعف قلبه، لهذا قال عن المنافقين:

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ شُبهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله ﷺ بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط، التي لا منفعة فيها، ولا تفهم، ولا تعلم، لخلوّهم عن الفهم النافع، والعلم الذي ينتفع به صاحبه.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يظنون لجبنهم وفزعهم، والريب الذي في قلوبهم؛ كل نداء وكل صوت، أنهم يرادون بذلك، وكان المنافقون على وجل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم، فهؤلاء.

﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ أي: هم الأعداء على الحقيقة؛ لأن العدو البارز المتميز أهون من العدو الذي لا يشعر به وهو مخادع ماكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المبين.

﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾ أي: فاحذرهم ولا تأمنهم على سر؛ لأنهم عيون لأعدائك من الكفار.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لعنهم، وأخزاهم وأبعدهم الله عن رحمته.

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق، ويميلون عنه إلى الكفر.

* ثم ذكر تعالى حال المنافقين، إذا دعوا إلى الاستغفار والتوبة، قال تعالى:

﴿٥﴾-﴿٨﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ * هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: وإذا قيل لهؤلاء المنافقين، هلموا إلى رسول الله حتى يطلب لكم المغفرة من الله لما بدر وصدر منكم.

﴿لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ أي: حركوها وهزوها استهزاءً بذلك، ورغبة عن الاستغفار، وتراهم يعرضون عن رسول الله ﷺ، وعن الحق بغضاً له.

﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباعه وعن إتيان رسول الله وسؤال الاستغفار منه، يرون أنفسهم أكبر من ذلك، ويستحقرونها لو فعلوا، فهذه حالهم عندما يدعون إلى طلب الدعاء من الرسول، وهذا من لطف الله وكرامته لرسوله، حيث لم يأتوا إليه فيستغفر لهم.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: -يا محمد-؛ يتساوى الأمر بالنسبة لهم، فإنه لا ينفعهم ذلك لإصرارهم على النفاق واستمرارهم على الكفر، فإن الله لن يصفح عنهم ما داموا على النفاق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: لا يوفق للإيمان الكاملين في الخروج عن الطاعة، والانهماك في معاصي الله، ويدخل في هذا المنافقون دخولاً أولياً.

ومن شدة عداوتهم وبغضهم لرسول الله ولما جاء به من البينات لما رأوا اجتماع أصحابه وائتلافهم، ومسارعتهم في مرضاة الرسول، قالوا بزعمهم الفاسد، كما ذكر الله عنهم بقوله:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ أي: أن المنافقين هم الذين يقولون لا تنفقوا على فقراء المهاجرين حتى يتفرقوا عن رسول الله ﷺ لأنه بزعمهم لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم، لما اجتمعوا في نصره دين الله.

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: إنه هو ﷻ بيده مفاتيح الرزق، وهو الرزّاق لهؤلاء المهاجرين، فإنه سبحانه يرزق من يشاء، ويمنع من يشاء، وييسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ ولكن المنافقين لا يفهمون حكمة الله وتدبيره، وأن خزائن الأرزاق بيده، فظنوا أن الله لا يوسّع على المؤمنين، ولهذا قالوا تلك المقالة التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم وتحت مشيئتهم. ثم عدّد تعالى بعض قبائح اليهود وأقوالهم الشنيعة، فقال:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ القائل هو عبدالله بن أُبَيّ رأس المنافقين. وعنى بالأعزّ: نفسه ومن معه، وبالأذلّ: رسول الله ﷺ ومن معه، ومراده بالرجوع: رجوعهم من غزوة المريسيع حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدر الخواطر، ظهر حينئذ نفاق المنافقين، وأظهروا ما في نفوسهم. قال المفسرون: لما قال ابن سلول ما قال ورجع إلى المدينة، وقف له ولده عبدالله على باب المدينة واستل سيفه، فجعل الناس يمرون به فلما جاء أبوه، قال ابنه: وراءك، والله لا تدخل المدينة أبداً، حتى تقول إن رسول الله هو الأعز، وأنا الأذل فقالها.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: لله ﷻ القوة والغلبة، ولمن أعزه وأيده من رسوله والمؤمنين فهم الأعزاء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار هم الأذلاء. والعزة غير الكبر، ولا يحل للمسلم أن يذل نفسه، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه، والكبر جهل الإنسان بنفسه.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ولكن المنافقين لفرط جهلهم وغرورهم لا يعلمون ذلك، فزعموا أنهم الأعزاء اغتراراً بما هم عليهم من الباطل.

* ثم ذكّر الله تعالى المؤمنين بعدم انكبابهم على الدنيا والغفلة عن ذكر الله وطاعته، فقال:

﴿٩-١١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ * وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ لما ذكر سبحانه قبائح المنافقين، نهى وحذر المؤمنين من أخلاقهم، وعن التشبه بهم في الاغترار بالأموال والأولاد والانشغال بها عن ذكر الله وفرائض الإسلام، وقراءة القرآن. وفي الآية قوله ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ﴾ ولم يقل لا تشغلكم، لأن في الشغل ما هو محمود، وهو الشغل في الحق كما في الحديث: «إن في الصلاة لشغلاً». أما الإلهاء فهو الاشتغال بما لا خير فيه، وهو مذموم علي وجه العموم.

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي: من يلتهي بالدنيا عن الدين، فأولئك هم الكاملون في الخسران، خسارة للسعادة الأبدية، والنعيم المقيم.

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ وأنفقوا في مرضاة الله من بعض ما رزقناكم في سبيل الخير، ويدل ذلك على أنه تعالى، لم يكلف العباد من النفقة ما يعنتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء مما رزقهم، الذي يسره لهم ويسر لهم أسبابه، وقيل: المراد الزكاة المفروضة.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: قبل أن يحل الموت بالإنسان، بأن تنزل به أسبابه، أو يشاهد حضور علاماته، فيتحسر على ما فرط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي المحال.

﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ فيقول عند تيقنه الموت: يا رب هلا أمهلتني وأخّرت موتي إلى مدة أخرى قصيرة لأتدارك ما فرطت فيه.

﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ أي: فأتصدق من مالي، ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بأداء المأمورات كلهـا، واجتناب المنهيات، وهذا السؤال والتمني، قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، لهذا قال:

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ أي: لن يهمل الله أحداً إذا حضر أجله وانقضى عمره، فإنه أجل محتوم له، وفيه حث وتحريض على المبادرة بأعمال الطاعات واغتنام الأوقات.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مطلع وعالم بأعمالكم من خير أو شر، لا يخفى عليه شيء منه، فهو مجازيكم بأعمالكم.

تم تفسير سورة المنافقين

والحمد لله

تفسير سورة التغابن
وهي مدنية

* سورة التغابن سورة مكية، يشتمل صدرها على جملة كثيرة واسعة، من أوصاف الباري العظيمة، فذكر سبحانه كمال ألوهيته، وسعة غناه، وافتقار جميع الخلائق إليه، وعظمته وآثار قدرته، وتسبيح من في السموات والأرض بحمده، قال تعالى:

(١)-(٤) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ * هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ * يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ينزه الله تعالى ويمجده جميع ما في السموات والأرض من مخلوقاته، تنزيهاً دائماً مستمراً دون انقطاع، وصيغة المضارع تفيد التجديد والاستمرار.

﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ له ﷻ الملك التام والتصرف الكامل في خلقه، وهو المستحق للثناء وحده؛ لأن جميع النعم منه ﷻ.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر على كل شيء، يُغني ويفقر، ويُعز ويذل، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾ هذا تفصيل لبعض آثار قدرته، فإنه تعالى خلق الكافر وكفره فعل له وكسب، وخلق المؤمن وإيمانُهُ فعل له وكسب، والكافر يكفر ويختار الكفر، والمؤمن يؤمن ويختار الإيمان، والكل بإذن الله. وقدّم الكافر على المؤمن؛ لكثرة الكفار وقلة المؤمنين.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: عالم بأحوالكم، مطلع على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية من شؤونكم وسيجازيكم عليها.

ثم فصل تعالى آثار قدرته ودلائل وحدانيته، فقال:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: خلقهما بالحكمة البالغة المتضمنة لمصالح الدنيا والدين، خلق سبحانه أجرامها وجميع ما فيها فأحسن خلقهما.

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالحكمة والغاية المقصودة له تعالى.

﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ أي: إنه سبحانه خلق الإنسان في أكمل صورة وأحسن تقويم وأجمل شكل، وفي ذلك دلالة بيّنة لقوم يعقلون على قدرة الخالق وحكمته وعظمته، وكذا الصورة النفسية للإنسان وقدراته العقلية الهائلة دلالة أعظم من ذلك.

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: المرجع يوم القيامة، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم، ويسألكم عن النعم والنعيم الذي أولاكم.

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: لا تخفى عليه خافية من السرائر والظواهر، والغيب والشهادة.

الجزء الثامن والعشرون سورة التغابن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم
مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ
بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣ يَعۡلَمُ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ
عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ
فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ
رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۖ وَّٱسۡتَغۡنَى
ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ
وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧
فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ
٨ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ
وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩

٥٥٦

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ويعلم ما تخفونه، وما تظهرونه من نواياكم وأعمالكم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: عالم بما في الصدور من الأسرار والخفايا، فيتعين على العاقل البصير، أن يحرص ويجتهد في حفظ باطنه من الأخلاق الرذيلة، واتصافه بالأخلاق الجميلة.

وقد نبه سبحانه في الآيات السابقة على علمه بما في السموات والأرض، ثم بعلمه بما يخفيه العباد وما يعلنونه، ثم بعلمه بما أكنَّته الصدور، على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء لا من الكليات ولا من الجزئيات، فابتدأ بالعلم الشامل، ثم بسرِّ العباد وعلانيتهم، ثم بما تنطوي عليه صدورهم، وهذا كله في معنى الوعيد، إذ هو تعالى المجازي عليه بالثواب والعقاب.

* ولما ذكر سبحانه من أوصافه الكاملة العظيمة، ما به يعرف ويعبد، ويبذل الجهد في مرضاته وتجتنب مساخطه، أخبر بما فعل بالأمم السابقة والقرون الماضية، فقال تعالى:

﴿٥﴾، ﴿٦﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ ألم يأتكم يا معشر قريش خبر كفار الأمم الماضية وما كان من أمرهم، كقوم نوح وعاد وثمود، قد جاءكم الخبر عنهم في القرآن، وكيف دعتهم رسلهم إلى توحيد الله وعبادته وترك ما اتخذوهم أربابًا من دونه، وكيف آل أمر المكذبين إلى الهلاك، وما حل بهم من العذاب والنكال.

﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ فذاقوا العقوبة الوخيمة على كفرهم في الدنيا. والوبال: الثقل والشدة، وهو ما أصيبوا به من عذاب الدنيا.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم في الآخرة عذاب شديد موجع، وهو عذاب النار. ثم ذكر السبب في هذه العقوبة، فقال:

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب والوبال في الدارين الذي أحللناه بهم.

﴿بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بسبب أنها كانت تأتيهم الرسل المرسلة إليهم بالمعجزات الباهرة والبينات الظاهرة، الدالة على الحق والباطل، فاشمأزوا واستكبروا.

﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي: فقالوا على سبيل الاستغراب والتعجب: أرسلٌ من البشر يصيرون هداة لنا، منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر، متعجبين من ذلك، ولأي شيء خصهم الله دوننا، فكانت نتيجة الإعراض.

﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا﴾ أي: كفروا بالرسول، وأعرضوا عن الإيمان وطاعة الله، وكفروا بالرسل وبما جاؤوا به، وأعرضوا عنهم، ولم يتدبروا ما جاؤوا به.

﴿وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ أي: استغنى الله عن إيمانهم وعبادتهم، فلا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم شيئاً.

﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: هو الغني عن خلقه، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه غير محتاج إلى العالم ولا لعبادتهم له، الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه، محمود من كل مخلوقاته بلسان المقال أو الحال.

* ثم أخبر تعالى عن إنكارهم للبعث بعد تكذيبهم للرسالة، فقال:

﴿٧﴾-﴿١٠﴾ ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ أي: ادعى كفار مكة وظنوا أن الله لن يبعثهم من قبورهم بعد موتهم، وهذا من عناد الكافرين وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى، ولا كتاب منير.

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ قل لهم -يا محمد-: ليس الأمر كما زعمتم،

وأقسم بربي لتخرجن من قبوركم أحياء ولتبعثن.

﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ ثم لتُخبَرُنّ بجميع أعمالكم، إقامة للحجة عليكم، ثم تجزون به.

﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: وذلك البعث والجزاء على الله يسير، فإنه وإن كان عسيراً، بل متعذراً بالنسبة إلى الخلق، فإنه على الله يسير سهل هين؛ لأن الإعادة أسهل من الابتداء والإعادة والابتداء في حق الله يسيرة.

* ولما ذكر إنكار من أنكر البعث، وأن ذلك منهم موجب كفرهم بالله وآياته، أمرهم بما يعصم من الهلكة والشقاء، فقال تعالى:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ أي: فصدقوا بالله وبرسوله محمد ﷺ وبهذا القرآن؛ لأنه نور يُهتدى به من ظلمة الضلال.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: لا تخفى عليه خافيه من أعمالكم فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ أي: واذكروا يوم الجمع الذي يكون القيامة، فإنه يجمع فيه أهل المحشر للجزاء، الأولون والآخرون ويجمع فيه بين كل عامل وعمله، وبين كل نبي وأمته، وبين كل مظلوم وظالمه.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ أي: ذلك هو يوم القيامة، اليوم الذي يظهر فيه غبن الكافر وخسارته، ويتفاوت فيه أهل المحشر بعضهم بعضًا، فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل، ولا غبن أعظم من غبن أهل الجنة أهل النار، فكأن أهل النار استبدلوا الخير بالشر، والجيد بالرديء، والنعيم بالعذاب، وأهل الجنة على العكس من ذلك، فالمغبون من غُبِنَ أهله ومنازله في الجنة.

ثم ذكر سبحانه أسباب الفلاح والنجاح، والفوز بجنات الخلود:

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ أي: ومن يصدق بالله تصديقاً تامّاً شاملاً لجميع ما أمر الله بالإيمان به.

الجُزءُ الثامنُ والعِشرونَ سُورَةُ التَّغَابُنِ

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ
إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن
تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا
لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ
فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ
وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ
شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ
ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ
حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

سُورَةُ الطَّلَاقِ

٥٥٧

﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ من الفرائض والنوافل، من أداء حقوق الله وحقوق عباده.

﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ أي: من وقع منه التصديق مع العمل الصالح استحق تكفير سيئاته.

﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: خلود وبقاء دائم لا زوال ولا انقطاع له.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: ودخول الجنة، والخلود فيها هو النجاح والفلاح الذي ليس بعده مثله.

ثم ذكر سبحانه مأوى ومنزلة من كفر به وعصاه، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ والذين جحدوا بوحدانية الله وقدرته، وكفروا بها ولم يصدقوها، ولم يؤمنوا بالآيات العظيمة وبما جاءت به الرسل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: أولئك مآلهم جهنم، فإنهم أهل النار الخالدين فيها، وساءت مستقراً ومصيراً.

* ثم ذكر سبحانه المصائب، وفضيلة الصبر عليها، ووجوب طاعة الله ورسوله، فقال:

﴿١١﴾-﴿١٣﴾ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ

﴿ٱللَّهِ﴾ أي: ما أصاب أحداً مصيبة من شدة ومرض، وموت في نفسه أو ماله أو ولده، إلا بقضاء الله وقدره ومشيئته. قيل: وسبب نزولها أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقًا لصانهم الله عن المصائب في الدنيا.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ ومن يصدّق بالله ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما قدّره الله عليه، يهد قلبه عند المصيبة، فيعلم أنها من الله، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيسلم لقضائه، ويسترجع، وإذا ابتلي صبر، وإذا أنعم عليه شكر.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: هو تعالى بليغ العلم، عالم بكل الأشياء، لا تخفى عليه من ذلك خافية.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: أطيعوا أمر الله وأمر رسوله، واشتغلوا بطاعة الله وطاعة رسوله، وامتثال أمرهما، فإن طاعتهما مدار السعادة، وعنوان الفلاح، وكرر الأمر للتأكيد، ولبيان أن طاعة الرسول واجبة كطاعة الله.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فإن أعرضتم عن الطاعة، وعن إجابة الرسول، فإثمكم على أنفسكم، وليس على الرسول من بأس.

﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ما على الرسول إلا البيان والتوضيح والدعوة والموعظة، ليس عليه غير ذلك، وقد فعل ﷺ وبلغ الرسالة وأدى الأمانة.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الله ﷻ هو المستحق للعبادة والألوهية، فكل معبود سواه فباطل. عليه سبحانه الاعتماد، وإليه المرجع والمآب.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: فليعتمدوا عليه وحده في كل أمر نابهم، وفيما يريدون القيام به، فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاعتماد عليه، ولا يتم الاعتماد عليه سبحانه حتى يحسن العبد ظنه بربه، ويثق به في كفايته الأمر الذي اعتمد عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله، فكلما قوي الإيمان قوي التوكل، وفي الآية تحريض وحث للنبي ﷺ على التوكل على الله، والالتجاء إليه، وفيه تعليمٌ للأمة ذلك، بأن يلتجئوا إلى الله ويثقوا بنصره وتأييده.

* ثم يذكر الله ﷻ نوعاً من العداوة من الأقارب، وأن الأموال والأولاد فتنة، قال تعالى:

﴿١٤﴾-﴿١٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ هذا تحذير من الله ﷻ للمؤمنين من الاغترار بالأزواج والأولاد فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر. وسبب نزول الآية أن رجالاً من مكة أسلموا وأرادوا أن يهاجروا، فلم يدعهم أزواجهم وأولادهم. قال مجاهد: والله ما عادوهم في الدنيا ولكن حملتهم مودتهم على أن اتخذوا لهم الحرام فأعطوهم إياه. والآية تعم كل من انشغل عن طاعة الله بالأزواج والأولاد.

لما ذكر الله العداوة أدخل فيه ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، فقال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ﴾؛ لأن كلهم ليسوا بأعداء ولم يذكر ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنها لا تخلو من الفتنة واشتغال القلب.

﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ أي: احذروا الأزواج والأولاد أن تؤثروا حبكم لهم وشفقتكم عليهم على طاعة الله، ولا يحملكم ما ترغبونه لهم من الخير على أن تكسبوا لهم رزقًا بمعصية الله.

﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟﴾ أي: وإن صفحتم عما صدر منهم، وغفرتم لهم زلاتهم وسترتموها فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن غفر غفر الله له، ومن عامل الله فيما يحب، وعامل عباده كما يحبون وينفعهم، نال محبة الله ومحبة عباده، واستوثق له أمره.

وترتيب العفو الصفح والغفران جاء في غاية الإبداع والتناسق، فبدأ بالعفو وهو ترك العقوبة، ثم ثنى بالصفح، وهو ترك التثريب واللوم والتعيير بالذنب، وختم بالغفران وهو إخفاء الذنب وستره.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فإن الله واسع المغفرة، عظيم الرحمة لكم ولهم، يعاملكم بمثل ما عاملتم. قيل: كان الرجل الذي ثبّطه أزواجه وأولاده عن الهجرة، إذا رأى الناس سبقوه إليها وفقهوا في الدين، همّ أن يعاقب

أزواجه وأولاده. ثم ذكر تعالى حقيقة الأموال والأولاد، فقال:

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ أي: ليست الأموال والأولاد إلا بلاء واختبار ومحنة من الله تعالى لخلقه، ليعلم من يطيعه ومن يعصيه، وقدم المال لأن فتنته أشد.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: يوم القيامة.

﴿أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي: وما عند الله من الأجر والثواب في الآخرة، أعظم من متاع الدنيا لمن آثر طاعة الله وترك معصيته في محبة ماله وولده، والآية ترغيب في الآخرة وتزهيد في الدنيا، وفي الأموال والأولاد التي فُتن الناس بها.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أي: ابذلوا أيها المؤمنون في طاعة الله جهدكم وطاقتكم، وما أطقتم وبلغ إليه جهدكم.

﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ أي: اسمعوا ما يعظكم الله به، وما يشرعه لكم من الأحكام، واعلموا ذلك وانقادوا له.

﴿وَأَطِيعُواْ﴾ الله ورسوله في جميع أموركم.

﴿وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ أي: وأنفقوا من أموالكم التي رزقكم الله إياها في وجوه الخير، ولا تبخلوا بها، وقدموا خيرًا لأنفسكم.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي: من وقاه الله وسلم من داء البخل فأنفق في سبيل الله وأبواب الخير، فأولئك هم الظافرون بكل خير، الفائزون بكل مطلب. ثم رغّب سبحانه في النفقة، فقال:

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ أي: تصرفون أموالكم في وجوه الخير بإخلاص نية وطيب نفس. وفي تصوير الصدقة بصورة القرض تلطف بليغ في الإحسان إلى الفقراء.

﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ فيجعل الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ أي: يضم لكم إلى تلك المضاعفة غفران ذنوبكم، ويمح عنكم سيئاتكم بسبب الإنفاق والصدقة. فإن الذنوب يكفرها الله بالصدقات والحسنات.

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: شاكر للمحسن إحسانه، يقبل القليل ويعطي الجزيل، حليم بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: هو تعالى العالم بما غاب عن العباد من الخبو والتي لا يعلمها إلا هو، وما يشاهدونه من المخلوقات لا تخفى عليه خافية.

﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، الذي قهر كل الأشياء.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.

تم تفسير سورة التغابن
والحمد لله

تفسير سورة الطلاق
وهي مدنية

* سورة الطلاق سورة مدنية، تناولت بعض الأحكام التشريعية المتعلقة بأحوال الزوجين، كبيان أحكام الطلاق السني وكيفيته، وما يترتب على الطلاق من العدة، والنفقة، والسكنى، وأجر المرضع وغير ذلك من الأحكام، وأمرت المؤمنين عند تعذر استمرار الحياة الزوجية إلى أن يتمهلوا ولا يسرعوا في فصل عرى الزوجية. وفي السورة تسلية للزوجة وتطييب لخاطرها وجبر لكسرها، وتكرر الأمر بتقوى الله في السورة خمس مرات بالترغيب تارة، وبالترهيب أخرى، لئلا يقع حيف أو ظلم من أحد الزوجين، حين يقع الطلاق وتشح الأنفس، وتنفصم عرى الزوجية، قال تعالى:

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: يا أيها النبي، ويا أيها المؤمنون، إذا أردتم تطليق النساء، وقد نادى النبي ﷺ أوّلاً؛ تشريفًا وتعظيماً له، ولأنه السيد المقدم، ثم خاطبه مع أمته.

﴿فَـ﴾ فالتمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حيث يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر الله به.

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: مستقبلات لعدتهنّ، أو قبل عدتهنّ، والمراد: أن يطلقوهنّ في طهر لم يقع فيه جماع، ثم يُتركن حتى تنقضي عدتهنّ، فإذا طلقوهنّ هكذا فقد طلقوهنّ لعدتهنّ. عن ابن عمر: أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض وتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدّة التي أمر الله أن يطلّق لها النساء» [رواه النسائي]، وإنما نهى عن طلاق المرأة وقت الحيض لئلّا تطول عليها

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن
يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ
فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١
فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ
وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ
بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ
مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ
فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ
قَدۡرٗا ٣ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ
ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ
ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ
يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ
وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥

٥٥٨

العدة فتتضرر؛ ولأن حالة الحيض منفرة للزوج، تجعله يتسرع في طلاقها بخلاف ما إذا كانت طاهراً، وكونه لم يجامعها في ذلك الطهر، لئلا يحصل من ذلك الوطء حمل، فتنتقل العدة من الحيض لوضع الحمل وذلك ضرر ظاهر.

﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ أي: اضبطوها واحفظوها، واحفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق حتى تتم العدّة، وهي ثلاثة قروء كاملة لئلا تختلط الأنساب، والخطاب للأزواج.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ أي: خافوا الله رب العالمين فلا تعصوه فيما أمركم، ولا تضارّوهنّ، وخافوه في حق الزوجات المطلقات.

وفيه التحذير من التساهل في أحكام الطلاق والعدة، ذلك أن أهل الجاهلية لم يكونوا يقيمون للنساء وزناً، وكان قرابة المطلقات قلما يدافعن عنهن فتناسى الناس تلك الحقوق وغمصوها، فلذلك كانت هذه الآيات شديدة اللهجة في التحدي وعبر عن تلك الحقوق بالتقوى وبحدود الله، ولزيادة الحرص على التقوى أتبع اسم الجلالة ﴿رَبَّكُمۡ﴾ بوصف للتذكير بأنه حقيق بأن يتقى غضبه.

﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: لا تخرجوهن من مساكنهن بعد فراقكم لهن إلى أن تنقضي عدتهن، ويلزمن بيوتهن التي طلقها زوجها وهي فيها. وأضاف البيوت إليهنّ لبيان كمال استحقاقهنّ للسكنى في مدّة العدّة، ونهى الزوجات عن الخروج أيضًا، فقال:

﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ أي: لا يجوز لهن الخروج منها حتى تنقضي عدتهن، أما النهي عن إخراجها فلأن المسكن يجب على الزوج للزوجة لتكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه، وأما النهي عن خروجها، فلما في خروجها من إضاعة حق الزوج وعدم صونه، وكذلك صيانة المرأة، فلا يجوز لها المبيت خارجاً عن بيتها، ولا أن تغيب عنه نهاراً إلا لضرورة التصرف، ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت والإخراج إلى تمام العدة.

وقد جاءت البيوت مضافة إلى النساء في ثلاث آيات من كتاب الله ﷻ؛ قوله تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ وقوله: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ وقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ وهي إضافة إسكان ولزوم للمسكنة، والتصاق بهن، لا إضافة تمليك.

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ أي: لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ إلا إذا فعلن فاحشة الزنى، وقيل: هي البذاءة في اللسان، والاستطالة بها على من هو ساكن معها في ذلك البيت؛ لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها.

﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: وهذه الأحكام والشرائع التي بيّنها لعباده، هي حدوده التي حدّها لهم، لا يحلّ لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بأن لم يقف معها، ولم يأتمر بها، بل تجاوزها أو قصر عنها.

﴿فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ أي: بخسها حقها بإيرادها مورد الهلاك، وفي هذا تشديد فيمن يتعدى طلاق السنة، ومن يطلق لغير العدة.

﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ أي: لا تعرف أيها السامع، ماذا يحدث الله بعد ذلك الطلاق من الأمر؟ لعلها إذا بقيت في بيتها أن يؤلف الله بين قلوبهما فيتراجعا، فيكون ذلك أيسر وأسهل.

* وتستمر الآيات في بيان أحكام الطلاق، والرفق فيه، وعدم المضارة، ولزوم التقوى، قال تعالى:

﴿٢﴾،﴿٣﴾ ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل

لَهُۥ مَخۡرَجٗا ۞ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾.

﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: فإذا قاربن انقضاء أجل العدّة وشارفن آخرها، وقاربن ذلك.

﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ أي: فراجعوهنّ إلى عصمة النكاح بحسن معاشرة، وصحبة جميلة، ورغبة فيهن من غير قصد إلى مضارّة لهنّ. والإمساك بالمعروف: هو إحسان العشرة وتوفية النفقة، من غير قصد لمضارة في الرجعة لتطول عليها العدة.

﴿أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن، فراقاً لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا قهر لهن على أخذ شيء من مالهن، مع إيفائهنّ ما هو لهنّ عليكم من الحقوق، وترك المضارة لهنّ. والفراق بالمعروف: هو أداء الصداق، والمتعة عند الطلاق، والوفاء بالشروط مع توفية جميع حقوقهن.

وفي حسن المصاحبة والمفارقة حفظ للوداد، وبعد عن البغضاء والعداوة، إذ جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها.

﴿وَأَشۡهِدُواْ﴾ على الرجعة إن راجعتم، أو المفارقة إن فارقتم، قطعًا للتنازع، وحسمًا لمادة الخصومة.

﴿ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي: رجلين مسلمين من أهل العدل والاستقامة، لأن في الإشهاد المذكور، سداً لباب المخاصمة، وكتمان كل منهما ما يلزمه بيانه.

﴿وَأَقِيمُواْ﴾ أيها الشهداء.

﴿ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ أي: ائتوا بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقصان، تقرّبًا إلى الله على الوجه الحق دون مراعاة أو محاباة للمشهود له، أو المشهود عليه.

﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي: هذا الذي شرعناه من الأحكام، والحدود، ينتفع به ويتعظ به المؤمن، وخص المؤمن لأنه المنتفع بذلك دون غيره.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: من يتق الله بالوقوف عند حدوده التي حدّها لعباده.

﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ أي: يجعل له مخرجاً وطريقاً مما وقع فيه، وهذا من جملة ثواب من أطاع الله واتبع شرعه، بأن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة. قال ابن مسعود: مخرجه أن يعلم أنه من قبل الله، وأن الله هو الذي يعطيه، وهو يمنعه، وهو يبتليه، وهو يعافيه، وهو يدفع عنه. وقال بعضهم: ما افتقر تقي قط، قالوا: لم؟ قال: لأن الله يقول:

﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾

أي: يسوق إليه رزقاً من وجهٍ لا يخطر بباله، ولا يكون في حسابه ولا يشعر به، فمن طلق ثم أشهد عند المفارقة على انقضاء العدة، أو عند المراجعة، يجعل الله له مخرجًا ومخلَصًا، وإنما الضيق على من خالف أحكام الله في الطلاق والرجعة. والرزق: اسم لكل ما يغتذي به الإنسان؛ وذلك يعم رزق الدنيا ورزق الآخرة. قال مجاهد: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال: إنه طلق امرأته ثلاثاً، فسكت حتى ظننت أنه رادها إليه، ثم قال: ينطلق أحدكم فيركب أحموقته ثم يقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجاً، عصيت ربك، وبانت منك امرأتك.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ ومن وثق بالله، واعتمد عليه، ولجأ إليه فيما نابه من أمر دينه ودنياه، كفاه ما أهمه، وجلب له ما ينفعه، والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل؛ لأنه مأمور به، ولكن لا يعتمد على تلك الأسباب.

قال بعض السلف: جعل الله تعالى لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ أي: لابد من نفوذ قضائه وقدره، وهذا حض على التوكل وتأكيد له.

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ جعل سبحانه للشدّة أجلاً تنتهي إليه، وللرخاء أجلاً ينتهي إليه. وقيل: هو قدر الحيض والعدة.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾

قال ابن القيم: «فلما ذكر كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجيل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٣].

وقد وردت كلمة التقوى بقوله ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ثلاث مرات، وذلك على عدد الطلقات الثلاث، ووعد في كل مرة نوعاً من الجزاء الأول: أنه يخرجه مما دخل فيه وهو كاره، ويتيح له خيراً ممن طلقها والثاني: اليسر في الأمور والموالاة في المقاصد ما دام حياً، والثالث: أفضل الجزاء وهو ما يكون في الآخرة من النعماء.

* ثم بين سبحانه حكم المطلقة التي لا تحيض لصغرها أو لكبر سنها، فقال:

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ
عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ
أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن
تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن
قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا
مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ٧ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ
عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا
نُّكْرًا ٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ
لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ
ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ١٠ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ
بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ١١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ
وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا ١٢

٥٥٩

﴿٤﴾،﴿٥﴾ ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا * ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ **أي: والنسوة اللواتي انقطع حيضهنّ، ويئسن منه، لكبر سنهن.**

﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ **أي: شككتم وجهلتم كيف عدتهنّ، فعدة الواحدة منهن ثلاثة أشهر، كل شهر يقوم مقام حيضة.**

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ **لصغرهنّ وعدم بلوغهنّ سِنَّ المحيض، أي: فعدتهنّ ثلاثة أشهر.**

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ **أي: والمرأة الحامل تنتهي عدتها بوضع الحمل، سواءً كانت مطلقة، أو متوفى عنها زوجها.**

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ **ومن يتق الله فيطلق للسنة، يجعل له من أمره يسرًا في الرجعة، ويسهل عليه كل عسير، ويمح عنه ذنوبه، ويضاعف له الأجر والمثوبة. وقد كرر التقوى سبحانه في هذه السورة لعلمه أن النساء ناقصات عقل ودين، فلا يصبر على أمورهن إلا أهل التقوى.**

﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ **أي: ذلك هو حكم الله وشرعه الحكيم، أنزله عليكم أيها المؤمنون لتمشوا عليه، وتأتموا وتقوموا به، وتعظموه وتعملوا بمقتضاه.**

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ **أي: ومن يتق ربه يمح عنه ذنوبه.**

﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ **أي: يعطه من الأجر في الآخرة أجراً عظيماً، وهو الجنة.**

*** ثم لما بين التقوى في قوله: ومن يتق الله، كأنه قيل كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات، فقيل:**

﴿٦﴾،﴿٧﴾ ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ * لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ **ذكر الله في الآيات السابقة النهي عن إخراج المطلقات عن البيوت، وأمر هنا بإسكانهن. ومن هنا بدأ بيان ما يجب للمطلقات حيث أمر، أي: أسكنوا هؤلاء المطلقات في بعض مساكنكم التي تسكنونها.**

﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ **أي: من سعتكم وطاقتكم، فإن كان موسراً وسع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيراً فعلى قدر الطاقة وهذا في المطلقة الرجعية، أما التي طُلِّقت الثالثة فإنها لا نفقة لها ولا سكنى.**

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ **أي: ولا تضيقوا عليهن في المسكن أو النفقة لأجل أن يمللن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة أو الافتداء.**

﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ **أي: وإن كانت المطلقة حاملاً، فعلى الزوج أن ينفق عليها وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت بائناً، ولها ولحملها إن كان رجعية، ومنتهى النفقة حتى يضعن حملهن.**

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ **أي: هؤلاء المطلقات إذا ولدت، ورضيت أن ترضع لكم ولداً.**

﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ **أي: فعلى الرجل أن يدفع لها أجر الرضاعة لولده.**

﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ **هذا خطاب للأزواج والزوجات الذين وقع بينهم الفراق بالطلاق، أي: تشاوروا بينكم بما هو معروف غير منكر، وليقبل بعضكم من بعض**

المعروف والجميل في شأن الولد، وهذا يناسب المقام، فلا يماكس الأب ولا تعاسر الأم؛ لأنه ولدهما وهما شريكان فيه، وفي وجوب الإشفاق عليه، حيث إن الزوجين عند الفراق وقت العدة، خصوصاً إذا ولد لهما ولد في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق، الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض، ويتأثر منه البغض شيء كثير.

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي: بأن لم تتفقوا في أجر الرضاع، فأبى الزوج أن يعطي الأم الأجر الذي تريد، وأبت الأم أن ترضعه إلا بما تريد من الأجر.

﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أي: فليستأجر مرضعة أخرى ترضع ولده، وهو خبر بمعنى الأمر، أي: فسترضع له مرضعة أخرى، وفيه عتاب للأم لطيف على المعاسرة.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ هذا بيان لقدر الإنفاق، فيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسائهم على قدر سعتهم.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ أي: كان مضيقًا عليه في الرزق فقيرًا.

﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي: مما أعطاه الله من الرزق، على مقدار طاقته، ليس عليه غير ذلك.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ لا يكلف الله أحداً إلا بقدر طاقته واستطاعته، وبقدر ما أعطاه من الرزق، فلا يكلف الفقير بأن ينفق ما ليس في وسعه كنفقة الغني، وفيه تطييب لقلب المعسر، وترغيب له في بذل مجهوده.

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ هذه بشارة للمعسرين والفقراء، أن الله يزيل عنهم الشدة ويرفع عنهم المشقة، وهو وعد لذوي العسر باليسر، وسيجعل سبحانه بعد ضيقٍ وشدّةٍ، سعةً وغنى.

* ثم أخبر سبحانه عن حال الأمم السابقة وإهلاك الأمم الطاغية العاتية، والقرون المكذبة للرسل، مع كثرتهم وقوتهم التي لم تغن عنهم شيئاً، وحذر تعالى من عصيانه وتعدي حدوده، قال تعالى:

﴿٨﴾-﴿١١﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: وكثير من أهل القرى من الأمم السالفة، عصت وطغت، وتمردت على أوامر الله وأوامر رسله.

﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: فجازيناها على عصيانها وطغيانها بأنواع العذاب الأليم، وعذبنا أهلها عذابًا عظيمًا منكرًا في الآخرة، وفي الدنيا بالجوع والقحط، والخسف والمسخ.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ فذاقت عاقبة كفرها، وطغيانها وتمردها، وكانت نتيجة بغيها هلاكًا في الدنيا، وعذاباً في الآخرة، فخسروا أموالهم وأهليهم وأنفسهم.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: هيأ الله لهم في الآخرة عذاب جهنم الشديد المؤبد، وهو عذاب النار.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: فخافوا الله واحذروا بطشه وانتقامه يا أولي العقول الراجحة السليمة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: أسلموا لله واتبعوا محمداً ﷺ، فكونوا صادقين في إيمانكم، ولا تكونوا مثل من عتا وطغى من الأمم قبلكم، فحوسبوا أشد الحساب، وتعذبوا من جنس ذلك العذاب.

﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ الذكر: هو القرآن العظيم، وقيل: هو هنا الرسول نفسه، ولذلك قال تعالى:

﴿رَّسُولًا﴾ أي: أنزل إليكم قرآنًا، وأرسل إليكم رسولاً بهذا القرآن.

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: يقرأ عليكم محمد ﷺ آيات الله البينات الواضحات، تُبين للناس ما يحتاجون إليه من الأحكام.

﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ليخرج الله بالآيات الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية، ومن ظلمات الكفر إلى نور الإيمان والعلم.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ ومن يصدق بالله ويعمل بطاعته من الواجبات والمستحبات.

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ يدخله في

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ
ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٢ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا
نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٖۖ فَلَمَّا
نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ٣ إِن
تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ
هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ
ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرٗا مِّنكُنَّ
مُسْلِمَٰتٖ مُّؤْمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ
وَأَبْكَارٗا ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارٗا
وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ
لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٧

٥٦٠

الآخرة جنات تجري من تحت قصورها الأنهار، فيها من النعيم المقيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ قد طيب الله رزقه في الجنة ووسعه له وفي الآية معنى التعجب والتعظيم لما رزق الله المؤمن من الثواب.

* ثم أشار ﷻ إلى آثار قدرته، وعظيم سلطانه وجلاله، فقال:

(١٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: الله العظيم الكبير الذي خلق بقدرته سبع سموات طباقاً، وخلق من الأرض مثلهنّ، يعني: سبعًا من الأرضين، وفي الحديث الصحيح المرفوع تأكيد ذلك، وهو ما جاء من قول النبي ﷺ: «من ظلم شبراً من الأرض طُوِّقَهُ من سبع أرضين».

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يتنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية من السماوات السبع إلى الأرضين السبع؛ وكذلك ينزل أمره سبحانه فينزل المطر ويخرج النبات، ويأتي بالليل والنهار، والصيف والشتاء.

﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ لتعلموا أن من قدر على خلق ذلك قادر على كل شيء، وكل ذلك لأجل أن يعرف العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ أي: لتعلموا أنه تعالى عالم بكل شيء، لا تخفى عليه خافية، محيط علمه بجميع الأشياء، فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى، وعبدوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق.

تم تفسير سورة الطلاق

والحمد لله

تفسير سورة التحريم
وهي مدنية

* سورة التحريم سورة مدنية، متآخية مع التي قبلها «الطلاق» بالافتتاح بخطاب النبي ﷺ، وتلك مشتملة على طلاق النساء وهذه على تحريم الإيلاء، وبينهما من المناسبة ما لا يخفى. ولما كانت تلك في خصام نساء الأمة، ذكر في هذه خصومة نساء النبي ﷺ إعظاماً لمنصبهن أن يذكرن مع سائر النسوة. فأفردهن بسورة خاصة، ولهذا ختمت بذكر امرأتين في الجنة «آسية» امرأة فرعون، و«مريم» ابنة عمران.

ابتدأت الآية بعتاب من الله لنبيه محمد ﷺ حين حرم على نفسه سريته «مارية»، أو شرب العسل مراعاة لخاطر بعض زوجاته، وجاء العتاب له لطيفاً رقيقاً، يشف عن عناية الله بعبده ورسوله محمد ﷺ أن يُضيق على نفسه ما وسعه الله له، قال تعالى:

(١)-(٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ * قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرٗا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٖ مُّؤْمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبْكَارٗا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ أي: يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والوحي والرسالة، والخطاب بلفظ النبوة مشعر بالتوقير والتعظيم، والتنويه بمقامه الرفيع ولم يخاطبه باسمه العلم،

كما خاطب سائر الرسل بقوله: يا إبراهيم، يا نوح، يا عيسى ابن مريم.

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ من الطيبات التي أنعم الله بها عليك وعلى أمتك. قيل: كان ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة وحفصة. كيدًا لزينب أن تقولا له إذا دخل عليهما: إنا نجد منك ريحًا، فحرَّم العسل على نفسه.

﴿تَبْتَغِي﴾ أي: تطلب بذلك التحريم.

﴿مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ بأن حرّمت على نفسك ما أحله الله لك.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما فرط منك، فإنه واسع المغفرة، عظيم الرحمة، قد رحمك فلم يؤاخذك. قيل: وكان ذلك ذنبًا من الصغائر، فلذا عاتبه الله عليه، وصار ذلك التحريم الصادر منه سبباً لشرع حكم عام لجميع الأمة.

قال تعالى حاكماً حكماً عاماً في جميع الأيمان.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي: قد شرع الله لكم يا معاشر المؤمنين، تحليل أيمانكم بأداء الكفارة.

﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: والله وليّكم ومتولي أمركم وناصركم، ومربيكم أحسن تربية، فلذلك فرض لكم تحلة إيمانكم لتبرأ ذممكم.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بما فيه صلاحكم وفلاحُكُمْ. يعلم السرائر والخفيات، لا يخفى عليه قول ولا فعل مما يجترحه العباد.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله، فلذلك شرع لكم من الأحكام، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ هي أم المؤمنين حفصة ﵁ أسرَّ لها النبي ﷺ حديثاً، وأمر أن لا تخبر به أحداً فحدثت به عائشة ﵂.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي: فلما أخبر الرسول ﷺ حفصة بما أفشت من الحديث.

﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أخبره الله ﷻ بذلك الخبر وأطلعه بواسطة جبريل الأمين.

﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ أي: أعلمها وأخبرها رسول الله ﷺ ببعض الحديث الذي أفشته معاتباً لها، ولم يخبرها بجميع ما حصل منها حياءً منه وكرماً، فإن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات، والتقصير في اللوم والعتاب. قال الحسن البصري: ما استقصى كريم قط.

﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ أي: قالت له حفصة ﵂: ما اسم من أخبرك بالخبر الذي لم يخرج منا؟ قالت ذلك على سبيل التثبت.

﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي: أخبرني به الله الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى، فسكتت وسلمت.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه، وهما عائشة وحفصة ﵄، كانتا سبباً لتحريم النبي ﷺ على نفسه ما يحبه، فعرض عليهما التوبة وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما قد صغت، أي مالت عما ينبغي من الورع والأدب مع الرسول واحترامه وأن لا يشققن عليه، والمعنى: إن تتوبا إلى الله فقد مالت قلوبكما إلى التوبة من التظاهر على النبي ﷺ.

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ وإن تعاضدا وتعاونا على ما يشق عليه ويستمر الأمر منكن.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ أي: إن الله يتولى نصره.

﴿وَجِبْرِيلُ﴾ بالذكر تعظيماً له، وإظهاراً لمكانته عند الله تعالى، فيكون قد ذُكر مرتين، مرةً بالإفراد، ومرة في العموم ووسط.

﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بين جبريل والملائكة تشريفاً لهم، واعتناءً وإشادة بفضل الصلاح، وختم الآية بذكر:

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: والملائكة الأبرار بعد نصر الله له، ونصر جبريل وصالح المؤمنين. والملائكة أعظم المخلوقات، وجعلهم ظهيراً للنبي ﷺ ليكون أفخم بالنبي ﷺ وأعظم لمكانته، والانتصار له.

﴿ظَهِيرٌ﴾ أعوان يظاهرونه، وينصرونه.

ثم خوفهما أيضاً بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال:

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد ولا يلزم وجوده، فإن الله ما طلقهن.

وأخبر تعالى نساء نبيه ﷺ عن قدرته على أنه إن وقع منه الطلاق لهن، أبدله خيرًا منهن، تخويفًا لهنّ. وذكر من صفاتهن أنهن:

الجُزْءُ الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ سُورَةُ التَّحْرِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ
أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ
أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ
وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا
لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ
عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا
مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠
وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ
قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ
وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ
عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا
وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢

٥٦١

﴿مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ﴾ قائمات بفرائض الإسلام، مصدّقات بالله وملائكته، وكتبه ورسله.

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مطيعات لما يؤمرن به، مواظبات على الطاعة.

﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ يعني: تائبات من الذنوب لا يصررن على معصية، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله.

﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ متعبدات لله تعالى يكثرن العبادة.

﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ مسافرات مهاجرات، إلى الله ورسوله، وقيل: صائمات.

﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ أي: منهن ثيبات، ومنهن أبكاراً. والثيب: هي المرأة التي قد تزوّجت ثم طلقها زوجها أو مات عنها. والبكر: هي العذراء التي لم تتزوج بعد. ولما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا الوصف منطبقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين.

*** ثم ذكر الله ﷻ من امتن عليهن بالإيمان أن يقوموا بلوازمه وشروطه، فقال:**

(٦)-(٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ **أي: يا من صدقتم بالله ورسوله وأسلمتم وجوهكم لله، احفظوا أنفسكم بفعل ما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه.**

﴿وَأَهۡلِيكُمۡ﴾ **أي: وحافظوا على أزواجكم وأولادكم بأمرهم بطاعة الله، ونهيهم عن معاصيه، أدبوهم وعلموهم. وعلى المسلم أن يعلم أولاده الدين والخير، وما لا يستغنى عنه من الأدب.**

ثم وصف سبحانه النار بصفات مخوفة ليزجر عباده عن التهاون بأمره، فقال:

﴿نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ **أي: ناراً عظيمة تتوقد بالناس وبالحجارة كما يتوقد غيرها بالحطب.**

وجاءت كلمة (نارًا) منكرة للدلالة على عظمها وفظاعتها، كونها ناراً كاف للخوف منها.

﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ **أي: على هذه النار زبانية غلاظ القلوب، يلوْن أمرها وتعذيب أهلها، غلاظ على أهل النار، شداد عليهم، لا يرحمونهم إذا استرحموهم، إنما خلقوا للعذاب.**

﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ **لا يخالفون أمر الله بحال من الأحوال.**

﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ **ويؤدون وينفذون أوامر الله في وقتها من غير تراخ، فلا يؤخرونها عنه، وهم عليها قادرون، لا يعجزون عن شيء منها مهما كان، وهذا مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.**

ثم وبخ سبحانه أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ. حيث يقال لهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ **أي: لا تعتذروا**

عن ذنوبكم وإجرامكم، فلا ينفعكم اليوم الاعتذار، يقال لهم هذا القول عند إدخالهم النار، تأييسًا لهم، وقطعًا لأطماعهم من الأعمال في الدنيا، فقد ذهب وقت الاعتذار، وزال نفعه.

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إنما تنالون جزاء أعمالكم القبيحة، ولا تظلمون شيئاً.

ثم دعا سبحانه عباده إلى التوبة الصادقة النصوح، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي: توبوا إلى الله من ذنوبكم توبة صادقة خالصة، وهي الندم بالقلب على ما مضى من الذنب، والاستغفار باللسان، والإقلاع بالبدن، والعزم على ألا يعود، وإن كان الحق لآدمي فعليه رد المظالم لأصحابها.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ وعد من الله لمن تاب أن يكفر عنه السيئات، وعسى من الله راجية بمنزلة التحقيق، وهذا إطماع من الله لعباده في قبول التوبة، تفضلاً منه وتكرماً.

﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ويدخلكم في الآخرة جنات عظيمة، وحدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحت قصورها الأنهار.

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يوم لا يفضح الله النبي وأتباعه المؤمنين أمام الكفار، بل يعزهم ويكرمهم.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: نور هؤلاء المؤمنين يضيء لهم حال مشيهم على الصراط، ويسطع أمامهم وخلفهم، وعن أيمانهم وشمائلهم، كإضاءة القمر في سواد الليل.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ أي: يدعون ربهم قائلين: يا ربنا أكمل علينا هذا النور وأدمه لنا.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ وامح عنا ما فرط وسلف من الذنوب.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ إنك أنت القادر على كل شيء. من المغفرة والعقاب، والرحمة والعذاب.

* ثم أمر ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين كل بحسبه، وذكر قصتي امرأة نوح وامرأة لوط، وما كان منهما، وما جرى، فقال تعالى:

﴿٩، ١٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ أي: -يا محمد-، خاطبه ﷺ بنداء النبوة تكريماً وتشريفاً.

﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: قاتل الكفار بالسيف والسنان.

﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: جاهدهم بالحجة والبرهان وبإقامة الحدود عليهم، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود، واستعمل الخشونة مع الطرفين لإقامة الهيبة.

﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: في الدنيا، وشدد عليهم في الخطاب، ولا تعاملهم بالرأفة واللين.

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا مآلهم ومصيرهم النار، وساءت مستقراً.

* ثم ضرب الله تعالى مثلاً آخر للمؤمن في عدم تضرره ببقاء قريبه على الكفر إذا كان مؤمناً، فقال تعالى:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: مثل تعالى للكفار في عدم استفادتهم بقرابة المؤمنين بحال.

﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ أي: بحال امرأة نوح عليه السلام وامرأة لوط عليه السلام.

﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ أي: كانتا في عصمة نبيين عظيمين هما نوح، ولوط، -عليهما السلام- وإنما وصفت بالعبودية تشريفاً وتكريماً لهما باضافتهما إليه تعالى.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: فوقعت منهما الخيانة لهما في الدين، لا بخيانة النسب والفراش فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه بغيّاً. قيل: كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيافه.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: فلم ينفعهما نوح ولوط مع نبوتهما بسبب كونهما زوجتين لهما شيئًا من النفع، ولا دفعًا من عذاب الله، مع كرامة الأنبياء على الله ومنزلتهم.

﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي: وتقول لهما خزنة النار

يوم القيامة: ادخلا نار جهنم مع سائر الداخلين، من الكفرة المجرمين ادخلا النار مع من فيها، أهل الكفر والمعاصي.

* ثم ضرب تعالى مثلاً للكفار في عدم انتفاعهم بصلة القرابة أو المصاهرة أو النكاح، لأن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ولا ينفع إلا العمل الصالح، فقال تعالى:

(١١)، (١٢) ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: إن صولة الكفر لا تضرّهم كما لم تضر امرأة فرعون، وقد كانت تحت أكفر الكافرين، وصارت بإيمانها في جنات النعيم، وامرأة فرعون هي آسية بنت مزاحم ﵂ آمنت بموسى ﵇ فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها، فنجاها الله من شره.

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: حين دعت ربها وتضرعت إليه قائلة: يا رب اجعل لي قصراً مشيداً قريباً من رحمتك في درجات المقربين منك، وسؤالها لربها أجلُّ المطالب، فهي تطمع في جوار الله قبل طمعها في القصور. فلذا طلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة، فإن الجار قبل الدار.

﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ ثم سألت الله أن ينجيها سبحانه من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، من ذاته ومما يصدر عنه من أعمال الشرّ.

﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هم الكفار من القبط أتباع فرعون الطاغين، وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله، والالتجاء إليه ومسألته الخلاص عند المحن والنوازل من سير الصالحين.

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ أي: ومريم ابنة عمران، مثل آخر في الإيمان، جمع الله لها بين كرامة الدنيا والآخرة، واصطفاها على نساء العالمين، مع كونها بين قوم عصاة، وقد أثنى عليها بقوله:

﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: حفظت فرجها وصانته عن الفواحش، لكمال دينها، وعفتها، ونزاهتها.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي: فنفخ رسولنا جبريل في جيب درعها؛ فحبلت بعيسى ﵇.

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ هذا وصف لها بالعلم والمعرفة، فإنها آمنت بشرائعه التي شرعها لعباده، وما خاطبها به الملَك، وهو قول جبريل لها: إنما أنا رسول ربك، وما أخبرها به من البشارة بعيسى، وكونه رسولاً من المقربين.

﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ وهي الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء.

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ وكانت من القوم المطيعين لربهم، المداومين على طاعته بخشية وخشوع، وهذا وصف لها بكمال العمل، فإنها ﵂ صديقة، والصديقية: هي كمال العلم والعمل.

تم تفسير سورة التحريم
والحمد لله

تفسير سورة الملك
وهي مكية

* سورة الملك سورة مكية، وتسمى سورة «المانعة» و«المنجية»؛ لأنها تقي قارئها من عذاب القبر، قال ﷺ: «هي المانعة، وهي المنجية، تنجي من عذاب القبر» [رواه الترمذي]. وفي الحديث عن أبي هريرة ﵁ أنه ﷺ قال: «سورة من القرآن ثلاثون آية، تشفع لصاحبها حتى يُغفر له: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾» [رواه أبو داود].

وقد ذكر الله ﷻ في السورة جملة من آلائه ونعمه وفضله، وذكر خلق الإنسان لابتلائه في عبادته، وسبب وجوده وإحيائه ومماته. ولأن الحياة الدنيا عند منكري البعث هي نهاية المطاف وغاية الوجود ذكّرهم الله ﷻ بما بعد الموت من الحساب والجزاء والجنة والنار، ثم ساق الأدلة والشواهد على عظمته وقدرته، ومن أعظم ذلك خلق السموات وما فيها من الأجرام والأكوان، قال تعالى:

(١)-(٥) ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ * ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

الجزء التاسع والعشرون سورة الملك

سُورَةُ المُلْكِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ
٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن
تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ
يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ
ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ
ٱلسَّعِيرِ ٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ
مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨
قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ
ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ١٢

٥٦٢

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ تبارك: أي: تمجد وتعالى، وكثر خير الله وعظم، وعم إحسانه، ومن عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، والملك هو ملك السماوات والأرض في الدنيا والآخرة، ويستفاد من إضافة اليد إلى الله تعالى ثبوت صفة ذاتٍ له سبحانه.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وهو القادر على كل شيء، له القدرة التامة، والتصرف الكامل في كل الأمور، من غير منازع ولا مدافع فهو يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويحيي ويميت، لا راد لقضائه.

ثم بين سبحانه آثار قدرته، وجليل حكمته، فقال:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ أي: ومن كمال قدرته أنه خلق هذين الأمرين العظيمين، الموت والحياة. والموت: انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقتها له، والحياة تعلق الروح بالبدن واتصالها به، أي: قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم، وقدّم الموت لأنه أهيب في النفوس وأفزع، وإن كان الموت والحياة أمرين مألوفين مكررين في حياة الناس، لكن الآيات تبعث على التأمل والتفكر في هذا الأمر العظيم وما بعده.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ قال الكرجي: «دليل على أن ترقب الموت أكبر مواعظ الله، وأجدر بالمعونة على العمل الصالح، إذ ترقبه مقصر للأمل ومهون للمصائب».

فمن قدرة الله وحكمته وتدبيره أنه خلق الموت والحياة لشأن عظيم، فقال:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: ليكلفكم، ثم يختبركم فيجازيكم على ذلك، والمقصد الأصلي من الابتلاء: هو ظهور كمال إحسان المحسنين وطاعة الطائعين. وأحسن العمل: ما كان أخلصه لله ﷻ، وأصوبه، موافقاً لهدي النبي ﷺ. وفي الآية قوله: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولم يقل: (أكثر عملاً).

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: إنه ﷻ الغالب في انتقامه ممن عصاه، الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات.

﴿ٱلْغَفُورُ﴾ وهو سبحانه الغفور عن المسيئين والمقصرين والمذنبين إذا تابوا وأنابوا، فإنه يغفر لهم ذنوبهم، وفي الآية ترغيب في فعل الطاعات، وزجر عن اقتراف المعاصي.

ثم إتماماً لما سبق، ذكر سبحانه بعض مخلوقاته وعظمتها، وحسن خلقها، ومن ذلك السموات السبع، فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: إنه ﷻ خلق سبع سموات بعضها فوق بعض في غاية الحسن والإتقان.

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ هذه جملة صفة ثانية لسبع سموات، أي: لا ترى - أيها الناظر - فيما خلقه الله من السموات من تناقض ولا تباين، ولا اعوجاج ولا تخالف، ولا خلل ولا نقص، بل هي مستوية مستقيمة دالة على خالقها. وإنما قال: ﴿فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ولم يقل: (فيهن)؛ تعظيماً لخلقهن، وتنبيهاً على باهر قدرة الله. وخص ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالذكر دون لفظ الجلالة (الله) إشعاراً أن هذا النظام اقتضته رحمة الله بالناس لتجري أمورهم على حالة تلائم نظام معيشتهم.

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: انظر وتأمل في دقة الصنع وعظيم الخلق؛ اردد طرفك وكرر النظر في السماء ناظراً معتبراً، وتأمل هل ترى فيها - على عظمتها واتساعها - من تشقق أو صدع.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: مرة بعد مرّة، وإن كثرت تلك المرّات، وهذا من باب التحدي والإعجاز، فيكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة، وأقطع للمعذرة؛ وكل هذا مدعاة إلى التفكر في عظمة من خلقها وسواها، ودقة صنعه، وبديع اعجازه.

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي: يرجع إليك بصرك ذليلاً صاغرًا عن أن يرى شيئًا من العيب في خلق السماء.

﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليل متعب منقطع، قد بلغ الغاية في الإعياء من كثرة النظر.

* ثم بين تعالى ما زين به السماء من النجوم الزاهرة والكواكب الساطعة، وصرح بذكر حسنها وجمالها وفائدتها، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ اللام لام القسم، و«قد» للتحقيق، والمعنى، والله لقد زينا وجمّلنا السماء الدنيا التي ترونها وتليكم، بمصابيح: وهي النجوم. لأنه لو عدمت لكانت السماء سقفاً مظلماً لا حُسن فيه ولا جمال، وسميت الكواكب مصابيح لإضاءتها بالليل إضاءة السراج.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: وجعلنا لهذه النجوم فائدة أخرى، وهي رجم أعدائكم الشياطين الذين يريدون استراق خبر السماء، قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها في البرّ والبحر.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: وأعدَدْنا للشياطين في الآخرة، بعد الإحراق في الدنيا بالشهب، عذاب النار، لأنهم تمردوا على الله، وأضلوا عباده، ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم، قد أعد الله لهم عذاب السعير، والسعير: أشد الحريق.

* وبعد أن ذكر سبحانه خلق السموات وعظمتها، والنجوم وفائدتها، وأنها من عظائم صنع الباري، الداعية إلى عبادته وطاعته، توعد من كفر به وطغى وتجبر وتكبر، فقال تعالى:

٦-١١ ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي: وللكافرين بخالقهم عذاب جهنم أيضاً، فليس العذاب مختصّاً بالشياطين، بل هو لكل كافر بالله من الإنس والجن.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وبئست النار مرجعاً، ومستقراً ومصيراً.

* ثم ذكر ﷻ وصف جهنم وما فيها من العذاب والأهوال والأغلال، وصفاً دقيقاً تنخلع له القلوب، وتطير منه الأفئدة، وتذهل العقول، فقال سبحانه:

﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ أي: إذا قذفوا وطرحوا في جهنم على وجه الإهانة والذل كما يطرح الحطب في النار.

﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾ سمعوا لجهنم صوتًا عالياً منكراً فظيعاً، كصوت الحمير عند أوّل نهيقها، وذلك لشدة توقدها وغليانها.

﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أي: وهي تغلي بهم غليان المرجل من شدة الغضب ومن شدة اللهب.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ تكاد جهنم تنقطع، وينفصل بعضها من بعض، من شدة غضبها وحنقها على الكفار.

﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ كلما طرح فيها جماعة. والفوج: الجماعة من الناس.

﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ سألتهم الملائكة الموكلون على جهنم ـ وهم الزبانية ـ سؤال توبيخ وتقريع.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: أما جاءكم في الدنيا، رسول ينذركم هذا اليوم ويحذركم منه؟ وهذا السؤال زيادة لهم في الإيلام ليزدادو حسرة فوق حسرتهم، وعذاباً فوق عذابهم.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ أي: أجابوا نعم، لقد جاءنا رسول من عند الله، فأنذرَنا وخوّفَنا وأخبرَنا بهذا اليوم، وهذا اعتراف منهم بعدل الله، وإقرار بأن الله أزاح عللهم ببعثة الرسل.

﴿فَكَذَّبْنَا﴾ ذلك النذير وأنكرنا رسالته.

﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ أي: وقال الكافرون: إمعاناً في التكذيب وتمادياً في النكير: ما أنزال الله شيئاً من الوحي على أحدٍ.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ هذا من تتمة كلام الكفار. أي: قلنا للرسل: إنكم في ذهاب عن الحق، وبعد عن الصواب.

ثم حكى عنهم سبحانه مقالة أخرى قالوها بعد تلك المقالة.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وقال الكفار معترفين: لو كنا نسمع سمع من يعي، أو نعقل عقل من يميّز وينظر، ما كنا من أهل النار، بل كنا آمنا بما أنزل الله واتبعنا الرسول.

ووجه تقديم السمع على العقل؛ لأن سمع دعوة النذير هي أول ما يتلقاه المنذرون، ثم يعملون عقولهم في التدبر فيها.

قال ابن تيمية: فلا يسمى (عاقلاً) إلا من عرف الخير فطلبه، والشر فتركه. ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ فأقروا بإجرامهم وتكذيبهم للرسل، الذي استحقوا به عذاب النار.

﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فبعدًا وهلاكاً وخسارة وشقاءً لأهل النار، وبعداً لهم من الله ومن رحمته.

* ولما ذكر الله سبحانه حال الأشقياء الفجار، ذكر حال السعداء الأبرار، فقال:

١٢-١٥ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ * هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يخافون ربهم في جميع أحوالهم، في السر والعلن، والخلوة والجلوة، فإن الله ﷻ يكرمهم بهذه الطاعة والعبادة.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لهم مغفرة عظيمة لذنوبهم، ولهم أجر كبير، وهو ما أعده الله لهم في الجنة من النعيم المقيم.

وقدم المغفرة؛ تطميناً لقلوبهم؛ لأنهم يخشون المؤاخذة على ما فرط منهم من الكفر قبل الإسلام، ومن اللمم ونحوه.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ الخطاب لجميع الخلق، فالسر والعلانية عنده سواء فكلّ ذلك يعلمه الله، لا يخفى عليه منه خافية وهذا إخبار من الله بسعة علمه وشمول لطفه.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ لأنه تعالى العالم بالخفايا والنوايا، وبما يخطر في القلوب. ثم قال مستدلاً بدليل عقلي على علمه بقوله:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ للإنكار، أي: إنه سبحانه يعلم السر ومضمرات القلوب، فهو تعالى الذي خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، فكيف لا يعلمه؟

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي: إنه سبحانه الذي لطف علمه بما في القلوب، الخبير بما تسّره وتضمره من الأمور، لا تخفى عليه من ذلك خافية.

ومن معاني اللطيف: أنه الذي يلطف بعبده ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب بأسباب لا تكون من العبد على بال، حتى إنه يذيقه المكاره، ليتوصل بها إلى المحاب الجليلة والمقامات النبيلة.

ثم ذكر نعمه على عباده وما سخر لهم من النعم، لأجل التفكر والاعتبار والعبادة والإنابة، فقال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي: إنه ﷻ جعل لكم الأرض سهلة لينة ممهدة تستقرّون عليها، ولم يجعلها خشنة بحيث يمتنع عليكم السكون فيها والمشي عليها. والذلول في الأصل هو المنقاد الذي يذل لك، ولا يستصعب عليك.

﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ فاسلكوا أيها الناس في طرقها وأطرافها وجوانبها لطلب الرزق والمكاسب، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً إلا أن ييسره الله لكم، ولهذا قال تعالى:

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي: وانتفعوا بما أنعم به ﷻ عليكم من أنواع الكسب والرزق، يمتنّ الله على بني آدم بتمكينهم من هذه الأرض، وإعطائهم القدرات لتحصيل خيراتها، ولكن عليهم أن يعلموا أنهم إليه صائرون، ولذلك قال:

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: إليه تعالى المرجع والمآل والبعث من قبوركم، لا إلى غيره. وقد أخبر سبحانه أنه جعل الأرض ذلولاً منقادة للوطء عليها، وحفرها وشقها والبناء عليها، ومن بركتها أن الحيوانات وأرزاقها وأقواتها تخرج منها، ومن بركتها أنك تودع فيها الحب فتخرجه لك أضعاف أضعاف ما كان، ومن بركتها أنها تحمل الأذى على ظهرها، وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها، فتواري منه كل قبيح وتخرج له كل مليح، ومن بركتها أنها تستر قبائح العبد، وفضلات بدنه، وتواريها وتضمه وتؤويه وتخرج له طعامه وشرابه، فهي أحمل شيء للأذى، وأعوده بالنفع عليه.

* ثم ذكر سبحانه من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره، وهو مع هذا يحلم ويصفح ويؤجل ولا يعجل، قال تعالى:

١٦-١٩ ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ * وَلَقَدْ

الجزء التاسع والعشرون — سورة الملك

وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا
يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٤ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ١٥
ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ١٦
أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ فَسَتَعْلَمُونَ
كَيْفَ نَذِيرِ ١٧ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨
أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا
ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ١٩ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ
يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ٢٠ أَمَّنْ هَٰذَا
ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ٢١ أَفَمَن
يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ٢٢ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ
وَٱلْأَفْـِٔدَةَۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٢٣ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٢٤ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ٢٥ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢٦

٥٦٣

كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: هل أمنتم يا معشر الكفار ربكم العلي الكبير.

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: يقلعها بكم كما فعل بقارون، بعدما جعلها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها.

﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ فإذا هي تضطرب وتتحرك على خلاف ما كانت عليه من السكون والتذليل.

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: هل أمنتم ربكم أنه لا يرسل عليكم حجارة من السماء، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل.

وفي الآية إثبات العلو لله تعالى، كما يليق بجلاله سبحانه.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: فستعلمون عند معاينة العذاب، كيف يكون إنذاري وعقابي للمكذبين.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ولقد كذب كفار الأمم السابقة رسلهم من قبل قومك.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فكيف كان إنكاري عليهم بما أصبتهم به من العذاب الفظيع؟ وهذا تهديد ووعيد لمن استمر في طغيانه وتعديه، فتأملوا، وانظروا، واعتبروا.

* وبعد آيات التهديد والنذير تنتقل الآيات إلى لمسة التأمل والتفكير، فقد عاتبهم ﷻ وحثهم على النظر والتفكير فيما خلق سبحانه من الطير السابح في السماء، وكيف دقة صنعه، وخفة جسمه، وكسوته بالريش، وارتفاعه، وطيرانه بطريقة عجيبة، تأملوا في حاله إذا ضرب بأجنحته في الهواء ارتفع في الجو وتقدم إلى الإمام، قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي: انظروا إلى الطير فوقكم فهي باسطة لأجنحتها في الهواء تبسطها عند طيرانها، وهذا من عجائب قدرته وخلقه.

﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي: يضممن أجنحتهن، ولم يقل قابضات، كما قال صافات لأن القبض يتجدد تارة فتارة، وأما البسط فهو الأصل.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ أي: ما يمسك الطير في الهواء عند الطيران والقبض والبسط.

﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه.

وخص ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالذكر دون لفظ الجلالة (الله) للدلالة على أن هذا الحفظ من رحمة الله بهذه المخلوقات وبمن سخرت له.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ أي: يعلم كيف يخلق، وكيف يبدع العجائب، بمقتضى علمه وحكمته.

* ثم يقول سبحانه موبخاً ومقرعاً للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحق، الذين عبدوا معه غيره يبتغون عندهم نصراً ورزقاً، منكراً عليهم فيما اعتقدوه، ومخبراً لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه.

٢٠-٢٧ ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ * أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ * أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ

يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: إنه لا جند لكم يمنعكم من عذاب الله، بل مَنْ يتولى نصركم إن لم ينصركم الله برحمته وعونه.

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ أي: إن استمرار الكافرين على كفرهم، بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن غرور وسفه وضلال.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ أي: فتأملوا ممن سخر لكم الأرزاق؟ فإن الرزق كله من الله، وهو سبحانه الذي يدرّ الأرزاق من المطر وغيره، إن أمسك الله ذلك ومنعه عنكم؟ فلا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا الله ﷻ وحده لا شريك له، وهو المستحق للعبادة وحده.

﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ﴾ أي: تمادى الكفار واستمروا، في قسوة وعدم لين واستكبار عن الحق، والعتو: العناد.

﴿وَنُفُورٍ﴾ أي: شرود واستكبار عن الحق، لا يستمعون له ولا يتبعونه. والنفور: الشرود.

ثم ضرب تعالى مثلاً للكافر والمؤمن، لإيضاح حالها وبيان مآلها، فقال سبحانه:

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾ المعنى: أي الرجلين أهدى، من كان ساقطاً على وجهه، تائهاً غارقاً في الكفر قد انتكس قلبه؟ يكب على معاصي الله في الدنيا، فيحشره الله يوم القيامة على وجهه.

﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ أي: والرجل الآخر مستوياً منتصباً، عالماً بالحق عاملاً به! حاله أنه:

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يمشي على طريق مستوٍ لا اعوجاج به ولا انحراف فيه؛ مفضٍ به إلى الجنة الفيحاء.

* ثم أعاد ﷻ تذكير الإنسان بأصل الخلق وبداية النشأة، وأنه الذي خلق وأوجد الإنسان وخصه بالحواس العظيمة: السمع والبصر والفؤاد لكي ينظر ويتفكر ويتأمل، فيقوده ذلك إلى طاعة ربه وإفراده بالعبادة، قال تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ قل لهم -يا محمد-: إن الله هو الذي ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، هو الذي أوجدكم من العدم من غير معاون له، ولا مظاهر، ولما أنشأكم كمل لكم الوجود بالحواس.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: جعل لكم حاسة السمع تسمعون الأصوات بها.

﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: جعل لكم البصر الذي ترون به الأشياء.

﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي: جعل لكم القلوب لتعقلوا بها. وخص هذه الجوارح بالذكر لأنها أداة العلم والفهم.

وتقدم السمع على البصر؛ لأن السمع أهم وأعم، فالإنسان يسمع المنادي من جميع الجهات، ولا يرى إلا بالجهة التي يمعن البصر فيها.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ومع هذه النعم قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: قل لهم -يا محمد-: إن الله هو الذي خلقكم في الأرض ونشركم فيها وفرقكم على ظهرها وأسكنكم في أرجائها؛ مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم وأشكالكم وصوركم.

﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: بعد هذا الانتشار والتفرق؛ تحشرون وتعودون ليوم القيامة للحساب والجزاء.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ ويتساءل الكفار استهزاءً منهم واستبعاداً لوقوعه: متى موعد الحشر والجزاء؟

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ جعلوا علامة صدقهم أن يُخبروا بوقت مجيئه، وهذا ظلم وعناد.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قل لهم -يا محمد- إن علم قيام وقت الساعة علمه عند الله لا يعلمه غيره، قد استأثر به وحده، لكنه وعد صادق يعرف بأدلته وبراهينه التي أقامها ﷻ.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: قل لهم -يا محمد- أنذركم به وأخوّفكم عاقبة كفركم، وأبين لكم ما أمرني الله ببيانه، ولم يأمرني أن أخبركم بوقت قيام الساعة. ثم أخبر سبحانه عن حال المشركين في ذلك اليوم العصيب الذي كذبوا به وجحدوا قيامه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: فلما رأى الكفار العذاب قريبًا منهم، وعاينوا أحوال القيامة، اسودّت وجوههم، وعلتها الكآبة، وغشيتها الذلة والانكسار.

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي: وقالت لهم الملائكة توبيخاً لما رأوا العذاب: هذا الذي كنتم في الدنيا تطلبونه وتستعجلون به استهزاء.

* وبعد الآيات التي ذكرت حال الكفار يوم القيامة، تتابعت الآيات في ذكر قدرة الله ﷻ وفيوض رحمته وواسع رزقه، فقال تعالى:

فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم
بِهِۦ تَدَّعُونَ ٢٧ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا
فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٨ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ
ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ
٢٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ٣٠

سُورَةُ القَلَمِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ
لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ فَسَتُبۡصِرُ
وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ
عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٧ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ
٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ
١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢
عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ
ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦

٥٦٤

٢٨-٣٠ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ * قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ * قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾ قل -يا محمد- لهؤلاء المشركين الذين يتمنون هلاكك: أخبروني إن أماتني الله بموت أو قتل، كما تتمنون لي ذلك وتتربصون بي المصائب والهلاك.

﴿وَمَن مَّعِيَ﴾ من المؤمنين.

﴿أَوۡ رَحِمَنَا﴾ بتأخير ذلك إلى أجل، فلو فُرض أنه وقع بنا ذلك:

﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ أي: لا ينجيهم من ذلك أحد، سواء أهلك الله رسوله والمؤمنين معه كما كان الكفار يتمنونه، أو أمهلهم.

﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ قل لهم: إن ربي الرحمن الواحد الأحد، وذكر صفة «الرحمن» هنا يشير إلى رحمته العميقة الكبيرة برسوله والمؤمنين معه.

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ آمنا به وحده لا نشرك به شيئاً وصدقنا به.

﴿وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ اعتمدنا عليه في جميع أمورنا لا على غيره.

والتوكل: تفويض الأمور إليه ﷻ.

﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ فسوف تعلمون عن قريب من هو في الضلالة نحن أم أنتم؟ وفيه تهديد ووعيد للمشركين.

ثم أخبر سبحانه عن انفراده بالنعم، خصوصاً بالماء الذي جعل الله فيه كل شيء حي، مظهراً للرحمة في خلقه، فقال:

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا﴾ أي: أخبروني إن صار ماؤكم الذي منّ الله عليكم به في العيون والآبار والأنهار غائـرًا في الأرض، أي: نضب أو بعد بحيث لا يبقى له وجود فيها أصلاً، أو صار ذاهبًا في الأرض إلى مكان بعيد بحيث لا تصلون إليه.

﴿فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ فمن الذي يخرجه لكم ويمدكم بماء كثير جار سائح لا ينقطع؛ تشربون منه وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم، وهذا استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدر أحد على ذلك غير الله تعالى، وهذه نعمة محسوسة ملموسة يجب شكر مُنعمها.

تم تفسير سورة الملك

والحمد لله

تفسير سورة القلم
وهي مكية

* سورة «ن» سورة مكية، ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على رفعة قدر الرسول ﷺ وشرفه، وبراءته مما ألصقه به المشركون من اتهامه -وحاشاه- بالجنون، وبينت أخلاقه العظيمة ومناقبه السامية، قال بعض العلماء: سورة «ن» هي سورة «الخُلق» الذي هو جماع الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ قال الله تعالى فيها ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾.

وقد أقسم الله تعالى بالقلم، وذلك أن القلم وما يسطرون به من أنواع الكلام، من آيات الله العظيمة، التي تستحق أن يقسم الله بها على براءة نبيه محمد ﷺ مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون، قال تعالى:

١-٧ ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ * فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾.

﴿نٓ﴾ حرف من حروف الهجاء، كالفواتح الواقعة في أوائل السور المفتتحة بذلك.

﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ واو القسم، وأقسم الله بالقلم لما فيه من البيان، وهو واقع على كل قلم يكتب به.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: ما يكتبه الناس بالقلم من العلوم، والخير والنفع والفائدة، وما يُسطر به المنثور والمنظوم، وفي القسم بالقلم والكتابة إشادة بفضل الكتابة والقراءة. ويؤخذ من الإقسام بالقلم وبالمكتوب فضل العلم وأهله.

قال قتادة: القلم نعمة من نعم الله عظيمة؛ لولا القلم ما قام دين ولم يصلح عيش، والله أعلم بما يصلح خلقه.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ هذا جواب القسم، أي: إنك -يا محمد- بنعمة الله وإحسانه لست بمجنون، بل منَّ عليك بالعقل الكامل، والرأي الجزل، والكلام الفصل الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام وسطره الأنام، وهذا القول من كفار قريش من أشد أنواع الإيذاء له ﷺ، حيث إنه في بداية الدعوة؛ والسخرية والاستهزاء ـ مع الضعف والقلة ـ تؤذيان أشد الإيذاء.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ أي: لك -يا محمد- ثواباً عظيماً على ما تحمَّلت من أثقال النبوّة، وقاسيت من أنواع الشدائد.

﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع ولا منقوص بل هو دائم مستمر. أوْ: لا يُمَنُّ به عليك من جهة الناس، وفي هذا عطف ولطف وإيناس وتكريم لنبينا محمد ﷺ.

* ثم ذكر ﷻ ما أجراه على نبيه من نعمة النبوة والرسالة، وما وهبه له من الأخلاق الكاملة العالية الرفيعة والأدب الجم، التي تنافي الجنون والسفه، فقال سبحانه:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عالياً به، جمع لك به محاسن الأخلاق ومحاسن الصفات. والمعنى: إنك على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن، ثبت في الصحيح عن عائشة أنها سُئلت عن خلق النبيّ ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن».

فسبحان الله ما أعظم شأنه، وأتم امتنانه، انظر إلى عميم لطفه، وعظيم فضله، كيف أعطى ثم أثنى، فهو الذي زينه بالخلق الكريم، ثم أضاف إليه ذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي: ستبصر -يا محمد- ويبصر الكفار إذا تبين الحقّ وانكشف الغطاء، وذلك يوم القيامة، مَنْ مِنَ الطرفين هو المفتون بالجنون؟ وهذا ردٌّ على زعمهم أن محمدًا ﷺ كان مفتونًا ضالاً. ولذا قال:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: إن ربك سبحانه يعلم من هو في الحقيقة الضال، أنت أم من اتهمك بالضلال؟ والمعنى: بل هم الضالون، لمخالفتهم لما فيه نفعهم في العاجل والآجل، واختيارهم ما فيه ضررهم فيهما.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو العالم بالتقي المهتدي إلى سبيله الموصل إلى تلك السعادة الآجلة والعاجلة.

* وبعد أن ساق سبحانه الآيات السابقة تسلية لنبيه ﷺ وإعانة له على تحمل أعباء الرسالة، شد من أزره ورفع قدره، فقال تعالى:

﴿٨﴾-﴿١٦﴾ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ * وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ فلا تطع -يا محمد- رؤساء الكفر والضلال وإن كذبوك وعاندوا الحق. قال شيخ الإسلام عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ ذلك أبلغ في الإلزام والاحتدام، فإن قوله: لا تكذب، ولا تخلف، ولا تشتم، ولا تهمز، ليس هو مثل قوله: لا تطع من يكون متلبساً بهذه الأخلاق، لما فيه من الدلالة على تشريفه وبراءته من تلك الأخلاق. ومن فوائد الآية: أن الأخلاق مكتسبة بالمعاشرة؛ ففيه تحذير عن اكتساب شيء من الأخلاق الرديئة بالمخالطة لأهلها.

﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي: ودّوا، وهم المشركون لو تلين لهم فيلينون لك. وقيل: ودّوا لو تركن إليهم، وتترك ما أنت عليه من الحق، فهم يُدهنون، أي يظهرون لك الملاينة لتميل معهم.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ ولا تطع -يا محمد- كثير الحلف بالباطل، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب، ولا يكون كذاباً إلا وهو:

الجزء التاسع والعشرون — سورة القلم

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا
يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ
كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم
مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ
﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ
﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا
خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ
أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾
أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ
كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا
بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ
زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ
يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾

٥٦٥

﴿مَهِينٍ﴾ أي: فاجر حقير، خسيس النفس، ناقص الهمة، دنيء الأخلاق. ومهين: من المهانة، وهي القلة في الرأي والتميز.

وفيه: دليل على أن من أكثر الأيمان هان على الرحمن، واتضعت مرتبته عند الناس.

﴿هَمَّازٍ﴾ أي: مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب.

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ أي: يمشي بين الناس بالنميمة. والنميمة هي نقل كلام بعض الناس لبعض، لقصد الإفساد بينهم، والقاء العداوة والبغضاء.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: بخيل ممسك، يمنع النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك.

وجاءت الأوصاف: حلاف، هماز، مشاء، مناع بصيغة المبالغة للدلالة على الكثرة.

﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم للخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

﴿أَثِيمٍ﴾ أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله تعالى.

﴿عُتُلٍّ﴾ أي: جاف، غليظ، شرس الخُلُق، غير منقاد للحق.

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي: هو بعد ما عُدَّ من معايبه زنيم. والزنيم: الدعيّ الملصق بالقوم وليس هو منهم. وهذه أشد معايبه وأقبحها، قيل نزلت في الوليد بن المغيرة فقد كان دعياً في قريش وليس منهم، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة. قال ابن عباس: لا نعلم أحداً وصفه الله بهذه العيوب غير هذا، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً. وروي أن الآية لما نزلت جاء الوليد إلى أمه، فقال لها: إن محمداً وصفني بتسع صفات، كلها ظاهرة فيَّ أعرفها غير التاسع منها، يريد أنه «زنيم»، فإن لم تصدقيني ضربت عنقك بالسيف، فقالت له: إن أباك كان عنيناً - أي لا يستطيع معاشرة النساء - فخفت على المال فمكنت راعياً من نفسي، فأنت ابن ذلك الراعي، فلم يُعرف أنه ابن زنى حتى نزلت الآية.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي لأجل كثرة ماله وولده، طغى، واستكبر عن الحق، وهذا تقريع وتوبيخ له كيف جازى نعم الله بالكفر والاستكبار عن الحق.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من صفاته وحاله الشنيع، أنه إذا قرئت عليه الآيات جعلها من جملة أساطير الأولين التي يمكن صدقها وكذبها. وقد توعد الله من كذب بآياته ورسله بالعذاب الشديد جزاء فعله، فقال تعالى:

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ أي: سوف نجعل له الوسم بالسواد على أنفه، وذلك أنه يسود وجهه بالنار قبل دخول النار، فيكون له على أنفه علامة، ونُلْحِق به شيئًا لا يفارقه يعرف به، وخص الأنف بالذكر لأن الوسم فيه أبشع. ولأن السمة على الوجة شين وإذاله، وقد خُطم أنفه بالسيف يوم بدر.

ثم ساق سبحانه مثلاً ضربه تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجسيمة، وهو بعث محمد ﷺ فقابلوه بالتكفير، والرد والمحاربة، والسخرية والاستهزاء، قال تعالى:

﴿١٧﴾-﴿٣٣﴾ ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ * أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ * فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ * قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ * كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: بلونا واختبرنا هـؤلاء المكذبين - أهـل مكة - بالخير وأمهلناهـم وأمددناهم بما شـئنا من مـال وولد وطول عمـر، ونحو ذلك مما يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا بل ربما يكون استدراجاً لهم من حيث لا يشـعرون، فاغترارهم بذلك نظير اغترار أصحاب الجنة، كما قال تعالى:

﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ كما ابتلينا أصحاب بستان باليمن المعروف خبرهم عند قريش، قيل: كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء حديقة لرجـل يؤدي حـق الله منهـا، فمات وصـارت إلى أولاده فمنعـوا الناس خيرها، وبخلوا بحق الله فيها، وقالوا: المال قليل، والعيال كثير، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا، وعزموا على حرمان المساكين، فصارت عاقبتهم إلى ما قصّ الله في كتابه.

﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا أنهم سـيقطعون ثمرها عند الصباح قبل أن يخرج إليهم المساكين.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: ولا يقولـون: إن شـاء الله. وقيـل: ولا يسـتثنون للمساكين من جملة ذلك القدرَ الذي كان يدفعه أبوهم إليهم.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أي: فكانت العاقبة أن نزل عليهم العذاب ليـلاً، طاف على تلك الجنة مـن جهـة الله سبحانه نار أحرقتها حتى صارت سوداء.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ أي: فأصبحت كالزرع المحصود إذا أصبح هشيماً يابساً.

﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ﴾ لما أصبحوا قال بعضهم لبعض ليمضوا على الميعاد إلى بستانهم:

﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ اخرجوا مبكّرين في الصبـاح إلى الثمار والـزرع قبل مجيء الفقـراء، إن كنتم حاصديـن للثمار تريدون قطعها.

﴿فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ فاندفعوا مسرعين قاصدين البسـتان، وهـم يخفـون كلامهم خوفـاً من أن يشعر بهم المساكين، قائلين:

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي: لا يدخل هذا البستان اليوم عليكم مسـكين، ولا يُمكن من الدخول لئلا يطلـب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم.

﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ أي: انطلقـوا ومضـوا منفردين عن قومهم غير محافظين لهم وهم في الحالة الشـنيعة، من الجد في المنع والقسـوة، وعدم الرحمة على إمسـاك ومنع الحق لله، والحرد يكون بمعنى المنع والقصد.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ فلما رأوا حديقتهم سوداء محترقة، قال بعضهم لبعض من الحيرة والانزعاج: قد ضللنا طريق جنتنا وليست هذه، ثم لما تأملـوا وعلموا أنها جنتهم، وأن الله سبحانه قد عاقبهم بإذهاب ما فيها من الثمر والزرع، قالوا:

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: حرمنا الله ثمر جنتنا وخيرها بسـبب ما وقع منا مـن العزم على منع المسـاكين من خيرها، وعرفوا حينئذ أنها عقوبة.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: قـال أمثلهم وأعقلهـم وخيرهـم، ألم أقل لكم إن فعلكم هذا من منعكم المساكين حقهم ظلم؟ فهلا تسـبحون الله الآن بعد أن تيقنتم أنه بالمرصاد للظالمين.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ استدركوا بعد أن عادوا إلى رشدهم وقالوا ذلك؛ تنزيهًا لله عن أن يكون ظالمًا فيما صنع بجنتنا، فإن ذلك بسبب ذنبنا الذي فعلناه في منعنا للمساكين.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أي: يلوم بعضهم بعضاً فيما أجروه وفعلـوه، ثم اعترفوا جميعاً بأنهم تجاوزوا الحد.

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ أي: قالوا يا هلاكنا وتعاستنا إن لم يغفر لنـا ربنا فقد كنـا متجاوزين للحد في حق الله وحق عباده.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ أي: لعل الله يعطينا أفضل منها بسبب توبتنا وندمنا، واعترافنا بخطيئتنا.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي: طالبون لإحسانه وفضله، راجون لعفوه.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: مثل هذا العذاب الذي نزل بأهل الجنة ينزل بقريش.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وعـذاب الآخرة أعظم وأشـد من عذاب الدنيا، لـو كان عندهم فهم وعلم ولكنهـم لا يعلمون، أو أن من

خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ
سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم
مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ
أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ
﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ
وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ
وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟
ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ الحَاقَّةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ
بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ
صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى
ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

علم ذلك، أوجب له الانزجار عن كل سبب يوجب العذاب ويحل العقاب.

*** ولما ذكر الله تعالى حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النقمة، حين عصوا الله ﷻ وخالفوا أمره، بين أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها، فقال تعالى:**

﴿٣٤﴾-﴿٤١﴾ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ **أي: للمتقين الذي اتقوا عقاب الله بفعل ما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه، لهم في الآخرة حدائق وبساتين في النعيم المقيم.**

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ **الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: أفنساوي بين المطيع والعاصي، والمحسن والمجرم؟**

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ **هذا الحكم الأعوج، وهو التسوية بين المطيع والعاصي الذي لا يصدر عن عاقل، وكأن أمر الجزاء مفوّض إليكم.**

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ **أي: هل عندكم كتاب مُنزل من السماء، تقرأون فيه وتدرسون، فتجدون المطيع كالعاصي؟**

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ **أي: هل في ذلك الكتاب أنّ لكم في الآخرة ما تختارون؟ وهذا توبيخ لهؤلاء القوم وتقريع لهم فيما كانوا يقولون من الباطل.**

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ **أي: هل لكم عهد عند الله حلَفَ لكم عليه أيمانًا، ومواثيق استوثقتم بها أن يدخلكم الجنة، ثابتة لكم إلى يوم القيامة لا يخرج من عهدتها حتى يجعل لكم حكمكم يومئذ؟**

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ **أي: سل -يا محمد- الكفار موبخاً لهم ومقرّعاً: أيهم كفيل بذلك وضامن بهذا الذي يزعمون؟**

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ **المعنى: بل ألهم شركاء لله بزعمهم قادرون على أن يجعلوهم مثل المسلمين في الآخرة؟ وهذا تعجيز للكفار.**

*** ثم لما أبطل مزاعمهم وسفه أحلامهم، شرع في بيان أحوال الآخرة وشدائدها، ردعاً وزجراً وإعذاراً وإنذاراً، قال سبحانه:**

﴿٤٢﴾-﴿٤٧﴾ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ * فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ * أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ * أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ **أي: إذا كان يوم القيامة وهو يوم كرب شديد، يكشف الله ﷻ عن ساقه الكريمة ـ التي لا يشبهها شيء ـ دلالة على شدة الأمر وكربته. وفي الحديث قال ﷺ: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً»** [رواه البخاري].

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ في ذلك الموقف يُدعى العباد إلى السجود لله ﷻ، يسجد الخلق كلهم لله سجدة واحدة، ويبقى الكفار والمنافقون يريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون، لأن أصلابهم تيبس فلا تلين للسجود، لم يكونوا آمنوا بالله في الدنيا، ولا سجدوا له، ولهذا كان موقفهم في غاية الذل والهوان، ودعوتهم في هذا الموقف إلى السجود لا تكليفاً ولكن توبيخاً على تركهم السجود في الدنيا، قال تعالى:

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: ذليلة متواضعة أبصارهم لا يستطيعون رفعها، وتغشاهم ذلة شديدة، وحسرة وندامة.

﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ أي: في الدنيا على ألسن الرسل.

﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي: معافون عن العلل، متمكنون من الفعل. كانوا يدعون بالأذان والإقامة فيأبون.

﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ ذرني، أي: خلِّ بيني وبينه -يا محمد-، أو دعني والمكذبين بالقرآن العظيم، فأنا أكفيك أمره وعليَّ جزاءه، وهذا منتهى الوعيد.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: سنأخذهم بطريق الاستدراج بالنعم، نمدهم بالأموال والأولاد، ونمدهم بالأرزاق والأعمال ونسوقهم إلى العذاب درجة فدرجة، حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج؛ لأنهم يظنونه إنعاماً، ولا يفكرون في عاقبته، وما سيلقون في نهايته. قال سفيان الثوري: نسبغ عليهم النعم، وننسيهم الشكر. وقال الحسن: كم مستدرج بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالستر عليه.

﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم، وأطيل في أعمارهم ليزدادوا إثمًا.

﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ إن تدبيري وانتقامي لأهل الكفر قوي شديد، فلا يفوتني شيء.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي: أتسألهم -يا محمد-، أو هل تطلب منهم ثوابًا على تبليغ الدعوة والرسالة، والاستفهام بمعنى النفي.

﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ المغرم من يحمل غرامة ذلك الأجر، أي: يثقل عليهم حمله لشحهم ببذل المال، فهل طلبت منهم أجرًا فأعرضوا عن إجابتك بهذا السبب؟ والغرض توبيخهم في عدم الإيمان، فإن الرسول لا يطلب منهم شيئاً من الأجر.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: بل أعندهم علم الغيب يكتبون ما يريدون من الحجج التي يزعمون، ويخاصمونك بما يكتبونه من ذلك، فلذلك أصروا على الكفر والطغيان.

* وفي الآيات اللاحقة يوجه الله تعالى نبيه محمداً ﷺ إلى الصبر على تكاليف الرسالة وعلى الأذى والتكذيب، ويذكره بما جرى لمن قبله من الأنبياء، كيونس، قال تعالى:

(٤٨)-(٥٢) ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فاصبر -يا محمد- على أذاهم وتكذيبهم، وأمض لما أمرت به من تبليغ رسالة ربك، وفي هذا مواساة وتثبت للنبي ﷺ في سبيل القيام بدعوته ونشرها.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ أي: لا تكن مثله في الغضب والضجر والعجلة. وصاحب الحوت هو يونس ﵇، فإنه لما غضب على قومه لأنهم لم يؤمنوا تركهم، ولم يصبر الصبر المطلوب وركب البحر، ثم التقمه الحوت.

﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي: حين دعا ربه في بطن الحوت وهو مُغتم مهتم، بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: مغموم مكروب.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ لولا أن تداركته رحمة ربه، وهي توفيقه للتوبة، فتاب الله عليه، لألقي وطرح من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات.

وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ
رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ
﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ
نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾
فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ
﴿١٦﴾ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ
﴿١٧﴾ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ
بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ
﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾
كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ
كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ
﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ
﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا
سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾
وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴿٣٥﴾

﴿وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ أي: معاتب بزلته، ملام بالذنب الذي أذنبه، ولكن الله أنعم عليه بالتوفيق للتوبة فلم يبق مذموماً، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال:

﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: استخلصه واصطفاه، واختاره للنبوّة، ونقاه من كل كدر.

﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الكاملين في الصلاح، صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم. وقيل: ردّ إليه النبوّة، وشفعه في نفسه وفي قومه، وجعله رسولاً؛ أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون، فآمنوا جميعاً.

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي: ولقد كاد الكفار من شدة عداوتهم لك -يا محمد- حين سمعوا القرآن؛ أن يصرعوك ويعنونك بأعينهم ويهلكوك لبغضهم إياك، لولا وقاية الله لك وحمايته إياك منهم، وفي الآية دليل على أن العين وإصابتها وتأثيرها حق بأمر الله ﷻ.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ يقولون من شدة بغضهم وحسدهم لك وازدرائهم: إن محمداً مجنون، وقد ردّ الله ﷻ عليهم بقوله:

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: وما هذا القرآن المعجز، والذكر الحكيم، إلا ذكر وموعظة للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم، فكيف ينسب من نزل عليه إلى الجنون.

وكما بدأ ﷻ السورة ببيان عظمة الرسول ﷺ، ختمها ببيان عظمة القرآن، وأثره في العالمين.

تم تفسير سورة القلم
والحمد لله

تفسير سورة الحاقة
وهي مكية

* سورة الحاقة سورة مكية، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه. ذكر الله فيها الساعة وشدائدها، وأحوال الأمم السابقة، وما جرى لهم بعدما طغوا وبغوا، وذكرت الآيات حال الناس يوم القيامة وما يجري لهم من الفزع والأهوال، قال تعالى:

(١)-(١٢) ﴿ٱلۡحَآقَّةُ * مَا ٱلۡحَآقَّةُ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ * كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ * سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ * فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ * وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ * فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ * لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾.

﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ من أسماء يوم القيامة؛ لأنها تحق وتظهر فيها حقائق الأمور.

سميت حاقة؛ لأنها حقت فلا كاذبة لها، وقيل: لأن فيها حواق الأمور وحقائقها ولأن فيها يحق الجزاء على الأعمال.

﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ استفهام لتفخيم شأنها، وتعظيم أمرها.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ أي: وما أعلمك -يا محمد- ما هي القيامة؟ فإن لها شأناً عظيماً وهولاً جسيماً.

ثم ذكر الله ﷻ أحوال بعض الأمم السابقة وما جرى لهم للعبرة والعظة، ولإيناس نبينا محمد ﷺ في الصبر على الدعوة، وتحمل المشقة والتعب والنصب في سبيل تبليغها، قال تعالى:

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ﴾ ثمود هي القبيلة المشهورة سكان الحجر الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً ﵇، وعاد هم قوم هود ﵇ سكان حضرموت، أرسلهما الله إلى هاتين القبيلتين، فنهوهما عن الشرك وأمرا بالتوحيد، فردوا دعوتهما وكذبوا بها، ومن ذلك تكذيبهم.

وابتدئ بثمود وعاد في الذكر من بين الأمم المكذبة؛ لأنهم أكثر الأمم المكذبة شهرة عند المشركين من أهل مكة؛ لأنهما من الأمم العربية، ولأن ديارهما مجاورة شمالاً وجنوباً.

﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾ أي: كذبوا بالقيامة، وسميت بذلك لأنها تقرع قلوب العباد بأهوالها وشدائدها.

ثم ذكر سبحانه أهوال القيامة والمكذبين بها، وما عاقب تعالى به أهل الكفر والعناد، فقال سبحانه:

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ أي: فأما ثمود قوم ـ صالح فأهلكوا بالطاغية، وهي الصيحة التي جاوزت الحدّ، صيحة عظيمة، تصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم، فأصبحوا موتى لا يُرى إلا مساكنهم وجثثهم.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ أي: وأما عاد وهم قوم هود، فأهلكوا بالريح العاصف. والريح الصرصر: هي الشديدة البرد. والعاتية: القاسية التي جاوزت الحد لشدة هبوبها، وطول زمنها، وشدة بردها.

والرياح في القرآن ثمان: أربع رحمة وهي: المبشرات، والمرسلات، والذاريات، والناشرات. وأربع عذاب: الصرصر، والعقيم في البر، والعاصف، والقاصف في البحر.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ أي:أرسلها وسلطها عليهم طيلة هذه المدة، مستمرة لا تنقطع ولا تهدأ.

﴿حُسُومًا﴾ أي: تحسمهم حسوماً، وتفنيهم وتذهبهم.

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ فترى أيها المخاطب القوم في ديارهم ومنازلهم مصروعين بالأرض موتى، لا حراك بهم، كأنهم أصول وجذوع النخل التي قد قطعت رؤوسها الخاوية، الساقط بعضها على بعض.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر، لقد هلكوا عن آخرهم، ولم يجعل الله لهم خلفاً.

وبعد أن ذكر الله ﷻ حال قوم عاد وثمود، ذكر سبحانه غيرهم من الطغاة كفرعون مصر، فقال تعالى:

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ أي: وجاء الطاغية فرعون، الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى عليه السلام، وكذلك من قبله من الأمم الطاغية التي كفرت برسلها.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ وهي قرى قوم لوط، والمعنى: وجاءت المؤتفكات.

﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي: بالفعلة الخاطئة وهي الشرك والكفر والتكذيب، وما انضم إلى ذلك من أنواع الفواحش والفسوق والمعاصي.

﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي: كل من هؤلاء كذب الرسول الذي أرسله الله إليهم، وهم لوطاً وموسى ـ عليهما السلام ـ.

﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: فأخذهم الله أخذة نامية زائدة في الشدة على أخذات الأمم، وهي أنه قلب بهم ديارهم، وأرسل عليهم حاصباً.

* ثم ذكر الله ﷻ قوم نوح لما كذبوا؛ أغرقهم سبحانه في اليم حيث طغى الماء على وجه الأرض، وعلا على مواضعها الرفيعة، ونجا نوحاً ومن آمن معه.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي: تجاوز حدّه في الارتفاع والعلوّ.

﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ حملنا أصولكم مع نوح في السفينة، والجارية سفينة نوح؛ لأنها كانت تجري بهم في ماء الطوفان.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾ أي: قصة هلاك قوم نوح، لكم يا أمة محمد تدل على انتقام الله ممن كذب رسله.

﴿تَذْكِرَةً﴾ أي: عبرة وموعظة تستدلون بها على عظيم قدرة الله وشدة انتقامه، وكيف نجا من آمن به واتبع رسوله.

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي: تحفظها بعد سماعها أذن حافظة لما سمعت وتعقلها القلوب، وهذه العظات ينتفع بها أهل الإيمان وأولو الألباب، بخلاف أهل الغفلة والإعراض فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله.

* ولما ذكر الله ﷻ نهاية الأمم الظالمة، وقصص المكذبين وما جرى لهم من العذاب في الدنيا، ذكر سبحانه الحال يوم الفزع الأكبر يوم القيامة، وأتبعه بذكر أهوالها وشدائدها حيث المشهد المهول، ونهاية الكون، أحداث متسارعة متلاحقة كأننا نراها رأي العين، قال تعالى:

﴿١٣﴾-﴿١٨﴾ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ

﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ حيث ينفخ إسرافيل في القرن.

﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ هي النفخة الأولى التي يحصل عنها خراب وهلاك الدنيا.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: فتتت الجبال واضمحلت، وخلطت بالأرض، ونسفت الأرض فكان الجميع قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: فكسرتا كسرة واحدة لا زيادة عليها. وقيل: دكتا: بسطتا بسطة واحدة.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي: في ذلك الحين قامت القيامة الكبرى، وحدثت الداهية العظمى.

* ولما ذكر سبحانه حال الأرض وما يقع فيها من تبدل وتزلزل وأهوال عظام، ذكر حال السماء في يوم القيامة، فقال تعالى:

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي: وانصدعت السماء وانشقت بنزول ما فيها من الملائكة، فهي في ذلك اليوم ضعيفة مسترخية بعدما كانت محكمة.

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ أي: تكون الملائكة الكرام على حافاتها وجوانبها، حتى يأمرهم الرب ﷻ فينزلون إلى الأرض، ويحيطون بالأرض ومن عليها.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أي: وفي ذلك اليوم يحمل عرش الرحمن، ثمانية من الملائكة المقربين العظام فوق رؤسهم.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أي: في ذلك اليوم الرهيب يعرض العباد على الله لحسابهم وجزاءهم.

﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ لا يخفى على الله سبحانه من ذواتكم، أو أقوالكم وأفعالكم، خافية كائنة ما كانت؛ فالكل مكشوف، مكشوف الجسد، مكشوف الرأس، مكشوف النفس، مكشوف الضمير، مكشوف العمل، مكشوف المصير، وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار، وتتعرى النفوس تعري الأجساد، وتبرز العيوب بروز الشهود، ويتجرد الإنسان من حيطته ومكره، ومن تدبيره ومن شعوره، ويفتضح ما كان حريصاً على أن يستره حتى عن نفسه. فاللهم الطف بنا ولا تجعلنا من المفضوحين في يوم العرض ولا فوق الأرض.

* ثم ذكر الله تعالى بعد هذا السياق العظيم، أحوال ومنصرف كل فريق، وذكر أحوال السعداء والأشقياء حيث تعرض الآيات التالية مشهد الناجين والمعذبين، وصفاً دقيقاً واضحاً، كأنه حاضر تراه العيون.

١٩-٢٤ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾.

﴿فَأَمَّا﴾ تفصيل للعرض.

﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ هؤلاء هم أهل السعادة، يعطون كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم تمييزاً لهم، وتنويهاً بشأنهم، ورفعاً لمقدارهم، ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور، ومحبة أن يطلع الخلق على ما منّ الله عليه به من الكرامة.

﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي: دونكم كتابي فاقرؤوه، يقول ذلك سروراً وابتهاجاً لما رآه في كتابه من الاعتقادات والأعمال الصالحة، وعلم أنه من الناجين لما أعطي كتابه بيمينه، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله، والذي أوصلني إلى هذه الحال، ما منَّ الله به عليَّ من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له، بالممكن من العمل، ولهذا قال:

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي: إني أيقنت وعلمت في الدنيا أني أحاسب في الآخرة، فأعددت له العدة من الإيمان والعمل الصالح.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: فهو في عيشة هنية جامعة لما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وقد رضوها، ولم يختاروا عليها غيرها.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: مرتفعة المكان، لأنها في السماء، أو مرتفعة المنازل، رفيعة القدر.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي: إن ثمارها وجناها قريبة ممن يتناولها من قائم أو قاعد أو مضطجع، ويقال لهم إكراماً وإنعاماً:

﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ من كل طعام لذيذ، وشراب شهي.

﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أي: تاماً كاملاً من غير مكدر ولا منغص، وذلك الجزاء حصل لكم.

﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ أي: بسبب ما قدّمتم من الأعمال الصالحة في الدنيا، فالأعمال جعلها الله سبباً لدخول الجنة ومادة لنعيمها، وأصلاً لسعادتها.

* ثم لما ذكر الله ﷻ أحوال التقاة، انتقل إلى ذكر أحوال الطغاة، وما يجرى لهم في يوم العرض الجزاء، فقال تعالى:

﴿٢٥﴾-﴿٣٧﴾ ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ * وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ * يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ * مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ * هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ * إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ * فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ * لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾.

﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ أي: من أعطي كتابه بشماله وهذه علامة أهل الشقاوة والخسران، يعطون كتبهم لأعمالهم السيئة بشمالهم تمييزاً لهم وخزياً وعاراً وفضيحة، فيقول أحدهم من الهم والغم والخزي: حزناً وكرباً لما رأى فيه من سيئاته.

﴿فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ يقول نادماً متحسراً ليتني لم أعط كتابي؛ لأنه يُبشر بدخول النار والخسارة الأبدية.

﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ أي: لم أدر أي شيء جزائي، ياليتني لم أبعث وأحاسب، والاستفهام للتعظيم والتهويل، إنها وقفة المتحسر الكسير الكئيب.

﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ أي: يا ليت الموتة التي متها كانت القاضية، ولم أحيَ بعدها. تمنى دوام الموت وعدم البعث لما شاهد من سوء عمله، وما يصير إليه من العذاب، ثم التفت إلى ماله وسلطانه، فإذا هو وبال عليه، لم يقدم منه لآخرته، ولم ينفعه في الافتداء من عذاب الله، والآيات تطيل عرض هذه الوقفة، وذكر تفاصيلها وشدة إيلامها.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ﴾ أي: لم يدفع عني ما جنيته من المال من عذاب الله شيئاً، ولم ينفعني شيئاً.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ أي: هلكت عني حجتي، وضلت عني. وقيل: المراد بالسلطان: المنصب والجاه والملك. فلا المال أغنى أو نفع، ولا السلطان بقي أو دفع، وحينئذ يقول الله ﷻ:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي: يقول تعالى لزبانية جهنم: خذوه واجمعوا يده على عنقه في الأغلال، ثم أدخلوه النار العظيمة المتأججة ليصلى حرها ويذوق عذابها.

﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ أي: ثم أدخلوه واجعلوه في سلسلة حديدية، في غاية الحرارة. والسلسلة: حلق منتظمة، وذرعها أي: طولها. قال سفيان: بلغنا أنها تدخل في دبره حتى تخرج من فيه.

ثم ذكر الله ﷻ أسباب ما ناله من العذاب والشقاء والبؤس والعناء، وذلك العقاب والجزاء الذي أوصله إلى هذا:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ سبب نزول هذا العذاب به؛ أنه كان كافراً بربه، معانداً لرسله، لا يصدق بوحدانية الله وعظمته.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أي: ليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين فلا يطعمهم من ماله، ولا يحض غيره على إطعامهم. وذكر الحضّ دون الفعل للتنبيه على أن تارك الحض بهذه المنزلة، فكيف بتارك الإحسان والصدقة.

﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ﴾ أي: ليس لهذا الكافر في الآخرة قريب ينفعه أو يشفع له، لينجو من عذاب الله، أو يفوز بثواب الله؛ لأنه يومٌ يفرّ فيه القريب من قريبه، والحبيب من حبيبه.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ أي: وليس له إلا صديد أهل النار، وهو ما ينغسل من أبدان أهل النار من القيح والصديد، وهو في غاية الحرارة، ونتن الريح، وقبح الطعم ومرارته.

﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ لا يأكله إلا أصحاب الخطايا وأرباب الذنوب الذين أخطؤوا الصراط المستقيم، وسلكوا سبل الجحيم.

* ثم بعد هذه الآيات التي بينت منازل الناس في الدار الآخرة، نبه سبحانه وأقسم على صدق رسالة نبينا محمد ﷺ، فقال تعالى:

وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ
بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ
بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ
﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾
لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم
مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا
لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ المَعَارِجِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾
مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ
فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا
﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ
كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾

٥٦٨

(٣٨)-(٤٣) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ **أي: أقسم بالأشياء كلها ما يُرى منها وما لا يُرى، والآية تدل على العموم والشمول. وهذا أعم قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات، والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى.**

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ **أي: إن القرآن لتلاوة رسول كريم، والمراد: محمد ﷺ أو: إنه لقول يبلغه رسول كريم، يريد به جبريل.**

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ **أي: وليس القرآن كما تزعمون بشعر؛ لأنه ليس من أصناف الشعر.**

﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ **أي: قلما تؤمنون بهذا القرآن.**

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ **أي: وليس هو بقول كاهن كما تزعمون، فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها وبين هذا.**

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ **أي: تذكراً قليلاً، تتذكرون وتتعظون وتتأملون للفرق بينهما، فهو رسول الله حقاً، وما جاء به هو:**

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **أي: كلام رب العالمين الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ.**

* **ثم ذكر ﷻ عظمة حفظه لكتابه الكريم، فقال:**

(٤٤)-(٥٢) ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ * وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ **أي: ولو تقوّل ذلك الرسول، وهو محمد أو جبريل على ما تقدّم، لو تكلف شيئًا من ذلك وجاء به من جهة نفسه ونسبه إلى الله.**

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ **أي: بيده اليمنى.**

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ **الوتين: عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، وهو تصوير لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه.**

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ **أي: ليس منكم أحد يحجزنا عنه أو ينقذه منا، فكيف يتكلف الكذب على الله لأجلكم؟**

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ **أي: إن القرآن لتذكرة وعظة لأهل التقوى؛ لأنهم المنتفعون به.**

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ **أي: إن بعضكم يكذب بالقرآن مع وضوح آياته، فنحن نجازيهم على ذلك، وفي هذا تهديد ووعيد للمكذبين.**

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ **أي: وإن التكذيب بالقرآن وبما فيه لحسرة وندامة على الكافرين يوم القيامة؛ لأنه فاتهم الثواب وحصلوا على أشد العذاب وتقطعت بهم الأسباب.**

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ **أي: وإن هذا القرآن العظيم، لحق يقيني لا يحوم حوله ريب لكونه من عند الله، فلا يحوم حوله ريبة ولا يتطرّق إليه شك.**

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ **أي: نزهه ﷻ عما لا يليق بجلاله، وقدسه بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله.**

تم تفسير سورة الحاقة

والحمد لله

تفسير سورة المعارج
وهي مكية

* سورة المعارج سورة مكية، ذكر الله ﷻ فيها البعث والجزاء وأحوال القيامة وأهوالها، والآخرة وما فيها من سعادة وشقاء، وراحة ونصب، وذكر فيها أحوال المؤمنين والمجرمين في دار الجزاء والخلود. وتحدثت آيات السورة عن كفار مكة وإنكارهم للبعث والنشور، واستهزائهم بدعوة الرسول ﷺ، قال تعالى:

(١)-(٧) ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ * لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ * مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ * تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ * فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا * إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾.

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ أي: دعا داع من المشركين على نفسه وقومه بنزول العذاب عليهم، وهذا السائل قيل: هو النضر بن الحارث من صناديد قريش وطواغيتها، لما خوفهم الرسول ﷺ عذاب الله، قال استهزاء: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»، دعا بهذا العذاب على الكافرين.

﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾ أي: ليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل من متمردي المشركين، أحد يدفعه قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله وذلك لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ أي: هو صادر من الله العظيم الجليل، ذو العلو والعظمة والتدبير لسائر خلقه، صاحب المصاعد التي تصعد بها الملائكة، وتنزل بأمره ووحيه.

﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ أي: تصعد الملائكة الأبرار إلى الله ﷻ في تلك المعارج التي جعلها الله لهم. والروح هو جبريل عليه السلام خصه بعد العموم لفضله وشرفه.

﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ أي: في يوم كان طوله خمسين ألف سنة من سني الدنيا، مدّة موقف العباد للحساب هي هذا المقدار من السنين، ثم يستقرّ بعد ذلك أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ أي: اصبر -يا محمد- على دعوتك لقومك، اصبر على استهزائهم وأذاهم ولا تضجر، اصبر على صدهم وعصيانهم. اصبر عليهم صبراً جميلاً. والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه، ولا شكوى لغير الله، واستمر على أمر الله وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنعك ما ترى من عدم انقيادهم، فإن في الصبر على ذلك خيراً كثيراً. وقد كان هذا فعل النبي ﷺ حتى أشرقت الأرض برسالته ﷺ.

﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾ أي: إن هؤلاء المستهزئين يرون البعث أو العذاب مستبعدًا محالاً غير كائن لأنهم لا يؤمنون به.

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ أي: الله ﷻ يراه قريباً، كائناً لا محالة، لكنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون.

* ثم ذكر الله ﷻ أحوال وأهوال القيامة، وما يجري في ذلك اليوم، وما يكون فيه، قال تعالى:

(٨)-(١٨) ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ * وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ * وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا * يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ * وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ * كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ * تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾.

﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ أي: يوم القيامة تكون السماء كالمهل؛ وهو ما أذيب من النحاس والرصاص والفضة، ثم بعد ذلك تكون هباءً منثوراً، فتضمحل، فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالعبد الضعيف الذي قد أثقلته الذنوب، أليس حقيقاً أن ينخلع قلبه وينزعج له، ويذهل عن كل أحد؟ ولهذا قال:

﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ أي: متناثرة متطايرة كالصوف المنفوش.

﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾ أي: لا يسأل قريب قريبه، ولا صديق صديقه، عن شأنه في ذلك اليوم، لما نزل بهم من شدّة الأهوال، ولا يبقى في قلبه متسع لسؤال حميمه عن حاله.

وفي هذه الأحوال العظيمة والشدائد المتوالية تكون الحال كما ذكر سبحانه، بقوله:

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾
وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا
ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ
جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ
عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ
وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ
رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ
لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ
﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾
فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ
عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم
مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾

٥٦٩

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يرى كل إنسان قريبه العزيز عليه فيعرفه ويعرفونه، لا يخفى منهم أحد عن أحد، ولا يتساءلون ولا يكلم بعضهم بعضاً؛ لأن كلًّا مشغول بهمّ نفسه وخاصته، بل يفر منه في ذلك الموقف لهوله وشدته.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ يتمنى الكافر وكل مذنب ذنباً يستحق به النار.

﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: يفتدي و يعتق نفسه يوم القيامة بأعز ما كان عليه في الدنيا ومن ذلك.

﴿بِبَنِيهِ﴾ أي: أبناءه.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي: زوجته.

﴿وَأَخِيهِ﴾ فإن هؤلاء أعزّ الناس عليه وأكرمهم لديه، فلو قبل منه الفداء لفدى بهم نفسه، وخلص ممّا نزل به من العذاب.

﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ أي: قبيلته وعشيرته الأقربين الذين يضمونه في النسب، أو عند الشدائد، ويأوي إليهم كما يجرى ذلك في الدنيا.

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: يودّ المجرم لو افتدى بمن في الأرض جميعًا من الثقلين وغيرهما من الخلائق.

﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ثم: لاستبعاد الإنجاء، وذلك الافتداء من عذاب جهنم.

﴿كَلَّآ﴾ أداة زجر وتعنيف، أي: لا حيلة ولا مناص لهم، لقد ذهب وولى نفع الأقارب والأصدقاء.

﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ أي: إنها النار الحامية. ولظى: اسم لجهنم، واشتقاقها من التلظي في النار، وهو التلهب.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ تنزع بشدة حرها جلدة الرأس من الإنسان، وخصها بالذكر؛ لأنها أشد الجسم حساسية وتأثراً بالنار.

﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: إن جهنم تنادي وتدعو إليها من أدبر عن الحق في الدنيا، وأعرض عنه.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي: تدعو من جمع المال فجعله في وعاء، فلم ينفق منه في سبيل الله، ولم يؤد منه حق الله.

* ثم ذكر ﷻ مآل الإنسان وانقسامه إلى فريقين في تلك الأحوال، فقال:

﴿١٩﴾-﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ * وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ * وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي: إن الإنسان جبل على الضجر، ولا يصبر على بلاء. والهلع: أشد الحرص، وأسوأ الجزع وأفحشه. وتأتي الآيات القرآنية بلفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ في مقام الذم في أكثر من ستة زظعشر موضعاً.

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أي: يجزع وينخلع قلبه، إن أصابه فقر أو مرض، أو ذهاب محبوب له من مال أو أهل وولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله وقدر.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي: إذا أصابه الخير، وحصلت له نعمة من الله من الغنى والخصب والسعة ونحو ذلك، فهو كثير المنع والإمساك فلا ينفق مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبره، فيجزع في الضراء، ويمنع في السراء.

﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ أي: المقيمين للصلاة، استثناهم من البشر الموصوفين بالهلع. يعني: إنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع والجزع والمنع، فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله، وأنفقوا مما خولهم الله؛ وإذا مسهم البلاء صبروا واحتسبوا، لأن صلاتهم تحملهم على قلة الاكتراث بالدنيا، فلا يجزعون من شدتها ولا يبخلون بخيرها، ويرجون ما عند الله شكراً على النعمة وصبراً على البلاء.

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ مواظبون على أداء الصلاة، يحافظون على أوقاتها وواجباتها، لا يشغلهم عنها شاغل.

﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ أي: في أموالهم نصيب معين فرضه الله عليهم.

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ السائل: الفقير الذي لا يجد شيئاً ويتعرض لك فيطلب منك العون. والمحروم: الذي لا يقدر على الكسب ويتعفف عن السؤال حتى يحسبه الناس غنيّاً فلا يتصدقون عليه، وقيل الذي أصابته جائحة.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يؤمنون بيوم الحساب، وهو يوم القيامة، لا يشكّون فيه ولا يجحدونه فيستعدون له بالأعمال الصالحة.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ أي: ومن صفاتهم أنهم خائفون وجلون، مع ما لهم من أعمال الطاعة، فهم يرجون الثواب ويخافون العقاب.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ أي: لا ينبغي أن يأمنه أحد، وإن حق كل أحد أن يخافه، وينبغي أن يكون متأرجحاً بين الخوف والرجاء يخاف عذاب الله وعقابه، ويرجو رحمته وغفرانه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ أي: أعفاء لا يرتكبون المحارم، مُمسكون لها بالعفاف عما لا يحل لهم، فلا يطؤون بها وطأً محرماً.

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ فلا يُلامون على الاسترسال معهن وليس عليهم حفظ فروجهم عنهن.

﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ من الإماء ملكاً خالصاً، أي: فيحل لهم التسرِّي بهن ما لم يمنع من ذلك مانع شرعي كأن تكون أخته من الرضاعة.

﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ في عدم حفظ فروجهم عن أزواجهم ولا عما ملكت أيمانهم، ويُلامون إذا انطلقوا فيما عدا ذلك.

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات والمملوكات.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ أي: المتجاوزن ما أحل الله إلى ما حرم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ أي: لا يخلون بشيء من الأمانات التي يؤتمنون عليها، حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، ولا ينقضون شيئًا من العهود التي يعقدونها على أنفسهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ هذا هو الوصف السابع من أوصاف المؤمنين، أي: يقيمون الشهادة على وجهها على من كانت عليه من قريب أو بعيد، رفيع أو وضيع، ولا يكتمونها ولا يغيرونها ولا يحابون فيها قريباً ولا صديقاً، ويكون القصد بها وجه الله.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ أي: على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، لا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل ولا يفعلون ما يحبطها ويبطل ثوابها، وهذا هو الوصف الثامن من أوصاف المؤمنين. وقد افتتح سبحانه الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها؛ فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها وعظم أمرها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الجليلة والمناقب الرفيعة.

﴿فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ أي: مستقرّون فيها، مكرمون بأنواع الكرامات.

* ثم بين الله ﷻ اغترار الكافرين، بقوله:

﴿٣٦-٤٤﴾ ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ * عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ * كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ * فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ * فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ * يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ * خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ أي: حواليك مسرعين إلى

عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ
يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ
يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾
خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

سُورَةُ نُوحٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا
فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ
ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا
﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ
لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾

٥٧٠

التكذيب، ويستهزئون بك. وقيل: مهطعين: مادّي أعناقهم مقبلين بأبصارهم عليك.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي: عن يمين النبيّ ﷺ، وعن شماله، جماعات متفرقة.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ استفهام إنكاري مع التقريع والتوبيخ، أي: بأي سبب يرجو ويطمع كل واحد من هؤلاء الكفار أن يدخله الله جنات النعيم وهو لم يقدم سوى الكفر، والجحود برب العالمين.

﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر، أي: لا يدخلها، ليس الأمر بأمانيهم، ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم.

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من المنيّ القذر الذي يعلمون به، فلا ينبغي لهم هذا التكبر، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

* ثم أقسم ﷻ بالمشارق والمغارب للشمس والقمر والكواكب لما فيها من الآيات الباهرات على وقوع البعث، وقدرته على تبديل أمثالهم، قال تعالى:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ أي: فأقسم، بمشرق كل يوم من أيام السنة ومغربه.

﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: قادرون على إهلاكهم.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ نأتي بأفضل منهم، وأطوع لله ممن عصوه، ونهلك هؤلاء.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: بمغلوبين إن أردنا ذلك، وما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده، فإذا تقرر البعث والجزاء، واستمروا على تكذيبهم، وعدم انقيادهم لآيات الله.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾ أي: اتركهم -يا محمد- يخوضوا في باطلهم من الأقوال الباطلة والعقائد الفاسدة.

﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم، ويأكلوا ويشربوا ويتمتعوا، واشتغل بما أمرت به، ولا يعظمن عليك ما هم فيه، فليس عليك إلا البلاغ.

﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة، فإن الله قد أعد لهم من النكال والوبال ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم.

ثم ذكر سبحانه حال الخلق حين يلاقون يومهم الذي يوعدون، وهو يوم البعث والنشور، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ أي: يوم يخرجون من الأجداث وهي القبور إلى أرض المحشر، مسرعين مجيبين لدعوة الداعي.

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ إلى شيء منصوب عَلَمٍ أو راية، يسرعون يتسابقون إليه.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: أن حالهم في ذلك اليوم حال ذليلة، لا يرفعونها لما يتوقعونه من العذاب.

﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: تغشاهم ذلة شديدة وهوان.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ أي: هذا اليوم وهو يوم القيامة، وهو اليوم الذي كانوا يوعدون، ولابد من الوفاء بوعد الله، فاليوم يرون عقابهم وجزاءهم.

تم تفسير سورة المعارج

والحمد لله

تفسير سورة نوح
وهي مكية

* سورة نوح سورة مكية، ذكر الله ﷻ فيها كاملة، قصة شيخ الأنبياء نوح عليه السلام مع قومه لطول لبثه في قومه، وتكرار دعوة التوحيد ونهيه عن الشرك، وما قام به من الدعوة إلى الله بوسائل وأساليب شتى، ومن ذلك أن ذكرهم بنعمة الله وما أفاض عليهم من الخيرات، ولما عصوا وطغوا أصابهم

العـذاب، وأغرقهـم الله ﷻ عـبرة للمعتبرين. وهذه القصـص وأمثالها من قصـص الأنبياء فيها تذكير بالأمم السـابقة، وتسـلية للنبـي ﷺ على ما يلاقي من قومه في سبيل دعوتهم، وهذه السـورة تمثل منهج الدعوة إلى الله ﷻ من حيث تنويع الأساليب، والجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والصبر وتحمل الأذى في سبيل الدعوة، والتوجه إلى الله ﷻ وشكوى الحال إليه سبحانه، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٤﴾ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ * قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ أي: أن الله ﷻ أرسـل نوحاً عليه السلام إلى قومه سـكان جزيرة العرب، واشتهر أنه كان يسكن أرض الكوفة، وهنـاك أرسل، فلبـث في قومـه مـدة طويلة ذكرها الله ﷻ في سـورة العنكبوت وهي ألف سنة إلا خمسين عاماً.

﴿أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾ أي: فقلنا له: حذر وأنذر قومك.

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: قبل أن ينـزل بهم عقاب شـديد الإيلام، وهو عذاب النار، أو هو ما نزل بهم من الطوفان.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ أي: واضح النـذارة بيّنها، وذلك لتوضيحه مـا أنذر به وما أنذر عنه، حيث اشتهر قومه بعبادة الأوثان، وأكثروا من البغي والعصيان.

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ وذلـك بإفراده تعـالى بالتوحيـد والعبادة، والبعد عن الشرك وطرقه ووسـائله، فإنهم إذا اتقوا الله غفر ذنوبهـم، وإذا غفر ذنوبهم حصل لهـم النجاة مـن العـذاب والفوز بالثـواب. قال ابن عبـاس: كل موضع في القرآن ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، فمعناه وحدوا الله.

﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ أي: يمـح الله عنكـم ذنوبكـم التي اقترفتموهـا، وإنـما قـال: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ أي: بعـض ذنوبكم، وهو ما سلف منها قبل طاعة الرسول وإجابة دعوته، لأن الإيمان يجُب ما قبله من الذنوب لا ما بعده.

﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ يمتعكـم في هـذه الـدار، ويمـد في أعماركم ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى؛ لأن الموت لابد منه.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ أي: ما قـدّره لكم من الموت إذا جـاء وأنتم باقون عـلى الكفر، لا يؤخر بل يقـع لا محالة، فبـادروا إلى الإيمان والطاعة.

﴿لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ولسـارعتم إلى الإيمان.

* ولما كفر به قومه وعاندوا الحق، ولم يجيبوا دعوتـه، ولا انقادوا لأمره، بث شكواه لربه:

﴿٥﴾-﴿٢٠﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا * فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا * ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا * فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا * يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا * وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا * مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا * وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا * أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا * وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا * وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا * ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا * وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا * لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾ قال نوح بعد أن بذل الوسع وغاية الجهد، يا رب إني دعوتهم بالليل والنهـار والصبـاح والمسـاء، أختار الأوقات المناسـبة لدعوتي ولا أبخل عليهم بذلك من غير فتور ولا توان.

﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾ فلم يزدهـم دعائي لهم إلى الإيمان؛ إلا هرباً ونفوراً وإعراضاً عن الحق.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ أي: كلما دعوتهم إلى سـبب المغفرة، وهو

يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل
لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾
وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ
طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾
وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ
إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا
سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ
مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟
لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ
وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾
مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ
دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا
كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

الإيمان بك، والطاعة لك، سدوا آذانهم لئلّا يسمعوا صوتي ودعوتي.

﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ **أي: غطوا رؤوسهم ووجوههم بثيابهم لئلّا يروني ولئلّا يسمعوا كلامي؛ بعداً عن الحق وبغضاً له.**

﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ **أي: استمروا وأقاموا على الكفر والشر.**

﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ **أي: أعرضوا عن قبول الحق، وعن امتثال ما أمرهم به، إعراضاً شديداً، فشرهم ازداد وخيرهم بعد.**

﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ **أي: مظهراً لهم الدعوة مجاهراً لهم بها، وهذا نوع من أنواع الدعوة إلى الله ﷻ.**

﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ **أي: كررت دعوتهم علانية.**

﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ **الدعوة، أي: دعوتهم سراً ما ذخرت بشيء من ذلك.**

﴿إِسْرَارًا﴾ **كثيراً، يدعو الرجلَ بعد الرجلِ، يكلمه سرّاً فيما بينه وبينه، دعاهم على وجوه متخالفة، وأساليب متفاوتة. وقيل: معنى أسررت لهم: أتيتهم في منازلهم فدعوتهم فيها، فالحاصل أنه دعاهم ليلاً ونهاراً في السر، ثم دعاهم جهاراً ثم دعاهم في السر والعلن، وهكذا يفعل الآمر بالمعروف يبتدئ بالأهون ثم بالأشد، فافتتح بالمناصحة في السر فلما لم يقبلوا، ثنى بالمجاهرة، فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان، وكل هذه من أساليب الدعوة، رغبة في التبليغ والإعذار والإنذار.**

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ **أي: آمنوا بالله وتوبوا عن الكفر، اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب، واستغفروا الله منها، وذلك أن قوم نوح لما كذبوه زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فهلكت أولادهم وأموالهم ومواشيهم، فقال لهم: استغفروا ربكم.**

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ **كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، وهذا من باب ترغيبهم. ورغبهم أيضاً بخير الدنيا العاجل، فقال:**

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ **أي: ينزل المطر المتتابع. والمدرار: الكثيرة الدرور، وفي هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر، وحصول أنواع الأرزاق.**

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ **يكثر أموالكم وأولادكم.**

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ **ويجعل لكم الحدائق الفسيحة، ذات الأشجار المظلة المثمرة.**

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ **أي: مياهاً جارية تسقون منها زرعكم ومواشيكم، وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها، وهذا مقام الدعوة بالترغيب، وفي الآية أهمية الترغيب في الدعوة إلى الله ﷻ إذ النفوس متشوقة للحصول على العاجل، ثم عدل بها إلى دعوتهم بالترهيب، فقال تعالى:**

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ **أي: ما لكم أيها القوم لا تخافون عظمة الله وسلطانه، ولا تعرفون له حقاً ولا تشكرون له نعمة.**

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ **وقد خلقكم سبحانه في أطوار مختلفة متدرجة، نطفة، ثم مضغة، ثم علقة، إلى تمام الخلق، ثم تكونون صبياناً، ثم شباباً، ثم شيوخاً، فكيف تقصِّرون في توقير من خلقكم على هذه الأطوار البديعة، فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد، واستدل أيضاً عليهم بخلق السموات التي هي أكبر من خلق الناس، وهي من دلائل قدرته ووحدانيته، فقال سبحانه:**

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي: ألم تشاهدوا يا معشر القوم عظمة الله وقدرته، وتتفكروا وتتدبروا في خلق السموات، كل سماء فوق الأخرى في غاية الإبداع والإتقان.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ وجعل القمر في سماء الدنيا، منوراً لوجه الأرض لا حرارة فيه، وجعل الشمس كالمصباح لأهل الأرض، وفي هذا تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشمس والقمر الدالة على رحمته وسعة إحسانه، فالعظيم الرحيم يستحق أن يُعظم ويحب ويعبد، ويخاف ويرجى.

* وبعد أن ذكر سبحانه دليل الآفاق، ذكر هنا دليل الأنفس؛ وذلك لأن في ذكر هذه الأمور دلالة واضحة على عظمة الله وقدرته الباهرة، فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ يعني: آدم، خلقه الله من أديم الأرض، ثم جعل بنيه يكبرون بما يتغذون به من أجزاء الأرض بعد تحوّلها إلى نبات أو حيوان.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الأرض، تموتون فتتحلل أجزاؤكم حتى تعود تراباً وتندمج في الأرض.

﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ يعني: يخرجكم من الأرض بالبعث يوم القيامة، أي: إخراجًا دفعة واحدة لا إنباتًا بالتدريج كالمرة الأولى.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي: جعل الأرض ممهدة كالبساط، فسيحة ممتدة لكم، مبسوطة مهيأة للانتفاع بها.

﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أي: طرقًا واسعة. والفج المسلك بين الجبلين، وكل ذلك لتيسير الاستفادة منها بالحرث والغرس والزرع والبناء، وغير ذلك من المنافع.

* وبعد هذه الآيات الباهرات والنعم المتلاحقات، مازادهم ذلك إلا كفراً وتكذيباً، وصداً وإعراضاً، فبث نوح الشكوى لربه.

﴿٢١﴾-﴿٢٤﴾ ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾.

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ شاكياً لربه: إن هذا الكلام والوعظ والتذكير ما نجع فيهم ولا أفاد.

﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ رب إن قومي بالغوا في عصياني وتكذيبي فيما أمرتهم به.

﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: عصوا الرسول الناصح الدال على الخير، واتبع الأصاغر رؤساءهم، وأهلَ الثروة منهم، الذين لم يزدهم كثرة المال والولد إلا ضلالاً في الدنيا وعقوبة في الآخرة.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي: ومكر رؤساء الضلال بتابعيهم من الضعفاء مكراً عظيماً، وهو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: قال الرؤساء للأتباع يغرونهم بمعصية نوح، داعين إلى الشرك مزينين ذلك لهم بقولهم:

﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ دعوهم إلى التعصب على ماهم عليه من الشرك، وقالوا: لا تتركوا عبادة آلهتكم، وهي الأصنام والصور التي كانت لهم، ثم عبدتها العرب من بعدهم.

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ذكروا هذه الأصنام استثارة لهم وحمية قومهم ـ على ضلالتهم ـ، أي: لا تتركوا عبادة هذه الأصنام. ووداً، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرا: أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح، فجعلوا لهم صوراً في المعابد. ثم نشأ قوم من بعدهم، فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدون هذه التماثيل والصور ويتوسلون بها فاعبدوهم، فعبدوهم فابتدأ عبادة الأوثان من ذلك الوقت، ثم وصلت هذه الأوثان إلى الجزيرة العربية فعبدتها بعض القبائل، وهذه هي الحكمة من تحريم التماثيل، وبناء القباب على القبور، لأنها تصير مع تطاول الزمن معبودة للجهال، والتحذير منها من سد أسباب الشرك والتعلق بغير الله.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أي: وقد أضلّ كبراؤهم ورؤساؤهم كثيراً من الناس. وقيل: المراد الأصنام، أضلت كثيرًا من الناس.

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ أي: ولا تزدهم يا رب على طغيانهم وعدوانهم إلا خسراناً وهلاكاً، وضلالاً في مكرهم.

* ثم بين الله ﷻ عدله وحكمته في إرسال الرسل وإنزال الكتب، وأن ما نالهم من العذاب هو جزاءً وفاقاً لما قدموه من الكفر بالله وسيء العمل، فقال تعالى:

﴿٢٥﴾-﴿٢٨﴾ ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ

ﱡٱللَّهِ أَنصَارٗا * وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا * رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢاﱠ.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾ أي: من أجل ذنوبهم وإجرامهم وإصرارهم على الكفر والطغيان، وبسببها أغرقوا بالطوفان.

﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ عقب ذلك، وهي نار الآخرة، وقيل: عذاب القبر، وقد جمع الله عليهم عذاب الدنيا بالغرق، وعذاب الآخرة بالحرق.

﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ أي: لم يجدوا من ينصرهم حين نزل بهم الأمر، ولا أحد يقدر يعارض القضاء والقدر.

﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ لما أيس نوح من إيمانهم دعا عليهم بعد أن أوحي إليه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]، فدعا ربه، رب لا تترك من الكافرين بك أحداً حياً على الأرض، فأجاب الله دعوته وأغرقهم. والديَّار: من يسكن الديار.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ إنك إن أبقيت منهم أحداً ولم تهلكهم أضلوا عبادك عن طريق الحق، وبقاؤهم مفسدة محضة لهم ولغيرهم.

﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا﴾ ولا يأتي من أصلابهم إلا كل فاجر بترك طاعتك.

﴿كَفَّارٗا﴾ لنعمتك، أي: كثير الكفران لها.

ولما دعا نوح عليه السلام على الكفار أعقبه بالدعاء للمؤمنين، فبدأ بنفسه ثم بأبويه، ثم عمم لجميع المؤمنين والمؤمنات ليكون ذلك أبلغ وأجمع، فقال:

﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ خص المذكورين لتأكيد الدعاء بحقهم وتقديم برهم. ويؤخذ من هذا أن سنة الدعاء أن يقدم الإنسان الدعاء لنفسه على الدعاء لغيره، وجمعت الآية بين الاستغفار وبر الوالدين بالدعاء لهم.

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا﴾ ثم ثنى بالدعاء لمن دخل منزله.

﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ ثم دعا للمؤمنين والمؤمنات إلى يوم القيامة، خص أولاً من يتصل به؛ لأنهم أولى وأحق بدعائه، ثم عمم المؤمنين والمؤمنات.

وهذه الدعوات بشارة لكل مؤمن ومؤمنة يكون إلى يوم القيامة، لأن نوحاً عليه السلام نبي، ودعاؤه مستقيم.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾ أي: هلاكًا وخسرانًا ودمارًا، شمل دعاؤه هذا كل ظالم إلى يوم القيامة.

تم تفسير سورة نوح

والحمد لله

تفسير سورة الجن وهي مكية

* سورة الجن سورة مكية، ذكر الله ﷻ فيها أن الجن مكلفون مجازون بأعمالهم، وأنه سبحانه بعث محمداً ﷺ للإنس والجن كافة بشيراً ونذيراً، وذكر تعالى في الآيات اعتناءه برسوله وحفظه لما جاء به، ومنع الجن من استراق السمع بشهب تطال من يسترق، وبين تعالى شدة حرص الجن لاستماع الرسول وقيامهم بتبليغ الدعوة، وختمت السورة بأن علوم الغيب قد انفرد الله بعلمها، فلا يعلمها أحد من الخلق إلا من ارتضاه الله وخصه بعلم شيء منها، فإن الله ﷻ أيد الأنبياء بالآيات الباهرات والمعجزات العظيمات، تأييداً لهم وتبياناً للناس، قال تعالى:

١-٧ ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا * يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا * وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا * وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا * وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا * وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا * وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا﴾.

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ المعنى: قل -يا محمد- لأمتك: أوحى الله إليَّ على لسان جبريل.

﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أي: أن عدداً من الجن قد استمعوا إلى تلاوتي وإلى قراءتي للقرآن، فآمنوا به وصدقوا وأسلموا. والنفر من الثلاثة إلى العشرة.

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ أي: قالوا لقومهم لما رجعوا إليهم: سمعنا كلاماً مقروءاً عجباً في فصاحته وبلاغته، ومواعظه، وبركته.

سُورَةُ الجِنِّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا
عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾
وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ
يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ
وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ
مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ
ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا
شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن
يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ
بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ
وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ
ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ
ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

٥٧٢

﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ يدل على الحق والهدى وطريق الرشد. والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم.

﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: صدقنا بهذا القرآن، فإنهم لما سمعوا القرآن وعلموا صدقه شرح الله صدورهم للإيمان به فآمنوا.

﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ أي: لن نعبد مع الله إلهاً آخر، ولن نعود إلى ما كنا عليه من الشرك، فهم جمعوا بين الإيمان بالله والبراءة من الشرك.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ ارتفعت عظمة ربنا وجلاله وتقدست أسماؤه. وقيل: جدّه: قدرته.

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي: علموا من جد الله وعظمته أنه لم يكن له صاحبة ولا ولد، لأن الزوجة تتخذ للحاجة، والولد للاستئناس والمعاونة، والله تعالى منزه عن النقائص، له صفة الكمال سبحانه.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ ينكر الجن قول مشركيهم وسفهائهم الكذب على الله من دعوى الصاحبة والولد وغير ذلك. والشطط: الغلوّ في الكفر، والبعد عن القصد، ومجاوزة الحدّ.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: إنا حسبنا أن الإنس والجن كانوا لا يكذبون على الله، عندما قالوا بأن له شريكًا وصاحبة وولدًا، فصدقناهم في ذلك وظنناهم لا يتجرؤون على الكذب على الله.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم عند المخاوف. وقيل: كان العرب إذا نزل الرجل بواد، قال: أعوذ بسيِّد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فيبيت في جوار سيدهم الجنّي حتى يصبح.

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: زاد رجال الجن من تعوذ بهم من رجال الإنس رهقًا: أي سفهًا وطغيانًا، أو زادوهم بلاء وضعفاً وخوفاً.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ أي: وأن كفار الإنس ظنوا كما ظننتم يا معشر الجن، أن لن يبعث الله أحداً بعد الموت، فقد أنكروا البعث كما أنكرتموه أنتم وأقدموا على الشرك والطغيان.

* ثم ذكر الله ﷻ حال الجن مع السماء واستراق السمع بعد بعث النبي ﷺ وأن الأمور تغيرت والأحوال تبدلت.

﴿٨﴾-﴿١٠﴾ ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا * وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ يقول الجن: طلبنا خبر السماء كما جرت به عادتنا لاستماع كلام أهلها.

﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ من الملائكة يحرسونها عن استراق السمع والدنو منها.

﴿شَدِيدًا﴾ أي: قوياً.

﴿وَشُهُبًا﴾ جمع شهاب، وهي نار الكواكب ،وإنما حصل هذا الحرس بعد بعثة النبيّ ﷺ، حرسها الله سبحانه بالشهب المحرقة.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي: وكنا معشر الجن قبل بعثة محمد ﷺ نطرق السماء لنسمع من الملائكة أخبار السماء ثم نلقيها إلى الكهنة.

﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي: فمن يحاول الآن استراق السمع بعد البعثة أُرصد له شهاباً ليرمى به، معداً لإتلافه وإحراقه لمنعه من السماع. وفي هاتين الآيتين

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ
تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)
وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ
فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ
الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ
يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ
بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي
لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا
مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ
مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ
أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ
أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ
يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ
رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)

٥٧٣

إبطال مزاعم السحرة والمشعوذين، الذين يدعون علم الغيب، ويغررون بضعفة العقول، بكذبهم وافترائهم.

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قال الجن لما تغير الأمر عليهم وأنكروه، بسبب هذه الحراسة للسماء، تساءلوا: هل أشراً يراد بأهل الأرض أم عذاباً؟

﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي: خيراً ورحمة. قال إبليس: لا ندري أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذاباً أو يرسل إليهم رسولاً، وهذا من أدب الجن حيث نسبوا الخير إلى الله، ولم ينسبوا الشر إليه.

* ثم بينت الآيات حال الجن وأحوالهم وأثر الدعوة فيهم.

(١١)-(١٧) ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا * وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا * وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ قال بعض الجن لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ: كنا بعد استماع القرآن منا الموصوفون بالصلاح والتقى عاملون بما يرضي الله.

﴿وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ غير المؤمنين من الفساق والفجار والكفار.

﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ جماعات متفرقة، وأصنافاً مختلفة، وأهواء متباينة. وقيل: كانوا مسلمين ويهوداً ونصارى ومجوساً. والقدد: جمع قدة وهي القطعة.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾. قال ابن عاشور: «لما آمن نفر من الجن لم يصفوا قومهم بالضلال، بل قالوا: ﴿مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ فتلطفوا حتى يستجيب قومهم لدعوتهم».

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ وأنا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله وكمال عجزنا، وأن نواصينا بيد الله، فلن نعجزه في الأرض، ولن نعجزه إن هربنا وسعينا، ولن نستطيع أن نُفلت من عقابه هرباً إلى السماء، إن أراد بنا سوءاً.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾ وأنا لما سمعنا القرآن العظيم، أثر في قلوبنا فآمنا به وبمن أنزله، وصدقنا محمداً ﷺ في رسالته.

﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ فمن يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخشى نقصاناً من حسناته، ولا ظلماً بزيادة سيئاته فإن الله عدل. والبخس: النقصان. والرهق: العدوان والطغيان.

واستمرت الآيات في ذكر أحوال الجن وأقسامهم.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ أي: وقال الجن: وأنا بعد سماعنا القرآن منا من أسلم، وصدق برسالة محمد ﷺ.

﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أي: الكافرون الجائرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق.

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي: قصدوا طريق الحق والرشد واجتهدوا في البحث عنه حتى وفّقوا له.

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أما الكافرون الجائرون الظالمون، فإنهم وقود للنار توقد بهم، كما توقد بكفرة الإنس.

وإلى هنا انتهى كلام الجن، مما يدل على قوة إيمانهم، وصدقهم وإخلاصهم. ثم قال تعالى مخبراً عن أهل مكة:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي: لو آمن هؤلاء الكفار من الإنس والجن واستقاموا على شريعة الله، لبسط الله لهم في الرزق ووسع عليهم في الدنيا، ولسقاهم ماءً كثيراً هنيئاً مريئاً، وذكر الماء الغدق؛ لأنه سبب سعة الرزق. قال عمر: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة.

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنختبرهم ونمتحنهم به، أيشكرون أم يكفرون؟ وليظهر الصادق من الكاذب.

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: ومن يعرض عن طاعة ربه وعبادته، وعن القرآن وعن الموعظة، يدخله عذاباً شاقًا صعباً لا راحة فيه.

﴿١٨﴾-﴿٢٤﴾ ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا * وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا * قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا * قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا * حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ أي: وأوحي إليّ أن المساجد مختصة بالله وعبادته ليست للأصنام.

﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ فلا تعبدوا فيها غيره، وأخلصوا له الدعاء والعبادة فيها، ولا تطلبوا العون فيما لا يقدر عليه إلا الله من أحد من خلقه كائنًا ما كان، فإن الدعاء عبادة لا يجوز صرفها لغير الله.

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ وهو النبي ﷺ، ذكره الله ﷻ بصفة العبودية ولم يذكره باسمه، زيادة في تشريفه وتكريمه ﷺ.

﴿يَدْعُوهُ﴾ أي: قام يسأله ويتعبد له، ويقرأ القرآن، يدعو الله ويعبده، وذلك ببطن نخلة وهو مكان بين مكة والطائف.

﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي: كاد الجنّ يكونون على رسول الله لبدًا متراكمين بعضهم فوق بعض من شدة ازدحامهم عليه لسماع القرآن منه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول، مبيناً حقيقة ما تدعو إليه.

﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى﴾ إنما الدعاء خاص بالله ﷻ، ولا أدعو غيره من الأنداد والأوثان.

﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: إنما أعبد ربي وحده، ولا أشرك معه في العبادة أحداً.

﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي: قل لهم -يا محمد- إني لا أقدر أن أدفع عنكم ضراً، ولا أسوق إليكم خيراً في الدنيا أو الدين، فأنا عبد ليس لي من الأمر ولا من التصرف شيء، إنما الذي يملك هو الله رب العالمين.

﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ قل لهم أيضاً: لن يعصمني من الله أحد كائناً من كان، ولن ينقذني من عذابه أحد إن عصيته، وإذا كان الرسول الذي هو أكمل الخلق، لا يملك ضراً ولا رشداً، ولا يمنع نفسه من الله شيئاً إن أراده بسوء، فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى.

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ ولن أجد دونه ملجأً ومعاذاً، وحرزاً ومنتصراً.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ أي: لا أجد ملجأ إلا إذا بلغت رسالة ربي، ونصحتكم وأرشدتكم كما أمرني الله، فحينئذ يجيرني ربي من العذاب فإن فعلت ذلك نجوتُ وإلا هلكتُ، وفيه الجوار والأمن والنجاة.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: ومن كذب الله ورسوله ولم يؤمن بلقاء الله، وأعرض عن سماع الآيات وطاعة الرسل فإن جزاءه جهنم خالداً فيها، وهذا المراد به المعصية الكفرية، وأما بمجرد المعصية، فإنه لا يوجب الخلود في النار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ حتى إذا شاهد الكفار ما يوعدون من العذاب، وجزموا أنه واقع بهم.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا﴾ عند حلوله بهم وسيتيقنون في ذلك الوقت ويعرفون حقيقة المعرفة، من الأضعف جندًا ينتصر به.

﴿وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أي: فسيعلمون من أقل عدداً، أهم، أم المؤمنون.

﴿٢٥﴾-﴿٢٨﴾ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا * عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا * لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا﴾.

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا
٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا
ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ لَكَ فِي
ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨
رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩ وَٱصۡبِرۡ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ
أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢
وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ
وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا
عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ
فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا
يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا
١٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩

٥٧٤

﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ قل لهم -يا محمد-: إن سألوك «متى هذا الموعد»؟ ما أدري هل هذا العذاب الذي وعدتم به قريب زمنه.

﴿أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ أي: أم هو بعيد له غاية ومدة، فلا يعرف متى يوم القيامة إلا الله وحده.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: هو سبحانه عالم الغيب، عالم بما غاب عن الأبصار، وخفي عن الأنظار فلا يظهر ولا يطلع على غيبه أحداً من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيب.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ استثنى من ارتضى من الرسل واصطفاهم، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوّتهم.

﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ أي: فإنه يجعل سبحانه بين يدي الرسول، ومن خلفه حرساً وحفظة من الملائكة، يحرسونه من تعرض الشياطين لما أظهره عليه من الغيب، ويحوطونه من أن تسترقه الشياطين، فتلقيه إلى الكهنة.

﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ أي: ليعلم الله علم ظهور.

﴿أَن﴾ أي؛ الرسل.

﴿قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: قاموا بأداء الرسالة والدعوة، مما جعله لهم من الأسباب.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ وأحاط الله بما عند الرصد من الملائكة، أو بما عند الرسل المبلغين لرسالاته، وبما لديهم من الأحوال.

﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ أي: عَلِمَ ﷻ علم ضبط واستقصاء جميع الأشياء ﷻ.

تم تفسير سورة الجن
والحمد لله

تفسير سورة المزمل
وهي مكية

* سورة المزمل سورة مكية، تتناول جانباً من حياة الرسول ﷺ، في تبتله، وطاعته، وقيامه الليل، وتلاوته لكتاب الله ﷻ، وفي الآيات أمر بالعبادات المتعلقة به ﷺ، ثم أمره بالصبر على أذية أعدائه، ثم أمره بالصدع بأمره، وإعلان دعوتهم إلى الله، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبآكد الأوقات وأفضلها، وهو قيام الليل، قال تعالى:

(١)-(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا * أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا * إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا * وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا * رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ هذا الخطاب للنبيّ ﷺ وفيه تأنيس وملاطفة له ﷺ، فقد كان يتزمّل بثيابه أول ما جاءه جبريل بالوحي خوفًا منه، فإنه لما سمع صوت الملك ونظر إليه أخذته الرعدة؛ لأنه رأى أمرًا لم ير مثله، ولا يقدر على الثبات له إلا المرسلون، فأتى أهله، وقال: «زملوني، دثروني». وهو ﷺ ترعد فرائصه، ثم بعد ذلك خوطب بالنبوّة والرسالة، وأنس بجبريل.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ قم للصلاة في الليل، ودع التزمل والتلفف والراحة والسكون، وصلّ الليل كله إلا يسيرًا منه، ثم قدر ذلك فقال:

﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ أي: قم نصف الليل، أو أقل من النصف قليلاً بأن يكون الثلث أو نحوه.

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: قم للصلاة والعبادة وزد على النصف، فيكون الثلثين ونحوها.

﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ أي: اقرأه على مهل مع تدبّره حرفًا حرفًا. والترتيل:

هو أن يبين جميع الحروف، ويوفي حقها من الإشباع، فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكر، وتحريك القلوب بـه، والتهيؤ والاستعداد التام له.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي: سـنزل عليك -يا محمد- كلاماً عظيماً جليلاً، سـنوحي إليك القرآن، وهو قول ثقيـل فرائضـه وحدوده، وحلالـه وحرامـه، لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مملوءة بالتوحيد، فإن إعباء الرسالة والقيام بها لا تتوافق مـع التزمل وطلب الراحـة، بل لا بد من القيـام بها والنهوض بأعبائها. وفي قيام الليل، استعداد وتدريب للنفس، ومناجاة للرب، يعين على تحمل أعباء الرسالة ومشاقها.

ثم ذكر سـبحانه الحكمـة في أمره بقيام الليل، فقال:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ يقال لقيام الليل: ناشئة إذا كان بعد نوم.

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أي: أثقل على المصلي من صلاة النهار؛ لأن الليل للنوم، وهي أقرب إلى تحصيل مقصود القرآن، يتواطأ عـلى القرآن القلب واللسـان، وتقل الشـواغل، وتتخـلى النفس من الأشغال والأفكار فيكون التدبر.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ قال البغوي: «وفي الجملة عبادة الليل أشد نشاطاً، وأتم إخلاصاً، وأكثر بركة، وأبلغ في الثواب من عبادة النهار».

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: وأسـدّ مقالاً وأثبـت قـراءة، لحضور القلـب فيها، وأشـدّ اسـتقامة؛ لأن الأصـوات فيها هادئـة، والدنيا سـاكنة بخلاف النهار، فإنه لا يحصل به هذه المقاصد، ولهذا قال:

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي: تصرفاً وتقلباً في حوائجك، وإقبالاً وإدباراً، وذهاباً ومجيئاً، ويكفيك النهار للتـصرف في أشـغالك ومعاشـك، وتفرغ بالليل لعبادة ربك.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أي: واستعن -يا محمـد- على دعوتك بذكـر الله ليلاً ونهاراً، وهو شـامل لأنواع الذكر كلها، من تسبيح وتهليل وتكبير، وصلاة وتلاوة قرآن، ومدارسة علم، وغير ذلك.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي: انقطع إلى الله انقطاعًـا بالاشـتغال بعبادته، والتماس ما عنده.

﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي: هو ﷻ الخالق المتصرف بتدبير شـئون الخلـق، وهو المالك لمشـارق الأرض ومغاربها كلها.

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو سـبحانه، الذي يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم، ولهذا قال:

﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً ووليّاً، ووكيلاً ومدبراً لأمورك كلها، فاعتمد عليه وفوض أمرك إليه.

* ولما أمـر الله ﷻ نبينا محمـداً بالصلاة خصوصاً وبـالذكر عمومـاً، وبذلك يحصل للعبد ملكة قوية فـي تحمل الأثقال، أمـره سبحانه بالصبر على ما يقول المعاند، وأن يمضي على أمـر الله، لا يصده عنه صاد، ولا يرده راد، وأن يهجرهم هجراً جميلاً؛ فقال تعالى:

﴿١٠﴾-﴿١٨﴾ ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا * إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾.

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: اصبر على أذى هؤلاء السفهاء المكذبين من السّب والاستهزاء والتكذيب، ولا تجزع من ذلك.

﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ أي: لا تتعرّض لهم ولا تشـتغل بمكافأتهم. والهجر الجميل الذي لا جزع فيه، وهذا كان قبل الأمر بالقتال، والحكمة في ذلك أن المؤمنين كانوا بمكة قلة مستضعفين.

ثـم قـال ـ تعالى لنبيـه محمد ﷺ، متهـدداً لكفار قومـه ومتوعداً، وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء.

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ ودعني -يـا محمـد- وهـؤلاء المكذبين من رؤسـاء قريـش ولا تهتمّ بهـم، فإني أكفيـك أمرهم، وأنتقم لك منهم وإن أمهلتهم فلا أهملهم.

﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾ أي: أرباب الغنى والسـعة والترفّه، واللـذة في الدنيا، الذين طغوا حين وسـع الله عليهم من رزقه وأمدهم من فضله.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ إلى انقضاء آجالهم، وقيل: إلى نزول عقوبة الدنيا بهم.

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ أي: إن للكافرين عندنا في الآخرة، قيوداً ثقالاً. جمع نكل وهو أنواع العذاب الشديد، وناراً مؤججة، حامية محرقة.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ لا يسوغ في الحلق بل ينشب فيه، فلا ينزل ولا يخرج لمرارته وبشاعته، وكراهة طعمه وريحه الخبيث النتن.

﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ موجعاً مؤلماً، زيادة على ما ذكر من النكال والأغلال.

ثم ذكر سبحانه وقت هذا العذاب وزمنه، فقال:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: يوم تتزلزل الأرض والجبال وتهتز وتتحرك وتضطرب بمن عليها من الهول العظيم. والرجفة: الزلزلة الشديدة.

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: وتصبح الجبال الراسيات الصم الصلاب، رملاً سائلاً لشدة الرجفة، ثم إنها تيبس بعد ذلك، فتكون كالهباء المنثور.

ثم يُذكّر الله ﷻ بفضله ورحمته ومنته بإرسال النبي ﷺ، البشير النذير والسراج المنير، فيقول سبحانه:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي: بعثنا لكم يا أهل مكة محمداً ﷺ، يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم، يشهد عليكم بما صدر منكم من الكفر والعصيان.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ كما بعثنا إلى ذلك الطاغية، رسولنا موسى عليه السلام.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ فكذب فرعون بموسى ولم يؤمن به، وعصى أمره.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي: شديداً ثقيلاً غليظاً، والمعنى: عاقبنا فرعون عقوبة شديدة غليظة بالغرق. والوبيل: الثقيل الغليظ، وإنما خص موسى وفرعون؛ لأن خبرهما كان منتشراً بين أهل مكة لأنهم جيران اليهود.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ﴾ أي: كيف لا تحذرون وتخافون يا معشر قريش عذاب يوم القيامة، إن بقيتم على كفركم.

﴿يَوْمًا﴾ أي: عذاب يوم.

﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ لشدّة هوله، يصير الأطفال الصغار فيه بيض الشعور، وهذا كناية عن شدة الخوف. والشيب: جمع أشيب.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ وصف لليوم بالشدة أيضاً، أي: السماء متصدعة متشققة به لشدّته وعظيم هوله، وانفطارها لنزول الملائكة.

﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أي: إن وعد الله كائن لا محالة ولا حائل منه، لأن الله لا يخلف الميعاد.

* لما ذكر الله ﷻ في أول السورة أنه أمر رسوله ﷺ بقيام الليل، أو ثلثه أو ثلثيه، والأصل أنه أسوة لأمته في الأحكام، وذكر في هذا الموضع، أنه امتثل ذلك هو وطائفة معه من المؤمنين، ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة على الناس، أخبر سبحانه أنه سهل عليهم في ذلك غاية التسهيل، فقال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: ما تقدّم من الآيات المخوفة والمواعظ المتلاحقة، موعظة وعبرة للمؤمنين.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: فمن شاء من الغافلين الناسين اتخذ بطاعة الله وتوحيده وسائر الأعمال الصالحة، طريقًا توصله إلى رضوان الله في الجنة وذلك باتباع شرعه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ أي: إن الله يعلم أن رسوله ﷺ يقوم للتهجد من الليل أقلّ من ثلثي الليل أحياناً، ويقوم نصفه، ويقوم ثلثه.

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي: وتقوم ذلك القدر معك طائفة من أصحابك.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها، فيعلم القدر الذي تقومونه من الليل.

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ علم الله أنكم لن تطيقوا قيام الليل كله إلا بشدة ومشقة وفي ذلك حرج، وأمركم بما تيسر عليكم، سواء زاد على المقدر أو نقص.

۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ
مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ
عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ
وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ
يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟
ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ
عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ المُدَّثِّرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾
وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ
فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾
ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ
شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ
كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فعاد عليكم بالعفو، وخفف عليكم، ورخص لكم في ترك القيام إذ عجزتم. فرجع بكم من التثقيل إلى التخفيف، ومن العسر إلى اليسر.

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ فاقرؤوا في الصلاة ما خف عليكم وتيسر لكم منه، من غير أن توقّتوا وقتًا. وهذه الآية نسخت وجوب قيام الليل عن الأمة.

ثم ذكر سبحانه بعض الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال:

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ أي: علم تعالى أنه سيوجد فيكم من يعجزهم المرض، ويشق عليهم صلاة ثلثي الليل، أو نصف أو ثلثه، فلا يطيقون قيام الليل.

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: وعلم أن منكم قوماً آخرين يسافرون في البلاد للتجارة والكسب، يطلبون من رزق الله ما يحتاجون إليه في معاشهم، فلا يطيقون قيام الليل. وفي تقديم طلب الرزق على القتال في سبيل الله إشارة إلى أهمية طلب الرزق والاستغناء عن الخلق.

﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: وقوم آخرون وهم الغزاة المجاهدون، لإعلاء كلمة الله ونشر دينه لا يطيقون قيام الليل، فذكر سبحانه هاهنا ثلاثة أسباب مقتضية للترخيص، فرفعه عن جميع الأمة لأجل هذه الأعذار التي تعرض لبعضهم. ثم ذكر ما يفعلونه بعد هذا الترخيص، فقال:

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي: فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل واقرءوا في صلاتكم ما تيسر من القرآن.

ثم أمر العباد بعبادتين، هما أم العبادات وعمادها: إقامة الصلاة، التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهان الإيمان، وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين، قال تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأدوا الصلاة المفروضة التي لا يستقيم الدين إلا بها، أقيموها بأركانها، وشروطها ومكملاتها.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعني: الواجبة في الأموال. وقيل: كل أفعال الخير.

﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: أنفقوا وتصدقوا في سبيل الخير من أموالكم إنفاقًا حسنًا بالنفقة على الأهل، وفي الجهاد والزكاة المفترضة، كل ذلك خالصاً لوجه الكريم، ويدخل في هذا الصدقة الواجبة والمستحبة. ثم حث على عموم الخير وأفعاله، فقال:

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي: أيّ شيء تفعلوه أيها الناس مما ذكر ومما لم يذكر.

﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي: تجدوا ذلك الأجر والثواب يوم القيامة خيراً لكم، فإن الآخرة باقية والدنيا فانية.

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ من السيئات والتقصير في الحسنات. وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير فائدة كبيرة، وذلك أن العبد قلما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً، أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بسد النقص في ذلك بالاستغفار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر ويرحم من تاب إليه، وعاد واستغفر من ذنوبه، فهو عظيم المغفرة واسع الرحمة.

قال ابن تيمية: «ختم الله سورة المزمل وهي سورة قيام الليل بـ ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وإذا كان الاستغفار بعد هذه الطاعة فإنه بعد التقصير والمعصية أولى.

تم تفسير سورة المزمل

والحمد لله

تفسير سورة المدثر وهي مكية

* سورة المدثر سورة مكية، لما بدئ رسول الله ﷺ بالوحي أتاه جبريل، فرآه رسول الله ﷺ على سرير بين السماء والأرض كالنور المتلألئ، ففزع ووقع مغشيًا عليه، فلما أفاق دخل على خديجة ﷺ ودعا بماء فصبه عليه، وقال: «دثروني دثروني»، فدثروه بقطيفة، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿١٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ * قُمۡ فَأَنذِرۡ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ * وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ * وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ * فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ يا أيها الذي قد تدثر بثيابه؛ أي: تغشى بها وتغطى، يريد النوم والراحة. وفي هذا النداء ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب؛ إذ ناداه بحاله وعبَّر عنه بصفته، ولم يقل: يا محمد ويا فلان ليستشعر اللين في الملاطفة من ربه. ومثله النداء في سورة المزمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾.

﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ أي: قم من مضجعك وانهض بجد ونشاط، فخوّف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا، فالدعوة تحتاج إلى همة وعزيمة ونشاط، وقد فعل الرسول ﷺ ما أمر به وظل قائماً بالدعوة أكثر من عشرين عاماً، لم يسترح ولم يسكن، نهض بالدعوة وقام بها حتى بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة ﷺ.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ أي: وعظم ربك ومالكك ومصلح أمورك بالتكبير، وهو وصفه سبحانه بالكبرياء والعظمة، وأنه أكبر من أن يكون له شريكٌ.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ أمره الله سبحانه بتطهير ثيابه وحفظها عن النجاسات. وقيل: نفسك فطهرها من الذنب، وإذا كان مأموراً بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن.

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ أي: اترك الأصنام والأوثان، واثبت على هجرها لأنك بريء منها فلا تعبدها، فإنها سبب العذاب. ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله.

﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ أي: لا تمنن على ربك بما تتحمله من أعباء النبوّة، كالذي يستكثر ما يتحمله بسبب الغير. وقيل المعنى: إذا أعطيت أحدًا عطية فأعطها لوجه الله، ولا تمنّ بعطيتك على الناس، ولا ترى لك الفضل عليهم بإحسانك، ولا تطلب أجره إلا في الله تعالى. بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك، وانس عندهم إحسانك، ولا تطلب أجره إلا من الله تعالى واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ أي: حُمِّلْتَ أمراً عظيماً ستحاربك العرب عليه والعجم، فاصبر عليه لله، واقصد به وجه الله.

ثم ذكر ﷻ وجوب إخلاص العبادة له، والصبر على الأذى فيه، مذكراً بأهوال يوم عظيم؛ هو يوم القيامة، قال تعالى:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ أي: فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور، وجُمع الخلق للبعث والنشور.

﴿فَذَٰلِكَ﴾ أي: النفخ في الصور.

﴿يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾ أي: يوم القيامة، يوم صعب شاق لكثرة أهواله وشدائده.

﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ وهو على الكافرين أشد ما يكون؛ لأنهم قد أيسوا من كل خير، أيقنوا بالهلاك والبوار، ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين سهل يسير.

* ثم ذكر الله ﷻ حال معاند للحق ومبارز لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقة، فذمه الله ذماً لم يذمه غيره، وهذا المعاند هو الوليد بن المغيرة، حيث قال عنه سبحانه:

﴿١١﴾-﴿٣٠﴾ ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا * وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا * وَبَنِينَ شُهُودٗا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا * ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ * كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا * سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا * إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ * فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ * إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ * سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ * عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾.

﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ دعني: كلمة تهديد ووعيد، أي: اتركني أنا والذي خلقته حال كونه وحيدًا في بطن أمه، لا مال له ولا ولد، أو دعني وحدي معه، فإني أكفيك الانتقام منه.

﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴾ أي: ورزقته مالاً كثيراً من الإبل

فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ
﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا
إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾
لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا
أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا
لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ
لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا
لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ
﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ
يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ
مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ
الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾

٥٧٦

والخيل والغنم، والبساتين النضرة.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ أي: وجعلت له أبناءً ذكوراً حضوراً بمكة معه، وكان له عشرة بنين يستأنس بهم، لا يسافرون ولا يحتاجون إلى التفرق في طلب الرزق لكثرة مال أبيهم، وهذا أبلغ في النعمة.

قيل: «الملك المعجل.. التفاف الأبناء حول الآباء».

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ أي: بسطت له في العيش ويسرته له تيسيراً، ومنحته طول العمر والرياسة في قريش، فأتممت عليه نعمتي الجاه والمال، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي: مع هذه النعمة وهذا العطاء الجزيل، يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا، استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه.

﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر،وقطع لرجائه وأمله، أي:ليس الأمر كما طمع وأراد. بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه، فلم يزل بعد نزول الآية في نقصان من المال والجاه حتى هلك.

﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ أي: معاندًا للحق، كافرًا بما أنزلنا على رسولنا، عرفها ثم أنكرها.

﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ أي: سأكلفه مشقة من العذاب. والإرهاق: أن يحمل الإنسان الشيء الثقيل الذي لا يطيقه.

* ولما ذكر سبحانه حال هذا المعاند المكابر وكيف أنه مع ما أنعم عليه بالمال والولد والجاه والرياسة كفر وتجبر، ذكر بعض حاله في الصد عن دين الله، وإيذاء الرسول ﷺ، فقال تعالى عنه:

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ فكّر في شأن النبيّ ﷺ، وقدّر في نفسه، أي: هيأ الكلام في نفسه؛ ما يقول في القرآن وبماذا يطعن فيه، فذمّه الله.

﴿فَقُتِلَ﴾ أي: لُعِنَ وعُذِّب وقهر وغلب.

﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي: في معنى: ما أعجب تقديره وما أغربه؟

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ كرر العبارة تأكيداً لذمه وتقبيحاً لحاله، ولغاية التهكم به.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أجال النظر مرة أخرى، ما يقول وبأيّ شيء يدفع القرآن ويقدح فيه.

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ أي: قطب وجهه لما لم يجد مطعنًا يطعن به على القرآن، وكلح وجهه وتغير.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي: تولى وأعرض عن الإيمان، وتكبر عن اتباع الهدى والحق وتعاظم أن يعترف به.

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَا﴾ أي: ما هذا القرآن.

﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ إلا سحراً ينقله محمد عن غيره، ويرويه عن السحرة.

﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ يعني: أن القرآن كلام الإنس، وليس بكلام الله.

ثم ذكر سبحانه عاقبته ومآله لما عاند الحق واستخف بالرسل وكذب بهم، فقال:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي: سأدخله النار، وسأغمره فيها من جميع جهاته، وسقر من أسماء النار ومن دركات النار.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ استفهام للتهويل والتفخيم، أي: وما أدراك ما النار، وما أعلمك أي شيء هي؟

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: لا تبقي فيها شيئاً إلا أهلكته، ولا تترك أحداً من الفجار إلا أحرقته.

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ تلوح وتظهر لأنظار الناس حتى يروها عيانًا. وقيل: لواحة للبشر، أي: مغيرة لوجوههم حتى تسودّ.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي: على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها، غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. وقيل: تسعة عشر صنفًا من أصناف الملائكة.

ولما نزل قوله سبحانه: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل: أما

لمحمد من الأعوان إلا تسعة عشر؟ أفيعجز كل مائة رجل منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم يخرجون من النار؟ فنزلت:

﴿٣١-٣٧﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ * كَلَّا وَٱلْقَمَرِ * وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: وما جعلنا خزنة النار إلا من الملائكة، فمن يطيق الملائكة، ومن يغلبهم، وهم أقوَمُ خلقِ الله بحقِّه، والغضب له، وأشدهم بأسًا، وأقواهم بطشًا؟

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: جعلنا عددهم المذكور إضلالاً ومحنة للكافرين، وابتلاءً واختباراً، حتى قال الكفار ما قالوا، ليتضاعف عذابهم ويكثر غضب الله عليهم.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: ليتيقن أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى لموافقة ما نزل من القرآن، بأن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر لما عندهم في كتبهم.

﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ يزيد إيمانهم ويقينهم لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم.

﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليزول عنهم الريب، والشك، وهذه مقاصد جليلة، يعتني بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين، وزيادة الإيمان في كل وقت.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: سوف يتحدث من في قلوبهم شك وشبهة ونفاق.

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وسيتحدث أيضاً الكفار من أهل مكة وغيرهم، ويقولون:

﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أي: شيء أراد الله بهذا العدد المستغرب استغراب المثل.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: والأمر بيد الله، فمن هداه الله جعل ما أنزل الله على رسوله رحمة في حقه وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله جعل ما أنزل على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة وظلمة في حقه، والواجب أن يُتلقى ما أخبر الله به رسوله بالتسليم.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ وما يعلم عدد الملائكة، وقوتهم وضخامة خلقهم، وكثرتهم إلا رب العالمين، وخزنة النار وإن كانوا تسعة عشر فلهم من الأعوان والجنود ـ من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه.

﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي: وما النار وما ذكر من عدد خزنتها إلا تذكرة وموعظة للعالم، ليعلموا كمال قدرة الله وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار.

* ثم بعد هذه الآيات أقسم سبحانه بالقمر، والليل وقت إدباره، والنهار وقت إسفاره؛ لاشتمال المذكورات على آيات الله العظيمة، الدالة على كمال قدرة الله وحكمته وسعة سلطانه، وعموم رحمته، وإحاطة علمه، فقال تعالى:

﴿كَلَّا﴾ بمعنى حقّاً، وهي كلمة ردع وزجر، أي: ليس الأمر كما ذكروا من التكذيب للرسول فيما جاء به.

﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ أقسم تعالى بالقمر، وبما بعده على أن سقر حق.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي: وأقسم بالليل حين ولى بظلمته ذاهباً.

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ وبالصبح إذا انبلج وأضاء.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ هذا جواب القسم، أي: إن سقر لإحدى الدواهي أو البلايا الكبرى. وقيل: إنها ـ أي تكذيبهم لمحمد ـ لإحدى الكبر.

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ أي: هي إنذار للخلق ليتقوا ربهم ويطيعوه.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي: لمن أراد من العباد أن يتقرب إلى ربه بالإيمان وفعل الخيرات أو يتأخر، بالكفر وبفعل الموبقات.

* ثم بين ﷻ تمام عدله، وكمال صفاته، وأن لكل مكلف جزاء ما عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فقال تعالى:

﴿٣٨-٥٦﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ * فِى

جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً * كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ * كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي: كل نفس مأخوذة ومعتقلة بعملها ومرتهنة به، إما خلّصها وإما أوبقها.

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ وهم المؤمنون، فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم، بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم ومقامهم ومنازلهم.

﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: في جنات قد حصل لهم بها جميع مطلوباتهم، وتمت لهم الراحة والطمأنينة حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة، أن سألوا عن المجرمين، أي حال وصلوا إليها. وهل وجدوا ما وعدهم الله تعالى؟ فقال بعضهم لبعض: هل أنتم مطلعون عليهم، لننظر إليهم فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، والسؤال لزيادة تبكيت أولئك المجرمين وتوبيخهم.

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ يقولون لهم: ما أدخلكم جهنم؟ وجعلكم تذوقون سعيرها؛ أجاب المجرمون للسائلين:

﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ لم نكن من المصلين في الدنيا لرب العالمين.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ أي: ولم نكن نتصدق ونحسن للفقراء والمساكين، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان ولا نفع للخلق المحتاجين. وفيه دليل على توكيد حرمة المسكين، حيث قرن تضييعه بترك الصلاة، وخوض الخائضين، وتكذيب بيوم الدين.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ أي: نخالط أهل الباطل في باطلهم، كلما غوى غاوٍ غوينا معه.

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: لا نؤمن ولا نصدق بالبعث والنشور والجزاء والمعاد، وهذه من آثار مخالطة أهل الباطل والخوض معهم ورفقاء السوء والجلوس إليهم.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ حتى جاءنا الموت، ونحن في تلك الضلالات والمنكرات.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ أي: ليس لهم شافع ينقذهم من العذاب، لا من الملائكة ولا النبيين وغيرهم، لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم، وفيه دليل ثبوت الشفاعة للمؤمنين.

ثم لما بين الله حال المخالفين، ورهب مما يفعل بهم، عطف على الموجودين بالعتاب واللوم، فقال:

الجُزْءُ التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ سُورَةُ القِيَامَةِ

فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

سُورَةُ القِيَامَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

٥٧٧

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي: فما لهؤلاء المشركين مولين عن القرآن وآياته، وما فيه من المواعظ البليغة والآيات العظيمة.

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ أي: كأن هؤلاء الكفار في نفورهم مثل الحمير الوحشية الشديدة النفار.

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ أي: من رماة يرمونها. وقيل: القسورة بلسان العرب الأسد، وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق، ومع هذا الإعراض وهذا النفور، يدعون الدعاوى الكبار.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ بل يطمع كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب من السماء كما أنزل على محمد ﷺ.

﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر، أن نعطيهم ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز.

﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ﴾ فلو كانوا يخافونها، لما جرى منهم ما جرى من التكذيب والإعراض.

﴿كَلَّآ﴾ كرر سبحانه الردع والزجر لهم.

﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: السورة أو الآيات والقرآن تذكرة وموعظة بليغة كافية لاتعاظهم، فمن شاء اتعظ بها فيه؛ لأنه قد بين له السبيل ووضح له الدليل.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وما يتعظون به إلا أن يشاء الله لهم الهدى، فيتذكروا ويتعظوا، وفيه تسلية للنبي ﷺ وترويح عن قلبه الشريف مما كان يخامره من إعراضهم وتكذيبهم له.

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: هو ﷻ الحقيق بأن يتقيه المتقون، ويطيعه الطائعون، بترك معاصيه والعمل بطاعاته.

﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: هو سبحانه الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب لمن آمن به وأطاعه.

تم تفسير سورة المدثر
والحمد لله

تفسير سورة القيامة
وهي مكية

* سورة القيامة سورة مكية، ذكر الله ﷻ فيها البعث والجزاء، والقيامة وأهوالها، والساعة وشدائدها، وحالة الإنسان عند الاحتضار وما يلقاه الكافر في الآخرة من المصاعب والمتاعب، ولذلك سميت سورة القيامة، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿١٥﴾ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ * وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ * بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ * يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ * فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ * يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا: أتي بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، والتقدير أقسم بيوم القيامة. وإقسامه سبحانه بيوم القيامة لتعظيمه وتفخيمه، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ أي: ولا أقسم بالنفس المؤمنة التقية وهي نفس المؤمن، تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لِمَ عملتْهُ، وعلى الخير لِمَ لَمْ تستكثر منه. أو هي نفس الكافر، يلوم نفسه ويتحسر في الآخرة على ما فرّط منها في جنب الله، ثم أخبر مع هذا، أن بعض المعاندين يكذب بيوم القيامة، فقال سبحانه:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ هذا جواب القسم، والاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: أيظن هذا الإنسان الكافر أن لن نقدر على جمع عظامه بعد الموت وبعد أن صارت رفاتًا، فنعيدها يوم القيامة خلقًا جديدًا، وذلك حسبان باطل.

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي: بلى سنجمعها، ونحن قادرون على أن نجمع أصابعه بعضها إلى بعض، فنجعلها قطعة واحدة كخف البعير، لكننا أنعمنا عليه بهذه الأصابع وهي الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل والأظافر والعروق اللطاف والعظام الدقاق. وقيل: هذا تنبيه من الله تعالى على أن بنان كل إنسان تختلف عن بنان غيره من الناس في تخطيط بصمتها، ولو شاء تعالى لجعلها متوافقة. قال الحسن: إن الله أعفَّ مطعم ابن آدم ولم يجعله خفاً ولا حافراً، فهو يأكل بيديه ويتقي بها، وسائر الدواب إنما يتقي الأرض بفمه.

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ بل يريد الإنسان بهذا الإنكار أن يستمر على الفجور، وأن يقدم فُجُورَهُ فيما يستقبله من الزمان، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة، يريد أن يَفْجُرَ ما امتدّ عمره ويمضي أمامه راكباً رأسه ولا يذكر الموت. وقيل الفجور: الكذب مع التعمد.

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يسأل هذا الكافر المعاند: متى يوم القيامة؟ سؤال استبعاد لوقوعه واستهزاء وتعنت.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي: إذا كانت القيامة؛ تحيرت الأبصار من الهول العظيم وشخصت فلا تطرف.

﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ﴾ ذهب ضوؤه ونوره كله ولا يعود كما يعود إذا خسف في الدنيا.

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ أي: ذهب ضوؤهما جميعًا، فتجمع الشمس والقمر؛ فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يقذفان في النار، ليرى العباد أنهما عبدان مسخران، وليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين.

﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ﴾ يتساءل الكافر في تلك الأحوال العصيبة، وحين يرى تلك الأهول العظيمة، يريد مسلكاً وطريقاً ينجو به.

﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ أين المفرّ؟ وأين المهرب من الله سبحانه، ومن حسابه وعذابه؟ وأين الخلاص والفرار مما نرى؟

﴿كَلَّا﴾ ردع له عن طلب الفرار.

﴿لَا وَزَرَ﴾ لا ملجأ له ولا مغيث من عذاب الله يعصمه يؤمئذ.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ أي: إلى الله وحده المرجع والمنتهى، والمصير لسائر العباد.

﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي: يخبر الإنسان يوم القيامة بجميع عمله الحسن والسيء، في أول وقته وآخره، وينبأ بخبر لا ينكره.

﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ بل الإنسان شاهد على نفسه، يعرف حقيقة ما هو عليه من إيمان أو كفر، وطاعة أو معصية، واستقامة أو اعوجاج. وقيل المعنى: بل جوارح الإنسان عليه شاهدة.

﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ ولو اعتذر وجادل عن نفسه، لم ينفعه ذلك، فعليه من يُكذّب عذره.

* بعد هذا البيان انتقل الحديث إلى القرآن، وطريقة تلقي الوحي عن جبريل، حيث كان رسول الله ﷺ يحرّك شفتيه ولسانه بالقرآن إذا أنزل عليه، قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي، حرصًا على أن يحفظه ﷺ، فنزلت هذه الآية:

﴿١٦﴾-﴿٢٥﴾ ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ * كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ * وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ * وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ * تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾.

﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ لا تحرك -يا محمد- بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلت منك.

﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ﴾ أي: الله ﷻ يثبته ويجمعه في صدرك حتى لا يذهب عليك منه شيء.

﴿وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ أي: إثبات قراءته في لسانك على الوجه القويم.

﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ أي: أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل، فاستمع له وأنصتْ إلى قراءته.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: تفسير ما فيه من الحلال والحرام وبيان ما أشكل منه. فوعد سبحانه بحفظ لفظه وحفظ معانيه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أنصت، فإذا ذهب عنه قرأ كما وعده الله. وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم، أن لا يبادر المتعلم المعلم قبل أن يفرغ من المسألة التي شرع فيها، فإذا فرغ منها سأله عما أشكل عليه.

ثم ذكر الله ﷻ أن الذي أوجب الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره محبتهم للدنيا وانكبابهم عليها، قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ أي: ارتدعوا يا معشر المشركين فليس الأمر كما زعمتم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، بل أنتم تحبون الدنيا الفانية وتسعون فيما يحصلها، وفي لذاتها وشهواتها.

﴿وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ وتدعون الآخرة والسعي إليها والقيام بأوامر الله تعالى واجتناب نواهيه.

ثم ذكر سبحانه ما يدعو إلى إيثار الآخرة ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا:

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾ أي: وجوه أهل السعادة في يوم القيامة، وجوه مشرقة ناعمة غضة حسنة.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ أي: تنظر إلى خالقها ومالك أمرها، فتتمتع بذلك، وقد تواترت الأحاديث الصحيحة من أن الصالحين ينظرون ربهم يوم القيامة

الجُزْءُ التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ سُورَةُ القِيَامَةِ

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ
﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا
فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ
﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا
صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ
﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ
أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ
عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ
وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

سُورَةُ الإِنسَانِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا
ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا
هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟
وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

٥٧٨

كما ينظرون القمر ليلة البدر، وذلك على حسب مراتبهم: منهم من ينظر كل يوم بكرة وعشياً، ومنهم من ينظر كل جمعة مرة واحدة.

ثم قال سبحانه في المؤثرين العاجلة على الآجلة:

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ حال وجوه الأشقياء يوم القيامة كالحة عابسة، كئيبة ذليلة.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي: تتوقع أن تنزل بها داهية عظمى. والفاقرة: الداهية العظيمة، كأنها كسرت فقار الظهر فهي تنتظر عقوبة شديدة وعذاباً أليماً؛ فلذلك تغيرت وجوههم وعبست.

* وفي الآيات اللاحقة يعظ سبحانه عباده، بذكر حال المحتضر عند السياق، واشتداد الكرب عليه، ويطلب عندها كل وسيلة وسبب يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولكن الأجل قد نزل، والموت قد حضر، وهذا المشاهد واقع يراه الناس كل يوم، وفيه العظة والعبرة، قال تعالى:

﴿٢٦﴾-﴿٤٠﴾ ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ * وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ * فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ * أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ * أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ كلا: ردع وزجر عن إيثار العاجلة، وتذكير بالموت إذا بلغت النفس أو الروح التراقي، والترقوة عظم بين ثغرة النحر والعاتق، ويكنى ببلوغ النفس التراقي عند الإشفاء على الموت.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي: قال من حضر صاحبها: من يرقيه ويشفي برقيته؟ التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئًا.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أي: أيقن المحتضر أنها ساعة الفراق من الدنيا، ومن الأهل والمال والولد لمعاينته ملائكة الموت، واتصلت شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي: التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به، فماتت رجلاه، ويبست ساقاه ولم تحملاه، وقد كان جوّالاً عليهما في الدنيا، وكأنه طوى تلك الأقدام مغادراً دار الدنيا، فالناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾

قال ابن عباس: «آخر يوم في الدنيا، وأول يوم في الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحم الله».

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ إلى خالقك معاد العباد ومرجعهم، إما إلى الجنة وإما إلى النار.

ثم أخبر تعالى عن حال الجاحد المكذب الذي لا تنفع فيه الآيات، فلا يزال مستمراً على بغيه وكفره وعناده.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ فلا آمن الكافر بالرسول، ولم يصدّق بالرسالة ولا بالقرآن، ولا صلى لربه، فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: إنما كذب بالرسول وبما جاء به، وتولى وأعرض عن الطاعة والإيمان.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي: ذهب يتبختر ويختال في مشيته، افتخاراً بذلك وتكبراً، أو يتثاقل ويتكاسل عن الداعي إلى الحق غير خائف من ربه.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ أي: ويلٌ لك يا أيها المكذب.

﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ كرر للتأكيد مبالغة في التهديد والوعيد، أي: هلاك لك فهلاك، ثم هلاك لك فهلاك.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أيظن الكافر المنكر للبعث أن يترك هملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يحاسب ولا يعاقب، وهذا حسبان باطل، وظن بالله بغير ما يليق بحكمته. ثم ذكّر سبحانه الإنسان بخلقه الأول:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ الاستفهام للتقرير، أي: ألم يك ذلك الإنسان قطرة من منيّ يراق في الرحم، والغرض: بيان حقارة حاله وبداية منشأه.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ثم كان بعد المني علقة، أي: دماً، فخلق الله منها الحيوان وسواه، أي: أتقنه وأحكمه بشراً سوياً.

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ فجعل من هذا وهذا، هو أصل الإنسان وتركيبه فكيف يليق بمثل هذا الضعيف أن يتكبر على طاعة الله؟

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: أليس ذلك الذي أنشأ هذا الخلق البديع وقدر عليه، بقادر على أن يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه في الدنيا؟ فإن الإعادة أهون من الابتداء، بلى ﷻ قادر على ذلك.

تم تفسير سورة القيامة
والحمد لله

تفسير سورة الإنسان
وهي مدنية

* سورة الإنسان سورة مكية، وتسمى «سورة الإنسان» بهذا الاسم لأن الله ذكر فيها الإنسان في أربع أحوال:

قبل الخلق: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾.

وعند الخلق: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾.

وفي الدنيا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

وفي الآخرة: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

فذكر الله فيها أول حال الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها، وتتابعت السورة في سرد نعيم المتقين الأبرار في دار الخلد والإقامة في جنات النعيم، وذكر بعض صفاتهم وما بلغهم تلك المنازل العالية، قال تعالى:

۝١-۝٣ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ أي: قد مضى على الإنسان وقت طويل من الزمان في شخص أبيهم آدم.

﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ قيل: أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح، خُلق من طين، ثم من حمأ مسنون، ثم من صلصال.

﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ أي: قبل نفخ الروح. وقيل: المعنى: قد مضت أزمنة وما كان آدم شيئاً، ولا مخلوقاً ولا مذكوراً لأحد من الخليقة.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: نحن بقدرتنا خلقنا هذا الإنسان من ماء مهين، ـ وهو المني ـ الذي ينطف من صلب الرجل، ويختلط بماء المرأة.

﴿أَمْشَاجٍ﴾ نطفة الرجل ونطفة المرأة واختلاطهما، وقيل: الأمشاج الأخلاط، لأنها ممتزجة من أنواع وعناصر يخلق الإنسان منها وطباع مختلفة.

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: خلقناه مريدين ابتلاءه، بالخير والشر وبالتكاليف.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فجعلناه من أجل ذلك عاقلاً مميزاً، ذا سمع وبصر، وركبنا فيه الحواس ليعظم إدراكه فيمكن ابتلاؤه.

وخص السمع والبصر؛ لأنهما من أهم وسائل الإدراك، ومن أشرف الحواس ومن أجل النعم.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بيّنّا للإنسان وعرّفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر، بأدلة العقل والسمع وعرفناه منافعه ومضاره التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله، سواء كان شاكراً أو كفوراً وذلك بواسطة الرسل والكتب التي أنزلها سبحانه.

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي: لننظر أيؤمن أم يكفر. وقد جمع تعالى بين الشاكر والكفور، ولم يقل: إما شكوراً، وإما كفوراً مع اجتماعهما في صيغة المبالغة، فنفي المبالغة

الجزء التاسع والعشرون سورة الإنسان

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا
﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ
ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾
مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ
مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا
﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا
﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ
خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ
مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

٥٧٩

في الشكر وأثبتها في الكفر، لأن شكر الله تعالى لا يؤدى مهما كثر، فانتفت عنه المبالغة، ولم تنتف عن الكفر المبالغة، فإن أقل الكفر مع كثرة النعم على العبد يكون جحوداً عظيماً لتلك النعم.

* ثم بين الله ﷻ أنه بعد أن وهب للإنسان العقل والإدراك والسمع والبصر، وبين له الطريق ووضحه، ونصب الدلائل التي يعرف بها الخالق ﷻ، حذر وأنذر من عصى وطغى وكفر وأبى، وبعدله ونعمته أحسن الجزاء الأوفى، لمن أطاع وامتثل وأوفى، قال تعالى:

(٤)-(١٢) ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا * إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: هيأنا للكافرين المجرمين.

﴿سَلَٰسِلَا۟﴾ يعني في جهنم.

﴿وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ أي: أعددناها لهم لنعذبهم بها. والغلّ ما تغلّ به الأيدي إلى الأعناق. والسعير: الوقود الشديد.

ثم ذكر سبحانه حال الأبرار وما أعده لهم من النعيم، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ وهم المؤمنين الصادقين الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرت جوارحهم واستعملوها بأعمال البر، أخبر سبحانه أنهم:

﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ أي: في الآخرة، يشربون شراباً لذيذاً من خمر.

﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي: يخالطها ويمزج بها ماء كافور، ليكمل ريح الخمر وطعمها ويطيب.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: يشربون منها الخمر، ويحتمل أن المعنى: يشربون خمرهم ممزوجة بماء تلك العين الدائمة الفيضان والجريان.

﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ والمراد بهم المؤمنون المتقون.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يشقونها شقًّا كما يشقّ النهر ويفجر إلى هنا وهنا، ويجرونها حيث شاؤوا إجراءً سهلاً لا يمتنع عليهم.

وقد ذكر الله جملة من أعمالهم التي كانت سبباً في دخول الجنات بعد رحمة الله، فقال تعالى:

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ أي: أعطوا هذا الجزاء؛ لأنهم كانوا يوفون بالنذر. وهو ما أوجبه الإنسان على نفسه لله من صلاة أو صوم أو ذبح أو غيرها، مما لم يكن عليه واجبًا بالشرع.

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ المراد: يخافون يوم القيامة، استطار شر ذلك اليوم حتى ملأ السماوات والأرض، فانشقت السماء، وتناثرت الكواكب، والأرض دُكّت، والجبال نسفت.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ ويطعمون الطعام مع شهوتهم له وقلته عندهم وحاجتهم إليه، يطعمون الطعام ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى.

﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ يطعمون هؤلاء الثلاثة الأصناف وهم: المسكين الفقير العاجز عن الاكتساب الذي لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، واليتيم الذي مات أبوه وهو صغير، فعدم الناصر والكفيل، وأسيراً وهو من أسر في الحرب من المشركين.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ لا يتوقعون المكافأة، ولا يريدون ثناء الناس عليهم بذلك، يطلبون مرضاة

الله وابتغاء فضله، علمه الله من قلوبهم فأثنى عليهم بذلك. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: من طلب من الفقراء الثناء أو الدعاء فقد خرج من هذه الآية.

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي: لا نبتغي من وراء هذا الإحسان لا مكافأة ولا جزاء ماليّاً، ولا ثناء قوليّاً. وإطعام المساكين والإحسان إليهم من أبواب العمل الخالص؛ لأن نفعهم في الدنيا لا يرجى غالباً.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا﴾ أي: إنما نفعل ذلك رجاء أن يقينا الله هول يوم شديد، تعبس فيه الوجوه من فظاعة أمره، وشدة هوله.

﴿قَمْطَرِيرًا﴾ أي: شديداً عصيباً ضيقاً تنقبض فيه العيون والحواجب. وقيل: القمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء.

فكان جزاء أعمالهم الصالحة التي قاموا بها ابتغاء مرضاة الله:

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ أي: صانهم وحماهم الله ودفع عنهم شر ذلك اليوم وشدته، فلا يحزنهم الفزع الأكبر، بل جعل الله لهم وقاية من شره بسبب خوفهم منه وإطعامهم الطعام لوجهه.

﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي: وأعطاهم وأكرمهم بدل العبوس في الكفار حُسناً في الوجوه وسروراً في القلوب. والنضرة البياض والنقاء في وجوههم من أثر النعمة.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾ وأثابهم بسبب صبرهم على طاعة الله، والصبر عن معصيته.

﴿جَنَّةً﴾ جامعة لكل نعيم سالمة من كل مكدر ومنغص.

﴿وَحَرِيرًا﴾ خص الحرير؛ لأنه لباسهم الظاهر الدال على حال صاحبه ولأنهم تركوه في الدنيا طاعة لله ﷻ. قيل: لما كان ـ في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى ـ خشونة وتضييق، جازاهم على ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة.

* ولما ذكر طعامهم ولباسهم وأكمل لهم العطاء وأجزل لهم الجزاء؛ وصف نعيمهم ومساكنهم وحالهم، فقال تعالى:

﴿١٣﴾-﴿٢٢﴾ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ متكئين في الجنة، والاتكاء: التمكن من الجلوس في حال الرفاهية والطمأنينة.

والأرائك: هي السرر التي عليها اللباس المزين، وإنما خصهم بهذه الحالة؛ لأنها أتم حالات المتنعم، وفيها كمال الأمن والراحة والسعة والسرور.

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ لا يرون في الجنة حرّ الشمس ولا برد الزمهرير.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾ أي: ظلال الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار، فجميع أوقاتهم في ظل ظليل، لا حر ولا برد، بحيث تلتذ به الأجساد، ولا تتألم من حر ولا برد.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ سخرت وأدنيت ثمارها لمتناوليها، تسخيراً يتناولها القائم والقاعد والمضطجع، لا يردّ أيديهم عنها بُعْد ولا شوك.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ أي: تدور عليهم الخدم إذا أرادوا الشرب بآنية من فضة، وكؤوس الفضة على صفاء القوارير.

﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ القوارير هي الزجاج، فالقوارير التي في الدنيا من الرمل، فأعلم الله فضل تلك القوارير أن أصلها من فضة يرى من خارجها ما في داخلها، وهي جامعة بين صفاء الزجاج وحسن الفضة.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: قدرها السقاة على مقدار حاجتهم، فجاءت كما يريدون في الشكل المتقن لا تزيد ولا تنقص، وذلك ألذ وأشهى.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ ويسقى هؤلاء

الأبـرار في الجنة من كأس، وهو الأناء المملوء من الخمر، ممزوجة بالزنجبيل لطيب طعمه وريحه.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ أي: يشربـون من عـين في الجنـة: عينـاً تفيض. والسلسبيل في اللغة اسم لماء في غاية السلاسة والعذوبة، يسوغ في حلوقهم لعذوبته وصفائه.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ويدور على هؤلاء الأبرار وهم أهل الجنة، في طعامهم وشرابهم وخدمتهم.

﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: دائمون، خلقوا من الجنة للبقاء، باقون على ما هم عليه من الشباب والطراوة والنضارة، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يموتون.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ منتشرين في خدمة أهلها.

﴿حَسِبْتَهُمْ﴾ أي: ظننت أنهم من حسنهم.

﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ لمزيد حسـنهم وصفاء ألوانهم ونضـارة وجوههم،وهذا من تمـام لذة أهل الجنة، شـبههم بالمنثور؛ لأنهم سراع في الخدمـة، ولأن المنثور أزين في النظر من المنظوم لوقوع شـعاع بعضه على بعض وإذا كان الخـدم لؤلؤاً منثوراً، فكيف بالمخدوم المكرم؟

﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾

قال القرطبي: «شبههم بالمنثور؛ لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور شبههم بالؤلؤ المكنون المخزون؛ لأنهن لا يُمتهن بالخدمة.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ أي:وإذا رميت ببصرك هناك في الجنة.

﴿ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ أي: رأيت نعيماً كثيراً، لا يوصف.

﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ ملكاً واسعاً لا غاية له.

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ أي: قد جللـت أهل الجنـة وعلتهم ثياب السـندس: وهو الحرير الدقيق، الفاخر الأخضر الرقيق.

﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ وهو ما غلظ من الديباج.

﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وألبسوا في الجنة أساور فضية للزينة والحلية، وعبر بالماضي إشارة لتحقق وقوعه.

﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي: سقاهـم الله ـ فوق ذلك النعيم ـ شراباً طاهراً لم تدنسـه الأيدي، وليس بنجس كخمر الدنيـا، يؤتون بالطعام، فإذا كان آخره أُتـوا بالشراب الطهور، فيشربـون، فتضمر بطونهـم من ذلك ويفيض عـرق من أبدانهـم مثل ريح المسـك وأضيف إليه تعـالى للتشريف والتخصيص. وقد ذكر الله ﷻ بعد زينة الظاهر بالحرير والحلي، ذكر أنه سقاهم شراباً طهوراً. طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة، فحلَّى الظاهر والباطن.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: يقـال لهم بعد دخولهم الجنة ومشاهدتهم نعيمها: إن هذا الجـزاء الجزيل، والعطاء الجميل، والنعيم الدائم.

﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ عـلى ما أسلفتموه من الأعمال الصالحة في الدنيا.

﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ وكان عملكم مقبولاً مرضيّاً. جوزيتم عليه أحسن الجزاء مع الشكر والثناء، حيث قلتم للمسكين واليتيم والأسير: لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً.

* ولما ذكر سـبحانه نعيـم الجنة وأفـاض في وصـف ما فيهـا، انتقل الحديـث إلى القـرآن، والصـبر على الطاعة والعبادة، وحـال المعاندين في الدنيا، فقال:

﴿٢٣﴾-﴿٣١﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا * نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا * إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ أي: نحن الذين أنزلنا عليك القرآن -يا محمد-، وفرّقناه في الإنزال ولم ننزله جملة واحـدة، ولم تأت به من عندك كما يدّعيه المشركون، وفيه الوعد والوعيد وبيان كل ما يحتاجه العباد في عاجلتهم وآجلتهم. ولهذا قال تعالى:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: اصبر -يا محمد- لحكم ربك القدري واقبله، ولحكمـه الديني فامض عليه، فلابـد أن ينتقـم منهـم، ويقر عينك بإهلاكهم إن عاجلاً أو آجلاً.

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ أي: من المشركين والمعاندين الذين يريدون أن يصدوك.

﴿آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي: فاعلاً إثماً ومعصية، أو غالٍ في كفر.

وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ
وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا (٢٨) إِنَّ
هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَآءُونَ
إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدۡخِلُ
مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا (٣١)

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا (١) فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا (٢) وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا (٣)
فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا (٤) فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا (٥) عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا (٦) إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ (٧) فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ (٨) وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ
(٩) وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ (١٠) وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ (١١) لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ
(١٢) لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ (١٣) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ (١٤) وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ
لِّلۡمُكَذِّبِينَ (١٥) أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ
(١٧) كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ (١٨) وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (١٩)

ولما كان الصبر عوناً على القيام بعبادة الله، مع الإكثار من ذكره، أمره سبحانه بذلك، فقال:

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ أي: صلّ لربك أوّل النهار وآخره، فأول النهار: صلاة الصبح، وآخره: صلاة العصر، وما يتبعها من النوافل والذكر، والتسبيح والتكبير في هذه الأوقات.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ أي: وفي الليل فصل له وأكثر له من السجود، ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من الصلاة.

﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ أي: وأكثر من التهجد والقيام لربك في جنح الظلام والناس نيام، والمقصود أن يكون عابداً لله ذاكراً له في جميع الأوقات بقلبه ولسانه.

* وبعد تسلية النبي الكريم، وعناية الله به، وحثه على الصبر والطاعة، جاءت الآيات إلى شرح أحوال الكفرة من المجرمين، فقال:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: الكفرة المكذبين.

﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ وهي دار الدنيا ويطمئنون ويركنون إليها.

﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ ويتركون العمل ويهملونه، وينسون أمامهم يوماً عصيباً وهو يوم القيامة. وسمي ثقيلاً لما فيه من الشدائد والأهوال، فهم لا يستعدون له ولا يعبأون به.

ثم استدل سبحانه عليهم وعلى بعضهم بدليل عقلي، وهو دليل الابتداء، فقال:

﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡ﴾ أي: أوجدناهم من العدم، وأحكمنا خلقهم، وشددنا أوصالهم بعضًا إلى بعض، بالعروق والعصب حتى تم الجسم واستكمل.

﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾ أي: لو شئنا لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم، وفي الآية تهديد ووعيد.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾ أي: الآيات الكريمة، يتذكر بها المؤمن، فينتفع بما فيها من التخويف والترغيب.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: فمن أراد الانتفاع والاعتبار وسلوك طريق السعادة فليعتبر بآيات القرآن ليتخذ طريقاً موصلاً إلى ربه، فالله يبين الحق والهدى، ثم يخير الناس بين الاهتداء بها أو النفور عنها، مع قيام الحجة عليهم.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: وما تشاءون أن تتخذوا إلى الله سبيلاً إلا أن يشاء الله، فالأمر إليه سبحانه ليس إليهم، والخير والشر بيده، فمشيئة العبد مجرّدة لا تأتي بخير ولا تدفع شرّاً، إلا إن أذن الله بذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ فله الحكمة في هداية المهتدي، وإضلال الضال، عالم بأحوال خلقه، حكيم في تدبيره وصنعه.

﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقها.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الذين اختاروا الشقاء على الهدى.

﴿أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ بظلمهم وعدوانهم.

تم تفسير سورة الإنسان

والحمد لله

تفسير سورة المرسلات
وهي مكية

* سورة المرسلات سورة مكية، أقسم الله ﷻ فيها بجملة من مخلوقاته على وقوع البعث والجزاء، وذكر ﷻ فيها الموعد الحق، يوم الحساب والجزاء وما يجري فيه، ثم ذكر أحوال الأمم الغابرة وما جرى لهم، وما حل ونزل بهم، في الحديث عن ابن عباس ﷺ قال: قال أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يا رسول الله ما شيّبك؟ قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات و(عم يتساءلون)، و(إذا الشمس كورت)»

وعن أم الفضل بنت الحارث قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بـ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [متفق عليه]، قال تعالى:

(١)-(١٥) ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا * فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا * وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا * فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا * فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ * فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ أقسم الله ﷻ بالملائكة التي يرسلها الله تعالى بشؤونه القدرية وتدبير العالم، وبشؤونه الشرعية ووحيه إلى رسله. وقيل: إن المرسلات: هي الرياح حين تهب متتابعة وهي ريح العذاب.

﴿عُرْفًا﴾ حال من المرسلات، أي: أرسلت بالعرف والحكمة والمصلحة، لا بالنكر والعبث.

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ وهي أيضاً الملائكة التي يرسلها الله تعالى، وصفها بالمبادرة لأمره، وسرعة تنفيذ أوامره، كالريح العاصف، أو أن العاصفات: الرياح الشديدة، التي يسرع هبوبها.

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ يحتمل أنها الملائكة تنشر ما دبرت على نشره، أو أنها السحاب التي يُنشر بها الله الأرض، فيحييها بعد موتها.

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ أي: وأقسم بالملائكة التي تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام.

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ يقسم الله تعالى بالملائكة يرسلها بالوحي إلى أنبيائه. تعصف لسرعة طيرانها وتنشر أجنحتها آتية بما يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، حتى تبلغ الوحي إلى الأنبياء.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ المعنى: أن الملائكة تلقي الوحي إعذاراً من الله إلى خلقه، وإنذاراً من عذابه. وقيل: عذراً للمحقين، ونذراً للمبطلين.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ هذا جواب القسم، أي: إنما توعدون من أمر القيامة ومن البعث والجزاء على الأعمال، محتم وقوعه من غير شك ولا ارتياب. وفي تطويل القسم تشويق السامع لتلقي المُقسم عليه.

ثم بين تعالى وفصل وقت وقوع ذلك اليوم، وما يجري فيه من الأهوال والكروب:

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي: محي نورها وذهب ضياؤها.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ أي: فتحت وشقت، فكانت أبواباً.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي: قلعت من مكانها وطارت في الجوّ هباء فاستوى مكانها بالأرض، فلا يبقى لها عين ولا أثر.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ جعل لها وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم.

﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ استفهام للتعظيم والتفخيم والتهويل، أي: لأي يوم أخرت وأمهلت، ليوم عظيم يعجَب العبادُ منه لشدّته ومزيد أهواله، ضُرِب الأجل للرسل لجمعهم، يحضرون فيه للشهادة على أممهم.

﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: أجلت ليوم القضاء، يفصل فيه سبحانه بين الناس بأعمالهم، فيُفرّقون إلى الجنة والنار.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ استفهام للتعظيم والتهويل، أي: وما أعلمك بيوم الفصل؟ يعني: أنه أمر هائل لايقادر قدره.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: ويل يومئذ للمكذبين بهذه الحقائق.

* ثم انتقلت الآيات لتذكير المكذبين وتعجبت من غفلتهم وذهولهم عن أبسط الأمور المشاهدة، وهي نشأتهم وخلقهم من نطفة مهينة حقيرة، لأن من خلق الخلق الأول قادر على إعادة الخلق والبعث والجزاء والحساب، وهو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، قال تعالى:

(١٦)-(٢٨) ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أما أهلكنا المكذبين السابقين من الكفار من الأمم الماضية، من لدن آدم إلى محمد ﷺ، يعني بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلهم.

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ يعني: ثم نتبعهم بإهلاك من كذب في الآخرين كفار

أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾
أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ
شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾
ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ
شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ
كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾
هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ
لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ
فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

٥٨١

مكة، ومن وافقهم حين كذبوا محمدًا ﷺ.

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل ذلك الإهلاك الفظيع نفعل بهؤلاء المجرمين لتكذيبهم محمداً ﷺ.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بعدما شاهدوا من الآيات البينات، والعقوبات والمثلات.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ تذكير للمكذبين، أي: أما خلقناكم أيها الآدميون من ماء مهين، في غاية الحقارة ضعيف حقير، وهو النطفة.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي: فجعلنا هذا الماء المهين في مكان حريز، وهو الرحم يستقر وينمو.

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ وهو مدّة الحمل، وهي في جنس البشر تسعة أشهر.

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ أي: قدرنا أعضاءه وصفاته، ونقلناه من النطفة إلى العلقة إلى المضغة، وجعلنا كل حال من أحواله على الصفة التي أردنا، فنعم المقدّر الله.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: هلاك ودمار للمكذبين بعدما بين الله لهم الآيات، وأراهم البراهين والبينات.

ثم ذكر الله ﷻ منته على عباده بتسخير الأرض لمصالحهم، وأن ذلك من دواعي التفكر والاعتبار، والنظر في ملكوت السموات والأرض، والاعتبار بمن أبدعها وخلقها وأوجدها، قال تعالى:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ ألم نجعل هذه الأرض التي تعيشون عليها كالأم لكم، تجمع الأحياء على ظهورها، والأموات في بطنها. والكفت: الجمع والعلم.

﴿أَحْيَآءً﴾ يسكنون فوق ظهرها في المنازل والدور.

﴿وَأَمْوَٰتًا﴾ في القبور، أي: حافظةً لكم، أحياءً على ظهرها، وأمواتًا في بطنها. وهذا من نعم الله على العباد، فكما أن الدور والقصور سكنه في الدنيا، فكذلك القبور، رحمة في حقه وستراً له، عن كون جسده باد للسباع وغيرها.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً ثوابت ترسي الأرض لئلا تميد بأهلها.

﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ عاليات.

﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ وأسقيناكم ماءً عذبًا حلواً بالغ العذوبة، وهذا كله أعجب من البعث.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ مع ما أراهم الله من النعم، التي انفرد الله بها، واختصهم بها، فقابلوها بالتكذيب.

* ثم ذكرهم الله ﷻ باليوم الآخر، وما يجري فيه من الأهوال والشدائد، فقال:

﴿٢٩﴾-﴿٤٠﴾ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ * كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ * فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: انطلقوا إلى عذاب جهنم الذي كنتم به تكذبون، هذا من الويل الذي أعد للمجرمين والمكذبين، ثم فسر ذلك بقوله:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ يقال لهم: سيروا إلى ما كنتم تكذبون به من العذاب. أي: إلى ظل من دخان جهنم قد سطع، ثم افترق ثلاث فرق.

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ ذلك الظل، أي: لا راحة فيه ولا طمأنينة، ولا يظل من يكون تحته.

﴿وَلَا يُغْنِى﴾ من مكث فيه.

﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ بل حر اللهب شيئاً قد أحاط به، يمنة ويسرة ومن كل جانب.

ثـم زاد ﷻ في وصف جهنم وأهوالها، وذكـر عظم شررهـا الدال عـلى عظمها وفظاعتها، وسوء منظرها، فقال تعالى:

﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ أي: كل شرارة من شررها التي ترمي بها كالقصر من القصور في عظمها.

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَلَٰتٌ صُفْرٌ﴾ أي: ضخـم كضخامـة الجمال، وتُسـمي العرب سـود الإبـل صفـراً. قيل: والشرر إذا تطاير وسقط؛ وفيه بقية من لون النار، أشبه شيء بالإبل السود.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: هـلاك ودمـار للمكذبين بآيات الله.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: هذا اليوم الشـديد على المكذبـين، لا ينطقون فيه من الخوف والوجل الشديد فهم خرسى، بُكم.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ لا تقبل معذرتهم، ولا حجتهم ولو اعتذروا.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذا اليوم.

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ويقال لهم: هذا يوم الفصل الـذي يفصل فيه بين الخلائق، ويتميز فيـه الحق من الباطل، جمعناكم يـا معشر كفار قريش فيـه مع الكفار الأوّلين من الأمم الماضية.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ يقول: إن كان لكم حيلـة فاحتالوا لأنفسـكم عليّ لتخرجوا من ملكي وتنجوا من عذابي.

﴿فَكِيدُونِ﴾ أي: ليس لكم قدرة ولا سلطان، وهذا تقريع وتوبيخ لهم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ هلاك ودمار لمن كذب بالبعث؛ لأنه قد ظهر لهم عجزهم، وبطلان ما كانوا عليه في الدنيا.

* ثم لما ذكر حال النار ودار البوار، ذكر حال أهل السعادة من الأخيار، فقال تعالى:

﴿٤١﴾-﴿٥٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: للمتقـين، المتصفين بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم ولا يكونون كذلك إلا بأدائهم الواجبات، وتركهم المحرمات.

﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ من كثرة الأشـجار المتنوعة، الزاهية البهية.

﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية من السلسبيل، والرحيق وغيرها.

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: من خيار الفواكه وطيبها، ويقال لهم:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ مـن المآكل الشهية والأشربة اللذيذة.

﴿هَنِيٓـًٔا﴾ من غير منغص ولا مكدر، ولا يتم هناؤه، حتى يسلم الطعام من كل آفة ونقص، وحتى يجزموا أنه غير منقطع ولا زائل.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، فأعمالكم الصالحة، وطاعة ربكم، هي السبب الموصل لكم إلى هذا النعيم.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فهذا من فضل الله وجوده وكرمه.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالجنة ونعيمها، ولو لم يكن لهم مـن هذا الويل إلا فوات هذا النعيم، لكفى به حرماناً وخسراناً.

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾ هذا تهديد ووعيـد للمكذبين، أنهـم وإن أكلوا في الدنيـا وشربوا وتمتعـوا باللذات، وغفلوا عـن عمل القربـات، فإنهم محرومون، لأن متاع الدنيا قليل.

﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ كافرون: أي: إن كل مجرم يأكل ويتمتع أياماً قلائل، ثم يبقى في الهلاك الدائم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالنعم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي: وإذا أمروا بالصلاة لله، والخشـوع لـه، لا يخشـعون ولا يصلون، بل يصرون على استكبارهم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ومن الويل عليهم أنهم تنسـد عليهـم أبواب التوفيق، ويحرمـون كل خـير، فإنهم إذا كذبوا هذا القـرآن الكريم، الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق.

﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: فبأيّ حديث غير القرآن يصدّقون إذا لم يؤمنـوا بـه؟ مع أنـه آية مبصرة ومعجزة باهرة.

تم تفسير سورة المرسلات

والحمد لله

تفسير سورة النبأ
وهي مكية

* سورة عم سورة مكية، وتسمى سورة النبأ، يذكر الله ﷻ فيها البعث والجزاء والحساب، ويعدد فيها بعض نعمه وآلائه، وأنه الخالق المنعم المستحق للعبادة، الذي أوجد من العدم، وخلق الخلق لعبادته وطاعته، وفيها من البيان ما يقول للعباد: استعدوا، استيقظوا، تفكروا، تدبروا.. هناك بعث ونشور، وحساب وأجور، وعقاب وحسرات، وتذكر الآيات صورًا من العذاب للكفار والعصاة، ومن النعيم للمؤمنين، قال تعالى:

سُورَةُ النَّبَإِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣)
كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦)
وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا
(٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا
فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ
الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ
أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ
فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ
الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ
مَآبًا (٢٢) لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا
(٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا
لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ
أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)

٥٨٢

(١)-(١٦) ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾.

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ استفهام إنكاري، عن أي شيء يتساءل كفار قريش من أمر القيامة والبعث. فإنه لما بُعث رسول الله ﷺ وأخبر بتوحيد الله والبعث بعد الموت وتلا عليهم القرآن، تساءل المشركون، فأنزل الله، يعني عم يتساءل هؤلاء المكذبون بالقرآن وغيره. ثم أجاب ﷻ عن هذا السؤال، فقال:

﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ هذا النبأ والخبر المهم هو ما جاء به النبي ﷺ من البينات والهدى، ولا سيما ما جاء به من الأخبار عن اليوم الآخر والبعث والجزاء.

﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ يعني الناس فيه على قولين: فمنهم مصدق، ومنهم مكذب منكر لحصوله، وطال نزاعهم فيه، وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ كلا: كلمة ردع وزجر، بمعنى ليس الأمر كما قالوا، بل إن هؤلاء الذين كذبوا؛ سيعلمون ما كذبوا به علم اليقين، وذلك إذا رأوا يوم القيامة ونزل بهم العذاب.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ للمبالغة في التأكيد والتشديد، وسوف يتأكد لهم صدق ما جاء به محمد ﷺ من القرآن والبعث، وهذا تهديد ووعيد لهم.

* ثم بين تعالى قدرته العظيمة على خلقه، وذكر بعض نعمه على عباده، ليقرر هذه النعم فيلزمهم شكرها، وهي أمور محسوسة ملموسة، يتبين فيها قدرة الله ﷻ وعظيم صنعه التي لو فكر فيها الكفار، لما وقع منهم اختلافٌ في النبأ العظيم الذي جاءهم من عند الله، قال سبحانه:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ أي: جعل الله الأرض ممهدة للخلق معدة للحياة، ليست بالصلبة التي لا يستطيعون حرثها ولا المشي عليها إلا بصعوبة، وليست باللينة الرخوة التي لا ينتفعون بها، ولا يستقرون عليها، ولكنها ممهدة لهم على حسب مصالحهم وعلى حسب ما ينتفعون به.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي: جعلها الله تعالى أوتاداً للأرض؛ بمنزلة الوتد للخيمة حيث يثبتها فتثبت به ولا تضطرب ولا تميد.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: أصنافاً ما بين ذكر وأنثى، وصغير وكبير، وأسود وأحمر، وشقي وسعيد، إلى غير ذلك مما يختلف الناس فيه، فهم أزواج مختلفون على حسب ما

أراده الله ﷻ واقتضته حكمته ليعتبر الناس بقدرة الله تعالى، وأنه قادر على أن يجعل هذا البشر الذين خلقوا من مادة واحدة؛ ومن أب واحد على هذه الأصناف المتنوعة المتباينة.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي: جعل الله ﷻ النوم راحة لأبدانكم، قاطعاً للتعب والأشغال.

والسبت: القطع، فالنوم يقطع ما سبقه من التعب وهذا من النعمة، وهو أيضاً من آيات الله، كما قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: جعل الله هذا الليل الذي يغشى ظلامه وسواده على الأرض، بمنزلة اللباس، كأن الأرض تلبسه ويكون جلباباً لها يستركم بظلامه، وشبهه بالثياب التي تُلبس؛ لأنه ستر عن العيون.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي: جعلناه مشرقاً نيراً مضيئاً ليتمكن الناس فيه من طلب الرزق وتحصيل الأقوات.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ وهي السماوات السبع، وصفها الله تعالى بالشداد، لأنها محكمة البناء، في غاية القوة والصلابة، متينة في إحكامها وإتقانها، لا تتأثر بمرور العصور والأزمان، فيها عدة منافع لهم، ولهذا ذكر من منافعها الشمس، فقال:

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ يعني بذلك الشمس؛ فهي سراج مضيء، ﴿وَهَّاجًا﴾ أي: وقّادة، والوهج يجمع النور والحرارة، وهي أيضاً ذات حرارة عظيمة فتضيء الكون، حيث تتصرفون فيه لقضاء حوائجكم وتجاراتكم وغير ذلك، ونبه بالسراج على النعمة بنورها، وبالوهاج الذي فيه الحرارة على ما فيها من المصالح.

وتستمر الآيات في ذكر نعم الله ﷻ وقدرته على الخلق يشاهدها الناس ويرونها؛ فقال تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ يعني: من السحاب، ووصف الله السحاب بأنه معصرات؛ كأنها تعصر هذا المطر عند نزوله عصراً، كما يعصر الثوب، فإن هذا الماء يتخلل هذا السحاب ويخرج منه، كما يخرج الماء من الثوب المعصور.

وهو سبحانه الذي أنزل بقدرته من السحاب ماءً كثيراً متتابعاً، تنبت به الأرض وتحيا به، فإذا انضاف ماء السماء إلى حرارة الشمس حصل في هذا إنضاج للثمار ونموٍ لها على أكمل ما يكون.

﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي: مطراً منصباً بكثرة؛ كثير الثج: يعني الانهمار والتدفق بهذا الماء الذي أنزل من السماء إلى الأرض.

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ أي: لنخرج، وننبت بهذا الماء الكثير، الطيب النافع، المبارك الذي أنزل من السماء إلى الأرض.

﴿حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ فتنبت الأرض، ويخرج الله به من الحب بجميع أصنافه وأنواعه وما أشبه ذلك.

والحب ما يدخر للناس والأنعام؛ كالحنطة والشعير والذرة والأرز.

والنباتات ما تأكله الدواب، أي: خضراً يؤكل رطباً كالحشيش وغيره.

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ أي: حدائق وبساتين كثيرة الأشجار والأغصان، ملتفاً بعضها إلى بعض من حسنها وبهائها حتى إنها لتستر من فيها لكثرتها.

وقد ذكر سبحانه في الآيات السابقة جملة من النعم العظيمة المشاهدة المحسوسة التي امتن بها على عباده ليشكروه ويعبدوه وحده، ويستعينوا بنعمه على طاعته ومرضاته، وليوقنوا أن من أنعم بهذه النعم وهيأ الأسباب بقوته وحوله وطوله، قادر على بعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء على أعمالهم، فإنه ﷻ بحكمته وعدله لم يخلقهم عبثاً ولا تركهم هملا، وجعل لهم أجلاً ومرجعاً.

* ثم ذكر سبحانه ما يجري في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام، والجزاء والحساب، ليكون الإنسان على بينة من أمره، وليعرف حاله ومصيره، وفي ذلك بيان وتوضيح لمن سأل عن النبأ العظيم، قال تعالى:

﴿١٧﴾-﴿٣٠﴾ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ
كَانَ مِيقَٰتًا * يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ
فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا * وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ
فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا * وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ
فَكَانَتْ سَرَابًا * إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ
مِرْصَادًا * لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا * لَّٰبِثِينَ
فِيهَآ أَحْقَابًا * لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا
وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا *
جَزَآءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ
حِسَابًا * وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا *
وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا * فَذُوقُوا۟
فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: إن يوم الحساب والجزاء وهو يوم القيامة، وسمي يوم فصل؛ لأن الله يفصل فيه بين العباد فيما شجر بينهم، وفيما كانوا يختلفون فيه.

﴿كَانَ مِيقَٰتًا﴾ أي: ميقاتاً للخلق وموعداً للجزاء، وموقوتاً لأجلٍ معدود في علمه تعالى وقضائه، لا يتقدم ولا يتأخر.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ أي: يوم القيامة.

﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ وهو البوق الذي ينفخ فيه إسرافيل، ينفخ فيها نفختين، الأولى: يفزع الناس ثم يصعقون فيموتون، والثانية: يبعثون من قبورهم، وتعود إليهم أرواحهم.

﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ أي: فتحيون، وتحضرون إلى موضع العرض والحساب والجزاء، أمماً وجماعات متفرقة للحساب والجزاء. ثم ذكر تعالى أوصاف ذلك اليوم الرهيب، فقال:

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ فتحت: انفرجت وتشققت من كل جانب، حتى كان فيها صدوع وفتوح، فتكون أبواباً يشاهدها الناس بعد أن كانت سقفاً محفوظاً.

﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ تكون السماء في ذلك اليوم أبواباً مفتوحة، وطرقاً ومسالك لنزول الملائكة، وفي هذا دليل على كمال قدرة الله ﷻ أن هذه السبع الشداد يجعلها الله تعالى يوم القيامة كأن لم تكن، تكون أبواباً.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: إن الجبال العظيمة الصماء تُدك فتكون كالرمل، ثم تكون كالسراب تسير.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي: مرصدة ومعدَّة للطاغين تنتظر وترقب نزلاءها الكفار. وجهنم اسم من أسماء النار التي لها أسماء كثيرة، وسميت بهذا الاسم؛ لأنها ذات جُهمة وظلمة بسوادها وقعرها.

﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ أي: للمردة والعصاة المخالفين للرسول مرجعاً، ومنقلباً، ومصيراً.

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ أي: باقين في جهنم.

﴿أَحْقَابًا﴾ وهي جمع حقب، وهو المدة من الزمان؛ أي: مدداً طويلة.

ثم ذكر الله ﷻ بعضاً من أحوالهم وشقائهم في هذه النار، وما يجدونه من أنواع العذاب وأصنافه، فقال سبحانه:

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي: لا يجدون في جهنم برداً لقلوبهم، ولا شراباً طيباً يتغذون به ويسكن عطشهم فيها.

﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ ليس لهم إلا هذا الحميم، وهو الماء الحار المنتهي في الحرارة، الذي يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء.

﴿وَغَسَّاقًا﴾ الغساق: شراب منتن الرائحة، شديد البرودة، فيُجمع لهم -والعياذ بالله- بين الماء الحار الشديد الحرارة، والماء البارد الشديد البرودة، ليذوقوا العذاب من الناحيتين.

وقيل: إن المراد بالغساق صديد أهل النار، وما يخرج من أجوافهم من النتن والعرق وغير ذلك.

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي: يجزون بذلك جزاءً موافقاً لأعمالهم السيئة من غير أن يُظلموا، فذكر انحرافهم في العقيدة وانحرافهم في القول، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: لا يؤملون أن يحاسبوا، ولا يخافون يوم الحساب فلم يعملوا له، بل ينكرون البعث والحساب.

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ وكذبوا بما جاءت به الرسل من البينات والهدى والبعث والنشور، تكذيباً واضحاً صريحاً.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ يشمل ما يفعله الله ﷻ من الخلق والتدبير في الكون، ويشمل ما يعمله العباد من أقوال وأفعال، ويشمل كل صغير وكبير.

﴿أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ ضبطناه بالإحصاء الدقيق الذي لا يختلف، وكتبناه في اللوح المحفوظ.

وفيما ذكره الله - عز جل - عن حال أهل النار من التخويف والتحذير، ما يكون رادعاً وحاجزاً عن المعاصي والآثام، قال تعالى:

﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أي: يقال لأهل النار للإهانة والتوبيخ: ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه، ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾، فهم في مزيد

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا
دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً
حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ
مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ
إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن
شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ
ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾
فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾
تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾
يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟
تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ
﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾

٥٨٣

من العذاب أبداً، قال المفسرون: ليس في القرآن على أهل النار آية هي أشد من هذه الآية، كلما استغاثوا بنوع من العذاب أغيثوا بأشد منه.

* ثم لما ذكر ﷻ ما أعده لأهل النار من العذاب، انتقل من ذكر حال الطغاة إلى حال التقاة، ومن حال الأشقياء إلى حال السعداء، فذكر حال المؤمنين وما هم فيه من النعيم، فقال سبحانه:

﴿٣١﴾-﴿٣٦﴾ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا * جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المتقون هم الذين اتقوا عقاب الله، وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿مَفَازًا﴾ المفاز: هو مكان الفوز وزمان الفوز أيضاً، فهم فائزون في أمكنتهم، وفائزون في أيامهم.

ثم بيّن تعالى شيئاً من هذا الفوز وهذا النعيم، فقال:

﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾.

﴿حَدَآئِقَ﴾ جمع حديقة أي: بساتين، أشجارها عظيمة وكثيرة ومنوعة من النخيل وغيرها.

﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ الأعناب جمع عنب، وهي من جملة الحدائق، لكنه خصها بالذكر لشرفها وكثرتها في تلك الحدائق. ثم ذكر تعالى أن لهم في الجنة زوجات على مطالب النفوس:

﴿وَكَوَاعِبَ﴾ الكواعب جمع كاعب، وهي الفتاة التي تبيَّن وبرز ثديها ولم يتدل، بل برز وظهر كالكعب، وهذا أكمل ما يكون في جمال الصدر.

﴿أَتْرَابًا﴾ أي: على سن واحدة، لا تختلف إحداهن عن الأخرى كبراً كما في نساء الدنيا، ومن عادة الأتراب أن يكنَّ متآلفات متعاشرات.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي: كأساً ممتلئة، والمراد بالكأس هنا كأس الخمر، وخمر الآخرة غير خمر الدنيا.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ لا يسمعون في الجنة لغواً، أي كلاماً باطلاً لا خير فيه، بل يقال لهم: سلاماً سلاماً.

﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾ أي: ولا كذباً، فلا يكذبون، ولا يُكذب بعضهم بعضاً؛ لأنهم على سرر متقابلين قد نزع الله ما في صدورهم من غل وجعلهم إخواناً.

وكل ما نالهم من النعيم والخير المقيم إنما هو تفضل وجود من ربهم ﷻ، وثواباً على أعمالهم الصالحة، فإن ما هم فيه إنما هو:

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: إنهم يجزون بهذا؛ جزاء من الله ﷻ على أعمالهم الحسنة التي عملوها في الدنيا، واتقوا بها محارم الله. وقد ورد في الآية كلمة (الرب) والرب هو المربي والمعطي والقيم، ولهذا لم تقترن كلمة العطاء في القرآن كلمة بغير لفظ الرب ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾.

﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي: كافياً وافياً شاملاً كثيراً بسبب أعمالهم التي وفقهم الله لها، وجعلها ثمناً لجنته ونعيمها، ثم قال تعالى:

﴿٣٧﴾-﴿٤٠﴾ ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا * يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا * ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا * إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يخبر سبحانه عن عظمته وجلاله وأنه هو رب كل شيء. فهو رب السماوات السبع الطباق الذي خلقها ودبرها

وأحكم صنعها، ورب الأرض، وهي سبع كما ثبت ذلك في السنة، وهو الذي أنعم على عباده بالنعم العظيمة، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء.

الرب هو المربي والمعطي والقيم، ولهذا لم تقترن كلمة العطاء في القرآن كله بغير لفظ الرب.

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ما بين السماوات والأرض من المخلوقات العظيمة، كالغيوم والسحب والأفلاك وغيرها مما نعلمه، ومما لا يعلمه إلا الله ﷻ.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عطف بيان، وهو ذو الرحمة الواسعة الشاملة، الذي رحمته وسعت كل شيء، فرباهم، ورحمهم، ولطف بهم، حتى أدركوا ما أدركوا. ثم ذكر عظمته وملكه العظيم يوم القيامة، وأن جميع الخلق كلهم ذلك اليوم ساكتون لا يتكلمون.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ يعني: إن الناس لا يملكون الخطاب من الله، فلا يقدر أحد أن يخاطبه في دفع بلاء، أو رفع عذاب، ولا يستطيع أحد أن يتكلم إلا بإذن الله هيبة وجلالاً، وذلك:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ وهو جبريل.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ والملائكة صفوفاً، صفاً بعد صف خاضعين لله.

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: لا يتكلمون ملائكة ولا غيرهم إلا بما أذن لهم الله به، فإنه يتكلم كما أذن له.

﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي: قال قولاً صواباً، موافقاً لمرضاة الله ﷻ، وذلك بالشفاعة، إذا أذن الله لأحد أن يشفع، شفع فيما أذن له فيه على حسب ما أُذن له، فلا يتكلم أحد في ذلك الموقف العظيم إلا بهذين الشرطين: أن يأذن الله له في الكلام، وأن يكون ما تكلم به صواباً.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ذلك الذي أخبرناكم عنه، هو اليوم الحق الذي لا يروج فيه الباطل ولا ينفع فيه الكذب.

ثم لما رغب ﷻ ورهب، وبشر وأنذر، وأبان وأوضح، قال سبحانه:

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ فمن شاء عمل عملاً يؤوب به إلى الله، ويرجع به إليه فليفعل، وهو حث وترغيب.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ أي: خوفناكم وحذرناكم من عذاب قريب، وهو يوم القيامة.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: كل امرئ ينظر ما قدمت يداه، وما عمل في الدنيا مثبت في صحيفته.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى﴾ يقول الكافر تحسراً وندامة: ليتني لم أخلق، أو ليتني لم أبعث، بل ليتني:

﴿كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ أي: يود الكافر أنه كان في الدنيا تراباً فلم يخلق، ولم يبعث ويحاسب ويعاقب، قال المفسرون: وذلك حين يحشر الله الحيوانات يوم القيامة فيقتصُّ للجمّاء من القرناء، وبعد ذلك يصيرها تراباً، فيتمنى الكافر أن لو كان كذلك حتى لا يُعذب.

وفي تلك الآيات من ذكر العذاب للكفار والعصاة، ومن النعيم للمؤمنين ما يُخوف ويحذر من عذاب الآخرة، وما يجعل المسلم يرجو رحمة ربه بالعمل الصالح الخالص لوجهه، الموافق لسنة نبيه، فإن المرء ينظر يوم الجزاء والحساب ما قدمت يداه من أعمال عملها في حياته، ويفرح المؤمن بما وعده الله من النعيم، ويتمنى الكافر حين يرى العذاب وهوله وشدته أنه كان تراباً.

تم تفسير سورة النبأ
والحمد لله

تفسير سورة النازعات
وهي مكية

* سورة النازعات سورة مكية، نزلت في مكة، تُعنى بأصول العقيدة من الوحدانية والرسالة، والبعث والجزاء، فإنه سبحانه خلق الخلق، وبعث لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ليبينوا للناس الطريق الحق والصراط المستقيم، وليحذروهم من الشرك والطغيان والعصيان، ومن تمام عدل الله ﷻ أن جعل بعد دار الدنيا موعداً يلقى فيه كل إنسان جزاءه وفاقاً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفي الآيات اللاحقة يبين ﷻ حال الكفار عند النفخ في الصور، وبعث الناس من قبورهم في ذلك اليوم العظيم، قال تعالى:

(١)-(١٤) ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا * وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا * وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا * فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا * فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ *

أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً * قَالُواْ تِلۡكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ * فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾.

﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرۡقٗا﴾ أقسم سبحانه بالملائكة الموكلة بقبض أرواح الكفار تنزعها نزعاً شديداً بالغاً أقصى الغاية في الشدة والعسر.

﴿وَٱلنَّـٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ يعني: الملائكة الموكلة بقبض أرواح المؤمنين، تنشطها نشطاً: أي تسلها برفق وسهولة.

﴿وَٱلسَّـٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ هي: الملائكة تسبح بأمر الله، أي تسرع فيه كما يسرع السابح في الماء.

﴿فَٱلسَّـٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ أيضاً هي: الملائكة تسبق غيرها إلى أمر الله ﷻ، أو الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ وصف للملائكة؛ تدبر الأمر من السماء إلى الأرض بأمر الله من الأمطار والنبات، والأشجار، والرياح، والبحار، والأجنة، والحيوانات، والجنة، والنار وغير ذلك؛ أقسم سبحانه بهذه الأوصاف الخمسة على أن القيامة حق، وجواب القسم محذوف تقديره: لتبعثُنّ، ولتحاسبنّ، وقد دل عليه قوله تعالى:

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ وهما النفختان في الصور، النفخة الأولى: الراجفة، ترجف الناس ويفزعون، ثم يموتون عن آخرهم إلا من شاء الله، والنفخة الثانية التي تعقب الأولى هي: الرادفة، يبعثون من قبورهم، فيقومون منها أحياء من قبورهم مرة واحدة، وهم في حالة شديدة من الاضطراب، بادٍ عليهم الذل، يجتمع عليهم الخوف والانكسار، والرجفة والانهيار، قال تعالى:

﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ۝١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾.

﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ هذه حال القلوب في ذلك الموقف العظيم، فزعة مضطربة خائفة خوفاً شديداً، لما عاينت وأبصرت من أهوال يوم القيامة.

﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾ يعني: أبصار أصحابها ذليلة حقيرة، لا تكاد تحدق أو تنظر بقوة من هول ما ترى، قد غضت أبصارهم لذلهم، وغلب عليهم التأسف واستولت عليهم الحسرة.

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ هذا يقوله المنكرون للبعث إذا قيل لهم: إنكم تبعثون، يقولون: أنرد إلى أول حالنا وابتداء أمرنا فنصير أحياء بعد موتنا، وبعد كوننا في حفر القبور.

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ﴾ أي: كيف نبعث بعد أن كنا عظاماً بالية فتاتاً؛ سنرد ونبعث من جديد.

﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾ استبعد منكرو البعث؛ أن يبعثهم الله ويعيدهم؛ وقالوا: إن رُددنا بعد الموت لنخسرن بما يصيبنا من الجزاء مما يقوله محمد. قال الله ﷻ في بيان سهولة هذا الأمر عليه:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ أي: إنما هي صيحة واحدة، وهي النفخة الثانية، زجرة من الله ﷻ يزجرون ويصاح بهم، فيقومون من قبورهم قيام رجل واحد على ظهر الأرض بعد أن كانوا في بطنها.

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ أي: فإذا الخلائق جميعاً أحياء على وجه الأرض بعدما كانوا في باطنها. والساهرة: أرض بيضاء يأتي بها الله سبحانه فيحاسب عليها الخلائق.

* ثم لما ذكر الله ﷻ أحوال الكفار وما يصيبهم في ذلك اليوم، ساق قصة موسى عليه السلام وما أمره الله ﷻ به من القيام بتبليغ الرسالة والدعوة إليه، وذكر ﷻ ما وجده موسى من فرعون وتكذيبه؛ مع ما أظهر من الآيات الباهرات والمعجزات الواضحات، إلا أنه طغى وتجبر، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، عبرة له، وموعظة لغيره، وفي ذكر مثل هذه الوقائع والأحداث تخويف لمن كفر برسالة محمد ﷺ، وتسلية لنبيه ﷺ بأن طريق الدعوة شاق يحتاج إلى صبر وتوكل على الله ﷻ، قال تعالى مبيناً ما جرى للأمم قبل محمد ﷺ:

۝١٥-۝٢٦ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى * ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ * فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ *

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ
إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ
أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ
ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾
ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾
وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾
أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ
مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ
مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ
﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن
ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا
﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

سُورَةُ عَبَسَ

٥٨٤

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ أسلوب تشويق وترغيب لسماع القصة، والخطاب للنبي ﷺ أو لكل من يتأتى خطابه ويصح توجيه الخطاب إليه، أي: هل سمعت -يا محمد- بخبر موسى وما جرى له، وهو ابن عمران ﷺ أفضل أنبياء بني إسرائيل، وهو أحد أولي العزم الخمسة، الذين هم: محمد ﷺ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ونوح عليه السلام.

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ ناداه الله ﷻ نداءً سمعه بصوت الله ﷻ.

﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ الوادي هو مجرى الماء، وطوى هو الوادي المطهر عند جبل الطور في سيناء، الذي كلم الله موسى عنده، وامتن عليه بالرسالة، واختصه بالوحي، فقال له:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ناداه وأمره الله ﷻ أن يذهب إلى فرعون ملك مصر، وكان يقول لقومه إنه ربهم الأعلى.

﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: زاد على حده، وتجبر، وتمرد، وعتا.

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ الاستفهام هنا للتشويق، وتشويق فرعون أن يتزكى مما هو عليه من الشر والفساد، وأصل الزكاة النمو والزيادة.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ وأدلك إلى عبادة ربك، وإلى دين الله ﷻ، وإلى توحيده، وعبادته، ومرضاته، وأكون كالدليل بين يديك الذي يسير أمامك، وأبين لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه، فتخاف الله ﷻ وتخشاه وتطيع أمره؛ على علم منك فيصير قلبك خاضعاً له، مطيعاً خاشعاً؛ لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة، ولكن فرعون امتنع مما دعاه إليه موسى. والفاء لترتيب الخشية على الهداية؛ لأن الخشية لا تكون إلا من مهتد راشد.

وفي الآيات السابقة من الفوائد: أن الله ﷻ أمر موسى عليه السلام بمخاطبة فرعون بالخطاب اللين، فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعاً وعقلاً وعرفاً، وموسى عليه السلام امتثل لما أمر به، فقال لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض، لا مخرج الأمر، وقال: ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ ولم يقل: إلى أن أزكيك، فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكي دون غيره لما فيه من البركة والخير والنماء، ثم ذكر الله ﷻ مع هذه الدعوة الرفيعة أنه أراه المعجزات الباهرات والآيات العظيمات، فقال تعالى:

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ في الكلام محذوف، أي: فذهب موسى إليه ودعاه وكلمه، فلما امتنع؛ أرى موسى فرعون الآية الكبرى، أي العظمى. والآية أن معه عصاً من خشب من فروع الشجر، فكان إذا وضعها في الأرض صارت حية تسعى، ثم يحملها فتعود عصا.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ كذب الخبر، وعصى الأمر، ثم تولى مدبراً، يسعى حثيثاً في الكيد، والمحاولة، ومبارزة الحق ومحاربته.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ حشر الناس، أي: جمعهم ونادى فيهم بصوت مرتفع ليكون ذلك أبلغ في نهيهم عما يريد منهم موسى ﷺ.

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يعني: إنا ربكم المعبود الذي لا أحد فوقي، فأذعنوا له وأقروا بباطله حين استخفهم.

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ فأهلكه الله تعالى وأخذه أخذ عزيز مقتدر جزاء إعراضه عن الحق، فنكّل به نكال الآخرة وهو عذاب النار، ونكال الأولى وهو عذاب الدنيا بالغرق.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ أي: فيما جرى من إرسال موسى إلى فرعون ومحاورته إياه، واستهتار فرعون به، واستكباره عن الانقياد وما حل به من العذاب والنكال، في ذلك كله عبرة وعظة.

﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ أي: إن هذه العبرة والموعظة ينتفع بها من يخشى الله ﷻ ويخافه، والخشية هي الخوف المقرون بالعلم.

* ثم لما انتهى الحديث عن قصة الطاغية فرعون، رجع إلى منكري البعث من كفار قريش، ومع علم المشركين بأن الله هو خالق السموات والأرض، الرزاق المحيي والمميت؛ إلا أنهم ينكرون البعث بعد الموت بعد أن تحولت أجسادهم إلى عظام بالية؛ فرد سبحانه عليهم بأن الذي خلق السموات والأرض مع عظمتها لن يعجزه بعث الإنسان ذي الجرم الصغير، فإنه لا شيء في حجمه مقارنة بالسموات والأرض، وفي هذا تقرير لهم بوجوب الإيمان بالبعث بعد الموت، وبيّن كيفية خلقه للسماء بجمل متعاقبة، فقال سبحانه:

(٢٧)-(٣٣) ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ * أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا * مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ هذا الاستفهام لتقرير إمكان البعث؛ لأن المشركين كذبوا النبي ﷺ بالبعث، أي: أأنتم أيها البشر؛ أخلقكم بعد الموت وبعثكم أشد في تقديركم، أم خلق السماء ذات الجرم العظيم والخلق القوي والارتفاع الباهر؟ التي بناها الله ﷻ، وشيدها عالية رفيعة.

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ سُمك كل شيء: قامته وارتفاعه، أي: ورفعها عن الأرض ﷻ بغير عمد، فجعلها عالية البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء.

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: جعلها مستوية، تامة، كاملة، محكمة، تحير العقول، وتذهل الألباب.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أظلم ليلها، فأصبح لا يرى إلا الظلام الأسود الحالك، وأبرز نهارها المضيء بإضاءة الشمس، فسار الناس في مصالح دينهم ودنياهم ومعاشهم وأرزاقهم.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي: بعد خلق السماوات والأرض، بسط الأرض وأودع فيها منافعها، وفسر ذلك بقوله:

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي: فجر من الأرض الأنهار والعيون، وأخرج منها مرعاها، أي: النبات الذي يُرى.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أي: جعلها راسية ثابتة في الأرض.

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ أي: كل هذه النعم العظيمة جعلها لكم ولدوابكم وأنعامكم مُسخّرة مذللة، ينتفع الإنسان بليلها ونهارها وسهولها ومائها ونباتها؛ وكل تلك النعم إلى أجل، ثم تزول.

* ولما ذكر تعالى خلق السموات والأرض، وما أبدع فيهما من عجائب الخلق والتكوين، ليقيم الدليل على إمكان الحشر عقلاً، أخبر بعد ذلك عن وقوعه فعلاً، فقال:

(٣٤)-(٤١) ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ * فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: إذا جاءت القيامة الكبرى، والشدة العظمى، وسماها طامة؛ لأنها داهية عظيمة تطم كل شيء سبقها، وتهون عندها كل شدة؛ فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ أي: يوم القيامة يتذكر حينئذ الإنسان

ما سعى، أي: ما عمله في الدنيا، يتذكره مكتوباً بكتاب، فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغمه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ أي: وأظهرت النار لأبصار الناظرين، تجيء تقاد بسبعين ألف زمام، كل زمام فيه سبعون ألف ملك يجرونها.

ثم ينقسم الناس بعد ذلك الهول العظيم، والمشهد الفظيع، إلى قسمين؛ أشقياء وسعداء، فقال:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ أي: من تجاوز الحد، بأن تجرأ على المعاصي الكبار، ولم يقتصر على ما حده الله.

﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: قدمها على طاعة الله ﷻ فصار سعيه لها، ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة وجزاءها، وهذان الوصفان هما وصفا أهل النار: مجاوزة الحد، وإيثار الدنيا وتقديمها على الآخرة، وهما متلازمان، فكل من طغى فقد آثر الحياة الدنيا، وكذلك العكس.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: فإن النار هي مأواه ومصيره، ومقره ومسكنه لا منزل له سواها.

ثم ذكر سبحانه من خاف ربه واتقاه، وما له من الكرامة والمنزلة فقال:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ يعني: خاف القيام بين يدي الله ومجازاته بالعدل، وزجر نفسه عن هواها المخالف لأمر الله ورسوله.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ الجنة التي هي دار النعيم المشتملة على كل خير وسرور، هي مقره وسكنه، أعدها الله ﷻ لأوليائه، ومن كان هذا وصفه منهم.

* ثم لما ذكر تعالى حال الناس في يوم القيامة، ذكر تساؤل الناس عن هذا اليوم العظيم ومتى يكون؟

﴿٤٢﴾-﴿٤٦﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۞ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۞ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۞ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۞ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ يعني: يسألك الناس -يا محمد-، عن القيامة استخفافاً، متى وقوعها ووصولها؟ كرسو السفينة.

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ يعني: إنه لا يمكن أن تذكر لهم متى الساعة؛ لأن علمها عند الله، ولهذا لما كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في خفائه عليهم، طوى علم ذلك عن جميع الخلق، واستأثر بعلمه، فقال:

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۞ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي: مردها ومرجعها إلى الله، فلا يعلمها أحد سواه، وليس عندك -يا محمد- علم منها، ولكنك منذر ومخوف من يخافها، وهم المؤمنون، وخصّ الإنذار بمن يخشى، لأنه هو الذي ينتفع بذلك الإنذار.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أي: إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر، يرون القيامة.

﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً﴾ يستقصرون مدة الحياة الدنيا حتى كأنها عندهم عشية. والعشية: من الزوال إلى غروب الشمس.

﴿أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ الضحى من طلوع الشمس إلى زوالها، يعني كأنهم لم يلبثوا إلا نصف يوم؛ فهم يستقصرون مدة الحياة الدنيا.

تم تفسير سورة النازعات
والحمد لله

تفسير سورة عبس
وهي مكية

* سورة عبس، سورة مكية نزلت بمكة؛ فإن الله ﷻ لما بعث نبينا محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، وأمره بتبليغه ودعوة الناس إليه والقيام بأمره، صدع ﷺ بالدعوة ودعا الناس إلى الإسلام، وتحمل في سبيل ذلك الأذى والمشقة فصبر عليها، وفي بداية دعوته، ورغبة في تبليغ هذا الدين، حرص على دعوة كبراء القوم ورؤسائهم ومن له كلمة عندهم، طمعاً في إسلامهم وتأثر الناس بهم، فأعرض ﷺ عن رجل أعمى فقير جاء إليه ليعلمه الدين، وظهرت الكراهة في وجه النبي ﷺ حين سأله، ومع أن الأعمى لم يكن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣
أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ
٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩
فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ
مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦
قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ
خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا
شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ
٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا
حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ
وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ
ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ
ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ
٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠

يرى عبوس النبي ﷺ وإعراضه، إلا أن الله ﷻ أنـزل في ذلك آيات تتلى، حيث ذكر الموقف وسطره في كتابه العظيم، قال تعالى:

١-١٦ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ * وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ * وَهُوَ يَخۡشَىٰ * فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ * كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ * مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ * بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ * كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ الضمير يعود إلى رسول الله ﷺ، أي: كلح في وجهه وقطب؛ يعني استنكر الشيء بوجهه.

﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي: أعرض في بدنه.

﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ أي: لأجل مجيء الأعمى له، والأعمى هو عبدالله ابن عمرو ابن أم مكتوم رضي الله عنه وسبب نزولها: أنه جاء إلى النبي ﷺ قبل الهجرة وهو في مكة يسأل ويتعلم منه، وكان عنده قوم من عظماء قريش يطمع النبي ﷺ في إسلامهم، ـ ومن المعلوم أن العظماء والأشراف إذا أسلموا كان ذلك سبباً لإسلام من تحتهم، وكان طمع النبي ﷺ فيهم شديداً ـ فجاء هذا الأعمى يسأل النبي ﷺ وذكروا أنه كان يقول: علمني مما علمك الله، ويستقرئ النبي ﷺ ويلح عليه، فكان النبي ﷺ يعرض عنه، وعبس في وجهه، وأصغى إلى عظماء قريش رجاءً وطمعاً في إسلامهم، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة كبراء القوم.

وقد جاءت الآية: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ بصيغة الحكاية عن أحد آخر غائب غير المخاطب، وفي هذه أسلوب رفيع في تعلم الأدب وحسن المعاتبة، وهو تلطف في حق النبي ﷺ وإجلالاً له، وفي الآيات بيان حقيقة هذه الدعوة وكرامتها وعظمتها واستغنائها عن كل أحد وعن كل سند! والعجب أن هذا في مكة، والدعوة مطاردة، والمسلمون قلة، ومع ذلك كانت المعاتبة للنبي ﷺ.

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ أي: -يا محمد-، أي شيء يريبك أن يتزكى هذا الرجل الأعمى، ويقوى إيمانه.

﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي: لعل الأعمى يتطهر من الذنوب والأخلاق التي لا تليق بأمثاله، فإذا كان هذا هو المرجو منه فإنه أحق أن يلتفت إليه.

﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ يعني: وما يدريك لعله يذكر، أي: يتعظ، فتنفعه الموعظة، فإنه رضي الله عنه أرجى من هؤلاء أن يتعظ ويتذكر.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ أما من استغنى عن الله، وعن الإيمان بماله لكثرته، واستغنى بجاهه لقوته، وهم العظماء الذين عند النبي ﷺ.

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي: تتعرض وتطلب إقباله عليك وتُقبل عليه، وتهتم بتبليغه دعوتك.

﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ يعني: ليس عليك شيء إذا لم يتزكَّ هذا المستغني؛ لأنه ليس عليك إلا البلاغ، وفيه مزيد تنفير له ﷺ من مصاحبتهم، فإن الإقبال على المدبر مخلٌّ بالمروءة.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾ أي: وصل إليك مسرعاً في المجيء، طالباً منك أن ترشده إلى الخير وتعظه بمواعظ الله، وهو يخاف الله ﷻ بقلبه لعلمه بعظمته تعالى.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ فأنت -يا محمد- تتلهى وتنشغل عنه برؤساء القوم لعلهم يهتدون.

﴿كَلَّآ﴾ يعني: لا تفعل مثل هذا، وهذه هي أول مرة يقال في القرآن للنبي ﷺ: كلا.

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي: الآيات القرآنية التي أنزلها الله على رسوله ﷺ، تذكر الإنسان بما ينفعه وتحثه عليه.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ فمن شاء ذكر ما نزل من الموعظة فاتعظ وعمل به، ومن شاء لم يتعظ ولم يعمل، قال المفسرون: كان ﷺ بعد هذا العتاب، لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبداً، وكان الفقراء في مجلسه أمراء، وكان إذا دخل عليه «ابن مكتوم» يبسط له رداءه، ويقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي».

ثم أخبر تعالى عن جلالة قدر القرآن ورفعة منزلته، فقال:

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ أي: إن هذا الذكر الذي تضمنته هذه الآيات.

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ معظمة مكرمة عند الله، والصحف جمع صحائف، والصحائف جمع صحيفة، وهي ما يكتب فيه القول.

﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ رفيعة القدر والرتبة عند الله، منزهة لا يمسها إلا المطهرون، مصونة عن الشياطين والكفار.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ السفرة الكتبة، وهم الملائكة السفراء بين الله وبين عباده، كرام على ربهم، كرام في أخلاقهم، كرام في خلقتهم لأنهم على أحسن خلقة، وعلى أحسن خُلق، كثيري الخير والبركة. والبررة: جمع بر، وهو كثير الفضل والإحسان وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأنقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلاً، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول.

* ولما ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة أنه جعل هذا القرآن العظيم محفوظاً ومنزهاً عن التحريف والتبديل، وأن السفراء في إيصال هذا الكتاب إلى الرسل هم الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء ولم يجعل للشياطين عليهم سبيلاً، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول. ذكر سبحانه بعد هذا البيان قبح جريمة الكافر وإفراطه في الكفر والعصيان مع كثرة إحسان الله إليه، وبدأ بذكر ضعف الإنسان ومبدئه ومهانته، ليعرف قدره ويطيع ربه ويصرف العبادة لمستحقها، وأن لا يتكبر ويتجبر، قال تعالى:

﴿١٧-٣٢﴾ ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ * مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ * ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ * ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ * فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: لعن، وأُهلك، والمراد بالإنسان هنا الكافر خاصة.

﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾.

﴿مَآ﴾ استفهامية، أي: ما الذي أكفره وأهلكه، أو ما أشد كفره ومعاندته للحق بعدما تبين، وهو ما هو من أضعف الأشياء.

﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ استفهام تقرير لما يأتي بعده، أي: من أيٍّ شيء خلق الله هذا الكافر حتى يتكبر على ربه، ثم وضح ذلك، فقال:

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ والنطفة هي في الأصل الماء القليل، والمراد به هنا ماء الرجل الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب يلقيه في رحم المرأة فتحمل، وهو ماء مهين، فكيف يتكبر؟

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي جعله مقدراً أطواراً: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، أو قدر أجله، ورزقه، وعمله، وشقياً أو سعيداً.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ أي: سهل خروجه من بطن أمه، أو يسر له الطريق إلى تحصيل الخير أو الشر. قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين، يعني الذكر والفرج.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ الموت مفارقة الروح للبدن، فإذا مات جعله في قبرٍ، مدفوناً ستراً عليه وإكراماً واحتراماً، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفتها على وجه الأرض.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي: إذا شاء الله ﷻ وأراد بعثه أحياه يوم النشور ليجازيه على عمله، وإنما قال: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد، فهو إلى مشيئة الله تعالى، متى شاء أن يحيي الخلق أحياهم.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي: ليرتدع وينزجر هذا الكافر عن تكبره وتجبره، فإنه لم يؤد ما فرض عليه، ولم يفعل ما كلفه به ربه من الإيمان والطاعة. ولما ذكر تعالى خلق الإنسان، ذكر بعده رزقه، ليعتبر بما أغدق الله عليه من أنواع النعم، فيشكر ربه ويطيعه، فقال:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ أي فلينظر نظرة اعتبار وتفكر إلى طعامه من أين جاء؟ ومن جاء به؟ وهل أحدٌ خلقه سوى الله ﷻ؟

* وبعد أن ذكر سبحانه البعث والحساب والجزاء، أعاد الإنسان ليتذكر ويتأمل فضل الله عليه، وفي هذا إظهار العظمة لله ﷻ وبيان بعض نعمه على عباده وأنه المنعم المتفضل، نعمه لا تعد ولا تحصى، وهو المستحق للعبادة وحده دون سواه. ثم أرشد سبحانه الإنسان إلى النظر والتفكر في طعامه وكيف وصل إليه، وفي هذا استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام، بعدما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقاً، قال تعالى:

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ يعني: من السحاب، أنزلناه من السماء على الأرض.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ بعد نزول المطر عليها تتشقق بالنبات.

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ أي: في الأرض من سائر الحبوب على اختلاف أصنافها كالبر والأرز والذرة والشعير وغير ذلك من الحبوب الكثيرة.

﴿وَعِنَبًا﴾ وهو معروف، وهو أدم، وعصيره أدم.

﴿وَقَضْبًا﴾ القت المعروف الذي تأكله الدواب.

﴿وَزَيْتُونًا﴾ الشجرة المعروفة.

﴿وَنَخْلًا﴾ النخل المعروف، يؤكل بلحاً وبسراً، ورطباً وتمراً، ونيئاً ومطبوخاً، وخص هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها.

﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ حدائق جمع حديقة. والغلب كثيرة الأشجار.

﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ يعني: ما يتفكه به الإنسان من أنواع الفواكه، كالتين والعنب والخوخ والرمان وغير ذلك. والأبّ: الكلأ؛ نبات معروف عند العرب ترعاه الإبل.

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ يعني: إننا فعلنا ذلك متعة لكم، يقوم بها أودكم، وتتمتعون أيضاً بالتفكه بهذه النعم، وذلك مدعاة إلى النظر في هذا النعيم، وأنه من الواجب شكر المنعم، وبذل الجهد في الإنابة إليه، والإقبال على طاعته، والتصديق بأخباره. وفيها استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة، على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً بالية، وأوصالاً متفرقة.

* ثم ذكر تعالى خاتمة المتاع، فقال:

(٣٣)-(٤٢) ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ يعني: صيحة يوم القيامة التي تصخ الآذان، أي: تصمها فلا تسمع، وهذا هو النفخ في الصور.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ في ذلك اليوم الرهيب يفر الإنسان من أعز الناس إليه، وأشفقهم لديه، وأحبهم إليه، لهول ذلك اليوم، يفر من أخيه شقيقه، أو لأبيه أو لأمه.

﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ أي: ويفر من الأم والأب المباشر، والأجداد أيضاً والجدات، يفر من هؤلاء كلهم.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي: زوجته.

﴿وَبَنِيهِ﴾ وهم أقرب الناس إليه وأحب الناس إليه، والفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم وخطب فظيع.

وقد بدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أحب.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ كل إنسان في ذلك اليوم مشتغل بنفسه مهتم بفكاكها لا ينظر إلى غيره، فإنه لا يفكر في

سـوى نفسـه، حتى إن الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ ليقول الواحد منهم يؤمئذ «نفسي نفسي» فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فأما السعداء؛ فهم كما ذكر سبحانه.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني يوم القيامة.

﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ من الإسفار وهو الوضوح؛ لأن وجوه المؤمنين تُسفر عما في قلوبهم من السرور والانشراح والبهجة، مما عرفوا من نجاتهم وفوزهم بالنعيم.

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ يعني متبسمة، بما رأته من كرامة الله ورضوانه وهذا من كمال سرورهم، قد بشرت بالخير والنعيم الدائم.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: وجوه الأشقياء، وهذا هو حال الفريق الثاني يوم القيامة.

﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي: شيء كالغبار والدخان؛ لأنها ذميمة قبيحة.

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي: يغشاها وتعلوها ظلمة وسواد، قد أيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها.

﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ أي: الذين هذا وصفهم، قد جمعوا بين الكفر والفجور. والفجرة: هم الفاسقون الكاذبون. قال المفسرون: جمع الله تعالى إلى سواد وجوههم الغبرة، كما جمعوا الكفر إلى الفجور.

تم تفسير سورة عبس
والحمد لله

الجُزْءُ الثَّلَاثُونَ — سُورَةُ التَّكْوِيرِ

تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ
سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ
﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا
ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ
﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ
أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾
ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾
إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ
ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ
﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾
فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن
يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

٥٨٦

تفسير سورة التكوير
وهي مكية

* سورة التكوير سورة مكية، نزلت في مكة، ذكر الله ﷻ فيها آيات وعظات وعبراً، وجعل التفكير في عجائب صنعه وعظيم خلقه من العبادات العظيمة؛ فإنه سبحانه خلق هذا الكون العظيم بنظام دقيق متناسق لا خلل فيه ولا اضطراب، وذلك من أعظم آيات الله ﷻ وجعل لهذا النظام الدقيق والصنع البديع أجلاً ينتهي إليه، حيث تتغير السموات والأرض وتفسد تلك الأجرام الهائلة، وتتغير بعض الكائنات، وكل ذلك مؤذن ببدء حياة جديدة، هي اليوم الآخر، ذكرها سبحانه في هذه الآيات، مبيناً لأهوال القيامة وما يكون فيها من الشدائد والكوارث، وما يعتري الكون والوجود من مظاهر التغير والتخريب.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي العين، فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾» [رواه الترمذي].

﴿١﴾-﴿١٤﴾ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾.

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي: جمعت ولُفَّت ومُحي ضوءُها، وجعلت مثل شكل الكرة، وهذا يكون يوم القيامة.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ يعني: تساقطت من أفلاكها، وتناثرت. وقيل: طُمس نورها.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: إن هذه الجبال العظيمة الصلبة العالية الرفيعة تكون هباءً يوم القيامة، تزول عن أماكنها، وتسيّر في الهواء حتى صارت كالهباء.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ العشار جمع عشراء، وهي الناقة الحامل التي تم لحملها عشرة أشهر، وهي من أنفس الأموال عند العرب؛ لأنها مرجوة الولد واللبن قريبة النفع، عطلت في ذلك اليوم وتركت هملاً بلا راع مع نفاستها وعظم قدرها، وذلك لما شاهدوا ورأوا من الهول العظيم.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ الوحوش جمع وحش، والمراد بها جميع الدواب، أي: بُعثت وجُمعت من أوكارها وأحجارها ليوم القيامة ذاهلة من شدة الفزع حتى يقتص لبعضها من بعض. وقيل: حشرها موتها.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ البحار جمع بحر، وجمعت لعظمتها وكثرتها. هذه البحار العظيمة إذا كان يوم القيامة فإنها تُسجر، أي توقد وتشتعل ناراً عظيمة تضطرم وتلتهب، وحينئذ تيبس.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ النفوس جمع نفس، والمراد بها نفوس الناس كلها، فتزوّج النفوس، يعني يُضم كل صنف إلى صنفه. قال الحسن: أُلحق كل امرئ بشيعته: اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوس بالمجوس، والمنافقون بالمنافقين، ويلحق المؤمنون بالمؤمنين.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ الموءودة: هي الأنثى تدفن حية، أي: تُسأل يوم القيامة سؤال تطييب لها وتبكيت لوائدها. وكانت العرب إذا ولد لأحدهم بنت، دفنها حية، مخافة العار أو الفقر.

﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ هل أذنبت؟ يوبخ قاتلها بسؤالها؛ لأنها قتلت بغير ذنب فعلته.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ الصحف جمع صحيفة، وهي ما يكتب فيها الأعمال، تنشر وتفتح، وتعرض وتبسط للحساب.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ هذه السماء العظيمة تكشط، يعني تُزال عن مكانها كما ينزع الجلد عن الشاة.

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ الجحيم اسم من أسماء النار، وسميت بذلك لبعد قعرها وظلمة مرآها، وقد أوقد عليها فاستعرت، والتهبت التهاباً لم يكن لها قبل ذلك.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ الجنة دار المتقين، قُرِّبت وأدنيت وزُيِّنت للمؤمنين.

قيل هذه الأمور الإثنا عشر: ست منها في الدنيا، وهي من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، وست في الآخرة وهي: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ إلى هنا.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ أي: كل نفس تعلم في هذا اليوم الهائل ما معها، وما لها، وما عليها، تعلم كل نفس ما قدمته من خير وشر.

* ولما ذكر الله ﷻ هذه الأحوال العظيمة، والوقائع المتلاحقة الرهيبة، أقسم ﷻ بمخلوقاته على صدق رسوله ﷺ، وأن ما نزل عليه؛ إنما هو من كلام الله ﷻ، وليس من كلام المخلوقين كما يدعي المشركون، قال تعالى:

﴿١٥﴾-﴿٢٩﴾ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ * وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ أي: أقسم بالخنس، والخنس: جمع خانسة، وهي النجوم التي تخنس، أي ترجع، فبينما تراها في أعلى الأفق، إذا بها راجعة إلى آخر الأفق فهي تختفي في أول الليل، فلا تظهر إلا بعد الظلمة.

﴿ٱلْجَوَارِ﴾ هي النجوم التي تجري في أفلاكها.

﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ النجوم التي تدخل في النهار إذا طلع، كما يدخل الظبي في «كناسه»، أي: بيته.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أي: إذا أقبل بظلامه حتى غطى الكون. وقيل: أدبر. ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: طلع وأقبل بروح ونسيم، وعمَّ بنوره الأرض، حتى صار نهاراً واضحاً. فيكون الله أقسم بالليل حال إقباله، وبالنهار حال إقباله. وهذه آيات عظام، أقسم الله بها على

علو سند القرآن، وجلالته وحفظه من كل شيطان رجيم، فقال:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هو جبريل ﷺ أشرف الملائكة عند الله تعالى، نزل بالقرآن من الله تعالى، ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة وأعظمهم رتبة عند ربه. ثم وصفه بعدة صفات، فقال:

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ وصفه الله تعالى بالقوة العظيمة، والقدرة العالية عند صاحب العرش وهو الله ﷻ. والعرش فوق كل شيء، وفوق العرش رب العالمين ﷻ.

﴿مَكِينٍ﴾ أي: ذي مكانة، أي إن جبريل ذو مكانة رفيعة، وشرف عظيم، ومكانة سامية عند الله ﷻ.

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أي: جبريل، مطاع في الملأ الأعلى هناك بين الملائكة، يرجعون إليه ويطيعونه، وهو كذلك أمين على ما كُلف به من الوحي فلا يزيد ولا ينقص.

ولما ذكر الله ﷻ فضل الرسول الملكي جبريل الذي جاء بالقرآن، ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن ودعا إليه الناس، قال تعالى:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ أي: محمد رسول الله ﷺ، يعني ليس مجنوناً كما تزعمون يا أهل مكة، وذكر محمداً ﷺ بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره وبأنه أعقل الناس وأكملهم.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: رأى محمد ﷺ جبريل ﷺ في صورته، له ستمائة جناح، بالأفق البين جانب السماء العظيم الذي هو أعلى ما يلوح للبشر.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ يعني: ما محمد ﷺ على القرآن والوحي الذي جاءه من عند الله ببخيل، لا يبخل بالوحي، ولا يقصر في التبليغ، بل يُعلِّم الخلق كلام الله وأحكامه.

* ولما ذكر سبحانه جلالة كتابه وفضله بذكر الرسولين الكريمين اللذين وصل إلى الناس على أيديهما، وأثنى الله عليهما بما أثنى، دفع عن هذا الكتاب المنزل كل آفة ونقص مما يقدح في صدقه، فقال سبحانه:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي: ليس القرآن بقول أحد من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشهب.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم ووضحت لكم.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: القرآن، إلا موعظة وتذكير، والمراد ـ بالعالمين ـ من بُعث إليهم رسول الله ﷺ.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أي: لمن أراد منكم الاستقامة، وهي الاعتدال لا يميل يميناً ولا شمالاً، أن يستقيم على هدى الله في الطريق إليه، بعد هذا البيان، الذي يكشف كل شبهة، وينفي كل ريبة، ويسقط كل عذر.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعني لا يمكن أن تشاءوا شيئاً ومنه الاستقامة، ولا تقدرون على ذلك، إلا وقد شاءه الله من قبل وقدره؛ فاطلبوا من الله التوفيق إلى أفضل طريق.

﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارة إلى عموم ربوبية الله، وأنه المالك لكل شيء سبحانه.

تم تفسير سورة التكوير
والحمد لله

تفسير سورة الانفطار
وهي مكية

* سورة الانفطار سورة مكية، ذكر الله ﷻ فيها ما أكرم به الإنسان من النعم العظيمة والآلاء الجسيمة وعرفه نعمه عليه، ومع كثرة النعم وجزيل العطاء، ربما يحمل ذلك الإنسان على معصية الله ﷻ لما يراه من تعاقب النعم وتوافر الخيرات، ولا يردعه عن ذلك مثل التذكير والاتعاظ ومعرفته بأن الأحوال تتغير، وأن الله لا يرضى أن تكون نعمه وسيلة لمقارفة المعاصي والآثام. وفي سورة الانفطار تحذير الإنسان من الاغترار بالنعم والتمادي في المعصية؛ لأن أمامه يوم عظيم، وموقف عصيب، يجازى فيه الإنسان على ما قدم وأخر من الأعمال، وهو يوم القيامة، الذي ذكر الله بعضاً من صفاته وأحواله في هذه السورة، قال تعالى:

سُورَةُ الانفِطَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ٢ وَإِذَا الْبِحَارُ
فُجِّرَتْ ٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ
وَأَخَّرَتْ ٥ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ٦ الَّذِي
خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ٨
كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ١٠ كِرَامًا
كَاتِبِينَ ١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ١٢ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ١٣ وَإِنَّ
الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ
١٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ
١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ١٩

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ٢
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ٤

٥٨٧

(١-١٢) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ * يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ يعني: تشققت لنزول الملائكة.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ أي: النجوم صغيرها وكبيرها، تنتثر وتتفرق وتتساقط لأن العالم انتهى.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي: فُجر بعضها على بعض وأصبحت بحراً واحداً وملأت الأرض.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي: بحثرت وقلب ترابها، وأخرج ما فيها من الأموات، أحياء يسيرون ليوم عظيم.

ومع التبدل والتحول في هذا العالم ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفياً وتعلم كل نفس ما أحضرت. قال تعالى:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ علمت كل نفس ما قدمت وأخرت، وذلك بما يُعرض عليها من الكتاب، وعلمت ما قدمت من عمل خير أو شر.

* ثم ذكر الله ﷻ عن جحود الإنسان وكفرانه لنعمه، وهو يتلقى فيوض النعمة منه ﷻ، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها، ولا يعرف لربه قدره، ولا يشكره على الفضل والنعمة والكرامة.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾ المراد بالإنسان هنا الكافر، وقيل: الإنسان من حيث هو إنسان، وناداه سبحانه بصفة الإنسان لما أودع فيه من العقل وميزه به عن سائر المخلوقات.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ يعني: أي شيء خدعك وسول لك حيث تكذب بالبعث، وتعصي الله في الأمر والنهي، أتهاوناً منك في حقوقه؟ أم احتقاراً منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟ وقيل: إنه سبحانه ذكر ﴿الْكَرِيمِ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته لأنه لا ينبغي مقابلة الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور. وتأمل في سر التعبير بقوله ﴿بِرَبِّكَ﴾ دون قوله «الله» فإن في هذه اللفظة من معاني الملك والرعاية والرفق التي تناسب تذكير الإنسان بنعم الله عليه، وتذكير باستحقاقه تعالى لطاعة مربوبيه.

﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ أي: أليس هو الذي خلقك من نطفة ولم تك شيئاً، وأوجدك من العدم ولم تك شيئاً.

﴿فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ جعلك مستوي الخلقة تسمع وتبصر وتعقل، وجعلك معتدل القامة حسن الصورة، وجعل أعضاءك متعادلة متناسبة.

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ أي: الله ركبك في أي صورة شاء، وهذا من نعم الله على الإنسان أنه سوى خلقه وحسن صورته.

ومع هذا العطاء الجزيل والنعم المتتالية إلا أن هناك من يجحد هذه النعمة ويصرف العبادة لغير الله.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾.

﴿كَلَّا﴾ للردع والزجر عن الاغترار بكرم الله وجعله ذريعة إلى الكفر به، يعني: مع هذا الخلق والإمداد والإعداد.

﴿تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ أي: لا تصدقون بالجزاء والحساب.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ أي: من الملائكة يحفظون ويكتبون أعمالكم.

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ كراماً على ربهم، يكتبون ويدونون أقوالكم وأعمالكم.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ إما بالمشاهدة إن كان فعلاً، وإما بالسماع إن كان قولاً، بل إن عمل القلب يطلعهم الله عليه فيكتبونه.

* ثم لما ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة النعم العظيمة، ووجوب طاعة الله ومراقبته، وأن كل ما يعمله الإنسان محصيّ ومكتوب له أو عليه، ذكر منازل المطيعين ومنازل العاصين، فقال سبحانه:

﴿١٣﴾-﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ هذا بيان للنهاية والجزاء. والأبرار جمع بر وهم كثيرو فعل الخير والطاعات، المتباعدون عن الشر، القائمون بحقوق الله وحقوق عباده؛ فإنهم في نعيم في القلب، ونعيم في البدن.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ وإن الكفار الذين كفروا بربهم وقصروا في حقوق الله وحقوق عباده، لفي نار حامية محرقة.

﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يدخلونها ويحترقون بها يوم الجزاء، وذلك يوم القيامة.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أي: لن يغيبوا عنها فيخرجوا منها؛ بل هم ملازمون لها.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ هذا الاستفهام للتفخيم والتعظيم.

﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تأكيد: أي: ما أعلمك ما يوم الحساب والجزاء وما فيه من أهوال وشدائد، ثم يأتي الجواب الواضح، يبين حال الإنسان وواقعه في ذلك اليوم.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ يوم القيامة لا أحد يملك لأحد شيئاً، لا بجلب خير، ولا بدفع ضرر إلا بإذن الله ﷻ.

﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي: في الآخرة الأمر لله ﷻ ولا تملك نفس لنفس شيئاً إلا بإذن الله، والله ﷻ يتفرد به سبحانه، لا يُملك أحداً في ذلك اليوم شيئاً كما ملكهم في الدنيا، ولا يقهره قاهر ولا ينازعه أحد.

تم تفسير سورة الانفطار
والحمد لله

تفسير سورة المطففين
وهي مكية

* سورة المطففين سورة مكية، فيها إقامة العدل ونشره، والتحذير من الظلم ونبذه، فالله ﷻ حكم عدل لا يرضى بالظلم، ولا يرضاه لعباده حتى في أقل الأمور وأصغرها شأناً، ولهذا ذكر التخويف والوعيد لمن فسدت أخلاقه ولم يراقب الله ﷻ وظلم الناس ولو بالقليل، ومن أولئك أصحاب الأموال، وأهل البيع والشراء، الذين يظلمون الناس بغشهم وخداعهم، فهم يأخذون المال من الناس كاملاً، ويعطونهم أقل من حقهم من المُباع، فحذرهم وذكرهم بيوم القيامة حتى لا يتمادوا، ويتوبوا من تطفيف الكيل والميزان، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله سبحانه: "ويل للمطففين" فأحسنوا الكيل بعد ذلك» [رواه ابن ماجه].

وفي القرآن سورتان بدأ الوعيد فيها بـ ﴿وَيْلٌ﴾ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ و﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ الأولى في حفظ أموال الناس، والثانية في حفظ أعراضهم.

﴿١﴾-﴿٦﴾ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَيْلٌ﴾ الويل: الهلاك، وهي كلمة وعيد وعذاب، يتوعد الله ﷻ بها من خالف أمره، قال ابن عباس: إنه وادٍ في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار.

﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ التطفيف: النقص من الكيل أو الوزن شيئاً طفيفاً، والمطففين هم الذين يفعلون ذلك، وتُفسر الآيتان التاليتان معنى المطففين فهم:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: إذا اشترى الناس منهم ما يكال استوفوا منهم الحق كاملاً بدون نقص.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ يعني: إذا كالوا للناس، أي: هم الذين باعوا الطعام كيلاً، أو وزنوا لهم وزناً.

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ
ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ٩
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ١١ وَمَا يُكَذِّبُ
بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ
١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ
يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا
ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ١٨
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ٢١
إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعْرِفُ فِى
وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ٢٥ خِتَٰمُهُۥ
مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن
تَسْنِيمٍ ٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ٢٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟
مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ٣٠
وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟
إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ٣٣

﴿يُخْسِرُونَ﴾ ينقصون الكيل والوزن؛ فهؤلاء يستوفون حقهم كاملاً، وينقصون حق غيرهم، فجمعوا بين الأمرين، بين الشح والبخل. وقد أهلك الله قوم شعيب لبخسهم المكيال والميزان، وإذا كان هذا الوعيد على الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان، فالذي يأخذ أموالهم قهراً أو سرقة أولى بهذا الوعيد من المطففين. قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: الصلاة مكيال من وفّى وفِّي له، ومن طفف فقد علمتم ما قال الله في المطففين.

وبعد أن ذكر الله عز وجل المطففين وكيف هي أعمالهم توعدهم، وتعجب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه، فقال سبحانه:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ يقال لهم توبيخاً: ألا يتيقن هؤلاء ويعلمون علم اليقين، أنهم مبعوثون ومخرجون من قبورهم لله رب العالمين، فمسؤولون عما يفعلون ومجازون عليه.

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة، عظيم في أهواله، وفيما يحدث فيه.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في هذا اليوم العظيم يقوم الناس لله عز وجل من قبورهم حفاة ليس عليهم نعال ولا خفاف؛ عراة ليس عليهم ثياب، ولا قُمص ولا سراويل ولا أزر ولا أردية، وفي هذا الوعيد دلالة على عظم ذنب التطفيف ومزيد إثمه وفظاعة عقابه.

* ولما ذكر الله عز وجل يوم القيامة وقيام الناس فيه لرب العالمين، وذكر مصيرهم فيه، وأنهم ينقسمون إلى قسمين: فجار، وأبرار، ابتدأ بالفجار لدناءة أعمالهم وسوء مآلهم، فقال سبحانه:

٧-١٧ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ كلا: كلمة ردع وزجر، أي: حقاً، إن الفجار ومنهم المطففون مكتوبون في سجل أهل النار، أو في حبس وضيق في أسفل سافلين.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ الاستفهام هنا للتعظيم والتهويل، أي ما الذي أعلمك بسجين؟ وهل بحثت عنه؟ وهل سألت عنه حتى يبين لك؟ أنه مكتوب مفروغ منه، لا يزاد فيه ولا ينقص، ولا يبدل.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ويل: كلمة عذاب وعقاب، ثم بين المكذبين بأنهم:

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ الذين لا يصدقون بيوم الجزاء وهو يوم القيامة.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ﴾ أي: ما يكذب بيوم الدين وينكره.

﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾.

﴿مُعْتَدٍ﴾ على محارم الله، متعد من الحلال إلى الحرام.

﴿أَثِيمٍ﴾ أي: كثير الإثم، فهذا الذي يحمله عدوانه على التكذيب، ويحمله كبره على رد الحق، وقيل: ﴿مُعْتَدٍ﴾ في أفعاله، ﴿أَثِيمٍ﴾ في

كسبه، أي إن مآله إلى الإثم، ثم وضح إجرامه، فقال:

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني إذا تلاها عليه أحد، وهذا يدل على أن هذا الرجل لا يفكر أن يتلو آيات الله، ولكنها تتلى عليه، فإذا تليت عليه وهي آيات دالة على صدق ما جاءت به رسله، كذبها، وعاندها، وقال استخفافاً: هذه أساطير الأولين وأحاديثهم وأباطيلهم.

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ كلا: للردع والزجر للمعتدي، أي: اجتمع عليها وحجبها عن الحق.

﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الأعمال السيئات، كثرت عليهم السيئات فأحاطت بقلوبهم. قال المفسرون: والرَّان: هو الذنب على الذنب حتى يسوِّد القلب.

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي: حقاً إنهم عن رؤية ربهم وخالقهم لمحجوبون، وذلك في يوم القيامة، فإنهم يحجبون ويمنعون عن رؤية الله ﷻ كما حُجبوا عن رؤية شريعته وآياته في الدنيا فرأوا أنها أساطير الأولين.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ أي: إن هؤلاء الفجار مع هذه العقوبة البليغة، يصلون النار وذائقوا حرارتها أو عذابها.

﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ أي: يقول لهم خزنة النار؛ تقريعاً لهم وتوبيخاً.

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: العقاب، وهو النار، الذي كنتم لا تصدقون به وتنكرونه؛ فيجتمع عليهم العذاب البدني والألم البدني بصلي النار، وكذلك العذاب القلبي بالتوبيخ والتنديم حيث يقال: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ وفي هذه الآيات، التحذير من الذنوب، فإنها ترين على القلب وتغطيه شيئاً فشيئاً، حتى تطمس بصيرته، فتنقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، وهذا من أعظم عقوبات الذنوب.

* ولما ذكر الله ﷻ المآل الذي يؤول إليه الفجار -والعياذ بالله- ذكر الأبرار ومنزلتهم وما أعده الله ﷻ لهم، فقال:

﴿١٨﴾-﴿٢٨﴾ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ * وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ الأبرار هم المؤمنون الصادقون العاملون بالبر والتقوى، وكتاب الأبرار في عليين في أعلى الجنة، يوحي بالعلو والارتفاع.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ أي: ما الذي أعلمك -يا محمد- ما عليون؟ على جهة التفخيم والتعظيم.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي: إن كتاب الأبرار الذي فيه أسماؤهم كتاب مرقوم مكتوب لا يتغير ولا يتبدل.

﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يشهده أي: يحضره المقربون عند الله، وهم الذين تقربوا إلى الله ﷻ بطاعته من الملائكة الكرام وأرواح الأنبياء، والصديقين والشهداء.

* ثم يذكر ﷻ حال الأبرار أنفسهم، أصحاب هذا الكتاب الكريم، ويصف ما هم فيه من نعيم في ذلك اليوم العظيم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ إن في اللغة من أدوات التوكيد، الأبرار: جمع بر، والبر كثير الخير، كثير الطاعة.

﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ النعيم هنا يشمل نعيم البدن ونعيم القلب.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ الأرائك جمع أريكة، وهي السرير المزخرف المزيّن بالفرش الحسان؛ ينظرون إلى ما أنعم الله به عليهم من النعيم الذي لا تدركه الأنفس، وقيل: ينظرون إلى ما أعد الله لهم من الكرامات وأعظمها النظر إلى وجهه الكريم.

﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ تعرف أيها الناظر إليهم، إذا رأيتهم أنهم من أهل النعمة، لما تراه في وجوههم من النور والحسن ومن بهجة السرور ورونقه.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ يعني: الأبرار، يسقيهم الله ﷻ بأيدي الخدم، من شراب خالص من الخمر لا شوب فيه ولا ضرر فيه على العقل.

﴿مَّخۡتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ﴾ أي: بقيته وآخره مسك، أي: طيّب الريح.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ وفي هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم الذي لا يعلم مقداره وحسنه إلا الله، فليتسابق المتسابقون، سباقاً يصل بهم إلى حد النفس، والتنافس: التشاجر على الشيء والتنازع فيه، فيريده كل واحد لنفسه، ويضن به لعظم منزلتهم وما ينالهم من النعيم، عكس حال المطففين الذين يتنافسون على جمع حطام الدنيا من أوجه محرمة، ومن أكل أموال الناس بالباطل.

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾ مزاج هذا الشراب الذي يُسقاه هؤلاء الأبرار، من عين رفيعة معنى وحسّاً، وهي أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه، تسمى «التسنيم»، ولهذا قال بعده:

﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أي: إن هذه العين والمياه النابعة والأنهار الجارية يشرب منها ويروى بها المقربون صرفاً، ويمزج منه الرحيق الذي يشرب منه الأبرار، فدل ذلك على أن درجة المقربين فوق درجة الأبرار. قال ابن تيمية: ولم يقل: (منها) لأن الشارب قد يشرب ولا يروى، فإذا قيل ﴿يَشۡرَبُ بِهَا﴾، كان المعنى يروون بها.

* وبعد سياق هذا النعيم المقيم وما فيه من النعم والكرامة، يذكر الله ﷻ حال وموقف الفجار من المسلمين الذين يسخرون من الذين آمنوا في الدنيا، وختم بأن الجزاء من جنس العمل، حيث ذكر حال هؤلاء المجرمين المستهزئين في الدنيا بالمؤمنين، ثم ذكر حال المؤمنين يوم القيامة يتفرجون عليهم وهم يُعذبون، وفي تقديم النعيم والجزاء قبل ذكر الأذى والاستهزاء مدعاة إلى الصبر والتحمل، قال تعالى:

۲۹-۳٦ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ * وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ * فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ * عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ وهم الكفرة، قاموا بالجرم وهو المعصية والمخالفة.

﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ أي: في الدنيا يضحكون استهزاءً وسخرية واستصغاراً للمؤمنين.

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾ إذا مر المجرمون بالمؤمنين يغمز بعضهم بعضاً، انظر إلى هؤلاء، سخرية واستهزاء واستصغاراً، وأنهم لضالون لإيمانهم بمحمد وتركهم شهوات الحياة.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ إذا رجع وانصرف المجرمون إلى أهلهم وقد تهكموا واستهزؤوا بالمؤمنين؛ رجعوا متفكهين معجبين بما نالوه من السخرية بهؤلاء المؤمنين.

﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي: رأى المجرمون المؤمنين؛ قالوا إن هؤلاء لضالون عن الصواب، متأخرون، متزمتون، متشددون، إلى غير ذلك من الألقاب التي تتكرر في كل زمان ومكان.

﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أي: إن هؤلاء المجرمين ما بعثوا وكلاء حافظين لهؤلاء المؤمنين يرقبونهم ويحكمون عليهم، بل الحكم لله ﷻ.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ اليوم هو يوم القيامة، أي: في هذا اليوم الذين آمنوا يضحكون من الكفار؛ لما وجدوا من النعيم وحسن الثواب على صبرهم.

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي: إن المؤمنين على الأرائك في الجنة، والأرائك هي السرر الفخمة الحسنة، ينظرون ما أعد الله لهم من الثواب.

﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.

﴿ثُوِّبَ﴾ أي: جوزي، و﴿هَلۡ﴾ هنا للتقرير، أي: إن الله تعالى قد عاقب الكفار وجازاهم جزاء فعلهم في الدنيا، فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، ورأوهم في العذاب والنكال، الذي هو عقوبة الغي والضلال.

تم تفسير سورة المطففين
والحمد لله

تفسير سورة الانشقاق
وهي مكية

* سورة الانشقاق سورة مكية، ذكر الله ﷻ فيها أهوال وأحوال

القيامة؛ وهي اليوم المهول الذي يُجازى فيه العباد على أعمالهم، فإن الله ﷻ خلق الخلق لعبادته وطاعته، وجعل لهم أمداً وأجلاً يرجعون إليه فيه، فيحاسب المرء على ما قدم، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر، وذلك يوم القيامة حيث تقع فيه الأهوال العظيمة، وتحدث كوارث وشدائد كما ذكر الله ﷻ في وصفها، وهذه الآيات وأمثالها آيات دالة على ربوبية الله ﷻ، مستلزمة للعلم بصفات كماله، وعظيم قدرته، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿١٥﴾ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ * فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا * إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا * إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ * بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ انشقت: أي: انفتحت وانفرجت وتصدعت وتقطعت، وانتثرت نجومها، وخُسف بشمسها وقمرها وهذا من علامات القيامة.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أذنت: بمعنى استمعت، وأطاعت أمر ربها ﷻ، وحق لها أن تأذن، أي تسمع وتنقاد وتطيع فإنها مسخرة مدبرة تحت مُسخر ملك عظيم، لا يُعصى أمره، ولا يخالف حكمه.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ تأكيداً لاستماعها لربها، واستسلامها وطاعتها له.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: بُسطت، ودكت جبالها حتى صارت واسعة جدّاً، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي: جثث بني آدم تلقيها يوم القيامة، وخلت الأرض غاية الخلو حتى لم يبق شيء في بطنها وذلك يُؤذن بعظم الهول.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أذنت: يعني استمعت وأطاعت لأمر ربها مثلما أطاعت السماء لربها وحقت.

ثم ذكر الله ﷻ حال الإنسان وأنه جاهدٌ ومجد في أعماله التي عاقبتها ونهايتها الموت، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المراد: جنس الإنسان الذي خلقه ربه بإحسان، وميزه بالعقل والإدراك.

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ الكادح: هو الساعي بجد ونوع مشقة، أي: إنك تكدح أيها الإنسان كدحاً بوصلك إلى ربك فإليه المرجع وإليه المآب.

﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ أي: فما أسرع أن تلاقي الله ﷻ، ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر.

* وقد ذكر الله ﷻ بعد هذه الآيات العظيمة حال الناس بعد الحساب والجزاء، حيث ذكر أهل اليمين من يؤتى كتابه بيمينه وهذه علامة السعادة، وأهل الشمال من يؤتى كتابه وراء ظهره، فقال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي: من أعطي كتابه بيمينه وهو المؤمن.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أي: يحاسبه الله تعالى بإحصاء عمله عليه، لكنه حساب سهل يسير، يُجازى على حسناته، ويتجاوز عن سيئاته، فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظن أنه قد هلك، قال الله تعالى:

الجُزْءُ الثَّلَاثُونَ سُورَةُ الانشِقَاقِ

فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى
ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

سُورَةُ الانشِقَاقِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ
﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ
كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ
إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ
يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾
إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ
بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾
لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ
عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ
﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾

٥٨٩

«إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا أسترها لك اليوم».

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ ينقلب ويعود من الحساب إلى أهله من الزوجات والحور العين في الجنة، مسروراً مبتهجاً بما أعطاه الله من الخير والكرامة.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ هؤلاء هم الأشقياء والعياذ بالله، يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره وليس عن يمينه، لأن يمينه مغلولة إلى عنقه وهذه علامة الشقاوة.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ أي: إذا قرأ كتابه يدعو على نفسه بالثبور، من كلمات الندم والحسرة والخزي ويتمنى الهلاك والموت.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي: يصلى النار التي تُسعَّر به ويقاسي عذابها وحرّها، ويكون مخلداً فيها أبداً؛ لأنه كافر.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ كان في الدنيا متبعاً لهواه وركوب شهوته غافلاً لاهياً عما أمامه؛ وقد وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها، فأعقبهم به الحزن الطويل.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله، ولا يعيده بعد الموت للجزاء والحساب.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ أي: سيحور ويرجع وسيعيده الله كما بدأه، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها، فإنه كان به بصيراً عليماً خبيراً.

* وبعد أن ذكر الله ﷻ أحوال أهل الجنة وأهل النار، أتبع ذلك بذكر ما يجري ويحصل للإنسان من تحول وتغير في حياته ثم مماته حتى يبلغ جنته أو ناره؛ وفي هذا عظة وعبرة، قال تعالى:

﴿١٦﴾-﴿٢٥﴾ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ۩ ۝ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ يقسم الله تعالى بالشفق، وهو الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة.

﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أقسم سبحانه بالليل المعروف، وما جمع وضمَّ إليه، لأن الليل يجمع الوحوش والهوام وما أشبه ذلك، تجتمع وتخرج وتبرز من جحورها وبيوتها.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ يعني: اجتمع نوره وضوؤه وتم وكمل في منتصف الشهر القمري وصار بدراً ساطعاً مضيئاً.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ هذا جواب القسم، أي: لتلاقُنَّ يا معشر الناس، حالاً بعد حال، من الغنى والفقر والموت والحياة، وهي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾

قال الحسن البصري: «حالاً بعد حال، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقراً بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقماً بعد صحة».

وبعد هذه الآيات الواضحات التي يعيها البشر ويرونها صباح مساء؛ يناديهم الله ﷻ بصيغة استفهام يقصد به التوبيخ:

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ۩﴾.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أي شيء يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر بعد وضوح الدلائل وقيام البراهين على وقوعه.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الله وكلامه وهو هذا القرآن، لا يخضعون لله ﷻ فالسجود هنا بمعنى الخضوع لله والانقياد لأوامره ونواهيه.

ثم ذكر سبحانه أن ديدن الكفار التكذيب، فقال:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ أي: إن تركهم السجود، كان بسبب تكذيبهم وعدم تصديقهم لما جاءت به الرسل في البعث والجزاء، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته.

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونِۭ ﴿٢٥﴾

سُورَةُ البُرُوجِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٞ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٖ مَّحْفُوظِۭ ﴿٢٢﴾

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي: إنه ﷻ أعلم بما يوعونه، وبما يجمعونه، ويكتمونه، ويضمرونه في أنفسهم من التكذيب في صدورهم.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أخبرهم بالعذاب الأليم الذي لا بد أن يكون، وجعله بشارة تهكماً بهم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: لكن الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الصالحات.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونِۭ﴾ أي: ثواب دائم مستمر، غير مقطوع ولا منقوص، ولا يمنُّ عليهم به.

تم تفسير سورة الانشقاق

والحمد لله

تفسير سورة البروج
وهي مكية

* سورة البروج سورة مكية، ذكر الله ﷻ فيها أن هذه الدنيا سجال بين أهل الحق وأهل الباطل، وذكر سبحانه أحوال بعض الأمم السابقة وما جرى بين الفريقين، حيث ذكر قصة أصحاب الأخدود، وابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات النجوم الهائلة، ومداراتها الضخمة، التي تدور فيها الأفلاك، وباليوم العظيم المشهود وهو يوم القيامة، وبالرسل والخلائق على هلاك ودمار المجرمين، عن جابر بن سمرة: «أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر، بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق، ونحوهما» [رواه الترمذي].

قال تعالى:

﴿١﴾-﴿١٠﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ * وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ * ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ الواو حرف قسم، يقسم تعالى بالسماء وبروجها، والله ﷻ يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما المخلوق فلا يجوز له أن يُقسم بغير الله، فإن القسم بغير الله شرك.

﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ أي: صاحبة البروج، والبروج جمع برج، وهو المجموعة العظيمة من النجوم، وسميت بروجاً لعلوها وارتفاعها وظهورها وبيانها في أكمل ترتيب، وأتم نظام، دال على كمال قدرة الله تعالى ورحمته، وسعة علمه وحكمته.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ اليوم الموعود: هو يوم القيامة الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه.

﴿وَشَاهِدٍ﴾ من يشهد في ذلك اليوم من الخلائق.

﴿وَمَشْهُودٍ﴾ ما يشهد به الشاهدون على المجرمين من الجرائم الفظيعة التي فعلوها بالشهود وأنفسهم، وهم كل من قتل في سبيل الله كما في قصة أصحاب الأخدود.

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ يعني: أهلك وعذب، وهو جواب القسم، قال ابن عباس: كل شيء في القرآن «قتل» فهو لعن، وأصحاب الأخدود هم قوم كفار أحرقوا المؤمنين بالنار، حيث شقوا لهم شقّاً في الأرض وأضرموا فيه النار فألقوهم فيها وأحرقوهم.

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ أي: النار العظيمة المتأججة ذات الحطب الذي

توقد به، والتي أضرمها الكفار في تلك الأخاديد لإحراق المؤمنين.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ يعني: إن هؤلاء الذين حفروا الأخاديد وألقوا فيها المؤمنين كانوا ـ والعياذ بالله ـ عندهم قوة وجبروت، يرون النار تلتهم هؤلاء البشر وهم قعود عليها على الأسرة، فيعرضون المؤمنين على الكفر، فمن أبى ألقوه فيها، وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب؛ لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب، وحضورهم إياهم عند إلقائهم فيها.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ يعني: هم شهود على ما يفعلون بالمؤمنين، أي: استحقوا هذه العقوبة أن الله أهلكهم ولعنهم. وهذا التعدي والظلم على عباد الله الصالحين كان سببه ما ذكره الله ﷻ، والغرض تخويف كفار قريش، فقد كانوا يعذبون من أسلم من قومهم ليرجعوا عن الإسلام، فذكر الله قصة أصحاب الأخدود وعيداً للكفار، وتسلية للمؤمنين المعذبين، ثم قال تعالى:

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: ما أنكر هؤلاء الذين سعروا النار بأجساد هؤلاء المؤمنين ولا انتقموا منهم: إلا أنهم آمنوا بالله؛ العزيز هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، ولا يُضام من لاذ بجنابه. الحميد في جميع أقواله وأفعاله، فالله ﷻ محمود على كل حال، وما فعله هؤلاء الكفار ليس بذنب يستحقون به العقوبة، ولكنه الطغيان والإجرام.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الذي اختص بملك السموات والأرض خلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: مُطلع ﷻ ـ على كل شيء، وهذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود، ووعد خير لمن عذبوه على دينه من أولئك المؤمنين. ثم وعدهم وأوعدهم، وشدد تعالى النكير عليهم، وعرض عليهم التوبة، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ إن عذبوا وأحرقوا المؤمنين والمؤمنات. ثم لم يرجعوا إلى الله من معصيته إلى طاعته.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: فلهم عذاب جهنم المخزي بكفرهم، ولهم العذاب المحرق لأنهم أحرقوا أولياء الله فكان جزاؤهم مثل عملهم جزاء وفاقاً.

قال الحسن: انظر إلى حلم الله ﷻ يحرقون أولياءه، ثم يعرض عليهم التوبة.

* ثم ذكر سبحانه حال أهل السعادة بعد ذكر عقوبة الظالمين ومصيرهم، فقال:

﴿١١﴾-﴿٢٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ * إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ * ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ * وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ * بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم الذين آمنوا بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، فإن هذا هو الإيمان، وعملوا الأعمال الصالحة بجوارحهم.

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ أي: من جمع بين الإيمان وعمل الصالحات، لهم عند الله جنات متصفة بهذه الصفة.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: فإنهم يدخلون في الآخرة هذه الجنات التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، تسيل وتجري من تحت أشجارها وقصورها المياه الجارية.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه الجنات وما فيها من النعيم هو الذي به النجاة من كل مرهوب، وحصول كل مطلوب الذي لا سعادة ولا فوز بعده.

والجنة ليست اسماً لمجرد الأشجار والفواكه، والطعام والشراب، والحور العين، والأنهار والقصور فحسب، فإن

الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل. ومن أعظم نعيم الجنة: التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه، فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبداً، فأيسر يسر من رضوانه: أكبر من الجنان وما فيها من ذلك.

* ثم ذكر الله ﷻ بعد الآيات السابقة قوته وعظمته وشدة بطشه بمن خالف أمره، حيث ذكر قصة فرعون وثمود وما جرى لهما، فقال تعالى:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ يعني: أخذه بالعقاب لأهل الجرائم والذنوب والعظام بالغ الغاية في الشدة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: الله ﷻ يبدأ الخلق من العدم، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت فالأمر إليه ابتداء وإعادة.

ولما ذكر قوته وانتقامه من المخالفين وشدة بطشه، ذكر رحمته وعفوه لمن أطاعه وتقرب إليه.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ يعني: ذو المغفرة، الساتر لذنوب عباده المتجاوز عنها، والمغفرة: ستر الذنب والعفو عنه، فليست المغفرة ستر الذنب فقط بل ستره وعدم المؤاخذة عليه.

﴿ٱلْوَدُودُ﴾ مأخوذة من الود، والود هو خالص المحبة، فهو -جل وعلا- ودود. ومعنى ودود أنه محبوب وأنه حاب، كثير المحبة لمن أطاعه وفي هذا سر لطيف: حيث قرن «الودود» بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله، وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه. ثم بين عظمته وتمام سلطانه في قوله:

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ أي: صاحب العرش. والعرش هو الذي استوى عليه الله ﷻ، وهو أعظم المخلوقات وأكبرها وأوسعها، وخلقُه بهذا الوصف يدل على عظمة خالقه.

﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ المجد: هو النهاية في الكرم والفضل.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ هذا وصف الله تعالى بأنه الفعال لما يريد، إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون.

ثم لما ذكر رحمته بعباده المؤمنين ورأفته بهم، ذكر أحداث بعض الأمم السابقة، الدال على صدق ما جاءت به الرسل، فقال تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ الخطاب هنا موجه لرسول الله ﷺ أو لكل من يصح أن يتوجه إليه بالخطاب، أي: هل بلغك ما أحل الله من البأس وأنزل من النقمة التي لم يردها أحد من بالجموع الكافرة الذين تجندوا على حرب الرسل وأولياء الله، وفي ذلك مؤانسة للنبي ﷺ بذلك وتسلية، ثم بين من هم بقوله.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ يعني: هل أتاك خبر وقصة فرعون وثمود، أولي البأس والشدة وقصتهم؟ والجواب: نعم أتانا خبرهم فقد أخذهم الله بذنوبهم.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾ أي: إن الذين كفروا بمحمد ﷺ في تكذيب، وكأنهم منغمسون في التكذيب مستمرون في الكفر والطغيان.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ يعني: إن الله تعالى محيط بهم من كل جانب، لا يشذون عنه ولا عن علمه ولا عن سلطانه ولا عن عقابه. والإحاطة بالشيء: الحصر له من جميع جوانبه.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: ما جاء به الرسول ﷺ وكذب به المشركون.

﴿قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: ذو عظمة ومجد متناه في الشرف والكرم والبركة، قد سما على سائر الكتب السماوية، في إعجازه ونظمه وصحة معانيه لأنه كلام الله ﷻ، وهو ليس كما يقولون: إنه شعر وكهانة وسحر. والقرآن ذو عظمة ومجد، ووصف القرآن بأنه مجيد لا يعني أن المجد وصف القرآن نفسه فقط، بل هو وصف للقرآن ولمن تحمل هذا القرآن، فحمله وقام بواجبه من تلاوته حق تلاوته، فإنه يكون لهم المجد والعز والرفعة

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ أي: من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، يعني: بذلك اللوح المحفوظ عند الله ﷻ هو أم الكتاب وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى.

تم تفسير سورة البروج
والحمد لله

سورة الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ
﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾
خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ
رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ
﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ
لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾
وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾

سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ
﴿٣﴾ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقۡرِئُكَ
فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ
لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾

٥٩١

تفسير سورة الطارق
وهي مكية

* سورة الطارق سورة مكية، أقسم الله فيها ببعض مخلوقاته، فهو الذي خلق الخلق لعبادته وطاعته، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وجعل عليهم ملائكة يحصون أعمالهم ويدونونها، وتنشر هذه الصحائف يوم الجزاء والحساب، وقد عظَّم الله ﷻ في هذه السورة قدر السماء في أعين الخلق لكونها معدن رزقهم ومسكن ملائكته وفيها خلق الجنة، وابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات الكواكب الساطعة، قال تعالى:

(١)-(١٠) ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ * إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ * فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ * يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ * إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ * يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ * فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ أقسم الله تعالى بالسماء والطارق، وكل منهما آية من آياته الدال على وحدانيته. والطارق الكوكب، وسمي طارقاً لأنه يأتي بالليل ويختفي بالنهار.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ استفهام للتفخيم وللفت النظر إليه، أي: وما أعلمك -يا محمد- ما حقيقة هذا النجم، ثم فسره بقوله:

﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ هذا هو الطارق، والثاقب: المضيء الشديد الإضاءة. وقد كثُر منه تعالى في كتابه المجيد ذكرُ الشمس والقمر والنجوم لأن أحوالها في أشكالها، وسيرها، ومطالعها، ومغاربها، عجيبة دالة على انفراد خالقها بالكمالات، لأن الصنعة تدل على الصانع.

﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ هذا جواب القسم: أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ، عليها من أمر الله رقيب، وهم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون على كل نفس قولها وفعلها، ويحصون ما تكسب من خير وشر، وحتى يتيقن الإنسان من عظمة الله ﷻ وقدرته على ذلك، قال سبحانه:

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ الفاء للدلالة على أن كون على كل نفس حافظ، يوجب على الإنسان أن يتفكر وليتدبر خلقته ومبدأه فإنه مخلوق.

﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ أي: من أي شيء خلقه الله.

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ أي: مصبوب في الرحم، وهو ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لكن جعلهما ماءً واحداً لامتزاجهما.

﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ من بين صلب الرجل وهو ظهره، وترائب المرأة وهو موضع القلادة من الصدر.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ أي: الله ﷻ الذي أنشأه وأوجده من ماء دافق، يخرج من هذا الموضع الصعب، على رجع الإنسان وإعادته بالبعث بعد الموت، لبيّن القدرة، لا يعجز عنه، وذلك يوم القيامة.

﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ فالذي قدر على أن يخلق الإنسان من هذا الماء الدافق المهين، قادر على أن يعيده يوم القيامة يوم تمتحن وتختبر السرائر.

والسرائر: ما يُسرّ في القلوب من العقائد والنيات وغيرها.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ أي: فما للإنسان في ذلك الوقت من قوة في نفسه يمتنع بها عن عذاب الله، ولا ناصر ولا معين ينقذه مما نزل به.

* ثم أقسم تعالى قسماً ثابتاً على صحة القرآن، فقال:

﴿١١﴾-﴿١٧﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ * وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ * إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ * وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ * إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا * وَأَكِيدُ كَيۡدٗا * فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ هذا هو القسم الثاني بالسماء، والرجع هو المطر، يسمى رجعاً لأنه يرجع ويتكرر، ومعلوم أن المطر به حياة الأرض، ولولا أن الله سخره لهلك الناس وهلكت المواشي.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ الصدع هو الانشقاق، يعني التشقق بخروج النبات منه.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ أي: إن هذا القرآن لقول فاصل، وصفه الله تعالى بأنه قول فصل، بيِّن واضح يفصل بين الحق والباطل.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ أي: جد ليس بالهزل واللهو، بل هو جدٌّ كله وهو القول الذي يفصل بين الطوائف والمقالات، وتنفصل به الخصومات.

﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ يعني الكفار المكذبين للرسول ﷺ وللقرآن، فإن هؤلاء المكذبين الذين خلقوا من ماء دافق بلا حول ولا قوة.

﴿كَيۡدٗا﴾ أي: كيداً عظيماً، ويمكرون ويدبرون، في إبطال ما جاء به رسول الله ﷺ في الدين الحق.

﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ أي: أستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأجازيهم بمكرهم مكراً أشد، ويُعلم بهذا من الغالب، فإن الآدمي أضعف وأحقر من أن يغالب القوي العليم في كيده.

ثم قال ﷻ:

﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ مهل وأمهل معناهما واحد، يعني: انتظر بمهلة ولا تنتظر بمهلة طويلة، لا تعجل ولا تستبطئ الأمر، وسترى ما يحل بهم من العذاب والنكال والهلاك، وهذا منتهى الوعيد والتهديد.

تم تفسير سورة الطارق

والحمد لله

تفسير سورة الأعلى
وهي مكية

* سورة الأعلى سورة مكية، كان ﷺ يقرؤها في صلاة العيد، وفي صلاة الشفع قبل الوتر، وفي صلاة الجمعة. فيها تنزيه الله ﷻ بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وذكر قدرته، فإنه ـ جل جلاله ـ مدبر الكون، عالم الخفيات، له الكمال المطلق في أسمائه وصفاته وأفعاله، شرع لعباده أن يسبحوه بكرة وأصيلاً، وقد سبح هو نفسه مفتتح عدد من السور، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿١٣﴾ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى * ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ * فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ * سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ * وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ * فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى * ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾.

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ الخطاب هنا للرسول ﷺ.

﴿سَبِّحِ﴾ يعني: نزه الله عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته. والتسبيح والتمجيد: التنزيه واستحضار معاني الصفات الحسنى لله ﷻ.

﴿ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ الرب معناه الخالق المالك المدبر لجميع الأمور، والأعلى من العلو. ثم ذكر من أوصافه الجليلة، ومظاهر قدرته الباهرة، ودلائل وحدانيته وكماله، فقال:

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ صفة من صفات الله حيث أوجد من العدم جميع الكائنات؛ فأتقن خلقها، وأبدع

وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى (١١) ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ
فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ (١٥)
بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (١٦) وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (١٧) إِنَّ
هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ
نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ (٥) لَّيْسَ
لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ
فِيهَا لَٰغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ
مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنظُرُونَ
إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى
ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)
فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢)

٥٩٢

صنعها، وسوى ما خلقه على أحسن صورة وهيئة.

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ صفة أخرى من صفات الله حيث قدر كل شيء ﷻ فهدى، وتنقسم إلى قسمين: هداية شرعية، وهداية كونية.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ وهذه صفة ثالثة في هذه السورة من صفات الله ﷻ حيث أنزل من السماء ماء؛ فأنبت العشب والنبات الأخضر وما ترعاه الأنعام.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ أي: فبعد أن كان أخضر، جعله هشيماً جافاً أسود، وذلك أن الكلأ إذا يبس اسودّ.

وقد ذكر سبحانه فيما سبق أربعة أمور عامة: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية؛ وجعل التسوية من تمام الخلق، والهداية من تمام التقدير، وبعد ذكر دلائل قدرته ووحدانيته، ذكر فضله وإنعامه على رسوله، فقال:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ (٦) إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ هذا بشارة، ووعد من الله ﷻ لرسوله ﷺ أنه يقرئه القرآن ويجمعه في قلبه ولا ينساه.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعني: إلا ما شاء أن تنساه، فإن الأمر بيده ﷻ، وفي هذه الآية معجزة له ﷺ، لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وكان مع ذلك لا ينسى ما أقرأه جبريل عليه السلام، وهذا من أعظم البراهين على صدق نبوته ﷺ.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي: إن الله تعالى يعلم الجهر، ما يجهر به الإنسان ويتكلم به مسموعاً فلذلك يُشرِّع ما أراد، ويحكم بما يريد، ويعلم ما يكون خفياً لا يُظهر، فإن الله يعلمه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ وهذا أيضاً وعد من الله ﷻ وبشارة كبيرة لرسوله ﷺ أن ييسره لليسرى. واليسرى أن تكون أموره ميسرة، ولاسيما في طاعة الله ﷻ، فشريعته سمحة وجميع أحواله ميسرة.

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يعني ذكر الناس، ذكرهم بشرع الله وآياته وأيامه، وعظهم وأرشدهم إلى سبيل الخير، في محل تنفع فيه الذكرى والموعظة سواء حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه.

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ سيتعظ بالقرآن من يخشى الله ﷻ، ويخافه خوفاً عن علم بعظمة الخالق ﷻ وأما غير المنتفعين، فذكرهم بقوله:

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ أي: يتجنب هذه الذكرى ولا ينتفع بها الكافر المبالغ في الشقاوة.

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ الذي يصلى النار الموصوفة بأنها.

﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ وهي نار جهنم المستعرة، العظيمة الفظيعة.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي: لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة ينتفع بها، حتى إنهم يتمنون الموت فلا يحصل لهم، ثم قال تعالى:

(١٤)-(١٩) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ * بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ * إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: قد فاز من طهر نفسه بالإيمان وأخلص عمله للرحمن.

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ وذكر الله، واتصف بذكر الله وانصبغ به قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله خصوصاً

الصلاة، فصلى خشوعاً وامتثالاً لأمره.

قدم التزكي على ذكر الله والصلاة؛ لأنه أصل العمل بذلك كلـه، فإنه إذا تطهرت النفس أشرقت فيها أنوار الهداية، فعلمت منافعها وأكثرت من الإقبال عليها.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: إنكم، تفضلـون وتقدمون حياة الدنيا على الآخرة، وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل على الآخرة.

﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ الآخرة خير مـن الدنيا وأبقى، خـير بما فيها مـن النعيم والسرور الدائم الذي لا ينغص بكدر، كذلـك أيضاً هي أبقى من الدنيا؛ لأن بقـاء الدنيا قليل زائل مضمحل، بخلاف بقـاء الآخرة فإنه أبد الآبدين.

وفي ختـام الآيات تجيء الإشـارة إلى قـدم هذه الدعـوة وعراقة منبتها، وامتـداد جذورها في شـعاب الزمن، وتوحـد أصولهـا منذ القـدم، حيث رسالات الأنبياء.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: ما ذكر من كون الإنسان يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة وينسى الآخرة.

﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ثابت فيها؛ السابقة على هذه الأمة.

﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ وهـي صحف جـاء بها إبراهيـم وموسـى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ تتابع فيها أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا.

تم تفسير سورة الأعلى
والحمد لله

تفسير سورة الغاشية
وهي مكية

* سـورة الغاشية سـورة مكية، ورد عن النبي ﷺ أنـه كان يقرؤها في صلاة العيد والجمعة، وقد ذكر الله ﷻ فيها أحوال يـوم القيامة، وما فيها من الأهوال العظـام، ومصير وحال أهل السعادة وأهل الشـقاء، محذراً ومبيناً، رأفة وشفقة بالعباد حتى لا يضلوا ولا ينحرفوا. وفي هذه السـورة ذكر لبيان شيء مما يجده أهل النـار في النار، وما ينعم به أهل الجنة في الجنة، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٧﴾ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ الاسـتفهام للتشويق إلى استماع الخبر، وللتنبيـه والتفخيم لشـأنها؛ أي: قد جاءك -يا محمد-، نبـأ وخبر الداهية العظيمة التي تغشـى الناس بأهوالها. والغاشية اسم من أسماء يوم القيامة.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ أي: إن النـاس يكونون يـوم القيامة فريقين: الأول: وجوههم ذليلـة خاضعة من الخزي والفضيحة.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾

قال النسفي: «إنما خص الوجه؛ لأن الحزن والسرور إذا استحكما في المرء أثرا في الوجه».

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ عاملة عملاً يكون بـه النصب، وهو التعب ولا أجر لهم عليه، لما هم عليه في الكفر والضلال.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أي: تدخل في نار جهنم الشديدة الحرارة.

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ أي: هذه الوجوه تسـقى من عـين حارة، شديدة الحرارة.

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ أي: ليس لأهل النار طعام إلا الضريع: وهو شجر ذو شوك عظيم إذا يبس لا يرعاه ولا البهائم وهو أخبث طعام وأبشعه.

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ فلا ينفع الأبدان في ظاهـره، ولا ينفعها في باطنها، فهو لا خير فيه، ليس فيه إلا الشوك.

* وبعد أن ذكـر الله ﷻ حال أهل النـار وما يلاقونه من عذاب وشـقاء، بدأ في ذكر أصحاب الفريق الثاني، وهم أصحاب الجنة، ووصـف حالهم، وما هم فيه من النعيم والسعادة، فقال تعالى:

﴿٨﴾-﴿١٦﴾ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ﴾.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أي: وجوه أهل الخير يـوم القيامة في نعمة وكرامة؛ فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههـم، وسروا غايـة الـسرور والنعيم بـما أعطاهم الله ﷻ من المنزلة والثواب الجزيل.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي: لعملها الـذي عملته في الدنيا من

الأعمال الصالحة، والإحسان إلى عباد الله، راضية؛ لأنها وجدت ثوابه مدخراً مضاعفاً فحمدت عقباه، وحصل لها كل ما تتمناه، وقد وصلت به إلى هذا النعيم وهذا السرور وهذا الفرح.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: هي في الجنة دار النعيم التي أعدها الله ﷻ لأوليائه يوم القيامة. والعلو ضد السفول فهي فوق السماوات السبع.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ لا تسمع في هذه الجنة قولةً لاغية، أو نفساً لاغية، ولا أذى، ولا باطلاً.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ في الجنة عيون ماء؛ وهي ينابيع متدفقة، وهو يجمع إلى الري الجمال، تجري حيث أراد أهلها لا تحتاج إلى حفر ساقية ولا إقامة أخدود.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي: في الجنة سرر عالية يجلسون عليها يتفكهون، والارتفاع يوحي بالنظافة كما يوحي بالطهارة.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ الأكواب جمع كوب، وهو الكأس ونحوه وهي ليست مرفوعة عنهم، بل هي موضوعة لهم متى شاءوا شربوا فيها من أنهار الجنة الأربعة.

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ النمارق: جمع نمرقة، وهي الوسادة من الحرير والإستبرق، مصفوفة مرتبة بعضها إلى بعض على أحسن وجه، تلتذ العين بها قبل أن يلتذ البدن بالاتكاء إليها.

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ الزرابي: أغلى أنواع الفرش؛ منشورة في كل مكان، ومفرقة في المجالس من كل جانب.

* ومن رحمة الله ﷻ أنه يعيدنا دائماً إلى التفكر في المخلوقات، ومن خلقها، ومن المستحق العبادة، فهو سبحانه يذكر في الآيات التالية مخلوقات قريبة يراها العرب صباحاً ومساءً، وفي التفكر في عظم خلقها، وحسن صورتها وقوة تحملها؛ دعوة إلى عبادة من خلقها وأبدع خلقها، قال ﷻ:

﴿١٧﴾-﴿٢٦﴾ ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۞ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۞ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۞ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۞ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾.

تجمع هذه الآيات الأربع مشاهد عظيمة، يصبح الإنسان ويمسي وهو يراها خاصة في بيئة مكة والعرب من حولها، فهي تبدأ النظر من الإبل، ثم ترتفع لتصل إلى الأعلى إلى السماء الأكثر ارتفاعاً والأكبر حجماً، ثم تنزل من علوٍ إلى الجبال التي تجاهه وعلوها الأدنى من السماء، ثم تصل في النهاية إلى الأرض التي تحته وانبساطها وسهولتها، وكل ذلك تفكر في مخلوقات الله.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ هذا الاستفهام للتوبيخ، وبدأ بالإبل؛ لأن أكثر ما يلابس الناس في ذلك الوقت الإبل، فهم يركبونها، ويحلبونها، ويأكلون لحمها، وينتفعون من أوبارها، وعلى ما هي عليه من الخلق البديع، من عظم جثتها، وفريد قوتها، وبديع أوصافها، وانقيادها مع ذلك لكل ضعيف.

﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ يعني: كيف خلق الله ﷻ، هذا الجسم الكبير المتحمل، تجد الإبل تمشي مسافات طويلة لا يبلغها الإنسان إلا بشق الأنفس وهي متحملة، صابرة على العطش وطول الطريق ومشقته.

قيل: أربع خصال اجتمعت في الإبل لم تجتمع في حيوان غيره؛ حلوب وركوب وأكول وحمولة.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ يعني: وينظرون إلى السماء كيف رفعت هذا الارتفاع العظيم بلا عمد وبما فيها من النجوم، والشمس، والقمر.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ هذه الجبال العظيمة التي تحمل الصخور رفعت على الأرض، مرساة راسخة، لا تميد ولا تميل، ولا تزول.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي: مدت مدّاً واسعاً وسهلت غاية التسهيل، ليستقر الخلائق على ظهرها، ويتمكنوا من حرثها وغرسها والبنيان فيها، وغير ذلك من الفوائد العظيمة.

* وبعد هذه الآيات وذكر المعجزات والمخلوقات، يعيد سبحانه الكرة مرة أخرى للأصل الذي خلق من أجله الإنسان، ألا وهو عبادته

إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾
إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

سُورَةُ الفَجْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾
هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾
إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ
جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي
ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ
عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ
رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ
فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ
ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ
ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا
دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾

٥٩٣

سبحانه وما كلف به الرسول ﷺ من الدعوة والقيام بأمرها، وأمره بالوعظ والتذكير، فقال تعالى:

﴿فَذَكِّرْ﴾ أمر الله ﷻ نبينا محمداً ﷺ أن يذكِّر ويعظ ويخوف.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي: لست إلا مُذكراً مبلِّغاً، فإن مهمة الأنبياء البلاغ، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم.

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ يعني: ليس لك سلطة عليهم حتى تكرههم على الإيمان، فإن الهداية بيد الله ﷻ يهدي من يشاء.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ لكن من أعرض وتولى عن الوعظ واستكبر ولم يقبل ما جاء به الرسول ﷺ.

﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ والعذاب الأكبر عذاب جهنم الدائم يوم القيامة؛ وإنما قال الأكبر؛ لأنهم عُذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر.

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ أي: مرجع الخلائق إلى الله بعد الموت، وكذلك محاسبتهم، ومجازاتهم بأعمالهم بعد بعثهم ونشورهم.

تم تفسير سورة الغاشية

والحمد لله

تفسير سورة الفجر
وهي مكية

* سورة الفجر سورة مكية، ذكر الله ﷻ فيها حال بعض الأمم السابقة، وقصص الأقوام الفانية، خاصة من كذبوا وتكبروا وطغوا، ثم ما جرى لهم من العذاب والنكال، وبيان سنة الله تعالى في ابتلاء العباد في هذه الحياة بالخير والشر، ثم ذكر سبحانه الآخرة وأهوالها وشدائدها وانقسام الناس يوم القيامة إلى سعداء وأشقياء، ومنازل هؤلاء وأولئك؛ وكل ذلك لأخذ العبرة من مآلهم، والحذر من مخالفة أمر الله ﷻ، قال سبحانه:

﴿١﴾-﴿١٤﴾ ﴿وَٱلْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ * وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ * ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ * فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾.

﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ كل هذه إقسامات أقسم الله ﷻ بها.

﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ الفجر: هو الصبح والنور الساطع الذي يكون في الأفق الشرقي قرب طلوع الشمس، والمراد بالليالي: العشر الأولى من ذي الحجة.

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ قيل: إن المراد به كل الخلق، فالخلق إما شفع وإما وتر، وقيل المراد بالشفع: يوما التشريق الأول والثاني اللذان يجوز التعجل فيهما، والوتر اليوم الثالث.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أي: إذا جاء وأقبل واستمر ثم أدبر، والتقييد بسريانه لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ونور النعمة، وأنه وحده المدبر لجميع الأمور الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ أي: فمن كان ذا عقل ولب علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به، والاستفهام تقريريٌّ لفخامة شأن الأمور المقسم بها.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بقلبك وبصيرتك -يا محمد- كيف فعل بهذه الأمة الطاغية، وهي ﴿إِرَمَ﴾ وهذا هو جواب القسم.

ما الذي فعل بهم؟ وعاد قبيلة معروفة في جنوب الجزيرة العربية كانوا يسكنون بالأحقاف بين عُمان وحضرموت، وقيل: اسم للقرية، أرسل الله تعالى إليهم هوداً عليه السلام فبلغهم الرسالة ولكنهم عتوا وبغوا.

وقد وردت كلمة الرب في هذه السورة خمس مرات؛ إظهاراً لعظمة الله ﷻ وقدرته مقابل إظهار طغيان وتكبر الأمم الكافرة.

﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ يعني: أصحاب الأبنية القوية.

﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: لم يصنع مثلها في البلاد؛ لأنها قوية ومحكمة، وهذا هو الذي غرهم، وقالوا: مَن أشد منا قوة؟

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ أي: وكذلك ثمود، وهم قوم صالح، ومساكنهم معروفة الآن؛ الذين قطعوا الصخر ونحتوه، وذلك في وادي القرى الذي كانت تسكنه ثمود، وكانوا ينحتون الجبال وينقبونها بيوتاً يسكنون فيها.

﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ فرعون هو الذي أرسل الله إليه موسى ﷺ فكذب وطغى.

﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي: ذي القوة التي يعذب الناس بها ويشدهم إليها.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ صفة لعاد وثمود وفرعون، والطغيان مجاوزة الحد، فإنهم طغوا في بلاد الله، وآذوا عباد الله، في دينهم ودنياهم، ولهذا قال:

﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ أي: بالكفر ومعاصي الله، والجور على عباد الله، فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: فأنزل عليهم ربك ألواناً شديدة من العذاب، والصب يكون من فوق، والعذاب الذي أتى هؤلاء من فوق من عند الله ﷻ، واستعمل لفظ الصبّ؛ لاقتضائه السرعة في النزول على المضروب.

ثم لما ذكر الله ﷻ ما أرسل على كل طائفة من العذاب، فأُهلكت عادٌ بالريح، وثمود بالصيحة، وفرعون وجنوده بالغرق. ذكر أنه سبحانه يرقب عمل الناس ويحصيه عليهم، ويجازيهم به، قال تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ الخطاب هنا للنبي ﷺ، أو لكل من يتوجه إليه الخطاب، يبين الله ﷻ أنه بالمرصاد لكل من طغى واعتدى وتكبر، فإنه له بالمرصاد يمهله قليلاً ثم يعاقبه ويؤاخذه، ويأخذه أخذ عزيز مقتدر.

❊ وبعد أن ذكر الله حال بعض الأمم السابقة من الطغيان والعصيان وأنه لهم بالمرصاد، ذكر ما يدل على اختلاف أحوال العباد، فذكر أنه سبحانه يبتلي بعض عباده بالغنى، والبعض بالفقر لينظر كيف يفعلون؟ فإن قيمة العبد عند الله ومكانته لا تتعلق بما وهب له من الدنيا وما ناله من الأموال والأولاد وعرض الدنيا الفانية، فهو سبحانه يُعطي الصالح والطالح، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر؛ ابتلاءً لهم بالسراء للغني، وبالضراء للفقير، قال سبحانه:

۝١٥-۝٢٠ ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ❊ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ❊ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ❊ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ❊ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ❊ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: إذا اختبره وامتحنه ربه بالنعمة.

﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ أي: أكرمه بالمال ووسع عليه رزقه، وجاد عليه بالجاه والصحة والسلطان.

﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ يعني: إنني أهل للإكرام، ولا يعترف بفضل الله ﷻ.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ وأما إذا اختبره الله ﷻ وامتحنه وضيق عليه الرزق ولم يوسعه له، ولا بسط له فيه.

﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ يقول إن الله تعالى ظلمني فأهانني ولم يرزقني كما رزق فلاناً، ولم يكرمني كما أكرم فلاناً، فصار عند الرخاء لا يشكر، يعجب بنفسه ويقول: هذا حق لي، وعند الشدة لا يصبر بل يعترض على ربه. وقد أنكر سبحانه على الإنسان قوله: ﴿أَكْرَمَنِ﴾ و﴿أَهَٰنَنِ﴾؛ لأنه قال ذلك على وجه الفخر والكبر لا على وجه الشكر. وهذا حال الإنسان باعتباره إنساناً، أما المؤمن فليس

كذلـك، لأنه يعلم أن الكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعتـه وتوفيقه المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسـع عليه في الدنيا حمده وشكره.

﴿كَلَّا﴾ يعني: لم يعطك ما أعطاك إكراماً لك لأنك مستحق، وليس كل من نعّمته في الدنيا فهو كريم عليّ، ولا كل من قدرت عليـه رزقه فهو مهان لديّ، إنما الغنى والسـعة ابتلاء من الله وامتحان ليرى من يشكر ومن يكفر.

﴿بَـلْ لَّا تُكْرِمُـونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ يعني: إنتم إذا أكرمكم الله ﷻ بالنعم، لا تعطفـون على المسـتحقين للإكرام وهم اليتامى بما آتاكـم الله من الغنى، وهذا من ضعف الهمـة، ولهذا لامهم الله على عدم اهتمامهـم بأحوال الخلق والمحتاجين، ولو أكرمتموه لكان ذلك لكم كرامة عند الله.

واليتيـم: هو الفقير مـن اليتامى، والغني من اليتامـى، واليتيم من مات والده قبـل أن يبلغ واحتـاج إلى جبر خاطـره والإحسـان إليـه؛ فأنتم لا تكرمونه بل تهينونـه، وهذا يدل على عدم الرحمـة في قلوبكم، وعدم الرغبة في الخير.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّـونَ عَلَىٰ طَعَـامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ يعنـي: لا يحض بعضكم بعضاً على أن يُطعم المسكين، وإذا كان لا يحض غيره فهو أيضاً لا يفعله، فهو لا يطعم المسكين ولا يحض على طعام المسكين. والمسـكين: هو الذي لا يجد قوته ولا قـوت عيالـه وذلك لأجل الشـح على الدنيـا ومحبتها الشـديدة المتمكنة من القلوب، ولهذا قال:

﴿وَتَأْكُلُـونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ ما يورثه الله العبد مـن المال، سـواء ورثه عن ميت، أو باع واشـترى وكسـب، أو خرج إلى البر وأتى بما يأتي به من عشب وحطب وغير ذلك.

﴿أَكْلًا لَّمًّـا﴾ ذا لم، وهو الجمع بين الحلال والحـرام، وكانوا يأكلون المال أكلاً شـديداً بنهم وطمع، حيث كانوا يأكلون ميراث الصغير والمرأة.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: عظيماً مـع حـرص وشره، وهذا هو طبيعة الإنسان. وهذا ذم لهم لتكالبهم على المال، وبخلهم بإنفاقه.

* وكل هـذه الأعمال السـابقة من كفـر النعمة وعـدم شـكرها والقيام بحقها تقـع في الدنيا، ولهذا ذكر الله ﷻ بعدهـا أحوال الآخرة ومـا يجري فيها حتى يتعظ الإنسـان ويرجع عن غيه، مُذكراً ﷻ الناس بيوم القيامة، قال تعالى:

﴿٢١﴾-﴿٣٠﴾ ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّـا ۝ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِـذٍ يَتَذَكَّـرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ يَقُـولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَـدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَـهُۥٓ أَحَدٌ ۝ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ للـردع، أي: مـا هكـذا ينبغي أن يكون عملكم، إذا زلزلت الأرض وحركت تحريكاً بعد تحريك حتى لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، تُدك الجبال، وتمد الأرض، وفيه وعيد لهم بعد الردع والزجر.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ هـذا المجيء هو مجيئـه ﷻ لفصل القضاء بـين عباده. ونؤمن بأن الله يجـيء لكن مجـيئاً يليق بجلاله.

﴿وَٱلْمَلَـكُ صَفًّـا صَفًّا﴾ أي: الملائكـة صفـاً بعـد صـف، وهذه الصـفوف صـفوف خضـوع وذل للملك الجبار.

﴿وَجِـاْيٓءَ يَوْمَئِـذٍۭ بِجَهَنَّـمَ﴾ مزمومة والملائكة يجرونها؛ وعند هذا الموقف المهول.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني: إذا جاء الله في يوم القيامة، وجاء الملك ـ الملائكـة ـ صفوفاً صفوفاً، وأحاطوا بالخلق، وحصلت الأهوال والأفزاع، يتذكر الإنسـان، أنه وعد بهذا اليوم، وأنه أُعلم به من قبل الرسـل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وأنذروا وخوفوا.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْـرَىٰ﴾ أين يكون له الذكرى في هـذا اليوم الذي رأى فيه ما أخبر عنه يقيناً؟ فقد فات أوان الذكرى وذهب زمانها، يقـول متحسراً على ما فرط في جنب الله، يتمنى لكن لا يحصل.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ يتمنـى أنه قـدم لحياته هنا شـيئاً، و﴿يَٰلَيْتَنِي﴾ أمنية فيها الحسرة الظاهرة.

﴿فَيَوْمَئِـذٍ لَّا يُعَـذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي: لا يعذب عذاب الله أحد،

وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ
لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤ فَيَوۡمَئِذٖ
لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٦ يَٰٓأَيَّتُهَا
ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨
فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠

سُورَةُ البَلَدِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ
٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ
أَحَدٞ ٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ
٧ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ
ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢
فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ
١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ
بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨

٥٩٤

بل عذاب الله أشد لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له.

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ ولا يوثق وثاق الله أحد، بل هو أشد، ويوثق: أي: يقيد ويؤمن، أما النفس الزكية المطمئنة فيقال لها:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ يعني: المؤمنة الآمنة، الموقنة الموحدة.

﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ يقال هذا القول للمؤمن عند النزع في آخر لحظة من الدنيا، أي: ارجعي إلى الله الذي رباك بنعمته، وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من أوليائه وأحبابه.

﴿رَاضِيَةً﴾ بما أعطاك الله من النعيم وما أكرمك به من الثواب الجزيل.

﴿مَّرۡضِيَّةً﴾ عند الله ﷻ.

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ أي: في زمرة عبادي الصالحين، وكوني في جملتهم، وادخلي الجنة التي أعدها الله ﷻ لأوليائه، وأضافها إلى نفسه تشريفاً لها وتعظيماً، وإعلاماً للخلق بعنايته بها ﷻ.

تم تفسير سورة الفجر
والحمد لله

تفسير سورة البلد
وهي مكية

* سورة البلد سورة مكية، ذكر الله ﷻ في أولها ما قُدِّر على الإنسان في هذه الدنيا من المشقة والتعب والأكدار والأحزان والمكابدة، ولهذا حث على الصبر والتحمل وعدم التضجر مما يُبتلى به في هذه الدنيا، ولينظر لدار ليس فيها نكد ولا حزن وهي الجنة، فتكون هدفه ومستقره برحمة الله.

﴿١-١٠﴾ ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ * وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ * وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ * لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ * أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ * يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا * أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ * أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ * وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ * وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾.

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾.

﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ لا: لاستفتاح الكلام وتوكيده، والقسم تأكيد الشيء بذكر معظَّم على وجه مخصوص.

﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ البلد هنا مكة، وأقسم الله بها لشرفها وعظمها، فهي أعظم بقاع الأرض حرمةً، وأحب بقاع الأرض إلى الله ﷻ.

﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ وأقسم الله بهذا البلد وهو مكة، الذي أنت مقيم به -يا محمد- تشريفاً لك وتعظيماً لقدرك.

﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ يقسم سبحانه بالوالد وأولاده وما تناسل منهما، تنبيهاً على عظم آية التناسل والتوالد ودلالتها على قدرة الله وحكمته، وهو سبحانه أقسم على حال الإنسان، وأقسم بالبلد الأمين وهو مكة، ثم أقسم بالوالد وما ولد، وهو آدم وذريته، وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان وأصل السكان، فمرجع البلاد إلى مكة، ومرجع العباد إلى آدم.

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ جواب القسم، مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي: القسم، واللام، وقد.

﴿خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ الإنسان اسم جنس يشمل كل واحد من بني آدم.

﴿فِي كَبَدٍ﴾ في مكابدة الأشياء ومعاناتها وشدتها، فإنه لا يزال يقاسي أنواع الشدائد، من وقت نفخ الروح فيه إلى حين نزعها منه. والآية تسلية لرسول الله ﷺ مما كان يكابده من كفار مكة، وقيل: لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم وهو مع ذلك أضعف

الخلق.

ثم ذكر سبحانه في الآية التالية طبيعة الإنسان الجاحد بقدرة الله، والمكذب للبعث والنشور، فقال تعالى:

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أي: إن الإنسان في نفسه وقوته يظن أن لن يُبعث، ولا يقدر عليه أحد، ولا ينتقم منه أحد، وأتى ههنا بلن، الدالة على المضي في مقابلة قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ فإن ذلك في الماضي.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي: إنفق مالاً كثيراً في شهواته وفي ملذاته، وسمى الله ﷻ الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكاً؛ لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسار والتعب والقلة.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أيظن هذا أنه لا يراه أحد في تبذيره المال وصرفه فيما لا ينفع، وينسى أن عين الله عليه، وأن علمه محيط به.

فإن الإنسان قد يغتر بقوته ولا فضل له فيها، بل الله هو المنعم عليه بهذا القدر من القوة، وكل هذا تهديد للإنسان أن لا يتغطرس، قال تعالى:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ ذكر الله ﷻ هنا ثلاث نعم من أكبر النعم على الإنسان: للجمال والبصر والنطق، فقال:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ يعني: يُبصر بهما ويرى، ومن هنا بدأ تعداد النعم العظيمة على الإنسان.

قرأ الفضيل بن عياض ليلةً هذه الآية، فبكى، فُسئل عن بكائه، فقال: هل بتَّ ليلة شاكراً لله أن جعل لك عينين تُبصر بهما؟ هل بت ليلة شاكراً لله أن جعل لك لساناً تنطق به؟ وجعل يُعددُ من هذا الضرب.

﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ لساناً ينطق به، وشفتين يضبط بهما النطق، ويستعين بهما على الأكل والشرب، فهذه نعم الدنيا. ثم قال في نعم الدين:

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي: بينا له طريق الخير، وطريق الشر، والهدى من الضلال، والرشد من الغي، وقيل: دللناه على ما به غذاؤه وهو الثديان؛ فإنهما نجدان لارتفاعهما فوق الصدر.

* وبعد أن ذكر ﷻ هذه النعم على عباده، ذكر ﷻ عقبة كؤوداً هي التي تقف بينه وبين الجنة، لو تخطاها لوصل، وهو مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس، والهوى، والشيطان، حتى ينال رضى الرحمن، قال تعالى:

﴿١١﴾-﴿٢٠﴾ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ * أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ أي: الإنسان الذي كان يقول: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ هلا اقتحم العقبة؟ والاقتحام هو التجاوز بمشقة.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ هذا الاستفهام للتشويق والتفخيم أيضاً، أي: وما أعلمك ما اقتحام العقبة؟ وفيه تعظيم لشأنها وتهويل. والعقبة: هي الطريق في الجبل الوعر، واقتحام هذه العقبة شاق على النفوس، أي: أفلا نشط واخترق الموانع التي تحول بينه وبين طاعة الله، وقد بينها الله في قوله تعالى:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي: هي عتق رقبة مملوك من الرق والعبودية.

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾.

﴿أَوْ﴾ هذه للتنويع.

﴿إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ أي: ذي مجاعة شديدة، ويوم المجاعة الذي يعز فيه الطعام هو محك لحقيقة الإيمان وحب البذل في أوجه الخير.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ اليتيم هو من مات أبوه قبل أن يبلغ، سواء كان ذكراً أم أنثى وهو ذو قرابة من الإنسان؛ لأنه إذا كان يتيماً كان له حظ من الإكرام والصدقات، وإذا كان قريباً ازداد حظه من ذلك.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ المسكين: هو الذي لا يجد قوته ولا قوت عياله، والمتربة: مكان التراب، والمعنى: أنه مسكين ليس بيديه شيء إلا التراب، أو

قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: ثم هو بعد ذلك ليس محسناً إلى اليتامى والمساكين فقط، بل هو ذو إيمان لأن هذه القرب والطاعات إنما تنفع مع الإيمان إذا أتى بها لوجه الله.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله، والصبر عن معاصيه، والصبر على ما أصابهم من البلايا والمصائب.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ وأوصى بعضهم بعضاً أن يرحم الآخرين من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي: هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الذين وفقهم الله لاقتحام هذه العقبة وهم أصحاب اليمين لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه، وحقوق عباده وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها.

وقرن سبحانه بين الأبرار والفجار على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، لبيان المفارقة الهائلة بين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشرار، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: جحدوا بالقرآن وكذبوا محمداً ﷺ، ولا رحموا عباد الله.

﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾.

﴿هُمْ﴾ الضمير هنا جاء للتوكيد.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ يعني: أهل الشمال أو الشؤم.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةُۢ﴾ أي: عليهم نار مطبقة مغلقة أبوابها، لا يخرجون منها ولا يستطيعون سبيلاً، حتى يكونوا في ضيق وهمٍّ وشدّة.

تم تفسير سورة البلد
والحمد لله

تفسير سورة الشمس
وهي مكية

* سورة الشمس سورة مكية، ذكر الله ﷻ فيها أن من أسباب الفوز والفلاح محاسبة النفس ومراجعتها وتعاهدها، وبذلك تستقيم النفوس وتتزكى القلوب، والمسلم مأمور بذلك في كل حين ووقت، فإن ذلك أقرب للتوبة والعودة إلى الله ﷻ، ومحاسبة النفس قبل أن تحاسب من علامات التيقظ والفطنة.

وفي مطلع هذه السورة، يقسم الله ﷻ بسبعة أشياء من مخلوقاته العظيمة، فأقسم تعالى بالشمس وضوئها الساطع، وبالقمر إذا أعقبها وهو طالع، ثم بالنهار إذا جلا ظلمة الليل بضيائه، وبالليل إذا غطّى الكائنات بظلامه، ثم بالقادر الذي أحكم بناء السماء بلا عمد، وبالأرض التي بسطها على ماء جمد، وبالنفس البشرية التي كملها الله وزينها بالفضائل والكمالات، أقسم بهذه الأمور على فلاح الإنسان ونجاحه إذا اتقى الله، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد، قال سبحانه:

(١)-(١٠) ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا * وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ أقسم الله تعالى بالشمس وضحاها، وهو ضوؤها لما في ذلك من الآيات العظيمة الدالة على كمال قدرة الله ﷻ، وكمال علمه ورحمته. والضحى: وقت ارتفاع الشمس بعد طلوعها إذا تم ضياؤها.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ قيل: إذا تلاها في السير بعد غروب الشمس. وقيل: إذا تلاها في الإضاءة، وحكمةُ القسم بالشمس أن العالم في وقت غيبة الشمس عنهم كالأموات، فإذا ظهر الصبح وبزغت الشمس دبت فيهم الحياة، وصار الأموات أحياء فانتشروا لأعمالهم وقت الصحوة، وهذه الحال تشبه أحوال القيامة، ووقت الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها، والشمس والقمر مخلوقات لمصالح البشر، والقسم بها؛ للتنبيه على ما فيها من المنافع العظيمة.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أي: إذا جلى الأرض وبينها ووضحها؛ لأنه نهار تتبين به الأشياء وتتضح.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ أي: إذ يغطي الأرض حتى يكون كالعباءة المفروشة على شيء من الأشياء، فيكون

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ الشَّمْسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا
﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ
وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا
﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ
رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ
عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٣﴾
إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾
فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾

٥٩٥

مظلماً، فتعاقب الظلمة والضياء، والشمس والقمر، على هذا العالم، بانتظام وإتقان، وقيام لمصالح العباد، أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده، الذي كل معبود سواه باطل.

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ أي: والسماء وبنائها؛ الذي هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان.

﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ أي: بسطها ومدها ووسعها من كل جانب، فتمكن الخلق حينئذ من الانتفاع بها بجميع وجوه الانتفاع.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أي: إنشأها وسوى أعضاءها، وركب فيها الروح، وجعلها مستقيمة على الفطرة، والنفس آية كبيرة من آيات الله.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي: الله ﷻ ألهم هذه النفوس وعرَّفها وأفهمها طريق الخير وطريق الشر، وعلمها الطاعة والمعصية، وما فيها من الحسن والقبح. والفجور هو ما يقابل التقوى.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ جواب القسم والتقدير: لقد أفلح، أي: فاز بالمطلوب ونجا من المرهوب، من زكى نفسه وطهرها من الذنوب وأعلاها بالتقوى ونقاها من العيوب، وخسر من أرداها في المهالك والمعاصي والكفر والفسوق، والمعنى: قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وخاب من دساها بالمعاصي، فالطاعة تزكي النفس وتطهرها، فترتفع، والمعاصي تُدسي النفس، وتقمعها فتنخفض، وتصير كالذي يُدسُّ في التراب.

* وبعد هذه الآيات الكريمة ساق الله ﷻ قصة ثمود الذين بعث إليهم نبيه صالحاً ﵇، فكذبوه وعصوا أمره وخالفوه، وما جرى من وقوع العذاب عليهم، فقال تعالى:

﴿١١﴾-﴿١٥﴾ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۞ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۞ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۞ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۞ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ ثمود اسم قبيلة، ونبيهم صالح ﷺ وديارهم في الحجر معروفة في طريق الناس، هؤلاء كذبوا نبيهم صالحاً بسبب الطغيان، حملهم على التكذيب والطغيان مجاوزه الحد في المعاصي.

﴿بِطَغْوَاهَا﴾ أي: بأجمعها.

﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ هذا بيان للطغيان الذي ذكره الله ﷻ وذلك حين انطلق أشقى ثمود بسرعة لعقر الناقة، حيث اتفقوا على ذلك، وأمروه فأتمر لهم.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ صالح ﵇ محذراً، وفي هذا إيضاح لمهمة الرسل وأنهم يجاهدون أقوامهم ويدلونهم على الخير.

﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي: ذروا ناقة الله، وحذرهم أن يعقروها، وقال لهم: دعوها وشربها من الماء، فلا تتعرضوا له يوم شربها.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي: كذبوا صالحاً فيما حذرهم منه من نزول العذاب إن فعلوا، فذبحوا الناقة، عقراً حصل به الهلاك.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ﴾ أطبق عليهم فأهلكهم بسبب ذنوبهم، دمر عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم والرجفة من تحتهم، فأصبحوا جاثمين على ركبهم، لا تجد منهم داعياً ولا مجيباً. والدمدمة: هلاكٌ باستئصال.

﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي: فسوى الأرض عليهم فجعلهم تحت التراب.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾ أي: إن الله لا يخاف من عاقبة هؤلاء الذين عذبهم، وكيف يخاف وهو القادر القاهر الجبار الحكيم في كل ما قضاه وشرعه ﷻ.

تم تفسير سورة الشمس
والحمد لله

تفسير سورة الليل وهي مكية

* سورة الليل سورة مكية، جلى فيها ﷻ حكمته وعدله، وسبق ذلك بذكر بديع صنعه في الأكوان، وذكر أن من تمام عدله وحكمته أنه لا يضيع عمل المحسن ولا يغفل عمل المسيء، ومن ذلك أن يُوفق المحسن للاستزادة من عمل الخير، ويحرم المسيء من الهداية لأفعال الخير فيستمر في أعمال الشر، وابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالليل إذا غشي الخليقة بظلامه، وبالنهار إذا أنار الوجود بإشراقه وضيائه، وبالخالق العظيم الذي أوجد النوعين الذكر والأنثى، أقسم ﷻ على أن عمل الخلائق مختلف، وطريقهم متباين، قال تعالى:

(١)-(١١) ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ * إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ * فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ * وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ الواو للقسم، أقسم الله ﷻ بالليل إذا يغشى، يعني حين يغشى الأرض ويغطيها بظلامه فيسكن كلٌّ إلى مأواه ومسكنه، ويستريح العباد فيه من الكد والتعب.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أي: إذا ظهر وبان وانكشف، فاستضاء الخلق بنوره، وانتشروا في مصالحهم.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ ما هنا هي الموصولة، أي: والذي خلق الذكر والأنثى. وهذا منه تعالى إقسام بخلقه لجنسي الذكر والأنثى من بني آدم وغيرهم.

﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ هذا جواب القسم، يعني: إن عملكم لمتفرق تفرقاً عظيماً؛ فمنه عمل للجنة، ومنه عمل للنار، فساع في فكاك نفسه، وساع في عطبها، ثم فسره بقوله:

﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾.

﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ أي: أعطى ما أمر بإعطائه من مال، أو جاه، أو علم في وجوه الخير، واتقى ما أمر باتقائه من المحرمات والمعاصي على اختلاف أجناسها.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ صدق بالقولة الحسنى، وهي قول الله ﷻ، وقول رسوله ﷺ، بالخلف والعاقبة الحسنة من الله.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ السين: هنا للتحقيق، أي: إن من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، فسييسره الله ﷻ لليسرى في أموره كلها، في أمور دينه ودنياه؛ لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك. نزلت هذه الآيات في أبي بكر الصديق: اشترى ستة عبيد من المؤمنين كانوا في أيدي أهل مكة، يعذبونهم في الله فأعتقهم.

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ أي: بخل بماله، فلم يعط ما أمر بإعطائه فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما أوجب الله، واستغنى عن الله ﷻ، ولم يتق ربه، بل رأى أنه في غنى عن رحمة الله، وزهد في الأجر والثواب.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: بالقولة الحسنى، وهي قول الله تعالى وقول رسوله ﷺ.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ ييسر للعسرى في أموره كلها، فتتعسر عليه أسباب الخير والصلاح، ويضعف عن فعلها، فيؤديه ذلك إلى النار.

﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ يعني: أي شيء يغني عنه بخله بماله إذا هلك، لا يغني عنه شيئاً، فإنه إذا هلك ومات لا يصحبه إلا عمله الصالح.

* ثم ذكر - جل وعلا - ما كتبه على نفسه - فضلاً منه بعباده ورحمة - أن يبين الهدى لفطرة الناس ووعيهم، فلا تكون هناك حجة لأحد، ولا يكون هناك ظلم لأحد، قال تعالى:

(١٢)-(٢١) ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ * فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ * لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى * ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى * ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ * إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ * وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾.

الجزء الثلاثون سورة الضحى سورة الشرح

فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا
لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾
لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا
ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ
تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

سُورَةُ الضُّحَىٰ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾
وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ
﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾
وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

سُورَةُ الشَّرْحِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾

٥٩٦

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ فيه وعد من الله ﷻ أن يبين للخلق ما يهتدون به إليه، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ يعني: لنا الآخرة والأولى، وكل ما في الدنيا نتصرف به كيف نشاء، الأولى متقدمة على الآخرة في الزمن، ولكنه في هذه الآية أخرها.

ولما ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة انقسام الناس إلى مصدق ومكذب، وباذل وممسك، ذكر جزاءهما في الآخرة، فقال تعالى:

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أي: فحذرتكم يا أهل مكة نار الآخرة، تشتعل وتتوقد وتتوهج.

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ يعني: لا يحترق بها ولا يجد صلاها وهو حرها إلا الذي قدرت له الشقاوة، والشقاوة ضد السعادة، وهو المكذب بالدين والمعرض عنه.

﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذب بالحق الذي جاءت به الرسل، وأعرض عن طاعة الله، وأعرض عما جاءت به رسله، فهذا هو الشقي.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ أي: يُجنب هذه النار التي تلظى ويبعد عنها، الذي اتقى الله تعالى حق تقاته. والأتقى اسم تفضيل من التقوى.

﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ يعني: يعطي ماله من يستحقه على وجه يتزكى به، أي: يطلب بذلك أن يكون عند الله زكياً.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ أي: إنه لا يتصدق بماله ليجازي بصدقته نعمة لأحد من الناس عنده ويكافئه عليها.

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فهو لا ينفق إلا طلب وجه الله، ولهذا كان من كمال الإخلاص أن لا يجعل العبد عليه منّة لأحد من الناس، لتكون معاملته كلها لله ابتغاء وجهه، وطلب مرضاته، فكما أن هذه الغاية أعلى الغايات وهذا المطلوب أشرف المطالب، فهذا الطريق أقصر الطرق إليه، وأقربها وأقومها.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ يعني سوف يرضيه الله ﷻ بما يعطيه من الثواب الكثير والجزاء العظيم.

تم تفسير سورة الليل

والحمد لله

تفسير سورة الضحى وهي مكية

* سورة الضحى سورة مكية، تتناول شخصية النبي ﷺ، وما حباه الله من الفضل والإنعام في الدنيا والآخرة، ليشكر الله على تلك النعم الجليلة.

وسبب نزولها أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل يصلي لله ﷻ ويناجيه، وفي ليلة مرض ﷺ فلم يقم لصلاة الليل ليلتين أو ثلاثاً، واحتبس عنه الوحي، فأتته امرأة مشركة من قومه هي أم جميل امرأة أبي لهب، فقالت: يا محمد: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، لم يقربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله هذه السورة، وكلها نجاء له من ربه، وتسرية وتسلية وتطمين، وقد أقسم ﷻ في هذه السورة بالضحى، والليل إذا سجى، على إنعامه على رسوله ﷺ وإكرامه له، وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته، دالة على ربوبيته، وحكمته ورحمته، وهما الليل والنهار، وتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد الظلام للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه. وكذلك

فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار، هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، وكذلك فإنه سبحانه اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم، فلا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم، قال تعالى:

(١)-(١١) ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

﴿وَالضُّحَىٰ﴾ أقسم الله ﷻ بالضحى أول النهار، وهو اسم لوقت ارتفاع الشمس.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ وأقسم كذلك بالليل إذا سجى، أي: إذا غطى الأرض وسدل عليها ظلامه وذلك دليل ظاهر على قدرته تعالى.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ جواب القسم، أي: ما تركك وأهملك وما قطعك قطع المودع، ولم يقطع عنك الوحي، بل أنت في عنايته ورعايته سبحانه.

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: وما أبغضك منذ أحبك، فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها، وترقيته في درج الكمال، ودوام اعتناء الله به.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ هذه الجملة مؤكدة باللام، لام الابتداء، أي: وللدار الآخرة خير لك -يا محمد- من هذه الدنيا، ولا زال ﷺ يصعد في درج المعالي في الدنيا، ويمكن له الله دينه وينصره على أعدائه، ويسدد له أحواله، ثم في الآخرة الجنة خير له من الدنيا، هذا مع ما قد أوتي في الدنيا من شرف النبوة، والآخرة باقية، والدنيا فانية.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾.

﴿وَلَسَوْفَ﴾ اللام هذه أيضاً للتوكيد، وهي موطئة للقسم.

﴿يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ أي: يعطيك ما يرضيك فترضى: الفتح في الدين، والثواب والحوض والشفاعة لأمته في الآخرة فترضى. قال القرطبي: «وقال بعضهم أرجى آية في كتاب الله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ لا يرضى ببقاء أحد من أمته في النار».

ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله الخاصة، وشرع في تعداد ما أفاضه الله عليه من النعم في حال صغره ليشكر ربه، فقال سبحانه:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ الاستفهام هنا للتقرير، يعني قد وجدك الله تعالى يتيماً من الأب، ويتيماً من الأم لا تدبر نفسك، فإن أباه ﷺ توفي قبل أن يولد، فآواك الله وضمك إلى من يكفلك ويرعاك وهو جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفله الله عمه أبا طالب حتى أيده الله بنصره وبالمؤمنين.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: غير عالم، لم تكن تدري القرآن ولا الشرائع، فهداك لذلك وعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أي: وجدك فقيراً ذا عيال لا تملك شيئاً فأغناك وأغنى بك بما أعطاك من الرزق، وبما فتح الله عليك من البلدان، التي جبيت لك أموالها وخراجها، وفي مقابل هذه النعم عليك بشكرها وأداء حقها. فهو سبحانه قرر بنعم ثلاث، وأتبعهن بوصايا ثلاث: كل واحدة من الوصايا شكر النعمة التي قوبلت بها فإحداهن: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ هذا في مقابلة ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ فلا تسيء معاملة اليتيم وتتسلط عليه بالظلم لضعفه، بل ادفع إليه حقه، وأكرمه واذكر يُتمك واصنع به كما تحب أن يصنع لولدك من بعدك.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ هذا في مقابل ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ لا تنهر السائل إذا سألك، فقد كنت فقيراً، فإما أن تطعمه ما تيسر عندك، وإما أن تردّه ردّاً ليناً هيناً، ويدخل في هذا السائل للعلم والسائل للمال.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فقابلها بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ نعمة الله تعالى على الرسول ﷺ التي ذكرت في هذه الآيات ثلاث نعم. وأمره الله سبحانه بالتحدث

بنعم الله عليه وإظهارها بينهم، فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن.

والفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها: أن المتحدث بالنعمة مُخبر عن صفات وليها ومحض جوده وإحسانه، فهو مثن عليه بإظهارها والتحدث بها، شاكر له، ناشر لجميع ما أولاه، مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء عليه، وبعث النفس على الطلب منه دون غيره، وعلى محبته ورجائه، فيكون راغباً إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها، وأما الفخر بالنعم فهو أن يستطيل بها على الناس، ويريهم أنه أعز منهم وأكبر، فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة، وكذلك كسر قلوبهم والتفاخر بأنه هو المستحق لها دونهم.

تم تفسير سورة الضحى
والحمد لله

تفسير سورة الشرح
وهي مكية

* سورة الشرح سورة مكية، تتحدث عن مكانة الرسول الجليلة، ومقامه الرفيع عند الله تعالى، وقد ذكر ﷻ في السورة ما وقع للنبي ﷺ من أحداث، فبينما كان النبي ﷺ وهو صغير يلعب مع الصبيان، إذ جاءه جبريل ﵇، فألقاه على ظهره ثم شرح (شق) صدره، واستخرج قلبه وشقه، وأخرج منه قطعة سوداء، وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسل قلبه بماء زمزم في طست من ذهب، ثم أعاده إلى مكانه. يقول أنس بن مالك ﵁: بقي أثر المخيط في صدره ﷺ، فحصل بذلك شرح صدر النبي ﷺ حسياً بشقه وإخراج القطعة السوداء من قلبه، كما شرح صدره معنوياً بنور الإيمان والنبوة، وقد امتن الله على نبيه ﷺ ذلك، فقال ﷻ:

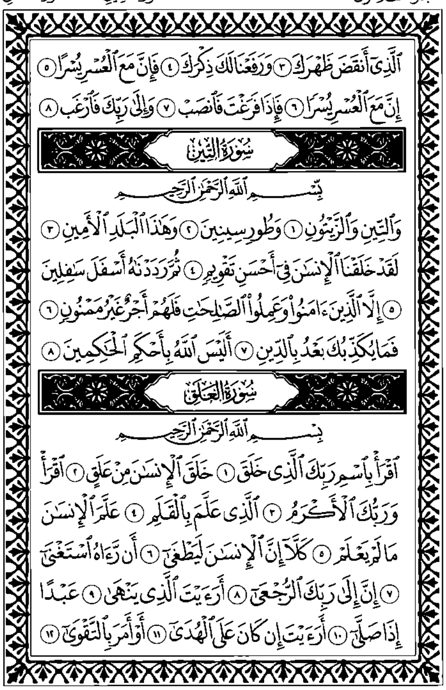
الجزء الثلاثون سورة التين سورة العلق

الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾
إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

سُورَةُ التِّين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ
﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾
فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

سُورَةُ العَلَق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ
﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا
إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾

٥٩٧

﴿١﴾-﴿٨﴾ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ هذا الاستفهام استفهام تقرير، ذكر ﷻ موضحاً ومبيناً نعمته على نبيه محمد ﷺ، أي: -يا محمد-، قد شرحنا لك صدرك لقبول النبوة، ومن هنا قام بما قام به من الدعوة، وقدر على حمل أعباء النبوة وتكاليفها. وخص الصدر؛ لأنه محل أحوال النفس من العلوم والإدراكات.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ وضعناه أي: طرحناه، وعفونا، وسامحنا، وتجاوزنا عنك، وقد غُفر للنبي ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ يعني: أقضك وآلمك وأثقلك.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ وجعلنا لك الثناء الحسن العالي في الدنيا والآخرة الذي لم يصل إليه أحد من الخلق.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ هذا بشارة من الله ﷻ للرسول ﷺ ولسائر الأمة، فإن مع الضيقة سعة، ومع الشدة رخاء، ومع الكرب فرج.

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي: إن مع ذلك العسر المذكور سابقاً يسراً آخر، وهذا من نعم الله ﷻ ولن يغلب عسر يسرين. قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ في مكة في ضيق وشدة هو وأصحابه، بسبب أذى المشركين للرسول والمؤمنين، فوعده باليسر، كما عدد عليه النعم في أول السورة تسلية وتأنيساً له، لتطيب نفسه ويقوى رجاؤه، ولم يقل عز وجل: إن مع

العسر يسراً بل قال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ليبعث التفاؤل في النفس وقرب الفرج، وأن الفرج ملازما للعسر قريب منه.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أصلاً، والمؤمنين تبعاً بشكره والقيام بواجب نعمه، فقال:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ أي: إذا فرغت من أعمالك وصلاتك، أو من التبليغ، فاجتهد في الدعاء، واطلب من الله حاجتك، أو: فانصب في العبادة.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ أي: تضرع إليه وحده سبحانه رهباً من النار، راغباً في الجنة وانصب لعمل آخر، يعني اتعب لعمل آخر، واجعل رغبتك إليه خصوصاً، ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه، مفوضاً أمرك له، ولا تكن ممن إذا فرغوا أو تفرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره فتكون من الخاسرين.

تم تفسير سورة الشرح
والحمد لله

تفسير سورة التين
وهي مكية

* سورة التين سورة مكية، امتن الله فيها على عباده أن خلقهم في أحسن صورة وأفضلها، مؤكداً بهذا نعم الله عليهم، ومدللاً أن من خلق هذا الخلق وسواه قادر على بعث الإنسان بعد موته، كما أنه بحكمته وعدله خلق هذا الكمال في الإنسان ولم يتركه هملاً فلا يكلفه ولا يجازيه على عمله، فاقتضت حكمته سبحانه أن يبعثهم ويجازيهم على أعمالهم، وابتدأت السورة بالقسم بالبقاع المقدسة والأماكن المشرفة، التي خصها الله تعالى بإنزال الوحي فيها على أنبيائه ورسله، على أنه تعالى كرم الإنسان فخلقه في أجمل صورة، وأبدع شكل، قال تعالى:

﴿١-٨﴾ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ * أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ أقسم الله تعالى بهذه الأشياء الأربعة: التين، والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين، يعني: مكة.

﴿وَٱلتِّينِ﴾ هو الثمر المعروف الذي يأكله الناس.

﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ الذي يعصرون منه الزيت، وأقسم الله بهما لبركتهما وكثرة ثمرهما وعظيم منفعتهما، ولأنهما يكثران في فلسطين محل نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أقسم الله به؛ لأنه الجبل الذي كلم الله عنده موسى عليه السلام وهو طور سيناء ذو الشجر الكثير، الحسن المبارك، سمي «سينين»، و«سيناء» لحسنه ولكونه مباركاً.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ أقسم الله بالبلد الأمين وهو مكة، لأنها أحب البقاع إلى الله، وأشرف البقاع عند الله ﷻ، وهي البلد التي يأمن فيها من دخلها على نفسه وماله، كأنما يقسم الله تعالى بهذه المواضع الثلاثة؛ لأنها مهابط وحي الله تعالى على موسى وعيسى ومحمد ﷺ، وفيها أنزلت الكتب السماوية الثلاثة.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هذا هو المقسم عليه، أقسم الله تعالى أنه خلق الإنسان في أحسن صورة، وأبدع خلق، خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده، وخلقه عالماً متعلماً مدبراً حكيماً.

وخص الإنسان بالذكر بحسن التكريم، وحسن التقويم والتعديل؛ لمزيد الاعتناء به، وليحسن صلته بخالقه.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ هذه الردة التي ذكرها الله ﷻ تعني أن الله تعالى يرد الإنسان أسفل سافلين خِلقة، يرده إلى أرذل العمر، وهو الهرم والضعف بعد الشباب والفتوة، والمتبادر من السياق الإشارة إلى حالة الكافر يوم القيامة وأنه يكون على أقبح صورة وأبشعها، بعد أن كان على أحسن صورة وأبدعها.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ هذا استثناء من قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ يعني: إلا المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنهم لا يردون إلى أسفل السافلين، لأنهم متمسكون بإيمانهم وأعمالهم، فيبقون عليها إلى أن يموتوا.

﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: ثواب وجزاء غير مقطوع، ولا ممنون به أيضاً، بل لذّات متوافرة، وأفراح متواترة، ونعم متكاثرة في أبدٍ لا يزول، ونعيم لا يحول، أكلها دائم وظلها.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ أي: أي شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم

الجـزاء وبما أمر الله به مـن الدين بعد هذا البيان وهذا الإيضاح، والاستفهام للتقريع والتوبيخ وإلزام الحجة.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ هذا الاستفهام للتقرير، يقرر الله ﷻ أنه لم يترك الخلق سدى، لا يؤمرون ولا ينهون ولا يُثابون ولا يُعاقبـون؛ بل هو أحكم الحاكمين قضـاء وعـدلاً، لا يجور ولا يظلم أحداً، وفيه وعيد شديد للكفار.

وفي هذا تقرير لمضمون السـورة، من إثبات النبوة، والتوحيد، والمعاد، وحكمه بتضمن نصره لرسـوله على من كذبه، وجحد ما جاء به، بالحجة والقدرة والظهور عليه، وحكمه بين عباده في الدنيا بشرعه وأمره، وحكمه بينهم في الآخـرة بثوابه وعقابه، وإن أحكـم الحاكمين لا يليـق به تعطيل هذه الأحكام بعدما ظهرت حكمته في خلق الإنسان في أحسن تقويم، ونقله في أطوار التخليق حالاً بعد حال، إلى أكمل الأحوال، فكيف يليق بأحكم الحاكمـين، أن لا يجـازي المحسـن بإحسـانه، والمسيء بإسـاءته؟ وهل ذلـك إلا قدح في حكمـه وحكمته، فسبحانه وتعالى من حكيم.

تم تفسير سورة التين
والحمد لله

تفسير سورة العلق
وهي مكية

* سورة اقرأ سـورة مكية، وهذه الآيات أول ما نزل على الرسـول ﷺ من القرآن الكريـم، نزلت عليه وهو يتعبد في غار حـراء حيث كان يقضي الأيام والليالي متعبداً لله ﷻ منعزلاً عن الناس، فجاءه جبريـل فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقـارئ، فعل ذلك ثلاث مرات ثم قال له:

﴿١﴾-﴿٥﴾ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أي: اقرأ -يا محمد- مبتدئاً باسم ربك، وقيل: مسـتعيناً باسم ربك الذي خلق كل شيء، وفي هذا تذكير بالنعمة.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «في أول ﴿ٱقْرَأْ﴾ ابتداء النبوة وفي أول ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ ابتداء الرسالة». وقال رحمه الله: «أول ﴿ٱقْرَأْ﴾ فـيه أدب المتعلـم، وأول ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فيه أدب العالم».

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ خص الله تعالى خلق الإنسان تكريماً للإنسان وتشريفاً له لما أودعه من عجائبـه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمـه، وحكمته وكمال رحمته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه.

﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ اسـم جمـع علقة، والعلق: عبارة عن دم جامد معلق في رحم المرأة، وهذا هو المنشأ الذي به الحياة، يبدأ نطفة ثم يتحول بقدره الله إلى علقة.

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ أي: من كرمه وجوده وإحسانه أن يمكنك من القـراءة وأنت أمي، وقد دل على كمال كرمه أنه علّم العباد ما لم يعلموا.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ لأن التعليم بالقلـم أكثر ما يعتمد الشرع، وهـو الأكثر نفعاً والأطـول بقاء، فما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولـين ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة.

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أي: علمه بالقلم من الأمور ما لم يعلم منها، فدل على كمال كرمه، بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نـور العلم، قال ابـن كثير: أول شيء نزل من القرآن هذه الآيات المباركات، وهـنَّ أول رحمةٍ رحم الله بهـا العباد، وأول نعمةٍ أنعم الله بها عليهم.

* ثـم أخبر تعالى عن سـبب بطر الإنسان وطغيانه، فقال:

﴿٦﴾-﴿١٩﴾ ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ * أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ * أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ * أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ * كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ * سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ أي: حقاً إن كل إنسان من بني آدم إذا رأى نفسه استغنى، فإنه من الطغيان ـ وهو مجاوزة الحد ـ يطغى ويتكبر ويتمرد.

قال ابن تيمية: «لم يقل سبحانه وتعالى كلا إن الإنسان ليطغى أن استغنى؛ وإنما قال: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾؛ لأن الإنسان لا يستغني عن الله طرفة عين، لكن المسكين يظن في نفسه نوع استغناء فيطغى».

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ أي: مـن أجل أن رأى نفسه غنياً، وأصبح ذا ثروة ومال أشر وبطر. ثم توعده وتهدده، بقوله:

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ أي: مهـما طغيت أيهـا الإنسـان وعلوت

الجُزْءُ الثَّلَاثُونَ سُورَةُ القَدْرِ سُورَةُ البَيِّنَةِ

أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ
لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾
سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

سُورَةُ القَدْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾
لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا
بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

سُورَةُ البَيِّنَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ
تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ
قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ
ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ
حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

٥٩٨

واستكبرت واستغنيت، فإن مرجعك إلى الله ﷻ بعد الموت.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ تعجب من حال هذا الرجل الذي ينهى عبداً إذا صلى، أي: أخبرني عن حال هذا الرجل، الذي ينهى، وهو أبو جهل، قيل له: إن محمداً يصلي عند الكعبة أمام الناس، يفتن الناس ويصدهم عن أصنامهم وآلهتهم، فمر به ذات يوم وهو ساجد فنهى النبي ﷺ، وقال: لقد نهيتك فلماذا تفعل؟ فانتهره النبي ﷺ فرجع، ثم قيل لأبي جهل: إن محمداً ما زال يصلي، فقال: والله لئن رأيته لأطأن عنقه بقدمي، ولأعفرن وجهه بالتراب، فلما رآه ذات يوم ساجداً تحت الكعبة وأقبل عليه يريد أن يبَرّ بيمينه وقسمه، لما أقبل عليه وجد بينه وبينه خندقاً من النار وأهوالاً عظيمة، فنكص على عقبيه، وعجز أن يصل إلى رسول الله ﷺ.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: أخبرني أيها المخاطب إن كان هذا الساجد محمد ﷺ على الهدى، فكيف تنهاه عنه.

﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أي: أو أمر غيره بالإخلاص والتوحيد والعمل الصالح الذي تتقى به النار.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي: أرأيت الناهي بالحق والذي تولى عن الأمر، أما يخاف الله ويخشى عقابه.

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ يعني؛ يرى المنهي وهو الساجد محمداً ﷺ الآمر بالتقوى، ويرى هذا العبد الطاغية الذي ينهى عبداً إذا صلى. ثم توعده إن استمر على حاله، فقال:

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾.

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ ليرتدع ولينزجر عما هو فيه من الضلال والغي؛ أو:

﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ أي: لنأخذن بشدة وعنف شعر مقدم الرأس، نأخذها بشدة ويجر بها إلى النار لأنها.

﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي: صاحب هذه الناصية كاذب، فاجر، كثيرة الذنوب والإجرام، مرتكبة للخطأ عمداً في فعلها.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ يعني: إن كان صادقاً وعنده قوة، وعنده قدرة، هذا الذي حق عليه العقاب، فليدع ناديه، والنادي هو مجتمع القوم ومجلسهم، قيل: إن أبا جهل قال لرسول ﷺ: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً وقوماً وعشيرة. فنزلت الآية.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ الزبانية ملائكة النار الغلاظ الشداد، فلينظر أي الفريقين أقوى وأقدر.

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾.

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ أي: لا تطع -يا محمد- هذا الذي ينهاك عن الصلاة فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة الدارين.

﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ أي: صل لله واسجد ولا تبال به غير مكترث به، واقترب من الله ﷻ بالطاعة والعبادة. وهنا موضع سجدة، وكان ﷺ إذا مر بالسجدة كبر وسجد، ويقول في سجوده: «سبحان ربي الأعلى»، أو «سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، بحوله وقوته، اللهم اكتب لي بها أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود» [رواه الترمذي].

تم تفسير سورة العلق
والحمد لله

تفسير سورة القدر
وهي مكية

* سورة القدر سورة مكية، تحدثت عن بدء نزول القرآن العظيم، وذكر الله ﷻ فيها

مـن كرمه وجوده بعض مـا خص به هذه الأمة من فضائل ومزايا، ولعلمه سبحانه بقصر أعمارهم، عوضهم من الأيام ما يوافي أجوراً عظيمة، ومن ذلـك ليلة القدر التي العمل فيها خير من ألف شهر، فقال تعالى:

﴿١﴾-﴿٥﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَـٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ * لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ * تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ * سَلَـٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَـٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ أي: نحن أنزلنا هـذا القرآن المعجز في ليلة القدر والشرف؛ وقد عظم ﷻ القرآن، حيث أسند إنزاله إليه دون غيره، والمراد بإنزال القرآن إنزاله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا.

ثم فخم شأنها، وعظم قدرها، فقال:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ أي: ومـا أعلمك -يا محمد- ما ليلة القدر وشأنها وشرفها وعظمها، وسميت ليلة القدر لأن الله سبحانه يقدر فيها ما شاء من أمره إلى السنة القابلة، ثم ذكر فضلها من ثلاثة أوجه، فقال:

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ أي: العمل فيها، وهي ليلة واحدة، خير من العمل في ألف شهر، وهذا مما تتحير فيه الألباب، وتندهش له العقول، حيث منَّ ـ تبارك وتعالى ـ على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى، بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل معمراً عمراً طويلاً، نيفاً وثمانين.

﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ أي: تنزل شيئاً فشيئاً؛ لأن الملائكة سكان السموات، والسموات سبع، فتتنزل الملائكة إلى الأرض شيئاً فشيئاً حتى تملأ الأرض.

﴿وَٱلرُّوحُ﴾ هو جبريل عليه السلام، خصه الله بالذكر لشرفه وفضله.

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ أي: بأمره ﷻ من أجل كل أمر يأمرهم الله به.

﴿سَلَـٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي: هذه الليلة سلام، ووصفها الله تعالى بالسلام، لكثرة من يسلم فيها من الآثام وعقوباتها.

﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ تتنزل الملائكة في هذه الليلة حتى مطلع الفجر، أي: إلى مطلع الفجر وانبثاقه، حيث أن مبتدأها من غروب الشمس، ومنتهاها طلوع الفجر.

تم تفسير سورة القدر
والحمد لله

تفسير سورة البينة
وهي مدنية

* سورة البينة سورة مدنية، ذكر الله فيها أحوال الأمم السابقة، فإنه قبل مبعث النبي ﷺ كان الناس يعيشون في ظلمات الكفر والشرك من عبادة الأصنام والنجوم والكواكب والأشجار والأحجار، فبعث الله محمداً هادياً ومبشراً بهذا الدين العظيم، دين الفطرة الذي ارتضاه الله ﷻ لعباده، وابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن اليهود والنصارى، وموقفهم من دعوة رسول الله ﷺ بعد أن بان لهم الحق وسطعت أنواره، وبعد أن عرفوا أوصاف النبي المبعوث آخر الزمان، وكانوا ينتظرون بعثته ومجيئه، فلما بعث خاتم الرسل كذبوا برسالته وكفروا وعاندوا، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٥﴾ ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَـٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ * رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ * فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ * وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ * وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾.

﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني: ما كان الكفار بالله وبمحمد ﷺ، ثم بينهم بقوله:

﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَـٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: من اليهود وكتابهم التوراة، والنصارى وكتابهم الإنجيل. والمشركون هم عبدة الأوثان من كل جنس من بني إسرائيل ومن العرب ومن غيرهم.

﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي: تاركين لما هم عليه من الشرك والكفر ولا منتهين عنه، لا يزيدهم مرور السنين إلا كفراً.

﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ أي: إلى أن تأتي البينة؛ والبينة: ما يبين به الحق في كل شيء، وهو القرآن ومحمد ﷺ.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ٢ وَقَالَ
ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣ يَوْمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا
٥ يَوْمَئِذٖ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتٗا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ٦ فَمَن يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨

سُورَةُ العَادِيَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحٗا ١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحٗا ٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ
صُبْحٗا ٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعٗا ٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ٥

٥٩٩

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو النبي محمد ﷺ، وذكره الله باسم الرسول تعظيماً له؛ الذي أرسله الله إلى العالمين بشيراً ونذيراً.

﴿يَتْلُواْ﴾ يقرأ لنفسه وللناس عن ظهر قلب لا عن كتاب.

﴿صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ﴾ جمع صحيفة، وهي الورقة أو اللوح، أو ما أشبه ذلك مما يكتب به مطهرة ومنقاة من الشرك والباطل، ومن رذائل الأخلاق، مصونة عن التحريف واللبس.

﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾ أي: في هذه الصحف مكتوبات قيمة من الآيات والأحكام تبين الحق من الباطل.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: وما اختلف اليهود والنصارى وتفرقهم واختلافهم لاشتباه الأمر، بل كان بعد وضوح الحق، وظهور الصواب، ثم بعث الله محمداً، فآمن به بعضهم وكفر آخرون.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ في الكتب المنزلة، وفي القرآن أيضاً، وهذا يبين أن الأديان السماوية أصلها واحد.

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ليلتزموا بعبادة الله، وتكون عبادتهم له خالصة لا يشركون به شيئاً.

﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلون من الشرك إلى التوحيد، مستقيمون على ملة إبراهيم عليه السلام ودين محمد ﷺ.

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يفعلوا الصلوات في أوقاتها، ويعطوا الزكاة عند محلها، وخص الصلاة والزكاة؛ لأنهما من أعظم أركان الدين، ولفضلهما وشرفهما وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي: إن ذلك الدين هو دين الملة المستقيمة، من الإخلاص والصلاة والزكاة، فلا ينبغي التفرق عنه.

* ثم بين الله تعالى في أول السورة كفر اليهود والنصارى والمشركين، وأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا ينتظرون بعث النبي ﷺ، فلما بُعث تفرقوا فيه، فمنهم من آمن به، وكفر به أكثرهم، وكذلك الناس منهم المؤمن والكافر به ﷺ، وهذه الآيات تبين مآل الفريقين وجزاءهم، قال تعالى:

٦-٨ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ * جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ بين الله تعالى في هذه الآية بياناً مؤكداً أن الذين كفروا من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، والمشركين وهم عباد الأوثان والأصنام وغيرها.

﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي: في النار التي تسمى جهنم، وسميت جهنم، لبعد قعرها وسوادها؛ لا يفتّر عنهم العذاب، ولا يخرجون منها ولا يموتون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أي: شر الخليقة حالاً، لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة، ولما ذكر مقر الأشقياء، ذكر بعده مقر السعداء، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ

﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أي: إن خير خلق الله ﷻ هم الذين آمنوا به وبرسله، وعملوا الصالحات التي أمروا بها.

﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قدم الله الثناء على المؤمنين الذين عملوا الصالحات على ذكر جزائهم، ثم ذكر جزاءهم وهي:

﴿جَنَّٰتُ﴾ جمعها لاختلاف أنواعها.

﴿عَدْنٍ﴾ العدن بمعنى الإقامة والاستقرار في المكان وعدم النزوح عنه، لا ظعن فيها ولا رحيل، ولا طلب لغاية فوقها.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من تحت قصورها وأشجارها، وإلا فهو على سطحها وليس أسفل.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: ماكثين فيها أبداً، لا يموتون ولا يمرضون، ولا ييأسون، ولا يألمون، ولا يحزنون، ولا يمسهم فيها نصب، وهم في نعيم دائم لا ينقطع.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ وهذا أكمل نعيم، أن الله تعالى يرضى عنهم، فيحل عليهم رضوانه فلا يسخط بعده أبداً، ورضوا عنه بما أكرمهم به من النعيم، والكرامة وجزيل المثوبة.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ أي: ذلك الجزاء والإحسان والرضا، حاصل لمن خشي الله ﷻ. والخشية هي خوف الله ﷻ المقرون بالهيبة والتعظيم.

تم تفسير سورة البينة
والحمد لله

تفسير سورة الزلزلة
وهي مدنية

* سورة الزلزلة سورة مكية، ذكر الله فيها من عظيم صنعه في الكون، أن الأرض مستقرة لا تتحرك ولا تضطرب حتى يعيش عليها الإنسان عيشة طيبة هنية، وفي يوم القيامة تتبدل الأحوال وتتغير الأوضاع فتضطرب الأرض وتهتز، وينـدك كل صرح شامخ، وينهار كل جبل راسخ، وتخرج الأرض ما في جوفها من الأجساد والكنوز، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٨﴾ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: اضطربت اضطراباً شديداً، وحُركت حركة عنيفة.

﴿زِلْزَالَهَا﴾ يعني الزلزال العظيم الذي لم يكن مثله قط.

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي: وأخرجت ما في جوفها من الأموات، وأصحاب القبور والكنوز وغيرها.

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ يعني: إن الإنسان البشر إذا رأى ما جرى لها من الأمر العظيم مستعظماً لذلك متعجباً، يقول: ما لها؟ ولأي شيء زلزلت وأخرجت أثقالها؟

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي: في ذلك اليوم إذا زلزلت، تخبر الأرض عما فعل الناس عليها من خير أو شر، يُنطقها الله سبحانه لتشهد على العباد.

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: تحدث أخبارها بوحي الله وأمره لها بأن تتحدث وتشهد بكل ما حدث وجرى عليها.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي: في ذلك اليوم يرجع الخلائق من موقف الحساب، وينصرفون متفرقين فرقاً فرقاً، وجماعات جماعات، متفرقين يصدرون من قبورهم كل يتجه إلى مأواه.

﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يصدرون أشتاتاً فيروا أعمالهم، يريهم الله تعالى أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فمن يعمل من الخير في الدنيا، زنة ذرة، والمراد بالذرة: صغار النمل.

﴿خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ يوم القيامة فيسره.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ فمن يعمل من الشر في الدنيا زنة ذرة، يراه يوم القيامة فيسوؤه.

وفي الآيات غاية الترغيب في فعل الخير ولو كان قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو كان حقيراً. قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: فينبغي للمرء أن لا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه، ولا في قليل من الشر أن يجتنبه، فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها، ولا السيئة التي يسخط عليه بها.

تم تفسير سورة الزلزلة
والحمد لله

إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ
ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩
وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ١١

سُورَةُ القَارِعَةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣ يَوۡمَ
يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ
كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِي
عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ
٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ
كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦
ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨

٦٠٠

تفسير سورة العاديات وهي مكية

* سورة العاديات سورة مكية، يُذكِّر الله ﷻ عباده فيها بيوم القيامة، وموقف الجزاء والحساب، ليكون الناس على أهبة الاستعداد، ولا تشغلهم الدنيا عن الآخرة، والفانية عن الباقية، وفي هذه السورة يقسم الله سبحانه بخيل المعركة، ويصف حركتها واحدة واحدة، منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري، قارعة للصخر بحوافرها حتى توري الشرر منها، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو، مثيرة للنقع والغبار وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة، فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب، قال تعالى:

١-١١ ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا * فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا * فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا * فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا * فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا * إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ * وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ * وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ﴾.

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾ هذا قسم من الله ﷻ.

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ﴾ المراد بها الخيل التي تعدو بفرسانها المجاهدين في سبيل الله لما فيها من آيات الله الباهرة، ونعمه الظاهرة ما هو معلوم للخلق.

﴿ضَبۡحٗا﴾ الضبح: ما يسمع من أجواف الخيل حين تعدو بسرعة.

﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا﴾ الموريات: من أورى أو ورى؛ بمعنى قدح، هي الخيل حين توري النار فيخرج الشرر بحوافرها إذا ضربت بها الأرض الشديدة كالقدح بالزناد.

﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا﴾ أي: فالخيل التي تغير على عدوها في الصباح قبل طلوع الشمس.

﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا﴾ أي: فأثارت الخيل بعدوهن وغارتهن الغبار الذي يثور من شدة السعي.

﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا﴾ أي: بتوسطن براكبهن جموعاً من الأعداء الذين أغار عليهم.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾ هذا جواب القسم، أي: إن الإنسان لكفور لنعمة الله ﷻ، لكثير الجحد لها، يذكر المصائب وينسى النعم.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ﴾ أي الإنسان، يشهد على نفسه بالجحد والكفران، لظهور أثره عليه.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي: إن الإنسان لشديد الحب للمال، مُجد في طلبه وتحصيله، حريص على جمعه، وهذا هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة، قدم شهوة نفسه على حق ربه.

﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ أفلا يعلم هذا الإنسان ويتيقن إذا نشر وأظهر، فإن الناس يخرجون من قبورهم لرب العالمين لحشرهم ونشورهم فيعمل لذلك، ولا يكن همه المال، والاستفهام للإنكار.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: وجمع وأبرز ما في القلوب من النيات وما استتر في الصدور من كمائن الخير والشر، فصار الشر علانية والباطن ظاهراً.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ﴾ أي: إن الله ﷻ بالعباد يوم الجزاء والحساب، خبير بهم لا تخفى عليه منهم خافية في ذلك اليوم وفي غيره؛ وإنما خص علمه بهم في ذلك اليوم، لأنه يوم الجزاء، بقصد الوعيد والتهديد.

تم تفسير سورة العاديات

والحمد لله

تفسير سورة القارعة
وهي مكية

* سورة القارعة سورة مكية، ذكر الله فيها يوم القيامة، يوم الجزاء والحساب، ويوم الفصل بين العباد، يوم توزن فيه أعمال الخلائق؛ فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته أدخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته أدخل النار، وسورة القارعة تقرر هذا الأمر للاستعداد والتأهب، ومن قبلُ التوبة والامتثال والطاعة لرب الأرباب، والسورة كلها تتحدث عن يوم القيامة، حقيقتها، وما يقع فيها، وما تنتهي إليه، فهي تعرض مشهداً من مشاهد القيامة، كخروج الناس من قبورهم وانتشارهم في ذلك اليوم الرهيب كالفراش المتطاير، المنتشر هنا وهناك، يجيئون ويذهبون على غير نظام من شدة حيرتهم وفزعهم، وذكر الله ﷻ فيها نسف الجبال وتطايرها، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿١١﴾ ﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ * فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾.

﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ اسم فاعل من قرع، والقارعة من أسماء القيامة لأنها تقرع القلوب وتفزعها وذلك عند النفخ في الصور، ولهذا أعظم الله أمرها وفخمه بقوله:

﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ تأكيد للتهويل.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي: إيُّ شيء أعلمك ما القيامة، وأي شيء هي القيامة في هولها على النفوس والإجرام والكون.

ثم بين ﷻ بعضاً من أهوالها فقال:

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ أي: يكون الناس من شدة الفزع والهول كالفراش: وهو الحشرة الطائرة المعروفة التي تتساقط على الضوء ليلاً.

﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ يعني المتفرق المنتشر، والمعنى: أن الناس في يوم القيامة يسيرون على غير هدى في كل اتجاه لشدة الهول حتى يحشروا إلى الموقف.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ هذا هو الوصف الثاني من صفات ذلك اليوم المهول، أي: تصير وتتحول الجبال العظيمة الراسية إلى عهن منفوش، أي: تكون كالصوف الذي نُفش بالندف، والمنفوش: المبعثر الذي تفرقت أجزاؤه، وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال، تنبيهاً على أن تلك القارعة أثرت في الجبال العظيمة الصلبة حتى تصير كالصوف المندوف مع أنها غير مكلفة، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالتكليف والحساب.

ثم ذكر سبحانه أحوال الناس عند المحاسبة في الموقف، وتفرقهم فريقين، شقي وسعيد على جهة الإجمال، فقال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ فإن من ثقلت موازينه وهي أعماله الصالحة، ورجحت حسناته على سيئاته.

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: في الجنة، في عيشة طيبة ليس فيها نكد، وليس فيها صخب، وليس فيها نصب، كاملة من كل وجه في جنات الخلد والنعيم.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ إما أنه الكافر الذي ليس له أي حسنة؛ لأن حسنات الكافر يجازى بها في الدنيا ولا تنفعه في الآخرة، أو أنه مسلم ولكنه مسرف على نفسه، وسيئاته أكثر.

﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ يعني: إن مسكنه ومآله إلى نار جهنم، والهاوية من أسماء النار حيث يهوي فيها الكافر؛ وسماها أماً لأن الأم مأوى الولد ومفزعه، فنار جهنم تُؤوي هؤلاء المجرمين، كما يأوي الأولاد إلى أمهم، وتضمهم إليها كما تضم الأم الأولاد إليها.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ أي: وما أعلمك ما الهاوية؟ هذا من باب التفخيم والتعظيم لهذه الهاوية.

﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ أي: هي نار شديدة الحرارة، قد انتهى حرها وبلغ في الشدة إلى الغاية.

تم تفسير سورة القارعة
والحمد لله

تفسير سورة التكاثر
وهي مكية

* سورة التكاثر سورة مكية، ذكر الله ﷻ فيها ما يُلهي العباد عن طاعته وعبادته، وحذرهم من هذا الطريق، وبينه لهم، قال القرطبي: «لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في سورة التكاثر، وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي؛ لأنها تذكر الموت الآخرة». وقد تكرر في هذه السورة الزجر والإنذار تخويفاً للناس، وتنبيهاً لهم على خطئهم، باشتغالهم بالفانية عن الباقية، وأخلصت هذه السورة الوعد والوعيد والتهديد وكفي بها موعظة لمن عقلها قال تعالى لمن أعرض عن طاعته وألهته الدنيا:

﴿١﴾-﴿٨﴾ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أي: شغلكم أيها الناس على وجه لا تعذرون فيه عن طاعة الله وأنساكم عبادته: التكاثر بالمال، والتكاثر بالقبيلة، والتكاثر بالجاه، والتكاثر بالعلم، والتكاثر بالأولاد، وبكل ما يمكن أن يقع فيه التفاخر، واستمرت هذه الغفلة وهذا الانشغال.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ يعني: إلى أن زرتم المقابر، أي: حتى أدرككم الموت، ودفنتم في المقابر وأنتم على تلك الحال، ودل قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أن البرزخ دارٌ مقصود منها النفوذ إلى الدار الباقية؛ لأن الله سماهم زائرين، ولم يسمهم مقيمين، فدل ذلك على البعث والجزاء بالأعمال في دار باقية غير فانية، ولهذا توعدهم بقوله:

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بمعنى الردع، يعني: ارتدعوا عن هذا التكاثر، وقيل: إنها بمعنى حقاً سوف تعلمون عاقبة أمركم إذا رجعتم إلى الآخرة، وأن هذا التكاثر لا ينفعكم.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تأكيداً لهذا الأمر، وزيادة في الزجر والتهديد، أي: سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت وعانيتم أهواله وشدائده.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ يعني: حقاً لو تعلمون علم الحق لعرفتم أنكم في ضلال، ولو تعلمون ما أمامكم علماً يصل إلى القلوب، لما ألهاكم التكاثر، ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة، ولكن عدم العلم الحقيقي صيركم إلى ما ترون.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ أي: أُقسم وأوكد بأنكم ستشاهدون وتبصرون بالعين النار في الآخرة، والجحيم اسم من أسماء النار.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ تأكيداً لرؤيتها ومشاهدتها.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: عن نعيم الدنيا الذي ألهاكم عن العمل للآخرة، فيسأل عن الأمن، والصحة، والفراغ، وعن شرب الماء البارد على الظمأ، وظلال المساكن، وغير ذلك من النعم.

تم تفسير سورة التكاثر
والحمد لله

تفسير سورة العصر
وهي مكية

* سورة العصر سورة مكية، ذكر الله ﷻ فيها أنه خلق الخلق لعبادته وإقامة شرعه، والإنسان في هذه الدنيا بين أمرين؛ إما القيام بما أمر الله ﷻ به فقد أفلح ونجا، وإما التمرد والعصيان ومخالفة أمره سبحانه فقد خاب وخسر، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٣﴾ ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ أقسم الله تعالى بالعصر، والعصر قيل: إن المراد به آخر النهار؛ لأن آخر النهار أفضله، وقيل: إن العصر هو الدهر لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار على التقدير، وتعاقب الظلام والضياء، وما في ذلك من استقامة الحياة ومصالح الأحياء، فإن ذلك دلالة بينة على الصانع ﷻ وعلى توحيده؛ على أن جنس الإنسان في خسارة ونقصان إلا من اتصف بالأوصاف الأربعة وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والاعتصام بالصبر، وهي أسس الفضيلة، وأساس الدين، ولهذا قال الإمام الشافعي: لو لم ينزل الله سوى هذه السورة لكفت الناس، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أي: كل إنسان.

﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ لفي هلاك؛ فكأن الإنسـان منغمس في الخسر، والخسران محيط به من كل جانب.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ استثنى الله ﷻ هـؤلاء المتصفـين بهـذه الصفات الأربع وهم:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أهـل الإيمان والتصديق الذي لا يخالجه شـك ولا ريب، ولا تردد.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: إنهم قاموا بالأعمال الصالحة: من صلاة، وزكاة، وصيـام، وحـج، وبر للوالديـن، وصلة الأرحام وغير ذلك.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: صار بعضهم يوصي بعضـاً بالحق. والحق: هو التوحيد والإيـمان وأداء الطاعات وكل ما أمر به الشرع، والتواصي بالحق أمر مطلوب، فالنهوض بالحق عسير، والمعوقات عن الحـق كثيرة تحتاج إلى تواصٍ وتعاضد.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي: يوصي بعضهم بعضاً بالصبر. والصبر حبس النفس عما لا ينبغي فعله.

فبالأمريـن الأولين ـ الإيمان والعمل الصالـح ـ يُكمِّـل الإنسـان نفسـه، وبالأمرين الأخيرين ـ بالنصح والإرشاد والصبر ـ يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة، يكون الإنسـان قد سـلم من الخسـار، وفاز بالربح العظيم فقد جمع بين حق الله، وحق العباد. والسـورة على قصرها جمعت من العلوم ما جمعت.

تم تفسير سورة العصر
والحمد لله

تفسير سورة الهمزة
وهي مكية

الجزء الثلاثون سورة العصر سورة الهمزة سورة الفيل

سورة العصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ٣

سورة الهمزة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ٢
يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ٤
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ
عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ٩

سورة الفيل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ١ أَلَمْ يَجْعَلْ
كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ٣
تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ٥

٦٠١

* سـورة الهمزة سورة مكية، ذكـر الله فيها أحوال بعض العبـاد؛ فإن من تأمل في حـال الناس وأخلاقهم يجـد التفـاوت العجيب، وقـد أنـزل الله ﷻ هـذا القـرآن مقـرراً للشريعـة رافعاً رايـة التوحيد، مهذباً للأخلاق وحسـن التعامل وطيب الفعال بين المسلمين،

وفـي هـذه السـورة ذم الله ﷻ الطعن في أعراض الناس وأنسابهم ودناءة من فعل ذلـك، وأن له الوعيد الشـديد والعقوبة العظيمة إن احتقر أو اسـتهزأ وطعن في أنساب المسـلمين وأعراضهم على وجه التنقـص والازدراء، وذم الله ﷻ الذين يشـتغلون بجمـع الأمـوال وتكديس الثـروات كأنهم مخلـدون في هذه الحياة. وختمـت السـورة بذكر عاقبـة هؤلاء التعساء الأشقياء، قال تعالى:

١-٩ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ * كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ * نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ١﴾.

﴿وَيْلٌ﴾ كلمـة خزي وعذاب ووعيد، وقيـل: واد في جهنم، أي: خزي أو عـذاب أو هلكة للهمزة، وهو الذي يغتـاب الناس، ويطعن في أعراضهـم، ويظهـر عيوبهم، ويحقر أعمالهم.

﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ فالهمز: عيب الناس والطعن عليهم بالإشارة والفعـل. واللمـز: عيـب النـاس باللسان والقول.

ثم ذكر الله صفة هـذا الهماز اللماز وأنـه لا هم له إلا جمع المـال، والهمزة واللمزة من الفخر والكبر، وجمع المال وتعديده من البخل.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ هذه أيضاً من أوصافه القبيحة: جمّاع مناع، يجمع المال، ويمنع العطاء، فهو بخيل لا يعطي، يجمـع المال ويعدده ويرى أنه له بـه الفضل فلأجل ذلك يستقصر غيره.

﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي: أكثر تعداده لشدة شغفه ومحبته له، يخشى أن يكون نقص، أو يريد أن يطمئن زيادة على ما سبق فهو دائماً يعد المال.

﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ أي: يظن هذا الرجل بجهله أن ماله سيخلده ويبقيه، أخلد ذكره أو أطال عمره، فلا يفكر في ما بعد الموت من الحساب والجزاء، أو أنه مانع له من الموت، فلذلك كان كده وسعيه كله في تنمية ماله.

﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ أي: ليرتدع عن هذا الظن، ليس الأمر على ما يحسبه ويظنه، لا يخلده ماله ولا يبقى له، بل ليطرحن طرحاً هو وماله في النار التي تهشم كل ما يلقى فيها وتحطمه، والحطمة من أسماء النار.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ أي: وما أعلمك ما النار والحطمة، تفخيم وتهويل لشأنها.

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ أي: النار المسجّرة المسعرة التي وقودها الناس والحجارة يخلص حرها إلى القلوب فيعلوها ويغشاها.

﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ﴾ أي: الحطمة، وهي نار الله الموقدة، أي على الهمّاز واللمّاز الجمّاع للمال المناع للخير مطبقة، مغلقة الأبواب لا يُرجى لهم فرج، قد أيسوا من الخروج منها.

﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ أي: إن هذه النار مؤصدة، عليها أعمدة ممدة؛ أي ممدودة على جميع النواحي والزوايا حتى لا يتمكن أحد من فتحها أو الخروج منها.

تم تفسير سورة الهمزة
والحمد لله

تفسير سورة الفيل
وهي مكية

* سورة الفيل سورة مكية، ذكر فيها سبحانه فضله العظيم وآلائه الكثيرة، وذكر هنا ﷻ لكفار قريش فضله ومنته عليهم عندما أراد أبرهة الحبشي أن يبني باليمن كنيسة ليصرف الناس إلى حجها دون البيت الحرام، فقام أحد العرب فلطخها بالقذر ليلاً، فعزم أبرهة على هدم الكعبة، وسار بجيش عظيم إلى مكة ومعه الفيل إلى أن دنا من المسجد الحرام، فلما انتهوا إلى قرب مكة، ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة منها خوفاً على أنفسهم منهم، أرسل الله تعالى عليهم وعلى جيشهم ما منعهم من هدمها أو التعرض لها، وأبقاها على حالها نعمة منه على أهل مكة، ونكالاً منه لرد من يعتدي على بيته، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٥﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ * أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ * وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ * تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ * فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ ألم تعلم؛ يخاطب الله تعالى النبي ﷺ أو يخاطب كل من يصح توجيه الخطاب إليه، يقرر ما فعل ﷻ بأصحاب الفيل، يقرر قدرته سبحانه وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله محمد ﷺ، وأصحاب الفيل هم قوم من أهل اليمن من النصارى من الأحباش، جاؤوا لهدم الكعبة بفيل عظيم أرسله إليهم ملك الحبشة.

﴿أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ﴾ أي: ألم يهلكهم الله تعالى ويجعل مكرهم وحيلتهم وسعيهم في تخريب الكعبة ضلالاً منهم، أدى بهم إلى الهلاك فلم يصلوا إلى مرادهم وهدفهم وغايتهم.

﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ﴾ أي: وسلط عليهم جماعات متفرقة يتبع بعضها بعضاً، وهي طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً، مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجران في رجليه، وحجر في منقاره، لا يصيب شيئاً إلا هشمه.

﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ﴾ أي: تقذفهم بحجارة من طين طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدري، وكان الحجر كالحمصة وفوق العدسة.

﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾ فجعلهم كزرع أكلته الدواب ووطئته بأقدامها حتى تفتت. والعصف: هو ورق الزرع اليابس الذي يبقى بعد الحصاد.

وهذه القصة تدل على كرامة الله للكعبة، وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم، فكان الواجب عليهم أن يعبدوا الله ويشكروه على نعمه.

وفيها عجائب وغرائب من قدرة الله على الانتقام من أعدائه بأضعف

سُورَةُ قُرَيْشٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ① إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ③ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ④

سُورَةُ المَاعُونِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ① فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ② وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ③ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ⑥ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ⑦

سُورَةُ الكَوْثَرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ② إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ③

٦٠٢

جنوده وهي الطير التي ليست من عاداتها أن تقتل.

قال ابن كثير: إذا تدبرت سياق قصة أصحاب الفيل أدركت أن من أعظم الحِكَمِ في تولي الله الدفاع عن بيته حتى لا تكون للمشركين يدٌ على بيته، ولا سابقة في حمايته بحميتهم الجاهلية، حتى إذا ما دعاهم النبي ﷺ لم يكن لهم سبب للاعتزاز بحماية بيت الله، ولذا ستفهم التعجب الذي بدئت به السورة، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾.

تم تفسير سورة الفيل

والحمد لله

تفسير سورة قريش وهي مكية

* سورة قريش سورة مكية، وفي كثير من السور والآيات يعدد الله ﷻ نعمه على عباده ليوحدوه ويعبدوه ويعرفوا قدر نعمه عليهم، وفي هذه السورة يمتن الله ﷻ أن جعل بيته الحرام آمناً وأهله كذلك آمنين، فكان الأمن والاستقرار لهم راحة وطمأنينة، وسعة رزق، وغنى ويسر، ومن ذلك رحلتهم التجارية التي تكون في الصيف إلى الشام، وفي الشتاء إلى اليمن، وما يحصل لهم من منافع تجارية وعائدات عظيمة؛ فكان من الواجب شكر المُنعم على نعمه بطاعته وعبادته، قال تعالى:

①-④ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾.

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ① إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ②﴾.

الإيلاف الألفة والتعود؛ يراد به التجارة التي كانت تقوم بها قريش أهل مكة مرة في الشتاء، ومرة في الصيف، أما في الشتاء فيتجهون نحو اليمن للمحصولات الزراعية فيه، ولأن الجو مناسب، وأما في الصيف فيتجهون إلى الشام؛ لأن غالب تجارة الفواكه وغيرها تكون في هذا الوقت في الصيف مع مناسبة الجو البارد، ويربحون في الذهاب والإياب، وقد امتن الله ﷻ عليهم بهاتين الرحلتين وتيسيرهما لهم، مذكراً إياهم ليوحدوه ويعبدوه، فقال:

﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ شكراً له على هذه النعمة. ليعبدوه سبحانه، وليوحدوه ويخلصوا له العبادة وهو رب هذا البيت الكعبة، وهم بهذا البيت تشرفوا على سائر العرب؛ وليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة الجليلة التي خصَّهم بها، وخص الله بالربوبية البيت في قوله ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ لفضله وشرفه، وإلا فهو رب كل شيء.

﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ أي: هذا الإله الذي أطعمهم بسبب هاتين الرحلتين، خلصهم من جوع شديد وخوف كانوا فيهما قبلهما، وأوسع لهم في أرزاقهم، وبين الله نعمته عليهم، النعمة الظاهرة والباطنة، فإطعامهم من الجوع وقاية من الهلاك في أمر باطن، وهو الطعام الذي يأكلونه.

﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ نجاهم وسلمهم؛ وقاهم وأمنهم من الخوف إذ كانت البلاد محوطة بالعدو.

وكانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضها بعضاً، فأمنت قريش من ذلك لمكان البيت العتيق.

قال العلماء: الإنعام على قسمين: أحدهما دفع ضر وهو ما ذكره تعالى في سورة الفيل، والثاني: جلب النفع وهو ما ذكره في هذه السورة، ولما دفع عنهم

الضر، وجلب لهم النفع، وهما نعمتان عظيمتان، أمرهم بالعبودية، وأداء الشكر ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾.

تم تفسير سورة قريش
والحمد لله

تفسير سورة الماعون
وهي مكية

* سورة الماعون سورة مكية؛ ذكر الله فيها أن الإسلام هو الدين الخالص لله، وأنه أيضاً دين التواصل والتعاطف والرحمة. وقد جمع الله ﷻ بين عبادته وبين الرحمة والعطف على الأيتام والفقراء والتذكير بحق المسكين والفقير في هذه السورة، فقال سبحانه:

(١)-(٧) ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ استفهام للتعجب والتشويق، أي: هل علمت وعرفت؛ وأبصرت المكذب بالحساب والجزاء والبعث والنشور فلا يؤمن بما جاءت به الرسل، فإن من أفعاله وأعماله، ما يلي:

﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.

﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعه ويزجره بعنف ولا يرحمه لقساوة قلبه، ولأنه لا يرجو ثواباً، ولا يخاف عقاباً.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ فهو لا يحض ولا يحث نفسه ولا أهله ولا غيرهم على طعام المسكين الفقير المحتاج إلى الطعام بخلاً بالمال وشحاً به، وهذا يدل على خساسة طبعه وشدة بخله.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ويل: هذه كلمة وعيد، وهي تتكرر في القرآن كثيراً، أي: فويل للملتزمين لإقامة الصلاة ولكنهم:

﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ مصلون، يصلون مع الناس، أو أفراداً لكنهم غافلون عنها، لا يقيمونها على ما ينبغي، يؤخرونها عن الوقت الفاضل، لا يقيمون ركوعها، ولا سجودها، ولا قيامها، ولا قعودها، لا يقرأون ما يجب فيها من قراءة سواء كانت قرآناً أو ذكراً، إذا دخل في صلاته فهو غافل، قلبه يتجول يميناً وشمالاً، فهو ساه عن صلاته، وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله ﷻ. قال ابن عباس: هو المصلي الذي إن صلى لم يرج لها ثواباً، وإن تركها لم يخش عليها عقاباً.

ومن نعم الله ﷻ ومن لطفه بخلقه أنه لم يقل: الذين في صلاتهم ساهون؛ لأن السهو كثير، والغفلة كثيرة.

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ هم المنافقون، يراءون الناس بصلاتهم إن صلوا، أو يراؤون الناس بكل ما عملوه من أعمال البر ليثنوا عليهم، وهم بهذا لا يريدون وجه الله والدار الآخرة، إنما يريدون المدح والثناء من الناس.

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي: يمنعون إعطاء الشيء الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية، أو الهبة، ويمنعون ما يجب بذله من المواعين وهي الأواني، وما يحتاجه الناس من الدلو والفأس والقدر، وهذا من الشح والبخل وعدم النفع للآخرين، يعني يأتي الإنسان إليهم يستعير آنية فيمنعونها عنه فكيف بما هو أكثر منه، وقيل: يمنعون الزكاة المفروضة.

فلاهم أحسنوا في عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، فاستحقوا الوعيد الشديد. وفي هذه السورة الحث على إكرام وإطعام اليتيم، والمسكين، والتحضيض على ذلك، ومراعاة الصلاة، والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص فيها وفي جميع الأعمال، وكذلك الحث على فعل المعروف والإحسان إلى الناس وإعانتهم ودفع حاجتهم.

تم تفسير سورة الماعون
والحمد لله

تفسير سورة الكوثر
وهي مكية

* سورة الكوثر سورة مكية؛ ذكر الله ﷻ فيها أنه اختار محمداً ﷺ نبياً ورسولاً واصطفاه على جميع خلقه، وجعل له المكانة العالية الرفيعة، ولما قدم كعب بن الأشرف اليهودي إلى مكة، قالت قريش له: أنحن خير أم محمد؟ فقال: أنتم خير منه، فأنزل الله في شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١] ولما وصف العاص بن وائل النبي ﷺ بأنه أبتر، أنزل الله في شأنه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، ليعظم منزلة النبي، وأنه

صاحب الرسالة والمكانه الرفيعة، وختمت السورة ببشارة الرسول ﷺ بخزي أعدائه، ووصفت مبغضيه بالذلة والحقارة، والانقطاع من كل خير في الدنيا والآخرة، بينما ذِكرُ الرسول مرفوع على المنائر والمنابر، واسمه الشريف على كل لسان، خالد إلى آخر الدهر والزمان، فما أجلها من سورة وأغزر فوائدها على اختصارها وحقيقة معناها تعلم من آخرها، فإنه ﷺ بتر شانئ رسوله من كل خير، قال تعالى:

(١)-(٣) ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾.

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ تكريماً لمقامه الرفيع وتشريفاً، أي: الله ﷻ تفضل عليك وأعطاك الخير الكثير الدائم في الدنيا والآخرة، ومن هذا الخير نهر الكوثر. والكوثر: هو الخير الكثير، ومنه نهر الكوثر في الجنة، جعله الله كرامة لرسول الله ﷺ ولأمته.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ شكراً لله على هذه النعمة العظيمة، وهذا العطاء الجزيل أن تصلي وتنحر لله، لا تصرف شيئاً منها لغيره ﷻ. وغالب ذكر النعم يختم ويقرن بالشكر.

﴿وَٱنۡحَرۡ﴾ تقرب إليه بالنحر للإبل وغيرها، وخص هاتين العبادتين بالذكر لأنهما من أفضل العبادات وأجلّ القربات، ولأنها أكثر العبادات التي يصرفها المشركون لأوثانهم. والذبح من أجل العبادات، وقربة من أفضل القربات المالية، وصرفها لغير الله شرك أكبر ناقل عن الملة، كمن يذبح لقبر أو شجرة، أو حجر، أو ملك، أو نبي، أو جني، أو لطلعة السلطان، أو لغير ذلك، فمن صلى لغير الله فقد أشرك، ومن ذبح لغير الله فقد أشرك، وفي الحديث: «لعن الله من ذبح لغير الله» [رواه مسلم].

وأنواع الذبح لغير الله كثيرة منها: من يذبح للشياطين أو الجن طلباً للشفاء كما يحدث عند السحرة، أو من يذبح عند حفر بئر أو عتبة المنزل، استرضاء للشياطين، وسوءٌ أكان المذبوح من بهيمة الأنعام أو غير ذلك، فكله من الشرك الأكبر، ويحرم الأكل من تلك الذبيحة أو الشرب من مرقها أو استخدام جلدها أو الانتفاع بها على أي وجه كان.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ (٣)﴾.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ مبغضك، وذامك ومنتقصك، والشنئآن هو البغض.

﴿هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ الأبتر: اسم تفضيل من بتر بمعنى قطع، يعني هو الأقطع. المنقطع من كل خير. والأبتر من الرجال الذي لا ولد له.

قال المفسرون: لما مات «القاسم» ابن النبي ﷺ قال العاص بن وائل: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ـ أي لا نسل له ـ فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله تعالى هذه السورة، وأخبر تعالى أن هذا الكافر هو الأبتر وإن كان له أولاد؛ لأنه مبتور من رحمة الله ـ أي مقطوع عنها ـ ولأنه لا يُذكر إلا ذكر باللعنة، بخلاف النبي ﷺ فإن ذكره خالد إلى آخر الدهر، مرفوع على المآذن والمنابر، مقرون بذكر الله تعالى، والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعه، فهو كالوالد لهم ﷺ.

قال في البحر المحيط: «لم يسم هذا الشانئ الذي نزلت فيه، ليشمل كل شانئ ممن هو في مثل حاله».

تم تفسير سورة الكوثر

والحمد لله

تفسير سورة الكافرون
وهي مكية

* سورة الكافرون سورة مكية؛ هي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والضلال. ذكر الله ﷻ، فيها أنه لا يجوز صرف العبادة لغيره ﷻ، وقد كان النبي ﷺ يعلن دعوته على الملأ أن لا معبود بحق إلا الله. قيل: إن قريشاً من جهلها وطغيانها دعت النبي ﷺ إلى عبادة أوثانها سنة، ويعبدون الله سنة، فأنزل الله هذه السورة، ولم تكن العرب تجحد وجود الله ﷻ وأنه الخالق الرازق المدبر، لذا فهم يحجون ويتصدقون وينفقون، لكنهم جعلوا مع الله إلهاً آخر شريكاً له في العبادة. فأنزل الله هذه السورة لتعلن الدين كله لله لا شريك له، قال تعالى:

(١)-(٦) ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ * لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ * وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ * لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾.

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي: قل -يا محمد- و صرح وأعلن لهم بالنداء، وهذا يشمل كل كافر سواء كان من المشركين أو من اليهود، أو من النصارى.

سُورَةُ الكَافِرُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

سُورَةُ النَّصْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ
يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾

سُورَةُ المَسَدِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾
سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾
فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: لا أعبد الذين تعبدونهم، وهم الأصنام والأوثان وأتبرأ منهم ظاهراً وباطناً، فهي لا تضر ولا تنفع ولا تغني عن عابدها شيئاً.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أنا لا أعبد أصنامكم، وأنتم لا تعبدون الله، ولستم أنتم ما دمتم على شرككم وكفركم عابدين لله الواحد الأحد الذي أعبده.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ أي: ولا أعبد في مستقبل أيامي وما يأتي من عمري؛ لن أعبد شيئاً من آلهتكم الباطلة التي تعبدونها، وفيه من قوة العبارة والثقة ما يقطع محاولاتهم بأن يتنازل عن دينه.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ قد يظن الظان أن هذه مكررة للتوكيد، وليس كذلك لأن الصيغة مختلفة، أي: لن تعبدوا الله في مستقبل أيامكم ما دمتم على كفركم وعبادتكم للأصنام، فعبادتي ليست كعبادتكم، وعبادتكم ليست كعبادتي.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الذي أنتم عليه وتدينون به وهو الشرك والعياذ بالله.

﴿وَلِىَ دِينِ﴾ أي: ولي ديني الذي لا أبغي غيره، وهو التوحيد، وعبادة الواحد الأحد. فأنا بريء من دينكم، وأنتم بريئون من ديني، وهذا غاية في التبرؤ من عبادة الكفار، والتأكيد على عبادة الواحد القهار.

قال ابن تيمية: «ليس في هذه الآية ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ رضى بدين المشركين، ولا نهي عن جهادهم، بل فيها براءته من دينه، وبراءته من دينهم».

وقال رحمه الله: «كان نبينا ﷺ يقرن بين سورتي الكافرون والإخلاص في مواضع ففي سورة الإخلاص التوحيد القولي العلمي، وفي سورة الكافرون التوحيد القصدي العملي».

تم تفسير سورة الكافرون
والحمد لله

تفسير سورة النصر
وهي مدنية

* سورة النصر سورة مدنية؛ فيها البشارة أن دين الله عزيز منصور على مر الأزمان والعصور، وقد امتن الله ﷻ فيها على نبينا محمد ومن معه من الصحابة بنصر عظيم، ألا وهو فتح مكة وإزالة الأصنام والأوثان، ودخول القبائل بعد ذلك في دين الله أفواجاً، وبهذا الفتح المبين ارتفعت راية الإسلام، واضمحلّت ملة الأصنام، وكان الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه من أظهر الدلائل على صدق نبوته ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ وفي هذه السورة الكريمة، بشارة وأمر لرسوله ﷺ عند حصولها، وإشارة وتنبيه على ما يترتب على ذلك، قال سبحانه:

﴿١﴾-﴿٣﴾ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾.

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ الخطاب للنبي ﷺ يذكره ربه بالنعمة والفضل عليه وعلى سائر المؤمنين.

والمعنى: إذا نصرك الله -يا محمد- على أعدائك وفتح عليك مكة وسلطك على أعدائك بحيث تتمكن منهم وتخذلهم وتكبتهم.

﴿وَٱلْفَتْحُ﴾ معطوف على النصر، وعطفه على النصر مع أن الفتح من النصر تنويه بشأنه. والمراد بالفتح: فتح مكة.

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أي: ورأيت العرب يدخلون في الإسلام جماعات جماعات، بعد أن كانوا يدخلون فيه أفراداً، فإنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة دخل الناس في دين الله أفواجاً وجماعات حتى كانت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام.

والمعنى: إذا نصرك الله -يا محمد- على أعدائك، وفتح عليك مكة.

وجمعت الآية ثلاث بشارات، ثم إرشادين بعد تلك البشارات التسبيح والاستغفار.

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ أي: سبحه تسبيحاً، ونزهه تنزيهاً عما لا يليق به؛ مقروناً بالحمد والاستغفار، وفيه الجمع بين تسبيح الله المؤذن بالتعجب مما يسره الله مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس، وبين الحمد له على جميل صنعه له وعظيم منته عليه بالنصر والفتح لمكة ودخول الناس أفواجاً، وفيه الجمع بين التسبيح والاستغفار؛ إذ في الاستغفار محو الذنوب، وفي التسبيح طلب الكمال.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ يعني: اسأله المغفرة تواضعاً لله واستقصاراً لعملك، والاستغفار من التقصير في حمد الله وشكره، فجهد الإنسان مهما كان ضعيف محدود، وآلاء الله دائمة العطاء والخير. وفي هذا إشارة إلى شكر الله على نصره وتأييده، وإظهار نعمة المُنعم على عباده بالنصر والتأييد. وقد عُهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار، كالصلاة والحج، وغير ذلك، فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، إشارة إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره بأفضل ما يجده ﷺ، فكان ﷺ يتأول القرآن ويقول ذلك في صلاته، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي».

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ من شأنه التوبة على المستغفرين له، يتوب عليهم ويرحمهم بقبول توبتهم.

فإن الاستغفار يتضمن وقاية شر الذنوب، وفي هذا ترغيب في الاستغفار، وحث على التوبة والأوبة، فهو سبحانه أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وهذه السورة الكريمة فيها نعيُ النبي ﷺ ولهذا تسمى سورة «التوديع»، وحين نزلت قال رسول الله ﷺ لعائشة: «ما أراه إلا حضور أجلي»، وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمني في حجة الوداع ثم نزلت: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣] الآية، فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يوماً.

تم تفسير سورة النصر
والحمد لله

تفسير سورة المسد
وهي مكية

* سورة المسد سورة مكية، فيها صور مما لاقاه النبي ﷺ من الأذى والمشقة حين قام بأمر هذا الدين، فإنه ﷺ قام بالدعوة إلى الله خير قيام، وبذل في سبيلها الغالي والنفيس، ولما أنزل الله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي ﷺ الصفا فنادى: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: مالك؟ قال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني؟» قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب، وهو عم النبي ﷺ وكان شديد العداوة والأذية للنبي ﷺ، قال: تباً لك ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله ﷻ هذه السورة التي تحدث فيها عن هلاك أبي لهب، عدو الله ورسوله، قال تعالى:

(١)-(٥) ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ * مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ * وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾.

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ المعنى: هلكت يدا ذلك الشقي وخسرت وخابت، والتباب الخسار، وهذا رد على أبي لهب حين جمعهم النبي ﷺ ليدعوهم إلى الله فبشر وأنذر.

﴿وَتَبَّ﴾ أي: وهلك هو.

قوله تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ قال ابن تيمية: «ليس تكراراً؛ لاختلاف مقصود الفعلين، فالأول منها دعاء يراد به الإنشاء، والثاني خبر.. وقد تبّ».

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ أي: لم يدفع عنه ما جمع من مال، ولا ما كسب من ربح وجاه ما حل به من التباب والخسران وما كسب من الولد أو من مال.

﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾ أي: سوف يعذب في النار الملتهبة ويجد حرها ويذوقه، تحرق جلده، وهي ذات اشتعال وتوقد، وهي نار جهنم تحيط به من كل جانب.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ يعني: كذلك امرأته معه، وهي امرأة من أشراف قريش، لكن لم يغن عنها شرفها شيئاً لكونها شاركت زوجها في العداء والإثم، والبقاء على الكفر، والأذى للنبي ﷺ وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان.

﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ صيغة مبالغة، أي: تحمل الحطب بكثرة. ذكروا أنها كانت تحمل الحطب الذي فيه الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ من أجل أذيته ﷺ.

قال السيوطي: مازلت أفحص في القرآن عن دليل على إماطة الأذى عن الطريق حتى وجدته ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ كان من أسباب عذابها وضع الأذى في الطريق.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ المسد الليف الذي تفتل منه الحبال؛ كانت لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللات والعزى لأنفقنّها في عداوة محمد، فيكون جزاؤها أن يجعل في عنقها ذلك الحبل يوم القيامة مكان قلادتها جزاءً وفاقاً.

وفي هذه السورة آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يُسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

تم تفسير سورة المسد
والحمد لله

تفسير سورة الإخلاص
وهي مكية

* سورة الإخلاص سورة مكية؛ تعدل ثلث القرآن، قال ﷺ: «من قرأ: قل هو الله أحد؛ فكأنما قرأ بثلث القرآن» [رواه أحمد والنسائي].

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن» [رواه الترمذي]، قيل لأن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام: ثلث منها الأحكام، وثلث منها وعد ووعيد، وثلث منها الأسماء والصفات، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات، وتقرير التوحيد تمام التقرير. ومن فضل هذه السورة: أنها تقرأ في صلاة الوتر، وسنة الفجر، وسنة الطواف، وفي أذكار الصباح والمساء، وعند النوم.

وفي السورة ذكر بعض صفات الله ﷻ الواحد الأحد، الجامع لصفات الكمال، المقصود على الدوام، الغني عن كل ما سواه، المتنزه عن صفات النقص، وعن المجانسة والمماثلة، وردت السورة على النصارى القائلين بالتثليث، وعلى المشركين الذي جعلوا لله الذرية والبنين.

وسميت سورة «الإخلاص» بهذا الاسم؛ لأن الله أخلصها لنفسه، فلم يذكر فيها إلا ما يتعلق بأسمائه وصفاته، ولأنها تخلص صاحبها من الشرك والتعطيل.

وسبب نزولها ما رواه الترمذي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك؛ أي اذكر لنا نسبه، فنزلت هذه السورة.

(١)-(٤) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: قل -يا محمد- قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه، إن الله أحد، أي: واحد لا شريك له، المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا.

﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: هو الله الذي تتحدثون عنه وتسألون عنه.

﴿أَحَدٌ﴾ أي: متوحد بجلاله وعظمته، ليس له مثيل، وليس له شريك في ذاته وصفاته وأفعاله، بل هو متفرد بالجلال والعظمة ﷻ.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أي: الكامل في صفاته، الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته، السيد الذي كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والغني الذي قد كمل في غناه، المقصود في قضاء الحوائج وتفريج الكرب وقضاء الحاجات. والدعاء عبادة عظيمة لا يجوز صرفها لغير الله ﷻ، وفي الدعاء من الذل والانكسار في النفس وانشراح في الصدر، وصبر يسهل معه احتمال الواردات عليه، وهذا نوع من أنواع الإجابة. وفي الدعاء معنى عظيم من أنواع العبودية وتخليص القلب وتفريغه من التعلق بغيره، والدعاء من أكرم الأشياء عند الله كما روى ذلك الترمذي أنه ﷺ قال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء».

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لم يتخذ ولداً، وليس له أبناء وبنات؛ لأنه ﷻ لا مثيل له.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لكمال غناه، ولأنه ﷻ هو الأول الذي ليس قبله شيء، فكيف يكون مولوداً.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي: لم يكن له أحد مساوياً لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، فهو سبحانه لا يساويه أحد ولا يماثله، ولا يكافئه ولا يشاركه أحد في شيء من صفات كماله.

* وهذه السورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات، وقد جاءت في غاية الإيجاز والإعجاز، وأوضحت صفات الجلال والكمال، ونزهت الله ﷻ عن صفات العجز والنقص، فقد أثبتت الآية الأولى الوحدانية، ونفت التعدد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وأثبتت الثانية كماله تعالى، ونفت النقص والعجز ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، وأثبتت الثالثة أزليته وبقاءه ونفت الذرية والتناسل ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، وأثبتت الرابعة عظمته وجلاله ونفت الأنداد والأضداد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾. وفي السورة ثلاثة أسماء من أسماء الله: الله، الأحد، الصمد.

فالسـورة شـاملة جامعة لإثبات صفات الجلال والكمال، وتنزيه للرب بأسمى صور التنزيه عن النقائص.

تم تفسير سورة الإخلاص

والحمد لله

تفسير سورة الفلق وهي مكية

* سـورة الفلق سورة مدنية؛ ذكر الله ﷻ فيها أن الإنسـان في هذه الدنيا معرض للابتـلاء والمصائب، وقد مر عـلى النبي ﷺ الشـدائد والمخاطر في سـبيل الدعوة إلى الله ﷻ، ومن ذلك أن اليهـود سـحروه ﷺ، فأنـزل الله المعوذتين فقرأهما ﷺ، حتى انحل عنه السحر، فكأنما نشـط من عقال ليس به بأس. وهذه السـورة والتي بعدها توجيه من الله ﷻ للعياذ بكنفه واللياذ بحماه، وأن يستعيذوا بجلاله وسلطانه من كل مَخُوف، خافٍ وظاهر، مجهول ومعلوم، قال تعالى:

(١)-(٥) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أي: -يا محمد- ﷺ، وأمته معنية بهذا الخطـاب، ألتجئ، وأعتصم، وألوذ.

﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ رب الفلق هو الله، والفلق الصبح؛ لأن الليل ينفلق عنه. والمعنى: قل: ألتجـئ وأعتصم برب الصبح الذي ينفلق عنه الليل، ويتجلى عنه الظلام.

وفي ذكر الفلق صفة تفاؤل وتذكـير بالنور بعـد الظلمة والسـعة بعد الضيق، والفرج بعد الانغلاق.

﴿مِـن شَرِّ مَـا خَلَقَ﴾ أي: أعـوذ بالله مـن شر جميع المخلوقـات وهـذا يشـمل شـياطين الإنـس والجـن، والهوام، وغير ذلك؛ فيسـتعاذ بخالقها من الـشر الذي فيها. ثم خص بعد ما عمّ، فقال:

﴿وَمِـن شَرِّ غَاسِـقٍ إِذَا وَقَـبَ﴾ وأعـوذ بـه سـبحانه من شر الليل إذا أقبل ودخـل في كل شيء وأظلـم. لأن الليـل إذا أقبل فهو محل سـلطان الأرواح الشريرة الخبيثة، وفيه تنتشر الشـياطين، والأرواح الشريرة، والحيوانـات المؤذية، ويهجم السـارق والمكابـر، ويقـع الحريـق، ويقل فيه الغوث، وفيه تتسـلط شياطين الإنس والجن ما لا تتسـلط بالنهار. وقيل: إن الغاسق هو القمر.

﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي: أقبل.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ أي: وأعوذ به من شر النساء الساحرات يعقدن الحبـال وغيرها، وتنفث بقراءة مطلسمة فيها أسماء الشياطين على كل عقدة تعقد بقصد السحر.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِـدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ الحاسـد هو الذي يكره نعمة الله على غيره، مبغض للناس على ما وهبهم الله من نعم، يريد زوالها عنهم، ولا يرضى بما قسمه الله تعالى له، فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره وإبطال كيده.

﴿إِذَا حَسَـدَ﴾ أي: ومن حسـد الحاسـد، وهـي العين التـي تصيب المُعان، وقـد قيدها سـبحانه بقوله: ﴿إِذَا حَسَـدَ﴾ لأن الإنسان قد يكون عنده حسـد ولكن يخفيه، ولا يترتب عليه أذى بوجه مـا، بل لا يجد في قلبه شيئاً من ذلك.

وجاء في الآيـة ذكر الحاسـد دون العائن؛ لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولا بدَّ، وليس كل حاسد عائن، فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته.

واقترن الحاسد والساحر في السورة، لأن مقصدهما الشر للناس.

الجُزءُ الثَّلاثُونَ سُورَةُ الإِخْلَاصِ سُورَةُ الفَلَقِ سُورَةُ النَّاسِ

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

سُورَةُ الفَلَقِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

٦٠٤

وقد تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة:

شر المخلوقات التي لها شر عموماً، شر الغاسق إذا وقب، وشر النفاثات في العقد، وشر الحاسد إذا حسد.

فتضمنت الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه، وأدله على المراد، وأعمه استعاذة، بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيها.

وفي السورة وبدئها ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ صفة تفاؤل وتذكير بالنور بعد الظلمة، والسعة بعد الضيق، والفرج بعد الانغلاق، والفلق كل ما يفلقه الله تعالى، كالنبات من الأرض، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأولاد، والحب والنوى وغير ذلك، وكله مما يوحي بالفجر المشرق العجيب.

تم تفسير سورة الفلق

والحمد لله

تفسير سورة الناس
وهي مكية

* سورة الناس سورة مدنية، فيها الاستجارة والاحتماء برب الأرباب من شر أعدى الأعداء، إبليس وأعوانه من شياطين الإنس والجن، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين من الجن يزين له الكفر والفسوق والعصيان، فعلى المسلم أن يدافع تلك الشياطين وذلك بالالتجاء والاعتصام بالله سبحانه ليحفظه ويقيه شرهم، ومن ذلك قراءة هذه السورة العظيمة. وقد ذكر الله في هذه السورة ربوبيته للناس، وملكه لهم، وإلهيته لهم، فإضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم وإصلاحهم، وجلب مصالحهم، وما يحتاجون إليه، ودفع الشر عنهم، وحفظهم مما يفسدهم. وأما إضافة الملك فهو ملكهم المتصرف فيهم، وهم عبيده ومماليكه، وهو المتصرف لهم، المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم، والإضافة الثالثة فهو إلههم الحق، ومعبودهم الذي لا إله سواه، ولا معبود لهم غيره، قال تعالى:

﴿١﴾-﴿٦﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

﴿قُلْ﴾ أي: -يا محمد- ﷺ وأمته معنية بهذا الخطاب.

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ألتجئ وأعتصم، وأعوذ برب الناس ومربيهم، ومدبر شؤونهم الذي رباهم بنعمه، والذي أحياهم وأوجدهم من العدم، وأنعم عليهم بأنواع النعم وهو الله ﷻ.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: الملك الذي له السلطة العليا في الناس، والتصرف الكامل وهو الله ﷻ.

﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مألوههم ومعبودهم الحق الذي يتوجهون إليه بأنواع العبادة، فالمعبود حقاً الذي تألهه القلوب وتحبه وتعظمه.

وهذه ثلاث صفات من صفات الرب ﷻ: الربوبية، والملك، والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه. وجميع الأشياء مخلوقة ومملوكه له، فأمر سبحانه المتعوذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ هو الشيطان.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي يخنس وينهزم، ويكف ويولي، ويدبر عند ذكر الله ﷻ فإذا غفل عن الله عاد فوسوس له.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ وسوسته هي الدعاء إلى طاعته بإيحاء خفي يصل إلى القلب من غير سماع صوت، ويلقي أحاديث السوء في النفوس.

قيل: والسر في التعبير بـ ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ بدلًا من قلوب الناس؛ لأن القلب مجلى العقل ومقر الإيمان، وقد يكون محصناً بالإيمان فلا يستطيع الوسواس أن يظهره ولا يستطيع له نقباً.

قيل: ذكر الله تعالى الشر في هذه السورة (الفلق) ثم ختمها بالحسد؛ ليظهر أنه أخس طبع.

ثم بين سبحانه الذي يوسوس بأنه ضربان: جني أو إنسي، فقال:

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ أي: من الجن والناس، والوساوس تكون من الجن، وتكون من بني آدم، أما وسوسة الجني فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وأما وسوسة بني آدم فبما يوحي بعضهم

إلى بعض من الشر ويزينونه في قلوبهم.

والمعنى: من شر الوسواس، ومن شر الناس، كأنه أمر أن يستعيذ من الجن والإنس، والسورة تتضمن الاستعاذة من العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

وقد جاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب والملك والإله، وجاءت الربوبية فيها مضافة إلى الخلق وإلى الناس، ولا بد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة، ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها.

وقد ورد في سورة الفلق استعاذة القارئ بصفة الربوبية مرة واحدة من أربعة أشياء، بينما يستعيذ في سورة الناس بثلاث صفات لله ﷻ من شر شيء واحد -وهو الشيطان- وما ذاك إلا لشدة خطر الشيطان وكثرة مداخله على الإنسان.

قال شيخ الإسلام: فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عموماً وخصوصاً، ولهذا قيل فيها برب الفلق، وقيل في هذه برب الناس، فإن فالق الإصباح بالنور يزيل بما في نوره من الخير ما في الظلمة من الشر، وفالق الحب والنوى بعد انعقادهما يزيل ما في عقد النفاثات، فإن فلق الحب والنوى أعظم من حل عقد النفاثات، وكذلك الحسد هو من ضيق الإنسان وشحه ولا ينشرح صدره لإنعام الله عليه، فرب الفلق يزيل ما يحصل بضيق الحاسد وشحه، وهو سبحانه لا يفلق شيئاً إلا بخير، فهو فالق الإصباح بالنور الهادي، والسراج الوهاج الذي به صلاح العباد، وفالق الحب والنوى بأنواع الفواكه والأقوات التي هي رزق الناس ودوابهم، والإنسان محتاج إلى جلب المنفعة من الهدى والرزق، وهذا حاصل بالفلق، والرب الذي فلق للناس ما تحصل به منافعهم يستعاذ به مما يضر الناس، فيطلب منه تمام نعمته بصرف المؤذيات عن عبده الذي ابتدأ بإنعامه عليه، وفلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام القدرة، وإخراج الشيء من ضده كما يخرج الحي من الميت، والميت من الحي، وهذا من نوع الفلق، فهو سبحانه قادر على دفع الضد المؤذي بالضد النافع.

وقد جاء في الحديث عن عائشة ﵂ قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ونفث فيهما وقرأ «قل هو الله أحد» و«المعوذتين» ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ برأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاثاً» [رواه أهل السنن].

بحمد الله ومنته وتوفيقه، انتهى هذا التفسير المبارك «عقد الجمان في تفسير القرآن»، حسب الطاقة والجهد في منتصف عام ١٤٣٤ هـ وكنت قد بدأت فيه مطلع عام ١٤٢٩ هـ.

ومن قرأ كتاب الله ازداد له حبًّا، وبه تعلقاً، وبربه قرباً. ومن تفيأ ظلاله نال من بركته، ونهل من معينه.

أسأل الله أن يجعل هذا التفسير صواباً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله ذخراً وأجراً، وأن يرفع به الدرجات ويسبغ به النعم والمكرمات، وأن يتجاوز عن الزلل والتقصير، وأن يغفر لي ولوالدي ولزوجتي وذريتي ولجميع المسلمين والمسلمات، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
سورة الفاتحة	٤
سورة البقرة	٧
سورة آل عمران	١٠٦
سورة النساء	١٦٤
سورة المائدة	٢٢١
سورة الأنعام	٢٦٠
سورة الأعراف	٣٠٨
سورة الأنفال	٣٥٧
سورة التوبة	٣٨٠
سورة يونس	٤٢١
سورة هود	٤٤٨
سورة يوسف	٤٧٦
سورة الرعد	٥٠٨
سورة إبراهيم	٥٢٢
سورة الحجر	٥٣٥
سورة النحل	٥٤٨
سورة الإسراء	٥٧٩
سورة الكهف	٦٠٥
سورة مريم	٦٣٠
سورة طه	٦٤٩
سورة الأنبياء	٦٧١
سورة الحج	٦٩٤
سورة المؤمنون	٧١٥
سورة النور	٧٣٢
سورة الفرقان	٧٥٦
سورة الشعراء	٧٧٣
سورة النمل	٧٩٦
سورة القصص	٨١٤
سورة العنبكوت	٨٣٩
سورة الرُّوم	٨٥٦
سورة لقمان	٨٦٩
سورة السجدة	٨٨٠
سورة الأحزاب	٨٨٧
سورة سبأ	٩١١
سورة فاطر	٩٢٦
سورة يس	٩٤٠
سورة الصافات	٩٥٥
سورة ص	٩٧٢
سورة الزُّمر	٩٨٥
سورة غافر	١٠٠٤
سورة فصلت	١٠٢٤
سورة الشورى	١٠٣٦
سورة الزخرف	١٠٥١
سورة الدخان	١٠٦٦
سورة الجاثية	١٠٧٣
سورة الأحقاف	١٠٨٠
سورة محمد	١٠٨٩
سورة الفتح	١٠٩٨
سورة الحجرات	١١٠٨
سورة ق	١١١٤
سورة الذاريات	١١٢١
سورة الطور	١١٢٧
سورة النجم	١١٣٢
سورة القمر	١١٣٧
سورة الرحمن	١١٤٢
سورة الواقعة	١١٤٩
سورة الحديد	١١٥٧
سورة المجادلة	١١٦٥
سورة الحشر	١١٧٢
سورة الممتحنة	١١٨٠
سورة الصف	١١٨٦
سورة الجمعة	١١٩٠
سورة المنافقين	١١٩٣
سورة التغابن	١١٩٧
سورة الطلاق	١٢٠١
سورة التحريم	١٢٠٦
سورة الملك	١٢١٠
سورة القلم	١٢١٦
سورة الحاقة	١٢٢٢
سورة المعارج	١٢٢٧
سورة نوح	١٢٣٠
سورة الجن	١٢٣٤
سورة المزمل	١٢٣٨
سورة المدثر	١٢٤٢
سورة القيامة	١٢٤٦
سورة الإنسان	١٢٤٩
سورة المرسلات	١٢٥٣
سورة النبأ	١٢٥٧
سورة النازعات	١٢٦١
سورة عبس	١٢٦٥
سورة التكوير	١٢٦٩
سورة الانفطار	١٢٧١
سورة المطففين	١٢٧٣
سورة الانشقاق	١٢٧٦
سورة البروج	١٢٧٩
سورة الطارق	١٢٨٢
سورة الأعلى	١٢٨٣
سورة الغاشية	١٢٨٥
سورة الفجر	١٢٨٧

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
سورة البلد	١٢٩٠	سورة الزلزلة	١٣٠٣	سورة الكوثر	١٣١٠
سورة الشمس	١٢٩٢	سورة العاديات	١٣٠٤	سورة الكافرون	١٣١١
سورة الليل	١٢٩٤	سورة القارعة	١٣٠٥	سورة النصر	١٣١٢
سورة الضحى	١٢٩٥	سورة التكاثر	١٣٠٦	سورة المسد	١٣١٣
سورة الشرح	١٢٩٧	سورة العصر	١٣٠٦	سورة الإخلاص	١٣١٤
سورة التين	١٢٩٨	سورة الهمزة	١٣٠٧	سورة الفلق	١٣١٥
سورة العلق	١٢٩٩	سورة الفيل	١٣٠٨	سورة الناس	١٣١٦
سورة القدر	١٣٠٠	سورة قريش	١٣٠٩		
سورة البينة	١٣٠١	سورة الماعون	١٣١٠		